
سورة الإسراء



لو تأملنا خواتيم سورة النحل لوجدناها مقدمة طبيعية لأحداث سورة الإسراء[1] ، ولوجدنا توافقاً وتناسباً فى ترتيب هاتين السورتين ، فقد خُتِمَتْ النحل ببيان حُكْم رَدِّ العقوبة بمثلها ، ثم أمرت رسول الله ﷺ بالصبر وبيَّنَتْ جزاء الصابرين ، ونهَتْ رسول الله عن الضيق من مكْر الكفار .

نستشف من هذا أن رسول الله ﷺ سيستقبل أحداثاً تحتاج إلى صبر وشدائد ، تحتاج إلى سعة صدر ، وكأن هذه التوجيهات جاءت بمثابة مناعات إيمانية ، تُحصِّن رسول الله وتُعدّه لما هو مُقبل عليه من أحداث فى سورة الإسراء ، وكأنها إشارات لما سيحدث من شدائد حتى لا يُفاجأ رسول الله بها ، ولا تأتيه على غِرّة .

هذه المناعات التى جاءت فى نهاية سورة النحل أشبه بما نلجأ إليه فى حفْظ سلامة البنية وسلامة القالب ، حينما نخاف من

---

(١) سورة الإسراء ، هى السورة (١٧) فى ترتيب المصحف ، وعدد آياتها (١١١) آية . وهى سورة مكية ، إلا ثلاث آيات :

– قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ..(٦٠)﴾ [الإسراء]

– قوله تعالى : ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (٧٦)﴾ [الإسراء]

– قوله تعالى : ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠)﴾ [الإسراء]

وببدايتها يبدأ الجزء (١٥) من القرآن .

ولسورة الإسراء أسماء أخرى . منها : سورة سبحان ، سورة بنى إسرائيل .

الأمراض ، إنه ما نسمِّيه بالتطعيم ضد المرض ، فيأخذ الجسم من هذا الطُّعْم حصانة تحميه إذا هاجمه المرض .

كذلك الحق سبحانه وتعالى يُعطى رسوله هذه التحصينات ، حتى يواجه الأحداث والشدائد القادمة بصبر وجلَد ، ويعلم أن الله تعالى لن يخذله ، ولن يتخلى عنه ، فما أرسل الله رسولاً وخذله أبداً ، فإنْ خذله الناس ، وضاقتْ عليه الدنيا بما رَحُبَتْ وجد الملجأ فى معيته سبحانه وتعالى .

وفعلاً نزلت الشدائد برسول الله ﷺ ، وكانت قمة هذه الأحداث عند فَقْد عمه أبى طالب ، وزَوْجه خديجة فى عام واحد ، ولقسوة هذا عليه سماه « عام الحزن » .

ففقد ﷺ بموت عمه الحماية الخارجية التى كانت تدفع عنه أذى المشركين ، وتصد عنه صناديد قريش ، وفقد بموت زوجته الحماية الداخلية والملجأ الذى كان يأوى إليه ، حيث كانت تواسيه وتُهدِّىء من رَوْعه فى أول نزول الوحى عليه . وتُبيِّن له بفقه أن ما يجده فى الغار من علامات النبوة ، وأن الله لن يتخلى عنه وتقول له : « والله إنك لَتصلُ الرحم ، وتغيث الملهوف ، وتحمل الكَلَّ[١] ، وتعين على نوائب الدهر»[٢]

نعم لقد كان عام حزن فعلاً ، فقد فيه السكن الخارجي والداخلى معاً ، فأين يذهب ﷺ .

فما عاد يشعر بأمْن فى مكة ، ففكّر فى أهل الطائف ، عَسَاه يجد الأمن والأمان بينهم ، ولكنه كان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فقد

---

(١) الكَلّ : الذى هو عيال وثِقَل على صاحبه . والكَلُّ : اليتيم . [اللسان ـ مادة : كلل] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) من حديث عائشة رضى الله عنها فى كتاب بدء الوحى .

آذوه أشد الإيذاء ، وقذفوه بالحجارة حتى أدْمَوْا قدمه الشريفة ، وأغرَوْا به صبيانهم وسفهاءهم ، وعاد منها حزيناً مُنكسراً إلى مكة مرة أخرى ، فلم يجد مَنْ يجيره إلا مطعم بن عدى .

ومن هنا نعلم أن نهايات سورة النحل جاءت في موقعها المناسب ، وكأن الحق سبحانه يقول لنبيه ﷺ : لقد ضاقتْ عليك الأرض بما رَحُبَتْ ، وضاقت عليك نفسك ، ولكن ملجأك إلى الله سيُريك أن قسوة الأرض وتجهُّم الحياة لك سأبدلك به تحية مباركة ، فى أن أُريك حفاوة السماء بك ، فبعد ما حدث لك فى مكة والطائف :

﴿ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ [النحل]

وجاء حادث الإسراء والمعراج ليرى رسول الله ﷺ حفاوة الملأ الأعلى بعد ما أصابه من أذى البشر ، وقبل أن يرى رسول الله حفاوة السماء غيَّر الله له نظام الكون ، فقال تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) ﴾

استهل الحق سبحانه هذه السورة بقوله (سُبْحَانَ) ؛ لأنها تتحدث عن حدث عظيم خارق للعادة ، ومعنى سبحان : أى تنزيهاً لله تعالى تنزيهاً مطلقاً ، أن يكون له شبيه أو مثيل فيما خلق ، لا فى

الذات ، فلا ذاتَ كذاته ، ولا فى الصفات فلا صفات كصفات ، ولا فى الأفعال ، فليس فى أفعال خَلْقه ما يُشبِه أفعاله تعالى .

فإن قيل لك : الله موجود وأنت موجود ، فنزِّه الله أن يكون وجوده كوجودك ؛ لأن وجودك عن عدم ، وليس ذاتياً فيك ، ووجوده سبحانه ليس عن عدم ، وهو ذاتى فيه سبحانه .

فذاته سبحانه لا مثيلَ لها ، ولا شبيه فى ذوات خلقه . وكذلك إن قيل : لك سَمْع ولله سمع . فنزِّه الله أنْ يُشابه سمعُه سمعَك ، وإن قيل : لك فِعْل ، ولله فعْل فنزِّه الله أن يكون فعله كفعلك .

ومن معانى (سُبْحَان) أى : أتعجب من قدرة الله .

إذن : كلمة (سُبْحَان) جاءت هنا لتشير إلى أنَّ ما بعدها أمرٌ خارج عن نطاق قدرات البشر ، فإذا ما سمعتَه إياك أنْ تعترضَ أو تقول : كيف يحدث هذا ؟ بل نزِّه الله أن يُشابه فعلُه فعْلَ البشر ، فإن قال لك : إنه أسرى بنبيه محمد ﷺ من مكة إلى بيتَ المقدس فى ليلة ، مع أنهم يضربون إليها أكباد الإبل شهراً ، فإياك أن تنكر .

فربك لم يقُلْ : سَرَى محمد ، بل أُسْرِى به . فالفعل ليس لمحمد ولكنه لله ، وما دام الفعل لله فلا تُخضعْه لمقاييس الزمن لديك ، ففعْل الله ليس علاجاً ومزاولة كفعل البشر .

ولو تأملنا كلمة (سُبْحَان) نجدها فى الأشياء التى ضاقتْ فيها العقول ، وتحيَّرتْ فى إدراكها وفى الأشياء العجيبة ، مثل قوله تعالى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس]

فالأزواج أى : الزوجين الذكر والأنثى ، ومنهما يتم التكاثر فى النبات ، وفى الإنسان وقد فسر لنا العلم الحديث قوله : ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ بما توصَّل إليه من اكتشاف الذرة والكهرباء ، وأن فيهما السالب والموجب الذى يساوى الذكر والأنثى ؛ لذلك قال تعالى :

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩)﴾ [الذاريات]

ومنها قوله تعالى :

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ..(١٧)﴾ [الروم]

فَمَنْ يطالع صفحة الكون عند شروق الشمس وعند غروبها ، ويرى كيف يحُلُّ الظلام محلّ الضياء ، أو الضياء محل الظلام ، لا يملك أمام هذه الآية إلا أن يقول : سبحان الله .

ومنها قوله تعالى :

﴿سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ[1] (١٣)﴾ [الزخرف]

هذه كلها أمور عجيبة ، لا يقدر عليها إلا الله ، وردتْ فيها كلمة (سبحان) فى خلال السور وفى طيّات الآيات .

و (سُبْحَان) اسم يدلُّ على الثبوت والدوام ، فكأن تنزيه الله موجود وثابت له سبحانه قبل أن يوجد المنزِّه ، كما نقول فى الخلق ، فالله خالق ومُتصف بهذه الصفة قبل أنْ يخلق شيئاً .

وكما تقول : فلان شاعر ، فهو شاعر قبل أن يقول القصيدة ، فلو لم يكن شاعراً ما قالها .

---

(١) أقرن الشيء : قدر عليه وأطاقه وأخضعه وسخَّره ، كأنه مع آخر فى قرن واحد . [القاموس القويم ٢/ ١١٤] .

إذن : تنزيه الله ثابت له قبل أن يوجد مَنْ يُنزِّهه سبحانه ، فإذا وُجِد المنزَّه تحوّل الأسلوب من الاسم إلى الفعل ، فقال سبحانه :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ① ﴾ [الحشر]

وهل سبَّح وسكت وانتهى التسبيح ؟ لا ، بل :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ① ﴾ [الجمعة]

على سبيل الدوام والاستمرار ، وما دام الأمر كذلك والتسبيح ثابت له ، وتُسبِّح له الكائنات في الماضي والحاضر ، فلا تتقاعس أنت أيُّها المكلّف عن تسبيح ربك ، يقول تعالى :

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ① ﴾ [الأعلى]

وقوله : (أسْرى) من السُّرى ، وهو السير ليلاً ، وفي الحِكَم : (عند الصباح يحمَدُ القومُ السُّرى) .

فالحق سبحانه أسرى بعبد ، فالفعل لله تعالى ، وليس لمحمد ﷺ فلا تَقِسْ الفعل بمقياس البشر ، ونزِّه فعْل الله عن فعْلك ، وقد استقبل أهل مكة هذا الحدث استقبال المكذِّب . فقالوا : كيف هذا ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ، وهم كاذبون في قولهم ؛ لأن رسول الله لم يدَّع أنه سرَى بل قال : أُسْرِى بي .

ومعلوم أن قَطْع المسافات يأخذ من الزمن على قدر عكس القوة المتمثلة في السرعة . أي : أن الزمن يتناسب عكسياً مع القوة ، فلو أردنا مثلاً الذهاب إلى الأسكندرية سيختلف الزمن لو سرْنا على الأقدام عنه إذا ركبنا سيارة أو طائرة ، فكلما زادت القوة قَلَّ الزمن ،

فمـا بالك لو نسب الفعل والسـرعة إلى الله تعالى ، إذا كـان الفعل من الله فلا زمن .

فإنْ قـال قائل : مـادام الفعل مع الله لا يحـتاج إلى زمن ، لـماذا لم يَأْتِ الإسراء لمحة فحسْب ، ولماذا استغرق ليلة ؟

نقول : لأن هناك فـرْقاً بين قطْع المـسافات بقـانون الله سبـحانه وبين مَرَاءٍ عُرِضَتْ على النبى ﷺ فـى الطريق ، فرأى مواقف ، وتكلَّم مع أشخاص ، ورأى آيات وعجائب ، هذه هى التى استغرقت الزمن .

وقلنا : إنك حين تنسب الفعل إلى فاعله يجب أن تعطيه من الزمن على قَـدْر قـوة الفـاعل . هَبْ أن قـائلاً قـال لك : أنا صـعـدتُ بابنى الرضـيع قـمة جـبل « إفـرست » ، هل تقـول له : كيف صـعـد ابنك الرضيع قمة « إفرست » ؟

هذا سـؤال إذن فى غـيـر مـحلّه ، وكـذلك فى مـسـألة الإسـراء والمعراج يقول تعالى : أنا أسريتُ بعبدى ، فمن أراد أنْ يُحيل المسألة ويُنكرها ، فليعترض على الله صاحب الفعل لا على محمد .

لكن كيف فاتتْ هذه القضية على كفار مكة ؟

ومن تكذيب كفار مكة لرسول الله ﷺ فى رحلة الإسراء والمعراج نأخذ رَدّاً جـميلاً على هؤلاء الذين يخـوضون فى هذا الحادث بعـقول ضيـقة وبإيمـانية سطحـية فى عـصرنا الحاضـر ، فيطالعـونا بأفكار سقيمة ما أنزل الله بها من سلطان .

ونسمع منهم مَنْ يقـول : إن الإسراء كان منَامـاً ، أو كان بالروح دون الجسد .

ونقول لـهؤلاء : لو قال مـحمـد لقومـه : أنا رأيتُ فى الرؤيا بيت المقدس ، هل كانوا يُكذّبونه ؟ ولو قال لهم : لقد سبحتْ روحى الليلة حـتى أتتْ بيت المـقدس ، أكـانوا يكذّبونه ؟ أتُكـذَّب الرّؤى أو حركـة الأرواح ؟!

إذن : فى إنكار الكفـار على رسول الله وتكذيبـهم له دليل على أن الإسراء كان حقيقة تمت لرسول الله ﷺ برُوحه وجسده ، وكأن الحق سبحـانه ادَّخر الموقف التكذيبى لمكـذبى الأمس ، ليردّ به على مُكذّبى اليوم .

وقوله سبحانه :

﴿ بِعَبْدِهِ.. ① ﴾ [الإسراء]

العبد كلمة تُطلق على الروح والجسد معاً ، هذا مدلولها ، لا يمكن أن تُطلَق على الروح فقط .

لكن ، لماذا اختار الحق سبحانه لرسوله ﷺ هذه الصفة بالذات ؟

نقول : لأن الله تعـالى جعل فى الكون قـانوناً عامـاً للناس ، وقد يُخـرَق هذا القانون أو النامـوس العام ليكون مـعجـزةً للخاصـة الذين مـيَّـزهم الله عن سـائر الخَلْق ، فكأن كلـمة (عـبـده) هى حـيثـيـة الإسـراء .

أى : أُسْرِى به ؛ لأنه صادق العـبودية لله ، ومادام هو عبـده فقد أخلص فى عبوديته لربه ، فاستحق أنْ يكون له مَيْزة وخصوصية عن غيره ، فالإسـراء والمعراج عطاء من الله استحقّـه رسوله بما حقّق من عبودية لله .

وفَرْق بين العبودية لله والعبودية للبشر ، فالعبودية لله عزٌّ وشرف يأخذ بها العبدُ خَيْرَ سيده ، وقال الشاعر :

وَمِمَّا زَادَنى شَرَفاً وَعِزّاً وكِدْتُ بأخْمُصِى أطَأُ الثُّريَّا
دُخُولِى تَحْتَ قولِكَ يَا عِبَادِى وَأنْ صَيَّرت أحمدَ لِى نبيّا

أما عبودية البشر للبشر فنقْصٌ ومذلَّة وهوان ، حيث يأخذ السيد خَيْر عبده ، ويحرمه ثمرة كَدِّه .

لذلك ، فالمتتبِّع لآيات القرآن يجد أن العبودية لا تأتى إلا فى المواقف العظيمة مثل :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ.. (١) ﴾ [الإسراء]

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ.. (١٩) ﴾ [الجن]

ويكفيك عزّاً وكرامة أنك إذا أردتَ مقابلة سيدك أن يكون الأمر فى يدك ، فما عليك إلا أنْ تتوضأ وتنوى المقابلة قائلاً : الله أكبر ، فتكون فى معية الله عز وجل فى لقاء تحدد أنت مكانه وموعده ومُدّته ، وتختار أنت موضوع المقابلة ، وتظل فى حضرة ربك إلى أن تنهى المقابلة متى أردتَ .

وما أحسنَ مَا قال الشاعر :

حَسْبُ نَفْسى عزّاً بأنِّى عَبْدٌ يَحْتَفى بى بِلاَ مَوَاعِيدَ رَبٌّ
هُوَ فى قُدْسِهِ الأعَزُّ ولكِنْ أنَا ألْقَى مَتَى وَأيْنَ أحِبُّ

فما بالك لو حاولت لقاء عظيم من عظماء الدنيا ؟ وكم أنت مُلاقٍ من المشقة والعنت ؟ وكم دونه من الحجّاب والحرّاس ؟ ثم بعد ذلك ليس لك أن تختار لا الزمان ولا المكان ، ولا الموضوع ولا غيره .

وقد كان الرسول ﷺ وهو المتخلِّق بأخلاق الله إذا سلَّم على أحد لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذى ينزع يده[١] .

وقوله : ﴿ لَيْلاً .. ①﴾ [الإسراء]

سبق أن قُلْنا : إن السُّرى هو السير ليلاً ، فكانت هذه كافية للدلالة على وقوع الحدث ليلاً ، ولكن الحق سبحانه أراد أنْ يؤكد ذلك ، فقد يقول قائل : لماذا لم يحدث الإسراء نهاراً ؟

نقول : حدث الإسراء ليلاً ، لتظلَّ المعجزة غَيْباً يؤمن به مَنْ يصدق رسول الله ﷺ ، فلو ذهب فى النهار لرآه الناس فى الطريق ذهاباً وعودة ، فتكون المسألة ـ إذن ـ حِسِّية مشاهدة لا مجالَ فيها للإيمان بالغيب .

لذلك لما سمع أبو جهل خبر الإسراء طار به إلى المسجد وقال : إن صاحبكم يزعم أنه أُسْرى به الليلة من مكة إلى بيت المقدس ، فمنهم مَنْ قلَّب كفَّيْه تعجُّباً ، ومنهم مَنْ أنكر ، ومنهم مَن ارتد .

أما الصِّدِّيق أبو بكر فقد استقبل الخبر استقبالَ المؤمن المصدِّق ، ومن هذا الموقف سُمِّى الصديق ، وقال قولته المشهورة : « إن كان قال فقد صدق »[٢] .

---

(١) عن أنس رضى الله عنه قال : ما رأيت رجلاً قط أخذ بيد رسول الله ﷺ فيترك يده حتى يكون الرجل هو ينزع يده . أخرجه أبو الشيخ الأصبهانى فى « أخلاق النبى » (ص٢٩) .

(٢) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٦١) عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « لما أُسْرِى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك ، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه ، وسعوا بذلك إلى أبى بكر رضى الله عنه ، فقالوا : هل لك فى صاحبك يزعم أنه أُسْرِى به فى الليل إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لئن كان قال ذلكَ لقد صدق . قالوا : وتُصدِّقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح . قال : نعم ، إنى لأصدقه بما هو أبعد من ذلك ، أصدِّقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة . فلذلك سُمِّى أبو بكر الصديق » . وكذا أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/٦٢ ، ٦٣) وقال : « صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه » .

إذن : عمدته أن يقول رسول الله ، وطالما قال فهو صادق ، هذه قضية مُسلَّم بها عند الصِّدِّيق رضى الله عنه .

ثم قال : « إنَّا لَنُصدقه فى أبعد من هذا ، نُصدِّقه فى خبر السماء (الوحى) ، فكيف لا نُصدِّقه فى هذا » ؟

إذن : الحق سبحانه جعل هذا الحادث مَحكّاً للإيمان ، ومُمحِّصاً ليقين الناس ، حتى يغربل مَنْ حول رسول الله ، ولا يبقى معه إلا أصحاب الإيمان واليقين الثابت الذى لا يهتز ولا يتزعزع .

لذلك قال تعالى فى آية أخرى :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ..(٦٠) ﴾ [الإسراء]

وهذا دليل آخر على أن الإسراء لم يكُنْ مناماً ، فالإسراء لا يكون فتنة واختباراً إلا إذا كان حقيقة لا مناماً ، فالمنام لا يُكذِّبه أحد ولا يختلف فيه الناس .

لكن لماذا قال عن الإسراء (رُؤْيَا) يعنى المنامية ، ولم يقُلْ « رؤية » يعنى البصرية ؟

قالوا : لأنها لما كانت عجيبة من العجائب صارت كأنها رؤيا منامية ، فالرؤيا محل الأحداث العجيبة .

وورد فى الإسراء أحاديث كثيرة تكلَّم فيها العلماء : أكان بالروح والجسد ؟ أكان يقظة أم مناماً ؟ أكان من المسجد الحرام أم من بيت أم هانىء[(١)] ؟ ونحن لا نختلف مع هذه الآراء ، ونُوضِّح ما فيها من تقارب .

---

(١) هى : أم هانىء بنت أبى طالب الهاشمية ابنة عم النبى ﷺ . قيل : اسمها فاختة ، فاطمة ، هند . والأول أشهر . وكانت زوج هبيرة بن عمرو المخزومى . [الإصابة فى تمييز الصحابة (٢٨٧/٨)] .

فمن حيث : أكـان الإسراء بالروح فقط أم بالروح والجسـد ؟ فقد أوضحنا وَجْه الصواب فـيه ، وأنه كان بالروح والجسد جميـعاً ، فهذا مجال الإعجاز ، ولو كان بالروح فقط ما كـان عجيباً ، وما كذَّبه كفار مكة .

أما مَنْ ذهب إلى أن الإسراء كان رؤيا منام ، فيجب أن نلاحظ أن أول الوحى لرسـول الله ﷺ كان الرؤيـا الصادقـة ، فكان ﷺ لا يرى رُؤْيَا إلا وجاءت كفلَق الصبح[1] ، فرؤيا النبى ﷺ ليست كرؤيانا ، بل هى صدْق لا بُدّ أن يـتحقّق . ومـثال ذلك مـا حدث ، مَنْ إرادةِ الله لهُ رؤْيا الفتح .

قال تعالى :

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ..(٢٧)﴾ [الفتح]

وقـد أخبـر ﷺ صـحـابته هـذا الخبـر ، فلمـا ردَّهم الكفـار عند الحديبـية ، فقال الصـحابة لرسول الله : ألم تُبـشّرنا بدخول المسـجد الحرام ؟ فقال : ولكن لم أَقُلْ هذا العام[2] .

لذلك يسمـون هذه الرُّؤى رؤى الإيناس ، وهى أن يرى النبى ﷺ

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « أول ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحـة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصـبح » أخرجه البـخارى فى صحيحه (٣ ، ٣٣٩٢) كتاب بدء الوحى .

(٢) أورد هذا ابن كثير فى تفسيـره (٤/٢٠١) ولفظه أن عمر بن الخطاب قال لرسول الله ﷺ : أفلم تكن تخـبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ فقـال ﷺ : « بلى ، أفأخـبرتك أنك تـأتيه عامك هذا ؟ » قال عمر : لا . فقال النبى ﷺ : « فإنك آتيه ومطوف به » .

الشيء مناماً ، حتى إذا ما تحقق لم يُفَاجأ به ، وكان له أُنْس به . وما دام لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلَق الصبح فلا بُدَّ أن هذه الرؤيا ستأتي واقعاً وحقيقة ، وقد يرى هذه الرؤيا مرة أخرى على سبيل التذكرة بذلك الإيناس .

إذن : مَنْ قال : إن الإسراء كان مناماً نقول له : نعم كان رؤيا إيناس تحققتْ في الواقع ، فلدينا رؤى الإيناس أولاً ، ورؤى التذكير بالنعمة ثانياً ، وواقع الحادث في الحقيقة ثالثاً ، وبذلك نخرج من الخلاف حول : أكان الإسراء يقظة أم مناماً ؟

وحتى بعد انتهاء حادث الإسراء كانت الرؤيا الصادقة نوعاً من التسلية لرسول الله ﷺ ، فكان كلما اشتدتْ به الأهوال يُريه الله تعالى ما حدث له ليُبيِّن له حفاوة السماء والكون به ﷺ ؛ ليكون جَلْداً يتحمل ما يلاقي من التعنت والإيذاء .

أما من قال : إن الإسراء كان من بيت أم هانيء ، فهذا أيضاً ليس محلاً للخلاف ؛ لأن بيت أم هانيء كان مُلاصِقاً للمطاف من المسجد الحرام ، والمطاف من المسجد .

إذن : لا داعي لإثارة الشكوك والخلافات حول هذه المعجزة ؛ لأن الفعل فِعْل الحق سبحانه وتعالى ، والذي يحكيه لنا هو الحق سبحانه وتعالى ، فلا مجالَ للخلاف فيه .

وقوله تعالى :

﴿ مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. ① ﴾ [الإسراء]

المسجد الحرام هو بيت الله : الكعبة المشرفة ، وسُمِّى حراماً ؛ لأنه حُرِّم فيه ما لم يحرُمْ فى غيره من المساجد . وكل مكان يخصص لعبادة الله نسميه مسجداً ، قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. (١٨) ﴾ [التوبة]

ويختلف المسجد الحرام عن غيره من المساجد ، أنه بيت لله باختيار الله تعالى ، وغيره من المساجد بيوت لله باختيار خَلْق الله ؛ لذلك كان بيت الله باختيار الله قِبْلة لبيوت الله باختيار خَلْق الله .

وقد يُراد بالمسجد المكان الذى نسجد فيه ، أو المكان الذى يصلح للصلاة ، كما جاء فى الحديث الشريف : « .. وجُعِلَتْ لى الأرض مسجداً وطهوراً »(١) .

أى : صالحة للصلاة فيها .

ولا بُدَّ أن نُفرِّق بين المسجد الذى حُيِّز وخُصِّص كمسجد مستقل ، وبين أرض تصلح للصلاة فيها ومباشرة حركة الحياة ، فالعامل يمكن أن يصلى فى مصنعه ، والفلاح يمكن أن يصلى فى مزرعته ، فهذه أرض تصلح للصلاة ولمباشرة حركة الحياة .

أما المسجد فللصلاة ، أو ما يتعلق بها من أمور الدين كتفسير آية ، أو بيان حكم ، أو تلاوة قرآن .. إلخ ولا يجوز فى المسجد مباشرة عمل من أعمال الدنيا .

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى المغانم ، ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يُبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم فى صحيحه (٥٢١) .

لذلك حينما رأى النبى ﷺ رجلاً ينشد ضالته فى المسجد ، قال له : « لا رَدَّها الله عليك »[1] وقال لمن جلس يعقد صفقة فى المسجد : « لا بارك الله لك فى صفقتك »[2] .

ذلك لأن المسجد خُصِّص للعبادة والطاعة ، وفيه يكون لقاء العبد بربه عز وجل ، فإياك أن تشغل نفسك فيه بأمور الدنيا ، ويكفى ما أخذتْه منك ، وما أنفقته فى سبيلها من وقت .

والمسجد لا يُسمَّى مسجداً إلا إذا كان بناءً مستقلاً من الأرض إلى السماء ، فأرضه مسجد ، وسماؤه مسجد ، لا يعلوه شىء من منافع الدنيا ، كمَنْ يبنى مسجداً تحت عمارة سكنية ، ودَعْكَ من نيته عندما خَصَّص هذا المكان للصلاة : أكانت نيته لله خالصة ؟ أم لمأرب دنيوى ؟

وقد قال تعالى :

﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الجن]

فمثل هذا المكان لا يُسمَّى مسجداً ؛ لأنه لا تنطبق عليه شروط المسجد ، ويعلوه أماكن سكنية يحدث فيها ما يتنافى وقدسية المسجد ، وما لا يليق بحُرْمة الصلاة ، فالصلاة فى مثل هذا المكان كالصلاة فى أى مكان آخر من البيت .

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٥٦٨) كتاب المساجد من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من سمع رجلاً ينشد ضالة فى المسجد فليقل : لا ردها الله عليك ، فإن المساجد لم تبن لهذا » .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك » أخرجه الترمذى فى سننه (١٣٢١) وقال : « حديث حسن غريب » .

لذلك يحرم على الطيار غير المسلم أن يُحلِّق فوق مكة ؛ لأن جوّ الحرَم حَرَمٌ .

وقوله تعالى :

﴿ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. ①﴾ [الإسراء]

فى بُعْد المسافة نقول : هذا قصيّ . أى : بعيد . وهذا أقصى أى : أبعد ، فالحق تبارك وتعالى كأنه يلفت أنظارنا إلى أنه سيوجد بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى مسجدٌ آخر قصيّ ، وقد كان فيما بعد مسجد رسول الله ﷺ .

فالمسجد الأقصى : أى : الأبعد ، وهو مسجد بيت المقدس .

وقوله سبحانه : ﴿ بَارَكْنَا حَوْلَهُ .. ①﴾ [الإسراء]

البركة : أن يُؤْتى الشىءُ من ثمره فوقَ المأمول منه ، وأكثر مما يُظنّ فيه ، كأن تُعد طعاماً لشخصين ، فيكفى خمسة أشخاص ، فتقول : طعام مباركَ .

وقول الحق سبحانه :

﴿ بَارَكْنَا حَوْلَهُ .. ①﴾ [الإسراء]

دليل على المبالغة فى البركة ، فإنْ كان سبحانه قد بارك ما حول الأقصى ، فالبركة فيه من باب أوْلى ، كأن تقول : مَنْ يعيشون حول فلان فى نعمة ، فمعنى ذلك أنه فى نعمة أعظم .

لكن بأىّ شىء بارك الله حوله ؟

لقد بارك الله حول المسجد الأقصى ببركة دنيوية ، وبركة دينية :

بركة دنيوية بما جعل حوله من أرض خِصْبة عليها الحدائق

والبساتين التى تحوى مختلف الثمار ، وهذا من عطاء الربوبية الذى يناله المؤمن والكافر .

وبركة دينية خاصة بالمؤمنين ، هذه البركة الدينية تتمثل فى أن الأقصى مَهْد الرسالات ومَهْبط الأنبياء ، تعطَّرَتْ أرضه بأقدام إبراهيم وإسحق ويعقوب وعيسى وموسى وزكريا ويحيى ، وفيه هبط الوحى وتنزلتْ الملائكة .

وقوله : ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا.. ① ﴾ [الإسراء]

اللام هنا للتعليل .

كان مهمة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس أن نُرِى رسول الله الآيات ، وكلمة : الآيات لا تُطلق على مطلق موجود ، إنما تطلق على الموجود العجيب ، كما نقول : هذا آية فى الحُسْن ، آية فى الشجاعة ، فالآية هى الشىء العجيب .

ولله عز وجل آيات كثيرة منها الظاهر الذى يراه الناس ، كما قال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ..㉗ ﴾ [فصلت]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ㉜ ﴾ [الشورى]

والله سبحانه يريد أن يجعل لرسوله ﷺ خصوصية ، وأن يُريه من آيات الغيب الذى لم يَرَهُ أحد ، ليرى ﷺ حفاوة السماء به ، ويرى مكانته عند ربه الذى قال له :

﴿ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ١٢٧ ﴾ [النحل]

لأنك فى سَعة من عطاء الله ، فإن أهانك أهل الأرض فسوف يحتفل بك أهل السماء فى الملأ الأعلى ، وإنْ كنت فى ضيق من الخَلْق فأنت فى سَعة من الخالق .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ① ﴾ [الإسراء]

أى : الحق سبحانه وتعالى .

السمع : إدراك يدرك الكلام . والبصر : إدراك يدرك الأفعال والمرائى ، فلكل منهما ما يتعلق به .

لكن سميع وبصير لمن ؟

جاء هذا فى ختام آية الإسراء التى بيَّنَتْ أن الحق سبحانه جعل الإسراء تسلية للرسول ﷺ بعد ما لاقاه من أذى المشركين وعنتهم ، وكأن معركة دارت بين رسول الله والكفار حدثتْ فيها أقوال وأفعال من الجانبين .

ومن هنا يمكن أن يكون المعنى : (سَمِيعٌ) لأقوال الرسول (بَصِيرٌ) بأفعاله ، حيث آذاه قومه وكذبوه وألجؤوه إلى الطائف ، فكان أهلها أشدَّ قسوة من إخوانهم فى مكة ، فعاد مُنكَرًا داميًا ، وكان من دعائه :

« اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بى غضبك ، أو يحل علىَّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »[1] .

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤١٩ ، ٤٢٠) ، والبيهقى فى « دلائل النبوة » (٢/٤١٥) .

فالله سميع لقول نبيه ﷺ . وبصير لفعله .

فقد كان ﷺ فى أشدّ ظروفه حريصاً على دعوته ، فقد قابل فى طريق عودته من الطائف عبداً ، فأعطاه عنقوداً من العنب ، وأخذ يحاوره فى النبوات ويقول : أنت من بلد نبى الله يونس بن متى[1] .

أو يكون المعنى : سميع لأقوال المشركين ، حينما آذوا سَمْع رسول الله وكذّبوه وتجهمّوا له ، وبصير بأفعالهم حينما آذوه ورَمَوْه بالحجارة .

الحق تبارك وتعالى تعرّض لحادث الإسراء فى هذه الآية على سبيل الإجمال ، فذكر بدايته من المسجد الحرام ، ونهايته فى المسجد الأقصى ، وبين البداية والنهاية ذكر كلمة الآيات هكذا مُجْملة .

وجاء ﷺ ففسَّر لنا هذا المجمل ، وذكر الآيات التى رآها ، فلو لم يذكر لنا رسول الله ﷺ ما رأى من آيات الله لَقُلْنا : وأين هذه الآيات ؟

فالقرآن يعطينا اللقطة الملزمة لبيان الرسول ﷺ :

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) ﴾ [القيامة]

إذن : كان لا بُدَّ لتكتمل صورة الإسراء فى نفوس المؤمنين أن يقول الرسول ﷺ ما قال من أحاديث الإسراء .

---

(١) هذا العبد يُسمى عداس ، وهو غلام نصرانى ، قال له رسول الله ﷺ : من أهل أىّ البلاد أنت يا عداس ، وما دينك ؟ قال : نصرانى ، وأنا رجل من أهل نينوى . فقال رسول الله ﷺ : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى . فقال له عداس : وما يدريك ما يونس ابن متى ؟ فقال رسول الله ﷺ : ذاك أخى ، كان نبياً وأنا نبى . فأكبّ عدّاس على رسول الله ﷺ يقبّل رأسه ويديه وقدميه . [السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٢١] .

لكن يأتى المشكِّكُون وضِعَاف الإيمان يبحثون فى أحاديث الإسراء عن مأخـذ ، فيـعترضـون علَى المرائى التى رآها رسـول الله ، وسأل عنها جبريل عليه السلام .

فكان اعــتـراضــهم أن هـذه الأحـداث فى الآخـرة ، فـكيف رآها محمد ﷺ ؟

ونقول لهؤلاء : لقد قصُـرَتْ أفهامكم عن إدراك قدرة الله فى خَلْق الكون ، فالكون لم يُخلَـق هكذا ، بل خُلِق بتقدير أزلى له ، ولتـوضيح هذه المسألة نضرب هذا المثل :

هَبْ أنك أردتَ بناء بيت ، فـسوف تذهب إلى المـهندس المخـتص وتطلب منه رَسْـماً تفصـيلياً له ، ولو كنت مـيسور الحـال تقول له : اعمل لى (ماكـيت) للبيت ، فيصنـع لك نموذجاً مُصغَّـراً للبيت الذى تريده .

فالحق سـبحانه خلق هذا الكون أزلاً ، فـالأشياء مـخلوقة عند الله (كالماكيت) ، ثم يبرزها سبحانه على وَفْق ما قدّره .

وتأمل قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس]

انظر : ﴿ أَن يَقُـولَ لَهُ ﴾ كـأن الشىء مـوجـود والله تعـالى يظهـره فحسب ، لا يخلقه بداية ، بل هو مخلوق جاهز ينتظر الأمر ليظهر فى عالم الواقع ؛ لذلك قال أهل المعرفة : أمور يُبديها ولا يبتديها .

وإنْ كان الـحق تبارك وتعـالى قد ذكـر الإسراء صراحـة فى هذه الآية ، فقد ذكر المعراج بالالتزام فى سورة النجم ، فى قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨) ﴾ [النجم]

ففى الإسراء قال تعالى :

﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا .. (١) ﴾ [الإسراء]

وفى المعراج قال :

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨) ﴾ [النجم]

ذلك لأن الإسراء آية أرضية استطاع الرسول ﷺ بما آتاه الله من الإلهام أنْ يُدلِّل على صدْقه فى الإسراء به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ؛ لأن قومه على علم بتاريخه ، وأنه لم يسبق له أنْ رأى بيت المقدس أو سافر إليه ، فقالوا له : صِفْه لنا وهذه شهادة منهم أنه لم يَرَهْ ، فتحدَّوْهُ أن يصفه .

والرسول ﷺ حينما يأتى بمثل هذه العملية ، هل كان عنده استحفاظ كامل لصورة بيت المقدس ، خاصة وقد ذهب إليه ليلاً ؟

إذن : صورته لم تكن واضحة أمام النبى ﷺ بكل تفاصيلها ، وهنا تدخلتْ قدرة الله فجلأه الله له ، فأخذ يصفه لهم كأنه يراه الآن .

كما أن الطريق بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى طريق مسلوك للعرب ، فهو طريق تجارتهم إلى الشام ، فأخبرهم ﷺ أن عِيراً لهم فى الطريق ، ووصفها لهم وصفاً دقيقاً ، وأنها سوف تصلهم مع شروق شمس يوم مُعين .

وفعلاً تجمعوا فى صبيحة هذا اليوم ينتظرون العير . وعند الشروق قال أحدهم : ها هى الشمس أشرقتْ . فردَّ الآخر : وها هى العير قد ظهرت[1] .

إذن : استطاع ﷺ أن يُدلِّل على صدق الإسراء ؛ لأنه آية أرضية يمكن التدليل عليها ، بما يَعْلمه الناس عن بيت المقدس ، وبما يعلمونه من عِيرهم فى الطريق .

أما ما حدث فى المعراج ، فآيات كبرى سماوية لا يستطيع الرسول ﷺ التدليل عليها أمام قومه ، فأراد الحق سبحانه أنْ يجعل ما يمكن الدليل عليه من آيات الأرض وسيلة لتصديق ما لا يوجد دليل عليه من آيات الصعود إلى السماء ، وإلا فهل صعد أحد إلى سدرة المنتهى ، فيصفها له رسول الله ؟

إذن : آية الأرض أمكن أنْ يُدلّل عليها ، فإذا ما قام عليها الدليل ، وثبت للرسول خَرْق نواميس الكون فى الزمن والمسافة ، فإنْ حدّثكم عن شىء آخر فيه خَرْق للنواميس فصدِّقوه ، فكأن آية الإسراء جاءت

---

(١) وقد أورد ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٤٠٢) من حديث أم هانىء أن النبى ﷺ قال : آية ذلك أنى مررت بعير بنى فلان بوادى كذا وكذا ، فأنفرهم حسّ الدابة ، فندّ لهم بعير ، فدللتهم عليه ، وأنا مُوجِّه إلى الشام ، ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجنان مررت بعير بنى فلان ، فوجدت القوم نياماً ، ولهم إناء فيه ماء قد غطَّوْا عليه بشىء ، فكشفت غطاءه ، وشربت ما فيه ، ثم غطيت عليه كما كان ، وآية ذلك أن عيرهم الآن يصوب من البيضاء ثنية التنعيم ، يقدمها جمل أورق ، عليه غرارتان ، إحداهما سوداء ، والأخرى برقاء . قالت : فابتدر القوم الثنية فلم يلقهم أول من الجمل كما وصف لهم ، وسألوهم عن الإناء ، فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءاً ماء ثم غطوه ، وأنهم هبوا فوجدوه مغطى كما غطوه ، ولم يجدوا فيه ماء . وسألوا الآخرين وهم بمكة ، فقالوا : صدق والله ، لقد أُنْفرنا فى الوادى الذى ذكر ، وندَّ له بعير ، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه ، حتى أخذناه .

لتُقرّب للناس آية المعراج .

فالذى خرق له النواميس فى آيات الأرض من الممكن أنْ يخرق له النواميس فى آيات السماء ، فالله تعالى يُقرِّب الغيبيات ، التى لا تدركها العقول بالمحسّات التى تدركها .

ومن ذلك ما ضربه إليه مثلاً محسوساً لمضاعفة النفقة فى سبيل الله إلى سبعمائة ضعف ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُبيّن ذلك ويُقرّبه للعقول ، فقال :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة]

ومن لُطْف الله سبحانه بعقول خَلْقه أنْ جعل آيات الإسراء بالنصّ الملزم الصريح ، لكن آيات المعراج جاءت بالالتزام فى سورة النجم ؛ لذلك قال العلماء : إن الذى يُكذّب بالإسراء يكفر ، أما مَنْ يكذّب بالمعراج فهو فاسق .

لكن أهل التحقيق يذهبون إلى تكفير مَنْ يُكذّب المعراج أيضاً ؛ لأن المعراج وإنْ جاء بالالتزام فقد بيّنه الرسول ﷺ فى حديثه الشريف ، والحق سبحانه يقول :

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧)﴾ [الحشر]

والمتأمل فى الإسراء والمعراج يجده إلى جانب أنه تسلية لرسول الله وتخفيف عنه ، إلا أن لهم هدفاً آخر أبعد أثراً ، وهو بيان أن رسول الله ﷺ مُؤيّد من الله ، وله معجزات ، وتُخرَق له القوانين

والنواميس العامة ؛ ليكون ذلك كله تكريماً ودليلاً على صدق رسالته .

فالمعجزة : أمر خارق للعادة الكونية يُجريه الله على يد رسوله ؛ ليكون دليلاً على صدقه ، ومن ذلك ما حدث لإبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ حيث ألقاه قومه فى النار ، ومن خواص النار الإحراق ، فهل كان المراد نجاة إبراهيم من النار ؟

لو كان القصد نجاته من النار ما كان الله مكَّنهم من الإمساك به ، ولو أمسكوا فيمكن أنْ يُنزل الله المطر فيطفىء النار .

إذن : المسألة ليست نجاة إبراهيم ، المسألة إثبات خَرْق النواميس لإبراهيم عليه السلام ، فشاء الله أنْ تظلَّ النار مشتعلة ، وأن يُمسكوا به ويرموه فى النار ، وتتوفر كل الأسباب لحرقه ـ عليه السلام .

وهنا تتدخل عناية الله لتظهر المعجزة الخارقة للقوانين ، فمن خواصّ النار الإحراق ، وهى خَلْق من خَلْق الله ، يأتمر بأمره ، فأمر اللهُ النارَ ألاَّ تحرق ، سلبها هذه الخاصية ، فقال تعالى :

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

وربما يجد المشكِّكون فى الإسراء والمعراج ما يُقرِّب هذ المعجزة لأفهامهم بما نشاهده الآن من تقدُّم علمى يُقرِّب لنا المسافات ، فقد تمكَّن الإنسان بسلطان العلم أنْ يغزوَ الفضاء ، ويصعد إلى كواكب أخرى فى أزمنة قياسية ، فإذا كان فى مقدور البشر الهبوط على سطح القمر ، أتستبعدون الإسراء والمعراج ، وهو فعْل لله سبحانه ؟!

وكذلك من الأمور التى وقفتْ أمام المعترضين على الإسراء

والمعراج حادثة شَقّ الصدر التى حكاها رسول الله ﷺ ، والمتأمل فيه يجده عملاً طبيعياً لإعداد الرسول ﷺ لما هو مُقبل عليه من أجواء ومواقف جديدة تختلف فى طبيعتها عن الطبيعة البشرية .

كيف ونحن نفعل مثل هذا الإعداد حينما نسافر من بلد إلى آخر ، فيقولون لك : البس ملابس كذا . وخذ حقنة كذا لتساير طبيعة هذا البلد ، وتتأقلم معه ، فما بالك ومحمد ﷺ سيلتقى بالملائكة وبجبريل وهم ذوو طبيعة غير طبيعة البشر ، وسيلتقى بإخوانه من الأنبياء ، وهم فى حال الموت ، وسيكون قاب قوسيْن أو أدنى من ربه عز وجل ؟

إذن : لا غرابة فى أنْ يحدث له تغيير ما فى تكوينه ﷺ ليستطيع مباشرة هذه المواقف .

وإذا استقرأنا القرآن الكريم فسوف نجد فيه ما يدلُّ على صدق رسول الله فيما أخبر به من لقائه بالأنبياء فى هذه الرحلة ، قال تعالى :

﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا .. (٤٥) ﴾ [الزخرف]

والرسول ﷺ إذا أمره ربّه أمراً نفّذه ، فكيف السبيل إلى تنفيذ هذا الأمر : واسأل مَن سبقك من الرسل ؟

لا سبيل إلى تنفيذه إلا فى لقاء مباشر ومواجهة ، فإذا حدَّثنا بذلك رسول الله فى رحلة الإسراء والمعراج نقول له : صدقت ، ولا يتسلل الشكّ إلا إلى قلوب ضعاف الإيمان واليقين .

فالفكرة فى هذه القضية ـ الإسراء والمعراج ـ دائرة بين يقين

المؤمن بصدق رسول الله ، وبين تحكيم العقل ، وهل استطاع عقلك أنْ يفهم كل قضايا الكون من حولك ؟

فما أكثر الأمور التي وقف فيها العقل ولم يفهم كُنْهَها ، ومع مرور الزمن وتقدُّم العلوم رآها تتكشّف له تدريجياً ، فما شاء الله أنْ يُظهره لنا من قضايا الكون يسَّر لنا أسبابه باكتشاف أو اختراع ، وربما بالمصادفة .

وما العقل إلا وسيلة إدراك ، كالعين والأذن ، وله قوانين محددة لا يستطيع أنْ يتعدّاها ، وإياك أنْ تظنَّ أن عقلك يستطيع إدراك كل شيء ، بل هو محكوم بقانون .

ولتوضيح ذلك ، نأخذ مثلاً العين ، وهي وسيلة إدراك يحكمها قانون الرؤية ، فإذا رأيت شخصاً مثلاً تراه واضح الملامح ، فإذا ما ابتعد عنك تراه يصغُر تدريجياً حتى يختفي عن نظرك ، كذلك السمع تستطيع بأذنك أنْ تسمعَ صوتاً ، فإذا ما ابتعد عنك قَلَّ سمعك له ، حتى يتوقف إدراك الأذن فلا تسمع شيئاً .

كذلك العقل كوسيلة إدراك له قانون ، وليس الإدراك فيه مطلقاً .

ومن هنا لما أراد العلماء التغلُّب على قانون العيْن وقانون الأذن حينما تضعف هذه الحاسة وتعجز عن أداء وظيفتها صنعوا للعين النظارة والميكروسكوب والمجهر ، وهذه وسائل حديثة تُمكِّن العين من رؤية ما لا تستطيع رؤيته . وكذلك صنعوا سماعة الأذن لتساعدها على السمع إذا ضعفت عن أداء وظيفتها .

إذن : فكل وسيلة إدراك لها قانونها ، وكذلك العقل ، وإياك أنْ تظنَّ

أن عقلك يستطيع أن يدرس كل شيء ، ولكن إذا حُدِّثْتَ بشيء فعقلك ينظر فيه ، فإذا وثقته صادقاً فقد انتهت المسألة ، وخذ ما حدثت به على أنه صدق .

وهذا ما حدث مع الصِّدِّيق أبى بكر رضى الله عنه جينما حدثوه عن صاحبه ﷺ ، وأنه أُسرِى به من مكة إلى بيت المقدس ، فما كان منه إلا أن قال : « إن كان قال فقد صدق » .

فالحجة عنده إذن قول الرسول ، وما دام الرسول قد قال ذلك فهو صادق ، ولا مجال لعمل العقل فى هذه القضية ، ثم قال : « كيف لا أُصدقه فى هذا الخبر ، وأنا أصدقه فى أكثر من هذا ، أصدقه فى خبر الوحى يأتيه من السماء »[1] .

فآية الإسراء - إذن - كانت آية أرضية ، يمكن أنْ يُقام عليها الدليل ، ويمكن أن يفهم الناس عنها أن القانون قد خُرِق لمحمد فى الإسراء ، فإذا ما أتى المعراج وخرق له القانون فيما لا يعلم الناس كان أدْعى لتصديقه .

والمتأمل فى هذه السورة يجدها تسمى سورة الإسراء ، وتسمى سورة بنى إسرائيل ، وليس فيها عن الإسراء إلا الآية الأولى فقط ، وأغلبها يتحدث عن بنى إسرائيل ، فما الحكمة من ذِكْر بنى إسرائيل بعد الإسراء ؟

سبق أن قلنا : إن الحكمة من الكلام عن الإسراء بعد آخر النحل

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها ، وكذا الحاكم فى مستدركه (٣/٦٢) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

أن رسول الله ﷺ كان فى ضيق مما يمكرون ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُخفِّف عنه ويُسلِّيه ، فكان حادث الإسراء ، ولما ألفَ بنو إسرائيل أن الرسول يُبعَثُ إلى قومه فحسب ، كما رأوا موسى عليه السلام .

فعندما يأتى محمد ﷺ ويقول : أنا رسول للناس كافّة سيعترض عليه هؤلاء وسيقولون : إنْ كنتَ رسولاً فعلاً وسلَّمنا بذلك ، فأنت رسول للعرب دون غيرهم ، ولا دَخْل لك ببنى إسرائيل ، فلّنا رسالتنا وبيت المقدس علَم لنا .

لذلك أراد الحق سبحانه أن يلفت بنى إسرائيل إلى عموم رسالة محمد ﷺ ، ومن هنا جعل بيت المقدس قبلةً للمسلمين فى بداية الأمر ، ثم أسرى برسوله ﷺ إليه ؛ ليدلل بذلك على أن بيت المقدس قد دخل فى مقدسات الإسلام ، وأصبح منذ هذا الحدث فى حوْزة المسلمين .

ثم يبدأ الحديث عن موسى عليه السلام وعن بنى إسرائيل ، فيقول تعالى :

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ﴾

قوله : ﴿ وَآتَيْنَا ﴾ أى : أوحينا إليه معانيه ، كما قال تعالى :

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ..(٥١)﴾ [الشورى]

فليس فى هذا الأمر مباشرة .

و (الكتاب) هو التوراة ، فلو اقترن بعيسى فهو الإنجيل ، وإنْ أُطلق دون أن يقترنَ بأحد ينصرف إلى القرآن الكريم .

والوَحْى قد يكون بمعانى الأشياء ، ثم يُعبّر عنها الرسول بألفاظه ، أو يعبر عنها رجاله وحواريوه بألفاظهم .

ومثال ذلك : الحديث النبوى الشريف ، فالمعنى فيه من الحق سبحانه ، واللفظ من عند الرسول ﷺ ، وهكذا كان الأمر فى التوراة والإنجيل .

فإن قال قائل : ولماذا نزل القرآن بلفظه ومعناه ، فى حين نزلت التوراة والإنجيل بالمعنى فقط ؟

نقول : لأن القرآن نزل كتاب منهج مثل التوراة والإنجيل ، ولكنه نزل أيضاً كتاب معجزة لا يستطيع أحد أنْ يأتىَ بمثله ، فلا دَخْلَ لأحد فيه ، ولا بُدَّ أنْ يظلَّ لفظه كما نزل من عند الله سبحانه وتعالى .

فالرسول ﷺ أوحىَ إليه لَفْظُ ومعنى القرآن الكريم ، وأوحِى إليه معنى الحديث النبوى الشريف .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ.. ﴿٢﴾ ﴾ [الإسراء]

فهذا الكتاب لم ينزل لموسى وحده ، بل لِيُبلِّغه لبنى إسرائيل ،

وليـرسمَ لهم طريق الهــدى إلى الله سبحـانه ، وقـال تعـالى فى آية أخرى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ(١) مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) ﴾ [السجدة]

والهُـدَى : هو الطريق المـوصِّل للغـاية من أقصـر وجـه ، وبأقلّ تكلفة ، وهو الـطريق المستـقيم ، ومعلوم عند أهل الـهندسة أن الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين .

ثم أوضح الحق سبحـانه وتعالى خلاصة هذا الكتـاب ، وخلاصة هذا الهدى لبنى إسرائيل فى قوله تعالى :

﴿ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً (٢) ﴾ [الإسراء]

ففى هذه العبارة خلاصة الهُدى ، وتركيز المنهج وجمَاعه .

والوكيل : هو الذى يتولّى أمرك ، وأنت لا تُولِّى أحداً أمرك إلا إذا كنتَ عاجـزاً عن القيـام به ، وكان مَنْ تُوكِّله أحكمَ منك وأقـوى ، فإذا كنت ترى الأغـيار تنتاب النـاس من حولك وتستـولى عليهم ، فـالغنى يصير فقيراً ، والقوى يصير ضعيفاً ، والصحيح يصير سقيماً .

وكـذلك ترى المـوت يتناول الناس واحـداً تلْو الآخـر ، فـاعلم أن هؤلاء لا يصلحون لِتـولِّى أمرك والقيـام بشأنك ، فربمـا وكَّلْتَ واحداً منهم ففاجأك خبر موته .

إذن : إذا كنتَ لبـيـبـاً فوكِّل مَـنْ لا تنتابـه الأغيـار ، ولا يدركـه

(١) المرية : الجدل والشك . [القاموس القويم ٢/ ٢٢٤] .

المـوت ؛ ولذلك فـالحق سـبـحانه حـينمـا يُعلمـنا أن نكون على وعى وإدراك لحقائق الأمور ، يقول :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ (٥٨) ﴾ [الفرقان]

وما دام الأمر كذلك ، فإياك أنْ تتخذَ من دون الله وكيلاً ، حتى لو كان هذا الوكيل هو الواسـطة بينك وبين ربك كالأنبيـاء ؛ لأنهم لا يأتون بشىء من عند أنفسـهم ، بل يناولونك ويُبلِّغونك عن الله سبحانه .

ولذلك الحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ .. (٨٦) ﴾ [الإسراء]

ولو شئنا ما أوحينا إليك أبداً ، فمن أين تأتى بالمنهج إذن ؟

وقد تحدث العلماء طويلاً فى (أن) فى قوله :

﴿ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِى وَكِيلاً (٢) ﴾ [الإسراء]

فمنـهم مَنْ قال : إنهـا ناهية . ومنهم من قـال : نافيـة ، وأحسن ما يُقال فيها : إنها مُفسِّرة لما قبلها من قوله تعالى :

﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى .. (٢) ﴾ [الإسراء]

ففسرت الكتاب والهدى ولخَّصتْه ، كما فى قوله تعالى :

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَـٰآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ (١٢٠) ﴾ [طه]

فقوله : ﴿ قَالَ يَا آدَمُ ﴾ تُفسِّر لنا مضمون وسوسة الشيطان .

ومثله قوله تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ⑦ ﴾ [القصص]

(فأنْ) هنا مُفسِّرة لما قبلها . وكأن المعنى : وأوحينا إليه ألاَّ تتخذوا من دونى وكيلاً .

أو نقول : إن فيها معنى المصدرية ، وأنْ المصدرية قد تُجرّ بحرف جر كما نقول : عجبت أنْ تنجحَ ، أى : من أنْ تنجح ، ويكون معنى الآية هنا : وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل لأنْ لا تتخذوا من دونى وكيلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ③ ﴾

(ذرية) منصوبة هنا على الاختصاص لِقصْد المدح ، فالمعنى : أخصكم أنتم يا ذرية نوح ، ولكن لماذا ذرية نوح بالذات ؟

ذلك لأننا نجَّيْنَا الذين آمنوا معه من الطوفان والغرق ، وحافظنا على حياتهم ، وأنتم ذريتهم ، فلا بُدّ لكم أنْ تذكروا هذه النعمة لله تعالى ، أنّ أبقاكم الآن من بقاء آبائكم .

فكأن الحق سبحانه يمتنّ عليهم بأنْ نجَّى آباءهم مع نوح ، فليستمعوا إلى منهج الله الذى جَرَّبه آباؤهم ، ووجدوا أن مَنْ يؤمن بالله تكون له النجاة والأمن من عذاب الله .

ويقول تعالى :

﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣ ﴾ [الإسراء]

أى : أن الحق سبحانه أكرم ذريته ؛ لأنه كان عبداً شكوراً ، والعمل الصالح ينفع ذرية صاحبه ؛ ولذلك سنلاحظ ذرية نوح بعنايتنا ، ولن نتركهم يتخبّطون فى متاهات الحياة ، وسنرسل لهم الهدى الذى يرسم لهم الطريق القويم ، ويُجنّبهم الزَّلل والانحراف .

ودائماً ما ينشغل الآباء بالأبناء ، فإذا ما توفّر للإنسان قُوت يومه تطلّع إلى قُوت العام كله ، فإذا توفّر له قوت عامه قال : أعمل لأولادى ، فترى خير أولاده أكثر من خَيْره ، وتراه ينشغل بهم ، ويُؤثِرهم على نفسه ، ويترقّى فى طلب الخير لهم ، ويودُّ لو حمل عنهم كل تعب الحياة ومشاقها .

ومع ذلك ، فالإنسان عُرْضَة للأغيار ، وقد يأتيه أجله فيترك وراءه كل شىء ؛ ولذلك فالحق سبحانه يدلّنا على وَجْه الصواب الذى ينفع الأولاد ، فيقول تعالى :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۝٩ ﴾ [النساء]

والحق تبارك وتعالى حينما يُعلّمنا أن تقوى الله تتعدّى بركتها إلى أولادك من بعدك ، يعطينا مثلاً واقعياً فى قصة موسى والخضر عليهما السلام ـ التى حكاها لنا القرآن الكريم .

والشاهد فيها أنهما حينما مرّا على قرية ، واستطعما أهلها فأبَوْا أنْ يُضيّفوهما ، وسؤال الطعام يدل على صدْق الحاجة ، فلو طلب منك السائل مالاً فقد تتهمه بكَنْزِه ، أما إذا طلب منك رغيفاً يأكله فلا شكّ

أنه صادق فى سؤاله ، فهذا دليل على أنها قرية لئام لا يقومون بواجب الضيافة ، ولا يُقدِّرون حاجة السائل .

ومن هنا تعجَّبَ موسى ـ عليه السلام ـ من مبادرة الخضْر إلى بناء الجدار الذى أوشك على السقوط دون أنْ يأخذ أَجْره مَن هؤلاء اللئام :

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الكهف]

وهنا يكشف الخضر لموسى حقيقة الأمر ، ويُظهر له ما أطلعه الله عليه من بواطن الأمور التى لا يدركها موسى عليه السلام ، فيقول :

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف]

فالجدار ملْك لغلامين صغيرين لا يقدران على حماية مالهما من هؤلاء اللئام ، ولأن أباهما كان صالحاً سخّر الله لهما مَنْ يخدمهما ، ويحافظ على مالهما .

إذن : فعلّة هذا العمل أن أباهما كان صالحاً ، فأكرمهم الله من أجله ، وجعلَهما فى حيازته وحفظه .

وهنا قد يسأل سائل : ومن أين للغلامين أن يعلما بأمر هذا الكنز عند بلوغهما ؟

والظاهر أن الخضر بما أعطاه الله من الحكمة بنى هذا الجدار بناءً موقوتاً ، بحيث ينهدم بعد بلوغ الغلامين ، فيكونان قادرِيْن على حمايته والدفاع عنه .

والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا هذه القضية فى آية أخرى ، فيقول سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم[(١)] مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ (٢١) ﴾ [الطور]

فكرامةً للآباء نلحق بهم الأبناء ، حتى وإنْ قَصَّروا فى العمل عن آبائهم ، فنزيد فى أجر الأبناء ، ولا ننقص من أجر الآباء .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) ﴾ [الإسراء]

وشكور صيغة مبالغة فى الشكر ، فلم يَقل شاكر ؛ لأن الشاكر الذى يشكر مرة واحدة ، أما الشكور فهو الدائب على الشكر المداوم عليه ، وقالوا عن نوح عليه السلام : إنه كان لا يتناول شيئاً من مُقوّمات حياته إلا شكر الله عليها . ولا تنعَّم بنعمة من ترف الحياة إلا حمد الله عليها ، فإذا أكل قال : الحمد لله الذى أطعمنى من غير حول منى ولا قوة ، وإذا شرب قال : الحمد لله الذى سقانى من غير حول منى ولا قوة ، وهكذا فى جميع أمره[(٢)] .

---

(١) لاته يليته حقه ليتاً : نقصه ولم يؤده كاملاً ، قال تعالى : ﴿ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا (١٤) ﴾ [الحجرات] أى : لا ينقصكم شيئاً من ثوابها . [القاموس القويم ٢/٢٠٩] .

(٢) ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٤١) من قول عمران بن سليم قال : إنما سُمى نوحاً عبداً شكوراً لأنه كان إذا أكل قال : الحمد لله الذى أطعمنى ولو شاء لأجاعنى . وإذا شرب قال : الحمد لله الذى سقانى ولو شاء لأظمأنى . وإذا اكتسى قال : الحمد لله الذى كسانى ولو شاء لأعرانى ، وإذا احتذى قال : الحمد لله الذى حذانى ولو شاء لأحفانى ، وإذا قضى حاجته قال : الحمد لله الذى أخرج عنى الأذى ولو شاء لحبسه فىّ .

ويقول بعض العارفين : ما أكثر ما غفل الإنسان عن شكر الله على نعمه .

ونرى كثيراً من الناس قصارى جَهْدهم أن يقولوا : بسم الله فى أول الطعام والحمد لله فى آخره ، ثم هم غافلون عن نعم كثيرة لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى ، تستوجب الحمد والشكر .

لذلك حينما يعقل الإنسان ويفقه نعَم الله عليه ، ويعلم أن الحمد قَيْد للنعمة ، تجده يعمل ما نُسمّيه حَمْد القضاء مثل الصلاة القضاء أى : حمد الله على نعم فاتت لم يحمده عليها ، فيقول : الحمد لله على كل نعمة أنعمتَها علىَّ يا ربِّ ، ونسيت أنْ أحمدَك عليها ، ويجعل هذا الدعاء دأبه وديدنه .

وقد يتعدى حمدَ الله لنفسه ، فيحمد الله عن الناس الذين أنعم الله عليهم ولم يحمدوه ، فيقول : الحمد لله عن كل ذى نعمة أنعمتَ عليه ، ولم يحمدك عليها .

ولذلك يقولون : إن النعمة التى تحمد الله عليها لا تُسأل عنها يوم القيامة ؛ لأنك أدَّيْتَ حقها من حَمْد الله والثناء عليه .

والحمد والشكر وإنْ كان شكراً للمنعم سبحانه وثناء عليه ، فهو أيضاً تجارة رابحة للشاكر ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ (٧) ﴾ [إبراهيم]

فمَنْ أراد الخير لنفسه وأحب أن نواصل له النعم فليداوم على حمدنا وشكرنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾ [1]

قوله تعالى :

﴿ وَقَضَيْنَا .. ﴿٤﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : حكمنا حُكْماً لا رجعةَ فيه ، وأعلنَّا به المحكوم عليه ، والقاضى الذى حكم هنا هو الحق سبحانه وتعالى.

والقضاء يعنى الفَصْل فى نزاع بين متخاصمين ، وهذا الفَصْل لا بُدَّ له من قاضٍ مُؤهَّل ، وعلى علم بالقانون الذى يحكم به ، ويستطيع الترجيح بين الأدلة .

إذن : لا بُد أن يكون القاضى مُؤهّلاً ، ولو فى عُرْف المتنازعين ، ويمكن أن يكونوا جميعاً أميِّين لا يعرفون عن القانون شيئاً ، لكنهم واثقون من شخص ما ، ويعرفون عنه قَوْل الحق والعدل فى حكومته ، فيرتضونه قاضياً ويُحكّمونه فيما بينهم .

ثم إن القاضى لا يحكم بعلمه فحسب ، بل لا بُدَّ له من بينة على المدعى أن يُقدّمها أو اليمين على مَنْ أنكر ، والبينة تحتاج إلى سماع الشهود ، ثم هو بعد أن يحكم فى القضية لا يملك تنفيذ حكمه ، بل

---

(١) قضينا : أعلمنا وأخبرنا . قاله ابن عباس . وقال قتادة : حكمنا . وأصل القضاء الإحكام للشيء والفراغ منه . وقيل : قضينا أوحينا . [تفسير القرطبى ٥/٣٩٤٢] .

هناك جهة أخرى تقوم بتنفيذ حكمه ، ثم هو فى أثناء ذلك عُرْضة للخداع والتدليس وشهادة الزور وتلاعب الخصوم بالأقوال والأدلة .

وقد يستطيع الظالم أنْ يُعمِّى عليه الأمر ، وقد يكون لبقاً متكلماً يستميل القاضى ، فيحوّل الحكم لصالحه ، كل هذا يحدث فى قضاء الدنيا .

فما بالك إذا كان القاضى هو رب العزة سبحانه وتعالى ؟

إنه سبحانه وتعالى القاضى العدل الذى لا يحتاج إلى بيّنة ولا شهود ، ولا يقدر أحد أنْ يُعمِّى عليه أو يخدعه ، وهو سبحانه صاحب كل السلطات ، فلا يحتاج إلى قوة أخرى تنفذ ما حكم به ، فكل حيثيات الأمور موكولة إليه سبحانه .

وقد حدث هذا فعلاً فى قضاء قضاه النبى ﷺ ، وهل القضاة أفضل من رسول الله ؟!

ففى الحديث الشريف : « إنما أنا بشر مثلكم ، وإنكم تختصمون إلىَّ ، ولعل أحدكم أن يكون ألحن[1] بحجته فأقضى له ، فمَنْ قضيت له من حق أخيه شيئاً ، فلا يأخذه ؛ فإنما أقطع له قطعة من النار »[2].

فردَّ ﷺ الحكم إلى ذات المحكوم له ، ونصحه أنْ يراجعَ نفسه وينظر فيما يستحق ، فالرسول ﷺ بشر يقضى كما يقضى البشر ، ولكن إنْ عمَّيْتَ على قضاء الأرض فلن تُعمِّى على قضاء السماء .

---

(١) ألحن بحجته : أى أفطن له وأجدل . واللحن : الفطنة . [لسان العرب مادة : لحن] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧١٣) كتاب الأقضية من حديث أم سلمة رضى الله عنها .

ولذلك يقول ﷺ فيمَنْ يستفتي شخصاً فيفتيه فتوى تخالف الحق وتجانب الصواب :

« استفتِ قلبك ، وإنْ أفتوْكَ ، وإنْ أفتوْكَ ، وإنْ أفتوْكَ »[1] .

قالها ثلاثاً ليلفتنا إلى ضرورة أن يكون الإنسان واعياً مُميّزاً بقلبه بين الحلال والحرام ، وعليه أن يُراجع نفسه ويتدبر أمره .

وقوله : ﴿فِي الْكِتَابِ.. ④﴾ [الإسراء]

أى : فى التوراة ، كتابهم الذى نزل على نبيهم ، وهم محتفظون به وليس فى كتاب آخر ، فالحق سبحانه قضى عليهم . أى : حكم عليهم حُكْماً وأعلمهم به ، حيث أوحاه إلى موسى ، فبلّغهم به فى التوراة ، وأخبرهم بما سيكون منهم من ملابسات استقبال منهج الله على ألسنة الرسل ، أيُنفذونه وينصاعون له ، أم يخرجون عنه ويفسدون فى الأرض ؟

وإذا كان رسولهم - عليه السلام - قد أخبرهم بما سيحدث منهم ، وقد حدث منهم فعلاً ما أخبرهم به الرسول وهم مختارون ، فكان عليهم أنْ يخجلوا من ربهم عز وجل ، ولا يتمادوا فى تصادمهم بمنهج الله وخروجهم عن تعاليمه ، وكان عليهم أن يصدقوا رسولهم فيما أخبرهم به ، وأنْ يُطيعوا أمره .

---

(١) عن وابصة بن معبد أن رسول الله ﷺ قال له : يا وابصة ، استفت نفسك . البر ما اطمأن إليه القلب ، واطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك فى القلب وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك . أخرجه أحمد فى المسند (٤/٢٢٨) والدارمى فى سننه (٢/٢٤٦) .

وقوله تعالى :

﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ..④ ﴾ [الإسراء]

جاءتْ هذه العبارة هكذا مُؤكّدة باللام ، وهذا يعنى أن فى الآية قَسَماً دَلَّ عليه جوابه ، فكأن الحق سبحانه يقول : ونفسى لتفسدن فى الأرض ، لأن القسَم لا يكون إلا بالله .

أو نقول : إن المعنى : ما دُمْنا قد قضينا وحكمنا حُكْماً مُؤكّداً ، لا يستطيع أحد الفكَاك منه ، ففى هذا معنى القسَم ، وتكون هذه العبارة جواباً لـ « قضينا » ؛ لأن القسَم يجىء للتأكيد ، والتأكيد حاصل فى قوله تعالى :

﴿ وَقَضَيْنَا ..④ ﴾ [الإسراء]

فما هو الإفساد ؟

الإفساد : أن تعمد إلى الصالح فى ذاته فتُخرجه عن صلاحه ، فكُلُّ شىء فى الكون خلقه الله تعالى لغاية ، فإذا تركتَه ليؤدىَ غايته فقد أبقيته على صلاحه ، وإذا أخللْتَ به يفقد صلاحه ومهمته ، والغاية التى خلقه الله من أجلها .

والحق سبحانه وتعالى قبل أنْ يخلقنا على هذه الأرض خلق لنا مُقوِّمات حياتنا فى السماء والأرض والشمس والهواء .. إلخ وليس مقومات حياتنا فحسب ، بل وأعدَّ لنا فى كَوْنه ما يُمكِّن الإنسان بعقله وطاقته أن يَزيدَ الصالح صلاحاً ، فعلى الأقل إنْ لم تستطع أن تزيد الصالح صلاحاً فأبْقِ الصالح على صلاحه .

فمثلاً ، عندك بئر محفورة تخرج لك الماء ، فإما أنْ تحتفظَ بها على حالها فلا تطمسها ، وإما أنْ تزيدَ في صلاحها بأنْ تبنيَ حولها ما يحميها من زحف الرمال ، أو تجعل فيها آلة رفع للماء تضخُّه في مواسير لتسهّل على الناس استعماله ، وغير ذلك من أوْجُه الصلاح .

ولذلك الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. (٦١) ﴾ [هود]

أي : أنشأكم من الأرض ، وجعل لكم فيها مُقوّمات حياتكم ، فإنْ أحببتَ أنْ تُثرى حياتك فاعملْ عقلك المخلوق لله ليفكر ، والطاقة المخلوقة في أجهزتك لتعمل في المادة المخلوقة لله في الكون ، فأنت لا تأتي بشيء من عندك ، فقط تُعمِل عقلك وتستغل الطاقة المخلوقة لله ، وتتفاعل مع الأرض المخلوقة لله ، فتعطيك كل ما تتطلع إليه وكل ما يُثرِي حياتك ، ويُوفّر لك الرفاهية والترقي .

فالذين اخترعوا لنا صهاريج المياه أعملُوا عقولهم ، وزادوا الصالح صلاحاً ، وكم فيها من ميْزات وفّرت علينا عناء رفع المياه إلى الأدوار العليا ، وقد استنبط هؤلاء فكرة الصهاريج من ظواهر الكون ، حينما رأوا السيل ينحدر من أعلى الجبال إلى أسفل الوديان ، فأخذوا هذه الفكرة ، وأفلحوا في عمل يخدم البشرية .

وكما يكون الإفساد في الماديات كمَنْ أفسدوا علينا الماء والهواء بالملوّثات ، كذلك يكون في المعنويات ، فالمنهج الإلهي الذي أنزله الله تعالى لهداية الخلق وألزمنا بتنفيذه ، فكوْنك لا تنفذ هذا المنهج ، أو تكتمه ، أو تُحرّف فيه ، فهذا كله إفساد لمنهج الله تعالى .

ويقول تعالى لبنى إسرائيل :

﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ..④ ﴾ [الإسراء]

وهل أفسد بنو إسرائيل فى الأرض مرتين فقط ؟

والله إنْ كانوا كذلك فقد خلاهم ذم ، والأمر إذن هَيِّن ، لكنهم أفسدوا فى الأرض إفساداً كثيراً متعدداً ، فلماذا قال تعالى : مرتين ؟

تحدّث العلماء كثيراً عن هاتين المرتين[1] ، وفى أىّ فترات التاريخ حدثتا ، وذهبوا إلى أنهما قبل الإسلام ، والمتأمل لسورة الإسراء يجدها قد ربطتهم بالإسلام ، فيبدو أن المراد بالمرتين أحداثٌ حدثتْ منهم فى حضْن الإسلام .

فالحق سبحانه وتعالى بعد أن ذكر الإسراء ذكر قصة بنى إسرائيل ، فدلّ ذلك على أن الإسلام تعدّى إلى مناطق مُقدّساتهم ، فأصبح بيت المقدس قِبْلة للمسلمين ، ثم أُسْرِى برسول الله ﷺ إليه ، وبذلك دخل فى حَوْزة الإسلام ؛ لأنه جاء مهيمناً على الأديان السابقة ، وجاء للناس كافة .

إذن : كان من الأوْلى أن يُفسِّروا هاتين المرتين على أنهما فى

---

(١) ذكر السيوطى فى الدر المنثور (٥/٢٣٩) آثاراً فى تفسير هذه الآية ، فقال :
- أخرج ابن عساكر فى تاريخه عن على بن أبى طالب قال : الأولى : قتل زكريا عليه الصلاة والسلام . والأخرى : قتل يحيى عليه السلام .
- وأخرج ابن أبى حاتم عن عطية العوفى قال : أفسدوا المرة الأولى ، فبعث الله عليهم جالوت فقتلهم ، وأفسدوا المرة الثانية ، فقتلوا يحيى بن زكريا فبعث الله عليهم بختنصر .

حضن الإسلام ؛ لأنهم أفسدوا كثيراً قبل الإسلام ، ولا دَخْلَ للإسلام فى إفسادهم السابق ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) ﴾ [الإسراء]

فإنْ كان الفساد مُطْلقاً . أى : قبل أن يأتى الإسلام فقد تعدَّد فسادهم ، وهل هناك أكثر من قولهم بعد أن جاوز بهم البحر فرأوا جماعة يعكفون على عبادة العجل ، فقالوا لموسى ـ عليه السلام :

﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ (١٣٨) ﴾ [الأعراف]

هل هناك فساد أكثر من أنْ قتلوا الأنبياء الذين جعلهم الله مُثُلاً تكوينية وأسْوة سلوكية ، وحرّفوا كتاب الله ؟

والناظر فى تحريف بنى إسرائيل للتوراة يجد أنهم حرَّفوها من وجوه كثيرة وتحريفات متعددة ، فمن التوراة ما نسوه ، كما قال تعالى :

﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ .. (١٣) ﴾ [المائدة]

والذى لم ينسَوْهُ لم يتركوه على حاله ، بل كتموا بعضه ، والذى لم يكتموه لم يتركوه على حاله ، بل حرَّفوه ، كما قال تعالى :

﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ .. (١٣) ﴾ [المائدة]

ولم يقف الأمر بهم عند هذا النسيان والكتمان والتحريف ، بل تعدَّى إلى أن أتَوا بكلام من عند أنفسهم ، وقالوا هو من عند الله ، قال تعالى :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً .. (٧٩) ﴾ [البقرة]

فهل هناك إفساد فى منهج الله أعظم من هذا الإفساد ؟

ومن العلماء مَنْ يرى أن الفساد الأول ما حدث فى قصة طالوت وجالوت فى قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ[1] لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا .. (٢٤٦) ﴾ [البقرة]

فقد طلبوا القتال بأنفسهم وارتضَوْه وحكموا به ، ومع ذلك حينما جاء القتال تنصلُّوا منه ولم يقاتلوا .

ويرون أن الفساد الثانى قد حدث بعد أن قويَتْ دولتهم ، واتسعتْ رقعتها من الشمال إلى الجنوب ، فأغار عليهم بختنصَّر وهزمهم ، وفعل بهم ما فعل .

وهذه التفسيراتُ على أن الفسادين سابقان للإسلام ، والأَوْلى أن

---

(١) اختُلف فى تحديد من هو هذا النبى على أقوال منها :
- إنه يوشع بن نون . قاله قتادة .
- إنه شمعون . قاله السدى .
- إنه شمويل ، قاله مجاهد ووهب بن منبه . ذكره ابن كثير فى التفسير (١/ ٣٠٠) .
يقول فضيلة الشيخ الشعراوى - رحمه الله - فى تفسير هذه الآية (٢/ ١٠٥٦) : « لا يعنينا ذلك ، لأن القرآن لا يذكر فى أى عهد كانوا ، المهم أنهم كانوا بعد موسى عليه السلام » .

نقول : إنهما بعد الإسلام ، وسوف نجد في هذا رَبْطاً لقصة بني إسرائيل بسورة الإسراء .

كيف ذلك ؟

قالوا : لأن الإسلام حينما جاء كان يستشهد بأهل الكتاب على صدق محمد ﷺ ، ونفس أهل الكتاب كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، فكان أهل الكتاب إذا جادلوا الكفار والمشركين في المدينة كانوا يقولون لهم : لقد أظلَّ زمان نبي يأتي فنتبعه ، ونقتلكم به قتل عاد وإرم[1] .

لذلك يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ : إنهم ينكرون عليك أن الله يشهد ومَنْ عنده علم الكتاب ، فمَنْ عنده علم الكتاب منهم يعرف بمجيئك ، وأنك صادق ، ويعرف علامتك ، بدليل أن الصادقين منهم آمنوا بمحمد ﷺ .

ويقول أحدهم[2] : لقد عرفته حين رأيته كمعرفتي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشد ، لأنه قد يشك في نسبة ولده إليه ، ولكنه لا يشك في شخصية الرسول ﷺ لمَا قرأه في كتبهم ، وما يعلمه من أوصافه ، لأنه ﷺ موصوف في كتبهم ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

إذن : كانوا يستفتحون برسول الله على الذين كفروا ، وكانوا

---

(١) قال تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾ [البقرة] .

(٢) هو : عبد الله بن سلام . قال له عمر : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر . ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ١٩٤) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (١/ ٣٥٧) للثعلبي من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن ابن عباس .

مستشرفين لمجيئه ، وعندهم مُقدّمات لبعثته ﷺ .

ومع ذلك :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩) ﴾ [البقرة]

فلما كفروا به ، ماذا كان موقفه ﷺ بعد أن هاجر إلى المدينة ؟

فى المدينة أبرم رسول الله ﷺ معهم معاهدة يتعايشون بموجبها ، ووفّى لهم رسول الله ما وفّوا ، فلما غدروا هم ، واعتدوا على حرمات المسلمين وأعراضهم ، جاس[1] رسول الله ﷺ خلال ديارهم ، وقتل منهم مَنْ قَتل ، وأجلاهم عن المدينة إلى الشام وإلى خيبر ؛ وكان هذا بأمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ، فقال تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الأَبْصَارِ (٢) ﴾ [الحشر]

وهذا هو الفساد الأول الذى حدث من يهود بنى النضير ، وبنى قَيْنقاع ، وبنى قريظة ، الذين خانوا العهد مع رسول الله ، بعد أن كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، ونصُّ الآية القادمة يُؤيّد ما نذهب إليه من أن الإفسادتين كانتا بعد الإسلام .

---

(١) جاسوا : ذهبوا وجاءوا فى الأرض . وفى الصحاح : جاسوا خلال الديار أى : فطافوا فى خلال الديار ينظرون هل بقى أحد لم يقتلوه . [لسان العرب ـ مادة : جوس] .

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾

معلوم أن (إذَا) ظرف لما يستقبل من الزمان ، كما تقول : إذا جاء فلان أكرمته ، فهذا دليل على أن أولى الإفسادتين لم تحدث بعد ، فلا يستقيم القول بأن الفساد الأول جاء فى قصة طالوت وجالوت ، وأن الإفساد الثانى جاء فى قصة بختنصر .

وقوله : ﴿ وَعْد ﴾ . والوعد كذلك لا يكون بشىء مضى ، وإنما بشىء مستقبل . و ﴿ أُولاَهُمَا ﴾ أى : الإفساد الأول .

وقوله : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا .. ﴿٥﴾ ﴾ [الإسراء]

وفى هذه العبارة دليل آخر على أن الإفسادتين كانتا فى حضن الإسلام ؛ لأن كلمة (عِبَاداً) لا تطلق إلا على المؤمنين ، أما جالوت الذى قتله طالوت ، وبختنصر فهما كافران .

وقد تحدّث العلماء فى قوله تعالى : ﴿ عِبَاداً لَّنَا .. ﴿٥﴾ ﴾ [الإسراء]

فمنهم مَنْ رأى أن العباد والعبيد سواء ، وأن قوله (عِبَاداً) تُقَال للمؤمن وللكافر ، وأتوا بالأدلة التى تؤيد رأيهم حَسْب زعمهم .

ومن أدلتهم قول الحق سبحانه وتعالى فى قصة عيسى عليه السلام : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن

كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

والشاهد في قوله تعالى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ .. (١١٨) ﴾ [المائدة]

فأطلق كلمة « عبادى » على الكافرين ، وعلى هذا القول لا مانع أن يكون جالوت وبختنصر ، وهما كافران قد سُلِّطا على بنى إسرائيل .

ثم استدلوا بآية أخرى تحكى موقفاً من مواقف يوم القيامة ، يقول تعالى للشركاء الذين اتخذوهم من دون الله : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـٰؤُلاءِ .. (١٧) ﴾ [الفرقان]

فأطلق كلمة (عباد) على الكافرين أيضاً .

إذن : قوله تعالى : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا .. (٥) ﴾ [الإسراء]

ليس من الضرورى أن يكونوا مؤمنين ، فقد يكونون من الكفار ، وهنا نستطيع أن نقول : إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن ينتقم منهم ، ويُسلِّط عليهم أمثالهم من الكفرة والظالمين ، فإذا أراد سبحانه أن ينتقم من الظالم سلّط عليه مَنْ هو أكثر منه ظلماً ، وأشدّ منه بطشاً ، كما قال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) ﴾ [الأنعام]

وإذا كان أصحاب هذا الرأى لديهم من الأدلة ما يثبت أن كلمة

عباد تُطلَق على المؤمنين وعلى الكافـرين ، فسوف نأتى بما يدل على أنها لا تُطلَق إلا على المؤمنين[1] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان]

إلى آخر ما ذكرت الآيات من صفـات المؤمنين الصادقين ، فأطلق عليهم « عباد الرحمن » .

دليل آخر فى قول الحق سبحانه فى نقاشه لإبليس : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحجر]

والمراد هنـا المؤمنون .. وقد قـال إبليس : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص]

إذن : هنا إشكال ، حيث أتى كُلٌّ بأدلّته وما يُؤيِّد قوله ، وللخروج من هذا الإشكال نقـول : كلمة « عـبـاد » و « عبـيد » كـلاهما جـمع ومفردهما واحد (عبد) . فما الفرق بينهما ؟

لو نظرتَ إلى الكون كلـه مؤمنه وكـافـره لوجدتهم جـمـيعـاً لهم اختيارات فى أشيـاء ، ومقهورين فى أشياء أخرى ، فهم جميـعاً عبيد

(١) قال الأزهرى : اجتمع العامـة على تفرقة ما بين عباد الله والمماليـك . فقالوا : هذا عبد من عباد الله ، وهؤلاء عـبيد مماليك . وقال الليث : يقـال للمشركين هم عبـدة الطاغوت ، ويقال للمسلمين : عباد الله يعبدون الله . [لسان العرب ـ مادة : عبد]

بهذا المعنى يستوى فى القهـر المؤمن والكافر ، إذن : كل الخَلْق عبيد فيما لا اختيارَ لهم فيه .

ثم بعد ذلك نستطيع أن نُقسِّمهم إلى قسـمين : عبيد يظلون عبيداً لا يدخلون فى مظلة العـباد ، وعبيـد تسمو بهم أعـمالهم وانصيـاعهم لأمر الله فيدخلون فى مظلة عباد الله . كيف ذلك ؟

لقد جعل الله تـعالى لك فى أفعالك منطقـة اختيار ، فجـعلك قادراً على الفـعْل ومقـابله ، وخلقك صالحـاً للإيمان وصـالحاً للكفـر ، لكنه سبحانه وتعالى يأمرك بالإيمان تكليفاً .

ففى منطقة الاخـتيار هذه يتمايـز العبيد والعبـاد ، فالمؤمنون بالله يخرجون عن اختيـارهم إلى اختيار ربهم ، ويتنازلون عن مُرادهم إلى مُراد ربهم فى المباحات ، فتراهم يُنفِّذون ما أمرهم الله به ، ويجعلون الاختيار كالقهر . ولسان حالهم يقول لربهم : سمعاً وطاعة .

وهؤلاء هم العـبـاد الذين سَلَّمـوا جـميـع أمـرهم لله فى منطقـة الاختيار ، فليس لهم إرادة أمام إرادة الله عز وجل .

إذن : كلمة عباد تُطلق على مَنْ تنازل عن منطقة الاختيار ، وجعل نفسه مقهوراً لله حتى فى المباحات .

أما الكفـار الذين اختـاروا مُرادهم وتركوا مُـراد الله ، واستـعملوا اختيارهم ، ونسـوا اختيـار ربهم ، حيث خَيَّرهم : تُؤمن أو تكفر قال : أكفر ، تشرب الخمر أو لا تشرب قال : أشرب ، تسرق أو لا تسرق ، قال : أسرق . وهؤلاء هم العبيـد ، ولا يقال لهم « عباد » أبداً ؛ لأنهم لا يستحقون شرف هذه الكلمة .

ولكى نستكمل حَلَّ ما أشكل فى هذه المسألة لابُدَّ لنا أن نعلم أن منطقة الاختيار هذه لا تكون إلا فى الدنيا فى دار التكليف ؛ لأنها محل الاختيار ، وفيها نستطيع أن نُميِّز بين العباد الذين انصاعوا لربهم وخرجوا عن مرادهم لمراده سبحانه ، وبين العبيد الذين تمرَّدوا واختاروا غير مراد الله عز وجل فى الاختياريات ، أما فى القهريات فلا يستطيعون الخروج عنها .

فإذا جاءت الآخرة فلا محلَّ للاختيار والتكليف ، فالجميع مقهور لله تعالى ، ولا مجالَ فيها للتقسيم السابق ، بل الجميع عبيد وعباد فى الوقت ذاته .

إذن : نستطيع أن نقول : إن الكل عباد فى الآخرة ، وليس الكل عباداً فى الدنيا . وعلى هذا نستطيع فَهْم معنى (عباد) فى الآيتين :

﴿ إن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ .. (١١٨) ﴾ [المائدة]

وقوله : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰؤُلاءِ .. (١٧) ﴾ [الفرقان]

فسمَّاهم الحق سبحانه عباداً ؛ لأنه لم يَعُدْ لهم اختيار يتمردون فيه ، فاستوَوْا مع المؤمنين فى عدم الاختيار مع مرادات الله عز وجل .

إذن : فقول الحق سبحانه : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا .. (٥) ﴾ [الإسراء]

المقصود بها الإفساد الأول الذى حدث من اليهود فى ظلِّ الإسلام ، حيث نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ ، والعباد هم رسول الله والذين آمنوا معه عندما جَاسُوا خلال ديارهم ، وأخرجوهم من المدينة وقتلوا منهم مَنْ قتلوه ، وسَبَوْا مَنْ سَبَوْه .

وقوله : ﴿ أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ .. (٥) ﴾ [الإسراء]

أى : قوة ومنَعة ، وهذه كانت حال المؤمنين فى المدينة ، بعد أن أصبحت لهم دولة وشوكة يواجهون بها أهل الباطل ، وليس حال ضعفهم فى مكة .

وقوله سبحانه :﴿ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ .. (٥) ﴾ [الإسراء]

جاسُوا من جاسَ أى : بحث واستقصى المكان ، وطلب مَنْ فيه ، وهذا المعنى هو الذى يُسمّيه رجال الأمن « تمشيط المكان » .

وهو اصطلاح يعنى دِقّة البحث عن المجرمين فى هذا المكان ، وفيه تشبيه لتمشيط الشعر ، حيث يتخلل المشط جميع الشعر ، وفى هذا ما يدل على دِقّة البحث ، فقد يتخلل المشط تخلُّلاً سطحياً ، وقد يتخلل بعمق حتى يصل إلى البشرة فيخرج ما لصق بها .

إذن : جاسُوا أى : تتبعوهم تتبعاً بحيث لا يخفى عليهم أحد منهم ، وهذا ما حدث مع يهود المدينة : بنى قينقاع ، وبنى قريظة ، وبنى النضير ، ويهود خيبر .

ونلاحظ هنا أن القرآن آثر التعبير بقوله : ﴿ بَعَثْنَا ..(٥) ﴾ [الإسراء]

والبعث يدل على الخير والرحمة ، فرسول الله ﷺ لم يكن فى حال اعتداء ، بل فى حالة دفاع عن الإسلام أمام مَنْ خانوا العهد ونقضوا الميثاق .

وكلمة : ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ [الإسراء] تفيد العلو والسيطرة .

وقوله : ﴿ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً (٥) ﴾ [الإسراء]

أى : وَعْد صدق لابد أن يتحقق ؛ لأنه وعد من قادر على الإنفاذ ، ولا توجد قوة تحول بينه وبين إنفاذ ما وعد به ، وإياك أن تظن أنه كأى وَعْد يمكن أنْ يَفِى به صاحبه أو لا يفى به ؛ لأن الإنسان إذا وعد وَعْداً : سألقاك غداً مثلاً .

فهذا الوعد يحتاج فى تحقيقه أن يكون لك قدرة على بقاء طاقة الإنفاذ ، لكن قد يطرأ عليك من العوارض ما يحول بينك وبين إنفاذ ما وعدت به ، إنما إذا كان الوعد ممَّنْ يقدر على الإنفاذ ، ولا تجرى عليه مِثْل هذه العوارض ، فوعْدُه مُتحقِّق النفاذ .

فإذا قال قائل : الوعد لا تُقال إلا فى الخير ، فكيف سَمَّى القرآن هذه الأحداث :﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ..(٥) ﴾ [الإسراء]

قالوا : الوعيد يُطلَق على الشر ، والوعد يُطلَق على الخير وعلى الشر ، ذلك لأن الشيء قد يكون شراً فى ظاهره ، وهو خير فى باطنه ، وفى هذا الموقف الذى نحن بصدده ، إذا أراد الحق سبحانه أنْ يُؤدِّبَ هؤلاء الذين انحرفوا عن منهجه ، فقد نرى أن هذا شر فى ظاهره ، لكنه فى الحقيقة خير بالنسبة لهم ، إنْ حاولوا هم الاستفادة منه .

ونضرب لذلك مثلاً بالولد الذى يعاقبه والده على إهماله أو تقصيره ، فيقسو عليه حِرْصاً على ما يُصلحه ، وصدق الشاعر حين قال :

فَقَسَا لِيزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِماً   فَلْيَقْسُ أَحْيَاناً على مَنْ يَرْحَمُ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ ﴾

الخطاب فى هذه الآية مُوجَّه لبنى إسرائيل ، والآية تمثل نقطة تحوُّل وانقلاب للأوضاع ، فبعد ما تحدثنا عنه من غلبة المسلمين ، وأن الله سلّطهم لتأديب بنى إسرائيل ، نرى هنا أن هذا الوضع لم يستمر ؛ لأن المسلمين تخلَّوْا عن منهج الله الذى ارتفعوا به ، وتَنصَّلوا من كَوْنهم عباداً لله ، فدارت عليهم الدائرة ، وتسلّط عليهم اليهود ، وتبادلوا الدور معهم ؛ لأن اليهود أفاقوا لأنفسهم بعد أن أدبهم رسول الله والمسلمون فى المدينة ، فأخذوا ينظرون فى حالهم وما وقعوا فيه من مخالفات .

ولا بُدّ أنه قد حدث منهم شبه استقامة على منهج الله ، أو على الأقل حدث من المسلمين انصراف عن المنهج وتنكُّب للطريق المستقيم ، فانحلّتْ الأمور الإيمانية فى نفوس المسلمين ، وانقسموا دُولاً ، لكل منها جغرافيا ، ولكل منها نظام حاكم ينتسب إلى الإسلام ، فانحلّتْ عنهم صِفَة عباد الله .

فبعد قوتهم واستقامتهم على منهج الله ، وبعد أن استحقوا أن يكونوا عباداً لله بحق تراجعت كفتهم وتخلَّوْا عن منهج ربهم ، وتحاكموا إلى قوانين وضعية ، فسلَّط عليهم عدوهم ليؤدّبهم ، فأصبحتْ الغلبة لليهود ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الإسراء]

و ﴿ ثُمَّ ﴾ حرف عطف يفيد الترتيب مع التراخى ، على خلاف الفاء مثلاً التى تفيد الترتيب مع التعقيب ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس]

فلم يَقُل الحق سبحانه : فرددنا ، بل ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا ﴾ . ذلك لأن بين الكَرَّة الأولى التى كانت للمسلمين فى عهد رسول الله ، وبين هذه الكَرَّة التى كانت لليهود وقتاً طويلاً .

فلم يحدث بيننا وبينهم حروب لعدة قرون ، منذ عصر الرسول إلى أن حدث وَعْد بلفور ، الذى أعطى لهم الحق فى قيام دولتهم فى فلسطين ، وكانت الكَرَّة لهم علينا فى عام ١٩٦٧ ، فناسب العطف بـ « ثم » التى تفيد التراخى .

والحق سبحانه يقول : ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ .. ﴿٦﴾﴾ [الإسراء]

أى : جعلنا لبنى إسرائيل الغَلَبَة والقوة والنصر على المسلمين وسلّطناهم عليهم ؛ لأنهم تخلوْا عن منهج ربهم ، وتنازلوا عن الشروط التى جعلتْهم عباداً لله .

و (الكَرَّة) أى : الغلبة من الكَرِّ والفَرِّ الذى يقوم به الجندى فى القتال ، حيث يُقدم مرة ، ويتراجع أخرى .

وقوله تعالى : ﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴿٦﴾﴾ [الإسراء]

وفعلاً أمدّهم الله بالمال حتى أصبحوا أصحاب رأس المال فى العالم كله ، وأمدّهم بالبنين الذين يُعلِّمونهم ويُثقّفونهم على أعلى المستويات ، وفى كل المجالات .

ولكن هذا كله لا يعطيهم القدرة على أن تكون لهم كَرَّة على المسلمين ، فهم فى ذاتهم ضعفاء رغم ما فى أيديهم من المال والبنين ، ولا بُدَّ لهم لكى تقوم لهم قائمة من مساندة أنصارهم وأتباعهم من الدول الأخرى ، وهذا واضح لا يحتاج إلى بيان منذ الخطوات الأولى لقيام دولتهم ووطنهم القومى المزعوم فى فلسطين ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً (٦) ﴾ [الإسراء]

فالنفير مَنْ يستنفره الإنسان لينصره ، والمراد هنا الدول الكبرى التى ساندتْ اليهود وصادمتْ المسلمين .

وما زالت الكَرَّة لهم علينا ، وسوف تظل إلى أنْ نعودَ كما كُنَّا ، عباداً لله مُسْتقيمين على منهجه ، مُحكِّمين لكتابه ، وهذا وَعْد سيتحقّق إنْ شاء الله ، كما ذكرتْ الآية التالية :

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا[(١)] مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) ﴾

وما زال الخطاب مُوجَّهاً إلى بنى إسرائيل ، هاكم سُنّة من سنن الله الكونية التى يستوى أمامها المؤمن والكافر ، وهى أن مَنْ أحسن فله إحسانه ، ومَنْ أساء فعليه إساءته .

فها هم اليهود لهم الغَلَبة بما حدث منهم من شبه استقامة على

---

(١) تبَّره : دمره وأهلكه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) ﴾ [الأعراف] متبَّرٌ : اسم مفعول أى مُدمَّر مُهْلَك . [القاموس القويم ١/٩٧] .

المنهج ، أو على الأقل بمقدار ما تراجع المسلمون عن منهج الله ؛ لأن هذه سُنّة كونية ، مَنِ استحق الغلبة فهى له ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى مُنزّه عن الظلم ، حتى مع أعداء دينه ومنهجه .

والدليل على ذلك ما أمسى فيه المسلمون بتخليهم عن منهج الله .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ .. ⑦ ﴾ [الإسراء]

فيه إشارة إلى أنهم فى شكٍّ أنْ يُحسِنوا ، وكأن أحدهم يقول للآخر : دَعْكَ من قضية الإحسان هذه .

فإذا كانت الكَرَّة الآن لليهود ، فهل ستظل لهم على طول الطريق ؟ لا .. لن تظل لهم الغَلَبة ، ولن تدوم لهم الكرّة على المسلمين ، بدليل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ .. ⑦ ﴾ [الإسراء]

أى : إذا جاء وقت الإفسادة الثانية لهم ، وقد سبق أنْ قال الحق سبحانه عنهم : ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ .. ④ ﴾ [الإسراء]

وبينّا الإفساد الأول حينما نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ فى المدينة .

وفى الآية بشارة لنا أننا سنعود إلى سالف عهدنا ، وستكون لنا يقظة وصَحْوة نعود بها إلى منهج الله وإلى طريقه المستقيم ، وعندها ستكون لنا الغَلَبة والقوة ، وستعود لنا الكَرَّة على اليهود .

وقوله تعالى : ﴿ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ .. ⑦ ﴾ [الإسراء]

أى : نُلحق بهم من الأذى ما يظهر أثره على وجوههم ؛ لأن

الوجه هـو السِّمة المـعبِّـرة عن نوازع النفس الإنسـانية ، وعليـه تبدو الانفعالات والمشاعـر ، وهو أشرف ما فى المرء ، وإساءته أبلغ أنواع الإسـاءة .

وقـوله تعـالى : ﴿ وَلِيَـدْخُلُوا الْمَـسْـجِـدَ كَـمَـا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. (٧) ﴾[الإسراء] أى : أن المسلمـين سيدخلون المسـجد الأقصى ، وسينقذونه من أيدى اليهود .

﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. (٧) ﴾ [الإسراء]

المتأمل فى هذه العبارة يجد أن دخولَ المسلمين للمسجد الأقصى أول مرة كان فى عـهد الخليفة عـمر بن الخطاب رضـى الله عنه ، ولم يكن الأقـصى وقـتهـا فى أيدى اليـهود ، بل كـان فى أيدى الرومـان المسيحيين .

فـدخـوله الأول لم يكُنْ إسـاءةً للـيـهـود ، وإنمـا كـان إسـاءة للمسيحيين ، لكن هذه الـمرة سيكون دخول الأقصى ، وهو فى حوزة اليـهـود ، وسـيكون من ضـمن الإسـاءة لوجـوهـهـم أن ندخل عليـهم المسجد الأقصى ، ونُطهِّره من رِجْسهم .

ونلحظ كـذلك فى قـوله تعـالى : ﴿ كَـمَـا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَـرَّةٍ .. (٧) ﴾ [الإسراء] أن القرآن لم يقُلْ ذلك إلا إذا كان بين الدخولين خروج .

إذن : فخروجنا الآن من المسجد الأقصى تصديق لنُبوءَة القرآن ، وكـأن الحق سبـحانه يريد أنْ يلفـتنا : إنْ أردتُمْ أنْ تدخلوا المـسـجـد الأقصى مرة أخرى ، فعودوا إلى منهج ربكم وتصالحوا معه .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ .. ۝ ﴾ [الإسراء]

كلمة الآخرة تدلُّ على أنها المرة التى لن تتكرر ، ولن يكون لليهود غَلَبة بعدها .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً ۝ ﴾ [الإسراء]

يتبروا : أى : يُهلكوا ويُدمِّروا ، ويُخرِّبوا ما أقامه اليهود وما بَنَوْهُ وشيَّدوه من مظاهر الحضارة التى نشاهدها الآن عندهم .

لكن نلاحظ أن القرآن لم يقُلْ : ما علوتُم ، إنما قال ﴿ مَا عَلَوْا ﴾ ليدل على أن ما أقاموه وما شيدوه ليس بذاتهم ، وإنما بمساعدة مَنْ وراءهم من أتباعهم وأنصارهم . فاليهود بذاتهم ضعفاء ، لا تقوم لهم قائمة ، وهذا واضح فى قَوْل الحق سبحانه عنهم :

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ ..۝ ﴾ [آل عمران]

فهم أذلاء أينما وُجدوا ، ليس لهم ذاتية إلا بعهد يعيشون فى ظلِّه ، كما كانوا فى عهد رسول الله ﷺ فى المدينة ، أو عهد من الناس الذين يدافعون عنهم ويُعاونونهم .

واليهود قوم منعزلون لهم ذاتية وهُويّة لا تذوب فى غيرهم من الأمم ، ولا ينخرطون فى البلاد التى يعيشون فيها ؛ لذلك نجد لهم فى كل بلد يعيشون به حارة تسمى « حارة اليهود » ، ولم يكن لهم ميْلٌ للبناء والتشييد ؛ لأنهم كما قال تعالى عنهم : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا ۝ ﴾ [الأعراف]

كل جماعة منهم فى أمة تعيش عيشة انعزالية ، أما الآن ، وبعد أنْ أصبح لهم وطن قومى فى فلسطين على حَدِّ زعمهم ، فنراهم يميلون للبناء والتعمير والتشييد .

ونحن الآن ننتظر وَعْد الله سبحانه ، ونعيش على أمل أن تنصلح أحوالنا ، ونعود إلى ساحة ربنا ، وعندها سينجز لنا ما وعدنا من دخول المسجد الأقصى ، وتكون لنا الكرّة الأخيرة عليهم ، سيتحقق لنا هذا عندما ندخل معهم معركة على أسس إسلامية وإيمانية ، لا على عروبة وعصبية سياسية ، لتعود لنا صِفَة العباد ، ونكون أهْلاً لِنُصْرة الله تعالى .

إذن : طالما أن الحق سبحانه قال : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ .. ۝٧ ﴾ [الإسراء]

فهو وَعْد آتٍ لا شكَّ فيه ، بدليل أن هذه العبارة جاءت بنصِّها فى آخر السورة فى قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا[1] ۝١٠٤ ﴾ [الإسراء]

والمتأمل لهذه الآية يجد بها بشارة بتحقُّق وَعْد الله ، ويجد أن ما يحدث الآن من تجميع لليهود فى أرض فلسطين آية مُرادة لله تعالى .

ومعنى الآية أننا قُلْنا لبنى إسرائيل من بعد موسى :

اسكنوا الأرض وإذا قال لك واحد : اسكُنْ فلابُدَّ أن يُحدد لك

---

(١) اللفيف : الجمع العظيم من أخلاط شتى فيهم الشريف والدنىء ، والمطيع والعاصى ، والقوى والضعيف . [لسان العرب ـ مادة : لفف] .

مكاناً من الأرض تسكن فيه فيقول لك : اسكنْ بورسعيد .. اسكن القاهرة .. اسكن الأردن .

أما أن يقول لك : اسكن الأرض !! فمعنى هذا أن الله تعالى أراد لهم أنْ يظلُّوا مبعثرين فى جميع الأنحاء ، مُفرَّقين فى كل البلاد ، كما قال عنهم : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

فتجدهم منعزلين عن الناس منبوذين بينهم ، كثيراً ما تُثار بسببهم المشاكل ، فيشكو الناس منهم ويقتلونهم ، وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ[1] سُوءَ الْعَذَابِ .. (١٦٧) ﴾ [الأعراف]

وهكذا سيظل اليهود خميرة عكننة ونكَد بين سكان الأرض إلى يوم القيامة ، وهذه الخميرة هى فى نفس الوقت عنصر إثارة وإهاجة للإيمان والخير ؛ لأن الإسلام لا يلتفت إليه أهله إلا حين يُهَاج الإسلام ، فساعة أنْ يُهَاجَ تتحرك النزعة الإيمانية وتتنبّه فى الناس .

إذن : فوجود اليهود كعنصر إثارة له حكمة ، وهى إثارة الحيوية الإيمانية فى النفوس ، فلو لم تُثَر الحيوية الإيمانية لَبهتَ الإسلام .

وهذه هى رسالة الكفر ورسالة الباطل ، فلوجودهما حكمة ؛ لأن الكفر الذى يشقى الناس به يُلفت الناس إلى الإيمان ، فلا يروْنَ راحة

(١) سامه الأمر : كلّفه إياه . وقال الزجاج : أَوْلاَه إيَّاه ، وأكثر ما يستعمل فى العذاب والشر والظلم . [لسان العرب ـ مادة : سوم] .
قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : هى الجزية ، والذى يسومهم سوء العذاب محمد رسول الله ﷺ وأمته إلى يوم القيامة . نقله ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٥٩) .

لهم إلا فى الإيمان بالله ، ولو لم يكُنْ الكفر الذى يؤذى الناس ويُقلق حياتهم ما التفتوا إلى الإيمان .

وكذلك الباطل فى الكون يعض الناس ويُزعجهم ، فيلتفتون إلى الحق ويبحثون عنه .

وبعد أن أسكنهم الله الأرض وبعثرهم فيها ، أهاج قلوب أتباعهم من جنود الباطل ، فأوحَوْا إليهم بفكرة الوطن القومى ، وزيَّنُوا لهم أولى خطوات نهايتهم ، فكان أن اختاروا لهم فلسطين ليتخذوا منها وطناً يتجمعون فيه من شتى البلاد .

وقد يرى البعض أن فى قيام دولة إسرائيل وتجمّع اليهود بها نكايةً فى الإسلام والمسلمين ، ولكن الحقيقة غير هذا ، فالحق سبحانه وتعالى حين يريد أن نضربهم الضربة الإيمانية من جنود موصوفين بأنهم : ﴿عِبَادًا لَّنَا .. ۝٥﴾ [الإسراء]

يلفتنا إلى أن هذه الضربة لا تكون وهم مُفرّقون مُبعْثرون فى كل أنحاء العالم ، فلن نحارب فى العالم كله ، ولن نرسل عليهم كتيبة إلى كل بلد لهم فيها حارة أو حى ، فكيف لنا أن نتتبعهم وهم مبعثرون ، فى كل بلد شِرْذمة منهم ؟

إذن : ففكرة التجمُّع والوطن القومى التى نادى بها بلفور وأيَّدتْها الدول الكبرى المساندة لليهود والمعادية للإسلام ، هذه الفكرة فى الحقيقة تمثل خدمة لقضية الإسلام ، وتُسهِّل علينا تتبعهم وتُمكّننا من القضاء عليهم ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ۝١٠٤﴾ [الإسراء]

أى : أتينا بكم جميعاً ، نضمُّ بعضكم إلى بعض ، فهذه إذن بُشرى لنا معشر المسلمين بأن الكَرَّة ستعود لنا ، وأن الغلبة ستكون فى النهاية للإسلام والمسلمين ، وليس بيننا وبين هذا الوعد إلا أن نعود إلى الله ، ونتجه إليه كما قال سبحانه : ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا[1] تَضَرَّعُوا .. (٤٣) ﴾ [الأنعام]

والمراد بقوله هنا : ﴿ وَعْدُ الآخِرَةِ .. (٧) ﴾ [الإسراء]

هو الوعد الذى قال الله عنه : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. (٧) ﴾ [الإسراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا[2] (٨) ﴾

و (عَسَى) حَرْف يدلّ على الرجاء ، وكأن فى الآية إشارةً إلى أنهم سيظلون فى مذلّة ومَسْكنة ، ولن ترتفع لهم رأس إلا فى ظلِّ حبل من الله وعَهْد منه ، وحبل من الناس الذين يُعاهدونهم على النُّصْرة والتأييد والحماية .

وقوله : ﴿ رَبُّكُمْ .. (٨) ﴾ [الإسراء]

---

(١) البأس : الشدة والقوة . ويقول تعالى : ﴿ وَحِينَ الْبَأْسِ (١٧٧) ﴾ [البقرة] أى : وقت الحرب الشديدة . [القاموس القويم ١/٥٢] .

(٢) حصيراً : مَحْبساً ومَحْصراً ، وأصل الحصر والإحصار : المنع . [لسان العرب ـ مادة : حصر] . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٦) : « حصيراً أى : مستقراً ومحصراً وسجناً لا محيد لهم عنه » .

انظر فيه إلى العظمة الإلهية ، ورحمة الرب سبحانه الذى ما يزال يخاطب الكافرين الملحدين المعاندين لرسوله ، وهو آخر رسول يأتى من السماء ، ومع ذلك كله يخاطبهم بقوله : ﴿ رَبُّكُمْ .. ⑧ ﴾ [الإسراء]

لأن الربّ هو المتولّى للتربية والمتكفّل بضمان مُقوّمات الحياة ، لا يضنّ بها حتى وإنْ كان العبد كافراً ، فالكلُّ أمام عطاء الربوبية سواء : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى .

الجميع يتمتع بنِعَم الله : الشمس والهواء والطعام والشراب ، فهو سبحانه لا يزال ربَّهم مع كل ما حدث منهم .

وقوله تعالى : ﴿ أَن يَرْحَمَكُمْ .. ⑧ ﴾ [الإسراء]

والرحمة تكون للإنسان إذا كان فى موقف يستحق فيه الرحمة ، واليهود لن تكون لهم دولة ، ولن يكون لهم كيان ، بل يعيشون فى حضْن الرحمة الإيمانية الإسلامية التى تُعطى لهم فرصة التعايش مع الإسلام معايشة ، كالتى كانت لهم فى مدينة رسول الله ، يوم أن أكرمهم وتعاهد معهم .

وقد وصلتْ هذه المعايشة لدرجة أن النبى ﷺ كان إذا أراد أنْ يقترضَ لا يقترض من مسلم ، بل كان يقترض من اليهود ، وفى هذا حكمة يجب أنْ نعيها ، وهى أن المسلم قد يستحى أن يطالب رسول الله إذا نسى مثلاً ، أما اليهودى فسوف يُلِحّ فى طلب حقِّه وإذا نسى رسول الله سَيُذكّره .

لذلك كان اليهود كثيراً ما يجادلون رسول الله ﷺ ويُغالطونه مِراراً ، وقد حدث أن وفَّى رسول الله لأحدهم دَيْنه ، لكنه أنكره وأتى

يطالب به من جديد ، وأخذ يراجع رسـول الله ويغالطه وينكر ويقول : ابْغِنى شاهداً .

ولم يكن لرسول الله شاهد وقت السداد ، وهكذا تأزّم الموقف فى حضور أحد الصحابة ، واسمه خزيمة ، فهَبَّ خزيمة قائلاً : أنا يا رسول الله كنت شاهداً ، وقد أخذ هذا اليهودى دَيْنه ، فسكت اليهودى ولم يرد ولم يجادل ، فَدل ذلك على كذبه . ويكاد المريب أن يقول : خذونى .

لكن رسول الله ﷺ عندما اختلى بخزيمة بعد أن انصرف الدائن قال : يا خزيمة ما حملك على هذا القول ، ولم يكن أحد معنا ، وأنا أقضى لليهودى دَيْنه ؟ فضحك خزيمة وقال : يا رسول الله أأُصدِّقُك فى خبر السماء ، وأُكذِّبك فى عِدّة دراهم ؟

فَسُرَّ رسول الله من اجتهاد الرجل ، وقال : « مَنْ شهد له خزيمة فحَسْبه »[1] .

ثم يُهدِّد الحق سبحانه بنى إسرائيل ، فيقول : ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا .. ⑧﴾ [الإسراء]

إنْ عُدتُّم للفساد ، عُدْنا ، وهذا جزاء الدنيا ، وهو لا ينجيكم من جزاء الآخرة ، فهذه مسألة وتلك أخرى حتى لا يفهموا أن العقاب على الذنوب فى الدنيا يُبرّئهم من عذاب الآخرة .

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك على الصحيحين (٢/١٨) والطبرانى فى المعجم الكبير (٤/١٠١) من حديث خزيمة بن ثابت . قال الهيثمى فى المجمع (٩/٣٢٠) : « رجاله كلهم ثقات » .

فالعقوبة على الذنب التى تُبرِّىء المذنب من عذاب الآخرة ما كان فى حضْن الإسلام ، وإلاَّ لاَستْوى مَنْ أقيم عليه الحدّ مع مَنْ لم يُقمْ عليه الحد .

فلو سرق إنسان وقُطعَتْ يده ، وسرق آخر ولم تُقطع يده ، فلو استَووْا فى عقوبة الآخرة ، فقد زاد أحدهما عن الآخر فى العقوبة ، وكيف يستوى الذى قُطِعَتْ يده . وعاش بِذلّتها طوال عمره مع مَنْ أفلت من العقوبة ؟

هذا إنْ كان المذنب مؤمناً .

أما إذا كان المذنب غير مؤمن فالأصل الذى بنينا عليه هذا الحكم ضائع لا وجودَ له ، وعقوبة الدنيا هنا لا تُعفى صاحبها من عقوبة الآخرة ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ⑧﴾ [الإسراء]

﴿ جَعَلْنَا ﴾ فعْل يفيد التحويل ، كأن تقول : جعلت العجين خبزاً ، وجعلت القطن ثوباً ، أى : صيَّرْتُه وحوَّلْتُه . فماذا كانت جهنم أولاً فيُحوّلها الحق سبحانه حصيراً ؟

قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا ﴾ فى هذه الآية لا تفيد التحويل ، إنما هى بمعنى خلَقْنا ، أى : خلقناها هكذا ، كما نقول : سبحان الذى جعل اللبن أبيض ، فاللبن لم يكن له لون آخر فحوَّله الله تعالى إلى البياض ، بل خلقه هكذا بداية .

ومعنى : ﴿حَصِيراً.. ⑧﴾ [الإسراء]

الحصير فراش معروف يُصنع من القَشّ أو من نبات يُسمى

السَّمُر ، والآن يصنعونه من خيوط البلاستيك ، وسُمِّى حصيراً ، لأن كلمة حصير مأخوذة من الحَصْر ، وهو التضييق فى المكان للمكين ، وفى صناعة الحصير يضمُّون الأعواد بعضها إلى بعض إلى أنْ تتماسكَ ، ولا توجد مسافة بين العود والآخر .

لكن لماذا نفرش الحصير ؟ نفرش الحصير ؛ لأنه يحبس عنّا القذَر والأوساخ ، فلا تصيب ثيابنا . إذن : الحصر معناه المنع والحبس والتضييق .

والمتتبع لمادة (حصر) فى القرآن الكريم يجدها بهذه المعانى ، يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ[1] الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ .. (٥) ﴾ [التوبة] أى : ضيِّقوا عليهم .

وقال تعالى فى فريضة الحج : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ .. (١٩٦) ﴾ [البقرة] أى : حُبِسْتم ومُنِعْتم من أداء الفريضة .

إذنْ : فقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨) ﴾ [الإسراء]

أى : تحبسهم فيها وتحصرهم ، وتمنعهم الخروج منها ، فهى لهم سجن لا يستطيعون الفرار منه ؛ لأنها تحيط بهم من كل ناحية ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا[2] .. (٢٩) ﴾ [الكهف]

---

(١) انسلخ الشهر : انقضى وانتهى . [القاموس القويم ١/٣٢٢] .

(٢) قال ابن الأعرابى : سرادقها : سورها . وعن ابن عباس : حائط من نار . وقال الكلبى : عنق تخرج من النار فتحيط بالكفار كالحظيرة ، وخرَّج ابن المبارك من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : « لسرادق النار أربع جُدُر ، كُثْف كل جدار مسيرة أربعين سنة » قال القرطبى فى تفسيره (٥/٤١٢٤): « وهذا يدل على أن السرادق ما يعلو الكفار من دخان أو نار ، وجدره ما وُصف » .

فلا يستطيعون الخروج ، فإنْ حاولوا الخروج رُدُّوا إليها ، كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [السجدة]

وفى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴿٨﴾ ﴾ [الإسراء]

إشارة إلى أنهم كانوا إذا أجرموا فى الدنيا يحتمُون فى أنصارهم وأتباعهم من الأقوياء ، ويدخلون فى حضانة أهل الباطل ، أما فى الآخرة فلن يجدوا ناصراً أو مدافعاً .

يقول تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الصافات]

وبعد أن تكلّم الحق سبحانه عن الإسراء بالرسول الخاتم الرحمة ، وجَعْله آيةً أرضية يمكن إقامة الدليل عليها ، حيث خرق له الناموس فى أمور يعلمها قومه ، فإذا جاءت آية المعراج وخرقَ له الناموس فيما لا يعلمه القوم كان أدْعى إلى تصديقه .

ثم أوضح الحق سبحانه أن عبودية محمد ﷺ لربه هى التى أعطتْه هذه المنزلة ، وكذلك كان نوح ـ عليه السلام ـ عبداً شكوراً ، فهناك فَرْق بين عبودية الخَلْق للخالق ، وعبودية الخَلْق للخَلْق ؛ لأن العبودية للخَلْق مذمومة ، حيث يأخذ السيد خيْر عبده ، أما العبودية لله فالعبد يأخذ خَيْر سيده .

ثم تحدَّث الحق سبحانه عن بنى إسرائيل ، وما وقعوا فيه من إفساد فى الأرض ، فأعطانا بذلك نماذج للأعمال لمن أحسن ولمن أساء ، وكُلٌّ له عمله دون ظُلْم أو جَوْر .

لذلك ينقلنا السياق القرآنى إلى بيان المنهج الإلهى المنزّل من

السمـاء ليوضح عبودية الإنســان لربه ، وكيف يكون عبداً مُـخْلصاً لله تعالى ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾

فـمَنْ كان يريد الأُسْـوة الطيبـة فى عـبودية الرسـول لربه ، هذه العبـودية التى جعلتْه يسـرى به إلى بيت المقدس ، ثم يصـعد به إلى السمـاء ، ومَنْ كان يريد أن يكون مثل نوح فى عـبوديته لربه فـأكرم ذريتـه من أجله ، فعليـه أنْ يسيـرَ على دَرْبهم ، وأنْ يقتـدىَ بهم فى عبوديتـهم لله تعالى ، وليحذر أن يكون مثل اليهـود الذين أفسدوا فى الأرض مرتين .

والذى يرسم لنا الطريق ويُوضِّـح لنا الحق من الباطل هو القـرآن الكريم : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء]

قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء]

هل عند نزول هذه الآية كان القرآن كله قد نزل ، ليقول : إن هذا القرآن ؟

نقـول : لم يكن القـرآن كله قـد نـزل ، ولكن كل آية فى القـرآن تُسمّى قرآناً ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ﴾ [القيامة]

فليس المراد القرآن كله ، بل الآية من القرآن قرآن . ثم لما اكتمل نزول القرآن ، واكتملتْ كل المسائل التى تضـمن لنا استقامة الحياة ، قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة]

فإن استشرف مُستشرف أنْ يستزيد على كتاب الله ، أو يأتى بجديد فليعلم أن منهج الله مُنزَّه عن النقص ، وفى غنىً عن زيادتك ، وما عليك إلا أن تبحث فى كتاب الله ، وسوف تجد فيه ما تصبو إليه من الخير .

قوله : ﴿يَهْدِى .. ⁽⁹⁾﴾ [الإسراء]

الهداية هى الطريق الموصِّل للغاية من أقرب وَجْه ، وبأقل تكلفة . وهو الطريق المستقيم الذى لا التواءَ فيه ، وقلنا : إن الحق سبحانه يهدى الجميع ويرسم لهم الطريق ، فمن اهتدى زاده هُدى ، كما قال سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ⁽¹⁷⁾﴾ [محمد]

ومعنى : ﴿أَقْوَمُ .. ⁽⁹⁾﴾ [الإسراء]

أى : أكثر استقامة وسلاماً . هذه الصيغة تُسمَّى أفعل التفضيل ، إذن : فعندنا (أقوم) وعندنا أقل منه منزلة (قَيِّم) كأن نقول : عالم وأعلم .

فقوله سبحانه : ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ .. ⁽⁹⁾﴾ [الإسراء]

يدل على وجود (القيِّم) فى نُظم الناس وقوانينهم الوضعية ، فالحق سبحانه لا يحرم البشر من أن يكون لهم قوانين وشرائع حينما تعضُّهم المظالم ويشقُّون بها ، فيُقنّنون تقنينات تمنع هذا الظلم .

ولا مانع من ذلك إذا لم ينزل لهم منهج من السماء ، فما وضعوه وإنْ كان قَيِّماً فما وضعه الله أقوم ، وأنت لا تضع القيم إلا بعد أنْ

تُعضٌ بشيء مُعوج غير قيّم ، وإلا فماذا يلفتُك للقيم ؟

أما منهج السماء فإنه يضع الوقاية ، ويمنع المرض من أساسه ، فهناك فَرْق بين الوقاية من المرض وبين العلاج للمرض ، فأصحاب القوانين الوضعية يُعدّلون نُظمهم لعلاج الأمراض التي يَشْقَون بها .

أما الإسلام فيضع لنا الوقاية ، فإن حَدثتْ غفلة من المسلمين ، وأصابتهم بعض الداءات نتيجة انصرافهم عن منهج ربهم نقول لهم : عودوا إلى المنهج : ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِيَ أَقْوَمُ..(٩)﴾ [الإسراء]

ولتوضيح أن منهج الحق سبحانه أقوم نروى ما حدث معنا فى مدينة « سان فرانسيسكو » فقد سألنا أحدُ المستشرقين عن قول الحق تبارك وتعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢)﴾ [التوبة]

وفى آية أخرى يقول : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾ [التوبة]

فكيف يقول القرآن : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ..(٣٣)﴾ [التوبة]

فى حين أن الإسلام محصور ، وتظهر عليه الديانات الأخرى ؟

فقلتُ له : لو تأملتَ الآية لوجدتَ فيها الردّ على سؤالك ، فالحق سبحانه يقول : ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢)﴾ [التوبة]

ويقول : ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾ [التوبة]

إذن : فالكافرون والمشركون موجودون ، فالظهور هنا ليس ظهور

اتّباع ، ولم يقُل القرآن : إن الناس جميعاً سيؤمنون .

ومعنى الظهور هنا ظهور حُجّة وظهور حاجة ، ظهور نظم وقوانين ، ستضطرهم أحداث الحياة ومشاكلها إلى التخلّى عن قوانينهم والأخذ بقوانين الإسلام ؛ لأنهم وجدوا فيها ضالّتهم .

فنظام الطلاق فى الإسلام الذى كثيراً ما هاجموه وانتقدوه ، ورأوا فيه ما لا يليق بالعلاقة الزوجية ، ولكن بمرور الزمن تكشفت لهم حقائق مؤلمة ، وشقى الكثيرون منهم لعدم وجود هذا الحل فى قوانينهم ، وهكذا ألجأتهم مشاكل الحياة الزوجية لأنْ يُقنِّنوا للطلاق .

ومعلوم أن تقنينهم للطلاق ليس حُباً فى الإسلام أو اقتناعاً به ، بل لأن لديهم مشاكل لا حَلَّ لها إلا بالطلاق ، وهذا هو الظهور المراد فى الآيتين الكريمتين ، وهو ظهور بشهادتكم أنتم ؛ لأنكم ستلجأون فى حل قضاياكم لقوانين الإسلام ، أو قريباً منها .

ومن هذه القضايا أيضاً قضية تحريم الربا فى الإسلام ، فعارضوه وأنكروا هذا التحريم ، إلى أن جاء « كنز » وهو زعيم اقتصادى عندهم ، يقول لهم : انتبهوا ، لأن المال لا يؤدى وظيفته كاملة فى الحياة إلا إذا انخفضتْ الفائدة إلى صفر .

سبحان الله ، ما أعجب لَجَج هؤلاء فى خصومتهم مع الإسلام ، وهل تحريم الربا يعنى أكثر من أن تنخفض الفائدة إلى صفر ؟ إنهم يعودون لمنهج الله تعالى رَغْماً عنهم ، ومع ذلك لا يعترفون به .

ولا يخفى ما فى التعامل الربوى من سلبيات ، وهل رأينا دولة اقترضت من أخرى ، واستطاعت على مَرّ الزمن أنْ تُسدد حتى أقساط

الفائدة ؟ ثم نراهم يغالطوننا يقولون : ألمانيا واليابان أخذت قروضاً بعد الحرب العالمية الثانية ، ومع ذلك تقدمت ونهضت .

نقول لهم : كفاكم خداعاً ، فألمانيا واليابان لم تأخذ قروضاً ، وإنما أخذت معونة لا فائدة عليها ، تسمى معونة (مارشال) .

وأيضاً من هذه القضايا التى ألجأتهم إليها مشاكل الحياة قضية ميراث المرأة ، فلما عَضَّتهم قَنَّنُوا لها .

فظهور دين الله هنا يعنى ظهورَ نُظم وقوانين ستضطرهم ظروف الحياة إلى الأخذ بها ، وليس المقصود به ظهور اتّباع .

إذن : فمنهج الله أقوم ، وقانون الحق سبحانه أعظم من قوانين البشر وأهْدى ، وفى القرآن الكريم ما يُوضّح أن حكم الله وقانونه أقوم حتى من حكم رسوله ﷺ .

وهذا فى قصة مولاه « زيد بن حارثة »[1] ، وزيد لم يكن عبداً ، إلى أن خطفه بعض تجار الرقيق وباعوه ، وانتهى به المطاف إلى السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ التى وهبتْه بدورها لخدمة رسول الله ﷺ .

فكان زيد فى خدمة رسول الله ﷺ إلى أن علم أهله بوجوده فى مكة فأتوا ليأخذوه ، فما كان من رسول الله ﷺ ، إلا أن خَيَّره بين البقاء معه وبين الذهاب إلى أهله ، فاختار زيد البقاء فى خدمة رسول

---

(١) هو : زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبى : صحابى ، اختطف فى الجاهلية صغيراً ، واشترته خديجة بنت خويلد فوهبته إلى النبى ﷺ حين تزوجها ، فتبناه وأعتقه وزوّجه بنت عمته ، جعل له الإمارة فى غزوة مؤتة فاستشهد فيها ، توفى ٨ هـ .

الله وآثره على أهله . فقال ﷺ : « فما كنت لأختار على مَن اختارنى شيئاً »[1] .

وفى هذه القصة دليل على أن الرقّ كان مباحاً فى هذا العصر ، وكان الرقّ حضانةَ حنانٍ ورحمة ، يعيش فيها العبد كما يعيش سيده ، يأكل من طعامه ، ويشرب من شرابه ، يكسوه إذا اكتسى ، ولا يُكلّفه ما لا يطيق ، وإنْ كلّفه أعانه ، فكانت يده بيده[2] .

وهكذا كانت العلاقة بين محمد ﷺ وبين زيد ؛ لذلك آثره على أهله ، وأحب البقاء فى خدمته ، فرأى رسول الله أن يُكافىء زيداً على إخلاصه له وتفضيله له على أهله ، فقال : « لا تقولوا زيد بن حارثة ، قولوا زيد بن محمد »[3] .

وكان التبنى شائعاً فى ذلك الوقت . فلما أراد الحق سبحانه أنْ يُحرّم التبنى ، وأنْ يُحرِّم نسبة الولد إلى غير أبيه بدأ برسول

---

(١) أورده ابن حجر العسقلانى فى كتاب « الإصابة فى تمييز الصحابة » (ترجمة رقم ٢٨٨٤) فى ترجمة « زيد بن حارثة الكلبى » .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٦٠٥٠) ومسلم فى صحيحه (١٦٦١) من حديث أبى ذر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له : « هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فاطعموهم مما تأكلون ، والبسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فاعينوهم » .

(٣) ذلك أن رسول الله ﷺ قال : « اشهدوا أن زيداً ابنى يرثنى وأرثه » أورده ابن حجر فى الإصابة ترجمة رقم (٢٨٨٤) فدعى زيد بن محمد حتى نزل قوله تعالى : ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ..﴿٥﴾﴾ [الأحزاب] . ثم إن رسول الله ﷺ زوّج زيداً ابنة عمته زينب بنت جحش ، ثم نزل قوله تعالى : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب] .

الله ﷺ ، فقال : ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ .. ⑤﴾ [الأحزاب]

والشاهد هنا : ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. ⑤﴾ [الأحزاب]

فكان الحكم الذى أنهى التبنى ، وأعاد زيداً إلى زيد بن حارثة هو الأقسط والأعدل ، إذن : حكم الرسول ﷺ لم يكن جَوْراً ، بل كان قِسْطاً وعدلاً ، لكنه قسط بشرى يَفْضُله ما كان من عند الحق سبحانه وتعالى .

وهكذا عاد زيد إلى نسبه الأصلى ، وأصبح الناس يقولون « زيد ابن حارثة » ، فحزن لذلك زيد ، لأنه حُرِم من شرف الانتساب لرسول الله ﷺ فعوَّضه الله تعالى عن ذلك وساماً لم يَنَلْه صحابى غيره ، هذا الوسام هو أن ذُكر اسمه فى القرآن الكريم ، وجعل الناس يتلونه ، ويتعبدون به فى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. ㉛﴾ [الأحزاب]

إذن : عمل الرسول قسط ، وعمل الله أقسط .

قوله تعالى : ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ .. ⑨﴾ [الإسراء]

لأن المتتبع للمنهج القرآنى يجده يُقدّم لنا الأقوم والأعدل والأوسط فى كل شىء . فى العقائد ، وفى الأحكام ، وفى القصص .

ففى العقائد مثلاً ، جاء الإسلام ليجابه مجتمعاً متناقضاً بين مَنْ ينكر وجود إله فى الكون ، وبين مَنْ يقول بتعدُّد الآلهة ، فجاء الإسلام وَسَطاً بين الطرفين ، جاء بالأقوم فى هذه المسألة ، جاء ليقول بإله واحد لا شريك له .

فإذا ما تحدّث عن صفات هذا الإله سبحانه اختار أيضاً ما هو أقوم وأوسط ، فللحق سبحانه صفات تشبه صفات البشر ، فلَه يَدٌ وسمع وبصر ، لكن ليست يده كيدنا ، وليس سمعه كسمعنا ، وليس بصره كبصرنا : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) ﴾ [الشورى]

وبهذا المنهج الحكيم خرجنا مما وقع فيه المشبِّهة الذين شبّهوا صفات الله بصفات البشر ، وخرجنا مما وقع فيه المعطّلة الذين أنكروا أن يكون لله تعالى هذه الصفات وأوّلوها على غير حقيقتها .

وكذلك فى الخلق الاجتماعى العام ، يلفتنا المنهج القرآنى فى قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

يلفتنا إلى ما فى الكون من عجائب نغفل عنها ، ونُعرض عن تدبُّرها والانتفاع بها ، ولو نظرنا إلى هذه الآيات بعين المتأمل لوجدنا فيها منافع شتى منها : أنها تُذكّرنا بعظمة الخالق سبحانه ، ثم هى بعد ذلك ستفتح لنا الباب الذى يُثرى حياتنا ، ويُوفّر لنا ترف الحياة ومتعتها .

فالحق سبحانه أعطانا مُقوّمات الحياة ، وضمن لنا برحمته ضروريات البقاء ، فمَنْ أراد الكماليات فعليه أنْ يُعمِل عقله فيما أعطاه الله ليصل إلى ما يريد .

والأمثلة كثيرة على مشاهدات متأملة فى ظواهر الكون ، اهتدى بها أصحابها إلى اكتشافات واختراعات خدمت البشرية ، وسَهَّلَتْ عليها كثيراً من المعاناة .

فالذى اخترع العجلة فى نقل الأثقال بنى فكرتها على ثِقل وجده

يتحرك بسهولة إذا وُضع تحته شيء قابل للدوران ، فتوصل إلى استخدام العجلات التى مكّنَته من نقل أضعاف ما كان يحمله .

والذى أدخل العالم عصر البخار استنبط فكرة البخار ، وأنه يمكن أن يكون قوةً مُحرِّكة عندما شاهد القدْر وهو يغلى ، ولاحظ أن غطاءه يرتفع إلى أعلى ، فاهتدى إلى استخدام البخار فى تسيير القطارات والعربات .

والعالِم الذى اكتشف دواء « البنسلين » اهتدى إليه عندما شاهد طبقة خضراء نسميها « الريم » تتكون فى أماكن استخدام الماء ، وكان يشتكى عينه ، فعندما وصلت هذه المادة إلى عينه ربما مصادفةً ، لاحظ أن عينه قد برئتْ ، فبحث فى هذه المسألة حتى توصّل إلى هذا الدواء .

إلى غير ذلك من الآيات والعجائب فى كون الله ، التى يغفل عنها الخلْق ، ويمرُّون عليها وهم معرضون .

أما هؤلاء العلماء الذين أثروا حياة البشرية بنظرتهم الثاقبة ، فقد استخدموا عقولهم فى المادة التى خلقها الله ، ولم يأتوا بشىء من عند أنفسهم ؛ لأن الحق سبحانه حينما استخلف الإنسان فى الأرض أعدَّ له كُلَّ متطلبات حياته ، وضمن له فى الكون جنوداً إنْ أعمل عقله وطاقته يستطيع أن يستفيد منها ، وبعد ذلك طلب منه أن يعمر الأرض : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. (٦١) ﴾ [هود]

والاستعمار أنْ تجعلها عامرة ، وهذا الإعمار يحتاج إلى مجهود ، وإلى مواهب متعددة تتكاتف ، فلا تستقيم الأمور إنْ كان هذا يبنى

وهذا يهدم ، إذن : لابد أن تُنظّم حركة الحياة تنظيماً يجعل المواهب في الكون تتساند ولا تتعاند ، وتتعاضد ولا تتعارض .

ولا يضمن لنا هذا التنظيم إلا منهج من السماء ينزل بالتي هي أقوم ، وأحكم ، وأعدل ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ .. (١٧) ﴾ [الشورى]

وإنْ كان الحق سبحانه وتعالى قد دعانا إلى النظر في ظواهر الكون ، والتدبُّر في آيات الله في كونه ، والبحث فيها لنصل إلى أسرار ما غُيِّب عنا ، فإنه سبحانه نهانا أن نفعل هذا مع بعضنا البعض ، فقد حرَّم علينا التجسُّس وتتبُّع العورات ، والبحث في أسرار الآخرين وغَيْبهم .

وفي هذا الأدب الإلهي رحمة بالخلق جميعاً ؛ لأن الله تعالى يريد أن يُثرى حياة الناس في الكون ، وهَبْ أن إنساناً له حسنات كثيرة ، وعنده مواهب متعددة ، ولكن له سيئة واحدة لا يستطيع التخلّي عنها ، فلو تتبعتَ هذه السيئة الواحدة فربما أزهدتْك في كل حسناته ، وحرمتْك الانتفاع به ، والاستفادة من مواهبه ، أما لو تغاضيت عن هذه السيئة فيه لأمكنك الانتفاع به .

وهَبْ أن صانعاً بارعاً في صنعته وقد احتجْتَه ليؤديَ لك عملاً ، فإذا عرفت عنه ارتكاب معصية ما ، أو اشتهر عنه سيئة ما لأزهدك هذا في صَنْعته ومهارته ، ولرغبت عنه إلى غيره ، وإنْ كان أقلّ منه مهارة .

وهذا قانون عام للحق سبحانه وتعالى ، فالذي نهاك عن تتبُّع

غيب الناس ، والبحث عن أسرارهم نهاهم أيضاً عن تتبُّع غَيْبك والبحث عن أسـرارك ؛ ولذلك ما أنـعم الله على عبـيـده نعمـةً أعظمَ من حـفْظ الغيب عنده هو ؛ لأنه ربٌّ ، أما البشر فليس فيهم ربوبية ، أمر البشر قائم على العبودية ، فإذا انكشف لأحدهم غَيْبُ أخيه أو عيبٌ من عيوبه أذاعه وفضحه به .

إذن : فـالحق تبـارك وتعـالى يدعـونـا إلى أن نكون طُلَعـة[1] فى استنباط أسرار الكون والبحث عن غيـبه ، وفى الوقت نفسه ينهانا أن نكون طُلَعة فى تتبّع أسرار الناس والبحث عن غيبهم ؛ لأنك إنْ تتبعتَ غيب الناس والتمسْتَ عيوبهم حرمْتَ نفسك من مصادر يمكن أنْ تنتفع بها .

فالحق سـبحـانه يريد فى الكون حركـة متـبادلة ، وهذه الحـركة المتبادلة لا تنشأ إلا بوجود نوع من التنافس الشريف البنّاء ، التنافس الذى يُثرى الحـياة ، ولا يثـير شراسـة الاحتكاك ، كـما قـال تعالى :
﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المطففين]

كمـا يتنافس طالب العلم مع زمـيله المجـدّ ليكون مثْلـه أو أفضل منه ، وكـأن الحق سبـحانه يعطينـا حافـزاً للعمل والرُّقى ، فـالتنافس المـقصـود ليس تنافس الغلّ والحقـد والكراهيـة ، بل تنافس مَنْ يحب للناس ما يحب لنفسه ، تنافس مَنْ لا يشمت لفشل الآخرين .

وقد يجـد الإنسان هذا الحـافز للمنافـسة حتى فـى عدوه ، ونحن

(١) الطلعة : كثرة التطلع إلى الشىء . ومنها نفس طلعة : كثيرة الميل إلى هواها تشتهيه حتى تهلك صاحبها . [لسان العرب ـ مادة : طلع] .

نرى الكثير منا يغضب وتُثَار حفيظته إنْ كان له عدو ، ويراه مصدر شرٍّ وأذى ، ويتوقع منه المكروه باستمرار..

وهو مع ذلك لو استغل حكمة الله فى إيجاد هذا العدو لانتفع به انتفاعاً لا يجده فى الصديق ، لأن صديقك قد يُنافقك أو يُداهنك أو يخدعك .

أما عدوك فهو لك بالمرصاد ، يتتبع سقطاتك ، ويبحث عن عيوبك ، وينتظر منك كَبْوة ليذيعها ويُسمِّع بك ، فيحملك هذا من عدوك على الاستقامة والبعد عما يشين .

ومن ناحية أخرى تخاف أن يسبقك إلى الخير ، فتجتهد أنت فى الخير حتى لا يسبقك إليه .

وما أجمل ما قاله الشاعر فى هذا المعنى :

عِدَاىَ لَهُمْ فَضْلٌ علىَّ ومِنَّةٌ ... فَلاَ أبعَدَ الرحْمَنُ عَنِّى الأعَادِياَ

هُمُو بحثُوا عَنْ زَلّتى فَاجْتنبْتُها ... وهُمْ نَافَسُونى فاكْتَسبْتُ المعَالِيا

وهكذا نجد لكل شىء فى منهج الله فائدة ، حتى فى الأعداء ، ونجد فى هذا التنافس المثمر الذى يُثرى حركة الحياة دليلاً على أن منهج السماء هو الأقوم والأنسب لتنظيم حركة الحياة .

أيضاً لكى يعيش المجتمع آمناً سالماً لا بُدّ له من قانون يحفظ توازنه ، قانون يحمى الضعيف من بطش القوى ، فجاء منهج الله تعالى ليُقنِّن لكل جريمة عقوبتها ، ويضمن لصاحب الحق حقّه ، وبعد ذلك ترك الباب مفتوحاً للعفو والتسامح بين الناس .

ثم حذَّر القوى أنْ تُطغيه قوته ، وتدعوه إلى ظلم الضعيف ، وذكّره أن قوته ليست ذاتية فيه ، بل هى عَرَضٌ سوف يزول ، وسوف تتبدل قوته فى يوم ما إلى ضَعْف يحتاج معه إلى العون والمساعدة والحماية .

وكأن الحق تبارك وتعالي يقول لنا : أنا أحمى الضعيف من قوتك الآن ، لأحمى ضعفك من قوة غيرك غداً .

أليس فى هذا كله ما هو أقوم ؟

ونقف على جانب آخر من جوانب هذه القوامة لمنهج الله فى مجال الإنفاق ، وتصرُّف المرء فى ماله ، والمتأمل فى هذا المنهج الأقوم يجده يختار لنا طريقاً وسطاً قاصداً لا تبذيرَ فيه ولا تقتير[1].

ولا شك أن الإنسان بطبعه يُحب أن يُثرى حياته ، وأن يرتقى بها ، ويتمتع بترفها ، ولا يُتاح له ذلك إنْ كان مُبذّراً لا يُبقِى من دخله على شىء ، بل لا بُدّ له من الاعتدال فى الإنفاق حتى يجد فى جعبته ما يمكنه أن يُثرى حياته ويرتقى بها ويُوفّر لأسرته كماليات الحياة ، فضلاً عن ضرورياتها .

جاء هذا المنهج الأقوم فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان]

وفى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء]

---

(١) قتر على عياله : ضيق عليهم فى النفقة . والإقتار : التضييق على الإنسان فى الرزق . [لسان العرب ـ مادة : قتر] .

فللإنسان فى حياته طموحات تتتابع ولا تنتهى ، خاصة فى عصر كثُرت فيه المغريات ، فإنْ وصل إلى هدف تطلع لما هو أكبر منه ، فعليه إذن ألاَّ يُبدّد كل طاقته ، وينفق جميع دَخْله .

وكما نهى الإسلام عن التبذير نهى أيضاً عن البُخْل والإمساك ؛ لأن البخل مذموم ، والبخيل مكروه من أهله وأولاده ، كما أن البُخْل سبب من أسباب الركود والبطالة والكساد التى تصيب المجتمع ، فالممسك لا يتعامل مع المجتمع فى حركة البيع والشراء ، فيسهم ببُخْله فى تفاقم هذه المشاكل ، ويكون عنصراً خاملاً يَشْقى به مجتمعه .

إذنْ : فالتبذير والإمساك كلاهما طرف مذموم ، والخير فى أوسط الأمور ، وهذا هو الأقوم الذى ارتضاه لنا المنهج الإلهى .

وكذلك فى مجال المأكل والمشرب ، يرسم لنا الطريق المعتدل الذى يحفظ للمرء سلامته وصحته ، ويحميه من أمراض الطعام والتُّخْمة ، قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) ﴾ [الأعراف]

فقد علَّمنا الإسلام أن الإنسان إذا أكل وشرب على قَدْر طاقة الوقود الذى يحتاجه جسمه لا يشتكى ما يشتكيه أصحاب الإسراف فى المأكل والمشرب .

والمتأمل فى حال هؤلاء الذين يأكلون كلّ مَا لَذَّ وطاب ، ولا يَحْرمون أنفسهم مما تشتهيه ، حتى وإن كان ضاراً ، نرى هؤلاء عند كِبَرهم وتقدُّم السِّنِّ بهم يُحْرمون بأمر الطبيب من تناول هذه

الملذّات ، فترى فى بيوت الأعيان الخادم يأكل أطيب الطعام ويتمتع بخير سيده ، فى حين يأكل سيده أنواعاً محددة لا يتجاوزها ، ونقول له :

لأنك أكلتها وأسرفتَ فيها فى بداية الأمر ، فلا بُدَّ أنْ تُحرَم منها الآن .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « كُلُوا واشربوا وتصدقوا ، والبسوا فى غير إسراف ولا مخيلة»[1]

وأيضاً من أسباب السلامة التى رسمها لنا المنهج القرآنى ، ألاَّ يأكل الإنسان إلا على جوع ، فالطعام على الطعام يرهق المعدة ، ويجرُّ على صاحبه العطب والأمراض ، ونلاحظ أن الإنسان يجد لذة الطعام وحلاوته إذا أكل بعد جوع ، فمع الجوع يستطيب كل شىء ولو كان الخبز الجاف .

وهكذا نجد المنهج الإلهى يرسم لنا الطريق الأقوم الذى يضمن لنا سلامة الحياة واستقامتها ، فلو تدبرْتَ هذا المنهج لوجدته فى أىِّ جانب من جوانب الحياة هو الأقوم والأنسب .

فى العقائد ، فى العبادات ، فى الأخلاق الاجتماعية العامة ، فى العادات والمعاملات ، إنه منهج ينتظم الحياة كلها ، كما قال الحق سبحانه : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ (٣٨) ﴾ [الأنعام]

هذا المنهج الإلهى هو أَقْوم المناهج وأصلحها ؛ لأنه منهج الخالق سبحانه الذى يعلم مَنْ خلق ، ويعلم مَا يصلحهم ، كما قلنا سابقاً :

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٨١ ، ١٨٢) ، وابن ماجه فى سننه (٣٦٠٥) والنسائى فى سننه (٥/ ٧٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

إن الصانع من البشر يعلم صنْعته ، ويضع لها من تعليمات التشغيل والصيانة ما يضمن لها سلامة الأداء وأمن الاستعمال .

فإذا ما استعملْتَ الآلة حَسْب قانون صانعها أدَّتْ مهمتها بدقة ، وسلمتْ من الأعطال ، فالذى خلق الإنسان أعلم بقانون صيانته ، فيقول له : افعل كذا ولا تفعل كذا : ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك]

فآفة الناس فى الدنيا أنهم وهم صَنْعة الحق سبحانه يتركون قانونه ، ويأخذون قانون صيانتهم من أمثالهم ، وهى قوانين وضعية قاصرة لا تسمو بحال من الأحوال إلى قانون الحق سبحانه ، بل لا وَجْهَ للمقارنة بينهما . إذن : لا تستقيم الحياة إلا بمنهج الله عز وجل.

ثم يقول تعالى : ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩)﴾ [الإسراء]

فالمنفذ لهذا المنهج الإلهى يتمتع باستقامة الحياة وسلامتها ، وينعم بالأمن الإيمانى ، وهذه نعمة فى الدنيا ، وإنْ كانت وحدها لكانت كافية ، لكن الحق سبحانه وتعالى يُبشِّرنا بما هو أعظم منها ، وبما ينتظرنا من نعيم الآخرة وجزائها ، فجمع لنا ربنا تبارك وتعالى نَعيمَىْ الدنيا والآخرة .

نعيم الدنيا لأنك سِرْتَ فيها على منهج معتدل ونظام دقيق ، يضمن لك فيها الاستقامة والسلامة والتعايش الآمن مع الخلْق .

ومن ذلك قول الحق سبحانه : ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)﴾ [البقرة]

وقوله تعالى فى آية أخرى : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه]

ويقول تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾ [النحل]

وفى الجانب المقابل يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا[1] وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) ﴾ [طه]

فكما أن الحق تبارك وتعالى جمع لعباده الصالحين السائرين على منهجه خيرى الدنيا والآخرة ، ففى المقابل جمع لأعدائه المعرضين عن منهجه عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، لا ظُلْماً منه ، فهو سبحانه مُنزَّه عن الظلم والجَوْر ، بل عَدْلاً وقسطاً بما نَسُوا آيات الله وانصرفوا عنها .

ومعنى : ﴿ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ..(٩) ﴾ [الإسراء]

وعمل الصالحات يكون بأن تزيد الصالح صلاحاً ، أو على الأقل تُبقِى الصالح على صلاحه ، ولا تتدخل فيه بما يُفسده .

وقوله : ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) ﴾ [الإسراء]

نلاحظ هنا أن الحق سبحانه وصف الأجر بأنه كبير ، ولم يأتِ

---

(١) الضنك : الضيق من كل شىء . والمعيشة الضنك : الضيقة غير المتسعة . [القاموس القويم ١/٣٩٥] .

بصيغة أفعل التفضيل منها (أكبر) ، فنقول : لأن كبير هنا أبلغ من أكبر ، فكبير مقابلها صغير ، فوَصْف الأجر بأنه كبير يدل على أن غيره أصغر منه ، وفى هذا دلالة على عِظَم الأجر من الله تعالى .

أما لو قال : أكبر فغيره كبير ، إذن : فاختيار القرآن أبلغ وأحكم .

كما قلنا سابقاً : إن من أسماء الحق تبارك وتعالى (الكبير) ، وليس من أسمائه أكبر ، إنما هى وَصْف له سبحانه . ذلك لأن (الكبير) كل ما عداه صغير ، أما (أكبر) فيقابلها كبير .

ومن هنا كان نداء الصلاة (الله أكبر) معناه أن الصلاة وفَرْض الله علينا أكبر من أىّ عمل دنيوىّ ، وهذا يعنى أن من أعمال الدنيا ما هو كبير ، كبير من حيث هو مُعين على الآخرة .

فعبادة الله تحتاج إلى طعام وشراب وإلى مَلْبس ، والمتأمل فى هذه القضية يجد أن حركة الحياة كلها تخدم عمل الآخرة ، ومن هنا كان عمل الدنيا كبيراً ، لكن فَرْض الله أكبر من كل كبير .

ولأهمية العمل الدنيوى فى حياة المسلم يقول تعالى عن صلاة الجمعة : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠ ﴾ [الجمعة]

والمتأمل فى هذه الآيات يجد الحق تبارك وتعالى أمرنا قبل الجمعة أن نترك البيع ، واختار البيع دون غيره من الأعمال ؛ لأنه الصفقة السريعة الربح ، وهى أيضاً الصورة النهائية لمعظم الأعمال ،

كمـا أن البائع يحب دائماً الـبيع ، ويحرص عليـه ، بخلاف المشـترى الذى ربما يشترى وهو كاره ، فتـجده غير حريص على الشراء ؛ لأنه إذا لم يشْتَرِ اليوم سيشترى غداً .

إذن : فالحق سبحانه حينما يأمـرنا بترك البيع ، فتَـرْك غيره من الأعمال أَوْلَى .

فـإذا ما قُـضيَت الصـلاة أمـرنا بالعودة إلـى العمل والسـعى فى مناكب الأرض ، فأخـرجنا للقائه سبـحانه فى بيته من عـمل ، وأمرنا بعد الصلاة بالعمل .

إذن : فالعمل وحركة الحيـاة (كبير) ، ولكن نداء ربك (أكبر) من حركـة الحياة ؛ لأن نداء ربك هو الذى سـيمنحك القـوة والطاقة ، ويعطيك الشحنة الإيمانية ، فتُقبِل على عملك بهمّة وإخلاص .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠ ﴾

وهذه الآية امتداد للآية السابقة ، ومـعطوفة عليها ؛ لأن الله تعالى ذكر فعلاً واحداً : ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ .. ۝٩ ﴾ [الإسراء]

ثم عطف عليه : ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ .. ۝١٠ ﴾ [الإسراء]

إذن : فـالآية داخلة فى البـشـارة الـسـابقـة ، ولكن كـيف ذلك ، والبشـارة السابقة تُبشّر المؤمنين بأن لهم أجراً كبيراً ، والبشارة إخبار بخيْر يأتى فى المستقبل ، فكيف تكون البشارة بالعذاب ؟ .

قالوا : نعم ، هذه بشارة على سبيل التهكُّم والاستهزاء بهم ، كما

قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) ﴾ [التوبة]

وكما قال الحق سبحانه متهكماً : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ[1] الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان]

وكما تقول للولد الذى أهمل فأخفق فى الامتحان : مبروك عليك الفشل ، أو تقول : بشِّر فلاناً بالرسوب .

وقد تكون البشارة للمؤمن بالجنة ، وللكافر بالعذاب ، كلاهما بشارة للمؤمن ، فبشارة المؤمن بالجنة تسرُّه وتُسعده ، وتجعله يستشرف ما ينتظره من نعيم الله فى الآخرة .

وبشارة الكافر بالعذاب تسرُّ المؤمن ؛ لأنه لم يقع فى مصيدة الكفر ، وتزجر مَنْ لم يقع فيه وتُخيفه ، وهذا رحمة به وإحسان إليه .

وهذا المعنى واضح فى قول الحق سبحانه فى سورة الرحمن :

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) ﴾ [الرحمن]

فهذه كلها نِعَم من نعَم الله تعالى علينا ، فناسب أن تُذيَّل بقوله

---

(١) رجل عزيز : منيع لا يُغلب ولا يُقهر . ومعنى قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان] . أى : ذُق بما كنت تُعَدّ فى أهل العز والكرم . [لسان العرب ـ مادة: عزز] .

تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) ﴾ [الرحمن]

أما قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن]

فأيُّ نعمة فى أنْ يُرسل الله عليهما شواظ من نار ونحاس فلا ينتصران ؟

نعم ، المتأمل فى هذه الآية يجد فيها نعمة من أعظم نِعَم الله ، ألا وهى زَجْر العاصى عن المعصية ، ومسرّة للطائع .

ثم يقول الحق سبحانه عن طبيعة الإنسان البشرية :

﴿ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا (١١) ﴾

(يَدْعُ) الدعاء : طلَب ما تعجز عنه من قادر عليه .

وأهل النحو يقولون . إن الفعل : ماضٍ ومضارع وأمر . فالأمر : طلَبٌ من الأعلى إلى الأدنى ، فكلّ طلب من الله لخلْقه فهو أمر ، أو من الأعلى من البشر للأدنى . أما إنْ كان الطلب من مُسَاوٍ لك فهو التماس أو رجاء . فإنْ كان الطلب من الأدنى للأعلى ، كطلبِ العبد من ربه فهو دعاء .

لذلك نجد التدقيق فى الإعراب يحفظ لله تعالى مكانته ويُعظّمه ، فنقول للطالب : أعرب : رب اغفر لى ، فيقول : اغفر ، فعْل دالّ على الدعاء ، لأنه لا يجوز فى حَقِّ المولَى تبارك وتعالى أن نَقول : فعل أمر ، فالله لا يأمره أحد .

---

(١) الشواظ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١] .

فأوَّل مـا يُفهم من الدعاء أنه دَلَّ على صـفة العجـز والضعف فى العبـد ، وأنه قد اندكتْ فيـه ثورة الغرور ، فعلِـم أنه لا يقدر على هذا إلا الله فتوجَّه إليه بالدعاء .

(بِالشَّـرِّ) بالمكروه ، والإنسـان لا يدعـو على نفسـه ، أو على ولده ، أو على مـاله بالشـر إلا فى حـالة الحنَق والغـضـب وضـيق الأخلاق ، الذى يُخرِج الإنسان عن طبيعته ، ويُفقـده التمييز ، فيتسرّع فى الدعاء بالشر ، ويتمنى أن يُنفّذ الله له مَا دعا به .

ومن رحمة الله تعالى بعبـاده ألاَّ يستجيب لهم هذا الدعاء الذى إنْ دلَّ فإنما يدلّ على حُمْق وغباء فى العبد .

وكثيراً ما نسمع أماً تدعو على ولدها بما لو استجاب الله له لكانت قاصمة الظهر لهـا ، أو نسمع أباً يدعو على ولده أو على ماله ، إذن : فمن رحمـة الله بنا أنْ يفوت لنا هذا الحمق ، ولا يُنفّذ لنـا ما تعجّلناه من دُعاءٍ بالشر .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ (١١) ﴾ [يونس]

أى : لو استجاب الله لهم فى دعائهم بالشر لكانت نهايتهم .

وإن كنت تُسَرّ وتسـعد بأن ربك سبـحانه وتعالى فـوّتَ لك دعوة بالشر فلم يَسْتجب لها ، وأن لعدم استجابته سبحانه حكمةً بالغةً .

فاعلم أن لله حكمة أيضـاً حينما لا يستجيب لك فى دعـوة الخير ، فلا تقُلْ : دعـوتُ فلم يستجِبْ لى ، واعلم أن لله حـكمة فى أن يمنعك

خيراً تُريده ، ولعله لو أعطاك هذا الخير لكان وبالاً عليك .

إذن : عليك أن تقيسَ الأمرين بمقياس واحد ، وترضى بأمر الله في دعائك بالخير ، كما رضيت بأمره حين صرف عنك دعاء الشر ، ولم يستجب لك فيه . فكما أن له سبحانه حكمة في الأولى ، فلَه حكمة في الثانية .

وقد دعا الكفار على عهد رسول الله ﷺ على أنفسهم ، فقالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ .. (٣٢) ﴾ [الأنفال]

وقالوا : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[1] .. (٩٢) ﴾ [الإسراء]

ولو استجاب الله لهم هذا الدعاء لَقَضى عليهم ، وقطع دابرهم ، لكن لله تعالى حكمة في تفويت هذا الدعاء لهؤلاء الحَمْقَى ، وها هم الكفار باقون حتى اليوم ، وإلى أن تقوم الساعة .

وكان المنتظر منهم أن يقولوا : اللهم إنْ كان هذا هو الحقّ من عندك فاهْدنا إليه ، لكن المسألة عندهم ليست مسألة كفر وإيمان ، بل مسألة كراهية لمحمد ﷺ ، ولما جاء به ، بدليل أنهم قَبلوا الموت في سبيل الكفر وعدم الإيمان برسالة محمد ﷺ .

ومن طبيعة الإنسان العجلة والتسرُّع ، كما قال تعالى : ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

---

(١) الكسفة : القطعة . وكِسْف السحاب وكسفه : قطعه . [لسان العرب ـ مادة : كسف] .

فكثيراً ما يدعو الإنسان بالخير لنفسه أو بما يراه خيراً ، فلا يجد وراءه إلا الشر والتعب والشقاء ، وفى المقابل قد يُنزل الله بك ما تظنه شراً ، ويسوق الله لك الخير من خلاله .

إذن : أنت لا تعلم وَجْه الخير على حقيقته ، فدع الأمر لربك عز وجل ، واجعل حظك من دعائك لا أنْ تُجابَ إلى ما دعوت ، ولكن أن تظهر ضراعة عبوديتك لعزّة ربك سبحانه وتعالى .

ومعنى : ﴿ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ..(١١) ﴾ [الإسراء]

أى : أن الإنسان يدعو بالشر فى إلحاح ، وكأنه يدعو بخير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ[1] ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى جعل الزمن ليلاً ونهاراً ظرفاً للأحداث ، وجعل لكل منهما مهمة لا تتأتّى مع الآخر ، فهما متقابلان لا متضادان ، فليس الليل ضد النهار أو النهار ضد الليل ؛ لأن لكل منهما مهمة ، والتقابل يجعلهما متكاملين .

ولذلك أراد الله تعالى أن يُنظِّر بالليل والنهار فى جنس الإنسان

---

(١) محونا : طمسنا . وقال على بن أبى طالب وقتادة : يريد بالمحو اللطخة السوداء التى فى القمر ، ليكون ضوء القمر أقل من ضوء الشمس فيتميز به الليل من النهار . [تفسير القرطبى ٣٩٥٦/٥] .

من الذكورة والأنوثة ، فهما أيضاً متكاملان لا متضادان ، حتى لا تقوم عداوة بين ذكورة وأنوثة ، كما نرى البعض من الجنسين يتعصَّب لجنسه تعصُّباً أعمى خالياً من فَهْم طبيعة العلاقة بين الذكر والأنثى .

فالليل والنهار كجنس واحد لهما مهمة ، أما من حيث النوع فلكل منهما مهمة خاصة به ، وإياك أن تخلط بين هذه وهذه .

تأمل قول الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل]

فلا تجعل الليل ضداً للنهار ، ولا النهار ضداً لليل ، وكذلك لا تجعل الذكورة ضداً للأنوثة ، ولا الأنوثة ضداً للذكورة .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ .. (١٢) ﴾ [الإسراء]

جعلنا : بمعنى خلقنا ، والليل والنهار هما المعروفان لنا بالمعايشة والمشاهدة ، ومعرفتنا هذه أوضح من أنْ نعرِّفهما ، فنقول مثلاً : الليل هو مَغيب الشمس عن نصف الكرة الأرضية ، والنهار هو شروق الشمس على نصف الكرة الأرضية .

إذن : قد يكون الشيء أوضح من تعريفه .

والحق سبحانه خلق لنا الليل والنهار ، وجعل لكل منهما حكمة ومهمة ، وحينما يتحدّث عنهما ، يقول تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) ﴾ [الضحى] فبدأ بالضحى .

ويقول : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) ﴾[الليل] فبدأ بالليل .

ومرة يتحدث عن اللازم لهما ، فيقول : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ (١) ﴾ [الأنعام]

لأن الحكمة من الليل تكمن فى ظُلْمته ، والحكمة من النهار تكمُن فى نوره ، فالظُّلْمة سكَنٌ واستقرار وراحة . وفى الليل تهدأ الأعصاب من الأشعة والضوء ، ويأخذ البدن راحته ؛ لذلك قال ﷺ : « أطفئوا المصابيح إذا رقدتم »(١) .

فى حين نرى الكثيرين يظنون أن الأضواء المبهرة ـ التى نراها الآن ـ مظهر حضارى ، وهم غافلون عن الحكمة من الليل ، وهى ظلمته .

والنور للحركة والعمل والسَّعْى ، فمَن ارتاح فى الليل يُصبح نشيطاً للعمل ، ولا يعمل الإنسان إلا إذا أخذ طاقة جديدة ، وارتاحت أعضاؤه ، ساعتها تستطيع أن تطلب منه أن يعمل .

لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ.. (٧٣) ﴾ [القصص]

لماذا ؟ ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ .. (٧٣) ﴾ [القصص] أى : فى الليل .

﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣) ﴾ [القصص] أى : فى النهار .

إذن : لليل مهمة ، وللنهار مهمة ، وإياك أنْ تخلط هذه بهذه ، وإذا ما وُجد عمل لا يُؤدَّى إلا بالليل كالحراسة مثلاً ، نجد الحق

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢٨٠) من حديث جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ قال : « إذا استجنح الليل ـ أو كان جنح الليل ـ فكفّوا صبيانكم ، فإن الشياطين تنتشر حينئذ ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم ، وأغلق بابك ، واذكر اسم الله ، وأطفىء مصباحك ، واذكر اسم الله ، وأوك سقاءك واذكر اسم الله ، وخمّر إناءك واذكر اسم الله ، ولو تعرض عليه شيئاً » .

سبحانه يفتح لنا باباً لنخرج من هذه القاعدة العامة .

فيقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. (٢٣) ﴾ [الروم]

فجعل النهار أيضاً محلاً للنوم ، فأعطانا فُسْحة ورُخْصة ، ولكن فى أضيق نطاق ، فمَنْ لا يقومون بأعمالهم إلا فى الليل ، وهى نسبة ضئيلة لا تخرق القاعدة العامة التى ارتضاها الحق سبحانه لتنظيم حركة حياتنا .

فإذا خرج الإنسان عن هذه القاعدة ، وتمرَّد على هذا النظام الإلهى ، فإن الحق سبحانه يَردعه بما يكبح جماحه ، ويحميه من إسرافه على نفسه ، وهذا من لُطْفه تعالى ورحمته بخَلْقه .

هذا الردْع إما رَدْع ذاتىّ اختيارى ، وإما رَدْع قَهْرىّ ، الردع الذاتى يحدث للإنسان حينما يسعى فى حركة الحياة ويعمل ، فيحتاج إلى طاقة ، هذه الطاقة تحتاج إلى دم متدفق يجرى فى أعضائه ، فإنْ زادتْ الحركة عن طاقة الإنسان يلهث وتتلاحق أنفاسه ، وتبدو عليه أمارات التعب والإرهاق ، لأن الدم المتوارد إلى رئته لا يكفى هذه الحركة .

وهذا نلاحظه مثلاً فى صعود السُّلَّم ، حيث حركة الصعود مناقضة لجاذبية الأرض لك ، فتحتاج إلى قوة أكثر ، وإلى دم أكثر وتنفس فوق التنفس العادى .

فكأن الحق سبحانه وتعالى جعل التعب والميل إلى الراحة رادعاً ذاتياً فى الإنسان ، إذا ما تجاوز حَدّ الطاقة التى جعلها الله فيه .

أما الردْع القهرى فهو النوم ، يلقيه الله على الإنسان إذا ما كابر وغالط نفسه ، وظن أنه قادر على مزيد من العمل دون راحة ، فهنا يأتى دور الرادع القَسْرى ، فينام رغماً عنه ولا يستطيع المقاومة ، وكأن الطبيعة التى خلقها الله فيه تقول له : ارحم نفسك ، فإنك لم تَعُدْ صالحاً للعمل .

فالحق تبارك وتعالى لا يُسلِم الإنسان لاختياره ، بل يُلقِى عليه النوم وفقدان الوعى والحركة ليحميه من حماقته وإسرافه على نفسه .

لذلك نرى الواحد منّا إذا ما تعرّض لمناسبة اضطرته لعدم النوم لمدة يومين مثلاً ، لا بُدَّ له بعد أن ينتهى من مهمته هذه أنْ ينَام مثل هذه المدة التى سهرها ؛ ليأخذ الجسم حَقَّه من الراحة التى حُرِم منها .

وقوله تعالى : ﴿آيَتَيْنِ .. ⑫﴾ [الإسراء]

قلنا : إن الآية هى الشىء العجيب الذى يدعو إلى التأمل ، ويُظهِر قدرة الخالق وعظمته سبحانه ، والآية تُطلَق على ثلاثة أشياء :

- تُطلَق على الآيات الكونية التى خلقها الله فى كونه وأبدعها ، وهذه الآيات الكونية يلتقى بها المؤمن والكافر ، ومنها كما قال تعالى :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ..㉗﴾ [فصلت]

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ㉜﴾ [الشورى]

وهذه الآيات تلفتنا إلى قدرة الخالق سبحانه وتعالى .

- وتُطلق الآيات على المعجزات التى تصاحب الرسل ، وتكون دليلاً على صدْقهم ، فكل رسول يُبعَث ليحمل رسالة الخالق لهداية الخلْق ، لا بُدَّ أن يأتى بدليل على صدْقه وأمارة على أنه رسول .

وهذه هى المعجزة ، وتكون مما نبغ فيه قومه ومهروا ؛ لتكون أوضح فى إعجازهم وأدْعَى إلى تصديقهم .

قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. (٥٩) ﴾ [الإسراء]

- وتُطلق الآيات على آيات القرآن الكريم الحاملة للأحكام .

إذن : هذه أنواع ثلاثة ، فى كل منها عجائب تدعوك للتأمل ، ففى **الأولى** : هندسة الكون ونظامه العجيب البديع الدقيق ، وفى **الثانية** : آيات الإعجاز ، حيث أتى بشىء نبغ فيه القوم ، ومع ذلك لم يستطيعوا الإتيان بمثله ، وفى **الثالثة** : آيات القرآن وحاملة الأحكام ؛ لأنها أقوم نظام لحركة الحياة .

فقول الحق سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ .. (١٢) ﴾ [الإسراء]

أى : كونيتين ، ولا مانع أنْ تفسر الآياتُ الكونية آيات القرآن .

وقوله : ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ .. (١٢) ﴾ [الإسراء]

أي : بعد أنْ كان الضوء غابت الشمس فَحَلَّ الظلام ، أو مَحوْناهَا : أى جعلناها هكذا ، كما قلنا : سبحان مَنْ بيَّض اللبن . أى خلقه هكذا ، فيكون المراد : خلق الليل هكذا مظلماً .

﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. (١٢) ﴾ [الإسراء]

أى : خلقنا النهار مضيئاً ، ومعنى مبصرة أو مضيئة أى : نرى بها الأشياء ؛ لأن الأشياء لا تُرى فى الظلام ، فإذا حَلَّ الضياء والنور رأيناها ، وعلى هذا كان ينبغى أن يقول : وجعلنا آية النهار مُبْصَراً فيها ، وليست هى مبصرة .

وهذه كما فى قوله تعالى فى قصة موسى وفرعون : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً .. ﴿١٣﴾ ﴾ [النمل]

فنسب البصر إلى الآيات ، كما نسب البصر هنا إلى النهار .

وهذه مسألة حيَّرتْ الباحثين فى فلسفة الكون وظواهره ، فكانوا يظنون أنك ترى الأشياء إذا انتقل الشعاع من عينك إلى المرئى فتراه . إلى أن جاء العالم الإسلامى « ابن الهيثم » الذى نَوَّر الله بصيرته ، وهداه إلى سرِّ رؤية الأشياء ، فأوضح لهم ما وقعوا فيه من الخطأ ، فلو أن الشعاع ينتقل من العين إلى المرئى لأمكنك أن ترى الأشياء فى الظُّلمة إذا كنتَ فى الضوء .

إذن : الشعاع لا يأتى من العين ، بل من الشىء المرئى ؛ ولذلك نرى الأشياء إنْ كانت فى الضوء ، ولا نراها إنْ كانت فى الظلام .

وعليه يكون الشىء المرئىّ هو الذى يبصرك من حيث هو الذى يتضح لك ، ويساعدك على رؤيته ، ولذلك نقول : هذا شىء يُلفت النظر أى : يرسل إليك مَا يجعلك تلتفت إليه .

إذن : التعبير القرآنى : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الإسراء] على مستوى عال من الدقة والإعجاز ، وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]

وقوله تعالى : ﴿ لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٢) ﴾ [الإسراء]

وهذه هى العلة الأولى لآية الليل والنهار .

أى : أن السعى وطلب الرزق لا يكون إلا فى النهار ؛ لذلك أتى طلب فضل الله ورزقه بعد آية النهار ، ومعلوم أن الإنسان لا تكون له حركة نشاطية وإقبال على السَّعى والعمل إلا إذا كان مرتاحاً ولا تتوفر له الراحة إلا بنوم الليل .

وبهذا نجد فى الآية الكريمة نفس الترتيب الوارد فى قوله تعالى :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣) ﴾ [القصص]

فالترتيب فى الآية يقتضى أن نقول : ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ .. (٧٣) ﴾ [القصص] أى : فى الليل ، ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣) ﴾ [القصص] أى : فى النهار ، وعمل النهار لا يتم إلا براحة الليل ، فهما ـ إذن ـ متكاملان .

والحق سبحانه وتعالى جعل النهار مَحلاً للحركة وابتغاء فضل الله ؛ لأن الحركة أمرٌ مادىّ وتفاعل مادىّ بين الإنسان ومادة الكون من حوله ، كالفلاح وتفاعله مع أرضه ، والعامل وتفاعله مع آلته .

هذا التفاعل المادى لا يتم إلا فى ضوء ؛ لأن الظلمة تغطى الأشياء وتُعميها ، وهذا يتناسب مع الليل حيث ينام الناس ، أما فى السعى والحركة فلا بُدَّ من ضوء أتبين به الفاعل والمنفعل له ، ففى الظلمة قد تصطدم بما هو أقوى منك فيحطمك ، أو بما هو أضعف منك فتحطمه .

إذن : فأول خطوات ابتغاء فضل الله أن يتبيّن الإنسان المادة التى يتفاعل معها . لذلك ، فالحق سبحانه جعل الظلمة سابقة للضياء ، فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ .. ① ﴾ [الأنعام]

لأن النور محلٌّ للحركة ، ولا يمكن للإنسان أن يعمل إلا بعد راحة ، والراحة لا تكون إلا فى ظُلْمة الليل .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. ⑫ ﴾ [الإسراء]

وهذه هى العِلَّة الأخرى لليل والنهار ، حيث بمرورهما يتمّ حساب السنين .

وكلمة « عَدَدَ » تقتضى شيئاً له وحدات ، ونريد أن نعرف كمية هذه الوحدات ؛ لأن الشىء إنْ لم تكُنْ له كميات متكررة فهو واحد .

وقوله : ﴿ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. ⑫ ﴾ [الإسراء]

لأنها من لوازم حركتنا فى الحياة ، فعن طريق حساب الأيام نستطيع تحديد وقت الزراعات المختلفة ، أو وقت سقوط المطر ، أو هبوب الرياح . وفى العبادات نحدد بها أيام الحج ، وشهر الصوم ، ووقت الصلاة ، ويوم الجمعة ، هذه وغيرها من لوازم حياتنا لا نعرفها إلا بمرور الليل والنهار .

ولو تأملتَ عظمة الخالق سبحانه لوجدتَ القمر فى الليل ، والشمس فى النهار ، ولكل منهما مهمة فى حساب الأيام والشهور والسنين ، فالشمس لا تعرف بها إلا اليوم الذى أنت فيه ، حيث يبدأ اليوم بشروقها وينتهى بغروبها ، أما بالقمر فتستطيع حساب الأيام والشهور ؛ لأن الخالق سبحانه جعل فيه علامة ذاتية يتم الحساب على

أساسها ، فهو فى أول الشهر هلال ، ثم يكبر فيصير إلى تربيع أول ، ثم إلى تربيع ثان ، ثم إلى بدر ،.ثم يأخذ فى التناقص إلى أن يصل إلى المحاق آخر الشهر .

إذن : نستطيع أن نحدد اليوم بالشمس والشهور بالقمر ، ومن هنا تثبت مواقيت العبادة بالليل دون النهار ، فتثبت رؤية رمضان ليلاً أولاً ، ثم يثبت نهاراً ، فنقول : الليلة أول رمضان ، لذلك قال تعالى :

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ[1] لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. (٥)﴾ [يونس]

فقوله : ﴿قَدَّرَهُ..(٥)﴾ [يونس] أى : القمر ؛ لأن به تتبين أوائل الشهور ، وهو أدقّ نظام حسابى يُعتمد عليه حتى الآن عند علماء الفلك وعلماء البحار وغيرهم .

و ﴿مَنَازِلَ..(٥)﴾ [يونس] هى البروج الاثنى عشر للقمر التى أقسم الله بها فى قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣)﴾ [البروج]

ولأن حياة الخَلْق لا تقوم إلا بحساب الزمن ، فقد جعل الخالق سبحانه فى كَوْنه ضوابط تضبط لنا الزمن ، وهذه الضوابط لا تصلح لضبط الوقت إلا إذا كانت هى فى نفسها منضبطة ، فمثلاً أنت لا تستطيع أن تضبط مواعيدك على ساعتك إذا كانت غير منضبطة (تُقدّم أو تُؤخّر) .

لذلك يقول الخالق المبدع سبحانه عن ضوابط الوقت فى كَوْنه :

---

(١) أى : قدرنا له فى سيره أن ينزل فى أماكن محددة ، تجعله مرة هلالاً ، ومرة بدراً ، ومرة كالعرجون القديم فى إشرافه على المحاق آخر الشهر . [القاموس القويم ٢ / ٢٦٠] .

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ ٥ ﴾ [الرحمن]

أى : بحساب دقيق لا يختلّ ، وطالما أن الخالق سبحانه خلقها بحساب فاجعلوها ضوابط لحساباتكم .

وقوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ۝ ١٢ ﴾ [الإسراء]

معنى التفصيل أن تجعل بَيْناً بين شيئين ، وتقول : فصلْتُ شيئاً عن شيء ، فالحق سبحانه فصَّل لنا كل ما يحتاج إلى تفصيل ، حتى لا يلتبس علينا الأمر فى كل نواحى الحياة .

ومثال ذلك فى الوضوء مثلاً يقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ .. ۝ ٦ ﴾ [المائدة]

فأطلق غَسْل الوجه ؛ لأنه لا يختلف عليه أحد ، وحدَّد الأيدى إلى المرافق ، لأن الأيدى يُختلف فى تحديدها ، فاليد قد تكون إلى الرُّسْغ ، أو إلى المرفق ، أو إلى الكتف ، لذلك حددها الله تعالى ، لأنه سبحانه يريدها على شكل مخصوص .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ .. ۝ ٦ ﴾ [المائدة]

فالرأس يناسبها المسْح لا الغَسْل ، والرِّجْلاَن كاليد لابُدَّ أنْ تُحدَّد . فإذا لم يوجد الماء أو تعذَّر استعماله شرع لنا سبحانه التيمم ، فقال تعالى : ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً[1] طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ .. ۝ ٤٣ ﴾ [النساء]

---

(١) الصعيد : هو كل تراب طيب . وقال الشافعى : لا يقع اسم صعيد إلا على تراب ذى غبار . وقال أبو إسحاق : الصعيد وجه الأرض وعلى الإنسان أن يضرب بيديه وجه الأرض ، ولا يبالى أكان فى الموضع تراب أو لم يكن ، لأن الصعيد ليس هو التراب ، إنما هو وجه الأرض ، تراباً كان أو غيره . [لسان العرب ـ مادة : صعد] .

والتيمم يقوم مقام الوضوء ، من حيث هو استعداد للصلاة ولقاء الحق سبحانه وتعالى ، وقد يظنّ البعض أن الحكمة من الوضوء الطهارة والنظافة ، وكذلك التيمُّم ؛ لذلك يقترح بعضهم أن نُنظّف أنفسنا بالكولونيا مثلاً .

نقول : ليس المقصود بالوضوء أو التيمم الطهارة أو النظافة ، بل المراد الاستعداد للصلاة وإظهار الطاعة والانصياع لشرع الله تعالى ، وإلا كيف تتم الطهارة أو النظافة بالتراب ؟

هذا الاستعداد للصلاة هو الذى جعل سيدنا على زين العابدين رضى الله عنه يَصْفرّ وجهه عند الوضوء ، وعندما سُئِل عن ذلك قال : أتعلمون على مَنْ أنا مُقبل الآن ؟

فللقاء الحق سبحانه وتعالى رهبة يجب أن يعمل لها المؤمن حساباً ، وأنْ يستعدّ للصلاة بما شرعه له ربه سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ[1] فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾

كلمة (طائره) أى : عمله وأصلها أن العرب كانوا فى الماضى يزجرون الطير ، أى : إذا أراد أحدهم أنْ يُمضىَ عملاً يأتى بطائر ثم يطلقه ، فإنْ مَرَّ من اليسار إلى اليمين يسمونه « السانح »[2] ويتفاءلون

(١) قال الحسن : أى شقاوته وسعادته ، وما كتب له من خير وشر وما طار له من التقدير ، أى : صار له عند القسمة فى الأزل . [تفسير القرطبى ٥/٣٩٥٧] .

(٢) السانح : ما أتاك عن يمينك من ظبى أو طائر أو غير ذلك . والبارح : ما أتاك من ذلك عن يسارك . [لسان العرب ـ مادة : سنح] .

به ، وإنْ مَرّ من اليمين إلى اليسار يسمونه « البارح » ويتشاءمون به ، ثم يتهمون الطائر وينسبون إليه العمل ، ولا ذنب له ولا جريرة .

إذن : كانوا يتفاءلون باليمين ، ويتشاءمون باليسار ، وقد كان النبى ﷺ يحب الفأل الحسن[1] ، ولا يحب التشاؤم ؛ لأن الفَأْل الطيب يُنشّط أجهزة الجسم انبساطاً للحركة ، أما التشاؤم فيدعو للتراجع والإحجام ، ويقضى على الحركة والتفاعل فى الكون .

والحق سبحانه هنا يُوضّح : لا تقوّلوا الطائر ولا تتهموه ، بل طائرك أى : عملك فى عنقك يلازمك ولا ينفكّ عنك أبداً ، ولا يُسأل عنه غيره ، كما أنه لا يُسأل عن عمل الآخرين ، كما قال تعالى :
﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء]

فلا تُلقى بتبعة أفعالك على الحيوان الذى لا ذنب له .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾
[الإسراء]

وهو كتاب أعماله الذى سجّلته عليه الحفظة الكاتبون ، والذى قال الله عنه : ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف]

هذا الكتاب سيلقاه يوم القيامة منشوراً . أى : مفتوحاً مُعداً للقراءة .

---

(١) عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يعجبني الفال الصالح ، والفال الصالح : الكلمة الحسنة » أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١١٨ ، ١٥٤) وأبو الشيخ الأصبهانى فى أخلاق النبى (حديث ٧٩٤) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

الحق تبارك وتعالى يُصوِّر لنا موقفاً من مواقف يوم القيامة ، حيث يقف العبد بين يدىْ ربه عزَّ وجل ، فيدعوه إلى أن يقرأ كتابه بنفسه ، ليكون هو حجة على نفسه[1] ، ويُقِر بما اقترف ، والإقرار سيد الأدلة .

فهذا موقف لا مجالَ فيه للعناد أو المكابرة ، ولا مجالَ فيه للجدال أو الإنكار ، فإن حدث منه إنكار جعل الله عليه شاهداً من جوارحه ، فيُنطقها الحق سبحانه بقدرته :

يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور]

ويقول سبحانه : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [فصلت]

وقد جعل الخالق سبحانه للإنسان سيطرةً على جوارحه فى الدنيا ، وجعلها خاضعة لإرادته لا تعصيه فى خير أو شر ، فبيده يضرب ويعتدى ، وبيده يُنفق ويقيل عثرة المحتاج ، وبرجْله يسعى إلى بيت الله أو يسعى إلى مجلس الخمر والفساد .

وجوارحه فى كل هذا مُسخَّرة طائعة لا تتأبى عليه ، حتى وإن كانت كارهة للفعل ؛ لأنها منقادة لمراداتك ، ففعلْها لك ليس دليلاً على

(١) قال بعض الصلحاء : هذا كتاب ، لسانك قلمك ، وريقك مداده ، وأعضاؤك قرطاسه ، أنت كنت المُملى على حفظتك ، ما زيد فيه ولا نُقص منه ، ومتى أنكرت منه شيئاً يكون فيه الشاهد منك عليك . [تفسير القرطبى ٣٩٥٨/٥] .

الرضى عنك ؛ لأنه قد يكون رضى انقياد .

وقد ضربنا مثلاً لذلك بقائد السرية ، فأمره نافذ على جنوده ، حتى وإن كان خطئاً ، فإذا ما فقد هذا القائد السيطرة وأصبح الجنود أمام القائد الأعلى باحوا له بكل شيء .

كذلك في الدنيا جعل الله للإنسان إرادة على جوارحه ، فلا تتخلف عنه أبداً ، لكنها قد تفعل وهي كارهة وهي لاعنةٌ له ، وهي مُبغضة له ولفعْله ، فإذا كان يوم القيامة وانحلَّت من إرادته ، وخرجتْ من سجن سيطرته ، شهدتْ عليه بما كان منه .

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء]

أي : كفانا أن تكون أنت قارئاً وشاهداً على نفسك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ .. (١٥) ﴾ [الإسراء]

لأن الحق سبحانه لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية ، وهو سبحانه الغنيّ عن عباده ، وبصفات كماله وضع منهج الهداية للإنسان الذي جعله خليفة له في أرضه ، وقبل أنْ يخلقه أعدَّ له مُقوّمات الحياة

كلها من أرض وسماء ، وشمس وقمر ، وهواء وجبال ومياه .

فصفات الكمال ثابتة له سبحانه قبل أن يخلق الخَلْق ، إذن : فطاعتهم لن تزيده سبحانه شيئاً ، كما أن معصيتهم لن تضرّه سبحانه في شيء .

وهنا قد يسأل سائل : فلماذا التكليفات إذن ؟

نقول : إن التكليف من الله لعباده من أجلهم وفي صالحهم ، لكي تستمر حركة حياتهم ، وتتساند ولا تتعاند ؛ لذلك جعل لنا الخالق سبحانه منهجاً نسير عليه ، وهو منهج واجب التنفيذ لأنه من الله ، من الخالق الذي يعلم من خلق ، ويعلم ما يصلحهم ويُنظم حياتهم ، فلو كان منهجَ بشرٍ لبشر لكان لك أنْ تتأبّى عليه ، أما منهج الله فلا ينبغي الخروج عليه .

لذلك نسمع في الأمثال الدارجة عند أهل الريف يقولون : الأصبع الذي يقطعه الشرع لا ينزف ، والمعنى أن الشرع هو الذي أمر بذلك ، فلا اعتراضَ عليه ، ولو كان هذا بأمر البشر لقامت الدنيا ولم تقعُدْ .

ومن كماله سبحانه وغنَاهُ عن الخَلْق يتحمل عنهم ما يصدر عنهم من أحكام أو تجنٍّ أو تقصير ؛ ذلك لأن كل شيء عنده بمقدار ، ولا يُقضى أمر في الأرض حتى يُقضى في السماء ، فإذا كلَّفْتَ واحداً بقضاء مصلحة لك ، فقصّر في قضائها ، أو رفض ، أو سعى فيها ولم يُوفّق نجدك غاضباً عليه حانقاً .

وهنا يتحمّل الخالق سبحانه عن عباده ، ويُعفيهم من هذا الحرج ،

ويعلمهم أن الحاجات بميعاد وبقضاء عنده سبحانه ، فلا تلوموا الناس ، فلكل شيء ميلاد ، ولا داعيَ لأنْ نسبق الأحداث ، ولننتظر الفرج وقضاء الحوائج من الله تعالى أولاً .

ومن هنا يُعلّمنا الإسلام قبل أن نَعد بعمل شيء لا بُدَّ أنْ نسبقه بقولنا : إنْ شاء الله لنحمي أنفسنا ، ونخرج من دائرة الحرج أو الكذب إذا لم نستطع الوفاء ، فأنا - إذن - في حماية المشيئة الإلهية إنْ وُفِّقْتُ فبها ونعْمت ، وإنْ عجزتُ فإن الحق سبحانه لم يشأ ، وأخرج أنا من أوسع الأبواب .

إذن : تشريعات الله تريد أن تحمي الناس من الناس ، تريد أن تجتث أسباب الضّغن على الآخر ، إذا لم تقض حاجتك على يديه ، وكأن الحق سبحانه يقول لك : تمهل فلكل شيء وقته ، ولا تظلم الناس ، فإذا ما قضيتَ حاجتك فاعلم أن الذي كلَّفْته بها ما قضاها لك في الحقيقة ، ولكن صادف سَعْيُه ميلادَ قضاء هذه الحاجة ، فجاءت على يديه ، فالخير في الحقيقة من الله ، والناس أسباب لا غير .

وتتضح لنا هذه القضية أكثر في مجال الطب وعلاج المرضى ، فالطبيب سبب ، والشفاء من الله ، وإذا أراد الله لأحد الأطباء التوفيق والقبول عند الناس جعل مجيئه على ميعاد الشفاء فيلتقيان .

ومن هنا نجد بعض الأطباء الواعين لحقيقة الأمر يعترفون بهذه الحقيقة ، فيقول أحدهم : ليس لنا إلا في (الخضرة) .

والخضرة معناها : الحالة الناجحة التي حان وقت شفائها .

وصدق الشاعر حين قال :

والناسُ يلْحون الطَّبيبَ وإنَّما   خَطَأُ الطَّبيبِ إصَابَةُ الأَقْدَارِ

فقولُ الحق تبارك وتعالى : ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ..(١٥)﴾[الإسراء] أي : لصالح نفسه .

والاهتداء : يعنى الالتزام بمنهج الله ، والتزامك عائد عليك ، وكذلك التزام الناس بمنهج الله عائد عليك أيضاً ، وأنت المنتفع فى كل الأحوال بهذا المنهج ؛ لذلك حينما ترى شخصاً مستقيماً عليك أن تحمد الله ، وأن تفرحَ باستقامته ، وإياك أن تهزأ به أو تسخر منه ؛ لأن استقامته ستعود بالخير عليك فى حركة حياتك .

وفى المقابل يقول الحق سبحانه : ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا..(١٥)﴾ [الإسراء]

أى : تعود عليه عاقبةُ انصرافه عن منهج الله ؛ لأن شرَّ الإنسان فى عدم التزامه بمنهج الله يعود عليك ويعود على الناس من حوله ، فيشقى هو بشرّه ، ويشقى به المجتمع .

ومن العجب أن نرى بعض الحمقى إذا رأى مُنحرفاً أو سيء السلوك ينظر إليه نظرة بُغْض وكراهية ، ويدعو الله عليه ، وهو لا يدرى أنه بهذا العمل يزيد الطين بلة ، ويُوسِّع الخُرْق على الراقع كما يقولون .

فهذا المنحرف فى حاجة لمَنْ يدعو الله له بالهداية ، حتى تستريح أولاً من شرِّه ، ثم لتتمتع بخير هدايته ثانياً . أما الدعاء عليه فسوف يزيد من شرِّه ، ويزيد من شقاء المجتمع به .

ومن هذا المنطلق علَّمنا الإسلام أن مَنْ كانت لديه قضية علمية تعود بالخير ، فعليه أنْ يُعديها إلى الناس ؛ لأنك حينما تُعدّى الخير

إلى الناس ستنتفع بأثره فيهم ، فكما انتفعوا هم بآثار خلالك الحميدة ، فيمكنك أنت أيضاً الانتفاع بآثار خلالهم الحميدة إن نقلتها إليهم .

لذلك حرّم الإسلام كَتْم العلم لما يُسبِّبه من أضرار على الشخص نفسه وعلى المجتمع .

يقول ﷺ :« من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»[1] .

وكذلك من الكمال الذى يدعونا إليه المنهج الإلهى أن يُتقِن كل صاحب مهنة مهنته ، وكل صاحب صَنْعة صَنْعته ، فالإنسان فى حركة حياته يُتقِن عملاً واحداً ، لكن حاجاته فى الحياة كثيرة ومتعددة .

فالخياط مثلاً الذى يخيط لنا الثياب لا يتقن غير هذه المهنة ، وهو يحتاج فى حياته إلى مِهَن وصناعات كثيرة ، يحتاج إلى : الطبيب والمعلم والمهندس والحداد والنجار والفلاح .. الخ .

فلو أتقن عمله وأخلص فيه لَسخّر الله له مَنْ يتقن له حاجته ، ولو رَغْماً عنه ، أو عن غير قصد ، أو حتى بالمصادفة .

إذن : من كمالك أن يكون الناس فى كمال ، فإنْ أتقنتَ عملك فأنت المستفيد حتى إنْ كان الناس من حولك أشراراً لا يتقنون شيئاً ، فسوف يُيسِّر الله لهم سبيل إتقان حاجتك ، من حيث لا يريدون ولا يشعرون .

---

(١) أخرجه ابن حبان (٩٦ ـ موارد الظمآن) ، والحاكم فى مستدركه (١٠٢/١) وقال : هذا إسناد صحيح من حديث المصريين على شرط الشيخين وليس له علة . وأقره الذهبى .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. ⑮﴾ [الإسراء]

أى : لا يحمل أحدٌ ذنبَ أحد ، ولا يُؤاخَذ أحدٌ بجريرة غيره ، وكلمة : ﴿تَزِرُ وَازِرَةٌ .. ⑮﴾ [الإسراء]

من الوزر : وهو الحمْل الثقيل ، ومنها كلمة الوزير : أى الذى يحمل الأعباء الثقيلة عن الرئيس ، أو الملك ، أو الأمير .

فعدلُ الله يقتضى أنْ يُحاسب الإنسان بعمله ، وأنْ يُسأل عن نفسه ، فلا يرمى أحد ذنبه على أحد ، كما قال تعالى : ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ..㉝﴾ [لقمان]

وحول هذه القضية تحدَّث كثير من المستشرقين الذين يبحثون فى القرآن عن مآخذ ، فوقفوا عند هذه الآية : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. ⑮﴾ [الإسراء]

وقالوا : كيف نُوفِّق بينها وبين قوله : ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ .. ⑬﴾ [العنكبوت]

وقوله تعالى : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ㉕﴾ [النحل]

ونقول : التوفيق بين الآية الأولى والآيتين الأخيرتين هيِّن لو فهموا الفرق بين الوِزْر فى الآية الأولى ، والوِزْر فى الآيتين الأخيرتين .

ففى الأولى وزر ذاتىٌّ خاص بالإنسان نفسه ، حيث ضلَّ هو فى نفسه ، فيجب أنْ يتحمّل وزْر ضلاله . أما فى الآية الثانية فقد أضلَّ

غيره ، فتحمَّل وِزْره الخاص به ، وتحمَّل وِزْر مَنْ أضلَّهم .

ويُوضِّح لنا هذه القضية الحديث النبوى الشريف : « من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء »[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء]

العذاب : عقوبة على مخالفة ، لكن قبل أنْ تُعاقبنى عليها لا بُدَّ أن تُعلِّمنى أن هذه مخالفة أو جريمة (وهى العمل الذى يكسر سلامة المجتمع) ، فلا جريمةَ إلا بنصٍّ ينصُّ عليها ويُقنِّنها ، ويُحدِّد العقاب عليها ، ثم بعد ذلك يجب الإعلام بها فى الجرائد الرسمية لكى يطلع عليها الناس ، وبذلك تُقام عليهم الحجة إنْ خالفوا أو تعرَّضوا لهذه العقوبة .

لذلك حتى فى القانون الوضعى نقول : لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ إلا بإعلام .

فإذا ما اتضحت هذه الأركان فى أذهان الناس كان للعقوبة معنى ، وقامت الحجة على المخالفين ، أما أنْ نعاقب شخصاً على جريمة هو لا يعلم بها ، فله أن يعترضَ عليك من منطلق هذه الآية .

أما أنْ يُجرَّم هذا العمل ، ويُعلَن عنه فى الصحف الرسمية ، فلا

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله البجلى .

حجة لمَنْ جهله بعد ذلك ؛ لأن الجهل به بعد الإعلام عنه لا يُعفى من العقوبة .

فكأن قول الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾[الإسراء] يجمع هذه الأركان السابقة : الجريمة ، والعقوبة ، والنص ، والإعلام ، حيث أرسل الله الرسول يُعلِّم الناس منهج الحق سبحانه ، ويُحدِّد لهم ما جرَّمه الشرع والعقوبة عليه .

لذلك يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر]

ويقول : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ[1] مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ .. (١٩) ﴾ [المائدة]

إذن : قد انقطعت حجتكم برسالة محمد البشير النذير ﷺ .

وقد وقف العلماء أمام هذه القضية فقالوا : إن كانت الحجة قد قامت على مَن آمن برسالة محمد ﷺ ، فما بال الكافر الذى لم يؤمن ولم يعلم منهج الله ؟ وكأنهم يلتمسون له العذر بكفره .

نقول : لقد عرف الإنسان ربه عز وجل أولاً بعقله ، وبما ركّبه فيه خالقه سبحانه من ميزان إيمانى هو الفطرة ، هذه الفطرة هى المسئولة عن الإيمان بقوة قاهرة وراء الوجود ، وإنْ لم يأتِ رسول ، والأمثلة كثيرة لتوضيح هذه القضية :

هَبْ أنك قد انقطعتْ بك السُّبل فى صحراء واسعة شاسعة لا تجد

---

(١) الفترة : هى المدة من الزمن التى تفصل بين نبيين . [القاموس القويم ٢/٧١] .

فيها أثراً لحياة ، وغلبك النومُ فنمْتَ ، وعندما استيقظتَ فوجئت بمائدة منصوبة لك عليها أطايب الطعام والشراب .

بالله ألاَ تفكِّر فى أمرها قبل أن تمتدّ يدُك إليها ؟ ألاَ تلفت انتباهك وتثير تساؤلاتك عَمَّنْ أتى بها إليك ؟

وهكذا الإنسان بعقله وفطرته لا بُدّ أنْ يهتدىَ إلى أن للكون خالقاً مُبْدِعاً ، ولا يمكن أن يكون هذا النظام العجيب المتقن وليدَ المصادفة ، وهل عرف آدم ربه بغير هذه الأدوات التى خلقها الله فينا ؟

لقد جئنا إلى الحياة فوجدنا عالماً مستوفياً للمقوِّمات والإمكانيات ، وجدنا أمام أعيننا آيات كثيرة دالّة على الخالق سبحانه ، كل منها خيط لو تتبعته لأوصلك . خذ مثلاً الشمس التى تنير الكون على بُعْدها تطلع فى الصباح وتغرب فى المساء ، ما تخلَّفتْ يوماً ، ولا تأخرت لحظة عن موعدها ، ألاَ تسترعى هذه الآية الكونية انتباهك ؟

وقد سبق أنْ ضربنا مثلاً بـ « أديسون » الذى اكتشف الكهرباء ، وكم أخذ من الاهتمام والدراسة فى حين أن الإضاءة بالكهرباء تحتاج إلى أدوات وأجهزة وأموال ، وهى عُرْضة للأعطال ومصدر للأخطار ، فما بالنا نغفل عن آية الإضاءة الربانية التى لا تحتاج إلى مجهود أو أموال أو صيانة أو خلافه ؟

والعربى القُحُّ الذى ما عرف غير الصحراء حينما رأى بَعْر البعير وآثار الأقدام استدلَّ بالأثر على صاحبه ، فقال فى بساطة العربى : البَعْرة تدلّ على البعير ، والقدم تدلّ على المسير ، سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟

إذن : بالفطرة التكوينيـة التى جعلها الله فى الإنـسان يمكن له أن يهتدى إلى أن للكون خالقـاً ، وإنْ لم يعرف مَنْ هو ، مجرد أن يعرف القوة الخفية وراء هذا الكون .

وحـينمـا يـأتى رسـول من عند الله يسـاعــده فى الوصـول إلى ما يبـحث عنه ، ويدلّه على ربه وخالقـه ، وأن هذه القوة الخفـية التى حيَّرتْك هى (الله) خالقك وخالق الكون كله بما فيه ومَن فيه .

وهو سبحانه واحد لا شريك له ، شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو(١) ، ولم يعـارضـه أحـــد ولم يَدَّعِ أحـد أنه إله مع الله ، وبذلـك سَلِمَتْ له سبـحانه هذه الدعوى ؛ لأن صاحب الدعـوة حين يدّعيـها تسلم له إذا لم يوجد معارض لها .

وهذه الفطرة الإيمانيـة فى الإنسان هى التى عناهَا الحق سبـحانه فى قـوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ أَخَـذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُـورِهِمْ ذُرِّيَّتَـهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وهذا هو العَـهْد الإلهى الذى أخـذه الله على خَلْقه وهم فى مـرحلة الذَّرِّ ، حيث كانوا جميعاً فى آدم ـ عليه السلام ـ فالأنْسَال كلها تعود إليـه ، وفى كل إنسان إلى يوم القـيامـة ذرة من آدم ، هذه الذرة هى التى شـهـدتْ هذا العـهـد ، وأقـرَّتْ أنـه لا إله إلا الله ، ثم ذابتْ هذه الشهادة فى فطرة كل إنسان ؛ لذلك نسميها الفطرة الإيمانية .

ونقول للكافـر الذى أهمل فطرته الإيمانية وغفل عنهـا ، وهى تدعوه

---

(١) يقول تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) ﴾ [آل عمران] .

إلى معرفة الله : كيف تشعر بالجوع فتطلب الطعام ؟ وكيف تشعر بالعطش فتطلب الماء ؟ أرأيت الجوع أو لمستَه أو شَمَمْته ؟ إنها الفطرة والغريزة التى جعلها الله فيك ، فلماذا استخدمت هذه ، وأغفلت هذه ؟

والعجيب أن ينصرف الإنسان العاقل عن ربه وخالقه فى حين أن الكون كله من حوله بكل ذراته يُسبِّح بحمد ربّه ، فذراتُ الكون وذراتُ التكوين فى المؤمن وفى الكافر تُسبِّح بحمد ربها ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ.. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

فكيف بك يا سيد الكون تغفل عن الله والذرات فيك مُسبّحة ، فإن كانت ذرات المؤمن حدث بينه وبين ذرات تكوينه انسجام واتفاق ، وتجاوب تسبيحه مع تسبيح ذراته وأعضائه وتوافقت إرادته الإيمانية مع إيمان ذراته ، فترى المؤمن مُنْسجماً مع نفسه مع تكوينه المادى .

ويظهر هذا الانسجام بين إرادة الإنسان وبين ذرّاته وأعضائه فى ظاهرة النوم ، فالمؤمن ذرّاته وأعضاؤه راضية عنه تُحبه وتُحب البقاء معه لا تفارقه ؛ لأن إرادته فى طاعة الله ، فترى المؤمن لا ينام كثيراً مجرد أن تغفل عينه ساعةً من ليل أو نهار تكفيه ذلك ؛ لأن أعضاءه فى انسجام مع إرادته ، وهؤلاء الذين قال الله فيهم :

﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) ﴾ [الذاريات]

وكان النبى ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه[1] ، لأنه فى انسجام تام

---

(١) عن أنس رضى الله عنه قال : كان النبى ﷺ تنام عيناه ، ولا ينام قلبه . أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/٤٣١) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وأخرج مسلم من حديث عائشة (٧٣٨) : « يا عائشة إن عينىَّ تنامان ولا ينام قلبى » .

مع إرادته ﷺ . وما أشبه الإنسان فى هذه القضية بسيد شرس سىء الخُلق ، لديه عبيد كثيرون ، يعانون من سُوء معاملته ، فيلتمسون الفرصة للابتعاد عنه والخلاص من معاملته السيئة .

على خلاف الكافر ، فذراته مؤمنة وإرادته كافرة ، فلا انسجام ولا توافق بين الإرادة والتكوين المادى له ، لذا ترى طبيعته قلقة ، ليس هناك تصالح بينه وبين ذراته ، لأنها تبغضه وتلعنه ، وتود مفارقته .

ولولا أن الخالق سبحانه جعلها مُنْقادةً له لما طاوعتْه ، وإنها لتنتظر يوم القيامة يوم أنْ تفكّ من إرادته ، وتخرج من سجنه ، لتنطق بلسان مُبين ، وتشهد عليه بما اقترف فى الدنيا من كفر وجحود ؛ لذلك ترى الكافر ينام كثيراً ، وكأن أعضاءه تريد أن ترتاح من شره .

ولا بُدّ أن نعلم أن ذرات الكون وذرات الإنسان فى تسبيحها للخالق سبحانه ، أنه تسبيح فوق مدارك البشر ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

فلا يفقهه ولا يفهمه إلا مَنْ منحه الله القدرة على هذا ، كما منح هذه الميزة لداود ـ عليه السلام ـ فقال : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) ﴾ [الأنبياء]

وهنا قد يقول قائل : ما الميزة هنا ، والجبال والطير تُسبّح الله بدون داود ؟

الميزة هنا لداود ـ عليه السلام ـ أن الله تعالى أسمعه تسبيح الجبال وتسبيح الطير ، وجعلها تتجاوب معه فى تسبيحه وكأنه

(كورس) أو نشيد جماعى تتوافق فيه الأصوات ، وتتناغم بتسبيح الله تعالى ، ألم يقل الحق سبحانه فى آية أخرى : ﴿ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [سبأ]

أى : رَجِّعى معه وردِّدى التسبيح .

ومن ذلك أيضاً ما وهبه الله تعالى لنبيه سليمان عليه السلام من معرفة منطق الطير أى لغته ، فكان يسمع النملة وهى تخاطب بنى جنسها[1] ويفهم ما تريد ، وهذا فضل من الله يهبه لمَنْ يشاء من عباده ، لذلك لما فهم سليمان عليه السلام لغة النملة ، وفهم ما تريده من تحذير غيرها تبسم ضاحكاً :

﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى[2] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَالِدَىَّ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل]

إذن : لكل مخلوق من مخلوقات الله لغة ومنطق ، لا يعلمها ولا يفهمها إلا مَنْ يُيسِّر الله له هذا العلم وهذا الفهم .

وحينما نقرأ عن هذه القضية نجد بعض كُتَّاب السيرة مثلاً يقولون : سبَّح الحصى فى يد النبى ﷺ نقول لهم : تعبيركم هذا غير دقيق ، لأن الحصى يُسبِّح فى يده ﷺ كما يُسبِّح فى يد أبى جهل ، لكن الميزة أنه ﷺ سمع تسبيح الحصى فى يده ، وهذه من معجزاته ﷺ .

---

(١) وذلك أن سليمان عليه السلام عندما أتى على وادى النمل هو وجنوده من الجن والإنس والطير قالت نملة : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [النمل] .

(٢) أوزعه أن يفعل كذا : دفعه وحثَّه وأغراه ، أو ألهمه وأرشده . ومعنى قول سليمان عليه السلام: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴿١٩﴾ ﴾[النمل] أى : ألهمنى شكرك وادفعنى إليه وحبِّبْه إلىَّ .

والحق سبحانه يريد أنْ يلفتنا إلى حقيقة من حقائق الكون ، وهى كما أن لك حياة خاصة بك ، فاعلم أن لكل شىء دونك حياة أيضاً ، لكن ليستْ كحياتك أنت ، بدليل قول الحق سبحانه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص]

فكل ما يُطلق عليه شىء مهما قَلَّ فهو هالك ، والهلاك ضد الحياة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢) ﴾ [الأنفال] فدلَّ على أن له حياة تُناسبه .

ونعود إلى قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء]

فإن اهتدى الإنسان بفطرته إلى وجود الخالق سبحانه ، فمن الذى يُعْلمه بمرادات الخالق سبحانه منه ، إذن : لا بُدَّ من رسول يُبلِّغ عن الله ، ويُنبِّه الفطرة الغافلة عن وجوده تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) ﴾

الحق تبارك وتعالى فى هذه الآية يعطينا مثالاً لعاقبة الخروج عن منهج الله تعالى ؛ لأنه سبحانه حينما يُرسل رسولاً ليُبلِّغ منهجه إلى خَلْقه ، فلا عُذْرَ للخارجين عنه ؛ لأنه منهج من الخالق الرازق المنعم ، الذي يستحق منا الطاعة والانقياد . وكيف يتقلب الإنسان فى نعمة ربه ثم يعصاه ؟ إنه ردٌّ غير لائق للجميل ، وإنكار للمعروف الذى

يسوقه إليك ليل نهار ، بل فى كل نَفَسٍ من أنفاسك .

ولو كان هذا المنهج من عند البشر لكان هناك عُذْر لمَنْ خرج عنه ، ولذلك يقولون : « من يأكل لقمتى يسمع كلمتى » .

كما أن هذا المنعم سبحانه لم يفاجئك بالتكليف ، بل كلفك فى وقت مناسب ، فى وقت استوت فيه ملكاتُكَ وقدراتُكَ ، وأصبحتَ بالغاً صالحاً لحمل هذا التكليف ، فتركك خمسة عشر عاماً تربع فى نعمه وتتمتع بخيره ، فكان الأَوْلَى بك أن تستمع إلى منهج ربك ، وتُنفِّذه أمراً ونهياً ؛ لأنه سبحانه أوجدك من عدم وأمدَّك من عُدم .

والمتأمل فى قضية التكليف يرى أن الحق سبحانه أمر بعضنا أن يُكلِّف بعضاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا .. (١٣٢) ﴾ [طه]

وقد شرح لنا النبى ﷺ هذه القضية فقال : « مُرُوا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر »[١] .

وهذا التكليف وإنْ كان فى ظاهره من الأهل لأولادهم ، إلا أنه فى حقيقته من الله تعالى فهو الآمر للجميع ، ولكن أراد الحق سبحانه أن يكون التكليف الأول فى هذه السنّ من القريب المباشر المحسّ أمام الطفل ، فأبوه هو صاحب النعمة المحسّة حيث يوفر لولده الطعام والشراب ، وكل متطلبات حياته ، فإذا ما كلفه أبوه كان أَدْعَى إلى الانصياع والطاعة ؛ لأن الولد فى هذه السن المبكرة لا تتسع مداركه لمعرفة المنعم الحقيقى ، وهو الله تعالى .

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٩٥) ، وأحمد فى مسنده (٢/١٨٧) بلفظ « مروا أبناءكم » من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

لذلك أمر الأب أن يعوِّد ولده على تحمُّل التكليف وأن يعاقبه إنْ قصَّر ؛ لأن الآمر بالفعل هو الذى يُعاقب على الإهمال فيه . حتى إذا بلغ الولد سنَّ التكليف الحقيقى من المنعم الأعلى سبحانه كان عند الولد أُنْس بالتكليف وتعوُّد عليه ، وبذلك يأتى التكليف الإلهى خفيفاً على النفس مألوفاً عندها .

أما إن أخذتَ نعمَ الله وانصرفتَ عن منهجه فطغيْتَ بالنعمة وبغيتَ فانتظر الانتقام ، انتظر أَخْذه سبحانه وسنته التى لا تتخلف ولا تُردُّ عن القوم الظالمين فى الدنيا قبل الآخرة .

واعلم أن هذا الانتقام ضرورى لحفظ سلامة الحياة ، فالناس إذا رأوا الظالمين والعاصين والمتكبرين يرتعُونَ فى نعَم الله فى أمن وسلامة ، فسوف يُغريهم هذا بأن يكونوا مثلهم ، وأنْ يتخذوهم قدوة ومثلاً ، فيهم الفساد والظلم وينهار المجتمع من أساسه .

أما إنْ رأوْا انتقام الحق سبحانه من هؤلاء ، وشاهدوهم أذلاّء منكسرِينَ ، فسوف يأخذون منهم عبرة وعظة ، والعاقل مَنِ اعتبر بغيره ، واستفاد من تجارب الآخرين .

فالانتقام من الله تعالى لحكمة أرادها سبحانه وتعالى ، وكم رأينا من أشخاص وبلاد حاقَ بهم سوء أعمالهم حتى أصبحوا عبرةً ومُثْلة ، ومَنْ لم يعتبر كان عبرة حتى لمَنْ لم يؤمن ، وبذلك تعتدل حركة الحياة ، حيث يشاهد الجميع ما نزل بالمفسدين من خراب ودمار ، وإذا استقرأت البلاد فى نواحى العالم المختلفة لتيسَّر لك الوقوف على هذه السُّنة الإلهية فى بلاد بعينها ، ولاستطعْتَ أن تعزو ما حدث لها إلى أسباب واضحة من الخروج عن منهج الحق سبحانه .

وصدق الله حين قال : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً[1] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

وإياك أن تظن أن الحق سبحانه يمكن أن يهمل الفسقة والخارجين عن منهجه ، فلا بُدَّ أن يأتى اليوم الذى يأخذهم فيه أَخْذَ عزيز مُقْتدر ، وإلاَّ لكانت أُسْوة سيئة تدعو إلى الإفساد فى حركة الحياة .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً (١٦) ﴾ [الإسراء]

الآفة أن الذين يستقبلون نصَّ القرآن يفهمون خطأ أن ﴿ فَفَسَقُوا ﴾ مترتبة على الأمر الذى قبلها ، فيكون المعنى أن الله تعالى هو الذى أمرهم بالفسق ، وهذا فهم غريب لمعنى الآية الكريمة ، وهذا الأمر صادر من الحق سبحانه إلى المؤمنين ، فتعالوا نَرَ أوامر الله فى القرآن :

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. (٥) ﴾ [البينة]

﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ الْبَلْدَةِ .. (٩١) ﴾ [النمل]

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) ﴾ [يونس]

فأمْر الله تعالى لا يكون إلا بطاعة وخير ، ولا يأمر سبحانه بفسق أو فحشاء ، كما ذكر القرآن الكريم ، وعلى هذا يكون المراد من الآية : أمرنا مترفيها بطاعتنا وبمنهجنا ، ولكنهم خالفوا وعَصَوْا وفسقوا ؛ لذلك حَقَّ عليهم العذاب .

---

(١) رَغُد العيش : اتسع وطاب . يقول تعالى : ﴿ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا (٣٥) ﴾ [البقرة] . أى : أكلاً طيباً موسعاً عليكم فيه [القاموس القويم ١/٢٦٩] .

والأمر : طَلَب من الأعلى ، وهو الله تعالى إلى الأدنى ، وهم الخلْق طلب منهم الطاعة والعبادة ، فاستغلُّوا فرصة الاختيار ففسقوا وخالفوا أمر الله .

قوله : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً .. (١٦) ﴾ [الإسراء]

من الخطأ أن نفهم المعنى على أن الله أراد أولاً هلاكهم ففسقوا ؛ لأن الفهم المستقيم للآية أنهم فسقوا فأراد الله إهلاكهم . و ﴿ قَرْيَةً ﴾ أى أهل القرية .

وقوله : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ .. (١٦) ﴾ [الإسراء]

أى : وجب لها العذاب ، كما قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا .. (٣٣) ﴾ [يونس]

وقد أوجب الله لها العذاب لتسلَم حركة الحياة ، وليحمى المؤمنين من أذى الذين لا يؤمنون بالآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) ﴾ [الإسراء]

أى : خربناها ، وجعلناها أثراً بعد عَيْن ، وليستْ هذه هى الأولى ، بل إذا استقرأتَ التاريخ خاصة تاريخ الكفرة والمعاندين فسوف تجد قرى كثيرة أهلكها الله ولم يُبْقِ منها إلا آثاراً شاخصة شاهدة عليهم ، كما قال تعالى :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا (١٧) ﴾

فأيْن عـاد وثمود وقـوم لوط وقوم صالح ؟ إذن : فـالآية قضـية قولية ، لها من الواقع ما يُصدِّقها .

وقوله : ﴿مِنْ بَعْدِ نُوحٍ .. (١٧)﴾ [الإسراء]

دَلَّ على أن هذا الأخذ وهذا العذاب لم يحدث فـيما قبل نوح ؛ لأن الناس كانوا قريبى عَـهْد بخَلْق الله لآدم ـ عليه السلام ـ كـما أنه كان يُلقِّنهم معـرفة الله وما يضـمن لهم سلامة الحـياة ، أما بعد نوح فـقد ظهر الفســاد والكفر والجحود ، فنزل بهم العـذاب . الذى لم يسبق له مثيل .

قال تعـالى : ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ[1] (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)﴾ [الفجر]

ولنا وَقْفـة سريعة مع هذه الآيات من ســورة الفجر ، فقـد خاطب الحق ســبــحـانه رســوله ﷺ بقــوله : ﴿أَلَمْ تَرَ كَـيْفَ فَـعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦)﴾ [الفجر]

و ﴿ ألم تر ﴾ بمـعنى : ألم تعلم ؛ لأن النبى لم يـر ما فـعله الله بعاد ، فلماذا عدل السياق القرآنى عن : تعلم إلى تَرَ ؟

---

(١) الحجـر : العقل ، لأنه يمنع صاحـبه ويحجـزه عما لا يليق به . قـال تعالى : ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥)﴾ [الفجر] . أى : لصاحب عقل . [القاموس القويم ١/ ١٤٤] .

قالوا : لأن إعلام الله لرسوله أصدق من عينه ورؤيته ، ومثلها قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① ﴾ [الفيل]

حيث وُلِد رسول الله فى عام الفيل ، ولم يكن رأى شيئاً .

وفى آيات سورة (الفجر) ما يدلُّنا على أن حضارة عاد التى لا نكاد نعرف عنها شيئاً كانت أعظمَ من حضارة الفراعنة التى لفتتْ أنظار العالم كله ؛ ذلك لأن الحق تبارك وتعالى قال عن عاد : ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ⑧ ﴾ [الفجر]

أى : لا مثيلَ لها فى كل حضارات العالم ، فى حين قال عن حضارة الفراعنة : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ⑩ ﴾ [الفجر]

مجرد هذا الوصف فقط .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ .. ⑰ ﴾ [الإسراء]

كَمْ : تدل على كثرة العدد .

والقرون : جمع قرن ، وهو فى الاصطلاح الزمنى مائة عام ، ويُطلَق على القوم المقترنين معاً فى الحياة ، ولو على مبدأ من المبادىء ، وتوارثه الناس فيما بينهم .

وقد يُطلَق القرن على أكثر من مائة عام كما نقول : قرن نوح ، قرن هود ، قرن فرعون . أى : الفترة التى عاشها .

وقوله : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ⑰ ﴾ [الإسراء]

أى : أنه سبحانه غنىٌّ عن إخبار أحد بذنوب عباده ، فهو أعلم بها ، لأنه سبحانه لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء :
﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ[1] الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) ﴾ [غافر]

فلا يحتاج لمَنْ يخبره ؛ لأنه خبير وبصير ، هكذا بصيغة المبالغة .

وهنا قد يقول قائل : طالما أن الله تعالى يعلم كل شىء ، ولا تخفى عليه خافية ، فلماذا يسأل الناس يوم القيامة عن أعمالهم ؟

نقول : لأن السؤال يَرِدُ لإحدى فائدتين :

الأولى : كأنْ يسألَ الطالب أستاذه عن شىء لا يعلمه ، فالهدف أنْ يعلم ما جهل .

والأخرى : كأن يسأل الأستاذ تلميذه فى الامتحان ، لا ليعلم منه ، ولكن ليقرره بما علم .

وهكذا الحق سبحانه ـ ولله المثل الأعلى ـ يسأل عبده يوم القيامة عن أعماله ليقرره بها ، وليجعله شاهداً على نفسه ، كما قال : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (١٤) ﴾ [الإسراء]

وقوله تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ .. (١٧) ﴾ [الإسراء]

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) ﴾ [غافر] قال : الرجل يكون فى القوم ، فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها ، وإذا غفلوا لحظ إليها ، وإذا نظروا غض بصره عنها ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ودّ أنه ينظر إلى عورتها [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٧/٢٨٢] .

كما تقول : كفى بفلان كذا ، أى : أنك ترتضيه وتثقُ به ، فالمعنى : يكفيك ربك فلا تحتاج لغيره ، وقد سبق أنْ أوضحنا أن الله تعالى فى يده كل السلطات حينما يقضى : السلطة التشريعية ، والسلطة القضائية ، والسلطة التنفيذية ، وهو سبحانه غنىّ عن الشهود والبينة والدليل .

إذن : كفى به سبحانه حاكماً وقاضياً وشاهداً . ولأن الحق سبحانه خبير بصير بذنوب عباده ، فعقابه عَدْل لا ظلمَ فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا(١) مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ ﴾

الحق تبارك وتعالى قبل أن يخلق الإنسان الذى جعله خليفة له فى أرضه ، خلق له الكون كُلّه بما فيه ، وخلق له جميع مُقوّمات حياته ، ووالى عليه نعَمه إيجاداً من عدم ، وإمداداً من عُدم ، وجعل من مُقوّمات الحياة ما ينفعل له وإنْ لم يُطلب منه ، كالشمس والقمر والهواء والمطر ... الخ فهذه من مُقوّمات حياتك التى تُعطيك دون أنْ تتفاعلَ معها .

ومن مُقوّمات الحياة مَا لا ينفعل لك ، إلا إذا تفاعلتَ معه ،

---

(١) أصلاه الله النار : أدخله إياها . والصِّلاء : الشواء ، لأنه يُصلّى بالنار . [لسان العرب - مادة : صلا] .

كالأرض مثلاً لا تعطيك إلا إذا حرثتها ، وبذرت فيها البذور فتجدها قد انفعلتْ لك ، وأعطتْك الإنتاج الوفير .

والمتأمل فى حضارات البشر وارتقاءاتهم فى الدنيا يجدها نتيجة لتفاعل الناس مع مُقوّمات الحياة بجوارحهم وطاقاتهم ، فتتفاعل معهم مُقوِّمات الحياة ، ويحدث التقدم والارتقاء .

وقد يرتقى الإنسان ارتقاءً آخر ، بأن يستفيد من النوع الأول من مُقوّمات الحياة ، والذى يعطيه دون أنْ يتفاعل معه ، استفادة جديدة ، ومن ذلك ما توصّل إليه العلماء من استخدام الطاقة الشمسية استخدامات جديدة لم تكن موجودة من قبل .

إذن : فهذه نواميس فى الكون ، الذى يُحسن استعمالها تُعطيه النتيجة المرجوة ، وبذلك يُثرى الإنسان حياته ويرتقى بها ، وهذا ما أسْميناه سابقاً عطاء الربوبية الذى يستوى فيه المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ .. (١٨) ﴾ [الإسراء]

أى : عطاء الدنيا ومتعها ورُقيها وتقدّمها .

﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ .. (١٨) ﴾ [الإسراء]

أجبْنَاهُ لما يريد من متاع الدنيا .

ولا بُدَّ لنا أنْ نتنبه إلى أن عطاء الربوبية الذى جعله الله للمؤمن

والكافر ، قد يغفل عنه المؤمن ويترك مُقوّمات الحياة وأسبابها يستفيد منها الكافر ويتفاعل معها ويرتقى بها ، ويتقدم على المؤمن ، ويمتلك قُوته ورغيف عيشه ، بل وجميع متطلبات حياتهم ، ثم بالتالى تكون لهم الكلمة العليا والغلبة والقهر ، وقد يفتنونك عن دينك بما فى أيديهم من أسباب الحياة .

وهذا حال لا يليق بالمؤمن ، ومذلّة لا يقبلها الخالق سبحانه لعباده ، فلا يكفى أن نأخذ عطاء الألوهية من أمر ونهى وتكليف وعبادة ، ونغفل أسباب الحياة ومُقوّماتها المادية التى لا قِوامَ للحياة إلا بها .

فى حين أن المؤمن أَوْلَى بمقوّمات الحياة التى جعلها الخالق فى الكون من الكافر الذى لا يؤمن بإله .

إذن : فمن الدين ألاَّ تمكِّن أعداء الله من السيطرة على مُقوِّمات حياتك ، وألاَّ تجعلَهم يتفوقون عليك .

وقوله : ﴿مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ .. (١٨)﴾ [الإسراء]

أى : أن تفاعل الأشياء معك ليس مُطْلَقاً ، بل للمشيئة تدخُّلٌ فى هذه المسألة ، فقد تفعل ، ولكن لا تأخذ لحكمة ومراد أعلى ، فليس الجميع أمام حكمة الله سواء ، وفى هذا دليل على طلاقة القدرة الإلهية .

ومعنى ﴿مَا نَشَاءُ ..﴾ للمعجَّل و ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ للمعجَّل له .

وما دام هذا يريد العاجلة ، ويتطلع إلى رُقىٍّ الحياة الدنيا وزينتها ، إذن : فالآخرة ليستْ فى باله ، وليست فى حُسْبانه ؛ لذلك

لم يعمل لها . فإذا ما جاء هذا اليوم وجد رصيده صفْراً لا نصيبَ له فيها ؛ لأن الإنسان يأخذ أجره على ما قدّم ، وهذا قدَّم للدنيا وأخذ فيها جزاءه من الشهرة والرقىّ والتقدّم والتكريم .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

والسراب ظاهرة طبيعية يراها مَنْ يسير فى الصحراء وقت الظهيرة ، فيرى أمامه شيئاً يشبه الماء ، حتى إذا وصل إليه لم يجدْهُ شيئاً ، كذلك إنْ عمل الكافرُ خيراً فى الدنيا فإذا أتى الآخرة لم يجدْ له شيئاً من عمله ؛ لأنه أخذ جزاءه فى الدنيا .

ثم تأتى المفاجأة : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور]

لأن الله تعالى لم يكُنْ فى حُسْبانه حينما قدَّم الخير فى الدنيا .

وفى آية أخرى يَصفه القرآن بقوله : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨) ﴾ [إبراهيم]

فمرة يُشبِّه عمل الكافر بالماء الذى يبدو فى السراب ، ومرة يُشبِّهه بالرماد ؛ لأن الماء إذا اختلط بالرماد صار طيناً ، وهو مادة الخصْب والنماء ، وهو مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة .

ووصفه بقوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ[1] عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ

---

(١) الصفوان : الحجر الأملس . قال ابن سيده : الصفاة الحجر الصلد الضخم الذى لا ينبت شيئاً . [لسان العرب ـ مادة : صفا] .

فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

والحق تبارك وتعالى فى هذه الآية يُجسِّم لنا خَيْبة أمل الكافر فى الآخرة فى صورة مُحسَّة ظاهرة ، فمثَلُ عمل الكافر كحجر أملس أصابه المطر ، فماذا تنتظر منه ؟ وماذا وراءه من الخير ؟

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) ﴾ [الإسراء]

أى : أعددناها له ، وخلقناها من أجله يُقاسى حرارتها ﴿ مَذْمُوماً ﴾ أى : يذمُّه الناس ، والإنسان لا يُذَمّ إلا إذا ارتكب شيئاً ما كان يصحّ له أنْ يرتكبه .

و ﴿ مَّدْحُوراً (١٨) ﴾ [الإسراء] مطروداً من رحمة الله .

وبعد أنْ أعطانا الحق سبحانه صورة لمن أراد العاجلة وغفل عن الآخرة ، وما انتهى إليه من العذاب ، يعطينا صورة مقابلة ، صورة لمن كان أعقل وأكيس ، ففضَّل الآخرة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) ﴾

المتأمل فى أسلوب القرآن الكريم يجده عادة يُعطى الصورة ومقابلها ؛ لأن الشىء يزداد وضوحاً بمقابله ، والضِّد يظهر حُسْنه الضّد ، ونرى هذه المقابلات فى مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى

كما فى : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار]

وهنا يقول تعالى : ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ .. (١٩)﴾ [الإسراء] فى مقابل : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ .. (١٨)﴾ [الإسراء]

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا .. (١٩)﴾ [الإسراء]

أى : أراد ثوابها وعمل لها .

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ .. (١٩)﴾ [الإسراء]

لأن الإيمان شَرْط فى قبول العمل ، وكُلُّ سعى للإنسان فى حركة الحياة لابُدَّ فيه من الإيمان ومراعاة الله تعالى لكى يُقبَل العمل ، ويأخذ صاحبه الأجر يوم القيامة ، فالعامل يأخذ أجره ممَّنْ عمل له .

فالكفار الذين خدموا البشرية باختراعاتهم واكتشافاتهم ، حينما قدّموا هذه الإنجازات لم يكُنْ فى بالهم أبداً العمل لله ، بل للبشرية وتقدُّمها ؛ لذلك أخذوا حقهم من البشرية تكريماً وشهرة ، فأقاموا لهم التماثيل ، وألّفوا فيهم الكتب .. الخ .

إذن : انتهت المسألة : عملوا وأخذوا الأجر ممن عملوا لهم .

وكذلك الذى يقوم ببناء مسجد مثلاً ، وهذا عمل عظيم يمكن أن يُدخل صاحبه الجنة إذا توافر فيه الإيمان والإخلاص لله ، كما قال النبى ﷺ : « من بنى لله مسجداً ولو كمفحص[1] قطاة بنى الله له بيتاً فى الجنة »[2] .

---

(١) القطا : طائر سُمّى بذلك لثقل مَشْيه ، واحدته قطاة . ومفحص القطاة : حيث تُفرّخ فيه من الأرض . والفحص : شدة الطلب خلال كل شىء . والدجاجة تفحص برجليها وجناحيها فى التراب تتخذ لنفسها أفحوصة تبيض أو تجثم فيها [لسان العرب ـ مادة : فحص ، قطا] .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى سننه (٧٣٨) من حديث جابر بن عبد الله . قال البوصيرى فى الزوائد : « إسناده صحيح ، ورجاله ثقات » .

ولكن سرعان ما نقرأ على باب المسجد لافتة عريضة تقول : أنشأه فلان ، وافتتحه فلان ... الخ مع أنه قد يكون من أموال الزكاة !! وهكذا يُفسد الإنسان على نفسه العمل ، ويُقدم بنفسه ما يُحبطه ، إذن : فقد فعل ليقال وقد قيل . وانتهت القضية .

وقوله تعالى : ﴿فَأُوْلَـٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء]

وهذا جزاء أهل الآخرة الذين يعملون لها ، ومعلوم أن الشكر يكون لله استدراراً لمزيد نِعَمه ، كما قال تعالى : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم]

فما بالك إنْ كان الشاكر هو الله تعالى ، يشكر عبده على طاعته ؟

وهذا يدل على أن العمل الإيمانى يُصادف شُكْراً حتى من المخالف له ، فاللص مثلاً إنْ كان لديه شيء نفيس يخاف عليه ، فهل يضعه أمانة عند لصٍّ مثله ، أم عند الأمين الذى يحفظه ؟

فاللصّ لا يحترم اللص ، ولا يثق فيه ، فى حين يحترم الأمين مع أنه مخالف له ، وكذلك الكذاب يحترم الصادق ، والخائن يحترم الأمين .

ومن هنا كان كفار مكة رغم عدائهم للنبى ﷺ وكفرهم بما جاء به إلا أنهم كانوا يأتمنونه على الغالى والنفيس عندهم ؛ لأنهم واثقون من أمانته ، ويلقبونه « بالأمين » ، رغم ما بينهما من خلاف عقدىّ جوهرى ، فهم فعلاً يكذبونه ، أما عند حفْظ الأمانات فلن يغشُّوا أنفسهم ، لأن الأحفظ لأماناتهم محمد ﷺ[1] .

---

(١) حدث هذا عند هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، يقول ابن هشام فى السيرة النبوية (٤٨٥/٢) أن النبى ﷺ أمر عليًّ بن أبى طالب « أن يتخلف بعده بمكة ، حتى يؤدى عن رسول الله ﷺ الودائع ، التى كانت عنده للناس ، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يُعلم من صدقه وأمانته ﷺ » .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بشاهد الزور الذى تستعين بشهادته ليُخرجك من ورطة ، أو قضية ، فرغم أنه قضى لك حاجتك ، وأخرجك من ورطتك ، إلا أنه قد سقط من نظرك ، ولم يعُدْ أهلاً لثقتك فيما بعد .

لذلك قالوا : مَن استعان بك فى نقيصة فقد سقطْتَ من نظره ، وإنْ أعنْتَه على أمره كشاهد الزور ترتفع الرأس على الخصم بشهادته وتدوس القدم على كرامته .

ثم يقول الحق سبحانه عن كلا الفريقين :

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾

﴿ كُلاًّ ﴾ أى : كلاَ الفريقين السابقين : مَن أراد العاجلة ، ومَن أراد الآخرة : ﴿ نُمِدُّ هَـٰؤُلاءِ وَهَـٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : أن الله تعالى يمدُّ الجميع بمُقوِّمات الحياة ، فمنهم مَنْ يستخدم هذه المقومات فى الطاعة ، ومنهم مَنْ يستخدمها فى المعصية ، كما لو أعطيتَ لرجلين مالاً ، فالأول تصدّق بماله ، والآخر شرب بماله خمراً .

إذن : فعطاء الربوبية مددٌ ينال المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، أما عطاء الألوهية المتمثل فى منهج الله : افعل ولا تفعل ، فهو عطاء خاصٌّ للمؤمنين دون غيرهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : ممنوعاً عن أحد ؛ لأن الجميع خَلْقه تعالى ، المؤمن والكافر ، وهو الذى استدعاهم إلى الحياة ، وهو سبحانه المتكفّل لهم بمُقوّمات حياتهم ، كما تستدعى ضيفاً إلى بيتك فعليك أنْ تقومَ له بواجب الضيافة .

ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه اختار التعبير بقوله : ﴿ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ .. (٢٠) ﴾ [الإسراء]

لأن العطاء المراد هنا عطاء ربوبية ، وهو سبحانه ربّ كلّ شىء . أى : مُربّيه ومتكفّل به ، وشرف كبير أن يُنسبَ العطاء إلى الرب تبارك وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١) ﴾

الحق تبارك وتعالى أعطانا قضايا إيمانية نظرية ، ويريد منّا أنْ ننظر فى الطبيعة والكون ، وسوف نجد فيه صدْق ما قال .

يقول تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٢١) ﴾ [الإسراء]

والمتأمل يجد أن الله تعالى جعل التفضيل هنا عاماً ، فلم يُبيِّن مَن المفضَّل ومَن المفضّل عليه ، فلم يقُلْ : فضلت الأغنياء على الفقراء ، أو : فضلت الأصحاء على المرضى .

إذن : فما دام فى القضية عموم فى التفضيل ، فكلٌّ بعض مُفضَّل

فى جهـة ، ومُفـضّل عليه فى جـهة أخـرى ، لكن الناس ينظرون إلى جهة واحدة فى التفضيل ، فيفضلون هذا لأنه غنى ، وهذا لأنه صاحب منصب .. الخ .

وهذه نظرة خاطئـة فيجب أن ننظر للإنسان من كُلِّ زوايا الـحياة وجـوانبهـا ؛ لأن الحق سـبـحانه لا يـريدنا نماذج مكـررة ، ونُسَخـاً مُعَـادة ، بل يُريدنا أنَاساً متكاملين فى حـركة الحيـاة ، ولو أن الواحد منّا أصبح مَجْـمعاً للمواهب مـا احتاج فينا أحدٌ لأحـد ، ولتقطعت بيننا العلاقات .

فـمن رحمـة الله أن جعلـك مُفـضّلاً فى خَـصْـلة ، وجـعل غيـرك مُفضّلاً فى خصال كثيرة ، فأنت مـحـتاج لغيرك فيما فُضِّل فيه ، وهم مـحـتـاجـون إليك فـيـما فُـضِّلْتَ فـيـه ، ومن هنا يحـدث التكامل فى المجتمع ، وتسلَمُ للناس حركة الحياة .

ونستطيـع أن نخرج من هذه النظرة بقـضية فلسـفيـة تقول : إن مجمـوع مواهب كل إنسان تسـاوى مجموع مواهب كـل إنسان ، فإنْ زدْتَ عنى فى المـــال فـربمـا أزيد عـنك فى الصـحـة ، وهـكذا تكون المحصّلة النهائية متساوية عند جميع الناس فى مواهب الدنيا ، ويكون التفاضل الحقيقى بينهم بالتقوى والعمل الصالح ، كما قال تعالى :

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ [الحجرات]

لذلك يجب على المـسلم أن يلتـزمَ أدب الإسـلام فى حـفْظ مكانة الآخرين ، فمهـما كنت مُفضّلاً فلا تحتقـر غيرك ، واعلم أنَ لهم أيضاً ما يفضلون به ، وسوف يأتى اليوم الذى تحتاج إليهم فيه .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بالعظيم الوجيه الذى قد تضطره الظروف وتُحوِجه لسباك أو عامل بسيط ليؤدى له عملاً لا يستطيع هو القيام به ، فالعامل البسيط فى هذا الموقف مُفضّل على هذا العظيم الوجيه . ولك أنْ تتصورَ الحال مثلاً إذا أضرب الكناسون عدة أيام عن العمل . إذن : مهما كان الإنسان بسيطاً ، ومهما كان مغموراً فإن له مهمة يفضّل بها عن غيره من الناس .

خُذ الخياط مثلاً ، وهو صاحب حرفة متواضعة بين الناس ، ولا يكاد يُجيد عملاً إلا أن يخيطَ للناس ثيابهم ، فإذا ما كانت ليلة العيد وجدته من أهم الشخصيات ، الجميع يقبلون عليه ، ويتمنون أن يتكرم عليهم ويقضى حاجتهم من خياطة ثيابهم وثياب أولادهم .

وبهذا نستطيع أن نفهم قَوْل الحق تبارك وتعالى : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ[1] فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا[2] وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)﴾ [الزخرف]

فكل منا مُسخَّر لخدمة الآخرين فيما فُضِّل فيه ، وفيما نبغ فيه .

وصدق الشاعر حين قال :

النَّاسُ لِلناسِ مِنْ بَدْوٍ ومِنْ حَضَرٍ بَعْضٌ لبعْضٍ وإن لم يشعروا خَدَمُ

إذن : فى التفاضل يجب أن ننظر إلى زوايا الإنسان المختلفة ؛

---

(١) قال قتادة : فتلقاه ضعيف الحيلة ، عيِيّ اللسان ، وهو مبسوط له فى الرزق ، وتلقاه شديد الحيلة سليط اللسان وهو مقتور عليه . [الدر المنثور ٣٧٥/٧] .

(٢) سخره يسخره : أذله وقهره وأخضعه . [القاموس القويم ٣٠٦/١] .

لأن الجميع أمام الله سواء ، ليس منّا مَن هو ابن لله ، وليس منّا مَنْ بينه وبين الله نسَبٌ أو قرابة ، ولا تجمعنا به سبحانه إلا صلة العبودية له عز وجل ، فالجميع أمام عطائه سواء ، لا يوجد أحد أَوْلَى من أحد .

فالعاقل حين ينظر فى الحياة لا ينظر إلى تميُّزه عن غيره كموهبة ، بل يأخذ فى اعتباره مواهب الآخرين ، وأنه محتاج إليها ، وبذلك يندكّ غروره ، ويعرف مدى حاجته لغيره . وكما أنه نابغ فى مجال من المجالات ، فغيره نابغ فى مجال آخر ؛ لأن النبوغ يأتى إذا صادف العمل الموهبة ، فهؤلاء البسطاء الذين تنظر إليهم نظرة احتقار ، وترى أنهم دونك يمكن أن يكونوا نابغين لو صادف عملهم الموهبةَ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١) ﴾ [الإسراء]

فإنْ كان التفاضل بين الناس فى الدنيا قائماً على الأسباب المخلوقة لله تعالى ، فإن الأمر يختلف فى الآخرة ؛ لأنها لا تقوم بالأسباب ، بل بالمسبب سبحانه ، فالمفاضلة فى الآخرة على حسبها .

ولو تأملتَ حالك فى الدنيا ، وقارنتَه بالآخرة لوجدتَ الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ، فعمرك فى الدنيا موقوت ، وسينتهى إلى الموت ؛ لأن عمرك فى الدنيا مدة بقائك فيها ، فإنْ بقيتْ من بعدك فهى لغيرك ، وكذلك ما فُضِّلْتَ به من نعيم الدنيا عُرْضَة للزوال ، حيث تناله الأغيار التى تطرأ على الإنسان .

فالغنيّ قد يصير فقيراً ، والصحيح سقيماً ، كما أن نعيم الدنيا على قَدْر إمكانياتك وتفاعلك مع الأسباب ، فالدنيا وما فيها من نعيم غير مُتيقّنة وغير موثوق بها .

وهَبْ أنك تنعَّمْتَ في الدنيا بأعلى درجات النعيم ، فإن نعيمك هذا يُنغِّصه أمران : إما أن تفوت هذا النعيم بالموت ، وإما أنْ يفوتك هو بما تتعرّض له من أغيار الحياة .

أما الآخرة فعمرك فيها مُمتدّ لا ينتهي ، والنعمة فيها دائمة لا تزول ، وهي نعمة لا حدودَ لها ؛ لأنها على قَدْر إمكانيات المنعِم عز وجل ، في دار خلود لا يعتريها الفناء ، وهي مُتيقنة موثوق بها .

فأيهما أفضل إذن ؟ لذلك الحق سبحانه يدعونا إلى التفكُّر والتعقُّل :

﴿ انْظُرْ ﴾ أيَّ الصفقتين الرابحة ، فتاجر فيها ولا ترضى بها بديلاً .

إذن : فالآخرة أعظم وأكبر ، ولا وجهَ للمقارنة بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة . وأذكر أننا سافرنا مرة إلى (سان فرانسيسكو) فأدخلونا أحد الفنادق ، لا للإقامة فيه ، ولكن لمشاهدة ما فيه من روعة وجمال ومظاهر الرقي والرفاهية .

وفعلاً كان هذا الفندق آية من آيات الإبداع والجمال ، فرأيتُ رفاقي وكانوا من علية القوم مبهورين به ، مأخوذين بروعته ، فقلت لهم عبارة واحدة : هذا ما أعد البشر للبشر ، فكيف بما أعدّه ربُّ البشر للبشر ؟

فنعيم الدنيا ومظاهر الجمال فيها يجب أنْ تثير فينا الشوق لنعيم دائم فى الجنة ؛ لا أنْ يثير فينا الحقد والحسد ، يجب أن نأخذ من مظاهر الترف والنعيم عند الآخرين وسيلة للإيمان بالله ، وأن نُصعِّد هذا الإيمان بالفكر المستقيم ، فإنْ كان ما نراه من ترف وتقدم ورُقىّ وعمارة فى الدنيا من صُنْع مهندس أو عامل ، فكيف الحال إنْ كان الصانع هو الخالق سبحانه وتعالى ؟

ويجب ألاَّ نغفلَ الفرْق بين نعيم الدنيا الذى أعدّه البشر ونعيم الآخرة الذى أعدّه الله تعالى ، فقصارى ما توصل إليه الناس فى رفاهية الخدمة أن تضغط على زر فيأتى لك منه الشاى مثلاً ، وتضغط على زر آخر فيأتى لك منه القهوة .

وهذه آلة تستجيب لك إنْ تفاعلتَ معها ، لكن مهما ارتقى هؤلاء ، ومهما تقدَّمت صناعتهم فلن يصلوا إلى أنْ يقدموا لك الشىء بمجرد أن يخطر على بالك ؛ لأن هذا من نعيم الجنة الذى أعده الخالق سبحانه لعباده الصالحين[(١)] .

إذن : فما دام الأمر كذلك ، وسلَّمنا بأن الآخرة أفضل وأعظم ، فما عليك إلاَّ أنْ تبادر وتأخذ الطريق القويم ، وتسلك طريق ربك من أقصر اتجاه ، وهو الاستقامة على منهج الله الواحد والالتزام به .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال قال الله عز وجل : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » مصداق ذلك فى كتاب الله ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة] .

لأنه سبحانه أعطاك فى الدنيا ، وأمدّك بالأسباب ، وبمقوّمات حياتك ، أوجدك من عدم ، وأمدك من عُدْم ، حتى وإنْ كنت كافراً ، ثم أعدَّ لك فى الآخرة الدرجات العالية والنعيم المقيم الذى لا يَفْنى ولا يزول .

وهذه هى الحيثيات التى ينبغى عليك بعدها أن تعرفه سبحانه ، وتتوجّه إليه ، وتلتحم به وتكون فى معيته ، ولا تجعل معه سبحانه إلهاً آخر ؛ لأنك إنْ فعلتَ فلن تجد من هذا النعيم شيئاً ، لن تجد إلا المذمّة والخُذْلان فى الدنيا والآخرة .

وسوف تُفَاجأ فى القيامة بربك الذى دعاك للإيمان به فكفرْتَ .

﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور]

ساعتها ستندم حين لا ينفعك الندم ، بعد أن ضاعت الفرصة من يديك.

ويقول تعالى : ﴿ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً (٢٢) ﴾ [الإسراء]

والقعود ليس أمراً عادياً هنا ، بل هو أنكَى ما يصير إليه الإنسان ؛ لأن الإنسان لا يقعد إلا إذا أصبح غيرَ قادر على القيام ، ففيها ما يُشعر بإنهاك القوة ، وكأنه سقط إلى الأرض ، بعد أنْ أصبحتْ رِجلاه غير قادرتين على حَمْله ، ولم تَعُد به قوة للحركة .

ونلاحظ فى تعبير القرآن عن هذا الذى خارتْ قواه ، وانتهت تماماً ، أنه يختار له وَضْع القعود خاصة ، ولم يَقُلْ مثلاً : تنام ، لأن العذاب لا يكون مع النوم ، ففى النوم يفقد الإنسان الوعى فلا يشعر بالعذاب ، بل قال ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ هكذا شاخص يُقاسى العذاب ؛ لأن العذاب ليس للجوارح والمادة ، بل للنفس الواعية التى تُحِسّ وتألم .

ولذلك يلجأ الأطباء إلى تخدير المريض قبل إجراء العمليات الجراحية ؛ لأن التخدير يُفقده الوعى فلا يشعر بالألم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) ﴾ [النساء]

وقال : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ[1] مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا .. (٦٠) ﴾[النور]

فالقعود يدل على عدم القدرة ، وفى الوقت نفسه لا يرتاح بالنوم ، فهو فى عذاب مستمر .

وفى مجال الذم قال الشاعر :

دَعِ المكَارِمَ لاَ ترحَل لِبُغْيَتِهَا ... وَاقْعُدْ فإنكَ أنتَ الطَّاعِمُ الكَاسى

وقوله : ﴿ مَذْمُومًا .. (٢٢) ﴾ [الإسراء] لأنه أتى بعمل يذمه الناس عليه .

﴿ مَّخْذُولاً (٢٢) ﴾ [الإسراء] من الخذلان ، وهو عدم النُّصْرة ، فالأبعد فى موقف لا ينصره فيه أحد ، ولا يدافع عنه أحد ، لذلك يقول تعالى لهؤلاء : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ(٢٦) ﴾ [الصافات]

ثم ينتقل بنا الحق سبحانه إلى قضية يعطينا فيها نوعاً من الاستدلال ، فيقول سبحانه :

---

(١) القواعد من النساء : هن اللواتى انقطع عنهن الحيض ويئسن من الولد . ولم يبق لهن تشوّف إلى التزوج . نقله ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٠٤) عن سعيد بن جبير ومقاتل ابن حيان والضحاك وقتادة .

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾[1]

بعد أنْ وجَّهنا الله تعالى إلى القضية العقدية الكبرى : ﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإسراء]

أراد سبحانه أنْ يُبيِّن لنا أن العقيدة والإيمان لا يكتملان إلا بالعمل ، فلا يكفى أن تعرف الله وتتوجَّه إليه ، بل لا بُدَّ أنْ تنظر فيما فرضه عليك ، وفيما كلَّفك به ؛ لذلك كثيراً ما نجد فى آيات الكتاب الكريم الجمع بين الإيمان والعمل الصالح ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر]

لأن فائدة الإيمان وثمرته العمل الصالح ، وما دُمْتَ ستسلك هذا الطريق فانتظر مواجهة أهل الباطل والفساد والضلال ، فإنهم لن يدعُوك ولن يُسالموك ، ولا بُدّ أن تُسلِّح نفسك بالحق والقوة والصبر ، لتستطيع مواجهة هؤلاء .

ودليل آخر على أن الدين ليس الإيمان القوليّ فقط ، أن كفار مكة لم يشهدوا أن لا إله إلا الله ، فلو كانت المسألة مسألةَ الإيمان بإله واحد وتنتهى القضية لكانوا قالوها وشهدوا بها ، إنما هم يعرفون

---

(١) قضى : أى : أمر وألزم وأوجب . قال ابن عباس والحسن وقتادة : وليس هذا قضاء حكم بل هو قضاء أمر . [تفسير القرطبى ٥/٣٩٦٥] .

تماماً أن للإيمان مطلوباً ، ووراءه مسئولية عملية ، وأن من مقتضى الإيمان بالله أن تعمل بمراده وتأخذ بمنهجه .

ومن هنا رفضوا الإيمان بإله واحد ، ورفضوا الانقياد لرسوله ﷺ الذى جاء ليُبلغهم مراد الله تعالى ، وينقل إليهم منهجه ، فمنهج الله لا ينزل إلا على رسول يحمله ويُبلّغه للناس ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) ﴾ [الشورى]

وها هى أول الأحكام فى منهج الله : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٢٣) ﴾ [الإسراء]

وقد آثر الحق سبحانه الخطاب بـ ﴿ رَبُّكَ ﴾ على لفظ (الله) ؛ لأن الربَّ هو الذى خلقك وربَّاك ، ووالى عليك بنعمه ، فهذا اللفظ أدْعَى للسمع والطاعة ، حيث يجب أن يخجل الإنسان من عصيان المنعم عليه وصاحب الفضل .

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ .. (٢٣) ﴾ [الإسراء]

الخطاب هنا مُوجّه إلى النبى محمد ﷺ ؛ لأنه هو الذى بلغ المرتبة العليا فى التربية والأدب ، وهى تربية حقّة ؛ لأن الله تعالى هو الذى ربّاه ، وأدَّبه أحسن تأديب .

وفى الحديث الشريف : « أدّبنى ربى فأحسن تأديبى »[1] .

---

(١) قال عبد الرحمن بن على الشافعى الشيبانى فى كتابه « تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث » (ص ١٧) عن هذا الحديث : « أخرجه العسكرى فى الأمثال عن على رضى الله عنه مرفوعاً فى حديث طويل . قال شيخنا : سنده ضعيف . ولكن معناه صحيح » .

قضى : معناها : حكم ؛ لأن القاضى هو الذى يحكم ، ومعناها أيضاً : أمر ، وهى هنا جامعة للمعنيين ، فقد أمر الله ألاَّ تعبدوا إلا إيَّاه أمراً مؤكداً ، كأنه قضاء وحكم لازم .

وقد تأتى قضى بمعنى : خلق . كما فى قوله تعالى : ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ .. (١٢)﴾ [فصلت]

وتأتى بمعنى : بلغ مراده من الشيء ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا[1] زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧)﴾ [الأحزاب]

وقد تدل على انتهاء المدة كما فى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ.. (٢٩)﴾ [القصص]

وتأتى بمعنى : أراد كما فى : ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٦٨)﴾ [غافر]

إذن : قضى لها معانٍ مُتعدِّدة ، لكن تجتمع كلها لتدل على الشيء اللازم المؤكّد الذى لا نقصَ فيه .

وقوله : ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٢٣)﴾ [الإسراء]

العبادة : هى إطاعة آمر فى أمره ونهيه ، فتنصاع له تنفيذاً للأمر ، واجتناباً للنهى ، فإنْ تركَ لك شيئاً لا أمرَ فيه ولا نهىَ فاعلم أنه ترك لك الاختيار ، وأباح لك : تفعل أو لا تفعل .

---

(١) الوطر : الحاجة التى يعتنى بها الإنسان ويهتم لها وإذا بلغها قيل إنه قضى وطره ، أى : حقق رغبته وقضى حاجته وانتهى من أمرها . ومعنى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] . أى : فلما طلقها ولم يعد بحاجة لها . [القاموس القويم ٢/٣٤٣] .

لذلك ، فالكفار الذين عبدوا الأصنام والذين أتوا بها حجارةً من الصحراء ، وأعملوا فيها المعاول والأدوات لينحتوها ، وتكسرت منهم فعالجوها ، ووقعت فأقاموها ، وهم يرون كم هى مهينة بين أيديهم لدرجة أن أحدهم رأى الثعلب يبول برأس أحد الأصنام فقال مستنكراً حماقة هؤلاء الذين يعبدونها :

أَرَبٌّ يبولُ الثُّعلَبانُ برأسِهِ ... لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ علَيْه الثَّعَالِبُ

فإذا ما تورطوا فى السؤال عن آلهتهم هذه قالوا : إنها لا تضر ولا تنفع ، وما نعبدها إلا ليقربونا إلى الله زُلْفى ، كيف والعبادة طاعة أمر واجتناب نهى . فبأىّ شىء أمرتكم الأصنام ؟ وعن أىّ شىء نهتْكُمْ ؟! إذن : كلامُكم كذب فى كذب .

وفى قوله تعالى : ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٢٣) ﴾ [الإسراء]

أسلوب يسمونه أسلوب قَصْر ، يفيد قصر العبادة وإثباتها لله وحده ، بحيث لا يشاركه فيها أحد . فلو قالت الآية : وقضى ربك أن تعبدوه .. فلقائل أن يقول : ونعبد غيره لأن باب العطف هنا مفتوح لم يُغلَق ، كما لو قُلْت : ضربتُ فلاناً وفلاناً وفلاناً .. هكذا باستخدام العطف . إنما لو قلت : ما ضربت إلا فلاناً فقد أغلقتَ باب العطف .

إذن : جاء التعبير بأسلوب القصر ليقول : اقصروا العبادة عليه سبحانه ، وانفوها عن غيره .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى التكليف والأمر الثانى بعد عبادته : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٢٣) ﴾ [الإسراء]

وقد قرن الله تعالى بين عبادته وبين الإحسان إلى الوالدين فى

آيات كثيرة ، قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٣٦) ﴾ [النساء]

وقال : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

وقال : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا .. (٨) ﴾ [العنكبوت]

لكن ، لماذا قرن الله تعالى بين عبادته وبين الإحسان إلى الوالدين ؟ أتريد أن نقرب الأولى بالثانية ، أم نقرب الثانية بالأولى ؟

نقول : لا مانع أن يكون الأمران معاً ؛ لأن الله تعالى غَيْب ، والإيمان به يحتاج إلى إعمال عقل وتفكير ، لكن الوالدين بالنسبة للإنسان أمر حسيّ ، فهما سِرُّ وجوده المباشر ، وهما رَبَّياه ووفَّرا له كل متطلبات حياته ، وهما مصدر العطف والحنان .

إذن : التربية والرعاية في الوالدين مُحسَّة ، أما التربية والرعاية من الله فمعقولة ، فأمْر الله لك بالإحسان إلى الوالدين دليل على وجوب عبادة الله وحده لا شريك له ، فهو سبحانه الذي خلقك ، وهو سبب وجودك الأول ، وهو مُربِّيك وصاحب رعايتك ، وصاحب الفضل عليك قبل الوالدين ، وهل رباك الوالدان بما أوجداه هما ، أم بما أوجده الله سبحانه ؟

إذن : لابد أن يلتحم حَقُّ الله بحقِّ الوالدين ، وأن نأخذ أحدهما دليلاً على الآخر .

ونلاحظ أن الحق تبارك وتعالى حين أمرنا بعبادته جاء بأسلوب النفي : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا .. (٢٣) ﴾ [الإسراء]

يعنى نهانا أن نعبد غيره سبحانه ، أما حين تكلم عن الوالدين فلم يقل مثلاً : لا تسيئوا للوالدين ، فيأتى بأسلوب نفى كسابقه ، لماذا ؟

قالوا : لأن فضل الوالدين واضح لا يحتاج إلى إثبات ، ولا يحتاج إلى دليل عقلىّ ، وقولك : لا تسيئوا للوالدين يجعلهما مَظنَّة الإساءة ، وهذا غير وارد فى حَقّهما ، وغير مُتصوَّر منهما ، وأنت إذا نفيتَ شيئاً عن مَنْ لا يصح أن ينفى عنه فقد ذَمَمْته ، كأن تنفى عن أحد الصالحين المشهورين بالتقوى والورع ، تنفى عنه شرب الخمر مثلاً فهل هذا فى حقه مدح أم ذم ؟

لأنك ما قلتَ : إن فلاناً لا يشرب الخمر إلا إذا كان الناس تظنّ فيه ذلك . ومن هنا قالوا : نَفْى العيب عَمَّنْ لا يستحق العيب عَيْب .

إذن : لم يذكر الإساءة هنا ؛ لأنها لا تَرِد على البال ، ولا تُتصوّر من المولود لوالديه .

وبعد ذلك ، ورغم ما للوالدين من فضل وجميل عليك فلا تنسَ أن فضل الله عليك أعظم ؛ لأن والديك قد يكِدانِك ويُسْلِمانك إلى الغير ، أما ربك فلن يُسلمك إلى أحد .

وقوله تعالى : ﴿ إِحْسَانًا .. (٢٣) ﴾ [الإسراء]

كأنه قال : أحْسِنوا إليهم إحساناً ، فحذف الفعل وأتى بمصدره للتأكيد .

وقوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا[1] وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) ﴾ [الإسراء]

---

(١) نهر وانتهر : زَجَر . والانتهار : الزجر ، واستقباله بكلام تزجره به . [لسان العرب ـ مادة : نهر] بتصرف .

الحق سبحانه وتعالى حينما يوصينا بالوالدين ، مرة تأتى الوصية على إطلاقها ، كما قال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف]

ومرّة يُعلّل لهذه الوصية ، فيقول : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ .. (١٤) ﴾ [لقمان]

والذى يتأمل الآيتين السابقتين يجد أن الحق سبحانه ذكر العلّة فى برِّ الوالدين ، والحيثيات التى استوجبت هذا البرّ ، لكنها خاصة بالأم ، ولم تتحدث أبداً عن فضل الأب ، فقال : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف]

وقال : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ .. (١٤) ﴾ [لقمان]

فأين دَوْر الأب ؟ وأين مجهوداته طوال سنين تربية الأبناء ؟

المتتبع لآيات بر الوالدين يجد حيثية مُجْملة ذكرت دور الأب والأم معاً فى قوله تعالى : ﴿ كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا .. (٢٤) ﴾ [الإسراء]

لكن قبل أن يُربّى الأب ، وقبل أن يبدأ دوره كان للأم الدور الأكبر ؛ لذلك حينما تخاصم الأب والأم لدى القاضى على ولد لهما ، قالت الأم : لقد حمله خِفّاً وحملتُه ثقلاً ، ووضعه شهوة ووضعتُه كرهاً .

لذلك ذكر القرآن الحيثيات الخاصة بالأم ؛ لأنها تحملتها وحدها لم يشاركها فيها الزوج[1] ؛ ولأنها حيثيات سابقة لإدراك الابن فلم

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٦٧) : « وذلك أن صعوبة الحمل ، وصعوبة الوضع ، وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم دون الأب ، فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب » .

يشعر بها ، فكأنه سبحانه وتعالى أراد أنْ يُذكّرنا بفضل الأم الذى لم ندركه ولم نُحِسّ به .

وذلك على خلاف دور الأب فهو محسوس ومعروف للابن ، فأبوه الذى يوفر له كل ما يحتاج إليه ، وكلما طلب شيئاً قالوا : حينما يأتى أبوك ، فدَوْر الأب ـ إذن ـ معلوم لا يحتاج إلى بيان .

والآية هنا أوصتْ بالوالدين فى حال الكِبَر ، فلماذا خَصَّتْ هذه الحال دون غيرها ؟

قالوا : لأن الوالدين حال شبابهما وقُوتهما ليسا مظنّة الإهانة والإهمال ، ولا مجال للتأفف والتضجُّر منهما ، فهما فى حال القوة والقدرة على مواجهة الحياة ، بل العكس هو الصحيح نرى الأولاد فى هذه الحال يتقربون للآباء ، ويتمنون رضاهما ، لينالوا من خيرهما .

لكن حالة الكِبَر ، ومظهر الشيخوخة هو مظهر الإعالة والحاجة والضعف ، فبعد أنْ كان مُعْطياً أصبح آخذاً ، وبعد أنْ كان عائلاً أصبح عالة .

لذلك ، فالنبى ﷺ فى حديث الآمينات والمراغم ، وكان على المنبر ، فسمعه الصحابة يقول : آمين . ثم سكت برهة . وقال : آمين وسكت . ثم قال : آمين . فلما نزل قالوا : يا رسول الله سمعناك تقول : آمين ثلاثاً . فقال :

جاءنى جبريل فقال : رغم أنف مَنْ ذُكرْتَ عنده ولم يُصلّ عليك ، قل : آمين . فقلت : آمين ، ورغم أنف مَنْ أدرك رمضان فلم يُغفر له ، قل : آمين . فقلت : آمين ، ورغم أنف مَنْ أدرك والديه ـ

أو أحدهما ـ فلم يدخل بهما الجنة ، قل : آمين . فقلت : آمين »[(١)] .

فخصَّ الحق سبحانه حال الكِبَر ، لأنه حال الحاجة وحال الضعف ؛ لذلك قال أحد الفلاسفة : خَيْر الزواج مبكره ، فلما سُئل قال : لأنه الطريق الوحيد لإنجاب والد يعولك في طفولة شيخوختك ، وشبَّه الشيخوخة بالطفولة لأن كليهما في حال ضعف وحاجة للرعاية والاهتمام .

وصدق الحق سبحانه حين قال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً .. (٥٤) ﴾ [الروم]

فَمَنْ تزوّج مبكراً فسوف يكون له من أولاده مَنْ يُعينه ويساعده حال كِبَره .

والمتأمل في قوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ .. (٢٣) ﴾ [الإسراء]

لم تَأت صفَة الكِبَر على إطلاقها ، بل قيّدها بقوله : ﴿ عِنْدَكَ ﴾ فالمعنى : ليس لهما أحد غَيرك يرعاهما ، لا أخ ولا أخت ولا قريب يقوم بهذه المهمة ، وما دام لم يَعُدْ لهما غيرك فلتكُنْ على مستوى المسئولية ، ولا تتنصَّل منها ؛ لأنك أَوْلى الناس بها .

ويمتد البِرُّ بالوالدين إلى ما بعد الحياة بالاستغفار لهما ، وإنجاز ما أحدثاه من عهد ، ولم يتمكّنا من الوفاء به ، وكذلك أن نصِلَ الرحم

---

(١) أخرج أحمد في مسنده (٢/٣٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال ﷺ : « رغم أنف ، رغم أنف ، رغم أنف رجل أدرك والديه ، أحدهما أو كلاهما عنده الكبر لم يدخله الجنة » . وأخرجه بطوله دون ذكر جبريل ، الترمذي في سننه (٣٥٤٥) وقال : حديث حسن غريب .

التى لا تُوصَل إلا بهما من قرابة الأب والأم ، ونَصِلَ كذلك أصدقاءهما وأحبابهما ونَودّهم .

وقد كان ﷺ يودّ صاحبات السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ وكان يستقبلهن ويكرمهن[1] .

وانظر إلى سُمُوّ هذا الخلق الإسلامى ، حينما يُعدِّى هذه المعاملة حتى إلى الكفار ، فقد جاءت السيدة أسماء إلى رسول الله ﷺ تسأله فى أمها التى أتتْها ، وأظهرت حاجة مع أنها كافرة ، فقال لها : « صِلِى أمك »[2] .

بل وأكثر من ذلك ، إنْ كان الوالدان كافرين ليس ذلك فحسب بل ويدعوان الابن إلى الكفر ، ويجاهدانه عليه ، ومع هذا كله يقول الحق سبحانه : ﴿ **وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا** .. ﴿١٥﴾ ﴾ [لقمان]

فهذه ارتقاءات ببرّ الوالدين تُوضّح عظمة هذا الدين ورحمة الخالق سبحانه بالوالدين حتى فى حال كفرهما ولَدَدهما[3] فى الكفر .

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : استأذنت هالة بنت خويلد ، أخت خديجة ، على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة ، فارتاح لذلك ، فقال : « اللهم هالة بنت خويلد » فغرت فقلت : وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين ، هلكت فى الدهر ، فأبدلك الله خيراً منها . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٤٣٧) وفى حديث آخر (٢٤٣٤) أنه كان إذا ذبح شاة قال : « أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة » .

(٢) عن أسماء بنت أبى بكر قالت : قدمت علىّ أمى وهى مشركة فى عهد قريش إذ عاهدهم ، فاستفتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله قدمت علىّ أمى وهى راغبة ، أفأصل أمى ؟ قال : نعم . صلى أمك » . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٠٣) والبخارى فى صحيحه (٥٩٧٩) .

(٣) اللدد : العداوة الشديدة . والشديد الخصومة . [لسان العرب ـ مادة : لدد] .

ويُرْوَى أن خليل الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ جاءه ضيف بليل ، وأراد أن ينزل فى ضيافته ، فسأله إبراهيم ـ عليه السلام ـ عن دينه فقال : مجوسى فأعرض عنه وتركه يذهب . فَسرْعان ما أوحى الحق سبحانه إلى إبراهيم مُعاتباً إياه فى أمر هذا الضيف : يا إبراهيم لقد وَسعْتُه فى ملكى أعواماً عديدة ، أطعمه وأسقيه وأكسوه وهو كافر بى ، وأنت تُعرض عنه وتريد أنْ تُغيِّر دينه من أجل ليلة يبيتها عندك . فأسرع الخليل خلف الضيف حتى لحق به ، وحكى له ما حدث ، فقال الرجل . نِعْم الرب ربٌّ يعاتب أحبابه فى أعدائه ، وشهد أن لا إله إلا الله ، وأن إبراهيم رسول الله .

وقد رأى المستشرقون لضيق أُفُقهم وقلّة فِقْههم لأسلوب القرآن الكريم ، رأَوْا تناقضاً بين قوله تعالى : ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا.. (١٥)﴾ [لقمان]

وبين قوله تعالى : ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ.. (٢٢)﴾ [المجادلة]

فكيف يأمر القرآن بمصاحبة الوالدين وتقديم المعروف لهما ، فى حين ينهى عن مودّة مَنْ حَادّ الله ورسوله ؟

ولو فَهِم هؤلاء مُعْطيات الأسلوب العربى الذى جاء به القرآن لعلموا أن المعروف غير الودّ ؛ لأن المعروف يصنعه الإنسان مع مَنْ يحب ، ومع مَنْ يكره ، مع المؤمن ومع الكافر ، تُطعمه إذا جاع ، وتسقيه إذا عطش ، وتستره إنْ كان عرياناً ، أما المودة فلا تكون إلا لمَنْ تحب ؛ لأنها عمل قلبىّ .

وقوله تعالى : ﴿فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣)﴾ [الإسراء]

وهذا توجيه وأدب إلهىّ يُراعِى الحالة النفسية للوالدين حال كبَرهما ، وينصح الأبناء أن يكونوا على قدر من الذكاء والفطْنة والأدب والرِّفْق فى التعامل مع الوالدين فى مثل هذه السن .

الوالد بعد أنْ كان يعطيك وينفق عليك أصبح الآن مُحتاجاً إليك ، بعد أنْ كان قوياً قادراً على السعى والعمل أصبح الآن قعيدَ البيت أو طريحَ الفراش ، إذن : هو فى وَضْع يحتاج إلى يقظة ولباقة وسياسة عالية ، حتى لا نجرح مشاعره وهى مُرْهفة فى هذه الحال .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ .. (٢٣)﴾ [الإسراء]

وهى لفظة بسيطة أقلّ ما يقال ، وهذه لفظة قَسْرية تخرج من صاحبها قهراً دون أن تمر على العقل والتفكير ، وكثيراً ما نقولها عند الضيق والتبرُّم من شىء ، فالحق سبحانه يمنعك من هذا التعبير القَسْرى ، وليس الأمر الاختيارى .

و ﴿ أُفٍّ ﴾ اسم فعل مضارع بمعنى : أتضجر ، وهذه الكلمة تدل على انفعال طبيعى ، ولكن الحق سبحانه يُحذِّرك منه ، ويأمرك بأن تتمالكَ مشاعرك ، وتتحكّم فى عواطفك ، ولا تنطق بهذه اللفظة .

ومعلوم أنه سبحانه إذا نهانى عن هذه فقد نهانى عن غيرها من باب أوْلى ، وما دامتْ هى أقلّ لفظة يمكن أنْ تُقال . إذن : نهانى عن القول وعن الفعل أيضاً .

ثم أكّد هذا التوجيه بقوله : ﴿وَلاَ تَنْهَرْهُمَا .. (٢٣)﴾ [الإسراء]

والنهر هو الزَّجْـر بقسـوة ، وهو انفعال تَالٍ للتـضـجُّـر وأشدّ منه قسوة ، وكـثيراً ما نـرى مثل هذه المواقف فى الحيـاة ، فلو تصوَّرنا الابن يعطى والده كـوباً من الشاى مثـلاً فارتعشت يـده فأوقع الكوب فـوق سجـادة ولده الفـاخـرة ، وسريعـاً مـا يتأفّف الابـن لما حـدث لسـجادته ، ثـم يقول للوالد مـن عبـارات التـأنيب ما يـؤلمه ويجـرح مشـاعره .

إذن : كُنْ على حذر من التـأفف ، ومن أن تنهر والديك ، كُنْ على حذر من هذه الألفاظ التى تسبق إلى اللسـان دون فِكْر ، ودون تعقّل .

ثم بعد هذا النهى الـمؤكد يأتى أمـر جديد ليؤكـد النهى السـابق : ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً (٢٣)﴾ [الإسراء]

وفى هذا المـقام تُرْوَى قصـة الشاب الذى أوقع أبوه إناء الـطعام على ثيـابه ، فأخذ الـولد يلعق الطعام الذى وقع على ثوبه وهـو يقول لوالده : أطعمـك الله كـما أطعمـتنى ، فحوّل الإسـاءة إلى جميل يُحـمَد عليه .

والآخـر الذى ذهب يتـمـرّغ تحت أقـدام أمـه ، فقـالت له : كـفى يا بنى ، فقـال : إنْ كنتِ تُحبِّيننى حـقاً فلا تمنعـينى من عمل يُدخلِنى الجنة .

والقول الكريم هنا نوع من التصرُّف واللباقة فى معاملة الوالدين ، خاصـة حال الشـيخوخـة التى قد تُقـعد صاحـبهـا ، أو المرض الذى يحتاج إلى مساعدة الغير ، والأولاد هـم أَوْلَى الناس بإعالة الوالدين فى

هذه الظروف ، حيث سيبدو من الإنسان مَا لا يصح الاطلاع عليه إلا لأولاده وأقرب الناس إليه .

وهَبْ أن الوالد المريض أو الذى بلغ من الكِبَر عتياً يريد أنْ يقضى حاجته ، ويحتاج لمن يحمله ويُقعده ويُريحه ، وينبغى هنا أن يقول الابن لأبيه : هَوِّن عليك يا والدى ، وأعطنى فرصة أردّ لك بعض جميلك علىَّ ، فلكَمْ فعلتَ معى أكثر من هذا .

وهو مع ذلك يكون مُحباً لوالده ، رفيقاً به ، حانياً عليه لا يتبرّم به ، ولا يتضجر منه ، هذا هو القول الكريم الذى ينتقيه الأبناء فى المواقف المختلفة .

فمثلاً : قد يزورك أبوك فى بيتك وقد يحدث منه أنْ يكسر شيئاً من لوازم البيت ، فتقول له فى هذا الموقف : فداك يا والدى ، أو تقول : لا عليك لقد كنت أفكر فى شراء واحدة أحدث منها . أو غيره من القول الكريم الذى يحفظ للوالدين كرامتهما ، ولا يجرح شعورهما .

وكثيراً ما يأتى المرض مع كِبَر السن ، فترى الوالد طريحَ الفراش أو مشلولاً ـ عافانا الله وإياكم ـ لذلك فهو فى أمسِّ الحاجة لمن يُخفِّف عنه ويُواسيه ، ويفتح له باب الأمل فى الشفاء ويُذكّره أن فلاناً كان مثله وشفاه الله ، وفلاناً كان مثله وأخذ الله بيده ، وهو الآن بخير ، وهكذا .

ومع هذا ، كُنْ على ذِكْر لفضل الوالدين عليك ، ولا تَنْسَ ما كان عندهما حال طفولتك من عاطفة الحب لك والحنان عليك ، وأن الله

تعالى جعل هذه العاطفة الأبوية تقوى مع ضعفك ، وتزيد مع مرضك وحاجتك ، فترى الابن الفقير محبوباً عن أخيه الغنى ، والمريض أو صاحب العاهة محبوباً عن الصحيح ، والغائب محبوباً عن الحاضر ، والصغير محبوباً عن الكبير ، وهكذا على قَدْر حاجة المربَّى يكون حنان المربِّى .

إذن : نستطيع أن نأخذَ من هذا إشارة دقيقة يجب ألاَّ نغفل عنها ، وهى : إنْ كان بر الوالدين واجباً عليك فى حال القوة والشباب والقدرة ، فهو أوجب حالَ كبرهما وعجزهما ، أو حال مرضهما .

ثم يرشدنا الحق سبحانه إلى حسن معاملة الوالدين ، فيقول :

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿ وَاخْفِضْ ﴾ : الخفْض ضد الرّفْع .

﴿ جنَاحَ الذُّلِّ ﴾ : الطائر معروف أنه يرفع جناحه ويُرفْرف به ، إنْ أراد أن يطير ، ويخفضه إنْ أراد أن يحنوَ على صغاره ، ويحتضنهم ويغذيهم .

وهذه صورة مُحسَّة لنا ، يدعونا الحق سبحانه وتعالى أن نقتدى بها ، وأن نعامل الوالدين هذه المعاملة ، فنحنو عليهم ، ونخفض لهم الجناح ، كنايةٌ عن الطاعة والحنان والتواضع لهما ، وإياك أن تكون كالطائر الذى يرفع جناحيه ليطير بهما مُتعالياً على غيره .

وكثيراً ما يُعطينا الشرع الحكيم أمثلة ونماذج للرأفة والرحمة فى الطيور ، ويجعلها قدوة لنا بنى البشر . والذى يرى الطائر يحتضن صغاره تحت جناحه ، ويزقّهم[1] الغذاء يرى عجباً ، فالصغار لا يقدرون على مضغ الطعام وتكسيره ، وليس لديهم اللعاب الذى يساعدهم على أنْ يزدردوا الطعام ، فيقوم الوالدان بهذه المهمة ، ثم يناولانهم غذاءهم جاهزاً يسهل بَلْعه ، وإنْ تيسر لك رؤية هذا المنظر فسوف ترى الطائر وفراخه يتراقصون فرحة وسعادة .

إذن : قوله تعالى : ﴿ جَنَاحَ الذُّلِّ .. (٢٤) ﴾ [الإسراء]

كناية عن الخضوع والتواضع ، والذُّل قد يأتى بمعنى القهر والغلبة ، وقد يأتى بمعنى العطف والرحمة ، يقول تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .. (٥٤) ﴾ [المائدة]

فلو كانت الذلّة هنا بمعنى القهر لقال : أذلة للمؤمنين ، ولكن المعنى : عطوفين على المؤمنين . وفى المقابل ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. (٥٤) ﴾ [المائدة]

أى : أقوياء عليهم قاهرين لهم .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

لأن الخالق سبحانه لم يخلق الإنسان رحيماً على الإطلاق ،

---

(١) زقّه : أطعمه بفيه (بفمه) . [لسان العرب ـ مادة : زقق] .

ولا شديداً على الإطلاق ، بل خلق في المؤمن مرونة تمكّنه أن يتكيف تبعاً للمواقف التي يمر بها ، فإنْ كان على الكافر كان عزيزاً ، وإنْ كان على المؤمن كان ذليلاً متواضعاً .

ونرى وضوحَ هذه القضية في سيرة الصِّديق أبي بكر والفاروق عمر رضي الله عنهما ، وقد عُرِف عن الصِّديق اللين ورقّة القلب والرحمة ، وعُرِف عن عمر الشدة في الحق والشجاعة والقوة ، فكان عمر كثيراً ما يقول لرسول الله ﷺ إذا تصادم بأحد المعاندين : « إئذن لي يا رسول الله أضرب عنقه »[1] .

وعندما حدثت حروب الردة بعد وفاة الرسول ﷺ كان لكل منهما موقف مغاير لطبيعته ، فكان منْ رأي عمر ألاّ يحاربهم في هذه الفترة الحرجة من عمر الدعوة ، في حين رأى الصديق محاربتهم والأخْذ على أيديهم بشدة حتى يعودوا إلى ساحة الإسلام ، ويُذعنوا لأمر الله تعالى فقال : « والله ، لو منعوني عقالاً كانوا يُؤدُّونه لرسول الله لجالدتهم عليه بالسيف ، والله لو لم يَبْق إلا الزرع »[2] .

وقد جاء هذا الموقف من الصِّديق والفاروق لحكمة عالية ، فلو قال عمر مقالة أبي بكر لكان شيئاً طبيعياً يُنْسب إلى شدة عمر

(١) وقد روت لنا السنة طرفاً من هذا ، فعن أبي سعيد الخدري قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسْماً أتاه ذو الخويصرة ، وهو رجل من بني تميم . فقال : يا رسول الله اعدل . قال رسول الله ﷺ : « ويلك من يعدل إن لم أعدل ؟ قد خبت وخسرت إن لم أعدل » فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رسول الله ، ائذن لي فيه أضرب عنقه . أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٧٤٤) كتاب الزكاة - باب ذكر الخوارج وصفاتهم .

(٢) متفق عليه - أخرجه البخاري في صحيحه (٧٢٨٤ ، ٧٢٨٥) وكذا مسلم في صحيحه (٢٠) كتاب الإيمان . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وجـرأته ، لكنه أتى من صـاحب القلب الرحـيم الصـّديق ـ رضى الله عنه ـ ليعرف الجميع أن الأمـر ليس للشدة لذاتها ، ولكن للحفاظ على الدين والدفاع عنه .

وكـأن المـوقف هو الذى صنع أبا بكـر ، وتطلب منه هذه الشـدة التى تغلبت على طابع اللين السائد فى أخلاقه .

فيقول تعالى :﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ.. (٢٤) ﴾[الإسراء]

إذن : الذلّة هنا ذِلَّة تواضع ورحمة بـالوالدين ، ولكن رحمتك أنت لا تكفى ، فعليك أن تَطلب لهما الرحـمة الكبرى من الله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً (٢٤) ﴾ [الإسراء]

لأن رحمتك بهـما لا تَفِى بما قدّموه لك ، ولا ترد لهمـا الجميل ، وليس البادىء كالمكافىء ، فهم أحسنوا إليك بداية وأنت أحسنتَ إليهما ردّاً ؛ لذلك ادْعُ الله أنْ يرحـمـهـمـا ، وأنْ يتكـفل سـبـحـانه عنك برد الجميل ، وأن يرحمهما رحمة تكافىء إحسانهما إليك .

وقوله تعالى : ﴿ كَمَا رَبَّيَانِي .. (٢٤) ﴾ [الإسراء]

كمـا : قد تفـيد التشـبيه ، فـيكون المعنى : ارحـمهمـا رحـمـة مثل رحمتهما بى حين ربيانى صغيـراً . أو تفيد التعليل : أى ارحمهما لأنهما ربيانى صغيراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ.. (١٩٨) ﴾ [البقرة]

و ﴿ رَبَّيَانِي ﴾ هذه الكلـمة أدخـلت كل مُـربٍّ للإنسـان فى هذا الحكم ، وإنْ لم يكُنْ من الوالدين ، لأن الولد قد يُربّيه غير والديه لأىٍّ ظرف من الظروف ، والحكم يدور مع العلة وجوداً وعَدماً ، فإنْ ربّاك

غير والديك فلهما ما للوالدين من البرِّ والإحسان وحُسْن المعاملة والدعاء .

وهذه بشرى لمن رَبَّى غير ولده ، ولا سيما إنْ كان المربَّى يتيماً ، أو فى حكم اليتيم .

وفى ﴿ رَبَّيَانِي صَغِيراً (٢٤) ﴾ [الإسراء] اعتراف من الابن بما للوالدين من فضل عليه وجميل يستحق الرد .

وبعد ذلك يأتى الحق سبحانه فى تذييل هذا الحكم بقضية تشترك فيها معاملة الابن لأبويه مع معاملته لربه عز وجل ، فيقول تعالى :

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ[1] غَفُورًا (٢٥) ﴾

وقد سبق أنْ تكلّمنا عن الإيمان والنفاق ، وقلنا : إن المؤمن منطقيٌّ مع نفسه ؛ لأنه آمن بقلبه ولسانه ، وأن الكافر كذلك منطقيٌّ لأنه كفر بقلبه ولسانه ، أما المنافق فغير منطقى مع نفسه ؛ لأنه آمن بلسانه وجحد بقلبه .

وهذه الآية تدعونا إلى الحديث عن النفاق ؛ لأنه ظاهرة من الظواهر المصاحبة للإيمان بالله ، وكما نعلم فإن النفاق لم يظهر فى مكة التى صادمتْ الإسلام وعاندته ، وضيقتْ عليه ، بل ظهر فى

---

(١) الأوابون : هم الذين يذكرون ذنوبهم فى الخلاء ثم يستغفرون الله عز وجل . [تفسير القرطبى ٥/٣٩٧٥] .

المدينـة التي احتضنتْ الـدين ، وانساحت به في شـتى بقاع الأرض ، وقد يتساءل البعض : كيفِ ذلك ؟

نقول : النفاق ظاهرة صحـية إلى جانب الإيمان ؛ لأنه لا يُنافَق إلا القـوى ، والإسـلام في مكة كان ضـعـيـفاً ، فكان الـكفار يُجـابهـونه ولا ينافقونه ، فلمـا تحوّل إلى المدينة اشتد عوده ، وقـويتْ شوكته ، وبدأ ضِعَاف النفوس ينافقون المؤمنين .

لذلك يقول أحدهم : كيف وقـد ذَمَّ الله أهل المدينة ، وقال عنهم : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا[1] عَلَى النِّفَاقِ .. (١٠١) ﴾ [التوبة]

نقول : لقد مدح القرآن أهل المدينة بما لا مزيدَ عليه ، فقال تعالى في حقهم : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا[2] الدَّارَ وَالإِيمَانَ .. (٩) ﴾ [الحشر]

وكأنه جعل الإيمان مَحَلاً للنازلين فيه .

﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[3] .. (٩) ﴾ [الحشر]

فإنْ قال بعد ذلك : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ .. (١٠١) ﴾[التوبة]

---

(١) مردوا على النفاق : أقاموا عليه لم يتوبوا كما تاب آخرون . وقال ابن جريج : ماتوا عليه ، عبـد الله بن أُبيّ ، وأبو عامر الراهب ، والجـد بن قيس . [تفسـير الدر المنثور للسـيوطى ٤/ ٢٧٣] .

(٢) أى : سكنوا دار الهجرة وهى المدينة أولاً ، وهـم الأنصار ، وعطف الإيمان على الدار كأنه منزل طيب يسكنه الإنسان ويستريح فيه . [القاموس القويم ١/ ٨٨] .

(٣) الخصاصة : الفقر وسوء الحال والحاجة إلى الشىء . [لسان العرب ـ مادة : خصص] .

فالنفاق فى المدينة ظاهرة صحية للإيمان ؛ لأن الإيمان لو لم يكن قوياً فى المدينة لما نافقه المنافقون .

ومن هنا جعل الله المنافقين فى الدرْك الأسفل من النار ، لأنه مُندَسٌ بين المؤمنين كواحد منهم ، يعايشهم ويعرف أسرارهم ، ولا يستطيعون الاحتياط له ، فهو عدو من الداخل يصعُب تمييزه . على خلاف الكافر ، فعداوته واضحة ظاهرة معلنة ، فيمكن الاحتياط له وأخذ الحذر منه .

ولكن لماذا الحديث عن النفاق ونحن بصدد الحديث عن عبادة الله وحده وبرِّ الوالدين ؟

الحق سبحانه وتعالى أراد أنْ يُعطينا إشارة دقيقة إلى أن النفاق كما يكون فى الإيمان بالله ، يكون كذلك فى برِّ الوالدين ، فنرى من الأبناء مَنْ يبرّ أبويْه نفاقاً وسُمْعة ورياءً ، لا إخلاصاً لهما ، أو اعترافاً بفضلهما ، أو حِرْصاً عليهما .

ولهؤلاء يقول تعالى : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ .. (٢٥) ﴾ [الإسراء]

لأن من الأبناء مَنْ يبرّ أبويه ، وهو يدعو الله فى نفسه أنْ يُريحه منهما ، فجاء الخطاب بصيغة الجمع : ﴿ رَّبُّكُمْ ﴾ أى : رب الابن ، وربّ الأبوين ؛ لأن مصلحتكم عندى سواء ، وكما ندافع عن الأب ندافع أيضاً عن الابن ، حتى لا يقعَ فيما لا تُحمد عُقباه .

وقوله : ﴿ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ .. (٢٥) ﴾ [الإسراء]

أىْ : إنْ توفّر فيكم شَرْط الصلاح ، فسوف يُجازيكم عليه الجزاء الأوفى . وإنْ كان غير ذلك وكنتم فى أنفسكم غير صالحين غَيْر

مخلصين ، فارجعوا من قريب ، ولا تستمروا فى عدم الصلاح ، بل عودوا إلى الله وتوبوا إليه .

﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الإسراء]

والأوابون هم الذين اعترفوا بذنوبهم ورجعوا تائبين إلى ربهم .

وقد سبق أنْ أوضحنا أن مشروعية التوبة من الله للمذنبين رحمةٌ من الخالق بالخلق ؛ لأن العبد إذا ارتكب سيئة فى غفلة من دينه أو ضميره ، ولم تشرع لها توبة لوجدنا هذه السيئة الواحدة تطارده ، ويشقى بها طوال حياته ، بل وتدعوه إلى سيئة أخرى ، وهكذا يشقى به المجتمع .

لذلك شرع الخالقُ سبحانه التوبة ليحفظ سلامة المجتمع وأمْنه ، وليُثرِى جوانب الخير فيه .

ثم يُوسّع القرآن الكريم دائرة القرابة القريبة وهى « الوالدان » إلى دائرة أوسع منها ، فبعد أنْ حنَّنه على والديه لفتَ نظره إلى ما يتصل بهما من قرابة ، فقال تعالى :

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾

الحق سبحانه بعد أنْ حنَّن الإنسان على والديْه صعَّد المسألة فحنَّنه على قرابة أبيه وقرابة أمه ، فقال : ﴿ وآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الإسراء]

﴿ حَقَّهُ ﴾ لأن الله تعالى جعله حَقّاً للأقارب إنْ كانوا فى حاجة ، وإلا فلو كانا غير محتاجين ، فالعطاء بينهما هدية متبادلة ، فكل قريب

يُهادى أقرباءه ويهادونه . والحق سبحانه وتعالى يريد أن يُشيعَ فى المجتمع روحِ التكافل الاجتماعى .

لذلك كان بعض فقهاء الأندلس إذا منع الرجل زكاةً تقرُب من النِّصاب أمر بقطع يده ، كأنه سرقه ؛ لأن الله تعالى أسماه (حقاً) فمَنْ منع صاحب الحق من حقه ، فكأنه سرقه منه .

وقد سلك فقهاء الأندلس هذا المسلك ، لأنهم فى بلاد ترف وغنى ، فتشدّدوا فى هذه المسألة ؛ لأنه لا عُذْر لأحد فيها[1] .

لذلك ، لما جاء أحد خلفائهم إلى المنذر بن سعيد ، وقال : لقد حلفتُ يميناً ، وأرى أن أُكفِّر عنه فأفتاه بأن يصوم ثلاثة أيام ، فقال أحدهم : لقد ضيّقتَ واسعاً فقد شرع الله للكفارة أيضاً إطعامَ عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فرد عليه المنذر قائلاً : أو مثلُ أمير المؤمنين يُزْجَر بإطعام عشرة مساكين أو كسوتهم ؟ إنه يفعل ذلك فى اليوم لألْف وأكثر ، وإنما يزجره الصوم ، وهكذا أخذوا الحكم بالروح لا بالنص ؛ ليتناسب مع مقدرة الخليفة ، ويُؤثّر فى رَدْعه وزَجْره .

وكلمة (حق) وردت فى القرآن على معنيين :

الأول : فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المعارج]

والحق المعلوم هو الزكاة .

---

(١) جاء فى كتاب المغنى لابن قدامة (٢/٤٣٥) فى حكم مانع الزكاة : « إن منعها معتقداً وجوبها وقدر الإمام على أخذها منه أخذها وعزره ولم يأخذ زيادة عليها فى قول أكثر أهل العلم منهم أبو حنيفة ومالك والشافعى و أصحابهم ، وكذلك إن غل ماله وكتمه حتى لا يأخذ الإمام زكاته فظهر عليه ، يأخذها وشطر ماله » .

أمـا الحق الآخـر فـحقٌّ غـيـر مـعـلوم وغـيـر مـوصـوف ، وهو التطوع والإحسان ، حيث تتطوَّع لله بجنس ما فـرضه عليك ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ كَـانُوا قَـبْلَ ذَلِكَ مُـحْـسِنِينَ ⁽١٦⁾ كَـانُوا قَلِيـلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَايَهْجَعُونَ⁽١٧⁾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ⁽١٨⁾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ⁽١٩⁾ ﴾ [الذاريات]

ولم يقل : « معلوم » : لأنه إحسان وزيادة عَمَّا فرضه الله علينا .

ويجب على من يُؤْتِي هذا الحق أن يكون سعيـداً به ، وأن يعتبره مَغْنمـاً لا مَغْرماً ؛ لأن الدنيـا كما نعلم أغـيار تتحول وتتـقلب بأهلها ، فالصحيح قد يصير سقيماً ، والغنى قد يصير فقيراً وهكذا ، فإعطاؤك اليوم ضـمانٌ لك فى المستـقبل ، وضمـان لأولادك من بعدك ، والحق الذى تعطيـه اليوم هو نفسه الذى قـد تحتـاجه غـداً ، إنْ دارتْ عليك الدائرة .

إذن : فالحق الذى تدفعـه اليوم لأصحابه تأمين لك فى المسـتقبل يجعلك تجابه الحيـاة بقوة ، وتجابه الحياة بغير خـور وبغير ضعف ، وتعلم أن حـقك محفـوظ فى المجـتمع ، وكـذلك إنْ تركتَ أولادك فى عوزٍ وحاجة ، فالمجتمع مُتكفِّل بهم .

وصدق الله تعالـى حين قال : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ⁽٩⁾ ﴾ [النساء]

ولذلك ، فـالناس أصـحـاب الارتقـاء والإثـراء لورعـهم لا يعطون الأقارب مـن أموال الزكـاة ، بل يخصُّـون بها الفـقراء الأباعـد عنهم ،

ويُعْطون الأقارب من مالهم الخاص مساعدة وإحساناً .

و (المسْكين) هو الذى يملك وله مال ، لكن لا يكفيه ، بدليل قول الحق سبحانه : ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ..(٧٩)﴾ [الكهف]

أما الفقير فهو الذى لا يملك شيئاً ، وقد يعكس البعض فى تعريف المسكين والفقير ، وهذا فهم خاطىء .

و ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ..(٢٦)﴾ [الإسراء]

السبيل هو الطريق ، والإنسان عادةً يُنْسَب إلى بلده ، فنقول : ابن القاهرة ، ابن بورسعيد ، فإنْ كان منقطعاً فى الطريق وطرأتْ عليه من الظروف ما أحوجه للعون والمساعدة ، وإن كان فى الحقيقة صاحب يَسَار وَغِنىً ، كأن يُضيع ماله فله حَقٌّ فى مال المسلمين بقدر ما يُوصّله إلى بلده .

وابن السبيل إذا طلب المساعدة لا تسأله عن حقيقة حاله ، لأن له حقاً واجباً فلا تجعله فى وضع مذلّة أو حرج .

﴿وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (٢٦)﴾ [الإسراء]

كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١)﴾ [الأنعام]

فالتبذير هو الإسراف ، مأخوذ من البذر ، وهو عملية يقوم بها الفلاح فيأخذ البذور التى يريد زراعتها ، وينثرها بيده فى أرضه ،

فإذا كان متقناً لهذه العملية تجده يبذر البذور بنسب متساوية ، بحيث يوزع البذور على المساحة المراد زراعتها ، وتكون المسافة بين البذور متساوية .

وبذلك يفلح الزرع ويعطى المحصول المرجو منه . أما إنْ بذرَ البذور بطريقة عشوائية وبدون نظام نجد البذور على مسافات غير متناسبة ، فهى كثيرة فى مكان ، وقليلة فى مكان آخر ، وهذا ما نُسمِّيه تبذيراً ، لأنه يضع الحبوب فى موضع غير مناسب ؛ فهى قليلة فى مكان مزدحمة فى آخر فَيُعاق نموّها .

لذلك ، فالحق سبحانه آثر التعبير عن الإسراف بلفظ (التبذير) ؛ لأنه يضع المال فى غير موضعه المناسب ، وينفق هكذا كلما اتفق دون نظام ، فقد يعطى بسخاء فى غير ما يلزم ، فى حين يمسك فى الشىء الضرورى .

إذن : التبذير : صَرْف المال فى غير حِلِّه ، أو فى غير حاجة ، أو ضرورة .

والنهى عن التبذير هنا قد يُراد منه النهى عن التبذير فى الإيتاء ، يعنى حينما تعطى حَقّ الزكاة ، فلا تأخذك الأريحية الإيمانية فتعطى أكثر مما يجب عليك ، وربما سمعتَ ثناء الناس وشكرهم فتزيد فى عطائك ، ثم بعد ذلك وبعد أن تخلوَ إلى نفسك ربما ندمتَ على ما فعلتَ ، ولُمْتَ نفسك على هذا الإسراف .

وقد يكون المعنى : أعْطِ ذا القربى والمساكين وابن السبيل ،

ولكن لا تُبذِّر فى الأمور الأخرى ، فالنهى هنا لا يعود إلى الإيتاء ، بل إلى الأمور التافهة التى يُنفَق فيها المال فى غير ضرورة[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) ﴾

كلمة (أخ) تُجمع على إخْوة و إخْوان .

وإخوة : تدلّ على أُخوّة النسب ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ .. (٥٨) ﴾ [يوسف]

وتدل أيضاً على أخوة الخير والورع والتقوى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ .. (١٠) ﴾ [الحجرات]

ومنها قوله تعالى عن السيدة مريم : ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ .. (٢٨) ﴾[مريم]

والمقصود : هارون أخو موسى ـ عليهما السلام ـ وبينهما زمن طويل يقارب أحد عشر جيلاً ، ومع ذلك سماهما القرآن إخوة أى أخوّة الورع والتقوى .

أما : إخوان ، فتدل على أن قوماً اجتمعوا على مبدأ واحد ، خيراً كان أو شراً ، فقد تدلّ على الاجتماع فى الخير ، كما فى قوله

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٧٦) : « من أنفق ماله فى الشهوات زائداً على قدر الحاجات ، وعرَّضه بذلك للنفاد فهو مبذر ، ومن أنفق ربح ماله فى شهواته وحفظ الأصل أو الرقبة فليس بمبذر ، ومن أنفق درهماً فى حرام فهو مبذر ، ويُحجر عليه فى نفقته الدرهم فى الحرام ، ولا يحجر عليه إن بذله فى الشهوات إلا إذا خيف عليه النفاد » .

تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران]

وقد تدل على الاجتماع فى الشر ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإسراء]

فكأن المبذرين اجتمعوا مع الشياطين فى هوية واحدة ، ووُدٌّ واحد ، وانتظمتهما صفات واحدة من الشر .

إذن : كلمة (إِخْوَة) تدل على أُخُوَّة النسب ، وقد تتسامى لتدل على أُخوّة الإيمان التى تنهار أمام قوتها كل الأواصر . ونذكر هنا ما حدث فى غزوة بدر بين أخويْنِ من أسرة واحدة هما « مصعب بن عمير » بعد أن آمن وهاجر إلى المدينة وخرج مع جيش المسلمين إلى بدر وأخوه « أبو عزيز » وكان ما يزال كافراً ، وخرج مع جيش الكفار من مكة ، والتقى الأخوانِ : المؤمن والكافر .

ومعلوم أن « مصعب بن عمير » كان من أغنى أغنياء مكة ، وكان لا يرتدى إلا أفخر الثياب وألينها ، ويتعطر بأثمن العطور حتى كانوا يسمونه مُدلَّل مكة ، ثم بعد أنْ آمنَ تغيّر حاله وآثر الإيمان بالله على كل هذا الغنى والنعيم ، ثم بعثه الرسول ﷺ إلى المدينة ليعلّم الناس أمور دينهم[1] ، وفى غزوة أحد رآه رسول الله ﷺ يرتدى جلد شاة ، فقال : « انظروا ما فعل الإيمان بأخيكم »[2] .

---

(١) أخرج أبو نعيم فى الحلية (١/١٠٧) أن أهل المدينة بعثوا إلى رسول الله ﷺ معاذ بن عفراء ورافع بن مالك أن ابعث إلينا رجلاً من قبلك فليدع الناس بكتاب الله ، فإنه حقيق أن يتبع ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير .

(٢) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/١٠٨) من حديث عمر بن الخطاب قال : نظر النبى ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به ، فقال النبى ﷺ « انظروا إلى هذا الرجل الذى قد نور الله قلبه . لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون » .

فمـاذا حدث بين الأخـويْن المؤمن والـكافر ؟ وأىّ الصـلات كانت أقوى : صلة الإيمان بالله ، أم صلة النسب ؟

لمـا دارتْ المعـركة نظر مـصـعب ، فإذا بأخـيه وقـد أسَرَهُ أحـد المسلمـين اسمه « أبو اليَـسَر »[1] فالتـفتَ إليه . وقال : يا أبا اليَـسَر اشدد على أسيرك ، فأُمّه غنية ، وسوف تفديه بمال كثير .

فنظر إليـه « أبو عـزيز »[2] وقـال : يا مـصـعب ، أهذه وصـاتك بأخيك ، فقال له مصعب : هذا أخى دونك .

فأخوة الدين والإيمان أقـوى وأمتن من أخوة النسب ، وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ .. ⑩ ﴾ [الحجرات]

قوله : ﴿ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ .. ㉗ ﴾ [الإسراء]

أى : أن الحق تبارك وتعالى جعلهما شريكين فى صفة واحدة هى التبـذير والإسراف ، فـإنْ كان المبـذِّر قد أسـرف فى الإنفاق ووَضْع المـال فى غيـر حلِّه وفى غـير ضـرورة . فـإن الشيطانَ أسـرف فى المعصيـة ، فلم يكتفِ بأن يكون عاصياً فى ذاته ، بل عدّى المـعصية إلى غيـره وأغوى بهـا وزيّنها ؛ لذلك وصـفه الحق سـبحانـه بقوله : ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ㉗ ﴾ [الإسراء]

ليس كافراً فحسب ، بل (كفور) وهى صـيغة مبالغة من الكفر ؛ لأنه كَفر وعمل على تكفير غيره .

---

(١) اسمـه : كعب بن عمـرو الأنصارى السلمى ، شهـد العقبـة وبدراً ، وهو الذى أسر العبـاس . قال المدائنى : كان قصيراً دحداحاً (سميناً) عظيم البطن ، مات بالمدينة سنة ٥٥ هجرية . [الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى (٧/٢١٨) ترجمة رقم (١٢٤٣) فى الكنى] .

(٢) اسمه : زرارة بن عـمير . له صحبـة وسماع من النبى ﷺ ، اتفق أهل المغـازى على أنه أسر يوم بدر . [الإصابة ٧/١٣٠] .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا (٢٨) ﴾

ولنا أنْ نسأل : عَمَّنْ يكون الإعراض ؟ فقد سبق الحديث عن الوالدين والأقارب والمسكين وابن السبيل ، والإعراض عن هؤلاء لا يتناسب مع سياق الآية لأنه إعراض عن طاعة الله ، بدليل قوله : ﴿ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا .. (٢٨) ﴾ [الإسراء]

فالله تعالى فى ذهنك ، وتبتغى من وراء هذا الإعراض رحمة الله ورزقه وسعَته . إذن : الإعراض هنا ليس معصية أو مخالفة . فماذا إذن الغرض من الإعراض هنا ؟

نقول : قد يأتيك قريب أو مسكين أو عابر سبيل ويسألك حاجة ، وأنت لا تملكها فى هذا الوقت فتخجل أنْ تواجهه بالمنع ، وتستحى منه ، فما يكون منك إلا أنْ تتوجّه إلى ربّك عز وجل وتطلب منه ما يسدُّ حاجتك وحاجة سائلك ، وأن يجعل لك من هذا الموقف مَخْرجاً .

فالمعنى : إما تُعرضنّ عنهم خجلاً وحياءً أنْ تواجههم ، وليس

---

(١) سبب نزول الآية : قال زيد : نزلت الآية فى قوم كانوا يسألون رسول الله ﷺ فيأبى أن يعطيهم ، لأنه كان يعلم منهم نفقة المال فى فساد ، فكان يعرض عنهم رغبة فى الأجر فى منعهم لئلا يعينهم على فسادهم . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٧٦) .

عندك ما يسدُّ حاجتهم ، وأنت فى هذا الحال تلجأ إلى الله أنْ يرحمك رحمةً تسعك وتسعهم .

وقوله تعالى : ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً (٢٨) ﴾ [الإسراء]

كما قال فى موضع آخر فى مثل هذا الموقف : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى .. (٢٦٣) ﴾ [البقرة]

فحتى فى حال المنع يجب على المسلم أن يلتزم الأدب ، ولا يجرح مشاعر السائل ، وأنْ يردّه بلين ورفْق ، وأنْ يُظهر له الحياء والخجل ، وألاّ يتكبر أو يتعالى عليه ، وأن يتذكر نعمة الله عليه بأنْ جعله مسئولاً لا سائلاً .

إذن : فالعبارات والأعمال الصالحة فى مثل هذا الموقف لا يكفى فيها أن تقول : ما عندى ، فقد يتهمك السائل بالتعالى عليه ، أو بعدم الاهتمام به ، والاستغناء عنه ، وهنا يأتى دور الارتقاءات الإيمانية والأريحية للنفس البشرية التى تسمو بصاحبها إلى أعلى المراتب .

وتأمل هذا الارتقاء الإيمانى فى قوله تعالى عن أصحاب الأعذار فى الجهاد : ﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾[التوبة]

هذه حكاية بعض الصحابة[1] الذين أتوا رسول الله ليخرجوا معه

---

(١) قال محمد بن كعب القرظى : كانوا : سالم بن عوف ، حرمى بن عمرو ، عبد الرحمن بن كعب أبو ليلى ، فضل الله من بنى المعلى ، عمرو بن عتمة ، عبد الله بن عمرو المزنى .
جاءوا إلى رسول الله ﷺ ليمدهم بالعدة والعتاد ليخرجوا فى سبيل الله فقال لهم : ﴿ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ .. (٩٢) ﴾ [التوبة] . فأنزل الله عذرهم فى كتابه فقال : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) ﴾ [التوبة] الآيات .

إلى الجهاد ، ويضعوا أنفسهم تحت أمره وتصرّفه ، فإذا برسول الله ﷺ يعتذر لهم ، فليس لديه من الركائب ما يحملهم عليه إلى الجهاد .

فماذا كان من هؤلاء النفر المؤمنين ؟ هل انصرفوا ولسان حالهم يقول : لقد فعلنا ما علينا ويفرحون بما انتهوا إليه ؟ لا ، بل : ﴿ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾ [التوبة]

وهكذا يرتقى الإيمان بأهله ، ويسمو بأصحابه ، فإذا لم يقدروا على الأعمال النزوعية ، فالأعمال القولية ، فإذا لم يقدروا على هذه أيضاً فلا أقلّ من الانفعال العاطفى المعبِّر عن حقيقة الإيمان الذى يفيض دمع الحزْن لضيق ذات اليد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) ﴾

تحدّث الحق سبحانه وتعالى فى آية سابقة عن المبذِّرين ، وحذّرنا من هذه الصفة ، وفى هذه الآية يقيم الحق سبحانه موازنة اقتصادية تحفظ للإنسان سلامة حركته فى الحياة .

فقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ .. (٢٩) ﴾ [الإسراء]

واليد عادة تُستخدم فى المنْح والعطاء ، نقول : لفلان يد عندى ، وله علىَّ أياد لا تُعَد ، أى : أن نعمه علىَّ كثيرة ؛ لأنها عادة تُؤدّى باليد ، فقال : لا تجعل يدك التى بها العطاء (مَغْلُولَة) أى : مربوطة

إلى عنقك ، وحين تُقَيَّد اليد إلى العنق لا تستطيع الإنفاق ، فهى هنا كناية عن البُخْل والإمساك .

وفى المقابل : ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء]

فالنهى هنا عن كل البَسْط ، إذن : فيُباح بعض البسْط ، وهو الإنفاق فى حدود الحاجة والضرورة . وبَسْط اليد كناية عن البَذْل والعطاء ، وهكذا يلتقى هذا المعنى بمعنى كل من بذَر ومعنى بذَّر الذى سبق الحديث عنه .

فبذّر : أخذ حفنة من الحبِّ ، وبَسَط بها يده مرة واحدة ، فأحدثتْ كومةً من النبات الذى يأكل بعضه بعضاً ، وهذا هو التبذير المنهىّ عنه ، أما الآخر صاحب الخبرة فى عملية البذْر فيأخذ حفنة الحبِّ ، ويقبض عليها بعض الشىء بالقدر الذى يسمح بتفلّت حبات التقاوى واحدة بعد الأخرى ، وعلى مسافات متقاربة ومتساوية أى [بَذَرَ] .

وهذا هو حدّ الاعتدال المرغوب فيه من الشرع الحكيم ، وهو الوسط ، وكلا طرفيه مذموم .

وقد أتى هذا المعنى أيضاً فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان]

أى : اعتدال وتوسُّط .

إذن : لا تبسط يدك كل البَسْط فتنفق كل ما لديْك ، ولكن بعض البَسْط الذى يُبقِى لك شيئاً تدخره ، وتتمكن من خلاله أنْ ترتقىَ بحياتك .

وقد سبق أنْ أوضحنا الحكمة من هذا الاعتدال فى الإنفاق ، وقلنا : إن الإنفاق المتوازن يُثرى حركة الحياة ، ويُسهِم فى إنمائها ورُقيّها ، على خلاف القَبْض والإمساك ، فإنه يُعرقل حركة الحياة ، وينتج عنه عطالة وبطالة وركود فى الأسواق وكساد يفسد الحياة ، ويعوق حركتها .

إذن : لابُدّ من الإنفاق لكى تساهم فى سَيْر عجلة الحياة ، ولابُد أن يكون الإنفاق معتدلاً حتى تُبقِى على شىء من دَخْلك ، تستطيع أن ترتقى به ، وترفع من مستواك المادى فى دنيا الناس .

فالمبذر والمسْرف تجده فى مكانه ، لا يتقدم فى الحياة خطوة واحدة ، كيف وهو لا يُبقِى على شىء ؟ وبهذا التوجيه الإلهى الحكيم نضمن سلامة الحركة فى الحياة ، ونُوفِّر الارتقاء الاجتماعى والارتقاء الفردى .

ثم تأتى النتيجة الطبيعية للإسراف والتبذير : ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩)﴾ [الإسراء]

وسبق أنْ أوضحنا أن وضَعْ القعود يدلّ على عدم القدرة على القيام ومواجهة الحياة ، وهو وَضْع يناسب مَنْ أسرف حتى لم يَعُدْ لديه شىء .

وكلمة ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ تفيد انتقاص حركة الحياة ؛ لأن حركة الحياة تنشأ من القيام عليها والحركة فيها ؛ لذلك قال تعالى : ﴿لا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ..(٩٥)﴾ [النساء]

﴿ مَلُومـاً ﴾ أى : أتى بفعل يُلاَم عليـه ، ويُؤنَّب من أجله ، وأول مَنْ يلوم المنسرفَ أولادهُ وأهلُه ، وكـذلك الممسـك البخيل ، فكـلاهما ملُوم لتصرُّفه غير المتزن .

﴿ مَحْسُورًا ﴾ أى : نادماً على ما صرْتَ فيه من العدم والفاقة ، أو من قولهم : بعير محسـور . أى : لا يَستطيع القيام بحمله . وهكذا المسـرف لا يستطيع الارتقاء بحـياته ، أو القيـام بأعبائها وطمـوحات المستقبل له ولأولاده من بعده .

فإنْ قبضتَ كل القَبْض فأنت ملُوم ، وإنْ بسطتَ كُلَّ البسْط فتقعد محسوراً عن طموحات الحياة التى لا تَقْوى عليها .

إذن : فكلا الطرفين مذموم ، ويترتب عليه سوء لا تُحمد عُقْباه فى حياة الفرد والمجتمع . إذن : فما القصد ؟

القصد أن يسيـر الإنسان قواماً بين الإسراف والتقتيـر ، كما قال تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان]

فالقرآن يضع لنا دستوراً حاسمـاً وَسَطاً ينظِّم الحركة الاقتصادية فى حياة المـجتمع ، فابْسُط يدك بالإنفاق لكى تساهم فى سَيْر عجلة الحيـاة وتنشيط البـيع والشراء ، لكن ليس كل البسـط ، بل تُبقى من دخلك على شىء لتحقق طموحاتك فى الحياة ، وكذلك لا تمسك وتُقتّر على نفسك وأولادك فـيلومونك ويكرهون البـقاء معك ، وتكون عـضواً خاملاً فى مجتمعك ، لا تتفاعل معه ، ولا تُسهم فى إثراء حركته .

والحق سبـحانه وتعالى وهو صاحب الخـزائن التى لا تنفد ، وهو القائل : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦) ﴾ [النحل]

ولو أعطى سبحانه جميع خَلْقه كُلّ ما يريدون ما نقص ذلك من مُلْكه سبحانه ، كما قال فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وحيّكم وميتكم ، وشاهدكم وغائبكم ، وإنسكم وجنكم ، اجتمعوا فى صعيد واحد ، فسألنى كُلٌّ مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك مما عندى إلا كمغرز إبرة أحدكم إذا غمسه فى البحر ، ذلك أنِّى جَوَاد واجد ماجد ، عطائى كلام وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردته أن أقول له كن فيكون »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

الله الذى لا تنفد خزائنه يعطى خلْقه بقدَر ، فلا يبسط لهم الرزق كل البَسْط ، ولا يقبضه عنهم كُلّ القَبْض ، بل يبسط على قوم ، ويقبض عن آخرين لتسير حركة الحياة ؛ لأنه سبحانه لو بسط الرزق ووسَّعه على جميع الناس لاستغنى الناس عن الناس ، وحدثت بينهم مقاطعة تُفسد عليهم حياتهم .

إنما حركة الحياة تتطلب أنْ يحتاج صاحب المال إلى عمل ، وصاحب العمل إلى مال ، فتلتقى حاجات الناس بعضهم لبعض ، وبذلك يتكامل الناس ، ويشعر كل عضو فى المجتمع بأهميته ودوره فى الحياة .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤٩٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه وقال : حديث حسن ، وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٧٧ ، ١٥٤) وابن ماجة فى سننه (٤٢٥٧) .

وسبق أن ذكرنا أن الحق سبحانه لم يجعل إنساناً مَجْمعاً للمواهب ، بل المواهب مُوزَّعة بين الخَلْق جميعهم ، فأنت صاحب موهبة فى مجال ، وأنا صاحب موهبة فى مجال آخر وهكذا ، ليظل الناس يحتاج بعضهم لبعض .

فالغنى صاحب المال الذى ربما تعالى بماله وتكبَّر به على الناس يُحوجه الله لأقل المهن التى يستنكف أن يصنعها ، ولا بُدّ له منها لكى يزاول حركة الحياة .

والحق سبحانه لا يريد فى حركة الحياة أن يتفضّل الناس على الناس ، بل لا بُدَّ أن ترتبط مصالح الناس عند الناس بحاجة بعضهم لبعض .

فإذا كان الحق تبارك وتعالى لا يبسط لعباده كل البَسْط ، ولا يقبض عنهم كل القَبْض ، بل يقبض ويبسط ، فوراء ذلك حكمة لله تعالى بالغة ؛ لذلك ارتضى هذا الاعتدال منهجاً لعباده ينظم حياتهم ، وعلى العبد أن يرضى بما قُسِم له فى الحالتين ، وأن يسير فى حركة حياته سَيْراً يناسب ما قدَّره الله له من الرزق .

يقول تعالى : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ..(٧) ﴾ [الطلاق]

أى : مَنْ ضُيِّق عليه الرزق فلينفق على قَدْره ، ولا يتطلع إلى ما هو فوق قدرته وإمكاناته ، وهذه نظرية اقتصادية تضمن للإنسان الراحة فى الدنيا ، وتوفر له سلامة العيش .

ورحم الله امرءاً عرف قَدْر نفسه ؛ لأن الذى يُتعب الناس فى الحياة ويُشقيهم أن ترى الفقير الذى ضُيِّق عليه فى الرزق يريد أنْ

يعيشَ عيشة الموسَّع عليه رزقه ، ويتطلّع إلى ما فضّل الله به غيره عليه .

فلو تصورنا مثلاً زميلين فى عمل واحد يتقاضيان نفس الراتب :

الأول : غنىٌّ وفى سَعَةٍ من العيش قد يأخذ من أبيه فوق راتبه .

والآخر : فقير ربما يساعد أباه فى نفقات الأسرة .

فإذا دخلا محلاً لشراء شىء ما ، فعلى الفقير ألاَّ ينظر إلى وضعه الوظيفى ، بل إلى وَضْعه ومستواه المادى ، فيشترى بما يتناسب معه ، ولا يطمع أن يكون مثل زميله ؛ لأن لكل منهما قدرةً وإمكانية يجب ألاَّ يخرج عنها .

هذه هى النظرة الاقتصادية الدقيقة ، والتصرُّف الإيمانى المتزن ؛ لذلك فالذى يحترم قضاء الله ويَرْضَى بما قَسَمه له ويعيش فى نطاقه غير متمرد عليه ، يقول له الحق سبحانه : لقد رضيت بقدرى فيك فسوف أرفعك إلى قدرى عندك ، ثم يعطيه ويُوسِّع عليه بعد الضيق .

وهذا مُشَاهَد لنا فى الحياة ، والأمثلة عليه واضحة ، فكم من أُناس كانوا فى فقر وضيق عيش ، فلما رَضُوا بما قَسَمه الله ارتقتْ حياتهم وتبدّل حالهم إلى سَعَة وتَرَف .

فالحق سبحانه يبسط الرزق لمَنْ يشاء ويقدر ؛ لأنه سبحانه يريد أن يضع الإنسانُ نفسه دائماً فى مقام الخلافة فى الأرض ، ولا ينسى هذه الحقيقة ، فيظن أنه أصيل فيها .

والخيبة كل الخيبة أن ينسى الإنسان أنه خليفة لله فى الأرض ، ويسير فى حركة الحياة على أنه أصيل فى الكون ، فأنت فقط خليفة

لمن استخلفك ، مَمْدود ممَّنْ أمدّك ، فإياك أنْ تغترّ ، وإياك أنْ تعيش في مستوىً فوق المستوى الذى قدّره الله لك .

فإن اعتبرتَ نفسك أصيلاً ضَلَّ الكون كله ؛ لأن الله تعالى جعل الدنيا أغياراً وجعلها دُوَلاً ، فالذى وُسِّع عليه اليوم قد يُضيَّق عليه غداً ، والذى ضُيِّق عليه اليوم قد يُوسَّع عليه غداً .

وهذه سُنّة مِنْ سُنَن الله فى خَلْقه ليَدكّ فى الإنسان غرور الاستغناء عن الله .

فلو متَّع اللهُ الإنسانَ بالغنى دائماً لما استمتع الكون بلذة : يا رب ارزقنى ، ولو متَّعه بالصحة دائماً لما استمتع الكون بلذة : يا رب اشفنى . لذلك يظل الإنسان موصولاً بالمنعم سبحانه محتاجاً إليه داعياً إياه .

وقد قال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

فالحاجة هى التى تربط الإنسان بربه ، وتُوصله به سبحانه .

فالبَسْط والتضييق من الله تعالى له حكمة ، فلا يبسط لهم الرزق كل البسط ، فيعطيهم كُلَّ ما يريدون ، ولا يقبض عنهم كل القبض فيحرمهم ويُريهم ما يكرهون ، بل يعطى بحساب وبقدر ؛ لتستقيم حركة الحياة ، كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ .. (٢٧) ﴾ [الشورى]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (٣٠) ﴾ [الإسراء]

لأن الحق سبحانه لو لم يُوزِّع الرزق هذا التوزيع الحكيم لاختلَّ ميزان العالم ، فَمَنْ بُسِط له يستغنى عن غيره فيما بُسِط له فيه ، ومَنْ

ضُيِّق عليه يتمرد على الكون ويحقد على الناس ، ويحسدهم ويعاديهم .

إنما إذا علم الجميع أن هذا بقدر الله وحكمته فسوف يظل الكون المخلوق موصولاً بالمُكوِّن الخالق سبحانه .

وفي قوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ .. (٣٠)﴾ [الإسراء]

ملمح لطيف : أي ربك يا محمد وأنت أكرم الخلق عليه ، ومع ذلك بَسَط لك حتى صِرْت تعطى عطاء مَنْ لا يخشى الفقر ، وقبض عنك حتى تربط الحجر على بطنك من الجوع[1] .

فإن كانت هذه حاله ﷺ فلا يستنكف أحد منا إنْ ضيّق الله عليه الرزق ، ومَنْ منّا ربط الحجر على بطنه من الجوع ؟!

وبعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه عن فرع من فروع الحياة وهو المال ، ورسم لنا المنهج الذى تستقيم الحياة به ويسير الإنسان به سَيْراً يُحقّق له العيش الكريم والحياة السعيدة ، ويضمن له الارتقاءات والطموحات التى يتطلع إليها .

أراد سبحانه أن يُحدّثنا عن الحياة في أصلها ، فأمر باستبقاء النسل ، ونهى عن قتله فقال تعالى :

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ[2] نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا (٣١)﴾

(١) وقد كان هذا دأب بعض صحابة رسول الله ﷺ ، مثل أبى هريرة (البخارى ٦٤٥٢) ، وأبى سعيد الخدرى (أحمد فى المسند ٣/ ٤٤) .

(٢) الإملاق : الفقر . والإملاق : كثرة إنفاق المال وتبذيره حتى يورث حاجة . والمملق : الذى لا شىء له . [لسان العرب ـ مادة : ملق] .

وواضحٌ الصلة بين هذه الآية وسابقتها ؛ لأن الكلام هنا ما يزال فى الرزق ، والخالق سبحانه يُحذِّرنا : إياكم أنْ تُدخلوا مسألة الرزق فى حسابكم ؛ لأنكم لم تخلقوا أنفسكم ، ولم تخلقوا أولادكم ولا ذريتكم .

بل الخالق سبحانه هو الذى خلقكم وخلقهم ، وهو الذى استدعاكم واستدعاهم إلى الوجود ، وما دام هو سبحانه الذى خلق ، وهو الذى استدعى إلى الوجود فهو المتكفّل برزق الجميع ، فإياك أنْ تتعدّى اختصاصك ، وتُدخِل أنفك فى هذه المسألة ، وخاصة إذا كانت تتعلق بالأولاد .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

القتل : إزهاق الحياة ، وكذلك الموت . ولكن بينهما فَرْق يجب ملاحظته :

فالقتل : إزهاق الحياة بنَقْض البِنْية ؛ لأن الإنسان يتكوّن من بنية بناها الخالق سبحانه وتعالى ، وهى أجهزة الجسم ، ثم يعطيها الروح فتنشأ فيها الحياة .

فإذا ضرب إنسانٌ إنساناً آخر على رأسه مثلاً ، فقد يتلف مخه فتنتهى حياته ، لكن تنتهى بنقْض البنية التى بها الخياة ، لأن الروح لا تبقى إلا فى جسم له مواصفات خاصة ، فإذا ما تغيرت هذه الصفات فارقتْه الروح .

أما الموت : فيبدأ بمفارقة الروح للجسد ، ثم تُنقَض بنيته بعد ذلك . وتتلَفُ أعضاؤه ، فالموت يتم فى سلامة الأعضاء .

وما أشبه هذه المسألة بلمبة الكهرباء التى لا تُضيء ، إلا إذا توافرتْ لها مواصفات خاصة : من مُولّد أو مصدر للكهرباء ، وسلك مُوصّل ولمبة كهرباء ، فإذا كُسِرَتْ هذه اللمبة يذهب النور ، لماذا ؟

لأنك نقضتَ شيئاً أساسياً فى عملية الإنارة هذه . وكذلك إذا صَوَّب واحد رصاصة مثلاً فى قلب الآخر فإنه يموت وتفارقه الروح ؛ لأنك نقضْتَ عنصراً أساسياً من بنية الإنسان ، ولا تستمر الروح فى جسده بدونها .

لذلك ليس فى الشرع عقوبة على الموت ـ ونقصد به هنا الموت الطبيعى الذى يبدأ بخروج الروح من الجسد ـ لكن توجد عقوبة على القتل ، وقد قال النبى ﷺ : « ملعون من هدم بنيان الله » .

لأن حياة كل منا هى بناء أقامه الخالق تبارك وتعالى ، وهو ملْك لخالقه لا يجوز حتى لصاحبه أن ينقضه ، وإلا فلماذا حرَّم الإسلامُ الانتحار ، وجعله كفراً بالله ؟!

إذن : المنهى عنه فى الآية القتل ؛ لأنه من عمل البشر ، وليس الموت . وقد أوضح القرآن الكريم هذه المسألة فى قوله تعالى :
﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ .. ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران]

فالقتل غير الموت ، القتل اعتداء على بِنْية إنسان آخر وهَدْم لها .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْلادَكُمْ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الإسراء]

الأولاد تُطلق على الذكَر والأنثى ، ولكن المشهور فى استقصاء

التـاريخ أنهم كانوا يَئِـدون البنات خاصــة دون الذكور ، وفى الـقرآن الكريم : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ۝ ﴾ [التكوير]

لأنهم فى هذه العـصور كـانوا يعتـبرون الذكـور عَوْناً وعُـدَّةً فى مُعْـترك الحـياة ، وما يملؤها من هــجمات بعـضـهم على بعض ، كـما يَرْوْن فيهم العِزْوة والامتداد . فى حين يعتبرون البنات مصدراً للعار ، خاصة فى ظلِّ الفقر والعَوَز والحـاجة ، فلربما يستميل البنت ذو غنىً إلى شىء من المكروه فى عِـرْضهـا ، وبهـذا الفهم يؤول المـعنى إلى الرزق أيضاً .

وقوله : ﴿ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. ۝ ﴾ [الإسراء]

أى : خَوْفاً من الفقر ، والإملاق : مأخوذة من ملَق وتملّق ، وكلها تعود إلى الافتقار ؛ لأن الإنسان لا يتمـلَّق إنساناً إلا إذا كان فقيراً لما عنـده محتاجاً إليه ، فيتملَّقه ليأخـذ منـه حاجته[1] .

وقوله : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. ۝ ﴾ [الإسراء]

وفى هذه الآية ملْمح لطيف يجب التنبّه إليه وفَهْمه لنتمكن من الردِّ على أعداء القرآن الذين يتهمونه بالتناقض .

الحق سبحانه وتعالى يقول هنا : ﴿ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. ۝ ﴾ [الإسراء]

---

(١) من معانى الملَق : الزيادة فى التودد والدعاء والتضرع فوق ما ينبغى ، ورجل ملَق : يعطى بلسانه ما ليس فى قلبه . وفى الحـديث : « ليس من خلق المؤمن الملَق » . [لسان العرب ـ مادة : ملق] . وقد أورده المتقى الهندى فى كنز العمال (٢٨٩٣٧) من حديث أنس بن مالك وعـزاه لابن عدى فى الكامل والبيـهقى فى الشُّـعب عن معاذ وانظر الفـردوس بمأثور الخطاب للديلمى (٥١٥٨) .

أى : خَوْفاً من الفـقر ، فالفقر ـ إذن ـ لم يَأْتِ بعد ، بل هو مُـحْتمل الحدوث فى مـسـتـقبل الأيام ، فالرزق مـوجود وميـسور ، فـالذى يقتل أولاده فى هذه الحالة غير مشغول برزقه ، بل مشغول برزق أولاده فى المستقبل ؛ لذلك جاء الترتيب هكذا : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

أولاً : لأن المـولود يُولَد ويُولَد مـعه رزقـه ، فلا تـنشغلوا بهـذه المسألة ؛ لأنها ليستْ من اختصاصكم .

ثم : ﴿ وَإِيَّاكُمْ .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

أى : أن رِزْق هؤلاء الأبناء مُـقـدَّم على رزقكم أنتـم . ويمكن أن يُفْـهَم المـعنى على أنه : لا تقـتلوا أولادكم خَـوْفاً من الفـقـر ، فنحن نرزقكم من خلالهم ، ومن أجلهم .

ونهتمّ بتوضـيح هذه المسألة ؛ لأن أعداء الدين الذيـن يُنقِّبون فى القـرآن عن مَأْخـذ يروْنَ تعارضـاً أو تكراراً بين هذه الآية التى مـعنا وبين آية أخـرى تقـول : ﴿ وَلا تَقْـتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْـلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

ونقول لهؤلاء : لقد استقبلتم الأسلوب القرآنى بغير الملَكَة العربية فى فَهْمـه ، فأسلوب القرآن ليس صناعة جـامدة ، بل هو أسلوب بليغ يحتاج فى فَهْمه وتدبُّره إلى ذَوْق وحِسٍّ لُغوىٍّ .

وإذا استـقبلتم كلام الله استـقبالاً سليمـاً فلن تجدوا فيه تعـارضاً ولا تـكراراً ، فليـست الأولى أبلـغَ من الثـانيـة ، ولا الثانيـة أبلغ من الأولى ، بل كل آية بليغة فى موضوعها ؛ لأن الآيتين وإنْ تشابهتَا فى

النظرة العَجْلَى لكنْ بينهما فَرْق فى المعنى كبير ، فآية الإسراء تقول :
﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

وقد أوضحنا الحكمة من هذا الترتيب : نرزقهم وإياكم .

أما فى آية الأنعام : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

فلا بُدَّ أن نلاحظَ أن للآية صدراً وعَجُزاً ، ولا يصح أن تفهم أحدهما دون الآخر ، بل لا بُدَّ أن تجمع فى فَهْم الآية بين صدرها وعجزها ، وسوف يستقيم لك المعنى ويُخرجك من أى إشكال .

وما حدث من هؤلاء أنهم نظروا إلى عَجُزَىْ الآيتين ، وأغفلوا صَدريهما ، ولو كان الصدر واحداً فى الآيتين لكان لهم حق فيما ذهبوا إليه ، ولكنّ صَدْرى الآيتين مختلفان :

الأولى : ﴿ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

والأخرى : ﴿ مِّنْ إِمْلاقٍ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

والفرْق واضح بين التعبيرين : فالأول : الفقر غير موجود ؛ لأن الخشية من الشىء دليل أنه لم يحدث ، ولكنه مُتوقَّع فى المستقبل ، وصاحبه ليس مشغولاً برزقه هو ، بل برزق مَنْ يأتى من أولاده .

أما التعبير الثانى : ﴿ مِّنْ إِمْلاقٍ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

فالفقر موجود وحاصل فعلاً ، والإنسان هنا مشغول برزقه هو لا برزق المستقبل ، فناسب هنا أنْ يُقدِّم الآباء فى الرزق عن الأبناء .

وما دام الصَّدْر مختلفاً ، فلا بُدَّ أن يختلف العَجُز ، فأيْنَ التعارضُ

إذن ؟ وهناك ملْحَظٌ آخر في الآية الكريمة ، وهو أن النهى مُخَاطَبٌ به الجمع : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

فالفاعل جمع ، والمفعول به جمع ، وسبق أن قلنا : إن الجمع إذا قُوبل بالجمع تقتضى القسمة آحاداً ، فالمعنى : لا يقتل كل واحد منكم ولده . كما يقول المعلم للتلاميذ : أخرجوا كُتبكم . والمقصود أنْ يُخرج كل تلميذ كتابه .

فإنْ قال قائل : إن الآية تنهى أنْ يقتلَ الأب ولده خَوْفاً من الفقر ، لكنها لا تمنع أنْ يقتل الأبُ ولد غيره مجاملةً له ، وهو الآخر يقتل ولد غيره مجاملة له .

نقول : لا .. لأن معنى الآية ألاَّ يقتل كل الآباء كل الأولاد ، فينسحب المعنى على أولادى وأولاد غيرى ، وهذا هو المراد بمقابلة الجمع بالجمع . أما لو قُلْنا : إن المعنى : تجاملنى وتقتل لى ابنى ، وأجاملك وأقتل لك ابنك ، فهذا لا يستقيم ؛ لأن المقابلة هنا ليست مقابلة جمع بجمع .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) ﴾ [الإسراء]

خطْئاً مثل خطأ ، وهو الإثم والذنب العظيم . وتأتى بالكسر وبالفتح كما نقول : خُذوا حِذْركم ، وخذوا حَذَركم .

وكلمة : ﴿ خِطْئًا .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

الخاء والطاء والهمزة تدل على عدم موافقة الصواب ، لكن مرة يكون عدم موافقة الصواب لأنك لم تعرف الصواب ، ومرة أخرى لم توافق الصواب لأنك عرفتَ الصواب ، ولكنك تجاوزْتَه .

فالمعلِّم حينما يُصوِّب للتلاميذ أخطاءهم أثناء العام الدراسى نجده يُوضِّح للتلميذ ما أخطأ فيه ، ثم يُصوّب له هذا الخطأ ، وهو لم يفعل ذلك إلا بعد أن أعلمَ تلميذه بالقاعدة التى يسير عليها ، ولكن التلميذ قد يغفل عن هذه القاعدة فيقع فى الخطأ .

وهنا لا مانع أنْ نُصوِّب له خَطَأه ونُرشده ؛ لأنه ما يزال فى زمن الدرس والتعلُّم والترويض والتدريب .

لكن الأمر يختلف إنْ كانت هذه الأسئلة فى امتحان آخر العام ، فالمعلِّم يُبيِّن الخطأ ، ولكنه لا يُصحِّحه ، بل يُقدِّره بالدرجات التى تُحسَب على التلميذ ، وتنتهى المسألة بالنجاح لمَنْ أصاب ، وبالفشل لمن أخطأ ؛ لأن آخر العام أصبح لديه قواعد مُلْزمة ، عليه أنْ يسيرَ عليها .

وكلمة (خطْئاً أو خطأ) مأخوذة من خطا خطوة[1] ، وتعنى الانتقال بالحركة ، فإذا كان الصواب هو الشىء الثابت الذى استُقرَّ عليه وتعارف الناس عليه ، ثم تجاوزتَه وانتقلتَ عنه إلى غيره ، فهذا هو الخطأ أى : الخطوة التى جعلتك تتجاوز الصواب .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ[2] الشَّيْطَانِ .. (١٦٨)﴾[البقرة]

لأنه ينقلكم عن الشىء الثابت المستقر فى شريعة الله .

---

(١) الفعل خطأ وأخطأ . فعل صحيح آخره همزة . أما خطا فهو فعل معتل الآخر بألف منقلبة عن واو . ولذلك يأتى المضارع من الأول (يخطىء) ـ أما الثانى فيأتى (يخطو) .

(٢) قال الأزهرى فى المعتل فى قوله تعالى : ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ .. (١٦٨)﴾ [البقرة] : قرأ بعضهم خطؤات الشيطان من الخطيئة : المآثم . قال أبو منصور : ما علمت أن أحداً من قراء الأمصار قرأه بالهمزة ولا معنى له . [لسان العرب ـ مادة : خطأ] .

والشيء الثابت هنا هو أن الخالق سبحانه خلق الإنسان وكرَّمه ليكون خليفةً له في الأرض ليعمرها ، ويقيم فيها بمنهج الخالق سبحانه ، فكيف يستخلفك الخالق سبحانه ، وتأتى أنت لتقطع هذا الاستخلاف بما تُحدِثه من قَتْل الأولاد ، وهم بذُور الحياة فى المستقبل ؟

حتى لو أخذنا بقول مَنْ ذهب إلى أن (أَوْلَادَكُمْ) المراد بها البنون دون البنات ، وسلَّمنا معه جدلاً أنك تُميت البنات ، وتُبقى على الذكور ، فما الحال إذا كَبِر هؤلاء الذكور وطلبوا الزواج ؟! وكيف يستمر النسل بذكر دون أنثى ؟!

إذن : هذا فَهْمٌ لا يستقيم مع الآية الكريمة ، لأن النهى هنا عن قتل الأولاد ، وهم البنون والبنات معاً .

وقد وصف الحق سبحانه الخطأ هنا بأنه كبير ، فقال : ﴿ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) ﴾ [الإسراء]

ذلك لأنه خطأ من جوانب مُتعدِّدة :

أولها : أنك بالقتل هدمتَ بنيان الله ، ولا يهدم بنيان الله إلا الله .

ثانيها : أنك قطعت سلسلة التناسل فى الأرض ، وقضيتَ على الخلافة التى استخلفها الله فى الأرض .

ثالثها : أنك تعديتَ على غريزة العطف والحنان ؛ لأن ولدك بعض منْك ، وقتله يُجرِّدك من كل معانى الأُبُوة والرحمة ، بل والإنسانية .

وهكذا وضع الحق سبحانه لنا ما يضمن بقاء النسل واستمرار

خلافة الإنسان لله فى أرضه ، بأنْ نهى كل والد أن يقتلَ ولده ، ونهى كل الآباء أنْ يقتلوا كل الأولاد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾

بعد أن تحدّث الحق سبحانه عما يحفظ النسل ويستبقى خلافة الله فى الأرض ، أراد سبحانه أن يحمى هذا النسل من الضياع ، ويوفر له الحياة الكريمة . والإنسان منّا حينما يُرزَق بالولد أو البنت يطير به فَرحاً ، ويُؤثره على نفسه ، ويُخرج اللقمة من فيه ليضعها فى فم ولده ، ويسعى جاهداً ليُوفّر له رفاهية العيش ، ويُؤمّن له المستقبل المُرْضِى ، وصدق الشاعر حين قال :

إنما أوْلاَدُنَا أكبادُناَ تمشِى عَلَى الأَرْضِ
إنْ هَبّتْ الريحُ على بَعْضِهِم امتنعَتْ عَيْنى عَنِ الغُمْضِ .

لكن هذا النظام التكافلىّ الذى جعله الحق سبحانه عماداً تقوم عليه الحياة الأسرية سرعان ما ينهار من أساسه إذا ما دَبَّ الشكُّ إلى قلب الأب فى نسبة هذا الولد إليه ، فتتحوّل حياته إلى جحيم لا يُطَاق ، وصراع داخلى مرير لا يستطيع مواجهته أو النطق به ؛ لأنه طَعْن فى ذاته هو .

لذلك يُحذّرنا الحق - تبارك وتعالى - من هذه الجريمة النكْراء ؛

ليحفظ على الناس أنسابهم ، ويطمئن كل أب إلى نسبة أبنائه إليه ، فيحنو عليهم ويرعاهم ، ويستعذب ألم الحياة ومتاعبها فى سبيل راحتهم .

فيقول تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى .. (٣٢)﴾ [الإسراء]

والمتأمل فى آى القرآن الكريم يجد أن الحق سبحانه حينما يُكلِّمنا عن الأوامر يُذيِّل الأمر بقوله تعالى : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩)﴾ [البقرة]

والحديث هنا عن أحكام الطلاق ، فقد وضع له الحق سبحانه حدوداً ، وأمرنا أن نقف عندها لا نتعداها ، فكأنه سبحانه أوصلنا إلى هذا الحد ، والممنوع أن نتعداه .

وأما فى النواهى ، فيُذيِّلها بقوله : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧)﴾ [البقرة]

والنهى هنا عن مباشرة النساء حال الاعتكاف ، وكأن الحق سبحانه يريد ألاَّ نصلَ إلى الحدِّ المنهى عنه ، وأنْ يكون بيننا وبينه مسافة ، فقال ﴿ فَلاَ تَقْرَبُوهَا ﴾ لنظلّ على بُعْد من النواهى ، وهذا احتياط واجب حتى لا نقتربَ من المحظور فنقع فيه .

وقد قال النبى ﷺ : « من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه »[1] .

(١) قال رسول الله ﷺ : « من وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه » متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ، ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان ابن بشير .

فالحق سبحانه خالق الإنسان ، وهو أعلم به لا يريد له أنْ يقتربَ من المحظور ؛ لأن له بريقاً وجاذبية كثيراً ما يضعف الإنسان أمامها ؛ لذلك نهاه عن مجرد الاقتراب ، وفَرْقٌ بين الفعل وقُرْبان الفعل ، فالمحرّم المحظور هنا هو الفعْل نفسه ، فلماذا إذن حرَّم الله الاقتراب أيضاً ، وحذّر منه ؟

نقول : لأن الله تعالى يريد أنْ يرحَم عواطفك فى هذه المسألة بالذات ، مسألة الغريزة الجنسية ، وهى أقوى غرائز الإنسان ، فإنْ حُمْتَ حولها توشك أن تقعَ فيها ، فالابتعاد عنها وعن أسبابها أسلَمُ لك .

وحينما تكلَّم العلماء عن مظاهر الشعور والعلم قسَّموها إلى ثلاث مراحل : الإدراك ، ثم الوجدان ، ثم النزوع .

فلو فرضنا أنك تسير فى بستان فرأيتَ به وردة جميلة ، فلحظة أنْ نظرتَ إليها هذا يُسمَّى « الإدراك » ؛ لأنك أدركتَ وجودها بحاسة البصر ، ولم يمنعك أحد من النظر إليها والتمتُّع بجمالها .

فإذا ما أعجبتك وراقك منظرها واستقر فى نفسك حُبُّها فهذا يسمى « الوجدان » أى : الانفعال الداخلى لما رأيتَ ، فإذا مددتَ يدك لتقطفها فهذا « نزوع » أى : عمل فعلى .

ففى أى مرحلة من هذه الثلاث يتحكَّم الشرع ؟

الشرع يتحكم فى مرحلة النزوع ، ولا يمنعك من الإدراك ، أو من الوجدان ، إلا فى هذه المسألة « مسألة الغريزة الجنسية » فلا يمكن فيها فَصْل النزوع عن الوجدان ، ولا الوجدان عن الإدراك ، فهى

مراحل ملتحمة ومتشابكة ، بحيث لا تقوى النفس البشرية على الفَصْل بينها .

فإذا رأى الرجل امرأة جميلة ، فإن هذه الرؤية سرعان ما تُولِّد إعجاباً وميلاً ، ثم عشْقاً وغريزة عنيفة تدعوه أنْ تمتدَّ يده ، ويتولد النزوع الذى نخافه ، وهنا إما أنْ ينزعَ ويُلبى نداء غريزته ، فيقع المحرم ، وإما أنْ يعف ويظل يعانى مرارة الحرمان .

والخالق سبحانه أعلم بطبيعة خَلْقه ، وبما يدور ويختلج داخلهم من أحاسيس ومشاعر ؛ لذلك لم يُحرِّم الزنا فحسب ، بل حرَّم كل ما يؤدى إليه بداية من النظر ، فقال تعالى : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا[1] مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. ۝٣٠﴾ [النور]

لأنك لو أدركتَ لوجدتَ ، ولو وجدتَ لنزعتَ ، فإنْ أخذتَ حظَّك من النزوع أفسدتَ أعراض الناس ، وإنْ عففتَ عِشْتَ مكبوتاً تعانى عِشْقاً لن تناله ، وليس لك صبر عنه .

إذن : الأسلم لك وللمجتمع ، والأحفظ للأعراض وللحرمات أنْ تغُضَّ بصرك عن محارم الناس فترحم أعراضهم وترحم نفسك .

لكن هذه الحقيقة كثيراً ما تغيب عن الأذهان ، فيغشّ الإنسانُ نفسه بالاختلاط المحرم ، وإذا ما سُئل ادَّعى البراءة وحُسْن النية وأخذ من صلة الزمالة أو القرابة أو الجوار ذريعة للمخالطة والمعاشرة وهو لا يدرى أنه واهم فى هذا كله ، وأن خالقه سبحانه أدرى به

---

(١) غض بصره : خفضه ولم يرفعه ولم يحدّق فيما أمامه ، أو كفَّ بصره ولم ينظره . [القاموس القويم ٢/٥٦] .

وأعلم بحاله ، وما أمره بغضٍّ بصره إلا لما يترتب عليه من مفاسد ومضار ، إما تعود على المجتمع ، أو عليه نفسه .

لذلك قال ﷺ : « النظرة سَهْم مسموم من سهام إبليس ، مَنْ تركها من مخافتى أبدلتُه إيماناً يجد حلاوته فى قلبه »[(١)] .

ومن هنا نفهم مراده سبحانه من قوله : ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى.. (٣٢)﴾ [الإسراء]

ولم يقل : لا تزنوا . لأن لهذه الجريمة مقدمات تؤدى إليها ، فاحذر أنْ تجعلَ نفسك على مقربة منها ؛ لأن مَنْ حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ودَعْكَ ممَّنْ يُنادون بالاختلاط والإباحية ؛ لأن الباطل مهما علاَ ومهما كثُر اتباعه فلن يكون حقاً فى يوم من الأيام .

واحذر ما يشيع على الألسنة من قولهم هى بنت عمه ، وهو ابن خالها ، وهما تربَّيا فى بيت واحد ، إلى آخر هذه المقولات الباطلة التى لا تُغيِّر من وجه الحرام شيئاً ، فطالما أن الفتاة تحل لك فلا يجوز لك الخلوة بها .

وفى الحديث النبوى : « لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما »[(٢)] .

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤/٣١٤) من حديث حذيفة رضى الله عنه ، وقال : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . قال الذهبى فى تلخيصه : « إسحاق واهٍ ، وعبد الرحمن هو الواسطى ضعفوه » .

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه (١/١١٤) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال الحاكم : حديث صحيح على شرط الشيخين . وأشار إليه الترمذى فى سننه (١١٧١) وأخرجه موصولاً مرفوعاً (٢١٦٥) . وقال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

إذن : ما حرَّم الإسلام النظر لمجرد النظر ، وما حرّم الخَلْوة فى ذاتها ولكن حَرَّمهما ؛ لأنهما من دوافع الزنا وأسبابه . فقوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى.. (٣٢) ﴾ [الإسراء] أبلغ فى التحريم وأحوط وأسلم من : لا تزنوا .

ومثال ذلك أيضاً قوله تعالى فى تحريم الخمر : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) ﴾ [المائدة]

ومع ذلك يخرج علينا مَنْ يقول : ليس فى القرآن آية واحدة تحرم شرب الخمر .. سبحان الله ، فأيُّهما أبلغ وأشدّ فى التحريم أن نقول لك : لا تشرب الخمر ، أم اجتنب الخمر ؟

لا تشرب الخمر : نَهْى عنِ الشُّرْب فقط . إذن : يُبَاحُ لك شراؤها وبيعُها وصناعتها ونقلها ... الخ . أما الاجتناب فيعنى : البعد عنها كُلية ، وعدم الالتقاء بها فى أى مكان ، وعلى أية صورة . فالاجتناب ـ إذن ـ أشدّ من مجرد التحريم .

وكيف نقول بأن الاجتناب أقل من التحريم ، وقد قال تعالى فى مسألة هامة من مسائل العقيدة : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا.. (١٧) ﴾ [الزمر]

فهل تقول فى هذه : إن الاجتناب أقلّ من التحريم ؟ وهل عبادة الطاغوت ليست محرمة ؟!

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً .. (٣٢) ﴾ [الإسراء]

الفاحشة : هى الشىء الذى اشتدّ قبْحه . وقد جعل الحق سبحانه الزنا فاحشة ؛ لأنه سبحانه وتعالى حينما خلق الزوجين : الذكر والأنثى ، وقدّر أن يكون منهما التناسل والتكاثر قدّر لهما أصولاً يلتقيان عليها ، ومظلّةً لا يتم الزواج إلا تحتها ، ولم يترك هذه المسألة مشاعاً يأتيها مَنْ يأتيها ؛ ليحفظ للناس الأنساب ، ويحمى طهارة النسل ، فيطمئن كل إنسان إلى سلامة نسبه ونسب أولاده .

والمراد من الأصول التى يلتقى عليها الزوجان عقد القران الذى يجمعهما بكلمة الله وعلى سنة رسوله ﷺ .

وهَبْ أن لك بنتاً بلغت سنّ الزواج ، وعلمتَ أن شاباً ينظر إليها ، أو يحاول الاقتراب منها ، أو ما شابه ذلك ، ماذا سيكون موقفك ؟ لا شكّ أن نار الغيرة ستشتعل بداخلك ، وربما تعرَّضْتَ لهذا الشاب ، وأقمْتَ الدنيا ولم تُقعدْها .

لكن إذا ما طرق هذا الشاب بابك ، وتقدَّم لخطبة ابنتك فسوف تقابله بالترْحاب وتسعد به ، وتدعو الأهل ، وتقيم الزينات والأفراح .

إذن : فما الذى حدث ؟ وما الذى تغيَّر ؟ وما الفرق بين الأولى والثانية ؟

الفرق بينهما هو الفرق بين الحلال والحرام ؛ لذلك قيل : « جدع الحلال أنف الغيرة » .

فالذى يغَارُ على بناته من لمسة الهواء تراه عند الزواج يُجهِّز ابنته ، ويُسلمها بيده إلى زوجها ؛ لأنهما التقيا على كلمة الله ، هذه الكلمة المقدسة التى تفعل فى النفوس الأعاجيب .

مجرد أن يقول ولىُّ الزوجة : زوجتُكَ . ويقول الزوج : وأنا قبلتُ . تنزل هذه الكلمة على القلوب بَرْداً وسلاماً ، وتُحدث فيها انبساطاً وانشراحاً ؛ لأن لهذه الكلمة المقدسة عملاً فى التكوين الذاتى للإنسان ، ولها أثر فى انسجام ذراته ، وفى كل قطرة من دمه .

ومن آثار كلمة الله التى يلتقى عليها الزوجان ، أنها تُحدث سيالاً بينهما ، هو سيَال الاستقبال الحسن ، وعدم الضَّجَر ، وعدم الغيرة والشراسة ، فيلتقيان على خير ما يكون اللقاء .

ولذلك حينما يُشرِّع لنا الحق تبارك وتعالى العِدَّة ، نجد عدة المطلقة غير عِدَّة المتوفَّى عنها زوجها ، وفى هذا الاختلاف حكمة ؛ لأن الحق سبحانه يعلم طبيعة النفس البشرية وما يُؤثّر فيها .

ولو كانت الحكمة من العدة مجرد استبراء الرحم لكفى شهر واحد وحَيْضة واحدة ، إنما الأمر أبعد من ذلك ، فعند المرأة اعتبارات أخرى ومازالت تحت تأثير الزواج السابق ؛ لأن سيال الحل فيه التقاء الإيجاب والسلب من الرجل والمرأة ، وقد تعودتْ المرأة على الإيجاب الحلال والسلب الحلال .

فإذا طُلِّقَت المرأة فلا يحلّ لها الزواج قبل انقضاء العدة التى حددها الشرع بثلاثة أشهر[1] ، وهى المدة التى يهدأ فيها سيَال الحلال فى نفسها ويجمد ، وبذلك تكون صالحة للالتقاء بزوج آخر .

---

(١) قال تعالى عن عدة المطلقة ، وهى المدة التى يصح للزوج المطلّق أن يراجع زوجته خلالها ، وهى أيضاً المدة التى إذا مرت دون مراجعة صح للمرأة أن تتزوج زوجاً آخر ، قال تعالى : ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ .. (٢٢٨)﴾ [البقرة] . أى : ثلاث حيضات .

أما فى حالة المتوفّى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشرة[(١)] ، والحكمة من الفارق بين العدّتين أن المطلقة غالباً ما يكون بين الزوجين كُرْه ، هذا الكُرْه بينهما يساعد على موت السِّيال ؛ لأنها بطبيعة الحال نافرة عنه غير راغبة فيه . أما المتوفَّى عنها زوجها فقد فارقها دون كُرْه ، فرغبتها فيه أشدّ ؛ لذلك تحتاج إلى وقت أطول للتخلُّص من هذا السيال .

والحق سبحانه هنا يُراعِى طبيعة المرأة ومشاعرها ، وعواطف الميل والرغبة فى زوجها ، ويعلم سبحانه أن هذا الميلَ وهذه الرغبة تحتاج إلى وقت لتهدأ هذه العواطف لدى المرأة ، وتستعد نفسياً للالتقاء بزوج آخر ؛ لأن لقاء الزوج بزوجته مسألة لا يحدث الانسجام فيها بالتكوين العقلى ، بل الانسجام فيها بالتكوين العاطفى الغريزى الذى يعتمد بالدرجة الأولى على توافق الذرات بين الذكر والأنثى .

هذا التوافق هو الذى يُولّد ذرات موجبة ، وذرات سالبة ، فيحدث التوافق ، ويحدث الحب والعِشْق الذى يجمعهما ويمتزجان من خلاله .

وهذا ـ كما قلنا ـ أثر من آثار كلمة الله التى اجتمعا عليها وتحت ظلها .

وهكذا يلتقى الزوجان فى راحة وهدوء نفسى ، ويسكن كل منهما للآخر ؛ لأن ذراتهما انسجمت وتآلفت ؛ ويفرح الأهل ويسعد الجميع ،

---

(١) أما عدة الأرملة التى مات زوجها ، فيقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ .. (٢٣٤) ﴾ [البقرة]

وصدق رسول الله ﷺ حين قال فى وصيته بالنساء : « إنما استحللتم فروجهن بكلمة الله »[(١)]

وهذه الكلمة من الله تعالى الذى خلق الإنسان ويعلم ما يُصلحه ، ولك أنْ تتصورَ الحال إنْ تَمَّ هذا اللقاء فيما حَرَّم الله ، وبدون هذه الكلمة وما يحدث فيه من تنافر الذرات وعدم انسجام ونكدٍ ومرارة لا تنتهى ، ما بقيتْ فيهما أنفاس الحياة .

لذلك سمَّاه القرآن فاحشةً ، والدليل على فُحْشه أن الموصوم به يحب الاَّ يُعرف ، وأن تظل جرائمه خِلْسة من المجتمع ، وأن الذى يقترف هذه الفاحشة يكره أن تُفعلَ فى محارمه ، ويكفيها فُحْشاً أن الله تعالى سماها فاحشة ، وشرع لها حداً يُقام على مرتكبها علانية أمام أعين الجميع .

وقد عالج رسول الله ﷺ هذا الداء ، حينما أتاه شاب يشتكى ضعفه أمام غريزته الجنسية ، ويقول له : يا رسول الله ائذن لى فى الزنا ، والنبى ﷺ أتى بقضايا دينية عامة للجميع ، ولكن حين يعالج داءات المجتمع يعالج كل إنسان بما يناسبه ، وعلى حَسْب ما فيه من داءات الضعف أمام شهوات نفسه .

ويتضح لنا هذا المنهج النبوى فى جواب رسول الله ﷺ ، وقد سُئِلَ كثيراً عن أفضل الأعمال ، فقال لأحدهم : « الصلاة لوقتها »[(٢)] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله من حديث طويل وفيه « فاتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمان الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ : أىُّ العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة لوقتها » أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .

وقال لآخر : « أنْ تَلْقى أخاك بوجه طَلْق »[1]

وقال لآخر : « أنْ تَبرَّ أخاك » .

وهكذا تعددتْ الإجابات ، لأن النبى ﷺ لا يصف مزيجاً عاماً يعطيه للجميع ، بل يعطى لكل سائل الجرعة التى تُصلِح خللاً فى إيمانه ، كالطبيب الذى يهتم بعلاج مريضه ، فيُجرى له التحاليل والفحوصات اللازمة ؛ ليقف على موضع المرض ويصِف العلاج المناسب .

فكيف استقبل رسول الله ﷺ هذا الشاب الذى جاءه يقول : يا رسول الله إننى أصلى وأصوم ، وأفعل كل أوامر الدين إلا أننى لا أقدر على مقاومة هذه الغريزة ؟

هل نهره واعتبره شاذاً ، وأغلق الباب فى وجهه ؟ لا والله ، بل اعتبره مريضاً جاء يطلب العلاج بعد أن اعترف بمرضه ، والاعتراف بالمرض أولى خطوات الشفاء والعافية .

وهذا الشاب ما جاء لرسول الله إلا وهو كاره لمرضه ، وأول ظاهرة فى العافية أن تعترف بمرضك ، ولا تتكبر عليه ، فإنْ تكبَّرتَ عليه استفحلَ واستعصى على العلاج .

وقد اعتبر النبى ﷺ شكوى هذا الشاب ظاهرة صحية فى إيمانه ؛ لأنه ما جاء يشكو إلا وهو كاره لهذه الجريمة ، ويجد لها شيئاً فى نفسه ، وانظر كيف عالجه النبى ﷺ :

---

(١) عن أبى ذر رضى الله عنه قال قال لى النبى ﷺ : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٢٦) ، وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (١٧٣/٥) .

أجلسه ، ثم قال له : « يا أخا العرب أتحب هذا لأمك ؟ » فانتفض الشاب ، وتغيَّر وجهه وقال : لا يا رسول الله جُعلْتُ فداَك ، فقال : « أتحبه لأختك ؟ أتحبه لزوجتك ؟ أتحبه لبناتك ؟ » والشاب يقول فى كل مرة : لا يا رسول الله جُعلْتُ فداَك .

ثم قال ﷺ : « وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ولا لأخواتهم ولا لزوجاتهم ولا لبناتهم » ثم وضع يده الشريفة على صدر هذا الشاب ودعا له : « اللهم نَقِّ صدره ، و حَصِّنْ فَرْجه »[١] .

وانصرف الشاب وهو يقول : لقد خرجتُ من عند رسول الله وليس أكرَه عندى من الزنا ، ووالله ما همَمْتُ بشىء من ذلك إلا وذكرْتُ أمى وأختى وزوجتى وبناتى .

وما أشبه طريقة الرسول ﷺ فى علاج هذا الشاب بما يفعله أهل الصيدلة ، فعندهم مصطلح يسمونه « برشمة المر » ، فإن كان الدواء مُرّاً لا يستسيغه المريض غَلَّفوه بمادة سكرية حتى يمرَّ من منطقة التذوق ، فلا يشعر المريض بمرارته .

وقد جعل الخالق سبحانه منطقة التذوق فى اللسان فحسب ، دون غيره من الأعضاء التى يمرُّ بها الطعام ، واللسان آية من آيات الله فى خَلْق الإنسان ، ومظهر من مظاهر قدرته سبحانه ، حيث جعل فيه حلمات دقيقة يختصُّ كل منها بتذوُّق نوع من الطعام : فهذه للحلو ، وهذه للمر ، وهذه للحرِّيف ، وهكذا ، مع أنها مُتراصّة ومُلْتصقة بعضها ببعض .

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٥٦ ، ٢٥٧) ، والطبرانى فى معجمه الكبير (٨/١٩٠ ، ٢١٥) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم اغفر ذنبه ، وطهر قلبه ، وحصن فرجه » فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شىء .

وكما تحدث برشمة الدواء الحسىِّ المر ، كذلك يحدث فى العلاجات الأدبية المعنوية ، فيُغلِّف الناصح نصيحته ليقبلها المتلقى ويتأثر بها ؛ لذلك قالوا : النصح ثقيل ، فاستعيروا له خِفَّة البيان .

وقالوا : الحقائق مُرّة ، فلا ترسلوها جبلاً ، ولا تجعلوها جدلاً .

وعلى الناصح أن يراعى حال المنصوح ، وأنْ يرفقَ به ، فلا يجمع عليه قسوة الحرمان مما ألِف مع قسوة النصيحة . وقد وضع لنا الحق سبحانه المنهج الدعوى الذى يجب أن نسير عليه فى قوله تعالى : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ..(١٢٥)﴾ [النحل]

ومن أدب النصيحة أيضاً الذى تعلَّمناه من النبى ﷺ أن تكون سِراً ، فليس من مصلحة أحد أنْ تُذاعَ الأسرار ؛ لأن لها أثراً سلبياً فى حياة المجتمع كله وفى المنصوح نفسه ، فإنْ سترْتَ عليه فى نصيحتك له كان أدعى إلى قبوله لما تقول ، وقديماً قالوا : مَنْ نصح أخاه سراً فقد ستره وزَانَه ، ومَنْ نصحه جَهْراً فقد فضحه وشَانَهُ[1] .

ثم يقول تعالى : ﴿وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢)﴾ [الإسراء]

والسبيل هو الطريق الموصل لغاية ، وغاية الحياة أننا مُسْتخلفون فى الأرض ، خلقنا الله لعمارتها والسعى فيها بما يُسعدنا جميعاً ، ويعود علينا بالخير والصلاح ، فإذا ضَلَّ الإنسانُ وانحرف عمّا رسمه له ربه أفسد هذه الخلافة ، وأشقى الدنيا كلها بدل أنْ يُسعدها .

وأعتقد أن ما نشاهده الآن فى بيئات الانحلال والانحراف ،

(١) الشين : العيب . والمشاين : المعايب والمقابح . [لسان العرب ـ مادة : شين] .

وما امتدَّ منهم إلى بلاد الإسلام من التفزيع والرعب يجعلنا نؤمن بأن الزنا فعلاً ساء سبيلاً ، وساء طريقاً ومسلكاً ، يقضى على سلامة المجتمع وأمْنه وسعادته .

ويكفى أنك إذا خرجتَ من بيتك فى مهمة تستلزم المبيت تأخذ جميع لوازمك وأدواتك الشخصية ، وتخاف من شبح العدوى الذى يطاردك فى كل مكان ، فى الحجرة التى تدخلها ، وفى السرير الذى تنام عليه ، وفى دورة المياه التى تستعملها ، الجميع فى رُعْب وفى هلع ، والإيدز ينتشر انتشار النار فى الهشيم ، وأصبح لا يسلَم منه حتى الأسوياء الأطهار .

وما حدث هذا الفزع إلا نتيجةٌ لخروج الإنسان عن منهج الله خروجاً جعل هذه المسألة فوضى لا ضابطَ لها ، فأحدث الله لهم من الأمراض والبلايا بقدْر فجورهم وعصيانهم ، وما داموا لم يأتُوا بالحسنى فليأتوا راغمين مُفزَّعين .

لذلك العالم كله الآن يباشر مشروعات عفَّة وطهارة ، لا عن إيمان بشرع الله ، ولكن عن خَوْف وهلَع من أمراض شتَّى لا ترحم ، ولا تُفرِّق بين واحد وآخر .

إذن : الزنا فاحشة وساء سبيلاً ، وها هى الأحداث والوقائع تُثبت صدْق هذه الآية ، وتثبت أن أىّ خروج من الخلْق عن منهج الخالق لن يكون وراءه إلا نكَدُ الدنيا قبل ما ينتظرهم فى الآخرة .

والآن وقد ضمنَّا سلامة الأعراض ، وضمنَّا طهارة النسل ، وأصبح لدينا مجتمع طاهر سليم ، يأْمَنُ فيه الإنسان على هذا

الجانب ، فلا بُدَّ إذن أن نحافظَ فيه على الأرواح ، فلا يعتدى أحد على أحد ، فيقول تعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [الإسراء]

كان القياس أنْ يُقابل الجمع بالجمع ، فيقول : لا تقتلوا النفوس التى حرَّم الله ، لكن الحق سبحانه وتعالى يريد أن قَتْل النفس الواحدة مسئوليةُ الجميع ، لا أنْ يسأل القاتل عن النفس التى قتلها ، بل المجتمع كله مسئول عن هذه الجريمة .

﴿ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [الإسراء] أى : جعلها محرَّمة لا يجوز التعدى عليها ؛ لأنها بنيان الله وخلْقته وصناعته ، وبنيان الله لا يهدمه أحد غيره . أو نقول : ﴿ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ .. ﴿٣٣﴾ ﴾[الإسراء] أى : حرَّم الله قتلها .

﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ .. ﴿٣٣﴾ ﴾[الإسراء] وهذا استثناء من الحكم السابق الذى قال : لا تقتلوا النفس التى حرم الله ﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ أى : ولكن اقتلوها بالحق ، والحق هنا المراد به ثلاثة أشياء :

– القصَاص من القاتل .

– الردَّة عن الإسلام .

- زِنَا المحصَن أو المحصَنة[1] .

وهذه أسباب ثلاثة تُوجِب قَـتْل الإنسان ، والقتْل هنا يكون بالحق أى : بسبب يستوجب القتل .

وقد أثار أعداء الإسلام ضَـجَّة كبيرة حول هذه الحـدود وغيرها ، واتهموا الإسلام بالقسوة والوحشية ، وحُجَّتهم أن هذه الحدود تتنافى وإنسانيـة الإنسان وآدميتـه ، وتتعارض مع الحرية الدينيـة التى يقول بها الإسلام فى قوله تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة]

ففى القـصاص قالوا : لقـد خَسِر المـجتمع واحـداً بالقتل ، فكيف نُزِيد من خسارته بقتْل الآخر ؟

نقـول : لا بُدَّ أن نستـقـبلَ أحكام الله بفهْـم وَاعٍ ونظرة متـأمّلة ، فليس الهدف من تشريع الله للقصاص كثرة القتل ، إنما الهدف ألاّ يقع القتل ، وألاَّ تحدثَ هذه الجريمة من البداية .

فحـين يُخبِرك الـحق سبحـانه أنك إنْ قتلتَ فسـوف تُقتَلُ ، فـهو يحمى حيـاتك وحياة الآخرين . وليس لدى الإنسـان أغلى من حياته ، حتى القاتل لم يـقتل إلا لأنه يحب الحياة ، وقتل من أجـلها مَنْ قتل ؛ لأنه ربما خدش عِزَّته أو كرامته ، وربما لأنه عدو له أقوى منه .

ولا شكَّ أن حيـاته أغلى من هذا كله ، فحين نقـول له : إنْ قتلْتَ ستُقـتل ، فنحن نمنعه أنْ يُقدِم على هذه الجريمـة ، ونُلوِّح له بأقسى ما يمكن من العقوبة . ولذلك قالوا : القتْلُ أنْفَى للقتل .

---

(١) أحصن الرجل وأحصنت المـرأة : تزوجا ، وكان الزواج حصْن يحمى المـتزوج من الوقوع فى الشهوات فهو مُحصِن . [القاموس القويم ١/١٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَـٰأُولِي الْأَلْبَابِ .. (١٧٩) ﴾ [البقرة]

وهذا نداء لأصحاب الأفهام والعقول الواعية ، ليس القصاص كما يظنُّ البعض ، بل فيه الحياة وفيه سلامة المجتمع وحَقْن الدماء .

ويجب أن يكون عندنا يقظةٌ استقبال لأحكام الله ؛ لأن القاتل ما قتل إلا حينما غفل عن الحكم ، ويجب أيضاً أن ننظر إلى حكم القصاص نظرة موضوعية ، لأنه كما حَمى غيرى من قَتْلى له حمانى أيضاً من قَتْل غيرى لى ، وما دامت المسألة : لك مثل ما عليك ، وحظك منها كحظٍّ الناس جميعاً ، فلماذا الاعتراض ؟

وكذلك فى السرقة ، حينما يقول لك : لا تسرق ، فأنت ترى أن هذا الأمر قد قيَّد حريتك أنت ، لكن الحقيقة أنه أيضاً قيَّد حرية الآخرين بالنسبة للسرقة منك . والذى يتأمل هذه الحدود يجدها فى صالح الفرد ؛ لأنها تُقيِّد حريته وهو فرد واحد ، وتُقيِّد من أجله حرية المجتمع كله .

وفى الزكاة ، حينما يُوجب عليك الشارع الحكيم أنْ تُخرج قَدْراً معلوماً من مالك للفقراء ، فلا تَقُلْ : هذا مالى جمعتُه بجَهْدى وعَرقى . ونقول لك : نعم هو مالك ، ولكن لا تنسَ أن الأيام دُوَلٌ وأغيار ، والغنىّ اليوم قد يفتقر غداً ، فحين تعضّك الأيام فسوف تجد مَنْ يعطيك ، ويكيل لك بنفس الكَيْل الذى كِلْتَ به للناس .

إذن : يجب أن نكون على وَعْى فى استقبال الأحكام عن الله تعالى ، وأن ننظر إليها نظرة شمولية ، فنرى ما لنا فيها وما علينا ،

وما دامت هذه الأحكام تعطينا بقدر ما تأخذ مِنّا فهى أحكام عادلة .

وحُكْم القصاص يجعل الإنسان حريصاً على نفسه ، ويمنعه أنْ يُقدم على القَتْل ، فإنْ غفل عن هذا الحكم وارتكب هذه الجريمة فلا بُدَّ أن يقتصَّ منه ؛ فإنْ أخذتنا الشهامة وتشدَّقْنا بالإنسانية والكرامة والرحمة الزائفة ، وعارضنا إقامة الحدود فليكُنْ معلوماً لدينا أن مَنْ يعارض فى إعدام قاتل فسوف يتسبب فى إعدام الملايين ، وسوف يفتح الباب لفوضى الخلافات والمنازعات ، فكلّ مَن اختلف مع إنسان سارع إلى قَتْله ؛ لأنه لا يوجد رادع يُردعه عن القتل .

إذن : لكى نمنع القتل لابُدَّ أن نُنفِّذَ حكم الله ونُقيم شَرْعه ولو على أقرب الناس ؛ لأن هذه الأحكام ما نزلتْ لتكون كلاماً يُتلَى وفقط ؛ بل لتكون منهجاً عملياً يُنظِّم حياتنا ، ويحمى سلامة مجتمعنا.

لذلك جعل الحق سبحانه وتعالى تنفيذ هذه الأحكام علانية أمام الجميع ، وعلى مَرْأى ومَسْمع المجتمع كله ؛ ليعلموا أن أحكام الله ليست شفوية ، بل ها هى تُطبَّق أمامهم ، وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ﴾ [النور]

والذين اعترضوا على القصاص اعترضوا أيضاً على إقامة حَدِّ الردَّة ، ورأوا فيه وحشية وكَبْتاً للحرية الدينية التى كفلها الإسلام فى قوله تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. ۝٢٥٦ ﴾ [البقرة]

والحقيقة أن الإسلام حينما شرع حَدَّ الردة ، وقال بقتل المرتد عن الدين أراد أن يُصعِّب على غير المسلمين الدخول فى الإسلام ، وأنْ يُضيِّق عليهم هذا الباب حتى لا يدخل فى الإسلام إلا مَنْ أخلص

له ، واطمأنَّ قلبه إليه ، وهو يعلم تماماً أنه إنْ تراجع عن الإسلام بعد أن دخل فيه فجزاؤه القتل .

فهذه تُحسَب للإسلام لا عليه ؛ لأنه اشترط عليك أولاً ، وأوضح لك عاقبة ما أنت مُقدِم عليه .

أما حرية الدين والعقيدة فهى لك قبل أن تدخل الإسلام دخولاً أولياً ، لا يجبرك أحد عليه ، فلك أنْ تظلَّ على دينك كما تحب ، فإنْ أردتَ الإسلام فتفكّر جيداً وتدبّر الأمر وابحثه بكل طاقات البحث لديك .

فليس فى دين الله مجالٌ للتجربة ، إنْ أعجبكَ تظلّ فى ساحته ، وإنْ لم يَرُقْ لك تخرج منه ، فإنْ علمتَ هذه الشروط فليس لك أنْ تعترضَ على حدِّ الردّة بعد ذلك . ولتعلم أن دين الله أعزّ وأكرم من أنْ يستجدى أحداً للدخول فيه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا .. (٣٣) ﴾ [الإسراء]

وهذا حكم نفى ، المفروض ألاَّ يحدث . ومعنى ﴿ مَظْلُوماً ﴾ أى : قُتل دون سبب من الأسباب الثلاثة السابقة أى : دون حق ، فعلى فَرْض أن هذا القتل وقع بالفعل ، فما الحكم ؟

يقول تعالى : ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ .. (٣٣) ﴾ [الإسراء]

وليه : أى ولىّ المقتول ، وهو مَنْ يتولّى أمره من قرابته : الأب أو الأخ أو الابن أو العم .. الخ فهو الذى يتولّى أمر المطالبة بدمه .

﴿ سُلْطَانًا .. (٣٣) ﴾ [الإسراء] أى : شرعنا له ، وأعطيناه الحقَّ والقوة فى أنْ يقتل القاتل ، والسلطان يكون فى خدمة التنفيذ ، ويُمكّنه منه ، وكذلك المؤمنون أيضاً يقفون إلى جواره ، ويساعدونه فى تنفيذ هذا الحكم ؛ لأن الأمر من الله قد يكون رادعه فى ذات النفس ، لكن إنْ ضعُفَتْ النفس فلا بُدَّ لرادع من الخارج ، وهنا يأتى دور السلطان ودور المجتمع الإيمانى الذى يُعين على إقامة هذا الحكم .

إذن : جعل الحق سبحانه وتعالى سلطان القصاص لولىّ الدم ، فإنْ لم يكن له ولىّ فإن السلطان ينتقل للحاكم العام ليتولى إقامة هذا الحكم ، لكن ما يُتعب الدنيا ـ حينما ينتقل حَقُّ القصاص إلى الحاكم العام ـ طُول الإجراءات التى تُخرج الحكم عن المراد منه ، وتُذْكِى نار الحقد والغلِّ والتِّرَة فى نفسِ ولىِّ الدم .

فولىّ الدم وحده الذى يُعانى طول فترة التقاضى مع أناس لا يعنيهم أن تطولَ هذه الفترة أو تقصُر ؛ لأن طول فترة التقاضى تأتى فى صالح القاتل ، حيث بمرور الأيام ـ بل والسنين ـ تبْرُد شراسة الجريمة فى نفوس الناس ، وتأخذ طريقاً إلى طيّات النسيان .

وبهذا تبهت الجريمة وتُنسَى بشاعتها ، وبدلَ أن يقف المجتمع ويفكر فى القاتل وفى القصاص منه ، تتحول الأنظار والعواطف إلى النفس الجديدة التى ستُقتل ، وبذلك يتعاطف الناس معه بدل أن يتعاطفوا فى إقامة القصاص عليه .

لكن يجب أنْ يُقامَ القصاص قبل أنْ تبرُدَ شراسة الجريمة فى النفوس ، وتبهت وتفقد حرارتها .

والحق سبحانه وتعالى كما شرع القصاص ، وجعله فى يد ولىّ الدم ، أراد فى الوقت نفسه ألاَّ يحرم المجتمع من طموحات العفو الذى يُنهى أصول الخلاف ، فيقول تعالى : ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .. (١٧٨)﴾ [البقرة]

ففى جَوِّ القتل وثورة الدماء التى تغلى بالثأر يتكلم الحق سبحانه عن العفو والأخوة والمعروف والإحسان ، فمهما كان الأمر فالمؤمنون إخوة ، وباب العفو والإحسان مفتوح . ولولىِّ الدم بعد أن أعطيناه حَقَّ القصاص ندعوه إلى العفو ، وله أن يأخذ الدية[1] وتنتهى المسألة ، وله أن يعفوَ عن بعضها أو عنها كلها .

إذن : فإعطاء الحق مَنع عن المقتول له ذلّة التسلُّط من القاتل ؛ لأن الله تعالى أعطاه حَقَّ القصاص منه ، فإذا ما عفا عنه علِم القاتل أن حياته أصبحت هبةً من ولىِّ الدم ، وما دام الأمر كذلك فسوف تتلاشى بينهما الضغائن والأحقاد ، ويحل محلها الوفاق والمحبة والسلام ، ونُنهى تسلسل الثارات الذى لا ينتهى .

وقد اشتهر فى صعيد مصر ـ وكان مثالاً للأخْذ بالثأر ـ أن القاتل يأخذ كفنه فى يده ، ويذهب به إلى ولىِّ الدم ويُسلِّم نفسه إليه معترفاً بجريمته ، معطياً لولى الدم حرية التصرف فيه . فما يكون من ولى الدم أمام هذا الاستسلام إلاّ أنْ يعفوَ ويصفح ، وبذلك تُقتلَع الضغائن من جذورها .

---

(١) الدية : هى المال الذى يجب بسبب الجناية . وتُؤدّى إلى المجنى عليه أو وليه . والدية تكون مغلظة ومخففة ، فالمخففة تجب فى قتل الخطأ ، والمغلظة تجب فى شبه العمد . [فقه السنة ٣/٣٧ ـ ٥٩] .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَلا يُسْرِف فِي الْقَتْلِ.. (٣٣) ﴾ [الإسراء]

أى : طالما أن الله أعطاك حَقَّ القصاص فليكُنْ القصاص بقَدْره دون زيادة أو تعدٍّ أو مجاوزة للحدِّ ، والإسراف فى القتل يكون بأوجه عدة :

فقد يكون القاتل غير ذى شأن فى قومه ، فلا يرضى ولىّ الدم بقتْله ، بل يتطلع إلى قتل إنسان آخر ذى مكانة وذى شأن ، فيقتل إنساناً بريئاً لا ذنبَ له ، وهذا من الإسراف فى القتل ، وهو إسرافٌ فى ذات المقتول .

وقد يكون الإسراف فى الكَمِّ ، فإنْ قُتل واحد فلا يكتفى ولىّ الدم بأن يقتل القاتل ، بل يحمله الغِلّ وثورة الدم إلى أنْ يقتل به أكثر من واحد .

وقد يكون الإسراف بأنْ يُمثّل بجثة المقتول ، ولا يكفيه قتله ، والمفروض ألاَّ يحملك الغضب على تجاوز الحدِّ المشروع لك . وقد أراد النبى ﷺ أن يفعلها فى قاتل حمزة ، فنهاه الله عن ذلك[1] .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً (٣٣) ﴾ [الإسراء]

أى : لا يجوز له أنْ يُسرف فى القتل ؛ لأننا لم نتخلّ عنه ، بل وقفنا بجانبه وأعطيناه حقّ القصاص ومكنّاه منه ، إذن : فهو منصور

(١) حين قُتل حمزة ومُثّل به فى أحد قال رسول الله ﷺ : « لئن أظهرنى الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم ، فلما سمع المسلمون ذلك قالوا : والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مُثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط ، فأنزل الله ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) ﴾ [النحل] .

ليس متروكاً ، فيجب أن يقف عند حَدِّ النُّصْرة لا يتجاوزها ؛ لأنه إن تجاوزها بقتل غير القاتل ، فسوف يُقتل هو الآخر قصاصاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ[1] وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) ﴾

وهنا أيضاً يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا .. (٣٤) ﴾ [الإسراء]

ولم يقل : ولا تأكلوا مال اليتيم ليحذرنا من مجرد الاقتراب ، أو التفكير في التعدِّي عليه ؛ لأن اليُتْم مظهر من مظاهر الضعف لا يصح أنْ تجترىءَ عليه .

و (اليتيم) هو مَنْ مات أبوه وهو لم يبلغ مبلغَ الرجال وهو سنّ الرُّشْد ، وما دام قد فقد أباه ولم يَعُدْ له حاضن يرعاه ، فسوف يضجر ويتألم ساعة أنْ يرى غيره من الأولاد له أب يحنو عليه ، وسوف يحقد على القدَر الذي حرمه من أبيه .

فيريد الحق سبحانه وتعالى أولاً أنْ يستلَّ من قلب اليتيم وفكره هذه المشاعر ؛ لذلك يُوصي المجتمع به ليشعر أنه وإنْ فقد أباه فالمؤمنون جميعاً له آباء ، وفي حُنُوِّهم وعطفهم عِوَض له عن وفاة والده .

---

(١) حتى يبلغ أشده : أي يبلغ السن التي تشتد فيها أعضاؤه وتقوى . [القاموس القويم ٣٤٣/١] قال الزجاج : بلوغه أشده أن يُؤْنَس منه الرشد مع أن يكون بالغاً . وقال بعضهم : حتى يبلغ ثماني عشرة سنة . قال أبو إسحاق : لست أعرف ما وجه ذلك ؛ لأنه إن أدرك قبل ثماني عشرة سنة وقد أونس منه الرشد فطلب دفْع ماله إليه وجب له ذلك . [لسان العرب ـ مادة : شدد] .

وكذلك حينما يرى الإنسانُ أن اليتيم مُكرّم فى مجتمع إيمانى يكفله ويرعاه ، ويعتبره كل فرد فيه ابناً من أبنائه ، يطمئن قلبه ولا تُفزعه أحداث الحياة فى نفسه ، ولا يقلق إنْ قُدِّر له أنْ يُيَتَّم أولاده ، فسوف يجدون مثل هذه الرعاية ، ومثل هذا الحنان من المجتمع الإيمانى .

إذن : إنْ وجد اليتيم فى المجتمع عوَضاً عن أبيه عَطْفاً وحناناً ورعاية يرضى بما قُدِّر له ، ولا يتأبَّى على قدر الله ، وكذلك تطمئن النفس البشرية إنْ قُدِّر عليها اليُتْم فى أولادها .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٣٤) ﴾ [الإسراء]

أى : لا تنتهز يُتْم اليتيم ، وأنه ما يزال صغيراً ضعيف الجانب ، فتطمع فى ماله ، وتأخذه دون وجه حق .

وقوله : ﴿ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٣٤) ﴾ [الإسراء] استثناء من الحكم السابق ﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا ... ﴾ يبيح لنا أن نقرب مال اليتيم ، ولكن بالتى هى أحسن .

و ﴿ أَحْسَنُ ﴾ أفعل تفضيل تدل على الزيادة فى الإحسان ، فكأن لدينا صفتين ممدوحتين : حسنة وأحسن ، وكأن المعنى : لا تقربوا مال اليتيم بالطريقة الحسنة فحسب ، بل بالطريقة الأحسن . فما الطريقة الحسنة ؟ وما الطريقة الأحسن ؟

الطريقة الحسنة : أنك حين تقرب مال اليتيم لا تُبدده ولا تتعدَّى عليه . لكن الأحسن : أنْ تُنمى له هذا المال وتُثمّره وتحفظه له ، إلى أن يكون أهْلاً للتصرّف فيه .

لذلك فالحق سبحانه حينما تكلم عن هذه المسألة قال :

﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا .. ⓹ ﴾ [النساء]

ولم يقل : وارزقوهم منها ؛ لأن الرزق منها يُنقصها ، لكن معنى: ﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا .. ⓹ ﴾ [النساء] أى : من ريعها وربحها ، وليس من رأس المال .

وإلاَّ لو تصوّرنا أن أحد الأوصياء على الأيتام عنده مال ليتيم ، وأخذ ينفق عليه من هذا المال ، ويُخرج منه الزكاة وخلافه ، فسوف ينتهى هذا المال ويبلغ اليتيم مبلغ الرُّشْد فَلا يجد من ماله شيئاً يُعتَدُّ به .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يقول : حقِّقوا الحسن أولاً بالمحافظة على مال اليتيم ، ثم قدِّموا الأحسن بتنميته له وزيادته زيادة تتسع لنفقات حياته ، وإلاَّ فسوف يشبّ الصغير ، وليس أمامه من ماله شىء .

والحق سبحانه وتعالى يريد ألاَّ يحرم اليتيم من خبرة أصحاب الخبرة والصلاحية الاقتصادية وإدارة الأموال ، فقد يكون من هؤلاء مَنْ ليس لديه مال يعمل فيه ، فليعمل فى مال اليتيم ويُديره له ويُنمّيه ، وليأكل منه بالمعروف ، وإنْ كان غنياً فليستعفف عنه ؛ لأنه لا يحلّ له ، يقول تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ..⓺ ﴾ [النساء]

لأن الإنسان إذا كان عنده خبرة فى إدارة الأموال ولديْه الصلاحية فلا نُعطِّل هذه الخبرة ، ولا نحرم منها اليتيم ، وهكذا نوفر نفقة

صاحب الخبرة الذى لا يجد مالاً ، ونفقة اليتيم الذى لا يستطيع إدارة أمواله ، وبذلك يتم التكامل فى المجتمع الإيمانى .

ثم يقول تعالى : ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ .. ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء]

أى : حتى يكبر ويبلغ مبلغ الرجال ، ولكن هل هـذه الصفة كافية لكى نُعطِى لليتيم ماله وقد بلغ سِنّ الرُّشْد والتكليف ؟

فى الحقيقة أن هذه الصفة غير كـافية لنُسلِّم له ماله يتصرف فيه بمعرفته ؛ لأنه قد يكون مع كِبَر سنّه سفيهاً لا يُحسن التصرُّف ، فلا يجوز أن نتـركَ له المال ليُـبدِّده ، بدليل قـوله تعالى : ﴿فَإِنْ آنَسْتُم[1] مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ .. ﴿٦﴾﴾ [النساء]

وقال فى آية أخرى : ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ .. ﴿٥﴾﴾ [النساء]

ولم يقل : أموالهم ، لأن السفيـه ليس له مال ، وليس له ملكية ، والمال مال وليِّه الذى يحافظ عليه ويُنمّيه له .

إذن : فالرُّشْد وهو سلامة العقل وحُسْن التصرُّف ، شرط أساسى فى تسليم المال لليتيم ؛ لأنه أصبح بالرُّشْد أهْلاً للتصرُّف فى ماله .

وكلمة : ﴿أَشُدَّهُ.. ﴿٣٤﴾﴾[الإسراء] أى : يبلغ شِدّة تكوينه ، ويبلغ الأشدّ أى : تسـتوى ملكاته استـواءً لا زيادة عليه ، فأعضـاء الإنسان تنمـو وتتـربى مع نمـوه علـى مَرِّ الـزمن ، إلى أن يصل سَنّ الرشـد ويصبحَ قادراً على إنجاب مثله ، وهذه هى سِنّ الأشُدّ أى : الاستواء.

---

(١) آنس الشىء : أدركه وأحسَّه ببصره أو بعلمـه وفكره . أى : علمتم وأدركتم إدراكاً معنوياً . [القاموس القويم ١/٣٧] .

لذلك أجَّلَ الله تعالى التكليف للإنسان إلى سنِّ البلوغ ؛ لأنه لو كلَّفه قبل أن يبلغ ثم طرأ عليه البلوغ بعد التكليف لاحتجَّ بما طرأ عليه في نفسه من تغيرات لم تكن موجودة حال التكليف .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (٣٤) ﴾ [الإسراء]

﴿ العَهْد ﴾ ما تعاقد الإنسان عليه مع غيره عقداً اختيارياً يلتزم هو بنتائجه ومطلوباته ، وأول عقد أُبرِمَ هو العَقْد الإيماني الذي أخذه الله تعالى علينا جميعاً ، وأنت حُرٌّ في أن تدخل على الإيمان بذاتك مختاراً أو لا تدخل ، لكن حين تدخل إلى الإيمان مُخْتَاراً يجب أن تلتزم بعهد الإيمان ؛ لأن الله لا يريد منّا قوالبَ تخضع ، ولكن يريد منّا قلوباً تخشع ، ولو أراد الله منّا قوالب تخضع ما استطاع واحد منّا أنْ يشذَّ عن الإيمان بالله .

لذلك خاطب الحق تبارك وتعالى رسوله بقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾ [الشعراء]

فالله لا يريد أعناقاً ، وإنما يريد قلوباً ، لكن يخلط كثير من الناس إنْ أمرته بأمر من أمور الدين فيقول : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة] نقول له : أنت لم تحسن الاستدلال ، المراد : لا إكراه في أنْ تدخل الدين ، ولكن إذا دخلتَ فعليك الالتزام بمطلوباته .

ومن باطن هذا العهد الإيماني تنشأ كل العقود ، لذلك يجب الوفاء بالعهود ؛ لأن الوفاء بها جزء من الإيمان ، فأنت حُرٌّ أن تقابل فلاناً

أولا تقابله ، إنما إذا عاهدتَه على المقابلة فقد أصبحتَ مُلْزماً بالوفاء ؛ لأن المقابل لك قد رتَّبَ نفسه ومصالحه على أساس هذا اللقاء ، فإنْ أخلفتَ معه العهد فكأنك أطلقتَ لنفسه حرية الحركة ، وقيَّدتَ حركة الآخر .

وهذه صفة لا تليق أبداً بالمؤمنين ، وقد جعلها النبى ﷺ من صفات المنافقين[1] .

وقوله : ﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (٣٤) ﴾ [الإسراء]

قد يكون المعنى : أى مسئولاً عنه ، فيسأل كل إنسان عن عهده أوفَّى به أم أخلفه ؟

وقد يراد ﴿ مَسْئُولاً ﴾ أى : مسئول ممَّنْ تعاقد عليه أنْ يُنفِّذه ، وكأنه عدَّى المسئولية إلى العهد نفسه ، فأنا حُرٌّ وأنت حُرٌّ ، والعهد هو المسئول .

والحق سبحانه وتعالى يستعمل اسم المفعول فى مواضع تقول للوهلة الأولى أنه فى غير موضعه ، ولكن إذا دققتَ النظر تجده فى موضعه بليغاً غايةَ البلاغة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) ﴾ [الإسراء]

هكذا بصيغة اسم المفعول ، والحجاب فى الحقيقة ساتر وليس مستوراً ، ولكن الحق سبحانه يريد أنْ يجعلَ الحجاب صفيقاً ، كأنه

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من نفاق حتى يدعها ، إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر » أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٨) ، وكذا البخارى فى صحيحه (٢٤٥٩) .

نفسه مستور بحجاب الغير ، كما يصنع بعض المترفين ستائر البيوت من طبقتين ، فتصبح الستارة نفسها مستورة ، وكما فى قوله تعالى : ﴿ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴿٥٧﴾ ﴾ [النساء] أى : أن الظلَّ نفسه مُظَلَّلٌ .

وانظر إلى حال المجتمع إذا لم تُرَاعَ فيه العهود ، ولم تُحترَم المواثيق ، مجتمع يستهين أهله بالوفاء وشرف الكلمة ، فسوف تجده مجتمعاً مُفكّكاً فُقِدت فيه الثقة بين الناس ، وإذا ما فُقِدت الثقة وضاع الوفاء وشرف الكلمة الذى تُدار به حركة الحياة فاعلم أنه مجتمع فاشل ، وليس أهْلاً لرقىٍّ او تقدُّم .

ولأهمية العهد فى الإسلام نجده ينعقد بمجرد الكلمة ، وليس من الضرورى أن يُسجَّل فى سجلات رسمية ؛ لأن المؤمن تثق فى كلمته حتى إنْ لم تُوثَّق وتكتب .

ومن هنا وُجِد ما يسمونه بالحق القضائى وبالحق الدينى ، فيقولون : هذا قضاءً وهذا ديانة ، والفرق واضح بينهما ، ويمكن أن نضرب له هذا المثل :

هَبْ أنك أخذتَ دَيْناً من صديق لك ، وكتبت له مستنداً بهذا الدين ليطمئن قلبه ، ثم قابلته بعد أن تيسَّر لك السداد ووفَّيت له بدَيْنه . لكنه اعتذر لعدم وجود المستند معه الآن ، فقلت له : لا عليك أرسله لى متى شئتَ ، فلو تصوَّرنا أنه أراد الغدر بك وأنكر سداد الدين ، فالقضاء يقول : له الحق فى أخذ دَيْنه ، أما ديانة فليس له شىء .

إذن : العهد الذى نعقده مع الناس يدخل تحت المسئولية الدينية وليس القضائية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ(١) الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا(٢) ﴿٣٥﴾ ﴾

تنتقل بنا الآيات إلى قضية من أخطر قضايا المجتمع ، هذه القضية هى التى تضمن للإنسان نتيجة عرقه وثمار جهده وتعبه فى الحياة ، ويطمئن أنها عائدة عليه لا على هذه الطبقة الطفيلية المتسلطة التى تريد أن تعيش على أكتاف الآخرين وتتغذى على دمائهم .

وبذلك ييأس الكسول الخامل ، ويعلم أنه ليس له مكان فى مجتمع عامل نشيط ، وأنه إنْ تمادى فى خموله فلن يجد لقمة العيش فيأخذ من ذلك دافعاً للعمل ، وبذلك تزداد طاقة العمل ويَرْقى المجتمع ويسعد أفراده .

صحيح فى المجتمع الإيمانى إيثار ، لكنه الإيثار الإيجابى النابع من الفرد ذاته ، أما الخطف والسرقة والاختلاس والغَصب فلا مجال لها فى هذا المجتمع ؛ لأنه يريد لحركة الحياة أن تستوعب الجميع فلا يتطفل أحد على أحد .

وإن كنا نحارب الأمراض الطفيلية التى تتغذى على دماء الإنسان فإن محاربة الطفيليات الآدمية أَوْلَى بهذه المحاربة . فما دُمْتَ قادراً

---

(١) القسطاس : الميزان والعدل . [القاموس القويم ٢/١١٦] والقسطاس المستقيم : أعدل الموازين وأقومها . [لسان العرب ـ مادة : قسطس] .

(٢) أى : أحسن عاقبة ومآلاً ومرجعاً ونتيجة ، لأنه أقرب إلى الحق والعدل وفيه الخير الكثير للناس . [القاموس القويم ١/٤٤] .

على العمل فيجب أن تعمل ، أما غير القادرين من أصحاب الأعذار فهم على العين والرأس ، ولهم حَقٌّ مكفول فى الدولة وفى أعناق المؤمنين جميعاً ، وهذا هو التأمين الذى يكفله الإسلام لكل محتاج .

لذلك نقول للغنى الذى يسهم فى سَدِّ حاجة الفقير : لا تتأفف ولا تضجر إنْ أخذنا منك اليوم ؛ لأن الطاقة التى عملت بها واجتهدتَ وجمعتَ هذا المال طاقة وقدرة ليست ذاتية فيك ، بل هى هبَة من الله يمكن أنْ تُنزعَ منك فى أى وقت ، وتتبدَّل قوتك ضعفاً وغنَاك حاجة ، فإنْ حدث لك ذلك فسوف نعطيك ونُؤمِّن لك مستقبلك .

لذلك على الإنسان أن يعيش فى الحياة إيجابياً ، يعمل ويكدح ويُسهِم فى رُقيِّ الحياة وإثرائها ، ولا يرضى لنفسه التقاعس والخمول ؛ لأن المجتمع الإيمانى لا يُسوِّى بين العامل والقاعد ، ولا بين النشيط والمتكاسل .

وهَبْ أن شقيقين اقتسما ميراثاً بينهما بالتساوى ؛ الأول عاش فى ماله باقتصاد وأمانة وسَعَى فيه بجدّ وعمل على تنميته ، أما الآخر فكان مُسْرفاً مُنحرفاً بدَّد كل ما يملك وقعد مُتحسِّراً على ما مضى ، فلا يجوز أنْ نُسوِّى بين هذا وذاك ، أو نأخذ من الأول لنُعطىَ للآخر ، إياك أن تفعل هذا لأن الإنسان وكذلك الدول - إذا أخذتْ ما ليس لها حمّلها الله ما ليس عليها .

ولذلك لا يجوز أن نحقد على الغنى طالما أن غنَاه ثمرة عمله وكَدِّه ونتيجة سعيه ، وطالما أنه يسير فى ماله سَيْراً معتدلاً ويؤدى ما عليه من حقوق للمجتمع ، ولندعه يعمل بكل ما يملك من طاقات

ومواهب ، وبكل ما لديه من طموحات الحياة ؛ لأن الفقير سوف يستفيد منه ومن طموحاته شاء أم أبى . فدَعْه يجتهد ، وإنْ كان اجتهاده فى الظاهر لنفسه فإنه فى الحقيقة يعود عليك أيضاً ، والخير فى المجتمع تعود آثاره على الجميع .

لنفرض أن أحد هؤلاء الأغنياء أراد أن يبنى مصنعاً أو عمارة أو مشروعاً كبيراً ، فكم من العمال والصناع ، وكم من الموظفين والمهندسين سيستفيدون من هذا المشروع ؟ إن الغنى لن يملك مثل هذه الإنجازات إلا بعد أن يصبح ثمنها قُوتاً فى بطون الفقراء ، وكسوة على أجساد الفقراء .

إذن : علينا أنْ ندعَ الغنى يجتهد ويسعى ؛ لأن المجتمع سوف يستفيد من سَعْيه واجتهاده ، وما عليك إلا أن تراقبه ، فإنْ كان سعيُه فى الحق فبها ونعمتْ ، وإنْ كان فى غير الحق فلتضرب على يده .

وإليك ما يضمن لك سعادة الحياة وسلامة الحركة فيها ، يقول تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ .. (٣٥) ﴾ [الإسراء]

والحديث هنا لا يخصُّ الكيْل فقط ، بل جميع المقادير المستخدمة فى حركة الحياة مثل المقادير الطولية مثلاً ، والتى تُقدّر بالمليمتر أو السنتيمتر أو المتر أو الكيلو متر وتُقاسُ بها الأشياء كُلٌّ على حَسْبه ، فالكتاب مثلاً يُقَاس بالسنتيمتر ، والحجرة تُقَاس بالمتر ، أما الطريق فيُقاس بالكيلومتر وهكذا .

إذن : فالتقدير الطُّولى يجب أن تتناسب وحدة القياس فيه مع الشيء الذى نقيسه . هذا فى الطوليات ، أما فى المساحات فيأتى

الطول والعـرض ، وفى الأحجـام : الطول والعرض والارتفـاع . وفى الكُتَل يأتى الميزان .

إذن : فالـحيـاة محكومـة فى تقديرات الأشـياء بالكيْل الذى يُبيِّن الأحـجـام ، وبالميـزان الذين يُبـيّن الكتلـة ؛ لأن الكيْل لا دخلَ له فى الكتلة ، إنما الكتلـة تُعرف بالميزان ، بدليل أن كـيلو القطن مثلاً أكـبر بكثير من كيلو الحديد .

ومعنى ذلك أن ميـزان التقدير يجب أن يكون سليـماً ؛ لذلك يقول تعـالى : ﴿ وَأَوْفُـوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ .. (٣٥) ﴾ [الإسـراء] يعنى : أعطوا المقادير على قدر المطلوب من الطرفين دون نقص .

وقـد قال تعـالى فى آية أخـرى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّـفِـينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَـوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) ﴾ [المطففين]

ومعنى المطففـين الذين يزيدون ، وهؤلاء إذا اكتالوا على الناس ، أى : أخـذوا منهم . أخذوا حـقَّهم وافـيـاً ، وهذا لا لَوْم عليه ، وإنمـا اللوم على : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) ﴾ [المطففين]

أى : إذا كـالـوا للناس أو وزنـوا لهم ﴿ يُخْـسِـرون ﴾ أى : ينقصـون . هذا هو موضع الذمِّ ومجـال اللوْم فى الآية ؛ لأن الإنسان لا يُلام على أنه استـوفى حَقَّه ، بل يُلام على أنه لـم يُسَوِّ بينه وبين الآخرين ، ولم يعامل الناس بمثل ما يحب أنْ يُعاملوه به .

ونلاحظ أن الكثيرين يفهمون أن التطفيف يكون فى الكَيْل والميزان

فحسب ، لكنه أيضاً في السعر ، فالبائع الذي ينقصك الكيلو عشرين جراماً مثلاً فقد بخسك في الوزن ، وطفَّف عليك في الثمن أيضاً .

ثم يقول تعالى : ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ .. (٣٥)﴾ [الإسراء] أي : اجعلوا الوزن دقيقاً مستقيماً لا جَوْرَ فيه .

والمتأمل يجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما أراد دقة الأحجام في تعاملات الناس أمرهم بإيفاء الكيل حَقَّه ، هكذا : ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ.. (٣٥)﴾ [الإسراء]

أما في الوزن فقد ركز على دقَّته ، وجَعَله بالقسطاس، ليس القسطاس فحسب بل المستقيم ، إذن : لماذا هذه الدِّقة في الميزان بالذات ؟

لو نظرتَ إلى عملية الكيْل لوجدتها واضحة مكشوفة ، قلَّما يستطيع الإنسان الغشَّ فيها ، وكثيراً ما ينكشف أمره ويُعلَم تلاعبه ؛ لأن الكيْل أمام الأعين والتلاعب فيه مكشوف .

أما الوزن فغير ذلك ، الوزن مجال واسع للتلاعب ، ولدى التجار ألف طريقة وطريقة يبخسون بها الوزن دون أن يدرى بهم أحد ؛ لأن الميزان كما نعلم رافعة من النوع الأول ، عبارة عن محور ارتكاز في الوسط ، وكفّة القوة في ناحية ، وكفَّة المقاومة في الناحية الأخرى ، فأيُّ نَقْص في الذراعين يفسد الميزان ، وأيُّ تلاعب في كفة القوة أو المقاومة يفسد الميزان .

ولو تحدثنا عن ألاعيب البائعين في أسواقنا لطال بنا المقام ؛ لذلك أكد الحق سبحانه وتعالى على الدقة في الميزان خاصة ؛ لأنه

مجال واسع للغشِّ والخداع وأكْل أموال الناس .

وسبق أن أوضحنا أن ميزان كُلِّ شيء بحسبه ، ويتناسب مع قيمته ونفاسته ، فالذى يزن الجير مثلاً غير الذى يزن اللوز ، غير الذى يزن الذهب أو الألماس ؛ لذلك من معانى (القسطاس المستقيم) أن يتناسب الميزان مع قيمة الموزون ، فالذى يبيع الذهب مثلاً يزن أشياء ثمينة مهما كانت قليلة فى الميزان ؛ فإنها تساوى الكثير من المال .

لذلك فإن أهل الخبرة فى هذه المسألة يقولون : احذر أن يُدخل البائع رأسه قريباً من الميزان ؛ لأنه قد ينفخ فى كِفَّة الميزان ، ولا شكَّ أنك ستخسر كثيراً من جَرَّاء هذه النفخة !!

لذلك نقول لهؤلاء الذين أخذت أيديهم على الغش والخداع فى البيع والشراء : أنت تبيع للناس شيئاً واحداً وتغشهم فيها ، وفى الوقت نفسه تشترى أشياء كثيرة من متطلبات الحياة ، فاعلم جيداً أنك إنْ غششْتَ الناس فى سلعة واحدة فسوف تُغشّ فى مئات السلع ، وأنت بذلك خاسر لا محالة . مهما دارت بك الأوهام والظنون فحسبت أن المسألة فى صالحك .

ولا تنسَ أن فوقك قيُّوماً ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا تخفى عليه من أمرك خافية ، وسوف يُسلِّط عليك مَنْ يسقيك بنفس كأسك إلى أنْ تتبينَ لك حقيقة هذه الصفقة الخاسرة ؛ لأنك إن عَمَّيْتَ على قضاء الأرض فلن تُعمِّى على قضاء السماء ، وسوف تذهب هذه الأموال التى اختلستها من أقوات الناس من حيث أتت ، كما قال النبى ﷺ : « من

أصاب مالاً من مهاوش[١] أذهبه الله فى نهابر[٢] »[٣] .

وكذلك فى المقابل : مَنْ صدق الناس ، ووفّى لهم فى بيعه وشرائه[٢] وتعاملاته يسَّر الله له مَنْ يُوفِّى له ويصدُق معه .

ثم يقول تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٣٥﴾ ﴾ [الإسراء]

(ذلك) أى : الوزن بالقسطاس المستقيم خير وأحسن (تأويلاً) أى : عاقبة ، ومعنى ذلك أن المقابل له ليس خيراً ولا أحسن عاقبة . فالذى يغش الناس ويخدعهم يظن أنه بغشِّه يزيد فى ماله ويجلب الخير لنفسه . نقول له : أنت واهم ، فليس فى الغش والبخس خير والزيادة عن طريقه هى عين النقص ، لأن الحق سبحانه وتعالى سيُجرِّىء الناس عليك فيغشوك ، هذه واحدة ثم لا يلبث الناس أن يكتشفوا تلاعبك فى الكيل والميزان فينصرفون عنك ويقاطعونك .

إذن : عدم الوزن بالقِسْطاس المستقيم لا هو خَيْر ، ولا هو أحسن عاقبة .

أما التاجر الصادق الذى يُوفى الكيل والميزان ، فإن الله تعالى يُيَسِّر له مَن يُوفِى له الكَيْل والميزان ، وكذلك يشتهر بين الناس بصدقه وأمانته ، فيقبلون عليه ويحرصون على التعامل معه . وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٣٥﴾ ﴾ [الإسراء] أى : أحسن عاقبة .

---

(١) المهاوش : مكاسب السوء ، فهو كل مال يُصاب من غير حِلِّه ولا يُدْرى ما وجهه كالغصب والسرقة ونحو ذلك . [لسان العرب ـ مادة : هوش] .

(٢) النهابر : المهالك . أى : أذهبه الله فى مهالك وأمور متبددة [اللسان ـ مادة : نهبر] .

(٣) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٢ / ٣١٣) وعزاه للقضاعى عن أبى سلمة الحمصى مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال التقى السبكى : لا يصح .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْفُ[1] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾

ينتقل الحق سبحانه وتعالى إلى قضية أخرى تُنظِّم حركة الحياة ، والإنسان الذى استخلفه الله فى الأرض ووهَبه الحياة وأمدَّه بالطاقات وبمُقَوِّمات الحياة وضرورياتها .

وبعد أنْ تكفَّل له بالضروريات ، دلَّه على الترقِّى فى الحياة بالبحث والفكر ، واستخدام العقل المخلوق لله والمادة المخلوقة لله بالطاقات المخلوقة لله ، فيُرقِّى ويُثْرى حياته ومجتمعه .

وحركة الترقِّى والإثراء هذه لا تتمّ إلا على قضية ثابتة واضحة ، فإذا تحركتَ فى الحياة بناءً على هذه القضية فسوف تصل إلى النتيجة المرجوّة .

فمثلاً ، الطالب الذى يرغَب فى دخول كلية الحقوق مثلاً ، لديه قضية واضحة مجزوم بها ، فعندما يلتحق بالحقوق يجتهد ، ويصل من خلالها إلى طموحاته ؛ لأنه سار على ضَوْء قضية اقتنع بها .

إذن : لا بُدَّ أن تُبْنَى حركة الحياة على قضايا ثابتة ، هذه القضايا الثابتة تجعل المتحرِّك فى أىِّ حركة واثقاً من أن حركته ستُؤدِّى إلى النتيجة المطلوبة ، فلو أردتَ مثلاً الذهاب إلى الإسكندرية أو إلى

---

(١) أى : لا تتبع من العقائد ما ليس لك به علم ، ولا من الآراء ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تسترسل فى الحديث عما ليس لك به علم . [القاموس القويم ٢/١٢٨] .

أسوان ، فلن تتحرّك إلا إذا تأكدتَ أن هذا الطريق هو الموصِّل إلى غايتك ، وكذلك حركة الحياة لا يمكن أنْ تتمَّ إلا بناءً على قضايا حقيقية مضبوطة فى الكون ، وهذا ما نسميه (العلم) .

وقد سبق أن أوضحنا معنى القضية ، وأنها المقولة التى يُحكَم على قائلها بالصدق أو بالكذب ، كأن نقول : الأرض كُروية ، أو الشمس مضيئة ، أو القمر منير ، وهذه القضايا تعطينى قضية علمية مجزوماً بها وواقعة ، ويمكن أنْ نُدلِّل عليها . وهذا هو العلم .

أما الجهل فأنْ تجزم بقضية ليست واقعية فهى قضية كاذبة ، وليس الجهل عدم العلم كما يعتقد البعض ؛ لأن عدم العلم أمية ، والأمىّ ليس عنده قضية لا صادقة ولا كاذبة .

لذلك تجد الأمىَّ أطوعَ فى التعلم من الجاهل ؛ لأن الأمى بمجرد أنْ تُعلِّمه قضية ما يأخذها ويتعلمها ، أما الجاهل فيلزمك أولاً أن تُخرِج من ذهنه القضية المخالفة ، ثم تُعلِّمه القضية الصادقة .

وقضايا الحياة يمكن أنْ تُقسَّم إلى قسمين :

قضايا تختلف فيها الأهواء .

وقضايا تتفق فيها الأهواء .

فالقضايا التى تختلف فيها الأهواء : هى القضية التى يخدم بها كل قائل لها فكرةً عنده فقط ، وإنْ كانت ضارة بغيره ، فما دام الأمر قائماً على الأهواء فلا بُدَّ أنْ تختلفَ ، فكُلٌّ له هواه الخاص ، فلو أن لكل واحد قضية ما التقينا على شىء أبداً .

وصدق الحق تبارك وتعالى حين قال : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ..(٧١) ﴾ [المؤمنون]

إذن : فما المخرج من هذا الاختلاف والتباين ؟ المخرَج أن يخرج كل واحد منَّا من هوى نفسه أولاً ، ثم نرد القضية التى اختلفتْ فيها أهواؤنا إلى مَنْ لا هوى له .

وربُّكَ سبحانه وتعالى هو وحده الذى لا هَوى له ، ونحن جميعاً خَلْقه ، وكلنا عنده سواء ، ليس منا مَنْ بينه وبين الله نسب أو قرابة ، فشرع الله واحد للجميع ، ولا غضاضة فالكل خاضع لهذا الشرع مُتَّبع له ؛ لأنه شَرْع الخالق سبحانه لا شَرْع أحد من الناس .

لذلك اشتهر قولهم : « اللى الشرع يقطع صباعه مَيْخُرش دم » ، فأنا لم أخضع لك ، وأنت لم تخضع لى ، بل الجميع خاضع لله تعالى مُنصَاع لأمره . إذن : اتركوا قضايا الأهواء لله تعالى يُشرِّعها لكم ، لكى ترتاحوا من تسلُّط بعضكم على بعض .

أما القضايا التى تتفق فيها الأهواء فهى القضايا المادية القائمة على المادة الصَّماء التى لا تُجامِل أحداً على حساب أحد ، ولا مانعَ أن تتبعوا الآخرين فيها ؛ لأنكم سوف تلتقون عليها قَهْراً ورَغْماً عنكم ، فالمعمل الذى تدخله لتجرى التجارب التى توصلك لقضية ما مادية أو كيماوية معمل محايد لا يجامل أحداً .

وقد سبق أن قلنا : إن الكهرباء أو الكيمياء ليس فيها روسى وأمريكى ؛ لأن هذه أشياء مادية لا خلافَ عليها ، أما الذى جعل المعسكر الشرقى يختلف والمعسكر الغربى هى القضايا الأهوائية ، فهذا شيوعى ، وهذا رأسمالى .

لذلك ، فالنبى ﷺ وضع بنفسه هذا المبدأ فى الوجود الإيمانى حينما رأى الناس يُؤبِّرون النخل ، فأشار عليهم بعدم تأبيره[1] ، فأطاعوه ولم يؤبروا النخل فى هذا العام ، وكانت النتيجة أن شاص النخل ولم يثمر ، وأثبتتْ التجربة الطبيعية أن ما أشار به رسول الله ﷺ ليس صواباً .

يأتى هذا ممَّنْ ؟ من محمد بن عبد الله نبى الله ورسوله ، الذى يحرص على أن تأتى كل قضاياه صادقة صائبة ، وما كان منه إلا أن قال : « أنتم أعلم بشئون دنياكم »[2] .

ليضع بذلك أُسْوة لعلماء الدين ألاَّ يضعوا أنوفهم فى قضايا الماديات ، وقد قال الحق تبارك وتعالى : ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ .. ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة]

ويقول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[3] .

فإنْ أردتَ أنْ تتحرَّك فى الحياة حركة سليمة مجدية ، وحركة متساندة مع إخوانك غير متناقضة ؛ فالحق سبحانه يقول : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء] لكى تسير فى حركة الحياة على هُدىً وبصيرة .

---

(١) تأبير النخيل : تلقيحه وإصلاحه . [لسان العرب ـ مادة : أبر] .
(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٦٢) من حديث رافع بن خديج أنه قال حين أسقطت النخل ثمرها : « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر » . وفى حديث أنس (٢٣٦٣) : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .
(٣) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » (ص٤٦٠) وضعَّفه .

﴿ لاَ تَقْفُ ﴾ أى : لا تتبع ولا تتدخل فيما لا علْم لك به ، كمَنْ يدَّعى مثلاً العلم بإصلاح التليفزيون وهو لا يعلم ، فربما أفسد أكثر مما يُصلح .

ومن هنا قال أهل الفقه : مَنْ قال لا أدرى فقد أفتى ؛ لأنه بإعلان عدم معرفته صرف السائل إلى مَنْ يعلم ، أما لو أجاب خطأ ، فسوف يترتّب على إجابته مَا لا تُحمد عُقْباه ، والذى يسلك هذا المسلك فى حياته تكون حركته فى الحياة حركة فاشلة .

والفعل ﴿ يَقفُو ﴾ مأخوذ من القفا وهو المؤخرة ، وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا .. (٢٧)﴾[الحديد] أى : أتبعناهم . ويقفو أثره أى : يسير خلْفه .

وحينما نصح أحدهم رجلاً يريد أنْ يتزوج قال له[(١)] : لا تتخذها حنَّانة ، ولا منَّانة ، ولا عُشْبة الدار ، ولا كَبَّة القفا .

فالحنانة التى لها ولد من غيرك يُذكّرها دائماً بأبيه فتحنّ إليه ، والمنّانة التى لديها مال تَمنُّ به عليك ، وعُشْبة الدار هى المرأة الحسناء فى المنبَت السوء والمستنقع القذر ، وكبَّة القفا هى التى لا تعيب الإنسان فى حضوره ، وتعيبه وتذمه فى غيبته .

والعلم هنا يُراد به العلم المطلق ؛ لأن الكثير من الناس كان يعتقد أن العلم يعنى العلم الدينى فقط ، لكن العلم هو كل ما يُثرى حركة الحياة ، والعلم علمان :

- علم دينى ، وهو الذى يقضى على الأهواء ، ويُوحِّدها إلى هوىً واحد هو الهَوى الإيمانى .

---

(١) أورده ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة : حنن ، عشب ، من وصية أب لابنه أراد الزواج .

وهذا العلم يتولاه الخالق سبحانه ، وليس لنا دَخْل فيه ؛ لأن الصانع أدْرى بصنعته ، وهو الذى يضع لها قانون صيانتها ؛ لأنه يعلم مَا يصلحْها ومَا يفسدها .

وكما أنك لا تذهب إلى الجزار ليضع لك قانون صيانة التلفاز مثلاً ؛ كذلك لا تطلب قانون صيانة الإنسان إلا من خالقه عز وجل : ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك]

وهذا النوع من العلم قال الله تعالى عنه : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧)﴾ [الحشر]

فليس لنا أنْ نتدخَّلَ فيه ، أو نزيد عليه ؛ لأنه منهج الله الذى جاء بـ « افعل ولا تفعل » ، وهو منهج لا يقبل الزيادة أو التعديل ، فما كان فيه أمر ونهى فعليك الالتزام به ، وإلا لو خرجت عن هذا الإطار الذى رسمه لك ربك وخالقك فسوف تحدث فى الكون فساداً بترك الأمر أو بإتيان النهى . أما الأمور التى تركها الخالق سبحانه ولم يرد فى شأنها أمر أو نهى فأنت حر فيها ، تفعل أو لا تفعل .

والمتأمل فى شرع الخالق سبحانه يجد أمور التكليف بافعل ولا تفعل قليلة إذا ما قيست بالأمور التى ترك لك الحرية فيها ، إذن : فدع لربك وخالقك والأعلم بك مجالاً يحكم من خلاله حياتك وينظمها لك ، ألا يجدر بنا ونحن عباده وصنعته أن نُحكّمه فى أمور ديننا ، ونُخرِج أنوفنا مما اختص به سبحانه ؟

– أما النوع الآخر من العلم ، فهو العلم المادى التجريبى الذى لا يخضع للأهواء ، فقد جعله الخالق سبحانه مجالاً للبحث والتسابق ،

ومضماراً يجرى فيه الجميع ؛ لأنهم فى النهاية سيلتقون فيه قَهْراً ورَغْماً عنهم . وقد أعطانا الحق سبحانه وتعالى مثالاً لهذا النوع من العلم ، فقال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ .. (٢٨) ﴾ [فاطر]

فذكر الحق سبحانه أجناس الوجود كلها : الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، والجماد . ثم ختم ذلك بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. (٢٨) ﴾ [فاطر]

فهذه ظواهر الكون ، اربَع فيها كما شئت بحثاً ودراسة ، وإنْ أحسنتَ الإمعان فيها فسوف تُوصِّلك إلى ظواهر أخرى تُثْرى حياتك وتُرقّيها ، فالذى اكتشف عصر البخار ، والذى اكتشف العجلة والكهرباء والجاذبية وغيرها لم يخلق جديداً فى كَوْن الله ، إنما أحسن النظر والتأمّل فتوصّل إلى ما يُريح المجتمع ويُسعده .

لذلك ، فالحق سبحانه وتعالى يُحذّرنا أن نمرَّ على ظواهر الكون فى إعراض وغفلة ودون تمعُّن فيها : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

والذين عبَّروا عن هذه الإنجازات العلمية بكلمة (الاكتشافات) كانوا أمناء فى التعبير عن الواقع الفعلى ، فهم لم يخلقوا جديداً فى الكون ، فكلٌّ هذه الأشياء موجودة ، والفضل لهم فى الاهتداء إليها

واكتشافهـا ، ومن هنا فكلمة (اختراع) ليست دقيقةً فــى التعبير عن هذه الاكتشافات .

فإذا كان الحق سبحانه نهـانا عن تتبُّع ما ليس لنا به علم ، فماذا نتبع ؟ نتبع مـا نعلمه وما نتيقن منه مـن علوم ، فإنْ كانت فى الدين تركناها للخالق سبحـانه يُقنِّنها لنا ، وإنْ كانت فى أمـور الدنيا أعملنا فيهـا عقولنا بما ينفعنا ويُثْـرِى حياتنا ؛ لذلك تكلَّم الحق سبـحانه بعد ذلك عن وسائل إدراك العلم ، فـقال : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦) ﴾ [الإسراء]

وما دام الحق سبـحانه قد نهانا عن تتـبع مَا لا نعلم ، وأمرنا أن نسير على ضوء ما نعلم من العلم اليـقينى فلا بُدَّ أنْ يسأل المرءُ عن وسـائل العلم هذه ، لأنـه لولا وسـائل الإدراك هذه مـا علم الإنسـانُ شيئاً ، وهذا واضح فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

وهل يشكر الإنســان إلا على حصيـلة أخذها ؟ هذه الحصـيلة هى العلم .

وهذه الحواس تُـؤدِّى عملها فى الإنســان بمجـرد أن تنشأ فـيه ، وبعد أنْ يخرجَ إلى الحـياة ، والبعض يظنّ أن الطفل الصغـير لا يفهم إلا عندما يكبـر ويستطيع الكلام والتفـاهم مع الآخرين ، والحقيـقة أن الطفل يدرك ويَعِى من الأيام الأولى لولادته .

ولذلك ، فـإن علمـاء وظائف الأعـضـاء يقـولون : إن الطفل يُولَد

ولديْه ملكَاتٌ إدراكيـة سمّاها العلماء احتياطاً « الحواس الخمس الظاهرة » ، وقد كان احتياطهم فى محله لأنهم اكتشفوا بعد ذلك حواس أخرى ، مثل حاسة العضل مثلاً التى نُميِّز بها بين الخفيف والثقيل .

وإنْ كانت حواس الإنسان كثيرة فإن أهمها : السمع والبصر ، وقد وردت فى القرآن بهذا الترتيب ، السمع أولاً ، ثم البصر لأن السمع يسبق البصر ، فالإنسان بمجرد أنْ يُولَد تعمل عنده حاسّة السمع ، أما البصر فإنه يتخلّف عن السمع لعدة أيام من الولادة ، إذن : فهو أسبق فى أداء مهمته ، هذه واحدة .

الأخرى : أن السمع هو الحاسَّة الوحيدة التى تُؤدّى مهمتها حتى حال النوم ، وفى هذا حكمة بالغة للخالق سبحانه ، فبالسمع يتم الاستدعاء من النوم .

وقد أعطانا الخالق سبحانه صورة واضحة لهذه المسألة فى قصة أهل الكهف ، فلما أراد سبحانه أن يناموا هذه السنين الطوال ضرب على آذانهم وعطّل حاسة السمع لديهم ، وإلاّ لَمَا تمكّنوا من النوم الطويل ، ولأزعجتهم الأصوات من خارج الكهف . فقال تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ﴾ [الكهف]

ولم يسبق البصر السمع إلا فى آية واحدة فى كتاب الله تعالى وهى : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٢) ﴾ [السجدة]

والحديث هنا ليس عن الدنيا ، بل عن الآخرة ، حيث يفزع الناس من هَوْلها فيقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا .. (١٢) ﴾ [السجدة] لأنهم فى الآخرة أبصروا قبل أن يسمعوا .

فالسمع أوّل الحواس ، وهو أهمها فى إدراك المعلومات ، حتى الذى يأخذ معلوماته بالقراءة سمع قبل أن يقرأ ، فتعلّم أولاً بالسماع ألف باء ، فالسمع أولاً فى التعلُّم ، ثم يأتى دَوْر البصر .

والذى يتتبع الآيات التى ورد فيها السمع والبصر سيجدها جاءت بإفراد السمع وجمع البصر ، مثل قوله سبحانه : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. ۝٩﴾ [السجدة]

إلا فى هذه الآية التى نحن بصدد الحديث عنها جاءت : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ۝٣٦﴾ [الإسراء]

لماذا ؟ وما الحكمة من إفرادها هنا بالذات ؟

وقبل أن نُوضِّح الحكمة هنا يجب أن نعى أن المتكلم هو الله تعالى ، وما دام المتكلم هو الله فلا بُدَّ أن تجد كل كلمة دقيقة فى موضعها ، بليغة فى سياقها .

فالسمع جاء بصيغة الإفراد ؛ لأنه لا يتعدد فيه المسموع بالنسبة للسامع ، فإذا حدث الآن صوت نسمعه جميعاً ، فهو واحد فى جميع الآذان .

أما البصر فهو خلاف ذلك ؛ لأن أمامنا الآن مرائىَ متعددة ومناظر مختلفة ، فأنت ترى شيئاً ، وأنا أرى شيئاً آخر ، فَوحْدة السمع لا تنطبق على البصر ؛ لذلك أفرد السمع وجاء البصر بصيغة الجمع .

أما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ .. ۝٣٦﴾ [الإسراء] فقد

ورد البصر هنا مفرداً ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يتحدث عن المسئولية ، مسئولية كل إنسان عن سَمْعه وبصره ، والمسئولية أمام الحق سبحانه وتعالى فردية لا يُسأل أحد عن أحد ، بل يُسأل عن نفسه فحَسْب ، فناسب ذلك أنْ يقول : السمع والبصر ؛ لأنه سيُسأل عن بصر واحد هو بصره .

فالإنسان - إذن - مسئول عن سَمْعه وبصره وفؤاده من حيث التلقِّى ، تلقِّى القضايا العلمية التى سنسير عليها فى حركة حياتنا ، وكذلك من حيث الإعطاء ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول للأذن : لا تسمعى إلا خيراً ، ولا تتلقىْ إلا طيّباً ، ويا مُربِّى النشء لا تُسْمعه إلا ما يدعو إلى فضيلة ، ولا تعط لأذنه إلا ما يصلح حياته ويُثريها .

ويقول للعين : لا ترَىْ إلا الحلال الذى لا يهيج غرائزك إلى الشهوات ، ويا مُربِّى النشء احجب عنه ما يثير الغرائز ويفسد الحياة ؛ وبذلك نربى فى المجتمع المعلومات الصحيحة التى تنبنى عليها حركة حياته .

وما دُمْتَ مسئولاً عن أعضائك هذه المسئولية ، ومحاسباً عنها ، فإياك أنْ تقولَ : سمعت وأنت لم تسمع ، وإياك أنْ تقولَ : رأيت وأنت لم تَرَ ، إياك أنْ تتعرّض لشهادة تُدلى فيها بغير ما تعلم وتتيقن . أو تتبنّى قضية خاطئة وتبنى عليها حركة حياتك ؛ لأن المبنىّ على مقدمات فاسدة ينتج عنه نتائج فاسدة ، وما بُنِى على مقدمات صحيحة أنتج النتيجة الصحيحة .

وجماع هذا كله فى قوله تعالى : ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ.. (٣٦)﴾ [الإسراء] لماذا ؟ لأنك محاسب على علمك هذا وعلى وسائل إدراكه لديك : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦)﴾ [الإسراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا (٣٧)﴾

ما زالت الآيات تسير فى خطٍّ واحد ، وترسم لنا طريق التوازن الاجتماعى فى مجتمع المسلمين ، فالمجتمع المتوازن يصدر فى حركته عن إله واحد ، هو صاحب الكلمة العليا وصاحب التشريع .

والمتتبع لهذه الآيات يجد بها منهجاً قوياً لبناء مجتمع متماسك ومتوازن ، يبدأ بقوله تعالى : ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. (٢٢)﴾ [الإسراء]

وهذه قضية القمة التى لا تنتظم الأمور إلا فى ظلّها ، ثم قسّم المجتمع إلى طبقات ، فأوصى بالطبقة الكبيرة التى أدَّت مهمتها فى الحياة ، وحان وقت إكرامها وردّ الجميل لها ، فأوصى بالوالدين وأمر ببرّهما .

ثم توجّه إلى الطبقة الصغيرة التى تحتاج إلى رعاية وعناية ، فأوصى بالأولاد ، ونهى عن قتلهم خَوْفَ الفقر والعَوز ، وخَصَّ بالوصية اليتيم ؛ لأنه ضعيف يحتاج إلى مزيد من الرعاية والعناية والحنو والحنان .

ثم تكلم عن المال ، وهو قوام الحياة ، واختار فيه الاعتدال والتوسُّط ، ونهى عن طرفَيْه : الإسراف والإمساك . ثم نهى عن الفاحشة ، وخصَّ الزنا الذى يُلوِّث الأعراض ويُفسد النسل ، ونهى عن القتل وسَفْك الدماء .

ثم تحدث عمَّا يحفظ للإنسان ماله ، ويحمى تعبه ومجهوداته ، فأمر بتوفية الكيل والميزان ، ونهى عن الغش فيهما والتلاعب بهما ، ثم حَثَّ الإنسان على الأمانة العلمية ، حتى لا يقول بما لا يعلم ، وحتى لا يبنى حياته على نظريات خاطئة .

ألم تَرَ أنه منهج وأسلوب حياة يضمن سلامة المجتمع ، وسلامة المجتمع ناشئة من سلامة حركة الإنسان فيه ، إذن : الإنسان هو مدار هذه الحركة الخلافية فى الأرض ؛ لذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أنْ يضع له توازناً اجتماعياً .

وأوّل شىء فى هذا التوازن الاجتماعى أننا جميعاً عند الله سواء ، وكلنا عبيده ، وليس منا مَنْ بينه وبين الله قرابة أو نَسَب ، فالجميع عند الله عبيد كأسنان المشط[1] ، لا فَرْق بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح .

وإنْ تفاوتت أقدارنا فى الحياة فهو تفاوت ظاهرى شكلى ؛ لأنك حينما تنظر إلى هذا التفاوت لا تنظر إليه من زاوية واحدة فتقول مثلاً : هذا غنى ، وهذا فقير .

(١) أخرج ابن عدى فى الكامل (٣/٢٤٨) من حديث أنس بن مالك قال : قال ﷺ : « الناس سواء كأسنان المشط ، وإنما يتفاضلون بالعافية ، والمرء كثير بأخيه يرفده ويحمله ، ولا خير فى صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له » وفيه أبو داود النخعى ، قال ابن عدى : اجتمعوا على أنه يضع الحديث . وعزاه العجلونى فى كشف الخفاء (٢/٤٥١) للديلمى عن أنس ، وعن سهل بن سعد .

ومعظم الناس يهتمون بهذه الناحية من التفاوت ، ويَدَعُون غيرها من النواحى الأخرى ، وهذا لا يصح ، بل انظر إلى الجوانب الأخرى فى حياة الإنسان ، وإلى الزوايا المختلفة فى النفس الإنسانية ، ولو سلكتَ هذا المسلك فسوف تجد أن مجموع كل إنسان يساوى مجموع كل إنسان ، وأن الحصيلة واحدة ، وصدق الله العظيم القائل : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .. ⦗١٣⦘ ﴾ [الحجرات]

وما دام المجتمع الإيمانى على هذه الصورة فلا يصح لأحد أنْ يرفعَ رأسه فى المجتمع ليعطى لنفسه قداسةً أو منزلة فوق منزلة الآخرين ، فقال تعالى : ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا .. ⦗٣٧⦘ ﴾ [الإسراء]

أى : فخراً واختيالاً ، أو بَطَراً وتعالياً ؛ لأن الذى يفخر بشىء ويختال به ، ويظن أنه أفضل من غيره ، يجب أن يضمن لنفسه بقاء مَا افتخر به ، بمعنى أن يكون ذاتياً فيه ، لا يذهب عنه ولا يفارقه ، لكن من حكمة الله سبحانه وتعالى أنْ جعل كل ما يمكن أن يفتخر به الإنسان هِبةٌ له ، وليست أصيلة فيه .

كل أمور الإنسان بداية من إيجاده من عدم إلى الإمداد من عُدم هى هبة يمكن أنْ تسترد فى يوم من الأيام ، وكيف الحال إذا تكبَّرْتَ بمالك ، ثم رآك الناس فقيراً ، أو تعاليت بقوتك ثم رآك الناس عليلاً ؟

إذن : فالتواضع والأدب أليَقُ بك ، والتكبُّر والتعالى لا يكون إلا للخالق سبحانه وتعالى ، فكيف تنازعه سبحانه صفة من صفاته ؟ وقد نهانا الحق سبحانه عن ذلك ؛ لأنه لا يستحق هذه الصفة إلا هو سبحانه وتعالى ، وكَوْنُ الكبرياء لله تعالى يعصمنا من الاتضاع للكبرياء الكاذب من غيرنا .

ومَنْ أحب أن يرى مساواة الخَلْق أمام الخالق سبحانه ، فلينظر إلى العبادات ، ففيها استطراق العبودية فى الناس ، فحينما يُنادَى للصلاة مثلاً ترى الجميع سواسية : الغنى والفقير ، والرئيس والمرؤوس ، الوزير مثلاً والخفير ، الكل راكع أو ساجد ، الكل خاضع لله مُتذلّل لله فقير لله ، الكل عبيد لله بعد أنْ خلعوا أقدارهم ، عندما خلعوا نعالهم ، ففى ساحة الرحمن يتساوى الجميع . وتتجلى لنا هذه المساواة بصورة أوضح فى مناسك الحج .

والأهم من هذا أن الرئيس أو الكبير لا يأنف ، ولا يرى غضاضة فى أن يراه مرؤوسه وهو فى هذا الموقف وفى هذا الخضوع والتذلُّل ، لماذا ؟ لأن الخضوع هنا والتذلُّل لله ، وهذا عين العِزَّة والشرف والكرامة .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) ﴾ [الإسراء]

فى هذه العبارة نلحظ إشارة توبيخ وتقريع ، كأن الحق سبحانه وتعالى يقول لهؤلاء المتكبرين ، ولأصحاب الكبرياء الكاذب : كيف تتكبرون وتسيرون فَخْراً وخُيلاء بشيء موهوب لكم غير ذاتى فيكم ؟

فأنتم بهذا التكبُّر والتعالى لن تخرقوا الأرض ، بل ستظل صلبة تتحداكم ، وهى أدْنى أجناس الوجود وتُدَاس بالأقدام ، وكذلك الجبال وهى أيضاً جماد ستظل أعلى منكم قامةً ولن تطاولوها . والحق

سبحانه وتعالى يُوبِّخ عبده المؤمن المكرم لِيُبقِى له على التكريم فى :

﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا .. (٣٧)﴾ [الإسراء]

وحينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُوبِّخ أهل التكبُّر الكاذب أتى بأَدْنى أجناس الوجود بالأرض والجبال وهى جماد ؛ لكنه قد يسمو على الإنسان ويفضُل عليه .

والناظر لأجناس الكون : الجماد والنبات والحيوان والإنسان ، يجد الإنسان ينتفع بكل هذه الأجناس ، فالجماد ينفع النبات ، والحيوان والنبات ينفع الحيوان والإنسان ، والحيوان ينفع الإنسان ، وهكذا جميع الأجناس مُسخَّرة فى خدمة الإنسان ، فما وظيفتك أنت أيها الإنسان ؟ ومَنْ تخدم ؟

لا بُدَّ أنْ يكون لك دَوْر فى الكون ووظيفة فى الحياة ، وإلا كانت الأرض والحجر أفضل منك ، فابحثْ لك عن مهمة فى الوجود .

وفى فلسفة الحج أمر عجيب ، فالجماد الذى هو أَدْنى الأجناس نجد له مكانة ومنزلة ، فالكعبة حجر يطوف الناس من حوله ، وفى ركنها الحجر الأسعد الذى سَنَّ لنا رسول الله ﷺ تقبيله وهو حجر ، وعليه يتزاحم الناس ويتشرَّفون بتقبيله والتمسُّح به .

وهذا مظهر من مظاهر استطراق العبودية فى الكون ، فالإنسان المخدوم الأعلى لجميع الأجناس يرى الشرف والكرامة فى تقبيل حجر .

وكذلك النبات يحْرُم قطعه ، وإياك أن تمتدَّ يدك إليه ، وكذلك الحيوان يحرُم صَيْده ، فهذه الأشياء التى تخدمنى أتى الوقت الذى أخدمها وأُقدِّسها ، وجعلها الحق سبحانه وتعالى مرة فى العمر لنلمح

الأصل ، ولكى لا يغترَّ الإنسان بإنسانيته ، وليعلم أن العبودية لله تعالى تَسْرى فى الكون كله .

فإياك أيها الإنسان أن تخدش هذا الاستطراق العبودىّ فى الكون بمرح أو خُيَلاء أو تعالٍ .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ﴾

أى : كُلُّ ما تقدَّم من وصايا وتوجيهات بداية من قوله تعالى : ﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإسراء]

وهذه الأمور التى تقدَّمَتْ ، والتى تحفظ للمجتمع توازنه وسلامته فيها السىء وفيها الحسن ، والسىء هو المكروه من الله تعالى ، والله تعالى لا يكره إلا ما خالفَ منهج العبودية له سبحانه ، أما الإنسان فيكره ما يخالف هواه ، ولا يتفق ومزاجه .

وهذه الأوامر والنواهى التى تقدَّمتْ يقولون : إنها الوصايا العَشْر التى نزلت على موسى ـ عليه السلام ـ والمقصودة فى قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ[1] مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا .. ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الأعراف]

ولذلك يقول الحق سبحانه :

---

(١) الألواح : جمع لوْح ، وهو الذى يُكتب فيه . قال الزجاج : قيل فى التفسير أنهما كانا لوحيْن ، ويجوز فى اللغة أن يقال للوحين : ألواح . [لسان العرب ـ مادة : لوح] . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٤٦) : « قيل : كانت الألواح من جوهر ، وأن الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكاماً مفصلة مبينة للحلال والحرام » .

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾

﴿ ذَلكَ ﴾ أى : ما تقدّم من الوصايا .

﴿ الحكْمَة ﴾ هى : وَضعْ الشىء فى مَوْضعه المؤدّى للغاية منه ، لتظلَّ الحكمة سائدة فى المجتمع تحفظه من الخلل والحمْق والسَّفَه والفساد .

وقوله : ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء]

لسائل أنْ يسأل : لماذا كرَّر هذا النهى ، وقد سبق أنْ ذُكِر فى استهلال المجموعة السابقة من الوصايا ؟

الحق سبحانه وتعالى وضع لنا المنهج السليم الذى يُنظِّم حياة المجتمع ، وقد بدأه بأن الإله واحد لا شريكَ له ، ثم عدّل نظام المجتمع كله بطبقاته وطوائفه وأرْسى قواعد الطُّهْر والعِفّة ليحفظ سلامة النسل ، ودعا إلى تواضع الكُلِّ للكُلِّ .

فالحصيلة النهائية لهذه الوصايا أنْ يستقيم المجتمع ، ويسعد أفراده بفضل هذا المنهج الإلهى .

إذن : فإياك أنْ تجعلَ معه إلهاً آخر ، وكرَّر الحق سبحانه هذا النهى : ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء]

لأنه قد يأتى على الناس وقتٌ يُحْسنون الظن بعقول بعض المفكرين ، فيأخذون بأقوالهم ويسيرون على مناهجهم ، ويُفضّلونها

على منهج الحق تبارك وتعالى ، فيفتنون الناس عن قضايا دينهم الحق إلى قضايا أخرى يُوهِمون الناس أنها أفضل مما جاء به الدين .

إذن : لا يكفى أن تؤمن أولاً ، ولكن احذر أنْ يُزحزحك أحد عن دينك فلا تجعل مع الله إلهاً آخر يفتنك عن دينك ، فتكون النتيجة : ﴿ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الإسراء]

﴿ مَلُوماً ﴾ : لأنك أتيتَ بما تُلاَم عليه ، ﴿ مَدْحُوراً ﴾ : أى : مطروداً مُبْعَداً من رحمة الله ، وهذا الجزاء فى الآخرة .

أما الذى لا يؤمن بها ، فلا بُدّ لكى نستطيع العيش معه فى الدنيا ، أن يُذيقه الله بعض العذاب ، ويُعجِّله له فى الدنيا قبل عذاب الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا .. ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه] أى : فى الدنيا .

وقد ذكر الحق سبحانه وتعالى فى قصة ذى القرنين : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ[1] وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [الكهف]

فقوله : ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ.. ﴿٨٧﴾ ﴾ [الكهف] لأنه مُمكَّن فى الأرض ، ومَنُوط به حفْظ ميزان الحياة واستقامتها ، حتى عند الذين لا يُؤمنون

(١) أى : رأى الشمس فى منظره تغرب فى البحر المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه ، وهى لا تفارق الفلك الرابع الذى هى مثبتة فيه لا تفارقه . [تفسير ابن كثير ١٠٢/٣] .

بالآخرة ، وإلا فلو أخّرْنا العذاب عن هؤلاء إلى الآخرة لأفسدوا على الناس حياتهم ، وعاثوا فى الأرض يُعربِدون ويُفسِدون .

ولذلك لا يموت ظلوم فى الكون حتى ينتقمَ الله منه ، ويذيقه عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ، ولا بُدَّ أنْ يراه المظلوم ليعلم أن عاقبة الظلم وخيمة ، فى حين أن المظلوم فى رعاية الله وتأييده ينصره بما يشاء من نعمه وفضله ، حتى إن الظالم لو علم بما أعدَّه الله للمظلوم لَضَنَّ عليه بالظلم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَأَصْفَٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

لما جعل بعض المشركين لله ولداً ، فمنهم مَنْ قالوا : المسيح ابن الله ، ومنهم مَنْ قالوا : عزير ابن الله ، ومنهم مَنْ قالوا : الملائكة بنات الله . فوبَّخهم الله تعالى : كيف تجعلون للخالق سبحانه البنات ولكم البنينَ ، إنها قسمة جائرة ، كما قال الحق سبحانه فى آية أخرى: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ[1] ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾[النجم]

أى : قسمة جائرة ظالمة .

قوله : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ.. ﴿٤٠﴾ ﴾[الإسراء] أى : اصطفاكم واختار لكم البنينْ ، وأخذ لنفسه البنات ؟

(١) ضازه يضيزه : جار عليه . وضازه حقه : نقصه حقه ، وقسمة ضيزى : جائرة ظالمة . [القاموس القويم ١/٣٩٧] .

ويقول فى آية أخرى : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا .. (١٥) ﴾[الزخرف]

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا (٤٠) ﴾ [الإسراء]

فوصف قولهم بأنه عظيم فى القُبْح والافتراء على الله ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا[1] (٨٩) ﴾ [مريم]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) ﴾

﴿ صَرَّفْنَا ﴾ أى : حَوَّلْنا الشىء من حال إلى حال ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ .. (١٦٤) ﴾ [البقرة]

يعنى : تغييرها من حال إلى حال ، فمرة : تراها سكْسكاً[2] عليلة هادئة ، ومرّة تجدها رُخَاءً أى : قوية ، ومرة : تجدها إعصاراً مدمراً . والرياح قد تكون لواقح تأتى بالخير والنماء ، وقد تكون عقيماً لا خير فيها . هذا هو المراد بالتصريف .

فمعنى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ .. (٤١) ﴾ [الإسراء]

أى : صرف مسألة ادعاء اتخاذ الله الأبناء فى القرآن ، وعالجها فى كثير من المسائل ؛ لأنه أمر مهم عالجه القرآن علاجات متعددة فى مقامات مختلفة من سُوره ، فتكرر ذكْر هذه المسألة . والتّكرار قد يكون فى

(١) الإد والإدّة : العجب والأمر الفظيع العظيم والداهية . [لسان العرب ـ مادة : أدد] .
(٢) السكسكة : الضعف . [لسان العرب ـ مادة : سكك] والمقصود أنها ريح ضعيفة ذات نسيم عليل .

ذات الشيء ، وقد يكون باللَّف بالشيء ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾ [الرحمن]

وقوله : ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (٤١) ﴾ [الإسراء]

أى : بدلَ أنْ يذكروا ويعودوا إلى جَادّة الصواب ازدادوا إعراضاً ونفوراً . ولنا أن نسأل : لماذا الإعراض والنفور منهم ؟

لأنهم أرادوا الاحتفاظ بالسلطة الزمنية التى كانت لهم قبل الإسلام ، ولكى نوضح المقصود بالسلطة الزمنية نقول :

لو درسنا تواريخ القوانين فى العالم نجد أن القانون الوضعىّ الذى وضعه البشر لم يَأْتِ أول الأمر ، بل جاء نتيجة تسلُّط الكهنة ، وكانوا هم أصحاب القانون يضعونَه باسم الدين ، ويلزمون الناس به ، ولكن لُوحظ عليهم أنهم يحكمون فى قضية ما بحكم ، ثم بعد فترة يحكمون فى نفس القضية بحكم مخالف للأول ، فانصرف الناس عن أحكام الكهنة ، ووضعوا لأنفسهم هذه القوانين الوضعية ، وبذلك أصبح لهؤلاء ما يُسمَّى بالسلطة الزمنية .

وهذه السُّلْطة الزمنية هى التى منعتْ يهود المدينة من الإيمان بمحمد ﷺ ، وقد كانوا على علم ومعرفة بأوصافه وبرسالته وزمن بعثته ، وكانوا حينما يروْنَ عُبّاد الأصنام فى مكة يقولون لهم : سيأتى زمان يُبعث فيه نبى فى هذا البلد ، وسوف نتبعه ، ونقتلكم به قتل عاد وإرم ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، وقد كانوا من قبل يستفتحون به على الذين كفروا .

وعن هذا يقول الحق سبحانه فى حق يهود المدينة : ﴿ وَلَمَّا

جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾

[البقرة]

لقد تنكَّر اليهود لرسالة محمد ﷺ ، مع أنهم على يقين من صِدْقه ؛ لأن هذه الرسالة ستحرمهم هذه السلطة الزمنية ، وستقضى على السيادة العلمية والسيادة الاقتصادية والسيادة الحربية التى كانت لهم قبل الإسلام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) ﴾

أى : لو كان مع الله آلهة أخرى لَطلبتْ هذه الآلهةُ طريقاً إلى ذى العرش .

وقد عالج الحق تبارك وتعالى هذه القضية فى قوله : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

وهذه قضية : إما أن تكون صادقة ، وإما أنْ تكونَ غير ذلك . فإنْ كانت صادقة فقد انتهتْ المسألة ، وإنْ كانت غير صادقة ، وهناك إله ثانٍ ، فأين هو ؟ لماذا لم نسمع به ؟ فإنْ كان موجوداً ، ولا يدرى ـ أو كان يدرى بهذه القضية ـ ولكنه تقاعس عن المواجهة ولم يعارض ، ففى كل الأحوال لا يستحق أن يكون إلهاً .

إذن : ما دام أن الله تعالى شهد لنفسه بالوحدانية ، ولم يَقُمْ له معارض فقد سلمتْ له هذه الدعوى .

وكلمة ﴿ ذِى العَرْشِ ﴾ لا تُقَال إلا لمَنْ استتبَّ له الأمر بعد عِرَاك وقتال ، فيُصنع له كرسى أو سرير يجلس عليه .

وابتغاء الطريق إلى ذى العرش ، إما ليواجهوه ويوقفوه عند حده ويبطلوا دعوته ، فإن غلبوا فقد انتهت المسألة ، وإن غُلبوا فعلى الأقل يذهب كل إله بما خلق كما قال تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ من وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ.. (٩١)﴾ [المؤمنون]

أو : يبتغون إليه سبيلاً ، ليكونوا من خَلْقه ومن عبيده ؛ لذلك يقول الحق سبحانه فى موضع آخر : ﴿لَن يَسْتَنكِفَ[1] الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ .. (١٧٢)﴾ [النساء]

ويقول : ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ .. (٥٧)﴾ [الإسراء]

فهؤلاء الذين أشركتموهم مع الله فقُلْتم : المسيح ابن الله ، وعزير ابن الله ، والملائكة بنات الله ، كُلٌّ هؤلاء فقراء إلى الله يبتغون إليه الوسيلة ، حتى أقربهم إلى الله وهم الملائكة يبتغون إلى الله الوسيلة ، فغيرهم ـ إذن ـ أَوْلَى .

---

(١) أى : لن يمتنع ولن يأنف ولن يكره ولن يستكبر عن أن يكون عبداً لله قائماً بواجب العبد نحو ربه . [القاموس القويم ٢/٢٨٧] .

وينزِّه الحق سبحانه نفسه ، فيقول :

﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾

وقوله : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ يعنى تنزيهاً مطلقاً له تعالى فى ذاته ، وفى صفاته ، وفى أفعاله ، فلله تعالى ذات ليست كذاتك ، وله صفات ليست كصفاتك ، وله أفعال ليست كأفعالك ؛ لأن الأشياء تختلف فى الوجود بحَسْب المُوجِد لها .

فمثلاً : لو بنى كُلٌّ من العمدة ، ومأمور المركز ، والمحافظ بيتاً ، فسوف يتفاوت هذا البناء من واحد للآخر ، بحسب قدرته ومكانته . وكذلك لا بُدَّ من وجود هذا التفاوت بين إله ومألوه ، وبين رَبٍّ ومربوب ، وبين عابد ومعبود .

إذن : كُلُّ الأشياء فى المتساوى تتفاوت بتفاوت الناس .

وقوله : ﴿عُلُوًّا كَبِيراً ﴿٤٣﴾﴾[الإسراء] أى : تعالى الله وتنزَّه عَمَّا يقول هؤلاء علواً كبيراً ؛ لأن الناس تتفاوت فى العلو .

ونلاحظ أن الحق سبحانه اختار (كبيراً) ولم يَقُلْ : أكبر . وهذا من قبيل استعمال اللفظ فى موضعه المناسب ؛ لأن كبيراً تعنى : أن كلّ ما سواه صغير ، لكن أكبر تعنى أن ما دونه كبير أى : مُشَارِك له فى الكِبَر .

لذلك نقول فى نداء الصلاة : الله أكبر وهى صفة له سبحانه ، وليست من أسمائه ؛ ذلك لأن من أعمال الحياة اليومية ما يمكن أن يُوصَف بأنه كبير ، كأعمال الخير والسعى على الأرزاق ، فهذه كبيرة ، ولكن : الله أكبر .

ثم يقول تعالى :

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ[(١)] وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾

التسبيح : هو حيثية الإيمان بالله ؛ لأنك لا تؤمن بشيء في شيء إلاَّ أنْ تثق أن مَنْ آمنتَ به فوقك في ذلك الشيء ، فأنت لا تُوكِّل أحداً بعمل إلا إذا أيقنتَ أنه أقدر منك وأحكم وأعلم .

فإذا كنت قد آمنت بإله واحد ، فحيثية ذلك الإيمان أن هذا الإله الواحد فوق كل المألوهين جميعاً ، وليس لأحد شبه به ، وإن اشترك معه في مُطْلَق الصفات ، فالله غنيّ وأنت غني ، لكن غِنَى الله ذاتيّ وغِنَاك موهوب ، يمكن أنْ يُسلب منك في أي وقت .

وكذلك في صفة الوجود ، فالله تعالى موجود وأنت موجود ، لكن وجوده تعالى لا عن عدم ، بل هو وجود ذاتي ووجودك موهوب سينتهي في أي وَقت .

إذن : فتسبيح الله هو حيثية الإيمان به كإله ، وإلا لو أشبهناه في شيء أو أشبهنا في شيء ما استحق أن يكون إلهاً .

والتسبيح : هو التنزيه ، وهذا ثابت لله تعالى قبل أن يوجد مِنْ خَلْقه مَنْ يُنزِّهه ، والحق سبحانه مُنزَّه بذاته والصفة كائنة له قبل أَن

---

(١) قوله تعالى ﴿وَمَن فِيهِنَّ .. ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء] . قال القرطبي في تفسيره (٥/ ٣٩٩٤) : « يريد الملائكة والإنس والجن . ثم عَمَّ بعد ذلك الأشياء كلها في قوله ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء] .

يخلق الخلق ؛ لأنه خالق قبل أن يخلق ، كما نقول : فلان شاعر ، أهو شاعر لأنه قال قصيدة ؟ أم شاعر بذاته قبل أن يقول شعراً ؟

الواقع أن الشعر موهبة ، وملَكة عنده ، ولولاها ما قال شعراً ، إذن : هو شاعر قبل أن يقول .

كذلك فصفات الكمال في الله تعالى موجودة قبل أن يوجد الخَلْق .

لذلك فإن المتتبع لهذه المادة في القرآن الكريم مادة (سبح) يجدها بلفظ (سُبْحان) في أول الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ .. ① ﴾ [الإسراء]

ومعناها أن التنزيه ثابت لله تعالى قبل أن يخلق من ينزهه .

ثم بلفظ : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ① ﴾ [الحديد]

بصيغة الماضي ، والتسبيح لا يكون من الإنسان فقط ، بل من السموات والأرض ، وهي خَلْق سابق للإنسان .

ثم يأتي بلفظ : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. ① ﴾ [الجمعة]

بصيغة المضارع ؛ ليدل على أن تسبيح الله ليس في الماضي ، بل ومستمر في المستقبل لا ينقطع . إذن : ما دام التسبيح والتنزيه ثابتاً لله تعالى قبل أن يخلق مَنْ يُنزِّهه ، وثابتاً لله من جميع مخلوقاته في السموات والأرض ، فلا تكُنْ أيها الإنسان نشازاً في منظومة الكون ، ولا تخرج عن هذا النشيد الكوني : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ① ﴾ [الأعلى]

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

أى : ما من شىء ، كل ما يُقال له شىء . والشىء : هو جنس الأجناس ، فالمعنى أن كل ما فى الوجود يُسبِّح بحمده تعالى .

وقد وقف العلماء أمام هذه الآية ، وقالوا : أى تسبيح دلالة على عظمة التكوين ، وهندسة البناء ، وحكمة الخلق ، وهذا يلفتنا إلى أن الله تعالى مُنزَّه ومُتعَالٍ وقادر ، ولكنهم فهموا التسبيح على أنه تسبيح دلالة فقط ؛ لأنهم لم يسمعوا هذا التسبيح ولم يفهموه .

وقد أخرجنا الحق سبحانه وتعالى من هذه المسألة بقوله : ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

إذن : يوجد تسبيح دلالة فعلاً ، لكنه ليس هو المقصود ، المقصود هنا التسبيح الحقيقى كُلٌّ بلُغته[1] .

فقوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

يدل على أنه تسبيح فوق تسبيح الدلالة الذى آمن بمقتضاها المؤمنون ، إنه تسبيح حقيقىّ ذاتىّ ينشأ بلغة كل جنس من الأجناس ، وإذا كنا لا نفقه هذا التسبيح ، فقد قال تعالى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾ [النور]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٩٦) : « الصحيح أن الكل يسبح للأخبار الدالة على ذلك ، ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة ، فأىّ تخصيص لداود (يقصد قوله تعالى عن داود عليه السلام : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) ﴾ [الأنبياء]) . وإنما ذلك تسبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح ، وقد نصت السنة على ما دل عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شىء ، فالقول به أَوْلَى . والله أعلم » . وهذا يتوافق مع ما قاله فضيلة الشيخ الشعراوى .

إذن : كل شيء فى الوجود علِم كيف يُصلّى لله ، وكيف يُسبِّح لله ، وفى القرآن آياتٌ تدل بمقالها ورمزيتها على أن كل عَالَم فى الوجود له لغة يتفاهم بها فى ذاته ، وقد يتسامى الجنس الأعلى ليفهم عن الجنس الأدنى لُغته ، فكيف نستبعد وجود هذه اللغة لمجرد أننا لا نفهمها ؟

وها هم الناس أنفسهم ولهم فى الأداء القولىّ لغة يتفاهمون بها ، ومع ذلك تختلف بينهم اللغات ، ولا يفهم بعضهم بعضاً ، فإذا ما تكلم الإنجليزى - مع أنه يتكلم بألفاظ العربى - ومع ذلك لا يفهمه ؛ لأنه ما تعلَّم هذه اللغة .

واللغة ظاهرة اجتماعية ، بمعنى أن الإنسان يحتاج للغة ؛ لأنه فى مجتمع يريد أن يتفاهم معه ليعطيه ما عنده من أفكار ، ويسمع ما عنده من أفكار فلا بُدَّ من اللغة لنقل هذه الأفكار ، ولو أن الإنسان وحده ما كان فى حاجة إلى لغة ؛ لأنه سيفعل ما يخطر بباله وتنتهى المسألة .

واللغة لا ترتبط بالدم أو الجنس أو البيئة ؛ لأنك لو أتيتَ بطفل إنجليزى مثلاً ، ووضعتَه فى بيئة عربية سيتكلم العربية ؛ لأن اللغة ظاهرة اجتماعية تعتمد على السمع والمحاكاة ؛ لذلك إذا لم تسمع الأذن لا تستطيع أن تتكلم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ .. ⦗١٨⦘﴾ [البقرة]

فهم بُكْم لا يتكلمون ؛ لأنهم صُمٌّ لم يسمعوا شيئاً ، فإذا لم يسمع الإنسان اللفظ لا يستطيع أن يتحدثَ به ؛ لأن ما تسمعه الأذن يحكيه اللسان .

إذن ؛ بالسماع انتقلتْ اللغة ، كُلٌّ سمع من أبيه ، ومن البيئة التى يعيش فيها ، فإذا ما سلسلْتَ هذه المسألة ستصل إلى آدم - عليه السلام - وهنا يأتى السؤال : وممَّنْ سمع آدم اللغة التى تكلم بها ؟

وقد حلَّ لنا القرآن الكريم هذه القضية فى قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. (٣١) ﴾ [البقرة]

وأكثر من ذلك ، فقد يتكلم العربى بنفس لغتك ولا تفهم عنه ما يقول ، واللغة هى اللغة ، كما حدث مع أبى علقمة النحوى ، وكان يتقعَّر فى كلامه ويأتى بألفاظ شاذة غير مشتهرة ، وقد أتعب بذلك مَنْ حوله ، وخاصة غلامه الذى ضاق به ذَرْعاً لكثرة ما سمع منه من هذا التقعر .

ويُروَى أنه فى ذات ليلة قال أبو علقمة لغلامه : (أصَقَعَت[1] العَتَاريفُ) ؟ فردَّ عليه الغلام قائلاً : (زقْفَيلَم) . وكانت المرة الأولى التى يستفهم فيها أبو علقمة عن كلمة ، فقال : يا بنى وما (زقْفَيلَم) ؟ قال : وما (صقعت العتاريف) ؟ قال : أردتُ : أصاحت الديكة ؟ فقال الغلام : وأنا أردتُ لم تَصِحْ .

إذن : فكيف نستبعد أننا لا نعلم لغة المخلوقات الأخرى من حيوان ونبات وجماد ؟ ألم يكْفنا ما أخبرنا الله به من وجود لغة لجميع المخلوقات ، وإنْ كنا لا نفهمها ؛ لأننا نعتقد أن اللغة هى النطق باللسان فقط ، ولكن اللغة أوسع من ذلك .

فهناك - مثلاً - لغة الإشارة ، ولغة النظرات ، ولغة التلغراف .

---

(١) صَقْع الديك : صوته . وقد صقع الديك : صاح . والعُتْرفان : الديك . [لسان العرب - مادة : صقع ، عترف] فمعنى : أصقعت العتاريف : أى : أصاحت الديكة .

إذن : اللغة ليست اللسان فقط ، بل هى استعداد لاصطلاح يُفْهم ويُتعارف عليه ، فالخادم مثلاً يكفى أن ينظرَ إليه سيِّده نظرة يفهم منها ما يريد ، فهذه النظرة لَوْنٌ من ألوان الأداء .

والآن بدأنا نسمع عن قواميس يُسجِّل بها لغات بعض الحيوانات لمعرفة ما تقول .

وقد أعطانا الحق تبارك وتعالى إشارات تدل على أن لكل عَالَم لغة يتفاهم بها ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ .. (٧٩)﴾ [الأنبياء]

فالجبال تُسبِّح مع داود ، وتُسبِّح مع غيره ، ولكن المراد هنا أنها تُسبِّح معه ويوافق تسبيحها تسبيحه ، وكأنهما فى أنشودة جماعية منسجمة . إذن : فلا بُدَّ أن داود عليه السلام قد فَهِم عنها وفهمتْ عنه .

وكذلك النملة التى تكلمتْ أمام سليمان عليه السلام ففهم كلامها ، وتبسَّم ضاحكاً من قولها . وقد علَّمه الله منطقَ الطير . إذن : لكل جنس من الأجناس منطق يُسبِّح الله به ، ولكن لا نفقه هذا التسبيح ؛ لأنه تسبيح بلغة مُؤدِّية مُعبِّرة يتفاهم بها مَنْ عرف التواضع عليها .

وقد جعل الحق سبحانه وتعالى تنزيهه مطلقاً ينقاد له الجميع ، حتى الكافر ينقاد لتنزيه الله قَهْراً عنه ، مع أن لديه ملكةَ الاختيار بين الكفر أو الإيمان ، لكن أراد الحق سبحانه أن يكون تنزيهه مُطْلقاً من الجماد والنبات والحيوان ، ومن المؤمن والكافر . كيف ذلك ؟

أطلق الحق سبحانه على ذاته لفظ الجلالة (الله) فهو علَم على

واجب الوجود ، ثم تحدّى الكافرين أنْ يُسمُّوا أحداً بهذا الاسم ، فقال : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾ [مريم]

ومع ما عندهم من إلْف بالمخالفة وعناد بالإلحاد ، مع ذلك لم يجرؤ أحد منهم أنْ يُسمِّيَ ابناً له بهذا الاسم ، ومعلوم أن التسمية أمر اختياريّ يطرأ على الجميع .

إذن : فهذا تنزيه لله تعالى ، حتى من الكافر رَغْماً عنه ، وهو دليل على عظمته سبحانه وجلاله ، هذه العظمة وهذا الجلال الذى لم يجرؤ حتى الكافر على التشبُّه به ؛ ذلك لأنهم فى كفرهم غير مقتنعين بالكفر ، ويخافون بطش الله وانتقامه إنْ أقدموا على هذا العمل ، لذلك لا يجرؤ أحد منهم أنْ يُجرِّب فى نفسه مثل هذه التسمية .

وفى مجال العبادات ، فقد اختار الحق سبحانه لنفسه عبادة لا يشاركه فيها أحد ، ولا يقدمها أحد لغيره تعالى ؛ لأن الناس كثيراً ما يتقربون لأمثالهم من البشر بأعمال أشبه ما تكون بعبادة الله تعالى ، فمنهم مَنْ ينحنى خضوعاً لغيره ؛ كأنه راكع أو ساجد ، ومنهم مَنْ يمدح جباراً بأنه لا مثيلَ له ، وتصل به المبالغة إلى جَعْله إلهاً فى الأرض ، ومنهم مَنْ يسجدُ للشمس كما فعل أهل سبأ ، وأخبر الهدهد عنهم بقوله :

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [النمل]

ألسْنَا نرى إنساناً يتقرّب لأحد الحكام ، بأن ينفق فيما يحبه هذا الحاكم ، وكأنه يُخرِج زكاة ماله ؟ ألسْنا نرى أحدهم يذهب كل يوم

إلى قصر سيده ، ويُوقّع فى سجل التشريفات باسمه ليقدم بذلك فروض الولاء والطاعة ؟

إذن : فالإيمان بالوحدانية فى شىء متميز وارد عند الناس ، والخضوع الزائد بالسجود أو بالركوع أو بالكلام وارد عند الناس .

لذلك تفرّد الحق سبحانه بفريضة الصوم ، وجعلها خالصة له سبحانه ، لا يتقرب بها أحد لأحد ، وهل رأيت إنساناً يتقرّب لآخر بصوم ؟ فانظر إلى هذه السُّبْحانية وهذا التنزيه فى ذاته سبحانه ، فلا يجرؤ أحد أنْ يتسمّى باسمه .

وفى العبادة لا يُصَام لأحد غيره تعالى ، فلو تصوَّرنا أن يقول واحد للآخر : أنا سأتقرّب إليك بصوم هذا اليوم أو هذا الشهر ، إذن : أنت تريد منه أن يجلس بجوارك يحرسك ويراعى صومك ، فكأنك تريد له العنت والمشقة من حيث تريد أنت أنْ تتقرّب إليه .

لذلك يقول الحق سبحانه فى الحديث القدسى : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به »[(١)] .

يعنى من الممكن أن يتقرب بأىٍّ ركن من أركان الإسلام لغيرى ، إلا الصوم ، فلا يجرؤ أحد أنْ يتطوّع به أو يتقرب به لأحد .

إذن : فالسُّبحانية هى الدليل السائد الشامل الجامع لكل الخَلْق ؛ لذلك نقول للكافر : أيها الكافر لقد تأبَّيْتَ على الإيمان بالله ،

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٠٤) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨٠٦/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وهو حديث قدسى عن رب العزة سبحانه .

وللعاصى : لقد تأبيتَ على أوامر الله ، وما دُمْتُم قد تأبيتم على الله ، وألفتم هذا التأبِّى وهذا التمرد ، فلماذا لا تتأبون على المرض إنْ أصابكم ، وعلى الموت إنْ طرق بابكم ؟

لماذا لا تتمرد على ملك الموت وتقول له : لن أموت اليوم ؟! إنها قاهرية الحق سبحانه وتعالى حتى على الكافر ، فلا يستطيع أحد أن يخرج عليها أو يتمرد .

وكذلك العاصى حينما ينحرف عن الجادّة ، وتمتد يده إلى مال غيره بالسرقة أو الاختلاس أو التعدِّى على المال العام ، فإن الحق سبحانه يفتح عليه أبواباً للإنفاق تبتلع ما جمع من الحرام ، وربما أخذت فى طريقها الحلال أيضاً ، وصدق رسول الله ﷺ حين قال :

« من جمع مالاً من مهاوش أذهبه الله فى نهابر »[1] .

فالتسبيح إذن لغة الكون كله ، منه ما نفهمه ، ومنه ما لا نفهمه ، إلا مَنْ أطلعه الله عليه ، فإذا مَنَّ الله على أحد وعلّمه لغة الطير أو الحيوان أو النبات أو الجماد ، فهمها وفقه عنها ، كما أنعم بهذه النعمة على داود وسليمان عليهما السلام .

ويقول سليمان ـ عليه السلام ـ شاكراً هذه النعمة : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِى[2] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَالِدَىَّ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل]
فقَوْل الحق سبحانه : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾[الإسراء]

---

(١) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٢/٣١٣) وعزاه للقضاعى عن أبى سلمة الحمصى مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال التقى السبكى : لا يصح .
(٢) أى : الهمنى شكرك وادفعنى إليه وحبّبه إلىَّ . [القاموس القويم ٢/٣٣٤] .

يجب على العلماء أنْ ينقلوها من خاطر الدلالة إلى خاطر المقالة أيضاً ، ولكنها مقالة ، ولكنها مقالة بلغة يفهمها أصحابها إذا شاء الله لهم ذلك .

ثم يُذيّل الحق سبحانه هذه الآية بقوله : ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء]

لأن الإنسانَ كثيراً ما يغفل الاستدلال بظواهر الكون وآياته دلالة الحال ، فيقف على قدرة الله وبديع صُنْعه ، وكذلك كثيراً ما يغفل عن تسبيح الله تسبيح المقالة ؛ لذلك أخبر سبحانه أنه حليمٌ لا يعاجل الغافلين بالعقوبة ، وغفور لمن تاب وأناب .

وهذا من رحمته سبحانه بعباده ، فلولا أنْ يتداركَ الله العباد بهذه الرحمة لكان الإنسان سيد الكون أقلّ حظاً من الحيوان ، ويكفى أن تتدبر قوله تعالى عن تسبيح المخلوقات له سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴿١٨﴾﴾ [الحج]

فها هى جميع الأجناس من جماد ونبات وحيوان تسجد لله لا يتخلف منها شئ ، فهى تسجد وتُسبّح بالإجماع ، ولم ينقسم الأمر إلا فى الإنسان السيّد المكرّم ، ولكن لماذا الإنسان بالذات هو الذى يشذُّ عن منظومة التسبيح فى الكون ؟

نقول : لأنه المخلوق الوحيد الذى مَيَّزَهُ الله بالاختيار ، وجعل له الحرية فى أنْ يفعل أو لا يفعل ، أما باقى المخلوقات فهى مُسخّرة مقهورة ، فإن قال قائل : لماذا لم يجعل الحق سبحانه وتعالى

الإنسان أيضاً مقهوراً كباقى المخلوقات ؟

لقد جعل الله تعالى فى الإنسان الاختيار لحكمة عالية ، فالقهر يُثبتُ للحق سبحانه صفة القدرة على مخلوقه ، فإذا قهره على شيء لا يشذ ولا يتخلف ، ولكنه لا يثبت صفة المحبوبية لله تعالى .

أما الاختيار فيثبت المحبوبية لله ؛ لأنه خلقك مختاراً تؤمن أو تكفر ، ومع ذلك اخترْتَ الإيمان حُباً فى الله تعالى ، وطاعة وخضوعاً ، فأثبتَّ بذلك صفة المحبوبية .

وإياك أن تظن أن مَنْ يَعْصى الله يعصيه قهراً عن الله ، بل بما ركَّب فيه من الاختيار ، وقد يقول قائل : وما ذنب الإنسان أن يكون مختاراً من بين جميع المخلوقات ؟

لو حققتَ هذه القضية منطقياً وفلسفياً لوجدتَ الكون كله كان مختاراً ، وليس الإنسان فقط ، لكن اختارت جميع المخلوقات أنْ تُسلِّم الأمر لله ، وفضَّلتْ أن تكون مقهورة مسخرة من البداية ، أما الإنسان ففضَّل الاختيار ، وقال : سأعمل بحرص ، وسأحمل الأمانة بإخلاص ، وهذا واضح فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]

وفى رَفْض هذه المخلوقات لتحمُّل الأمانة والاختيار دليل على العلم الواسع ؛ لأنه يوجد فَرْق كبير بين قبول الأمانة وقت التحمُّل ووقت الأداء . فقد تتحمل الأمانة وأنت واثق من أدائها ، لكن يطرأ عليك وقت الأداء مَا يحول بينك وبين أداء الأمانة .

والأمانة كما هو معروف لا تُوثَّق ولا تُكتب ، وكثيراً ما يقع فيها التلاعب ؛ لأنها لا تثبتُ إلا بذمّة الآخذ الذى قد يضعف عن الأداء وتُلجئه الأحداث إلى هذا التلاعب أو الإنكار ، والأحداث قد تكون أقوى من الرجال .

فالإنسان ـ إذن ـ لا يضمن نفسه وقت الأداء ، وإنْ كان يضمنها وقت التحمُّل ، ولهذا اختارت جميع المخلوقات أن تكون مقهورة مُسيَّرة ، أما الإنسان فقال : لى عقل وأستطيع التصرُّف والترجيح بين البدائل ، فكان بذلك ظالماً لنفسه ؛ لأنه لا يضمنها وقت الأداء ، وجهولاً بما يكون من تغيُّر أحواله .

فالكون ـ إذن ـ ليس مقهوراً رَغْماً عنه ، بل بإرادته واختياره ، وكذلك الإنسان ليس مختاراً رَغْماً عنه ، بل بإرداته واختياره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يعدل الأشياء تنفيذاً لأشياء أخرى ، ويصنع أحداثاً أوّلية لتكون بمثابة المقدمة والتمهيد لأحداث أخرى أهم منها . وكفار مكة ما ادّخروا وُسْعاً ، وما تركوا وسيلة من وسائل الإيذاء لرسول الله ﷺ والتنكيل به إلا فعلوها .

ومع ذلك لم يُفَاجأ بها رسول الله ، ولم تُثبِّط من عزيمته ، لماذا ؟ لأنه كان مُتوقِّعاً لكل هذا الإيذاء ، ولديه من سوابق الأحداث ما يعطيه الحصانة الكافية لمقابلة كل الشدائد .

فالمسألة لم تُفاجىء رسول الله ؛ لأنه عرفها حتى قبل أن يُبعث ، فحينما جاءه جبريل للمرة الأولى فى الغار ، وعاد إلى السيدة خديجة فَزِعاً ذهبتْ به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، فطمأنه بأن هذا هو النَاموس الإلهى ، وأنه ﷺ سيكون مبعوث السماء إلى الأرض ، وأنه نبيُّ هذه الأمة ، وقال فيما قال : ليتنى أكون حياً حين يُخرِجك قومك ، فقال ﷺ : « أَمُخرجىّ هم ؟ »[1] .

قال : نعم ، لم يأت رجل بمثل ما جئتَ به إلا عودِى ، وإنْ يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً .

إذن : فالحق سبحانه وتعالى حَصَّن رسوله ﷺ ضد ما سيأتى من أحداث ؛ لكى يكون على توقُّع لها ، ولا تحدث له المفاجأة التى ربما ولدتْ الانهيار ، وأعطاه الطُّعْم المناسب للداء قبل حدوثه ؛ لتكون لديه المناعة الكافية عند وقوع الأحداث ، واليقين الثابت فى نصر الله له مهما ادْلهَمتْ الخطوب ، وضاق الخناق عليه ﷺ وعلى أصحابه .

والحديث عن الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وما داموا كذلك فليس لهم إلا الدنيا ، هى فرصتهم الوحيدة ، لذلك يحرصون على استنفاد كل شهواتهم فيها ، ولا يؤخرون منها شيئاً ، فإنْ أجَّل المؤمن بعض مُتَعِه وشهواته انتظاراً لما فى الآخرة فإلامَ يؤجل الكفار مُتعتهم ؟

إذن : الذى يجعل هؤلاء يتهافتون على شهواتهم فى الدنيا أنهم غير مؤمنين بالآخرة .

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/١٣٩ ، ١٤٠) من حديث محمد بن النعمان بن بشير . وأورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٢٣٨) وفيه أن ورقة قال : « والذى نفسى بيده ، إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه » .

فإذا جاء رسول بمنهج ليعدل حركة الناس لتنسجم مع الكون ، فلا بُدّ أن يثور هؤلاء الكفار الحريصون على شهواتهم ومكانتهم ، لابُدَّ أنْ يُصادموا هذه الدعوة ، ويقاوموها فى ذات الرسول وفى منهجه ، فى ذاته بالإيذاء ، وفى دعوته ومنهجه بصَرْف الناس عنه ، ألم يقل الكفار لمن يَروَنْ عنده مَيْلاً للإسلام : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾ [فصلت]

وقولهم : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ .. (٢٦)﴾ [فصلت] شهادة منهم بصدق القرآن الكريم ، وأنه ينفذ إلى القلوب ويؤثر فيها ، وإلا لما قالوا هذا القول .

وقولهم : ﴿وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦)﴾ [فصلت] أى : هرِّجوا وشَوِّشوا عليه حتى لا يصل إلى آذان الناس ، إذن : هم واثقون من صدق رسول الله وصدق دعوته ، وقد دلَّتْ تصرفاتهم على ذلك ، فحينما كان رسول الله ﷺ يذهب إلى الكعبة ، ويجلس بجوارها يُدندن بآيات القرآن كان صناديد الكفر فى مكة يتعمدون سماع القرآن ، والتلذُّذ بروعته وبلاغته[1] .

فقوله تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥)﴾ [الإسراء]

---

(١) أورد ابن هشام هذه القصة فى السيرة النبوية (١/٣١٥) ، أن أبا سفيان وأبا جهل والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى من الليل فى بيته ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فتلاوموا . وتكرر هذا ثلاث ليال .

يُرْوَى[1] أن أبا جهل ، وأبا سفيان ، وأبا لهب ، وأم جميل كانوا يتابعون رسول الله ، ويتنصتون عليه وهو يقرأ القرآن ليروْا ما يقول ، وليجدوا فرصة لإيذائه ﷺ ، فكان الحق سبحانه يصمُّ آذانهم عن سماع القرآن ، فالرسول يقرأ وهم لا يسمعون شيئاً ، فينصرفون عنه بغيظهم .

وكأن الحق سبحانه يريد من هذه الواقعة أن تكون تمهيداً لحدث أهم ، وهو ما كان من رسول الله ليلة الهجرة ، ليلة أنْ بيَّتوا له القتل بضربة رجل واحد ، فتحرسه عناية الله وتقول له : اخرج عليهم ولا تخف ، فإن الذى جعلك تقرأ وجعل بينك وبينهم حجاباً فلا يستمعون إليك ، هو الذى سينزل على أعينهم غشاوة فلا يرونك .

ومع إحكام خيوط هذه المؤامرة لم يخرج الرسول من بينهم صامتاً يحبس أنفاسه خَوْفاً ، بل خرج وهو يقول « شاهت الوجوه »[2] وهو لا يخشى انتباههم إليه ، وأكثر من ذلك : يأخذ حفنة من التراب ويذروها على وجوههم ، إنها الثقة واليقين فى نصره وتأييده .

وقوله : ﴿ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الإسراء]

الحجاب : هو المانع من الإدراك ، فإنْ كان للعين فهو مانع للرؤية ، وإنْ كان للأذن فهو مانع للسمع .

---

(١) قال الزجاج فيما نقله عنه القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٩٨) : « نزلت فى قوم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن ، وهم : أبو جهل ، وأبو سفيان ، والنضر بن الحارث ، وأم جميل امرأة أبى لهب وحويطب ، فحجب الله سبحانه رسوله ﷺ عن أبصارهم عند قراءة القرآن ، وكانوا يمرون به ولا يرونه .

(٢) ورد قول رسول الله ﷺ هذا فى حديث الهجرة عن ابن عباس عند أحمد فى المسند (١/٣٦٨) وكذلك فى غزوة حنين فى صحيح مسلم (١٧٧٧) من حديث إياس بن سلمة عن أبيه ، وأحمد فى مسنده (١/٢٨٦) والدارمى فى سننه (٢/٢١٩) من حديث أبى عبد الرحمن الفهرى .

وكلمة ﴿ مَّسْتُوراً ﴾ اسم مفعول من السَّتر ، فلم يقل الحق سبحانه وتعالى (ساتراً) ، وهذا من قبيل المبالغة فى الستر والإخفاء ، فالمعنى أن الحجاب الذى يمنعهم من سماعك أو رؤيتك هو نفسه مستور ، فإن كان الحجاب نفسه مستوراً ، فما بالُكَ بما خلفه ؟

ولا شكَّ أن الذِّهْن سينشغل هنا بالحجاب المادى ، لكن هذا الحجاب الذى يتحدث عنه الحق سبحانه حجاب معنوىّ ولا يراه أحد ، كما فى قوله تعالى : ﴿رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ۝٢﴾[الرعد]

فلو قال : بغير عمد وسكت فقد نفى وجود عَمَد للسماء وانتهت المسألة ، وأدخلناها تحت قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا .. ۝٤١﴾ [فاطر] فالأمر قائم على قدرة الله دون وجود عَمَدٍ تحمل السماء .

لكن قوله سبحانه : ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ تجعل المعنى صالحاً لأنْ نقول بغير عَمَد ، وأنتم ترونها كذلك ، فننظر هنا وهناك فلا نجد للسماء عمداً تحملها ، أو نقول : إن لها عمداً لكنَّا لا نراها ، فهى عَمَد معنوية ، فلا ينصرف ذهنك إلى ما نُقيمه نحن من عَمد المسلح أو الرخام أو الحديد .

وفى هذا ما يدُكُّ الغرور فى الإنسان ، ليعلم أنه لا يدرك إلا ما أذن الله له فى إدراكه ، وأن حواسَّ الإدراك لديه قد تتوقف عن هذا الإدراك ، فليس معنى أنها مدركة أن تظل مدركة دائماً ، فليس لها طلاقة لتفعل ما تشاء ، بل الحق سبحانه وتعالى يعطيها هذه القدرة ، أو يسلبها إياها .

فالقـدرة الإلهية هى التى تُسيِّـر هذا الكون ، وتأمر كل شىء بأن يُؤدِّى مهمته فى الحيـاة ، وإنْ شاء عطَّلها عن أداء هذه المهمة ؛ لذلك نرفض قول الفلاسفة أن الحق سبحانه وتعالى زاول سلطانه فى مُلْكه مرة واحـدة ، بأن جعـل فيه الـنواميس والقـوانين ، وهى التى تحكم العالم وتُسيِّره .

ففـى قصة مـوسى ـ عليه السـلام ـ أنه سار بـجيشـه ، يطارده فرعـون وجنوده حتى وصـل إلى شاطىء البـحر فأصـبح البحـر من أمـامـه ، وفـرعـون من خلفـه حـتى قـال أصـحـاب مـوسى : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء]

فأين المفر ، وها هو البـحر من أمامنا ، والعدو من خلفنا ؟ وهذا كلام منطقى مع واقع الحدث البشـرى ، لكن الأمر يختلف عند موسى ـ عليـه السـلام ـ فـقـال بملء فـيـه : ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء]

فهل قالهـا موسى برصيد بشرى ؟ لا ، بل بـما عنده من ثقة فى ربه ، وهكذا انتقلت المسـألة إلى ساحة الخالق سـبحانه ، فقـال لنبيه موسى : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣)﴾ [الشعراء]

فخرق الله لموسى قانون سيولة الماء واستطراقه ، ويتجمد الماء ، ويصير كالجبل ويتحول البحـر إلى يابسة ، ويعبر موسى وقومه إلى الناحيـة الأخرى ، وتنشرح صدورهم بـفرحة النجاة ، ويأخـذ موسى ـ عليـه السلام ـ عصاه ليضرب البـحـر ليعـود إلى طبيعته ، وحـتى

لا يعبره فرعون ويلحق به ، لكن الحق سبحانه يأمره ، أن يتركه على حاله : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا[1] إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) ﴾ [الدخان]

فعندما نزل فرعون وجنوده البحر واكتمل عددهم فى قاعه أطلق الخالق سبحانه للماء قانون سيولته ، فأطبق على فرعون وجنوده ، وكانت آيةٌ من آيات الله ، شاهدة على قدرته سبحانه ، وأنه إنْ شاء أنجى وأهلك بالشيء الواحد ، وشاهدة على قيوميته تعالى على خَلْقه ، فليس الأمر ـ كما يقولون ـ أمر قانون أو ناموس يعمل ، ويدير حركة الكون ، فكل المعجزات التى مرَّتْ فى تاريخ البشرية جاءت من باب خرق النواميس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً[2] أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا[3] وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا (٤٦) ﴾

ومعنى ﴿ أكنة ﴾ جمع كِنَان ، وهو الغطاء ، وقد حكى القرآن اعترافهم بهذه الأكنة وهذه الحجب التى غلَّفَتْ قلوبهم فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ .. (٥) ﴾ [فصلت]

الكون كله خَلْق الله ، والإنسان سيد هذا الكون ، وخليفة الله فيه وهو مربوب للخالق سبحانه لا يخرج عن مربوبيته لربه ، حتى وإنْ

(١) أى : اترك البحر ساكنا ليغتروا فينزلوا فيه . [القاموس القويم ١/ ٢٧٩] .

(٢) الأكنة : الأغطية . مفرده : كِنان [لسان العرب ـ مادة : كنن] .

(٣) الوقر : ثِقَل فى السمع ، وقيل : هو أن يذهب السمع كله [لسان العرب ـ مادة : وقر] .

كان كـافراً لا يزال يتقلّب فى عطاء الربوبية ، فلا يُحرم منها كـافر بكفره ولا عـاص بمعصيـته ، بل كما قـال تعالى : ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَـٰؤُلاءِ وَهَـٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ .. (٢٠) ﴾ [الإسراء]

وسبق أنْ فـرّقنا بين عطاء الربوبيـة المتـمثّل فى كل نِعَم الحـياة وبين عطاء الألوهيـة ، وهو التكليف الذى يـقتـضى عبـداً ومـعبـوداً ، وافعل ولا تفعل .

إذن : عطاء الربوبيـة عـام للجـمـيع ودائـم للجـمـيع ، فكان على الإنسان أن يقف مع نفـسه وقفة تأمُّل فى هذه النعم التى تُـسَاق إليه دون سَعْى منه أو مجهـود ، هذه الشمس وهذه الأرض وهذا الهواء ، هل له قـدرة عليـها ؟ هل تـعمل له بأمـره ، إنهـا أوليـات النعم التى أجـراها الله تعالى من أجله ، وسـخّـرها بقدرته من أجله ، ألا تدعـوه هذه النعم إلى الإيمان بالمنعم سبحانه وتعالى ؟

وسبق أنْ ضربنا مثلاً للاستدلال علـى الخالق سبحانه بما أودعه فى الكـون من ظواهر وآيـات بالرجل الـذى انقطعـت به السُّـبُل فى صحراء ، حتى أوشك على الهلاك ، وفجأة رأى مائدة عليها ما يشتهى من الطعام والشراب ، ألاَ تثير فى نفـسه تساؤلاً عن مصدرها قبل أن تمتدَّ إليها يده ؟

وكذلك الكافـر الذى يتقلَّب فى نِعَم لا تُعَدُّ ولا تُحـصَى ، وقد طرأ على الكون فوجـده مُعداً لاستـقباله مُهَـيئاً لمـعيشتـه ، فكان عليه أنْ يُجرى عملية الاستدلال هذه ، ويأخذ من النعمة دليلاً على المنعِم .

والحق تبـارك وتعالى لا يمنع عطاء ربوبـيته عـمَّنْ كفـر ، بل إن

الكافر حين يتمكَّن الكفر منه ويُغلق عليه قلبه يساعده الله على ما يريد ، ويزيده مما يحب ، كما قال تعالى : ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا .. ⦗١٠⦘﴾ [البقرة]

إذن : فقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً .. ⦗٤٦⦘﴾ [الإسراء] لم تَأْتِ من الله ابتداءً ، بل لما أحبُّوا هم الكفر ، وقالوا عن أنفسهم : قلوبنا في أكنة ، فأجابهم الله إلى ما أرادوا وختم على قلوبهم ليزدادوا كفراً ، وطالما أنهم يحبونه فَلْنُزدهم منه .

ثم يقول تعالى : ﴿أَن يَفْقَهُوهُ .. ⦗٤٦⦘﴾ [الإسراء]

أى : كراهية أنْ يفقهوه ؛ لأن الله تعالى لا يريد منهم أن يفهموا القرآن رَغْماً عنهم ، بل برضاهم وعن طيب خاطر منهم بالإقناع وبالحجة ، فالله لا يريد منا قوالبَ تخضع ، بل يريد قلوباً تخشع ، وإلا لو أرادنا قوالبَ لما استطاع أحد منا أنْ يشذَّ عن أمره ، أو يمنع نفسه من الله تعالى ، فالجميع خاضع لأمره وتحت مشيئته .

وفي سورة الشعراء يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ⦗٣⦘ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ⦗٤⦘﴾ [الشعراء]

فالأعناق هي الخاضعة وليست القلوب ؛ لأنك تستطيع أن تقهر قالب خصمك فتجبره على فعل أو قول ، لكنك لا تستطيع أبداً أن تجبر قلبه وتكرهه على حبك ، إذن : فالله تعالى يريد القلوب ، يريدها طائعة محبة مختارة ، أما هؤلاء فقد اختاروا الأكنّة على قلوبهم ، وأحبُّوها وانشرحت صدورهم بالكفر ، فزادهم الله منه .

ثم يقولُ تعالى : ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا .. (٤٦) ﴾ [الإسراء]

(وَقْراً) أى : صَمم ، والمراد أنهم لا يستمعون سماعاً مفيداً ؛ لأنه ما فائدة السمع ؟ واللغة وسيلة بين متكلم ومخاطب ، ومن خلالها تنتقل الأفكار والخواطر لتحقيق غاية ، فإذا كان يستمع بدون فائدة فلا جدوى من سمعه وكأن به صَمماً .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا .. (٤٦) ﴾ [الإسراء]

لماذا ولوا على أدبارهم نفوراً ؟ لأنك أتيتَ لهم بما يُخوِّفهم ويُزعجهم ، وبالله لو أن قضيةَ الإيمان ليست فطرية موجودة فى الذات وفى ذرّات التكوين ، أكان هؤلاء يخافون من ذكر الله ؟ فَمِمَّا يخافون وهم لا يؤمنون بالله ، ولا يعترفون بوجوده تعالى ؟

إذن : ما هذا الخوف منهم إلا لانقهار الطبع ، وانقهار الفطرة التى يعتريها غفلة ، فإذا ذُكر الله تعالى أمامهم ، فإذا بهم يُولُّون مدبرين فى خَوْفٍ ونُفور .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٤٧) ﴾

الحق سبحانه وتعالى لا يَخْفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وهذه حقيقة كان على الكفار أنْ ينتبهوا إليها ويُراعوها ، ويأخذوها سبيلاً إلى الإيمان بالله ، فقد أخبر سبحانه نبيه ﷺ بقوله :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) ﴾ [المجادلة]

فكان عليهم أن يتدبروا هذا القول : فهم قالوا فى أنفسهم ، ولم يقولوا لأحد ، فمَنْ أخبر محمداً بهذا القول الذى لم يخرج إلى عالم الواقع ، ومَنْ أطلعه عليه ؟ ألاَ يدعوهم هذا الإعلام بما يدور فى نفوسهم إلى الإيمان بالله ؟

وما دام الحق سبحانه يعلم كل الأحوال ، ولا يَخْفَى عليه شىء ، فهو أعلم بأحوالهم هذه : **الأول** : يستمعون إليك . **والثانى** : وإذ هم نجوى . **والثالث** : إذ يقول الظالمون . إذن : هم يستمعون ثم يتناجون ، ثم يقول بعضهم لبعض .

قالوا : إن سبب نزول هذه الآية ما كان عند العرب من حُبٍّ للغة وشغف بأساليب البيان ؛ لذلك كانت معجزة النبى ﷺ من جنس ما نبغ فيه قومه ، لتكون أوضح فى التحدى ، هكذا شأن الحق سبحانه مع كل الرسل .

وكان للعرب أسواق للبيان والبلاغة يجتمع فيها أهل الشعر والبلاغة والفصاحة ، وفى مكة تصب كل الألسنة فى مواسم الحج ، فعرفوا صفوة لغات الجزيرة وأساليبها ، ومن هنا انجذبوا لسماع القرآن ، وشغفوا ببيانه بما لديهم من أذن مُرْهفة للأسلوب وملَكة عربية أصيلة ، إلا أن القرآن له مطلوبات وتكاليف لا يقدرون عليها ، ولديه منهج سيُقوِّض مملكة السيادة التى يعيشون فيها .

ومن هنا كابروا وعاندوا ، ووقفوا فى وجه هذه الدعوة ، وإنْ كانوا

مُعْجبين بالقرآن إعجاباً بيانياً بلاغياً بما فى طباعهم من ملَكات عربية .

فيُرْوَى أن كباراً مثل : النضر بن الحارث ، وأبى سفيان ، وأبى لهب كانوا يتسللون بعد أن ينام الناس - ممن كانوا يقولون لهم : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » - كانوا يذهبون إلى البيت يتسمَّعون لقراءة القرآن ، ولماذا يحرمون أنفسهم من سماع هذا الضرب البديع من القول ، وقد حرموا مواجيدهم وقلوبهم منه ، فكانوا عند انصرافهم يرى بعضهم بعضاً مُتسلّلاً مُتخفّياً ، فكانوا مرة يكذبون على بعضهم بحجج واهية ، ومرة يعترفون بما وقعوا فيه من حُبٍّ لسماع القرآن[1] .

فقال تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ .. (٤٧) ﴾ [الإسراء] أى : بالحال الذى يستمعون عليه ، إذ يستمعون إليك بحال إعجاب . ثم : ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ .. (٤٧) ﴾ [الإسراء] من التناجى وهو الكلام سِراً ، أو : أن نَجْوى جمع نجى ، كقتيل وقَتْلى ، وجريح وجَرْحى .

فالمعنى : نحن أعلم بما يستمعون إليه ، وإذ هم متناجون أو نجوى ، فكأن كل حالهم تناجٍ .

وقوله : ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ .. (٤٧) ﴾ [الإسراء] فيه مبالغة ، كما تقول : رجل عادل ، ورجل عَدْل . ومنْ تناجيهم ما قاله أحدهم بعد سماعه لآيات القرآن : « والله ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة[2] ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه »[3] .

---

(١) أورد ابن هشام هذه القصة فى السيرة النبوية (١/٣١٥) .

(٢) الطلاوة : الحسن والبهجة والقبول والرونق . [لسان العرب - مادة : طلى] .

(٣) هو من قول الوليد بن المغيرة . وانظر السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٧٠) .

ثم تأتى الحالة الثالثة من أحوالهم : ﴿ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴿٤٧﴾ ﴾ [الإسراء]

وهذا هو القول المعْلَن عندهم ، أن يتهموا رسول الله بالسحر مرة ، وبالجنون أخرى ، ومرة قالوا : شاعر . وأخرى قالوا : كاهن . وهذا كله إفلاس فى الحجة ، ودليل على غبائهم العقدىّ .

وكلمة (مَسْحُوراً) اسم مفعول من السحر ، وهى تخييل الفعْل . وليس فعلاً ، وتخييل القَوْل وليس قولاً ، فهى صَرْف للنظر عن إدراك الحقائق ، أما الحقائق فهى ثابتة لا تتغير .

لذلك نقول : إن معجزة موسى ـ عليه السلام ـ من جنس السحر وليست سحْراً ؛ لأن ما جرى فيها كان حقيقة لا سحْراً ، فقد انقلبتْ العصا حَيَّة تبتلع حبال السحرة وعصيّهم على وَجْه الحقيقة ، لكن لما كانت المعجزة فى مجال السحر ظنها الناسُ سحْراً ؛ لأن القرآن قال فى سحرة فرعون : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ .. ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف] وقال فى آية أخرى : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه]

إذن : فحقيقة الأشياء ثابتة لا تتغير ، فالساحر يرى العصا عصا ، أما المسحور فيراها حية ، وليست كذلك مسألة موسى ـ عليه السلام ـ وليؤكد لنا الحق سبحانه هذا المعنى ، وأن ما حدث من موسى ليس من سحرهم وتغفيلهم أنه حينما قال له : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [طه]

فأطال موسى ـ عليه السلام ـ الكلام ؛ لأنه أحب الأُنْس بالكلام

مع ربه تعالى فأجاب : ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ[1] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي .. ⟨١٨⟩﴾ [طه] ثم أحس موسى أنه أطال فقال موجزاً : ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ⟨١٨⟩﴾ [طه]

فهذا هو مدى علْمه عن العصا التي في يده ، لكن الله تعالى سيجعلها غير ذلك ، فقال له : ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ⟨١٩⟩ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ⟨٢٠⟩﴾ [طه]

فهل خُيِّل لموسى أنها حيَّة وهي عصا ؟ أم أنها انقلبت حيّة فعلاً ؟ إنها حية فعلاً على وجه الحقيقة ، بدليل قوله تعالى : ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ⟨٦٧⟩﴾ [طه]

وموسى لم يَخَفْ إلا لأنه وجد العصا حيّة حقيقية ، ثم طمأنه ربه : ﴿قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ⟨٦٨⟩﴾ [طه]

لذلك لما رأى السحرة ما تفعله عصا موسى علموا أنها ليست سحراً ، بل هي شيء خارج عن نطاق السحر والسحرة ، وفوق قدرة موسى عليه السلام ، فآمنوا بربِّ موسى القادر وحده على إجراء مثل هذه المعجزة .

وقوله تعالى : ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ⟨٤٧⟩﴾ [الإسراء]

أي : سحره غيره .. وهذا قوْل الظالمين الذين يُلفِّقون لرسول الله التهمة بعد الأخرى ، وقد قالوا أيضاً : ساحر . قال تعالى : ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ⟨٢⟩﴾ [يونس]

(١) هش الشجر يهشه : ضربه بعصاً ليسقط ورقه لتأكله الماشية ، قال تعالى : ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي .. ⟨١٨⟩﴾ [طه] أي : أسقط بعصاي أوراق الشجر على غنمي لتأكلها . [القاموس القويم ٢/٣٠٣] .

فمـرّة قُلْتم : ساحر . ومرة قلتـم : مسحور . وهذا دليل التـخبُّط واللَّجج ، فـإن كان سـاحـراً فعندكم من السـحـرة كثيرون ، فلمـاذا لا يُواجِهونه بسحـر مثل سحْره ؟ ولماذا لم يسحركم أنتم كـما سحر غيركم وتنتهى المسألة ؟ وهل يمكن أن يُسْحر الساحر ؟

وإنْ كان مـسحوراً سـحره غـيره ، فهل جـرَّبْتُم عليه فى سـحره كلاماً مخالفاً لواقع ؟ هل سمعتموه يهذى كما يهذى المسحور ؟ إذن : فهـذا اتهام باطل وقـول كاذب لا أصل له ، بدليل أنكم تأبَّيـتم عليه ، ولم يُصِبْكم منه أذى .

فلما أخفقوا فى هذه التهمة ذهبـوا إلى ناحية أخرى فقالوا : شاعر ، وبالله أمثَّلكم أيها العرب ، يا أربابَ اللغة والفصاحة والبيان ـ يَخْفى عليه أن يُفرِّق بين الشعر والنثر ؟ والقرآن أسلوب متفرد بذاته ، لا هو شعر ، ولا هو نثر ، ولا هو مسجوع ، ولا هو مُرْسل ، إنه نسيج وحده .

لذلك نجد أهل الأدب يُقسِّمون الكلام إلى قسمين : كلام الله وكلام البشر ، فكلام البشر قسمـان : شعر ونثر ويخرج كلام الله تعالى من دائرة التقسيم ؛ لأنه متفرد بذاته عن كل كلام .

فلو قـرأت مثـلاً فى كـتب الأدب تجد الكـاتب يقول : هذا العـدل محمود عواقبه ، وهذه النَّبْوة غُمّة ثم تنجلى ، ولن يريبنى من سيدى أن أبطأ سـيبـه ، أو تأخـر غيـر ضنين غناؤه ، فـأبطأُ الدِّلاَء فَـيْضـاً أحفلُهـا ، وأثقل السحـائب مَـشْياً أحـفلها ، ومع اليـوم غد ، ولكلٍّ أجل كتاب ، له الحمد على احتباله ، ولا عتب عليه فى احتفاله .

فإِنْ يكن الفعْلُ الذى سَاءَ وَاحِداً   فأَفْعالُه الَّلائِى سُرِرْنَ أُلُوفُ

فلا شكَّ أنك ستعرف انتقالك من النثر إلى الشعر ، وسوف تُميِّز أذنك بين الأسلوبين ، لكن أسلوب القرآن غير ذلك ، فأنت تقرأ آياته فتجدها تنساب انسياباً لا تلحظ فيه أنكَ انتقلتَ من نثر إلى شعر ، أو من شعر إلى نثر . واقرأ قول الله تعالى : ﴿نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الحجر]

أَجْرِ عليه ما يُجريه أهل الشعر من الوزن ، فسوف تجد بها وزناً شعرياً : مستفعل فاعلات .... وكذلك : ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر] تعطيك الشطر الثانى من البيت ، لكن هل لاحظتَ ذلك فى سياق الآيات ؟ وهل لاحظتَ أنك انتقلت من شعر إلى نثر ، أو من نثر إلى شعر ؟

إذن : فالقرآن نسيج فريد لا يُقال له : شعر ولا نثر ، وهذا الأمر لا يَخْفى على العربى الذى تمرَّس فى اللغة شعرها ونثرها ، ويستطيع تمييز الجيِّد من الردىء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

أى : تعجَّبْ مما هم فيه من تخبُّط ولَجج ، فمرَّة يقولون عن القرآن : سحر ومرة يقولون : شعر ، ويصفونك بأنك : شاعر ، وكاهن ، وساحر .

ومعلوم أنْ الرسالة لها عناصر ثلاثة : مُرسل ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، ومُرسَل وهو النبى ﷺ ومُرْسَلٌ به وهو القرآن الكريم ، وقد تخبّط الكفار فى هذه الثلاثة ودعاهم الظلم إلى أن يقول فيها قولاً كاذباً افتراءً على الله تعالى وعلى رسوله وعلى كتابه .

وقد سبق أن تحدثنا عن افتراءاتهم فى الألوهية وعن موقفهم من رسول الله ﷺ .

ومن ذلك قولهم : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

وقولهم عن القضية الإيمانية العامة : ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال]

أهذه دعوة يدعو بها عاقل ؟! فبدل أنْ يقولوا : فاهدنا إليه تراهم يُفضّلون الموت على سماع القرآن ، وهذا دليل على كِبْرهم وعنادهم وحماقتهم أمام كتاب الله .

لذلك ، فالحق سبحانه وتعالى من حبه لرسوله ﷺ ورفْعة منزلته حتى عند الكافرين به ، يردُّ على الكافرين افتراءهم ، ويُطمئن قلب رسوله ، ويتحمل عنه الإيذاء فى قوله تعالى : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ .. (٣٣)﴾ [الأنعام]

أى : قولهم لك : ساحر ، وكاهن ، وشاعر ، ومجنون ﴿فَإِنَّهُمْ لايُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ [الأنعام]

فليست المسألة عندك يا محمد ، فهُمْ مع كفرهم لا يكذبونك

ولا يجـرؤون على ذلك ولا يتهـمونك ، إنمـا المسـألة أنهم يجـحدون بآياتى ، وكُلٌّ تصرفاتهم فى مقـام الألوهية ، وفى مقام النبوة ، وفى مقام الكتاب ناشئة عن الظلم .

وقولهم عن رسول الله : مجنون قوْلٌ كاذب بعيد عن الواقع ؛ لأن ما هو الجنون ؟ الجنون أن تُـفسِد فى الإنسان آلة التـفكير والاختـيار بين البـدائل ، والجنون قد يكون بسـبب خَلْقى أى : خلقه الله تـعالى هكذا ، أو بسبب طارىء كأنْ يُضربَ الإنسان على رأسه مثلاً ، فيختلّ عنده مجال التفكير .

ومن رحمـة الله تعالى بالعـبد أن أخَّـرَ له التكليف إلى سِنّ البلوغ واكتـمال العـقل ، وحتى يكون قادراً عـلى إنجاب مثله ؛ لأنه لـو كلّفه قبل البلوغ فـسوف تطرأ عليـه تغييـرات غريزية قد يحـتج بها ، ومع ذلك طلب من الأب أن يأمـر ابنه بالصـلاة قبل سِنّ الـتكليف لِيُعَـوِّده الصـلاة من الصغـيـر ليكون على إِلْفٍ بهـا حين يبـلغ سِنّ التكليف ، وليألف صيغة الأمر من الآمر .

والإنسـان لا يشـك فى حُبّ أبيه وحِرْصـه على مصلحـته ، فـهو الذى يُربّيه ويُوفّر له كل ما يحتـاج ، فله ثقة بالأب المحس ، فالحق سبحانه يريد أنْ يُربِّبَ فينا الطاعة لمن نعلم خيره علينا ، فإذا ما جاء وقت التكليف يسهل علينا ولا يشق ؛ لأنها أصبحتْ عادة .

والذى أعطى للأب حَقّ الأمـر أعطاه حَقّ العقاب على تـرْكه ليكون التكليف من الرب الصغير ، والعقوبة من الرب الصغير لِتُعوِّده بالأُبُوة

المحسَّة والرحمة الظاهرة على طاعة الحق سبحانه الذى أنعم علىَّ وعليك .

فالعقل ـ إذن ـ شرْط أساسى فى التكليف ، وهو العقل الناضج الحرّ غير المكْرَه ، فإنْ حدث إكراه فلا تكليف .

فقوله : ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الإسراء] أى : قالوا مجنون ، والمجنون ليس عنده اختيار بين البدائل ، وقد رَدَّ الحق سبحانه عليهم بقوله : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم]

فنفى الحق سبحانه عن رسوله هذه الصفة ، وأثبت له صفة الخُلق العظيم ، والمجنون لا خُلقَ له ، ولا يُحاسَب على تصرفاته ، فهو يشتم هذا ويضرب هذا ويبصق فى وجه هذا ، ولا نملك إلا أنْ نبتسم فى وجهه ونُشفق عليه .

ولقائل أنْ يقول : كيف يسلبه الخالق سبحانه وتعالى نعمة العقل ، وهو الإنسان الذى كرّمه الله ؟ وكيف يعيش هكذا مجرد نسخة لإنسان ؟

ولنعلم الحكمة من هذه القضية علينا أنْ نُقارن بين حال العقلاء وحال المجنون ، لنعرف عدالة السماء وحكمة الخالق سبحانه ، فالعاقل نحاسبه على كل كبيرة وصغيرة ومقتضى ما تطلبه من عظمة فى الكون ، ومن جاه وسلطان ألاَّ يُعقّب على كلامك أحد ، وأنْ تفعلَ ما تريد .

أَلاَ ترى أن المجنون كذلك يقول ويفعل ما يريد ، ثم يمتاز عنك أن لا يسأل فى الدنيا ولا فى الآخرة ؟ أليست هذه كافية لتُعوِّضه عن فقد العقل ؟ فلا تنظر إلى ما سلب منه ، ولكن إلى ما أعطاه من مَيْزات فى الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴿٤٨﴾﴾ [الإسراء]

أى : لم يستطيعوا أنْ يأتُوا بمثْلٍ يكون صَاداً وصارفاً لمن يؤمن بك أنْ يؤمن ، فقالوا : مجنون وكذبوا . وقالوا : ساحر وكذبوا . وقالوا : شاعر وكذبوا . وقالوا : كاهن وكذبوا . فَسُدّتْ الطرق فى وجوههم ، ولم يجدوا مَنْفَذاً لِصَدِّ الناس عن رسول الله .

فلما عجزوا عن إيجاد وَصْف يصدُّ مَنْ يريد الإيمان برسول الله ، قالوا : ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ .. ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال]

ومنهم مَنْ قال : ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف]

فلم يستطيعوا إيجاد سبيل يُعَوقون به دعوتك ، بدليل أنه رغم ضَعْف الدعوة في بدايتها ، ورغم اضطهادهم لها تراها تزداد يوماً بعد يوم ، وتتسع رُقْعة الإيمان ، أما كَيْدهم وتدبيرهم فيتجمّد أو يقلّ . كما فى قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا[1] مِنْ أَطْرَافِهَا .. ﴿٤١﴾﴾ [الرعد]

---

(١) قال ابن عباس فى تأويل هذه الآية : « أولم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض . وفى رواية عنه : نقصان أهلها وبركتها » . [تفسير ابن كثير ٢/٥٢٠] .

فكل يوم تزداد أرض الإيمان ، وتقلُّ أرض الكفر .

والحق سبحانه وتعالى فى قضية استماع القرآن وقولهم : قلوبنا فى أكنة ، وقلوبنا غلف يريد أن يُلفتَ أنظارنا إلى قضية هامة فى الوجود ومنتظمة فى كل الكائنات ، وهى أن الأفعال تقتضى فاعلاً للحدث وقابلاً لفعل الحدث ، ومثال ذلك : الفلاح الذى يُقلِّب التربة بفأسه ، فتقبل التربة منه هذا الفعل ، وتنفعل هى معه ، فتعطيه ما ينتظره من محصول .. أما لو فعل هذا الفعل فى صخرة فلن تقبل منه هذا الفعل . إذن : فثمرة الحدث تتوقف على طرفين : فاعل ، وقابل للفعل .

لذلك أتعجب من هؤلاء الذين يقولون : إن الغرب يفتن المسلمين عن دينهم ، ويأتى إلينا بالمغْريات وأسباب الانحراف ، ويُصدّر إلينا المبادىء الهدامة ويُشككنا فى ديننا .. إلخ .

ونقول لهؤلاء : مَا يضركم أنتم إنْ فعل هو ولم تقبلوا أنتم منه هذا الفعل ؟! دَعْوه يفعل ما يريد ، المهم ألاَّ نقبلَ وألاَّ نتفاعلَ مع مقولاته ومبادئه . فالخيبة ليست فى فعل الغرب بنا ، ولكن فى تقبُّلنا نحن ولَهْثنا وراء كُلِّ ما يأتينا من ناحيته ، وما ذلك إلا لقلّة الخميرة الإيمانية فى نفوسنا ، فالغرب يريد أنْ يُثبِّت نفوذه ، ويثبت مبادئه ، وما عليك إلاّ أنْ تتأبّى على قبول مثل هذه الضلالات .

وعلى نظرية الفاعل والقابل هذه تُبنَى الحضارات فى العالم كله ؛ لأن الخالق سبحانه حينما استدعانا إلى الوجود جعل لنا فيه مُقوِّمات الحياة الأساسية من : شمس ، وقمر ، ونجوم ، وأرض ، وسماء ،

وماء ، وهواء . ومن هذه المقوّمات ما يعطيك ويخدمك دون أنْ تتفاعَل معه أو تطلبَ منه ، كالشمس والماء والهواء ، ومنها ما لا يعطيك إلاَّ إذا تفاعلتَ معه مثل الأرض لا تعطيك إلا إذا تعهدتها بالحرث والسَّقْى والبَذْر .

والمتأمل فى الكون يجد أن جميع ارتقاءات البشر من هذا النوع الثانى الذى لا يعطيك إلا إذا تفاعلتَ معه ، وقد ترتقى الطموحات البشرية إلى أن تجعلَ من النوع الأول الذى يعطيك دون أن تتفاعلَ معه ومن غير سلطان لك عليه ، تجعل منه مُنْفَعلاً بعملك فيه ، كما يحدث الآن فى استعمال الطاقة الشمسية فى مجالات جديدة لم تكُنْ من قبل . إذن : فهذه ارتقاءاتٌ لا يُحْرَم منها مَنْ أخذ بالأسباب وسَعَى إلى الرُّقىّ والتقدم .

إذن : إنْ جاء يُشكّك فى دينك نَدَعْهُ ، وما يقول فليس بملوم ، إنما الملوم أنت إنْ قبلْتَ منه ؛ ولذلك يجب علينا وعلى كُلّ قائم على تربية النشء أنْ نُحصِّن أولادنا ضد هجمات الإلحاد والتنصير والتغريب ، ونُعلِّمهم من أساسيات الدين ما يُمكّنهم من الدفاع والردِّ بالحجة والإقناع حتى لا يقعوا فريسة سَهْلة فى أيدى هؤلاء .

وهذه هى المناعة المطلوبة وما أشبهها بما نستخدمه فى الماديات من التطعيم ضد المرض ، حتى إذا طرأ على الجسم لا يؤثر فيه . الاَ ترى الحق سبحانه فى قرآنه الكريم يَعْرض لشُبَه الكافرين والملاحدة ويُفصِّلها ويُناقشها ، ثم يبين زَيْفها ، فيقول : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ [الكهف]

فلماذا يعرضها القرآن ؟ هل لنأخذ بها ونتعلمها ؟ لا بل لكى لا نُفَاجأ بها ، فإذا أَتَتْ يكون لدينا المناعة الكافية ضِدّها ، ولكى تتربّى فينا الحصانة المانعة من الانزلاق أو الانحراف .

إذن : فأصول الحياة فاعل وقابل ، وسبق أنْ ضربنا مثلاً فقلنا : فى الشتاء ينفخ الإنسان فى يده ليدفئها ، وكذلك ينفخ فى كوب الشاى ليبرده ، فالفعل واحد ولكن القابل مختلف . وكذلك حال الناس فى سماع القرآن واستقبال كلمات الله ، فقد استقبله أحد الكفار[1] فى حال هدوء وانسجام ، فقال :

« والله إنَّ له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغْدق ، وإن أعلاه لمثمر ، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه » لقد استمعه بملكَة العربى الشَّغُوف بكل ما هو جميل من القَوْل ، لا بملكةِ العناد والكِبْر والغطرسة .

وكذلك سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ له حالان فى سماع القرآن : حال كفرٍ وشدة وغلظة عند سماع القرآن ، وحال إيمان ورقَّة قلب حينما بلغه نبأ إسلام أخته ، فأسرع إليها وهى تقرأ القرآن ، فصفَعها بقسْوة حتى أَدْمَى وجهها ، فأخذتْه عاطفة الرحم ، وتغلبت على عاطفة الكفر عنده ، فلما سمع القرآنَ بهذه العاطفة الحانية تأثَّر به ، فآمن مِنْ فَوْره ؛ لأن القرآنَ صادف منه قَلْباً صافياً ، فلا بد أَنْ يُؤثِّر فيه .

---

(١) هو : الوليد بن المغيرة . وهذا القول نقله ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٢٧٠) . وذلك أن أشراف قريش اجتمعوا ليروا رأياً واحداً فى أمر محمد ﷺ رفض الوليد كل ما قاله القوم عن محمد إلى أن قال قولته هذه ثم قال : « ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأنْ تقولوا ساحر ، جاء بقول هو سحر يُفرّق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته » .

فالمسألة - إذن - تحتاج أن يكون لدى القابل استعداد لِتقبُّل الشيء والانفعال به .

وقد لخَّص لنا الحق سبحانه هذه القضية فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد] فيأتى الرد عليهم : ﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) ﴾ [محمد]

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤) ﴾ [فصلت]

فالقرآن واحد ، ولكن المستقبل مختلف ، إذن : فإياك أنْ تلوم مَنْ يريد أن يلوىَ الناس إلى طريق الضلال ، بل دَعْه فى ضلاله ، وربٌ فى الآخرين مناعة حتى لا يتأثروا ولا يستجيبوا له .

بعد أن تكلمنا عن موقف الكفار من الألوهية ومن النبوة نتكلم عن موقفهم من المنهج الذى جاء به رسول الله ﷺ ، وهذا المنهج يتضمن قضايا كثيرة وأموراً متعددة ، لكن أم هذا المنهج وأساسه أن نؤمن بالآخرة ، وما دُمْنَا نؤمن بالآخرة فسوف تنسجم حركتنا فى الحياة . فالإيمان بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب هو الحافز لنا على العمل والاستقامة فى الدنيا ، وما أشبه ذلك بالتلميذ الذى يجتهد ويجدّ ؛ لأنه يؤمن بالامتحان آخر العام ، وما ينتج عنه من توفيق أو إخفاق .

غبيٌّ مَنْ يظن أن الدنيا هى نهاية المطاف ، وأنها الغاية التى ليس بعدها غاية ؛ لأن الجميع عبيدٌ لله تعالى متساوون ، ومع ذلك نرى مَنْ يموت فى بطن أمه ، ومَنْ يموت بعد عدة شهور ، وآخر بعد عدة أعوام ، فلو أن الدنيا هى الغاية لاستوى الجميع فى المكْث فيها ، فاختلاف الأعمار فى الدنيا دليل على أنها ليست غاية .

وعجيب فى أمر الموت أن نرى الناس يحزنون كثيراً على مَنْ مات صغيراً ويقولون : أُخِذ فى شبابه ويُكثِرون عليه العويل ، لماذا ؟ يقولون : لأنه لم يتمتع بالدنيا ، سبحان الله أى دنيا هذه التى تتحدثون عنها ، وقد اختاره الله قبل أنْ تُلوِّثه آثامها وتُلطِّخه ذنوبها ، لماذا تحزنون كل هذا الحزن ولو رأيتم ما هو فيه لحسدتموه عليه ؟

والناس كثيراً ما يُخطئون فى تقدير الغايات ؛ لأن كل حَدَث يُحدِثه الإنسان له غاية من هذا الحدث ، هذه الغاية مرحلية وليست نهائية ، فالغاية النهائية والحقيقية ما ليس بعدها غاية أخرى ، فالتلميذ يذاكر بالمرحلة الابتدائية لينتقل إلى المرحلة الإعدادية ، ويذاكر الإعدادية لينتقلَ إلى الثانوية .

وهكذا تتوالى الغايات فى الدنيا إلى أنْ يصل إلى غاية الدنيا الأخيرة ، وهى أن يبني بيتاً ويتزوج ويعيش حياة سعيدة يرتاح فيها بما تحت يديه من خدم ، يقضون له ما يريد ، هذا على فرض أنه سيعيش حتى يكمل هذه المراحل ، ولكن ربما مات قبل أنْ يصلَ إلى هذه الغاية .

إذن : فلابد للإنسان أنْ يتعبَ أولاً ، ويبذل المجهود ليصبح مخدوماً ، وهذه المخدومية تتناسب مع مجهودك الأول ، فَمن اكتفى

بالإعدادية مثلاً ليس كمن تخرّج من الجامعة ، فلكُلٍّ مرتبته ومكانته ؛ لأنك تعيش فى الدنيا بالأسباب وعلى قَدْر ما تعطى تأخذ .

إذن : فغايتك فى الدنيا أن تكون مخدوماً ، مع أن خادمك قد يتمرَّد عليك وقد يتركك ، أما غاية الآخرة فسوف تُوفّر عليك هذا كله ، وليس لأحد علاقة بك إلا ذاتك أنت ، فبمجرد أنْ يخطر الشيء على بالك تجده أمامك ؛ ذلك لأنك فى الدنيا تعيش بالأسباب ، وفى الآخرة تعيش بمُسبِّب الأسباب سبحانه وتعالى .

وكذلك لو أجريتَ مقارنة اقتصادية بين متعة الدنيا ومتعة الآخرة لرجحَتْ كفّة الآخرة ؛ لأن الدنيا بالنسبة لك هى عمرك فيها فقط ، وليس عمر الدنيا كله ، كما يحلو للبعض أنْ يُحدِّد عمر الدنيا بعدة ملايين من السنين ، فما دَخْلك أنت بكل هذه الملايين ؟!

فالدنيا - إذن - هى عمرى فيها ، وهذا العمر مظنون غير مُتيقّن ، وعلى فرض أنه مُتيقّن فهو خاضع لمتوسط الأعمار ، وسوف ينتهى حتماً بالموت . أَضِفْ إلى ذلك أن نعيمك فى الدنيا على قَدْر سَعْيك وأَخْذك بأسبابها .

أما الآخرة فهى باقية لا نهاية لها ، فلا يعتريها زوال ولا يُنهيها الموت ، كما أن مُدتها مُتيقّنة وليست مظنونة ، ونعيمك فيها ليس على قَدْر إمكانياتك ، ولكن على قدر إمكانيات خالقك سبحانه وتعالى .

فأيّهما أحسن ؟ وأيُّهما أَوْلَى بالسَّعْى والعمل ؟ ويكفى أنك فى الدنيا مهما توفَّر لك من النعيم ، وإنْ كنت فى قمة النعيم بين أهلها فإنه يُنغّص عليك هذا النعيمَ أمران : فأنت تخاف أنْ تفوتَ هذا النعيم

بالموت ، وتخاف أن يفوتك هو بالفقر ، فهى نعمة مُكدّرة ، أما فى الآخرة فلا تخاف أن تفوتها ، ولا أن تفوتك ، فأىٌّ الصفقتين أربح إذن ؟

ثم يقول الحق سبحانه عن إنكارهم للبعث بعد الموت :

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ۝٤٩ ﴾

الاستفهام فى الآية استفهام للتعجّب والإنكار لموضوع البعث يوم القيامة بعد أنْ صاروا رُفَاتاً وعظاماً .

والرفات : هو الفتات ومسحوق الشىء ، وهو التراب أو الحُطَام ، وكذلك كل ما جاء على وزن (فُعال) .

لقد استبعد هؤلاء البعث بعد الموت ؛ لأنهم غفلوا عن بداية الوجود وبداية خَلْق الإنسان ، ولو استعملنا علم الإحصاء الذى استحدثه العلماء لوجدناه يخدم هذه القضية الإيمانية ، فلو أحصينا تعداد العالم الآن لوجدناه يتزايد فى الاستقبال ويقلّ فى الماضى ، وهكذا إلى أنْ نصل بأصل الإنسان إلى الأصل الأصيل ، وهو آدم وحواء ، فمن أين أتَيَا إلى الوجود ؟ فهذه قضية غيبية كان لا بُدَّ أن يُفكّروا فيها .

ولأنها قضية غيبية فقد تولَّى الحق سبحانه وتعالى بيانها ؛ لأن الناس سوف يتخبّطون فيها ، فينبهنا الخالق سبحانه بمناعة إيمانية عقدية فى كتابه العزيز ، حتى لا ننساق وراء الذين سيتهورون ويَهْرفون بما لا يعلمون ، ويقولون بأن أصل الإنسان كان قرداً ،

وهذه مقولة باطلة يسهُل رَدُّها بأن نقول : ولماذا لم تتحول القرود الباقية إلى إنسان ؟ وعلى فرض أن أصل الإنسان قرد ، فمن أين أتى ؟ إنها نفس القضية تعود بنا من حيث بدأتْ ، إنها مجرد شوشرة وتشويه لوجه الحقيقة بدون مبرر .

وكذلك من القضايا التى تخبَّط فيها علماء الجيولوجيا ما ذهبوا إليه من أن السماء والأرض والشمس كانت جميعاً جزءاً واحداً ، ثم انفصلت عن بعضها ، وهذه أقوال لا يقوم عليها دليل .

لذلك أراد الخالق سبحانه أنْ يعطينا طرفاً من هذه القضية ، حتى لا نُصغى إلى أقوال المضلِّلين الذين يخوضون فى هذه الأمور على غير هدى ، ولتكون لدينا الحصانة من الزَّلَل ؛ لأن مثل هذه القضايا لا تخضع للتجارب المعملية ، ولا تُؤخَذ إلا عن الخالق سبحانه فهو أعلم بما خلق .

يقول تعالى : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف] أى : لم يكن معى أحد حين خلقتُ السماء والأرض ، وخلقتُ الإنسان ، ما شهدنى أحد ليَصفَ لكم ما حدث ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف] أى : ما اتخذت من هؤلاء المضللين مُساعداً أو مُعاوناً ، وكأن الحق سبحانه يقول لنا : احكموا على كل مَنْ يَخوض فى قضية الخَلْق هذه بأنه مُضلِّل فلا تستمعوا إليه .

ولكى تُريحوا أنفسكم من مثل هذه القضايا لا تُحمِّلوا العقل أكثر مما يحتمل ، ولا تعطوه فوق مقومات وظائفه ، وجَدْوى العقل حينما ينضبط فى الماديات المعملية ، أما إنْ جنح بنا فلا نجنى من ورائه إلا الحُمْق والتخاريف التى لا تُجدى .

وكلمة « العقل » نفسها من العقال الذى يمنع شرود البعير ، وكذلك العقل جعله الله ليضبط تفكيرك ، ويمنعك من الجموح أو الانحراف فى التفكير .

وأيضاً ، فالعقل وسيلة من وسائل الإدراك ، مثله مثل العين التى هى وسيلة الرؤية ، والأذن التى هى وسيلة السمع .. وما دام العقل آلة من آلات الإدراك فله حدود ، كما أن للعين حدوداً فى الرؤية ، وللأذن حدوداً فى السمع ، فللعقل حدود فى التفكير أيضاً حتى لا يشطح بك ، فعليك أنْ تضبط العقل فى المجال الذى تُجوِّد فيه فقط ، ولا تُطلق له العنان فى كُلِّ القضايا .

ومن هنا تعب الفلاسفة وأتعبوا الدنيا معهم ؛ لأنهم خاضوا فى قضايا فوق نطاق العقل ، وأنا أتحدى أىّ مدرسة من مدارس الفلسفة من أول فلاسفة اليونان أن يكونوا متفقين على قضية إلا قضية واحدة ، وهى أن يبحثوا فيما وراء المادة ، فَمنِ الذى أخبرك أن وراء المادة شيئاً يجب أن يُبحث ؟

لقد اهتديتُم بفطرتكم الإيمانية إلى وجود خالق لهذا الكون ، فليس الكون وليد صدفة كما يقول البعض ، بل له خالق هو الغيبيات التى تبحثون عنها ، وتَرْمَحُون بعقولكم خلفها ، فى حين كان من الواجب عليكم أنْ تقولوا : إن ما وراء المادة هو الذى يُبين لنا نفسه .

ولقد ضربنا مثلاً لذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ وقلنا : هَبْ أننا فى مكان مغلق ، وسمعنا طَرْق الباب ـ فكلنا نتفق فى التعقُّل أن طارقاً بالباب ، ولكن منا مَنْ يتصور أنه رجل ، ومنا مَنْ يتصوّر أنه امرأة ،

وآخر يقول : بل هو طفل صغير ، وكذلك منا مَنْ يرى أنه نذير ، وآخر يرى أنه بشير . إذن : لقد اتفقنا جميعاً في التعقُّل ، ولكن اختلفنا في التصوُّر .

فلو أن الفلاسفة وقفوا عند مرحلة التعقُّل في أن وراء المادة شيئاً ، وتركوا لمن وراء المادة أنْ يُظهر لهم عن نفسه لأراحوا واستراحوا ، كما أننا لو قُلْنا للطارق : مَنْ ؟ لقال : أنا فلان ، وجئت لكذا ، وانتهتْ المسألة .

ولقد ردَّ عليهم القرآن إنكارهم للبعث وقولهم : ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء] بقوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [يونس]

وبقوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ[1] لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء]

وبقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ..﴿٢٧﴾﴾ [الروم] فإعادة الشيء أهون من خَلْقه أولاً .

وقف الفلاسفة طويلاً أمام قضية البعث ، وأخذوا منها سبيلاً

(١) قال السدي : السجل ملك مُوكّل بالصحف ، فإذا مات دفع كتابه إلى السجل فطواه ورفعه إلى يوم القيامة . [أورده السيوطي في الدر المنثور ٥/٦٨٣] قال ابن كثير في تفسيره (٣/٢٠٠) : « الصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة . وعلى هذا يكون معنى الكلام : يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب أي على الكتاب بمعنى المكتوب » .

لتشكيك الناس فى دين الله ، ومن مغالطاتهم فى هذه المسألة أنْ قالوا : ما الحل إذا مات إنسان مثلاً ثم تحوَّل جسمه إلى رفات وتراب ، ثم زُرِعَتْ فوقه شجرة وتغذَّت على عناصره ، فإذا أكل إنسان من ثمار هذه الشجرة فسوف تنتقل إليه بالتالى عناصر من عناصر الميت ، وتتكوّن فيه ذرات من ذراته ، فهذه الذرات التى تكوّنت فى الثانى نقُصَتْ من الأول ، فكيف يكون البعث ـ إذن ـ على حَدِّ قَوْلهم ؟

والحقيقة أنهم فى هذه المسألة لم يفطِنُوا إلى أن مُشخِّص الإنسان شىء ، وعناصر تكوينه شىء آخر .. كيف ؟

هَبْ أن إنساناً زاد وزنه ونصحه الطبيب بإنقاص الوزن فسعى إلى ذلك بالطرق المعروفة لإنقاص الوزن ، وهذه العملية سواء زيادة الوزن أو إنقاصه محكومة بأمرين : التغذية والإخراج ، فالإنسان ينمو حينما يكون ما يتناوله من غذاء أكثر مما يُخرِجه من فضلات ، ويضعف إن كان الأمر بعكس ذلك ، فالولد الصغير ينمو لأنه يأكل أكثر مِمّا يُخرِج ، والشيخ الكبير يُخرِج أكثر مِمّا يأكل ؛ لذلك يضعف .

فلو مرض إنسان مرضاً أَهْزَلَهُ وأنقص من وزنه ، فذهب إلى الطبيب فعالجه حتى وصل إلى وزنه الطبيعى ، فهل الذرات التى خرجتْ منه حتى صار هزيلاً هى بعينها الذرات التى دخلتْه حين تَمَّ علاجه ؟ إن الذرات التى خرجتْ منه لا تزال فى (المجارى) ، لم يتكون منها شىء أبداً ، إنما كميّة الذرّات ومقاديرها هى التى تقوى وتشخص .

وربنا سبحانه وتعالى رحمة منه ، قال : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ④ ﴾ [ق] فالحق سبحانه سيجمع الأجزاء التى تُكوِّن فلاناً المشخَّص .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ ﴾

أى : قُلْ رداً عليهم : إنْ كُنتم تستبعدون البعث وتَسْتصعبونه مع أنه بَعْثٌ للعظام والرُّفات ، وقد كانت لها حياة فى فترة من الفترات ، ولها إِلْف بالحياة ، فمن السهل أنْ نعيدَ إليها الحياة ، بل وأعظم من ذلك ، ففى قدرة الخالق سبحانه أنْ يُعيدكم حتى وإنْ كنتم من حجارة أو من حديد ، وهى المادة التى ليس بها حياة فى نظرهم .

وكأن الحق سبحانه يتحدَّاهم بأبعد الأشياء عن الحياة ، ويتدرج بهم من الحجارة إلى الحديد ؛ لأن الحديد أشدّ من الحجارة وهو يقطعها ، فلو كنتم حجارة لأعدْناكم حجارة ، ولو كنتم حديداً لأعدْناكم حديداً .

ثم يترقّى بهم إلى ما هو أبعد من ذلك ، فيقول تعالى :

﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ[1] إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١ ﴾

---

(١) أى : سيحركونها ويهزونها تعجباً وإنكاراً أو سخرية واستهزاء [القاموس القويم ٢٧٦/٢] .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ .. (٥١) ﴾ [الإسراء]
أى : هاتوا الأعظم فالأعظم ، وتوغَّلوا فى التحدِّى والبُعْد عن الحياة ، فأنا قادر على أنْ أهبَ له الحياة مهما كان بعيداً عن الحياة على إطلاقها .

وقوله : ﴿ مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ .. (٥١) ﴾ [الإسراء]

يكبر : أى يعظُم منْ كَبُر يكْبُر . ومنه قوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. (٥) ﴾ [الكهف] أى : عَظُمت . والمراد : اختاروا شيئاً يعظم استبعادُ أن يكون فيه حياة بعد ذلك ، وغاية ما عندهم فى بيئتهم الحجارة والحديد ، فَهُما أبعد الأشياء عن الحياة ، وقد اتفقوا على ذلك فليس فى محيط حياتهم ما هو أقسى من الحجارة والحديد . ولكن الحق سبحانه وتعالى ارتقى بهم فى فَرْضية الأمر إلى أنْ يختاروا وتجتمع نفوسهم على شىء ، يكون أعظمَ استبعاداً من الحجارة والحديد .

ونلاحظ فى قوله تعالى : ﴿ مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ .. (٥١) ﴾ [الإسراء] جاء هذا الشىء مُبْهَماً ؛ لأن الشىء العظيم الذى يعظُم عن الحجارة والحديد استبعاداً عن أصل الحياة مختلفٌ فيه ، فإن اتفقوا فى أمر الحجارة والحديد فقد اختلفوا فى الأشياء الأخرى ، فجاءت الآية مُبْهمة ليشيع المعنى فى نفس كل واحد كُلٌ على حَسْب ما يرى .

بدليل أنهم حينما سألوا الإمام علياً ـ رضى الله عنه ، وكرّم الله وجهه ـ عن أقوى الأجناس فى الكون ، وقد علموا عن الإمام علىّ سرعة البديهة والتمرُّس فى الفُتْيَا ، فأرادوا اختباره بهذا السؤال الذى

يحتاج فى الإجابة عليه إلى استقصاء لأجناس الكون وطبيعة كل منها .

دخل عليهم الإمام على وهم مختلفون فى هذه المسألة ، منهم من يقول : الحديد أقوى . ومنهم من يقول : بل الحجارة . وآخر يقول : بل الماء ، فأفتاهم الإمام فى هذه القضية ، وانظر إلى دِقّة الإفتاء واستيعاب العلم ، فلم يَقُلْ : أقوى جنود الله كذا وكذا ثم يكمل كما اتفق له ويذكر ما يخطر بباله ، لا بل حصرها أولاً ، فقال : أشد جنود الله عشرة .

فالمسألة ليست ارتجالية ، بل مسألة مدروسة لديه مُسْتَحضرة فى ذِهْنه ، مُرتَّبة فى تفكيره ، فبسط الإمام لمستمعيه يده وفَردَ أصابعه ، وأخذ يعدّ هذه العشرة ، وكأنه المعلم الذى استحضر درسه وأعدَّه جيداً .

قال : « أشد جنود الله عشرة ، الجبال الرواسى ، والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخّر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والريح يقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو بالشىء ويمضى لحاجته ، والسُّكْرُ يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السُّكْر ، والهمّ يغلب النوم ، فأشد جنود الله فى الكون الهمّ » .

فهذه الأجناس هى المراد بقوله تعالى : ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ .. (٥١)﴾ [الإسراء] فاختاروا أياً من هذه الأجناس ، فالله تعالى قادر على إعادتكم وبعثكم كما كنتم أحياء .

ثم يقول تعالى : ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. (٥١)﴾ [الإسراء]

أى : أن الذى خلقكم بدايةً قـادرٌ على إعادتكم ، بل الإعـادة أهْوَن من الخلْق بداية ، ولكن الجـواب لا يكون مُقنعاً إلا إذا كـانت النتيـجة التى يأتى بهـا الجـواب مُسلّـمة . فـهل هم مـقتنعـون بأن الله تعـالى فطرهم أوّل مرة ؟

نعم ، هم مـؤمنون بهذه الحـقيـقة رغم كُـفْرهـم ، بدليل قـولهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف] فهم مقـتنعون بذلك ، ولكنهم نقلوا الجـدل إلى قضـية أخرى فـقالوا : مَنْ يُعيدنا ؟ فـإنْ قلت لهم : الذى فطركم أول مرة . ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [الإسراء]

معنى يُنغض رأسـه : يهزُّها من أعلى لأسـفل ، ومن أسفل لأعلى استـهزاءً وسخريةً مـما تقول ، والمتـأمل فى قوله ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ ﴾ يجده فعْلاً سيحدث فى المستقبل ويقع من مُختارٍ ، والمقام مقام جَدلٍ بين الكـفـار وبيـن رسـول الله ، وهذه الآية يـتلوها رسـول الله على أسمـاعهم ويخبـر أنه إذا قال لهم : ﴿ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [الإسراء] فسينغضـون رؤوسـهم .

فكان فى وُسْـع هؤلاء أنْ يُكذِّبوا هذا الـقـول ، فـلا يُنغـضـون رؤوسـهـم لرسول الله ويمكرون به فى هذه المـسألة ، ولهم بعـد ذلك أنْ يعترضوا على هذا القول ويتهموه ، ولكن الحق سبحانه غالبٌ على أمره ، فها هى الآية تُتْلَى عليهم وتحْتَ سَمْعهم وأبصارهم ، ومع ذلك لم يقولوا ، مما يدلُّ على غباء الكفار وحُمْق تفكيرهم .

وما أشـبه هذا المـوقف منهم بموقـفهم من حـادث تحويل القـبلة

حينما قال الحق سبحانه لنبيه ﷺ : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا .. (١٤٤) ﴾ [البقرة]

ثم أخبره بما سيحدث من الكفار ، فقال : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. (١٤٢) ﴾ [البقرة]

وهذا قَوْلٌ اختيارىّ فى المستقبل ، وكان بإمكانهم إذا سمعوا هذه الآية ألاَّ يقولوا هذا القول ويجدوا بذلك مَأْخَذاً على القرآن ، ولكنهم مع هذا قالوا ما حكاه القرآن ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أنهم سيقولون لا محالةَ : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ .. (٥١) ﴾ [الإسراء]

والاستفهام هنا كسابقه للإنكار والتعجُّب الدالّ على استبعاد البعث بعد الموت ، ولاحظ هنا أن السؤال عن الزمن ، فقد نقلوا الجدل من إمكانية الحدث إلى ميعاد الحدث ، وهذا تراجعٌ منهم فى النقاش ، فقد كانوا يقولون : مَنْ يُعيدنا ؟ والآن يقولون : متى ؟ فيأتى الجواب : ﴿ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) ﴾ [الإسراء]

عسى : كلمة تفيد الرجاء ، والرجاء أمر مُتوقّع يختلف باختلاف الراجى والمرجو منه ، فإذا قُلْت مثلاً : عسى فلاناً أنْ يعطيك كذا ، فالرجاء هنا بعيد شيئاً ما ؛ لأنه رجاء من غيرى لك ، أما لو قلْت : عسى أنْ أُعطيك كذا ، فهى أقرب فى الرجاء ؛ لأننى أتحدَّث عن نفسى ، وثقة الإنسان فى نفسه أكثر من ثقته فى الآخرين ، ومع ذلك قد يتغير رأيىٌ فلا أعطيك ، أو يأتى وقت الإعطاء فلا أجد ما أعطيه لك .

لكن إذا قُلْتَ : عسى الله أن يعطيك فلا شكَّ أنها أقربُ فى

الرجاء ؛ لأنك رجوت الله تعالى الذى لا يُعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء . وإنْ كان القائل هو الحق سبحانه وتعالى ، فالرجاء منه سبحانه مُحقَّق وواقع لا شكَّ فيه ؛ فالرجاء من الغير للغير رتبة ، ومن الإنسان لغيره رتبة ، ومن الله تعالى للغير رتبة .

وقد شرح لنا الرسول ﷺ مسألة القرب فقال : « بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين »[(1)] وأشار بالسَّبابة والوسطى ؛ لأنه ليس بعده رسول ، فهو والقيامة متجاوران لا فاصلَ بينهما ، كما أننا نقول : كُلُّ آتٍ قريب ، فالأمر الآتى مستقبلاً قريب ؛ لأنه قادم لا محالةَ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾

هذا فى يوم القيامة ، حيث لا يستطيع أحدٌ الخروجَ عن مُرادات الحق سبحانه بعد أن كان يستطيع الخروج عنها فى الدنيا ؛ لأن الخالق سبحانه حين خلق الخَلْق جعل للإرادة الإنسانية سلطاناً على الجوارح فى الأمور الاختيارية ، فهو مُخْتَار يفعل ما يشاء ، ويقول ما يشاء ، ويترك ما يشاء ، فإرادته أمير على جوارحه ، أما الأمور القهرية فلا دَخْل للإرادة بها .

فإذا جاء اليوم الآخر انحلَّتْ الإرادة عن الجوارح ، ولم يَعُدْ لها

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٥١) ، والبخارى فى صحيحه (١١/٣٤٧ ـ فتح البارى) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

سلطان عليها ، بدليل أن الجوارح سوف تشهد على صاحبها يوم القيامة : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ .. (٢١) ﴾ [فصلت]

لقد كانت لكم وَلاَية علينا فى دُنْيا الأسباب ، أما الآن فنحن جميعاً مرتبطون بالمسبِّب سبحانه ، فلا ولاية لكم علينا الآن ؛ لذلك يقول الحق تبارك وتعالى عن يوم القيامة : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

ففى الدنيا ملَّك الناس ، وجعل مصالح أُناس فى أيدى آخرين ، أما فى الآخرة ، فالأمر كله والملْك كله لله وحده لاَ شريك له .

فقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ .. (٥٢) ﴾ [الإسراء] أى : يقول لكم اخرجوا من القبور للبعث بالنفخة الثانية فى الصُّور ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ .. (٥٢) ﴾ [الإسراء] أى : تقومون فى طاعة واستكانة ، لا قوْمةَ مُسْتنكف أو مُتقاعس أو مُتغطرس ، فكلّ هذا انتهى وقته فى الدنيا ، ونحن الآن فى الآخرة .

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال : ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ .. (٥٢) ﴾ [الإسراء] ولم يقل : فتُجيبون ؛ لأن استجاب أبلغُ فى الطاعة والانصياع ، كما نقول : فهم واستفهم أى : طلب الفَهْم ، وكذلك ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ ﴾ أى : تطلبون أنتم الجواب ، وتُلحُّون عليه لا تتقاعسون فيه ، ولا تتأبَّوْن عليه ، فتُسرعون فى القيام .

ليس هذا وفقط ، بل : ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ .. (٥٢) ﴾ [الإسراء] أى : تُسرعون فى القيام حامدين الله شاكرين له ، ولكن كيف والحمد لا يكون إلا على شىء محبوب ؟

نعم ، إنهم يحمدون الله تعالى ؛ لأنهم عاينوا هذا اليوم الذى طالما ذكَّرهم به ، ودعاهم إلى الإيمان به ، والعمل من أجله ، وطالما ألحَّ عليهم ودعاهم ، ومع ذلك كله جحدوا وكذَّبوا ، وها هم اليوم يَرَوْنَ ما كذَّبوه وتتكشَّف لهم الحقيقة التى أنكروها ، فيقومون حامدين لله الذى نبَّههم ولم يُقصِّر فى نصيحتهم . كما أنك تنصح ولدك بالمذاكرة والاجتهاد ، ثم يخفق فى الامتحان فيأتيك معتذراً : لقد نصحتنى ولكنى لم أستجبْ .

إذن : فبيانُ الحق سبحانه لأمور الآخرة من النِّعَم التى لا يعترف بها الكفار فى الدنيا ، ولكنهم سيعترفون بها فى الآخرة ، ويعرفون أنها من أعظم نِعَم الله عليهم ، ولكن بعد فوات الأوان .

لذلك اعترض المستشرقون على قوله تعالى فى سورة (الرحمن) : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) ﴾ [الرحمن] بعد قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) ﴾ [الرحمن] فالآية فى نظرهم تتحدث عن نِقْمة وعذاب ، فكيف يناسبها : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) ﴾ [الرحمن]

والمتأمِّل فى الآية يجدها منسجمة كل الانسجام ؛ لأن من النعمة أن نُنبِّهك بالعظَة للأمر الذى ينتظرك والعذاب الذى أُعِدَّ لك حتى لا تقعَ فى أسبابه ، فالذى يعلم حقيقة العذاب على الفعْل لا يقترفه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً (٥٢) ﴾ [الإسراء]

الظن : خبر راجح ؛ لأنهم مذبذبون فى قضية البعث لا يقين عندهم بها .

---

(١) الشواظ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١] .

﴿ إنْ لبثْتُمْ ﴾ أى : أقمتُم فى الدنيا ، أو فى قبوركم ؛ لأن الدنيا متاع قليل ، وما دامتْ انتهت فلن يبقى منها شىء . وكذلك فى القبور ؛ لأن الميت فى قبره شبْه النائم لا يدرك كم لَبِثَ فى نومه ، ولا يتصوّر إلا النوم العادى الذى تعوّده الناس .

ولذلك كل مَنْ سُئِل فى هذه المسألة : كم لبثتم ؟ قالوا : يوماً أو بعض يوم ، فهذا هو المعتاد المتعارف عليه بين الناس ، ذلك لأن الشعور بالزمن فرع مراقبة الأحداث ، والنوم والموت لا أحداثَ فيها ، فكيف - إذن - سنراقب الأحداث والملكة الواعية مفقودة ؟

وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾ [النازعات]

وقال : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) ﴾ [المؤمنون]

أى : لم يكُنْ لدينا وَعْىٌ لنعُدّ الأيام ، فاسأل العادّين الذين يستطيعون العدَّ .

وفى قصة العزير الذى أماته الله مائة عام ، ثم بعثه : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة] على مُقْتضى العادة التى ألفَها فى نومه ، فيُوضّح له ربه : ﴿ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ[1] وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

فالمدّة فى نظر العزير كانت يوماً أو بعض يوم ، والحق سبحانه أخبر أنها مائة عام ، فالبَوْنُ شاسع بينهما ، ومع ذلك فالقوْلاَن

(١) وذلك أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير ، فوجده لم يتغير منه شىء ، لا العصير استحال ، ولا التين حمض ، ولا أنتن ولا العنب نقص . قاله ابن كثير فى تفسيره (١ / ٣١٤) .

صادقـان . والحق سبحـانه أعطانا الدليل على ذلك ، فقـد بعث العُزَير من موته ، فوجد حماره عظاماً باليــة يصدُق عليها القول بمائة عام ، ونظر إلى طعامـه وشرابه فوجده كمـا هو لم يتغير ، وكـأنّ العهدَ به يوم أو بعض يوم ، ولو مَـرّ على الطعام مـائة عام لتـغيَّر بل لتـحلَّل ولم يَبْقَ له أثر .

وكأن الخالق سبـحانه قبض الزمن وبَسَطه فى وقت واحد ، وهو سبحانه القابض الباسط ، إذن : قَـوْلُ الحق سبحانه مائة عام صدْق ، وقـول العُـزَير ﴿ يَوْمـاً أَوْ بَعْـضَ يَوْم ﴾ صِـدْق أيضـاً ، ولا يجـمع الضِّدَّيْن إلا خالق الأضداد سبحانه وتعالى .

وبعد أن تكلم القرآن عن موقف الكفار من الألوهية ، وموقفهم من النبـوة وتكذيبهم للنبى ﷺ ، ثم عن مـوقفـهم من منهج الله وكفـرهم بالبعث والقيامة ، أراد سبحانه أنْ يُعطينا الدروس التى تُربِّب منهج الله فى الأرض ، فقال تعالى[1] :

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ[2] بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾

وسبق أنْ أوضـحنا الفرق بين عبـيد وعباد ، وأنـهما جَمْع عـبد ، لكن عبيد تدل على مَنْ خضـع لسيِّـده فى الأمور القهرية ، وتمرَّد عليه فى الأمور الاختيـارية ، أما عباد فتدلّ على مَنْ خـضـع لسيده فى كُلِّ

---

(١) ذكـر الواحدى فـى أسبـاب النزول (ص ١٦٦) أن هذه الآية نزلت فى عـمـر بن الخطاب رضى الله عنه ، وذلك أن رجلاً من العرب شـتمه ، فأمره الله تعالى بالعـفو . وقال القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠٠٤) : « ذكره الثعلبى والماوردى وابن عطية والواحدى » .

(٢) نزغ الشـيطان بينهم : أفسـد وأغرى . ونَزْغ الشـيطان : وسـاوسه ونـخسه فى القلـب بما يُسوِّل للإنسان من المعاصى . [لسان العرب ـ مادة : نزغ] .

أموره القهرية والاختيارية ، وفضَّل مراد الله على مُرَاده ، وعنهم قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) ﴾ [الفرقان]

وهذا الفَرْق قائم بينهما فى الدنيا دون الآخرة ، حيث فى الآخرة تنحلّ صفة الاختيار التى بنينا عليها التفرقة ، وبذلك يتساوى الجميع فى الآخرة ، فكلهم عبيد وعباد ؛ لذلك قال تعالى فى الآخرة للشيطان : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـٰؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) ﴾ [الفرقان]

فسمَّاهم عباداً رغم ضلالهم وكفرهم .

وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٥٣) ﴾ [الإسراء]

أى : العبارة التى هى أحسن ، و كذلك الفِعْل الذى هو أحسن . والمعنى : قُلْ لعبادى : قولوا التى هى أحسن يقولوا التى هى أحسن ؛ لأنهم مُؤتمرون بأمرك مُصدِّقون لكَ .

و ﴿ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ تعنى : الأحسن الأعلى الذى تتشقَّق منه كُل أَحْسَنيات الحياة ، والأحسن هو الإيمان بالله بشهادة أن لا إله إلا الله ، هذه أحسن الأشياء وأولها ، لذلك كان ﷺ يقول : « خَيْرُ ما قُلْتُه أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله »[1] .

لأن من باطنها ينبتُ كل حسن ، فهى الأحسن الكبيرة ؛ لأنك ما دُمْتَ تؤمن بالله فلن تتلقّى إلا عنه ، ولن تخاف إلا منه ، ولن ترجوَ إلا هو ، وهكذا يحسُن أمرك كلُّه فى الدنيا والآخرة .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٥٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما . قال الترمذى : هذا حديث غريب من هذا الوجه .

وأنت حين تقول : لا إله إلا الله ، لا تقـولها إلا وأنت مؤمن بها ؛ لأنك تريد أنْ تُشيعها فيمن سمعك ، ولا تكتفى بنفسك فقط ، بل تحب أنْ يُشاركك الآخرون هذا الخيـر ؛ لذلك إذا أردنا أن ننطقَ بهذه الكلمة نقول : أشهد أن لا إله إلا الله . فمعنى أشهد يعنى عند مَنْ لم يشهد ، فكأن إيمانك بها دَعاك إلى نَقْلها إلى الناس ، وبثِّها فيما بينهم .

ويمكن أن نقـول ﴿ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ الأحـسن هو : كل كلمـة خيـر ، أو الأحسن هو : الجدل بالتى هى أحـسن ، كما قـال تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥) ﴾ [النحل]

أو نقول : الأحـسن يعنى التمييـز بين الأقوال المتناقضـة وفَرْزها أمام العقل ، ثم نختار الأحسن منها ، فنقول به .

فـالأحـسن ـ إذن ـ تَشـيُع لتشـمل كُلَّ حَـسَن فى أىِّ مـجـال من مجـالات الأقوال أو الأفعـال ، ولنأخذ مثلاً مـجال الجدل ، وخـاصة إذا كان فى سـبيل إعـلاء كلمة الله ، فـلا شكَّ أن المعـارض كَارِهٌ لمـبدئك العام ، فـإنْ قَسَوْتَ عليـه وأغلظْتَ له القول أو اخـترتَ العـبارة السيـئة فسوف ينتقل الخلاف بينكما من خلاف فى مبدأ عام إلى عَدَاء شخصى .

وإذا تحوَّلَتْ هذه المـسألة إلى قضـية شخـصية فقـد أججَّتَ أُوَار غـضبـه ؛ لأنه فى حـاجة لأنْ تَرْفُقَ به ، فـلا تجـمع عليه مـرارة أنْ تُخرجه مـما ألف إلى ما يكره ، بل حاول أنْ تُخرجه مـما ألف إلى ما يحب لتطفىء شراسـته لعداوتك العامة ، وتُقـرِّب من الهُوَّة بينك وبينه فيقبل منك ما تقول .

يقول تعالى : ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

﴿ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ[1] حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت]

وقد يطلع علينا مَنْ يقول : لقد دفعتُ بالتى هى أحسن ، ومع ذلك لا يزال عدوى قائماً على عداوتى ، ولم أكسب محبته . نقول له : أنت ظننتَ أنك دفعتَ بالتى هى أحسن ، ولكن الواقع غير ذلك ، إنك تحاول أنْ تُجرِّب مع الله ، والتجربة مع الله شكٌّ ، فادفع بالتى هى أحسن من غير تجربة ، وسوف يتحول العدو أمامك إلى صديق .

وما أروعَ قول الشاعر :

يَا مَنْ تُضَايِقُه الفِعَالُ مِنَ التيِ ومِنَ الذِى
ادْفَع ـ فَدَيْتُكَ ـ بالتِى حتَّى تَرَى فَإِذَا الذِى[2]

لكن ، لماذا نقول التى هى أحسن ؟

لأن الشيطان ينزغ بينكم : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ .. (٥٣) ﴾ [الإسراء] والنزْغ هو نَخْس الشيطان ووسوسته ، وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

فإن كنْت مُنتبِهاً له ، عارفاً بحيله فذكرتَ الله عند نَخْسه ونَزْغه انصرف عنك ، وذهب إلى غيرك ؛ لذلك يقول تعالى عن الشيطان : ﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) ﴾ [الناس] أى : الذى يخنس ويختفى إذا ذُكرَ الله ، لكن إذا رأى منك ضعفاً وغفلة ومرَّتْ عليك حيلُه ،

---

(١) الولى : الصديق والنصير ، وهو التابع المحب . والولىّ : ضد العدو . [لسان العرب ـ مادة : ولى] .

(٢) قوله « حتى ترى فإذا الذى » أى : حتى ترى تحقيق ما فى الآية الكريمة : ﴿ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت] فتنقلب العداوة محبة بمداومة دفعك بالتى هى أحسن .

واستجبتَ لوساوسه ، فقد أصبحت فريسة سهلة بين أنيابه ومخالبه .

وعادةً تأتى خواطر الشيطان وكأنها مجَسٌّ للمؤمن واختبار لانتباهه وحَذَره من هذا العدو ، فينزغه الشيطان مرَّة بعد أخرى ليُجرّبه ويختبره . فإذا كان النزغ هكذا ، فأنت حين تجادل بالتى هى أحسن لا تعطى للشيطان فُرْصة لأنْ يُؤجِّج العداوة الشخصية بينكما ، فيُزيّن لك شَتْمه أو لَعْنه ، وهكذا يتحول الخلاف فى المبدأ العام إلى عداوة ذاتية شخصية .

لذلك إذا رأيتَ شخصين يتنازعان لا صلَة لك بهما ، ولكن ضايقك هذا النزاع ، فما عليك إلا أنْ تقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثلاثاً ، وأتحدّى أن يستمر النزاع بعدها ، إنها الماء البارد الذى يُطفىء نار الغضب ، ويطرد الشيطان فتهدأ النفوس ، وما أشبهك فى هذا الموقف برجل الإطفاء الذى يسارع إلى إخماد الحريق ، وخصوصاً إذا قلت هذه العبارة بنية صادقة فى الإصلاح ، وليس لك مأربٌ من هذا التدخّل .

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ .. (٥٣) ﴾ [الإسراء]

تلاحظ أن نَزْغ الشيطان لا يقتصر على المتخاصمين والمتجادلين حول مبدأ دينى عقدى ، بل ينزغ بين الإخوة والأهل والأحبة ، ألم يَقُل يوسف :﴿ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي .. (١٠٠) ﴾[يوسف]

لقد دخل الشيطان بين أولاد النبوة ، وزرع الخلاف حتى بين الأسباط وفيهم رائحة النبوة ، ولذلك لم يتصاعد فيهم الشر ، وهذا دليل على خَيْريتهم ، وأنت تستطيع أنْ تُميِّز بين الخيِّر والشرير ، فتجد الخيِّر يهدد بلسانه بأعنف الأشياء ، ثم يتضاءل إلى أهون

الأشياء ، على عكس الشرير تراه يُهدد بأهونِ الأشياء ، ثم يتصاعد إلى أعنف ما يكون .

انظر إلي قول إخوة يوسف : ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. ⑨ ﴾ [يوسف] فقال الآخر وكان أميل إلى الرفق به :﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ .. ⑩ ﴾ [يوسف] وقد اقترح هذا الاقتراح وفى نيته النجاة لأخيه ، بدليل قوله تعالى : ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ .. ⑩ ﴾ [يوسف] وهكذا تضاءل الشر فى نفوسهم .

ثم يقول تعالى :﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ⑤③ ﴾[الإسراء]

أى : أن عداوة الشيطان لكم قديمة منذ أبيكم آدم ـ عليه السلام ـ فهى عداوة مُسْبقة ، قال عنها الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ①①⑦ ﴾ [طه]

لذلك يجب على الأب كما يُعلِّم ابنه علوم الحياة ووسائلها أنْ يُعلِّمه قصة العداوة الأولى بين الشيطان وآدم ـ عليه السلام ـ ويُعلمه أن خواطر الخير من الله وخواطر الشر من الشيطان ، فليكُنْ على حَذَر من خواطره ووساوسه ، وبذلك يُربِّى فى ابنه مناعة إيمانية ، فيحذر كيد الشيطان ونَزْغه ، ويعلم أن كل أمر يخالف أوامر الشرع فهو من الشيطان ، وهذه التربية من الآباء تحتاج إلى إلحاح بها على الأبناء حتى ترسخ فى أذهانهم .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ⑤③ ﴾ [الإسراء] أى : كان ولا يزال . وإلى يوم القيامة بدليل قوله : ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ⑥② ﴾ [الإسراء]

أى : لأتعهّدنّهم بالإضلال والغواية إلى يوم القيامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ ﴾

فى هذه الآية إشارة إلى طلاقة المشيئة الإلهية ، فالحق سبحانه إنْ شاء يرحمنا بفضله ، وإنْ شاء يُعذِّبنا بعدله ؛ لأن الحق سبحانه لو عاملنا بميزان عدله ما نجا منّا أحد ، ولو جلس أحدنا وأحصى ماله وما عليه لوجد نفسه لا محالةَ واقعاً تحت طائلة العقاب ؛ لذلك يَحسُن بنا أن ندعوَ الله بهذا الدعاء : « اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان ، وبالجبر لا بالحساب » .

والحق تبارك وتعالى لا يُيئس العُصَاة من فضله ، ولا يملى لهم بعدله ، بل يجعلهم بين هذه وهذه ليكونوا دائماً بين الخوف والرجاء .

وحينما كان المسلمون الأوَّلون يتعرضون لشتى ألوان الإهانة والتعذيب ولا يجدون مَنْ يمنعهم من هذا التعذيب ، فكانوا يذهبون إلى رسول الله ﷺ يشكون إليه ما ينزل بهم ، فرسول الله ينظر فى أنحاء العالم من حوله بحثاً عن المكان المناسب الذى يلجأ إليه هؤلاء المضطهدون ، ويأمرهم بالهجرة إلى الحبشة ويقول : « إن فيها ملكاً لا يُظْلَم عنده أحدٌ »[1] .

---

(١) عن أم سلمة أنها قالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة فى دينهم ، وأن رسول الله لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله فى منعة من قومه ومن عمه لا يصل إليه شىء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » حديث طويل أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٠١) وابن هشام فى السيرة بنحوه (١/٣٢١) .

لقد كانوا فى مرحلة لا يستطيعون فيها الدفاع عن أنفسهم ، فالضعيف منهم عاجز عن المواجهة ، والقوى منهم لا يستطيع حماية الضعيف ؛ لأنه كان يذهب إلى رسول الله ﷺ فيقترح عليه الرد على الكفار ومواجهتهم بكذا وكذا ، فكان ﷺ يقول لهم : « لم أومر ، لم أومر ... » .

لأن الله تعالى أراد ألاَّ يبقى للإيمان جندى إلا وقد مَسَّه العذاب ، وذاق ألوان الاضطهاد ليربى فيهم الصبر على الأذى وتحمُّل الشدائد ؛ لأنهم سيحملون رسالة الانسياح بمنهج الله فى الأرض ، ولا شكَّ أن القيام بمنهج الله يحتاج إلى صلابة وإلى قوة ، فلا بُدَّ من تمحيص المؤمنين ، لذلك حدث للإسلام فى عصر النبوة أحداث وشدائد ، ومرَّت به عقبات مثل تعذيب المؤمنين وإيذائهم وحادث الإسراء والمعراج .

وكانت الحكمة من هذه الأحداث تمحيص المؤمنين وغربلة المنتسبين لدين الله ، حتى لا يبقى إلا القوى المأمون على حَمْل منهج الله ، والانسياح به فى شتَّى بقاع الأرض ، وحتى لا يبقى فى صفوف المؤمنين مَنْ يحمل راية الإيمان لمغنَم دنيوى ، فالغنيمة فى الإسلام ليست فى الدنيا بل فى جنة عَرْضُها السموات والأرض .

لذلك ، ففى بيعة العقبة الثانية قالوا لرسول الله ﷺ : سل يا محمد لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك بعد ذلك ما شئت ، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله وعليكم إذا فعلنا ذلك . قال : أسألكم لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأسألكم لنفسى ولأصحابى أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم ، قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ فماذا قال لهم رسول الله ؟ أقال لهم تملكون الدنيا ؟

لا ، بل قال : « لـكم الجنة »[1] قالوا : فلك ذلك .

فهذه هى الجائزة الحقيقـية التى ينبغى أن يفوز بها المؤمن ؛ لأنه من الجـائز أن يمـوت أحـدهم بعـد أن أعطى رسـول الله هذا العـهـد ولم يدرك شيئاً من خير الدنيا فى ظل الإسلام ، إذن : فالنبى صادق فى هذا الوعد . وما دام الجزاء هو الجنـة فلا بُدَّ لها من جنود أقوياء يصبرون على الأحداث ، ويُواجهون الفتن والمكائد .

فالمـعنى : ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ .. (٥٤)﴾ [الإسراء] بالخروج من مـكة مهاجـرين إلى ديار الأمن فى الحبـشة ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ .. (٥٤)﴾ [الإسراء] أى : عذاباً مـقصوداً لكى يُمـحِّص إيمانكم ويُميِّز المؤمنين منكم الجديرين بحمل رسالة الله ومنهجه .

ثم يقول تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (٥٤)﴾ [الإسراء]

الوكيل : هو المفوَّض من صاحب الشأن بفعل شـىء ما ، والمراد : ما أرسلناك إلا للبلاغ ، ولستَ مـسئولاً بعد ذلك عن إيمانـهم ، ولستَ وكيلاً عليهم ؛ لأن الهداية والتوفيق للإيمان بيد الحق سبحانه وتعالى .

إذن : قـول الحق سـبحـانه لرسـوله ﷺ : ﴿وَمَـا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْـهِمْ وَكِيلاً.. (٥٤)﴾ [الإسراء]

ليست قهراً لرسول الله ، وليست إنقاصاً من قَدْره ، بل هى رحمة به ورأفة ، كـأنه يقول له : لا تُحمِّل نفسك يا مـحمـد فوق طاقـتها ، كـما خـاطبـه فى آية أخرى بقـوله : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ[2] نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا

(١) أخرجـه البيهـقى فى دلائل النبوة (٢/٤٥٠) من حـديث عامر الشـعبى وأحمـد فى مسنده (٤/١٢٠) وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٤/٢٩٤) لابن سعد فى الطبقات الكبرى .

(٢) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [القاموس القويم ١/٥٦] .

مُؤْمِنِينَ ③﴾ [الشعراء] فالحق - تبارك وتعالى - فى هذه المسألة لا يعتب على رسوله ، بل يعتب لصالحه ، والمتتبع لمواقف العتاب للرسول ﷺ يجده عتاباً لصالحه ﷺ رحمةً به ، وشفقةً عليه ، لا كما يقول البعض : إن الله تعالى يُصحّح للرسول خطئاً وقع فيه .

ومثال لهذا قوله تعالى : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ① أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ③﴾ [عبس]

الله تعالى يعتب على رسوله ﷺ ؛ لأنه ترك الرجل الذى جاءه سائلاً عن الدين ، وشَقَّ على نفسه بالذهاب إلى جدال هؤلاء الصناديد ، وكأن الحق سبحانه يشفق على رسوله أن يشقَّ على نفسه ، فالعتاب هنا حِرْصاً على رسول الله وعلى راحته .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ[1] وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ①﴾ [التحريم]

والتحريم تضييق على النفس ، فالحق سبحانه يعتب على رسوله ﷺ ؛ لأنه ضيَّق على نفسه ، وحرَّم عليها ما أحلَّه الله لها . كما تعتب على ولدك الذى سَهِر طويلاً فى المذاكرة حتى أرهقَ نفسه ، فالعتاب لصالح الرسول لا ضده .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾

(١) أخرج النسائى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها ، فأنزل الله عز وجل : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ .. ①﴾ [التحريم] . أورده ابن كثير فى تفسيره (٣٨٦/٤) .

قوله تعالى : ﴿ أَعْلَمُ ﴾ أفعل تفضيل تدلُّ على المبالغة فى العلم ، وإنْ كان الحق سبحانه أعلم فما دونه يمكن أنْ يتصفَ بالعلم ، فنقول : عالم . ولكن الله أعلم ؛ لأن الله تعالى لا يمنع عباده أن تشرئب عقولهم وتطمح إلى معرفة شيء من أسرار الكون .

والمعنى أن الحق سبحانه وتعالى لا يقتصر علمه عليك يا محمد وعلى أمتك ، وقد سُبِقت الآية بقوله تعالى : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ .. (٥٤) ﴾ [الإسراء] ولكن علمه سبحانه يسَع السموات والأرض علْماً مُطْلقاً لا يغيب عنه مثقال ذرة ، وبمقتضى هذا العلم يُقسِّم الله الأرزاق ويُوزِّع المواهب بين العباد ، كُلّ على حسب حاله ، وعلى قَدْر ما يُصلحه .

فإنْ رأيتَ شخصاً ضيَّق الله عليه فاعلم أنه لا يستحق غير هذا ، ولا يُصلحه إلا ما قَسَمه الله له ؛ لأن الجميع عبيد لله مربوبون له ، ليس بين أحد منهم وبين الله عداوة ، وليس بين أحد منهم وبين الله نسب .

فالجميع عنده سواء ، يعطى كُلاً على قَدْر استعداده عطاءَ ربوبية ، لا يحرم منه حتى الكافر الذى ضاق صدره بالإيمان ، وتمكّن النفاق من قلبه حتى عشق الكفر وأحب النفاق ، فالله تعالى لا يحرمه ممّا أحبّ ويزيده منه .

إذن : لعلمه سبحانه بمَنْ فى السموات والأرض يعطى عباده على قَدْر مَا يستحقّون فى الأمور القَهْرية التى لا اختيارَ لهم فيها ، فهُمْ فيها سواء . أما الأمور الاختيارية فقد تركها الخالق سبحانه لاجتهاد العبد وأخْذه بالأسباب ، فالأسباب موجودة ، والمادة موجودة ، والجوارح موجودة ، والعقل موجود ، والطاقة موجودة . إذن : على كل إنسان أن يستخدم هذه المعطيات ليرتقى بحياته على قَدْر استطاعته .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٥٥) ﴾ [الإسراء]

مَن الذى فضَّل ؟ الله سبحانه وتعالى هو الذى يُفضِّل بعض النبيين على بعض ، وليس لنا نحن أن نُفضِّل إلا مَنْ فضَّله الله ؛ لأنه سبحانه هو الذى يملك أن يُجازى على حَسْب الفضل ، أما نحن فلا نملك أنْ نجازى على قَدْر الفضل .

لذلك قال النبى ﷺ : « لا ينبغى لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى »[(١)] .

لأن الذى يُفضِّل هو الله تعالى ، وقد نُصّ على هذا التفضيل فى قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ .. (٢٥٣) ﴾ [البقرة]

فالتفضيل على حسب ما يعلمه الله تعالى من أن أُولى العزم من الرسل قد فَضَّلهم عن غيرهم لِمَا تحمَّلوه من مشقة فى دعوة أقوامهم ، ولما قاموا به من حمل منهج الله والانسياح به ، أو من طول مُدّتهم من قومهم .. الخ فهو وحده يعلم أسباب التفضيل .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (٥٥) ﴾ [الإسراء]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٧٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال النووى فى شرحه لصحيح مسلم (١٥/١٤١) : « قال العلماء : هذه الأحاديث تحتمل وجهين : أحدهما : أنه ﷺ قال هذا قبل أن يعلم أنه أفضل من يونس ، فلما علم ذلك قال : أنا سيد ولد آدم .. والثانى : أنه ﷺ قال هذا زجراً عن أن يتخيل أحد من الجاهلين شيئاً من حط مرتبة يونس عليه السلام » .

فلماذا ذكر داود بالذات مقترناً بالكتاب الذى أُنزل عليه ؟ قالوا : لأن داود عليه السلام أوتى مع الكتاب المُلْك ، فكان نبياً ملكاً ، فكأن الحق سبحانه يشير إلى أن تفضيل داود لا من حيث أنه ملك ، بل من حيث هو نبى صاحب كتاب .

وفى الحديث الشريف يقول ﷺ : « لقد خُيِّرْتُ بين أن أكون عبداً نبياً أو نبياً ملكاً ، فاخترت أن أكون عبداً نبياً »[(١)] .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾

الله تعالى يقول لرسوله ﷺ : قل للذين يُعارضونك فى الوحدانية إذا مسّكم ضرٌّ فلا تلجأوا إلى مَنْ تكفرون به ، بل الجأوا إلى مَنْ زعمتم أنهم شركاء وآمنتم بهم . فإنهم لن يستمعوا إليك ؛ لأن الإنسان بطبعه لا يخدع نفسه ، ولو علموا أن الذين يتخذونهم آلهة من دون الله ينفعونهم فى شىء لما دَعَوْا ربهم الذى يكفرون به وتركوا الذين يؤمنون بهم ، لماذا ؟

لأن الإنسان لا يتمرد ولا يطغى إلا إذا كان مُسْتغنياً بكل ملكاته ، بمعنى أن تكون ملكاته كلها على هيئة الاستقامة والانسجام ، فإذا

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٢٣١) من حديث أبى هريرة قال : « جلس جبريل إلى النبى ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل فقال جبريل : إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة فلما نزل قال : يا محمد أرسلنى إليك ربك قال : أفملكاً نبياً يجعلك أو عبداً رسولاً . قال جبريل : تواضع لربك يا محمد . قال : بل عبداً رسولاً » .

اختلتْ له ملكة من الملكات ضَعُفَ طغيانه ، وحاول أن يستكمل هذا النقص ، وحينئذ لن يخدع نفسه بأن يطلب الاستكمال ممَّنْ لا يملكه ، بل يطلبه ممَّنْ يعتقد أنه يملكه .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء]

وقال : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ .. (٨) ﴾ [الزمر]

لماذا ؟ لأن ما أصابه من ضُرٍّ أضعفه ، وكسر عنده غريزة الاستعلاء والاستكبار ، لقد كفر بالله من قبل حينما حمله التكاليف ، ولكن الآن وبعد أن نزل به الضُّر وأحاط به البلاء فلا بُدَّ أن يكون صريحاً مع نفسه لا يخدعها .

وضربنا لهذه المسألة مثلاً بحلاق الصحة عند أهل الريف فى الماضى وكان مسئولاً عن صحَّة الناس ، ويقوم مقام الطبيب فى هذا الوقت ، فإذا ما عُيِّن بالقرية طبيب هاجمه الحلاق وأفسد ما بينه وبين الناس ، وأشاع عنه عدم العلم وقلَّة الخبرة ليخلوَ له وجه الناس ، ولا يشاركه أحد فى رزقه ، ومرَّت الأيام وأصيب الحلاق بضُرٍّ ، حيث مرض ولد له ، فإذا به يحمله خُفْيةً بليْل ، ويتسلل به إلى الطبيب ، ولكن سرعان ما ينكشف أمره ويُفتضح بين الناس .

إذن : الإنسان فى ساعة الضر لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها ، فقل لهم : إذا مسكم الضر فاذهبوا إلى مَن ادعيتم أنهم آلهة وادعوهم ، فإنهم لن يستجيبوا ولن يدعوهم ، ولو دَعَوْهم فلن يكشفوا عنهم ضرهم : ﴿ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ .. (٥٦) ﴾ [الإسراء]

وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَحْوِيلاً (٥٦) ﴾ [الإسراء] أى : ولا يملكون تحويل حالكم من الضر إلى النفع أو النعمة أو الرحمة ، أو : لا يملكون تحويل هذا الضر إلى أعدائكم ، فهم ـ إذن ـ لا يملكون هذه ولا هذه .

فالحق سبحانه يُلقِّن رسوله ﷺ الحجة ، ليوضح لهم أنهم يغالطون أنفسهم ، ويعارضون مواجيدهم وفطرتهم ، فإن أصابهم الضر فى ذواتهم لا يلجأون إلى آلهتهم ؛ لأنهم يعلمون أنها لا تملك لهم نفعاً ولا ضراً ، ولن تسمعهم ، وإن سمعتهم ـ فرضاً ـ ما استجابوا لهم ، ويوم القيامة يكفرون بشركهم ، بل يلجأون إلى الله الذى يملك وحده كَشْفَ الضُّر عنهم .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ[2] أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) ﴾

فهؤلاء الذين تعتبرونهم آلهة وتتخذونهم شركاء لله ، هؤلاء أيضاً عبيد لله ، يتقربون إليه ويتوسَّلون إليه ، فالمسيح الذى أشركتموه مع الله ، وكذلك الملائكة هم عباد لله : ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ .. (١٧٢) ﴾ [النساء]

---

(١) **سبب نزول الآية :** أخرج مسلم فى صحيحه (٣٠٣٠) فى كتاب التفسير فى سبب نزول هذه الآية أن عبد الله بن مسعود قال : كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن ، فأسلم النفر من الجن واستمسك الإنس بعبادتهم فنزلت الآية .

(٢) الوسيلة : ما يُتقَرَّب به إلى الغير . وهى الوُصْلة والقربى . وتوسَّل إليه بوسيلة إذا تقرب إليه بعمل . [لسان العرب ـ مادة : وسل] .

هؤلاء لا يرفضون ولا يتأبَّوْن أن يكونوا عباداً لله ، ويريدون التقرُّب إليه سبحانه ، فكيف ـ إذن ـ تتوجهون إليهم بالعبادة وهم عباد ؟

وقوله تعالى : ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ .. (٥٧)﴾ [الإسراء] أي : يطلبون الغاية والقربى إليه تعالى ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ أي : كلما تقرّب واحد منهم إلى الله ابتغى اللهَ أكثرَ من غيره وأقبل عليه ، فإذا كان الأقرب إلى الله منهم يبتغي القُرْبى ، فما بال الأبعد ؟

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً (٥٧)﴾ [الإسراء]

أي : يجب الحذر منه وتجنُّب أسبابه ؛ لأن العذاب إذا كان من الله فلا فكاكَ منه ولا مهرب ، وأيضاً فالعذاب يتناسب مع قدرة المعذِّب ضعفاً وشدة ، فإذا نُسب العذاب إلى الله فلا شكَّ أنه أليم شديد ، لا طاقة لأحد به ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)﴾ [هود]

والحق سبحانه قد أوضح لنا مسألة الوحدانية في آيات كثيرة ، ولم يطلب منا الاعتراف بها إلا بعد أنْ شهد بها لنفسه سبحانه ، وبعد أن شهد بها الملائكة وأولو العلم ، قال تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ .. (١٨)﴾ [آل عمران]

فشهد الله سبحانه شهادة الذات للذات ، وشهدتْ الملائكة شهادة المشهد والمعاينة ، وشهد أولو العلم شهادة الاستدلال ، فهذه شهادات ثلاث قبل أنْ يطلب منّا الشهادة .

وبهذه الشهادة أقبل الحق سبحانه على مزاولة سلطانه وقدرته في الكون ، وما دام « لا إله إلا هو » يقول للشيء : كُنْ فيكون ، قالها لأنه يعلم أنه لا إله إلا هو ، وبها يحكم على الأشياء ويُغيِّر من وضع

إلى وضع ، فإنْ صحَّتْ هذه الشهادات الثلاث فقد انتهت المسألة . وإنْ لم تصح وهناك إله آخر فأين هو ؟! إنْ كان لا يدرى فهو إله نائم لا يصلح لهذه المكانة ، وإنْ كان يدرى فلماذا لم يطالب بحقه .

إذن : فهذه الدَّعْوى قد سلِمتْ للحق سبحانه لأنه لم يدَّعها أحد لنفسه ، فهى للحق تبارك وتعالى حتى يقوم مَنْ يدعيها لنفسه .

قال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لأَبْتَغَوْاْ إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء]

أى : لو كان للكون إله آخر لطلبوا هذا الإله الذى استقرتْ له الأمور واستتبّ له الحال ، ليُجادلوه فى هذه المسألة ، أو لطلبوه ليتقربوا إليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا (٥٨) ﴾

ساعةَ أنْ تسمعَ (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إلاَّ) فاعلم أن الأسلوب قائم على نفى وإثبات ، فالمعنى : لا توجد قرية إلا والله مُهلكها قبل يوم القيامة ، أو مُعذِّبها عذاباً شديداً ، لكن هل كل القرى ينسحب عليها هذا الحكم ؟

نقول : لا ، لأن هذا حكم مطلق والإطلاقات فى القرآن تُقيِّدها قرآنيات أخرى ، وسوف نجد مع هذه الآية قول الحق سبحانه : ﴿ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) ﴾ [الانعام]

وقال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧)﴾ [هود]

فهذه آيات مُخصِّصة تُوضِّح الاستثناء من القاعدة السابقة ، وتُقيِّد المبدأ السابق والسور العام الذى جاءت به الآية ، فيكون المعنى - إذن - وإنْ من قرية غير غافلة وغير مُصلحة إلا والله مُهلكها أو مُعذِّبها .

وقوله : ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا .. (٥٨)﴾ [الإسراء]

﴿مُهْلِكُوهَا﴾ أى : بعذاب الاستئصال الذى لا يُبقِى منهم أحداً .

﴿مُعَذِّبُوهَا﴾ أى : عذاباً دون استئصال .

لأن التعذيب مرحلة أولى ، فإنْ أتى بالنتيجة المطلوبة وأعاد الناس إلى الصواب فبها ونعْمتْ وتنتهى المسألة ، فإنْ لم يقتنعوا وأصرُّوا ولم يرتدعوا وعاندوا يأتى الإهلاك ، وهذا واضح فى قول الحق سبحانه : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾ [النحل]

والواقع أن فى حاضرنا شواهدَ عدة على هذه المسألة ، فلا بُدَّ لأىِّ قرية طغتْ وبغَتْ أن ينالها شىء من العذاب ، والأمثلة أمامنا واضحة ، ولا داعىَ لذكرها حتى لا ننكأ جراحنا .

وطبيعى أن يأتى العذاب قبل الإهلاك ؛ لأن العذاب إيلام حىّ

يشعر بالعذاب ويُحِسّ به ، والإهلاك إذهاب للحياة ، وهذا يمنع الإحساس بالعذاب .

وباستقراء تاريخ الأمم السابقة نلاحظ ما حاق بهم من سُنّة إهلاك الظالمين ، فقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط نزل بهم عذاب الله الذى لا يُرَدُّ عن القوم الكافرين ، ولكنه كان عذاب استئصال ؛ لأن الأنبياء فى هذا الوقت لم يكونوا مُطَالَبين بحمل السلاح لنشر دعوتهم ، فكان عليهم البلاغ ، والحق سبحانه وتعالى هو الذى يتولّى تأديب المخالفين . إلا إذا طلب أتباع النبى الجهاد معه لنشر دعوته ، كما حدث من أتباع موسى عليه السلام :

﴿ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ .. (٢٤٦) ﴾ [البقرة]

وهكذا طلب بنو إسرائيل القتال وحَمْل السلاح ، ولكن حذّرهم نبيهم ، وخشى أنْ يفرضَ عليهم ثم يتقاعسوا عنه ، وهذا ما حدث فعلاً ولم يَبْق معه إلا قليل منهم ، وهذا القليل سرعان ما تراجع هو أيضاً واحداً بعد الآخر .

إذن : الهمَّة الإنسانية فى هذا الوقت لم يكُنْ عندها استعداد ونضج لأنْ تحملَ سلاحاً فى سبيل الله ، فكان على الرسول أنْ يُبلِّغ ، وعلى السماء أنْ تُؤدِّب بهذا اللون من العذاب الذى يستأصلهم فلا يُبقى منهم أحداً .

أما فى أمة محمد ﷺ فقد رحمنا ربنا تبارك وتعالى من هذا العذاب ، فقال : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ .. (٣٣) ﴾ [الأنفال]

وهذه من كرامات الله تعالى لرسوله ، فلم يأخذ قومه بعذاب الاستئصال ، لماذا ؟ لأن رسولهم آخر الرسل وخاتم الأنبياء ، وسوف يُنَاطُ بهم حَملُ رسالته ونَشْر دعوته ، والانسياح بمنهج الله فى شتى بقاع الأرض .

ذلك لأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يرسل منهجه إلى الأرض يُقدِّر غفلة الناس عن المنهج ، ويُقدِّر فكرة التأسِّى بالجيل السابق ، فهذان مُعوِّقان فى طريق منهج الله ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ .. (١٧٣) ﴾[الأعراف]

فأوضح لنا الحق سبحانه أن الإنسان يتخبَّط أو ينحرف عن المنهج ، إما بسبب غفلة ، أو بسبب تقليد أعمى لأُسْوة سيئة ، فأول مَنْ تلقي عن الله آدم ، ثم بلّغ ذريته منهج الله ، وبمرور الأجيال حدثتْ الغفلة عن بعض المنهج نتيجة ما رُكِّب فى الإنسان من حُبٍّ للشهوات ، وهذه الشهوات هى التى تصرفه عن منهج ربه ، فإنْ حدثت غفلة فى جيل فإنها سوف تزداد فى الجيل التالى ، وهكذا ؛ لأن الجيل سيقع تحت مُؤثِّرين : الغفلة الذاتية فيه ، والتأسى بالجيل السابق .

إذن : بتوالى الأجيال وازدياد الغفلة عن المنهج لا بُدَّ أن الحق سبحانه سيبعث فى مواكب الرسل مَنْ يُنبِّه الناس .

ومن هنا كانت أمة محمد ﷺ خَيْر أمة أُخرجَتْ للناس : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. (١١٠) ﴾ [آل عمران] لماذا ؟ ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. (١١٠) ﴾ [آل عمران] فخيرية هذه الأمة ناشئة من حَمْل رسالة الدعوة ، وقد كرَّم الله أمة محمد بأنْ جعل كل مَنْ آمن به يحمل دعوته إلى يوم القيامة ، لقد بلّغ الرسول مَنْ عاصروه من أمته ، وعلى أمته أن تُبلّغ مَنْ بعده ؛ لذلك يشهد علينا رسول الله ، ونشهد نحن على الناس .

وفى الحديث الشريف « نضَّر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها ، ثم أدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فَرُبَّ مُبلَّغ أَوْعَى من سامع »[1] .

وهكذا تظل فى الأمة هذه الخيرية وتحمل دعوة رسولها حيث لا رسول من بعده إلى يوم القيامة ، ولأهمية هذا الدور الذى يقوم به المسلمون فى كل زمان ومكان يُنبِّهنا رسول الله ﷺ إلى مسألة هامة فى مجال حَمْل الدعوة ونَشْرها ، فيقول : « إن كل واحد منكم يقف على ثغرة من ثغرات هذا الدين ، فإياكم أن يُؤتَى الدين من ثغرة أحدكم » . أو كما قال .

فليعلم كل مسلم أنه محسوب للدين أو عليه ، فالعيون تتطلع إليه وتَرْصُد تصرفاته فى مجتمعه ، فهو صورة للدين وسفير له ، وعليه أن يراعى هذه المسئولية ويقوم بها على أكمل وجه ليكون أداة جَذْب ، وليكون وجهاً مشرقاً لتعاليم هذا الدين .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٣٧) والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجه فى سننه (٢٣٢) والحميدى (١/٤٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

فأنت حارس على باب من الأبواب ، وعليك أنْ تسدَّه بصدق انطباعك عن الإيمان ، وبصدق انقيادك لقضايا الإسلام ، وبهذا السلوك تكون وسيلة إغراء للآخرين الذين يراودهم الإيمان ، ويتراءى لهم منهج الله من بعيد .

ويحلو للبعض أن يأخذوا الإسلام بجريرة أهله ، ويحكموا عليه بناءً على تصرفات المنتسبين إليه ، وهذا خطأ ، فَمنْ أراد الصورة الحقيقية للإسلام فليأخذْها من منابع الدين فى كتاب الله وسنة رسوله ، فإنْ رأيتَ بين المنتسبين للإسلام سارقاً فلا تقُلْ : هذا هو الإسلام ؛ لأن الإسلام حرَّم السرقة ، وجعل لها عقوبة وحَداً يُقَام على السارق ، وليس لأحد أن يكون حجة على دين الله .

لذلك فإن كبار العلماء والمفكرين الذين درسوا فى الدين الإسلامى لم ينظروا إلى تصرُّفات المسلمين وحاضرهم ، بل أخذوه من منابعه الأصلية . ومنهم « جينو » الفرنسى الذى قال : الحمد لله الذى هدانى للإسلام قبل أن أعرف المسلمين . لأنه فى الحقيقة لو اطلع على أحوالنا الآن لكان فى المسألة كلام آخر .

إذن : الذين نظروا إلى قضايا الإسلام نظرة عَدْل وإنصاف لا بُدَّ أن يهتدوا إلى الإسلام ، لكن منهم مَنْ نظر إليه نظرة عَدْل وإنصاف إلا أنهم أبعدوا قضية التديّن من قلوبهم ، وإن اقتنعتْ بها عقولهم ، وفَرْق كبير بين القضية العقلية والقضية القلبية .

ومن هؤلاء الكاتب الذى ألَّفَ كتاباً عن العظماء فى التاريخ وأسماه : « العظماء مائة أعظمهم محمد بن عبد الله » وهو كاتب غير

مؤمن ، لكنه أخذ يستقرىء صفحة التاريخ ، ويسجِّل أصحاب الأعمال الجليلة التى أثَّرت فى تاريخ البشرية ، فوجدهم مائة ، وبالمقارنة بينهم وجد أن أعظمهم محمد ﷺ ، ومع ذلك لم يتربَّ محمد فى مدرسة ، ولم يتخرج فى جامعة ، ولم يجلس إلى مُعلم .

ألم تسأل نفسك أيها المؤلف : من أين أتى محمد بهذه الأوليّة ؟ ولماذا استحق أن يكون فى المقدمة ؟ لقد ذكرتَ حيثيات النبوغ فى جميع شخصياتك ، من تربية ودراسة فى جامعات وعلى أساتذة وإطلاع وأبحاث ، فلماذا لم تذكر حيثيات النبوغ فى رسول الله ؟ ألم تعلم أنه أُمىّ فى أمة أُميّة ؟ مما يدل على أن هذا الباحث تناول هذه القضية بعقله لا بقلبه .

نعود إلى مسألة الإهلاك والعذاب ؛ لأنها أثارتْ خلافاً بين رجال القانون فى موضوع إقامة حَدِّ الرجْم على الزانى المحصن[1] والجلْد للزانى غير المحصن ، فقد رأى جماعة منهم أن الجلد ثابت بالقرآن ، أما الرجم فثابت بالسنة ، لذلك قال بعضهم بأن رجم الزانى المحصَن سنة .

وهذا قول خاطىء وبعيد عن الصواب ، لأن هناك فرقاً بين سُنية الدليل وسُنية الحكم ، فسُنية الدليل أن يكون الأمر فَرْضاً ، لكن دليله من السنة كهذه المسألة التى معنا . وكصلاة المغرب مثلاً ثلاث ركعات وهى فَرْض لكن دليلها من السنة ، أما سُنية الحكم فيكون الحكم نفسه سُنة يُثَاب فاعله ، ولا يُعَاقب تاركه كالتسبيح ثلاثاً فى الركوع مثلاً .

---

(١) أحصن الرجل وأحصنت المرأة : تزوج وكان الزواج حِصْناً يحمى المتزوج من الوقوع فى الشهوات فهو مُحصِن . [القاموس القويم ١/١٥٧] .

إذن : فرجْم الزانى المحصَن فَرْض ، لكن دليله من السنة ، فالسُّنية هنا سُنية دليل ، لا سنية حكم .

فمَنْ يقول : إن الرجْم لم يَرِدْ به نصٌّ فى كتاب الله ، نقول : الدليل عليه جاء فى السنة ، وهى المصدر الثانى للتشريع ، حتى على قول مَنْ قال بأن القرآن هو المصدر الوحيد للتشريع ، ففى القرآن : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ⑦﴾ [الحشر]

إذن : ففعْل الرسول ﷺ كنصٍّ القرآن سواء بسواء ، وهل رجم فى عهد رسول الله أو لم يرجم ؟ رجم فعلاً فى عهد رسول الله[1] ، فإنْ قال قائل : فهذا ليس نصّاً فى الرجْم . نقول : بل الفعل أقوى من النص ؛ لأن النص قد تتأول فيه ، أما الفعل فهو صريح لا يحتمل تأويلاً .

ودليل آخر على فرضية الرجم ، وهو الشاهد فى هذه الآية ، فى قوله تعالى عن إقامة الحد على الأمة : ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ .. ㉕﴾ [النساء]

فيقولون : الرجْم لا يُنصَّف . إذن : ليس هناك رَجْم . نقول : أنتم لم تُفرِّقوا بين الرجم وبين العذاب ، فالرجم إماتة ، والعذاب إيلام لحيٍّ يشعر ويُحِسُّ بهذا الإيلام ، والمقصود به (الجلْد) .

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (١٦٩١ - ١٦) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « أتى رجل من المسلمين رسول الله ﷺ وهو فى المسجد فناداه فقال : يا رسول الله إنى زنيت فأعرض عنه فتنحى تلقاء وجهه فقال له : يا رسول الله إنى زنيت فأعرض عنه حتى ثنى ذلك عليه أربع مرات ، فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه رسول الله ﷺ فقال : أبك جنون ؟ قال : لا . قال : فهل أحصنت ؟ قال : نعم . فقال رسول الله ﷺ : اذهبوا به فارجموه » .

إذن : ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ .. (٢٥) ﴾ [النساء] أى : من الجلْد ، وهو الذى يُنصَّف ، ولو كان الحكم عاماً لَقَال : فعليهن نصف ما على المحصنات . فقوله : ﴿ مِنَ الْعَذَابِ .. (٢٥) ﴾[النساء] دليل على وجود الرَّجْم الذى لا فَرْق فيه بين حُرة وأمة.

وكذلك نلحظ التدرج من العذاب إلى الإهلاك فى قول سليمان ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ حينما تفقّد الطير ، واكتشف غياب الهدهد : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ .. (٢١) ﴾ [النمل]

ولسائل أنْ يسأل : هل لا بُدَّ للقرى الظالمة أن ينالها الإهلاك أو العذاب قبل يوم القيامة ؟

نعم لابُدَّ أن يمسَّهم شىء من هذا ؛ لأن الله تعالى لو أخَّر كل العذاب لهؤلاء إلى يوم القيامة لاستشرى الظلم وعمَّ الفساد فى الكون ، وحين يرى الناس الظالم يرتع فى الحياة ، وينعم بها مع ظلمه لأغراهم ذلك بالظلم ، أما إذا رأوه وقد حاق به سوء عمله ، ونزلت به النوازل لارتدعوا عن الظلم ، ولَعلموا أن عاقبته وخيمة ، ولن يفلت الظالم من عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة . أما لو تأخر عذاب الظالمين إلى الآخرة ، فالوَيْل ممَّنْ لا يؤمنون بها .

لذلك لما مات رأسٌ من رؤوس الظلم فى الشام ، ولم يَرَ الناس عليه أثراً لعذاب أو نقمة ، قال أحدهم : إن وراء هذه الدار داراً يُجَازى فيها المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته ؛ لأنه يستحيل أنْ يُفلتَ الظالم من العذاب .

وفى مناقشتى مع الشيوعيين فى بروكسل قلت لهم : لقد قسوتُمْ

على المخالفين لكم من الرأسماليين والإقطاعيين عام ١٩١٧ وما بعدها ، فقالوا : إنهم يستحقون أكثر من ذلك ، فقد فعلوا كذا وكذا ، قُلْت : منذ متى ؟ قالوا : طوال عمرهم وهم يفعلون ذلك ، فقلتُ : إذا كنتم أخذتم المعاصرين لكم بذنوبهم ، فما بال الذين سبقوهم ؟ وما حظّهم من العقاب الذى أنزلتموه بإخوانهم ؟ قالوا : ما أدركناهم .

قلت : إذن كان من الواجب عليكم أنْ تؤمنوا باليوم الآخر ، حيث سيعذب فيه هؤلاء ، فإنْ أفلتوا من عذاب الدنيا جاءت الآخرة لتُصفّى معهم الحساب ، كما يقول تعالى : ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ .. ﴿٤٧﴾﴾ [الطور] وأريد منكم أنْ تطلعوا على تفسير هذه الآية التى نحن بصددها : ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ [الإسراء]

راجعوا تفسيرها فى كتاب النسفى[1] ، وسوف تجدون به أمثلة تُؤيِّد هذه الآية ، يقول : قرية كذا سيحدث لها كذا ، وقرية كذا سيحدث لها كذا . وقد جاء الواقع على وفق ما قال ، إلى أن ذكر مصر وقال عنها كلاماً طويلاً أظن أنه يُمثّل ما أصاب مصر منذ سنة ١٩٥٢ ، وكان مما قال عنها : ويدخل مصر رجل من جهينة فويْلٌ لأهلها ، وويل لأهل الشام ، وويل لأهل أفريقيا ، وويل لأهل الرملة ، ولا يدخل بيت المقدس[2] . اقرأوا هذا الكلام عند النسفى .

ثم يقول تعالى : ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ [الإسراء]

---

(١) النسفى هو أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفى (ت٧٠١ هـ) وكتابه فى التفسير هو المسمى « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » .

(٢) أورد النسفى هذا فى تفسيره (٢/٣١٨) طبعة دار الفكر قال : « وعن مقاتل وجدت فى كتب الضحاك فى تفسيرها » وساق ما قاله الشيخ الشعراوى هنا بنصه .

أى : مُسجّل ومُسطّر فى اللوح المحفوظ ، ولا يقول الحق سبحانه : ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً (٥٨)﴾ [الإسراء] وتأتى الأحداث بغير ذلك ، بل لابُدَّ أنْ يؤكد هذه الحقائق القرآنية بأحداث كونية واقعية .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩)﴾

الآيات : جمع آية ، وهى الأمر العجيب الذى يلفت النظر ويسترعى الانتباه ، وهذه الآيات إما أن تكون آيات كونية نستدل بها على قدرة المدبِّر الأعلى سبحانه مثل المذكورة فى قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. (٣٧)﴾ [فصلت]

وقد تكون الآيات بمعنى المعجزة التى تثبت صِدْق الرسول فى البلاغ عن ربه تعالى ، وقد تكون الآيات بمعنى آيات القرآن الكريم ، والتى يسمونها حاملة الأحكام .

فالآياتْ إذن ثلاثة : كونية ، ومعجزات ، وآيات القرآن . فأيها

---

(١) سبب نزول الآية : عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبى ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن ينحى عنهم الجبال فيزرعون ، فقيل له : إن شئت أن تستأنى بهم لعلنا نجتبى منهم ، وإن شئت نؤتهم الذى سألوا ، فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من قبلهم ، قال : لا ، بل استأنى بهم ، فأنزل الله عز وجل ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. (٥٩)﴾ [الإسراء] .

المقصود فى الآية : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ .. (٥٩) ﴾ [الإسراء]

الآيات الكونية وهى موجودة لا تحتاج إلى إرسال ، الآيات القرآنية وهى موجودة أيضاً ، بقى المعجزات وهى موجودة ، وقد جاءت معجزة كل نبى على حَسْب نبوغ قومه ، فجاءت معجزة موسى من نوع السحر الذى نبغ فيه بنو إسرائيل ، وكذلك جاءت معجزة عيسى مما نبغ فيه قومه من الطب .

وجاءت معجزة محمد ﷺ فى الفصاحة والبلاغة والبيان ؛ لأن العرب لم يُظهِروا نبوغاً فى غير هذا المجال ، فتحدّاهم بما يعرفونه ويُجيدونه ليكون ذلك أبلغ فى الحجة عليهم .

إذن : فما المقصود بالآيات التى منعها الله عنهم ؟

المقصود بها ما طلبوه من معجزات أخرى ، جاءت فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .. (٩٣) ﴾ [الإسراء]

والمتأمل فى كل هذه الاقتراحات من كفار مكة يجدها بعيدة كل البُعْد عن مجال المعجزة التى يُراد بها فى المقام الأول تثبيت الرسول ، وبيان صِدْق رسالته وتبليغه عن الله ، وهذه لا تكون إلا فى أمر نبغ فيه قومه ولهم به إلمام ، وهم أمة كلام وفصاحة وبلاغة ، وهل لهم إلمام بتفجير الينابيع من الأرض ؟ وهل إسقاط السماء

عليهم كِسَفاً يقوم دليلاً على صدْق الرسول ؟ أم أنه الجدل العقيم والاستكبار عن قبول الحق ؟

إذن : جلس كفار مكة يقترحون الآيات ويطلبون المعجزات ، والحق سبحانه وتعالى يُنزل من المعجزات ما يشاء ، وليس لأحد أن يقترح على الله أو يُجبره على شيء ، قال تعالى : ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً[1] مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ⑯﴾ [يونس]

فالحق تبارك وتعالى قادر أن يُنزل عليهم ما اقترحوه من الآيات ، فهو سبحانه لا يُعجزه شيء ، ولا يتعاظمه شيء ، ولكن للبشر قبل ذلك سابقة مع المعجزات .

والحق سبحانه يقول : ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا .. ⑤⑨﴾ [الإسراء]

مبصرة : أى آية بينة واضحة .

لقد طلب قوم ثمود معجزة بعينها[2] فأجابهم الله وأنزلها لهم ، فما كان منهم إلا أن استكبروا عن الإيمان ، وكفروا بالآية التى طلبوها ،

---

(١) قال جعفر بن أبى طالب للنجاشى ملك الحبشة : قد كانت مدة مقامه عليه السلام بين أظهرنا قبل النبوة أربعين عاماً . وعن سعيد بن المسيب : ثلاثاً وأربعين سنة . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٤١٠) : « والصحيح المشهور الأول » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢٢٨/٢) : « كانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية ، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عيَّنوها بأنفسهم وهى صخرة منفردة فى ناحية الحجر يقال لها الكاتبة ، فطلبوا منه أن تخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض (أى : دنا ولادها وأخذها الطلق) » فجاءت كما سألوا « فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها » .

بل وأكثر من ذلك ظلموا بها أى : جاروا علـى الناقة نفسها ، وتجرّأوا عليها فعقروها .

وهذه السابقة مع ثـمود هى التى منعتنا عن إجابة أهل مكة فـيما اقترحوه من الآيات ، وليس عَجْزاً منّا عن الإتيان بها .

وقوله تعـالى عن الناقة أنها آية ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ لبيان وضـوحها ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. (١٢)﴾ [الإسراء] فهل آية النهار مُبصِرة ، أم مُبْصَر فيها ؟

كانوا قديماً يعتقدون أن الإنسان يرى الشىء من شعاع ينطلق من عينه إلى الشىء المرئىّ فتحدث الرؤية ، إلى أن جاء ابن الهيثم وأثبت خطأ هذه المقولة ، وبيّن أن الإنـسان يرى الشىء إذا خرج من الشىء شعاع إلـى العين فتراه ، بدليل أنك ترى الشىء إذا كـان فى الضوء ، ولا تراه إذا كان فى ظلمة ، وبهذا الفهم نستطيع القول بأن آية النهار هى المبصرة ؛ لأن أشعتها هى التى تُسبّب الإبصار .

ثم يقول تعالى : ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا (٥٩)﴾ [الإسراء]

أى : نبـعث بـآيات غـيـر المـعـجـزات لتكون تخـويفـاً لـلكفـار والمعاندين ، فمثلاً الرسول ﷺ اضطهده أهل مكة ودبَّروا لقتله جهاراً وعلانيـة ، فخيّب الله سَعْـيهم ورأوا أنهم لو قتـلوه لَطالبَ أهله بدمه ، فحاكوا مؤامرة أخرى للفتك به بليل ، واقترحوا أنْ يُؤْتَى من كل قبيلة بفتى جلْد ، ويضربوه ضَرْبة رجل واحد .

ولكن الحق سـبـحـانه أطلع رسوله على مكيـدتهم ، ونجّـاه من غـدرهم ، فإذا بهم يعـملون له السـحر لِيُـوقـعوا به ، وكـان الله لهم

بالمرصاد ، فأخبر رسوله بما يُدبّر له ، وهكذا لم يفلح الجهر ، ولم يفلح التبييت ، ولم يفلح السحر ، وباءت محاولاتهم كلها بالفشل، وعلموا أنه لا سبيلَ إلى الوقوف فى وجه الدعوة بحال من الأحوال ، وأن السلامة فى الإيمان والسير فى ركابه من أقصر الطرق .

إذن : للحق سبحانه آيات أخرى تأتى لِرَدْع المكذبين عن كذبهم ، وتُخوّفهم بما حدث لسابقيهم من المُكذّبين بالرسل ، حيث أخذهم الله أَخْذ عزيز مقتدر ، ومن آيات التخويف هذه ما جاء فى قوله تعالى : ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت]

فكل هذه آيات بعثها الله على أمم من المكذبين ، كُلّ بما يناسبه .

ثم يقول الحق سبحانه مخاطباً رسوله ﷺ :

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ[1] فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾

أى : اذكر يا محمد ، وليذكر معك أصحابك إذ قلنا لك : إن ربك أحاط بالناس ، فلا يمكن أن يتصرفوا تصرُّفاً ، أو يقولوا قولاً يغيب

(١) هى شجرة الزقوم التى قال عنها ربُّ العزة سبحانه : ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ [الدخان] ، وقال : ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الصافات] .

عن عِلْمه تعالى ، لأن الإحاطة تعنى الإلمام بالشيء من كُلّ نواحيه .

وما دام الأمر كذلك فاطمئن يا محمد ، كما نقول فى المثل (حُط فى بطنك بطيخة صيفى) ، واعلم أنهم لن ينالوا منك لا جهرة ولا تبييتاً ، ولا استعانة بالجنس الخفى (الجن) ؛ لأن الله محيط بهم، وسيبطل سَعْيَهم ، ويجعل كَيْدهم فى نحورهم .

لذلك لما تحدَّى الحق سبحانه وتعالى الكفار بالقرآن تحدَّى الجن أيضاً ، فقال : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً[1] (٨٨) ﴾ [الإسراء]

ففى هذا الوقت كان يشيع بين العرب أن كل نابغة فى أمر من الأمور له شيطان يُلهمه ، وكانوا يدَّعُون أن هذه الشياطين تسكن وادياً يسمى « وادى عبقر » فى الجزيرة العربية ، فتحدّاهم القرآن أنْ يأتوا بالشياطين التى تُلهمهم .

وهكذا يُطمئن الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بأنه يحيط بالناس جميعاً ، ويعلم كل حركاتهم ظاهرة أو خفيّة من جنس ظاهر أو من جنس خفىّ ، وباطمئنان رسول الله تشيع الطمأنينة فى نفوس المؤمنين .

وهذا من قيوميته تعالى فى الكون ، وبهذه القيومية نردُّ علىٰ الفلاسفة الذين قالوا بأن الخالق سبحانه زاول سلطانه فى الكون مرة واحدة ، فخلق النواميس ، وهى التى تعمل فى الكون ، وهى التى تُسيّره .

والرد على هذه المقولة بسيط ، فلو كانت النواميس هى التى

(١) الظهير : المعين المساعد كأنه يسند ظهر من يعاونه . [القاموس القويم ١/٤١٨] .

تُسيِّر الكون ما رأينا فى الكون شـذوذاً عن الناموس العام ؛ لأن الأمر الميكانيكى لا يحدث خروجاً عن القاعدة ، إذن : فحدوث الشذوذ دليل القدرة التى تتحكم وتستطيع أن تخرق الناموس .

ومثال ذلك : النار التى أشـعلوها لحرق نبى الله وخليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ فهل كـان حظ الإيمان أو الإسلام فى أن ينجو إبراهيم من النار ؟

لا .. لم يكن الهدف نجاة إبراهيم عليه السلام ، وإلا لما مكَّنهم الله من الإمساك به ، أو سخر سحابة تطفىء النار ، ولكن أراد سبحانه أن يُظهر لهـم آية من آياته فى خَرْق النامـوس ، فمكّنهم من إشـعال النار ومكّنَهم من إبراهيم حتى ألقوْه فى النار ، ورأوْهُ فى وسطها ، ولم يَعُدْ لهم حجة ، وهنا تدخلت القـدرة الإلهية لتسلب النار خاصـية الإحراق :
﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا[1] وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء]

إذن : فالناموس ليس مخلوقاً ليعمل مطلقاً ، وما حدث ليس طلاقة ناموس ، بل طلاقة قدرة للخالق سبحانه وتعالى .

فكأن الحق سـبحانه يريد أنْ يُسلِّى رسوله ويُؤْنسـه بمدد الله له دائماً ، ولا يفزعه أن يقوم قومه بمـصادمته واضطهاده ، ويريد كذلك أنْ يُطمئن المؤمنين ويُبشِّرهم بأنهم على الحق .

وقوله تعالى : ﴿ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ..﴿٦﴾ ﴾ [الإسراء]

الإحاطة تقتضى العلم بهم والقدرة عليهم ، فلن يُفلتوا من علم الله ولا من قـدرته ، ولا بُدَّ من العلم مع القـدرة ؛ لأنك قـد تعلم شـيئاً

(١) البرد : خلاف الحر . قال ابن عباس وأبو العالية : لولا أن الله عز وجل قـال (وسلاماً) لآذى إبراهيم بردها . [تفسير ابن كثير ٣/١٨٤] .

ضاراً ولكنك لا تقدر على دَفْعه ، فالعلم وحده لا يكفى ، بل لا بُدَّ له من قدرة على التنفيذ ، إذن : فإحاطته سبحانه بالناس تعنى أنه سبحانه يُعلِّمهم ويقدر على تنفيذ أمره فيهم .

كلمة (الناس) تُطلَق إطلاقات متعددة ، فقد يراد بها الخلْق جميعاً من آدم إلى قيام الساعة ، كما فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَـٰهِ النَّاسِ ③ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ[1] الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ⑥﴾[الناس]

وقد يُراد بها بعض الخَلْق دون بعض ، كما فى قوله تعالى : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. ٥٤﴾ [النساء]

فالمراد بالناس هنا رسول الله ﷺ حين قال عنه كفار مكة : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[2] عَظِيمٍ ٣١﴾[الزخرف]

وكما فى قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ .. ١٧٣﴾ [آل عمران] فهؤلاء غير هؤلاء .

وقد وقف العلماء عند كلمة الناس فى الآية : ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ .. ٦٠﴾ [الإسراء] وقصروها على الكافرين الذين يقفون من رسول الله موقف العداء ، لكن لا مانع أن نأخذ هذه الكلمة على عمومها ، فَيُراد بها أحاط بالمؤمنين ، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ، وأحاط بالكافرين وعلى رأسهم صناديد الكفر فى مكة .

---

(١) الخناس : الشيطان يتأخر ويبعد عند ذكر الله . [القاموس القويم ١/٢١١] .

(٢) سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن قول الله ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف] قال : يعنى بالقريتين مكة والطائف ، والعظيم : الوليد بن المغيرة القرشى ، وحبيب بن عمير الثقفى . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧ / ٣٧٤) وعزاه لابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه .

لذلك فالإحاطة هنا ليست واحدة ، فلكل منهما إحاطة تناسبه ، فإنْ كنتَ تريد الإحاطة بالمؤمنين وعلى رأسهم رسول الله فهى إحاطة عناية وحماية حتى لا ينالهم أذى ، وإنْ أردتَ بها الكافرين فهى إحاطة حصار لا يُفلتون منه ولا ينفكُّون عنه ، وهذه الإحاطة لها نظير ، وهذه لها نظير .

فنظير الإحاطة بالكافرين قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ .. (٢٢)﴾ [يونس]

أى : حُوصِروا وضُيِّق عليهم فلا يجدون منفذاً .

ونظير الإحاطة بالمؤمنين وعلى رأسهم رسول الله قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢)﴾ [الصافات]

فالحق سبحانه محيط بالمؤمنين وبرسوله ﷺ إحاطة عناية ، وكأنه يقول له : امْضِ إلى شأنك وإلى مهمتك ، ولن يُضيرك ما يُدبِّرون .

لذلك كان المؤمنون فى أَوْج فترات الاضطهاد والقسوة من الكفار فى وقت كان المؤمنون غير قادرين حتى على حماية أنفسهم ينزل قول الحق تبارك وتعالى : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر]

حتى إن عمر - رضى الله عنه - الذى جاء القرآن على وَفْق رأيه يقول : أىّ جَمْع هذا ؟! ويتعجب ، كيف سنهزم هؤلاء ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا[1] وهذه تسلية لرسول الله وتبشير

(١) قال عكرمة : لما نزلت ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] قال عمر : أىّ جمع يُهزم ؟ أى : أىّ جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٦٦) وعزاه لابن أبى حاتم .

للمؤمنين ، فمهما نالوكم بالاضطهاد والأذى فإن الله ناصركم عليهم .

وكما قال في آية أخرى : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

فاذكر جيداً يا محمد حين تنزل بك الأحداث ، ويظن أعداؤك أنهم أحاطوا بك ، وأنهم قادرون عليك ، اذكر أن الله أحاط بالناس ، فأنت في عناية فلن يصيبك شرٌّ من الخارج ، وهم في حصار لن يُفلتوا منه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ .. (٦٠) ﴾ [الإسراء]

كلمة ﴿ الرُّؤْيَا ﴾ مصدر للفعل رأى ، وكذلك (رؤية) مصدر للفعل رأى ، فإنْ أردتَ الرؤيا المنامية تقول : رأيتُ رُؤْيا ، وإنْ أردتَ رأى البصرية تقول : رأيتُ رؤية .

ومن ذلك قول يوسف عليه السلام في المنام الذي رآه : ﴿ وَقَالَ يَـٰأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ .. (١٠٠) ﴾ [يوسف]

ولم يَقُلْ رؤيتي . إذن : فالفعل واحد ، والمصدر مختلف .

وقد اختلف العلماء : ما هي الرؤيا التي جعلها الله فتنة للناس ؟

جمهرة العلماء[1] على أنها الرؤيا التي ثبتتْ في أول السورة : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. (١) ﴾ [الإسراء] أي : حادثة الإسراء والمعراج .

---

(١) قاله ابن عباس وأبو مالك وأم هانىء والحسن البصري وقتادة ، أورد السيوطي آثارهم في الدر المنثور (٥/٣٠٨ ، ٣٠٩) ، ونقل ابن كثير في تفسيره (٣/٤٩) اختيار ابن جرير الطبري لهذا الرأي قال : « لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك » أي : في الرؤيا والشجرة .

وبعضهم[1] رأى أنها الرُّؤْيا التى قال الله فيها : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) ﴾ [الفتح]

فقد وعد رسولَ الله ﷺ بأنهم سيدخلون المسجد الحرام فى هذا العام ، ولكن مُنعوا من الدخول عند الحديبية ، فكانت فتنة بين المسلمين وتعجبوا أنْ يعدهم رسول الله وَعْداً ولا ينجزه لهم .

ثم بيّن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لهم الحكمة من عدم دخول مكة هذا العام ، فأنزل على رسوله وهو فى طريق عودته إلى المدينة :

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا[2] أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا[3] لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾ [الفتح]

إذن : الحق سبحانه منعهم تحقيق هذه الرؤيا فى الحديبية ؛ لأنهم لو دخلوا مكة مُحاربين حاملين السلاح ، وفيها مؤمنون ومؤمنات

---

(١) قاله ابن عباس فى رواية عنه قال : الرؤيا التى فى هذه الآية هى رؤيا رسول الله ﷺ أنه يدخل مكة فى سنة الحديبية ، فرُدَّ فافتتن المسلمون لذلك ، فنزلت الآية ، فلما كان العام المقبل دخلها ، وأنزل الله تعالى ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ .. (٢٧) ﴾ [الفتح] . قال القرطبى فى تفسيره (٤٠١١/٥) : « فى هذا التأويل ضعف ، لأن السورة مكية ، وتلك الرؤيا كانت بالمدينة » .

(٢) معكوفاً : محبوساً عن أن يبلغ أماكن نَحْره . [القاموس القويم ٣٢/٢] .

(٣) لو تزيلوا : أى لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ، لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً . [تفسير ابن كثير ١٩٣/٤] .

لا يعلمهم أحد ، وسوف يصيبهم من الأذى وينالهم من هذه الحرب ؛ لأنهم لن يُميِّزوا بين مؤمن وكافر ، فقد يقتلون مؤمناً فتصيبهم مَعَرَّةٌ بقتله ، ولو أمكن التمييز بين المؤمنين والكفار لدخلوا مكة رَغْماً عن أُنوف أهلها .

لذلك كان من الطبيعي أنْ يتشكَّكَ الناس فيما حدث بالحديبية ، وأن تحدث فتنة تزلزل المسلمين ، حتى إن الفاروق ليقول لرسول الله ﷺ : ألسنا على الحق ؟ أليسوا هم على الباطل ؟ ألستَ رسول الله ؟ فيقول أبو بكر : الزم غَرْزَه يا عمر ، إنه رسول الله[1] .

وقد ساهمتْ السيدة أم سلمة ـ أم المؤمنين ـ في حَلِّ هذا الإشكال الذي حدث نتيجة هذه الفتنة ، فلما اعترض الناس على رسول الله في عودته من الحديبية دخل عليها ، فقال : « يا أم سلمة ، هلك المسلمون ، أمرتُهم فلم يمتثلوا » . فقالت : يا رسول الله إنهم مكروبون ، جاءوا على شَوْق للبيت ، ثم مُنعوا وهم على مَقْرُبة منه ، ولا شكَّ أن هذا يشقّ عليهم ، فَامْضِ يا رسول الله لما أمرك الله ، فإذا رأوك عازماً امتثلوا ، ونجح اقتراح السيدة أم سلمة في حل هذه المسألة[2] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٢٥) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم في حديث الحديبية الطويل .

(٢) أخرج أحمد في مسنده (٤/٣٢٥) حديث الحديبية بطوله عن المسور بن مخرمة ومروان ابن الحكم ، وفيه : أن رسول الله ﷺ قال يأيها الناس انحروا واحلقوا فما قام أحد . ثم عاد بمثلها فما قام رجل حتى عاد بمثلها ، فما قام رجل ، فرجع ﷺ فدخل على أم سلمة فقال : يا أم سلمة ما شأن الناس ؟ قالت : يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيت فلا تكلمن منهم إنساناً ، واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك ، فخرج ﷺ لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره ثم جلس فحلق فقام الناس ينحرون ويحلقون . حتى إذا كان بين مكة والمدينة في وسط الطريق فنزلت سورة الفتح .

وقال بعضهم : إن المراد بالرؤيا التى جعلها الله فتنة ما رآه رسول الله ﷺ قبل غزوة بدر ، حيث أقسم وقال : « والله لكأنِّى أنظر إلى مصارع القوم » . وأخذ يومئ إلى الأرض وهو يقول : « هذا مَصْرع فلان ، وهذا مَصْرع فلان ، وهذا مَصْرع فلان »[١] .

وفعلاً ، جاءت الأحداث موافقة لقوله ﷺ فَقُلْ لى : بالله عليك ، مَن الذى يستطيع أنْ يتحكَّم فى معركة كهذه ، الأصل فيها الكَرّ والفَرّ ، والحركة والانتقال ليُحدد الأماكن التى سيقتل فيها هؤلاء ، اللهم إنه رسول الله .

لكن أهل التحقيق من العلماء[٢] قالوا : إن هذه الأحداث سواء ما كان فى الحديبية ، أو ما كان من أمر الرسول يوم بدر[٣] ، هذه أحداث حدثتْ فى المدينة ، والآية المرادة مكية ، مما يجعلنا نستبعد هذين القولين ويؤكد أن القول الأول ـ وهو الإسراء والمعراج ـ هو الصواب .

وقد يقول قائل : وهل كان الإسراء والمعراج رؤيا منامية ؟ إنه كان رؤية بصرية ، فما سِرّ عدول الآية عن الرؤية البصرية إلى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٩) وأحمد فى مسنده (٣/٢١٩) من حديث أنس رضى الله عنه .

(٢) من هؤلاء العلماء القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠١١) ، وابن كثير فى تفسيره (٣/٤٩) .

(٣) أمْر الرسول يوم بدر لم يرد فى تأويل هذه الآية ، ولكن ذكرت الكتب قولاً آخر ولكن العلماء ردوه وضعفوه . فعن سهل بن سعد قال : إنما هذه الرؤيا هى أن رسول الله ﷺ كان يرى بنى أمية ينزون على منبره نزو القردة ، فاغتم لذلك ، وما استجمع ضاحكاً من يومئذ حتى مات ﷺ . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠١١) . وضعف ابن كثير سند هذا الحديث فى تفسيره (٣ /٤٩) وقال : « محمد بن الحسن بن زبالة متروك ، وشيخه أيضاً ضعيف بالكلية » .

الرؤيا المنامية ؟ وكيف يعطى الحق سبحانه وتعالى للكفار والمشككين فرصة لأن يقول : إن الإسراء والمعراج كان مناماً ؟

نقول : ومَنْ قال إن كلمة رؤيا مقصورة على المنامية ؟ إنها فى لغة العرب تُطلق على المنامية وعلى البصرية ، بدليل قول شاعرهم الذى فرح بصيد ثمين عنَّ له :

فكَبَّر للرُّؤْيَا وهَاش[1] فُؤَادُهُ ... وَبشَّرَ نَفْساً كَانَ قَبْلُ يلُومُهَا

أى : قال الله أكبر حينما رأى الصيد الثمين يقترب منه ، فعبَّر بالرؤيا عن الرؤية البصرية .

لكن الحق سبحانه اختار كلمة ﴿ رُؤْيَا ﴾ ليدل على أنها شىء عجيب وغريب كما نقول مثلاً : هذا شىء لا يحدث إلا فى المنام . وهذا من دقّة الأداء القرآنى ، فالذى يتكلم رَبّ ، فاختار الرؤيا ؛ لأنها معجزة الإسراء وذهاب النبى ﷺ من مكة إلى بيت المقدس فى ليلة .

فَوَجْه الإعجاز هنا ليس فى حدث الذهاب إلى بيت المقدس لأن كثيراً من كفار مكة قد ذهب إليها فى رحلات التجارة أو غيرها ، بل وَجْه الإعجاز فى الزمن الذى اختُصر لرسول الله ، فذهب وعاد فى ليلة واحدة ، بدليل أنهم سألوا رسول الله « صِفْ لنا بيت المقدس »[2] .

---

(١) هش للشىء وهاش : سُرَّ به وفرح [وقد ذكر ابن منظور هذا البيت فى لسان العرب مادة هشش].

(٢) وذلك أن رجلاً منهم قال : « يا محمد أنا أعلم الناس ببيت المقدس ، فأخبرنى كيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل ، قال : فرفع لرسول الله ﷺ بيت المقدس من مقعده ، فنظر إليه كنظر أحدنا إلى بيته ، قال : بناؤه كذا وكذا وهيئته كذا وكذا وقربه من الجبل كذا وكذا ، فقال الآخر : صدقت فرجع إليهم فقال : صدق محمد فيما قال » ذكره ابن كثير فى تفسيره (١٣/٣) .

ولو كانوا يشكُّون في الحدث ما سألوا هذا السؤال ، إذن : فاعتراضهم على وقت هذه الرحلة التى كانوا يضربون إليها أكباد الإبل شهراً ، ويخبر محمد أنه أتاها فى ليلة واحدة ، ولأن الإسراء حدث فى هذا الزمن الضيق المختصر ناسب أن يُطلق عليه رؤيا ، لأن الرؤيا المنامية لا زمنَ لها ، ويختصر فيها الزمن كذلك .

ولقد توصّل العلماء الباحثون فى مسألة وعى الإنسان أثناء نومه ، وعن طريق الأجهزة الحديثة إلى أنْ قالوا : إن الذهن الإنسانى لا يعمل أثناء النوم أكثر من سبع ثوان ، وهذه هى المدّة التى يستغرقها المنام .

فى حين إذا أردتَ أن تحكى ما رأيتَ فسيأخذ منكم وقتاً طويلاً . فأين الزمن - إذن - فى الرؤيا المنامية ؟ لا وجود له ؛ لأن وسائل الإدراك فى الإنسان والتى تُشعره بالوقت نائمة فلا يشعر بوقت ، حتى إذا جاءت الرؤيا مرّتْ سريعة حيث لا يوجد فى الذهن غيرها .

لذلك مَنْ يمشى على عجل لا يستغرق زمناً ، كما نقول : (فلان يفهمها وهى طايرة) وهذا يدل على السرعة فى الفعل ؛ لأنه يركز كل إدراكاته لشىء واحد .

ومن ناحية أخرى ، لو أن الإسراء والمعراج رؤيا منامية ، أكانت توجد فتنة بين الناس ؟ وهَبْ أن قائلاً قال لنا : رأيت الليلة أننى ذهبتُ من القاهرة إلى نيويورك ، ثم إلى هاواى ، ثم إلى اليابان ، أنُكذّبه ؟!

إذن : قَوْل الله تعالى عن هذه الرؤيا أنها فتنة للناس عَدَّلَتْ المعنى

من الرؤيا المناميـة إلى الرؤية البصرية ، وكـأن الحق سبحانه اخـتار هذه الكلمة ليجعل مـن الكافرين بمحمد دليلاً على صدقـه ، فيقولون : نحن نضرب إليهـا أكباد الإبل شهراً وأنت تدعى أنك أتيـتها فى ليلة ؟ فلو كانت هذه الحادثة مناماً ما قالوا هذا الكلام .

لكن ، ما الحكمة من فتنة الناس واختبارهم بمثل هذا الحدث ؟

الحكمة تمحيص الناس وصَهْرهم فى بوتقـة الإيمان لنميز الخبيث من الطيب ، والمـؤمن من الكافر ، فـلا يبقى فى سـاحتنـا إلا صادق الإيمان قـوىُّ العقـيدة ، لأن الله تعـالى لا يريد أن يسلم منهـجه الذى سيـحكم حركة الحـياة فى الدنيـا إلى أن تقوم الساعـة ، إلا إلى قوم موثوق فى إيمانهم ليكونوا أهلاً لحمل هذه الرسـالة .

فكان الإسـراء هو هذه البـوتقة التى مـيَّزَتْ بـين أصالة الصِّـدِّيق حينما أخبروه أن صاحبك يُحدِّثنا أنه أتى بيت المقدس ، وأنه عُرِج به إلى السماء وعاد من ليلته ، فقال : « إنْ كان قال فقد صدق »[1] هكذا من أقرب طريق ، فـميزان الصـدق عنده مجرد أن يقـول رسـول الله . وكذلك ميزت الزَّبَد الذى زلزلته الحادثة وبلبلته ، فعارض وكذب .

ثم يقول تعالى : ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ..﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء]

أى : ومـا جـعلنا الشـجـرة الملعـونة فى القـرآن إلا فـتنةً للناس أيضاً ، وإنْ كـانت الفتنة فى الإسـراء كامنة فى زمن حـدوثه ، فهى فى الشجرة كامنَة فى أنها تخرج فـى أصل الجحيم ، فى قَعْر جهنم ،

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠١٢) وتمامه أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقـال : اين عقـولكم ؟ أنا أُصدِّقـه بخبر السـماء ، فكيف لا أُصـدِّقه بخـبر بيت المـقدس ، والسماء أبعد منها بكثير .

ومعلوم أن الشجرة نبات لا يعيش إلا بالماء والرى ، فكيف تكون الشجرة فى جهنم ؟

ومن هنا كانت الشجرة فتنة تُمحِّص إيمان الناس ؛ لذلك لما سمع أبو جهل هذه الآية جعلها مُشكلة ، وخرج على الناس يقول[1] : اسمعوا ما يحدثكم به قرآن محمد ، يقول : إن فى الجحيم شجرة تسمى « شجرة الزقوم » ، فكيف يستقيم هذا القول والنار تحرق كل شىء حتى الحجارة ؟

وهذا الاعتراض مقبول عقلاً ، لكن المؤمن لا يستقبل آيات الله استقبالاً عقلياً ، وإنما يعمل حساباً لقدرته تعالى ؛ لأن الأشياء لا تأخذ قوامها بعنصر تكوينها ، وإنما تأخذه بقانون المعنصر نفسه ، فالخالق سبحانه يقول للشجرة : كونى فى أصل الجحيم ، فتكون فى أصل الجحيم بطلاقة القدرة الإلهية التى قالت للنار : كُونى بَرْداً وسلاماً على إبراهيم .

وقد قال ابن الزِّبَعْرى حينما سمع قوله تعالى : ﴿**أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾**﴾ [الصافات]

فقال : والله ما عرفنا الزقوم إلا الزُّبْد على التمر ، فقوموا تزقَّموا

---

(١) عن قتادة قال : لما ذكر الله شجرة الزقوم افتتن بها الظلمة ، فقال أبو جهل : يزعم صاحبكم هذا ، أن فى النار شجرة ، والنار تأكل الشجر، وإنّا والله ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد ، فتزقموا ، فأنزل الله حين عجبوا أن يكون فى النار شجر ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ [الصافات] أى : غذيت بالنار ، ومنها خلقت ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات] قال : يشبهها بذلك .

معى[١] ، أى : استهزاءً بكلام الله ، وتكذيباً لرسوله ﷺ .

أما المؤمن فيستقبل هذه الآيات استقبالَ الإيمان والتسليم بصدق كلام الله ، وبصدق المبلِّغ عن الله ، ويعلم أن الأشياء لا تأخذ صلاحيتها بعنصر تكوينها ، وإنما بإرادة المعنْصِر أن يكون ؛ لأن المسألة ليست ميكانيكا ، وليست نواميس تعمل وتدير الكون ، بل هى قدرة الخالق سبحانه وطلاقة هذه القدرة .

ولسائل أن يقول : كيف يقول الحق سبحانه عن هذه الشجرة أنها (ملعونة) ؟ ما ذنب الشجرة حتى تُلْعَن ، وهى آية ومعجزة لله تعالى ، وهى دليل على اقتداره سبحانه ، وعلى أن النواميس لا تحكم الكون ، بل ربّ النواميس سبحانه هو الذى يحكم ويُغيِّر طبائع الأشياء ؟ كيف تُلْعَن وهى الطعام الذى سيأكله الكافر ويتعذب به ؟ إنها أداة من أدوات العقاب ، ووسيلة من وسائل التعذيب لأعداء الله .

نقول : المراد هنا : الشجرة الملعون آكلها ، لأنه لا يأكل منها إلا الأثيم ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ [الدخان] والأثيم لا شكَّ ملعون .

لكن ، لماذا لم يجعل الملعونية للآكل وجعلها للشجرة ؟

---

(١) أورد الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٦٦) عن ابن عباس أنه قال : لما ذكر الله تعالى الزقوم خوّف به هذا الحى من قريش ، فقال أبو جهل : هل تدرون ما هذا الزقوم الذى يخوفكم به محمد عليه الصلاة والسلام ؟ قالوا : لا . قال : الثريد بالزبد ، أما والله لئن أمكننا فيها لنتزقمنها تزقماً ، فأنزل الله تعالى ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ .. ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء] . وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٥/٣١٠) لابن إسحاق وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى البعث .

قالوا : لأن العربى دَرَجَ على أن كل شىء ضار ملعون ، أى : مُبْعَد من رحمة الله ، فكأن الكافر حينما يرى هذه الشجرة هو الذى يلعنها ، فهى ملعونة من آكلها . وقد أكل منها لأنه ملعون ، إذن : نستطيع القول إنها ملعونة ، وملعون آكلها(١) .

ومن الإشكالات التى أثارتها هذه الآية فى العصر الحديث قول المستشرقين الذين يريدون أن يتوركوا على القرآن ، ويعترضوا على أساليبه ، مثل قوله تعالى عن شجرة الزقوم : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ﴾ [الصافات]

ووَجْه اعتراضهم أن التشبيه إنما يأتى عادةً ليُوضِّح أمراً مجهولاً من مخاطب بأمر معلوم له ، أما فى الآية فالمشبَّه مجهول لنا ؛ لأنه غَيْب لا نعلم عنه شيئاً ، وكذلك المشبَّه به لم نَرَهُ ، ولم يعرف أحد منّا رأس الشيطان ، فكيف يُشبِّه مجهولاً بمجهول ؟ لأننا لم نَرَ شجرة الزقوم لنعرف طَلْعها ، ولم نَرَ الشيطان لنعرف رأسه .

ثم يقولون : الذى جعل المسلمين يمرُّون على هذه الآية أنهم يُعطون للقرآن قداسة ، هذه القداسة تُربِّى فيهم التهيُّب أنْ يُقبلوا على القرآن بعقولهم ليفتشوا فيه ، ولو أنهم تخلصوا من هذه المسألة وبدأوا البحث فى أسلوب القرآن دون تهيُّب لاستطاعوا الخروج منه بمعطيات جديدة .

---

(١) ذكره أبو يحى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ص ٢٣٨ طبعة ١٩٨٥ م ـ دار الصابونى .

وللردِّ على قَوْل المستشرقين السابق نقول لهم : لقد تعلمتم العربية صناعة ، وليس عندكم الملَكَة العربية أو التذوّق الكافى لفهم كتاب الله وتفسير أساليبه ، وفَرْقٌ بين اللغة كملَكَة واللغة كصناعة فقط .

الملكة اللغوية تفاعل واختمار للغة فى الوجدان ، فساعة أنْ يسمعَ التعبير العربى يفهم المقصود منه ، أما اللغة المكتسبة ـ خاصة على كِبَر ـ فهى مجرد دراسة لإمكان التخاطب ، فلو أن عندكم هذه الملكة لما حدث منكم هذا الاعتراض ، ولعلمتم أن العربى قبل نزول القرآن قال[1] :

يَغُطُّ غَطيطَ البِكْر شُدّ خِنَاقُه ... لِيقتُلَنى والمرْءُ ليسَ بقتَّالِ

أَيقتُلِنى وَ المشْرفىُّ[2] مُضَاجِعِى ... وَمسْنُونَةٍ زُرْقٍ كأنْيَابِ أَغْوَالِ

فهل رأيتم الغول ؟ وهل له وجود أصلاً ؟ لكن الشاعر العربى استساغ أن يُشبّه سلاحه المسنون بأنياب الغول ؛ لأن الغول يتصوَّره الناس فى صورة بشعة مخيفة ، فهذا التصوّر والتخيُّل للغول أجاز أنْ نُشبّه به .

وكذلك الشيطان ، وإنْ لم يَرَهُ أحد إلا أن الناس تتخيله فى صورة بشعة وقبيحة ومخيفة ، فلو كلّفنا جميع رسّامى الكاريكاتير فى العالم برسم صورة مُتخيّلة للشيطان لرسم كل واحد منهم صورة تختلف

(١) هو : امرؤ القيس بن حُجْر ، شاعر جاهلى .

(٢) سيف مشرفىٌّ منسوب إلى قرية من أرض اليمن تسمى المشارف . [لسان العرب ـ مادة : شرف] .

عن الآخر ؛ لأن كلاً منهم سيتصوره بصورة خاصة حَسْب تصوره للشيطان وجهة البشاعة فيه .

فلو أن الحق سبحانه شبَّه طَلْع شجرة الزقوم بشيء معلوم لنا لَتصوّرناه على وجه واحد ، لكن الحق تبارك وتعالى أراد أنْ يُشيعَ بشاعته ، وأنْ تذهب النفس فى تصوُّر بشاعته كل مذهب ، وهكذا يؤدى هذا التشبيه فى الآية مَا لا يُؤدّيه غيره ، ويُحدث من الأثر المطلوب ما لا يُحدثه تعبير آخر ، فهو إبهام يكشف ويجلِّي .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) ﴾ [الإسراء]

أى : نُخوّفهم بأنْ يتعرّضوا للعقوبات التى تعرّض لها المكذِّبون للرسل ، فالرسل نهايتهم النصر ، والكافرون بهم نهايتهم الخُذْلان . وأنت حينما تُخوّف إنساناً أو تُحذره من شر سيقع له ، فقد أحسنتَ إليه وأسديتَ إليه جميلاً ومعروفاً ، كالوالد الذى يُخوِّف ابنه عاقبة الإهمال ، ويُذكّره بالفشل واحتقار الناس له ، إنه بذلك ينصحه ليلتفت إلى دروسه ويجتهد .

فقوله تعالى : ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ .. (٦٠) ﴾ [الإسراء] التخويف هنا نعمة من الله عليهم ، لأنه يُبشّع لهم الأمر حتى لا يقعوا فيه ، وسبق أن ذكرنا أن التخويف قد يكون نعمة فى قوله تعالى ، فى سورة الرحمن : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن]

فجعل النار والشُّوَاظ هنا نعمة ؛ لأنها إعلام بشىء سيحدث فى المستقبل ، وسيكون عاقبة عمل يجب أن يحذروه الآن .

---

(١) الشواظ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١] .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : يزدادون بالتخويف طغياناً ، لماذا ؟ لأنهم يفهمون جيداً مطلوبات الإيمان ، وإلا لو جهلوا هذه المطلوبات لقالوا : لا إله إلا الله وآمنوا وانتهت القضية ، لكنهم يعلمون تماماً أن كلمة لا إله إلا الله تعنى : لا سيادةَ إلا لهذه الكلمة ، ومحمد رسول الله لا بلاغَ ولا تشريعَ إلا منه ، ومن هنا خافوا على سيادتهم فى الجزيرة العربية وعلى مكانتهم بين الناس ، كيف والإسلام يُسوِّى بين السادة والعبيد ؟!

إذن : كلما خوَّفْتهم وذكّرتهم بالله ازدادوا طغياناً ونفوراً من دين الله الذى سيهدم عليهم هذه السلطة الزمنية التى يتمتعون بها ، وسيسحب بساط السيادة من تحت أقدامهم ؛ لذلك تجد دائماً أن السلطة الزمنية لأعداء الرسل ، وتأتى الرسل لهدم هذه السلطة ، وجَعْل الناس سواسية .

وقد اتضح هدم الإسلام لهذه السلطة الزمنية للكفار عندما دخل رسول الله ﷺ المدينة ، وكان أهلها يستعدون لتنصيب عبد الله بن أُبىٍّ ملكاً عليهم[1] ، فلما جاء رسول الله المدينة انفض الناس عن ابن أُبىٍّ ، وتوجهت الأنظار إليه ﷺ ، وطبيعى - إذن - أن يغضب ابن أُبىٍّ، وأن يزدادَ كُرْهه لرسول الله ، وأن يسعى لمحاربته ومناوأته ،

(١) ذكر البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٤٩٩) أن رسول الله ﷺ حين دخوله المدينة مر بعبد الله بن أبى بن سلول وهو على ظهر الطريق ، وهو فى بيت ، فوقف عليه النبى ﷺ ينتظر أن يدعوه إلى المنزل ، وهو يومئذ سيد الخزرج فى أنفسها . فقال له عبد الله : انظر الذين دعوك فانزل عليهم ، فذكر رسول الله ﷺ لنفر من الأنصار وقوفه على عبد الله بن أُبىٍّ والذى قال له ، فقال له سعد بن عبادة : إنا والله يا رسول الله ، لقد كنا قبل الذى خصنا الله به منك ومَنَّ علينا بقدومك ، أردنا أن نعقد على رأس عبد الله بن أُبىٍّ التاج ، ونُملّكه علينا » .

وأنْ يحسده على ما نال من حُبٍّ الناس والتفافهم حوله .

ثم أراد الحق سبحانه أن يقول : إن هذه سُنّة من سُنَن المعاندين للحق والكائدين للخير دائماً ، فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾

أى : تذكّروا أن الحسد قديم قِدمَ وجود الإنسان على هذه الأرض ، تذكّروا ما كان من أمر آدم عليه السلام وإبليس لعنه الله ، فهى مسألة قديمة ومستمرة فى البشر إلى يوم القيامة .

والمعنى : واذكُرْ يا محمد ، وليذكر معك قومك إذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم . وسبق أنْ تكلمنا عن السجود ، ونشير هنا إلى أن السجود لا يكون إلا لله تعالى ، لكن إذا كان الأمر بالسجود لغير الله من الله تعالى ، فليس لأحد أن يعترض على هذا السجود ؛ لأنه بأمر الله الذى يعلم أن سجودهم لآدم ليس عَيْباً وليس قَدْحاً فى دينهم وعبوديتهم للحق سبحانه وتعالى ؛ لأن العبودية طاعة أوامر .

والمراد بالملائكة المدبرات أمراً ، الذين قال الله فيهم : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد]

وقد أمرهم الله بالسجود لآدم ؛ لأنه سيكون أبا البشر ، وسوف يُسخَّر له الكون كله ، حتى هؤلاء الملائكة سيكونون فى خدمته ؛ لذلك أمرهم الله بالسجود له سجودَ طاعةٍ وخضوعٍ لما أريده منكم ، إذن : السجود لآدم ليس خضوعاً لآدم ، بل خضوعاً لأمر الله لهم .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ .. (٦١) ﴾ [الإسراء]

فهم البعض منها أن إبليس كان من الملائكة ، ونحن نعذر أصحاب هذا الفهم لو عزلنا هذه الآية عن بقية الآيات التى تحدثتْ عن هذه القضية ، لكن طالما نتكلم فى موضوع عام مثل هذا ، فيجب استحضار جميع الآيات الواردة فيه لتتضح لنا الصورة كاملة .

فإذا كان دليل أصحاب هذا القول : الالتزام بأن الله قال ﴿ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ .. (٦١) ﴾ [الإسراء] وقد كان الأمر للملائكة فهو منهم ، وسوف نُسلِّم لهم جدلاً بصحة قولهم ، لكن ماذا يقولون فى قَوْل الحق سبحانه فى القرآن الذى أخذوا منه حجتهم : ﴿ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. (٥٠) ﴾ [الكهف]

فإنْ كان دليلكم الالتزام ، فدليلنا نصٌّ صريح فى أنه من الجن ، فإنْ قال قائل : كيف يكون من الجن ويُؤاخَذ على أنه لم يسجد ؟

نقول : إبليس من الجن بالنصِّ الصريح للقرآن الكريم ، لكن الحق سبحانه وتعالى آخذه على عدم السجود لآدم واعتبره من الملائكة ؛ لأنه كان مطيعاً عن اختيار ، والملائكة مطيعون عن جِبلَّة وعن طبيعة .

فبذلك كانت منزلة إبليس أعلى من منزلة الملائكة ، لأنه مختار أن يطيع أو أن يعصى ، لكنه أطاع مع قدرته على العصيان فأصبح جليس الملائكة ، بل طاووس الملائكة[1] الذى يزهو عليهم ويتباهى

---

(١) قال سعيد بن المسيب : كان رئيس ملائكة سماء الدنيا . وقال ابن عباس : كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة ، وكان خازناً على الجنان ، وكان له سلطان السماء الدنيا . أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٨٩) .

بأنه صالح للاختيار فى العصيان ، ومع ذلك ألزم نفسه منهج الله .

فإذا أصبح فى منزلة أعلى من الملائكة وأصبح فى حضرتهم ، فإن الأمر إذا توجَّه إلى الأدنى فى الطاعة فإن الأعلى أَوْلَى بهذا الأمر ، وكذلك إن اعتبرناه أقلّ منهم منزلة ، وجاء الأمر للملائكة بالسجود فإن الأمر للأعلى أمر كذلك للأدنى ، وهكذا إنْ كان أعلى فعليه أن يسجد ، وإنْ كان أدنى فعليه أنْ يسجدَ .

وقد ضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - إذا دخل رئيس الجمهورية على الوزراء فإنهم يقومون له إجلالاً واحتراماً ، وهَبْ أن معهم وكلاء وزارات فإنهم سوف يقومون أيضاً ؛ لأنهم ارتفعوا إلى مكان وجودهم .

ومن الإشكالات التى أثارها المستشرقون حول هذا الموضوع اعتراضهم على قول القرآن عن إبليس مرة ﴿ أبَى ﴾ ومرة أخرى ﴿ استكبَر ﴾ ومرة ﴿ أبَى واستكبر ﴾ ، وكذلك قوله مرة : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥) ﴾ [ص] ، ومرة أخرى يقول : ﴿ مَا منعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢) ﴾ [الأعراف]

وقد سبق أن تحدثنا عن قصور هؤلاء عن فَهْم أساليب العربية ؛ لأنها ليستْ لديهم ملكَة ، والمتأمل فى هذه الأساليب يجدها منسجمة يُكمل بعضها بعضاً .

فالإباء قد يكون مجرد امتناع لا عن استكبار ، فالحق سبحانه يريد أن يقول : إنه أبى استكباراً ، فتنوّع الأسلوب القرآنى ليعطينا هذا المعنى .

أما قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥) ﴾ [ص] و ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢) ﴾ [الأعراف]

صحيح أن فى الأولى إثباتاً وفى الأخرى نفياً ، والنظرة العَجْلَى تقول: إن ثمة تعارضاً بين الآيتين ، مما حمل العلماء على القول بأن (لا) فى الآية الثانية زائدة ، فالأصل ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥) ﴾ [ص]

والقول بوجود حروف زائدة فى كتاب الله قول لا يليق ، ونُنزّه المتكلم سبحانه أن يكون فى كلامه زيادة ، والمتأدب منهم يقول (لا) حرف وَصْل ، كأنه يستنكف أن يقول : زائدة .

والحقيقة أن (لا) هنا ليست زائدة ، وليست للوَصْل ، بل هى تأسيس يضيف معنى جديداً ، لأن ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥) ﴾ [ص]

كأنه همَّ أنْ يسجد ، فجاءه مَنْ يمنعه من السجود ، لأنه لا يقال : ما منع من كذا إلا إذا كان لديك استعداد للفعل ، وإلا من أىّ شىء سيمنعك ؟

أما ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢) ﴾ [الأعراف] تعنى : ما منعك بإقناعك بأنك لا تسجد ، فالمعنيان مختلفان ، ونحن فى حاجة إليهما معاً .

ثم يقول تعالى : ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (٦١) ﴾ [الإسراء]

والهمزة للاستفهام الذى يحمل معنى الاعتراض والاستنكار ، وقد فُسِّرت هذه الآية بآيات أخرى ، مثل قوله تعالى : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) ﴾ [الأعراف]

فالمخلوقية لله مُتفق عليها ، إنما الاختلاف فى عنصر المخلوقية هذا من نار وهذا من طين ، لكن من قال لك يا إبليس : إن النار فوق الطين ، أو خير منه ؟ من أين أتيتَ بهذه المقولة وكلاهما مخلوق لله ، وله مهمة فى الكون ؟ وهل نستطيع أن نقول : إن العين خير من الأذن مثلاً ؟ أم أن لكل منهما مهمتها التى لا تؤديها الأخرى ؟

وسبق أنْ قُلْنا مثلاً : إنك تفضل الحديد إنْ كان مستقيماً ، أما إنْ أردتَ خُطَّافاً فالاعوجاج خير من الاستقامة ، أو : أن اعوجاجه هو عين الاستقامة فيه ، فكل شيء في الوجود مخلوق لغاية ولمهمة ، ولا يكون جميلاً ولا يكون خَيْراً إلا إذا أدى مهمته في الحياة ، فمن أين جاء إبليس بخيرية النار على الطين ؟

والنار الأصل فيها الخشب الذى توقد به ، والخشب من الطين ، إذن : فالطين قبل النار وأفضل منه ، فقياس إبليس إذن قياس خاطىء .

ومعنى : ﴿ خَلَقْتَ طِيناً ﴿٦١﴾ ﴾ [الإسراء] يعنى : خلقته حال كونه من الطين ، أو خلقتَه من طين ، والخَلْق من الطين مرحلة من مراحل الخَلْق ؛ لأن الخَلْق المباشر له مراحل سبقته .

فقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر] سبقتْه مراحل متعددة ، قال عنها الخالق سبحانه مرة : من الماء . ومرة : من التراب . ومرة : من طين . والماء إذا خُلط بالتراب صار طيناً ، وبمرور الوقت يسودُّ هذا الطين ، وتتغير رائحته ، فيتحول إلى حمأ مسنون .

وما أشبهَ الحمأ المسنون بما يفعله أهل الريف فى صناعة الطوب ، حيث يخلطون الماء بالتراب بالقشِّ ، ويتركونه فترة حتى يختمر ويأكل بعضه بعضاً ، وتتغير رائحته ويعطَن ، ثم يصبُّونه فى قوالب . فإذا ما تُرك الطين حتى يجفّ ، ويتحول إلى الصلابة يصير صلْصَالاً كالفخَّار ، يعنى يُحدث رنّة إذا طرقت عليه .

وبعد كل هذه المراحل يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر]

إذن : لا وَجْه للاعتراض على القرآن فى قوله عن خلق الإنسان

مرة أنه : من : ماء ، أو من تراب ، أو طين ، أو حمأ مسنون ، فهذه كلها مراحل للمكوّن الواحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ (١) ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ أى : إبليس ﴿أرأيْتَكَ ﴾ الهمزة للاستفهام ، والتاء للخطاب ، وكذلك الكاف ، وجمع بينهما فى الخطاب للتأكيد ، كما تقول : أنت أنت تفعل ذلك . والمعنى : أخبرنى ، لأن رأى البصرية تُطلق فى القرآن على معنى العلم ؛ لأن علم العين علم مُؤكّد لا شكّ فيه .

لذلك قالوا : (ليس مع العين أيْن) فما تراه أمامك عياناً ، وإنْ كان للعلم وسائل كثيرة فأقواها الرؤية ؛ لأنها تعطى علماً مؤكداً على خلاف الأذن مثلاً ، فقد تسمع بها كلاماً تعرف بعد ذلك أنه كذب .

وقد ورد هذا المعنى فى قَوْل الحق سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾ [الفيل]

واستخدم الفعل ترى ، مع أن رسول الله ﷺ كان فى عام الفيل وليداً لم يَرَ شيئاً ، فالمعنى : ألم تعلم ، ولكن الحق سبحانه عدل عن « تعلم » إلى « تَرَ » كأنه يقول للرسول ﷺ : إذا أخبرك الله بمعلوم ، فاجعل إخبار الله لك فوق رؤيتك بعينك .

---

(١) الاحتناك : الاستيلاء والاحتواء والإضلال . قال القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠١٥) : « المعنى متقارب ، أى : لاستأصلن ذريته بالإغواء والإضلال ولأجتاحنهم » .

فقوله تعالى : ﴿أَرَأَيْتَكَ هَـٰذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَيَّ .. (٦٢)﴾ [الإسراء]
أى : أعلمنى ، لماذا فضلته علىَّ ، وكأن تفضيل آدم على إبليس مسألة تحتاج إلى برهان وتبرير ، وكان على إبليس أن ينتظر إجابة هذا السؤال الذى توجه به لربّه عَزَّ وجل ، ولكنه تعجَّل وحمله الغيظ والحسد على أن يقول : ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢)﴾ [الإسراء]

وهذا لأن حقده وعداوته لآدم مُسْبقة فلم ينتظر الجواب .

ومعنى : ﴿أَخَّرْتَنِ﴾ أخَّرت أجلى عن موعده ، كأنه يعلم أن الله يجعل لكل نفس منفوسة من إنس أو جنٍّ أجلاً معلوماً ، فطلب أنْ يُؤخِّره الله عن أجله ، وهذه مبالغة منه فى اللدد والعناد ، فلم يتوعدهم ويُهدّدهم مدة حياته هو ، بل إلى يوم القيامة ، فإن كانت البداية مع آدم فلن ينجو ولن تنجو ذريته أيضاً .

فالعداوة بين إبليس وآدم ، فما ذنب ذريته من بعده ؟ لقد كان عليه أن يقصر هذا الحقد ، وهذه العداوة على آدم ، ثم يوصى ذريته بحمل هذا العداء من بعده . إنه الغيظ الدفين الذى يملأ قلبه .

وقد أمهله الحق سبحانه بقوله : ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥)﴾[الأعراف]

ومعنى ﴿لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ .. (٦٢)﴾ [الإسراء] اللام للقسم ، كما أقسم فى آية أخرى : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢)﴾ [ص]

وعجيب أمر إبليس ، يقسم بالله وهو يعلم أن العمر والأجل بيده سبحانه ، فيسأله أن يُؤخّره ، ومع ذلك لا يطيع أمره .

والاحتناك : يَرِد بمعنيين : الأول : الاستئصال . ومنه قولهم : احتنك الجراد الزرع . أى : أتى عليه كله واستأصله ، والآخر : بمعنى القهر على التصرف ، مأخوذ من اللجام الذى يُوضَع فى حنك الفرس ، ويسمونه (الحنكة) وبها تستطيع أن تُوجِّه الفرس يميناً أو يساراً أو تُوقفه ، فهى أداة التحكّم فيه ، والسيطرة عليه قَهْراً .

فالاحتناك قد يكون استئصالاً للذات ، وقد يكون قهراً لحركتها .

وقوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢) ﴾ [الإسراء] فيها دليل على علْم إبليس ومعرفته بقدرة الله تعالى ، فعرف كيف يقسم به حين قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾ [ص] والمعنى : بعزتك عن خَلْقك : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩) ﴾ [الكهف] .

سأدخل من هذا الباب ، أما عبادك الذين هديتهم واصطفيتهم فلا دَخْلَ لى بهم ، وليس لى عليهم سلطان ، لقد تذكّر قدرة الله ، وأن الله إذا أراد إخلاص عبده لنفسه لا يستطيع الشيطان أنْ يأخذَه ، فقال : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

فقوله : ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢) ﴾ [الإسراء] هذا القليل المستثنى هم المؤمنون الذين اختارهم الله وهداهم ، ولم يجعل للشيطان عليهم سبيلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (٦٣) ﴾

قوله تعالى (اذْهبْ) أمر يحمل معنى الطرد والإبعاد . ﴿ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ .. (٦٣) ﴾ [الإسراء] أي : الذين اتبعوك وساروا في ركابك فجزاؤهم جهنم .

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال : ﴿ جَزَاؤكم ﴾ . ولم يَقُلْ (جزاؤهم) لأنه معهم وداخل في حكمهم ، وهو سبب غوايتهم وضلالهم ، وكذلك هو المخاطب في الآية الكريمة ، وحتى لا يظن إبليس أن الجزاء مقصور على العاصين من ذرية آدم ، أو يحتج بأنه يُنفّذ أوامر الله الواردة في قوله تعالى :

﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (٦٤) ﴾ [الإسراء]

فليست هذه أوامر يراد تنفيذها ؛ لأن هناك فرقاً بين الأمر الذي يُراد منه تنفيذ الفعل ، والأمر الذي لا يُراد منه التنفيذ . فالأول طَلَب أعلى من أدْنى لكي يفعل : اكتب ، اجلس . لكن إذا اتجه الأمر إلى غير مطلوبٍ عادةً من العقلاء ينصرف عن الأمر إلى معنى آخر .

وهذا كما تقول لولدك مراراً : ذاكر دروسك واجتهد ، وإذا به لا يهتمّ ولا يستجيب فتقول له : العب كما تشاء ، فهل تقصد ظاهر هذا الأمر ؟! وهل لو أخفق الولد في الامتحان سيأتي ليقول لك : يا والدي لقد قلت لي العب ؟!

إن الأمر هنا لا يُؤخَذ على ظاهره ، بل يُراد منه التهديد ، كما يقولون في المثل (أعلى ما في خَيْلك اركبه) .

وقوله : (جَزَاءً مَوْفُوراً) أى : وافياً مكتملاً لا نقصَ فيه ، لا من العذاب ، ولا من المعذبين .

والحق سبحانه يقول مخاطباً إبليس :

﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ[1] وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ .. ﴿٦٤﴾ ﴾[الإسراء]

هذا كما تستنهض ولدك الذى تكاسل ، وتقول له : فِزّ يعنى انهض ، وقُمْ من الأرض التى تلازمها وكأنها مُمسكة بك ، وكما فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [التوبة]

فتقول للمتثاقل عن القيام : فِزّ أى : قُمْ وخِفّ للحركة والقيام بإذعان . فالمعنى : استفزز مَن استطعت واستخِفّهم واخدعهم (بِصَوْتِكَ) بوسوستك أو بصوتك الشرير ، سواء أكان هذا الصوت من جنودك من الأبالسة أمثالك ، أو من جنودك من شياطين الإنس ، الذين يعاونونك ويساندونك .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ .. ﴿٦٤﴾ ﴾[الإسراء]

---

(١) قوم رجْلة أى رجّالة . والرجال : جمع راجل أى ماش . والراجل خلاف الفارس . [لسان العرب ـ مادة : رجل] والمقصود . أى : بكل قوتك وبجنودك كلهم راكبين أو مشاة غير راكبين . [القاموس القويم ١/٢٥٧] .

أجْلَبَ عليه : صاح به ، وأجلبَ على الجواد : صاح به راكبه ليسرع. والجلْبة هى : الصوت المزعج الشديد ، وما أشبه الجلْبة بما نسمعه من صوت جنود الصاعقة مثلاً أثناء الهجوم ، أو من أبطال الكاراتيه .

وهذه الأصوات مقصودة لإرهاب الخصم وإزعاجه ، وأيضاً لأن هذه الصيحات تأخذ شيئاً من انتباه الخصم ، فيضعف تدبيره لحركة مضادة ، فيسهلُ عليك التغلّب عليه .

وقوله تعالى : ﴿ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ .. (٦٤) ﴾ [الإسراء]

أى : صَوِّتْ وصِحْ بهم راكباً الخيل لتفزعهم ، والعرب تطلق الخيل وتريد بها الفرسان ، كما فى الحديث النبوى الشريف : « يا خيل الله اركبى »[1] .

وما أشبه هذا بما كنا نُسمِّيهم : سلاح الفرسان (ورَجِلك) من قولهم : جاء راجلاً . يعنى : ماشياً على رِجْلَيْه و (رَجِل) يعنى على سبيل الاستمرار ، وكأن هذا عمله وديدنه ، فهى تدل على الصفة الملازمة ، تقول : فلانٌ رَجْل أى : دائماً يسير مُترجّلاً . مثل : حاذر وحَذِرْ ، وهؤلاء يمثلون الآن « سلاح المشاة » .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ .. (٦٤) ﴾ [الإسراء]

فكيف يشاركهم أموالهم ؟ بأنْ يُزيِّن لهم المال الحرام ، فيكتسبوا

(١) أورده العجلونى فى «كشف الخفاء» (٢/٥٣١) ، وقال : « رواه أبو الشيخ فى الناسخ والمنسوخ عن عبد الكريم قال : حدثنى سعيد بن جبير عن قصة المحاربين ، قال : كان ناس أتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : نبايعك على الإسلام ، فذكر القصة ، وفيها فأمر النبى ﷺ فنودى فى الناس : ياخيل الله اركبى ، فركبوا لا ينتظر فارس فارساً » . وقال ابن حجر فى الفتح (٧/٤١٣) : « روى ابن عائذ من مرسل قتادة قال : « بعث رسول الله ﷺ منادياً ينادى ، فنادى : يا خيل الله اركبى» .

من الحرام وينفقوا في الحرام (وَالأَوْلاَدِ) المفروض في الأولاد طهارة الأنساب ، فدوْر الشيطان أنْ يُفسِدَ على الناس أنسابهم ، ويُزيِّن لهم الزنا ، فيأتون بأولاد من الحرام . أو : يُزيِّن لهم تهويد الأولاد ، أو تنصيرهم ، أو يُغريهم بقتْلِ الأولاد مخافةَ الفقر أو غيره ، هذا من مشاركة الشيطان في الأولاد .

وقوله تعالى ﴿ وعِدْهُمْ ﴾ أي : مَنيِّهم بأمانيك الكاذبة ، كما قال سبحانه في آية أخرى : ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨)﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (٦٤)﴾ [الإسراء]

أي : لا يستطيع أن يَغُرَّ بوعوده إلا صاحب الغرّة والغفلة ، ومنها الغرور : أي يُزيّن لك الباطل في صورة الحق فيقولون : غَرَّهُ . وأنت لا تستطيع أبداً أن تُصوّر لإنسان الباطل في صورة الحق إلا إذا كان عقله قاصراً غافلاً ؛ لأنه لو عقل وانتبه لتبيَّن له الحق من الباطل ، إنما تأخذه على غِرَّة من فكره ، وعلى غَفْلة من عقله .

لذلك كثيراً ما يُخاطبنا الحق سبحانه بقوله : ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٠)﴾ [القصص] ﴿أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)﴾ [الانعام] ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ .. (٨٢)﴾ [النساء] ويناديننا بقوله : ﴿يَـٰأُولِي الأَلْبَابِ .. (١٠)﴾ [الطلاق]

وهذا كله دليل على أهمية العقل ، وحثٌّ على استعماله في كل أمورنا ، فإذا سمعتم شيئاً فمرِّروه على عقولكم أولاً ، فما معنى أن يطلب الله منَّا ذلك ؟ ولماذا يُوقظ فينا دائماً ملكة التفكير والتدبُّر في كل شيء ؟

لا شكَّ أن الذي يُوقِظ فيك آلة الفكر والنقد التمييز ، ويدعوك إلى

النظر والتدبر واثق من حُسْن بضاعته ، كالتاجر الصدوق الذى يبيع الجيد من القماش مثلاً ، فيعرض عليك بضاعته فى ثقة ، ويدعوك إلى فحصها ، وقد يشعل النار ليُريك جودتها وأصالتها .

ولو أراد الحق سبحانه أن يأخذنا هكذا على جهل وعمى ودون تبصُّر ما دعانا إلى التفكُّر والتدبُّر .

وهكذا الشيطان لا يُمنِّيك ولا يُزيِّن لك إلا إذا صادف منك غفلة ، إنما لو كنت متيقظاً له ومُسْتصحباً للعقل ، عارفاً بحيله ما استطاع إليك سبيلاً ، ومن حيله أنْ يُزيِّن الدنيا لأهل الغفلة ويقول لهم : إنها فرصة للمتعة فانتهزها وَخذْ حظك منها فلن تعيش مرتين ، وإياك أن تُصدِّق بالبعث أو الحساب أو الجزاء .

وهذه وساوس لا يُصدِّقها إلا مَنْ لديه استعداد للعصيان ، وينتظر الإشارة مجرد إشارة فيطيع ويقع فريسة لوعود كاذبة ، فإنْ كان يوم القيامة تبرأ إبليس من هؤلاء الحمقى ، وقال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ[1] وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

إذن : فى الآيتين السابقتين خمسة أوامر لإبليس : اذهب ، استفزز ، وأجْلب ، وشاركهم ، وعِدْهم . وهذه الأوامر ليست لتنفيذ مضمونها ، بل للتهديد ولإظهار عجزه عن الوقوف فى وجه الدعوة ،

(١) المُصْرِخ : المغيث المنقذ من يستصرخه . واستصرخه : استغاث به . والصريخ : الاستغاثة والمستغيث والمغيث . [القاموس القويم ١/٣٧٣] .

أو صَدّ الناس عنها ، وكأن الحق سبحانه يقول له : إفعل ما تريد ودبِّر ما تشاء ، فلن توقف دعوة الله ؛ لذلك قال بعدها :

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾

سبق أن تحدثنا عن الفرق بين العباد والعبيد ، وقلنا كلاماً نُوجزه فى أن العبيد هم المقهورون للسيد فى الأمور القَسْرية القهرية ، ومتمردون عليه فى الأمور الاختيارية ، أما العباد فهم مقهورون فى الأمور القسرية القهرية ، وتنازلوا أيضاً عن مُرادهم فى الأمور الاختيارية لمراد ربهم ، فرضوا أنْ يكونوا مقهورين لله فى جميع أحوالهم .

وقد تحدّث الحق سبحانه عن عباده وأصفيائه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الفرقان]

فعباد الله الذين هم أصفياؤه وأحباؤه الذين خرجوا من مرادهم لمراده ، وفَضَّلوا أن يكونوا مقهورين لربهم حتى فى الاختيار ، فاستحقوا هذه الحصانة الإلهية فى مواجهة كيد الشيطان ووسوسته وغروره : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ.. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الإسراء]

وسبق أنْ تحدَّثنا عن كَيْد الشيطان الذى قال الله عنه : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [النساء] ففى مُحاجّته يوم القيامة أمام ضحاياه الذين أغواهم وأضلّهم ، سيقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي.. (٢٢) ﴾ [إبراهيم] فليس لى سلطان قَهْر أحملكم به على المعصية ، ولا سلطان حُجَّة وبرهان فأُقنعكم بها .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً (٦٥) ﴾ [الإسراء]

الوكيل هو المؤيِّد ، وهو الناصر ، تقول : وكلت فلاناً . أى : وثقت به ليؤدى لى كل ما أريد ، فإنْ كان فى البشر مَنْ تثق به ، وتأتمنه على مصالحك ، فما بالك إنْ كان وكيلك هو الله عز وجل ؟ لا شكَّ إنْ كان وكيلك الله فهو كافيك ومُؤيِّدك وناصرك ، فلا يُحوجك لغيره سبحانه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي[1] لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) ﴾

الربّ هو المتولّى تربيتك : خَلْقاً من عَدم ، وإمداداً من عُدم ، وقيُّوميته تعالى عطاء ينتظم المؤمن والكافر ﴿ يُزْجِي ﴾ الإزجاء : الإرسال بهوادة شيئاً فشيئاً . و ﴿ الفُلْك ﴾ هى السفن وتُطلَق على المفرد وعلى الجمع ، وعلى المذكّر والمؤنث .

---

(١) زجا الشيء : تيسّر واستقام . وأزجاه : ساقه برفق . قال تعالى : ﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ .. (٦٦) ﴾ [الإسراء] أى : يدفعها ويُسيِّرها برفق فوق الماء [القاموس القويم ١/٢٨٤] .

ومنها قوله تعالى ﴿ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ .. (١٦٤) ﴾ [البقرة]

ومنها قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ .. (٢٢) ﴾ [يونس]

ثم يقول تعالى : ﴿ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٦٥) ﴾ [الإسراء]

الابتغاء هو القصد إلى نافع يطلب من البحر كالقوت أو غيره ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٤) ﴾ [النحل]

فالبحر مصدر من مصادر الرزق والقُوت ، ومُسْتودع لثروة عظيمة من فضل الله تعالى ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) ﴾ [الإسراء]

والرحمة اتساع مَدَد الفضل من الله ، فالذى أعطاكم البَرَّ بما فيه من خيرات أعطاكم البحر أيضاً بما فيه من خيرات .

والأرض التى نعيش عليها إما بَرّ يسمى يابسة ، أو بحر ، وإنْ كانت نسبة اليابس من الأرض الرُّبْع أو الخُمْس ، فالباقى بحر شاسع واسع يَزْخَر من خَيْرات الله بالكثير .

وطُرُق السير فى اليابسة كثيرة متعددة ، تستطيع أن تمشى أو تركب ، وكُلٌّ وسيلة من وسائل الركوب حَسْب قدرة الراكب ، فهذا يركب حماراً ، وهذا يركب سيارة ، وتستطيع أن تنتقل فيها من مكان إلى آخر . أما البحر فلا يمكن الانتقال فيه إلا أنْ تُحملَ على شىء ، فمن رحمة الله بنا أنْ جعل لنا السفن آية من آياته تسير بنا على لُجَّة الماء ، ويمسكها بقدرته تعالى فنأمَن الغرق .

وأول مَنْ صنع السفن بوحى من الله نوح عليه السلام ، فلم تكُنْ معروفة قبله ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [هود]

فلم يكُنْ للناس عَهْد بالسفن ، وكانت سفينة نوح بدائية من ألواح الخشب والحبال ، ولولا أن الله تعالى دلَّه على طريقة بنائها ، وهداه إلى تنظيمها ما كان له علْم بهذه المسألة ، فكَوْنُ الحق سبحانه يهدينا بواسطة نبى من أنبيائه إلى مركب من المراكب التى تيسّر لنا الانتفاع بثلاثة أرباع الأرض ، لا شكَّ أنها رحمة بالإنسان وتوسيع عليه .

وكذلك من رحمته بنا أنْ يسّر لنا تطوير هذا المركب على مَرِّ العصور ، فبعد أنْ كان يتحرك على سطح الماء بقوة الهواء باستخدام ما يُسمَّى بالقلْع ، والذى يتحكم فى المركب من خلاله ، ويستطيع الربّان الماهر تسفيح القلع ، يعنى توجيهه إلى الناحية التى يريدها .

فكان الريح هو الأصل فى سَيْر السفن ، ثم أتى التقدم العلمى الذى اكتشف البخار والآلات ثم الكهرباء ، وبذلك سهّل على الإنسان تحريك السفن على سطح الماء بسهولة ويُسْر ، كما تطورتْ صناعة السفن كذلك على مَرِّ العصور ، حتى أصبحنا نرى الآن البوارج الكبيرة متعددة الأدوار ، والتى تشبه فعلاً الجبال ، مصْداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ[1] ﴿٣٢﴾ ﴾ [الشورى]

يعنى : كالجبال ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يُعطينا الدليل على

---

(١) الأعلام : الجبال . والعلَم : الجبل الطويل . [لسان العرب ـ مادة : علم] .

علْمه تعالى بما سيصل إليه العالم من تقدم ، وما ستصل إليه صناعة السفن من رقيّ يصل بها إلى أنْ تكونَ كالجبال ، وإلاّ ففى زمن نزول القرآن لم يكُنْ هناك بوارج عالية كهذه ، إنها لم توجد إلا بعد قانون أرشميدس الذى تُبنَى على أساسه هذه البوارج .

لكن مع كل هذا التقدم فى مجال الملاحة البحرية لا نغفل أن القدرة الإلهية هى التى تُسيِّر هذه السفن ، وتحملها بأمان على صفحة الماء ، ويجب ألاّ يغترَّ الإنسان بما توصّل إليه من العلوم ، ويظن أنه أصبح مالكاً لزمام الأمور فى الكون ؛ لأن الحق سبحانه يقول : ﴿إن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. (٣٣)﴾ [الشورى]

والريح هى الأصل فى تسيير السفن .

فإنْ قال قائل الآن : إنْ توقف الريح استخدمنا القوى الأخرى مثل البخار أو الكهرباء . نقول : لقد أخذت الريح على أنه الهواء فقط ، إنما لو نظرتَ إلى كلمة الريح ، وماذا تعنى لوجدتَ أن معنى الريح القوة المطلقة أيّاً كان نوعها ، بدليل قَوْل الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. (٤٦)﴾ [الأنفال] إذن : الريح هو القوة المطلقة .

فمعنى : ﴿يُسْكِنِ الرِّيحَ .. (٣٣)﴾ [الشورى] يُسكن القوة المحرّكة للسفن أيّاً كانت هذه القوة : قوة الريح أو البخار أو الكهرباء أو غيرها من القوى ، فإنْ شاء سبحانه تعطَّلَتْ كُلُّ هذه القوى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا (٦٧)﴾

البحر هو المزنق والضائقة التى لا يستطيع الخلاص منها إنْ أصابه فيه سوء ، فالبر منافذ النجاة فيه متعددة ، أما البحر فلا نجاة فيه إلا بعناية الله ، يقول تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. (٢٢) ﴾ [يونس]

وهكذا الإنسان حتى الكافر ، إذا ضاقتْ به الحيَل ولم يجد مَنْفذاً يلجأ إلى الله المنقذ الحقيقى والمفرِّج للكَرْب ، والإنسان عادة لا يُسلم نفسه ويظلّ مُتعلّقاً بالأمل فى النجاة .

فقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء]

أى : أحاط بهم الخطر بالريح العاصف أو الموج العالى ، وأحسُّوا بخطورة الموقف ولا مُنقذَ لهم إلا الله ، حتى الكفار فى هذا الموقف يَصْدُقون مع أنفسهم ، ولا يخدعونها ولا يكذبون عليها ، فإنْ آمنوا بآلهة أخرى وإنْ عبدوا الأصنام والأوثان ، فإنهم فى هذا الضيق لا يلجأون إلا إلى الله ، ولا يدعون إلا الله ؛ لأنهم يعلمون تماماً أن آلهتهم لا تسمع ولا تجيب ، ولا تملك لهم نفعاً ولا نجاة .

قوله تعالى : ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء] أى : ذهب عن بالكم مَن اتخذتموهم آلهة ، وغابوا عن خاطركم ، فلن يقولوا هنا يا هبل ؛ لأنهم لن يغشُّوا أنفسهم ، ولن ينساقوا وراء كذبهم فى هذا الوقت العصيب .

إنهم فى هذا الضيق لن يتذكروا آلهتهم ، ولن تخطرَ لهم ببال

أبداً ؛ لأن مجرد تذكّرهم يُضعف ثقتهم فى الله الذى يملك وحده النجاة ، والذى يطلبون منه المعونة .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بقصة حلاق الصحة فى الريف الذى يتولى علاج البسطاء ، ويدّعى العلم والخبرة ، فإذا ما مرض ولده فإنه يُسرع به إلى الطبيب ، لأنه إنْ خدع الناس فلن يخدع نفسه ، وإنْ كذب عليهم فلن يكذب على نفسه .

وكذلك الإنسان لا يبيع نفسه رخيصاً ، فإنْ أحاطتْ به الأخطار لا يلجأ إلا إلى الله ؛ لأنه وحده القادر على تفريج الكروب وإغاثة الملهوف ، حتى وإنْ كان كافراً ؛ لأنه سبحانه هو الذى أمره أنْ يلجأ إليه ، وأنْ يدعوه ، فقال :

﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا .. (٤٣) ﴾ [الأنعام]

فإنْ دَعَوهُ سمع لهم وأجابهم على كفرهم وعنادهم ؛ لأنهم عباده وخَلْقه وصَنْعته ، فما أرحمه سبحانه حتى بمَنْ كفر به !

لذلك قال رب العزة فى الحديث القدسى : « قالت الأرض : يا رب إئذن لى أن أخسف بابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت السماء : يا رب إئذن لى أن أسقط كسَفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رب إئذن لى أن أخرَّ على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب إئذن لى أن أُغرقَ ابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك . فقال تعالى : دعونى وما خلقت ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، فإنهم عبادى ، فإنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم » .

لقد غفر لهم الحق سبحانه أن يعبدوا غيره ، وأن يؤذوا النبوة ، وأنْ يقفوا فى وجه الدعوة ، غفر لهم لأنه ربٌّ ، وما دام رباً فهو

رحيم ، فتضرعوا إليه ودَعَوْهُ ، فلمّا نجّاهم إلى البر أعرضوا ، وعادوا لما كانوا عليه وتنكّروا للجميل والمعروف ؛ لذلك يقول تعالي بعدها :

﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الإسراء]

وكفور : صيغة مبالغة من الكفر ، أى : كثير الكفر للنعمة ، ولَيْتَه كفر بنعمة الخلق فقال : إنه أتى هكذا من فعل الطبيعة ، إنما كفر بنعمة ملموسة مشاهدة عاش مآزقها ، وقاسى خطرها ، ثم إذا نجّاه الله أعرض وتمرَّد ، وهذا من طبيعة الإنسان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا(١) ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ ﴾

فهؤلاء الذين أعرضوا عن الله بعد إذ نجّاهم فى البحر أأمِنُوا مكْر الله فى البر ؟ وهل الخطر فى البحر فقط ؟ وأليس الله تعالى بقادر على أن يُنزِل بهم فى البر مثل ما أنزل بهم فى البحر ؟

يقول تعالى : ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الإسراء] . كما قال تعالى فى شأن قارون : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص] ولستم ببعيدين عن هذا إنْ أراده الله لكم ، وإنْ كنا نقول « البر أمان » فهذا فيما بيننا وبين بعضنا ، أما إنْ جاء أمر الله فلن يمنعنا منه مانع .

---

(١) حصبه : قذفه بالحصى . والحاصب : الإعصار الشديد يقذفكم بالحصى فيهلككم والرياح العاصفة تفعل أكثر من ذلك . [القاموس القويم ١/١٥٥] .

وقوله تعالى : ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا .. ﴿٦٨﴾﴾ [الإسراء] أى : ريحاً تحمل الحصباء ، وترجمكم بها رَجْماً ، والحصباء الحصى الصغار ، وهى لَوْن من ألوان العذاب الذى لا يُدفَع ولا يُرَدّ ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً ﴿٦٨﴾﴾ [الإسراء]

أى : لا تجدوا مَنْ ينصركم ، أو يدافع عنكم . إذن : لا تظنوا أن البر أمان لا خطر فيه .. لا ، بل خطرى موجود غير بعيد منكم ، سواء أكنتم فى البحر أم فى البر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾

أى : وإنْ نجاكم من خطر البحر ، فلا مجال للأمن فى البر ؛ لأنه قادر سبحانه أن يُذيقكم بأسه فى البر ، أو يُعيدكم فى البحر مرة أخرى ، ويُوقعكم فيما أوقعكم فيه من كَرْب فى المرة الأولى ، فالمعنى : أنجوتُمْ فأمنتُم .

وقوله تعالى : ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ .. ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء]

القاصف : هو الذى يقصف بعنف وشدة ، ولا يكون إلا فى اليابس ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ.. ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء] أى : بسبب كفركم بنعمة الله ، وجحودكم لفضله ، فقد نجاكم فى البحر فأعرضتم وتمردتم ، فى حين كان عليكم أن تعترفوا لله بالجميل ، وتُقِرُّوا له بالفضل .

ثم يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) ﴾ [الإسراء]

عندنا تابع وتبيع ، التابع : هو الذى يتبعك لعمل شىء فيك ، أما التبيع : فهو الذى يُوالى تتبعك ، ويبحث عنك لأَخْذ ثأره منك . فالمعنى : إنْ فعلنا بكم هذه الأفعال فلن تجدوا لكم تبيعاً يأخذ بثأركم أو ينتقم لكم ، إذن : لا أملَ لكم فى ناصر ينصركم ، أو مدافع يحميكم .

وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : أنا لا أخاف ردَّ الفعل منكم ، والإنسان يُحجم عن الفعل مخافةَ ردِّ الفعل ، ويجلس يفكر طويلاً : إذا ضربتُ فلاناً فسيأتى أهله ويفعلون بى كذا وكذا ، أما الحق سبحانه وتعالى فلا أحدَ يستطيع رداً على انتقامه أو عذابه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) ﴾

وهل هناك تكريم لبنى آدم أعظم من أنْ يُعدّ لهم مُقوّمات حياتهم قبل أنْ يخلقهم ؟ لقد رتَّب لهم الكون وخلق من أجلهم الأشياء ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا .. (٢٩) ﴾ [البقرة]

إذن : فكل ما فى الوجود مُسخَّر لكم من قبل أنْ تُوجَدوا ؛ لأن خلق الله تعالى إما خادم وإما مخدوم ، وأنت أيُّها الإنسان مخدوم من

كل أجناس الكون حتى من الملائكة ، ألم يَقُلْ الحق سبحانه : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ[1] مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد]

وقال تعالى : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ ﴾ [النازعات]

فالكون كله يدور من أجلك وفى خدمتك ، يعطيك عطاءً دائماً لا ينقطع دون سَعْى منك ، لذلك نقول : كان من الواجب على العقل المجرد أنْ يقفَ وقفة تأمُّل وتفكُّر ؛ ليصل إلى حَلٍّ للغز الكون ، وليهتدى إلى أن له خالقاً مُبْدعاً ، يكفى أن أنظر إلى آيات الله التى تخدمنى ، وليس لى قدرة عليها ، وليست تحت سيطرتى ، فالشمس والقمر والنجوم والأرض والهواء والماء والمطر والسحاب كلها تعطينى وتُمدّنى دون قدرة لى عليها ، أليس من الواجب عليك عدلاً أن تقول : مَنِ الذى أعدّ لى كلَّ هذه الأشياء التى ما ادَّعاهَا أحد لنفسه ؟

فإذا ما صاح صائح منك أيُّها الإنسان وقال : أنا رسول من الرب الذى خلق لكم كل هذه المخلوقات ، كان يجب عليكم أنْ تُرهفُوا له السمع لتسمعوا ما جاء به ؛ لأنه سوف يحلُّ لكم هذا اللغز الذى حيّركم .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً لذلك بالرجل الذى انقطعتْ به السُّبل فى الصحراء حتى أشرف على الهلاك ، فإذا هو بمائدة مُعدَّة بأطايب الطعام والشراب ، أليس حَرياً به قبل أنْ تمتد يده إليها أنْ يفكر كيف أتتْه ؟

---

(١) له معقبات : أى ملائكة حفظة يتتبعونه يحفظونه ويحصون أعماله . أو المعنى : تتعاقب الملائكة ليلاً ونهاراً . [القاموس القويم ٢ / ٢٩] .

إذن : كان على الإنسان أن يُعمل عـقله وفكْره فِى معطيات الكون التى تخـدمـه وتسخـر من أجله ، وهى لا تـأتمر بأمـره ولا تخـضع لقدرته .

وقد اخـتلف العلماء فى بيـان أَوْجُه التكريم فى الإنســان ، فمنهم مَنْ قال : كُرِّمَ بالعقل ، وآخـر قال : كُرِّمَ بالتمييـز ، وآخر قال : كُرِّمَ بالاختيـار ، ومنهم مَنْ قال : كُرِّم الإنســان بأنه يسير مرفـوع القامة لا مُنحنياً إلـى الأرض كـالبـهـائم ، ومنهم مَنْ يـرى أنه كُـرِّم بشكل الأصابـع وتناسقـها فى شكل بديع يســمح لها بالحـركة السلسـة فى تناول الأشـيـاء ، ومنهم مَنْ يرى أنه كُـرِّم بأن يأكلَ بيـده لا بفـمـه كالحيوان . وهكذا كان لكل واحد منهم ملْحظ فى التكريم[1] .

ولنا فى مـسـألة التـكريم هذه ملحظ كـنت أودُّ أنْ يلتـفت إلـيـه العلماء ، ألاَ وهو : أن الحق سبحانه خلق الكون كله بكلمة (كُنْ) إلا آدم ، فقد خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ، قال تعالى : ﴿ يَـٰإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴿٧٥﴾ ﴾ [ص]

وقال : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر]

فقمة الفضل والتكريم أن خلق الله تعالى أبانا آدم بيده ، بدليل أن الله جعلها حيثية له .

---

(١) قال القرطبى فى تـفسيره (٥/٤٠٢٢) : « والصحـيح الذى يُعوّل عليه أن التفـضيل إنما كـان بالعقل الذى هو عـمدة الـتكليف ، وبه يُعرف الله ويُفـهم كـلامه ويوصل إلى نعـيمـه وتصديق رسله ، إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بعثت الرسل وأنزلت الكتب » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ[(١)] فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ ﴾

أى : يوم القيامة ، والداعى هو المنادى ، والناس هم المدعوون ، والنداء على الناس فى هذا اليوم لا يكون بفلان بن فلان ، بل ينادى القوم بإمامهم أى : برسولهم ، فيقال : يا أمة محمد ، يا أمة عيسى ، يا أمة موسى ، يا أمة إبراهيم .

ثم يُفصّل هذا الإجمال ، فتُنادى كل جماعة بمَنْ بلَّغهم وهداهم ودلَّهم ليُغرى الناس بنقل الفضل العلمى من أنفسهم إلى غيرهم .

وقال بعضهم (بإمَامِهِمْ) أى : بأمهاتهم ، وفى دعاء الناس بأمهاتهم فى هذا الموقف تكريم لعيسى عليه السلام أولاً ، وستْر على

---

(١) اختلف العلماء والمفسرون فى تأويل كلمة « بإمامهم » :
- بكتابهم ، بكتاب كل إنسان منهم الذى فيه عمله . قاله ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك .
- بالكتاب المنزل عليهم . أى : يدعى كل إنسان بكتابه الذى كان يتلوه ، فيدعى أهل التوراة بالتوراة ، وأهل القرآن بالقرآن ، قاله ابن زيد .
- بنبيهم ، والإمام مَنْ يؤتم به . قاله مجاهد
- بإمام عصرهم . قاله قتادة وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه .
- بأعمالهم . فيقال : أين الراضون بالمقدور ، أين الصابرون عن المحذور . قاله الحسن وأبو العالية وابن عباس .
- بأمهاتهم . قاله محمد بن كعب .

ذكر القرطبى هذه الأقوال فى تفسيره (٥/٤٠٢٥) .

أولاد الإثم ثانياً ، حتى لا يُفضحوا على رؤوس الأشهاد فى مثل هذا الموقف .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَـٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٧١﴾ ﴾ [الإسراء]

فكوْنه أخذ كتابه بيمينه ، فهذه بشارة الخير وبداية السلامة ، فإذا به يسارع إلى قراءته ، بل ويتباهى به بين الناس قائلاً : ﴿ هَـٰؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحاقة] إنه مسرور بعمله الصالح الذى يحب أنْ يطلع عليه الناس ، وقوله تعالى : ﴿ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٧١﴾ ﴾ [الإسراء]

الظلم أنْ تأخذ من خير غيرك مما ليس عندك ، إذن : فعندك نقص فى شىء تريد أنْ تحصل عليه ظلماً ، إذن : فماذا ينقص الحق سبحانه وتعالى حتى يظلم الخلْق ؟! إن الخلق يتصفون بالظلم ؛ لأن الإنسان عادةً لا يرضى بما قسم الله له ؛ لذلك يشعر بالنقص فيظلم غيره ، أما الله عز وجل فهو الغنى عن الخلْق ، فكيف يظلمهم ؟ وهم جميعاً بما يملكون هبة منه سبحانه .

ومعنى ﴿ فَتِيلاً ﴾ عادةً يضرب الحق سبحانه وتعالى الأمثال فى القرآن بالمألوف عند العرب وفى بيئتهم ، ومن مألوفات العرب التمر ، وهو غذاؤهم المفضّل والعلَف لماشيتهم ، ومن التمر أخذ القرآن النقير والقطمير والفتيل ، وهى ثلاثة أشياء تجدها فى نواة الثمرة ، وقد استخدمها القرآن فى تمثيل الشىء الضئيل القليل .

فالنقير[1] : هو تجويف صغير فى ظهر النواة مثل النقطة .

---

(١) ورد لفظ « النقير » فى القرآن مرتين :
- ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [النساء] .
- ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ [النساء]

والقطمير[1] : هو اللفافة الرقيقة الشفافة بين الثمرة والنواة .

والفتيل : هو غلالة رقيقة تشبه الخيط فى بطن النواة .

فمعنى : ﴿ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧١) ﴾ [الإسراء] أى : أنه سبحانه وتعالى لا يظلم الناس أبداً ، فهو سبحانه مُنزَّه عن الظلم مهما تناهى فى الصِّغَر .

وفى مقابل مَنْ أوتى كتابه بيمينه لم تذكر الآية مَنْ أُوتى كتابه بشماله ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) ﴾ [الحاقة] وفى آية أخرى قال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) ﴾ [الانشقاق]

أما هنا فقال الحق سبحانه :

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢) ﴾

وهذا هو المقابل لمن أخذ كتابه بيمينه ؛ لأنه عميتْ بصيرته فى الدنيا فعمى فى الآخرة ، وطالما هو كذلك فلا شكَّ أنه من أهل الشمال ، فالآيات ذكرتْ مرة السبب ، وذكرتْ مرة المسبَّب ، ليلتقى السبب والمسبب ، وهو ما يعرف باسم [الاحتباك] البلاغى .

فكأن الحق سبحانه قال : إن مَنْ أُوتى كتابه بيمينه وقرأه وتباهى به لم يكُنْ أعمى فى دنياه ، بل كان بصيراً واعياً ، فاهتدى إلى منهج الله وسار عليه ، فكانت هذه نهايته وهذا جزاءه .

---

(١) ورد لفظ « القطمير » فى القرآن مرة واحدة :
- ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) ﴾ [فاطر] .

أما مَنْ أوتى كتابه بشماله فقد كان أعمى فى الدنيا عمى بصيرة لا عمى بصر ؛ لأن عمى البصر حجب الأداة الباصرة عن إدراك المرائى ، والكافرون فى الدنيا كانوا مُبصرين للمرائى من حولهم . مُدركين لماديات الحياة ، أما بصيرتهم فقد طُمِس عليها فلا ترى خيراً ، ولا تهتدى إلى صلاح .

وسبق أن قلنا : إن الإنسان لكى يسير فى رحلة الحياة على هدى لا بُدَّ له من بصر يرى به المرائى المادية ، حتى لا يصطدم بأقوى منه فيتحطم أو بأضعف منه فيحطمه ، والبصر للمؤمن والكافر من عطاء الربوبية للإنسان . لكن إلى جانب البصر هناك عطاء آخر هو ثمرة من ثمار عطاء الألوهية الذى لا يكون إلا للمؤمن ، ألا وهو البصيرة ، بصيرة القيم التى يكتسبها الإنسان من منهج الله الذى آمن به وسار على هَدْيه .

وقوله : ﴿ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢) ﴾ [الإسراء]

إنْ كان عماه فى الدنيا عمى بصيرة ، فَعَماه فى الآخرة عمى بصر ؛ لأن البصيرة مطلوبة منه فى الدنيا فقط ؛ لأن بها سيُعرف الخير من الشر ، وعليها يترتب العمل ، وليست الآخرة مجال عمل ، إذن : العمى فى الآخرة عمى البصر ، كما قال تعالى فى آية أخرى :

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ [طه]

وقال عنهم فى آية أخرى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا .. (٩٧) ﴾ [الإسراء]

لكن قد يقول قائل : هناك آيات أخرى تثبت لهم الرؤية فى الآخرة ، مثل قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ .. ﴿٧٥﴾﴾ [مريم]

وقوله تعالى : ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا .. ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف]

وللجمع بين هذه الآيات وللتوفيق بينها نقول : للكفار يوم القيامة فى مجال الرؤية البصرية حالتان : الأولى عند القيام وهَوْل المحشر يكونون عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً لتزداد حَيْرتهم ويشتد بهم الفزع حيث هم فى هذا الكرب الشديد ، ولكن لا يعرف ما يحدث ولا أين المهرب ، ولا يستمعون من أحد كلمة ، وهكذا هم فى كَرْب وحَيْرة لا يدرون شيئاً . وهذه حالة العمى البصرى عندهم .

أما الحالة الثانية وهى الرؤية ، فتكون عندما يتجلى الحق تبارك وتعالى لأهل الموقف ويكشف الغطاء عن نفسه سبحانه ، فهنا يصير الكافر حَادّ البصر ، ليرى مكانه من النار .

ولا بُدَّ لنا هنا أن نلحظَ أن ألفاظ اللغة قد يكون اللفظ واحداً ولكن يختلف السياق ، ففى قوله تعالى : ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء]

فلفظ (أَعْمَى) واحد ، لكن فى الآخرة قال (وَأَضَلُّ سَبِيلاً) إذن : لابُدَّ أن عمى الدنيا أقلّ من عمى الآخرة ، كما تقول : هذا خير . فمقابل خير : شر . أما لو قلت : هذا خَيْر من هذا فقد فضّلتَ الأول فى الخيرية عن الثانى ، إذن : كلمة خير إما أنْ تأتى وَصْفاً ، وإما أن تأتى تفضيلاً .

ومن ذلك قول الرسول ﷺ : « المؤمن القوى خَيْرٌ وأحَبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كُلٍّ خير »[1] .

فالمراد أن المؤمن القوى أكثر فى الخيرية . إذن : فكلمة : ﴿ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ .. (٧٢) ﴾ [الإسراء] ليست وَصْفاً ، وإنما تفضيل لعمى الآخرة على عمى الدنيا ، أى أنه فى الآخرة أشدّ عمًى .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢) ﴾ [الإسراء] ومعلوم أنه كان ضالاً فى الدنيا ، فكيف يكون أضلَّ فى الآخرة ؟

قالوا : لأن ضلاله فى الدنيا كان يمكن تداركه بالرجوع إلى المنهج والعودة إلى الطريق السَّوىّ ، أما فى الآخرة فضلاله لا يمكن تداركه ، فقد انتهى وقت الاختيار ، إذن : فضلالُهُ فى الآخرة أشدّ وأعظمُ من ضلاله فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه[2] :

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) ﴾

وهذه خبيثة جديدة من خبائثهم مع رسول الله ﷺ ، فقد كانوا يحاولون جادِّين أنْ يصرفوا رسول الله عما بعثه الله به ، فمرة

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) ، وأحمد فى مسنده (٢/٣٦٦ ، ٣٧٠) وابن ماجة فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) سبب نزول الآية : قال ابن عباس : نزلت فى وفد ثقيف أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : متعنا باللات سنة ، وحرِّم وادينا كما حرمت مكة شجرها وطيرها ووحشها ، فأبى ذلك رسول الله ﷺ ولم يجبهم . فأنزل الله هذه الآية . وقال سعيد بن جبير : قال المشركون للنبى ﷺ : لا نكف عنك إلا بأن تُلم بآلهتنا ولو بطرف أصابعك ، فقال النبى ﷺ : ما علىّ لو فعلت والله يعلم أنى بارّ ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

يقولون له : دَعْ آلهتنا نتمتع بها سنة ونأخذ الغنائم من ورائها وتحرم لنا بلدنا ـ أى : ثقيف ـ كما حرمت مكة . ومرة يقولون له : لا تستلم الحجر ويمنعونه من استلامه حتى يستلم آلهتهم أولاً .

ومعنى (كادوا) أى قاربوا ، والمقاربة غير الفعل ، فالمقاربة مشروع فعل وتخطيط له ، لكنه لم يحدث ، إنهم قاربوا أنْ يفتنوك عن الذى أُنزل إليك لكن لم يحدث ؛ لأن محاولاتهم كانت من بعيد ، فهى تحوم حول فتنتك عن الدين ، كما قالوا مثلاً : نعبد إلهك سنة ، وتعبد آلهتنا سنة[1] .

ومعنى : ﴿ ليَفْتنُونَكَ ﴾ لَيُحوّلونك ويَصْرفونك عما أنزل الله إليك ، لماذا ؟ ﴿لتَفْتَرِيَ علَيْنَا غَيْرَهُ .. (٧٣)﴾ [الإسراء] كما حكى القرآن عنهم فى آية أخرى : ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ .. (١٥)﴾ [يونس]

فيكون الجواب من الحق سبحانه : ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)﴾ [يونس]

وقال تعالى : ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

ونلاحظ فى مثل هذا الموقف أن الحق سبحانه يتحمل العنت عن

---

(١) أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ويزوجوه ما أراد من النساء ، فقالوا : هذا لك يا محمد ، وكف عن شتم آلهتنا ولا تذكر آلهتنا بسوء ، فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح . قال : ما هى ؟ قالوا : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة . فنزل الوحى بقوله تعالى : ﴿قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢)﴾ [الكافرون] ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٨/ ٦٥٤) .

رسوله ، وينقل المسألة من ساحة الرسول إلى ساحته تعالى ، لكى لا تكون عداوة بين محمد وقومه ، فالأمر ليس من عند محمد بل من عند الله ، يقول تعالى : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَيُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ [الأنعام]

فلا تحزن يا محمد ، فأنت مُصَدَّق عندهم ، لكن المسألة عندى أنا ، وهكذا يتحمل الحق سبحانه الموقف عن رسوله حتى لا يحمل القوم ضغينة لرسول الله .

ثم يقول تعالى : ﴿وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣)﴾ [الإسراء]

الخليل : هو المخالّ الذى بينك وبينه حُبٌّ ومودّة ، بحيث يتخلل كل منكما الآخر ويتغلغل فيه ، ومنه قوله تعالى فى إبراهيم : ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً (١٢٥)﴾ [النساء]

ومنه قول الشاعر :

وَلَمَّا التقيْنَا قَرَّبَ الشَّوْقُ جَهْدَهُ ... خَليلَيْنِ ذَابَـا لَوْعَةً وَعتَابَا
كأنَّ خَلِيلاً فِى خِـلاَلِ خَلِيلِه ... تَسَرَّبَ أثنَاءَ العِنَاقِ وَغَابَا

فإذا ما تقابل الخليلان ذاب كل منهما فى صاحبه أو تخلّله ودخل فيه .

فالمعنى : لو أنك تنازلتَ عن المنهج الذى جاءك من الله لَصِرْتَ خليلاً لهم ، كما كنت خليلاً لهم من قبل ، وكانوا يحبونك ويقولون عنك « الصادق الأمين » . إذن : الذى جعلهم فى حالة عداء لك هو منهج الله الذى جئتَ به ، فلو تنازلتَ عنه أو تهاونت فيه فسوف يتخذونك خليلاً ، فلا تكُنْ خليلاً لهم بل خليلاً لربك الذى أرسلك .

ويخاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ ، فيقول :

﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾

﴿وَلَوْلاَ﴾ أداة شرط إنْ دخلت على الجملة الإسمية ، وتفيد امتناع وجود الجواب لوجود الشرط ، ويسمونها حرف امتناع لوجود . كما لو قلت : لولا زيدٌ عندك لَزُرْتُكَ ، فقد امتنعت الزيارة لوجود زيد .

فإنْ دخلت (لولا) على الجملة الفعلية أفادتْ الحثَّ والحضَّ ، كما فى قوله تعالى : ﴿لَوْلا جَاءُوا عَلَيْه بِأَرْبَعَة شُهَدَاءَ.. ﴿١٣﴾﴾ [النور]

و (لولا) فى الآية دخلتْ على جملة إسمية ؛ لأن (أن) بعدها مصدرية ، فالمعنى : لولا تثبيتنا لك لقاربتَ أنْ تركنَ إليهم شيئاً قليلاً .

والمتأمل فى هذه الآية يجدها تحتاط لرسول الله عدة احتياطات ، فلم تقُلْ : لولا تثبيتنا لك لَركنتَ إليهم ، لا ، بل لَقاربتَ أنْ تركنَ فمنعتْ مجرد المقاربة ، أما الركون فهو أمر بعيد وممنوع نهائياً وغير مُتصوّر من رسولِ الله ، ومع ذلك أكّد سبحانه وتعالى هذا المعنى بقوله : ﴿شَيْئًا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء] أى : ركوناً قليلاً .

مما يدلُّ على أن طبيعته ﷺ ـ حتى دون الوحى من الله ـ طبيعة سليمة بفطرتها ، فلو تصوَّرنا عدم التثبيت له من الله ماذا كان يحدث منه ؟ يحدث مجرد (كاد) أو (قَرُب) أنْ يركنَ إليهم شيئاً قليلاً ، وقلنا : إن المقاربة تعنى مشروعَ فِعْل ، لكنه لم يحدث ، مِمّا يدلُّ على أن لرسول الله ذاتية مستقلة .

ومعنى ﴿ثَبَّتْنَاكَ.. ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء] التثبيت هو منع المثبَّت أنْ يتأرجح ، لذلك نقول للمتحرك : اثبت .

ومعنى : (تَرْكَنُ) من ركون الإنسان إلى شيء يعتصم به ويحتمي ، والناس يبنون الحوائط ليحموا بها ممتلكاتهم ، وإذا احتمى الإنسان بجدار فأسند ظهره إليه مثلاً فقد حَمَى ظهره فقط ، وأمن أنْ يأتيه أحد من ورائه ، فإنْ أراد أنْ يحميَ جميع جهاته الأربع ، فعليه أن يلجأ إلى رُكْن وأنْ يسند ظهره إلى الركن فيأمن ما أمامه ، ويحتمي بجدار عن يمينه وجدار عن شماله . إذن : الركون أن تذهب إلى حِرْز يمنعك من جميع جهاتك .

ومن الركون قوله تعالى عن لوط عليه السلام مع قومه : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [هود] أي : أحتمي به وألجأ إليه .

والحق سبحانه في هذه الآيات يريد أنْ يستلَّ السخيمةَ على محمد ﷺ من قلوب أعدائه ؛ لأنه ﷺ كان حريصاً على هدايتهم وتأليف قلوبهم ، وقد كان يشقُّ على نفسه ويُحمّلها ما لا تطيق في سبيل هذه الغاية ، ومن ذلك ما حدث من تَرْكه عبد الله بن أم مكتوم الذي جاءه سائلاً ، وانصرافه عنه إلى صناديد قريش ؛ لذلك عتب عليه ربه تبارك وتعالى لأنه شقَّ على نفسه[1] .

وكأن الحق تبارك وتعالى في هذه الآية يقول : يا قوم إنْ لم يوافقكم محمد على ما كنتم تريدون منه من الانصراف عَمَّا أُنزل إليه من ربه ، فاعذروه ؛ لأن الأمر عندي والتثبيت مني ، ولا ذنب لمحمدْ فيما خالفكم فيه ، كما لو كان عندك خادم مثلاً ارتكب خطأً ما ، فأردتَ أنْ تتحمل عنه المسئولية ، فقلت : أنا الذي كلفتُه بهذا وأمرتُه به ، فالأمر عندي وليس للخادم ذنب فيما فعل .

---

(١) وقد قال تعالى عن هذا : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [عبس] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾

﴿ إذاً ﴾ أى : لو كدتَ تركن إليهم شيئاً قليلاً لأذقناك ضعْف الحياة وضعْف الممات ، وبهذا التهديد يرفع الحق سبحانه سخيمة الكُرْه من صدور القوم لمحمد ، وينقلها له سبحانه وتعالى .

ومعنى ﴿ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الإسراء] الضعْف : مضاعفة الشيء مرة أخرى . أى : قَدْر الشيء مرتين ، ولا يُذاق فى الحياة إلا العذاب ، فالمراد : لأذقناك ضعْف عذاب الحياة وضعْف عذاب الممات ، لكن لماذا يُضاعَف العذاب فى حَقِّ محمد ﷺ ؟

قالوا : لأنه أُسْوة كبيرة وقُدْوة يقتدى الناس بها ، ويستحيل فى حقِّه هذا الفعل ، ولا يتصور منه ﷺ ، لكن على اعتبار أن ذلك حدث منه فسوف يُضاعَف له العذاب ، كما قال تعالى فى نساء النبى :
﴿ يَٰنِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأحزاب]

ذلك لأنهن بيت النبوة وأمهات المؤمنين ، وهنَّ أُسْوة لغيرهنّ من نساء المسلمين ، وكلما ارتفع مقام الإنسان فى مركز الدعوة إلى الله وجب عليه أنْ يتبرأ عن الشبهة ؛ لأنه سيكون أُسْوة فعل ، فإنْ ضلَّ فلن يضل فى ذاته فقط ، بل سيضل معه غيره ، ومن هنا شدَّد الله العقوبة وضاعفها للنبى ولزوجاته .

وقد اختار الحق سبحانه لفظ ﴿ لأَذَقْنَاكَ ﴾ ؛ لأن الإذاقة من

الذَّوْق ، وهو أعمّ الملكَات شُيوعاً فى النفس ، فأنت ترى بعينك وتسمع بأذنك وتشمُّ بأنفك ، لكن المذاق تشترك فيه كل الملكات .

ثم يقول تعالى : ﴿ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً (٧٥)﴾ [الإسراء]

أى : لا تجد مدافعاً يدافع عنك ؛ أو ناصراً ينصرك ؛ لأن مددك منى وحدى ، فكيف يكون لك ناصر من دونى ؟

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ[2] لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦)﴾

وهنا أيضاً يقول تعالى : ﴿ كَادُوا ﴾ أى : قاربوا ، فهم لا يجرؤون على الفعل ، ولا يستطيعون ، فالأمر مجرد القُرْب من الفعل ، فإنهم سيحاولون إخراجك ، لكنك لن تخرج إلا بأمرى وتقديرى .

وقوله تعالى : ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ .. (٧٦)﴾ [الإسراء] من استفزَّه أى : طلب منه النهوض والخفّة إلى الفعْل ، كما تقول لولدك المتثاقل : (فز) أى : قُمْ وانهض ، والمراد : يستحثونك على الخروج ﴿ مِنَ الأَرْضِ ﴾ من مكة بإيذائهم لك ، وعَنَتِهمْ معك ليحملوك على الخروج ، ويُكرِّهوك فى الإقامة بها .

---

(١) سبب نزول الآية : قال مجاهد وقتادة : نزلت فى هَمِّ أهل مكة بإخراجه ، ولو أخرجوه لما أمهلوا ، ولكن الله أمره بالهجرة فخرج . قال القرطبى فى تفسيره (٥/ ٤٠٣٠) : « وهذا أصح ؛ لأن السورة مكية ، ولأن ما قبلها خبر عن أهل مكة ، ولم يجر لليهود ذكر » .

(٢) يريد أرض مكة . قال تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣)﴾ [محمد] . قاله القرطبى فى تفسيره (٥/ ٤٠٣٠) .

وكفار مكة يعلمون أن فى خروجه ﷺ من مكة راحة لهم ، وحتى لا يكون أُسْوة لعبيدهم ولضعاف القوم الذين أحبوه ، ومالوا لاعتناق دينه والإيمان به .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٧٦﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : لو أخرجوك من مكة فلن يلبثوا فيها بعدك إلا قليلاً ، وقد حدث فعلاً ، فبعد خروجه ﷺ من مكة بعام جاءت بدر ، فقُتل سبعون من صناديد قريش ، وأُسرَ سبعون ، وبعد أن خرج الرسول من مكة لم يتمتعوا فيها بالنعيم ولا بالسيادة التى كانوا يَرجُونها بعد خروجه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾

يُوضِّح الحق تبارك وتعالى أن ما حدث هو سُنة من سُنن الله فى الرسل ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات]

فكان عليهم أنْ يأخذوا عِبْرة من الرسل السابقين ، وبما حلَّ بأعدائهم من عذاب الله ، لقد أرسل الله الرسل فكُذِّبوا وعُودوا واضطهدُوا ، ومع ذلك نصرهم الله ، وجعل لهم الغَلبة .

والسُّنة : هى العادة والطريقة التى لا تتخلَّف ولا تتبدَّل ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴿٧٧﴾ ﴾ [الإسراء] ؛ لأن السُّنة لا تتحوّل ولا تتبدّل إلا بالأقوى الذى يأتى ليُغير السنة بأخرى من عنده ، فإذا كانت السُّنة من الله القوى بل الأقوى ، فهو سبحانه وحده

الذى يملك هذا التحويل ، ولا يستطيع أحد أبداً تحويل سنة الله ، فإذا قال سبحانه ، فقوله الحق الذى لا يُبدِّله أحد ، ولا يُعارضه أحد .

● ● ●

وبعد أن تكلَّم الحق سبحانه عن الإلهيات إيماناً بها ، وعن النبوات تصديقاً لها ، وعن القيامة ووجوب الإيمان بها وبما يحدث فيها من تناول الكتب ، أراد سبحانه أنْ يأتى لنا بثمرة هذا المنهج وحصيلته النهائية ، وهى أنْ يستقيمَ لنا منهج الحياة وتنضبط حركتنا فيها .

هذا المنهج الإلهى جاء فى صورة أحكام ، ولهذه الأحكام أركان أساسية جمعها النبى ﷺ فى قوله : « بُنِىَ الإسلامُ على خَمْس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً »[1] .

إذن : هذه هى الأركان التى بُنِى عليها الإسلام ، لكن ما حَظُّ المسلم من هذه الأركان ؟ لو تأملتَ لوجدتنَا نشترك كلنا فى شهادة أنْ لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وفى الصلاة لأنها لا تسقط عن أحد لأىِّ سبب ، وهى المكرَّرة فى اليوم خمس مرات .

أما باقى الأركان وهى : الزكاة ، والصوم ، والحج فقد لا تنطبق شروطها على الجميع ، فالفقير لا تُفرض عليه زكاة أو حج ، والمريض لا يُفرض عليه الصوم . إذن : عندنا أركان للإسلام وأركان للمسلم التى هى : الشهادتان والصلاة ، وقد يدخل فيها الزكاة أو الصوم أو الحج ، فإذا أتى المسلم بجميع الأركان فقد اتفقتْ أركان الإسلام مع أركان المسلم .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦) ، وكذا البخارى فى صحيحه (٨) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

وتلاحظ فى هذه الأركان أن الشهادتين يكفى أن تقولهما وتشهد بهما ولو مرة واحدة ، والزكاة والصوم والحج قد لا تنطبق عليك شروطها ، فلم يَبْقَ إلا الصلاة ؛ لذلك جعلها عماد الدين[(١)] .

ثم قال تعالى :

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ[(٢)] ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ[(٣)] ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾

فالصلاة هى الفريضة الثابتة المتكررة التى لا تسقط عن المسلم بأى حال ، وفيها إعلانُ ولاء للإيمان بالله كل يوم خمس مرات ، وهى أيضاً تنتظم كل أركان الإسلام ؛ لأنك فى الصلاة تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فبدل أنْ كنتَ تقولها مرة واحدة ها أنت تقولها عدة مرات فى كل صلاة ، وهذا هو الركن الأول .

كما أنها تشتمل على الصوم ؛ لأنك تصوم فى أثناء الصلاة ، فتمتنع عن شهوتَيْ البطن والفرج ، وكذلك عن أيِّ فعل غير أفعال الصلاة ، وعن الكلام فى غير ألفاظ الصلاة . إذن : فى الصلاة صيام بالمعنى الأوسع للصوم .

---

(١) لفظه : « الصلاة عماد الدين ، فمن أقامها أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين » قال الحافظ العراقى فى تخريجه للإحياء (١٤٧/١) : « رواه البيهقى فى الشُّعَب بسند ضعَّفه من حديث عمر » وقال الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة (حديث ٥٧٨) » : « قال ابن الصلاح فى مشكل الوسيط : إنه غير معروف . وقال النووى فى التنقيح : إنه منكر باطل . لكن رواه الديلمى عن على كما ذكره السيوطى فى الدرر المنتثرة (ح٢٧٩) .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٤٠٣١/٥) : « اختلف العلماء فى الدلوك على قولين : أحدهما : أنه زوال الشمس عن كبد السماء ، قاله عمر وابنه وأبو هريرة وابن عباس وطائفة سواهم من علماء التابعين وغيرهم .
الثانى : أن الدلوك هو الغروب ، قاله على وابن مسعود وأبى بن كعب قال الماوردى : من جعل الدلوك اسماً لغروبها ، فلأن الإنسان يدلك عينيه براحته لتبينها حالة المغيب ، ومن جعله اسماً لزوالها فلأنه يدلك عينيه لشدة شعاعها » .

(٣) الغسق : ظلمة الليل ، وهو وقت صلاة العشاء . [القاموس القويم ٥٣/٢]

وفى الصلاة زكاة ؛ لأن المال الذى تكتسبه وتُزكِّيه ناتج عن الحركة ، والحركة فرع الوقت ، وفى الصلاة تُضحّى بالوقت نفسه ، فكأن الزكاة فى الصلاة أبلغ .

وكذلك فى الصلاة حج ؛ لأنك تتوجّه فيها إلى كعبة الله ، وتستحضرها فى ذِهْنك وأمام ناظريْكَ .

لذلك استحقت الصلاة أن تكون عماد الدين ، مَنْ أقامها فقد أقام الدين ، ومَنْ هدمها فقد هدم الدين ، ومن هنا جاءت الصلاة فى أول هذه الأحكام ، فقال تعالى : ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ .. (٧٨)﴾ [الإسراء] أى : أدِّها أداءً كاملاً فى أوقاتها .

والصلاة لها مَيْزة عن كل أركان الإسلام ؛ لأن كل تكليفات الإسلام جاءت بواسطة الوحى لرسول الله إلا الصلاة ، فقد فُرِضَتْ بالمباشرة مما يدلُّ على أهميتها ، وقد مثَّلنا لذلك - ولله المَثل الأعلى - بالرئيس الذى يتصل بمرؤوسه تليفونياً ليأمره بشىء ، فإذا كان هذا الشىء من الأهمية بمكان استدعاه إليه وأفهمه ما يريد .

وهكذا كانت الصلاة ، فقد فُرِضَتْ على رسول الله ﷺ وعلى أمته بالمباشرة لما لها من أهمية بين فرائض الدين ، ثم تولى جبريل عليه السلام تعليم رسول الله الصلاة ، وعلَّمها رسول الله للناس ، وقال : « صلُّوا كما رأيتمونى أصلِّى »[1] .

وقوله تعالى : ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ .. (٧٨)﴾ [الإسراء]

الحق سبحانه يريد أن يُبيِّن لنا مواقيت الصلاة . و (الدلوك) معناه : الزوال من حركة إلى حركة ، ومنها قولنا : فلان (المدلكاتى)

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣١) ، وأحمد فى مسنده (٥/٥٣) من حديث مالك بن الحويرث رضى الله عنه . ضمن حديث .

أى : الذى يتولّى عملية التدليك ، وتتحرك يده من مكان لمكان .

والمراد بدلوك الشمس : مَيْلُها عن وسط السماء إلى ناحية الغرب ، والإنسان يرى الأفق الواسع إذا نظر إلى السماء ، فيراها على شكل قوس ممتدّ وعلى حَسْب نظره وقوته يرى الأفق ، فإنْ كان نظره قوياً رأى الأُفْق واسعاً ، وإنْ كان نظره ضعيفاً رأى الأفق ضيّقاً ؛ لذلك يقولون لقليل التفكير : ضيِّق الأفق .

وأنت حين تقف فى مكانك وتنظر إلى السماء تراها على شكل نصف دائرة ، وأنت مركزها ، وساعةَ أنْ ترى الشمس عمودية عليك ، فهذا وقت الزوال ، فإذا ما انحرفتْ الشمس ناحية المغرب يُقَال : دلكت الشمس . أى : مالت ناحية المغرب ، وهذا هو وقت الظهر .

والمتأمل فى فَرْض الصلاة على رسول الله يجد أن الظُّهْر هو أول وقت صَلاَه رسول الله ؛ لأن الصلاة فُرِضَتْ عليه فى السماء فى رحلة المعراج ، وكانت بليل ، فلما عاد ﷺ كان يستقبل الظهر ، فكانت هى الصلاة الأولى .

ثم يقول تعالى : ﴿إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ .. (٧٨)﴾ [الإسراء] أى : أقم الصلاة عند دُلوك الشمس إلى متى ؟ إلى غَسَق الليل أى : ظُلْمته ، وفى الفترة من دُلوك الشمس إلى ظُلْمة الليل تقع صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ولا يبقى إلى صلاة الصبح ، فقال عنها سبحانه وتعالى : ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨)﴾ [الإسراء] ونتساءل هنا : لماذا ذكر قرآن الفجر ولم يَقُلْ صلاة ؟

قالوا : لأن القرآن فى هذا الوقت حيث سكون الكون وصفاء النفوس ، فتتلقى القرآن ندياً طرياً وتستقبله استقبالاً واعياً قبل أن تنشغل بأمور الحياة ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨)﴾ [الإسراء]

أى : تشهده الملائكة . إذن : المشهودية لها دَخْل فى العبادة ، فإذا كانت مشهودية مَنْ لا تكليف عليه فى الصلاة جعلها الله حيثية ، فكيف بمشهودية مَنْ كُلِّفَ بالصلاة ؟

والحق سبحانه وتعالى جعل فى صلاة الجماعة استطراقاً للعبودية ، ففى صلاة الجماعة يستوى كل الخَلْق حيث يخلعون وجاهتهم ، ويخلعون أقدارهم على أبواب المسجد ، كما يخلعون أحذيتهم ، فالرئيس بجانب المرؤوس والوزير بجانب الخفير .

لذلك نهى النبى ﷺ أن يُوطِّن الإنسان لنفسه مكاناً فى المسجد ، يجلس فيه باستمرار[1] ؛ لأن الأصل أنْ يجلس المصلى حيث ينتهى به المجلس ، فيجلس الناس بأولوية الحضور كل حَسْب مكانه ومبادرته للصلاة ، فلا يتخطى الرقاب[2] ، ولا يُفرق بين اثنين[3] .

ونرى بعض المصلين يسارع إلى الصفِّ الأول مثلاً ، ويضع سجادته ليحجزَ بها مكاناً ، ثم ينصرف لحَاجته ، فإذا ما تأخر عن الصلاة أتى ليتخطَّى رقاب الناس ليصل إلى مكانه ، فإذا بالناس يضيقون من هذا التصرُّف ، ويُنحُّون سجادته جانباً ويجلسون مكانها ، إنه تصرُّف لا يليق ببيوت الله التى تُسوِّى بين خَلْق الله جميعاً ، وتحقق

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤٢٨/٣) ، وابن ماجة فى سننه (١٤٢٩) ، وأبو داود فى سننه (٨٦٢) من حديث عبد الرحمن بن شبل قال : « نهى رسول الله ﷺ عن نقرة الغراب ، وافتراش السبع ، وأن يوطن الرجل المكان فى المسجد كما يوطن البعير » .

(٢) أخرج ابن ماجة فى سننه (١١١٦) من حديث معاذ بن أنس قال قال ﷺ : « من تخطى رقاب الناس يوم الجمعة اتُّخذ جسراً إلى جهنم » .

(٣) عن سلمان الفارسى قال قال ﷺ : « من اغتسل يوم الجمعة وتطهر بما استطاع من طهر ، ثم ادهن أو مسَّ من طيب ، ثم راح فلم يفرق بين اثنين فصلى ما كُتب له ، ثم إذا خرج الإمام أنصت ، غُفِر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٩١٠) .

استطراق العبودية لله ، فأنت اليوم بجوار فلان ، وغداً بجوار آخر ، الجميع خاضع لله راكع وساجد ، فليس لأحد أن يتعالى على أحد .

ونرى كذلك استطراق العبودية واضحاً فى مناسك الحج ، حيث يأتى أحد العظماء والوجهاء فتراه عند الملتزم خاضعاً ذليلاً باكياً متضرعاً ، وهو مَنْ هو فى دُنْيا الناس .

إذن : فوقت الفجر وقت مبارك مشهود ، تشهده ملائكة الليل ، وهم غير مُكلَّفين بالصلاة ، فالأفضل من مَشْهدية الملائكة مَشْهدية المصلِّين الذين كلَّفهم الله بالصلاة ، وجعلهم ينتفعون بها .

ومن هنا كانت صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ، كما جاء فى الحديث النبوى الشريف(١) .

ويجب أن نلتفت إلى أن الحق سبحانه ربط الصلوات الخمس بالوقت ، وبآية كونية تدلُّ عليه هى الشمس ، فكيف العمل إذا غابت ، أو حُجبَتْ عنَّا بغيْم أو نحوه ؟

إذن : على الإنسان المؤمن أن يجتهد ويُعملَ تفكيره فى إيجاد شىء يضبط به وقته ، وفعلاً تفتقتْ القرائح عن آلات ضبط الوقت الموجودة الآن ، والتى تُيسِّر كثيراً على الناس ؛ لذلك كانت الطموحات الإنسانية لأشياء تخدم الدين وتوضح معالمه أمراً واجباً على علماء المسلمين ، على اعتبار أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ ﴾

---

(١) عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٦٥٠) .

الهجود : هو النوم ، وتهجَّد : أى أزاح النوم والهجود عن نفسه ، وهذه خصوصية لرسول الله وزيادة على ما فرض على أمته ، أنْ يتهجَّد لله في الليل ، كما قال له ربه تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝٢ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ۝٤﴾ [المزمل]

فهذه الخصوصية لرسول الله وإنْ كانت فَرْضاً عليه ، إلا أنها ليست فى قالب من حديد ، بل له ﷺ مساحة من الحرية فى هذه العبادة ، المهم أن يقوم لله تعالى جزءاً من الليل ، لكن ما علَّة هذه الزيادة فى حَقِّ رسول الله ؟ العلة فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝٥﴾ [المزمل]

وكأن التهجُّد ليلاً ، والوقوف بين يدى الله فى هذا الوقت سيعطى رسول الله ﷺ القوة والطاقة اللازمة للقيام بهذه المسئولية الملقاة على عاتقه ، ألاَ وهى مسئولية حَمْل المنهج وتبليغه للناس .

وفى الحديث الشريف « أن رسول الله كان كلما حزبه أمر قام إلى الصلاة »[1] ، ومعنى حَزَبه أَمْر : أى : ضاقت أسبابه عنه ، ولم يَعُد له فيه منفذ ، فإنْ ضاقت عليه الأسباب فليس أمامه إلا المسبِّب سبحانه يلجأ إليه ويُهْرع إلى نجدته ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ۝٦﴾ [المزمل]

لأنك فى الوقت الذى ينام فيه الناس ويخلدون إلى الراحة وتتثاقل رؤوسهم عن العبادة ، تقوم بين يدى ربك مناجياً مُتضرِّعاً ، فتتنزل عليك منه الرحمات والفيوضات ، فَمَنْ قام من الناس فى هذا الوقت

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) ، وأبو داود فى سننه (١٣١٩) من حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه .

واقتدى بك فلَهُ نصيب من هذه الرحمات ، وحَظٌّ من هذه الفيوضات . ومَنْ تثاقلتْ رأسه عن القيام فلا حَظَّ له .

إذن : في قيام الليل قوة إيمانية وطاقة روحية ، ولما كانت مهمة الرسول فوق مهمة الخَلْق كان حظّه من قيام الليل أزيد من حظهم ، فأعباء الرسول ﷺ كثيرة ، والعِبْءُ الثقيل يحتاج الاتصال بالحق الأحد القيوم ؛ حتى يستعين بلقاء ربه على قضاء مصالحه .

ومن العجيب أنْ ينصرف المسلمون عن هذه السُّنة ، ويتغافلون عنها ، فإذا حزبهم أمر لا يُهْرَعون إلى الصلاة ، بل يتعللون ، يقول أحدهم : أنا مشغول . وهل شغل الدنيا مبرر للتهاون في هذه الفريضة ؟ ومَنْ يدريك لعلك بالصلاة تُفتح لك الأبواب ، وتقضى في ساعة ما لا تقضيه في عدة أيام .

ونقول لهؤلاء الذين يتهاونون في الصلاة وتشغلهم الدنيا عنها ، فإنْ صلُّوا صلُّوا قضاءً ، فإنْ سألتَهم قالوا : المشاغل كثيرة والوقت لا يكفي ، فهل إذا أراد أحدهم الذهاب لقضاء حاجته ، هل سيجد وقتاً لهذا ؟ إنه لا شكَّ واجدٌ الوقت لمثل هذا الأمر ، حتى وإنْ تكالبتْ عليه مشاغل الدنيا ، فلماذا الصلاة هي التي لا تجد لها وقتاً ؟!

وقوله تعالى : ﴿ نَافِلَةً لَّكَ .. (٧٩) ﴾ [الإسراء]

النافلة هي الزيادة عما فرض على الجميع (لك) أي : خاصة بك دون غيرك ، وهذا هو مقام الإحسان الذي قال الله عنه :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾ [الذاريات]

والمحسن هو الذى دخل مقام الإحسان ، بأن يزيد على ما فرضه الله عليه ، ومن جنس ما فرض ؛ لذلك جاءت حيثية الإحسان : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ [الذاريات]

وهذا المقام ليس فرضاً عليك ، فلك أن تصلى العشاء وتنام حتى صلاة الفجر ، لكن إنْ أردت أن تتأسَّى برسول الله وتتشبَّه به فادخُلْ فى مقام الإحسان على قَدْر استطاعتك .

ثم يقول تعالى : ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩) ﴾ [الإسراء]

تحدثتْ الآية فى أولها عن التكليف ، وهذا هو الجزاء ، و (عَسَى) تدل على رجاء حدوث الفعل ، وفَرْق بين التمنى والرجاء ، التمنى : أن تعلن أنك تحب شيئاً لكنه غير ممكن الحدوث أو مستحيل ، ومن ذلك قول الشاعر :

لَيْتَ الكَواكِبَ تَدْنُو لِي فَأنْظِمُهَا

فالشاعرَ يتمنى لو أصبحت الكواكب بين يديه فينظمها قصائد مدح فيمن يمدحه ، وهذا أمر مستحيل الحدوث .

وقوله :

أَلاَ لَيْتَ الشَّباب يعُودُ يَوْماً   فَأُخبِرُه بِمَا فَعَلَ المشِيبُ

أما الرجاء فهو طلب فعل ممكن الحدوث .

ويقع تحت الطلب أشياء متعددة ؛ فإنْ طلب المتكلم من المخاطب شيئاً غير ممكن الحدوث فهو تمنٍّ ، وإنْ طلب شيئاً ممكن الحدوث فهو ترجٍّ ، وإنْ طلب صورة الشيء لا حقيقته فهو استفهام كما تقول : أين زيد ؟ وفَرْقٌ بين طلب الحقيقة وطلب الصورة .

فإنْ طلبتَ حقيقة الشىء ، فأمامك حالتان : إما أنْ تطلب الحقيقة على أنها تُفعل فهذا أمر ، مثل : قُمْ ، فإنْ طلبتها على أنها لا تفعل فهذا نهى : لا تَقُمْ .

إذن : (عَسَى) تدل على الرجاء ، وهو يختلف باختلاف المرجو منه ، فإنْ رجوت من فلان فقد يعطيك أو يخذلك ، فإنْ قُلْتَ : عسى أنْ أعطيك فقد قربت الرجاء ؛ لأننى أرجو من نفسى ، لكن الإنسان بطبعه صاحب أغيار ، ويمكن أن تطرأ عليه ظروف فلا يَفِى بما وعد .

فإنْ قُلْت : عسى الله أن يعطيك ، فهو أقوى الرجاء ؛ لأنك رجوتَ مَنْ لا يُعجزه شىء ، ولا يتعاظمه شىء ، ولا تتناوله الأغيار إذن : فالرجاء فيه مُحقّق لاَ شكَّ فيه .

والمقام المحمود ، كلمة محمود : أى الذى يقع عليه الحمد ، والحمد هنا مشاع فلم يَقُلْ : محمود ممَّنْ ؟ فهو محمود ممَّنْ يمكن أن يتأتّى منه الحمد ، محمود من الكَل من لَدُنْ آدم ، وحتى قيام الساعة .

والمراد بالمقام المحمود : هو مقام الشفاعة ، حينما يقف الخَلْق فى ساحة الحساب وهَوْل الموقف وشدّته ، حتى ليتمنى الناس الانصراف ولو إلى النار ، ساعتها تستشفع كُلُّ أمة بنبيها ، فيردّها إلى أنْ يذهبوا إلى خاتم المرسلين وسيد الأنبياء ، فيقول : أنا لها ، أنا لها[1] .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠٣٨) : « اختلف فى المقام المحمود على أربعة أقوال :
الأول : وهو أصحها ، الشفاعة للناس يوم القيامة . قاله حذيفة بن اليمان .
الثانى : إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة . قلت : وهذا القول لا تنافر بينه وبين الأول ، فإنه يكون بيده لواء الحمد ويشفع .
الثالث : هو أن يُجلس الله تعالى محمداً ﷺ معه على كرسيه .
الرابع : إخراجه من النار بشفاعته من يخرج . قاله جابر بن عبد الله .

لذلك أمرنا ﷺ أن ندعو بهذا الدعاء : « وابعثه اللهم المقام المحمود الذى وعدته »[1] ولا شكَّ أنه دعاء لصالحنا نحن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء] أى : من حيث النظرة العامة ؛ لأنك قبل أنْ تدخلَ اطلب الخروج أولاً ؛ لأنك لن تدخلَ إلا بعد أنْ تخرجَ . وإنْ كان الترتيب الطبيعى أن نقول : أخرجنى مُخْرَج صدق ، وأدخلنى مُدْخَل صدق .

نقول : لا ؛ لأن الدخول هو غاية الخروج ، ولأن الخروج متروك والدخول مستقبل لك ، إذن : الدخول هو الأهمّ فبدأ به . لذلك يقولون : إياك أنْ تخرجَ من أمر إلا إذا عرفتَ كيف تدخل .

ومعنى مخرجَ الصدق ، ومدخل الصدق ، أنك لا تدخل أو تخرج بدون هدف ، فإنْ خرجتَ من مكان فليكُن مخرجك مخرج صدق ، يعنى : مطابقاً لواقع مهمتك ، وإنْ دخلتَ مكاناً فليكُنْ دخولك مدخل صدق . أى : لهدف محدد تريد تحقيقه . فإن دخلتَ محلاً مثلاً فادخل

---

(١) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته ، حلت له شفاعتى يوم القيامة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦١٤) ، والترمذى فى سننه (٢١١) ، وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٥٤) .

لهدف ، كشراء سلعة مثلاً ، فهذا دخول صِدْق ، أما لو دخلتَ دون هدف أو لتؤذى خَلْق الله ، فليس فى هذا دخول صدق .

إذن : يكون دخولك لله وخروجك لله ، وهكذا خرج رسول الله من مكة ودخل المدينة ، فكان خروجه لله ودخوله لله ، فخرج مُخْرجَ صِدْق ، ودخل مُدخَل صدق ، لأنه ﷺ ما خرج من مكة إلا لما آذاه قومه واضطهدوه وحاربوا دعوته حتى لم تعُدْ التربة فى مكة صالحة لنمو الدعوة ، وما دخل المدينة إلا لما رأى النُّصْرة والمؤازرة من أهلها .

فالصدق أنْ يطابق الواقع والسلوك ما فى نفسك ، فلا يكُنْ لك قصور فى نفسك ، ولك حركة مخالفة لهذا القصد .

ثم يقول تعالى : ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيراً (٨٠)﴾[الإسراء]

طلب النُّصْرة من الله تعالى لرسوله ﷺ ؛ لأنه أرسله بمنهج الحق ، وسوف يصطدم هذا الحق بأهل الباطل والفساد الذين يحرصون على الباطل ، وينتفعون بالفساد ، وهؤلاء سوف يُعادُون الدعوة ، ويُجابهونها ؛ لذلك توجه رسول الله ﷺ إلى ربه تعالى الذى أرسله واستعان به على مواجهة أعدائه .

وقوله تعالى : ﴿سُلْطَانًا نَّصِيراً (٨٠)﴾ [الإسراء] السلطان : سبق أنْ أوضحنا أنه يُراد به إما حجة تُقنع ، وإما سيف يَرْدَع ، وهذا واضح فى قَوْل الحق تبارك وتعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] أى : بالآيات الواضحات ، وهذه أدوات الحجة والإقناع .

ثم يقول تعالى : ﴿ وأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ومَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. ㉕ ﴾ [الحديد] وهذه أدوات القوة والردع .

فالخيِّر من الناس يرتدع بقول الله وبقول الرسول ويستجيب ، أما الشرير فلا تُجدى معه الحجة ، بل لا بُدَّ من رَدْعه بالقوة ، فالأول إنْ تعرَّض للحلف بالله حلف صادقاً ، أما الآخر فإنْ تعرَّض للحلف حلف كاذباً ، ووجدها فُرْصة للنجاة ، ولسان حاله يقول : أتاك الفرج .

وفى الأثر : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ㉛ ﴾

هكذا أطلقها الحق سبحانه شعاراً مُدوِّياً (جَاءَ الْحَقُّ) وما دام قال للرسول : (قل) فلا بُدَّ أن الحق قادم لا شَكَّ فيه ؛ لذلك أمره بهذا الأمر الصريح ولم يُوسْوِسُه له ، وبعد ذلك يقولها رسول الله فى عام الفتح ، وعندما دخل مكة فاتحاً وحولَ البيت ثلاثمائة وستون صنماً فيُكبكِبُهم جميعاً ، وينادى : « جاء الحق وزهق الباطل ، جاء الحق وزهق الباطل ، وما يبدئ الباطل وما يعيد »[2] .

أى : جاء الحق واندحر الباطل ، ولم يَعُدْ لديْه القوة التى يُبدِئ بها أو يُعيد ، فقد خَمدتْ قواه ولم يَبْقَ له صَوْلَة ولا كلمة .

وقوله تعالى : ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وزَهَقَ الْبَاطِلُ .. ㉛ ﴾ [الإسراء]

---

(١) قال ابن منظور فى (لسان العرب ـ مادة : وزع) : « معناه أن من يكفه السلطان عن المعاصى أكثر ممن يكفه القرآن بالأمر والنهى والإنذار » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٨١) من حديث ابن مسعود رضى الله عنه . وأورده القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠٤٢) وعزاه للبخارى والترمذى عن ابن مسعود .

يشعرنا بأن الحق أتى بنفسه ؛ لأنه نسب المجىء إلى الحق كأنه أمر ذاتىّ فيه ، فلم يأت به أحد ، وكذلك فى ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ (٨١)﴾ [الإسراء] فالباطل بطبيعته زاهق مُندحِر ضعيف لا بقاءَ له .

ومن العجيب أن الحق الذى جاء على يد رسول الله فى فتح مكة انتفع به حتى مَنْ لم يؤمن ، ففى يوم الفتح تتجلى صورة من صور العظمة فى دين الإسلام ، حين يجمع رسول الله أهل مكة الذين عاندوا وتكبَّروا وأخرجوا رسول الله من أحب البلاد إليه ، وها هو اليوم يدخلها منتصراً ويُوقفهم أمامه ويقول : « ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ » قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء »[1] .

إذن : جاء الحق ليس لاستعباد الناس ، ولكن لراحتهم ورَفْع رؤوسهم . ومن الحق الذى أظل مكة بالفتح ما يُرْوَى أن واحداً دخل على النبى ﷺ الكعبة وأراد إيذاءه ، وحينما وضع يده على رسول الله ﷺ تبدَّل حاله وقال : فو الله لقد أقبلت عليه ، وما فى الأرض أبغض إلىَّ منه ، فحين وضعت يدى عنده فو الله ما فى الأرض أحب إلىَّ منه[2] ، وهكذا جاء الحق وزهق الباطل .

---

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ حين سار إلى مكة يستفتحها وفتح الله عليكم ، ثم دخل صناديد قريش من المشركين الكعبة وهم يظنون أن السيف لا يُرفع عنهم ، ثم طاف بالبيت وصلى ركعتين . ثم أتى الكعبة فاخذ بعضادتى الباب فقال : ما تقولون وما تظنون ؟ قالوا : ابن أخ وابن عم حليم رحيم . [ثلاثاً] فقال رسول الله ﷺ : أقول كما قال يوسف : ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)﴾ [يوسف] قال : فخرجوا كانما نشروا من القبور فدخلوا فى الإسلام . أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٥/٥٨) .

(٢) قال ابن هشام فى سيرة النبى ﷺ (٣٧/٤) : أن فضالة بن عمير بن الملوح الليثى أراد قتل النبى ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ « أفضالة » قال : نعم فضالة يا رسول الله ، قال : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لا شىء كنت أذكر الله عز وجل . قال : فضحك النبى ﷺ ثم قال : « استغفر الله » ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه ، فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شىء أحبّ إلىّ منه .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء]

زَهُوق صيغة مبالغة ، فالباطل نفسه سريعاً ما يذهب ويندثر ، ومن العَجَب أن ترى الباطل نفسه من جنود الله ؛ لأن الباطل لو لم يُؤلم الناس ويُزعجهم ما تشوَّقوا للحق وما مالوا إليه ، فإذا ما لدغهم الباطل واكتَوواْ بناره عرفوا الحق .

وقد ضرب لنا الحق سبحانه وتعالى مثلاً للحق وللباطل ، فقال :

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد]

الحق سبحانه يُمثِّل للحق وللباطل بشيء حسّيٍّ نراه حينما ينهمر المطر على قمم الجبال ، فيسيل الماء إلى الأودية بين الجبال حاملاً معه صغار الحصى والرمال والقشِّ ، وهذا هو الزَّبَد الذى يطفو على صفحة الماء ولا ينتفع الناس به ، وحين تهب الرياح تُنحِّي هذا الزبد جانباً ، ويبقى الماء الرائق الصالح الذى ينتفع الناس به ، وهذا الماء مثالٌ للحق الذى ينفع الناس ، والزَّبَد مثال للباطل الذى لا خَيْر فيه .

أو : يعطينا المثال فى صورة أخرى : صورة الحداد أو الصائغ الذى يُوقد النار على الذهب ليخرج منه ما علق به من شوائب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾

الآية تُعطينا نموذجين لتلقِّى القرآن : إنْ تلقَّاه المؤمن كان له شفاء ورحمة ، وإنْ تلقّاه الظالم كان عليه خَسَار ، والقرآن حَدَّد الظالمين لِيُبيِّن أن ظلمهم هو سبب عدم انتفاعهم بالقرآن ؛ لأن القرآن خير فى ذاته وليس خساراً .

وقد سبق أن أوضحنا أن الفعل قد يكون واحداً ، لكن يختلف القابل للفعل ، ويختلف الأثر من شخص لآخر ، كما أن الماء الزلال يشربه الصحيح ، فيجد له لذة وحلاوة ويشربه العليل فيجده مُرّاً مائعاً ، فالماء واحد لكن المنفعل للماء مختلف . كذلك أكل الدَّسم ، فإنْ أكله الصحيح نفعه ، وزاد فى قوته ونشاطه ، وإنْ أكله السقيم زاده سُقْماً وجَرَّ عليه علة فوق عِلّته .

وقد سبق أن أوضحنا فى قصة إسلام الفاروق عمر ـ رضى الله عنه ـ أنه لما تلقَّى القرآن بروح الكفر والعناد كَرِهه ونَفَر منه ، ولما تلقاه بروح العطف والرِّقّة واللين على أخته التى شجَّ وجهها أعجبه فآمن .

إذن : سلامة الطبع أو فساده لها أثر فى تلقِّى القرآن والانفعال به . وما أشبه هذه المسألة بمسألة التفاؤل والتشاؤم ، فلو عندك كوب ماء قد مُلِىء نصفه ، فالمتفائل يُلفت نظره النصف المملوء ، فى حين أن المتشائم يُلفت نظره النصف الفارغ ، فالأول يقول : نصف الكوب ممتلىء . والآخر يقول : نصف الكوب فارغ ، وكلاهما صادق لكن طبعهما مختلف .

وقد عالج القرآن مسألة التلقِّى هذه فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا

الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)﴾ [التوبة]

فالآية واحدة ، لكن الطبع المستقبل مختلف ، فالمؤمن يستقبلها بملكات سليمة ، فيزداد بها إيماناً ، والكافر يستقبلها بملكات فاسدة فيزدادَ بها كفراً ، إذن : المشكلة في تلقّي الحقائق واستقبالها أن تكون ملكاتُ التلقي فاسدة .

ومن هنا نقول : إذا نظرتَ إلى الحق ، فإياك أنْ تنظره وفي جوفك باطل تحرص عليه ، لا بُدَّ أن تُخرِج ما عندك من الباطل أولاً ، ثم قارن وفاضل بين الأمور .

وكذلك جاءت هذه المسألة في قول الله تعالى :

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد]

وقولهم : ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦)﴾ [محمد] دليل على عدم اهتمامهم بالقرآن ، وأنه شيء لا يُؤْبَهُ له .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤)﴾ [فصلت]

ومثالٌ لسلامة التلقّي من حياتنا المعاصرة إرسال التلفاز مثلاً ، فقد تستقبله أنت في بيتك فتجده واضحاً في حَلْقة من الحلقات أو برنامج من البرامج ، فتتمتع بما شاهدت ، ثم تقابل صديقاً فيشكو

لك سوء الإرسال وعدم وضوح الصورة فيؤكد لك سلامة الإرسال ، إلا أن العيب فى جهاز الاستقبال عندك ، فعليك أولاً أن تضبط جهاز الاستقبال عندك لتستقبل آيات الله الاستقبال الصحيح .

إذن : قول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢)﴾ [الإسراء] متوقف على سلامة الطبع ، وسلامة الاستقبال ، والفهم عن الله تعالى .

والشفاء : أن تعالج داءً موجوداً لتبرأ منه . والرحمة : أن تتخذ من أسباب الوقاية ما يضمن لك عدم معاودة المرض مرة أخرى ، فالرحمة وقاية ، والشفاء علاج .

لكن ، هل شفاء القرآن شفاءٌ معنوىٌّ لأمراض القلوب وعِلَل النفوس ، فيُخلِّص المسلم من القلق والحَيْرة والغَيْرة ، ويجتثّ ما فى نفسه من الغِلِّ والحقد ، والحسد ، إلى غير هذا من أمراض معنوية ، أم هو شفاء للماديات ، ولأمراض البدن أيضاً ؟

والرأى الراجح ـ بل المؤكد ـ الذى لا شكَّ فيه أن القرآن شفاء بالمعنى العام الشامل لهذه الكلمة ، فهو شفاء للماديات كما هو شفاء للمعنويات ، بدليل ما رُوِى عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ وأنه خرج على رأس سرية وقد مَرُّوا بقوم ، وطلبوا منهم الطعام ، فأبَوْا إطعامهم ، وحدث أنْ لُدِغ كبير القوم ، واحتاجوا إلى مَنْ يداويه فطلبوا مَنْ يرقيه ، فقالوا : لا نرقيه إلا بجُعْلٍ[1] ، وذلك لما رأوه من

---

(١) الجُعْل : ما جعله له على عمله . وهو الأجر على الشىء فعلاً أو قولاً . [لسان العرب ـ مادة : جعل] .

بُخْلهم وعدم إكرامهم لهم ، على حَدِّ قوله تعالى : ﴿لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧)﴾ [الكهف]

ولما اتفقوا معهم على جُعل من الطعام والشياه قام أحدهم برقية اللديغ بسورة الفاتحة فبرئ ، فأكلوا من الطعام وتركوا الشياه إلى أنْ عادوا إلى رسول الله ﷺ ، وسألوه عن حِلِّ هذا الجُعْل فقال ﷺ : « ومَنْ أدراك أنها رقية » أى : أنها رُقْية يرقى بها المريض فيبرأ بإذن الله ، ثم قال ﷺ : « كُلوا منها ، واجعلوا لى سهماً معكم »[1] .

فشفاء أمراض البدن شىء موجود فى السُّنّة ، وليس عجيبة من العجائب ؛ لأنك حين تقرأ كلام الله فاعلم أن المتكلم بهذا الكلام هو الحق سبحانه ، وهو رَبّ كل شىء ومليكه ، يتصرّف فى كونه بما يشاء ، وبكلمة (كُنْ) يفعل ما يريد ، وليس ببعيد أنْ يُؤثّر كلام الله فى المريض فيشفى .

ولما تناقش بعض المعترضين على هذه المسألة مع أحد العلماء ، قالوا له : كيف يُشْفَى المريض بكلمة ؟ هذا غير معقول ، فقال العالم لصاحبه : اسكت أنت حمار !! فغضب الرجل ، وهَمَّ بترك المكان وقد ثارت ثورته ، فنظر إليه العالم وقال : انظر ماذا فعلتْ بك كلمة ، فما بالُكَ بكلمة ، المتكلّم بها الحق سبحانه وتعالى ؟

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢)﴾ [الإسراء] لأنهم بظُلْمهم واستقبالهم فُيوضات السماء بملَكَات سقيمة ، وأجهزة متضاربة متعارضة ، فلم ينتفعوا بالقرآن ، ولم يستفيدوا برحمات الله .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/٤٤) والبخارى فى صحيحه (٥٧٣٦) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾

الله تعالى يريد أن يعطى الإنسان صورة عن نفسه ؛ لتكون عنده المناعة الكافية إذا ما أصابه المرض ، كما يعطى الطبيب جَرْعة الطُّعْم أو التحصين الذى يمنع حدوث مرض ما . فها هى طبيعة الإنسان وسِمَتُّه الغالبة ، وعليه أنْ يُخفِّف من هذه الطبيعة ، والمراد أن الإنسان إذا أنعم الله عليه استغنى وأعرضَ .

ولكى نُوضِّح هذه المسألة نُمثِّل لها ـ ولله المثل الأعلى ـ بالوالد الذى يعطى للابن مصروفه كل شهر مثلاً ، فترى الولد لا يلتفت إلى أبيه إلا أول كل شهر ، حيث يأتى موعد ما تعوَّد عليه من مصروف ، وتراه طوال الشهر منصرفاً عن أبيه لا يكاد يتذكره ، أما إذا عوَّده على أنْ يُعطيه مصروفه كل يوم ، فترى الولد فى الصباح يتعرَّض لأبيه ويُظهِر نفسه أمامه ليُذكِّره بالمعلوم . فالولد حين أعرض عن أبيه وانصرف عنه ، ما الذى دعاه إلى هذا التصرف ؟

لأن الوالد أعطاه طاقة الاستغناء عنه طوال الشهر ، فإنْ كان الابن باراً مؤمناً فإنه لا ينسى فَضْل والده الذى وَفَّر له طاقة الاستغناء هذه ، فيُذكِّر والده بالخير ، ويحمل له هذا الجميل .

فإنْ كان هذا هو الحال مع الرب الأدنى فهو كذلك مع الربِّ الأعلى سبحانه ، فيقول تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسَانِ أَعْرَضَ .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : أعرض عنا وعن ذكْرنا وانصرف عن منهجنا ، ومن الناس مَنْ يُعرِض عن ذكر الله ، ولكنه يؤدِّى منهجه ، ولو أدَّى المنهج مع ذكر صاحب المنهج ما نسى المنعم أبداً .

وإذا شُغل الإنسان بالنعمة عن المنعم ، فكأنه يُخطِّىء المنعم ، كما قال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝ ﴾[العلق]

فالاستغناء هنا ليس ذاتياً فى الإنسان ، بل هو استغناء موهوب ، قد ينتهى فى يوم من الأيام ويعود الإنسان من جديد يطلب النعمة من المنعم سبحانه ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۝ ﴾ [العلق]

ثم يتحدث الحق عن صفة أخرى فى الإنسان : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً ۝ ﴾ [الإسراء] وهذه صفة مذمومة فى الإنسان الذى إذا ما تعرّض لشرٍّ أو مسَّه ضُرٌّ يقنط من رحمة الله ، وكأن الحق سبحانه يخاطب عبده الذى يقنط : لا يليق بك أن تقنط إذا ضاقتْ بك الدنيا ، وأنت مؤمن لا تعيش مع الأسباب وحدها إنما مع المسبِّب سبحانه ، وما دُمْتَ فى رحاب مُسبِّب الأسباب فلا تيأس ولا تقنط .

لذلك يقولون : « لا كَرْبَ وأنت ربٌّ » ، فيجوز لك القنوط إن لم يكُنْ لك رَبٌّ يتولاَّك ، أما والرب موجود فلا يليق بك ، كيف ومَنْ له أب لا يُلقى لهموم الدنيا بالاً ، ويستطيع أن يعتمد عليه فى قضاء حاجاته ، فما بالك بمَنْ له رَبٌّ يرعاه ويتولاَّه ، ويستطيع أن يتوجه إليه ، ويدعوه فى كل وقت ؟

والحق سبحانه حينما يُنبِّهنا إلى هذه المسألة يريد أنْ يُعطينا الأُسْوة به سبحانه وتعالى ، يريد أن يقول للإنسان : لا تحزن إن

أدَّيْتَ للناس جميلاً فأنكروه ، أو معروفاً فجحدوه ، وكيف تحزن وهم يفعلون هذا معى ، وأنا ربٌّ العالمين ، فكثيراً ما أُنعِم عليهم ، ويُسيئون إلىَّ ، ويكفرون بى وبنعمتى .

وسيدنا موسى ـ عليه السلام ـ حينما طلب من ربه تعالى ألاَّ يُقال فيه ما ليس فيه ، قال له ربه : كيف ، وأنا لم أفعل ذلك لنفسى ؟! إنهم يفترون على الله ما ليس فيه ، ويكفرون به سبحانه وينكرون إيجاده ونعمه ، فَمنْ يغضب لقول الكافرين أو إيذائهم له بعد هذا ؟

لكن ، لماذا ييأس الإنسان ويقنط ؟ لأنه فى حال النعمة أعرض عن الله ونأى بجانبه : أى ابتعد عن ربه ، لم يَعُدْ له مَنْ يدعوه ويلجأ إليه أن يُفرِّج عنه ضيق الدنيا .

إذن : لما أعرض فى الأولى يَئِس فى الثانية . والله تعالى يجيب مَنْ دعاه ولجأ إليه حال الضيق حتى إنْ كان كافراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا (٨٤) ﴾

أى : أن كل إنسان يعمل على طريقته ، وعلى طبيعته ، وعلى مقدار ما تكونت به من خلايا الإيمان ، أو من خلايا إيمان اختلطت بخلايا عصيان ، أو بما عنده من خلايا كفر ، فالناس مختلفون

وليسوا على طبع واحد ، فلا تحاول ـ إذن ـ أن تجعل الناس على طبع واحد .

وما دام الأمر كذلك ، فليعمل كل واحد على شاكلته ، وحسب طبيعته ، فإنْ أساء إليك إنسان سيء الطبع فلا تقابله بسوء مثله ، ولتعمل أنت على شاكلتك ، ولتقابله بطبع طيّب ؛ لذلك يقولون : لا تُكافيء مَنْ عصى الله فيك بأكثر من أنْ تطيع الله فيه . وبذلك يستقيم الميزان فى المجتمع ، ولا تتفاقم فيه أسباب الخلاف .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً (٨٤) ﴾ [الإسراء] والربُّ : المتولّى للتربية ، والمتولّى للتربية لا شكَّ يعلم خبايا المربَّى ، ويعلم أسراره ونواياه ، كما قال تعالى : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى[1] :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) ﴾

---

(١) **سبب نزول الآية** : عن عبد الله بن مسعود قال : بينا أنا مع النبى ﷺ فى حرث بالمدينة وهو متكىء على عسيب ، فمر بنا ناس من اليهود فقالوا : سلوه عن الروح . فقال بعضهم : لا تسألوه فيستقبلكم بما تكرهون ، فأتاه نفر منهم فقالوا : يا أبا القاسم ما تقول فى الروح ؟ فسكت ثم ماج ، فأمسكت بيدى على جبهته ، فعرفت أنه ينزل عليه ، فأنزل الله عليه ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾ [الإسراء] أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٢١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٩٤) .

قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٦٠) : « هذا السياق يقتضى فيما يظهر بادى الرأى أن هذه الآية مدنية ، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة مع أن السورة كلها مكية ، وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك ، أو أنه نزل عليه الوحى بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه » .

والسؤال يَرد فى القرآن بمعان متعددة ، ووردتْ هذه الصيغة ﴿ يَسْأَلُونكَ ﴾ فى مواضع عدّة ، فإنْ كان السؤال عن شىء نافع يضر الجهل به أجابهم القرآن ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ .. (٢٢٢) ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) ﴾ [البقرة]

فإنْ كان السؤال عن شىء لا يضر الجهل به ، لفت القرآن أنظارهم إلى ناحية أخرى نافعة ، كما فى سؤالهم عن الأهلّة : كيف يبدو الهلال صغيراً ثم يكبر ويكبر إلى أن يصير بدراً ، ثم يأخذ فى التناقص ليعود كما بدأ ؟

فالحديث مع العرب الذين عاصروا نزول القرآن فى هذه الأمور الكونية التى لم نعرفها إلا حديثاً أمر غير ضرورى ، وفوق مستوى فهمهم ، ولا تتسع له عقولهم ، ولا يترتب عليه حكم ، ولا ينتج عن الجهل به ضرر ، ولو أخبرهم القرآن فى إجابة هذا السؤال بحقيقة دوران القمر بين الأرض والشمس وما يترتب على هذه الدورة الكونية من ليل ونهار ، وهم أمة أُميّة غير مثقفة لاتهموا القرآن بالتخريف ، ولربما انصرفوا عن أصل الكتاب كله .

لكن يُحوِّلهم القرآن ، ويُلفت أنظارهم إلى ما يمكن الانتفاع به من الأهلّة : ﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ .. (١٨٩) ﴾ [البقرة]

وقد يأتى السؤال ، ويُراد به اختبار رسول الله ﷺ ، ومن ذلك ما حدث من اتفاق كفار مكة واليهود حيث قالوا لهم : اسألوه عن

الروح ، وهم يعلمون تماماً أن هذه مسألة لا يعلمها أحد ، لكنهم أرادوا الكيد لرسول الله ، فلعله يقول فى الروح كلاماً يأخذونه عليه ويستخدمونه فى صَرْف الناس عن دعوته[1] .

ولا شكَّ أنه سؤال خبيث ؛ لأن الإنسان عامة يحب أن يظهر فى مظهر العالم ، ولا يحب أن يعجز أمام محاوره فاستغلوا هذه العاطفة ، فالرسول لن يُصَغِّر نفسه أمام سائليه من أهل مكة ، وسوف يحاول الإجابة عن سؤالهم .

ولكن خَيَّب الله سَعْيهم ، فكانت الإجابة : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء]

فعندما سمع أهل الكتاب هذه الإجابة آمن كثيرون منهم ؛ لأنها طابقت ما قالته كتبهم عن الروح ، وأنها من عند الله .

و (الرُّوح) لها إطلاقات مُتعدِّدة ، منها : الرُّوح التى تمدُّ الجسم بالحياة إن اتصلت به ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر]

فإذا ما فارقتْ هذه الروح الجسد فقد فارق الحياة ، وتحوَّل إلى جثة هامدة ، وفيها يقول تعالى : ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾

[الواقعة]

وقد تأتى الروح لتدل على أمين الوحى جبريل عليه السلام ، كما فى قوله تعالى : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء]

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٣ / ٦٠) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قالت قريش ليهود : أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل ، فقالوا : سلوه عن الروح ، فنزلت ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء] .

وقد تُطلَق الروح على الوحي ذاته ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۝٥٢ ﴾ [الشورى]

وتأتي بمعنى التثبيت والقوة ، كما في قول الله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ.. ۝٢٢ ﴾ [المجادلة]

وأُطلقَتْ الروح على عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ .. ۝١٧١ ﴾ [النساء]

إذن : لهذه الكلمة إطلاقات مُتعدِّدة ، فما العلاقة بينها ؟

قالوا : الروح التي بها حركة الحياة إذا وُجِدَتْ في الإنسان تعطي مادية الحياة ، ومادية الحياة شيء ، وقيَمُ الحياة شيء آخر ، فإذا ما جاءك شيء يعدل لك قيم الحياة فهل تُسمِّيه روحاً ؟ لا ، بل هو روح الروح ؛ لأن الروح الأُولى قصاراها الدنيا ، لكن روح المنهج النازل من السماء فخالدة في الآخرة ، فأيُّهما حياته أطول ؟

لذلك فالحق سبحانه يُنبِّهنا : إياك أنْ تظنَّ أن الحياة هي حياتك أنت وكونك تُحسُّ وتتحرك وتعيش طالما فيك روح ، لا بل هناك روح أخرى أعظم في دار أخرى أبْقى وأدْوم : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝٦٤ ﴾ [العنكبوت]

لأن الروح التي تعيش بها في الدنيا عُرْضة لأنْ تُؤخَذ منك ، وتُسلَب في أيِّ مرحلة من مراحل حياتك منذ وجودك جنيناً في بطن أمك ، إلى أنْ تصير شيخاً طاعناً في السنِّ .. أما روح الآخرة ، وهي روح القيم وروح المنهج ، فهي الروح الأَقْوى والأَبْقى ؛ لأنها لا يعتريها الموت .

إذن : سُـمّى القـرآن ، وسُـمّى الملك الـنازل به روحـاً ؛ لأنه سيعطينى حياة أطول هى حياة القيم فى الآخرة .

وهنا يقول تعالى : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى .. (٨٥) ﴾ [الإسراء]

أى : أن هذا من خـصوصـيـاته هو سـبحـانه ، وطالمـا هى من خصوصـياته سبحانه ، فلن يطلع أحـداً على سرِّها . وهل هى جوهر يدخل الجسم فـيحيـا ويسلب منه فيمـوت ، أم هى مراد (بكُنْ) من الخالق سبحانه ، فإنْ قال لها كُنْ تحيا ، وإنْ قال متْ تموت ؟

إنّ علم الإنسان سيظل قـاصراً عن إدراك هذه الحقيـقة ، وسيظل بينهما مسافـات طويلة ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾ [الإسراء]

وهل عـرف العـقل البـشـرى كل شىء حـتى يبـحث فى أسـرار الروح ؟!

ولمـا تعرَّض أحد رجـال الصوفـية للـنقد ، واعتـرض عليـه أحد الأشخاص فقال له الصوفى : وهل أحَطْتَ علْماً بكل شىء فى الكون ؟ قال الرجل : لا ، قال : فأنا من الذى لا تعلَم .

والحق سبحـانه وتعالى حينما يعطينا فكرة عن الأشـياء لا يعطينا بحقائق ذاتها وتكوينها ؛ لأن أذهاننا قد لا تتسع لفهمها ، وإنما يعطينا بالفائدة منهـا . فحين حـدثنا عن الأهلّة قال : ﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ .. (١٨٩) ﴾ [البقرة]

وهذه هى الفـائدة التى تعـود علينا والتى تهـمنا من الأَهلّة ، أمـا حركتها ومنازلها والمراحل التى تـمر بها الأهلّة فأمور لا يضر الجهل بها ؛ ذلك لأن الاستفـادة بالشىء ليستْ فرعاً لفهم حقيـقته ، فالرجل

الأُمىّ فى ريفنا يقتنى الآن التلفاز وربما الفيديو ، ويستطيع استعمالهما وتحويل قنواتهما وضبطهما ، ومع ذلك فهو لا يعرف كيف تعمل هذه الأجهزة ؟ وكيف تستقبل ؟

إذن : الاستفادة بالشىء لا تحتاج معرفة كل شىء عنها ، فيكفيك - إذن - أنْ تستفيد بها دون أن تُدخِل نفسك فى متاهات البحث عن حقيقتها .

والحق سبحانه وتعالى ينبهنا إلى هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿وَلا تَقْفُ[1] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦)﴾ [الإسراء] لأن الخالق سبحانه يريد للإنسان أن يُوفّر طاقاته الفكرية ليستخدمها فيما يُجدى ، وألاَّ يُتعِب نفسه ويُجهدها فى علم لا ينفع ، وجهل لا يضر .

فعلى المسلم بدل أن يشغل تفكيره فى مثل مسألة الروح هذه ، أنْ ينشغل بعمل ذى فائدة له ولمجتمعه . وأىّ فائدة تعود عليك إنْ توصلت إلى سرٍّ من أسرار الروح ؟ وأىّ ضرر سيقع عليك إذا لم تعرف عنها شيئاً ؟

إذن : مناط الأشياء أن تفهم لماذا وجدت لك ، وما فائدتها التى تعود عليك .

والحق سبحانه حينما قال : ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)﴾[الإسراء] كان يخاطب بها المعاصرين لرسول الله منذ ما يزيد على ألف وأربعمائة عام ، وما زال يخاطبنا ويخاطب مَنْ بعدنا ، وإلى أن تقوم الساعة بهذه الآية مع ما توصلتْ إليه البشرية من علم ،

---

(١) أى : لا تتبع من العقائد ما ليس لك به علم ولا من الآراء ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تسترسل فى الحديث عما ليس لك به علم . [القاموس القويم ٢/١٢٨] .

وكأنه سبحانه يقـول : يا ابن آدم ، الزم غرزك ، فإن وقفت على سرٍّ فقد غابتْ عنك أسرار .

وقد أوضح الحق سـبحانه لنا هذه المسـألة في قوله : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

وهاهم العلمـاء والباحـثون يقـفون كل يوم على جـديد في الكون الفـسـيح وفي الإنسـان ، ولو تابعتَ مـا توصَّل إليـه علماء الـفضـاء ورجـال الطب لَهالكَ مـا توصَّلوا إليـه من آيات وعجـائب في خَلْق الله تعـالـى ، لكن هل مـعـنى ذلك أننا عـرفنا كل شيء ؟ إن كـلمـة ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ ستظل تعمل إلى قيام الساعة .

والمتتـبع لطموحات العـقول وابتكاراتها يجد التطور يسـير بخُطىً واسعة ، فـفي الماضي كان التقدم يُقَاسُ بالقـرون ، أما الآن ففي كل يوم يطلع علينا حديث وجـديد ، ونرى الأجهزة تُصنع ولا تُسـتعمل ؛ لأنها قبل أنْ تُبَاع يخرج عليها أحـدث منها ، لكن كلها زخارف الحياة وكـمالياتهـا ، كـما قـال تعـالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ .. (٢٤) ﴾ [يونس]

فكلُّ مَا نراه من تقدُّم ليس من ضروريات الحياة ، فقد كُنَّا نعيش بخـير قـبل أن نعـرف الكهـرباء ، وكُنَّا نشرب فـي الفخـار والآن في الكريستـال ، فابتكارات الإنسان في الكمـاليات ، أما الضروريات فـقد ضمنها الخالق سبحانه قبل أن يوجد الإنسـان على هذه الأرض .

فـإذا ما اسـتنفدتْ العـقـول البشـرية نشـاطاتها ، وبلغتْ مُنتـهى مَا لديها من ابتكارات ، حـتى ظنَّ الناس أنهم قادرون على التحكم في

زمام الكون ، لا يعجزهم فيه شيء ، كما قال تعالى : ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ[1] بِالأَمْسِ .. (٢٤) ﴾ [يونس]

فبعد ما أخذتم أسرار المنعِم فى الكون على قَدْر ما استطعتم ، فاذهبوا الآن إلى المنعِم ذاته لتروا النعيم على حقيقته ، وكلما رأيت فى دنيا الناس ابتكاراتٍ واختراعات تُسعد الإنسان ، فهذا ما أعدَّ البشر للبشر ، فكيف بما أعدَّ الله الخالق لخَلْقه ؟

فالمفروض أن زخارف الحياة وزينتها وكمالياتها لا تدعونا إلى الحقد أو الحسد لمن توفرتْ لديه ، بل تدعونا إلى مزيد من الإيمان والشوق إلى النعيم الحقيقى عند المنعِم سبحانه .

ولو تأملتَ هذه الارتقاءات البشرية لوجدتها قائمة على المادة التى خلقها الله والعقل المخلوق لله والطاقة المخلوقة لله ، فدَوْر الإنسان أنه أعمل عقله وفكره فى المقوّمات التي خلقها الله ، لكن مهما وصلتْ هذه الارتقاءات ، ومهما تطورتْ هل ستصل إلى درجة : إذا خطر الشىء ببالك تجدْه بين يديك ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦) ﴾

(١) أى : كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك . وقال قتادة : كأن لم تغن ، كأن لم تنعم . [تفسير ابن كثير ٢/٤١٣] .

الحق سبحانه فى هذه الآية يريد أنْ يُربِّى الكفار ويُؤنِّبهم ، ويريد أن يُبَرِّىء ساحة رسوله ﷺ ويتحمل عنه المسئولية ، فهو مجرد مُبلِّغ عن الله ، وإياكم أن تقولوا عنه مُفْتر ، أو أتى بشىء من عنده ، بدليل أننى لو شئْتُ لسلبتُ ما أوحيتُه إليه وقرأه عليكم وسمعتموه أنتم وكتبه الصحابة .

فإنْ سأل متسائل : وكيف يذهب الله بوحى مُنزَّل على رسوله ، وحفظه وكتبه الصحابة ، وسمعه الكفار ؟

نقول : أولاً : سياق الآية يدلُّنا على أن هذه العملية لم تحدث ؛ لأن الحق سبحانه يقول ﴿وَلَئِن شِئْنَا .. (٨٦)﴾ [الإسراء] بمعنى : لو شئْنا فعلنا ذلك ، فالفعل لم يحدث ، والمراد بيان إمكانية ذلك ليُبَرِّىء موقف رسول الله ، وأنه ليس له من الأمر شىء .

والغريب أن يفهم البعض من قوله تعالى : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ .. (١٢٨)﴾ [آل عمران] أنها ضد رسول الله ، وقَدْح فى شخصه ، وليس الأمر كذلك ؛ لأنه ربه تبارك وتعالى يريد أنْ يتحمَّل عنه ما يمكن أن يُفسد العلاقة بينه وبين قومه ، وكأنه يقول لهم : لا تغضبوا من محمد فالأمر عندى أنا ، وشبَّهنا هذا الموقف بالخادم الذى فعل شيئاً ، فيأتى سيده ليدافع عنه ، فيقول : أنا الذى أمرته .

ثانياً : لماذا نستبعد فى قدرة الخالق سبحانه أن يسلب منَّا ما أوحاه لرسوله وحفظناه وكتبناه ، ونحن نرى فاقد الذاكرة مثلاً لا يكاد يذكر شيئاً من حياته ، فإذا ما أرادوا إعادة ذاكرته يقومون بإجراء عملية جراحية مثلاً ، فما أشبه هذه بتلك .

ونلاحظ فى الآية جملة شرطية ، أداة الشرط فيها « إنْ » ، وهى

تستخدم للأمر المشكوك فى حدوثه ، على خلاف « إذا » فتأتى للأمر المحقق .

ثم يُوضِّح لنا الحق سبحانه أنه إنْ ذهب بما أوحاه لرسوله ، فلن يستطيع أحد إعادته ﴿ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴿٨٦﴾ ﴾ [الإسراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [الإسراء] أى : أنك لا تجد لك وكيلاً فى أىِّ شىء إلا من جانب رحمتنا نحن ، لأن فَضْلنا عليك كبير .

ثم يخاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ ليعلن تحديه للعالمين :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾

(قُلْ) لا يقولها الحق سبحانه بينه وبين رسوله ، بل المراد : أعلنها يا محمد على الملأ ، وأسمِعْ بها الناس جميعاً ؛ لأن القضية قضية تَحَدٍّ للجميع .

﴿ لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالْجِنُّ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء] وهما الثَّقَلان اللذان يكونان أمة التكليف لما منحهما الله من نعمة الاختيار الذى هو مَناطُ التكليف . وقد أرسل النبى ﷺ إليهما جميعاً ، وقد استمعت الجن إلى

القرآن كما استمعت إليه البشر :

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ① يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ .. ②﴾ [الجن]

والتحدِّى معناه الإتيان بآية معجزة يعجز عنها المعارض ، لكن من جنس ما نبغ فيه المعارض ، فلا يتحدَّاهم بشىء لا عِلْم لهم به ، ولا خبرة لهم فيه ؛ لأنه لا معنى للتحدى فى هذه الحالة ولا جدوى منه ، كما لو تحدَّيْتَ إنساناً عادياً برفع الأثقال ولم يسبق له أن ارتاض هذه الرياضة ، إنما تتحدَّى بها بطلاً معروفاً عنه ممارسة هذه العملية .

لذلك جاءت كل معجزات الرسل من جنس ما نبغ فيه القوم ليكون التحدِّى فى محلِّه ، ولا يعترضون عليه بأنه خارج عن نطاق علمهم ومقدرتهم ، فكانت معجزة موسى ـ عليه السلام ـ العصا واليد ، وهى من جنس ما نبغ فيه قومه من السِّحْر ، وجاءت معجزة عيسى ـ عليه السلام ـ إحياء الموتى بإذن الله ، وإبراء الأكمه والأبرص ؛ لأن قومه نبغوا فى الطب ، وكانت معجزته ﷺ فى البلاغة والفصاحة التى نبغ فيها العرب .

وقد اقترح كفار مكة على رسول الله آيات معينة لإثبات صِدْق رسالته ، لكن الآيات لا تُقترح على الله تعالى ؛ لأنه سبحانه هو الذى يختار الآيات التى تناسب الطباع وتكون معجزة تثبت صِدْق رسوله ، وقد اقترحوا على رسول الله آيات ومعجزات فى مجالات لا عِلْم لهم بها ، فكيف يتحدّاهم الله فى مجال لا نبوغَ لهم فيه ، وليس لهم دراية به ؟

والحق سبحانه أنزل القرآن ، وجعله المعجزة الوحيدة لصدق محمد ﷺ ، وهو المعجزة الوحيدة لكل أمة الإسلام من لَدُن رسول الله إلى قيام الساعة . وهذا لا يمنع أن توجد معجزات كونية حدثتْ لرسول الله ليراها القوم الذين عاصروه ، ومثْل هذه المعجزات لا نطالب بها نحن ، ولا نطالب بالإيمان بها ، إلا إذا وردتْ من صادق معصوم ؛ لأن الهدف من هذه المعجزات تثبيت الإيمان برسول الله فى نفوس مَنْ شاهدوها ، فنبُوع الماء من بين أصابعه ﷺ ، وكَوْنُ الشجرة تسعى إليه والحيوان يُكلِّمه ، فالمقصود بهذه المعجزات مَنْ شاهدها وعاصرها ، لا مَنْ أتى بعد عصره ﷺ .

وفى القرآن خاصية تفرّد بها عن الكتب السابقة ، حيث نزل جامعاً بين أمرين : أنه منهج سماوى يُنظِّم حركة الحياة ، وهو فى الوقت نفسه معجزة مصاحبة للمنهج لا تنفكّ عنه إلى قيام الساعة .

أما الكتب السابقة فكانت تأتى بمنهج فقط ، أما المعجزة فشىء آخر منفصل عن الكتاب ، فمعجزة موسى العصا واليد وكتابه التوراة ، ومعجزة عيسى إبراء الأكمه والأبرص ، وكتابه الإنجيل ، أما محمد ﷺ فقد انفرد بأن تكون معجزته هى منهجه .

لذلك لما طلب كفار مكة من رسول الله أنْ يُفسح لهم جبال مكة ، ويُوسِّع عليهم الأرض ، وأنْ يُحيى لهم موتاهم ليشهدوا بصدقه ، خاطبهم الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا .. (٣١) ﴾ [الرعد]

أى : كان فى القرآن غَنَاءٌ لكم عن كُلِّ هذه المسائل .

وقد اعترض المستشرقون على هذه القضية ، فقالوا : إنْ كانت

الرسالة المحمدية للناس كافة ، وجاءت معجزته فى البلاغة والفصاحة ليتحدَّى بها قومه من العرب ، فما لَوْنُ الإعجاز لغير العرب ؟

نقول : أولاً : إذا كان العرب الذين ارتاضوا على الملكَة العربية وأساليبها قد عجزوا أمام هذا التحدى ، فغيرهم ممَّنْ اتخذ العربية صناعة لا شكَّ أعجز .

ثانياً : مَنْ قال إن المعجزة في القرآن فى فصاحته وبلاغته فقط ؟

لقد جاءت بلاغة القرآن وفصاحته للأمة المتلقِّية للدعوة الأولى ، هؤلاء الذين سيحملون عِبْءَ الدعوة ، ويَسِيحُون بها فى شتى بقاع الأرض ، فإذا ما انتشرت الدعوة كانت المعجزة للناس الآخرين من غير العرب شيئاً آخر .

فالغيبيات التى يخبرنا بها ، والكونيات التى يُحدّثنا عنها ، والتى لم تكُنْ معلومة لأحد نجدها موافقة تماماً لما جاء به القرآن ، وهو مُنزَّل على نبى أُمىٍّ ، وفى أُمة أُميّة غير مثقفة ، فهذه كلها نواحى إعجاز للعرب ولغيرهم ، وما زِلْنا حتى الآن نقف أمام آيات ، وننتظر من العلم أنْ يكشفَ لنا عن معناها .

وفى الماضى القريب توصّل العلم إلى أن الذرة أصغر شىء فى الوجود ، وقد ذكر القرآن الذرة فى مثل قوله تعالى : ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)**﴾ [الزلزلة]

وبتقدُّم وسائل البحث توصَّلوا إلى تفتيت الذرة أو شطرها ، ووجدنا فى الكون ما هو أقل من الذرة ، فظنّ البعض أن هذه لا ذكْر لها فى القرآن ، وظنوا أنهم تصيَّدوا على القرآن مأخذاً ، ولو أمعَنوا

النظر فى كتاب الله لوجدوا لهذا التطور العلمى رصيداً فى كتاب الله حيث قال تعالى :

﴿ وَمَا يَعْزُبُ[1] عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾ [يونس]

والقرآن يقول (أصغر) لا صغير ، فلو فتَّتْنَا أجزاء الذرة لوجدنا لها رصيداً واحتياطاً فى كتاب الله ، ألاَ ترى فى ذلك إعجازاً ؟

إذن : تحدَّاهم الحق سبحانه بقوله : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ .. (٨٨) ﴾ [الإسراء] وأُدخل الجنّ فى مجال التحدى ؛ لأن العرب كانوا يعتقدون أن لكل شاعر نابغ ، أو أديب مُفوَّه ، أو عبقرى عنده نبوغ بيانى شيطاناً يلهمه ، وهذه الشياطين تسكن وادياً عندهم يسمونه « وادى عَبْقَر » ، لذلك لم يكتَف القرآن بتحديهم هم ، بل تحدى أيضاً مَنْ يُلهمونهم ، أو مَنْ ينسبونَ إليهم القوة فى هذا الأمر .

ثم يقول تعالى : ﴿ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ .. (٨٨) ﴾ [الإسراء] فالتحدِّى أنْ يأتوا (بمثله) لأنه لا يمكن أنْ يأتوا به نفسه ؛ لأنه نزل من عند الله وانتهى الأمر ، فمستحيل أنْ يأتُوا به نفسه مرة أخرى ؛ لأن الواقع لا يقع مرتين .

إذن : المتصوَّر فى مجال التحدى أنْ يأتوا بمثله ، فلو قلت : هذا الشيء مثل هذا الشيء ، فلا شَكَّ أن المشبّه به أقوى وأصدق من المشبه ، ولا يرتقى المشبه ليكون هو المشبه به بل مثله ، فإذا انتفى المثل فقد انتفى الأصل من باب أوْلَى .

فالحق سبحانه فى قوله : ﴿ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ .. (٨٨) ﴾ [الإسراء]

---

(١) أى : لا يغيب ولا يبعد عنه أى شيء ، فهو يعلم الصغير والكبير من الأمور والأشياء . [القاموس القويم ٢/١٨] .

لا ينفى عنهم أن يأتُوا بقرآن ، بل بمثل القرآن ، فإذا كانوا لا يأتون بالصورة ، فهل يقدرون على الأصل ؟!

ثم يقول تعالى زيادةً فى التحدِّى : ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (٨٨)﴾ [الإسراء]

والظهير : هو المعاون والمساعد والمعين على الأمر ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤)﴾ [التحريم]

لأنه قد يقول قائل : إن هذه المهمة لا يقوم بها فرد واحد ، فقال لهم سبحانه : بل هاتوا كل ما لديكم من طاقات إبداعية وعبقريات بيانية ، واستعينوا بما تزعمون من إلهام الجن ، وتعاونوا جميعاً فى سبيل هذا التحدّى ، حتى إذا كان فى أحدكم نقص أكمله الآخر .

لكن ، هل ظَلَّ التحدى قائماً على أنْ يأتُوا بمثل القرآن ؟

المتتبع لهذا الموضوع فى القرآن الكريم يجد الحق تبارك وتعالى يتنزَّل معهم فى القدر المطلوب للتحدِّى ، وهذا التنزُّل يدل على ارتقاء التحدِّى ، فبعد أنْ تحدّاهم بأنْ يأتوا بمثل القرآن ، تحدّاهم بعشْر سُور[1] ، ثم تحدّاهم بسورة واحدة[2] ، وكلما تنزل معهم درجة ارتقى بالتحدى ، فلا شكَّ أن تحديهم بسورة واحدة أبلغ من تحديهم بمثل هذا القرآن .

وهذا التنزُّل الذى يفيد الارتقاء كما نجمع مثلاً بين المتناقضات ،

---

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣)﴾ [هود] .

(٢) يقول تعالى : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ (٢٣)﴾ [البقرة] .

فنقول : صعد إلى الهاوية ، وانحدر إلى القمة . ومع هذا التنزُّل لم يستطيعوا الإتيان بمثل آية واحدة من كتاب الله .

ويجب أن نلتفت إلى مغزى آخر من وراء هذا التحدِّى ، فليس الهدف منه تعجيز القوم ، بل أن نثبت لهم السواسية بين الخَلْق ، فالجميع أمام الإله الواحد سواء ، وهذه هى القضية التى تُزعجهم وتقضّ مضاجعهم ، والقرآن سيثبت لهم صدْق محمد ، وسيرفع من مكانته بين القوم ، وهم الذين يحاولون إيذاءه ويُدبِّرون لقتله .

ولذلك من غبائهم أن قالوا : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : فاعتراضهم ليس على القرآن فى حَدِّ ذاته ، بل على محمد الذى نزل القرآن عليه ، فهم يحسدونه على هذه المكانة ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. (٥٤) ﴾[النساء]

وسبحان الله ، إذا كان الخَلْق يختلفون أمام رحمة الله فى مسائل الدنيا التى لهم فيها أسباب وسَعْى واجتهاد ، فكيف بالأمر الذى ليس فى أيديهم ؟ كيف يريدون التدخُّل فيه : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

ثم يتحدث الحق سبحانه عن طبيعة الأداء القرآنى ، فيقول :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩) ﴾

التصريف : هو التحويل والتنويع بأساليب مختلفة لزيادة البيان ،

والمراد أن القرآن الكريم لا يعالج القضايا بأسلوب رتيب جامد ، بل يُحوِّل الكلام بين أساليب متعددة ؛ لأنه يخاطب طباعاً متعددة ، ويتعرض أيضاً لموضوعات متعددة ومعانى مختلفة ، فلا بُدَّ أن يصرف الأسلوب ويَقلبه على أكثر من وجه ، فالذى لا يفهم هذه يفهم هذه ، فيعرض المعنى الواحد بأساليب متعددة وأمثال مختلفة .

ونأخذ مثالاً على ذلك قضية القمة ، وهى الألوهية ووحدانية الله تعالى ، فنرى القرآن يعرضها فى معارض مختلفة هكذا : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢) ﴾ [الأنبياء]

أى : فى السماء والأرض .

وهذا الأسلوب قد لا يفهمه غير العربى ؛ لأنه يفتقد الملكَة اللغوية التى يتلقَّى بها كلام الله ، وقد يعترض فيقول : (إلا) أداة استثناء . فالمعنى : لو كان فيهما آلهة خارج منهم الله لَفَسدتَا ، فلو كانت هناك آلهة ومعهم الله فهذه لا تجوز ؛ لأنها مشاركة ، لكنها تفيد أن الله تعالى موجود ، وإنْ كان معه آخرون ، والمنطق فى هذه الحالة يقول : لو كان فى السماء والأرض آلهة ومعهم الله لا تفسد .

لكن الحقيقة أن (إلاَّ) هنا ليس للاستثناء ، بل هى اسم بمعنى (غير) . فالمعنى إذن : لو كان فيهما آلهة غير الله لَفسدتَا .

ثم يعرضها بأسلوب آخر ، فيقول تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١) ﴾ [المؤمنون]

فالحق تبارك وتعالى مُنزَّه عن الولد والشريك ، إذ لو كان معه إله

آخر لَذهبَ كل إلـه بما خلق ، واختصَّ نفسه بمنطقة معينة ، ولعلا بعضُهم على بعض ، فإن أرادوا إبراز شيء للوجود ، فأيُّهما يبرزه ؟ إنْ قدر على إبراز واحد فالآخر عاجز ، وإنْ لم يقدر عليه واحد بمفرده ، فهما عاجزان لا يصلحان للألوهية .

ثم يعرض نفس القضية بأسلوب آخر ، فيقول : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّأَبْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء]

أى : إنْ كان مع الله آلهة كما يدَّعى المشركون لَذهَب هؤلاء الآلهة إلى ذى العرش يُعاتبونه أو يُؤدِّبونه ، أو يُعاقبونه ؛ لأنه انفرد بالملْك من دونهم .

وبأسلوب آخر يقول تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران]

ولم يَأْتِ مَنْ ينازعه هذه المكانة ، أو يدَّعيها لنفسه ، إذن : فقد ثبتتْ له هذه القضية إلى أنْ يُوجَد معارِض ، فالمختلف فيه يتفق عليه إنْ لم يظهر له معارض .

وسبق أن ضربنا لذلك مثلاً ، ولله المثل الأعلى : هَبْ أن جماعة انصرفوا من مجلس ، ثم وجد صاحب البيت حافظة نقود فى مكان مجلسهم فعرضها عليهم ، فلم يدَّعها أحد لنفسه إلا رجل واحد قال : هى لى ، أيشكُّ صاحب البيت أنها له ؟

نرى هذا التصريف أيضاً فى أسلوب القرآن فى مسألة ادعاء أن لله تعالى ولداً ، تعالى الله عمَّا يقول المبطلون علُواً كبيراً ، فيعرضها القرآن هكذا : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ

اللّه .. ﴿٣٠﴾ [التوبة] فيردُّ القرآن هذا الزعْم بقوله تعالى : ﴿بَدِيعُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ .. ﴿١٠١﴾﴾[الأنعام]

وفى موضع آخر يعرض المسألة هكذا : ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل]

أى : فإن كنتم تريدون مقاسمة الخالق سبحانه ، فهل يليق أنْ تأخذوا أنتم البنين ؛ لأنهم المفضلون حَسْب زعمكم ، وتتركون له تعالى البنات : ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم] أى : قسمة جائرة .

وهكذا يُصرِّف القرآن أسلوبه ، ويُحوّله ليقنع به جميع العقول ؛ ليناسب كل الطباع . وتمتاز لغة العرب بالمثل والحكمة ؛ لذلك كان من التصريف فى أسلوب القرآن استخدام المثل ، وهو تعبير مُوجَز ، يحمل المعانى الكثيرة وتتعشق لفظه ، وتقوله كما هو دون تغيير إذا جاءت مناسبته .

فإذا أرسلتَ أحداً فى مهمة أو جماعة ، فيمكنك حين عودتهم تقول لهم مستفهماً : (ماذا وراءك يا عصام ؟) هكذا بصيغة المؤنثة المفردة ، لأن المثل قيل هكذا ، حيث أرسل أحدهم امرأة تسمى عصام لتخطب له إحدى النساء وحينما أقبلتْ عليه خاطبها بهذه العبارة ، فصارت مثلاً[1] .

وكما تقول لصاحبك الذى يتعالى عليك : (إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً) إذن : المثل يمتاز بأنه يثبت على لفظه الأول ولا يتغير عنه .

أما الحكمة فهى : قول شارد يقوله كل واحد ، وهو كلام يقلُّ لفظه ، ويجلُّ معناه .

---

(١) ذكر ابن منظور فى لسان العرب (مادة : عصم) هذا المثل ولكن للمذكر ، ثم قال : « عصام هو اسم حاجب النعمان بن المنذر ، وهو عصام بن شهير الجَرْمىّ » وقد ذكره الزركلى فى الأعلام (٤/٢٣٣) .

كما تقول : « رُبَّ أخ لك لم تَلِدْهُ أمك » .

« لا تُعلَّم العَوانُ الخمْرة »[1] .

« إن المنبتّ[2] لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى » أى : أن الذى يُجهد دابته فى السير لن يصل إلى ما يريد ؛ لأنها ستنقطع به ولا تُوصلّه .

ومن الحكمة هذه الأبيات الشعرية التى صارت حكمة متداولة :

وَمَنْ يكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ   يَجِدْ مُراً بِهِ المَاءَ الزُّلاَلاَ[3]

وقوله :

وأتْعَس النَّاسِ حَظًّا مَنْ تكونُ لَه   نَفْسُ الملُوكِ وحالاتُ المساَكين

وهَبْ أن ولدك أهمل دروسه طوال العام وعند الامتحان أخذ يجدّ ويَجْتهد ويُرهق نفسه ، هنا يمكنك أن تقول له : (قبل الرماء تُملأُ الكنائن) والكنَانة هى المخلاة التى تُوضَع بها السهام ، وهذه لا بُدَّ أنْ يُعدّها الصياد قبل صَيْده لا وقت الصيد .

إذن : لأهمية المثل فى لغة العرب جعله القرآن لَوْناً أسلوبياً ، وأداة للإقناع ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا** .. (٢٦) ﴾ [البقرة]

لأن الله تعالى يخاطب بالقرآن عقولاً مختلفة وطبائع متعددة ؛ لذلك لا يستحى أن يضرب المثل بأحقر مخلوقاته لِيُقنِعَ الجميع كُلاًّ بما يناسبه .

(١) قال ابن برى : أى المجرَّب عارف بأمره ، كما أن المرأة التى تزوجت تُحسن القناع بالخمار . [لسان العرب ـ مادة : عون] .

(٢) الانبتات : الانقطاع . والمنبت فى الحديث : الذى أتعب دابته حتى عطب ظهره ، فبقى منقطعاً به . [لسان العرب ـ مادة : بتت] فلا هو وصل إلى غايته من سفره ، ولا هو حافظ على دابته .

(٣) الماء الزلال : سريع النزول والمرّ فى الحلق . وقيل : هو الماء العذب الصافى . [لسان العرب ـ مادة : زلل] .

وقوله : ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ قد يقول قائل : ولماذا قال ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ ، فالعجيب هنا مسألة الصِّغَر ؟

نقول : المراد بما فوقها . أى : فى المعنى المراد ، وهو الصِّغر . أى : ما فوقها فى الصِّغر لا أكبر منها .

ثم يأتى بالمعنى فى صورة أخرى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) ﴾ [العنكبوت]

إذن : يُصرِّف الله الأمثال ويُحوِّلها ليأخذ كل طَبْع ما يناسبه وما يقتنع به ، وليس القرآن على وتيرة واحدة أو مزيج واحد يعطى للجميع . بل يُشخِّص الداءات ويُحلِّلها ويعالجها بما يناسبها ؛ لذلك يأتى الأسلوب مختلفاً .

وهذه المسألة واضحة فى الحديث النبوى الشريف ، حيث كان الصحابة يسألون رسول الله ﷺ السؤال الواحد ، وتأتى الإجابة مختلفة من شخص لآخر ، فقد سُئل ﷺ كثيراً : ما أفضل الأعمال يا رسول الله ؟ فقال للسائل : « الصلاة لوقتها »(١) . وقال لآخر :

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ : أىُّ العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة لوقتها » أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .

« بر الوالدين »[1] وقال لآخر : « أنْ تلقَى أخاك بوجه طَلْق »[2] .

وهكذا جاءت الإجابة مختلفة من شخص لآخر ؛ لأن رسول الله ﷺ يراعى حال سائله ، ويحاول أنْ يعالج نقطة الضعف فيه ، فالأمر ليس (أكلشيه) ثابتاً يعطيه للجميع ، بل هى مراعاة الأحوال والطباع .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [الإسراء]

نعرف أن (إلاّ) أداة استثناء ، تُخرج ما بعدها من حكم ما قبلها ، كما تقول : جاء القوم إلا زيداً ، ولو طبَّقْنَا هذه القاعدة على الآية لا يستقيم معناها ، كما لو قلت : ضربت إلا زيدا ، والآية أسلوب عربى فصيح .

نقول : لأن معنى أبى : لم يقبل ولم يَرْضَ ، فالمراد : لم يَرْضَ إلا الكفور ، فلا بُدَّ للاستثناء المفرّغ أنْ يُسبق بنفى .

ثم يقول الحق سبحانه[3] :

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾

---

(١) قال أبو عمرو الشيبانى : أخبرنا صاحب هذه الدار ـ وأومأ بيده إلى دار عبد الله ـ قال : سألت النبى ﷺ : أى العمل أحب إلى الله عز وجل ؟ قال : « الصلاة على وقتها . قال : ثم أى ؟ قال : ثم بر الوالدين » أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٧٠) ، ومسلم فى صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .

(٢) عن أبى ذر رضى الله عنه قال قال لى النبى ﷺ : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٢٦) ، وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (١٧٣/٥) .

(٣) **سبب نزول الآية** : ذكر الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٦٨ ـ ١٧٠) عن ابن عباس أن عتبة وشيبة وأبا سفيان والنضر بن الحارث والوليد بن المغيرة وأبا جهل ورؤساء قريش اجتمعوا على ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد وكلهوه وخاصموه حتى تعذروا به ، فبعثوا إليه : إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فجاءهم سريعاً وهو يظن أنه بدا فى أمره بداء ، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعزّ عليه تعنتهم حتى جلس إليهم » ودار بينهم نقاش طويل ذكره الواحدى بطوله ، فنزلت الآية .

(لَنْ) تفيد تأبيد نَفْى الفعل فى المستقبل ، تقول : أنا لم أصنع هذا ، ولن أصنعه . أى : فى المستقبل .

ومعلوم أن الإنسان ابن أغيار ، لا يحكمه حال واحد بل هو مُتقلِّب بين أحوال شتى طوال حياته ، والله تعالى وحده هو الذى لا يتغيّر ، وما دام الإنسان ابنَ أغيار ويطرأ عليه حال بعد حال ، فليس له أنْ يحكمَ على شىء حُكْماً قاطعاً فى مستقبل هو لا يملكه ، فالذى يملك الحكم القاطع هو الحق سبحانه الذى لا تتناوله الأغيار .

لذلك ؛ فالإنسان مثلاً إذا صعد حتى القمة نخاف عليه الهبوط ؛ لأنه من أهل الأغيار ، ولا يدوم له حال ، إذن : فماذا بعد القمة ؟

وقد عَبَّر الشاعر عن هذا المعنى بقوله :

إذَا تَمَّ شَىءٌ بَدَا نَقْصُهُ ... تَرقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيل تَمّ

والعجيب أن الناس يتطلعون فى نعمة الله إلى التمام ، فيقول أحدهم : يا حبَّذا ، لو حدث كذا لَتَمّت هذه النعمة ، وهم لا يدرون أن هذا النقص فى النعمة سبب بقائها ، فلو تَمَّتْ لك النعمة وأنت من أهل الأغيار ، فماذا تنتظر إلا زوالها ؟

فَلْيَرْضَ كلُّ صاحب نعمة بما فيها من نقص ، فلعل هذا النقص يردُّ عنه عَيْن حاسد ، أو حقد حاقد .

فبعض الناس يرزقه الله بالأولاد ويُعينه على تربيتهم ، ولحكمة يفشل أحدهم فيحزن لذلك ، ويألم أشد الألم ، ويقول : لو أن هذا الولد .. وهو لا يدرك حكمة الله من وراء هذا النقص ، وأنه حارسٌ للنعمة فى الآخرين ، وأنه التميمة التى تحميه وتردُّ عنه ما يكره .

لذلك لما أراد المتنبى[1] أن يمدح سيف الدولة[2] قال له :

شَخِصَ الأَنامُ إلى كَمَالكَ فَاسْتَعِذْ ... مِنْ شَرِّ أَعْيُنِهِمْ بعَيْبٍ وَاحِد

أى : نظروا إليك معجبين بما فيك من كمال ، فاعملِ عملاً سيئاً واحداً يصد عنك شرَّ أعينهم .

إذن : (لن)تفيد تأبيد النفى فى المستقبل ، وهذا أمر لا يملكه إلا مالك الأحداث سبحانه وتعالى ، أمَّا صاحب الأغيار فليس له ذلك ، والذين آمنوا فيما بعد برسول الله ممَّنْ قالوا هذه المقولة : ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ۝٩٠﴾ [الإسراء]

نستطيع أن نقول لهم : لقد أوقعتْكم (لن) فى الكذب ؛ لأنكم أبَّدتُم نَفْى الإيمان ، وها أنتم مؤمنون ، ولم يُفجِّر لكم النبى ينبوعاً من الأرض .

وعند فتح مكة وقف عكرمة بن أبى جهل وقال فى الخَنْدَمَة[3]

---

(١) المتنبى : هو أحمد بن الحسين أبو الطيب الكندى ، ولد (٣٠٣ هـ) بالكوفة فى محلة تسمى كندة ، نشأ بالشام ، ثم تنقل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية ، قال الشعر صبياً ، تنبأ فى بادية السماوة ، أسره أمير حمص وسجنه حتى تاب ورجع عن دعواه ، توفى ٣٥٤ هـ عن ٥٢ عاماً [الأعلام للزركلى ١/١١٥] .

(٢) هو : على بن عبد الله بن حمدان التغلبى ، أبو الحسن سيف الدولة ، ولد فى ميافارقين بديار بكر عام ٣٠٣ هـ ، له أخبار ووقائع مع الروم كثيرة ، ملك واسط ودمشق وحلب وتوفى بها ودفن فى ميافارقين عام ٣٥٦ هـ عن ٥٣ عاماً . [الأعلام للزركلى ٤/٣٠٣] .

(٣) الخندمة : جبل معروف عند مكة ، قال ابن برى : كانت به وقعة يوم فتح مكة ، ومنه يوم الخندمة ، وكان لقيهم خالد بن الوليد فهزم المشركين وقتلهم . [لسان العرب ـ مادة : خندم] .

وكان عكرمة بن أبى جهل قد قال قبل هذا عن أذان بلال بن رباح للظُّهْر فوق ظَهْر الكعبة يوم فتح مكة : لقد أكرم الله أبا الحكم (يقصد أباه أبا جهل) حيث لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول . [دلائل النبوة للبيهقى ٤/٣٢٨] .

ما قال ، ثم رجع إلى النبى ﷺ مؤمناً معتذراً[1] وخرج محارباً مع خالد بن الوليد فى اليرموك ، وحين طُعن الطعنة المميتة ، وحمله خالد ، فإذا به يقول له : أهذه ميتة تُرضِى عنى رسول الله ؟

إذن : مَنْ يقول كلمة عليه أن يكون قادراً على تنفيذها ، مالكاً لزمامها ، ضامناً لنفسه ألاَّ يتغير ، وألاَّ تتناوله الأغيار ، ولا يملك ذلك إلا الله سبحانه وتعالى .

والمتدبّر لأسلوب القرآن فى سورة (الكافرون) يجد هذه المسألة واضحة ، حيث يقول تعالى : ﴿قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لاأَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④﴾ [الكافرون]

هكذا نفتْ الآية عبادة كل منهما لإله الآخر فى الزمن الحاضر ، ثم يقول تعالى : ﴿وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤﴾ [الكافرون] لينفى أيضاً احتمال العبادة فى المستقبل ، إذن : فليس فى الآية تكرار ، كما يرى بعض قِصار النظر .

ولك الآن أنْ تسألَ : كيف نفى القرآن الحدث فى المستقبل ؟ نقول : لأن المتكلّم هنا هو الحق سبحانه وتعالى الذى يملك الأحداث ولا تُغيِّره الأغيار ، ولا تتسلط عليه ، فحكم على المستقبل هذا الحكم القاطع وأبَّد النَّفى فيه .

---

(١) فرَّ عكرمة بن أبى جهل فركب البحر فأصابهم عاصف ، فقال أصحاب السفينة : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغنى عنكم ههنا شيئاً . فقال عكرمة : « والله لئن لم ينجنى فى البحر إلا الإخلاص لا ينجينى فى البر غيره ، اللهم إن لك علىّ عهداً إن عافيتنى مما أنا فيه أن آتى محمداً حتى أضع يدى فى يده فلأجدنه عفواً كريماً قال : فجاء فأسلم » [الإصابة فى تمييز الصحابة [٢٥٨/٤ ، ترجمة ٥٦٣٢] .

ثم يقول تعالى : ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ [الإسراء]

وفى آية أخرى قال : ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا .. ﴿١٢﴾﴾ [القمر]

فالتفجير : أن تعمل فى الأرض عملية تُخرج المستتر فى باطنها على ظهرها ، وعين الماء تُخرِج لك الماء من الأرض ، وتأخذ منه حاجتك فلا ينقص ؛ لأنها تعوض ما أُخذ منها بقانون الاستطراق ، وقد يحدث أن يغيض الماء فيها قليلاً .

أما الينبوع فتراه يفيض باستمرار دون أن ينقص فيه منسوب الماء ، كما فى زمزم مثلاً ، ولا شكَّ أن هذا المطلب منهم جاء نتيجة حرمانهم من الماء ، وحاجتهم الشديدة إليه .

ويذكر الحق سبحانه أنهم واصلوا حديثهم للرسول ﷺ ، فقالوا :

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾

سبق أن طلبوا الماء لأنفسهم ، وهنا يطلبون للرسول (جنة) أى : بستان أو حديقة من النخيل والعنب ؛ لأنهما الصِّنْفان المشهوران عند العرب ﴿فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ﴿٩١﴾﴾ [الإسراء] أى : خلال هذه الحديقة حتى تستمر ولا تذبل .

ويواصلون تحديهم لرسول الله ﷺ ، فيقولون :

﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾

الزَّعْم : هو القول المخالف للواقع ، ويقولون : الزعم مطيّة

الكذب ، قال تعالى : ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا .. (٧)﴾ [التغابن]

وإنْ كانوا اتهموا رسول الله بالزعم ، فما هو إلا مُبلِّغ عن الله ، وناقل إليهم منهج ربه ، فإنْ أرادوا أنْ يتَّهموا فليتهموا الحق سبحانه وتعالى ؛ لأن رسوله لا ذنبَ له ، وقد جاءوا بمسألة إسقاط السماء عليهم ؛ لأن الحق سبحانه سبق أنْ قال عنهم :

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. (٩)﴾ [سبأ]

لذلك طلبوا من رسول الله أنْ يُوقِع بهم هذا التهديد .

و﴿كِسَفًا .. (٩٢)﴾ [الإسراء] أي : قطَعاً ، ومفردها كسفة كقطعة .

ويقول تعالى : ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢)﴾ [الإسراء] أي : نراهم أمامنا هكذا مُقابلةً عياناً ، وقد جاء هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا .. (٢١)﴾ [الفرقان]

والمتأمل فيما طلبه الكفار من رسول الله ﷺ يجده تعجيزاً بعيداً كُلَّ البعد عن الواقع ، مما يدلنا على أنهم ما أرادوا الإيمان والهداية ، بل قصدوا الجدل والعناد ؛ لذلك يقول الحق سبحانه ردّاً على لَجَج هؤلاء وتعنُّتهم : ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا .. (١١١)﴾ [الأنعام]

ثم يقول تعالى عنهم أنهم قالوا :

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ(١) فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (٩٣) ﴾

البيت : هو المكان المعدّ للبيتوتة ، والزخرف : أى المزيَّن ، وكان الذهب وما يزال أجمل أنواع الزينة ؛ لأن كل زُخْرف من زخارف الزينة يطرأ عليه ما يُغيِّره فيبهت لونه ، وينطفىء بريقه ، وتضيع ملامحه إلا الذهب ، ونقصد هنا الذهب الخالص غير المخلوط بمعدن آخر ، فالذهب الخالص هو الذى لا يتأكسد ولا يتفاعل مع غيره ؛ لذلك يظل على بريقه ورَوْنقه ، فإنْ كان البيت نفسه من زخرف ، فماذا سيكون شكله ؟

ونرى الذين يُحبُّون أن ينافقوا نفاقَ الحضارات ، ويتبارَوْنَ فى زخرفة الصناعات يُلصقون على المصنوعات الخشبية مثلاً طبقة أو قشرة من الذهب ؛ لتظلَّ محتفظة بجمالها ، كما فى الأطقم الفرنساوى أو الإنجليزى مثلاً .

ثم يقول تعالى : ﴿ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ .. (٩٣) ﴾ [الإسراء]

أى : يكون لك سُلَّم تصعد به فى السماء ، ويظهر أنهم تسرعوا فى هذا القول ، ورأَوْا إمكانية ذلك ، فسارعوا إلى إعلان ما تنطوى عليه نفوسهم من عناد : ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .. (٩٣) ﴾ [الإسراء]

---

(١) رقى : علا وصعد . [القاموس القويم ١/٢٧٣] .

وكـأنهم يُبيِّـتـون العناد لرسـول الله ، فهم كـاذبون فى الأولى ، وكاذبون فى الثانية ، ولو نزَّل الله عليهم الكتاب الذى أرادوا ما آمنوا ، وقد رَدَّ عليهم الحق سبحانه بقوله :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ۞ ﴾ [الأنعام]

وانظر إلى رَدِّ القرآن على كل هذا التـعنت السابق : **﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي .. ۞ ﴾** [الإسراء] وكلمـة (سبـحان) كلمـة التنزيه العُلْيـا للحق سبحانه وتعالى ، وقد تحدَّى بها الكون كله ؛ لأنها كلمة لا تُقَال إلا لله تعـالى ، ولم يحدث أبداً بين الناس أنْ قـالها أحـد لأحد ، مع مـا فى الكون من جـبابرة وعُـتَاة ، يحـرص الناس على منافقـتهم وتملُّقـهم ، وهذه كلمة اختـيارية يمكن أن يقولها كل إنســان ، لكن لم يجرؤ أحد على قَوْلها لأحد .

والحق سبحانه وتعالى يتحدَّى الكون كله بأمور اختيارية يقدرون عليها ، وتحدى المختار فى المـثل معناها أنه سبحانه عالم بأن قدرته لن تسـتطيع أن تفعل ذلك ، ومـثال ذلك قـول الحق تبارك وتعـالى : **﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۞ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۞ ﴾** [المسد]

نزلت هذه الآيات فى أبى لهب ، وهو كافر ، ويحـتمل منه الإيمان كما آمن غيره من الكفرة ، فقد آمن عـمر والعباس وغيرهم ، فما كان يُدرِى رسـول الله أن أبا لهب لن يؤمن ، لكنه يُبلِّغ قول ربه قرآناً يُتلَى

ويُحفظ ويُسجَّل ، وفيه تقرير وشهادة بأن أبا لهب سيموت كافراً ، وأن مصيره النار .

وهنا نقول : أمَا كان فى إمكان أبى لهب أنْ يُكذِّب هذا القول ، فيقوم فى قومه مُنادياً بلا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ـ ولو نِفَاقاً ـ وله بعد ذلك أن يتهم محمداً وقرآن محمد بالكذب ؟

لكن هذا لم يحدث ؛ لأن المتكلم هو الله ربُّ العالمين .

ومن هذا التحدى أن الحق سبحانه له صفات وله أسماء ، الأسماء مأخوذة من الصفات ، إلا اسم واحد مأخوذ للذات ، هو لفظ الجلالة (الله) ، فهو علَم على الذات الإلهية لم يُؤخَذ من صفة من صفاته تعالى ، فالقادر والغفور والحىّ القيوم وغيرها من الأسماء مأخوذة من صفات ، إنما (الله) علَم على الذات الجامعة لكُلِّ هذه الصفات

لذلك تحدَّى الخالق سبحانه جميع الخَلْق ، وقد أعطاهم الحرية فى اختيار الأسماء أنْ يُسمُّوا أنفسهم أو أبناءهم بهذا الاسم (الله) ، ويعلن هذا التحدى فى كتابه الكريم وعلى رؤوس الأشهاد يقول : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥) ﴾ [مريم] ؟

ومع ذلك لم يجرؤ كافر واحد على أنْ يُسمِّيَ هذا الاسم ليظلَّ هذا التحدى قائماً إلى قيام الساعة ؛ لأن الله تعالى حق ، والإيمان به وبوجوده تعالى متغلغل حتى فى نفوس الكفار ، فلو كانوا يعلمون أن هذه الكلمة كذب ، أو لا وجودَ لها لأقدموا على التسمية بها دون أن يُبالُوا شيئاً ، أمَا وهم يعلمون أن الله حق فلن يجرؤ أحد ، ويُجرِّب هذه التسمية فى نفسه ؛ لأنه يخشى عاقبة وخيمة لا يدرى ما هى .

لذلك ردَّ الحق سبحانه على تعنُّت الكفار فيما طلبوه من رسوله ﷺ قائلاً : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّي .. (٩٣) ﴾ [الإسراء] لأن الأمور التى طلبوها أمور بلغتْ من العجب حَدّاً ، ولا يمكن أن يُتعجب منها إلا بسبحان الله ؛ لأنها كلمة التعجُّب الوحيدة والتى لا تُطلَق لغير الله ، وكأنه أرجع الأمور كلها لله ، ولقد كان لهم غِنىً عن ذلك فى كتاب الله الذى نزل إليهم :

﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) ﴾ [العنكبوت]

والهمزة هنا للاستفهام المراد به التعجُّب أيضاً : أيطلبون هذه الآيات ، ولم يكْفِهم أنَّا أنزلنا عليك الكتاب ، وقد كان فيه غناءٌ لهم .

ثم يقول تعالى : ﴿ هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) ﴾ [الإسراء]

هل ادعيْتُ لكم أنِّى إله ؟! ما أنا إلا بشر أبلغكم رسالة ربى ، وأفعل ما يأمرني به ، كما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) ﴾ [يونس]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) ﴾

أى : ما منعهم من الإيمان إلا هذه المسألة : أن يكون الرسول بشراً ، هذه هى القضية التى وقفت فى حلوقهم : ﴿ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) ﴾ [الإسراء]

والمتأمِّل في مسألة التبليغ عن الله يجد أنها لا يمكن أنْ تتم إلا ببشر ، فكيف يبلغ البشر جنس آخر ، ولا بُدَّ للتلقِّي عن الله من وسائط بين الحق سبحانه وتعالى وبين الناس ؛ لأن البشر لا يستطيع أنْ يتلقّى عن القُوة العليا مباشرة ، فإذنْ : هناك مراحل : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١)﴾ [الشورى]

لكن الرسول البشرى كيف يُكلِّم الله ؟ لا بُدَّ أنْ نأتي برسول من الجنس الأعلى : ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً .. (٧٥)﴾ [الحج] وهذا مرحلة ، ثم يصطفى رسولاً من البشر يتلقّى عن الملَك كى يستطيع أنْ يُبلِّغكم ؛ لأنكم لا تقدرون على اللقاء المباشر مع الحق سبحانه .

ونضرب لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى : أنت إذا أردتَ إضاءة لمبة صغيرة وعندكَ تيار كهربائى عالٍ ، هل يمكن أنْ تُوصِّله بهذه اللمبة ؟ لا لأنها ستحترق فوراً ، إذنْ : ما الحل ؟ الحل أنْ تأتى بجهاز وسيط يُقلِّل لك هذا التيار القوى ، ويعطى اللمبة على قَدْر حاجتها فتضىء .

كذلك الحق سبحانه يصطفى من الملائكة رسلاً يمكنهم التلقِّى عن الله ويصطفى من البشر رسلاً يمكنهم التلقِّى عن الملائكة ، ثم يُبلِّغ الرسول المصطفى من البشر بنى جنسه . إذن : فماذا يُزعجكم فى أنْ يكون الرسول بشراً ؟ ولماذا تعترضون على هذه المسألة وهى أمر طبيعى ؟

يقول تعالى : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ .. (٢)﴾ [يونس]

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ[1] إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا .. (١٥) ﴾[يس]

إذن : فاعتراضهم على بشرية الرسول أمر قديم توارثه أهل الكفر والعناد من أيام نوح ـ عليه السلام ـ ألم يَقُلْ له قومه : ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا .. (٢٧) ﴾ [هود]

وقالوا : ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤) ﴾ [المؤمنون]

وقالوا : ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) ﴾[القمر]

لذلك يدعونا الحق سبحانه وتعالى إلى النظر فى السُّنّة المتبعة فى الرسل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ .. (٤٣) ﴾ [النحل]

أى : ليسوا ملائكة ، لا بُدَّ أنْ يكونوا رجالاً ليتمّ اللقاء بينكم ، وإلاّ فلو جاء الرسول ملَكاً كما تقولون ، هل ستروْن هذا الملك ؟ قالوا : لا هو مُستتر عنَّا ، لكنه يرانا ، لكن تبليغ الرسالة لا يقوم على مجرد الرؤية ، فتبليغ الرسالة يحتاج إلى مخالطة ومخاطبة ، وهنا لا بُدَّ أنْ يتصوّر لكم الملَك فى صورة رجل ليؤدى منهمة البلاغ

---

(١) قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه أنها مدينة أنطاكية ، وكان بها ملك يعبد الأصنام فبعث الله تعالى إليه ثلاثة من الرسل وهم صادق وصدوق وشلوم فكذبهم ، وقد استشكل بعض الأئمة كونها أنطاكية ورجحوا أنها قرية أخرى أو تكون أنطاكية مدينة أخرى غير هذه المشهورة فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا فى الملة النصرانية ولا قبل ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انظر تفسير ابن كثير (٥٦٦/٣ ، ٥٧٠) .

عن الله ، وهكذا نعود من حيث بدأنا ؛ لأنها الطبيعة التى لا يمكن لأحد الخروج عنها .

لذلك يقول سبحانه : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ⑨﴾ [الأنعام] إذن : لا داعى للتمحُّك والعناد ، ومصادمة الفطرة التى خلقها الله ، والطبيعة التى ارتضاها لخَلْقه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾

(قُلْ) أى : رَدًّا عليهم : لو أن الملائكة يمشون فى الأرض مطمئنين لَنزَّلنا عليهم ملكاً رسولاً لكى يكون من طبيعتهم ، فلا بُدَّ أنْ يكون المبلِّغ من جنس المبلَّغ ، وهذا واضح فى حديث جبريل الطويل حينما جاء إلى رسول الله يسأله عن بعض أمور الدين لِيُعلِّم الصحابة : ما الإحسان ؟ ما الإيمان ؟ ما الإسلام . فيأتى جبريل مجلس رسول الله فى صورة رجل من أهل البادية ، وبعد أنْ أدَّى مهمته انصرف دون أنْ يشعر به أحد ، فلما سألوا عنه قال لهم رسول الله : « إنه جبريل ، أتاكم لِيُعلِّمكم أمور دينكم »[1] .

شىء آخر يقتضى بشرية الرسول ، وهو أن الرسول أُسْوة سلوك لقومه ، كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. ㉑﴾ [الأحزاب]

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨) من حديث عمر بن الخطاب .

وبالله ، كيف تتم هذه الأسوة ؟ وكيف يقتدى الناس بها إنْ كان الرسول ملَكاً ؟

فالرسول عندما يُبلِّغ منهج الله عليه أنْ يُطبِّق هذا المنهج فى نفسه أولاً ، فلا يأمرهم أمراً ، وهو عنه بِنَجْوَة ، بل هو إمامهم فى القول والعمل .

لذلك فالحاكم الحق الناصح يُطبِّق القانون عليه أولاً ، فكان سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ إذا أراد أن يُقنِّن قانوناً ويرى أنه سيتعب بعض الظالمين والمنحرفين فيجمع أهله ويخبرهم بما أراد ، ثم يُحذِّرهم من المخالفة : « فو الذى نفسى بيده ، مَنْ خالفنى منكم إلى شىء لأجعلنّه نكَالاً للمسلمين ، وأنا أول مَنْ أُطبِّقه على نفسى » .

لذلك حكم عمر الفاروق الدنيا كلها فى عصره ، ولما رآه الرجل نائماً مطمئناً تحت شجرة قال قولته المشهورة : « حكمتَ ، فعدلْتَ ، فأمنت ، فنمْتَ يا عمر » وعمر ما حكم الدنيا والبشر ، بل حكم نفسه أولاً فحُكمت له الدنيا ؛ لأن الحاكم هو مركز الدائرة ، وحَواليْه دوائر أخرى صغيرة تراه وتقتدى به ، فإنْ رأوه مستقيماً استقاموا ، ولم يجرؤ أحد منهم على المخالفة ، وإنْ رأوْه منحرفاً فاقوه فى المخالفة ، وأفسدوا أضعاف ما يُفسد .

لذلك ، لا يمكن أبداً لحاكم أن يحكم إلا إذا حكم نفسه أولاً ، بعدها تنقاد له رعيته ويكونون طوعاً لأمره دون جهد منه أو تعب[1] .

ولقد رأينا فى واقعنا بعض الحكام الذين فهموا الأُسْوة على حقيقتها ، فترى الواحد من رعيته يركب أفخم السيارات ، ويسكن

---

(١) وقد كتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنهما : أما بعد ، فإن أسعد الرعاة من سعدت به رعيته ، وإن أشقى الرعاة عند الله عز وجل من شقيت به رعيته ، وإياك أن ترتع فيرتع عمالك [حلية الأولياء ١/ ٥٠] .

أعظم القصور ، حتى إن معظم أدواتها تكون من الذهب ، في حين ترى هذا الحاكم يعيش عيشة متواضعة وربما يعيش في قصر ورثه عن أبيه أو جَدِّه ، وكأنه يُغلظ على نفسه ويبغى الرفاهية لرعيته .

وكذلك رسول الله ﷺ وقد أتى بمنهج ، وهو في الوقت نفسه أُسْوة سلوك وقُدْوة ، فنراه ﷺ يحثّ الغنيّ على الصدقة للفقير ، ثم يحرم أهل بيته من هذه الصدقة فلا يقبلها لهم ، وإنْ توارث الناس فيما يتركونه من أموال فإن ما تركه الرسول لا يُوَرَّثُ لأهله من بعده ، بل هو صدقة لفقراء المسلمين[1] ، وهكذا يحرم رسول الله أهل بيته مما أعطاه للآخرين لتكون القدوة صحيحة ، ولا يجد ضعاف النفوس مأخذاً عليه ﷺ .

إذن : فليس المراد من الحكم أن يتميز الحاكم عن المحكوم ، أو يفضل بعض الرعية على بعض ، فإذا ما أحسَّ الناس بالمساواة خضعوا للحاكم ، وأذعنوا له ، وأطاعوا أمره ؛ لأنه لا يعمل لمصلحته الشخصية بل لمصلحة رعيته ، بدليل أنه أقلُّ منهم في كُلِّ مستويات الحياة .

فالرسول إنْ جاء ملَكاً فإن الأُسْوة لا تتمّ به ، فإنْ أمرنا بشيء ودعانا إلى أن نفعل مثله فسوف نحتجّ عليه : كيف وأنت ملَكٌ لا شهوةَ لك ، لا تأكل ولا تشرب ولا تتناكح ولا تتناسل ، إن هذه الأوامر تناسبك أنت ، أما نحن فلا نقدر عليها .

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه (١٧٥٨) من حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت : إن أزواج النبي ﷺ حين توفي رسول الله ﷺ أردن أن يبعثن عثمان بن عفان إلى أبي بكر ، فيسألنه ميراثهن من النبي ﷺ قالت عائشة لهن : أليس قد قال رسول الله ﷺ « لا نورث، ما تركنا فهو صدقة » وكذا أخرجه البخاري في صحيحه (٣٧١١ ، ٣٧١٢) .

ومن هنا لا بُدّ أن يكون الرسول بشراً فإنْ حمل نفسه على منهج فلا عُذْر لأحد فى التخلُّف عنه ؛ لأنه يطبق ما جاء به ويدعوكم إلى الاقتداء بسلوكه .

وسبق أنْ ضربنا لذلك مثلاً وقُلْنا : هَبْ أنك رأيتَ فى الغابة أسداً يصول ويجول ويفتك بفريسته ، بالله هل يراودك أن تكون أسداً ؟ إنما لو رأيتَ فارساً على صَهْوة جواده يصول ويجول ويحصد رقاب الأعداء ، ألاَّ تتطلع إلى أن تكون مثله ؟

إذن : لا تتمّ القُدْوة ولا تصح إلا إنْ كان الرسول بشراً ، ولا داعى للتمرُّد على الطبيعة التى خلقها الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾

(قُلْ) أى : رَدّاً على ما اقترحوه من الآيات وعلى اعتراضهم على بشرية الرسول : ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ .. ﴿٩٦﴾ ﴾[الإسراء]

والشهيد إنما يُطلَب للشهادة فى قضية ما ، فما القضية هنا ؟ القضية هى قضية تعنُّت الكفار مع رسول الله ﷺ ؛ لأنهم طلبوا منه مَا ليس فى وُسْعه . والرسول لا يعنيه المتعنتون فى شىء ؛ لأن أمره مع ربه عز وجل ؛ لذلك قال : ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً .. ﴿٩٦﴾ ﴾

[الإسراء]

فإنْ كانت شهادة الشاهد فى حوادث الدنيا تقوم على الإخبار بما حدث ، وعليها يترتب الحكم فإن شهادة الحق سبحانه تعنى أنه تعالى الشهيد الذى رأى ، والحاكم الذى يحكم ، والسلطة التنفيذية التى تنفذ .

لذلك قال : ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً .. (٩٦) ﴾ [الإسراء]

فهو كافيك هذا الأمر ؛ لأنه كان بعباده (خَبيراً) يعلم خفاياهم ويطّلع على نواياهم من وراء هذا التعنُّت (بَصِيراً) لا يخفى عليه شىء من أمرهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ﴾

سبق أنْ قُلْنا : إن الهداية نوعان : هداية الدلالة المطلقة والتى تكون لجميع الخلق المؤمن والكافر ، فقد دَلَّ الله المؤمن والكافر على الطريق المستقيم وبيَّنه لهم وأرشدهم إليه .

والأخرى : هداية التوفيق والمعونة للقيام بمطلوبات المنهج الذى آمنوا به ، وهذه خاصّة بالمؤمن ، فبعد أنْ دلَّه الله آمن وصدَّق واعترف لله تعالى بالفضل والجميل ، بأن أنزل له منهجاً ينظم حياته . فأتحفه الله تعالى بهداية التوفيق والمعونة .

وعن الهداية يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ .. (١٧) ﴾ [فصلت]

أى : دَلَلْناهم على الطريق المستقيم ، لكنهم استحبُّوا العمى والضلال على الهدى ، فمنع الله عنهم معونته وتوفيقه .

والحق سبحانه يخاطب رسوله ﷺ بأسلوبين قرآنيين يوضِّحان هذيْن النوعيْن من الهداية ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ .. (٥٦) ﴾ [القصص]

فنفى عن رسول الله هداية التوفيق والمعونة ؛ لأنه ﷺ لا يملكها ، وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾

[الشورى]

فأثبتَ له هداية البيان والدلالة ؛ لأن هذه هى مهمته كمبلِّغ عن الله ، وهكذا أثبتَ له الحدث ونفاه عنه ؛ لأن الجهة مُنفكَّة أى : أن جهة الإثبات غير جهة النفى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لايَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٧) ﴾ [الروم]

فمرة : نفَى عنهم العلم ، ومرة أخرى : أثبتَ لهم العلم . والمراد أنهم لا يعلمون حقائق الأمور ، ولكنهم يعلمون العلوم السطحية الظاهرة منها . ونحن نكرّر مثل هذه القضايا لكى تستقرّ فى النفس الإنسانية ، وفى مواجيد المتدينين فينتفعوا بها .

ومن ذلك أيضاً قَوْلُ الحق سبحانه : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ .. (١٧) ﴾ [الأنفال]

فأثبت للرسول رَمْياً ، ونفى عنه رَمْياً ، لكن إذا جاء هذا الكلام من بليغ حكيم فاعلم أن الجهة مُنفكّة ؛ لأن النبى ﷺ فى غزوة بدر أخذ حَفْنة من التراب ورمى بها نحو أعدائه ، وهذا هو الرّمْى الذى أثبتته الآية ، وقد تولّتْ القدرة الإلهية إيصال ذرات هذه الحفنة إلى عيون الأعداء ، فأصابتهم جميعاً وشغلتْهم عن القتال ، وهذا هو الرَّمْى الذى نفاه الحق عن رسوله ﷺ[1] .

ولتقريب هذه المسألة : ابنك الذى تحمله على المذاكرة وتُرغمه عليها يأتى بالكتب ويضعها أمامه ويُقلِّب فيها ليوهمك أنه يذاكر ، فإذا ما راجعتَ معه ما ذاكر لا تجدْه حصَّل شيئاً فتقول له : ذاكرتَ وما ذاكرت ، فتُثبِت له الحدث مرة ، وتنفيه عنه أخرى ؛ لأنه ذاكر شكلاً ، ولم يذاكر موضوعاً .

إذن : فالحق سبحانه وتعالى يهدى الجميع هداية إرشاد وبيان ودلالة ، ويختص مَنْ آمن بهداية المعونة والتوفيق للقيام بمقتضيات المنهج ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

وقال عن الآخرين : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الصف] لكن يهدى العادلين .

وقال : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الصف] .. لكن يهدى الطائعين .

---

(١) قال الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص١٣٣) : « أكثر أهل التفسير أن الآية نزلت فى رمى النبى عليه الصلاة والسلام القبضة من حصباء الوادى يوم بدر حين قال للمشركين : شاهت الوجوه . ورماهم بتلك القبضة ، فلم يبق عين مشرك إلا دخلها منه شىء » ، وانظر الآثار المروية فى هذا فى الدر المنثور للسيوطى (٤/ ٤٠ ، ٤١) .

وقال : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة] .. لكن يهدى المؤمنين .

إذن : بيَّن الحق سبحانه فى أساليب القرآن مَنْ شاء هدايته ، أما مَنْ آثر الكفر وصمم ألاَّ يؤمن فهو وشأنه ، بل ويزيده الله من الكفر ويختم على قلبه ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ﴾ [الأنعام]

نعود إلى (مَن) فى قوله تعالى : ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ .. (٩٧) ﴾ [الإسراء] قلنا : إن (من) اسم موصول بمعنى الذى ، واستخدام (مَنْ) كاسم موصول لا يقتصر على (الذى) فقط ، بل تستخدم لجميع الأسماء الموصولة : الذى ، التى ، اللذان ، اللتان ، الذين ، اللاتى . فتقول : مَنْ جاءك فأكرمْه ، ومَنْ جاءتك فأكرمْها ، ومَنْ جاءاك فأكرمهما ، ومَنْ جاءتاك فأكرمهما ، ومَنْ جاءوك فأكرمهم ، ومَنْ جِئْنَكَ فأكرمْهُن .

فهذه ستة أساليب تؤديها (مَن) فهى ـ إذن ـ صالحة للمذكّر وللمؤنّث وللمفرد وللمثنى وللجمع ، وعليك أن تلاحظ (مَنْ) فى الآية : ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ .. (٩٧) ﴾ [الإسراء] جاءت (مَنْ) دالّة على المفرد المذكر ، وهى فى نفس الوقت دالّة على المثنى والجمع المذكر والمؤنث ، فنقول : مَنْ يهدِهَا الله فهى المهتدية ، ومَنْ يهدهم الله فهم المهتدون . وهكذا .

ونسأل : لماذا جاءت (مَنْ) دالة على المفرد المذكر بالذات دون

غـيره فى مـجال الهـدى ، أما فى الضـلال فجـاءتْ (مَنْ) دالَّة على الجمع المذكّر ؟

نقـول : لأنه لاحظ لفظ (مَنْ) فـأفرد الأولى ، ولاحظ مـا تطلق عليـه (من) فـجمع الثـانيـة : ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ .. (٩٧)﴾ [الإسراء]

وهنا مَلْحظ دقيق يجب تدبُّره : فى الاهتداء جـاء الأسلوب بصيغة المـفرد : ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ .. (٩٧)﴾ [الإسراء] لأن للاهتداء سـبيـلاً واحداً لا غـير ، هو منهج الله تـعالى وصـراطه المسـتقـيم ، فللهداية طريق واحد أوضحه رسول الله ﷺ بقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[1] .

أما فى الضـلال ، فجاء الأسلوب بصيغـة الجمع : ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ .. (٩٧)﴾ [الإسـراء] لأن طـرق الضـلال مـتـعـددة ومنـاهجـه مـخـتلفـة ، فـللضـلال ألـف طـريق ، وهذا واضح فى قـول الحق سبحانه : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ .. (١٥٣)﴾ [الأنعام]

والنبى ﷺ حينمـا قرأ هذه الآية خَطَّ للصـحابة خَطّاً مُسْـتقيـماً ، وخَطَّ حوله خطوطاً مُـتعرّجـة ، ثم أشار إلى الخط المـستقـيم وقال : « هذا ما أنا عليه وأصحابى »[2] .

---

(١) أخرجـه ابن أبى عاصم فى كـتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عـبد الله بن عـمرو بن العاص ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » ص (٤٦٠) وضعَّفه .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : خط رسول الله خطاً بيده ، ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، ثم خط عن يمينه وشـماله ، ثم قال : هذه السبل ليس منها سـبيل إلا عليه شـيطان يدعو إليه ، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ .. (١٥٣)﴾ [الأنعام] . أخرجه أحمد فى مسنده (٤٦٥/١) والحاكم فى مسـتدركه (٣١٨/٢) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » . وكذا أخرجه ابن حبان (١٧٤١ ـ موارد الظمآن) .

إذن : للهداية طريق واحد ، وللضلال ألْف مذهب ، وألف منهج ؛ لذلك لو نظرتَ إلى أهل الضلال لوجدتَ لهم فى ضلالهم مذاهب ، ولكل واحد منهم هواه الخاص فى الضلال . فعليك أنْ تقرأ هذه الآية بوعى وتأمُّل وفَهْم لمراد المتكلّم سبحانه ، فلو قرأها غافل لَقال : فلن تجد له أولياء من دونه ، ولأتبع الثانية الأولى .

ومن هنا تتضح توقيفية القرآن ، حيث دقة الأداء الإلهى التى وضعتْ كُلَّ حَرْف فى موضعه .

وقوله : (أَوْلِيَاءَ) أى : نُصَراء ومعاونين ومُعينين (مِنْ دُونِه) أى : من بعده ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ .. (٩٧) ﴾ [الإسراء]

الحشْر : القيام من القبور والجمع للحساب (عَلَى وُجوههم) هنا تعجب بعض الصحابة ، فسألوا رسول الله : وكيف يسير الإنسان على وجهه ؟ فقال ﷺ : « إن الذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يُمشيهم على وجوههم »[(١)] .

وما العجب فى ذلك ونحن نرى مخلوقات الله : ﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ .. (٤٥) ﴾ [النور]

ألم تَرَ الثعبان ، كيف هو سريع فى مشْيته ، خفيف فى حركته ، فالذى خلق قادر أن يُمشىَ من ضلَّ فى القيامة على بطنه ، لأن

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يُحشر الناس ثلاثة أصناف : صنفاً مشاة ، وصنفاً ركباناً ، وصنفاً على وجوههم ، قالوا : يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم . قال : إن الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم » أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٥٤ ، ٣٦٣) ، والترمذى فى سننه (٣١٤٢) وحسَّنه .

المسـألة إرادة مريد لِيُوقع بهم غـاية الذِّلَّة والهوان ، ويا ليتـهم تنتهى بهم المهانة والمـذلّة عند هذا الحدِّ ، بل ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا .. ﴿٩٧﴾ ﴾ [الإسراء]

هذا استطراق لوسـائل الإهانة ، ففضـلاً عن مَشْيـهم على الوجوه فهم عُمْى لا يرونَ شيئاً ، ولا يهـتدون ، وهم صُمٌّ لا يسمعون نداءً ، وهم بُكْمٌ لا يقدرون على الكلام ، ولك أنْ تتصوَّر إنسـاناً جمعت عليه كل هذه الوسائـل ليس فى يوم عادى ، بل فى يوم البـعث والنشور ، فإذا به يُفَـاجأ بهوْل البـعث ، وقد سُدَّتْ عـليه جمـيع منافذ الإدراك ، فهـو فى قلب هذا الهَـوْل والضـجـيج ، ولكنه حائر لا يـدرى شيـئاً ، ولا يدرك ما يحدث من حوله .

ولنا هنا لفتـة على هذه الآية ، فقـد ورد فى القرآن كثـيراً : صُمٌّ بُـكْم بهـذا الترتيب إلا فى هذه الآية جـاءت هكذا : (بُـكْماً وَصُـمّاً) ومعلوم أن الصَّمَم يسـبق البكَم ؛ لأن الإنسان يحكى ما سمـعه ، فإذا لم يسمع شيئاً لا يسـتطيع الكلام ، واللغة بنت السماع ، وهى ظاهرة اجتماعية ليستْ جنساً وليست دَماً .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الولد الإنجليزى إذا تربَّى فى بيئة عربية يتكلم بالعربية والعكس ؛ لأن اللغة ليست جنساً ، بل ظاهرة اجتماعية تقوم على السماع ، فـما تسمعـه الأذن يحكيه اللسان . حتى العـربى نفسه الذى يعيش فـى بيئة عـربية ، إلا أنه لم يسـمع هذه الألفاظ الغـريبة المتقعِّرة لا يستطيع محاكاتها ولا يعرف معناها .

لكن فى هذه الآية جاء البكَم أولاً ، لماذا ؟ لأنه ساعة يُفاجأ بهوْلِ البعث والحـشر كان المفـروض أن يسأل أولاً عَمَّا يحـدث ، ثم يسمع

بعد ذلك إجابة على ما هو فيه ، لكنه فُوجِىء بالبعث وأهواله ، ولم يستطع حتى الاستفسار عَمَّا حوله ، وهكذا سبق البكَم الصَّمَم فى هذا الموقف .

وهنا أيضاً اعتراض لبعض المستشرقين ومَنْ يُجارونهم ممَّنْ أسلموا بألسنتهم ، ولم تطمئن قلوبهم لنور الله ، يقولون : القرآن يقول : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا .. (٩٧) ﴾ [الإسراء] فينفى عنهم الرؤية ، وفى آيات أخرى يقول : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ .. (٧٥) ﴾ [مريم]

﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا .. (٥٣) ﴾ [الكهف]

فأثبت لهم الرؤية ، فكيف نجمع بين هذه الآيات ؟ والمتأمل فى حال هؤلاء المعذَّبين فى موقف البعث يجد أن العمى كان ساعة البعث ، حيث قاموا من قبورهم عُمْيًا ليتحققَ لهم الإذلال والحيرة والارتباك ، ثم بعد ذلك يعودون إلى توازنهم ويعود إليهم بصرهم ليشاهدوا به ألوان العذاب الخاصة بهم ، وهكذا جمع الله عليهم الذل فى الحالَيْن : حال العمى وحال البصر .

لذلك يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾ [ق]

ثم يقول تعالى : ﴿ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ﴾ [الإسراء] مأواهم : أى : مصيرهم ونهايتهم . خَبَتْ : خبت النار . أى : ضَعُفَت أو انطفأتْ ، لكن ما دام المراد من النار التعذيب ، فلماذا تخبو النار أو تنطفىء ؟ أليس فى ذلك راحة لهم من العذاب ؟

المتأمل فى الآية يجد أن خفوت النار وانطفاءها هو فى حَدِّ ذاته

لَوْنٌ من العذاب ؛ لأن استدامة الشيء يُوطِّن صاحبه عليه ، واستدامة العذاب واستمراره يجعلهم في إِلْف له ، فإنْ خَبتِ النار أو هدأتْ فترةً فإنهم سيظنون أن المسألة انتهت ، ثم يُفاجئهم العذاب من جديد ، فهذا أنكَى لهم وآلم في تعذيبهم .

وهذا يُسمُّونه في البلاغة « اليأس بعد الإطماع » ، كما جاء في قول الشاعر :

فَأصْبَحْتُ مِنْ لَيْلَى الغَدَاةَ كَقَابِضٍ   عَلَى المَاء خَانَتْهُ فُرُوجُ الأَصَابِعِ

وفي السجون والمعتقلات يحدث مثل هذا ، فترى السجين يشتد به العطش إلى حَدٍّ لا يطيقه ، فيصيح بالحارس ويتحنن إليه ويرجوه كوباً من الماء ، فيأتي له بكوب الماء حتى يكون على شَفَتَيْه ، ويطمع في أنْ يبلّ ريقه ويطفيء غُلَّته ، فإذا بالحارس يسكبه على الأرض ، وهذا أنكى وأشدّ في التعذيب .

وقد عَبَّر الشاعر[1] عن هذا المعنى بقوله :

كَمَا أبرقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامَةٌ   فَلَمَّا رَجَوْهَا أقْشَعَتْ وتَجلَّتِ[2]

أي : ساعة أنْ رأوْهَا ، واستشرفوا فيها الماء إذا بها تنقشع وتتلاشى ، وتُخيِّب رجاءهم فيها .

---

(١) هو : كثير بن عبدالرحمن الخزاعي أبو صخر ، شاعر متيم مشهور ، من أهل المدينة ، أكثر إقامته بمصر ، أخباره مع عزة بنت حميل الضمرية كثيرة ، وكان عفيفاً في حبه . توفي ١٠٥ هـ (الأعلام للزركلي ٥/٢١٩) .

(٢) البيت لكُثيِّر عزة . انظر ديوانه (ص١٠٧) ـ دار الثقافة بيروت ١٩٧١ ، تحقيق إحسان عباس . وقال شهاب الدين محمود الحلبي (ت ٧٢٥ هـ) في كتابه : « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » تحقيق أكرم عثمان يوسف (ص ١٢١) « فإن مجرد قوله « أبرقت قوماً عطاشاً غمامة » ليس تشبيهاً مستقلاً بنفسه ؛ لأن مقصود الشاعر أن يصف ابتداء مطمعاً أدى إلى انتهاء مؤيس » .

وكذلك من ألوان العذاب التى قد يظنُّها البعض لَوْناً من الراحة فى جهنم والعياذ بالله ، أن الله تعالى يُبدِّل جلودهم بجلود أخرى جديدة ، لا رحمةً بهم بل نكايةً فيهم ، كما قال تعالى : ﴿ **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ** .. (٥٦) ﴾ [النساء]

لأن الجلود إذا نضجتْ وتفحَّمتْ امتنع الحسُّ ، وبالتالى امتنعتْ إذاقة العذاب ، إذن : العلة من تبديل الجلود تجديدَ الحسِّ ليذوقوا العذاب إذاقةً مستديمة . ومنذ عهد قريب كانوا يظنون أن الحسَّ يأتى من المخ ، إلا أنهم لاحظوا على الإنسان إحساساً قبل أن يصل شىء للمخ .

فمثلاً : لو أشرت بأصبعك إلى عين إنسان تراه يُغمض عينه قبل أنْ تلمسه ، وفسَّروا ذلك بما يسمونه العكس فى النخاع الشوكى ، ثم توالت البحوث للتعرف على مناط الحسِّ فى الإنسان أيْن هى ؟ إلى أن انتهت تلك الأبحاث إلى ما أخبر به القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان ، من أن الجلد هو مركز الإحساس فى الإنسان ، بدليل أنك إذا أخذتَ حقنة مثلاً ، فبمجرد أن تخترق طبقة الجلد لا تشعر بألمها .

فمن أين عرف العرب هذه النظريات العلمية الدقيقة ؟ ومَنْ أخبر بها الرسول ﷺ؟ إنه لَوْنٌ من ألوان الإعجاز القرآنى للعرب ولغيرهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا[1] أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) ﴾

---

(١) رفت الشىء رفتاً : جعله رفاتاً ، أى : دقه وكسَّره وجعله قطعاً صغيرة . [القاموس القويم ١/ ٢٧٠] .

(ذَلِكَ) أى : ما حدث لهم من العذاب الذى تستبشعه أنت (جَزَاؤُهُمْ) أى : حاق بهم العذاب عَدْلاً لا ظُلْماً ، فإياك حين تسمع آيات العذاب هذه أنْ تأخذَك بهم رأفة أو رحمة ؛ لأنهم أخذوا جزاء عملهم وعنادهم وكفرهم ، والذى يعطف قلوب الناس على أهل الإجرام هو تأخير العقاب .

فهناك فَرْقٌ بين العقوبة فى وقت وقوع الجريمة ، وهى ما تزال بشعةٌ فى نفوس الناس ، وما تزال نارها تشتعل فى القلوب ، فإنْ عاقبتَ فى هذا الجو كان للعقوبة معنىً ، وأحدثتْ الأثر المرجوّ منها وتعاطفَ الناس مع المظلوم بدلَ أنْ يتعاطفوا مع الظالم .

فحين نُؤخِّر عقوبة المجرم فى ساحات المحاكم لعدة سنين فلا شكَّ أن الجريمة ستُنْسَى وتبرد نارها ، وتتلاشى بشاعتها ، ويطويها النسيان ، فإذا ما عاقبتَ المجرم فلن يبدو للناس إلاَّ ما يحدث من عقوبته ، فترى الناس يرأفون به ويتعاطفون معه .

إذن : قبل أن تنظر إلى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء]

وإلى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [الإسراء]

انظر إلى ما فعلوه ، واعلم أن هذا العذاب بعدل الله ، فاحذر أنْ تأخذك بهم رحمة ، ففى سورة النور يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [النور]

ثم يُوضّح سبحانه وتعالى حيثية هذا العذاب : ﴿ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا

بآياتنا .. (٩٨)﴾ [الإسراء] والآيات تطلق على الآيات الكونية ، أو على آيات المعجزات المؤيِّدة لصدْق الرسول ، أو آيات القرآن الحاملة للأحكام .. وقد وقع منهم الكفر بكل الآيات ، فكفروا بالآيات الكونية ، ولم يستدلوا بها على الخالق سبحانه ، ولم يتدبّروا الحكمة من خلْق هذا الكون البديع ، وكذلك كفروا بآيات القرآن ولم يُؤمنوا بما جاءتْ به .

وهذا كله يدلُّ على نقص فى العقيدة ، وخلَل فى الإيمان الفطرى الذى خلقه الله فيهم ، وكذلك كذَّبوا بمعجزات الرسول ، فدلَّ ذلك على خلَل فى التصديق .

ومن باطن هذا الكفر ومن نتائجه أنْ قالوا : ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨)﴾ [الإسراء] وهذا القول منهم تكذيبٌ لآيات القرآن التى جاءتْ على لسان رسول الله ﷺ لتخبرهم أنهم مبعوثون يوم القيامة ومُحاسَبُون ، وهم بهذا القوْل قد نقلوا الجدل إلى مجال جديد هو : البعث بعد الموت .

وقوله : ﴿عِظَامًا وَرُفَاتًا .. (٩٨)﴾ [الإسراء] الرفات : هو الفُتَات وَزْناً ومعنىً ، وهو : الشىء الجاف الذى تكسّر ؛ لذلك جاء الترتيب هكذا : عظاماً ورُفَاتاً ؛ لأن جسم الإنسان يتحلّل وتمتصُّ الأرض عناصر تكوينه ، ولا يبقى منه إلا العظام ، وبمرور الزمن تتكسّر هذه العظام ، وتتفتتْ وتصير رفاتاً ، وهم يستبعدون البعث بعد ما صاروا عظاماً ورفاتاً .

وقوله تعالى : ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ .. (٩٨)﴾ [الإسراء] والهمزة هنا استفهام يفيد الإنكار ، فلماذا ينكر هؤلاء مسألة البعث بعد الموت ؟

نقول : لأن الكافر عنده لَدَدٌ فى ذات إيمانه ، ومن مصلحة آماله وتكذيب نفسه أنْ ينكر البعث ، وعلى فَرْض أنه سيحدث فإنهم

سـيكونون فى الآخرة سـادة ، كمـا كـانوا سادةً فى الدنيـا . وهؤلاء القوم يفهمون الحياة على ظاهرها ، فالحياة عندهم هى الحركة الحسية التى يمارسـونها ، وبها يعيـشون حيـاتهم هذه ، ولا يدركون أن لكل شىء حياةً تناسبه .

فـمثـلاً : علماء الجـيـولوجيـا والحَـفْريات يقـولون : إن الأشيـاء المطمورة فى باطـن الأرض تتغيّـر بمرور الزمن ، وتتحـول إلى موادّ أخرى ، إذن : فـفيـها حـركة وتفاعل أو قُـلْ فيهـا حيـاة خاصـة بها تناسبهـا ، فليست الحياة قـاصرة على حركتنا فى الحـياة الدنيا ، بل للحياة معنى آخر أوسع بكثير من الحياة التى يفهمها هؤلاء .

فالإنسـان الحىّ مثلاً له فى مظهـرية أموره حالتـان : حالة النوم وحالة اليقظة ، فحياته فى النوم مـحكومة بقانون ، وحياته فى اليقظة محكومة بقـانون ، هذا وهو ما يزال حـياً يُرزَق ، إذن : عندمـا نخبرك أن لك قانوناً فى الموت وقانوناً فى البعث فعليك أنْ تُصدِّق .

ألم تَرَ النائم وهو مُغْمَض العينين يرى الرؤيا ، ويحكيها بالتفصيل وفيها حركـة وأحداث وألوان ، وهو يدرك هذا كله وكأنه فى اليقظة ؟ حتى مكفوف البصر الذى فقد هذه الحاسة ، هو أيضاً يرى الرؤيا كما يراها المبصر تماماً ويحكيـها لك ، يقول : رأيتُ كذا وكذا ، كيف وهو فى اليقظة لا يرى ؟

نقـول : لأن للنوم قـانوناً آخـر ، وهو أنك تدرك بغـيـر وسـائل الإدراك المعروفة ، ولك فى النوم حياة مسـتقلة غير حياة اليقظة . ألاَ ترى الرجلين ينامان فى فراش واحد ، وهذا يرى رؤيا سعيدة مفرحة يصحـو منها ضاحكاً مـسروراً ، والآخر إلى جواره يرى رؤيا مـؤلمة

مُحـزِنة يصحو فـيها مُكدّراً مـحزوناً ، ولا يدرى الواحد منهم بأخـيه ولا يشعر به ، لماذا ؟

لأن لكل منهما قانونه الخاص ، وحيـاته المستقلة التى لا يشاركه فيها أحد .

وقد ترى الرؤيا تحكيها لصـاحبك فى نصف ساعة ، فى حين أن العلمـاء توصلوا إلى أن أقـصى مـا يمكن للذهن مـتـابعـتـه فى النوم لا يتجاوز سبع ثـوان ، مما يدلُّ على أن الزمن فى النوم زمن مُلْغى ، كما أن أدوات الإدراك ملغاة ، إذن : فحيـاتك فى النوم غير حياتك فى اليقـظة ، وكذلك فى المـوت لك حياة ، وفى الـبعث لك حيـاة ، ولكل منهما قانون يحكمها بما يتناسب معها .

وقد يقول قـائل عن الرُّؤَى : إنها مجرد تخـيُّلات لا حقيـقةَ لها ، لكن يَرُدّ هذا القول مـا نراه فى الواقع من صاحب الرُّؤْيا الذى يحكى لك أنه أكل طعامـاً ، أو شرب شراباً مـا يزال طَعْمه فى فمـه ، وآخر ضُرب ، ويُريك أثر الضرب على ظهره مـثلاً ، وآخر يصحو من النوم يتصبَّب عَرقاً ، وكأنه كان فى عراك حقيقى لا مجرد منام .

فالحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يُوضّح لنا أننا فى النوم لنا حياة خاصـة وقانون خـاص ، لنأخذ من هـذا دليلاً على حـياة أخرى بـعد الموت .

والعلماء قالوا فى هذه المسألة بظاهرة المـتواليات ، والمراد بها : إذا كانت اليقظة لها قـانون ، والنوم له قانون ألطف وأخفّ من قانون اليقظة ، فبالتالى للمـوت قانون أخفّ من قانون النوم ، وللبعث قانون أخفّ من قانون الموت .

وقد حَسَم القرآن الكريم هذه القضية فى قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص]

أى : كلُّ ما يُقَال له شىء فى الوجود هالك إلا الله تعالى فهو الباقى ، والهلاك ضدّه الحياة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢) ﴾ [الأنفال]

إذن : لكل شىء مهما صَغُر فى كَوْن الله حياة خاصة تناسبه قبل أنْ يعتريه الهلاك .

ولذلك نعجب حينما يطالعنا العلماء بأن فى علبة الكبريت هذه التى نضعها فى جيوبنا قوةَ تجاذب بين ذراتها ، تصلح هذه القوة لتسيير قطار حول العالم لمدة ست سنوات ، سبحان الله .. أين هذه القوة ؟ إنها موجودة لكنّنا لا نشعر بها ولا ندركها ، إنما الباحثون فى معاملهم يمكنهم ملاحظة مثل هذه الحركة وتسجيلها .

وأقرب من ذلك ظاهرة الجاذبية التى تعلَّمناها منذ الصِّغَر والتى تعتمد على ترتيب الذرّات ترتيباً مُعيناً ، ينتج عنه المُوجَب والسالب ، فيتم التجاذب فكانوا يضعون لنا بُرادةَ الحديد فى أنبوبة ، ويُمَرِّرون عليها قضيباً مُمغْنَطاً ، فنرى برادة الحديد تتحرك فى نفس اتجاه القضيب .

إذن : فى الحديد حركة وحياة بين ذراته ، حياة تناسبه بلغتْ من الدقة مَبْلَغاً فوق مستوى إدراكك .

إذن : نستطيع القول بأن للعظام وللرفات حياةً ، ولك أيها المنكر وجود حتى بعد أنْ صِرْتَ رُفاتاً ، فشىء منك موجود يمكن أن يكون

نواةً لخلْقك من جديد ، وبمنطق هؤلاء المنكرين أيهما أهوَنُ فى الخلْق : الخَلْق من شىء موجود ، أم الخلْق ابتداءً ؟

وقد رَدَّ عليهم الحق سبحانه بقوله : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ④﴾ [ق]

أى : فى علمه سبحانه عدد ذرات كل مِنّا ، وكم فى تكوينه من مواد ، لا ينقص من ذلك شىء ، وهو سبحانه قادر على جمع هذه الذرات مرة أخرى ، وليس أمره تعالى متوقفاً على العلم فقط ، بل عنده كتاب دقيق يحفظ كل التفاصيل ، ولا يغيب عنه شىء .

وقال تعالى كذلك فى الرد عليهم : ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ⑮﴾ [ق] أى : فى خَلْط وشَكٍّ وتردُّد .

وقد ناقشنا منْ منكرى البعث الشيوعيين الذين قتَّلوا فى أعدائهم ، وأخذوا أموالهم مُعاقبةً لهم على ما اقترفوه من ظلم الناس ، فكنت أقول لهم : فما بال الذين ماتوا من هؤلاء ، ولم يأخذوا حظّهم من العقاب ؟ وكيف يذهبون هكذا ويُفلتون بجرائمهم ؟ لقد كان الأوْلَى بكم أنْ تؤمنوا بالآخرة التى يُعاقب فيها هؤلاء الذين أفلتوا من عقاب الدنيا ، حتى تتحقق عدالة الانتقام .

وقوله تعالى : ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ⑨⑧﴾ [الإسراء]

إنهم يستبعدون البعث من جديد ؛ لذلك فالحق سبحانه وتعالى يجارى هؤلاء ويتسامح معهم ، فيقول : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. ②⑦﴾ [الروم]

فإعادة شىء كان موجوداً أسهلُ وأهونُ من إيجاده مِنْ لا شىء ،

والحديث هنا عن بَعْث الإنسان ، هذا المخلوق الذى أبدعه الخالق سبحانه ، وجعله سيد هذا الكون ، وجعل عمره محدوداً ، فما بالكم تنشغلون بإنكار بعث الإنسان عن باقى المخلوقات وهى أعظم فى الخَلْقِ من الإنسان ، وأطول منه عُمراً ، وأثبت منه وأضخم .

فلا تَنْسَ أيها الإنسان أن خَلْقك أهونُ وأسهلُ من مخلوقات أخرى كثيرة هى أعظم منك ، ومع ذلك تراها خاضعة لله طائعة ، لم تعترض يوماً ، ولم تنكر كما أنكرتَ ، يقول تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧) ﴾ [غافر]

فمَنْ ينكر بَعْث الإنسان بعد أن يصير رفاتاً عليه أن يتأمل مثلاً الشمس كآية من آيات الله فى الكون ، وقد خلقها الله قبل خَلْق الإنسان ، وستظل إلى ما شاء الله ، وهى تعطى الضوء والدفء دون أنْ تتوقف أو تتعطّل ، ودون أن تحتاج إلى صيانة أو قطعة غيار ، وهى تسير بقدرة الخالق سبحانه مُسخَّرة لخدمتك ، ما تخلَّفتْ يوماً ولا اعترضتْ . فماذا يكون خَلْقك أنت أيها المنكر أمام قدرة الخالق سبحانه ؟

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا .. (٩٩) ﴾ [الإسراء]

إذا جاءت همزة الاستفهام بعدها واو العطف وبعدها نفى ، فاعلم أن الهمزة دخلتْ على شىء محذوف ، إذن : فتقدير الكلام هنا : أيقولون ذلك ويستبعدون البعث ولم يَرَوْا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أنْ يخلقَ مثلهم .

وقوله تعالى : (مِثْلَهُمْ) أى : يخلقهم هم ويُعيدهم من جديد ؛ لأن الخَلْق إنشاء جديد ، فهُمْ خَلْق جديد مُعَادٌ ، فالمثلية هنا فى أنهم مُعَادون ، أو يكون المراد (مِثْلَهم) أى : ليسوا هم ، بل خَلْق مختلف عنهم على اعتبار أنهم كانوا فى الدنيا مختارين ، ولهم إرادات ، أما الخلق الجديد فى الآخرة وإنْ كان مثلهم فى التكوين إلا أنه عاد مقهوراً على كل شىء لا إرادةَ له ؛ لأنه الآن فى الآخرة التى سينادى فيها الخالق سبحانه : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً (٩٩)﴾ [الإسراء]

أى : أن القيامة التى كذَّبوا بها وأنكروها واقعة لا شكّ فيها ، لكن هؤلاء معاندون مُصرُّون على الكفر مهما أتيتَ لهم بالأدلة ، ومهما ضربتَ لهم الأمثلة ، فإنهم مُصمِّمون على الإنكار ؛ لأن الإيمان سيسلبهم ما هم فيه من السيادة وما يدعونه من العظمة ، الإيمان سيُسوّى بينهم وبين العبيد ، وسيُقيِّد حريتهم فيما كانوا فيه من ضلال وفساد .

لكن هؤلاء السادة والعظماء الذين تأبَّوْا على الإيمان ، وأنكروا البعث خوفاً على مكانتهم وسيادتهم وما عندهم من سلطة زمنية ، ألم تتعرَّضوا لظلم من أحد فى الدنيا ؟ ألم يعتَدِ عليكم أحد ؟ ألم يسرق

منكم أحد ولم تتمكنوا من الإمساك به ومعاقبته ؟ لقد كان أَوْلَى بكم الإيمان بالآخرة حيث تتحقق عدالة العقاب وتنالون حقوقكم مِمَّنْ ظلمكم ، أو اعتدى عليكم .

ثم ينتقل السياق القرآنى إلى موضوع جديد ، حيث يقول تعالى :

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

قوله تعالى : (قُلْ) أمر من الحق سبحانه وتعالى أنْ يقولَ لأمته هذا الكلام ، وكان يكفى فى البلاغ أن يقول النبى ﷺ لأمته : لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى .. لكن النبى هنا يحافظ على أمانة الأداء القرآنى ، ولا يحذف منه شيئاً ؛ لأن المتكلم هو الله ، وهذا دليلٌ على مدى صدق الرسول فى البلاغ عن ربه .

ومعنى (خَزَائِن) هى ما يُحفظ بها الشىء النفيس لوقته ، فالخزائن مثلاً لا نضع بها التراب ، بل الأشياء الثمينة ذات القيمة .

ومعنى ﴿ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى .. ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الإسراء] أى : خَيْرات الدنيا من لَدُنْ آدم عليه السلام وحتى قيام الساعة ، وإنْ من شىء يحدث إلى قيام الساعة إلا عند الله خزائنه ، فهو موجود بالفعل ، ظهر فى عالم الواقع أو لم يظهر : ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر] أى : أنه موجود فى علْم الله ، إلى حين الحاجة إليه .

لذلك لما تحدَّث الحق سبحانه عن خلق الآيات الكونية فى السماء والأرض قال : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذى خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا

وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت]

نلاحظ أن قوله تعالى (وَبَارَكَ فِيهَا) جاءت بعد ذكْر الجبال الرواسى ، ثم قال : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت] كأن الجبال هى مخازن القوت ، وخزائن رحمة الله لأهل الأرض . والقوت : وهو الذى يتمّ به استبقاء الحياة ، وهذا ناشىء من مزروعات الأرض ، وهذه من تصديقات القرآن لطموحات العلم وأسبقية إخبار بما سيحدث ، فها هو القرآن يخبر بما اهتدى إليه العلم الحديث من أن العناصر التى تُكوّن الإنسان هى نفس عناصر التربة الزراعية التى نأكل منها .

لكن ، كيف تكون الجبال مخازن القوت الذى جعله الله فى الأرض قبل أن يُخْلَق الإنسان ؟

نقول : إن الجبال هى أساس التربة التى نزرعها ، فالجبل هذه الكتلة الصخرية التى تراها أمامك جامدة هى فى الحقيقة ليست كذلك ؛ لأن عوامل التعرية وتقلبات الجو من شمس وحرارة وبرودة ، كل هذه عوامل تُفتِّت الصخر وتُحدث به شروخاً وتشققات ، ثم يأتى المطر فيحمل هذا الفُتات إلى الوادى ، ولو تأملتَ شكل الجبل وشكل الوادي لوجدتهما عبارة عن مثلثين كل منهما عكس الآخر ، فالجبل مثلث رأسه إلى أعلى ، وقاعدته إلى أسفل ، والوادى مثلث رأسه إلى أسفل وقاعدته إلى أعلى .

وهكذا ، فكُلُّ ما ينقص من الجبل يزيد فى الوادى ، ويُكوِّن التربة الصالحة للزراعة ، وهو ما يسمى بالغِرْيَن أو الطمى ؛ لذلك حَدَّثونا أن مدينة دمياط قديماً كانت على شاطىء البحر الأبيض ، ولكن بمرور الزمن تكوَّنت مساحات واسعة من هذا الغِرْيَن أو الطمى الذى حمله النيل من إفريقيا ففصل دمياط عن البحر ، والآن وبعد بناء السد وعدم تكوُّن

الطمى بدأت المياه تنحت فى الشاطىء ، وتنقص فيه من جديد .

إذن : فقوله تعالى عن بداية خَلْق الأرض : ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠)﴾ [فصلت] كأنه يعطينا تسلسلاً لخَلْق القُوت فى الأرض ، وأن خزائن الله لا حدودَ لها ولا نفادَ لخيراتها .

ثم يقول تعالى : ﴿إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا (١٠٠)﴾ [الإسراء]

أى : لو أن الله تعالى ملَّك خزائن خيراته ورحمته للناس ، فأصبح فى أيديهم خزائن لا تنفد ، ولا يخشى صاحبها الفقر ، لو حدث ذلك لأمسك الإنسان وبخِلَ وقَتَر خوف الفقر ؛ لأنه جُبِل على الإمساك والتقتير حتى على نفسه ، وخوف الإنسان من الفقر ولو أنه يملك خزائن رحمة الله التى لا نفادَ لها ناتج عن عدم مقدرته على تعويض ما أنفق ؛ ولأنه لا يستطيع أنْ يُحدث شيئاً .

والبخل يكون على الغير ، فإنْ كان على النفس فهو التقتير ، وهو سُبَّة واضحة ومُخزية ، فقد يقبل أن يُضيِّق الإنسانُ على الغير ، أما أنْ يُضيِّقَ على نفسه فهذا منتهى ما يمكن تصوّره ؛ لذلك يقول الشاعر[1] فى التندُّر على هؤلاء :

يُقتِّر عيسَى علَى نَفْسِه ... ولَيْسَ بِبَاقٍ وَلاَ خَالِدِ

فلَوْ يستطيعُ لتَقتِيرِه ... تنفَّسَ مِنْ مَنْخرٍ واحِدِ

---

(١) هو : الشاعر ابن الرومى ، وهو على بن العباس بن جريج ، أبو الحسن ، شاعر كبير من طبقة بشار والمتنبى ، كان جده من موالى بنى العباس ، ولد ببغداد (ت ٢٢١ هـ) ونشأ بها ، ومات فيها مسموماً (٢٨٣ هـ) عن ٦٣ عاماً . (الأعلام للزركلى ٤/٢٩٧) .

ويقول أيضاً :

لَوْ أنَّ بيتكَ يَا ابْنَ يوسف كُلُّه   إبرٌ يَضيقُ بِهاَ فَضَاءُ المنْزِلِ
وَأتَاكَ يُوسُفُ يَستعيرُكَ إبْرةً   ليَخيطَ قدَّ قميصِه لَمْ تفْعَلِ[1]

فالإنسان يبخل على الناس ويُقتِّر علَى نفسه ؛ لأنه جُبِل علَى البخل مخافة الفقر ، وإنْ أُوتِى خزائن السموات والأرض .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾

وقد سبق أن اقترح كفار مكة على رسول الله ﷺ عدة آيات ذُكرَتْ فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء]

فأراد الحق سبحانه أنْ يُلفت نظره أن سابقيهم من اليهود أتتهم تسع آيات ونزلت عليهم دون أنْ يطلبوها ، ومع ذلك كفروا ، فالمسألة كلها تعنّت وعناد من أهل الكفر فى كل زمان ومكان .

ومعنى ﴿ بَيِّنَاتٍ .. ﴿١٠١﴾ ﴾ [الإسراء] أى : واضحات مشهورات بلْقَاء

(١) البيت لابن الرومى أيضاً .

كالصبح ، لأنها حدثت جميعها على مَرْأىً ومشهد من الناس .

والمراد بالآيات التسع هنا هى الآيات الخاصة بفرعون ؛ لأن كثيرين يخلطون بين معجزات موسى إلى فرعون ، ومعجزاته إلى بنى إسرائيل .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. (١٠١) ﴾ [الإسراء] هى الآيات التى أُرسل بها إلى فرعون وقومه وهى : العصا التى انقلبتْ حية ، واليد التى أخرجها من جيبه بيضاء مُنورة ، وأَخْذ آل فرعون بالسنين ونَقْصٍ من الأموال والأنفس والثمرات ، ثم لما كذَّبوا أنزل الله عليهم الطوفان ، والجراد ، والقُمّل[1] ، والضفادع ، والدم ، هذه تسع آيات خاصة بما دار بين موسى وفرعون .

أما المعجزات الأخرى مثل العصا التى ضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، ونتق[2] الجبل فوقهم كأنه ظُلَّة ، وإنزال المنِّ والسَّلْوى عليهم ، فهذه آيات خاصة ببنى إسرائيل .

وقوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. (١٠١) ﴾ [الإسراء] والأمر هنا لرسول الله ﷺ ، لكن كيف يسأل بنى إسرائيل الذين جاءهم موسى - عليه السلام - وقد ماتوا ، والموجود الآن ذريتهم ؟

نقول : لأن السؤال لذريتهم هو عَيْن سؤالهم ؛ لأنهم تناقلوا الأحداث جيلاً بعد جيل ؛ لذلك قال تعالى مُخاطباً بنى إسرائيل

---

(١) القُمَّل : صغار الذر والدبى . وهو شىء صغير له جناح أحمر . قال ابن السكيت : القُمَّل شىء يقع فى الزرع ليس بجراد فيأكل السنبلة وهى غضة قبل أن تخرج فيطول الزرع ولا سُنبل له . [لسان العرب - مادة : قمل] .

(٢) نتقه : رفعه من مكانه وحرَّكه وجذبه . [القاموس القويم ٢/٢٥٢] .

المعاصرين لرسول الله : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ[1] سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾ [إبراهيم]

والنجاة لم تكُنْ لهؤلاء ، بل لأجدادهم المعاصرين لفرعون ، لكن خاطبهم الحق بقوله (أنجاكم) لأنه سبحانه لو أهلك أجدادهم لما وُجِدُوا هم ، فكأن نجاة السابقين نجاةٌ للاحقين .

ويسأل رسول الله بنى إسرائيل لأنهم هم الأمة التى لها ممارسة مع منهج الله ووحيه ، ولها اتصال بالرسل وبالكتب المنزَّلة كالتوراة والإنجيل ، أما مشركو قريش فليس لهم صلَة سابقة بوَحْى السماء ؛ لذلك لما كذَّبوا رسول الله خاطبه بقوله : ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ۝٤٣﴾ [الرعد]

لأن الذى عنده عِلْم من الكتاب : اليهود أو النصارى عندهم عِلْم فى كتبهم وبشارة ببعثة محمد ، وهم يعرفونه ويعرفون أوصافه وزمن بعثته ، بل ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، بل وأكثر من معرفتهم لأبنائهم ، كما قال واحد منهم[2] .

وسؤال رسول الله لبنى إسرائيل سؤالَ حُجَّة واستشهاد ؛ لأن قومه سألوه وطلبوا أنْ يظهر لهم عدة آيات ـ سبق ذِكْرها ـ لكى يؤمنوا به ، فأراد أنْ يُنبِّههم إلى تاريخ إخوانهم وسابقيهم على مَرِّ

(١) يسومونكم : يذيقونكم أشد العذاب . قال الليث : السوم أن تُجشِّم إنساناً مشقة أو سوءاً أو ظلماً . [لسان العرب ـ مادة : سوم] .

(٢) هو عبد الله بن سلام ، قال القرطبى : يُروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر . نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته ، وإنى لا أدرى ما كان من أمه . [ذكره ابن كثير فى تفسيره ١/١٩٤] .

العصور ، وقد أنزل الله لهم الآيات الواضحات والمعجزات الباهرات ، ومع ذلك كفروا ولجُّوا ولم يؤمنوا . فقوم فرعون رأَوْا من موسى تسع آيات وكفروا ، وقوم صالح : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا .. (٥٩) ﴾ [الإسراء] ولَيْتهم كذَّبوا وكفروا بهذه الآية فحَسْب ، بل واعتدَوْا عليها وعقروها .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ .. (٥٩) ﴾ [الإسراء] أى : التى اقترحوها ﴿ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. (٥٩) ﴾ [الإسراء] وما دام كذَّب بها الأولون فسوف يُكذِّب بها هؤلاء ؛ لأن الكفر مِلَّة واحدة فى كل زمان ومكان .

إذن : مسألة طلب الآيات واقتراح المعجزات ليستْ فى الحقيقة رغبة فى الإيمان ، بل مجرد عناد ولَجَج ومحاولة للتعنُّت والجدَل العقيم لإضاعة الوقت .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ (١٠١) ﴾ [الإسراء] أى : بعد أنْ رأى الآيات كلها : ﴿ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُوراً (١٠١) ﴾ [الإسراء] فاتهمه بالسحر بعد أنْ أراه كُلَّ هذه الدلائل والمعجزات .

وكلمة ﴿ مَسْحُوراً (١٠١) ﴾ [الإسراء] اسم مفعول بمعنى سحره غيره ، وقد يأتى اسم المفعول دالاً على اسم الفاعل لحكمة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً (٤٥) ﴾ [الإسراء]

والحجاب يكون ساتراً لا مستوراً ، لكن الحق سبحانه جعل الحجاب نفسه مستوراً مبالغة فى السَّتْر ، كما نبالغ نحن الآن فى استعمال الستائر ، فنجعلها من طبقتين مثلاً .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ظِلاًّ ظَلِيلاً (٥٧)﴾ [النساء] فالظل نفسه مُظلَّل ، ونستطيع أن نلاحظ هذه الظاهرة إذا جلسنا فى الحرِّ تحت شجرة ، فسوف نجد الهواء تحتها رَطباً بارداً ، لماذا ؟ لأن أوراق الشجر مُتراكمة يُظلّل بعضها بعضاً ، فتجد أعلاك طبقات متعددة من الظل ، فتشعر فى النهاية بجو لطيف مُكيف تكييفاً ربانياً .

إذن : قوله (مسحوراً) تفيد أنه سحَر غيره ، أو سحره غيره ؛ لأن المسحور هو الذى أَلَمَّ به السحر ، إما فاعلاً له ، أو مفعولاً عليه . وهذه الكلمة قالها كفار مكة لرسول الله ﷺ فقالوا : ﴿إن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً (٤٧)﴾ [الإسراء] والمسحور بمعنى المخبول الذى أثَّر فيه السحر ، فصار مخبولاً مجنوناً ، وهذا كذب وافتراء على رسول الله من السهل رَدُّه ودَحْضه .

فإنْ كان ساحراً ، فكيف يسحره غيره ؟! ولماذا لم يسحركم كما سحر الذين آمنوا به ؟ لماذا تأبَّيتم أنتم على سحره فلم تؤمنوا ؟ وإنْ كان مسحوراً مَخْبُولاً ، والمخبول تتأتّى منه حركات وأقوال دون أنْ تَمُرّ على العقل الواعى الذى يختار بين البديلات ، فلا يكون له سيطرة على إراداته ولا على خُلقه ، فهل عهدكم بمحمد أنْ كان مَخبولاً ؟ هل رأيتم عليه مثل هذه الصفات ؟

لذلك رَدَّ الحق سبحانه عليهم هذا الافتراء بقوله تعالى : ﴿نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم]

والمجنون لا يكون على خُلُق أبداً .

وسوف يناقض فرعون نفسه ، فبعد أنْ اتهم موسى بالسحر ، ثم كانت الغلَبة لموسى ، وخرَّ السحرة ساجدين ، قال : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ .. (٧١) ﴾ [طه] وهذا دليل على التخبُّط والإفلاس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) ﴾

أى : قال موسى لفرعون ، والتاء فى (علمْتَ) مفتوحة أى : تاء الخطاب ، فهو يُكلِّمه مباشرة ويُخاطبه : لقد علمتَ يا فرعون علْمَ اليقين أننى لستُ مسحوراً ولا مخبولاً ، وأن ما معى من الآيات مما شاهدتَه وعاينته من الله رب السموات والأرض ، وأنت تعلم ذلك جيداً إلا أنك تنكره ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُواً .. (١٤) ﴾ [النمل]

إذن : فعندهم يقينٌ بصدق هذه المعجزات ، ولكنهم يجحدونها ؛ لأنها ستزلزل سلطانهم ، وتُقوِّض عروشهم .

وقوله تعالى : ﴿ بَصَائِرَ .. (١٠٢) ﴾ [الإسراء] أى : أنزل هذه الآيات بصائر تُبصِّر الناس ، وتفتح قلوبهم ، فيُقبلوا على ذلك الرسول الذى جاء بآية معجزة من جنس ما نبغَ فيه قومه .

ثم لم يَفُتْ موسى ـ عليه السلام ـ وقد ثبتتْ قدمه ، وأرسى قواعد دعوته أمام الجميع أنْ يُكلِّم فرعونَ من منطلق القوة ، وأن يُجابهه واحدة بواحدة ، فيقول : ﴿ وَإِنِّى لأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُوراً (١٠٢) ﴾ [الإسراء] فقد سبق أنْ قال فرعون : ﴿ إِنِّى لأَظُنُّكَ يَامُوسَىٰ مَسْحُوراً (١٠١) ﴾ [الإسراء] فواحدة بواحدة ، والبادى أظلم .

والمثبور : الهالك ، أو الممنوع من كُلِّ خير ، وكأن الله تعالى أطْلَعَ موسى على مصير فرعون ، وأنه هالكٌ عن قريب . وعلى هذا يكون المجنون على أية حال أحسن من المثبور ، فالمجنون وإنْ فقد نعمة العقل إلا أنه يعيش كغيره من العقلاء ، بل ربما أفضل منهم ، لأنك لو تأملتَ حال المجنون لوجدته يفعل ما يشاء ويقول ما يشاء دون أنْ يتعرّض له أحد أو يُحاسبه أحد ، وهذا مُنْتَهى ما يتمناه السلاطين والحكام وأهل الجبروت فى الأرض ، فماذا ينتظر القادة والأمراء إلاَّ أنْ تكون كلمتهم نافذة ، وأمرهم مُطَاعاً ؟ وهذا كله ينعَم به المجنون .

وهنا قد يقول قائل : ما الحكمة من بقاء المجنون على قَيْد الحياة ، وقد سلبه الله أعظم ما يملك ، وهو العقل الذى يتميز به ؟

نقول : أنت لا تدرى أن الخالق سبحانه حينما سلبه العقل ماذا أعطاه ؟ لقد أعطاه ما لو عرفته أنت أيُّها العاقل لتمنيتَ أنْ تُجَنَّ !! ألاَ تراه يسير بين الناس ويفعل ما يحلو له دون أنْ يعترضه أحد ، أو يؤذيه أحد ، الجميع يعطف عليه ويبتسم فى وجهه ، ثم بعد ذلك لا يُحاسَب فى الآخرة ، فأىُّ عِزٍّ أعظم من هذا ؟

إذن : سلْب أىّ نعمة مساوية لنعم الآخرين فيها عطاء لا يراه ولا يستنبطه إلا اللبيب ، فحين ترى الأعمى مثلاً فإياك أنْ تظنّ أنك أفضل منه عند الله ، لا ليس منّا مَنْ هو ابنٌ لله ، وليس منّا مَنْ بينه وبين الله نسب ، نحن أمام الخالق سبحانه سواء ، فهذا الذى حُرِم نعمة البصر عُوِّض عنها فى حواس أخرى ، يفوقك فيها ـ أنت أيها المبصر ـ بحيث تكون الكِفَّة فى النهاية مُسْتوية .

واسمع إلى أحد العمْيان يقول :

عَميتُ جَنيناً والذكاءُ مِنَ العَمَى فجئتُ عَجيبَ الظَّنِّ للعِلْم مَوْئلاً
وَغَاب ضِيَاءُ العَيْن للقلْبِ رافداً لعِلْمٍ إذَا مَا ضيَّع الناسُ حَصَّلا[1]

فحدِّث عن ذكاء هؤلاء وفطْنتهم وقوة تحصيلهم للعلم ولا حرج ، وهذا أمر واضح يُشاهده كُلُّ مَنْ عاشر أعمى . وهكذا تجد كُلَّ أصحاب العاهات الذين ابتلاهم الخالق سبحانه بنقص فى تكوينهم يُعوِّضهم عنه فى شىء آخر عزاءً لهم عما فَاتهم ، لكن هذا التعويض غالباً ما يكون دقيقاً يحتاج إلى مَنْ يُدرِكه ويستنبطه .

وكذلك نرى كثيرين من هؤلاء الذين ابتلاهم الله بنقْصٍ ما يحاولون تعويضه ويتفوقون فى نواحٍ أخرى ، ليثبتوا للمجتمع جدارتهم ويُحدِثوا توازناً فى حياتهم ليعيشوا الحياة الكريمة الإيجابية فى مجتمعهم .

ومن ذلك مثلاً العالم الألمانى (شاخْت) وقد أصيب بقِصَرٍ فى إحدى ساقيْه أعفاه من الخدمة العسكرية مع رفاقه من الشباب ، فأثَّر ذلك فى نفسه فصمَّم أنْ يكون شيئاً ، وأنْ يخدُمَ بلده فى ناحية أخرى ، فاختار مجال الاقتصاد ، وأبدع فيه ، ورسم لبلاده الخُطَّة

---

(١) هذان البيتان لبشار بن برد . وقد قيل له عندما أنشد قوله :

كَانَّ مَثَارَ النَّقْع فَوْقَ رُؤوسنَا وَأسْيافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكبُهْ

ما قال أحد أحسن من هذا التشبيه ، فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا قط ولا شيئاً فيها ؟ فقال : إن عدم النظر يُقوى ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء ، فيتوفر حِسّه وتذكو قريحته . ثم أنشدهم هذين البيتين ، الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى (٣٧٦/١) .

التى تعينها فى السِّلْم وتعويضها ما فاتها فى الحرب ، فكان (شاخْت) رجل الاقتصاد الأول فى ألمانيا كلها .

ويجب أن نعلم أن التكوين الإنسانى وخَلْق البشر ليس عملية ميكانيكية تعطى نماذج متماثلة تماماً ، إبداع الخالق سبحانه ليس ماكينة كالتى تصنع الأكواب مثلاً ، وتعطينا قِطَعاً متساوية ، بل لا بُدَّ من الشذوذ فى الخَلْق لحكمة ؛ لأن وراء الخلق إرادة عليا للخالق سبحانه ، ألا ترى الأولاد من أب واحد وأم واحدة وتراهم مختلفين فى اللون أو الطول أو الذكاء .. الخ ؟!

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ .. (٢٢) ﴾ [الروم]

إنها قدرةٌ فى الخَلْق لا نهاية لها ، وإبداعٌ لا مثيلَ له فيما يفعل البشر .

وهناك ملْمح آخر يجب أن نتنبه إليه ، هو أن الخالق سبحانه وتعالى جعل أصحاب النقص فى التكوين وأصحاب العاهات كوسائل إيضاح ، وتذكُّر للإنسان إذا ما نسى فضْل الله عليه ، لأنه كما قال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

فالإنسان كثيراً ما تطغيه النعمة ، ويغفل عن المنعِم سبحانه ، فإذا ما رأى أصحاب الابتلاءات انتبه وتذكّر نعمة الله ، وربما تجد المبصر لا يشعر بنعمة البصر ولا يذكرها إلا إذا رأى أعمى يتخبَّط فى الطريق ، ساعتها فقط يذكر نعمة البصر فيقول : الحمد لله .

إذن : هذه العاهات ليستْ لأن أصحابها أقلُّ منّا ، أو أنهم أهونُ

على الله .. لا ، بل هى ابتلاء لأصحابها ، ووسيلة إيضاح للآخرين لِتلفتهم إلى نعمة الله .

لكن الآفة فى هذه المسألة أنْ ترى بعض أصحاب العاهات والابتلاءات لا يستر بلْوَاه على ربه ، بل يُظهرها للناس ، وكأنه يقول لهم : انظروا ماذا فعل الله بى ، ويتخذ من عَجْزه وعاهته وسيلةً للتكسُّب والترزّق ، بل وابتزاز أموال الناس وأخْذها دون وَجْه حق .

وفى الحديث الشريف : « إذَا بُليتم فاستتروا »[1] .

والذى يعرض بَلْواه على الناس هكذا كأنه يشكو الخالق للخلْق ، ووالله لو ستر صاحب العاهة عاهته على ربه وقبلها منه لساقَ له رزقه على باب بيته . والأدْهَى من ذلك أن يتصنّع الناس العاهات ويدَّعوها ويُوهموا الناس بها لِيُوقعوهم ، وليبتزّوا أموالهم بسيف الضعف والحاجة .

نعود إلى قصة موسى وفرعون لنستنبط منها بعض الآيات والعجائب ، وأوّل ما يدعونا للعجب أن فرعون هو الذى ربَّى موسى منذ أنْ كان وليداً ، وفى وقت كان يقتل فيه الذكور من أبناء قومه ، لنعلم أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأن إرادته سبحانه نافذة . فقد وضع محبة موسى فى قلب فرعون وزوجته فقالت :

﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .. ⑨ ﴾ [القصص]

(١) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٢١١) بلفظ : « إذا بليتم بالمعاصى فاستتروا » وقد أخرج الحاكم فى مستدركه (٤/٢٤٤) من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قام بعد أن رجم الأسلمى فقال : « اجتنبوا هذه القاذورة التى نهى الله عنها ، فمن ألمَّ فليستتر بستر الله وليتب إلى الله ، فإنه مَنْ يُبْدِ لنا صَفْحته نُقِم عليه كتاب الله » قال الحاكم : « صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » .

فـأين ذهبت عـداوتُه وبُغْضـه للأطفـال ؟ ولمـاذا أحبَّ هذا الطفلَ بالذات ؟ ألم يكُنْ من البدهى أنْ يطرأ على ذِهْن فـرعون أن هذا الطفل ألقـاه أهله فى اليَـمِّ لينجـو من القـتل ؟ ولمـاذا لم تطـرأ هذه الفكرة البدهية على ذهْنه ؟ اللهم إلا قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

لقـد طمس الله على قلب فرعـون حـتى لا يفعل شـيئـاً من هذا ، وحال بينه وبين قـلبه ليُبـيِّن للناس جهل هذا الطاغيـة ومدى حُمْـقه ، وأن وراء العنايـة والتـربـيـة للأهـل والأسـرة عنـايةُ المــربّى الأعلى سبحانه .

لذلك قال الشاعر :

إذَا لَمْ تُصَادفْ منْ بَنيكَ عنَايةٌ ... فَقَدْ كذبَ الرَّاجى وَخَابَ المؤملُ
فمُوسَى الذِى رَبَّاهُ جِبْريلُ كافرٌ ... وَمُوسَى الذى رَبَّاهُ فِرْعَوْنُ مُرْسَلُ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) ﴾

(فَأَرَادَ) أى : فرعون . (أَنْ يَسْتَفـزَّهُمْ) كلمة « استفزَّ » سبق الكـلام عنهـا فـى قـوله تعـالى : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ .. (٦٤) ﴾ [الإسراء] فالاستفـزاز هو الإزعاج بالصوت العالى ، يقـوم المنَـادَى ويخفّ من مكانه ، وهذا الصـوت أو هـذه الصَّـيْحـة يُخرجـها الفـارس أو اللاعب كما نرى فى لـعبة الكراتيـه مثـلاً ليُزعِج الخصم ويُخـيفه ، وأيضـاً فإن هذه الصيـحة تشغَل الخَـصْم ، وتأخذ

جزءاً من تفكيره ، فيقلّ تركيزه ، فيمكن التغلُّب عليه . ومن الاستفزاز قَوْل أحدِنا لابنه المتكاسل : فِزْ . أى : انهض وخِفّ للقيام .

إذن : المعنى : فأراد فرعون أنْ يستفزّهم ويخدعهم خديعة تُخرِجهم من الأرض ، فتخلو له من بعدهم ، وهذا دليلٌ على غباء فرعون وتغفيله وحماقته ، فما جاء موسى إلا ليأخذ بنى إسرائيل ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) ﴾ [الشعراء]

فكأن غباء فرعون أعان القدر الذى جاء به موسى - عليه السلام - ولكن كان لله تعالى إرادة فوق إرادة فرعون ، فقد أراد أن يُخرج بنى إسرائيل وتخلو له الأرض ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يستفزّه هو من الأرض كلها ومن الدنيا ، فأغرقه الله تعالى وأخذه أَخْذَ عزيز مقتدر ، وعاجله قبل أنْ يُنفذ ما أراد .

كما يقولون فى الأمثال عند أهل الريف للذى هدَّد جاره بأنْ يحرق غلّته وهى فى الجرن ، فإذا بالقدر يعاجله (والغلة لسه فريك) أى : يعاجله الموت قبل نُضْج الغلة التى هدد بحرقها ، فأغرقه الله ومَنْ معه جميعاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) ﴾

قوله تعالى : (مِنْ بَعْدِهِ) أى : من بعد موسى (اسْكُنُوا الأَرْضَ) أغلب العلماء[١] قالوا : أى الأرض المقدسة التى هى بيت المقدس ، التى قال تعالى عنها : ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ[٢] الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢١) ﴾ [المائدة] فكان ردّهم على أمر موسى بدخول بيت المقدس : ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ[٣] وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا .. (٢٢) ﴾ [المائدة]

وقالوا : ﴿ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) ﴾ [المائدة]

لكن كلمة (الأرض) هنا جاءت مجرّدة عن الوَصْف (اسْكُنُوا الأَرْضَ) دون أنْ يُقيِّدها بوصف ، كما نقول : أرض الحرم ، أرض المدينة ، وإذا أردتَ أنْ تُسكنَ إنساناً وتُوطِّنه تقول : اسكن أى : استقر وتوَطّن فى القاهرة أو الأسكندرية مثلاً ، لكن اسكن الأرض ،

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٠٦٧/٥) : « أى أرض الشام ومصر » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣٧/٢) : « قال ابن عباس : هى الطور وما حوله . وكذا قال مجاهد وغير واحد . وعن ابن عباس أيضاً قال : هى أريحاء وكذا ذكر عن غير واحد من المفسرين ، وفى هذا نظر لأن أريحاء ليست هى المقصودة بالفتح ولا كانت فى طريقهم إلى بيت المقدس ، إلا أن يكون المراد بأريحاء أرض بيت المقدس كما قاله السدى فيما رواه ابن جرير عنه ، لا أن المراد بها هذه البلدة المعروفة فى طرف الطور شرقى بيت المقدس » .

(٣) ذكر كثير من المفسرين ههنا أخباراً من وضع بنى إسرائيل فى عظمة خلق هؤلاء الجبارين ، وأن منهم عوج بن عنق بنت آدم عليه السلام ، وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعاً وثلث ذراع ، وهذا شىء يستحى من ذكره ، ثم هو مخالف لما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » قاله ابن كثير فى تفسيره (٣٨/٢) .

كيف وأنا موجود فى الأرض بالفعل ؟! لا بُدَّ أن تُخصِّص لى مكاناً أسكن فيه .

نقول : جاء قوله تعالى (اسْكُنُوا الأَرْضَ) هكذا دون تقييد بمكان معين ، لينسجم مع آيات القرآن التى حكمتْ عليهم بالتفرُّق فى جميع أنحاء الأرض ، فلا يكون لهم وطن يتجمعون فيه ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

والواقع يُؤيد هذا ، حيث نراهم مُتفرِّقين فى شتَّى البلاد ، إلا أنهم ينحازون إلى أماكن مُحدَّدة لهم يتجمَّعون فيها ، ولا يذوبون فى الشعوب الأخرى ، فتجد كل قطعة منهم كأنها أمة مُستقلة بذاتها لا تختلط بغيرها .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) ﴾[الإسراء]

والمراد بوَعْد الآخرة : هو الإفساد الثانى لبنى إسرائيل ، حيث قال تعالى عن إفسادهم الأول على عهد رسول الله ﷺ :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً (٥) ﴾ [الإسراء]

فقد جاس رسول الله ﷺ خلال ديارهم فى المدينة ، وفى بنى قريظة وبنى قَينُقاع ، وبنى النضير ، وأجلاهم إلى أَذْرُعَات بالشام ، ثم انقطعت الصلة بين المسلمين واليهود فترة من الزمن .

ثم يقول تعالى عن الإفسادة الثانية لبنى إسرائيل : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا[1] مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) ﴾ [الإسراء]

---

(١) تبَّره : دمره وأهلكه . مُتَبَّر : اسم مفعول أى مُدمَّر مُهلَك . [القاموس القويم ١/٩٧] .

وهذه الإفسادة هي ما نحن بصدده الآن ، حيث سيتجمع اليهود في وطن واحد ليتحقق وَعْد الله بالقضاء عليهم ، وهل يستطيع المسلمون أن ينقضُّوا على اليهود وهم في شتيت الأرض ؟ لا بُدَّ أن الحق سبحانه أوحى إليهم بفكرة التجمُّع في وطن قومي لهم كما يقولون ، حتى إذا أراد أَخْذهم لم يُفلتوا ، ويأخذهم أَخْذ عزيز مقتدر .

وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) ﴾ [الإسراء] أي : مجتمعين بعضكم إلى بعض من شَتَّى البلاد ، وهو ما يحدث الآن على أرض فلسطين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

الحق من حقَّ الشيء . أي : ثبت ، فالحقّ هو الشيء الثابت الذي لا يطرأ عليه التغيير أبداً ، أما الباطل فهو مُتغير مُتلوّن لأنه زَهُوق ، والباطل له ألوان متعددة ، والحق ليس له إلا لون واحد .

لذلك لما ضرب الله لنا مثلاً للحق والباطل ، قال سبحانه : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

فإنْ رأيت في عَصْر من العصور خَوَراً يصيب أهل الحق ، وعُلُواً يحالف أهل الباطل فلا تغتر به ، فهو عُلُوّ الزَّبَد الذي يعلو صَفْحة

الماء ، ولا ينتفع الناس به ، وسرعان ما تُلقى به الريح هنا وهناك لتجلوَ صفحة الماء الناصعة المفيدة ، أما الزَّبَد فيذهب جُفَاءً دون فائدة ، ويمكث في الأرض الماء الصافي الذي ينتفع الناس به في الزراعة ونحوها .

وهكذا الباطل مُتغيِّر مُتقلِّب لا ينتفع به ، والحق ثابت لا يتغير لأنه مَظْهرية من مَظْهريات الحق الأعلى سبحانه ، وهو سبحانه الحق الأعلى الذي لا تتناوله الأغيار .

وقوله : ﴿ أَنزَلْنَاهُ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

ونلاحظ هنا أن ضمير الغائب في ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ لم يتقدَّم عليه شيء يُوضِّح الضمير ويعود إليه ، صحيح أن الضمير أعْرفُ المعارف ، لكن لا بُدَّ له من مرجع يرجع إليه . وهنا لم يُسبق الضمير بشيء ، كما سُبق بمرجع في قوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ .. (٨٨) ﴾ [الإسراء]

فهنا يعود الضمير في (بِمثْلِهِ) إلى القرآن الذي سبق ذكره .

نقول : إذا لم يسبق ضمير الغائب بشيء يرجع إليه ، فلا بُدَّ أن يكون مرجعه مُتعيّناً لا يختلف فيه اثنانِ ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص]

فهو ضمير للغائب لم يسبق بمرجع له ؛ لأنه لا يرجع إلا إلى الله تعالى ، وهذا أمر لا يُختلفُ عليه .

كذلك في قوله تعالى : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

أي : القرآن ؛ لأنه شيء ثابت مُتعيّن لا يُختلف عليه . وجاء الفعل أنزل للتعدية ، فكأن الحق سبحانه كان كلامه - وهو القرآن - محفوظاً في اللوح المحفوظ ، إلى أنْ يأتيَ زمان مباشرة القرآن لمهمته ،

فأنزله الله جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) ﴾ [القدر]

وهذا هو المراد من قوله (أَنْزَلْنَاهُ) ثم نُنزِّله مُنَجَّماً حَسْب الأحداث في ثلاث وعشرين سنة مُدَّة الدعوة كلها ، فكلما حدث شيء نزل القسط أو النجم الذي يعالج هذه الحالة .

و ﴿ أَنزَلْنَاهُ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء] أي : نحن ، فالمراد الحق سبحانه وتعالى هو الذي حفظه في اللوح المحفوظ ، وهو الذي أنزله ، وأنزله على الأمين من الملائكة الذي اصطفاه لهذه المهمة .

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء] أي : جبريل - عليه السلام - الذي كرَّمه الله وجعله روحاً ، كما جعل القرآن روحاً في قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. (٥٢) ﴾ [الشورى]

وقال عنه أيضاً : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ﴾ [التكوير]

والكريم لا يكتم شيئاً ممّا أُوحي إليه ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) ﴾ [التكوير]

هذه صفات جبريل الذي نزل بالوحي من الحق سبحانه ، ثم أوصله لمن ؟ أوصله للمصطفى الأمين من البشر : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (٢٥) ﴾ [التكوير]

إذن : فالقرآن الذي بين أيدينا هو هو الذي نزل من اللوح المحفوظ ، وهو الحق الثابت الذي لا شكَّ فيه ، والذي لم يتغيّر منه حرفٌ واحدٌ ، ولن يجد فيه أحد ثُغْرة للاتهام إلى أنْ تقومَ الساعة .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء] الأولى كانت : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

أى : الوسائل التى نزل بها كلها ثابتة ، وكلها حَقٌّ لا رَيْبَ فيه ولا شكَّ ﴿ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ (١٠٥) ﴾ [الإسراء] أى : مضمونه ، وما جاء به القرآن هو أيضاً حقٌّ ثابت ؛ لأن القرآن نزل معجزة ، ونزل كتاب منهجٍ ، معجزة حق لأنه تحدّى الفُصَحاء والبلغاء وأهل اللغة ، فأعجزهم فى كل مراحل التحدى ، والقرآن يحتوى على منهج حق .

وأول شىء فى منهج القرآن أنّه تكلّم عن العقائد التى هى الأصْل الأصيل لكل دين ، فقبل أنْ أقول لك : قال الله ، وأَمَر الله لابُدَّ أن تعرف أولاً مَنْ هو الله ، ومَن الرسول الذى بلَّغ عن الله ، فالعقائد هى ينبوع السُّلوكيات .

إذن : تعرّض القرآن للإلهيات ، وأوضح أن الله تعالى إله واحد له صفات الكمال المطلق ، وتعرَّض للملائكة وللنبوات والمعجزات والمعاد واليوم الآخر ، كُلُّ هذا فى العقائد ؛ لأن الإسلام حرصَ أولاً على تربية العقيدة ، فكانت الدعوة فى مكة تُركّز على هذا الجانب دون غيره من جوانب الدين ليُربّىَ فى المسلمين هذا الأصل الأصيل ، وهو الاستسلام لله ، وإلقاء الزِّمام إليه سبحانه وتعالى .

والإنسان لا يُلقى زمام حركته إلا لمَنْ يثق به ، فلا بُدَّ إذنْ من معرفة الله تعالى ، ثم الإيمان به تعالى ، ثم التصديق للمبلّغ عن الله .

وفى القرآن أيضاً أحكامٌ وشرائع ثابتة لا تتغير ، ولن تُنسَخ بشريعة أخرى ؛ لأنها الشريعة الخاتمة ، كما قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. (٣) ﴾ [المائدة]

إذن : نزل القرآن بما هو حَقٌّ من : إلهيات وملائكة ونبوّات ومعجزات وأحكام وشرائع ، كلها حَقٌّ ثابت لا شَكَّ فيه ، فنزل الحق الثابت من الله بواسطة مَنِ اصطفاه من الملائكة وهو جبريل على مَنِ اصطفاه من الناس وهو محمد ، وفى طى ما نزل الحق الثابت الذى لا يتغير .

وصدق الحق سبحانه حين قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

ونسوق هنا دليلاً عصرياً على أن كتاب الله جاء بالحق الثابت الذى لا يتغير على مَرِّ العصور ، ففى ألمانيا استحدث أحد رجال القانون قانوناً للتعسف فى استعمال الحق ، وظنّوا أنهم جاءوا بجديد ، واكتشفوا سلاحاً جديداً للقانون ليعاقب مَنْ له حَقّ ويتعسّف فى استعمال حقه .

ثم سافر إلى هناك محام من بنى سويف للدراسة ، فقرأ عن القانون الجديد الذى ادعَوْا السبق إليه ، فأخبرهم أن هذا القانون الذى تدَّعُونه لأنفسكم قانون إسلامى ثابت وموجود فى سُنّة رسول الله ، فعمدوا إلى كتب السيرة ، فوجدوا قصة الرجل الذى شكا إلى رسول الله ﷺ أن رجلاً له نخلة يمتلكها داخل بيته ، أو أنها تميل فى بيته ، فأخذها ذريعة وجعل منها مسمار جحا ، وأخذ يقتحم على صاحب البيت بيته بحجة أنه يباشر نخلته ، فماذا كان حكم الرسول فى هذه المسألة ؟

هذا الرجل له حَقٌّ فى النخلة ، فهى مِلْكٌ له لكنه تعسَّف فى استعمال حقه ، وأتى بما لا يليق من المعاملَة ، فالمفروض ألاَّ يذهب إلى نخلته إلا لحاجة ، مثل : تقليمها ، أو تلقيحها ، أو جمع ثمارها .

لقد أحضر رسول الله ﷺ الرجل وقال له : « إما أن تهبَ له هذه النخلة ، وإما أنْ تبيعها له ، وإما قطعناها » .

أليس ذلك من الحق الذى سبق به الإسلام ؟ وأليس دليلاً على استيعاب شرع الله لكل كبيرة وصغيرة فى حياة الناس ؟

أَضِفْ إلى ذلك ما قاله بعض العلماء من أهل الإشراقات فى معنى : (وَبِالْحَقِّ نَزَلَ) أى : وعلى الحق الذى هو رسول الله ﷺ نزل القرآن كما تقول : ذهبت إلى القاهرة ونزلت بفلان . أى : نزلت عنده أو عليه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الإسراء]

والبشارة تكون بالخير ، والنذارة تكون بالشر ، ويُشترط فى التبشير والإنذار أن تُعطَى للمبشَّر أو للمُنْذَر فرصة يراجع فيها نفسه ، ويُعدِّل من سلوكه ، وإلا فلا فائدة . ولا جدوى منهما ، فتُبشِّر بالجنة وتُنذِر بالنار فى مُتَّسَع من الوقت ليتمكن هذا من العمل للجنة ، ويتمكن هذا من الإقلاع عن سبيل النار .

ومثال ذلك : أنك تُبشِّر ولدك بالنجاح والمستقبل الباهر إن اجتهد ، وتحذره من الفشل إن أهمل ، وهذا بالطبع لا يكون ليلة الامتحان ، بل فى مُتَّسَع أمامه من الوقت لينفذ ما تريد .

والحق سبحانه وتعالى هنا يخبر رسوله ﷺ بحقيقة مهمته كرسول عليه البلاغ بالبشارة والنذارة ، فلا يُحمِّل نفسه فوق طاقتها ؛ لأنه ليس مُلْزَماً بإيمان القوم ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

أى : مُـهلكهـا حُزْنـاً على عدم إيمـانهم ، وفى آيـة أخرى قـال :
﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ ﴾ [الشعراء]

فكأنه سبحانه يُخفِّف العِبْءَ عن رسـوله ، ويدعوه ألاَّ يُتعِب نفسه فى دعوتـهم ، فما علـيه إلا البلاغ ، وعلى الله تـبارك وتعالى الـهداية للإيمان .

لكن حِـرْص رسول الله على هداية قـومه نابع من قـضية تحـكمه وتستولى عليـه لخَّصها فى قوله : « والله لا يـؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[1] .

فالنبى ﷺ كـامل الإيمان ، ويحب لقومه أن يكونوا كـذلك ، حتى أعداؤه الذين وقـفوا فى وجه دعـوته كان إلى آخر لـحظة فى الصراع يرجو لهم الإيمان والنجاة ؛ لذلك لما مُكِّن منهم لم يعاجلهم بالعقوبة ، بل قال : « بل أرجو أن يُخرِج الله من أصـلابهم من يعبد الله وحده ، لا يُشرك به شيئاً »[2] .

وفعلاً صدق الله ورسوله ، وجاء من ذريات هؤلاء مَنْ حملوا راية

---

(١) حديث متفق عليه . أخـرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، ومـسلم فى صحيحه (٤٥) كتـاب الإيمان ، عن أنس بن مـالك بلفظ : « والذى نفسى بيـده ، لا يؤمن عبـد حتى يحب لجاره ـ أو قال : لأخيه ـ ما يحب لنفسه » .

(٢) أخرج البـخارى فى صـحيـحه (٣٢٣١ ، ٧٣٨٩) من حـديث عائشة رضى الله عـنها أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبـال لتأمره بما شـئت فيهم ، فنادانى ملك الجبـال فسلم علىّ ثم قال : يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخـشبين ، فقال النبى ﷺ : « بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً » .

الدين ، وكانوا سيوفاً على أعدائه ، أمثال عكرمة بن أبى جهل ، وعمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد ، وكثير من المسلمين كانوا حريصين على قَتْل هؤلاء حال كفرهم فى معارك الإسلام الأولى ، وهم لا يعلمون أن الله لم يُمكِّنهم من هؤلاء لحكمة ، إنهم سوف يكونون معك من سيوف الإسلام وقادته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

معنى (فَرَقْنَاهُ) أى : فصّلناه ، أو أنزلناه مُفرّقاً مُنجّماً حَسْب الأحداث (عَلَى مُكْثٍ) على تمهُّل وتُؤدَة وتأنٍّ .

وقد جاءت هذه الآية للردِّ على الكفار الذين اقترحوا أن ينزل القرآن جملة واحدة ، كما قال تعالى حكاية عنهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان]

وأول ما نلحظه عليهم أن أسلوبهم فضحهم ، وأبان ما هُمْ فيه من تناقض ، ألم يسبق لهم أن اتهموا الرسول بافتراء القرآن ؟ وها هم الآن يُقِرُّون بأنه نزل عليه ، أى : من جهة أعلى ، ولا دَخْلَ له فيه ، وقد سبق أن أوضحنا أنهم لا يتهمون القرآن ، بل يتهمون رسول الله الذى نزل عليه القرآن .

ثم يتولّى الحق سبحانه الردّ عليهم فى هذا الاقتراح ، ويُبيِّن أنه اقتراح باطل لا يتناسب وطبيعة القرآن ، فلا يصح أن ينزل جملة واحدة كما اقترحوا للأسباب الآتية :

١ - : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان]

(كَذَلِكَ) أى : أنزلناه كذلك على الأمر الذى تنتقدونه من أنه نزل مُفرّقاً مُنجّماً حسْب الأحداث ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ .. (٣٢)﴾ [الفرقان] لأن رسول الله ﷺ سيتعرّض لكثير من تعنّتات الكفار ، وسيقف مواقف مُحرجة من تعذيب وتنكيل وسخرية واستهزاء ، وهو فى كل حالة من هذه يحتاج لتثبيت وتسلية .

وفى نزول الوحى عليه يَوْماً بعد يَوْم ، وحسْب الأحداث ما يُخفّف عنه ، وما يزيل عن كاهله ما يعانى من مصاعب ومَشَاقّ الدعوة ، وفى استدامة الوحى ما يصله دائماً بمَنْ بعثه وأرسله ، أما لو نزل القرآن جملةً واحدة لكان التثبيت أيضاً مرة واحدة ، ولَفقد رسول الله جانب الصلة المباشرة بالوحى ، وهذا هو الجانب الذى يتعلق فى الآية برسول الله .

٢ - ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢)﴾ [الفرقان] أى : نَزَّلْنَاه مُرتّلاً مُفرّقاً آيةً بعد آية ، والرتل : هو المجموعة من الشيء . كما نقول : رتل من السيارات ، وهكذا نزل القرآن مجموعة من الآيات بعد الأخرى ، وهذه الطريقة فى التنزيل تُيسِّر للصحابة حفْظ القرآن وفَهْمه والعمل به ، فكانوا رضوان الله عليهم يحفظون القَدر من الآيات ويعملون بها ، وبذلك تيسَّر لهم حفظ القرآن والعمل به ، فكانت هذه الميْزَة خاصة بالصحابة الذين حفظوا القرآن ، وما زلنا حتى الآن نُجزِّىء القرآن للحفظة ، ونجعله ألواحاً ، يحفظ اللوح تلو الآخر .

٣ - ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (٣٣)﴾ [الفرقان]

وهذه للمخالفين لرسول الله ، وللمعاندين لمنهج الله الذين

سيعترضون عليه ، ويحاولون أن يستدركوا عليه أموراً ، وأن يتهموا رسول الله ، فلا بُدَّ من الردّ عليهم وإبطال حُجَجهم فى وقتها المناسب ، ولا يتأتّى ذلك إذا نزل القرآن جملة واحدة .

(وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمثَلٍ) أى : بشىء عجيب يستدركون به عليك (إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ) أى : ردّاً عليهم بالحق الثابت الذى لا جدالَ فيه .

وإليك أمثلة لِردِّ القرآن عليهم ردّاً حياً مباشراً .

فلما اتهموا رسول الله وقالوا : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً (٤٧) ﴾ [الإسراء] ردَّ القرآن عليهم بقوله تعالى : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم] والمسحور لا يكون أبداً على خُلُق عظيم .

ولما قالوا : ﴿ مَا لِهَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ .. (٧) ﴾ [الفرقان] يردُّ القرآن عليهم بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ .. (٢٠) ﴾ [الفرقان]

فليس محمد ﷺ بدعاً فى هذه المسألة ، فهو كغيره من الرسل الذين عُرفت عنهم هذه الصفات ، وفى هذا ما يؤكد سلامة الأُسْوة فى محمد ﷺ ، وأنه بشر مثل الذين أرسلنا إليهم من قبله ، إنما لو كانت فى محمد خاصية ليست فى غيره ربّما اعترضوا عليها واحتجُّوا بها .

لذلك كان من أدب النبى ﷺ مع ربه ومع صحابته أنه قال : « إنما أنا بشر يرد علىَّ ـ أى بالوحى ـ فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويؤخذ منى فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

فانظر إلى أىّ حدٍّ كان تواضعه ﷺ ؟

ولما اتهموا الرسول ﷺ ، فقالوا : ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ.. ۝٨﴾ [سبا] فردّ عليهم الحق سبحانه بقوله : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝١٣﴾ [هود]

ثم يتنزّل معهم فى هذا التحدى ، ويترأف بهم : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ..۝٢٣﴾ [البقرة]

ثم يناقشهم فى هذه المسألة بهذا الأدب الرفيع والنموذج العالى للحوار : ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ۝٣٥﴾[هود]

وفى آية أخرى يقول : ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٥﴾ [سبا]

فانظر إلى هذا الأدب : رسول الله حين يتحدّث عن نفسه يقول (أَجْرَمْنَا) وحين يتحدث عن أعدائه لا ينسب إليهم الإجرام ، بل يقول : (وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ) .

هذا كله من الحق الذى جاء به القرآن ليردّ عن رسول الله اتهامات القوم ، وبالله لو نزل القرآن جملةً واحدة ، أكان من الممكن الردُّ على هذه الاتهامات ومجادلة القوم فيما يُثيرونه من قضايا ؟

وإنْ كانت هذه الأمثلة خاصة برسول الله ﷺ وتبرئة ساحته فى مجال الدعوة إلى الله ، فهناك أيضاً ما يتعلق بالأحكام والتشريع ، فالقرآن نزل بالعقائد والأحكام والتشريعات ، ونزل ليكون دائماً ثابتاً

لا يتغير إلى يوم القيامة ، ولن يُنسَخ منه حرف واحد كما حدث فى الكتب السابقة عليه .

فإن نظرتَ إلى العقائد وجدتَ الكلام فيها قاطعاً لا هوادةَ فيه ، يأتى هكذا قَوْلاً واحداً ، فالله واحد أحد لا شريك له ، له صفات الكمال المطلق ، وكذلك الحديث عن الملائكة والبَعْث والحساب .

لكن تجد الأمر يختلف فى الحديث عن العادات التى ألفها الناس فى حركة الحياة ، فهذه أمور تحتاج إلى تلطُّف وتدرُّج ، ولا يناسبها القصْر والقَطْع . ألم تَرَ إلى المشرِّع سبحانه حينما أراد أنْ يُحرِّم الخمر ، كيف تدرَّج فى تحريمها على عدة مراحل حتى يجتثّ هذه العادة التى تحكّمتْ فى نفوس الناس وتملّكتهم ، أكان يمكن معالجة هذه المسألة بهذه الطريقة إذا نزل القرآن جملة واحدة ؟

انظر كيف لفتَ أنظارَ القوم بلُطْف إلى أن فى الخمر شيئاً ، فقال تعالى : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا[1] وَرِزْقًا حَسَنًا .. (٦٧) ﴾ [النحل]

ولما سمع بعض الصحابة هذه الآية قال : والله لكأن الله يُبيِّت للخمر شيئاً . لقد فهم بملكته العربية أن الله تعالى طالما وصف الرزق بأنه حسن ، وسكت عن السَّكَر فلم يَصفْه بالحُسْن ، فإن وراء هذا الكلام أمراً فى الخمر ؛ لأنه يتلف نعمة الله ويُفسدها على أصحابها .

ثم يُحوِّل هذه المسألة إلى عظَة وإرشاد ، فيقول : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا .. (٢١٩) ﴾ [البقرة]

---

(١) السكر : كل ما يسكر أى الخمر ، أو نقيع التمر وعصير العنب الذى لم تمسُّه النار وهو غير مسكر . والسَّكَر أيضاً : الخل . [القاموس القويم ١/ ٣٢٠] .

وهكذا قرَّر لهم الحقيقة بعد أن سألوا هم عنها ، وترك لهم حرية الاختيار ، فالأمر ما زال عظةً ونصيحة لا تشريعاً مُلْزماً ، إلا أنه مهَّد الطريق للقطع بتحريمها بعد ذلك .

ثم حدث من أحدهم أن صلّى وهو مخمور لا يدرى ما يقول ، فلما سمعوه يقول : قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون ، فغمزه مَنْ بجواره وعرف أنه مخمور ، ووصل خبره إلى رسول الله ﷺ فنزل قوله تعالى[1] : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ .. (٤٣) ﴾ [النساء]

وبذلك أطال مدَّة الامتناع عن شُرْب الخمر ، فالصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة ، فإذاً لا بُدّ من الامتناع عن الخمر قبل الصلاة بوقت كاف ، وهكذا عوَّدهم الامتناع ودرَّبهم على الصبر عن هذه الآفة التى تمكَّنتْ منهم . ثم يتحيَّن الحق سبحانه فرصة منهم ، حيث اجتمع القوم فى مجلس من مجالس الشراب ، ولما لعبتْ الخمر بالعقول تشاجروا حتى سالتْ دماؤهم ، وعندها ذهبوا بأنفسهم إلى رسول الله ﷺ يسألونه[2] :

---

(١) عن على بن أبى طالب قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدموا فلاناً فقرأ : قل يأيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون . فأنزل الله ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ .. (٤٣) ﴾ [النساء] أورده ابن كثير فى تفسيره (١/ ٥٠٠) ، ثم قال : « هكذا رواه ابن أبى حاتم وكذا رواه الترمذى عن عبد بن حميد عن عبد الرحمن الدشتكى به ، وقال : حسن صحيح » .

(٢) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : اللهم بيِّن لنا فى الخمر بياناً شافياً ، فنزلت الآية التى فى البقرة ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ .. (٢١٩) ﴾ [البقرة] فدعى عمر فقرئت عليه ، فقال : اللهم بيِّن لنا من الخمر بياناً شافياً ، فنزلت الآية التى فى النساء ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ .. (٤٣) ﴾ [النساء] ، فكان منادى رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة ينادى : لا يقربنَّ الصلاة سكران ، فدعى عمر فقرئت عليه ، فقال : اللهم بيِّن لنا فى الخمر بياناً شافياً ، فنزلت هذه الآية ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ .. (٩٠) ﴾ [المائدة] فدعى عمر فقرئت عليه ، فلما بلغ : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) ﴾ [المائدة] . قال عمر : انتهينا » . أورده الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص١١٨) .

يا رسول الله بيِّن لنا فى الخمر رأياً شافياً ، وهنا ينزل الوحى على رسول الله بالحكم القاطع :﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ .. (٩٠) ﴾ [المائدة]

فكيف كانت معالجة هذه الآفة التى تمكّنتْ من الناس لو نزل القرآن جملة واحدة ؟

إن الحق تبارك وتعالى بنزول القرآن مُفرّقاً مُنجّماً حَسْب الأحداث ، كأنه يُجرى مشاركة بين آيات التنزيل والمنفعلين بها الذين يُصرّون على تنفيذ مطلوباتها ، حتى إنهم ليبادرون رسول الله ﷺ بالسؤال ، مع أنه ﷺ قد نهاهم أن يبدأوه بالسؤال ، كما قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ .. (١٠١) ﴾ [المائدة]

ولكنهم مع هذا تغمزهم المسألة فيبادرون بها رسول الله ، كما حكى القرآن :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ .. (٢١٩) ﴾ [البقرة]

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ .. (٢١٩) ﴾ [البقرة]

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ .. (١٨٩) ﴾ [البقرة]

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ .. (١٠٥) ﴾ [طه]

إذن : وراء نزول القرآن مُفرّقاً مُنجّماً حِكَم بالغة يجب تدبُّرها ، هذه الحِكَم ما كانت لتحدث لو نزل القرآن جملةً واحدةً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا .. ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الإسراء] آمنوا : أمر ، ولا تؤمنوا : نَهْى . والأمر والنهى نوعان من الطلب ، والطلب أن تطلب من الأدنى أن يفعل ، والنهى أنْ تطلبَ من الأدنى ألاَّ يفعل ، فإنْ كان الطلب من مُساو لك فهو التماس ، وإنْ كان إلى أعلى منك فهو دعاء .

لذلك حينما نقول للطالب أعرب : (رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ) يقول : اغفر فعل أمر ، نقول له : أنت سطحيّ العبارة ؛ لأن الأمر هنا من الأدنى للأعلى ، من العبد لربه تبارك وتعالى ، فلا يقال : أمر ، إنما يقال : دعاء .

والطاعة أن تمتثل الأمر والنهى ، فهل نقول فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا ..﴿١٠٧﴾ ﴾ [الإسراء] أنها للتخيير ، فإنْ آمنوا فقد أطاعوا ، وكذلك إنْ لم يؤمنوا فقد أطاعوا أيضاً ؟

نقول : الأمر والنهى هنا لا يُراد منه الطلب ، بل يراد به التهديد أو التسوية كما تقول لابنك حين تلاحظ عليه الإهمال : ذاكر أو لا تذاكر ، أنت حر ؛ لا شكَّ أنك لا تقصد النهى عن المذاكرة ، بل تقصد تهديده وحثّه على المذاكرة .

فقـوله : ﴿قُلْ آمنُوا بِه أَوْ لا تُؤْمنُوا .. (١٠٧)﴾ [الإسراء] للتـسوية ، كما قال : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف]

فهذا ليس أمراً بحـيث أن الذى يفعل الأمر أو النهى يكون طائعاً ، بل المراد هنا التهديد أو التسـوية ، فسواء آمنوا أو كفروا ؛ لأن الحق سبحانه جعل فى ذلك عزاءً لرسوله ﷺ فى إيمان أهل الكتاب .

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَـبْلِه .. (١٠٧)﴾ [الإسـراء] أى : اليـهـود والنصـارى الذين ارتاضـوا بالكتب السـماوية ، واسـتـمـعوا للتـوراة والإنجـيل ، ونقلوها إلى غـيـرهم من المعـاصـرين للقـرآن ، فهـؤلاء شـاهدون بأن الرســول حَقٌّ بمـا عندهم من بشــارة به فى التـوراة والإنجـيل ؛ لذلك يتـركـون دينـهم ويسـارعـون إلى الإسـلام ؛ لأنهم يعلمون عِلْم اليقين أنه الدين الحق .

ومن هؤلاء عبد الله بن سلام[1] ، وكان من علماء اليـهود ، وكان يعلم أوصاف رسـول الله وزمن بَعْثـته ؛ لذلك قال : لقـد عرفتـه حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشدّ[2] .

---

(١) هو : عبـد الله بن سلام بن الحارث الإسـرائيلى ، ابو يوسف ، صحـابى ، أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة ، وكـان اسمه « الحـصين » فسمـاه رسول الله ﷺ عبد الله ، وشـهد مع عـمر فـتح بيت المـقـدس ، أقام بالمـدينة إلى أن توفى عـام ٤٣ هـ . (الأعـلام للزركلى ٤/٩٠) .

(٢) يقول تعالى : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)﴾ [البقـرة] . قال القرطبى : ويروى عن عـمر بن الخطاب أنه قال لعـبد الله بن سلام : أتعرف مـحمداً كما تعـرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمـين من السماء على الأمين فى الأرض بـنعته فـعرفـته ، وإنى لا أدرى ما كـان من أمه . ذكـره ابن كثـير فى تفسيره (١/١٩٤) .

ولما اختمر الإسلام فى نفسه ذهب إلى رسول الله وصارحه بما نوى من اعتناق الإسلام ، وقال : يا رسول الله إن اليهود قوم بُهْتٌ[1] فإن أعلنتُ إسلامى الآن قالوا فىَّ ما ليس فىَّ ، فاسألهم عنى وأنا ما زلت على دينهم ، وانظر ما يقولون ، فسألهم رسول الله : ما تقولون فى ابن سلام ؟ فقالوا : حَبْرنا وابن حَبْرنا ، ووصفوه بخير الصفات ، وأطيب الخصال ، فقال عبد الله : يا رسول الله ، أما وقد قالوا فىَّ ما قالوا فأشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فإذا بهم يذمونه ويتهمونه بأخسِّ الخصال ، فقال : يا رسول الله ألم أَقُلْ لك إنهم قوم بُهْتٌ[2] .

إذن : ففى إيمان عبد الله بن سلام وغيره من اليهود والنصارى الذين عرفوا رسول الله بأوصافه فى كتبهم وعرفوا موعد بعثته وأنه حق ، فى إيمان هؤلاء عَزَاءٌ لرسول الله حين كفر به قومه وكذَّبوه ؛ لذلك قال تعالى : ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد]

ونحن مُكْتفون بشهادة هؤلاء ؛ لأنهم قوم صادقون مع أنفسهم ، صادقون مع أنبيائهم ومع كتبهم التى تلقوْهَا ، فحينما بشَّرت بمحمد ووصفته لم ينكروا هذه الصفات ولم يُحرِّفوها ، بل كانوا يسارعون إلى المدينة انتظاراً لمبعث النبى الجديد الذى سيظهر فيها ، لقد كانوا يقولون لكفار مكة : لقد أظلَّ زمان نبى جديد نتبعه قبلكم ، ونقتلكم به قَتْل عاد وإرم .

---

(١) البهتان : الكذب والافتراء . [لسان العرب ـ مادة : بهت] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٩٣٨) ، وأحمد فى مسنده (١٠٨/٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٢) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة]
إلا أن الله أبقى للحق خلية ، وجعل له خميرة استجابت لرسول الله ، وتفاعلت مع الدين الجديد .

وقوله تعالى: ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ .. (١٠٧) ﴾ [الإسراء] أى : القرآن ﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) ﴾ [الإسراء]

كلمة (يَخِرُّونَ) توحى بأنهم يسارعون إلى السجود ، وكأنها عملية انفعالية غير إرادية ليس لهم فيها تصرُّف ، فبمجرد سماع القرآن يرتمون على الأرض ساجدين ؛ لأنهم تفاعلوا معه ، واختمر الإيمان فى نفوسهم . ليس ذلك وفقط ، بل ويخرون (لِلأَذْقَانِ) جمع ذَقَن ، وهى أسفل الفكِّ السفلى ، ومعلوم أن السجود يكون على الجبهة ، أما هؤلاء فيسجدون بالوجه كله ، وهذا دليل على الخضوع والاستسلام لله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) ﴾

أى : يقولون حال سجودهم : سبحان ربنا الذى وَفَّى بوعده فى التوراة والإنجيل ، وبعث الرسول الخاتم ومعه القرآن ، سبحانه حقق لنا وَعْده وأدركناه وآمنا به ، وكأن هذه نعمة يحمدون الله عليها .

ويقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ (١٠٩) ﴾

لقد خَرُّوا ساجدين لله تعالى قبل ذلك لأنهم أدركوا القرآن الذى

نزل على محمد ، وتحقَّق لهم وعد الله فعاصروه وآمنوا به . أما هذه المرة فيخرون ساجدين لما سمعوا القرآن تفصيلاً وانفعلوا به ، فيكون له انفعال آخر ، لذلك يزيد هنا الخشوع والخضوع ، فيقول : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ .. (١٠٩) ﴾ [الإسراء] فكلما قرأوا آية ازدادوا بها خشوعاً وخضوعاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١١٠) ﴾

(ادْعُوا) اذكروا ، أو نادوا ، أو اطلبوا (الله) علَم على واجب الوجود سبحانه ، ومعنى : علَم على واجب الوجود أنها إذا أُطلقَتْ انصرفتْ للذات الواجبة الوجود وهو الحق سبحانه ، كما نُسمِّى شخصاً ، فإذا أُطلِق الاسم ينصرف إلى المسمَّى .

والأسماء عندنا أنواع كثيرة : إما اسم ، أو كُنْية ، أو لَقَب .

الاسم : وهو أغلب الأعلام ، ويُطلَق على المولود بعد ولادته ويُعرَف المولود به .

والكُنْية : وتُطلَق على الإنسان ، وتُسبَق بأب أو أم أو ابن أو بنت ، كما نقول : أبو بكر ، وأم المؤمنين .

واللقب : وصف يُشْعِر بالمدح أو بالذم ، كما نقول : الصِّديق ، الشاعر ، الفاروق .

فإذا كان الاسم معه شريك غيره لا بُدَّ لتمييزه من وَصْفه وَصْفاً يُعْرف به ، كما يحدث أن يألف شخص أن يسمى أولاده جميعاً : محمد. فالتسمية فى هذه الحالة لا تُشخِّص ولا تُعيِّن المسمّى ؛ لذلك لا بُدَّ أن نصف كل واحد منهم بصفة فنقول : محمد الكبير . محمد الصغير . محمد المهندس . فإذا أُطلِق الاسم بصفته ينصرف إلى شخص معين .

وإذا كُنّا نحن نُسمِّى أولادنا ؛ فإن الحق سبحانه سَمَّى نفسه بأسمائه التى قال عنها : الأسماء الحُسْنى ، وكلمة (حُسْنى) أفعل تفضيل للمؤنث ، مثل : كبرى . والمذكر منها أحسن . لكن لماذا وَصَف أسماءه تعالى بالحسنى ؟

الاسم يُبيِّن المسمّى ، لكن الأسماء عند البشر قد لا تنطبق على المسمَّى الذى أُطلقت عليه ، فقد نُسمِّى شخصاً « سعيد » وهو شقى ، أو نسمى شخصاً « ذكى » وهو غبى . وهذا ليس بحَسن فى الأسماء ، الحسَن فى الاسم أنْ يطابق الاسم المسمَّى ، ويتوفَّر فى الشخص الصفة التى أُطلِقت عليه ، فيكون الشخص الذى سميناه « سعيد » سعيداً فعلاً .

وهكذا يكون الاسم حسناً ، لكنه لا يأخذ الحُسْن الأعلى ؛ لأن الحُسن الأعلى لأسماء الله التى سَمّى بها نفسه ، فله الكمال المطلق .

فهذه ـ إذن ـ لا تتأتّى فى تسمية البشر ، فكثيراً ما تجد « عادل » وهو ظالم ، و « شريف » وليس بشريف ؛ لذلك قلنا :

وَأَقْبَحُ الظُّلْم بَعْد الشِّرْكِ منزلةً ... أنْ يظلم اسمٌ مُسمّى ضِدّه جُعلاَ

فَشَارِع كعِمَادِ الدين تَسْمِيةً ... لكِنّه لعِنَادِ الدِّينِ قَدْ جُعِلاَ

فالاسم قد يظلم المسمَّى كما حدث أنْ سَمَّوْا الشارع (عماد الدين) ،

وهذا الشارع كان في الماضي بُؤْرَة للفسْق والفجور ، وما أبعده سابقاً عن هذه التسمية .

فلفظ الجلالة (الله) عَلَم على واجب الوجود ، وبعد ذلك جاءت صفات غلبت عليه ، بحيث إذا أُطلقَتْ لا تنصرف إلا إليه . فإذا قُلْنا : العزيز على إطلاقه فإنها لا تنصرف إلا لله تعالى ، لكن يمكن أن نقول : فلان العزيز في قومه ، فلان الرحيم بمَنْ معه ، فلان النافع لمَنْ يتصل به ، إنما لو قُلْت : النافع على إطلاقه فهو الحق سبحانه وتعالى .

لذلك ؛ حلَّتْ الصفات محلَّ اسم الذات (الله) ؛ لأنها إذا أُطلقَتْ لا تنصرف إلا لله تعالى ، فأسماءُ الله الحُسْنى هي في الأصل صفات له سبحانه .

ولو تأملنا هذه الأسماء لوجدناها على قسمين : أسماء ذات ، وأسماء صفات فعلية ، اسم الذات لا يتصف الله بمقابله ، فالعزيز مثلاً اسم ذات فلا نقول في مقابله الذليل ، والحيّ اسم ذات فلا نقول : الميت . أما اسم الصفة الفعلية فيكون له مقابل ، فالمعزّ صفة فعل يعني يُعزّ غيره ، ومقابلها المذلّ ، والضَّارّ مقابلها النافع ، والمحيي مقابلها المميت وهكذا .. إنْ وجدتَ للاسم مقابلاً فاعلم أنه اسمٌ لصفة الفعل من الله تعالى ، وإذا لم يكن له مقابل فهو اسم ذات .

لكن تقف مثلاً عند السَّتَّار وهي صفة فعل لأنه يستر غيره ، لكن ليس لها مقابل فلا نقول الفضَّاح ، لماذا ؟ لأنه تبارك وتعالى يريد أنْ يتخلّق خَلْقه بهذه الصفة ، وأنْ يُربِّب صفة الستر عند الناس للناس ، فلو علم الناس عن أحد أمراً فاضحاً لزهدوا في كل ما يأتي من عنده ولو كان حسنة ، وبذلك يُحرَم المجتمع من طاقات كثيرة في الخير .

لكن حين تستر على صاحب العيب عيبه ، فإنك تعطى للمجتمع فرصة لينتفع بما لديه من صفات الخير ؛ لذلك الله تعالى يُعصَى ويحب أن يُستَر على عبده العاصى ؛ لكى يستمر دولاب الحياة ؛ لأنه لا يوجد أحد له كمال إلا النبى ﷺ ، وصدق القائل :

مَنْ ذَا الذى مَا سَاءَ قَطُّ وَمَنْ لَهُ الحُسْنى فَقَطْ

إذن : فمن الحكمة أن يأمر الله تعالى بستر غَيْب خَلْقه عن خَلْقه حتى تستمر حركة الحياة ؛ لأن الإنسان ابنُ أغيار ، وقلبه سريعاً ما يتقلب ، ولربما لو عرفتُ عنك شيئاً مستوراً لتغيَّرْتُ لك وأنت كذلك ، ولربما تقطعت بيننا حبال المودة ، إنما بالستر ينتفع كُلٌّ منّا بالآخر .

ومن هنا قالوا : لو تكاشفتم ما تدافنتم ، أى : لو تكشفتْ الأسرار ، وعرف كُلٌّ منكم عَيْب أخيه ما دفنتم مَنْ يموت منكم ، وهذا منتهى ما يمكن تصوُّره من التقاطع بين الناس .

فقوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ .. ﴿١١٠﴾ ﴾ [الإسراء] فاختار هذا الاسم بالذات (الله) العَلَم على واجب الوجود ، وهو اسم ذات لا يدلُ على صفة معينة ، لكنه يحمل فى طياته كل صفات الكمال فيه ، فإنْ كانت للأسماء الأخرى مجالات ، فالقادر فى القدرة ، والحكيم فى الحكمة ، والقابض فى القبض ، والعزيز فى العزّة . فإن لكل اسم مجالاً وسيالاً ، فإن (الله) هو الاسم الجامع لكل الصفات .

لذلك فى الحديث النبوى الشريف : « كُلُّ شىء لا يُبدأ باسم الله فهو أبتر »[1] .

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٥٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « كل كلام أو أمر ذى بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر ـ أو قال : أقطع » .

لماذا ؟ لأنك حين تُقدم على أىِّ فعل تحتاج أولاً إلى حكمة لتعرف من خلالها لماذا تفعل ، وتحتاج إلى قدرة تُعينك على إنجازه ، وتحتاج إلى علم بمصير هذا الفعل وعاقبته ؛ إذن : تحتاج إلى صفات كثيرة ، فحين تُقبل على العمل لا تَقُل : يا حكيمُ يا قادرُ يا عليمُ ، إنما الحق سبحانه يُريحك ، ويكفى أن تقولَ فى الإقدام على الفعل : باسم الله . لأنك ذكرتَ الاسم الجامع لكلِّ صفات الكمال .

﴿ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَـٰنَ .. (١١٠) ﴾ [الإسراء] واختار الرحمن دون الجبار أو القهار ؛ لأن الرحمة صفة التحنين للخلق ، فالحق سبحانه وتعالى يُظهر هذه الصفة لعباده حتى فى أسماء الجبار والقهار ؛ لأنها من خَدَم الرحمة ومن أسبابها ؛ لأن العبد إذا عرف لله : صفة الجبروت ، وصفة القهر ، وصفة الانتقام انتهى عن أسباب الوقوع تحت طائلة هذه الصفات ، فكأنه يرحم عباده حتى بصفات القهر والانتقام .

ومن هذا قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَـٰأُولِى الأَلْبَابِ .. (١٧٩) ﴾ [البقرة] لأنه إذا علم القاتل أنه سيُقتل انتهى عن القتل . وفى الأثر : « القتل أنْفَى للقتل » .

إذن : فتشريع القصاص وإقامة الحدود والعقوبات لا لتعذيب الخلق ، وإنما رحمة بهم حتى يقفوا بعيداً عن ارتكاب ما يُوجب القصاص أو الحد أو العقوبة ، حتى الذى يقهره الله مرحوم أيضاً ؛ لأنه ما دام قال : أنا قهار . فاحذرنى ، فهو بذلك يرحمه لأنه يُحذِّره من أسباب الوقوع فيما يستوجب غضبه وانتقامه .

وكذلك اختار اسم (الرحمن) لأن مجال التكليف كله الرحمة ، وما نزل المنهج من الله إلا لينظم حياة الناس ويُحقِّق لهم السعادة فى

حركة الحياة ، فيتكامل الخلْق فيما بينهم ، ويتعاونون ، ويتساندون ولا يتعاندون ، ويكونون جميعاً على قلب رجل واحد ، هذه غاية المنهج الإلهيّ فى دنيا الناس أنْ يعيشَ المجتمع المسلم آمناً سالماً .

فالرحمانية الإلهية هى الغالبة فى كل التشريع ، وهى السِّمَة العامة ، ألاَ ترى قوله تعالى : ﴿الرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢﴾[الرحمن]

فالقرآن الذى نزل لِيُنظِّم حياة الناس ويحكمها ، ويصلح حركة الحياة ، ويضع السلام بينك وبين الله ، وبينك وبين نفسك ، وبينك وبين الناس ، هذا القرآن مظهر من مظاهر هذه الرحمانية الإلهية .

وقد اعترض بعض المستشرقين على قوله تعالى فى سورة الرحمن : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ [الرحمن] والآلاء هى النعم ، وأنها جاءت تذييلاً لقوله تعالى : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥﴾ [الرحمن] فالآية تتحدث عن النار والشواظ ، فكيف تُختم هذه الخاتمة التى تدلُّ على النعمة ؟

ولو تدبَّر القوم ما اعترضوا ؛ لأن فى النار والتحذير منها والتخويف بها نعمةً ، كأن القرآن يقول لك : إياك أنْ تفعل ما يُوجِب النار والشُّواظ فتقلع وترتدع من قريب ، أليست هذه من نعم الله على عباده ؟ أليست رحمة بهم ؟ وماذا كنتم ستقولون إنْ لم يُقدِّم لكم الحق سبحانه تحذيراً وإنذاراً ، ثم فاجأكم بالعذاب ؟

ونقف على لطيفة أخرى لاستخدام اسم الله (الرحمن) فى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَـٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ۝٥٩﴾ [الفرقان]

أى : بعد أن خلق الخَلْق كله بسمائه وأرضه وما فيهما استوى على العرش ؛ لأن الاستواء على العرش يعنى أن كل شىء تَمَّ له سبحانه خَلْقاً وإيجاداً ، وانتهى إلى الجلوس على العرش ، وهذا تمثيل بالملوك الذين لا يجلسون على العرش إلا بعد أنْ يستتبّ لهم الأمر ، فجلوس الملك على العرش يعنى أنه الأوحد الذى لا يعارضه أحد .

فالحق سبحانه يُنبِّهنا بقوله : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ .. (٥٩)﴾ [الفرقان] واختار صفة الرحمة ليُوحِى لنا أن قعوده على العرش لا يعنى القَهْر والجبروت ، إنما قعد على عرشه رحمةً بكم ، قعد على العرش ليُنظِّم حياتكم ، ويرحم بعضكم ببعض ، فتسعدوا بالحياة ، فالاستواء هنا لا استواءَ قهر وغلبة ، بل استواء رحمة لمصلحتكم أنتم .

وفى آية أخرى قال : ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥)﴾ [طه] وقد ورد استواؤه سبحانه على العرش فى سبعة مواضع فى كتاب الله ، نظمها الناظم فى قوله :

وَذِكْرُ اسْتواءِ الله فى كلماته ... علَى العَرْشِ فى سَبْعِ مَوَاضعَ فَاعْدُد
فَفِى سُورَةَ الأعرافَ ثمة يُونُسَ ... وفى الرعْدِ مع طَه فَلْلعَدِّ أكد
وَفِى سُورة الفُرْقانِ ثمة سَجْدة ... كَذَا فِى الحديدِ افْهَمُوا فَهْم مؤيَّد

وكل صفة من صفات جلاله سبحانه إنما هى فى خدمة رحمانيته ، لأنه يُخَوِّف عباده بصفات الجلال حتى لا يقعوا فى المخالفة ، فيأخذوا نعمة الله فى الدنيا ، ويسعدوا بها ، ويأخذوا نعيم الآخرة فيسعدوا بها ، فهى - إذن - الرحمانية المستولية والسمة العامة لمنهج الله فى الدنيا والآخرة .

وفى الحديث « فى آخر ليلة من رمضان يتجلى الجبار بالمغفرة... »[١] ولم يقُلْ : تجلى الغفار بالمغفرة ، فلماذا آثر صفة الجبار فى مجال المغفرة ؟

قالوا لأن المغفرة تُوحي بوجود ذنب ، والذنب يقتضى العقوبة ، وهذه من اختصاص صفة الجبار ، فهل تغلَّبتْ صفة الغفار على صفة الجبار ، وأخذت اختصاصها ؟ لا بل تشفع صفة الغفار عند صفة الجبار : الموقف لكِ أيتها الصفة ، لكن نستسمحك فى أن نشفع فى هؤلاء ، فكأن صفات الجمال تشفع عند صفات الجلال .

لذلك ، فالذين يُفسِّرون الحديث يقولون : شفع المؤمنون ، وشفع الأنبياء ، وشفعت الملائكة ، وبقيت شفاعة أرحم الراحمين[٢] فعند مَنْ سيشفع أرحم الراحمين ؟ قالوا : تشفع ذاته عند ذاته ، وهكذا

(١) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « أعطيت أمتى فى شهر رمضان خمساً لم يعطهن نبى قبلى ، أما واحدة : فإنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان ينظر الله عز وجل إليهم ، ومن نظر الله إليه لم يعذبه أبداً .. وأما الخامسة فإنه إذا كان آخر ليلة غفر الله لهم جميعاً . فقال رجل من القوم : أهى ليلة القدر ؟ فقال : لا ألم تر إلى العمال يعملون فإذا فرغوا من أعمالهم وفوا أجورهم » قال المنذرى فى الترغيب والترهيب (٦٥/٢) : « رواه البيهقى وإسناده مقارب » .

(٢) عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى حديث طويل عن رسول الله ﷺ قال : « عُرِض علىّ ما هو كائن من أمر الدنيا وأمر الآخرة ، فجمع الأولون والآخرون بصعيد واحد .. حتى قال : ثم يقال : ادعوا الصديقين فيشفعون . ثم يقال : ادعوا الأنبياء فيجيء النبى ومعه العصابة ، والنبى ومعه الخمسة والستة ، والنبى ليس معه أحد . ثم يقال : ادعوا الشهداء فيشفعون لمن أرادوا ، فإذا فعلت الشهداء ذلك يقول الله : أنا أرحم الراحمين ، أدخلوا جنتى من كان لا يشرك بى شيئاً فيدخلون الجنة » الحديث أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١) وأورده الهيثمى فى المجمع (٣٧٤/١٠) والسيوطى فى « البدور السافرة فى أمور الآخرة » (ص١١٩) .

تشفع صفة الجمال (الغفار) عند صفة الجلال (الجبار) تبارك وتعالى .

ثم يقول تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ .. (١١٠)﴾ [الإسراء] فأىُّ اسم تدعو به لأن أسماءه كلها حُسْنى ، لكن ليكُنْ عندك ذكاء فى الدعاء ، فتدعو بما يناسب حاجتك ، فإنْ أردتَ علْماً فقُلْ : يا عالم علِّمنى ، وإنْ كنتَ ضعيفاً فقُلْ : يا قوى قَوِّنى ، وإنْ أردتَ العزة فَقُلْ : يا عزيز أعزَّنى وهكذا .. فإن أردتَ الاختصار فقُلْ : يا الله . تكفيك كل شىء .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ[1] بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١١٠)﴾ [الإسراء] الصلاة يراد بها كل أعمال الصلاة (وَلاَ تَجهَرْ) فالجهر منهىٌّ عنه ، وكذلك (وَلاَ تُخَافتْ) أى : لا تُسرَّها بحيث لا يَسْمعك من خلفك ، وهذا منهىٌّ عنه أيضاً . فكلاَ الطرفين مذموم ، وخَيْر الأمور الوسط .

ونُوضِّح هنا : إذا كان الجهر بالصلاة منهياً عنه فارتفاع الصوت عالياً من باب أَوْلَى ، فلا يليق أبداً رَفْع الصوت بالصلاة ، ثم استعمال الميكروفونات أيضاً ، وما تُسبِّبه من إزعاج للناس .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)﴾ [الأعراف]

فأنت حين ترفع صوتك بالقرآن ، وخاصة فى الميكروفون تلزم الناس بالإنصات ، وتُوقِعهم فى الإثم والحرج ، أو تعطل مصالحهم ،

---

(١) خافت الرجل بصوته : لم يرفعه . وخافت بقراءته أو بصلاته : لم يرفع صوته بها .

ولعل غيرك فـى هذا الوقت يريد أن يقرأ هو الآخر ، أو يستـغفر ، أو يُسـبِّح أو يصلى ، فكـيف تجـعل الأمـر المندوب عندك حـاكـمـاً على غيرك ؟ هذا لا يجـوز ، بل اترك الناس وشئونهم فكل منهم حُرّ فـيما يتنفّل به ، ولا تكُنْ من الذين قال الله فى حقهم :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾ [الكهف]

كالذى يُشـعل الميكروفون قـبل صلاة الفجر ، ويأخـذ فى إنشاد كـلام مـا نزل به الـشـرع ، يزعج به الناس ، ويُقلـق به المـريض ، ولا يراعى للناس حُرْمة . فمتى يفيق الـمسلمون ؟ ومتى يتنبهون إلى هذه البدع التى تُشوِّش على الناس وتُفسد عليهم عبادتهم ؟

أما إنْ كان رَفْع الصوت بالقرآن لغرض دنيوى ومكْسَب شخص ، وأن نجعل الأمر مَعْرضاً للأصوات ، ومضْماراً للسباق ، إنْ كان الأمر استـغلالاً للدين لحـساب الدنيا والعـياذ بالله ، فقـد دخل صاحـبه فى شريحة أخرى من الإثم ، عافانا الله وإياكم .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١١٠) ﴾ [الإسراء]

أى : بين الجهر والإسرار ، واسلك سبـيل الوسطية التى جاء بها الشـرع ، وتأسّ برسول الله ﷺ حـينما كـان يتفـقد الصـحابة ليـلاً ، فوجد أبا بكرْ ـ رضى الله عنه ـ يقرأ ، ولا يكاد يسمع صوته ، فلما سألـه . قال : يا رسـول الله ، أناجى ربى وهو عالم بى ، فلمـا ذهب إلى عمر ـ رضى الله عنه ـ وجده يقرأ بصوت عال ، فلما سأله قال : يا رسـول الله أزجـر به الشـيطان . عندهـا أمـر ﷺ أبا بكر أنْ يرفع

صوته قليلاً ، وأمر عمر أن يخفض صوته قليلاً[1] .

وهذا الاعتدال وهذه الوسطية أُمِرْنَا بها حتى فى الدعاء ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [الأعراف]

فكلمة : ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ .. ﴿١١٠﴾ ﴾ [الإسراء] البينية هذه تكاد تشيع فى كل أحكام الدين ؛ لأن القرآن جاء لأمة وَسَط بالأمور الوسط فى كل شئون الحياة ، ففى قمة المسائل وهى الأمور العَقَدية مثلاً يقف الإسلام موقفَ الوسطية بين مَنْ يُنكِرون وجود الإله ومَنْ يقول بآلهة متعددة ، فينفى هذه وهذه ويقول بوجود إله واحد أحد لا شريكَ له .

وفى الإنفاق يختار الوسط ، فيقول : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان]

وبذلك ضمن لأهله نظاماً اقتصادياً ناجحاً يُثرى حياة الجماعة ، ويَرْقَى بحياة الفرد ، وقد لخّص هذا المنهج الاقتصادى فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء]

فالممسك المقتّر الذى يقبض يده عن الإنفاق يتسبّب فى رُكود البضائع وتوقف حركة الحياة ، وهذا خطر على المجتمع ، وفى التبذير خطر على الفرد حيث ينفق كل ما معه ، ولا يُبقى على شىء

---

(١) قال محمد بن سيرين : نبئت أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خفض صوته ، وأن عمر كان يرفع صوته ، فقيل لأبى بكر : لم تصنع هذا ؟ قال : أناجى ربى عز وجل وقد علم حاجتى ، فقيل : أحسنت . وقيل لعمر : لم تصنع هذا ؟ قال : أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان . قيل : أحسنت . فلما نزلت ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الإسراء] قيل لأبى بكر : ارفع شيئاً . وقيل لعمر : اخفض شيئاً . (ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣/٦٩) .

يرتقى به فى الحياة ، فإذا لم تتبع هذا المنهج الحكيم فسوف تقعد ملوماً على الإمساك ، محسوراً على التبذير الذى فوّتَ عليك فرصة الترقِّى مثل الآخرين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾

فما المحمود عليه فى الآية ؟

الحق سبحانه يقول : ﴿ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا .. ﴿١١١﴾ ﴾ [الإسراء]

فكَوْنه سبحانه لم يتخذ ولداً نعمة كبيرة على العباد يجب أنْ يحمدوه عليها ، فإنْ كان له ولد فسوف يخصُّه برعايته دون باقى الخَلْق ، فقد تنزّه سبحانه عن الولد ، وجعل الخَلْق جميعهم عياله ، وكلُّهم عنده سواء ، فليس من بينهم مَنْ هو ابن الله أو مَنْ بينه وبين الله قرابة ، وأحبّهم إليه تعالى أتقاهم له ، وهكذا ينفرد الخَلْق بكل حنان ربهم وبكل رحمته .

ثم ، ما الحكمة من اتخاذ الولد ؟ الناس يتخذون الولد ويحرصون على الذَّكَر ، خاصة لأمرين : أن يكون الولد ذكرى وامتداداً لأبيه بعد موته ، كما قال الشاعر :

* أَبُنَىّ يَا أَنَا بَعْدَمَا أَقْضِى *

والحق سبحانه وتعالى باقٍ دائمٌ ، فلا يحتاج لمَنْ يُخلِّد ذكراه ، أو يكون امتداداً له ، تعالى الله عن ذلك عُلواً كبيراً ، فالحمد لله أنه لم يتخذ ولداً .

أو يكون الولد للعِـزْوة والمكاثرة والتقوِّى به مـن ضـعف ، والحق سبحـانه وتعالى هو الغالب القهـار ، فلا يحتاج إلى عـِزْوة أو كثرة ، لذلك يأمـرنا سبحـانه أن نُمجِّـده لأنه لم يتـخذ صـاحبـة ولا ولداً ، والمتأمل في حال الملوك والسلاطين يجـد أكثر فسادهم إما من الولد وإما من الصاحبة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ..(١١١)﴾[الإسراء]

وهذا أيضاً من النعم التي تسـتوجب الحمد ، ولك أنْ تتـصوّر لو أن لله تعالى شريكاً في المـلْك ، كم تكون حَيْرة العباد ، فـأيُّهما تُطيع وأيهما تُرضِي ؟

لقـد أوضح لنا الحق سـبحـانه هذه المسـألة في هذا المـثل الذي ضـربه لنا :﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩)﴾ [الزمر]

لذلك ، ففي أعـراف الناس وأمثالهم يقولون : (المـركب التي بها ريسين تغرق) وكَوْنه سبحـانه واحداً لا شريك له يجعلك تطمئن إلى أمره ونَهْـيه فتُطيعـه وأنت مطمئن ، فأوامره سـبحانه نافذة لا مُـعقِّب لها ، ولا مُعـترِض عليها ، فليس هناك إله آخر يأمرك بأمـر مخالف ، أليست هذه نعمة تستوجب الحمد ؟

وأيضـاً فـإن الحـق سـبـحـانه يقــول : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ .. (١١١)﴾ [الإسراء]

الوليّ : هو الذي يليك ، وأنت لا تجـعل أمـرك إلا لمن تثق به أنه يجلب لك نَفْعاً ، أو يدفع عنك ضُرّاً ، أو ينصرك أمام عدو ، أو يُقوِّي

ضعفك ، فإذا لم يكُنْ لك ذاتية تحقق بها ما تريد تلجأ لمن له ذاتية ، وتحتمى برحابه ، وتجعل ولاءك له .

والحق سبحانه ليس له ولىٌّ يلجأ إليه ليعزه ؛ لأنه سبحانه العزيز المعزّ القائم بذاته سبحانه ، ولا حاجة له إلى أحد .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً (١١١) ﴾ [الإسراء]

لأن عظمة الحق سبحانه فى نفس المؤمن أكبر من كل شىء ، وأكبر من كل كبير ؛ لذلك جُعلتْ (الله أكبر) شعار أذانك وصلاتك ، فلا بُدَّ أن تُكبِّر الله ، وتجعله أكبر ممّا دونه من الأغيار ، فإنْ ناداك وأنت فى أىّ عمل فقُلْ : الله أكبر من عملى ، وإنْ ناداك وأنت فى حضرة عظيم ، فقل : الله أكبر من أىِّ عظيم ، كبِّره تكبيراً بأن تُقدِّم أوامره ونواهيه على كُلِّ أمر ، وعلى كل نَهْى .

ولا تنسَ أنك إن كبَّرْتَ الحق سبحانه وتعالى أعززْتَ نفسك بعزة الله التى لا يعطيها إلا لمَنْ يُخلص العبودية له سبحانه ، فَضْلاً عن أن العبودية لله شرفٌ للعبد ، وبها يأخذ العبد خَيْر سيده ، أما العبودية للبشر فهى مذمومة مكروهة ، وهى مذلة وهوان ، حيث يأخذ السيد خير عبده .

وصدق الشاعر حين قال :

حَسْبُ نَفْسى عِزّاً بأنِّى عَبْدٌ ... يَحْتفِى بى بلاَ مَواعِيدَ رَبُّ
هُوَ فى قُدْسِهِ الأعَزِّ وَلكِنْ ... أنَا ألْقَى متَى وأينَ أحِبُّ

فكم تتحمل من المشقة والعنت فى مقابلة عظيم من عظماء الدنيا ، أما فى مقابلة ربِّ العزة سبحانه ، فبمجرد أنْ آمنتَ به أصبح الزمام

فى يدك تلقاه متى شئتَ ، وفى أىِّ مكان أردتَ ، وتُحدِّثه فى أىِّ أمر أحببتَ ، فأىُّ عِزَّة بعد هذا ؟

ولذلك كانت حيثية الرفعة لرسول الله ﷺ فى الإسراء والمعراج أنه عبد لله ، حيث قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. ① ﴾ [الإسراء]

فالعزة فى العبودية لله ، والعزة فى السجود له تعالى ، فعبوديتك لله تعصمك من العبودية لغيره ، وسجودك له تعالى يعصمك من السجود لغيره ، ألاَ ترى قول الشاعر :

وَالسُّجُودُ الَّذِى تَجْتَوِيه مِنْ أُلُوفِ السُّجودِ فيهِ نَجَاةٌ

إذن : فكبِّر الله تكبيراً وعَظِّمه ، والتجىء إليه ، فَمن التجأ إلى الله تعالى كان فى معيته ، وأفاض عليه الحق من صفاته ، وعصمه من كَيْد الآخرين وقهرهم . وسبق أنْ ضربنا مثلاً بالولد الصغير الذى يعتدى عليه أقرانه إنْ سار وحده ، فإنْ كان فى يد أبيه فلا يجرؤ أحد على الاعتداء عليه .

فعليك ـ إذن ـ أن تكون دائماً فى معيّة ربك تأمن كيد الكائدين ومكْر الماكرين ، ولا ينالك أحدٌ بسوء ، فإن ابتلاه الله بشىء فكأنما يقول له : أبتليك بنعمتى لتأخذ من ذاتى ، لأن الصحيح المعَافَى إنْ كان فى معية نعمة الله ، فالمبتلى فى معية الله ذاته .

ألم يَقُلْ الحق سبحانه فى الحديث القدسى : « يا بن آدم مرضْتُ فلم تَعُدْنى ، قال : يا رب وكيف أعودك وأنت ربُّ العالمين ؟ فيقول :

أما علـمتَ أن عبدى فـلاناً مرض فلم تَعُـدْه ، أما علمتَ أنك لـو عُدْتَهُ لوجدتنى عنده »[١] .

فـالمـريض الذى يأنس بزائريه ويـسعـد بهـم ويرى فى زيارتهم تخفيـفاً من آلامه ومواساة له فى شـدته ، ما باله إن أنس بالله وكان فى جواره وكـلاءته ، والله الذى لا إله إلا هو لا يشعر بوخْـز المرض أبداً ، ويستحى أن يتأوّه من ألم ، ولا ييأس مهـما اشتد عليه البلاء ؛ لأنه كيف يتأوه من معية الله ؟ وكيف ييأس والله تعالى معه ؟

إذن : كـبِّره تكبـيراً . أى : اجـعل أمره ونَهْـيه فـوق كل شىء ، وقُلْ : الله أكبر من كل كبيـر حتى الجنة قل : الله أكبر من الجنة . ألاَ ترى قَوْل رابعة العدوية[٢] :

كُلُّهُـمْ يعبدُونَك من خَـوْف نارٍ ... ويَروْنَ النجاةَ حَظّاً جَزِيلا

أَوْ بِأَنْ يَسْكُنُوا الجِنَانَ فَيَحْظَوْا ... بقُصُورٍ ويَشْرَبُوا سلْسَبِيلاً

لَيْسَ لِى بالجنـانِ وَالنَّارِ حَـظٌّ ... أنَـا لاَ أَبْتغـى بِحُبِّـى بَدِيلاً

وفى الحديث القدسى : « أولَوْ لَم أخلق جنة وناراً ، أما كنتُ أهلاً لأنْ أُعبد ؟ » .

فـالله تعالى بذاته سـبـحانه أكـبـر من أىّ شـىء ، حتى إن كـانت الجنة ، ففى آخر سورة الكهف يقول تعالى : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٦٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) هى : رابعـة بنت إسـماعـيل العـدوية ، أم الخيـر ، مولاة آل عـتـيك البصـرية ، صالحـة مشهورة من أهل البـصرة ، ومولدها بها ، لها أخبار فى العـبادة والنسك ، توفيت بالقدس عام ١٣٥ هـ (الأعلام للزركلى ٣/ ١٠) .

﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف]

فلم يَقُلْ : مَنْ كان يرجو جزاء ربه ، أو جنة ربه ، أو نعيم ربه ، إن المؤمن الحق لا ينظر إلى النعيم ، بل يطمع في لقاء المنعِم سبحانه ، وهذا غاية أمانيه .

وفي حديث آخر يقول الحق سبحانه للملائكة : «أما رأيتم عبادي ، أنعمتُ عليهم بكذا وكذا ، وأسلب عنهم نعمتي ويحبونني » .

وبهذه الآية خُتِمَتْ سورة الإسراء ، فجعلنا الحق سبحانه نختمها بما أنعم علينا من هذه النعم الثلاث ، وليست هذه هي كل نعم الله علينا ، بل لله تعالى علينا نِعَم لا تُعَدّ ولا تُحصَى ، لكن هذه الثلاث هي قِمة النعم التي تستوجب أنْ نحمده عليها .

فالحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ؛ لأنه لم يلد ولم يولد وهو واحد أحد ، والحمد لله الذي لم يتخذ شريكاً لأنه واحد ، والحمد لله الذي لم يكُنْ له وليٌّ من الذل لأنه القاهر العزيز المعز ، ولهذا يجب أن نُكبِّر هذا الإله تكبيراً في كل نعمة نستقبلها منه سبحانه .




سُورَةُ الكَهفِ

سورة الكهف[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ ﴾

ختم الحق سبحانه سورة الإسراء بالحمد ، وبدأ سورة الكهف بالحمد ، والحمد لله دائماً هو الشعار الذى أطلقه رسول الله ﷺ فى خير الكلمات : « سبحان الله والحمد لله » سبحان الله بُدئتْ بها سورة الإسراء ، والحمد لله بُدئت بها سورة الكهف . سبحان الله تنزيه لذاته سبحانه أن يكون له شريك ، لا فى الذات ، ولا فى الأفعال ، ولا فى الصفات ، والحمد لله كذلك تكبرة للذات ، وبعد ذلك جاء العطاء من الذات فقلْنا : الحمد لله ، فسبحان الله تنزيه ، والحمد لله شكر على العطاء .

والحمد يشترك معه فى المعنى العام : ثناء وشُكْر ومدح ، إلا أن هذه الألفاظ وإنْ تقاربت فى المعنى العام فلكُلٍّ منها معناه الخاص ،

---

(١) سورة الكهف هى السورة رقم (١٨) فى ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ١١٠ آية وتقع فى الجزء الخامس عشر والسادس عشر من المصحف . وهى سورة مكية فى قول جميع المفسرين . قال القرطبى فى تفسيره : « وروى عن فرقة أن أول السورة نزلت بالمدينة إلى قوله ﴿ جُرُزاً ﴾ والأول أصح » .

وقد رُوى فى فضل سورة الكهف أحاديث كثيرة منها :

– من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من الدجال . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٠٩) كتاب صلاة المسافرين من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه . قال النووى فى شرحه لمسلم : « وفى رواية « من آخر الكهف » قيل : سبب ذلك ما فى أولها من العجائب والآيات فمن تدبرها لم يفتتن بالدجال وكذا فى آخرها » .

وكل هذه الألفاظ فيها ثناء ، إلا أن الشكر يكون من مُنعَم عليه بنعمة خاصة به ، كأن يُسدى لك إنسان جميلاً لك وحدك ، فتشكره عليه .

أما الحمد فيكون على نعمة عامة لك ولغيرك ، فرُقْعة الحمد أوسع من رُقْعة الشكر ، أما المدح فقد تمدح ما لا يعطيك شيئاً ، كأن تمدح مثلاً الشكل الجميل لمجرد أنه أعجبك .

فقَوْلُ الحق : (الحمد لله) بالألف واللام الدالة على الحصر ، فالمراد الحمد المطلق الكامل لله ، الحمد المستوعب لكل شيء ، حتى إنَّ حمدك لأيِّ إنسان قدَّم لك جميلاً فهو ـ إذا سلْسلْتَهُ ـ حَمْدٌ لله تعالى الذى أعان هذا الإنسان على أن يحسن إليك ، فالجميل جاء من حركته ، وحركته موهوبة له من خالقه ، والنعمة التى أمدّك بها موهوبة من خالقه تعالى ، وهكذا إذا سلسلتَ الحمد لأيِّ إنسان فى الدنيا تجده يصل إلى المنعِم الأول سبحانه وتعالى .

وكلمة (الحَمْدُ للَّه) هذه هى الصيغة التى علمنا الله أنْ نحمدَهُ بها ، وإلا فلو ترك لنا حرية التعبير عن الحمد ولم يُحدِّد لنا صيغة نحمده ونشكره بها لاختلف الخَلْق فى الحمد حَسْب قدراتهم وتمكّنهم من الأداء وحَسْب قدرتهم على استيعاب النعم ، ولوجدنا البليغ صاحب القدرة الأدائية أفصح من العيى والأُمّى . فتحمّل الله عنا جميعاً هذه الصيغة ، وجعلها متساوية للجميع ، الكل يقول (الحمد لله) البليغ يقولها ، والعيى يقولها ، والأُمّى يقولها .

لذلك يقول ﷺ وهو يحمد الله ويُثنِى عليه : « سبحانك لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك » .

فإنْ أردنا أنْ نُحصى الثناء عليك فلن نستطيع ؛ لأن الثناء عليك لا يعرف مداه إلا أنت ، ولا يُحصيه غيرك ، ولا نملك إلا أنْ نقولَ ما علَّمتنا من حمدك : الحمد لله .

إذن : فاستواء الناس جميعاً فى الحمد لله نعمة كبرى فى ذاتها تستحق الحمد ، فنقول : الحمد لله على ما علمنا من الحمد لله ، والحمْد الأول أيضاً نعمة ، وبذلك نقول : الحمد لله على ما علمنا من الحمد لله بالحمد لله .

وهكذا ، لو تتبعتَ الحمدَ لوجدته سلسلةً لا تنتهى ، حَمْد على حَمْد على حَمْد على حَمْد ، فيظل الله محموداً دائماً ، ويظل العبد حامداً إلى ما لا نهاية .

والحمد لله استهل بها الحق سبحانه خَمْس سور من القرآن :

- ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ ﴾ [الفاتحة]

- ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ ﴾ [الأنعام]

- ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ .. ۝١ ﴾ [الكهف]

- ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الآخِرَةِ .. ۝١ ﴾ [سبأ]

- ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِى أَجْنِحَةٍ .. ۝١ ﴾ [فاطر]

ولكن ، لكُلِّ حَمْد فى كل سورة حيثية خاصة ، فالحمد فى الأولى

لأن الله ربُّ العالمين ، وربٌّ يعنى الخالق والمتولى للتربية ، خلق من عدم ، وأمدَّ من عُدم ، وتولّى تربية عباده ، فهو رَبٌّ لكل العالمين ؛ لذلك يجب أنْ نحمدَ الله على أنه هو الربُّ الذى خلق العالمين ، وأمدَّهم بفضله .

وفى الثانية : نحمده سبحانه الذى خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، وهذه آيات من آيات الله ونِعَم من نعَمه ، فالسماوات والأرض فيها قيام البشر كله بما يمدُّ حَياتهم بالقوت ، ويستبقى نوعهم بالتكاثر .

والظلمات والنور منَ نعم الله ، وهما متكاملان لا متضادان ، فَلِلظُّلمة مهمة ، كما أن للنور مهمة ، الظلمة للسكون والراحة ، والنور للسعى والحركة ، ولا يمكن لساَع أنْ يسعى ويجدّ فى عمل ، إلا إذا ارتاح وسكن وجدَّد نشاطه ، فتقابُل الظلمة والنور للتكامل ، فالحياة لا تستقيم فى ظلام دائم ، كما أنها لا تستقيم فى نور دائم .

وفى السورة الثالثة من السور التى افتتحها الحق سبحانه بـ (الحَمْدُ لله) - والتى نحن بصددها - أراد الحق سبحانه أنْ يُوضّح أنه لم يُربِّ الخلْق تربية مادية فقط ، بل هناك تربية أعلى من المادة تربية روحية قيمية ، فذكر هنا الحيثية الحقيقية لخَلْق الإنسان ، فهو لم يُخلق لمادته فحسْب ، ولكن لرسالة أسمى ، خلق ليعرف القيم والرب والدين ، وأنْ يعملَ لحياة أخرى غير هذه الحياة المادية ، فقال تعالى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ .. ① ﴾ [الكهف]

فحيثية الحمد هنا إنزالُ الكتاب الذى يجمع كل القيم . وقلنا : إن

الحق سبحانه محمود برحمانيته قبل أنْ يخلق الخَلْق وضع له النماذج التى تُصلح حركة الحياة ، كما قال تعالى : ﴿الرَّحْمَٰنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ② خَلَقَ الإِنسَانَ ③ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ④﴾ [الرحمن]

فتعليم القرآن جاء قبل خَلْق الإنسان ، إذن : وضع الحق سبحانه لعباده المنهج المنظِّم لحياتهم قبل أن يخلقَهم ، لعلْمه سبحانه بطبيعة خَلْقه ، وبما يصلحهم ، كالمخترع للآلة الذى يعلم مهمتها ويُحدِّد قانون صيانتها ، فالكتاب الذى نزل على محمد ﷺ هو المهمة الأساسية ، فيجب أنْ تُوطِّن عليها نفسك ، وتعلَم أنه المنظِّم لحياتك ، وبه قانون صيانتك .

وقوله : ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ ..①﴾ [الكهف] كما قلنا : فى سورة الإسراء : إن العبودية كانت حيثية الرِّفْعة فى الإسراء والمعراج ، فقال سبحانه : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ..①﴾ [الإسراء]

فالعبودية رفعتْه إلى حضرته تعالى ؛ لأنه كان عبداً بحقّ ، وهذا يعنى إنزال الكتاب عليه ، فكان عبداً بحق قبل أن يُسرَى به ، وحمل منهج الله أولاً فالتفتَ لربه لَفْتةً أراد أنْ يلفتَ بها سواه ، فأخلص هو أولاً فى العبودية ، وتحمَّل ما تحمّل ، فكان من جزائه أن يرتفع إلى مقام الحضرة فَعُرِج به ، وهناك أعطاه الله الصلاة لينزلَ بها إلى الخَلْق ليرفع بها صوته إلى المقام الذى سعى إليه بالمعراج .

إذن : فالنبى تناول ليناول ، وتناول لأنه أخلصَ العبودية ، فصعد إلى حضرة ربه ، وأخذ فريضة الصلاة وبلَّغها لقومه ، وكأنه يقول لهم : مَنْ أراد أن يلتقى بالله ، فليدخل فى الصلاة .

و ﴿الْكِتَابَ ۝١﴾ [الكهف] هو القرآن الكريم ، لكن سورة الكهف ترتيبها الثامنة عشرة بين سور المصحف من المائة والأربعة عشرة سورة ، أى : أن القرآن لم يكتمل بعد ، فلماذا قال تعالى (الكتاب) وهو لم يكتمل بعد ؟

نقول : الكتاب يُطلَق ويُرَادُ به بعضه ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨﴾ [القيامة] فالآية الواحدة تُسمَّى قرآناً ، والسورة تُسمَّى قرآناً ، والكل نُسمِّيه قرآناً .

أو : يكون المراد أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ ، ثم نزَّله بعد ذلك مُنَجَّماً حَسْب الوقائع ، فالمراد هنا الإنزال لا التنزيل .

وقوله تعالى : ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۝١﴾ [الكهف] أى : جعله مستقيماً ، لا عوجَ فيه ، كما قال فى آية أخرى : ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ..۝٢٨﴾ [الزمر] والاعوجاج . أن يأخذ الشيءُ امتداداً مُنْحنياً ملتوياً ، أما الاستقامة فهى الامتداد فى نفس الاتجاه ، لا يميل يميناً أو شمالاً ، ومعلوم أن الخطَّ المستقيم يمثل أقرب مسافة بين نقطتين ، ولا تستقيم حياة الناس فى الدنيا إلا إذا ساروا جميعاً على منهج مستقيم يعصمهم من التصادم فى حركة الحياة .

فالحق سبحانه وتعالى خلق الخَلْق متكاملين ، فكُلٌّ منهم لديه موهبة يحتاجها الآخرون ، فهذا طبيب ، وهذا مهندس ، وهذا نجار ، وهذا خياط ، ولا يستطيع أحد أن يقومَ بذاته أو يستغنى عن مواهب غيره ، فلا بُدَّ أن يتواجه الناس فى الحياة ، وأنْ يتكاملوا .

هذا التواجه إنْ لم يُنظَّم وتوضع له قوانين مرور دقيقة لتصادمت حركات الناس ، كما يحدث على الطريق الملتوى كثير المنحنيات ، فالقادم من هنا لا يرى القادم من هناك ، فيحدث التصادم . إذن : لا بُدَّ من استقامة الطريق ليرى كلٌّ منّا الآخر ، فلا يصطدم به . والمنهج الإلهى هو الطريق المستقيم الذى يضمن سلامة الحركة فى الحياة .

وقد ذُكر الاعوجاج أيضاً فى قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا[1] (١٠٦) لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا[2] (١٠٧)﴾ [طه]

أى : أرضاً مستوية خالية من أى شىء ﴿لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا (١٠٧)﴾ [طه] أى : مستقيمة ﴿وَلا أَمْتًا (١٠٧)﴾ [طه]

أى : مُسْتوية لا يُوجد بها مرتفعات ومنخفضات تعوق الرؤية أيضاً وتسبب التصادم ، وهذا ما يُسمِّيه رجال المرور (العقبة) .

ثم يقول الحق سبحانه واصفاً القرآن الكريم :

﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢)﴾

قوله : (قَيِّماً) أى : القرآن ، وقالوا : قيِّم يعنى مستقيم ، كأنها

---

(١) الصفصف : الأرض الملساء المستوية ، أى : أن الجبال تزول فلا يكون لها أثر . [القاموس القويم ١ / ٣٧٩]

(٢) الأمْت : التلال الصغار . والأمت : الوهدة بين كل نشزين . وفى التنزيل العزيز : ﴿لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا (١٠٧)﴾ [طه] أى : لا انخفاض فيها ولا ارتفاع . [لسان العرب مادة : أمت] .

تأكيد لقوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۝١ ﴾ [الكهف] لأن الاستقامة والعوَج قد لا يُدرك بالعين المجردة وتحتاج إلى ميزان دقيق يكشف لك مدى العِوَج أو الاستقامة ، وهذه الظاهرة تراها فى الطرق المستوية المرصوفة ، والتى تراها للوَهْلة الأولى مستقيمة تماماً ومستوية ، فإذا مَّا نزل المطر فضح هذا الاستواء وأظهر ما فيه من عيوب ؛ لذلك أكّد الاستقامة بقوله ﴿ قَيِّمًا ۝٢ ﴾ [الكهف]

ومن معانى القَيِّم : المهيمن على ما دونه ، كما تقول : فلان قَيِّم على فلان أى : مُهيمن عليه وقائم على أمره . فالقرآن - إذن - لاعوَج فيه ، وهو أيضاً مُهيمن على الكتب السابقة وله الوصاية عليها كما قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۝٤٨ ﴾ [المائدة]

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ۝٤٣ ﴾ [الروم] أى : المهيمن على الأديان السابقة .

ثم يقول تعالى : ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ۝٢ ﴾ [الكهف]

وهذه هى العِلّة فى الإنزال .

والإنذار : التخويف بشَرٍّ قادم ، والمنْذَر هنا هم الكفار ؛ لأنه لا يُنذَر بالعذاب الشديد إلا الكفار ، لكن سياق الآية لم يذكرها ليترك مجالاً للملَكة العربية وللذّهْن أنْ يعملَ ، وأنْ يستقبلَ القرآن بفكر مُتفتح وعقل يستنبط ، وليس بالضرورة أن يعطينا القرآنُ كلّ شىء هكذا على طرف الثُّمام أى قريباً سهل التناول .

ثم ضَخّم العذاب بأنه شديد ، ليس ذلك وفقط بل ﴿ مِنْ لَدُنَّا ﴾ ،

والعذاب يتناسب مع المعذِّب وقوته ، فإنْ كان العذاب من الله فلا طاقة لأحدٍ به ، ولا مهربَ لأحد منه .

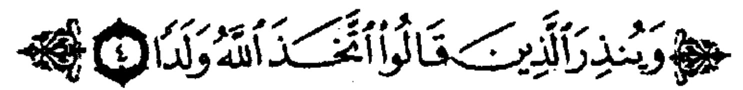
ثم يقول تعالى : ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ .. ۝٢ ﴾ [الكهف] والبشارة تكون بالخير المنتظر في المستقبل ، ونلاحظ أنه في البشارة ذكر المبشَّر (المؤمنين) ولم يسكت عنهم كما سكت عن الكفار في الإنذار ، فهذا من رحمة الله بنا حتى في الأسلوب ، والبشارة هنا بالأجر الحسن ؛ لأنه أجر من الكريم المتفضّل سبحانه ؛ لذلك قال الحق سبحانه بعدها :

﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ ﴾

أي : باقين فيه بقاءً أبدياً ، وكان لابُدّ أنْ يُوصَف أجر الله الحسن بأنه دائم ، وأنهم ماكثون فيه أبداً ؛ لأن هناك فرقاً بين أجر الناس للناس في الدنيا ، وأجر المنعم سبحانه في الآخرة ، لقد ألفَ الناس الأجر على أنه جُعِل على عمل ، فعلى قَدْر ما تعمل يكون أجرك ، فإنْ لم تعمل فلا أجرَ لك .

أما أجْر الله لعباده في الآخرة فهو أجر عظيم دائم ، فإنْ ظلمك الناس في تقدير أجرك في الدنيا ، فالله تعالى عادل لا يظلم يعطيك بسخاء ؛ لأنه المنصف المتفضّل ، وإنِ انقطع الأجر في الدنيا فإنه دائم في الآخرة ؛ لأنك مهما أخذتَ من نعيم الدنيا فهو نعيم زائل ، إما أنْ تتركه ، وإما أنْ يتركك .

ثم يقول الحق سبحانه :



والإنذار هنا غير الإنذار الأول ، لقد كرّر الإنذار ليكون خاصاً بقمة المعاصى ، إنذار للذين قالوا اتخذ الله ولداً ، أما الإنذار الأول فهو لمطلق الكفر والمعصية ، وأما الثانى فهو لإعادة الخاص مع العام ، كأن لهؤلاء الذين نسبوا لله الولد عذاباً يناسب ما وقعوا فيه من جرأة على الحق سبحانه وتعالى .

وقد أوضح القرآن فظاعة هذه المعصية فى قوله : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا[1] إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَـٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم]

إنها قمة المعاصى أنْ نخوضَ فى ذات الله تعالى بمقولة تتفطر لها السماء ، وتنشق لها الأرض ، وتنهدّ لهوْلها الجبال .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾

فهذه القضية التى ادَّعَوْها ، وهذه المقولة التى كذبوها على الله ، من أين أَتَوْا بها ؟ الحقيقة أنهم ادعَوْهَا ولا علمَ لهم بها ، والعلم إما ذاتى ، وإما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم وهم لا يملكون شيئاً من هذا ويقولون بأمر لا واقع له ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ .. ﴿٥﴾﴾ [الكهف]

---

(١) الإد : الداهية والأمر الفظيع والكذب الفاحش ، قال تعالى : ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ [مريم] . أى : منكراً وكذباً فاحشاً . [القاموس القويم ١/١٢] .

وعدم العلم ينشأ من أمرين : إما أن الشيءَ موجود وأنت لا تعلم به ؛ لأنه مستور عنك ، وإما لأن الشيء لا وجودَ له أصلاً ، وأنت لا تعلم أنه غير موجود ؛ لأن غير الموجود لا يمكن أن يتعلق به علم .

وقوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. (٥) ﴾ [الكهف]

﴿ كَبُرَتْ ﴾ أي : عَظُمَتْ وتناهتْ في الإثـم ؛ لأنهم تناولوا مسألة فظيعة ، كَبُرتْ أنْ تخرجَ هذه الكلمة من أفواههم .

﴿ كَلِمَةً ﴾ الكلمة قول مُفْرد ليس له نسبة كأن تقول : محمد أو ذهب أو في ، فالاسم والفعل والحرف كل منها كلمة مستقلة ، والكلمة تُطلَق ويُراد بها الكلام ، فالآية عَبَّرتْ عن قولهم ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) ﴾ [الكهف] بأنها كلمة ، كما تقول : ألقى فلان كلمة . والواقع أنه ألقى خُطْبة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .. (١٠٠) ﴾ [المؤمنون] فسمَّى قولهم هذا (كلمة) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ .. (٦٤) ﴾ [آل عمران] فسمَّى كل هذا الكلام كلمة .

وقوله تعالى : ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. (٥) ﴾ [الكهف] أي : أن هذه الكلمة كَبُرت لأنها خرجت منهم وقالوها فعلاً ، ولو أنهم كتموها في نفوسهم ولم يجهروا بها واستعظموا أن تخرجَ منهم لكانوا في عداد المؤمنين ، بدليل أن وفد اليمن حينما أتوْا رسول الله ﷺ وقالوا : يا رسول الله تدور بأنفسنا أفكار عن الله ، نتعاظم أن نقولها - أي :

لا نقدر على النطق بها فقال ﷺ : « ذاك صريح الإيمان »[1] .

إذن : المعيب عليهم أنهم أخرجوا هذه المسألة من أفواههم ، وهذا منتهى القُبْح ، فالأفكار والخواطر مهما بلغتْ من السوء وكتمها صاحبها لا يترتب عليها شيء ، وكأنها لم تكُنْ .

ثم يقول تعالى : ﴿إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا .. ۝﴾ [الكهف] أى : ما يقولون إلا كذباً ، والكذب ألاَّ يطابق الكلام واقع الأمر ، فالعاقل قبل أنْ يتكلم يُدير الكلام على ذهْنه ويَعْرضه على تفكيره ، فتأتى النسبة فى ذهْنه وينطقها لسانه ، وهذه النسبة قبل أن يفكر فيها وينطق بها لها واقع .

فمثلاً حين تقول : محمد مجتهد . قبل أن تنطق بها جال فى خاطرك اجتهاد محمد ، وهذه تُسمّى نسبة ذهْنية ، فإنْ قلتَ : محمد مجتهد أصبحتْ نسبة كلامية ، فإنْ وُجد شَخص اسمه محمد وهو مجتهد فعلاً ، فإن النسبة الذهنية الكلامية أصبحتْ نسبة واقعية ، والخبر بها خبر صادق . فإنْ كانت النسبة الكلامية لا واقعَ لها كأنْ لا يوجد شخص اسمه محمد أو وُجد ولكنه غير مجتهد ، فالخبر هنا كاذب . وهذا هو الأسلوب الخبرى الذى يحتمل الصدق أو الكذب .

وهناك الأسلوب الإنشائى الذى لا يحتمل الصِّدْق ، ولا يحتمل الكذب ؛ لأن النسبة الواقعية فيه متأخرة عن النسبة الكلامية كما لو قُلْت : ذاكر دروسك . **فواقع هذه العبارة سيحدث فى المستقبل** ؛ لذلك لا يُوصَف الإنشاء بالصدق أو بالكذب .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣٢) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وفى رواية « تلك محض الإيمان » قال النووى فى شرحه لمسلم (١/ ٥١٢) : « إن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به فضلاً عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محققاً وانتفت عنه الريبة والشكوك » .

والتدقيق العلمى يقول : الصدق الحقيقى أنْ تطابقَ النسبة الكلامية الواقع والاعتّقاد ، فإن اعتقدتَ شيئاً ولم يحدث ، فالنسبة كاذبة وأنت غير كاذب ؛ لأن هناك فرقاً بين الخبر والمخْبِر .

وهذه المسألة واضحة فى قوله تعالى : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١)﴾ [المنافقون]

فقولهم : إنك لرسول الله نسبة صادقة ؛ لأنها تطابق الواقع ، إنما هل وافقتْ معتقدهم ؟ لم توافق معتقدهم ؛ لذلك شهد الله أنهم كاذبون ؛ لأن كلامهم لم يوافق واقعهم الاعتقادى . أو : لأن التكذيب لم يرد به قولهم : إنك لرسول الله وإنما يُراد به قولهم : نشهد ، فالتكذيب للشهادة لأن الشهادة أنْ يُواطِىء القلب اللسان ، وهم شهدوا بألسنتهم ، ولم تؤمن به قلوبهم .

وهنا لَمّا قالوا ﴿ اتخَذَ اللهُ وَلَداً ﴾ ، فهذه نسبة كلامية ليس لها واقع ، فهى نسبة كاذبة ، فقال تعالى : ﴿إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا (٥)﴾ [الكهف]

ثم يُسلِّى الحق سبحانه رسوله ﷺ ليُخفِّف عنه ما يلاقى من متاعب وعناد وسَفَه فى سبيل الدعوة ، فيقول تعالى :

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾

ومعنى : ﴿بَاخِعٌ نَّفْسَكَ .. (٦)﴾ [الكهف] أى : تجهد نفسك فى دعوة قومك إجهاداً يُهلكها ، وفى الآية إشفاق على رسول الله ؛ لأنه

حَمّل نفسه فى سبيل هداية قومه ما لا يحمله الله ويلزم ما لا يلزمه ، فقد كان ﷺ يدعو قومه فيُعرضوا ويتولَّوْا عنه فيُشيِّع آثارهم بالأسف والحزن ، كما يسافر عنك حبيب أو عزيز ، فتسير على أثره تملؤك مرارة الأسى والفراق ، فكأن رسول الله لحبه لقومه وحِرْصه على هدايتهم يكاد يُهلك نفسه (أسَفاً) .

والأسف : الحزن العميق ، ومنه قَوْلُ يعقوب عليه السلام : ﴿ يَـٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ .. (٨٤) ﴾ [يوسف] وقوله تعالى عن موسى لما رجع إلى قومه غاضباً من عبادتهم العجل : ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا .. (٨٦) ﴾ [طه]

وقد حدّد الله تعالى مهمة الرسول وهى البلاغ ، وجعله بشيراً ونذيراً ، ولم يُكلّفه من أمر الدعوة ما لا يطيق ، ففى الآية مظهر من مظاهر رحمة الله برسوله ﷺ ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) ﴾

وكأن هذه الآية تعقيب على سابقتها ، وإشارة لرسول الله بأن الدنيا قصيرة ، فالمسألة - إذن - قريبة فلا داعىَ لأنْ يُهلك نفسه حُزْناً على عناد قومه ، فالدنيا لكل إنسان مدة بقائه بها وعَيْشه فيها ، ولا دخلَ له بعمرها الحقيقى ؛ لأن حياة غيره لا تعود عليه بشىء ، وعلى هذا فما أقصرَ الدنيا ، وما أسرعَ انتهائها ، ثم يرجعون إلينا فنجازيهم بما عملوا ، فلا تحزن ولا تيأس ، ولا تكدِّر نفسك ، لأنهم لم يؤمنوا .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا .. (٧) ﴾ [الكهف]

أى : كل ما على الأرض هو زينة ، والزينة هى الزخرف الذى يبرق أمام الأعين فيغريها ، ثم يندثر ويتلاشى ، وقد أوضح لنا القرآن هذه المسألة فى قوله تعالى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً[1] تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ .. (٤٥) ﴾ [الكهف]

فإياك أنْ يأخذك هذا الزخرف ؛ لأنه زَهْر سرعان ما يذبل ويصير حُطاماً .

وقوله : ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ .. (٧) ﴾ [الكهف] البلاء يعنى : الاختبار والامتحان . وليس المصيبة كما يظن البعض ؛ لأن المصيبة تكون على مَنْ يخفق فى الاختبار ، والابتلاء لهم من الله مع علمه تعالى بأمرهم وما سيحدث منهم مُسْبقاً ، ولكن لنعرف معرفة الواقع وشهادة الواقع .

وما أشبه هذه المسألة بالتلميذ الذى يتنبأ له أستاذه بالفشل لما يراه من مقدمات يعرفها عن عقليته وعن اجتهاده والتفاته يحكم من خلالها ، فإذا ما دخل التلميذ الاختبار فشل فيه وأخفق ، لكن هل يعنى هذا أن نلغى الاختبارات فى مدارسنا اعتماداً على خبرة المعلم بتلاميذه ؟ لا بُدَّ من الاختبار ليقوم شاهداً واقعياً على مَنْ يخفق .

إذن : معنى : ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ .. (٧) ﴾ [الكهف] أى : بلاء شهادة منهم على أنفسهم .

---

(١) الهشيم : الحطب أو الخشب المحطّم . وهشّم الشيء اليابس : كسره . وهشم الخبز : كسره وفتّه . [القاموس القويم : ٢/٣٠٣] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾

الصعيد : هو طبقة التراب التى تظهر على وجه الأرض ، ولا نباتَ فيها و ﴿ جُرُزاً ﴾ هى الأرض الخالية من النبات ، وقد يكون بها نبات ، إلا أن الجراد أكله أو جاءته جائحة أهلكتْه ، يقول تعالى :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [السجدة]

وما دام الأمر كذلك والدنيا زُخْرف سرعان ما يزول ، فالأجل قريب ، فدَعْهم لى أختبرهم ، وأُجَازيهم بأعمالهم .

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ[1] كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾

وقد وردتْ قصة أهل الكهف نتيجة لسؤال كفار مكة الذين أرادوا أنْ يُحرجوا رسول الله ، ويُروى أنهم أرسلوا رجلين منهم هما : النضر ابن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أهل الكتاب فى المدينة ليسألوهم عن صدق رسول الله ، وما خبره عندهم ، وما ورد عنه فى كتبهم .

---

(١) اختلف الناس فى الرقيم على أقوال كثيرة ، منها ما ذكره القرطبى فى تفسيره :
- الرقيم : واد . قاله مجاهد .
- الرقيم : الصَّخرة التى كانت على الكهف . قاله السدى .
- الرقيم : كلبهم . قاله أنس بن مالك والشعبى .
- الرقيم : لوح من الرصاص كتب فيه أسماؤهم وأنسابهم ودينهم وممن هربوا . قاله ابن عباس والفراء .

وهناك أقوال أخرى ذكرها القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠٨٦ - ٤٠٨٧) .

وقد كان يهود المدينة قبل البعثة يتوعدون الأوس والخزرج عباد الأصنام ببعثة النبى الجديد ، يقولون : لقد أطلَّ زمان نبىٍّ نتبعه ، ونقتلكم به قَتْل عاد وإرم ؛ لذلك رغب أهل مكة فى سؤال يهود المدينة عن صدق رسول الله ، فلما ذهب الرجلان إلى يهود المدينة قالوا : إنْ أردتُمْ معرفة صدق محمد فاسألوه عن ثلاثة أشياء ، فإنْ أجابكم فهو صادق ، اسألوه : ما قصة القوم الذين ذهبوا فى الدهر مذاهب عجيبة ؟ وما قصة الرجل الطوّاف الذى طاف الأرض شرقاً وغرباً ؟ وما الروح ؟[1]

وفعلاً ذهب الرجلان إلى رسول الله ، وسألاه هذه الأسئلة فقال ﷺ : « أخبركم بما سألتم عنه غداً »[2] وجاء غد وبعد غد ومرَّت خمسة عشر يوماً دون أنْ يُوحَى لرسول الله شىء من أمر هذه الأسئلة ، فشقّ ذلك على رسول الله وكَبُر فى نفسه أنْ يعطِى وَعْداً ولا يُنجزه .

وقالوا : إن سبب إبطاء الوحى على رسول الله فى هذه المسألة أنه قال : « أخبركم بما سألتم عنه غداً » ولم يقُلْ : إنْ شاء الله ؛ ولذلك خاطبه ربه تبارك وتعالى بقوله : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [الكهف]

وهذه الآية فى حَدِّ ذاتها دليل على صدق رسول الله ، وعلى أدبه ، وعلى أمانته فى البلاغ عن ربه عز وجل ، وقد أراد الحق

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٤٠٧٦/٥) وعزاه لابن إسحاق

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢٦٩/٢ - ٢٧١) ، وكذا ابن هشام فى السيرة (٣٢١/١ - ٣٢٣) من حديث ابن عباس وهو من طريق ابن إسحاق .

سبحانه أن يكون هذا الدرس فى ذات الرسول ليكون نموذجاً لغيره ، وحتى لا يستنكف أحد إذا استُدرك عليه شيء ، فها هو محمد رسول الله يستدرك عليه ربه ويُعدِّل له .

فكأن قوله تعالى : ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ.. (٢٤)﴾ [الكهف] تربية للأمة فى شخصية رسولها حتى لا يستنكف المربَّى من توجيه المربِّى ، ما دام الهدف هو الوصول إلى الحقيقة ، فإياكم أن ترفضوا استدراك رأى على رأى حتى وإنْ كان من الخَلْق ، فما بالك إنْ كان الاستدراك من الخالق سبحانه ، والتعديل والتربية من ناحيته ؟

وإليك مثال لأدب الاستدراك ومشروعية استئناف الحكم ، لقد ورد هذا الدرس فى قوله تعالى : ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ[1] فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨)﴾ [الأنبياء]

فكان حكم داود عليه السلام فى هذه المسألة أنْ يأخذ صاحب الزرع الغنم التى أكلتْ زرعه ، فلما بلغ سليمان هذه الحكومة استدرك عليها قائلاً : بل يأخذ صاحب الزرع الغنم ينتفع بها ، ويأخذ صاحب الغنم الزرع يُصلحه حتى يعودَ إلى ما كان عليه ، ثم تعود الغنم إلى صاحبها ، والزرع إلى صاحبه .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. (٧٩)﴾ [الأنبياء] ولم يتهم داود بالخطأ ، بل قال : ﴿وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ..(٧٩)﴾[الأنبياء]

ونلحظ هنا أن الاستدراك لم يَأْتِ من الأب للابن ، فيكون أمراً

---

(١) النَّفْش : أن تنتشر الإبل (والغنم) بالليل فترعى من غير علم راعيها [لسان العرب - مادة : نفش] . ونفشت الغنم : انتشرت فى المرعى بغير راعٍ ولا ضابط . [القاموس القويم ٢/٢٧٩] .

طبيعياً ، بل جاء من الابن للأب ليؤكد على أنه لا غضاضة أنْ يستدرك الصغير على الكبير ، أو الابن على الأب ، فالهدف هو الوصول إلى الحق والصواب ، ونبىّ الله سليمان فى هذه المسألة لم يغُضّ الطرف عن هذا القصور فى حكومة أبيه ، بل جهر بالحق ونطق به ؛ لأن الحق أعزّ من أىّ صلة حتى لو كانت صلة الأبوة .

ومن هذه القضية نعلم أن استدراك الخَلْق على الخَلْق أمر طبيعى ومقبول لا يستنكف منه أحد ، ومن هنا جاءت فكرة الاستئناف فى المحاكم ، فلعل القاضى فى محكمة الاستئناف يستدرك على زميله فى المحكمة الابتدائية ، أو يقف على شىء لم يقف عليه ، أو يرى جانباً من القضية لم يَرَهُ .

ولنا هنا وَقْفة مع أمانته ﷺ فى البلاغ عن الله ، وأنه لم يكتم من الوحى شيئاً حتى ما جاء فى عتابه والاستدراك عليه ، فكأنه أمينٌ حتى على نفسه ، فالرسول هو الذى بلغنا : ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣)﴾ [الكهف] وهو الذى بلّغنا : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ .. (١)﴾ [التحريم]

وهو الذى بلغنا فى شأن غزوة بدر : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ.. (٤٣)﴾ [التوبة] وغيرها كثير من آيات القرآن ؛ لذلك مدحه ربه تعالى بقوله : ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤)﴾ [التكوير]

حتى فى مجال التهديد والوعيد لم يكتم رسول الله من الوحى حرفاً واحداً ، انظر إلى قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)﴾ [الحاقة]

إنها الأمانة المطلقة والصدق الذى لا يُخفِى شيئاً .

ألم يكُنْ جديراً بالقوم أنْ يفقهوا هذه الناحية من رسول الله ، ويتفكّروا فى صدْقه ﷺ حين يُخبرهم عن نفسه أشياء لم يعرفوها ، وكان من المنتظر أنْ يُخفيها عنهم ؟ أليس فى ذلك دليلاً قاطعاً على صدقه فيما يقول ؟

والحق تبارك وتعالى حينما يعلمنا أن نقول : إن شاء الله إذا أقدمنا على عمل فى المستقبل إنما يُكرّم عبده ويحميه حتى لا يُوصَف بالكذب إذا لم يُحقِّق ما وعد به ، وليس فى قولنا : إنْ شاء الله حَجْر على أحد ، أو تقييد لطموحات البشر كما يدّعى البعض أن قول إنْ شاء الله يلغى التخطيط للمستقبل .

نقول : خَطِّط كما تريد ، ودَبِّر من أمرك ما شئت ، واصنع من المقدمات ما تراه مناسباً لإنجاح سعيك ، لكن ما عليك إنْ قرنتَ هذا كله بمشيئة الله ، وهى فى حَدٍّ ذاتها عَوْنٌ لك على ما تريد ، فإنْ أخفقتَ فقد جعلتَ لنفسك حماية فى مشيئة الله ، فأنت غير كاذب ، والحق تبارك وتعالى لم يشأ بَعْدُ أنْ تنجزَ ما تسعى إليه .

والحقيقة أن الحدث فى المستقبل لا يملكه أحد ، ولا يضمنه أحد إلا الله تبارك وتعالى ؛ لذلك عليك أن تُعلِّق الفعل على مشيئة الله ، فإنْ قُلْتَ مثلاً : سأقابل فلاناً غداً لأكلمه فى كذا ، فهل تملك أنت من عناصر هذا الحدث شيئاً ؟

أضمنتَ أن تعيش إلى غد ؟ أضمنتَ حياة فلان هذا إلى الغد ؟ أضمنتَ أن موضوع المقابلة باق لا يتغير فيه شيء ، ولا يطرأ عليه طارئ ؟ إذن : فكيف تقطع بالقول أنك ستفعل غداً كذا ؟ قل : إن شاء الله ، واخرج من دائرة الحرج هذه .

نعود إلى الآية التى نحن بصددها فالحق سبحانه يقول : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ [الكهف]

﴿ أَمْ ﴾ حرف من حروف العطف ، ويفيد الإضراب عمَّا قبله وتوجيه الاهتمام إلى ما بعده ، كما فى قوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ .. ۝١٦﴾ [الرعد]

فالمراد : إنْ سألك كفار مكة عن مسألة أصحاب الكهف على أنها معضلة يريدون إحراجك بها ، فدعْكَ من كلامهم ، ودَعْك من سوء نيتهم ، ولا تحسب أن أهل الكهف هى العجيبة الوحيدة لدينا ، فالعجائب عندنا كثيرة ، وهذه واحدة منها .

و ﴿الكَهْف ﴾ : الفَجْوة فى الجبل و (الرقيم) الشىء المرقوم أى : المكتوب عليه كحجر أو نحوه ، ولعله حجر كان على باب الكهف رُقم عليه أسماء هؤلاء الفتية ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾ [المطففين] أى : مكتوب .

وقوله : ﴿كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ [الكهف] أى : ليست هذه هى العجيبة الوحيدة ، فكل آياتنا عجيبة تستحق التأمل .

ثم تأخذ الآيات فى تفصيل هذه العجيبة ، فيقول تعالى :

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾

(أَوَىَ) من المأوى ، وهو المكان الذى يأوى إليه الإنسان ويلجأ إليه (الفتْيةُ) جمع فتى ، وهو الشاب فى مُقْتبل العمر ، والشباب هم مَعْقِد الآمال فى حَمْل الأعباء والنهوض بكل أمر صعب ،

وهؤلاء شباب مؤمن وقفوا يحملون راية عقيدتهم وإيمانهم أمام جبروت الكفر وطغيان الشرك ، فالفتاء فيهم فتاء إيمان وعقيدة .

لذلك لجأوا إلى الكهف مُخلِّفين وراءهم أموالهم وأهلهم وكل ما يملكون ، وفرُّوا بدينهم إلى هذا المكان الضيق الخالى من أىِّ مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة ؛ لأنهم لا يشغلون أنفسهم بهذه المقوّمات ، بل يعلمون أن لهم رباً سيتولى أمرهم ؛ لذلك ضرَعُوا إليه قائلين :

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً .. ⦗١٠⦘ ﴾ [الكهف] أى : رحمة من عندك ، أنت ترحم بها ما نحن فيه من انقطاع عن كل مُقوِّمات الحياة ، فالرحمة فى فجوة الجبل لن تكون من البشر ، الرحمة هنا لا تكون إلا من الله : ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ⦗١٠⦘ ﴾ [الكهف] أى : يَسِّر لنا طريقاً سديداً للخير وللحق .

إن هؤلاء الفتية المؤمنين حينما ألجأهم الكفر إلى ضيق الكهف تضرَّعوا واتجهوا إلى ربهم ، فهو وحده القادر على أن يُوسِّع عليهم هذا الضيق ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا .. ⦗٤٣⦘ ﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ⦗١١⦘ ﴾

يُقَال : ضُرِب الفسطاط على الأرض يعنى الخيمة ، أى : غُطِّيتْ الأرض بها بعد أنْ كانت فضاءً ، والضرب : أن تلمس شيئاً بشىء بشدة شريطة أن يكون المضروب به أقوى من المضروب ، وإلاّ كان الضارب ضارباً لنفسه .

لذلك ، فالشاعر عندما تكلم عن المعترضين على القدر قال :

أَيا هَازِئـاً مِنْ صُنُوفِ القَــدَرِ بنفْــســكَ تُعـنف لاَ بـالقَـــدَر
وَيَا ضَـارِباً صَـخْرةً بِالعَصَـا ضَرَبْتَ العَصَا أَمْ ضَرَبْتَ الحَجَر ؟

فمعنى ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ .. (١١)﴾ [الكهف] أى : غطيناها بغطاء محكم يحجبهم عن العالم الخارجى ، والضرب على آذانهم هو الرحمة التى دعـوا الله بها وطلبـوها ؛ لأن الإنســان الذى يحمل الفـأس مثـلاً ويعمل بها إنْ تعب وأجـهده العمل يقف بعض الوقت ليسـتريح ، فإنْ تعب من الوقوف قعد ، فإنْ تعب من الـقعود استلقى واضطجع ، فإنْ لم يســترح فـلا يبـقى إلا أن ينـام ، فـفى النوم تهـدأ الأعـصـاب ، ويســتـريـح الإنســان ، حـتى مع الآلام فى أعـنف الأمـراض إذا نام المريض لا يشعر بشىء من الألم ؛ لذلك اختار لهم ربهم هذا الوضع ليريحهم به طوال فترة مُكْثهم فى الكهف .

فالحق سـبحـانه ـ إذن ـ هو الضارب ، والمـضروب هو الآذان ، والضرب على الآذان هنا لـلرحمة لا للعـذاب ؛ لأن الله تعالى أراد لهم أقصى درجـات الراحة والنوم الهـادىء الذى لا يُعكّر صَـفْوه شـىء ، والنوم هو الراحـة التـامة التى تطغى علـى الآلام العضـوية فى الذات الإنسانية .

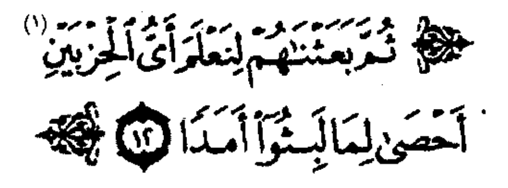
وقد اختار الحق سبحـانه الضرب على آذانهم ؛ لأن حاسة السمع هى أول الحــواس عـمـلاً فى الإنســـان ، وهى أول آلة إدراك تُؤدّى مهمتها فى الطفل ، كمـا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل]

هذه الحواس هى منافذ العلم والإدراك للإنسان ، فلو وضعتَ أصبعك أمام عين الطفل المولود تراه لا يرمش ؛ لأنه لا يرى إلا بعد ثلاثة إلى عشرة أيام ، أما لو صرختَ فى أُذنه فإنه ينتبه فحاسة السمع تؤدى مهمتها منذ ولادته . وكذلك فالأذن تمتاز أيضاً بأنها الإدراك الوحيد الذى لا يتعطل ولا يتوقف أثناء النوم لأن بها يتم الاستدعاء من النوم .

وهؤلاء الفتية دخلوا وأَوَوْا إلى الكهف ، وهو فَجْوة فى جبل فى صحراء وهى عُرْضة للعواصف والرياح وأصوات الحيوانات وأشياء كثيرة يمكن أن تزعج النائم ، فلو تركهم الخالق سبحانه فى نومهم هذا على طبيعتهم لأزعجتهم هذه الأصوات وأقلقتْ راحتهم ؛ لذلك عطّل حاسة السمع عندهم ، وبذلك استطاعوا أن يناموا كل هذه المدة .

ثم يقول تعالى : ﴿فِى الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الكهف] ومعنى عدداً أى : سنين كثيرة ؛ لأن القليل لا يُعَدُّ لأنه معروف ، فإنْ ذكر العدّ فاعلم أنه للشيء الكثير ، كما تقول : فلان عنده مليون عَدّاً ونقداً .

ثم يقول الحق سبحانه :



﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ[1] أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾

(١) الحزب : الجماعة من الناس فيهم قوة وصلابة يجمعهم غرض واحد ومصالح وآراء متشابهة . [القاموس القويم ـ مادة : حزب] ، قال القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠٩٤) : « الظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية إذ ظنوا لبثهم قليلاً . والحزب الثانى من أهل المدينةالذين بُعث الفتية على عهدهم ، حين كان عندهم التاريخ لأمر الفتية . وهذا قول الجمهور من المفسرين » .

(بَعَثْنَاهم) أى : أيقظناهم من نومهم الطويل ، وما داموا قد ناموا فالأمر إذن ليس موتاً إلا أنهم لما طالتْ مدة نومهم شبَّهها بالموت : ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ الْحِزْبَيْنِ .. (١٢)﴾ [الكهف] أى : الفريقين منهم ؛ لأنهم سأل بعضهم بعضاً عن مُدَّة لُبْثهم فقالوا : يوماً أو بعض يوم . أو : المراد الفريقان من الناس الذين اختلفوا فى تحديد مدة نومهم : ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢)﴾ [الكهف] أى : لنرى أىّ الفريقين سيُقدِّر مُدّتهم تقديراً صائباً . والأمد : هو المدة وعدد السنين .

والمتأمل فى الآيات السابقة يجد فيها مُلخَّصاً للقصة ومُوجَزاً لها ، وكأنها برقية سريعة بما حدث ، فأهل الكهف فتية مؤمنون فرُّوا بدينهم إلى كهف من الكهوف ، وضرب الله على آذانهم فناموا مدة طويلة ، ثم بعثهم الله ليعلم مَنْ يحصى مدة نومهم ، وهذه البرقية بالطبع لم تُعطنا تفصيلاً لكل لقطات القصة ؛ لذلك تبدأ الآيات فى التفصيل فيقول تعالى :

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣)﴾

(نَحْنُ) أى : الحق سبحانه وتعالى ، فهو الذى يقصُّ ما حدث بالحق ، فلو أن القاصَّ غير الله لتُوقِّع منه الخطأ أو النسيان ، أو ترك شىء من الأحداث لِهَوىً فى نفسه ، إنما إنْ جاءك القصص من الله فهو الحق ، كما قال فى آية أخرى : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. (٣)﴾ [يوسف]

إذن : هناك قصَص ليس بالحسن ، وهو القَصَص غير الدقيق .

فالقصَصُ القرآنى يضمن لك منتهى الدقة فى عرض الأحداث ، ويُصوِّر لك كل اللقطات ، وكلمة قصة أو قَصَص تدلُّ على دقة التتبع ؛ لأنها من قصَّ الأثر أى : تتبَّعه وكان لهذه المهمة رجال معروفون بقصّاصى الأثر ، وهم الذين يتتبعون الواقع .

و (نَبَأَهُمْ) النبأ : هو الخبر العظيم .

ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ⑬ ﴾ [الكهف]

هذا هو تفصيل القصة بعد أنْ لخَّصها القرآن فى المذكرة والبرقية السابقة ، وكأن الحق سبحانه يقول لرسوله : لقد ذكر ناسٌ هذه القصة من قبل ، لكنها قُصَّتْ بغير الحق ، وغُيِّر فيها ، لكن قَصّنا لها هو القَصَص الحق الذى لا كذبَ فيه .

فحقيقة هؤلاء أنهم فتية آمنوا بالله ، وهذه قضيتهم التى ضَحَّوْا من أجلها ، فلما آمنوا بالله تولاّهم ونوَّر بصائرهم وربط على قلوبهم ، وزادهم إيماناً ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ⑰ ﴾ [محمد]

وما أشبه هذه المسألة بالمعلِّم الذى يلمح أمارات النجابة والذكاء على أحد تلاميذه ، ويراه مُجيباً حريصاً على العلم فيُوليه اهتمامه ، ويمنحه المزيد من المعلومات .

ونلاحظ هنا أن هؤلاء المؤمنين الذين ضَحَّوْا بكلِّ شىء وفرُّوا بدينهم ما زالوا فى مرحلة الشباب ، وهو مظنّة الانشغال بالدنيا والحِرْص على مُتعها ، أما هؤلاء فقد انشغلوا بدينهم منذ صِغَرهم ليكونوا قدْوة ومثَلاً للشباب المؤمن فى كل زمان ومكان ، فالفتاء فى أهل الكهف : فتاء إيمان وفتاء عقيدة .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا[1] ﴿١٤﴾ ﴾

والربط يعنى أن تربط على الشيء وتشدّ عليه لتحفظ ما فيه ، كما تربط القِرْبة حتى لا يسيل منها الماء ، وتربط الدابة حتى لا تنفلت ، وقد وردتْ مادة (ربط) فى القرآن كثيراً ، منها قوله تعالى فى قصة أم موسى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص]

أى : ربط على ما فى قلبها من الإيمان بالله الذى أوحى إليها أن تُلْقِىَ بولدها فى الماء ، ولولا أنْ ربط الله على قلبها وثبّتها لانطلقتْ خلف ولدها تصرخ وتنتحب وتُلفِت إليه الأنظار ﴿ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص]

أى : تكشف عن الخُطّة التى أمرها الله بها لنجاة موسى عليه السلام ، وهكذا اطمأن قلب أم موسى ، وأصبح فؤادها فارغاً - أى : من الانفعالات الضارة ، ومعلوم أن القلب هو محلُّ الانفعالات ، بدليل ما يحدث فيه من اضطراب وزيادة ضربات وتدفُّق للدم عند الغضب مثلاً .

ولا يُسمَّى القلب فؤاداً إلا إذا توقّد بالمشاعر وتحرك بها ، وربط

---

(١) الشطط : الجور وتجاوز الحد فى كل شيء ، قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الكهف] . أى : قولاً جائراً مجاوزاً للحد . [القاموس القويم ١/٣٤٩] .

الله على قلب أم موسى أحدث لها ضَبْطاً للشعور يحكم تصرفاتها فتأتى سليمة مُتمشّية مع الخطة المرادة .

ومن هنا نأمر الغاضب الذى تغلى الدماء فى عروقه بالهدوء وضبط النفس ؛ لأن الهدوء سيعينه على الحق ، ويُلجم جماح غضبه الذى لا تُحمد عُقباه ، ألا ترى التوجيه النبوى فى حال الغضب ؟ إنه ينصح بتغيير الوضع الذى أنت عليه ؛ لأن هذه العملية تحدث لديك نزوعية ، تصرف عنك الغضب .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ(٤٣)﴾ [إبراهيم] أى : فارغة خالية ليس فيها شىء ؛ لأن الشىء إذا فَرَّغته من مُحتواه امتلأ بالهواء .

وهنا يقول الحق سبحانه فى أهل الكهف : ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ.. (١٤)﴾ [الكهف] لتظل بداخلها العقيدة والإيمان بالله لا تتزعزع ولا تُخرجها الأحداث والشدائد ، وهذا من زيادة الهدى الذى أخبرتْ به الآيةَ السابقة .

وقوله تعالى : ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٤)﴾ [الكهف]

قاموا : القيام هنا دليل على مواجهتهم للباطل ووقوفهم فى وجهه ، وأن الباطل أفزعهم فهبُّوا للتصدِّى له بقولهم : ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٤)﴾ [الكهف] ولا بُدَّ أنهم سمعوا كلاماً يناقض قولهم ، وتعرّضوا فى دعوتهم للحرب والاضطهاد ، فالآية تعطى صورة لفريقين : فريق الكفر الذى ينكر وجود الله أو يشرك به ، وفريق الإيمان الذى يُعلنها مُدوّية : ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٤)﴾ [الكهف]

وإنْ كان فريق الكفر يدعو إلى عبادة آلهة من دون الله فإن فريق الإيمان يقول : ﴿ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَـٰهًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الكهف] فإن ادّعَيْنَا إلهاً من دون الله ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الكهف] أي : فقد تجاوزنا الحدّ ، وبَعُدْنا عن الصواب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هَـٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾

وهنا يخبر أهل الكهف الفتية المؤمنون عن قومهم أنهم اتخذوا من دون الله آلهة متعددة ، دون أن يكون لهم دليل أو حُجّة واضحة على صِدْق ما ذهبوا إليه من عبادة هذه الآلهة .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الكهف] فافظع الظلم واقبحه أنْ نفترىَ على الله الكذب ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾

هذا حديث الفتية بعضهم إلى بعض : ما دُمْنا اعتزلنا أهل الكفر ، ونأيْنَا عن طريقهم ، وسلكنا مسلكَ الإيمان بالله الذى يسَّره الله لنا ، فهيا بنا إلى الكهف نلجأ إليه ونحتمى فيه فراراً بديننا ، ومخافة أن يفتننا القوم عن ديننا .

ويلفتنا هنا إلى أن فرار هؤلاء الفتية ليس إلى بلد آخر فيه مُتّسع للحياة ، بل إلى كهف ضيق فى جبل فى صحراء ، وليس به مُقوّم من مُقوّمات الحياة ؛ لذلك ينبهنا الحق سبحانه : إياك أن تقول : إن الكهف ضيق ، وكيف يعيشون فيه ؟ لأنهم مهاجرون إلى الله لاجئون إليه مُتوكّلون عليه .

لذلك قال بعدها : ﴿يَنشُرْ لَكُمْ .. (١٦)﴾ [الكهف] فالضيق يقابلُه البَسْط والسّعة ، لقد قالوا هذه الكلمة وهم واثقون فى رحمة الله معتقدون أن الذى هاجروا إليه لن يُسلمهم ولن يخذلهم ، وسوف يُوسِّع عليهم برحمته هذا الضيق ، وقد وَسَّعه الله عليهم فعلاً حين أنامهم ، ألاَ ترى النائم يربع فى الدنيا هنا وهناك لا تحدُّه حدود ؟

ومن هذه السعة ما حدث فى قصة نبى الله موسى ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ حينما تبعه فرعون بجنوده حتى قال أتباعه : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء] ، فقد ضاق عليهم الخناق حيث البحر من أمامهم ، والعدو من خلفهم ، ولا مهربَ لهم فيما يرون من واقع الأمر . فماذا قال موسى لقومه فى هذا الموقف ؟ قال بملء فيه قوْلَة الواثق من نصر الله : ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء]

فجاءه التأييد من ربه فى التوِّ واللحظة ، وفُرّج عنه وعن أصحابه

ما يُلاَقون من ضيق المخرج ، فأوحى الله إليه : ﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ .. (٦٣) ﴾ [الشعراء]

كذلك هنا : ﴿ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِه .. (١٦) ﴾ [الكهف]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦) ﴾ [الكهف] والمراد بالمرفق جمع مرافق ، وهى مُقوّمات الحياة التى لا يستغنى عنها الإنسان ، فلما أنامهم الله أغناهم عن مرافق الحياة ، لأنهم إنْ ظلوا فى حال اليقظة فلا بُدَّ أنْ يحتاجوا إلى هذه المرافق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ(١) عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ(٢) ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧) ﴾

بعد أنْ ضرب الله على آذانهم فعصمهم من الأصوات التى تُزعجهم وتُقلق نومهم عصمهم أيضاً من ضوء الشمس ، وقد أثبتت الأبحاث خطرَ الأشعة خاصة على النائم ، وأن للظُّلمة مهمةً ، فبها تهدأ الأعصاب وترتاح الأعضاء ، والشمس خَلْق من خَلْق الله ، لها مَدارٌ ثابت وقانون لا يتخلّف ، كما قال تعالى : ﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾ [الأنبياء]

(١) تزاور عنه : مال وتنحَّى وانحرف . أى : أن الشمس تميل وتنحرف عنهم لئلا تؤذيهم . [القاموس القويم ١/٢٩٢] .

(٢) قرض المكان : تركه وتجاوزه . أى : تتركهم الشمس وتتجاوزهم جهة اليمين فلا تؤذيهم الشمس بحرِّها . [القاموس القويم ٢/١١٣] .

ولكن الخالق سبحانه وتعالى خرق لهم نظام الشمس حتى لا يزعجهم ضوؤها فجعلها (تزاور) أى : تميل عند طلوعها عن الكهف ، ومنه الزُّور : أى الميل عن الحق ، وازورّ عن الشيء أى : مال عنه ، فكانت الشمس إذا طلعتْ تميل عن الكهف جهة اليمين .

﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ .. (١٧) ﴾ [الكهف] والقرْض - كما هو معلوم - أنْ تعطى غيرك شيئاً يحتاج إليه ، فكأن الشمس تقرضهم وتسلفهم ، كونها لا تدخل عليهم عند غروبها ، وهذا أمر ليس من حقهم ، فكأنها تقرضهم إياه . ولا شكّ أن هذه العملية مظهرٌ من مظاهر قدرة الله التى تصنع الشيء وضده .

ونلحظ أن الحق - سبحانه وتعالى - جعل الفعل للشمس فى تزاور وتقرضهم ، وكأنها تفعل ذلك من نفسها بعد أنْ ضبط الله تعالى حركتها على هذه الأفعال كما تضبط الآلة اليوم .

وقوله : ﴿ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ .. (١٧) ﴾ [الكهف] أى : فى الكهف ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ .. (١٧) ﴾ [الكهف] وما دامت هذه الأفعال للشمس آيةً من آيات الله ، ومعجزة من معجزاته تعالى ، فإياك أنْ تعترضَ : كيف تميل الشمس ؟ وكيف تُغيِّر اتجاهها ؟ لأن الخالق سبحانه خلق الخَلْق ، وأعطى لكل مخلوق قانونه الذى يسير به ، ومع ذلك لم يترك لكل مخلوق أنْ يفعل بقانونه ما يريد ، بل له سبحانه وتعالى قيُّومية على القانون ، تبطله إنْ شاء ، وتحركه إنْ شاء .

ثم يقول تعالى : ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧) ﴾ [الكهف]

فقضية الهداية والإضلال قائمة من قديم ، ولا تزال ذيول هذه المعركة موجودة إلى الآن ، فهناك دائماً من يقول : إذا كان الله هو الهادى والمُضِل ، فلماذا يعذبنى إن ضللت ؟

وشاع هذا السؤال وأخذه المستشرقون والفلاسفة ، ويراد منه إيجاد مبرر للنفس العاصية غير الملتزمة ، ونقول لكل مجادل : لماذا قصرت الاعتراض على مسألة الضر والعذاب إن ضللت ؟ ولماذا لم تذكر الثواب إن أحسنت وآمنت ؟ إن اقتصارك على الأولى دون الثانية دليل على أن الهداية التى جاءت لك هى مكسب تركته وأخذت المسألة التى فيها ضرر ، ولا يقول ذلك إلا المسرفون على أنفسهم .

والهداية نوعان : هداية دلالة ، وهى للجميع ، للمؤمن والكافر ؛ لأن الحق سبحانه لم يدل المؤمن فقط ، بل يدل المؤمن والكافر على الإيمان به ، فمن يُقبل على الإيمان به ، فإن الحق تبارك وتعالى يجد فيه أهلاً للمعونة ، فيأخذ بيده ويعينه ، ويجعل الإيمان خفيفاً على قلبه ، ويعطى له طاقة لفعل الخير ، ويشرح له صدره وييسر له أمره .

فمن شاء الحق سبحانه هدايته أعطاه الهداية ، ومن شاء له الضلال زاده ضلالاً ، وقد بيّن أن من شاء هدايته يهتدى ، وهذه معونة من الله ، والكافر لا يهتدى ، وكذلك الظالم والفاسق ، لأنه سبحانه قد ترك كل واحد منهم لاختياره ، وهكذا يمنع الحق سبحانه عنهم هداية المعونة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ[1] ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ[2] لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾

أى : لو أتيح لك النظر إليهم لخُيِّل إليك أنهم أيقاظٌ غير نائمين ذلك لأن ربهم سبحانه حفظهم على حال اليقظة وعلى هيئتها ، ثم أظهر فيهم آية أخرى من الإعجاز بأنْ يُقلِّبهم فى نومهم مرة ناحية اليمين ، وأخرى ناحية الشمال ، لتظلّ أجسامهم على حالها ، لا تأكلها الأرض .

ومعلوم أن الإنسان إذا قُدِّر له أنْ ينام فترة طويلة على سرير المرض يُصَاب بمرض آخر يُسمُّونه قرحة الفراش ، نتيجة لنومه المستمر على جانب واحد ـ عافانا الله وإياكم ـ وقد جعل لهم هذا التقليب ذات اليمين وذات الشمال على هيئة الإيقاظ .

وقوله : ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ.. ﴿١٨﴾ ﴾ [الكهف] ويبدو أنهم كانوا من الرعاة ، فتبعهم كلبهم وجلس مَادّاً ذراعيْه بفناء الكهف أو على بابه ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الكهف] فقد ألقى الله مهابتهم والخوف منهم فى نفوس

(١) قال ابن عباس : لئلا تأكل الأرض لحومهم . قال أبو هريرة : كان لهم فى كل عام تقليبتان . وقيل : فى كل سنة مرة . وقال مجاهد : فى كل سبع سنين مرة . وقالت فرقة : إنما قُلِّبوا فى التسع الأواخر ، وأما فى الثلثمائة فلا . وظاهر كلام المفسرين أن التقليب كان من فعل الله . [تفسير القرطبى ٥/٤١٠٠] .

(٢) الوصيد : فناء الكهف أو عتبته . [القاموس القويم ٢/٣٣٩] .

الناس ، فإذا ما اطلع عليهم إنسان خاف وولّى هارباً يملؤه الرعب ؛ لأن هيئتهم تُوحى بذلك ، حيث يتقلّبُون يميناً وشمالاً ، ومع ذلك لا يصحُو منهم أحد ، ولا يقوم منهم أحد طوال هذه المدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ[1] هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ ﴾

قوله : (بعثناهم) أى : أيقظناهم من نومهم ؛ لأن نومهم الطويل الذى استغرق ثلاثمائة سنة وتسْعاً أشبه الموت ، فقال (بَعثْنَاهُمْ) ، والبعْثُ هنا لقضية خاصة بهم ، وهى أنْ يسأل بعضهم بعضاً عن مُدّة لُبْثهم فى الكهف ، وقد انقسموا فى سؤالهم هذا إلى فريقين الفريق الأول ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الكهف]

فَردَّ الفريق الآخر بما تقتضيه طبيعة الإنسان فى النوم العادى ، فقال : ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الكهف] فالإنسان لا يستطيع تقدير مدّة نومه بالضبط ، لكن المعتاد فى النوم أن يكون كذلك يوماً أو بعض يوم .

---

(١) الوَرِق : الدراهم المضروبة . والورِق : بكسر الراء : الفضة . [لسان العرب ـ مادة : ورق] .

وقد أخذ العلماء من هذا القول أنهم حين تساءلوا هذا السؤال لم يجدوا في ذواتهم شيئاً يدلُّ على مرور زمن طويل ، حيث وجدوا أنفسهم على الحال التي ناموا عليها ، فلم يتغير مثلاً حالهم من الشباب إلى الشيخوخة ، ولم يتغير شعرهم مثلاً إلى البياض ؛ لذلك قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، ولو وجدوا أنفسهم شيباً لقدَّروا الزمن المناسب لهذا الشيب .

وهذه وقفة المشدوه حين يُسْأل عن زمن لا يدرى مُدته ، إنه طويل عند الله إنما قصير عنده ، وهذا كقوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ[1] وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

لقد حكم على مُدّة لُبْثه بيوم أو بعض يوم ؛ لأنه وجد نفسه على الحال التى عهدها لم يتغير منه شىء ، فكيف يتأتّى الصدق من الحق سبحانه فى قوله (مائة عام) والصدق فى قول العُزَيْر بيوم أو بعض يوم ؟

لا شكَّ أننا أمام آية من آيات الخالق سبحانه ، ومعجزة من معجزاته لا يقدر عليها إلا المالك للزمان وللمكان ، القابض للزمان ليوم أو بعض يوم ، الباسط له إلى مائة عام .

لذلك أظهر الخالق سبحانه فى هذه المعجزة الدليل على صدق

(١) سنه الطعام يسنه : تغيّر بعد مُضى زمن عليه . وتسنّه الطعام : تغير . [القاموس القويم ١/٣٣٢] .

القولين : ففى طعام العُزَير الذى ظلَّ على حـاله طازجاً لم يتغير دليل على يوم أو بعض يوم ، وفى حماره الذى رآه عـظاماً بالية دليل على المائة عام ، فسبحان الله الذى يجمع الشىء وضده فى آنٍ واحد .

ثم يقول تعالى حكايةً عنهم : ﴿ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ .. (١٩) ﴾ [الكهف] وهو قَوْل الجماعة الذين أرادوا إنهاء الخلاف فى هذه المسألة ، فقالوا لإخوانهم : دعونا من هذه القضية التى لا تفيد ، واتركوا أمرها لله تعـالى . ودائماً يأمـرنا الحق سـبحـانه بأنْ ننقلَ الجـدل من شىء لا ننتهى فيه إلى شىء ، ونُحوله للأمر المثمر النافع ؛ لذلك قالوا :

﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) ﴾ [الكهف]

والوَرِق يعنى العملة من الـفضة ، فأرادوا أنْ يرسلوا أحـدهم بما معـهم من النقود ليشـترى لهم من المـدينة طعاماً ؛ لأنهم بمـجرد أن استـيقظوا انتهت حـالتهم الاستـثنائية ، وعـادوا إلى طبيعـتهم ؛ لذلك طلبوا الطعـام ، لكن نلحظ هنا أن الجوع لم يحـملهم على طلب مطلق الطعـام ، بل تراهم حريصـين على تزكـية طعـامهم واخـتيـار أطيبـه وأطْهره ، وأبعده عن الحرام .

وكذلك لم يَفُتْـهم أنْ يكونوا على حذر من قومهم ، فَـمنْ سيذهب منهم إلى هذه المهـمة عليه أن يدخل المـدينة خلْسة ، وأن يتلطف فى الأمر حـتى لا يشـعر به أحـد من القوم ، ذلك لأنهم اسـتيـقظوا على الحالة التى نامـوا عليها ، وما زالوا على حَذَر من قـومهم يظنون أنهم يتتبعونهم ويبحثون عنهم ، ويسَعَوْن للقضاء عليهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾

وهذا احتياط منهم للدين ، وحماية للعقيدة التى فَرُّوا بها . فإن يرجموكم فسينتصرون عليكم فى الدنيا ، إنما ستأخذون الآخرة ، وإن ردوكم إلى دينهم ، فلن تفلحوا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا[1] عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾

فى قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الكهف] يقيم من أهل الكهف دليلاً على قيام الساعة والبعث بعد الموت ، فها أنتم ما زلْتم على قَيْد الحياة وفى سَعَة الدنيا ، ومع ذلك أنامكم الله هذه النَّوْمَة الطويلة ثم بعثكم ، وقد عُثِر عليهم ، وما زالت فيهم حياة .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ[2] فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا

(١) أعثره على الأمر : أطلعه عليه . قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الكهف] . أى : جعلنا الناس يطلعون عليهم ويعرفون كهفهم وقصتهم . [القاموس القويم ٢/٧] .

(٢) قال عكرمة : كان منهم طائفة قد قالوا تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك . وذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك فى البعث وفى أمر القيامة . (تفسير ابن كثير ٣/٧٧) .

رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ .. (٢١)﴾ [الكهف] حدث هذا التنازع من الجماعة الذين عثروا عليهم، ويبدو أنهم كانوا على مسْحة من الدين ، فأرادوا أنْ يحافظوا على هذه الآية الإلهية ، ويصحّ أنهم بمجرد أنْ عثروا عليهم قضى أجلهم فماتوا .

وهذه مسألة يجب أن يُؤرّخ لها ، وأن تخلد ؛ لذلك جعلوها مثلاً شَرُوداً للعالم كله لتُعرف قصة هؤلاء الفتية الذين ضَحَّوْا فى سبيل عقيدتهم وفَرُّوا بدينهم من سَعَة الحياة إلى ضيق الكهف ؛ ليكونوا مثلاً لكل أهل العقيدة ، ودليلاً على أن الله تعالى ينصر أهله ويدافع عنهم ويُخلِّد ذكراهم إلى قيام الساعة .

لذلك قال بعضهم لبعض : ﴿ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا .. (٢١)﴾ [الكهف] أى : مطلق البنيان ، فعارضهم آخرون بأن البناء يجب أن يكون مسجداً ﴿قَالَ الَّذِينَ[1] غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ[2] عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١)﴾ [الكهف] ليكون موضعاً للسجود لله وللعبادة ليتناسب مع هذه الآية العظيمة الخالدة .

ثم تحدَّث الحق سبحانه عن الاختلافات التى نشأت عن فضول الناس لمعرفة عدد أهل الكهف ، وما يتعلَّق بهم من تفصيلات هى فى حقيقتها عِلْم لا ينفع وجَهْل لا يضر ، فقال تعالى :

---

(١) حكى ابن جرير فى القائلين ذلك قولين : أحدهما : إنهم المسلمون منهم . والثانى : أهل الشرك منهم . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٧٨) : « الظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ » .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٤١١٠) : « تنشأ هنا مسائل ممنوعة وجائزة ، فاتخاذ المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها إلى غير ذلك مما تضمنته السنة من النهى عنه ممنوع لا يجوز . وروى الصحيحان عن عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك أشرار الخلق عند الله تعالى يوم القيامة » . لفظ مسلم .

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ[1] رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾

لقد اختلف القوم فى عدد أهل الكهف ، منهم مَنْ قال : ثلاثة رابعهم كلبهم . ومنهم مَنْ قال : خمسة سادسهم كلبهم ، وعلَّق الحق سبحانه على هذا القول بأنه-(رجماً بالغيب) ؛ لأنه قَوْل بلا عِلْم ، مما يدلُّنا على خطئه ومخالفته للواقع . ومنهم مَنْ قال : سبعة وثامنهم كلبهم ، ولم يُعلِّق القرآن على هذا الرأى مما يدلُّ على أنه الأقرب للصواب .

ثم يأتى القول الفَصْل فى هذه المسألة : ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الكهف] فلم يُبيِّن لنا الحق سبحانه عددهم الحقيقى ، وأمرنا أن نترك هذا لعلمه سبحانه ، ولا نبحث فى أمر لا طائل منه ، ولا فائدة من ورائه ، فالمهم أنْ يثبت أَصْل القصة وهو : الفتية الأشدّاء فى دينهم والذين فَرُّوا به وضَحَّوْا فى سبيله حتى لا يفتنهم أهل الكفر والطغيان ، وقد لجأوا إلى الكهف ففعل الله بهم ما فعل ، وجعلهم آيةً وعبرةً ومثَلاً وقدْوة .

---

(١) قيل : المراد بهم النصارى ، فإن قوماً منهم حضروا النبى ﷺ من نجران فجرى ذكر أصحاب الكهف فقالت اليعقوبية : كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم . وقالت النسطورية : كانوا خمسة سادسهم كلبهم . وقال المسلمون : كانوا سبعة ثامنهم كلبهم . وقيل : هو إخبار عن اليهود الذين أمروا المشركين بمسألة النبى ﷺ عن أصحاب الكهف . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤١١٢/٥) .

أما فرعيات القصة فهى أمور ثانوية لا تُقدِّم ولا تُؤخِّر ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا .. (٢٢)﴾ [الكهف] أى : لا تجادل فى أمرهم .

ثم يأتى فضول الناس ليسألوا عن زمن القصة ومكانها ، وعن أشخاصها وعددهم وأسمائهم ، حتى كلبهم تكلموا فى اسمه . وهذه كلُّها أمور ثانوية لا تنفع فى القصة ولا تضرُّ ، ويجب هنا أن نعلم أن القَصَص القرآنى حين يبهم أبطاله يبهمهم لحكمة ، فلو تأملتَ إبهام الأشخاص فى قصة أهل الكهف لوجدته عَيْن البيان لأصل القصة ؛ لأن القرآن لو أخبرنا مثلاً عن مكان هؤلاء الفتية لقال البعض : إن هذا الحدث من الفتية خاص بهذا المكان ؛ لأنه كان فيه قدر من حرية الرأى .

ولو حدد زمانهم لَقال البعض : لقد حدث ما حدث منهم ؛ لأن زمانهم كان من الممكن أن يتأتّى فيه مثل هذا العمل ، ولو حدد الأشخاص وعيَّنهم لقالوا : هؤلاء أشخاص لا يتكررون مرة أخرى .

لذلك أبهمهم الله لتتحقّق الفائدة المرجوّة من القصة ، أبهمهم زماناً ، وأبهمهم مكاناً ، وأبهمهم عدداً ، وأبهمهم أشخاصاً ليشيع خبرهم بهذا الوصف فى الدنيا كلها لا يرتبط بزمان ولا مكان ولا أشخاص ، فحمل راية الحق ، والقيام به أمر واجب وشائع فى الزمان والمكان والأشخاص ، وهذا هو عَيْن البيان للقصة ، وهذا هو المغزى من هذه القصة .

وانظر إلى قوله تبارك وتعالى : ﴿قَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ .. (٢٨)﴾ [غافر]

هكذا (رَجُلٌ مُؤمنٌ) دون أن يذكر عنه شيئاً ، فالمهم أن الرجولة فى الإيمان ، أيّاً كان هذا المؤمن فى أىّ زمان ، وفى أىّ مكان ، وبأىّ اسم ، وبأىّ صفة .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ .. ⦗١٠⦘﴾ [التحريم] ولم يذكر عنهما شيئاً ، ولم يُشخِّصهما ؛ لأن التشخيص هنا لا يفيد ، فالمهم والمراد من الآية بيانُ أن الهداية بيد الله وحده ، وأن النبى المرسَل من الله لم يستطع هداية زوجته وأقرب الناس إليه ، وأن للمرأة حريةٌ عَقَدية مُطْلقة .

و كذلك فى قوله :﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ .. ⦗١١⦘﴾ [التحريم] ولم يذكر لنا مَنْ هى ، ولم يُشخِّصها ؛ لأن تعيُّنها لا يُقدِّم ولا يُؤخِّر ، المهم أن نعلم أن فرعونَ الذى ادَّعى الألوهية وبكل جبروته وسلطانه لم يستطع أنْ يحمل امرأته على الإيمان به .

إذن : العقيدة والإيمان أمر شخصىّ قلبى ، لا يُجبر عليه الإنسان ، وها هى امرأة فرعون تؤمن بالله وتقول : ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ⦗١١⦘﴾ [التحريم]

أما فى قصة مريم ، فيقول تعالى : ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ .. ⦗١٢⦘﴾ [التحريم] فشخَّصها باسمها ، بل واسم أبيها ، لماذا ؟ قالوا : لأن الحدث الذى ستتعرَّض له حَدَثٌ فريد وشىء خاصٌ بها لن يتكرر فى غيرها ؛ لذلك عيَّنها الله وعرَّفها ، أما الأمر العام الذى يتكرر ، فمن الحكمة أنْ يظلَّ مُبْهماً غير مرتبط بشخص أو زمان أو مكان ، كما فى قصة أهل الكهف ، فقد أبهمها الحق سبحانه لتكون مثالاً وقُدْوة لكل مؤمن فى كل زمان ومكان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾

وتتجلى فى هذه الآية رحمة الله بالمحبوب محمد ﷺ فلم يُرِدْ سبحانه وتعالى أن يصدم رسوله بمسألة المخالفة هذه ، بل أعطاه ما أراد ، وأجابه إلى ما طلب من مسألة أهل الكهف ، ثم فى النهاية ذكَّره بهذه المخالفة فى أسلوب وَعْظ رقيق : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف]

وقد سبق أنْ ذكرنا أنه ﷺ حينما سأله القوم عن هذه القصة قال لهم : سأجيبكم غداً ولم يَقُلْ : إن شاء الله . فلم يعاجله الله تعالى بالعتاب ، بل قضى له حاجته ، ثم لفتَ نظره إلى أمر هذه المخالفة ، وهذا من رحمة الله برسوله ﷺ .

كما خاطبه بقوله : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [التوبة]

فقدَّم العفو أولاً وقرَّره ؛ لأن هذه المسألة منتهية ومعلومة للرسول ، ثم عاتبه بعد ذلك . كما لو طلب منك شخص عَوْناً أو مساعدة ، وقد سبق أنْ أساء إليك ، فمن اللياقة ألاَّ تَصدمه بأمر الإساءة ، وتُذكّره به أولاً ، بل اقْضِ له حاجته ، ثم ذكّره بما فعل .

والحق سبحانه يقول :

﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾

أى : على فَرْض أنك نسيت المشيئة ساعة البَدْء فى الفعل ، فعليك أن تعيدها ثانية لتتدارك ما حدث منك من نسيان فى بداية الأمر .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَداً (٢٤) ﴾ [الكهف] أى : يهدينى ويعيننى ، فلا أنسى أبداً ، وأن يجعل ذكْره لازمة من لوازمى فى كل عمل من أعمالى فلا أبدأ عملاً إلا بقَوْل : إنْ شاء الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا (٢٥) ﴾

وهذه الآية تعطينا لقطةً من المذكرة التفصيلية التى أعطاها الله تعالى لرسوله ﷺ عن أهل الكهف ، وهى تُحدِّد عدد السنين التى قضاها الفتْية فى كهفهم بأنها ثلاثمائة سنة ، وهذا هو عددها الفعلىّ بحساب الشمس .

لذلك ؛ فالحق سبحانه لم يَقُلْ ثلاثمائة وتسعاً ، بل قال : ﴿ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) ﴾ [الكهف] ولما سمع أهل الكتاب هذا القول اعترضوا وقالوا : نعرف ثلاثمائة سنة ، ولكن لا نعرف التسعة ؛ ذلك لأن حسابهم لهذه المدة كان حساباً شمسياً .

ومعلوم أن الخالق سبحانه حينما خلق السموات والأرض قسَّم الزمن تقسيماً فلكياً ، فجعل الشمس عنواناً لليوم ، نعرفه بشروقها وغروبها ، ولما كانت الشمس لا تدلّنا على بداية الشهر جعل الخالق

سبحانه الشهر مرتبطاً بالقمر الذى يظهر هلالاً فى أول كل شهر ، وقد قال تعالى : ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ .. (٣٦)﴾ [التوبة]

فلو حسبتَ الثلاثمائة سنة هذه بالحساب القمرى لوجدتها ثلاثمائة سنة وتسعاً ، إذن : هى فى حسابكم الشمسى ثلاثمائة سنة ، وفى حسابنا القمرى ثلاثمائة وتسعاً . ونعرف أن السنة الميلادية تزيد عن الهجرية بأحد عشر يوماً تقريباً فى كل عام .

ومن حكمة الخالق سبحانه أن ترتبط التوقيتات فى الإسلام بالأهلة ، ولك أن تتصور لو ارتبط الحج مثلاً بشهر واحد من التوقيت الشمسى فى طقس واحد لا يتغير ، فإنْ جاء الحج فى الشتاء يظل هكذا فى كل عام ، وكم فى هذا من مشقة على مَنْ لا يناسبهم الحج فى فصل الشتاء . والأمر كذلك فى الصيام .

أما فى التوقيت القمرى فإن هذه العبادات تدور بمدار العام ، فتأتى هذه العبادات مرة فى الصيف ، ومرة فى الخريف ، ومرة فى الشتاء ، ومرة فى الربيع ، فيؤدى كل إنسان هذه العبادة فى الوقت الذى يناسبه ؛ لذلك قالوا : يا زمن وفيك كل الزمن .

والمتأمل فى ارتباط شعائر الإسلام بالدورة الفلكية يجد كثيراً من الآيات والعجائب ، فلو تتبعتَ مثلاً الأذان للصلاة فى ظل هذه الدورة لوجدت أن كلمة « الله أكبر » نداء دائم لا ينقطع فى ليل أو نهار من مُلْك الله تعالى ، وفى الوقت الذى تنادى فيه « الله أكبر » يُنادى آخر « أشهد ألا إله إلا الله » وينادى آخر « أشهد أن محمداً رسول الله » وهكذا دواليك فى منظومة لا تتوقف .

وكذلك فى الصلاة ، ففى الوقت الذى تصلى أنت الظهر ، هناك آخرون يُصلّون العصر ، وآخرون يُصلُّون المغرب ، وآخرون يُصلّون العشاء ، فلا يخلو كَوْنُ الله فى لحظة من اللحظات من قائم أو راكع أو ساجد . إذن : فلفظ الأذان وأفعال الصلاة شائعة فى كُلِّ أوقات الزمن ، وبكُلّ ألوان العبادة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾

الأسلوب فى قوله تعالى : ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ .. ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف] أسلوب تعجُّب أى : ما أشدّ بصره ، وما أشدّ سمعه ؛ لأنه البصر والسمع المستوعب لكلِّ شىء بلا قانون[1] .

وقوله : ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف] كأن الحق سبحانه وتعالى يُطمئن عباده بأن كلامه حَقٌّ لا يتغير ولا يتبدل ؛ لأنه سبحانه واحد أحد لا شريك له يمكن أن يُغيّر كلامه .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤١١٨/٥) : « ويحتمل أن يكون المعنى « أبصر به » أى : بوحيه وإرشاده هداك وحجبك والحق من الأمور ، وأسمع به العالم ، فيكونان أمرين لا على وجه التعجب » .

ثم يقول الحق سبحانه لنبيه محمد ﷺ :

﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

أى بعد هذه الأسئلة التى سألك كفار مكة إياها ، وأخبرك الله بها فأجبتهم ، اعلم أن لك رباً رفيقاً بك ، لا يتخلّى عنك ولا يتركك لكيدهم ، فإنْ أرادوا أنْ يصنعوا لك مأزقاً أخرجك الله منه ، وإياك أنْ تظنَّ أن العقبات التى يقيمها خصومك ستُؤثّر فى أمر دعوتك .

وإنْ أبطأتْ نُصْرة الله لك فاعلم أن الله يريد أنْ يُمحِّص جنود الحق الذين يحملون الرسالة إلى أن تقوم الساعة ، فلا يبقى فى ساحة الإيمان إلا الأقوياء الناضجون ، فالأحداث والشدائد التى تمرُّ بطريق الدعوة إنما لتغربل أهل الإيمان حتى لا يصمد فيها إلا مَنْ هو مأمون على حَمْل هذه العقيدة .

وقوله : ﴿ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِه .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الكهف] لأن كلمات الله لا يستطيع أحد أنْ يُبدِّلها إلا أنْ يكون معه سبحانه إله آخر ، فما دام هو سبحانه إلهاً واحداً لا شريك له ، فاعلم أن قوله الحق الذى لا يُبدّل ولا يُغيّر ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الكهف] أى : ملجأ تذهب إليه ؛ لأن حَسْبك الله وهو نِعْم الوكيل ، كما قال تعالى :

﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت]

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾

نزلتْ هذه الآية في « أهل الصُّفَّة[1] » وهم جماعة من أهل الله انقطعوا للعبادة فتناولتهم ألسنة الناس واعترضوا عليهم ، لماذا لا يعملون ؟ ولماذا لا يشتغلون كباقي الناس ؟ بل وذهبوا إلى رسول الله ﷺ يقولون : نريد أن تلتفت إلينا ، وأن تترك هؤلاء المجاذيب ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم .. ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف]

لذلك علينا حينما نرى مثل هؤلاء الذين نُسمِّيهم المجاذيب الذين انقطعوا لعبادة الله أن لا نحتقرهم ، ولا نُقلِّل من شأنهم أو نتهمهم ؛ لأن الله تعالى جعلهم موازين للتكامل في الكون ، ذلك أن صاحب

(١) سبب نزول الآية : عن سلمان الفارسي قال : جاءت المؤلفة القلوب إلى رسول الله ﷺ عيينة بن حصن والأقرع بن حابس وذووهم ، فقالوا : يا رسول الله إنك لو جلست في صدر المجلس ونحيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين ، وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ .. ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف] . حتى بلغ ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا .. ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف] . يتهددهم بالنار ، فقام النبي ﷺ يلتمسهم حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى قال : الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي ، معكم المحيا ومعكم الممات » أخرجه الواحدي النيسابوري في « أسباب النزول » ص ١٧١ . وكذا القرطبي في تفسيره (٤١٢١/٥) .

الدنيا الذى انغمس فيها وعاش لها وباع دينه من أجل دُنْياه حينما يرى هذا العابد قد نفض يديه من الدنيا ، وألقاها وراء ظهره ، وراح يستند إلى حائط المسجد مُمدّداً رجلاً ، لا تعنيه أمور الدنيا بما فيها .

ومن العجيب أن صاحب الدنيا هذا العظيم صاحب الجاه تراه إنْ أصابه مكروه أو نزلتْ به نازلة يُهْرَع إلى هذا الشيخ يُقبّل يديه ويطلب منه الدعاء ، وكأن الخالق سبحانه جعل هؤلاء المجاذيب ليرد بهم جماح أهل الدنيا المنهمكين فى دوامتها المغرورين بزهرتها .

وأيضاً ، كثيراً ما ترى أهل الدنيا فى خِدْمة هؤلاء العباد ، ففى يوم من الأيام قُمْنا لصلاة المغرب فى مسجد سيدنا الحسين ، وكان معنا رجل كبير من رجال الاقتصاد ، فإذا به يُخرِج مبلغاً من المال ويطلب من العامل صرفه إلى جنيهات ، فأتى العامل بالمبلغ فى صورة جنيهات من الحجم الصغير ، فإذا برجل الاقتصاد الكبير يقول له : لا ، لا بُدَّ من جنيهات من الحجم الكبير ؛ لأن فلاناً المجذوب على باب الحسين لا يأخذ إلا الجنيه الكبير ، فقلت فى نفسى : سبحان الله مجذوب على باب المسجد ويشغل أكبر رجل اقتصاد فى مصر ، ويحرص الرجل على إرضائه ويعطيه ما يريد .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ .. ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف] أى : اجعل عينيك فيهم ، ولا تصرفها عنهم إلى غيرهم من أهل الدنيا ؛ لأن مَدد النظرة من رسول الله ﷺ زاد للمؤمن ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴿٢٨﴾﴾[الكهف] لأنك إنْ فعلتَ ذلك وانصرفتَ عنهم ، فكأنك تريد زينة الحياة الدنيا وزخارفها .

وفى أمر الرسول ﷺ بملازمة أهل الصُّفَّة وعدم الانصراف عنهم إلى أهل الدنيا ما يُقوِّى هؤلاء النفر من أهل الإيمان الذين جعلوا دَيْدنهم وشاغلهم الشاغل عبادة الله والتقرُّب إليه .

لكن ، هل المطلوب أن يكون الناس جميعاً كأهل الصُّفَّة منقطعين للعبادة ؟ بالطبع لا ، فالحق سبحانه وتعالى جعلهم بين الناس قلّة ، فى كل بلد واحد أو اثنان ليكونوا أُسْوة تُذكِّر الناس وتكبح جماح تطلّعاتهم إلى الدنيا .

ومن العجيب أن ترى البعض يدَّعى حال هؤلاء ، ويُوهم الناس أنه مجذوب ، وأنه ولىٌّ نَصْباً واحتيالاً ، والشىء لا يُدَّعَى إلا إذا كانت من ورائه فائدة ، كالذى يدَّعى الطب أو يدَّعى العلم لما رأى من مَيْزات الطبيب والعالم . فلما رأى البعض حال هؤلاء المجاذيب ، وكيف أنهم عزفوا عن الدنيا فجاءتْ إليهم تدقُّ أبوابهم ، وسعى إليهم أهلها بخيراتها ، فضلاً عمَّا لهم من مكانة ومنزلة فى النفس ومحبة فى القلوب .

فلماذا - إذنْ - لا يدعون هذه الحال ؟ ولماذا لا ينعمون بكل هذه الخيرات دون أدنى مجهود ؟ وما أفسد على هؤلاء العباد حالَهم ، وما خاض الناس فى سيرتهم إلا بسبب هذه الطبقة الدخيلة المدَّعية التى استمرأتْ حياة الكسل والهوان .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا .. (٢٨)﴾ [الكهف] لأنه لا يأمرك بالانصراف عن هؤلاء والالتفات إلى أهل الدنيا إلا مَنْ غفل عن ذكر الله ، أما مَن اطمأن قلبه إلى ذِكْرنا وذاق حلاوة

الإيمان فإنه لا يأمر بمثل هذا الأمر ، بل هو أقرب ما يكون إلى هؤلاء المجاذيب الأولياء من أهل الصُّفَّة ، بل وربما تراوده نفسه أن يكون مثلهم ، فكيف يأمر بالانصراف عنهم ؟

وقد أوضح النبي ﷺ الموقف من الدنيا في قوله : « أوحى الله إلى الدنيا : مَنْ خدمني فاخدميه ، ومَنْ خدمك فاستخدميه... »[1] فالدنيا بأهلها في خدمة المؤمن الذي يعمر الإيمانُ قلبه ، وليس في باله إلا الله في كل ما يأتي أو يَدَع .

وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف] أي : أن هذا الذي يُحرِّضك على أهل الصُّفَّة ما غفل قلبه عن ذكرنا إلا لأنه سار خلف هواه ، فأخذه هواه وألهاه عن ذكر الله ، فما دام قد انشغل بشيء يوافق هواه فلن يهتم بمطلوب الله ، إنه مشغول بمطلوب نفسه ؛ لذلك يقول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به »[2] .

فالمؤمن الحق سليم الإيمان مَنْ كان هواه ورغبته موافقة لمنهج الله ، لا يحيد عنه ، وقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ .. ﴿٧١﴾ ﴾ [المؤمنون]

---

(١) أورده الشوكاني في « الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة » (ص ٢٣٨) وقال : « رواه الخطيب عن ابن مسعود . وفي إسناده : الحسين بن داود البلخي . والحديث موضوع » . قال الكناني في « تنزيه الشريعة » (٢/٣٠٣) : « تعقب بأن له شاهداً من حديث النعمان بن بشير . أخرجه البيهقي في الشُّعَب وقال : لم نكتبه إلا بهذا الإسناد وفيهم مجاهيل » قال الخطيب في تاريخ بغداد (٨/٤٤) : « الحسين بن داود ليس بثقة ، حديثه موضوع » .

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب « السنة » (١/١٢) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلي في « جامع العلوم والحكم » (ص٤٦٠) وضعَّفه .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) ﴾ [الكهف] أى : كان أمره ضياعاً وهباءً ، فكأنه أضاع نفسه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا (١) وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ (٢) يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] أى : قُلِ الحق جاء من ربكم ، واختار كلمة الرب ولم يَقُلْ من الله ، لأن الكل معتقد أن الرب هو الذى خلق ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧) ﴾ [الزخرف]

وقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥) ﴾ [لقمان]

فمعنى : ﴿ مِن رَّبِّكُمْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] أى : بإقراركم أنتم ، فالذى خلقكم وربّاكم وتعهدكم هو الذى نزّل لكم هذا الحق و ﴿ رَّبِّكُمْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] أى : ليس ربى وحدى ، بل ربكم وربّ الناس جميعاً .

---

(١) السرادق : الخيمة وكل ما أحاط بالشىء أو ما يمد فوق صحن البيت . والمعنى هنا أى أنهم لا نجاة لهم فقد أحاط بهم سرادق النار فلا يفلتون منه . [القاموس القويم ٣٠٩/١] .

(٢) قال ابن عباس : المهل ماء غليظ مثل دردى الزيت . وقال مجاهد : القيح والدم . وقال الضحاك : ماء أسود . وقال أبو عبيدة : هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورصاص ونحاس ، فتموج بالغليان ، فذلك المهل . [تفسير القرطبى ٤١٢٤/٥] .

والحق : هو الشيء الثابت ، وما دام من الله فلن يُغيِّره أحد ؛ لأن الذى يتغير كلامه هو الذى يقضى شيئاً ويجهل شيئاً مُقبلاً ، وبعد ذلك يُعدِّل ، فالحق من الله لأنه سبحانه لا يَخْفَى عليه شيء ولا يَعْزُب عن علمه شيء ، لذلك لا استدراك على حُكْم من أحكامه من أحد من خلقه .

فالربوبية عطاء ، فربك الذى خلقك وأمدَّك بالنعم ، وهو الذى يُربّيك كما يُربِّى الوالد ولده ؛ لذلك لم يعترض على الربوبية أحد ، أما الألوهية فمطلوبها تكليف : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، فخاطبهم بالربوبية التى فيها مصلحتهم ، ولم يخاطبهم بالألوهية التى تُقيِّد اختياراتهم والإنسان بطبعه لا يميل إلى ما يُقيِّد اختياراته ؛ لذلك يلجأون إلى عبادة آلهة أخرى ؛ لأنها ليس لها مطلوبات .

فالذى يعبد الشمس أو الصنم أو غيره : بماذا أمرك معبودك ؟ وعَمَّا نهاك ؟ فما العبادة إلا طاعة عابد لمعبود ، إذن : فلهم أن يقولوا : نِعْمَ هذا الإله ، ونِعْم هذا الدين ؛ لأنه يتركنى بحريتى أفعل ما أريد .

لذلك ؛ نجد الذين يدَّعُون ألوهية ، أو يدعون نُبوّة دائماً يميلون إلى تخفيف المناهج ؛ لأنهم يعلمون أن المناهج السماوية تصعُب على الناس ؛ لأن فيها حَجْراً على حرية حركتهم وحرية اختياراتهم ، فلما ادَّعى مسيلمة النبوة رأى الناس تتبرم من الزكاة فأسقطها عنهم ، وكذلك لما ادعتّ سجاح[1] النبوة خففتْ الصلاة ، وإلا ،

(١) هى : سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية ، من بنى يربوع ، متنبئة مشهورة ، كانت شاعرة أديبة عارفة بالأخبار ، ادعت النبوة بعد وفاة النبى ﷺ ، كان لها علم بالكتاب أخذته عن نصارى تغلب ، نزلت اليمامة واجتمعت بمسيلمة وتزوجها ، ثم بلغها مقتل مسيلمة ، فأسلمت وهاجرت إلى البصرة وتوفيت فيها ، وصلى عليها سمرة بن جندب والى البصرة لمعاوية عام ٥٥ هـ . [الأعلامَ للزركلى ٣/٧٨] .

فكيف سيجمعون الناس من حولهم ؟

وما أشبه مُدَّعى الأمس بمدعى اليوم الذين يبيعون الدين بعَرَضٍ من الدنيا ، فيُفْتون الناس بتحليل ما حرَّم الله ، مثل الاختلاط وغيره من القضايا حتى هان أمر الدين على الناس . والدين وإنْ كان فطرياً فى النفس الإنسانية إلا أن الإنسان يميل إلى مَنْ يُخفِّف عنه ، وتعجب حين ترى بعض المثقفين وحملة الشهادات يذهبون إلى الدجالين ويُصدِّقونهم ، وترى الواحد منهم يُكذِّب نفسه أنه على دين يريحه ، ويفعل فى ظله ما يريد .

إذن : ما دُمْتم مؤمنين بربوبية خلق وربوبية إمداد وإنعام ، فعليكم أن تؤمنوا بما جاء من ربكم ، كما نقول فى المثل : (اللى يأكل لقمتى يسمع كلمتى) ، ومع ذلك ورغم فضل الله ونعمه عليهم قُلْ لهم : لا جبرَ فى الإيمان ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف] لأن منفعة الإيمان عائدة عليكم أنتم .

وقد جاء فى الحديث القدسى[(١)] : « إنكم لن تملكوا نفعى فتنفعونى ، ولن تملكوا ضُرّى فتضرونى ، ولو أن أوّلكم وآخركم ، وحيكم وميتكم ، وشاهدكم وغائبكم اجتمعوا على أتْقَى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى مُلْكى شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم ، وحيكم وميتكم ، وشاهدكم وغائبكم اجتمعوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً » .

« ولو أن أولكم وآخركم اجتمعوا فى صعيد واحد ، وسألنى كُلٌّ مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك مما عندى إلا كمغْرز إبرة إذا

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه بنحوه (٢٤٩٥) ، وأحمد فى مسنده (٥/١٥٤ ، ١٧٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

غمسـها أحدكم فى بحر ، وذلك أنِّى جواد واجد مـاجد ، عطائى كلام وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردتُه أنْ أقولَ له كُنْ فيكونَ » .

إذن : فائدة الإيمـان تعود على المـؤمن ، كما قـال تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا .. (٤٦)﴾ [فصلت] لكنى أحب لخَلْقى أن يكونوا دائماً على خير منى ، فأنا أعطيهم خير الدنيا ، وأحب أيضاً أن أعطيهم خير الآخرة .

جاءتْ هذه الآية بعد قوله تعالى : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ .. (٢٨)﴾ [الكهف]

وكان خصـوم الإسلام حينما يَـرَوْنَ الدعوة تنتشر شـيئاً فشـيئاً يحاولون إيقافـها ، لا من جهتـهم بالعدوان على مَنْ يؤمن ، ولكن من جهته ﷺ ، فأرسلوا إليه وَفْداً ، قـالوا : يا محمد إنّا بعثنا إليك لنُعْذرَ فيك ، لقـد أدخلتَ على قومك مـا لم يُدخلْه أحد قـبلك ، شتمـتَ آلهتنا وسفَّهْتَ أحـلامنا وسببْت ديننا ، فإنْ كنت تريد مالاً جـمعنا لك المال حـتى تصيـر أغنانا ، وإنْ كنت تريد جـاهاً سوَّدناكَ علينا ، وجـعلناك رئيسنا ، وإنْ كنت تريد مُلْكاً ملكْناك .

فقـال ﷺ : « والله ما بى ما تقـولون ، ولكن ربى أرسلنى بالحق إليكم ، فإنْ أنتم أطعتُم فبها ، وإلاَّ فإنَّ الله ناصرى عليكم »[1] .

---

(١) أورده ابن هشام فـى السيرة النبـوية (١/٢٩٥ - ٢٩٧) ، أنه قد اجـتمع ١٥ من كـبار قريش عند الكعبة وأرسلوا إلى محـمد ﷺ ليكلمـوه ، فعرضوا عليه الأموال والملك والشرف والجاه أو الطب إن كان له تابع مـن الجن ، فقال لهم ﷺ : « ما بى ما تقـولون ، ما جئت بما جئت به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملْك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً ، وأنزل علىّ كتاباً .. فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم » .

وكانت هذه المحاولة بينهم وبينه ﷺ لعل الأمر حين يكون سراً يتساهل فيه رسول الله ، فلما لم يجدوا بُغْيتهم قالوا : نتوسل إليك بمَنْ يحب ، فربما خجل أنْ يقبلَ منا ونحن خصومه ، فلنرسل إليه مَنْ يحبه ، فذهبوا إلى عمه أبى طالب ، فلما كلَّمه عمه قال قولته المشهورة : « والله ، يا عَمّ لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أتركَ هذا الأمر ما تركته ، حتى يُظهره الله ، أو أهْلِك دونه »(١)

فلما فشلت هذه المحاولة أيضاً أتَوْهُ من ناحية ثالثة ، فقالوا : ننتهى إلى أمر هو وسط بيننا وبينك : دَعْكَ من هؤلاء الفقراء ، واصْرِف وجهك عنهم ، ولا تربط نفسك بهم ، ووجِّه وجهك إلينا ، فأنزلَ الله : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ .. (٢٨) ﴾ [الكهف]

ثم بيَّن الحق سبحانه وتعالى أن الإسلام أو الدين الذى أنزله الله لا يأخذ أحكامه من القوم الذين أُنزِل عليهم ؛ لأن رسول الله إنما أُرسلَ ليضع لهم موازين الحق ، ويدعو قومه إليها ، فكيف يضعون هم هذه الموازين ، فيأمرون رسول الله بأنْ يصرف وجهه عن الفقراء ويتوجّه إليهم ؟

لذلك قال : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] لأنه بعثنى بالحق رسولاً إليكم ، وما جئت إلا لهدايتكم ، فإنْ كنتم تريدون

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢٦٦/١) معزواً لابن إسحاق أن يعقوب بن عتبة ابن المغيرة بن الأخنس حدَّثه أن قريشاً عندما طلبوا من أبى طالب أن يكف محمداً ﷺ عنهم فقال لابن أخيه : يابن أخى إن قومك قد جاءونى ، فقالوا لى كذا وكذا للذى كانوا قالوا له : فأبْق علىّ وعلى نفسك ، ولا تُحمِّلنى من الأمر ما لا أطيق . فقال رسول الله ﷺ مقالته هذه . فقال أبو طالب : اذهب يا بن أخى ، فقل ما أحببت ، فو الله لا أسلمك لشىء أبداً .

توجيهى حسْب أهوائكم فقد انقلبتْ المسألة ، ودعوتكم لى أن أنصرف عن هؤلاء الذين يدعُون ربهم بالغداة والعشىّ وأتوجه إليكم ، فهذا دليل على عدم صدْق إيمانكم ، وأنكم لستم جادِّين فى اتباعى ؛ لذلك فلا حاجة بى إليكم .

ثم يقول تعالى : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف] أى : ادخلوا على هذا الأساس : أن كل حَقٍّ ينزل من الله ، لا أن آخذ الحق منكم ، ثم أردّه إليكم ، بل الحق الذى أرسلنى الله به إليكم ، وعلى هذا مَنْ شاء فليؤمن ومَنْ شاء فليكفر .

والأمر فى هذه الآية سبق أنْ أوضحناه فقلنا : إذا وجدنا أمراً بغير مطلوب فلنفهم أن الأمر استُعمل فى غير موضعه ، كما يقول الوالد لولده المهمل : العب كما تريد ، فهو لا يقصد أمر ولده باللعب بالطبع ، بل يريد تهديده وتأنيبه .

وهكذا فى : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف] وإلا لو أخذتَ الآية على إطلاقها لكانَ مَنْ آمن مطيعاً للأمر : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن .. (٢٩)﴾ [الكهف] والعاصى أيضاً مطيع للأمر : ﴿وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف] فكلاهما ـ إذن ـ مطيع ، فكيف تُعذِّب واحداً دون الآخر ؟

فالأمر هنا ليس على حقيقته ، وإنما هو للتسوية والتهديد ، أى : سواء عليكم آمنتم أم لم تؤمنوا ، فأنتم أحرار فى هذه المسألة ؛ لأن الإيمان حصيلته عائدة إليكم ، فالله سبحانه غنىّ عنكم وعن إيمانكم ، وكذلك خلْق الله الذين آمنوا بمحمد هم أيضاً أغنياء عنكم ، فاستغناء الله عنكم مَسْحوب على استغناء الرسول ، وسوف ينتصر محمد وينتشر دين الله دونكم .

وقد أراد الحق سبحانه أن يصيح رسول الله ﷺ بالدعوة فى مكة ويجهر بها فى أذن صناديد الكفر وعُتَاة الجزيرة العربية الذين لا يخرج أحد عن رأيهم وأمرهم ؛ لأن لهم مكانةً وسيادة بين قبائل العرب .

ولحكمة أرادها الحق سبحانه لم يأتِ نصر الإسلام على يد هؤلاء ، ولو جاء النصر على أيديهم لقيل : إنهم أَلِفُوا النصر وأَلِفُوا السيادة على العرب ، وقد تعصَّبوا لواحد منهم لِيَسُودوا به الدنيا كلها ، فالعصبية لمحمد لم تخلق الإيمان بمحمد ، ولكن الإيمان بمحمد خلق العصبية لمحمد .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا .. ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف]

والعذاب هنا لمن اختار الكفر ، لكن لماذا تُهوِّل الآية وتُفخِّم أمر العذاب ؟ لأن الإعلام بالعقاب وتهويله وتفظيعه والإنذار به لا ليقع الناس فى موجبات العقاب ، بل لينتهوا عن الجريمة ، وينأوْا عن أسبابها ، إذن : فتفظيع العقاب وتهويله رحمة من الله بالعباد ؛ لأن خَوْف العذاب سيمنعهم من الجريمة .

ومعنى (أعتدنا) أى : أعددنا ، فالمسألة منتهية مُسْبقاً ، فالجنة والنار مخلوقة فعلاً ومُعدَّة ومُجهّزة ، لا أنها ستُعَدُّ فى المستقبل ، وقد أُعِدَّتْ إعداد قادر حكيم ، فأعدَّ الله الجنة لتتسع لكل الخَلْق إنْ آمنوا ، وأعدَّ النار لتتسع لكل الخلق إنْ كفروا ، فإنْ آمن بعض الخلق وكفر البعض ، فالذى آمن وَفَّر مكانه فى النار ، والذى كفر وفَّر مكانه فى الجنة .

لذلك قال تعالى فى هذه المسألة : ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف]

إذن : فخَلْق الله تعالى للجنة وللنار أمر منضبط تماماً ، ولن يحدث فيهما أزمة أو زحام أبداً ، بل لكلٍّ مكانه المعدّ المخصّص .

وقوله تعالى : ﴿لِلظَّالِمِينَ .. (٢٩)﴾ [الكهف] والظلم أن تأخذ حقاً وتعطيه للغير ، وللظلم أشكال كثيرة ، أفظعها وأعظمها الإشراك بالله ، لأنك تأخذ حَقَّ الله في العبادة وتعطيه لغيره ، وهذا قمة الظلم ، ثم يأتي الظلم فيما دون ذلك ، فيأخذ كل ظالم من العذاب على قَدْر ظُلْمه ، إلا أن يكون مشركاً . فهذا عذابه دائم ومستمر لا ينقطع ولا يفتُر عنه ، فإنْ ظلم المؤمن ظلماً دون الشرك فإنه يُعذَّب به ، ثم يُدخله الله الجنة ، إنْ لم يتُبْ ، وإنْ لم يغفر الله له .

وقوله تعالى : ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا .. (٢٩)﴾ [الكهف] السرادق ، كما نقول الآن : أقاموا السرادق أي : الخيمة . ومعنى سرادق : أي محيط بهم ، فكأن الله تعالى ضرب سرادقاً على النار يحيط بهم ويحجزهم ، بحيث لا تمتد أعينهم إلى مكان خالٍ من النار ؛ لأن رؤيته لمكان خَالٍ من النار قد تُوحي إليه بالأمل في الخروج ، فالحق سبحانه يريد أنْ يُؤيسَهم من الخروج .

ثم يقول تعالى : ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩)﴾ [الكهف]

الاستغاثة : صَرْخة ألم من متألم لمن يدفع عنه ذلك الألم ، كما قال في آية أخرى : ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢)﴾ [إبراهيم] أي : حين تصرخون من العذاب لا أستطيع أنْ أزيل صراخكم ، وأنتم كذلك لا تزيلون صراخي .

فأهل النار حين يستغيثون من ألم العذاب (يُغَاثُوا) يتبادر إلى الذِّهْن أنهم يُغَاثُون بشيء من رحمة الله ، فتأتيهم نفحة من الرحمة أو

يُخفّف عنهم العذاب .. لا ﴿ يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] أى : فإنْ طلبوا الغَوْث بماء بارد يخفف عنهم ألم النار ، فإذا بهم بماء كالمهل .

والمهْل هو عُكَارة الزيت المغلى الذى يسمونه الدُّرْدِىّ ، أو هو المذاب من المعادن كالرصاص ونحوه ، وهذا يحتاج إلى حرارة أعلى من غَلْى الماء ، وهكذا يزدادون حرارةً فوق حرارة النار ، ويُعذَّبون من حيث ينتظرون الرحمة .

وقوله تعالى هنا : (يُغَاثُوا) أسلوب تهكمىّ ؛ لأن القاعدة فى الأساليب اللغوية أنْ تخاطب المخاطب على مقتضى حاله ، فتهنئه حال فرحه ، وتعزيه حال حزنه بكلام موافق لمقتضى الحال ، فإنْ أخرجتَ المقتضى عن الحال الذى يطلبه ، فهذا ينافى البلاغة إلا إنْ أردتَ التهكُّمَ أو الاستهزاء .

إذن : فقوله تعالى عن الكفار : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] تهكّم بهم ، لأن الكلام فيه خرج عن مقتضى الحال ، كما يقول الوالد لولده الذى أخفق فى الامتحان : مبارك عليك السقوط .

ومعنى : ﴿ يَشْوِى الْوُجُوهَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] أن الماء من شدة حرارته يشوى وجوههم ، قبل أن يدخل أجوافهم : ﴿ بِئْسَ الشَّرَابُ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] أى : الذى يغاثون به ﴿ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] المرتفق هو الشىء الذى يضع الإنسان عليه مِرْفقه ليجلس مُستريحاً ، لكن بالله هل هناك راحة فى جهنم ؟

إذن : فهذه أيضاً من التهكّم بهم وتبكيتهم ، كما قال تعالى

مخاطباً جبابرة الدنيا وأعزّتها وأصحاب العظمة فيها ممَّنْ عَصَوْا الله :
﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)﴾ [الدخان]

والحق سبحانه وتعالى يتكلم فى هذه المسألة بأساليب متعددة ، منها استخدام كلمة (النُّزُل) وهو ما يُعد لإكرام الضيف ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧)﴾ [الكهف]

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢)﴾ [فصلت]

فالذى أَعَدَّ هذا النُّزُل وهذه الضيافة هو الغفور الرحيم ، والذى يُعد نُزُلاً لضيفه يُعدّه على قَدْر غنَاه وبَسْطة كرمه ، فما بالك بنُزل أعدّه الله لأحبابه وأوليائه ؟

وذيّل الآية بقوله : ﴿غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢)﴾ [فصلت] لأنه ما من مؤمن إلا وقد عمل سيئة ، أو همَّ بها ، وكأن الحق سبحانه يقول : إياك أنْ تذكرَ ما كان منك وأنت فى هذا النُّزُل الكريم ، فالله غفور لسيئتك ، رحيم بك ، يقبل توبتك ، ويمحو أثر سيئتك .

والحديث عن النُّزل هنا فى الجنة ، فهى محلُّ الإكرام والضيافة ، فإن استخدم فى النار فهو للتهكُّم والسخرية من أهلها ، كما قال تعالى : ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣)﴾ [الواقعة] فقد استخدم النزل فى غير مقتضاه .

بعد أن جاء الأمر الإلهى فى قوله تعالى : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف] أراد سبحانه أنْ يُبيِّن حكم كُلٍّ من الاختيارين : الإيمان ، والكفر على طريقة اللَّفِّ والنشر[1] ، وهو أسلوب معروف فى العربية ، وهو أن تذكر عدة أشياء ، ثم تُورِد أحكامها حَسْب ترتيبها الأول ، أو تذكرها مُشوَّشة دون ترتيب .

ومن النوع الأول الذى يأتى فيه اللَّفُّ والنشْر على الترتيب قوله تعالى : ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣)﴾ [القصص] أى : لتسكنوا فى الليل ، وتبتغوا من فضل الله فى النهار .

فالترتيب إذا كان الحكم الأول للمحكوم عليه الأول ، والحكم الثانى للمحكوم عليه الثانى وهكذا ، ومن ذلك قول الشاعر :

قَلْبِى وَجَفْنِى وَاللسان وخالقى

هذه أربع مُخْبر عنها ، فما قصتها وبماذا أخبرنا عنها ؟ يقول :

قَلْبِى وَجَفْنِى وَاللسَانُ وَخَالقى   رَاضٍ وبَاكٍ شَاكرٌ وغَفُورُ

فتكون على الترتيب : قلبى راضٍ ، وجفنى باكٍ ، ولسانى شاكر ، وخالقى غفور .

ومرة يأتى اللف والنشر على التشويش ودون ترتيب ثقةً بأن نباهةَ السامع ستردُّ كل شىء إلى أصله[2] كما فى الآية التى نحن

---

(١) اللف والنشر : هو أن يذكر شيئان أو أشياء ، إما تفصيلاً بالنص على كل واحد أو إجمالاً ، بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد ، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك ، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم ، ويفوِّض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به [الإتقان فى علوم القرآن ٣/٢٧٩ - ٢٨١] .

(٢) وذلك مثل قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)﴾ [آل عمران] .

بصددها ، فتلاحظ أن الحق سبحانه بعد أن قال : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] فبدأ باختيار الإيمان ثم ذكر الكفر ، أما في الحكم على كل منهما فقد ذكر حكم الكفر أولاً : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا .. (٢٩) ﴾ [الكهف] ثم ذكر بعده حكم المؤمنين : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) ﴾ [الكهف]

وليكُنْ في الاعتبار أن المتكلم رَبٌّ حكيم ، ما من حرف من كلامه إلا وله مغزى ، ووراءه حكمة ، ذلك أنه تعالى لما تكلّم عن الإيمان جعله اختياراً خاضعاً لمشيئة العبد ، لكنه تعالى رجّح أن يكونَ الإيمانُ أولاً وأنْ يسبق الكفر . أما حينما يتكلم عن حكم كل منهما ، فقد بدأ بحكم الكفر من باب أنْ « دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المنفعة » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ ﴾

وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه عطف على الإيمان العملَ الصالح ؛ لأن الإيمان هو العقيدة التي ينبع عن أصلها السلوك ، فلا جدوى من الإيمان بلا عمل بمقتضى هذا الإيمان ، وفائدة الإيمان أنْ تُوثِّق الأمر أو النهي إلى الله الذي آمنتَ به ؛ لذلك جاء الجمع بين الإيمان والعمل الصالح في مواضع عدّة من كتاب الله ، منها قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

ذلك لأن المؤمنين إذا ما أثمر فيهم الإيمانُ العملَ الصالح فإنهم سيتعرضون ولا بُدّ لكثير من المتاعب والمشاق التى تحتاج إلى التواصى بالصبر والتواصى بالحق ، ولنا أسوة فى هذه المسألة بصحابة رسول الله ﷺ الذين تحمّلوا عِبء الدعوة وصبروا على الأذى فى سبيل إيمانهم بالله تعالى .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) ﴾ [الكهف]

نلاحظ أن (مَنْ) هنا عامة للمؤمن وللكافر ؛ لذلك لم يَقُل سبحانه : إنَّا لا نضيع أجر مَنْ أحسن الإيمان ؛ لأن العامل الذى يُحسن العملَ قد يكون كافراً ، ومع ذلك لا يبخسه الله تعالى حقَّه ، بل يعطيه حظه من الجزاء فى الدنيا .

فالكافر إن اجتهد وأحسن فى علم أو زراعة أو تجارة لا يُحرم ثمرة عمله واجتهاده ، لكنها تُعجَّل له فى الدنيا وتنتهى المسألة حيث لا حَظَّ له فى الآخرة .

ويقول تبارك وتعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً (٢٣) ﴾ [الفرقان]

ويقول تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ[1] عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً (١٨) ﴾ [الإسراء]

ويقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

---

(١) العاجلة : الدنيا . والآجلة : الآخرة [لسان العرب ـ مادة : عجل] .

فهؤلاء قد استوفوا أجورهم ، وأخذوا حظَّهم في الدنيا ألواناً من النعيم والمدح والثناء ، وخُلِّدتْ ذكراهم ، وأقيمت لهم التماثيل والاحتفالات ؛ لذلك يأتى فى الآخرة فلا يجد إلا الحسرة والندامة حيث فُوجيء بوجود إله لم يكُنْ يؤمن به ، والإنسان إنما يطلب أجره ممَّنْ عمل من أجله ، وهؤلاء ما عملوا لله بل للإنسانية وللمجتمع وللشهرة ، وقد نالوا هذا كله فى الدنيا ، ولم يَبْقَ لهم شيء فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ[1] وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾

(أولَئكَ) أى : الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الكهف] الجنات رأينا منها صورة فى الدنيا ، وتُطلق إطلاقاً شرعياً وإطلاقاً لغوياً . أما الشرعى : فهو الذى نعرفه من أنها الدار التى أعدَّها الله تعالى لثواب المؤمنين فى الآخرة . أما المعنى اللغوى : فهى المكان الذى فيه زرع وثمار وأشجار تُوارى مَنْ سار فيها وتستره ؛ ومادة الجيم والنون تدور كلها حول الاستتار والاختفاء فالجنون استتار العقل والجن مخلوقات لا ترى والجُنّة بالضم الدرع يستر الجسم عن المهاجم .. إلخ .

وقلنا : إن الحق سبحانه حينما يُحدِّثنا عن شيء غيبيّ يُحدِّثنا بما يوجد فى لغتنا من ألفاظ ، واللغة التى نتكلم بها ، يوجد المعنى أولاً

---

(١) السندس : رقيق الديباج ، وهوالحرير الذى يتلون ألواناً . [القاموس القويم ١/٣٣١] .
والإستبرق : الديباج الغليظ وهو من الحرير الطبيعى ، ويصلح للشتاء لأنه مدفيء وللملابس الخارجية . [القاموس القويم ١/١٨] .

ثم يوُجَد اللفظ الدالّ عليه ، فإذا عرفنا أن هذا اللفظ موضوع لهذا المعنى ، فإنْ نُطق اللفظ نفهم معناه . فإذا كانت الأشياء التى يُحدِّثنا الله عنها غيباً كما قال عنها رسول الله ﷺ : « فيها ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر »[1] .

إذن : فمن أين نأتى بالألفاظ الدَّالة على هذه المعانى ونحن لم نعرفها ؟ لذلك يُعبِّر عنها الحق سبحانه بالشبيه لها فى لغتنا ، لكن يعطيها الوصف الذى يُميِّزها عن جنة الدنيا ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ .. (١٥)﴾ [محمد]

ونحن نعرف النهر ، ونعرف الماء ، لكن يأتى قوله : (غير آسن) ليميز ماء الآخرة عن ماء الدنيا ، وكذلك فى : ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ .. (١٥)﴾ [محمد]

فالخمر فى الدنيا معروفة ؛ لكنها ليست لذة لشاربها ، فشاربها يبتلعها بسرعة ؛ لأنه لا يستسيغ لها طعماً أو رائحة ، كما تشرب مثلاً كوباً من العصير رشفة رشفة لتلتذ بطعمه وتتمتع به ، كما أن خمر الدنيا تغتال العقول على خلاف خمر الآخرة ؛ لذلك لما أعطاها اسم الخمر لنعرفها ميَّزها بأنها لذة ، وخَمْر الدنيا ليست كذلك ؛ لأن لغتنا لا يوجد بها الأشياء التى سيخلقها الله لنا فى الجنة ، فبها ما لا

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٤٦٦/٢) وأبو نعيم فى الحلية (٢٦٢/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وتمامه : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . وقد شرحه فضيلة الشيخ الشعراوى رحمه الله فى كتاب « الأحاديث القدسية » المجلد الأول ـ صفحة ٦٩ – ٨٥ .

عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، والعين إدراكاتها أقلّ من إدراكات الأذن ؛ لأن العين تعطيك المشهد الذى رأيته فحسب ، أما الأذن فتعطيك المشهد الذى رأيته والذى رآه غيرك ، ثم يقول : « ولا خطر على قلب بشر » فوسَّع دائرة ما فى الجنة ، مما لا نستطيع إدراكه .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى .. (١٥) ﴾ [محمد]

ونحن نعرف العسل فميَّزه هنا بأنه مُصفّى ، ومعروف أن العسل قديماً كانوا يأخذونه من الجبال ، وكان يعلَقُ به الحصى والرمل ؛ لذلك مُيِّز عسل الجنة بأنه مُصفّى .

وكذلك فى قوله سبحانه : ﴿ سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) ﴾ [الواقعة] ونعرف سدر الدنيا ، وهو نوع من الشجر له شوك ، وليس كذلك سدْر الجنة ؛ لأنه سدر مخضود لا شوك فيه، ولا يُدْمِى يدك كسدْر الدنيا .

وهنا مِيَّز الله الجنة فى الآخرة عن جنات الدنيا ، فقال : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ .. (٣١) ﴾ [الكهف] أى : إقامة دائمة لا تنتهى ولا تزول ، وليست كذلك جنات الدنيا ، فهَبْ أن واحداً يتمتع فى الدنيا بالدُّور والقصور فى الحدائق والبساتين التى هى جنة الدنيا ، فهل تدوم له ؟ إن جنات الدنيا مهما عَظُم نعيمها ، إما أنْ تفوتك ، وإما أنْ تفوتها .

والعَدْن اسم للجَنَّة ، فهناك فَرْق بين المسكن والمسكن فى الجنة ، كما ترى حدائق عامة وحدائق خاصة ، فالمؤمن فى الجنة له مسكن خاص فى جنة عدن .

ويقول تعالى عن أنهار الجنة : ﴿ تَجْرِى من تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (١٢) ﴾ [محمد] ، وفى آية أخرى يقول : ﴿ تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. (١٠٠) ﴾ [التوبة]

ليعطينا صورتين لجريان الماء ، ففى قوله : ﴿تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. (١٠٠)﴾ [التوبة] يدلُّ على أن الماء يأتيها من بعيد ، وقد تخشى أن يمنعه أحد عنك أنْ يَسُدَّه دونك ؛ لذلك يقول لك : اطمئن فالماء يجرى (من تحتها) أى : من الجنة نفسها لا يمنعه أحد عنك .

وفى هذه الآية كأنَّ الحق سبحانه وتعالى يعطينا إشارة لطيفة إلى أننا نستطيع أن نجعل لنا مساكن على صفحة الماء ، وأن نستغل المسطحات المائية فى إقامة المبانى عليها ، خُذْ مثلاً المسطحات المائية للنيل ، أو الريَّاح التوفيقى من القناطر الخيرية حتى دمياط لَوجدْتَ مساحات كبيرة واسعة يمكن بإقامة الأعمدة فى الماء ، واستخدام هندسة البناء أنْ نقيم المساكن الكافية لسُكْنى أهل هذه البلاد ، وتظل الأرض الزراعية كما هى للخُضْرة وللزرع ولِقُوت الناس .

ويمكن أن تُطبَّق هذه الطريقة أيضاً فى الريف ، فيقيم الفلاحون بيوتهم وحظائر مواشيهم بنفس الطريقة على الترع والمصارف المنتشرة فى بلادنا ، ولا نمس الرقعة الزراعية .

لقد هجمتْ الحركة العمرانية على الجيزة والدقى والمهندسين ، وكانت فى يوم من الأيام أراضى تغل كل الزراعات ، وتخدم تموين القاهرة . ولما استقدموا الخبراء الأجانب لتوسيع القاهرة توجهوا إلى الصحراء وأنشأوا مصر الجديدة ، ولم يعتد أحد منهم على شبر واحد من الأرض الزراعية ، بل جعلوا فى تخطيطهم رقعة خضراء لكل منزل .

إذن : فى الآية لفتة يمكن أنْ تحلَّ لنا أزمة الإسكان ، وتحمى لنا الرقعة الزراعية الضيقة .

ثم يقول تعالى : ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ .. (٣١)﴾ [الكهف] وقد يقول قائل : وما هذه الأساور من الذهب التى يتحلَّى بها الرجال ؟ هذه من الزخرف والزينة ، نراه الآن فى طموحات الإنسان فى زُخْرفية الحياة ، فنرى الشباب يلبسون ما يُسمَّى (بالانسيال) وكذلك أساور الذهب فى الآخرة زينة وزخرف ، وفى آية أخرى ، يقول تعالى : ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ .. (٢١)﴾ [الإنسان]

ومرة أخرى يقول : ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣)﴾ [فاطر]

فالأساور إما من ذهب أو فضة أو لؤلؤ ؛ لذلك قال ﷺ عن هذه الحلية فى الآخرة أنها تبلغ ما بلغه الوضوء عند المؤمن[1] .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ .. (٣١)﴾ [الكهف] أن التحلية هنا للزينة ، وليست من الضروريات ، فجاء الفعل (يُحلَّوْنَ) أى : حلاَّهم غيرهم ولم يقل يتحلون ؛ لذلك لما تكلم بعدها عن الملبس ، وهو من الضروريات قال :

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ .. (٣١)﴾ [الكهف]

فأتى بالفعل مبنياً للمعلوم ؛ لأن الفعل حدث منهم أنفسهم بالعمل ، أما الأولى فكانت بالفضل من الله ، وقد قُدم الفضل على العمل ، كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. (٥٨)﴾ [يونس]

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٧١) ، ومسلم فى صحيحه (٢٥٠) ، والنسائى فى سننه (١/٩٣) أن أبا حازم قال : كنت خلف أبى هريرة وهو يتوضأ للصلاة وكان يغسل يديه حتى يبلغ إبطيه . فقلت : يا أبا هريرة ما هذا الوضوء ؟ فقال لى : يا بنى فرُّوخ أنتم هاهنا ، لو علمت أنكم ها هنا ما توضأت هذا الوضوء ، سمعت خليلى ﷺ يقول : « تبلغ حلية المؤمن حيث يبلغ الوضوء »

أى : إياك أن تقول هذا بعملى ، بل بفضل الله وبرحمته ؛ لذلك نرى الرسول ﷺ يقر بهذه الحقيقة ، فيقول : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته »[1] .

ذلك لأنك لو نظرتَ إلى عملك لوجدتَه بعد تكليفك الذى كلفت به فى سنِّ البلوغ ، وقد عشْت طوال هذه المدة ترتع فى نِعَم الله ورزقه دون أنْ يُكلِّفك بشىء ؛ لذلك مهما قَدَّمْتَ لله تعالى من طاعات ، فلن تفِى بما أنعم به عليك .

وما تفعله من طاعات إنما هو وفاء لحق الله ، فإذا أدخلناك الجنة كان فضلاً من الله عليك ، لأنك أخذتَ حقك سابقاً ومُقدَّماً فى الدنيا ، لكنه قسم هنا فقال : ﴿يَلْبَسُونَ ..﴿٣١﴾﴾ [الكهف] أى : بما عملوا ، أما فى الزينة والتحلية فقال : (يُحلَّوْنَ) كالرجل الذى يُجهِّز ابنته للزواج ، فيأتى لها بضروريات الحياة ، ثم يزيدها على ذلك من الكماليات وزُخْرف الحياة من نجف أو سَجَّاد أو خلافه .

واللباس من ضروريات الحياة التى امتنَّ الله بها على عباده ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا .. ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف] والريش : هو الكماليات التى يتخذها الناس للفَخْفخة والمتعة ، وهو ما زاد عن الضروريات . والسُّندس : هو الحرير الرقيق ، والإستبرق : الحرير الغليظ السميك .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، ومسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وقد وقف العلماء عند هذه الكلمة (الإستبرق) وغيرها من الكلمات غير العربية مثل : القسطاس ، وهى كلمات فارسية الأصل ، أو كلمة (آمين) التى نتخذها شعاراً فى الصلاة وأصلها يمنىّ أو حبشىّ . وقالوا : كيف يستخدم القرآن مثل هذه الألفاظ ، وهو قرآن عربى ؟

نقول : هل أدخل القرآن هذه الألفاظ فى لغة العرب ساعةَ نزل ، أم جاء القرآن وهى سائرة على ألسنة الناس يتكلمون بها ويتفاهمون ؟ لقد عرف العرب هذه الكلمات واستعملوها ، وأصبحت ألفاظاً عربية دارتْ على الألسنة ، وجرتْ مجرى الكلمات العربية .

ومن الكلمات التى دخلتْ العربية حديثاً استخدمت ككلمة عربية (بنك) ، وربما كانت أخفّ فى الاستعمال من كلمة (مصرف) ؛ لذلك أقرَّها مَجْمع اللغة العربية وأدخلها العربية .

إذن : فهذا القول يمكن أن يُقبَل لو أن القرآن جاء بهذه الألفاظ مجيئاً أولياً ، وأدخلها فى اللغة ولم تكُن موجودة ، لكن القرآن جاء ليخاطب العرب ، وما داموا قد فهموا هذه الألفاظ وتخاطبوا بها ، فقد أصبحت جُزْءاً من لغتهم .

ثم يقول تعالى : ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ .. (٣١)﴾ [الكهف] الاتكاء : أن يجلس الإنسان على الجنب الذى يُريحه ، والأرائك : هى السُّرر التى لها حلْية مثل الناموسية مثلاً . ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ .. (٣١)﴾ [الكهف] كلام منطقىّ : ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١)﴾ [الكهف] أى : أن هذا هو مُقْتضى الحال فيها ، على خلاف ما أخبر به عن أهل النار : ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩)﴾ [الكهف]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ[(١)] جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾

وما زال الكلام موصولاً بالقوم الذين أرادوا أن يصرفوا رسول الله ﷺ عن الذين يدعُونَ ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، وبذلك انقسم الناس إلى قسميْن : قسم مُتكبّر حريص على جاهه وسلطانه ، وقسم ضعيف مستكين لا جاهَ له ولا سلطان ، لكن الحق سبحانه يريد استطراق آياته استطراقاً يشمل الجميع ، ويُسوِّى بينهم .

لذلك ؛ أراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا مثَلاً موجوداً فى الحياة ، ففى الناس الكافر الغنى والمؤمن الفقير ، وعليك أنْ تتأمل موقف كل منهما .

قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الكهف] قلنا : إن الضرب معناه أن تلمس شيئاً بشىء أقوى منه بقوة تؤلمه ، ولا بُدَّ أن يكون الضارب أقوى من المضروب ، إلا فلو ضربتَ بيدك شيئاً أقوى منك فقد ضربتَ نفسك ، ومن ذلك قول الشاعر :

---

(١) سبب نزول الآية : ورد فى نزول هذه الآية عدة أقوال ، منها :

– نزلت فى أخويْن من أهل مكة مخزوميين ، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد زوج أم سلمة قبل النبى ﷺ . والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد ، وورث كل واحد منهما ٤ آلاف دينار ، فأنفق أحدهما ماله فى سبيل الله ، وطالب أخاه شيئاً فقال ما قال . قاله الكلبى وذكره الثعلبى والقشيرى .

– وقيل : هو مثل لعيينة بن حصْن وأصحابه مع سلمان وصهيب وأصحابه ، شبههم الله برجلين من بنى إسرائيل أخوينَ أحدهما مؤمن واسمه يهوذا . فى قول ابن عباس . وقال مقاتل : اسمه تمليخا . والآخر كافر واسمه قرطوش . وقد ذكر قصتهما بالتفصيل القرطبى فى تفسيره (٥/٤١٢٩ ، ٤١٣٠) .

وَيَا ضَارِباً بِعَصَاهُ الحَجَر ضربْتَ العَصَا أَمْ ضربْتَ الحجَر ؟

وضَرْب المثل يكون لإثارة الانتباه والإحساس ، فيُخرجك من حالة إلى أخرى ، كذلك المثَل : الشيء الغامض الذى لا تفهمه ولا تعيه ، فيضرب الحق سبحانه له مثلاً يُوضّحه ويُنبِّهك إليه ؛ لذلك قال : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً .. (٣٢) ﴾ [الكهف]

وسبق أن أوضحنا أن الأمثال كلام من كلام العرب ، يردُ فى معنى من المعانى ، ثم يشيع على الألسنة ، فيصير مثلاً سائراً ، كما نقول : جود حاتم ، وتقابل أى جَوّاد فتناديه : يا حاتم ، فلما اشتهر حاتم بالجود أُطلقَتْ عليه هذه الصفة . وعمرو بن معد اشتُهر بالشجاعة والإقدام ، وإياس اشتُهر بالذكاء ، وأحنف بن قيس اشتهر بالحلم . لذلك قال أبو تمام[1] فى مدح الخليفة :

إقْدامُ عَمْرٍو فى سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فى حِلْمِ أحنَفَ فِى ذَكَاءِ إياس

فأراد خصوم أبى تمام أن يُحقِّروا قوله ، وأن يُسقطوه من عين الخليفة ، فقالوا له : إن الخليفة فوق مَنْ وصفتَ ، وكيف تُشبّه الخليفة بهؤلاء وفى جيشه ألفٌ كعمرو ، وفى خُزّانه ألف كحاتم فكيف تشبهه بأجلاف العرب ؟ كما قال أحدهم : -

وَشبَّهه المدّاحُ فى البَاسِ والغِنَى بِمَنْ لَوْ رآهُ كانَ أَصْغر خَادِمِ

فَفِى جيْشه خَمْسُونَ أَلْفاً كعنْترٍ وَفِى خُزَّانه الْفُ حَاتِم

(١) هو : حبيب بن أوس الطائى ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠ هـ) ، نشأ نشأة متواضعة ، حيث كان يعمل صبياً لحائك ، توفى عام ٢٣١ هـ عن ٥١ عاماً .

فألهمه الله الردَّ عليهم ، على نفس الوزن ونفس القافية ، فقال :

لاَ تُنكرُوا ضَرْبى لَهُ مَنْ دُونَه　　　مثَلاً شَرُوداً[1] فى النَّدَى وَالبَاس

فالله قَدْ ضَربَ الأقلّ لِنُوره　　　مَثَلاً منَ المشْكَاةِ والنِّبْراس[2]

إذن : فالمثل يأتى ليُنبِّه الناس ، وليُوضّح القضية غير المفهومة ، والحق تبارك وتعالى قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة]

ثم يعطينا القرآن الكريم أمثالاً كثيرة لتوضيح قضايا معينة ، كما فى قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت]

وكذا قوله تعالى عن نقض الوعد وعدم الوفاء به : ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا .. ﴿٩٢﴾﴾ [النحل]

ومنه قوله تعالى : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [البقرة]

ومنه قوله تعالى مُصوِّراً حال الدنيا ، وأنها سريعة الزوال : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا[3] تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف]

---

(١) المثل الشرود : الخارج عن المألوف والعادة . والندى : السخاء والكرم . والباس : القوة والحرب .

(٢) النبراس : المصباح والسراج . والمشكاة : كوة فى جدار البيت ليست بنافذة ، وتُعرف فى قرانا بـ « الطاقة » مع نطق القاف همزة .

(٣) الهشيم : الحطب والخشب المحطم الذى تكسَّر . والهشيم : النبت اليابس المتكسر . وتهشَّم الشجر تهشماً إذا تكسر من يُبسه . [لسان العرب ـ مادة : هشم] .

فالمثل يُوضِّح لك الخفىّ بشىء جلىٍّ ، يعرفه كل مَنْ سمعه ، من ذلك مثلاً الشاعر[١] الذى أراد أنْ يصفَ لنا الأحدب فيُصوِّره تصويراً دقيقاً كأنك تنظر إليه :

قَصُرَتْ أَخَادعه[٢] وَغَاص قَذَالُه[٣] فكأنه مُتربِّصٌ أنْ يُصْفَعَا
وكأنما صُفِعْتَ قَفَاهُ مرةً وأَحسَّ ثانيةً لَهَا فتجمَّعَا

وهنا يقول الحق سبحانه : اضرب لهم يا محمد مثلاً للكفر إذا استغنى ، والفقير إذا رَضِى بالإيمان .

وقوله : ﴿ رَّجُلَيْنِ .. (٣٢) ﴾ [الكهف] أى : هما مَحلُّ المثل : ﴿ **جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢)** ﴾[الكهف]

لكن ، هل هذا المثل كان موجوداً بالفعل ، وكان للرجلين وجود فعلىّ فى التاريخ[٤] ؟

نعم ، كانوا واقعاً عند بنى إسرائيل وهما براكوس ويهوذا ، وكان يهوذا مؤمناً راضياً ، وبراكوس كان مستغنياً ، وقد ورثا عن أبيهم ثمانية آلاف دينار لكل منهما ، أخذ براكوس نصيبه واشترى به أرضاً يزرعها وقَصْراً يسكنه وتزوج فأصبح له ولدان وحاشية ، أما يهوذا ،

---

(١) هو ابن الرومى على بن العباس بن جريج ، شاعر كبير من طبقة بشار والمتنبى ، رومى الأصل ، كان جده من موالى بنى العباس ، ولد ببغداد ٢٢١ هـ ونشأ بها ، ومات فيها مسموماً عام ٢٨٣ هـ عن ٦٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٤/٢٩٧] .

(٢) الأخادع : جمع الأخدع . وهو أحد عرقين فى جانبى العنق .

(٣) القذال : جماع مؤخّر الرأس من الإنسان . [لسان العرب ـ مادة : قذل] .

(٤) ذكر الماوردى فيما نقله عنه القرطبى فى تفسيره (٥/٤١٣١) : إن هذا مثل ضربه الله تعالى لهذه الأمة ، وليس بخبر عن حال متقدمة ، لتزهد فى الدنيا وترغب فى الآخرة ، وجعله زجراً وإنذاراً . قال القرطبى : « سياق الآية يدل على خلاف هذا ، والله أعلم » .

فقد رأى أنْ يتصدّق بنصيبه ، وأن يشترى به أرضاً فى الجنة وقصراً فى الجنة وفضَّل الحور العين والولدان فى جنة عدن على زوجة الدنيا وولدانها وبهجتها .

وهكذا استغنى براكوس بما عنده واغترَّ به ، كما قال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق]

وأول الخيبة أن تشغلك النعمة عن المنعم ، وتظن أن ما أنت فيه من نعيم ثمرةُ جهدك وعملك ، ونتيجة سعْيك ومهارتك ، كما قال قارون : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] فتركه الله لعلْمه ومهارته ، فليحرص على ماله بما لديه من علم وقوة : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص] ولم ينفعه ماله أو علمه .

إذن : هاتان صورتان واقعيتان فى المجتمع : كافر يستكبر ويستغنى ويستعلى بغناه ، ومؤمن قَنُوع بما قسم الله له .

وانظر إلى الهندسة الزراعية فى قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الكهف]

فقد علَّمنا الله تعالى أن نجعل حول الحدائق والبساتين سُوراً من النخيل ليكون سياجاً يصدُّ الهواء والعواصف ، وذكر سبحانه النخل والعنب وهى من الفاكهة قبل الزرع الذى منه القوت الضرورى ، كما ذكر من قبل الأساور من ذهب ، وهى للزينة قبل الثياب ، وهى من الضروريات .

وقوله : ﴿ جَنَّتَيْنِ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الكهف] نراها إلى الآن فيمَنْ يريد أن

يحافظ على خصوصيات بيته ؛ لأن للإنسان مسكناً خاصاً ، وله عموميات أحباب ، فيجعل لهم مسكناً آخر حتى لا يطَّلع أحد على حريمه ؛ لذلك يسمونه السلاملك والحرملك .

وكذلك في قوله تبارك وتعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥)﴾ [سبأ]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا(١) (٣٣)﴾

أي : أعطتْ الثمرة المطلوبة منها ، والأُكُل : هو ما يُؤكل ، ونعرف أن الزراعات تتلاحق ثمارها فتعطيك شيئاً اليوم ، وشيئاً غداً ، وشيئاً بعد غد وهكذا .

﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا .. (٣٣)﴾ [الكهف] كلمة (تظْلم) تعطينا إشارة إلى عمل الخير في الدنيا ، فالأرض وهي جماد لا تظلم ، ولا تمنعك حقاً ، ولا تهدر لك تعباً ، فإنْ أعطيتَها جهدك وعملك جادتْ عليك ، تبذر فيها كيلةً تعطيك إردباً ، وتضع فيها البذرة الواحدة فتُغِلُّ عليك الآلاف .

إذن : فهي كريمة جوادة شريطة أن تعمل ما عليك من حَرْثٍ وبَذْر ورعاية وسُقْيا ، وقد تريحك السماء ، فتسقي لك .

---

(١) ذكر السيوطي في الدر المنثور (٥/٣٩٠) أن يحيى بن أبي عمرو الشيباني قال : نهر أبي فرطس نهر الجنتين . قال ابن أبي حاتم : وهو نهر مشهور بالرملة .

لذلك ، لما أراد الحق سبحانه أنْ يضرب لنا المثل فى مضاعفة الأجر ، قال : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ .. (٢٦١)﴾ [البقرة]

فإذا كانت الأرض تعطيك بالحبة سبعمائة حبة ، فما بالك بخالق الأرض ؟ لا شك أن عطاءه سيكون أعظم ؛ لذلك قال بعدها : ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة]

إذن : فالأرض لا تظلم ، ومن عدل الأرض أنْ تعطيك على قَدْر تعبك وكَدِّك فيها ، والحق سبحانه أيضاً يُقدِّر لك هذا التعب ، ويشكر لك هذا المجهود ، والنبى ﷺ لما رأى أحد الصحابة وقد تشققت يداه من العمل قال : « هذه يَدٌ يحبها الله ورسوله »[1] .

يحبها الله ورسوله ؛ لأنها تعبت وعملت لا على قَدْر حاجتها ، بل على أكثر من حاجتها ، عملتْ لها وللآخرين ، وإلا لو عمل كُلُّ عامل على قَدْر حاجته ، فكيف يعيش الذى لا يقدر على العمل ؟

إذن : فعلى أصحاب القدرة والطاقة أنْ يعملوا لما يكفيهم ، ويكفى العاجزين عن العمل ، وهَبْ أنك لن تتصدَّق بشىء للمحتاج ، لكنك ستبيع الفائض عنك ، وهذا فى حَدِّ ذاته نوعٌ من التيسير على الناس والتعاون معهم .

وما أشبه الأرض فى عطائها وسخائها بالأم التى تُجزل لك العطاء

---

(١) عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أمسى كالاً من عمل يديه أمسى مغفوراً له » قال الهيثمى فى المجمع (٤/٦٣) : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه جماعة لم أعرفهم » وعزاه السيوطى فى الدرر المنتثرة (ص ٣٨٨) لابن عساكر ، وله أيضاً من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

إنْ بررْتَ بها ، وكذلك الأرض ، بل إن الأم بطبيعتها قد تعطيك دون مقابل وتحنو عليك وإنْ كنت جاحداً ، وكذلك الأرض ألاَ تراها تُخرج لك من النبات ما لم تزرعه أو تتعب فيه ؟ فكيف إذا أنت أكرَمتها بالبر ؟ لا شك ستزيد لك العطاء .

والحقيقة أن الأرض ليست أُمَّنا على وجه التشبيه ، بل هى أُمّنا على وجه الحقيقة ؛ لأننا من ترابها وجزء منها ، فالإنسان إذا مرض مثلاً يصير ثقيلاً على كل الناس لا تتحمله وتحنو عليه وتزيل عنه الأذى مثل أمه ، وكذلك إنْ مات وصار جيفة يأنف منه كل أخ مُحب وكل قريب ، فى حين تحتضنه الأرض ، وتمتصّ كل ما فيه ، وتستره فى يوم هو أحوج ما يكون إلى السَّتْر .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) ﴾ [الكهف] ذلك لأن الماء هو أصْل الزرع ، فجعل الله للجنتين ماءً مخصوصاً يخرج منهما ويتفجر من خلالهما لا يأتيهما من الخارج ، فيحجبه أحد عنهما .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) ﴾

أى : لم يقتصر الأمر على أنْ كان له جنتان فيهما النخيل والأعناب والزرع الذى يُؤتى أُكُله ، بل كان له فوق ذلك ثمر أى : موارد أخرى من ذهب وفضة وأولاد ؛ لأن الولد ثمرة أبيه ، وسوف يقول لأخيه بعد قليل : أنا أكثر منك مالاً وأعزُّ نفراً .

ثم تدور بينهما هذه المحاورة : ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً (٣٤) ﴾ [الكهف]

دليل على أن ما تقدم ذِكْره من أمر الجنتين وما فيهما من نِعَم دَعَتْهُ إلى الاستعلاء هو سبب القول (لِصَاحِبِه) ، والصاحب هو : مَنْ يصاحبك ولو لم تكن تحبه (يُحَاوِرُه) أى : يجادله بأن يقول أحدهما فيرد عليه الآخر حتى يصلوا إلى نتيجة . فماذا قال صاحبه ؟ قال : ﴿ أَنَا أَكْثَرُ منكَ مَالاً .. (٣٤) ﴾ [الكهف] يقصد الجنتين وما فيهما من نعم ﴿ وَأَعَزُّ نَفَراً (٣٤) ﴾ [الكهف] داخلة فى قوله : ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ (٣٤) ﴾ [الكهف] وهكذا استغنى هذا بالمال والولد .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا (٣٥) ﴾

عرفنا أنهما جنتان ، فلماذا قال : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ .. (٣٥) ﴾ [الكهف] ؟ نقول : لأن الإنسان إنْ كان له جنتان فلنْ يدخلهما معاً فى وقت واحد ، بل حَالَ دخوله سوف يواجه جنةً واحدةً ، ثم بعد ذلك يدخل الأخرى .

وقوله : ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ .. (٣٥) ﴾ [الكهف] قد يظلم الإنسان غيره ، لكن كيف يظلم نفسه هو ؟ يظلم الإنسان نفسه حينما يُرخى لها عنان الشهوات ، فيحرمها من مشتهيات أخرى ، ويُفوِّت عليها ما هو أبقى وأعظم ، وظلم الإنسان يقع على نفسه ؛ لأن النفس لها جانبان : نفسٌ تشتهى ، ووجدان يردع بالفطرة .

فالمسألة - إذن - جدل بين هذه العناصر ؛ لذلك يقولون : أعدى أعداء الإنسان نفسه التى بين جنبيه ، فإنْ قلت : كيف وأنا ونفسى شىء واحد ؟ لو تأملتَ لوجدتَ أنك ساعة تُحدِّث نفسك بشىء ثم تلوم نفسك عليه ؛ لأن بداخلك شخصيتين : شخصية فطرية ، وشخصية أخرى استحوازية شهوانية ، فإنْ مَالتْ النفس الشهوانية أو انحرفتْ قَوَّمتها النفس الفطرية وعَدلَت من سلوكها .

لذلك قلنا : إن المنهج الإلهى فى جميع الديانات كان إذا عَمَّتْ المعصية فى الناس ، ولم يَعُدْ هناك مَنْ ينصح ويرشد أنزل الله فيهم رسولاً يرشدهم ويُذكِّرُهم ، إلا فى أمة محمد ﷺ ؛ لأنه سبحانه حَمَّلهم رسالة نبيهم ، وجعل هدايتهم بأيديهم ، وأخرج منهم مَنْ يحملون راية الدعوة إلى الله ؛ لذلك لن يحتاجوا إلى رسول آخر وكان ﷺ خاتم الأنبياء والرسل .

وكأنه سبحانه يطمئننا إلى أن الفساد لن يَعُمّ ، فإنْ وُجد من بين هذه الأمة العاصون ، ففيها أيضاً الطائعون الذين يحملون راية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهذه مسألة ضرورية ، وأساسٌ يقوم عليه المجتمع الإسلامى .

ثم يقول تعالى : ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) ﴾ [الكهف]

فهل معنى هذا أنه ظالم لنفسه بالدخول ؟ لا ، لأنها جنتُه يدخلها كما يشاء ، إنما المراد بالظلم هنا ما دار فى خاطره ، وما حَدَّث نفسه به حالَ دخوله ، فقد ظلم نفسه عندما خطر بباله الاستعلاء بالغنَى ، والغرور بالنعمة ، فقال : ما أظنُّ أنْ تبيدَ هذه النعمة ، أو تزولَ هذه الجنة الوارفة أو تهلك ، لقد غَرَّهُ واقع ملموس أمام عينيه استبعد معه

أن يزول عنه كل هذا النعـيم ، ليس هذا وفقط ، بل دعـاه غروره إلى أكثر من هذا فقال :

﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾

هكذا أطلق لغروره العنان ، وإنْ قُبلَتْ منه : ﴿ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الكهف] فلا يُقـبَل منه ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّـاعَةَ قَائِمَةً .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف] لذلك لما أنكر قيام الساعة هَزَّته الأوامـر الوجدانية ، فاستدرك قائلاً : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف] أى : على كل حال إنْ رُددتُ إلى ربى فى القيـامة ، فسوف يكون لى أكـثر من هذا وأعظم ، وكأنه ضمن أن الله تعالى أعدَّ له ما هو أفضل من هذا .

ونقف لنتأمل قَوْل هذا الجـاحد المستعلى بنعمة الله عليـه المفتون بها : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف] حيث يعـرف أن له رباً سيـرجع إليه ، فإنْ كنت كـذوباً فكُنْ ذَكُوراً ، لا تُناقض نفسك ، فـما حدثَ منك من استـعلاء وغرور وشكٌّ فى قيام السـاَعة يتنافى وقولك (رَبِّى) ولا يناسبه .

و (منقلَباً) أى : مرجعاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ[1] ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ ﴾

(١) النطفـة : مـاء الرجل أو المـرأة الذى يُخـلق منه الولد . [القـامـوس القـويم ٢/٢٧١] . والنطفـة : القليل من الماء . قـال ابن منظور فى [لسـان العرب ـ مـادة : نطف] : « وبه سُمِّى المنىُّ نطفة لقلته » .

هنا يردُّ عليه صاحبه المؤمن مُحاوِراً ومُجادلاً ليجلِّيَ له وَجْه الصواب : ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الكهف] أي : كلامك السابق أنا أنا ، وما أنت فيه من استعلاء وإنكار ، أتذكر هذا كله ولا تذكر بدايتك ومنشأك من تراب الذي هو أصل خَلْقك ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الكهف] وهي أصل التناسل ﴿ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴿٣٧﴾ ﴾ [الكهف] أي : كاملاً مُسْتوياً (ملو هدومك) .

و ﴿ سَوَّاكَ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الكهف] التسوية: هي إعداد الشيء إعداداً يناسب مهمته في الحياة ، وقلنا : إن العود الحديد السَّويّ مستقيم ، والخطاف في نهايته أعوج ، والاعوجاج في الخطاف هو عَيْن استقامته واستواء مهمته ؛ لأن مهمته أن نخطف به الشيء ، ولو كان الخطاف هذا مستقيماً لما أدَّى مهمته المرادة .

والهمزة في ﴿ أَكَفَرْتَ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الكهف] ليست للاستفهام ، بل هي استنكار لما يقوله صاحبه ، وما بدر منه من كُفْر ونسيان لحقيقة أمره وبداية خَلْقه .

والتراب هو أصْل الإنسان ، وهو أيضاً مرحلة من مراحل خَلْقه ؛ لأن الله تعالى ذكر في خلق الإنسان مرة (من ماء)[1] ومرة (من تراب)[2] ومرة (من حمأ مسنون)[3] ومرة (من صلصال كالفخار)[4] .

لذلك يعترض البعض على هذه الأشياء المختلفة في خَلْق الإنسان ، والحقيقة أنها شيء واحد ، له مراحل متعددة انتقالية ، فإنْ أضفْتَ الماء للتراب صار طيناً ، فإذا ما خلطْتَ الطين بعضه ببعض

---

(١) ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ [السجدة] .
(٢) ذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران] ، وقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الروم] .
(٣) وذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحجر] .
(٤) يقول تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الرحمن] .

صار حمأ[1] مسنوناً ، فإذا تركته حتى يجفّ ويتماسك صار صلْصَالاً ، إذن : فهى مرحليات لشىء واحد .

ثم يقول الحق سبحانه أن هذا المؤمن قال :

﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ ﴾

قوله: ﴿ لَكِنَّا .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [الكهف] أى : لكن أنا ، فحذفت الهمزة وأُدغمت النون فى النون . ولكن للاستدراك ، المؤمن يستدرك على ما قاله صاحبه : أنا لستُ مثلك فيما تذهب إليه ، فإنْ كنت قد كفرتَ بالذى خلقك من تراب ، ثم من نطفة ، ثم سوَّاك رجلاً ، فأنا لم أكفر بمَنْ خلقنى ، فقَولْى واعتقادى الذى أومن به : ﴿ هُوَ اللَّهُ رَبِّى .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [الكهف]

وتلاحظ أن الكافر لم يَقُلْ : الله ربى ، إنما جاءتْ ربى على لسانه فى معرض الحديث ، والفرْق كبير بين القولين ؛ لأن الربّ هو الخالق المتولّى للتربية ، وهذا أمر لا يشكّ فيه أحد ، ولا اعتراض عليه ، إنما الشكّ فى الإله المعبود المطاع ، فالربوبية عطاء ، ولكن الألوهية تكليف ؛ لذلك اعترف الكافر بالربوبية ، وأنكر الألوهية والتكليف .

ثم يؤكد المؤمن إيمانه فيقول :﴿ وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا ﴿٣٨﴾ ﴾[الكهف]

ولم يكتفِ المؤمن بأن أبانَ لصاحبه ما هو فيه من الكفر ، بل أراد أنْ يُعدّى إيمانه إلى الغير ، فهذه طبيعة المؤمن أن يكون حريصاً على هداية غيره ، لذلك بعد أنْ أوضح إيمانه بالله تعالى أراد أن يُعلِّم

---

(١) الحمأ والحمأة : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب فى قالب إنسانى أو مُصوَّر بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل . [القاموس القويم ١/ ٣٣١] .

صاحبه كيف يكون مؤمناً ، ولا يكمُل إيمان المؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وأيضاً من العقل للمؤمن أن يحاول أن يهدى الكافر ؛ لأن المؤمن صُحح سلوكه بالنسبة للآخرين ، ومن الخير للمؤمن أيضاً أن يُصحِّح سلوك الكافر بالإيمان .

لذلك من الخير بدل أنْ تدعوَ على عدوك أن تدعو له بالهداية ؛ لأن دعاءك عليه سيُزيد من شقائك به ، وها هو يدعو صاحبه ، فيقول :

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾

يريد أنْ يُعلمه سبيل الإيمان فى استقبال النعمة ، بأنْ يردَّ النعم إلى المنعم ؛ لأن النعمة التى يتقلّب فيها الإنسان لا فضْلَ له فيها ، فكلها موهوبة من الله ، فهذه الحدائق والبساتين كيف آتتْ أُكُلها ؟ إنها الأرض التى خلقها الله لك ، وعندما حرثْتها حرثْتها بآلة من الخشب أو الحديد ، وهو موهوب من الله لا دَخْلَ لك فيه ، والقوة التى أعانتك على العمل موهوبة لك يمكن أن تُسلبَ منك فى أىِّ وقت ، فتصير ضعيفاً لا تقدر على شىء .

إذن : حينما تنظر إلى كُلِّ هذه المسائل تجدها منتهيةً إلى العطاء الأعلى من الله سبحانه .

خُذْ هذا المقعد الذى تجلس عليه مستريحاً وهو فى غاية الأناقة وإبداع الصَّنْعة ، من أين أتى الصُّنّاع بمادته ؟ لو تتبعتَ هذا لوجدته

قطعةَ خشب من إحدى الغابات ، ولو سألتَ الغابة : من أين لك هذا الخشب لأجابتْك : من الله .

لذلك يُعلّمنا الحق سبحانه وتعالى الأدب فى نعمته علينا ، بقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾ [الواقعة]

هذه الحبة التى بذرتها فى حقلك ، هل جلستَ بجوارها تنميها وتشدّها من الأرض ، فتنمو معك يوماً بعد يوم ؟ إن كل عملك فيها أن تحرث الأرض وتبذر البذور ، حتى عملية الحرث سخّر الله لك فيها البهائم لتقوم بهذه العملية ، وما كان بوُسْعك أنْ تُطوّعها لهذا العمل لولا أنْ سخرها الله لك ، وذلّلها لخدمتك ، كما قال تعالى : ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) ﴾ [يس]

ما استطعت أنت تسخيرها .

إذن : لو حلَّلْتَ أيَّ نعمة من النعم التى لك فيها عمل لوجدت أن نصيبك فيها راجع إلى الله ، وموهوب منه سبحانه . وحتى بعد أن ينمو الزرع ويُزهر أو يُثمر لا تأمن أن تأتيه آفةٌ أو تحلُّ به جائحة فتهلكه ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) ﴾ [الواقعة]

كما يقول تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا[1] مُصْبِحِينَ (١٧) وَلا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) ﴾ [القلم]

---

(١) ليصرمنها : أى : حلفوا فيما بينهم ليجذن ثمرها ليلاً لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشىء . [تفسير ابن كثير ٤/٤٠٦] .

وكـذلك فى قوله تعـالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩)﴾ [الواقعة]

هذا المـاء الذى تشربونه عَـذْباً زلالاً ، هل تعـرفون كـيف نزل ؟ هـل رأيتــم بخـار المـاء الـصـاعـد إلى الجـو ؟ وكـيـف ينعـقـد سحـابا تسـوقه الريح ؟ هل دريْتُم بهـذه العملية ؟ ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا .. (٧٠)﴾ [الواقعة]

أى : ملْحاً شديداً لا تنتفعون به .

فحينما يمتنُّ الله على عبيده بأىِّ نعـمة يُذكِّرهم بما ينقضها ، فهى ليست من سَـعْيهم ، وعليـهم أنْ يشكروه تعالى عليهـا لتبقى أمـامهم ولا تزول ، وإلاَّ فلْيحافظوا عليها هم إنْ كانت من صُنْع أيديهم !

وكـذلك فى مسـألة خلْـق الإنسـان يُوضّح سـبـحانه وتعـالى أنه يمنح الحيـاة وينقضها بالمـوت ، قال تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠)﴾ [الواقعة]

فإنْ كـنتم أنتم الخالقـين ، فحـافظوا عليه وادفـعوا عنه الـموت . فذكر سبحانه النعمة فى الخلْق ، وما ينقض النعمة فى أصْل الخلْق .

أمـا فى خلْق النـار ، فـالأمـر مـخـتلف ، حـيـث يقـول تعـالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ[1] (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢)﴾ [الواقعة]

(١) أورى القادح زنده : أخـرج منه النار . [القاموس القـويم ٢/٣٣٣] . قال ابن كثـير فى تفسيره (٤/٢٩٦) : « أى : تقدحون النار من الزناد وتستخرجونها من أصلها » .

فذكر سبحانه قدرته فى خَلْق النار وإشعالها ولم يذكر ما ينقضها ، ولم يقُلْ : نحن قادرون على إطفائها ، كما ذكر سبحانه خَلْق الإنسان وقدرته على نقضه بالموت ، وخَلْق الزرع وقدرته على جعله حطاماً ، وخَلْق الماء وقدرته على جعله أجاجاً ، إلا فى النار ، لأنه سبحانه وتعالى يريدها مشتعلة مضطرمة باستمرار لتظل ذكرى للناس ، لذلك ذيَّل الآية بقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ[1] (٧٣) ﴾ [الواقعة]

كما نقف فى هذه الآيات على ملمح من ملامح الإعجاز ودقَّة الأداء القرآنى ؛ لأن المتكلم ربٌّ يتحدث عن كل شىء بما يناسبه ، ففى الحديث عن الزرع - ولأن للإنسان عملاً فيه مثل الحرْث والبذْر والسَّقْى وغيره - نراه يؤكد الفعل الذى ينقض هذا الزرع ، فيقول : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥) ﴾ [الواقعة] حتى لا يراودك الغرور بعملك .

أما فى الحديث عن الماء - وليس للإنسان دخل فى تكوينه - فلا حاجةَ إلى تأكيد الفعل كسابقه ، فيقول تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا .. (٧٠) ﴾ [الواقعة] دون توكيد ؛ لأن الإنسان لا يدعى أن له فضلاً فى هذا الماء الذى ينهمر من السماء .

نعود إلى المؤمن الذى ينصح صاحبه الكافر ، ويُعلِّمه كيف

---

(١) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك ، يعنى بالمقوين المسافرين ، واختاره ابن جرير ، وقال : ومنه قولهم : أقوت الدار إذا رحل أهلها . وقال مجاهد : يعنى المستمتعين من الناس أجمعين ، وكذا ذكر عن عكرمة . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٩٧) : « وهذا التفسير أعم من غيره ، فإن الحاضر والبادى من غنى وفقير ، الجميع محتاجون إليها للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع » .

يستقبل نعمة الله عليه : ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ..(٣٩)﴾ [الكهف] (لَوْلاَ) بمعنى : هلاً وهى للحثِّ والتحضيض ، وعلى الإنسان إذا رأى ما يعجبه فى مال أو ولد حتى لو أعجبه وجهه فى المرآة عليه أن يقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله .

وفى الحديث يقول رسول الله ﷺ : « ما قيل عند نعمة : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، إلا ولا ترى فيها آفة إلا الموت »[1] .

فساعة أن تطالع نعمة الله كان من الواجب عليك ألاَّ تُلهيكَ النعمة عن المنعم ، كان عليك أن تقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، أى : أن هذا كله ليس بقوتى وحيلتى ، بل فضل من الله فتردّ النعمة إلى خالقها ومُسديها ، وما دُمْتَ قد رددْتَ النعمة إلى خالقها فقد استأمنْتَهُ عليها واستحفظته إياها ، وضمنْتَ بذلك بقاءها .

وذكرنا أن سيدنا جعفر الصادق ـ رضى الله عنه ـ كان عالماً بكنوز القرآن ، ورأى النفس البشرية ، وما يعتريها من تقلُّبات تعكر عليها صَفْو الحياة من خوف أو قلق أو همٍّ أو حزن أو مكر ، أو زهرة الدنيا وطموحات الإنسان فيها .

فكان رضى الله عنه يُخرج لهذه الداءات ما يناسبها من علاجات القرآن ، فكان يقول فى الخوف : « عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله تعالى : ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)﴾ [آل عمران] فإنى سمعت الله بعقبها يقول : ﴿فَانقَلَبُوا[2] بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ (١٧٤)﴾ [آل عمران]

---

(١) عن أنس بن مالك قال قال ﷺ : « ما أنعم الله على عبد من نعمة فى أهل ولا مال فقال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فيرى فيه آفة دون الموت » أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ١٤٠) وقال : « رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط وفيه عبد الملك بن زرارة وهو ضعيف » .

(٢) انقلبوا : رجعوا . قال ابن منظور فى اللسان : « الانقلاب : الرجوع مطلقاً » . [لسان العرب ـ مادة : قلب] .

وعـجبـتُ لمن اغتـمَّ ـ لأن الغَمَّ انسـداد القلب وبلبلة الخـاطر من شيء لا يعـرف سببـه ـ وعجـبتُ لمن اغـتمَّ ولم يفزع إلى قـول الله تعالى : ﴿ لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالمين (٨٧) ﴾ [الأنبياء] فإني سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ .. (٨٨) ﴾ [الأنبياء] ليس هذا وفقط ، بل : ﴿ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء] وكأنها (وصْـفة) عامة لكل مؤمن ، وليـست خاصة بنبيّ الله يونس عليه السلام .

فـقـوْل المـؤمن الذى أصـابه الغم : ﴿ لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ أَنتَ .. (٨٧) ﴾ [الأنبياء] أى : لا مفزع لى سواك ، ولا ملـجأ لى غيرك ﴿ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ .. (٨٧) ﴾ [الأنبياء] اعتراف بالذنب والتقصـير ، فلعل ما وقعتُ فـيـه من ذنب ومـا حدث من ظـلم لنفـسى هو سـبب هذا الغم الذى أعانيه .

وعـجـبتُ لمـن مُكر به ، كـيف لا يفـزع إلـى قـول الله تعـالى : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ .. (٤٤) ﴾ [غافـر] فـإنى سمـعت الله بعقـبهـا يقول : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا .. (٤٥) ﴾ [غافر] فالله تبارك وتعالى هو الذى سيتولى الرد عليهم ومقابلة مكرهم بمكره سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) ﴾ [آل عمران]

وعجـبت لمن طلب الدنيا وزينتهـا ـ صاحب الطموحـات فى الدنيا المتطلع إلى زخرفها ـ كيف لا يفزع إلى قول الله تعالى : ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ .. (٣٩) ﴾ [الكهف] فـإنى سمـعت الله بعـقـبهـا يقـول : ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ .. (٤٠) ﴾ [الكهف] فإن قلتها على نعمتك حُفظتْ ونمَتْ ، وإن قلتها على نعمة الغير أعطاك الله فوقها .

والعجيب أن المؤمن الفقير الذى لا يملك من متاع الدنيا شيئاً يدل صاحبه الكافر على مفتاح الخير الذى يزيده من خير الدنيا ، رغم ما يتقلّب فيه من نعيمها ، فمفتاح زيادة الخير فى الدنيا ودوام النعمة فيها أن نقول : ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ (٣٩)﴾ [الكهف]

ويستطرد المؤمن ، فيُبيِّن لصاحبه ما عيَّره به من أنه فقير وهو غنى ، وما استعلى عليه بماله وولده : ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا(٣٩)﴾ [الكهف]

ثم ذكّره بأن الله تعالى قادر على أنْ يُبدِّل هذا الحال ، فقال :

﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا(١) مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠)﴾

وعسى للرجاء ، فإن كان الرجاء من الله فهو واقع لا شكَّ فيه ؛ لذلك حينما تقول عند نعمة الغير : (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) يعطيك الله خيراً مما قُلْت عليه :(ما شاء الله لا قوة إلا بالله) ، وإن اعترفتَ بنعمة الله عليك ورددْتَ الفضل إليه سبحانه زادك ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ(٧) ﴾ [إبراهيم] .

فقوله : ﴿فَعَسَىٰ رَبِّى أَن يُؤْتِيَنِى خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ(٤٠) ﴾ [الكهف] أى : ينقل مسألة الغنى والفقر ويُحوِّلها ، فأنت لا قدرة لك على حفظ هذه النعمة ، كما أنك لا قدرةَ لك على جلْبها من البداية . إذن : يمكن أنْ يعطينى ربى نعمة مثل نعمتك ، فى حين تظل نعمتك كما هى ، لكن إرادة الله تعالى أن يقلبَ نعمتك ويزيلها :

---

(١) الحسبان : العذاب المحسوب المقدَّر كالصواعق المدمرة . [القاموس القويم ـ ١/١٥٢] .

﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الكهف] هذه النعمة التى تعتز بها وتفخر بزهرتها وتتعالى بها على خَلْق الله يمكن أنْ يرسلَ الله عليها حُسْباناً .

والحُسْبان : الشيء المحسوب المقدَّر بدقّة وبحساب ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الرحمن] والخالق سبحانه وتعالى جعل الشمس والقمر لمعرفة الوقت : ﴿ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴿٥﴾ ﴾ [يونس] ونحن لا نعرف من هذه عدد السنين والحساب إلا إذا كانت هى فى ذاتها منضبطةً على نظام دقيق لا يختلّ ، مثل الساعة لا تستطيع أنْ تعرفَ بها الوقت وتضبطه إلا إذا كانت هى فى ذاتها منضبطة ، والشيء لا يكون حسباناً لغيره إلا إذا كان هو نفسه مُنْشأ على حُسْبان .

وحَسب حُسْباناً مثل غفر غفراناً ، وقد أرسل الله على هذه الجنة التى اغترَّ بها صاحبها صاعقة محسوبة مُقدَّرة على قَدْر هذه الجنة لا تتعدَّاها إلى غيرها ، حتى لا يقول : إنها آية كونية عامة أصابتنى كما أصابت غيرى .. لا . إنها صاعقة مخصوصة محسوبة لهذه الجنة دون غيرها .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الكهف] أى : أن هذه الجنة العامرة بالزروع والثمار ، المليئة بالنخيل والأعناب بعد أن أصابتها الصاعقة أصبحتْ صَعيداً أى : جدباء يعلُوها التراب ، ومنه قوله تعالى فى التيمُّم : ﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [النساء] ليس هذا وفقط ، بل ﴿ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الكهف] أى : تراباً مُبلّلاً تنزلق عليه الأقدام ، فلا يصلح لشيء ، حتى المشى عليه .

﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾

(غَوْراً) أى : غائراً فى الأرض ، فإنْ قُلْت : يمكن أنْ يكونَ الماء غائراً ، ونستطيع إخراجه بالآلات مثلاً ، لذلك يقطع أمله فى أىٍّ حيلة يفكر فيها : ﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾ [الكهف] أى : لن تصل إليه بأىٍّ وسيلة من وسائلك ، ومن ذلك قوله تعالى فى آية أخرى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الملك]

لاحظ أن هذا الكلام من المؤمن لصاحبه الكافر مجرد رجاء يخاطبه به : ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّى .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الكهف] رجاء لم يحدث بَعْد ، ولم يصل إلى إيقاعيات القدر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ ﴾

هكذا انتقل الرجاء إلى التنفيذ ، وكأن الله تعالى استجاب للرجل المؤمن ولم يُكذِّب توقّعه ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الكهف] أحيط : كأنْ جعل حول الثمر سوراً يحيط به ، فلا يكون له منفذ ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يونس]

وتلاحظ أنه سبحانه قال : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الكهف] ولم يقُلْ مثلاً : أحيط بزرعه أو بنخله ؛ لأن الإحاطة قد تكون بالشىء ، ثم يثمر بعد ذلك ، لكن الإحاطة هنا جاءت على الثمر ذاته ، وهو قريب الجنْى قريب التناول ، وبذلك تكون الفاجعة فيه أشدَّ ، والثمر هو الغاية والمحصّلة النهائية للزرع.

ثم يُصوِّر الحق سبحانه ندم صاحب الجنة وأسَفه عليها : ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا (٤٢) ﴾ [الكهف] أى : يضرب كَفّاً بكفٍّ ، كما يفعل الإنسان حينما يفاجئه أمر لا يتوقعه ، فيقف مبهوتاً لا يدرى ما يقول ، فيضرب كفّاً بكفٍّ لا يتكلم إلا بعد أن يُفيق من هَوْل هذه المفاجأة ودَهْشتها .

ويُقلِّب كفَّيْه على أيِّ شيء ؟ يُقلِّب كفيه ندماً على ما أنفق فيها ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا (٤٢) ﴾ [الكهف] خاوية : أى خَربة جَرْداء جَدْباء ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

ومعلوم أن العروش تكون فوق ، فلما نزلت عليها الصاعقة من السماء دكَّتْ عروشها ، وجعلت عاليها سافلها ، فوقع العرش أولاً ، ثم تهدَّمتْ عليه الجدران .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) ﴾ [الكهف] بعد أن ألجمتْه الدهشة عن الكلام ، فراحَ يضرب كفّاً بكفٍّ ، أفاق من دهشته ، ونزع هذا النزوع القوليّ الفورى : ﴿ يَـٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) ﴾ [الكهف] يتمنى أنه لم يشرك بالله أحداً ؛ لأن الشركاء الذين اتخذهم من دون الله لم ينفعوه ، لذلك قال بعدها :

﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) ﴾

أى : ليس لديه أعوان ونُصراء يدفعون عنه هذا الذى حَلّ به ، ويمنعون عنه الخراب الذى حاقَ بجنته ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) ﴾ [الكهف] أى : ما كان ينبغى له أن ينتصر ، ولا يجوز له الانتصار ، لماذا ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُنَالِكَ الْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾

هنالك : أى فى وقت الحالة هذه ، وقتَ أنْ نزلتْ الصاعقة من السماء ، فأتتْ على الجنة ، وجعلتها خاوية على عروشها ، هنالك تذكّر المنعمَ وتمنّى لو لم يشرك بالله ، فقوله : ﴿ هُنَالِكَ ﴾ أى : فى الوقت الدقيق وقت القمة ، قمة النكَد والكدَر .

و﴿ هُنَالِكَ ﴾ جاءت فى القرآن فى الأمر العجيب ، ويدعو إلى الأمر الأعجب ، من ذلك قصة سيدنا زكريا ـ عليه السلام ـ لما دخل على السيدة مريم ، فوجد عندها رزقاً : ﴿ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران]

وكان زكريا ـ عليه السلام ـ هو المتكفّل بها ، الذى يُحضر لها الطعام والشراب ، فلما رأى عندها أنواعاً من الطعام لم يَأْت بها سألها من أيْن ؟ فقالت : هو من عند الله إن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، فأطمع هذا القولُ زكريا فى فضل الله ، وأراد أن يأخذ بالأسباب ، فدعا الله أن يرزقه الولد ، وقد كانت امرأته عاقراً فقال تعالى :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴿٣٨﴾ ﴾ [آل عمران]

و(الوَلاَيةُ) أن يكون لك ولىٌّ ينصرك ، فالولىّ هو الذى يليك ، ، ويدافع عنك وقت الشدة ، وفى قراءة أخرى [1]: (هُنَالِكَ الْوِلايَةُ) بكسر الواو يعنى الملك ، كما فى قوله : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

وقوله : ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الكهف] لأنه سيجازى على العمل

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٤١٤٢) : « قرأ الأعمش وحمزة والكسائى « الولاية » بكسر الواو ، والباقون بفتحها ، وهما بمعنى واحد كالرِّضاعة والرَّضاعة . وقيل : الولاية بالفتح من الموالاة ، وبالكسر يعنى السلطان والقدرة والإمارة . وقال أبو عبيد : إنها بفتح الواو للخالق ، وبكسرها للمخلوق » .

الصالح بثواب ، هو خير من الدنيا وما فيها ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ [الكهف] أى : خير العاقبة بالرزق الطيب فى جنة الخلد .

هكذا ضرب الله تعالى لنا مثلاً ، وأوضح لنا عاقبة الغنىّ الكافر ، والفقير المؤمن ، وبيَّن لنا أن الإنسان يجب ألاّ تخدعه النعمة ولا يغرَّه النعيم ؛ لأنه موهوب من الله ، فاجعل الواهب المنعمَ سبحانه دائماً على بالك ، كى يحافظ لك على نعمتك وإلا لَكُنْتَ مثل هذا الجاحد الذى استعلى واغترّ بنعمة الله فكانت عاقبته كما رأيت .

وهذا مثل فى الأمر الجزئى الذى يتعلق بالمكلَّف الواحد ، ولو نظرتَ إليه لوجدتَه يعمُّ الدنيا كلها ؛ فهو مثال مُصغَّر لحال الحياة الدنيا ؛ لذلك انتقل الحق سبحانه من المثل الجزئىّ إلى المثل العام ، فقال تعالى :

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ[1] الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾

الحق تبارك وتعالى فى هذه الآية يوضح المجهول لنا بما عُلم لدينا . وأهل البلاغة يقولون : فى هذه الآية تشبيه تمثيل ؛ لأنه سبحانه شبّه حال الدنيا فى قصَرها وسرعة زوالها بالماء الذى نزل من السماء ، فارتوتْ به الأرض ، وأنبتتْ ألواناً من الزروع والثمار ،

---

(١) تذروه الرياح : تفرقه . قاله أبو عبيدة . وقال ابن قتيبة : تنسفه . وقال ابن كيسان : تذهب به وتجىء . وقال ابن عباس : تديره . قال القرطبى فى تفسيره (٤١٤٣/٥) « والمعنى متقارب » .

ولكن سرعان ما يذبلُ هذا النبات ويصير هشيماً مُتفتتاً تذهب به الريح .

وهذه صورة ـ كما يقولون ـ منتزعة من مُتعدّد . أى : أن وجه الشبه فيها ليس شيئاً واحداً ، بل عدّة أشياء ، فإن كان التشبيه مُركّباً من أشياء متعددة فهو مَثَل ، وإنْ كان تشبيه شىء مفرد بشىء مفرد يُسمُّونه مثْل ، نقول : هذا مثْل هذا ، لذلك قال تعالى ﴿ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ (٧٤) ﴾ [النحل] ؛ لأن الله تعالى المثل الأعلى .

وهكذا الدنيا تبدو جميلة مُزهرة مُثمرة حُلْوة نَضرة ، وفجأة لا تجد فى يديك منها شيئاً ؛ لذلك سماها القرآن دُنْيا وهو اسم يُوحى بالحقارة ، وإلا فأىّ وصف أقل من هذا يمكن أن يصفها به ؟ لنعرف أن ما يقابلها حياة عُلْيا .

وكأن الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ : كما ضربتُ لهم مَثَل الرجلين وما آل إليه أمرهما اضرب لهم مثل الحياة الدنيا وأنها تتقلّب بأهلها ، وتتبدّل بهم، واضرب لهم مثلاً للدنيا من واقع الدنيا نفسها .

ومعنى ﴿ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ (٤٥) ﴾ [الكهف] أى : اختلط بسببه نبات الأرض ، وتداخلَ بعضُه فى بعض ، وتشابكتْ أغصانه وفروعه ، وهذه صورة النبات فى الأرض الخصْبة ، أما إنْ كانت الأرض مالحة غير خصْبة فإنها تُخرِج النبات مفردَاً ، عود هنا وعود هناك .

لكن ، هل ظل النبات على حال خُضْرته ونضارته ؟ لا ، بل سرعان ما جفّ وتكسّر وصار هشيماً تطيح به الريح وتذروه ، هذا مثلٌ للدنيا حين تأخذ زخرفها وتتزيّن ، كما قال تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً .. (٢٤) ﴾ [يونس]

ثم يقول تعالى ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) ﴾ [الكهف] لأنه سبحانه القادر دائماً على إخراج الشىء إلى ضدّه ، كما قال سبحانه :
﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) ﴾ [المؤمنون]

فقد اقتدر سبحانه على الإيجاد ، واقتدر على الإعدام ، فلا تنفكّ عنه صفة القدرة أبداً ، أحيا وأمات ، وأعزَّ وأذلَّ ، وقبض وبسط ، وضَرَّ ونفع ..

ولما كان الكلام السابق عن صاحب الجنة الذى اغترّ بماله وولده فناسب الحديث عن المال والولد ، فقال تعالى :

﴿ ٱلْمَالُ(١) وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) ﴾

تلك هى العناصر الأساسية فى فتنة الناس فى الدنيا : المال والبنون ، لكن لماذا قدَّم المال ؟ أهو أغلى عند الناس من البنين ؟ نقول : قدَّم الحق سبحانه المال على البنين ، ليس لأنه أعزُّ أو أغلى ؛ إنما لأن المال عام فى المخاطب على خلاف البنين ، فكلُّ إنسان لديه المال وإنْ قلَّ ، أما البنون فهذه خصوصية ، ومن الناس مَنْ حُرِم منها .

كما أن البنين لا تأتى إلا بالمال ؛ لأنه يحتاج إلى الزواج والنفقة لكى يتناسل ويُنجب ، إذن : كل واحد له مال ، وليس لكل واحد

(١) المال : ما ملكته من جميع الأشياء . قال ابن الأثير : المال فى الأصل ما يُملك من الذهب والفضة ، ثم أطلق على كل ما يُقتنى ويُملك من الأعيان ، وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل لأنها كانت أكثر أموالهم . [لسان العرب ـ مادة : مول] .

بنون ، والحكم هنا قضية عامة ، وهى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٦) ﴾ [الكهف]

كلمة (زِينَةُ) أى : ليست من ضروريات الحياة ، فهو مجرد شكل وزخرف ؛ لأن المؤمن الراضى بما قُسِمَ له يعيش حياته سعيداً بدون مال ، وبدون أولاد ؛ لأن الإنسان قد يشقَى بماله ، أو يشقى بولده ، لدرجة أنه يتمنى لو مات قبل أن يُرزقَ هذا المال أو هذا الولد .

وقد باتت مسألة الإنجاب عُقْدة ومشكلة عند كثير من الناس ، فترى الرجل كَدِراً مهموماً ؛ لأنه يريد الولد ليكون له عِزْوة وعزّة ، وربما يُرزَق الولَد ويرى الذُّلَّ على يديه ، وكم من المشَاكل تُثارَ فى البيوت ؛ لأن الزوجة لا تنجب .

ولو أيقن الناس أن الإيجاد من الله نعمة ، وأن السَّلْب من الله أيضاً نعمة لاستراح الجميع ، ألم نقرأ قول الله تعالى :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [الشورى]

إذن : فالعُقْم فى ذاته نعمة وهبَة من الله لو قبلها الإنسان من ربه لَعوَّضه الله عن عُقْمه بأنْ يجعَل كل الأبناء أبناءه ، ينظرون إليه ويعاملونه كأنه أبٌ لهم ، فيذوق من خلالهم لذَّة الأبناء دون أن يتعب فى تربية أحد ، أو يحمل هَمَّ أحد .

وكذلك ، الذى يتكدر لأن الله رزقه بالبنات دون البنين ، ويكون كالذى قال الله فيه : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) ﴾ [النحل]

إنه يريد الولد ليكون عـزْوة وعـزّة . ونسى أن عزة المـؤمن بالله لا بغيـره ، ونقول :والله لوَ استقبلتَ الـبنت بالفرح والرضا عـلى أنها هبَـة من الله لكانتْ سبباً فى أن يأتى لها زوج أبرّ بك من ولدك ، ثم قد تأتى هى لك بالولد الذى يكون أعزّ عندك من ولدك .

إذن : المـال والبنون من زينة الحـيـاة وزخـرفـها ، وليـسـا من الضـروريات ، وقد حـدد لنا النبى ﷺ الدنيـا ، فـقال : « من أصـبح مُعَـافىً فى بدنه ، آمناً فى سـرْبه ـ أى : لا يهدد أمنه أحـد ـ وعنده قُوت يومه ، فكأنما حيزَتْ له الدنيا بحذافيرها »[1]

فما زاد عـن ذلك فهو من الزينة ، فالإنســان - إذن - يستطيع أن يعـيش دون مال أو ولد ، يعـيش بقـيم تعطى له الخـير ، ورضـاً يرضيه عن خالقه تعالى .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦) ﴾ [الكهف]

لأن المـال والبـنين لن يدخـلا مـعـك القـبـر ، ولن يمـنعـاك من العذاب ، ولن ينفعك إلا الباقيـات الصالحات . والنبى ﷺ حينما أُهديَتْ إليه شاة ، وكانت السيدة عائشة - رضى الله عنها ـ تعرف أن رسول الله يحب من الشاة الكتف[2] ؛ لأنه لَحْم رقيق خـفيف ؛ لذلك احـتفظتْ

---

(١) أخرجـه الترمـذى فى سننه (٢٣٤٦) ، وابن ماجـه فى سننه (٤١٤١) والحمـيدى فى مسنده (٤٣٩) من حديـث عبـيد الله بـن محـصن الأنصـارى وكانت له صـحـبة . قـال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » .

(٢) قال ابن عباس : « كان أحب اللحم إلى رسول الله ﷺ الكتف » أخـرجه أبو الشيخ الأصبهانى فى « أخلاق النبى » (ص ٢٠١) وأورده السيوطى فى « الجـامع الصغير » (٥/٨٥) وعزاه لأبى نعـيم عن ابن عبـاس ، وأشار إليـه بالضعف ، وأخـرجه البـخارى (٤٧١٢) بنحـوه عن أبى هريرة قال : « أتى رسـول الله ﷺ بلحم ، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه » .

لرسول الله بالكتف وتصدّقت بالباقى ، فلما جاء ﷺ قال : « ماذا صنعت فى الشاة » ؟ قالت : ذهبتْ كلها إلا كتفها ، فضحك ﷺ وقال : « بل بقيت كلها إلا كتفها »[1].

وفى حديث آخر قال ﷺ : « هل لك يابن آدم من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليْتَ ، أو تصدَّقْتَ فأبقيْتَ »[2]

وهذا معنى : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف]

والسؤال الذى يتبادر إلى الذِّهْن الآن : إذا لم يكُنْ المال والبنون يمثلان ضرورة من ضروريات الحياة ، فما الضروريات فى الحياة إذن ؟ الضروريات فى الحياة هى كُلُّ ما يجعل الدنيا مزرعة للآخرة ، ووسيلة لحياة باقية دائمة ناعمة مسعدة ، لا تنتهى أنت من النعيم فتتركه ، ولا ينتهى النعيم منك فيتركك ، إنه نعيم الجنة .

الضروريات - إذن - هى الدين ومنهج الله والقِيَم التى تُنظم حركة الحياة على وَفْق ما أراد الله من خلق الحياة .

ومعنى : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف] مادام قال (وَالْبَاقِيَاتُ) فمعنى هذا أن ما قبلها لم يكُنْ من الباقيات بل هو زائل بزوال الدنيا ، ثم وصفها بالصالحات ليفرق بينها وبين الباقيات السيئات التى يخلدون بها فى النار .

﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف] خير عند مَنْ ؟ لأن كل مضاف إليه يأتى على قوة المضاف إليه ، فخَيْرك غير خير مَنْ هو أغنى منك ، غير خير الحاكم ، فما بالك بخير عند الله ؟

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٥٠) والترمذى فى سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة رضى الله عنها . قال الترمذى : « حديث صحيح » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٢٤ ، ٢٦) ومسلم فى صحيحه (٢٩٥٨) والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) وصححه .

﴿ .. خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦) ﴾ [الكهف]

والأمل : ما يتطلع إليه الإنسان مما لم تكُنْ به حالته ، فإنْ كان عنده خير تطلَّع إلى أعلى منه ، فالأمل الأعلى عند الله تبارك وتعالى ، كُلُّ هذا يُبيّن لنا أن هذه الدنيا زائلة ، وأننا ذاهبون إلى يوم بَاقٍ ؛ لذلك أردف الحق سبحانه بعد الباقيات الصالحات ما يناسبها ، فقال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً[1] وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) ﴾

أى : اذكر جيداً يوم نُسيِّر الجبال وتنتهى هذه الدنيا ، واعمل الباقيات الصالحات لأننا سنُسيّر الجبال التى تراها ثابتة راسخة تتوارث الأجيال حجمها وجِرْمها ، وقوتها وصلابتها ، وهى باقية على حالها .

ومعنى تسيير الجبال : إزالتها عن أماكنها ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) ﴾ [النبأ]

وقال فى آية أخرى ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) ﴾ [التكوير] وقال : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) ﴾ [المرسلات] وقال : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ[2] (٩) ﴾ [المعارج]

ونلحظ أن الحق سبحانه ذكر أقوى مظهر ثابت فى الحياة الدنيا ، وإلا ففى الأرض أشياء أخرى قوية وثابتة كالعمائر ناطحات السحاب،

---

(١) أى : ترى الأرض ظاهرة ليس عليها ما يسترها من مساكن أو أشجار أو غيرها . [القاموس القويم ١/٦٣] .

(٢) العهن : الصوف المصبوغ بأى لون أو بألوان مختلفة . [القاموس القويم ٢/٤٠] .

والشجر الكبير الضخم المعمّر وغيرها كثير . فإذا كان الحق سبحانه سينسف هذه للجبال ويُزيلها عن أماكنها ، فغيرها مما على وجه الأرض زائل من باب أَوْلَى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً ﴿٤٧﴾ ﴾ [الكهف]

الأرض : كُلّ ما أقلّك[1] من هذه البسيطة التي نعيش عليها ، وكل ما يعلوك ويُظلُّك فهو سماء ، ومعنى : (بَارِزَةً) البَرَازُ : هو الفضاء ، أي : وترى الأرض فضاءً خالية مما كان عليها من أشكال الجبال والمباني والأشجار ، حتى البحر الذي يغطي جزءاً كبيراً من الأرض .

كل هذه الأشكال ذهبتْ لا وجودَ لها ، فكأن الأرض بَرزَتْ بعد أنْ كانت مختبئة : بعضها تحت الجبال ، وبعضها تحت الأشجار ، وبعضها تحت المباني ، وبعضها تحت الماء ، فأصبحتْ فضاء واسعاً ، ليس فيه مَعْلَمٌ لشيء .

ومن ذلك ما نُسمِّيه نحن المبارزة ، فنرى الفتوة يقول للآخر (اطلع لي بره) أي : في مكان خال حتى لا يجد شيئاً يحتمي به ، أو حائطاً مثلاً يستند عليه ، وبرز فلان لفلان وبارزه أي : صارعه .

﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الكهف] أي : جمعناهم ليوم الحساب ؛ لأنهم فارقوا الدنيا على مراحل من لَدُن آدم عليه السلام ، والموت يحصد الأرواح ، وقد جاء اليوم الذي يُجمع فيه هؤلاء .

﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴿٤٧﴾ ﴾ [الكهف] أي : لم نترك منهم واحداً ، الكلُّ معروض على الله ، وكلمة ﴿ نُغَادِرْ ﴿٤٧﴾ ﴾[الكهف] ومادة (غدر) تؤدي جميعها معنى التَرْك ، فالغدر مثلاً تَرْك الوفاء وخيانة الأمانة ،

---

(١) أقلَّ الشيء واستقلّه : حمله ورفعه . فالأرض تُقلُّنا لأنها تحملنا على ظهرها . [لسان العرب ـ مادة : قلل] .

حتى غدير وهو جـدول الماء الصغير سُمِّى غـديراً ؛ لأن المطر حينما ينزل على الأرض يذهب ويترك شيئاً قليلاً فى المواطىء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴿٤٨﴾﴾ [الكهف] العرض : أن يستقبل العارض المعروضَ استقبالاً مُنظّماً يدلّ على كُلّ هيئاته ، كما يستعـرض القائد الجنود فى العرض العسكرى مثلاً ، فـيرى كل واحد من جنوده (صَفّاً) أى : صُفوفاً منتظمة ، حتى الملائكة تأتى صُفوفاً ، كما قال تعالى : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر]

أى : أنها عمليـة مُنظمة لا يستطيع فيها أحـد التخفى ، ولن يكون لأحد منها مـفَرٌّ ، وهى صفوف مـتداخلة بطريقة لا يُخفِى فـيها صَفٌّ الصفَّ الذى يليه ، فالجميع واضح بكل أحواله .

وفى الحـديث عن معاذ بن جـبل ـ رضى الله عنه ـ قال : حـدثنا رسـول الله ﷺ فـقـال : « يَحـشـر الله الخَلْق ثم ينادى : يا عـبـادى أحضـروا حُجـتكم ويسِّروا جـوابكم ، فإنكم مـجمـوعون مُـحَاسَـبُون مَـسْئـولون ، يا ملائكتى أقـيمـوا عـبادى صـفوفـاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب »[1] .

ولك أنْ تتصوَّر المعاناة والألم الذى يجده مَنْ يقف على أطراف أنامل قـدميْـه ؛ لأن ثقل الجـسم يُوزَّع على القـدمين فـى حال الوقـوف ، وعلى

(١) أورده القرطبى فـى تفسيره (٥/٤١٤٨) وعزاه لأبى القـاسم عبد الرحـمن بن منده فى كتاب التوحيد من حديث معاذ بن جبل ، وكذا السيوطى فى الدر المنثور (٥/٤٠٠) .

المقعدة في حال الجلوس ، وعلى الجسم كله في حال النوم ، وهكذا يخفّ ثقل الجسم حسب الحالة التي هو عليها ، فإنْ تركّز الثقل كله على أطراف أنامل القدمين ، فلا شكَّ أنه وَضْع مؤلم وشاقّ ، يصعُب على الناس ، حتى إنهم ليتمنون الانصراف ولو إلى النار .

ثم يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ (٤٨) ﴾ [الكهف]

أي : على الحالة التي نزلتَ عليها من بطن أمك عرياناً ، لا تملك شيئاً حتى ما يستر عورتك ، وقد فُصِّل هذا المعنى في قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ[1] وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤) ﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى :﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِداً (٤٨) ﴾[الكهف] والخطاب هنا مُوجَّه للكفار الذين أنكروا البعث والحساب ﴿ زَعَمْتُم(٤٨) ﴾[الكهف] والزعْم مطيّة الكذب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا[2] وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾

(١) خوّله كذا : ملّكه إياه متفضلاً عليه بغير عوض . [القاموس القويم ١ / ٢١٤] .

(٢) الإحصاء : العد والحفظ . وفي أسماء الله تعالى : المحصى ، هو الذي أحصى كل شيء بعلمه فلا يفوته دقيق منها ولا جليل . وأحصى الشيء : أحاط به . [لسان العرب - مادة : حصى] .

قوله تعالى : ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ (٤٩)﴾ [الكهف] أى : وضعته الملائكة بأمر من الله تعالى ، فيعطون كل واحد كتابه ، فهى - إذن - صور متعددة ، فمَنْ أخذ كتابه بيمينه فرح وقال :

﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩)﴾ [الحاقة] يعرضه على ناس ، وهو فخور بما فيه ؛ لأنه كتاب مُشرِّف ليس فيه ما يُخجل ؛ لذلك يتباهى به ويدعو الناس إلى قراءته ، فهو كالتلميذ الذى حصل على درجات عالية ، فطار بها ليعرضها ويذيعها .

وهذا بخلاف مَنْ أوتى كتابه بشماله فإنه يقول : ﴿لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ .. (٢٩)﴾ [الحاقة]

إنه الخزى والانكسار والندم على صحيفة مُخْجِلة .

﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ (٤٩)﴾ [الكهف] أى : خائفين يرتعدون ، والحق سبحانه وتعالى يصور لنا حالة الخوف هذه ، ليُفزع عباده ويُحذِّرهم ويُضخِّم لهم العقوبة ، وهم ما يزالون فى وقت التدارك والتعديل من السلوك ، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده .

فحالتهم الأولى الإشفاق ، وهو عملية هبوط القلب ولجلجته ، ثم يأتى نزوع القول : ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا (٤٩)﴾ [الكهف] يا : أداة للنداء ، كأنهم يقولون : يا حسرتنا يا هلاكنا ، هذا أوانك فاحضرى .

ومن ذلك قوله تعالى فى قصة ابنى آدم - عليه السلام - لما قتل قابيل هابيل ، وكانت أول حادثة قتل ، وأول ميت فى ذرية آدم ؛ لذلك بعث الله له غراباً يُعلِّمه كيف يدفن أخاه ، فقال : ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي .. (٣١)﴾ [المائدة]

﴿ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ (٣١) ﴾ [المائدة] يا هلاكى كأن يتحسَّر على ما أصبح فيه ، وأن الغراب أعقل منه ، وأكثر منه خبرة ؛ لكى لا نظلم هذه المخلوقات ونقول : إنها بهائم لا تَفهم ، والحقيقة : ليتنا مثلهم .

قوله تعالى : ﴿ مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا (٤٩) ﴾ [الكهف] أى : لا يترك كبيرة أو صغيرة إلا عدَّها وحسبها ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا (٤٩) ﴾ [الكهف] فكل ما فعلوه مُسجَّل مُسطّر فى كُتبهم ﴿ وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾ [الكهف] لأنه سبحانه وتعالى عادل لا يؤاخذهم إلا بما عملوه .

ثم يقول الله سبحانه :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا (٥٠) ﴾

تكررتْ قصة سجود الملائكة لآدم ـ عليه السلام ـ كثيراً فى القرآن الكريم ، وفى كل مرة تُعطينا الآياتُ لقطةً معينة ، والحق سبحانه فى هذه الآية يقول لنا : يجب عليكم أنْ تنذكروا جيداً عداوة إبليس لأبيكم آدم ، وتذكّروا جيداً أنه أخذ العهد على نفسه أمام الله تعالى أنْ يُغويكم أجمعين ، فكان يجب عليكم أن تتنبهوا لهذا العداوة ، فإذا حدّثكم بشىء فاذكروا عداوته لكم .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يُحذّرنا من إبليس فإنه يُربّى فينا المناعة التى نُقاومه بها ، والمناعة أنْ تأتىَ بالشىء الذى يضرُّ مستقبلاً حين يفاجئك وتضعه فى الجسم فى صورة مكروب خامد ، وهذا هو التطعيم الذى يُعوِّد الجسم على مدافعة المرض وتغلَّب عليه إذا أصابه .

فكذلك الحق سبحانه يعطينا المناعة ضد إبليس ، ويُذكّرنا ما كان

منه لأبينا آدم واستكباره عن السجود له ، وأن نذكر دائماً قوله : ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَـٰذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ[1] ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٦٢﴾ ﴾ [الإسراء]

فانتبهوا ما دُمنا سنُسيِّر الجبال ، ونُسوِّى الأرض ، ونحصر لكلٍّ كتابه ، فاحذروا أنْ تقفوا موقفاً حرجاً يوم القيامة ، ثم تُفَاجأوا بكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، وها أنا أُذكِّركم من الآن فى وقت السَّعة والتدارك، فحاولوا التوبة إلى الله ، وأنْ تصلحوا ما بينكم وبين ربكم .

والأمر هنا جاء للملائكة : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف] لأنهم أشرف المخلوقات ، حيث لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يُؤمَرُون . وحين يأمر الله تعالى الملائكة الذين هذه صفاتهم بالسجود لآدم ، فهذا يعنى الخضوع ، وأن هذا هو الخليفة الذى آمُركُم أنْ تكونوا فى خدمته .

لذلك سمَّاهم : المدبِّرات أمراً ، وقال تعالى عنهم : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ[2] مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد] فكأن مهمة هؤلاء الملائكة أن يكونوا مع البشر وفى خدمتهم .

فإذا كان الحق سبحانه قد جنَّد هؤلاء الملائكة وهم أشرفُ المخلوقات لخدمة الإنسان ، وأمرهم بالسجود له إعلاناً للخضوع للإنسان ، فمن باب أَوْلى أن يخضع له الكون كله بسمائه وأرضه ، وأن يجعلَه فى خدمته ، إنما ذكر أشرف المخلوقات لينسحب الحكم على مَنْ دونهم .

---

(١) احتنك فلاناً : استولى عليه واستماله إليه فلا يخرج عن طوعه على المجاز كأنه وضعه فى حنكه فلا يفلت منه ، والمعنى : أى لأملكن أمرهم وأستولى عليهم فلا يعصون أمرى . [القاموس القويم ١/ ١٧٥] .

(٢) أى : لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار ، فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار . [تفسير القرطبى ٥/ ٣٦٢٦] .

وقلنا : إن العلماء اختلفوا كثيراً على ماهية إبليس : أهو من الجن أم من الملائكة ، وقد قطعت هذه الآية هذا الخلاف وحَسَمَتْه ، فقال تعالى : ﴿ إلاَّ إبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ .. (٥٠) ﴾ [الكهف] وطالما جاء القرآن بالنص الصريح الذى يُوضّح جنسيته ، فليس لأحد أن يقول : إنه من الملائكة .

وما دام كان من الجن ، وهم جنس مختار فى أنْ يفعل أو لا يفعل ، فقد اختار ألاَّ يفعل ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. (٥٠) ﴾ [الكهف] أى : رجع إلى أصله ، وخرج عن الأمر .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ .. (٥٠) ﴾ [الكهف] فهذا أمر عجيب ، فكيف بعد ما حدث منه تجعلونه ولياً من دون الله الذى خلقكم ورزقكم ، فكان أَوْلَى بهذه الولاية .

و ﴿ وَذُرِّيَّتَهُ .. (٥٠) ﴾ [الكهف] تدل على تناسل إبليس ، وأن له أولاداً ، وأنهم يتزاوجون ، ويمكن أن نقول : ذريته : كل مَنْ كان على طريقته فى الضلال والإغواء ، ولو كان من الإنس ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ[(١)] الْقَوْلِ غُرُورًا .. (١١٢) ﴾ [الأنعام]

﴿ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠) ﴾ [الكهف] أى : بئس البدل أن تتخذوا إبليس الذى أبى واستكبر أنْ يسجدَ لأبيكم وَلياً ، وتتركوا ولاية الله الذى أمر الملائكة أنْ تسجدَ لأبيكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾

(١) الزخرف : الزينة . وزخرف القول : حسّنه بتزيين الكذب . [لسان العرب ـ مادة : زخرف] .

إن هذا الشيطان الذى واليتموه من دون الله ، وأعطيتموه الميْزة ، واستمعتم إليه ما أشهدتهم خَلْق السموات والأرض مجرد المشاهدة ، لم يحضروها لأن خَلْق السموات والأرض كان قبل خَلْقهم ، وكذلك ما شَهدوا خَلْق أنفسهم ؛ لأنهم ساعة خلقتهم لم يكونوا موجودين ، إنهم لم يشهدوا شيئاً من ذلك لكى يخبروكم .

﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف] أى : مساعدين ومعاونين ومساندين ، فما أشهدتهم الخَلْق وما عاونونى فيه .

والعَضُد : هو القوة التى تُسعفك وتسندك ، وهو مأخوذ من عَضُد الإنسان ، حيث يزاول أغلب أعماله بيديه ، وحين يزاول أعماله بيديه تتحرك فيه مجموعة من الأعضاء قَبْضاً وبَسْطاً واتجاهاً يميناً وشمالاً ، وأعلى وأسفل ، وكُلُّ هذه الحركات لا بُدَّ لها من مُنظِّم أو موتور هو العضد ، وفى حركة اليد ودقتها فى أداء مهمتها آياتٌ عُظْمى تدلُّ على دقَّة الصَّنْعة .

وحينما صنع البشر ما يشبه الذراع واليد البشرية من الآلات الحديثة ، تجد سائق البلدوزر مثلاً يقوم بعدة حركات لكى يُحرِّك هذه الآلة ، أما أنت فتحرِّك يدك كما شئْتَ دون أن تعرف ماذا يحدث ؟ وكيف تتم لك هذه الحركة بمجرد أن تُفكّر فيها دون جهد منك أو تدبير ؟

فكل أجزائك مُسخَّرة لإرادتك ، فإنْ أردتَ القيام مثلاً قمتَ على الفور ؛ لذلك إياك أنْ تظن أنك خَلْق ميكانيكى ، بل أنت صَنْعة ربانية بعيدة عن ميكانيكا الآلات ، بدليل أنه إذا أراد الخالق سبحانه أن يُوقف جزءاً منك أمر المخ أنْ يقطعَ صِلَته به ، فيحدث الشلل التام ، ولا تستطيع أنت دَفْعَه أو إصلاحه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى فى قصة موسى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ .. (٣٥) ﴾ [القصص] أى : نُقوِّيك ونُعطيك السَّنَد والعَوْن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (٥٢) ﴾

يعنى : واذْكر يا محمد ، ولتذْكُرْ معك أمتك هذا اليوم ﴿ يَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ .. (٥٢) ﴾ [الكهف] يقول الحق سبحانه للكفار : ادعوا شركائى الذين اتخذتموهم من دونى . وزعمتم : أى : كذبتم فى ادعائكم أنهم آلهة ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ .. (٥٢) ﴾ [الكهف]

وهذا من سماجتهم وتبجُّحهم وسوء أدبهم مع الحق سبحانه ، فكان عليهم أنْ يخجلوا من الله ، ويعودوا إلى الحق ، ويعترفوا بما كذَّبوه ، لكنهم تمادَوْا ﴿ فَدَعَوْهُمْ .. (٥٢) ﴾ [الكهف] ويجوز أن من الشركاء أناساً دون التكليف ، وأناساً فوق التكليف ، فمثلاً منهم مَنْ قالوا : عيسى . ومنهم مَنْ قالوا : العزير ، وهذا باطل ، وهل استجابوا لهم ؟

ومنهم مَن اتخذوا آلهة أخرى ، كالشمس والقمر والأصنام وغيرها ، ومنهم مَنْ عبد ناساً مثلهم وأطاعوهم ، وهؤلاء كانوا موجودين معهم ، ويصح أنهم دَعَوْهم ونادوهم : تعالوا ، جادلوا عنّا ، وأخرجونا مما نحن فيه ، لقد عبدناكم وكنا طَوْعَ أمركم ، كما قال تعالى عنهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر]

ولكن ، أنَّى لهم ما يريدون ؟ فقد تقطعتْ بينهم الصلات ، وانقطعت

حجتهم ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ .. (٥٢) ﴾ [الكهف] ثم جعل الحق سبحانه بين الداعي والمدعو وادياً سحيقاً ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (٥٢) ﴾ [الكهف]

والمَوْبِق : المكان الذى يحصل فيه الهلاك ، وهو وادٍ من أودية جهنم يهلكون فيه جميعاً ، أو : أن بين الداعي والمدعو مكاناً مُهْلكاً ، فلا الداعي يستطيع أنْ يلوذَ بالمدعو ، ولا المدعو يستطيع أنْ ينتصرَ للداعي ويُسعفه ، لأن بينهم منبعَ هلاك .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) ﴾ [الشورى] يعنى : يهلكهن .

ومن العجيب أن تكون هذه أولَ إطاعة منهم لله تعالى ، فلما قال لهم : ﴿ نَادُوا شُرَكَائِيَ (٥٢) ﴾ [الكهف] استجابوا لهذا الأمر ، فى حين أنهم لم يطيعوا الأوامر الأخرى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣) ﴾

رأى : الرؤية : وقوع البصر على المرئيّ ، والرؤية هنا ممّن سيُعذّب فى النار ، وقد تكون الرؤية من النار التى ستعذبهم ؛ لأنها تراهم وتنتظرهم وتناديهم ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

أى : ها أنا ذا أنتظرهم ومستعدة لملاقاتهم ؟

والمجرمون : الذين ارتكبوا الجرائم ، وعلى رأسها الكفر بالله . إذن : فالرؤية هنا مُتبَادلة : المعذِّب والمعذَّب ، كلاهما يرى الآخر ويعرفه .

وقوله تعالى : ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا .. (٥٣)﴾ [الكهف] الظن هنا يُراد منه اليقين . أى : أيقنوا أنهم واقعون فيها ، كما جاء فى قول الحق سبحانه : ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ .. (٤٦)﴾ [البقرة]

أى : يوقنون .

﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣)﴾ [الكهف] أى : فى حين أن بينهما مَوْبقاً ، وأيضاً لا يجدون مفراً يفرون منه ، أو ملجأ يلجؤون إليه ، أو مكاناً ينصرفون إليه بعيداً عن النار ، فالمَوْبِق موجود ، والمصْرِف مفقود .

ثم يقول تبارك وتعالى :

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤)﴾

سبق أن تكلمنا عن تصريف الآيات ، وقلنا : إن التصريف معناه تحويل الشىء إلى أشياء متعددة ، كما يصرّف الله الرياح مثلاً ، فلا تأتى من ناحية واحدة ، بل تأتى مرة من هنا ، ومرة من هناك ، كذلك صرَّف الله الأمثال . أى : أتى بأحوال متعددة وصُور شتى منها .

والحق سبحانه يضرب الأمثال كأنه يقرع بها آذان الناس لأمر قد يكون غائباً عنهم ، فيمثله بأمر واضح لهم مُحَسٍّ ليتفهموه تفهّماً دقيقاً .

وما دام أن الحق سبحانه صرّف فى هذا القرآن من كل مثَل ، فلا عُذْر لمن لم يفهم ، فالقرآن قد جاء على وجوه شتّى ليُعلم الناس على اختلاف أفهامهم ومواهبهم ؛ لذلك ترى الأمى يسمعه فيأخذ منه على قدر فَهْمه ، والنصف مثقف يسمعه فيأخذ منه على قدر ثقافته ، والعالم الكبير يأخذ منه على قدر علمه ويجد فيه بُغْيته ، بل وأكثر

من ذلك ، فالمتخصص فى أىِّ علم من العلوم يجد فى كتاب الله أدقّ التفاصيل ؛ لأن الحق سبحانه بيَّن فيه كل شىء .

ثم يقول تعالى : ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (٥٤)﴾ [الكهف] أى : كثير الخصومة والتنازع فى الرأى ، والجدل : هو المحاورة ومحاولة كل طرف أن يثبت صِدْق مذهبه وكلامه ، والجدل إما أن يكون بالباطل لتثبيت حجة الأهواء وتراوغ لتبرر مذهبك ولو خطأً ، وهذا هو الجَدل المعيب القائم على الأهواء . وإما أن يكون الجدل بالحق وهو الجدل البنّاء الذى يستهدف الوصول إلى الحقيقة ، وهذا بعيد كل البعد عن التحيّز للهوى أو الأغراض .

ولما تحدَّث القرآن الكريم عن الجدل قال تعالى : ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦)﴾ [العنكبوت] وقال: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥)﴾ [النحل]

والنبى ﷺ لما مرَّ على علىٍّ وفاطمة - رضى الله عنهما - ليوقظهما لصلاة الفجر ، وطرق عليهما الباب مرة بعد أخرى ، ويبدو أنهما كانا مستغرقيْن فى نوم عميق ، فنادى عليهما ﷺ « ألا تصلون ؟ »[1] فردَّ الإمام على قائلاً : يا رسول الله إن أنفسنا بيد الله ، إن شاء أطلقها وإن شاء أمسكها ، فضحك النبى ﷺ وقال : ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (٥٤)﴾ [الكهف]

لأن الإنسان له أهواء متعددة وخواطر متباينة ، ويحاول أنْ يُدلّل على صحة أهوائه وخواطره بالحجة ، فيقارع الحق ويغالط ويراوغ .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١/٧٧) ، ومسلم فى صحيحه (٢٠٦) كتاب صلاة المسافرين ، والبخارى فى صحيحه (٧٣٤٧) من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه .

ولو دققتَ فى رأيه لوجدتَ له هـوىً يسعى إليه ويميل إلى تحقـيقه ، وترى ذلك واضحاً إذا اختـرتَ أحد الطرق تسلكه أنت وصاحـبك مثلاً لأنه أسـهلها وأقـربها ، فـإذا به يقـترح عليك طريقـاً آخر ، ويحـاول إقناعك به بكل السُّبل ، والحـقيقة أن له غرضـاً فى نفسه وهوىً يريد الوصول إليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾

مـا الـذى منعـهم أن يـؤمنـوا بعـد أن أنـزل عليـهـم القـرآن ، وصـرّفنا فـيه مـن الآيات والأمثـال ، وبعـد أن جـاءهم مطابقـاً لكل الأحـوال ؟

وفى آية أخـرى ، أوضح الحق سـبحـانه سـبب إعـراضـهم عن الإيمان ، فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء]

فكُلُّ هذه التعـنّتات وهذا العناد هو الذى حال بينـهم وبين الإيمان بالله ، والحق سـبحـانه وتعـالى حينمـا يأتى بآية طلبـها القـوم ، ثم

لم يؤمنوا بها يُهلكهم ؛ لذلك قال بعدها : ﴿إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ..(٥٥)﴾ [الكهف] فهذه هي الآية التي تنتظرهم : أن تأتيهم سُنَّة الله في إهلاك مَنْ كذَّب الرسل .

فقبل الإسلام ، كانت السماء هي التي تتدخل لنُصْرة العقيدة ، فكانت تدكُّ عليهم قُراهم ومساكنهم ، فالرسول عليه الدعوة والبلاغ ، ولم يكن من مهمته دعوة الناس إلى الحرب والجهاد في سبيل نَشْر دعوته ، إلا أمة محمد فقد أَمِنَها على أن تحمل السيف لتُؤدِّب الخارجين عن طاعة الله .

وقوله تعالى : ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ .. (٥٥)﴾ [الكهف] أي : على ما فات من المهاترات والتعنُّتات والاستكبار على قبول الحق ﴿إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ .. (٥٥)﴾ [الكهف] أي : بهلاك المكذبين ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً (٥٥)﴾ [الكهف] أي مُقابلاً لهم ، وعياناً أمامهم ، أو (قُبُلاً) جمع قبيل ، وهي ألوان متعددة من العذاب ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ .. (٤٧)﴾ [الطور] أي : لهم عذاب غير النار ، فألوان العذاب لهم متعددة .

ثم يُسلِّي الحق سبحانه رسوله ﷺ حتى لا يأبه لعمل الكفار ، ولا يهلك نفسه أسفاً على إعراضهم ، فيقول سبحانه :

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا (٥٦)﴾

قلنا : إن الجدل قد يكون بالحق ، وقد يكون بالباطل كما يفعل الذين كفروا هنا ، فيجادلون بالباطل ويستخدمون كل الحِيَل لدحْض

الحق أى : ليُعطّلوه ويزيلوه ﴿ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ۝٥٦ ﴾ [الكهف] أى : الآيات الكونية التى جاءت لتصديق الرسل ، وكذلك آيات القرآن ، وآيات الأحكام اتخذوها سُخْرية واستهزاءً ، ولم يعبأوا بما فيها من نذارة .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا[1] ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ۝٥٧ ﴾

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ .. ۝٥٧ ﴾ [الكهف] جاء الخبر على صورة الاستفهام لتأكيد الكلام ، كأنْ يدَّعى صاحبك أنك لم تصلْه ، ولم تصنع معه معروفاً ، فمن الممكن أن تقول له : صنعتُ معكَ كذا وكذا على سبيل الخبر منك ، والخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب .

إنما لو عرضْتَ المسألة على سبيل الاستفهام فقُلْتَ له : ألم أصنع معك كذا ؟ فسوف تجتذب منه الإقرار بذلك ، وتقيم عليه الحجة من كلامه هو ، وأنت لا تستفهم عن شيء من خَصْم إلا وأنت واثق أن جوابه لا يكون إلا بما تحب .

وهكذا أخرج الحق سبحانه الخبر إلى الاستفهام : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ .. ۝٥٧ ﴾ [الكهف] ؟ وترك لنا الجواب لنقول نحن : لا أحدَ أظلمُ ممَّنْ فعل ذلك ، والإقرار سيد الأدلة .

---

(١) وقرت أذنه : ثقل سمعها . أو صُمَّتْ . يقول الكافرون ذلك سخرية وإصراراً على العناد والكفر والتكذيب . [القاموس القويم ٢/ ٣٥٠] .

وقوله ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا .. (٥٧)﴾ [الكهف] تركها ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ .. (٥٧)﴾ [الكهف] نسى السيئات ، وكان من الواجب أن يتنبه إلى هذه الآيات فيؤمن بها ، لعل الله يتوب عليه بإيمانه ، فيُبدِّل سيئاته حسنات .

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ .. (٥٧)﴾ [الكهف]

أكنة : أغطية جمع كِنّ ، فجعل الله على قلوبهم أغطية ، فلا يدخلها الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر ، وليس هذا اضطهاداً منه تعالى لعباده ، تعالى الله عن ذلك ، بل استجابة لما طلبوا وتلبية لما أحبُّوا ، فلما أحبُّوا الكفر وانشرحتْ به صدورهم زادهم منه ؛ لأنه رَبٌّ يعطى عبده ما يريد .

كما قال عنهم فى آية أخرى : ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)﴾ [البقرة]

وقال تعالى فى هذا المعنى : ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ .. (٧)﴾ [البقرة]

ومعنى : ﴿أَن يَفْقَهُوهُ .. (٥٧)﴾ [الكهف] أى : يفهموه ، يفهموا آيات الله ؛ لأنهم سبق أنْ ذُكِّروا بها فأعرضوا عنها ، فحرَمهم الله فقهها وفهمها .

وقوله تعالى : ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا .. (٥٧)﴾ [الكهف] أى : صمم فلا يسمعون ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧)﴾ [الكهف] وهذا أمر طبيعى ، بعد أن ختم الله على قلوبهم وعلى أسماعهم ، وسَدَّ عليهم منافذ العلم والهداية ؛ لأن الهدى ناشىء من أن تسمع كلمة الحق ، فيستقبلها قلبُكَ بالرضا ، فتنفعل لها جوارحك بالالتزام ،

فتسمع بالأذن ، وتقبل بالقلب ، وتنفعل بالجوارح طاعةً والتزاماً بما أُمِرَتْ به .

وما دام فى الأذن وَقْر وصَمَمٌ فلن تسمع ، وإنْ سمعتْ شيئاً أنكره القلب ، والجوارح لا تنفعل إلا بما شُحِن به القلب من عقائد .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا[1] ﴿٥٨﴾ ﴾

فمن رحمة الله بالكفار أنه لم يعاجلهم بعذاب يستأصلهم ، بل أمهلهم وتركهم ؛ لأن لهم موعداً لن يهربوا منه ، ولن يُفلتوا ، ولن يكون لهم ملْجأ يحميهم منه ، ولا شكَّ أن فى إمهالهم فى الدنيا حكمة لله بالغة ، ولعل الله يُخرِج من ظهور هؤلاء مَنْ يؤمن به ، ومَنْ يحمل راية الدين ويدافع عنه ، وقد حدث هذا كثيراً فى تاريخ الإسلام ، فمنْ ظَهْر أبى جهل جاء عكرمة ، وأمهل الله خالد بن الوليد ، فكان أعظمَ قائد فى الإسلام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾

تلك : أداة إشارة لمؤنث هى القرى ، والكاف للخطاب ، والخطاب هنا للنبى ﷺ ، وأمتُه مُنْضوية فى خطابه ؛ لأن خطابَ الرسول

---

(١) الموئل : الملجأ أو المكان للنجاة . وألَ إليه يئل : لجأ إليه فراراً ، ووأل من المكروه : نجا منه أو : نجا من خطر يتهدده . [القاموس القويم ٢/٣١٧] .

خطاب لأمته . لكن الإشارة لا تكون إلا لشيء معلوم موجود مُحَسٍّ ، كما جاء في قوله تعالى :﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [طه] .

فأين هذه القُرَى ؟ وهل كان لها وجود على عهد النبي ﷺ ؟

نعم ، كان لهذه القرى آثار وأطلال تدل عليها ويراها النبي ﷺ ويراها الناس في رحلاتهم إلى الشام وغيرها مثل : قُرَى ثمود قوم صالح ، وقرى قوم لوط ، وقد قال تعالى عنها : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات]

إذن : فتلك إشارة إلى موجود مُحَسٍّ دَالٍّ بما تبقّى منه على ما حاق بهذه القرى من عذاب الله ، وما حلَّ بها من بَأْسه الذي لا يُرَدُّ عن القوم الظالمين .

وكلمة (القرى) جمع قرية ، وتُطلَق على المكان الذي تتوفّر فيه مُقوِّمات الحياة وضرورياتها ، بل بها ما يزيد على الضروريات ومُقوِّمات الحياة العادية ؛ لأن القرية لا تُطلَق إلا على مكان تتسع فيه مُقوِّمات الحياة اتساعاً يكفي لمن يطرأ عليها من الضيوف فيجد بها قِرَى[1] . فإنْ كانت قرية كبيرة يأتيها الرزق الوفير من كل مكان كأنها أُمٌّ ، نسميها (أم القرى)[2] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾

---

(١) القرى : طعام الأضياف . والمِقْرى : كل ما يؤتى به من قرى الضيف من قصعة أو جفنة . [لسان العرب ـ مادة : قرى] .

(٢) وقد جاء هذا الوصف في القرآن في قوله تعالى قاصداً مكة المكرمة ، فقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ﴿٧﴾ ﴾ [الشورى] .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ .. (٦٠) ﴾ [الكهف] أى : اذكر يا محمد وقت أنْ قال موسى لفتاه ، وفتى موسى هو خادمه يوشع ابن نون ، وكان من نَسْل يوسف ـ عليه السلام ـ وكان يتبعه ويخدمه ليتعلم منه .

﴿ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ .. (٦٠) ﴾ [الكهف]

لكن ، ما حكاية موسى مع فتاه ؟ وما مناسبتها للكلام هنا ؟

مناسبة قصة موسى هنا أن كفار مكة بعثوا ليهود المدينة يسألونهم عن خبر النبى ﷺ ؛ لأنهم أهل كتاب وأعلم بالسماء ، فأرادوا رأيهم فى محمد : أهو مُحقٌّ أم لا ؟ فقال اليهود لوفد مكة : اسألوه عن ثلاثة أشياء ، فإن أجابكم فهو نبى : اسألوه عن الفتية الذين ذهبوا فى الدهر ، والرجل الطواف الذى طاف البلاد ، وعن الروح ، فما كان منهم إلا أن سألوا رسول الله هذه الأسئلة ، فقال لهم : « فى الغد أجيبكم »[(١)] .

إذن : إجابة هذه الأسئلة ليست عنده ، وهذه تُحسَب له لا عليه ، فلو كان محمد ﷺ يضرب الكلام هكذا دون علم لأجابهم ، لكنه سكت إلى أن يأتى الجواب من الله تعالى ، وهذا من أدبه ﷺ مع ربه الذى أدَّبه فأحسن تأديبه .

ومرَّتْ خمسة عشر يوماً دون أن يُوحَى لرسول الله فى ذلك شىء ، حتى شَقَّ الأمر عليه ، وفرح الكفار والمنافقون ؛ لأنهم وجدوا على رسول الله مأخذاً فاهتبلوا هذه الفرصة ليندِّدوا برسول الله ، إنما أدب الله لرسوله فوق كل شىء ليبين لهم أن رسول الله لن يتكلم فى

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/٧١) وعزاه لمحمد بن إسحاق من قول ابن عباس رضى الله عنهما عن وفد قريش إلى أحبار يهود بالمدينة ليسألوهم عن محمد ﷺ وصفته .

هذه المسألة إلا بوحى من الله ؛ لأنه لا ينطق عن الهوى ولا يصدر عن رأيه .

ولو كان لهؤلاء القوم عقول لفهموا أن البُطْءَ فى هذه المسألة دليلُ صدق النبى ﷺ ؛ لذلك جاءت قصة موسى هنا لتردَّ على مهاتَرات القوم ، وتُبيِّن لهم أن النبى لا يعلم كل شىء ، وهل المفروض فيه أن يجيبكم عن كل شىء ؟ وهل يقدح فى مكانته أنه لا يعرف مسألة ما ؟

جاءت هذه الآيات لتقول لليهود ومَنْ لَفَّ لَفَّهم من كفار مكة : أنتم متعصبون لموسى وللتوراة ولليهودية ، وها هو موسى يتعلم ليس من الله ، بل يتعلم من عبد مثله ، ويسير تابعاً له طلباً للعلم .

جاءت الآيات لتقول لهم : يا مَنْ لقنتم كفار مكة هذه الأسئلة وأظهرتم الشماتة بمحمد حينما أبطأ عليه الوحى ، اعلموا أن إبطاء الوحى لتعلموا أن محمداً لا يقول شيئاً من عند نفسه ، فكان من الواجب أنْ تلفتكم هذه المسألة إلى صدق محمد وأمانته ، وما هو على الغيب بضنين .

وسبب قصة موسى عليه السلام ـ يُقال : إنه سأل الله ـ وكان له دلال على ربه : ﴿رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ .. ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف] والذى أطمعه فى هذا المطلب أن الله كلَّمه ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه] فأطال موسى الكلام مع ربه ، ومَنْ الذى يكلمه الله ولا يطيل أمد الأُنْس بكلام الله ؟ لذلك قال موسى : ﴿هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ[1] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه]

(١) هش الشجر : ضربه بعصاً ليسقط ورقه لتأكله الماشية . ومعنى قوله تعالى : ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى.. ﴿١٨﴾﴾ [طه] . أى : أسقط بعصاى أوراق الأشجار على غنمى لتأكلها . [القاموس القويم ٢/٣٠٣] .

وهكذا أطال موسى مدة الأنس بالله والحديث معه سبحانه ، لذلك سأله : يا ربِّ ، أيوجد فى الأرض أعلم منى ؟ فأجابه ربُّه تبارك وتعالى : نعم فى الأرض مَنْ هو أعلم منك ، فاذهب إلى مجمع البحرين ، وهناك ستجد عبداً من عبيدى هو أعلم منك ، فأخذ موسى فتاه وذهب إلى مَجْمع البحرين .

وقد ورد فى حديث رسول الله ﷺ أن موسى ـ عليه السلام ـ خطب مرة فسُئل : مَنْ أعلم ؟ فقال : أنا ـ يعنى من البشر ، فأخبره الله تعالى : لا بل فى الأرض مَنْ هو أعلم منك من البشر[1] حتى لا يغتَرَّ موسى ـ عليه السلام ـ بما أعلمه الله .

ثم يقول تعالى : ﴿ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ .. (٦٠) ﴾ [الكهف]

لا أبرح : أى لا أترك ، والبعض يظن أن لا أبرح تعنى : لا أترك مكانى الذى أنا فيه ، لكنها تعنى : لا أترك ما أنا بصدده ، فإنْ كنتُ قاعداً لا أترك القعود ، وإنْ كنتُ ماشياً لا أترك المشى ، وقد قال موسى ـ عليه السلام ـ هذا القول وهو يبتغى بين البحرين ، ويسير متجهاً إليه ، فيكون المعنى : لا أترك السير إلى هذا المكان حتى أبلغ مجمع البحرين .

وقد وردتْ مادة (برح) فى قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي .. (٨٠) ﴾ [يوسف] قالها كبيرهم بعد أن أخذ يوسف أخاه بنيامين ومنعه من الذهاب معهم ، فهنا استحى الأخ الأكبر من مواجهة أبيه الذى أخذ عليهم العهد والميثاق أنْ يأتوا به ويُعيدوه إليه .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٢٥-٤٧٢٧) فى تفسير آية : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) ﴾ [الكهف] . وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (١١٧/٥) من حديث أبىّ بن كعب .

و « مجْمَع البحرين » أى : موضع التقائهما ، حيث يصيران بحراً واحداً ، كما يلتقى مثلاً دجلة والفرات فى شَطِّ العرب .

وقوله : ﴿ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الكهف]

الحُقُب : جمع حِقْبة ، وهى الفترة الطويلة من الزمن ، وقد قدَّروها بحوالى سبعين أو ثمانين سنة ، فإذا كان أقل الجمع ثلاثة ، فمعنى ذلك أن يسير موسى ـ عليه السلام ـ مائتين وعشرة سنين ، على اعتبار أن الحِقْبة سبعون سنة .

ويكون المعنى : لا أترك السير إلى هذا المكان ولو سِرْتُ مائتين وعشرة سنين ؛ لأن موسى عليه السلام كان مَشُوقاً إلى رؤية هذا الرجل الأعلم منه ، كيف وهو النبى الرسول الذى أوحى الله إليه ؛ لذلك أخبره ربه أن عِلْم هذا الرجل علم من لدنا ، علم من الله لا من البشر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا[1] فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ ﴾

(بَلَغَا) أى : موسى وفتاه (مجْمَعَ بينهمَا) أى : مجمع البحرين (نَسِيَا حُوتَهُمَا) أى : حدث النسيان منهما معاً ، وإنْ كان حمل الحوت منوطاً بفتى موسى وقد نسيه ، فكان على موسى أنْ يُذكِّره به ، فرئيس القوم لابُدَّ أن يتنبه لكل جزئية من جزئيات الرَّكْب ، وكانت العادة أنْ يكون هو آخر المبارحين للمكان ليتفقده وينظر لعل واحداً نسى شيئاً ، إذن : كان على موسى أن يعقب ساعة قيامهم لمتابعة السير ، ويُذكِّر فتاهُ بما معهم من لوازم الرحلة .

---

(١) الحوت : السمكة كبرت أو صغرت والجمع حيتان . [القاموس القويم ١/١٧٦] .

والحوت : نوع من السمك معروف ، وفى بعض البلاد يُطلقون على كل سمك حُوتاً ، وقد أعدُّوه للأكل إذا جاءوا أثناء السير ، وكان الفتى يحمله وهو مشوى فى مكتل[1] .

وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ ﴾ [الكهف] أى : خرج الحوت المشوى من المكتل ، وتسرَّب نحو البحر ، والسَّرَب : مثل النفق أو السرداب ، أو هو المنحدر ، كما نقول : تسرب الماء من القرْبة مثلاً ؛ ذلك لأن مستوى الماء فى القرْبة أعلى فيتسرَّب منها ، وهذه من عجائب الآيات أن يقفز الحوت المَشوىّ ، وتعود له الحياة ، ويتوجّه نحو البحر ؛ لأنه يعلم أن الماء مسكنه ومكانه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ ﴾

أى : جاوزا فى سيرهما مجمع البحرين ومكان الموعد ، قال موسى ـ عليه السلام ـ لفتاه : أحضر لنا الغداء فقد تعبنا من السفر ، والنَّصَب : هو التعب .

فمعنى ذلك أنهما سارا حتى مجمع البحرين ، ثم استراحا ، فلما جاوزا هذا المكان بدا عليهما الإرهاق والتعب ؛ لذلك طلب موسى الطعام . وهنا تذكَّر الفتى ما كان من نسيان الحوت .

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ ﴾

---

(١) المِكْتل : الزَّنبيل الذى يُحمل فيه التمر أو العنب إلى الجرين . وقيل : المكتل شبه الزنبيل يسع خمسة عشر صاعاً . [لسان العرب ـ مادة : كتل] .

هذا كلام فتى موسى : أرأيت : أخبرنى إذْ لجأنا إلى الصخرة عند مَجْمع البحرين لنستريح ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ .. (٦٣)﴾ [الكهف] ونلحظ أنه قال هنا (نَسِيتُ) وقال فى الآية السابقة ﴿نَسِيَا ..(٦١)﴾ [الكهف] ذلك لأن الأولى إخبار من الله ، والثانية كلام فتى موسى .

فكلام الله تبارك وتعالى يدلُّنا على أن رئيساً متبوعاً لا يترك تابعه ليتصرف فى كل شيء ؛ لأن تابعه قد لا يهمه أمر المسير فى شيء ، وقد ينشغل ذِهْنه بأشياء أخرى تُنسِيه ما هو منُوط به من أمر الرحلة .

ثم يعتذر الفتى عما بَدَر منه من نسيان الحوت ، ويقول : ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ .. (٦٣)﴾ [الكهف] فالشيطان هو الذى لعب بأفكاره وخواطره حتى أنساه واجبه ، وأنساه ذكْر الحوت .

وقوله تعالى : ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣)﴾ [الكهف] أى : اتخذ الحوتُ طريقه فى البحر عَجَباً ، فى الآية السابقة قال ﴿سَرَبًا (٦١)﴾ [الكهف] وهذه حال الحوت ، وهنا يقول (عَجَباً) لأنه يحكى ما حدث ويتعجب منه ، وكيف أن الحوت المشوىّ تدبّ فيه الحياة حتى يقفز من المكتل ، ويتجه صَوْبَ الماء ، فهذا حقاً عجيبة من العجائب ؛ لأنها خرجتْ عن المألوف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤)﴾

أى : قال موسى ـ عليه السلام ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ .. (٦٤)﴾ [الكهف] أى : نطلب ، فهذا المكان الذى فُقد فيه الحوت هو المكان المراد ، فكأن الحوت كان أعلم بالموعد من موسى ، وهكذا عُرف

عنوان المكان ، وهو مَجْمع البحرين ، حيث يلتقى البحران فيصيران بحراً واحداً .

وهذه الصورة لا توجد إلاَّ فى مسرح بنى إسرائيل فى سيناء . وهناك خليج العقبة وخليج السويس ، ويلتقيان فى بحر واحد عند رأس محمد(١) .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) ﴾ [الكهف] أى : عادا على أثر الأقدام كما يفعل قَصَّاصُو الأثر ، ومعنى ﴿ قَصَصًا (٦٤) ﴾ [الكهف] أى : بدقة إلى أنْ وصلاَ إلى المكان الذى تسرَّب فيه الحوت ، وهو الموعد الذى ضربه الله تعالى لموسى ـ عليه السلام ـ حيث سيجد هناك العبد الصالح .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) ﴾

سبق أن تحدثنا عن العبودية ، فإنْ كانت لله تعالى فهى العزّ والشرف ، وإنْ كانت لغير الله فهى الذلُّ والهوان ، وقلنا : إن النبى ﷺ لم يأخذ حَظْوة الإسراء والمعراج إلا لأنه عبد لله ، كما قال سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الإسراء]

كما أن العبودية لله يأخذ فيها العبد خَيْر سيده ، أما العبودية للبشر فيأخذ السيد خَيْر عبده .

(١) قال قتادة عن مجمع البحرين : هو بحر فارس والروم . وقيل : هما بحر الأردن وبحر القلزم (أى : خليج السويس) . وقيل : مجمع البحرين عند طنجة ، قاله محمد بن كعب . [تفسير القرطبى ٥/٤١٦٢] .

ثم وصف الحق سبحانه هذا العبد الصالح ، فقال : ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا .. (٦٥)﴾ [الكهف] وقد تكلم العلماء فى معنى الرحمة هنا ، فقالوا : الرحمة وردتْ فى القرآن بمعنى النبوة ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف] فكان رَدُّ الله عليهم : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ..(٣٢)﴾ [الزخرف]

أى : النبوة ، ومطلق الرحمة تأتى على يد جبريل ـ عليه السلام ـ وعلى يد الرسل ، أما هذه الرحمة ، فمن عندنا مباشرة دون واسطة الملَك ؛ لذلك قال تعالى : ﴿آتَيْنَاهُ .. (٦٥)﴾ [الكهف] نحن ، وقال : ﴿مِّنْ عِندِنَا .. (٦٥)﴾ [الكهف] فالإتيان والعنْدية من الله مباشرة .

ثم يقول بعدها : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥)﴾ [الكهف] أى : من عندنا لا بواسطة الرسل ؛ لذلك يسمونه العلم اللدنى ، كأنه لا حرجَ على الله تعالى أن يختار عبداً من عباده ، ويُنعم عليه بعلْم خاص من وراء النبوة .

إذن : علينا أنْ نُفرِّق بين علم وفيوضات تأتى عن طريق الرسول وتوجيهاته ، وعلم وفيوضات تأتى من الله تعالى مباشرة لمن اختاره من عباده ؛ لأن الرسول يأتى بأحكام ظاهرية تتعلق بالتكاليف : افعل كذا ولا تفعل كذا ، لكن هناك أحكام أخرى غير ظاهرية لها علَل باطنة فوق العلل الظاهرية ، وهذه هى التى اختصَّ الله بها هذا العبدَ الصالح (الخضر) كما سماه النبى ﷺ .

والدليل على ذلك أن النبى يأتى بأحكام تُحرِّم القتل وتحرِّم إتلاف مال الغير ، فأتى الخضر وأتلف السفينة وقتل الغلام ، وقد اعترض موسى ـ عليه السلام ـ على هذه الأعمال ؛ لأنه لا علْمَ له بعلتها ، ولو أن موسى ـ عليه السلام ـ علم العلّة فى خَرْق السَفينة لبادر هو إلى خرقها .

إذن : فعلْم موسى غير علم الخضر ؛ لذلك قال له : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) ﴾ [الكهف]

فهذا عِلْم ليس عندك ، فعلْمى من كيس الولاية ، وعلمك من كيس الرسل ، وهما فى الحقيقة لا يتعارضان ، وإنْ كان لعلم الولاية عِلَل باطنة ، ولعلم الرسالة عِلَل ظاهرة .

ثم يقول تعالى :

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) ﴾

كأن موسى عليه السلام يُعلِّمنا أدب تلقّى العلم وأدب التلميذ مع معلمه ، فمع أن الله تعالى أمره أن يتبع الخضر ، فلم يقُل له مثلاً : إن الله أمرنى أن أتبعك ، بل تلطّف معه واستسمحه بهذا الأسلوب ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ .. (٦٦) ﴾ [الكهف]

والرشد : هو حُسْن التصرّف فى الأشياء ، وسداد المسلك فى علة ما أنت بصدده ، وسبق أن قلنا : إن الرُّشْد يكون فى سِنٍّ البلوغ ، لكن لا يعنى هذا أن كل مَنْ بلغ يكون راشداً ، فقد يكون الإنسان بالغاً وغير راشد ، فقد يكون سفيهاً .

لذلك لما تكلم الحق سبحانه عن اليتامى قال : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ .. (٦) ﴾ [النساء] أى : اختبروهم ، واختبار اليتيم يكون حال يُتْمه وهو ما يزال فى كفالتك ، فعليك أنْ تكلّفه بعمل ما لإصلاح حاله ، وتعطيه جزءاً من ماله يتصرَّف فيه تحت عينك وفى رعايتك ، لترى كيف سيكون تصرفه .

عليك أنْ تحرص على تدريبه لمواجهة الحياة ، لا أن تجعله فى مَعْزل عنها إلى أنْ يبلغَ الرشْد ، ثم تدفع إليه بماله فلا يستطيع التصرف فيه لعدم خبرته ، وإنْ فشل كانت التجربة فى ماله والخسارة عليه .

إذن : فاختبار اليتيم يتمُّ وهو ما يزال فى ولايتك ، وتحت سمعك وبصرك رعاية لحقه .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ.. ﴿٦﴾ ﴾ [النساء] وهو سن البلوغ ، ولم يقُلْ بعدها : فادفعوا إليهم أموالهم ؛ لأن بعد البلوغ شرطاً آخر ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا.. ﴿٦﴾ ﴾ [النساء] فعلى الوصىّ أنْ يُراعىَ هذا الترتيب :

أنْ تُراعى اليتيم وهو تحت ولايتك ، وتدفع به فى مُعْتَرك الحياة وتجاربها حتى يتمكّن من مواجهة الحياة ولا يتخبط فى ماله لعدم تجربته وخبرته ، فإنْ علمت رُشْده بعد البلوغ فادفع إليه بماله ليتصرّف فيه ، فإنْ لم تأنسْ منه الرشد وحُسْن التصرف فلا تترك له المال يُبدّده بسوء تصرفه .

لذلك يقول تعالى فى هذا المعنى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ .. ﴿٥﴾ ﴾ [النساء] ولم يقُلْ : أموالهم ؛ لأن السفيه لا مالَ له حال سَفَهه ، بل هو مالكم لِتُحسِنوا التصرف فيه وتحفظوه لصاحبه لحين تتأكدون من رُشْده .

إذن : فالرشد الذى طلبه موسى من العبد الصالح هو سداد التصرف والحكمة فى تناول الأشياء ، لكن هل يعنى ذلك أن موسى - عليه السلام - لم يكن راشداً ؟ لا ، بل كان راشداً فى مذهبه هو كرسول ، راشداً فى تبليغ الأحكام الظاهرية .

أما الرشد الذى طلبه فهو الرشد فى مذهب العبد الصالح ، وقد دلّ هذا على أنه طلب شيئاً لم يكن معلوماً له ، وهذا لا يقدح فى

مكانة النبوة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾ [الإسراء]

وقال للنبى ﷺ : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) ﴾ [طه]

لذلك يقول الشاعر :

كُلَّمَا ازْدَدْتُ عُلوماً ... زدْتُ إيقَاناً بجهْلِى

لأن معنى أنه ازداد علْماً اليوم أنه كان ناقصاً بالأمس ، وكذلك هو ناقص اليوم ليعلمَ غداً .

والإنسان حينما يكون واسعَ الأفق محباً للعلم ، تراه كلما علم قضية اشتاق لغيرها ، فهو فى نَهمٍ دائم للعلم لا يشبع منه ، كما قال ﷺ : « منهومان لا يشبعان : طالب علم ، وطالب مال »[1] .

والشاعر الذى تنبَّه لنفسه حينما دَعَتْه إلى الغرور والكبرياء والزَّهْو بما لديه من علم قليل ، إلا أنه كان متيقظاً لخداعها ، فقال :

قالتِ النفْسُ قَدْ علِمْتُ كَثِيراً ... قُلْتُ هَذَا الكثيرُ نَزْعٌ يسيرُ

ثم جاء بمثل توضيحى :

تمْلأُ الكُوزَ غَرْفَةٌ مِنْ مُحِيط ... فَيَرى أنَّهُ المحيطُ الكَبِيرُ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) ﴾

هنا يبدأ العبد الصالح يُملى شروط هذه الصُّحْبة ويُوضّح لموسى - عليه السلام - طبيعة علْمه ومذهبه ، فمذهبُك غير مذْهبى ، وعلمى من كيس غير كيسك ، وسوف ترى منى تصرفات لن تصبر عليها ؛

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠/٢٢٣) (حديث ١٠٣٨٨) من حديث عبد الله بن مسعود ، قال الهيثمى فى « مجمع الزوائد » (١/١٣٥) : « فيه أبو بكر الداهرى وهو ضعيف » .

لأنه لا علْم لك ببواطنها ، وكأنه يلتمس له عُذْراً على عدم صَبْره معه ؛ لذلك يقول :

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

فلا تحزن لأنى قُلت : لن تستطيع معى صبراً ؛ لأن التصرفات التى ستعترض عليها ليس لك خُبر بها ، وكيف تصبر على شىء لا علْمَ لك به ؟

ونلحظ فى هذا الحوار بين موسى والخضر[1] ـ عليهما السلام ـ أدبَ الحوار واختلافَ الرأى بين طريقتين : طريقة الأحكام الظاهرية ، وطريقة ما خلف الأحكام الظاهرية ، وأن كلاً منهما يقبَل رأىَ الآخر ويحترمه ولا يعترض عليه أو يُنكره ، كما نرى أصحاب المذاهب المختلفة ينكر بعضهم على بعض ، بل ويُكفِّر بعضهم بعضاً ، فإذا رأَوْا مثلاً عبداً من عباد الله اختاره الله بشىء من الفيوضات ، فكانت له طريقة وأتباع نرى مَنْ ينكر عليه ، وربما وصل الأمر إلى الشتائم والتجريح ، بل والتكفير .

لقد تجلَّى فى قول الخضْر : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴿٦٨﴾ ﴾ [الكهف] مظهر من مَظاهر أدب المعلّم مع المتعلِّم ، حيث احترمَ رأيه ، والتمس له العُذْر إن اعترض عليه ، فلكُلٍّ منهما مذهبه الخاص ، ولا يحتج بمذهب على مذهب آخَر .

فماذا قال المتعلم بعد أن استمع إلى هذه الشروط ؟

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا
وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾

---

(١) قال مجاهد : سمى الخضر لأنه كان إذا صلى اخضرَّ ما حوله . وروى الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هى تهتز تحته خضراء » ذكره القرطبى فى تفسيره (٤١٦٩/٥) .

أى : أنا قابل لشروطك أيُّها المعلم فاطمئن ، فلن أجادلك ولن أعارضك فى شيء . وقدَّم المشيئة فقال : ﴿إن شاءَ اللَّهُ .. (٦٩)﴾ [الكهف] ليستميله إليه ويُحنِّن قلبه عليه ﴿صابِرًا .. (٦٩)﴾ [الكهف] على ما تفعل مهما كان ﴿ولا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩)﴾ [الكهف] وهكذا جعل نفسه مأموراً ، فالمعلم آمر ، والمتعلِّم مأمور .

﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠)﴾

وهذا تأكيد من الخضر لموسى ، وبيان للطريقة التى يجب اتباعها فى مصاحبته : إنْ تبعتنى فلا تسألْنى حتى أخبرك ، وكأنه يُعلِّمه أدب تناول العلم والصبر عليه ، وعدم العَجلة لمعرفة كل أمر من الأمور على حدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١)﴾

(فَانْطَلَقَا) سارا معاً ، حتى ركبا سفينة ، وكانت مُعَدَّة لنقل الركاب ، فما كان من الخضر إلا أنْ بادر إلى خَرْقها وإتلافها ، عندها لم يُطق موسى هذا الأمر ، وكبُرت هذه المسألة فى نفسه فلم يصبر عليها فقال : ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١)﴾ [الكهف]

أى : أمراً عجيباً أو فظيعاً . ونسى موسى ما أخذه على نفسه من طاعة العبد الصالح وعدم عصيانه والصبر على ما يرى من تصرفاته .

كـأن الحقَّ ـ تبـارك وتعـالى ـ يريد أن يُعلِّمنـا أن الكلام النظرى شىء ، والعـمل الواقـعى شىء آخر ، فـقـد تسمع مـن أحدهم القـول الجميل الذى يعجبك ، فإذا ما جاء وقت العمل والتنفيذ لا تجد شيئاً ؛ لأن الكلام قد يُقَال فى أول الأمـر بعبارة الأريحيـة ، كمن يقول لك : أنا رَهْن أمرك ورقبتى لك ، فإذا مـا أحوجك الواقع إليه كنت كالقابض على الماء لا تجد منه شيئاً .

ونلحظ هنا أن مـوسى ـ عليه السـلام ـ لم يكتف بالاسـتفـهام : ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا .. (٧١) ﴾ [الكهف] بل تعدَّى إلى اتهامه بأنه أتى أمـراً منكراً فظيـعاً ؛ لأن كـلام موسى النـظرى شىء ورؤيته لخـرق السفينة وإتلافها دون مبرر شىء آخر ؛ لأن موسى استحضر بالحكم الشرعى إتلاف مـال الغير ، فضـلاً عن إغراق ركاب السفـينة ، فرأى الأمر ضخماً والضرر كبيراً ، هذا لأن موسى يأخذ من كيس والخضر يأخذ من كيس آخر .

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) ﴾

وهذا درس آخر من الخضر لموسى ـ عليهما السلام ـ يقول : إن كلامى لك كان صـادقاً ، وقد حذرتُك أنك لن تصـبرَ على ما ترى من تصـرفاتى ، وها أنت تعـتـرض علىَّ ، وقد اتفـقنا وأخـذنا العهـد ألاَّ تسألنى عن شىء حتى أُخبرك أنا به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) ﴾

يعـتذر مـوسى ـ عليه الـسلام ـ عـما بدر منه لمـعلمـه ، ويطلب منه

مسامحته وعدم مؤاخذته ﴿وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣)﴾ [الكهف] أى : لا تُحمِّلنى من أمر اتباعك عُسْراً ومشقة . فسامحه الخضر وعاود السير .

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤)﴾

تلاحظ أن الاعتداء الأول من الخضر كان على مال أتلفه ، وهنا صعَّد الأمر إلى قَتْل نفس زكية دون حق ، فبأىٍّ جريرة يُقتل هذا الغلام الذى لم يبلغ رُشْده ؟ لذلك قال فى الأولى : ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١)﴾ [الكهف] أى عجيباً أما هنا فقال : ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤)﴾ [الكهف] أى : مُنكَراً ؛ لأن الجريمة كبيرة .

والنفس الزكية : الطاهرة الصافية التى لم تُلوِّثها الذنوب ومخالفة التكاليف الإلهية .

وكذلك يأتى الرد من الخضْر مخالفاً للرد الأول ، ففى المرة الأولى قال : ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢)﴾ [الكهف] أى : قلت كلاماً عاماً ، أما هنا فقال :

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥)﴾

وأكَّدها وأراده بالكلام أى : قُلْت لك أنت .

ثم بعد المرة الثانية التى يقاطع فيها موسى معلمه الخضر يأخذ عهداً جديداً على نفسه .

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦)﴾

وهكذا قطع موسى ـ عليه السلام ـ الطريق على نفسه ، وأعطى

لهـا فرصـة واحدة يتم بعـدها الفـراق ؛ لذلك فى الحديث أن رسـول الله ﷺ قـال : « رحـمنا الله ، ورحم أخى مـوسـى لو صـبـر لعـرفنا الكثير »[1] .

فهذه هى الثالثة ، وليس لموسى عذر بعد ذلك .

ومعنى : ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [الكهف] أى : قد فـعلت معى كل ما يمكن فعله ، وليس لى عُذْر بعد ذلك .

ثم يقول سبحانه :

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾

اسـتطـعم : أى طلب الطعـام ، وطلَبُ الطعـام هـو أصـدق أنواع السؤال ، فلا يسأل الطعام إلا جائع محتاج ، فلو سأل مالاً لقلنا : إنه يدخره ، إنمـا الطعام لا يعتـرض عليه أحد ، ومنْعُ الطعـام عن سائله دليل بُخْل ولُؤْم مـتـأصل فى الطبـاع ، وهذا مـا حـدث من أهل هذه القرية التى مرّا بها وطلبَا الطعام فمنعوهما .

والمتأمل فى الآية يجد أن أسلـوب القرآن يُصوِّر مدى بُخْل هؤلاء القوم ولُؤْمهم وسُـوء طباعهم ، فلم يقُلْ مثلاً : فأبوا أن يطعـموهما ،

---

(١) أخرجـه مسلم فى صـحيـحه (٢٣٨٠) كتـاب الفضـائل من حديث أبى بن كـعب بلفظ : « رحـمة الله علينا وعـلى موسى ، لولا أنه عـجل لرأى العـجب ، ولكنه أخـذته ذمامـة من صاحـبه » وفى لفظ آخر له أيضـا ولأحمد (٥/١٢١) : « يـرحم الله موسى ، لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما » .

بل قال : ﴿ فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا .. (٧٧) ﴾ [الكهف] وفرْق بين الإطعام والضيافة ، أَبَوْا الإطعام يعنى منعوهما الطعام ، لكن أبَوْا أن يُضيّفوهما ، يعنى كل ما يمكن أنْ يُقدَّم للضيف حتى مجرد الإيواء والاستقبال ، وهذا مُنْتَهى ما يمكن تصوُّره من لُؤْمْ هؤلاء الناس .

وتلحظ أيضاً تكرار كلمة (أَهْل) فلما قال : ﴿ أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ .. (٧٧) ﴾ [الكهف] فكان المقام للضمير فيقول : استطعموهم ، لكنه قال : ﴿ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا .. (٧٧) ﴾ [الكهف] لأنهم حين دخلوا القرية : هل قابلوا كل أهلها ، أم قابلوا بعضهم الذين واجهوهم أثناء الدخول ؟

بالطبع قابلوا بعضهم ، أما الاستطعام فكان لأهل القرية جميعاً ، كأنهما مرّا على كل بيت فى القرية وسألا أهلها جميعاً واحداً تلو الآخر دون جدوى ، كأنهم مجمعون على البُخْل ولُؤْم الطباع .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ .. (٧٧) ﴾ [الكهف]

أى : لم يلبثا بين هؤلاء اللئام حتى وَجَدا جداراً يريد أنْ ينقضّ ، ونحن نعرف أن الإرادة لا تكون إلا للمفكر العاقل ، فإنْ جاءت لغير العاقل فهى بمعنى : قَرُب . أى : جداراً قارب أنْ ينهار ، لما نرى فيه من علامات كالتصدُّع والشُّروخ مثلاً .

وهذا الفهم يتناسب مع أصحاب التفكير السطحى وضَيِّقى الأفق ، أما أصحاب الأفق الواسع الذين يعطون للعقل دوره فى التفكير والنظر ويُدقِّقون فى المسائل فلا مانع لديهم أنْ يكونَ للجدار إرادة على أساس أن لكل شىء فى الكون حياةً تناسبه ، ولله تعالى أن يخاطبه ويكون بينهما كلام .

ألم يَقُل الحق سبحانه : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ .. ﴿٢٩﴾ [الدخان]

فإذا كانت السماء تبكى فقد تعدَّتْ مجرد الكلام ، وأصبح لها أحاسيس ومشاعر ، ولديها عواطف قد تسمو على عواطف البشر ، فقوله : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ .. ﴿٢٩﴾ [الدخان] دليل على أنها تبكى على فَقْد الصالحين .

وقد سُئِل الإمام على ـ رضى الله عنه ـ عن هذه المسألة فقال : « نعم ، إذا مَات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع فى السماء وموضع فى الأرض ، أما موضعه فى الأرض فموضع مُصلاَّه ، أما موضعه فى السماء فهو مصعد عمله »[1] .

وهذا دليل انسجام العبد المؤمن مع الكَوْن من حوله ، فالكون ساجد لله مُسبِّح لله طائع لله يحب الطائعين وينبُو بالعاصين ويكرههم ويلعنهم ؛ لذلك العرب تقول : (نَبَا به المكان) أى : كرهه لأنه غير منسجم معه ، فالمكان طائع وهو عاص ، والمكان مُسبِّح وهو غافل .

وعلى هذا الفهم فقوله تعالى : ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ .. ﴿٧٧﴾ [الكهف] قول على حقيقته .

إذن : فهذه المخلوقات لها إحساس ولها بكاء ، وتحزن لفقد الأحبة ، وفى الحديث أن النبى ﷺ قال : « إنى لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علىَّ قبل أن أُبعث »[2] .

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/١٤٢) وعزاه لابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب بلفظ : « إنه ليس من عبد إلا له مصلى فى الأرض ومصعد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض ولا عمل يصعد فى السماء ، ثم قرأ على رضى الله عنه ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ .. ﴿٢٩﴾ [الدخان] » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٨٩ ، ٩٥) ، ومسلم فى صحيحه (٢٢٧٧) كتاب الفضائل من حديث جابر بن سمرة .

ورُوِى فى السيرة حنين الجذع إلى رسول الله ، وتسبيح الحصى فى يده ﷺ . وسبق أن أوضحنا هذه المسألة فقلنا : لا ينبغى أن نقول : سبَّح الحصى فى يد رسول الله ؛ لأن الحصى يُسبِّح أيضاً فى يد أبى جهل ، لكن نقول : سمع رسول الله ﷺ تسبيح الحصى فى يديه .

ولا غرابة أن يعطينا القرآن أمثلة لكلام هذه الأشياء ، فقد رأينا العلماء فى العصر الحديث يبحثون فى لغة للأسماك ، ولغة للطير ، ولغة للوطاويط التى أخذوا منها فكرة الرادار ، بل وتوصلوا إلى أن الحيوان يستشعر بوقوع الزلزال وخاصة الحمار ، وأنها تفرّ من المكان قبل وقوع الزلزال مباشرة . إذن : فلهم وسائل إدراك ، ولهم لغة يتفاهمون بها ، ولهم منطق يعبرون به .

ثم يقول الحق سبحانه عن فعْل الخضر مع الجدار الذى قارب أن ينقض ﴿فَأَقَامَهُ ﴿٧٧﴾﴾ [الكهف] ، أى : أصلحه ورمَّمه ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴿٧٧﴾﴾ [الكهف]

هذا قول موسى ـ عليه السلام ـ لما رأى لُؤْمَ القوم وخسّتهم ، فقد طلبنا منهم الطعام فلم يُطْعمونا ، بل لم يقدموا لنا مجرد المأوى ، فكيف نعمل لهم مثل هذا العمل دون أجرة ؟

وجاء هذا القول من موسى ـ عليه السلام ـ لأنه لا يعلم الحكمة من وراء هذا العمل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾

(قَالَ) أى : العبد الصالح (هذَا) أى : ما حدث منك من قولك : ﴿لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴿٧٧﴾﴾ [الكهف] وقد سبق أن

اشترط موسى ـ عليه السلام ـ على نفسه إن اعترض على معلمه هذه المرة يكون الفراقُ بينهما ، وكأن العبد الصالح لم يأْت بشيء من عنده ، لقد قالَ موسى : ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴿٧٦﴾﴾ [الكهف] وهاهو يسأله ، إذن : فليس إلا الفراق : ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ .. ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف]

قوله : ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ .. ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف] تُعد دُستوراً من الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ودليلاً على أن هذين المذهبين لا يلتقيان ، فيظل كل منهما له طريقه : المرتاض له طريقه ، وغير المرتاض له طريقه ، ولا ينبغى أن يعترض أحدهما على الآخر ، بل يلزم أدبه فى حدود ما علَّمه الله .

ثم يقول تعالى على لسان الخضر : ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف] أى : لن أتركك وفى نفسك هذه التساؤلات ، حتى لا يكون فى نفسك منى شىء ، سوف أخبرك بحقيقة هذه الأفعال التى اعترضْتَ عليها لتعلم أن الله لم يخدعْكَ ، بل أرسلك إلى مَنْ يُعلّمك شيئاً لم تكُنْ تعلمه .

ثم أخذ العبد الصالح يكشف لموسى الحكمة من هذه الأفعال واحداً تلْو الآخر ، كما لو عتبَ عليك صاحبك فى أمر ما ، وأنت حريص على مَودَّته فتقول له : أمهلنى حتى أوضح لك ما حدث ، لقد فعلتُ كذا من أجل كذا ، لتريح قلبه وتُزيل ما التبس عليه من هذا الأمر .

وقالوا : إن هذا من أدب الصُّحْبة ، فلا يجوز بعد المصاحبة أنْ نفترقَ على الخلاف ، ينبغى أن نفترق على وفَاق ورضا ؛ لأن الافتراق على الخلاف يُنمِّى الفجوة ويدعو للقطيعةَ ، إذن : فقبل أنْ نفترق : المسألة كيت وكيت ، فتتضح الأمور وتصفو النفوس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾

قوله : (لمسَاكينَ) اللام هنا للملكية ، يعنى مملوكة لهم ، وقد حسمتْ هذه الآيةُ الخَلافَ بين العلماء حول تعريف الفقير والمسكين ، وأيهما أشدّ حاجةً من الآخر ، وعليها فالمسكين : هو مَنْ يملك شيئاً لا يكفيه ، كهؤلاء الذين كانوا يملكون سفينة تعمل فى البحر ، وسماهم القرآن مساكين ، أما الفقير : فهو مَنْ لا يملك شيئاً .

ومعنى ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ .. ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف] أى : مجال عملهم البحر ، يعملون فيه بنقل الركاب أو البضائع ، أو الصيد ، أو خلافه .

وقوله : ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا .. ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف] المتكلم هنا هو الخضْر ـ عليه السلام ـ فنسب إرادة عَيْب السفينة إلى نفسه ، ولم ينسبها إلى الله تعالى تنزيهاً له تعالى عمَّا لا يليق ، أما فى الخير فنسب الأمر إلى الله فقال : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا .. ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف] لذلك فإنه فى نهاية القصة يُرجع كل ما فعله إلى الله فيقول : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي .. ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف]

ثم يقول تعالى : ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف] كلمة : كل ترسم سُوراً كُلياً لا يترك شيئاً ، فالمراد يأخْذ كل سفينة ، سواء أكانت معيبة أم غير معيبة ، لكن الحقيقة أنه يأخذ السفينة الصالحة للاستعمال فقط ، ولا حاجةَ له فى المعيبة الغير صالحة ، وكأن فى سياق الآية صفة مُقدَّرة : أى يأخذ كل سفينة صالحة غَصْباً من صاحبها .

والغَصْب : ما أُخذ بغير الحق ، عُنْوةً وقَهْراً ومُصَادرة ، وله صور

متعددة منها مثلاً السرقة : وهى أَخْذ المال من حرْزه خفية ككسر دولاب أو خزينة ، ومنها الغَصْب : وهو أخْذ مال الغير بالقوة ، وتحت سمعه وبصره ، وفى هذه الحالة تحدث مقاومة ومشادة بين الغاصب والمغصوب .

ومنها الخطف : وهو أخْذ مال الغير هكذا علانية ، ولكن بحيلة ما ، يخطف الشيء ويفرّ به دون أن تتمكّن من اللحاق به ، فالخَطْفُ - إذَن - يتم علانية ولكن دون مقاومة . ومنها الاختلاس : وهو أن تأخذ مال الغير وأنت مؤتمن عليه ، والاختلاس يحدث خفية ، ولا يخلو من حيلة تستره .

وما دام الأمر هنا غَصْباً فلا بُدَّ لمالك الشيء أنْ يقاوم ولو بعض مقاومة يدافع بها عن حَقِّه ، وقد يتوسل إليه أنْ يترك له ماله ، فالمسألة - إذن - فيها كلام وأخْذٌ ورَدٌّ .

إذن : خَرْق السفينة فى ظاهره اعتداء على ملك مُقوّم ، وهذا منهيّ عنه شرعاً ، لكن إذا كان هذا الاعتداء سيكون سبباً فى نجاة السفينة كلها من الغاصب فلا بأس إذن ، وسفينة معيبة خير من عدمها ، ولو علِم موسى - عليه السلام - هذه الحكمة لَبادرَ هو إلى خَرْقها .

وما دام الأمر كذلك ، فعلينا أن نُحوِّل السفينة إلى سفينة غير صالحة ونعيبها بخَرْقها ، أو بخلْع لَوْح منها لنصرف نظر الملك المغتصب عن أَخْذها .

وكلمة (وَرَاءَهُمْ) هنا بمعنى أمامهم ؛ لأن هذا الظالم كان يترصَّد للسفن التى تمر عليه ، فما وجدها صالحة غصبها ، فهو فى الحقيقة أمامهم ، على حَدِّ قوله تعالى : ﴿ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [إبراهيم] . وهل جهنم وراءه أم أمامه ؟

وتستعمل وراء بمعنى : بَعْد ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾ [هود]

وتأتى وراء بمعنى : غير . كما فى قوله تعالى فى صفات المؤمنين : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) ﴾ [المؤمنون]

وفى قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ .. (٢٣) ﴾ إلى .. ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ .. (٢٤) ﴾ [النساء]

وقد تستعمل وراء بمعنى خلف ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ .. (١٨٧) ﴾ [آل عمران]

إذن : كلمة (وراء) جاءتْ فى القرآن على أربعة معَان : أمام ، خلف ، بعد ، غير . وهذا مما يُميِّز العربية عن غيرها من اللغات ؛ والملكة العربية قادرة على أن تُميِّز المعنى المناسب للسياق ، فكلمة العَيْن ـ مثلاً ـ تأتى بمعنى العين الباصرة . أو : عين الماء ، أو : بمعنى الذهب والفضة ، وبمعنى الجاسوس . والسياق هو الذى يُحدد المعنى المراد .

ثم يقول الحق سبحانه فى قرآنه عما أوضحه الخضر لموسى عليه السلام مما خفى عليه :

﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) ﴾

الغلام : الولد الذى لم يبلغ الحُلُم وسنّ التكليف ، وما دام لم يُكلَّف فما يزال فى سنِّ الطهارة والبراءة من المعاصى ؛ لذلك لما اعترض موسى على قتله قال : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً .. (٧٤) ﴾ [الكهف] أى : طاهرة ، ولا شكَّ أن أخْذ الغلام فى هذه السِّنِّ خَيْر له ومصلحة قبل أنْ تلوّثه المعاصى ، ويدخل دائرة الحساب .

إذن : فطهـارته هى التى دعـتْنَا إلى التـعـجـيل بأخـذه . هذا عن الغلام ، فماذا عن أبيه وأمه ؟

يقـول تعـالى : ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُـؤْمِنَيْنِ .. (٨٠)﴾ [الكهف] وكـثـيـراً ما يكون الأولاد فتنة للآباء ، كـما قال تعالى : ﴿يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ[1] فَاحْذَرُوهُمْ .. (١٤)﴾ [التغابن]

والفـتنة بـالأولاد تأتى من حـرْص الآباء عليـهـم ، والسـعى إلى جعلهم فى أحسن حـال ، وربما كانت الإمكانات غير كافـية ، فيُضطر الأب إلى الحرام من أجل أولاده . وقد علم الحق ـ سـبحانه وتعالى ـ أن هذا الغلام سـيكون فتنة لأبويه ، وهما مـؤمنان ولم يُرِد الله تعالى لهما الفتنة ، وقضى أن يقبضهما إليه على حال الإيمان .

وكأن قضاء الله جاء خيراً للغـلام وخيراً للوالدين ، وجميلاً أَسْدى إلى كليْهـما ، وحكمة بالغة تسـتتر وراء الحدَث الظاهر الـذى اعترض عليه موسى عليه السلام .

لذلك يُعَـدُّ من الغبـاء إذا مات لديـنا الطفل أو الغلام الصـغيـر أَنْ يشتد الحزن عليه ، وننعى طفولته التى ضاعتْ وشبابه الذى لم يتمتع به ، ونحن لا ندرى مـا أُعدَّ له من النعيم ، لا نـدرى أن مَنْ أُخذ من أولادنا قـبل البلوغ لا يُحدَّد له مـسكن فى الجنة ، لأنهـا جمـيعـاً له، يجرى فيـها كما يشـاء ، ويجلس فيها أين أحب ، يجلس عـند الأنبياء

(١) قال ابن كثير فى تفسيـره (٤/٣٧٦) : « بمعنى أنه يلتهى به عن العمل الصالح » وذكر ابن أبى حاتم فى هذا أثراً عن ابن عباس رضى الله عنهـما : « هؤلاء رجال أسلموا من مكة فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقـهوا فى الدين فهمُّـوا أن يعاقبوهم ، فـأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤)﴾ [التغابن] .

وعند الصحابة ، لا يعترضه أحد ، لذلك يُسمَّوْن « دعاميص[1] الجنة »[2] .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الكهف]

خشينا : خفْنا . فالواحد منا يولد له ابن ، فيكون قرة عَيْن وسنداً ، وقد يكون هذا الابن سبباً فى فساد دين أبيه ، ويحمله على الكذب والرشوة والسرقة ، فهذا الابن يقود أباه إلى الجحيم ، ومن الخير أن يبعد الله هذا الولد من طريق الوالد فلا يطغى .

﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾

ولا يفوت الخضر ـ عليه السلام ـ أن ينسب الخير هنا أيضاً إلى الله ، فيقول : أنا أحب هذا العمل وأريده ، إنما الذى يُبدّل فى الحقيقة هو الله تعالى ﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا .. ﴿٨١﴾ ﴾ [الكهف] فهذا الخير من الله ، وما أنا إلا وسيلة لتحقيقه .

وقوله : ﴿ خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً .. ﴿٨١﴾ ﴾ [الكهف] أى : طُهْراً ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الكهف] لأنهما أرادا الولد لينفعهما فى الدنيا ، وليكون قُرَّة عَيْن لهما ، ولما كانت الدنيا فانية لا بقاءَ لها ، وقد ثبت فى علمه تعالى أن هذا الولد سيكون فتنة لأبويْه ، وسيجلب عليهما المعاصى

---

(١) الدعاميص : جمع دعموص ، وهو الدخَّال فى الأمور أى أنهم سياحون فى الجنة دخَّالون فى منازلها لا يُمنعون من موضع . [لسان العرب ـ مادة : دعمص] .

(٢) عن أبى حسان قال : قلت لأبى هريرة : إنه قد مات لى ابنان ، فما أنت مُحدثى عن رسول الله ﷺ بحديث تُطيِّب به أنفسنا عن موتانا ؟ قال : نعم ، صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه فيأخذ بثوبه ، كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا ، فلا يتناهى حتى يُدخله الله وأباه الجنة » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٣٥) ، وأحمد فى مسنده (٢/٥١٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

والسيئات ، وسيجرّهما إلى العذاب ، كانت الرحمة الكاملة فى أخذه بدل أنْ يتمتّعا به فى الدنيا الفانية ، ويشقيا به فى الآخرة الباقية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ[(1)] وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ[(2)] لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

(لغُلاَمَيْن) أى : لم يبلغا سنَّ الرشْد ، وفوق ذلك هما يتيمان . وكان تحت هذا الجدار المائل كَنْز لهذين الغلامين الغير قادرين على تدبير شأنهما ، ولك أنْ تتصوّر ما يحدث لو تهدَّم الجدار ، وانكشف هذا الكنز ، ولمع ذهبه أمام عيون هؤلاء القوم الذين عرفت صفاتهم ، وقد منعوهما الطعام بل ومجرد المأوى ، إنَّ أقل ما يُوصفون به أنهم لئام لا يُؤتمنون على شيء . ولقد تعوَّدنا أن نعبر عن شدة الضياع بقولنا : ضياع الأيتام على موائد اللئام .

إذن : فلا شكَّ أن ما قام به العبد الصالح من بناء الجدار وإقامته أو ترميمه يُعَدُّ بمثابة صَفْعة لهؤلاء اللئام تناسب ما قابلوهم به من تنكُّر وسوء استقبال ، وترد لهم الصَّاع صاعين حين حرمهم الخضر من هذا الكنز .

---

(١) قال هنا الحق سبحانه : ﴿فِى الْمَدِينَةِ .. ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف] . وفى آية أخرى قال : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ..﴿٧٧﴾﴾ [الكهف] . ولذلك قال ابن كثير فى تفسيره (٩٨/٣) : « فى هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة » .

(٢) قال عكرمة وقتادة وغير واحد : كان تحته مال مدفون لهما ، قال ابن كثير (٩٨/٣) : « وهو ظاهر السياق من الآية وهو اختيار ابن جرير رحمه الله ، وقال العوفى عن ابن عباس : كان تحته كنز علم » .

فعلَّة إصلاح الجدار ما كان تحته من مال يجب أنْ يحفظ لحين أنْ يكبُرَ هذان الغلامـان ويتمكنا من حفظه وحمايتـه فى قرية من اللئام . وكـأن الحق سبحانه وتعـالى أرسله لهـذين الغلامـين فى هذا الوقت بالذات ، حيث أخذ الجدار فى التصدُّع ، وظهرت عليه علامات الانهيار ليقـوم بإصلاحه قبل أنْ يقع وينكشف أمـر الكنز وصاحبيـه فى حال الضعف وعدم القدرة على حمايته .

ثم إن العبد الصالح أصلح الجـدار وردَّه إلى ما كان عليه ردَّ مَنْ علَّمـه الله من لَدُنْه ، فـيقال : إنه بنَـاهُ بناءً موقـوتاً يتناسـب وعُمْـرَ الغلامين ، وكـأنه بناه على عمر افتراضى ينتـهى ببلوغ الغلامين سِنَّ الرشْد والقدرة على حماية الكنز فينهار . وهذه فى الواقع عملية دقيقة لا يقدر على حسابها إلا مَنْ أُوتِى علماً خاصاً من الله تعالى .

ويبدو من سـياق الآية أنهـما كـانا فى سنٍّ واحدة توأميـن لقوله تعالى : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف] أى : سوياً ، ومعنـى الأشُدّ : أى القوة ، حـيث تكتـمل أجهزة الـجسم وتسـتوى ، وأجهزة الجسم تكتمل حينما يصبح المرء قادراً على إنجاب مثله .

وتلاحظ أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قال هنا : ﴿ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف] ولم يقُلْ رُشْدهمـا ، لأنْ هناك فرْقاً بين الرُّشْـد والأَشُدّ فـالرُّشْد : حُسْن التـصرُّف فى الأمـور ، أمـا الأشُدّ : فـهو القـوة ، والغلامان هنا فى حاجة إلى القوة التى تحمى كَنْزهما من هؤلاء اللئام فناسب هنا ﴿ أَشُدَّهُمَا .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف] أى : يستـخرجـاه بما لديهمـا من القوة والفُـتوَّة . والرحـمة : صفة تُعطَى للمرحوم لتمنعه من الداء ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ

مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ.. ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء] فقوله : شفاء : أى : يشفى داءً موجوداً ويُبرئه . ورحمة : أى رحمة تمنع عودة الداء مرة أخرى .

وكذلك ما حدث لهذين الغلامين ، كان رحمة من الله لحماية مالهما وحفظ حقِّهما ، ثم لم يَفُتْ العبد الصالح أنْ يُرجِع الفضل لأهله ، وينفى عن نفسه الغرور بالعلم والاستعلاء على صاحبه ، فيقول : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى .. ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف] أى : أن ما حدث كان بأمر الله ، وما علَّمتك إياه كان من عند الله ، فليس لى مَيْزة عليك ، وهذا درس فى أدب التواضع ومعرفة الفضْل لأهله .

ثم يقول : ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع[1] عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف] تأويل : أى إرجاع الأمر إلى حقيقته ، وتفسير ما أشكل منه .

* * *

بعد ذلك تنتقل الآيات إلى سؤال آخر من الأسئلة الثلاثة التى سألها كفار مكة لرسول الله بإيعاز من اليهود ، وهو السؤال عن الرجل الطَّواف الذى طاف البلاد :

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾

ذو القرنين : هذا لقبه ؛ لأنه ربما كان فى تكوينه ذا قرنين ، أو

(١) فى هذه الآية قال : ﴿مَا لَمْ تَسْطِع .. ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف] . وقبل ذلك قال : ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع .. ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف] . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/١٠٠) : « لما أن فسَّره وبيّنه ووضّحه وأزال المشكل قال (تسطع) وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلاً فقال (ما لم تستطع) فقابل الأثقل بالأثقل والأخف بالأخف ، كما قال ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ .. ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف] . وهو الصعود إلى أعلاه ، وقال : ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف] . وهو أشق من ذلك ، فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى ، والله أعلم » .

يلبس تاجاً له اتجاهان ؛ أو لأنه بلغ قرنى الشمس فى المشرق وفى المغرب .

وقد بحث العلماء فى : مَنْ هو ذو القرنين ؟ فمنهم مَنْ قال : هو الإسكندر الأكبر المقدونى الطواف فى البلاد ، لكن الإسكندر الأكبر كان فى مقدونيا فى الغرب ، وذو القرنين جاب المشرق والمغرب مما دعا عالماً محققاً من علماء الهند هو : أبو الكلام آزاد - وزير المعارف الهندى - إلى القول بأنه ليس هو الإسكندر الأكبر ، بل هو قورش الصالح ، وهذه رحلته فى الشرق والغرب وبين السدين ، كما أن الإسكندر كان وثنياً ، وكان تلميذاً لأرسطو ، وذو القرنين رجل مؤمن كما سنعرف من قصته .

وعلى العموم ، ليس من صالح القصة حَصْرها فى شخص بعينه ؛ لأن تشخيص حادثة القصة يُضعف من تأثيرها ، ويصبغها بصبْغة شخصية لا تتعدى إلى الغير فنرى مَنْ يقول بأنها مسألة شخصية لا تتكرر .

إذن : لو جاء العلم فى ذاته سنقول : هذه الحادثة أو هذا العمَل خاص بهذا الشخص ، والحق - سبحانه وتعالى - يريد أن يضرب لنا مثلاً يعُمُّ أى شخص ، ماذا سيكون مَسْلكه وتصرّفه إنْ مكَّنَ الله له ، ومنحه الله قوة وسلطة ؟

ولو حددَ القرآن هذه الشخصية فى الإسكندر أو قورش أو غيرهما لَقُلْنَا : إنه حَدث فردىّ لا يتعدى هذا الشخص ، وتنصرف النفس عن الأُسْوة به ، وتفقد القصة مغزاها وتأثيرها . ولو كان فى تعيينه فائدة لَعيَّنه الله لَنَا .

وسبق أنْ أوضحنا أن الحق - سبحانه - عندما ضرب مثلاً للذين

كفروا ، قال : ﴿ امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ .. ⟨١٠⟩ ﴾ [التحريم] ولم يُعيِّنهما على التحديد ؛ لأن الهدف من ضرب المثل هنا بيان أن الرسول المرسَل من الله لهداية الناس لم يتمكّن من هداية زوجته وأقرب الناس إليه ؛ لأن الإيمان مسألة شخصية ، لا سيطرة فيها لأحد على أحد .

وكذلك لما ضرب الله مثلاً للذين آمنوا قال : ﴿ امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ .. ⟨١١⟩ ﴾ [التحريم]

ففرعون الذى أضلَّ الناس وادَّعى الألوهية زوجته مؤمنة ، وكأن الحق سبحانه يُلمِّح للناس جميعاً أن رأيك فى الدين وفى العقائد رأى ذاتى ، لا يتأثر بأحد أيّاً كان ، لا فى الهداية بنبى ، ولا فى الغواية بأضلِّ الضالين الذى ادعى الألوهية .

وهكذا يحفظ الإسلام للمرأة دورها وطاقتها ويحترم رأيها .

إذن : الحق سبحانه وتعالى أتى بهذه القصة غير مُشخّصة لتكون نموذجاً وأُسْوة يحتذى بها كل أحد ، وإلاَّ لو شخصتْ لارتبطتْ بهذا الشخص دون غيره ، أما حينما تكلم الحق سبحانه عن مريم فنراه يحددها باسمها ، بل واسم أبيها ؛ ذلك لأن ما سيحدث لمريم مسألة خاصة بها ، ولن تحدث بعدها أبداً فى بنات آدم ، لذلك عيَّنها وشخَّصها ؛ لأن التشخيص ضرورى فى مثل هذا الموقف .

أما حين يترك المثل أو القصة دون تشخيص ، فهذا يعنى أنها صالحة لأنْ تتكرر فى أىّ زمان وفى أىّ مكان ، كما رأينا فى قصة أهل الكهف ، وكيف أن الحق سبحانه أبهمهم أسماءً ، وأبهمهم مكاناً وأبهمهم زماناً ، وأبهمهم عدداً ، ليكونوا أُسْوة وقُدْوة للفتيان المؤمنين فى أىِّ زمان ، وفى أىِّ مكان ، وبأىِّ عدد .

قوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ .. ⟨٨٣⟩ ﴾ [الكهف]

نلاحظ أن مادة السؤال لرسول الله ﷺ فى القرآن أخذتْ حيِّزاً كبيراً فيه ، فقد ورد السؤال للنبى من القوم ست عشرة مرة ، إحداها بصيغة الماضى فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ .. (١٨٦) ﴾ [البقرة]

وخمس عشرة مرة بصيغة المضارع ، كما فى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ .. (١٨٩) ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ .. (٢١٥) ﴾ [البقرة]

: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ .. (٢١٧) ﴾ [البقرة]

: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ .. (٢١٩) ﴾ [البقرة]

: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ .. (٢١٩) ﴾ [البقرة]

: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ .. (٢٢٠) ﴾ [البقرة]

: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ .. (٢٢٢) ﴾ [البقرة]

: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ .. (٤) ﴾ [المائدة]

: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ .. (١٨٧) ﴾ [الأعراف] ثلاث مرات،[النازعات ٤٢]

: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ .. (١) ﴾ [الأنفال]

: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ .. (٨٥) ﴾ [الإسراء]

: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ .. (٨٣) ﴾ [الكهف]

: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا (١٠٥) ﴾ [طه]

خمسة عشر سؤالاً بالمضارع ، إلا أن الجوابَ عليها مختلف ،

وكلها صادرة عن الله الحكيم ، فلا بُدَّ أنْ يكون اختلاف الجواب فى كل سؤال له ملْحظ ، ومن هذه الأسئلة ما جاء من الخصوم ، ومنها ما سأله المؤمنون ، السؤال من المؤمنين لرسول الله ـ وقد نهاهم أنْ يسألوه حتى يهدأوا ـ إلحاحٌ منهم فى معرفة تصرُّفاتهم وإنْ كانت فى الجاهلية ، إلا أنهم يريدون أنْ يعرفوا رأى الإسلام فيها ، فكأنهم نَسُوا عادات الجاهلية ويرغبون فى أن تُشرَّع كل أمورهم على وَفْق الإسلام .

وبتأمّل الإجابة على هذه الأسئلة تجد منها واحدةً يأتى الجواب مباشرة دون (قُلْ) وهى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ .. ١٨٦﴾ [البقرة] وواحدة وردتْ مقرونة بالفاء (فَقُلْ) وهى قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ١٠٥﴾ [طه]

وباقى الأسئلة وردت الإجابة عليها بالفعل (قُلْ) ، فما الحكمة فى اقتران الفعل بالفاء فى هذه الآية دون غيرها ؟

قالوا : حين يقول الحق سبحانه في الجواب (قُلْ) فهذه إجابة على سؤال سُئِلَهُ رسول الله بالفعل ، أى : حدث فعلاً منهم ، أما الفاء فقد أتتْ فى الجواب على سؤال لم يُسأله ، ولكنه سيُسأله مستقبلاً .

فقوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ .. ١٠٥﴾ [طه] سؤال لم يحدث بَعْد ، فالمعنى : إذا سألوك فَقُلْ ، وكأنه احتياط لجواب عن سؤال سيقع .

فإذا قُلْتَ : فما الحكمة فى أنْ يأتى الجواب فى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ .. ١٨٦﴾ [البقرة] خالياً من : قُلْ أو فَقُلْ : مع أن (إذا) تقتضى الفاء فى جوابها ؟

نقول : لأن السؤال هنا عن الله تعالى ، ويريد سبحانه وتعالى أنْ يُجيبهم عليه بانتفاء الواسطة من أحد ؛ لذلك تأتى الإجابة

مباشرة دون واسطة : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ .. (١٨٦) ﴾ [البقرة]

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ .. (٨٣) ﴾ [الكهف] أى : عن تاريخه وعن خبره والمهمة التى قام بها ﴿ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) ﴾ [الكهف]

وأىُّ شرف بعد هذا الشرف ، إن الحق تبارك وتعالى يتولّى التأريخ لهذا الرجل ، ويُؤرّخ له فى قرآنه الكريم الذى يُتلَى ويُتعبَّد به إلى يوم القيامة والذى يُتحدّى به ، ليظل ذكْره باقياً بقاء القرآن ، خالداً بخلوده ، ويظل أثره فيما عمل أُسْوة وقُدْوة لمن يعمل مثله . إنْ دَلَّ هذا على شيء فإنما يدلُّ على أن العمل الصالح مذكور عند الله قبل أنْ يُذكَرَ عند الخلق .

فأىُّ ذكْر أبقى من ذكر الله لخبر ذى القرنين وتاريخه ؟

و (مِنْهُ) أى : بعضاً من ذكْره وتاريخه ، لا تاريخه كله .

وكلمة (ذِكْر) وردت فى القرآن الكريم بمعان متعددة ، تلتقى جميعها فى الشرف والرفعة ، وفى التذكُّر والاعتبار . وإنْ كانت إذا أُطلقتْ تنصرف انصرافاً أولياً إلى القرآن ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر] وبعد ذلك تُستعمل فى أىّ كتاب أنزله الله تعالى من الكتب السابقة ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِى إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل]

وقد يُطلَق الذكر على ما يتبع هذا من الصِّيت والشرف والرفعة وتخليد الاسم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. (١٠) ﴾ [الأنبياء]

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .. (٤٤) ﴾ [الزخرف]

أى : صيت حَسَن وشرف ورفْعة كون القرآن يذكر هذا الاسم ؛ لأن الاسم إذا ذُكر فى القرآن ذاعَ صيتُه ودَوَّى فى الآفاق .

وقلنا فى قصة زيد بن حارثة أنه كان عبداً بعد أنْ خُطف من قومه وبيع فى مكة لخديجة رضى الله عنها ، ثم وهبته لرسول الله ﷺ ؛ لذلك أطلقوا عليه زيد بن محمد ، فلما علم أهله بوجوده فى مكة أتى أبوه وعمه ، وكلّموا رسول الله فى شأن زيد فقال : خَيِّروه .

فلما خَيَّروا زيداً قال : ما كنتُ لأختار على رسول الله أحداً ، لذلك أكرمه النبى ﷺ وسمَّاه زيدَ بن محمد ، فلما أراد الحق سبحانه أن يبطل التبنى ، ونزل قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ .. (٤٠) ﴾ [الأحزاب] وقال : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الأحزاب]

فلا تقولوا : زيد بن محمد . وقولوا : زيد بن حارثة ، وهنا حَزِنَ زَيْد لهذا التغيير ، ورأى أنه خسر به شرفاً عظيماً بانتسابه لمحمد ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يجبر خاطر زيد ، ويجعل اسمه علَماً يتردد فى قرآن يُتْلَى ويُتعبَّد به إلى يوم القيامة ، فكان زيد هو الصحابى الوحيد الذى ورد ذكره باسمه فى كتاب الله فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا[1] زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب]

فأىٌّ شرف أعلى وأعظم من هذا الشرف ؟

ونلحظ فى هذه الآية : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥) ﴾

---

(١) الوطر : الحاجة التى يعتنى بها الإنسان ويهتم لها ، وإذا بلغها قيل : إنه قضى وطره ، أى : حقق رغبته وقضى حاجته وانتهى من أمرها . وقوله عن زيد معناه : فلما طلقها ولم يعد بحاجة لها . [القاموس القويم ٢/٣٤٣] .

[الأحزاب] أن الحق سبحانه لم يتهم رسوله ﷺ بالجور ، فقال ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. ⑤﴾ [الأحزاب] فما فعله الرسول كان أيضاً قسطاً وعدلاً ، وما أمر الله به هو الأقسط والأعدل .

إذن : فذكْر ذى القرنين فى كتاب الله شرف كبير ، وفيه إشارة إلى أن فاعل الخير له مكانته ومنزلته عند الله ، ومُجازىً بأنْ يُخلّد ذكره ويبقى صيته بين الناس فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ⁽¹⁾ ﴿٨٤﴾﴾

التمكين : أى أننا أعطيناه إمكانات يستطيع بها أن يُصرِّف كل أموره التى يريدها ؛ لأنه مأمون على تصريف الأمور على حَسْب منهج الله ، كما قال تعالى فى آية أخرى عن يوسف عليه السلام : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. ⑤⑥﴾[يوسف]

فالتمكين يعنى إعطاءه إمكانات لكل غرض يريده فيُصرِّف به الأمور ، لكن لماذا مكنّاه ؟ مكنّاه لأنه مأمون على تصريف الأمور وَفْق منهج الله ، ومأمون على ما أعطاه الله من إمكانات .

وقوله : ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ⑧④﴾ [الكهف] أى : أعطيناه أسباباً يصل بها إلى ما يريد ، فما من شىء يريده إلا ويجعل الله له وسيلة مُوصِّلة إليه .

فماذا صنع هو ؟

﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾

---

(١) أى : أعطيناه ملكاً عظيماً ممكناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحصارات . [تفسير ابن كثير ٣/١٠١] .

أتبع السبب ، أى : لا يذهب لغاية إلا بالوسيلة التى جعلها الله له ، فلقد مكَّن الحق لذى القرنين فى الأرض ، وأعطاه من كل شىء سبباً ، ومع ذلك لم يركن ذو القرنين إلى ما أُعطى ، فلم يتقاعس ، ولم يكسل ، بل أخذ من عطاء الله له بشىء من كل سبب .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ[(١)] وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ ﴾

وبلوغه مغرب الشمس دليل على أنه لم يكُنْ بهذا المكان ، بل كان قادماً إليه من المشرق . ومعنى (مغرب الشمس) هل الشمس تغرب ؟

هى تغرب فى عين الرائى فى مكان واحد ، فلو لاحظتَ الشمس ساعة الغروب لوجدتها تغربُ مثلاً فى الجيزة ، فإذا ذهبت إلى الجيزة وجدتها تغرب فى مكان آخر وهكذا ، إذن : غروبها بمعنى غيابها من مرأىَ عينك أنت ؛ لأن الشمس لا تغيب أبداً ، فهى دائماً شارقة غاربة ، بمعنى أنها حين تغرب على قوم تشرق على آخرين ؛ لذلك تتعدد المشارق والمغارب .

وهذه أعطتنا دوام ذكر الله ودورانه على الألسنة فى كل الأوقات ،

---

(١) قرأها ابن عاصم وعامر وحمزة والكسائى « حامية » أى : حارة . والباقون قرأوها « حمئة » أى : كثيرة الحمأة وهى الطينة السوداء . [تفسير القرطبى ٤٢١٨/٦] .

قال ابن كثير فى تفسيره (١٠٢/٣) : « قال ابن جرير : والصواب أنهما قراءتان مشهورتان وأيهما قرأ القارىء فهو مصيب . قلت : ولا منافاة بين معنييهما ، إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها وملاقاتها الشعاع بلا حائل وحمئة فى ماء وطين أسود كما قال كعب الأحبار وغيره » .

فحين نصلى نحن الظهر مثلاً يصلى غيرنا العصر ، ويصلى غيرهم المغرب ، وهكذا فالحق سبحانه مذكور فى كل وقت بكل وقت ، فلا ينتهى الظهر لله ، ولا ينتهى العصر لله ، ولا ينتهى المغرب لله ، بل لا ينتهى الإعلام بواحدة منها طوال الوقت ، وعلى مَرِّ الزمن ؛ لذلك يقول أهل المعرفة : يا زمن وفيك كل الزمن .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ .. (٨٦) ﴾ [الكهف] أى : فى عين فيها ماء . وقلنا : إن الحمأ المسنون هو الطين الذى اسودّ لكثرة وجوده فى الماء . وفى تحقيق هذه المسألة قال عالم الهند أبو الكلام آزاد[1] ، ووافقه فضيلة المرحوم الشيخ عبد الجليل عيسى ، قال : عند موضع يسمى (أزمير) .

وقوله : ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا .. (٨٦) ﴾ [الكهف] أى : عند هذه العين ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) ﴾ [الكهف] إذن : فهذا تفويض له من الله ، ولا يُفوَّض إلا المأمون على التصرُّف ﴿ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ .. (٨٦) ﴾ [الكهف] ولا بُدّ أنهم كانوا كفرة أو وثنيين لا يؤمنون بإله ، فإما أنْ تأخذهم بكفرهم ، وإما أن تتخذَ فيهم حُسْناً .

لكن ما وجه الحُسْن الذى يريد الله أن يتخذه ؟ يعنى أنهم قد يكونون من أهل الغفلة الذين لم تصلهم الدعوة ، فبيِّن لهم وجه الصواب ودلّهم على دين الله ، فَمنْ آمن منهم فأحسن إليه ، ومَنْ أصرّ على كُفْرِه فعذّبه ، إذن : عليك أن تأخذهم أولاً بالعظة الحسنة والبيان الواضح ، ثم تحكم بعد ذلك على تصرفاتهم .

---

(١) أبو الكلام آزاد : هو أحمد بن خير الدين ، الهندى الأب ، العربى الأم والثقافة ، ولد بمكة (١٣٠٢ هـ) وأصله من دهلى ، درس على علماء الأزهر ، مفسر من خطباء المسلمين وزعمائهم فى الهند أيام حركتها التحررية ، تولى وزارة المعارف فى الهند إلى أن توفى مشلولاً عام (١٣٧٧ هـ) [الأعلام للزركلى ١/ ١٢٢] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾

قوله : ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [الكهف] يعطينا إشارة إلى المهلة التى سيعطيها لهؤلاء ، مهلة تمكّنه أنْ يعظهم ويُذكّرهم ويُفهّمهم مطلوبات دين الله .

وسبق أن قلنا : إن الظلم أنواع ، أفظعها وأعلاها الشرك بالله ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]

ثم يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [الكهف]

فلن نُعذّبه على قدْر ما فعل ، بل نُعذّبه عقوبة دنيوية فقط ؛ لأن العقوبات الدنيوية شُرعَتْ لحفظ توازن المجتمع ، ورَدْع مَنْ لا يرتدع بالموعظة ، وإلا فما فائدة الموعظة فى غير المؤمن ؟ لذلك نرى الأمم التى لا تؤمن بإله ، ولا بالقيامة والآخرة تُشرّع هذه العقوبات الدنيوية لتستقيم أوضاعها .

وبعد عذاب الدنيا وعقوبتها هناك عذاب أشدّ فى الآخرة ﴿ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [الكهف] والشىء النكر : هو الذى لا نعرفه ، ولا عَهْد لنا به أو أُلْفة ؛ لأننا حينما نُعذّب فى الدنيا نُعذّب بفطرتنا وطاقتنا ، أما عذاب الله فى الآخرة فهو شىء لا نعرفه ، وفوق مداركنا وإمكاناتنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾

قوله : ﴿ فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [الكهف] أى : نعطيه الجزاء الحسن ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الكهف] نقول له الكلام الطيب الذى يُشجِّعه ويحفزه ، وإنْ كلَّفناه كلَّفناه بالأمر اليسير غير الشاق .

وهذه الآية تضع لنا أساس عملية الجزاء التى هى ميزان المجتمع وسبب نهضته ، فمجتمعٌ بلا جزاءات تثيب المجدّ وتعاقب المقصِّر مجتمع ينتهى إلى الفوضى والتسيُّب ، فإنْ أمنَ الناسُ العقابَ تكاسلوا ، وربما ما تعانيه مصر الآن من سوء الإدارة راجع إلى ما فى المجتمع من أشخاص فوق القانون لا نستطيع معاقبتهم فيتسيّب الآخرون .

وكذلك نرى المراتب والجوائز يظفر بها مَنْ لا يعمل ، ويظفر بها مَنْ يتقرب ويتودد ويتملّق وينافق ، ولهؤلاء أساليبهم الملتوية التى يجيدونها ، أما الذى يجدّ ويعمل ويخلص فهو مُنْهك القوى مشغول بإجادة عمله وإتقانه ، لا وقتَ لديه لهذه الأساليب الملتوية ، فهو يتقرب بعمله وإتقانه ، وهذا الذى يستحق التكريم ويستحق الجائزة . ولك أنْ تتصوَّر مدى الفساد والتسيّب الذى تسببه هذه الصورة المقلوبة المعوجة .

إذن : فميزان المجتمع وأساس نهضته : ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الكهف]

فما أجملَ أنْ نرصُدَ المكافآت التشجيعية والجوائز ، ونقيم حفلات التكريم للمتميزين والمثاليين ، شريطةَ أنْ يقومَ ميزان الاختيار على الحق والعدل .

والحُسْنى : أفعل التفضيل المؤنث لحسن ، فإذا أعطيناه الحسنى

فالحسن من باب أولَى ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ .. (٢٦) ﴾ [يونس]

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) ﴾

أى : ذهب إلى مكان آخر.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَطْلِعَ الشَّمْسِ .. (٩٠) ﴾ [الكهف] كما قلنا فى مغربها ، فهى دائماً طالعة ؛ لأنها لا تطلع من مكان واحد ، بل كل واحد له مطلع ، وكل واحد له مغْرب حسب اتساع الأفق .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) ﴾ [الكهف] السِّتْر : هو الحاجز بين شيئين ، وهو إما ليقينىَ الحر أو ليقينىَ البرد ، فقد ذهب ذو القرنين إلى قوم من المتبدين الذين يعيشون عراة كبعض القبائل فى وسط أفريقيا مثلاً ، أو ليس عندهم ما يسترهم من الشمس مثل البيوت يسكنونها ، أو الأشجار يستظِلّون بها .

وهؤلاء قوم نسميهم « ضاحون » أى : ليس لهم ما يأويهم من حَرِّ الصيف أو بَرد الشتاء ، وهم أُنَاسٌ متأخرون بدائيون غير متحضرين . ومثل هؤلاء يعطيهم الله تعالى فى جلودهم ما يُعوِّضهم عن هذه الأشياء التى يفتقدونها ، فترى فى جلودهم ما يمنحهم الدفء فى الشتاء والبرودة فى الصيف .

وهذا نلاحظه فى البيئات العادية ، حيث وَجْه الإنسان وهو

مكشوف للحر وللبرد ، ولتقلبات الجو ؛ لذلك جعله الله على طبيعة معينة تتحمل هذه التقلبات ، على خلاف باقى الجسم المستور بالملابس ، فإذا انكشف منه جزء كان شديدَ الحساسية للحرِّ أو للبرد ، وكذلك من الحيوانات ما منحها الله خاصية فى جلودها تستطيع أنْ تعيش فى القطب المتجمد دون أن تتأثر ببرودته .

وهؤلاء البدائيون يعيشون هكذا ، ويتكيفون مع بيئتهم ، لا تشغلهم مسألة الملابس هذه ، ولا يفكرون فيها، حتى يذهب إليهم المتحضرون ويرونَ الملابس ، وكيف أنها زينة وسَتْر للعورة فيستخدمونها .

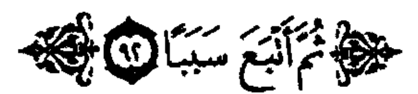
ونلاحظ هنا أن القرآن لم يذكر لنا عن هؤلاء القوم شيئاً ، وماذا فعل ذو القرنين معهم ، وإنْ قسْنا الأمر على القوم السابقين الذين قابلهم عند مغرب الشمس نقول : ربما حضَّرهم ووفَّر لهم أسباب الرُّقى .

وبعض المفسرين يروْنَ أن ذا القرنين ذهب إلى موضع يومُه ثلاثة أشهر ، أو نهاره ستة أشهر ، فصادف وصوله وجود الشمس فلم يَرَ لها غروباً فى هذا المكان طيلة وجوده به ، ولم يَرَ لها سِتْراً يسترها عنهم ، ويبدو أنه ذهب فى أقصى الشمال .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ﴾

كذلك : يعنى ذهب كذلك ، كما ذهب للمغرب ذهب للمشرق .



ذهب إلى مكان آخر .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ ﴾[1]

السد: هو الحاجز بين شيئين ، والحاجز قد يكون أمراً معنوياً ، وقد يكون طبيعياً محسوساً كالجبال ، فالمراد بالسدين هنا جبلان بينهما فجوة ، وما دام قد قال : (بين السدين) فالبَيْن هنا يقتضى وجود فجوة بين السدين يأتى منها العدو .

﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [الكهف] أى : تحتهما ﴿ قَوْمًا لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴿٩٣﴾ ﴾ [الكهف] أى : لا يعرفون الكلام ، ولا يفقهون القول ؛ لأن الذى يقدر أن يفهم يقدر أن يتكلم ، وهؤلاء لا يقولون كلاماً ، ولا يفهمون ما يُقَال لهم ، ومعنى : ﴿ لاَّ يَكَادُونَ .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [الكهف] لا يقربون من أن يفهموا ، فلا ينفى عنهم الفَهْم ، بل مجرد القُرْب من الفهم ، وكأنه لا أملَ فى أن يفهمهم .

لكن ، كيف نفى عنهم الكلام ، ثم قال بعدها مباشرة : ﴿ قَالُوا يَـٰذَا الْقَرْنَيْنِ .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [الكهف] فأثبت لهم القول ؟

يبدو أنه خاطبهم بلغة الإشارة ، واحتال على أن يجعلَ من حركاتهم كلاماً يفهمه وينفذ لهم ما يريدون ، ولا شكَّ أن هذه العملية احتاجت منه جهداً وصبراً حتى يُفهمهم ويَفهم منهم ، وإلا فقد كان فى وُسْعه أنْ ينصرف عنهم بحجة أنهم لا يتكلمون ولا يتفاهمون .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٢٢٤) : « هما جبلان من قبل أرمينية وأذربيجان » . وقال ابن كثير (٣/١٠٣) : « هما جبلان متناوحان بينهما ثغرة يخرج منهما يأجوج ومأجوج على بلاد الترك » .

فهـو مثـال للرجل المؤمن الحـريص على عمل الخيـر ، والذى لا يألو جَهْداً فى نَفْع القوم وهدايتهم .

والإشارة أصـبحت الآن لغـةٌ مشـهورة ومـعروفـة ، ولـها قـواعد ودارسون يتفاهمون بها ، كما نتفاهم نحن الآن مع الأخرس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا[1] عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾

المـراد بالقول هـنا : دلالة مُعـبِّـرة تعبـير الـقول ، فـلا بُدَّ أنهم تعارفوا على شىء كالإشارة مثلاً يتفاهمون به .

ويأجوج ومـأجوج قوم خَلْف السـدين أو الجبلين ، ينفـذون إليهم من هذه الفجـوة ، فيؤذونهم ويعتـدون عليهم ؛ لذلك عرضـوا عليه أن يجعلوا له (خَـرْجًا) أى : أجراً وخراجـاً يدفعونه إليـه على أنْ يسدَّ لهم هذه الفجوة ، فلا ينفذ إليهم أعداؤهم .

ثم يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن ذى القرنين أنه :

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾

والقـوْل هنا أيضاً قَـوْل دلالة وإشـارة تُفهـمـهم أنه فى غِنىً عن

(١) الخرْج والخَراج : ما يخرجه صاحب المـال للعامل عنده من الأجر جزاء عمله . [القاموس القويم ١/١٩٠] .

الأجر ، فعنده الكثير من الخير الذى أعطاه الله ، إنما هو فى حاجة إلى قوة بشرية عاملة تُعينه ، وتقوم معه بتنفيذ هذا العمل .

ونفهم من الآية أن المعونة من المُمكَّن فى الأرض المالك للشىء يجب أن تكون حسْبة لله ، وأنْ تُعين معونة لا تحوج الذى تعينه إلى أن تُعينه كل وقت ، بَل أعنه إعانة تغنيه أن يحتاج إلى المعونة فيما بعد ، كأن تعلِّمه أنْ يعمل بنفسه بدل أنْ تعطيه مثلاً مالاً ينفقه فى يومه وساعته ثم يعود محتاجاً ؛ لذلك يقولون : لا تُعطنى سمكة ، ولكن علِّمنى كيف أصطاد ، وهكذا تكون الإعانة مستمرة دائمة ، لها نَفَس ، ولها عُمْر .

ولما كان ذو القرنين ممكّناً فى الأرض ، وفى يده الكثير من الخيرات والأموال ، فهو فى حاجة لا إلى مال بل إلى الطاقة البشرية العاملة ، فقال : ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ .. (٩٥) ﴾ [الكهف] أى : قوة وطاقة بشرية قوية مخلصة ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) ﴾ [الكهف]

ولم يقُلْ : سداً ؛ لأن السدّ الأصمّ يعيبه أنه إذا حصلت رَجَّة مثلاً فى ناحية منه ترجّ الناحية الأخرى ؛ لذلك أقام لهم ردماً أى : يبنى حائطاً من الأمام وآخر من الخلف ، ثم يجعل بينهما ردماً من التراب ليكون السد مَرِناً لا يتأثر إذا ما طرأت عليه هزة أرضية مثلاً ، فيكون به التراب مثل « السُّوست » التى تمتص الصدمات .

والردم أن تضع طبقات التراب فوق بعضها ، حتى تردم حُفْرة مثلاً وتُسوّيها بالأرض ، ومن ذلك ما نسمعه عندما يعاتب أحدهم صاحبه ، وهو لا يريد أنْ يسمَعَ ، فيقول له : اردم على هذا الموضوع .

﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ[1] حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) ﴾

لم يكن ذو القرنين رجلاً رحالة ، يسير هكذا بمفرده ، بل مكَّنه الله من أسباب كل شيء ، ومعنى ذلك أنه لم يكن وحده ، بل معه جيش وقوة وعدد وآلات ، معه رجال وعمال ، معه القوت ولوازم الرحلة ، وكان بمقدوره أنْ يأمرَ رجاله بعمل هذا السدِّ ، لكنه أمر القوم وأشركهم معه في العمل ليُدرِّبهم ويُعلِّمهم ما داموا قادرين ، ولديهم الطاقة البشرية اللازمة لهذا العمل .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا .. (٧) ﴾ [الطلاق] فما دام ربك قد أعطاك القوة فاعمل ، ولا تعتمد على الآخرين ؛ لذلك تجد هنا أوامر ثلاثة : أعينوني بقوة ، آتوني زبر الحديد ، آتوني أفرغ عليه قطراً .

زبر الحديد : أي قطع الحديد الكبيرة ومفردها زُبْرة ، والقِطْر : هو النحاس المذاب ، لكن ، كيف بنى ذو القرنين هذا السد من الحديد والنحاس ؟

هذا البناء يشبه ما يفعله الآن المهندسون في المعمار بالحديد والخرسانة ؛ لكنه استخدم الحديد ، وسدَّ ما بينه من فجوات بالنحاس المذاب ليكون أكثر صلابة ، فلا يتمكن الأعداء من خَرْقه ، وليكون أملسَ ناعماً فلا يتسلقونه ، ويعلُون عليه .

فقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ .. (٩٦) ﴾ [الكهف] الصدف :

---

(١) زُبَر الحديد : قطعه . والصدفان : الجانبان . [القاموس القويم ١/٢٨٣ ، ٣٧١] .

الجانب ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا .. (١٥٧)﴾ [الانعام] أى : مال عنها جانباً .

فمعنى : ساوى بين الصدفين . أى : ساوى الحائطين الأمامى والخلفى بالجبلين ﴿قَالَ انفُخُوا .. (٩٦)﴾ [الكهف] أى : فى الحديد الذى أشعل فيه ، حتى إذا التهب الحديد نادى بالنحاس المذاب ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦)﴾ [الكهف] وهكذا انسبكَ الحديد الملتهب مع النحاس المذاب ، فأصبح لدينا حائطٌ صلْبٌ عالٍ أملس .

لذلك قال تعالى بعدها :

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)﴾

(أنْ يظهرُوهُ) أى : ما استطاعت يأجوج ومأجوج أن يعلوا السد أو يتسلقوه وينفذوا من أعلاه ؛ لأنه ناعم أملس ، ليس به ما يمكن الإمساك به : ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)﴾ [الكهف] لأنه صلْب .

ثم يقول تعالى على لسان ذى القرنين :

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨)﴾

لم يَفُتْ ذا القرنين - وهو الرجل الصالح - أنْ يسند النعمة إلى المنعم الأول ، وأنْ يعترف بأنه مجرد واسطة وأداة لتنفيذ أمر الله : ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي (٩٨)﴾ [الكهف] لأننى أخذتُ المقوِّمات التى منحنى الله إياها ، واستعملتها فى خدمة عباده .

الفكر مخلوق لله ، والطاقة والقوة مخلوقة لله ، المواد والعناصر فى الطبيعة مخلوقة لله ، إذن : فما لى أن أقول : أنا عملتُ كذا وكذا ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى .. ﴿٩٨﴾ ﴾ [الكهف] أى : الآخرة ﴿ جَعَلَهُ دَكَّاءَ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ [الكهف] فإياكم أنْ تظنوا أن صلابة هذا السَّد ومتانته باقية خالدة ، إنما هذا عمل للدنيا فحسب ، فإذا أتى وَعْد الله بالآخرة والقيامة جعله الله دكاً وسوّاه بالأرض ، ذلك لكى لا يغترون به ولا يتمردون على غيرهم بعد أنْ كانوا مُستذلّين مُسْتضعفين ليأجوج ومأجوج . وكأنه يعطيهم رصيداً ومناعة تقيهم الطغيان بعد الاستغناء .

﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الكهف] واقعاً لا شكَّ فيه .

والتحقيق الأخير فى مسألة ذى القرنين وبناء السد أنه واقع بمكان يُسمَّى الآن (بلخ) والجبلان من جبال القوقاز ، وهما موجودان فعلاً ، وبينهما فَجْوة مبنىٌّ فيها ، ويقولون : إن صاحب هذا البناء هو قورش ، وهذا المكان الآن بين بحر قزوين والبحر الأسود .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾

فإذا كانت القيامة تركناهم يموج بعضهم فى بعض ، كموج الماء لا تستطيع أن تفرق بعضهم من بعض ، كما أنك لا تستطيع فصل ذرات الماء فى الأمواج ، يختلط فيهم الحابل بالنابل ، والقوىّ بالضعيف ، والخائف بالمخيف ، فهم الآن فى موقف القيامة ، وقد انتهت العداوات الدنيوية ، وشُغل كل إنسان بنفسه .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [الكهف]

وهذه هي النفخة الثانية ؛ لأن الأولى نفخة الصَّعْق ، كما قال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) ﴾ [الزمر]

فالنفخة الأولى نفخة الصَّعْق ، والثانية نفخة البَعْث والقيامة ، والصَّعْق قد يكون مميتاً ، وقد يكون مُغْمياً لفترة ثم يفيق صاحبه ، فالصَّعْق المميت كما في قوله تعالى :

﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٤٤) ﴾ [الذاريات]

أما الصَّعْقة التي تُسبِّب الإغماء فهي مثْل التي حدثت لموسى ـ عليه السلام ـ حينما قال : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) ﴾ [الأعراف]

فالجبل الأشمّ الراسي الصَّلْب اندكّ لما تجلَّى له الله ، وخَرَّ موسى مصعوقاً مُغمى عليه ، وإذا كان موسى قد صُعِق من رؤية المتجلَّى عليه ، فكيف برؤية المتجلِّي سبحانه ؟

وكأن الحق سبحانه أعطى مثلاً لموسى ـ عليه السلام ـ فقال له : لست ضنيناً عليك بالرؤية ، ولكن قبل أن تراني انظر إلى الجبل أولاً ليكون لك مثالاً ، إذن : لا يمنع القرآن أنْ يتجلى الله على الخَلْق ، لكن هل نتحمل نحن تجلِّي الله ؟

فمن رحمة الله بنا ألاَّ يتجلى لنا على الحالة التي نحن عليها في الدنيا . أما في الآخرة ، فإن الخالق سبحانه سيُعِدّنا إعداداً آخر ،

وسيخلقنا خلْقة تناسب تجلِّيه سبحانه على المؤمنين فى الآخرة ؛ لأنه سبحانه القائل : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

وسوف نلحظ هذا الإعداد الجديد فى كُلِّ أمور الآخرة ، ففيها مثلاً تقتاتون ولا تتغوطون ؛ لأن طبيعتكم فى الآخرة غير طبيعتكم فى الدنيا..

لذلك جاء السؤال من موسى ـ عليه السلام ـ سؤالاً علمياً دقيقاً : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] أى : أرنى كيفية النظر إليك ؛ لأنى بطبيعتى وتكوينى لا أراك ، إنما إنْ أريتنى أنت أرى .

وفى ضوء هذه الحادثة لموسى ـ عليه السلام ـ نفهم حديث النبى ﷺ : « لا تُخيِّروا بين الأنبياء ، فإن الناس يُصْعقون يوم القيامة ، فأكون أولَ مَنْ تنشقُّ عنه الأرض ، فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى أكان فيمن صُعِق ، أم حُوسِب بصَعْقة الأولى »[1] .

قالوا : لأنه صُعِق مرة فى الدنيا ، ولا يجمع الله تعالى على عبده صَعقتَيْن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) ﴾

أى : تُعرَض عليهم ليروها ويشاهدوها ، وهذا العَرْض أيضاً للمؤمنين ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا .. (٧١) ﴾ [مريم] والبعض يظن أن (واردها) يعنى : داخلها ، لا بل واردها

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤١٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣٧٤) من حديث أبى سعيد الخدرى .

بمعنى : يراها ويمرُّ بها ، فقد ترد الماء بمعنى تصل إليه دون أنْ تشربَ منه ؛ ذلك لأن الصراط الذى سيمر عليه الجميع مضروبٌ على ظهر جهنم ليراها المؤمن والكافر .

أما المؤمن فرؤيته للنار قبل أنْ يدخل الجنة تُريه مدى نعمة الله عليه ورحمته به ، حيث نجّاه من هذا العذاب ، ويعلم فضل الإيمان عليه ، وكيف أنه أخذ بيده حتى مَرَّ من هذا المكان سالماً .

لذلك يُذكّرنا الحق سبحانه بهذه المسألة فيقول : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

أما الكافر فسيُعرض على النار ويراها أولاً ، فتكون رؤيته لها قبل أن يدخلها رؤية الحسرة والندامة والفزع ؛ لأنه يعلم أنه داخلها ، ولن يُفلتَ منها .

وقد وردتْ هذه المسألة فى سورة التكاثر حيث يقول تعالى : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) ﴾ [التكاثر]

والمراد : لو أنكم تأخذون عنِّى العلم اليقينى فيما أُخبركم به عن النار وعذابها لكُنْتم كمنْ رآها ، لأننى أنقل لكم الصورة العلمية الصادقة لها ، وهذا ما نُسمِّيه علم اليقين ، أما فى الآخرة فسوف ترونَ النار عينها . وهذا هو عين اليقين أى : الصورة العينية التى ستتحقق يوم القيامة حين تمرُّون على الصراط .

وبرحمة الله بالمؤمنين وبفضله وكرمه تنتهى علاقة المؤمن بالنار عند هذا الحد ، وتُكتب له النجاة ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) ﴾ [التكاثر]

أما الكافر والعياذ بالله فلَهُ مع النار مرحلة ثالثة هي حَقُّ اليقين ، يوم يدخلها ويباشر حَرَّها ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ [الواقعة]

إذن : عندنا عِلْم اليقين ، وهو الصورة العلمية للنار ، والتى أخبرنا بها الحق سبحانه وتعالى ، وأن من صفات النار كذا وكذا وحذَّرنا منها ، ونحن فى بحبوحة الدنيا وسعَتها . وعَيْن اليقين : فى الآخرة عندما نمرُّ على الصراط ، ونرى النار رؤيا العين . ثم حَقُّ اليقين : وهذه للكفار حين يُلْقَوْن فيها ويباشرونها فعلاً .

وقد ضربنا لذلك مثلاً : لو قُلْتُ لك : توجد مدينة اسمها نيويورك وبها ناطحات سحاب ، وأنها تقع على سبع جزر ، ومن صفاتها كذا وكذا فأُعطيك عنها صورة علمية صادقة ، فإنْ صدَّقتنى فهذا عِلْم يقين . فإنْ مررنا عليها بالطائرة ورأيتها رأىَ العين فهذا عَيْن اليقينَ ، فإنْ نزلت بها وتجولت خلالها فهذا حَقُّ اليقين .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) ﴾ [الكهف] ليس كعرضها على المؤمنين ، بل هو عَرْض يتحقَّق فيه حَقُّ اليقين بدخولها ومباشرتها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) ﴾

أى : على أبصارهم غشاوة تمنعهم إدراك الرؤية ، ليس هذا وفقط ، بل ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) ﴾ [الكهف]

والمراد هنا السمع الذى يستفيد منه السامع ، سَمْع العبرة

والعظَة ، وإلا فآذانهم موجودة وصالحة للسمع ، ويسمعون بها ، لكنه سماعٌ لا فائدةَ منه ؛ لأنهم ينفرون من سماع الحق ومن سماع الموعظة ويسدُّون دونها آذانهم ، فهم فى الخير أذن من طين ، وأذن من عجين كما نقول .

أما المؤمنون فيقول الحق تبارك وتعالى فيهم : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ .. (٨٣)﴾ [المائدة]

إذن : فكراهية أولئك للمسموع جعلتهم كأنهم لا سَمْعَ لهم ، كما نقول نحن فى لغتنا العامية : (أنت مطنش عنى) ، يعنى : لا تريد أنْ تسمعَ ، ومن أقوال أهل الفكاهة : قال الرجل لصاحبه : فيك مَنْ يكتم السرَّ ؟ قال : نعم ، قال : أعْطنى مائة جنيه ، قال : كأنِّى لم أسمع .

ولذلك حكى القرآن عن كفار مكة قولهم : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾ [فصلت]

يعنى : شَوِّشُوا عليه ، ولا تُعطوا الناس فرصة لسماعه ، ولو أنهم علموا أن القرآن لا يؤثر فى سامعه ما قالوا هذا ، لكنهم بأذنهم العربية وملكَتهم الفصيحة يعلمون جيداً أن القرآن له تأثير فى سامعه تأثيراً يملك جوانب نفسه ، ولابُدَّ لهذا العربى الفصيح أنْ يهتزّ للقرآن ، ولابُدَّ أنه سيعرف أنه مُعجز ، وأنه غير قَوْل البشر ، وحتماً سيدعوه هذا إلى الإيمان بأن هذا الكلام كلام الله ، وأن محمداً رسول الله ؛ لذلك قال بعضهم لبعض محذراً : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦)﴾ [فصلت]

وفى آية أخرى يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ

أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) ﴾ [الجاثية]

وقد يتعدَّى الأمر مجرد السماع إلى منْع الكلام كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ .. (٩) ﴾ [إبراهيم]

فليس الأمر منْع الاستماع ، بل أيضاً منْع الكلام ، فربما تصل كلمة إلى آذانهم وهم فى حالة انتباه فتُؤثّر فيهم ، أى منعوهم الكلام كما يُقال : اسكت ، أو أغلق فمك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ .. (١٠٢) ﴾ [الكهف] يعنى : أَعَمُوا عن الحق فظنُّوا أنْ يتخذوا عبادى من دونى أولياء ؟ وسبق أن تحدثنا عن كلمة (عِبَادى) وقلنا : إنهم المؤمنون بى المحبون لى ، الذين اختاروا مرادات الله على اختيارات نفوسهم ، وفرَّقْنا بين عبيد وعباد .

والكلام هنا عن الذين كفروا الذين اتخذوا عباد الله المقربين إليه المحبين له أولياء من دون الله ، كما قال تعالى : ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ .. (١٧٢) ﴾ [النساء]

فكيف تتخذونهم أولياء من دونى وتعاندوننى بهم وهم أحبتى ؟

يقول تعالى : ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ .. (٣٠) ﴾ [التوبة]

ومنهم مَنْ قال : الملائكة بنات الله ، فكيف تتخذونهم أولياء من دون الله وهم لا يستنكفون أن يكونوا عباداً لله ، ويروْنَ شرفهم وعزَّتهم في عبوديتهم له سبحانه ، فإذا بكم تتخذونهم أولياء من دوني ، ويا ليتكم جعلتُم ذلك في أعدائي ، فهذا منهم تغفيل حتى في اتخاذ الشركاء ؛ لذلك كان جزاءَهم أنْ نُعدَّ لهم جهنم :

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً ﴿١٠٢﴾﴾ [الكهف] والنُّزُل : ما يُعَدُّ لإكرام الضيف كالفنادق مثلاً ، فهذا من التهكّم بهم والسُّخرية منهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾﴾

(قُلْ) أي : يا محمد ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾﴾ [الكهف] الأخسر : اسم تفضيل من خاسر ، فأخسر يعني أكثر خسارة (أعْمَالاً) أي : خسارتهم بسبب أعمالهم . وهؤلاء الأخسرون هم :

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾

وقد ضلَّ سَعْي هؤلاء ؛ لأنهم يفعلون الشر ، ويظنون أنه خير ، فهم ضالّون من حيث يظنون الهداية . ومن ذلك ما نراه من أعمال الكفار حيث يبنون المستشفيات والمدارس وجمعيات الخير والبر ، ويُنَادون بالمساواة وغيرها من القيم الطيبة ، ويحسبون بذلك أنهم أحسنوا صُنْعاً وقدَّموا خَيْراً ، لكن هل أعمالهم هذه كانت لله ؟

الواقع أنهم يعملونها للناس وللشهرة وللتاريخ ، فليأخذوا أجورهم من الناس ومن التاريخ تعظيماً وتكريماً وتخليداً لذكْراهم .

ومعنى : ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ .. ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف] أي : بطُل وذهب ،

وكأنه لا شيءَ ، مثل السراب كما صوَّرهم الحق سبحانه فى قوله :
﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا .. (٣٩) ﴾ [النور]

وهؤلاء لا يبخسهم الله حقوقهم ، ولا يمنعهم الأَجْر ؛ لأنهم أحسنوا الأسباب ، لكن هذا الجزاء يكون فى الدنيا ؛ لأنهم لما عملوا وأحسنوا الأسباب عملوا للدنيا ، ولا نصيبَ لهم فى جزاء الآخرة .

وقد أوضح الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة فى قوله تعالى :
﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾ [الشورى]

ومع ذلك يُبقى للكافر حَقَّه ، فلا يجوز لأحد من المؤمنين أنْ يظلمه أو يعتدى عليه ، وفى حديث سيدنا جابر بن عبد الله - رضى الله عنه - قال : سمعت أن مُحدِّثاً حدَّث عن رسول الله بحديث أحببت ألاَّ أموت ، أو يموت هو حتى أسمعه منه ، فسألت عنه فقيل : إنه ذهب إلى الشام ، قال : فاشتريت ناقة ورحَّلتها[1] ، وسرْت شهراً إلى أنْ وصلتُ إلى الشام ، فسألت عنه فقيل : إنه عبد الله بن أُنَيْس ، فلما ذهبت قال له خادمه : إن جابر بن عبد الله بالباب ، قال جابر : فخرج ابنُ أُنَيْس وقد وَطِىء ثيابه من سرعته . قال عبد الله : واعتنقا .

قال جابر : حدِّثت أنك حدثتَ حديثاً عن رسول الله ﷺ : « إن الله ينادى يوم القيامة : يا ملائكتى ، أنا الملك ، أنا الديان ، لا ينبغى لأحد من أهل النار أنْ يدخلَ النار وله عند أحد من أهل الجنة حَقٌّ حتى أقصَّه منه ، ولا ينبغى لأحد من أهل الجنة أنْ يدخلَ الجنة وله عند أحد من أهل النار حق حتى أقصَّه منه ، حتى اللطمة »[2] .

(١) ارتحل البعير : جعل عليه الرحل . ويقال : رحلت البعير أرحله رحْلاً إذا علوته . [لسان العرب - مادة : رحل] .
(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/٤٩٥) من حديث عبد الله بن أنيس رضى الله عنه .

فانظر إلى دقَّة الميزان وعدالة السماء التى تراعى حَقَّ الكافر ، فتقتصّ له قبل أَنْ يدخل النارَ ، حتى ولو كان ظالمه مؤمناً .

وفى قوله تعالى : ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (١٠٤)﴾ [الكهف] جاءت كلمة الضلال فى القرآن الكريم فى عدّة استعمالات يُحدِّدها السياق الذى وردتْ فيه . فقد يأتى الضلال بمعنى الكفر ، وهو قمة الضلال وقمة المعاصى ، كما جاء فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)﴾ [البقرة]

ويُطلق الضلال ، ويُراد به المعصية حتى من المؤمن ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا (٣٦)﴾ [الأحزاب]

ويُطلق الضلال ، ويُراد به أَنْ يغيب فى الأرض ، كما فى قوله تعالى : ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠)﴾ [السجدة]

يعنى : غِبْنا فيها واختفينا .

ويُطلَق الضلال ويُراد به النسيان ، كما فى قوله تعالى : ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ .. (٢٨٢)﴾ [البقرة]

ويأتى الضلال بمعنى الغفلة التى تصيب الإنسان فيقع فى الذنب دون قصد . كما جاء فى قصة موسى وفرعون حينما وكز[1] موسى الرجل فقضى عليه ، فلما كلمه فرعون قال : ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠)﴾ [الشعراء]

---

(١) وكز : دفع وضرب : أى : ضربه بجُمْع يده الواحدة فمات . [القاموس القويم ٢/ ٣٥٤] .

أى : قتلتُه حال غفلة ودون قصد ، ومَنْ يعرف أن الوكزة تقتل ؟ والحقيقة أن أجلَ الرجل جاء مع الوكزة لا بها . ويحدث كثيراً أن واحداً تدهسه سيارة وبتشريح الجثة يتبين أنه مات بالسكتة القلبية التى صادفتْ حادثة السيارة .

ويأتى الضلال بمعنى : ألاّ تعرف تفصيل الشىء ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ ۝٧ ﴾ [الضحى] أى : لا يعرف ما هذا الذى يفعله قومه من الكفر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ۝١٠٥ ﴾

﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. ۝١٠٥ ﴾ [الكهف] والآيات تُطلَق ثلاثة إطلاقات ، وقد كفروا بها جميعاً وكذَّبوا ، كفروا بآيات الكون الدالة على قدرة الله ، فلم ينظروا فيها ولم يعتبروا بها ، وكفروا بآيات الأحكام والقرآن والبلاغ من رسول الله ، وكذلك كفروا بآيات المعجزات التى أنزلها الله لتأييد الرسل فلم يصدقوها . إذن : كلمة ﴿ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. ۝١٠٥ ﴾ [الكهف] هنا عامة فى كل هذه الأنواع .

(ولقائه) أى : وكفروا أيضاً بلقاء الله يوم القيامة ، وكذَّبوا به ، فمنهم مَنْ أنكره كليةً فقال : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٨٢ ﴾ [المؤمنون]

ومنهم مَن اعترف ببعْث على هواه ، فقال : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦ ﴾ [الكهف]

ومنهم مَنْ قال : إن البعث بالروح دون الجسد وقالوا فى ذلك كلاماً طويلاً ، إذن : إما ينكرون البعث ، وإما يُصوِّرونه بصورة ليست هى الحقيقة .

ثم يقول تعالى : ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ .. (١٠٥)﴾ [الكهف] أى : بَطُلت وذهب نفعُها ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾ [الكهف]

وقد اعترض المستشرقون على هذه الآية ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾ [الكهف] وقالوا : كيف نُوفِّق بينها وبين الآيات التى تثبت الميزان ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)﴾ [الأنبياء]

وقوله تعالى : ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)﴾ [القارعة]

ونقول : إن العلماء فى التوفيق بين هذه الآيات قالوا[1] : المراد بقوله تعالى : ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾ [الكهف] جاءتْ على سبيل الاحتقار وعدم الاعتبار ، فالمراد لا وزنَ لهم عندنا أى : لا اعتبارَ لهم ، وهذه نستعملها الآن فى نفس هذا المعنى نقول : فلان لا وزنَ له عندى . أى : لا قيمة له .

وبالبحث فى هذه الآية وتدبرها تجد أن القرآن الكريم يقول : ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ .. (١٠٥)﴾ [الكهف] ولم يقُلْ : عليهم ، إذن : الميزان

---

(١) قال الإمام أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » (ص ٢٥١) : « قوله تعالى : ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾ [الكهف] . أى : قدراً لحقارتهم ، وليس المراد فلا ننصب لهم ميزاناً لأن الميزان إنما ينصب ليوزن به الحسنات فى مقابلته السيئات ، والكافر لا حسنة له » .

موجـود ، ولكنه ليس فى صـالحهم ، فـالمعنى : لا نقـيم لهم ميـزاناً لهم ، بل نقيم لهم ميزاناً عليهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

(ذلك) أى : ما كان من إحباط أعمالهم ، وعدم إقامتنا لهم وزناً ليس تجنِّياً منَّا عليـهم أو ظلماً لهم ، بل جزاءً لهم على كفـرهم فقوله ﴿ بِمَا كَفَرُوا .. ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الكهف] أى : بسبب كفرهم .

﴿ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الكهف] فقـد استـهزأوا بآيات الله ، وكلما سـمعوا آية قالوا : أسـاطير الأولين : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [القلم]

وكـذلك لم يَسْلَم رسـول الله ﷺ من سخـريتـهم واسـتهـزائهم ، والقرآن يحكى عنهم قولهم لرسول الله : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجر] فقولهم ﴿ نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الحجر] أى : القرآن وهم لا يؤمنون به سُخرية واستهزاءً .

وفى سورة « المنافقون » يقول القرآن عنهم : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا .. ﴿٧﴾ ﴾ [المنافقون] فقولهم ﴿ رَسُولِ اللَّهِ.. ﴿٧﴾ ﴾ ليس إيماناً به ، ولكن إمّـا غفلة منهم عن الكذب الذى يمارسـونه ، وإما سُخْـرية واستهـزاءً كما لو كـنتَ فى مجلس ، ورأيتَ أحدهم يدَّعى العلم ويتظاهر به فتقول : اسألوا هذا العالم .

وفى آية أخرى يقول سبحـانه عن استهزائهم برسول الله : ﴿ وَإِن

يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ(1) بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) ﴾ [القلم]

ثم يتحدث القرآن عن المقابل لهؤلاء ، فيقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) ﴾

قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٠٧) ﴾ [الكهف] سبق أن قلنا : إن الإيمان هو تصحيح الينبوع الوجدانى العقدى لتصدر الأفعال مناسبة لإيمانك بمَنْ شرّع ، ومن هنا كان الإيمان أولاً وشرطاً لقبول العمل ، وإلاَّ فهناك مَنْ يعمل الخير لا من منطلق إيمانى بل لاعتبارات أخرى ، والنية شَرْط لازم فى قبول العمل .

لذلك يعاقب الله تعالى مَنْ يعمل العمل لغير الله ، يعاقبه بأنْ ينكره صاحبه ويجحده ويكرهه بسببه ، بدل أنْ يعترفَ له بالجميل . ومن هنا قالوا : (اتق شَرَّ مَنْ أحسنتَ إليه) ؛ وهذا قول صحيح لأنك حين تُحسن إلى شخص تدكُّ كبرياءه ، وتكون يدك العليا عليه ، فإذا ما أخذ حظاً من الحياة وأصبح ذا مكانة بين الناس فإن كان غير سَوِىٍّ النفس فإنه لا يحب مَنْ تفضل عليه فى يوم من الأيام ودَكَّ كبرياءه ؛ لذلك تراه يكره وجوده، ولا يحب أنْ يراه ، وربما دبَّر لك المكائد لتختفى من طريقه ، وتُخلى له الساحة ؛ لأنك الوحيد الذى يحرجه حضورك .

لذلك ، مَنْ عمل عملاً لغير الله أسلمه الله لمن عمل له ، فليأخذ منه الجزاء ، وإذا بالجزاء يأتى على خلاف ما تنتظر ، فقد فعلت له

---

(١) أزلقه : جعله يزلق (تزل قدمه) كان أبصارهم أدوات إزلاق لشدة حسدهم وحقدهم . [القاموس القويم ١/٢٨٩] .

لِيُكرمك فإذا به يُهينك ، فعلْتَ له ليحترمك فإذا به يَحْقرك ، فعلتَ له لِيُواليك فإذا به عدو لك ؛ لذلك يقولون : العمل لله عاجِل الجزاء ، أما العمل لغير الله فغير مضمون العواقب ، فقد يُوفى لك وقد لا يُوفى .

ثم أردف الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الإيمانَ بالعمل الصالح ؛ لأن العمل الصالح لا بُدَّ له أن ينطلق من الإيمان ويصدر عنه ، فقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (١٠٧)﴾ [الكهف]

﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (١٠٧)﴾ [الكهف] يعنى : عمل الشىء الصالح ، فإن كان الشىء صالحاً بنفسه فليتركه على صلاحه لا يفسده ، أو يزيده صلاحاً ، كبئر الماء الذى يشرب منه الناس ، فإمّا أن تتركه على حال صلاحه لا تُلقى فيه ما يسدُّه أو يُفسده فتُخرج الصالح عن صلاحه ، وإما أنْ تزيده صلاحاً فتُضيف إليه ما يُحسِّن من أدائه ويُزيد من كفاءته كأنْ تبنى حوله سوراً يحميه أو غطاءً يحفظه ، أو آلةَ رفع تُيسِّر على الناس استعماله .

والفرد حين يعمل الصالحات تكون حصيلته من صلاح غيره أكثرَ من حصيلته من عمله هو ؛ لأنه فَرْد واحد ، ويستفيد بصلاح المجتمع كله ، ومن هنا لا ينبغى أنْ تستثقلَ أوامر الشارع وتكليفاته ؛ لأنه يأخذ منك ليعطيك ولِيُؤمِّن حياتك وقت الحاجة والعَوَز ، وحينما يتوفّر لك هذا التكافل الاجتماعى تستقبل الحياة بنفس راضية حال اليُسْر ، مطمئنة حال العُسْر .

وساعةَ أنْ يأمرك الشرع بكفالة اليتيم وإكرامه ، فإنه [illegible] أولادك من بعدك ، فلا تحزن إنْ أصابك مكروه ؛ لأنك فى مجتمع متعاون ، سيكفل أولادك ، بل قد يكون اليتيم فى ظل الإسلام وتعاليمه أسعَد حظاً من حياته فى رعاية أبيه ؛ لأنه بموت أبيه يجد

المؤمنين جميعاً آباءَ له ، وربما كان أبوه مشغولاً عنه فى حياته لا يُفيده بشىء ، بل ويصدُّ عنه الخير حيث يقول الناس : أبوه موجود وهو يتكفّل به .

لذلك يقول أحمد شوقى(١) :

لَيْسَ اليَتيمُ مَنِ انتهَى أبَواهُ ... منْ هَمِّ الحياةِ وخلَّفاهُ ذَليلا

إنَّ اليَتِيمَ هُوَ الذى تَلْقَى لَهُ ... أُمَّــاً تخلَّتْ أَوْ أباً مَشْغُولا

وقوله تعالى : ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) ﴾ [الكهف]
الفردوس : هو أعلى الجنة ، والنُّزُل : ما يُعده الإنسان لإكرام ضيفه من الإقامة ومُقوّمات الحياة وتَرَفها ، والإنسان حينما يُعدُّ النزُلَ لضيفه يعده على حَسْب قدراته وإمكانياته وعلمه بالأشياء ، فما بالك إنْ كان المعدّ للنُّزُل هو الله تبارك وتعالى ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) ﴾

وخلود النعيم فى الآخرة يُميّزه عن نعيم الدنيا مهما سَمَا ، كما أن نعيم الدنيا يأتى على قَدْر تصوُّرنا فى النعيم وعلى حَسْب قدراتنا ، وحتى إنْ بلغنا القمة فى التنعُّم فى الدنيا فإننا على خَوْف دائم من زواله ، فإما أنْ يتركك النعيم ، وإما أن تتركه ، وأما فى الجنة فالنعمة خالدة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وأنت مُخلّد فيها فلن تتركك النعمة ولن تتركها .

---

(١) هو : أشهر شعراء العصر الحديث ، يلقب بأمير الشعراء ، مولده ووفاته بالقاهرة ، نشأ فى ظل البيت المالك بمصر . ولد ١٨٦٨ م . تابع دراسة الحقوق فى فرنسا . من آثاره « الشوقيات » « مجنون ليلى » « مصرع كليوباترا » توفى عام ١٩٣٢ م عن ٧٥ عاماً . (الأعلام للزركلى ١ / ١٣٦ ، ١٣٧) .

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً (١٠٨)﴾ [الكهف] أي : لا يطلبون تحوُّلهم عنها إلى غيرها ، لأنه لا يُتصوَّر في النعيم أعلى من ذلك .

ومعلوم أن الإنسان لديه طموحات ترفيهية ، فكلما نال خيراً تطلع إلى أعلى منه ، وكلما حاز متعةً ابتغى أكثر منها ، هذا في الدنيا أما في الآخرة فالأمر مختلف ، وإلا فكيف يطلب نعيماً أعلى من نعيم الجنة الذي قال الله عنه : ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. (٢٥)﴾ [البقرة]

أي : كلما رزقهم الله ثمرةً أتتْهم أخرى فقالوا : لقد رُزِقْنا مثلها من قبل ، وظنّوها كسابقتها ، لكنها ليست كسابقتها بل بطعم جديد مختلف ، وإنْ كانت نفس الثمرة ، ذلك لأن قدرة الأسباب محدودة ، أما قدرة المسبِّب فليست محدودة .

والحق سبحانه وتعالى قادر على أن يُخرج لك الفاكهة الواحدة على ألف لَوْن وألف طَعْم ؛ لأن كمالاته تعالى لا تتناهى في قدرتها ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا.. (٢٥)﴾ [البقرة] فالثمر واحد متشابه ، أمَّا الطعم فمختلف[1] .

والإنسان منّا ليشقَّ طريقه في الحياة يظل يتعلّم ، ليأخذ شهادة مثلاً أو يتعلم مِهنة ، ويظل في تعب ومشقة ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً من عمره أملاً في أن يعيش باقي حياته المظنونة مرتاحاً هانئاً ، وهَبْ أنك ستعيش باقي حياتك في راحة ، فكم سيكون الباقي منها ؟

---

(١) قال ابن عباس : ليس في الدنيا مما في الجنة شيء إلا الأسماء . أورده السيوطي في « الدر المنثور » (١/٩٦) وعزاه لمسدد وهناد في الزهد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في البعث .

أمـا الراحـة الأبدية فى الآخـرة فـهى زمن لا نـهـايةَ له ، ونعـيم خـالد لا ينتهى ، ففى أىِّ شىء يطمع الإنسان بعد هذا كله ؟ وإلى أىِّ شىء يطمح ؟

لذلك قال تعالى بعدها :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾

لأن قدرتـه تعالى لا حـدود لها ، وما دامـت قدرته لا حدود لـها فالمقدورات أيضاً لا حدود لها ؛ لـذلك لو كان البحر مداداً أى : حبْراً يكتب به كلمـات الله التى هى (كُنْ) التى تبـرز المقـدورات ما كـان كافياً لكلمات الله ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الكهف] أى : بمثل البحر .

ونحن نقول مثلاً عن السلعة الجـيدة : لا يستطيع المصنع أنْ يُخرِج أحسن من هذه ، أمـا صنعة الله فـلا تقف عند حد ؛ لأن المصـنع يعالج الأشياء ، أما الحق ـ تبارك وتعالى ـ فيصنعها بكلمة كُنْ ؛ لذلك نجد فى أرقى فنادق الدنيـا أقـصى ما توصَّل إليـه العلم فى خـدمـة البشـر أنْ تضغطَ على زِرٍّ معين ، فيُخرِج لك ما تريد من طعام أو شراب .

وهذه الأشياء بلا شكٍّ مُعدَّة ومُجهَّزة مُسبْقاً ، فقط يتم استدعاؤها بالضـغط على زر خـاص بكل نوع ، لكن هل يوجـد نعـيم فى الدنيـا يحضر لك ما تريد بمجرد أن يخطر على بالك ؟ إذن : فنعيم الدنيا له حدود ينتهى عندها .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس]

وكأن الحق سبحانه يقول لنا : لقد استنفدتم وسائلكم فى الدنيا ، وبلغتم أقصى ما يمكن من مُتَعها وزينتها ، فتعالوا إلى ما أعددتُه أنا لكم ، اتركوا ما كنتم فيه من أَسباب الله ، وتعالوا عِيشُوا بالله ، كنتم فى عالم الأسباب فتعالوْا إلى المسبِّب .

وإنْ كان الحق سبحانه قد تكلم فى هذه الآية عن المداد الذى تُكتب به كلمات الله ، فقد تكلَّم عن الأقلام التى يكتب بها فى آية أخرى أكثر تفصيلاً لهذه المسألة ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. (٢٧) ﴾ [لقمان]

ونقف هنا عند دقَّة البيان القرآنى ، فلو تصوَّرنا ما فى الأرض من شجر أقلام ، معَ ما يتميز به الشجر من تجدُّد مستمر ، وتكرُّر دائم يجعل من الأشجار ثروة لا حَصْرَ لها ولا تنتهى ، وتصوَّرنا ماء البحر مداداً يُكتب به إلا أنّ ماء البحر منذ خلقه الله تعالى محدود وثابت لاَ يزيد ولا ينقص .

لذلك لما كان الشجر يتجدَّد ويتكرَّر ، والبحر ماؤه ثابت لا يزيد . قال سبحانه : ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ .. (٢٧) ﴾ [لقمان] ليتناسب تزايد الماء مع تزايد الشجر ، والمراد سبعة أمثاله ، واختار هذا العدد بالذات ؛ لأنه مُنتَهى العدد عند العرب .

وقد أوضح لنا العلم دورة الماء فى الطبيعة ، ومنها نعلم أن كمية الماء فى الأرض ثابتة لا تزيد ؛ لأن ما يتم استهلاكه من الماء يتبخّر ويعود من جديد فالإنسان مثلاً لو شَربَ طيلة عمره مائة طن من الماء ، فاحسب ما يخرج منه من بول وعرق وفضلات فى عملية الإخراج تجدها نفس الكمية التى شربها ، وقد تبخرتْ وأخذَتْ دورتها من جديد ؛ لذلك يقولون : رُبَّ شربةِ ماء شربها من آدم الملايين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾

(قُلْ) أى : يا محمد ، وهذا كلام جديد ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ .. ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف] يعنى : خُذُونى أُسْوة ، فأنا لست ملَكاً إنما أنا بشر مثلكم ، وحملتُ نفسى على المنهج الذى أطالبكم به ، فأنا لا آمركم بشىء وأنا عنه بنجْوَى . بل بالعكس كان ﷺ أقلَّ الناس حَظّاً من مُتَعِ الحياة وزينتها .

فكان فى المؤمنين به الأغنياء الذين يتمتعون بأطايب الطعام ، ويرتدُونَ أغْلى الثياب فى حين كان ﷺ يمر عليه الشهر والشهران دون أنْ يُوقَد فى بيته نار لطعام[1] ، وكان يرتدى المرقّع من الثياب ، كما أن أولاده لا يرثونه ، كما يرث باقى الناس ، ولا تحل لهم الزكاة كغيرهم ، فحُرِموا من حَقٍّ تمتع به الآخرون .

لذلك كان ﷺ أدنى الأسوات أى : أقل الموجودين فى مُتع الحياة وزُخْرفها ، وهذا يلفتنا إلى أن الرسالة لم تُجْر لمحمد نفعاً دنيوياً ، ولم تُميِّزه عن غيره فى زَهْرة الدنيا الفانية ، إنما ميَّزتْه فى القيم والفضائل .

(١) عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تقول : كان يمر بنا هلال وهلال وهلال وما يوقد فى منزل رسول الله ﷺ نار . قلت : أىْ خالة ، على أى شىء كنتم تعيشون ؟ قالت : على الأسودين : التمر والماء . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٥٦٧/٥ ـ فتح) (٦٤٥٩/١١ ـ فتح) وكذا مسلم فى صحيحه (جـ ٤ ـ الزهد / ٢٨) .

ومن هنا كان ﷺ يقول : « يرد علىَّ - يعنى من الأعلى - فأقول : أنا لست مثلكم ، ويؤخذ منى فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

والآية هنا لا تميزه ﷺ عن البشر إلا فى أنه ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ .. (١١٠)﴾ [الكهف] فما زاد محمد عن البشر إلا أنه يُوحَى إليه .

ثم يقول تعالى : ﴿أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. (١١٠)﴾ [الكهف] أنما : أداة قَصْر ﴿إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. (١١٠)﴾ [الكهف] أى : لا إله غيره ، وهذه قمَّة المسائل ، فلا تلتفتوا إلى إله غيره ، ومن أعظم نعم الله على الإنسان أنْ يكونَ له إله واحد ، وقد ضرب لنا الحق سبحانه مثلاً ليوضح لنا هذه المسألة فقال تعالى :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩)﴾ [الزمر]

فلا يستوى عبد مملوك لعدة أسياد يتجاذبونه ؛ لأنهم متشاكسون مختلفون يَحَارُ فيما بينهم ، إنْ أرضى هذا سخط ذاك . هل يستوى وعبد مملوك لسيد واحد ؟ إذن : فمما يُحمَد الله عليه أنه إله واحد .

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ .. (١١٠)﴾ [الكهف] الناس يعملون الخير لغايات رسمها الله لهم فى الجزاء ، ومن هذه الغايات الجنة ونعيمها ، لكن هذه الآية تُوضّح لنا غاية أَسْمى من الجنة ونعيمها ، هى لقاء الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم ، فقوله تعالى : ﴿يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ .. (١١٠)﴾ [الكهف] تصرف النظر عن النعمة إلى المنعم تبارك وتعالى .

فمَنْ أراد لقاء ربه لا مُجرَّد جزائه فى الآخرة ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا .. (١١٠)﴾ [الكهف] فهذه هى الوسيلة إلى لقاء الله ؛ لأن العمل

الصالح دليل على أنك احترمتَ أمر الآمـر بالعمل ، ووثقتَ من حكمته ومن حُبِّـه لك فارتاحتْ نفسك فى ظلِّ طاعتـه . فإذا بك إذا أويْتَ إلى فراشك تستعرض شريط أعمالك ، فلَا تجد إلا خيراً تسعَدُ به نفسك ، وينشرح له صـــدرك ، ولا تتوجَّس شراً من أحـد ، ولا تخاف عاقـبة أمر لا تُحـمَدُ عقـبـاه ، فمَنِ الذى أنعم عليـك بكل هـــذه النعم ووفَّقك لهـا ؟

ثم : ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف] وسبق أن قُلْنا : إن الجنة أحـد ، فلا تشرك بعـبادة الله شـيئاً ، ولو كـان هذا الشـىء هو الجنة ، فـعليك أنْ تسـمـوَ بغـاياتك ، لا إلى الجنة بل إلى لقـاء ربهـا وخالقها والمنعِم بها عليك .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بالرجل الذى أعدَّ وليـمة عظيمة فيها أطايب الطعـام والشراب ، ودعا إليـها أحـبابه فلمـا دخلوا شغلهم الـطعام إلا واحداً لم يهـتم بالطعام والشراب ، وسـأل عن صـاحب الوليمـة ليُسلِّم عليه ويأنس به .

وما أصدق ما قالته رابعة العدوية :

كُلُّهم يَعبــدُونَ مـــنْ خَـــوْف نـــار ويـروْنَ النَّجـاةَ حَظًّا جَزيلاً
أَوْ بأنْ يسكنُوا الجِنَان فـيـحظَوْا بقـصُــور ويشْـرَبُوا سَلْسَـبِيـلا
ليــسَ لـِـى بالجِـنَانِ والنَّارِ حظٌّ أنَا لا أبـتَــغـى بحُـبِّـى بَـدِيـلا

وهذا يشرح لنا الحديث القـدسى : « لوْ لَم أخلق جنة وناراً ، أما كنتُ أهْلاً لأنْ أُعْبَد ؟ » .

فلا ينبغى للعبد أن يكون نفعياً حتى فى العبادة ، والحق سبحانه وتعالى أهْل بذاته لأن يُعبد ، لا خوفاً من ناره ، ولا طمعاً فى جنته ، فاللهم ارزقنا هذه المنزلة ، واجعلنا برحمتك من أهلها .


سورة مريم



سورة مريم (١)

بسم الله الرحمن الرحيم



هذه خمسة حروف مقطعة ، تُنطق باسم الحرف لا بمُسمَّاه ، لأن الحرف له اسم وله مُسمًّى ، فمثلاً كلمة (كتب) مسماها (كتب) ، أما بالاسم فهى كاف ، تاء ، باء . فالاسم هو العَلَم الذى وُضِع للدلالة على هذا اللفظ .

وفى القرآن الكريم سور كثيرة ابتُدئَتْ بحروف مُقطعة تُنطق باسم الحرف لا مُسمَّاه ، وهذه الحروف قد تكون حَرفاً واحداً مثل : ن ، ص ، ق . وقد تكون حرفين مثل : طه ، طس . وقد تكون ثلاثة أحرف مثل : الم ، طسم . وقد تأتى أربعة أحرف مثل : المر . وقد تأتى بخمسة أحرف مثل : كهيعص ، حمعسق .

(١) سورة مريم هى السورة (١٩) فى ترتيب المصحف الشريف ؛ وهى سورة مكية ، عدد آياتها ٩٨ آية . وهى السورة الثالثة والأربعون فى ترتيب النزول ، وقد نزلت بعد سورة فاطر وقبل سورة طه . قاله ابن الضريس فى فضائل القرآن ، نقله السيوطى فى الإتقان فى علوم القرآن (١/٢٧) . وسورة مريم تقع كلها فى الجزء السادس عشر من القرآن .

لذلك نقول : لا بُدَّ فى تعلُّم القرآن من السماع ، وإلاَّ فكيف تُفرِّق بين الم فى أول البقـرة فتنطقها مُـقطَّعة وبين ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ①﴾ [الشرح] فتنطقها موصولة ؟ وصدق الله تعالى حين قال : ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ⑱﴾ [القيامة]

ونلاحظ فى هذه الحـروف أنه يَنطـق بالمـسمّى الـمتـعلم وغـيـر المتـعلم ، أما الاسم فـلا ينطق به ولا يعرفـه إلا المتعـلّم الذى عرف حروف الهجاء . فإذا كان الرسول ﷺ أمياً لم يجلس إلى معلم ، وهذا بشهادة أعدائه ، فمن الذى علمه هذه الحروف ؟

إذن : فإذا رأيت هذه الحـروف المقطعـة فاعلم أن الحق سبـحانه وتعالى نطق بهـا بأسماء الحروف ، ونـحن نتكلم بمُسمَّيـات الحروف لا بأسمائها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ②﴾

الذكْـر : له معـانٍ متـعددة ، فـالذكْر هو الإخـبار بشـىء ابتـداءً ، والحديث عن شـىء لم يكُنْ لك به سابق معـرفة ، ومنه التذكير بشـىء عرفته أولاً ، ونريد أن نُذكِّرك به ، كـما فى قوله تعالى : ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ⑤⑤﴾ [الذاريات]

ويُطلَق الذكْـر على القرآن : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⑨﴾ [الحجر] وفى القرآن أفضل الذكر ، وأصـدق الأخبار والأحداث . كما يُطلق الذكر على كل كتـاب سابق من عند الله ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ④③﴾ [النحل]

والذكْـر هو الصِّيت والرِّفْـعـة والشرف ، كـمـا فى قوله تعـالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .. (٤٤) ﴾ [الزخرف] وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. (١٠) ﴾ [الأنبياء] أى : فيه صِيتكم وشرفكم ، ومن ذلك قولنا : فلان له ذِكْر فى قومه .

ومن الذكْر ذِكْر الإنسـان لربه بالطاعة والعبادة ، وذكْـر الله لعبده بالمـثوبة والجـزاء والرحـمة ، ومن ذلـك قوله تعـالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. (١٥٢) ﴾ [البقرة]

فـقـوله تعـالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ .. (٢) ﴾ [مـريم] أى : هذا يا محمد خبر زكريا وقصته ورحمة الله به .

والرحمة : هى تجلّيات الراحم على المـرحوم بما يُديم له صلاحه لمـهمـته ، إذن : فكلُّ راحم ولو مـن البشـر ، وكلُّ مرحـوم ولو من البشر ، مـاذا يصنع ؟ يعطى غيره شيئاً مـن النصائح تُعينه على أداء مهمـته على أكمل وجه ، فما بالك إنْ كانت الرحمـة من الخالق الذى خلق الخلق ؟ وما بالك إذا كانت رحمة الله لخير خَلْقه محمد ؟

إنها رحمة عامة ورحمة شاملة ؛ لأنه ﷺ أشرف الأنبياء وأكرمهم وخاتمـهم ، فلا وَحْيَ ولا رسـالة من بعده ، ولا إكمال . إذن : فـهو أشرف الرسل الذين هم أشـرف الخَلْق ، ورحمة كل نبى تأخـذ حظها من الحق سبحانه بمقدار مهمته ، ومهمة محمد أكرم المهمات .

وكلمة (رَحْـمَة) هنا مصدر يؤدى مـعنى فعله ، فالمصـدر مثل الفعل يـحتاج إلى فـاعل ومفـعول ، كـما نقول : آلمنـى ضَرْب الرجلِ ولدَه ، فمعنى : ﴿ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) ﴾ [مريم] أى : رحم ربُّكَ عبده زكريا .

لذلك قال تعالى : ﴿ رَحْمَتِ رَبِّكَ .. ② ﴾ [مريم] لأنها أعلى أنواع الرحمة ، وإنْ كان هنا يذكر رحمته تعالى بعبده زكريا ، فقد خاطب محمداً ﷺ بقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ⑩⑦ ﴾ [الأنبياء] فرحمة الله تعالى بمحمد ليست رحمة خاصة به ، بل هى رحمة عامة لجميع العالمين ، وهذه منزلة كبيرة عالية .

فالمراد من ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ② ﴾ [مريم] يعنى هذا الذى يُتلَى عليك الآن يا محمد هو ذكْر وحديث وخبر رحمة ربك التى هى أجلُّ الرحمات بعبده زكريا . وسبق أن أوضحنا أن العبودية للخَلْق مهانة ومذلَّة ، وهى كلمة بشعة لا تُقبل ، أما العبودية لله تعالى فهى عزٌّ وشرف ، بل مُنتَهى العزّ والشرف والكرامة ، وعللنا لذلك بأن العبودية التى تسوء وتُحزن هى عبودية العبد لسيد يأخذ خيره ، أما العبودية لله تعالى فيأخذ العبد خير سيده .

لكن ، ما نوع الرحمة التى تجلى الله تعالى بها حين أخبر رسوله ﷺ بخبر عبده زكريا ؟

قالوا : لأنها رحمة تتعلق بطلاقة القدرة فى الكون ، وطلاقة القدرة فى أن الله تبارك وتعالى خلق للمسبِّبات أسباباً ، ثم قال للأسباب : أنت لست فاعلة بذاتك ، ولكن بإرادتى وقدرتى ، فإذا أردتُك ألاَّ تفعلى أبطلْتُ عملك ، وإذا كنت لا تنهضين بالخير وحدك فأنا أجعلك تنهضين به .

ومن ذلك ما حدث فى قصة خليل الله إبراهيم حين ألقاه الكفار فى النار ، ولم يكن حظ الله بإطفاء النار عن إبراهيم ، أو بجَعْل النار بَرْداً وسلاماً على إبراهيم أن يُنجى إبراهيم ؛ لأنه كان من الممكن ألاَّ يُمكّنَ خصوم إبراهيم عليه السلام من القبض عليه ، أو أن يُنزِل مطراً

يُطفىء ما أوقدوه من نار ، لكن ليست نكاية القوم فى هذا ، فلو أفلتَ إبراهيم من قبضتهم ، أو نـزل المطر فأطفأ النار لقالوا : لو كُنَّا تمكنّا منه لفعلنا به كذا وكذا ، ولو لم ينزل المطر لفعلنا به كذا وكذا .

إذن : شاءت إرادة الله أنْ تكيد هؤلاء ، وأن تُظهر لهم طلاقة القدرة الإلهية فتُمكّنهم من إبراهيم حتى يلقوه فى النار فعلاً ، ثم يأتى الأمر الأعلى من الخالق سبحانه للنار أن تتعطل فيها خاصية الإحراق : ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء]

وكذلك فى قصة رحمة الله لعبده زكريا تعطينا دليلاً على طلاقة القدرة فى مسألة الخَلْق ، وليلفتنا إلى أن الخالق سبحانه جعل للكون أسباباً ، فمَنْ أخذ بالأسباب يصل إلى المسبَّب ، ولكن إياكم أنْ تُفتَنوا فى الأسباب ؛ لأن الخالق سبحانه قد يعطيكم بالأسباب ، وقد يُلغيها نهائياً ويأتى بالمسبَّبات دون أسباب .

وقد تجلَّتْ طلاقة القدرة فى قصة بَدْء الخَلْق ، فنحن نعلم أن جمهرة الناس وتكاثرهم يتم عن طريق التزاوج بين رجل وامرأة ، إلا أن طلاقة القدرة لا تتوقف عند هذه الأسباب ، والخالق سبحانه يُدير خلقه على كُلِّ أوجه الخَلْق ، فيأتى آدم دون ذكر أو أنثى ، ويخلق حواء من ذكر دون أنثى ، ويخلق عيسى من أنثى بدون ذكر .

فالقدرة الإلهية - إذن - غير مُقيَّدة بالأسباب ، وتظلّ طلاقة القدرة هذه فى الخَلْق إلى أنْ تقومَ الساعة ، فنرى الرجل والمرأة زوجين ، لكن لا يتم بينهما الإنجاب وتتعطل فيهما الأسباب حتى لا نعتمد على الأسباب وننسى المسبِّب سبحانه ، فهو القائل :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا

وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [الشورى]

وطلاقة القدرة فى قصة زكريا عليه السلام تتجلى فى أن الله تعالى استجاب لدعاء زكريا فى أنْ يرزقَه الولد . قال تعالى : ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢)﴾ [مريم]

أى : رحمه الله ، لكن متى كانت هذه الرحمة ؟

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا (٣)﴾

أى : فى الوقت الذى نادى فيه ربه نداءً خفياً .

والنداء لَوْنٌ من ألوان الأساليب الكلامية ، والبلاغيون يقسمون الكلام إلى : خبر ، وهو أن تخبر عن شىء بكلام يحتمل الصدق أو الكذب . وإنشاء ، وهو أنْ تطلب بكلامك شيئاً ، والإنشاء قَوْلٌ لا يحتمل الصدق أو الكذب .

والنداء من الإنشاء ؛ لأنك تريد أن تنشىء شيئاً من عندك ، فلو قُلْت : يا محمد فأنت تريد أن تنشىء إقبالاً عليك ، فالنداء - إذن - طلَبُ الإقبال عليك ، لكن هل يصح أن يكون النداء مع الله تعالى بهذا المعنى ؟ إنك لا تنادى إلا البعيد عنك الذى تريد أن تستدنيه منك .

فكيف تنادى ربك - تبارك وتعالى - وهو أقرب إليك من حبل الوريد ؟ وكيف تناديه سبحانه وهو يسمعك حتى قبل أن تتكلم ؟ فإذا كان إقباله عليك موجوداً فى كل وقت ، فما الغرض من النداء هنا ؟ نقول : الغرض من النداء : الدعاء .

ووَصْف النداء هنا بأنه : ﴿ نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣ ﴾ [مريم] لأنه ليس كنداء الخَلْق للخَلْق ، يحتاج إلى رَفْع الصوت حتى يسمع ، إنه نداء الله ـ تبارك وتعالى ـ الذي يستوي عنده السر والجهر ، وهو القائل : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ[1] الصُّدُورِ ۝١٣ ﴾ [الملك]

ومن أدب الدعاء أنْ ندعوَه سبحانه كما أمرنا : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً .. ۝٥٥ ﴾ [الأعراف]

وهو سبحانه ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ﴾ [طه] أي : وما هو أخفى من السر ؛ لأنه سبحانه قبل أن يكون سراً ، علم أنه سيكون سراً .

لذلك ، جعل الحق سبحانه أحسن الدعاء الدعاء الخفي ؛ لأن الإنسان قد يدعو ربه بشيء ، إنْ سمعه غيره ربما استنقصه ، فجعل الدعاء خَفياً بين العبد وربه حتى لا يُفتضحَ أمره عند الناس .

أما الحق سبحانه فهو ستَّار يحب الستر حتى على العاصين ، وكذلك ليدعو العبد ربَّه بما يستحي أنْ يذكره أمام الناس ، وليكون طليقاً في الدعاء فيدعو ربه بما شاء ؛ لأنه ربُّه ووليه الذي يفزع إليه . وإنْ كان الناس سيحزنون ويتضجرون إن سألتهم أدنى شيء ، فإن الله تعالى يفرح بك إن سألته .

لكن لماذا أخفى زكريا دعاءه ؟

دعا زكريا ربه أنْ يرزقه الولد ، ولكن كيف يتحقق له هذا المطلب وقد بلغ من الكبر عتياً وامرأته عاقر ؟ فكأن الأسباب الموجودة جميعها مُعطَّلة عنده ؛ لذلك توجه إلى الله بالدعاء : يا رب لا ملجأ لي إلا أنت ، فأنت وحدك القادر على خَرْق الناموس والقانون ، وهذا مطلب من زكريا جاء في غير وقته .

---

(١) أي : بما يخطر في القلوب . قاله ابن كثير في تفسيره (٤/٣٩٧) .

أخفاه أيضاً ؛ لأنه طلب الولد فى وجود أبناء عمومته الذين سيحملون منهجه من بعده ، إلاّ أنه لم يأتمنهم على منهج الله ؛ لأن ظاهر حركتهم فى الحياة غير متسقة مع المنهج ، فكيف يأمنهم على منهج الله وهم غير مؤتمنين على أنفسهم ؟ فإذا دعا زكريا ربه أنْ يرزقه الولد ليرث النبوة من بعده ، فسوف يغضب هؤلاء من دعاء زكريا ويعادونه ؛ لذلك جاء دعاؤه خفياً يُسِرُّه بينه وبين ربه تعالى .

سؤال آخر تنبغى الإجابة عليه هنا : لماذا يطلب زكريا الولد فى هذه السن المتأخرة ، وبعد أن بلغ من الكبر عتياً ، وأصبحت امرأته عاقراً ؟

لقد أوضح زكريا عليه السلام العلة فى ذلك فى الآيات القادمة فقال : ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ .. ⑥﴾ [مريم]

إذن : فالعلَّة فى طلب الولد دينية مَحْضَة ، لا يطلبه لمغْنَم دنيوى ، إنما شَغفه بالولد لأنه لم يأمن القوم من بعده على منهج الله وحمايته من الإفساد .

لذلك قوله : (يرثنى) هنا لا يفهم منه ميراث المال كما يتصوره البعض ؛ لأن الأنبياء لا يورثون ، كما قال النبى ﷺ : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة »[1] وبذلك يخرج النبى من الدنيا دون أن ينتفع أحد من أقاربه بماله حتى الفقراء منهم .

فالمسألة مع الأنبياء خالصة كلها لوجه الله تعالى ؛ لذلك قال بعدها : ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ .. ⑥﴾ [مريم] أى : النبوة التى

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٥٨) ، والبخارى فى صحيحه (٣٠٩٢) بنحوه عن عائشة رضى الله عنها . ولفظ مسلم : إن أزواج النبى ﷺ حين توفى ﷺ أردن أن يبعثن عثمان بن عفان إلى أبى بكر ، فيسألنه ميراثهن من النبى ﷺ قالت عائشة لهن : أليس قد قال رسول الله ﷺ « لا نورث ما تركنا فهو صدقة».

تناقلوها . فلا يستقيم هنا أبداً أن نفهم الميراث على أنه ميراث المال أو متاع الدنيا الفانى .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [النمل] ففى أىِّ شىء ورثه ؟ أورثه فى تركته ؟ إذن : فما موقف إخوته الباقين ؟ لابد أنه ورثه فى النبوة والملك ، فالمسألة بعيدة كل البعد عن الميراث المادى[1] .

ثم يقول الحق سبحانه أن زكريا عليه السلام قال :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ ﴾

هذا هو النداء ، أو الدعاء الذى دعا به زكريا عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .. ﴿٤﴾ ﴾ [مريم] ويرد فى الدعاء أن نقول : يارب . أو نقول : يا الله ، فقال زكريا (رب) أى : يا رب ؛ لأنه يدعو بأمر يتعلق بعطاء الربوبية الذى يشمل المؤمن والكافر ، إنه يطلب الولد ، وهذا أمر يتعلق ببنية الحياة وصلاحها للإنجاب ، وهذه من عطاء الرب سبحانه وتعالى ، وإن كانت العلة فى طلب الولد إلهية ، وهى أنْ يحمل المنهج من بعد أبيه .

فكأن زكريا عليه السلام دعا ربه : يا ربِّ يا مَنْ تعطى مَنْ آمن بك ، وتعطى مَنْ كفر ، يا مَنْ تعطى مَنْ أطاع ، وتعطى مَنْ عصى ، حاشاك أن تمنع عطاءك عمَّن أطاعك ويدعو الناس إلى طاعتك .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٢٥٢/٦) : « للعلماء فيه ثلاثة أجوبة : قيل : هى وراثة نبوة . وقيل : هى وراثة حكمة . وقيل : هى وراثة مال . أما قولهم وراثة نبوة فمحال ، لأن النبوة لا تورث . ووراثة العلم والحكمة مذهب حسن » . وقال ابن كثير فى تفسيره (١١١/٣) : « اختار ابن جرير فى تفسيره قول أبى صالح : يرث مالى ويرث من آل يعقوب النبوة » بتصرف .

أما الدعاء بالله ففى أمور العبادة والتكليف .

ثم يُقدِّم زكريا عليه السلام حيثيات هذا المطلب : ﴿رَبِّ إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى .. ④﴾ [مريم] والوَهَن هو الضعف ، وقال : ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ.. ④﴾ [مريم] لأن لكل شيء قواماً فى الصلابة والقوة ، فمثلاً الماء له قوام معروف والدُّهْن له قوام ، واللحم له قوام ، والعصب والعظم وكل عناصر تكوين الإنسان ، والعَظْم هو أقوى هذه الأشياء ، والعَظْم فى بناء الجسم البشرى مثل (الشاسيه) فى لغة العصر الحديث ، وعلى العظم يبنى جسم الإنسان من لحم ودم وعصب ، فإذا أصاب العظام - وهى أقوى العناصر - ضعفٌ ووهنٌ فغيرها من باب أَوْلى .

لذلك ، فإن الرجل العربى حينما شكا الجدب والقحط ماذا قال ؟ قال : مرَّتْ بنا سنون صعبة : فَسنة أذابتْ الشحم - أى : بعد الجوع وعدم الطعام - وسنة أذهبت اللحم - أى : بعد أن أنهت الشحم - وسنة محَّت العظم .

فكأن العَظْم هو آخر مخزن من مخازن القوت فى جسم الإنسان ساعة أن ينقطع عنه الطعام والشراب . والعظم فى هذه الحالة يُوجِّه غذاءه للمخ خاصة ؛ لأنه ما دام فى المخ بقية قبول حياة فما حدث للجسم من تلف قابل للإصلاح والعودة إلى طبيعته ، إذن : فسلامة الإنسان مرتبطة بسلامة المخ .

لذلك نجد الأطباء فى الحالات الحرجة يُركِّزون اهتمامهم على سلامة المخ ، ويرتبون عليه حياة الإنسان أو موته ، حتى إن توقف القلب فيمكنهم بالتدليك إعادته إلى حالته الطبيعية ، أما إنْ توقف المخ فهذا يعنى الموت .

فكأن نبى الله زكريا ـ عليه السلام ـ يقول : يارب ضعف عظمى ، ولم يَعُدْ لدىَّ إلا المصدر الأخير لاستبقاء الحياة .

ولما كان العظم شيئاً باطناً مدفوناً تحت الجلد ، فهو حيثية باطنة ، فأراد زكريا عليه السلام أنْ يأتىَ بحيثية أخرى ظاهرة بينة ، فأتى بأمر واضح : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا .. ④ ﴾ [مريم] فشبَّه انتشار الشيب فى رأسه باشتعال النار ، فالشعر الأبيض الذى يعلوه واضح كالنار .

والمتأمل فى هذا التشبيه يجد أن النار أيضاً تتغذى على الحطب وتظل مشتعلة لها لهب يعلو طالما فى الحطب الحيوية النباتية التى تمد النار ، فإذا ما انتهتْ هذه الحيوية النباتية فى الحطب أخذت النار فى التضاؤل ، حتى تصير جَذْوة لا لَهبَ لها ثم تنطفىء .

واشتعال الرأس بالشيب أيضاً دليل على ضعف الجسم ووَهَن قُوته ؛ لأن الشعر يكتسب لونه من مادة مُلوِّنة سوداء أو حمراء أو صفراء توجد فى بُصَيْلة الشعرة ، وتُمد الشعرة بهذا اللون ، وضعْفُ الجسم يُضعف هذه المادة تدريجياً ، حتى تختفى ، وبالتالى تخرج الشعرة بيضاء ، والبياض ليس لوناً ، إنما البياض عدم اللون نتيجة ضَعْف الجسم وضَعْف الغُدَد التى تفرز هذا اللون .

لذلك ، نجد المترفين الذين يعنون كثيراً بشعرهم ويضعُون عليه المواد المختلفة أول ما يظهر الشيب عندهم تبيض سوالفهم ؛ لأن السوالف عادة بعد أنْ يُهذِّبها الحلاق تأخذ أكبر قدر من المواد الكاوية التى تؤثر على بُصيْلات الشعر وعلى هذه المادة الملونة ، والشعرة مثل الأنبوبة يسهل توصيل هذه المواد منها خاصة بعد الحلاقة مباشرة وما تزال الشعرة مفتوحة .

ثم يقول : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ④ ﴾ [مريم] أى : لم أكُنْ فيما مضى بسبب دعائى لك شقياً ؛ لأنى مُستجَابُ الدعوة عندك ، فكما أكرمتنى سابقاً بالإجابة فلم أكُنْ شقياً بدعائك ، بل كنتُ سعيداً بالإجابة ، فلا تُخلف عادتك معى هذه المرة ، واجعلنى سعيداً بأنْ تُجيبنى ، خاصة وأن طلبى منك طاعة لك ، فأنا لا أريد أنْ أخرج من الدنيا إلاَّ وأنا مطمئن على مَنْ يحمل المنهج ، ويقوم بهذه المهمة من بعدى .

وأنت قد تدعو الله لأمر تحبه ، فإذا لم يأت ما تحبه ولم تجب حزنت وكأنك شقيت بدعائك ، وقد يكون شقاءَ كذب ؛ لأنك لا تدرى الحكمة من المنع وعدم الإجابة ، لا تدرى أن الله تعالى يتحكم فى تصرفاتك .

وربما دعوْت بأمر تراه الخير من وجهة نظرك وفى علم الله أنه لا خَيْرَ لك فيه ، فمنعه عنك وعدَّل لك ما أخطأتَ فيه من تقدير الخير ، فأعطاك ربك من حيث ترى أنه منعك ، وأحسن إليك من حيث ترى أنه حرمك ، لأنك طلبتَ الخير من حيث تعلم أنت أنه خير ومنع الله من حيث يعلم أن الخير ليس فى ذلك .

ثم يذكر زكريا عليه السلام علِّة أخرى هى علة العِلَل ولُبّ هذه المسألة ، فيقول :

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَاءِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ⑤ ﴾

(الموالى) من الولاء ، وهم أقاربه من أبناء عمومته ، فهم الجيل الثانى الذى سيأتى بعده ، ويخاف أنْ يحملوا المنهج ودين الله من

بعده ؛ لأنه رأى من سلوكياتهم فى الحياة عدم أهليتهم لحمْل هذه المهمة .

﴿مِن وَرَائِي .. ۝٥﴾ [مريم] سبق أن أوضحنا فى سورة (الكهف) أن كلمة وراء تأتى بمعنى : خلف ، أو أمام ، أو بعد ، أو غير . وهنا جاءت بمعنى : من بعدى .

ثم يقول : ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا .. ۝٥﴾ [مريم] والعاقر هى التى لا تلد بطبيعتها بداية ، أو صارت عاقراً بسبب بلوغها سنَّ اليأس مثلاً . ونحن نعلم أن التكاثر والإنجاب فى الجنس البشرى ينشأ من رجل وامرأة ، وقد سبق أنْ وصفَ زكريا حاله من الضعف والكبر ، ثم يخبر عن زوجته بأنها عاقرٌ لا تلد ، إذن : فأسباب الإنجاب جميعها مُعطَّلة .

وقوله : ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا .. ۝٥﴾ [مريم] أى : هى بطبيعتها عاقر ، وهذا أمر مصاحب لها ليس طارئاً عليها ، فلم يسبق لها الإنجاب قبل ذلك .

ثم يقول : ﴿فَهَبْ لِي .. ۝٥﴾ [مريم] والهِبَة هى العطاء بلا مقابل ، فالأسباب هنا مُعطَّلة ، والمقدمات تقول : لا يوجد إنجاب ؛ لذلك لم يقُلْ مثلاً : أعطنى ؛ لأن العطاء قد يكون عن مقابل ، أما فى هذه الحالة فالعطاء بلا مقابل وبلا مقدمات ، فكأنه قال : يارب إنْ كنتَ ستعطينى الولد فهو هبَة منك لا أملك أسبابها ؛ لذلك قال فى آية أخرى عن إبراهيم عليه السلام : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ[1] إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ .. ۝٣٩﴾ [إبراهيم]

---

(١) كان عُمر إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين بُشِّر بإسماعيل وإسحاق (١١٧) عاماً . قاله سعيد ابن جبير فيما نقله السيوطى فى الدر المنثور (٥/٤٩) .

ولنا وَقْفة ومَلْحظ فى قوله تعالى ﴿عَلَى الْكِبَرِ .. (٣٩)﴾ [إبراهيم] حيث قال المفسرون : (على) هنا بمعنى (مع) و (على) ثلاثة أحرف و (مع) حرفان ، فلماذا عدل الحق تبارك وتعالى عن الخفيف إلى الثقيل ؟ لا بد أن وراء هذا اللفظ إضافةً جديدة ، وهى أن (مع) تفيد المعية فقط ، أما (على) فتفيد المعية والاستعلاء ، فكأنه قال : إن الكِبَر يا رب يقتضى ألاَّ يوجد الولد ، لكن طلاقة قدرتك أعلى من الكِبَر .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. (٦)﴾ [الرعد] كأن الظلم يقتضى أن يُعاقبوا ، لكن رحمة الله بهم ومغفرته لهم علَتْ على استحقاق العقاب .

وقوله : ﴿مِن لَّدُنكَ .. (٥)﴾ [مريم] أى : من عندك أنت لا بالأسباب (وَلِياً) أى : ولداً صالحاً يلينى فى حَمْل أمانة تبليغ منهجك إلى الناس لِتسلَم لهم حركة الحياة .

ثم يقول :

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)﴾

سبق أن أوضحنا أن الميراث هنا لا يُراد به ميراث المال ؛ لأن الأنبياء لا يورثون ، وما تركوه من مال فهو صدقة من بعدهم ، إنما المراد هنا ميراث العلم والنبوة والملْك ، وحَمْل منهج الله إلى الناس ، ونلحظ أنه لم يكتَفِ بقوله (يَرِثُنى) بل قال : ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ .. (٦)﴾ [مريم] فلستُ أنا القِمَةَ فى الطاعة فى آل يعقوب ، فهناك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وهذا تواضع منه ومراعاة لأقدار الرجال وإنزالهم منازلهم .

وقوله : ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ [مريم] أى : مرضياً عنه منك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ ﴾

المتأمل لهذه القصة يجد هذه الآية قد اختصرت من القصة ما يفهم من سياقها ثقةٌ فى نباهة السامع ، وأنه قادر على إكمال المعنى ، فكأن معنى الآية : سمع الله دعاء زكريا وحيثيات طلبه ، فأجابه بقوله : ﴿ يَٰزَكَرِيَّا .. ﴿٧﴾ ﴾ [مريم]

وتوجيه الكلام إلى زكريا عليه السلام هكذا مباشرة دليلٌ على سرعة الاستجابة لدعائه ، فجاءت الإجابة مباشرة دون مُقدِّمات .

ومثال ذلك : ما حكاه القرآن من قصة سليمان ـ عليه السلام ـ وبلقيس ، قال سليمان : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ[1] فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل]

فبيْنَ قوله : ﴿ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل] وقوله : ﴿ رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل] كلام يقتضيه سياق القصة ، كأن نقول : فأذن له فذهب وأتى بالعرش ، لكن جاء الأسلوب سريعاً

(١) الطرْف : جانب العين ، ويطلق على العين وعلى البصر . وقوله تعالى : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل] . أى : بصرك ، أى : مقدار غمضة العين وفتحها . [القاموس القويم ١/ ٤٠٠] .

ليتناسب مع سرعة الحدث فى إحضار عرش بلقيس من مكانه .

وقوله : ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ .. ﴿٧﴾﴾ [مريم] البشارة : هى الإخبار بما يسرُّك قبل أن يجيء ليستطيل أمدَ الفرح بالشيء السَّار ، وقد يُبشرك مُساويك ويكذب في البُشْرى ، وقد تأتى الظروف والأحداث مُخالفة لما يظنه ، فكيف بك إذا بشّرك الله تعالى ؟ ساعة أن تكون البشارة من الله فاعلم أنها حَقٌّ وواقعٌ لا شكَّ فيه .

وقوله : ﴿بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ .. ﴿٧﴾﴾ [مريم] أي : وسماه أيضاً . ونحن نعلم أن للبشر اختيارات فى وَضْع الأسماء للمسميات ، ولهم الحرية فى ذلك ، فواحدة تُسمى ولدها (حرنكش) هى حرة ، والأخرى تسمى ابنتها الزنجية (قمر) هى أيضاً حرة .

إلا أن الناس حين يُسمُّون يتمنون فى المسمّى مواصفات تَسرُّ النفس وتقرُّ العين ، فحين نُسمِّى سعيداً تفاؤلاً بأن يكون سعيداً فعلاً ، والاسم وُضِع للدلالة على المسمى ، لكن ، أيملك هذا المتفائل أن يأتى المسمىَ على وَفْق ما يحب ويتمنى ؟ لا ، لا يملك ذلك ولا يضمنه ؛ لأن هناك قوة أعلى منه تتحكم فى هذه المسألة ، وقد يأتى المسمَّى على غير مُراده .

أما إذا كان الذى سمّى هو الله تعالى فلابد أن يتحقق الاسم فى المسمَّى ، وينطبق عليه ، ولابُدَّ أنْ يتحقَّق مراده تعالى فى مَنْ سَمَّاه ، وقد سَمَّى الحق تبارك وتعالى ابن زكريا يحى فلا بُدَّ أن تنطبق عليه هذه الصفة ، ويحيى فعل ضده يموت ، إذن : فهو سبحانه القادر على أن يُحييه ، لكن يحييه إلى متى ؟ وكم عاماً ؟ الحياة هنا والعيش يتحقق ولو بمتوسط الأعمار مثلاً ، فقد أحياه وتحققت فيه صفة الحياة .

ولذلك استدل أهل المعرفة من تسميته يحيى على أن ابن زكريا سيموت شهيداً ليظل حياً كما سماه الله وقد كان .

وقوله : ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ⑦﴾ [مريم] السميُّ : اختلف العلماء في معناها فقالوا : تأتي بمعنى : نظير أو مثيل أو شبيه وإما سمياً يعني : اسمه كاسمه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ⑥٥﴾ [مريم] فقالوا : سمياً هنا تحمل المعنيين : هل تعلم له نظيراً أو شبيهاً ؛ لأنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ⑪﴾ [الشورى] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ④﴾ [الإخلاص]

ويمكن أن نقول بهذا المعنى أيضاً في قصة يحيى عليه السلام ، إلا أنه يقع فيه شيء وهو : أن الله تعالى حينما قال في مسألة يحيى : ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ⑦﴾ [مريم] واعتبرناها بمعنى المثْل أو النظير والشبيه ، فهذا يعني أنه لم يسبق يحيى واحد مثله في الصلاح والتقوى ، فأين - إذن - أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام ؟ وأين إسماعيل وإسحق ؟

فهذا المعنى وإن كان السياق يحتمله في غير هذا الموضع إلا أنه لا يستقيم هنا ؛ لأن الله تعالى جعل من قَبْل يحيى مَنْ هو أفضل من يحيى ، أو مثله على الأقل .

أما المعنى الآخر فيكون : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ⑥٥﴾ [مريم] أي : هل هناك مَنْ تسمى باسمه تعالى ؟ وهذا هو المعنى الذي يستقيم في قصة يحيى عليه السلام ؛ لأنه أول اسم وضعه الحق سبحانه على ابن زكريا ، ولم يكن أحدٌ تسمى به من قبل ، أما بعده فقد انتشر هذا الاسم ، حتى قال الشاعر :

وسَمَّيتُه يَحْيى ليحيى فلم يكُنْ لِـردِّ قَضَاءِ الله فيه سَبيلُ

ونقف هنا على آية من آيات الله فى التسمية ، حيث لم يجرؤ أحد حتى من الكفرة والملاحدة الذين يجاهرون بإلحادهم ويعلنون إنكارهم للخالق سبحانه ، لم يجرؤ أحدهم أن يسمى ولده (الله) ، وحرية اختيار الأسماء مكفولة ، وهذا إنْ دَلَّ فإنما يدلُّ على أن كفرهم عناد ولَجَجٌ ، وأنهم غير صادقين فى كُفْرهم ، ويعلمون أن الله موجود ؛ لذلك يخافون على أنفسهم وعلى أولادهم أنْ يُسمّوا بهذا الاسم .

إذن : كلمة (سَمِياً) فى مسألة الألوهية تُؤخَذ على المعنيين ، أما فى مسألة يحيى فلا تحتمل إلا المعنى الثانى .

وَهبْ أن الحق سبحانه وتعالى استعرض الأسماء السابقة فلم يجد فى الماضى من سُمِّى (الله) فأعلنها تحدياً : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم] ؟ فلم يحدث بعد هذا التحدى أنْ يُسمَّى أحد بهذا الاسم .

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾

لما سمع زكريا عليه السلام البشارة من ربه ، واطمأن إلى حصولها أغراه ذلك فى أنْ يوُغل فى معرفة الوسيلة ، وكيف سيتم ذلك ، وتتحقق هذه البشارة حالَ كوْنه قد بلغ من الكبر عتياً وامرأته عاقر ؟

لكن ماذا يقصد زكريا من سؤاله ، وهو يعلم تماماً أن الله تعالى عالم بحاله وحال زوجه ؟ الواقع أن زكريا عليه السلام لا يستنكر حدوث هذه البشرى ، ولا يستدرك على الله ، وحاشاه أنْ يقصد ذلك ،

وإنما أطمعته البُشْرى فى أنْ يعرف الكيفية ، كما حدث فى قصة موسى ـ عليه السلام ـ حينما كلَّمه ربه واختاره ، وأفرده بهذه الميزة فأغراه الكلام فى أنْ يطلب الرؤيا ، فقال : ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ .. (١٤٣)﴾ [الأعراف]

وكما حدث فى قصة ـ إبراهيم عليه السلام ـ لما قال لربه : ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ .. (٢٦٠)﴾ [البقرة] وأبو الأنبياء لا يشكّ فى قدرة الله تعالى على إحياء الموتى ، ولكنه يريد أنْ يعرف هذه الطريقة العجيبة ، فالكلام ليس فى الحقيقة وجوداً وعدماً ، إنما فى كيفية وجود الحقيقة ، والكلام فى الكيفية لا دخْلَ له بالوجود .

فأخبره الحق سبحانه أن هذه المسألة لا تُقال إنما تُباشَر عملياً ، فأمره بما نعلم من هذه القصة : وهو أن يحضر أربعة من الطير بنفسه ، ثم يضمهنّ إليه ليتأكد بنفسه من حقيقتها ، ثم أمره أنْ يُقطِّعهن أجزاء ، ثم يُفرِّق هذه الأجزاء على قمم الجبال ، ثم بعد ذلك ترك له الخالق سبحانه أنْ يدْعُوَهُن بنفسه ، وأن يصدر الأمر منه فتتجمع هذه القطع المبعثرة وتدبّ فيها الحياة من جديد ، وهذا من مظاهر عظمته سبحانه وتعالى أنه لم يفعل ، بل جعل مَنْ لا يستطيع ذلك يفعله . ويقدر عليه[(١)] .

فإنْ كان البشر يُعَدُّون أثر قدرتهم إلى الضعفاء ، فمَنْ لا يقدر على حَمْل شىء يأتى بمَنْ يحمله له ، ومَنْ يعجز عن عمل شىء يأتى بمَنْ يقوم به ، ويظل هو ضعيفاً لا يقدر على شىء ، أما الحق سبحانه وتعالى فيُعدِّى قوته بنفسه إلى الضعيف فيصير قوياً قادراً على الفعل .

---

(١) يقول تعالى فى هذا لإبراهيم : ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾ [البقرة] .

فقوله : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ .. ⑧﴾ [مريم] ؟ سؤال عن الكيفية ، كما أن إبراهيم عليه السلام لما قال له ربه : ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن .. ٢٦٠﴾ [البقرة] ؟ أى : بقدرتى على إحياء الموتى ، قال (بلَى) أى : نعم أومن ﴿وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي .. ٢٦٠﴾ [البقرة] أى : إلى الكيفية التى يتم بها الإحياء .

أو : أن زكريا عليه السلام بقوله : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ .. ⑧﴾ [مريم] يريد أن يُوثِّق هذه البشرى ويُسجِّلها ، كما تَعد ولدك بأنْ تشترى له هدية فيُلِح عليك فى هذه المسألة ليؤكد وَعْدك له ، ويستلذ بأنه وَعْد مُحقَّق لا شكَّ فيه ، ثم يذكر زكريا حيثيات تعجُّبه من هذا الأمر فيقول :

﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ⑧﴾ [مريم]

عتياً : من عتَا يعنى طغى وتجبر وأفسد كثيراً ، والعُتُو : الكفر ، والعَتىّ : هو القوى الذى لا يُغالب ؛ لذلك وصف الكبَر الذى هو رمز للضعف بأنه عَتِىّ ؛ لأن ضعف الشيب والشيخوخة ضَعْف لا يقدر أحد على مقاومته ، أو دفعه أبداً ، مهما احتال عليه بالأدوية والعقاقير (والفيتامينات) .

ويبدو أن مسألة الولد هذه كانت تشغل زكريا عليه السلام ، وتُلح عليه ؛ لأنه دعا الله كثيراً أنْ يرزقه الولد ، ففى موضع آخر يقول : ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ٨٩﴾ [الأنبياء] . فزكريا عليه السلام يريد الولد الذى يَرِثه وهو موروث ؛ لأن الله تعالى خير الوارثين .

لكن يأتى الرد : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا[1] لَهُ زَوْجَهُ.. (٩٠) ﴾ [الانبياء]. ونلاحظ أنه تعالى قبل أن يقول : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ .. (٩٠) ﴾ [الانبياء] التى ستنجب هذا الولد ، قال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ .. (٩٠) ﴾ [الانبياء] فصلاح الزوجة ليس شرطاً فى تحقُّق هذه البشرى وحدوث هذه الهبة .

وهنا مظهر من مظاهر طلاقة القدرة الإلهية التى لا يُعجزها شىء ، فهو سبحانه قادر على إصلاح هذه الزوجة العاقر ، فالصنعة الإلهية لا تقف عند حَدٍّ ، كما لو تعطَّل عندك أحد الأجهزة مثلاً فذهبتَ به إلى الكهربائى لإصلاحه فوجد التلفَ به كبيراً ، فينصحك بتركْه وشراء آخر جديد ، فلا حيلةَ فى إصلاحه .

لذلك أصلح الله تعالى لزكريا زوجه حتى لا نظنَّ أن يحيى جاء بطريقة أخرى ، والزوجة ما تزال على حالها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا (٩) ﴾

(قَالَ) أى : الحقّ تبارك وتعالى ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ .. (٩) ﴾ [مريم] أى : أنه تعالى قال ذلك وقضى به ، فلا تناقش فى هذه المسألة ، فنحن أعلَم بك وما أنتَ فيه من كِبَر ، وأن زوجتك عاقر ، ومع ذلك سأهبك الولد .

---

(١) قال قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين : إنها كانت عاقراً فجُعلت ولوداً . وقال ابن عباس وعطاء : كانت سيئة الخلق ، طويلة اللسان ، فأصلحها الله فجعلها حسنة الخلق . قال القرطبى : ويحتمل أن تكون جمعت المعنيين فجعلت حسنة الخلق ولوداً . (تفسير القرطبى ٤٥١٦/٦) . وقال ابن كثير فى تفسيره (١٩٣/٣) : « والأظهر من السياق الأول » .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ .. ⑨ ﴾ [مريم] وفى آية أخرى يقول فى آية البعث : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. ㉗ ﴾ [الروم] فلا تظن أن الأمر بالنسبة لله تعالى فيه شىء هَيِّن وشىء أهْوَن ، وشىء شاقّ ، فالمراد بهذه الألفاظ تقريب المعنى إلى أذهاننا .

والحق سبحانه يخاطبنا على كلامنا نحن وعلى منطقنا ، فالخَلْق من موجود أهون فى نظرنا من الخلق من غير موجود ، كما قال الحق سبحانه تعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ[1] مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ⑮ ﴾ [ق]

إذن : فمسألة الإيجاد بالنسبة له تعالى ليس فيها سَهْل وأسْهَل أو صَعْب وأصعب ، لأن هذه تُقال لمَنْ يعمل الأعمال علاجاً ، ويُزاولها مُزَاولة ، وهذا فى أعمالنا نحن البشر ، أما الحق تبارك وتعالى فإنه لا يعالج الأفعال ، بل يقول للشىء كُنْ فيكون : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ㉒ ﴾ [يس]

ثم يُدلّل الحق سبحانه وتعالى بالأقْوى ، فيقول : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ⑨ ﴾ [مريم] فلأنْ يوجد يحيى من شىء أقلّ غرابة من أن أوجد من لا شىء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ⑩ ﴾

(١) فى لبس . أى : فى شك ، ولبس الشىء : خلطه وعمّاه وأبهمه وجعله مُشْكلاً مُحيّراً . [القاموس القويم ٢/١٨٨] .

(آية) أى : علامة على أن امرأته قد حملتْ فى يحيى ، وكأن زكريا عليه السلام يتعجل الأمور ولا صبرَ له طوال تسعة أشهر ، بل يريد أن يعيش فى ظلِّ هذه النعمة ، وكأنها واقع لا ينفكّ لسانه حامداً شاكراً عليها ، وتظل النعمة فى باله رغم أن ولده ما يزال جنيناً فى بطن أمه .

فيجيبه ربه : ﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ⑩﴾ [مريم] علامتك ألاَّ تُكلِّم الناس ثلاث ليال و (ألاَّ) ليست للنهى عن الكلام ، بل هى إخبار عن حالة ستحدث له دون إرادته ، فلا يكلم الناس مع سلامة جوارحه ودون علَّة تمنعه من الكلام ، كخرس أو غيره .

لذلك قال : ﴿ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ⑩﴾ [مريم] أى : سليماً مُعافَىً ، سوىّ التكوين ، لا نقص فيك ، ولا قصور فى جارحة من جوارحك . وهكذا لا يكون عدم الكلام عَيْباً ، بل آية من آيات الله .

وهناك فَرْق بين أمر كونىٍّ وأمر شرعى ، الأمر الكونىٌّ هو ما يكون وليس لك فيه اختيار فى ألاَّ يكون ، والأمر الشرعىّ ما لك فيه اختيار من الممكن أن تطيعه فتكون طائعاً ، أو تعصيه فتكون عاصياً .

وهذا الذى حدث لزكريا أمر كونى ، وآية من الله لا اختيار له فيها ، وكأن الحق سبحانه يعطينا الدليل على أنه يوجد مِنْ لا مظنّة اسباب ، وقد يبقى الأسباب سليمة صالحة ولا يظهر المسبَّب ، فاللسان هنا موجود ، وآلات النطق سليمة ، ولكنه لا يقدر على الكلام .

فتأمّل طلاقة القدرة ، فقد شاء سبحانه لزكريا الولد بغير أسباب ، وهنا منع مع وجود الأسباب ، فكلا الآيتين سواء فى قدرته تعالى ومشيئته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾

إذن : حدثتْ هذه المسألة لزكريا وهو فى (المحرَاب) أى : مكان العبادة والصلاة ، وعادةً ما يكون مرتفعاً على شرف عما حوله ، وكان مصلى الأنبياء والصالحين ، وسُمى محراباً لأنه يحارب فيه الشيطان بكيْده ووسوسته . وقد ذُكر المحراب أيضاً فى قصة داود عليه السلام : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ ﴾ [ص]

وقد وردتْ هذه اللقطة من قصة زكريا عليه السلام فى آية أخرى دلَّتْ أيضاً على أن البشارة بيحيى كانت وهو فى محرابه ، حيث قال تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ .. ﴿١١﴾ ﴾ [مريم] قلنا : إن الوَحْى له معنى لُغَوىّ ومعنى شرعى ، الوحى لُغةً : الإخبار بطريق خفىٍّ . وعلى هذا المعنى يأتى الوحى بطرق متعددة ، فالله تعالى يُوحى للرسل والأنبياء ، ويُوحى لغير الرسل من المصطفين ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [القصص] أى : أخبرها بطريق خفىٍّ ، هو طريق الإلهام .

ويُوحى إلى الملائكة : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنفال]

ويُوحى للصالحين من أتباع الرسل : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي .. ﴿١١١﴾ ﴾ [المائدة]

ويتعدَّى الإعلام بخفاء إلى الحشرات : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [النحل]

بل يتعدَّى الوحي إلى الجماد في قوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾ [الزلزلة]

وقد يُوحي الشياطين بعضهم إلى بعض : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا .. ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام]

ويُوحون إلى أوليائهم : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام] لأن الشيطان لا يأتى الإنسان إلا بطريق خفيٍّ ، ووسوسة فى خواطره .

أما الوحى الشرعى فهو إعلام من الله وحده إلى نبى يدَّعى النبوة ومعه معجزة . إذن فالوحى : إعلام خفىّ من الله للرسول .

فقوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ .. ﴿١١﴾ ﴾ [مريم] أى : قال لهم بطريق الإشارة ؛ لأنه لا يتكلم ﴿ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾ [مريم] بُكرة : أول النهار ، وعَشياً : آخره ، يعنى : طوِّقوا النهار بالتسبيح بداية ونهاية . وكأن زكريا عليه السلام قد بدتْ عليه علامات الفرح

والانبساط بالبُشْرى ، ورأى أن شُكْره لله وتسبيحه لا ينهض بهذه النعمة ، فأمر قومه أنْ يُسبِّحوا الله معه ، ويشكروه معه على هذه النعمة ؛ لأنها لا تخصُّه وحده ، بل هى عامة لكل القوم .

ثم يقول تعالى :

﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ(١) صَبِيًّا ﴿١٢﴾ ﴾

نلحظ أن الآية الكريمة انتقلتْ بنا نَقْلة واسعة ، وطوَتْ فترة طويلة من حياة يحيىَ ـ عليه السلام ـ فقد كان السياق يتحدث عنه وهو بُشْرى لوالده ، وهو ما يزال فى بطن أمه جنيناً ، وفجأة يخاطبه وكأنه أصبح أمراً واقعاً : ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ .. ﴿١٢﴾﴾ [مريم] فقد بلغ مبلغ النُّضْج ، وأصبح أهْلاً لحمْل مهمة الدعوة ، إذن : المسألة مأخوذة مأخَذ الجدِّ ، وهى حقيقة واقعة .

وقوله : ﴿خُذِ الْكِتَابَ .. ﴿١٢﴾﴾ [مريم] أى : التوراة ، وفيها منهج الله الذى يُنظِّم لهم حركة حياتهم ﴿بِقُوَّةٍ .. ﴿١٢﴾﴾ [مريم] أى : بإخلاص فى حِفْظه وحِرْص على العمل به ؛ لأن العلم السماوى والمنهج الإلهى الذى جاءكم فى التوراة ليس المراد أن تعلمه فقط بل وتعمل به .

وإلا فقد قال تعالى فى بنى إسرائيل : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ

(١) الحكم : الأحكام والمعرفة بها . قال مجاهد : الفهم . وقال معمر بن راشد : بلغنى أن الصبيان قالوا ليحى بن زكريا : اذهب بنا نلعب ، قال : ما للعب خلقت . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥/٤٨٥] .

ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا .. ۝ ﴾ [الجمعة] فقد حمَّلهم الله التوراة ، فلم يحملوها ولم يعملوا بها .

والقوة : هى الطاقة الفاعلة التى تدير دولاب الحياة حركةً وسكوناً ، وخُذْ مثلاً سفينة الفضاء التى تنطلق إلى الفضاء الخارجى ، وتظل تدور فيه عدة سنوات وتتساءل : من أين لها بالوقود الذى يُحرِّكها طوال هذه المدة ؟ والحقيقة أنها لا تحتاج إلى وقود إلا بمقدار ما يُخرِجها من مدار الجاذبية الأرضية ، فإذا ما خرجت من نطاق الجاذبية وهى متحركة تظل متحركة ولا تتوقف إلا بقوة توقفها ، وكذلك الساكن يظل ساكناً إلى أنْ تأتىَ قوة تحركه .

إذن : القوة إمّا أنْ تُحرِّك الساكن أو تُسكِّن المتحرك وتصده ، ومن ذلك ما نراه فى السكك الحديدية من مصدَّات تُوقف القطارات ؛ لأنك إنْ أردتَ أن توقف القطار تمنع عنه الوقود ، لكن يظل به قوة دفع تحركه تحتاج إلى قوة معاكسة توقفه ، وهذا ما يسمونه قانون العطالة . يعنى : إن كان الشىء متحركاً فيحتاج إلى قوة توقفه ، وإن كان ساكناً يحتاج إلى قوة تحركه .

ومن ذلك قانون القصور الذاتى الذى تعلمناه فى المدارس ، وتلاحظه إذا تحركتْ بك السيارة تجد أن جسمك يندفع للخلف ؛ لأنها تحركتْ للأمام وأنت ساكن ، فإنْ توقفتْ السيارة تحرَّك جسمك للأمام لأنها توقفت وأنت متحرك . إذن : هذه الأشياء التى تتحرك فى الكون أو الساكنة نتيجة قوة .

فقوله تعالى : ﴿ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ .. ۝ ﴾ [مريم] لأن الكتاب فيه

أوامر وفيه نَوَاه ، يأمــر بالخير وينهاك عن الشر ، فــإنْ أمركَ بالخير وأنت لا تفـعله تحتاج إلـى قوة دَفْع تدفعـك إلى الخير ، وكـأنك كنتَ ساكناً تحتاج إلى قوة تحـركك ، وإنْ نهاك عن الشر وأنت تفعله فأنت فى حاجة إلى قوة تمنعك وتوقف حركتك فى الشر . والمنهج هو هذه القوة التى تُحـرِّكك إلى الخير وأنت ســاكن ، وتُسكنك عن الشر وأنت متحرك .

ثم يقول تـعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ ﴾ [مريم] الحكم : العلم والفــهم للتوراة ، أو الطاعــة والعبــادة ، ﴿ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ ﴾ [مريم] فى سنٍّ مبكرة[1] ؛ لأن المســألة عطاء من الله لا يخضع للأســباب ، فجـاء يحيى عليه السلام مُبكِّر النضج والذكاء ، يفوق أقرانه ، ويسبق زمانه ، وقد أُثِر عنه وهو صغير أنْ دعاه أقرانه للعب فقال لهم : « ما للعب خُلقْنا »[2] .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ ﴾

ولأن يحيى جاء إلى الدنيا حـال كِبَر وضعف والديه ، وهو كطفل يحـتـاج مَنْ يشـملـه بالعطف والحنان ، ويُعـوِّضــه حنــان الوالدين ، ويحتاج إلى مَنْ يُعلِّمه ويُربِّيه ؛ لذلـك تولَّى الحق سبحانه وتعالى هذه المهـمة ، فهـو سبحـانه خالقــه ومُسمِّـيه ومُتـولِّيه فوهبـه حناناً منه

(١) قال قـتادة ومقاتل : وهـو ابن ثلاث سنين . [الدر المنثور ٥/٤٨٤] وعزاه لعـبد الله بن أحـمـد بن حنبل فى زوائد الـزهد وابن أبى حـاتم . وأورد حـديثاً عن ابن عـبـاس عـزاه لأبى نعيم وابن مـردويه والديلمى أن رسول الله ﷺ قال : « أعطى الفهم والعـبادة وهو ابن سبع سنين » .

(٢) أخرجه الحاكم فى تاريخه عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : « قال الغلمان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب . فقال يحيى : ما للعب خلقنا . اذهبوا نصلى » . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥/٤٨٥] .

سبحانه ﴿مِّن لَّدُنَّا .. ⦗١٣⦘﴾ [مريم] من عندنا ؛ لأن طاقة الحنان عند الوالدين قد نضبتْ.

وقوله : ﴿وَزَكَاةً .. ⦗١٣⦘﴾ [مريم] أى : طهارة من الذنوب وصفاءَ نفْسٍ وبركة ، وهذه كلها نتيجة التربية الإلهية بمنهج الله الذى يرسم له حركته فى الحياة : افعل كذا ولا تفعل كذا .

﴿وَكَانَ تَقِيًّا ⦗١٣⦘﴾ [مريم] أى : استجاب لهذا الحنان ، وأثمرت فيه هذه التربية فكان تقياً ، أى : مُنفذاً لأوامر الله مُجتنباً لنواهيه ، وبذلك وقَى نفسه من صفات الجلال من الله تعالى .

وقلنا : إن التقوى أنْ تجعل بينك وبين ما تتقيه مانعاً يحميك ويبعدك عن إيذائه ، فنقول : اتقِ الله واتقِ النار ، كيف ذلك ونحن نريد أن نصل إلى معيته سبحانه ؟

نقول : اتق الله أى : اجعل بينك وبين صفات جلاله وجبروته وقايةً تحميك من جبروته وجباريته وقهره ، فلسْت مطيقاً لأدنى شيء من العذاب ، والنار من جنود الله ومظهر من مظاهر قهره ، فاتقاء النار جزء من اتقاء الله ، والوقاية التى تحميك من صفات الجبروت والجلال هى الطاعة بامتثال الأوامر والنواهى .

ثم يقول تعالى :

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ⦗١٤⦘﴾

فرغم أن يحيى عليه السلام جاء أبويْه فى حال كِبَرهما وضعفهما ، ولم يجد منهما الحنان الكافى والتربية المناسبة ، ولم

يشعر معهما بالأُبوة الكاملة ، فكان دورهما فى حياته ثانوياً ، وحمايلهم عليه باهتة متواضعة ، مع هذا كله كان باراً بهما حانياً عليهما . وقال عنه أيضاً : ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ ﴾ [مريم]

وصفة الجبروت وصفة العصيان لا يُتصوَّران من الولد على والديه ، إلا حين يرى من أبيه شروداً عنه وانصرافاً عن رعايته ، وحين يرى من أمه انشغالاً عن تربيته ، فهى تاركة له غير مُراعية لحقه .

لذلك نرى صوراً من هذا الجبروت ومن هذا العصيان ، ونسمع مَنْ يقسو على أمه وعلى أبيه ؛ لأنه لم يجد منهما العطف والحنان والرعاية ، فتقطعتْ بينهما أواصر الأبوة . ويبدو أن زكريا حكى لولده ما حدث ، وقصَّ عليه قِصّته ، فتفهَّم الولد دور والديه ونفى عنهما أىّ تقصير ، فكان بهما باراً رحيماً ، ولهما طائعاً متواضعاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾

هذه مسائل ثلاث تُعَدُّ أعلام حياة للإنسان : الميلاد ، والموت ، والبعث . وقد خَصَّه الله بالسلام يوم مولده ؛ لأنه وُلِد على غير العادة فى الميلاد فأُمّه عاقر قد أسنتْ ، ومع ذلك لم تتعرض لألسنة الناس ولم يعترض أحد على ولادتها ، وهى على هذا الوصف ، فلم يتجرأ أحد عليها ؛ لأن ما حدث لها كان آيةً من آيات الله وقد بشّر الله بها

زكريا لتكون البُشْرى إعداداً ومقدمة لهذا الحدث العجيب .

وخَصَّه بالسلام يوم يموت ؛ لأنه سيموت شهيداً ، والشهادة غير الموت ، الشهادة تعطيه حياة موصولةً بالحياة الأبدية الخالدة . وكذلك خَصَّه بالسلام يوم القيامة يوم يُبعث حياً .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ[1] مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ ﴾

وقصة مريم في واقع الأمر كانت قبل قصة زكريا ويحيى ؛ لأن طلب زكريا للولد جاء نتيجة لما سمعه من مريم حين سألها عن طعام عندها لم يأتِ به ، وهو كافلها ومُتولّي أمرها ، فتعجب أنْ يرى عندها رزْقاً لم يحمله إليها ، وهي مقيمة على عبادتها في محرابها ، فقال لها : ﴿ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران]

وكأن هذه أول بداية قانون : من أين لك هذا ؟ لكن عطاءه تعالى لا يخضع للأسباب ، بل هو سبحانه يرزق مَنْ يشاء متى شاء وبغير حساب .

وشاءتْ إرادة الله أن تنطقَ مريم بهذه المقولة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران] لأنها ستُنبِّه زكريا إلى شيء ،

---

(١) انتبذ : اعتزل ورمى نفسه بعيداً عن الناس . أي : أن مريم اعتزلت أهلها في مكان شرقي . [القاموس القويم ٢/٢٥١] .

وستحتاجها أيضاً مريم فيما بعد حينما تشعر بالحَمْل من غير زَوْج ، فلن تعترض على هذا الوضع ، وستعلم أنه عطاءٌ من الله .

وكذلك نبَّهتْ هذه الآية زكريا ـ عليه السلام ـ إلى فَضْل الله وسعَة رحمته ، وهذا أمر لا يغيب عن نبى الله ، ولكن هناك قضايا فى النفس البشرية إلا أنها بعيدة عن بُؤْرة الشعور وبعيدة عن الاهتمام ، فإذا ما ذُكِّر بها انتبه إليها ؛ لذلك يقول الحق ـ سبحانه وتعالى : ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ .. (٣٨)﴾ [آل عمران]

فما دام أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، فلماذا لا أدعو الله بولد صالح يحمل أمر الدعوة من بعدى ، وطالما أن الرزق بغير حساب فلن يمنعه كِبَر السِّنِّ أو العُقْم أو خلافه .

إذن : فمريم هى التى أوحَتْ لزكريا بهذا الدعاء ، واستجاب الله لزكريا ورزقه يحيى ؛ ليكون ذلك مقدمة وتمهيداً لمريم ، فلا تنزعج من حَمْلها ، وتردّ هذه المسألة إلى أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، وليكون ذلك إيناساً لنفسها واطمئناناً ، وإلاَّ فمن الممكن أن تلعبَ بها الظنون وتنتابها الشكوك ، وتتصور أن هذا الحمْل نتيجة شىء حدث لم تشعر به ، أو كانت نائمة مثلاً .

لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقطع عنها كل هذه الشكوك ، ويعطيها مقدمة تراها وتعايشها بنفسها فى طعام لم يَأْتِ به أحد إليها ، وفى حَمْل زوجة زكريا وهى عاقر لا تلد .

قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ .. (١٦)﴾ [مريم]

الكتاب هو القرآن الكريم ، أى : اذكُر يا محمد فى كتاب الله الذى

أوحاه إليك مما تذكر قصة مريم ، وقد سبق الحديث عن هذه القصة في سورة (آل عمران) لما تكلم الحق - سبحانه وتعالى - عن نَذْر أمها لما في بطنها لخدمة بيت المقدس ، ولم يكن يصلح لخدمة بيت المقدس إلا الذكْران الذين يتحمَّلون مشقة هذا العمل ، فلما وضعتْها أنثى لم يوافق ظنَّها إرادة الله ، ولم تستطع مريم خدمة البيت مكاناً أفرغتْ نفسها لخدمته قيماً ، وديناً حملتْ نفسها عليه حَمْلاً ، حتى إنها هجرتْ أهلها وذهبت إلى هذا المكان الذى اتخذته خُلْوة لها لعبادة الله بعيداً عن أعيُن الناس .

ومريم هى ابنة عمران ، وقد قال القرآن فى خطابها : ﴿يَـٰأُخْتَ هَٰرُونَ .. ﴿٢٨﴾﴾ [مريم] ولذلك حدث لَبْسٌ عند كثير من الناس ، فظنوها أخت نبى الله موسى بن عمران وأخت هارون أخى موسى عليهما السلام .

والحقيقة أن هذه المسألة جاءتْ مصادفة اتفقتْ فيها الأسماء ؛ لذلك لما ذهب بعض الصحابة إلى اليمن قال لهم أهلها : إنكم تقولون : إن مريم هى أخت موسى وهارون ، مع أن بين مريم وعمران أبى موسى أحد عشر جيلاً !!

فقال رسول الله ﷺ : « أما ذكرتُمْ لهم أن الناس كانوا يتفاءلون بذكر الأسماء خاصة الأنبياء فيُسمّون على أسمائهم عمران ويسمون على أسمائهم هارون »[1] .

حتى ذكروا أنهم فى جنازة بعض العلماء سار فيها أربعة آلاف

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢١٣٥) ، والترمذى فى سننه (٣١٥٥) من حديث المغيرة ابن شعبة ، قال الترمذى : هذا حديث صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس .

رجل اسمهم هارون . إذن : فالأسماء هنا مصادفة ، فهى ابنة عمران ، لكن ليس أبا موسى ، وأخت هارون ، لكن ليس هو أخو موسى .

وقد أفرد القرآن سورة كاملة باسم مريم وخصَّها وشخَّصها باسمها واسم أبيها ، وسبق أنْ أوضحنا أن التشخيص فى قصة مريم جاء لأنها فذَّة ومُفْردة بين نساء العالم بشىء لا يحدث ولن يحدث إلا لها ، فهذا أمر شخصى لن يتكرر فى واحدة أخرى من بنات حواء .

أما إنْ كان الأمر عاماً يصح أنْ يتكرّر فتأتى القصة دون تشخيص ، كما فى حديث القرآن عن زوجة نوح وزوجة لوط كمثال للكفر ، وهما زوجتان لنبيين كريمين ، وعن زوجة فرعون كمثال للإيمان الذى قام فى بيت الكفر وفى عُقْر داره ، فالمراد هنا ليس الأشخاص ، بل المراد بيان حرية العقيدة ، وأن المرأة لها فى الإسلام حريةٌ عقدية مستقلة ذاتية ، وأنها غيرُ تابعة فى عقيدتها لأحد ، سواء أكانت زوجة نبى أم زوجة إمام من أئمة الكفر .

وقوله تعالى : ﴿ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ ﴾ [مريم]

﴿ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا .. ﴿١٦﴾ ﴾ [مريم] أى : ابتعدتْ عنهم ، من نبذ الشىء عنه أى أبعده ، فكأن أُنْسها لا بالأهل ، ولكن أُنْسها كان برب الأهل . والقرآن يقول : ﴿ مِنْ أَهْلِهَا .. ﴿١٦﴾ ﴾ [مريم] ولم يقُلْ : من الناس ، فقد تركتْ مريم أقرب الناس إليها وأحبّهم عندها وذهبت إلى هذا المكان .

﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ ﴾ [مريم] لكن شرقىّ أىّ شىء ؟ فكل مكان

يصح أن يكون شرقياً ، ويصح أن يكون غربياً ، فهى - إذن - كلمة دائرة فى كل مكان . لكن هناك علَم بارز فى هذا المكان ، هو بيت المقدس ، فالمراد إذن : شرقى بيت المقدس ، وقد جاء ابتعادها عن أهلها إلى هذا المكان المقدس لتتفرغ للعبادة ولخدمة هذا المكان .

لكن ، لماذا اختارتْ الجهة الشرقية من بيت المقدس بالذات دون غيرها من الجهات ؟ قالوا : لأنهم كانوا يتفاءلون بشروق الشمس[1] ، لأنها سِمَة النور المادىّ الذى يسير الناس على هُدَاه فلا يتعثرون ، وللإنسَان فى سَيْره نوران : نور مادىّ من الشمس أو القمر أو النجوم والمصابيح ، وهو النور الذى يظهر له الأشياء من حوله ، فلا تصطدم بما هو أقوى منه فيحطمك ولا بأضعف منه فتحطمه .

وكذلك له نور من منهج الله يهديه فى مسائل القيم ، حتى لا يتخبّط تائهاً بين دُروبها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٣٥) ﴾ [النور] ثم يقول بعدها : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥) ﴾ [النور]

أى : نور السماء الذى ينزل بالوحى لهداية الناس .

﴿ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) ﴾

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٤٢٦١) : « إنما خص المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق ومن حيث تطلع الأنوار ، وكانت الجهات الشرقية من كل شيء أفضل من سواها . حكاه الطبرى . وحُكى عن ابن عباس أنه قال : إني لأعلم الناس لم اتخذ النصارى المشرق قبلة ، لقول الله عز وجل ﴿إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦)﴾ [مريم] . فاتخذوا ميلاد عيسى عليه السلام قبلة » .

الحجاب : هو الساتر الذى يحجب الإنسان عن غيره ويحجب غيره عنه ، فمـا فائدة أنْ تتخـذ بينها وبين أهلهـا ستْراً بعـد أن ابتعـدتْ عنهم ؟ نقول : انتبـذتْ من أهلها مكاناً بعـيداً ، هذا فى المَكان ، إنمـا لا يمنع أنْ يكونَ هناك مكينٌ آخر يسترها حتى لا يطّلع عليها أحد ، فهناك إذن مكان ومكين .

والحجـاب قد يكون حـجاباً مُفْـرداً فهـو ساتر فقـط ، وقد يكون حجاباً مـستوراً بحجاب غيـره ، فهو حجاب مُـركّب ، كما يصنع أهل الترف الآن الســتائر من طبـقتيـن ، إحداهما تسـتر الأخـرى ، فيكون الحجاب نفسه مَسْتوراً ، ومـن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) ﴾ [الإسراء]

وقوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا .. (١٧) ﴾ [مريم]

كلمة الروح فى القـرآن الكريم لها إطلاقات مُتـعدّدة ، أولها الروح التى بها قِوام حياتنا المادية ، فإذا نفخَ الله الروح فى المادة دبَّتْ فيها الحياة والحِسّ والحركة ، ودارت كل أجهزة الجسم ، وهذا المعنى فى قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ [الحجر]

لكن ، هل هذه الحـياة التـى تسرى فى المـادة بروح من الله هى الحيـاة المقصـودة من خَلْق الله للخَلْق ؟ قالوا : إنْ كانت هذه الحـياة هى المـقصودة فـما أهونـها ؛ لأن الإنسان قـد يمرُّ بـها ويموت بـعد ساعة ، أو بعد يوم ، أو بعد سنة ، أو عدة سنوات .

إذن : هى حياة قصيرة حقيرة هيِّنة ، هى أقرب إلى حياة الديدان والهوام ، أما الإنسان الذى كـرّمه الله وخلق الكون من أجله فلا بُدَّ أن

تكون له حياة أخرى تناسب تكريمَ الله له ، هذه الحياة الأخرى الدائمة الباقية يقول عنها القرآن : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾ [العنكبوت]

﴿لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أى : الحياة الحقيقية ، أما حياتك الدنيا فهى مُهدّدة بالموت حتى لو بلغتَ من الكبر عتياً ، فنهايتك إلى الموت ، فإنْ أردتَ الحياة الحقيقية التى لا يُهدِّدها موت فهى فى الآخرة .

فإذا كان الخالق ـ تبارك وتعالى ـ جعل لك روحاً فى الدنيا تتحرك بها وتناسب مُدّة بقائك فيها ، ألاَ يجعل لك فى الآخرة رُوحاً تناسبها ، تناسب بقاءها وسَرْمديتها ، والقرآن حينما يتحدث عن هذه الروح يقول للناس : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤)﴾ [الأنفال]

فكيف يدعوهم لما يُحييهم ، ويُخاطبهم وهم أحياء ؟ نعم ، هم أحياء الحياة الدنيا ، لكنه يدعوهم إلى حياة أخرى دائمة باقية ، أما مَنْ لم يستجب لهذا النداء ويسعى لهذه الحياة فلن يأخذ إلا هذه الحياة القصيرة الفانية التى لا بقاءَ لها .

وكما سمَّى الله السِّرَّ الذى ينفخه فى المادة فتدبّ فيها الحركة والحياة « روحاً » ، كذلك سمَّى القيم التى تحيا بها النفوس حياة سعيدة « روحاً » ، كما قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. (٥٢)﴾ [الشورى] أى : القرآن الكريم .

كما سَمَّى الملك الذى ينزل بالروح رُوحاً : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣)﴾ [الشعراء] وهو جبريل عليه السلام .

إذن : فقوله تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا .. ⑰﴾ [مريم] أى : جبريل عليه السلام . ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ⑰﴾ [مريم] معنى تمثَّل : أى : ليستْ هذه حقيقته ، إنه تمثَّل بها ، أما حقيقته فنورانية ذات صفات أخرى ، وذات أجنحة مَثْنى وثُلاَث ورُبَاع ، فلماذا ـ إذن ـ جاء الملَكُ مريمَ فى صورة بشرية ؟

لأنهما سيلتقيان ، ولا يمكن أنْ يتمّ هذا اللقاء خُفْية ، وكذلك يستحيل أنْ يلتقىَ الملَكُ بملكيته مع البشر ببشريته ، فلكل منهما قانونه الخاص الذى لا يناسب الآخر ، ولابُدَّ فى لقائهما أنْ يتصوَّر الملَك فى صورة بشر ، أو يُرقَّى البشر إلى صفات الملائكة ، كما رُقى محمد ﷺ إلى صفات الملائكة فى حادثة الإسراء والمعراج ، ولا يتم الالتقاء بين الجنسين إلا بهذا التقارب .

لذلك ، لما طلب الكفار أن يكون الرسول ملكاً رَدَّ عليهم الحق تبارك وتعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ⑨⑤﴾ [الإسراء]

وقال : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ⑨﴾ [الأنعام] إذن : لا يمكن أن يلتقى الملَكُ بالبشر إلا بهذا التقارب .

جاء جبريل ـ عليه السلام ـ إلى مريم فى صورة بشرية لتأنس به ، ولا تفزع إنْ رأتْه على صورته الملائكية ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا .. ⑰﴾ [مريم] أى : من جنسها ﴿سَوِيًّا ⑰﴾ [مريم]

أى : سوىّ الخِلْقة والتكوين ، وسيماً ، قد انسجمتْ أعضاؤه وتناسقتْ على أجمل ما يكون البشر ، فلا يعيبه كِبَر جبهته أو أنفه أو فمه ، كما نرى فى بعض الناس .

وهذا كله لإيناس مريم وطمأنينتها ، وأيضاً ليثبت أنها العذراء العفيفة ؛ لأنها لما رأت هذا الفتى الوسيم القَسِيم ما أبدتْ له إعجاباً ولا تلطفتْ إليه فى الحديث ، ولا نطقتْ بكلمة واحدة يُفهَم منها مَيْل إليه ، بل قالت كما حكى القرآن :

﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ١٨﴾

فلم تُظهِر له إعجاباً ، ولا مالتْ إليه بكلمة واحدة ، وهذا دليل على عِفّتها وطهارتها واستقامتها والتزامها .

وقولها : ﴿أَعُوذُ .. ١٨﴾ أى : ألجأ وأعتصم بالله منك ؛ لأننى أخاف أنْ تفتك بى ، أو تعتدى علىَّ وأنا ضعيفة لا حَوْلَ لى ولا قوة إلا بالله ، فأستعيذ به منك . والمؤمن هو الذى يحترم الاستعاذة بالله ويُقدِّرها ، فإنْ استعذتَ بالله أعاذك ، وإن استجرتَ بالله أجارك .

ولما خطب النبى ﷺ امرأة[1] ، وكانت على شىء من الحسن أثار غَيْرة نسائه ، فخشينَ أنْ تغلبهن على قلب رسول الله ، فدبَّرْنَ لها أمراً يبعدها من أمامهن ، فقُلْنَ لها - وكانت غِرَّة ساذجة - أن رسول الله ﷺ يحب إذا اقترب منه إنسان أن يقول له : أعوذ بالله منك ، فما كان من المرأة إلا أنْ قالت هكذا لرسول الله عندما دخلت عليه ، فقال لها : « لقد استعذت بمعيذ ، الحقى بأهلك »[2] .

فقول مريم : ﴿إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ١٨﴾ [مريم] لأن المؤمن التقىّ هو الذى يخاف الله ، ويحترم الاستعاذة به ، وكأنها

(١) جاء فى تاريخ الطبرى أنها ملكة بنت داود الليثية (٣/١٢٣) أو فاطمة بنت الضحاك الكلابية (٣/١٣٩) .
(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٥٥) كتاب الطلاق من حديث أبى أسيد رضى الله عنه .

قالتْ : إنْ كنت تقـياً فابتعد عنى ، واخـتارت الاستعاذة بـالرحمن لما عندها من الأمل إنْ لم يكُنْ تـقيـاً مؤمناً أن يـبتـعد عنـها رحـمةً بهـا وبضعفها ، ولجأتْ إلى الرحمن الرحيم الذى يحميها ويحرسها منه .

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾

قال : ﴿ رَسُولُ رَبِّكِ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [مريم] ولم يقلْ رسـول الله ؛ لأن الربّ هو المتولّى للتـربية الذى يُحسنها ويصونها من الفـساد ، فعطاء الربوبية عطاء مادىّ ، أمـا عطاء الألوهية فهو عطاء مـعنوى قِيَمى هو العبادة ، فأنا رسول ربك الذى يتولاَّك ويرعاك ويحرسك فلا تخافى .

وقوله : ﴿ لأَهَبَ لَكِ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [مريم] يفهم منه أن ما سـيحدث لمريم هبة من الله غيـر خاضعة للأسبـاب التكوينية ، فالهبـة فى هذه الحالة هبة حقيقية مَحْضَة ، فقد قلنا فى قصة زكريا ويحيى أن الله تعالى وهب يحيى لزكريا حال كونه كبير السِّن وامـرأته عاقر ، لكن على أية حال فالجهازان موجودان : الذكورة والأنوثة ، لكن فى حالة مريم فهى أنثى بلا ذكر ، فهنا الهبَة المحضة ، والمعجزة الحقيقية .

وقوله : ﴿ غُلامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾ أى مُنقًّى مُطهَّر صافى الخِلْقة .

ثم يقول الحق سبحانه عن مريم :

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾

(أنَّى) استفهام عن الكيفيات التى يمكن أن تتم بها هذه المسألة ، وتعجُّب كيف يحدث ذلك .

وقوله : ﴿يَمْسَسْنِي .. (٢٠)﴾ [مريم] المسّ هنا كناية وتعبير مُهذَّب عن النكاح ، وقد نفتْ السيدة مريم كل صور اللقاء بين الذكر والأنثى حين قالت : ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠)﴾ [مريم] فالتقاء الذكر بالأنثى له وسائل : الوسيلة الأولى : هى الزواج الشرعى الذى شرعه الله لعباده للتكاثر وحِفْظ النسل ، وهو إيجاب وقبول ، وعقد وشهادة ، وهذا هو المسّ الحلال .

الوسيلة الثانية : أنْ يتم هذا اللقاء بصورة محرمة بموافقة الأنثى أو غَصْباً عنها . وقد نفتْ مريم عن نفسها كل هذه الوسائل فقالت : ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ .. (٢٠)﴾ [مريم] لا فى الحلال ، ولا فى الحرام ، وأنا بذاتى ﴿لَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠)﴾ [مريم] إذن : فمن أين لى بالغلام ؟

وكلمة : مسَّ جاءتْ فى القرآن للدلالة على الجماع ، كما فى قوله تعالى : ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ .. (٢٣٦)﴾ [البقرة] فالمراد بالمسّ هنا الجماع ، لذلك فقد فسر الإمام أبو حنيفة قوله تعالى : ﴿لامَسْتُمُ النِّسَاءَ .. (٤٣)﴾ [النساء] بأنه الجماع ؛ لأن القرآن أطلق المسَّ ، وأراد به النكاح ، والمسُّ فعل من طرف واحد ، أما الملامسة فهى مُفَاعلة بين اثنين ، فهى من باب أَوْلَى تعنى : جامعتم .

وقولها : ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠)﴾ [مريم] البغىُّ : هى المرأة التى تبغى الرجال . والبِغَاء : هو الزنا ، والبَغِىّ : التى تعرض نفسها على الرجال وتدعوهم ، وربما تُكرههم على هذه الجريمة .

وقولها : ﴿بَغِيًّا ۝٢٠﴾ [مريم] مبالغة فى البَغْى وهو الظلم ، واختارتْ صيغة المبالغة بَغِىّ ولم تقُلْ باغية ؛ لأن باغية تتعلق بحقوق ما حول العِرْض ، أما الاعتداء على العِرْض ذاته فيناسبه المبالغة فى هذا الفعل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١ ﴾

كما قال الحق سبحانه لزكريا حينما تعجب أن يكون له ولد : ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ .. ۝٩﴾ [مريم] أى : أنا أعرف ما أنت فيه من كِبَر السن ، وأن امرأتك عاقر لا تلد ، لكن الأمر جاء من الله وصدر حكمه ، وهو وحده الذى يملك التنفيذ ، فلِمَ التعجب إذن ؟

وهنا نجد بعض المتوركِّين على القرآن يعترضون على قوله تعالى : (كَذَلِكَ) بالفتح فى قصة زكريا وبالكسر فى قصة مريم (كذلكِ) ، والسياق والمعنى واحد ، وأيُّهما أبلغ من الأخرى ، وإنْ كانت أحدهما بليغة فالأخرى غير بليغة ؟

وهذا الاعتراض منهم ناتج عن قصور فَهْمهم لكلام الله ، فكلمة (كذلك) عبارة عن ذا اسم إشارة ، وكاف الخطاب التى تُفتح فى خطاب المذكر ، وتُكسر فى خطاب المؤنث .

وهنا أيضاً قال : (ربك) أى : الذى يتولى تربيتك ورعايتك ، والذى يُربيه ربُّه يربيه تربية كاملة تعينه على أداء مهمته المرادة للمربِّى .

وقوله : ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ .. (٢١)﴾ [مريم] كما قال فى مسألة البعث بعد الموت : ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. (٢٧)﴾ [الروم] فكلمة هيّن وأهْوَن بالنسبة للحق - تبارك وتعالى - لا تُؤخَذ على حقيقتها ؛ لأن هَيِّن وأهوَنَ تقتضى صعب وأصعب ، وهذه مسائل تناسب فعْلَ الإنسان فى معالجته للأشياء على قَدْر طاقته وإمكاناته ، أما بالنسبة للخالق سبحانه فليس عنده هَيِّن وأهون منه ؛ لأنه سبحانه لا يفعل الأفعال مُعَالجةً ، ولا يزاولها ، وإنما بقوله تعالى (كُنْ) .

فالحق سبحانه يخاطبنا على قَدْر عقولنا ، فقوله : ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ.. (٢١)﴾ [مريم] أى : بمنطقكم أنتم إنْ كنت قد خلقْتكم من غير شيء ، فإعادتكم من شيء موجود أمر هَيِّن .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا .. (٢١)﴾ [مريم]

هل كان الغرض من خَلْق عيسى عليه السلام على هذه الصورة أن يُظهِر الحق سبحانه قدرته فى الخلق وطلاقة قدرته فقط ؟ لا ، بل هناك هدف آخر ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ .. (٢١)﴾ [مريم] أى : أمراً عجيباً ، يخرج عن مألوف العادة والأسباب ، كما نقول : هذا آية فى الحُسْن ، آية فى الذكاء ، فالآية لا تُقال إلا للشيء الذى يخرج عن معتاد التناول .

والآية هنا أن الخالق - تبارك وتعالى - كما خلق آدم - عليه السلام - من غير أب أو أم ، وخلق حواء من غير أم ، خلق عيسى - عليه السلام - من أم دون أب ، ثم يخلقكم جميعاً من أب وأم ، وقد يوجد الأب والأم ولا يريد الله لهما فيجعل مَنْ يشاء عقيماً .

إذن : فهذا أمر لا يحكمه إلا إرادة المكوِّن سبحانه . فالآية للناس فى أنْ يعلموا طلاقة قدرته تعالى فى الخَلْق ، وأنها غير خاضعة للأسباب ، وليستْ عملية ميكانيكية ، بل إرادة للخالق سبحانه أن يريد أو لا يريد .

لكن ، أكانتْ الآية فى خَلْق عيسى عليه السلام أمْ فى أمه ؟ كان من الممكن أنْ يوجد عيسى من أب وأم ، فالآية - إذن - فى أمه ، مما هو السبب الأصيل فى هذه الآية ؛ لذلك يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً .. (٥٠) ﴾ [المؤمنون] فعيسى ومريم آية واحدة ، وليستا آيتين ؛ لأنهما لا ينفصلان .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا .. (٢١) ﴾ [مريم] ووجْه الرحمة فى خَلْق عيسى عليه السلام على هذه الصورة ، أنه سبحانه يرحم الناس من أنْ يشكُّوا فى أن قدرة الله منوطة بالأسباب ومتوقفة عليها ، ولو كان هذا الشكُّ مجرد خاطر ، فإنه لا يجوز ولا يصحّ بالنسبة للخالق سبحانه ، وكأنه تبارك وتعالى يرحمنا من مجرد الخواطر بواقع يؤكد أن طلاقة القدرة تأتى فى الخَلْق من شىء ، ومن بعض شىء ، ومن لا شىء .

وقوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) ﴾ [مريم] أى : مسألة منتهية لا تقبل المناقشة ، فإياك أن تناقش فى كيفيتها ؛ لأن الكلام عن شىء فى المستقبل إنْ كان من متكلم لا يملك إنفاذ ما يقول فيمكن ألاَّ يتم مراده لأىٍّ سبب من الأسباب كأن تقول : سأفعل غداً كذا وكذا ، ويأتى غد ويحول بينك وبين ما تريد أشياء كثيرة ربما تكون خارجة عن إرادتك ، إذن : فأنت لا تملك كُلَّ عناصر الفعل .

أما إذا كان الكلام من الله تعالى الذى يملك كل عناصر الفعل فإن قوله حَقٌّ وواقع ، فقال تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) ﴾ [مريم]

ولما تكلمنا عن تقسيمات الأفعال بين الماضى الذى حدث قبل الكلام ، والمضارع الذى يحدث فى الحال ، أو فى الاستقبال قلنا : إن هذه الأفعال بالنسبة للحق سبحانه تنحل عنها الماضوية والحالية والاستقبالية .

فإذا قال تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤) ﴾ [الفتح] فهل كان الحق سبحانه غفوراً رحيماً فى الماضى ، وليس كذلك فى الحاضر والمستقبل ؟ لا ، لأن الحق سبحانه كان ولا يزال غفوراً رحيماً ، فرحمتُه ومغفرتُه أزلية حتى قبل أنْ يوجدَ مَنْ يغفر له ومَنْ يرحمه .

لذلك جاء الفعل بصيغة الماضى ، فالصفة موجودة فيه سبحانه أزلاً ، فهو سبحانه خالق قبل أن يخلق الخَلْق وبصفة الخَلْق خلَقَ ، كما ضربنا مثلاً لذلك : نقول فلان شاعر ، فهل هو شاعر لأنه قال قصيدة ؟ أم قال القصيدة لأنه شاعر ، وبالشعر صنع القصيدة ؟ إذن : فهو شاعر قبل أن يقول القصيدة ، ولولا وجود الصفة فيه ما قال .

فالصفة - إذن - أزلية فى الحق سبحانه ، فإذا قلت : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤) ﴾ [الفتح] فقد ثبتتْ له هذه الصفة أزلاً ، ولأنه سبحانه لا يتغير ، ولا يعارضه أحد فقد بقيتْ له ، هذا معنى : كان ولا يزال .

وهذه المسألة واضحة فى استهلال سورة النحل : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ [النحل] لذلك وقف بعض المستشرقين أمام هذه

الآية ، كيف يقول سبحانه (أتَى) بصيغة الماضى ، ثم يقول : ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ①﴾ [النحل] أى : فى المستقبل ؟ نقول : لأن قوله تعالى : (أتَى) فهذه قضية منتهية لا شكّ فيها ولا جدالَ ، فليس هناك قوة أخرى تعارضها أو تمنع حدوثها ؛ لذلك جاءت بصيغة الماضى وهى فى الواقع أمر مستقبل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾

(فَحَمَلتْهُ) أى : حملتْ به على الحذف والإيصال ، والحمل يقتضى حاملاً ومحمولاً . ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ [مريم] لا تظن أن هذه اللقطة من القصة لقطةٌ مُعَادة ، فالانتباذ الأول كان للخلوة للعبادة ، وهنا ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ .. ﴿٢٢﴾﴾ [مريم] أى : ابتعدتْ عن القوم لما أحسَّتْ بالحمل ، وخشيت أعيُنَ الناس وفضولهم فخرجتْ إلى مكان بعيد .

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾

﴿فَأَجَاءَهَا .. ﴿٢٣﴾﴾ [مريم] الفعل جاء فلان . أى : باختياره ورضاه ، إنما أجاءه فلان أى جاء به رغماً عنه ودون إرادته ، فكأن المخاض هو الذى ألجأها إلى جذْع النخلة وحملها على الذهاب إلى هذا المكان رَغْماً عنها ﴿فَأَجَاءَهَا .. ﴿٢٣﴾﴾ [مريم] أى : جاء بها ، فكأن هناك قوة خارجة عنها تشدُّها إلى هذا المكان .

والمخـاض : هو الألم الذى ينتاب المـرأة قبل الولادة ، وليس هو الطَّلْق الذى يسبق نزول الجنين .

وقوله : ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ .. (٢٣)﴾ [مريم] أوضح لنا علَّة مجيئها إلى جـذْع النخلة ؛ لأن المرأة حينما يأتى وقت ولادتها تحتاج إلى مـا تستند إليه ، وتتشبث به ليـخفف عنها ألم الوضع ، أو رفيقة لها تفزع إليها وتقاسمها هذه المعاناة ، فألجأها المخاض - إذن - إلى جـذع (النخلة) ، وجاءت النخلـة مُعـرَّفة لأنهـا نخلة معلومـة معروفة .

وجذع الـنخلة : ساقـها الذى يبـدأ من الجذر إلى بداية الجـريد ، فـهل سـتتـشـبث مـريم عند وضـعـها بكـــل هـذه السـاق ؟ بالطبع ستـأخـذ الجزء القريب منها فقط ، وأُطلق الجذع على سبيل المبالغة ، كما فى قـوله تعالى : ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ .. (١٩)﴾ [البقرة]

ومعلوم أن الإنسان يسدّ أذنه بأطراف الأصابع لا بأصابعه كلها ، فعبَّر عن المعنى بالأصابع مبـالغةً فى كَتْم الصوت المزعج والصواعق التى تنزل بهم .

إذن : فـالسـيـدة مـريم أصـبـحت أمـام أمـر واقع وحـمل ظاهر لا تستـطيع إخفـاءه ، ولا تقدر على سـتره ، فقـد قبلتْ قـبل ذلك أنْ يُبشِّرها الملَك بغلام زكىٍّ ، وقـبلتْ أنْ تحمل به ، فكيف بها الآن وقد تحـوّل الأمـر مـن الكلام إلى الواقع الـفـعلـى ، وها هو الوليـد فى أحشـائها ، وقد حان موعد ولادته ؟

لابُدَّ أن ينتابـها نزوع انفعـالى فالأمر قـد خرج عن نطاق السَّتْر

والتكتّم ، فإذا بها تقول : ﴿ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾ [مريم] أى : تمنتْ لو ماتت قبل أن تقف هذا الموقف العصيب ، مع أن الملك حين أخبرها من قبل بأن الله تعالى سيهَبُ لها غلاماً زكياً تعجبتْ قائلة : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [مريم]

مجرد تعجُّب وانفعال هادىء ، أما وقد أصبح الأمر ولادة حقيقية فلا بُدَّ من فعل نزوعى شديد يُعبِّر عما هى فيه من حَيْرة ، لذلك تمنتْ الموت ، مع أن الله تعالى نهانا عن تمنى الموت ، كما ورد فى الحديث الشريف الذى يرشدنا إذا ضاقتْ بنا الحياة ألاَّ نتمنى الموت ، بل نقول : « اللهم أحْيِنى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفَّنى ما كانت الوفاة خيراً لى »[1] .

وقلنا : إن تمنى الموت المنهىّ عنه ما كان فيه اعتراض على قَدَر الله ، وتمرد على إرادته سبحانه ، كأنْ تكره الحياة والعيش إذا ضاق بك فتتمنى الموت ، أما أن تتمنى الموت لعلمك أنك ستصير إلى خير مما تركت فهذا أمر آخر .

وقد ورد فى القرآن مسألة تمنى الموت هذه فى الكلام عن بنى إسرائيل الذين قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه[2] ، وقالوا : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة[3] ، وأن الدار الآخرة لنا خالصة عند الله ، فبماذا رَدّ عليهم القرآن الكريم ؟

---

(١) عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، فإن كان لابد متمنياً فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٨٠) ، وكذا البخارى فى صحيحه (٦٣٥١) .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [المائدة] .

(٣) قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [البقرة] .

والله طالما أن الأمر كما تقولون ، والآخرة لكم ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [البقرة] ثم قرَّر الحق سبحانه ما سيكون منهم فقال : ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. ﴿٩٥﴾﴾ [البقرة]

وقال عنهم : ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ .. ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة]

وما داموا لن يتمنوا الموت ، وما داموا أحرصَ الناس على الحياة ، فلا بُدَّ أن حياتهم هذه التى يعيشونها أفضل لديهم من الحياة الأخرى .

فالمؤمن - إذن - لا يجوز أن يتمنى الموت هَرباً من بلاء أصابه أو اعتراض على قَدَرِ الله ، ويجوز له ذلك إنْ علم أنه صائر إلى أفضل ممّا هو فيه .

وقولها : ﴿نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم] النسىّ : هو الشىء التافه الذى لا يُؤْبَه به ، وهذا عادةً ما يُنْسَى لعدم أهميته ، كالرجل الذى نسى عند صاحبه علبة كبريت بها عودان اثنان ، وفى الطريق تذكرها فعاد إلى صاحبه يطلب ما نسيه ، وهكذا تمنتْ مريم أن تكون نسياً منسياً حتى لا يذكرها أحد .

ولم تكتفِ بهذا ، بل قالت : ﴿نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم] لأن النسىّ : الشىء التافه الذى يُنسَى فى ذاته ، لكن رغم تفاهته فربما يجد مَنْ يتذكره ويعرفه ، فأكدت النسىّ بقولها (منسياً) أى : لا يذكره أحد ، ولا يفكر فيه أحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾

﴿مِن تَحْتِهَا .. ﴿٢٤﴾﴾ [مريم] فيها قراءتان (مِنْ ، مَنْ) صحيح أن جبريل عليه السلام ما زال موجوداً معها لكنه ليس تحتها ، فدلّ ذلك على أن الذى ناداها هو الوليد ﴿أَلاَّ تَحْزَنِى .. ﴿٢٤﴾﴾ [مريم] ، وحزن مريم منشؤه الانقطاع عن الناس ، وأنها فى حالة ولادة ، وليس معها مَنْ يسندها ويساعدها ، وليس معها مَنْ يُحضر لها لوازم هذه المسألة من طعام وشراب ونحوه .

لذلك تعهّدها ربها تبارك وتعالى فوفّر لها ما يُقيتها من الطعام والشراب ، فقال : ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ [مريم] والسرىّ : هو النهر الذى يجرى بالماء العَذْب الزُّلال ، ثم يعطيها الطعام المناسب لحالتها ، فيقول تعالى :

﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾

وهكذا وفّر الحق سبحانه وتعالى لمريم مقوّمات الحياة وعناصر استبقائها ، وهى مُرتَّبة على حَسْب أهميتها للإنسان : الهواء والشراب والطعام ، والإنسان يصبر على الطعام شهراً دون أنْ يأكلَ ، ويمكنه أنْ يقتاتَ على ما هو مخزون فى جسمه من غذاء ، لكنه لا يصبر على الماء أكثر من ثلاثة أيام إلى عشرة أيام حسب ما فى جسمه من

مائية ، فى حين لا يصبر على الهواء لحظة واحدة ، ويمكن أنْ يموتَ من كَتْم نفَسٍ واحد .

لذلك ، من حكمة الخالق سبحانه وتعالى أن يُملِّك الطعام كثيراً ، ويُملك الماء قليلاً ، ولا يُملِّك الهواء لأحد أبداً ، لأنك لو غضبتَ على أحد فمنعتَ عنه الهواء لمات قبل أنْ ترضى عنه ، إذن : فعناصر استبقاء الحياة مرتبة حَسْب أهميتها فى حياة الإنسان ، وقد ضمنها الحق سبحانه لمريم وجعلها فى متناول يدها وأغناها عن أنْ يخدمها أحد .

فالهواء موجود وهى فى الخلاء ، ثم الماء فأجرى تحتها نهراً عذباً زلالاً ، ثم الطعام فقال : ﴿وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم] وكأن الحق - تبارك وتعالى - يريد أنْ يُظهر لمريم آية أخرى من آياته ، فأمرها أنْ تهزَّ جذع النخلة اليابس الذى لا يستطيع هَزَّه الرجل القوىّ ، فما بالها وهى الضعيفة التى تعانى ألم الولادة ومشاقها ؟

كما أن الحق سبحانه قادر على أنْ يُنزل لها طعامها دون جَهْد منها ودون هَزِّها ، إنما أراد سبحانه أن يجمع لها بين شيئين : طلب الأسباب والاعتماد على المسبب ، الأخذ بالأسباب فى هَزِّ النخلة ، رغم أنها متعبة قد أرهقها الحمل والولادة ، وجاء بها إلى النخلة لتستند إليها وتتشبث بها فى وحدتها لنعلم أن الإنسان فى سعيه مُطَالب بالأخذ بالأسباب مهما كان ضعيفاً .

لذلك أبقى لمريم اتخاذ الأسباب مع ضَعْفها وعدم قدرتها ، ثم

تعتمد على المسبِّب سبحانه الذى أنزل لها الرُّطَب مُسْتوياً ناضجاً ، وهل استطاعت مريم أنْ تهزَّ هذا الجذع الكبير اليابس ؟

إنها مجرد إشارة إليه تدلُّ على امتثال الأمر ، والله تعالى يتولى إنزال الطعام لها ، وقد صَوَّر الشاعر هذا الموقف بقوله :

أَلَمْ تَـرَ أنَّ اللهَ قَالَ لمـرْيَم ... وَهُـزِّى إليك الجذْعَ يَسَّاقَط الرُّطبْ
وَإنْ شَاءَ أعطَاهَا ومِنْ غير هَزَّة ... ولـكن كُـلَّ شَـىءٍ لَـهُ سَـبَبْ

وقوله : ﴿ تُسَاقِطْ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [مريم] أى : تتساقط عليك ﴿ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ ﴾ [مريم] أى : استوى واستحق أن يُجنى ، وليس مُبْتسراً قبل موعده ، ومن الرُّطَب ما يتساقط قبل نُضْجه فلا يكون صالحاً للأكل .

وقوله : ﴿ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [مريم] فيه دليل على استجابة الجماد وانفعاله ، وإلا فالبلحة لم تخرج عن طَوْع أمها ، إذن : فقد ألقتْها طواعيةً واستجابة حين تَمَّ نضجها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾

ونلحظ هنا أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ عند إيجاد القُوت لمريم جاء بالماء أولاً ، فقال : ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ ﴾ [مريم] ، ثم أتى بالطعام فقال : ﴿ وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ ﴾ [مريم] لأن الماء أَوْلى من الطعام فى احتياج الإنسان ، أما عند

الأمر بالانتفاع قال : ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي .. (٢٦) ﴾ [مريم] فبدأ بالطعام قبل الشراب ، لماذا ؟ لأن الإنسان عادةً يأكل أولاً ، ثم يشرب ، فالماء مع أهميته ، إلا أنه يأتى فى العادة بعد الطعام ، فسبحان مَنْ هذا كلامه .

وقوله : ﴿ وَقَرِّى عَيْنًا .. (٢٦) ﴾ [مريم] بعد أن وفَّر لها الحق سبحانه الطعام والشراب الذى هو قوَام المادة ، وبه يتم استبقاء الحياة ، لكن بعد الطعام والشراب يبقى لديها حُزْن عميق وألم وحَيْرة ممَّا هى فيه ؛ لذلك يعطيها ربها تبارك وتعالى بعد القوت الذى هو قَوام المادة يعطيها السكينة والطمأنينة ويُخفِّف عنها ألم النفس وحَيْرة الفؤاد .

﴿ وَقَرِّى عَيْنًا .. (٢٦) ﴾ [مريم] قرّى : أى : اسكنى . وهذا التعبير عند العرب كناية عن السرور ، ومنه قوله تعالى على لسان امرأة فرعون : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ .. (٩) ﴾ [القصص]

والعرب تعبر بقُرَّة العين وسكونها عن السرور ؛ لأن سكون العين على مَرأىً واحد لا تتحول عنه دليلٌ على أن العين صادفت مرأى جميلاً تسعد به وتُسَرُّ فلا يُغنى عنه مَرأىً آخر ، فتظل ساكنة عليه لا تتحرك عنه .

وقد يستعمل هذا التعبير فى المقابل أى : فى الشر والدعاء على إنسان وتمنى الشر له ، كالمرأة التى دخلتْ على أحد الخلفاء فنهرَها فقالت له : أتمَّ الله عليك نعمته وأقرَّ عينك . فظنَّ الحضور أنها تدعو له ، لكنه فَطِن لمرادها ، فقال لجلسائه : ما فهمتم ما تقول ، إنها

تقصد أتمَّ الله عليك نعمته أى : أزالها ، أما سمعتم قول الشاعر :

إذَا تَمَّ شَىءٌ بَدَا نَقْصُه   ترقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيلَ تَمْ

ذلك لأن الإنسان بطبيعته ابنُ أغيار ، لا يثبت على حال ، فإذا ما وصل إلى القمة وتمتْ له النعمة ، وهو ابن أغيار فلا بُدَّ أنْ يتحوَّل عنها .

وقولها : أقرَّ الله عينك ، أى : أسْكَنَها بالعمى .

فقوله تعالى لمريم : ﴿وَقَرِّي عَيْنًا .. (٢٦)﴾ [مريم] أى : كونى سعيدة باصطفاء الله لك مسرورة بما أعطاك ، فما تهتمين به وتحزنين هو عَيْن النعمة التى ليستْ لأحد غيرك من نساء العالمين .

ثم يقول تعالى : ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦)﴾ [مريم]

وهنا يتولَّى الحق سبحانه وتعالى الدفاع عن مريم وتبرير موقفها الذى لا تجد له هى مبرراً فى أعراف الناس ، فَمَنْ يلتمس عُذْراً لامرأة تحمل وتلد دون أن يكون لها زوج ؟ ومهما قالت فلن تُصدَّق ولن تسلَم من ألسنة القوم وتجريحهم .

إذن : فجواب ما يكره السكوت ، فأمرها سبحانه أنْ تلزم الصمت ولا تجادل أحداً فى أمرها : ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦)﴾ [مريم] والصوم هنا أى : عن الكلام ، كما حدث مثل هذا فى قصة زكريا ؛ لأن المعجزات قريبة من بعضها ، فقد أعطى الله

زكريا مع عَطَب الآلات ، وأعطى مريم بنقص الآلات ، ولا يبرر هذه المعجزات ولا يدافع عنها إلا صانعها تبارك وتعالى .

وهذه المسألة اعترض عليها بعض الذين يحبون أنْ ينتقدوا على القرآن ، فقالوا : كيف يأمرها بالصوم عن الكلام ، وفى نفس الوقت يأمرها أن تقول : نذرت للرحمن صوماً[1] ؟

يجوز أنها قالت هذه العبارة أولاً لأول بشر رأته ليتم بذلك إعلان صومها ، ثم انقطعت عن الكلام ، ويجوز أن يكون المراد بالكلام هنا الإشارة ، والدلالة بالإشارات أقوى الدلالات وأعمّها ، فإن اختلفت اللغات بين البشر لأن كل جماعة تواضعوا على لغة خاصة بهم ، فإن لغة الإشارة تظل لغة عامة يتفق عليها الجميع ، فمثلاً حين تُومىء برأسك هكذا تعنى نعم فى كل اللغات ، وحين تُشير بأصبعك هكذا تعنى لا ، إذن : فالدلالة لغة عالمية وعامّة .

وقد تعرَّضَ القرآن الكريم فى موضع آخر لهذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [الكهف]

أى : لا يقربون من الفهم ، فَهُمْ يفهمون من باب أَوْلى ، ومع ذلك كان بينهم كلام وإشارة ولغة ، وفَهِم كل منهم عن الآخر : ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [الكهف]

---

(١) قال أبو يحى زكريا الأنصارى فى « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ص ٣٥٥: « قوله تعالى : ﴿ فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾ [مريم] . مرتب على مقدَّر بينه وبين الشرط تقديره : فإما ترين من البشر أحداً ، فيسألك الكلام ، فقولى إنى نذرت .. الآية ، وبهذا سقط ما قيل من أن قولها « فلن أكلم اليوم إنسيا » كلام بعد النذر ، إذ هو بهذا التقدير من تمام النذر لا بعده » .

ونلحظ فى قولها : ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم] أن النهى عن الكلام مع البشر خاصة فلم تَقُل : لن أتكلم ، وإلاَّ فمعها جبريل ـ عليه السلام ـ يُكلِّمها وبينهما تفاهم ، لعلَّه يرى لها مَخْرجاً ، وقد كانت مريم واثقة مطمئنة إلى هذا المخرج ، فإذا كان ربها ـ تبارك وتعالى ـ أمرها بالصوم عن الكلام ، فإنه سينطق الوليد ليتكلم هو ويدافع عن أمه أمام اتهامات القوم .

ولما تكلّمنا فى قوله تعالى : ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي .. ﴿٢٤﴾﴾ [مريم] استبعدنا أنْ يكون هذا النداء من جبريل ، وقلنا : إنه نداء الوليد ؛ لذلك اطمأنتْ مريم وعلمتْ أنها أمام معجزة عُظْمى ، ووثقتْ تمام الثقة أنها حين تُشير إليه سيتكلم هو ويردُّ عنها الحَرج مع قومها ؛ لأن الكلام ممَّنْ يقدر على الكلام لا يأتى بحجة تُقنع الناس عن خلاف العادة ، أما حين يتكلم وهو فى المهد ، فهذا يعنى أنه معجزة خارقة للعادة ، فإذا كان الوليد معجزةً فالمعجزة فى أُمِّه من باب أَوْلَى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾

ونعجب للسيدة مريم ، فبدلَ أن تخجل مما حدث وتستتر بوليدها عن أعيُن الناس ، أو تنتقل به إلى مكان آخر فى فيافى الأرض إذا بها تحمله ، وتذهب به ، وتبادر به قومها ، وما كانت لتفعل ذلك وتتجرأ عليه إلا لثقتها فى الحجة التى معها ، والتى ستوافيها على يد وليدها .

لذلك لما سأل بعض المستشرقين الإمام محمد عبده رحمه الله فى باريس : بأىٍّ وجه قابلتْ عائشة قومها بعد حديث الإفْك ؟ سبحان الله إنهم يعلمون أنه إفْكٌ وباطل ، لكنهم يرددونه كأنهم لا يفهمون .

فأجاب الشيخ رحمه الله ببساطة : بالوجه الذى قابلتْ به مريم قومها وهى تحمل وليدها . أى : بوجه الواثق من البراءة ، المطمئن إلى تأييد الله ، وأنه سبحانه لن يُسلْمها أبداً ؛ لذلك لما نزلتْ براءة عائشة فى كتاب الله قالوا لها : اشكرى النبى ، فقالت : بل أشكر الله الذى برأنى من فوق سبع سموات[1] .

فلما رآها القوم على هذه الحال قالوا فيها قولاً غليظاً : ﴿ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ ﴾ [مريم] فرياً : الفَرْىُ للجلد : تقطيعه ، والأمر الفرى : الذى يقطع معتاداً عند الناس فليس له مثيل ، أو من الفِرْية وهى تعمد الكذب .

ثم قالوا لها :

﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾

قولهم لمريم : ﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَارُونَ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [مريم] هذا كلام جارح وتقريع ومبالغة منهم فى تعييرها ، فنسبوها إلى هارون الذى سُمِّى

---

(١) قالت عائشة رضى الله عنها أن الوحى نزل على رسول الله ﷺ فسكتنا عنه ، وإنى لأتبين السرور فى وجهه وهو يمسح جبينه ويقول « أبشرى يا عائشة فقد أنزل الله براءتك » قالت : وكنت أشد ما كنت غضباً . فقال لى أبواى : قومى إليه . فقلت : لا والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمدكما ، ولكن أحمد الله الذى أنزل براءتى لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه . أخرجه البخارى فيما ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٧١) فى حديث طويل .

على اسم النبى ، فأنتِ من بيت صلاح ونشأتِ فى طاعة الله ، فكيف يصدر منك هذا الفعل ؟ كما ترى أنت سيدة محجبة يصدر منها فى الشارع عمل لا يتناسب ومظهرها فتلومها على هذا السلوك الذى لا يُتصوَّر من مثلها .

وقوله : ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ .. (٢٨)﴾ [مريم] الرجل السوء هو الذى إنْ صحبْتَه أصابك منه سوء ، ونالك بالأذى ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨)﴾ [مريم] قلنا : إن البَغىّ : هى المرأة التى تبغى الرجال وتدعوهم إليها ، فالمراد : من أين لك هذه الصفة ، وأنت من أسرة خَيِّرة صالحة ؟

وفى هذا دليل على أن نَضْح الأُسَر يؤثر فى الأبناء ، فحين نُكوِّن الأسرة المؤمنة والبيت الملتزم بشرع الله ، وحين نحتضن الأبناء ونحوطهم بالعناية والرعاية ، فسوف نستقبل جيلاً مؤمناً واعياً نافعاً لنفسه ولمجتمعه .

إذن : فقولهم : ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨)﴾ [مريم] اتهام صريح لمريم ، وتأكيد على أنها وقعتْ فى محظور ، وكأنهم مصرون على رَمْيها بالفاحشة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩)﴾

أى : حين قال القوم ما قالوا أشارتْ إلى الوليد وهى واثقة أنه سيتكلم ، مطمئنة إلى أنها لا تحمل دليل الجريمة ، بل دليل البراءة .

فلما أشارتْ إليه تقول لقومها : اسألوه ، تعجَّبُوا : ﴿قَالُوا كَيْفَ

نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ ﴾ [مريم] ونلاحظ فى قولهم أنهم لم يستبعدوا أنْ يتكلّمَ الوليد ، فلمْ يقولوا : كيف يتكلم مَنْ كان فى المهد صبياً ؟ بل قالوا : ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [مريم] أى : نحن ، فاستبعدوا أنْ يكلموه ، فكأنهم يطعنون فى أنفسهم وفى قدرتهم على فَهْم الوليد إنْ كلَّمهم .

والمهد : هو المكان الممهد المعَدّ لنوم الطفل ، لأن الوليد لا يقدر أن يبعد الأذى عن نفسه ، فالكبير مثلاً يستطيع أنْ يُمهد لنفسه مكان نومه ، وأن يُخرِج منه ما يُؤرِّق نومه وراحته ، وعنده وَعْى ، فإذا آلمه شىء فى نومه يستطيع أنْ يتحلَّل من الحالة التى هو عليها ، وينظر ماذا يؤلمه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾

وكأنه قال للقوم : لا تتكلموا أنتم ، أنا الذى سأتكلم . ثم بادرهم بالكلام : ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [مريم] وهكذا استهلّ عيسى عليه السلام كلامه بإظهار عبوديته لله تعالى ، وفى هذا دليل على أنه قد يُقال فيه أنه ليس عبداً ، وأنه إله أو شريك للإله .

لذلك كانت أول كلمة نطق بها ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [مريم] فالمعجزة التى جاءتْ بى لا تمنع كَوْنى عبداً لله ؛ لذلك لو سألتَ الذين يعتقدون فى عيسى عليه السلام أنه إله أو شريك للإله : إنكم تقولون أنه تكلَّم فى المهد ، فماذا قال ؟ فلا يعترفون بقوله أبداً ؛ لأن قوله ونُطْقه : ﴿ إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [مريم] ينفى معتقدهم من أساسه .

ليس هذا وفقط ، بل : ﴿ آتَانِىَ الْكِتَابَ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [مريم] لكن كيف

آتاه الله الكتاب وهو ما يزال وليداً فى مَهْده ؟ قالوا : على اعتبار أنه أمرٌ مفروغ منه ، وحادث لا شكَّ فيه ، كأنه يقول : أنا أهْل لأنْ أتحملَ أمانةَ السماء إلى أهل الأرض . مع أن الكتاب لم يأت بعد ، إلا أنه مُلقَّن لقَّنه ربه الكتاب بالفعل ، وإنْ لم يأت الوقت الذى يُبلِّغ فيه هذا الكتاب .

﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾ [مريم] فسلوكى سلوك قويم ، ولا يمكن أن يكون فىَّ مطعَنٌ بعد ذلك ، وإنْ كان هناك مطعن فهو بعيد عنى ، ولا ذنبَ لى فيه .

ثم يقول :

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ ﴾

أى : وشرَّع لى أيضاً ما دُمْت حياً .. وقد قال عيسى عليه السلام فى المهد هذه الكلمات ليبرِّىء أمه الصدِّيقة ، ذلك أنهم اتهموها فى أعزِّ شىء لديْها ؛ ولذلك لم يكُنْ ليُجدى أىّ كلام منها ، وإنقاذاً لها أبلغها الحق عن طريق جبريل أو عيسى عليهما السلام أنْ تقول :
﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾ [مريم]

ثم يقول :

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾

فلِمَ ذكر والدته هنا ؟ ولِمَ حرص على تقرير بِرِّه بها ؟ قالوا : لأن البعض قد يظن أن عيسى ـ عليه السلام ـ حينما يكبر ويعرف قصة خَلْقه ، وأن أمه أتَتْ به من غير أب ، ودون أنْ يمسسْها بشر

قد تترك هذه المسألة ظلالاً فى نفسه وتُساوِره الشكوك فى أمه ، فأراد أنْ يقطع كل هذه الظنون .

ذلك لأنه هو نفسه الدليل ، وهو نفسه الشاهد على براءة أمه ، والدليل لا يُشكّ فى المدلول ، فكأنه يقول للقوم : إياكم أنْ تظنوا أنى سأتجرأ على أمى ، أو يخطر ببالى خاطر سوء نحوها .

ثم يقول : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) ﴾ [مريم] فنفى عن نفسه صفة الجبروت والقسوة والتعاظم ؛ لأن الرسول لابُدَّ أنْ يكون ليِّنَ الجانب رفيقاً بقومه ؛ لأنه أتى ليُخرِج الناس ممَّا ألفُوه من الفساد إلى ما يثقل عليهم من الطاعة .

والإنسان بطبعه حين يألَف الفساد يكره مَنْ يُخرجه عن فساده ، فمن الطبيعى أن يتعرّض النبى لاستفزاز القوم وعنَادهم ومكابرتهم ، فلو لم يكُنْ ليِّن الجانب ، رقيق الكلمة ، يستميل الأذن لتسمع والقلوب لتعى ما صلح لهذه المهمة .

لذلك يخاطب الحق ـ تبارك وتعالى ـ نبيه محمداً ﷺ بقوله : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. (١٥٩) ﴾ [آل عمران]

ومعنى ﴿ شَقِيًّا (٣٢) ﴾ [مريم] أى : عاصياً ، وما أبعدَ مَنْ هذه صفاته عن معصية الله التى يشقى بسببها الإنسان .

ثم يقول تعالى عن عيسى عليه السلام أنه قال :

﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ﴾

سبق أن قلنا فى قصة يحيى عليه السلام : إن هذه الأحداث أعلام

ثلاثة فى حياة الإنسان : يوم مولده ، ويوم موته ، ويوم أنْ يُبعث يوم القيامة . فما وجه السلامة فى هذه الأحداث بالنسبة لعيسى عليه السلام ؟

قوله : ﴿ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ .. (٣٣) ﴾ [مريم] لأن يوم مولده مَرَّ بسلام ، رغم ما فيه من عجائب ، فلم يتعرَّض له أحد بسوء ، وهو الوليد الذى جاء من دون أب ، وكان من الممكن أنْ يتعرّض له ولأمه بعض المتحمسين الغيورين بالإيذاء ، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، ومَرَّ الميلاد بسلام عليه وعلى أمه .

﴿ وَيَوْمَ أَمُوتُ .. (٣٣) ﴾ [مريم] لأنهم أخذوه ليصلبوه ، فنجّاه الله من أيديهم ، وألقى شبهه على شخص آخر ، ورفعه الله تعالى إلى السماء .

﴿ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ﴾ [مريم] فليس هناك من الرسل مَنْ سيسأل هذه الأسئلة ، ويناقش هذه المناقشة التى نُوقشها عيسى فى الدنيا :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ .. (١١٧) ﴾ [المائدة]

وليس هذا قَدْحاً فى مكانة عيسى عليه السلام ؛ لأن ربَّه تبارك وتعالى يعلم أنه ما قال لقومه إلا ما أُمِرَ به ، ولكن أراد سبحانه توبيخ القوم الذين اتخذوه وامه إلهين من دون الله ، فوجْه السلام فى يوم ﴿ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ﴾ [مريم] انه نُوقِش فى الدنيا وبُرِّئتْ ساحته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

﴿ ذَلِكَ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [مريم] أى : ما تقدَّم من قصة عيسى عليه السلام ﴿ قَوْلَ الْحَقِّ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [مريم] أى : يقولها الله تعالى قَوْلَة حَقٍّ ، والحق هو الله ، فالذى قَصَّ عليك هذا القَصَص هو الله ، وقوله الحق الذى لا باطلَ فيه ، فيكون الحق الذى هو ضد الباطل ، فالمعنيان ملتقيان .

أو : يكون المراد بقول الحق كلمة (كُنْ) التى بها يتمّ الخَلْق .

ثم يقول تعالى : ﴿ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [مريم] من المراء : وهو الاختلاف والجدال بالباطل ، فالحق سبحانه يعلم أنهم سيشكُّون فيه ، ويتجادلون بالباطل ، وأنهم سيقولون فيه الأقاويل ، وكأن الله تعالى يقول لهم : اتركوا هذه الأقاويل والأباطيل فى شأن عيسى وخُذُوا بما أخبرتكُم به من خبره ، فهو الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلْفه .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾

لماذا تكلم الحق سبحانه هنا عن نفى الولد بالذات ؟

قالوا : لأن مسألة الشريك لله تعالى تُنفَى بأولية العقل ، فإنْ كان

كُلُّ إله صالحاً للفعل وللترك ، فهذه صورة مُكرَّرة لا تناسب الإله ، وإنْ كان هذا إلهاً لكذا وهذا إله لكذا ، فما عند أحدهما نقص فى الآخر ، وهذا محال فى الإله ، ولو أن هناك إلهاً آخر لذهب كل منهما بجزء ، كما قال سبحانه : ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١)﴾ [المؤمنون]

لذلك نفى مسألة الولد ؛ لأنها ذات أهمية خاصة بالنسبة لقصة عيسى عليه السلام ؛ لأن الولد من الممكن أنْ يُستبعَد فيه الدليل ، لماذا ؟ لأن دليله اتخاذُ الولد أو حُبُّ الولد ، والإنسان يحب الولد ويسعى إليه ، لماذا ؟

قالوا : لأن الإنسان ابْنُ دنياه ، وهو يعلم أنه ميت ميت ، فيحبّ أن يكون له امتداد فى الدنيا وذِكْر من بعده ، فالإنسان يتمسّح فى الدنيا حتى بعد موته ، وهو لا يدرى أن ذِكْر الإنسان لا يأتى بعده ، بل ذِكْره يسبقه إلى الآخرة بالعمل الصالح .

إذن : فحبُّ الولد هنا لاستدامة استبقاء الحياة ، وهذا مُحَال فى حَقِّ الله تبارك وتعالى ؛ لأنه الباقى الذى لا يزول .

وقد يتخذ الولد ليكون عِزْوة لأبيه وسَنَداً ومُعيناً ، وهذا دليل الضَّعْف ، والحق سبحانه هو القوىّ الذى لا يحتاج إلى معونة أحد . إذن : فاتخاذ الولد أمر منفيّ عنه تبارك وتعالى ، فهو أمر لا يليق بمقام الألوهية ، ويجب أنْ تُنزِّه الله تعالى أن يكون له ولد ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿سُبْحَانَهُ .. (٣٥)﴾ [مريم]

وسبحان تدل على التنزيه المطلق لله تعالى تنزيهاً له فى ذاته ، وفى صفاته ، وفى أفعاله ، فهو سبحانه ليس كمثله شىء ، وإنْ

وجدتَ صفـة مشتركة بينك وبين الله كـأنْ يكونَ لله تعالى وجه ويد ، ولكَ وجـه ويد ، فإياك أنْ تنزل بالمسـتوى الأعلى فـتقـول : وجهـه كـوجهى ، أو يـده كيـدى ، لأن لك وجـوداً ولله تعالـى وجود ، فـهل وجودك كوجود الله ؟

وجودك مـسبوق بعدم ويلحـقه العدم ، ووجوده تعـالى لم يُسبَق بعـدم ولا يلحـقـه العـدم ، فـعلـيك ـ إذن ـ أن تقـول فى مـثل هذه المسائل : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

والمتتبع لمادة (سَبَّح) فى القرآن الكريم يجد أنها جاءت بكل الصِّيَغ :

الماضى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الحديد]

والمضارع : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الجمعة]

والأمر فى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴿١﴾ ﴾ [الأعلى]

فما دام الكون كله سبَّح لله ، ولم ينقطع عن تسبيحه ، بل ما زال مُسبِّحاً ، فلما خلق الخلق أمـرهم بالتسبيح ؛ لأنهم جـزء من منظومة الكون المسبِّح ، وعليهم أنْ ينتظمـوا معه ، ولا يكونوا نشازاً فى كون الله .

أما المـصدر (سبـحان) فـقد جاء ليـدل على التنزيه المطلق لله تعالـى ، حتى قبل أن يخـلق الخَلْق ، والتنزيه ثابت له تعالـى قبل أنْ يخلق مَنْ يُنزِّهه كما فى قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء]

لأن المـسألة عـجيـبة وفـوق إدراك العقل ، فـقد جـاء بالمصـدر (سـبحـان) الدالّ على التنزيه المطلَق لله ، كـأنه تعالى يُحـذِّر الذين

يُحكِّمون عقـولهم ، ولا يُحكِّمون قدرة الله الذى خلقهـم بقانون الزمان والمكان والبُعْد والمسافة ، فكُلٌّ فعل يتناسب قوةً وقدرةً مع فاعله .

ثم يقول تعالى : ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥)﴾ [مريم] ذلك لأن الآية فى خَلْق عيسى عليه السـلام مخالفـة للنواميس كلها ، وخارقة للعادة التى ألِفها الناس ، فإياك أنْ تتعجب من فعْل الله تعالى فى يحيى ، حيث جاء به مع عطب الآلات ، أو تتعجب من خَلْق عيسى حيث جاء به مع نقص الآلات .

وإياك أنْ تتعَـجَّب من كلام عيـسى وهو فى المهـد صَبِيـاً ، فهى أمور نعم خـارقة للعـادة وللنواميس ، فخُـذْها فى إطار (سبـحانه) وتنزيهاً له ؛ لأنه تعالى إذا أراد شيئاً لا يعالجه بعمل ومُزاولة ، وإنما يعالجه (بكُنْ) فيكون .

ولا تظن أن خَلْق الأشـياء متـوقف على هذا الأمـر (كُنْ) ، فإن كان الفعل مُكوّناً من (كـاف) و (نون) فقبل أن تنطق النون يكون الشىء موجوداً ، لكن (كُنْ) هو أقصر ما يمكن تصوُّره لنا ، والحق سبـحانه يخـاطبنا بما يُقـرِّب هذه المسـألة إلى عقولـنا ، وإلا فإرادته سبحانه ليستْ فى حاجة إلى قول (كُنْ) فما يريده الله يكون بمجرد إرادته .

كمـا أنك لو أمعنتَ النظر فى قـوله تعالى : ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ.. (٣٥)﴾ [مريم] تجد (يقُـولُ لَهُ) أى : للشىء ، فكأن الشىء موجود بالفعل ، مـوجود أزلاً ، فالأمر بكُنْ ليس لإيجاده من العدم ، بل لمجرد إظهاره فى عالم الواقع .

ثم يقول :

﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

الرب : هو المتولّى للتربية والرعاية . والتربية تعنى أن يأخذ المربِّى المربَّى بالرياضة إلى ما يصلحه لأداء مهمته والقيام بها ، كما لو أردتَ مهندساً تُربّيه تربية مهندس ، وإن أردت طبيباً تربيه تربية طبيب . ونحن هنا أمام قوم أشركوا بالله ، ونحتاج لداعية يُخرِجهم من الشرك إلى الإيمان ، ومن المعصية إلى الطاعة .

فالمعنى : ما دام أن الله تعالى ربى وربكم ، والمتولّى لتربيتنا جميعاً ، فلا بُدَّ أن يُربّى لكم مَنْ يصلحكم ؛ لأنه تعالى لا يخاطبكم مباشرة ، بل سيبعثنى إليكم أبلغكم رسالته ، وأدعوكم إلى عبادته وحده لا شريك له ، وما دام الله ربى وربكم فمن الواجب أنْ تُطيعوه ﴿ فَاعْبُدُوهُ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [مريم] والعبادة أنْ يطيعَ العابدُ معبوده فى أوامره وفى نواهيه . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ .. ﴿٥﴾ ﴾ [البينة]

ثم يقول تعالى : ﴿ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [مريم] أى : الذى لا التواءَ فيه ولا اعوجاجَ ، وهو الطريق الذى يُوصِّلك لمقصودك من أقرب طريق ، وبأقلّ مجهود ، ومعلوم أن الخط المستقيم هو أقرب طريق بين نقطتين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

الأحزاب : أى الذين اختلفوا فى عيسى عليه السلام من قومه ، فمنهم مَنْ قال : هو إله ، ومنهم مَن قال : ابن إله . وآخر قال : هو

ثالث ثلاثة . ومنهم مَنْ رماه بالسحر وقال عنه بعضهم : ابن زنى - نستغفر الله مما يقوله الظالمون والكافرون - .

والأحزاب : جمع حِزْب ، وهم طائفة من الناس اجتمعوا حول مبدأ من المبادىء ، ورأى من الآراء يدافعون عنه ويعتقدونه ، ويسيرون فى حياتهم على وفقه ، ويُخضعون حركة حياتهم لخدمته .

ومعنى : ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ .. ٣٧﴾ [مريم] يعنى من داخل المؤمنين به ومن أتباع عيسى أنفسهم ، فالذين قالوا عنه هذه الأباطيل ليسوا من أعدائه ، بل من المؤمنين به .

وهكذا اختلف القوم فى أمر عيسى ، وكان لكل منهم رَأْى ، وجميعها مُنَافية للصواب بعيدة عن الحقيقة ؛ لذلك توعّدهم الخالق سبحانه بقوله : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٣٧﴾ [مريم]

فقد قلتم فى عيسى ما قُلْتم فى الدنيا ، وخُضْتم فيه بما أحببتُمْ من القول ؛ لأن الله تعالى جعل إرادتكم نافذة على جوارحكم ، وأعطاكم حرية الفعل والاختيار ، فوجّهتم جوارحكم واخترتم ما يُغضب الله ، فكأن عقوبة الدنيا لا تناسب ما فعلوه ، ولابُدَّ لهم من عقوبة آجلة فى الآخرة تناسب ما حدث منهم فى حَقِّ نبيهم وفى حَقِّ ربهم تبارك وتعالى .

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٣٧﴾ [مريم] ومشهد يوم عظيم هو يوم القيامة ، يوم تُبْلَى السرائر ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله .

وسماه المشهد العظيم ؛ لأنه يوم مشهود يشهده الجميع ؛ لأن العذاب فى الدنيا مثلاً لا يشهده إلا الحاضرون المعاصرون ، ولا يشهده

السابقون ولا اللاحقون ، أما عذاب الآخرة فهو المشهد العظيم الذى يراه كل الخَلْق .

وربما كان بعض العذاب أهونَ من رؤية الغير للإنسان وهو يُعذَّب ، فربما تحمَّل هو العذاب فى نفسه أما كونه يُعذَّب على مرأىً من الناس جميعاً ، ويرونه فى هذه المهانة وهذه الذلة وقد كان فى الدنيا عظيماً أو جباراً أو عاتياً أو ظالماً ، لا شكَّ أن رؤيتهم له فى هذه الحالة تكون أنكَى له وأبلغ .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى عنهم فى آية أخرى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧)﴾ [الأنعام] هذا منهم مجرد كلام : ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ .. (٢٨)﴾ [الأنعام] أى : ظهر لهم ما كانوا يخفون ولم يقُلْ يخفَى عنهم ، كأنهم كانوا يعلمون عنه شيئاً ولكنهم أخفوْه .

وقال عنهم : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا[1] رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾ [السجدة]

فلماذا أبصروا وسمعوا الآن ؟ لأنهم كانوا يسمعون فى الدنيا عن غير وَعْى ، فينكرون ويُبصرون آيات الله فى الكون ولا يؤمنون ، أما فى الآخرة فقد انكشفتْ لهم الحقائق التى طالما أنكروها ، ولم يَعُدْ هناك مجال للمكابرة أو الإنكار ؛ لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٨)﴾

---

(١) نكَّس رأسه : طأطأه ذلاً وانكساراً . [القاموس القويم ٢/٢٨٦] .

قوله : ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ.. ㉞﴾ [مريم] أى : أسمع بهم وأبْصر بهم ، وهذه من صيَغ التعجُّب على وزن (أفعل به) يعنى ما أشَدّ سمعهم ، وما أشَدّ بصرهم ، فهم الآن يُرهفُون السمع ويُدقِّقون النظر حتى إن الإنسان ليتعجب من سمعهم الدقيق ، وبصرهم المحيط بعد أن كانوا فى الدنيا يضعون أصابعهم فى آذانهم فلا يسمعون ، ويستغشون ثيابهم فلا يبصرون ، كانوا فى عَمىً عن آيات الله الواضحات التى تثبت صدْق الرسل ، وعن الآيات التى تحمل الأحكام ، وعن الآيات الكونية التى تدلُّ على قدرة الصانع الحكيم .

وقوله : ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا .. ㉞﴾ [مريم] أى : أسمع بهم وأبصر بهم فى هذا اليوم يوم القيامة ، والإنسان بحكم خَلْق الله تعالى له ، واستخلافه فى الأرض جعل له السيطرة على جوارحه فهو يأمرها فتطيعه ، فجوارح الإنسان وطاقاته مُسخَّرة لإرادته ، فلسانك تستطيع أنْ تنطقَ بـ لا إله إلا الله . كما تستطيع أن تقول : لا إله أو تقول : الله ثالث ثلاثة . واللسان مطْواع لك لا يعصاك فى هذه أو تلك ، وما أعطاك الله هذه الحرية وكفَل لك الاختيار إلا لأنه سيحاسبك عليها يوم القيامة : أأردتَ الخير الذى وجَّهك إليه أم أردتَ الشر الذى نهاك عنه ؟

أما يوم القيامة فتنحلّ هذه الإرادة ، ويبطل سلطانها على الجوارح فى يوم يُنادى فيه الحق تبارك وتعالى : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ⑯﴾ [غافر] يومها ستشهد الجوارح على صاحبها ، كما قال الحق سبحانه تعالى : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ㉔﴾ [النور]

ويقول تعالى : ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. ㉑﴾ [فصلت]

لم لا ؟ وقد تحررتْ الجوارح من قَيْد الإرادة ، وجاء الوقت لتشتكى

إلى الله ، وتنطق بكلمة الحق التى كتمتْها تحت وطأة الإرادة وقهْرها .

وسبق أن ضربنا مثالاً لذلك بمجموعة من الجنود يسيرون تحت إمْرة قائدهم المباشر ، ويأتمرون بأمره ، ويطيعونه طاعة عمياء ، فإذا ما عادوا إلى القائد الأعلى انطلقتْ ألسنتهُم بالشكوى من تعسُّف قائدهم وغَطْرسته .

ثم يقول تعالى : ﴿ لَـٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٣٨) ﴾ [مريم] فيا ليتهم فهموا هذه المسألة ، لكنهم ظلموا ، وما ظلموا إلا أنفسهم ، فالله تبارك وتعالى لا يضره كفر الكافرين ، ولا ينقص من مُلْكه تعالى وسلطانه ، لكن كيف يظلم الإنسان نفسه ؟

يظلم الإنسان نفسه ؛ لأنه صاحب عَقْل واعٍ يستقبل الأشياء ويميزها ، وصاحب نفس شهوانية تصادم بشهواتها العاجلة هذا العقل الواعى ، وتصادم المنهج الربّانى الذى يأمرها بالخير وينهاها عن الشر ، هذه النفس بشهواتها تدعو الإنسان إلى مرادها وتوُقعه فى المتعة الوقتية واللذة الفانية التى تستوجب العذاب وتُفوِّت عليه الخير الباقى والنعيم الدائم .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) ﴾ [يونس]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ .. (٣٩) ﴾ [مريم] الإنذار : هو التحذير من شر قادم .

والحسرة : هى الندم البالغ الذى يصيب النفس الإنسانية حينما يفوتها خير لا يمكن تداركه ، وحينما تلقى شيئاً لا تستطيع دفعه . أما الندم فيكون حزناً على خير فاتَكَ ، لكن يمكن تداركه ، كالتلميذ الذى يخفق فى امتحان شهر من الشهور فيندم ، لكنه يمكنه تدارك هذا الإخفاق فى الشهر التالى ، أما إذا أخفق فى امتحان آخر العام فإنه يندم ندماً شديداً ، ويتحسَّر على عام فات لا يمكن تداركُ الخسارة فيه .

لذلك سيقول الكفار يوم القيامة : ﴿ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا .. (٣١) ﴾ [الأنعام]

والمعنى : يا حسرتنا تعالَىْ فهذا أوانك ، واحضرى فقد فاتتْ الفرصة إلى غير رجعة . إذن : فيوم الحسرة هو يوم القيامة ، حيث لن يعود أحدٌ ليتدارك ما فاته من الخير فى الدنيا ، وليتَ العقول تعى هذه الحقيقة ، وتعمل لها وهى ما تزال فى سَعَة الدنيا .

ومعنى : ﴿ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ .. (٣٩) ﴾ [مريم] أى : وقع وحدث ، ولا يمكن تلافيه ، ولم يَعُدْ هناك مجال لتداركِ ما فات ؛ لأن الذى قضى هذا الأمر وحكم به هو الله تبارك وتعالى الذى لا يملك أحدٌ ردَّ أمرِه أو تأخيره عن موعده أو مناقشته فيه ، فسبحانه ، الأمر أمره ، والقضاء قضاؤه ، ولا إله إلا هو .

وروى عن رسول الله ﷺ : « أن الله حينما يُدخل أهلَ الجنةِ الجنةَ ، ويُدخل أهلَ النارِ النار يأتى بالموت على هيئة كبش ، فيقول للمؤمنين : أتعرفون هذا ؟ قالوا : نعم هو الموت جاءنا وعرفناه ، ويقول للكفار : أتعرفون هذا ؟ يقولون : عرفناه ، فيميت

الله الموت ويقول لأهل الجنة : خلود بلا موت . ولأهل النار : خلود بلا موت »[١] .

وهكذا قضى اللهُ الأمرَ ليقطع الأمل على الكفار الذين قد يظنُّون أن الموت سيأتى ليُخرجهم مما هُمْ فيه من العذاب ويريحهم ، فقطع الله عليهم هذا الأمل وآيسهم منه ، حيث جاء بالموت مُشخَّصاً وذبحه أمامهم ، فلا موتَ بعد الآن فقد مات الموت .

لذلك يخبر عنهم الحق تبارك وتعالى : ﴿وَنَادَوْا يَـٰمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧)﴾ [الزخرف]

ثم يقول تعالى : ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٩)﴾ [مريم]

الغفلة : أن يصرف الإنسان ذهْنه عن الفكر فى شىء واضح الدليل على صحته ؛ لأن الحق ـ تباركَ وتعالى ـ ما كان ليُعذِّب خَلْقه إلا وقد أظهر لهم الأدلة التى يستقبلها العقل الطبيعى فيؤمن بها .

فالذى لا يؤمن ـ إذن ـ إما غافل عن هذه الأدلة أو متغافل عنها أو جاحد لها ، كما قال سبحانه : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤)﴾ [النمل]

ومن الغفلة غفلتهم عن الموت ، وقد قالوا : من مات قامت قيامته[٢] .

ومن حكمة الله أنْ أبهم الموت ، أبهمه وقتاً ، وأبهمه سبباً ،

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٣٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٤٩) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه . وقد وصف الكبش فى الحديث بأنه كبش أملح . قال القرطبى : « الحكمة فى ذلك أن يجمع بين صفتى أهل الجنة والنار السواد والبياض » نقله ابن حجر فى الفتح (٨/٤٢٨) .

(٢) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غنىً كدَّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسَّعه عليكم » الحديث .

وأبهمه مكاناً ، فكان إبهـام الموت هو عَيْن البيان للمـوت ؛ لأن إبهامه يجعل الإنسـان على استعداد للقـائه فى أىّ وقت ، وبأىّ سبب ، وفى أىّ مكان ، فـالموت يأتـى غفلةً ؛ لأنه لا يتـوقف على وقت أو سـبب أو مكان .

فالطفل يمـوت وهو فى بطن أمه ، ويمـوت بعد يوم ، أو أيام من ولادته ، ويموت بعـد مائة عام ، ويـموت بسبب وبدون سـبب ، وقد نتعجَّب من موت أحدنا فجـأة دون سبب ظاهر ، فلم تصدمه سيارة ، ولم يقع عليـه جدار أو حـجـر ، ولم يداهمه مـرض ، فـما السـبب ؟ السبب هو الموت ، إنه سيموت ، أى أنه مات لأنه يموت ، كما يقال : والموت من دون أسباب هو السبب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

كيف يقـول الحق سبـحانه : ﴿ نَرِثُ الأَرْضَ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [مريم] وهى والكون كله ملْك لـه تعالى ؟ قـالوا : لأنه تبـارك وتعـالى هو المـالك الأعلى ، وقدَ ملَّك من خَلْقه من ملَّك ، هذا فى الـدنيا ، أما فى الآخرة فليس لأحد ملك على شىء ، ليس للإنسان سيطرة حتى على جوارحه وأعضـائه ، فالأمـر كله يومئـذ لله تعالـى ، فيُردّ المـلْك إلى صاحـبه الأعلى ، ولا أحدَ يرث هذا الملْكَ إلا الله تعالى .

لذلك ، فالذين اغـترُّوا بنعم الله فى الدنيا فظنوا أن لهم مـثْلها فى الآخرة ، فقـال أحدهم : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف] نقول له : لا ، صحـيح ستُردّ إلى ربك ، لكن لن يكون لك عنده شىء ؛ لأن الذى ملّـكـك فى الدنيا ملّـكك مـن باطن ملكيته تعالى ، فإذا ما جاءت الآخرة كان هو الوارث الوحيد .

وقوله : ﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [مريم] أى : أن الأمر لا يتوقف على أنْ نرث مُلْكهم ، ويذهبوا هم لحال سبيلهم ، بل سنرث مُلْكهم ، ثم يرجعون إلينا لنحاسبهم فلن يخرجوا هم أيضاً من قبضة الملكية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى فى استهلال سورة مريم عن ميلاد سيدنا يحيى لزكريا ، وعن ميلاد سيدنا المسيح من مريم ، أراد أنْ يعرض لنا موكباً من مواكب الرسالات التى أرسلها الله نوراً من السماء لهداية الأرض ، فقال :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [مريم]

فهو أبو الأنبياء وقمتهم ؛ لأن الله تعالى مدحه بقوله :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً .. ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النحل]

فليس هناك فرد يحتوى على خصال الكمال ومواهب الفضل كلها ، لكن المجموع يحتويها فهذا شجاع قوى البنية ، وهذا ذكى ، وهذا حادّ البصر ، وهذا نابغ فى الطب ، وهذا فى الزراعة ، مواهب متفرقة بين البشر ، لا يجمعها واحد منهم ، فلا طاقته ولا حياته ولا مجهوده يستطيع أن يكون موهوباً فى كل شىء ، فالكمال كله مُوزّع فى الخَلْق ، إلا إبراهيم ، فقد كان عليه السلام يساوى فى مواهبه أمةً بأكملها .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾ [مريم] صدّيق : من مادة صدق ، ومعناها : تكلّم بواقع ؛ لأن الكذب أنْ تتكلّم بغير واقع . وهذا يُسمَّى : صادق فى ذاته ، أما قولنا : صِدِّيق أى : مبالغة فى الصدق ،

فقد بلغ الغاية فى تصديق ما يأتى من الحق تبارك وتعالى ، فهو يطيع ويُذعن ولا يناقش ، كما رأينا من أم موسى - عليه السلام - لما قال لها الحق سبحانه : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي .. ⑦ ﴾ [القصص]

بالله ، أى أم يمكن أن تُصدِّق هذا الكلام ، وتنصاع لهذا الأمر ؟ وكيف تُنجِّى ولدها من شر أو موت مظنون بموت مُحقَّق ؟

إذن : فهذا كلام لا يُصدَّق ، وفوق نطاق العقل عند عامة الناس ، أما فى موكب الرسالات فالأمر مختلف ، فساعة أنْ سمعتْ أم موسى هذا النداء لم يساورها خاطر مخالف لأمر الله ، ولم يراودها شكٌّ فيه ؛ لأن وارد الله عند هؤلاء القوم لا يُعارض بوارد الشيطان أبداً ، وهذه قضية مُسلَّمة عند الرسل .

إذن : الصِّدِّيق هو الذى بلغ الغاية فى تصديق الحق ، فيورثه الله شفافية وإشراقاً بحيث يهتدى إلى الحق ويُميِّزه عن الباطل من أول نظرة فى الأمر ودون بحث وتدقيق فى المسألة ؛ لأن الله تعالى يهبُكَ النور الذى يُبدِّد عندك غيامات الشك ، ويهبك الميزان الدقيق الذى تزنُ به الأشياء ، كما قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. ㉙ ﴾ [الأنفال]

ومن هنا سُمِّى أبو بكر رضى الله عنه صدِّيقاً ، ليس لأنه صادق فى ذاته ، بل لأنه يُصدِّق كل ما جاءه من رسول الله ﷺ ؛ لذلك لما أخبروه خبر الإسراء والمعراج الذى كذَّب به كثيرون ، ماذا قال ؟ قال : « إنْ كان قال فقد صدق »[1] .

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠١٢) وتمامه أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدقه بخبر السماء ، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس ، والسماء أبعد منها بكثير .

فالأمر عنده متوقف على مجرد قول رسول الله ، فهذا هو الميزان عنده ، وطالما أن رسول الله قد قال فهو صادق ، هكذا دون جدال ، ودون مناقشة ، ودون بَحْث فى ملابسات هذه المسألة ؛ لذلك من يومها وهو صِدِّيق عن جدارة .

والسيدة مريم قال عنها الحق تبارك وتعالى : ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ .. (٧٥)﴾ [المائدة] فسماها صديقة ؛ لأنها صدَّقتْ ساعة أنْ قال لها الملَك : ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩)﴾ [مريم]

فوثقتْ بهذه البشارة ، وأخذتْها على أنها حقيقة واقعة ، فلما جاء الوليد أشارت إليه وهى على ثقة كاملة ويقين تام أنه سينطق ويتكلم .

إذن : فالصِّديق ليس هو الذى يَصدُق ، بل الذى يُصدِّق . وهكذا كان خليل الله إبراهيم (صديقاً) وكان أيضاً (نبياً) لأن الإنسان قد يكون صديقاً يعطيه الله شفافية خاصة ، وليس من الضرورى أن يكون نبياً ، كما كانت مريم صِدِّيقة وأبو بكر صِدِّيقاً ، فهذه إذن صفة ذاتية إشراقية من الله ، أما النبوة فهى عطاء وتشريع يأتى من أعلى ، وهُدى يأتى من السماء يحمل النبى مسئوليته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢)﴾

هذا الحديث من إبراهيم عليه السلام لأبيه على اعتبار أنه نبى جاء ليُعدِّل سلوك الناس على وَفْق منهج الله ، وأوّلهم أبوه ، وقد ذكره القرآن هكذا بأبوته لإبراهيم دون أن يذكر اسمه ، إلا فى آية واحدة قال فيها : ﴿لِأَبِيهِ آزَرَ .. (٧٤)﴾ [الأنعام]

وهذه الآية أحدثت إشكالاً فظنَّ البعض أن آزر هو أبو إبراهيم الحقيقى الصُّلبى ، وهذا القول يتعارض مع الحديث النبوى الشريف الذى يُوضّح طهارة أصْل النبى محمد ﷺ حيث قال : « أنا خيار من خيار ، ما زِلت أنتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات »[1] .

إذن : فأصول النبى إلى آدم « طاهر متزوج طاهرة » ، فلو قلنا : إن آزر الذى قال الله فى حقه : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ .. (١١٤) ﴾ [التوبة] هو أبو إبراهيم ، لَكَانَ فى ذلك تعارض مع الحديث النبوى ، فكيف يكون فى آباء محمد ﷺ مثل هذا الكافر ؟

ولو تأملنا إطلاقات الأبوّة فى القرآن الكريم لخرجنا من هذا الإشكال ، فالقرآن تكلم عن الأبوة الصُّلْبية المباشرة ، وتكلم عن الأُبوة غير المباشرة فى الجد وفى العم ، فسمَّى الجد أباً ، والعم أباً ؛ لأنه يشترك مع أبى فى جدى ، فله واسطة استحق بها أن يُسمَّى أباً . وفى القرآن نصَّان : أحدهما : يُطلِق على الجد أباً ، والآخر يُطلِق على العم أباً .

فالأول فى قوله تعالى من قصة يوسف عليه السلام :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾ [يوسف]

فاختاروا يوسف لتأويل رؤياهم ؛ لأنهم رأوه من المحسنين ،

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (١/١٦٦) من حديث واثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » . وعند ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق الكبير (١/٢٧٨) عن أنس قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨) ﴾ [التوبة] بفتح الباء ، وقال : « أنا أنفسكم نسباً وصهراً وحسباً ، ليس فى آبائى من لدن آدم سفاح ، كلنا نكاح » .

فكأن الإحسان له مقاييس معروفة حتى عند غير المحسن ، فلما تعرَّضوا لأمر يُهمهم لم يلجئوا إلا لهذا الرجل الطيب ، فمقاييس الكمال محترمة ومعتبرة حتى عند فاقد الكمال .

فلما قالوا له ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [يوسف] علم أنهم متتبعون حركاته وتصرفاته ، وكيف سلوكه بينهم ، فأراد أنْ يزيدهم مما عنده من إشراقات ، فأمْره ليس مجرد سلوك طيب وسيرة حسنة بينهم ، بل عنده أشياء أخرى ، فقال : ﴿لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا.. ﴿٣٧﴾﴾ [يوسف]

ثم ترك الإجابة عن سؤالهم ، وأخذ في الحديث فيما يخصّه كنبيّ وداعية إلى الله ، فأخبرهم أن ما عنده من مواهب هو عطاء من الله ، وليس هو بأذكى منهم ، فقال : ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ .. ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف]

ثم يلفت نظر رفاقه إلى بطلان ما هم عليه من عبادة أرباب متفرقين لم ينفعوهم بشيء ، فهاهم يتركونهم ويلجئون إلى يوسف الذي له ربٌّ واحد : ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف]

وهكذا كان يوسف النبي الداعية حريصاً على نَشْر دعوته وهداية مَنْ حوله ، حتى وهو في سجنه ما نسيَ مهمته ، وما قصَّر في دعوته ، فلما فرغ من موعظته واستطاع بلباقة أنْ يُسمعهم ما يريد ، وإلاّ لو أجابهم عن سؤالهم من بداية الأمر لانصرفوا عن هذه الموعظة ، وما أعاروها اهتماماً .

والآن يعود إلى سؤالهم وتفسير رؤياهم : ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي

رَبَّهُ[1] خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) ﴾ [يوسف]

شَاهِدُنا في هذه القصة هو قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ .. (٣٨) ﴾ [يوسف] ويوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، فسمَّى الأجداد آباءً .

وقد يُسمَّى العَمُّ أباً ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ .. (١٣٣) ﴾ [البقرة] فعَدَّ إسماعيلَ في آباء يعقوب ، وهو عَمُّه .

إذن : لو أن القرآن الكريم حينما تحدث عن أبي إبراهيم فقال (لأبيه) في كل الآيات لانصرف المعنى إلى الأبوة الصُّلْبية الحقيقية ، أما أنْ يقول ولو مرة واحدة ﴿ لأَبِيهِ آزَرَ .. (٧٤) ﴾ [الانعام] فهذا يعني أن المراد عمه ؛ لأنه لا يُؤتى بالعَلَم بعد الأبوة إلا إذا أردنا العم ، كما نقول نحن الآن حين نريد الأبوة الحقيقية : جاء أبوك هكذا مبهمة دون تسمية ، وفي الأبوة غير الحقيقية نقول : جاء أبوك فلان .

وبناءً عليه فقد ورد قوله تعالى : ﴿ لأَبِيهِ آزَرَ .. (٧٤) ﴾ [الأنعام] مرة واحدة ، ليثبت لنا أن آزر ليس هو الأب الصُّلْبي لإبراهيم ، وإنما هو عَمُّه[2] ، وبذلك يسلَم لرسول الله ﷺ طهارة نسبه ونقاء سلْسلته إلى آدم عليه السلام .

---

(١) الرب : يُطلق على المالك وعلى السيد وعلى راعي الأسرة ورئيسها . [القاموس القويم ١/ ٢٥١].

(٢) آزر : اسم أعجمي . وقد اختلف في اسم أبي إبراهيم ، فالنسابون والمفسرون على أن اسم أبيه « تارح » وبعضهم قال « تارخ » . وبعضهم قال : إنهما اسمان له كما لكثير من الناس وكما كان ليعقوب عليه السلام فهو إسرائيل أيضاً . والبعض قال : إن تارح اسم وآزر لقب . وقيل : إن آزر هو اسم للصنم الذي كانوا يعبدونه . انظر : تفسير القرطبي (٣/ ٢٥٤٤) ، وابن كثير في تفسيره (٢/ ١٤٩) وقصص الأنبياء لابن كثير (ص١٠٤) ، ولسان العرب (مادة أزر) . وقصص الأنبياء ـ عبد الوهاب النجار (ص ٩٣-٩٦) .

وقوله : ﴿ يَـٰأَبَتِ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [مريم] وكان التركيب العربى يقتضى أن يقول : يا أبى ، إلا أنهم يحذفون ياء المتكلم ويُعوِّضون عنها بالتاء ، فلماذا ؟ قالوا : لأن (أبت) لها مَلْحظ دقيق ، فهو يريد أنْ يُثبت أنه وإنْ كان أباً إلا أن فيه حنان الأبوين : الأب والأم . فجاء بالتاء التى تشير إلى الجانب الآخر ؛ لذلك نجدها لا تُقال إلا فى الحنانية المطلقة (يَا أَبَتِ) كما لو ماتتْ الأم مثلاً ، فقام الأب بالمهمتين معاً ، وعوض الأبناء حنان الأم المفقود .

وقوله : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [مريم] يبدو من أسلوب إبراهيم عليه السلام مع أبيه أدبُ الدعوة ، حيث قدَّم الموعظة على سبيل الاستفهام حتى لا يُشعِر أباه بالنقص ، أو يُظهر له أنه أعلم منه .

﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [مريم] نلحظ أنه لم يقُلْ من البداية : لمَ تعبد الشيطان ، بل أخَّر هذه الحقيقة إلى نهاية المناقشة ، وبدل أنْ يقولَ الشيطان حلّل شخصيته ، وأبان عناصره ، وكشف عن حقيقته : لا يسمع ولا يبصر ، ولا يُغنى عنك شيئاً ، فهذه الصفات لا تكون فى المعبود ، وهى العلَّة فى أنْ نتجنبَ عبادة ما دون الله من شجر أو حجر أو شيطان ، وخصوصاً فى بيئة إبراهيم - عليه السلام - وكانت مليئة بالأوثان والأصنام .

لأن العبادة ماذا تعنى ؟ تعنى طاعةَ عابد لمعبود فى أَمْره ونَهْيه ، فالذين يعبدون ما دون الله من صنم أو وَثَنٍ أو شمس أو قمر ، بماذا أمرتْهم هذه المعبودات ؟ وعن أىِّ شىء نَهتْهُم ؟ وماذا أعدَّتْ هذه المعبودات لمنْ عبدها ؟ وماذا أعدَّتْ لمَنْ عصاها ؟ ما المنهج الذى جاءتْ به حتى تستحقَّ العبادة ؟ لا يوجد شىء من هذا كله ، إذن : فعبادتهم باطلة .

ثم يقول :

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ ﴾

يُكرِّر نبى الله إبراهيم هذا النداء الحنون مرة أخرى ، وكأنه يريد أنْ يثير فى أبيه غريزة الحنان ، ويُوقظ عنده أواصر الرحم ، كأنه يقول له : إن كلامى معك كلام الابن لأبيه ، كما نفعل نحن الآن إنْ أراد أحدنا أنْ يُحنِّن إليه قلب أبيه يقول : يا والدى كذا وكذا .. يا أبى اسمع لى . وكذلك حال إبراهيم ـ عليه السلام ـ حيث نادى أباه هذا النداء فى هذه الآيات أربع مرات متتاليات ، وما ذلك إلا لحرصه على هدايته ، والأخْذ بيده إلى الطريق المستقيم .

وقوله : ﴿ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [مريم] أى : لا تظن يا أبى أنِّى متعالم عليك ، أو أنِّى أفضل ، أو أذكى منك ، فهذا الكلام ليس من عندى ، بل من أعلى منى ومنك ، فلا غضاضةَ فى سماعه والانصياع له ، وهو رسالة كُلِّفْتُ بإبلاغك إياها ، وهذا الذى جاءنى من العلم لم يأتكَ أنت ، وهذا اعتذار رقيق من خليل الله ، فالمسألة ليستْ ذاتية بين ولد وعمه ، أو ولد وأبيه ، إنها مسألة عامة تعدَّتْ حدود الأُبُوة والعمومة .

ولذلك لما تحدَّثْنا فى سورة الكهف عن قصة موسى والخضر ـ عليهما السلام ـ ، قلنا : إن العبد الصالح التمس لموسى عُذْراً ؛ لأنه تصرَّف بناءً على علم عنده ، ليس عند موسى مثله ، فقال له : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴿٦٨﴾ ﴾ [الكهف] وكذلك قال إبراهيم لأبيه حتى لا تأخذه العزّة ، ويأنف من الاستماع لولده .

ثم يقـول : ﴿ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ ﴾ [مـريم] لأن هذا المنهج الذى أدعـوك إليـه ليس من عندى ، بل مـن أعلى منى ومنك ، والصراط السَّوىّ : هو الطريق المستـقيم الذى يُوصِّلك للغـاية بأيسر مشقة ، وفى أقصر وقت .

ثم يقول :

﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ ﴾

نلحظ أن إبراهيم فى بداية محـاورته لأبيه قال : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [مريم] وهنا يقول : ﴿ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [مريم] مع أن الشيـطان يمكن أن يسمع ويبـصر ، فكيف يكون ذلك ؟

قالوا : لأن الشيـطان هو الذى يُسوِّل عبادة الصنم أو الـشجر أو الشمس أو القمر ، فالأمر مردود إليه وهو سببه ، إلا أن إبراهيم عليه السـلام حلَّل المـسألة الـمبـاشـرة ؛ لأن أباه يعـبد صنمـاً لا يسـمع ولا يُبصر ، ولا يُغنى عنه شيئاً ، وهذا بشـهادتهم أنفسهم ، كما جاء فى قوله تبارك تعالى : ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الشعراء]

فهـذا استفهـام ، ولا يستفـهم مُستفـهم مجادل مـمَّن يجادله عن شىء ، إلا وقـد علِم أن الجـواب لا بُدَّ أن يـكون فى صـالحـه ؛ لأنه ائتـمنه على الجـواب . إذن : فـعـبادة مـا دون الله مـردُّها إلى إغـواء الشيطان .

ثم يستطرد إبراهيم قائلاً : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا (٤٤) ﴾ [مريم] عصـياً : مبـالغة فى العصـيان ، فالشـيطان ليس عاصـياً ، بل عَصِيّاً يعصى أوامر الله بلَدَدٍ وعناد .

ثم يقول :

﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا (٤٥) ﴾

مازال خليل الله يتلطف فى دعوة أبيه فيقول : ﴿ يَمَسَّكَ عَذَابٌ .. (٤٥) ﴾ [مريم] ولم يقُلْ مثلاً : يصـيبك . فهو لا يريد أنْ يصـدمه بهذه الحقيقة ، والمسُّ : هو الالتصـاق الخفيف ، وكأنه يقول له : إن أمرك يُهـمنى ، وأخـاف عليك مـجرد هبـو التـراب أن ينالك . وهذا منتـهى الشفقة عليه والحرص على نجاته .

ثم يقول : ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) ﴾ [مريم] أى : قريباً منه ، وتابعاً له يصيبك من العذاب مَا يصيبه ، وتُعذَّب كما يُعذَّب .

وهكذا انتـهتْ هذه المحـاورة التى احتـوتْ أربعة نداءات حـانية ، وجـاءت نموذجـاً فريداً للدعـوة إلى الله بالحكمـة والموعظة الحـسنة ؛ فـراعتْ مـشـاعر الأب الـذى يدعوه ولـده ويُقدِّم لـه النُّصْح ، ورتبت الأمور ترتيباً طبيعياً ، وسَلْسَلَتْها تسلْسُلاً لطيفاً لا يثير حفيظة السامع ولا يصدمه .

وقد راعى الحق ـ تبـارك وتعالى ـ جوانـب النفس البشرية فـأمر أنْ تكونَ الدعوة إليـه بالحكمة والموعظة الحـسنة حتى لا تجمع على المـدعو قسوة الدعوة ، وقسوة أنْ يترك ما ألِف ، ويخرج منه إلى ما لم يألف .

فأنت حين تدعو شخصاً إلى الله فإنما تُخرجه عن الفساد الذى ألفه ، وهو لم يألف الفساد إلا بعد أن اشتهاه أولاً ، ثم اعتاده بالفعل والممارسة ثانياً ، وهاتان مصيبتان آخذتان بزمامه ، فما أحوجه لأسلوب لَيِّن يستميل مشاعره ويعطفه نحوك فيستجيب لك .

وما أشبه الداعية فى هذا الموقف بالذى يحتال ليخلص الثوب الحرير من الأشواك ، أما إنْ نهرته وقسوْتَ عليه فسوف يُعرض عنك ، وينصرف عن دعوتك ، ويظلّ على ما هو عليه من الفساد ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥) ﴾ [النحل]

ويقولون : النصح ثقيل فلا تُرسلْه جبلاً ، ولا تجعله جدلاً ، وقالوا : الحقائق مُرّة فاستعيروا لها خفّة البيان .

وبعد أنْ أنهى إبراهيم مقالته يرد الأب قائلاً :

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) ﴾

الفعل (رغب) يحمل المعنى وضده حَسْب حرف الجر بعده ، نقول : رغب فى كذا . أى : أحبه وذهب إليه ، ورَغب عن كذا أى : كرهه واعتزله ، فمعنى ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ .. (٤٦) ﴾ [مريم] أى : تاركها إلى غيرها ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ .. (١٣٠) ﴾ [البقرة] أى : تركها إلى ملّة أخرى .

ونلاحظ أن الفعل رَغب لم يأتِ مقترناً بعده بفى إلا مرة واحدة ،

وإنْ كانت (فى) مُـقدَّرة بعد الفعل ، وهذا فى قـوله تعالى عن نكاح يتامى النساء : ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ .. ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النساء]

والرغـبة فى الشىء تعـنى حُبـه وعشْـقـه ، والرغبـة فى الطريق المـوصّل إلـيـه ، إلا أنك لم تسلك هـذا الطريق بالفـعـل ، ولم تأخـذ بالأسبـاب التى تُوصلّك إلى ما تـرغب فيه ، وهذا المـعنى واضح فى قصة أصحاب الجنة فى سورة (ن) حيث يقول تعالى :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا[1] مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [القلم]

فقد اتفقوا على قَطْف ثمار بستانهم فى الصباح ، ولم يقولوا : إن شاء الله ، فدمّرها الله وأهلكها وهم نائمون ، وفى الصباح انطلقوا إلى جنتهم وهم يقولون فيما بينهم :

﴿ لاَّ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القلم]

وهكذا قطعوا الطريق على أنفـسهم حينما حَـرَمُوا المسكين ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [القلم] ثم تنبهوا إلى ما وقعوا فيـه من خطأ ، وعادوا إلى صوابهم فقالوا : ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القلم]

أى : راغبون فى الطريق الموصّل إليه تعالى ، فقبل أنْ تقول : أنا راغب فى الله . قل : أنا راغب إلى الله ، فالمسألة ليـست حُباً فقط بل

(١) الصـرم : القطع مادياً ، كـقطع الثـمار . ويكون القطع مـعنوياً بمـعنى الهجـر وقطع صلة المودة . فيصرمنهـا : أى يقطعون ثمارها . وقوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [القلم] أى : أصـبحت حـديقتـهم بعـد احتـراقهـا كالليل المسـودّ أو صارت كـالأرض التى قطعت أشجارها ولا نبات فيها . [القاموس القويم ١/٣٧٥] .

حُباً بثمن وسَعْى وعَمل يُوصِّلك إلى ما تحب . إذن : قبل أنْ تكونوا راغبين فى ربكم ارغبوا إليه أولاً .

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ .. (٥٨) ﴾ [التوبة] أى : يعيبك فى توزيعها ﴿ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) ﴾ [التوبة] فهم - إذن - لا يحبون الله ، وإنما يحبون العطاء والعَرَض الزائل ، بدليل أنهم لما مُنِعُوا سخطوا وصرفوا نظرهم عن دين الله كمَنْ قال الله فيهم :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ .. (١١) ﴾ [الحج]

لذلك يُعدِّل لهم الحق سبحانه سلوكهم ، ويرشدهم إلى المنهج القويم : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) ﴾ [التوبة] أى : آخذين الوسيلة الموصِّلة إليه ، فالذى يرغب فى حب الله عليه أنْ يرغبَ فى الطريق الموصِّل إليه .

ثم يقول أبو إبراهيم : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ .. (٤٦) ﴾ [مريم] أى : تترك هذه المسألة التى تدعو إليها . والرجْم : هو الرمى بالحجارة ، ويبدو أن عملية الرجم كانت طريقة للتعذيب الشديد ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ .. (٢٠) ﴾ [الكهف]

﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) ﴾ [مريم] أى : ابتعد عنى وفارقنى ﴿ مَلِيًّا (٤٦) ﴾ [مريم] الملىّ : البُرْهة الطويلة من الزمن . ومنها الملاوة : الفترة الطويلة من الزمن ، والملوَان : الليل والنهار .

فماذا قال نبى الله إبراهيم لعمه بعد هذه القسوة ؟ لم يخرج إبراهيم عن سَمْته العادل ، ولم يتعدَّ أدب الحوار والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة . قال :

﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧ ﴾

وكأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ يريد أنْ يلفتَ نظر عمه ، ويؤكد له أنه فى خطر عظيم يستوجب العذاب من الله ، وهذا أمر يُحزنه ولا يُرضيه ، وكيف يترك عمه دون أنْ يأخذَ بيده ؟ فقال له أولاً : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ .. ٤٧ ﴾ [مريم] أى : سلام منى أنا ، سلام أقابل به ما بدر منك فأمْرى معك سلام ، فلن أقابلَك بمثل ما قُلْت ، ولن أُغلظ لك ، ولن ينالك منى أذىً ، ولن أقول لك : أُفٍّ .

لكن السلام منِّى أنا لا يكفى ، فلا بُدَّ أنْ يكونَ لك سلام أيضاً من الله تعالى ؛ لأنك وقعت فى أمر خطير لا يُغفر ويستوجب العذاب ، وأخشى ألاّ يكونَ لك سلام من الله .

لذلك قال بعدها : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى .. ٤٧ ﴾ [مريم] كأنه يعتذر عن قوله : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ .. ٤٧ ﴾ [مريم] فأنا ما قُلْتُ لك : سلام عليك إلا وأنا أنوى أن أستغفرَ لك ربى ، حتى يتمّ لك السلام إنْ رجعتَ عن عقيدتك فى عبادة الأصنام ، وهو بذلك يريد أنْ يُحنِّنه ويستميل قلبه .

ثم أخبر عن الاستغفار فى المستقبل فلم يقُلْ استغفرتُ ، بل ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ .. ٤٧ ﴾ [مريم] يريد أنْ يُبرىء استغفاره لعمه من المجاملة والنفاق والخداع ، وربما لو استغفرتُ لك الآن لظننتُ أنِّى

أجاملك ، أما ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ .. (٤٧) ﴾ [مريم] أى : بعيداً عنك ليكون دعاءً عن ظَهْر غيب ، وهو أرْجَى للقبول عند الله .

ثم يقول : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) ﴾ [مريم] يريد أنْ يُطمئن عمه إلى أن له منزلة عند الله ، فإذا استغفر له ربه فإنه تعالى سيقبل منه .

وحَفياً : من الفعل حَفِىَ يَحْفَىَ كرَضى يرضى ، ويأتى بعده حرف جر يُحدِّد معناها . تقول : حفىٌّ به : أى بالغ فى إكرامه إكراماً يستوعب متطلبات سعادته ، وقابله بالحفاوة : أى بالإكرام الذى يتناسب مع ما يُحقِّق له السعادة .

وهذا أمر نسبىّ يختلف باختلاف الناس ، فمنهم مَنْ تكون الحفاوة به مجرد أنْ تستقبلَه ولو على حصيرة ، وتُقدِّم له ولو كوباً من الشاى ، ومن الناس مَنْ يحتاج إلى الزينات والفُرُش الفاخرة والموائد الفخمة ليشعر بالحفاوة به .

ونقول : حَفىٌّ عنه : أى بالغ فى البحث عنه ليعرف أخباره ، وبلغ من ذلك مبلغاً شَقَّ عليه وأضناه ، وبالعامية يقولون : وصلتُ له بعدما حفيتُ ، ومن ذلك قوله تعالى عن الساعة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٨٧) ﴾ [الاعراف] أى : كأنك معنىٌّ بالساعة ، مُغْرم بالبحث عنها ، دائم الكلام فى شأنها .

إذن : فمعنى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) ﴾ [مريم] أى : أن ربى يبالغ فى إكرامى إكراماً يُحقِّق سعادتى ، ومن سعادتى أن الله يغفر لك الذنب الكبير الذى تُصرّ عليه ، وكأنه عليه السلام يُضخِّم أمريْن : يُضخِّم الذنب الذى وقع فيه عمه ، وهو الكفر بالله ، ويُعظِّم الرب الذى سيستغفر لعمه عنده ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) ﴾ [مريم]

ومـا دام ربى حَفـيّـاً بى فلن يخذلنـى ، كيف وقـد جعـلنى نبيـاً واحتـفى بى ، فكُنْ مَطمئناً إنْ أنت تُبْتَ ممـا أنت عليه من المعتـقدات الباطلة ، إنه سيـغفر لك . وكان إبراهيم عليه السلام يؤكـد لعمه على منزلتـه عند ربه ، وما على عمـه إلا أنْ يسمع كـلامه ، ويسـتجيب لدعوته .

وظَلَّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ يسـتغفر لعمه كـما وعده ، إلى أنْ تبيَّن له أنه عدو لله فانصرف عند ذلك ، وتبـرأ منه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ .. (١١٤) ﴾ [التوبة]

ثم يقـول الحق سـبحـانه عن إبراهيـم ـ عليه السـلام ـ أنه قـال لقومه :

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا (٤٨) ﴾

اعتزل : ترك صحبة إلى خيـر منها ولو فى اعتقاده ، وهنا يلفتنا الحق سبـحانه إلى أن الإنســان حين يجـادل فى قضيـة ، ويرى عند خَصْـمه لدداً وعناداً فى البـاطل ، لا يطيل معه الكـلام حتى لا يُوصِّل فيه العناد ، ويدعوه إلى كبرياء الغَلَبة ولو بالباطل .

لذلك ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يُعلِّم المـعاصرين لرسول الله ﷺ إنْ أرادوا البحث فى أمـره صدْقـاً أو كذباً والعيـاذ بالله ، أنْ يبحـثوه مَثْنى أو فُـرَادى ، ولا يبحثـوه بَحْثاً جـماهيـرياً غوغائيـاً ؛ لأن العمل الغوغائى بعيد عن المـوضوعية يستتر فيه الواحـد فى الجماعة ، وقد يحدث ما لا تُحمد عُقباه ولا يعرفه أحد .

والغوغائية لا يحكمها عقل ولا منطق ، والجمهور كما يقولون : عقله فى أذنيه . وسبق أن قلنا : إن كليوباترا حين هُزمت وحليفها صَوّروا هذه الهزيمة على أنها نصر ، كما حدث كثيراً على مَرّ التاريخ ، وفيها يقول الشاعر :

أسْمَعُ الشَّعْب دُيُونُ كَيْفَ يُوحُونَ إليْه
مَلأَ الجوَّ هتافاً بحياتىْ قاتليْه
أثَّر البُهتانُ فيه وَانْطلَى الزُّورُ عليْه
يَالَهُ مِنْ بَبَّغَاءَ عقلُه فى أُذُنيْه

إذن : فالجمهرة لا تُبدى رأياً ، ولا تصل إلى صواب .

يقول الحق سبحانه للمعاصرين لرسول الله ﷺ :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ]

فبَحْث مثل هذا الأمر يحتاج إلى فردين يتبادلان النظر والفكْر والدليل ويتقصَّيان المسألة ، فإنْ تغلّب أحدهما على الآخر كان الأمر بينهما دون ثالث يمكن أنْ يشمتَ فى المغلوب ، أو يبحثه فرد واحد بينه وبين نفسه فينظر فى شخص رسول الله ، وما هو عليه من أدب وخُلق ، وكيف يكون مع هذا مجنوناً ؟ وهل رأينا عليه أمارات الجنون ؟ والذين قالوا عنه : ساحر لماذا لم يسحرهم كما سحر التابعين له ؟

إذن : لو أدار الشخص الواحد هذه الحقائق على ذهْنه ، واستعرض الآراء المختلفة لاهتدى وحده إلى الصواب ، فالاعتزال أمر مطلوب إنْ وجد الإنسان البيئة غير صالحة لنقاش الباطل مع الحق حتى لا نُؤصِّل الجدل والعناد فى نفس الخَصْم .

لذلك يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ[1] الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧) ﴾ [النساء]

أى : كانت الفرصة أمامكم لتتركوا هذه البُقْعة إلى غيرها من أرض الله الواسعة ، وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُلفت نظرنا إلى أن الأرض كلها أرض الله ، فأرض الله الواسعة ليست هى مصر أو سوريا أو ألمانيا ، بل الأرض كلها بلا حواجز هى أرض الله ، فمَنْ ضاق به مكانٌ ذهب إلى غيره لا يمنعه مانع ، وهل يوجد هذا الآن ؟ هل تستطيع أن تخترق هذه الحواجز ودونها نظم وقوانين ما أنزل الله بها من سلطان .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) ﴾ [الرحمن]

أى : الأرض كل الأرض للأنام كل الأنام[2] وهذا من المبادىء التى جعلها الخالق سبحانه للإنسانية ، فلما استحدثَ الإنسانُ الحواجز والحدود ، وأقام الأسوار والأسلاك ومنع الأنام من الحركة فى أرض الله نشأ فى الكون فساد كبير ، فإنْ ضاق بك موضع لا تجد بديلاً عنه فى غيره ، وإنْ عشْتَ فى بيئة غير مستقيمة التكوين كتب عليك أنْ تشقى بها طوال حياتك .

---

(١) توفاهم . أى : تتوفاهم بحذف إحدى التاءين تخفيفاً . أى : تميتهم وتقبض أرواحهم . [القاموس القويم ٣٤٧/٢] . قال ابن كثير فى تفسيره (٥٤٢/١) : « نزلت هذه الآية الكريمة عامة فى كل من أقام بين ظهرانى المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكناً من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع » .

(٢) الأنام : ما ظهر على الأرض من جميع الخلق . وقال المفسرون : هم الجن والإنس . [نقله ابن منظور فى لسان العرب . مادة : أنم] .

وقلنا : إن هذه الحدود وتلك الحواجز أفرزتْ أرضاً بلا رجال ، ورجالاً بلا أرض ، ولو تكاملتْ هذه الطاقات لاستقامتْ الدنيا .

ومسألة الاعتزال هذه ، أو الهجرة من أرض الباطل ، أو من بيئة لا ينتصر فيها الحق وردتْ فى نصوص عِدَّة بالنسبة لسيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ منها قوله تعالى :

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) ﴾ [الأنبياء]

فترك إبراهيم الأرض التى استعصتْ على منهج الله إلى أرض أخرى ، وهاجر بدعوته إلى بيئة صالحة لها من أرض الشام .

نعود إلى اعتزال إبراهيم عليه السلام للقوم ، لا لطلب الرزق وسَعة العيش ، بل الاعتزال من أجل الله وفى سبيل مبدأ إيمانى يدعو إليه : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. (٤٨) ﴾ [مريم] وأول ما نلحظ أن فى هذا النص عدولاً ، حيث كان الكلام عن العبادة : ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ .. (٤٢) ﴾ [مريم] ، ﴿ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ .. (٤٤) ﴾ [مريم]

والقياس يقتضى أن يقول : وأعتزلكم وما تعبدون .. وأدعو ربى . أى : أعبده ، إلا أنه عدل عن العبادة هنا وقال : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ .. (٤٨) ﴾ [مريم] فلماذا ؟

قالوا : لأن الإنسان لا ينصرف عن ربه وعن وحدانيته تعالى إلا حين يستغنى ، فإنْ ألجأتْهُ الأحداث واضطرته الظروف لا يجد ملجأ

إلا إلى الله فيدعو . إذن : فالعبادة ستصل قَطْعاً إلى الدعاء ، وما دُمْتَ ستضطر إلى الدعاء فليكُنْ من بداية الأمر :

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. (٤٨) ﴾ [مريم]

إذن : استخدم الدعاء بدل العبادة ؛ لأننى أعبد الله فى الرخاء ، فإنْ حدثتْ لى شِدَّةٌ لا أجد إلا هو أدعوه .

وقوله : ﴿ وَأَدْعُو رَبِّى عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى شَقِيًّا (٤٨) ﴾ [مريم] أى : عسى ألاَّ أكون شقياً بسبب دعائى لربى ؛ لأنه تبارك وتعالى لا يُشقى مَنْ عبده ودعاه ، فإنْ أردتَ المقابل فَقُلْ : الشقىُّ مَنْ لا يعبد الله ولا يدعوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) ﴾

قوله : ﴿ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ .. (٤٩) ﴾ [مريم] لم يذكر هنا إسماعيل ؛ لأن إسحق جاء جزاءً من الله لإبراهيم على صبره فى مسألة ذَبْح إسماعيل ، وما حدث من تفويضهما الأمر لله تعالى ، والتسليم لقضائه وقَدره ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا .. (١٠٣) ﴾ [الصافات] أى : إبراهيم وإسماعيل ﴿ وَتَلَّهُ[1] لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات]

(١) تله : أى ألقاه وجبينه ووجهه إلى الأرض . [القاموس القويم ١/١٠١] .

ولم يقتصر الأمر على الفداء ، بل ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ .. ﴿١١٢﴾ ﴾ [الصافات] فلما امتثل لأمر الله فى الولد الأول وهبنا له الثانى .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأنبياء]

كأن الحفيد نافلة وزيادة فى عطاء الذرية ، ومبالغة فى الإكرام .

ثم يمتنُّ الله على الجميع بأن يجعلَهم أنبياء ﴿ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ ﴾ [مريم] فليس الامتنان بأنْ وهب له إسحاق ومن بعده يعقوب ، بل بأنْ جعلهم أنبياء ، وهذه جاءت بشرى لإبراهيم ، وكان حظّه أنْ يرعى دعوة الله حياً ، ويطمع أنْ تكونَ فى ذريته من بعده ، وكانت هذه هى فكرة زكريا ـ عليه السلام ـ فكلهم يحرصون على الذرية لا للعزوة والتكاثر وميراث عَرَضِ الدنيا ، بل لحمل منهج الله وامتداد الدعوة فيهم والقيام بواجبها .

انظر إلى قوله تعالى فى حق إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ[1] فَأَتَمَّهُنَّ .. ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة] أى : حَمَّله تشريعات فقام بها على أتمِّ وجه وأدّاها على وجهها الصحيح ، فلما علم الله منه

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١/١٦٥) : « اختلف فى تعيين الكلمات التى اختبر الله بها إبراهيم . قال ابن عباس : ابتلاه الله بالمناسك .

وعنه أيضاً : ابتلاه بالطهارة : خمس فى الرأس وخمس فى الجسد ، فى الرأس قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق والسواك وفرق الرأس ، وفى الجسد تقليم الأظفار وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء .

وعن ابن عباس أيضاً قول ثالث : الكلمات التى ابتلى الله بهن إبراهيم فأتمهن : فراق قومه فى الله حين أمر بمفارقتهم ، ومحاجته النمروذ فى الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذى فيه خلافه ، وصبره على قذفه إياه فى النار ليحرقوه فى الله على هول ذلك من أمرهم ، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده فى الله حين أمره بالخروج عنهم .. إلخ .

عشْقه للتكليف أتمها عليه : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا (١٢٤) ﴾ [البقرة] فتثور مسألة الإمامة فى نفس إبراهيم ، ويطمع أنْ تكونَ فى ذريته من بعده فيقول : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي .. (١٢٤) ﴾ [البقرة] لذلك يُعدِّل الحق سبحانه فكرة إبراهيم عن الإمامة ، ويضع المبدأ العام لها ، فهى ليستْ ميراثاً ، إنها تكليف له شروط :

﴿ قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

فالظالمون لا يصلحون لهذه المهمة . فوعى إبراهيم عليه السلام هذا الدرس ، وأخذ هذا المبدأ ، وأراد أنْ يحتاط به فى سؤاله لربه بعد ذلك ، فلما دعا ربه : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ .. (١٢٦) ﴾ [البقرة] فاحتاط لأنْ يكونَ فى بلده ظالمون ، فقال : ﴿ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. (١٢٦) ﴾ [البقرة]

لكن جاء قياس إبراهيم هنا فى غير محله ، فعدَّل الله له المسألة ؛ لأنه يتكلم فى أمر خاص بعطاء الربوبية الذى يشمل المؤمنَ والكافر ، والطائعَ والعاصى ، فقد ضمن الله الرزق للجميع فلا داعى للاحتياط فى عطاء الربوبية ؛ لذلك أجابه ربه : ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) ﴾ [البقرة]

إذن : فهناك فارق بين العطاءين : عطاء الربوبية وعطاء الألوهية ، والإمامية فى منهج الله ، فعطاء الربوبية رزْق يُساق للجميع وخاضع للأسباب ، فمَنْ أخذ بأسبابه نال منه ما يريد ، أما عطاء الألوهية فتكليف وطاعة وعبادة .

يقول تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾ [الشورى]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِّن رَّحْمَتِنَا .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [مريم] المراد بالرحمة النبوة ؛ لذلك لما قال أهل العظمة والجاه المعاصرون لرسول الله ﷺ : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف] وكأنهم استقلُّوا رسول الله أن يكون فى هذه المنزلة ، رَدَّ عليهم القرآن : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف]

إذن : فعطاؤه تعالى فى النبوات رحمةٌ أشاعها الله فى ذرية إبراهيم .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾ [مريم] أى : كلمة صدق وحق ثابت مطابق للواقع ، ولسان الصِّدْق يعنى مَدْحاً فى موضعه ، وثناءً بحق لا مجاملةَ فيه ، والثناء يكون باللسان ، وها نحن نذكر هذا الركْب من الأنبياء إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب بالثناء الحسَن والسيرة الطيبة ، ونأخذهم قدوة ، وهذا كله من لسان الصدق ، ويبدو أنها دعوةُ إبراهيم حين قال :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الشعراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ ﴾

وهذا أيضاً ركْب من ركْب النبوات ، وقد أخذت قصة موسى عليه السلام حَيِّزاً كبيراً من كتاب الله لم تأخذه قصة نبى آخر ، مما دعا الناس إلى التساؤل عن سبب ذلك ، حتى بنو إسرائيل يُفضّلون أنفسهم على الناس بأنهم أكثر الأمم أنبياءً ، وهذا من غبائهم ؛ لأن هذه تُحسَب عليهم لا لهم ، فكثرة الأنبياء فيهم دليل على عنادهم وغطرستهم مع أنبيائهم .

فما من أمة حيَّرتْ الأنبياء ، وآذتْهم كبنى إسرائيل ؛ لذلك كَثُرَ أنبياؤهم ، والأنبياء أطباء القِيَم وأُساة أمراضها ، فكثرتهم دليل تفشِّى المرض ، وأنه أصبح مرضاً عُضَالاً يحتاج فى علاجه لا لطبيب واحد ، بل لفريق من الأطباء .

والبعض يظن أن قصة موسى فى القرآن مجرد حكاية تاريخ ، كما نقول نحن ونقصُّ : كان يا ما كان حدث كذا وكذا ، ولو كانت قصة موسى فى القرآن مجرد حكاية تاريخ لجاءتْ مرة واحدة . لكنها ليست كذلك ؛ لأن الحكمة من قَصِّها على رسول الله كما قال تعالى :

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. ﴿١٢٠﴾ ﴾ [هود]

إذن : فالهدف من هذا القَصَص تثبيت النبى ﷺ فى دعوته لقومه ؛ لأنه سيتعرض لمواقف وشدائد كثيرة يحتاج فيها إلى تثبيت ومواساة وتسلية ، فكلما جَدَّ بينه وبين قومه أمر قال له ربه : اذكر موسى حين فعل كذا وكذا ، وأنت خاتم الرسل ، وأنت التاج بينهم ، فلا بُدَّ لك أنْ تتحمَّل وتصبر .

أما لو نزلت مثل هذه القصة مرة واحدة لكان التثبيت بها مرة واحدة ، وما أكثر الأحداث التى تحتاج إلى تثبيت فى حياة الدعوة .

لذلك نجد خصوم الإسلام يتهمون القرآن الكريم بالتكرار فى قصة موسى عليه السلام ، وهذا دليلٌ على قصورهم فى فَهْم القرآن ، فهذه المواضع التى يروْنَ فيها تكراراً ما هى إلا لقطات مختلفة لموضوع واحد ، لكن لكل لقطة منها موقع وميلاد ، فإذا جاء موقعها وحان ميلادها نزلتْ .

ومما رأوا فيه تكراراً ، وليس كذلك قوله تعالى عن موسى عليه السلام طفلاً : ﴿ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ .. (٣٩) ﴾ [طه] ونتساءل : متى تستعر العداوة بين عدوين ؟ إنْ كانت العداوة من طرف واحد فإن الطرف الآخر يقابلها بموضوعية ودون لَدَد فى الخصومة إلى أنْ تهدأ العداوة بينهما ، فهو عدو دون عداوة ، فحينما يراه صاحب العداوة على هذا الخُلق يصرف ما فى نفسه من عداوة له ، كما قال تعالى :

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ[1] حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت]

أمّا إنْ كانت العداوة بين عدوَّيْن حقيقيين : هذا عدو وهذا عدو ، هنا تستعر العداوة ، وتزكو نارها ، ويحتدم بينهما صراع ، ولا بُدَّ أنْ يصرَع أحدهما الآخر .

والحق تبارك وتعالى حينما تكلّم عن موسى وفرعون ، جعل العداوة مرة من موسى فى قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. (٨) ﴾ [القصص]

---

(١) الولى : هو القريب بالنسب أو بالمحبة أو بالطاعة . أو الولى : الصديق وهو ضد العدو . [القاموس القويم ٢/٣٥٨] قال ابن الأعرابى : الولى التابع المحب . وقال ابن منظور فى اللسان [مادة : ولى] : الولى : الصديق والنصير .

فالعـداوة هنا من موسى ليفضح الله أمـر فرعون ، فهـا هو يأخذ موسى ويُربِّيه ، وهو لا يعلم أنه عدو لـه ، وعلى يديْه ستكون نهايته غريقاً ، فالمقاييس عنده خاطئة ، وهو يدَّعى الألوهية .

ومرة أخرى يُثبت العداوة من فرعون فى قوله تعالى :

﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ .. (٣٩) ﴾ [طه]

فـالعداوة هنا من فـرعـون . إذن : فالعـداوة من الطرفـين ، لذلك فالمعركة بينهما كانت حامية .

كذلك من المواضع التى ظنوا بهـا تكراراً قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) ﴾ [القصص]

وفى آية أخرى يقول تبارك وتعالى : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ .. (٣٩) ﴾ [طه]

والمستشرقون أحدثوا ضـجة حول هذه الآيات : لأنهم لا يفهمون أسلوب القـرآن ، وليست لديهم الملكة العـربية للتلقِّى عن الله ، فـهناك فَرْق بين السياقين ، فالكلام الأول : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٧) ﴾ [القصص] هذه أحداث لم تقع بعد ، إنها ستحدث فى المستقبل ، والكلام مجرد إعداد أم موسى للأحداث قبل أنْ تقعَ .

أمّا المعنى الثانـى فهو مباشر للأحداث وقت وقـوعها ؛ لذلك جاء فى عبارات مـختصرة كأنهـا برقيات حاسمـة لتناسب واقع الأحداث : ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٣٩) ﴾ [طه]

كما أن الآية الأولى ذكرت : ﴿ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. ⟨٧⟩ ﴾ [القصص] ولم تذكر التابوت كما فى الآية الأخرى : ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ .. ⟨٣٩⟩ ﴾ [طه]

إذن : ليس فى المسألة تكرار كما يدَّعى المغرضون ؛ فكل منهما تتحدث عن حال معين ومرحلة من مراحل القصة .

ثم يقول تعالى : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا .. ⟨٥١⟩ ﴾ [مريم] من خلّصَ شيئا من أشياء ، أى : استخرج شيئاً من أشياء كانت مختلطة به ، كما نستخلص مثلاً العطور من الزهور ، فقد أخذت الجيد وتركت الردىء ، وبالنسبة للإنسان نقول : فلان مُخلص لأن الإنسان مركب من ملكات متعددة لتخدم كل حركة فى الحياة ، وكل ملَكَة من ملكَاته ، أو جهاز من أجهزته له مهمة يؤديها ، إلا أنها قد تدخل عليها أشياء ليست من مهمته ، أو تخرج عن غاياتها فتحدث فيه بعض الشوائب ، فيحتاج الإنسان لأنْ يُخلِّص نفسه من هذه الشوائب .

فمثلاً ، الحق ـ تبارك وتعالى ـ جعل التقاء الرجل والمرأة لهدف محدد ، وهو بقاء النوع ؛ لذلك تجد الحيوان المحكوم بالغريزة لا بالعقل والاختيار إذا أدى كُلٌّ من الذكر والأنثى هذه المهمة لا يمكن أنْ تُمكِّن الأنثى الذكر منها ، وكذلك الذكر لا يأتى الأنثى إذا علم من رائحتها أنها حامل .

إذن : وقف الحيوان بهذه الغريزة عند مهمتها ، وهى حفظ النوع ، لكن الإنسان لم يقف بهذه الغريزة عند حدودها ، بل جعلها مُتعةً شخصية يأتى حِفْظ النوع تابعاً لها .

وكـذلك الحـال فى غريزة الطـعام ، فـالإنسـان إذا جاع يـحتـاج بغريزته إلى أنْ يأكلَ ، والحكمـة من ذلك استبقاء الحيـاة ، لا الامتلاء باللحم والشحم . فالـحيوان يقف بهذه الغريزة عند حَـدِّها ، فإذا شبع فلا يمكن أنْ تُجبره على عود برسيم واحد فوق ما أكل .

أما فى الإنسان فالأمر مختلف تمـاماً ، فيأكل الإنسان حتى الشِّبَع ، ثم حتى التُّـخْمة ، ولا مانع بعـد ذلك من الحلو والمشروبات وخـلافه ؛ لذلك وضع لنا الـخـالق سـبـحـانه وتعـالى المنهج الذى يُـنظِّم لنا هذه الغريزة ، فقال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا .. (٣١) ﴾ [الأعراف]

وفى الحديث الشـريف : « بحسب ابن آدم لقيمات يُـقِمْنَ صلْبه ، فـإن كـان ولا بُدَّ فـاعـلاً ، فـثُلث لطعـامـه ، وثُـلث لشـرابه ، وثُلث لنفَسه »[1]

ومن الغـرائز أيضاً غـريزة حب الاسـتطلاع ، فالإنسـان يحب أن يعرف ما عند الآخر ليحدث بين الـناس الترقى اللازم لحركة الحياة ، ومعرفـة أسرار الله فى الكون ، وهذا هو الحد المقبول أمـا أن يتحول حب الاستطلاع إلى التـجسس وتتبّع عـورات الآخرين ، فهـذا لا يُقبل ويُعَدُّ من شوائب النفوس ، يحتاج إلى أنْ نُخلِّص أنفسنا منه .

إذن : لكل غريزة حكمـة ومهمة يجب ألاَّ نخرج عنـها ، والمُخْلَص هو الذى يقف بغـرائزه عند حَدِّها لا يتعـدَّاها ويخلصهـا من الشوائب التى تحوط بها . وهذه الصفة إمّا أنْ يكرم الله بهـا العبد فيُخلِّصه من

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٣٢) ، والتـرمذى فى سننه (٢٣٨٠) من حديث المقدام ابن معد يكرب ، ولفظه « ما ملأ آدمى وعاء شـراً من بطن » الحديث قال الترمذى « حديث حسن صحيح » .

البداية من هذه الشوائب ، أو يجتهد هو ليُخلّص نفسه من شوائبها باتباعه لمنهج الله . هذا هو المُخْلَص : أى الذى خلص نفسه .

لذلك ، يقولون : من الناس مَنْ يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، ومن الناس مَنْ يصل بكرامة الله إلى طاعة الله . وقد جعل الله تعالى الأنبياء مخْلَصين من بدايتهم ، ليكونوا جاهزين لهداية الناس ، ولا يُضيِّعون أوقاتهم فى تخليص أنفسهم من شوائب الحياة وتجاربها .

ألم يستمر رسول الله ﷺ ثلاثاً وعشرين سنة يُعلِّم الناس كيف يُخلصون أنفسهم ؟ فكيف إنْ كان النبى نفسه فى حاجة لأنْ يُخلص نفسه ؟

ولمكانة هؤلاء المخْلَصين ومنزلتهم تأدَّب إبليس وراعى هذه المنزلة حين قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

لأن هؤلاء لا يقدر إبليس على غوايتهم .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥١) ﴾ [مريم] لأن من عباد الله مَنْ يكون مخْلَصاً دون أن يكون نبياً أو رسولاً كالعبد الصالح مثلاً ؛ لذلك أخبر تعالى عن موسى ـ عليه السلام ـ أنه جمع له كل هذه الصفات .

والرسول : مَنْ أُوحى إليه بشرع يعمل به ويُؤْمَر بتبليغه لقومه . أما النبى ، فهو مَنْ أُوحى إليه بشرع يعمل به لكن لم يُؤْمَر بتبليغه . إذن : فكل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولاً ؛ لأن النبى يعيش على منهج الرسول الذى يعاصره أو يسبقه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ .. (٥٢) ﴾ [مريم] أيمن الطور ، أَمْ أيمن موسى ؟ أىّ مكان لا يُقال له أيمن ولا أيسر ، إنما الأيمن والأيسر بالنسبة لك أو لغيرك ، فالذى تعتبره أنت يميناً يعتبره غيرُك يساراً ، ولا يُقال للمكان أيمن ولا أيسر إلا إذا قِسْته إلى شىء ثابت كالقبْلة مثلاً فتقول : أيمن القبلة ، وأيسر القبلة ، وخلف القبْلة ، وأمام القبْلة .

إذن : فقوله : ﴿ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ .. (٥٢) ﴾ [مريم] أى : أيمن موسى ، وهو مُقبل على الجبل ، وهذه لقطة مختصرة من القصة جاءت مُفصَّلة فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا .. (٢٩) ﴾ [القصص]

وقوله : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) ﴾ [مريم] أى : قرَّبْناه لنُنَاجيه بكلام . والنجىّ : هو المنَاجِى الذى يُسِرُّ القول إلى صاحبه ، كما جاء فى الحديث الشريف : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَ اثنان دون الآخر ، فإن ذلك يُحزِنه »[1] .

وقد قرَّب الله تعالى موسى ليناجيه ؛ لأن هذه خصوصية لموسى عليه السلام ، فكلام الله لموسى خاصٌّ به وحده لا يسمعه أحد غيره ، فإنْ قلتَ : فكيف يكلّمه الله بكلام ، ويسمى مناجاة ؟ قالوا : لأنه

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢١٨٤) كتاب السلام ، وكذا أخرجه ابن ماجة فى سننه (٣٧٧٥) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، وعند مسلم زيادة « حتى تختلطوا بالناس » .

تعالى أسمعه موسى ، وأخفاه عن غيره ، فصار مناجاة كما يتناجى اثنان سراً . وهذا من طلاقة قدرته تعالى أن يُسمع هذا ، ولا يُسمع ذاك .

وبعض المفسرين يرى أن (الأيمن) ليس من اليمين ، ولكن من اليُمْن والبركة . و ﴿وَقَرَّبْنَاهُ .. ﴿٥٢﴾﴾ [مريم] أى : من حضرة الحق تبارك وتعالى . لكن هل حضرة الحق قُرْب منه ، أم موسى هو الذى قَرُب من حضرة الحق سبحانه ؟ كيف نقول إن الله قرب منه وهو سبحانه أقرب إليه من حبل الوريد ، فالتقريب إذن لموسى عليه السلام .

وهكذا جمع الحق ـ تبارك وتعالى ـ لموسى عدة خصال ، حيث جعله مخلَصاً ورسولاً ونبياً ، وخَصَّه بالكلام والمناجاة ، ثم يزيده هبةً أخرى فى قوله :

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾

وهب الله لموسى أخاه هارون رحمةً بموسى ؛ لأن هارون كان مُعيناً لأخيه ومسانداً له فى مسألة الدعوة ، وهذه لم تحدث مع نبى آخر ، أن يجعل الله له معيناً فى حمل هذه المهمة ؛ لذلك قال موسى عليه السلام : ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا[1] يُصَدِّقُنِى إِنِّى أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص]

والرِّدْء : هو المعين . وهكذا أعطانا الحق ـ تبارك وتعالى ـ لقطة سريعة من موكب النبوة فى قصة موسى ، ولمحة مُوجَزة هنا أتى تفصيلها فى موضع آخر .

---

(١) رداه : قوّاه وأعانه . والردء بكسر الراء : المعين والناصر . [القاموس القويم ١/ ٢٦٠] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [مريم] ما الميزة هنا وكل الرسل كانوا صادقى الوعد ؟ قالوا : لأن هناك صفة تبرز فى شخص ويتميز بها ، وإن كانت موجودة فى غيره ، فالذى يصدُق فى وعد أعطاه ، أو كلمة قالها صدق فى أمر يملكه ويتعلق به .

أما إسماعيل - عليه السلام - فكان صادق الوعد فى أمر حياة أو موت ، أمر يتعلق بنفسه ، حين قال لأبيه : ﴿ يَـٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات]

وليت الأمر جاء مباشرة ، إنما رآه غيره ، وربما كانت المسألة أيسَر لو أن الولد هو الذى رأى أباه يذبحه ، لكنها رُؤْيا رآها الأب ، والرؤيا لا يثبت بها حكم إلا عند الأنبياء . فكان إسماعيل دقيقاً فى إجابته حينما أخبره أبوه كأنه يأخذ رأيه فى هذا الأمر : ﴿ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ .. ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات]

فخاف إبراهيم عليه السلام أن يُقبل على ذَبْح ولده دون أن يخبره حتى لا تأتى عليه فترة يمتلىء غيظاً من أبيه إذا كان لا يعرف السبب ، فأحبَّ إبراهيم أن يكون استسلامُ ولده للذبح قُرْبَى منه لله ، له أجْرُها وثوابها .

قال إسماعيل عليه السلام لأبيه إبراهيم : ﴿ يَـٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ .. ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات]

والوعد الذى صدق فيه قوله : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات] وصدق إسماعيل فى وعده ، واستسلم للذبح ، ولم يتردد ولم يتراجع ؛ لذلك استحق أنْ يميزه ربه بهذه الصفة ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ .. (٥٤) ﴾ [مريم]

فلما رأى الحق ـ تبارك وتعالى ـ استسلام إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ لقضاء الله رفع عنه قضاءه وناداه : ﴿ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات] فكانت نتيجة الصبر على هذا الابتلاء أنْ فدى الله الذبيح ، وخلَّصه من الذبح ، ثم أكرم إبراهيم فوق الولد بولد آخر : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ .. (٨٤) ﴾ [الانعام]

وهذه لقطة قرآنية تُعلِّمنا أن المسلم إذا استسلم لقضاء الله ، ورَضِى بقدره فسوف يجنى ثمار هذا الاستسلام ، والذى يطيل أمد القضاء على الناس أنهم لا يرضون به ، والحق تبارك وتعالى لا يجبره أحد ، فالقضاء نافذ نافذ ، رضيتَ به أم لم تَرْضَ .

وحين تسلم لله وترضى بقضائه يرفعه عنك ، أو يُبيِّن لك وجه الخير فيه . إذن : عليك أن تحترم القدر وترضى به ؛ لأنه من ربك الخالق الحكيم ، ولا يُرفع قضاء الله عن الخلق حتى يرضوا به .

وكثيراً ما نرى اعتراض الناس على قضاء الله خاصة عند موت الطفل الصغير ، فنراهم يُكثِرون عليه البكاء والعويل ، يقول أحدهم : إنه لم يتمتع بشبابه .

ونعجب من مثل هذه الجهالات : أىّ شباب ؟ وأيَّة متعة هذه ؟ وقد فارق فى صِغَره دنيا باطلة زائلة ، ومتعة موقوتة إلى دار باقية

ومتعة دائمة ؟ كيف وقد فارقِ العيش مع المخلوق ، وذهب إلى رحاب الخالق سبحانه ؟

إنه فى نعيم لو عرفتَه لتمنيتَ أن تكون مكانه ، ويكفى أن هؤلاء الأطفال لا يُسألون ولا يُحاسبون ، وليس لهم مسكن خاص فى الجنة ؛ لأنهم طلقاء فيها يمرحون كما يشاؤون ؛ لذلك يسمونهم (دعاميص الجنة)[(١)] .

وآخر يعترض لأن زميله فى العمل رُقِّى حتى صار رئيساً له ، فـ به يحقد عليه ويحقره ، وتشتعل نفسه عليه غضباً ، وكان عليه أن يتساءل قبل هذا كله : أأخذ زميله شيئاً من مُلْك الله دون قضائه وقدره ، إذن : فعليك إذا لم تحترم هذا الزميل أن تحترم قدر الله فيه، فما أخذَ شيئاً غصباً عن الله .

لذلك فالنبى ﷺ يقول : « اسمعوا وأطيعوا ، ولو وُلِّى عليكم عبد حبشىٌ ، كأنّ رأسَه زبيبة »[(٢)] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٤٧٧ ، ٥١٠) ، ومسلم فى صحيحه (٢٦٣٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن أبا حسان قال لأبى هريرة : إنه قد مات لى ابنان . فما أنت محدثى عن رسول الله ﷺ بحديث تطيب به أنفسنا عن موتانا ؟ قال قال : نعم صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه فيأخذ بثوبه ، كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا ، فلا يتناهى حتى يُدخله الله وأباه الجنة » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١١٤) ، والبخارى فى صحيحه (٧١٤٢) وابن ماجة فى سننه (٢٨٦٠) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه ، وفى لفظ لأحمد (٣/١٧١) : أن رسول الله ﷺ قال لأبى ذر : « اسمع وأطع ولو لحبشى كأن رأسه زبيبة » .

أى : من خصال إسماعيل العظيمة التى ذكرها الله تعالى له : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ .. (٥٥) ﴾ [مريم] أى : زوجته . والحق تبارك وتعالى لا يهتم بخَصْلة ولا يذكرها إلا إنْ كانت كبيرة عنده ، تساوى كونه صادقَ الوعد وكونه رسولاً ونبياً ، فمَنْ أراد أنْ يتصفَ بصفة من صفات النبوة ، فعليه أنْ يأمرَ أهله بالصلاة والزكاة .

لكن ، لماذا اختص أهله بالذات ؟ اختص أهله لأنهم البيئة المباشرة التى إنْ صلُحتْ للرجل صَلُحَ له بيته ، وصلُحَتْ له ذريته ، إذا كان الرجل يلفت أهله إلى ذكر الله والصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة فإنه بذلك يسدُّ الطريق على الشيطان ، فليس له مجال فى بيت يصلى أهله الخمس صلوات .

لذلك فالنبى ﷺ يقول : « رحم الله امرأ استيقظ من الليل ، فصلَّى ركعتين ثم أيقظ أهله فإن امتنعتْ نضح فى وجهها الماء ، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلَّتْ ركعتين ، ثم أيقظتْ زوجها ، فإنِ امتنع نضحتْ فى وجهه الماء »[(١)] .

إذن : فكل رجل وكل امرأة يستطيع فى كل ليلة أن يكون رسولاً لأهله ولبيئته يقوم فيها بمهمة الرسول ؛ لأن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء والرسل ، فليس بعد تشريعه تشريع ، وليس بعد كتابه كتاب ؛ لأن أمته ستحمل رسالته من بعده ، وكل مؤمن منهم يعلم من الإسلام حُكْماً ، فهو خليفة لرسول الله فى تبليغه .

كما قال تعالى : ﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً .. (١٤٣) ﴾ [البقرة] فالرسول يشهد أنه بلَّغكم ، وعليكم أنْ

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٥٠ ، ٤٣٦) ، والنسائى فى سننه (٣/٢٠٥) وأبو داود فى سننه (١٣٠٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

تشهدوا أنكم بلّغتُم الناس ، وما دُمْتم بلَّغتم الناس مَنْطقاً ولفظاً فلا بُدَّ أنْ يكون سلوكاً أيضاً ، لأن لكم فى رسول الله أسوة حسنة .

ودائماً ما يقرن الحق ـ تبارك وتعالى ـ بين الصلاة والزكاة ، والصلاة تأخذ بعض الوقت ، والزكاة تأخذ المال الذى هو فرع العمل الذى هو فرع الوقت ، فإنْ كانت الزكاة تأخذ نتيجة الوقت ، فالصلاة تأخذ الوقت نفسه . إذن : ففى الصلاة زكاة أبلغ من الزكاة .

وإنْ كان فى الزكاة نماء المال وبركته ـ وإنْ كانت فى ظاهرها نقصاً ـ ففى الصلاة نماء الوقت وبركته ، فإياك أنْ تقول : أنا مشغول ، ولا أجد وقتاً للصلاة ؛ لأن الدقائق التى ستصلى فيها فَرْض ربك هى التى ستُشيع البركة فى وقتك كله .

كما أنك حين تقف بين يَدَىْ ربك فى الصلاة تأخذ شحنة إيمانية نورانية تُعينك على أداء مهمتك فى الحياة ، وتعرض نفسك على ربِّك وخالقك وصانعك ، ولن تُعدم خيراً ينالك من هذا اللقاء .

ولك أنْ تتصوّر صنعةً تُعرَض على صانعها خمس مرات كل يوم ، هل يصيبها عُطْل أو عَطَب ؟! وإنْ كان المهندس الصانع يعالج بأشياء مادية فلأنه حسِّىٌّ مشهود ، أما الخالق سبحانه فهو غَيْب يصلحك من حيث لا تدرى .

وإنْ كان إسماعيل ـ عليه السلام ـ يأمر أهله بالصلاة والزكاة فهو حريص عليها من باب أَوْلَى .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) ﴾ [مريم] أى : رضى الله عنه ، ليس لخصال الخير التى وصفه بها ، بل من بدايته ، فقد رضى عنه فاختاره رسولاً ونبياً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ ﴾

مازال القرآن يعطينا لقطات من موكب الرسالات والنبوات . وإدريس عليه السلام أوّل نبى بعدَ آدم عليه السلام ، فهو إدريس بن شيث بن آدم . وبعد إدريس جاء نوح ثم إبراهيم ، ومنه جاءت سلسلة النبوات المختلفة .

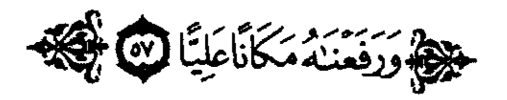
وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ ﴾ [مريم]

تحدثنا عن معنى الصِّدِّيق فى الكلام عن إبراهيم عليه السلام ، والصِّدِّيق هو الذى يبالغ فى تصديق ما جاءه من الحق ، فيجعل الله له بذلك فُرْقاناً وإشراقاً يُميّز به الحق فلا يتصادم معه شيطان ؛ لأن الشيطان قد ينفذ إلى عقلى وعقلك .

أما الوارد من الحق سبحانه وتعالى فلا يستطيع الشيطان أن يعارضه أو يدخل فيه ، لذلك فالصِّدِّيق وإن لم يكُنْ نبياً فهو مُلْحق بالأنبياء والشهداء ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النساء]

وكذلك كان إدريس عليه السلام (نبيا) ولم يقُلْ : رسولاً نبياً ، لأن بينه وبين آدم عليه السلام جيلين ، فكانت الرسالة لآدم ما زالت قائمة .

ثم يقول الحق سبحانه :



مكاناً عالياً فى السماء ، رفْعة معنوية ، أو رفْعة حسّية ، خُذْها كما شئتَ ، لكن إياك أنْ تجادل : كيف رفعه ؟ لأن الرِّفْعة من الله تعالى ، والذى خلقه هو الذى رفعه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ(١) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ۩ ﴿٥٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أُوْلَـٰئِكَ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [مريم] أى : الذين تقدَّموا وسبق الحديث عنهم من الأنبياء والرسل ﴿ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [مريم] أى : مباشرة مثل إدريس عليه السلام ﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [مريم] الذين جاءوا بعد إدريس مباشرة ﴿ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [مريم] أى : الذين جاءوا بعد نوح .

وقد انقسموا إلى فرعين من ذرية إبراهيم .

الأول : فرع إسحق الذى جاء منه جمهرة النبوة ، بداية من يعقوب ، ثم يوسف ، ثم موسى وهارون ، ثم داود وسليمان ، ثم زكريا ويحيى ، ثم ذو الكفل ، ثم أيوب ، ثم ذو النون .

والفرع الآخر : فرع إسماعيل عليه السلام الذى جاء منه جماع جواهر النبوة ، وهو محمد ﷺ .

---

(١) اجتبى فلاناً : اختاره واستخلصه واصطفاه . [القاموس القويم ١/١١٧] .

﴿وَإِسْرَائِيلَ .. ﴿٥٨﴾﴾ [مريم] هو نبيّ الله يعقوب ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا .. ﴿٥٨﴾﴾ [مريم] الذين هديناهم واجتبيناهم . أى : اخترناهم واصطفيناهم للنبوة ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾ [مريم]

لماذا قال ﴿آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ﴿٥٨﴾﴾ [مريم] ولم يقُلْ : آيات الله ؟ قالوا : لأن آيات الله تحمل منهجاً وتكليفاً ، وهذا يشقُّ على الناس ، فكأنه يقول لنا : إياكم أنْ تفهموا أن الله يُكلّفكم بالمشقة ، وإنما يُكلّفكم بما يُسعد حركة حياتكم وتتساندون ، ثم يسعدكم به فى الآخرة ؛ لذلك اختار هنا صفة الرحمانية .

وقوله : ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾ [مريم] لم يقُل : سجدوا ، بل سقطوا بوجوههم سريعاً إلى الأرض . وهذا انفعال قَسْرى طبيعى ، لا دَخْلَ للعقل فيه ولا للتفكير ، فالساجد يستطيع أنْ يسجدَ بهدوء ونظام ، أما الذى يخرُّ فلا يفكر فى ذلك ، وهذا أشبه بقوله تعالى : ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ..﴿٢٦﴾﴾ [النحل] أى: سقط عليهم فجأة .

وهذا الانفعال يُسمُّونه « انفعال نزوعى » ناتج عن الوجدان ، والوجدان ناتج عن الإدراك ، وهذه مظاهر الشعور الثلاثة : الإدراك ، ثم الوجدان ، ثم النزوع . والإنسان له حواس يُدرِك بها : العين والأذن والأنف واللسان .. الخ .

فهذه وسائل إدراك المحسّات ، فإذا أدركتَ شيئاً بحواسِّك تجد له تأثيراً فى نفسك ، إما حُباً وإما بُغْضاً ، إما إعجاباً وإما انصرافاً ، وهذا الأثر فى نفسك هو الوجدان ، ثم يصدر عن هذا الوجدان حركة هى « النزوع » .

فمثلاً ، لو رأيتَ وردة جميلة فهذه الرؤيا « إدراك » ، فإنْ أُعجبْتَ

بها وسُررْتَ فهذا « وجدان » ، فإنْ مددْتَ يدك لتقطفها فهذا « نزوع » . والشرع لا يحاسبك على الإدراك ولا على الوجدان ، لكن حين تمد يدك لقطف هذه الوردة نقول لك : قفْ فهذه ليست لك ، ولا يمنعك الشارع ويتركك ، إنما يمنعك ويوحي لك بالحلِّ المناسب لنزوعك ، فعليك أنْ تزرع مثلها ، فتكون مِلْكاً لك أو على الأقل تستأذن صاحبها .

كذلك الحال فيمن يتسمّع لكلام الله وقرآنه يدرك القرآن بسمعه فينشأ عنه حلاوة ومواجيد فى نفسه ، وهذا هو الوجدان الذى ينشأ عنه انفعال نُزوعى ، فلا يجد إلا أنْ يخر ساجداً لله تعالى . والنزوع هنا لم يكُنْ نزوعاً ظاهرياً بل وأيضاً داخلياً ، ففاضت أعينهم بالدمع ﴿ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۝٥٨ ﴾ [مريم]

وقد عُولج هذا المعنى فى عدّة مواضع أُخَر ، كما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ ﴾ [الإسراء]

ومعنى : للأذقان : مبالغة فى الخضوع والخشوع واستيفاء السجود ؛ لأن السجود يكون أولاً على الجبهة ثم الأنف لكن على الأذقان ، فهذا سجود على حَقٍّ ، وليس كنقْر الديكَة كما يقولون .

إذن : فأهل الكتاب كانوا على علم ببعثة محمد ﷺ ، وأنه سيأتى بالقرآن على فَتْرة من الرسل ، وها هم الآن يسمعون القرآن ؛ لذلك يقولون : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ۝١٠٨ ﴾ [الإسراء]

ومن النزوع الانفعالى أيضاً قوله تعالى عن أهل الكتاب : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ .. ۝٨٣ ﴾ [المائدة]

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ .. (٢٣) ﴾ [الزمر]

فلماذا يُؤثِّر الانفعال بالقرآن فى كُلِّ هذه الحواس والأعضاء من جسم الإنسان ؟ قالوا : لأن الذى خلق التكوين الإنسانى هو الذى يتكلم ، والخالق سبحانه حينما يتكلم وحينما تفهم عنه وتعى ، فإنه سبحانه لا يخاطب عقلك فقط ، بل يخاطب كل ذرة من ذرّات تكوينك ؛ لذلك تخرُّ الأعضاء ساجدة ، وتدمع العيون ، وتقشعر الجلود ، وتلين القلوب ، كيف لا والمتكلم هو الله ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا (٥٩) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ .. (٥٩) ﴾ [مريم] أى : أن المسائل لم تستمر على ما هى عليه من الكلام السابق ذكْره ، بل خلَفَ هؤلاء القوم (خَلْفٌ) والخَلْف : هم القوم الذين يخلُفون الإنسان . أى : يأتون بعده أو من ورائهم .

وهناك فَرْق بين خَلْف وخَلَف : الأولى : بسكون اللام ويُراد بها الأشرار من عَقب الإنسان وأولاده ، والأخرى : بفتح اللام ويُراد بها الأخيار . لذلك ، فالشاعر[1] حينما أراد أنْ يتحسَّر على أهل الخير الذين مَضَوْا قال :

---

(١) هو : لبيد بن ربيعة بن مالك أبو عقيل العامرى ، أحد شعراء الجاهلية ، من أهل عالية نجد ، أدرك الإسلام ، يُعد من الصحابة ، سكن الكوفة ، عاش عمراً طويلاً ، توفى عام (٤١ هـ) . (الأعلام للزركلى ٥/ ٢٤٠) .

ذَهَبَ الذِينَ يُعاشُ فِى أكنَافِهِمْ وبَقِيتُ فى خَلْف كجِلْدِ الأجْرَبِ[1]

فماذا تنتظر منْ هؤلاء الأشرار ؟ لا بُدّ أنْ يأتى بعدهم صفات سوء ﴿أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ .. (٥٩)﴾ [مريم] إذن : هم خَلْف فاسد ، فأول ما أضاعوا أضاعوا الصلاة التى هى عماد الدين ، وأولَى أركانه بالأداء .

صحيح أن الإسلام بُنى على عدّة أركان ، لكن بعض هذه الأركان قد يسقط عن المسلم ، ولا يُطْلب منه كالزكاة والحج والصيام ، فيبقى ركنان أساسيان لا يسقطان عن المسلم بحال من الأحوال ، هما : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقامة الصلاة .

وسُئِلْنَا مرة من بعض إخواننا فى الجزائر : لماذا نقول لمن يؤدى فريضة الحج : الحاج فلان ، ولا نقول للمصلى : المصلى فلان ، أو المزكِّى فلان ، أو الصائم فلان ؟

فقلت للسائل : لأن بالحج تتم نعمة الله على العبد ، وحين نقول : الحاج فلان . فهذا إشعار وإعلام أن الله أتمَّ له النعمة ، واستوفى كل أركان الإسلام ، فمعنى أنه أدَّى فريضة الحج أنه مستطيع مالاً وصحة ، وما دام عنده مال فهو يُزكِّى ، وما دام عنده صحة فهو يصوم ، وهو بالطبع يشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويؤدى الصلاة ، وهكذا تمَّتْ له بالحج جميع أركان الإسلام .

ثم يقول تعالى : ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩)﴾ [مريم] هذه العبارة أخذها المتمحكون الذين يريدون أنْ يدخلوا على القرآن بنقد ، فقالوا : الغَىُّ هو الشر والضلال والعقائد الفاسدة ، وهذه حدثتْ منهم بالفعل

(١) أورده أبو على القالى فى الأمالى (١٩٧/١) ، وهو من بحر (الكامل) .

فى الدنيا فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فكيف يقول : فسوف يلقوْنه فى المستقبل ؟

لكن المراد بالغيّ هنا أى : جزاء الغى وعاقبتهَ . كما لو قُلْت : أمْطرتْ السماء نباتاً ، فالسماء لم تُمطر النبات ، وإنما الماء الذى يُخرِج النبات ، كذلك غيّهم وفسادهم فى الدنيا هو الذى جَرَّ عليهم العذاب فى الآخرة .

إذن : المعنى : فسوفَ يلقوْنَ عذاباً وهلاكاً فى الآخرة .

ومع ذلك ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ لرحمته بخَلْقه شرع لهم التوبة ، وفتح لهم بابها ، ويفرح بهم إنْ تابوا ؛ لذلك فالذين اتصفُوا بهذه الصفات السيئة فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات لا ييأسون من رحمة الله ، ما دام بابُ التوبة مفتوحاً .

وفَتْح باب التوبة أمام العاصين رحمة يرحم الله بها المجتمع كله من أصحاب الشهوات والانحرافات ، وإلاَّ لو أغلقنا الباب فى وجوههم لَشقِيَ بهم المجتمع ، حيث سيتمادَوْن فى باطلهم وغَيِّهم ، فليس أمامهم ما يستقيمون من أجله .

والتوبة تكون من العبد ، وتكون من الرب تبارك وتعالى ، فتشريع التوبة وقبولها من الله وإحداث التوبة من العبد ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. (١١٨)﴾ [التوبة] أى : شرعها لهم ليتوبوا فيقبل توبتهم ، فهى من الله أولاً وأخيراً ؛ لذلك يأتى هذا الاستثناء .

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ ﴾

وللتوبة شروط يجب مراعاتها ، وهى : أن تُقلع عن الذنب الذى تقع فيه ، وأن تندم على ما بدر منك ، وأنْ تنوى وتعزم عدم العودة إليه مرة أخرى . وليس معنى ذلك أنك إنْ عُدْتَ فلن تُقْبلَ منك التوبة ، فقد تتعرض لظروف تُوقعك فى الذنب مرة أخرى .

لكن المراد أنْ تعزم صادقاً عند التوبة عدم العَوْد ، فإنْ وقعت فيه مرة أخرى تكون عن غير قَصْد ودون إصرار . وإلاّ لو دبرتَ لهذه المسألة فقُلْت : أذنب ثم أتوب ، فمن يُدريك أن الله تعالى سيمهلك إلى أنْ تتوبَ ؟ إذن : فبادر بها قبل فَوات أوانها .

هذه - إذن - شروط التوبة إنْ كانت فى أمر بين العبد وربه ، فإنْ كانت تتعلق بالعباد فلا بُدَّ أنْ يتوفّر لهما شرط آخر وهو رَدُّ المظالم إلى أهلها إنْ كانت ترد ، أو التبرع بها فى وجوه الخير على أنْ ينوىَ ثوابها لأصحابها ، إنْ كانت مظالم لا تُردُّ .

ثم يقول تعالى بعدها : ﴿ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الكهف] معنى : وآمن بعد أنْ تاب ، تعنى أن ما أحدثه من معصية خدش إيمانه ، فيحتاج إلى تجديده . وهذا واضح فى الحديث الشريف :

« لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[1] .

فساعةَ مباشرة هذه المعاصى تنتفى عن الإنسان صفة الإيمان ؛

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) ، ومسلم فى صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

لأن إيمانه غاب فى هذه اللحظة ؛ لأنه لو استحضر الإيمان وما يلزمه من عقوبات الدنيا والآخرة ما وقع فى هذه المعاصى .

لذلك قال : (وَآمَنَ) أى : جدَّد إيمانه ، وأعاده بعد توبته ، ثم ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا .. ۝ ﴾ [مريم] ليصلح به ما أفسده بفعل المعاصى .

والنتيجة : ﴿ فَأُوْلَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۝ ﴾ [مريم] وفى موضع آخر ، كان جزاء مَنْ تاب وآمن وعمل صالحاً : ﴿ فَأُوْلَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ .. ۝ ﴾ [الفرقان]

فلماذا كُلُّ هذا الكرم من الله تعالى لأهل المعاصى الذين تابوا ؟ قالوا : لأن الذى ألِفَ الشهوة واعتاد المعصية ، وأدرك لذَّته فيها يحتاج إلى مجهود كبير فى مجاهدة نفسه وكَبْحها ، على خلاف مَنْ لم يتعوّد عليها ، لذلك احتاج العاصون إلى حافز يدفعهم ليعودوا إلى ساحة ربهم .

لذلك قال سبحانه : ﴿ فَأُوْلَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ .. ۝ ﴾ [مريم] دون أنْ يُعيَّروا بما فعلوه ؛ لأنهم صَدَقُوا التوبة إلى الله ﴿ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۝ ﴾ [مريم] وبقدر ما تكون التوبة صادقة ، والندم عليها عظيماً ، وبقدر ما تلوم نفسك ، وتسكب الدمْع على معصيتك بقدر ما يكون لك من الأجر والثواب ، وبقدر ما تُبدَّل سيئاتك حسنات . وكُلُّ هذا بفضل الله وبرحمته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ جَنَّـٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَـٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيًّا ۝٦١ ﴾

قوله : ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ .. (٦١)﴾ [مريم] أى : إقامة دائمة ؛ لأنك قد تجد فى الدنيا جنات ، وتجد أسباب النعيم ، لكنه نعيم زائل ، إمّا أنْ تتركه أو يتركك . إذن : فكُلُّ نعيم الدنيا لا ضامنَ له .

وجنات عَدْن ليست هى مساكن أهل الجنة ، بل هى بساتين عمومية يتمتع بها الجميع ، بدليل أن الله تعالى عطف عليها فى آية أخرى (وَمَسَاكِنَ طَيِّبةٌ) فى قوله تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ .. (٧٢)﴾ [التوبة]

وقوله : ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ .. (٦١)﴾ [مريم] والوعْد : إخبار بخير قبل أوانه ؛ ليشجع الموعود على العمل لينالَ هذا الخير ، وضدّه الوعيد : إخبار بشَرٍّ قبل أوانه ليحذره المتوعد ، ويتفادى الوقوع فى أسبابه .

واختار هنا اسم الرحمن ليُطمئنَ الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصى أن ربهم رحمن رحيم ، إنْ تابوا إليه قبلهم ، وإنْ وعدهم وَعْداً وَفَى . وقد وعدنا الله تعالى فى قرآنه فآمنّا بوَعده غيْباً ﴿وَعَدَ الرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ .. (٦١)﴾ [مريم]

وحجة الإيمان بالغيب فيما لم يوجد بعد المشهد الذى نراه الآن ، فالكون الذى نشاهده قد خُلق على هيئة مُهندسة هندسةً لا يوجد أبدعُ منها ، فالذى خلق لنا هذا الكون العجيب المتناسق إذا أخبرنا عن نعيم آخر دائم فى الآخرة ، فلا بُدَّ أن نُصدِّق ، ونأخذ من المشاهَد لنا دليلاً على ما غاب عنَّا ؛ لذلك نؤمن بالآخرة إيماناً غيبياً ثقةً منَّا فى قدرته تعالى التى رأينا طَرَفاً منها فى الدنيا .

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾ [مريم] فما دام الرحمن - تبارك وتعالى - هو الذى وعد ، فلا بُدَّ أن يكون وعدُه (مَأْتياً) أى : مُحققاً وواقعاً لا شَكَّ فيه ، ووعْده تعالى لا يتخلَّف و (مأْتِياً) أى : نأتيه نحن ، فهى اسم مفعول .

وبعض العلماء[1] يرى أن (مَأتياً) بمعنى آتياً ، فجاء باسم المفعول ، وأراد اسم الفاعل ، لكن المعنى هنا واضح لا يحتاج إلى هذا التأويل ؛ لأن وعد الله تعالى مُحقَّق ، والموعود به ثابت فى مكانه ، والماهر هو الذى يسعى إليه ويسلك طريقه بالعمل الصالح حتى يصل إليه .

ثم يقول الحق سبحانه عن أهل الجنة فى الجنة :

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾

اللغو : هو الكلام الفُضولى الذى لا فائدة منه ، فهو يضيع الوقت ويُهْدِر طاقة المتكلم وطاقة المستمع ، وبعد ذلك لا طائلَ من ورائه ولا معنى له .

والكلام هنا عن الآخرة ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا .. ﴿٦٢﴾﴾ [مريم] فإن كانوا قد سمعوا لَغْواً كثيراً فى الدنيا فلا مجالَ للغو فى الآخرة . ثم يستثنى من عدم السماع ﴿إِلاَّ سَلامًا .. ﴿٦٢﴾﴾ [مريم] والسلام ليس من اللغو ، وهو تحية أهل الجنة وتحية الملائكة : ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ .. ﴿١٠﴾﴾ [يونس]

(١) قاله القتبى فيما نقله عنه القرطبى فى تفسيره (٤٢٩٧/٦) : [« مأتياً » بمعنى آت ، فهو مفعول بمعنى فاعل] .

وقد يُرَادُ بالسـلام السلامـة من الآفات التى عاينوهـا فى الدنيا ، وهم فى الآخـرة سـالمون منهـا ، فـلا عـاهة ولا مرضَ ولا كَـدَّ ولا نصبَ . لكن نرجح هنا المـعنى الأول أى : التحـية ، لأن السـلام فى الآية مما يُسْمَع[1] .

فإنْ قُلْتَ : فكيف يستثنى السـلام من اللَّغْو ؟ نقول : من أساليب اللغة : تأكيد المدح بما يشـبه الذم ، كأن نقول : لا عيبَ فى فلان إلا أنه شجـاع ، وكنت تنتظر أنْ نستـثنى من العيب عَـيْباً ، لكـن المعنى هنا : إنْ عددتَ الشجـاعة عيباً ، ففى هذا الشخص عَـيْب ، فقد نظرنا فى هذا الشـخص فلم نجـد به عَيْـباً ، إلا إذا ارتكبنا مُـحَالاً وعـددنا الشجاعة عيباً . وهكذا نؤكد مدحه بما يشبه الذم .

ومن ذلك قول الشاعر :

ولاَ عَيْبَ فِيهِم غَيْرَ أنَّ سُيُوفَهُمْ   بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ[2] الكَتَائِبِ[3]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ ﴾ [مريم] لم يقُل الحق سبـحانه وتعالى : وعلينا رزقهم ، بل : ولهم رزقـهم : أى أنه أمر قد تقـرّر لهم وخُصِّص لهم ، فـهو أمـر مفروغ منـه . والرزق : كُلُّ ما يُنتفع به ، وهو فى الآخرة على قَدْر عمل صاحبه من خير فى الدنيا .

ومن رحـمـة الله تعـالى بعـبـاده من أهل الجـنة أنْ نزعَ مـا فى

---

(١) قـال القرطبى فى تفسـيره (٤٢٩٨/٦) : « السلام اسم جـامع للخـير ، والمـعنى أنهم لا يسمعون فيـها إلا ما يحبون » وقال مقاتل وغيـره : « يعنى سلام بعضهم على بعض ، وسلام الملَك عليهم » .

(٢) القراع والمقارعة : المضاربة بالسيوف . [لسان العرب ـ مادة : قرع] .

(٣) ذكره ابن منظور فى اللسان قال : « فى حديث عبد الملك ، وذكر سيف الزبير : بهن فلول من قراع الكتائب . أى : قتال الجيوش ومحاربتها » .

صدورهم من غلٍّ ومن حسد ومن حقد ، فلا يحقد أحدٌ على أحد أفضل مرتبة منه ، ولا يشتهى من نعيم الجنة إلا على قَدْر عمله ودرجته ، فإنْ رأى مَنْ هو أفضل منه درجةً لا يجد فى نفسه غلاً منه ، أو حقْداً عليه ؛ لأن موجب الغلِّ فى الدنيا أنْ ترى مَنْ هو أفضل منك .

أما فى الآخرة فسوف ترى هذه المسألة بمنظار آخر ، منظار النفس الصافية التى لا تعرف الغلَّ ، قال تعالى : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧)﴾ [الحجر]

فإنْ رأيت مَنْ هو أعلى منك درجةً فسوف تقول : إنه يستحق ما نال من الخير والنعيم ، فقد كان يجاهد نفسه وهواه فى الدنيا . ويكفى فى وَصْف ما فى الجنة من الرزق والنعيم قوله تعالى : ﴿فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ .. (٧١)﴾ [الزخرف]

وقول النبى ﷺ : « فيها ما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر»[1] .

إذن : ففى الجنة أشياء لا تقع تحت إدراكنا ؛ لذلك ليس فى لغتنا ألفاظ تُعبِّر عن هذا النعيم ؛ لأنك تضع فى اللغة اللفظ الذى أدركتَ معناه ، وفى الجنة أشياء لا تدركها ولا علْمَ لك بها ؛ لذلك حينما يريد الحق - تبارك وتعالى - أن يصفَ لنا نعيم الجنة يصفه بما نعرف من نعيم الدنيا : نخل وفاكهة ورمان ولحم طير وريحان .

ويقول : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٢/٤٦٦) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وتمامه : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى .. (١٥) ﴾ [محمد]

مع الفارق بين هذه الأشياء فى الدنيا والآخرة . ويكفى أن تعرف الفرق بين خمر الدنيا وما فيها من سوء فى طعمها ورائحتها واغتيالها للعقل ، وبين خمر الآخرة التى نفى الله عنها السوء ، فقال : ﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ(١) (٤٧) ﴾ [الصافات]

وقوله : ﴿ بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) ﴾ [مريم] فكيف يأتيهم رزقهم بُكْرة وعشياً ، وليس فى الجنة وقت لا بُكْرة ولا عَشياً ، لا لَيْل ولا نهار ؟ نقول : إن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يخاطبنا على قَدْر عقولنا ، وما نعرف نحن من مقاييس فى الدنيا ، وإلاَّ فنعيم الجنة دائم لا يرتبط بوقت ، كما قال سبحانه : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ..(٣٥) ﴾ [الرعد]

وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) ﴾ [المؤمنون]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (٦٣) ﴾

قوله : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ .. (٦٣) ﴾ [مريم] أى : التى يعطينا صورة لها هى : ﴿ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (٦٣) ﴾ [مريم] أى : يرثونها ، فهل كان فى الجنة أحد قبل هؤلاء ، فَهُم يرثونه ؟

الحق ـ تبارك وتعالى ـ قبل أن يخلق الخَلْق عرف منهم مَنْ سيؤمن باختياره ، ومَنْ سيكفر باختياره ، علم مَنْ سيطيع ومَنْ

(١) لا فيها غول : أى لا تغتال العقل مثل خمر الدنيا . [القاموس القويم ٢/٦٣] . ولا هم عنها ينزفون : أى لا يُصرفون عنها وقد غابت عقولهم . [القاموس القويم ٢/٢٦٠] .

سيعصى ، فلم يُرغِم سبحانه عباده على شىء ، إنما علم ما سيكون منهم بطلاقة علمه تعالى ، إلا أنه تعالى أعدَّ الجنة لتسع جميع الخَلْق إنْ أطاعوا ، وأعدَّ النار لتسع جميع الخَلْق إنْ عَصَوْا ، فلن يكون هناك إذن زحام ولا أزمة إسكان ، إنْ دخل الناس جميعاً الجنة ، أو دخلوا جميعاً النار .

إذن : حينما يدخل أهلُ النارِ النارَ ، أين تذهب أماكنهم التى أُعدَّتْ لهم فى الجنة ؟ تذهب إلى أهل الجنة ، فيرثونها بعد أنْ حُرم منها هؤلاء .

ثم يقول رب العزة سبحانه[1] :

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾

هنا ينتقل السياق إلى موضوع آخر ، فبعد أنْ تحدَّث عن الجنة وأهلها عرض لأمر حدث لرسول الله ﷺ ، وهو ما يحدث له حين ينزل عليه الوحى ، وقلنا : إن الوحى ينزل بواسطة جبريل عليه السلام ، وهو ملَكٌ ، على محمد ﷺ وهو بشر .

ولقاء جبريل بقانون ملكيته بمحمد ﷺ بقانون بشريته لا يمكن أن يتم إلاَّ بتقارب هذيْن الجنسين وعملية تغيير لابُدَّ أنْ تطرأ على أحدهما ، إما أن ينزل الملَكُ على صورة بشرية ، وإما أنْ يرتفع

---

(١) **سبب نزول الآية :** أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢١٨ ، ٤٧٣١ ، ٧٤٥٥) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لجبريل عليه السلام : « ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا » فنزلت الآية : ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ .. ﴿٦٤﴾﴾ [مريم] ، وكذلك أخرجه الترمذى فى سننه (٣١٥٨) وقال : « هذا حديث حسن غريب » .

ببشرية الرسول إلى درجة تقرب من الملَك ليأخذ عنه ، وذلك ما كان يحدث لرسول الله حين يأتيه الوحى .

وقد وصف النبى ﷺ هذا التغيير فقال : « ... فغطَّنى حتى بلغ منى الجهْد ... »[1] وكان ﷺ يتفصَّد[2] جبينه عرقاً لما يحدث فى جسمه من تفاعل وعمليات كيماوية ، ثم حينما يُسرِّى عنه تذهب هذه الأعراض .

وقد أخبر بعض الصحابة ، وكان يجلس بجوار رسول الله ، والرسول ﷺ يضع رُكْبته على رُكْبته ، فلما نزل على رسول الله الوحى قال الصحابى : شعرتُ برُكْبة رسول الله وكأنها جبل .

وإذا أتاه الوحى وهو على دابة كانت الدابة تئط أى : تنخ من ثقَل الوحى[3] ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴿٥﴾ ﴾ [المزمل]

إذن : كان النبى ﷺ يتعب بعد هذا اللقاء ويشقُّ عليه ، حتى يذهب إلى السيدة خديجة رضى الله عنها يقول : « زَمِّلونى زَمِّلونى » أو « دَثِّرونى دَثِّرونى »[4] كأن به حمى مما لاقى من لقاء الملَك ومباشرة الوحى أولاً .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) كتاب بدء الوحى من حديث عائشة رضى الله عنها فى حديث طويل . والغطُّ : حبس النفس . وفى رواية الطبرى « فغتنى » كأنه أراد ضمنى وعصرنى . قال ابن حجر فى فتح البارى (١/ ٢٤) .

(٢) قالت عائشة رضى الله عنه : « لقد رأيته ﷺ ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه . وإن جبينه ليتفصَّد عرقاً » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) كتاب بدء الوحى . قال ابن حجر فى الفتح (١/ ٢١) « شبه جبينه بالعرق المفصود مبالغة فى كثرة العرق » والفصد هو قطع العرق لإسالة الدم .

(٣) عن أسماء بنت يزيد قالت : إنى لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه المائدة كلها وكادت من ثقلها تدق عنق الناقة . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٤٥٥) .

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) كتاب بدء الوحى من حديث عائشة فى حديث نزول جبريل عليه السلام على محمد ﷺ فى الغار .

ثم أراد الحق سبحانه وتعالى أن يجعل الوحى يفتر عن رسوله ليرتاح من تعبه ومشقته ، فإذا ما ارتاح وذهب عنه التعب بقيتْ له حلاوة ما نزل من الوحى ، فيتشوق إليه من جديد ، كما يشتاق الإنسان لمكانٍ يحبه دونه الأشواك ومصاعب الطريق ، فالحب للشيء يحدث عملية كالتخدير ، فلا تشعر فى سبيله بالتعب .

وقلنا : لما فتر الوحى عن رسول الله شمت فيه الكفار وقالوا : إن رَبَّ محمد قد قلاه يعنى : أبغضه وتركه .

وهذا القول دليل على غبائهم وحماقتهم ، كيف وقد كانوا بالأمس يقولون عنه : ساحر وكذاب ؟ ففى البغض يتذكرون أن له رباً منع عنه الوحى ، وحين دعاهم إلى الإيمان بهذا الرب قالوا : من أين جاء بهذا الكلام ؟

لذلك ، فالحق تبارك وتعالى يخاطب رسوله ﷺ قائلاً : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح] إذن : كانت مسألة الوحى شاقة على رسول الله .

فأراد الحق سبحانه أن يعطى هؤلاء درساً من خلال درس كونىّ مشاهد يشهد به المؤمن والكافر ، هذا الأمر الكونىّ هو الزمن ، وهو ينقسم إلى ليل ونهار ، ولكل منهما مهمته التى خلقه الله من أجلها ، كما قال سبحانه : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل]

فإياك أنْ تُغيّر مهمة الليل إلى النهار ، أو مهمة النهار إلى الليل .

ثم يرد عليهم قائلاً : ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ[1] ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾ [الضحى]

---

(١) سجا الليل يسجو : سكن وهدأ كل شىء فيه [القاموس القويم ١/٣٠٤] .

والمعنى : إنْ كان النهار لحركة الحياة واستبقائها ، والليل للراحة والسكون ، فهما آيتان متكاملتان لا مُتضادتان ، وليس معنى أن يأتي الليل بسكونه أن النهار لن يأتي من بعده ، بل سيأتي نهار آخر ، وستستمر حركة الحياة .

وكذلك الأمر إنْ فترَ الوحي عن رسول الله ، فلا تظنوا أنه انقطع إلى غير رَجْعة ، بل هي فترة ليرتاح فيها رسول الله ، كالليل الذي ترتاحون فيه من عناء العمل في النهار ، ومن هنا كانت الحكمة في أنْ يُقسم سبحانه وتعالى بالضحى والليل إذا سجى على ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝﴾ [الضحى]

ونلحظ في هذا التعبير دقّة الإعجاز في أداء القرآن ، حيث قال : ﴿مَا وَدَّعَكَ .. ۝﴾ [الضحى] بكاف الخطاب ؛ لأن التوديع يكون لمَنْ تحب ولمَنْ تكره ، أما في القلَى فلم يقُلْ : قَلاَك . لأن القِلَى لا يكون إلا لمَنْ تكره .

ومعنى : ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ۝﴾ [الضحى] الآخرة أي : الفترة الأخيرة من نزول الوحي خَيْر لك من الفترة الأولى ؛ لأنها ستكون أوسع ، وستأتيك بلا تَعَب ولا مشقة ، وفعلاً نزلت جمهرة القرآن بعد ذلك في يُسْر على رسول الله ﷺ[1] .

وهكذا كان الأمر في الآية التي نحن بصددها : ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ .. ۝﴾ [مريم] فيقال : إنها نزلت حينما قال الكفار : إن ربَّ محمد قد قلاه ، أو أنها نزلت بعد أن سأل كفار مكة الأسئلة

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٧٤٣٣/١٠) : « روى سلمة عن ابن إسحاق : أي ما عندي في مرجعك إليَّ يا محمد خير لك مما عجلت لك من الكرامة في الدنيا ، وقال ابن عباس : أرِي النبي ﷺ ما يفتح الله على أمته بعده فسُرَّ بذلك ، فنزل جبريل بقوله : ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ۝﴾ [الضحى] .

الثلاثة التى تحدثنا عنها فى سورة الكهف[1] . وأن رسول الله ﷺ قال لهم : « سأخبركم غداً » لكن الوحى لم يأته مدة خمسة عشر يوماً ، فشقَّ ذلك عليه وحزنَ له فنزلت : ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ .. ﴿٦٤﴾﴾ [مريم] أى : الملائكة لا تنزل إلا بأمر ، ولا تغيب إلا بأمر .

ثم يقول الحق سبحانه تعالى : ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ .. ﴿٦٤﴾﴾ [مريم]

قوله تعالى : ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا .. ﴿٦٤﴾﴾ [مريم] أى : الذى أمامنا ﴿وَمَا خَلْفَنَا .. ﴿٦٤﴾﴾ [مريم] أى : فى الخلف ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ..﴿٦٤﴾﴾ [مريم] أى : ما بين الأمام والخلف ، فماذا بين الأمام والخلف ؟ ليس بين الأمام والخلف إلا أنت . فسبحانه وتعالى المالك ، الذى له الملك والمملوك ، وله المكان والمكين ، وله الزمان والزمين .

وقوله : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم] وهل يرسل الحق ـ تبارك وتعالى ـ رسولاً ، ثم ينساه هكذا دون إمداد وتأييد ؟ فسبحانه تنزَّه عن الغفلة وعن النسيان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾﴾

أولاً : ما علاقة قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم] بقوله تعالى فى هذه الآية : ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا .. ﴿٦٥﴾﴾ [مريم] ؟

---

(١) قاله مجاهد وقتادة وعكرمة والضحاك ومقاتل والكلبى فيما نقله عنهم القرطبى فى تفسيره (٦/ ٤٣٠٠) وفيه أن النبى ﷺ قال لجبريل « أبطأت علىَّ حتى ساء ظنى واشتقت إليك » فقال جبريل : إنى كنت أشوق ، ولكنى عبد مأمور إذا بُعثت نزلت ، وإذا حُبست احتبست .

قالوا : لأن هذا الكون العظيم بسمائه وأرضه ، وما فيه من هندسة التكوين وإبداع الخلق قائم بقيومية الله تعالى عليه ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا .. (٤١) ﴾ [فاطر]

فلا تظن أن الكون قائم على قانون يُديره ، بل على القيومية القائمة على كل أمر من أمور الكون ، والحق ـ تبارك وتعالى ـ لا تأخذه سنة ولا نوم . فما دام الأمر كذلك ، وأنه تعالى يعلم ما بين أيدينا وما خلفنا ، وما بين ذلك ، وأنه تعالى قيُّوم لا ينسى ولا يغفل وبه يقوم الكون . فهو ـ إذن ـ يستحق العبادة والطاعة فيما أمر ، وقد أعطاك قبل أن يُكلِّفك عطاء لا تستطيع أنت أن تفعله لنفسك ، ثم تركك تربع فى هذا النعيم خمس عشرة سنة دون أنْ يُكلِّفك بشىء من العبادات .

لذلك هنا يقول تعالى : ﴿ رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ .. (٦٥) ﴾ [مريم] وقد أكَّد القرآن الكريم فى آيات كثيرة مسألة الوحدانية ، وأنه ربٌّ واحد فقال : ﴿ رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا .. (٦٥) ﴾ [مريم]

وقال : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾ [الفاتحة]

وقال : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) ﴾ [الشعراء]

لأن القدماء ، ومنهم ـ مثلاً ـ قدماء المصريين كانوا يجعلون رباً للسماء ، ورباً للأرض ، ورباً للجو ، ورباً للأموات ، ورباً للزرع .. الخ وما دام هو سبحانه رب كل شىء فقد رتب العبادة على الربوبية . والعبادة : طاعة معبود فيما أمر وفيما نهى ، وكيف لا نطيع الله ونحن خَلْقه وصَنْعته ، ونأكل رزقه ، ونتقلب فى نعمه ؟ وفى ريفنا يقول الرجل لولده المتمرد عليه : (مَنْ يأكل لقمتى يسمع كلمتى) .

ولا بُدَّ أن نعلم أن الله تعالى له الكمال المطلق قبل أنْ يخلق الخَلْق وبصفات الكمال خلق ، فلا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية . فإن قلتَ : فلماذا - إذن - يُكلِّف الخَلْق بالأمر والنهى ؟ نقول : كلَّف الله الخَلْق لتستمر حركة الحياة وتتساند الجهود ولا تتصادم ، فيحدث فى حياتهم الارتقاء ويسعدوا بها ، إنما لو تركهم وأهواءهم لَفسدتِ الحياة ، فأنت تبنى وغيرك يهدم .

لذلك يقول النبى ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[1] .

والحق تبارك وتعالى يقول : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

إذن : التشريعات جُعلَتْ لصالحنا نحن : ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِه .. (٦٥)﴾ [مريم] لأن العبادة فيها مشقة ، فلا بُدَّ لها من صبر ؛ لأنها تأمرك بأشياء يشقُّ عليك أنْ تفعلها ، وينهاك عَنْ أشياء يشقُّ عليك أنْ تتركها لأنك ألِفْتها .

والصبر يكون منا جميعاً ، يصبر كُلٌّ منَّا على الآخر ؛ لأننا أبناء أغيار ، فإن صبرتَ على الأذى صبر الناس عليك إنْ حدث منك إيذاء لهم ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر]

والحق - سبحانه وتعالى - يُعلِّمنا : إن أذنب أحد فى حَقِّك ، أو أساء إليك فاغفر له كما تحب أن أغفر لك ذنبك ، وأعفوَ عن سيئتك .

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » (ص ٤٦٠) وضعَّفه .

يقول تعالى : ﴿ولا يأتل[1] أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم[2] والله غفور رحيم (٢٢)﴾ [النور]

ولا تظن أن صبرك على أذى الآخرين أو غفرانك لهم تطوع من عندك ؛ لأنه لن يضيع عليك عند الله ، وسترد لك فى سيئة تُغفر لك . حتى مَنْ فُضح مثلاً أو ادُّعى عليه ظُلْماً لا يضيعها الله ، بل يدّخرها له فى فضيحة سترها عليه ، فمَنْ فُضح بما لم يفعل ، سُتر عليه ما فعل .

وقوله تعالى : ﴿هل تعلم له سميا (٦٥)﴾ [مريم] ؟ سبق أن تكلمنا فى معنى (السَّمِىّ) وقد اختلف العلماء فى معناها ، قالوا : السَّمِىُّ : الذى يُساميك[3] ، أى : أنت تسمو وهو يسمو عليك ، أو السَّمِىّ : النظير والمثيل .

والحق سبحانه وتعالى ليس له سمىٌّ يُساميه فى صفات الكمال ، وليس له نظير أو مثيل أو شبيه ، بدليل قوله تعالى : ﴿ليس كمثله شيء .. (١١)﴾ [الشورى]

---

(١) قال أبو عبيد : لا يأتل هو من الوَتْ أى قصرت . وقال الفراء : الائتلاء الحلف . [لسان العرب ـ مادة : الا] .

(٢) نزلت هذه الآية فى قصة أبى بكر الصديق ومسطح بن أثاثة ، وذلك أنه كان ابن بنت خالته وكان مسطح من المهاجرين البدريين المساكين ، وكان أبو بكر ينفق عليه لمسكنته وقرابته ، فلما وقع أمر الإفك وقال مسطح فى عائشة ابنة أبى بكر وزوجة رسول الله ﷺ ما قال ، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة أبداً ، فجاء مسطح فاعتذر . وقال : إنما كنت أغشى مجالس حسان فأسمع ولا أقول فقال له أبو بكر : لقد ضحكتَ وشاركتَ فيما قيل ، ومر على يمينه ، فنزلت الآية فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه وقال : لا أنزعها منه أبداً » من تفسير القرطبى (٦/٤٧٤٢) بتصرف .

(٣) قاله مجاهد . وقال ابن عباس : يريد هل تعلم له ولداً أى : نظيراً أو مثلاً ، أو شبيهاً . [القرطبى (٦/٤٣٠١)] .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ④ ﴾ [الإخلاص]

وللسميِّ معنى آخر أوضحناه في قصة يحيى ، حيث قال تعالى : ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ⑦ ﴾ [مريم] أى : لم يسبق أنْ تسمَّى أحد بهذا الاسم . وكذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ لم يتسمَّ أحدٌ باسمه ، لا قبل هذه الآية ، ولا بعد أنْ أطلقها رسول الله تحدّياً بين الكفار والملاحدة الذين يتجرؤون على الله . فلماذا لم يجرؤ أحد من هؤلاء أنْ يُسمي ولده الله ؟

الحقيقة أن هؤلاء وإنْ كانوا كفاراً وملاحدة إلا أنهم في قرارة أنفسهم يؤمنون بالله ، ويعترفون بوجوده ، ويخافون من عاقبة هذه التسمية ، ولا يأمنون أنْ يصيبهم السوء بسببها .

إذن : لم تحدث ، ولم يجرؤ أحد عليها ؛ لأن الله تعالى قالها وأعلنها تحدياً ، وإذا قال الله تعالى ، ملَكَ اختيار الخَلْق ، وعلم أنهم لن يجرؤوا على هذه الفعلة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ⑥⑥ ﴾

ما المراد بالإنسان ؟ الإنسان تُطلق ويُراد بها عموم أى إنسان مثل : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ⑲ ﴾ [المعارج] ويُراد بها خصوصية لبعض الناس ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. ⑤④ ﴾ [النساء] فالمراد بالناس هنا رسول الله ﷺ[1] .

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٥١٣/١) : « يعنى بذلك حسدهم النبى ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة ، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له لكونه من العرب وليس من بنى إسرائيل » . وقال عكرمة : الناس في هذا الموضع النبى ﷺ خاصة ، ذكره السيوطى في الدر المنثور (٥٦٦/٢) .

أو قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عمران] فالمراد : ناسٌ مخصوصون .

والمعنى هنا : ﴿ وَيَقُولُ الإِنسَانُ .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [مريم] أى : الكافر الذى لا يؤمن بالآخرة ، ويستبعد الحياة بعد الموت : ﴿ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ ﴾ [مريم] والاستفهام هنا للإنكار ، لكن هذه مسألة الردُّ عليها سَهْل مَيْسور ، فيقول تعالى :

﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ ﴾

فلأنْ يُعادَ الإنسانُ من شىء أهونُ من أنْ يعاد من لا شىء ؛ لذلك قال تعالى فى توضيح هذه المسألة : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم] مع أن الخالق سبحانه وتعالى لا يُقال فى حقه تعالى هَيِّن وأهون ، أو صعب وأصعب ، ولكنه يحدثنا بما نفهم وبما نعلم فى أعرافنا .

ففى عُرْفنا نحن أن تنشىء من موجود أسهل من أنْ تنشىء من عدم ، وإنْ كان فعل العبد يقوم على المعالجة ومزاولة الأسباب ، ففعْل الخالق سبحانه إنما يكون بقوله للشىء « كُنْ فيكون » .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [لقمان]

ولما سُئِل الإمام على ـ كرَّم الله وجهه : كيف يُحاسِب اللهُ الناسَ جميعاً فى وقت واحد ؟ قال : كما يرزقهم جميعاً فى وقت واحد .

فقوله : ﴿ أَوَلا يَذْكُرُ الإنسَانُ .. (٦٧) ﴾ [مريم] أى : لو تذكّر هذه الحقيقة ما كذَّب بالبعث ، وقد عولجت هذه المسألة أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) ﴾ [يس]

فلو تذكَّر خَلْقه الأول ما ضرب لنا هذا المثل . ثم يأتى الجواب منطقياً : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴾[يس]

وهنا أيضاً يكون الدليل : ﴿ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) ﴾ [مريم]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ .. (٦٨) ﴾ [مريم] الحشر : أن يبعثهم الله من قبورهم ، ثم يسوقهم مجتمعين إلى النار هم والشياطين الذين كانوا يُغْرونهم بالمعصية ويُزينونها لهم .

﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ﴾ [مريم] يقال : جثا يجثو فهو جاثٍ . أى : ينزل على ركبتيه ، وهى دلالة على الذِّلَّة والانكسار والمهانة التى لا يَقْوى معها على القيام .

﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (٦٩) ﴾

النزع : خلْع الشيء من أصله بشدة ، ولا يقال : نزع إلا إذا كان المنزوع متماسكاً مع المنزوع منه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران] كأنهم كانوا مُتمسّكين به حريصين عليه .

وقوله : ﴿ مِن كُلِّ شِيعَةٍ .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [مريم] أى : جماعة متشايعون على رأى باطل ، ويقتنعون به ، ويسايرون أصحابه : ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ﴾ [مريم] العتى : هو الذى بلغ القمة فى الجبروت والطغيان ، بحيث لا يقفُ أحد فى وجهه ، كما قلنا كذلك فى صفة الكِبَر ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ ﴾ [مريم] لأنه إذا جاء الكبر لا حيلةَ فيه ، ولا يقدر عليه أحد .

ومعلوم أن رسالات السماء لما نزلتْ على أهل الأرض كان هناك أناس يُضارون من هذه الرسالات فى أنفسهم ، وفى أموالهم ، وفى مكانتهم وسيادتهم ، فرسالات الله جاءتْ لتؤكد حَقّاً ، وتثبت وحدانية الله ، وسواسية الخَلْق بالنسبة لمنهج الله .

وهناك طغاة وجَبَّارون وسادة لهم عبيد ، وفى الدنيا القوى والضعيف ، والغنى والفقير ، والسليم والمريض ، فجاءت رسالات السماء لِتُحدث استطراقاً للعبودية .

فَمَن الذى يُضَار ويَغْضَب ويعادى رسالات السماء ؟ إنهم هؤلاء الطغاة الجبارون ، أصحاب السلطة والمال والنفوذ ، ولا بُدَّ أن لهؤلاء أتباعاً يتبعونهم ويشايعونهم على باطلهم .

فإذا كان يوم القيامة ويوم الحساب ، فبمَنْ نبدأ ؟ الأنكَى أن نبدأ بهؤلاء الطغاة الجبابرة ، ونقدم هؤلاء السادة أمام تابعيهم حتى يروهم أذلاء صاغرين ، وقد كانوا فى الدنيا طغاةً متكبرين ، كذلك لنقطع أمل التابعين فى النجاة .

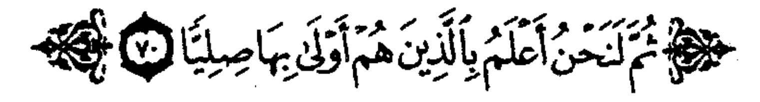
فربما ظَنُّوا أن هؤلاء الطغاة الجبابرة سيتدخلون ويدافعون عنهم ، فقد كانوا فى الدنيا خدمهم ، وكانوا تابعين لهم ومناصرين ، فإذا ما أخذناهم أولاً وبدأنا بهم ، فقد قطعنا أمل التابعين فى النجاة .

وقد ورد هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ[1] (٨٣)﴾ [النمل] أى : من كبارهم وطُغَاتهم ، ليرى التابعون مصارع المتبوعين ، ويشهد الضعفاء مصارع الأقوياء ، فينقطع أملهم فى النجاة .

وفى حديث القرآن عن فرعون ، وقد بلغ قمة الطغيان والجبروت حيث ادَّعى الألوهية ، فقال عنه : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨)﴾ [هود] فهو قائدهم ومقدمتهم إلى جهنم ، كما كان قائدهم إلى الضلال فى الدنيا ، فهو المعلم وهم المقلّدون .

فعليه - إذن - وزْران : وزر ضلاله فى نفسه ، ووزْر إضلاله لقومه ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً .. (٧٩)﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق سبحانه :



(١) أى : يُكفُّون عن التفرق ويُجمعون فى مكان واحد . [القاموس القويم ٢ / ٣٣٤] .

صلياً : اصطلاء واحتراقاً فى النار من صَلِىَ يصْلَى : أى دخل النار وذاق حرَّها . أما : اصطلى أى : طلب هو النار ، كما فى قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ ﴾ [النمل]

والمعنى : أننا نعرف مَنْ هو أَوْلى بدخول النار أولاً ، وكأن لهم فى ذلك أولويات معروفة ؛ لأنهم سيتجادلون فى الآخرة ويتناقشون ويتلاومون وسيدور بينهم مشهد فظيع رَهيب يفضح ما اقترفوه .

فالتابع والمتبوع ، والعابد والمعبود ، كُلٌّ يُلْقى باللائمة على الآخر ، اسمعهم وهم يقولون : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ ۝٦٧ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝٦٨ ﴾ [الأحزاب]

وفى آية أخرى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ۝١٦٦ ﴾ [البقرة]

وصدق الله العظيم حين قال : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ۝٦٧ ﴾ [الزخرف]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ﴾

وهذا خطاب عام لجميع الخلْق دون استثناء ، بدليل قوله تعالى بعدها : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَواْ .. ۝٧٢ ﴾ [مريم] إذن : فالورود هنا يشمل الأتقياء وغيرهم .

فما معنى الورود هنا ؟ الورود أن تذهب إلى مصدر الماء للسقيا أى : أَخْذ الماء دون أنْ تشرب منه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ

وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ .. (٢٣) ﴾ [القصص] أى : وصل إلى الماء .

إذن : معنى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. (٧١) ﴾ [مريم] أى : أنكم جميعاً مُتقون ومجرمون ، ستردُون النار وتروْنها ؛ لأن الصراط الذى يمرُّ عليه الجميع مضروب على مَتْن جهنم .

وقد ورد فى ذلك حديث أبى سعيد الخدرى قال قال ﷺ : « يوضع الصراط بين ظهرانى جهنم ، عليه حسك كحسك السعدان[1] ، ثم يستجيز الناس ، فنَاجٍ مُسلَّم ، ومخدوش به ، ثم ناج ومحتبس به ، ومنكوس[2] ومكدوس فيها »[3] .

فإذا ما رأى المؤمن النار التى نجاه الله منها يحمد الله ويعلم نعمته ورحمته به .

ومن العلماء مَنْ يرى أن ورد أى : أتى الماء وشرب منه ويستدلون بقوله تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ .. (٩٨) ﴾ [هود] أى : أدخلهم . لكن هذا يخالف النسق العربى الذى نزل القرآن به ، حيث يقول الشاعر[4] :

وَلَمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمامُه وَضَعْنَا عِصِيَّ الحاضرِ المتَخَيِّمِ[5]

---

(١) حسك السعدان : قال أبو حنيفة : هى عشبة تضرب إلى الصفرة ، ولها شوك يسمى الحسك أيضاً مدحرج ، لا يكاد أحد يمشى عليه إذا يبس إلا مَن فى رجليه خف أو نعل . [لسان العرب – مادة : حسك] .

(٢) مكدوس فى النار : مدفوع فيها . وتكدّس الإنسان : إذا دُفع من ورائه فسقط . [اللسان ـ مادة : كدس] والمنكوس : المطاطىء رأسه من الذل والهوان .

(٣) أخرجه ابن ماجة فى سننه (٤٢٨٠) ، والحاكم فى مستدركه (٤/ ٥٨٥) والديلمى فى الفردوس [حديث رقم ٨٨٣٦] .

(٤) هو : زهير بن أبى سلمى من مُضَر ، حكيم الشعراء فى الجاهلية ، كان أبوه وخاله وابناه كعب وبجير شعراء ، وكذلك أختاه سلمى والخنساء ، وُلد فى بلاد « مُزَيْنة » بنواحى المدينة ، توفى عام ١٣ ق . هـ [الأعلام للزركلى ٣/٥٢] .

(٥) هذا بيت من معلقة زهير بن أبى سلمى ، قال الزوزنى فى شرحه : للمعلقات السبع ـ ص ١٠٥ ـ طبعة دار الجيل بيروت ١٩٧٩ م : « يقول : فلما وردت هذه الظعائن الماء وقد اشتد صفاء ما جُمع منه فى الآبار والحياض عزمن على الإقامة كالحاضر المبتنى الخيمة » والجمام هو ما اجتمع من الماء فى البئر والحوض أو غيرهما .

أى : حينما وصلوا إلى الماء ضربوا عنده خيامهم ، فساعةَ أنْ وصلوا إليه وضربوا عنده خيامهم لم يكونوا شَربوا منه ، أو أخذوا من مائه ، فمعنى الورود أى : الوصول إليه دون الشُّرب من مائه .

وأصحاب هذا الرأى الذين يقولون ﴿وَارِدُهَا (٧١)﴾ [مريم] أى : داخلها يستدلون كذلك بقوله تعالى : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢)﴾ [مريم] يقولون : لو أن الورود مجرد الوصول إلى موضع الماء دون الشرب منه أو الدخول فيه ما قال تعالى : ﴿وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا (٧٢)﴾ [مريم] ولَقال : ثم يُنجِّى اللهُ الذين اتقوا ويُدخِل الظالمين .. لكن ﴿وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ (٧٢)﴾ [مريم] فيها الدليل على دخولهم جميعاً النار .

فعلى الرأى الأول : الورود بمعنى رؤية النار دون دخولها ، تكون الحكمة منه أن الله تعالى يمتنُّ على عباده المؤمنين فيُريهم النار وتسعيرها ؛ ليعلموا فضل الله عليهم ، وماذا قدَّم لهم الإيمان بالله من النجاة من هذه النار ، كما قال تعالى : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ (١٨٥)﴾ [آل عمران]

ويمكن فَهْم الآية على المعنى الآخر : الورود بمعنى الدخول ؛ لأن الخالق سبحانه وتعالى خلق الأشياء ، وخلق لكل شىء طبيعةً تحكمه ، وهو سبحانه وحده القادر على تعطيل هذه الطبيعة وسلبها خصائصها .

كما رأينا فى قصة إبراهيم عليه السلام ، فيكون دخول المؤمنين النارَ كما حدث مع إبراهيم ، وجَعْلها الله تعالى عليه بَرْداً وسلاماً ، وقد مكَّنهم الله منه ، فألقوه فى النار ، وهىَ على طبيعتها بقانون الإحراق فيها ، ولم يُنزل مثلاً على النار مطراً يُطفئها ليوفر لهم كل أسباب الإحراق ، ومع ذلك ينجيه منها لتكون المعجزة ماثلةً أمام أعينهم .

وكما سلب الله طبيعة الماء فى قصة موسى عليه السلام فتجمد وتوقفت سيولته ، حتى صار كل فرْق كالطوْد العظيم ، فهو سبحانه القادر على تغيير طبائع الأشياء . إذن : لا مانع من دخول المؤمنين النارَ على طريقة إبراهيم عليه السلام ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء]

ثم يُنجِّى الله المؤمنين ، ويترك فيها الكافرين ، فيكون ذلك أنْكَى لهم وأغيظ .

ثم يقول تعالى : ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم] الحتْم : هو الشىء الذى يقع لا محالةَ ، والعبد لا يستطيع أنْ يحكم بالحتمية على أىّ شىء ؛ لأنه لا يملك المحتوم ولا المحتوم عليه . فقد تقول لصديقك : أحتم عليك أنْ تزورنى غداً ، وأنت لا تملك من أسباب تحقيق هذه الزيارة شيئاً ، فمَنْ يدريك أن تعيشَ لغد ؟ ومَنْ يدريك أن الظروف لن تتغير وتحُول دون حضور هذا الصديق ؟

إذن : أنت لا تحتم على شىء ، إنما الذى يُحتِّم هو القادر على السيطرة على الأشياء بحيث لا يخرج شىء عن مراده .

فإنْ قلتَ : فمَن الذى حتَّم على الله ؟ حتَّم الله على نفسه تعالى ، وليست هناك قوة أخرى حتَّمتْ عليه ، كما فى قوله تعالى : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام]

ثم يؤكد هذا الحتم بقوله : ﴿مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم] أى : حكم لا رجعةَ فيه ، وحُكْم الله لا يُعدِّله أحد ، فهو حكم قاطع . فمثلاً : حينما قال كفار مكة لرسول الله ﷺ : نعبد إلهك سنة وتعبد إلهنا سنة ، يريدون أنْ يتعايش الإيمان والكفر .

لكن الحق - تبارك وتعالى - يريد قَطْع العلاقات معهم بصورة نهائية قطعية ، لا تعرف هذه الحلول الوسط ، فقال سبحانه[1] :

﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون]

وقَطْع العلاقات هنا ليس كالذى نراه مثلاً بين دولتين ، تقطع كل منهما علاقتها سياسياً بالأخرى ، وقد تحكم الأوضاع بعد ذلك بالتصالح بينهما والعودة إلى ما كانا عليه ، إنما قَطْع العلاقات مع الكفار قَطْعاً حتمياً ودون رجعة ، وكأنه يقول لهم : إياكم أنْ تظنوا أننا قد نعيد العلاقات معكم مرة أخرى ؛ لذلك تكرَّر النفى فى هذه السورة ، حتى ظنّ البعض أنه تكرار ؛ ذلك لأنهم يستقبلون القرآن بدون تدبُّر .

فالمراد الآن : لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، وكذلك فى المستقبل : ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد . فلن يُرغمنا أحد على تعديل هذا القرار أو العودة إلى المصالحة .

لذلك أتى بعد سورة (الكافرون) سورة الحكم[2] : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص] فلا ثانىَ له يُعدِّل عليه ، فكلامه تعالى وحكمه

---

(١) قال الواحدى فى « أسباب النزول » (ص ٢٦١) : « نزلت فى رهط من قريش قالوا : يا محمد هلم ، اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره » .

(٢) هى : سورة الإخلاص . قال السيوطى فى « الإتقان فى علوم القرآن » (١٥٩/١) : « تسمَّى الأساس ، لاشتمالها على توحيد الله وهو أساس الدين » .

نهائى وحَتْماً مقضياً لا رجعةَ فيه ولا تعديل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾

جِثياً : من جَثَا يجثُو أى : قعد على رُكَبه دلالة على المهانة والتنكيل . ثم ينقلنا الحَق سبحانه إلى لقطة أخرى ، فيقول :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ ﴾

هذا حوار دار بين المؤمنين والكافرين ، المؤمنين وكانوا عادةً هم الضعفاء الذين لا يقدرون حتى على حماية أنفسهم ، وليس لهم جاه ولا سيادة يحافظون عليها ، وجاء منهج الله فى صالحهم يُسوِّى بين الناس جميعاً : السادة والعبيد ، والقوى والضعيف .

فطبيعى أنْ يُقابلَ هذا الدين بالتكذيب من كفار مكة ، أهل الجاه والسيادة ، وأهل القوة الذين يأخذون خَيْر الناس من حولهم ، أما الضعفاء فقد آمنُوا بدين الله فى وقت لم يكن لديهم القوة الكافية لحماية أنفسهم ، فعندما نزل قَوْل الحق - تبارك وتعالى - : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر]

قال عمر - رضى الله عنه - وما أدراك مَنْ هو عمر ؟ قال[1] : أىّ جمع هذا ؟ وأىُّ هزيمة ، ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا ؟

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٤/٢٦٦) عن عكرمة قال : « لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] قال عمر : أى جمع يُهزم ؟ أى جمع يُغلب ، قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت يومئذ تأويلها .

وفى هذه الآونة ، يأمر رسول الله ﷺ المؤمنين المستضعفين بالهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة . فلما جاء نصر الله للمؤمنين ، وتأييده لهم فى بدر . قال عمر : صدق الله : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر]

وفى هذا الحوار يُعيِّر الكفار المؤمنين بالله : ماذا أفادكم الإيمان بالله وها أنتم على حال من الضعف والهوان والذِّلَّة وضيق العيش ؟ أيرضى رَبٌّ أن يكون المؤمنون به على هذه الحالَ ، وأعداؤه والكافرون به هم أهل الجاه والسيادة وسَعة الرزق ؟

وهكذا فتَن الله بعضهم ببعض ، كما قال سبحانه : ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ (٥٣)﴾ [الأنعام]

فالمؤمن والكافر ، والغنى والفقير ، والصحيح والمريض ، كُلٌّ منهم فتنة للآخر ليُمحِّص الله الإيمان ، ويختبر اليقين فى قلوب المؤمنين ؛ لأن الله تَعالى يعدهم لحمل رسالته ﷺ إلى الدنيا كلها فى جميع أزمنتها وأماكنها ، فلا بُدَّ أن يختار لهذه المهمة أقوياء الإيمان الذين يدخلون الإسلام ، ليس لمغنم دنيوى ، بل لحمل رسالته والقيام بأعبائه ، فهذا هو المؤمن المؤتمن على حَمْل منهج الله .

ومن ذلك ما نراه من أن مناهج الباطل فى الدنيا مَنْ يدعو إليها يرشو المدعو ويعطيه ، أمّا منهج الله فيأخذ منه ليختبره وليُمحصه .

فكيف يكون الغنى فتنة للفقير ، والفقير فتنة للغنى ؟ الغنى مفتون بالفقير حيث هو فى سَعَة من العيش والفقير فى ضيق ، الغنى يأكل حتى التُّخمة والفقير جائع ، ويرتدى الغنى الفاخر من الثياب والفقير عريان . فهل سيعرف نعمة الله عليه ويؤدى حقها ؟

والفقير مفتون بالغنى حين يراه على هذه الحال ، فهل سيصبر

على هذه الشدة ؟ أم سيعترض على ما قدَّره الله له ، ويحقد على الغنىّ ؟

ولو علم الفقير أن الفقر درس تدريبى أُجْرِى لجنود الحق الذين يحملون منهج الله إلى خَلْق الله فى كل زمان ومكان ، وأن هذه قسمة الله بين خَلْقه لَماَ اعترض على قسمة الله ، ولَمَا حقد على صاحب الغنى .

وكذلك يُفتَن الصحيح بالمريض والمريض بالصحيح ، فالصحيح يعيش مع نعمة الله بالعافية ، أما المريض فيعيش مع المنعم سبحانه ، كما جاء فى الحديث القدسى : « يا ابْن آدم ، مرضْتُ فلم تعُدْنى . فيقول : وكيف أعودك وأنت ربّ العالمين ؟ قال : أما علمتَ أن عبدى فلاناً مرض فلم تَعُدْه ؟ أما علمت أنك لو عُدَّته لوجدتنى عنده »[1]

لذلك ترى أهل الأمراض من المؤمنين يتألم زُوَّارهم من أمراضهم ، فى حين أنهم فى أُنْس بالله يشغلهم عن أمراضهم وعن آلامهم ، ومَن الذى يزهد فى معية الله ؟ إذن : لو حقد المريض على السليم فهو مفتون به ، وكان يجب عليه أن يعلم : إنْ كان الصحيح فى معية النعمة فهو فى معية المنعم سبحانه وتعالى .

وسيدنا نوح - عليه السلام - بعد أن لبث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً كان جواب قومه : ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا[2] بَادِيَ الرَّأْيِ .. (٢٧) ﴾ [هود] فكان أتباع نوح فى نظرهم حثالة القوم ، ثم حاولوا أنْ يُغروه بهم ليطردهم ، فهم ضعاف لا جاهَ لهم ولا

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤/١٩٩٠) ، والبخارى فى الأدب المفرد (٥١٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أى : أفقرنا وأحقر الناس فى نظرنا [القاموس القويم ١/٢٦٣] . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٤٢) : « ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا ، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تروّ منهم ولا فكر ولا نظر بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك » .

سلطان ، فما كان منه إلا أنْ قال : ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ (٢٩)﴾ [هود]

وقال فى آية أخرى : ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١)﴾ [هود]

فعلى مَرِّ الأزمان واختلاف الرسالات كان الكفار تزدرى أعينهم الفقراء والضعفاء المؤمنين ، ويحاولون طردهم وإخراجهم من ديارهم ، ألم يقل الحق - تبارك وتعالى - لرسوله ﷺ : ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)﴾ [الأنعام]

وهكذا جاءت اللقطة التى معنا : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣)﴾ [مريم]

قوله : ﴿آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ (٧٣)﴾ [مريم] الآيات : جمع آية وهى الشىء العجيب الذى يتحدث به ، وتُطلق ـ كما قلنا ـ على الآيات الكونية التى تثبت قدرة الله تعالى ، وتلفتنا إلى بديع صُنْعه كآيات الليل والنهار والشمس والقمر ، وتُطلق على المعجزات التى تُثبت صدْق الرسول ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣)﴾ [الإسراء]

كما تُطلق الآيات على آيات القرآن التى تحمل الأحكام ، وهذه هى المرادة هنا ؛ لأن آيات القرآن تنطوى فيها كل الآيات .

وقوله : ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ .. (٧٣) ﴾ [مريم] أى : لقد ارتضينا حكمكم فى هذه المسألة : نحن الكفار فى سَعَة ، وأنتم يا أهلَ الإيمان فى ضيق ، فأىّ الفريقين خير مقاماً ؟ والله بمقاييسكم أنتم . فأنتم خير ، أمّا بمقياس الأعلى والأبقى فنحن .

والمقام ـ بفتح الميم : اسم لمكان قيامك من الفعل : قام .

أما « مُقام » بضم الميم ، فمنْ أقام . والمراد هنا ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا(٧٣)﴾ [مريم] أى : مكاناً يقوم فيه على الآخر أى : بيت كبير وأثاث ومجلس يتباهى به على غيره.

﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيًّا(٧٣) ﴾ [مريم] الإنسان عادةً له بيت يَأويه ، وله مجلس يَأوى إليه ، ويجلس فيه مع أصحابه وأحبابه يُسمُّونه « حجرة الجلوس » أو « المندرة » ، وفيها يجلس كبير القوم ومن حوله أهله وأتباعه ، كما نقول فى العامية : (عامل قعر مجلس) ؛ لذلك إذا قام انفضَّ المجلس كله ؛ لأنهم تابعون له ، كما قال الشاعر :

وانفضَّ بَعْدَكَ يَا كُلَيْبُ المجلسُ[1]

وهناك النادى ، وهو المكان الذى يجتمع فيه عظماء القوم والأعيان ، بدل أنْ يكون لكل منهم مجلسه الخاص ، كما نرى الآن : نادى الرياضيين ونادى القضاة .. إلخ إذن : فالنادى دليلٌ على أنهم متفقون ومتكاتفون ومتكتلون ضد الإسلام وضد الحق .

---

(١) أورده أبو على القالى البغدادى فى كتابه « الأمالى » (١٢٧/١) من شعر مُهَلْهِل ، أنه قال : نُبِئْتُ أن النارَ بعدكَ أُوقِدَتْ واستبَّ بعدك يا كليبُ المجلسُ
وهو من بحر الكامل .

ومن ذلك قول الحق تبارك وتعالى : ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾﴾ [العلق]

ومن ذلك ما كان يُسمَّى قبل الإسلام « دار الندوة » ، وكانوا يجتمعون فيها ليدبروا المكائد لرسول الله ﷺ .

ومن النادى ما كان مأخوذاً لعمل المنكر والفاحشة والعياذ بالله ، فيجتمعون فيه لكُلٍّ ما هو خبيث من شُرْب الخمر والرقص والفواحش ، كما فى قَوْل الحق - تبارك وتعالى - : ﴿ .. وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ .. ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت]

وفى هذا دليل على شيوع الفاحشة والقحَة بين القادرين والمجاهرة بها ، فلم يكونوا يقترفونها سِراً ، بل فى جَمْع من رُوَّاد هذه الأماكن .

والنادى أو المنتدَى مأخوذ من النَّدَى أى : الكرم ، ولما مدحَتْ المرأة العربية زوجها قالت :رَفيع العِماد ، كثير الرماد ، قريب البيت من الناد[1]

والمعنى : أن بيته أقرب البيوت إلى النادى ، فهو مَقْصد الناس فى قضاء حاجياتهم .

إذن : كان قول الكفار للمؤمنين : ﴿ أَىُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ [مريم] موضع فتنة للفريقين ، فقال المؤمنون : ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف] وقال الكفار : ما دام أن الله حبانا فى

(١) هذا حديث أم زرع أخرجه البخارى فى صحيحه (٥١٨٩) ومسلم (٢٤٤٨) كتاب فضائل الصحابة أن عائشة قالت : « جلس إحدى عشرة امرأة فتعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً » حديث طويل . قال ابن حجر فى الفتح (٩/٢٦٥) : « وصفته بالشرف فى قومه ، فهم إذا تفاوضوا واشتوروا فى أمر أتوا فجلسوا قريباً من بيته فاعتمدوا على رأيه وامتثلوا أمره . أو : أنه وضع بيته فى وسط الناس ليسهل لقاؤه ، ويكون أقرب إلى الوارد وطالب القِرَى » .

الدنيا وهو الرزاق ، فلابد أنْ يَحْبُونَا فى الآخرة ، لكن لم تتعرض الآيات للقول المقابل من المؤمنين ، إنما جاء الرد عليهم من طريق آخر ، فقال تعالى :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا (١) وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾

كم : خبرية تدل على الكثرة التى لا تُحصَى ، وأن المقول بعدها وقع كثيراً ، كأن يقول لك صاحبك : أنت ما عملتَ معى معروفاً أبداً ، فتُعدِّد له صنائع المعروف التى أسديتها إليه ، فتقول : كم فعلتُ معك كذا ، وكم فعلتُ كذا .

والقرن : هم الجماعة المتعايشون زماناً ، بحيث تتداخل بينهم الأجيال ، فترى الجدَّ والأب والابن والحفيد معاً ، وقد قدَّروا القرن بمائة عام . كما يُطلَق القرن على الجماعة الذين يجتمعون على مُلك واحد ، أو رسالة واحدة مهما طال زمنهم كقوم نوح مثلاً .

والأثاث : هو فراش البيت ، وهذا أمر يتناسب وإمكانات صاحبه .

والرِّئْى : على وزن فعْل ، ويراد به المفعول أى : المرئى ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الصافات] فذبْح بمعنى : مذبوح .

---

(١) الأثاث : المال الكثير أو متاع البيت لا واحد له من لفظه ، وقيل : واحدته أثاثة [القاموس القويم ١/ ٦] .

وورد فى قراءة أخرى[1] : (أحْسَنُ أثَاثاً وزِيّاً) وهى غير بعيدة عن المعنى الأول ؛ لأن الزىّ أيضاً من المرئى ، إلا أنه يتكوّن من الزى والذى يرتديه ، والمراد هنا جمال الشكل والهيئة ونضارة الشخص وهندامه ، وقد افتخر الكفار بذلك ، فى حين كان المؤمنون شُعْثاً غُبْراً يرتدون المرقَّع والبالى من الثياب .

وقد جاء الاختلاف فى بعض ألفاظ القرآن من قراءة لأخرى ؛ لأن القرآن الكريم دُوِّن أول ما دُوِّن غير منقوط ولا مشكول اعتماداً على ملَكَة العربى وفصاحته التى تُمكِّنه من توجيه الحرف حَسْب المعنى المناسب للسياق ، وظل كذلك إلى أن وضع له العلماء النقاط فوق الحروف فى العصر الأموى . فمثلاً النَّبْرة فى كلمة دون نقط يحتمل أنْ تُقرأ من أعلى : نون أو تاء أو ثاء . ومن أسفل تقرأ : باء أو ياء .

والعربى لمعرفته بمواقع الألفاظ يستطيع تحديد الحرف المراد ، فكلمة (رِئْيًا) تقرأ (زيا) والمعنى غير بعيد .

ومن ذلك كلمة ﴿ فَتَبَيَّنُوا (٩٤) ﴾ [النساء] قرأها بعضهم (فتثبتوا) وكلمة ﴿صِبْغَةً (١٣٨)﴾ [البقرة] قرأها بعضهم (صنعة) ، ودليل فصاحتهم أن الاختلاف فى مثل هذه الحروف لا يؤدى إلى اختلاف المعنى .

لذلك ، كان العربى قديماً يغضب إنْ كُتِب إليه كتاب مُشكل ، لأن تشكيل الكلام كأنه اتهام له بالغباء وعدم معرفته باللغة . ومن هنا وجدنا العلماء الذين وضعوا قواعد اللغة ليسوا من العرب ؛ لأن العربى فى هذا الوقت كان يستنكف أن يضع للغة قواعد ، فهى بالنسبة له

(١) هى قراءة ابن عباس وأُبىّ بن كعب وسعيد بن جبير والأعسم المكى . قال القرطبى فى تفسيره (٤٣١٥/٦) : « هو الهيئة والحسن ، ويجوز أن يكون من زويت أى : جمعت ، فيكون أصلها زويا فقلبت الواو ياء » .

مَلَكَة معروفة لا تحتاج إلى دراسة أو تعليم . أما الأعاجم فلما دخلوا الإسلام ما كان لهم أنْ يتعلَّموا لغته إلا بهذه الدراسة لقواعدها .

والحق تبارك وتعالى يقول هنا : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ [مريم] لأنهم قالوا : ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ [مريم] يريد أنْ يُدلِّل على أنهم حمْقَى لا ينظرون إلى واقع الحياة ليروا عاقبة مَنْ كانوا أعزَّ منهم مكاناً ومكانة ، وكيف صار الأمر إليهم؟

الحق - تبارك وتعالى - يردُّ على الكفار ادعاءهم الخيرية على المؤمنين ، فهذه الخيرية ليستْ بذاتيتكم ، بل هى عطاء من الله وفِتْنة ، حتى إذا أخذكم أخذكم عن عزَّة وجاه ؛ ليكون أنكى لهم وأشدَّ وأغيظ ، أما إنْ أخذهم على حال ذِلَّة وهَوَان لَّم يكن لأخذه هذا الأثر فيهم .

فالحق سبحانه يُملى لهم بنعمه ليستشرفوا الخير ثم يأخذهم ، على حَدِّ قول الشاعر[1] :

كَمَا ابرقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمامَةٌ فَلَمَّا رأوْهَا أَقْشَعَتْ وتجلَّتِ[2]

فأطمعهم فى البداية ، ثم أخذهم وخيَّب آمالهم فى النهاية .

وضربنا لذلك مثلاً بالأسير الذى بلغ به العطش مَبْلغاً ، فطلب الماء ، فجاءه الحارس بالماء حتى كان على فِيهِ ، واستشرف الريَّ منعه وحرمه لتكون حسرته أشد ، وألمُه أعظمَ ، ولو لم يأته بالماء لكان أهونَ عليه .

---

(١) هو : كثير بن عبد الرحمن ابو صخر الخزاعى ، شاعر متيم مشهور ، من أهل المدينة أكثر إقامته بمصر ، كان مفرط القصر دميماً ، فى نفسه شمم وترفع ، يقال له « كثير عزة » وهى عزة بنت جميل الضمرية ، كان عفيفاً فى حبه لها . توفى عام (١٠٥هـ) . الأعلام للزركلى (٥/٢١٩) .

(٢) ديوان كثير (ص ١٠٧) وأورده شهاب الدين الحلبى (ت ٧٢٥ هـ) فى « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » (ص ١٢١) . وأقشعت الغمامة : انكشفت وذهبت .

إذن : حينما تُجرون مُقارنة بـينكم وبين المؤمنين وتُعيِّرونهم بما معكم من زينة الدنـيا ، فقد قـارنتم الوسائل وطرحـتُم الغايات ، ومن الغبـاء أنْ نهـتم بالوسـائل وننسى الغـايات ، فلكى تكون المـقـارنةُ صحيحة فقارنوا حالكم بحال المؤمنين ، بداية ونهاية .

ومثال ذلك : فلاح مجتهد فى زراعـته يعتنى بها ويُعفِّر نفسه من تراب أرضـه كل يوم ، وآخـر ينعَم بالثـيـاب النظيـفـة والجلوس على المقهى والتسكع هنا وهناك ، وينظر إلى صاحـبه الذى أجهده العمل ، ويرى نفسه أفضل منه ، فإذا مـا جاء وقت الحصاد وجد الأولُ ثمرة تعبه ونتيجة مجهوده ، وجلس الآخر حزيناً محروماً . فلا بُدَّ أن تأخذ فى الاعتبار عند المقارنة الوسائل مع الغايات .

لذلك وُفِّق الشاعر حين قال :

أَلاَ مَنْ يُرِينِى غَايتِى قَبْل مذْهَبِى ومنْ أيْنَ والغَايَاتُ بَعْد المذَاهبِ ؟

وقد عزل الكفار الوسيلة فى الدنيا عن الغاية فى الآخرة ، فتباهوا وعَيَّروا المؤمنين : ﴿ أَىُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) ﴾ [مريم]

وفى قصة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ : ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ (٢٤) ﴾ [العنكبوت]

وهكذا اتفقـوا على الإحراق ، ونجَّى الله نبيـه وخيَّب سَعْـيهم ، ثم كانت الغاية فى الآخرة :﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥) ﴾ [العنكبوت]

فكان عليهم ألاَّ ينظروا إلى الوسيلة منفصلةً عن غايتها .

وهنا يردُّ الحق ـ تبارك وتعالى ـ على هؤلاء المغترِّين بنعمة الله :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [مريم] وكما قال في آيات أخرى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا[1] الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الفجر]

وهلاك هؤلاء وأمثالهم سَهْل لا يكلف الحق سبحانه إلا أنْ تهُبَّ عليهم عواصف الرمال ، فتطمس حضارتهم ، وتجعلهم أثراً بعد عَيْن .

فدعاهم إلى النظر في التاريخ ، والتأمّل في عاقبة أمثالهم من الكفرة والمكذبين ، وما عساه أنْ يُغني عنهم من المقام والنديّ الذي يتباهون به ، وهل وسائل الدنيا هذه تدفع عنهم الغاية التي تنتظرهم في الآخرة ؟

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يردّ عليهم بكلام نظري يقول : إن عاقبتكم كذا وكذا من العذاب ، بل يعطيهم مثالاً من الواقع .

ويخاطب نبيه ﷺ بقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر] أي : من القهر والهزيمة والانكسار ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر] فمَنْ أفلت من عذاب الدنيا ، فلن يفلت من عذاب الآخرة .

والقرآن حين يدعوهم إلى النظر في عاقبة من قبلهم ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [مريم] فإنما يحثُّهم على أخْذ العبْرة والعظَة ممَّنْ سبقوهم ، ويستدل بواقع شيء حاضر على صدْق غيْب آت ، فالحضارات التي سبقتهم والتي لم يوجد مثلها في البلاد ، وكان من

---

(١) جابه يجوبه : قطعه . أي : أن ثموداً قطعوا الصخر ونحتوه وصنعوا منه بيوتهم وأصنامهم . [القاموس القويم ١/١٣٥] .

صفاتها كذا وكذا ، مــاذا حدث لهم ؟ فهل أنتم أشدّ منهم قوة ؟ وهل تمنعون عن أنفسكم ما نزل بغيركم من المكذِّبين ؟

هذا من ناحيــة الواقع ، أما الغـيب فيعـرض له القرآن فى مشــهد آخــر ، حيث يقــول تعــالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣)﴾ [المطففين]

هذا المشــهد فى الدنيا ، فمــا بالهم فى الآخرة ؟ : ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥)﴾ [المطففين]

ثم يخاطـب الحق ـ سبحــانه وتعالى ـ المـؤمنين فيـقول : ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين]

يعنى : بعد مــا رأيتموه من عـذابهم ، هل قدرنا أنْ نُجازيهم عَــمَّا فعلوه بكم من استهزاء فى الدنيا ؟ وعلى كُلٍّ فإن استهزاءهم بكم فى الدنيا موقوت الأجل ، أما ضِحْككم الآن عليهم فأمر أبديّ لا نهايةَ له . فأيُّ الفريقين خَيْر إذن ؟

فــإياكم أنْ تغـرّكم ظواهر الأشــياء ، أو تخـدعكم بَرقــات النعـيم وانظروا إلى الغايات والنهايات ؛ لذلك يقول سبحانه :

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ[1] الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦)﴾ [الكهف]

---

(١) اختلـفت أقوال العلمـاء فى ماهية البـاقيـات الصالحـات على أقوال ، ذكـرها ابن كثـير فى تفسيره (٣/٨٥ - ٨٧) :
- قال ابن عباس : هى الصلوات الخمس ، وفى قول له : هى الكلام الطيب .
- قال مجاهد : هى سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .
- وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هى الأعمال الصالحة كلها .

وفى سـورة الأعراف لقطة أخـرى من مواقف القـيامـة ، حيث يقـول أصحاب الأعراف لأهل النار : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) ﴾ [الأعراف] ثم يلتـفـتـون إلى المؤمـنين فى الجنة : ﴿ أَهَـٰؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ (٤٩) ﴾ [الأعراف] فأين أنتم منهم الآن ؟

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥) ﴾

قوله : (قل) أمر لرسوله ﷺ : ﴿ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا (٧٥) ﴾ [مريم] أى : يُمهله ويستدرجه ؛ لأنه رَبٌّ للجميع ، وبحكم ربوبيته يعطـى المؤمن والكافر ، وكما يعـين المؤمن بالنصر ، كذلك يعـين الكافر بمـراده ، كما فى قـوله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا (١٠) ﴾ [البقرة]

لأنهم ارتاحوا إليه ، ورَضُوا به ، وطلبوا منه المزيد .

﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ (٧٥) ﴾ [مريم] أى : فى الدنيا وزينتهـا ، كما قال : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾ [الشورى]

وفى موضع آخر يقول : إياك أنْ تعجبك أموالهم وأولادهم ؛ لأنها فـتنة لهم ، يُعذِّبهم بهـا فى الدنيـا بالسَّعْى فى جـمع الأموال وتربيـة الأولاد ، ثم الحسـرة على فقدهما ، ثم يُعـذِّبهم بسببهـا فى الآخرة : ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) ﴾ [التوبة]

ثم يقول تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ.. (٧٥)﴾ [مريم]

العذاب : عذاب الدنيا . أى : بنصر المؤمنين على الكافرين وإهانتهم وإذلالهم ﴿ وَإِمَّا السَّاعَةَ(٧٥) ﴾ [مريم] أى : ما ينتظرهم من عذابها ، وعند ذلك: ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥) ﴾ [مريم] لكنه علْم لا يُجدى ، فقد فات أوانه ، فالموقف فى الآخرة حيث لا استئناف للإيمان ، فالنكاية هنا أعظم والحسرة أشدّ .

لكن ، ما مناسبة ذكر الجند هنا والكلام عن الآخرة ؟ وماذا يُغنى الجند فى مثل هذا اليوم ؟ قالوا : هذا تهكُّم بهم كما فى قوله تعالى : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ[1] وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣)﴾ [الصافات] ، فهل أَخْذهم إلى النار هداية ؟

ثم يلتفت إليهم : ﴿مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠)﴾ [الصافات]

أى : لم نُجبركم على شىء ، مجرد أنْ أشَرْنَا لكم أطعتمونا .

لذلك ، سيقولون فى موضع آخر : ﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾ [فصلت]

(١) قال عمر بن الخطاب فى تأويل هذه الآية : احشروا أمثالهم الذين هم مثلهم ، يجىء أصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر ، أزواج فى الجنة ، وأزواج فى النار . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٨٣/٧) وعزاه لعبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبة وابن منيع فى مسنده وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى البعث .

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾

قلنا : إن للهداية معنيَيْن : هداية بمعنى الدلالة على الخير وبيان طريقه ، وهداية المعونة والتوفيق للإيمان ، فمَنْ صدّق في الأُولى أعانه الله على الأخرى ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

وقوله تعالى : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾ [مريم] الباقيات الصالحات : هي الأعمال الصالحة التي كانت منك خالصةً لوجه الله : ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾ [مريم] هذه هي الغاية التي ننتظرها ونسعى إليها ، فساعةَ أنْ تقارن السُّبل الشاقة فاقْرِنها بالغاية المسعدة ، فيهون عليك عناء العبادة ومشقّة التكليف .

وقوله : ﴿ وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾ [مريم] أي : مرجعاً تُرَدُّ إليه .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ ﴾

نلاحظ هنا أن القرآن لم يذكر لنا هذا الشخص الذي قال هذه

(١) **سبب نزول الآية** : عن خباب بن الأرت قال : كان لي دين على العاص بن وائل فأتيته أتقاضاه فقال : لا والله حتى تكفر بمحمد ، قلت : لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث ، قال : إني إذا متُّ ثم بُعثت جئتني وسيكون لي ثَمَّ مال وولد فأعطيك فأنزل الله تعالى هذه الآية . أخرجه الواحدي النيسابوري في أسباب النزول (ص ١٧٣) ، وأخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٩٥) كتاب صفات المنافقين .

المقـولة ولم يُعيِّنه ، وإنْ كـان معلومـاً لرسول الله الذى خُـوطب بهذا الكلام ؛ وذلك لأن هذه المـقـولة يمـكن أنْ تُقـال فى زمـاننا وفى كل زمان ، إذنْ : فليس المهم الـشخص بل القول نفسه . وقـد أخبر عنه أنه أمية بن خلف ، أو العاصى بن وائل السَّهْمى .

وقوله تـعالى : ﴿أَفَرَءَيْتَ﴿٧٧﴾﴾ [مريم] يعنى : ألم تَرَ هذا ، كأنه يستدلّ بالذى رآه على هذه القضية ﴿الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم] ويروى أنه قال : إنْ كان هناك بَعْثٌ فسوف أكون فى الآخرة كما كنت فى الدنيا ، صاحبَ مال وولد .

كما قال صاحب الجنة لأخيه : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف]

والإنســان لا يعتـزّ إلا بمـا هو ذاتىّ فـيه ، وليس لـه فى ذاتيتـه شىء ، وكـذلك لا يعتـز بنعمـة لا يقدر على صـيانتـها ، ولا يصـون النعمة إلا المنعم الوهاب سبحانه إذن : فلِمَ الاغترار بها ؟

لذلك يقـول الحق سبـحانه وتعـالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا[1] فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ [2] مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك]

ويقول : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الملك]

ثم يردُّ الحق ـ تبارك وتعالى ـ على هذه المقولة الكاذبة :

﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾

---

(١) غار الماء : ذهب فى الأرض . فـهو الذهاب والضياع النهائى فلا أمل فى عـودته للحديقة . [القاموس القويم ٢/٦٣] .

(٢) المـعين : المـاء المـعيـون أى : المنظور بالعـين الذى تراه العيـن ظاهراً يجرى على وجـه الأرض . [القاموس القويم ٢/٤٦] .

يعنى : أقُلْتَ هذا القول مُتطوِّعاً به من عند نفسك ، أم اطلعتَ على الغيب ، فعرفتَ منه ما سيكون لك فى الآخرة : ﴿ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [مريم] أى : أعطاه الله تعالى عهداً بأن يكون له فى الآخرة كما له فى الدنيا ، فإمّا هذه وإمّا هذه ، فأيُّهما توافرتْ لك حتى تجزم بهذا القول ؟

وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى : ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [القلم]

والمراد : مَنْ يضمن لهم هذا الذى يدَّعونه ؟

وقد أخبر النبى ﷺ : « مَنْ أدخل على مؤمن سروراً فقد أخذ العهد من الله »[1] ، « ومَنْ صلى الصلوات بفرائضها وفى وقتها فقد أخذ العهد من الله »[2]

فمَنْ هؤلاء الذين لهم عَهْد من الله تعالى ألاَّ يدخلهم النار ؟

والعَهْد : الشىء الموثَّق بين اثنين ، والعهد إنْ كان بين الناس فهو عَهْد غير موثوق به ، فقد ينفذ أو لا ينفذ ؛ لأن الإنسانَ ابنُ أغيار ، ويمكن أنْ تحُول الظروف بينه وبين ما وعد به ، أما إنْ كان

(١) أورد ابن الجوزى فى « العلل المتناهية » (٢/٥١٤) . طبعة دار الكتب العلمية بيروت من حديث ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : « من أدخل على مؤمن سروراً فقد سرنى ، ومن سرنى فقد اتخذ عند الله عهداً ، ومن اتخذ عند الله عهداً فلن تمسه النار » وهو من طريق الدارقطنى . قال الذهبى فى ميزان الاعتدال (٢/٢٩٣) « خبر باطل متنه» .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٤/٢٤٤) عن كعب بن عجرة قال قال رسول الله ﷺ : « إن ربكم عز وجل يقول : من صلى الصلاة لوقتها وحافظ عليها ولم يضيعها استخفافاً بحقها فله علىَّ عهد أن أدخله الجنة ، ومن لم يصلها لوقتها ولم يحافظ عليها وضيعها استخفافاً بحقها فلا عهد له إن شئت عذبته وإن شئت غفرت له » .

العهد من الله تعالى المالك لكل شيء ، وليست هناك قوة تبطل إرادته تعالى ، فهو العَهْد الحقّ الموثوق به ، والذى لا يتخلف أبداً .

فحين تعاهد ربك على الإيمان فإنك لا تضمن ما يطرأ عليك من الأغيار ، أما حين يعاهدك ربك على الجزاء ، فثقْ أنه نافذ لا يُخلَف .

لذلك ، فالنبى ﷺ لما أراد أن يَمدحَ الإمام علياً رضى الله عنه قال : « أدعو الله أن يجعل لك عهداً فى قلوب المؤمنين »(١)

أى : حُباً ومودة فى قلوبهم ، وما دام أن الله أعطاه هذا العهد ، فهو نافذ مُحقَّق .

واختار هنا اسم الرحمن لما فيه من صفة الرحمانية التى تناسب المعونة على الوفاء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ٧٩ ﴾

كلا : أداة لنفى ما قيل قبلها وإبطاله ، أى : قوله : ﴿ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا ٧٧ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ٧٨ ﴾ [مريم] ثم يأتى ما بعد كلا حُجة ، ودليلاً على النفى .

وقد ورد هذا الحرف (كَلاَّ) فى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا

---

(١) عن البراء بن عازب قال قال رسول الله ﷺ لعلىّ « قل : اللهم اجعل لى عندك عهداً ، واجعل لى عندك وداً ، واجعل لى فى صدور المؤمنين مودة » فأنزل الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ٩٦ ﴾ [مريم] قال : فنزلت فى على . ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٥/٥٤٤) وقال ابن عباس : نزلت فى عبد الرحمن بن عوف . ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣٣٣) .

مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ .. (١٧) ﴾ [الفجر]

فالحق تبارك وتعالى ينفى الكلام السابق ؛ لأن النعمة وسَعَة الرزق ليست دليلَ إكرام ، كما أن الفقر وضيق الرزق ليس دليلَ إهانة ، فكلاهما ابتلاء واختبار كما أوضحتْ الآياتَ ، فإتيان النعمة فى حَدِّ ذاته ليس هو النعمة إنما النعمة هى النجاح فى الابتلاء فى الحالتين .

فقد يعطيك الله المال فلا تصرفه فيما أحلَّ الله ، فيكون لك فتنة وتخفق فى الاختبار ، إذن : لم يكرمك بالمال ، بل جعله لك وسيلة إغواء وإغراء ، فبيدك يتحوَّل المال إلى نعمة أو نقمة ، ويكون إكراماً أو إهانة .

وقوله تعالى[1] :

﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) ﴾ [مريم]

لقد جاءت كلمة (سَنَكْتُبُ) حتى لا يؤاخذه سبحانه وتعالى يوم القيامة بما يقول هو إنه فعله ، ولكن بما كتب عليه وليقرأه بنفسه ، وليكون حجة عليه ، كأن الكتابة ليست كما نظن فقط ، ولكنها تسجيل للصوت وللأنفاس ، ويأتى يوم القيامة ليجد كل إنسان ما فعله مسطوراً .

يقول تعالى : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء] وهذا القول يدل على أنه ساعة يرى الإنسان ما كتب فى

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣١٩) : قوله تعالى ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ..(٧٩) ﴾ [مريم] أى : سنحفظ عليه قوله فنجازيه به فى الآخرة ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) ﴾ [مريم] أى : سنزيده عذاباً فوق عذاب » .

الكتاب سيعرف أنه منه ، وإذا كنا نحن الآن نسجل على خصومنا أنفاسهم وكلماتهم ، أتستبعد على من علمنا ذلك أن يسجل الأنفاس والأصوات والحركات بحيث إذا قرأها الإنسان ورآها لايستطيع أن يكابر فيها أو ينكرها .

وقوله سبحانه : ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) ﴾ [مريم] أى : يزيده فى العذاب ، لأن المد هو أن تزيد الشىء ، ولكن مرة تزيد فى الشىء من ذاته ، ومرة تزيد عليه من غيره ، قد تأتى بخيط وتفرده إلى آخره ، وقد تصله بخيط آخر ، فتكون مددته من غيره ، فالله يزيده فى العذاب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠) ﴾

أى : فى حين ينتظر أنْ نزيدَه ونعطيه سنأخذ منه ﴿وَنَرِثُهُ(٨٠)﴾ [مريم] أى : نأخذ منه كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠) ﴾ [مريم]

وقوله : ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) ﴾ [القصص]

فكأن قوله تعالى : ﴿وَنَرِثُهُ(٨٠)﴾ [مريم] تقابل قوله : ﴿ لأُوتَيَنَّ مَالاً (٧٧)[مريم] وقوله تعالى : ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا(٨٠)﴾ [مريم] تقابل ﴿وَوَلَدًا(٧٧) ﴾[مريم] ، فسيأتينا فى القيامة فَرْداً ، ليس معه من أولاده أحد يدفع عنه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) ﴾

آلهـة : جمع إله ، وهـو المعـبـود والرب الذى أوجدك من عَـدَم ، وأمدّك من عُـدْم ، وتولاّك بالتربية ، فـعطاء الألوهية تكليف وعـبادة ، وعطاء الربوبيـة نِعَم وهِبَـات . إذن : فـمَنْ أَوْلى بعـبـادتك ومَنْ أحقّ بطاعتك ؟

هؤلاء الذين اتخـذوا من دون الله آلهة من شـمس ، أو قمـر ، أو حجر ، أو شجر ، بماذا تعبَّدتكم هذه الآلهة ؟ بماذا أمرتكم ؟ وعن أى شىء نهتْكُم ؟ وبـماذا أنعمتْ عليك ؟ وأين كـانت وأنت جنين فى بطن أمك ؟

إن أباك الذى رباك وأنت صغير وتكفَّل بكل حاجياتك ، وأمك التى حمـلتْك فى بطنها وسـهرتْ على راحـتك ، هما أوْلَى الناس بطاعـتك ، ولا ينبغى أنْ تُقدِّم على أمرهما أمـراً . أما أنْ يستحوذَ عليك آخرون ، ويكون لهم طاعتك وولاؤك دون أبويْك فهـذا لا يجوز وأنت فى رَيْعان شبابك وأَوْج قوتك .

لذلك ، من أصـول الـتـربيـة أنْ يُربِّى الآباء أبناءهم عـلى السـمع والطاعة لهم ، ونُحذِّرهم من طاعة الآخرين خاصة غير المؤتمنين على التـربية ، من العـامة فى الشـارع ، أو أصدقـاء السُّوء الذين يجـرُّون الأبناء إلى مَا لا تُحمد عُقباه .

والآن نُحـذِّر أبناءنا من السَّـيْر مع شـخص مـجهـول ، أو قبـول طعام ، أو شراب منه . وما نراه فى عصرنا الحاضر يُغنى عن الإطالة فى هذه المـسـألة . هذه ـ إذن ـ مناعـة يجب أنْ تُعطَـى للأبناء ، كالمناعة ضد الأمراض تماماً .

وهكذا الحـالُ فيـمَنْ اتخـذوا من دون الله آلهـة وارتاحـوا إلى إله لا تكليفَ له ولا مشـقةَ فى عبـادته ، إله يتركـهم يعبدونه كـما يحلو

لهم ، إنهم أخـذوا عطاء الربوبية فـتمـتَّعوا بـنعمة الله ، وتركـوا عطاء الألوهية فلم يعبدوه سبحانه وتعالى .

ولما كـان الإنسان متديناً بطبـعه فقد اخـتار هؤلاء ديناً على وَفْق أهوائهم وشهـواتهم ، واتخذوا آلهة لا أمـرَ لها ولا تكليفَ . ومن ذلك ما نراه من كـثيـر من المثقـفين الذين يأخـذون دين الله على هواهم ، ويطيـعون أعـداء الله فى قضـايا بعيـدة كل البُعْـد عن دين الله ، وهم أصحاب ثـقافة وعقول نـاضجة ، ومع ذلك يُقنعون أنفـسهم أنهم على دين وأنهم على الحق .

ثم يقـول تعـالى : ﴿ لِيَكُونُوا لَهُمْ عِـزًّا (٨١) ﴾ [مـريم] العـز : هو الغَلَبة والامتناع من الغـير ، بحيث لا ينال أحد منه شيـئاً ، يقولون : فلان عزيز أى : لا يُغلب .

ولنا أن نسأل : ما العزة فى عبادة هذه الآلهة ؟ وما الذى سيعود عليكم من عبادتها ؟ لذلك يردُّ عليهم الحق تبارك وتعالى :

﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) ﴾

كلا : تنفى أن يكون لهؤلاء عزٌّ فى عبادة ما دون الله ، بل ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ (٨٢) ﴾ [مريم]

هذه الآلهة نفسها ستكفر بعبادتهم ، وتنكر أن تكون هى آلهة من دون الله ، وأكثـر من ذلك ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِـدًّا (٨٢) ﴾ [مريم] أى : فى حين اتـخذها الكفار آلهـة من دون الله وطلبوا العـزة فى عبـادتها تنقلب عليهم ، وتكون ضداً لهم وخَصْماً .

والضد : هو العدو المخالف لك ، والذى يحاول أنْ ينكِّل بك . وفى القرآن الكريم حوارات كثيرة بين هذه المعبودات ومَنْ عبدوها ، فمثلاً الذين عبدوا الملائكة واتخذوها آلهةً من دون الله : يسأل الله الملائكة : ﴿أَهَـٰؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠)﴾ ؟ [سبأ] فيُجيبون : ﴿سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١)﴾ [سبأ]

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا.. (١٦٦)﴾ [البقرة]

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى عن هؤلاء : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥)﴾ [الأحقاف]

إذن : ما ظنَّه الكفار عزّاً ومَنَعة صار عليهم ضداً وعداوة ، كالفتاة التى قالتْ لأبيها : يا أبتِ ما حملك على أنْ تقبلنى مخطوبة لابن فلان ؟ أى : ماذا أعجبك فيه ؟ قال : يا بُنيّتى إنهم أهل عزٍّ وأهل جاه وشرف وأهل قوة ومنعة ، فقالت : يا أبتِ لقد قدَّرْتَ أن يكون بينى وبين ابنهم وُدٌّ ، ولم تُقدِّر أن يكون بينى وبينه كراهية ، فإن حدثتْ الكراهية سيكون ما قلته ضدك ، وستشْقى أنت بهذا العزّ وبهذا الجاه .

ومن الناس من اتخذ من المال إلهاً ، على حَدِّ قَوْل الشاعر :

وَللمالِ قَوْمٌ إنْ بَدا المالُ قَائلاً   أنَا المالُ قالَ القومُ إيَّاكَ نعبدُ

وهؤلاء الذين يعبدون المال ، ويروْن فيه القوة ، ويعتزُّون به لا يدرون أنه سيكون وَبَالاً ونكالاً عليهم يوم القيامة : ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾ [التوبة]

وهكذا ، كلما زاد حرصه على المال زاد كَيُّه . وتلحظ فى الآية الترتيب الطبيعى لموقف السؤال حين يقف السائلُ الفقير أمام الغنى اللئيم ، فأوَّل ما يطالع السائل يتغيّر وجهه ، ثم يُشيح عنه بوجهه ، فيعطيه جَنْبه ، ثم يُدير له ظهره مُعْرِضاً عنه ، وبنفس هذا الترتيب يكون العذاب ويكون الكىُّ والعياذ بالله . وينقلب المال الذى ظَنّ العزة فيه إلى نكَالٍ ووبَالٍ .

يقول تعالى : ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦)﴾ [الأحقاف]

حتى الجوارح التي تمتعتْ بمعصيتك فى الدنيا ستشهد عليك : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ [النور]

ذلك لأنك غفلتَ عمَّنْ كان يجب ألاَّ تغفل عنه ، وذكرت مَنْ كان يجب ألاَّ تذكره ، فالإله الحق الذى غَفلْتَ عنه يطلبك الآن ويحاسبك ، والإله الباطل الذى اتخذته يتخلى عنك ويُسلمك للهلاك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣)﴾

الأزُّ : هو الهزُّ الشديد بعنف أى : تُزعجهم وتُهيجهم ، ومثْله النزغ فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠)﴾ [الأعراف]

والأزّ أو النَّزْغ يكون بالوسوسة والتسويل ليهيجه على المعصية والشر ، كما يأتى هذا المعنى أيضاً بلفظ الطائف ، كما فى قوله

تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ[1] مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١)﴾ [الأعراف]

وهذه الآية : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ .. (٨٣)﴾ [مريم] تثير سؤالاً : إذا كان الحق تبارك وتعالى يكره ما تفعله الشياطين بالإنسان المؤمن أو الكافر ، فلماذا أرسلهم الله عليه ؟

أرسل الله الشياطين على الإنسان لمهمة يؤدونها ، هذه المهمة هى الابتلاء والاختبار ، كما قال تعالى : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢)﴾ [العنكبوت]

إذن : فهم يُؤدُّون مهمتهم التى خُلقوا من أجلها ، فيقفوا للمؤمن ليصرفوه عن الإيمان فيُمحص الله المؤمنين بذلك ، ويُظهر صلابة مَنْ يثبت أمام كيد الشيطان .

وقلنا : إن للشيطان تاريخاً مع الإنسان ، بداية من آدم عليه السلام حين أَبَى أن يطيع أمر الله له بالسجود لآدم ، فطرده الله تعالى وأبعده من رحمته ، فأراد الشيطان أنْ ينتقمَ من ذرية آدم بسبب ما ناله من آدم ، فقال : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢)﴾ [ص]

وقال : ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦)﴾ [الأعراف]

وهكذا أعلن عن منهجه وطريقته ، فهو يتربص لأصحاب الاستقامة ، أما أصحاب الطريق الأعوج فليسوا فى حاجة إلى إضلاله وغوايته .

لذلك نراه يتهدد المؤمنين : ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. (١٧)﴾ [الأعراف]

---

(١) الطائف من الشيطان : مسُّه للإنسان بالوسوسة فهو يأتيه من كل جهة ليضله ولا ينجيه منه إلا ذكر الله . [القاموس القويم ١/٤١٠] .

ومعلوم أن الجهات ست ، يأتى منها الشيطان إلا فوق وتحت ؛ لأنهما مرتبطتان بعزِّ الألوهية من أعلى ، وذُلّ العبودية من أسفل ، حين يرفع العبد يديه لله ضارعاً وحين يخرُّ لله ساجداً ؛ لذلك أُغلقَتْ دونه هاتان الجهتان ؛ لأنهما جهتا طاعة وعبادة وهو لا يعمل إلا فى الغفلة ينتهزها من الإنسان .

والمتأمل فى مسألة الشيطان يجد أن هذه المعركة وهذا الصراع ليس بين الشيطان وربه تبارك وتعالى ، بل بين الشيطان والإنسان ؛ لأنه حين قال لربه تعالى : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾ [ص] التزم الأدب مع الله .

فالغواية ليست مهارة منى ، ولكن أغويهم بعزتك عن خَلْقك ، وتركْكَ لهم الخيارَ ليؤمن مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر ، هذه هى النافذة التى أنفذ منها إليهم ، بدليل أنه لا سلطانَ لى على أهلك وأوليائك الذين تستخلصهم وتصطفيهم : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

وهنا أيضاً يثار سؤال : إذا كان الشيطان لا يقعد إلا على الصراط المستقيم لِيُضلَّ أهله ، فلماذا يتعرَّض للكافر ؟

نقول : لأن الكافر بطبعه وفطرته يميل إلى الإيمان وإلى الصراط المستقيم ، وها هو الكون بآياته أمامه يتأمله ، فربما قاده التأمل فى كَوْن الله إلى الإيمان بالله ؛ لذلك يقعد له الشيطان على هذا المسْلك مسْلك الفكر والتأمل لِيحُول بينه وبين الإيمان بالخالق عز وجل .

فالشيطان ينزغك ، إما ليحرك فيك شهوة ، أو لِيُنسيك طاعة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ .. (٦٣) ﴾ [الكهف]

وقال : ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنعام]

وكثير من الإخوان يسألون : لماذا في الصلاة بالذات تُلِحُّ علينا مشاكل الحياة ومشاغل الدنيا ؟

نقول : هذه ظاهرة صحية فى الإيمان ، لأن الشيطان لولا علمه بأهمية الصلاة ، وأنها ستُقبل منك ويُغفر لك بها الذنوب ما أفسدها عليك ، لكن مشكلتنا الحقيقية أننا إذا أعطانا الشيطان طرفَ الخيط نتبعه ونغفل عن قَوْل ربنا تبارك وتعالى :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [فصلت]

فما عليك ساعةَ أنْ تشعر أنك ستخرج عن خطٍّ العبادة والإقامة بين يدى الله إلاَّ أنْ تقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، حتى وإنْ كنت تقرأ القرآن ، لك أنْ تقطعَ القراءة وتستعيذ بالله منه ، وساعةَ أن يعلم منك الانتباه لكيده وألاعيبه مرة بعد أخرى سينصرف عنك وييأس من الإيقاع بك .

وسبق أن ضربنا لذلك مثلاً باللص ؛ لأنه لا يحوم حول البيت الخرب ، إنما يحوم حول البيت العامر ، فإذا ما اقترب منه تنبّه صاحب البيت وزجره ، فإذا به يلوذ بالفرار ، وربما قال اللص فى نفسه : لعل صاحب البيت صاح مصادفة فيعاود مرة أخرى ، لكن صاحب الدار يقظٌ منتبه ، وعندها يفرُّ ولا يعود مرة أخرى .

ويجب أن نعلم أن من حيل الشيطان ومكائده أنه إذا عَزَّ عليه إغواؤك فى باب ، أتاك من باب آخر ؛ لأنه يعلم جيداً أن للناس مفاتيح ، ولكل منا نقطة ضعف يُؤتَى من ناحيتها ، فمن الناس مَنْ

لا تستميله بقناطير الذهب ، إنما تستميله بكلمة مدح وثناء . وهذا اللعين لديه (طفاشات) مختلفة باختلاف الشخصيات .

لذلك من السهل عليك أنْ تُميِّز بين المعصية إنْ كانت من النفس أم من الشيطان : النفس تقف بك أمام شهوة واحدة تريدها بعينها ولا تقبل سواها ، فإنْ حاولتَ زحزحتها إلى شهوة أخرى أبتْ إلا ما تريد ، أما الشيطان فإنْ عزَّتْ عليك معصية دعاك إلى غيرها ، المهم أن يُوقِع بك .

فالحق تبارك وتعالى يُحذرنا الشيطان ؛ لأنه يحارب فى الإنسان فطرته الإيمانية التى تُلح عليه بأن للكون خالقاً قادراً ، والدليل على الوجود الإلهى دليل فطرى لا يحتاج إلى فلسفة ، كما قال العربى قديماً : البعرة تدل على البعير ، والقدم تدل على المسير .. سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟!

وكذلك ، فكل صاحب صنعة عالم بصنعته وخبير بدقائقها ومواطن العطب فيها ، فما بالك بالخالق سبحانه : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك]

إذن : فالأدلة الإيمانية أدلة فطرية يشترك فيها الفيلسوف وراعى الشاة ، بل ربما جاءت الفلسفة فعقَّدتْ الأدلة .

ولنا وقفة مع قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [مريم] ومعلوم أن عمل الشيطان عمل مستتر ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ[1] مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف]

---

(١) القبيل : الجماعة أو العشيرة أو الكفلاء أو الأعوان المناصرون . [القاموس القويم ٢/ ٩٨].

فكيف يخاطب الحق ـ تبارك وتعالى ـ رسوله ﷺ فى هذه المسألة بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ .. (٨٣)﴾ [مريم] وهى مسألة لا يراها الإنسان ؟

نقول : ﴿أَلَمْ تَرَ .. (٨٣)﴾ [مريم] بمعنى ألم تعلم ؟ فعدَل عن العلم إلى الرؤيا ، كما فى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١)﴾ [الفيل] والنبى ﷺ لم يَرَ هذه الحادثة ، فكيف يخاطبه ربه عنها بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ .. (١)﴾ [الفيل] ؟

ذلك ، ليدلك على أن إخبار الله لك أصحُّ من إخبار عينك لك ؛ لأن رؤية العين ربما تخدعك ، أمّا إعلام الله فهو صادق لا يخدعك أبداً . فعلمك من إخبار الله لك أَوْلَى وأوثق من علمك بحواسِّك .

والشياطين : جمع شيطان ، وهو العاصى من الجَنّ ، والجن خَلْق مقابل للإنسان قال الله عنهم : ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ[1] قِدَدًا (١١)﴾ [الجن] فَمَنْ هم دون الصالحين ، هم الشياطين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)﴾

تمنّى النبى ﷺ لو أن الله أراحه من رؤوس الكفر وأعداء الدعوة ، فقال تعالى : ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)﴾ [مريم] فالله يريد أنْ تطول أعمارهم ، وتسوء فعالهم ، وتكثر ذنوبهم ، فالكتبة يعدُّون عليهم ويُحْصُون ذنوبهم .

ومعنى : ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)﴾ [مريم] أنها مسألة ستنتهى ؛

(١) طرائق قدداً : أى : طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة . قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد . أى : منا المؤمن ومنا الكافر . (تفسير ابن كثير ٤/٤٣٠) .

لأن كل ما يُعَدّ ينتهى ، إنما الشىء الذى لا يُحصَى ولا يُعَدُّ فلا ينتهى ، كما فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم]

لأن نعَم الله لا تُحصَى ولا تُعَدُّ ولا تنتهى ؛ لذلك سُبقَتْ بإن التى تفيد الشكَّ ، فهى مسألة لا يجرؤ أحد عليها ؛ لأن : ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦)﴾ [النحل]

وها نحن نرى علم الإحصاء وما وصل إليه من تقدّم حتى أصبح له جامعات وعلماء متخصصون أدخلوا الإحصاء فى كل شىء ، لكن لم يفكر أحد منهم أنْ يُحصِى نِعَم الله فى كَوْنه ، لماذا ؟ لأن الإقبال على العَدِّ معناه ظن أنك تستطيع أنْ تنتهى ، وهم يعلمون تماماً أنهم مهما عَدُّوا ومهما أَحْصَوا فلن يصلُوا إلى نهاية .

إذن : ﴿نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)﴾ [مريم] نُحصى سيئاتهم ونَعدُّ ذنوبهم قبل أن تنتهى أعمارهم ، وكلما طالت الأعمار كثُرتْ الذنوب ، وكل ما ينتهى بالعدد ينتهى بالمُدد .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا (٨٥)﴾

الحق ـ تبارك وتعالى ـ أعطانا صوراً متعددة ومشاهد مختلفة ليوم القيامة ، فأعطانا صورة للمعبود الباطل ، وللعابدين للباطل ، وما حدث بين الطرفين من جدال ونقاش ، وأعطانا صورة لمن تعاونوا على الشر ، ولمَنْ تعاونوا على الخير . وهذه صورة أخرى تعرض للمتقين فى ناحية ، والمجرمين فى ناحية ، فما هى صورة المتقين ؟

نحشر : أى : نجمع ، والوفد هم الجماعة تَرِدُ على الملك لأخْذ عطاياه ، جمعها وفود ، والواحد وافد . وهذه حال المتقين حين يجمعهم الله يوم القيامة وَفْداً لأخذ عطايا ربهم تبارك وتعالى . ولا تظن أنهم يُحشَرون ماشين مثلاً ، لا ، بل كل مؤمن تقى يركب ناقة لم يُرَ مثل حُسْنها ، رَحْلها من ذهب ، وأزمّتها من الزبرجد[1] .

وفى المقابل يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾

نسوق : والسائق يكون من الخلف ينهرهم ويزجرهم ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ[2] إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾ [الطور] ولم يقل مثلاً : نقودهم ؛ لأن القائد يكون من الأمام ، وربما غافله أحدهم وشرد منه .

وقوله تعالى : ﴿ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [مريم] الورْد : هو الذَّهاب للماء لطلب الريِّ ، أما النار فمحلُّ اللظى والشُّواظ واللهب والحميم . فلماذا سُمِّى إتيان النار بحرِّها وِرْداً ؟

هذا تهكُّم بهم ، كما جاء فى آيات أخرى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف]

وأنت ساعةَ تسمع (يغاثوا) تنتظر الخير وتأمل الرحمة ، لكن هؤلاء يُغاثون بماء كالمهل يشوى الوجوه .

---

(١) قال ابن عباس : ركباناً يؤتون بنوق من الجنة ، عليها رحائل من الذهب وسروجها وأزمتها من الزبرجد فيحشرون عليها ، وقال على : ما يُحشرون والله على أرجلهم ، ولكن على نوق رحالها من ذهب ، ونجب سروجها يواقيت ، إن هموا بها سارت ، وإن حركوها طارت . أورد القرطبى هذه الآثار فى تفسيره (٦/٤٣٢٤) .

(٢) يدعون ، أى : يُدفعون دفعاً عنيفاً بقهر وقسوة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ ﴾ [الماعون] أى : يدفعه ويقهره وينهره . [القاموس القويم ١/٢٢٨] .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان] فى توبيخ عُتَاة الكفر والإجرام . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) ﴾ [لقمان] والبشرى لا تكون إلا بشىء سَار .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) ﴾ [مريم] تهكُّم ، كما تقول للولد المهمل الذى أخفق فى الامتحان : مبروك عليك السقوط .

ثم يقول تعالى :

﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٨٧) ﴾

الكافر حين يباشر العذاب يطمع أول ما يطمع فى أن يشفعَ له معبوده ، ويُخرجه ممَّا هو فيه لكنْ هيهات ، ألم تقرأ قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) ﴾ [الأحقاف]

لذلك يقول تعالى عن هؤلاء يوم القيامة : ﴿ لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ .. (٨٧) ﴾ [مريم] لأن الشفاعة لا تكون إلا لمن أخذ الإذن بها ﴿ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٨٧) ﴾ [مريم]

والعهد الذى تأخذه على الله بالشفاعة أنْ تُقدِّم من الحسنات ما يسع تكاليفك أنت ، ثم تزيد عليها ما يؤهلك لأنْ تشفع للآخرين ، والخير لا يضيع عند الله ، فما زاد عن التكليف فهو فى رصيدك فى كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، ولا يهمل مثقال ذرة .

وعلى المؤمن ـ مهما كان مُسْرفاً على نفسه ـ ساعةَ يرى إنساناً مُقبلاً على الله مُستزيداً من الطاعات أنْ يدعوَ له بالمزيد ، وأن يفرح به ؛ لأن فائض طاعاته لعله يعود عليك ، ولعلك تحتاج شفاعته فى يوم من الأيام . أما مَنْ يحلو لهم الاستهزاء والسخرية من أهل الطاعات ، كما أخبر الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) ﴾ [المطففين]

فكيف ستقابل أهل الطاعات ، وتطمع فى شفاعتهم بعدما كان منك ؟ فإنْ لم تكُنْ طائعاً فلا أقلَّ من أنْ تحب الطائعين وتتمسح بهم ، فهذه فى حَدِّ ذاتها حسنةٌ لك ترجو نفعها يوم القيامة .

وما أشبه الشفاعة فى الآخرة بما حدث بيننا من شفاعة فى الدنيا ، فحين يستعصى عليك قضاءُ مصلحة يقولون لك : اذهب إلى فلان وسوف يقضيها لك . وفعلاً يذهب معك فلان هذا ، ويقضى لك حاجتك ، فلماذا قُضيتْ على يديه هو ؟ لا بُد أن له عند صاحب الحاجة هذه أيادىَ لا يستطيع معها أنْ يرد له طلباً .

إذن : لابُدَّ لمن يشفع أن يكون له رصيد من الطاعات يسمح له بالشفاعة ، وإذا تأملت لوجدت رسول الله ﷺ أول مَنْ قدّم رصيداً إيمانياً وسع تكليفه وتكليف أمته ، ألم يخبر عنه ربه بقوله : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ[1] لِلْمُؤْمِنِينَ .. (٦١) ﴾ [التوبة] لذلك وجبت له الشفاعة ، وأُذِن له فيها .

---

(١) قال ابن عباس : يعنى يصدق بالله ويصدق المؤمنين . وقال الضحاك : يصدق الله بما أنزل إليه ، ويصدق المؤمنين فيما بينهم فى شهاداتهم وأيمانهم على حقوقهم وفروجهم وأموالهم . أورد هذه الآثار السيوطى فى تفسير « الدر المنثور » (٤/٢٢٧) .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يغفل الرصيد فى خَلْقه أبداً ، فكل ما قدَّمت من طاعات فوق ما كلَّفك الله به مُدَّخَر لك ، حتى إن الإنسان إذا اتُّهم ظلماً ، وعُوقب على عمل لم يرتكبه فإن الله يدَّخرها له ويستر عليه ما ارتكبه فعلاً فلا يُعاقب عليه .

فالعهد ـ إذن ـ فى قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [مريم] أن تدخل مع ربك فى مقام الإحسان ، ولا يدخل هذا المقام إلا مَنْ أدَّى ما عليه من تكليف ، وإلا فكيف تكون مُحسِناً وأنت مُقصِّر فى مقام الإيمان ؟

واقرأ إنْ شئت قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الذاريات] ما العلة ؟ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[1] ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات]

فالمحسن مَنْ يُؤدِّى من الطاعات فوق ما فرض الله عليه ، ومن جنس ما فرض ، فالله تعالى لم يُكلِّفنا بقيام الليل والاستغفار بالأسحار ، ولم يفرض علينا صدقة للسائل والمحروم ، ولا بُدَّ أنْ نُفرِّق هنا بين (حق) و (حق معلوم) هنا قال (حق) فقط ؛ لأن الكلام عن الصدقة أما الحق المعلوم ففى الزكاة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ ﴾

هذا الكلام منهم عبث وافتراء ؛ لأنه متى كان اتخاذ هذا الولد ؟

---

(١) الهجوع : النوم ليلاً . وقد يكون الهجوع بغير نوم . [لسان العرب ـ مادة : هجع] .

فى أىِّ قَرْن من القرون من ميلاد المسيح عليه السلام ؟ إن هذه المقولة لم تَأْت إلا بعد ثلاثمائة سنة من ميلاد المسيح ، فما الموقف قبلها ؟ وما الذى زاد فى مُلْك الله بعد أنْ جاء هذا الولد ؟

الشمس هى الشمس ، والنجوم هى النجوم ، والهواء هو الهواء ، إذن : موضوعية اتخاذ الولد هذه عبث ؛ لأنه لم يَزِدْ شىء فى المُلْك على يد هذا الولد ، ولم تكن عند الله تعالى صفةَ مُعطلة اكتملتْ بمجىء الولد ؛ لأن الصفات الكمالية لله تعالى موجودة قبل أنْ يخلق أىَّ شىء .

فهو سبحانه وتعالى خالق قبل أن يَخْلق ، ورازق قبل أنْ يَرزُق ، ومُحْيٍ قبل أنْ يحيى ، ومميت قبل أن يميت . فبالصفات أوجد هذه الأشياء ، فصفات الكمال فيه سبحانه موجودة قبل متعلقاتها .

وضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - بالشاعر الذى قال قصيدة . وقلنا : إنه قال القصيدة لأنه شاعر بدايةً ، ولولا أنه شاعر ما قالها .

لذلك يرد الحق سبحانه على هذا الافتراء بقوله : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ۝٥ ﴾ [الكهف]

وهنا يرد عليهم بقوله :

﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٩ ﴾

والإدّ : المتناهى فى النكْر والفظاعة ، وهو الأمر المستبشع ، من : آده الأمر . أى : أثقله ولم يَقْو عليه ، ومنه قوله تعالى فى آية الكرسى : ﴿ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا .. ۝٢٥٥ ﴾ [البقرة] أى : لا يثقل عليه .

لكن ، لماذا جعل هذا الأمر إدّاً ومنكراً فظيعاً ؟

قالوا : لأن اتخاذ الولد له مقاصد ، فالولد يُتخذ ليكون لك عزْوة وقوة ؛ أو ليكون امتداداً لك بعد موتك ، والحق سبحانه وتعالى هو العزيز ، الذى لا يحتاج إلى أحد ، وهو الباقى الدائم الذى لا يحتاج إلى امتداد .

إذن : فاتخاذ الولد بالنسبة لله تعالى لا علةَ له ، كما أن اتخاذ الولد لله تعالى ينفى سواسية العبودية له سبحانه .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ[(1)] مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ ﴾

أى : فلسنا نحن فحسْب الذين ننكر هذا الأمر ، بل الجماد غير المكلف أيضاً ينكره ، فالسموات بقوتها وعظمها تتفطر أى : تتشقق ، وتكاد تكون مزَعاً لهوْلِ ما قيل ، تقرب أن تنفطر لكن لماذا لم تنفطر بالفعل ؟ لم تنفطر ؛ لأن الله يمسكها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا .. ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر]

وفى الحديث القدسى : « قالت السماء : يا رب ائذن لى أنْ أسقط كسَفاً على ابن آدم ، فقد طَعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الأرض : يارب ائذن لى أن أخسف بابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يارب ائذن لى أن أخرَّ على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . وقالت البحار : يا ربِّ ائذن لى أن أُغرق ابن

---

(١) يتفطر : يتشقق . أى أن السماوات تكاد أن يتشققن من هول قولهم إن لله ولداً . [القاموس القويم ٢/ ٨٥] .

آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . فقال لهم : دعونى وخلقى لو خلقتموهم لرحمتموهم ، فإن تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم » .

فما العلَّة فى أن السماء تقرب أن تنفطر ، والأرض تقرب أن تنشق ، والجبال تقرب أن تخرَّ ؟

﴿ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ ﴾

هذه هى العلة والحيثية التى من أجلها يكاد الكونُ كلُّه أن يتزلزل ، ويثور غاضباً لهذه المقولة الشنيعة .

ثم يعقب الحق سبحانه فيقول :

﴿ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾

وعلينا هنا أنْ نُفرق بين نَفْى الحدث ونفى انبغاء الحدث ، فمثلاً فى قول الحق - تبارك وتعالى - فى شأن نبيه ﷺ : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [يس] فنفى عنه قَوْل الشعر ، ونفى عنه انبغاء ذلك له ، فقد يظن ظانٌّ أن النبى لا يستطيع أن يقول شعراً ، أو أن أدوات الشعر من اللغة ورقَّة الإحساس غير متوافرة لديه ﷺ ، لكن رسول الله قادر على قَوْل الشعر إنْ أراد ، فهو قادر على الحدث ، إلا أنه لا ينبغى له .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [مريم] فإنْ أراد سبحانه وتعالى أن يكون له ولد لَكانَ ذلك ، كما جاء فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الزخرف]

أى : إن كان له سبحانه ولد فعلى العَيْن والرأس ، إنما هذه مسألة ما أرادها الحق سبحانه ، وما تنبغى له ، فكيف أدَّعى أنا أن لله ولداً هكذا من عندى ؟

وما حاجته تعالى للولد ، وقد قال فى الآية بعدها :

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾

ذلك لأن الخالق ـ تبارك وتعالى ـ خلق الإنسان ، وجعل له منطقة اختيار يفعل أو لا يفعل ، يؤمن أو لا يؤمن ، وكذلك جعل فيه منطقة قَهْر ، فالكافر الذى ألف الكفر ، وتعوَّد عليه ، وتمرد على الطاعة والإيمان ، هل يستطيع أنْ يتمرّد مثلاً على المرض أو يتمرَّد على الموت ، أو على الفقر ؟

إذن : فأنت مُختار فى شىء وعَبْد فى أشياء ، كما أن منطقة الاختيار هذه لك فى الدنيا ، وليست لك فى الآخرة . وسبق أنْ فرَّقنا بين العباد والعبيد ، فالجميع : المؤمن والكافر عبيد لله تعالى ، أما العباد فهم الذين تنازلوا عن اختيارهم ومرادهم لمراد ربهم ، فجاءت كُلُّ تصرفاتهم وفقاً لما يريده الله .

وهؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا .. ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان]

ومعنى : ﴿إِلاَّ آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم] أى : فى الآخرة ، حيث تُلْغَى منطقة الاختيار ، ولا يستطيع أحد الخروج عن مراد الله تعالى ، ويسلب الملك من الجميع ، فيقول تعالى : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر]

وهو سبحانه القادر على العطاء ، القادر على السلب : ﴿ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ .. (٢٦) ﴾ [آل عمران]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) ﴾

الإحصاء : هو العَدُّ ، وكانوا قديماً يستخدمون الحصَى أو النوى فى العَدِّ ، لكن النوى فرع ملكية النخل ، فقد لا يتوفر للجميع ؛ لذلك كانوا يستخدمون الحصَى ، ومنه كلمة الإحصاء .

ثم يقول تبارك وتعالى :

﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) ﴾

أى . وحده ، ليس معه أهل أو أولاد أو عِزْوة ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴾ [عبس]

فكل مشغول بحاله ، ذاهل عن أقرب الناس إليه : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ .. (٢) ﴾ [الحج]

وتأمَّل قوله : ﴿ آتِيهِ .. (٩٥) ﴾ [مريم] فالعبد هو الذى يأتى بنفسه مُخْتاراً لا يُؤْتَى به ، فكأن الجميع منضبط على وقت معلوم ، إذا جاء يُهْرَع الجميع طواعيةً إلى الله عز وجل .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا (٩٦) ﴾

وُدّاً : مودة ومحبة تقوم على الإيمان ، وتقود إلى شدة التعلّق ، وقد جعل الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى كَوْنه أسباباً لهذه المحبة والمودة ، كأنْ ترى إنساناً يُحبك ويتودّد إليك ، فساعةَ تراه مُقبلاً عليك تقوم له وتبشُّ فى وجهه ، وتُفسِح له فى المجلس ، ثم تسأل عنه إنْ غاب ، وتعوده إنْ مرض ، وتشاركه الأفراح وتواسيه فى الأحزان وتؤازره عند الشدائد ، فهذه المودة ناشئة عن حُبٍّ ومودة سابقة .

وقد تنشأ المودة بسبب القرابة أو المصالح المتبادلة أو الصداقة ، فهذه أسباب المودة فى الدنيا بين الخَلْق جميعاً مؤمنهم وكافرهم ، أمّا هنا : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ [مريم]

أى : بدون سبب من أسباب المودة هذه ، مودة بدون قرابة ، وبدون مصالح مشتركة أو صداقة ، وهذه المودة بين الذين آمنوا ، كأنْ ترى شخصاً لأول مرة فتشعر نحوه بارتياح كأنك تعرفه ، وتقول له : إنى أحبك لله .

هذه محبة جعلها الله بين المؤمنين ، فضلاً منه سبحانه وتكرُّماً ، لا بسبب من أسباب المودة المعروفة .

لذلك قال هرم بن حَيَّان[1] ـ رحمه الله ـ : إن الحق تبارك وتعالى حين يرى عبده المؤمن قد أقبل عليه بقلبه وأسكنه فيه ، وأبعد عن قلبه الأغيار ، وسلَّم قلبه وهو أسمى ما يملك من مستودعات العقائد وينبوع الصالحات وقدَّمه لربه إلا فتح له قلوب المؤمنين جميعاً[2] .

---

(١) هو : هرم بن حيان العبدى ، كان عاملاً لعمر بن الخطاب ، مات فى يوم شديد الحر ، فلما نفضوا أيديهم عن قبره جاءت سحابة فأمطرت ونبت العشب من يومه .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣٢٣) : « كان هرم بن حيان يقول : ما أقبل أحد بقلبه على الله تعالى إلا أقبل الله تعالى بقلوب أهل الإيمان إليه ، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم ».

كما جاء فى الحديث القدسى :

« ما أقبل علىَّ عبْد بقلبه إلا أقبلتُ عليه بقلوب المؤمنين جميعاً »[1] أى : بالمودة والرحمة دون أسباب .

وفى الحديث القدسى : « إن الله إذا أحب عبداً نادى فى السماء : إننى أحببتُ فلاناً فأحبُّوه ، وينادى جبريل فى الأرض : إن الله أحبَّ فلاناً فأحبوه . ويوضَع له القبول فى الأرض »[2] .

فيحبه كل مَنْ رآه عطية من الله وفضلاً ، دون سبب من أسباب المودة ، وإنْ كنتَ قد تبرعتَ لله تعالى بما تملك وهو قلبك مستودع العقائد وينبوع الصالحات كلها ، فإنه تعالى وهب لك ما يملك من قلوب الناس جميعاً ، فهى فى يده تعالى يُوجِّهها كيف يشاء .

وقد علَّمنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ فى قوله : ﴿ وإذَا حُيِّيتُم بتَحيَّةٍ فَحَيُّوا بأَحْسَنَ منْهَا أَوْ رُدُّوهَا .. (٨٦) ﴾ [النساء] أن نرد الجميل بأحسن منه ، فإنْ لم نقدر على الأحسن فلا أقلَّ من الرد بالمثل ، فإنْ كان هذا عطاء العبد ، فما بالك بعطاء الرب ؟

ومن ذلك ما جاء فى الحديث الشريف « من يسَّر على معسر يسَّر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه »[3] .

---

(١) أورد الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/٢٤٧) عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم فإنه من كانت الدنيا أكبر همه أفشى الله ضيعته وجعل فقره بين عينيه .. وما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا جعل الله قلوب المؤمنين تفد إليه بالود والرحمة وكان الله بكل خير إليه أسرع » رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وفيه محمد بن سعيد بن حسان المصلوب وهو كذاب .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٣٧) ، وأحمد فى مسنده (٢/٤١٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء ، وأحمد فى مسنده (٢/٢٥٢ ، ٢٩٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

والعَوْن يقتضي مُعيناً ومُعَاناً ، ولا بُدّ أن يكون المعين أقوى من المعان ، فيفيض عليه من فضل ما عنده : صحة ، أو قدرة ، أو غنىً ، أو علماً . وإعانةُ العبد لأخيه محدودة بقدراته وإمكاناته ، أمّا معونة الله لعبده فغير محدودة ؛ لأنها تناسب قدرة وإمكانات الحق تبارك وتعالى .

وهكذا عوَّدنا ربنا - تبارك وتعالى - حين نُضحِّي بالقليل أنْ يعطينا الكثير وبلا حدود ، فضلاً من الله وكرماً . ألم تَرَ أن الحسنة عنده تعالى بعشر أمثالها ، وتضاعف إلى سبعمائة ضعف ؟ أليست هذه تجارة مع الله رابحة ، كما قال سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الصف]

وقال عنها : ﴿ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [فاطر]

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يريد منا المحبة المتبادلة التي تربط بين قلوبنا وتُؤلّف بيننا ، ثم يمنحنا سبحانه الثمن .

إذن : العملية الإيمانية لا تظن أنها إيثار ، بل الإيمان أثرة ، وأنت حين تتصدق بكذا إنما تأمل ما عند الله من مضاعفة الأجر ، فالإيمان - إذن - أنانية عالية .

والحق - سبحانه وتعالى - يريد منا أنْ نعودَ على غيرنا بفضل ما نملك ، كما جاء في الحديث : « مَنْ كان عنده فضل مال فليعُدْ به على مَنْ لا مالَ له ... »[1] .

واعلم أن الله سيُعوِّضك خيراً مما أعطيْتَ . ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - : هَبْ أن عندك ولدين ، أعطيتَ لكل منهما مصروفه ،

(١) عن أبي سعيد الخدري قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ في سفر إذ جاء رجل على ناقة له ، فجعل يصرفها يميناً وشمالاً ، فقال رسول الله ﷺ : « من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » حتى ظننا أنه لا حق لأحد منا في الفضل . أخرجه أبو داود في سننه (١٦٦٣) وأحمد في مسنده (٣/٣٤) .

فـالأول اشـترى به حلـوى أكل منها ، وأعـطى رفاقـه ، والآخـر بدّد مصروفه فيما لا يُجدى من ألعاب أو خلافه ، فأيهما تعطى بعد ذلك ؟ كذلك الحق سبحانه يعاملنا هذه المعاملة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾

الفاء هنا تفيد : ترتيب شىء علـى شىء فابحث فى الجملة بعدها عن هذا الترتيب ، فـالمعنى : بشِّـر المتقـين ، وأنذر القوم اللُّد[1] لأننا يسرنا لك القرآن .

ويسَّرنا القرآن : أى : طوعناه لك حِفْظاً وأداءً وإلقاء معانٍ ، فأنت تُوظِّفه فى المهمة التى نزل من أجلها .

وتيسـير القـرآن ورد فى آيات كثـيرة ، كـقوله تعالـى فى سورة القمر : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر]

والمتأمل فى تيسير القرآن يجد العجائب فى أسلوبه ، فترى الآية تأتى فى سـورة بنص ، وتأتى فى نـفس السيـاق فى سـورة أخـرى بنص آخر ، فـالمسـألة ـ إذن ـ ليست (أكـلاشيه) ثابـت ، وليست عملية ميكانيكية صماء ، إنه كلام رب .

خُذْ مثلاً قوله تعالى :

﴿ كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ ﴾ [المدثر]

---

(١) لَدَّ يلَدُّ : اشتد فى الجدل والخصومة فهو لدٌّ . واللُّدُّ : أشداء الخصومة . [القاموس القويم ١٩١/٢] .

وفى آية أخرى : ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإنسان]

مرة يقول : ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإنسان] ومرة يقول : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ ﴾ [عبس]

ونقف هنا أمام ملحظ دقيق فى سورة (الرحمن) حيث يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن] ثم يأتى الحديث عنهما : فيهما كذا ، فيهما كذا إلى أنْ يصلَ إلى قاصرات الطرف فيقول : ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [الرحمن]

وكذلك فى : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الرحمن] فيهما كذا وفيهما كذا إلى أنْ يصلَ إلى الحور العين فيقول : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الرحمن]

ولك أنْ تتساءل : الحديث هنا عن الجنتين ، فلماذا عدل السياق عن (فيهما) إلى (فيهن) فى هذه النعمة بالذات ؟

قالوا : لأن نعيم الجنة مشترك ، يصح أنْ يشترك فيه الجميع إلا فى نعمة الحور العين ، فلها خصوصيتها ، فكأن الحق تبارك وتعالى يحترم مشاعر الغَيْرة عند الرجل ، ففى هذه المسألة يكون لكل منا جنته الخاصة التى لا يشاركه فيها أحد .

لذلك لما رأى رسول الله ﷺ الجنة رأى فيها قصراً فابتعد عنه ، فلما سُئل عن ذلك ﷺ قال : « إنه لعمر ، وأنا أعرف غَيْرة عمر »[1] .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢٤٢) من حديث أبى هريرة قال : « بينما نحن عند النبى ﷺ إذ قال : بينما أنا نائم رأيتنى فى الجنة ، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر ، فقلت : لمن هذا القصر ؟ فقالوا : لعمر بن الخطاب ، فذكرت غيرته ، فوليت مدبراً . فبكى عمر وقال : أعليك أغار يا رسول الله ؟ » . وكذا أخرجه ابن ماجة فى سننه (١٠٧) .

فإلى هذه الدرجة تكون غيرة المؤمن ، وإلى هذه الدرجة تكون دقَّة التعبير فى القرآن الكريم .

ولولا أن الله تعالى أنزل القرآن ويسَّره لَمَا حفظه أحد ، فالنبى ﷺ كان ينزل عليه الآيات ، وحين يسرى[1] عنه يمليها على الصحابة ، ويظل يقرؤها كما هى ، ولولا أن الله قال له : ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ⦗٦⦘﴾ [الأعلى] ما تيسَّر له ذلك .

ونحن فى حفْظنا لكتاب الله تعالى نجد العجائب أيضاً ، فالصبى فى سنِّ السابعة يستطيع حفْظ القرآن وتجويده ، فإنْ غفل عنه بعد ذلك تَفلَّتَ منه ، على خلاف ما لو حفظ نصاً من النصوص فى هذه السن يظل عالقاً بذهنه .

إذن : مسألة حفظ القرآن ليست مجرد استذكار حافظة ، بل معونة حافظ ، فإن كنت على وُدٍّ وأُلْفة بكتاب الله ظلَّ معك ، وإنْ تركته وجفوْته تفلَّتَ منك ، كما جاء فى الحديث الشريف :

« تعاهدوا القرآن ، فو الذى نفسى بيده لَهُو أشدُّ تفصّياً[2] من الإبل فى عُقَلها »[3] .

ذلك ؛ لأن حروف القرآن ليست مجرد حرف له رسم ومنطوق ، إنما حروف القرآن ملائكة تُصفّ ، فتكون كلمة ، وتكون آية ، فإنْ وددتَ الحرف ، ووددتَ الكلمة والآية ، ودَّتْك الملائكة ، وتراصتْ عند قراءتك[4] .

---

(١) سُرِّى عنه : كُشف عنه . قال ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة سرا : « قد تكرر ذكر هذه اللفظة فى الحديث ، وخاصة فى ذكر نزول الوحى عليه . وكلها بمعنى الكشف والإزالة» .

(٢) قال ابن حجر فى الفتح (٩/٨١) : « تفصيا . أى : تفلتاً وتخلصاً . ووقع فى حديث عقبة بن عامر بلفظ « تفلتاً » فمن شأن الإبل أنها تطلب التفلت ما أمكنها ، فمتى لم يتعاهدها برباطها تفلتت ، فكذلك حافظ القرآن إن لم يتعاهده تفلت بل هو أشد فى ذلك » .

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٣٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٧٩١) كتاب « صلاة المسافرين » من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

(٤) عن أسيد بن حضير قال : بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس ، فسكت فسكنت ، فقرأ فجالت الفرس ، فسكت وسكت الفرس .. فرفعت رأسى إلى السماء ، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح ، فخرجت حتى لا أراها ، قال ﷺ : وتدرى ما ذاك ؟ قال : لا . قال : تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها ، لا تتوارى منهم » .

ومن العجائب فى تيسير حفظ القرآن أنك إنْ أعملتَ عقلك فى القراءة تتخبّط فيها وتخطىء ، فإنْ أعدتَ القراءة هكذا على السليقة كما حفظت تتابعت معك الآيات وطاوعتك .

وتلحظ هنا أن القرآن لم يأتِ باللفظ الصريح ، إنما جاء بضمير الغيبة فى ﴿ يَسَّرْنَاهُ .. (٩٧) ﴾ [مريم] لأن الهاء هنا لا يمكن أن تعود إلا على القرآن ، كما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص] فضمير الغيبة هنا لا يعود إلا على الله تعالى .

وقوله : ﴿ بِلِسَانِكَ (٩٧) ﴾ [مريم] أى : بلغتك ، فجعلناه قرآنا عربياً فى أمة عربية ؛ ليفهموا عنك البلاغ عن الله فى البشارة والنذارة ، ولو جاءهم بلغة أخرى لقالوا كما حكى القرآن عنهم :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ .. (٤٤) ﴾ [فصلت]

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (٩٧) ﴾ [مريم]

والإنذار : التحذير من شرٍّ سيقع فى المستقبل ، واللَّدَد : عُنْف الخصومة ، وشراسة العداوة ، نقول : فلان عنده لَدَد أى : يبالغ فى الخصومة ، ولا يخضع للحجة والإقناع ، ومهما حاولتَ معه يُصِرُّ على خصومته .

ويُنهى الحق سبحانه سورة مريم بقوله تعالى :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨) ﴾

الحق - تبارك وتعالى - يُسرِّى عن نبيه ﷺ ما يلاقى من عنت فى سبيل دعوته ، كأنه يقول له : إياك أنْ ينالَ منك بُغْض القوم لك وكُرههم لمنهج الله ، إياك أنْ تتضاءلَ أمام جبروتهم فى عنادك ، فهؤلاء ليسوا أعزَّ من سابقيهم من المكذبين ، الذين أهلكهم الله ، إنما أستبقى هؤلاء لأن لهم مهمة معك .

وسبق أن أوضحنا أن الذين نجوْا من القتل من الكفار فى بعض الغزوات ، وحزن المسلمون لنجاتهم ، كان منهم فيما بَعْد سيف الله المسلول خالد بن الوليد .

يقول تعالى : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ .. ﴿٩٨﴾﴾ [مريم]

كم : خبرية تفيد الكثرة ، من قرن : من أمة ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ .. ﴿٩٨﴾﴾ [مريم] لأننا أخذناهم فلم نُبق منهم أثراً يحس .

ووسائل الحسِّ أو الإدراك كما هو معروف : العين للرؤية ، والأذن للسمع ، والأنف للشمّ ، واللسان للتذوق ، واليد للمس ، فبأىّ أداة من أدوات الحسّ لا تجد لهم أثراً .

وقوله : ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ [مريم] الركْز : الصوت الخفىّ ، الذى لا تكاد تسمعه . وهذه سُنَّة الله فى المكذبين من الأمم السابقة كما قال سبحانه : ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ[1] وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الدخان]

أين عاد وثمود وإرم ذات العماد التى لم يُخلَق مثلها فى البلاد ؟

---

(١) تُبَّع : لقب ملوك اليمن العظام ، وهم أهل سبأ ، كانوا كلما ملك فيهم رجل سموه تبعاً كما يقال كسرى لمن ملك الفرس ، وقيصر لمن ملك الروم ، وفرعون لمن ملك مصر ، والنجاشى لمن ملك الحبشة . [تفسير ابن كثير ١٤٣/٤] .

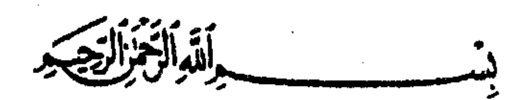
وأين فرعون ذو الأوتاد ؟ فكل جبار مهما علَتْ حضارته ما استطاع أنْ يُبقى هذه الحضارة ؛ لأن الله تعالى أراد لها أنْ تزول ، وهل كفار مكة أشدّ من كل هؤلاء ؟

لذلك حين تسمع هذا السؤال : ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ [مريم] لا يسَعْك إلاَّ أنْ تُجيب : لا أحسُّ منهم من أحد ، ولا أسمع لهم ركزاً .

سُورَةُ طه



سورة طـه



يقول الحق سبحانه فى بداية سورة طه[١] :



تكلمنا كثيراً عن الحروف المقطَّعة فى بدايات السور ، ولا مانع هنا أنْ نشير إلى ما ورد فى (طه) ، فالبعض يرى أنها حروف متصلة ، وهى اسم من أسماء الرسول ﷺ ، وآخرون يرونَ أنها حروف مُقطّعة مثل (الم) ومثل (يس) فهى حروف مُقطّعة ، إلا أنها صادفتْ اسماً من الأسماء كما فى (ن) حرف وهو اسم للحوت : ﴿ وَذَا النُّونِ إذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا .. (٨٧) ﴾ [الأنبياء] و (ق) حرف ، وهو اسم لجبل اسمه جبل قاف .

إذن : لا مانع أن تدل هذه الحروف على اسم من الأسماء ،

---

(١) سورة (طه) هى السورة رقم ٢٠ فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها (١٣٥) آية ، وهى سورة مكية فى قول الجميع ، نزلت قبل إسلام عمر رضى الله عنه ، وهى السورة رقم (٤٤) فى ترتيب نزول القرآن ، وقد نزلت بعد سورة مريم وقبل سورة الواقعة . وهى سورة مكية ، وقد استثنى منها آيتان هما ﴿ **فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١)** ﴾ [طه] . فقد ذكر السيوطى فى « الإتقان فى علوم القرآن » (١/٤٢) أنهما مدنيتان .

فتكون (طه) اسماً[١] من أسماء الرسول ﷺ خاصة ، وأن بعدها :
﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢)﴾ [طه]

لكن تلاحظ هنا مفارقة ، حيث نطق الطاء والهاء بدون الهمزة ، مع أنها حروف مقطعة مثل الف لام ميم ، لكن لم ينطق الحرف كاملاً ، لأنهم كانوا يستثقلون الهَمْز فيُخَفِّفونها ، كما في ذئب يقولون : ذيب وفى بئر ، يقولون : بير . وهذا النطق يُرجح القول بأنها اسم من أسماء النبى ﷺ .

وسبق أنْ أوضحنا أن فواتح السور بالحروف المقطّعة تختلف عن باقى آيات القرآن ، فكُلُّ آيات القرآن من بدايته لنهايته بُنِيَتْ على الوَصْل ، وإنْ كان لك أن تقف ؛ لذلك فكل المصاحف تُبنَى على الوَصْل فى الآيات وفى السور ، فتنطق آخر السورة على الوصل ببسم الله الرحمن الرحيم فى السورة التى بعدها .

تقول : ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً (٩٨)﴾ [مريم] (بسم الله الرحمن الرحيم) حتى فى آخر سور القرآن ونهايته تقول : ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴾ [الناس] (بسم الله الرحمن الرحيم) مع أنها آخر كلمة فى القرآن ، وماذا سيقول بعدها ؟ لكنها جاءت على الوَصْل إشارة إلى أن القرآن موصولٌ أوَّله بآخره ، لا ينعزل بعضه عن بعض ، فإياك أن تجفوَهُ ، أو تظن أنك أنهيته ؛ لأن نهايته موصولة ببدايته ؛ فنقرأ ﴿ من الجنّة والناسِ ﴾ ﴿ بِسم الله الرحمن الرحيم ﴾ الحمدُ للهِ رب العالمين ....

---

(١) قال ابن عباس : معنى (طه) أى : يا رجل . ذكره البيهقى . وقاله الحسن وقال عكرمة : هو بالسريانية كذلك ، ذكره المهدى . وحكى الطبرى : أنه بالنبطية يا رجل . وهذا قول السدى وسعيد بن جبير . [تفسير القرطبى ٦/٤٣٣٧] .

إذن : فالقرآن كله في كل جملة وكل آية وكل سورة مبنيٌّ على الوَصْل ، إلا في فواتح السور بالحروف المقطّعة تُبنَى على الوقف (ألف ـ لام ـ ميم) ، وهذا وجه من وجوه الإعجاز ، وأن القرآن ليس ميكانيكا ، بل كلام مُعْجِز من ربٍّ العالمين .

لذلك ، فالنبى ﷺ أوضح استقلالية هذه الحروف بذاتها ، فقال « تعلموا هذا القرآن ، فإنكم تؤجرون بتلاوته ، بكل حرف عشر حسنات ، أما إنى لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف ، بكل حرف عشر حسنات »[1] .

يقول الحق سبحانه :

﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ ﴾

الشقاء : هو التعب والنَّصَب والكدّ ، فالحق سبحانه ينفى عن رسوله ﷺ التعب بسبب إنزال القرآن عليه ، إذن : فما المقابل ؟ المقابل : أنزلنا عليك القرآن لتسعد ، تسعد أولاً بأن اصطفاك لأن تكون أهْلاً لنزول القرآن عليكِ ، وتسعد بأن تحمل نفسك أولاً على منهج الله وفعْلِ الخير كل الخير .

فلماذا ـ إذن ـ جاءتْ كلمة ﴿ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ ﴾ [طه] ؟

هذا كلام الكفار أمثال أبى جهل ، ومُطعِم بن عدى ، والنضر بن الحارث ، والوليد بن المغيرة حينما ذهبوا إلى النبى ﷺ وقالوا له :

---

(١) أخرجه الدارمى فى سننه (٢/٤٢٩) كتاب فضائل القرآن ـ باب : فضل من قرأ القرآن من حديث عبد الله بن مسعود .

لقد أشقيتَ نفسك بهذه الدعوة[١] .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الله بعثنى رحمة للعالمين »[٢] .

فقد بعث رسول الله ليسعد ويسعد معه قومه والناس أجمعين لا ليشقى ويُشقِى معه الناس . لكن من أين جاء الكفار بمسألة الشقاء هذه ؟ المؤمن لو نظر إلى منهج الله الذى نزل به القرآن لوجده يتدخل فى إراداته واختياراته ، ويقف أمام شهواته ، فيأمره بما يكره وما يشقُّ على نفسه ، ويمنعه مما يألَف ومما يحب .

إذن : فمنهج الله ضد مرادات الاختيار ، وهذا يُتعِب النفس ويشقُّ عليها إذا عُزِلَتْ الوسيلة عن غايتها ، فنظرت إلى الدنيا والتكليف منفصلاً عن الآخرة والجزاء .

أمّا المؤمن فيقرن بين الوسيلة والغاية ، ويتعب فى الدنيا على أمل الثواب فى الآخرة ، فيسعد بمنهج الله ، لا يشقى به أبداً . كالتلميذ الذى يتحمل مشقّة الدرس والتحصيل ؛ لأنه يستحضر فَرْحة الفوز والنجاح آخر العام .

من هنا رأى هؤلاء الكفار فى منهج الله مشقة وتعباً ، لأنهم عزلوا الوسيلة عن غايتها ؛ لذلك شعروا بالمشقة ، فى حين شعر المؤمنون بلذة العبادة ومتعة التكليف من الله ، وهذه المسألة هى التى جعلتهم

---

(١) قال مقاتل : قال أبو جهل والنضر بن الحارث للنبى ﷺ : إنك لتشقى بترك ديننا ، وذلك لما رأياه من طول عبادته واجتهاده ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢﴾ [طه] [ذكره الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول ص ١٧٤] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٥٧) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه ، وتمامه : « إن الله بعثنى رحمة وهدى للعالمين وأمرنى أن أمحق المزامير والكفارات يعنى البرابط والمعازف والأوثان التى كانت تعبد فى الجاهلية » .

يتخـذون آلهةً لا مطالبَ لها ، ولا منهـج ، ولا تكليف ، آلهة يعبـدونها على هواهم ، ويسيرون فى ظلها على حَلِّ شعورهم .

لذلك أوضح القرآن أنهم مـغفلون فى هذه المسألـة ، فقال : ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢)﴾ [طه]

أو يكون الشقاء :تعـرُّضه لعُتاة قريش وصِـناديدها الذين سخروا منه ، وآذوه وسلَّطوا عليه سـفهاءهم وصبـيانهم ، يشتمـونه ويرمونه بالحجارة ، وهو ﷺ يُشقِى نفسه بدعوتهم والحرص على هدايتهم .

والحق تبارك وتعالى ينفى الشقـاء بهذا المعنى أيضاً : ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢)﴾ [طه] أى : لتُشقى نفسك معهم ، إنما أنزلناه لتبلغـهم فحسب[١] ، وقد تكرر هذا المـعنى فى القرآن كثيـراً فى مثل قـوله تعـالى : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْـسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾ [الكهف] وقوله : ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)﴾ [الشعراء]

وسـبق أنْ ضربنا لـذلك مثـلاً ـ ولله المـثَل الأعلى ـ برجل عنده عبدان : ربط أحدهمـا إليه بحبل ، وأطلق الآخر حُراً ، فـإذا ما دعاهما فاستجابا لأمره ، فأيهما أطوع له ، وأكثر احتراماً لأمره ؟

لا شكَّ أنه الحر الطليق ؛ لأنه جـاء مختاراً ، فى حـين كان قادراً على العصيان . وكذلك ربك ـ تبارك وتعالى ـ يريد منك أن تأتيه حُراً مختاراً مؤمناً ، وأنت قادر ألاَّ تؤمن .

---

(١) أخرج الترمذى فى سننه (٣٣١٨) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما من حديث طويل أن رسول الله ﷺ قال : « إنما بعـثنى الله مبلغاً ، ولم يبعثنى مُعنِّتـاً » قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » .

والبعض يحلو لهم نقد الإسلام واتهام الرسول ﷺ ، فيقولون : إن رسول الله يخطىء والله يُصوِّب له ، ونتعجب : وما يضيركم أنتم ؟ طالما أن ربه هو الذى يُصوِّب له ، هل أنتم الذين صَوَّبتم لرسول الله !؟ ثم مَنْ أخبركم بخطأ رسول الله ؟ أليس هو الذى أخبركم ؟ أليس هذا من قوة أمانته فى التبليغ ويجب أن تحمد له ؟

إذن : فرسول الله ﷺ لا يستنكف أنْ يُربِّيه ربه ؛ لذلك يقول : « إنما أنا بشر يَرِد علىَّ - يعنى من الحق - فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويُؤخذ منى فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

وقد تمحَّك هؤلاء كثيراً فى قصة عبد الله بن أم مكتوم ، حينما انشغل عنه رسول الله بكبار قريش ، والمتأمل فى هذه القصة يجد أن ابن أم مكتوم كان رجلاً مؤمناً جاء ليستفهم من رسول الله عن شىء ، فالكلام معه ميسور وأمر سَهْل ، أمّا هؤلاء فهم رؤوس الكفر وكبار القوم ، ولديهم مع ذلك لَدَد فى خصومتهم للإسلام ، والنبى ﷺ يحرص على هدايتهم ويُرهِق نفسه فى جدالهم أملاً فى أنْ يهدى الله بهم مَنْ دونهم .

إذن : النبى فى هذا الموقف اختار لنفسه الأصعب ، وربه يعاتبه على ذلك ، فهو عتاب لصالحه ، له لا عليه[1] .

---

(١) وفى هذا يقول الحق سبحانه : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ۝١٢﴾ [عبس] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ ﴾

أى : ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، وإنما أنزلناه (تذكرةً) أى تذكيراً (لمَنْ يَخْشَى) الخشية : خَوْف بمهابة ؛ لأن الخوفَ قد يكون خوفاً دون مهابة ، أمّا الخوف من الله فخوْف ومهابة معاً .

﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ۝٤ ﴾

تنزيلاً : مصدر أى : أنزلناه تنزيلاً ، وقد ورد فى نزول القرآن : أنزلناه ، ونزلناه ونزل ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا .. ۝٤ ﴾ [القدر]

لأن القرآن أخذ أدواراً عدَّة فى النزول ، فقد كان فى اللوح المحفوظ ، فأراد الله له أن يباشر القرآن مهمته فى الوجود ، فأنزله من اللوح المحفوظ مرة واحدة إلى السماء الدنيا . فأنزله ـ أى الله تعالى ـ ثم تَنَزَّل مُفرَّقاً حسْب الأحداث من السماء الدنيا على قلب رسول الله ﷺ والذى نزل به جبريل : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۝١٩٣ ﴾ [الشعراء]

وقوله تعالى : ﴿ مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ۝٤ ﴾ [طه]

خَصَّ السموات والأرض ، لأنها من أعظم خَلْق الله ، وقد أعدهما الله ليستقبلا الإنسان ، فالإنسان طرأ على كَوْن مُعَدٍّ جاهز لاستقباله ، فكان عليه ساعة أنْ يرى هذا الكون المُعدَّ لخدمته بأرضه وسمائه ، ولا قدرة له على تسيير شىء منها ، كان عليه أن يُعملَ عقله ،

ويستدل بها على الموجد سبحانه وتعالى .

كأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول لك : إذا كان الخالق سبحانه قد أعدَّ لك الكون بما يُقيم حياتك المادية ، أيترك حياتك المعنوية بدون عطاء ؟

والخالق عز وجل خلق هذا الكون بهندسة قيومية عادلة حكيمة تُوفِّر لخليفته فى الأرض استبقاءَ حياته ، وتعطيه كل ما يحتاج إليه بقدر دقيق ، واستبقاء الحياة يحتاج إلى طعام وشراب وهواء ، وقد أعطاها الله للإنسان بحكمة بالغة .

فالطعام يحتاجه الإنسان ، ويستطيع أنْ يصبر عليه شهراً ، دون أن يأكل ، ويحتاج إلى الماء ولكن لا يستطيع أنْ يصبر عليه أكثر من عشرة أيام ، ويحتاج إلى الهواء ولكن لا يصبر عليه لحظةً تستغرق عِدَّة أنفاس .

لذلك ، فمن رحمته تعالى بعباده أنْ يمتلك بعضُ الناس القوتَ ، فالوقت أمامك طويل لتحتالَ على كَسْبه ، وقليلاً ما يملك أحدٌ الماءَ ، أما الهواء الذى لا صَبْر لك عليه ، فمن حكمة الله أنه لا يملكه أحد ، وإلا لو منع أحد عنك الهواء لمُتَّ قبل أنْ يرضى عنك .

فمن حكمة الله أنْ خلق جسمك يستقبل مُقوِّمات استبقاء الحياة فترة من الزمن تتسع للحيلة وللعطف من الغير ، وحين تأكل يأخذ الجسم ما يحتاجه على قَدْر الطاقة المبذولة ، وما فاض يُختزَن فى جسمك على شكل دُهْن يُغذِّى الجسم حين لا يتوفر الطعام .

ومن عجائب قدرة الله أن هذه المادة الدُّهنية تتحول تلقائياً إلى أى مادة أخرى يحتاجـها الجسم ، فإن احتاج الحديد تتحـول كيماوياً إلى الحديـد ، وإن احتاج الزرنيـخ تتحول كـيمـاوياً إلى زرنيخ ، وهى فى الواقع مادة واحدة ، فمَنْ يقدر على هذه العملية غيره تعالى ؟

وبعد أنْ أعطاك مـا يستبقى حـياتك من الطعام والشـراب والهواء أعطاك ما يستبقى نوعك بالزواج والتناسل .

وقوله تعالى : ﴿ٱلسَّمَـٰوَاتِ الْعُلَى ۝٤﴾ [طه] العلا : جمع عُليا ، كما نقول فى جمع كبرى : كُبَر ﴿إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ ۝٣٥﴾ [المدثر]

وهكذا تكتمل مُقوِّمات التكوين العالى لخليفة الله فى الأرض ، فكما أعطاه ما يقيم حـياته ونوعه بخَلْق السمـوات والأرض ، أعطاه ما يُقيم معنوياته بنزول القـرآن الذى يحرس حركاتنا من شراسـة الشهوات ، فالذى أنزل القرآن هو الذى خلق الأرض والسموات العلا .

والصـفـة البـارزة فى هذا التكـوين العـالى للإنسـان هى صِـفَـة الرحمانية ؛ لذلك قال بعدها :

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾

فالآية السـابقة أعطتْنا مظهراً من مظاهر العطف والرحـمة ، وهذه تعطينا مظهـراً من مظاهر القَهْـر والغَلَبة ، واسـتواء الرحـمن ـ تبارك وتعالى ـ على العرش يُؤخَذ فى إطار

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ۝١١﴾ [الشورى]

وسبق أن تكلمنا فى الصفـات المشتركة بين الحق سـبحانه وبين

خَلْقه ، فلَكَ سمعٌ وبصر ، ولله سمع وبصر ، لكن إياك أنْ تظن أن سمع الله كسمْعك ، أو أن بصره كبصرك .

كذلك فى مسألة الاستواء على العرش ، فللحقِّ سبحانه استواء على عرشه ، لكنه ليس كاستوائك أنت على الكرسى مثلاً[1] .

والعرش فى عُرْف العرب هو سرير الملْك ، وهل يجلس الملك على سريره ليباشر أمر مملكته ويدير شئونها إلا بعد أنْ يستتبَّ له الأمر ؟

وكذلك الخالق ـ جَلَّ وعلا ـ خلق الكون بأرضه وسمائه ، وخلق الخَلْق ، وأنزل القرآن لينظم حياتهم ، وبعد أن استتبَّ له الأمر لم يترك الكون هكذا يعمل ميكانيكياً ، ولم ينعزل عن كَوْنه وعن خَلْقه ؛ لأنهم فى حاجة إلى قيوميته تعالى فى خَلْقه .

ألم يقل الحق سبحانه فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، ناموا ملءَ جفونكم ، لأنِّى قَيُّوم لا أنام »[2] .

فكوْنُ الله ليس آلةً تعمل من تلقاء نفسها ، وإنما هو قائم بقيوميته عليه لا يخرج عنها ؛ لذلك كانت المعجزات التى تخرق نواميس الكون دليلاً على هذه القيومية .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٣٤١/٦) : « الذى ذهب إليه الشيخ أبو الحسن وغيره أنه مستو على عرشه بغير حدٍّ ولا كيْف ، كما يكون استواء المخلوقين . وقال ابن عباس : يريد خلق ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة وبعد القيامة » . وقال ابن كثير فى تفسيره (١٤٢/٣) : « المسلك الأسلم فى ذلك طريقة السلف : إمرار ما جاء فى ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل » .

(٢) أورد ابن كثير فى تفسيره (٣٠٩/١) عن ابن عباس أن بنى إسرائيل قالوا : يا موسى هل ينام ربك ؟ قال : اتقوا الله ، فناداه ربه عز وجل : يا موسى سألوك هل ينام ربك ؟ فخذ زجاجتين فى يديك ، فقم الليلة . ففعل موسى ، فلما ذهب من الليل ثلث نعس فوقع لركبتيه ثم انتعش فضبطهما ، حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا . فقال : يا موسى لو كنت أنام لسقطت السماوات والأرض فهلكت كما هلكت الزجاجتان فى يديك » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ۝٦ ﴾

الحق - تبارك وتعالى - يمتنُّ بما يملكه سبحانه فى السموات وفى الأرض وما تحت الثرى ، والله تعالى لا يمتنُّ إلا بملكية الشىء النفيس الذى يُنتفع به .

وكأنه سبحانه يلفت أنظار خَلْقه إلى ما فى الكون من مُقوِّمات حياتهم المادية ليبحثوا عنها ، ويستنبطوا ما ادَّخره لهم من أسرار وثروات فى السموات والأرض ، والناظر فى حضارات الأمم يجد أنها جاءت إما من حَفْريات الأرض ، أو من أسرار الفضاء الأعلى فى عصر الفضاء .

ولو فهم المسلمون هذه الآية منذ نزلت لَعلموا أن فى الأرض وتحت الثرى وهو : (التراب) كنوزاً وثروات ما عرفوها إلا فى العصر الحديث بعد الاكتشافات والحفريات ، فوجدنا البترول والمعادن والأحجار الثمينة ، كلها تحت الثَّرى مطمورةٌ تنتظر مَنْ يُنقِّب عنها وينتفع بها .

وقد أوضح العلماء أن هذه الثروات موزعة فى أرض الله بالتساوى ، بحيث لو أخذتَ قطاعات متساوية من أراض مختلفة لوجدتَ أن الثروات بها متساوية : هذه بها ماء ، وهذه مزروعات ، وهذه معادن ، وهذه بترول وهكذا . فهى أشبه بالبطيخة حين تقسمها إلى قطع متساوية من السطح إلى المركز .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١ ﴾ [الحجر]

إذن : فالخير موجود ينتظر القَدَر ليظهر لنا وننتفع به .

ثم يقول تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - حينما يطلب من رسوله أن يذكر يريد منه أن يُذكِّر تذكيراً مرتبطاً بنيته ، لا ليقطع العَتْب عن نفسه ، فالمسألة ليست جهراً بالتذكير .

وإذا كان الله تعالى يقول لرسوله ﷺ : إننى سأحرس سرك كما أحرس علانيتك ، وأن الجهر عندى مثل السر ، بل وأخفى من السر ، وهو ﷺ مؤتمن على الرسالة فإنه تعالى يقول أيضاً لأمته : إياكم أن تقولوا كلاماً ظاهره فيه الرحمة ، ونيتكم غير مستقرة عليه ؛ لأن الله كما يعلم الجهر يعلم السر ، وما هو أخفى من السر .

وتكلمنا عن الجهر ، وهو أن تُسمع مَنْ يريد أن يسمع ، والسر : أن تخصَّ واحداً بأن تضع فى أذنه كلاماً لا تحب أن يشيع عند الناس ، وتهمس فى أذنه بأنك المأمون على هذا الكلام ، وأنت ترتاح نفسياً حينما تُلقِى بسرِّك إلى مَنْ تثق فيه ، وتأمن ألاَّ يذيعه ، وهناك فى حياة كل منا أمور تضيق النفس بها ، فلا بُدَّ لك أن تُنفِّسَ عن نفسك ، كما قال الشاعر :

وَلاَ بُدَّ مِنْ شَكْوَى إلَى ذِى مُرُوءَةٍ   يوَاسِيكَ أَوْ يُسلِيكَ أَوْ يتوجَّعُ

فأنت - إذن - فى حاجة لمَنْ يسمع منك ليريحك ، ويُنفِّس عنك ، ولا يفضحك بما أسررْتَ إليه .

ومعنى ﴿ وَأَخْفَى ۞ ﴾ [طه] أى : أخْفى من السر ، فإنْ كان سرُّك قد خرج من فمك إلى أذن سامعك ، فهناك ما هو أخْفَى من السر ، أى : ما احتفظتَ به لنفسك ولم تتفوَّه به لأحد .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۞ ﴾ [الملك] أى : مكنوناتها قبل أن تصير كلاماً .

وقال أيضاً : ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ .. ۞ ﴾ [ق] فوسوسة النفس ، وذات الصدور هى الأَخْفى من السر ، فلديْنَا - إذن - جَهْر ، وسرٌّ ، وأخفى من السر ، لكن بعض العارفين يقول : وهناك فى علم الله ما هو أخْفى من الأَخفى ، فما هو ؟ يقول: إنه تعالى يعلم ما سيكون فى النفس قبل أن يكون .

وبعد ذلك جاء الحق سبحانه بالكلمة التى بعث عليها الرسل جميعاً :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۞ ﴾

هذه الكلمة (لا إله إلا هو) هى قمة العقيدة ، وقال عنها النبى ﷺ : « خير ما قلته أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله »[1] .

وما دام لا إله إلا الله ، فهو سبحانه المؤْتَمن عليك ، فليس هناك إله آخر يُعقِّب عليه ، فاعمل لوجهه يكْفك كل الأوجه وتريح نفسك أن تتنازعك قوى شتى ومختلفة ، ويُغنيك عن كل غنى .

وحينما دخل أعرابى على رسول الله ﷺ وهو يتكلم مع أبى بكر -

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٥٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « خير الدعاء دعاء يوم عرفة .. » الحديث بتمامه . قال الترمذى : « هذا حديث غريب من هذا الوجه » .

رضى الله عنه ـ لم يفهم من كلامهما شيئاً ، فقال : يا رسول الله أنا لا أحسن دندنتك ولا دندنة أبى بكر ، أنا لا أعرف إلا : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فقال ﷺ : « حَوْلَها ندندن يا أخا العرب »[(١)] .

فهى الأساس والمركز الذى يدور حوله الإسلام .

وكلمة (اللهُ) علَم على واجب الوجود بكل صفات الكمال له ، فهو الله الموجود ، الله القادر ، الله العالم ، الله الحىّ ، الله المحيى ، الله الضار . فكل هذه صفات له سبحانه ، لكن هذه الصفات لما بلغتْ حَدَّ الكمال فيه تعالى أصبحتْ كالاسم العلَم ، بحيث إذا أُطلِق الخالق لا ينصرف إلا له ، والرازق لا ينصرف إلا له .

وقد يشترك الخلْق مع الخالق فى بعض الصفات ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم .. ⑧ ﴾ [النساء]

فالإنسان أيضاً يرزق ، لكن رزقه من باطن رزق الله ، فهو سبحانه الرازق الأعلى ، ومن بَحْره يغترف الجميع .

وكما فى قوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ⑭ ﴾ [المؤمنون] وقال تعالى : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا .. ⑰ ﴾ [العنكبوت]

ومعنى ذلك أن هناك خالقين غيره سبحانه ، ومعنى الخلْق :

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٣/٤٧٤) وابن ماجه فى سننه (٣٨٤٧) وأبو داود فى سننه (٧٩٢) عن بعض أصحاب النبى ﷺ قال قال النبى ﷺ لرجل : كيف تقول فى الصلاة ؟ قال : أتشهد . ثم أقول : اللهم إنى أسألك الجنة وأعوذ بك من النار ، أما إنى لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ . فقال النبى ﷺ : « حولها ندندن » .

الإيجاد من عدم ، فالذى جاء بالرمل وصنع منه كوباً فهو خالق للكوب ، فأنت أوجدتَ شيئاً من عدم ، والله تعالى أوجد شيئاً من عدم ، ولكنك أوجدت من موجود الله قبل أن توجد أنتَ ، فهو - إذن - أحسن الخالقين فى حين لم يضنّ عليك ربك بأنْ ينصفك ويسميك خالقاً . وهذا يوجب عليك أنْ تنصفه سبحانه وتقول ﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

وأيضاً ، فإن الله تعالى إذا احترم إيجادك لمعدوم فسمَّاك خالقاً له ، ولم يَضنّ عليك فأعطاك صفة من صفاته إنما أخبرك أنه أحسن الخالقين ؛ لأنك تُوجِد معدوماً يظل على إيجادك ويجمد على هذه الحالة ، لكن الخالق - سبحانه وتعالى - يُوجِد معدوماً ويمنحه الحياة ، ويجعله يلتقى بمثله ويُنجب ، فهل يستطيع الإنسان الذى أوجد كوباً أن يجعل منه ذكراً وأنثى ينتجان لنا الأكواب ؟! وهل يكبر الكوب الصغير ، أو يتألم إنْ كُسِر مثلاً ؟!.

إذن : فالخالق سبحانه هو أحسن الخالقين ، وكذلك هو خير الرازقين ، وخَيْر الوارثين ، وخَيْر الماكرين .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ (٨) ﴾ [طه] الحُسْنى : صيغة تفضيل للمؤنث مثل : كُبْرى ، تقابل « أحسن » للمذكر . إذن : فهناك أسماء حسنة هى أسماء الخَلْق ، أما أسماء الله فحسنى ؛ لأنها بلغتْ القمة فى الكمال ، ولأن الأسماء والصفات التى تنطبق عليها موجودة فى الخالق الأعلى سبحانه ، فحين تقول فى أسماء الله تعالى (الرازق) فهى الصفة الحُسْنى لا الحسنة .

لذلك لما أراد رجل يُدْعى (سعد) أن يشاور أباه فى خطبة ابنته حسنى وقد تقدم لها رجلان : حسن وأحسن . فقال له أبوه (فحسنى يا سعد للأحسن) .

وقال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [يونس] فلم يقل : حسنة ، لأنهم أحسنوا فاستحقوا الحُسْنى بل وزيادة .

وأسماء الله تعالى هى فى الحقيقة صفات ، إلا أنها لما أُطلقت على الحق - تبارك وتعالى - أصبحتْ أسماء . ولكَ أنْ تُسمِّى فتاة زنجية (قمر) وتسمى قِزْماً (الطويل) لأن الاسم إذا أُطلق علَماً على الغير انحلَّ عن معناه الأصلى ولزم العلَمية فقط ، لكن أسماء الله بقيتْ على معناها الأصلى حتى بعد أنْ أصبحتْ علَماً على الله تعالى ، فهى - إذن - أسماء حُسْنى .

وبعد أن تكلَّم الحق - تبارك وتعالى - عن الرسول الخاتم صاحب المنهج الخاتم - فليس بعده نبى وليس بعد منهجه منهج - أراد سبحانه أنْ يُسلّيه تسليةً تُبيّن مركزه فى موكب الرسالات ، وأنْ يعطيه نموذجاً لمن سبقوه من الرسل ، وكيف أن كل رسول تعب على قَدْر رسالته ، فإنْ كانت الرسالات السابقة محدودة الزمان محدودة المكان ، ومع ذلك تعب أصحابها فى سَبيلها ، فما بالك برسول جاء لكل الزمان ولكل المكان ؟ لا بُدَّ أنه سيواجه من المتاعب مثل هؤلاء جميعاً .

إذن : فوطِّن نفسك يا محمد على أنك ستلْقَى من المتاعب والصعاب ما يناسب عظمتك فى الرسالة وخاتميتك للأنبياء ، وامتداد رسالتك فى

الزمان إلى أنْ تقومَ الساعة ، وفى المكان إلى ما اتسعتْ الأرض .

لذلك اختار الحق - تبارك وتعالى - لرسوله ﷺ نبياً من أولى العزم ؛ لأنه جاء لبنى إسرائيل وجاء لفرعون ، وقد كان بنو إسرائيل قوماً ماديين ، أما فرعون فقد ادَّعى الألوهية ، اختار موسى - عليه السلام - ليقصّ على رسول الله قصته ويُسلِّيه فيما يواجهه من متاعب الدعوة ، كما قال تعالى : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَـٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) ﴾ [هود]

وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا[1] مِّنَ الرُّسُلِ .. (٩) ﴾ [الأحقاف]

فأنت يا محمد كغيرك من الرسل ، وقد وجدوا من المشقة على قَدْر رسالاتهم ، وسوف تجد أنت أيضاً من المشقة على قَدْر رسالتك . ونضرب لذلك مثلاً بالتلميذ الذى يكتفى بالإعدادية وآخر بالثانوية أو الجامعة ، وآخر يسعى للدكتوراة ، فلا شكَّ أن كلاًّ منهم يبذل من الجهد على قَدْر مهمته .

لذلك يقول تعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (٩) ﴾[2]

إذا جاء الاستفهام من الله تعالى فاعلم أنه استفهام على غير حقيقته ، فلا يُرَاد هنا طلب الفهم ، لأن أخبار محمد تأتيه من ربه -

(١) أى : ما كنت غريباً ولا عجيباً ولا كنت على غير مثال سابق ، فأنا مثل الرسل السابقين . [القاموس القويم ١/٥٧] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣٤٣) : « قال أهل المعانى : هو استفهام وإثبات وإيجاب معناه : أليس قد أتاك ؟ وقيل : معناه قد أتاك . قاله ابن عباس » .

عز وجل ـ فكيف يستفهم منه . إنما المراد بالاستفهام هنا التشويق لما سيأتى كما تقول لصاحبك : هل بلغك ما حدث بالأمس ؟ فيُشوِّقه لسماع ما حدث .

والحديث : أى الخبر عنه سواء أكان بالوحى ، أو بغير الوحى ، كأن حكيت له قصة موسى عليه السلام .: فهل بلغتْك هذه القصة ؟ اسمعها الآن منى :

﴿ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ[2] أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾[1]

نلحظ هنا أن السياق لم يذكر قصة موسى من أولها لما قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [القصص] ثم خروجه من المدينة خائفاً وذهابه إلى شعيب .. الخ ، وإنما قصد إلى مَنَاط الأمر ، وهى الرسالة مباشرة .

وقوله : ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾ [طه] آنست : أى أبصرت ، وشعرت بشيء يستأنس به ويُفرَح به ويُطمأن إليه ، ومقابلها (توجست) للشر الذى يخاف منه كما فى قوله : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ [طه]

---

(١) قال ابن عباس وغيره : هذا حين قضى الأجل وسار بأهله وهو مقبل من مدين يريد مصر ، وكان قد أخطأ الطريق . وقال وهب بن منبه : استأذن موسى شعيباً فى الرجوع إلى والدته فأذن له فخرج بأهله بغنمه ، وولد له فى الطريق غلام فى ليلة شاتية باردة مثلجة ، وقد حاد عن الطريق وتفرقت ماشيته ، فقدح موسى النار فلم تور المقدحة شيئاً إذ بصر بنار من بعيد على يسار الطريق . قاله القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣٤٣) .

(٢) القبس : : الشعلة من النار [اللسان ـ مادة : قبس] .

(لَعلِّى) رجاء أنْ أجدَ فيهـا القبس ، وهو شعلة النار التى تُتَّخذ من النار إنْ أدركت النار وهى ذات لَهَب ، فتـأخذ منها عوداً مشـتعلاً مثل الشمعة .

وفى سياق آخر قال : (جذوة)[1] وهى النار حينما ينطفىء لهبها ويبـقى منها جـمرات يمكن أن تـشعل منهـا النار . وفى موضـع آخـر قال : ﴿ سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ .. ۝ ﴾ [النمل]

وهذه كلها صور متعددة ، وحالات للـنار ، ليس فيها تعارض كما يحلو للبـعض أن يقـول ، فمـوسى عليه الـسلام حـينما قـال ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم .. ۝ ﴾ [طه] يرجو أن يجـد القبس ، لكن لا يـدرى حال النار عندما يأتيها ، أتكون قَبَساً أم جَذوة ؟

وقد طلب موسى ـ عليه الســلام ـ القَبَس لأهله ؛ لأنهم كانوا فى ليلة مطيرة شـديدة البرد ، وهم غربـاء لا يعلمون شيـئاً عن المكان ، فهو غير مطروق لهم فيسيـرون لا يعرفون لهم اتجاهاً ، فماذا يفعل موسى عليه السلام ومعه زوجته وولده الصغير وخادمه ؟

إنهم فى أمسِّ الحاجـة للنار ، إما للتدفئة فـى هذا الجو القارس ، وإما لطلب هداية الـطريق ، لذلك قال : ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۝ ﴾ [طه] أى : هادياً يدلّنا على الطريق .

وفى موضـع آخر قال : ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. ۝ ﴾ [القصص]

لذلك لما أبصر موسى عليه السلام النار أسرع إليها بعد أنْ طمأن أهله : ﴿ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. ۝ ﴾ [طه]

---

(١) وذلك فى قوله : ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝ ﴾ [القصص] .

وهذه المسألة من قصة موسى كانت مثارَ تشكيك من خصوم الإسلام ، حيث وجدوا سياقات مختلفة لقصة واحدة ، فمرة يقول : ﴿ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم .. ⑩ ﴾ [طه] ، وفى موضع آخر يقول : ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. ㉙ ﴾ [القصص]

ومرة يقول : (قَبَس) وأخرى يقول (بشهَابٍ قَبَسٍ) ومرة (بجَذْوَة) ومرة يقول : ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ⑩ ﴾ [طه] ومرة يقول : ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. ㉙ ﴾ [القصص]

والمتأمل فى الموقف الذى يعيشه الآن موسى وامرأته وولده الصغير وخادمه فى هذا المكان المنقطع وقد اكفهرَّ عليهم الجو ، يجد اختلاف السياق هنا أمراً طبيعياً ، فكلٌّ منهم يستقبل الخبر من موسى بشكل خاص ، فلما رأى النار وأخبرهم بها أراد أنْ يُطمئنهم فقال : ﴿ سَآتِيكُم .. ⑦ ﴾ [النمل] فلما رآهم مُتعلِّقين به يقولون : لا تتركنا فى هذا المكان قال : ﴿ امْكُثُوا .. ⑩ ﴾ [طه] وربما قال هذه لزوجه وولده وقال هذه لخادمه . فلا بُدَّ أنهم راجعوه . فاختلفت الأقوال حول الموقف الواحد .

كذلك فى قوله : قَبَسٍ أو جَذْوةٍ لأنه حين قال : ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم .. ⑩ ﴾ [طه] يرجو أن يجد هناك القبس ، لكن لعله يذهب فيجد النار جَذْوة . وفى مرة أخرى يجزم فيقول : ﴿ سَآتِيكُم .. ⑦ ﴾ [النمل]

إذن : هى لقطات مختلفة تُكوِّن نسيج القصة الكاملة ، وتعددتْ الكلمات لأن الموقف قابلٌ للمراجعة ، ولا ينتهى بكلمة واحدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾

يقال : إن موسى عليه السلام لما أتاها وجد نوراً يتلألأ فى شجرة ، لكن لا خضرةُ الشجرة تؤثر فى النور فتبهته ، ولا النورُ يطغى على خضرة الشجرة فيمنع عنها الخضرة ، فهى - إذن - مسألة عجيبة لا يقدر عليها إلا الله .

فكانت هذه النار هى أول الإيناس لموسى فى هذا المكان الموحش ، وكأن هذا المنظر العجيب الذى رآه إعداد إلهى لموسى حتى يتلقَّى عن ربه ، فليستْ المسألة مجرد منظر طبيعى .

وقوله تعالى : ﴿ نُودِىَ يَٰمُوسَىٰ .. ﴿١١﴾ ﴾ [طه] أى : فى هذه الدهشة ﴿ نُودِىَ .. ﴿١١﴾ ﴾ [طه] فالذى يناديه يعرفه تماماً ؛ لذلك ناداه باسمه ﴿ يَٰمُوسَىٰ .. ﴿١١﴾ ﴾ [طه] وما دام الأمر كذلك فطَمع الخير فيه موجود ، وبدأ موسى يطمئن إلى مصدر النداء ، ويأنَسُ به ، ويبحث عن مصدر هذا الصوت ، ولا يعرف من أين هو ؛ لذلك اعتبرها مسألة عجيبة مثل منظر الشجرة التى ينبعث منها النور .

﴿ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ [(١)] إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ ﴾

---

(١) اختلف العلماء فى السبب الذى من أجله أمر بخلع النعلين :
- لأنها نجسة ، إذ هى من جلد حمار ميتَ . قاله كعب وعكرمة وقتادة .
- لينال بركة الوادى المقدس ، وتمس قدماه تربة الوادى . قاله على بن أبى طالب والحسن وابن جريج .
- للخشوع والتواضع عند مناجاة الله .
- إعظاماً لذلك الموضع .
- لتفريغ قلبه من أمر الأهل والولد . وقد يعبر عن الأهل بالنعل ، وكذلك هو فى تعبير الرؤى : من رأى أنه لابس نعلين فإنه يتزوج . [تفسير القرطبى ٦/٤٣٤٥] .

فساعة أنْ كلَّمه ربه : ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ .. ⑫﴾ [طه] أزال ما فى نفسه من العجب والدهشة لما رآه وسمعه ، وعلم أنها من الله تعالى فاطمأنَّ واستبشر أنْ يرى عجائب أخرى .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ .. ⑫﴾ [طه] أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما يتحدَّث عن ذاته تعالى يتحدث بضمير المفرد ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ .. ⑫﴾ [طه] وحينما يتحدث عن فعْله يتحدث بصيغة الجمع ، كما فى قوله عز وجل : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ①﴾ [القدر] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ .. ⑨﴾ [الحجر] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا .. ⑩﴾ [مريم]

فلماذا تكلَّم عن الفعل بصيغة الجمع ، فى حين يدعونا إلى توحيده وعدم الإشراك به ؟ قالوا : الكلام عن ذاته تعالى لا بُدَّ فيه من التوحيد ، كما فى : ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ⑭﴾ [طه]

لكن فى الفعل يتكلم بصيغة الجمع ؛ لأن الفعل يحتاج إلى صفات متعددة وإمكانات شتَّى ، يحتاج إلى إرادة تريده ، وقدرة على تنفيذه وإمكانات وعلم وحكمة .

إذن : كل صفات الحق تتكاتف فى الفعل ؛ لذلك جاء الحديث عنه بصيغة الجمع ، ويقولون فى النون فى قوله : ﴿نَزَّلْنَا الذِّكْرَ .. ⑨﴾ [الحجر] ﴿نَرِثُ الأَرْضَ .. ⑩﴾ [مريم] أنها : نون التعظيم .

وقد جاء الخطاب لموسى بلفظ الربوبية ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ.. ⑫﴾ [طه] لإيناس موسى ؛ لأن الربوبية عطاء ، فخطابه (بربك) أى الذى يتولَّى رعايتك وتربيتك ، وقد خلقك من عَدَم ، وأمدك من عُدم ،

ولم يقُلْ : إنى أنا الله ؛ لأن الألوهيــة مطلوبها تكليف وعـبادة وتقيـيد للحركة بافعل كذا ولا تفعل كذا .

وقوله تــعالى : ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ.. (١٢)﴾ [طه] أى : ربك أنت بالذات لا الرب المطلق ؛ لأن الرسل مختلفون عن الخَلْق جـميعاً ، فلهم تربية مخصوصة ، كـما قال تعالى : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩)﴾ [طه] وقال : ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ[1] لِنَفْسِي (٤١)﴾ [طه]

إذن : فالحق تبارك وتعالى يُربِّى الرسل تربيةً تناسب المهمة التى سيقومون بها .

وقوله تعالى : ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ .. (١٢)﴾ [طه] هذا أول أمر ، وخَلْع النعل للتــواضـعِ وإظهار المـهـابة ؛ ولأن المكان مُقـدَّس والعلة ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢)﴾[طه] فاخلع نعليك حتى لا تفصل جسمك عن تربة هذا المكان المقدس الطاهر ، ولا تجعل نَعْليك يحولان بينك وبين مباشرة ذرات هذا التراب .

ومن ذلك مـا نراه فى مـدينة رسـول الله من أناس يمشـون بهـا حـافيى الأقـدام ، يقـول أحدهم : لَعلِّى أصــادف بقـدمى موضـع قـدم رسول الله ﷺ .

وقـوله: ﴿طُوًى (١٢)﴾ [طه] اسم الوادى[2] وهذا كـلام عــام جـاء تحديده فى موضـع آخر ، فـقال سبحانه : ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ

---

(١) أى : علَّمتك وربيـتك وأنعمت عليك لتكون صنيـعة لى تخدمنى وتؤدى الـرسالة التى أكلفك إياها واخترتك لها . [القاموس القويم ١/ ٣٨٤] .

(٢) قاله ابن عبـاس ومجاهد وغيرهما . وقـال الضحاك : هو واد عميق مسـتدير مثل الطوى . وقال الحسن : ثنيت فيه البركة والتقـديس مرتين . وذكر المهدوى عن ابن عباس : أنه قيل له « طوى » لأن مـوسى طواه بالليـل ، إذ مرّ به فـارتفـع إلى أعلى الوادى . فكأنه قـال : « إنك بالواد المقدس » الذى طويـته طوى ، أى تجاوزته فطويته بسيـرك . [ذكره القرطبى فى تفسـيره ٦/٤٣٤٧] . قال ابن كـثير فى تفسيره (٣/ ١٤٤) : « الأول أصح كـقوله ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦)﴾ [النازعات] » .

الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ .. (٣٠) ﴾ [القصص]

والبعض يرى فى الآية تكراراً ، وليست الآية كذلك ، إنما هو تأسيس لكلام جديد يُوضِّح ويُحدِّد مكان الوادى المقدس طوى أين هو ، فإنْ قلتَ: أين طوى ؟ يقول لك : فى الواد الأيمن ، لكن الواد الأيمن نفسه طويل ، فأين منه هذا المكان ؟ يقول لك : عند البقعة المباركة من الشجرة[1] .

إذن : فالآية الثانية تحدد لك المكان ، كما تقول أنت : أسكن فى حى كذا ، وفى شارع كذا ، فى رقم كذا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) ﴾

أى : وإنْ كنتُ رباً لك ورباً للكافرين فسوف أزيدك خصوصية لك ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ (١٣)﴾ أى : للرسالة ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

لذلك لم نزل القرآن على سيدنا رسول الله ﷺ ما اعترض كفار مكة على القرآن ، ولم يجدوا فيه عيباً فيما يدعو إليه من أخلاق فاضلة ومُثل عليا ، ولم يجدوا فيه مأخذاً فى أسلوبه ، وهم أمة ألفتْ الأسلوب الجيد ، وعَشقَتْ آذانها فصاحة الكلام ، فتوجهوا بنقدهم إلى رسول الله فقالوا :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[2] عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٨٨) : « هذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة ، والجبل الغربى عن يمينه ، والنار وجدها تضطرم فى شجرة خضراء فى لحف الجبل مما يلى الوادى فوقف باهتاً فى أمرها » .

(٢) المقصود بالقريتين مكة والطائف . وقد اختلفوا فى تعيين الرجل المقصود من كل قرية لينزل عليه القرآن . ذكر غير واحد منهم قتادة أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة ابن مسعود الثقفى . وعن مجاهد : أنهم يعنون عتبة بن ربيعة . نقله ابن كثير فى تفسيره (٤/١٢٧) ، ثم قال : « والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

فكلُّ اعـتـراضـهم أنْ ينـزلَ القرآن علـى محـمـد بالذات ؛ لذلك رَدَّ عليـهم القرآن بمـا يكشف غبـاءهم فى هذه المســألة ، فـقال : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف] كـيف ونحن قد قـسـمنا بينهم معيشتهم الأدْنى :﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف]

وهم يريدون أنْ يقسموا رحمـة الله فيقولون : نزل هذا على هذا ، وهذا على هذا ؟

ثم يقول تعالى : ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [طه] مادة : سمع . منهـا : سمع ، واستـمع وتسمَّـع . قولنا : سـمع أى مصادفـة وأنت تسيـر فى الطريق تسمع كلامـاً كثيـراً . منه ما يُهمك ومـا لا يهمك ، فليس على الأذن حجاب يمـنع السمع كالجفْنِ للعين ، مـثلاً حين ترى منظراً لا تحبه .

إذن : أنت تسمع كل ما يصل إلى أذنك ، فليس لك فيه خيار .

إنما : استمع . أنْ تتكلَّف السـماع ، والمتكلم حُر فى أنْ يتكلم أو لا يتكلم .

وتسمَّع . أىْ : تكلّف أشدّ تكلّفاً لكى يسمع .

لذلك ؛ فالنبى ﷺ حين يـخبر أنه ستعُم بلوى الغنَاء ، وسـتنتشر الأجهزة التى ستشيع هذه البلوى ، وتصـبها فى كل الآذان رَغْماً عنها يقول : « مَنْ تسمَّع إلى قَيْنة[1] صب الآنك فى أذنيه » .

---

(١) القينة : الأمـة المغنيـة ، تكون من التزيُّن لأنهـا كانت تزين . قـال أبو منصور : إنمـا قيل للمغنية قينة إذا كان الغناء صناعة لها ، وذلك من عمل الإماء دون الحرائر . [لسان العرب ـ مادة : قين] .

أى : تكلَّف أنْ يسمع ، وتعمَّد أن يوجه جهاز الراديو أو التليفزيون إلى هذا الغناء ، ولم يقُل : سمع ، وإلاّ فالجميع يناله من هذا الشر رَغْماً عنه .

وهنا قال تعالى : (فَاسْتَمِعْ) ولم يقُلْ : تسمَّع : لأنه لا يقترح على الله تعالى أنْ يتكلم ، ومعنى : استمع أى : جَنِّد كلَّ جوارحك ، وهيىء كُلَّ حواسّك لأن تسمع ، فإنْ كانت الأذن للسمع ، فهناك حواسّ أخرى يمكن أنْ تشغلها عن الانتباه ، فالعين تبصر ، والأنف يشمّ ، واللسان يتكلم .

فعليك أنْ تُجنِّد كل الحواسّ لكى تسمع ، وتستحضر قلبك لتعى ما تسمعه ، وتنفذ ما طلب منك ؛ لذلك حين تخاطب صاحبك فتجده مُنْشغلاً عنك تقول : كأنك لست معنا . لماذا ؟ لأن جارحة من جوارحه شردتْ ، فشغلتْه عن السماع[1] .

وقوله تعالى : ﴿ لِمَا يُوحَىٰ ⑬ ﴾ [طه] الوحى عموماً : إعلام بخفاء من أىٍّ لأىٍّ فى أىٍّ ، خيراً كان أم شراً ، أمّا الوحى الشرعى فهو : إعلام من الله إلى رسول أرسله بمنهج خَيْر للعباد ، فإنْ كان الوحى من الله إلى أم موسى مثلاً ، أو إلى الحواريين فليس هذا من الوحى الشرعى . وهكذا تحدَّدَتْ من أىٍّ لأىٍّ فى أىٍّ .

لكن ، كيف ينزل الوحى من الله تعالى على الرسول ؟ كيف تلتقى الألوهية فى عُلُوِّها بالبشرية فى دُنوها ؟ إذن : لا بُدَّ من واسطة ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ .. ⑦⑤ ﴾ [الحج]

---

(١) قال سفيان بن عيينة : أول العلم الاستماع ، ثم الفهم ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر ، فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ بنية صادقة على ما يحب الله أفهمه كما يحب ، وجعل له فى قلبه نوراً . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤٣٤٨/٦) .

فالمصطفى من الملائكة يتقبَّل من الله ، ويعطى للمصطفى من البشر ؛ لأن الأعلى لا يمكن أنْ يلتقى بالأدنى مباشرة :﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ .. (٥١) ﴾ [الشورى]

فاستعداد الإنسان وطبيعته لا تُؤهِّله لهذا اللقاء ، كيف ولما تجلَّى الحق - سبحانه - للجبل جعله دكّاً ، ومن عظمته سبحانه أننا لا نراه ولا نتكلم معه مباشرة ، ولا نُحسّه بأىّ حاسة من حواسنا ، ولو حُسَّ الإله بأىِّ حاسة ما استحق أنْ يكونَ إلهاً .

وكيف يُحَسُّ الحق - تبارك وتعالى - ومن خَلْقه وصَنْعته ما لا يُحَسُّ ، كالروح مثلاً ؟ فنحن لا نعلم كُنْهها ، ولا أين هى ، ولا نُحسّها بأىّ حاسّة من حواسنا ، فإذا كانت الروح المخلوقة لم نستطع أنْ ندركها ، فكيف ندرك خالقها ؟

الحق الذى يدَّعيه الناس ويتمسَّحون فيه ، ويفخر كل منهم أنه يقول كلمة الحق ، وكذلك العدل وغيرها من المعانى : أتدركها ، أتعرف لها شكلاً ؟ فكيف - إذن - تطمع فى أنْ تدرك الخالق عز وجل ؟

إذن : من عظمته سبحانه أنه لا تدركه الحواس ، ولا يلتقى بالخَلْق لقاءً مباشراً ، فالمصطفى من الملائكة يأخذ عن الله ، ويعطى للمصطفى من الخَلْق ، ثم المصطفى من الخَلْق يعطى للخَلْق ، ومع ذلك كان ﷺ يجهد ، ويتصبَّب جبينه عَرَقاً فى أول الوحى .

ولذلك شاء الحق سبحانه أنْ يحجبَ الوحى عن رسوله فترة ليستريح من مباشرة المَلك له ، وبانقطاع الوحى تبقى لرسول الله

حلاوة ما أوحى إليه ويتشوّق إلى الوحى من جديد ، فيهون عليه ما يلاقى فى سبيله من مشقة ؛ لأن انشغال القلب بالشىء يُنسى متاعبه .

وقد رُوى أنه ﷺ حين ينزل عليه الوحى يُسمَع حوله دَوىٌّ كدَوىِّ النحل[(١)] ، ولو صادف أن رسول الله وضع رجله على أحد أصحابه حين نزول الوحى عليه فكان الصحابى يشعر كأنها جبل ، وإن نزل الوحى وهو على دابة كانت تنخ وتئن من ثِقَله[(٢)] .

وقد مثّلنا للواسطة بين الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية بالتيار الكهربائى حين نُوصِّله بمصباح صغير لا يتحمل قوة التيار ، فيضعون له جهازاً ينظم التيار ، ويعطى للمصباح على قَدْر حاجته وإلاّ يحترق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ ﴾

فى الآية قبل السابقة خاطبه ربه : ﴿إِنِّى أَنَا رَبُّكَ ﴿١٢﴾﴾ [طه] ليُطمئنه ويُؤنسه بأنه المربِّى العطوف ، يعطى حتى للكافر الذى يعصاه ، لكن هنا يخاطبه بقوله : ﴿ إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ ﴿١٤﴾ ﴾ [طه] أى : صاحب التكاليف ، والمعبود المطاع فى الأمر والنهى ، وأوّل هذه

---

(١) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحى يُسمع عند وجهه دوىٌّ كدوىِّ النحل » . أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٤) ، والحاكم فى مستدركه (٢/ ٣٩٢) وقال : « حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

(٢) عن أسماء بنت يزيد قالت : إنى لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه المائدة كلها وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة . أورده ابن كثير فى تفسيره لسورة المائدة (٢/ ٢) وعزاه للإمام أحمد .

التكاليف وقمّتها ، والينبوع الذى يصدر عنه كل السلوك الإيمانى :
﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ أَنَا (١٤) ﴾ [طه]

لذلك قال عنها النبى ﷺ : « خير ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله »(١) .

وما دام لا إلـه إلا هو فلا يصح أنْ نتلقَّى الأمر والنهى إلاَّ منه ، ولا نعتمد إلا عليه ، ولا يشغل قلوبنا غيره ، وهو سبحانه يريد منا أنْ نكون وكلاء : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ (٥٨) ﴾ [الفرقان]

فالناصح الفطن الذى لا يتوكل على أحد غير الله ، فربما توكّلت على أحد غيره ، فأصبحت فلم تجده ، وصدق الشاعر حين قال :

اجْعَلْ بِرَبِّكَ كُلَّ عِزِّكَ ... يَسْتَقِرُّ وَيَثْبُتُ
فَإِذَا اعْتَزَزْتَ بِمَنْ يَمُوتُ ... فَإِنَّ عِزَّكَ مَيِّتُ

فكأن الحق سبحانه فى قوله : ﴿ لا إِلَـهَ إِلاَّ أَنَا (١٤) ﴾ [طه] يقول لموسى : لا تخفْ ، فلن تتلقى أوامر من غيرى ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء]

أى : لذهبَ هؤلاء الذين يدَّعون الألوهية إلى الله يجادلونه أو يتودَّدون إليه ، ولم يحدث شيء من هذا .

ويشترط فيمن يُعطى الأوامر ويُشرِّع ويُقنِّن ألاَّ ينتفع بشيء من ذلك ، وأن تكون أوامره ونواهيه لمصلحة المأمورين ، ومن هنا

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٥٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وتمامه : « خير الدعاء دعاء يوم عرفة ، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » قال الترمذى : « هذا حديث غريب من هذا الوجه » .

يختلف قانون الله عن قانون البشر الذى يدخله الهوى وتخالطه المصالح والأغراض ، فمثلاً إنْ كان المشرِّع والمقنِّن من العمال انحاز لهم ورفعهم فوق الرأسماليين ، وإن كان من هؤلاء رفعهم فوق العمال .

وكذلك ألاَّ يغيب عنه شيء يمكن أنْ يُستدرك فيما بعد ، وهذه الشروط لا توجد إلا فى التشريع الإلهى ، فله سبحانه صفات الكمال قبل أن يخلق الخَلْق .

لذلك قال بعدها : ﴿ فَاعْبُدْنِي (١٤) ﴾ [طه] بطاعة أوامرى واجتناب نواهيَّ ، فليس لى هَوَى فيما آمرك به ، إنما هى مصلحتك وسلامتك .

ومعنى العبادة : الناس يظنون أنها الصلاة والزكاة والصوم والحج ، إنما للعبادة معنى أوسع من ذلك بكثير ، فكلُّ حركة فى الحياة تؤدى إلى العبادة ، فهى عبادة كما نقول فى القاعدة : كُلُّ ما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب .

فالصلاة مثلاً لا تتم إلا بستْر العورة ، وعليك أنْ تتأمل قطعة القماش هذه التى تستر بها عورتك : كم يد ساهمتْ فيها منذ كانتْ بذرة فى الأرض ، إلى أنْ أصبحتْ قماشاً رقيقاً يستر عورتك ؟ فكلُّ واحد من هؤلاء كان فى عبادة وهو يُؤدِّى مهمته فى هذه المسألة .

كذلك رغيف العيش الذى تأكله ، صنبور المياه الذى تتوضأ منه ، كم وراءها من أياد وعمال ومصانع وعلماء وإمكانات جُنِّدَتْ لخدمتك ، لتتمكن من أداء حركتك فى الحياة ؟

لذلك ، فالحق - تبارك وتعالى - حينما يُحدِّثنا عن الصلاة يوم الجمعة يقول : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ

فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ (١٠) ﴾ [الجمعة]

وهكذا أخرجنا إلى الصلاة من عمل ، وبعد الصلاة أمرنا بالعمل والسعى والانتشار فى الأرض والابتغاء من فضل الله ، فمخالفة الأمر فى : ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة] كمخالفة الأمر فى : ﴿ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ (١٠) ﴾ [الجمعة]

وخَصَّ البيع هنا ؛ لأن البائع أحرص على بيْعه من المشترى على شرائه ، وربما كان من مصلحة المشترى ألاَّ يشترى .

فالإسلام - إذن - لا يعرف التكاسل ، ولا يرضى بالتنبلة والقعود ، ومَنْ أراد السكون فلا ينتفع بحركة متحرِّك .

وسيدنا عمر - رضى الله عنه - حينما رأى رجلاً يقيم بالمسجد لا يفارقه سأل : ومَنْ ينفق عليه ؟ قالوا : أخوه ، قال : أخوه أعبد منه . لماذا ؟ لأنه يسهم فى حركة الحياة ويوسع المنفعة على الناس .

إذن : فكلُّ عمل نافع عبادة شريطة أنْ تتوفر له النية ، فالكافر يعمل وفى نيته أنْ يرزق نفسه ، فلو فعل المؤمن كذلك ، فما الفرق بينهما ؟ المؤمن يعمل ، نعم ليقوتَ نفسه ، وأيضاً ليُيسِّر لإخوانه قُوتَهم وحركة حياتهم . فسائق التاكسى مثلاً إذا عمل بمبلغ يكفيه ، ثم انصرف إلى بيته ، وأوقف سيارته ، فمَنْ للمريض الذى يحتاج مَنْ يُوصِّله للطبيب ؟ والبائع لو اكتسب رزقه ، ثم أغلق دكانه مَنْ يبيع للناس ؟

إذن : اعمل لنفسك ، وفى بالك أيضاً مصلحة الغير وحاجتهم ، فإنْ فعلتَ ذلك فأنت فى عبادة . تعمل على قَدْر طاقتك ، لا على قَدْر حاجتك ، ثم تأخذ حاجتك من منتوج الطاقة ، والباقى يُرَدُّ على الناس إما فى صورة صدقة ، وإما بثمن ، وحَسْبك أنْ يسرت له السبيل .

إذن : نقول : العبادة كل حركة تؤدى خدمة فى الكون نيتك فيها لله .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ⦗١٤⦘ ﴾ [طه] فلماذا خَصَّ الصلاة دون سائر العبادات ؟

قالوا : لأن الصلاة هى العبادة الدائمة التى لا تنحلّ عن المؤمن ، ما دام فيه نَفَس ، فالزكاة مثلاً تسقط عن الفقير ، والصيام يسقط عن المريض ، والحج يسقط عن غير المستطيع ، أمّا الصلاة فلا عذر أبداً يبيح تركها ، فتصلى قائماً أو قاعداً أو مضطجعاً ، فإنْ لم تستطع تصلى ، ولو إيماءً برأسك أو بجفونك ، فإنْ لم تستطع فحَسْبُك أن تخطرها على قلبك ، ما دام لك وَعْى ، فهى لا تسقط عنك بحال .

كذلك ، فالصلاة عبادة مُتكرِّرة : خمس مرات فى اليوم والليلة ؛ لتذكرك باستمرار إنْ أنستْك مشاغل الحياة رب هذه الحياة ، وتعرض نفسك على ربك وخالقك خمس مرات كل يوم . وما بالك بآلة تُعرَض على صانعها هكذا ، أيمكن أن يحدث بها عُطْل أو عَطَب ؟

أما الزكاة فهى كل عام ، أو كل محصول ، والصوم شهر فى العام ، والحج مرة واحدة فى العمر .

لذلك ، كان النبى ﷺ كلما حَزَبه[1] أمر قام إلى الصلاة[2] ليعرض نفسه على ربه وخالقه عز وجل ، ونحن نصنع هذا فى الصنعة المادية حين نعرض الآلة على صانعها ومهندسها الذى يعرف قانون صيانتها .

وفى الحديث الشريف : « وجعلت قرة عينى فى الصلاة »[3]

وسبق أن ذكرنا أن للصلاة أهميتها ؛ لأنها تُذكِّرك بربك كل يوم خمس مرات ، وتُذكِّرك أيضاً بنفسك ، وبقَدر الله فى الآخرين حين ترى الرئيس ومرؤوسه جَنْباً إلى جَنْب فى صفوف الصلاة ، فإنْ جئتَ قبل رئيسك جلستَ فى الصف الأول ، وجلس هو خلفك ، ثم تراه وهو مُنكسِر ذليل لله تعالى ، وهو يعرف أنك تراه على هذه الهيئة فيكون ذلك أدْعى لتواضعه معك وعدم تعاليه عليك بعد ذلك .

وكم رأينا من أصحاب مناصب وقيادة يبكون عند الحرم ، ويتعلقون بأستار الكعبة وعند الملتزم ، وهو العظيم الذى يعمل له الناس ألف حساب . ففى الصلاة ـ إذن ـ استطراق للعبودية لله تعالى .

لذلك من أخطر ما مُنِى به المسلمون أنْ تجعلَ فى المسجد أماكن خاصة لنوعية معينة يُخلَى لها المكَان ، ويصاحبها الحرس حتى فى

---

(١) حزبه الأمر يحزبه : نابه واشتد عليه . وأمر حازب وحزيب : شديد . وفى الحديث : كان إذا حزبه أمر صلَّى ، أى إذا نزل به مهم أو أصابه غم . [لسان العرب ـ مادة : حزب] .

(٢) عن حذيفة رضى الله عنه قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/١٢٨ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) والنسائى فى سننه (٧/٦١) والحاكم فى مستدركه (٢/١٦٠) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى من حديث أنس بن مالك ، وتمام الحديث : « حُبب إلىَّ من الدنيا : النساء والطيب .. » الحديث .

بيت الله ، ثم يأتى فى آخر الوقت ويجلس فى الصف الأول ، وآخر يفرش سجادته ليحجز بها مكاناً لحين حضوره ، فيجد المكان خالياً .

وينبغى على عامة المسلمين أن يرفضوا هذا السلوك ، وعليك أنْ تُنحِّى سجادته جانباً ، وتجلس أنت ؛ لأن أولوية الجلوس بأولوية الحضور ، فقد صفها الله فى المسجد إقبالاً عليه . وهذه العادة السيئة تُوقع صاحبها فى كثير من المحظورات ، حيث يتخطى رقاب الناس ، ويُميِّز نفسه عنهم دون حق ، ويحدث انتقاص عبودى فى بيت الله .

ولأهمية الصلاة ومكانتها بين العبادات تميَّزت فى فرضها بما يناسب أهميتها ، فكُلُّ العبادات فُرِضَتْ بالوحى إلا الصلاة ، فقد استدعى الحق رسوله الصدق ليبلغه بها مباشرة لأهميتها .

وقد ضربنا لذلك مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ بالرئيس إذا أراد أنْ يُبلِّغ مرؤوسه أمراً يكتب إليه ، فإنْ كان الأمر مهماً اتصل به تليفونياً ، فإنْ كان أهمّ استدعاه إليه ليُبلِّغه بنفسه . ولما قرَّبه الله إليه بفرض الصلاة جعل الصلاة تقرُّباً لعباده إلى الله .

وقوله : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِى (١٤) ﴾ [طه] أقام الشىء : جعله قائماً على أُسس محكمة ، فإقامة الصلاة أن تؤديها مُحكَمة كاملة الأركان غير ناقصة .

﴿ لِذِكْرِى (١٤) ﴾ [طه] أى : لتذكرى ؛ لأن دوام ورتابة النعمة قد تُنسيك المنعم ، فحين تسمع نداء (الله أكبر) ، وترى الناس تُهرَع إلى بيوت الله لا يشغلهم عنها شاغل تتذكر إنْ كنتَ ناسياً ، وينتبه قلبك إنْ كنتَ غافلاً .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ[(١)] أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾

أى : مع ما سبق وَطِّنْ نفسك على أن الساعة آتية لا محالةَ ، والساعة هنا هى عمر الكون كله ، أمّا أعمار المكين فى الكون فمتفاوتة ، كل حسب أجله ، فمَنْ مات فقد قامت قيامته وانتهت المسألة بالنسبة له .

إذن : نقول : الساعة نوعان : ساعة لكُلٍّ منا ، وهى عمره وأجله الذى لا يعلم متى سيكون ، وساعة للكون كله ، وهى القيامة الكبرى .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [طه] أى : اجعل ذلك فى بالك دائماً ، وما دام الموت سينقلك إليها سريعاً فإياك أنْ تقول : سأموت قريباً ، أما القيامة فبعد آلاف أو ملايين السنين ؛ لأن الزمن مُلغىً بعد الموت ، كيف ؟

الزمن لا يضبطه إلا الحدث ، فإن انعدم الحدث فقد انعدم الزمن ، كما يحدث لنا فى النوم ، وهل تستطيع أنْ تُحدِّد الوقت الذى نمْتَه ؟ لذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ [النازعات]

---

(١) ذكرت هنا بدون لام التوكيد ، أما فى سورة غافر ، فقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [غافر] بإثبات لام التوكيد . لأن المخاطبين فى سورة غافر هم الكفار ، فاحتاجوا إلى تأكيد الخبر . [فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن لأبى يحيى زكريا الأنصارى ـ ص ٢٦٠] بتصرف .

والعبد[1] الذى أماته الله مائة عام لما بعثه قال : يوماً أو بعض يوم ، وكذلك قال أهل الكهف بعد ثلاثمائة سنة وتسع[2] ، لأن يوماً أو بعض يوم هى أقْصى ما يمكن تصوُّره للنائم حين ينام ؛ لذلك نقول : « مَنْ مات فقد قامت قيامته »[3]

ومن حكمته سبحانه أن أخفى الساعة ، أخفاها للفرد ، وأخفاها للجميع ، وربما لو عرف الإنسان ساعته لقال : أفعل ما أريد ثم أتوب قبل الموت ؛ لذلك أخفاها الحق - تبارك وتعالى - لنكون على حذر أنْ نلقى الله على حال معصية .

وكذلك أخفى الساعة الكبرى ، حتى لا تأخذ ما ليس لك من خَلْق الله ، وتنتفع به ظُلْماً وعدواناً ، وتعلم أنك إنْ سرقتَ سترجع إلى الله فيحاسبك ، فما دُمْتَ سترجع إلى الله فاستقِمْ وعَدِّل من سلوكك ، كما يقول أهل الريف (ارع مساوِى) .

وقوله تعالى : ﴿آتِيَةٌ ⟨١٥⟩﴾ [طه] أى : ليس مأْتياً بها ، فهى الآتية ، مع أن الحق - تبارك وتعالى - هو الذى سيأتى بها ، لكن المعنى (آتية) كأنها منضبطة (أوتوماتيكيا) ، فإنْ جاء وقتها حدثتْ .

وقوله تعالى :﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا ⟨١٥⟩﴾ [طه] كاد : أى : قَرُب مثل : كاد زيد أن يجىء أى : قَرُب لكنه لم يأْتِ بعد ، فالمراد : أقرب أن

---

(١) هو عزير عليه السلام ، قال تعالى فى حقه : ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِى هَـٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. ⟨٢٥٩⟩﴾ [البقرة] .

(٢) وفى ذلك يقول تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. ⟨١٩⟩﴾ [الكهف] .

(٣) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غنى كدره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسّعه عليكم ، الموت القيامة » .

أخفيها ، فلا يعلم أحد موعدها ، فإذا ما وقعتْ فقد عرفناها . كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ..(١٨٧)﴾ [الأعراف]

وقد تكون ﴿أُخْفِيهَا (١٥)﴾ [طه] بمعنى آخر ، فبعض الأفعال الثلاثية تُعطى عكس معناها عند تضعيف الحرف الثانى منها ، كما فى : مرض أى : أصابه المرض . ومرَّضه الطبيب . أى : عالجه وأزال مرضه . وقَشَرتُ الشىء أى : جعلْتُ له قشرة ، وقشَّرتُ البرتقالة أزلْتُ قشْرها .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا (٨٥)﴾ [يوسف] والحَرَض : هو الهلاك . من : حَرِض مثل : تَعِب .

وقوله تعالى:﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ (٦٥)﴾[الأنفال]

ومعنى (حَرِّض) حثَّهم على القتال ، الذى يُزيل عنهم الهلاك أمام الكفار ؛ لأنهم إنْ لم يجاهدوا هلكوا ، فَحرِض : هلك ، وحرَّض : أزال الهلاك .

وقد يأتى مضاد الفعل بزيادة الهمزة على الفعل مثل : ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥)﴾ [الجن] فالقاسط من قسط . أى : الجائر بالكفر .

أما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢)﴾ [المائدة] فالمقسط من أقسط : العادل الذى يُزيل الجوْرَ . وإنْ كانت المادة واحدة هى (قَسَط) فالمصدر مختلف نقول : قسط قسْطاً أى : عدل ، وقسط قَسْطاً وقسوطاً يعنى : جار . فهذه الهمزة فى أقسط تسمى « همزة الإزالة ».

ومن الفعل الثلاثى قَسَطَ يستعمل منها : القسط والميزان والفرق

بين قَسَط واقسط : قسط أى : عدل من أول الأمر وبادىء ذى بَدْء ، إنما أقسط : إذا وجد ظُلْماً فرفعه وأزاله ، فزاد على العدل أنْ أزال جَوْراً .

وأيضاً الفعل (عجم) عجم الأمر : أخفاه ، وأعجمه : أزال خفاءه . ومن ذلك كلمة المعجم الذى يزيل خفاء الكلمات ويُوضِّحها .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا..(١٥) ﴾ [طه] خفى بمعنى: استتر وأخفاها : أزال خفاءها ، ولا يُزَال خفاء الشىء إلا بإعلانه .

ثم يقول تعالى : ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) ﴾ [طه]

وإلا لو لم يكُنْ فى الآخرة حساب وجزاء لكَان الذين أسرفوا على أنفسهم وعربدوا فى الوجود أكثر حظاً من المؤمنين الملتزمين بمنهج الله ؛ لذلك فى نقاشنا مع الشيوعيين قُلْنا لهم : لقد قتلتم مَنْ أدركتموه من أعدائكم من الرأسماليين ، فما بال مَنْ مات ولم تدركوه ؟ وكيف يفلت منكم هؤلاء ؟

لقد كان أَوْلَى بكم أن تؤمنوا بمكان آخر لا يفلت منه هؤلاء ، وينالون فيه جزاءهم ، إنها الآخرة التى تُجزَى فيها كُلُّ نفس بما تسعى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ (١٦) ﴾

كأن الحق تبارك وتعالى يعطى لموسى ـ عليه السلام ـ مناعة لما سيقوله الكافرون الذين يُشكِّكون فى الآخرة ويخافون منها ، وغرضهم أنْ يكون هذا كذباً فليست الآخرة فى صالحهم ، ومن حظهم إنكارها .

فإياك أنْ تصغي إليهم حين يصدونك عنها ، يقولون :﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ⦗١٦⦘ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ⦗١٧⦘ ﴾ [الصافات]

ولماذا يستبعدها هؤلاء ؟ أليس الذى خلقهم مِنْ لا شيء بقادر على أنْ يعيدهم بعد أن صاروا عظاماً ؟

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ⦗٢٧⦘ ﴾ [الروم]

وهذا قياس على قَدْر أفهامكم وما تعارفتم عليه من هَيِّن وأهْوَن ، أما بالنسبة للحق ـ تبارك وتعالى ـ فليس هناك هيِّن وأهون منه ؛ لأن أمره بين الكاف والنون .

لكن لماذا يصدُّ الكفار عن الآخرة ، والإيمان بها ؟ لأنهم يعلمون أنهم سَيُجازون بما عملوا ، وهذه مسألة صعبة عليهم ، ومن مصلحتهم أن تكون الآخرة كذباً .

وصدق أبو العلاء المعرى حين قال :

زَعَمَ المنجِّمُ والطبيبُ كلاَهُمَا لاَ تُحْشَرُ الأجْسَادُ قُلْتُ إليْكُمَا
إنْ صَحَّ قَولكُمَا فلسْتُ بخَاسِر أوْ صَحَّ قَوْلى فَالخسَارُ عليكُمَا

أى أن المؤمن بالبعث إنْ لَم يكسب فلن يخسر ، أما أنتم أيها المنكرون فخاسرون .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَرْدَىٰ ⦗١٦⦘ ﴾[طه] أى : تهلك من الردَى ، وهو الهلاك.

وهكذا جاء الكلام من الله تعالى لموسى ـ عليه السلام ـ أولاً : البداية إيماناً بالله وحده لا شريك له ، وهذه القمة الأولى ، ثم جاء بالقمة الأخيرة ، وهى البعث فالأمر ـ إذن ـ منه بداية ، وإليه نهاية : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا .. ⦗١٤⦘ ﴾[طه] إلى أنْ قال : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ... ⦗١٥⦘ ﴾ [طه]

وبعد ذلك شرح لنا الحق ـ سبحانه ـ بَدْء إيحائه لرسوله موسى عليه السلام [1]:

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ ﴾

ما : استفهامية . والتاء بعدها إشارة لشيء مؤنَّث ، هو الذى يمسكه موسى فى يده ، والكاف للخطاب ، كأنه قال له : ما هذا الشيء الذى معك؟ والجواب عن هذا السؤال يتم بكلمة واحدة : عَصًا .

أمّا موسى ـ عليه السلام ـ فهو يعرف أن الله تعالى هو الذى يسأل ، ولا يَخْفَى عليه ما فى يده ، ولكنه كلام الإيناس ؛ لأن الموقف صعب عليه ، ويريد ربه أنْ يُطمئنَه ويُؤنسَه .

وإذا كان الإيناس من الله ، فعلى العبد أنْ يستغلّ هذه الفرصة ويُطيل أمدَ الائتناس بالله عز وجل ، ولا يقطع مجال الكلام هكذا بكلمة واحدة ؛ لذلك رد موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨ ﴾

قال موسى : ﴿ هِيَ عَصَايَ ۝١٨ ﴾[طه] ، ثم يفتح لنفسه مجالاً آخر للكلام : ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ۝١٨ ﴾ [طه] وهنا يرى موسى أنه تمادى وزاد ، فيحاول الاختصار : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طه]

---

(١) قال أبو يحى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن » (ص ٢٦٠) : « إن قلت : ما فائدة سؤاله تعالى لموسى ، مع أنه أعلم بما فى يده ؟ قلت : فائدته تانيسه وتخفيف ما حصل عنده من دهشة الخطاب وهيبة الإجلال وقت التكلم معه أو اعترافه بكونه عصا وازدياد علمه بذلك فلا يعترضه شك إذا قلبها الله ثعباناً أنها كانت عصاً ثم انقلبت ثعباناً بقدرة الله تعالى » .

وكان موسى ينتظر سؤالاً يقول : وما هذه المآرب ؟ ليُطيل أُنْسه بربه ، وإذا كان الخطاب مع الله فلا يُنهيه إلا زاهد فى الله .

وللعصا تاريخ طويل مع الإنسان ، فهى لازمة من لوازم التأديب والرياضة ، ولازمة من لوازم الأسفار ، ولها أهميتها فى الرعى .. الخ وهنا يذكر موسى ـ عليه السلام ـ بعض هذه الفوائد ـ يقول :

﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا (١٨) ﴾[طه] أى : أعتمد عليها ، وأستند عندما أمشى ، والإنسان يحتاج إلى الاعتماد على عصا عند السير وعند التعب ؛ لأنه يحتاج إلى طاقتين : طاقة للحركة والمشى ، وطاقة لحمل الجسم والعصا تساعده فى حَمْل ثقل جسمه ، خاصة إنْ كان مُتْعباً لا تقوَى قدماه على حَمْله .

فقوله : ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا (١٨) ﴾[طه] أى : أعتمد عليها حين المشى وحين أقف لرعى الغنم فأستند عليها ، والاتكاء يراوح الإنسان بين قدميْه فيُريح القدم التى تعبتْ ، وينتقل من جنب إلى جنب .

والإنسان إذا ما استقرّ جسمه على شىء لمدة طويلة تنسدّ مسامّ الجسم فى هذا المكان ، ولا تسمح بإفراز العرق ، فيُسبِّب ذلك ضرراً بالغاً نراه فى المرضى الذين يلازمون الفراش لمدة طويلة ، ويظهر هذا الضرر فى صورة قرحة يسمونها « قرحة الفراش » ؛ لذلك ينصح الأطباء هؤلاء المرضى بأن يُغيِّروا من وضْعِهم ، فلا ينامون على جنبٍ واحد .

لذلك شاءت قدرة الله عز وجل أنْ يُقلِّب أهل الكهف فى نومهم من جَنْب إلى جَنْب ، كما قال سبحانه : ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ .. (١٨) ﴾ [الكهف]

لذلك إذا وقف الإنسان طويلاً ، أو جلس طويلاً ولم يجد له متكأ تراه قلقاً غير مستقر ، ومن هنا كان المتَّكأ من مظاهر النعمة والترف فى الدنيا وفى الآخرة ، كما قال تعالى فى شأن امرأة العزيز : ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً .. (٣١) ﴾ [يوسف]

وقال عن نعيم الآخرة : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ.. (٢٠) ﴾ [الطور]

وقال : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ[1] .. (٥٤) ﴾ [الرحمن]

وقال الحق تبارك وتعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ[2] خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ[3] حِسَانٍ (٧٦) ﴾ [الرحمن]

فالاتكاء وسيلة من وسائل الراحة ، وعلى الإنسان أنْ يُغيِّر مُتكأهُ من جنب إلى جنب حتى لا يتعرّض لما يسمى بـ « قرحة الفراش » .

ومن فوائد العصا : ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ..(١٨) ﴾ [طه] أى : أضرب بها أوراق الشجر فتتساقط فتأكلها الغنم والماشية ؛ لأن الراعى يمشى بها فى الصحراء ، فتأكل من العذْى ، وهو النبات الطبيعى الذى لم يزرعه أحد ، ولا يسقيه إلا المطر ، فإن انتهى هذا العُشْب اتجه الراعى إلى الشجر العالى فيُسقِط ورقه لتأكله الغنم ، فيحتاج إلى العصا ليؤدى بها هذه المهمة .

إذن : قوله : ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا .. (١٨) ﴾ [طه] لراحته هو ، و ﴿ وَأَهُشُّ

---

(١) الإستبرق : الديباج الغليظ وهو من الحرير الطبيعى ، ويصلح شتاء لأنه مدفىء وللملابس الخارجية . [القاموس القويم ١/١٨] . قال عبد الله بن مسعود فى تفسير هذه الآية [الرحمن ٥٤] : « هذه البطائن ، فكيف لو رأيتم الظواهر ؟ » .

(٢) الرفرف : الثياب العريضة أو الرقيقة من الحرير ، وهى هنا كناية عن النعيم أى : على فرش حريرية جميلة خضر . [القاموس القويم ١/٢٧١] .

(٣) العبقرى : هو هذه البُسط التى فيها الأصباغ والنقوش [لسان العرب ـ مادة : عبقر] .

بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي .. (١٨)﴾ [طه] لخدمة الرعية ، وفيها سياسة إدارة الرزق كلها للماشية وللناس ، ورَعْي الغنم وسياستها تدريب على سياسة الأمة بأسْرها ؛ لذلك ما بعث الله من نبي إلا ورَعَى الغنم ليتعلم من سياسة الماشية سياسة الإنسان .

وفي الحديث الشريف : « ما بعث الله من نبي إلا ورعى الغنم ، وأنا كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة »[1] .

ولما أحسَّ موسى ـ عليه السلام ـ أنه أطال في خطاب ربه عز وجل أجمل فقال : ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨)﴾ [طه] أي : منافع .

وقد حاول العلماء[2] جزاهم الله عنَّا خيراً البحث في هذه المآرب الأخرى التي لم يذكرها موسى عليه السلام ، فتأملوا حال الرعاة ، وما وظيفة العصا في حياتهم فوجدوا لها منافع أخرى غير ما ذكر .

من هذه المنافع أن الراعي البدائي يضع عصاه على كتفه ويُعلِّق عليها زاده من الطعام والشراب ، وبعض الرعاة يستغل وقته أيضاً في الصيد ، فيحتاج إلى أدوات مثل : القوس ، والنبل ، والسهام والمخلاة التي يجمع فيها صَيْده ، فتراه يضع عصاه على كتفه هكذا بالعرض ، ويُعلِّق عليها هذه الأدوات من الجانبين .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٢٦٢) ، وابن ماجه في سننه (٢١٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . قال ابن حجر في الفتح (٤/٤٤١) : « قال سويد أحد رواته : يعني كل شاة بقيراط . يعني القيراط الذي هو جزء من الدينار أو الدرهم » .

(٢) منهم ابن عباس الذي قال : إذا انتهيت إلى رأس بئر الرِّشا وصلته بالعصا ، وإذا أصابني حر الشمس غرزتها في الأرض وألقيت عليها ما يظلني ، وإذا خفت شيئاً من هوام الأرض قتلته بها ، وإذا مشيت ألقيتها على عاتقي وعلقت عليها القوس والكنانة والمخلاة . وأقاتل بها السباع عن الغنم . [انظر : تفسير القرطبي ٦/٤٣٦٠ ، ٤٣٦١] .

فإذا ما اشتدت حرارة الشمس ولم يجد ظلالاً غرز عصاه فى الأرض ، وألقى بثوبه عليها فجعل منها مثل الخيمة أو المظلة تقيه حرارة الجو . فإن احتاج للماء ذهب للبئر ، وربما وجده غائر الماء لا يبلغه الدلو فيحتاج للعصا يربطها ويُطيل بها الحبل ، إلى غير ذلك من المنافع .

وبعض العلماء يقولون : لقد كان موسى عليه السلام ينتظر أن يسأله ربه عن هذه المآرب ليطيل الحديث معه ، لكن الحق سبحانه لم يسأله عن ذلك ؛ لأنه سينقله إلى شيء أهم من مسألة العصا ، فما ذكرْتَه يا موسى مهمة العصا معك ، أمّا أنا فأريد أنْ أخبرك بمهمتها معى :

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾

ارْم بها على الأرض ، وهو هنا إلقاء الدُّرْبة والتمرين على لقاء فرعون ، وهنا خرجت العصا عن ناموسها الذى يعلمه موسى عليه السلام ، فلم تعد للتوكؤ والهش على الغنم ، ولكنها تنتقل من جنس الخشب إلى جنس الحيوان فتصير حية ، قال الحق سبحانه :

﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾

وهذه نَقْلة كبيرة فى مسألة العصا ، فقد كان فى الإمكان لإثبات المعجزة أنْ تتحوَّل العصا ، وهى عود جاف من الخشب إلى شجرة خضراء ، لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُجرِى لموسى هذه المعجزة ؛ لأنه

سيحتاج إليها فيما بعد ، ولو تحولتْ العصا إلى شجرة خضراء فسوف تستقر فى مكانها ، أما حين تتحول إلى حيّة فهى حيوان مُتحَرِّك ، تجرى هنا وهناك ، وهذا ما سيحتاجه موسى فى معركته القادمة .

ألقى موسى عصاه ﴿ فَإِذَا هِيَ.. ﴿٢٠﴾ ﴾ [طه] إذا هنا فجائية كما تقول : خرجتُ فإذا أسدٌ بالباب . وحينما ألقى موسى العصا سرعان ما تحولت وهى جافة يابسة إلى حيّة ، وحيّة تسعى ليستْ جامدة ميتة ، أليست هذه مفاجأة ؟

وطبيعى أن يخاف موسى ـ عليه السلام ـ مما رآه ، فطمأنه ربه فقال :

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾

أى : امسكها بيدك ، وسوف نعيدها فى الحال ﴿ سِيرتها الأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [طه] أى : كما كانت عصا يابسة جافة فى يدك ، وقال : ﴿ لا تَخَفْ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [طه] لما ظهر عليه من أمارات الخوف . وقد أخبر عن خوفه فى آية أخرى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ [طه]

وكانت هذه المسألة تدريباً لموسى ـ عليه السلام ـ وتجربةً ، فللعصا مهمة فى رسالته ، وسوف تكون هى معجزته فى صراعه مع فرعون حين يضرب بها البحر[1] وفى دعوته لبنى إسرائيل حين يضرب بها الحجر فيتفجّر منه الماء[2] .

---

(١) قال تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء] .

(٢) وذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [البقرة] .

وقد عالج القرآن هذه القصة فى لقطات مختلفة ، فمرة يقول عن العصا كأنها ثعبان . ومرة يقول : حيَّة . وأخرى يقول : جان ؛ لذلك اعترض البعض على هذه الاختلافات ، فأيها كانت العصا ؟

الحقيقة أنها صور مختلفة للعصا حينما انقلبتْ ، فمن ناحية قتْلتها المميتة هى حية ، ومن ناحية ضخامتها ثعبان ، ومن ناحية خِفَّة حركتها جان ، وكل هذه الخصائص كانت فى العصا ، وحين تجمع كل هذه اللقطات تعطيك الصورة الكاملة للعصا بعد أنْ صارت حية . فآيات القرآن - إذن - تتكامل لترسم الصورة المرادة للحق تبارك وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾

اليد معروفة ، والجناح للطائر ، ويقابله فى الإنسان الذراع بداية من العَضُد ، والحق سبحانه حينما أوصانا بالوالدين قال : ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء] يعنى : تواضع لهما ، ولا تتعالَ عليهما .

وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [القصص]

والجَيْب : طَوْق القميص ، سُمِّى جَيْباً ؛ لأنهم كانوا فى الماضى يجعلون الجيب الذى يضعون به النقود أو خلافه فى داخل الثوب ،

ليكون بعيداً عن يد السارق ، فإذا ما احتاج الإنسان شيئاً فى جَيْبه يُدخِل يده من طَوْق القميص ليصل إلى الجيْب فسُمِّى الطوق جيباً . وهذا من مظاهر التكامل بين الآيات .

والمعنى هنا : اضمم كف يدك اليمنى ، وأدْخله من طَوْق قميصك إلى تحت عَضُدك الأيسر ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (٢٢)﴾ [طه] أى : ساعة أنْ تُخرِج يدك تجدها بيضاء ، لها ضوء ولمعان وبريق وشعاع .

ومعلوم أن موسى ـ عليه السلام ـ كان أسمر اللون ، كما وصفه النبى ﷺ حينما طُلب منه أنْ يَصف الرسل الذين لقيهم فى رحلة الإسراء والمعراج ، فقال : « أما موسى ، فرجل آدم[1] طُوَال ، كأنه من رجال أزدشنوءة.... »[2] .

أى : أسمر شديد الطول ؛ لأن طُوَال يعنى : أكثر طولاً من الطويل .

ومن هنا كان بياضُ اليد ونورها فى سُمْرة لونه آيةً من آيات الله ، ولو كان موسى أبيض اللون ما ظهر بياضُ يده .

وقوله : ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (٢٢)﴾ [طه] أى : من غير مرض ، فقد

---

(١) الأدْمة : السمرة . والآدم من الناس : الأسمر . قال ابن الأثير : الأُدْمة فى الناس : السمرة الشديدة . وقيل : هو من أدمة الأرض وهو لونها . قال : وبه سمى آدم أبو البشر . [لسان العرب ـ مادة : أدم] .

(٢) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٩٤) ، ومسلم فى صحيحه (١٦٥) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وشنوءة : حى من اليمن ينسبون إلى شنوءة وهو عبد الله بن كعب ، ولقب شنوءة لشنآن (بُغْض) كان بينه وبين أهله . [فتح البارى ٦/٤٢٩] .

يكون البياض فى السُّمرة مرضاً - والعياذ بالله - كالبرص مثلاً . فنفى عنه ذلك .

وقوله تعالى : ﴿آيَةً أُخْرَىٰ (٢٢)﴾ [طه] أى : معجزة ، لكنه لم يقُلْ شيئاً عن الآية الأولى ، فدلَّ ذلك على أن العصا كانت الآية الأولى ، واليد الآية الأخرى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣)﴾

أى : نُريك الآيات العجيبة عندنا ؛ لتكون مقدمة لك ، فحين نأمرك بشىء من هذا القبيل فاعلم أن الذى يأمرك ربٌّ لن يغشّك ، ولن يتخلى عنك ، وسوف يُؤيدك وينصرك ، فلا ترتَعْ ولا تخف أو تتراجع .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يُعِدُّ نبيه موسى للقاء مرتقب مع عدوه فرعون الذى ادعى الألوهية :

ثم بعد هذه الشحنة والتجربة العملية يقول له :

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤)﴾

فلماذا أرسله إلى فرعون أولاً ، ولم يرسله إلى قومه ؟ قالوا : لأن فرعون فعل فعلاً فظيعاً ، حيث ادعى الألوهية ، وهى القمة فى الاعتداء ، ثم استعبد بنى إسرائيل ، فلا بُدَّ أن نُصفِّى الموقف أولاً مع فرعون .

لذلك حدثت معجزة العصا فى ثلاثة مواقف :

الأول : وكان لِدُرْبة موسى ورياضته على هذه العملية ، وكانت هذه المرة بين موسى وربه ـ عز وجل ـ تدريباً ، حتى إذا أتى وقت مزاولتها أمام فرعون لم يتهيَّب منها أو يتراجع ، بل باشرها بقلب ثابت واثق .

والثانى : كان مع فرعون بمفرده ترويعاً له .

والثالث : مع السَّحَرة تجميعاً .

فكُلُّ موقف من هذه المواقف كان لحكمة وله دور ، وليس فى المسألة تكرار كما يدَّعى البعض .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه] الطغيان : مجاوزة الحدّ ، ومجاوزة الحدِّ يكون بأَخْذ ما ليس لك والمبالغة فى ذلك ، وليْتَه أخذ من المساوى له من العباد ، إنما أخذ ما ليس له من صفات الله عز وجل .

ولما سمع موسى اسم فرعون ، تذكَّر ما كان من أمره فى مصر ، وأنه تربَّى فى بيتِ هذا الفرعون الذى ادَّعى الألوهية ، فكيف سيواجهه .

كما تذكَّر قصة الرجل الذى وكَزه فقتله[1] ، ثم خرج منها خائفاً يترقب ، فلما شعر موسى أن العبء ثقيل قال :

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾﴾

---

(١) وذلك فى قوله تعالى : ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ .. ﴿١٥﴾﴾ [القصص] .

كأنه قال : يا رب أنا سأنفّذ أوامرك ؛ لكنى لا أريد أنْ أُقبل على هذه المهمة وأنا منقبض الصدر من ناحيتها ؛ لأن انقباضَ الصدر من الشيء يُهدِر الطاقة ويُبدِّدها ، ويعين الأحداث على النفس .

لذلك دعا موسى بهذا الدعاء : ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥)﴾ [طه] ليوفر قوته لأداء هذه المهمة الصعبة التى تحتاج إلى مجهود يناسبها ، ومعنى ذلك أنه انقبض صدره من لقاء فرعون للأسباب التى ذُكِرت .

ثم قال :

﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦)﴾

لأن شَرْح الصدر فى هذه المسألة لا يكفى ، فشَرْح الصدر من جهة الفاعل ، وقد يجد من القابل لَدَداً شديداً وعناداً ؛ لذلك قال بعدها : ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦)﴾ [طه] فلا أجد لَدَداً وطغياناً من فرعون ، فتيسير الأمر من جهة القابل للفعل بعد شرح الصدر عند الفاعل .

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧)﴾

لأن الكلام وتبليغ الرسالة يحتاج إلى منطق ولسان مُنطلق بالكلام ، وكان موسى ـ عليه السلام ـ لديه رُتَّة[١] أو حُبْسَة فى لسانه ، فلا ينطلق فى الكلام .

---

(١) الرُّتة : بالضم : عجلة فى الكلام وقلة أناة . وقيل : هو أن يقلب اللام ياء . والأرتُّ : الذى فى لسانه عُقدة وحُبْسة ، ويعجل فى كلامه فلا يطاوعه لسانه . [لسان العرب ـ مادة : رتت] .

وكانت هذه الرُّتَّة أيضاً فى لسان الحسين بن على ـ رضى الله عنهما ـ وكان النبى ﷺ إذا سمع الحسين يضحك ويقول : « ورثها عن عمه موسى » .

وتلحظ دقَّة التعبير فى قوله : ﴿مِّن لِّسَانِي ۝٢٧﴾ [طه] ولم يقل : احلل عقدة لسانى . فقد يُفهم منها أنه مُتمرِّد على قَدَر الله من حُبسة لسانه ، إنما هو لا يعترض ويطلب مجرد جزءٍ من لسانه ، يمكِّنه من القيام بمهمته فى التبليغ .

﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي ۝٢٨﴾

هذه هى العلّة فى طلبه ، ولولاها ما طلب انطلاقة اللسان . والفقه هو أن يفهموا الكلام والحديث عنه .

ويواصل موسى ـ عليه السلام ـ ما يراه مُعيناً له على أداء مهمته :

﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩﴾

وزيراً : أى معيناً وظهيراً . والحق ـ سبحانه وتعالى ـ لما أراد أنْ يُخوِّف الناس من الآخرة قال : ﴿كَلاَّ لا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾ [القيامة]

أى : لا ملجأ ولا معين تفزع إليه إلا الله ، فالوزير من (وَزَر) ، ويطلب الوزير حين لا يستطيع صاحب الأمر القيام به بمفرده ، فيحتاج إلى مَنْ يعينه على أمره ، وهو وزير إنْ كان ناصحاً أميناً يُعين صاحبه بصدْق ، فإنْ كان غاشّاً لئيماً يعمل لصالح نفسه ، فليس بوزير ، بل هو (وِزْر) ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. ۝١٨﴾ [فاطر]

وفى الحديث النبوى الشريف : « خَيْر الملوك ملك جعل الله له وزيراً ، إنْ نسى ذكَّره ، وإنْ نوى على خير - مجرد نيّة - أعانه ، وإن أراد شراً كفَّه ... »[١] .

تلك علامات الوزير الناصح للرعية كما بيَّنتها سياسة السماء ؛ لأن لكل حاكم بطانتين : واحدة تأمر بالمعروف ، وأخرى تأمر بالمنكر كما جاء فى الحديث الشريف .[٢] .

فإنْ كانت هذه هى سياسة السماء ، فماذا عن سياسة البشر ؟

يقول أنو شروان : إياكم أنْ تفهموا أن أحداً منَّا يستغنى عن أحد ، فلكُلٍّ واحد مهمته ، فإنْ زدت فى شىء فقد نقصَت فى أشياء ، جعلها الله فى غيرك ليكمل بها نقصك ، فالمعايشة مشتركة ، لكن هذه المشاركة تفرضها الضرورة لا التفضّل ، وإلاَّ لو لم يتفضّل عليك غيرك فماذا تفعل ؟

وسبق أن ضربنا مثلاً لحاجة الناس بعضهم لبعض ، قلنا : ماذا يحدث لو امتنع رجال الصرف الصحى أو الكناسون عن العمل لعدة أيام ؟ أما لو غاب الوزراء لعدة أيام فلن يحدث شىء .

إذن : لا تظن أنك أفضل من الآخرين ؛ لأن لكل منهم مهمة يؤديها ، فإنْ كنتَ خيراً منه فى هذه فهو خير منك فى هذه ؛ لأن مجموع مواهب كل إنسان يساوى مجموع مواهب الآخر ، فإنْ قلتَ : فلماذا وُجد التفاوت بين الناس ؟

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : « من ولى منكم عملاً فأراد الله به خيراً جعل له وزيراً صالحاً ، إن نسى ذكره وإن ذكر أعانه » أخرجه النسائى فى سننه (١٥٩/٧) .

(٢) لفظ الحديث : « ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، فالمعصوم من عصمه الله » أخرجه البخارى فى صحيحه (٧١٩٨) ، وكذا أحمد فى مسنده (٣٩/٣) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

قالوا : لتكون هناك ضرورة فى حاجة بعضنا لبعض ، فلو تساوى الجميع لقلنا لجماعة منا : تفضّلوا بكنس الشوارع يوم كذا فلن يتفضلوا ، أما إنْ ألجأتْهم الحاجة إلى مثل هذا العمل فسوف يسارعون إليه ، كما نرى الآن فى أشقِّ المهن وأصعب المهام التى ينفر منها الناس بل ويحتقرونها ترى صاحبها مُقبلاً عليها حريصاً على القيام بها ، رغم ما فيها من مشقّة ، بل ويغضب إنْ لم يجد فرصة للعمل ، لماذا ؟ لأنه مصدر قُوته وقُوت عياله .

وبهذه النظرة لا يتعالى أحد أو يستكبر ليحدث فى المجتمع توازن استطراقى .

وقوله : ﴿ مِّنْ أَهْلِي (٢٩) ﴾ [طه] أى : ليكون مأموناً علىَّ .

وهذا المطلب من موسى - عليه السلام - يشير لأدب عال من آداب النبوة ، وقد اختار الله موسى للرسالة ، فلماذا يشرك معه أخاه فى هذه المهمة ؟ إذن : موسى لا يريد أنْ يفخَر بالرسالة ، أو يتعالى بها ، أو يطغى ، إنما يريد أن يقوم بها على أكمل وجه ؛ لذلك يحاول أنْ يُكمل ما فيه من نقص بأخيه ليُعينه على تبليغ رسالته ، ولو أراد الاستئثار بالرسالة ما طلب هذا الطلب .

وهذا نموذج يجب أنْ يُحتذَى ، فإنْ كُلِّفت بأمر فوق طاقتك فلا غبارَ عليك أن تستعين عليه بغيرك ، فهذا دليل على إخلاصك للمهمة التى كُلِّفت بها .

﴿ هَٰرُونَ أَخِي (٣٠) ﴾

فاختار أخاه هارون ليعينه فى مهمة الرسالة .

ثم أوضح العلّةَ فى ذلك ، فقال فى آية أخرى : ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا .. (٣٤) ﴾ [القصص]

وهكذا يتكامل موسى وهارون ويُعوِّض كل منهم النقص فى أخيه . ويُقال : إن هارون ـ عليه السلام ـ كان يمتاز على موسى فى أمور أخرى ، فكان به لينٌ وحلْم ، وكان موسى حاداً سريع الغضب ، فكان هارون للِّين ، وموسى للشدة .

ويتضح هذا حينما عاد موسى إلى قومه ، وقد تركهم فى صُحْبة أخيه هارون فعبدوا العجل فاشتد غضبه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا .. (١٥٠) ﴾ [الأعراف]

ثم احتدّ على أخيه ، وجذبه من ذَقْنه ، وظهرتْ حدَّته . وقَسْوته ، فماذا قال هارون ؟ ﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ .. (١٥٠) ﴾ [الأعراف] ليستعطفه ويُذكِّره برأفة الأم وحنانها ﴿ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي .. (٩٤) ﴾ [طه] ، كأنه يقول لأخيه : اضربنى كما تريد ، لكن لا تروعنى فى لحيتى ، وفى رأسى .

إذن : فالفصاحة فى هارون تجبر العُقدة فى لسان موسى ، واللين يجبر الشدة والحدة . وأيضاً فإن موسى ـ عليه السلام ـ كان أسمر اللون ، أجعد الشعر ، أقنى[1] الأنف ، أما هارون فكان أبيض اللون ، مُرْسَل الشعر ، وسيم التقاطيع والملامح ، ترتاح له الأبصار ، فمَنْ لم يرتَحْ لموسى ارتاح لهارون .

ولقد كان النبى ﷺ يحب أن ينزل الوحى عليه فى صورة دحْية[2] الكلبى ، وكان ـ رضى الله عنه ـ وسيماً ، ترتاح العين لرؤيته ، فكان جبريل ـ عليه السلام ـ ينزل عليه فى هذه الصورة ليُؤنسه .

---

(١) قَنى الأنف قَنَاً : ارتفع وسط قصبة الأنف وضاق منخراه ، فهو اقنى ، وهى قنواء . [المعجم الوجيز ـ مادة : قنا] .

(٢) صحابى مشهور ، أول مشاهده الخندق وكان يضرب به المثل فى حسن الصورة وكان جبريل ينزل على صورته وشهد اليرموك ، وقد نزل دمشق وسكن المزة وعاش إلى خلافة معاوية . [الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى ١٦٢/٢] .

وموسى ـ عليه السلام ـ مع ما تميَّز به أخوه هارون عليه من هذه الصفات لم يحقد على أخيه ، ولم ينظر إليه على أنه أفضل منه ، إنما جعل صفات أخيه مكملة لصفاته ، والجميع من أجل أداء الرسالة وتبليغها على وجهها الأكمل ، فلم ينظر إلى نفسه ونجاحه هو ، وإنما إلى نجاح المهمة التى كلّفه الله بها .

ويجب أنْ يشيعَ هذا الخُلق بين الناس ، فإنْ رأيت خَصْلةَ خَيْر فى غيرك ، أو وجهاً من وجوه الكمال فى غيرك ، فاحمد الله عليها ، واعلم أنها سيعود عليك نفعها ، وستجبر ما عندك من نقص فلا تحقد عليه ؛ لأنه سيتحمل ما فيك من قصور ، وتنتفع أنت بخيره .

ثم يقول الحق سبحانه أن موسى ـ عليه السلام ـ قال :

﴿ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ ﴾

الأَزْر : القوة . وكأن موسى ـ عليه السلام ـ عرف أن حَمْل الرسالة إلى فرعون وإلى قومه من بعده عملية شاقة ، فقال لله : أعطنى أخى يساعدنى فى هذه المشقة .

﴿ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ ﴾

قوله : (وأَشْرِكْهُ) أى : أنت يا ربّ ، ليس أنا الذى أشركه تفضُّلاً منى عليه ، فأراد موسى ـ عليه السلام ـ أن يكون الفضل من الله ، وأن يكون التكليف أيضاً من الله حتى لا يعترض هارون أو يتضجر عند مباشرة أمر الدعوة .

لذلك لما ذَهَبا إلى فرعون قالا : ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ.. ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه] ولم يقُلْ موسى : إن هارون تابع له بل هو مثله تماماً مُرْسَل من الله ، وإذا تكلَّم موسى تكلَّم عنه وعن هارون .

فلما دعا موسى على قومه : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ[1] عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [يونس]

جاءت الإجابة من الله : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [يونس] ؛ لأن الدعاء كان من موسى ، وهارون يُؤمِّن عليه ، والمؤمِّن أحد الداعييْن .

ثم يقول الحق سبحانه عن هارون وموسى أنهما قالا :

﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

فهذه هى العلّة فى مشاركة هارون لأخيه فى مهمته ، لا طلباً لراحة نفسه ، وإنما لتتضافر جهودهما فى طاعة الله ، وتسبيحه وذكْره .

والتسبيح : تقديس الله وتنزيهه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً ، ذاتاً . فلا ذات مثل ذاته تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى] لا فى الذات ، ولا فى الصفات ولا فى الأفعال ، فلا تقل : إن سَمْع الله كسَمْعك ، أو أن بصره تعالى كبصرك ، أو أن فعْله كفعْلك .

والمعنى : نُسبِّحك ونُقدِّسك تقديساً يرفعك إلى مستوى الألوهية الثابتة لك ، فلا نزيد شيئاً من عندنا .

وقوله : ﴿ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ﴿٣٣﴾ ﴾ [طه] أى : دائماً ، فكأن التسبيح يُورِث المسبِّح لذة فى نفسه ، والطاعة من الطائع تُورثه لذة فى نفسه ، كما قال النبى ﷺ : « ... وجُعلتْ قرّة عينى فى الصلاة »[2] .

---

(١) طمس الشيء : تغيرت صورته أو انمحى أثره . ومعنى الآية : أى : أنزل عليها ما يمحوها ويهلكها . [القاموس القويم ١/٤٠٦] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/١٢٨ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) والنسائى فى سننه (٧/٦١) والحاكم فى مستدركه (٢/١٦٠) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى من حديث أنس بن مالك . وتمام الحديث : « حبب إلىَّ من الدنيا : النساء والطيب ... » الحديث .

وكان ﷺ « إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة »[١] .

﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾

فأنت قيُّوم علينا ، مُطلع على أفعالنا ، أنؤدّيها على الوجه الأكمل ، أم نُقصِّر فيها ؟

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾

سُؤْل : أى : الشيء المسئول مثل (خُبز) أى : مخبوز ، فالمراد : أعطيناك ما سألتَ ، بل وأعطيناك قبل أن تسأل ، بل وقبل أن تعرف كيف تسأل :

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾

(مننّا) من المنة ، وهى العطاء بلا مقابل على خلاف الجزاء ، وهو العطاء مقابل عمل ﴿ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾ [طه] إذن : هناك مرة أولى ، لكن المراد بالمنّة هنا ما حدث من الوحى إلى أم موسى وهو صغير ، فهى فى الحقيقة المنّة الأولى إنما قال هنا ﴿ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾ [طه] هذا ترتيب ذكرى حَسْب ذكْرَ الأحداث .

فمتى كانت هذه المنّة ؟

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ ﴾

إذ : يعنى وقت أنْ أوحينا إلى أمك ما يُوحَى . فكانت هذه هى المنة الأولى عليك حين وُلدت فى عام ، يقتل فيه فرعون الذكور ، فمننّا عليك لما قلنا لأمك : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِى

---

(١) عن حذيفة رضى الله عنه قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) .

وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ ﴾ [القصص]

ومعنى ﴿مَا يُوحَىٰ ۝﴾ [طه] أى : أمراً عظيماً لك أن تقدره أنت فتذهب فيها نفسك كل مذهب ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝﴾ [طه] ويُفصِّل الحق سبحانه هذا الوحى لأم موسى ، فيقول تعالى :

﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ[1] فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ[2] عَلَىٰ عَيْنِي ۝﴾

هذا ما أوحينا به إلى أم موسى .

واليمُّ : البحر الكبير ، سواء أكان مالحاً أم عَذْباً ، فلما تكلّم الحق سبحانه عن فرعون قال : ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. ۝﴾ [الأعراف] والمراد : البحر الأحمر ، أما موسى فقد وُلد فى مصر وأُلْقِى تابوته فى النيل ، وكان على النيل قصر فرعون .

وبالله .. أى أم هذه التى تُصدِّق هذا الكلام : إنْ خفْتِ على ولدك فألقيه فى اليم ؟ وكيف يمكن لها أن تنقذه من هلاك مظنون وترمى به فى هلاك مُتيقّن ؟

---

(١) التابوت : الصندوق الذى يُحرز فيه المتاع . [لسان العرب ـ مادة : تبت] قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣٦٨) : « قال مقاتل : مؤمن آل فرعون هو الذى صنع التابوت ونجره ، وكان اسمه حزقيل ، وكان التابوت من جُمَّيز » .

(٢) الصنع : معناه الإحداث والإنشاء ويكون بقصد وإرادة وتدبير ، وقوله تعالى فى قصة موسى : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ۝﴾ [طه] . أى : تُربَّى محروساً بعنايتى ، وقوله تعالى ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ۝﴾ [طه] . أى : علمتك وربيتك وأنعمت عليك لتكون صنيعة لى تخدمنى وتؤدى الرسالة التى أكلفك إياها واخترتك لها . [القاموس القويم ١/ ٣٨٤] .

ومع ذلك لم تتردد أم موسى لحظة فى تنفيذ أمر الله ، ولم تتراجع ، وهذا هو الفرق بين وارد الرحمن ووارد الشيطان ، وارد الرحمن لا تجد النفس له رداً ، بل تتلقاه على أنه قضية مُسلَّمة ، فوارد الشيطان لا يجرؤ أن يزاحم وارد الرحمن ، فأخذتْ الأم الوليد وألْقَتْه كما أوحى إليها ربها .

وتلحظ فى هذه الآيات أن آية القصص لم تذكر شيئاً عن مسألة التابوت : ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٧)﴾ [القصص] هكذا مباشرة .

قالوا : لأن الحق سبحانه تكلم عن الغاية التى تخيف ، وهى الرَّمْى فى اليم ، وطبيعى فى حنان الأم أنْ تحتال لولدها وتعمل على نجاته ، فتصنع له مثل هذا التابوت ، وتُعدّه إعداداً مناسباً للطَفْو على صفحة الماء .

فالكلام هنا لإعداد الأم وتهيئتها لحين الحادثة ، وفَرْق بين الخطاب للإعداد قبل الحادثة والخطاب حين الحادثة ، فسوف يكون للأمومة ترتيب ووسائل تساعد على النجاة ، فصنعتْ له صندوقاً جعلت فيه مَهْداً ليّناً واحتاطتْ للأمر ، ثم يطمئنها الحق سبحانه على ولدها : ﴿وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي .. (٧)﴾ [القصص] فسوف نُنجيه ؛ لأن له مهمة عندى ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾ [القصص]

فإذا ما جاء وقت التنفيذ جاء الأمر فى عبارات سريعة متلاحقة : ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩)﴾ [طه]

لذلك ، تجد السياق فى الآية الأولى هادئاً رتيباً يناسب مرحلة الإعداد ، أما فى التنفيذ فقد جاء السياق سريعاً متلاحقاً يناسب سرعة التنفيذ ، فكأن الحق سبحانه أوحى إليها : أسرعى إلى الأمر

الذى سبق أنْ أوحيتُه إليك ، هذا الكلام فى الحبْكة الأخيرة لهذه المسألة .

وقوله تعالى : ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩) ﴾ [طه] أى : تحمله الأمواج وتسير به ، وكأن لديها أوامر أن تُدخِله فى المجرى الموصِّل لقصر فرعون .

فعندنا ـ إذن ـ لموسى ثلاثة إلقاءات : إلقاء الرحمة والحنان فى التابوت ، وإلقاء التابوت فى اليم تنفيذاً لأمر الله ، وإلقاء اليَمِّ للتابوت عند قصر فرعون .

وقوله تعالى : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ .. (٣٩) ﴾ [طه] (عَدُو لى) أى : لله تعالى ؛ لأن فرعون ادعى الألوهية ، (وَعَدُوٌّ لَّهُ) أى : لِموسى ؛ لأنه سيقف فى وجهه ويُوقفه عند حَدِّه .

وفى الآية إشارة إلى إنفاذ إرادته سبحانه ، فإذا أراد شيئاً قضاه ، ولو حتى على يد أعدائه وهم غافلون ، فمَنْ يتصور أو يصدق أن فرعون فى جبروته وعُتوه وتقتيله للذكور من أولاد بنى إسرائيل هو الذى يضم إليه موسى ويرعاه فى بيته ، بل ويُحبه ويجد له قبولاً فى نفسه .

وهل التقطه فرعون بداية ليكون له عَدواً ؟ أم التقطه ليكون ابناً ؟ كما قالت زوجته آسية : ﴿ قُرَّتُ[1] عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩) ﴾ [القصص]

إذن : كانت محبة ، إلا أنها آلتْ إلى العداوة فيما بعد ، آلتْ إلى

---

(١) أى : مبعث سرور لى ولك . [القاموس القويم ٢/١١٢] . وقيل : أقر الله عينك أى : بلّغك أمنيتك حتى ترضى نفسك وتسكن عينك فلا تستشرف إلى غيره . [لسان العرب ـ مادة : قرر] .

أن يكون موسى هو العدو الذى ستُربيه بنفسك وتحافظ عليه ليكون تقويضُ ملكك على يديه ؛ لذلك سيقول فرعون : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ⦗١٨⦘﴾ [الشعراء]

ومسألة العداوة هذه استغلها المشككون فى القرآن واتهموه بالتكرار فى قوله تعالى : ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ .. ⦗٣٩⦘﴾ [طه] ثم قال فى آية أخرى : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. ⦗٨⦘﴾ [القصص]

والمتأمل فى الآيتين يجد أن العداوة فى الآية الأولى من جانب فرعون لموسى وربه تبارك وتعالى ، أما العداوة فى الآية الثانية فمن جانب موسى لفرعون ، وهكذا تكون العداوة متبادلة ، وهذا يضمن شراستها واستمرارها ، وهذا مُراد فى هذه القصة .

أمّا إنْ كانت العداوة من جانب واحد ، فلربما تسامح غير العدو وخَجِل العدو فتكون المصالحة . والعداوة بين موسى وفرعون ينبغى أن تكونَ شرسة ؛ لأنها عداوة فى قضية القمَّة ، وهى التوحيد .

ولكن ، لماذا لم يُلفِت مجىء موسى على هذه الحالة انتباه فرعون فيسأل عن حكايته ويبحث فى أمره ؟ إنها إرادة الله التى لا يُعجزها شىء ، فتحبه زوجة فرعون ، وتقول : ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ .. ⦗٩⦘﴾ [القصص] ؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى بعدها : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي .. ⦗٣٩⦘﴾ [طه]

فأحبته آسية امرأة فرعون لما رأته ، وأحبَّه فرعون لما رآه ، وهذه محبة من الله بلا سبب للمحبة ؛ لأن المحبة لها أسباب بين الناس ، فتحب شخصاً لأنك تودّه ، أو لأنه قريب لك أو صديق ، أو

أسْدى لك معروفاً ، وقد يكون الحب من الله دون سبب من هذه الأسباب ، فلا سببَ له إلاّ إرادة الله .

فمعنى : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي.. (٣٩)﴾ [طه] وليس فيك ما يُوجب المحبة ، وليس لديك أسبابها ، خاصة وقد كان موسى عليه السلام أسمر اللون ، أجعد الشعر ، أقنى الأنف ، أكتف[1] ، وكأن هذه الخلْقة جاءت تمهيداً لهذه المحبة ، وإثباتاً لإرادة الله التى طوَّعَتْ فرعون لمحبة موسى ، كما قال تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ[2] بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤)﴾ [الأنفال]

وهكذا ، حوَّل الله قلب فرعون ، وأدخل فيه محبة موسى ليُمرِّر هذه المسألة على هذا المغفل الكبير ، فجعله يأخذ عدوه ويُربِّيه فى بيته ، ولم يكن فى موسى الوسامة والجمال الذى يجذب إليه القلوب .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩)﴾ [طه] أى : تُربَّى على عَيْن الله وفى رعايته ، وإنْ كان الواقع أنه يُربَّى فى بيت فرعون ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يرعاه ، فإنْ تعرَّض لشىء فى التربية تدخَّل ربُّه عز وجل ليعلمه ويُربِّيه .

ومن هذه المواقف أن فرعون كان يجلس وزوجته آسية ، ومعهما موسى صغير يلعب ، فإذا به يمسك بلحية فرعون ويجذبها بشدة أغاظته ، فأمر بقتله ، فتدخَّلت امرأته قائلة : إنه ما يزال صغيراً لا يفقه شيئاً ، إنه لا يعرف التمرة من الجمرة .

---

(١) الكتَف : عيب يكون فى الكتف ، وهو انفراج فى أعالى كتف الإنسان والأكتف هو الذى انضمت كتفاه على وسط كاهله خلقة قبيحة . [لسان العرب ـ مادة : كتف] .

(٢) قال ابن عباس : يحول بين المؤمن وبين الكفر ، وبين الكافر وبين الإيمان . رواه الحاكم فى مستدركه موقوفاً ، وقال : صحيح ولم يخرجاه . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٩٨) : « وكذا قال مجاهد وسعيد وعكرمة والضحاك وأبو صالح وعطية وغيرهم » .

فأتوا له بتمرة وجمرة ليمتحنوه ، فأزاح الله يده عن التمرة إلى الجمرة ليُفوِّت المسألة على هذا المغفل الكبير ، بل وأكثر من هذا ، فأخذها موسى رغم حرارتها حتى وضعها فى فمه ، فلدغتْ لسانه ، وسبَّبتَ له هذه العُقْدة فى لسانه التى اشتكى منها فيما بعد .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يُطمئن نبيه موسى - عليه السلام - : لا تخف ، فأنت تحت عينى وفى رعايتى ، وإنْ فعلوا بك شيئاً سأتدخل ، وفى آية أخرى قال : ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ [طه] فأنا أرعاك وأحافظ عليك ؛ لأن لك مهمة عندى .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

إذن : كان لأخت موسى دور فى قصته ، كما قال تعالى فى موضع آخر : ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ[1] فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾ [القصص]

والمراد : تتبعيه بعد أنْ علمت نجاته من اليمّ ، فتتبعته ، وعرفتْ أنه فى بيت فرعون ، ثم حرَّم الله عليه المراضع ، فكان يعافُ المرضعات ، وهنا تدخلت أخته لتقول : ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن

(١) القصُّ : اتباع الأثر . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٨١) : « أى : اتبعى أثره وخذى خبره وتطلبى شأنه من نواحى البلد » .

يَكْفُلُه..(٤٠)﴾ [طه] وهذا الترتيب لا يقدر عليه إلا الله .

ويقول تعالى : ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ.. (٤٠)﴾ [طه] حين نستقرىء مادة (رجع) فى القرآن نجدها تأتى مرة لازمة كما فى : ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ .. (١٥٠)﴾ [الأعراف]

وتأتى متعدية كما فى : ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ.. (٤٠)﴾ [طه] وفى : ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ .. (٨٣)﴾ [التوبة]

والفَرْق بين اللازم والمتعدِّى أن اللازم رجع بذاته ، أمّا المتعدى فقد أرجعه غيره ، فالرجوع أن تصير إلى حال كنتَ عليها وتركتها ، فإنْ رجعت بنفسك دون دوافع حملتْك على الرجوع فالفعل لازم ، فإنْ كانت هناك أمور دفعتْك للرجوع فالفعل مُتعَدٍّ .

ومثل رجعك : أرجعك ، إلا أن رجعك : الرجوع - فى ظاهر الأمر منك من دون دوافع منك . وأرجعك : أى رَغْماً عن إرادتك .

وقوله : ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا.. (٤٠)﴾ [طه] تقرُّ العين أى : تثبت ؛ لأن التطلعات إما أن تكون معنوية أو حسِّية ، فالإنسان لديه أمانٍ يتطلع إلى تحقيقها ، فإذا ما تحققت نقول : لم يعُدْ يتطلع إلى شىء .

وكذلك فى الشىء الحسِّىِّ ، فالعرب يقولون للشىء الجميل : قيد النواظر . أى : يقيد العين فلا تتحول عنه ؛ لأن الإنسان لا يتحول عن الجميل إلا إذا رأى ما هو أجمل ، وهذا ما يسمونه قُرَّة العين . يعنى الشىء الحسن الذى تستقر عنده العين ، ولا تطلب عليه مزيداً فى الحُسْن .

ثم يقول تعالى : ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا.. (٤٠)﴾ [طه] وهذه منَّة أخرى من منَن الله تعالى على موسى عليه السلام ، فمنَنُ الله عليه كثيرة كما قال : ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧)﴾ [طه] فهى مرة ، لكن هناك مرات .

ومسألة القتل هذه وردتْ في قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ[1] غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ .. (١٥) ﴾ [القصص]

وخرج من المدينة[2] خائفاً يترقب الناس لئلا يلحقوا به فيقتلوه ، وهذا معنى ﴿ فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ .. (٤٠) ﴾ [طه] أى : من القتل ، أو من الإمساك بك ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا .. (٤٠) ﴾ [طه] أى : عرَّضناك لمحن كثيرة ، ثم نجيناك منها ، أولها : أنك وُلدْت فى عام يُقتل فيه الأطفال ، ثم رمتْكَ أمك فى اليم ، ثم ما حدث منه مع فرعون لما جذبه من ذقنه .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ[3] فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ (٤٠) ﴾ [طه] ذكر الله تعالى مدة مُكْثه فى أهل مدين على أنها من منته على موسى مع أنه كان فيها أجيراً ، وقال عن نفسه : ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾ [القصص]

---

(١) أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى أن فرعون ركب مركباً وليس عنده موسى ، فلما جاء موسى عليه السلام قيل له : إن فرعون قد ركب ، فركب فى أثره . فأدركه المقيل (وقت الظهيرة) بأرض يقال لها منف ، فدخلها نصف النهار ، وقد تغلقت أسواقها ، وليس فى طرقها أحد ، وهى التى يقول الله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا .. (١٥) ﴾ [القصص] . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٣٩٧] .

(٢) هى مدينة منف ، وهى تقع الآن على مسافة ٢٨ كم جنوب القاهرة قرب ميت رهينة بالبدرشين بالجيزة وبها أهرامات سقارة ، وكانت منف المدينة الأولى فى مصر حتى بنيت مدينة الإسكندرية ، وكانت منف حصناً قوياً ، وكانت تصنع بها أسلحة القتال وتُبنى فيها سفن الأسطول . [معجم الحضارة المصرية القديمة ـ تأليف جورج بوزنر وآخرون ـ ترجمة أمين سلامة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب] .

(٣) قال قتادة : مكث عشر سنين . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٥٧٩) وعزاه لعبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم . وقال وهب : لبث عند شعيب ثمانى وعشرين سنة ، منها عشر مهر امرأته صفورا ابنة شعيب وثمانى عشرة أقامها عنده حتى وُلد له عنده .

وفى مدين تعرّف على شعيب عليه السلام ، وتزوج من ابنته وأنجب منها ولداً ، وموسى فى هذا كله غريب عن وطنه ، بعيد عن أمه ، فلما أراد الله له الرسالة شوَّقه إلى وطنه ورؤية أمه ، وقدَّر له العودة ؛ فقال تعالى : ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ[1] يَا مُوسَىٰ (٤٠)﴾ [طه]

أى : على قَدَر من اصطفائك ، فقَدَر الله هو الذى حرَّك فى قلبك الشوق للعودة ، وحملك على أنْ تمشى فى الطريق غير المأهول ، وتتحمل مشقة البرد وعناء السفر ، قَدَر الله هو الذى حرّك فيك خاطر الشوق لأمك ، ففى طريق العودة وفى طُوىً أنت على موعد مع الاصطفاء والرسالة .

لذلك ، فإن الشاعر الذى مدح الخليفة قال له :

جاء الخِلاَفَةَ أوْ كانتْ لَهُ قَدَراً كَمَا أتَى ربَّه مُوسَى عَلَى قَدَرِ

ثم يقول الحق سبحانه لموسى :

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى (٤١)﴾

أى : نجّيْتك وحافظت عليك ؛ لأننى أُعدُّك لمهمة عندى ، هى إرسالك رسولاً بمنهجى إلى فرعون وإلى قومك .

وقد حاول العلماء إحصاء المطالب التى طلبها موسى عليه السلام من ربه فوجدوها ثمانية : ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَـٰرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤)﴾ [طه]

(١) قال مجاهد : أى على موعد . وقال قتادة : على قَدَر الرسالة والنبوة أوردهما ابن كثير فى تفسيره (٣/١٥٣) .

ثم وجدوا أن الله تعالى أعطاه ثمانية أخرى دون سؤال منه : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠) ﴾ [طه]

فإنْ كان موسى عليه السلام قد طلب من ربه ثمانية مطالب فقد أعطاه ربه عز وجل ثمانية أخرى دون أن يسألها موسى ؛ ليجمع له بين العطاء بالسؤال ، والعطاء تكرُّماً من غير سؤال ؛ لأنك إنْ سألت الله فأعطاك دَلَّ ذلك على قدرته تعالى فى إجابة طلبك ، لكن إنْ أعطاك بدون سؤال منك دَلَّ ذلك على محبته لك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي[1] (٤٢) ﴾

﴿ بِآيَاتِي.. (٤٢) ﴾ [طه] الآيات هنا هى المعجزات الباهرات التى تبهر فرعون ، فلن تذهبا مُجرَّدَيْن ، بل معكما دليل على صدْق الرسالة التى تحملونها إليه : ﴿ لَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) ﴾ [طه] من التَّوانى أى : الفتور أو التقصير ؛ لأننى أعددتكما الإعداد المناسب لهذه المهمة الشاقة ، فإياكم والتهاون فيها ، فإنْ حدث منكما تقصير فهو تقصير فى الأداء ، لا فى الإعداد .

ومعنى : ﴿ فِي ذِكْرِي (٤٢) ﴾ [طه] أى : لأكُنْ دائماً على بالكما ،

---

(١) فى قراءة ابن مسعود « ولا تهنا فى ذكرى » وتحميدى وتمجيدى وتبليغ رسالتى . [القرطبى فى تفسيره ٦/٤٣٧١] .

فأنـا الذى أرسلتُ ، وأنا الذى أيدتُ بالمعـجزات ، وأنا الـذى أرعاكـما وأرقبكما ، وأنا الذى سأجازيكما فلا يَغبْ ذلك عنكما .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾

وهل هناك طغيان فوق ادعاء أنه رَبٌّ ؟ وقد قال تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يونس] والمسـرف : هو الذى يتجـاوز الحدود ، وهو قـد تجاوز فى إسـرافه وادَّعى الألوهية ، فعَلاَ فى الأرض علوَّ طاغية من البشر على غيره من البشر المستضعفين .

﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾

هذا لفرعون بعد أنْ طغى ، ومن الذى حكم عليـه بالطغيان ؟ حين تحكم أنت عليه بالطغيان فهـو طغيان يناسب قدرات وإمكانات البشر ، أمّا أن يقول عنه الحق تبارك وتعالى ﴿ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [طه] فلا بُدَّ أنه تجاوز كل الحدود ، وبلغ قمة الطغيان ، فربُّنا هو الذى يقول .

فقوله : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه] فلا بُدَّ أنْ تعطيه فُسْحة كى يرى حُجَجك وآياتك ، ولا تبادره بعنف وغلْظة ، وقـالوا : النصح ثقيل ، فلا ترسله جبلاً ، ولا تجـعله جدلاً ، ولا تجمع على المنصوح شدتين : أنْ تُخـرجه ممـا ألف بما يـكره ، بل تُخـرجه ممـا ألف بما يحب .

وهذا منهج فى الدعـوة واضح وثابـت ، كمـا فى قـوله تعـالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .. ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل]

لأنك تخلعه مما اعتاد وألف ، وتُخرجه عَمَّا أحب من حرية واستهتار فى الشهوات والملذات ، ثم تُقيِّده بالمنهج ، فليكُنْ ذلك برفق ولُطْف .

وهذه سياسة يستخدمها البشر الآن فى مجال الدواء ، فبعد أن كان الدواء مُرّاً يعافُه المرضى ، توصلوا الآن إلى برشمة الدواء المر وتغليفه بطبقة حلوة المذاق حتى تتم عملية البَلْع ، ويتجاوز الدواء منطقة المذاق .

وكذلك الحال فى مرارة الحق والنصيحة ، عليك أنْ تُغلِّفها بالقول اللين اللطيف .

وقوله : ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤)﴾ [طه] لعل : رجاء ، فكيف يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤)﴾ [طه] وفى عِلْمه تعالى أنه لن يتذكَّر ولن يخشى ، وسيموت كافراً غريقاً ؟

قالوا : لأن الحق سبحانه يريد لموسى أن يدخل على فرعون دخول الواثق من أنه سيهتدى ، لا دخولَ اليائس من هدايته ، لتكون لديه الطاقة الكافية لمناقشته وعَرْض الحجج عليه ، أمّا لو دخل وهو يعلم هذه النتيجة لكان محبطاً لا يرى من كلامه فائدة ، كما يقولون (ضربوا الأعور على عينه قال خسرانة خسرانة) .

فالحق سبحانه يعلم ما سيكون من أمر فرعون ، لكنْ يريد أنْ يقيمَ الحجة عليه ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ.. (١٦٥)﴾ [النساء]

وقوله : ﴿يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤)﴾ [طه] كأن الإنسان إذا ما ترك شراسة تفكيره ، وغُمة شهواته فى نفسه ، لا بُدَّ أنْ يهتدى بفطرته

إلى وجود الله أو (يتذكر) عالم الذَّر ، والعهد الذى أخذه الله عليه يوم أنْ قال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا .. ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف]

والذى قال عنه النبى ﷺ : « كُلُّ مولود يولد على الفطرة ، فأبوه يُهوِّدانه ، أو يُنصِّرانه ، أو يُمجِّسانه[1] »[2] .

فلو تذكّر الإنسان ، وجرَّد نفسه من هواها لا بُدَّ له أنْ يهتدى إلى وجود الله ، لكن الحق - سبحانه وتعالى - جعل للغفلة مجالاً ، وأرسل الرسل للتذكير ؛ لذلك قال : ﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ .. ﴿١٦٥﴾ ﴾ [النساء] ولم يقل : بادئين .

أمّا مسألة الإيمان بالله فكان ينبغى أن تكون واضحة معروفة للناس أن هناك إيماناً بإله خالق قادر فقط ينتظرون ما يطلبه منهم وما يتعبّدهم به . ماذا تفعل ؟ وماذا تترك ؟ وهذه هى مهمة الرسل .

وسبق أن ضربنا مثلاً برجل انقطعت به السُّبل فى صحراء دَوِيَّة[3] ، لا يجد ماءً ولا طعاماً ، حتى أشرف على الهلاك ، ثم غلبه النوم فنام ، فلما استيقظ إذا بمائدة عليها ألوان الطعام والشراب . بالله قبل أنْ يمد يده للطعام ، ألاَ يسأل : مَنْ أتى إليه به ؟

وهكذا الإنسان ، طرأ على كون مُعَدٍّ لاستقباله : أرض ، وسماء ، وشمس ، وقمر ، وزرع ، ومياه ، وهواء . أليس جديراً به أن يسأل :

---

(١) المجوسية نحلة تقول بالأصلين النور والظلمة ، يزعمون أن الخير من فعل النور ، وأن الشر من فعل الظلمة . ويقال : تمجس الرجل وتمجَّسوا : صاروا مجوساً . ومجَّسوا أولادهم : صيروهم كذلك . [لسان العرب - مادة : مجس] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٧٥) ، ومسلم فى صحيحه (٢٦٥٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) الصحراء الدويّة : إذا كانت بعيدة الأطراف مستوية واسعة . [لسان العرب - مادة : دوى] .

منِ الذى خلق هذا الكون البديع ؟ فلو تذكرتَ ما طرأتَ عليه من الخير فىَ الدنيا لانتهيتَ إلى الإيمان .

فمعنى : ﴿ يَتَذَكَّرُ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه] أى : النعم السابقة فيؤمن بالمنعم ﴿ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه] يخاف العقوبة اللاحقة ، فيؤمن بالله الذى تصير إليه الأمور فى الآخرة .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى عنهما :

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾

الخوف : شعور فى النفس يُحرِّك فيك المهابة من شىء ، ومِمَّ يخافان ؟ ﴿ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [طه] يفرط : أى : يتجاوز الحد .. ومضادها : فرَّط يعنى : قصّر فى الأمر ؛ لذلك يقولون : الوسط فضيلة بين إفراط وتفريط .

ومَنْ أفرط يقولون : فَرَس فارط عندما يسبِق فى المضمار . ويقولون : حاز قَصْب السبق ، وكانوا يضعون فى نهاية المضمار قصبة يركزونها فى الأرض ، والفارس الذى يلتقطها أولاً هو الفائز ، والفرس فارط يعنى : سبق الحدَّ المعمول له ، لا مجرد أن يسبق غيره .

لذلك عندما يُحدِّثنا القرآن عن الحدود ، يقول مرة : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا .. ﴿٢٢٩﴾ ﴾ [البقرة] أى : إياك أن تسبق الحد الذى وُضِع لك ومرة أخرى يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا .. ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة]

ففى المحلَّلات قال ﴿فَلا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩)﴾ [البقرة] قفُوا على الحدِّ لا تسبقوه ، وفى المحرمات قال ﴿فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧)﴾ [البقرة] لأنك لو اقتربتَ منها وقعتَ فيها .

فالمعنى إذن ﴿يَفْرُطَ عَلَيْنَا.. (٤٥)﴾ [طه] يتجاوز الحدّ ، وربما عاجلنا بالقتل قبل أن نقول شيئاً فيسبق قتلُه لنا كلامنا له .

وقوله تعالى : ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥)﴾ [طه] فلا يكتفى بقتلنا ، بل ويخوض فى حَقِّ ربنا ، أو يقول كلاماً لا يليق ، كما سبق له أن ادَّعى الألوهية .

ومن واجب الدعاة ألاَّ يَصلوا مع المدعوين إلى درجة أن يخوضوا فى حقِّ الله تبارك وتعالى ؛ لذلك فالحق سبحانه يُؤدِّب المؤمنين به بأدب الدعوة فى مجابهة هؤلاء فيقول : ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا[1] بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (١٠٨)﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦)﴾

أى : لن أسلمكما ولن أترككما ، وأنا معكما أسمع وأرى ؛ لأن الحركة إما قول يُسمع ، أو فعل يُرى ، فاطمئنّا ؛ لأننا سنحفظكما ، وقد قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ

(١) عدا عليه يعدو عَدْواً وعدواناً : ظلمه وصال عليه مثل اعتدى عليه . [القاموس القويم ١١/٢] . قال ابن عباس فى هذه الآية : « قالوا (أى : المشركين) : يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم » [ذكره ابن كثير فى تفسيره ١٦٤/٢] .

﴿ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

وهذه سُنة من سُنَن الله تعالى ، فإنْ رأيتَ جنداً من الجنود منسوبين لله تعالى وهُزِموا ، فاعلم أنهم انحلوا عن الجندية لله ، وإلا فوعْد الله لجنوده لا يمكن أن يتخلف أبداً .

والدليل على ذلك ما حدث للمسلمين فى أُحُد ، صحيح أن المسلمين هُزِموا فى هذه الغزوة ؛ لأنهم انحرفوا عن أوامر رسول الله ﷺ وخالفوه عندما قال للرماة : « لا تتركوا أماكنكم على أىّ حال من الأحوال »[(١)] ، لكن بمجرد أنْ رأوا بوادر النصر تركوا أماكنهم ، ونزلوا لجَمْع الغنائم ، فالتف من خلفهم خالد بن الوليد وألحق بهم الهزيمة ، وإن انهزم المسلمون فقد انتصر الإسلام ؛ لأنهم لما خالفوا أوامر رسولهم انهزموا ، وبالله لو انتصروا مع المخالفة أكان يستقيم لرسول الله أمر بعد ذلك ؟

ففى الآية التى معنا يطمئنهم الحق - تبارك وتعالى - حتى لا يخافا ، فقدرة الله ستحفظهما ، وسوف تتدخل إنْ لزمَ الأمر كما تدخلتْ فى مسألة التمرة والجمرة ، وهو صغير فى بيت فرعون .

ثم يقول لهما الحق سبحانه وتعالى :

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٢٠٩) ضمن حديث طويل عن غزوة أحد من حديث موسى بن عقبة ، وفيه « أمر رسول الله ﷺ خمسين رجلاً من الرماة فجعلهم نحو خيل العدو ، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير أخا خوّات بن جبير ، وقال لهم : أيها الرماة إذا أخذنا منازلنا من القتال فإن رأيتم خيل المشركين تحركت وانهزم أعداء الله فلا تتركوا منازلكم ، إنى أتقدم إليكم أن لا يفارقن رجل منكم مكانه واكفونى الخيل ، فوعز إليه فأبلغ ، ومن نحوهم كان الذى نزل بالنبى ﷺ يومئذ والذى أصابه » .

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ ﴾

ونلحظ هنا أنهما لم يواجهاه بما ادعاه من الألوهية مرة واحدة ، إنما أشارا إلى مقام الربوبية ﴿ رَسُولا رَبِّكَ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه] وهذه هزّة قوية تزلزل فرعون ، ثم تحوّلا إلى مسألة أخرى ، وهى قضية بنى إسرائيل ، وكان فرعون يُسخِّرهم فى خدمته ويُعذِّبهم ويشقّ عليهم .

﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه] فقد جئنا لنأخذ أولادنا وننقذهم من هذا العذاب ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه] أى : معجزة ﴿ مِّن رَّبِّكَ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه] فأعادوا عليه هذه الكلمة مرة أخرى .

وقد علّمهما الحق سبحانه كيف يدخلون على فرعون ؟ وكيف يتحدثون معه فى أمر لا يمسّ كبرياءه وألوهيته .

وبنو إسرائيل هم البقية الباقية من يوسف عليه السلام وإخوته ، لما جاءوا إلى مصر فى أيام العزيز[1] الذى قرَّب يوسف وجعله على خزائن الأرض ، كما قال تعالى فى قصة يوسف : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ[2] أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) العزيز : عزيز مصر فى زمن يوسف ، وهو وزيرها ، قال محمد بن إسحاق : اسمه أطفير ابن روحيب ، وكان على خزائن مصر ، وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق (أى : الهكسوس) . [ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢/٤٧٣] .

(٢) أى : عظيم عندنا ثابت المنزلة . [القاموس القويم ٢/٢٣٢] .

وقوله : ﴿ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧) ﴾ [طه] وهذه ليست تحية ؛ لأنك تُحيى مَنْ كان مُتبعاً للهدى ، وتدعو له بالسلام ، فإنْ لم يكُنْ كذلك فهى نهاية للكلام .

لذلك كان يكتبها رسول الله ﷺ فى كتبه إلى المقوقس عظيم القبط ، وإلى هرقل عظيم الروم ، يقول : « اسلم تسلم ، يؤتكَ الله أجرك مرتين ، فإنْ توليت فإنما عليك إثم الأريسيين[1] والسلام على مَنِ اتبع الهدى »[2] .

قال موسى وهارون لفرعون :

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨) ﴾

فأعطاه هنا القضية النهائية : جاءنا فى الوحى أن مَنْ كذّب وتولّى فله العذاب ، ومعنى ﴿ أُوحِيَ إِلَيْنَا .. (٤٨) ﴾ [طه] أى : من ربك .

فلما سمع فرعون هذه المقولة أحب أنْ يدخل معهما فى متاهات يشغلهم بها ، ويطيل الجدل ليُرتِّب أفكاره ، وينظر ما يقول :

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) ﴾

(١) اختلفوا فى المراد بالأريسيين على أقوال ، أصحها واشهرها أنهم الأكارون أى الفلاحون والزراعون ، ومعناه : إن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك ، وهذا هو القول الصحيح . شرح النووى لصحيح مسلم .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (حديث ٧) كتاب بدء الوحى ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٧٣) كتاب الجهاد والسير فى حديث طويل من حديث ابن عباس فى ذكر كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل عظيم الروم .

ووجّه الخطاب إلى الرئيس الأصلى فى هذه المهمة ، وهو موسى عليه السلام(١) .

﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ ﴾

معنى ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ .. ۝٥٠ ﴾ [طه] أى : كل ما فى الوجود ، خلقه الله لمهمة ، فجاء خَلْقه مناسباً للمهمة التى خُلق لها ﴿ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ ﴾ [طه] أى : دلّ كل شىء على القيام بمهمته ويسّره لها .

والحق سبحانه أعطى كل شىء (خَلْقَهُ) الخَلْق يُطلَق ، ويُراد به المخلوق ، فالمخلوق شىء لا بُدَّ له من مادة ، لا بُدَّ أن يكون له صورة وشكل ، له لون ورائحة ، له عناصر ليؤدى مهمته .

فإذا أراد الله سبحانه خَلْق شىء يقْدر له كل هذه الأشياء فأمدَّ العين كى تبصر ، والأنف كى يشم ، واللسان كى يتذوق ، ثم هدى كل شىء إلى الأمر المراد به لتمام مهمته ، بدون أى تدخّل فيه من أحد .

وإذا كان الإنسان ، وهو المقدور للقادر الأعلى يستطيع أن يصنع مثلاً القنبلة الزمنية ، ويضبطها على وقت ، فتؤدى مهمتها بعد ذلك تلقائياً دون اتصال الصانع بها .

فالحقِ سبحانه خلق كل شىء وأقدره على أنْ يُؤدِّى مهمته على الوجه الأكمل تأدية تلقائية غريزية ، فالحيوانات التى نتهمها بالغباء ،

---

(١) وقد يكون فرعون قد طلب الكلام من موسى لأنه يعلم أن موسى ليس فصيح اللسان ولا يكاد يُفهم منه كلام بسبب العقدة التى فى لسانه ، ولذلك قال : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢ ﴾ [الزخرف] .

ونقول عنها « بهائم » هى فى الحقيقة ليست كذلك ، وقد أعطانا الحق - سبحانه وتعالى - صورة لها فى مسألة الغراب الذى بعثه الله ليُعلِّم ولد آدم كيف يوارى سوءة أخيه كما قال سبحانه : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) ﴾ [المائدة]

فكيف صنع الغراب هذا الصنيع ؟ صنعه بالغريزة التى جعلها الله فيه ، ولو تأملتَ الحمار الذى يضربون به المثل فى الغباء حين تريده أنْ يتخطى (قناة) مثلاً ، تراه ينظر إليها ويُقدِّر مسافتها ، فإن استطاع أنْ يتخطاها قفز دون تردد ، وإنْ كانت فوق إمكانياته تراجع ، ولم يُقْدِم مهما ضربته أو أجبرته على تخطيها ، هذه هى الغريزة الفطْرية .

لذلك تجد المخلوقات غير المختارة لا تخطىء ؛ لأنها محكومة بالغريزة ، وليس لها عقل يدعو إلى هوىً ، وليس لها اختيار بين البدائل مثل العقل الإلكترونى الذى يعطيك ما أودعته فيه لا يزيد عليه ولا ينقص ، أما الإنسان فيمكن أنْ يُغيِّر الحقيقة ، ويُخفى ما تريده منه ، لأن له عقلاً يفاضل : قُلْ هذه ، ولا تقُلْ هذه ، وهذا ما ميَّز الله به الإنسان عن غيره من المخلوقات .

كذلك ، ترى الحيوان إذا شبع يمتنع عن الطعام ولا يمكن أن تؤكله عود برسيم واحد مهما حاولتَ ، إنما الإنسان صاحب العقل والهوى يقول لك : (أرها الألوان تريك الأركان) ، فلا مانع - بعد أن أكل حتى التخمة - من تذوُّق أصناف شتَّى من الحلوى والفاكهة وخلافه .

وفى هذه الآية يقول الحق سبحانه وتعالى أنه : ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) ﴾ [طه]

خذ مثلاً الأذن ، وكيف هى محكمة التركيب مناسبة لتلقى الأصوات ، ففى الأذن من الخارج تجاعيد وتعاريج تتلقى الأصوات العالية ، فتُخفّف من حدّتها حتى تصل إلى الطبلة الزقيقة هادئة ، وإلاَّ خرقتها الأصوات وأصمّتها ، وكذلك جعلها الله لصدِّ الرياح حتى إذا هبت لم تجد الأذن هكذا عارية فتؤذيها .

وكذلك العيْن ، كم بها من آيات لله ، فقد خلقها الله بقدر ، من هذه الآيات أن حرارتها إنْ زادت عن ١٢ درجة تفسد ، وأرنبة الأنف إنْ زادت عن ٩ درجات لا تؤدى مهمتها ، مع أن فى الجسم عضواً حرارته ٤٠ درجة هو الكبد ، والحرارة الكلية للإنسان ٣٧ درجة ، تكون ثابتة فى المناطق الباردة حيث الجليد كما هى فى المناطق الحارة ، لا ترتفع ولا تنخفض إلا لعلَّة أو آفة فى الجسم .

إذن : كل شىء فى الوجود خلقه الله بقدر وحكمة وكيفية لأداء مهمته ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ ﴾ [الأعلى]

اللسان مثلاً جعل الله به حلَمات متعددة ، كل واحدة منها تتذوّق طَعْماً معيناً ، فواحدة للحلو ، وواحدة للمُرِّ ، وواحدة للحريف ، وهكذا ، وجميعها فى هذه المساحة الضيقة متجاورة ومتلاصقة بقَدْر دقيق ومُعْجز .

الأنف وما فيه من مادة مُخاطية عالقة لا تسيل منك ، وشعيرات دقيقة ، ذلك لكى يحدث لهواء الشهيق عملية تصفية وتكييف قبل أن يصل إلى الرئتين ؛ لذلك لا ينبغى أنْ نقصَّ الشعيرات التى بداخل الأنف ؛ لأن لها مهمة .

عضلة القلب وما تحتويه من أُذَيْن وبُطَيْن ، ومداخل للدم ،

ومخارج محكمة دقيقة تعمل ميكانيكياً ، ولا تتوقف ولا تتعطل لمدة ١٤٠ أو ١٢٠ سنة ، تعمل تلقائياً حتى وأنت نائم ، فأىّ آلة يمكن أنْ تُؤدِّى هذه المهمة ؟

والحق سبحانه وتعالى عندما أرسل موسى وهارون بآية دالة على صدقهما إلى فرعون كانت مهمتهما الأساسية أَخْذ بنى إسرائيل ، وإنقاذهم من طغيان فرعون ، وجاءت المسألة الإيمانية تبعية ، أما أصل مهمة موسى فكان : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ .. (٤٧) ﴾ [طه]

والحق سبحانه حين يعرض قضية الإيمان يعرضها مبدوءة بالدليل دليل البدء الذى جاء فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) ﴾ [طه] لأن فرعون الذى ادعى الألوهية لابُدَّ أن يكون له مألوهون ، وهم خَلْق مثله ، وهو يعتزّ بملكه وماله من أرض مصر ونيلها وخيراتها حتى قال :

﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِى .. (٥١) ﴾ [الزخرف]

فأراد الحق سبحانه وتعالى أنْ يرد عليه : أَلَكَ شىء فى خَلْق هؤلاء المألوهين لك ؟

وما أشبهَ موقف فرعون أمام هذه الحجة بموقف النمروذ أمام نبى الله إبراهيم عليه السلام عندما قال له : ﴿ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

فلم يجد النمروذ إلا الجدل والسفسطة ، فلجأ إلى حيلة المفلسين ، وجاء برجلين فقال : أنا أحكم على هذا بالموت وأعفو عن هذا ؛ لذلك لما أحسَّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ منه المراوغة والجدال نقله إلى مسألة لا يستطيع منها فكاكاً .

﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ[1] الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

إذن : فالردُّ إلى قضية الخلق الأول دليل لا يمكن لأحد ردُّه ، حتى فرعون ذاته لم يدَّعِ أنه خلق شيئاً ، إنما تجبّر وتكبّر وادّعى الألوهية فقط على مألوه لم يخلقه ، ولم يخلق نفسه ، ولم يخلق الملْك الذي يعتز به .

ولما كان دليل الخلق الابتدائي هو الدليل المقنع ، لم يكن لفرعون ردٌّ عليه ؛ لذلك لما سمع هذه المسألةَ ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) ﴾ [طه] لم يستطع أنْ ينقضَ هذا الدليل ، فأراد أنْ يُخرِج الحوار من دليل الجد إلى مسألة أخرى يهرب إليها ، مسألة فرعية لا قيمة لها :

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ (٥١) ﴾

أى : ما شأن الأمم السابقة ؟ لكن ما دَخْل القرون الأولى بما نتكلّم فيه ؟ كلمة البال : هو الفكر ، نقول : خطر ببالى . أى : بفكرى ، ولا يأتى فى الفكر وبُؤْرة الشعور إلا الأمر المهم .

لكن ، سرعان ما أحسَّ موسى بمراوغة فرعون ، ومحاولة الهرب من الموضوع الأساسى فسَدَّ عليه الباب .

﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢) ﴾

(١) بهت : دهش وتحيَّر . [القاموس القويم ١/٨٦] قال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : بهت] : « انقطع وسكت متحيراً عنها » .

فهذه المسألة ليست من اختصاصي ؛ لأن الذي يُسأل عن القرون الأولى هو الذي يُجازيها ، وينبغي أنْ يعلم حالها ، وما هي عليه من الإيمان أو الكفر ؛ ليُجازيها على ذلك ، إذن : هذا سؤال لا موضعَ له ، إنه مجرد هَزْل ومهاترة وهروب ، فلا يعلم حال القرون الأولى إلا الله ؛ لأنه سبحانه هو الذي سيُجازيها .

ومعنى ﴿فِي كِتَابٍ.. (٥٢)﴾ [طه] أي : سجّلها في كتاب ، يطلع عليه الملائكة المدبرات أمراً ؛ ليمارسوا مهمتهم التي جعلهم الله لها ، وليس المقصود من الكتاب أن الله يطّلع عليه ويعلم ما فيه ؛ لأنه سبحانه ﴿لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى (٥٢)﴾ [طه]

ثم أرجعه موسى إلى القضية الأولى قضية الخلق ، ولكن بصورة تفصيلية :

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾

مَهْداً : من التمهيد وتوطئة الشيء ليكون صالحاً لمهمته ، كما تفعل في فراشك قبل أن تنام ، ومن ذلك يسمى فراش الطفل مَهْداً ؛ لأنك تُمهِّده له وتُسوّيه ، وتزيل عنه ما يقلقه أو يزعجه ليستقر في مَهْده ويستريح .

ولا بُدَّ لك أنْ تقوم له بهذه المهمة ؛ لأنه يعيش بغريزتك أنت ، إلا أن تتنبه غرائزه لمثل هذه الأمور ، فيقوم بها بنفسه ؛ لذلك لزمك في هذه الفترة رعايته وتربيته والعناية به .

فمعنى ﴿جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً .. (٥٣)﴾ [طه] أي : سوّاها ومهّدها لتكون صالحة لحياتكم ومعيشتكم عليها .

وليس معنى مهّدها جعلها مستوية ، إنما سوّاها لمهمتها ، وإلا ففى الأرض جبال ومرتفعات ووديان ، وبدونها لا يستقيم لنا العيش عليها ، فتسويتها تقتضى إصلاحها للعيش عليها ، سواء بالاستواء أو التعرّج أو الارتفاع أو الانخفاض .

فمثلاً فى الأرض المستوية نجد الطرق مستوية ومستقيمة ، أما فى المناطق الجبلية فهى مُتعرّجة مُلتوية ؛ لأنها لا تكون إلا كذلك ، ولها ميزة فى التوائها أنك لا تواجه الشمس لفترة طويلة ، بل تراوح بين مواجهة الشمس مرة والظل أخرى .

وسبق أن ضربنا مثلاً بالخطّاف الذى نصنعه من الحديد ، فلو جعلناه مستقيماً ما أدَّى مهمته ، إذن : فاستقامته فى كَوْنه مُعْوجاً فتقول : سويته ليؤدى مهمته ، ولو كان مستقيماً ما جذب الشىء المراد جَذْبه به .

إذن : نقول التسوية : جَعْل الشىء صالحاً لمهمته ، سواء أكان بالاعتدال أو الاعوجاج ، سواء أكان بالأَمْت[1] أو بالاستقامة .

ثم يقول تعالى : ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً .. ۝٥٣﴾ [طه] أى : طرقاً ممهدة تُوصّلكم إلى مهماتكم بسهولة .

سلك : بمعنى دخل ، وتأتى متعدية ، تقول : سلك فلان الطريق . وقال تعالى : ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ[2] ۝٤٢﴾ [المدثر] فالمخاطبون

---

(١) الأَمْت : الاختلاف فى المكان ارتفاعاً وانخفاضاً ، قال تعالى : ﴿لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه] . أى : لا ترى فى الأرض يوم القيامة التواء ولا انحرافاً يميناً ولا شمالاً ولا ترى فيها اختلافاً فى الارتفاع والانخفاض . [القاموس القويم ١/ ٣٠] .

(٢) قيل : سميت النار سقر لأنها تذيب الأجسام والأرواح ، والاسم عربى من قولهم : سقرته الشمس . أى : أذابته . [لسان العرب ـ مادة : سقر] .

مَسْلوكون فى سقر يعنى : داخلون ، وقال : ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ.. (٣٢)﴾ [القصص] أى : أدْخِلْها .

فتعديها إلى المفعول الداخل أو للمدخول فيهْ ، فقوله : ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً .. (٥٣)﴾ [طه] متعدية للمدخول فيه أى : عديت المخاطب إلى المدخول فيه ، فأنتم دخلتم ، والسُّبل مدخول فيه . إذن : المفعول مرة يكون المسلوك ، ومرة يكون المسلوك فيه .

وحينما تسير فى الطرق الصحراوية تجدها مختلفة على قَدْر طاقة السير فيها ، فمنها الضّيق على قَدْر القدم للشخص الواحد ، ومنها المتسع الذى تسير فيه الجمال المحمّلة أو السيارات ، فسلك لكم طرقاً مختلفة ومتنوعة على قَدْر المهمة التى تؤدونها .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣)﴾ [طه]

وهذه أيضاً من مسألة الخلْق التى لا يدعيها أحد ؛ لأنها دَعْوى مردودة على مدعيها ، فأنت يا مَنْ تدّعى الألوهية أخرجْ لنا شيئاً من ذلك ، أرِنَا نوعاً من النبات فلن يقدر ، وبذلك لزمتْه الحجة .

كما أن إنزال الماء من السماء ليس لأحد عمل فيه ، لكن عندما يخرج النبات قد يكون لنا عمل مثل الحَرْث والبَذْر والسَّقْى وخلافه ، لكن هذا العمل مستمد من الأسباب التى خلقها الله لك ؛ لذلك لما تكلم عن الماء قال (أَنْزَلَ) فلا دَخْل لأحد فيه ، ولما تكلم عن إخراج النبات قال (أَخْرَجْنَا) لأنه تتكاتف فيه صفات كثيرة ، تساعد فى عملية إخراجه ، وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يحترم عملك السَّببى ويُقدِّره .

اقرأ قوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ

الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الواقعة] فأثبت لهم عملاً ، واحترم مجهودهم ، إنما لما حرثتم من أين لكم بالبذور ؟ فإذا ما تتبعت سلْسلة البذور القبلية لانتهتْ بك إلى نبات لا قَبْلَ له . كما لو تتبعتَ سلسلة الإنسان لوجدتها تنتهى إلى أب ، لا أب له إلا مَنْ خلقه .

وأنت بعد أن ألقيتَ البذرة فى الأرض وسقيْتها ، ألَكَ حيلة فى إنباتها ونُموّها يوماً بعد يوم ؟ أأمسكْتَ بها وجذبْتها لتنمو ؟ أم أنها قدرة القادر ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعلى]

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الواقعة] ، فإنْ كانت هذه صنعتكم فحافظوا عليها .

كما حدث مع قارون حينما قال عن نعمة الله : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الزمر]

فما دام الأمر كذلك فحافظ عليه يا قارون بما عندك من العلم ، فلما خسف الله به وبداره الأرض دَلَّ ذلك على كذبه فى مقولته .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الواقعة] أنه مؤكد باللام ، لماذا ؟ لأن لك شبهة عمل فى مسألة الزرع ، قد تُطمعك وتجعلك مُتردّداً فى القبول . إنما حينما تكلم عن الماء قال :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [الواقعة]

هكذا بدون توكيد ؛ لأنها مسألة لا يدَّعيها أحد لنفسه .

وقوله تعالى : ﴿ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ [طه] لم يقل : نباتاً فقط . بل أزواجاً ؛ لأن الله تعالى يريد أن تتكاثر الأشياء ، والتكاثر لا بُدَّ له من زوجين : ذكر وأنثى . وكما أن الإنسان يتكاثر ، كذلك

باقى المخلوقات ؛ لأن الحق - تبارك وتعالى - خلق الأرض وقدَّر فيها أقواتها ، ولا بُدَّ لهذه الأقوات أن تكفى كل مَنْ يعيش على هذه الأرض .

فإذا ضاقت الأرض ، ولم تُخرِج ما يكفينا ، وجاع الناس ، فلنعلم أن التقصير منّا نحن البشر فى استصلاح الأرض وزراعتها ؛ لذلك حينما حدث عندنا ضيق فى الغذاء خرجنا إلى الصحراء نستصلحها ، وقد بدأت الآن تُؤتى ثمارها ونرى خيرها ، والآن عرفنا أننا كنا فى غفلة طوال المدة السابقة ، فتكاثرنا ولم نُكثِّر ما حولنا من الرقعة الزراعية .

والذكر والأنثى ليسا فى النبات فحسْب ، بل فى كل ما خلق الله :
﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس]

فالزوجية فى كل شىء ، علِمته أو لم تعلمه ، حتى فى الجمادات ، هناك السالب والموجب والالكترونات والأيونات فى الذرة ، وهكذا كلما تكاثر البشر تكاثر العطاء .

وقوله تعالى : ﴿ مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) ﴾ [طه] شتى مثل : مرضى جمع مريض فشتى جمع شتيت . يعنى أشياء كثيرة مختلفة ومتفرقة ، ليست فى الأنواع فقط ، بل فى النوع الواحد هناك اختلاف .

فلو ذهبت مثلاً إلى سوق التمور فى مدينة رسول الله ﷺ تجد أنواعاً كثيرة ، مختلفة الأشكال والطُّعوم والأحجام ، كلها تحت مُسمّى واحد هو : التمر . وهكذا لو تأملتَ باقى الأنواع من المزروعات .

ثم يذكر الحق - تبارك وتعالى - العلّة فى إخراج النبات :

﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾

(كُلُوا) : تدل على أن الخالق عز وجل خلق الحياة ، وخلق مقومات الحياة ، وأولها القوت من الطعام والشراب ، وهذه المقوّمات تناسبت فيها الملكية مع الأهمية ، فالقوت أولاً ، ثم الماء ، ثم الهواء .

فأنت تحتاج الطعام وتستطيع أن تصبر عليه شهراً على قَدْر ما يختزن فى جسمك من شحم ولحم ، يتغذّى منها الجسم فى حالة فقد الطعام ؛ لأنك حين تأكل تستهلك جزءاً من الطعام فى حركتك ، ثم يُختزن الباقى فى صورة دهون هى مخزن الغذاء فى الجسم ، فإذا ما نفد الدُّهْن امتصَّ الجسم غذاءه من اللحم ، ثم من العظم ، فهو آخر مخازن الغذاء فى جسم الإنسان .

لذلك لما أراد سيدنا زكريا عليه السلام أن يعبر عن ضعفه ، قال : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .. ﴿٤﴾ ﴾ [مريم]

لذلك تجد كثيراً ما يُتملّك الغذاء ؛ لأنك تصبر عليه مدة طويلة تُمكِّنك من الاحتيال فى طلبه ، أو تُمكِّن غيرك من مساعدتك حين يعلم أنك محصور جوعان .

أما الماء فلا تصبر عليه أكثر من ثلاثة أيام إلى عشرة ؛ لذلك قليلاً ما يُملِّك الماء لأحد .

أما الهواء فلا تصبر عليه أكثر من نفَس واحد ، فمن رحمة الله بعباده ألاَّ يُملِّك الهواء لأحد ، وإلاّ لو غضب عليك صاحب الهواء ،

فمنعه عنك لمتّ قبل أنْ يرضى عنك ، وليس هناك وقت تحتال فى طلبه .

وقوله تعالى : ﴿وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ.. (٥٤)﴾ [طه] لأنها تحتاج أيضاً إلى القُوت ، وقال تعالى فى آية أخرى : ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٣)﴾ [النازعات] ثم يصبّ الجميع فى أن يكون متاعاً للإنسان الذى سخّر الله له كل هذا الكون .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَىٰ (٥٤)﴾ [طه]

آيات : عجائب . والنُّهَى : جمع نُهية مثل قُرَبْ جمع : قُرْبة . والنُّهَى : العقول ، وقد سمّاها الله تعالى أيضاً الألباب ، وبها تتم عملية التدبير فى الاختيارات .

والعقل من العقال الذى تعقل به الدابة حتى لا تشرد منك ، وكذلك العقل لم يُخلَق لك كى تشطح به كما تحب ، إنما لتعقل غرائزك ، وتحكمها على قَدْر مهمتها فى حياتك ، فغريزة الأكل مثلاً لبقاء الحياة ، وعلى قَدْر طاقة الجسم ، فإنْ زادت كانت شراهة مفسدة .

وقد جُعل حُبُّ الاستطلاع للنظر فى الكون وكَشْف أسراره وآيات الله فيه ، فلا ينبغى أنْ تتعدّى ذلك ، فتتجسس على خَلْق الله .

وسُمِّيَتْ العقول كذلك النُّهَى ، لأنها تنهى عن مثل هذه الشطحات . إذن : فلا بد للإنسان من عقل يعقل غرائزه ، حتى لا تتعدى المهمة التى جُعلَتْ لها ، ويُوقفها عند حَدِّها المطلوب منها ، وإلا انطلقتْ وعربدتْ فى الكون ، لاَ بُدَّ للإنسان من نُهية تنهاه وتقول له : لا لشهوات النفس وأهوائها ، وإلاّ فكيف تُطلِق العنان لشهواتك ، ولست

وحدك فى الكون ؟ وما الحال لو أطلق غيرك العنان لشهواتهم ؟

وسُمِّى العقل لُبّاً ، ليشير لك إلى حقائق الأشياء لا إلى قشورها ، ولتكون أبعد نظراً . وأعمق فكراً فى الأمور . فحين يأمرك أن تعطى شيئاً من فضل مالك للفقراء ، فسطحية التفكير تقول : لا كيف أتعب وأعرق فى جمعه ، ثم أعطيه للفقير ؟ وهو لم يفعل شيئاً ؟

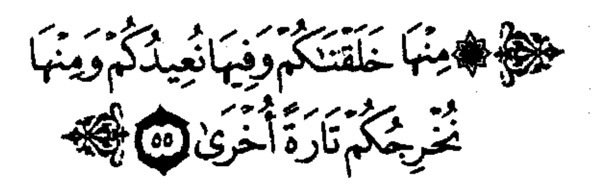
أما حين تتعمق فى فَهْم الحكمة من هذا الأمر تجد أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ قال لك : أعط المحتاجين الآن وأنت قادر حتى إذا ما احتجتَ تجد مَنْ يعطيك ، فقد يصير الغنى فقيراً ، أو الصحيح سقيماً ، أو القوى ضعيفاً ، فهذه سنة دائرة فى الخَلْق متداولة عليهم .

وحين تنظر إلى تقييد الشرع لشهواتك ، فلا تنسَ أنه قيَّد غيرك أيضاً بنفس المنهج وبنفس التكاليف . فحين يقول لك : لا تنظر إلى محارم الناس وأنت فرد فهو فى نفس الأمر يكون قد أمر الناس جميعاً ألاَّ ينظروا إلى حرماتك .

وهكذا جعل الخالق عز وجل آلة العقل هذه ، لا لنعربد بها فى الكون ، إنما لنضبط بها الغرائز والسلوك ، ونحرسها من شراسة الأهواء ، فيعتدل المجتمع ويسلَم أفراده .

وإلاَّ فإذا سمحتَ لنفسك بالسرقة ، فاسمح للآخرين بالسرقة منك !! إذن : فمن مصلحتك أنت أنْ يوجد تقنين ينهاك ، ومنهج يُنظِّم حياتك وحياة الآخرين .

والحق سبحانه يقول :



نلحظ هنا أن موسى - عليه السلام - يعرض على فرعون قضايا لا تخصُّ فرعون وحده ، إنما تمنع أنْ يوجد فرعون آخر .

وقوله ﴿مِنْهَا .. (٥٥)﴾ [طه] أى : من الأرض التى سبق أنْ قال عنها : ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا .. (٥٣)﴾ [طه]

ثم ذكر لنا مع الأرض مراحل ثلاث : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥)﴾ [طه]

وفى آية أخرى يذكر مرحلة رابعة ، فيقول : ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥)﴾ [الأعراف]

بذلك تكون المراحل أربعة : منها خلقناكم ، وفيها تحيَوْن ، وإليها تُرجعون بالموت ، ومنها نُخرجكم بالبعث .

فقوله تعالى : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ.. (٥٥)﴾ [طه] الخلْق قسْمان : خَلْق أولى ، وخَلْق ثانوى ، الخلق الأولىّ فى آدم عليه السلام ، وقد خُلِق من الطين أى : من الأرض . ثم الخَلْق الثانى ، وجاء من التناسل ، وإذا كان الخَلْق الأوّلى من طين ، فكل ما ينشأ عنه يُعَدّ كذلك ؛ لأنه الأصل الأول .

ويمكن أن نُوجِّه الكلام توجيهاً آخر ، فنقول : التناسل يتولد من ميكروبات الذكورة وبويضات الأنوثة ، وهذه فى الأصل من الطعام والشراب ، وأصله أيضاً من الأرض . إذن : فأنت من الأرض بواسطة أو بغير واسطة .

وإنْ كانت قضية الخَلْق هذه قضية غيبية ، فقد ترك الخالق فى كونه عقولاً تبحث وتنظر فى الكون ، وتعطينا الدليل على صدْق هذه القضية ، فلما حلّل العلماء طينة الأرض وجدوها ستة عشر عنصراً

تبدأ بالأكسوجين ، وتنتهى بالمنجنيز ، وحين حلّلوا عناصر الإنسان وجدوها نفس العناصر الستة عشر ، ليثبتوا بذلك البحث التحليلى صدْق قضية الخَلْق التى أخبر عنها الخالق عز وجل .

وقوله : ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ.. (٥٥)﴾ [طه] هذه مرحلة مشاهدة ، فكُلُّ مَنْ يموت منّا ندفنه فى الأرض ؛ لذلك يقول الشاعر :

إنْ سَئِمْتَ الحياةَ فَارْجِعْ إلَى الأرْضِ تَنَمْ آمناً مِنَ الأوْصَاب[1]

هِىَ أُمٌّ أحْنَى عَلَيْكَ مِنَ الأم التى خَلَّفَتْكَ للإتْعَاب

فبعد أن تُنقض بنية الإنسان بالموت لا يسارع إلى مواراته التراب إلا أقرب الناس إليه ، فترى المرأة التى مات وحيدها ، وأحب الناس إليها ، والتى كانت لا تطيق فراقه ليلة واحدة ، لا تطيق وجوده الآن ، بل تسارع به إلى أمه الأصيلة (الأرض) .

وذلك لأن الجسد بعد أنْ فارقته الروح سرعان ما يتحول إلى جيفة لا تطاق حتى من أمه وأقرب الناس إليه ، أما الأرض فإنها تحتضنه وتمتصُّ كل ما فيه من أذى .

ومن العجائب فى نَقْض بنية الإنسان بالموت أنها تتم على عكس بنائه ، فعندما تكلم الخالق عز وجل عن الخلق الأول للإنسان قال : إنه خلق من تراب ، ومن طين ، ومن حمأ مسنون ، ومن صلصال كالفخار . وقلنا : إن هذه كلها أطوار للمادة الواحدة ، ثم بعد ذلك ينفخ الخالق فيه الروح ، فتدبّ فيه الحياة .

فإذا ما تأملنا الموت لوجدناه على عكس هذا الترتيب ، كما أنك لو

---

(١) الوصب : الوجع والمرض ، والجمع أوصاب . والوصب : دوام الوجع ولزومه . [لسان العرب ـ مادة : وصب] .

بنيتَ عمارة من عدَّة أدوار ، فآخر الأدوار بناءً أولها هَدْماً . كذلك الموت بالنسبة للإنسان يبدأ بنزع الروح التى وُضعَتْ فيه آخراً ، ثم يتصلّب الجسد و (يشضب) كالصلصال ثم يرمّ ، ويُنتن كالحمأ المسنون ، ثم يتبخر ما فيه من ماء ، وتتحلل باقى العناصر ، فتصير إلى التراب .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [طه] أى : مرة أخرى بالبعث يوم القيامة ، وهذا الإخراج له نظام خاصّ يختلف عن الإخراج الأول ؛ لأنه سيبدأ بعودة الروح ، ثم يكتمل لها الجسد .

هذه كلها قضايا كونية تُلْقَى على فرعون علَّها تُثنيه عمَّا هو عليه من ادّعاء الألوهية ، والألوهية تقتضى مألوهاً ، فالإله معبود له عابد ، فكيف يَدّعى الألوهية ، وليس له فى الربوبية شىء ؟ فلا يستحق الألوهية والعبادة إلا مَنْ له الربوبية أولاً ، وفى الأمثال : (اللى ياكل لقمتى يسمع كلمتى)

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾

الآيات : الأمور العجيبة ، كما نقول : فلان آية فى الذكاء ، آية فى الحسن ، آية فى الكرم . يعنى : عجيب فى بابه ، وسبق أنْ قسّمنا آيات الله إلى : آيات كونية كالشمس والقمر ، وآيات لإثبات صدْق الرسُل ، وهى المعجزات وآيات القرآن الكريم ، والتى تسمى حاملة الأحكام .

لكن آيات الله ـ عز وجل ـ كثيرة ولا تُحصى ، فهل المراد هنا أن

فرعون رأى كل آيات الله ؟ لا ؛ لأن المراد هنا الآيات الإضافية ، وهى الآيات التسعة التى جعلها الله حُجّة لموسى وهارون ، ودليلاً على صدْقهما ، كما قال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. (١٠١) ﴾ [الإسراء]

وهى : العصا واليد والطوفان والجراد والقُمَّل[1] والضفادع والدم والسنين والنقص من الثمرات . تلك هى الآيات التى أراها الله لفرعون .

والكلية فى قوله : ﴿ آيَاتِنَا كُلَّهَا .. (٥٦) ﴾ [طه] كلية إضافية . أى : كل الآيات الخاصة به كما تقول لولدك (لقد أحضرتُ لك كل شىء) وليس المقصود أنك أتيتَ له بكل ما فى الوجود ، إنما هى كلية إضافية تعنى كل شىء تحتاج إليه .

ومع ذلك كانت النتيجة ﴿ فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦) ﴾ [طه] كذَّب : يعنى نسبها إلى الكذب ، والكذب قَوْل لا واقعَ له ، وكان تكذيبه لموسى علَّة إبائه ﴿ وَأَبَىٰ (٥٦) ﴾ [طه] امتنع عن الإيمان بما جاء به موسى .

ولو ناقشنا فرعون فى تكذيبه لموسى عندما قال : ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) ﴾ [طه]

لماذا كذبتَ يا فرعون ؟ الحق سبحانه قال : خلقتُ هذا الكون بما فيه ، ولم يَأْت أحد لينقضَ هذا القول ، أو يدَّعيه لنفسه ، حتى أنت يا مَنْ ادعيْتَ الألوهية لم تدَّعِ خَلْق شىء ، فهى - إذن - قضية مُسلَّم

---

(١) القُمَّل : حشرات صغيرة تؤذى الزرع وتضايق الناس . [القاموس القويم ٢/١٣٤] وهو ليس بقمل الرأس أو الجسد المعروف .

بها للخـالق عز وجل لم ينازعه فـيها أحد ، فـأنت ـ إذن ـ كاذب فى تكذيبك لموسى ، وفى إبائك الإيمان به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ ﴾

عاش المصـريون قديماً على ضفاف النيل ؛ لذلك يقـولون : مصر هِبَة النيل ، حـتى إذا ما انحـسر الماء بذروا البـذور وانتظروها طوال العام ، ليس لهم عمل ينشغلون به ، وهذه الحياة الرتيبة عوَّدتهم على شىء من الكسل ، إلا أنهم أحبُّوا هذا المكان ، ولو قلت لواحد منهم : اترك هذه الأرض لمدة يوم أو يومين يثور عليك ويغضب .

لذلك اسـتغلّ فـرعون ارتـباط قـومه بأرض مـصر ، وحـاول أن يسـتـعـدى هؤلاء الذين يمـثّـل عليـهم أنـه إلـه ، يسـتـعـديهـم على موسـى وهارون فقـال مقولته هذه ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ ﴾ [طه]

وهنا ثار القـوم ، لا لألوهيـة فرعـون المهـددة ، إنمـا دفاعـاً عن مـصلحتـهم الاقـتصـادية ، وما يـنتفـعون به علـى ضفـاف هذا النيل المبـارك ، الذى لا يضنّ عليهم فى فـيضانه ولا فى انحـساره ، فكان القوم يسمونه : ميمون الغَدَوات والروحَات ، يجرى بالزيادة والنقصان كجرْى الشمس والقمر ، له أوان .

وهكذا نقل فرعون مجال الخلاف مع موسى وهارون إلى رعيته ،

فأصبحت المسألة بين موسى وهارون وبين رعية فرعون ؛ لأنه خاف من كلام موسى وممّا يعرضه من قضايا إنْ فهمها القوم كشفوا زَيْفه ، وتنمَّروا عليه ، وثاروا على حكمه ، ورفضوا ألوهيته لهم ، فأدخلهم طرفاً فى هذا الخلاف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ ﴾

فسمَّى فرعون ما جاء به موسى سِحْراً ؛ لذلك قال ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [طه] وهذه التسمية خاطئة فى حق موسى ، وإنْ كانت صحيحة بالنسبة لقوم فرعون . فما الفرق - إذن - بين ما جاء به موسى وما جاء به قوم فرعون ؟

السحر لا يقلب حقيقة الشيء ، بل يظل الشيء على حقيقته ، ويكون السحر للرائى ، فيرى الأشياء على غير حقيقتها ، كما قال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ .. ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف] فلما ألقى السحرةُ حبالهم كانت حبالاً فى الحقيقة ، وإنْ رآها الناظر حيّات وثعابين تسعى ، أما عصا موسى فعندما ألقاها انقلبت حية حقيقية ، بدليل أنه لما رآها كذلك خاف منها .

وقوله : ﴿ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنتَ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [طه] أى : نتفق على موعد لا يُخلفه واحد منّا ﴿ مَكَانًا سُوًى

(٥٨) ﴾ [طه] أى : مُسْتوياً ؛ لأنه سيكون مشهداً للناس جميعاً فتستوى فيه مرائى النظارة ، بحيث لا تحجب الرؤية عن أحد . أو (سُوىً) يعنى : سواء بالنسبة لنا ولك ، كما نقول : نلتقى فى منتصف الطريق ، لا أنا أتعب ولا أنت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾

معلوم أن الحدث يحتاج إلى مُحدِث له ، ويحتاج إلى مكان يقع عليه ، ويحتاج إلى زمان يحدث فيه ، وقد عرفنا المحدث لهذا اللقاء ، وهما موسى وهارون من ناحية ، وفرعون وسحرته من ناحية .

وقد حدد فرعون المكان ، فقال ﴿مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ ﴾ [طه] بقى الزمان لإتمام الحدث ؛ لذلك حدده موسى ، فقال : ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [طه] ؛ لأن الحدث لا يتم إلا فى زمان ومكان .

لذلك لا نقول : متى الله ولا : أين الله ؟ فالحق - تبارك وتعالى - ليس حَدَثاً ، ومتى وأين مخلوقة لله تعالى ، فكيف يحدُّه الزمان أو المكان ؟

وقول موسى ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [طه] ولم يقُلْ : يوم الاثنين أو الثلاثاء مثلاً ، ويوم الزينة يوم يجتمع فيه كل سُكَّان مصر ، يظهر أنه يوم وفاء النيل ، فيخرجون فى زينتهم مسرورين بفيضان النيل وكثرة خيره وبركاته ، وما زالت مصر تحتفل بهذا اليوم .

وكان القاضى لا يقضى بأمر الخراج إلا بعد أنْ يطّلع على مقياس النيل ، فإنْ رآه يُوفى برىَّ البلاد حدَّد الخراج وإلاَّ فلا .

لكن ، لماذا اختار موسى هذا اليوم بالذات ؟ لماذا لم يحدد أى يوم آخر ؟ ذلك ؛ لأن موسى - عليه السلام - كان على ثقة تامة بنصر الله له ، ويريد أن تكون فضيحة فرعون على هذا الملأ ، ووسط هذا الجمع ، فمثَّل هذا التجمع فرصة لا يضيعها موسى ؛ لأن النفس فى هذا اليوم تكون مسرورة منبسطة ، فهى أقرب فى السرور لقبول الحق من أىِّ وقت آخر .

وقوله : ﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩)﴾ [طه] أى : ضاحين ، ويوم الزينة يمكن أن يكون فى الصباح الباكر ، أو فى آخر النهار ، لكن موسى متمكِّن واثق من الفوز ، يريد أن يتم هذا اللقاء فى وضح النهار ، حتى يشهده الجميع .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠)﴾

تولى : أى : ترك موسى وانصرف ليُدبِّر شأنه ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ ..(٦٠)﴾ [طه] الكيد : التدبير الخفى للخَصْم ، والتدبير الخفىّ هنا ليس دليلَ قوة ، بل دليل ضَعْف ؛ لأنه لا قوةَ له على المجابهة الواضحة ، مثل الذى يدسُّ السُّم للآخر لعدم قدرته على مواجهته .

إذن : الكيد دليل ضَعْف ؛ لذلك نفهم من قوله تعالى عن النساء : ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨)﴾ [يوسف] أنه ليس دليلاً على قوة المرأة ، إنما دليلٌ على ضعفها ، فكما أن كيدهُنَّ عظيم ، فكذلك ضعفهُن عظيم .

فمعنى ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ ..(٦٠)﴾ [طه] أدار فِكْره على ألوان الكَيْد

المختلفة ، ليختار منها ما هو أنكَى لخَصْمه ، كما جاء فى آية أخرى فى شأن نوح عليه السلام ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ .. (٧١)﴾ [يونس]

وكأن الأمر الذى هو بصدده يتطلب وجهات نظر متعددة : نفعل كذا ، أو نفعل كذا ؟ ثم ينتهى من هذه المشاورة إلى رأى يجمع كل الاحتمالات ، بحيث لا يفاجئه شىء بعد أنْ احتاط لكل الوجوه .

فالمعنى : اتفقُوا على الخطة الواضحة التى تُوحِّد آراءكم عند تحقيق الهدف .

ومن ذلك قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ .. (١٥)﴾ [يوسف] . أى : اتفقوا على هذا الرأى ، وأجمعوا عليه ، بعد أن قال أحدهم ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. (٩)﴾ [يوسف] ، فكان الرأى النهائى أنْ يجعلوه فى غيابة الجب .

فهُمْ على أية حال سلالة نُبوة ، لم يتأصل الشرُّ فى طباعهم ؛ لذلك يتضاءل شرُّهم من القتل إلى الإلقاء فى متاهات الأرض إلى أهْوَن هذه الأخطار ، أنْ يُلْقوه فى الجُبِّ ، وهذه صفة الأخيار ، أما الأشرار الذين تأصل الشر فى نفوسهم وتعمّق ، فشرُّهم يتزايد ويتنامى ، فيقول أحدهم : أريد أنْ أقابل فلاناً ، فأبصق فى وجهه ، أو أضربه ، أو أُقطّعه ، بل رصاصة تقضى عليه فيُصعِّد ما عنده من الشر .

وبعد ذلك يرجُونَ له النجاة ، فيقولون : ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ .. (١٠)﴾ [يوسف]

ثم يقول تعالى فى شأن فرعون : ﴿ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠)﴾ [طه] أى : أتى الموعد الذى سبق تحديده ، مكاناً وزماناً .

ثم يُحدِّثنا الحق سبحانه عن وقائع هذا اليوم ، فيقول :

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم(١) بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ ﴾

لما رأى موسى السحرة أراد أنْ يُحذِّرهم ممَّا هم مُقبلون عليه ، وأنْ يعطيهم المناهى التى تمنعهم ، فذكَّرهم بأنَ لهم رباً سيحاسبهم كما تقول لشخص ، تراه مُقْدماً على جريمة ، لو فعلتَ كذا سأُبلغ عنك الشرطة ، وستُعاقب بكذا وكذا ، وتُذكّره بعاقبة جريمته .

﴿ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّه كَذبًا .. ﴿٦١﴾ ﴾ [طه] افترى أى : جاء بالفرْية ، وهى تعمُّد الكذب ﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [طه] يعنى : يستأصلكم بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ ﴾ [طه] أى : خسر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ ﴾

يبدو أن تخويفَ موسى لهم بقوله : ﴿ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّه كَذبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [طه] قد أثَّر فيهم وأخافهم ﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [طه] أخذوا يتساومون القَوْل ويتبادلون الآراء .

﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ ﴾ [طه] تحدثوا سراً ، وهذا دليل خوفهم من كلام موسى ، ودليل ما فيهم من استعداد للخير ، لكن انتهى رأيهم إلى الاستمرار فى الشوط إلى آخره .

---

(١) يسحتكم : يهلككم ويستأصلكم . [القاموس القويم ١/٣٠٤] .

﴿ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ ﴾

توقف العلماء طويلاً حول هذه الآية ، لأن فيها قراءتين[1] (إنْ هذان) بسكون (إنْ) والأخرى (إنَّ هذان) بالتشديد .

والقراءة التى نحن عليها قراءة حفص ﴿ إِنْ هَـٰذَانِ لَسَاحِرَانِ .. ﴿٦٣﴾ ﴾ [طه] و (إنْ) شرطية إنْ دخلت على الفعل ، كما نقول : إنْ زارنى زيد أكرمته ، وتأتى نافية بمعنى ما ، كما فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ .. ﴿٢﴾ ﴾ [المجادلة]

فالمعنى : ما أمهاتهم إلا اللائى وَلَدْنهم . كذلك فى قوله تعالى : ﴿ إِنْ هَـٰذَانِ لَسَاحِرَانِ .. ﴿٦٣﴾ ﴾ [طه] فالمعنى : ما هذان إلا ساحران ، فتكون اللام فى ﴿ لَسَاحِرَانِ .. ﴿٦٣﴾ ﴾ [طه] بمعنى إلا . كأنك قُلْتَ : ما هذان إلا ساحران .

وتأتى اللام بمعنى إلا ، إذا اختلفنا مثلاً على شىء ، كل واحد منّا يدَّعيه لنفسه ، فيأتى الحكم يقول : لَزَيدٌ أحقُّ به ، كأنه قال : ما هذا الشىء إلا لزيد . إذن : اللام تأتى بمعنى إلا .

وعلى القراءة الثانية بالتشديد (إنَّ هذان لساحران) فإنَّ حرف ناسخ ينصب المبتدأ ويرفع الخبر ، تقول : إنَّ زيداً مجتهدٌ ، أما فى الآية بهذه القراءة : (إنّ هذان لساحران) جاء اسم إنَّ هذان بالرفع

(١) هناك قراءة ثالثة أوردها القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣٨٩) قال : « قرأ أبو عمرو « إن هذين لساحران » ورويت عن عثمان وعائشة رضى الله عنهما وغيرهما من الصحابة وكذلك قرأ الحسن وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعى وغيرهم من التابعين ، ومن القراء عيسى بن عمر وعاصم الجحدرى ، فيما ذكر النحاس . وهذه القراءة موافقة للإعراب مخالفة للمصحف » .

بالألف ؛ لأنه مثنى ، والقاعدة تقتضى أن نقول (هذين) .

فكيف يتم توجيه إنَّ المشددة الناسخة وبعدها الاسم مرفوع ؟

قالوا : هذه لغة كنانة إحدى قبائل العرب ، وكان لكل قبيلة لهجتها الخاصة ولغتها المشهورة فيقولون : جعجعة خزاعة ، وطُمْطُمانيّة حِمْيَر[(١)] ، وتَلْتلة بَهْراء[(٢)] ، وفحفحة هذيل .. الخ .

ولما نزل القرآن نزل على جمهرة اللغة القرشية ؛ لأن لغات العرب جميعها كانت تصبُّ فى لغة قريش فى مواسم الحج والشعر والتجارة وغيرها ، فكانت لغة قريش هى السائدة بين لغات كل هذه القبائل ؛ لذلك نزل بها القرآن ، لكن الحق تبارك وتعالى أراد أن يكون للقبائل الأخرى نصيب ، فجاءت بعض ألفاظ القرآن على لهجات العرب المختلفة للدلالة على أن القرآن ليس لقريش وحدها ، ليجعل لها السيادة على العرب ، وإنما جاء للجميع .

ومن لهجات القبائل التى نزل بها القرآن لهجة كنانة التى تلزم المثنى الألف فى كل أحواله رَفْعاً ونَصْباً وجراً[(٣)] . وشاهدهم فى كتب النحو قول شاعرهم[(٤)] :

---

(١) الطمطمة : العُجْمة . ورجل طمْطم بالكسر ، أى : فى لسانه عُجمة لا يُفصح . وفى صفة قريش : ليس فيهم طُمْطمانية حمير ، شبَّه كلام حمير لما فيه من الألفاظ المنكرة بكلام العجم . [لسان العرب ـ مادة : طمطم] .

(٢) تلتلة بهراء : كسرهم تاء تِفْعلون يقولون : تِعْلمون وتِشْهدون ونحوه . [لسان العرب ـ مادة : تلل] .

(٣) هذا هو القول الأول من الأقوال الستة التى ذكرها القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣٩٠) لتوجيه قراءة « إنَّ هذان لساحران » وقال : هى لغة بنى الحارث بن كعب وزبيد وخثعم وكنانة بن زيد . وقال أبو جعفر النحاس : هذا القول من أحسن ما حملت عليه الآية ، إذ كانت هذه اللغة معروفة ، وقد حكاها من يرتضى علمه وأمانته .

(٤) نُسب هذا الشاهد لرؤبة بن العجاج ، ونسبه آخرون لأبى النجم الفضل بن قدامة العجلى ، وقيل : لبعض أهل اليمن . وانظر شرح شواهد ابن عقيل (ص ٧) ، وشرح شذور الذهب لابن هشام الأنصارى ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد (ص ٦٨) .

وَاهَـاً لسَلْمى ثُمَّ وَاهاً وَاهَا ... يَا ليْـتَ عَيْنـاهَا لَنَـا وَافَـاهَا

هـيَ المُنَى لَوْ أنَّنَا نلْنـاهَا ... ومَوْضـع الخُلْخَال من قَدمَاهَا

إنَّ أبَاهَــا وأبَــا أبَــاهَــا ... قَدْ بلغَـا فـى المجْد غَايتَاهَا

فقال : إنَّ أباها . ولم يقل : إنَّ أبيها ؛ لأنه يُلزِم المثنى الألف .

إذن : لم ينزل القـرآن بلغة قـريش على أنها لغـة سيـادة ، وإنما لأنهـا تنطوى على زُبْدة فصـاحات لغـات الجزيرة كلهـا ، وكانت لـغة قـريش تصـفَّى فى مـواسم الشـعـر والأدب فـى عكاظ وذى المـجنّة وغـيرها .

نعود إلي قول الحـق تبارك وتعالى : ﴿قَالُوا إِنْ هَـٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا .. (٦٣)﴾ [طه] ويبدو أن استعداء فـرعون لقومه على موسى وهارون جاء بنتيـجة ونالتْ حيلته من نفـوسـهم ؛ لذلك يُردِّدون نفس كـلام المـعلم الكـبيـر فـرعـون ، فيتهمون موسى وهارون بالسحر .

وقولهم : ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣)﴾ [طه] طريقتهم المثلى . أى : ما ارتضاه القوم للعيش عليه ، والمذهب والطريق الذى سلكوه . والمراد بالطريقة المثلى التى ساروا عليها أنهم اتخذوا واحداً منهم إلهاً يعبدونه ويأتمرون بأمـره ، تلك هى الطريقة المثلى[1] !! والمثلى : أى الفاضلة مُذكّرها أمثل .

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤)﴾

(١) وقد قال تعالى عـن فرعون انه قال : ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦)﴾ [غافر] . وقـال فى آية اخرى : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)﴾ [غافر] .

أى : تنبهوا واشحذوا كل أذهانكم ، وكل فنونكم ، وحركاتكم فى السحر حتى لا يتمكنا من هذين الأمرين : إخراجكم من أرضكم ، والقضاء على طريقتكم المثلى .

وهذا قَوْل بعضهم لبعض ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ .. (٦٤)﴾ [طه] فلا يُخفى أحد فناً من فنون السحر ، وليُقدّم كُلٌّ منّا ما عنده ؛ لأن عادة أهلِ الحِرَف أن يوجد بينهم تحاسد ، فلا يُظهر الواحد منهم كل ما عنده مرة واحدة ، أو يحاول أنْ يُخفى ما عنده حتى لا يطلع عليه الآخر ، لكن فى مثل هذا الموقف لا بُدَّ لهم من تضافر الجهود فالموقف حرِج ستعمُّ بلواه الجميع إنْ فشلنا فى هذه المهمة .

وقوله : ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا .. (٦٤)﴾ [طه] يعنى : مجتمعين كأنكم يد واحدة ، فهذا أهْيَبُ لكم وأدْخَلُ للرعب فى قلوب خصمكم ، كما أننا إذا جِئْنَا سوياً لم يتمكن أحد من التراجع ، فيكون بعضنا رقيباً على بعض .

﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤)﴾ [طه] أفلح : فاز ، كما فى قوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١)﴾ [المؤمنون] وهذا اللفظ مأخوذ من فلح الأرض ومنه الفلاحة ؛ لأن الفلاح إذا شقَّ الأرض أو حرثها ورعاها تعطيه خيرها ، فحركتُه فيها حركة ميمونة مباركة .

لذلك ، لما أراد الحق ـ تبارك وتعالى ـ أن يُبيِّن لنا مضاعفة الأجر والثواب على الصدقة وعلى فعل الخير ضرب لنا مثلاً بالزرع ، فقال تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة]

فإذا كانت الأرض وهى مخلوقة لله تعالى تعطى كل هذا العطاء ،

فما بالك بعطاء الخالق لهذه الأرض ؟ لذلك عقب المثل بقوله تعالى :
﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ .. ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة]

ثم أُخذَتْ كلمة الفلاح علَماً على كل فلاح ، ولو لم يكن فيه صلَة بالأرض ؛ لأن قصارى كل حركات الحياة أن تضمن للإنسان بقاء نَوْعه بالأكل ، والأرض مصدر هذا كله ، فكانت لذلك مصدراً للفوز .

وقوله : ﴿ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾ [طه] أى : طلب العُلو على خَصْمه . لكن هل الفلاَح يكون لمن طلب العلو أم لمن علا بالفعل ؟ طبعاً يكون لمن علا ، إذن : مَنْ عَلاَ بالفعل لا بُدَّ أنْ يشحذَ ذهْنه على أن يطلب العلو على خصمه ، فمهما علا الخصم استعلى عليه أى : طلب العُلو ، إذن : قبل علا استعلى .

ثم يقول الحق سبحانه عن السحرة :

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ ﴾

تُلْقى : ترمى . والمراد أن يرمى واحد منهم ما أعدّه من سحر ، فاختار موسى أنْ يُلْقُوا هم أولاً .

﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾

لأنهم إنْ ألقوا سِحْرهم كانت للعصا مهمة حين يلقيها موسى ، فأراد أن يكون للعصا حركة بعد أن تنقلب إلى ثعبان أو حية أو جان ، وإلا لو ألقى هو أولاً ، فماذا سيكون عملها ؟

وقد ألهم الله تعالى سحرة فرعون هذا الأدب فى معركتهم مع

موسى ، فخيَّروه بين أنْ يلقى هو ، أو يلقوا هُمْ ، والله ـ تبارك وتعالى ـ يحُول بين المرء وقلبه ، فألهمهم ذلك مع أنهم خصومه ، وأنطقهم بما يؤيد صاحب المعجزة الخالدة ، فقالوا : ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾ [طه]

وقد اختار موسى ـ عليه السلام ـ أنْ يُلقى أخيراً ؛ لأن التجربة التى مَرَّ بها فى طوى مع ربه ـ عز وجل ـ لما قال له ربه : ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [طه]

فلما ألقى موسى عصاه انقلبتْ إلى حيَّة تسعى ورأى هو حركتها ، لكن لم يكُنْ بهذه التجربة شىء تلقفه العصا ، فإذا ألقى موسى أولاً وتحوَّلَتْ العصا حية أو ثعباناً ، فما الفرق بينها وبين حبال السحرة التى تحولتْ أمامهم إلى حيَّات وثعابين ؟

إذن : لا بُدَّ من شىء يُميِّز عصا موسى كمعجزة عن سحْر السحرة وشعوذتهم ؛ لذلك اختار موسى أنْ يُلقى هو آخراً بإلهام من الله حتى تلقف عصاه ما يأفكون ، فما يُلقَف لا بُدَّ أن يسبق ما يَلْقُف .

فمن حيث الحركة أمام الناظرين لا فَرْقَ بين عصا موسى وحبال السحرة وعصيهم ، فكلها تتحرك ، إنما تميزت عصا موسى بأنها تلقف ما يصنعون من السحر ، وتتتبع حبالهم وعصيَّهم ، وتقفز هنا وهناك ، فلها ـ إذن ـ عَيْن تبصر ، ثم تلقف سحرهم فى جوفها ، ومع ذلك تظل كما هى لا تنتفخ بطنها مثلاً ، وهذا هو موضع المعجزة فى عصا موسى عليه السلام[1] .

(١) قال محمد بن إسحاق : جعلت ـ العصا ـ تتبع تلك الحبال والعصى واحدة واحدة ، حتى ما يرى بالوادى قليل ولا كثير مما ألقوا ، ثم أخذها موسى فإذا هى عصا فى يده كما كانت . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٣٧) .

وقوله تعالى : ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦)﴾ [طه] إذن : فحركة العصيّ والحبال ليستْ حركة حقيقية ، إنما هى تخيُّل ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ .. (٦٦)﴾ [طه] فيراها تسعى ، وهى ليست كذلك .

وقد قال تعالى عن هؤلاء السحرة : ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ .. (١١٦)﴾ [الأعراف] فجاءوا بأعمال تخيُّلية خادعة بأىِّ وسيلة كانت ، فالبعض يقول مثلاً : إنهم وضعوا بها الزئبق ، فلما حَمِيَتْ عليه الشمس تمدّد ، فصارتْ الأشياء تتلوّى وتتحرك ، فأياً كانت وسائلهم فهى مجرد تخيُّلات ، أمَّا الساحر نفسه فيراها حبَالاً على حقيقتها . وهذا هو الفرق بين سِحْر السحرة ، ومعجزة عصا موسى .

والسحر يختلف عن الحيَل التى تعتمد على خفَّة الحركة والألاعيب والخُدَع ، فالسحر أقرب ما يكون إلى الحقيقة فى نظر الرائى ، كما قال تعالى : ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ .. (١٠٢)﴾ [البقرة]

إذن : هو فَنٌّ يُتعلم ، يعطى التخييل بواسطة تسخير الجنِّ ، فهم الذين يقومون بكل هذه الحركات ، فهى - إذن - ليستْ حيلاً ولا خفة حركة ، إنما هى عملية لها أصول وقواعد تُدرَّس وتُتعلَّم .

والخالق - عز وجل - حينما يعرض علينا قضية السحر ، وأنه عبارة عن تَسخير الشياطين لخدمة الساحر ، ويجعل لكل منهما القدرة على مضرّة الآخرين : الساحر بالسحر ، والشياطين بما لديهم من قوة التشكّل فى الأشكال المختلفة والنفاذ من الحواجز ؛ لأن الجن خُلقُوا من النار ، والنار لها شفافية تنفذ خلال الجدار مثلاً .

أما الإنسان فَخُلِق من الطين ، والطين له كثافة ، وضربنا مثلاً

لنقرب هذه المسألة ، قلنا : هَبْ أنك تجلس خلف جدار ، ووراء هذا الجدار تفاحة مثلاً وهى من الطينية المتجمدة ، أيصل إليك من التفاحة شيء ؟ إنما لو خلف الجدار نار فسوف تشعر من خلال الجدار بحرارتها . هذه - إذن - خصوصيات جعلها الخالق عز وجل للشياطين فضلاً عن انهم يرونكُم من حيث لا ترونهم .

لكن ، كان من لُطْف القدير بنا أن جعل لنا ما يحمينا من الشياطين ، فجعل الحق - تبارك وتعالى - الجن حين يتشكّلون فى الأشكال المختلفة تحكمهم هذه الأشكال ، بمعنى لو أن الشيطان تشكّل لك في صورة إنسان فقد حكمتْه هذه الصورة ، فلو أطلقتَ عليه الرصاص فى هذه اللحظة لقتلتَه فعلاً .

لذلك ؛ فالشيطان يخاف منك أكثر مما تخاف منه ، ولا يظهرون لنا إلا ومضة ولمحة سريعة خَوْفاً أن يكون الرائى له على علْم بهذه المسألة فيمسك به وساعتها لن يفلت منك .

وقد أمسك النبى ﷺ شيطاناً وقال[1] : « لقد هممت أن أربطه بسارية المسجد ، يلعب به غلمان المدينة ، إلا أننى ذكرت دعوة أخى سليمان ﴿هَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِى .. (٣٥)﴾ [ص] » .

إذن : الحق سبحانه أعطاهم خصوصية التشكّل كما يحبون ، إنما قيدهم بما يتشكّلون به ، كأنه يقول له : إذا تركتَ طبيعتك وتشكَّلْت بصورة أخرى فارْضَ بأنْ تحكمك هذه الصورة ، وأن يتحكم فيك

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٤٢٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٥٤١) كتاب المساجد من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وتمامه : « إن عفريتاً من الجن تفلت علىَّ البارحة ليقطع علىَّ صلاتى ، فامكننى الله منه فاخذته فاردت أن اربطه على سارية من سوارى المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخى سليمان (رب هب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى) » .

الأضعف منك ، وإلا لَفزَّعوا الناس وأرهبوهم ، ولم نسلم من شرِّهم .

وكذلك الحال مع الساحر نفسه ، فلديه بالسحر والطلاسم أن يُسخِّر الجن يفعلون له ما يريد ، وهذه خصوصية تفوق بها قدرتُه قدرةَ الآخرين ، ولديه بالسحر فُرْصة لا تتوفر لغيره من عامة الناس ، فليس بينه وبينهم تكافؤ فى الفُرص .

والله عز وجل يريد لخَلْقه أنْ تتكافأ فُرَصهم فى حركة الحياة فيقول للساحر : إياك أن تفهم أن ما يسَّرته لك من تسخير الأقوى منك ليقدر على ما لا تقدر عليه يفيدك بشىء ، أو أنك أخذتَ بالسحر فرصةً على غيرك ، بل العكس هو الصحيح فلن تجنىَ من سحْرك إلا الضرر والشقاء ، فالسحر فتنة للإنسان ، كما أنه فتنة للجن .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ .. (١٠٢)﴾ [البقرة]

والفتنة هنا معناها أن نختبر استعماله لمدى مَا أعدَّه الله له ، أيستعمله فى الخير أم فى الشر ؟ فإنْ قُلْتَ : أتَعلَّم السحر لأستعمله في الخير . نقول : هذا كلامك ساعة التحمُّل ، ولا تضمن نفسك ساعة الأداء . كما قلنا سابقاً فى تحمُّل الأمانة حين تقبلها ساعة التحمل ، وأنت واثق من قدرتك على أدائها فى وقتها ، ومطمئنٌ إلى سلامة نيتك فى تحمُّلها ، أما وقت الأداء فربما يطرأ عليك ما يُغيِّر نيتك .

وكما جاء فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب]

فاخترْنَ التسخير على الاختيار وحَمْل الأمانة ؛ لأنهن لا يضمَنَّ القيام بها .

وقد أعذر الله تعالى إلى السحرة فى قوله : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ .. (١٠٢) ﴾ [البقرة]

كأن الساحر مآله إلى الكفر ؛ لأنه ابن أهواء وأغيار ، لا يستطيع أن يتحكّم فى نفسه فيُسخِّر قوة السحر فى الخير ، كما أن الله تعالى إذا أراد أن يُسخِّر القوى للخير : أيُسخِّر الطائع ؟ أم يُسخِّر العاصى ؟ سيُسخِّر الطائع ، والجن الطائع لا يرضى أبداً بهذه المسألة .

إذن : لن يستطيع الساحر إلا تسخير الجن العاصى ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ .. (١٢١) ﴾ [الأنعام]

لذلك تلاحظ أن كل الذين يشتغلون بهذه العملية على سَمْتهم الغضب ، وعلى سحنتهم آثار الذنوب وشُؤْمها ، ينفر منهم مَنْ رآهم ، يعيشون فى أضيق صور العيش ، فترى الساحر يأخذ من هذا ، ويأخذ من هذا ، ويبتز الناس ويخدعهم ، ومع ذلك تراه شحاذاً يعيش فى ضيق ، ويموت كافراً مُبْعَداً من رحمة الله حتى أولاده من بعده لا يَسْلَمون من شُؤْمه ، وصدق الله العظيم حين قال : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ[1] بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) ﴾ [الجن]

كما أن فى حياة السحرة لفتة ، يجب أن نلتفت إليها ، وهى أن السحرة الذين يصنعون السحر للناس ويخدعونهم : من أين يرتزقون ؟ من عامة الناس الذين لا يفهمون فى السحر شيئاً ، ولو

---

(١) قال السدى : كان الرجل يخرج بأهله فيأتى الأرض فينزلها فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادى من الجن أن أُضَرّ أنا فيه أو مالى أو ولدى أو ماشيتى . قال ابن كثير فى تفسيره (٤٢٨/٤) : « فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقاً أى خوفاً وإرهاباً وذعراً حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذاً بهم » .

أنه أفلح بالسحر لأغنى نفسه عن أنْ تمتد يده إلى هذا ، فيأخذ منه عدة جنيهات ، وإلى هذا يطلب منه أشياء غريبة يُوهمه أن مسألته لن تُحَلّ إلا بها .

ولماذا لم يستخدم سحره فى سرقة خزينة مثلاً ويريح نفسه من هذا العناء ، وإنْ قال : كيف وهى أموال الناس والسطو عليها سرقة ، فليذهب إلى الرِّكاز(١) وكنوز الأرض فليست مملوكة لأحد .

نعود إلى سحرة فرعون ؛ أيًا كان سحرهم أمِنْ نوع الألاعيب وخِفّة الحركة وخداع الناظرين ؟ أم من نوع السحر الذى علّمته الشياطين من زمن سليمان ـ عليه السلام ـ فهو سحر لن يقف أمام معجزة باهرة جاءت على يد موسى لإثبات صدقه .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾

أوجس : من الإيجاس ، وهو تحرّك شىء مخيف فى القلب لا يتعدّى إلى الجوارح ، فإنْ تعدى إلى الجوارح يتحول إلى عمل نزوعى ، كأن يهرب أو يجرى ، فالعمل النزوعى يأتى بعد الإحساس الوجدانى ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ فِي نَفْسِهِ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [طه]

وقد شعر موسى عليه السلام بالخوف لما رأى حبال السحرة وعصيّهم تتحول أمام النظارة إلى حيّات وثعابين ، وربما اكتفى

---

(١) الركاز : ما فى الأرض من المعادن فى حالتها الطبيعية . [المعجم الوجيز ـ مادة : ركز]
وذهب أحمد بن حنبل إلى أنه كل ما خرج من الأرض مما يخلق فيها من غيرها ، مما له قيمة مثل : الذهب والفضة والحديد والنحاس والقار والنفط ونحو ذلك . ودليل وجوب الزكاة فى الركاز قوله ﷺ : « فى الركاز الخمس » أى ٢٠٪ راجع : فقه السنة (١/ ٣٥٤ - ٣٥٧) .

المشـاهدون بما رأوْه فـهرجوا عليـه وأنهوا الموقف عـلى هذا قبل أنْ يتمكّن هو مـن عمل شيء . فإنْ قُلْت : فلمـاذا لم يُلْقِ عصـاه وتنتهى المسـألة ؟ نقول : لأن أوامـره من الله أولاً بأول ، وهو معه يـتتبـعه سماعاً ورؤية ، فتأتيه التعاليم جديدة مباشرة .

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾

هذا حكم لله عـز وجل يأتى موسى على هيـئة برقـية مـختـصرة ﴿ أَنتَ الأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾[طه] أنت المنصـور الفائز فـاطمئن ، لكن تتـحرك فى موسى بشريته : منصور كيف ؟

وهنا يأتيه الأمر الـعملى التنفيذى بعد هذا الـوعد النظرى ، وكأن الحق سبحانه متتبع لكل حركـات نبيه موسى ، ولم يتركه يباشر هذه المسألة وحـده ، إنما كان معـه يسمع ويرى ، فيردُّ على السـماع بما يناسبـه ، ويردُّ على الرؤية بما يناسبـها . ودائماً يرهف النبى سمـعه وقلبه إلى ما يُلْقى عليه من توجيهات ربه عز وجل ؛ لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه]

فسيـأتيك الرد المناسب فى حينه . إذن : الحق سبحـانه لم يخبر موسى بمهمـته مع فرعون ثم تركه يباشرها بـنفسه ، وإنما تمَّتْ هذه المسألة بتوجيهات مباشرة من الله تعالى .

﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾

وهذا أصل المعجزة فى عصا موسى ، أن تلقف وتبتلع ما يأفكون من السـحر وكلمـة ﴿ تَلْقَفْ .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [طه] تعطيك الصـورة الحركـية السريعة التى تُشبـه لمح البصر ، تقول : تلقفتُـه يعنى أخذتُه بسرعة

وشدة ، وهذه هي العلّة في العصا أن تلقف ما صنعوا من السحر ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ .. (٦٩)﴾ [طه] والكَيْد : التدبير الخفيّ للتغلُّب على الخَصْم ، لكن ماذا يفعل كَيْد الساحر وألاعيبه وتلفيقه أمام قدرة الرب تبارك وتعالى ؟

ثم يقول تعالى : ﴿وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩)﴾ [طه] سبق أنْ تكلّمنا في مسألة فَلاَح الساحر ، وأنه مهما أُوتِي من قدرة على تسخير الجن لعمل شيء فوق طاقة الإنس ، فلن يعطيه ذلك مَيْزةً على غيره ، ولن تكون له قدرة على شيء .

فإياكم أن تظنوا أن الله تعالى ملَّك مصالحكم لهؤلاء ، صحيح هو يفعل ، أما الإصابة والأذى فبإذن الله وتحت عنايته : ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ .. (١٠٢)﴾ [البقرة] وهذه القضية لا تنسحب على الساحر فحسب ، إنما على الوجود كله ، وإلى أنْ تقوم الساعة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠)﴾

قال الزجاج[1] في هذا الموقف : عجيب أمر هؤلاء ، فقد ألقوا حبالهم وعصيِّهم للكفر والجحود ، فإذا بهم يُلْقُون أنفسهم للشكر والسجود .

نعم ، لقد دخلوا كافرين فجرة فخرجوا مؤمنين بررة[2] ، لأنهم

(١) هو : إبراهيم بن السرى بن سهل أبو إسحاق الزجاج ، عالم بالنحو واللغة ، ولد ٢٤١ هـ ومات في بغداد ٣١١ هـ ، كان في فتوته يخرط الزجاج ومال إلى النحو ، أدَّب القاسم ولد عبيد الله بن سليمان وزير المعتضد العباسي . [الأعلام للزركلي ١/ ٤٠]

(٢) قال ابن عباس وعبيد بن عمير : كانوا أول النهار سحرة ، وفي آخر النهار شهداء بررة . [أورده ابن كثير في تفسيره ٣/١٥٨] .

جاءوا بكل ما لديهم من الكَيْد ، وجمعوا صَفْوة السحر وأساتذته ممنْ يَعْلمون السحر جيداً ، ولا تنطلي عليهم حركات السحرة وألاعيبهم ، فلما رأَوا العصا وما فعلتْ بسحرهم لم يخالطهم شكٌّ في أنها معجزة بعيدة عَمّا يصنعونه من السحر ؛ لذلك سارعوا ولم يترددوا في إعلان إيمانهم بموسى وهارون .

وهذا يدلُّنا على أن الفطرة الإيمانية في النفس قد تطمسها الأهواء ، فإذا ما تيقظتْ الفطرة الإيمانية وأُزيلَتْ عنها الغشاوة سارعتْ إلى الإيمان وتأثرتْ به .

لقد سارع السحرة إلى الإيمان ، وكان له هَوىً في نفوسهم ، بدليل أنهم سيقولون فيما بعد : ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ.. (٧٣)﴾[طه] فكانوا مكرهين ، كانوا أيضاً مُسخَّرين ، بدليل قولهم : ﴿.. إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣)﴾ [الأعراف]

كأنهم كانوا لا يأخذون على السحر أجراً ، فلما كانت هذه المهمة صعبة طلبوا عليها أجراً ، فهي معركة تتوقف عليها مكانته بين قومه ، أما ممارستهم للسحر إرهاباً للناس وتخويفاً لمن تُسوِّل له نفسه الخروج والتمرد على فرعون ، فكان سُخْرة ، لا يتقاضَوْن عليه أجراً .

لذلك لم يعارض فرعون سحرته في طلبهم ، بل زادهم منحة أخرى ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤)﴾ [الأعراف] فسوف تكونون سدنة الفرعونية ، يريد أنْ يشحن هِمَمهم ، ويشحذَ عزائمهم ، حتى لا يدخروا وُسْعاً في فَنِّ السحر في هذه المعركة .

إذن : فطباعهم وفطرتهم تأبى هذا الفعل ، وتعلم أنه كذب

وتلفيق ، لكن مـاذا يفعلون وكبيرهم يأمـرهم به ، بل ويُكرههم عليه ، ويلزمهم أنْ يُعلِّموا غيرهم[1] ، لماذا ؟ لأن السحر والشعوذة والتلفيق هي رأس ماله وبضاعته التي يسعى إلى ترويجها ، فعليها يقوم مُلْكه وتُبْنى ألوهيته .

وقوله تعالى : ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا .. (٧٠) ﴾ [طه] فَرْق بين ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الشعراء] وهذا منهم عمل اختياري ، وبين ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا .. (٧٠) ﴾ [طه] : يعني على غير اختيارهم وعلى غير إرادتهم ، كأن صَوْلة الحق فاجأتْ صحوة الفطرة ، فلم يملكوا إلا أنْ خرُّوا لله ساجدين ، فالإلقاء هنا عمل تلقائي دون تفكير منهم ودون شعور ، فقد فاجأهم الحق الواضح والمعجزة الباهرة في عصا موسى ، لأنها ليستْ سِحْراً فهم أعلم الناس بالسحر .

ونلحظ في هذه الآية أنها جاءت بصيغة الجمع : أُلقي السحرةُ ، قالوا ، آمنا . لتدل على أنهم كانوا يَداً واحدة لم يشذْ منهم واحد ، مما يدل على أنهم كانوا مكرهين مُسخَّرين .

كما أن إعلان إيمانهم جاء بالفعل المرئي المشاهد للجميع ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا .. (٧٠) ﴾ [طه] ، ثم بالقول المسموع ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) ﴾ [طه] وفي آية أخرى : ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ (٤٨) ﴾ [الشعراء]

ونعلم أن موسى ـ عليه السلام ـ هو الأصل ، ثم أُرسِل معه أخوه هارون ، ولما عرضَ القرآن موقف السحرة مع موسى حكى

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ .. (٧٣) ﴾ [طه] قال : أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل فامر أن يعلموا السحر بالعوماء ، وقال : علموهم تعليماً لا يغلبهم أحد في الأرض . أورده السيوطي في [الدر المنثور ٥/٥٨٧] .

قولهم : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾ [طه] وقولهم : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۝٤٨﴾ [الشعراء]

لذلك كانت هذه المسألة مثارَ جَدَل من خصوم الإسلام ، يقولون : ماذا قال السحرة بالضبط ؟ أقالوا الأولى أم الثانية ؟

ولك أن تتصور جمهرة السحرة الذين حضروا هذه المعركة ، فكان رؤساؤهم وصفوتهم سبعين ساحراً ، فما بالك بالمرؤوسين ؟ إذن : هم كثيرون(١) ، فهل يُعقل مع هذه الكثرة وهذه الجمهرة أن يتحدوا فى الحركة وفى القول ؟ أم يكون لكل منهم انفعاله الخاص على حَسْب مداركه الإيمانية ؟

لا شكَّ أنهم لم يتفقوا على قول واحد ، فمنهم مَنْ قال ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾ [طه] وآخرون قالوا : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۝٤٨﴾ [الشعراء]

كذلك كان منهم سطحىّ العبارة ، فقال ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۝٤٨﴾ [الشعراء] ولم يفطن إلى أن فرعون قد ادّعى الألوهية وقال أنا ربكم الأعلى فربما يُفهم من قوله ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۝٤٨﴾[الشعراء] أنه فرعون ، فهو الذى ربّى موسى وهو صغير .

وآخر قد فطن إلى هذه المسألة ، فكان أدقَّ فى التعبير ، وأبعد موسى عن هذه الشبهة ، فقال : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾ [طه] وجاء أولاً بهارون الذى لا علاقة لفرعون بتربيته ، ولا فضل له عليه ، ثم جاء بعده بموسى .

---

(١) اختُلف فى عدد السحرة . قال محمد بن كعب : كانوا ثمانين ألفاً . وقال القاسم بن أبى بَرة : كانوا سبعين ألفاً . وقال السدى : بضعة وثلاثين ألفاً وقال كعب الأحبار : كانوا اثنى عشر ألفاً . وعن ابن عباس : كانت السحرة سبعين رجلاً . [أورد هذه الأقوال ابن كثير فى تفسيره (٣/١٥٨)] .

إذن : هذه أقوال متعددة ولقطات مختلفة لمجتمع جماهيرى لا تنضبط حركاته ، ولا تتفق تعبيراته ، وقد حكاها القرآن كما كانت فليس لأحد بعد ذلك أن يقول : إنْ كان القول الأول صحيحاً ، فالقول الآخر خطأ أو العكس .

وما أشبه هذا الموقف الآن بمباراة رياضية يشهدها الآلاف ويُعلِّقون عليها ، تُرى أتتفق تعبيراتهم فى وصف هذه المباراة ؟

نقول : إذن ، تعددت اللقطات وتعددت الأقوال للقصة الواحدة لينقل لنا القرآن كل ما حدث .

ثم يقص الحق سبحانه رد فعل فرعون على ما حدث ، فيقول :

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾

طبيعى أن يشتاط فرعون غضباً بعدما سمعه من سحرته ، فقد جمعهم لينصروه فإذا بهم يخذلونه ، بل ويُقوِّضون عرشه من أساسه فيؤمنون بإله غيره ، ويا ليتهم لما خذلوه سكتوا ، إنما يعلنونها صريحة عالية مدوية : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه]

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ .. ﴿٧١﴾﴾ [طه] فمع الخيبة التى مُنى بها ما يزال يتمسك بفرعونيته وألوهيته ، ويهرب من الاستخزاء الذى حاق به ، يريد أن يعطى للقوم صورة المتماسك الذى لم تُؤثّر فيه

هذه الأحداث ، فقال ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ .. (٧١)﴾ [طه] فأنا كبيركم الذى علّمكم السحر ، وكان عليكم أنْ تـحترموا أستاذيته ، وقد كنت سآذنُ لكم .

وكلمة (آمنتم) مادتها : أَمِنَ . وقد أخذت حـيزاً كبيراً فى القرآن الكريم ، والأصل فـيهـا : أمِنَ فلانٌ أمناً يعنى : اطمـأن . فليس هناك ما يُخـوِّفه . لكن هذه المـادةَ تأتى مرة ثلاثية (أَمِـنَ) وتأتى مزيدة بالهمزة (آمن) .

وهذا الفعل يأتـى متعـدياً إلى المفعـول مباشـرة ، كمـا فى قوله تعالى ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)﴾ [قريش] يعنى : آمن سكان مكة من الخوف .

وقد يتعدى بالباء كمـا فى : آمنت بالله ، أو يتعدى باللام كما فى قوله تعالى : ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ .. (٨٣)﴾ [يونس] وآمن له يعنى : صدَّقه فيما جاء به .

إذن : لدينا : آمَنَهُ يعنى أعطاه الأمن ، وآمـن به : يعنى اعتـقده ، وآمن له : يعنى صدَّقه .

وقد تأتى أمن وآمن بمعنى واحـد ، كما فى قول سيـدنا يعقوب : ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ .. (٦٤)﴾ [يوسف]

فلماذا اختلفت الصيغة من آمن إلى أمن ؟

قالوا : لأن قوله ﴿كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ .. (٦٤)﴾ [يوسف] كانت تجربة أولى ، فجاء الفعل (أمن) مُجرّداً على خلاف الحال فى المرة الثانية ، فقد احتـاجت إلى نوع من الاحتياط للأمر ، فقال ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ .. (٦٤)﴾ [يوسف] فزاد الهمزة للاحتياط .

فمعنى قول فرعون : ﴿آمَنتُمْ لَهُ .. (٧١)﴾ [طه] يعنى أى : صدَّقتموه .

وتأمل هنا بلاغة القرآن فى هذا التعبير ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ .. (٧١)﴾ [طه] ومَنِ الذى يقولها ؟ إنه فرعون الآمر الناهى فى قومه يتحدث الآن عن الإذن . وفَرْق بين أمر وإذن ، أمر بالشىء يعنى : أنه يحب ما أمر به ، ويجب عليك أنت التنفيذ . أما الإذن فقد يكون فى أمر لا يحبه ولا يريده ، فهو الآن يأذن ؛ لأنه لا يقدر على الأمر .

وما دُمْتُمْ قد آمنتم له قبل أن آذن لكم فلا بُدَّ أن يكون هو كبيركم الذى علّمكم السحر ، فكان وفاؤكم له ، واحترمتم هذا الكِبَر وساعدتموه على الفوز .

وهذا من فرعون سوء تعليل لواقع الإيمان ، ففى نظره أن موسى تفوّق عليهم ، لا لأنه يُجيد فنَّ السحر أكثر منهم ، إنما تفوّق عليهم لأنهم جاملوه وتواطأوا معه ؛ لأنه كبيرهم ومُعلِّمهم .

لذلك يتهدَّدهم قائلاً : ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ .. (٧١)﴾ [طه]

جاء هذا التهديد والوعيد جزاءً لهم ؛ لأنهم ـ فى نظره ـ هزموه وخذلوه فى معركته الفاصلة أمام موسى عليه السلام ، ومعنى : ﴿مِّنْ خِلَافٍ .. (٧١)﴾ [طه] الخلاَف أن يأتى شىء على خلاف شىء آخر ، والكلام هنا عن الأيدى والأرجل ، فيكون المراد اليد اليمنى مع الرِّجْل اليسرى ، أو اليد اليُسْرى مع الرِّجْل اليُمْنى .

وقوله : ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ..(٧١)﴾ [طه] المعروف أن التَّصْليب يكون على الجذوع ؛ لذلك حاول بعض المفسرين الخروج من

هذا الإشكال فقالوا : (فى) هنا بمعنى (على) . لكن هذا تفسير لا يليق بالأسلوب الأعلى للبيان القرآنىّ ، ويجب أن نتفق أولاً على معنى التصليب : وهو أن تأتى بالمصلوب عليه وهو الخشب أو الحديد مثلاً ، ثم تأتى بالشخص المراد صلْبه ، وتربطه فى هذا القائم رباطاً قوياً ، ثم تشدّ عليه بقوة .

ولك أنْ تُجرِّب هذه المسألة ، فتربط مثلاً عود كبريت على إصبعك ، ثم تشدُّ عليه الرباط بقوة ، وسوف تجد أن العود يدخل فى اللحم ، ساعتها تقول : العود فى إصبعك ، لا على إصبعك .

إذن قوله تعالى : ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ .. (٧١) ﴾ [طه] (فى) هنا على معناها الأصلى للدلالة على المبالغة فى الصلْب تصليباً قوياً ، بحيث يدخل المصلوب فى المصلوب فيه ، كأنه ليس عليه ، بل داخل فيه .

ثم يقول : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) ﴾ [طه] أينا : المراد فرعون وموسى ، أو فرعون ورب موسى الذى أرسله ﴿ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) ﴾ [طه] فجمع فى العذاب شدته من حيث الكيفية ، ودوامه وبقاءه فى الزمن . ولم يذكر القرآن شيئاً عن تهديد فرعون ، أفعله أم لا ؟ والأقرب أنه نفّذ ما هدد به .

وكان من المفروض فى تهديد فرعون أن يأخذ من قلوب السَّحرة ويُرهبهم ، فيحاولون على الأقل الاعتذار عمَّا حدث . لكن شيئاً من هذا لم يحدث ، بل قالوا ما أهاجه أكثر :

﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) ﴾

الإيثار : تفضيل شيء على شيء في مجال متساوٍ تقول : آثرتُ فلاناً على فلان ، وهما في منزلة واحدة ، أو أن معك شيئاً ليس معك غيره ، ثم جاءك فقير فآثرْتَهُ على نفسك .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. (٩)﴾ [الحشر]

فقولهم : ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا .. (٧٢)﴾ [طه] لأنه قال ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١)﴾ [طه] أنا أمْ موسى ؟ فالمعركة في نظره مع موسى ، فأرادوا أنْ يُواجهوه بهذه الحقيقة التي اتضحتْ لهم جميعاً ، وهي أن المعركة ليستْ مع موسى ، بل مع آيات الله البينات التي أُرسِل بها موسى ، ولن نُفضّلك على آيات الله التي جاءتْنا واضحة بيِّنة .

ولما رأى السحرة معجزة العصا كانوا هم أكثَر القوم إيماناً ، وقد وَضُحَ عُمْق إيمانهم لما قالوا : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠)﴾ [طه] ولم يقولوا : آمنا بموسى وهارون ، إذن : فإيمانهم صحيح صادق من أول وَهْلة .

وقد تعرضنا لهذه المسألة في قصة سليمان مع ملكة سبأ ، حين قالت : ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾ [النمل] فأنا وهو مسلمان لله ، ولم تقل : أسلمت لسليمان ، فهناك رب أعلى ، الجميع مُسلِّم له .

إذن : فقوْل السَّحَرة لفرعون : ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا .. (٧٢)﴾ [طه] تعبير دقيق وواعٍ وحكيم ، لا تلحظ فيه ذاتيةَ موسى . إنما تلحظُ البينة التي جاء بها موسى من الله .

لذلك يقول تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ[1] حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) ﴾ [البينة] ثم يُبيِّن عند مَنْ جاءت البينة : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) ﴾ [البينة]

فالارتقاء من الرسول إلى البينة إلى مَنْ أعطى له البينة ، فهذه مراحل ثلاث .

والبينات : هي الأمور الواضحة التي تحسم كل جَدَلٍ حولها ، فلا تقبل الجدل والمهاترات ؛ لأن حجتها جليّة واضحة .

وقولهم : ﴿ وَالَّذِي فَطَرَنَا .. (٧٢) ﴾ [طه] أي : ولن نُؤثرك أيضاً على الله الذي فطرنا ، أو تكون ﴿ وَالَّذِي فَطَرَنَا .. (٧٢) ﴾ [طه] قسَم على ما يقولون ، كما تقول : لن أفعل كذا والذي خلقك ، فأنت تُقسِم ألاَّ تفعل هذا الشيء .

وهذه حيثية عدم الرجوع فيما قالوه وهو الإيمان بربٍّ هارون وموسى .

ثم لم يَفُتْهم الإشارة إلى مسألة التهديدات الفرعونية : ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ .. (٧١) ﴾ [طه]

لذلك يقولون : ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ .. (٧٢) ﴾ [طه] أي : نفِّذ ما حكمتَ به من تقطيع الأيدي والأرجل ، أو اقْضِ ما أنت قاض من أمور أخرى ، وافعل ما تريد فلم تعُدْ تخيفنا هذه التهديدات ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) ﴾ [طه]

---

(١) انفكَّ : انفصل وزال وفارق ما كان عليه . قال تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ .. (١) ﴾ [البينة] أي : زائلين ومنفصلين عما هم فيه حتى جاءتهم البينة . [القاموس القويم ٢/٨٧] .

فأنت إنسـان يمكن أن تموتَ فى أى وقت ، فـما تقـضى إلا مُدَّة حياتك ، وربما يأتى من بعدك مَنْ هو أفضل منك فلا يدّعى ما ادَّعيْته من الألوهية .

وهَبْ أن مَنْ جاء بعدك كان على شاكلتك ، فحياته أيضاً منتهية ، وحتى لو ظَلَّ مـا سننته للناس من ادعـاء الألوهية إلى يوم القيـامة ، وامتدّ طغـيان غيرك من بعدك ، فـالمسألة ستنتهى ، ولو حـتى بقيام الساعة .

كما سبق أن قُلْنا : إن نعـيم الدنيا مهما بلغ فيتـهدده أمران : إما أن تفـوته أو يفـوتك ، أما نـعيم الآخـرة فنعـيم بَاقٍ دائم ، لا تفـوته ولا يفوتك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾

فما دُمْنا رجعنا من الإيمان بالبشـر إلى الإيمان بخالق البشر ، فهذا رُشْدٌ فى تفكيرنا لا يصح أنْ تلومـنَا عليه ، ثم أوضـحوا حيثـية إيمانـهم ﴿ لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [طه] فالإيمان بالله سينفعنا ، وسيغفر لنا الخطايا وهى كثيرة ، وسيغفر لنا ما أكرهتنا عليه من مسألة السحـر ، فقد صنعوا السحر مُكْرهين ، ومارسـوه مُجْبَرين ، فهو عمل لا يوافق طبيعتهم ولا تكوينهم ولا فطرتهم .

وما أكثر ما يُكْره الناس على أمـور لا يرضونها ، وينفذون أوامر وهم غير مـقتنعين بها ، خاصـة فى عصور الطُّغَاة والجـبّارين ، وقد سمعنا كثيراً عن السَّجانين فى المعتقلات ، فكان بعضـهم تأتيه الأوامر

بتعذيب فلان ، فماذا يفعل وهو يعلم أنه برىء مظلوم ، ولا يطاوعه قلبه فى تعذيبه ، فكان يدخل على المسجون ويقول له : اصرخ بأعلى صوتك ، ويُمثِّل أنه يضربه .

ثم يقولون : ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣)﴾ [طه] فأنت ستزول ، بل دنياك كلها ستزول بمَنْ جاء بعدك من الطُّغَاة ، ولن يبقى إلا الله ، وهو سبحانه يُمتِّع كل خَلْقه بالأسباب فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلن يعيشوا بالأسباب . إنما بالمسبب عز وجل دون أسباب .

لذلك إذا خطر الشىء ببالك تجده بين يديك ، وهذا نعيم الآخرة ، ولن تصل إليه حضارات الدنيا مهما بلغتْ من التطور .

لذلك فى قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا .. (٢٤)﴾[يونس] . فمهما ظَنَّ البشر أنهم قادرون على كل شىء فى دُنْياهم فهم ضُعفاء لا يستطيعون الحفاظ على ما توصَّلوا إليه .

إذن : اجعل الله ـ تبارك وتعالى ـ فى بالك دائماً يكُنْ لك عوضاً عن كل فائت ، واستح أنْ يطلع عليك وأنت تعصيه . وقد ورد فى الحديث القدسى : «إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم فالخلل فى إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم ؟! »[1] .

ولما سُئل أحد العارفين : فيم أفنيتَ عمرك ؟ قال : فى أربعة أشياء : علمتُ أنِّى لا أخلو من نظر الله تعالى طَرْفة عَيْن ، فاستحييتُ أن أعصيه ، وعلمتُ أن لى رزْقاً لا يتجاوزنى وقد ضمنه الله لى فقنعتُ به ، وعلمتُ أن علىَّ ديَناً لا يُؤدِّيه عنِّى غيرى فاشتغلتُ به ، وعلمتُ أن لى أجَلاً يبادرنى فبادرته .

---

(١) بالبحث فى كتب الحديث تبين عدم ثبوت حديث بهذا اللفظ ، وإنما ثبتت جملة من هذا الحديث على لسان بعض العارفين ، حيث جاء فى كتاب « حلية الأولياء » (٨/ ١٤٢) قال رجل لوهيب بن الورد قال . اتق الله أن يكون الله أهون الناظرين إليك ، وجاء فى كتاب جامع العلوم والحكم (١/ ٣٦) قال بعض العارفين : اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك .

وقد شرح أحد العارفين هذه الأربع ، فقال : اجعل مراقبتك لمن لا تخلو عن نظره إليك ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل خضوعك لمَنْ لا تخرج عن مُلْكه وسلطانه .

وهكذا جمعتْ هذه الأقوالُ الثمانية الدينَ كله .

ثم يُقدِّم السحرة الذين أعلنوا إيمانهم حيثيات هذا الإيمان ، فقالوا :

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ ﴾

قوله : ﴿ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [طه] يعنى مُجرِّماً عمل الجريمة ، والجريمة أنْ تكسر قانوناً من قوانين الحق ـ عز وجل ـ كما يفعل البشر فى قوانينهم ، فيضعون عقوبة لمَنْ يخرج عن هذه القوانين ، لكن ينبغى أن تُعيَّن هذه الجريمة وتُعلَن على الناس ، فإذا ما وقع أحد فى الجريمة فقد أعذر من أنذر .

إذن : لا يمكن أن تعاقب إلا بجريمة ، ولا توجد جريمة إلا بنص .

وقوله : (يأْتِ) أى : هو الذى سيأتى رغم إجرامه ، ورغم ما ينتظره من العذاب . لكن لماذا خاطبوه بلفظ الإجرام ؟ لأنه قال : ﴿ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ .. ﴿٧١﴾ ﴾ [طه] ولم يفعلوا أكثر من أنْ قالوا كلمة الحق ، فأيْنا إذنْ المجرم ؟

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ ﴾ [طه]

لأن الموت سيُريحهم من العذاب ؛ لذلك يتمنَّوْنَ الموت ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْا يَـٰمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف]

فيأتى رده ﴿ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف]

وفَرْقٌ بين عذاب وموت ، فالموت إنهاء للحياة ، وليس بعد الموت إيلام ، أمَّا العذاب فلا ينشأ إلا مع الحياة ؛ لأنه إيلام حَيٍّ .

لذلك ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ لما عرض لهذه المسألة فى قصة سليمان عليه السلام والهدهد وأن سليمان قال : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [النمل] فالعذاب شيء ، والذبح شيء آخر ؛ لأنه إنهاء للحياة الحاسة .

ومعنى : ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ ﴾ [طه] أن هناك مرحلة وحلقة بين الموت والحياة ، حيث لا يموت فيستريح ، ولا يحيى حياةً سالمة من العذاب ، فبقاؤهم فى جهنم فى هذه المرحلة ، التى لا هى موت ولا هى حياة .

﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ ﴾

فكأنهم كانوا يشيرون بقولهم : ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [طه] إلى فرعون ، والآن يشيرون إلى أنفسهم ، وما سلكوه من طريق الإيمان ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [طه]

فجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ؛ لأن الإيمان هو الينبوع الوجدانى الذى تصدر عنه الحركات النزوعية على وَفْق المنهج الذى آمنت به ، وإلا فما فائدة أنْ تؤمنَ بشىء ، ولا تعمل له ، وكثيراً ما جمع القرآن بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

وقوله : ﴿ فَأُوْلَـٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ ﴾ [طه] الدرجات أى : درجات الجنة ، فالجنة درجات ، بعضها فوق بعض ، أما النار فدركات ، بعضها تحت بعض .

وقد جعل الحق ـ تبارك وتعالى ـ الجنة درجات ؛ لأن أهلها متفاوتون فى الأعمال[1] ، كما أنهم متفاوتون حتى فى العمل الواحد ؛ لأن مناط الإخلاص فى العمل متفاوت .

لذلك جاء فى الأثر : « الناس على خطر إلا العالمون ، والعالمون على خطر إلا العاملون ، والعاملون على خطر إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم » .

والعُلاَ : جمع عُليا . فما الدرجات العُلاَ ؟

﴿ جَنَّـٰتُ عَدۡنٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾

عدن : أى إقامة . منْ عَدَنَ فى المكان : أقام فيه ، فالمراد جنات أعِدَّتْ لإقامتك ، وفرْقَ بين أنْ تُعد المكان للإقامة وأنْ تُعدَّ مكاناً

(١) أخرج ابن المبارك فى الزهد (ص ٣٣) (رقم ٩٩) وأبو نعيم فى الحلية (٤\٢٤٧)عن عون بن عبد الله قال : إن الله ليدخل خلقاً الجنة فيعطيهم حتى يملوا ، وفوقهم ناس فى (الدرجات العلى) فإذا نظروا إليهم عرفوهم فيقولون : يا ربنا إخواننا كنا معهم فبم فضلتهم علينا ؟ فيقال : هيهات ، إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون ، ويظمأون حين تروون ، ويقومون حين تنامون ، ويشخصون حين تخفضون .

لعابر ، كما أن المكان يختلف إعداده وترفه حَسْب المعدّ وإمكاناته ، فالإنسان العادى يُعد مكاناً غير الذى يعده عظيم من العظماء ، فما بالك إذنْ بمكان أعدّه لك ربك ـ عز وجل ـ بقدراته وإمكاناته ؟

وقوله : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا .. (٧٦) ﴾ [طه]

نعلم أن الماء من أهم مقومات الحياة الدنيا ، فبه تنبت الأرض النبات ، وفيه تذوب العناصر الغذائية ، وبدونه لا تقوم لنا حياة على وجه الأرض . والحق سبحانه وتعالى ساعةَ يُنزل مطراً من السماء قد لا ينتفع بالمطر مَنْ نزل عليه المطر ، فربما نَزل على جبل مثلاً ، فالنيل الذى نحيا على مائه يأتى من أين ؟ من الحبشة وغيرها .

لذلك جعل الخالق ـ عز وجل ـ كلمة ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (٧٦) ﴾ [طه] رمزاً للخضرة وللنضارة وللنماء وللحياة السعيدة الهانئة ، حتى الإنسان وإنْ لم يكُنْ محتاجاً للطعام بأنْ كان شبعان مثلاً ، يجد لذة فى النظر إلى الطبيعة الخضراء ، وما فيها من زرع وورود وزهور ، فليس الزرع للأكل فقط ، بل للنظر أيضاً ، وإنْ كنتَ تأكل فى اليوم ثلاث مرات ، والأكل غذاء للجسم ، فأنت تتمتع بالمنظر الجميل وتُسَرُّ به كلما نظرتَ إليه ، والنظر متعة للروح ، وسرور للنفس .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول لنا : لا تقصروا انتفاعكم بنعم الله على ما تملكون ، فتقول مثلاً : لا آكل هذه الفاكهة لأنها ليست ملْكى ، لأن هناك متعةً أخرى : ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ[1] .. (٩٩) ﴾ [الأنعام] فقبل أن تأكل انظر ، فالنظر متعة ، وغذاء مستمر .

---

(١) أينع الثمر : أدرك ونضج وحان قطافه . والوصف منه يانع ، أى : ناضج . قال تعالى : ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ .. (٩٩) ﴾ [الأنعام] أى : نضجه واختلاف طعمه بعد النضج . [القاموس القويم ٢/٣٧٣] .

فقوله تعالى : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. (٧٦) ﴾ [طه] لأن ظاهرة جريان الأنهار فى الدنيا وسيلة للخُضْرة والخصْب والإيناع ، و ﴿ مِن تَحْتِهَا .. (٧٦) ﴾ [طه] أى : أن الماء ذاتىّ فيها ، ونابع منها ، ليس جارياً إليك من مكان آخر ، ربما يُمنَع عنك أو تُحرم منه .

لذلك يقول تعالى فى آية أخرى: ﴿ تَجْرِى تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ .. (١٠٠) ﴾ [التوبة] فتحتها أنهار جارية ، لكن مصدرها ومنبعها من مكان آخر .

ونسب الجريان إلى النهر ، لا إلى الماء للمبالغة . فالنهر هو المجرى الذى يجرى فيه الماء .

ثم يقول تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا .. (٧٦) ﴾ [طه] وهذا هو التأمين الحقّ للنعيم ؛ لأن آفة النعم أنْ تزولَ ، إمّا بأن تفوتها أنت أو تفوتك هى ، أما نعيم الجنة فقد سلَّمه الله تعالى من هذه الآفة ، فهو خالد بَاقٍ ، لا يزول ولا يُزال عنه .

﴿ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦) ﴾ [طه] الزكاة : تُطلَق على الطهارة وعلى النماء ، فالطهارة : أن يكون الشىء فى ذاته طاهراً ، والنماء : أنْ توجَد فيه خصوصية نمو فيزيد عَمَّا تراه أنت عليه .

كما ترى مثلاً الورد الصناعى والورد الطبيعى فى البستان ، وفيه المائية والنضارة والرائحة الطيبة والألوان المختلفة والنمو ، وكلها صفات ذاتية فى الوردة ، على خلاف الورد الصناعى فهو جامد على حالة واحدة .

وهذا هو الفرق بين صَنْعة البشر وصَنْعة الخالق للبشر ؛ لذلك كانت صنعة الله أخلد وأبقى ، وصدق الله العظيم حين قال : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

وتلحظ أنه لم يَضِنّ عليك بصفة الخَلْق ؛ لأنك استعملتَ الأسباب وأعملتَ الفكر ، فكان لك شيء من الخلق ، لكن ربَّك أحسنُ الخالقين ؛ لأنك خلقتَ من باطن خلْقته ، خلقتَ من موجود ، وهو سبحانه يخلق من عدم ، خلقتَ شيئاً جامداً لا حياة فيه ، وخلق سبحانه شيئاً حياً نامياً ، يتكاثر بذاته .

ومن هنا سُمّى المال الذى تُخرجه للفقراء زكاةً ؛ لأنه يُطهِّر الباقى ويُنمِّيه . ومن العجائب أن الله تعالى سَمَّى ما يخرج من المال زكاة ونماءً ، وسَمَّى زيادة الربا مَحْقاً .

فمعنى : ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه] أى : تطهَّر من المعاصى ، ثم نَمَّى نفسه ، ومعنى التنمية هنا ارتقاءات المؤمن فى درجات الوصول للحق ، فهو مؤمن بداية ، لكن يزيد إيمانه وينمو ويرتقى يوماً بعد يوم ، وكلما ازداد إيمانه ازداد قُرْبه من ربه ، وازدادت فيوضات الله عليه . والطهارة للأشياء سابقة على تنميتها ؛ لأن دَرْء المفسدة مُقدَّم على جلب المصلحة .

إذن : زكَّى نفسه : طهَّرها أولاً ، ثم يُنمِّيها ثانياً ، كمَنْ يريد التجارة ، فعليه أولاً أن يأتى برأس المال الطاهر من حلال ثم يُنمِّيه ، لكن لا تأتى برأس المال مُدنَّساً ثم تُنمِّيه بما فيه من دَنَسٍ .

وكلما نَمَّى الإنسانُ إيمانَهُ ارتقى فى درجاته ، فكانت له الدرجات العُلاَ فى الآخرة .

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ[1] بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا[2] لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾

(١) سَرَى يَسْرِى : سار ليلاً .

(٢) قال محمد بن كعب : يبساً : أى يابساً ليس فيه ماء ولا طين [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥/٥٩٠ . وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم] .

كان هذا الوحى لموسى - عليه السلام - بعد أن انتهت المعركة ، وانتصر فيها معسكر الإيمان ، أما فرعون فقد خسر سلاحاً من أهمّ أسلحته وجانباً كبيراً من سَطْوته وجبروته .

وهنا جمع موسى بنى إسرائيل ، وهم بقايا ذرية آل يعقوب ليذهب بهم إلى أرض الميعاد ، وسرعان ما أعدّ فرعون جيشه وجمع جموعه ، وسار خلفهم يتبعهم إلى ساحل البحر ، فإذا بموسى وقومه مُحَاصرين : البحر من أمامهم ، وفرعون بجيشه من خلفهم ، وليس لهم مَخْرج من هذا المأزق .

هذا حُكْم القضايا البشرية المنعزلة عن ربِّ البشر ، أما فى نظر المؤمن فلها حَلٌّ ؛ لأن قضاياه ليست بمعزل عن ربه وخالقه ؛ لأنه مؤمن حين تصيبه مصيبة ، أو يمسه مكروه ينظر فإذا ربُّه يرعاه ، فيلجأ إليه ، ويرتاح فى كَنَفه .

لذلك يقولون : لا كَرْبَ وأنت ربٌّ ، وما دام لى رب ألجأ إليه فليست هناك معضلة ، المعضلة فيمن ليس له رَبٌّ يلجأ إليه .

وقد ضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - لو أن إنساناً معه فى جيبه جنيه ، فسقط منه فى الطريق ، فإذا لم يكُنْ عنده غيره يحزن أمّا إنْ كان لديه مال آخر فسوف يجد فيه عوَضاً عمَّا ضاع منه ، هذا الرصيد الذى تحتفظ به هو إيمانك بالله .

وهنا جاء الأمر من الله تعالى لموسى - عليه السلام - ليُخرجه وقومه من هذا المأزق : ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا .. (٧٧)﴾ [طه]

أَسْرِ : من الإسراء ليلاً . أى : السير ؛ لأنه أستر للسائر .

وقوله ﴿ بِعِبَادِى .. (٧٧) ﴾ [طه] كلمة « عبد » تُجمع على « عبيد » و « عباد » والفَرْق بينهما أن كل مَنْ فى الكون عبيد لله تعالى ؛ لأنهم وإنْ كانوا مختارين فى أشياء ، فهم مقهورون فى أشياء أخرى ، فالذى تعوَّد باختياره على مخالفة منهج الله ، وله دُرْبة على ذلك ، فله قَهْريات مثل المرض أو الموت .

أما العباد فهم الصَّفْوة التى اختارت مراد الله على مرادها ، واختياره على اختيارها ، فإنْ خيَّرهم : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] خرجوا عن اختيارهم لاختيار ربهم .

لذلك نسبهم الله إليه فقال : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. (٤٢) ﴾ [الحجر] وقال عنهم : ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) ﴾ [الأنبياء] وقال : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا .. (٦٣) ﴾ [الفرقان]

ويقول الحق سبحانه : ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا .. (٧٧) ﴾ [طه] : أى : يابساً جافاً وسط الماء .

والضرب : إيقاع شىء من ضارب بآلة على مضروب ، ومنه ضَرب العملة أى : سكّها وختمها ، فبعد أنْ كان قطعةَ معدن أصبح عملة متداولة .

وضرب موسى البحر بعصاه فانفلق البحر وانحسر الماء عن طريق جافّ صالح للمشى بالأقدام ، وهذه مسألة لا يتصورها قانون البشر ؛ لذلك يُطمئنه ربه ﴿ لاَّ تَخَافُ دَرَكًا .. (٧٧) ﴾ [طه] أى : من فرعون أنْ يُدرِكَكَ ﴿ وَلا تَخْشَىٰ (٧٧) ﴾ [طه] أى : غرقاً من البحر ؛ لأن الطريق مضروب أى : مُعَد ومُمهَّد وصالح لهذه المهمة .

وهذه معجزة أخرى لعصا موسى التى ألقاها ، فصارت حية

تسعى ، وضرب بها البحر فانفلق فصار ما تحت العصا طريقاً يابساً ، وما حولها جبالاً ﴿كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ[١] الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء] وهى التى ضرب بها الحجر فانبجس[٢] منه الماء .

والسياق هنا لم يذكر شيئاً عن الحوار الذى دار بين موسى وقومه حينما وقعوا فى هذه الضائقة ، لكن جاء فى لقطة أخرى من القصة حيث قال تعالى : ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء]

وبتعدد اللقطات فى القرآن تكتمل الصورة العامة للقصة ، وليس فى ذلك تكرار كما يتوهَّم البعض .

فقبل أنْ يُوحى إليه : ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا .. ﴿٧٧﴾﴾ [طه] قال القوم : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء] فقال (كَلاَّ) . لكن كيف يقولها قَوْلة الواثق وما يخافون منه محتمل أنْ يقع بعد لحظة ؟

نقول : لأنه لم يقل (كَلاَّ) من عنده ، لم يَقُلْها بقانون البشر ، إنما بقانون خالق البشر ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء] فأنا لا أغالطكم ، ولستُ بمعزل عن السماء وتوجيه ربى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾

---

(١) الطود : الجبل الثابت العالى . [القاموس القويم ١/٤٠٨] .

(٢) البجس : انشقاق فى قربة أو حجر أو أرض ينبع منه الماء . وانبجس الماء : تفجَّر . قال تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا .. ﴿١٦٠﴾﴾ [الأعراف] .

قوله تعالى : ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) ﴾ [طه] غشيهم يعنى : غطّاهم الماء ، وقد أبهم هذا الحدث للدلالة على فظاعته وهَوْله ، وأنه فوق الحَصْر والوصف ، كأن تقول فى الأمر الذى لا تقدر على تفصيله : حصل ما حصل .

وفى لقطة أخرى لهذه الحادثة يُبيِّن الحق - تبارك وتعالى - أن موسى - عليه السلام - بعد أن عبر بقومه آمناً أراد باجتهاده وترجيحاته الإيمانية أن يضرب البحر مرة أخرى ليعود إلى سيولته فلا يتمكن فرعون من اللحاق به ، لكن توجيهات ربه لها شأن آخر ، فأوحى الله إليه : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا[1] إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) ﴾ [الدخان]

أى : اتركه كما هو لا تُعدْه إلى استطراق سيولته ، فكما أنجيتك بالماء سأتلف عدوك بالماء ، فسبحان مَنْ يُنجِى ويُهلك بالشىء الواحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (٧٩) ﴾

وسبق أن قال فرعون لقومه . ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) ﴾ [غافر]

فأين سبيل الرشاد الذى تحدَّث عنه فرعون بعدَ أنْ أطبق الله عليهم البحر ؟ لقد سُقْتَهم إلى الهلاك ، ولم تسلك بهم مناط النجاة والهداية . فأنت - إذن - كاذب فى ادعاء سبيل الرشاد ؛ لأنك أضللتَهم ما هديتهم ، وأهلكتهم ما نجَّيتهم .

---

(١) رها البحر رهواً : سكن فهو راه . فقوله ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا .. (٢٤) ﴾ [الدخان] أى : اتركه ساكن الأمواج ليغتروا فينزلوا فيه . أو : كن يا موسى هادئاً مطمئناً إلى النجاة . [القاموس القويم ١/ ٢٧٩] .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ(١) وَٱلسَّلْوَىٰ(٢) ﴿٨٠﴾ ﴾

لله عز وجل على بنى إسرائيل مِنَنٌ كثيرة ونِعَم لا تُعَدُّ ، كان مقتضى العبادية التى وصفهم بها ﴿ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [طه] أن يُنَفِّذوا منهج ربهم ، ويذكروا نعمه ذكْراً لا يغيب عن بالهم أبداً ، بحيث كلما تحركتْ نفوسهم إلى مخالفة ذكروا نعمةً من نعَم الله عليهم ، تذكّروا أنهم غير متطوعين بالإيمان ، إنما يردُّون لله ما عليهم من نِعَم وآلاء .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ هنا يُذكِّرهم ببعض نعَمه ، ويناديهم بأحبِّ نداء ﴿ يَٰبَنِى إِسْرَائِيلَ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [طه] وإسرائيل يعنى عبد الله ، عبده المخلص ، كما تقول لصاحبك : يا ابن الرجل الطيب .. الورع ، فالحق يُذكِّرهم بأصلهم الطيب ، وينسبهم إلى نبى من أنبيائه . كأنه يلفت أنظارهم أنه لا يليق بكم المخالفة ، ولا الخروج عن المنهج ، وأنتم سلالة هذا الرجل الصالح .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [طه] أى : من

---

(١) المَنُّ : طَلٌّ ينزل من السماء يشبه العسل كان ينزل على بنى إسرائيل عفواً بلا علاج فيصبحون وهو بأفنيتهم فيتناولونه . [لسان العرب ـ مادة : منن] .

(٢) السلوى : طائر أبيض مثل السُّمانى . [لسان العرب ـ مادة : سلا] . قال فى القاموس القويم للقرآن الكريم (٣٢٦/١) . « هو السمانى ، وهو طائر صغير من رتبة الدجاج وجسمه ممتلىء وهو من الطيور المهاجرة من أوربا فى الشتاء إلى البلاد الدافئة ، ويعود ما سلم منه فى أوائل الصيف إلى موطنه فى أوربا وهو طعام جيد ولحمه كالحمام أو هو أشهى ، وأهل العريش بشمال سيناء مشهورون بصيده » .

فرعون الذى استذلكم ، وذبح أبناءكم ، واستحى[1] نساءكم ويُسخِّرهم في الأعمال دون أجر ، وفعل بكم الأفاعيل ، ثم ﴿ وواعدناكم جانب الطور الأيمن .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [طه] لتأخذوا المنهج السليم لحركة الحياة . إذن : خلَّصْناكم من أذى ، وواعدناكم لنعمة .

﴿ وَوَاعَدْنَاكُمْ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [طه] واعد : مفاعلة لا تكون إلا من طرفيْن مثل : شارك وخاصم ، فهل كان الوَعْد من جانبهما معاً : الله عز وجل وبنى إسرائيل ؟ الوَعْد كان من الله تعالى ، لكن لم يقُلْ القرآن : وعدناكم . بل أشرك بنى إسرائيل فى الوعد ، وهذا يُنبِّهنا إلى أنه إذا وعدك إنسان بشيء ووافقتَ ، فكأنك دخلتَ فى الوعد .

وجانب الطور الأيمن : مكان تلقِّى منهج السماء ، وهو مكان بعيد فى الصحراء ، لا زرعَ فيه ولا ماء ؛ لذلك يضمن لهم ربُّهم عز وجل ما يُقيتهم ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ ﴾ [طه]

المنّ : سائل أبيض يشبه العسل ، يتساقط مثل قطرات بلورية تشبه الندى على ورق الأشجار ، وفى الصباح يجمعونه كطعام حلو . وهذه النعمة ما زالت موجودة فى العراق مثلاً ، وتقوم عليها صناعة كبيرة هى صناعة المنّ .

والسَّلْوى : طائر يشبه طائر السَّمان .

وهكذا وفَّر لهم الحق ـ تبارك وتعالى ـ مُقوِّمات الحياة بهذه المادة السُّكَّرية لذيذة الطعم تجمع بين القشدة مع عسل النحل ، وطائر شهى دون تعب منهم ، ودون مجهود ، بل يروْنَه بين أيديهم مُعَدّاً جاهزاً ، وكان المنتظر منهم أن يشكروا نعمة الله عليهم ، لكنهم اعترضوا عليها فقالوا :

---

(١) استحيا النساء : استبقاهن ولم يقتلهن . [لسان العرب ـ مادة : حيا] .

﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا[1] وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ..(٦١)﴾ [البقرة]

وفى سورة البقرة ذكر مع هذه النعمة التى صاحبتهم فى جَدْب الصحراء نعمة أخرى ، فقال تعالى : ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ .. (٥٧)﴾ [البقرة] أى : حَمَيْناكم من وهج الشمس وحرارتها حين تسيرون فى هذه الصحراء .

ونلحظ اختلاف السياق هنا (نَزَّلْنَا) ، وفى البقرة قال : (أَنْزَلْنَا) ؛ ذلك لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعالج الموضوع فى لقطات مختلفة من جميع زواياه ، فقوله (أَنْزَلْنَا) تدل على التعدِّى الأول للفعل ، وقد يأتى لمرة واحدة ، إنما (نَزَّلْنَا) فتدلُّ على التوالى فى الإنزال .

وأهل الريف فى بلادنا يُطلقون المنَّ على مادة تميل إلى الحمرة الداكنة ، ثم تتحول إلى السواد ، تسقط على النبات ، لكنها ليست نعمةً ، بل تُعَدُّ آفة من الآفات الضارة بالنبات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١)﴾

---

(١) البقل : نبات عشبىٌ يؤكل أو تؤكل بذوره ، أو : هو كل ما اخضرت به الأرض . [القاموس القويم ١/٧٨] .

والقثاء : الخيار ، والمعروف أنه أكبر من الخيار وأطول ومختلف عنه ، وهما من فصيلة واحدة . [القاموس القويم ٢/١٠١] .

والفوم : هو الثوم . وهو من مشهيات الطعام . وفيه أقوال أخرى . [القاموس القويم٢/٩٢] .

الطعام والشراب والهواء مُقوِّمات الحياة التى ضمنها الله عز وجل لنا ، والأمر بالأكل هنا للإباحة ، وليس فَرْضاً عليك أنْ تأكل إلا إذا أردتَ الإضراب عن الطعام إضراباً يضرُّ بحياتك فعندها تُجبر عليه .

وقوله : ﴿ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (٨١) ﴾ [طه] خصَّ الطيبات ؛ لأن الرزق : منه الطيب ، ومنه غير الطيِّب ، فالرزق : كُلّ ما انتفعتَ به ولو كان حراماً . بمعنى أن ما نلْتَه من الحرام هو أيضاً من رزقك إلا أنك تعجَّلته بالحرام ، ولو صبرْتَ عليه وعففْتَ نفسك عنه لَنلْتَ أضعافه فى الحلال .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ .. (٨١) ﴾ [طه] وفى آية البقرة ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾ [النحل] فكأن ظلمَ النفس علَّته أنهم طَغَوْا فى الأكل من الرزق .

والطغيان : من طغى الشىء إذا زاد عن حَدِّه المألوف الذى ينتفع به ، ومنه طغيان الماء إذا زاد عن الحدِّ الذى يزيل الشَّرق والعطش إلى حَدٍّ أنه يُغرق ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) ﴾ [الحاقة] أى : تجاوز الحد الذى ينتفع به إلى العَطَب والهلاك .

وهكذا فى أى حَدٍّ ، لكن كيف تتأتى مجاوزة الحد فى الطعام والأقوات ؟

الحق ـ تبارك وتعالى ـ لما خلق الأرض قدَّر فيها أقواتها إلى يوم القيامة ، فقال تعالى : ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠) ﴾ [فصلت]

فاطمئنوا إلى هذه المسألة ، وإذا رأيتم الأرض لا تعطى فلا تتهموها ، إنما اتهموا أنفسكم بالتقصير والتكاسل عن عمارة

الأرض وزراعتها ، كما أمركم الله : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. (٦١)﴾ [هود]

وقد غفلنا زمناً عن هـذه المسألة ، حتى فاجـأتنا الأحداث بكثرة العدد وقلَّة المدد ، فكان الخروج إلى الصحراء وتعميرها .

ومـا دام أن الخـالق ـ عـز وجل ـ خلـق لنا أرزاقنا ومُـقـوِّمـات حياتنا ، وجعلها مناسبة لهـذا الإنسان الذى كرّمه وجعله خليفة له فى الأرض ، وجعل لهذا الرزق ولهـذه المقوّمات حدوداً حـدَّها وبيَّنها هى (الحلال) ، فلا ينبغى لك بعـد ذلك أن تتعدى هذه الحدود ، وتطغى فى تناول طعامك وشرابك .

ونحن نرى حتى الآلات الـتى صنعها البَشر ، لكل منهـا وقودها الخاص ، وإذا أعطيـتهـا غيره لا تؤدى مـهمـتها ، فـمثـلاً لو وضعت للطائرة سولاراً لا تتحرك ، فليس هو الوقود المناسب لطبيعتها .

إذن : حدودك فى مُقوِّمات حياتك الحلال ، ولو استقرأنا ما أحلَّ الله وما حـرَّم لوجدنا الأصل فى الأشـياء أنها حـلال ، والكثير هـو المحلل لك ، أما المحرم عليـك فهو القليل المحصور الذى يمكن تحديده .

لذلك يقـول عـز وجـل : ﴿قُلْ تَعَـالَوْا أَتْلُ مَا حَـرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] ولم يقُلْ مثـلاً فى آية أخرى : تعـالوا أَتْلُ ما أحل الله لكم ؛ لأنها مسألة تطول ولا تحصى .

إذن : سـاعةَ أعطاك ربك قـال لك : هذا رِزْقُك الحلال الخـالص ، ومنه وقودك ومُقوِّمات حياتك ، وبه بقاؤك ونَشاط حركتك . فلا تتعدَّ الحلال على كـثرته إلى الحرام عـلى قِلَّته وانحصـاره فى عِدَّة أنواع ، بيَّنها لك وحذَّرك منها .

وبالغذاء تتم فى الجسم عـملية (الأَيْض) يعنى : الهدم والبناء ، وهى عمليـة مستمرة فى كل لـحظة من لحظاتك ، فإياك أنْ تبنى ذَرَّة

مَن ذراتك من الحرام ؛ لأن ذرة الحرام هذه تظل تُشاغبك وتُلِح عليك كى تُوقِعك فى أصلها .

وقد قال رسول الله ﷺ : « أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿يَـٰأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١)﴾ [المؤمنون] وقال : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ (١٧٢)﴾ [البقرة] ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ، ثم يمد يديه إلى السماء : يا رب يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِّى بالحرام ، فأنَّى يُستجاب لذلك »(1) .

ذلك لأن ذرات بنائه غير منسجمة ، لأنها نَمتْ على وقودٍ ما أحله الله له .

لذلك تسمع من بعض المتمحكين : ما دام أن الله خلق الخنزير فلماذا حرَّمه ؟ نقول : لقد فهمتَ أن كل مخلوق خُلق ليؤكل ، وهذا غير صحيح ، فالله خلق البترول الذى تعمل به الآلات ، أتستطيع أن تشربه كالسيارة ؟

إذن : فَرْق بين شىء مخلوق لشىء ، وأنت توجهه لشىء آخر ، هذه تسمى إحالة أى : تحويل الشىء إلى غير ما جُعِل له ، وهذا هو الطغيان فى القُوت ؛ لأنك نقلتَ الحرام إلى الحلال .

وقد يأتى الطغيان فى صورة أخرى ، كأن تأكل ما أحلَّ الله من الطيبات ، لكنك تحصل عليها بطريق غير مشروع ، وتُعوِّد نفسك الكسل عن الكسْب الحلال ، فتأخذ مجهود غيرك وتعيش عالةً عليه ، فإلى جانب

---

(1) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٢٨) ، ومسلم فى صحيحه (١٠١٥) كتاب الزكاة ، والترمذى فى سننه (٢٩٨٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

أنك تتغذَّى على الحرام فأنت أيضاً تُزهّد غيرك فى الحركة والإنتاج والملك ، وما فائدة أن يتعب الإنسان ويأخذ غيره ثمرة تعبه ؟

وقد أخذ الطغيان بهذا المعنى صُوراً متعددة فى مجتمعاتنا ، فيمكن أن ندرج تحته : الغصب ، والخطف ، والسرقة ، والاختلاس ، والرشوة ، وخيانة الأمانة ، وخداع مَن استأجرك إلى غير ذلك من أَخْذ أموال الناس بالباطل ودون وَجْه حق ، وكل عمل من هذه التعديات له صورته .

فالخطف : أنْ تخطف مال غيرك دون أنْ يكون فى متناول يد المخطوف منه ثم تَفر به ، فإنْ كان فى متناول يده وأنت غالبته عليه، وأخذته عُنْوةً فهو غَصْب مأخوذ من : غَصْب الجلد عن الشاة أى : سلخه عنها . فإنْ كان أخذ المال خُفْية وهو فى حرْزه فهى سرقة . وإن كنت مُؤتمناً على مال بين يديك فأخذتَ منه خفية فهو اختلاس .. الخ .

إذن : أحل الله لك أشياءً ، وحرَّم عليك أخرى ، فإنْ كان الشىء فى ذاته حلالاً فلا تأخذه إلا بحقِّه حتى يحترم كل منّا عمل الآخر وحركته فى الحياة وملكيته للأشياء ، وبذلك تستقيم بنَا حركة الحياة ، ويسعد الجميع ، ونعين المنفق ، ونأخذ على يد المتسيِّب البلطجى .

وللإسلام منهج قويم فى القضاء على مسألة البطالة ، تأخذ به بعض النظم الحديثة الآن ، وهو أن الشرع يأمر للقضاء على البطالة أن تحفر بئراً وتطُمَّها : أى احفرها واردْمها ثم اعْط الأجير فيها أجره . كيف هذا ؟ تحفر البئر ولا تستفيد منها وتردمها فما الفائدة ؟ ولماذا لم نعط الأجير أجره دون حفر ودون ردم ؟

قالوا : حتى لا يتعوَّد على الخمول والكسل ، وحتى لا يأكل إلاَّ من عرقه وكَدِّه ، وإلا فسد المجتمع .

وللطغيان فى القوت صورة أخرى ، هى أن تستخدم القوت الذى جعله الله طاقةً لك فى حركة الحياة النافعة ، فإذا بك تصرف هذه الطاقة التى أنعم الله بها عليك فى معصيته .

وهكذا ، كان الطغيان هو علّة ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ .. (١١٨)﴾ [النحل] أى : بالعقوبة ﴿وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)﴾ [النحل] أى : بالطغيان .

ثم يقول تعالى : ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي .. (٨١)﴾ [طه] الفعل : حَلَّ ، يحلّ يأتى بمعنى : صار حلالاً ، كما تقول للسارق : حلال فيه السجن . وتأتى حلَّ يحل بمعنى : نزل فى المكان ، تقول : حَلَّ بالمكان أى : نزل به . فيكون المعنى : ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي .. (٨١)﴾ [طه] أى : صار حلالاً ، ووجب لكم ، أو بمعنى : ينزل بكم . وقد يكون المعنى أعمَّ من هذا كله .

والغضب انفعال نفسىٌّ يُحدث تغييراً فى كيماوية الجسم ، فترى الغاضب قد انتفختْ أوداجه واحمرَّ وجهه ، وتغيّرت ملامحه ، فهذه أغيار تصاحب هذا الانفعال . فهل غضب الله عز وجل من هذا النوع ؟

بالطبع لا ؛ لأنه تعالى ليس عنده أغيار ، وإذا كان الغضب يتناسب وقدرة الغاضب على العذاب ، فما بالك إنْ كان الغضب من الله ؟

ثم يقول تعالى : ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١)﴾ [طه] مادة : هَوَى لها استعمالان ، الأول : هَوَى يهْوِى : يعنى سقط من أعْلى سقوطاً لا إرادةَ له فى منعه ، كأن يسقطَ فجأة من على السطح مثلاً ، ومن ذلك قوله :

* هُوِىّ الدلو أسلَمَها الرِّشاء[1] *

إذا انقطع الحبل الذى يُخرِج الدَّلْو .

والآخر : هَوِىَ يهْوَى : أى أحبَّ .

فيكون المعنى ﴿فَقَدْ هَوَىٰ ⑧١﴾ [طه] سقط إلى القاع سقوطاً لا يبقى له قيمة فى الحياة ، أو هَوَى فى الدنيا ، ويَهوى فى الآخرة ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ⑨﴾ [القارعة] فأمه ومصدر الحنان له هاوية ، فكيف به إذا هوى فى الهاوية ؟

هذه كلها عظَات ومواعظ للمؤمن ، يُبيِّنهـا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ له ـ كى يبنىَ حركة حياته على ضَوْئها وهُدَاها .

ولما كان الإنسان عُرْضة للأغيار لا يثبتُ على حال يتقلَّب بين عافية ومرض ، بين غنىً وفقرٍ ، فكُلُّ ما فيه موهوب له لا ذاتىّ فيه ، لذلك إياك أن تحزن حين يفوتك شىء من النعمة ؛ لأنها لن تبقى ولن تدوم ، وهَبْ أنك بلغتَ قمة النعيم ، فماذا تنتظر إلا أنْ تزول ، كما قال الشاعر :

إذَا تَمَّ شَـىْءٌ بَـدَا نَقْصُـه   تَرقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيلَ تَمّ

فإذا تَمَّ لك الشىء ، وأنت ابْنُ أغيار ، ولا يدوم لك حال فلا بُدَّ لك أنْ تنحدر إلى الناحية الأخرى .

فكأن نقْصَ الإنسان فى آماله فى الحياة هى تميمة حراسة

---

(١) الرِّشاء : الحبل . وأرشى الدلو : جعل لها رشاء أى حبلاً . [لسان العرب ـ مادة : رشا] . وقد ذكر ابن منظور هذا الشطر فى [لسان العرب ـ مادة : هوى] قال : « قال ابن برى : ذكر الرياشى عن أبى زيد أن الهَوِىّ بفتح الهاء إلى أسفل ، وبضمها إلى فوق» .

النِّعَم ، وما فيه من نَقْص أو عيب يدفع عنه حَسَد الحاسد ، كما قال الشاعر فى المدح :

شَخَصَ الأنَامُ إلى كَمَالِكَ   فَاسْتَعِذْ مِنْ شَرِّ أعينهمْ بِعيْبٍ وَاحِدِ

أى : أن الأعين متطلعة إليك ، فاصرفها عنك ، ولو بعيب واحد يذكره الناس وينشغلون به .

وفى الريف يعيش بعض الفلاحين على الفطرة ، فإنْ رُزِق أحدهم بولد جميل وسيم يُلفِت نظر الناس إليه . تراهم يتعمدون إهمال شكله ونظافته ، أو يضعون له (فاسوخة) دَفْعاً للحسد وللعين .

لذلك ، فالمرأة التى دخلت على الخليفة ، فقالت له : أتمَّ الله عليك نعمته ، وأقرَّ عينك ، ففهم الحضور أنها تدعو له ، فلما خرجتْ قال الخليفة : أعرفتم ما قالت المرأة ؟ قالوا : تدعو لك ، قال : بل تدعو علىَّ ، فقد أرادت بقولها : أتمَّ الله عليك نعمته تريد أزالها ؛ لأن النعمة إذا تمت لم يَبْقَ لها إلا الزوال ، وقولها : أَقَرَّ الله عينكَ تريد : أسكنها عن الحركة .

إذن : لا تغضَب إنْ قالوا عنك : ناقص فى كذا ، فهذا النقص هو تميمة الكمال ، ويريدها الله لك لمصلحتك أنت .

وما دام الإنسان ابن أغيار ، فلا بُدَّ أنْ يغفل عن منهج الله ، فتكون له سَقَطات وهَفَوات تحتاج إلى غفران ؛ لذلك يقول تعالى :

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾

غفار : صيغة مبالغة من غفر ، فإذا أثبت المبالغة فالترتيب اللغوى بالتالى يُثبِت الأقلَّ وهو غافر ، هذا فى الإثبات . وكذلك فى النفى فى

مثل قوله تعالى : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت] فنفى المبالغة فى الظلم ، فـهـل يعـنى ذلك أنه ـ تبـارك وتعـالى ـ يـمكن أن يكون ظالماً ؟

والشىء يُبـالغ فيه لأمـرين : الأول : أن تبالغ فى نفـس الحدث ، كأن تأكلَ رغيـفاً فى الوجبة أو رغيـفين ، وآخر يأكل خمسـة أرغفة ، فـهذه منه مـبالغـة فى نفس الحـدث وهو الأكل ، والثانى : قـد تكون المـبالغـة بتكرار الحـدَث ، فالعـادة أن نأكل ثلاث مـرات ، وهناك مَنْ يأكل ستّ وجـبات ، ونسـمـيه (أكـول) أى : كـثيـر الأكل ، لا فى الوجبة الواحدة ، إنما فى عدد الوجبات . .

فمعنى (غَفَّارٌ) غافر لى ، وغـافر لك ، وغافر لهذا وهذا .. غافر لكل الخَلْق ، فتكررت مغفرته عز وجل لخَلْقه .

وقد شـرع الحق ـ سبـحانه وتعـالى ـ المـغفرة والتـوبة ليحـمى المجتمعات من شرار الناس فيها ، فالشرير إذا ارتكب جريمة ولم يجد له فرصة للمغفرة والتوبة ، فإنه يستمرىء الجريمة ، بل ويبالغ فيها .

أما إذا فُـتح له باب التوبة والمغفـرة فإن هذا يرحم المجـتمع من شراسة أصحاب السوء .

والله ـ عز وجل ـ ليس غافراً للذنوب فحسب ، بل هو غفار لها ، وكلما عدت إليه غفر لك ، ولكن وَطِّن نفسك أنك إذا فعلت الذنب وتُبْت منه فلا تعد إلـيه ، ولا ترتب وتخطط لمعصيـتك على أمل أن تتوب ، فما يدريك أن تعيش إلى أن تتوب ؟

والمـغـفـرة تكون ﴿لِّمَن تَابَ وَآمَنَ .. ﴿٨٢﴾﴾ [طه] ومـا دام قـال ﴿تَابَ وَآمَنَ .. ﴿٨٢﴾﴾ [طه] فلابُدَّ أن التـوبة هنا عن الكُفْـر ، ثم أنشأ

إيماناً بالله وبرسوله . والإيمان هو الينبوع الذى يصدر عنه السُّلوك البشرى ، وهذا يقتضى أن تسمع كلامه وتُنفِّذ أوامره ، وتجتنب نواهيه ، وهذا هو المراد بقوله ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه]

لكن ، أليس العمل الصالح هداية ؟ فلماذا قال بعدها ﴿ ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه] قالوا[1] : لأن الهداية أنْ تستمر على هذا العمل الصالح ، وأنْ تستزيدَ منه ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى .. ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ ﴾[2]

نقول : ما أعجلك ؟ يعنى : ما أسرع بك ؟ لماذا جئتَ قبل موعدك ؟ وكان موسى عليه السلام على موعد مع ربه - عز وجل - ليتلقى عنه المنهج ، والمفروض فى هذا اللقاء أنْ يأتىَ معه مجموعة

---

(١) قاله سفيان الثورى وقتادة وغيرهما ، وقد ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٠٤) وذكر بعده سبعة أقوال أخرى :
- أى : لم يشك فى إيمانه . قاله ابن عباس ، وذكره الماوردى والمهدوى .
- أقام على السنة والجماعة . قاله ابن عباس أيضاً ، وذكره الثعلبى .
- أخذ بسنة النبى ﷺ ، قاله أنس ، وذكره المهدوى .
- أصاب العمل . قاله ابن زيد ، ذكره المهدوى .
- تعلم العلم ليهتدى كيف يفعل . قاله ابن زيد .
- علم أن لذلك ثواباً وعليه عقاباً . قاله الشعبى ومقاتل والكلبى والفراء .
- اهتدى فى ولاية أهل بيت النبى ﷺ . قاله ثابت البنانى .

ثم قال القرطبى « والقول الأول أحسن هذه الأقوال - إن شاء الله - وإليه يرجع سائرها » .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٦ / ٤٤٠٦) : « قال قوم : أراد بالقوم السبعين الذين اختارهم ، وكان موسى لما قرب من الطور سبقهم شوقاً إلى سماع كلام الله » وقد قال تعالى : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا .. ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأعراف] .

من صفْوة قومه ورؤسائهم ، فتعجل موسى موعد ربه ، وذهب دون قومه ، فقال له : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ (٨٣) ﴾ [طه] أى : أسرعتَ وتعجَّلْتَ وجئْتَ بدونهم .

فقال موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) ﴾

أى : قادمين خلفى وسيتبعوننى ، أما أنا فقد ﴿ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) ﴾ [طه] تعجَّلْتُ فى المثول بين يديك لترضى .

وقد تعجَّل موسى إلى ميقات ربه ، وسبق قومه لحكمة ، فالإنسان حين يأمر غيره بأمر فيه مشقَّة على النفس وتقييد لشهواتها ، لا بُدَّ أن يبدأ بنفسه يقول : أنا لست بنجْوَة عن هذا الأمر ، بل أنا أول مَنْ أُنفِّذ ما آمركم به ، وسوف أسبقكم إليهِ .

لذلك يقول القائد الفاتح طارق بن زياد(١) لجنوده : « واعلموا أنى إذا التقى الفريقان مُقبل بنفسى على طاغية القوم - لزريق - فقاتله إن شاء الله ، فإن قتلته فقد كُفيتم أمره » وهكذا تكون القيادة قدوة ومثَلاً كما يقولون فى الأمثال (اعمل كذا وإيدى فى إيدك) وهنا يقول : يدى قبل يدك .

فموسى عليه السلام يقول : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) ﴾ [طه] ترضى أن منهجك يُطبَّق من جهتى كرسول مؤتمن عليه ، ومن جهة قومى ؛ لأنهم حين يرونى قد تعجلت للقائك فى الموعد يعلمون

---

(١) هو : طارق بن زياد الليثى بالولاء ، فاتح الأندلس ، أصله من البربر ، أسلم على يد موسى بن نصير ، فكان من أشد رجاله ولد نحو ٥٠ هـ ، تغلغل فى أرض الأندلس . وتوفى عام ١٠٢ هـ . [الأعلام - للزركلى - ٣/٢١٧] .

أن فى ذلك خيراً لهم ، وإلا ما سبقتهم إليه . وبذلك يسود منهج الله ويُمكَّن فى الأرض ، وإذا ساد منهج الله رضى الله عن خليفته فى الأرض .

ثم يُخبر الحق - تبارك وتعالى - نبيه موسى - عليه السلام - بما كان من قومه بعد مفارقته لهم من مسألة عبادة العجل .

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ ﴾

الفتنة : ليست مذمومة فى ذاتها ؛ لأن الفتنة تعنى الاختبار ، ونتيجته هى التى تُحمَد أو تُذمّ ، كما لو دخل التلميذ الامتحان فإنْ وُفِّق فهذا خير له ، وإنْ أخفق فهذا خير للناس ، كيف ؟

قالوا : لأن هناك أشياءَ إنْ تحققتْ مصلحة الفرد فيها انهدمتْ مصلحة الجماعة . فلو تمكَّن التلميذ المهمل الكَسُول من النجاح دون مذاكرة ودون مجهود ، فقد نال انتفاعاً شخصياً ، وإنْ كان انتفاعاً أحمق ، إلا أنه سيعطى الآخرين إشارة ، ويُوحِى لهم بعدم المسئولية ، ويفرز فى المجتمع الإحباط والخمول ، وكفى بهذا خسارة للمجتمع .

وقد جاءتْ الفتنة بهذا المعنى فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [العنكبوت]

إذن : لابد من الاختبار لكى يعطى كل إنسان حسب نتيجته ، فإن سأل سائل : وهل يختبر الله عباده ليعلَم حالهم ؟ نقول : بل ليعلم

الناس حالهم ، وتتكشف حقائقهم فيعاملونهم على أساسها : هذا منافق ، وهذا مخلص ، وهذا كذاب ، فيمكنك أنْ تحتاط في معاملتهم .

إذن : الاختبار لا ليعلم الله ، ولكن ليعلم خَلْق الله .

أو : لأن الاختبار من الله لقطْع الحجة على المختبر ، كأن يقول : لو أعطانى الله مالاً فسأفعل به كذا وكذا من وجوه الخير ، فإذا ما وُضِع فى الاختبار الحقيقى وأُعْطِى المال أمسك وبَخِل ، ولو تركه الله دون مال لَقال : لو عندى كنتُ فعلت كذا وكذا .

فهناك علْم واقع من الله ، أو علم من خَلْق الله لكل مَنْ يفتن ، فإنْ كان مُحْسناً يقتدون به ، ويقبلون عليه ، ويحبونه ويستمعون إليه ، وإلاَّ انصرفَوا عنه . فالاختبار ـ إذن ـ قَصْده المجتمع وسلامته .

وقد سَمَّى الحق سبحانه ما حدث من بنى إسرائيل فى غياب موسى من عبادة العجل سماه فتنة ، ثم نسبها إلى نفسه ﴿فَتَنَّا .. (٨٥)﴾ [طه] أى : اختبرنا .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥)﴾ [طه] أضلهم : سلك بهم غير طريق الحق ، وسلوك غير طريق الحق قد يكون للذاتية المحضة ، فيحمل الإنسان فيها وِزْر نفسه فقط ، وقد تتعدَّى إلى الآخرين فيسلك بهم طريق الضلال ، فيحمل وِزْره ووِزْر غيره ممَّنْ أضلّهم .

وفى هذه المسألة يقول تعالى : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم .. (٢٥)﴾ [النحل]

مع أن الله تعالى قال فى آية أخرى : ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. (١٨)﴾ [فاطر]

وهذه من المسائل التى توقَّف عندها بعض المستشرقين ، محاولين اتهام القرآن وأسلوبه بالتناقض ، وما ذلك منهم إلا لعدم فَهْمهم للغة القرآن واتخاذها صناعة لا ملَكَة ، ولو فَهموا القرآن لَعلموا الفرق بين أن يضل الإنسان فى ذاته ، وبين أن يتسبب فى إضلال غيره .

والسامرى(١) : اسمه موسى السامرى ، ويُرْوَى أن أمه وضعته فى صحراء لا حياة فيها ، ثم ماتت فى نفاسها ، فظل الوليد بدون أم ترعاه ، فكان جبريل عليه السلام يتعهده ويربِّيه إلى أن شبَّ(٢) .

وقد عبَّر الشاعر عن هذه اللقطة وما فيها من مفارقات بين موسى عليه السلام وموسى السامرى ، فقال :

إذَا لَمْ تُصَادِفْ فى بَنِيكَ عِنَايةٌ ... فَقَدْ كَذَبَ الرَّاجِى وَخَابَ المؤمِّل
فَمُوسَى الذِى رَبَّاهُ جِبْرِيلُ كَافِر ... وَمُوسَى الذِى رَبَّاهُ فِرْعَوْنُ مُرْسَلُ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ ﴾

---

(١) قال ابن عباس : كان السامرى من قوم يعبدون البقر ، فوقع بأرض مصر فدخل فى دين بنى إسرائيل بظاهره ، وفى قلبه ما فيه من عبادة البقر : وقيل : كان رجلاً من القبط ، وكان جاراً لموسى آمن به وخرج معه . وقيل : كان عظيماً من عظماء بنى إسرائيل ، من قبيلة تعرف بالسامرة وهم معروفون بالشام . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٠٧] .

(٢) قال ابن عباس فى قوله تعالى عن السامرى : ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ .. ﴿٩٦﴾﴾ [طه] : « عرف السامرى جبريل ، لأن أمه حين خافت أن يذبح خلفته فى غار وأطبقت عليه ، فكان جبريل يأتيه فيغذوه بأصابعه ، فى واحدة لبناً ، وفى الأخرى عسلاً ، وفى الأخرى سمناً ، فلم يزل يغذوه حتى نشأ ، فلما عاينه فى البحر عرفه » .

رَجَع : تُستعمل لازمة . مثل : رجع فلان إلى الحق . ومُتعدِّية مثل ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [التوبة] والمعنى فيهما مختلف .

هنا رجع موسى أى : حين سمع ما حدث لقومه من فتنة السامرى ﴿ غَضْبَانَ أَسِفًا .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [طه] أى : شديد الحزن على ما حدث ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [طه] الوعْد الحسن أن الله يعطيهم التوراة ، وفيها أصول حركة الحياة ، وبها تَحسُن حياتنا فى الدنيا ، ويحسُن ثوابنا فى الآخرة .

وقوله : ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [طه]

يعنى : أطال عهدى بكم ، وأصبح بعيداً لدرجة أنْ تنسوْه ، ولم أغبْ عنكم إلا مُدَّة يسيرة . قال الله عنها : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ .. ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الأعراف]

ثم يقول : ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ ﴾ [طه]

وما دام أن عهدى بكم قريب لا يحدث فيه النسيان ، فلا بُدَّ أنكم تريدون العصيان ، وتبغُون غضب الله ، وإلاّ فالمسألة لا تستحق ، فبمجرد أنْ أغيبَ عنكم تنتكسون هذه النكسة ، وإن كان هذا حال القوم ورسولُهم ما زال بين أظهرهم ، فما بالهم بعد موته ؟

لذلك كان النبى ﷺ يقول : « أذلك وأنا بين ظَهْرانيكم ؟»[1] .

أى : ما هذا الذى يحدث منكم ، وأنا ما زلت موجوداً بينكم ؟

---

(١) أخرج النسائى فى سننه (١٤٢/٦) كتاب الطلاق من حديث محمود بن لبيد قال : أُخْبِر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً فقام غضباناً ، ثم قال : أيُلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم حتى قام رجل وقال : يا رسول الله ، ألا أقتله .

وقوله : ﴿ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ ﴾ [طه] وفى آية أخرى قال : ﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنْ بَعْدِى .. ﴿١٥٠﴾ ﴾ [الأعراف] فكأنه كان له معهم وَعْد وكلام ، فقد أوصاهم قبل أن يُفارقهم أنْ يسلكوا طريق هارون ، وأن يطيعوا أوامره إلى أنْ يعود إليهم ، فهارون هو الذى سيخلفه من بعده فى قومه ، وهو شريكه فى الرسالة ، وله مهابة الرسول وطاعته واجبة .

هذا هو الوَعْد الذى أخلفوه مع نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ.

﴿ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ ﴾

مادة « ملك » لها صور ثلاثة ، لكل منها معنى ، وليست بمعنى واحد كما يدَّعِى البعض ، فتأتى مَلْك بفتح الميم ، ومِلْك بكسرها ، ومُلْك بضم الميم ، وجميعها تفيد الحيازة والتملُّك ، إلا أن مَلْك تعنى تملك الإنسان لنفسه وذاته وإرادته ، دون أنْ يملكَ شيئاً آخر ممَّا حوله .

ومِلْك : لتملك ما هو خارج عن ذاتك .

ومُلْك : أنْ تملك شيئاً ، وتملك مَنْ ملكه .

إذن : هذه الثلاثة ليستْ مترادفات بمعنى واحد . فقوله تعالى : ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [طه] أى : بإرادتنا ، بل أمور أخرى خارجة عن إرادتنا حملتنا على إخلاف الوعد ، فما هذه الأمور الخارجة عن إرادتكم ؟

قالوا : ﴿ وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [طه] (أَوْزَاراً) جمع وِزْر ، وهو الشيء الثقيل على النفس ، ويطلق الوِزْر على الإثم ؛ لأنه ثقيل على النفس ثِقَلاً يتعدىَ إلى الآخرة أيضاً ،

حيث لا ينتهى ألم الحمْل فيها ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً (١٠١)﴾ [طه]

وكانت هذه الأوزار من زينة القوم : أى : قوم فرعون . وقالوا : إنهم كانوا فى أعيادهم يستعيرون الحُلِىّ من جيرانهم ومعارفهم من قوم فرعون يتزيَّنون بها . فلماذا لم يردُّوا الأمانات هذه إلى أصحابها قبل أنْ يخرجُوا إلى الميقات الذى واعدهم عليه ؟

قالوا : لأنهم أرادوا أنْ يُسِرُّوا ساعة خروجهم حتى لا يستعد لهم أعداؤهم ، ويصدُّوهم عن الخروج فأعجلوا عن رَدِّها .

وقال قوم : إن هذه الزينات والحلىّ كانت مما قذف به البحر بعد أنْ غرق فرعون وقومه ، لكن هذا القول مردود ؛ لأنهم إنْ أخذوها بعد أنْ ألْقَى بها البحر فسوف تكون أسلاباً لا أوزاراً .

ثم يقول تعالى : ﴿فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧)﴾ [طه]

إذا أُطلقَتْ الزينة تنصرف عادةً إلى الذهب . والقَذْف هو الرَّمْى بشدة ، وكأن الرامى يتأفّف أنْ يحمل المرمىّ ، وفى ذلك دلالة على أن بنى إسرائيل ما يزال عندهم خميرة إيمان ، فتألموا وحزنوا لأنهم لم يردُّوا الأمانات إلى أهلها .

لذلك دخل عليهم السامرى من هذه الناحية ، فأفهمهم : إنكم لن تبرأوا من هذه المعصية إلا أنْ ترمُوا بهذه الزينة فى النار[1] ، وهو يقصد شيئاً آخر ، هو أنْ ينصهر الذهب ، ويُخرِج ما فيه من الشوائب ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى

---

(١) أورد القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٠٨) نحو هذا من قول قتادة : إن السامرى قال لهم حين استبطأ القوم موسى : إنما احتبس عليكم من أجل ما عندكم من الحلى ، فجمعوه ودفعوه إلى السامرى فرمى به فى النار ، وصاغ لهم منه عجلاً ، ثم ألقى عليه قبضة من أثر فرس الرسول وهو جبريل عليه السلام .

السَّامِرِيُّ (٨٧) ﴾ [طه] أي : ألقى ما معه من الحُلِيّ ، لكن فَرْق بين القَذْف والإلقاء ، الإلقاء فيه لُطْف وتمهُّل ، فهو كبيرهم ومُعلِّمهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ(١) فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) ﴾

أي : أخرج لهم من هذا الذهب المنصهر ﴿ عِجْلاً جَسَدًا .. (٨٨) ﴾ [طه] كلمة جسد وردتْ أيضاً في القرآن في قصة سليمان عليه السلام ، حيث قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) ﴾ [ص]

وقد أعطى الله سليمان مُلْكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعده ، فسخَّر له الطير والجنَّ والإنس والريح يأتمرون بأمره ، ويبدو أنه أخذه شيء من الزَّهْو أو الغرور ، فأراد الحق سبحانه أنْ يلفته إلى مانح هذا الملْك ويُذكِّره بأن هذا الملْك لا يقوم بذاته ، إنما بأمر الله القادر على أن يُقعدك على كُرسيِّك جسداً ، لا حركة فيه ولا قدرة له حتى على جوارحه وذاته .

كما ترى الرجل - والعياذ بالله - قد أصابه شلل كُلِّيٌّ أقعده جسداً ، لا حركة فيه ، ولا إرادةَ على جوارحه . فإذا لم تكن له إرادة على جارحة واحدة من جوارحه ، أفتكون له إرادة على الخارج عنه من طير أو إنس أو جن ؟

(١) الخوار : صوت الثور وما اشتد من صوت البقرة والعجل . وقد خار يخور : صاح . [لسان العرب - مادة : خور] .

فلا تغتر بأنْ جعل الله لك إمْرة على كل الأجناس ؛ لأنه قادر أنْ يسلبكَ هذا كله .

ويُروَى[1] أن سليمان ـ عليه السلام ـ ركب بساط الريح يحمله إلى حيث يريد ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ .. (١٢) ﴾ [سبأ] فَداخَله شيء من الفخر والزَّهْو ، فسمع من تحته مَنْ يقول : يا سليمان ـ هكذا دون ألقاب ـ أُمِرْنا أنْ نطيعك ما أطعتَ الله ، ثم رَدَّه حيث كان .

لذلك استغفر سليمان ـ عليه السلام ـ وأناب .

وكذلك نرى الإنسان ساعة أنْ يموتَ أولَ ما يُنسَى منه اسمه ، فيقولون : الجثة : الجثة هنا ، ماذا فعلتم بالجثة ، ثم تُنسَى هذه أيضاً بمجرد أن يُوضَع في نعشه فيقولون الخشبة : أين الخشبة الآن ، انتظروا الخشبة .. سبحان الله بمجرد أنْ يأخذ الخالق ـ عز وجل ـ سِرَّه من العبد صار جثة ، وصار خشبة ، فما هذه الدنيا التى تكون نهايتها هكذا ؟

ففى قوله تعالى ﴿ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ .. (٨٨) ﴾ [طه] أى : لا حركة فيه ، فهو مجرد تمثال . صُنِع على هيئة معينة ، بحيث يستقبل الريح ، فيحدث فيه صفيراً يشبه الخوار أى : صوت البقر .

لكن ، لماذا فكَّر السامرى هذا التفكير ، واختار مسألة العجل هذه ؟

---

(١) أخرج الخطيب البغدادى فى رواية مالك عن سعيد بن المسيب ـ رضى الله عنه ـ قال : كان سليمان عليه السلام يركب الريح من اصطخر ، فيتغدى ببيت المقدس ، ثم يعود فيتعشى باصطخر . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٦٧٧) .

قالوا : لأن السامرى استغلَّ تشوُّق بنى إسرائيل ، وميلهم إلى الصَّنمية والوثنية ، وأنها متأصلة فيهم . ألم يقولوا لنبيهم عليه السلام وما زالت أقدامهم مُبتلة من البحر بعد أن أنجاهم الله من فرعون ، وكان جديراً بهم شكر الله ، فإذا بهم يقولون وقد أَتَوْا علي قوم يعكفون على أصنام لهم : ﴿ يَـٰمُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ .. (١٣٨) ﴾ [الأعراف]

فجاءهم بهذا العجل ، وقد ترقَّى به من الصنمية ، فجعله جسداً ، وجعل له خواراً وصَوْتاً مسموعاً .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَقَالُوا هَـٰذَا إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) ﴾ [طه] أى : نسى السامرى خميرة الإيمان فى نفسه ، ونسى أن هذا العمل خروجٌ عن الإيمان إلى الكفر ، ولَيْتَه يكفر فى ذاته ، إنما هو يكفر ويُكفِّر الناس . لا بُدَّ أنه نسى ، فلو كان على ذُكْر من الإيمان ومن عاقبة عمله وخيبة ما أقدم عليه ما فعل[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) ﴾

أى : كيف يعبدون هذا العجل ، وهو لا يردّ عليهم جواباً ، ولا يملك لهم شيئاً ، كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا

---

(١) وقد قيل فى هذه الآية تأويل آخر ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٠٩) وابن كثير فى تفسيره (٣/١٦٢) ومؤدى هذا أنه من كلام السامرى عن موسى أنه ضل وذهب يطلب إلهه وهو هنا . وعن ابن عباس قال : « أى فنسى موسى أن يذكر لكم أنه إلهه » .

عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) ﴾ [الشعراء]

فَمنْ كان لديه ذرة من عقل لا يُقدم علي هذه المسألة ؛ لذلك فالحق ـ سبحانه ـ يناقش هؤلاء : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ .. (٢٨) ﴾ [البقرة]

أى : أخبرونا بالطريق الذى يحملكم على الكفر ، كأنها مسألة عجيبة لا يقبلها العقل ولا يُقرُّها . ألم يخطر ببال هؤلاء الذين عبدوا العجل أنه لا يردّ عليهم إنْ سألوه ، ولا يملك لهم ضَرّاً إنْ كفروا به ، ولا نفعاً إن آمنوا به وعبدوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى (٩٠) ﴾

وكان هارون ـ عليه السلام ـ خليفة لأخيه فى غَيْبته ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) ﴾ [الأعراف]

اخْلُفْنِي واعمل الصالح ، فكان هذا تفويضاً من موسى لأخيه هارون أن يقضى فى القوم بما يراه مناسباً ، وأنْ يُقدِّر المصلحة كما يرى . وقد شُفِع هذا التفويض لهارون أمام أخيه بعد ذلك .

فقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ .. (٩٠) ﴾ [طه]

وهكذا وعظهم هارون على قَدْر استطاعته ، وبيّن لهم أن مسألة

العجْل هذه اختبار من الله . وكان تقديره في هذه القضية ألاَّ يدخل معَ هؤلاء في معركة ؛ لأن القومَ كانوا جميعاً ثلاثمائة ألف ، عبد العجل منهم اثنا عشر ألفاً ، ولو جعلها هارون ـ عليه السلام ـ معركة لأفْنى كل هذا العدد .

لذلك اكتفى بالوعظ ﴿ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَـٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) ﴾ [طه] كما أخذتم العهد عند موسى .

﴿ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ (١) حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١) ﴾

﴿ لَن نَّبْرَحَ .. (٩١) ﴾ [طه] . أي : سنظل على هذا الحال ، البعض يظن أنها للمكان فقط ، إنما هي حَسْب ما تتعلق به ، تقول : لا أبرح سائراً حتى أصلَ لغرضي ، ولا أبرح هذا المكان فقد تكون للمكان ، وقد تكون للحال . كما ورد في القرآن :

– للمكان والإقامة في قوله : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي .. (٨٠) ﴾ [يوسف]

– وللحال في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ .. (٦٠) ﴾ [الكهف] أي : لا أبرح السير .

فالمعنى ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ .. (٩١) ﴾ [طه] سنظلّ على عبادته حتى يرجع موسى ، فلن نمكثَ هذه الفترة دون إله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) ﴾

(١) أي : يقيمون عندها لعبادتها . [القاموس القويم ٢/٣١] .

هذا حوار دار بين موسى وأخيه هارون ﴿مَا مَنَعَكَ .. (٩٢)﴾ [طه] وقد وردتْ هذه الكلمة في القرآن بأسْلوبين : الأول : قوله تعالى : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥)﴾ [ص] أي : ما منعك من السجود .

والآخر : ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢)﴾ [الأعراف] . أي : ما منعك أن لا تسجد ؛ لأن المانع قد يكون قَهْراً عنك ، وأنت لا تريد أن تفعل ، وقد يأتي آخر فيُقنعك أن تفعل . فمرّة يُرغمك : أنت لا تريد أنْ تسجد يقول لك : اسجدَ . إذن : منعك أن تسجد يعني قهراً عنك ، لكن أقنعك أن تسجد أنت باختيارك فقد منعك ألاَّ تسجد .

إذن : مرة من النفس ، ومرة من الغير ، وهكذا يلتقي الأسلوبان .

فقوله : ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣)﴾ [طه] أي : من اتباعي ، لكن هل موسى عليه السلام هنا يستفهم ؟ الحقيقة أنه لا يريد الاستفهام ، فقد تخاطب إنساناً بذنب ، وأنت لا تعلم ذنبه ، إنما تخاطبه بصورة الذَّنْب لتسمع الردَّ منه ، فيكون رَدّاً على مَنْ يعترض عليه .

ومن ذلك ما كان من سيدنا عمر - رضي الله عنه - عند الحجر الأسود ، فلما قَبَّله قال : « اللهم إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنِّي رأيت رسول الله يُقبِّلك ما قبَّلتُك »[1] .

إذن : قبّله عمر ؛ لأن رسول الله ﷺ قبَّله ، إلا أنه جاء بهذا الكلام ليعطينا الجواب المستمر على مَرِّ التاريخ لكل مَنْ يسأل عن تقبيل الحجر .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (١٢٧٠) كتاب الحج . قال النووي في شرحه : « وإنما قال : وإنك لا تضر ولا تنفع . لئلا يغتر بعض قريبي العهد بالإسلام الذين كانوا ألفوا عبادة الأحجار وتعظيمها ورجاء نفعها » .

وهنا أثارها موسى شبهة ؛ كى نسمع نحن الجواب ، ولنسمع الردّ من صاحب الشأن باقياً سائراً فى طول الأزمان .

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ[1][2] إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾

إذن : صاحبَ خطابَ موسى لأخيه هارون فعْل نزوعىٌّ وحركة ، فهمناها من قول هارون : ﴿ يَبْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلَحْيَتِي ولا بِرأسِي .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [طه]

ثم ذكر العلة ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنى إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾ [طه] يقصد قول أخيه : ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الأعراف]

فذكّره بالتفويض الذى أعطاه إياه ، وقد اجتهد هارون حَسْب رؤيته للموقف ، ونأى بالقوم عن معركة ربما انتهتْ بالقضاء على خلية الإيمان فى بنى إسرائيل ، اجتهد فى إطار ﴿ وَأَصْلِحْ ﴿١٤٢﴾ .. ﴾ [الأعراف]

إذن : أثار موسى هذه القضية مع أخيه ، لا ليسمع هو الرد ، وإنما ليُسمع الدنيا كلّها على مَرِّ التاريخ .

ثم ينقل موسى الخطاب إلى رأس هذه الفتنة :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ ﴾

أى : ما شأنك ؟ وما قصتك ؟

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/١٦٣) : « ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه ، لأن ذكر الأم ههنا أرق وأبلغ فى الحنو والعطف » .

(٢) قال ابن عباس : أخذ شعره بيمينه ولحيته بيساره . [تفسير القرطبى ٦/٤٤١٢] .

والخَطْب : يُقال في الحدَث المهم الذي يُسمُّونه الحدَث الجلَل ، والذي يُقال فيه « خطب » ، فليس هو الحدث العابر الذي لا يقف عنده أحد .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ[1] يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ .. (٥١)﴾ [يوسف]

وما حكاه القرآن من قول موسى ـ عليه السلام ـ لابنتَيْ شعيب : ﴿مَا خَطْبُكُمَا .. (٢٣)﴾ [القصص]

ثم يقول الحق سبحانه عن السامرى :

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا[2] وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦)﴾

مادة : بَصُر منها أبصرت للرؤية الحسية ، وبصرت للرؤية العلمية أى : بمعنى علمتُ .

فمعنى ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ .. (٩٦)﴾ [طه] يعنى : اقتنعتُ بأمر هم غير مقتنعين به ، فأنا فعلتُ وهم قلَّدونى فيما فعلتُ من مسألة العجْل .

---

(١) راوده على الشيء مراودة : طلبه منه بجهد وحيلة ومساومة ، وقوله تعالى : ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ .. (٢٣)﴾ [يوسف] : أى طلبت منه نفسه فى محاولة ومخادعة ، ليتجاوز وينزل عن كبرياء نفسه وشرفها وعفتها ، وهى كناية عن طلب المعاشرة الجنسية . [القاموس القويم ١/٢٨١] .

(٢) نبذ الشيء : ألقاه ورماه . [القاموس القويم ٢/٢٥١] والنبذ : طرحك الشيء من يدك أمامك أو وراءك . [لسان العرب ـ مادة : نبذ] .

وقد أدَّى به اجتهاده إلى صناعة العجل ؛ لأنه رأى قومه يحبون الأصنام ، وسبق أنْ طلبُوا من موسى أن يجعل لهم إلهاً لما رأوا قوماً يعبدون الأصنام ، فانتهز السامريُّ فرصة غياب موسى ، وقال لهم : سأصنع لكم ما لم يستطع موسى صناعته ، بل وأزيدكم فيه ، لقد طلبتم مجرد صنم من حجارة إنما أنا سأجعل لكم عِجْلاً جَسَداً من الذهب ، وله صوت وخُوَار مسموع .

وقوله : ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا .. (٩٦) ﴾ [طه] قبض على الشيء : أخذه بجُمْع يده . ومثلها : قَبص[1] .

وقوله : ﴿ مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ .. (٩٦) ﴾ [طه] للعلماء في هذه المسألة روايات متعددة . منها : أن السامرى حين كان جبريل عليه السلام يتعَهَّده وهو صغير ، كان يأتيه على جواد فلاحظ السامرى أن الجواد كلما مَرَّ على شيء اخضرّ مكان حافره ، ودَبَّتْ الحياة فيه ، لذلك : فأصحاب هذا القول رأوْا أن العجل كان حقيقياً ، وله صوت طبيعى ليس مجرد مرور الهواء من خلاله[2] .

ورأى آخر يقول : ﴿ مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ .. (٩٦) ﴾ [طه] الرسول كما نعلم هوالمبلِّغ لشرع الله المباشر للمبلّغ ، أما جبريل فهو رسول للرسول ، ولم يَرَه أحد فأُطلقت الرسول على حامل المنهج إلى المتكلّم به ، لكنها قد تُطلق ويُراد بها التهكّم ، كما جاء في قوله تعالى :

---

(١) وهى قراءة للحسن البصرى . فقد أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن أنه كان يقرؤها « فقبصت » بالصاد ، قال : والقبص بأطراف الأصابع . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥/٥٩٦] .

(٢) لهذا قالوا : معنى ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ .. (٩٦) ﴾ [طه] أى : من أثر فرسه . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/١٦٣) : « هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم » .

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. ⑦﴾ [المنافقون]
فيقولون : رسول الله تهكماً لا إيماناً بها .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا مَا لِهَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ .. ⑦﴾ [الفرقان]

إذن : قد يُرَاد بها التهكّم .

لكن ، ما المراد بأثر الرسول ؟ الرسول جاء ليُبلِّغ شرعاً من الله ، وهذا هو أثره الذى يبقى من بعده . فيكون المعنى : قبضتُ قبضة من شرع الرسول ، قبضة من قمته ، وهى مسألة الإله الواحد الأحد المعبود ، لا صنمَ ولا خلافه .

وقوله تعالى : ﴿فَنَبَذْتُهَا ..⑨٦﴾ [طه] أى : أبعدتُها وطرحتها عن مُخيِّلتى ، ثم تركتُ لنفسى العنان فى أن تفكر فيما وراء هذا .

بدليل أنه قال بعدها ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ⑨٦﴾ [طه] أى : زيَّنتها لى ، وألجأتنى إلى معصية . فلا يقال : سوَّلَتْ لى نفسى الطاعة ، إنما المعصية وهى أن يأخذ شيئاً من أثر الرسول ووَحْيه الذى جاء به من الله ، ثم يطرحه عن منهجه ويُبعده عن فِكْره ، ثم يسير بِمَحْض اختياره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ⑨٧﴾

كان ردّ موسى ـ عليه السلام ـ على هذه الفعْلة من السامرى : جزاؤك أن تذهب ، ويكون قولك الملازم لك ﴿لا مِسَاسَ .. (٩٧)﴾ [طه] والمِسَاس أى : المسّ . المعنى يحتمل : لا مساس مِنّى لأحد ، أو لا مَساسَ من أحد لى .

ذلك لأن الذين يفترون الكذب ويدَّعُون أن لهم رسالة ولهم مهمة الأنبياء ، حظُّهم من هذا كله أن تكون لهم سُلْطة زمنية ومكانة فى قلوب الناس ، وأن يكون لهم مذهب وأتباع وأشياع .

لذلك تراهم دائماً ـ فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية ـ يتحللون من المنهج الحق ، ويستبدلونه بمناهج حَسْب أهوائهم ، فيميلون إلى تسهيل المنهج وتبسيطه ، ويُعطون لأتباعهم حريةً ما أنزل الله بها من سلطان ، كالذى خرج علينا يُبيح للناس الاختلاط بين الرجال والنساء .

ومن العجيب أن تجد لهذه الأفكار أنصاراً يؤمنون بها ويُطبِّقونها ، لا من عامة الناس ، بل من المثقفين وأصحاب المناصب . فكيف تحجب عنهم المرأة ، وهى نصف المجتمع ؟

إذن : ما أجملَ هذا الدين ومَا أيسره على الناس ، فقد جاء على وَفْق أهوائهم وشهواتهم ، ووسَّع لهم المسائل ، فالنفس تميل بطبعها إلى التدين ؛ لأنها مفطورة عليه ، لكن تريد هذا الدين سَهْلاً لا مشقةَ فيه ، حتى وإنْ خالف منهج الله .

لذلك تجد مثلاً مسيلمة وسجاح وغيرهما من مُدَّعى النبوة يُخفِّفون عن أتباعهم تكاليف الشرع فى الصلاة والصوم ، أما الزكاة فهى ثقيلة على النفس فلا داعىَ لها . وإلاَّ فما الميْزة التى جاءوا بها

ليتبعهم الناس ؟ وما وسائل التشجيع لاتباع الدين الجديد ؟

وهكذا يصبح لهؤلاء سُلْطة زمنية ومكانة ، وأتباع ، وجمهور ، إذن : الذى أفسد حياته أن يجد العزَّ والمكانة فى انصياع الناس له وتبعيتهم لأفكاره ، فيعاقبه الله بهم ، ويجعل ذُلَّه على أيديهم وفتنته من ناحيتهم ، فهم الذين أعانوه على هذا الباطل ، فإذا به يكرههم ويبتعد بنفسه عنهم ، لدرجة أن يقول ﴿لا مِسَاسَ .. ﴿٩٧﴾﴾ [طه] كأنه يفِرُّ منهم يقول : إياك أنْ تقربَ مِنِّى أو تمسَّنى .

لقد تحول القُرْب والمحبة إلى بُعْد وعداوة ، هذه الجمهرة التى كانت حوله وكان فيها عِزُّه وتسلُّطه يفرُّ منها الآن ، فهى سبب كَبْوته ، وهى التى أعانَتْه على مَعصية الله .

وهكذا ، كانت نهاية السامرىّ أن ينعزل عن مجتمعه ، ويهيم على وجهه فى البرارى ، ويفرّ من الناس ، فلا يمسّه أحد ، بعد أنْ صدمه الحق ، وواجهتْه صَوْلته .

وما أشبهَ هذا الموقف بما يحدث لشاب متفوق مستقيم يُغريه أهل الباطل ، ويجذبونه إلى طريقهم ، وبعد أن انخرط فى سلْكهم وذاق لذة باطلهم وضلالهم إذَا به يصحو على صدمة الحق التى تُفيقه ، ولكن بعد أن خسر الكثير ، فتراه بعد ذلك يفِرُّ من هذه الصُّحْبة وينأى بنفسه عن مجرد الاقتراب منهم .

لذلك من الذين اختاروا دينهم وَفْق أهوائهم عبدة الأصنام ، فإن كانت العبادة أنْ يطيع العابدُ معبوده ، فما أيسرَ عبادة الأصنام ؛ لأنها آلهة بدون تكليف ، وعبادة بدون مشقة ، لا تقيد لك حركة ، ولا تمنعك من شهوة ، وإلا فماذا أعدَّتْ الأصنام من ثواب لمَنْ عبدها ؟ وماذا أعدَّتْ من عذاب لمن كفر بها ؟

فكأن الحق - تبارك وتعالى - قال للسامرى : ستُعاقب بنفس المجتمع الذى كنت تريد منه العِزّة والسُّلْطة والسيطرة والذكر ، فتتبرأ أنت منهم وتفرّ من جوارهم ، ولا تتحمل أنْ يمسَّك أحد منهم ، فهم سبب بلائك ، ومصدر فتنتك ، كما قال تعالى : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزخرف]

فأخلاءُ الباطل ، وصُحْبَة السوء الذين يجتمعون على معصية الله فى سهرات مُحرَّمة عليهم أنْ يحذروا هذا اللقاء . أما الخُلَّة الحقيقية الصادقة فهى للمتقين ، الذين يأتمرون بالحق ، ويتواصَوْن بطاعة الله .

وفَرْق بين مَنْ يقاسمك الكأس ومَنْ يكسرها ويُريقها قبل أنْ تذوقها ، فَرْق بين مَنْ يلهيك عن الصلاة ومَنْ يحثُّك عليها ، فَرْق بين مَنْ يُسعدك الآن بمعصية ومَنْ يحملك على مشقّة الطاعة ، فانظر وتأمَّلْ .

ثم يقول : ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ .. ﴿٩٧﴾ ﴾ [طه] أى : ما ينتظرك من عذاب الآخرة

﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَـٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [طه]

(عَاكِفاً) أى : مقيماً على عبادته ، والاعتكاف : الإقامة فى المسجد ، والانقطاع عن المجتمع الخارجى .

ومعنى ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ .. ﴿٩٧﴾ ﴾ [طه] أى : نُصيِّره كالمحروق ، بأنْ نبردَه بالمبرد حتى يصبح فُتاتاً وذرات متناثرة ، بحيث يمكن أن نذروه فى الهواء ﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [طه] أى : نذروه كما

يفعل الفلاحون حين يذرون الحبوب لفصْل القشْر عنها بآلة تسمى (المنسف)[(١)] تشبه الغربال ، وقد استبدلوا هذه الأدوات البدائية الآن بآلات ميكانيكية حديثة تُؤدِّى نفس الغرض .

ذلك لأن إلهَ السَّامرى كان هذا العجل الذى اتخذه من ذهب ، فلا يناسبه الحرق فى النار ، إنما نريد له عملية أخرى ، تذهب به من أصله ، فلا نُبقِى له على أثر . وهذا هو إلهك الذى عبدته إنْ أفلح كان يدافع عن نفسه ويحمى رُوحَه .

وبعد أن بيَّن الحق ـ سبحانه ـ وَجْه البطلان فيما فعله السامرى ، ومَنْ تبعه من القوم ، عاد ليذكِّرهم بمنطقه الحق وجادة الطريق ، وأن كلَّ ما فعلوه هراء فى هراء :

﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾

الحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما يقول : ﴿لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (٩٨)﴾ [طه] نقولها نحن هكذا ، ونشهد بها ، فقد تعلَّمناها من رسول الله ﷺ الذى سمعها من ربه ونقلها إلينا ، فهى الشهادة بالوحدانية الحقَّة ، شهادة من الله لذاته أولاً : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ .. (١٨)﴾ [آل عمران]

فهذه شهادة الذات للذات قبل أنْ يخلق شاهداً يشهد بها . ثم شهدتْ له بذلك الملائكة شهادةَ المشهد أنه لا إله غيره ، ثم شهد

---

(١) ذكره ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : نسف] فقال : « نسف الشىء ، وهو نسيف : غربله ، والنسف : تنقية الجيد من الردىء . ويقال لمنخل مُطوّل : المِنْسف ، والمنسفة : الغربال » .

بذلك أولو العلم شهادة استدلال بالمخلوقات التى رأوْها على أبدع نظام وأعجبه ، ولا يمكن أن ينشأ هذا كله إلا عن إله قادر .

وقد سلمتْ لله تعالى هذه الدَّعْوى ؛ لأنها قضية صادقة شَهد بها سبحانه لنفسه ، وشَهِد بها الملائكة وأولو العلم ولم يَقُمْ لها معارض يدَّعيها لنفسه .

وإلا - والعياذ بالله - أين ذلك الإله الذى أخذ الله تعالى منه الألوهية ؟ فإما أنْ يكون لا يعلم ، أو علم بذلك ولم يعترض ، وفى كلتا الحالتين لا يستحق أن يكون إلهاً . والدَّعْوى إذا لم تُجْبَه بمعارض فقد سلمتْ لصاحبها ، إلى أن يُوجَد المعارض .

وكأن الحق سبحانه قال : لا إله إلا أنا ، وأنا خالق الكون كله ومُدبِّر أمره ، ولم يَأتِ أحد حتى من الكفار يدَّعى شيئاً من هذا . وقد ضربنا لهذه المسألة مثلاً - ولله المثل الأعلى - : هَبْ أنه نزل عندك مجموعة ضيوف وزوار ، وبعد انصرافهم وجدتَ حافظة نقود فسألتَ عن صاحبها ، فلم يدَّعها أحد إلى أنْ قال واحد منهم : هى لى ، إذن : فهو صاحبها ، وهو أحقُّ بها حيث لم يَقُمْ له معارض .

لذلك يقول تعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء]

يعنى إنْ كان هناك آلهة أخرى فلا بُدَّ أنْ يذهبوا إلى صاحب العرش ، إما ليخضعوا له ويستلهموا منه القدرة على فعْل الأشياء ، أو ليُحاسبوه ويُحاكموه : كيف يدَّعى الألوهية وهم آلهة ؟ ولم يحدث شىء من هذا كله ، ولا أقام أحد دليلاً على أنه إله ، والدَّعْوى إذا لم يَقُمْ عليها دليل فهى باطلة .

وينفى الحق سبحانه وجود آلهة أخرى ، فيقول في موضع آخر :
﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١) ﴾ [المؤمنون]

فهذا إله للسماء ، وهذا إله للأرض ، وهذا للجن ، وهذا للإنس .. إلخ ، وبذلك تكون الميْزة فى أحدهم نقصاً فى الآخر ، والقدرة فى أحدهم عجزاً فى الآخر ، وهذا لا يليق فى صفات الألوهية .

ونلحظ هنا فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا إِلَـٰهُكُمُ اللَّهُ .. (٩٨) ﴾ [طه] أن كلمة (إله) لا تعنى (الله) ، وإلا لو كان إلهاً بمعنى الله لأصبح المعنى : إنما الله الله .

إذن : هناك فَرْق بين اللفظين : الله عَلَم على واجب الوجود الأعلى ، أما الإله فهو المعبود المطاع فيما يأمر ، فالمعنى : أن المعبود المطاع فيما يأمر به هو الله خالق هذا الوجود ، وصاحب الوجود الأعلى .

فالله تعالى هو المعبود المطاع بحقٍّ ، لأن هناك معبوداً ومطاعاً لكن بالباطل ، كالذين يعبدون الشمس والقمر والأشجار والأحجار ويُسمُّونهم آلهة ، فإذا كانت العبادة إطاعة أمر ونهى المعبود ، فبماذا أمرتْهم هذه الآلهة ؟ وعن أىِّ شىء نهتْهم ؟ وماذا أعدَّتْ لمن عبدها أو لمن كفر بها ؟ إذن : هى معبودة ، لكن بالباطل ؛ لأنها آلهة بلا منهج .

وكلمة ﴿ إِنَّمَا .. (٩٨) ﴾ [طه] لا تأتى إلا استدراكاً على باطل ، وتريد أن تُصوِّبه ، كأن تقول : إنما الذى حضر زيد ، فلا تقولها إلا مِن ادَّعى أن الذى حضر غير زيد ، فكأنك تقول : لا ، فلان لم يحضر ، إنما الذى حضر زيد .

فلا بُدَّ أن قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا إِلَـٰهُكُمُ اللَّهُ .. ﴿٩٨﴾﴾ [طه] جاء رداً على كلام قيل يدَّعى أن هناك إلهاً آخر ، وإنما لا تُقال إلا إذا ادُّعِيَ أمر يخالف ما بعدها ، فتنفى الأمر الأول ، وتُثبت ما بعدها .

وهنا يقول : ﴿إِنَّمَا إِلَـٰهُكُمُ اللَّهُ .. ﴿٩٨﴾﴾ [طه] لأن السامريَّ لما صنع لهم العجل قال : ﴿هَٰذَا إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ .. ﴿٨٨﴾﴾ [طه] فكذَّبه الله واستدرك بالحقِّ على الباطل : ﴿إِنَّمَا إِلَـٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ .. ﴿٩٨﴾﴾ [طه]

ثم أضاف الحق ـ تبارك وتعالى ـ ما يُفرِّق بين إله الحق وإله الباطل ، فقال : ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه] لأنه سبحانه هو الإله الحق ، وهذه أيضاً ردٌّ على السامريّ وما اتخذه إلهاً من دون الله ، فالعجل الذى اتخذه لا علمَ عنده ، وكذلك السامرى الذى أمر الناس بعبادته ، فلو كان عنده علم لعرفَ أن عجْله سيُحرق ويُنسَف وتذروه الرياح ، ولعرفَ العاقبة التى انتهى إليها من قوله للقوم (لا مساس) ، وأنه سينزل به عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ، فلو علم هذه الحقائق ما أقدمَ على هذه المسألة .

ووسع علم الله لكل شيء يعنى : مَنْ أطاع ومَنْ عصى ، لكن من رحمته تعالى بنا ألاَّ يحاسبنا عَمَّا علم منّا ، بل يعلمنا حين ندعوه أن نقول : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا .. ﴿٧﴾﴾ [غافر] فسبقتْ رحمته تعالى سيئاتنا وذنوبنا ، وسبقت عذابه ونقمته ، وفى موضع آخر يقول عز وجل : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ .. ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف]

فلو وقفنا عند ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه] لأتعبتْنا هذه المسألة ؛ لأنه سيجازينا عن السيئة وعن الحسنة ، ومَنْ يطيق هذا ؟

● ● ●

ثم يُبيِّن الحق سبحانه حكمة القَصَص فى القرآن ، والقَصَص لون من التـاريخ ، وليس مطلق التـاريخ ، القصص تاريخ لشىء مـشهـود يهمنى وتفيـدنى معرفته ، وإلا فمن التـاريخ أن نقول : كان فى مكان كذا رجل يبيع كذا ، وكان يفعل كذا أو كذا .

إذن : فالقصص حدث بارز ، وله تأثيره فيمَنْ سمعه ، وبه تحدث الموعظة ، ومنه تؤخذ العبرة .

والتاريخ هو ربط الأحداث بأزمنتها ، فحين تربط أىَّ حدث بزمنه فقد أرَّخْتَ له ، فإذا كان حَدَثاً متميـزاً نسميه قصة تُروَى ، فإنْ كانت قصة شهيرة تعلو على القصص كله نسميها سيرة ، لذلك خُصَّ باسم السيـرة تاريخ قصة رسول الله ﷺ ؛ لأن الـقَصَص شىء مميـز ، أما السيرة فهى أميز ، ورسـول الله خاتم الأنبياء ؛ لذلك نقول عن تاريخه سيـرة ولا نقول قصـة ؛ لأن واقعه فى الحـياة كان سَـيْراً على منهج الله ، وعليه نزل القرآن ، وكان خُلُقه القرآن .

والقـصص يأتى مرة بالـحدث ، ثم تدور حـوله الأشخـاص ، أو يأتى بشـخصيـة واحدة تدور حـولها الأحـداث ، فإذا أردتَ أن تؤرخ للثورة العرابيـة مثلاً وضعت الحدث أولاً ، ثم ذكـرتَ الأشخاص التى تدور حوله ، فإنْ أردتَ التأريخ لـشخصية عرابى وضعت الشـخصية أولاً ، ثم أدرت حولها الأحداث .

وقَـصص القرآن يخـتلف عن غيـره من الحكايات والقـصص التى نسمعـها ونحكيها من وضع البشـر وتأليفهم ، فهى قصص مُخْـتَرعة تُبنى على عُقْدة وَحلِّهـا ، فيأخذ القاصُّ حـدثاً ، ثم ينسج حوله أحداثاً من خياله .

وبذلك يكونون قد أخذوا من القصص اسمه ، وعدلوا عن مُسمَّاه ، فهم يُسمُّون هذا النسيج قصة ، وليست كذلك ؛ لأن قصة من قصَّ الأثر أى : مشى على أثره وعلى أقدامه ، لا يميل عنها ولا يحيد هنا أو هناك .

فالقصة - إذن - التزام حدثىٌّ دقيق لا يتحمل التأليف أو التزييف ، وهذا هو الفَرْق بين قَصَص القرآن الذى سماه الحق سبحانه وتعالى : ﴿ الْقَصَصُ الْحَقُّ .. (٦٢) ﴾ [آل عمران] و ﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. (٣) ﴾ [يوسف] وبين قَصَص البشر وتآليفهم .

القصص الحقُّ وأحسن القصص ؛ لأنه ملتزم بالحقيقة لا يتجاوزها ، وله غاية سامية أسْمى من قَصَص دنياكم ، فقَصَص الدنيا غايته وخلاصته - إن أفلح - أن يحميك من أحداث الدنيا ، أما قصص القرآن فحمايته أوسع ؛ لأنه يحميك فى الدنيا والآخرة .

فإنْ رأيتَ فى قصص القرآن تكراراً فاعلم أنه لهدف وغاية ، وأنها لقطات شتَّى لجوانب الحدَث الواحد ، فإذا ما تجمعتْ لديك كل اللقطات أعطتك الصورة الكاملة للحدث .

وهنا يقول تعالى :

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) ﴾

وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠) ﴾ [هود]

فكأن فؤاده ﷺ كان فى حاجة إلى تثبيت ؛ لأنه سيتناول كل

أحداث الحياة ، وسيتعرض لما تشيب لهَوْله الرؤوس ، ألم يَقُلْ الحق تبارك وتعالى عن الرسل قبله : ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤)﴾ [البقرة]

ألم يُضطهد رسول الله والمؤمنون ويُضربوا ويُحاصروا في الشِّعْب بلا مأوى ولا طعام ، حتى أكلوا الجلود وأوراق الشجر[1] ؟

فهذه أحداث وشدائد تضطرب النفس البشرية حين تستقبلها ، ولا بُدَّ لها من تأييد السماء لتثبت على الإيمان ؛ لذلك يقصُّ الحق ـ تبارك وتعالى ـ على رسوله قصص مَنْ سبقوه في موكب الرسالات ليقول له : لست يا محمد بِدْعاً من الرسل ، فقد تحملوا من المشاق كيت وكيت ، وأنت سيدهم ، فلا بُدَّ أنْ تتحمل من المشاقِّ ما يتناسب ومكانتك ، فوطِّن نفسك على هذا .

فقوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ .. (٩٩)﴾ [طه] (كذلِكَ) : أى : كما قصصنا عليك قصة موسى وهارون وفرعون والسامريّ نقصُّ عليك قصصاً آخر من أنباء مَنْ سبقُوك من الرسل .

وأنباء : جمع نبأ ، وهو الخبر الهام العظيم ، فلا يُقال للأمر

(١) أورد هذا البيهقى فى كتابه « دلائل النبوة » (٢/٣١١ ـ ٣١٤) وملخصه أن رسول الله ﷺ دخل فى شعب بنى عبد المطلب لخوف عمه أبى طالب عليه من قتل المشركين له علانية ، فاجتمع المشركون وأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل ، وكتبوا صحيفة وعهوداً ومواثيق ، فلبث بنو هاشم ثلاث سنين واشتد عليهم البلاء والجهد ، حتى أخبر رسول الله ﷺ عمه أن الله قد أخبره أن الصحيفة قد أكلتها الأرضة فلم تدع فيها اسماً هو لله تعالى إلا أكلته وبقى فيها الظلم والقطيعة والبهتان ، فلما أفسد الله صحيفة مكرهم خرج النبى ﷺ ورهطه فعاشوا وخالطوا الناس .

التافه نبأ . ومن ذلك قوله تعالى عن يوم القيامة : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ① عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ②﴾ [النبأ] إنما يُقال « خبر » في أي شيء .

ثم يقول تعالى : ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ⑨⑨﴾ [طه]

وأكد الإتيان بأنه ﴿مِن لَّدُنَّا .. ⑨⑨﴾ [طه] أي : من عندنا ، فلم يَقُلْ مثلاً : آتيناك ذكْراً . وهذا له معنى ؛ لأن كل الكتب التي نزلت على الرسل السابقين نزلت ورُويتْ بالمعنى ، ثم صاغها أصحابها بألفاظ من عند أنفسهم ، أمَّا القرآن فهو الكتاب الوحيد الذي نزل بلفظه ومعناه ؛ لذلك قال ﴿مِن لَّدُنَّا .. ⑨⑨﴾ [طه] أي : مباشرة من الله لرسوله .

والمتأمّل في تبليغ الرسول وتلقِّيه عن ربه يجد أنه يحافظ على لفظ القرآن ، لا يُخْفي منه حرفاً واحداً ، كما في قوله تعالى مثلاً : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ [الإخلاص] فكان يكفي في تبليغ هذه العبارة أن يقول رسول الله ﷺ : الله أحد ، لكنه يقول نصّ ما جاءه من ربه مباشرة .

أرأيتَ لو قلت لولدك : اذهب إلى عمك وقُلْ له : أبي سيزورك غداً ، ألاَ يكفي أن يقول الولد : أبي سيزورك غداً ؟

إذن : فالقرآن الذي بين أيدينا هو نفسه كلام الله المنزَّل على محمد ﷺ لم يتغير فيه حرف واحد لا بالزيادة ولا بالنقصان ؛ لأنه نصُّ الإعجاز ، وما دام نص الإعجاز فلا بُدَّ أنْ يظلَّ كما قاله الله .

ومعنى ﴿ذِكْرًا ⑨⑨﴾ [طه] للذكْر معان متعددة ، فيُطلق الذكر ، ويُراد به القرآن ، كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⑨﴾ [الحجر]

ويُطلَق ويُراد به الصِّيت والشَّرف والجاه في الدنيا ، كما فى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. ⑩ ﴾ [الأنبياء] أى : شرفكم ورِفْعتكم بين الناس ، وقال : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .. ㊹ ﴾ [الزخرف]

وقد يقول قائل : كيف يكون القرآن ذكراً وشرفاً للعرب ، وقد أبان عجزهم ، وأظهر ما فيهم من عِيٍّ ؟ وهل يكون للمغلوب صِيت وشَرف ؟

نقول : كونهم مغلوبين للحق شهادة بأنهم أقوياء ، فالقرآن أعجز العرب وهم أمة فصاحة وبلاغة وبيان ، والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حين يتحدى لا يتحدى الضعيف ، إنما يتحدى القوى ، ومن الفخر أن تقول : غلبت البطل الفلانى ، لكن أىّ فخر فى أن تقول : غلبت أىّ إنسان عادى ؟

وكذلك يُطلَق الذكْر على كل كتاب أنزله الله تعالى ، كما قال لرسوله ﷺ : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ㊸ ﴾ [النحل] أى : أهل الذكر قبلكم ، وهم أهل التوراة وأهل الإنجيل .

ويُطلَق الذكر ، ويُراد به فعل العمل الصالح والجزاء من الله عليه ، كما قال تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. ⑮② ﴾ [البقرة] أى : اذكرونى بالطاعة أذكركم بالخير .

ويأتى الذكْر بمعنى التسبيح والتحميد ، وبمعنى التذكُّر والاعتبار ، فله ـ إذن ـ معانٍ متعددة يُحدِّدها السياق .

لكن ، لماذا اختار كلمة (ذكر) ولم يقل مثلاً كتاباً ؟

قالوا : لأن الذكْر معناه أن تذكر الشيء بداية ؛ لأنه أمر مهم

لا يُنسَى ، وهو ذكْر لأنه يُستْلهم ، ومن الذكر الاعتبار والتذكير ، والشيء لا يُذكر إلا إذا كان له أهمية ، هذه الأهمية تتناسب مع الأمر من حيث مُدّة أهميته ومقدار أهميته ، وكل ذكر لشيء في الدنيا قصارى أمره أنْ يعطيك خير الدنيا ، أمّا القرآن فهو الذكر الذي يعطيك خيرى الدنيا والآخرة ؛ لذلك فهو أهم ذكر يجب أنْ يظلَّ على بالك لا يُنسى أبداً .

إذن : فالقرآن ذكْر ذُكر أولاً ، وذكْر يُذكَر ثانياً ، ويستلهم ذكراً يشمل الزمن كله في الدنيا وفي الآخرة .

ثم يصف الحق تبارك وتعالى هذا الذكر ، فيقول :

﴿ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ۝١٠٠ ﴾

أعرض : نعرف أن الطول أبعد المسافات ، وأن العرض أقصر المسافات ؛ لذلك لما أراد الحق سبحانه أن يُصوِّر لنا اتساع مُلْكه سبحانه قال : ﴿جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. ۝١٣٣﴾ [آل عمران] فأتى بالأوسع للأقل ، فإن كان عَرْضها السموات والأرض ، فما بالك بطولها ؟ لا بُدَّ أنه لا نهاية له .

والإنسان منّا له طول ، وله عرض ، ولا يميز العرض إلا الكتفان ، ودائماً مرآهما من الخلف ، لا من الأمام ؛ لذلك نجد الخياط إذا أنْ يقيس لك الثوب قاسه من الخلف ، فعَرْض الإنسان مؤخرته من أعلى .

وبذلك يكون أعرض عن كذا ، يعني : تركه وذهب بعيداً عنه ، أو : أعطاه ظهره وانصرف عنه .

ومن ذلك ما نقوله (ادينى عرض كتافك) يعنى : در وجهك وانصرف عنى ، فإنْ كان جالساً نقول (انفُضْ طولك أو اطول) أى : قم وأرنى طولك ، كى ترينى عرض أكتافك وتنصرف عنى .

والحق - سبحانه وتعالى - يعطينا صورة من الإعراض للذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فيقول : ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة]

وهكذا ترى ترتيب العذاب حسْب ترتيب الإعراض ، فأول ما واجهه السائل قَطَّب جبهته ، وكشَّر وبدَتْ عليه ملامح الغضب والضيق ، ثم أدار له جنبه ، ثم أعطاه ظهره وانصرف عنه .

والوِزْر: الحمْل الثقيل ، وليْتَه فى الدنيا فيمكنك أن تتخلص منه ، إما بأنْ يُوضع عنك ، وإما أنْ تفوته بالموت ، إنما الوِزْر هنا فى الآخرة ؛ لذلك فهو وزر ثقيل لا ينحط عنك ولا تفوته بالموت ، فهو حمْل لا نهايةَ له ولا أملَ فى الخلاص منه . فهو ثقيل ممتد الإيلام ، فقد يكون الحمل ثقيلاً إلا أنه مُحبَّب إلى النفس ، كمَنْ يحمل شيئاً نافعاً له ، أمّا هنا فحِمْل ثقيل مكروه .

وبعد ذلك يستدرك به على العقوبة ، فالذى يأثم يُقال : أتى وزراً .

﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾

ساء : قبح ذلك الحمل يوم القيامة ؛ لأن الحمل قد لا يكون قبيحاً إنْ كان خيراً ، وإن كان شراً فقد يحمله صاحبه فى الدنيا ويزول عنه أمّا الوزر فحِمْل سيىء قبيح ، لأنه فى دار الخُلْد التى لا نهايةَ لها .

فمتى يكون ذلك ؟

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾

وهو يوم القيامة ، والصور : هو البوق الذى يُنفخ فيه النفخة الأولى والثانية ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر]

وقوله تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [طه]

أى : نجمعهم ونسوقهم زُرْقاً ، والزُّرْقة هى لونهم ، كما ترى شخصاً احتقن وجهه ، وازرقّ لونه بسبب شىء تعرَّض له ، هذه الزُّرْقة نتيجة لعدم السلام والانسجام فى كيماوية الجسم من الداخل ، فهو انفعال داخلى يظهر أثره على البشرة الخارجية ، فكأن هَوْلَ القيامة وأحداثها تُحدث لهم هذه الزرقة .

والبعض[1] يفسر ﴿ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [طه] أى : عُمْياً ، ومن الزُّرْقة ما ينشأ عنها العمى ، ومنها المياه الزرقاء التى تصيب العين وقد تسبب العمى .

﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ ﴾

أى : فى هذه الحال التى يُحشرون فيها زرقاً ﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [طه] أى : يُسرُّون الكلام ، ويهمس بعضهم إلى بعض ، لا

---

(١) قاله الكلبى والفراء . ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤١٨) وقد ذكر القرطبى أقوالاً أخرى فى تأويل (زرقاً) :

« - عطاشاً قد ازرقت أعينهم من شدة العطش . قاله الأزهرى .

- الطمع الكاذب إذا أعقبته الخيبة . يقال : ابيضت عينى لطول انتظارى لكذا .

- شخوص البصر من شدة الخوف » .

يجرؤ أحد منهم أنْ يجهر بصـوته من هَوْل ما يرى ، والخائف حينما يلاقى من عـدوه مَا لا قـبلَ له به يُخـفى صـوته حتـى لا يُنبهـه إلى مكانه ؛ أو : لأن الأمـر مَهـوُل لدرجة الَهـلع الذى لا يجد مـعه طاقـة للكلام ، فليس فى وُسْعه أكثر من الهَمْس .

فما وجه التخافت ؟ وبِمَ يتخافتون ؟

يُسرُّ بعضـهم إلى بعض ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً (١٠٣)﴾ [طه] يقول بعضهم لبعض : ما لبـثنا فى الدنيا إلا عشرة أيام ، ثم يُوضِّح القرآن بعـد ذلك أن العشـرة هذه كلامـهم السطحى ، بدليـل قـولـه فى الآية بعدها : ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً (١٠٤)﴾ [طه]

فانتـهت العشرة إلى يوم واحـد ، ثم ينتهى اليوم إلى سـاعة فى قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥)﴾ [الروم] فكُلُّ ما ينتهى فهو قصير .

إذن : أقـوال متـباينة تمـيل إلى التـقليل ؛ كأن الدنيـا على سَعـة عمـرها ما هى إلا سـاعة : ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ .. (٣٥)﴾ [الأحقاف]

وما هذا التـقليل لمدة لُبْـثهم فى الدنيا إلا لإفـلاسهم وقلَّة الخـير الذى قدَّمـوه فيها ، لقـد غفلوا فيهـا ، فخرجوا منهـا بلا ثمرة ؛ لذلك يلتـمـسون لأنفسـهم عُـذْراً فى انخـفاض الظـرف الزمنى الذى يسَع الأحداث ، كأنه لم يكُنْ لديهم وقت لعمل الخير !!

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤)﴾

الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقصُّ على رسوله ﷺ في الدنيا ما سيكون من أمر هؤلاء المجرمين فى الآخرة ، فإذا ما وقعتْ القيامة جاءت الصورة كما حكاها الله لرسوله هى هى ؛ ذلك لأن الله تعالى وسع كل شيء علماً .

وهذا القول الذى حكاه القرآن عنهم أمر فى اختيارهم ، وقد سمعوا ذلك من رسول الله ، وبوسعهم ألاَّ يقولوا ، لكن إذا جاءت القيامة فسوف يقولونه بالحرف الواحد لا يُغيِّرون منه شيئاً .

وقوله : ﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً .. (١٠٤)﴾ [طه] يعنى : أحسنهم حُكْماً .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا (١٠٥)﴾

تكلمنا عن (يسألونك) في قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ .. (٢١٩)﴾ [البقرة]

والسؤال استفهام يعنى : طلب فَهْم يحتاج إلى جواب ، والسؤال إما أن يكون من جاهل لعالم ، كالتلميذ يسأل أستاذه ليعلم الجواب ، أو : من عالم لجاهل ، كالأستاذ يسأل تلميذه ليعرف مكانته من العلم وإقراره بما يعلم .

وهذه المسألة حلَّتْ لنا إشكالاً كان المستشرقون يُوغلون فيه ، يقولون : بينما الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ (٣٩)﴾ [الرحمن] يقول فى آية أخرى : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤)﴾ [الصافات] فالأولى تنفى السؤال ، والثانية تُثبته ؛ لذلك اتهموا القرآن بالتضارب بين آياته .

وهؤلاء معذورون ، فليست لديهم الملكَة العربية لفَهْم الأداء القرآنى ، وبيان هذا الإشكال أن السؤال يردُ فى اللغة إمَّا لتعلمَ ما جهلتَ ، وإما لتقرير المجيب بما تعلم أنت ليكون حجة عليه .

فالحق سبحانه حين يقول : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الصافات] أى : سؤالَ إقرار ، لا سؤالَ استفهام ، فحين ينفى السؤال ينفى سؤال العلم من جهة المتكلم ، وحين يثبت السؤال فهو سؤال التقرير .

والحدث مرة يُنفَى ، ومرة يُثبتِ ، لكن جهة النفى مُنفكَّة عن جهة الإثبات ، فمثلاً الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنفال]

فنفى الرمى فى الأولى ، وأثبته فى الثانية ، والحدث واحد ، والمثبَت له والمنفىّ عنه واحد هو محمد ﷺ . فكيف نخرج من هذا الإشكال ؟ أرمَى الرسول أم لم يَرْمِ ؟

ولتوضيح هذه المسألة ضربنا مثلاً بالأب الذى جلس بجوار ولده كى يذاكر دروسه ، فأخذ الولد يذاكر ، ويُقلِّب صفحات الكتاب ، وحين أراد الأب اختبار مدى ما حصَّل من معلومات لم يجد عنده شيئاً ، فقال للولد : ذاكرت وما ذاكرت . ذاكرت يعنى : فعلت فعْل المذاكر ، وما ذاكرت لأنك لم تُحصِّل شيئاً .

فرسول الله ﷺ حينما رمى ، أيمكنه أنْ يُوصل هذه الرمية إلى أعين الجيش كله ؟ إذن : فرسول الله أخذ قبضة من التراب ورمى بها ناحية الجيش ، إنما قدرة الله هى التى أوصلتْ حفنة التراب هذه وذَرَّتْها فى أعيُنِ الأعداء جميعاً .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾ [الجاثية] فنفتْ عنهم العلم ، وفى آية أخرى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا[1] مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٧) ﴾ [الروم] فأثبتتْ لهم علْماً .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ .. (١٠٥) ﴾ [طه] وحينما استعرضنا (يَسْأَلُونَكَ) فى القرآن الكريم وجدنا جوابها مسبوقاً بـ (قُلْ) كما فى قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢١٩) ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ[2] قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ .. (١٨٩) ﴾ [البقرة] وهكذا فى كل الآيات ، ما عدا قوله تعالى هنا ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) ﴾ [طه] فاقترن الفعل (قُلْ) بالفاء ، لماذا ؟

قالوا : لأن السؤال فى كُلٍّ هذه الآيات سؤال عن شىء وقع بالفعل ، فكان الجواب بقُلْ . مثل : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى .. (٢٢٢) ﴾ [البقرة] أما ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ .. (١٠٥) ﴾ [طه] قال فى الجواب ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا (١٠٥) ﴾ [طه] ؛ لأنه حَدَثٌ لم يقع بَعْد .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُخبر رسوله ﷺ أنه سيُسأل هذا

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٢٧) : « أى : أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا واكسابها وشؤونها وما فيها ، فهم حذاق أذكياء فى تحصيلها ووجوه مكاسبها ، وهم غافلون فى أمور الدين وما ينفعهم فى الدار الآخرة كان أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة » .

(٢) الأهلة : جمع هلال . والهلال : القمر فى أول ظهوره فى أول الشهر العربى . [القاموس القويم ٢/٣٠٥] .

السؤال ، فكأن الفاء هنا دَلَّتْ على شرط مُقدّر ، بمعنى : إنْ سألوك بالفعل فقُلْ : كذا وكذا .

إذن : السؤال عن الجبال لم يكُنْ وقت نزول الآية ، أمَّا الأسئلة الأخرى فكانت موجودة ، وسُئِلت لرسول الله قبل نزول آياتها .

وقد تأتى إجابة السؤال بدون (قُلْ) كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ .. ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة] ولم يقُلْ هنا (قُلْ أو فقُلْ) لأنها تدلُّ على الواسطة بين الله تعالى وبين عباده ، وكأن الحق ـ سبحانه ـ يُوضّح أنه قريب من عباده حتى عن الجواب بقُلْ .

وقد تتعجب : كيف تأتى فى القرآن كل هذه الأسئلة لرسول الله مع أن القرآن كتاب منهج جاء بتكاليف قد تشقُّ على الناس ؛ لأنه يلزمهم بأمور تخالف ما يشتهون ، فكان المفروض ألاَّ يسألوا عن الأمور التى لم ينزل فيها حكم .

نقول : دَلَّتْ أسئلتهم هذه على عِشْقهم لأحكام الله وتكاليفه ، فالأشياء التى كانت عادات لهم فى الجَاهلية يريدون الآن أنْ يُؤدُّوها على طريقة الإسلام على أنَّها عبادة ، لا مجرد عادة جاهلية .

مع أن النبى ﷺ نهاهم عن السؤال فقال : « دعونى ما تركتكم ، إنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم »[1] .

ومع ذلك سألوا وأرادوا أنْ تُبنَى حياتهم على منهج القرآن من

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٢٨٨) والدارقطنى فى سننه (٢/٢٨١) بلفظ « دعونى » ، وقد أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣١٣ ، ٤٨٢ ، ٤٩٥) ، ومسلم فى صحيحه (١٣٣٧) بلفظ « ذرونى » عن أبى هريرة رضى الله عنه .

الله ، لا على أنه إلْف عادة كانت لهم فى الجاهلية ، إذن : هذه الأسئلة ترسيمٌ للأمر من جانب الحق سبحانه وتعالى .

وقوله تعالى : ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [طه] تكلمنا عن هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [طه] فالمراد : نُفتِّتها ونذروها فى الهواء ، وأكَّد النسف ، فقال ﴿ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾[طه] ليؤكد أن الجبل سيتفتت إلى ذرات صغيرة يذروها الهواء .

فقد يتصوَّر البعض أنْ الجبال تُهَدُّ ، وتتحول إلى كُتَل صخرية كما نُفجِّر نحن الصخور الآن إلى قطع كبيرة ؛ لذلك أكّد على النسف ، وأن الجبال ستكون ذرات تتطاير ؛ لذلك قال فى آية أخرى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ [القارعة] أى : كالصوف المندوف .

لكن ، لماذا ذكر الجبال بالذات ؟

قالوا : لأن الإنسان يرى أنه ابْنُ أغيار فى ذاته ، وابن أغيار فيما حوله ممَّا يخدمه من حيوان أو نبات ، فيرى الحيوان يموت أو يُذبَح ، ويرى النبات يذبل ثم يجفّ ويتفتَّت ، والإنسان نفسه يموت وينتهى .

إذن : كل ما يراه حوله بيِّن فيه التغيير والانتهاء ، إلا الجبال يراها راسية ثابتة ، لا يلحقها تغيير ظاهر على مرِّ العصور .

لذلك يُضرب بها المثل فى الثبات ، كما فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾ [إبراهيم]

فالجبال مظهر للثبات ، فقد يتساءل الإنسان عن هذا الخلْق الثابت المستقر ، ماذا سيفعل الله به ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

﴿ قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [طه] : أرضاً مستوية ملْساء لا نباتَ فيها ولا بناء ، والضمير فى ﴿ فَيَذَرُهَا .. ﴿١٠٦﴾ ﴾ [طه] يعود على الأرض لا على الجبال ؛ لأن الجبال لا تكون قاعاً صفصفاً[1] ، أمّا الأرض مكان الجبال فتصير ملساء مستوية ، لا بناءَ فيها ولا جبال ، فالأرض شىءٌ والجبال فوقها شىء آخر .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ[2] وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت]

فالضمير فى ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت] لا يعود على الأرض ، إنما على الجبال[3] . لأن الجبال فى الحقيقة هى مخازن القُوت ومصدر الخصْب للأرض ، التى هى مصدر القوت ، فالإنسان مخلوق من الأرض ، واستبقاء حياته من الأرض ، فالنبات قوت للإنسان وللحيوان ، والنبات والحيوان قوت للإنسان .

إذن : لا بُدَّ للأرض من خُصُوبة تساعدها وتُمدّها بعناصر الغذاء ، ولو أن الخالق ـ عز وجل ـ جعل الأرض هكذا طبقةً واحدة بها المخصّبات لانتهتْ هذه الطبقة بعد عدة سنوات ، ولأجدبتْ الأرض بعد ذلك .

---

(١) الأرض الصفصف : الملساء المستوية . وقال الفراء : الصفصف الذى لا نبات فيه . [لسان العرب ـ مادة : صفف] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٩٣/٤) : « يعنى : يوم الأحد ويوم الاثنين » .

(٣) قال قتادة ومجاهد : خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها . وقال السدى والحسن : أرزاق أهلها ومصالحهم . [تفسير القرطبى ٦٠٠٧/٩] .

إذن : خلق اللهُ الجبالَ لحكمة ، وجعلها مصدراً للخصب الذى يمد الأرض مَدَداً دائماً ومستمراً ما بقيتْ الحياة على الأرض ، ومن هنا تتضح لنا حكمة الخالق ـ سبحانه ـ فى أن تكون الجبال صَخْراً أصمّ ، فإذا ما تعرضت لعوامل التعرية على مَرِّ السنين تتفتتْ منها الطبقة الخارجية نتيجة لتغيُّر الظروف المناخية من حرارة وبرودة .

ثم تأتى الأمطار وتعمل فى الصخر عمل المَبْرَد ، وتُكوِّن ما يسمى بالغِرْيَن[1] ، فتحمل هذا الفتات إلى الودْيان ومجارى الأنهار ، وتُوزِّعه على طبقة الأرض ، فتزيدها خصْباً تدريجياً كل عام ، وإلاَّ لو كانت الجبال هَشَّة غير متماسكَة لانهالتْ فى عدة أعوام ، ولم تُؤَدِّ هذا الغرض . لذلك نقول : إن الجبال هى مصدر القوت ، وليست الأرض .

ألاَ ترى أن خصوبة الوادى والدلتا جاءت من طمى النيل ، والغِرْين الذى يحمله الماء من أعالى أفريقيا . وهذا الغِرْيَن الذى يُنحَتُ من الجبال هو الذى يُسبب الزيادة فى رقعة اليابسة ، وتستطيع أن تلاحظ هذه الظاهرة فى المدن المطلّة على البحر ، فبعد أن كانت على شاطئه أصبحت الآن داخل اليابسة .

وقد مثَّلْنَا سابقاً للجبل بأنه مُثلث قاعدته إلى أسفل ، والوادى مُثلث قاعدته إلى أعلى ، فكل نحْت فى الجبل زيادة فى الوادى ، وكأن الخالق ـ عز وجل ـ جعل هذه الظاهرة لتتناسبَ مع زيادة السكان فى الأرض .

---

(١) الغِرْيَن : الطين الذى يحمله السيل فيبقى على وجه الأرض رطباً أو يابساً . قال الأصمعى : الغرين أن يجىء السيل فيثبت على الأرض ، فإذا جف رأيت الطين رقيقاً على وجه الأرض قد تشقق . [لسان العرب ـ مادة : غرن] .

وقد حُذف العائد في ﴿فَيَذَرُهَا .. ⦗١٠٦⦘﴾ [طه] اعتماداً على ذهْن السامع ونباهته إلى أنه لا يكون إلا ذلك ، كما فى قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ⦗١⦘﴾ [الإخلاص] فلم يذكر عائد الضمير (هو) لأنه إذا قيل لا ينصرف إلا إلى الحق سبحانه وتعالى ، وإنْ لم يتقدم اسمه .

وكما فى قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ⦗٣٢⦘﴾ [ص] والمراد : الشمس التى غابت ، ففاتتْ سليمان ـ عليه السلام ـ الصلاة ، ولم تذكر الآية شيئاً عن الشمس[1] .

كذلك فى : ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ .. ⦗٤٥⦘﴾ [فاطر] أى : على الأرض ولم تذكرها الآية ، كذلك هنا (فيذرها) أى الأرض .

﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ⦗١٠٧⦘﴾

أى : كأنها مُستْوية على « ميزان الماء » لا ترى فيها اعوجاجاً ولا (أَمْتًا) يعنى : منخفض ومرتفع ، فهى مستوية استواءً تاماً ، كما نفعل نحن فى الجدار ، ونحرص على استوائه .

لذلك نرى المهندس إذا أراد استلام مبنى من المقاول يعتمد إما على شعاع الضوء ؛ لأنه مستقيم ويكشف له أدنى عَيْب فى الجدار أو على ذرات التراب ؛ لأنها تسقط على استقامتها ، وبعد عدة أيام تستطيع أن تلاحظ من ذرات التراب ما فى الجدار من التواءات أو نتوءات .

---

(١) ذكره السيوطى فى كتابه « الإتقان فى علوم القرآن » (٣/١٨٦) ضمن أمثلة « حذف الفاعل » فى فصل « أنواع الحذف » . وقال : « لا يجوز إلا فى فاعل المصدر » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

الداعى : المنادى ، كالمؤذِّن الذى كثيراً ما دعا الناس إلى حضرة الله تعالى فى الصلاة ، فمنهم مَنْ أجاب النداء ، ومنهم مَنْ تأبَّى وأعرض ، أما الداعى فى الآخرة ، وهو الذى ينفخ فى الصور فلن يتأبَّى عليه أحد ، ولن يمتنع عن إجابته أحد .

وقوله : ﴿لا عِوَجَ لَهُ.. ﴿١٠٨﴾﴾ [طه] لأننا نرى داعى الدنيا حين يُنادى فى جَمْع من الناس ، يتجه يميناً ويتجه يساراً ، ويدور ليُسمع فى كُلِّ الاتجاهات ، فإذا لم يَصِلْ صوته إلى كل الآذان استيعاباً يستعمل مُكبِّر الصوت مثلاً ، أما الداعى فى الآخرة فليس له عوج هنا أو هناك ؛ لأنه يُسمِع الجميع ، ويصل صوته إلى كل الآذان ، دون انحراف أو ميْل .

ثم يقول تعالى : ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه] هذا الهمْسُ الذى قال عنه فى الآيات السابقة : ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ .. ﴿١٠٣﴾﴾ [طه]

ونعرف أن كل تجمُّع كبير لا تستطيع أنْ تضبط فيه جلبة الصوت ، فما بالك بجَمْع كجمع القيامة من لَدُنْ آدم عليه السلام حتى قيام الساعة ، ومع ذلك : ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه] فلماذا كتمت هذه الأصوات التى طالما قالتْ ما تحب ، وطالما كان لها جلبة وضجيج ؟

الموقف الآن مختلف ، والهَوْل عظيم ، لا يجرؤ أحد من الهَوْل على رَفْع صوته ، والجميع كُلٌّ منشغل بحاله ، مُفكّر فيما هو قادم عليه ، فإنْ تحدّثوا تحدّثوا سِراً ومخافتة : ماذا حدث ؟ ماذا جرى ؟

وكذلك نحن فى أوقات الشدائد لا نستطيع الجهر بها ، كما حدث لما مات سعد زغلول[1] ـ رحمه الله ـ وكان أحمد شوقى[2] وقتها فى لبنان ، فسمع الناسَ يتخافتون ، ويهمس بعضهم إلى بعض بأن سعداً قد مات ، ولا يجرؤ أحد أن يجهر بها لِهَوْل هذا الحادث على النفوس ، فقال شوقى :

يَطأُ الآذَانَ هَمْساً والشِّفَاهَا

قُلْتُ يا قَوْم اجمعُوا أحْلامكُمْ كُلُّ نَفْسٍ فى وَريديْها رَدَاهَا

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾

والشفاعة تقتضى مشفوعاً له وهو الإنسان ، وشافعاً وهو الأعلى منزلةً ، ومشفوعاً عنده : والمشفوع عنده لا يسمح بالشفاعة هكذا

---

(١) هو سعد باشا بن إبراهيم زغلول ، زعيم نهضة مصر السياسية ، ولد فى « إبيانة » من قرى « الغربية » عام ١٨٥٧م ، دخل الأزهر سنة ١٨٧٤م ، اتصل بالسيد جمال الدين الأفغانى ، تولى وزارة المعارف ، فالحقانية . انتخب عام ١٩١٩م رئيساً للوفد المصرى للمطالبة بالاستقلال فنفاه الإنجليز إلى مالطة . توفى عام ١٩٢٧م عن ٧٠ عاماً . (الأعلام للزركلى ٣/٨٣) .

(٢) هو : أمير الشعراء أحمد شوقى : أشهر شعراء العصر الحديث ، ولد بالقاهرة ١٨٦٨م نشأ فى ظل البيت المالك بمصر ، درس الحقوق بفرنسا ، عالج أكثر فنون الشعر : مديحاً وغزلاً ورثاء ووصفاً ، ثم تناول الأحداث السياسية ، توفى ١٩٣٢م . (الأعلام للزركلى ١/١٣٧) .

ترتجلها من نفسك ، إنما لا بُدَّ أنْ يأذنَ لك بها ، وأنْ يضعك فى مقام ومرتبة الشفاعة ، وهذا شَرْط فى الشافع .

وقوله تعالى : ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩)﴾ [طه] هذه للمشفوع له ، أن يقول قولاً يرضى الله عنه - وإنْ قصَّر فى جهة أخرى - وخَيْر ما يقوله العبد ويرضى عنه الله أن يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فهذه مَقُولة مَرْضيَّة عند الله ، وهى الأمل الذى يُتعلق به ، والبُشْرى لأهل المعاصى ؛ لأنها كفيلة أن تُدخلهم فى شفاعة النبى ﷺ .

فإذا كان لديك خَصْلة سيئة ، أو نقطة ضعف فى تاريخك تراها عقبةً فلا تيأس ، وانظر إلى زاوية أخرى فى نفسك تكون أقوى ، فأكثِرْ بها الحسنات ، لأن الحسنات يُذهبْن السيئات .

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا (١١٠)﴾

معنى ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ .. (١١٠)﴾ [طه] ما أمامهم ، ويعلم ما خلفهم ، أما أنت فلا تحيط به علْماً ، ولا تعرف إلا ما يُخبرك به ، إلا أن تكون هناك مقدمات تستنبط منها ، لأن ما ستره الحق فى الكون كثير ، منه ما جعل الله له مقدمات ، فمَنْ ألمَّ بهذه المقدمات يصل إليها .

ومع ذلك لا يقال له : علِم غيباً . إنما اكتشف غيباً بمقدمات أعطاها له الحق سبحانه وتعالى ، كما نعطى التلميذ تمريناً هندسياً ، ونذكر له المعطيات ، فيستدل بالمعطيات على المطلوب .

والكون ملىء بالأشياء والظواهر التى إنْ تأملناها وبحثْناها ولم

نُعرض عنها وجدنا فيها كثيراً من الأسرار ، فبالنظر فى ظواهر الكون اكتشفوا عصر البخار ويسَّروا الحركة على الناس ، وبالنظر فى ظواهر الكون اكتشف أرشميدس قانون الأجسام الطافية ، واكتشفوا البنسلين .. إلخ .

هذه كلها ظواهر موجودة فى كون الله ، كانت تنتظر مَنْ يُنقِّب عنها ويكتشفها ؛ لذلك ينعي علينا الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾[يوسف]

فلو التفتوا إليها الالتفات الحق لانتفعوا بها .

لكن هناك أشياء استأثر الله تعالى بعلمها ، وقد يعطيها لمن أحبَّ من عباده ، ويُطلعهم عليها ، أو تظل فى علم الله لا يعرفها أحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَنَتِ(١) ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) ﴾

الوجه أشرف وأكرم شىء فى تكوين الإنسان ، وهو الذى يُعطى الشخص سمَته المميزة ؛ لذلك يحميه الإنسان ويحفظه ، ألاَ ترى لو أصاب وجهك غُبَار أو تراب أو طين مثلاً تمسحه بيدك ، لم تزدْ على أنك جعلْتَ ما فى وجهك فى يدك لماذا ؟ لأنه أشرف شىء فيك .

لذلك ، كان السجود لله تعالى فى الصلاة علامة الخضوع والخشوع والذلَّة والانكسار له عز وجل ، ورضيتَ أن تضع أشرف

(١) عنت : أى : ذلت وخضعت . قاله ابن الأعرابى وغيره . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٢٣] . وقال ابن عباس : الركوع والسجود . وقال طلق بن حبيب : إنه وضع الجبهة والأنف على الأرض فى السجود .

جزء فيك على الأرض وتباشر به التراب ، والإنسان لا يعنُو بوجهه إلا لِمَنْ يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه يستحقٌّ هذا السجود ، وأن السجود له وحده يحميه من السجود لغيره ، كما قال الشاعر :

والسُّجُودُ الذى تَجْتَويِه ... من أُلُوفِ السُّجُودِ فيهِ نَجَاةٌ

فاسْجُدْ لواحد يكْفك السجود لسواه ، واعمل لوجه واحد يكْفك كل الأوْجُه .

وقوله : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) ﴾ [طه] حمل : يعنى أخذه عبئاً ثقيلاً عليه . والظلم فى أصله أنْ تأخذَ خيراً ليس لك لتنتفع به وتزيد ما عندك ، فأنت فى الظاهر تزداد كما تظن ، إنما الحقيقة أنك تُحمِّل نفسك وِزْراً وحملاً ثقيلاً ، سوف تنوء به ، وازددْتَ إثماً لا خيراً .

والظلم مراتب ودرجات ، أدناها أنْ تأخذ ما ليس لك وإن كان حقيراً لا قيمة له ، أو تظلم غيرك بأنْ تتناوله فى عِرْضه ، ثم ترقى الظلم إلى أنْ تصلَ به إلى القمة ، وهو الشرك بالله ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان]

وهو عظيم ؛ لأنك أخذتَ حقّاً لله تعالى ، وأعطيته لغيره .

إذن : فحاول أن تَسْلَم من هذه الآفة ؛ لأن الله قال فيها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (٤٨) ﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢) ﴾

الصالحات : هى الأعمال التى تعود بالخير عليك أو على غيرك ، وأضعفُ الإيمان فى عمل الصالح أن تترك الصالح فى ذاته على صلاحه فلا تفسده ، كأن تجد بئراً يشرب منه الناس فلا تطمسه ولا تلوثه . فإنْ رقيت العمل الصالح فيمكنك أن تزيد من صلاحه ، فتبنى حوله جداراً يحميه أو تجعل له غطاءً .. إلخ .

ومن رحمة الله بنا أنه سبحانه حينما حثَّنا على العمل الصالح قال : ﴿مِنَ الصَّالِحَاتِ .. ﴿١١٢﴾﴾ [طه] ومن هنا للتبعيض ، فيكفى أنْ تفعل بعض الصالحات ؛ لأن طاقة الإنسان لا تسع كل الصالحات ولا تقوى عليها ، فحسبُك أن تأخذ منها طرفاً ، وآخر يأخذ طرفاً ، فإذا ما تجمعتْ كل هذه الأطراف من العمل الصالح من الخلق كوَّنَتْ لنا الصلاح الكامل .

كما سبق أن ذكرنا أن ليس بوسع أحد منا أن يجمعَ الكمال المحمدى فى أخلاقه ، والرسول ﷺ يقول : « الخير فىَّ ـ حقاً ـ وفى أمتى إلى يوم القيامة »[1] .

ففى كل فرد من أفراد الأمة خصلة من خصال الخير ، بحيث إذا تجمعت خصال الكمال فى الخلق أعطتنا الكمال المحمدى .

وقوله : ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ .. ﴿١١٢﴾﴾ [طه] لأن الإيمان شرط فى قبول العمل الصالح ، فإنْ جاء العمل الصالح من غير المؤمن أخذ أجره فى الدنيا ذكْراً وشُهْرة وتخليداً لذكراه ، فقد عمل ليقال وقد قيل ، وانتهتْ المسألة .

---

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (١/٤٧٦) : « قال فى المقاصد : قال شيخنا : لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح ، يعنى فى حديث : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين » .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا (١١٢) ﴾ [طه] والظلم هنا غير الظلم فى قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) ﴾ [طه] فالظلم هنا من الإنسان لنفسه أو لغيره ، إنما ﴿ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا (١١٢) ﴾ [طه] أى : ظُلْماً يقع عليه ، بألاَّ يأخذ حقه على عمله ، بمعنى أننا لا نعاقبه على سيئة لم يعملها ، ولا نضيع عليه ثواب حسنة عملها ؛ لأن الحق سبحانه لا يظلم الناس مثقال ذرة .

﴿ وَلا هَضْمًا (١١٢) ﴾ [طه] الهَضْم يعنى النقصان ، فلا ننقصه أجره وثوابه ، ومنه هضم الطعام ، فكمية الطعام التى نأكلها تُهضَم ثم تُمتصّ ، وتتحول إلى سائل دموى ، فتأخذ حَيِّزاً أقل ، ومنه نقول : فلان مهضوم الحق . يعنى : كان له حق فلم يأخذه .

لكن ، ما فائدة عطف (هَضْماً) على (ظُلْماً) فنَفْى الظلم نَفْى للهضم ؟ نقول : لأنه مرة يُبطل الثواب نهائياً ، ومرة يُقلِّل الجزاء على الثواب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ[(١)] لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) ﴾

(كَذَلِكَ) أى : كالإنزال الذى أنزلناه إلى الأمم السابقة ، فكما أرسلنا إليهم رُسُلاً أرسلنا إلى الأمم المعاصرة لك رسلاً ، إلا أنْ فارق الرسالات أنهم بُعِثُوا لزمان محدود ، فى مكان محدود ، وبُعِثْتَ

---

(١) أى : بيَّنا ما فيه من التخويف والتهديد والثواب والعقاب . [قاله القرطبى فى تفسيره ٤٤٢٥/٦] .

للناس كافّة ، وللزمان كافة إلى أنْ تقوم الساعة .

ونفــهم من كلمــة ﴿أَنزَلْنَاهُ .. (١١٣)﴾ [طه] أن المُنزِّل أعلى من المُنزَّل عليه ، فالإنزال من شيء عـالٍ ، وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يلفت أنظارنا ويُصعِّد هممنا ، فيقـولٍ : لا تهبطوا إلى مستوى تشريع الأرض ؛ لأنه يُقنِّن للحاضـر ويجهل المستـقبل ، ويتحكم فيـه الهوى فتغيب عنه أشياء فيحتاج إلى استدراك .

لذلك ، حـين ينادينا إلى منهـجـه العلوى يقـول : ﴿قُلْ تَعَـالَوْا .. (١٥١)﴾ [الأنعـام] يعنـى : اعلوا وخُــذُوا منهــجكم من أعـلى ، لا من الأرض .

﴿قُرْآنًا .. (١١٣)﴾ [طه] يعنى : مقروء ، كـما قال ﴿كِتَابًا..(١٠)﴾ [الأنبـياء] يعنى : مكتـوب ، ليُحْـفظ فى الصدور وفى السطـور . وقال ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا .. (١١٣)﴾ [طه] مع أن النبى ﷺ مُرْسَل إلى الناس كافة فى امتداد الزمان والمكان ، والقرآن نزل معجزة للجميع .

قالوا : لأنه ﷺ هو المـباشر لهـذه الأمة العربية الـتى ستستـقبل أول دعوة له ، فـلا بُدَّ أنْ تأتى المعـجزة بلسـانها ، كمـا أن معـجزة القـرآن ليستْ للعـرب وحدهم ، إنمـا تحـدٍّ للإنس والجن على امتـداد الزمان والمكان .

كمـا قال سبـحانه : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ .. (٨٨)﴾ [الإسراء]

فالـقرآن تحـدٍّ لكل الأجناس : الروسى ، والأمريكى ، واليـابانى ، والدنيا كلهـا ، ومعهم الجن أيضاً . لكن لمـاذا والجن أيضاً داخل فى مجال التحدى ؟

قالوا : لأن العرب قديماً كانوا يعتقدون أن لكل شاعر أو خطيب مفوه شيطاناً يمدُّه ويُوحِي إليه ؛ لذلك أدخل الجن أيضاً فى هذا المجال .

وقد يقول قائل : وكيف نتحدّى بالقرآن غير العرب وهو بلسان عربى ، فهو حجة على العرب دون غيرهم ؟

نقول : وهل إعجاز القرآن من حيث أسلوبه العربى وأدائه البيانى فقط ؟ لا ، فجوانب الإعجاز فى القرآن كثيرة لا تختلف فيها اللغات ، فهل تختلف اللغات فى التقنين لخير المجتمع ؟ ألم يأتِ القرآن بمنهج فى أمة بدوية أمية يغزو أكبر حضارتين معاصرتين له ، هما حضارة فارس فى الشرق ، وحضارة الروم فى الغرب ؟ ألم تكُنْ هذه الظاهرة جديرةً بالتأمل والبحث ؟

ثم الكونيات التى تحدَّث القرآن عنها منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً ، وما زال العلم الحديث يكتشفها الآن .

إذن : طبيعى أن يأتى القرآن عربياً ؛ لأنه نزل على رسول عربى ، وفى أمة عربية ، والحق سبحانه يقول : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .. (٤)﴾ [إبراهيم]

فهم الذين يستقبلون الدعوة ، وينفعلون لها ، ويقتنعون بها ، ثم ينساحون بها فى شتَّى بقاع الأرض ، ومن العجيب أنهم بدعوة القرآن أقنعوا الدنيا التى لا تعرف العربية ، أقنعوها بالمبادئ والمناهج التى جاء بها القرآن ؛ لأنها مبادئ ومناهج لا تختلف عليها اللغات .

ثم يقول تعالى ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ .. (١١٣)﴾ [طه] أى : حينما ينذر القرآن بشىء يُصرف هذا الإنذار على أوجه مختلفة ، ويُكرِّر الإنذار لينبه أهل الغفلة .

يعنى : لوَّنا فيه كل أساليب الوعد والوعيد ، فكل أسلوب يصادف هوى فى نفس أحد المستقبلين ، فخاطبنا الأهواء كلها بكل مستوياتها ، فالعالم والجاهل ومتوسط الفكر ، الكل يجد فى القرآن مَا يناسبه ؛ لأنه يُشرِّع للجميع ، للفيلسوف وللعامى ، فلا بُدَّ أنْ يكون فى القرآن تصريفٌ لكل ألوان الملكات ليقنع الجميع .

وفى القرآن وَعْد ووعيد ، فلكل منهما أهْل ، ومَنْ لم يَأْتِ بالإغراء بالخير يأتى بأن ينزعه بالقوة والجبروت ، كما قال الشاعر :

أَنَاةٌ فَإنْ لم تُغْنِ عَقَّبَ بعدهَا وَعِيداً

فَإنْ لم يُغْن اغنَتْ عَزَائمهُ

وفى الأثر : « إن الله ليزع[1] بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

والإنذار والتخويف نعمة من الله ، كما ورد فى سورة الرحمن ، حيث يقول تعالى : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) ﴾ [الرحمن] فهذه نعم من الله .

أما فى قوله : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن] فما النعمة فى النار والشُّواظ ؟

النعمة أن ينذرك الله بها ويحذرك منها ، قبل أنْ تقعَ فيها ، ويعظك بها وأنت ما زلتَ فى فترة المهلة والتدارك ، فلا يأخذك على غِرَّة ولا يتركك على غفلتك . كما تُحذِّر ولدك : إنْ أهملتَ دروسك

---

(١) الوزْع : كفُّ النفس عن هواها . ومعنى الأثر : أن من يكف عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان أكثر ممن تكفه مخافة القرآن والله تعالى ، فمن يكفه السلطان عن المعاصى أكثر ممن يكفه القرآن بالأمر والنهى والإنذار . [لسان العرب ـ مادة : وزع] .

فســوف تفشل فى الامــتحــان فيحــتقــرك زملاؤك ، ويحــدث لك كيت وكيت ، فلم يترك ولده علــى غَفْلته وإهماله ، إلى أنْ يداهمه الامــتحان ويُفاجِئه الفشل ، أليستْ هذه نعمة ؟ أليستْ نصيحة مهمة ؟

والتــصريف : يعنى التــحويل والتــغــييــر بأساليب شــتَّى لتناسب استــقبــال الأمزجــة المخــتلفة عند نزول القــرآن لعلهــا تصادف وَعْــياً واهتماماً ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه]

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .. ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه] الاتقاء عادة يكون للشر والمعاصى المهلكة ، أو يُحدث لهم الذكْر والشرف والرفــعة بفعل الخيرات ، وهذا من ارتقاءات الطاعة .

ذلك لأن التكليف قسمان : قسم ينهاك عن معصية ، وقسم يأمرك بطاعة ، فــينهاك عن شُــرْب الخمــر ، ويأمرك بالصــلاة ، فهم يتــقون الأول ، ويُحدث لهم ذكْراً يوصيهم بعمل الثانى . وما دام القرآن نازلاً من أعلى فلا بُدَّ أن يقول بعدها :

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾

﴿ تَعَالَى .. ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه] تنزّه وارتفع عن كل مــا يُشبــه الحادث ، تعالى ذاتاً ، فلــيستْ هناك ذاتٌ كذاته ، وتعــالى صفاتاً فــليست هناك صفــة كصفتــه ، فإنْ وُجدَتْ صفــة فى الخلْق تشبه صفــة فى الخالق سبحانه ، فخُذْها فى ضوء ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

فالحق سبحانه لا يضنُّ على عبده أنْ يُسميه خالقاً إنْ أوجد شيئاً من عدم ، إنما لما تكلم عن خَلْقــه سبحانه ، قال : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

فأنت خالق ، لكن ربك أحسنُ الخالقين ، فأنت خلقتَ من موجود أمّا ربك عز وجل فقد خلق من العدم ، أنت خلقتَ شيئاً جامداً على حالة واحدة ، والله خلق خَلْقاً حياً نامياً ، يُحسُّ ويتحرك ويتكاثر ، وسبق أنْ مثَّلنا لذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ بصانع الأكواب الزجاجية من الرمال ، وأوضحنا الفرق بين خَلْق وخَلْق .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ .. ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه] تلفتنا إلى ضرورة التطلع إلى أعلى في التشريع ، فما الذي يُجبرك أنْ تأخذ تشريعاً من عبد مثلك ؟ ولماذا لا يأخذ هو تشريعك ؟ إذن : لا بُدَّ أن يكون المشرِّع أعلا من المشرَّع له .

ومن ألفاظ تنزيه الله التي لا تُقال إلا له سبحانه كلمة (سبحان الله) أسمعتَ بشراً يقولها لبشر ؟ وهناك كفرة وملاحدة ومنكرون للألوهية ومعاندون ، ومع ذلك لم يقُلْها أحد مَدْحاً في أحد .

كذلك كلمة (تعالى وتبارك) لا تُقال إلا لله ، فنقول : (تباركت ربنا وتعاليت) أي : وحدك لا شريك لك .

فقوله : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ .. ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه] علا قَدْره وارتفع التنزيه ارتفاعاً لا يوصل إليه ، أمّا التعالي في البشر فيما بينهم فأمْر ممقوتٌ ؛ أما تعالي الحق سبحانه فمن مصلحة الخلق ، وهذه اللفتة يُعَبِّر عنها أهل الريف ، يقولون (اللي ملوش كبير يشترى له كبير) ؛ لأن الكبير هو الذي سيأخذ بيد الضعيف ويدكّ طغيان القوي ، فإذا لم يكُنْ لنا كبير نختلف ونضيع .

إذن : من مصلحة الكون كله أنْ يكونَ الله متعالياً ، والحق ليس متعالياً علينا ، بل متعالٍ من أجلنا ولصالحنا ، فأيُّ مُتعالٍ أو جبار من

البشر عندما يعلم أن الله أعلى منه يندكّ جبروته وتعاليه ، وأىّ ضعيف يعلم أن له سنداً أعلى لا يناله أحد ، فيطمئن ويعيش آمناً وبذلك يحدث التوازن الاجتماعى بين الناس .

ونحن نحب عبوديتنا لله عز وجل ، وإنْ كانت العبودية كلمة بغيضة مكروهة حين تكون عبودية الخَلْق للخَلْق فيأخذ السيد خَيْر عبده ، إلا أن العبودية لله شرف وكرامة ؛ لأن العبد لله هو الذى يأخذ خَيْر سيده ، فأنا عبد لله وعبوديتى له لصالحى أنا ، ولن أزيد فى مُلْكه شيئاً ، ولن ينتفع من ورائى بشىء ؛ لأنه سبحانه زاول مُلْكه وزاول سلطانه فى الكون قبل أن يخلق الخَلْق ، فبقدرته وعظمته خلق ، وقبل أنْ توجد أنت أيها الإنسان الطاغى المتمرد أوجد لك الكون كله بما فيه .

فأنت بإيمانك لن تزيد شيئاً فى مُلْك الله ، كما جاء فى الحديث القدسى : « يا عبادى إنكم لن تملكوا نفعى فتنفعونى ، ولن تملكوا ضرى فتضرونى ..»[1] فأنا إنْ تصرَّفْتُ فيكم فلمصلحتكم ، لا يعود علىَّ من ذلك شىء .

وقوله تعالى : ﴿ الْمَلِكُ الْحَقُّ .. ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه] لأن هناك ملوكاً كثيرين ، أثبتَ الله لهم الملْك وسمَّاهم مُلُوكاً ، كما قال سبحانه ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ .. ﴿٥٠﴾ ﴾[يوسف] وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ .. ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة]

إذن : فى الدنيا ملوك ، لكنهم ليسوا مُلوكاً بحق ، الملك بحق هو الله ؛ لأن ملوك الدنيا ملوك فى مُلْك موهوب لهم من الله ، فيمكن أن

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/١٥٤) ، ومسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) ، وابن ماجة فى سننه (٤٢٥٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

يفوت مُلْكَه ، أو يفوته المُلْكُ ، وأىُّ مُلْك هذا الذى لا يملكه صاحبه ؟ أىّ مُلْك هذا الذى يُسلب منك بانقلاب أو بطلقة رصاص ؟

إذن : الملك الحق هو الله ، وإن ملَّك بعض الخلق شئون بعض لمصلحتهم ، فهو سبحانه الذى يهَب الملْك ، وهو الذى ينزعه إن أراد : ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ .. (٢٦)﴾ [آل عمران]

فالحق سبحانه له الملْك الحق ، ويهَبُ من مُلْكه لمَنْ يشاء ، لكن يظل الملك وما ملَكه فى قبضة الله ؛ لأنه سبحانه قيُّوم على خَلْقه لا يخرجَ أحد عن قيوميته .

وقد نسمع مَنْ يسبُّ الملوك والرؤساء ، ومَنْ يخوض فى حقهم ، وهو لا يدرى أن مُلْكهم من الله ، فهو سبحانه الذى ملّكهم وفوَّضهم ، ولم يأخذ أحد منهم مُلْكاً رَغْماً عن الله ، فلا تعترض على اختيار الله واحترم مَنْ فوَّضه الله فى أمرك ، واعلم أن فى ذلك مصلحة البلاد والعباد ، ومَنْ يدريك لعلَّ الطاغية منهم يصبح غَداً واحداً من الرعية .

إذن : الحق سبحانه ملَّك بعض الناس أمْر بعض : هذا يتصرف فى هذا ، وهذا يملك هذا لتسيير حركة الكون ، فإذا كانت القيامة ، قال عز وجل : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر] هذا هو الملْك الحق .

ومن عظمته فى التعالى أنه يريحك هو سبحانه بعمله لك ، فيقول لك : نَمْ ملْءَ جفونك ، فأنا لا تأخذنى سِنَة ولا نوم ، نَمْ فلكَ رب قيوم قائمَ على أمرك يرعاك ويحرسك .

ومن معانى ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ .. (١١٤)﴾ [طه] أى : الثابت الذى لا يتغير ، وكُلُّ ظاهرة من ظواهر القوة فى الكون تتغير إلا قوة الحق

ـ تبارك وتعالى ـ لذلك يُلقى سبحــانه أوامره وهو واثق أنها ستُنفذ ؛ لأنه سبحانه ملكٌ حقّ ، بيده ناصية الأمور كلها ، فلو لم يكُنْ سبحانه كذلك ، فكيف يقول للشيء : كُنْ فيكون ؟ فلا يعصاه أحد ، ولا يخرج عن طَوْعه مخلوق ، فيقول له : كُنْ فلا يكون .

فالحق ـ تـبارك وتعالى ـ أنزل القـرآن عربيـاً ، وصرَّف فـيه من الوعيـد لعلهم يتقون أو يحـدث لهم ذكراً ؛ لأنه من حـقه أن يكون له ذلك ؛ لأنه ملَك حق ليس له هـوى فيـما شـرع ؛ لذلك يجب أن تقـبل تشريعـه ، فلَا يطعن فى القـوانين إلا أن تصدر عن هـوى ، فإنْ قنَّن رأسمالى أعطَى الامـتياز للرأسماليـين ، وإنْ قنَّن فقير أعطى الامـتياز للفقراء ، والله عز وجل لا ينحاز لأحد على حساب أحد .

وأيضـاً يجب فى المقنِّن أن يكون عـالماً بمـسـتـجدَّات الأمـور فى المستقبل ، حـتى لا يستدرك أحد على قانون فيُغيِّـره كما يحدث معنا الآن ، وتضطرنا الأحـداث إلى تغيـير الـقانون ؛ لأننا سـاعة شـرعناه غابتْ عنا هذه الأحداث ، ولم نحتط لها ؛ لذلك لا استدراكَ على قانون السماء أبداً .

وطالما أن الحق سبحانه وتعالى هو ﴿ الْمَلِكُ الْحَقُّ .. (١١٤) ﴾ [طه] فلا بُدَّ أنْ يضمن للخلق أنْ يصلهم الكتاب والمنهج كما قاله سبحانه ، لا تغـيير فـيه ؛ لـذلك قال عـز وجل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

نحن الذين سنحفظه ؛ لأن البشر جُرِّبوا فى حفْظ مناهج السماء ، ولم يكونوا أمناء عليهـا ، فغيَّروا فى التـوراة وفى الإنجيل وفى الكتب المقدَّسة ، إما بأن يكتمـوا بعض ما أنزل الله ، وإما أنْ ينسُوا بعضه ،

والذى ذكروه لم يتـركوه على حـاله بل حرَّفوه . وإنْ قُـبِل منهم هذا كله فلا يُقبَل منهم أنْ يفترُوا على الله فيُؤلِّفون من عندهم ، ويقولون : ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ .. (٧٨)﴾ [آل عمران]

ذلك لأن الحـفْظ للمنهج كـان موكـولاً للبـشر تكليـفـاً ، والتكليف عُرْضَـة لأنْ يُطَاع ، ولأن يُعْصَى ، كما قـال تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ .. (٤٤)﴾ [المائدة]

أى : طلب منهم أن يحـفظوهـا بهذا الأمـر التكـليفـى ، فعَـصَـوْه نسـياناً ، وكـتـماناً ، وتحـريفـاً ، وزيادة ؛ لذلك تولّى الحق ـ تبـارك وتعالى ـ حـفْظ القرآن ؛ لأنه الكتـاب الخاتم الذى لا استـدراكَ عليه ، وضمن سبحانه للقرآن ألاَّ يُحرَّف بأىٍّ وجه من أَوْجُه التحريف .

فاطمـئنوا إلى أن القرآن كـتاب الله الذى بين أيديكـم هو كلام الله الذى جاء من علـمه تعالى فى اللوح المـحفـوظ الذى قال عنه : ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ[1] (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)﴾ [الواقعة]

ثم نزل به الروح الأمين ، وهو مُؤْتَمن عليه لم يـتصرَّف فيه ، ثم نزل على قلب سـيد المـرسلين الذى قـال الله عنه : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥)﴾ [الحاقة]

إذن : حُفظ القرآن علْماً فى اللوح المحفوظ ، وحُفظ فى أمانة مَنْ نزل به من السماء ، وحُفظ فى مَنْ استقبله وهو النبى ﷺ ، فلا حجةَ لنا بعد أن جمع الحق ـ سبحانه وتعالى ـ للقرآن كُلَّ ألوان الحفظ .

---

(١) قوله : ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨)﴾ [الواقعة] . قـيل : هو اللوح المحفوظ . وقـيل : هو القرآن يصونه المؤمن مكتوباً أو يصونه فى قلبه محفوظاً . [القاموس القويم ٢/١٧٦].

لذلك كان ولا بُدَّ حين يُنزل الله القرآن على رسوله أن يقول له : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه] فليست هناك حقيقة بعد هذا أبداً ، وليس هناك شيء ثابت ثبوتَ الحق سبحانه وتعالى .

ثم يقول تعالى ﴿ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ .. ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه] وهذه مُقدِّمات ليطمئن رسول الله على حفْظ القرآن ؛ لأنه ﷺ كان ينزل عليه الوحى ، فيحاول إعادته كلمة كلمة . فإذا قال الوحى مثلاً : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ .. ﴿١﴾ ﴾ [الجن] فيأخذ الرسول فى تكرارها فى سرِّه ويُردِّدها خلف جبريل عليه السلام مخافة أنْ ينساها لشدة حِرْصه على القرآن[1] .

فنهاه الله عن هذه العَجلة ﴿ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ .. ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه] أى : لا تتعجل ، ولا تنشغل بالتكرار والترديد ، فسوف يأتيك نُضْجها حين تكتمل ، فلا تَخْشَ أنْ يفوتك شيءٌ منه طالما أننى تكفَّلْتُ بحفْظه ؛ لذلك يقول له فى موضع آخر : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [الأعلى]

فاطمئن ولا تقلق على هذه المسألة ؛ لأن شغلك بحفظ كلمة قد يُفوِّت عليك أخرى .

والعَجلة أنْ تُخرِج الحدث قبل نُضْجه ، كأن تقطف الثمرة قبل نُضْجها وقبل أوانها ، وعند الأكل تُفَاجأ بأنها لم تَسْتَوِ بعد ، أو تتعجل قَطْفها وهى صغيرة لا تكفى شخصاً واحداً ، ولو تركتها لأوانها لكانت كافية لعدة أشخاص .

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن السدى . قاله السيوطى فى الدر المنثور (٥/٦٠٢) . وأورد القرطبى نحو هذا فى تفسيره (٦/٤٤٢٥) ، وكذا تفسير ابن كثير (٣/١٦٧) .

والقرآن كلام فى مستوى عَالٍ من البلاغة ، وليس كلاماً مألوفاً له يسهُل عليه حفْظه ؛ لذلك كان حريصاً على الحفْظ والتثبيت .

وفى آية أخرى يُوضِّح الحق سبحانه هذه المسألة : ﴿ لا تُحرِّكْ به لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ﴾ [القيامة] أى : لما تكتمل الآيات فلكَ أنْ تقرأها كما تحب .

وهذه الظاهرة من معجـزات النبى ﷺ ، نبى ينزل عليه عدة أرباع من القرآن ، أو السورة كاملة ، ثم حين يُسرى عنه الوحى يعيدها كما أُنزلتْ عليه ، ولك أن تأتى بأكثر الناس قدرة على الحفظ ، واقرأ عليه لمدة عشر دقائق مثـلاً من أى كتاب أو أى كلام ، ثم اطلب منه إعادة ما سمع فلن يستطيع .

أما النبى ﷺ فكان يأمر الكَتبة بكتابة القرآن ، ثم يمليه عليهم كما سمعه ، لا يُغير منه حرفـاً واحداً ، بل ويُملى الآيات فى موضعها من السور المختلفة فيقول : « ضـعوا هذه فى سورة كـذا ، وهذه فى سورة كذا »[١] .

ولو أن السـورة نزلت كاملة مـرة واحدة لكان الأمـر إلى حَدٍّ مـا سهلاً ، إنمـا تنزل الآيات متفرقـة ، فإذا ما قرأ ﷺ فى الصـلاة مثلاً قرأ بسورة واحدة نزلتْ آياتها متفرقة ، هذه نزلت اليوم ، وهذه نزلت بالأمس ، وهكذا ، ومع ذلك يقرؤها مُرتَّبة آية آية .

وقوله تعـالى بعدها : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ ﴾ [القيـامة] وخاطب

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٧/١٥٣) من حـديث عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : إن رسول الله ﷺ كان يأتى عليـه الزمان تنزل عليه السـور ، ذوات عـدد ، فكان إذا نزل عليه الشىء يـدعو بعض من كان يكتـبه ، فيـقول : « ضعـوا هذه فى السورة التى يذكـر فيـهـا كـذا وكذا » . وكـذا أخـرجه الترمـذى فى سننه (٥/٢٧٢) ، والحـاكم فى مستدركه (٢/٢٢١ ، ٣٣٠) .

النبى فى آية أخرى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. (٤٤) ﴾ [النحل] فالبيان من الله تعالى والتبيين من النبى ﷺ .

ومعنى : ﴿ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ .. (١١٤) ﴾ [طه] أى : انتظر حتى يسرى عنك ، لكن كيف يعرف الرسول ذلك ؟ كيف يعرف أن الحالة التى تعتريه عند نزول الوحى قد زالتْ ؟ والصحابة يصفون حال النبى ﷺ عند نزول الوحى عليه فيقولون : كنا نسمع حول رأسه كغطيط النحل ، وكان جبينه يتفصد عرقاً[1] ، ويبلغ منه الجهد مبلغاً ، وإن نزل الوحى وهو على دابة كانت تنخ برسول الله ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥) ﴾ [المزمل]

إذن : هناك آيات مادية تعرض لرسول الله عند نزول الوحى ؛ لأن الوَحْى من ملَك له طبيعته التكوينية التى تختلف وطبيعة النبى البشرية ، فلكى يتم اللقاء بينهما مباشرة لا بُدَّ أنْ يحدث بينهما نوعٌ من التقارب فى الطبيعة ، فإمّا أن يتحول الملَك من صورته الملائكية إلى صورة بشرية ، أو ينتقل رسول الله من حالته البشرية إلى حالة ملائكية ارتقائية حتى يتلقّى عن الملك .

لذلك ، كانت تحدث لرسول الله تغييرات كيماوية فى طبيعته ، هذه التغييرات هى التى تجعله يتصبَّبُ عَرَقاً حتى يقول : « زملونى زملونى » أو « دثرونى دثرونى »[2] لما حدث فى تكوينه من تفاعل .

فكان الوحى شاقاً على رسول الله خاصة فى أوله ، فأراد الحق ـ

---

(١) قالت عائشة رضى الله عنها : لقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصّد عرقاً . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) كتاب بدء الوحى ، وأحمد فى مسنده (٦/٢٥٧) .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) كتاب بدء الوحى من حديث عائشة رضى الله عنها .

سبحانه ـ أنْ يُخفِّف عن رسوله هذه المشقة ، وأنْ يُريحه فترة من نزول الوحى ليريحه من ناحية وليُشوِّقه للوحى من ناحية أخرى ، فقال تعالى : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣)﴾ [الشرح] والوِزْر هو الحمْل الثقيل الذى كان يحمله رسول الله فى نزول الوحى عليه .

فلما فتر الوحى عن رسول الله شمتَ به الأعداء ، وقالوا : إن ربَّ محمد قد قلاه[1] . سبحان الله ، أفى الجَفْوة تذكرون أنَ لمحمد رباً ؟ ألستم القائلين له : كذاب وساحر ؟ والآن أصبح له رب لأنه قلاه ؟

وما فهم الكفار أن فتور الوحى لحكمة عالية ، أرادها ربٌّ محمد ، هى أنْ يرتاح نفسياً من مشقة هذه التغيرات الكيماوية فى تكوينه ، وأنْ تتجدد طاقته ، ويزداد شوقه للقاء جبريل من جديد ، والشَّوْق إلى الشيء يُهوِّن الصعاب فى سبيله . كما يسير المحب إلى حبيبه ، لا تمنعه مشاقّ الطريق .

فردَّ الله على الكفار : ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾ [الضحى]

فنفى عن رسوله ما قاله الكفار ، ثم عدَّل عبارتهم : إن ربَّ محمد قد قلاه فقال : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى] هكذا بكاف الخطاب ؛ لأن التوديع قد يكون للحبيب .

أمَّا فى قوله : ﴿وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى] فلم يأت هنا بكاف الخطاب حتى مع النفى ، فلم يقُلْ (وما قلاك) ؛ لأنَ النفى مع ضمير المخاطب يُشْعِر بإمكانية حدوث الكُره لرسول الله .

---

(١) عن جندب بن عبد الله البجلى أنه قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ ، فقال المشركون : ودع محمداً ربه . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٢) .

كما لو قلت : أنا لم أرَ شيخ الأزهر يشـرب الخمر ، أمدحتَ شيخ الأزهر بهذا القول أم ذَمَمْـته ؟ الحقيقة أنك ذممـته ؛ لأنك جعلته مظنة أن يحدث منه ذلك .

فهذا التعبير القـرآنى يعطى لرسول الله منزلته العالية ومكانته عند ربه عز وجل .

لكن ، مـا الحكمة فى أن الحق ـ تبـارك وتعالى ـ أقـسم فى هذه المسـألة بالضحى وبالليل إذا سَجَـى ؟ وما صلتهمـا بموضوع غـياب الوحى عن رسول الله ؟

الله عز وجل يريد بقوله : ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ﴾ [الضحى] أن يرد هؤلاء إلى ظاهرة كونـية مُشَـاهدة ومُعْتَـرف بها عند الجـميع ، وهـى أن الله خلق النهـار وجعله مَـحـلاً للحـركة والنشـاط والسعى ، وخلق الليل وجعله مَحَلاً للراحة والسكون ، فيرتاح الإنسان فى الليل ليعاود نشاطه فى الصباح من جديدٍ .

وهكذا أمر الوحى مع رسـول الله ﷺ ، فلما أجهده الوحى احـتاج إلى وقت يرتاح فيه ، لا لتنـتهى المسألة بلا عودة ، بل ليُـجدِّد نشاط النبى ، ويُشوِّقه للوحى من جديد ؛ لذلك بشَّره بقوله : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ ﴾ [الضحى] أى : انتظر يا محمد ، فسوف يأتيك خير كثير .

فالحق سـبحـانه يُرجعهم إلـى ظواهر الكون ، وإلى الطبيـعة التى يعيشون عليها ، فـأنتم ترتاحون من عَناء النهار بسكون الليل ، فلماذا تنكرون على محمد أن يرتاح من عناء الوحى ومـشقته ؟ وهل راحتكم فى بسكون الليل تعنى دوام الليل وعدم عودة النهار ؟

وقوله تعالى : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)﴾ [طه] هذا توجيه للنبى ﷺ للاستزادة من العلم ، فما دُمْتَ أنت يا رب الحافظ فزدْنى منه ، ذلك لأن رسول الله سيحتاج إلى علم تقوم عليه حركة الحياة من لَدُنْه إلى أن تقوم الساعة ، علْمٌ يشمل الأزمنة والأمكنة ، فلا بُدَّ له أنْ يُعَدَّ الإعدادَ اللازم لهذه المهمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)﴾

كأن الحق - تبارك وتعالى - يُعزِّى رسوله ﷺ ويُخفِّف عنه ما يعانيه من كفر القوم وعنادهم بقوله له : اقبلهم على علاَّتهم ، فهُمْ أولاد آدم ، والعصيان أمر وارد فيهم ، وسبق أن عهدنا إلى أبيهم فنسى ، فإذا نسى هؤلاء فاقبل منهم فهم أولاد « نسَّاى » .

لذلك ، إذا أوصيتَ أحداً بعمل شىء فلم يَقُمْ به ، فلا تغضب ، وارجع الأمر إلى هذه المسألة ، والتمس له عُذْراً .

وقوله : ﴿عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ .. (١١٥)﴾ [طه] أى : أمرنا ووصَّيْنا ووعظنا ، وقلنا كل شىء .

﴿مِن قَبْلُ .. (١١٥)﴾ [طه] هذه الكلمة لها دَوْر فى القرآن ، وقد حسمتْ لنا مواقف عدة ، منها قوله هنا عن آدم والمراد : خُذْ لهم أُسْوة من أبيهم الذى كلَّفه الله مباشرة ، ليس بواسطة رسول ، وكلَّفه بأمر واحد ، ثم نهاه أيضاً عن أمر واحد : كُل من كُلِّ الجنة إلا هذه الشجرة ، هذا هو التكليف ، ومع ذلك نسى آدم ما أُمِر به .

إذن : حينما يأتى التكليف بواسطة رسول ، وبأمـور كثيرة ، فمَنْ نسى من ولد آدم فيجب أنْ نعذره ونلتـمس له عذراً ، ولكثرة النسيان فى ذرية آدم قال تعالى : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ .. (٨٢)﴾ [طه] بالمبالغة ؛ لأن الجميـع عُرْضَة للنسيان وعُـرْضة للخطأ ، فالأمر ـ إذن ـ يـحتاج إلى مغفرة كثيرة .

كذلك جاءتْ (من قـبل) فى قوله تعالى : ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ .. (٩١)﴾ [البقرة]

فكان لها دور ومَغْـزى ، فلو قال الحق سبحانه : فَلمَ تقـتلون أنبياء الله ؟ فحسْب ، فربما جرَّأهم على الاعتداء على رسول الله أنْ يقتلوه ، أو يفهم منها رسول الله أنه عُرْضة للقتل كما حدث مع سابقيه من الأنبياء . لذلك قيَّدها الحق ـ تبـارك وتعالى ـ وجعلها شيـئاً من الماضى الذى لن يكون ، فهذا شىء حدث من قبل ، وليس هذا زمانه .

وقوله : ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)﴾ [طه] أى : نسى العَهْد ، هذه واحدة . ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)﴾ [طه] ليس عنده عزيمـة قوية تُعينه على المضىِّ والثبات فى الأمر .

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أن يعطينا فكرة بـأنه سبحانه حين يأمر بأمْر فيه نفع لك تتهافت عليـه ، أمّا إذا أمر بشىء يُقيِّد شهواتك تأبَّيْتَ وخالفتَ ، ومن هنا احتاج التكليف إلى عـزيمة قوية تعينك على المضىّ فيه والثبات عليه ، فـإنْ اقبلتَ على الأمر الذى يخالف شهوتك نظرتَ فيـه وتأملتَ : كيف أنه يعطيك شهـوة عاجلة زائلة لكن يعقبـها ذلٌّ آجل مستمر ، فالعَزْم هنا ألاَّ تغريك الشهوة .

ألا ترى أن الله تعالى سـمَّى الرسل أصحاب الدعـوات والرسالات الهـامـة فى تاريخ البـشـرية ﴿أُولُوا الْعَزْمِ .. (٣٥)﴾ [الأحقـاف] لأنهم

سيتحملون مشاقَ ومهامَ صعبة تحتاج إلى ثبات وصبر على التكاليف.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ .. (٦٣)﴾ [البقرة] أى : عزيمة تدفع إلى الطاعات ، وتمنع من المعاصى .

ومسألة نسيان العبد للمنهيات التى يترتب عليها عقاب وعذاب أثارتْ عند الناس مشكلة فى القضاء والقدر ، فتسمع البعض يقول : ما دام أن الله تعالى كتب علىَّ هذا الفعل فلِمَ يعاقبنى عليه ؟

ونعجب لهذه المقولة ، ولماذا لم تَقُلْ أيضاً : لماذا يثيبنى على هذا الفعل ، ما دام قد كتبه علىَّ ؟ لماذا توقفتَ فى الأولى و(بلعْتَ) الأخرى ، بالطبع ؛ لأن الأولى ليست فى صالحك . إذن ، عليك أن تتعامل مع ربك معاملة واحدة ، وتقيس الأمور بمقياس واحد .

والعهد الذى أخذه الله على آدم أنْ يأكل رَغَداً من كل نعيم الجنة كما يشاء إلا شجرة واحدة حذَّره من مجرد الاقتراب منها هو وزوجه : ﴿وَلا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)﴾ [البقرة]

وهذه المسألة تلفتنا إلى أن المحللات كثيرة لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى أمّا المحرمات فقليلة معدودة محصورة ؛ لذلك حينما يُحدِّثنا الحق سبحانه عن التكليف يقول : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] فالمحرَّمات هى التى يمكن حصرها ، أما المحللات فخارجة عن نطاق الحَصْر .

ونلحظ أن الله تعالى حينما يُحذِّرنا من المحرمات لا يُحذِّرنا من مباشرتها ، بلْ من مجرد الاقتراب منها ﴿وَلا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥)﴾ [البقرة] ولَم يقُلْ : لا تأكلا منها ؛ ليظل الإنسان بعيداً عن منطقة الخطر ومظنّة الفعْل .

وحينما يُحدِّثنا ربُّنا عن حدوده التى حدَّها لنا يقول فى الحدّ

المحلَّل : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّه فَلا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩)﴾ [البقرة] وفى الحدِّ المحرّم يقول : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّه فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧)﴾ [البقرة] ذلك لأن مَنْ حامَ حول الحِمَى يوشك أنْ يقع فيه .

وقد كان للعلماء كلام طويل حول ما نسيه آدم عليه السلام ، فمنهم مَنْ قال : نسى (كُل من هذه ولا تقرب هذه) ، وعلى هذا الرأى لم يَنْسَ آدم لأنه نفَّذ الأمر فأكل ممَّا أحله الله له ، أما كونه أكل من الشجرة التى نهاه الله عنها فليس فى هذه أيضاً نسيان ؛ لأن إبليس ذكّره بهذا النهى فقال : ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠)﴾ [الأعراف]

فحينما أكل آدم من الشجرة لم يكُنْ ناسياً ما نهاه الله عنه . إذن : ما المقصود بالنسيان هنا ؟

المقصود أن آدم ـ عليه السلام ـ نسى ما أخبره الله به من عداوة إبليس ـ لعنه الله ـ حين قال له : ﴿إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧)﴾ [طه]

والفكر البشرى لا بُدَّ أن تفوتَهُ بعض المسائل ، ولو كان عند الإنسان يقظة وحذَر ما انطلى عليه تغفيل إبليس ، فتراه يُذكِّر آدمَ بالنهى ولم يَدَعْهُ فى غفلته ثم يحاول إقناعه : إنْ أكلتُما من هذه الشجرة فسوف تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين .

وما دُمْتَ أنت يا إبليس بهذا الذكاء ، فلماذا لم تأكل أنت من الشجرة وتكون ملكاً أو تكون من الخالدين ؟ لماذا تضاءلت فصرْتَ أرنباً تقول : ﴿أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤)﴾ [الأعراف]

إذن : هذا نموذج من تغفيل إبليس لآدم وذريته من بعده ، يلفتنا الله تعالى إليه يقول : تيقظوا واحذروا ، فعداوته لكم مُسْبقة منذ سجد الجميع لآدم تكريماً ، وأَبَى هو أن يسجد .

فكان على آدم أنْ يُحذِّر عدوه ، وأنْ يتحصَّن له بسوء الظن فيه ، فينظر فى قوله ويفكر فى كلامه ويفتش فى اقتراحه .

والبعض يقول : إن خطأ آدم ناتج عن نسيان ، فهو خطأ غير مُتعَمَّد ، والنسيان مرفوع ، كما جاء فى الحديث الشريف : « إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »[1] .

فهل كان النسيان قديماً لا يُرْفَع ، ورُفِع لهذه الأمة إكْراماً لها ؟ فأصحاب هذا القول يلتمسون العُذْر لآدم عليه السلام ، لكن كيف وقد كلَّفه ربُّه مباشرة ، وكلَّفه بأمر واحد ، فالمسألة لا تحتمل نسياناً ، فإذا نسى آدم مع وحدة التكليف وكَوْنه من الله مباشرة ، فهذا على أية حال جريمة .

ثم يقص الحق سبحانه علينا قصة آدم مع إبليس :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ ﴾

الحق - تبارك وتعالى - يقصُّ علينا قصة آدم عليه السلام ، لكن نلاحظ أنه سبحانه أعطانا مُجْمل القصة ومُوجزها فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه] وأصْل القصة وترتيبها الطبيعى أنه سبحانه يقول : خلقْتُ آدم بيدى وصوَّرته ، وكذا وكذا ، ثم أمرْتُ الملائكة بالسجود له ثم قلت له : كذا ....

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه (٢٠٤٥) والدارقطنى فى سننه (٤/ ١٧٠) والحاكم فى مستدركه (١٩٨/٢) وصححه على شرط الشيخين عن ابن عباس ، ولكن إسناد ابن ماجة منقطع .

وعَرْض القصة بهذه الطريقة أسلوبٌ من أساليب التشويق ، يصنعه الآن المؤلفون والكُتَّاب فى قصصهم ، فيعطوننا فى بداية القصة لقطة لنهايتها ؛ لإثارة الرغبة فى تتبُّع أحداثها ، ثم يعود فيعرض لك القصة من بدايتها تفصيلاً ، إذن : هذا لونٌ من ألوان الإثارة والتشويق والتنبيه .

ومن ذلك أسلوب القرآن فى قصة أهل الكهف ، حيث ذكر القصة مُوجَزة فقال : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ[1] كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۝١٢﴾ [الكهف]

ثم أخذ فى عَرْضها تفصيلاً : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ .. ۝١٣﴾ [الكهف]

وقد جاء هذا الأسلوب كثيراً فى قَصَص القرآن ، ففى قصة لوط ـ عليه السلام ـ يبدأ بنهاية القصة وما حاق بهم من العذاب : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ۝٣٣ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا[2] إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ[3] ۝٣٤﴾ [القمر]

ثم يعود إلى تفصيل الأحداث : ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ۝٣٦ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٧﴾[القمر]

---

(١) الرقيم . قيل : هو كتاب كان معهم . وقيل : اسم وادٍ بفلسطين كان فيه كهفهم . [القاموس القويم ١/٢٧٣] .

(٢) أى : عذاباً يحصبهم أى : يرميهم بحجارة من سجيل . ويُقال للريح التى تحمل التراب والحصى : حاصب . [لسان العرب ـ مادة : حصب] .

(٣) السَّحَر : آخر الليل قبيل الصبح . والجمع : أسحار . وقيل : هو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر . [لسان العرب ـ مادة : سحر] .

ومن أبرز هذه المواضع قوله تعالى فى قصة موسى وفرعون : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣)﴾ [الأعراف] أى : من بعد موكب الرسالات إلى فرعون وملئه فظلموا بها ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ، هذا مُجمل القصةَ ، ثم يأخذ فى قصِّ الأحداث بالتفصيل : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤)﴾ [الأعراف]

وهكذا أسلوب القرآن فى قصة آدم عليه السلام ، يعطينا مُجْمل القصة ، ثم يُفصِّلها : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا(١١٦)﴾ [طه] يعنى : اذكر إذ قُلْنا للملائكة ﴿اسْجُدُوا لآدَمَ .. (٣٤)﴾ [البقرة]

وقبل أن نخوضَ فى قصة أبينا آدم ـ عليه السلام ـ يجب أن نشير إلى أنها تكررتْ كثيراً فى القرآن ، لكن هذا التكرار مقصود لحكمة ، ولا يعنى إعادة الأحداث ، بل هى لقطاتٌ لجوانب مختلفة من الحدَث الواحد تتجمع فى النهاية لتعطيك القصة الكاملة من جميع زواياها .

كما أن الهدف من قَصَص القرآن تثبيت النبى ﷺ ؛ لأنه سيمرُّ بكثير من الأحداث والشدائد ، سيحتاج فى كل منها إلى تثبيت ، وهذا الغرض لا يتأتَّى إذا سردنا القصة مرة واحدة ، كما فى قصة يوسف عليه السلام مثلاً .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا .. (١١٦)﴾ [طه] البعض يعترض يقول : كيف تسجد الملائكة لبشر ؟ نعم ، هم سجدوا لآدم ، لكن ما سجدوا من عند أنفسهم ، بل بأمر الله لهم ، فالمسألة ليستْ سجوداً لآدم ، بقدر ما هى إطاعة لأمر الله . ولقائل هذا الكلام : أأنت ملكىٌّ أكثر من الملك ؟ يعنى : أأنت ربانىٌّ أكثر من الربّ ؟

وما معنى السجود ؟ السجود معناه : الخضوع ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ[1] عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا.. ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يوسف] أى : سجودَ تعظيم وخضوع ، لا سجودَ عبادة .

وآدم - عليه السلام - هو خليفة الله فى الأرض ، لكنه ليس الوحيد عليها ، فعلى الأرض مخلوقات كثيرة منها المحسّ ، كالشمس والقمر والنجوم والهواء والماء والأرض والجبال ، وكُلّ ما فيه مصلحة لهذا الخليفة ، ومنها ما هو خفىّ كالملائكة التى تدير خفى هذا الكون ، فمنهم الحفظة والكتبة ، ومنهم المكلَّفون بالريح وبالمطر .. إلخ من الأمور التى تخدم الخَلْق . فلا بُدَّ - إذن - أن يخضع الجميع لهذا المخدوم الآتى .

وقد يحلو للبعض أن يقول : لقد ظلَمنا آدمُ حين عصى ربه ، فأنزلنا من الجنة إلى الأرض . نقول : يجب أن نفهم عن الله تعالى ، فالحق - تبارك وتعالى - لم يخلق آدم للجنة التى هى دار الخُلْد ، إنما خلقه ليكون خليفة له فى الأرض ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة]

فأوّل بلاغ من الله عن آدم أنه خالقه للأرض لا للجنة . والجنة ، وإن كانت تُطلَق على دار الخُلْد ودار النعيم الأُخْروى فهى تُطلَق أيضاً على حدائق وبساتين الدنيا ، كما جاء فى قول الحق سبحانه :

---

(١) قال السدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إنما كان أبوه وخالته ، وكانت أمه قد ماتت قديماً . وقال محمد بن إسحاق وابن جرير : كان أبوه وأمه يعيشان . قال ابن جرير : ولم يقم دليل على موت أمه ، قال ابن كثير فى تفسيره (٤٩١/٢) بعد سرد هذه الأقوال : « ظاهر القرآن يدل على حياتها ، وهذا الذى نصره هو المتصور الذى يدل عليه السياق » .

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا[1] مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القلم]

وقوله : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ.. ﴿٣٢﴾﴾ [الكهف]

إذن : تُطلَق الجنة على شيء في الدنيا يضمُّ كل ما تطلبه النفس وسمَّوْها الجنة ؛ لأنها تستر بشجرها وكثافتها مَنْ يدخل فيها ، أو جنة لأنها تكفى الإنسان ولا تُحوجه إلى شيء غيرها .

فلا تظلموا آدم بأنه أخرجكم من الجنة ؛ لأنه لم يكُنْ في جنة الخُلْد ، إنما في مكان أعدَّه الله له ، وأراد أنْ يُعطيه في هذا المكان درساً ، ويُدرِّبه على القيام بمهمته في الحياة وخلافته في الأرض .

أرأيتَ ما نفعله الآن من إقامة معسكرات للتدريب في شتى مجالات الحياة ، وفيها نتكفَّل بمعيشة المتدرب وإقامته ورعايته .

إنها أماكن مُعدَّة للتدريب على المهام المختلفة : رياضية ، أو علمية ، أو عسكرية .. الخ .

هكذا كانت جنة آدم مكاناً لتدريبه قبل أنْ يباشر مهمته كخليفة لله في الأرض ، فأدخله الله في هذه التجربة العملية التطبيقية ، وأعطاه فيها نموذجاً للتكليف بالأمر والنهي ، وحذَّره من عدوه الذى سيتربص به وبذريته من بعده ، وكشف له بعض أساليبه في الإضلال والإغواء .

---

(١) الصَّرْم : القطع مادياً ، كقطع الثمار . أي : يقطعون ثمارها . قال تعالى : ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [القلم] أى : أصبحت حديقتهم بعد احتراقها كالليل المسودّ ، أو صارت كالأرض التى قطعت أشجارها ولا نبات فيها » . [القاموس القويم ١/ ٣٧٥] .

وهذه هى خلاصة منهج الله فى الأرض ، وما من رسول إلا وجاء بمثل هذا المنهج : أمر ، ونهى ، وتكليف ، وتحذير من الشيطان ووسوسته حتى يُخرجنا عن أمر الله ونَهْيه .

وبعد هذا (الكورس) التدريبى فى الجنة علِم آدم بالتطبيق العملى أن الشيطان عدوه ، وأنه سيُغريه ويخدعه ، ثم بعد هذه التجربة أنزله الله ليباشر مهمته فى الأرض ، فيكون من عدوه على ذِكْر وحذر .

والبعض يقف طويلاً عند مسألة عصيان آدم : كيف يعصى الله وهو نبى ؟ ويذكرون قوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ﴾ [طه]

نقول : ما دام أن آدم ـ عليه السلام ـ هو خليفة الله فى أرضه ، ومنه أنْسَالُ الناس جميعاً إلى أنْ تقوم الساعة ، ومن نَسله الأنبياء وغير الأنبياء ، من نسله الرسل والمرسل إليهم . إذن : فهو بذاته يمثل الخَلْق الآتى كله بجميع أنواعه المعصومين وغير المعصومين .

كما أن آدم ـ عليه السلام ـ مرَّ بهذه التجربة قبل أن يُنبأ ، ومَرَّ بها بعد أن نُبئ ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) ﴾ [طه]

فكان الاجتباء والعصمة بعد التجريب ، ثم لما أُهبط آدم وعدوه إلى الأرض خاطبه ربه : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) ﴾ [البقرة]

وهكذا بدأت مرحلة جديدة فى حياة آدم عليه السلام ، ومثَّل آدم الدَّوْرين : دَوْر العصمة والنبوة بعدما اجتباه ربه ، ودَوْر البشر العادى غير المعصوم والمعرَّض للنسيان وللمخالفة كأىِّ إنسان من أناس الأرض .

ينبغى - إذن - أن نفهم أن آدم خُلق للأرض وعمارتها ، وقد هيَّأها الله لآدم وذريته من بعده ، وأعدَّها بكُلِّ مقوِّمات الحياة ومُقوِّمات بقاء النوع ، فمَنْ أراد ترف الحياة فليُعمل عقله فى هذه المقوّمات وليستنبط منها ما يريد .

لقد ذكرنا أن فى الكون مُلكاً وملكوتاً : الملْك هو الظاهر الذى نراه ونشاهده ، والملكوت ما خفى عنّا وراء هذا الملْك ، ومن الملكوت أشياء تؤدى مهمتها فى حياتنا دون أنْ نراها ، فمثلاً ظاهرة الجاذبية الأرضية التى تتدخل فى أمور كثيرة فى حياتنا ، كانت فى حجاب الملكوت لا نراها ولا نعرف عنها شيئاً ، ثم لما اهتدتْ إليها العقول واكتشفتْها عرفنا أن هناك ما يسمى بالجاذبية .

ومن الملكوت الملائكة الموكّلون ، كما قال تعالى : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. ⦗١١⦘﴾ [الرعد]

ومنهم الكَتَبة : ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ⦗١٨⦘﴾ [ق]

فلما خلق الله آدم ، وخلق الملائكة الموكلين بمصالحه فى الأرض أمرهم بالسجود له ؛ لأنهم سيكونون فى خدمته ، فالسجود طاعة لأمر الله ، وخضوع للخليفة الذى سيعمر الأرض .

وقوله تعالى : ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ⦗١١٦⦘﴾ [طه] وفى آية أخرى[1] : ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ .. ⦗٧٤⦘﴾ [ص]

وقد أوضح الحق سبحانه سبب رَفْض إبليس للسجود لآدم بقوله : ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ⦗٧٥⦘﴾ [ص]

---

(١) وفى آية ثالثة جمع بين الإباء والاستكبار فى قوله تعالى : ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ .. ⦗٣٤⦘﴾ [البقرة] .

أى : لا سبب لامتناعك إلا الاستكبار على السجود ، أو تكون من العالين . أى : الملائكة الذين لم يشملهم الأمر بالسجود ، فكأن الأمر كان لملائكة خاصة هم الموكّلون بخدمة آدم ، أمّا العالون فهم الملائكة المهيّمون ، ولا علاقة لهم بآدم ، وربما لا يدرُون به .

ومن الأساليب التى أثارتْ جَدَلاً حول بلاغة القرآن لدى المستشرقين قوله تعالى : ﴿مَا منَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥)﴾ [ص] وقوله فى موضع آخر : ﴿مَا منَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢)﴾ [الأعراف] فأىُّ التعبيريْن بليغ ؟ وإنْ كان أحدهما بليغاً فالآخر غير بليغ .

وهذا كله ناتج عن قصور فى فَهْم لغة القرآن ، وعدم وجود الملكة العربية عند هؤلاء ، فهناك فَرْق بين أنك تريد أن تسجدَ ويأتى مَنْ يقول لك : لا تسجد ، وبين أنْ يُقنعك شخص بألاَّ تسجد . فقوله : ﴿مَا منَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥)﴾ [ص] كنت تريد السجود وواحد منعك ، وقوله : ﴿مَا منَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢)﴾ [الأعراف] يعنى : أمرك ألاَّ تسجد ، وأقنعك وأنت اقتنعتَ .

ومن المسائل التى أثيرتْ حول هذه القصة : أكان إبليس من الملائكة فشمله الأمر بالسجود ؟ وكيف يكون من الملائكة وهم لا يعصُون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ؟ وإذا لم يكُنْ ملكاً فماذا أدخله فى الأمر ؟

ولتوضيح هذه المسألة نقول : خلق الله الثَّقليْن : الجن والإنس ، وجعلهم مختارين فى كثير من الأمور ، ومقهورين فى بعض الأمور ، ليثبت طلاقة قدرته تعالى فى خَلْقه ، فإنْ كنتَ مختاراً فى أمور التكليف وفى استطاعتك أنْ تطيع أو أنْ تعصى ، فليس فى اختيارك أنْ تكون صحيحاً أو مريضاً ، طويلاً أو قصيراً ، فقيراً أو غنياً ، ليس فى اختيارك أنْ تحيا أو تموت .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يُكلِّفك بافعل كذا ولا تفعل كذا ، إلا إذا خلقك صالحاً للفعل ولعدم الفعل ، هذا فى أمور التكليف وما عداه أمور قَهْرية لا اختيارَ لك فيها هى القدريات .

لذلك نقول للذين ألِفُوا التمرد وتعوَّدوا الخروج على أحكام الله فى التكليفات : لماذا لا تتَمردوا أيضاً على القدريات ما دُمْتم قد ألِفْتم المخالفة ؟ إذن : أنت مقهور وعَبْد رَغماً عنك .

لذلك ، إذا كان المختار طائعاً يلزم نفسه بمنهج ربه ، بل ويتنازل عن اختياره لاختيار الله ، فمنزلته عند الله كبيرة ، وهو أفضل من الملَك ، لأن الملَك يطيع وهو مرغم . ومن هنا يأتى الفرْق بين عباد وعبيد ، فالكل فى القهر عبيد ، لكن العباد هم الذين تركوا اختيارهم لاختيار ربهم .

ومن هنا نقول : إن إبليس من الجن ، وليس من الملائكة ؛ لأنه أُمِر فامتنع فعُوقب ، وإنْ كان الأمر فى الأصل للملائكة .

وقد حسم القرآن هذه القضية حين قال : ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. (٥٠)﴾ [الكهف] وهذا نصٌّ صريح لا جدالَ حوله[1] .

فإنْ قُلْتَ : فلماذا شمله الأمر بالسجود ، وهو ليس ملَكاً ؟

نقول : لأن إبليس قبل هذا الأمر كان طائعاً ، وقد شهد عملية خَلْق آدم ، وكان يُدْعَى « طاووس الملائكة » لأنه ألزم نفسه فى الأمور الاختيارية ففاق بذلك الملائكة ، وصار يزهو عليهم ويجلس فى مجلسهم ، فلما جاء الأمر للملائكة بالسجود لآدم شمله الأمر ولزمه من ناحيتين :

---

(١) قال الحسن البصرى : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط ، وإنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس . نقله ابن كثير فى تفسيره (١/٧٧) : « هذا إسناد صحيح عن الحسن ، وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم سواء » .

الأولى : إنْ كان أعلى منهم منزلةً وهو طاووسهم الذى ألزم نفسه الطاعة رغم اختيارِه فهو أَوْلَى بطاعة الأمر منهم ، ولماذا يعصى هذا الأمر بالذات ؟

الأخرى : إنْ كان أقلّ منهم ، فالأمر للأعلى لا بُدَّ أنْ يشمل الأدنى ، كما لو أمرتَ الوزراء مثلاً بالقيام لرئيس الجمهورية ، وبينهم وكلاء ومديرون ، فطبيعيٌّ أنْ يشملهم الأمر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِزَوْجِكَ .. ﴿١١٧﴾ ﴾ [طه] كلمةُ الزوج لا تعنى اثنين كما يظن البعض ، الزوج فرد واحد معه مثله ، فليس صحيحاً أن نقول : توأم إنما توأمان ، فكل منهما توأم للآخر ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الذاريات]

ملْحَظ آخر فى قوله تعالى : ﴿ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ .. ﴿١١٧﴾ ﴾ [طه] الخطاب لآدم وزوجه يُحذِّرهما من إغواء إبليس وكَيْده ، ثم يقول ﴿ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ ﴾ [طه] بصيغة الإفراد ، ولم يقُل : فتشقيَا . لماذا ؟ لأن مسئولية الكَدْح والحركة للرجل أمَّا المرأة فهى السكَن المريح المنشِّط لصاحب الحركة ، على خلاف ما نرى فى مجتمعنا من الحرص على عمل المرأة بحجة المساعدة فى تبعات الحياة .

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ ﴾

فقد أعددْتُ لك الجنة ، وجعلتُ لك فيها كل ما تحتاجه ، وأبَحْتُ لك كل نعيمها ونهيتُك عن شيء واحد[1] منها ، ولك علينا ﴿أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨)﴾ [طه] فلن تجوع فيها ؛ لأن فيها كل الثمرات ﴿وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا .. (٣٥)﴾ [البقرة]

ونلحظ هنا أن الله تعالى تكفَّل لهما بشيء ظاهر يُلبِّى غريزة ظاهرة هى اللباس والتستُّر ، وغريزة باطنة هى غريزة الطعام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩)﴾

(تظمأ) يعنى : تعطش ، و (تضحى) : أى : لا تتعرض لحرارة الشمس اللافحة ، فتكفَّل لهما ربهما أيضاً بغريزة باطنة هى العطش ، وغريزة ظاهرة هى ألاَّ تلفحك حرارة الشمس .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠)﴾

نلحظ أن الحق سبحانه اختار لعمل الشيطان اسماً يناسب الإغراء

---

(١) وهى الشجرة التى قال عنها الحق سبحانه : ﴿وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)﴾ [البقرة] ، وقد أورد ابن كثير فى تفسيره (٧٩/١) . ستة أقوال عن هذه الشجرة ، فقال :
- هى الكرم . قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والسدى والشعبى .
- هى الحنطة . زعمته يهود .
- هى السنبلة . قاله ابن عباس .
- هى البر . قاله ابن عباس أيضاً .
- هى النخلة . قاله أبو مالك .
- هى التينة . قاله مجاهد وقتادة وابن جريج .

بالشيء ، وهى كلمة (الوَسْوَسة) وهى فى الأصل صوت الحلىّ - أى : الذهب الذى تتحلَّى به النساء ، كما نقول : نقيق الضفادع ، وصهيل الخيل ، وخُوار البقر ، ونهيق الحمير ، وثغاء الشاة ، وخرير الماء ، وحفيف الشجر .

وكذلك الوسوسة اسم لصوت الحلىّ الذى يجذب الأسماع ، ويُغرِى بالتطلع إليه ، وكأن الحق سبحانه يُحذِّرنا أن الشيطان سيدخل لنا من طريق الإغراء والتزيين .

فما الذى وَسوس به إلى آدم ؟

﴿ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه]

ونعجب لإبليس : ما دُمْت تعرف شجرة الخُلْد والملْك الذى لا يبلى ، لماذا لم تأكل أنت منها وتحوز هذه الميزة ؟

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ[1] عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾

أى : بعد أن أكلا من هذه الشجرة ظهرتْ لهما سوءآتهما ، والسَّوْأة هى العورة أى : المكان الذى يستحى الإنسان أن ينكشف منه ، والمراد القُبُل والدُّبُر فى الرجل والمرأة . ولكل من القُبل والدُّبر مهمة ، وبهما يتخلص الجسم من الفضلات ، الماء من ناحية الكُلى والحالب والمثانة عن طريق القُبل ، وبقايا وفضلات الطعام الناتجة عن حركة الهَضْم وعملية الأَيْض ، وهذه تخرج عن طريق الدُّبُر .

لكن ، متى أحسَّ آدم وزوجه بسوءاتهما ، أبعد الأكل عموماً من

---

(١) أى : يلصقان عليهما ما يستر العورة من ورق الجنة . قيل : ورق شجر التوت [القاموس القويم ١/١٩٥] .

شجر الجنة ، أم بعد الأكل من هذه الشجرة بالذات ؟

الحق - تبارك وتعالى - رتَّب ظهور العورة على الأكل من الشجرة التى نهاهما عنها ﴿ فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا .. (١٢١) ﴾ [طه] فقبْل الأكل من هذه الشجرة لم يعرفا عورتيهما ، ولم يعرفا عملية الإخراج هذه ؛ لأن الغذاء كان طاهيه ربُّه ، فيعطى القدرة والحياة دون أن يخلف فى الجسم أىَّ فضلات .

لكن ، لما خالفوا وأكلوا من الشجرة بدأ الطعام يختمر وتحدث له عملية الهضم التى نعرفها ، فكانت المرة الأولى التى يلاحظ فيها آدم وزوجه مسألة الفضلات ، ويلتفتان إلى عورتيهما : ما هذا الذى يخرج منها ؟

وهنا مسألة رمزية ينبغى الالتفات إليها ، فحين ترى عورة فى المجتمع فاعلم أن منهجاً من مناهج الله قد عُطل .

إذن : لم يعرف آدم وزوجه فضلات الطعام وما ينتج عنه من ريح وأشياء مُنفِّرة قذرة إلا بعد المخالفة ، وهنا تحيَّرا ، ماذا يفعلان ؟ ولم يكن أمامهما إلا ورق الشجر ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ .. (١٢١) ﴾ [طه]

أى : أخذا يلصقان الورق على عورتيهما لسترها هكذا بالفطرة ، وإلا ما الذى جعل هاتين الفتحتين عورة دون غيرهما من فتحات الجسم كالأنف والفم مثلاً ؟

قالوا : لأن فَتْحتىْ القُبُل والدُّبُر يخرج منهما شىء قذر كريه يحرص المرء على سَتْره ، ومن العجيب أن الإنسان وهو حيوان ناطق فضَّله الله ، وحين يأكل يأكل باختيار ، أمّا الحيوان فيأكل بغريزته ،

ومع ذلك يتجاوز الإنسان الحد فى مأكله ومشربه ، فيأكل أنواعاً مختلفة ، ويأكل أكثر من حاجته ويأكل بعدما شبع ، على خلاف الحيوان المحكوم بالغريزة .

ولذلك ترى رائحة الفضلات فى الإنسان قذرة مُنفِّرة ، ولا فائدة منها فى شىء ، أما فضلات الحيوان فلا تكاد تشمُّ لها رائحة ، ويمكن الاستفادة منها فيجعلونها وقوداً أو سماداً طبيعياً . وبعد ذلك نتهم الحيوان ونقول : إنه بهيم .. إلخ .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ﴾ [طه] أى : فيما قبل النبوة ، وفى مرحلة التدريب ، والإنسان فى هذه المرحلة عُرْضة لأنْ يصيب ، ولأنْ يخطىء ، فإنْ أخطأ فى هذه المرحلة لا تضربه بل تُصوِّب له الخطأ . كالتلميذ فى فترة الدراسة ، إنْ أخطأ صوَّب له المعلم ، أما فى الامتحان فيحاسبه .

ومعنى ﴿ فَغَوَىٰ (١٢١) ﴾ [طه] يعنى : لم يُصِبْ الحقيقة ، كما يقولون لمن تاه فى الصحراء غاوٍ أى : تائه . ثم تأتى المرحلة الأخرى : مرحلة العصْمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) ﴾

إذن : مثَّل آدم دَوْر الإنسان العادى الذى يطيع ويعصى ، ويسمع كلام الشيطان ، لكن ربه شرعَ له التوبة كما قال سبحانه : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ .. (٣٧) ﴾ [البقرة]

إذن : عصى آدم وهو إنسان عادى وليس وهو نبى كما يقول البعض .

فقوله : ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ .. (١٢٢)﴾ [طه] هذه بداية لمرحلة النبوة في حياة آدم عليه السلام ، و (ثُمَّ) تعنى الترتيب مع التراخى ﴿اجْتَبَاهُ .. (١٢٢)﴾ [طه] اصطفاه ربه .

ولم يقل الحق سبحانه : ثم اجتباه الله ، إنما ﴿اجْتَبَاهُ رَبُّهُ .. (١٢٢)﴾ [طه] لأن الرب المتولى للتربية والرعاية ، ومن تمام التربية الإعداد للمهمة ، ومن ضمن إعداد آدم لمهمته أنْ يمرَّ بهذه التجربة ، وهذا التدريب فى الجنة .

﴿وَهَدَىٰ (١٢٢)﴾ [طه] المراد بالهداية قوله :

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣)﴾

أى : اهبطا إلى الأرض وامضوا فيها على ضوء التجربة الماضية ، واعلما أن هناك أمراً ونهياً وعدواً يوسوس ويُزيِّن ويُغوى حتى يظهر عوراتكم ، وكأنه - عز وجل - يعطى آدم المناعة الكافية له ولذريته من بعده لتستقيم لهم حركة الحياة فى ظل التكاليف ؛ لأن التكاليف إما أمر وإما نهى ، والشيطان هو الذى يفسد علينا هذه التكاليف .

ومع ذلك لا ننسى طَرَفاً آخر هو النفس الأمَّارة التى تُحرِّك نحو المعصية والمخالفة . إذن : ليس عدوك الشيطان فحسب فتجعله شماعة تُعلِّق عليها كل معاصيك ، فهناك مَعَاصٍ لا يدخل عليك الشيطان بها إلا عن طريق النفس ، وإلا إبليس لما غوى ، مَنْ أغواه ؟ ومَنْ وسوس له ؟

وقوله : ﴿ اهْبِطَا .. (١٢٣) ﴾ [طه] بصيغة التثنية أمر لاثنين : آدم مطمور فيه ذريته ، وإبليس مطمور فيه ذريته ، فقوله : ﴿ اهْبِطَا .. (١٢٣) ﴾ [طه] إشارة إلى الأصل ، وقوله في موضع آخر : ﴿ اهْبِطُوا .. (٣٨) ﴾ [البقرة] إشارة إلى ما يتفرّع عن هذا الأصل .

وقوله : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ .. (٣٦) ﴾ [البقرة] أى : بعض عدو للبعض الآخر ، وكلمة (بعض) لها دَوْر كبير فى القرآن ، والمراد : أنت عدو الشيطان إنْ كنتَ طائعاً ، والشيطان عدوك إنْ كنتَ طائعاً . فإنْ كنتَ عاصياً فلا عداوة إذن ؛ لأن الشيطان يريدك عاصياً . وحين لا يُعيِّن البعض تكون العداوة متبادلة ، فالبعض شائع فى الجميع .

كما فى قوله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف] فمَن المرفوع ؟ ومَنْ المرفوع عليه ؟ أصحاب النظرة السطحية يفهمون أن الغنيَّ مرفوع على الفقير .

والمعنى أوسع من هذا بكثير ، فكُلُّ الخَلْق بالنسبة للحق سبحانه سواء ، ومهمات الحياة تحتاج قدرات كثيرة ومواهب متعددة ؛ لذلك لا تتجمع المواهب فى شخص ، ويُحرم منها آخر ، بل ينشر الخالق - عز وجل - المواهب بين خَلْقه ، فهذا ماهر فى شىء ، وذاك ماهر فى شىء آخر ، وهكذا ليحتاج الناس بعضهم لبعض ، ويتم الربْط بين أفراد المجتمع ، ويحدث بينهما الانسجام اللازم لحركة الحياة .

إذن : كُلُّ بعض فى الوجود مرفوع فى شىء ، ومرفوع عليه فى شىء آخر ، فليكُنْ الإنسان مُؤدَّباً فى حركة حياته لا يتعالى على غيره لأنه نبغ فى شىء ، ولينظر إلى ما نبغ فيه الآخرون ، وإلى ما تميَّزوا به حتى لا يسخَر قوم من قوم ، عسى أن يكونوا خيراً

منهم ، وربما لديهم من المواهب ما لم يتوفّر لك .

لكن ما دام بعضكم لبعض عدواً أى : آدم مطمور فيه ذريته ، وإبليس مطمور فيه ذريته ، فَمنْ سيكون الحَكَم ؟ الحَكَم بينهما منهج الله : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى .. (١٢٣) ﴾ [طه] فإياكم أنْ تجعلوا الهدى من عندكم ؛ لأن الهدى إنْ كان من عندكم فلن ينفع ولن يفلح .

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه] فكأن هدى الله ومنهجه هو (كتالوج) سلامة الإنسان وقانون صيانته . ألاَ ترى الصانع من البشر حين يرفق بصنعته (كتالوجاً) يضم تعليمات عن تشغيلها وصيانتها ، فإن اتبعتَ هذه التعليمات خدمتْك هذه الآلة وأدَّتْ لك مهمتها دون تعطّل .

وكما أن هذا (الكتالوج) لا يضعه إلا صانع الآلة ، فكذلك الخالق - عز وجل - لا يضع لخلْقه قانونهم وهَدْيَهم إلا هو سبحانه ، فإنْ وضعه آخر فهذا افتئات على الله عز وجل ، كما لو ذهبتَ إلى الجزار تقول له : ضَعْ لى التعليمات اللازمة لصيانة (الميكروفون) !!

إذن : الفساد فى الكون يحدث حينما نخرج عن منهج الله ، ونعتدى على قانونه وتشريعه ، ونرتضى بهَدْى غير هَدْيه ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه] فإنْ كانت هذه نتيجة مَن اتبع هدى الله وعاقبة السير على منهجه تعالى ، فما عاقبة مَنْ أعرض عنه ؟

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾

والإعراض : هو الانصراف ، وأن تعطيه عَرْض أكتافك كما ذكرنا من قبل .

وقوله : ﴿ مَعِيشَةً ضَنكًا .. (١٢٤) ﴾ [طه] الضنْك هو الضيق الشديد الذى تحاول أنْ تُفلتَ منه هنا أو هناك فلا تستطيع ، والمعيشة الضَّنْك هذه تأتى مَنْ أعرض عن الله ، لأن مَنْ آمن بالإله إنْ عَزَّتْ عليه الأسباب لا تضيق به الحياة أبداً ؛ لأنه يعلم أن له رباً يُخرِجه مما هو فيه .

أما غير المؤمن فحينما تضيق به الأسباب وتُعجزه لا يجد مَنْ يلجأ إليه فينتحر . المؤمن يقول : لى ربٌّ يرزقنى ويُفرِّج كَرْبى ، كما يقول عز وجل : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد]

لذلك يقولون : لا كَرْب وأنت رَبٌّ ، وإذا كان الولد لا يحمل هَمّاً فى وجودُ أبيه فله أبٌ يكفيه متاعب الحياة ومشاقها ، فلا يدرى بأزمات ولا غلاء أسعار ، ولا يحمل هَمَّ شىء ، فما بالُكَ بمَنْ له رَبٌّ ؟

وسبق أنْ ضربنا مثلاً - ولله المثل الأعلى - ، قلنا : هَبْ أن معك جنيهاً ثم سقط من جيبك ، أو ضاع منك فسوف تحزن عليه إنْ لم يكُنْ معك غيره ، فإنْ كان معك غيره فلن تحزن عليه ، فإن كان لديك حساب فى البنك فكأن شيئاً لم يحدث . وهكذا المؤمن لديه فى إيمانه بربه الرصيد الأعلى الذى يُعوِّضه عن كل شىء .

والحق - تبارك وتعالى - أعطانا مثالاً لهذا الرصيد الإيمانى فى قصة موسى عليه السلام مع فرعون ، حينما حُوصر موسى وقومه بين البحر من أمامهم وفرعون بجنوده من خلفهم ، وأيقن القوم أنهم مُدْركون ، ماذا قال نبى الله موسى ؟

قال : ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء] هكذا بملْء فيه يقولها قَوْلةَ الواثق مع أنها قَوْلة يمكن أن تكذب بعد لحظات ، لكنه الإيمان الذي تطمئن به القلوب ، والرصيد الذي يثقُ فيه كُلُّ مؤمن .

إذن : مَنْ آمن بالله واتبع هُدَاه فلن يكون أبداً في ضَنْك أو شدَّة ، فإنْ نزلت به شِدَّة فلن تُخرِج عَزْمه عن الرضى ، واللجوء إلَى ربه .

ومن آيات الإعجاز القرآني في مسألة الضيق ، قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ .. (١٢٥) ﴾ [الأنعام]

فمن أين عرف محمد ﷺ أن مَنْ يصعَّد في السماء يضيق صدره ؟ وهل صَعَد أحد إلى السماء في هذا الوقت وجَرَّب هذه المسألة ؟ ومعنى ضيق الصدر أن حيِّز الرئة التي هي آلة التنفس يضيق بمرض أو مجهود زائد أو غيره ، ألاَ ترى أنك لو صعدتَ سلَّماً مرتفعاً تنهج[1] ، معنى ذلك أن الرئة وهي خزينة الهواء لا تجد الهواء الكافي الذي يتناسب والحركة المبذولة ، وعندها تزداد حركة التنفس لتُعوِّض نَقْص الهواء .

والآن وبعد غزو الفضاء عرفنا مسألة ضيق التنفّس في طبقات الجو العليا مما يضطرهم إلى أخذ أنابيب الأكسوجين وغيرها من آلات التنفس .

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) ﴾

وكلمة ﴿ أَعْمَى .. (١٢٥) ﴾ [طه] جاءت في قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢) ﴾ [الإسراء]

(١) النهج والنهيج : تواتر النفَس من شدة الحركة . [لسان العرب ـ مادة : نهج] .

والمراد بالعَمَى ألاَّ تُدركَ المبصَرات ، وقد توجد المبصَرات ولا تتجه لها بالرؤية ، فكأنك أعمى لا ترى ، وكذلك المعرِض عن الآيات الذى لا يتأملها ، فهو أعمى لا يراها .

لذلك فى الآخرة يقول تعالى : ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا .. (٩٧)﴾ [الإسراء] فساعةَ يُبعَث الكافرون يُفزَّعون بالبعث الذى كانوا ينكرونه ويضطربون اضطراباً ، يحاول كل منهم أن يرى منفذاً وطريقاً للنجاة ، ولكن هيهات ، فقد سلبهم الله منافذ الإدراك كلها ، وسَدَّ فى وجوههم كل طرق النجاة ، والإنسان يهتدى إلى طريقه بذاته وبعيونه ، فإنْ كان أعمى أمكنه أنْ ينادى على مَنْ يأخذ بيده ، فإنْ كان أيضاً أبكم ، فلربما سمع مَنْ يناديه ويُحذره ويُدِله ، فإنْ كان أصمَّ لا يسمع ؟

إذن : سُدَّتْ أمامه كل وسائل النجاة ، فهو أعمى لا يبصر النجاة بذاته ، وأبكم لا يستطيع أنْ يستغيث بمَنْ ينقذه ، وهو أيضاً أصمّ لا يسمع مَنْ يتطوع بإرشاده أو تحذيره .

وقد وجد كثير من المشككين فى هذه الآية شيئاً ظاهرياً يطعنون به على أسلوب القرآن ، حيث يقول هنا : ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ.. (١٢٥)﴾ [طه] وفى موضع آخر يقول : ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا .. (٥٣)﴾ [الكهف] فنفى عنهم الرؤية فى آية ، وأثبتها لهم فى آية أخرى .

وفاتَ هؤلاء المتمحِّكين أن الإنسانَ بعد البعث يمرٌّ بمراحل عدَّة : فساعةَ يُحشرون من قبورهم يكونون عُمْياً حتى لا يهتدوا إلى طَريق النجاة ، لكن بعد ذلك يُريهم الله بإيلام آخر ما يتعذبون به من النار .

وهذا الذى حاَق بهم كِفَاءٌ لما صنعوه ، فقد قدَّموا هم العمى

والصمم والبكم في الدنيا ، فلما دعاهم الرسول إلى الله صَمُّوا آذانهم ، واستغشوا ثيابهم .

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾

أي : نعاملك كما عاملتنا ، فننساك كما نسيت آياتنا .

والآيات جمع آية ، وهي الأمر العجيب ، وتُطلق على الآيات الكونية التي تلفت إلى المكوِّن سبحانه ، وتُطلَق على المعجزات التي تؤيد الرسل ، وتثبت صدْق بلاغهم عن الله ، وإنْ كانت الآيات الكونية تُلفت إلى قدرة الخالق - عز وجل - وحكمته ، فالرسول هو الذي يدلُّ النَاس على هذه القوة ، وعلى صاحب هذه الحكمة والقدرة التي يبحث عنها العقل .

أيها المؤمن هذه القوة هي الله ، والله يريد منك كذا وكذا ، فإنْ أطعتَه فلَك من الأجر كذا وكذا ، وإنْ عصيتَه فعقابك كذا وكذا . ثم يؤيد الرسول بالمعجزات التي تدلُّ على صدْقه في البلاغ عن ربه .

وتُطلَق الآيات على آيات الكتاب الحاملة للأحكام وللمنهج .

وأنت كذَّبْتَ بكل هذه الآيات ولم تلتفت إليها ، فلما نسيت آيات الله كان جزاءَك النسيان جزاءً وفَاقاً . والنسيان هنا يعني الترك ، وإلا فالنسيان الذي يقابله الذكر مُعْفيً عنه ومعذور صاحبه .

أما قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه] أي تُنسَى في النعيم وفي الجنة ، لكنك لا تُنسى في العقاب والجزاء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ .. ﴿١٢٧﴾ ﴾ [طه] أى : مثل هذا الجزاء ﴿ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ .. ﴿١٢٧﴾ ﴾ [طه] والإسراف : تجاوز الحدِّ فى الأمر الذى له حَدٌّ معقول ، فالأكْل مثلاً جعله الله لاستبقاء الحياة ، فإنْ زاد عن هذا الحدِّ فهو إسراف .

دَخْلك الذى يسَّره الله لك يجب أن تنفق منه فى حدود ، ثم تدَّخر الباقى لترقى به فى الحياة ، فإنْ أنفقتَه كله فقد أسرفْتَ ، ولن تتمكن من أنْ تُرقِّى نفسك فى ترف الحياة .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإسراء]

وللإسلام نظرته الواعية فى الاقتصاديات ، فالحق يريد منك أنْ تنفق ، ويريد منك ألاَّ تُسرف وبين هذين الحدَّيْن تسير دَفّة المجتمع ، ويدور دولاب الحياة ، فإنْ بالغتَ فى حَدٍّ منهما تعطلتْ حركة الحياة ، وارتبك المجتمع وبارت السلع .

وقد أوضح الحق سبحانه هذه النظرة فى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا[1] وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان]

فربُّك يريد منك أنْ تجمع بين الأمرين ؛ لأن التقتير والإمساك يُعطِّل حركة الحياة ، والإسراف يُجمِّد الحياة ويحرمك من الترقى ، والأخذ بأسباب الترف ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء]

وقد يكون الإسراف من ناحية أخرى : فربُّك عز وجل خلقك ،

---

(١) قتر الرجل على عياله : ضيَّق عليهم فى النفقة . والقتر والإقتار والتقتير كله بمعنى واحد : هو التضييق الذى هو نقيض الإسراف . [القاموس القويم ٢/ ١٠٠] .

وخلق لك مُقـوِّمات حياتك ، وحـدَّد لك الحلال والحرام ، فـإذا حاولتَ أنت أنْ تزيد فى جـانب الحلال مـمـا حرمـه الله عليك ، فهـذا إسـراف منك ، وتجاوز للحدِّ الذى حَدَّه لك ربك ، تجاوزتَ الحدَّ فيما أحلَّ لك ، وفيما حرَّم عليك .

وقد يأتى الإسراف من ناحيـة أخرى : فالشىء فى ذاته قد يكون حلالاً ، لكن أنت تأخذه من غير حلِّه .

فإذا نقلنا الـمسألة إلى التكاليف وجـدنا أن الله تعالى أحلَّ أشـياء وحرَّم أشياء ، فلا تنقل شيئاً مما حُرِّم إلى شىء أحلَّ ، ولا شيئاً مما أُحلَّ إلى شىء حُرِّم ، كـما قال سبـحانه : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ .. (٣٢) ﴾ [الأعراف]

وخاطب نبيه ﷺ بقوله : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ .. (١) ﴾ [التحريم]

إذن : فـربّك لا يُضـيِّـق عليك ، وينهـاك أنْ تُضـيِّق عـلى نفـسك وتُحرِّم عليـها ما أحلَّ لهـا ، كما يلومك على أنْ تُحلِّل مـا حرّم عليك لأن ذلك فى صالحك .

وكما يكون الإسراف فى الطعام والشراب وهما من مُقوِّمات استبقاء الحياة ، يكون كذلك فى اسـتبقاء النوع بالزواج والتناسل ، إلى أنْ تقوم الساعة ، فجـعل الحق سبحانه للممارسة الجنسـية حدوداً تضمن النسل والاستمتاع الحلال ، فمَنْ تعدَّى هذه الحـدود فقد أسرف .

ومن رحمـته تعالـى أنه يغفر لمنْ أسـرف على نفســه شريطةَ أن يكون مؤمناً : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ .. (٥٣) ﴾ [الزمر]

وقوله تعالى : ﴿ وكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ .. (١٢٧) ﴾ [طه] فأنزل الإسراف منزلةً تالية لعدم الإيمان ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ ولَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ .. (١٢٧) ﴾ [طه] لأنه حين ينقل الحلال إلى الحرام ، أو الحرام إلى الحلال ، فكأنه عطّل آيات الله .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧) ﴾ [طه] إذن : فالكلام هنا عن الدنيا ، فلا تظن أن الله يُؤخِّر للكافر كُلَّ العذاب ، فهناك أشياء تُعجَّل له فى الدنيا لا تُؤخَّر .

وأول مَا لا يُؤخَّر ويُعجل الله به فى الدنيا عقوبة الظلم ، فلا يمكن أنْ يموتَ الظالم قبل أن يرى المظلوم ما صنعه الله به ، وإلاَّ فالذين لا يؤمنون بالقيامة ولا بالجزاء كانوا فجروا فى الخَلْق وعَاثُوا فى الأرض ، فمن حكمة الله أن نرى لكل ظالم مصرعاً حتى تستقيم حركة الحياة ، ولو لم يكُنْ الإنسان مؤمناً .

والحق سبحانه حين يريد أنْ يُعذِّب يتناسب تعذيبه مع قدرته تعالى ، كما أن ضربة الطفل غير ضربة الشاب القوى . إذن : مَا يناله من عذاب فى الحياة هين لأنه من الناس ، أمّا عذاب الآخرة فشىء آخر ؛ لأنه عذاب من الله يتناسب مع قدرته تعالى .

﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧) ﴾ [طه] أبْقَى ؛ لأن عذاب الدنيا ينتهى بالموت ، أو بأن يرضى عنك المعذِّب ويرحمك ، وقد يتوسط لك أحد فيزيل عنك العذاب ، أمّا فى الآخرة فلا شىء من ذلك ، ولا مفرَّ من العذاب ولا ملْجأ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (١٢٨) ﴾

الهداية : الدلالة والبيان ، وتهديه أى : تدلّه على طريق الخير . والاستفهام فى ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ .. ﴿١٢٨﴾﴾ [طه] والاستفهام يَرِد مرة لتعلم ما تجهل ، أو يرد للتقرير بما فعلتَ .

فالمراد : أفلم ينظروا إلى الأمم السابقة وما نزل بهم لما كَذَّبوا رسُل الله ؟ كما قال فى آية أخرى : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الصافات]

وقال سبحانه : ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ[1] ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا[2] الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ [الفجر]

ألاَ ترونَ كل هذه الآيات فى المكذبين ؟ ألاَ ترون أن الله ناصرُ رسُلَه ؟ ولم يكُنْ سبحانه ليبعثهم ، ثم يتخلى عنهم ، ويُسلمهم ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات] وقال : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ .. ﴿٤٠﴾﴾ [الحج]

وبعد هذا كله يُعرض المكذبون ، وكأنهم لم يروا شيئاً من هذه الآيات .

وساعة ترى (كَمْ) فاعلم أنها للشيء الكثير الذى يفوق الحصر ، كما تقول لصاحبك : كم أعطيتُك ، وكم ساعدتُك . أى : مرات كثيرة ، فكأنك وكلته ليجيب هو بنفسه ، ولا تستفهم منه إلا إذا كان الجواب فى صالحك قطعاً .

---

(١) الحجر : العقل ؛ لأنه يمنع صاحبه ويحجره عما لا يليق به . [القاموس القويم ١٤٤/١] .

(٢) جابه يجوبه : قطعه . جابوا : أى قطعوا الصخر ونحتوه وصنعوا منه بيوتهم وأصنامهم . [القاموس القويم ١٣٥/١] .

فمـعنى ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ .. (١٢٨) ﴾ [طه] يعنى : يُبـيّن لهم ويدلُّهم على القرى الكثيرة التى كذَّبت رسلهـا ، وماذا حدث لها وحاق بها من العذاب ، وكـان عليهم أنْ يتنبـهوا ويأخذوا منهـم عِبرة ولا ينصـرفوا عنها .

وقوله تـعالى : ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ .. (١٢٨) ﴾ [طه] كقـوله : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) ﴾ [الصافات] فليس تاريخاً يُحكَى إنما واقع مـاثل تروْنَه بأعينكم ، وتسـيرون بين أطلاله ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (١٢٨) ﴾ [طه] أى : عجائب لمَنْ له عقل يفكر .

وكلمة (النُّهَى) جـمع نُهية ، وهى العـقل ، وهذه الكلمة تحلُّ لنا إشكالات كثيرة فى الكفر ، فـالبعض يظن أن الله تعالى خلق لنا العقل لنرتع به فى مجالات الفكر كما نشاء ، وننفلت من كل القيود .

إنما العـقل من العقال الذى يُعـقَل به البعيـر حتى لا ينفلتَ منك ، وكـذلك عقلُك يعـقلك ، ويُنظِّم حـركتك حـتى لا تسيـر فى الكون على هَواك ، عقلك لتعقلَ به الأمور فـتقول : هذا صواب ، وهذا خطأ . قبل أن تُقدِم عليه .

فالسارق لو عـقل ما يفعل ما أقدمَ على سـرقة الناس ، وما رأيك لو أبحنا للناس جميعاً أنْ يسرقوك ، وأنت فرد ، وهم جماعة ؟

الحق ساعةَ يعقل بصرك أنْ يمتـدَّ لما حرم عليك فلا تقُلْ : ضيق علىَّ ، لأنه أمـر الآخرين أنْ يغضُّـوا أبصارهم عن مـحارمك ، والغـير أكثـر منك ، إذن : فأنت المستـفيد . فإنْ أردتَ أن تُعـربد فى أعراض الناس ، فأبِح لهم أن يُعربِدوا فى أعراضك .

والنبى ﷺ لمـا جـاءه شـاب يشكو عـدم صـبـره على غـريزة

الجنس ، يريد أن يبيح له الزنا والعياذ بالله ، فأراد ﷺ أن يُلقّنه درساً يصرفه عن هذه الجريمة ، فماذا قال له ؟

قال : « يا أخا العرب ، أتحب هذا لأمك ؟ أتحب هذا لأختك ؟ أتحب هذا لزوجتك ؟ » والشاب يقول في كل مرة لا يا رسول الله جُعلْتُ فداك . ولك أنْ تتصوَّر ماذا ينتاب الواحد منا إنْ سمع سيرة أمه وأخته وزوجته في هذا الموقف .

ثم يقول ﷺ للشاب بعد أن هزَّه هذه الهزة العنيفة : « كذلك الناس لا يحبون ذلك لأمهاتهم ، ولا لزوجاتهم ، ولا لأخواتهم ، ولا لبناتهم » .

وهنا قال الشاب : « فو الله ما همَّتْ نفسي لشيء من هذا إلا وذكرتُ أمي وزوجتي وأختي وابنتي »[1] .

إذن : فالعقل هو الميزان ، وهو الذي يُجري المعادلة ، ويُوازن بين الأشياء ، وكذلك إنْ جاء بمعنى النُّهى أو اللُّب فإنها تؤدي نفس المعنى : فالنُّهى من النهي عن الشيء ، واللب أي : حقيقة الشيء وأصله ، لا أنْ يكون سطحيّ التفكير يشرد منك هنا وهناك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾

الكلام عن آيات الله في المكذبين للرسل وما حاق بهم من العذاب وقد مرَّ عليها القوم دون أن يعتبروا بها ، أو يرتدعوا ، أو يخافوا أن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٥٦ ، ٢٥٧) ، والطبراني في معجمه الكبير (٨/١٩٠ ، ٢١٥) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه . وفيه أن رسول الله ﷺ دعا له قائلاً : « اللهم اغفر ذنبه ، وطهر قلبه ، وحصِّن فرجه » فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء .

تكون نهايتهم كنهاية سابقيهم ، وربما قال هؤلاء القوم : ها نحن على ما نحن عليه دون أن يصيبنا شيء من العذاب : لا صَعْق ولا مَسْخ ولا ريح ، فبماذا تهددنا ؟

لذلك يوضح لهم الحق - سبحانه وتعالى - هذه المسألة : ما منعنا أنْ نفعل بكم ما فعلنا بسابقيكم من المكذبين بالرسل ، ما منعنا من إذلالكم وتدميركم إلا شيء واحد هو كلمة سبقتْ من الله .

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾ [طه]

فما هذه الكلمة التى سبقتْ من الله ، ومنعتْ عنهم العذاب ؟

المراد بالكلمة قوله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال]

فهذه الكلمة التى سبقت منى هى التى منعتْ عنكم عذابى ، والرسول ﷺ يوضح هذه المسألة فيقول : « بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم مَنْ يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً »[1] .

فإنْ قال قائل : الله يهدد الذين كذبوا محمداً ﷺ بأنْ يُنزل بهم ما أنزل بالمكذِّبين من الأمم السابقة ، وها هم كفار مكة يُكذّبون رسول الله دون أن يحدث لهم شيء .

نقول : لأن لهم أمانين من العذاب ، الكلمة التى سبقتْ ، والأجل المسمّى عند الله ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾ [طه] فلكل واحد أَجَلٌ معلوم .

ومعنى : ﴿ لَكَانَ لِزَامًا .. ﴿١٢٩﴾ ﴾ [طه] أى : لزم لزاماً أنْ يحيق بهم ما حاقَ بالأمم السابقة .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٣١ ، ٧٣٨٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٩٥) من حديث عائشة رضى الله عنها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠) ﴾

فما دام أن القوم يُكذِّبون رسول الله ، وهم فى مأمن من العذاب ، فلابُدَّ أن يتمادوا فى تكذيبهم ، ويستمروا فى عنادهم لرسول الله ؛ لذلك يتوجه الحق - سبحانه وتعالى - إلى الناحية الأخرى فيعطى رسوله ﷺ المناعة اللازمة لمواجهة هذا الموقف ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ .. (١٣٠) ﴾ [طه] لأن لك بكل صبر أجراً يتناسب مع ما تصبر عليه .

والصبر قد يكون مَيْسوراً سهلاً فى بعض المواقف ، وقد يكون شديداً وصَعْباً ويحتاج إلى مجاهدة ، فمرَّة يقول الحق لرسوله : اصبر . ومرة يقول : اصطبر[1] .

فما الأقوال التى يصبر عليها رسول الله ؟ قولهم له : ساحر . وقولهم : شاعر وقولهم : مجنون وكاهن ، كما قالوا عن القرآن : أضغاث أحلام . وقالوا : أساطير الأولين . فاصبر يا محمد على هذا كله ؛ لأن كلَّ قولة من أقوالهم تحمل معها دليل كذبهم .

فقولهم عن رسول الله : ساحر ، فمَن الذى سَحَره رسول الله ؟ سحر المؤمنين به ، فلماذا - إذن - لم يسحرْكم أنتم أيضاً ، وتنتهى المسألة . إذن : بقاؤكم على عناده والكفر به دليل براءته من هذه التهمة .

---

(١) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا .. (١٣٢) ﴾ [طه] . [القاموس القويم ١/٣٦٧] .

وقولهم : شاعـر ، كيف وهم أمة صناعتـها الكلام ، وفنون القول شعـره ونثره ، فكيف يَخْـفى عليهم أسلـوب القرآن ؟ والشعـر عندهم كلام مـوزون ومُقفّى ، فـهل القرآن كذلك ؟ ولو جـاء هذا الاتهام من غيـركم لكان مقـبولاً ، أمـا أنْ يأتىَ منكم أنتم يا مَنْ تجـعلون للكلام أسواقاً ومعارض كمعارض الصناعات الآن ، فهذا غير مقبول منكم .

وسـبق أنْ قلنا : إنك إذا قـرأتَ مـقالاً مـثـلاً ، ومَـرَّ بك بيت من الشعـر تشعر به وتحسُّ أذنك أنك انـتقلتَ من نثر إلى شـعر ، أو من شعر إلى نثر . فخُذْ مثلاً قول ابن زيدون(١) :

« هذا العَذْل محمود عواقـبه ، وهذه النَّبْوة غمرة ثم تنجلى ، ولن يريبنى من سيدى أنْ أبطأ سَيْبـه ، أو تأخر غير ضنين غناؤه ، فأبطأ الدِّلاء فَيْضاً أملؤهـا ، وأثقل السحائب مشياً أحفلـها . ومع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب ، له العتب فى احتباله ، ولا عتبَ عليه فى اغتفاله .

فَإنْ يكُنِ الفعلُ الذى سَاءَ واحداً ... فَأفْعـالُه اللائى سَرَرْنَ أُلُوفُ »

على الفور تحس أذنك أنك انتقلتَ من نثر إلى شعر .

فإذا ما قرأتَ فى القرآن مثلاً قوله تعالى : ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ .. (٣٢)﴾ [يوسف]

---

(١) هو : أحمد بن عبد الله بن غالب بن زيدون ، المخزومى الأندلسى ، أبو الوليد ، وزير كاتب شـاعـر ، من أهل قـرطبـة ، ولد ٣٩٤ هـ ، انقطع إلى ابن جـهـور (من مـلوك الطوائف بالأندلس) فكان السفير بينه وبين الأندلس ، فأعـجبوا به ، كانت له مراسلات ، وله ديوان شعر . توفى عام ٤٦٣ هـ عن ٦٩ عاماً . [الأعلام للزركلى ١/١٥٨] .

فهل أحسستَ بانتقال الأسلوب من نثر إلى شعر ، أو من شعر إلى نثر ؟ ومع ذلك لو وزنتَ ﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [يوسف] لوجدتَ لها وزناً شعْرياً .

وقوله تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الحجر]

لو أردتها بيتاً شعرياً تقول (نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم) . ومع ذلك تقرأها فى سياقها ، فلا تشعر أنها شعر ؛ لأن الأسلوب فريد من نوعه ، وهذه من عظمة القرآن الكريم ، كلام فَذٌّ لوحده غيرِ كلام البشر .

أما قولهم « مجنون » فالمجنون لا يدرى ما يفعل ، ولا يعقل تصرفاته ولا يسأل عنها ، ولا نستطيع أنْ نتهمه بشىء فنقول عنه مثلاً ؛ كذاب أو قبيح ؛ لأن آلة الاختيار عنده مُعطّلة ، وليس لديه انسجام فى التصرفات ، فيمكن أن يضحك فى وجهك ، ثم يضربك فى نفس الوقت ، يمكن أن يعطيك شيئاً ثم يتفل فى وجهك .

والمجنون ليس له خُلق ، والحق سبحانه يخاطب رسوله ﷺ : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم]

والخُلق هو الملكَة المستقرة للخير ، فكيف يكون محمد مجنوناً ، وهو على خلق عظيم ؟ ثم هل جرَّبْتُم عليه شيئاً مما يفعله المجانين ؟

أما قولهم : إن رسول الله افترى هذا القرآن ، كيف وأنتم لم تسمعوا منه قبل البعثة شعْراً أو خطباً ولم يسبق أن قال شيئاً مثل هذا ؟ كيف يفترى مثل هذا الأسلوب المعجز ، وليس عنده صنعة الكلام ؟ وإن كان محمد قد افترى القرآن فلماذا لا تفترون أنتم مثله وتعارضونه ؟

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِه .. (٣٨) ﴾ [يونس]

وهكذا تقوم من نفس أقوالهم الأدلة على كذبهم وادعائهم على رسول الله .

ثم يقول تعالى ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا .. (١٣٠) ﴾ [طه]

والتسبيح هو التنزيه لله تعالى ، وهو صفة لله قبل أنْ يخلق مَنْ يُسبِّحه ويُنزِّهه ؛ لذلك يقول تعالى فى استهلال سورة الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِه .. (١) ﴾ [الإسراء] ؛ لأن العملية مخالفة لمنطق القوانين ، فقال : نزِّه فعل الله عن أفعالك .

إذن : فسبحان معناها أن التنزيه ثابت لله ، ولو لم يوجد المنزِّه ، فلما خلق الله الكون سبَّحتْ السموات والأرض وما فيهن لله .

فإذا كان التسبيح ثابتاً لله قبل أن يوجد المسبِّح ، ثم سبح لله أول خلقه ، ولا يزالون يُسبِّحون ، فأنت أيضاً سبِّح باسم ربك الأعلى . أى : نزِّهه سبحانه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً وأقوالاً عمَّا تراه من المخلوقات .

ومعنى ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ .. (١٣٠) ﴾ [طه] لأن من لوازم الخلق أن يكون مختلفاً فى الأهواء والأغراض والمصالح ، يتشاكلون ويتحاربون على عَرَضٍ زائل ، فمنهم الظالم والمظلوم ، والقوى والضعيف .

إذن : لا بُدَّ من وجود واحد لا توجد فيه صفة من هذه الصفات ، ليضع القانون والقسطاس المستقيم الذى يُنظِّم حياة الخَلْق ، فهذا التنزُّه عن مشابهة الأحداث كلها ، وعن هذه النقائص نعمة يجب أن نشكر الله ونحمده على وجودها فيه ، نحمده على أنه ليس كمثله

شىء ، فذلك يجعل الكون كله طائعاً ، إنما لو مثله شىء فلربما تأبَّى على الطاعة فى « كُنْ فيكون » .

والتسبيح والتنزيه يعنى أن المقياس الذى يضبط العالم ليس كمقياس العالم ، إنما أصلح وأقوى ، وهذا فى صالحك أنت ، فساعةَ أن تُسبِّح الله اذكر أن التسبيح نعمة ، فاحمد الله على أنه لا شىءَ مثلُه . سبِّح تسبيحاً مصحوباً بحمْد ربك ؛ لأن تنزيهه إنما يعود بالخير على مَنْ خلق ، وهذه نعمة تستحق أن تحمدَ الله عليها .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - ربّ الأسرة ، هذا الرجل الكبير العاقل صاحب كلمة الحق والعدل بين أفرادها ، وصاحب المهابة بينهم تراهم جميعاً يحمدون الله على وجوده بينهم ؛ لأنه يحفظ توازن الأسرة ، ويُنظِّم العلاقات بين أفرادها . ألم نَقُلْ فى الأمثال (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) ؟

حتى وإن كان هذا الكبير متعالياً ؛ لأن تعاليه لصالح أفراد أسرته ، حيث سيلزم كل واحد منهم حدوده .

لذلك من أسماء الله تعالى : المتعال المتكبر ، وهذه الصفة وإنْ كانت ممقوتة بين البشر لأنها بلا رصيد ، فهى محبوبة لله تعالى ؛ لأنها تجعل الجميع دونه سبحانه عبداً له ، فتكبُّره سبحانه وتعاليه بحقٍّ : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس]

إذن : لا يحفظ التوازن فى الكون إلا قوة مغايرة للخلْق .

وقوله : ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [طه]

أى : تسبيحاً دائماً مُتوالياً ، كما أن نعم الله عليك متوالية

لا تنتهى ، فكلُّ حركة من حركاتك نعمة ، النوم نعمة ، والاستيقاظ نعمة ، الأكل نعمة ، والشرب نعمة ، البصر والسمع ، كل حركة من حركات الأحداث نعمة تستحق الحمد ، وكل نعمة من هذه ينطوى تحتها نِعَم .

خُذْ مثلاً حركة اليد التى تبطش بها ، وتأمّل كم هى مرِنة مطْواعة لك كما شئت دون تفكير منك ، أصابعك تتجمع وتمسك الأشياء دون أن تشعر أنت بحركة العضلات وتوافقها ، وربما لا يلتفت الإنسان إلى قدرة الله فى حركة يده ، إلا إذا أصابها شلل والعياذ بالله ، ساعتها يعرف أنها عملية صعبة ، ولا يقدر عليها إلا الخالق عز وجل .

لذلك ؛ فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعطينا زمن التسبيح ، فيعيشه فى كل الوقت ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ..(١٣٠)﴾ [طه]

وآناء : جمع إنْى ، وهو الجزء من الزمن ، وهذا الجزء يترقَّى حسْب تنبهك لتسبيح التحميد ، فمعنى التسبيح آناء الليل ، يعنى أجزاء الليل كله ، فهل يعنى هذا أن يظل الإنسانُ لا عملَ له إلا التسبيح ؟

المناطقة يقولون عن الجزء من الوقت : مقول بالتشكيك ، فيمكن أن تُجزّىء الليل إلى ساعات ، فتُسبِّح كل ساعة ، أو تترقّى فتسبح كل دقيقة ، أو تترقّى فتُسبِّح كل ثانية ، وهكذا حسْب مقامات المسبِّح الحامد وأحواله .

فهناك من عباد الله مَنْ لا يفتر عن تسبيحه لحظة واحدة ، فتراه

يُسبِّح الله فى كل حركة من حركاته ؛ لأنه يعلم أنه لا يؤديها بذاته بدليل أنها قد تُسْلَب منه فى أى وقت .

إذن : فأجزاء الوقت تختلف باختلاف المقامات والأحوال ، ألاَ تراهم فى وحدة القياس يقيسون بالمتر ، ثم بالسنتيمتر ، ثم بالمللى متر ، وفى قياس الوقت توصّل اليابانيون إلى أجهزة تُحدِّد جزءاً من سبعة آلاف جزء من الثانية .

ثم يقول : ﴿ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ .. (١٣٠) ﴾ [طه] ليستوعب الزمن كله ليله ونهاره ، والمقامات والأحوال كلها ؛ لذلك يقول بعض العارفين فى نصائحه التى تضمن سلامة حركة الحياة :

(**اجعل مراقبتك لمن لا تخلو عن نظره إليك**) فهذا الذى يستحق المراقبة ، وعلى المرء أنْ يتنبه لهذه المسألة ، فلا تكُنْ مراقبته لمن يغفل عنه ، أو ينصرف ، أو ينام عنه .

(**واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك**) فإذا شربتَ كوب ماء فقُلْ : الحمد لله أن أرواك ، فساعةَ تشعر بنشاطها فى نفسك قل : الحَمد لله . وساعةَ أنْ تُخرجها عرقاً أو بولاً قل : الحمد لله ، وهكذا تكون موالاة حمد الله ، والمداومة على شُكْره .

(**واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه**) فطالما أنك لا تستغنى عنه ، فهو الأَوْلَى بطاعتك .

(**واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن مُلْكه وسلطانه**) وإلاَّ فأين يمكنك أن تذهب ؟

لكن ، لماذا أطلق زمن التسبيح بالليل ، فقال ﴿ آنَاءِ اللَّيْلِ .. (١٣٠) ﴾ [طه] وحدده فى النهار فقال ﴿ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ .. (١٣٠) ﴾ [طه] ؟

قالوا : لأن النهار عادة يكون محلاً للعمل والسَّعْى ، فربما شغلك التسبيح عن عملك ، وربنا يأمرنا أن نضربَ فى الأرض ونُسهم فى حركة الحياة ، والعمل يُعين على التسبيح ، ويُعين على الطاعة ، ويُعينك أنْ تلبى نداء : الله أكبر .

ألاَ تقرأ قول الله - عز وجل - فى سورة الجمعة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠)﴾ [الجمعة]

ذلك لأن حركة الحياة هى التى تُعينك على أداء فَرْض ربك عليك ، فأنت مثلاً تحتاج فى الصلاة إلى سَتْر العورة ، فانظر إلى هذا الثوب الذى تستر به عورتك : كم يَدٌ ساهمتْ فيه ؟ وكم حركة من حركات الحياة تضافرتْ فى إخراجه على هذه الصورة ؟

أمّا فى الليل فأنت مستريح ، يمكنك التفرغ فيه لتسبيح الله فى أىِّ وقت من أوقاته .

ويلفتنا قوله تعالى : ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ .. (١٣٠)﴾ [طه] فأىّ طلوع ؟ وأىّ غروب ؟ وأىُّ ليل ؟ وأىّ نهار ؟ أهى لمصر أم للجزائر أم للهند أم لليابان ؟ إنها ظواهر متعددة وممتدة بامتداد الزمان والمكان لا تنتهى ، فالشمس فى كل أوقاتها طالعة غاربة ، ففى هذا إشارة إلى أن ذِكْر الله وتسبيح الله دائمٌ لا ينقطع .

ثم يذكر سبحانه الغاية من التسبيح ، فيقول ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠)﴾ [طه] ونلحظ أن الحق سبحانه يحثُّ على العمل بالنفعية ، فلم

يقُلْ : لعلِّى أرضى ، قال : لعلك أنت ترضى ، فكأن المسألة عائدة عليك ولمصلحتك .

والرضا : أنْ تصلَ فيما تحب إلى ما تؤمِّل ، والإنسان لا يرضى إلا إذا بلغ ما يريد ، وحقّق ما يرجو ، كما تقول لصاحبك : أأنت سعيد الآن ؟ يقول : يعنى ، يقصد أنه لم يصل بعد إلى حَدِّ الرضا ، فإنْ تحقَّق له ما يريد يقول لك : سعيد والحمد لله .

فإنْ أحسنتَ إليه إحساناً يفوق ما يتوقعه منك يأخذك بالأحضان ويقول : ربنا يُديم عمرك ، جزاك الله خيراً .

إذن : رضا الإنسان له مراحل ؛ لذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول فى الحديث القدسى كما روى النبى ﷺ : « إن الله يتجلى على خَلْقه فى الجنة : يا عبادى هل رضيتم ؟ فيقولون : وكيف لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من العالمين ، قال : أعطيكم أفضل من ذلك ، قالوا : يا رب ، وهل يوجد أفضل من ذلك ؟ قال : نعم ، أُحِلُّ عليكم رضوانى فلا أسخط بعده عليكم أبداً »[1] .

وهكذا يكون الرضى فى أعلى مستوياته . الغاية من التسبيح - إذن - الذى كلّفك ربك به أنْ ترضى أنت ، وأن يعودَ عليك بالنفع ، وإلا فالحق سبحانه مُسبَّح قبل أن يخلق ، أنت مُسبِّح قبل أن يخلق الكون كله ، ولا يزيد تسبيحك فى ملكه تعالى شيئاً . ويتم لك هذا الرضا حين تُرضِى الله فيرضيك .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٥١٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٣٠٢) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾

بعد أن قال الحق سبحانه لنبيه ﷺ : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ .. ﴿١٣٠﴾ ﴾ [طه] حذره أن ينظر إلى هؤلاء الجبابرة والمعاندين على أنهم فى نعمة تمتد عينه إليها . ومعنى مَدِّ العين ألاَّ تقتصر على مجرد النظر على قَدْر طاقتها ، إنما يُوجهها باستزادة ويوسعها لترى أكثر مما ينبغى ، ومَدُّ العين يأتى دائماً بعد شغل النفس بالنعمة وتطلّعها إليها ، فكأن الله يقول : لا تشغل نفسك بما هم فيه من نعيم ؛ لأنه زهرة الدنيا التى سرعان ما تفنى .

وقوله : ﴿ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ .. ﴿١٣١﴾ ﴾ [طه] الأزواج لا يُراد بها هنا الرجل والمرأة ، إنما تعنى الأصناف المقترنة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [فصلت]

(١) أخرج الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٧٤) عن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ أن ضيفاً نزل برسول الله ﷺ ، فدعانى فأرسلنى إلى رجل من اليهود يبيع طعاماً يقول لك محمد رسول الله ﷺ : نزل بنا ضيف ولم يلق عندنا بعض الذى يصلحه ، فبعنى كذا وكذا من الدقيق أو أسلفنى إلى هلال رجب ، فقال اليهودى : لا أبيعه ولا أسلفه إلا برهن ، قال : فرجعت إليه فأخبرته . قال : والله إنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض ، ولو أسلفنى أو باعنى لأديت إليه ، اذهب بدرعى إليه ، ونزلت هذه الآية تعزية له عن الدنيا . وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٥/٦١٢) وعزاه لابن أبى شيبة والبزار وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن جرير . قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٣٨) : « قال ابن عطية : هذا معترض أن يكون سبباً ، لأن السورة مكية والقصة المذكورة مدنية فى آخر عمر النبى ﷺ ؛ لأنه مات ودرعه مرهونة عند يهودى بهذه القصة التى ذكرت » .

كل واحد له شـيطان يلازمه لا يفـارقه . هذه هـي الزوجيـة المرادة ، كذلك في قوله تعالى : ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١)﴾ [الصافات]

والزَّهْرة إشارة إلى سرعة النهاية والحـياة القصيرة ، وهى زَهْرة لحياة دنيا ، وأيّ وصف لها أقل من كَوْنها دنيا ؟ وهذا الذى أعطيناهم من متـاع الدنيا الزائل فـأخذوا يزهُون به ، ما هو إلا فـتنة واختـبار ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ .. (١٣١)﴾ [طه]

والاخـتـبار يـكون بالخـير كـمـا يكون بالشـر ، يقـول تعـالى : ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً .. (٣٥)﴾ [الأنبياء]

ويقول تعالى : ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥)﴾ [الفجر]

ويشكر أنه عرفها لله ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)﴾ [الفجر]

وهنا يُصحِّح لهم الحق سبحانه هذه الفكرة ، يقول : كلاكما كاذب فى هذا القول ، فـلا النعمـةَ دليلُ الإكرام ، ولا سلبهـا دليلُ الإهانة : ﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ[1] أَكْلاً لَّمًّا (١٩)﴾ [الفجر]

فهَـبْ أن الله أعطاك نعمـة ولم تُؤَدِّ شكْرها وحقَّـها ، فـأيُّ إكرام فيها ؟

ثم يقـول تـعـالى : ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١)﴾ [طه] أى :

---

(١) التراث : ما يتركه الميت من مال فيورث عنه . قال تعالى : ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩)﴾ [الفجر] . أى : تأكلون ما ترثونه أكلاً لماً جامعاً للحلال والحرام ، وهو تصوير للطمع والحرص الشديد على الدنيا . [القاموس القويم ٢/ ٣٢٩] .

لا تشغل بالك بما أعطاهم الله ؛ لأنه سبحانه سيعطيك أعظم من هذا ، ورِزْق ربك خير من هذا النعيم الزائل وأبْقى وأخلد ؛ لأنه دائم لا ينقطع في دار البقاء التي لا تفوتها ولا تفوتك ، أما هؤلاء فنعيمهم موقوت ، إمَّا أنْ يفوتهم بالفقر ، أو يفوتوه هم بالموت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾

هنا يعطينا الحق - تبارك وتعالى - منهجاً لإصلاح المجتمع وضمان انسجامه ، منهج يبدأ بالوحدة الأولى وهو ربُّ الأسرة ، فعليه أنْ يُصلح نفسه أولاً ، ثم ينظر إلى الوحدة الثانية ، وهي الخلية المباشرة له وأقرب الناس إليه وهم أهله وأسرته ، فهو مركز الدائرة فإذا أصلح نفسه ، فعليه أنْ يُصلح الدوائر الأخرى المباشرة له .

فقوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ .. ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه] لتستقيم الوحدة الأولى في بناء الكون ، فإذا ما صلُحَتْ الوحدة الأولى في بناء الكون ، فأمَر كل واحد أهله بالصلاة ، استقام الكون كله وصلُح حال الجميع .

والمسألة هنا لا تقتصر على مجرد الأمر وتنتهي مسئوليته عند هذا الحدِّ إنما ﴿ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا .. ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه] لأن في الصلاة مشقة تحتاج إلى صبر ، فالصلاة تحتاج إلى وقت تأخذه من حركة الحياة التي هي سبب الخير والنفْع لك ، فلا بُدَّ - إذن - من صبر عليها .

وفَرْق بين اصبر واصطبر : اصبر الفعل العادي ، إنما اصطبر

فيها مبالغة أى : بتكلُّف حتى الصبر وتعمُّده .

ومن ذلك أن تحرص على أداء الصلاة أمام أولادك لترسخ فى أذهانهم أهمية الصلاة ، فمثلاً تدخل البيت فتجد الطعام قد حضر فتقول لأولادك : انتظرونى دقائق حتى أُصلى ، هنا يلتفت الأولاد إلى أن الصلاة أهمّ حتى من الأكل ، وتغرس فى نفوسهم مهابةَ التكليف ، واحترامَ فريضة الصلاة ، والحرص على تقديمها على أىِّ عمل مهما كان .

وكان سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ يقوم من الليل يصلى ما شاء الله له أنْ يصلى حتى يؤذن للفجر ، فيُوقظ أهله للصلاة فإنْ أبَوْا رَشَّ فى وجوههم الماء[1] ؛ لأن الصلاة خَيْر من النوم ، فالنوم فى مثل هذا الوقت فيه راحة للبدن ، أمّا الصلاة فهى أفضل وأعظم ، ويكفى أنك تكون فيها فى حضرة الله تعالى .

وهَبْ أن رب الأسرة غاب عنها لمدة شهر أو عام ، ثم فجأة قالوا : أبوكم جاء ، فترى الجميع يُهرولون إليه ، وهكذا لله المثل الأعلى ، إذا دعاك ، فلا تتخلّف عن دعوته ، بل هَرْول إليه ، وأسرع إلى تلبية ندائه ، ولك أنْ تتصوَّر واحداً يناديك وأنت لا تردّ عليه ولا تجيبه ، أعتقد أنه شىء غير مقبول ، ولا يرضاه صاحبك .

إذن : عليك أنْ تُعوِّد أولادك احترام هذا النداء ، وبمجرد أن يسمعوا « الله أكبر » يُلبُّون النداء ، لا يُقدِّمون عليه شيئاً آخر ، فالله لا يبارك فى عمل ألهاك عن نداء (الله أكبر) ؛ لأنك انشغلتَ بالنعمة عن المنعم عز وجل .

---

(١) أخرج ابن ماجة فى سننه (١٣٣٦) عن أبى هريرة قال قال ﷺ : « رحم الله رجلاً قام من الليل فصلّى وأيقظ امرأته فصلت ، فإن أبت رش فى وجهها الماء ، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فصلى ، فإن أبى رشت فى وجهه الماء » .

لذلك ، إنْ أردتَ أنْ تعرف خير عناصر المجتمع فانظر إلى أسبقيتهم إلى إجابة نداء (الله أكبر) ، فإنْ أردتَ أن تعرف مَنْ هو أعلى منه منزلةً ، فانظر إلى آخرهم خروجاً من المسجد ، وليس كذلك مَنْ يأتى الصلاة دُبُراً ، وبمجرد السلام يسرع إلى الانصراف .

ويُروى أن سيدنا رسول الله ﷺ عابَ على أحد الصحابة إسراعه فى الانصراف من المسجد بعد السلام ، فتعمَّد رسول الله أنْ يناديه فى إحدى المرات ، قال : « أزهداً فيناً » ؟

وهل هناك مَنْ يزهد فى رؤية رسول الله والجلوس معه ؟ فقال الرجل : لا يا رسول الله ، ولكن لى زوجة بالبيت تنتظر ثوبى هذا لتصلى فيه ، فيدعو له رسول الله ، وينصرف الرجل إلى زوجته ، فإذا بها تقول له : تأخرت بقدْر كذا تسبيحة ، فقال : لقد استوقفنى رسول الله وحدث كذا وكذا ، فقالت له : شكوتَ ربَّك لمحمد ؟

ثم يقول تعالى : ﴿لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ .. (١٣٢)﴾ [طه] إذن : ما الذى يشغلك عن حَضْرة ربك ، الرزق ؟ ﴿لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا .. (١٣٢)﴾ [طه] فالذى لا يستطيع العمل نُوجِّه إليه من الأغنياء مَنْ يطرق بابه ويعطيه ، فالغنىّ شَرْطٌ فى إيمانه الفقيرُ ، وليس شرطاً فى إيمان الفقير الغنى .

وكأن الحق سبحانه يعطينا إشارة إلى ضرورة البحث عن الفقير ، والطَّرْق على بابه لإعطائه حقَّه فى مال الغنىّ ، لا ينتظره حتى يسأل ، ويُريق ماء وجهه وهو يطلب حَقّاً من حقوقه فى مجتمع الإيمان .

وقوله : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ .. (١٣٢)﴾ [طه] أى : لا نسألك رزقاً ثم

نتركك ، إنما لا نسألك ثم نحن نرزقك ، فاطمئن إلى هذه المسألة .

﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (١٣٢) ﴾ [طه] لأنك إذا تأزمتْ معك أمور الحياة تلجأ إلى الله ، كما كان النبى ﷺ إذا حَزَبَهُ أمر قام إلى الصلاة ، وتأزُّم الأمور يأتى حينما نفقد نحن الأسباب المعطاة من الله ، فإذا فقدتَ الأسباب وضاقتْ بك الحيَل لم يَبْقَ لك إلا أنْ تلجأ إلى المسبِّب سبحانه ، كما يقول فى آية أخرى :

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ (١٣٣) ﴾

مرت بنا (لولا) فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ .. (١٩) ﴾ [يونس] وتعنى : امتناع التعذيب لوجود الكلمة ، أما (لولا) هنا فتعنى : هلا ، للحثِّ والطلب ﴿ لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ .. (١٣٣) ﴾ [طه] كما فى ﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ .. (٣٩) ﴾ [الكهف]

فكأن القرآن لا يعجبهم ، مع أنهم أمةُ بلاغة وبيان ، وأمة فصاحة وكلام ، والقرآن يخجلهم لفصاحته وبلاغته ، فأىُّ آيةٍ تريدونها بعد هذا القرآن ؟

﴿ وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ .. (١٣٣) ﴾ [طه] كدليل صدْق على بلاغه عن الله كالمعجزات الحسِّية التى حدثتْ لمن قبله من الرسل ، كما قال تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ

لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣)﴾ [الإسراء]

إذن : فالآيات من الله لا دَخْلَ لى فيها ولا أختارها ، وها هو القرآن بين أيديكم يخبركم بما كان فى الأمم السابقة ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣)﴾ [النحل]

وقال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾ [الأعلى]

وقال تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ .. (١٦٣)﴾[النساء]

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٣٣)﴾ [طه]

فالقرآن جاء جامعاً ومُهيْمناً على الكتب السابقة ، وفيه ذكْر لكل ما حدث فيها من معجزات حسية ، وهل شاهد هؤلاء معجزة عيسى عليه السلام فى إبراء الأكمه والأبرص ؟ هل شاهدوا عصا موسى أو ناقة صالح ؟

لقد عرفوا هذه المعجزات عندما حكاها لهم القرآن ، فصارت خبراً من الأخبار ، وليست مَرْأىً ، والمعجزة الحسِّية تقع مرة واحدة ، مَنْ رآها آمن بها ، ومَنْ لم يرها فهى بالنسبة له خبر ، ولولا أن القرآن حكاها ما صدَّقها أحد منهم .

لكن هؤلاء يريدون معجزة حسِّية تصاحب رسالة محمد العامة للزمان وللمكان ، ولو كانت معجزة محمد حسِّية لكانت لمَنْ شاهدها فقط ، والحق سبحانه يريدها معجزة دائمة لامتداد الزمان والمكان ، فَمنْ آمن بمحمد نقول له : هذه هى معجزته الدائمة الباقية إلى أنْ تقومَ الساعة .

لذلك ، كان القرآن معجزة لكل القرون ، ولو أفنى القرآن معجزته مرة واحدة للمعاصرين له فحسب لاستقبلتْه القرون الآتية بلا إعجاز ، لكن شاءتْ إرادة الله أن يكون إعجاز القرآن سراً مطموراً فيه ، وكل قرن يكتشف من أسراره على قدر التفاتهم إليه وتأملهم فيه ، وهكذا تظل الرسالة محروسة بالمعجزة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ (١٣٤) ﴾

يقول تعالى : أنا قطعت عليهم الحجة ؛ لأننى لو أهلكتُهم على فَتْرة من الرسل لقالوا : لماذا لم تُبقنَا إلى أن يأتينا رسول ، فلو جاءنا رسول لآمنا به قبل أن نقع فى الذُّلِّ والخزْى ، فمعنى : ولو أنّا أهلكناهم بعذاب من قبل أن يأتى القرآن لقالوا : ربنا لولا أرسلتَ إلينا رسولاً لآمنّا به واهتدينا .

وهذه مجرد كلمة هو قائلها ، وكما قال عنهم الحق سبحانه : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) ﴾ [الأنعام] إنها مجرد كلمة تنقذهم من الإشكال .

وقولهم : ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ (١٣٤)﴾ [طه] الذل : ما يعترى الحيَّ مما ينشأ عنه انكساره بعد أنْ كان متعالياً ، والذلّ يكون أولاً بالهزيمة ، وأذلّ من الهزيمة الأسْر ، لأنه قد يُهزم ثم يفرُّ ، وأذلُّ منهما القتل . إذن : الذل يكون فى الدنيا أمام المشاهدين له والمعاصرين لانكساره بعد تعاليه .

أما الخزى : نخزى يعنى : يُصيبنا الخزى ، وهو تخاذل النفس بعد ارتفاعها . ومن ذلك يقولون : أنت خزيت. يعنى : كنت تنتظر شيئاً فوجدت خلافه .

ومنه قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (١٩٤)﴾ [آل عمران] فإنْ عُجِّل لهم الذلُّ فى الدنيا ، فإن الخزى مُؤخَّر للآخرة حتى تكون فضيحتهم على رؤوس الأشهاد ، كما يقولون (فضيحة بجلاجل) حيث يشهد خِزْيَهم أهلُ الموقف جميعاً .

وكلمة « الخزى» هذه لها معنا موقف طريف أيام كنا صغاراً نحفظ القرآن على يد سيدنا فضيلة الشيخ حسن زغلول ـ عليه رحمة الله ـ وكان رجلاً مكفوفَ البصر ، وكنا (نستلخمه) فإذا وجدنا فرصة تفلّتنا منه وهربنا من تصحيح اللوح الذى نحفظه ، فالذى يحفظ بمفرده هكذا من المصحف يكون عرْضة للخطأ .

ومن ذلك ما حدث فعلاً من زميل لنا كان اسمه الشيخ محمد حسن عبد البارى ، وقد حضر مدير المدرسة فجأة ، وأراد أن يُسمِّع لنا ، وكان الشيخ عبد البارى لم يصحح لوحه الذى سيقرأ منه فقرأ : (إنك من تدخل النار فقد أخزيته) فقرأها بالراء بدلاً من الزاى ، فضحك الشيخ طويلاً ـ رحمه الله ـ وقال : يا بنى المعنى صحيح ، لكن الرواية ليست هكذا .

فكنا نأخذها على الشيخ عبد البارى ، فَمَنْ أراد أنْ يغيظه قال : (إنك من تدخل النار ..) ويسكت !!

فشاء الله تعالى أن يتعرض كُلٌّ منا لموقف مشابه يُؤْخَذ عليه ، وقد أُخِذ علىَّ مثلُ هذا حين قرأت دون أنْ أُصحِّح اللوح أول سورة الشورى : (حم عسق) وقد سبق لى أن عرفت (حم) لكن لم يمر بى (عسق) فقرأت : (حم عَسَقَ) بالوصل ، فصار الشيخ عبد البارى كلما قلت له : (إنك من تدخل النار ....) يقول : (حم)

فقلنا سبحان الله :

مَنْ يَعِبْ يَوْماً بشَىء   لَمْ يمُتْ حتَّى يَرَاهُ

إذن : فقول هؤلاء : ﴿رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ (١٣٤)﴾ [طه] تمحُّك منهم : لو أرسلت لنا رسولاً لاتبعناه من قبل أنْ نذلّ فى الدنيا هزيمةً ، أو أَسْراً ، أو قَتْلاً ، ونخزى فى الآخرة بفضيحة علنية على رؤوس الأشهاد .

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ (١٣٥)﴾

التربُّص : التحفُّز لوقوع شىء بالغير ، تقول : فلان يتربص بى يعنى : يلاحظنى ويتابعنى ، ينتظر منى هَفْوة أو خطأ ، فقوله : ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا .. (١٣٥)﴾ [طه] فكُلٌّ منَّا يتربص بالآخر ، لأننا أعداء ، كل منا ينتظر من الآخر هفوة ويترقب ماذا يحدث له .

وقد أوضح سبحانه وتعالى توجيهات التربُّص منه ومنهم فى آية أخرى : ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ .. (٥٢)﴾ [التوبة]

ماذا تنتظرون إلا إحدى الحُسْنيين : إما أن نموت في قتالكم شهداء ، أو ننتصر عليكم ونُذلكم ، فأىُّ تربُّص يحدث شرف لنا ، إما النصر أو الشهادة ، فكلاهما حُسْنى ، ونحن نتربّص بكم أنْ يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، فكلاهما سوءة .

وما دام الأمر كذلك فتربَّصُوا بنا كما تحبون ، ونحن نتربص بكم كما نريد ؛ لأن تربصنا بكم يفرحنا ، وتربصكم بنا يُؤلمكم ويُحزنكم .

ومعنى ﴿قُلْ .. (١٣٥)﴾ [طه] هنا أن القول ﴿كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ .. (١٣٥)﴾ [طه] ليست من عند محمد ، فليس في يده زمام الكون ولا يعلم الغيب ، فهو قَوْل الله الذى قال له (قل) يا محمد ﴿كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا .. (١٣٥)﴾ [طه]

إذن : قيلت ممَّنْ يملك أَزِمّة الأمور وأعنّتها ، ولا يخرج شيء عن مراده تعالى ، وربما لو قُلْت لكم من عندى تقولون : كلام بشر لا يملك من الأمور شيئاً . إذن : خذوها لا بمقياس كلام البشر ، إنما بمقياس مَنْ يملك زمام أقْضية البشر كلها .

ثم يقول تعالى : ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ (١٣٥)﴾ [طه] متى سيحدث هذا ؟ ساعةَ تقوم الساعة حيث الانصراف ، إما إلى جنة ، وإما إلى نار ، ساعتها ستعلمون مَنْ أصحاب الصراط السوى : نحن أَمْ أنتم ؟ لكنه سيكون علْماً لا ينفع ولا يُجدى ، فقد جاء بعد فوات الأوان ، جاء وقت الحساب لا وقت العمل وتلافى الأخطاء .

إنه عِلْم لا يترتب عليه عمل ينجيكم ، فقد انتهى وقت العمل ، وهكذا يكون عِلْماً يُزيد حسرتهم ، ويُؤذيهم ولا ينفعهم .

والصراط : الطريق المستقيم . والسَّوىّ: المستقيم الذى لا عِوجَ فيه ولا أَمْت .

وقال بعدها ﴿وَمَنِ اهْتَدَىٰ (١٣٥)﴾ [طه] لأنه قد يوجد الصراط السوىّ ، ولا يوجد مَنْ يسلكه ، فالمراد : الصراط السَّوى ومَن اهتدى إليه وسلكه .

وقد يظن ظانٌّ أن مسألة التربُّص هذه قد تطول ، فيقطع الحق سبحانه هذا الظن بقوله فى أول سورة الأنبياء الآتية بَعْد : ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. (١)﴾ [الأنبياء]

وهكذا تنسجم السُّورتان ، ويتصل المعنى بين الآيات .


سورة الأنبياء



سورة الأنبياء[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ[2] وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ ﴾

والاقتراب : إما أن يكون زمناً أو مكاناً ، فإذا كانت المسألة فى مسافات قلنا : اقترب للناس حسابهم يعنى مكانه . وإذا كانت للزمن قلنا : اقترب زمنه . فالاقتراب : دُنُو الحدث من ظرفيه زماناً أو مكاناً .

والحق سبحانه حينما يُعبِّر بالماضى ﴿اقْتَرَبَ .. ۝١﴾ [الأنبياء] يدل على أن ذلك أمر لازم وسيحدث ولا بُدَّ ، والبشر حينما يتحدثون عن أمر مقبل يقولون : يقترب لا اقتربَ ؛ لأن اقتربَ هكذا بالجزم والحكم بأنه حدثَ فعلاً لا يقولها إلا الله الذى يملك الأحداث ويقدر

---

(١) سورة الأنبياء هى السورة رقم (٢١) فى ترتيب المصحف ، وهى سورة مكية فى قول الجميع ، وعدد آياتها ١١٢ آية ، وقد نزلت سورة الأنبياء بعد سورة إبراهيم وقبل سورة المؤمنين ، وهى السورة رقم ٧٢ فى ترتيب نزول القرآن . [انظر : الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١/ ٢٧] .

(٢) قال الضحاك : أى اقترب عذاب أهل مكة ، لأنهم استبطأوا ما وُعدوا به من العذاب تكذيباً ، وكان قتلهم يوم بدر . [تفسير القرطبى ٦/ ٤٤٤٣] .

عليها ، أما الإنسان فلا يملك الأحداث ، ولا يستطيع الحكم على شيء لا يملكه بعد أن يتلفظ بهذا اللفظ .

ومثال ذلك في قوله تعالى : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل] فأتى تعني أن الأمر حدث قبل أن يتكلم ، والأمر ما زال مستقبلاً بدليل قوله : ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل] فلا يُقال لك : لا تستعجل شيئاً إلا إذا كان لم يحدث بَعْد . فكيف ـ إذن ـ جمع بين الماضي ﴿أَتَىٰ .. (١)﴾ [النحل] والمستقبل ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل] ؟

قالوا : أنت ممنوع أن تحكم بمُضيٍّ على أمر مستقبل ؛ لأنك لا تملك نفسك ، ولا تملك ظروف المستقبل ، كما في قوله تعالى : ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤)﴾ [الكهف]

لا بُدَّ أن تُردف هذا القول بالمشيئة ؛ لأن قولك « سأفعل ذلك غداً » قضيةٌ لها عناصر : الفاعل أنت والمفعول به والزمن غداً ، والسبب الذي يدعوك للفعل والقدرة التي تُعينك أن تفعل .

وهذه كلها عناصر لا تملك أنت شيئاً منها ، وربما جاء غَدٌ فتغيَّر عنصر من هذه العناصر ، وحال بينك وبين ما تريد ، فينبغي أن تُبرِّيء نفسك من احتمال الكذب فتقول : إن شاء الله وتردُّ الأمر إلى القادر عليه الذي يملك كل هذه العناصر ، وكأن ربك يُعلِّمك ألا تكون كاذباً .

لذلك نجد أن اللغة قد راعتْ قدرة المتكلم ، ووضعتْ له الزمن المناسب ، فإنْ علمتَ حدوث الفعل قُلْ بالماضي : حضر فلان ، انتهت القضية ، فإنْ علمتَ أنه توجه للحضور واستعدَّ له قُلْ : سيحضر فلان أي قريباً ، أو سوف يحضر أي : بعد ذلك .

هذا الذى يناسب قدرة البشر . أما الحق سبحانه فيملك زمام الأشياء وتوجيهها ، وكلّ شىء مرهون بأمره التكوينى ، فإنْ قال للأمر المستقبل : أتى أو اقترب فصدِّق ؛ لأنه لا شىءَ يُخرج الأمر عن مراده تعالى ، وهو وحده الذى يملك الانفعال لكلمة كُنْ ، فإنْ قالها فَقد انتهتْ المسألة .

لذلك يقول سبحانه ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ۝١ ﴾ [الأنبياء] بصيغة الماضى ولم يقل : يقترب أو سيقترب ؛ لأن المتكلم هو الله .

وقد ورد الماضى (اقترب) أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ ﴾ [القمر]

وفى قوله تعالى ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۝١٩ ﴾ [العلق] فاقترب غير قَرُب ، قرُب : يعنى دنا ، أما اقترب أى : دنا جداً حتى صار قريباً منك .

والحساب : كلمة تُطلَق إطلاقات عدّة ، فالحساب أنْ تحسب الشىء بالأعداد جمعاً ، أو طرحاً ، أو ضَرْباً ، وتدير حصيلة لك أو عليك ، فإنْ كانت لك فأنت دائن ، وإنْ كانت عليك فأنت مدين . أو تربط المسبِّبات بأسبابها .

وهناك أمور تأتى بغير حساب ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧ ﴾ [آل عمران] فهذه مسألة لا تستطيع ضبطها ، والله لا يُسأل : أعطانى زيادة أم نقصاناً .

أما الحساب فى ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ۝١ ﴾ [الأنبياء] فيقتضى مُحَاسِباً هو الله عز وجل ، ومُحاسَباً هم الناس ، ومُحَاسَباً عليه وهى الأعمال والأحداث التى أحدثوها فى دنياهم ، وهذه قسمان : قسم قبل أنْ يُكلَّفوا ، وقسم بعد أن كُلِّفوا .

ما كان قبل التكليف وسِنِّ البلوغ لا يحاسبنا الله عليه ، إنما تركنا نمرح ونرتع فى نعمه سبحانه دون أن نسأل عن شىء ، أما بعد البلوغ فقد كلَّفنا بأشياء تعود علينا بالخير ، وألزمنا المنهج الذى يضمن سعادتنا « بافعل » و « لا تفعل » وهذا يقتضى أن نحاسب ، فعلنا ، أم لم نفعل .

إذن : المسألة حساب ، ليست جُزَافاً : جماعة فى الجنة وجماعة فى النار ، وقوله سبحانه فى الحديث القدسى : « هؤلاء فى الجنة ولا أبالى ، وهؤلاء فى النار ولا أبالى »(١) بناءً على علمه تعالى بما يُؤدُّونه وقت الحساب ، ففى علم الله ما فعلوا وما تركوا .

ولا تنْسَ أن المحاسب فى هذا الموقف هو الله ، فإنْ كان الحساب فى الخير عاملك بالفضل والزيادة كما يشاء سبحانه ؛ لذلك يضاعف الحسنات ، وإنْ كان الحساب فى الشر كان على قَدْره دون زيادة ، كما قال تعالى : ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [النبأ]

وما دام المحاسب هو الله سبحانه وتعالى ، وهو لا ينتفع بما يقضيه على الخَلْق ، فمن رحمته بنَا ونعمته علينا أنْ حذَّرنا من أسباب الهلاك ، ولم يأخذنا على غَفْلة ، ولم يفاجئنا بالحساب على غِرّة ، إنما أبان لنا التكاليف ، وأوضح الحلال والحرام ، وأخبرنا بيوم الحساب لنستعدَّ له ، فلا نسير فى الحياة على هوانا .

فقال سبحانه : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة]

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٦/٤٤١) وعبد الله بن أحمد فى زوائده على مسند أبيه من حديث أبى الدرداء أن النبى ﷺ قال : « خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر ، وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم فقال للذى فى يمينه : إلى الجنة ولا أبالى . وقال للذى فى كفه اليسرى : إلى النار ولا أبالى ».

فمن رحمته تعالى بعباده أنْ وعدهم هذا الوعد ، وعرفهم هذا الميزان وهم فى سَعَة الدنيا ، وإمكان تدارك الأخطاء ، واستئناف التوبة والعمل الصالح ، من رحمته بنا أنْ يعظَنا هذه الموعظة ويكررها على أسماعنا ليلَ نهارَ .

إذن : ما أخذنا ربنا على غرَّة ، ولم تُفاجئْنا القيامة بأهوالها ، فمن الآن اعلم ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ① ﴾ [الأنبياء] وما دام الأمر كذلك فعلى الإنسان أن يُقَدِّر قَدْر الاقتراب ، ومتى سينتقل إلى يوم الحساب ، ولا تظن أن عُمرك هو عمر الدنيا منذ خلقها الله ، إنما عمرك ودنياك على قَدْر مُكْثك فيها ، وهو مُكْث مظنون غير مُتيقَّن ، فمن الخَلْق من عمَّر دهراً ، ومنهم مَنْ مات فى بطن أمه . إذن : لا تُؤجِّل لأنك لا تدرى ، أيمهلك الأجل حتى تتوب ؟ أم يُعاجلك فتُؤخذ بذنبك ؟

والحق سبحانه يقول : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ① ﴾ [الأنبياء] مع أن الساعة ما زالت بعيدة ، وبيننا وبين القيامة مَا لا يعلمه إلا الله . فكيف ذلك ؟

قالوا : لأن الحساب إنما يكون على الأعمال ، والأعمال لها وقت هو الدنيا ، فَمنْ مات فقد انقطع عمله ، واقترب وقت حسابه ؛ لأن المدة التى يقضيها فى القبر لا يشعر بها ، فكأنها ساعة من نهار .

فإنْ قُلْت : من الناس مَنْ يعيش مائة عام ، ومائة وخمسين عاماً . نقول : هذا شىء ظنىّ لا نضمنه ، والإنسان عُرْضة للموت فى أىِّ لحظة لسبب أو دون سبب .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ① ﴾ [الأنبياء] فقال (للنَّاسِ) مع أن الحساب لهم وعليهم ، فهل معنى (للناس)

أي : لمصلحتهم ؟ لا يبدو ذلك ؛ لأنه قال بعدها : ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١)﴾ [الأنبياء]

إذن : الحساب ليس فى مصلحتهم إنما الحساب عليهم ، إذن : كيف يكون فى مثل هذا السياق ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. (١)﴾ [الأنبياء] ما دام الأمر على الكفار ؟ كان المفروض أن يقول : اقترب على الناس حسابهم .

نقول : هذا إذا أخذتَ اللام للحساب ، إنما اللام هنا للاقتراب ، لا للحساب ، أى : اقترب من الناس ، إنما الحساب لهم أو عليهم ، هذه مسألة أخرى .

وقوله : ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١)﴾ [الأنبياء] الغفلة معناها : زحزحة الشيء عن بال الواجب ألاَّ يزحزح عنه ، فكان الواجب أنْ يتذكره ولا يغفل عنه ، والغفلة غير النسيان ؛ لأن الغفلة أن تهمل مسألة كان يجب ألاَّ تهمل ، وألاَّ تغيب عن بالك ، أما النسيان فخارج عن إرادتك .

وغفلتهم هنا عن أصل وقمة الدين ، وهو الإيمان بالألوهية ، فإن آمنتَ بالألوهية فالغفلة عن الأحكام التى جاء بها الدين ، وهذه هى المعاصى ، والكلام هنا عن الكافرين بدليل قوله بعدها : ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ .. (٢)﴾ [الأنبياء] والغفلة عن الربِّ الأعلى مثلها الغفلة عن حكم الرب الأعلى ، وفَرْق بين غَفْلة وغَفْلة .

وقد حدَّثَ النبى ﷺ صحابته عن هذه الغفلة ، كما روى سيدنا حذيفة بن اليمان قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين ، قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر . حدثنا (أن الأمانة نزلت فى جِذْر[1] قلوب الرجال)

---

(١) الجذر : الأصل من كل شيء . وفى حديث حذيفة بن اليمان : نزلت الأمانة فى جذر قلوب الرجال ، أى : فى أصلها . [لسان العرب ـ مادة : جذر] .

والأمانة هى الإيمان الحق بالله ، أى : حَلَّ الإيمان ، واستقر فى القلب ، ونطقنا بالشهادة (ثم نزل القرآن ، فعلموا من القرآن ، وعلموا من السُّنة) ثم حدَّثنا عن رَفْع الأمانة فقال : (ينام الرجل النومة ، فتُقبض الأمانة من قلبه) أى : يغفل الغفلة (فيظل أثرها مثل أثر الوكت)[1] الوكت : مثل سيجارة مثلاً تقع على الجِلْد فلسعته ، فيتغير لونه (ثم ينام النومة) أى : مرة أخرى (فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر المجل) والمجل : جمرة النار (فنفط[2] فتراه منتبراً عالياً ، وليس به شىء) أى : انتفخ (فيصبح الناس) أى : بعد رفع الأمانة (يتبايعون فلا يكاد يوجد أحد منهم يؤدى الأمانة حتى يقال : إن فى بنى فلان رجلاً أميناً) لندرة الأمانة بين الناس .

ثم يقول الراوى : (وقد مر علىَّ زمان ما كنت أبالى أيكُم بايعت ، فلئن كان مسلماً ليردنَّه علىَّ دينه) يعنى : إنْ غشَّنى فى شىء أو حدث خطأ ما فى البيع (ولئن كان يهودياً أو نصرانياً ليردنَّه علىَّ ساعيه) أى : الناس المكلفون بمراقبة الأسواق ، وهم أهل الحسْبة ، فإنْ رأَوْا غشّاً منعوه ، وردوا إلى صاحب الحق حقه (وأما الآن فأنا لا أكاد أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً)[3] فإنْ كان هذا فى أيامهم فما بال أيامنا ؟

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « الناس كإبل مائة لا تجد فيها

---

(١) الوكت : الأثر اليسير فى الشىء . كالنقطة من غير لونه . [اللسان ـ مادة : وكت] .

(٢) النفطة : بثرة تخرج في اليد من العمل ملأى ماءً . قال أبو زيد : إذا كان بين الجلد واللحم ماء . [اللسان ـ مادة : نفط] .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٠٨٦) وكذا مسلم فى صحيحه (١٤٣) من حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه .

راحلة »[١] أى : رَغْم كثرتها لا تجد فيها جملاً يحمل رَحْلك ويحملك .

وفى رواية أخرى : « تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عُوداً عوداً »[٢] أى : كنسج الحصير ، عُوداً بعد عود ، حتى تتم الحصيرة ، ثم يكون الرَّان[٣] على القلب .

فغفْلة هؤلاء غَفْلة عن القمة ، وعن الألوهية ، لا عن التكاليف ؛ لأنهم ليسوا مؤمنين بالمكلِّف سبحانه .

وقوله تعالى : ﴿مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء] تدل على الافتعال أى : أنهم مفتعلون هذا الإعراض ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾

أى : ذكر من القرآن ﴿مُّحْدَثٍ .. ۝٢﴾ [الأنبياء] يعنى : يسمعونه جديداً لأول مرة ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾ [الأنبياء] لا يعطونه اهتماماً ، ولا يُلْقون له بالاً ، وهم يتعمدون هذا ، ويُوصِى بعضهم

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٩٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٥٤٧) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما . قال ابن حجر فى فتح البارى (٣٣٥/١١) : « المعنى : لا تجد فى مائة إبل راحلة تصلح للركوب ، لأن الذى يصلح للركوب ينبغى أن يكون وطيئاً سهل الانقياد ، وكذا لا تجد فى مائة من الناس من يصلح للصحبة بأن يعاون رفيقه ويلين جانبه » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٨٦/٥ ، ٤٠٥) ، ومسلم فى صحيحه (١٤٤) من حديث حذيفة بن اليمان ، وتمامه : « فأيّما قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء » .

(٣) الران والرين : هو كل ما غلبك وعلاك . والرين : سواد القلب من الذنوب . وأصل الرين : الطبع والتغطية . [لسان العرب ـ مادة : رين] .

بعضاً به ويُحرِّضـون عليه ، كما جاء في قول الحق سبحانه وتعالى حكاية عنهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت]

إنهم يخافون إنْ سمعوا القرآن أنْ يتأثروا به فيؤمنوا ؛ لذلك لا تسمعوه ، بل شَوِّشوا عليه حتى لا يسمعه أحد في هدوء واطمئنان فيؤمن به . وهذا يعني أن هذا العمل في مصلحتهم ؛ لأنهم لا يستطيعون رَدَّ حُجَج القرآن ولا الثبات أمام إعجازيته ولا بلاغته ولا تأثيره على النفوس ، فهُمْ لا يملكون إلاَّ أنْ يصرفوا الناس عن سماعه ، والتشويش عليه ، حتى لا يتمكّن من الأسماع ، وينفذ إلى القلوب ، فيخالطها الإيمان .

واللعب : أن تشغل نفسك بعمل لا قَصْدَ فيه لغاية ، كما يأخذ الطفل الصغير كراسة أخيه ، ويعبث فيها بالقلم دون نظام ودون هدف .

وهناك أيضاً اللهو : وهو عمل مقصود لغاية ، لكن هذه الغاية تضعها أنت لنفسك ، أو يضعها غيرك ممَّنْ يريد أنْ يُفسدك بها ، إذن : هو عمل مقصود وله غاية ، ليس مجرد (شخبطَة) كمَنْ ينشغل مثلاً برسم بعض الصور للتسلية ، أو ينشغل بحلِّ الكلمات المتقاطعة ، فهي أعمال لا فائدة منها .

أما العمل النافع الذي ينبغي أن ينشغل الإنسان به فهو الذي يضعه لك مَنْ هو أعلى منك ، وأنْ يكون حكيماً مُحباً لك ، وهذه المواصفات لا تجدها إلا في الإله ؛ لذلك كل ما يُلهيك عمَّا يضعه لك إلهك فهو لَهْو ؛ لأنه شَغَلك عما هو أهَمّ .

لذلك يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [محمد]

فاللعب فى مرحلة الطفولة ، بل نأتى نحن باللُّعب ونقول للطفل : العب ، إنما اللهو أن تنشغلَ بعمل مقصود وله غاية ، لكنها تلهيك عن غاية أسمى هى التى وضعها لك الحكيم القادر الأعلى منك المحبّ لك .

إذن : منتهى اللهو واللعب أن يلعبوا عند سماع القرآن ، فلم يستمعوا له ، حتى على أنه لهو له غاية ، إنما على أنه لَعِبٌ لا غايةَ له ولا فائدةَ منه ؛ لأن غايته ضارّة .

واللعب وإنْ كان مُباحاً فى فترة ما قبل البلوغ ، إنما القلوب يجب أن تُربَّى على أنْ تلتفت إلى الله عز وجل الخالق الرازق فى هذه الفترة المبكرة من حياة الإنسان ، وهذه مهمة الأب ، فإنْ أتى لولده بطعام أو شراب يقول أمام الولد الصغير : ربنا رزقنا به . وهكذا فى كل أمور الحياة يسند الأمر إلى الله وينبه الولد الصغير : قل : بسم الله قل : الحمد لله .

وهكذا تُربِّى فى الولد مواجيده على اليقين بالله القوى ، وإنْ كان الولد لا يراه فإنه يرى آثاره ونِعَمه . ويرى أباه الذى يتعهده ، ويأتى له بكل شىء لا يتصيّد المجد لنفسه ، إنما ينسب كل شىء إلى الله .

فأبوه - وهو المثل الأعلى له - يزحزح هذه المسائل عنه وينسبها لله ، فيتربى وجدانُ الولد على الإيمان . فإذا لم يُرَبَّ الولد هذه التربية تسلل إلى نفسه اللَّهْو واللَّعِب .

وسبق أن قلنا : إن كُلَّ فعل من الأفعال لا بُدَّ أنْ ينشأ عن مَوْجدة من المواجيد ، ولا ينشأ الفعل دون مَوجدة إلا فعل المجنون ، والقلوب هى التى تُوجِّه الجوارح ، ولو لم تكُنْ القلوب لاهية ما لعبت الجوارح .

لذلك سيدنا عمر - رضى الله عنه - حينما دخل على رجل يعبث بذقنه وهو يصلى - كما يفعل الكثيرون - قال : لو خشعَ قلبُ هذا لخشعتْ جوارحه[1] . فحركة الجوارح دليل على انشغال القلب ؟ لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

ويا ليت كلاً منهم يفعل هذا الفعل فى نفسه ، إنما يتآمرون جميعاً على الحق ليفسدوه باللعب واللهو ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى .. ﴿٣﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : يتناجَوْن فى الإثم ، ويُسِرُّونه يعنى : يجعلونه سراً . والنَّجْوى أو التناجى : خَفْض الصوت ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ .. ﴿٧﴾ ﴾ [المجادلة]

فلا تظنوا أنكم مستورون عن الله ، أو تُخْفون عنه شيئاً . وتلاحظ فى ارتقاءات العدد فى هذه الآية أنها لم تذكر اثنين ، فبدأت من العدد ثلاثة ؛ لأنه عادةً لا تكون النجوى بين الاثنين ، إنما تكون بين الثلاثة ، حيث يتناجى اثنان حتى لا يسمع الثالث .

كما أنها لم تذكر الأعداد بالترتيب ، فلم تَقُلْ مثلاً : ولا أربعة إلا هو خامسهم ؛ ذلك لأن الآية لا تقصد الترتيب العددى ، إنما تعطيك مجرد أمثلة ونماذج من الأعداد .

---

(١) أورده الإمام الغزالى فى إحياء علوم الدين (١٥١/١) من حديث رسول الله ﷺ ، قال العراقى فى تخريجه للإحياء : « أخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر من حديث أبى هريرة بسند ضعيف لأنه من قول سعيد بن المسيب رواه ابن أبى شيبة فى المصنف وفيه رجل لم يسم » .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ .. (٨) ﴾ [المجادلة]

وما داموا يُخْفون كلاماً ويُسرُّونه ، فلا بُدَّ أنه مخالف للفطرة السليمة ، ولو كان حقّاً لَقالُوه علانية ، فالنجْوى دليلُ اتهامهم فى العقل ، وفى القلب ، وفى كل شىء .

أما قوله تعالى فى شأن النبى ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً .. (١٢) ﴾ [المجادلة]

وهل كان الصحابة يُحدِّثون الرسول سراً ؟ لا بل هنا إشارة أخرى أوضحها قوله تعالى : ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا .. (٦٣) ﴾ [النور]

فالمراد ألاّ نرفع أصواتنا فى حضرة النبى ﷺ كما يحدث منّا حين يُكلِّم بعضنا بعضاً ، بل نُكلِّمه كلام المهيب ، ونلتزم معه الأدب والخشوع .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا .. (٣) ﴾ [الأنبياء] هل (الذين) هنا هى الفاعل لأسرُّوا ؟ القاعدة النحوية : إذا تقدم الفعل على الفاعل لزم صورة الإفراد نقول : أكل القوم . لا نقول : أكلوا القوم ، وهنا ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى .. (٣) ﴾ [الأنبياء] لو أن (الذين ظلموا) هى الفاعل لقال : وأسَرَّ الذين ظلموا ، إنما جاء الفاعل (واو الجماعة) ثم الاسم الموصول (الذين) بعدها فليست هى الفاعل ، وليست هذه من لغات العرب الصحيحة .

فكأن سائلاً سأل : ومَن الذى أَسَرَّ ؟ فأجاب : (الَّذِينَ ظَلَمُوا)

وكلمة (ظَلَمُوا) عامة فى الظلم ، فقد ظلموا أنفسهم أولاً ؛ لأن ظلمهم عائد عليهم بالعذاب ، وظُلْم نفسه ناشئ من أنه ظلم الحق الأعلى ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]

ثم ظلم الناس فى أمور أخرى وفى حقوق لهم ، لكن جاءتْ (ظلموا) عامة ؛ لأن الظلم الواحد سيشمل كل أنواع الظلم ، وما دام قد وصل به الأمر إلى أنْ ظلَم اللهَ فلا غرابةَ أنْ يظلم ما دونه تعالى .

فما النجوى التى أسرَّهَا القوم ؟ ومَنْ أخبر رسول الله بها ؟

النجوى قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة]

فكيف عرف محمد هذه المقولة ، وقد قالوها فى أنفسهم وأسرُّوها ؟ ألم يكُن على هؤلاء أنْ يتنبَّهوا : كيف عرف محمد مقولتهم ؟ وأن الذى أخبره بما يدور هو ربُّه الإله الأعلى ، الذى لا تَخْفى عليه خافية ، كان عليهم أن يلتفتوا إلى رب محمد ، الله الإله الحق الذى يعلم خَبْءَ كل شىء فيرتدعوا عَمَّا هم فيه ، وبدل أنْ يشغلوا عقولهم بمسائل الشرك ينتهوا بها إلى الإيمان .

ومما جاء فى تناجيهم : ﴿ هَلْ هَٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ .. ﴿٣﴾ ﴾ [الأنبياء] إذن : أنكروا أن يكون رسولاً لأنه بشر ، والرسول لا بُدَّ أن يكون ملكاً ﴿ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأنبياء] فسمُّوا القرآن سحْراً ، لأنهم يروْنَ السحر يُفرِّق بين الابن وأبيه ، والأخ وأخيه ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأنبياء] أن القرآن يفعل مثل هذا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ ﴾

كأن سائلاً قال : من أين لك يا محمد بكل هذا وقد أسرّه القوم ؟ ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. ④﴾ [الأنبياء] فلا تَخْفى عليه خافية ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ④﴾ [الأنبياء] السميع لما يُقال ويُسر العليم بما يُفعل ، فالأحداث أقوال وأفعال .

ومما قالوه أيضاً :

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ[1] بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ⑤﴾

(بَلْ) تعنى أنهم تمادَوْا ، ولم يكتفوا بما قالوا ، بل قالوا أيضاً ﴿أَضْغَاثُ أَحْلامٍ .. ⑤﴾ [الانبياء] وأضغاث : جمع ضغْث ، وهو الحزمة من الحشيش مختلفة الأشكال ، كما جاء فى قصة أيوب عليه السلام : ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ .. ㊹﴾ [ص] أى : حزمة من أعواد الحشيش .

ووردتْ أيضاً فى رُؤْيا عزيز مصر : ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ ㊹﴾ [يوسف]

وقوله ﴿بَلِ افْتَرَاهُ .. ⑤﴾ [الأنبياء] أى تمادَوْا فقالوا : تعمد كذبه واختلاقه ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ .. ⑤﴾ [الأنبياء] إذن : أقوالهم واتهاماتهم لرسول الله متضاربة فى ماهية ما هو ؟ وهذا دليل تخبطهم ، فمرة ينكرون أنه من البشر ، ومرة يقولون : ساحر ، ومرة يقولون : مفتر ، والآن يقولون : شاعر !!

وقد سبق أنْ فنَّدنا كل هذه الاتهامات وقلنا : إنها تحمل فى

(١) أضغاث أحلام . أى : أحلام مختلفة مختلطة ملتبسة غير مميَّزة على سبيل الاستعارة كالأشياء المختلطة . [القاموس القويم ١/ ٣٩٤] .

طياتها دليل كذبهم وافترائهم على رسول الله .

ثم يقولون : ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء] كأن آية القرآن ما أقنعتْهم ، فلم يكتفُوا بها ، ويطلبون آية أخرى مثل التى جاء بها السابقون ، والقرآن يردّ عليهم فى هذه المسألة : لو أنهم سيؤمنون إذا جاءتهم الآية التى اقترحوها لأنزلناها عليهم ، إنما السوابق تؤكد أنهم لنْ يؤمنوا مهما جاءتهم من الآيات ، وهذا من أسباب العذاب .

وقد أوضح الحق سبحانه أنه لن يُعذِّبهم ما دام فيهم رسول الله ؛ لذلك لم يُجبْهم إلى ما طلبوا من الآيات ؛ لأن الله تعالى لا يُخلف وعْدَه ، فإنْ جاءتهم الآية فلم يؤمنوا بها لا بُدَّ أنْ يُنزِل بهم العذاب ؛ لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿ مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦ ﴾

إذن : هذه التجربة مَرَّتْ مع غيرهم من الأمم السابقة ، وهم كأمثالهم من السابقين لو أنزلنا عليهم الآية ما آمنوا ، كما لم يؤمن سابقوهم ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝٢٨ ﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ ﴾

الحق - تبارك وتعالى - يردُّ على اعتراضهم على بشرية الرسول وطلبهم أن يكون الرسول ملكاً ، كما قالوا فى موضع آخر : ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا .. ⑥ ﴾ [التغابن]

يعنى : هم مثلنا ، وليسوا أفضل منَّا ، فكيف يهدوننا ؟! وهل الرسول يهديكم ببشريته ؟ أم بشىء جاءه من أعلى ؟ هل منهجه من عنده ؟

الرسول ليس مُصلحاً اجتماعياً ، إنما هو مُبلِّغ عن الله ربى وربكم . وقد سبقتْ السَوابق فيمَنْ قبلكم أن يكون الرسول بشراً ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ .. ⑦ ﴾ [الأنبياء] ولو أرسلنا إليهم ملكاً لجاءكم الرسول ملكاً . ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ⑦ ﴾ [الأنبياء] وهم اليهود والنصارى ، ماذا أرسلنا إليهم أرجالاً أم ملائكة ؟

ذلك لأن المفروض فى النبى أن يكون قدوة لقومه وأسْوة ، مُبلِّغَ منهج ، وأُسْوةَ سلوك ، منهج يحققه عن الله ، ثم يُطبِّقه على نفسه ، فهو لا يحمل الناس على أمر هو عنه بنَجْوة[1] ، إنما هو أُسْوتهم وقُدْوتهم ، وشرط أساسى فى القدوة أنْ يتحد فيها الجنس : المتأسِّى مع المتأسَّى به .

فلو رأيتَ مثلاً فى الغابة أسداً يصول ويجول ويفترس ، هل تفكر فى يوم ما أن تكون أسداً ؟! هل تأخذ الأسد لك أُسْوة ؟! لا ، لأنه يُشترط فى أُسْوتك أن يكون من جنسك ، فإذا رأيتَ فارساً على جواده يصول ويجول ويضرب فى الأعداء يميناً وشمالاً ، لا شكَّ أنك تود أن تكون مثله .

---

(١) النجوة : ما ارتفع من الأرض . قال أبو زيد : النجوة المكان المرتفع الذى تظن أنه نجاؤك . [لسان العرب - مادة : نجا] .

كذلك إذا جاء النبى ملكاً ، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يُؤْمرون ، إنما نحن بشر ، ولو جاءنا الرسول ملكاً لجاءنا فى صورة بشرية .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) ﴾ [الإسراء]

ويردُّ الحق سبحانه عليهم : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام] . وهكذا تظل الشبهة موجودة .

إذن : لا يمكن أن يكون الرسول للبشر إلا من البشر . ونعم ، محمد بشر لكن بشر يُوحَى إليه ، كما جاء فى الحديث الشريف : « يرد علىَّ - يعنى من الحق الأعلى - فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويُؤخَذ منى فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

وقوله : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧) ﴾ [الأنبياء] أى : إنْ كنتم فى شكٍّ من هذه المقولة فاسألوا أهل الذكر من السابقين : اليهود والنصارى أهل الكتاب[1] .

وقال : ﴿ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧) ﴾ [الأنبياء] لأنها مسألة علْمُها مشكوك فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ﴾

---

(١) قاله سفيان . وقال ابن زيد : أراد بالذكر القرآن . أى : فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن . قال جابر الجعفى : لما نزلت هذه الآية قال على رضى الله عنه : نحن أهل الذكر . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٤٧] .

﴿ جَعَلْنَاهُمْ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : الرسل ﴿ جَسَداً .. ﴿٨﴾ ﴾ [الأنبياء] يعنى : شيئاً مصبوباً جامداً لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ، إنما هم بشر يأكلون ويشربون كأىّ بشر ، ويمشون فى الأسواق ، ويعيشون حياة البشر العادية ﴿ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الأنبياء] فليس الخلود من صفة البشر وقد تابعوا الرسل ، وعَلموا عنهم هذه الحقيقة ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزمر]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾

وهذه سُنة من سُنَن الله فى الرسل أنْ يَصْدقهم وعده ، وهل رأيتم رسولاً عانده قومه وحاربوه واضطهدوه ، وكانت النهاية أن انتصروا عليه ؟

ألم يقل الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات]

وكان صِدْق الوعد أن أنجيناهم ومَنْ نشاء وأهلكنا المسرفين والمسرفون هم الذين تجاوزوا الحدَّ المعروف . فنهاية الرسل جميعاً النُّصْرة من الله ، والوفاء لهم بما وعدهم .

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

الحق سبحانه يخاطب المكذِّبين للنبى : ما أنزلتُ إليكم آية بعيدة عن معرفتكم ، إنما أرسلتُ إليكم رسولاً بآية من جنس ما نبغتُم فيه ،

ولما نزل فهمتموه وعرفتم مراميه ، بدليل أن فى القرآن ألفاظاً تُستقبل بالغرابة ولم تعترضوا أنتم عليها ، ولم تُكذِّبوا محمداً فيها مع أنكم تتلمسون له خطأ ، وتبحثون له عن زلة .

فمثلاً لما نزلتْ (الم) ما سمعنا أحداً منهم قال : أيها المؤمنون بمحمد ، إن محمداً يدَّعى أنه أتى بكتاب مُعْجز فاسألوه : ما معنى (الم) ؟ مما يدل على أنهم فهموها وقبلوها ، ولم يجدوا فيها مَغْمزاً فى رسول الله ؛ لأن العرب فى لغتهم وأسلوبهم فى الكلام يستخدمون هذه الحروف للتنبيه .

فالكلام سفارة بين المتكلِّم والسامع ، المتكلِّم لا يُفَاجأ بكلامه إنما يعدّه ويُحضره قبل أن ينطق به ، أمّا السامع فقد يُفَاجأ بكلام المتكلم، وقد يكون غافلاً يحتاج إلى مَنْ يُوقظه ويُنبِّهه حتى لا يفوته شىء .

وهكذا وُضعَتْ فى اللغة أدوات للتنبيه ، إنْ أردتَ الكلام فى شىء مهم تخشى أنْ يفوتَ منه شىء تُنبِّه السامع ، ومن ذلك قول عمرو ابن كلثوم[1] :

★ أَلاَ هُبِّى بِصَحْنِك فَاصْبِحينَا[2] ★

---

(١) هو : عمرو بن كلثوم بن مالك ، من بنى تغلب ، أبو الأسود ، شاعر جاهلى ، من الطبقة الأولى ، ولد فى شمال جزيرة العرب فى بلاد ربيعة ، كان من أعز الناس نفساً ، ساد قومه تغلب وهو فتى ، وعمر طويلاً ، مات فى الجزيرة الفراتية عام ٤٠ ق هـ . [الأعلام للزركلى ٥/٨٤] .

(٢) شطر البيت الأول من معلقة عمرو بن كلثوم . والصحن : القدح العظيم . والجمع : الصحون . ومعنى البيت : ألا استيقظى من نومك أيتها الساقية واسقينى الصبوح بقدحك العظيم ولا تدخرى خمر هذه القرى . [انظر شرح المعلقات السبع للزوزنى . ص ١٦٥].

وقول آخر :

ألاَ أنعِمْ صَبَاحاً أيُّها الطَّلَلُ البَالى[1]

وَهَلْ يَنْعَمَنْ مَنْ كَانَ فى العَصْرِ الخالى[2]

إذن : (ألا) هنا أداة للتنبيه فقط يعنى : اسمعوا وانتبهوا لما أقول .

وكذلك أسلوب القرآن : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يونس] ﴿ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ .. ﴿٥﴾ ﴾ [هود]

إذن : عندما نزل القرآن عليهم فهموا هذه الحروف ، وربما فهموا منها أكثر من هذا ، ولم يردُّوا على رسول الله شيئاً من هذه المسائل مع حرصهم الشديد على نقده والأخذ عليه .

وقوله تعالى : ﴿ فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنبياء] الذكر : سبق أنْ أوضحنا أن الذكر يُطلق بمعنى : القرآن ، أو بمعنى : الكتب المنزّلة ، أو بمعنى : الصِّيت والشرف . أو بمعنى : التذكير أو التسبيح والتحميد .

والذكر هنا قد يُراد به تذكيرهم بالله خالقاً ، وبمنهجه الحق دستوراً ، ولو أنكم تنبهتم لما جاء به القرآن لعرفتُم أن الفطرة تهدى إليه وتتفق معه ، ولعرفتم أن القرآن لم يتعصّب ضدكم ، بدليل أنه أقرَّ بعض الأمور التى اهتديتم إليها بالفطرة السليمة ووافقكم عليها .

ومن ذلك مثلاً الدِّيَة فى القتل هى نفس الدية التى حدَّدها القرآن ، مسائل الخطبة والزواج والمهر كانت أموراً موجودة أقرها القرآن ،

---

(١) الطلل : ما شخص من آثار الديار . [لسان العرب ـ مادة : طلل] .
(٢) البيت لامرىء القيس ، ذكره الزوزنى فى شرح المعلقات السبع ص ١٠٢ (هامش) .

كثـيرون منهم كانوا يُحرِّمـون الخمر ولا يشـربونها ، هكذا بالفطرة ، وكـثيـرون كانوا لا يســجـدون للأصنام ، إذن : الفطرة السليـمة قـد تهتدى إلى الحق ، ولا تتعارض ومنهجَ الله .

أو : يكون معنى ﴿ذِكْرُكُمْ .. ۝١٠﴾ [الأنبياء] شـرفكم وصيـْتكم ومكانتكم ونباهة شأنكم بين الأمم ؛ لأن القـرآن الذى نزل للدنيا كلها نزل بلغتكم ، فكأن الله تعالى يثنى عقول الناس جميعاً ، ويثنى قلوبهم للغتكم ، ويـحثّهم على تعلّمـها ومعـرفتهـا والحديث بهـا ونشرها فى الناس ، فمَنْ لم يستطع ذلك ترجمها ، وأىُّ شرف بعد هذا ؟!

وقوله تعالى : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾ [الأنبياء] أفلا تُعملـون عقولكم وتتأملـون أن خيركم فى هذا القـرآن ، فإنْ كنتم تريدونَ خُلـقاً وديناً ففى القـرآن ، وإنْ كنتم تريدون شرفاً وسُمـعة وصيتاً فـفى القرآن ، وأىُّ شرف بعد أن يقول الناس : النبى عربى ، والقرآن عربى ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١﴾

قصـمنا : القَـصْم هو الكَسْر الذى لا جَـبْرَ فـيه ، وكـأن الحق ـ سبحـانه وتعالى ـ يضـع أمام أعينهم القُرَى المكذِّبة الظالمـة ، ليأخذوا منهـا عبْـرة وعظَة ، فليس بدَعـاً أنْ نقصم ظهـور المكذِّبين ، بل لهـا سوابق كثيرة فى التاريخ[1] .

---

(١) قـال القرطبى هنا فى تـفسـيره (٦/٤٤٤٩) : « يريد مـدائن كـانت باليمن . وقـال أهل التـفسيـر والأخبـار : إنه أراد أهل حَضُـور ، وكان بُعث إليـهم نبى اسـمه شعـيب بن ذى مَهْدَم ، وليس بشعيب صاحب مدين » .

لذلك قال : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا .. ⑪ ﴾ [الأنبياء] وكم هنا خبرية تفيد الكثرة التى لا تُعَدُّ ، فاحذروا إنْ لويتُم أعناقكم أنْ يُنزِل بكم ما نزل بهم .

وقوله : ﴿ وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ⑪ ﴾ [الأنبياء] أى : خلَف بعدهم خَلْف آخرون .

﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا (١) إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ⑫ ﴾

أى : حين أحسُّوا العذاب ﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ⑫ ﴾ [الأنبياء] حتى لا يلحقهم العذاب . والركْضُ : الجرْى السريع بهَرْولة ، والأصل فيه : ركْضُ الدابة . يعنى : ضَرْبها برجْله كى تُسرع . ومنها : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ .. ㊷ ﴾ [ص] يعنى : اضرب الأرض برِجْلك لتُخرج الماء ﴿ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ㊷ ﴾ [ص]

وفى هذه الآية ملْمحٌ من ملامح الإعجاز القرآنى ، فقد أصاب أيوبَ عليه السلام مرضٌ فى جلده ، وأراد له ربُّه - عز وجل - الشفاء . فقال له : اضرب الأرض برِجْلك تُخرج لك ماءً بارداً ، منه مُغْتَسل ومنه شراب ، فالماء هنا دواء يعالج أمرين : يعالج الظاهر والباطن .

وآفةُ المعالجين أنهم إذا رأوْا مثلاً البثور والدمامل فى الجلد يعالجونها بالمراهم التى يندملُ معها الجُرْح ، لكنها لا تعالج أسباب الظاهرة من الداخل ، أما العلاج الإلهى فمغتسلٌ لعلاج الظاهرة ، وشرابٌ لعلاج أسباب الظاهرة فى الجوف .

---

(١) البأس : الشدة والقوة . [القاموس القويم ١/٥٢] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - فى قصة هؤلاء المكذّبين قدَّم الغاية من العذاب ، فقال : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ.. ﴿١١﴾ ﴾ [الأنبياء] ثم فصَّل القَصْم بأنهم لما أحسُّوا العذاب تركوا قريتهم ، وأسرعوا هاربين أنْ يلحقهم العذاب ، وهنا يقول لهم : لا تركضوا وعودوا إلى مساكنكم ، وإلى ما أُترِفْتم فيه .

والتَّرفُ : هو التنعُّم نقول : ترف الرجل يترف مثل : فرح يفرَح أى : تنعَّم ، فإذا زِيدتْ عليها همزة فقيل : أترف الرجل فمعناها : أخذ نعيماً وأبطره .

ومنها أيضاً : أترفَهُ الله يعنى : غرَّه بالنعيم ؛ ليكون عقاباً له .

فقوله هنا ﴿ إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الأنبياء] من أترفه الله يعنى : أعطاهم نعيماً لا يؤدون حقَّه ، فيجرّ عليهم العذاب . لكن ما دام أن الله تعالى يريد بهم العذاب ، فلماذا يُنعِّمهم ؟

قالوا : فَرْق بين عذاب واحد وعذابين : العذاب أن تُوقع على إنسان شيئاً يؤلمه ، أما أن تُنعِّمه وترفعه ثم تعذبه ، فقد أوقعتَ به عذاباً فوق عذاب .

وقد مثَّلْنا لذلك بأنك إنْ أردت أنْ تُوقِع عدوك لا توقعه من فوق حصيرة مثلاً ، إنما ترفعه إلى أعلى ليكون أشدَّ عليه وآلَمَ له .

ومن ذلك قَوْلُ القرآن ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. (٤٤) ﴾ [الأنعام] أعطيناهم الصحةَ والمال والجاه والأرض والدُّور والقصور ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) ﴾ [الأنعام] وهكذا يكون أَخْذه أليماً شديداً ، فعلى قَدْر ما رفعهم الله على قَدْر ما يكون عذابهم .

ومَلْمَح آخر في قوله تعالى : ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ .. (٤٤) ﴾ [الأنعام] لا لهم كما في : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) ﴾ [الفتح] فليس هذا كله في صالحهم ، بل هو وَبَال عليهم ، فلا تغترُّوا بها ، فقد أعطاها الله لهم ، وهم سَيَبْطرون بها ، فتكون سببَ عذابهم .

وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) ﴾ [الأنبياء] أي : عودوا إلى مساكنكم وقصوركم وما كنتم فيه من النعيم ، لعل أحداً يمرُّ بكم فيسألكم : أين ما كنتم فيه من النعيم ؟ أين ذهب ؟ لكن ما هم فيه الآن من الخزي سيُخرس ألسنتهم ، ولن يقولوا شيئاً مما حدث ، إنما سيكون قولهم وسلوكهم :

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) ﴾

لما أحسَّ المكذِّبون بأسَ الله وعذابه حاولوا الهرب ليُفوِّتوا العذاب ، فقال لهم : ارجعوا إلى ما كنتم فيه ، فلن يُنجيكم من عذاب الله شيء ، ولا يفوت عذاب الله فائت ، فلما وجدوا أنفسهم في هذا الموقف لم يجدوا شيئاً إلا الحسرة فتوجَّهوا إلى أنفسهم ليقرعوها ، ويحكموا عليها بأنها تستحق ما نزل بها .

فقولهم : ﴿ يَا وَيْلَنَا .. (١٤) ﴾ [الأنبياء] ينادون على العذاب ، كما تقول (يا بؤسي) أو (يا شقائي) وهل أحد ينادي على العذاب أو

البُؤْس أو الشقاء ؟ الإنسان لا ينادى إلا على ما يُفرِح .

فالمعنى : يا ويلتى تعالى ، فهذا أوانك ، فلن يشفيه من الماضى إلاّ أنْ يتحسَّر عليه ، ويندم على ما كان منه . فالآن يتحسَّرون ، الآن يعلمون أنهم يستحقون العذاب ويلومون أنفسهم .

﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤)﴾ [الانبياء] ظالمين لأنفسنا بظلمنا لربنا فى أننا كفرنا به ، كما قال فى آية أُخْرى : ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ .. (٥٦)﴾ [الزمر]

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ (١٥)﴾

قوله تعالى : ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ .. (١٥)﴾ [الأنبياء] أى : قولهم : ﴿يَـٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤)﴾ [الأنبياء] فلم يقولوها مرة واحدة سرقة عواطف مثلاً ، إنما كانت ديدنهم ، وأخذوها تسبيحاً : يا ويلنا إنا كنا ظالمين ، يا ويلنا إنا كنا ظالمين . فلا شيءَ يشفى صدورهم إلا هذه الكلمة يُردِّدونها . كما يجلس المجرم يُعزِّى نفسه نادماً يقول : أنا مُخطيء ، أنا أستحق السجن ، أنا كذا وكذا .

وقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)﴾ [الأنبياء] الحصيد : أى المحصود وهو الزرْع بعد جمعه ﴿خَامِدِينَ (١٥)﴾ [الأنبياء] الخمود من أوصاف النار بعد أنْ كانت مُتأجِّجة مشتعلة ملتهبة صارت خامدة ، ثم تصير تراباً وتذهب حرارتها . كأن الحق - سبحانه وتعالى - يشير إلى حرارتهم فى عداء الرسول وجَدلهم وعنادهم معه ﷺ ، وقد خمدتْ هذه النار وصارتْ تراباً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

ربنا - سبحانه وتعالى - يعطينا المثل الأعلى فى الخلْق ؛ لأن خَلْق السموات والأرض مسألة كبيرة : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر] فالناس تُولَد وتموت وتتجدد ، أمّا السماء والأرض وما بينهما من نجوم وكواكب فهو خلْق هائل عظيم منضبط ومنظوم طوال هذا العمر الطويل ، لم يطرأ عليه خَلَل أو تعطُّل .

والحق سبحانه لا يمتنُّ بخَلْق السماء والأرض وما بينهما ؛ لأنها أعجب شىء ، ولكن لأنها مخلوقة للناس ومُسخَّرة لخدمتهم ، فالسماء وما فيها من شمس وقمر ونجوم وهواء ومطر وسحاب والأرض وما عليها من خَيْرات ، بل وما تحتها أيضاً ﴿ وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [طه]

الكل مخلوق لك أيها الإنسان ، حتى ما تتصوره خادماً لغيرك هو فى النهاية يصبُّ عندك وبين يديك ، فالجماد يخدم النبات ، والنبات يخدم الحيوان ، وكلهم يخدمون الإنسان .

فإنْ كان الإنسان هو المخدوم الأعلى فى هذا الكون فما عمله هو ؟ وما وظيفته فى كون الله ؟ فكل ما دونك له مهمة يؤديها فما مهمتك ؟ إذن : إنْ لم يكن لك مهمة فى الحياة فأنت أتفه من الحيوان ، ومن النبات ، حتى ومن الجماد ، فلا بُدَّ أنْ تبحثَ لك عن عمل يناسب سيادتك على هذه المخلوقات .

ثم هل سخَّرْتَ هذه المخلوقات لنفسك بنفسك ، أم سخَّرها الله وذلَّلها لخدمتك ؟ فكان عليك أن تلتفت لمن سخَّر لك هذه المخلوقات

وهى أقوى منك ، ألك قدرة على السماء ؟ أتطول الشمس والقمر ؟

﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) ﴾ [الإسراء]

إذن : كان يجب عليك أن تبحثَ بعقلك فيمَنْ سخَّر لك هذا كله ، كان عليك أنْ تهتدى إلى الخالق للسماء والأرض وما بينهما ، لأنه سبحانه ما خلقها عبثاً ، ولا خلقها للعب ، إنما خلقها من أجلك أنت .

لذلك يقول سبحانه فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، خلقتُ الأشياء من أجلك ، وخلقتُك من أجلى ، فلا تنشغل بما هو لك عمن أنت له » .

فالكون مملوك لك ، وأنت مملوك لله ، فلا تنشغل بالمملوك لك عن المالك لك .

فما الحكمة من خَلْق السماء والأرض وما بينهما ؟ الحكمة أن هذه المخلوقات لولاها ما كُنَّا نستدل على القوة القادرة وراء خَلْق هذه الأشياء ، وهو الخالق سبحانه ، فهى - إذن - لإثبات صفات الجلال والجمال لله عز وجل . فلو ادَّعَى أحد أنه شاعر - ولله المثل الأعلى - نقول له : أين القصيدة التى قلتها ؟ فلا نعرف أنه شاعر إلا من خلال شعْره وآثاره التى ادَّعاها . وهى دعوى دون دليل ؟!

وقد خلق الله هذا الخَلْق من أجلك ، وتركك تربَع فيه ، وخلقه مقهوراً مُسيَّراً ، فالشمس ما اعترضتْ يوماً على الشروق ، والقمر والنجوم والمطر والهواء والأرض والنبات كلها تعطى المؤمن والكافر والطائع والعاصى ؛ لأنها تعمل بالتسخير ، لا بالإرادة والاختيار . أما الإنسان فهو المخلوق صاحب الاختيار فى أن يفعل أو لا يفعل .

ولو نظرتَ إلى هذا الكون لأمكنك أنْ تُقسِّمه إلى قسمين : قسم لا دَخْلَ لك فيه أبداً ، وهذا تراه منسجماً في نظامه واستقامته وانضباطه ، وقسم تتدخل فيه ، وهذا الذى يحدث فيه الخلَل والفساد .

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ[1] الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس]

فالكَوْن من حولك يسير بأمر خالقه ، منضبط لا يتخلف منه شىء ، فلو أخذتَ مثلاً سنة كاملة ٣٦٥ يوماً ، ثم حاولتَ أنْ تعيدها فى عام آخر لوجدتَ أن الشمس طلعتْ فى اليوم الأول من نفس المكان ، وفى اليوم الثانى من نفس مكان اليوم الثانى ، وهكذا بدقة متناهية ، سبحان خالقها .

لذلك ؛ فالذين يضعون التقويم لمعرفة الأوقات يضعون تقويم ثلاث وثلاثين سنة يُسجِّلون دورة الفلك ، ثم يتكرر ما سجَّلوه بانضباط شديد ، ومن ذلك مثلاً إذا حدَّد العلماء موعد الكسوف أو الخسوف أو نوعه جزئى أو حلْقى ، فإذا ما تابعته وجدته منضبطاً تماماً فى نفس موعده ، وهذا دليل على انضباط هذا الكون وإحكامه ؛ لأنه لا تدخُّل لنا فيه أبداً .

---

(١) العرجون : هو أصل عذق النخلة ، ومنه تتفرع شماريخ البلح ، ويكون أول ظهوره أخضر ثم يبيض ثم يصفر عند نضج البلح ، فإذا قطع وجفَّ صار أبيض ، وشبه به القمر آخر الشهر لأنه يكون ملتوياً كجزء من القوس أبيض قليل الضياء . [القاموس القويم ١٤/٢] .

وفى المقابل انظر إلى أىِّ شىء للإنسان فيه تدخّل : فمثلاً نحن يكيل بعضنا لبعض ، ويزن بعضنا لبعض ، ويقيس بعضنا لبعض ، ويخبز بعضنا لبعض ، ويبيع بعضنا لبعض .. الخ انظر إلى هذه العلاقات تجدها - إلاَّ ما رحم الله - فاسدة مضطربة ، ما لم تَسِرْ على منهج الله ، فإنْ سارت على منهج الله استقامتْ كاستقامة السماء والأرض .

إذن : كلما رأيتَ شيئاً فاسداً شيئاً قبيحاً فاعلم أن الإنسان وضع أنفه فيه .

وكأن الخالق - عز وجل - يقول للإنسان : أنت لستَ أميناً حتى على نفسك ، فقد خلقتُ لك كل هذا الكون ، ولم يشذ منه شىء ، ولا اختلَّتْ فيه ظاهرة ، أمّا أنت - لأنك مختار - فقد أخللْتَ بنفسك وأتعبتها .

فاعلم أن المسائل عندى أنا آمَنُ لك ، فإذا أخذتُك من دنيا الأسباب إلى الآخرة وإلى المسبِّب ، فأنا أمين عليك أُنعمك نعيماً لا تعبَ فيه ولا نصبَ ولا شقاء ، وإنْ كنت تخدم نفسك فى الدنيا ، فأنا أخدمك فى الآخرة ، وأُلبِّى لك رغبتك دون أن تُحرِّك أنت ساكناً .

إذن : لو أننى شغلت نفسى بمَنْ يملكنى وهو الله تعالى لاستقام لى ما أملكه .

فهذا الكون وهذا الإيجاد خلقه الله لخدمة الإنسان ، فلماذا ؟ كأن الحق - سبحانه وتعالى - يقول : لأنِّى يكفينى من خلقى أن يشهدوا مختارين أنه : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وإنْ كانت المخلوقات قد شهدتْ هذه الشهادة مضطرة ، فالعظمة أن يشهد المختار الذى يملك أنْ يشهد أو لا يشهد .

كما أننى بعد أنْ أنعمتُ عليك كلَّ هذه النعم أنزلتُ إليك منهجاً بافعل كذا ولا تفعل كذا ، فإنْ أطعتَ أثبتك ، وإنْ عصيت عاقبتك ، وهذه هى الغاية من خَلْق السماء والأرض ، وأنها لم تُخلَق لعباً .

وهذا المنهج تعرفه من الرسل ، والرسل يعرفونه من الكتاب . فلو كذَّبْتَ بالرسل لم تعرف هذه الأحكام ولم تعرف المنهج ، وبالتالى لا نستطيع أنْ نثيب أو نعاقب ، فيكون خَلْقُ السماء والأرض بدون غاية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا[1] لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

فلو أردنا اللهو لفعلناه ، فنحن نقدر على كل شىء ، وقوله : ﴿ إِن كُنَّا فَاعِلِينَ.. ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنبياء] تدل على أن ذلك لن يحدث .

فمعنى اللهو هو أن تنصرف إلى عمل لا هدف له ولا فائدة منه ، فالإنسان اللاهى يترك الأمر المهم ويذهب إلى الأمر غير المهم ، فاللهو واللعب حركتان من حركات الجوارح ، ولكنها حركات لا مقصد لها إلا الحركة فى ذاتها ، فليس لها هدف كمالى نسعى له فى الحركة ، ولذلك فاللهو واللعب دون هدف يسمى عَبَثاً .

---

(١) اللهو : المرأة بلغة اليمن ، قاله قتادة . وقال عقبة بن أبى جسرة ، وجاء طاوس وعطاء ومجاهد يسألونه عن قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنبياء] فقال : اللهو الزوجة ، وقاله الحسن . وقال ابن عباس : اللهو الولد . وقاله الحسن أيضاً . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٥٢] .

وهذا يمتنع فى حق الله سبحانه وتعالى :

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ[1] فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

ما دام أنهم فعلوا اللهو واللعب ، وخانوا نِعَم الله فى السماء والأرض فليعلموا أن هذا الحال لن يستمر ، فالحق سبحانه يُملى للباطل ويُوسع له حتى يزحف ويمتد ، حتى إذا أخذه أخْذ عزيز مقتدر ، وقذف عليه بالحق .

فقوله : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء] القذف : الرَّمْى بشدة مثل القذائف المدمرة ﴿ فَيَدْمَغُهُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء] يقال : دمغه أى : أصاب دماغه . والدماغ أشرف أعضاء الإنسان ففيه المخ ، وهو ميزان المرء ، فإنْ كان المخ سليماً أمكن إصلاح أىِّ عطل آخر ، أما إنْ تعطل المخ فلا أملَ فى النجاة بعده .

لذلك جعل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عَظْمة الدماغ أقوى عظام الجسم لتحفظ هذا العضو الهام ، والأطباء لا يحكمون على شخص بالموت ـ مثلاً ـ إذا توقف القلب ؛ لأن القلب يجرى له تدليك معين فيعود إلى عمله كذلك التنفس ، أما إنْ توقف المخ فقد مات صاحبه ، فهو الخلية الأولى والتى تحتفظ بآخر مظاهر الحياة فى الجسم ؛ لذلك يقولون : موت إكلينيكى .

وللمخ يصل خلاصة الغذاء ، وهو المخدوم الأعلى بين الأعضاء ،

(١) دمغ الحق الباطل : أبطله ومحقه وأزاله . [القاموس القويم ١/٢٣٣] .

فالجسم يأخذ من الغذاء ما يكفى طاقته الاحتراقية فى العمل ، وما زاد على طاقته يُختزَن على شكل دهون يتغذّى عليها الجسم ، حين لا يوجد الطعام ، فإذا ما انتهى الدُّهْن تغذَّى على اللحم ، ثم على العَظْم ليُوفِّر للمخ ما يحتاجه ، فهو السيد فى الجسم ، ومن بعده تتغذّى باقى الأعضاء .

إذن : كل شىء فى الجسم يخدم المخ ؛ لأنه أعْلَى الأعضاء ، أما النبات مثلاً فيخدم أسفله ، فإذا جَفَّ الماء فى التربة ولم يجد النباتُ الغذاءَ الكافى يتغذى على أعلاه فيذبل أولاً ، ثم تتساقط الأوراق ، ثم تجفّ الفروع الصغيرة ، ثم الجذع ، ثم الجذر .

ومن ذلك قول سيدنا زكريا عليه السلام : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا .. ④﴾ [مريم] فالعَظْم آخر مخزن للغذاء فى الجسم ، فَوهَنُ العظم دليل على أن المسألة أوشكتْ على النهاية .

إذن : فقوله تعالى : ﴿فَيَدْمَغُهُ .. ⑱﴾ [الأنبياء] أى : يصيبه فى أهم الأعضاء وسيدها والمتحكم فيها ، لا فى عضو آخر يمكن أنْ يُجبر ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ .. ⑱﴾ [الأنبياء] زاهق : يعنى خارج بعنف .

وقوله تعالى : ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ⑱﴾ [الأنبياء] يعنى : أيها الإنسان المغتَرّ بلجه وعناده فى الباطل ، ووقف بعقله وقلبه ليصادم الحق ، سنقذف بالحق على باطلك ، فنصيب دماغه فيزهق ، ساعتها ستقول : يا ويلتى كما سبق أنْ قالوا : ﴿يَـٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ⑭﴾ [الأنبياء] حينما يباشرون العذاب .

ومعنى : ﴿تَصِفُونَ ⑱﴾ [الأنبياء] تكذبون كذباً افترائياً ، كما لو رأيتَ شخصاً جميلاً ، فتقول : وجهه يَصِفُ الجمال ، يعنى : إنْ كنت

تريد وَصْفاً للجمال ، فانظر إلى وجهه يعطيك صورة للجمال . كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ .. (٦٢) ﴾ [النحل] يعنى : إنْ أردتَ أنْ تعرف الكذب بعينه ، فاسمع كلامهم وما قالتْه ألسنتهم .

كما يقولون : حديث خرافة[١] ، وأصل هذه المقولة رجل اسمه خرافة ، كان يقول : أنا عندى سهم إنْ أطلقتُه على الظَّبى يسير وراءه ، فإن التفت يميناً سار وراءه ، فإنْ ذهب شمالاً ذهب وراءه ، فإنْ صعد الجبل صعد وراءه ، فإنْ نزل نزل وراءه . وكأن سهمه صاروخ مُوجَّه كالذى نراه اليوم !! فسار كلامه مثالاً يُضرب للكذب[٢] .

لذلك قال الشاعر :

* حَدِيثُ خُرَافَةٍ يا أُمَّ عَمْرو *

فإنْ أردتَ تعريفاً للكذب فأنا لا أُعرِّفه لك بأنه قولٌ لا يوافق الواقع ، إنما اسمع إلى كلامهم ، فهو أصدق وَصْف للكذب ؛ لأنه كذب مكشوف مفضوح .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) ﴾ [الأنعام] أى : يكذبون ويفترون على الله .

وقد يقول قائل : لماذا يُملِى الله للباطل حتى يتمرَّد ويعلو ، ثم يعلو عليه الحق فيدمغه ؟

---

(١) الخرافة : الحديث المستملح من الكذب . ذكر ابن الكلبى : أن خرافة من بنى عذرة أو من جهينة اختطفته الجن ، ثم رجع إلى قومه فكان يحدث بأحاديث مما رأى يعجب منها الناس ، فكذَّبوه ، فجرى على ألسن الناس » . [لسان العرب - مادة : خرف] .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٦/١٥٧) عن عائشة قالت : حدث رسول الله ﷺ نساءه ذات ليلة حديثاً فقالت امرأة منهن : يا رسول الله كان الحديث حديث خرافة فقال : أتدرون ما خرافة ؟ إن خرافة كان رجلاً من عذرة ، أسرته الجن فى الجاهلية ، فمكث فيهن دهراً طويلاً ثم ردوه إلى الإنس ، فكان يحدث الناس بما رأى فيهم من الأعاجيب فقال الناس : حديث خرافة » .

نقول : الحكمة من هذا أنْ تتم الابتلاءات ، والناس لا نتعشق الحق إلا إذا رأتْ بشاعة الباطل ، ولا تعرف منزلة العدل إلا حين ترى بشاعة الظلم ، وبضدها تتميز الأشياء ، كما قال الشاعر :

فَالوجْهُ مِثْلُ الصُّبْح مُبيضٌ وَالشَّعْر مِثْلُ الليْلِ مُسْوَدُ
ضِدَّان لَمَّا اسْتُجْمِعَاَ حَسُنَا والضِدُّ يُظهِرُ حُسْنَه الضِدُّ

إذن : لا نعرف جمال الحق إلا بقُبْح الباطل ، ولا حلاوة الإيمان إلا بمرارة الكفر .

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ[1] لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

سبق أن أخبر الحق سبحانه أنه خلق السماء والأرض وما بينهما ، وهذا ظَرْف ، فما المظروف فيه ؟ المظروف فيه هم الخَلْق ، وهم أيضاً لله ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنبياء] وإنْ كان من الخَلْق مَنْ ميَّزه الله بالاختيار يؤمن أو يكفر ، يطيع أو يعصى ، فإنْ كان مختاراً فى أمور التكليف فهو مقهور فى الأمور الكونية لا دَخْلَ له فيها .

فليس للإنسان تحكم فى ميلاده أو وفاته ، ولا تحكم له فى صحته وعافيته أو مرضه أو ذكائه أو طوله أو قصره ، إذن : فهو مِلْك لله ، مقهور له ، إلا أنه سبحانه ترك له زاوية اختيار تكليفية .

أما السماء والأرض فهى مُسخَّرة مقهورة : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب]

(١) قوله ﴿ وَمَنْ عِندَهُ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنبياء] يعنى : الملائكة الذين ذكرتم أنهم بنات الله . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٥٣] .

فاختارت التسخير على الاختيار الذى لا طاقة لها به .

أما الإنسان فقد دعاه عقله إلى حملها وفضَّل الاختيار ، ورأى أنه سيُوجِّه هذه الأمانة التوجيه السليم ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب]

فوصفه ربُّه بأنه كان فى هذا العمل ظلوماً جهولاً ؛ لأنه لا يدرى عاقبة هذا التحمل . فإنْ قلتَ : فما ميزة طاعة السموات والأرض وهى مضطرة ؟ نقول : هى مضطرة باختيارها ، فقد خيَّرها الله فاختارت الاضطرار .

وقوله : ﴿وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ .. (١٩)﴾ [الأنبياء] أى : ليسوا أمثالكم يكذبون ويكفرون ، بل هم فى عبادة دائمة لا تنقطع ، والمراد هنا الملائكة ؛ لأنهم ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم]

﴿وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩)﴾ [الأنبياء] من حسر : يعنى ضَعُفَ وكَلَّ وتعب وأصابه الملل والإعياء .

ومنه قوله تعالى : ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)﴾ [الملك] أى : كليل ضعيف ، لا يَقْوى على مواجهة الضوء الشديد كما لو واجهت بعينيك ضوءَ الشمس أو ضوء سيارة مباشر ، فإنه يمنعك من الرؤية ؛ لأن الضوء الأصل فيه أن نرى به ما لا نراه .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ..(١٧٢)﴾ [النساء] لأن عِزَّهم فى هذه المسألة .

﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ[1] ﴿٢٠﴾ ﴾

فهؤلاء الملائكة يعبدون الله ويسبحونه ، لا يصيبهم ضَعْف ، ولا يصيبهم فُتُور ، ولا يشعرون بالملل من العبادة والتنزيه له سبحانه ؛ فالملائكة لا تتكبر عن عبادته والخضوع له .

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [الأعراف]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

أى : فما لهم أعرضوا عن كل هذه الحقائق ؟ ألهم آلهة غيرى وأنا خالق السماء والأرض ، وهى لى بمَنْ فيها من الإنس والجن والملائكة ؟ فالجميع عَبْد لى يُسبِّح بحمدى ، فما الذى أعجبهم فى غيرى فأعرضوا عنى ، وانصرفوا إليه ؟ أهو أحسن منى ، أو أقرب إليهم منى ؟

كأن الحق - تبارك وتعالى - يستنكر انصرافهم عن الإله الحق الذى له كل هذا الملك ، وله كل هذه الأيادى والنِّعَم .

وقوله تعالى : ﴿ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : لهم قدرة على إحياء الموتى وبَعْثهم . وشىء من هذا كله لم يحدث ؛ لأنه :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

---

(١) لا يفترون : لا ينقطعون عن التسبيح . والفترة : الانكسار والضعف . وفتر الشىء : سكن بعد حدة ولان بعد شدة . [لسان العرب - مادة : فتر] .

فمَع انصرافكم عن الإله الحق الذى له مُلْك السماء والأرض ، وله تُسبِّح جميع المخلوقات ، لا يوجد إله آخر ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢)﴾ [الأنبياء] أى : ما زال الكلام مرتبطاً بالسماء والأرض ﴿لَفَسَدَتَا .. (٢٢)﴾ [الأنبياء] السماء والأرض ، وهما ظرفان لكلِّ شىء من خلْق الله .

ومعنى ﴿إِلاَّ اللَّهُ .. (٢٢)﴾ [الأنبياء] إلا : أداة استثناء تُخرِج ما بعدها عن حكم ما قبلها كما لو قلتَ : جاء القوم إلا محمد ، فقد أخرجتَ محمداً عن حكم القوم وهو المجىء ، فلو أخذنا الآية على هذا المعنى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢)﴾ [الأنبياء] يعنى : لو كان هناك آلهة ، الله خارج عنها لفسدت السماوات والأرض .

إذن : ما الحال لو قلنا : لو كان هناك آلهة والله معهم ؟ معنى ذلك أنها لا تفسد . فإلا إنْ حققت وجود الله ، فلم تمنع الشَّركة مع الله ، وليس هذا مقصود الآية ، فالآية تقرر أنه لا إله غيره .

إذن : (إلا) هنا ليست أداةَ استثناء . إنما هى اسم بمعنى (غير) كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ .. (٣٦)﴾ [هود]

فالمعنى : لو كان فيهما آلهة موصوفة بأنها غير الله لَفسدتَا ، فامتنع أن يكون هناك شريك .

وهناك آية أخرى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢)﴾ [الإسراء]

الحق - سبحانه وتعالى - يعطينا القسمة العقلية فى القرآن : فلنفرض جدلاً أن هناك آلهة أخرى ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا

يَقُولُونَ إِذًا.. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء] أى : لو حدث هذا ﴿لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء]

السبيل : الطريق ، أى طلبوا طريقاً إلى ذى العرش أى : إلى الله ، لماذا ؟ إما ليجادلوه ويصاولوه ، كيف أنه أخذ الألوهية من خلف ظهورهم ، وإمّا ليتقربوا إليه ويأخذوا ألوهية من باطنه ، وقوة فى ظل قوته ، كما أعطى الله تعالى قوة فاعلة للنار مثلاً من باطن قوته تعالى ، فالنار لا تعمل من نفسها ، ولكن الفاعل الحقيقى هو الذى خلق النار ، بدليل أنه لو أراد سبحانه لَسلَبها هذه القدرة ، كما جاء فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء]

وقوله : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ.. ﴿٩١﴾ ﴾ [المؤمنون] وهذه الآية الكريمة وأمثالها تثبت أنه سبحانه موجود وواحد .

أما على اعتبار أن (إلا) استثناء فهى تثبت أنه موجود ، إنما معه شريك ، وليس واحداً . فهى - إذن - اسم بمعنى غير ، ولما كانت مبنية بناء الحروف ظهر إعرابها على ما بعدها (لو كان فيهما آلهة إلا اللهُ) فيكون إعراب (غيرُ) إعرابَ (إلا) الذى ظهر على لفظ الجلالة (اللهُ) .

لكن ، لماذا تفسد السماء والأرض إنْ كان فيهما آلهة غير الله ؟

قالوا : لأنك فى هذه المسألة أمام أمرين : إما أن تكون هذه الآلهة مستويةً فى صفات الكمال ، أو واحد له صفات الكمال والآخر له صفة نقص . فإنْ كان لهم صفات الكمال ، اتفقوا على خَلْق الأشياء أم اختلفوا ؟

إنْ كانوا متفقين على خَلْق شىء ، فهذا تكرار لا مُبرِّر له ، فواحد سيخلق ، والآخر لا عملَ له ، ولا يجتمع مؤثران على أثر واحد .

فإن اختلفوا على الخَلْق : يقول أحدهم : هذه لى . ويقول الآخر : هذه لى ، فقد علا بعضهم على بعض .

أما إنْ كان لأحدهم صفة الكمال ، وللآخر صفة النقص ، فصاحب النقص لا يصحّ أن يكونَ إلهاً . وهكذا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُصرِّف لنا الأمثال ويُوضِّحها ليجلى هذه الحقيقة بالعقل وبالنقل : لا إله إلا الله ، واتخاذ آلهة معه سبحانه أمر باطل .

كذلك يردُّ على الذين يدعون مع الله آلهة أخرى مثل مَنْ قالوا : العزيرُ ابن الله ومَنْ قالوا : المسيح ابن الله . ومَن اتخذوا الملائكة آلهة من دون الله : ﴿أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ .. (٥٧)﴾ [الإسراء]

إن هؤلاء الذين تدعُونهم مع الله يطلبون إليه الوسيلة ، ويتقرّبون إليه سبحانه ، وينظرون أيّهم أقرب إلى الله من الآخر ، فكيف يكونون آلهة ؟

ثم يقول تعالى : ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ .. (٢٢)﴾ [الأنبياء] أى : تنزيهاً لله عَمَّا قال هؤلاء ﴿عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢)﴾ [الأنبياء] أى : يُلحِدون ويكذبون ويفترون .

والعرش : هو السرير الذى يجلس عليه الملك ، وهو علامة المُلْك والسيطرة ، كما فى قوله تعالى عن ملكة سبأ على لسان الهدهد : ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾ [النمل] فحين يقول سبحانه ﴿رَبِّ الْعَرْشِ .. (٢٢)﴾ [الأنبياء] ينصرف

إلى عرشه تعالى ، الذى لا يعلو عليه ، ولا ينازعه عَرْش آخر .

ثم يقول الحق سبحانه عن ذاته سبحانه :

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

فالله تعالى لا يُسأل عما يفعل ؛ لأن السائلَ له مراتب مع المسئول ، والعادة أن يكون المسئول فى مرتبة أدْنى من السائل ؛ لذلك لا أحدَ يسأل الله تعالى عمَّا يفعل ، أمَّا هو سبحانه فيسأل الناس .

لذلك قال بعض الظرفاء : الدليل على أن الله لا شريك له ، خَلْقه لفلان ، لأنه لو كان له شريك كان عارضه فى هذه المسألة .

إذن : لا أحدَ أعلى من الله ، حتى يسأله : لِمَ فعلتَ كذا وكذا ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

طالما اتخذوا من دون الله آلهة فهاتوا البرهان على صدْقها ، كما أن الله تعالى ـ وهو الإله الحق ـ أتى بالبراهين الدامغة على وجوده ، وعلى قدرته ، وعلى وحدانيته ، وعلى أحديته ، فهاتوا أنتم أيضاً ما لديكم ، أم أنها آلهة لا أدلةَ لها ولا برهانَ عليها ، فلم تنزل كتاباً ، ولا أرسلتْ رسولاً ، ولا جاءت بمنهج .

فأين هم إذن ؟ إذا لم يكونوا على دراية بما يحدث ، فهى آلهة غافلة لا يصح أنْ يحتلوا هذه المنزلة ، وإنْ كانوا على دراية فلمَ لَمْ

يُجابهـوا الحقائق ويدافـعوا عن أنفـسهم ؟ إذن : هم ضعـفاء عن هذه المواجهة .

وقوله تـعالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : هاتوا الدليل على وجود آلهة غير الله ، والبرهان : التدليل بإيجاد الكون على هذا النظام البديع ، فهل سمعـتم أن إلهاً آخر قال : أنا الذى أوجدتُ ؟ هل أرسل رسولاً بآية ؟

إذن : هذا كلام كـذب وافتـراء واختلاق من عند أنفـسكم ؛ لأنكم لستم أهلَ علم فى شىء ، ولا يعنى هذا عـدمَ وجود العلم ، إنما العلم موجود ، ولكنكم مُعـرِضون عن سماعه : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنبياء]

كأن للحق سمـات يعلم بها ، فَمنْ أقبل على معـرفة الحق وجده ، أما مَنْ أعـرض عن المعـرفة ، فـمن أين له أنْ يعرفَ ؟ إذن : فـالحق موجود ولو التمسوه لوجدوه وعرفوه ، وأمسكوا بالدليل عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾

إذن : فقضيـة التوحيد واضحة منذ بداية الرسـالات إلى خاتمها ، الكل جـاء بقول لا إله إلا الله قـضيـة مـشتـركة بين جـميع رسـالات السماء .

وقوله تعالى : ﴿ مِن رَّسُولٍ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء] (منْ) هنا للشمول والتعميم ، يعنى : كل أفراد الرسل ، كلّ مَنْ يُقَال له رسول . فلو قال لك شـخص : ما عندى مـال ، لا يمنع هذا القـول أن يكون عنده قليل

من المال ، قروش مثلاً لا يُقال لها مال ، فإنْ قال لك : ما عندى من مال فقد نفى وجود جنس المال من بداية ما يقال له مال ، ما عندى حتى مليم واحد .

إذن : ما جئتم به من مسألة الشرك بالله أو إنكاره عز وجل مسألة جديدة (موضة) طلعتُم علينا بها .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا[1] سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

قوله : ﴿ سُبْحَانَهُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : تنزيهاً له أنْ يكون له ولد ، فقُلْ : إنْ كان له ، فله عباد مكرمون وهم الملائكة .

ومن صفات هؤلاء العباد المكرمين الذين هم الملائكة أنهم :

﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

ومع أنهم عباد مكرمون إنما لا يسبقونه بالقول ، فلا يقولون ما لم يقُلْه ولا يتقدمون عليه بقول حتى إنْ وافق مراد الله ، ولا يفعلون ما لم يأمر به ، وكأن الحق سبحانه يعطينا إشارة لبعض آفات المجتمع ، فمن آفات المجتمع أن ترى العظماء المكرمين إلا أنهم يصنعون لأنفسهم سلطة زمنية من باطنهم ، فيقولون ما لم يَقُلْه ربهم عز وجل ، ويفعلون ما لم يأمر به ، ويُقدِّمون أوامرهم على أوامره .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : يأتمرون بأمره ، فإنْ أمر فعلوا ، وإنْ نَهَى تركوا .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٤٥٧/٦) : « نزلت فى خزاعة حيث قالوا : الملائكة بنات الله ، وكانوا يعبدونهم طمعاً فى شفاعتهم لهم » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

الكلام هنا عن العباد المكرمين من الملائكة ، فمَع أن الله أكرمهم وفضَّلهم ، إلا أنه لم يتركهم دون متابعة ومراقبة ، إنما يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولم تُترك لهم مسألة الشفاعة يُدخلون فيها مَنْ أحبوا إنما ﴿ لا يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنبياء]

أى : لمن ارتضاه الله وأحبه ، فإياكم أنْ تفهموا أنكم حين تقولون : الملائكة بنات الله ، أو تعبدونهم من دون الله أنهم يكونون لكم شفعاء عند الله ؛ لأنهم لا يشفعون إلا لمنْ أحبّه الله ، وارتضاه من أهل الإيمان ، فلا تظن أنهم ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : مُدلَّلون يفعلون ما يحلو لهم ، لا ، إنهم مع ذلك ملتزمون بحدودهم لا يتعدونها ، فما أكرمتهم كل هذا الإكرام إلا لأنهم مطيعون ملتزمون .

وهم مع هذه الطاعة ﴿ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنبياء] فليسوا مع هذا الإكرام مطمئنين آمنين ، بل مشفقون خائفون وجلون من خشية الله .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يَقُلْ[1] مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

---

(١) قال الضحاك : لم يقل ذلك أحد من الملائكة إلا إبليس ، دعا إلى عبادة نفسه وشرع الكفر . وقال قتادة : إنما كانت هذه خاصة لإبليس . [أوردهما السيوطى فى الدر المنثور ٥/٦٢٥] .

أى : على فَرْض أنْ قال أحدهم هذا القول ، إذن : هذا كلام لم يحدث ، ولا يمكن أنْ يُقال منهم ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾ [الأنبياء] لماذا ؟ لأنهم أخذوا الظُّلم فى أعلى مراتبه وعُنفوانه وطغيانه ، ظلم فى مسألة القمة ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان]

لذلك يُهدِّدهم ، مع أنهم ملائكة ومكرمون ، لكن إنْ بدر من أحدهم هذا القول فجزاؤه جهنم ، وفى هذا اطمئنان للخَلْق أجمعين .

• • •

بعد ذلك أراد الحق - سبحانه وتعالى - أنْ يُدلِّل على هذه الوحدانية التى أكَّدها فى كلامه السابق ، والوحدانية فى طَيِّها الأحدية ، لأن هناك فَرْقاً بينهما ، وليسا مترادفين كما يظن البعض ، فواحد وأحد وَصْفان لله عز وجل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الإخلاص] وقال : ﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)﴾ [الرعد]

فالواحد أى : الفرد الذى لا يُوجد له نظير ، وهذا الواحد فى ذاته أحد أى : ليس له أجزاء ، فالواحدية تمنع أنْ يُوجد فَرْد مثله ، والأحدية تمنع أن يكون فى ذاته مُكوّناً من أجزاء ؛ لأنه سبحانه لو كوِّن من أجزاء لصار كل جزء محتاجاً فى وجوده إلى الجزء الآخر ، فلا احتياج له فى وجوده ليكوِّن كله ، إذن : فلا هو كلىّ ، ولا هو جزئى .

فاختار سبحانه للتدليل آيات الكون الموجودة والمشهودة التى لا يمكن أنْ ينكرها أحد ؛ لأنها آيات مُرتّبة واضحة ونافعة فى الوقت نفسه ، فقد يكون المرئى واضحاً لكن لا حاجةَ لك فيه - فالإنسان يشعر بمنفعة الشمس لو غابت عنه ، ويشعر بمنفعة المطر إن امتنعت السماء عن المطر .. إلخ .

فمشهودية هذه الآيات تقتضى الالتفات إليها ، والنفعية فيها تقتضى أيضاً الالتفات إليها ، حتى وهى غائبة عنك ، فتنظر وتتطلع إلى عودتها من جديد .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا(١) فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٣٠) ﴾ [الأنبياء] يعنى : أعميتْ أبصارهم ، فلم ينظروا إلى هذا الكون البديع الصنع المحكم الهندسة والنظام ، فيكفروا بسبب أنهم عَمُوا عن رؤية آيات الله . وهكذا كلما رأيت الهمزة بعد الواو والفعل المنفى .

لكن كيف يقول الحق سبحانه : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٣٠) ﴾ [الأنبياء] والحديث هنا عن السماء والأرض ، وقد قال تعالى ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف] ؟

فهذه مسألة لم يشهدها أحد ، ولم يخبرهم أحد بها ، فكيف يرونْها ؟

سبق أن تكلمنا عن الرؤية فى القرآن ، وأن لها

(١) رتقاً : أى مرتوقتين أى متصلتين فى كتلة واحدة ، وبهذا يقول علم الفلك الحديث . [القاموس القويم ١/ ٢٥٤] . وقد أورد القرطبى فى تفسيره [٦/ ٤٤٥٩] آثاراً للسلف فى هذا ، منها : « قال ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة : يعنى أنها كانت شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله بينهما بالهواء » .

استعمالات مختلفة : فتارة تأتى بمعنى : نظر أى : بصرية . وتأتى بمعنى : علم ، ففى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ①﴾ [الفيل]

والنبى ﷺ لم يَرَ هذه الحادثة ولم يشهدها ؛ لأنه وُلد فى نفس عامها ، فالمعنى : ألم تعلم ، فلماذا عَدلَ السياق عن الرؤية البصرية إلى الرؤية العلمية ، مع أن رؤية العين هى آكد الرُّؤى ، حتى أنهم يقولون : ليس مع العَيْن أيْن ؟

قالوا : لأن الله تعالى يريد أن ينبه رسوله ﷺ : أنت صحيح لم ترهَا بعينيك ، لكن ربك أخبرك بها ، وإخبار الله أصدق من رؤية عينيك ، فإذا أخبرك الله بشىء فإخبار الله أصدقُ من رؤية العين ، فالعين يمكن أنْ تخدعك ، أو ترى بها دون أنْ تتأمل . أما إخبار الله لك فصادقٌ لا خداعَ فيه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ⑧③﴾ [مريم]

لكن ، كيف تمَّتْ الرؤية العلمية لهم فى مسألة خَلْق السموات والأرض ؟

قالوا : لأن الإنسانَ حين يرى هذا الكون البديع كان يجب عليه ولو بغريزة الفضول أنْ يتساءلَ : من أين جاء هذا الكون العجيب ؟ والإنسان بطبعه يلتفت إلى الشىء العجيب ، ويسأل عنه ، وهو لا يعنيه ولا ينتفع به ، فما بالُكَ إنْ كان شيئاً نافعاً له ؟

إذن : كان عليهم أن ينظروا : مَن الذى نبَّأ رسول الله بهذه المسألة ؟ خاصة وقد كانوا يسألون عنها ، وقد جاءهم رسول الله

بمعجزة تُثبِت صدقه فى البلاغ عن الله ، وتُخبرهم بما كانوا يبحثون عنه ، وما دام الكلام من الله فهو صدق : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴿١٢٢﴾ ﴾ [النساء]

وقد نزل القرآن وفى جزيرة العرب كفار عُبَّاد أصنام ، وفيها اليهود وبعض النصارى ، وهما أهل كتاب يؤمنون بإله وبرُسُل وبكتب ، حتى إنهم كانوا يجادلون الكفار الوثنيين يقولون لهم : لقد أطلّ زمان نبى سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم[1] .

ومع ذلك ، لما جاءهم ما عرفوا من الحق كفروا به ، والتحموا بالكفار ، وكوَّنوا معهم جبهة واحدة ، وحزباً واحداً ، ما جمعهم إلا كراهية النبى ، وما جاء به من الدين الحق ، وما أشبهَ هذا بما يفعله الآن كُلٌّ من المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى من اتحاد ضد الإسلام .

إذن : بعد أنْ جاء الإسلام أصبح أهلُ الكتاب والكفار ضد الإسلام فى خندق واحد ، وكان الكفار يسمعون من أهل الكتاب ، وفى التوراة كلام عن خَلْق السماء والأرض يقول : إن الله أول ما خلق الخَلْق خلق جوهرة ، ثم نظر إليها نظرَ الهيبة فحصل فيها تفاعل وبخار ودخان ، فالدخان صعد إلى أعلى فكوَّنَ السماء ، والبقية ظلتْ فكوَّنت الأرض .

---

(١) قال محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمرو عن قتادة الأنصارى عن أشياخ منهم قال : فينا والله وفيهم يعنى فى الأنصار وفى اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة يعنى ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة] قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به » . أورده ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٢٤) .

وهكذا كان لديهم طرف من العلم عن مسألة الخَلْق ؛ لذلك قال الله عنهم : ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا .. (٣٠)﴾ [الأنبياء]

وقد كان للمستشرقين كلام حول قوله تعالى : ﴿كَانَتَا رَتْقًا .. (٣٠)﴾ [الأنبياء] قالوا : السموات جمع ، والأرض كذلك جنس لها جمع ، فالقاعدة تقتضى أنْ نقول : كُنَّ رتقاً بضمير الجمع . وصاحب هذا الاعتراض لم يَدْرِ أن الله سبحانه وتعالى نظر إلى السماء كنوع والأرض كنوع ، فالمراد هنا السماوية والأرضية وهما مُثنَّى .

وفى القرآن نظائر كثيرة لهذه المسألة ؛ لأن القرآن جاء بالأسلوب العربى المبنىّ على الفطْنة والذكاء ومُرونة الفهم . فخُذْ مثلاً قوله تعالى : ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا .. (٩)﴾ [الحجرات]

فلم يقُلْ حسْب الظاهر : اقتتلتَا ؛ لأن الطائفة وإنْ كانت مفرداً إلا أنها تحوى جماعة ، والقتال لا يكون بين طائفة وطائفة ، إنما بين أفراد هذه وأفراد هذه ، فالقتال ملحوظ فيه الجمع ﴿واقْتَتَلُوا.. (٩)﴾ [الحجرات] فإذا ما جئْنا للصُّلْح نرى أن الصُّلْح لا يتم بين هؤلاء الأفراد ، وإنما بين ممثل عن كل طائفة ، فالصُّلْح قائم بين طرفين ؛ لذلك يعود السياق للتثنية .

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ..(٩)﴾ [الحجرات]

والرَّتْق : الشيء الملتحم الملتصق ، ومعنى ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا .. (٣٠)﴾ [الأنبياء] أى : فَصَلْنَاهما وأزَحْنَا هذا الالتحام ، وما ذُكر فى التوراة من أن الله تعالى خلق جوهرة ، ثم نظر إليها فى هَيْبة ، فحصل لها كذا

وكذا في القرآن له ما يؤيده في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا .. (١١)﴾ [فصلت]

والعلماء ساعةَ يستقبلون الآية الكونية لهم فيها مذاهب اجتهادية مختلفة ؛ لأنها تتعرَّض لحقيقة الكون ، وهذا أمر قابل للخلاف ، فكلٌّ واحد منهم يأخذ منه على قَدْر ثقافته وعِلْمه .

فالعربي القديم لم يكُنْ يعرف كثيراً عن الظواهر الكونية ، لا يعرف الجاذبية ، ولا يعرف كُروية الأرض ولا حركتها ، فلو أن القرآن تعرَّض لمثل هذه الأمور التي لا يتسع لها مداركه وثقافته فلربما صرفه هذا الكلام الذي لا يفهمه ، ولك أنْ تتصوَّر لو قلتَ له مثلاً : إن الأرض كرة تدور بنا بما عليها من بحار وجبال الخ .

والقرآن بالدرجة الأولى كتاب منهج « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » لذلك كلُّ ما يتعلق بهذا المنهج جاء واضحاً لا غموض فيه ، أمَّا الأمور الكونية التي تخضع لثقافات البشر وارتقاءاتهم الحضارية فقد جاءت مُجْملةً تنتظر العقول المفكرة التي تكشف عن هذه الظواهر واحدةً بعد الأخرى ، وكأن الحق - تبارك وتعالى - يعطينا مجرد إشارة ، وعلى العقول المتأمِّلة أنْ تُكملَ هذه المنظومة .

وقد كان لعلماء الإسلام موقفان في هذه المسألة ، كلاهما ينطلق من الحب لدين الله ، والغرام بكتابه ، والرغبة الصادقة في إثبات صدْق ما جاء به القرآن من آيات كونية جاء العلم الحديث ليقول بها الآن ، وقد نزل بها القرآن منذ أكثر من أربعةَ عشر قرناً من الزمان .

الموقف الأول : وكان أصحابه مُولعين بأنْ يجدوا لكل اكتشاف جديد شاهداً من القرآن ليقولوا : إن القرآن سبق إليه وأن محمداً ﷺ صادق في بلاغه عن الله .

الموقف الثانى : أما أصحاب الموقف الآخر فكانوا يتهيَّبون من هذه المسألة خشية أن يقولوا بنظرية لم تثبت بَعْد ، ويلتمسون لها شاهداً من كتاب الله ، ثم يثبُت بطلانها بعد أنْ ربطوها بالقرآن .

والموقف الحق أن هناك فرقاً بين نظرية علمية ، وحقيقة علمية ، فالنظرية مسألة محلّ بحث ومحلّ دراسة لم تثبت بَعْد ؛ لذلك يقولون : هذا كلام نظرى أى : يحتاج إلى ما يؤيده من الواقع ، أمّا الحقيقة العلمية فمسألة وقعتْ تحت التجربة ، وثبت صدقها عملياً ووثقنا أنها لا تتغير .

فعلينا ـ إذن ـ ألاَّ نربط القرآن بالنظرية التى تحتمل الصدق أو الكذب ، حتى لا يتذبذب الناس فى فَهْم القرآن ، ويتهمونا أننا نُفسِّر القرآن حَسْب أهوائنا . أمّا الحقيقة العلمية الثابتة فإذا جاءت بحيث لا تُدفَع فلا مانعَ من ربطها بالقرآن .

من ذلك مُسألة كروية الأرض ، فعندما قال بها العلماء اعترض كثيرون وأثاروها ضجة وألَّفوا فيها كتباً ، ومنهم مَنْ حكم بكفر مَنْ يقول بذلك ؛ لأن هذه المسألة لم ينص عليها القرآن . فلما تقدم العلم ، وتوفرتْ له الأدلة الكافية لإثبات هذه النظرية ، فوجدوا الكواكب الأخرى مُدوَّرة كالشمس والقمر ، فلماذا لا تكون الأرض كذلك ؟!

كذلك إذا وقفتَ مثلاً على شاطىء البحر ، ونظرتَ إلى مركب قادم من بعيد لا ترى منها إلا طرفَ شراعها ، ولا ترى باقى المركب إلا إذا اقتربتْ منك ، عَلاَم يدلُّ ذلك ؟ هذا يدل على أن سطح الأرض ليس مستوياً ، إنما فيه تقوُّس وانحناء يدل على كُرويتها .

فلما جاء عصر الفضاء ، وصعد العلماء للفضاء الخارجى ، وجاءوا للأرض بصور ، فإذا بها كُروية فعلاً ، وهكذا تحولتْ النظرية

إلى حقيقة علمية لا تُدفع ، ولا جدال حولها ، ومَنْ خالفها حينما كانت نظرية لا يسعه الآن إلاّ قبولها والقول بها .

وما قلناه عن كُروية الأرض نقوله عن دورانها ، ومَنْ كان يصدق قديماً أن الأرض هى التى تدور حول الشمس بما عليها من مياه ومَبانٍ وغيره ؟ ولك أن تأخذَ كوزاً ممتلئاً بالماء ، واربطه بخيط من أعلى ، ثم أَدِرْه بسرعة من أسفل إلى أعلى ، تلاحظ أن فوهة الكوز إلى أسفل دون أنْ ينسكب الماء ، لماذا ؟ لأن سرعة الدوران تفوق جاذبية الأرض التى تجذب الماء إليها ، بدليل أنك إذا تهاونتَ فى دوران الكوز يقع الماء من فُوهته ، ولا بُد من وجود تأثير للجاذبية ، فجاذبية الأرض هى التى تحتفظ بالماء عليها أثناء دورانها .

أما أن نلتقط نظرية وليدة فى طَوْر البحث والدراسة ، ثم نفرح بربطها بالقرآن كما حدث أوائل العصر الحديث والنهضة العلمية ، حين اكتشف العلماءُ المجموعةَ الشمسية ، وكانت فى بدايتها سبعة كواكب فقط مُرتَّبة حسب قُرْبها من الشمس فى المركز : عطارد ، فالزهرة ، فالأرض ، فالمريخ ، فالمشترى ، فزُحَل ، فأورانوس .

وهنا أسرع بعض علمائنا الكبار - منهم الشيخ المراغى - بالقول بأنها السموات السبع ، وكتبوا فى ذلك بحوثاً ، وفى القرآن الذى سبق إلى هذا . ومرَّتْ الأيام ، واكتشف العلماء الكوكب الثامن (نبتون) ، ثم التاسع[1] .

إذن : رَبْط النظرية التى لم تتأكد بَعْد علمياً بالقرآن خطأ كبير ، ومن الممكن إذا توفَّر لهم أجهزةٌ أحدث ومجاهر أكبر - كما يقول بعض علماء الفضاء - لاكتشفوا كواكب أخرى كثيرة ، لأن مجموعتنا الشمسية هذه واحدة من مائة مليون مجموعة فى المجرة التى نسميها

---

(١) لم يتم اكتشاف كوكب (بلوتو) إلا فى عام ١٩٣٠ م . [موسوعة المعرفة - ص ٣٧] .

(سكة التبَّانة) ، والإغريق يسمونها (الطريق اللبنى)[(١)] .

وهذه الكواكب التى نراها كبيرة وعظيمة ، لدرجة تفوق تصورات الناس ، فالشمس التى نراها هذه أكبر من الأرض بمليون وربع مليون مرة[(٢)] ، وهناك من الكواكب ما يمكنه ابتلاع مليون شمس فى جوفه . والمسافة بيننا وبين الشمس ثمانى دقائق ضوئية ، وتُحسب الدقيقة الضوئية بأن تُضرب فى ستين ثانية ، الثانية الواحدة السرعة فيها ١٨٦ ألف ميل يعنى : ثلاثمائة ألف كيلومتر[(٣)] .

أما المسافة بين الأرض والمرأة المسلسلة فقد حسبوها بالسنين الضوئية لا الدقائق ، فوجدوها مائة سنة ضوئية ، أما الشِّعْرى الذى امتنَّ الله به فى قوله ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [النجم] فهو أبعد من ذلك . وهذه الكواكب والأفلاك كلها فى السماء الدنيا فقط ، فما دَخْل هذا بالسموات السبع التى تحدثوا عنها ؟!

لذلك حاول كثيرون من عُشَّاق هؤلاء العلماء أن يمحوا هذه المسألة من كتبهم ، حتى لا تكون سُبَّة فى حقِّهم وزلّة فى طريقهم العلمى .

كذلك من النظريات التى قالوا بها وجانبتْ الصواب قولهم : إن المجموعة الشمسية ومنها الأرض تكوَّنت نتيجة دوران الشمس وهى كتلة ملتهبة ، فانفصل عنها بعض (طراطيش) ، وخرج منها بعض الأجزاء التى بردتْ بمرور الوقت ، ومنها تكونت الأرض ، ولما بردتْ

---

(١) أول من وصف حزمة الضوء العريضة التى تعرف باسم الطريق اللبنى هو ديموكريتس والذى ذهب إلى أن الطريق اللبنى إنما يتكون من عدد وفير من النجوم بحيث لا يمكن لأحد أن يميز بينها ، ولقد اثبتت المناظير الفلكية الحديثة صحة ما ذهب إليه . [موسوعة المعرفة ص ٥] .

(٢) جاء فى « موسوعة المعرفة » (ص ٢٢) : « لو كانت الشمس كرة مفرغة لأمكنها أن تستوعب ١,٣٠٠,٠٠ كرة ، كل واحدة منها فى مثل حجم الأرض ، من قبل أن تمتلىء » .

(٣) أى : أن الشمس تبعد عن الأرض بحوالى ٩٤ مليون ميل ، ويصلنا ضوؤها الذى ينطلق بسرعة ١٨٦ ألف ميل فى الثانية فى أكثر من ثمانى دقائق بقليل . [موسوعة المعرفة ص ٣٦] .

الأرض أصبحتْ صالحة لحياة النبات ، ثم الحيوان ، ثم الإنسان ، بدليل أن باطن الأرض ما يزال ملتهباً حتى الآن . وتتفجر منه براكين كبركان (فيزوف)[1] مثلاً .

والقياس العقلى يقتضى أن نقول : إذا كانت الأرض قطعة من الشمس وانفصلت عنها ، فمن الطبيعى أن تبرد مع مرور الزمن وتقلّ حرارتها حتى تنتهى بالاستطراق الحرارى ، إذن : فهذه نظرية غير سليمة ، وقولكم بها يقتضى أنكم عرفتم شيئاً عن خَلْق السموات والأرض ما أخبر الله به ، وقد قال تعالى : ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٥١)﴾ [الكهف]

ثم يقول فى آية جامعة ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (٥١)﴾ [الكهف]

والمضلّ هو الذى يأخذ بيدك عن الحقيقة إلى الباطل ، وكأن الحق سبحانه يعطينا إشارة إلى ما سيكون من أقوال مُضلِّلة فى هذه المسألة تقول : حدث فى الخلق كيت وكيت .

والواجب علينا أن نأخذ هذه التفاصيل من الخالق - عز وجل - وأن نقف عند هذا الحد ، لأن معرفتك بكيفية الشىء ليست شرطاً لانتفاعك به ، فأنت تنتفع بمخلوقات الله وإن لم تفهم كيف خُلقَتْ ؟ وكيف كانت ؟ انتفعنا بكروية الأرض وبالشمس وبالقمر دون أن نعرف شيئاً عنها ، ووضع العلماء حسابات للكسوف وللخسوف والأوقات قبل أن تكتشف كروية الأرض .

فالرجل الأمىّ الذى لا يعلم شيئاً يشترى مثلاً « التليفزيون » ويتعلم كيفية تشغيله والانتفاع به ، دون أنْ يعلم شيئاً عن تكوينه أو كيفية عمله ونَقْله للصورة وللصوت .. الخ . فخُذْ ما فى الكون من

(١) يقع بركان « فيزوف » على بعد ١١ كم من مدينة نابولى بإيطاليا ، وهو عبارة عن بركان داخل بركان ، لأنه يقع فى فوهة حوض البركان الخامد المسمى مونت زوما . [موسوعة المعرفة - صفحة ١٠١٢] .

جمال وانتفع به كما خلقه الله لك دون أن تخوض فى أصل خَلْقه وكيفية تكوينه ، كما لو قُدِّم لك طعام شهىّ أتبحثُ قبل أن تأكل : كيف طُهِى هذا الطعام ؟!

وقد تباينتْ آراء العلماء حول هذه الآية ومعنى الرَّتْق والفَتْق ، فمنهم مَنْ قال بالرأى الذى قالتْه التوراة ، وأنها كانت جوهرة نظر الله إليها نظرة المهابة ، وحدث لها كذا وكذا ، وتكوَّنت السماء والأرض .

ومنهم مَنْ رأى أن المعنى خاصٌّ بكل من الأرض والسماء ، كل على حدَة ، وأنهما لم يكونا أبداً ملتحمتين ، واعتمدوا على بعض الآيات مثل قوله تعالى : ﴿فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨)﴾ [عبس]

وفى موضع آخر قال : ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢)﴾ [القمر]

فالمراد ـ إذن ـ أن الأرض وحدها كانت رَتْقاً ، فتفجرت بالنبات ، وأن السماء كانت رتْقاً فتفجرت بالمطر[1] ، فشقَّ الله السماء بالمطر ، وشَقَّ الأرض بالنبات الذى يصدعها : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢)﴾ [الطارق]

وقال عن السماء : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ .. (٢٥)﴾ [الفرقان]

---

(١) قاله عكرمة وعطية وابن زيد وابن عباس أيضاً فيما ذكر المهدوى : إن السماوات كانت رتقاً لا تمطر ، والأرض كانت رتقاً لا تنبت ، ففتق السماء بالمطر ، والأرض بالنبات [تفسير القرطبى ٦/٤٤٦٠]

على اعتبار أن السماء كُلُّ ما علاك فأظلّك ، فيكون السحاب من السماء .

نفهم من هذا الرأى أن الفَتْق ليس فَتْقَ السماء عن الأرض ، إنما فتق كل منهما على حدَة ، وعلى كل حال هو فَهْم لا يُعطى حكماً جديداً ، واجتهاد على قَدْر عطاء العقول قد تُثبته الأيام ، وقد تأتى بشىء آخر ، المهم أن القولَيْن لا يمنع أحدُهما الآخر .

وقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. (٣٠) ﴾ [الأنبياء] قال أصحاب التأويل الثانى : ما دام ذكر هنا الماء ، فلا بُدَّ أن له صلة بالرَّتْق والفَتْق فى كل من الأرض والسماء .

ونلحظ أن الآية لم تَقُلْ : كل شىء حيًّا ، إنما ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. (٣٠) ﴾ [الأنبياء] وقد استدلوا بها على أن الحىَّ المراد به الحياة الإنسانية التى نحياها ، ولم يفطنوا إلى أن الماء داخلٌ فى تكوين كل شىء ، فالحيوان والنبات يحيا على الماء فإنْ فَقَد الماء مات وانتهى ، وكذلك الأدنى من الحيوان والنبات فيه مائية أيضاً ، فكُلُّ ما فيه لمعة أو طراوة أو ليونة فيه ماء .

فالمعنى ﴿ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. (٣٠) ﴾ [الأنبياء] أى : كل شىء مذكور موجود .

والتحقيق العلمى أن لكل شىء حياةً تناسبه ، وكل شىء فيه ماء ، بدليل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

والحق سبحانه يخاطبهم وهم أحياء ، إذن : يحييكم أى : حياة أخرى لها قيمة ؛ لأن حياتكم هذه قصاراها الدنيا ، إنما استجيبوا لحياة أخرى خالدة هى حياة الآخرة .

وسُمِّي الشيء الذي يتصل بالمادة ، فتدبّ فيها الحياة روحاً ، فقال : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي .. (٢٩) ﴾ [الحجر]

وسُمِّي المنهج الذي ينزل من السماء لهداية الأرض روحاً ، وسُمِّي الملك الذي ينزل به روحاً ؛ لأنه يعطينا حياة دائمة باقية ، لا فناء لها ، وهكذا يتم الارتقاء بالحياة .

فإذا نزلنا أدنى من ذلك وجدنا للحيوان حياة ، وللنبات حياة ، فالحيوان يَنْفَق ويموت ، والنبات إنْ منعتَه الماء جَفَّ وذَبُل وانتهى . أما الجماد فله حياة أيضاً ، بدليل قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص]

فوَصَف كل ما يقال له شيء بأنه هالك ، والهلاك ضد الحياة ، فلا بُدَّ أن تكون له حياة ، ألم تقرأ قوله تعالى : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ .. (٤٢) ﴾ [الأنفال] فالحياة ضدُّها الهلاك .

إذن : فكل شيء في المخلوقات حتى الجماد له حياة ، وفي تكوينه مائية ، كما قال سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. (٣٠) ﴾ [الأنبياء]

ويختتم سبحانه هذه الآية بقوله : ﴿ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) ﴾ [الأنبياء] يعني : أعَمُوا عن هذه الآيات التي نُبِّهوا إليها ، وامتنعوا عن الإيمان ؟ فكان يجب عليهم أنْ يلتفتوا إلى هذه الآيات العجيبة والنافعة لهم ، كيف والبشر الآن يقفون أمام مخترع أو آلة حديثة أو حتى لُعبة تبهرهم فيقولون : مَنْ فعل هذه ؟ ويُؤرِّخون له ولحياته ، وتخرَّج في كلية كذا ... الخ .

فمن الأوْلى أنْ نلتفتَ إلى الخالق العظيم الذي أبدع لنا هذا الكون ، فالانصراف - إذن - عن آيات الله والإعراض عنها حالة غير طبيعية لا تليق بأصحاب العقول .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا(١) سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

الرواسى : الجبال جمع رَاسٍ يعنى : ثابت ، وقد عبر عنها أيضاً بالأوتاد ، فقال : ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾ [النبأ] شبّه الجبال بالنسبة للأرض بالأوتاد بالنسبة للخيمة .

ثم يذكر علّة ذلك : ﴿ أَن تَمِيدَ بِهِمْ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : مخافة أن تميل وتضطرب وتتحرك بهم ، ولو أنها مخلوقة على هيئة الثبوت ما كانت لتميد أو تتحرك ، وما احتاجت لأنْ يُثبِّتها بالجبال ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل]

فليس غريباً الآن أن نعرف أن للجبال حركة ، وإنْ كنا لا نراها ؛ لأنها ثابتة بالنسبة لموقعك منها ؛ لأنك تسير بنفس حركة سيرها ، كما لو أنك وصاحبك فى مركب ، والمركب تسير بكما ، فأنت لا تدرك حركة صاحبك لأنك تتحرك بنفس حركته .

وقد شبَّه الله حركة الجبال بمرِّ السحاب ، فالسحاب لا يمرُّ بحركة ذاتية فيه ، إنما يمرُّ بدفْع الرياح ، كذلك الجبال لا تمرُّ بحركة ذاتية إنما بحركة الأرض كلها ، وهذا دليل واضح على حركة الأرض .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : من حكمة الله أنْ جعل لنا فى الأرض سُبُلاً نسير فيها ، فلو أن الجبال كانت كتلة تملأ وجه الأرض ما صلُحَتْ لحياة البشر وحركتهم

(١) الفج : الطريق الواضح الواسع ، وجمعه فجاج . [القاموس القويم ٢/٧٢] . والفجاج : المسالك ، والفج : الطريق الواسع بين الجبلين . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٦٢] .

فيهـا ، فقال ﴿ فِجَاجًا سُبُلاً .. (٣١) ﴾ [الأنبياء] أي : طرقاً واسعة في الوديان والأماكن السهلة . وفي موضع آخر قال : ﴿ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا (٢٠) ﴾ [نوح]

ومعنى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا .. (٣١) ﴾ [الأنبياء] يصح في الجبال أو في الأرض ، ففي كل منهمـا طرق يسلكها الناس ، وهي في الجبال على شكل شِعَاب ووديان .

ثم يذكر سبحـانه علّة ذلك ، فيقـول : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) ﴾ [الأنبياء] والهداية هنا تحتمل معنيين : يهتدون لخالقها ومكوِّنها ، ويستدلون بها على الصانع المبدع سبحانه ، أو يهتدون إلى البلاد والأماكن والاتجاهات ، وقديماً كانوا يتخذون من الجبال دلائل وإشارات ويجعلونها علامات ، فيصفون الأشياء بمواقعها من الجبال ، فيقولون : المكان الفلاني قريب من جبل كذا ، وعلى يمين جبل كذا ، وقد قال شاعرهم :

خُذَا بَطْنَ هِرْشَى[1] أو قَفَاهَا فَإنَّهُ   كِلاَ جَانِبَى هَرْشَى لَهُنَّ طَرِيقُ[2]

فالهداية هنا تشمل هذا وذاك ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴾ [النحل] أي : يهتدون إلى الطرق والاتجاهات ، وكان العربي يقول مثلاً : اجعل الثُّريَا عن يمينك أو النجم القطبي ، أو سهيل أو غيرها ، فكانوا على علم بمواقع هذه النجوم ويسيرون على هَدْيها .

---

(١) هرشى : ثنية في طريق مكة قريبة من الجُحْفَة يُرَى منها البحر ، ولها طريقان ، فكلٌّ من سلكهما كان مصيباً . [لسان العرب ـ مادة : هرش] .

(٢) أورد ابن منظور هذا البيت في لسان العرب ، ولم يعزه لأحد . [لسان العرب ـ مادة : هرش] .

أو : يهتدون إلى أن للنجوم علاقة بحياة الإنسان الحيِّ ، وقديماً كانوا يقولون : فلان هَوَى نَجْمه ، كأن لكل واحد منا نجماً فى السماء له علاقة ما به ، وهذه يعرفها بعض المختصين ، وربما اهتدوا من خلالها إلى شىء ، شريطة أن يكونوا صادقين أمناء لا يخدعون خَلْق الله .

ويُؤيِّد هذا قوله تعالى : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)﴾ [الواقعة] أى : لو كنتم على معرفة بها لعلمتُم أن للنجوم دوراً كبيراً وعظيماً فى الخَلْق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢)﴾

سمَّى السماء سقفاً ؛ لأن السماء كل ما علاَك فأظلّك ، وفرْقٌ بين سقف من صنع البشر يعتمد على أعمدة ودعائم .. الخ ، وسقف من صُنْع الخالق العظيم ، سقف يغطى الأرض كلها ومحفوظ بلا أعمدة ، سقف مُسْتوٍ لا نتوءَ فيه ولا فتور .

والسماء أخذتْ دوراً تكوينياً خصَّها الله به كما خَصَّ آدم عليه السلام . فالخَلْق جميعاً خُلقوا بكُنْ من أب وأم ، أمّا آدم فقد خُلق خلقاً مباشراً بيد الله سبحانه ، لذلك قال تعالى : ﴿قَالَ يَٰإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ.. (٧٥)﴾ [ص] وهذا شرف كبير لآدم .

وكذلك قال فى خَلْق السماء : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ[1] ..(٤٧)﴾[الذاريات]

---

(١) بأييد : أى بقوة وقدرة . قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثورى وغير واحد . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٣٧) .

وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) ﴾ [الذاريات] يعنى : محبوكة ومحكمة ، والحبكة معناها أن ذراتها التى لا تُدرَك ملتحمة مع بعضها ، ليس التحاماً كلياً إنما التحام ذرات ؛ لذلك ترى السماء ملساء ؛ ولذلك قال عنها الخالق عز وجل : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا[1] فَسَوَّاهَا (٢٨) ﴾ [النازعات]

ولك أن تلاحظ صنعة البشر إذا أراد أحدنا أنْ يبنىَ مثلاً ، أو يصنع سقفاً ، فالبناء يُبنى بمنتهى الدقة ، ومع ذلك ترى طوبة بارزة عن طوبة ، فيأتى عامل المحارة فيحاول تسوية الجدار ، ويزنه بميزان الماء ، ومع ذلك نجد فى الجدار تعاريج ، ثم يأتى عامل الدهانات ، فيحاول إصلاح مثل هذه العيوب فيعد لها معجوناً ويكون له فى الحائط دور هام .

وبعد أن يستنفد الإنسان كل وسائله فى إعداد بيته كما يحب تأتى بعد عدة أيام ، فترى الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُعدِّل على الجميع ، ويُظهِر لهم عيوب صنعتهم مهما بلغتْ من الدِّقة بقليل من الغبار ينزل عمودياً فيُريك بوضوح ما فى الحائط من عيوب .

وإذا كانت صنعة البشر تختلف باختلاف مهارة كل منهم وحَذَقه فى عمله ، فما بالك إنْ كان الصانع هو الله الذى يبنى ويُسوِّى ويُزيِّن ؟

﴿ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا[2] مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ .. (٣) ﴾ [الملك]

وانظر إلى أمهر الصُّناع الآن ، يُسوِّى سقفاً لعدة حجرات ،

---

(١) أى : جعل سقفها مرفوعاً عالياً ، أو جعل المسافة بينها وبين الأرض بعيدة . [القاموس القويم ١/٣٢٩] .

(٢) أى : طبقة فوق طبقة . [القاموس القويم ١/٣٩٩] . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٩٦) : « أى : طبقة بعد طبقة ، وهل هُنَّ متواصلات بمعنى أنهن علويات بعضهن على بعض ، أو متفاصلات بينهن خلاء ؟ فيه قولان : أصحهما الثانى كما دل على ذلك حديث الإسراء » .

ويستخدم مادة واحدة ويلوِّنها بلون واحد ، لابُدَّ أن تجد اختلافاً من واحدة للأخرى ، حتى إنْ خلط العامل اللون مرة واحدة لكل الحجرات يأتي اللون مختلفاً ، لماذا ؟ لأنه حين يأخذ من هذا الخليط تجد ما يتبقى أكثر تركيزاً ، فإذا لم يكمل العمل في نفس اليوم تجد ما تبقَّى إلى الغد يفقد كمية من الماء تؤثر أيضاً في درجة اللون .

ومعنى ﴿مَّحْفُوظًا .. (٣٢)﴾ [الأنبياء] أي : في بنية تكوينه ؛ لأنه مُحْكَم لا اختلافَ فيه ، ولا يحفظ إلا الشيء النفيس ، تحافظ عليه لنفاسته وأصالته . لكن من أيّ شيء يحفظه الله ؟ يحفظها أن تمور ، يحفظها أن تقع على الأرض إلا بإذنه .

﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. (٦٥)﴾ [الحج]

وقال : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ .. (٢٥)﴾ [الروم]

إذن : في خَلْق السماء عظمة خَلْق ، وعظمة تكوين ، وعظمة صيانة تناسب قدرته تعالى ، ولا يقدر عليها إلا الله . فالصيانة من عندنا نحن ، ولن نترك لكم صيانتها ، وإنْ كانت لا تحتاج إلى صيانة لأنها صنعتنا .

ومن المسائل التي بيَّنها لنا الحق - سبحانه وتعالى - في أمر السماء مسألة استراق السمع ، فكانت الشياطين قبل الإسلام تسترق السمع(١) ، لكن بعد رسالة محمد ﷺ شاء الحق سبحانه ألاَّ يدلس على دعوته بسماع شيطان يُوحي إلى أعدائه ، فمنع الجن من استراق السمع بالشُّهُب ، فقال سبحانه :

---

(١) قال تعالى عن الجن أنهم قالوا : ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩)﴾ [الجن] قال ابن عباس : كان الشياطين لهم مقاعد في السماء يستمعون فيها الوحي ، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً ، فأما الكلمة فتكون حقاً ، وأما ما زادوا فيكون باطلاً ، فلما بُعث رسول الله ﷺ مُنعُوا مقاعدهم ، فذكروا ذلك لإبليس ، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك ، فقال لهم إبليس : ما هذا الأمر إلا لأمر حدث في الأرض ، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي بين جبلي نخلة ، فأتوه فأخبروه ، فقال : هذا الحدث الذي حدث في الأرض . أخرجه الترمذي وصححه والنسائي وابن جرير وأبو نعيم في دلائل النبوة . [أورده السيوطي في الدر المنثور ٨/٣٠٢]

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) ﴾ [الحجر]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) ﴾ [الأنبياء] كأن للسماء آيات خاصة بها ، ففى الكون آيات كثيرة ، وللسماء آياتها ، فالشمس والقمر والنجوم والأفلاك من آياتها .

وبعد ذلك نسمع من رجال الأرصاد أن من كواكب السماء ما لم يَصلْنا ضوؤه منذ خلق الله الأرض حتى الآن ، مع أن سرعة الضوء ثلثمئة ألف كيلومتر فى الثانية ، ويمكن أن نفهم هذا فى ضوء قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) ﴾ [الذاريات]

لذلك يعطينا رسول الله ﷺ صورة تقريبية لهذه المسألة ، حتى لا نُرهق أنفسنا بالتفكير فيها : « ما السموات والأرض وما بينهما بالنسبة لملْك الله إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة »[1] .

ومع ذلك لما صعد رواد الفضاء للقمر سارع بعض علمائنا من منطلق حُبِّهم للإسلام وإخلاصهم للقرآن بالقول بأنهم صعدوا للسماء ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) ﴾ [الرحمن]

والمراد هنا : سلطان العلم الذى مكّنهم من الصعود .

لكن ما داموا نفذوا بسلطان العلم ، فلماذا قال بعدها : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[2] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) ﴾ [الرحمن] إذن :

---

(١) أخرجه ابن حبان (٩٤ ـ موارد الظمآن) من حديث طويل لأبى ذر الغفارى وفيه « يا أبا ذر ، ما السماوات السبع مع الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على الحلقة » .

(٢) الشواظ : بضم الشين وكسرها ، القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١] .

السلطان المراد ليس هو سلطان العلم كما يظنون ، إنما المراد سلطانٌ مِنِّى ، بإذنى وإرادتىَ ،

ولو كـان الأمر كمـا يقولون لقـالوا لرسـول الله ﷺ لما أخبـرهم بالمعـراج : كيف تقول ذلك يـا محمـد وربك هو القائل : ﴿ يَـٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ[1] السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) ﴾ [الرحمن]

إذن : المـراد هنا سلطان من الله تعـالى هو سـبحـانه الذى يأذن بهذه المسألة ، فتُفتّح له أبواب السماء .

ثم مـا عـلاقـة القـمـر بالسـماء ؟ والـكلام عن النفـاذ من أقطار السمـوات ، وأين القمر من السمـاء ؟ إن المسافة بين الأرض والقـمر سنتان ضـوئيتان ، فـالقمر - إذن - مـا هو إلا ضاحيـة من ضواحى الأرض ، كـالمعـادى مثـلاً بالنسـبة للقـاهرة ، فـأىُّ سمـاء هذه التى يتحدثون عنها ؟!

وقوله تـعالى : ﴿ مُعْرِضُونَ (٣٢) ﴾ [الأنبياء] سبق أن تحـدّثنا عن الإعراض ، وهو الانصراف عن الشىء منْ أعرض يعنى: أعطاه ظهره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾

الحق - سبـحانه وتعالى - يمـتنّ ببعض خَلْقـه ، ولا يمتن الله إلا

(١) الأقطار : جـمع قُطر ، وهو الناحـية والجـانب ، فـأقطار السمـاوات والأرض : نواحـيهـا . [لسان العرب - مادة : قطر] .

بشىء عظيم ونعمة من نعمه على عباده ، ومن ذلك الليل والنهار ، وقد اقسم سبحانه بهما فى قوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل]

وقال : ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى] فالليل والنهار آيتان متكاملتان ، ليستا متضادتين ، فالأرض خلقها الله ليعمرها خليفته فيها : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. ۝٦١﴾ [هود]

أى : طلب منكم عمارتها بما أعطاكم الله من مُقوِّمات الحياة ، فالعقل المدبر ، والجوارح الفاعلة ، والقوة ، والمادة كلها مخلوقة لله تعالى ، وما عليك إلا أنْ تستخدم نِعَم الله هذه فى عمارة أرضه ، فإذا ما تَمَّتْ الحركة فى النهار احتاج الجسم بعدها إلى الراحة فى الليل .

لذلك كان النوم آية عُظْمى من آيات الله للإنسان تدلّ على أن الخالق ـ عز وجل ـ أمين على النفس أكثر من صاحب النفس .

لذلك نرى البعض منّا يُرهق نفسه فى العمل ، ولا يعطى لجسده راحته الطبيعية ، إلى أنْ يصيرَ غير قادر على العمل والعطاء ، وهنا يأتى النوم كأنه رادع ذاتىٌّ فيك يُجبرك على الراحة ، ويدقُّ لك ناقوس الخطر : أنت لستَ صالحاً الآن للعمل ، ارحم نفسك وأعطها حقَّها من الراحة . فإنْ حاولتَ أنت أنْ تنام قبل وقت النوم يتأبَّى عليك ولا يطاوعك ، أما هو فإنْ جاء أخذك من أعتى المؤثرات . وغلبك على كل شىء فتنام حتى على الحصى .

وفى المثل العربى : (فراش المتعَب وطىء ، وطعام الجائع هَنِىء) أى : حين ينام الإنسان المتعَب المجهد ينام ، ولو على

الحصى ، ولو دون أيِّ وسائل للراحة ، ومع ذلك ينام نَوْمة مريحة .

وفى المثل أيضاً : (النوم ضيف ، إنْ طلبتَه أعْنَتَكَ ، وإنْ طلبك أراحك) والحق سبحانه يُحدِّثنا عن آية النوم فى موضع آخر : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. (٢٣) ﴾ [الروم]

وهنا احتياط وملْحظ ، فإنْ كان النوم بالليل للسكن وللراحة ، فهناك مَنْ يعملون بالليل ، فينامون بالنهار كالحرّاس ورجال الشرطة والخبازين وغيرهم ، وهؤلاء لا مانعَ أن يناموا بالنهار ليسايروا حركة الحياة .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ.. (٣٣) ﴾ [الأنبياء] نعم هناك آيات أخرى كثيرة فى كَوْن الله ، لكن أوضحها وأشهرها : الشمس والقمر فهما تحت المشاهدة ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾ [الأنبياء] فالليل والنهار والشمس والقمر يدور كُلٌّ منهم خَلْفَ الآخر ويخلفه ، كما قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً .. (٦٢) ﴾[الفرقان]

وكلمة ﴿ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾ [الأنبياء] تعبير قرآنى دقيق للأداء الحركى ، وهى مأخوذة من سبحة السمك فى الماء حيث يسبح السمك فى ليونة الماء بحركة انسيابية سهلة ؛ لأن الحركة لقطع المسافات إما حركة انسيابية ، وإما حركة قفزية .

وتلاحظ هاتين الحركتين فى عقارب الساعة ، فلو لاحظتَ عقرب الثوانى مثلاً لوجدتَه يتحرّك حركة قفزية ، يعنى : ينطلق من الثبات إلى الحركة إلى الثبات ، فالزمن فيه جزء للحركة وجزء للسكون . أما عقرب الدقائق فيسير بحركة انسيابية مستمرة ، كل جزء من الزمن فيه جزء من الحركة ، وهكذا تكون سُبْحة السمك ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) ﴾ [النازعات]

وكذلك تكون حركة الظل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [الفرقان] وأيضاً حركة نمو الطفل ، فلو أدمْتَ النظر إلى طفلك الصغير لا تكاد تلاحظ عليه مظاهر النمو ، وكأنه لا يكبر أمام عينيك ، أمّا لو غبْتَ عنه مثلاً عدة شهور يمكن أن تلاحظ نُموه ؛ ذلك لأن النمو حركة مُوزّعة على كل ثانية في الزمن ، لا أن النمو يتجمع ثم يظهر فجأة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

ذلك لأن الكفار حاولوا قتل النبي ﷺ بإلقاء حجر عليه من مكان عالٍ[1] وهكذا يتخلَّصون منه ﷺ ، وكانوا يتمنون ذلك ، فيخاطبه ربه : يا مُحمد لست بدعاً من الرسل ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزمر]

وهذه سُنَّة الله في خَلْقه ، بل موتك يا محمد لنسرع لك بالجزاء على ما تحمّلْته من مشاقِّ الدعوة ، وعناء الحياة الدنيا .

لذلك لما خُيِّر رسول الله ﷺ في الموت قال : « بل الرفيق الأعلى»[2] أما نحن فنتشبث بالحياة ، ونطلب امتدادها .

---

(١) أتى رسول الله ﷺ يهود بني النضير ليعيناه في دية قتيلين قُتلا ، فقالوا : نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، ثم خلا بعضهم ببعض ، فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد - فمَنْ رجل يعلو على هذا البيت ، فيُلقي عليه صخرة فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش ، فقال : أنا لذلك ، فصعد ليلقي عليه صخرة ، فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة . فأمر ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم . [السيرة النبوية - لابن هشام ٣/ ١٩٠] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦/ ٢٧٤) من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما أسمعه يقول : إن الله لم يقبض نبياً حتى يخيره قالت : فلما حُضِر رسول الله ﷺ كان آخر كلمة سمعتها منه وهو يقول : « بل الرفيق الأعلى من الجنة » .

فقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنبياء] فأنت كغيرك من البشر قبلك ، أما مَنْ بعدك فلن يخلدوا بعد موت ﴿ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنبياء] فلا يفرحوا بموتك ؛ لأنهم ليسوا خالدين من بعدك .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

إذن : فالموت قضية كونية عامة ، وهى فى حقيقتها خَيْر ، فإنْ كانوا أخياراً نُعجِّل لهم جزاءهم عند الله ، وإنْ كانوا أشراراً فقد أراحَ اللهُ منهم البلاد والعباد .

لكن ، كيف يُذَاق الموت ؟ الذَّوْق هنا يعنى إحساسَ الإنسان بالألم من الموت ، فإنْ مات فعلاً يستحيل أنْ يذوق ، أما قبل أن يموت فيذوق مقدمات الموت ، والشاعر يقول :

وَالأَسَى بَعْد فُرْقَةِ الرُّوحِ عَجْزٌ   وَالأَسَى لاَ يكُونُ قَبْل الفِرَاقِ

فعلى أىِّ شىء يحزن الإنسان بعد أن يموت ؟ ولماذا الحزن قبل أن يموت ؟

فالمراد ـ إذن ـ ذائقةٌ مقدمات الموت ، التى يعرف بها أنه ميت ، فالإنسان مهما كان صحيحاً لابُدّ أنْ يأتى عليه وقت يدرك أنه لا محالةَ ميت ، ذلك إذا بلغت الروح الحلقوم ، كما قال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [القيامة] فالموت فى هذه الحالة أمر مقطوع به .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : نختبركم ، والابتلاء لا يُذَمُّ فى ذاته ، إنما تذم غاية الابتلاء :

أينجح فيه أم يفشل ؟ كما نختبر الطلاب ، فهل الاختبار فى آخر العام شَرٌّ ؟ لكن هل الحق سبحانه فى حاجة لأنْ يختبر عباده ليعلم حالهم ؟ الحق يختبر الخَلْق لا ليعلم ، ولكن ليقيم عليهم الحجة .

والمخاطب فى ﴿ نَبْلُوكُم .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء] الجميع : الغنى والفقير ، والصحيح والسقيم ، والحاكم والمحكوم .. الخ .

إذن : كلنا فتنة ، بعضنا لبعض : فالغنيّ فتنة للفقير ، والفقير فتنة للغنى ، كيف ؟ الفقير : هل يصبر على فقره ويرضى به ؟ هل سيحقد على الغنى ويحسده ، أم يقول : بسم الله ما شاء الله ، اللهم بارك له ، وأعطنى من خَيْرك ؟ والغنى : هل يسير فى ماله سَيْراً حسناً ، فيؤدى حقَّه ، وينفق منه على المحتاجين ؟

وهكذا ، يمكنك أنْ تُجرى مثل هذه المقابلات لتعلم أن الشر والخير كلاهما فتنة واختبار ، ينتهى إما بالنجاح وإما بالفشل ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء] لنجازى كُلاً على عمله ، فإنْ حالفك التوفيق فلَكَ الأجر والمكافأة ، وإنْ أخفقتَ فلَكَ العقوبة ، فلا بُدَّ أن تنتهى المسألة بالرجوع إلى الله .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى[1] :

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : « مرّ النبى ﷺ على أبى سفيان وأبى جهل وهما يتحدثان ، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبى سفيان : هذا نبى بنى عبد مناف . فغضب أبو سفيان فقال : ما تنكرون أن يكون لبنى عبد مناف نبى ، فسمعها النبى ﷺ فرجع إلى أبى جهل فوقع به وخوّفه وقال : ما أراك منتهياً حتى يصيبك ما أصاب عمك . وقال لأبى سفيان : أما إنك لم تقل ما قلت إلا حمية » فنزلت هذه الآية ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا ..﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنبياء] . الآية » أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ٦٣٠) .

هذا خطاب لرسول الله ﷺ عن واقعٍ حدثَ له مع الكفار : ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنبياء] و (إنْ) هنا ليست شرطية ، إنما للنفى كما فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ .. ﴿٢﴾ ﴾ [المجادلة] أى : ما أمهاتهم إلا اللائى ولَدْنهم .

فالمعنى : إذا رآك الذين كفروا لا يتخذونك إلا هُزُواً ، أى : يهزأون بك ، لكن ما وَجْه الهُزْو هنا ؟

قولهم : ﴿ أَهَـٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : يعيبها ويسبُّها ، ويقول عنها : إنها باطلة ومعنى ﴿ أَهَـٰذَا .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنبياء] كأنهم يستقلّونه ، ويستقلّون أنْ يقول هذا عن آلهتهم .

والذكر قد يكون بالخير ، وقد يكون بالشر ، فإنْ ذكرك صديق تتوقع أنْ يذكرك بخير ، وإنْ ذكرك عدو تتوقع أنْ يذكرك بشرٍّ ، وطالما أن محمداً سيذكر آلهتهم ، فلا بُدَّ أنه سيذكرها بشرٍّ ، والشر الذى ذكره محمد عن آلهتكم أنها أصنام وحجارة لا تضرُّ ولا تنفع :

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [فاطر]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنبياء] فكيف تتعجبون وتغضبون أنْ يسُبَّ محمد آلهتكم الباطلة ، وأنتم تسبُّون الإله الحق ، وتكفرون به ، ونلحظ أن السياق ذكر الضمير العائد عليهم مرتين : ﴿ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنبياء] ليؤكد أن ذلك حدث منهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ[1] سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ﴾

معنى : ﴿ مِنْ عَجَلٍ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : مُتعجِّلاً كأن فى طينته عجلة ، والعجلة أن تريد الشىء قبل نُضْجه وقبل أوانه ، وقد يتعجَّل الإنسان الخير ، وهذا أمر جائز ، أما أنْ يتعجَّل الشر فهذا هو الحمق بعينه والغباء ، ألم يقولوا لرسول الله : ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنبياء]

ألم يقولوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال]

إذن : تعجَّل هؤلاء العذاب ؛ لأنهم غير مؤمنين به ، لا يُصدِّقون أن شيئاً من هذا سيحدث ؛ لذلك يردُّ عليهم : ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنبياء] وخاطب نبيه ﷺ بقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر]

أى : سنُريك فيهم آياتنا ، وسترى ما وعدناهم من العذاب ، فإنْ قبضناك إلينا فسترى ما ينزل بهم فى الآخرة .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

---

(١) أى : طبع الإنسان العجلة ، فيستعجل كثيراً من الأشياء وإن كانت مضرة . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٦٥] .

وهذا استبطاء منهم لوَعْد الله بالآخرة والعَرْض عليه سبحانه ، وأنه سيُعذِّبهم بالنار التى تُنضج جلودهم ، ويُبدِّلهم الله جلوداً غيرها .. الخ ؛ لأنهم لا يُصدِّقون هذا ولا يؤمنون به ، وسبق أنْ قالوا لرسول الله : ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢)﴾ [الإسراء]

ثم يقول تعالى :

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩)﴾

أى : لو يعلمون ما يحدث لهم فى هذا الوقت حين لا يستطيعون دَفْع النار عن وجوههم ، وذكر الوجه بالذات لأنه أشرف أعضاء الإنسان وأكرمها ؛ لذلك إذا أصابك أذىً فى وجهك تحرص على إزالته بيدك ، وأنت لم تفعل أكثر من أنك نقلْتَ الأذى من وجهك إلى يدك ، لماذا ؟ لأن الوجه عزيز عليك ، لا تقبل إهانته ، ولا تتحمَّل عليه أىَّ سوء.

فقوله تعالى : ﴿لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ .. (٣٩)﴾ [الأنبياء] دلالة على إهانتهم ﴿وَلا عَن ظُهُورِهِمْ .. (٣٩)﴾ [الأنبياء] لأنها تأتيهم من كل مكان : ﴿وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩)﴾ [الأنبياء] أى : لا يجدون مَنْ ينقذهم ، أو يأخذ بأيديهم ويدفع عنهم .

حتى الشيطان الذى أغواهم وأغراهم فى الدنيا سيتبرّأ منهم يوم القيامة ، ويقول : ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢)﴾ [إبراهيم] وأصرخه : أزال سبب صراخه ، والهمزة فى أصرخه تسمى

همزة إزالة ، تقول : صرخ فلان إذا وقع عليه ما هو فوق طاقته واحتماله ، فيصرخ صرخةً يستدعى بها مَنْ يغيثه ويُعينه ، فإنْ أجابه وأزال ما هو فيه فقد أصرخه ، يعنى : أزال سبب صراخه . فالمعنى : لا أدافع عنكم ، ولا تدافعون عنى ، ولا أنقذكم من العذاب ، ولا تنقذوننى .

وفى موضع آخر : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) ﴾ [الحشر] فحظُّ الشيطان أنْ يُوقعك فى المعصية ، ثم يتبرأ منك .

فما جواب (لو) هنا ؟ المعنى : لو يعلم الذين كفروا الوقت الذى لا يكفُّون فيه النار عن وجوههم ، ولا عن ظهورهم ولا يُنصرون لكفُّوا عما يُؤدِّى بهم إلى ذلك ، وانتهَوْا عن أسبابه .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠) ﴾

أى : القيامة ، والبغتة : نزول الحدث قبل توقعه لذلك ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ .. (٤٠) ﴾ [الأنبياء] من البهت : أى : الدهشة والحيرة ، فإذا ما باغتتهم القيامة يندهشون ويتحيرون ماذا يفعلون ؟ وأين يفرون ؟

والبغتة تمنع الاستعداد والتأهُّب ، وتمنع المحافظة على النفس . ومن ذلك ما كانوا يفعلونه أوقات الحروب من صافرات الإنذار التى تُنبِّه الناس إلى حدوث غارة مثلاً ، فيأخذ الناس استعدادهم ، ويلجئون إلى المخابىء ، أمَّا إن داهمهم العدو فجأة فلن يتمكنوا من

ذلك ، ولن يجدوا فرصة للنجاة من الخطر .

ومن البَهْت قوله تعالى فى قصة الذى حَاجَّ إبراهيم عليه السلام فى ربه : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠) ﴾ [الأنبياء] أى : لا يُمهلُون ولا يُؤخَّرون ، فليست المسألة تهديداً وننصرف عنهم إلى وقت آخر ، إنما هى الأَخْذة الكُبْرى التى لا تُرَدُّ عنهم ولا تُؤخَّر .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٤١) ﴾

سبق أنْ خاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ بقوله : ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً ..(٣٦) ﴾ [الأنبياء] لذلك يُسلِّيه هنا : لست بدعاً من الرسل ، فَخُذْ هذه المسألة بصدر رَحْب ، فلقد استهزىء بالرسل من قبلك فلا تحزن ، فسوف يحيق بهم ما صنعوا ، ويجدون عاقبة هذا الاستهزاء .

كما جاء فى قصة نوح عليه السلام : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ .. (٣٨) ﴾ [هود] فيردُّ نوح : ﴿ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) ﴾ [هود] أى : انتظروا النهاية ، وسوف ترون !!

ومعنى ﴿ فَحَاقَ.. (٤١) ﴾ [الأنبياء] أى : حَلَّ ونزل بقسوة ﴿ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٤١) ﴾ [الأنبياء]

وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) ﴾ [المطففين] أى : مسرورين فرحين ، وهذا دليل على لُؤْمهم ورذالة طباعهم ، فلم يكتفوا بالاستهزاء ، وإنما يحكونه ويتبجحون به .

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

هل استطعنا أنْ نُجازيهم بما عملوا ؟ نعم يا ربّ .

ولا ننسى أن استهزاء الكفار بأهل الحق استهزاء موقوت بوقته فى الدنيا ، أمّا استهزاء الله بهم فاستهزاء أبدىّ لا نهايةَ له . ويجب هنا أن نتنبه لهذه المسألة ، فكثيراً ما يتعرض أهل الإيمان للاستهزاء وللسخرية من أهل الباطل ، وهؤلاء الذين يسخرون منهم لأجلهم يصون الله لهم الحياة ويدفع عنهم العذاب ، كما جاء فى الحديث القدسى : « فلولا أطفال رُضَّع ، وشيوخ رُكّع ، وبهائم رُتَّع[1] لصببتُ عليكم العذاب صباً »[2] .

فحين ترى تقياً ، فإذا لم تشكره على تقواه وتقتدى به فلا أقلَّ من أنْ تدعَه لحاله ، لا تهزأ به ، ولا تسخر منه ؛ لأن فى وجوده

(١) الرُّتْع : الرعى فى الخصب ، ورتعَتْ الماشية : أكلت ما شاءت ، وجاءت وذهبت فى المرعى نهاراً . [لسان العرب ـ مادة : رتع] .

(٢) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/٢٢٧) من حديث أبى هريرة وعزاه للبزار والطبرانى فى الأوسط إلا أنه قال : « لولا شباب خشع ، وشيوخ ركع ، وأطفال رضع ، وبهائم رتع ، لصب عليكم العذاب صباً » وفيه : إبراهيم بن خيثم وهو ضعيف .

استبقاءً لحياتك وأمْنكَ ، وأقل ما يمكنك أنْ تُقيِّم به التقى : يكفيك منه أن أمنتَ شرَّه ، فلنَ يعتدى عليك ، ولن ترى منه شيئاً يسوؤك .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

أى : يرعاكم ويحفظكم ، وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يُجرى مقارنة بين إنعامه سبحانه على عباده وما يقابلونه به من جحود ونكران وكفران ، أنتم تكفرون بالله وتُؤذُون الصالحين من عباده وتسخرون منهم ، وهو سبحانه الذى ﴿ يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : كلاءة صادرة من الله الرحمن .

كما فى قوله تعالى : ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد] فليس المراد أنهم يحفظونه من أمر الله الذى أراده الله فيه ؛ لأن الحفْظَ صادر من الله ، والحفَظة مكلّفون من قبله تعالى بحفظكم ، وليس تطوُّعاً منهم . وكلاءة الله لك وحفْظه إياك فى النهار وفى الليل وأنت نائم عليك حَفَظة يحفظونك ، ويدفَعون عنك الأذى .

وكثيراً ما نسمع أن بعض الناس قام من نومه فوجد ثعباناً فى فراشه ، ولم يُصبْه بسوء ، وربما فزع لرؤيته فأصابه مكروه بسبب هذا الخوف ، وهو لا يعلم أن الثعبان لا يؤذيه طالما أنه لم يتعرَّض له ، وهذا من عجائب هذه المخلوقات أنها لا تؤذيك طالما لا تؤذيها . إذن : لا أحدَ يرقبك ويحفظك فى نومك ممَّا يُؤذيك إلا الحق سبحانه .

وكلاءة الله لكم لا تقتصر على الحفْظ من المعاطب ، فمن كلاءته سبحانه أن يمدّكم بمقوّمات الحياة ، فالشمس بضوئها ، والقمر

بنوره ، والأرض بنباتها ، والسماء بمائها . ومع هذا تكفرون به ، وتسخرون من رسله وأهل طاعته ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنبياء] وما كان يصحّ أنْ يغيبَ ذِكْره تعالى عنهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

ألَهم آلهة أخرى تمنعهم من الإيمان بالله ؟ هؤلاء الآلهة لا يستطيعون نَصْر أنفسهم ، وكيف ينصرون أنفسهم ، وهى أصنام من حجارة نحتَها عُبَّادها على أشكال اختاروها ؟ كيف ينصرون أنفسهم ، ولو أطاحت الريح بأحدهم لاحتاج لمَنْ يرفعه ويقيمه ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنبياء] كانوا قديماً فى البادية ، إذا فعل أحدهم ذنباً ، أو فعل فَعْلة فى إحدى القبائل ، واحتاج إلى المرور عليهم فى طريقه يذهب إلى واحد قوىّ يصاحبه فى مشواره ، ويحميه منهم إلى أنْ يمرَّ على ديارهم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الشعراء]

فالمراد : يصحبه كى يحميه بهذه الصُّحْبة وينجو من العذاب ، فهؤلاء لن نكون فى صُحْبتهم لننجيهم ، ولا أحدَ يستطيع أن يصحبهم لينجيهم من عذابنا ، فلا هذه ولا تلك .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

أى : أنهم مكثوا فترة طويلة من الزمن يتقلَّبون فى نعَم الله ، لكن انظروا ماذا حدث لهم بعد ذلك ، فخذوا منهم عبرةً : ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا[1] الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا .. ﴿٩﴾﴾ [الروم]

ومع ذلك أُخذوا أَخْذ عزيز مقتدر ، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا[2] آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام]

ثم يقول سبحانه : ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. ﴿٤٤﴾﴾ [الأنبياء]

وفى موضع آخر : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ [الرعد]

---

(١) أثار الأرض : حرثها وشقها وقلَّبها للزراعة أو لغيرها كاستخراج المعادن أو استنباط المياه . [القاموس القويم ١/١١٣] .

(٢) القرن : الأمة تأتى بعد الأمة . والقرن من الناس : أهل زمان واحد . قال الأزهرى : الذى يقع عندى والله أعلم أن القرن أهل كل مدة كان فيها نبى أو كان فيها طبقة من أهل العلم ، قلَّتْ السنون أو كثرت » . [لسان العرب ـ مادة : قرن] .

وهذه آية من الآيات التى وقف عندها بعض علمائنا من المعنيين بعلميات القرآن ، فلما أعلن العلماء أن الأرض بيضاوية الشكل ، وليست كاملة الاستدارة ، يعنى : أقطارها مختلفة بالنسبة لمركزها ، سارع بعضهم من منطلق الغَيْرة على دين الله ومحاولة إثبات صدْق القرآن ، وأنه سبق إلى ذكْر هذه المسألة فقالوا : لقد ذكر القرآن هذا الاكتشاف فى قوله تعالى : ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤٤)﴾ [الأنبياء] يعنى : من ناحية خط الاستواء ، لا من ناحية القطبين .

وغفل هؤلاء أن الآية تقول : ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ..(٤٤)﴾ [الأنبياء] لا من طرفها ، فالنقص من جميع الأطراف ، فمثْل هذه الأقوال تفتح الباب للطعن فى القرآن والخوْض فيه .

ونتساءل ﴿أَفَلا يَرَوْنَ .. (٤٤)﴾ [الأنبياء] رأى هنا علمية أم بصرية ؟ لو قلنا : إنها بصرية فهذه ظاهرة لم تُعْرَف إلا فى القرن العشرين ، ولم ينتبه لها أحد قبل ذلك ، إذن : فهى ليست بصرية . وأيضاً ليست علمية ، فلم تصل هذه المعلومة إلى هؤلاء ، ولم يكُنْ العرب حينذاك أمةَ علم ، ولا أمة ثقافة ، ولا شىء من ذلك أبداً . فإذا ما استبعدنا هذا التفسير ، فما المعنى المناسب ؟

نقول : إنْ كانت رأى بصرية ، فقد رأوا هذه الظاهرة فى الأمم السابقة ، وقد كانوا يصادمون دين الله ويحاربونه ؛ لأنه جاء ليقضى على سلطتهم الزمنية ، ويجعل الناس سواء ، ومع ذلك كان الدين ينتشر كل يوم وتزيد رقعته وتقلّ رُقعة الكفر .

فالمعنى : ننقص أرض الكفر إما من الناس ، أو من العمائر التى تُهدم وتُخرب بالزلازل والخسف وغيره ، فننقص الأرض ، وننقص

الناس ، وننقص مظاهر العمران فى جانب الكفر ، وهذا النقص هو نفسه الزيادة فى أرض الإيمان[1] . وهذه الظاهرة حدثت فى جميع الرسالات .

فإنْ قال قائل : كيف نقبل هذا التفسير ، وزيادة أرض الإيمان لم تحدث إلا بعد الهجرة ، والآية مكية ؟ نقول : كَوْن الآية مكية لا يقدح فى المعنى هنا ، فليس من الضرورى أن يَرَوْا ذلك فى أنفسهم ، ويكفى أنْ يروها فى الأمم السابقة ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) ﴾ [الصافات]

وقال : ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) ﴾ [الفجر]

وإن اعتبرنا (رأى) علمية ، فقد علموا ذلك من أهل الكتاب ممَّنْ تحالفوا معهم ، فما حدث للأمم السابقة سيحدث لكم .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤) ﴾ [الأنبياء] يعنى : أفلم يشاهدوا أنَّا ننقص الأرض من أطرافها ، أم أن هذا لم يحدث ، وهم الغالبون ؟ أيهما الغالب : رسل الله ، أم الكافرون ؟ الإجابة أنهم غُلِبوا واندحروا ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات] وقال : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٥١) ﴾ [غافر]

ويخاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥) ﴾

---

(١) قال ابن عباس : أولم يروا أنَّا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض . وقال الحسن والضحاك : هو ظهور المسلمين على المشركين . وقال عكرمة : لو كانت الأرض تنقص لم تجد مكاناً تقعد فيه ، ولكن هو الموت . وقال ابن كثير فى تفسيره (٢ / ٥٢٠) : « القول الأول أولى ، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية وهذا اختيار ابن جرير » .

أى : أن رسول الله ما أبلغكم بشيء من عند نفسه ، إنما كل ما جاء به من وعد ووعيد فهو من عند الله ، وأنتم أنفسكم تؤكدون على بشريته ، نعم هو بشر لا يعلم شيئاً كما تقولون ، وهذه تُحسَبُ له لا عليه ، إنما ربه يوحى إليه .

فلو قال محمد : إنما أنذركم .. لكان لكم حق أنْ تتشكَّكوا ، إنما القائل هو الله ، وأنا مجرد مُبلِّغ عن الله الذى يملك أعنَّة الأحداث ، فإذا قال بوجود حدث فلا بُدَّ أنْ يقع .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الأنبياء]

وحاسّة السمع هى أول معلوميات الإنسان ، وأول حواسه عملاً ، وقبل أن يتكلم الطفل لا بُدَّ أنْ يسمع أولاً ، لينطق ما سمعه ؛ لأن السمع هو الإدراك الأول المصاحب لتكوين الإدراكات ، والأذن ـ كما قلنا ـ تسبق العين فى أداء مهمتها .

لذلك قدَّمه الحق سبحانه ، فقال : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء]

والسمع هو الآلة التى لا تتعطّل عن مهمتها ، حتى ولو كان الإنسان نائماً ؛ لأن به يتم الاستدعاء ؛ لذلك لما أراد الحق سبحانه أنْ يُنيم أهل الكهف هذه المدة الطويلة ضرب على آذانهم ، وعطّل عندهم حاسة السمع حتى لا تُزعجهم أصوات الطبيعة خارج الغار ، فقال : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الكهف]

ومعنى : ﴿ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ.. ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنبياء] صحيح أنهم يسمعون ، وآلة السمع عندهم صالحة للعمل ، إلا أنه سماعٌ لا فائدةَ

منه ، ففائدة السمع أنْ تستجيب لمن يُحدِّثك ، فإذا لم تستجبْ فكأنك لم تسمع ، وإذا أمرتَ العامل مثلاً بشيء فتغافل عنه تقول له : أأنت أطرش ؟ ولذلك سماهم القرآن : صُمّاً .

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الانبياء] أى : لَيْتهم يتغافلون عن نداء عادى ، إنما يتغافلون وينصرفون ﴿ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الانبياء] حين يُخوِّفهم عذاب الله ، والإنذار والتحذير أَوْلَى ما يجب على الإنسان الاهتمام به ، ففيه مصلحته ، ومن الغباء ألاَّ يهتم به ، كما لو أنذرتَ إنساناً وحذَّرْتَه من مخاطر طريق ، وأن فيه ذئاباً أو أُسُوداً أو ثعابين أو قطاعَ طريق ، فلا يهتم بكلامك ، ولا يحتاط للنجاة بنفسه .

وقلنا : إن الإنذار : أنْ تخبر بشرٍّ قبل أوانه ، ليستعد لتلافيه ، لا أنْ تنذره ساعة الحادث فلا يجد فرصة .

إذن : المسألة ليست طبيعة فى التكوين ، إنما توجيه إدراكات ، كأنْ تكلِّم شخصاً فى أمر لا يعجبه ، فتجده « اذن من طين ، وأذن من عجين »ينصرف عنك كأنه لم يسمع شيئاً ، كأحدهم لما قال لصاحبه : فيك مَنْ يكتم السر ؟ قال : نعم سِرُّك فى بير ، قال : أعطنى عشرة جنيهات ، فردَّ عليه : كأنِّى لم أسمع شيئاً !!

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

الآن فقط تنبهتم ووَعَيْتُم ؟ الآن بعد أن مسَّكم العذاب ؟

ومعنى : ﴿مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ .. ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء] أى : مساً ولمساً خفيفاً ، والنفحة : هى الريح اللينة التى تحمل إليك آثارَ الأشياء دون حقيقتها ، كأن تحمل لك الريحُ رائحةَ الورود مثلاً ، هى لا تحمل لك الورود نفسها ، إنما رائحتها ، وتظل الورود كما هى .

كذلك هذه المسَّة من العذاب ، إنها مجرد رائحة عذاب ، كما نقول لفح النار الذى نشعر به ، ونحن بعيدون عنها .

والنفحة : اسم مرَّة أى : تدل على حدوثها مرة واحدة ، كما تقول : جلس جلسة أى : مرة واحدة ، وهذا أيضاً دليل على التقليل . (فمسَّتْهُمْ) تقليل و (نَفْحَة) تقليل ، وكونها مرة واحدة تقليل آخر ، ومع ذلك يضِجُّون ويجأرون ، فما بالك إنْ نزل بهم العذاب على حقيقته ، وهو عذاب أبديّ ؟!

وقوله تعالى : ﴿لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء] الآن ينطقون ، الآن يقولون كلمة الحق التى طالما كتموها ، الآن ظهرتْ حساسية الإدراك لديهم ، فمن أقلِّ القليل ومن رائحة العذاب يجأرون ، وأين كان هذا الإدراك ، وهذه الحساسية من قبل ؟ إذن : المسألة ـ كما قلنا ـ ليست طبيعة تكوين ، إنما توجيه إدراكات .

وقولهم : ﴿يَـٰوَيْلَنَا .. ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء] إحساس بما هم مُقبلون عليه ، وهذا القول صادر عن مواجيد فى النفس وفى الذِّهْن قبل أن ينطق بالكلمة ، ثم يُقرُّون على أنفسهم ويعترفون : ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء]

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ(١) أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

نقلهم الحق سبحانه من إنكار وتكذيب وتسفيه كلام الرسول ، وعدم الإيمان بالوحى ، وصَمِّ آذانهم عن الخير إلى مسألة الحساب والميزان القسط ، فلماذا هذه النَّقْلة ؟ ليُنبههم ويلفت أنظارهم إلى أن هذا الكلام الذى قابلتموه بالتكذيب والتشكيك كان لمصلحتكم ، وأن كل شىء محسوب ، وسوف يُوزَن عليكم ويُحْصَى ، وكأنه ينصحهم ، فما تزال رحمانية الله بهم وحِرْصه على نجاتهم .

وكلمة (موازين) جمع : ميزان ، وهو آلة نُقدِّر بها الأشياء من حيث كثافتها ؛ لأن التقدير يقع على عدة أشياء : على الكثافة بالوزن ، وعلى المسافات بالقياس .. الخ ، وقد جعلوا لهذه المعايير ثوابت ، فمثلاً : المتر صنعوه من البلاتين حتى لا يتآكل ، وهو موضوع الآن - تقريباً - فى باريس ، وكذلك الياردة . وجعلوا للوزن معايير من الحديد : الكيلو والرطل .. الخ .

وقديماً كانوا يَزِنُون قطعةً من الحجارة تساوى كيلو مثلاً ، ويستعملونها فى الوزن ؛ لأن لها مرجعاً ، لكن هذه القطعة تتآكل من كثرة الاستعمال ، فلا بُدَّ من تغييرها .

---

(١) الخردل : نبات له حَبٌّ صغير جداً ، وإذا جفَّت حبة الخردل كانت نهاية فى الصغر ، وهو نبات عُشبى تستعمل بذوره فى الطب . ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء] . أى : إن كان عمل الإنسان فى الخير أو الشر صغيراً قليلاً فى وزن حبة واحدة من الخردل أحضرها الله يوم الحساب وحاسبه عليها . [القاموس القويم ١/ ١٩٠] .

وهنا تكلَّم عن الشىء الذى يُوزَن ، ولم يذكر المعايير الأخرى ، قالوا : لأن الأشياء التى لها كثافة هى الأكثر ، وكانوا يختبرون الأولاد يقولون : كيلو الحديد أثقل ، أم كيلو القطن ؟ فالولد ينظر إلى القطن فيراه هَشّاً مُنتفشاً فيقول : القطن ، والقطن أزيد من الحديد فى الحجم ، لكن كثافته يمكن أن تستطرق ، فنُرقّق القطن إلى أن يتحول إلى مساحة طول وعرض . إذن : العُمْدة فى التقدير : الثقل .

وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ[1] الْمِيزَانَ ۝٧﴾ [الرحمن] فهل هى موازين متعددة ، أم هو ميزان واحد ؟

الخَلْق جميعاً سيُحاسبون مرة واحدة ، فلن يقفوا طابوراً ينتظر كل منهم دَوْره ، بل فى وقت واحد ؛ لذلك لما سُئل الإمام على ـ كرَّم الله وجهه : كيف يُحاسب الله الخَلْق جميعاً فى وقت واحد ؟ قال : كما يرزقهم جميعاً فى وقت واحد . فالمسألة صعبة بالنسبة لك ، إنما سهلة ميسورة للحق سبحانه .

والقسْط : صفة للموازين ، وهى مصدر بمعنى عدل ، كما تقول فى مدح القاضى : هذا قاضٍ عادل . أى : موصوف بالعدل ، فإذا أردتَ المبالغة تقول : هذا قاضٍ عَدْل ، كأنه هو نفسه عَدْل أى (معجون بالعدل) ؛ لذلك نقول فى أسماء الحق سبحانه : الحكم العدل . ولا نقول : العادل .

وهذه المادة (قسط) لها دور فى اللغة ، فهى من الكلمات المشتركة التى تحمل المعنى وضده ، مثل (الزوج) تُطلق على

---

(١) قال الإمام أبو يحى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » (ص ٤٠٥) : « قرن وضع الميزان برفع السماء ؛ لأنه تعالى عدَّد نعمه على عباده ، ومن أجلّها الميزان ، الذى هو العدل ، الذى به نظام العالم وقوامه » .

الرجل والمرأة ، و (العَيْن) تطلق على : العين الباصرة ، وعلى عين الماء ، وعلى الجاسوس ، وعلى الذهب والفضة .

كذلك (القسْط) نقول : القسْط بالكسر مثل : حمْل بمعنى العدل من قَسَط قسْطاً . ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) ﴾ [المائدة] ونَقول : القَسْط بالفتح يعنى : الظلم من قسط قُسوطاً وقَسْطاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) ﴾ [الجن] أى : الجائرون الظالمون .

والقسْط بمعنى العدل إذا حكم بالعدل أولاً وبداية ، لكن أقسط يعنى كان هناك حكم جائر فعدَّله إلى حكم بالعدل فى الاستئناف .

ومن هذه المادة أيضاً قوله تعالى : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الأحزاب] فأقسط هنا : أفعل تفضيل ، تدل على أن حكم محمد ﷺ فى مسألة زيد كان عَدْلاً وقِسْطاً ، إنما حكم ربه تعالى هو أقسط وأعدل .

ومعلوم من قصة زيد بن حارثة أنه فضَّل رسول الله واختاره على أهله ، وكان طبيعياً أنْ يكافئه رسول الله على محبته وإخلاصه ويُعوِّضه عن أهله الذين آثر عليهم رسولَ الله ، وكانت المكافأة أن سماه زيد بن محمد .

إذن : الحق سبحانه عدل لرسوله ، لكن عدل له العدل لا الجوْر ، وعَدْل الله أَوْلى من عدل محمد لذلك قال : ﴿ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الأحزاب] أما عندكم أنتم فقد صنع محمد عَيْن العَدْل .

وقوله تعالى : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ .. (٥) ﴾ [الأحزاب] جاء ليبطل التبنى ؛ ليكون ذلك مقدمة لتشريع جديد فى الأسرة والزواج والمحارم وأمور كثيرة فى شرع الله لا تستقيم فى وجود هذه

المسألة ، وإلاّ فكيف سيكون حال الأسرة حين يكبر المتبنّى ويبلغ مَبْلغَ الرجال ؟ وما موقفه من الزوجة ومن البنت ، وهو فى الحقيقة غريب، عن الأسرة ؟

ومسألة الموازين هذه من المسائل التى وجد فيها المستشرقون تعارضاً فى ظاهر الآيات ، فجعلوا منها مأخذاً على كتاب الله ، من ذلك قولهم بالتناقض بين الآيتين : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ.. (٤٧)﴾ [الأنبياء] وقوله تعالى : ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا(١٠٥)﴾ [الكهف] حيث أثبت الميزان فى الأولى ، ونفاه فى الثانية .

وقلنا : إن هؤلاء معذورون ؛ لأنهم لا يملكون الملكَة اللغوية التى تمكِّنهم من فَهْم كلام الله . ولو تأملنا اللام فى ﴿نُقِيمُ لَهُمْ .. (١٠٥)﴾ [الكهف] لانحلَّ هذا الإشكال ، فاللام للملك والانتفاع ، كما يقولون فى لغة البنوك : له وعليه . والقرآن يقول : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. (٢٨٦)﴾ [البقرة]

فالمعنى : ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾ [الكهف] أى : وزناً فى صالحهم ، إنما نقيم عليهم ونَدينهم . كذلك نجد أن كلمة الوزن تُستعمل فى اللغة إمَّا لوزن المادىّ ، أو لوزن المعنى ، كما نقول : فلان لا وَزْنَ له فى الرجال .

وعلى هذا يكون المعنى : أنهم لا وَزْنَ لذواتهم ومادتهم ، إنما الوزن لأعمالهم ، فلا نقول : كان من الأعيان ، كان أصله كذا وكذا ، وهذه المسألة واضحة فى قصة ابن نوح عليه السلام : ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾ [هود]

فالبنوة هنا بُنوّة عمل وإيمان ، لا بُنوة ذات .

وقد ظَنَّ الكفار والعصاة أن لهم وَزْناً عند الله ، ومنزلة ستكون لهم فى الآخرة ، كما كانت لهم فى الدنيا ، كما جاء فى قصة صاحب الجنتين الذى قال لأخيه متباهياً مفتخراً :

﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَداً (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً (٣٦) ﴾ [الكهف]

لكن هيهات أنْ يكون لهم وَزْنٌ فى الآخرة ، فالوزن فى القيامة للأعمال ، لا للأعيان .

إذن : المعنى لا نقيم لذواتهم ، إنما نزن أعمالهم ؛ لذلك قال النبى ﷺ لقرابته : « لا يأتينى الناس بأعمالهم ، وتأتونى بأحسابكم »[1] .

وقال ﷺ :« يا فاطمة بنت محمد اعملى فإنِّى لا أغنى عنك من الله شيئاً »[2]

فالذوات والأحساب والأنساب لا قيمةَ لها فى هذا الموقف .

وقوله تعالى : ﴿ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً .. (٤٧) ﴾ [الأنبياء] مع أن القاعدة : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ .. (١٩٤) ﴾ [البقرة] وهؤلاء قد ظلموا الحق سبحانه ظُلْماً عظيماً حين أشركوا به ، وظلموا رسول الله لما قالوا عنه : ساحر ، وكاذب ومجنون ، ومع ذلك فلن نردّ هذا الاعتداء بمثله بظلمهم .

---

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن أوليائى يوم القيامة هم المتقون ، وإن كان نسب أقرب من نسب ، لا يأتى الناس بالأعمال ، وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم ، وتقولون : يا محمد ، فأقول هكذا ، وأعرض فى عطفيه » . أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (١/ ٩٤) .

(٢) عن حذيفة قال : جئت إلى النبى ﷺ والعباس جالس عن يمينه وفاطمة ـ رضى الله عنها ـ عن يساره . فقال : يا فاطمة بنت رسول الله ﷺ اعملى لله خيراً ، فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً يوم القيامة » . أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/ ٤٩) وعزاه للبزار .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا .. (٤٧) ﴾ [الأنبياء] والخردل : مثال للصِّغَر ، للدلالة على استقصاء كل شيء ، ولا يزال الخردل هو المقياس العالمى للكيلو ، فقد وجدوا حَبَّ الخردل مُتَساوِياً فى الوزن ، فأخذوا منه وحدة الكيلو الآن ، وقد أتى بها القرآن منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان .

ومعنى : ﴿ أَتَيْنَا بِهَا .. (٤٧) ﴾ [الأنبياء] أى : لهم أو عليهم ، فإنْ كانت لهم علموا أنَّ الله لا يظلمهم ، ويبحث لهم عن أقلِّ القليل من الخير ، وإنْ كانت عليهم علموا أن الله يستقصى كل شيء فى الحساب ، وحَبَّة الخردل تدل فى صغَرها على الحجم ، وكلمة مثقال تدل على الوزن ، فجمع فيها الحجم والوزن .

ثم يُعقِّب سبحانه على هذه المسألة : ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) ﴾ [الأنبياء] فلا أحدَ يُجيد هذه المسألة ويُدقِّقها كما نفعل نحن ، فليست عندنا غفلة بل دِقَّة وضَبْط لمعايير الحساب .

ولا تظن أن مسألة الحساب والميزان مسألة سهلة يمكن أن تصل فيها إلى الدقة الكاملة مهما أخذتَ من وسائل الحيطة ، فأنت بشر لا تستطيع أنْ تزِنَ الوزن المضبوط ؛ لأن المعيار الحديد الذى تزن به عُرْضة فى استعماله للزيادة أو النقصان .

فقد يتراكم عليه الغبار ويقع عليه مثلاً نقطة زيت ، وبمرور الوقت يزيد المعيار ولو شيئاً ضئيلاً ، وهذا فى صالح الموزون له ، وقد يحدث العكس فينقص الميزان نتيجة الملامسة للأشياء ، ولك أن تنظر مثلاً إلى (أكرة) الباب تراها لامعةً على خلاف ما حولها . إذن : أى ملامسة أو احتكاك للأشياء يُنقصها .

حتى فى الموازين الحديثة التى تضمن لك أقصى درجات الدقة

فبشرية الإنسان لا يمكن أن تُعطى الدقة المتناهية . وهذا معنى ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأحزاب] ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء] لأن معياره تعالى لا يختلف ، ولا ينسى شيئاً ، ولا يغفل عن شيء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

يريد الحق - تبارك وتعالى - أن يُسلِّي رسوله ﷺ ويُخفِّف عنه ما لاقاه من قومه ، فيذكر له نماذجَ من إخوانه أُولي العزم[1] من الرسل الذين اضطهدهم أقوامهم ، وآذوهم ليُسهِّل على رسول الله مهمته ، فلا يصده إيذاء قومه عن غايته نحو ربه .

فبدأ بموسى - عليه السلام - لأنه من أكثر الرسل الذين تعبوا في دعوتهم ، فقد تعب موسى مع المؤمنين به فضلاً عن الكافرين به ، فقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ..﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنبياء] لأن رسالتهما واحدة ، وهم فيها شركاء : ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [القصص] وقال : ﴿ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ ﴾ [طه]

والفرقان : هو الفارق القوي بين شيئين ؛ لأن الزيادة في المبنى تدل على زيادة في المعنى ، كما تقول : غفر الله لفلان غفراناً ،

---

(١) يقول تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحقاف] . قال ابن كثير في تفسيره (٤/١٧٢) : « قد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال ، وأشهرها أنهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ . وقد يحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرسل فتكون (من) في قوله (من الرسل) لبيان الجنس والله أعلم » .

وتقول : قرأت قراءة ، وقرأت قرآناً ، فليست القراءة واحدة ، ولا كل كتاب يُقرأ .

والفرقان من أسماء القرآن : ﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ۝١﴾ [الفرقان]

فالفرقان - إذن - مصدر يدلُّ على المبالغة ، تقول : فرَّق تفريقاً وفرقاناً ، فزيادة الألف والنون تدل على زيادة فى المعنى ، وأن الفَرْق فى هذه المسألة فَرْق جليل وفَرْق واضح ؛ لأن كونك تُفرِّق بين شيئين الأمر بينهما هَيِّن تسمى هذا فَرْقاً ، أمّا أن تفرق بين شيئين يترتب على ذلك خطورة فى تكوين المجتمع وخطورة فى حركة الحياة ، فهذا فرقان ؛ لذلك سَمَّى القرآن فرقاناً ؛ لأنه يُفرِّق بين الحق والباطل .

ومن الفرقان ، قوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. ۝٢٩﴾ [الأنفال] وتقوى الله لا تكون إلا بتنفيذ أوامره وتعاليمه الواردة فى القرآن الذى نزل على محمد ، والفرقان هنا يعنى : نور تُفَرِّق به بين الأشياء وتُميِّز به بين المتشابهات .

وعلى قَدْر ما تتقى الله باتباع الفرقان الأول يجعل لكم الفرقان الثانى ، وتتكوَّن لديكم فراسة المؤمن وبصيرته ، وتنزل عليكم الإشراقات التى تُسعِف المؤمن عندما يقع فى مأزق .

ألاَ تراهم يقولون : فلان ذكى ، فلان حاضر البديهة . أى : يستحضر الأشياء البعيدة وينتفع بها فى الوقت الحاضر ، وهذا من توفيق الله له ، ونتيجة لبصيرته وفراسته ، وكانت العرب تضرب

المثل فى الفراسة والذكاء بإياس بن معاوية حتى قال الشاعر[1] :

إقْدامُ عَمْرٍو فى سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فى حِلْمِ أحنَفَ فى ذَكَاءِ إيَاسِ

ويُرْوَى أن الخليفة العباسى أبا جعفر المنصور لما أراد أنْ يحج بيت الله فى آخر مرة ، بلغه أن سفيان الثورى[2] يتناوله وينتقده ويتهمه بالجور ، فقال : سوف أحج هذا العام ، وأريد أنْ أراه مصلوباً فى مكة ، فبلغ الخبر أهل مكة ، وكان سفيان الثورى يقيم بها فى جماعة من أصحابه من المتصوفة وأهل الإيمان ، منهم سفيان بن عيينة والفضيل بن عياض ، وكانا يُدلِّلان الثورى ويعتزان به .

وفى يوم كان الثلاثة فى المسجد والثورى مُسْتَلْقٍ بين صاحبيه يضع رأسه فى حِجْر أحدهما ، ورجْلَيْه فى حجْر الآخَر ، وقد بلغهم خبر المنصور ومقالته ، فتوسل ابنُ عيينة والفضيل للشيخ الثورى : يا سفيان لا تفضحنا واختفِ حتى لا يراك ، فلو تمكَّن منك المنصور ونفذ فيك تهديده فسوف يضعف اعتقاد الناس فى المنسوبين إلى الله .

وهنا يقول الثورى : والذى نفسى بيده لن يدخلها ، وفعلاً دخل المنصور مكة من ناحية الحجون ، فعثرت به الدابة ، وهو على مشارف مكة فوقع وأُصيب بكسر فمات لساعته . ودخل المنصور مكة محمولاً وأتَوْا به إلى المسجد الحرام حيث صلى عليه الثورى .

---

(١) هو : أبو تمام حبيب بن أوس الطائى ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠ هـ) ، نشأ نشأة متواضعة ، حيث كان يعمل صبياً لحائك ، توفى عام (٢٣١هـ) عن ٥١ عاماً .

(٢) هو : سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى ، من مُضَر أبو عبد الله ، أمير المؤمنين فى الحديث ، ولد بالكوفة (٩٧ هـ) ، كان سيد أهل زمانه فى علوم الدين والتقوى راوده المنصور العباسى على أن يلى الحكم فأبى ، مات مستخفياً بالبصرة من المهدى عام (١٦١ هـ) (الأعلام للزركلى ٣/١٠٤) .

هذا هو الفرقان والنور والبصيرة وفراسة المؤمن الذى يرى بنور الله ، ولا يصدر فى أمر من أموره إلا على هَدْيه .

ويُروى أن المهدى الخليفة العباسى أيضاً دخل الكعبة ، فوجد صبياً صغيراً فى السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره يلتف حوله أربعمائة شيخ كبير من أصحاب اللحى والهَيْبة والوقار ، والصبى يُلْقِى عليهم درساً ، فتعجب المهدى وقال : أُفٍّ لهذه السعانين يعنى الذقون ، أمَا كان فيهم مَنْ يتقدم ؟! ثم دنا من الصبى يريد أن يُقرِّعه ويُؤنِّبه فقال له : كم سنّك يا غلام ؟ فقال الصبى : سنى سنُّ أسامة بن زيد حينما ولاه رسول الله ﷺ إمارة جيش فيه أبو بكر وفيه عمر ، فقال له المهدى ـ معترفاً بذكائه وأحقيته لهذا الموقف : بارك الله فيك .

فالفرقان ـ إذن ـ لا تُستعمل إلا للأمور الجليلة العظيمة ، سواء ما نزل على موسى ، أو ما نزل على محمد ، إلا أن الفرقان أصبح علَماً على القرآن ، فهناك فَرْق بين العلم والوصف ، فكل ما يُفرِّق بين حَقٍّ وباطل تصفه بأنه فرقانٌ ، أمّا إنْ سُمِّى به ينصرف إلى القرآن .

والمتأمل فى مادة (فَرَق) فى القرآن يجد أن لها دوراً فى قصة موسى عليه السلام ، فأول آية من آياته : ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ .. (٥٠)﴾ [البقرة]

والفَرْق أنْ تفصل بين شىء مُتصل مع اختلاف هذا الشىء ، وفى علم الحساب يقولون : الخَلْط والمزج ، ففَرْق بين أن تفصل بين أشياء مخلوطة مثل برتقال وتفاح وعنب ، وبين أنْ تفصلها وهى مزيج من العصير ، تداخل حتى صار شيئاً واحداً .

إذن : ففَرْق البحر لموسى ـ عليه السلام ـ ليس فَرْقاً بل فرقاناً ،

لأن أعظم ألوان الفـــروق أن تَفـرق السـائل إلى فـرْقـيْن ، كل فـرق كالطود[١] العظيم ، ومَنْ يقدر على هذه المسألة إلا الله ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : نوراً يهدى الناس إلى مسالك حـياتهم دون عَطَب ، وإلاَّ فكيف يسيرون فى دروب الحـياة ؟ فلو سـار الإنسان علـى غيـر هدى فإمّـا أنْ يصطدم بأقوى منه فـيتـحطم هو ، وإمّا أن يصطدم بأضـعف منه فيـحطمه ، فالضــياء - إذن - هام وضــرورى فى مسيـرة الإنسان ، وبه يهـتدى لحـركـة الحـيـاة الآمنة ويسـعى على بينة ، فـلا يَتْـعب ، ولا يُتـعِب الآخرين .

﴿ وَذِكْـرًا .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنبيـاء] أى : يذكِّـر ويُنبِّـه الغـافـلين ، فلو تراكمـتْ الغفلات تكوَّنَ الـران الذى يحجب الرؤية ويُعـمى البصــيرة ؛ لذلك لما شبه النبى ﷺ غفلة الناس قال : « تُعْرَض الفتن على القلوب كالحصير عُوداً عُوداً » .

وفى رواية : « عوذاً عوذاً »[٢] أى : يستـعيـذ بالله أن يحدث هذا لمؤمن ، فهل رأيتَ صـانع الحصير حينما يضـمُّ عُـوداً إلى عُود حتى يُكوِّن الحـصيـر ؟ كذلك تُعـرَض علينا الفتن ، فـإنْ جاء التـذكيـر فى البداية أزال ما عندك من الغفلة فلا تتراكم عليك الغفلات .

« فأيُّما قلب أُشْرِبها - يعنى قَبِلَـها - العود تلو العود - نُكتَتْ فيه نكتة سـوداء ، وأيُّما قلب أنكرها نُكِتَتْ فيـه نكتة بيضـاء ، حتى تكون

---

(١) الطود : الجـبل الثـابت العالـى . قال تعـالى : ﴿ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء] .

(٢) وقال ابن الأثير : روى بالذال المعجمة ، كأنـه استعاذ من الفتن . [لسان العرب - مادة : عوذ] .

على قلبين ـ صدق رسول الله ـ على أبيض مثل الصفا لا تضرُّه فتنة ، ما دامت السموات والأرض . أو على أسود كالكوز مُجَخِّياً ـ يعنى منكوساً ـ لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً »[1] .

قالوا : فذلك هو الرَّانُ الذى يقول الله فيه : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين] والذكر هو الذى يُجلِّى هذا الران .

﴿ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الانبياء] ومن صفاتهم أنهم :

﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

الخشية : الخوف بتعظيم ومهابة ، فقد تخاف من شىء وأنت تكرهه أو تحتقره . فالخشية كأنْ تخاف من أبيك أو من أستاذك أنْ يراك مُقصِّراً ، وتخجل منه أنْ يراك على حال تقصير . فمعنى الخوف من الله : أن تخاف أن تكون مُقصِّراً فيما طُلب منك ، وفيما كلَّفك به ؛ لأن مقاييسه تعالى عالية ، وربما فاتكَ من ذلك شىء .

وفى موضع آخر يشرح الحق سبحانه هذه المسألة ، فيقول : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر] لماذا ؟ لأنهم الأعلم بالله وبحكمته فى كونه ، وكلما تكشَّفَتْ لهم حقائق الكون وأسراره ازدادوا لله خشية ، ومنه مهابة وإجلالاً ؛ لذلك قال عنهم : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [النحل] أى : أعلى منهم وعلى رؤوسهم ، لكن بحُبٍّ ومهابة .

ومعنى : ﴿ بِالْغَيْبِ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنبياء] أنهم يخافون الله ، مع أنهم

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٤) كتاب الإيمان ، وأحمد فى مسنده (٥/٣٨٦ ، ٤٠٥) من حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه .

لا يَروْنه بأعينهم ، إنما يَرَوْنَه في آثار صُنْعه ، أو بالغيب يعني : الأمور الغيبية التي لا يشاهدونها ، لكن أخبرهم الله بها فأصبحتْ بَعْد إخبار الله كأنها مشهدٌ لهم يروْنَها بأعينهم .

أو يكون المعنى : يخشون ربهم في خَلَواتهم عن الخلْق ، فمهابة الله والأدب معه تلازمهم حتى في خَلْوتهم وانفرادهم ، على خلاف مَنْ يُظهِر هذا السلوك أمام الناس رياءً ، وهو نمرود في خَلْوته .

وقوله تعالى : ﴿وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنبياء] والإشفاق بمعنى الخوف أيضاً ، لكنه خَوْف يصاحبه الحذر مما تخاف ، فالخوف من الله مصحوب بالمهابة ، والخوف من الساعة مصحوب بالحذر منها ، مخافة أنْ تقوم عليهم قبل أنْ يُعِدوا أنفسهم لها إعداداً كاملاً يُفرحهم بجزاء الله ساعة يلقوْنَه .

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

أي : كما جاءت التوراة ﴿ذِكْراً .. ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء] كذلك القرآن الذي نزل عليك يا محمد (ذكر) ، لكنه ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ .. ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء] يقولون : هذا شيء مبارك يعني : فيه البركة ، والبركة في الشيء أنْ يعطي من الخير فوق ما يتوقع فيه .

كما كان النبي ﷺ يسقي صحابته من قَعْب[1] واحد من اللبن[2] ،

---

(١) القَعْب : القدح الضخم الغليظ ، وقيل : قدح من خشب مُقعَّر ، وهو يُروي الرجل . [لسان العرب ـ مادة : قعب] .

(٢) أخرج البخاري في صحيحه (٤١٥٢) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/١١٥) من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتي يوم الشجرة في الحديبية بماء في تور ، فوضع يده فيه ، فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنه العيون ، قال : فشربنا ووسعنا وكفانا ، فقيل لجابر : كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف كفانا ، كنا ألفاً وخمسمائة .

ويُطعِم الجيش كله من الطعام اليسير القليل[١] . وتسمعهم يقولون : فلانٌ راتبه ضئيل ، ومع ذلك يعيش هو وأولاده فى كذا وكذا فنقول : لأن الله يُبارك له فى هذا القليل .

فمعنى ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ .. ۝﴾ [الأنبياء] أى : فيه من الخير فوق ما تظنون ، فإياك أنْ تقولوا : إنه كتاب أحكام وتكاليف فحسْب ، فالقرآن فيه صفة الخلود ، وفيه من الأسرار مَا لا ينتهى ، فبركته تشمل جميع النواحى وجميع المجالات إلى أنْ تقومَ الساعة . فمهما رددنا آياته نجدها جميلة مُوحِية مُعبِّرة . فكل عصر يأتى بجديد ، لا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه فهو مبارك لأن ما فيه من الخير يتجاوز عصر الرسول ﷺ وكل العصور والأعمار والقرون فيعطى كل يوم سراً جديداً من أسرار قائله سبحانه .

إذن : فالقرآن ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ .. ۝﴾ [الأنبياء] لأن ما فيه من وجوه الخير سيتجاوز العصر الذى نزل فيه ، ويتجاوز كل الأعمار وكل القرون ، فيعطى كل يوم لَوْناً جديداً من أسرار قائله والمتكلِّم به ؛ لذلك يتعجّب بعدها من إنكار القوم له : ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ۝﴾ [الأنبياء] أمِثْل هذا الكلام يُنكر ؟

وسبق أنْ أوضحنا أقوالهم فى القرآن .

منهم مَنْ قال : سحر . ومنهم من قال : شعر . ومنهم من قال :

---

(١) عن عبد الله بن عباس قال : إن رسول الله ﷺ لما نزل مَرَّ فى صلح قريش قال أصحاب النبى ﷺ : يا رسول الله لو نحرنا من ظهورنا فأكلنا من لحومها وشحومها وحسونا من المرق أصبحنا غداً إذا غدونا عليهم وبنا جَمَام قال : لا ولكن ائتونى بما فضل من أزوادكم ، فبسطوا أنطاعاً ثم صبُّوا عليها فضول ما فضل من أزوادهم ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ بالبركة ، فأكلوا حتى تضلعوا شبعاً ، ثم لفَّفوا فضول ما فَضُل من أزوادهم فى جُربهم ، أخرجه مسلم فى صحيحه (كتاب اللقطة ـ باب استحباب خلط الأزواد إذا قلَّت) . وأخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٤/ ١٢٠) .

كذب وأساطير الأولين ، وهذا كله إفلاس فى الحُجَّة ، وتصيُّد لا معنى له ، ودليل على تضارب أفكارهم .

ألم يقولوا هم أنفسهم : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف] إذن : هم يعرفون صدْق القرآن ومكانته ، وأنه من عند الله ، ولا يعترضون عليه فى شىء ، إنما اعتراضهم على مَنْ جاء بالقرآن ، وفى هذا دليل على أنهم ليستْ عندهم يقظة فى تغفيلهم .

وتأمل : ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنبياء] ولم يقل : هذا القرآن ، كأنه لا يُشار إلا إلى القرآن .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ (١) وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

نلاحظ أن الحق سبحانه بدأ تسليته لرسوله ﷺ بذكْر طرف من قصة موسى ، ثم ثنَّى بقصة إبراهيم ، مع أن إبراهيم عليه السلام سابقٌ لموسى ، فلماذا ؟ قالوا : لأن موسى له صلَة مباشرة باليهود وقريب منهم ، وكان اليهود معه أهلَ جدَل وعناد .

ومعنى ﴿ رُشْدَهُ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنبياء] الرُّشْد : اهتداء العقل إلى الأكمل فى الصلاح والأعلى فى الخير ، بحيث لا يأتى بعد الصلاح فسادٌ ، ولا بعد الخير شر ، ولا يُسلمك بعد العُلو إلى الهبوط ، هذا هو الرُّشْد . أما أنْ يجرَّك الصلاح الظاهر إلى فساد ، أو يُسلمك الخير إلى شر ، فليس فى ذلك رُشْدٌ .

---

(١) أى : من قبل النبوة . أى : وفقناه للنظر والاستدلال ، لما جَنَّ عليه الليل فرأى النجم والشمس والقمر . وقيل : « من قبل » أى : من قبل موسى وهارون . والرشد على هذه النبوة . وعلى الأول أكثر أهل التفسير . قاله القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٧٣) .

والآن نسمعهم يتحدثون عن الفنون الجميلة ، ويستميلون الناس بشعارات برّاقة أعجبتْ الناس حتى وصلت بهم الجرأة إلى أنْ قالوا عن الرقص : فنٌّ راقٍ وفنٌّ جميل .. سبحان الله ، الرقص كما قلتم لو أنه فعلاً راقٍ وجميلٌ ، وظل كذلك إلى آخر الطريق ، ولم ينحدر إلى شيء قبيح وهابط ، ماذا يحدث حين يجلس الرجل أمام راقصة تُبدي من مفاتنها وحركاتها مَا لاَ تُحسنه زوجته في البيت ؟ كم بيوت خَربَتْ وأسَر تهدمت بسبب راقصة ، فأيُّ رقيٍّ ؟ وأيُّ جمال في هذا الفن ؟!

لذلك ؛ فالإمام على ـ كرَّم الله وجهه ـ لخَّص هذه المسألة فقال : « لا شَرَّ في شَرٍّ بعده الجنة ، ولا خيرَ في خير بعده النار » .

إذن : على الإنسان أن ينتبه إلى الرُّشْد الذي هو اهتداء العقل إلى الصالح الأعلى أو إلى الكمال الأعلى أو الخير الأعلى . وهذا الرُّشْد له اتجاهان : رُشْد البِنْية ، ورُشْد المعنى .

رُشْد البِنْية وهو اكتمال تكوين الإنسان بحيث يُؤدِّي كل جهاز فيه وظيفته ، وهذا لا يكون إلا بعد سنِّ البلوغ ، وقد جعل الخالق سبحانه استواء الأعضاء التناسلية دليلاً على اكتمال هذا الرُّشْد حين يصير المرء قادراً على إنجاب مثله .

وهذا واضح في الثمار حيث لا يحلو مذاقها إلا بعد نضجها واكتمال بذرتها لتكون صالحة للإنبات إذا زرعتها ، وهذا من حكمة الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ فنأكل الثمرة ونستبقي نوعها ببذرتها الصالحة ، أمّا لو استوت الثمرة للأكل قبل نُضْج بذرتها لأكلنا الثمار الموجودة ولم نستبق نوعها فتنقرض .

لذلك ، من حكمة الله أيضاً أن الثمرة إذا استوتْ ونضجَتْ ولم تجد مَنْ يقطفها تسقط من تلقاء نفسها ، وتُجدِّد دورتها في الحياة .

ولأمر ما جعل الله التكليف بعد البلوغ ، فلو كلّفك قبل البلوغ لوجدتَ فى التكاليف نَهْياً عن بعض الأمور التى لا تعرفها ولا تدركها . وقد تعترض على ربك : كيف أفعل يا ربّ وقد جاءتنى هذه الغريزة ففعلتْ بى كذا وكذا .

ولكل آلة وجهاز فى جسم الإنسان رُشْد يناسبه ، ونمو يناسب تكوينه ، فمثلاً عَيْن الطفل وفمه وأصابع يده كلها تنمو نمواً مناسباً لتكوين الطفل .

أما الأسنان ففيها حكمة بالغة من الخالق عز وجل ، فقد جعل للطفل فى المرحلة التى لا يستطيع فيها تنظيفَ أسنانه بنفسه ، ولا حتى يستطيع غيره تنظيفها جعل له (طقماً) احتياطياً من الأسنان ، يصاحبه فى صغَره تُسمَّى الأسنان اللبنية ، حتى إذا ما شَبَّ وكَبِر واستطاع أنْ يُنظِّف أسنانه بنفسه أبدله الله (طَقْماً) آخر يصاحبه طوال عمره .

وهناك رُشْد أعلى ، رُشْد فكرى معنوى ، رُشْد يستوى فيه العقل والتفكير ويكتمل الذِّهْن الذى يختار ويُفَاضل بين البدائل ، فقد يكتمل للمرء رُشْده البُنيانى الجسمانى دون أنْ يكتملَ عقله وفكْره ، وفى هذه الحالة لا نُمكِّنه من التصرف حتى نختبره ، لنعلمَ مدى إحسانه للتصرف فيما يملك ، فإنْ نجح فى الاختبار فَلْنُعْطه المال الذى له ، يتصرف فيه كما جاء فى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم[1] مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ .. ⦗٦⦘ ﴾ [النساء] أى : لا تنتظر حتى يكبر ، ثم تعطيه

(١) آنس الشىء : أدركه وأحسَّه ببصره ، أو بعلمه وفكره . وقوله ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا .. ⦗٦⦘ ﴾ [النساء] . أى : علمتم وأدركتم إدراكاً معنوياً . [القاموس القويم ١/ ٣٧] .

ماله ، يفعل فيه ما يشاء دون خِبْرة ودون تجربة ، إنما تختبره وتَشْركه فى خضمِّ الحياة ومعتركها ، فيشبّ مُتمرِّساً قادراً على التصرف السليم .

وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ .. ﴿٥﴾﴾ [النساء] لأنهم إنْ بلغوا الرُّشْد البدنىّ فلم يبلغوا الرُّشْد العقلى ، وإياك أن تقول : هو ماله يتصرف فيه كما يشاء ، فليس للسفيه مال بدليل : ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ .. ﴿٥﴾﴾ [النساء] ولم يقُلْ : أموالهم ، فهو مالُكَ تحافظ عليه كأنه لك ، وأنت مسئول عنه أمام الله ، ولا يكون مال السَّفيه له إلا إذا أحسنَ التصرف فيه .

ومن الرُّشْد ما سماه القرآن الأشُدّ : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي[1] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف]

والأشُدُّ هو : التسامى فى الرُّشْد وقال هنا (أربعين سنة) مع أننا ذكرنا أن الإنسان يبلغ رُشْد البِنْية ورُشْد العقل بعد سنِّ البلوغ فى الخامسة عشرة تقريباً ، إذن : مَنْ لم يرشُدْ حتى الأربعين فلا أملَ فيه ، والنار أَوْلَى به ؛ لأنه حين يكفر أو ينحرف عن الطريق فى عنفوان شبابه وقوته نقول : شراسة الشباب والشهوة والمراهقة ، إلى آخر هذه الأعذار فإذا ما بلغ الأربعين فما عذره ؟

وإذا لم يتلقّ مبادىء الرُّشْد فى صغَره وفى شبابه ، فلا شكَّ أنه سيجد فى أحداث الحياة طوال أربعين سنة واقعاً يُرشده قَهْراً عنه ،

(١) أوزعه أن يفعل كذا : دفعه وحثّه وأغراه . أو ألهمه وأرشده . قال تعالى : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ .. ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف] . أى : ألهمنى شكرك وادفعنى إليه وحبِّبه إلىَّ . [القاموس القويم ٢ / ٣٣٤] .

حيث يرى أعماله وعواقبها وأخطاءه وسقطاته ، وينبغى أنْ يأخذ منها درساً عملياً نظرياً فى الرُّشْد .

ومن ذلك ما نسمعه من مصطلحات معاصرة يقولون « الرشد السياسى » ويقولون « ترشيد الاستهلاك » ، ما معنى هذه المصطلحات ؟ معناها أن أحداث الحياة وتجاربها وعدم الرُّشْد فى مسيرتهم عضَّت الناس ، وألجأتْهم إلى التفكير فى ترشيد يُذهب هذا الفساد .

إذن : فالرُّشْد للذات والترشيد للغير كما نفعل فى ترشيد استهلاك القمح مثلاً وكنا نعلف به المواشى ، حتى أصبحنا لا نجده ؛ لذلك بدأنا فى ترشيد استهلاك رغيف الخبز وصرْنا نقسمه أربعة أقسام ، ونأكل بحساب ، ولا نهدر شيئاً ، وما يتَبقى يتبقى نظيفاً نأكله فى وَجْبة أخرى .

وقد لا يكون عند الخباز نفسه ترشيد ، فيُخرج الرغيف قبل استوائه فتجده عجيناً ، كله لبابة ، فتأتى ربة البيت الواعية فتفتح الرغيف قبل وضعه على المائدة ، وتُخرِج منه هذه اللبابة ، وتجمعها ثم تُحمِّصها فى الفرن ، وتصنع منها طعاماً آخر .

وما يقال فى « ترشيد الخبز » يقال فى « ترشيد الماء » ، وقد أمرنا رسول الله بترشيد استهلاك الماء حتى فى الوضوء الذى هو قربى إلى الله .

هذا الرُّشْد الذى وصفنا رُشْد كل عاقل غير الرسل ، وهو أنه يهتدى إلى قضايا حياته ، ويتصرّف فيها تصرفاً سليماً ، إنما مقتضى نتيجة هذا الصلاح فى الدنيا ، أما الرسل فلهم رُشْد آخر ، رُشْد أعلى للدنيا وللآخرة ، وهذه هبة من الله للرسل .

قال تعالى فى حَقِّ إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ .. (٥١) ﴾ [الأنبياء] وكان رُشْد إبراهيم لا يخضع لهذه القواعد ، ولا يرتبط ببلوغ ، ولا نبوة ، بل هو رُشْد سابق لأوانه منذ أنْ كان صغيراً يتأمل فى النجوم ويبحث عن ربه :

﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) ﴾ [الأنعام]

فكان ـ عليه السلام ـ مُؤهَّلاً للرسالة منذ صغره ، ولما أُرسل ونُبِّيء ظهرتْ مواهب رُشْده حين أُلقِي فى النار ، وجاءه جبريل ـ عليه السلام ـ يعرض عليه المساعدة ، فيقول إبراهيم : أما إليك فلا . وهذه أول بشائر الرشد الفكرى والعقدى عند إبراهيم .

وفى حَقِّه قال تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .. (١٢٤) ﴾ [البقرة] أى : اختبره فى أشياء فأتمهُنَّ وأتى بِهنَّ على أكمل وجه ، منها : أنه طلب منه أنْ يرفعَ قواعد البيت ، وكان يكفى أن يرفع إبراهيم قواعد البيت إلى ما تطول يده ، إنما إبراهيم عليه السلام كان حريصاً أنْ يتم الأمر على أكمل وجه ، فيفكر ويحتال فى أنْ يأتىَ بحجر ويقف عليه ليرفع البناء بمقدار الحجر ، ويساعده ولده الصغير إسماعيل فيناوله الحجارة ، لكن الولد الصغير تتزحلق قدماه حينما يرفع الحجارة لأبيه ، فيحتال على هذا الأمر فيحفر فى الحجر على قَدْر قدميه حتى يثبت ، وهاتان القدمان نشاهدهما حتى الآن فى حِجْر إسماعيل .

إذن : كان عنده عِشْق للتكاليف وحِرْص على إتمامها .

وقوله تـعالى : ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١)﴾ [الأنبياء] هذا واضح فى قوله تعالى : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. (١٢٤)﴾ [الأنعام]

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢)﴾

أى : اذكر يا محمد ، إذ قال إبراهيم لأبيه وقومه ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ.. (٥٢)﴾ [الأنبياء]

والتماثيل : جمع تمثال ، وهو مأخوذ من مِثْل أو مَثَل ، ومِثْل الشىء يعنى : شبيهه ونظيره ، وكانوا يعمدون إلى الأشياء التى لها جِرْم ويُصوِّرونها على صورة أشياء مخلوقة لله تعالى ، كصورة الإنسان أو الحيوان ، من الحجر أو الحديد أو الخشب أو غيرها ويُسمُّونه تمثالاً ، ويُقيمونه ليعبدوه .

وكانوا يبالغون فى ذلك : فهذا من الحجر ، وهذا من المرمر ، وهذا صغير ، وهذا كبير ، وقد يضعون فى عينيه خرزتين ليظهر للرائى أن له نظراً ، وهى ألوان من التفنن فى هذه الصناعة .

فإبراهيم ـ عليه السلام ـ يقول مستنكراً لأبيه وقومه ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢)﴾ [الأنبياء]

فالاستفهام هنا على غير حقيقته ، بل هو استفهام إنكارى يحمل لهجة الاستهزاء والسخرية والتقريع ، ولابد أنه ألقى عليهم هذا السؤال بشكل أدائى يُوحى بالتقريع .

وسبق أنْ تحدّثنا فى معنى (أبيه) هنا وقلنا : المراد عَمُّه ،

بدليل قـوله فى موضـع آخـر : ﴿ لأَبِيهِ آزَرَ .. (٧٤) ﴾ [الأنعام] فقـد بدأ المسألة بأبيه أو عمـه ، وهو أقربُ الناس إليه ، يريد أن يطمئنَ الناسُ إلى ما يدعو إليه ، وأنه خير ، وإلا ما بدأ بأبيه .

وأيضاً لأن القومَ قد لا يكونُ لهم فى نفســه تأثير هَيْبة أو حُبٍّ إنما الهيـبة والحب موجود بالنسـبة لأبيه أو لعمـه ، ومع ذلك لم تمنعه هذه الهيبة أنْ يُسفِّه كلامهم وأفعالهم الباطلة ، كما جاء فى قول الله تعالى :

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾ [التوبة]

وقد وقف المـفسرون عند اللام فى قـوله تعالى : ﴿ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) ﴾ [الأنبياء] مع أن المعنى : يعكفون على عبادتها ، كما جاء فى آية أخرى : ﴿ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ .. (١٣٨) ﴾ [الأعراف] وهنا جاءت باللأم ؛ لذلك قال بعضـهم : اللام هنا بمعنى على ، فلماذا عدَل عن على إلى اللام ؟

ولو تنبَّهنا لمعطيات الألفاظ ﴿ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) ﴾ [الأنبياء] نقول : الاعتكاف : هو الإقامة . فلان عاكف فى الـمسجد يعنى : على الإقامة فى المـسـجـد ، فكلمـة عـاكفـون وحـدها تعطى مـعنى (على) أى : لصـالح هذه الآلهـة . أمّـا اللام فلشــىء آخر ، الـلام هنا لام الملكيـة والنفعية . وذكروا لها مـثالاً آخر فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ .. (١٠٤) ﴾ [الأنبياء]

السِّجل هو : القرطـاس والورق الذى نكتب فيـه ، ومنه قـولهم : نُســجِّل كـذا يعنى : نكتـبـه فى السِّـجل أو الورق لتـحـفظ ، ومـعنى

﴿لِلْكُتُبِ .. (١٠٤)﴾ [الأنبياء] يعنى : الشىء المكتوب ، فكأن المعنى : نطوى الورق على ما كُتِب فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ (٥٣)﴾

إذن : لا حُجَّة لهم فى عبادتهم لهذه التماثيل التى صنعوها وأقاموها بأنفسهم ، إلا أنهم رأَوْا آباءهم يعبدونها ، فحُجَّتهم التقليد الأعمى ، ولو كان عندهم حجة لذاتية العمل لَقالُوها .

وفى موضع آخر قالوا : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)﴾ [الزخرف] إذن : نعيب عليهم هذا التقليد ونعيب على آبائهم أيضاً ، فكيف يكون رَدُّ إبراهيم إذن ؟

وكلمة ﴿عَابِدِينَ (٥٣)﴾ [الأنبياء] هنا تعبير عن أن عبادتهم لهم عبادة عن غير فَهْم ، لأن العبادة طاعة عابد لأوامر معبوده ، فبماذا أمرتهم الأصنام ؟

ثم يقول الحق سبحانه عن إبراهيم أنه قال لقومه :

﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٥٤)﴾

أراد أنْ يُرشِّد هذا السَّفَه فقال : أنتم فى ضلال ؛ لأنكم قلّدتم فى الإيمان ، والإيمان لا يكون بالتقليد ، وآباؤكم لأنهم اخترعوا هذه المسألة وسَنُّوهَا لكم .

ومن العجيب أنْ يُقلِّدوا آباءهم فى هذه المسألة بالذات دون غيرها ، وإلاَّ فَمن الذى يظل على ما كان عليه أبوه ، ونحن نرى كُلَّ جيل يأتى بجديد مِمَّا لم يكُنْ معروفاً للجيل السابق .

لذلك يقولون : الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، فلكُل زمن وَضْعه وارتقاءاته ، وأنت تتحكم فى ولدك ما دام صغيراً ، فيأكل الولد ويشرب ويلبس حَسْبَ ما تحب أنت ، فإذا ما شبَّ وكَبِر صارتْ له شخصيته الخاصة وفكْره المستقلّ ، فيختار هو مَأْكله ومَلْبسه ، والكلية التى يدخلها ، وربما انتقدكَ فى بعض الأمور .

إذن : هؤلاء قلَّدوا آباءهم فى هذه المسألة دون غيرها ، فلماذا مسألة الإيمان بالذات تتمسَّكون فيها بالتقليد ؟ ولو أن كُلَّ جيل جاء صورة طبْق الأصل لسابقه لما تغيَّر وَجْه الحياة ، ففى هذا دلالة على أن لكل جيل ذاتيته المستقلة وفكْره الخاص .

لقد قلَّد هؤلاء آباءهم فى هذه العبادة دون غيرها من الأمور ؛ لأنها عبادة وتديُّن بلا تكليف ، وآلهة بلا منهج ، لا تُضيِّق عليهم فى شىء ، ولا تمنعهم شيئاً مما ألِفُوه من الشهوات ، فهو تديُّن بلا تَبِعة .

لذلك ؛ فالحق سبحانه يردُّ عليهم فى أسلوبين مختلفين ، فمرة يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة]

وفى موضع آخر يقول : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾ [المائدة]

ونلحظ أن عَجُزَ الآيتين مختلف ، فمرة : ﴿ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا .. (١٧٠) ﴾ [البقرة] ومرة : ﴿ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا .. (١٠٤) ﴾ [المائدة] فلماذا ؟

قالوا : لأن عَجُزَ كل آية مناسب لصَدْرها ، وصَدْر الآيتين مختلف ، ففى الأولى قالوا ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٧٠) ﴾

[البقرة] فيمكن أن نتبع هذا أو هذا ، دون أنْ يقصروا أنفسهم على شيء واحد .

وفى الثانية قالوا : ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٠٤)﴾ [المائدة] يعنى : يكفينا ، ولا نريد زيادة عليه ، فَقصَروا أنفسهمْ على ما وجدوا عليه آباءهم .

لذلك قال فى عَجُز الأولى : ﴿لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا .. (١٧٠)﴾ [البقرة] وفى عَجُز الثانية ﴿لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا .. (١٠٤)﴾ [المائدة] لأن العاقل هو الذى يهتدى إلى الأمر بذاته .

أمّا الذى يعلم فيعلم ما عَقَله هو ، وما عَقَله غيره ، إذن : فدائرة العلم أوسع من دائرة العقل ؛ لأن العقل يهتدى للشىء بذاته ، أمَّا العلم فيأخذ اهتداء الآخرين .

فكان ردُّهم :

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾

يعنى : أهذا الكلام يا إبراهيم جدٌّ ؟ أم أنك تَهْزر معنا ؟ كأنهم يستبعدون أن يكون كلام إبراهيم جداً ؛ لأنه بعيد عن مداركهم .

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

يردّ إبراهيم : لقد جئتكم بالحق الذى يقول : إن هذه الأصنام لا تُعبد ، بل الذى يستحق العبادة هو الله ربُّ السموات والأرض : ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ .. (٥٦)﴾ [الأنبياء] فـ (بل) تُضرب عما قبلها ، وتُثبت الحكم لما بعدها

﴿الَّذِى فَطَرَهُنَّ .. (٥٦)﴾ [الأنبياء] يعنى : خلق السموات والأرض والأصنام ، وكل ما فى الوجود .

﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦)﴾ [الأنبياء] والشاهد هو الذى اهتدى إلى الحق ، كأنه رأى العَيْن ، وليس مع العين أَيْن ، واهتدى إلى الدليل على هذا الحق ، فقال : أنا شاهد على أن ربكم ربّ السموات والأرض ومعى الدليل على هذه الحقيقة .

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧)﴾

بعد ما حدث منهم من لجج وجدال بالباطل أقسم إبراهيم عليه السلام ﴿تَاللَّهِ .. (٥٧)﴾ [الأنبياء] والتاء هنا للقسم ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم .. (٥٧)﴾ [الأنبياء] وهل الأصنام تُكاد ؟ أم أن المراد : لأكيدنكم فى أصنامكم ؟ فالأصنام كمخلوق من مخلوقات الله تُسبِّح لله ، وتشكر إبراهيم على هذا العمل .

وما أجملَ ما قاله الشاعر[1] فى هذا المعنى حين تكلَّم بلسان الأحجار فى غار حراء وغار ثور ، حيث كانت الحجارة تَغَارُ وتحسد حراء ؛ لأن المصطفى ﷺ كان يتعبَّد به قبل البَعْثة ، فحراء شاهدُ تَعَبُّد لرسول الله يزهو بهذه الصحبة ، فلما نزل رسول الله بغار ثور عند الهجرة فرح ثور ؛ لأنه صار فى منزلة حراء :

كَمْ حَسَدْنَا حراءَ حينَ تَرَى ... الرُّوحَ أميناً يغزُوكَ بالأَنْوارِ
فَحِراءُ وثَوْرٌ صَارَا سَواءً ... بهِمَا تشفع لدولة الأحْجَارِ
عَبَدُونَا ونحْنُ أعبَدُ ... للَّه منَ القائمينَ بالأسْحَارِ
تخِذُوا صَمْتَنَا علينَا دليلاً ... فَغَدَوْنا لَهُمْ وقُودَ النَّارِ

---

(١) من شعر الشيخ ـ رضى الله عنه ـ فى قصيدة عن الهجرة .

لأن الله قال : ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٢٤) ﴾ [البقرة]

قَدْ تَجَنَّوْا جَهْلاً كما قَدْ تَجنَّوْهُ علَى ابْنِ مرْيَم والحَوارِى
لِلْمُغَالِى جَزَاؤُهُ وَالمغالَى فيهِ تُنجيه رَحْمَةُ الغَفَّار

إذن : فتحطيم الأصنام ليس كَيْداً للأصنام ، بل لعُبَّادها الذين يعتقدون فيها أنها تضرُّ وتنفع ، وكأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ يقيم لهؤلاء الدليل على بطلان عبادة الأصنام ، الدليل العملى الذى لا يُدْفَع وكأن إبراهيم يقول بلسان الحال : حين أُكسِّر الأصنام إنْ كنتُ على باطل فليمنعُونى وليردّوا الفأسَ من يدى ، وإنْ كنتُ على حق تركونى وما أفعل .

وقوله تعالى : ﴿ بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) ﴾ [الأنبياء] أى : بعد أنْ تنصرفوا عنها . يعنى : على حين غَفْلة منهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) ﴾

ونلحظ هنا أن السياق القرآنى يحذف ما يُفهم من الكلام ، كما فى قصة سليمان ـ عليه السلام ـ والهدهد : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) ﴾ [النمل] وحَذْف مَا كان من الهدهد ورحلته إلى بلقيس ، وإلقائه الكتابَ إليها ، وأنها أخذتْه وعرضتْه على مستشاريها : ﴿ قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) ﴾ [النمل]

ومعنى ﴿ جُذَاذًا .. (٥٨) ﴾ [الأنبياء] أى : قطَعاً متناثرة وحطاماً ،

بعد أنْ كانت هياكل مجتمعة ﴿ إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ .. (٥٨) ﴾ [الأنبياء] أى : أنه تركه فلم يحطمه ، وقد كانوا يضعون الأصنام على هيئة خاصة و(ديكور) ، بحيث يكون الكبير فى الوسط ، وحوله الأصنام الصغيرة يعنى : كأن له سيطرةً عليهم ومنزلة بينهم ، وكانوا يضعون فى عينه الزبرجد ، حتى يُخيَّل لمَنْ يراه أنه ينظر إليه .

وقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) ﴾ [الأنبياء] فيسألونه عَمَّا حدث لأولاده الآلهة الصغار ، ولماذا لم يدافع عنهم خاصةً وقد وجدوا الفأس على كتفه ؟

﴿ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) ﴾

أى : لما ذهبوا إلى المعبد الذى يعبدون فيه أصنامهم وجدوها مُحطمة فقالوا : ﴿ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) ﴾ [الأنبياء] لأنه اعتدى على الآلهة السليمة وكسَّرها .

إذن : هذه الآلهة لا تستطيع أنْ تدفع عن نفسها الضر ، وكان عليهم أنْ يتنبّهوا إلى هذه المسألة ، كيف يقبلُون عبادتها ، ولو أوقعتْ الريحُ أحدَهم لكسرته ، فيحتاج الإله إلى مَنْ يُصلح ذراعه ويُرمِّمه ويُقيمه فى مكانه ، فأىُّ ألوهية هذه التى يدافعون عن حقوقها ؟!

﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى[1] يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) ﴾

أى : تطوّع بعضهم وقالوا هذا ، وكان للقوم يوم مُحدّد يذهبون

---

(١) الفتى : الشاب ، وقد يُراد به الكامل من الشباب . [القاموس القويم ٢/٧٢] . قال القتيبى : ليس الفتى بمعنى الشابّ والحدَث ، إنما هو بمعنى الكامل الجزْل (الجيد الرأى العاقل) من الرجال . [لسان العرب ـ مادة : فتا] . قال ابن عباس فيما أخرجه ابن أبى حاتم وذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/١٨٢) : « ما بعث الله نبياً إلا شاباً ، ولا أوتى العلم عالم إلا وهو شاب » .

فيه إلى معبدهم ومكان أصنامهم ، ويأخذون طعامهم وشرابهم ، ويبدو أنه كان يَوْمَ عيد عندهم ، وقد استعدّ آزر لهذا اليوم ، وأراد أنْ يأخذ معه إبراهيم لعلَّ الآلهة تجذبه فيهتدى وينصرف عَمَّا هو فيه .

لكن إبراهيم عليه السلام ادّعى أنه مريض ، لا يستطيع الخروج معهم ، فقال ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ[1] (٨٩) ﴾ [الصافات] وعندها عزم إبراهيم على تحطيم أصنامهم وقال : ﴿ تَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) ﴾ [الأنبياء] سمعه بعض القوم فأخبرهم بأمره .

﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ .. (٦٠) ﴾ [الأنبياء] والذكْر هنا يعنى بالشر بالنسبة لهم ، ﴿ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) ﴾ [الأنبياء] يعنى : اسمه إبراهيم ، أو حين نناديه نقول : يا إبراهيم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) ﴾

ومعنى ﴿ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ .. (٦١) ﴾ [الأنبياء] يعنى : على مَرْأىً منهم ليشاهدوه بأعينهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) ﴾ [الأنبياء] أى : يشهدون ما نُوقعه به من العذاب حتى لا يجترىء أحد آخر أنْ يفعل هذه الفعْلة ، ويكون عبرةً لغيره .

﴿ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ (٦٢) ﴾

هنا أيضاً كلام محذوف : فأتَوْا به ، ثم سألوه هذا السؤال ، والاستفهام ﴿ أَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا .. (٦٢) ﴾ [الأنبياء] استفهام عن الفاعل ؛

---

(١) قال تعالى : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ (٨٩) ﴾ [الصافات] . قال قتادة : والعرب تقول لمن تفكر : نظر فى النجوم ، يعنى قتادة أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يلهيهم به فقال ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ (٨٩) ﴾ [الصافات] . أى : ضعيف . [تفسير ابن كثير ٤/ ١٣] .

لأن الفعلَ واضح لا يحتاج إلى استفهام ؛ لذلك لم يقُلْ : أفعلتَ هذا يا إبراهيم ، بل اهتم بالفاعل : ﴿ أَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا .. (٦٢) ﴾ [الأنبياء] كما تقول : أبنيتَ الدار التى كنتَ تنوى بناءها ؟ فهذا استفهام عن الفعْل ، إنما أأنت بنيت الدار ، فالمراد الفاعل .

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) ﴾

وكأنه يريد أنْ ينتزعَ منهم الإقرار بأن هذا الكبير لا يفعل شيئاً ، فيُواجههم : فلماذا ـ إذن ـ تعبدونهم ؟

وقَوْل إبراهيم ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا .. (٦٣) ﴾ [الأنبياء] فيه توبيخ وتبكيت لهم ، حيث ردَّ الأمر إلى مَنْ لا يستطيعه ولا يتأتّى منه ، وقد ضرب الزمخشرى ـ رحمه الله ـ مثلاً لذلك برجل جميل الخطِّ ، وآخر لا يُحسِن الكتابة ، فيرى الأخيرُ لوحة جميلة ، فيقول للأول : أأنت كاتب هذه اللوحة ؟ فيقول : لا بل أنت الذى كتبتَها !! تبكيتاً له وتوبيخاً .

ثم يُصرِّح إبراهيم لهم بما يريد : ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) ﴾ [الأنبياء] وهم لن يسألوهم ؛ لأنهم يعرفون حقيقتهم .

﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ﴾

أى : تنبّهوا وعادوا إلى عقولهم ، ونطقوا بالحق : ﴿ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ﴾ [الأنبياء] يعنى : بعبادتكم هذه الأصنام ، وأنتم تعلمون أنها لا تنفع ولا تضرُّ ، ولا ترى ولا تتكلم .

هكذا واجهوا أنفسهم بهذه الحقيقة وكشفوا عن بطلان هذه

العبادة ، لكن هذه الصحوة ستكون على حسابهم ، وخسارتهم بها ستكون كبيرة ، هذه الصحوة ستُفقدهم السُّلْطة الزمنية التى يعيشون فى ظلها ، وينتفعون منْ ورائها بمَا يُهدَى للأصنام ؛ لذلك سرعان ما يتراجعون ويعودون على أعقابهم بعد أن غلبهم الواقع وتذكَّروا ما تجرُّه هذه الصحوة :

﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ[(1)] لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

فبعد أنْ جابهوا أنفسهم بالحق ﴿ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنبياء] والنكسة : أن الأعلى يأتى فى الأسفل ، وأنتم تعلمونها طبعاً !! ورجعوا يقولون له نفس حجته عليهم : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰؤُلاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنبياء] وهذا هو التغفيل بعينه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ ﴾

يعنى : لا ينفعكم بشىء إنْ عبدتموه ولا يضرّكم بشىء إنْ تركتم عبادته .

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

---

(١) أى : عادوا إلى الضلال والانتصار لآلهتهم المحطَّمة بعد أن أرشدهم إبراهيم عليه السلام إلى أنها عاجزة لا تصلح آلهة . [القاموس القويم ٢/٢٨٧] .

أفٍّ : اسم فعل بمعنى أتضجر ، فليس اسماً ، ولا فعلاً ، ولا حرفاً ، إنما (أف) اسمٌ مدلوله فعل ، ففيه من الاسمية ، وفيه من الفعلية ؛ لذلك يسمونها « الخالفة » لأن كلام العرب يدور على اسم أو فعل أو حرف ، مثل هيهات : اسم فعل بمعنى بَعُدَ . فإبراهيم - عليه السلام - يعبِّر بهذه الكلمة (أُفٍّ) عن ضيقه وتضجُّره ممَّا يفعل قومه من عبادة الأصنام من دون الله .

﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

ونلحظ قولهم ﴿ حَرِّقُوهُ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنبياء] بالتضعيف الدالّ على المبالغة ، ولم يقولوا مثلاً : احْرقوه ، وقد اجتمعوا على هذا الفعل فبنَوْا بناءً وضعوا فيه النار ، ومكثوا أربعين يوماً يسجرونها[1] بكل ما يمكن أن يشتعل ، وبذلك اشتدت حرارة النار ، حتى إن الطير الذى يمرُّ فوق هذه النار كان يسقط مشوياً من شدة حرها[2] .

والدليل على ذلك أنهم لما أرادوا إلقاء إبراهيم فى النار لم يستطيعوا الاقتراب منها لشدة لَفْحها ، فصنعوا له منجنيقاً ليُلْقُوه به فى النار من بعيد .

وقولهم : ﴿ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنبياء] حسب اعتقادهم كأن المعركةَ بين إبراهيم والآلهة ، والحقيقة أن الآلهة التى يعبدونها مع إبراهيم وليست ضده ، فالمعركة - إذن - بين إبراهيم وبين عُبَّاد الأصنام .

---

(١) سجر التنور يسجره سَجْراً : أوقده وأحماه . وقيل : أشبع وقوده . [لسان العرب - مادة : سجر] .

(٢) قال ابن إسحاق : جمعوا الحطب شهراً ثم أوقدوها ، واشتعلت واشتدت ، حتى أنْ كان الطائر ليمرّ بجنباتها فيحترق من شدة وهجها . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٦/٤٤٨١]

وقولهم : ﴿إن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنبياء] يعنى : إنْ فعلتم شيئاً بإبراهيم فَحرِّقوه .

ثم يقول الحق سبحانه عن إنجائه لإبراهيم ـ عليه السلام ـ من هذه المَحْرقَة :

﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾

جاء هذا الأمر من الحق الأعلى سبحانه ؛ ليخرق بالمعجزة نواميسَ الكون السائدة ، ولا يخرق الناموسَ إلا خالقُ الناموس ، كما قلنا فى قصة موسى عليه السلام : الماء قانونه السيولة والاستطراق ، ولا يسلبه هذه الخاصية إلا خالقه ؛ لذلك فَرَقه لموسى فُرْقاناً ـ كما قلنا ـ كلُّ فرْق كالطَّوْد العظيم ، فلا يُعطِّل قانون الأشياء إلا خالقها ؛ لأن الأشياء لم تُخلق لتكون لها القدرة على قيُّومية نفسها ، بل مخلوقة تُؤدِّى مهمة ، والذى خلقها للمهمة هو القادر أنْ يسلبَها خواصّها .

وفَرْق بين فعْل العبد وفعْل الحق سبحانه : فلو أنَّ فى يدك مسدساً ، وأنت تُحسن التصويب ، وأمامك الهدف ، ثم أطلقتَ تجاه الهدف رصاصةً ، أَلَكَ تحكُّمٌ فيها بعد ذلك ؟ أيمكن أنْ تأمرها أنْ تميلَ يميناً أو شمالاً ؟

لكن الحق سبحانه يتحكّم فيها ، ويُسيِّرها كيف يشاء ، فالحق سبحانه خلق النار وخلق فيها خاصية الإحراق ، وهو وحده القادر على سَلْب هذه الخاصية منها ، فتكون ناراً بلا إحراق ، فليس للنار قيومية بذاتها .

لذلك يقول البعض : بمجرد أنْ صدر الأمر : ﴿ يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء] انطفأت كل نار فى الدنيا ، فلما قال : ﴿ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء] أصبح الأمر خاصاً بنار إبراهيم دون غيرها ، فاشتعلت نيران الدنيا عدا هذه النار . ونلحظ أن الحق سبحانه قيَّد بَرْداً بسلام ؛ لأن البرد المطلق يؤذى[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

والمراد بالكيد هنا مسألة الإحراق ، ومعنى الكيد : تدبير خفىّ للعدو حتى لا يشعر بما يُدبَّر له ، فيحتاط للأمر ، والكيد يكون لصالح الشىء ، ويكون ضده ، ففى قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ .. ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف]

أى : لصالحه فلم يقُلْ : كِدْنا يوسف إنما كدْنا له ، وقالوا فى الكيد : إنه دليل ضعف وعدم قدرة على المواجهة ، فالذى يُدبِّر لغيره ، ويتآمر عليه خُفْية ما فعل ذلك إلاّ لعدم قدرته على مواجهته .

لذلك يقولون : أعوذ بالله من قبضة الضعيف ، فإنِّى قوىٌّ على قبضة القوى . فإذا ما تمكّن الضعيف من الفرصة لا يدعها ؛ لأنه لا يضمنها فى كل وقت ، أما القوى فواثق من قوته يستطيع أن ينال خَصْمه فى أىِّ وقت ، ومن هنا قال الشاعر :

وَضَعِيفَةٌ فَإِذَا أَصَابَتْ فُرْصَةً قتلتْ كَذَلِكَ قُدْرَةُ الضُّعفَاء

---

(١) قال ابن عباس : لو لم يتبع بردها (سلاماً) لمات إبراهيم من بردها ، فلم يبق فى الأرض يومئذ نار إلا طفئت ، ظنت أنها هى تعنى ، أخرجه الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم [قاله السيوطى فى الدر المنثور ٥/٦٤٠] .

لذلك استدلوا على ضعف النساء بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾ [يوسف] وما دام أن كيدهن عظيم ، فضعفُهن أيضاً عظيم أو حتى أعظم .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠) ﴾ [الأنبياء] والأخسرون جمع أخسر ، على وزن أفعل ؛ ليدل على المبالغة فى الخُسْران ، وقد كانت خسارتهم فى مسألة حَرْق إبراهيم من عدَّة وجوه : أولاً أن إبراهيم عليه السلام لم يُصبْه سوء رغم إلقائه فى النار ، ثم إنهم لم يَسْلَموا من عداوته ، وبعد ذلك سيُجازون على فعْلهم ، هذا فى الآخرة ، فأىُّ خُسْران بعد هذا ؟

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ (٧١) ﴾

﴿ نَجَّيْنَاهُ .. (٧١) ﴾ [الأنبياء] يعنى : كان هناك شرٌّ يصيبه ، وأذىً يلحق به ، فنجّاه الله منه ، وهذه النجاة مستمرة ، فبعد أنْ أنجاه الله من النار أنجاه أيضاً ممَّا تعرَّض له من أذَاهم .

﴿ وَلُوطًا .. (٧١) ﴾ [الأنبياء] وكان لوط عليه السلام ابنَ أخ إبراهيم ﴿ إِلَى الأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) ﴾ [الأنبياء] أى : قلنا لإبراهيم : اترك هذه الأرض - وهى أرض بابل من العراق - واذهب إلى الأرض المقدسة بالشام ، وخُذْ معك ابن أخيك ، فبعد أنْ نجاهما الله لم يتركهما فى هذا المكان ، بل اختار لهما هذا المكان المقدس .

والأرض حينما تُوصَف يُراد بها أرضاً مُحدَّدة مخصوصة ، فإذا لم تُوصَف فتطلق على الأرض عامة إلا أن يعينها سياق الحال ، فمثلاً لما قال أخو يوسف : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِى أَبِى .. (٨٠) ﴾ [يوسف]

فالسياق يُوضِّح لنا أنها أرض مصر .

لكن قوله : ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ .. (١٠٤) ﴾ [الإسراء] فلم تُعيِّن ، فدلَّ ذلك على أنها الأرض عامة ، اسكنوا كُلَّ الأرض ، يعنى : تبعثروا فيها ، ليس لكم فيها وطن مستقل ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

فإذا أراد الله تجمعوا من الشتات ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ .. (١٠٤) ﴾ [الإسراء] أى : المرة التى سينتصرون فيها ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) ﴾ [الإسراء] وهكذا يتجمَّعون فى مكان واحد ، فيسْهُلُ القضاء عليهم .

ومعنى ﴿ بَارَكْنَا فِيهَا .. (٧١) ﴾ [الأنبياء] البركة قد تكون مادية أو معنوية ، وهى الزروع والثمار والأنهار والخيرات ، أو بركة معنوية ، وهى بركة القِيَم فى الأرض المقدسة ، وهى أرض الأنبياء ، ومعالم النبوة والرسالات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً[1] وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) ﴾

يعطينا الحق سبحانه هنا لقطةً من قصة إبراهيم لكن بعيدة عمّا نحن بصدده من الحديث عنه ، فقد وهب الله لإبراهيم إسحق لما دعا الله قال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) ﴾ [الصافات] مع أنه كان عنده

(١) النافلة : الحفيد ؛ لأنه زيادة بعد الابن . [القاموس القويم ٢ / ٢٨٠] . قال القرطبى فى تفسيره (٦ / ٤٤٨٤) : « أى : زيادة ؛ لأنه دعا فى إسحاق ، وزيد فى يعقوب من غير دعاء ، فكان ذلك نافلة ، أى : زيادة على ما سأل ، ويُقال لولد الولد نافلة ؛ لأنه زيادة على الولد » .

إسماعيل ، لكن إسماعيل من هاجر ، وقد تحركت مشاعر الغَيْرة لدى سارة ، ووجدت فى نفسها ما تجده النساء فى مسألة الولد ، وكيف يكون لإبراهيم ولد من هاجر التى زوَّجتها له دون أن يكون لها مثْله .

لذلك ألحَّتْ سارة على إبراهيم أن يدعو الله أنْ يرزقها الولد ، فدعا إبراهيم ربه ، وأراد الحق سبحانه أن يجيب إبراهيم ، وأن يُحقِّق له ما ترجوه زوجته ، لكن أراد أن يعطيه هذا الولد فى ملحظ عقدى يُسجَّل ولا يزول عن الأذهان أبداً ، ويظلُّ الولد مقترناً بالحادثة .

فبداية قصة إسحق لما أمر الله نبيه إبراهيم فى الرؤيا أن يذبح ولده إسماعيل ، فأخبره برؤياه : ﴿ **يَـٰبُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ** .. (١٠٢) ﴾ [الصافات]

أراد إبراهيم أنْ يُشرك ولده معه فى هذا الاختبار ، وألاَّ يأخذه على غِرَّة حتى لا تتغير نفسه نحو أبيه فيكرهه وهو لا يعلم ما حدث ، وأراد أيضاً ألاَّ يحرم ولده من الثواب والأجر على هذه الطاعة وهذا الصبر على البلاء .

أما إسماعيل فمن ناحيته لم يعارض ، ولم يقُلْ مثلاً : يا أبت هذه مجرد رؤيا وليست وحياً ، وكيف نبنى عليها ، بل نراه يقول : ﴿ **يَـٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ** .. (١٠٢) ﴾ [الصافات] ولم يقُلْ : أفعل ما تقول ، فما دام الأمر من الله فافعل ما أمرتَ به ﴿ **سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ** (١٠٢) ﴾ [الصافات]

﴿ **فَلَمَّا أَسْلَمَا** .. (١٠٣) ﴾ [الصافات] أى : هما معاً إبراهيم وإسماعيل ﴿ **وَتَلَّهُ**(١) **لِلْجَبِينِ** (١٠٣) ﴾ [الصافات] يقال : تله يعنى جعل رأسه على

---

(١) تلّه : ألقاه على وجهه على الأرض ، وقوله ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾ [الصافات] . أى : ألقاه وجبينه ووجهه إلى الأرض . [القاموس القويم ١/١٠١] .

التل ، وهو المكان المرتفع من الأرض ، و ﴿ لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾ [الصافات] يعني : جعل جبهته مباشرة للأرض ، بحيث يذبحه من قفاه ، وهذا هو الذَّبْح العاجل المثمر .

﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَـٰإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا .. (١٠٥) ﴾ [الصافات] وما دُمْتَ صدّقْتَ الرؤيا ، فلكَ جزاء الإحسان ؛ لأنك أسرعتَ بالتنفيذ مع أنها رؤيا ، كان يمكنه أن يتراخى فى تنفيذها ، لكنه بمجرد أن جاء الأمر قام وولده بتنفيذه .

إذن : الحق سبحانه لا يريد من عبده إلا أنْ يُسلِّم بقضائه ، وصدق القائل[1] :

سَلِّم لربِّكَ حُكْمَهُ فَلحِكْمَةٍ يَقْضِيـ ـه حتى تستريح وتنْعمَا
واذْكُرْ خليلَ اللهِ فى ذَبْحِ ابنه إذ قال خالقه فلما أسلمَا

لذلك لا يرفع الله قضاءً يقضيه على خلقه إلا إذا رُضِىَ به ، فلا أحدَ يُجبر الله على شىء . وضربنا لذلك مثلاً ـ ولله المثَل الأعلى ـ بالأب حين يدخل ، فيجد ولده على أمر يكرهه ، فيزجره أو يضربه ضربة خفيفة تُعبِّر عن غضبه ، فإنْ خضع الولد لأبيه واستكان عاد الوالد عطوفاً حانياً عليه وربما احتضنه وصالحه ، أمّا لو عارض الولد وتبجَّح فى وجه والده فإنه يشتد عليه ويُضاعف له العقوبة ، وتزداد قسوته عليه .

وهكذا الحال مع إبراهيم ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات] ففدينا له إسماعيل ، ليس هذا وفقط بل ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ .. (١١٢) ﴾ [الصافات] ثم زاده بأنْ جعل إسحق أيضاً نبياً مثل إسماعيل ، هذه هى مناسبة الكلام عن إسحق ويعقوب .

---

(١) الشيخ رحمه الله .

هنا يقول تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً .. (٧٢) ﴾ [الأنبياء] والنافلة : الزيادة ، وقد طلب من ربه ولداً من الصالحين ، فبشَّره الله بإسحق ومن بعده يعقوب وجميعهم أنبياء ؛ لذلك قال ﴿ نَافِلَةً .. (٧٢) ﴾ [الأنبياء] يعنى : أمر زائد عما طلبتَ ، فإجابة الدعاء بإسحق ، والزيادة بيعقوب ، وسرور الإنسان بولده كبير ، وبولد ولده أكبر ، كما يقولون : « أعز من الولْد ولْد الولد » والإنسان يضمن بقاء ذكْره فى ولده ، فإن جاء ولد الولد ضَمن ذكْره لجيل آخر .

والهبة جاءت من الله ؛ لأن المرأة لم تكُنْ صالحة للإنجاب ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ[1] فَصَكَّتْ[2] وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) ﴾ [الذاريات] فردَّ عليها : ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (٧٣) ﴾ [هود] أى : أنه سبحانه قادر على كل شىء.

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) ﴾ [الأنبياء] فالحفيد نافلة وزيادة فى عطاء الذرية ، ومبالغة فى الإكرام ، ثم يمتن الله على الجميع بأن يجعلهم صالحين ، ويجعلهم أنبياء ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) ﴾ [مريم]

﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ (٧٣) ﴾

---

(١) الصرة : تقطيب الوجه ، والصيحة ، والجماعة ، أى : أقبلت فى صيحة من التعجب ، أو فى تقطيب وجه استبعاداً وتعجباً ، أو فى جماعة من خدمها . [القاموس القويم ١/ ٣٧٤].

(٢) الصكّ : الضرب الشديد بالشىء العريض ، وقيل : هو الضرب عامة بأى شىء كان . [لسان العرب ـ مادة : صكك] .

أئمة : ليس المقصود بالإمامة هنا السُّلْطة الزمنية من باطنهم ، إنما إمامة القدوة بأمر الله ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا .. (٧٣)﴾ [الأنبياء] فهم لا يصدرون في شيء إلا على هُدًى من الله .

وقوله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ .. (٧٣)﴾ [الأنبياء] أي : يفتح لهم أبواب الخير ويُيسِّر لهم ظروفه ؛ لأن الموفّق الذي يتوفّر لديه الاستعداد للخير يفتح الله له مصارف الخير ويُعينه عليه

﴿وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ .. (٧٣)﴾ [الأنبياء] وإقامة الصلاة هي : عَيْن الخيرات كلها ؛ لأن الخيرات نعمة ، لكن إقامة الصلاة حضرة في جانب المنعم سبحانه ، فالصلاة هي خَيْر الخَيْر .

ومع ذلك نجد مَنْ يتشاغل عن الصلاة ، ويعتذر بالعمل وعدم الوقت ... الخ وكلها أعذار واهية ، فكنتُ أقول لبعض هؤلاء : بالله عليك لو احتجتَ دورة المياه أتجد وقتاً أم لا ؟ يقول : أجد الوقت ، فلماذا - إذن - تحتال في هذه المسألة وتدبر الوقت اللازم ، ولا تحتال في وقت الصلاة ؟

وربك عز وجل لو علم منك أنك تُجيب نداءه لَسهَّل لك الإجابة ، وقد رأينا الحق سبحانه يُسخِّر لك حتى الكافر ليعينك على أمر الصلاة .

ففي إحدى سفرياتنا إلى بلجيكا رأينا أن أولاد المسلمين هناك لا يدرسون شيئاً من الدين الإسلامي في المدارس ، بل يُدرِّسون لهم الدين المسيحي ، فطلبنا مقابلة وزير المعارف عندهم ، وتكلمنا معه في هذا الأمر ، وكانت حُجَّتنا أنكم قبلتُم وجود هؤلاء المسلمين في بلادكم لحاجتكم إليهم ، وإسهامهم في حركة حياتكم ، ومن مصلحتكم أن يكون عند هؤلاء المسلمين دين يراقبهم قبل مراقبتكم أنتم ، وأنتم أوّلُ

المستفيدين من تدريس الدين الإسلامى لأولاد المسلمين .

وفعلاً فى اليوم التالى أصدروا قراراً بتدريس الدين الإسلامى فى مدارسهم لأولاد المسلمين ؛ ذلك لأن الإسلام دين مثمر ، ودين إيجابى تضمنه وتأمنه .

فلأهمية الصلاة ذكرها الحق سبحانه فى أول أفعال الخيرات ، وفى مقدمتها ، فقمّة الخيرات أنْ تتواجد مع الإله الذى يهبُكَ هذه الخيرات .

﴿ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنبياء] والزكاة تطبيق عملىٌّ للاستجابة لله حين تُخرِج جزءًا من مالك لله ، والصلاة دائماً ما تُقرَن بالزكاة ، فالعلاقة بينهما قوية ، فالزكاة تضحية بجزء من المال ، والمال فى الحقيقة نتيجة العمل ، والعمل فرع الوقت ، أما الصلاة فهى تضحية بالوقت ذاته .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : مطيعين لأوامرنا ، مجتنبين لنواهينا ، فالعبادة طاعة عابد لمعبوده .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ[1] ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ[2] إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

(١) هى قرية « سَدُوم » قال ابن عباس : كانت سبع قرى ، قلب جبريل عليه السلام ستة وأبقى واحدة للوط وعياله ، وهى زَغَر التى فيها الثمر من كورة فلسطين إلى حد السراة ، ولها قرى كثيرة إلى حد بحر الحجاز ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/ ٤٤٨٤) .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٨٥) : « فى الخبائث التى كانوا يعملونها قولان : أحدهما : اللواط . والثانى : الضراط ، أى : كانوا يتضارطون فى ناديهم ومجالسهم » .

﴿ وَلُوطًا .. (٧٤) ﴾ [الأنبياء] جاءتْ منصوبة ؛ لأنها معطوفة على قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ .. (٥١) ﴾ [الأنبياء] وأيضاً : آتينا لوطاً رشده . والحُكْم : يعنى الحكمة ، وأصله من الحكمة[1] التى تُوضَع فى حنك الفَرَس ؛ لأن الفَرس قد يشرد بصاحبه أو يتجه إلى جهة غير مرادة لراكبه ؛ لذلك يوضع فى حنكه اللجام أو الحكمة ، وهى قطعة من الحديد لها طرفان ، يتم توجيه الفرس منهما يميناً أو شمالاً .

ومن ذلك الحكْمة ، وهى وَضْع الشىء فى موضعه ، ومنه الحُكْم ، وهو : وضع الحقِ فى مَوْضعه من الشاكى أو المشكو أى : الخصمين .

﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا .. (٧٤) ﴾ [الأنبياء] وفرْقٌ بين العلْم والحكم: العلم أن تُحقِّق وتعرف ، أمَّا الحكم فسلوك وتطبيق لما تعلَم ، فالعلم تحقيق والحكم تطبيق .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ .. (٧٤) ﴾ [الأنبياء] فقد نجَّى الله إبراهيم عليه السلام من النار ، وكذلك نجَّى لوطاً من أهل القرية التى كانت تعمل الخبائث ، والخبائث فى قوم لوط معروفة[2]

لذلك يقول بعدها : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) ﴾ [الأنبياء] ورجل السَّوْء هو الذى يسوء كل مَنْ يخالطه ، لا يسوء البعض دون البعض ، فكل مَنْ يخالطه أو يحتكّ به يسوؤه .

---

(١) الحكمة : حديدة فى اللجام تكون على أنف الفرس وحنكه تمنعه عن مخالفة راكبه . [لسان العرب ـ مادة : حكم] .

(٢) أخرج ابن عساكر عن أبى أمامة الباهلى قال : كان فى قوم لوط عشر خصال يُعرفون بها : لعب الحمام ، ورمى البندق ، والمكاء (الصَّفير بالفم) . والخذف فى الأنداء (رَمْى الحصى أو النوى) ، وتسبيط الشعر ، وفرقعة العلك (اللبان) ، وإسبال الإزار (إطالته حتى يجاوز الكعبين) ، وحبس الأقبية ، وإتيان الرجال ، والمنادمة على الشراب . وستزيد هذه الأمة عليها . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥/٦٤٤] .

والفسْق : الخروج عن أوامر التكليف ، وهذا التعبير ككُلِّ التعابير القرآنية مأخوذ من واقعيات الحياة عند العرب ، فأصل الفسْق من فَسَقَت الرُّطبة عن قشرتها حين تستوى البلحة فتنفصل عنها القشرة حتى تَظهر منها الرُّطبة ، وهذه القشرة جُعلَتْ لتؤدى مهمة ، وهى حفْظ الثمرة ، كذلك نقول فى الفسق عن المنهج الدينى الذى جاء ليؤدى مهمة فى حياتنا ، فمَنْ خرج عنه فهو فاسق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) ﴾

كيف ؟ ألسنا جميعاً فى رحمة الله ؟ قالوا : لأن هناك رحمة عامة لجميع الخَلْق تشمل حتى الكافر ، وهناك رحمة خاصة تعدى الرحمة منه إلى الغير ، وهذه يعنُون بها النبوة ، بدليل قول الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] فردَّ الله عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف] أى : النبوة : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

فكيف يقسمون رحمة الله التى هى النبوة ، وهى قمة حياتهم ، ونحن نقسم لهم أرزاقهم ومعايشهم فى الدنيا ؟

فمعنى ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا .. (٧٥) ﴾ [الأنبياء] أى : فى رَكْب النبوة ﴿ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) ﴾ [الأنبياء] أى : للنبوة ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، لكن قمة هذه الرحمة جاءت فى النبى الخاتم والرسول الذى لا يُستدرك عليه برسول بعده ؛ لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء]

فالرسل قبل محمد ﷺ كانوا رحمة لأممهم ، أمّا محمد فرحمة لجميع العالمين .

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن رسول آخر من أولى العزم من الرسل :

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنُوحًا .. ﴿٧٦﴾ ﴾ [الانبياء] مثلما قلنا فى ﴿ وَلُوطًا .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : آتيناه هو أيضاً رُشْده ﴿ إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ .. ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأنبياء] والنداء فى حقيقته : طلبُ إقبال ، فإنْ كان من أعلى لأدنى فهو نداء ، وإنْ كان من مُساوٍ لك فهو التماس ، فإنْ كان من أدنى لأعلى فهو دعاء ، فحين تقول يا رب : الياء هنا ليست للنداء بل للدعاء .

وحين تمتحن تلميذاً تقول له : أعرب : رَبِّ اغفر لى ، فلو كان نبيهاً يقول : ربِّ مدعو . والتقدير يا رب ، ومن قال : منادى نسامحه لأنه صحيح أيضاً ، فالياء فى أصلها للنداء ، لكنه غير دقيق فى الأداء . كذلك فى : اغفر لى ، إنْ قال فِعْل أمر نعطيه نصف الدرجة ، أما إن قال دعاء فَلَهُ الدرجة الكاملة .

فماذا قال نوح عليه السلام فى ندائه ؟ المراد قوله : ﴿ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا[1] ﴿٢٦﴾ ﴾ [نوح] فاستجاب الله لنبيه نوح عليه السلام : ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأنبياء] والمراد بالكرب ما لبثه نوح فى دعوة قومه من عمر امتد ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وما تحمَّله فى سبيل دعوته من عَنَتٍ ومشقّة قال الله فيها :

---

(١) الديار : من يسكن الدار أو من يتحرك فيها ويدور فيها بحرية . ويقال : ما بالدار ديّار . أى : ما فيها أحد . ومعنى دعاء نوح عليه السلام : أى : لا تذر أحداً منهم حياً . [القاموس القويم ١/ ٢٣٧] .

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا[1] ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) ﴾ [نوح]

ثم لما أمره الله بصناعة الفُلْك أخذوا يسخرون منه : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ .. (٣٨) ﴾ [هود]

إذن : استجاب الله دُعاءه ونداءه ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ .. (٧٦) ﴾ [الأنبياء]
وفى موضع آخر : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) ﴾ [الصافات]
فوصف الحق سبحانه إجابته لنوح بـ (نِعْم) الدالة على المدح .

فهل يعنى ذلك أن هناك مَنْ يكون بِئْس المجيب ؟ قالوا : نعم إذا سألته شيئاً فأجابك إليه وهو شرٌّ لك ، أمَّا الحق سبحانه فهو نِعْم المجيب ؛ لأنه لا يُجيبك إلا بما هو صالح ونافع لك ، فإنْ كان فى دعائك شرٌّ ردَّه لعلمه سبحانه أنه لن ينفعك .

وكأن الحق الأعلى سبحانه يقول لك : أنا لستُ موظفاً عندك ، أجيبك إلى كُلِّ ما تطلب ، إنما أنا قيُّوم عليك ، وقد تدعو بما تظنّه خيراً لك ، وأعلم بأزلية علْمى أن ذلك شر لا خيرَ فيه ، فيكون الخير لك ألاَّ أجيبك ؛ لأننى نِعْم المجيب .

وَهبْ أن الله تعالى يجيب كُلاًّ منّا إلى ما يريد ، فكيف حال الأم التى تغضب مثلاً من وحيدها ، وفى لحظة الغضب والثورة تدعو عليه فتقول مثلاً : (إلهى أشرب نارك) ؟ فالحق ـ تبارك وتعالى ـ حين يردُّ مِثْل هذا الدعاء هو نِعْم المجيب ؛ لأنه نِعْم المانع .

---

(١) استغشى ثيابه وتغشّى بها : تغطَّى بها كى لا يُرَى ولا يُسْمَع . [لسان العرب ـ مادة : غشى] .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَيَدْعُ الإنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾ [الإسراء] أى : يدعو ويُلِحُّ فى الدعاء بما يظنُّه خَيْراً ، وهو ليس كذلك .

﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧) ﴾

ما زالت الآيات تقصُّ علينا طرفاً مُوجزاً من رَكْب النبوات ، ونحن فى سورة الأنبياء ، وحينما نتأمل هذه الآية نجد أن الله تعالى يُعذِّب بالماء كما يُعذِّب بالنار ، مع أنهما ضِدَّانِ لا يلتقيان ، فلا يقدر على هذه المسألة إلا خالقهما سبحانه وتعالى .

وقصة غَرَق قوم نوح وأهل سبأ بعد انهيار سَدِّ مأرب أحدثا عقدة عند أهل الجزيرة العربية ، فصاروا حين يروْنَ الماء يخافون منه ويبتعدون عنه ، حتى إذا احتاجوا الماء يذهبون إلى مكان بعيد يملأون قِرَبهم ؛ ذلك لعلمهم بخطر الطوفان ، وأنه لا يُصَدُّ ولا يردُّه عنهم شىء .

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن نبيين من أنبياء بنى إسرائيل من بعد موسى :

﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ[1] فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) ﴾

---

(١) النفش : الرعى بالليل . نفشت : أى : رعت فيه ليلاً . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٨٦] . نفشت الإبل : إذا تفرقت فرعَتْ بالليل من غير علم راعيها . [لسان العرب - مادة : نفش] .

يحكمان تعنى أن هناك خصومةً بين طرفين ، والحرْث : إثارة الأرض وتقليب التربة ؛ لتكون صالحة للزراعة ، وقد وردتْ كلمة الحرث أيضاً فى قوله تعالى : ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ (٢٠٥)﴾ [البقرة]

والحرْث ذاته لا يهلك ، إنما يهلك ما نشأ عنه من زُروع وثمار ، فسمَّى الزرع حَرْثاً ؛ لأنه ناشىء عنه ، كما فى قوله تعالى أيضاً : ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ[1] أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ .. (١١٧)﴾ [آل عمران]

لكن ، لماذا سَمَّى الحرْث زَرْعاً ، مع أن الحَرْث مجرد إعداد الأرض للزراعة ؟ قالوا : ليُبيِّن أنه لا يمكن الزرع إلا بحرْث ؛ لأن الحرْث إهاجة تُرْبة الأرض ، وهذه العملية تساعد على إدخال الهواء للتربة وتجفيفها من الماء الزائد ؛ لأن الأرض بعد عملية الريِّ المتكررة يتكوَّن عليها طبقة زَبَدية تسدُّ مسَام التُّربة ، وتمنع تبخُّر المياه الجوفية التى تُسبِّب عطباً فى جذور النبات .

لذلك ، ليس من جَوْدة التربة أن تكون طينية خالصة ، أو رملية خالصة ، فالأرض الطينية تُمسك الماء ، والرملية يتسرَّب منها الماء ، وكلاهما غير مناسب للنبات ، أما التربة الجيدة ، فهى التى تجمع بين هذه وهذه ، فتسمح للنباتِ بالتهوية اللازمة ، وتُعطيه من الماء على قَدْر حاجته .

---

(١) الصِّر : البرد الشديد . [القاموس القويم ١/ ٣٧٤] . قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٩٧) : « عن ابن عباس أيضاً ومجاهد (فيها صر) أى : نار ، وهو يرجع إلى الأول ، فإن البرد الشديد ولا سيما الجليد يحرق الزروع والثمار ، كما يُحرق الشىء بالنار » .

لذلك سَمَّى الزرْع حَرْثاً ؛ لأنه سببُ نمائه وزيادته وجَوْدته ، وليُلفت أنظارنا أنه لا زَرْع بدون حَرْث ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾ [الواقعة]

ففي هذه المسألة إشارة إلى سُنَّة من سُنَن الله في الكون ، هي أنك لا بُدَّ أن تعمل لتنال ، فربُّك وخالقك قدَّم لك العطاء حتى قبل أنْ تُوجد ، وقبل أن يُكلِّفك بشيء ، ومكثت إلى سنِّ البلوغ ، تأخذ من عطاء الله دون أنْ تُحاسبَ على شيء من تصرفاتك .

وكذلك الأمر في الآخرة سيعطيك عطاءً لا ينتهي ، دون أن تتعب في طلبه ، هذا كُلُّه نظير أنْ تطيعه في الأمور الاختيارية في سنِّ التكليف .

إذن : لقد نلْتَ قبل أن تعمل ، وستنال في الآخرة كذلك بدون أنْ تعمل ، فلا بُدَّ لك من العمل بين بدايتك ونهايتك لتنال الثمرة .

لذلك ، في الحديث الشريف يقول ﷺ : « أَعْطُوا الأجير أجره قبل أنْ يجفَّ عَرَقُه »[1] ما دام قد عمل فقد استحق الأجر ، والأمر كذلك في مسألة الحرث .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ .. (٧٨) ﴾ [الأنبياء] هذه خصومة بين طرفين ، احتكما فيها لداود عليه السلام : رجل عنده زرع ، وآخر عنده غنم ، فالغنم شردتْ في غفلة من صاحبها فأكلتْ الزرع ، فاشتكى صاحبُ الزرع صاحبَ الغنم لداود ، فحكم في هذه

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٧/ ١٤٢) من حديث أبي هريرة ، والطبراني في المعجم الصغير (١/ ٢٠) من حديث جابر بن عبد الله ، وابن ماجة في سننه (٢٤٤٣) من حديث عبد الله بن عمر ، وفي سند ابن ماجة ضعيفان ، قاله البوصيري في الزوائد .

القضــية بأن يأخذَ صــاحبُ الزرعِ الغنَم ، وربما وجد ســيدنا داود أن الزرع الذى أتلفتْه الغنم يساوى ثمنها .

فحينما خرج الخَصْمان لقيـهما سليمان ـ عليه السلام ـ وكان فى الحادية عشرة من عمره ، وعرف منهما حكومة أبيه فى هذه القضية ، فقــال : (غير هذا أرفق بالفــريقين)[1] فسمَّى حُكْم أبيـه رِفْقاً ، ولم يتهمه بالجَوْر مثلاً ، لكن عنده ما هو أرفق .

فلما بلغت مقالته لأبيه سأله : ما الرِّفق بالفريقين ؟ قال سليمان : نعطى الغنم لصــاحب الزرع يستـفيـد من لبنها وأصــوافهــا ، ونعطى الأرض لصاحب الغنم يُصلحـها حتى تعود كمـا كانت ، ساعتـها يأخذ صاحب الغنم غنمه ، وصاحب الزرع زَرْعه .

ومعنى ﴿ نَفَشَتْ .. (٧٨) ﴾ [الأنبياء] نقول : نفش الشىء أى : أخذ حَجْماً فوق حَـجْمه ، كما لو أخذتَ مثلاً قطعة من الخبـز أو البقسماط ووضـعتَها فى لبن أو ماء ، تلاحظ أنهـا تنتفش ويزداد حجمها نقول : انتفشت ، كـما نقول لمن يأخذ حـجماً أكثر من حـجمه : « أنت نافش ريشك » .

وقـوله تعــالى : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِـهِمْ شَـاهِدِينَ (٧٨) ﴾ [الأنبيـاء] أى مراقبين .

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٨٧) أن سليمان سأل الخصمين بعد أن خرجا من عند أبيه داود ، بم قضى بينكمـا نبى الله داود ؟ فقالا : قضى بالغنم لصاحب الحـرث . فقال : لعل الحكم غير هذا ، انصرفا مـعى . فأتى أباه فقال : « يا نبى الله إنك حكمت بكذا وكذا ، وإنى رأيت ما هو أرفق بالجمـيع » وقال حكمه بين الخصمين . فـقال داود : وفقت يا بنى لا يقطع الله فهمك .

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

فداود وسليمان - عليهما السلام - نبيان ، لكل منهما مكانته ، وقد أعطاهما الله حُكْماً وعلماً ، ومع ذلك اختلف قولهما فى هذه القضية ، فما توصَّل إليه سليمان لا يقدح فى عِلْم داود ، ولا يطعن فى حُكْمه .

وما أشبه حُكْم كُلٍّ من داود وسليمان بمحكمة درجة أولى ، ومحكمة درجة ثانية ، ومحكمة النقْض ، ومحكمة الاستئناف ، وإياك أن تظن أن محكمة الاستئناف حين تردُّ قضاء محكمة درجة أولى أنها تطعن فيها .

فهذا مثل قوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء] فجاء بحكْم غير ما حكَم به أبوه ؛ لذلك فالقاضى الابتدائى قد يحكم فى قضية ، ويتم تأجيلها إلى أنْ يترقى إلى قاضى استئناف ، فيقرأ نفس القضية لكن بنظرة أخرى ، فيأتى حُكْمه غير الأول .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء] حينما جمع السياق القرآنى بين داود وسليمان أراد أنْ يُبيِّن لنا طَرَفاً ممَّا وهبهما الله ، فقوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء] مظهر من مظاهر امتيازه ، وهنا يُبيِّن مَيْزةً لداود عليه السلام : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء]

والتسخير : قَهْر المسَخَّر على فعل لا يستطيع أنْ ينفكَّ عنه ،

وليس مختاراً فيه ، ونلحظ هنا الارتقاء من الأَدْنى إلى الأعلى : أولاً : سخَّر الجبال وهى جماد ، ثم الطير وهى أَرْقَى من الجماد ، لكن إنْ تصوَّرْنا التسبيح من الطير ؛ لأنه حَىٌّ ، وله روح ، وله حركة وصوت مُعبِّر ، فكيف يكون التسبيح من الجبال الصماء ؟

بعض العلماء حينما يستقبلون هذه الآية يأخذونها بظواهر التفسير ، لا بُعمْق ونظر فى لُبِّ الأشياء ، فالجبال يروْنها جامدة ، ليس لها صوت مُعبِّر كما للطير ؛ لذلك يعجبون من القول بأن الجبال تُسبِّح ، فكيف لها ذلك وهى جمادات ؟

لكن ؛ ما العجب فى ذلك ، وأنت لو قُمْتَ بمَسْح شامل لأجناس الناس فى الأرض ، واختلاف لغاتهم وألسنتهم وأشكالهم وألوانهم بحسْب البيئات التى يعيشون فيها ، فالناس مختلفون فى مثل هذه الأمور متفقون فقط فى الغرائز ، فالجوع والعطش والخوف والضحك والعواطف كلها غرائز مشتركة بين جميع الأجناس ، وهذه الغرائز المشتركة ليس فيها اختيار .

ألم تَرَ إلى قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣)﴾ [النجم] فما دام أنه سبحانه الذى يُضحِك ، والذى يُبكِى ، فلن نختلف فى هذه الأمور .

فالكلام - إذن - من الأشياء التى يختلف فيها الناس ، وهذا الاختلاف ليس فى صوت الحروف ، فالحروف هى هى ، فمثلاً حين ننطق (شرشل) ينطقها أهل اللغات الأخرى كذلك : شين وراء وشين ولام ، فنحن - إذن - متحدون فى الحروف ، لكن نختلف فى معانى الأشياء .

وقد يعزّ على بعض الحناجر أن تنطقَ ببعض الحروف بطبيعة تكوينها ، فغيْر العربى لا ينطق الضاد مثلاً ، فليس عندهم إلا الدال ، أما فى العربية فعندنا فَرْق بين الدال المرقّقة والضاد المفخّمة ، وفرْق بين السين والثاء ، وبين الزاى والذال ، وبين الهمزة والعَيْن ، لذلك نجد غير العربى يقول فى (على) : ألي ، فليس له قدرة على نُطْق العين ، وهو إنسان ناطق بلغة ومُتكلِّم .

فإذا كنا ـ نحن البشر ـ لا يفهم بعضُنا لغاتِ بعض ، فهذا عربى ، وهذا إنجليزى ، وهذا فرنسى .. الخ فإذا لم تتعلم هذه اللغة لا تفهمها .

ومعلوم أن اللغة بنت المحاكاة وبنت السماع ، فما سمعتْه الأذن يحكيه اللسان ، والأبكم الذى لا يتكلم كان أصمَّ لا يسمع ، والطفل ينطق بما سمع ، فلو وُضِع الطفل الإنجليزى فى بيئة عربية لنطق بالعربية .. وهكذا .

فلماذا نعجب حين لا نفهم لغة الطَّيْر أو لغة الجمادات ، وهى أشياء مختلفة عنّا تماماً ، فلا يعنى عدم فَهْمنا للغاتهم أنهم ليست لهم لغة فيما بينهم يتعارفون عليها ويُعبِّرون بها .

إذن : لا تستبعد أنْ يكونَ للأجناس الأَدْنى منك لغات يتفاهمون بها وأنت لا تفهمها ، بدليل أن الله تعالى أعطانا صورةً من لغات الطير ، وهذه يعلمها مَنْ علَّمه الله ، كما امتنَّ الله على سليمان وعلَّمه لغة الطير ، ففهم عنها وخاطبها .

وقد حكى الحق سبحانه وتعالى عنه : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ .. (١٦)﴾ [النمل] ولولا أن الله علَّمه لغة الطير ما علمها .

وها هو الهدهد يقول لسليمان عليه السلام لما تفقَّد الطير ، ولم يجد الهدهد فتوعَّده : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)﴾ [النمل]

ونلحظ هنا دقَّة سليمان ـ عليه السلام ـ في استعراض مملكته ، فلم يترك شيئاً حتى الهدهد ، ونلحظ أدبه في قوله : ﴿مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠)﴾ [النمل] فقد اتهم نظره وشكَّ أولاً ، فربما الهدهد يكون موجوداً ، ولم يَرَهُ سليمان .

وانظر إلى قَوْل الهدهد للملك : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ .. (٢٢)﴾ [النمل] ثم معرفته الدقيقة بقضية التوحيد والعقائد : ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ .. (٢٤)﴾ [النمل]

ويعترض الهدهد على هذا الشرك ، ويردُّ عليه بشيء خاص به ، وبظاهرة تُهمه : ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ[1] فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٥)﴾ [النمل]

فاختار الهدهد مسألة إخراج الخبْء ؛ لأن منه طعامه ، فلا يأكل من ظاهر الأرض ، بل لا بُدَّ أنْ ينبشَ الأرض ، ويُخرِج خبأها ليأكله .

وكذلك النمل ، وهو أقلُّ من الهدهد ، فقد كان للنملة مع سليمان لغة ، وكلام ، وفَهْم عنها : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا .. (١٩)﴾ [النمل]

---

(١) الخبأ : المخبوء المخفيّ . [القاموس القويم ١/١٨٥] . قيل : الخبء الذي في السماوات هو المطر ، والخبء الذي في الأرض هو النبات . قيل : والصحيح أن الخبء كل ما غاب . [لسان العرب ـ مادة : خبأ] .

إذن : كان الكلام للنمل ، لكنْ فَـهمه سليمـان ؛ لذلك قال : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ .. (١٩) ﴾ [النمل]

ذلك لأننا لا نفهم هذه اللغات إلا إذا فَهَّمنا الله إياها .

ومع هذا حينما وقف العلماء أمام هذه الآية ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء] قالوا : يعنى تسبيح دلالة ، فهى بحالها تدلُّ على الخالق سبحانه ، وليس المراد التسبيح على حقيقته ، وأَوْلى بهم أنْ يعترفوا لها بالتسبيح ؛ لكنه تسبيح لا نفهمه نحن ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

والآن نرى فى طموحات العلماء السَّعْى لعمل قاموس للغة الأسماك ولغة بعض الحيوانات ، ولا نستبعد فى المستقبل عمل قاموس للغة الأحجار والجمادات ، وإلا فكيف ستكون ارتقاءات العلم فى المستقبل ؟ وهذه حقيقة أثبتها القرآن تنتظر أن يكتشفها العلم الحديث .

والمزيّة التى أعطاها الله تعالى لنبيه داود ـ عليه السلام ـ ليستْ فى تسبيح الجبال ؛ لأن الجبال تُسبِّح معه ومع غيره ، إنما الميزة فى أنها تُردِّد معه ، وتوافقه التسبيح ، وتجاوبه ، فحين يقول داود : سبحان الله تردد وراءه الجبال : سبحان الله . وكأنهم جميعاً (كورس) يردد نشيداً واحداً .

وليس معنى الجماد أنه جامد لا حياةَ فيه ، فهو جماد من حيث صورة تكوينه ، ولو تأملتَ المحاجر فى طبقات الأرض لوجدتَ بين الأحجار حياة وتفاعلاً وحركةً منذ ملايين السنين ، ونتيجة هذه الحركة يتغير لَوْنُ الحجر وتتغير طبيعته ، وهذا دليل الحياة فيها ، انظر مثلاً لو دهنتَ الحجرة لَوْناً معيناً تراه يتغير مع مرور الزمن ، إذن : فى هذه الجمادات حياة ، لكن لا ندركها .

وسبق أن أشرنا إلى أن الذين يقولون فى معجزات النبى ﷺ أنه سبَّح الحصى فى يده . أن هذه المقولة غير دقيقة تحتاج إلى تنقيح عقلى ، فالحجر مُسبِّح فى يد رسول الله ، وفى يد أبى جهل ، إذن : قل : إن المعجزة هى أن رسول الله سمع تسبيح الحصى فى يده .

فما من شىء فى كون الله إلا وله حياة تناسبه ، وله لغة يُسبِّح الله بها ، أدركناها أم لم ندركها ؛ لأن الكلام فرع وجود حياة ، وكل شىء فى الوجود له حياة ، فعلبة الكبريت هذه التى نستعملها يقول العلماء : إن بين ذراتها تفاعلات تكفى لإدارة قطار حول العالم . هذه التفاعلات دليل حركة وحياة .

ألم يقُلْ الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص]

فكلُّ ما يقال له شىء ـ إلا وَجْه الله ـ هالك ، والهلاك يعنى أن فيه حياةً ؛ لأن الهلاك ضد الحياة ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ (٤٢) ﴾ [الأنفال]

فكُلُّ شىء فى الوجود له حياة بقانونه ، وليس من الضرورى أن تسمع الكلام حتى تعترف بوجوده ، فهناك مثلاً لغة الإشارة ، وهى لغة مفهومة ومُعبِّرة ، ألاَ ترى مثلاً إلى الخادم ينظر إليه سيده مجرد نظرة يفهم منها ما يريد أنْ يُقدِّمه للضيف مثلاً .

البحارة لهم إشارات يتعارفون عليها ويتفاهمون بها . جهاز التلغراف لَوْن من ألوان الأداء ووسيلة من وسائل التفاهم ، إذن : الأداء والبيان ليس من الضرورى أنْ يتمّ بالكلام المسموع ، إنما تتفاهم الأجناس ويُكلِّم بعضها بعضاً كلّ بلغته ، فإذا أراد الله أن يفيض عليك من إشراقاته أعطاك من البصيرة والعلم ما تفهم به لغات غيرك من الأجناس .

لذلك يقول تعالى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾ [النور] والتنوين هنا دالٌّ على التعميم ، فلكل شيء صلاته التي تناسبه ، وتسبيحه الذي يناسب طبيعته .

والحق - سبحانه وتعالى - حين يعرض قضية التسبيح والخضوع والقَهْر من المخلوقات جميعاً لله يأتي الكلام عاماً في كل الأجناس بلا استثناء ، إلا في الكلام عن الإنسان ، فإن التسبيح والخضوع خاصٌّ ببعض الناس .

اقرأ قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ .. (١٨) ﴾ [الحج] هكذا بلا استثناء ، أمّا في الإنسان ، فقال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨) ﴾ [الحج]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) ﴾ [الأنبياء] نعم ، الحق سبحانه خالق كل شيء ، وفاعل كل شيء ، لكن مع ذلك يؤكد هذه الحقيقة حتى لا نتعجب من تسبيح الطير والجماد ، فالله هو الفاعل ، وهو المانح والمحرك.

ثم يقول الحق سبحانه عن داود عليه السلام :

﴿ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ[1] لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ (٨٠) ﴾

(١) قال القرطبي في تفسيره (٦/٤٥٠٠) : « الصنعة يكفُّ بها الإنسان نفسه عن الناس ، ويدفع بها عن نفسه الضرر والباس ، وفي الحديث : « إن الله يحب المؤمن المحترف الضعيف المتعفف ويبغض السائل الملحف » وقد كانت صناعة داود هي صناعة الدروع » .

﴿ عَلَّمْنَاهُ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنبياء] العلْم نقل قضية مفيدة فى الوجود من عالم بها إلى جاهل بها ، والإنسانَ دائماً فى حاجة إلى معرفة وتعلُّم ، لأنه خليفة الله فى الأرض ، ولن يؤدى هذه المهمة إلا بحركة واسعة بين الناس ، هذه الحركة تحتاج إلى فَهْم ومعرفة وتفاعل وتبادل معارف وثقافات ، فمثلاً تشكيل الحديد يحتاج إلى تسخين حتى يصير لَيِّناً قابلاً للتشكيل ، الماء لا بُدَّ أنْ نغليَه لكذا وكذا .. الخ .

وقضايا العلم التى تحتاجها حركة الإنسان فى الأرض نوعان : نوع لم يأمن الله فيه الخَلْق على أنفسهم ، فجاء من الله بالوحى ، حتى لا يكون للعقل مجال فيه ، ولا تختلف حوله الأهواء والرغبات ، وهذا هو المنهج الذى نزل يقول لك : افعل كذا ، ولا تفعل كذا .

لكن الأمور التى لا تختلف فيها الأهواء ، بل تحاول أن تلتقى عليها وتتسابق إليها ، وربما يسرق بعضهم من بعض ، هذه الأمور تركها الحق ـ سبحانه ـ لعمل العقول وطموحاتها ، وقد يلهم فيها بالخاطر أو بالتعلم ، ولو من الأدنى كما تعلَّم ابن آدم (قابيل) من الغراب ، كيف يوارى سوأة أخيه ، فقال سبحانه : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [المائدة]

والقضية العلمية قد يكون لها مقدمات فى الكون حين نُعمل فيها العقل ، ونُرتِّب بعض الظواهر على بعض ، نتوصل منها إلى حقائق علمية ، وقد تأتى القضية العلمية بالتجربة ، أو بالخاطر يقذفه الله فى قَلْب الإنسان .

فقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنبياء] يصح أن نقول : كان هذا التعليم بالوحى ، أو بالتجربة أو الإلقاء فى الرَّوْع ، وهذه الصنعة لم تكن معروفة قبل داود عليه السلام .

واللَّبوس : أبلغ وأحكم من اللباس ، فاللباس من نفس مادة (لبس) هى الملابس التى تستر عورة الإنسان ، وتقيه الحر والبرد ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ[1] تَقِيكُمُ الْحَرَّ .. (٨١)﴾ [النحل]

أما فى الحرب فنحتاج إلى حماية أكبر ووقاية أكثر من العادية التى نجدها فى اللباس ، فى الحرب نحتاج إلى ما يقينا البأس ، ويحمينا من ضربات العدو فى الأماكن القاتلة ؛ لذلك اهتدى الناس إلى صناعة الخوذة والدرع لوقاية الأماكن الخطرة فى الجسم البشرى ، وتتمثل هذه فى الرأس والصدر ، ففى الرأس المخ ، وفى الصدر القلب ، فإن سلِمَتْ هذه الأعضاء فما دونها يمكن مداواته وجَبْره .

إذن : اللبوس أبلغ وأكثر حماية من اللباس ؛ لأن مهمته أبلغ من مهمة اللباس ، وهذه كانت صنعة داود ـ عليه السلام ـ كان يصنع الدروع ، وكانت قبل داود ملْساء[2] يتزحلق السيف عليها ، فلما صنعها داود جعلها مُركَّبة من حلقات حتى ينكسر عليها السيف ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ .. (٨٠)﴾ [الأنبياء] أى : تحميكم فى حَرْبكم مع عدوكم ، وتمنعكم وتحوطكم .

إذن : ألهمنا داود عليه السلام ، فأخذ يُفكِّر ويبتكر ، وكل تفكير فى ارتقاء صَنْعة إنما ينشأ من ملاحظة عيب فى صَنْعة سابقة ،

---

(١) السربال : القميص والدرع . وقيل فى قوله تعالى : ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ..(٨١)﴾ [النحل] . إنها القُمُص تقى الحر والبرد ، فاكتفى بذكر الحر كأن ما وقى الحر وقى البرد ، وأما قوله تعالى : ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ .. (٨١)﴾ [النحل] . فهى الدروع [لسان العرب ـ مادة : سربل] .

(٢) قال قتادة : كانت صفائح ، فأول من مدَّها وحلَّقها داود عليه السلام أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٦٥٠) وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير الطبرى وأبى الشيخ فى العظمة .

فيحاول اللاحق تلافى أخطاء السابق ، وهكذا حتى نصلَ إلى شىء لا عَيْبَ فيه ، أو على الأقل يتجنب عيوب سابقه ؛ لذلك يُسمُّونه (آخر موديل) .

ثم يقول تعالى : ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠)﴾ [الأنبياء] شاكرون على نعمة الله الذى يرعاكم ويحفظكم فى المآزق والمواقف الصعبة ، واختار سبحانه موقف البأس أمام العدو ؛ ليعطينا إشارة إلى ضرورة إعداد المؤمن لمواجهة الكافر ، والأخذ بأسباب النجاة إذا تمَّتْ المواجهة .

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)﴾ [الحديد]

فليست مُهمة الحديد فى الحياة أنه ينفع الناس فحسْب ، إنما له مهمة قتالية أيضاً ؛ لذلك قال : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ .. (٢٥)﴾ [الحديد] كما قال : ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ .. (٢٣)﴾ [الإنسان] فإنْ كان القرآن للهداية فالحديد يُؤيِّد هذه الهداية ، حيث نضرب به على أيدى الكافرين العاصين ، ونحمى به صدور المؤمنين المصدِّقين ؛ لذلك قال ﴿أَنزَلْنَا .. (٢٥)﴾ [الحديد] أى : من أعلى مع أنه خارج من الأرض .

إذن : مسألة الحديد فى الأرض نعمة كبيرة من نِعَم الله علينا ، بها نحفظ أنفسنا من العدو ، فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الخَلْق ولم يتركه هكذا يُدبِّر أمره ، إنما خلقه ووضع له قانون حمايته وصيانته ، وهذا يستحقّ منّا الشكر الدائم الذى لا ينقطع .

ثم ينتقل السياق من الكلام عن داود إلى ابنه سليمان عليهما السلام ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

لا شكّ أن سليمان ـ عليه السلام ـ قد استفاد بما علَّم الله به أباه داود ، وأخذ من نعمة الله على أبيه ، وهنا يزيده ربه ـ تبارك وتعالى ـ أموراً يتميز بها ، منها الريح العاصفة أى : القوية الشديدة ﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا .. ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنبياء] وكأنها مواصلات داخلية فى مملكته من العراق إلى فلسطين[1] .

وفى موضع آخر قال : ﴿ وَهَبْ لِى مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِى لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِى إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [ص]

رُخَاء : أى : هيِّنة ليِّنة ناعمة ، وهنا قال ﴿ عَاصِفَةً .. ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنبياء] فكأن الله تعالى جمع لهذه الريح صفة السرعة فى (عاصفة) وصفة الراحة فى (رخاء) ، وهاتان صفتان لا يقدر على الجمع بينهما إلا الله ، فنحن حين تُسْرِع بنا السيارة مثلاً لا تتوفر لنا صفة الراحة والاطمئنان ، بل يفزع الناس ويطلبون تهدئة السرعة .

أما ريح سليمان فكانت تُسرع به إلى مراده ، وهى فى الوقت نفسه مريحة ناعمة هادئة لا تُؤثِّر فى تكوينات جسمه ، ولا تُحدث له رجَّة أو قوة اندفاع يحتاج مثلاً إلى حزام أمان ، فمَنْ يقدر على

(١) « قال الحسن البصرى : كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل باصطخر يتغدى بها ويذهب رائحاً من اصطخر فيبيت بكابل ، وبين دمشق واصطخر شهر كامل للمسرع ، وبين اصطخر وكابل شهر كامل للمسرع » نقله ابن كثير فى تفسيره (٥٢٨/٣) . وكابل : هى عاصمة أفغانستان حالياً .

الجمع بين هذه الصفات إلا الله القابض الباسط ، الذى يقبض الزمن فى حق قوم ويبسطه فى حق آخرين .

ومعنى : ﴿ بَارَكْنَا فِيهَا .. (٨١) ﴾ [الأنبياء] أى : بركة حسِّية بما فيها من الزروع والثمار والخصْب والخيرات ، وبركة معنويَة حيث جعل فيها مهابط الوحى والنبوات وآثار الأنبياء .

وليس تسخير الريح لسليمان أنها تحمله مثلاً ، كما رأينا فى (السينما) بساط الريح الذى نراه يحمل شيئاً ويسير به فى الهواء ، أو : أنها كانت تُسيِّر المراكب فى البحار ، إنما المراد بتسخيرها له أن تكون تحت مراده ، وتأتمر بأمره ، فتسير حيث شاء يميناً أو شمالاً ، فهى لا تهُبُّ على مرادات الطبيعة التى خلقها الله عليها ، ولكن على مراده هو .

وإنْ كانت هذه الريح الرُّخَاء تحمله فى رحلة داخلية فى مملكته ، فهناك من الرياح ما يحمله فى رحلات وأسفار خارجية ، كالتى قال الله تعالى عنها : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ .. (١٢) ﴾ [سبأ] فيجوب بها فى الكون كيف يشاء ﴿ حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) ﴾ [ص]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) ﴾ [الأنبياء] أى عندنا علْم نُرتِّب به الأمور على وَفْق مرادنا ، ونكسر لمرادنا قانون الأشياء فنُسيِّر الريح كما نحب ، لا كما تقتضيه الطبيعة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢) ﴾

فبعد أنْ سخَّر الله له الريح سخَّر له الشياطين ﴿يَغُوصُونَ لَهُ .. (٨٢)﴾ [الأنبياء] والغَوْصُ : النزول إلى أعماق البحر ؛ ليأتوه بكنوزه ونفائسه وعجائبه التي ادخرها الله فيه ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ .. (٨٢)﴾ [الأنبياء] أي : مما يُكلِّفهم به سليمان من أعمال شاقة لا يقدر عليها الإنسان ، وقد شرحت هذه الآية في موضع آخر : ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ[1] وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ.. (١٣)﴾ [سبأ] فأدخل مرادات العمل في مشيئته .

والمحاريب جمع محراب ، وهو مكان العبادة كالقِبْلة مثلاً ، والجِفَان : جمع جَفْنة ، وهي القَصْعة الكبيرة الواسعة التي تكفي لعدد كبير ، والقدور الراسيات أي : الثابتة التي لا تنقل من مكان لآخر وهي مبنية .

وقد رأينا شيئاً من هذا في الرياض أيام الملك عبد العزيز رحمه الله ، وكان هذا القِدْر من الاتساع والارتفاع بحيث إذا وقف الإنسان مادّاً ذراعيه إلى أعلى لا يبلغ طولها ، وفي الجاهلية اشتهرت مثل هذه القدور عند ابن جدعان ، وعند مطعم بن عدي .

أما التماثيل فهي معروفة ، والموقف منها واضح منذ زمن إبراهيم عليه السلام حينما كسَّرها ونهى عن عبادتها ، وهذا يردُّ قول مَنْ قال بأن التماثيل كانت حلالاً ، ثم فُتِن الناس فيها ، فعبدوها من دون الله فَحرِّمت ، إذن : كيف نخرج من هذا الموقف ؟ وكيف يمتنّ الله على نبيه سليمان أن سخر له من يعملون التماثيل وهي مُحرَّمة ؟

نقول : كانوا يصنعون له التماثيل لا لغرض التعظيم والعبادة ،

---

(١) الجواب : جمع جابية ، وهي الحوض الذي يُجبى فيه الماء ، وقال ابن عباس : كالحياض . وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك . [تفسير ابن كثير ٣/٥٢٨] .

إنما على هيئة الإهانة والتحقير ، كأنْ يجعلوها على هيئة رجل جبار ، أو أسد ضخم يحمل جزءاً من القصر أو شرفة من شرفاته ، أو يُصوِّرونها تحمل مائدة الطعام .. الخ . أى أنها ليست على سبيل التقديس .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢) ﴾ [الانبياء] حافظين للناس المعاصرين لهذه الأعمال حتى لا تؤذيهم الشياطين أو تفزعهم ، ومعلوم أن الشياطين يروْنَ البشر ، والبشر لا يروْنَهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّه يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. (٢٧) ﴾ [الأعراف]

أما سليمان عليه السلام فكان يرى الجنَّ ويراقبهم وهم يعملون له ، وفى قصته : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ[1] .. (١٤) ﴾ [سبأ]

وفى هذا دليل على أن الجن لا يعلمون الغيب ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) ﴾ [سبأ]

ويُقال : إن سليمان ـ عليه السلام ـ بعد أنْ امتنَّ الله عليه ، وأعطاه مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، أخذ هؤلاء الجن وحبسهم فى القماقم حتى لا يعملوا لأحد غيره .

هذه مجرد لقطة من قصة سليمان ، ينتقل السياق منها إلى أيوب عليه السلام :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٨٣) ﴾

(١) المنسأة : العصا الغليظة . بلسان الحبشة . [القاموس القويم ٢/٢٦٢] .

(نَادَى) : قلنا النداء لمثلك طلب إقبال ، أما بالنسبة لله تعالى فهو بمعنى الدعاء ، فمعنى ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ .. (٨٣)﴾ [الأنبياء] أى : دعاه وناداه بمطلوب هو : ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣)﴾ [الأنبياء] والضُّر : ابتلاء من الله فى جسده بمرض أو غيره .

أما الضَّر بفتح الضاد ، فهو إيذاء وابتلاء فى أى شىء آخر غير الجسد ، ولا مانع أن يمرض الأنبياء لكن بمرض غير مُنفِّر .

لكن ، كيف ينادى أيوب عليه السلام ربه ويتوجع ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ .. (٨٣)﴾ [الأنبياء] أليس فى علم الله أن أيوبَ مسَّه الضُّر ؟ وهل يليق بالنبى أنْ يتوجّع من ابتلاء الله ؟

نعم ، يجوز له التوجُّع ؛ لأن العبد لا يَشْجَعُ على ربه ؛ لذلك فإن الإمامُ علياً رضى الله عنه لما دخل عليه رجل يعوده وهو يتألم من مرضه ويتوجع ، فقال له : أتتوجَّع وأنت أبو الحسن ؟ فقال : أنا لا أشجع على الله يعنى : أنا لست فتوة أمام الله .

ألا ترى أنه من الأدب مع مَنْ يريد أنْ يُثبت لك قوته فيمسك بيدك مثلاً ، ويضغط عليها لتضجّ وتتألم ، أليس من الأدب أن تطاوعه فتقول : آه وتُظهر له ولو مجاملة أنه أقوى منك ؟

ومعنى : ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣)﴾ [الأنبياء] ساعةَ أنْ ترى جَمْعاً فى صفة من الصفات يُدخل الله فيه نفسه مع خَلْقه ، كما فى : ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣)﴾ [الأنبياء] و ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون] و ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)﴾ [آل عمران] فاعلم أن الله تعالى يُثبت نفس الصفة لعباده ، ولا يبخسهم حقهم .

فالرحمة من صفات البشر ، كما جاء فى الحديث الشريف : « الراحمون يرحمهم الرحمن »[(١)] .

وفى « ارحموا مَنْ فى الأرض يرحمكم مَنْ فى السماء »[(٢)] .

فالرحمة تخلُّق بأخلاق الحق سبحانه ، والنبى ﷺ يقول : « تخلَّقوا بأخلاق الله » .

إذن : للخَلْق صفة الرحمة ، لكن الله هو أرحم الراحمين جميعاً ؛ لأن رحمته تعالى وسعَتْ كل شىء . كما قلنا فى صفة الخَلْق : فيمكنك مثلاً أن تصنع من الرمل كوباً ، وتُخرجه إلى الوجود ، وتنتفع به ، لكن أخَلْقك للكوب كخَلْق الله ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾[(٣)]

استجاب الله لأيوب فيما دعا به من كَشْف الضُّر الذى أصابه ،

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/١٦٠) ، والترمذى فى سننه (١٩٢٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٤١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٢) أخرج أبو نعيم فى الحلية (٤/٢١٠) ، والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠٢٧٧) وكذا فى المعجم الصغير (١/١٠١) من حديث عبد الله بن مسعود بلفظ : « ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء » .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥٠٧) : « اختُلفَ فى مدة إقامته فى البلاء ، فقال ابن عباس : كانت مدة البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ليال . وقال وهب : ثلاثين سنة ، وقال الحسن : سبع سنين وستة أشهر . قلت : وأصح من هذا والله أعلم ثمانى عشرة سنة ، رواه ابن شهاب عن النبى ﷺ ذكره ابن المبارك » .

وأعطاه زيادة عليه ونافلة لم يَدْعُ بهـا ، حيث كان فى قِلَّة من الأهل ، وليس له عِزْوة .

﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء] ليعلم كلُّ عابد أخلص عبادته لله تعالى ، أنه إذا مسَّه ضُرٌّ أو كَرْب ولجأ إلى الله أجابه الله إلى ما يريد ، وأعطاه فوق الإجابة نافلة أخرى ، وكأن ما حدث لنبى الله أيوب نموذج يجب أن يُحْتَذَى .

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ (١) كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

قلنا : إن سورة الأنبياء لا تذكر قَصَصاً كاملاً للأنبياء ، إنما تعطينا طَرَفاً منها ، وهنا تذكر إسماعيل وإدريس وذا الكفل بالاسم فقط .

ثم يقول تعالى : ﴿ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأنبياء] كأن الصبر فى حَدِّ ذاته حيثية يُرسل الله من أجلها الرسول ، ولنتأمل الصبر عند إسماعيل ، وكيف أنه صبر على أنْ يذبحه أبوه برؤيا رآها ، فأىُّ صبر أعظم من هذا ؟

ثم يعيش فى صِغَره - وحتى كبر - فى وَاد غير ذى زرع ، ويتحمل مشاق هذه البِيئة الجافة المجْدِبة ، ويخضعُ لقول الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

وكأن فى خروجه من هذه الأرض وطلبه لأرض أخرى فيها النعيم

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٩٠) : « الظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبى . وقال آخرون : إنما كان رجلاً صالحاً وكان ملكاً عادلاً وحكماً مقسطاً ، وتوقف ابن جرير فى ذلك والله أعلم » .

والزروع والثمار تأبّياً على إقامـة الصلاة ؛ لذلك نراه يُفضّل البقاء فى هذا المكان ، ويزهد فى نعيم الدنيـا الذى يتمتع به غيره امتـثالاً لأمر الله .

وتكون النتـيجـة أنْ أعطاه الله ما هو خَـيْر من الزروع والثـمار ، أعطاه عطاءً يفخر به بين جمـيع الأنبياء ، هو أنه جعل من نسله النبى الخاتم محمد بن عبد الله ، وأىٌّ ثمرة أحسن من هذه ؟

وإدريس : وهو من الجـيل الخـامس من أولاد آدم عليه السـلام ، وبعض العلماء يقولون هو « أوزوريس » ، ونحن لا نـقول إلا ما قاله القرآن (إدريس) وأهـل السير يقـولون : إن نبى الله إدريس أول مَنْ علّمـه الله غزل الصـوف وخيـاطة الملابس ، وكـانوا قبلهـا يستـرون عوراتهم بقطع الجلود .

وهو أول مَن استخدم النجوم لمعرفة الاتجاهات والأحوال ، وأول مَنْ خط بالقلم ، هذه يُسمُّونها أوليات إدريس .

وذا الكفـل : الكِفْل هو الحـظ والنصـيب ، فلمـاذا سُـمِّى « ذو الكفل » ؟ ذو الكفـل ابن أيوب عليـه السـلام ، ويظهـر أن أولاد أيوب كانوا كـثيـرين ، إنما اخـتص الله ذا الكفل بالرسالة ، وكـان هذا حظه دون غيره من أبناء أيوب ؛ لذلك سُمِّى « ذو الكفل »[1] .

---

(١) قال مجاهد عن ذى الكفل : رجل صالح غير نبى ، تكفل لنـبى قومه أن يكفيه أمـر قومه ويقـيمـهم له ويقضى بينهم بـالعدل فـفعل ذلك فـسمى ذا الكفل . [أورده ابن كـثيـر فى تفسيره ٣/١٩٠] ، وقد أورد القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥٠٨) أقوالاً أخرى منها :
– كان رجلاً عفيفاً يتكفل بشأن كل إنسان وقع فى بلاء أو تهمة أو مطالبة فينجيه الله على يديه .
– سمى ذا الكفل لأن الله تعـالى تكفل له فى سعيـه وعمله بضعف عـمل غيره من الأنبـياء الذين كانوا فى زمانه .

وقد جاءت هذه المادة (كَفَل) أيضاً فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ .. (٢٨) ﴾ [الحديد]

جاءت هذه الآية بعد الكلام عن عيسى ـ عليه السلام ـ والذين آمنوا به واتبعوه ، يقول تعالى : يا مَنْ آمنتم بالرسل السابقين ، وآخرهم عيسى ـ عليه السلام ـ آمنوا بالرسول الخاتم ليكون لكم كفلان أى : نصيبان وحظَّان من رحمةَ الله ، نصيبٌ لإيمانكمْ بعيسى ، ومَنْ سبقه من الرسل ، ونصيبٌ لإيمانكم بمحمد ﷺ .

ثم يقول تعالى فى وصفهم ﴿ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) ﴾ [الأنبياء] فوصف كلّ الأنبياء بالصبر ؛ لأنهم تعرَّضوا لأنواع الاضطهاد والإيذاء والأهوال فى سبيل دعوتهم ، وصبروا على هذا كله .

﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) ﴾

والرحمة هنا بمعنى النبوة ، وهى أمر عظيم وعطاء كبير ، فإنْ تحمّلوا فى سبيله بعض المتاعب ، فلا غضاضةَ فى ذلك .

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾

« ذو النون » : هو سيدنا يونس بن متى صاحب الحوت ، والنون من أسماء الحوت ، وجمعه (نينان) كحوت وحيتان ؛ لذلك

سُمِّيَ به ، وقد أُرسل يونس عليه السلام إلى أهل (نِينَوَى) من أرض الموصل بالعراق .

وقد قال النبى ﷺ لعداس : « أنت من بلد النبى الصالح : يونس ابن متى »[1] .

والنون أيضاً اسم لحرف من حروف المعجم ، لكن قد يوافق اسمُ الحرف اسماً لشيء آخر ، كما فى (ق) وهو اسم جبل ، وكذلك السين ، فهناك نهر اسمه نهر السين ، وهكذا تصادف أسماء الحروف أسماء أشياء .

وقوله تعالى : ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا .. ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء] مادة (غضب) نأخذ منها الوصف للمفرد . نقول : غاضب وغضبان ، أمّا (مغاضب) فتعطى معنى آخر ؛ لأنها تدل على المفاعلة ، فلا بُدَّ أن أمامك شخصاً آخر ، أنت غاضب وهو غاضب ، مثل : شارك فلان فلاناً .

لكن فى أصول اللغة رجحنا جانب الفاعلية فى أحدهما ، والمفعُولية فى الآخر ، كما نقول : شارك زيدٌ عَمْراً ، فالمشاركة حدثتْ منهما معاً ، لكن جانب الفاعلية أزيد من ناحية زيد ، فكلٌّ واحد منهما فاعل مرة ومفعول أخرى .

واللغة أحياناً تلحظ هذه المشاركة ، فتُحمِّل اللفظ المعنيين معاً : الفاعل والمفعول ، كما جاء فى قَوْل الشاعر العربى الذى يصف السير فى أرض معقربة ، والتى إذا سِرْت فيها دون أنْ تتعرض للعقارب فإنها تسالمك ولا تؤذيك ، فيقول :

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤٢١) ، وفيه : أن عداساً قال : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله ﷺ : ذاك أخى ، كان نبياً وأنا نبى ، فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه .

قَدْ سَالَمَ الحياتُ منْه القَدَمَا الأفْعُوانَ[1] والشُّجاعَ القَشْعَمَا[2]

أى : أنه سَالَم الحيات ، فالحيات سالمتْه ، فالمسالمة منهما معاً ، لكن غلب جانب الحيات فجاءت فاعلاً ؛ لأن إيذاءَها أقوى من إيذائه ، فلما أبدل من الحيات (الأفعوان والشجاع القشعما) وهما من أسماء الحيات كان عليه أنْ يأتى بالبدل مرفوعاً تابعاً للمبدل منه ، إلا أنه نصبه فقال : **الأُفْعَوانَ** والشجاعَ القشعماَ ؛ لأنه لاحظ فى جانب الحيات أنها أيضاً مفعولٌ .

فَمِمَّ غضب ذو النون ؟ غضب لأن قومه كذبوه ، فتوعدهم إنْ لم يتوبوا أنْ يُنزل بهم العذاب ، وأتى الموعد ولم ينزل بهم ما توعدهم به ، فخاف أنْ يُكذِّبوه ، وأن يتجرَّأوا عليه ، فخرج من بينهم مغاضباً إلى مكان آخر ، وهو لا يعلم أنهم تابوا فأخَّر الله عذابهم ، وأجّل عقوبتهم .

وفى آية أخرى يُوضِّح الحق سبحانه هذا الموقف : ﴿ **فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ** (٩٨) ﴾ [يونس]

أى : لم يحدث قبل ذلك أنْ آمنتْ قرية ونفعها إيمانها إلا قرية واحدة هى قوم يونس ، فقد آمنوا وتابوا فأجّل الله عذابهم .

إذن : خرج يونس مُغَاضباً لا غاضباً ؛ لأن قومه شاركوه ، وكانوا سبب غضبه ، كما حدث فى مسألة هجرة النبى ﷺ فرسول

---

(١) الأفعوان : ذَكَر الأفاعى . والقشعم : الضخم . [لسان العرب ـ مادتا : فعا ، قشعم] .

(٢) أورد ابن منظور فى لسان العرب (مادة : شجع) وعزاه للأحمر ولكن بلفظ « الشجاع الشجعما » وقال : الشجعم : الضخم منها ، وقيل : هو الخبيث المارد منها ، ثم قال : « نصب الشجاع والأفعوان بمعنى الكلام ؛ لأن الحيات إذا سالمت القدم فقد سالمها القدم ، فكأنه قال : سالم القدم الحيات ، ثم جعل الأفعوان بدلاً منها » .

الله هاجر من مكة لكنه لم يهْجرهَا ، فسُمِّيَتْ هجرة ؛ لأن أهل مكة هجروا رسول الله أولاً ، وهجروا دعوته وألجئوه أيضاً إلى الهجرة وتَرْك مكة ، فهم طرف فى الهجرة وسببٌ لها .

لذلك قال ﷺ مخاطباً مكة : « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلىَّ ، ولولا أنَّ أهلك أخرجونى منك ما خرجْتُ »[(١)] .

وقد أخذ المتنبى[(٢)] هذا المعنى ، وعبَّر عنه بقوله :

إذَا ترحلْتَ عَنْ قَوْمٍ وقَدْ قَدَرُوا ... ألاَّ تُفارِقَهُمْ فالراحِلُون هُمُ

وقوله تعالى : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء] البعض ينظر فى الآية نظرةً سطحية ، فيقولون : كيف يظن يونس أن الله لن يقدر عليه ؟ وهذا الفَهْم ناشىء عن جَهْل باستعمالات اللغة ، فليس المعنى هنا من القدرة على الشىء والسيطرة ، ولو استوعبتَ هذه المادة فى القرآن (قَدَرَ) لوجدت لها معنى آخر ، كما فى قوله تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الطلاق] معنى قُدر عليه رزقه يعنى : ضُيِّق عليه .

ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الإسراء]

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه (٣١٠٨) ، والدارمى فى سننه (٢/ ٢٣٩) من حديث عبد الله بن عدى بن حمراء الزهرى قال : رأيت رسول الله ﷺ وهو على راحلته واقفاً بالحزورة يقول .. الحديث .

(٢) هو : أحمد بن الحسين الكندى أبو الطيب المتنبى ، الشاعر الحكيم وأحد مفاخر الأدب العربى . ولد ٣٠٣ هـ بالكوفة فى محلة « كندة » ونشأ بالشام ، ثم تنقل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس ، وفد على سيف الدولة الحمدانى صاحب حلب فمدحه ومضى إلى مصر فمدح كافور الإخشيدى ثم هجاه . قتل بالنعمانية وابنه وغلامه عام ٣٥٤ هـ (الأعلام للزركلى ١/ ١١٥) .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) ﴾ [الفجر]

إذن : فقوله : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ .. (٨٧) ﴾ [الأنبياء] أى : أن يونس لما خرج من بلده مُغاضباً لقومه ظنَّ أن الله لن يُضيِّق عليه ، بل سيُوسِّع عليه ويُبدله ببلده مكاناً أفضل منها ، بدليل أنه قال بعدها ﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ[1] أَن لاَّ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء] يريد منه سبحانه تنفيس كربته ، وتنفيس الكربة لا يكون إلا بصفة القدرة له .

فكيف يستقيم المعنى لو قلنا : لن يقدر عليه بمعنى : أن الله لا يقدر على يونس[2] ؟

إذن : المعنى : لن يُضيِّق عليه ؛ لأنه يعلم أنه رسول من الله ، وأن ربه لن يُسْلمه ، ولن يخذله ، ولن يتركه فى هذا الكرب .

وقد وُجدَتْ شبهة فى قصة يونس ـ عليه السلام ـ فى قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات]

فكيف يلبث فى بطن الحوت إلى يوم يُبعثون ، مع أن يونس سيموت ، وسيأتى أجَل الحوت ويموت هو أيضاً ، أم أن الحوت سيظل إلى يوم القيامة يحمل يونس فى بطنه ؟

---

(١) قال ابن مسعود : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل . وكذا روى عن ابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير والحسن وقتادة . [قاله ابن كثير فى تفسيره ٣/١٩٢] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥١١) : « هذا قول مردود مرغوب عنه ؛ لأنه كفر . وذكر الثعلبى وقال عطاء وسعيد بن جبير وكثير من العلماء معناه : فظن أن لن نضيق عليه » .

وفات هؤلاء نظرية الاحتواء في المزيجات ، كما لو أذبتَ قالباً من السكر في كوب ماء ، فسوف تحتوى جزئيات الماء جزئيات السكر ، والأكثر يحتوى الأقل ، فقالب السكر لا يحتوى الماء ، إنما الماء يحتوى السكر .

فلو مات الحوت ، ومات في بطنه يونس - عليه السلام - وتفاعلت ذراتهما وتداخلتْ ، فقد احتوى الحوتُ يونسَ إلى أن تقوم الساعة ، وعلى هذا يظل المعنى صحيحاً ، فهو في بطنه رغم تناثر ذراتهما(١) .

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

استجاب الله نداء يونس - عليه السلام - ونجَّاه من الكرب ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء] إذن : فهذه ليست خاصة بيونس ، بل بكل مؤمن يدعو الله بهذا الدعاء ﴿ وَكَذَٰلِكَ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : مثل هذا الإنجاء نُنْجى المؤمنين الذين يفزعون إلى الله بهذه الكلمة : ﴿ لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء] فيُذهِب الله غَمَّه ، ويُفرِّج كَرْبه .

لذلك يقول ابن مسعود رضى الله عنه : « ثوِّروا القرآن » يعنى : أثيروه ونقِّبوا فى آياته لتستخرجوا كنوزه وأسراره(٢) .

---

(١) قال قتادة فى قوله تعالى ﴿ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الصافات] قال : لصار له بطن الحوت قبراً إلى يوم القيامة . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ١٢٧/٧ ، وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم] .

(٢) فى حديث عبد الله : أثيروا القرآن ، فإن فيه خبر الأولين والآخرين . قال شمر : تثوير القرآن قراءته ومفاتشة العلماء به فى تفسيره ومعانيه . [لسان العرب - مادة : ثور] .

وكان سيدنا جعفر الصادق من المثوِّرين للقرآن المتأملين فيه ، وكان يُخرِج من آياته الدواء لكل داء ، ويكون كما نقول (روشتة) لكل أحوال المؤمن .

والمؤمن يتقلّب بين أحوال عدة منها : الخوف سواء الخوف أنْ يفوته نعيم الدنيا ، أو الخوف من جبار يهدده ، وقد يشعر بانقباض وضيق فى الصدر لا يدرى سببه وهذا هو الغَمُّ ، وقد يتعرض لمكر الماكرين ، وكَيْد الكائدين ، وتدبير أهل الشر .

هذه كلها أحوال تعترى الإنسان ، ويحتاج فيها لمَنْ يسانده ويُخرجه مما يعانيه ، فليس له حَوْل ولا قوة ، ولا يستطيع الاحتياط لكل هذه المسائل .

وقد تراوده بهجة الدنيا وزُخْرفها ، فينظر إلى أعلى ممّا هو فيه ، ويطلب المزيد ، ولا نهايةَ لطموحات الإنسان فى هذه المسألة ، كما قال الشاعر :

تَمُوتُ مَع المرْءِ حَاجَاتُه ... وتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِى

والناس تحرص دائماً على أن تستوعب نعَم الحياة وراحتها ، وهم فى ذلك مُخْطئون ؛ لأن تمام الشيء بداية زواله ، كما قال الشاعر :

إذَا تَمَّ شَيءٌ بَدَا نَقْصُه ... تَرقَّبْ زَوَالاً إذَا قيلَ تَم

لأن الإنسان ابنُ أغيار ، ولا يدوم له حال من صحة أو مرض ، أو غنىً أو فقر ، أو حزن أو سرور ، فالتغيُّر سمةَ البشر ، وسبحان مَنْ لا يتغير ، إذن : فماذا بعد أنْ تصل إلى القمةَ ، وأنت ابنُ أغيار ؟

ونرى الناس يغضبون ويتذمرون إنْ فاتهم شيء من راحة الدنيا ونعيمها ، أو انتقصتهم الحياة شيئاً ، وهم لا يدرون أن هذا النقص

هو الذى يحفظ عليك النعمة ، ويدفع عنك عيون الحاسدين فيُسلِّم لك ما عندك .

فتجد مثلاً أسرة طيبة حازتْ اهتمام الناس واحترامهم ، غير أن بها شخصاً شريراً سيِّئاً ، يعيب الأسرة ، فهذا الشخص هو الذى يدفع عنها عُيون الناسِ وحَسَدَهم .

وقد أخذ المتنبى هذا المعنى ، وعبَّر عنه فى مدحه لسيف الدولة[1] ، فقال :

شَخَصَ الأنَامُ إلَى كَمَالِكَ فَاسْتعِذ ... مِنْ شَرِّ أعيُنِهِمْ بِعَيْبٍ وَاحِدِ

نعود إلى (روشتة) سيدنا جعفر الصادق التى استخلصها لنا من كتاب الله ، كما يستخلص الأطباء الدواءَ والعقاقير من كتب الحكماء :

يقول : عجبتُ لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله تعالى : ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران] فإنِّى سمعت الله بعقبها يقول : ﴿فَانقَلَبُوا[2] بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ .. ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران]

وعجبتُ لمَنْ اغتمَّ ، ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء] فإنِّى سمعت الله

---

(١) هو : على بن عبد الله بن حمدان أبو الحسن سيف الدولة الحمدانى ، صاحب المتنبى وممدوحه ، ولد فى ميافارقين (بديار بكر) عام ٣٠٣ هـ ، ونشأ شجاعاً مهذباً على الهمة ، امتلك واسطاً ودمشق وحلب وتوفى فيها عام (٣٥٦ هـ) عن ٥٣ عاماً . الأعلام للزركلى (٤/٣٠٣) .

(٢) انقلب : رجع وتحوَّل إلى وضعه الأول ، أو إلى وضع آخر . فانقلبوا : أى : رجعوا . [القاموس القويم ٢/١٢٩] .

بعقبها يقول : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء]

وعجبتُ لمن مُكرَ به ، ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ .. (٤٤) ﴾ [غافر] فإنِّى سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا .. (٤٥) ﴾ [غافر]

وعجبتُ لمن طلب الدنيا وزينتها ، ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿ مَاشَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ .. (٣٩) ﴾ [الكهف] فإنِّى سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ .. (٤٠) ﴾ [الكهف]

وهكذا يجب على المؤمن أن يكون مُطْمئناً واثقاً من معيَّة الله ، ويضع كما نقول (فى بطنه بطيخة صيفى) ؛ لأنه يفزع إلى ربه بالدعاء المناسب فى كل حال من هذه الأحوال ، وحين يراك ربك تلجأ إليه وتتضرع ، وتعزو كل نعمة فى ذاتك أو فى أهلك أو فى مالك وتنسبها إلى الله ، وتعترف بالمنعم سبحانه فيعطيك أحسنَ منها .

ثم يُحدِّثنا الحق سبحانه عن نبى آخر من أنبيائه ، فيقول تعالى :

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) ﴾

لقد بلغ زكريا ـ عليه السلام ـ من الكبر عتياً ، ولم يرزقه الله الولد ، فتوجه إلى الله : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ[1] مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) ﴾ [مريم]

---

(١) الموالى هنا : الأقارب وبنو العم والعَصَبة الذين يلونه فى النسب . قاله القرطبى فى تفسيره (٦/٤٢٤٨) .

فلما بشَّره الله بالولد تعجَّب ؛ لأنه نظر إلى مُعْطيات الأسباب ، كيف يرزقه الله الولد ، وقد بلغ من الكبَر عتياً وامرأته عاقر ، فأراد أن يُؤكّد هذه البُشْرى : ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾ [مريم]

يُطمئنُ الله تعالى نبيَّه زكريا : اطرح الأسباب الكونية للخَلْق ؛ لأن الذى يُبشِّرك هو الخالق .

وقد تعلَّم زكريا من كفالته لمريم أن الله يُعطى بالأسباب ، ويعطى إن عزَّتْ الأسباب ، وقد تبارى أهل مريم فى كفالتها ، وتسابقوا فى القيام بهذه الخدمة ؛ لأنهم يعلمون شرفها ومكانتها ؛ لذلك أجروا القرعة على مَنْ يكفلها فأتوا بالأقلام ورموْها فى البحر[1] فخرج قلم زكريا ، ففاز بكفالة مريم :

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران]

وإجراء القرعة لأهمية هذه المسألة ، وعظَم شأنها ، والقرعة إجراء للمسائل على القدَر ، حتى لا تتدخّل فيها الأهواء .

فلما كفَل زكريا مريم كان يُوفِّر لها ما تحتاج إليه ، ويرعى شئونها ، وفى أحد الأيام دخل عليها ، فوجد عندها طعاماً لم يأت

---

(١) ذكر عكرمة والسدى وقتادة والربيع بن أنس وغير واحد ، أنهم ذهبوا إلى نهر الأردن واقترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم فأيهم يثبت فى جرية الماء فهو كافلها ، فألقوا أقلامهم فاحتملها الماء إلا قلم زكريا فإنه ثبت . ويقال : إنه ذهب صاعداً يشق جرية الماء . [تفسير ابن كثير ٣٦٢/١] .

به[1] : ﴿قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران]

وهنا مَلْحظ وإشارة إلى ضرورة متابعة ربِّ الأسرة لأسرته ، فإذا ما رأى فى البيت شيئاً لم يأتِ به فليسأل عن مصدره ، فربما امتدت يد الأولاد إلى ما ليس لهم ، إنه أصل لقانون « من أين لك هذا ؟ » الذى نحتاج إلى تطبيقه حين نشكّ .

التقط زكريا إجابة مريم التى جاءتْ سريعة واثقة ، تدل على الحق الواضح الذى لا يتلجلج : ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران]

نعم ، هذه مسألة يعرفها زكريا ، لكنها لم تكُنْ فى بُؤْرة شعوره ، فقد ذكَّرْته بها مريم : ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران]

أى : ما دام الأمر كذلك ، فَهَبْ لى ولداً يرثُ النبوة من بعدى . ثم يذكر حيثيات ضَعْفه وكبَر سنِّه ، وكوْن امرأته عاقراً ، وهى حيثيات المنع لا حيثيات الإنجاب ؛ لأن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب وبغير أسباب .

وهكذا ، استفاد زكريا من هذه الكلمة ، واستفادتْ منها مريم كذلك فيما بعد ، وحينما جاءها الحَمْل فى المسيح بدون الأسباب الكونية .

وهنا يدعو زكريا ربه ، فيقول : ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء] أى : لا أطلب الولد ليرث مُلْكى من بعدى ، فأنت خير الوارثين ترثُ الأرضَ والسماء ، ولك كل شىء .

---

(١) يعنى : وجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف . قاله مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والسدى والعوفى . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٦٠) .

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ[1] إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

فلم تكُنْ استجابة الله لزكريا أنْ يهبه الولد حال كِبَره وكوْن امرأته عاقراً ، إنما أيضاً سماه ، ولله تعالى سرٌّ فى هذه التسمية ؛ لأن الناس أحرار فى وَضْع الأسماء للمُسمّيات كما قلنا فلا مانع أن نسمى فتاة زنجية (قمر) ؛ لأن الاسم يخرج عن معناه الأصلى ، ليصير علَماً على هذا المسمى . إذن : هناك فَرْق بين الاسم وبين المسمَّى .

وقد نُسمِّى الأسماء تفاؤلاً أن يكونوا كذلك ، كالذى سمَّى ولده يحيى ، ويظهر أنه كان يعانى من موت الأولاد ؛ لذلك قال :

فَسمَّيْتُه يَحيى ليحيى فلَم يكُنْ   لِرَدِّ قَضَاءِ الله فيه سَبِيلُ

أى : سمَّيْته يحى أملاً فى أن يحيا ، لكن هذا لم يردّ عنه قضاء الله .

وكذلك لما سمَّى عبد المطلب محمداً قال : سمَّيته محمداً ليُحمد فى الأرض وفى السماء[2] .

---

(١) ذكر المفسرون هنا قولين :
الأول : أنها كانت عاقراً فجُعلَتْ ولوداً . قاله أكثر المفسرين .
الثانى : كانت سيئة الخلق طويلة اللسان فأصلحها الله فجعلها حسنة الخلق ، قاله ابن عباس وعطاء .
قال ابن كثير فى تفسيره (٣/١٩٣) : « الأظهر من السياق الأول » .
قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥١٦) : « يحتمل أن تكون جمعت المعنيين فجعلت حسنة الخلق ولوداً » .

(٢) عن أبى الحكم التنوخى قال : « لما كان اليوم السابع (لميلاد رسول الله ﷺ) ذبح عبد المطلب عنه ودعا له قريشاً ، فلما أكلوا قالوا : يا عبد المطلب ، أرأيت ابنك هذا الذى أكرمتنا على وجهه ، ما سمَّيْته ؟ قال : سمَّيته محمداً . قالوا : فلم رغبت به عن أسماء أهل بيته ؟ قال : أردت أن يحمده الله تعالى فى السماء وخَلْقه فى الأرض . أخرجه البيهقى فى « دلائل النبوة » (١/١١٣) ، وابن عساكر فى « تهذيب تاريخ دمشق الكبير » (١/٢٨٢) ، ونقله ابن كثير فى « البداية والنهاية » (٢/٢٦٤) .

لكن ، حين يُسمِّي يحيى مَنْ يملك الحياة ويملك الموت ، فلا بُدَّ أن يكون اسماً على مُسمَّى ، ولا بُدَّ له أن يحيا ، حتى إنْ مات يموت شهيداً ؛ لتتحقق له الحياة حتى بعد الموت .

ومعنى ﴿ وَهَبْنَا .. ۝٩٠ ﴾ [الأنبياء] أى : أعطيناه بدون قانون التكوين الإنسانى ، وبدون أسباب .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ .. ۝٩٠ ﴾ [الأنبياء] فبعد أنْ كانت عاقراً لا تلد أجرينا لها عملية ربانية أعادتْ لها مسألة الإنجاب ؛ لأن المرأة تلد طالما فيها البويضات التى تكوِّن الجنين ، فإذا ما انتهتْ هذه البويضات قد أصبحت عقيماً ، وهذه البويضات فى عنقود ، ولها عدد مُحدَّد أشبه بعنقود البيض فى الدجاجة ؛ لذلك يسمون آخر الأولاد « آخر العنقود » .

إذن : وُجِد يحيى من غير الأسباب الكونية للميلاد ؛ لأن المكوِّن سبحانه أراد ذَلك .

لكن ، لماذا لم يقُلْ لزكريا أصلحناك ؟ قالوا : لأن الرجل صالح للإنجاب ما دام قادراً على العملية الجنسية ، مهما بلغ من الكِبَر على خلاف المرأة المستقبِلة ، فهى التى يحدث منها التوقُّف .

وأصحاب العُقْم وعدم الإنجاب نرى فيهم آيات من آيات الله ، فنرى الزوجين صحيحين ، أجهزتُهما صالحة للإنجاب ، ومع ذلك لا ينجبان ، فإذا ما تزوج كل منهما بزوج آخر ينجب ؛ لأن المسألة ليست (آليّة) ، بل وراء الأسباب الظاهرة إرادة الله ومشيئته .

لذلك يقول تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا .. ۝٥٠ ﴾ [الشورى]

ثم تُوضِّح الآيات سبب وعلَّة إكرام الله واستجابته لنبيه زكريا - عليه السلام : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء]

هذه صفات ثلاث أهَّلَتْ زكريا وزوجته لهذا العطاء الإلهى ، وعلينا أن نقف أمام هذه التجربة لسيدنا زكريا ، فهى أيضاً ليستْ خاصة به إنما بكل مؤمن يُقدِّم من نفسه هذه الصفات .

لذلك ، أقول لمن يُعانى من العقم وعدم الإنجاب وضاقتْ به أسباب الدنيا ، وطرق باب الأطباء أن يلجأ إلى الله بما لجأ به زكريا - عليه السلام - وأهله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء] خذوها (روشتة) ربانية ، ولن تتخلف عنكم الاستجابة بإذن الله .

لكن ، لماذا هذه الصفة بالذات : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء] ؟

قالوا : لأنك تلاحظ أن أصحاب العُقْم وعدم الإنجاب غالباً ما يكونون بُخَلاء مُمْسكين ، فليس عندهم ما يُشجِّعهم على الإنفاق ، فيستكثرون أن يُخرِجوا شيئاً لفقير ؛ لأنه ليس ولده .

فإذا ما سارع إلى الإنفاق وسارع فى الخيرات بشتى أنواعها ، فقد تحدَّى الطبيعة وسار ضدها فى هذه المسألة ، وربما يميل هؤلاء الذين ابتلاهم الله بالعُقْم إلى الحقد على الآخرين ، أو يحملون ضغينة لمن ينجب ، فإذا طرحوا هذا الحقد ونظروا لأولاد الآخرين على أنهم أولادهم ، فعطفوا عليهم وسارعوا فى الخيرات ، ثم توجَّهوا إلى الله بالدعاء رَغَباً ورَهَباً ، فإن الله تعالى وهو المكوِّن الأعلى يخرق لهم النواميس والقوانين ، ويرزقهم الولد من حيث لا يحتسبون .

ومعنى : ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء] يعنى : راضين بقدرنا

فيهم ، راضين بالعُقْم على أنه ابتلاء وقضاء ، ولا يُرفع القضاء عن العبد حتى يرضى به ، فلا ينبغي للمؤمن أنْ يتمرَّدَ على قدر الله ، ومن الخشوع التطامن لمقادير الخَلْق في الناس .

﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

ولك أنْ تسأل : لماذا يأتي ذِكْر السيدة مريم ضمن مواكب النبوة ؟ نقول : لأن النبوة اصطفاء الله لنبي من دون خَلْق الله ، وكوْنه يصطفي مريم من دون نساء العالمين لتلد بدون ذكورة ، فهذا نوع من الاصطفاء ، وهو اصطفاء خاص بمريم وحدها من بين نساء العالمين ؛ لأن اصطفاء الأنبياء تكرَّر ، أمَّا اصطفاء مريم لهذه المسألة فلم يتكرر في غيرها أبداً .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا .. ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنبياء] يعني : عَفَّتْ وحفظتْ فَرْجها ، فلم تمكِّن منها أحداً[1] .

ومعنى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا[2] مِن رُّوحِنَا .. ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنبياء] يعني :

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤٥١٨/٦) : « قيل : إن المراد بالفرج فرج القميص ، أي : لم تعلق بثوبها ريبة ، أي : أنها طاهرة الأثواب . وفروج القميص أربعة : الكُمَّان والأعلى والأسفل . قال السهيلي : فلا يذهبن وهمك إلى غير هذا ، فإنه من لطيف الكناية ، لأن القرآن أنزه معنى ، وأوزن لفظاً ، وألطف إشارة ، وأحسن عبارة من أن يريد ما يذهب إليه الوهم » .

(٢) أي : في جيب درعها . قاله أبو يحي زكريا الأنصاري في (فتح الرحمن) (ص ٣٧١) وقال قتادة : نفخ في جيبها . وقال مقاتل : نفخ في فرجها . ذكرهما السيوطي في الدر المنثور (٦٧١/٥) . والدرع : ثوب المرأة .

مسألة خاصة به ، خارجة على قانون الطبيعة ، فليس في الأمر ذكورة أو انتقاء ، إنما النفخة التي نفخها الله في آدم ، فجاءت منها كل هذه الأرواح ، هي التي نفخها في مريم ، فجاءت منها روح واحدة . فالروح هي نفسها التي قال الله فيها : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي .. (٢٩) ﴾ [الحجر]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (٩١) ﴾ [الأنبياء] يعني : شيئاً عجيباً في الكون ، والعجيبة فيها أن تلدَ بدون ذكورة ، والعجيبة فيه أن يُولَد بلا أب ، فكلاهما آية لله ومعجزة .

ثم يقول الحق سبحانه بعد سَرْد لقطات من موكب الأنبياء :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) ﴾

الأمة : الجماعة يجمعها رباط واحد من أرض أو مُلك ملك أو دين ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ .. (٢٢) ﴾ [الزخرف] يعني : على دين .

فالمراد : هذه أمتكم أمةٌ حال كَوْنها أمةً واحدة ، لا اختلافَ فيها[1] والرسل جميعاً إنما جاءوا ليتمموا بناءً واحداً ، كما قال ﷺ : « إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلاَّ

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤٥١٩/٦) : « لما ذكر الأنبياء قال : هؤلاء كلهم مجتمعون على التوحيد ، فالأمة هنا بمعنى الدين الذي هو الإسلام . قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما » .

وُضِعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين »[1] .

والمعنى أن به ﷺ تتم النبوة وتختم .

وتُطلَق الأمة على الرجل الذى يجمع خصال الخير كلها ؛ لأن الله تعالى بعثر خصال الخير فى الخَلْق ، فليس هناك مَنْ هو مَجْمع مواهب وفضائل ، إنما فى كل منا ميزةٌ وفضيلةٌ فى جانب من الجوانب ؛ ليتكامل الناس ويحتاج بعضهم إلى بعض ، ويحدث الترابط بين عناصر المجتمع ، هذا الترابط يتم إمَّا بحاجات تطوُّعية ، أو حاجات اضطرارية .

فلو تعلَّم الناس جميعاً وتخرّجوا فى الجامعة فَمنْ للمِهَن والحِرَف الأخرى ؟ مَنْ سيكنس الشوارع ، ويقضى مثل هذه الأمور ؟ لو تعطلتْ مجارى الصرف الصحى ، أيجتمع هؤلاء الدكاترة والأساتذة لإصلاحها ، ولو أصلحوها مرة فهذا تطوُّع .

أمّا المصالح العامة فلا تقوم على التطوع إنما تقوم على الحاجة والاضطرار ، ولولا هذه الحاجة لما خرجَ عامل الصرف الصحى فى الصباح إلى هذا العمل الشاقّ المنفّر ، لكن كيف وفى رقبته مسئولية أسْرة وأولاد ونفقات ؟

وسبق أنْ قُلْنا : ينبغى ألاَّ يغتَرَّ المرء بما عنده من مواهب ومميزات ، ولا يتعالى بها على خَلْق الله ، وعليه أنْ يسأل عَمَّا عند الآخرين من مواهب يحتاج هو إليها ، ولا يؤديها بنفسه .

إذن : الحاجة هى الرابطة فى المجتمع ، ولو كانَ التطوّع

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٣٥) ، ومسلم فى صحيحه (٢٢٨٦) كتاب الفضائل (حديث ٢٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

والتفضّل فلن نحقق شيئاً ، فلو قلنا للعامل : تفضل بكنس الشارع لوجدَ ألْفَ عذر يعتذر به ، أما إنْ كان أولاده سيموتون جوعاً إن لم يعمل فلا شكَّ أنه سيُسرع ويُبادر .

فالحقيقة أن كل فرد فى المجتمع لا يخدم إلا نفسه ، فكما تنفع الآخرين تنتفع بهم ؛ لذلك إياك أنْ تحسد صاحب التفوق على تفوّقه فى أمر من الأمور ؛ لأن تفوقه فى النهاية عائد عليك .

وكما نقول هذه المسائل فى أمور الدنيا نقولها فى أمور الآخرة ، حين نرى صاحب التديُّن ، وصاحب الخُلق والالتزام لا نهزأ به ولا نسخر منه ، كما يحلو للبعض ؛ لأن صلاحه سيعود عليك ، وسوف تنتفع بتديُّنه واستقامته ولعلنا نُرزَق بسبب هؤلاء .

وقد يكون فى البيت الواحد فُتوات وأذكياء ومتعلمون وفيهم مُعوَّق أو مجنون أو مجذوب ، فترى الجميع يحتقرونه ، ويُهوِّنون من شأنه ، أو تراه منبوذاً بين هؤلاء مُبْعَداً ، لا يشرُف بمعرفته أحد ، وربما يعيشون جميعاً فى ظلِّه ويُرزَقون كرامة له .

وكثيراً ما نرى الناس يغضبون وينقمون على قضاء الله إن رزقهم بمولود فيه عيب أو إعاقة ، ووالله لو رضيتَ به وتقبلْتَ قضاء الله فيه ، لكان هو الظل الظليل لك .

فهؤلاء خُلقوا هكذا لحكمة ، حتى لا نتمرد على صَنْعة الله فى كَوْنه ، وحتى يشعر أهل النعمة والسلامة والصحة بفضل الله عليهم ، ولنعلم أن الله تعالى لا يسلب شيئاً من عبده إلاّ وقد أعطاه عوَضاً عنه .

ولك أن تلاحظ مثلاً أحوال الناس المجاذيب الذين تراهم فى أىِّ

مكان مُهملين يستقلهم النــاس ، وينفرون من هيئتهم الرثَّة ، ومع ذلك ترى أصحاب الجــاه والسلطان إذا نزلتْ بهم ضائقة وأعيَتْــهم الأسباب يلجئــون لمثل هؤلاء المجاذيب يلتــمسون منهم البركــة والدعاء ، وهذا فى حَدِّ ذاته أســمى ما يمكن أن يتطلع إليه أهــل الجاه وأهل السلطان والنفوذ ، أن تكون كلمتهم مسمــوعةً وأمرهم مُطاعاً ، وأن يلجأ الناس إليهم كما لجئوا إلى هذا المجذوب المسكين .

فإذا ما أجرى الله الخير على يد هذا الـشيخ المجذوب ترى السيد العظيم يتـمـسح فــيه ، ويدعــوه إلى طعــامــه ، ويدفع عنه أذى الناس ويحــتضنه ، لأنه جــرَّب وعلم أن لديه فــيضــاً من فــيض الله وكرامــة يختص الله بها مَنْ يشاء من عباده ، ونحن جــميعاً عباد الله ليس فينا مَنْ هو ابن لله ، أو بينه وبين الله قرابة .

وإنْ كان العقل هو أعزّ ما يعتز به الإنسان ، وهو زينته وحليته ، فلك أن تنظر إلى المجنون الذى فقد العــقل ، وحُرِم هذه الآلة الغالية ، وترى الناس يشيرون إليه : هذا مجنون ، نعم هو مجنون ، لكن انظر إلى سلوكه : هل رأيتم مجنوناً يسرق ؟ هل رأيتم مجنوناً يزنى ؟ هل رأيتم مجنوناً انتحر ؟

إذن : مع كونه مجنوناً إلا أنه مدرك لنفسه تماماً ؛ لأن خالقه عز وجل وإنْ سلبه العــقل إلا أنه أعطاه غريزة تحكمه كمــا تحكم الغريزة الحيوان ، وهل رأيتم حماراً ألقى بنفسه مثلاً أمام القطار ؟

إذن : علينا ألاَّ نُحقِّر هؤلاء ، وألاَّ نســتقل بهم فقد عوَّضــهم الله عما سلبـــه منهم ، ومنَّا مَنْ يســعى ليــصل إلى مــا وصلوا هــم إليــه ولا يستطيع ، ومَنْ منَّا لا يتــمنى أن يكون مثل هذا المجذوب الذى يــتمسَّح الناس فيــه ، ويطلبون منه البركــة والدعاء ؟ وأىُّ عظمة يطلبهــا الإنسان

فوق هذا ؟ ويكفى هذا أنه لا يُسألُ عمّا يفعل فى الدنيا ، ولا يُسْأل كذلك فى الآخرة .

نعود إلى قول الله تعالى : ﴿إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً .. (٩٢)﴾ [الأنبياء] فمن معانى أمة : الرجل الذى جمع خصال الخير كلها ؛ لذلك وصف الله نبيه إبراهيم بأنه أمة ، فقال : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً(١) .. (١٢٠)﴾ [النحل]

يعنى : جمع من خصال الخير ما لا يوجد إلا فى أمة كاملة .

والأمة لا تكون واحدة ، إلا إذا صدر تكوينها المنهجى عن إله واحد ، فلو كان تكوينها من متعدد لذهب كُلُّ إله بما خلق ، ولعلاَ بعضهم على بعض ، ولفسد الحال . إذن : كما قال سبحانه : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

فلا تكون الأمة واحدة إلا إذا استقبلت أوامرها من إله واحد وخضعت لمعبود واحد ، فإنْ نسيتْ هذا الإله الواحد تضاربتْ وتشتتتْ .

وكأن الحق سبحانه يقول : أنتم ستجربون أمة واحدة ، تسودون بها الدنيا وتنطلق دعوتكم من أمة أمية لا تعرف ثقافة ، ولا تعرف علماً ، ولم تتمرس بحكم الأمم ؛ لأنها كانت أمة قبلية ، لكل قبيلة قانونها وسيادتها وقيادتها .

ثم ينزل لكم نظام يجمع الدنيا كلها بحضاراتها ، نظام يطوى تحت جناحه حضارة فارس وحضارة الروم ويُطوِّعها ، ولو أنكم أمة

---

(١) سُئل ابن مسعود : ما الأمة ؟ قال : الذى يُعلِّم الناس الخير . وقال قتادة : إمام هدى يُقتدَى به ، وتُتبع سنته . [الدر المنثور للسيوطى ١٧٦/٥] .

مثقفة لقالوا قفزة حضارية ، إنما هذه أمة أمية ، ونبيها أيضاً أُمِّى إذن : فلا بُدَّ أن يكونَ المنهج الذى جاء به ليسلب هذه الحضارات عِزَّها ومجدَها منهجاً أعلى من كل هذه المناهج والحضارات .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢)﴾ [الانبياء] أى : التزموا بمنهجى لتظلوا أمة واحدة ، واختار صفة الربوبية فلم يقُلْ : إلهكم ؛ لأن الرب هو الذى خلق ورزق وربى ، أمّا الإله فهو الذى يطلب التكاليف .

فالمعنى : ما دُمْتُ أنا ربكم الذى خلقكم من عَدَم ، وأمدكم من عُدْم ، وأنا القيوم على مصالحكم ، أكلؤكم بالليل والنهار ، وأرزق حتى العاصى والكافر بى ، فأنا أَوْلَى بالعبادة ، ولا يليق بكم أن أصنع معكم هذا كله وتذهبون إلى إله غيرى ، هذا منطق العقل السليم ، وكما يقولون (اللى يأكل لقمتى يسمع كلمتى) .

ومن العبادة أن تطيع الله فى أمره ونَهْيه ؛ لأن ثمرة هذه الطاعة عائدة عليك بالنفع ، فلله تعالى صفات الكمال الأزلىّ قبل أنْ يخلق مَنْ يطيعه ، فطاعتك لن تزيد شيئاً فى مُلْك الله ، ومعصيتك لن تنتقص منه شيئاً . إذن : فالأمر راجع إليك ، وربك يُثيبك على فعل هو فى الحقيقة لصالحك .

لكن ، هل سمع الناس هذا النداء وعملوا بمقتضاه ، فكانوا أمة واحدة كهذه الأمة التى أدخلتْ الدنيا فى رحاب الإسلام فى نصف قرن ؟ هذه الأمة التى ما زلنا نرى أثرها فى البلاد التى تمردتْ على العروبة ، وعلى لغة القرآن ، ومع ذلك هم مسلمون على لغاتهم وعلى حضارتهم ، إن الدين الذى يصنع هذا ، والأمة الواحدة التى تحمَّلتْ هذه المسئولية ما كان ينبغى أن نتخلى عنها .

والسؤال : هل بقيت الأمة الواحدة ؟ تجيب الآيات :

﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

أى : صاروا شيعاً وأحزاباً وجماعات وطوائف ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ.. (١٥٩) ﴾ [الأنعام]

لماذا ، لست منهم فى شىء ؟ لأنهم يقضون على واحدية الأمة ، ولا يقضون على واحدية الأمة إلا إذا اختلفتْ ، ولا تختلف الأمة إلا إذا تعددتْ مناهجها ، هنا ينشأ الخلاف ، أمَّا إنْ صدروا جميعاً عن منهج واحد فلن يختلفوا .

وما داموا قد تقطعوا أمرهم بينهم ، فصاروا قطَعاً مختلفة ، لكل قطعة منهج وقانون ، ولكل قطعة تكاليف ، ولكل قطعة راية ، وكأن آلهتهم متعددة ، فهل سيُتركون على هذا الحال ، أم سيعودون إلينا فى النهاية ؟

﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣) ﴾ [الأنبياء] إذن : أنتم أمة واحدة فى الخلْق من البداية ، وأمة واحدة فى المرجع وفى النهاية ، فلماذا تختلفون فى وسط الطريق ؟

إذن : الاختلاف ناشىء من اختلاف المنهج ، وكان ينبغى أن يكون واضع المنهج واحداً . وقد جاء النبى ﷺ خَاتَماً للرسالات ، وجاءت شريعته جامعة لمزايا الشرائع السابقة ، بل وتزيد عليها المزايا التى تتطلبها العصور التى تلى بعثته .

فكان المفروض أن تجتمع الأمة المؤمنة على ذلك المنهج الجامع

المانع الشامل ، الذى لا يمكن أن يستدرك عليه ، وبذلك تتحقق وحدة الأمة ، وتصدر فى تكليفاتها عن إله واحد ، فلا يكون فيها مَدْخَل للأهواء ولا للسلطات الزمنية أو الأغراض الدنيئة .

لذلك ، إذا تعددت الجماعات التى تقول بالإسلام وتفرقت نقول لهم : كونوا جماعة واحدة ، وإلا فالحق مع أىِّ جماعة منكم ؟! لأن الله تعالى خاطب نبيه ﷺ بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ..(١٥٩)﴾ [الأنعام]

ولا يتفرق الداعون لدعوة واحدة إلا باتباع الأهواء والأغراض ، أما الدين الحق فهو الذى يأتى على هوى السماء ، موافقاً لما ارتضاه الله تعالى لخَلْقه .

لقد انفضَّ المؤمنون عن الجامع الذى يجمعهم بأمر الله ، فانفضت عنهم الوحدة ، وتدابروا حتى لم يَعُدْ يجمعهم إلا قَوْلُ « لا إله إلا الله محمد رسول الله » أما مناهجهم وقوانينهم فقد أخذوها من هنا أو من هناك ، وسوف تعضهم هذه القوانين ، وسوف تخذلهم هذه الحضارات ، ويرون أثرها السيء ، ثم يعودون فى النهاية إلى الإسلام فهو مرجعهم الوحيد ، كما نسمع الآن نداء لا حَلَّ إلا الإسلام .

نعم ، الإسلام حَلٌّ للمشاكل والأزمات والخلافات والزعامات ، حَلٌّ للتعددية التى أضعفتْ المسلمين وقوَّضَتْ أُخوَّتهم التى قال الله فيها : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا .. (١٠٣)﴾ [آل عمران]

ووالله ، لو عُدْنا إلى حبل الله الواحد فتمسَّكنا به ، ولم تلعب بنا الأهواء لَعُدْنا إلى الأمة الواحدة التى سادتْ الدنيا كلها .

إذن : ﴿ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣) ﴾ [الأنبياء] أى : فى الآخرة للحساب ، وأنا أقول يا رب .. لعل هذا الرجوع يكون فى الدنيا بأنْ تعضّنا قوانين البشر ، فنفزع إلى الله ونعود إليه من جديد ، فيعود لنا مجدنا ، ويصْدُق فينا قَوْل الرسول ﷺ : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ غريباً ، فطوبَى للغرباء »[1] .

ويُعزِّز هذا الفهمِ ويُقوِّى هذا الرجاء قول الله تعالى بعدها :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ (٩٤) ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - يستأنف معنا العظة بالعمل الصالح ليعطينا الأمل لو رجعنا إلى الله ، والدنيا كلها تَشهد أن أىَّ مبدأ باطل ، أو شعار زائف زائل يُزخرفون به أهواءهم لا يلبث أنْ ينهار ولو بَعْد حين ، ويتبين أصحابه أنه خطأ ويعدلون عنه .

ومثال ذلك الفكر الشيوعى الذى ساد روسيا منذ عام ١٩١٧ وانتهكت فى سبيله الحرمات ، وسفكتْ الدماء ، وهدمتْ البيوت ، وأخذت الثروات ، وبعد أن كانت أمة تصدر الغذاء لدول العالم أصبحت الآن تتسول من دول العالم ، وهم أول مَنْ ضَجَّ من هذا الفكر وعانى من هذه القوانين .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ .. (٩٤) ﴾ [الأنبياء] ربط العمل الصالح بالإيمان ؛ لأنه مُنطلَق المؤمن فى كُلِّ ما يأتى وفى كُلِّ ما يدع ؛ لينال بعمله سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

أمّا مَنْ يعمل الصالح لذات الصلاح ومن منطلق الإنسانية

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٥) كتاب الإيمان ، وابن ماجة فى سننه (٣٩٨٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

والمروءة ، ولا يخلو هذا كله فى النهاية عن أهـواء وأغراض ، فليأخذ نصيبه فى الدنيـا ، ويحظى فيها بالتكريم والسيـادة والسُّمْعة ، وليس له نصيب فى ثواب الآخرة ؛ لأنه فَعَل الخير وليس فى باله الله .

والحق سبحانه يعطينا مثالاً لذلك فى قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ .. (٣٩)﴾ [النور]

يعنى : فـوجئ بوجود إله يحـاسبه ويـجازيه ، وهذه مسـألة لم تكُنْ على باله ، فيقـول له : عملتَ ليقال وقد قيل . وانتـهت المسألة ؛ لذلك يقـول تعالى : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِـرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَـرْثِهِ .. (٢٠)﴾ [الشورى] أى : نعطيه أجره فى عالم آخر لا نهاية له ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

لأنه عَملَ للناس ، فليأخذ أجره مـنهم ، يُخلِّدون ذكراه ، ويُقيمون له المعارض والتماثيل .. الخ .

وقوله تـعالى : ﴿فَلَا كُـفْرَانَ لِسَعْـيِهِ .. (٩٤)﴾ [الأنبـياء] يعنى : لا نبخسـه حَقَّه ولا نجحد سَـعْيه أبداً ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤)﴾ [الأنبياء] نسجِّل له أعمـاله ونحفظها ، والمفـروض أن الإنسان هو الذى يُسجِّل لنفـسه ، فـإنْ سجَّل لك عـملك ربُّك الذى يُثيـبك عليه ، وسـجَّله على نفسه ، فلا شكَّ أنه تسجيل دقيق لا يبخسك مثقال ذرة من عملك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥)﴾

﴿ حَرَامٌ .. ﴿٩٥﴾ ﴾ [الأنبياء] يعنى : ممتنع ، لا يجب أن يكون ، والقرية : أى قرية أهلكناها ؛ لأنها كذَّبَتْ الرسل ، ووقفتْ منهم موقف اللَّدَد والعناد والمعارضة ، فأهلكها الله بذنوبها فى الدنيا ، أيُعقَلُ بعد هذا أن نتركها فى الآخرة من غير أنْ نأخذها بذنوبها ؟

لا بُدَّ - إذن - أن ترجع إلينا فى الآخرة لنحاسبها الحساب الدائم الخالد ، فلا نكتفى بحساب الدنيا المنتهى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ(١) يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

وردتْ قصة يأجوج ومأجوج فى آخر سورة الكهف ، حينما سُئِلَ النبى ﷺ عن الرجل الجوَّال الذى طاف الأرض ، فنزلت : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [الكهف]

وقد تكلم العلماء فى ذى القرنين ، منهم مَنْ قال : هو قورش ومنهم مَنْ قال هو : الإسكندر الأكبر . والقرآن لا يعنيه الشخص وإلاَّ لَذكره باسمه ، فالقرآن لا يُؤرِّخ له ، ولا يقيم له تمثالاً ، إنما يريد التركيز على الأوصاف التى تعنى الحق وتعنى الخلْق .

فيكفى أن نعلم أنه إنسان مكَّنَه الله فى الأرض . يعنى : أعطاه من أسباب القوة وأسباب المهابة والسيطرة ، وأعطاه من كُلِّ مُقَوِّمات

---

(١) الحدب : ما ارتفع من الأرض . أى أنهم يحضرون من كل جانب ، ولو كان مرتفعاً شاقاً لا يعوقهم شىء لأنهم فى غير المرتفع أسرع والسير فيه أيسر ، فهم يأتون من كل جهة ولو شقت . [القاموس القويم ١/ ١٤٤] .

القوة : أعطاه المال والعلم والجيوش ، فلم يكتف بذلك كله ، بل ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الكهف] يعنى : أخذ بالأسباب التى تؤدِّى إلى الخير .

وسبق أنْ تحدثنا عن تشخيص البطل فى قصص القرآن ؛ لأن القرآن لا يُؤرِّخ للشخصية ، ولا يُعطى لها خصوصية ، وإنما يريدها عامة لتكون مثلاً يُحتذَى ، ويتم بها الاعتبار ، وتُحدِث الأثر المراد من القصة .

فما يعنينا فى قصة ذى القرنين أنه رجل مُكِّن فى الأرض ، وكان من صفاته كذا وكذا ، وما يعنينا من أهل الكهف أنهم فتية آمنوا بربهم وتمسَّكوا بدينهم وعقيدتهم وضَحَّوْا فى سبيلها ، لا يهمنا الأشخاص ولا الزمان ولا المكان ولا العدد .

لذلك ؛ أبهم القرآن كل هذه المسائل ، فأىّ فتية ، فى أىّ زمان ، وفى أىِّ مكان ، وبأىِّ أسماء يمكن أن يقفوا هذا الموقف الإيمانى ، ولو شخَّصناهم وعيَّناهم لَقالَ الناس : إنها حادثة خاصة بهؤلاء ، أو أنهم نماذج لا تتكرر ؛ لذلك أبهمهم القرآن ليكونوا عبرة وأُسْوة تسير فى الزمان كله .

كذلك ، لما أراد القرآن أنْ يضرب مثلاً للذين كفروا ذكر امرأة نوح وامرأة لوط ولم يُعيِّنهما ، وكذلك ضرب مثلاً للذين آمنوا بامرأة فرعون ولم يذكر مَنْ هى[(١)] ، فالغرض من ضَرْب هذه الأمثال ليس الأشخاص ، إنما لنعلم أن للمرأة حريةَ العقيدة واستقلاليةَ الرأى ، فليست هى تابعة لأحد ، بدليل أن نوحاً ولوطاً لم يتمكَّن كل منهما من هداية امرأته .

---

(١) قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [التحريم] .

وفرعون الكافر الذى ادَّعَى الألوهيـة ، لم يستطعْ أن يمنع زوجته من الإيمان ، وهى التى قالت : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [التحريم]

إذن : مـا يعنينا فـى قصـة « ذى القـرنـين » أن الله مكَّن له فى الأرض وأعطاه كُلَّ أسـباب القـوة والسـيطرة ؛ لذلك ائتـمنه أنْ يكونَ ميزاناً للخير وللحق ، وفوَّضَهُ أن يقضى فى الخَلْق بما يراه من الحق والعدل .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [الكهف]

لأننا مكَّنَّاه وفـوَّضـناه ، فاسـتعـمل التمكين فى مـوضعـه ، وأخذ الأمانة بحقِّها ، فقال : ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [الكهف] أى : نُعذِّبه على قَدْر مـقدرتنا ، ثم يُرَدُّ إلى ربه فيُعذِّبه على قَدْر قدرته تعالى .

﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الكهف]

وهكذا يكون دستور الحياة من الحاكم الممكَّن فى الخَلْق ، دستور الثواب والعـقاب الذى تستـقيم به أمور البـلاد والعباد ، فـحين يرى تقصيـراً لا بُدَّ أنْ يأخذ على يد صاحبـه مهما تكُنْ منزلتـه ، لا يخافه ولا ينافقه ولا يخشى فى الله لومة لائم ، وإنْ رأى المـحسن المجتهد يُثيبه ويكافئه .

وهذا القانون نراه فى مـجتمعنا يكاد يكون مُـعطّلاً بين العاملين ، فـاختلط الحـابل بالنابل ، وتدهـورتْ الأمور ، ودخلت بينـنا مقـاييس

أخـرى للثــواب وللعـقـاب مـا أنـزل الله بهـا من سلطان ، فـانقلبتْ الموازين ، حيث تبجح الكسالى ، وأُحْبِط المجدُّون المحسنون .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) ﴾ [الكهف]

هذا كُلُّ مـا أخْبر الله به ، ويبـدو أنه وصل فى تجواله الـعام إلى بلاد تظل الشمس بها مشرقة ثـلاثة أو ستةَ أشهر لا تغرب ؛ لذلك لم يجد لهم من دون الشـمس سِتْراً يستـرها أىْ ظلمة ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) ﴾ [الكهف]

ومع ذلك احتـال أن يفهم منهم ، ويخاطبـهم ؛ لحرصه على نفـعهم ومـا يصلحهم ، وهذه صـفـة الحاكم المـؤمن حـين يُمكَّن فى الأرض ، وتُعطَى له أسبـاب القيادة ، ويُفوَّض فى خَلْق الله ، ولو لم يكُنْ حـريصاً على نفعهم لوجد العذر فى كونه لا يفهم منهم ولا يفهمون منه .

فلما توصلوا إلى لغة مشتركة ، ربما هى لغة الإشارة التى نتفاهم بها مع الأخرس مثلاً :

﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا[1] عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) ﴾ [الكهف]

ثم أمرهم أن يأتوا بقطَع الحديد ، فأشعل فـيها النار حتى احمرَّت فقال ﴿ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) ﴾ [الكهف] وهكذا صنع لهم السدَّ الذى يحـميهـم من هؤلاء القوم ، فلم يَقـصُر نفـعه لهم على هـذه القضـية ذاتها ، إنما نفعــهم نَفْعاً يعطيهم الخير والقوة فى ألاَّ يتعـرضوا لمثلها

(١) الخَـرْج والخـراج : مـا يخرجـه صـاحب المـال للعـامل عنده من الأجـر جـزاء عـمله . أو ما يُخرجه من الزكاة للإمام . [القاموس القويم ١/ ١٩٠] .

بعد ذلك ، عملاً بالحكمة التى تقول : لا تعطنى سمكة ، ولكن علمنى كيف أصطاد .

ذلك لأنه أشركهم فى العمل ؛ ليشعروا بأهميته ويتمسكوا بالمحافظة عليه وصيانته ، وإذا ما تعرضوا لمثل هذا الموقف لا ينتظرون مَنْ يصنع لهم .

هذا هو النموذج الذى تُقدِّمه قصة « ذى القرنين » وهو نموذج صالح لكل الزمان ولكل المكان ولكل حاكم مكَّنه الله فى الأرض ، وألقى بين يديه أزِمّة الأمور ، وفى حديث أفضل العمل يقول ﷺ : « تعين صانعاً ، أو تصنع لأخرق »[١] .

وقد تضاربتْ الأقوال حول : مَنْ هم يأجوج ومأجوج ، فمنْ قائل : هم التتار . وآخر قال : المغول . وآخر قال : هم الحتيت ، أو السرديال ، أو قبائل الهُونْ .

ولو كان فى تحديدهم فائدة لعيَّنهم القرآن ، إنما المهم من قصتهم أنهم قومٌ مفسدون فى الأرض لا يتركون الصالح على صلاحه ، فإذا ما تصدَّى لهم الممكَّن فى الأرض فعليه أن يحول بينهم وبين هذا الإفساد فى غيرهم ، وعلينا نحن ألاَّ نُفسد الصالح كهؤلاء ، إنما نترك الصالح على صلاحه ، بل ونزيده صلاحاً .

وفى بناء ذى القرنين للسد دروس يجب أنْ يعيها أولو الأمر الذين يتوَّلْون مصالح الخَلْق ، من هذه الدروس أنه لم يقف عند طلبهم

---

(١) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال : الإيمان بالله والجهاد فى سبيله . قال قلت : أىّ الرقاب أفضل ؟ قال : أنفسُها عند أهلها وأكثرها ثمناً . قال قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : « تعين صانعاً أو تصنع لأخرق » أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٤) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٢٥١٨) بلفظ : « تعين ضائعاً » .

فى بناء سدٍّ يمنع عنهم أذى عدوهم ، إنما اجتهد وترقَّى بالمسألة إلى ما هو أفضل لهم ، فالسدُّ الأصمّ المتماسك كقطعة واحدة يسهل هَدْمه أو النفاذ منه ؛ لذلك قال : ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الكهف]

لقد طلبوا سداً وهو يقول : رَدْماً ، لقد رقَّى لهم الفكرة ، وأراد أنْ يصنع لهم سداً على هيئة خاصة تمتصّ الصدمات ، ولا تؤثر فى بنائه ؛ لأنه جعل بين الجانبين رَدْماً كأنه سوستة تُعطى السدّ نوعاً من المرونة . وهكذا يجب أن يكون المؤمن عند تحمُّل مسئولية الخلْق .

ولما عرضوا عليه المال نظير عمله أبى ، وقال : ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ .. ﴿٩٥﴾ ﴾ [الكهف] أى : عندى المال الكثير من عطاء الله لكن أعينونى بما لديكم من قوة . إذن : زكاة القوة أنْ تمنع الفساد من الغير .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنبياء] فلها علاقة بقوله تعالى : ﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأنبياء] فتقطّع أهل الخير وتفرُّقهم يُجرِّىء عليهم أصحاب الفساد ، وأقلّ ما يقولونه فى حقِّهم أنهم لو كانوا على خير لنفعوا أنفسهم ، فدعُوكم من كلامهم ، وهكذا يفُتُّ أهل الباطل فى عَضُد أهل الحق ، ويصرفون الناس عنهم .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنبياء] يعنى : جاءت عناصر الفساد والفتنة فى الكون ، وعناصر الفساد والفتنة لا تتمكن ولا تجد الفرصة والسلطة الزمنية إلا إذا غفل أهل الحق وتفرقوا فلم يردوهم ، ويأخذوا على أيديهم .

ويأجوج ومأجوج هم أهل الفساد فى كل زمان ومكان ، فجنكيزخان الذى هدم أول ولاية إسلامية فى خوارزم ، وكان عليها الملك قطب أرسلان ، ثم جاء من ذريته الثالثة هولاكو الذى دخل بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية وخرَّبها وقتل أهلها حتى سالتْ الدماء ، وألقى بالكتب الإسلامية فى النهر حتى كانت قنطرة يعبرون عليها . هؤلاء الذين نُسمِّيهم التتار .

إذن : فالقرآن قَصَّ علينا من التاريخ القديم قصة يأجوج ومأجوج أيام ذى القرنين ، ثم رأيناهم فى حياتنا الإسلامية ، وشاء الله أن يستفيد المسلمون من هجمات هؤلاء البرابرة ، وأن تتجمع ولاياتهم ويصدُّوا هجمات التتار على أرض مصر بقيادة قطز والظاهر بيبرس ، وهما مثالان للممكَّنين فى الأرض ، مع أنهما من المماليك .

هذه الهجمات التترية للمفسدين فى الأرض كانت هجمات همجية وحشية ، وقد تجمَّع أحفاد هؤلاء من يأجوج ومأجوج العصر الحديث فى هجمات مدنية تغزونا بحضارتها ، إنهم الصليبيون الذين انهزموا أمام وحدة المسلمين بقيادة صلاح الدين .

وهكذا على مرِّ التاريخ ننتصر إذا كنا أمة واحدة ، ونُهزَم إذا تفرّقنا وتقطّعنا أمماً وأحزاباً ، وهذه حقائق تُثبِت صدْق القرآن فيما وجَّهنا إليه من الوحدة وعدم التفرق .

ثم يقول تعالى : ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦)﴾ [الأنبياء]

الحدب : المكان المرتفع ، نقول : فلان أحدب الظهر يعنى : فى ظهره منطقة مرتفعة ، وكذلك هؤلاء المفسدون أتوْا من أماكن مرتفعة فى هضبة شمال الصين . ومعنى ﴿يَنسِلُونَ (٩٦)﴾ [الأنبياء] يعنى : يسرعون ، ومنه نقول : انسلَّ القماش ؛ لأن القماش مُكوَّن من سُدى

ولُحـمة ، يعنى خـيوط طوليـة وخيـوط عـرضيـة ، تتداخـل فـتـكوِّن القمـاش ، فنسل القمـاش أن تنزع خيـوط العرض وتفكّ تداخلـها مع خيوط الطول ، ولا تُنزع خيوط الطول لأنها دائماً مُحكَمة بثَنْى السُّدَى على اللحمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ[1] أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

فكوْنُ أهل الفسـاد يأتون مُسْـرعين من كل حَـدَب وصَوْب إلا أن فسادهم لن يطول ، فقد اقتربت القيامة ، قال تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾ [القمر]

وقال : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴿١﴾ ﴾ [النحل]

وهذا تنبـيه للغافل ، وتـحذير للباغـى من أهل الفساد ، وتـطمين ورجاء للمظلومـين المستضـعفين المعتـدَى عليهم : اطمئنوا فـقد قرب وقت الجزاء .

﴿ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ .. ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأنبياء] والوعد الحق أى : الصادق الذى يملك صـاحبه أن يُنفّـذه ، فقد تَـعد وعداً ولا تملك تنفـيذه فـهو وَعْد ، لكنه وَعْد باطل ، فالوعد يختلف حَسْب مروءة الواعد وإمكانياته وقدرته على إنفاذ ما وعد به .

---

(١) شخص بصـره : انفتحت عيناه فـلا تطرف ، من الخوف والفزع والحـيرة ، وهو كناية عن شدة الهول والفزع يوم القيامة . [القاموس القويم ١/٣٤٣] .

لكن مهما كانت عندك من إمكانيات ، ومهما ملكتَ من أسباب التنفيذ ، أتضمن أن تُمكِّنك الظروف والأحوال من التنفيذ ؟ ولا يملك هذا كله إلا الله عز وجل ، فإذا وعد حقق ما وعد به ، فالوعد الحق - إذن - هو وعد الله .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ .. (٩٧) ﴾ [الأنبياء] فتنبه ولا تَقِسْ الدنيا بعمرها الأساسى ، إنما قِسْ الدنيا بعمرك فيها ، فهذه هى الدنيا بالنسبة لك ، ولا دَخْلَ لك بدنيا غيرك ، فإذا كنتَ لا تعلم متى تفارق دنياك فلا شَكَّ أن عمرك قريب ، واقترب الوعد الحق بالنسبة لك .

وكذلك مدة مُكْثك فى قبرك إلى أن تقوم الساعة ستمر عليك كساعة من نهار ، كما قال سبحانه : ﴿ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ .. (٤٥) ﴾ [يونس]

ولو تنبّه كل منّا إلى إخفاء الله لأجله ، لعلم أن فى هذا الإخفاء أعظمَ البيان ، فحين أخفاه ترقبناه فى كل طَرْفة عَيْن ، وتنفُّس نَفَس ؛ لذلك يقولون : « مَن مات قامت قيامته »[1] ، لأن القيامة تعنى الحساب والجزاء على الأعمال ، ومَنْ مات انقطع عمله ، وطُويَتْ صحيفته .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٩٧) ﴾ [الأنبياء]

وَعْد الله هنا هو القيامة ، وهى تفاجئنا وتأتينا بغتة ؛ لذلك نقول فى (فَإِذَا) أنها الفجائية ، كما تقول : خرجتُ فإذا أسدٌ بالباب ،

---

(١) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غنىً كدَّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسَّعه عليكم ، الموت القيامة » .

يعنى : فوجئت به ، وهكذا ساعةَ تقوم الساعة سوف تُفَاجِىء الجميع ، لا يدرى أحد ماذا يفعل .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٩٧) ﴾ [الأنبياء] وشخوص البصر يأتى حين ترى شيئاً لا تتوقعه ، ولم تحسب حسابه ، فتنظر مُنْدهشاً يجمد جفنُك الأعلى الذى يتحرك على العين ، فلا تستطيع حتى أنْ ترمش أو تطرف .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) ﴾ [إبراهيم]

وإذا أردتَ أن ترى شُخوص البصر فانظر إلى شخص يُفَاجأ بشيء لم يكُنْ فى باله ، فتراه - بلا شعور وبغريزته التكوينية - شاخصَ البصر ، لا ينزل جفنه .

ثم يقولون : ﴿ يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا .. (٩٧) ﴾ [الأنبياء]

فلم يقتصر الموقف على شخوص البصر إنما تتحرك أيضاً أدوات الإدراك فيقول اللسان : (يَا وَيْلَنَا) وهذا نداء للويل أى : جاء وقتُك فلم يَعُدْ أمامهم إلا أنْ يقولوا : يا عذاب هذا أوانك فاحضر .

والويل : هو الهلاك السريع ينادونه ، فهل يطلب الإنسان الهلاكَ ، ويدعو به لنفسه ؟ نقول : نعم ، حين يفعل الإنسان الفعلَ ويجد عواقبه السيئة ، وتواجهه الحقيقة المرّة يميل إلى تعذيب نفسه ، ألاَ تسمع مثل هؤلاء يقولون : أنا أستحق .. أنا أستاهل الضرب ..؟ إنه لَوْم النفس وتأنيبها على ما كان منها ، فهى التى أوقعتْه فى هذه الورطة .

لذلك يقول سبحانه : ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف]

فلماذا لا يُؤنِّب نفسه ، ويطلب لها العذاب ، وهى التى أردتْه فى التهلكة ، ففى هذا الموقف تنقلب موازينهم التى اعتادوها فى الدنيا ، فالأصدقاء فى الشر وفى المعصية هم الآن الأعداء .

﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا .. ﴿٩٧﴾﴾ [الأنبياء] لم يكن هذا الموقف فى بالنا ، ولم نعمل له حساباً ، والغفلة : أنْ تدرأ عن بالك ما يجب أن يكون على بالك دائماً .

لكن ، أىّ غفلة هذه والله ـ عز وجل ـ يُذكِّرنا بهذا الموقف فى كل وقت من ليل أو نهار ، ألاَ ترى أنه سبحانه سَمَّى القرآن ذِكْراً ليزيح عنّا هذه الغفلة ، فكلما غفلتَ ذكّرك ، وهزَّ مواجدك ، وأثار عواطفك .

إذن : المسألة ليست غفلة ؛ لذلك نراهم يستدركون على كلامهم ، فيقولون : ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنبياء] لأنهم تذكَّروا أن الله تعالى طالما هَزَّ عواطفهم ، وحرَّك مواجيدهم ناحية الإيمان ، فلم يستجيبوا .

لذلك اعترفوا هنا بظلمهم ، ولم يستطيعوا إنكاره فى مثل هذا الموقف ، فلم يعُدْ الكذب مُجْدياً ، ولعلّهم يلتمسون بصدقهم هذا نوعاً من الرحمة ، ويظنون أن الصدق نافعهم ، لكن هيهات .

وكأن الحق سبحانه يحكى عنهم هذه المواجهة حين تفاجئهم القيامة بأهوالها ، فتشخص لها أبصارهم ، ويقول بعضهم ﴿يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا .. ﴿٩٧﴾﴾ [الأنبياء] فيردّ عليهم إخوانهم : أىّ غفلة هذه ، وقد كان الله يُذكِّرنا بالقيامة وبهذا الموقف فى كل وقت ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنبياء]

و (بَلْ) حرف إضراب عن الكلام السابق ، وإثبات للكلام اللاحق ، وهكذا يُراجِعون أنفسهم ، ويُواجِه بعضهم بعضاً ، لكن بعد فوات الأوان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ(١) جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

فالذين اتخذتموهم آلهة من دون الله من الأصنام والأوثان والشمس والقمر والأشجار سيسبقونكم إلى جهنم لنقطع عليكم أيَّ أمل فى النجاة ؛ لأنهم حين يروْنَ العذاب ربما تذكّروا هؤلاء ، وفكَّروا فى اللجوء إليهم والاستنجاد بهم ، لعلّهم يُخرجونهم من هذا المأزق ، وقد سبق أنْ قالوا عنهم : ﴿ هَٰؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس]

وقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر]

لذلك ، يجمعهم الله جميعاً فى جهنم ليقطع عنهم الآمال ، ويبدو خجل المعبود وخيبة العابد ؛ لأنه جاء النارَ فوجد معبوده قد سبقه إليها .. لكن ، هل هذا الكلام على إطلاقه فقد عبد الكفارُ الأصنامَ ، ومنهم مَنْ عبدوا عيسى عليه السلام ، ومنهم مَنْ عبدوا عُزَيْراً ، ومنهم مَنْ عبدوا الملائكة ، فهل سيُجمع هؤلاء أيضاً مع عابديهم فى النار ؟

لو قُلْنا بهذا الرأى فدخولهم النار مثلما دخلها إبراهيم ، فجمع الله له النار والسلامة فى وقت واحد ، ويكون وجودهم لمجرد أنْ يراهم

---

(١) قُرِىءَ هذا اللفظ فى القرآن ثلاث قراءات :
١ - حصب جهنم : قراءة الجمهور .
٢ - حطب جهنم : قراءة على بن أبى طالب وعائشة .
٣ - حضب جهنم : قراءة ابن عباس . [تفسير القرطبى ٦/٤٥٢٤] .

عابدوهم ، ويعلموا أنهم لا ينفعونهم[(١)] .

ومعنى ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ .. (٩٨)﴾ [الأنبياء] الحصب مثل : الحطب ، وهو كل ما تُوقَد به النار أياً كان خشباً أو قشاً أو بترولاً أو كهرباء ، وفي آية أخرى : ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٦)﴾ [التحريم] لذلك فإن النار نفسها تشتاق للكفار ، وتنتظرهم ، وتتلهّف عليهم كما يقول تعالى : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)﴾ [ق]

ويقول تعالى : ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ .. (٨)﴾ [الملك]

وقوله تعالى : ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨)﴾ [الأنبياء] الورود هنا بمعنى : الدخول والمباشرة ، لا كالورود[(٢)] في الآية الأخرى : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. (٧١)﴾ [مريم]

---

(١) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : لما نزلت ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨)﴾ [الأنبياء] . فقال ابن الزبعرى : ألست تزعم يا محمد أن عيسى عبد صالح ، وأن عزيراً عبد صالح ، وأن الملائكة صالحون ؟ قال : بلى . قال : فهذه النصارى تعبد عيسى ، وهذه اليهود تعبد عزيراً ، وهذه بنو مليح تعبد الملائكة ، فضج أهل مكة وفرحوا ، فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١)﴾ [الأنبياء] عزير وعيسى والملائكة . أخرجه أبو داود في ناسخه وابن المنذر وابن مردويه والطبراني ، قاله السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٦٧٩) .

(٢) اختلف العلماء في معنى الورود في قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. (٧١)﴾ [مريم] على أقوال عدة منها :

- الورود : الدخول ، قاله ابن عباس وخالد بن معدان وابن جريج وغيرهما .
- هو ورود إشراف واطلاع وقرب ، وذلك أنهم يحضرون موضع الحساب وهو بقرب جهنم ، فيرونها وينظرون إليها في حالة الحساب ثم ينجي الله الذين اتقوا مما نظروا إليه ، ويُصار بهم إلى الجنة .
- الورود : النظر إليها في القبر ، فينجى منها الفائز ، ويصلاها مَنْ قُدِّر عليه دخولها ، ثم يخرج منها بالشفاعة أو بغيرها من رحمة الله . قال القرطبي في تفسيره (٦/ ٤٣١٠) بعد إيراد هذه الأقوال : « ظاهر الورود الدخول إلا أنها تكون برداً وسلاماً على المؤمنين ، وينجون منها سالمين » . ثم قال : « هذا القول يجمع شتات الأقوال ، فإن من وردها ولم تؤذه بلهبها وحرها فقد أبعد عنها ونجى منها » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

لأنهم سيدخلون فيجدون آلهتهم أمامهم ؛ لينْقطع أملهم في شفاعتهم التى يظنونها ، كما قال تعالى فى شأن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ [هود] فرئيسهم وفُتوتهم يتقدمهم ، ويسبقهم إلى النار ، فلو لم يكُنْ أمامهم لظنوا أنه ينقذهم من هذا المأزق . ولو كان هؤلاء آلهة ـ كما تدَّعون ـ ما وردوا النار .

ومعنى : ﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنبياء] لأن المعروف عن النار أنها تأكل ما فيها ، ثم تنتهى ، أما هذه النار فلا نهايةَ لها ، فكلما نضجَتْ جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ، وهكذا تظل النار مُتوقِّدة لا تنطفىء . ومعنى ﴿ كُلٌّ .. ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : العابد والمعبود .

﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

معلوم أن الزفير هو الخارج من عملية التنفس ، فالإنسان يأخذ فى الشهيق الأكسجين ، ويُخرِج فى الزفير ثانى أكسيد الكربون ، فنلحظ أن التعبير هنا اقتصر على الزفير دون الشهيق ؛ لأن الزفير هو الهواء الساخن الخارج ، وليس فى النار هواء للشهيق ، فكأنه لا شهيقَ لهم ، أعاذنا الله من العذاب .

﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأنبياء]

وهذه من الآيات التى توقف عندها المستشرقون ، لأن هناك آيات أخرى تُثبت لهم فى النار سَمْعاً وكلاماً . كما فى قوله سبحانه :

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) ﴾ [الأعراف]

نعم ، هم يسمعون ، لكن لا يسمعون كلاماً يَسُرُّ ، إنما يسمعون تبكيتاً وتأنيباً ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) ﴾ [الأعراف]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) ﴾

بعد أن ذكر سبحانه جزاء الكافرين فى النار ذكر المقابل ، وذِكْر المقابل يوضح المعنى ، اقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

ويقول : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً .. (٨٢) ﴾ [التوبة] ؛ لذلك تظل المقارنة حيَّة فى الذِّهْن .

ومعنى : ﴿ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ .. (١٠١) ﴾ [الأنبياء] الحُسْنى : مؤنث الأحسن ، تقول : هذا حَسَن وهذه حسنة ، فإنْ أردتَ المبالغة تقول : هذا أحسن ، وهذه حُسْنى . مثل : أكبر وكُبْرى . ومعنى : ﴿ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ .. (١٠١) ﴾ [الأنبياء] أنهم من أهل الطاعة ، ومن أهل الجنة ، فهكذا حُكْم الله لهم ، وقد أخذ الله تعالى جزءاً من خَلْقه

وقال : « هؤلاء للجنة ولا أبالى ، وهؤلاء للنار ولا أبالى »[1]

ولا تقُلْ : ما ذنب هؤلاء ؟ لأنه سبحانه حكم بسابق علْمه بطاعة هؤلاء ، ومعصية هؤلاء .

وقوله : ﴿ أُولَـٰئِكَ[2] عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) ﴾ [الأنبياء] أى : مبعدون عن النار .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) ﴾

حسيس النار : أزيزها ، وما ينبعث منها من أصوات أول ما تشتعل ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) ﴾ [الأنبياء] فلم يقُلْ مثلاً : وهم بما اشتهتْ أنفسهم ، إنما ﴿فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ .. (١٠٢) ﴾ [الأنبياء] كأنهم غارقون فى النعيم ممَّا اشتهتْ أنفسهم ، كأن شهوات أنفسهم ظرف يحتويهم ويشملهم . وهذا يُشوِّق أهل الخير والصلاح للجنة ونعيمها ، حتى نعمل لها ، ونُعد العُدَّة لهذا النعيم .

وسبق أن قلنا : إن الإنسان يتعب فى أول حياته ، ويتعلم صنعة ، أو يأخذ شهادة لينتفع بها فيما بعد ويرتاح فى مستقبل حياته ، وعلى قَدْر تعبك ومجهودك تكون راحتك ، فكل ثمرة لا بُدَّ لها

(١) عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم فقال للذى فى يمينه : إلى الجنة ولا أبالى . وقال للذى فى كفه اليسرى : إلى النار ولا أبالى » أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٤٤١) .

(٢) قال ابن عباس : أولئك أولياء الله يمرون على الصراط مراً ، هو أسرع من البرق ، ويبقى الكفار فيها جثياً وقال آخرون : بل نزلت استثناء من المعبودين وخرج منهم عزير والمسيح كما قال حجاج بن محمد الأعور عن ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس قاله ابن كثير فى تفسيره (٣/١٩٨) .

من حَرْث ومجهود ، والله عز وجل لا يُضيع أجرَ مَنْ أحسن عملاً .

وكنا نرى بعض الفلاحين يقضى يومه فى حقله ، مهملَ الثياب ، رثَّ الهيئة ، لا يشغله إلا العمل فى زرعه ، وآخر تراه مُهنْدماً نظيفاً يجلس على المقهى سعيداً بهذه الراحة ، وربما يتندر على صاحبه الذى يُشقِى نفسه فى العمل ، حتى إذا ما جاء وقت الحصاد وجد العامل ثمرة تعبه ، ولم يجد الكسول غير الحسرة والندم .

إذن : ربك - عز وجل - أعطاك الطاقة والجوارح ، ويريد منك الحركة ، وفى الحركة بركة ، فلو أن الفلاح جلس يُقلِّب فى أرضه ويُثير تربتها دون أنْ يزرعها لَعوَّضه الله وأثمر تعبه ، ولو أن يجد شيئاً فى الأرض ينتفع به مثل خاتم ذهب أو غيره .

وترف الإنسان وراحته بحسب تَعبه فى بداية حياته ، فالذى يتعب ويعرق مثلاً عَشْر سنين يرتاح طوال عمره ، فإنْ تعب عشرين سنة يرتاح ويرتاح أولاده من بعده ، وإنْ تعب ثلاثين سنة يرتاح أحفاده وهكذا .

وترَف المتعلم يكون بحسب شهادته : فهذا شهادة متوسطة ، وهذا علْيا ، وهذا أخذ الدكتوراة ، ليكون له مركز ومكانة فى مجتمعه .

لكن مهما أعدَّ الإنسان لنفسه من نعيم الحياة وترفها فإنه نعيم بقَدْر إمكانياته وطاقاته ؛ لذلك ذكرنا أننا حين سافرنا إلى سان فرانسيسكو رأينا أحد الفنادق الفخمة وقالوا : إن الملك فيصل - رحمه الله - كان ينزل فيه ، فأردنا أنْ نتجوّل فيه ، وفعلاً أخذنا بما فيه من مظاهر الترف والأبهة وروعة الهندسة ، وكان معى ناس من علْية القوم فقلتُ لهم : هذا ما أعدّه العباد للعباد ، فما بالكم بما أعدَّه رب العباد للعباد ؟

فإذا ما رأيتَ أهل النعيم والترف فى الدنيـا فلا تحقد عليهم ؛ لأن نعيمهم يُذكِّرك ويُشوِّقك لنعيم الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ[1] هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

ذلك لأنهم فـى نعـيم دائم لا ينقـطع ، وعطاء غـيـر مــجـذوذ ، لا يفوتك بالفقر ولا تفوته بالموت ؛ لذلك ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنبياء] وأىُّ فزع مع هذه النعمة الباقية ؟ أو : لا يحزنهم فزع القيامة وأهوالها .

وقوله : ﴿ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنبـياء] فقـد صدَقكم الله وَعْده ، وأنجـزَ لكم ما وعدكـم به من نعيم الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

أى : ما يحـدث من عذاب الكفـار وتنعيم المؤمنـين سيكون ﴿ يَوْمَ

(١) قال مجـاهد : تتلقاهم الملائكة الذين كانوا قـرناءهم فى الدنيا يوم القيامة فـيقولون : نحن أوليـاؤكم فى الحـيـاة الدنيا وفى الآخـرة ، لا نفـارقكم حـتى تدخلوا الجنة . أخـرجـه ابن أبى حاتم وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٥/٦٨٣) .

نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ .. ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء] و (يَوم) : زمن وظَرْف للأحداث ، فكأن ما يحدث للكافرين من العذاب والتنكيل ، وما يحدث للمؤمنين من الخلود فى النعيم يتم فى هذا اليوم .

والسجل : هو القرطاس ، والورق الذى نكتب فيه يُسمَّى سجلاً ؛ ولذلك الناس يقولون : نسجل كذا ، أى : نكتبه فى ورقة حتى يكون محفوظاً ، والكتاب : هو المكتوب .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى : ﴿وَالسَّمَـٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِه.. ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر] يطويها بقدرته ؛ لأن اليمين عندنا هى الفاعلة فى الأشياء ، ولكن لا نأخذ الطى أنه الطى المعروف ، بل نأخذه فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِه شَىْءٌ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

وقوله تعالى : ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ .. ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء] يدلنا على أن الحق سبحانه يتكلم عن الخَلْق الأول و ﴿نُّعِيدُهُ.. ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء] تدل على وجود خَلْق ثان .

إذن : فقوله تعالى فى موضع آخر : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ[1] الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَـٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم] دليل على أن الخَلْق الأول خَلْقٌ فيه الأسباب وفيه المسبِّب ، فالحق سبحانه أعطاك فى الدنيا مُقوِّمات الحياة من : الشمس والقمر والمطر والأرض والماء .... الخ ، وهذه أمور لا دَخْل لك فيها ، وكل ما عليك أنْ تستخدمَ عقلك الذى خلقه الله فى الترقى بهذه الأشياء والترف بها .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٧٢١/٥) : « رُوى مرفوعاً من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « تُبدَّل الأرض غير الأرض فيبسطها ويمدها مد الأديم العكاظى ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، ثم يزجر الله الخلق زجرة فإذا هم فى الثانية فى مثل مواضعهم من الأولى ، مَنْ كان فى بطنها ففى بطنها ، ومن كان على ظهرها كان على ظهرها » ذكره الغزنوى .

أما فى الخلق الثانى فـأنت فقط تستقـبل النعيم من الله دون أخْذ بالأسباب التى تعـرفها فى الدنيا ؛ لأن الآخرة لا تقوم بالأسـباب إنما بالمسـبِّب سبحـانه ، وحين ترى فى الجنة مـا لا عين رأت ، ولا أذن سـمـعتْ ، ولا خطر على قلب بشـر تعـلم أن فعْـل ربك لك أعظم من فعْلك لنفسك .

ومهـما ارتقتْ أسبـاب الترف فى الدنيـا ، ومهمـا تفنَّن الخَلْق فى أسباب الراحة والخـدمة الراقية ، فقصـارى ما عندهم أن تضغط على زرٍّ يفـتح لك الباب ، أو يُحـضر لك الـطعام أو القـهوة ، لكن أتحـدَّى العالم بما لديـه من تقدُّم وتكنولوجيا أنْ يُقدم لى مـا يخطر ببالى من طعام أو شراب ، فأراه أمامى دون أنْ أتكلم ؛ لأن هذه مسألة لا يقدر عليها إلا الله عز وجل .

فقوله : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ .. (١٠٤) ﴾ [الانبياء] فالمعنى ليستْ مجرد إعادته كما كان ، إنمـا نعيده على أرْقى وأفضل مما كان بحيث يصل بك النعـيم أنْ يخطرَ الشىء ببالك فتـجده بين يديك ، بل إنَّ المؤمن فى الجنة يتناول الصنف من الفاكهة فيقول : لقد أكلتُ مثل هذا من قبل[1] فيُقـال له : ليس كذلك بل هو أفضل مـما أكلْتَ ، وأهنأ مما تذوقتَ . فلو تناولتَ مـثلاً تفاح الدنيا تراه خاضعاً لـنوعية التُّرْبة والماء والجـو المحيط به والمبـيدات التى لا يستـغنى عنها الزرع هذه الأيام ... إلخ . أمّـا تفاح الآخـرة فهـو شىء آخر تمـاماً ، إنه صَنْعـة ربانية وإعداد إلهىّ .

وكأن الحـق سبحـانه يلفت عبـاده إلى أن عنايته بهم أفـضل من

---

(١) هذا قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. (٢٥) ﴾ [البقرة] .

عنايتهم بأنفسهم ؛ لأنه سبحانه أَوْلَى بنا من أنفسنا ، ولكى نعلم الفرق بين الشيء فى أيدينا والشيء فى يده عز وجل .

ثم يقول تعالى : ﴿وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤)﴾ [الأنبياء] أى : لا يُخرِجنا شيء عمَّا وعدنا به ، ولا يخالفنا أحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ(١) مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)﴾

والكَتْب : التسجيل ، لكن علم الله أزليٌّ لا يحتاج إلى تسجيل ، إنما التسجيل من أجلنا نحن حتى نطمئن ، كما لو أخذتَ من صاحبك قَرْضاً وبينكما ثقة ، ويأمن بعضكم بعضاً ، لكن مع هذا نكتب القَرْض ونُسجِّله حتى تطمئن النفس .

ومعنى : ﴿كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ .. (١٠٥)﴾ [الأنبياء] الزبور : الكتاب الذى أُنزل على نبى الله داود ، ومعنى الزبور : الشيء المكتوب ، فإنْ أطلقتَها على عمومها تُطلَق على كل كتاب أنزله الله ، ومعنى : ﴿مِن بَعْدِ الذِّكْرِ .. (١٠٥)﴾ [الأنبياء] الذِّكْر : يُطلَق مرة على القرآن ، ومرة على الكتب السابقة . وما دام الزبور يُطلَق على كل كتاب أنزله الله فلا بُدَّ أن للذكر معنى أوسع ؛ لذلك يُطلَق الذكر على اللوح المحفوظ ، لأنه ذكْر الذكر ، وفيه كل شيء .

فمعنى : ﴿كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ .. (١٠٥)﴾ [الأنبياء] أى : فى الكتب التى

---

(١) الزبور والكتاب واحد ، ولذلك جاز أن يقال للتوراة والإنجيل زبور . وقال سعيد بن جبير : الزبور : التوراة والإنجيل والقرآن . (تفسير القرطبى ٦/٤٥٢٩) .

أُنزلَتْ على الأنبياء ما كتبناه فى اللوح المحفوظ ، أو ما كتبناه فى الزبور ، لا أنّ سيدنا داود أعطاه الله فوق ما أعطى الآخرين .

ومعنى : ﴿ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ .. (١٠٥) ﴾ [الانبياء] هذه تدل على أن واحداً أسبق من الآخر ، نقول : القرآن هو كلام الله القديم ، ليس فى الكتب السماوية أقدم منه ، والمراد هنا ﴿ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ .. (١٠٥) ﴾ [الانبياء] بعدية ذِكْرية ، لا بعدية زمنية .

فما الذى كتبه الله لداود فى الزبور ؟ كتب له ﴿ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) ﴾ [الانبياء] كلمة الأرض إذا أُطلقَتْ عموماً يُراد بها الكرة الأرضية كلها .

وقد تُقيَّد بوصف معين.كما فى : ﴿ الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ..(٢١) ﴾ [المائدة]

وفى : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ .. (٨٠) ﴾ [يوسف] أى : التى كان بها .

وهنا يقول تعالى : ﴿ أَنَّ الأَرْضَ .. (١٠٥) ﴾ [الانبياء] أى : الأرض عموماً ﴿ يَرِثُهَا .. (١٠٥) ﴾ [الانبياء] أى : تكون حقاً رسمياً لعبادى الصالحين . فأىُّ أرض هذه ؟ أهى الأرض التى نحن عليها الآن ؟ أم الأرض المبدلة ؟

ما دُمْنَا نتكلّم عن بَدْء الخَلْق وإعادته ، فيكون المراد الأرض المبدلَة المعادة فى الآخرة[1] ، والتى يرثها عباد الله الصالحون ، والإرْث هنا كما فى قوله تعالى : ﴿ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) ﴾ [الأعراف]

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/ ٤٥٣٠) : « أحسن ما قيل فيه انه يُراد بها أرض الجنة كما قال سعيد بن جبير ؛ لأن الأرض فى الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم . وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما » .

فعن مَنْ ورثوا هذه الأرض ؟

الحق سبحانه وتعالى حينما خلق الخَلْق أعدَّ الجنة لتسعَ كلَّ بنى آدم إنْ آمنوا ، وأعدَّ النار لتسع كُلَّ بنى آدم إنْ كفروا ، فليس فى المسألة زحام على أىِّ حال . فإذا ما دخل أهلُ الجنة الجنةَ ، ودخل أهلُ النارِ النارَ ظلَّتْ أماكن أهل النار فى الجنة خالية فيُورثها الله لأهل الجنة ويُقسِّمها بينهم ، ويُفسح لهم أماكنهم التى حُرِم منها أهل الكفر .

أو نقول : الأرض يُراد بها أرض الدنيا[1] . ويكون المعنى أن الله يُمكِّن الصالح من الأرض ، الصالح الذى يَعْمُرها ولو كان كافراً ؛ لأن الله تعالى لا يحرم الإنسان ثمار عمله ، حتى وإنْ كان كافراً ، يقول تعالى ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ⦗٢٠⦘﴾ [الشورى]

لكن عمارة الكفار للأرض وتكوينهم للحضارة سَرْعان ما تنزل بهم النكبات ، وتنقلب عليهم حضارتهم ، وها نحن نرى نكبات الأمم المرتقية والمتقدمة وما تعانيه من أمراض اجتماعية مستعصية ، فليست عمارة الأرض اقتصاداً وطعاماً وشراباً وترفاً . ففى السويد - مثلاً - وهى من أعلى دول العالم دَخْلاً ومع ذلك بها أعلى نسبة انتحار ، وأعلى نسبة شذوذ ، وهذه هى المعيشة الضَّنْك التى تحدَّث عنها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ⦗١٢٤⦘﴾ [طه]

فالضَّنْك لا يعنى فقط الفقر والحاجة ، إنما له صور أخرى كثيرة .

---

(١) عن ابن عباس : إنها أرض الأمم الكافرة ، ترثها أمة محمد ﷺ بالفتوح [تفسير القرطبى ٦ / ٤٥٣٠] .

إذن : لا تَقِسْ مستوى التحضُّر بالماديات فحسب ، إنما خُذْ فى حُسْبانك كُلَّ النواحى الأخرى ، فمَنْ أتقن النواحى المادية الدنيوية أخذها وترف بها فى الدنيا ، أمّا الصلاح الدينى والخُلقى والقِيَمى فهو سبيل لترف الدنيا ونعيم الآخرة .

وهكذا تشمل الآية : ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۝١٠٥﴾ [الانبياء] الصلاح المادى الدنيوى ، والصلاح المعنوى الأخروى ، فإنْ أخذتَ الصلاح مُطلقاً بلا إيمان ، فإنك ستجد ثمرته إلى حين ، ثم ينقلب عليك ، فأين أصحاب الحضارات القديمة من عاد وثمود والفراعنة ؟

إن كُلَّ هذه الحضارات مع ما وصلتْ إليه ما أمكنها أن تحتفظ لنفسها بالدوام ، فزالتْ وبادتْ .

يقول تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ۝١٠﴾ [الفجر]

إنها حضارات راقية دُفِنَتْ تحت أطباق التراب ، لا نعرف حتى أماكنها . أمّا إنْ أخذت الصلاح المعنوى ، الصلاح المنهجى من الله عز وجل فسوف تحوز به الدنيا والآخرة ؛ ذلك لأن حركة الحياة تحتاج إلى منهج يُنظِّمها : افعل كذا ولا تفعل كذا . وهذا لا يقوم به البشر أمّا ربُّ البشر فهو الذى يعلم ما يُصلحهم ويُشرِّع لهم ما يُسعدهم .

إن منهج الله وحده هو الذى يأمرنا وينهانا ، ويخبرنا بالحلال والحرام ، وعلينا نحن التنفيذ ، وعلى الحكام وأولياء الأمر الممسكين بميزان العدل أنْ يراقبوا مسألة التنفيذ هذه ، فيُولُّوا مَنْ يصلُح للمهمة ، ويقوم بها على أكمل وجه ، وإلا فسد حال المجتمع ، الحاكم

يُشرف ويُراقب ، يُشجِّع العامل ويُعاقب الخامل ، ويضع الرجل المناسب في مكانه المناسب .

فعناصر الصلاح في المجتمع : علماء يُخططون ، وحكام يُنفِّذون ، ويديرون الأمور ، وكلمة حاكم مأخوذة من الحكَمة (بالفتح) وهى : اللجام الذى يكبح الفَرس ويُوجِّهها .

لذلك جاء في الحديث الشريف : « مَنْ ولَّى أحداً على جماعة ، وفي الناس خير منه لا يشم رائحة الجنة »(١) .

لماذا ؟ لأن ذلك يُشيع الفساد في الأرض ، ويُثبِّط العزائم العالية والهمم القوية حين ترى مَنْ هو أقلّ منك كفاءة يتولّى الأمر ، وتُستبعد أنت . أما حين تعتدل كِفَّة الميزان فسوف يجتهد كُلٌّ مِنّا ليصل إلى مكانه المناسب .

إذن : مهمة الحكام وولاة الأمر ترقية المجتمع ، فلا نقول لحاكم مثلاً يُعِدُّ لنا طعاماً ، أو يصنع لنا آلة ، فليستْ هذه مهمته ، ولقد رأينا أحد الأمراء وكان له أرض يزرعها ، يتولاها أحد الموظفين يقولون له (الخُولى) ومهمة الخولى الإشراف والمراقبة .

وفي يوم جاء الأمير ليباشر أرضه ويتفقد أحوالها في صُحْبة الخولى ، وفي أثناء جولتهما بالأرض رأى الخولى قناةً ينسابُ منها الماء حتى أغرق الزرع فنزل وسَدَّ القناة بنفسه .

وعندها غضب الأمير وفصله من عمله ؛ لأنه عمل بيده في حين أن مهمته الإشراف ولديه من العمال مَنْ يقوم بمثل هذا العمل .

---

(١) عن أبى بكر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من ولى من أمر المسلمين شيئاً فأمَّر عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم » أخرجه أحمد في مسنده (٦/١) .

لكن ، لماذا هذه النظرة في إدارة الأعمال ؟ قالوا : لأنك إنْ عملتَ بيدك فأنت واحد ، لكن إنْ أشرفتَ فيمكن أنْ تُشرف على آلاف من العمال . ومن هنا جاءت مسألة التخصُّص في الأعمالَ .

وعلى الحاكم ووليِّ الأمر أنْ يحافظ على منهج الله ، ويتابع تطبيق الناس له ، فيقف أمام أي فساد ، ويأخذ على يد صاحبه ، ويثيب المجتهد العامل ، كما جاء في قوله تعالى في قصة ذي القرنين :

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الكهف]

ذلك ، لأن الله تعالى يزَعُ بالسلطان مَا لا يزع بالقرآن ، ولو تركنا أهل الفساد والمنحرفين لجزاء القيامة لفسد المجتمع ، لا بُدَّ من قوة تصون صلاح المجتمع ، وتضرب على أيدي المفسدين ، لا بُدَّ من قوة تمنع مَنْ يتجرؤون علينا ويطالبون بتغيير نظامنا الإسلامي .

لذلك يقول تعالي : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال] لا بُدَّ أن يعلم العدو أن لديك الرادعَ الذي يَردعه إنِ اعتدى عليك أو حاول إفساد صلاح المجتمع .

لذلك ، فالنبي ﷺ يقول في الحديث[1] إن السهم الذي يُرمى في سبيل الله ، لكل مَنْ شارك في إعداده ورميه جزء من الثواب ، فالذي قطعه من الشجرة والذي براه ، والذي وضعه في القوس ورمى به ؛ لأن في ذلك صيانةً للحق وصيانة للصلاح حتى يدوم ، ولا يفسده أحد .

---

(١) عن عقبة بن عامر قال قال ﷺ : « إن الله عز وجل يُدخل الثلاثة بالسهم الواحد الجنة : صانعه يحتسب في صنعه الخير ، والممد به ، والرامي به » أخرجه الدارمي في سننه (٢/٢٠٤) والترمذي في سننه (١٦٣٧) ، وابن ماجه في سننه (٢٨١١) .

والمسئولية هنا لا تقتصر على الحكام وولاة الأمر ، إنما هى مسئولية كل فرد فيمن ولى أمراً من أمور المسلمين ، كما جاء فى الحديث : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته : فالأمير الذى على الناس راعٍ وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بَعْلها وولده وهى مسئولة عنهم ، والعبد راعٍ على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته »(١) .

وعلى العامل ألاَّ ينظرَ إلى مراقبة صاحب العمل ، وليكُنْ هو رقيباً على نفسه ، والله عز وجل يراقب الجميع ، وقد جاء فى الحديث القدسى « إن كنتم تعتقدون أنِّى لا أراكم فالخلل فى إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أنِّى أراكم فلِمَ جعلتمونى أهونَ الناظرين إليكم ؟ » .

والمتأمل فى حركة الحياة يجدها متداخلة ، فمثلاً لو أردتَ بناء بيت ، فالهندسة حركة ، والبناء حركة ، والكهرباء حركة ، والنجارة حركة ، وهكذا .. ، فلو قلنا : إن هذا العمل يتكون من مائة حركة مثلاً ، فإنك لا تملك منها إلا حركة واحدة هى عملك الذى تتقنه ، والباقى حركات لغيرك ، فإنْ أخلصتَ فيما للناس عندك ألهمهم الله أنْ يخلصوا لك ولو عن غير قصد ، فأنت أخلصتَ وأتقنتَ حركة واحدة ، وأخلص الناس لك فى تسع وتسعين حركة .

واعلم أن الخواطر والأفكار بيد الله سبحانه ، فإنْ راقبتَ الله فيما للناس عندك راقبهم الله لك فيما لك عندهم ، وكفاك مُؤْنة المراقبة ، فقد يصنع لك الصانع شيئاً ، ويريد أنْ يغشَّك فيه فيحول الله بينه وبين

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٢٩) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ، وأحمد فى مسنده (٢/٥٤ ، ١١١) ، والبخارى فى صحيحه (٢٤٠٩) .

هذا ؛ ربما يجلس معه أحد معارفه فيستحى أن يغش أمامه ، أو لا يجد الشىء الذى يغشك به ، أو غير ذلك من الأسباب التى يُسخِّرها الله لك ، فيتقن لك الصانع صَنْعته ، ولو رَغْماً عن إرادته .

إذن : إن أردتَ صلاحَ أمرك فأصلح أمور الآخرين .

ومن الأساسيات التى نُصلح بها ونرث الأرض أن ننظر إلى الناس جميعاً على أنهم سواسية ، لا فضلَ لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح ، فليس فينا مَنْ هو ابن لله عز وجل ، وليس منا مَنْ بينه وبين الله قرابة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات]

والإسلام لا يعرف الطبقية إلا فى إتقان العمل ، فقيمة كل امرىء ما يُحسنه ، وقد ضربنا لذلك مثلاً ، وما نزال نذكره مع أنه لرجل غير مسلم ، إنه رجل فرنسى كان نقيباً للعمال ، وكان يدافع عن حقوقهم ، ويطلب لهم زيادة الدَّخْل من ميزانية الوزارة ، فلما تولى منصب الوزارة وتولى المسئولية عدلَ عَمَّا كان يطالب به ، فضجَّ العمال ، وأراد أحدهم أنْ يغيظه فقال له : اذكر يا معالى الوزير أنك كنت فى يوم من الأيام ماسح أحذية ، فما كان من الرجل إلا أن قال : نعم .. لكنى كنت أجيدها .

وسبق أن ذكرنا أن الله تعالى وزَّعَ المواهب والقدرات بين خَلْقه ، فساعة ترى نفسك مُميزاً على غيرك فى شىء فلا تغتر به ، وابحثْ فيما مُيِّز به عنك غيرُك ؛ لأننا جميعاً عند الله سواء ، لا يحابى منا أحداً على أحد ، فأنت مُميز بعلمك أو قوتك ، وغيرك أيضاً مُميز فى سعادته مع أهله أو فى أمانته وثقة الناس به ، أو فى رضاه بما قسم له أو فى مقدرته على نفسه ورضاه بالقليل ، وقد يُميَّز الواحد منَّا بالولد الصالح الذى يكون مِطْواعاً لأبيه ، وقُرة عَيْن له .

إذن : هذه مسألة مُقدَّرة محسوبة ؛ لأن ربك سبحانه قيُّوم عليك ، لا تخفى عليه منك خافية ، وحين يُميِّز بعضنا على بعض إنما ليدكّ فينا الغرور والكبرياء ، وينزع من قلوبنا الحقْد والغلّ ، وهكذا يتوازن المجتمع، ولا يكون التميز مثار حقدٍ ؛ لأنَ تميزَ غيرك لصالحك ، وسيعود عليك .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُحدِّثنا عن يوم القيامة ، وكيف أن الشمس ستدنو من الرؤوس ، ويشتدّ بالناس الكرب ، إلا هؤلاء الذين يُظلُّهم الله فى ظلِّه يوم لا ظل إلا ظله ، ذلك لأنهم كانوا مظلة أمان فى الدنيا ، فأظلَهم الله فى الآخرة .

كما جاء فى الحديث الشريف : « سبعة يُظلهم الله فى ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه مُعلَّقَ فى المَساجد ، ورجلان تحابَّا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه »[(١)] .

نعم ، لقد صنع هؤلاء بسلوكهم القويم مظلَّة أمانٍ فى الكون ، فاستحقوا مظلَّة الله فى الآخرة . وبمثل هؤلاء يتوازن المجتمع المسلم ويَرْقَى إلى القمة ، هذا المجتمع الذى نريده هو مجتمع غنيّه متواضع ، وفقيره كريم شريف ، وشابُّه طائع .

يقول رب العزة سبحانه فى الحديث القدسى : « أحب ثلاثة وحبِّى لثلاثة أشدُّ ـ فهؤلاء ستة نقسمهم إلى قسمين ـ أحب الفقير

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٦٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

المتواضع ، وحُبِّى للغنى المتواضع أشد ـ لأن عنده أسبابَ الكبر ومع ذلك يتواضع ـ وأحب الغنىَّ الكريم وحُبِّى للفقير الكريم أشدّ ، وأحب الشيخ الطائع وحبى للشاب الطائع أشدُّ » .

« وأكره ثلاثة وكُرْهى لثلاثة أشد : أكره الغنى المتكبر ، وكُرْهى للفقير المتكبر أشدّ ، وأكره الفقير البخيل ، وكُرْهى للغنى البخيل أشد ، وأكره الشاب العاصى وكرهى للشيخ العاصى أشد » .

هؤلاء اثنا عشر نوعاً : ستة فى المحبوبية ، وستة فى المكروهية ، وكلما التزمنا بتطبيق هذا المنهج وجدنا مجتمعاً راقياً من الدرجة الأولى .

﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

البلاغ : الشىء المهم الذى يجب أن يعلمه الناس ؛ لذلك حين ينشغل الناس بالحرب ، وينتظرون أخبارها تأتيهم على صورة بلاغات ، يقولون : بلاغ رقم واحد ، لأنه أمر مهم .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي هَـٰذَا لَبَلاغًا .. ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : أن ما جاء به القرآن هو البلاغ الحق ، والبلاغ الأعلى الذى لم يترك لكم عذراً ، ولا لغفلتكم مجالاً ، ولا لمستدرك أنْ يستدرك عليه فى شىء . فهو مُنْتهى ما يمكن أنْ أخبركم به .

وهو بلاغ لمن ؟ ﴿ لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : يتلقفون مُرادَ الله لينفذوه ، سواء أكان أمراً أمْ نَهياً .

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

وما دام ﷺ خاتَم الرسل ، وبعثتُه للناس كافة ، وللزمن كله إلى أنْ تقوم الساعة . وقد جاء الرسل السابقون عليه لفترة زمنية

محددة ، ولقوم بعينهم ، أما رسالة محمد ﷺ فجاءتْ رحمةً للعالمين جميعاً ؛ لذلك لا بُدَّ لها أنْ تتسعَ لكل أقضية الحياة التى تعاصرها أنت ، والتى يعاصرها خَلَفُك ، وإلى يوم القيامة .

ومعنى : العالمين ، كُلُّ ما سوى الله عز وجل : عالم الملائكة ، وعالم الجن ، وعالم الإنس ، وعالم الجماد ، وعالم الحيوان ، وعالم النبات . لكن كيف تكون رسالة محمد ﷺ رحمةً لهم جميعاً ؟

قالوا : نعم ، رحمة للملائكة ، فجبريل ـ عليه السلام ـ كان يخشى العاقبة حتى نزل على محمد قوله تعالى : ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [التكوير] فاطمأن جبريل عليه السلام وأَمِن .

ورسول الله ﷺ رحمة للجماد ؛ لأنه أمرنا بإماطة الأذى عن الطريق . وهو رحمة بالحيوان . وفى الحديث الشريف : « ما من مسلم يزرع زَرْعاً ، أو يغرس غَرْساً فيأكلَ منه طيْرٌ أو إنسان أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة »[1] .

وحديث المرأة التى دخلتْ النار فى هرَّة حبستْها ، فلا هى أطعمتْها وسقتْها ، ولا هى تركتها تأكل من خَشَاش الأرض[2] .

وحديث الرجل الذى دخل الجنة ؛ لأنه سقى كلباً كان يلهث يأكل الثرى من شدة العطش ، فنزل الرجل البئر وملأ خُفَّه فسقى الكلب ، فشكر الله له وغفر له ، لأنه نزل البئر وليس معه إناء يملأ به الماء ،

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٣٢٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٥٣) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ﷺ قال : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣/٨) قال ابن حجر فى الفتح (٣٥٧/٦) : « المراد (بخشاش الأرض) هوام الأرض وحشراتها من فارة ونحوها » .

فاحتال للأمر ، واجتهد ليسقى الكلب[(١)] .

وهكذا نالتْ رحمة الإسلام الحيوان والطير والإنسان ، ففى الدين مبدأ ومنهج يُنظِّم كل شىء ولا يترك صغيرة ولا كبيرة فى حياة الناس ؛ لذلك فهو رحمة للعالمين .

فقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء] يعنى أن كل ما يجيء به الإسلام داخل فى عناصر الرحمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨)﴾

فالوحدانية هى أول رحمة بنا ، أن نكون كلنا سواء ، ليس لنا إلا إله واحد ، هذه من أعظم رحمات الله أن نعبده وحده لا شريكَ له ، فعبادته تُغنينا عن عبادة غيره ، ولو كانت آلهة متعددة لأصابتنا الحيرة بين إله يأمر ، وإله ينهى .

لذلك ؛ فالحق - سبحانه وتعالى - يطلب منا أنْ نعتزّ وأنْ نفخَر بهذه الوحدانية ، وبهذه الألوهية ، وفى هذا يقول الشاعر الإسلامى محمد إقبال :

والسُّجود الذى تَجْتويه   منْ أُلوفِ السُّجود فيه نَجَاةُ

(١) عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل بها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خُفَّه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له ، قالوا : يا رسول الله وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : فى كل ذات كبد رطبة أجر » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) .

فسجودك لله وتعفير وجهك له سبحانه يحميك من السجود لغيره ، ولولا سجودك لله لَسجدت لكل مَنْ هو أقوى منك ، فعليك - إذن - أن تعتز بعبوديتك لله ؛ لأنها تحميك من العبودية لغيرك من البشر ، وحتى لا يقول لك شخص أنت عبد ، نعم أنا عبد لكن لستُ عبداً لك ، فعبد غيرك حُرٌّ مثلك .

وقد ضرب لنا الحق سبحانه مثلاً في هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩)﴾ [الزمر]

فهل يستوى عبد لعدة أسياد يتجاذبونه في وقت واحد ، وهم مع ذلك مختلفون بعضهم مع بعض ، وعبد سلَماً لسيد واحد ؟

وهكذا ، نحن جميعاً عبيد لله - عز وجل - حين نخضع لا نخضع إلا له سبحانه ، فلا أخضع لك ولا تخضع أنت لى ؛ لذلك يقولون « اللى الشرع يقطع صباعه ميخرش دم » لأنه أمر من أعلى ، من السماء ، لا دَخْلَ لأحد فيه .

لذلك ؛ فالعبودية تُكره حين تكون عبوديةٌ للبشر ، لأن عبودية البشر للبشر يأخذ السيد خير عبده ، أما العبودية لله فيأخذ العبد خير سيده .

والشاعر[1] يقول :

حَسْبُ نفسى عزاً بأنِّى عَبْدٌ ... يحتفى بى بلاَ مواعيدَ رَبُّ

هُوَ فى قُدْسه الأعزِّ ولكنْ ... أنا أَلْقَى متى وأيْنَ أُحِبُّ

ولك أنْ تقارن بين مقابلة عظيم من عظماء الدنيا ، ومقابلة ربك عز وجل . فإنْ أردتَ الدخولَ على أحد هؤلاء لا بُدَّ أن تطلب المقابلة ،

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

ويا ترى تقبل أم ترفض ، وإنْ قبلت فلا تملك من عناصرها شيئاً ، فالزمان ، والمكان ، وموضوع الكلام . كلها أمور يحددها غيرك .

أما إن أردتَ مقابلة ربك ـ عز وجل ـ فما عليك إلا أنْ تتوضأ وترفع يديك قائلاً : الله أكبر بعدها ستكون فى معية الله ، وقد اخترتَ أنت الزمان ، والمكان ، وموضوع الحديث ، وإنهاء اللقاء .

ألاَ ترى كيف امتنَّ الله تعالى على رسوله فى رحلة « الإسراء والمعراج » بأنْ وصفه بالعبودية له سبحانه ، فقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ① ﴾ [الإسراء] إذن : جاء قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. ١٠٨ ﴾ [الأنبياء] بعد قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ١٠٧ ﴾ [الأنبياء] ليدلنا : أن دعوة الله لنا إلى عبادة إله واحد ترحمنا من عبوديتنا بعضنا لبعض .

ثم يُرغِّبنا الحق سبحانه فى هذه العبودية ، فيقول : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٨ ﴾ [الأنبياء] كما تحث ولدك المتكاسل أن يكون مثلَ زميله الذى تفوّق ، وأخذ المركز الأول ، فتقول له : ألاَ تذاكر وتجتهد حتى تكون مثله ؟

وهكذا فى ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٨ ﴾ [الأنبياء] أى : مسلمون لله ؛ لأن مصلحتكم فى الإسلام وعزّكم فى عبوديتكم لله .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ[1] عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩ ﴾

(١) آذنه الأمر ، وآذنه به : أعلمه ، وآذنتك بالشىء : أعلمتُكه . [لسان العرب ـ مادة : اذن] .

﴿فَإِن تَوَلَّوْا .. (١٠٩)﴾ [الانبياء] يعنى : أعرضوا وانصرفوا ﴿فَقُلْ آذَنتُكُمْ .. (١٠٩)﴾ [الانبياء] مادة : أذن ومنها الأذان تعنى الإعلام بالشيء ، والأصل فى الإعلام كان فى الأُذُن بالكلام ، حيث لم يكُنْ عندهم قراءة وكتابة ، فاعتمد الإعلام على الكلام والسماع بالأذن ، فمعنى : ﴿آذَنتُكُمْ .. (١٠٩)﴾ [الانبياء] أعلمتُكم وأخبرتُكم .

وقوله تعالى : ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ .. (١٠٩)﴾ [الانبياء] يعنى : جاء الإعلام لكم جميعاً لم أخصّ أحداً دون الآخر ، فأنتم فى الإعلام سواء ، لا يتميز منكم أحد على أحد ؛ لذلك كان النبى ﷺ يحرص على إبلاغ الجميع ، فيقول :

« نضّر الله امْرأ سمع مقالتى فوعاها ، ثم أدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فرُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع »[1] وهكذا يشيع الخيْر ويتداول بين الجميع .

﴿فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ .. (١٠٩)﴾ [الانبياء] فلم أعْلِم قوماً دون قوم ، ولم أُسْمِع أذناً دون أُذن ، وجعلت من كمال الإيمان أن يخبر السامع مَنْ لم يسمع ؛ لأنه لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

ثم يُنبِّههم إلى أمر الساعة : ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩)﴾ [الانبياء] فانتبهوا وخُذوا بالكم ، واحتاطوا ، فلا أدرى لعلَّ الساعةَ تكون قريباً ، ولعلها تفاجئكم قبل أنْ أُنهى كلامى معكم .

لذلك ؛ لما سألوا أحد الصالحين : فِيمَ أفنيتَ عمرك ؟ قال :

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٣٧) والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجة فى سننه (٢٣٢) والحميدى فى مسنده (١/٤٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

« أفنيتُ عمرى فى أربعة أشياء : علمت أنى لا أخلو من نظر الله طَرْفة عين فاستحييتُ أنْ أعصيه ، وعلمتُ أن لى رِزْقاً لا يتجاوزنى قد ضمنه الله لى فقنعتُ به ، وعلمتُ أن علىَّ دَيْناً لا يؤديه عنى غيرى فاشتَغلتُ به ، وعلمتُ أن لى أجَلاً يبادرنى فبادرتُه » .

إذن : فالمراد : استعدوا لهذه المسألة قبل أن تفاجئكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

وما دام ربك - عز وجل - يعلم الجهر ويعلم السرَّ وأخْفى ، فإياك أنْ تنافق ؛ لأننا ننهاك عن النفاق مع البشر ، فمن باب أَوْلَى أن ننهاك عن نفاق ربك سبحانه الذى يعلم سرَّك كما يعلم علانيتك ، وقصارى أمر البشر أنْ يُراقبوا علانيتك . لَذلك ، فإن كل احتياطات أهل الإجرام التخفِّى عن أعين الدولة ، والهرب من مراقبة الشرطة ، لكن كيف التخفى عن نظر الله وعلمه ؟

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الانبياء] يُعلِّمنا الأدب حتى فيما نكتم ، فالأدب فى الجهر من باب أَوْلَى ، ونحن مؤمنون بأن الله سبحانه غَيْب غير مشهد ، وهَبْ أنك فى بيتك تعلم كل شىء فيه ؛ لأنه مشهد لك ، أمّا ما كان خارج البيت فهو غَيْب عنك لا تعلمه ، أمّا الحق سبحانه فهو غَيْب يعلم كل مَشْهد وكل غيب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١١١﴾ ﴾

أى : لعل الإمهال وبقاءكم دون عذاب وتباطؤ الساعة عنكم فتنةٌ واختبار ، يا ترى أتُوفَّقون وتفوزون فى هذا الاختبار ، كما قال سبحانه في موضع آخر :

﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) ﴾ [التوبة]

وقال تعالى : ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) ﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى : ﴿ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) ﴾ [الأنبياء] أى : لن يدوم هذا النعيم وهذا المتاع ؛ لأن له مدة موقوتة .

ثم يقول الحق سبحانه فى ختام سورة الأنبياء :

﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ[1] وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ .. (١١٢) ﴾ [الأنبياء] كما دعا بذلك الرسل السابقون : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ[2] بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) ﴾ [الأعراف]

---

(١) قال قتادة : كانت الأنبياء تقول ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ .. (٨٩) ﴾ [الأعراف] فأمر النبى ﷺ أن يقول : ﴿ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ .. (١١٢) ﴾ [الأنبياء] فكان إذا لقى العدو يقول - وهو يعلم أنه على الحق وعدوه على الباطل - ﴿ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ .. (١١٢) ﴾ [الأنبياء] أى : اقض به . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤٥٣٢/٦) والسيوطى فى الدر المنثور (٦٨٩/٥) وعزاه لابن أبى حاتم .

(٢) أى : انصرنا عليهم ، ويجوز أن يكون المعنى : ربنا افتح بيننا وبين قومنا باب التفاهم والمحبة بالحق حتى يؤمنوا ويتركوا عنادهم . [القاموس القويم ٧٠/٢] .

وهل يحكم الله سبحانه إلا بالحق ؟ قالوا[1] : الحق سبحانه يُبيِّن لنا ؛ لأننا عشْنا في الدنيا ورأينا كثيراً من الباطل ، فكأننا لأول مرة نسمع الحكمَ بالحق .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنبياء] أي : المستعان على ما تُجرمون فيه من نسبتنا إلى الجنون ، أو إلى السحر .. الخ .

وتلاحظ أن الحق سبحانه في آيات سورة الأنبياء تكلم عن طَيٍّ السماء كطيٍّ السجل للكتب ، ثم قال ﴿ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ .. ﴿١١١﴾ ﴾ [الأنبياء] ﴿ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ ﴾ [الأنبياء] ، ثم قال : ﴿ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ .. ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنبياء]

هذا كله ليُقرِّب لنا مسألة الساعة وقيامها ، ويُعِدُّنا لاستقبال « سورة الحج » .

---

(١) قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن جرير الطبرى وابن المنذر ، أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٦٨٩) قال : لا يحكم الله إلا بالحق ، ولكن إنما يستعجل بذلك فى الدنيا يسأل ربه على قومه .




سورة الحج

سورة الحج[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ① ﴾

الخطاب هنا عام للناس جميعاً ، وعادةً ما يأتى الخطاب الذى يطلب الإيمان عاماً لكل الناس ، إنما ساعة يطلب تنفيذ حكم شرعى يقول : يا أيها الذين آمنوا .

لذلك يقول هنا : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ .. ① ﴾ [الحج] يريد أنْ يلفتهم إلى قوة الإيمان . وكلمة ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ .. ① ﴾ [الحج] التقوى : أنْ تجعل بينك وبين ما أحدِّثك عنه وقايةً ، أى : شيئاً يقيك العذاب الذى لا طاقةَ لك به .

---

(١) سورة الحج هى السورة رقم (٢٢) فى ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ٧٨ آية ، وهى سورة مختلطة فيها آيات مدنية ، وآيات مكية ، وهو قول جمهور العلماء . قاله ابن الفرس فى أحكام القرآن فيما نقله عنه السيوطى فى (الإتقان فى علوم القرآن ١/ ٣٢) ورجحه القرطبى أيضاً فى تفسيره (٦/ ٤٥٣٣) وقال : « وهذا هو الأصح » .

قال الغزنوى : « هى من أعاجيب السور ، نزلت ليلاً ونهاراً ، وسفراً وحضراً ، مكياً ومدنياً ، سلمياً وحربياً ، ناسخاً ومنسوخاً ، محكماً ومتشابهاً ، مختلف العدد » . نقله القرطبى فى تفسيره (٦/ ٤٥٣٣) .

ونلحظ أن الله تعالى يقول مرة : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ .. (١٩٤) ﴾ [البقرة] ومرة يقول : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ .. (٢٤) ﴾ [البقرة] نعم ، لأن المعنى ينتهى إلى شىء واحد . معنى : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ .. (٢٤) ﴾ [البقرة] أى : اجعل بينك وبينها وقاية تحميك منها ، ويكون هذا بفعْل الأمر وترْك النهى .

وقوله : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ .. (١٩٤) ﴾ [البقرة] لأن لله تعالى صفات جمال ، وصفات جلال ، صفات الجمال كالرحمن ، والرحيم ، والباسط والستار ، وصفات الجلال كالقهار والجبار وغيرها مما نخاف منه .

فاجعل بينك وبين صفات الجلال وقايةً ، فليستْ بك طاقة لقاهريته ، وبطشه سبحانه ، والنار من جنود الله ، ومن مظاهر قَهْره . فكما نقول : اتقِّ الله نقول : اتقِّ النار .

واختار فى هذا الأمر صفة الربوبية ، فقال : ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ .. (١) ﴾ [الحج] ولم يقُلْ : اتقوا الله ؛ لأن الرب هو المتولِّى للرعاية وللتربية ، فالذى يُحذِّرك هو الذى يُحبك ويُعطيك ، وهو الذى خلقك وربَّاك ورعاك .

فالربوبية عطاء : إيجاد من عَدم وإمداد من عُدم ، فأوْلَى بك أن تتقيه ، لأنه قدَّم لك الجميل .

أما صفة الألوهية فتعنى التكاليف والعبادة بافْعل ولا تفعل ، الله معبود ومُطَاع فيما أمر وفيما نَهَى .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) ﴾ [الحج] الزلزلة : هى الحركة العنيفة الشديدة التى تُخرِج الأشياء عن ثباتها ، كما لو أردتَ أنْ تخلعَ وتداً من الأرض ، فعليك أولاً أنْ تهزَّه وتخلخله من مكانه ، حتى تجعل له مجالاً فى الأرض يخرج منه ،

إنما لو حاولت جذْبه بدايةً فسوف تجد مجهوداً ومشقة فى خَلْعه ، وكذلك يفعل الطبيب فى خلع الضِّرس .

فمعنى الزلزلة : الحركة الشديدة التى تزيل الأشياء عن أماكنها ، والحق سبحانه وتعالى تكلم عن هذه الحركة كثيراً فقال : ﴿إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ[1] الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴿٦﴾﴾[الواقعة]

ويقول : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ [الزلزلة]

فالزلزال هنا ليس زلزالاً كالذى نراه من هزّات أرضية تهدم بعض البيوت ، أو حتى تبتلع بعض القرى ، فهذه مجرد آيات كونية تثبت صدْق البلاغ عن الله ، وتنبهك إلى الزلزال الكبير فى الآخرة ، إنه صورة مصغرة لما سيحدث فى الآخرة ، حتى لا نغتر بسيادتنا فى الدنيا فإن السيادة هبة لنا من الله .

وعندما حدث زلزال « أغادير » لاحظوا أن الحيوانات ثارتْ وهاجتْ قبل الزلزال بدقائق ، ومنها ما خرج إلى الخلاء ، فأىُّ إعلام هذا ؟ وأىُّ استشعار لديها وهى بهائم فى نظرنا لا تفهم ولا تعى ؟

إن فى ذلك إشارة للإنسان الذى يعتبر نفسه سيد هذا الكون : تنبَّه ، فلولا أن الله سَيَّدَك لوكزتْكَ هذه البهائم فقضت عليك .

نقول : ليس هذا زلزالاً عاماً ، إنما هو زلزال مخصوص منسوب إلى الأرض بوحى من الله ، وبأمر منه سبحانه أن تتزلزل .

---

(١) بسَّه : فتَّه وجعله اجزاء دقيقة . اى : فُتِّتَتْ تفتيتاً شديداً . [القاموس القويم ١/٦٦] .

لذلك وُصف هذا الزلزال بأنه شيء عظيم : ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ①﴾ [الحج] فحين تقول أنت أيها الإنسان : هذا شيء عظيم فهو عظيم بمقياسك أنت ، أما العظيم هنا فعظيم بمقاييس الحق سبحانه ، فلكَ أن تتصوَّر فظاعة زلزال وصفه الله سبحانه بأنه عظيم .

لقد افتُتحَتْ هذه السورة بزلزلة القيامة ؛ لأن الحق سبحانه سبق أنْ قال : ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ .. ⑨⑦﴾ [الأنبياء] فلا بُدَّ أنْ يعطينا هنا صورة لهذا الوعد ، ونُبْذة عما سيحدث فيه ، وصورة مُصغَّرة تدل على قدرته تعالى على زلزال الآخرة ، وأن الأرض ليس لها قوام بذاتها ، إنما قوامها بأمر الله وقدرته ، فإذا أراد لها أنْ تزول زالتْ .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ②﴾ [الزلزلة]

فَمَا نراه من البراكين ومن الثروات في باطن الأرض وعجائب يقع تحت هذه الآية ؛ لذلك قال تعالى : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ⑥﴾ [طه]

وما دام الحق سبحانه يمتنُّ بملكية ما تحت الثَّرى فلا بُدَّ أن تحت الثرى ثرواتٍ وأشياءَ نفيسة ، ونحن الآن نُخرِج معظم الثروات من باطن الأرض ، ومعظم الأمم الغنية تعتمد على الثروات المدفونة من بترول ومعادن ومناجم وذهب .. إلخ .

وسبق أن ذكرنا أن الحق - سبحانه وتعالى - بعثَر الخيرات في كونه ، وجعل لكل منها وقته المناسب ، فالرزق له ميلاد يظهر فيه : ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ②①﴾ [الحجر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ[1] كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾

والرؤية : قلنا قد تكون رؤية علمية أو رؤية بصرية ، والشيء الذى نعلمه إما : علمَ اليقين ، وإما عين اليقين ، وإما حقيقة اليقين . علم اليقين : أنْ يخبر مَنْ تثق به بشيء ، كما تواترت الأخبار عن الرحالة بوجود قارة أسموها فيما بعد أمريكا ، وبها كذا وكذا ، فهذا نسميه « علم يقين » ، فإذا ركبت الطائرة إلى أمريكا فرأيتها وشاهدت ما بها فهذا « عين اليقين » فإذا نزلتَ بها وتجولتَ بين شوارعها ومبانيها فهذا نسميه « حقيقة اليقين » .

لذلك ؛ حين يخبر الله تعالى الكافرين بأن هناك عذاباً فى النار فهذا الإخبار صادق من الله فعلْمنا به « علم يقين » ، فإذا رأيناها فهذا « عين اليقين » كما قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ﴾ [التكاثر]

فإذا ما باشرها أهلها ، وذاقوا حرّها ولظاها ـ وهذا مقصور على أهل النار ـ فقد علموها حَقَّ اليقين ، لذلك يقول تعالى :

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣

---

(١) أى : تشتغل . قاله قطرب . وقيل : تنسى ، وقيل : تلهو ، وقيل : تسلو والمعنى متقارب . [تفسير القرطبى ٦/٤٥٣٦] .

وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ [الواقعة]

ومعنى : ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ .. (٢) ﴾ [الحج] الذهول : هو انصراف جارحة عن مهمتها الحقيقية لهوْلٍ رآتْه فتنشغل بما رأته عن تأديةِ وظيفتها ، كما يذهل الخادم حين يرى شخصاً مهيباً أو عظيماً ، فيسقط ما بيده مثلاً ، فالذهول ـ إذن ـ سلوك لا إرادى قد يكون ذهولاً عن شيء تفرضه العاطفة ، أو عن شيء تفرضه الغريزة .

العاطفة كالأم التى تذهَلُ عن ولدها ، وعاطفة الأمومة تتناسب مع حاجة الولد ، ففى مرحلة الحمل مثلاً تجد الأم تحتاط فى مشيتها ، وفى حركاتها ، خوفاً على الجنين فى بطنها ، وهذه العاطفة من الله جعلها فى قلب الأم للحفاظ على الوليد ، وإلاَّ تعرض لما يؤذيه أو يُودِى بحياته .

لذلك ، لما سألوا المرأة العربية عن أحب أبنائها ، قالت : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يُشْفَى ، فحسب الحاجة يعطى الله العاطفة ، فالحامل عاطفتها نحو ولدها قوية ، وهى كذلك فى مرحلة الرضاعة .

فانظر إلى المرضعة ، وكيف تذهل عن رضيعها وتنصرف عنه ، وأىُّ هول هذا الذى يشغلها ، ويُعطِّل عندها عاطفة الأمومة والحنان ويُعطِّل حتى الغريزة .

وقد أعطانا القرآن صورة أخرى فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) ﴾ [عبس]

ومن عظمة الأسلوب القرآنى أن يذكر هنا الأخ قبل الأب والأم ، قالوا : لأن الوالدين قد يُوجدان فى وقت لا يرى أنهما فى حاجة إليه ، ولا هو فى حاجة إليهما لأنه كبر ، أمَّا الأخ ففيه طمع المعونة والمساعدة .

وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ مُرْضِعَةٍ .. ② ﴾ [الحج]

والمرضعة تأتى بفتح الضاد وكَسْرها : مُرضَعة بالفتح هى التى من شأنها أن ترضع وصالحة لهذه العملية ، أما مُرضِعة بالكسر فهى التى تُرضِع فعلاً ، وتضع الآن ثديها فى فَم ولدها ، فهى مرضِعة . فانظر ـ إذن ـ إلى مدى الذهول والانشغال فى مثل هذه الحالة .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا .. ② ﴾ [الحج] بعد أنْ تكلَّم عن المرضع رقَّى المسألة إلى الحامل ، ومعلوم أن الاستمساك بالحمل غريزة قوية لدى الأم حتى فى تكوينها الجسمانى ، فالرحم بمجرد أنْ تصل إليه البويضة المخصبة ينغلق عليها ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَنُقِرُّ فِى الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ⑤ ﴾ [الحج]

فإذا ما جاء وقت الميلاد انفتح له بقدرة الله ، فهذه ـ إذن ـ مسألة غريزية فوق قدرة الأم ودون إرادتها . إذن : وَضْعُ هذا الحمل دليل هَوْل كبير وأمر عظيم يحدث .

والحَمْل نوعان : ثقَل تحمله وهو غيرك ، وثقل تحمله فى ذاتك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً ⑩① ﴾ [طه] والحِمْل (بكسر الحاء) : هو الشىء الثقيل الذى لا يُطيقه ظهرك ، أمَّا الحَمْل بالفتح فهو : الشىء اليسير تحمله فى نفسك . وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

لَيْسَ بِحِمْلٍ مَا أَطَاقَ الظَّهْرُ   مَا الحِمْلُ إلاَّ مَا وَعَاهُ الصَّدْرُ

أى : أن الشىء الذى تطيق حَمْله ويَقْوى عليه ظهرك ليس بحمل ، إنما الحمل هو الهمّ الذى يحتويه الصدر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾ [الحج]

سكارى : أى يتمايلون مضطربين ، مثل السكارى حين تلعب بهم الخمر ، (وتطوحهم) يميناً وشمالاً ، وتُلقى بهم على الأرض ، وكلما زاد سُكْرهم وخروجهم عن طبيعتهم كان النوع شديداً !!

وهكذا سيكون الحال فى موقف القيامة لا من سُكْر ولكن من خوف وهَوْل وفزع ﴿ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾ [الحج]

لكن ، من أين يأتى اضطراب الحركة هذا ؟

قالوا : لأن الله تعالى خلق الجوارح ، وخلق فى كل جارحة غريزة الانضباط والتوازن ، وعلماء التشريح يُحدِّدون فى الجسم أعضاء ومناطق معينة مسئولة عن حفْظ التوازن للجسم ، فإذا ما تأثرتْ هذه الغدد والأعضاء يشعر الإنسانَ بالدُّوار ، ويفقد توازنه ، كأنْ تنظر من مكان مرتفع ، أو تسافر فى البحر مثلاً .

فهذا الاضطراب لا من سُكْر ، ولكن من هَوْل ما يرونه ، فيُحدث لديهم تغييراً فى الغُدد والخلايا المسئولة عن التوازن ، فيتمايلون ، كمن اغتالتْه الخمر .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾ [الحج] إنهم لم يَرَوْا العذاب بَعْد ، إنها مجرد قيام الساعة وأهوالها أفقدتهم توازنهم ؛

لأن الذى يَصْدُق فى أن القيامة تقوم بهذه الصورة يَصْدُق فى أن بعدها عذاباً فى جهنم ، إذن : انتهت المسألة وما كنا نكذب به ، ها هو ماثل أمام أعيننا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ ﴾[1]

الجدل : هو المحاورة بين اثنين ، يريد كل منهما أنْ يؤيد رأيه ويدحضَ رأىَ الآخر ، ومنه : جَدْل الخوص أو الحبل أى : فَتْله واحدة على الأخرى .

ولو تأملتَ عملية غَزْل الصوف أو القطن لوجدته عبارة عن شعيرات قصيرة لا تتجاوز عدة سنتيمترات ، ومع ذلك يصنعون منه حَبْلاً طويلاً ، لأنهم يداخلون هذه الشعيرات بعضها فى بعض ، بحيث يكون طرف الشعرة فى منتصف الأخرى ، وهكذا يتم فَتْله وغَزْله ، فإذا أردتَ تقوية هذه الفَتْلة تجدلُها مع فتلة أخرى ، وهكذا يكون الجدل فى الأفكار ، فكل صاحب فكرة يحاول أنْ يُقوِّى رأيه وحجته ؛ ليدحض حجة الآخرين .

فقوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ .. ۝٣﴾ [الحج] فكيف يكون الجدل فى الله تعالى ؟

يكون الجدل فى الله وجوداً ، كالملحد الذى لا يعترف بوجود إله ،

(١) قال أبو مالك فيما أخرجه ابن أبى حاتم : نزلت فى النضر بن الحارث [الدر المنثور للسيوطى ٨/٦] . قال القرطبى فى تفسيره (٤٥٣٧/٦) : « قال أى : النضر بن الحارث : إن الله غير قادر على إحياء من قد بلى وعاد تراباً » .

أو يكون الجدل فى الوحدانية ، كمن يشرك بالله إلهاً آخر ، أو يكون الجدل فى إعلام الله بشىء غيبى ، كأمر الساعة الذى ينكره البعض ولا يُصدِّقون به ، هذا كله جدل فى الله .

وقوله : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ③ ﴾ [الحج] إذن : فالجدل فى ذاته مُبَاح مشروع ، شريطة أن يصدر عن علم وفقه ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.. ⑫⑤ ﴾ [النحل]

فالحق سبحانه لا يمنع الجدل ، لكن يريده بالطريقة الحسنة والأسلوب اللين ، وكما يقولون : النصح ثقيل ، فلا تجعله جَدَلاً ، ولا ترسله جبلاً ، ولا تُخرج الإنسان مما يألف بما يكره ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ.. ⑫⑤ ﴾[النحل]

وقال سبحانه : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. ④⑥ ﴾ [العنكبوت]

لذلك ؛ فالقرآن الكريم يعلم الرسول ﷺ لَوْناً من الجدل فى قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ②⑤ ﴾ [سبأ]

فانظر إلى هذا الجدل الراقى والأسلوب العالى : ففى خطابهم يقول : ﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا .. ②⑤ ﴾ [سبأ] وينسب الإجرام إلى نفسه ، وحين يتكلم عن نفسه يقول : ﴿ وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ②⑤ ﴾ [سبأ] ولم يقُلْ هنا : تجرمون لتكون مقابلة بين الحالين . وفى هذا الأسلوب ما فيه من جذب القلوبَ وتحنينها لتقبُّل الحق .

ولما اتهموا رسول الله ﷺ بالجنون ردَّ عليهم القرآن بالعقل وبالمنطق ، فسألهم : ما الجنون ؟ الجنون أنْ تصدر الأفعال الحركية عن غير بدائل اختيارية من المخ ، فهل جرَّبْتُم على محمد شيئاً من

هذا ؟ وما هو الخُلق ؟ الخُلق : استقامة المنهج والسلوك على طريق الكمال والخير ، فهل رأيتُم على محمد خلاف هذا ؟

لذلك يقول تعالى في الرد عليهم : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا[1] مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ .. (٤٦)﴾ [سبأ]

وكيف يكون صاحب هذا الخلُق القويم والسلوك المنضبط فى الخير مجنوناً ؟

ولما قالوا : كذاب ، جادلهم القرآن : ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

لقد أتتْه الرسالة بعد الأربعين ، فهل سمعتم عنه خطيباً أو شاعراً ؟ فهل قال خطبة أو قصيدة تحتفظون بها كما تحتفظون بقصائد شعرائكم ؟

وقالوا : إنها عبقرية كانت عند محمد ، فأىُّ عبقرية هذه التى تتفجَّر بعد الأربعين ، ولو تأملْتَ العبقريات لوجدتها فى العقد الثانى أو الثالث من عمر صاحبها ، فكيف يُؤجِّل محمد عبقريته إلى الأربعين ، ومَنْ يضمن له الحياة وهو يرى الناس يتساقطون من حوله : أبوه مات قبل أنْ يُولد ، وأمه ماتت وهو رضيع ، وجدُّه مات وهو ما يزال صغيراً .

وهكذا ، يعطينا القرآن مثالاً للجدل بالحكمة والموعظة الحسنة ، للجدل الصادر عن علْم بما تقول ، وإدراك لحقائق الأمور .

---

(١) أى : تقوموا قياماً خالصاً لله عز وجل من غير هوى ولا عصبية ، فيسأل بعضكم بعضاً : هل بمحمد من جنون فينصح بعضكم بعضاً ، فينظر الرجل لنفسه فى أمر محمد ﷺ ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ويتفكر فى ذلك . [قاله ابن كثير فى تفسيره ٣/٥٤٣] .

لذلك ؛ لما ذهب الشَّعْبى[1] لملك الروم قال له الملك : عندكم فى الإسلام أمور لا يُصدِّقها العقل ، فقال الشَّعْبىّ : ما الذى فى الإسلام يخالف العقل ؟ قال : تقولون إن فى الجنة طعاماً لا ينفد أبداً ، ونحن نعلم أن كل ما أُخذ منه مرة بعد مرة لابُدَّ أنْ ينفد . انظر إلى الجدل فى هذه المسألة كيف يكون .

قال الشَّعْبى : أرأيتَ لو أن عندك مصباحاً ، وجاءت الدنيا كلها فقبستْ من ضوئه ، أينقص من ضوء المصباح شىء ؟ هذا ـ إذن ـ جدل راقٍ وعلى أعلى مستوى .

ويستمر ملك الروم فيقول : كيف نأكل فى الجنة كُلَّ ما نشتهى دون أنْ نتغوّط أو تكون لنا فضلات ؟ نقول : أرأيتم الجنين فى بطن الأم : أينمو أم لا ؟ إنه ينمو يوماً بعد يوم ، وهذا دليل على أنه يتغذَّى ، فهل له فضلات ؟ لو كان للجنين فضلات ولو تغوَّط فى مشيمته لمات ، إذن : يتغذى الجنين غذاءً علَى قَدْر حاجة نموه ، بحيث لا يتبقى من غذائه شىء .

ثم قال : أين تذهب الأرواح بعد أنْ تفارق الأجساد ؟ أجاب الرجل إجمالاً : تذهب حيث كانت قبل أنْ تحلَّ فيك ، وأمامك المصباح وفيه ضوء ، ثم نفخ المصباح فانطفأ ، فقال له : أين ذهب الضوء ؟

ومن الجدل الذى جاء عن علْم ودراية ما حدث من الإمام على رضى الله عنه ، حيث قتلَ أصحابُ معاوية عمارَ بن ياسر ، فغضب الصحابة فى صفوف معاوية وتذكَّروا قول رسول الله ﷺ عن عمار :

---

(١) هو : عامر بن شراحيل الشعبى الحميرى ، أبو عمرو ، راوية من التابعين ، يُضرب المثل بحفظه ، ولد عام ١٩ هـ ، ونشأ ومات فجأة بالكوفة عام ١٠٣ هـ عن ٨٤ عاماً اتصل بعبد الملك بن مروان فكان نديمه ورسوله إلى ملك الروم ، كان ضئيلاً نحيفاً ، وهو من رجال الحديث الثقات ، وفقيهاً وشاعراً . [الأعلام للزركلى ٣/٢٥١] .

« تقتله الفئة الباغية »[1] وأخذوا يتركون جيش معاوية واحداً بعد الآخر ، فذهب عمرو بن العاص إلى معاوية وقال : لقد فشَتْ فى الجيش فاشية ، إنْ هى استمرتْ فلن يبقى معنا رجل واحد ، فقال معاوية : وما هى ؟ قال : يقولون : إننا قتلنا عماراً والنبى ﷺ قال عنه : « تقتله الفئة الباغية » .

فاحتار معاوية ثم قال : قُلْ لهم قتله مَنْ أخرجه للقتال[2] - يعنى : على بن أبى طالب ، فلما بلغ الكلامُ سيدنا علياً ، قال : قولوا لهم : فمَنْ قتل حمزة بن عبد المطلب ؟ أى : إن كان الأمر كما تقولون فالنبى ﷺ هو قاتل حمزة ؛ لأنه هو الذى أخرجه للقتال .

هذا هو الجدل عن علم ، والعلم قد يكون علماً بدهياً وهو العلم الذى تؤمن به ولا تستطيع أن تدلل عليه . أو علماً عقلياً استدلالياً ، وقد يكون العلم بالوحى من الله لا دَخْلَ لأحد فيه ، وسبق أنْ ضربنا مثلاً للبدهيات بالولد الصغير حينما يرى أخاه يجلس بجوار أبيه على المقعد مثلاً ، فيأتى الصغير يريد أنْ يجلس هو بجوار الأب ، فيحاول أولاً أنْ يقيم أخاه من المكان فيشدُّه ويجذبه ليخلى له المكان .

وهنا نتساءل : كيف عرف الطفل الصغير أن الحيِّز لا يسع اثنين ؟ ولا يمكن أنْ يحلَّ بالمكان شىء إلا إذا خرج ما فيه أولاً ؟

---

(١) عن أم سلمة - رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال لعمار : « تقتلك الفئة الباغية » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩١٦) كتاب الفتن ، والبخارى فى صحيحه (٤٤٧) .

(٢) عن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه قال : لما قتل عمار بن ياسر دخل عمرو بن حزم على عمرو ابن العاص فقال : قُتل عمار . وقد قال رسول الله ﷺ : تقتله الفئة الباغية ، فقام عمرو بن العاص فزعاً يرجع حتى دخل على معاوية فقال له معاوية : ما شأنك ؟ قال : قتل عمار . فقال معاوية : قد قتل عمار ، فماذا ؟ قال عمرو : سمعت رسول الله ﷺ يقول : تقتله الفئة الباغية . فقال له معاوية : دحضت فى بولك أو نحن قتلناه إنما قتله على وأصحابه ، جاءوا به حتى القوه بين رماحنا - أو قال : بين سيوفنا . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٩٩) .

هذه أمور لم نعلمها إلا فى دراستنا الثانوية ، فعرفنا معنى الحيِّز وعدم تداخل الأشياء ، هذه المسألة يعرفها الطفل بديهة .

ولو تأملتَ النظريات الهندسية لوجدتَ أن كل نظرية تُبنَى على نظرية سابقة ، فلو أردت أنْ تبرهن على النظرية المائة تستخدم النظرية تسعين مثلاً ، وهكذا إلى أنْ تصلَ إلى نظرية بدهية لا برهانَ عليها .

وهكذا تستطيع أن تقول : إن كل شىء علمى فى الكون مبنىٌّ على البدهيات التى لا تحتاج إلى برهان ، ولا تستطيع أن تضع لها تعريفاً ، فالسماء مثلاً ، يقولون : هى كل ما علاك فأظلَّك ، فالسقف سماء ، والغيم سماء ، والسحاب سماء ، والسماء سماء ، مع أن السماء لا تحتاج إلى مثل هذا التعريف ؛ لأنك حين تسمع هذه الكلمة (السماء) تعرف معناها بديهة دون تعريف .

وهذه الأمور البدهية لا جدلَ فيها ؛ لأنها واضحة ، فلو قلتَ لهذا الطفل : اجلس على أخيك ، فهذا ليس جدلاً ؛ لأنه لا يصح .

أما العلم الاستدلالى فأنْ تستدل بشىء على شىء ، كأنْ تدخل بيتك فتجد (عقب سيجارة) مثلاً فى (طفاية السجائر) فتسأل : مَنْ جاءكم اليوم ؟ ومثل الرجل العربى حين سار فى الصحراء ، فوجد على الأرض آثاراً لخفِّ البعير وبَعْره ، فقال : البعرة تدل على البعير ، والقدم تدل على المسير .

أما عِلْم الوحى فيأتى من أعلى ، يلقيه الله سبحانه على مَنْ يشاء من عباده .

فعلى المجادل أن يستخدم واحداً من هذه الثلاثة ليجادل به ، فإن جادل بغير علم فهى سفسطة لا طائل من ورائها .

وقد نزلت هذه الآية : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ③﴾ [الحج] فى النضر بن الحارث ، وكان يجادل عن غير علم فى الوجود ، وفى الوحدانية ، وفى البعث .. إلخ .

والآية لا تخص النضر وحده ، وإنما تخص كل مَنْ فعل فعْله ، ولَفَّ لفَّه من الجدل .

ثم يقول تعالى : ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ③﴾ [الحج] أى : أن هذا الجدل قد يكون ذاتياً من عنده ، أو بوسوسة الشيطان له بما يخالف منهج الله ، سواء أكان شيطانَ الإنس أو شيطانَ الجن .

إذن : فالسيئات والانحرافات والخروج عن منهج الله لا يكون بوسوسة ؛ إما من النفس التى لا تنتهى عن مخالفة ، وإما من الشيطان الذى يُلِحُّ عليك إلى أنْ يُوقِع بك فى شرَاكه .

لكن ، لا نجعل الشيطان (شماعة) نعلق عليها كل سيئاتنا وخطايانا ، فليست كل الذنوب من الشيطان ، فمن الذنوب ما يكون من النفس ذاتها ، وسبق أنْ قُلْنا : إذا كان الشيطان هو الذى يوسوس بالشر ، فمَنِ الذى وسوس له أولاً ؟ وكما قال الشاعر :

* إبْلِيسُ لَمَّا غَوَى مَنْ كَانَ إبليسُه ؟ *

وفَرْق بين المعصية من طريق النفس ، والمعصية من طريق الشيطان ، الشيطان يريدك عاصياً على أىِّ وجه من الوجوه ، أمّا النفس فتريدك عاصياً من وجه واحد لا تحيد عنه ، فإذا صرفتَها إلى غيره لا تنصرف وتأبى عليك ، إلاَّ أنْ تُوقعك فى هذا الشىء بالذات .

وهذا بخلاف الشيطان إذا تأبيْتَ عليه ولم تُطعْهُ في معصية صرفكَ إلى معصية أخرى ، أياً كانت ، المهم أن تعصى ، وهكذا يمكنك أنْ تُفرِّق بين المعصية من نفسك ، أو من الشيطان .

ولما سُئل أحد العلماء : كيف أعرف : أأنا من أهل الدنيا أَمْ من أهل الآخرة ؟ قال : هذه مسألة ليستْ عند العلماء إنما عندك أنت ، قال : كيف ؟ قال : انظر في نفسك ، فإنْ كان الذي يأخذ منك الصدقة أحبّ إليك ممَّنْ يعطيك هدية ، فاعلم أنك من أهل الآخرة ، وإنْ كانت الهدية أحبَّ إليك من الصدقة فأنت من أهل الدنيا .

ذلك لأن الإنسان يحب من عمَّر له ما يحب ، فالذي يعطيك يعمر لك الدنيا التي تحبها فأنت تحبه ، وكذلك الذي يأخذ منك يعمر لك الآخرة التي تحبها فأنت تحبه . فهذه مسألة لا دَخْل للشيطان فيها .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠)﴾ [لقمان]

فهذه الآية تُجمل أنواع العلم الثلاثة التي تحدثنا عنها : فالعلم يُرَاد به البدهيات ، والهدى أي : الاستدلال ، والكتاب المنير يُراد به ما جاء وَحْياً من الله ، وبهذه الثلاثة يجب أن يكون الجدال وبالتي هي أحسن .

ومعنى : ﴿مَّرِيدٍ (٣)﴾ [الحج] من مَرَدَ أو مَرُدَ يمرد كنثر ينثُر ، والمرود : العُتوُّ وبلوغ الغاية من الفساد ، ومنها مارد ومريد ومتمرد ، والمارد : هو المستعلي أعلى منك .

﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾

أى : كتب الله على هذا الشيطان المريد ، وحكم عليه حُكماً ظاهراً ، هكذا (عينى عينك) كما يقال ﴿أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ .. ﴿٤﴾ ﴾ [الحج] أى : تابعه وسار خلفه ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾ [الحج] يضله ويهديه ضدّان ، فكيف نجمع بينهما ؟

المراد : يُضلُّه عن طريق الحق والخير ، ويهديه أى : للشر ؛ لأن معنى الهداية : الدلالة مُطْلقاً ، فإن دللْتَ على خير فهى هداية ، وإن دللتَ على شر فهى أيضاً هداية .

واقرأ قوله سبحانه وتعالى : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ[1] وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الصافات]

أى : دُلُّوهم وخُذوا بأيديهم إلى جهنم .

ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ .. ﴿١٦٩﴾ ﴾ [النساء]

والسَّعير : هى النار المتوهّجة التى لا تخمد ولا تنطفىء .

---

(١) قال النعمان بن بشير : يعنى بأزواجهم أشباههم وأمثالهم . قال عمر : يجىء أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر . [تفسير ابن كثير ٣/٤] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ[1] وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ[2] لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾

قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الحج]

الريب : الشك . فالمعنى : إنْ كنتم شاكِّين فى مسألة البعث ، فإليكم الدليل على صدْقه ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الحج] أى : الخلْق الأول ، وهو آدم عليه السلام ، أما جمهرة الناس بعد آدم فخُلقوا من (نطفة) حية من إنسان حى .

---

(١) النطفة : الماء الصافي ، وتطلق فى القرآن على ماء الرجل أو المرأة الذى يُخْلق منه الولد . العلقة : الدم الجامد الغليظ الذى يَعْلق بما يمسُّه . والمضغة : القطعة من اللحم تُمضَغ لتماسكها . ومخلقة : أى مضغة مشكلة ومصورة على هيئة طفل . وغير مخلقة : أى غير مشكَّلة ، أى غير تامة التصوير [القاموس القويم للقرآن الكريم] .

(٢) هو : الهرم والخرف حتى لا يعقل . [تفسير القرطبى ٦/ ٤٥٤٤] .

والمتتبع لآيات القرآن يجد الحق - سبحانه وتعالى - يقول مرة في خَلْق الإنسان : ﴿مِّن تُرَابٍ ..(٥)﴾ [الحج] ، ومرة ﴿مِن مَّاءٍ .. (٦)﴾ [الطارق] ، و ﴿مِّن طِينٍ .. (٢)﴾ [الأنعام] ، و ﴿مِّنْ حَمَإٍ[1] مَّسْنُونٍ (٢٦)﴾ [الحجر] ، و ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤)﴾ [الرحمن] وهذه التي دعتْ المستشرقين إلى الاعتراض على أسلوب القرآن ، يقولون : من أيّ هذه الأشياء خُلِقْتم ؟

وهذا الاعتراض ناشيء من عدم فَهْم لغة القرآن ، فالتراب والماء والطين والحمأ المسنون والصلصال ، كلها مراحل متعددة للشيء الواحد ، فإذا وضعتَ الماء على التراب صار طيناً ، فإنْ تركتَ الطين حتى يتخمّر ، ويتداخل بعضه في بعض حتى لا تستطيع أنْ تُميِّز عنصراً فيه عن الآخر . وهذا عندما يعطَنُ وتتغير رائحته يكون هو الحمأ المسنون ، فإنْ جَفَّ فهو صلصال كالفخار ، ومنه خلق الله الإنسان وصوَّره ، ونفخ فيه من روحه ، إذن : هذه مراحل للشيء الواحد ، ومرور الشيء بمراحل مختلفة لا يُغيِّره .

ثم تكلم سبحانه عن الخَلْق الثاني بعد آدم عليه السلام ، وهم ذريته ، فقال : ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ .. (٥)﴾ [الحج] والنطفة في الأصل هي قطرة الماء العَذْب ، كما جاء في قول الشاعر :

بَقَايَا نِطَافٍ أودَعَ الغيمُ صَفْوَهَا ... مُثقَّلَةُ الأرجَاء زُرْقُ الجَوانبِ

ولا تظهر زُرْقة الماء إلا إذا كان صافياً لا يشوبه شيء ، وكذلك النطفة هي خلاصة الخلاصة ، لأن جسم الإنسان تحدث فيه عملية

(١) الحمأ والحمْأة : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب في قالب إنساني أو مصور بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل . [القاموس القويم ١/٣٣١] .

الاحتراق ، وعملية الأيض أى : الهدم والبناء بصفة مستمرة ينتج عنها خروج الفضلات المختلفة من الجسم : فالبول ، والغائط ، والعرق ، والدموع ، وصَمْغ الأذن ، كلها فضلات ناتجة عن احتراق الطعام بداخل الجسم حيث يمتص الجسم خلاصة الغذاء ، وينقلها إلى الدم .

ومن هذه الخلاصة يُستخلص منىٌّ الإنسان الذى تؤخذ منه النطفة ، فهو - إذن - خلاصة الخلاصة فى الإنسان ، ومنه يحدث الحمل ، ويتكوَّن الجنين ، وكأن الخالق - عز وجل - قد صَفَّاها هذه التصفية ونقَّاها كل هذا النقاء ؛ لأنها ستكون أصْلاً لأكرم مخلوقاته ، وهو الإنسان .

وهذه النطفة لا تنزل من الإنسان إلا فى عملية الجماع ، وهى ألذُّ متعة فى وجود الإنسان الحىِّ ، لماذا ؟ لو تأملتَ متعة الإنسان ولذاته الأخرى مثل : لذة الذَّوْق ، أو الشم ، أو الملمس ، فهى لذَّاتٌ معروفة محددة بحاسَّة معينة من حواس الإنسان ، أمّا هذه اللذة المصاحبة لنزول المنىِّ أثناء هذه العملية الجنسية فهى لذة شاملة يهتز لها الجسم كله ، ولا تستطيع أنْ تُحدِّد فيها منطقة الإحساس ، بل كل ذرة من ذرات الجسم تحسها .

لذلك أمرنا ربنا - عز وجل - أن نغتسل بعد هذه العملية ؛ لأنها شغلتْ كل ذرة من ذرات تكوينك ، وربما - عند العارفين بالله - لا تغفل عن الله تعالى إلا فى هذه اللحظة ؛ لذلك كان الأمر بالاغتسال بعدها ، هذا قول العلماء .

أما أهل المعرفة عن الله وأهل الشطح وأهل الفيوضات فيقولون :

إن الله خلق آدم من طين ، وجعل نَسْله من هذه النطفة الحية التى وضعها فى حواء ، ثم أتى منها كل الخَلْق بعده ، فكأن فى كل واحد منا ذرة من أبيه آدم ؛ لأنه لو طرأ على هذه الذرة موت ما كان نَسْلٌ بعد آدم ، فهذه الذرة موجودة فيك فى النطفة التى تلقيها ويأتى منها ولدك ، وهى أصْفى شىء فيك ؛ لأنها الذرة التى شهدتْ الخَلْق الأول خَلْق أبيك آدم عليه السلام .

وقد قرّبنا هذه المسألة وقلنا : لو أنك أخذت سنتيمتراً من مادة ملونة ، ووضعته فى قارورة ماء ، ثم أخذتَ ترجُّ القارورة حتى اختلط الماء بالمادة الملونة فإن كل قطرة من الماء بها ذرة من هذه المادة ، وهكذا لو ألقيتَ القارورة فى برميل .. الخ .

إذن : فكل إنسان منّا فيه ذرة من أبيه آدم عليه السلام ، هذه الذرة شهدتْ خَلْق آدم ، وشهدتْ العهد الأول الذى أخذه الله على عباده فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

لذلك ؛ يُسمِّى الله تعالى إرسال الرسل بَعْثاً فيقول : ﴿ بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١) ﴾ [الفرقان] بعثه : كأنه كان موجوداً وله أصْل فى رسالة مباشرة من الله حين أخذ العهد على عباده ، وهم فى ظَهْر آدم عليه السلام ، كما يخاطب الرسول بقوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) ﴾ [الغاشية] أى : مُذكِّر بالعهد القديم الذى أخذناه على أنفسنا .

لذلك اقرأ الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

هذا فى مرحلة الذَّرِّ قبل أنْ يأتى الهوى فى النفوس ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)﴾ [الأعراف]

إذن : بعث الله الرسل لتُذكِّر بالعهد الأول ، حتى لا تحدث الغفلة ، وحتى تقيم على الناس الحجة .

ثم يقول تعالى : ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ..(٥)﴾ [الحج] سمِّيت النطفة علقة ؛ لأنها تعلَقُ بالرحم ، يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨)﴾ [القيامة]

فالمنيُّ هو السائل الذى يحمل النطفة ، وهى الخلاصة التى يتكوَّن منها الجنين ، والعلَقة هنا هى البُويْضَة المخصَّبة ، فبعد أنْ كان للبويضة تعلُّق بالأم ، وللحيوان المنوى (النطفة) تعلُّق بالأب ، اجتمعا فى تعلُّق جديد والتقيَا ليتشبَّثا بجدار الرحم ، وكأن فيها ذاتية تجعلها تعلَق بنفسها ، يُسمُّونها (زيجوت) .

ومنها قولهم : فلان هذا مثل العلقة إذا كان ملازماً لك .

بعد ذلك تتحول العلقة إلى مضغة ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ .. (٥)﴾ [الحج] والمضغة : هى قطعة لحم صغيرة قَدْر ما يُمضغ من الطعام ، وهو خليط من عدَّة أشياء ، كما لو أكلتَ مثلاً قطعة لحم مع ملعقة خضار مع ملعقة أرز ، وبالمضغ يتحوّل هذا إلى خليط ، ذلك لأن جسم الإنسان لا يتكوَّن من عنصر واحد ، بل من ستة عشر عنصراً .

هذه المضغة ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .. (٥)﴾ [الحج] معنى مخلقة يعنى : يظهر عليها هيكل الجسم ، وتتشكَّل على صورته ، فهذه

للرأس ، وهذه للذراع ، وهذه للرِّجْل وهكذا ، يعنى تخلَّقَتْ على هيئة الإنسان .

أما غير المخلَّقة ، فقد عرفنا مؤخراً أنها الخلايا التى تُعوِّض الجسم وتُرقِّعه إذا أصابه عَطَب فهى بمثابة (احتياطى) لإعادة تركيب ما تلف من أنسجة الجسم وترميمها ، كما يحدث مثلاً فى حالة الجُرْح فإنْ تركتَه لطبيعة الجسم يندمل شيئاً فشيئاً ، دون أنْ يتركَ أثراً .

نرى هذا فى أولاد الفلاحين ، حين يُجرح الواحد منهم ، أو تظهر عنده بعض الدمامل ، فيتركونها لمقاومة الجسم الطبيعية ، وبعد فترة تتلاشى هذه الدمامل دون أنْ تتركَ أثراً على الإطلاق ؛ لأنهم تركوا الجسم للصيدلية الربانية .

أما إذا تدخَّلنا فى الجُرْح بمواد كيماوية أو خياطة أو خلافه فلا بُدَّ أن يترك أثراً ، فترى مكانه لامعاً ؛ لأن هذه المواد أتلفت مسام الجسم ؛ لذلك نجد مثل هذه الأماكن من الجسم قد تغيرتْ ، ويميل الإنسان إلى حكِّها (وهرشها) ؛ لأن هذه المسام كانت تُخرِج بعض فضلات الجسم على هيئة عرق ، فلما انسدت هذه المسام سببت هذه الظاهرة . هذا كله لأننا تدخَّلْنا فى الطبيعة التى خلقها الله .

إذن : فمعنى ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .. ۝٥﴾ [الحج] هى الصيدلية التى تُعوِّض وتُعيد بناء ما تلف من جسم الإنسان .

ثم يقول سبحانه : ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ۝٥﴾ [الحج] أى : نُوضِّح لكم كل ما يتعلَّق بهذه المسألة ﴿وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ .. ۝٥﴾ [الحج] وهى المضْغة التى قُدِّر لها أنْ تكون جنيناً يكتمل إلى أنْ يولد ؛ لذلك قال : ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ۝٥﴾ [الحج] أو نسقطه ميتاً قبل ولادته .

فإنْ قلتَ : وما الحكمة من خَلْقه وتصويره ، إنْ كان قد قُدِّر له أنْ يموت جنيناً ؟ نقول : لنعرف أن الموت أمر مُطْلق لا رابطَ له ولا سنّ ، فالموت يكون للشيخ كما يكون للجنين فى بطن أمه ، ففى أىّ وقت ينتهى الأجل .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً .. ⑤﴾ [الحج] قال : ﴿نُخْرِجُكُمْ .. ⑤﴾ [الحج] بصيغة الجمع ولم يقُلْ : أطفالاً إنما ﴿طِفْلاً .. ⑤﴾ [الحج] بصيغة المفرد ، لماذا ؟ قالوا : فى اللغة ألفاظ يستوى فيها المفرد والجمع ، فطفل هنا بمعنى أطفال ، وقد وردتْ أطفال فى موضع آخر فى قوله سبحانه : ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ[1] .. ⑤⑨﴾ [النور]

وكما تقول : هذا رجل عَدْل ، ورجال عَدْل . وفى قصة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ يتكلم عن الأصنام فيقول : ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي .. ⑦⑦﴾ [الشعراء] ولم يقُلْ : أعداء . وحينما تكلم عن ضَيْفه قال : ﴿هَـٰؤُلاءِ ضَيْفِي .. ⑥⑧﴾ [الحجر] ولم يقل : ضيوفى ، إذن : المفرد هنا يُؤدِّى معنى الجمع .

ثم يقول سبحانه : ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ .. ⑤﴾ [الحج] وهكذا ، ينقلنا السياق من الطفولة إلى المرحلة النهائية من عمر الإنسان ، وسبق أنْ تحدَّثنا عن مراحل عمر الإنسان ، وأنه يمر بمرحلة الرُّشْد : رُشْد البنية حين يصبح قادراً على إنجاب مثله ، ورُشْد العقل حين يصبح قادراً على التصرّف السليم ، ويُحسن الاختيار بين البدائل .

ثم تأتى مرحلة الأشد : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ .. ①⑤﴾ [الأحقاف] يعنى : نضج نُضْجاً من حوادث الحياة أيضاً .

---

(١) حلم الصبى يحلم حُلماً : بلغ مبلغ الرجال . [القاموس القويم ١/١٦٩] .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ .. ۝ ﴾ [الحج] وأرذل العمر يعنى رديئه ، حين تظهر على الإنسان علامات الخَوَر والضعف ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا .. ۝ ﴾ [الحج] لأنه ينسى ، وعندها يعرف أن صحته وقوته وسلطانه ليست ذاتية فيه ، إنما موهوبة له من الله .

وإذا بلغ الرجل أرذلَ العمر يعود من جديد إلى مرحلة الطفولة تدريجياً ، فيحتاج لمَنْ يأخذ بيده ليقوم أو ليمشى ، كما تأخذ بيد الطفل الصغير ، فإذا تكلّم يتهته ويتلعثم كالطفل الذى يتعلم الكلام .. وهكذا فى جميع شئونه .

لذلك يقولون : الزواج المبكر أقرب طريق لإنجاب (والد) يعولُك فى طفولة شيخوختك ، ولم يقُلْ : ولداً ؛ لأنه سيقوم معك فيما بعد بدوْر الوالد ، يقولون : لحق والده يعنى سِنُّهما متقارب .

لكن ، لماذا يُرَدُّ بعضنا إلى أرذل العمر دون بعض ؟ الحق سبحانه جعلها نماذج حتى لا نقول : يا ليت أعمارنا تطول ؛ لأن أعمار الجميع لو طالتْ إلى أرذَلِ العمر لأصبح الأمر صعباً علينا ، فمن رحمة الله بنا أنْ خلق الموت .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ﴾ [الحج]

أى : كما كان خَلْق الإنسان من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مُضْغة مُخلَّقة وغير مُخلَّقة ، ثم أخرجه طفلاً ، وبلغ أشُدَّهُ ، ومنهم مَنْ مات ، ومنهم مَنْ يُرَدُّ إلى أرذَل العمر ، كذلك الحال فى الأرض : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً .. ۝ ﴾ [الحج]

هامدة : ساكنة ، ومنه قولنا للولد كثير الحركة : اهمد ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ ..﴿٥﴾﴾ [الحج] أى : تحركتْ ذراتُها بالنبات بعد سكونها .

والاهتزاز : تحرُّك ما كنت تظنه ثابتاً ، وليس ما كان ثابتاً فى الواقع ؛ لأن لكل كائن حركة فى ذاته ، حتى قطعة الحديد الجامدة لها حركة بين ذراتها ، لكن ليس لديْك من وسائل الإدراك ما تدرك به هذه الحركة . ولو تأملت المغناطيس لأدركتَ هذه الحركة بين ذراته ، فحين تُدلِّك القضيب الممغنط وتُمرِّره على قضيب آخر غير مُمغنط فى اتجاه واحد ، فإنه يكتسب منه المغناطيسية ، وتمرير المغناطيس فى اتجاه واحد معناه تعديل للذرات لتحمل شحنة واحدة سالبة أو موجبة ، فإنِ اختلف اتجاه الدَّلْك فإن الذرات أيضاً تختلف .

إذن : فى الحديد - رمز الصلابة والجمود - حركة وحياة تناسبه ، وإنْ خُيِّل إليك أنه أصمٌّ جامد فى ظاهره .

لذلك نقول ﴿هَامِدَةً .. ﴿٥﴾﴾ [الحج] يعنى : ساكنة فى رأى العلم ، حيث لا نباتَ فيها ثم ﴿اهْتَزَّتْ .. ﴿٥﴾﴾ [الحج] يعنى : زادتْ وربَتْ وتحركتْ لإخراج النبات ، إنما هى فى الحقيقة لم تكُنْ ساكنة مُطْلقاً ؛ لأن فيها حركة ذاتية بين ذراتها .

ومعنى : ﴿وَرَبَتْ .. ﴿٥﴾﴾ [الحج] أى : زادت عن حجمها ، كما تزيد حبة الفول مثلاً حين تُوضَع فى الماء ، وتأخذ حظها من الرطوبة ، وكذلك فى جميع البقول ، وهذه الزيادة فى حجم الحبة هى التى تفلقها إلى فلقتين فى عملية الإنبات ، ويخرج منها زبان يتجه إلى أعلى فيكون الساق الذى يبحث عن الهواء ، وإلى أسفل فيكون الجذر الذى يبحث عن الماء . وتظل هاتان الفلقتان مصدرَ غذاءٍ للنبتة حتى

تقوى ، وتستطيع أنْ تمتصَّ غذاءها من التربة ، فإذا أدَّتْ هاتان الفلقتان مهمتهما فى تغذية النبتة تحوَّلتَا إلى ورقتين ، وهما أول ورقتين فى تكوين النبتة .

كذلك ، نلاحظ فى تغذية النبات أنه لا يأخذ كُلَّ غذائه من التربة ، إنما يتغذى بنسبة ربما ٩٠ بالمائة من غذائه من الهواء ، وتستطيع أن تلاحظ هذه الظاهرة إذا نظرتَ إلى إصيص به زرع ، فسوف تجد ما نقص من التربة كمية لا تُذكَر بالنسبة لحجم النبات الذى خرج منها .

وحين تتأمل جذر النبات تجد فيه آية من آيات الله ، فالجذر يمتد إلى أن يصل إلى الرطوبة أو الماء ، حتى إذا وصل إلى مصدر غذائه توقَّف ، ولك أن تنظر مثلاً إلى (كوز الحلبة) فسوف تجد الجذور غير متساوية فى الطول ، بحسب بُعد الحبة عن مصدر الرطوبة .

﴿ وَرَبَتْ .. ۝ ﴾ [الحج] أى : زادت وانتفشتْ ، كما يحدث فى العجين حين تضع فيه الخميرة ﴿ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ﴾[الحج]

هذه صورة حيَّة واقعية نلاحظها جميعاً عياناً : الأرض تكون جرداء ساكنة ، لا حركةَ فيها ، فإذا ما نزل عليها الماء تغيرتْ وتحركتْ ذراتها وتشققتْ عن النبات ، ولو حتى بالمطر الصناعى ، كما كنا نرى فى عرفة مثلاً ينزل عليها المطر الصناعى فيخضرُّ الوادى ، لكن حينما ينقطع الماء يعود كما كان لعدم موالاة الماء ، ولو واليتَ عليها بالماء لصارت غابات وأحراشاً وبساتين كالتى نراها فى أوروبا .

والمطر لا يحتاج أنْ تُسوَّى له الأرض ؛ لأنه يسْقِى المرتفع

والمنخفض على السواء ، على خلاف الأرض التى تسقيها أنت لا بُدَّ أن تُسوِّيها للماء حتى يصل إليها جميعاً .

فإذا أنزل الله تعالى المطر على الأرض الجدباء الجرداء تراها تتفتق بالنبات ، فمن أين جاءت هذه البذور ؟ وكيف لم يُصبْها العطب ، وهى فى الأرض طوال هذه الفترات ؟ الأرض هى التى تحفظها من العطب إلى أن تجد البيئة المناسبة للإنبات ، وهذا النبات الذى يخرج من الأرض دون تدخُّل الإنسان يسمونه (عِذْى) .

أما عن نَقْل هذه البذور فى الصحراء وفى الوديان ، فهى تنتقل بواسطة الريح ، أو فى رَوْث الحيوانات .

ومعنى : ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [الحج] الزوج : البعض يظن الزوج يعنى الاثنين ، إنما الزوج كلمة مفردة تدل على واحد مفرد معه مثْله من جنسه ، ففى قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ۝٤٥﴾ [النجم] فكل منهما زوج ، وكما نقول : زوج أحذية يعنى فردة حذاء معها فردة أخرى مثلها ، ومثلها كلمة توأم يعنى مولود معه مثله فكل واحد منهما يسمى (توأم) وهما معاً (توأمان) ولا نقول : هما توأم .

وهنا مظهر من مظاهر دقَّة الأداء القرآنى : ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ .. ۝٥﴾ [الحج] لأن كل المخلوقات ، سواء أكانت جماداً أو نباتاً أو حيواناً ، لا بُدَّ فيه من ذكر وأنثى ، هذه الزوجية قال الله فيها : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. ۝٤٩﴾ [الذاريات] حتى فى الجماد الذى نظنه جماداً لا حركةَ فيه ، يتكوَّن من زوجين : سالب وموجب فى الكهرباء ، وفى الذرة ، وفى المغناطيس ، فكلُّ شىء يعطى أعلى منه ، فلا بُدَّ فيه من زوجيْن .

لذلك ، فالحق سبحانه وتعالى حينما عالج هذه المسألة عالجها برصيد احتياطي في القرآن ، يقول سبحانه : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس]

فقوله سبحانه : ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس] رصيد عال لما سيأتى به العلم من اكتشافات تثبت صدْق القرآن على مَرِّ الأيام ، ففى الماضى عرفنا الكهرباء ، وأنها سالب وموجب فقلنا : هذه مما لا نعلم ، وفى الماضى القريب عرفنا الذرة فقلنا : هذه مما لا نعلم ، وهذا وجه من وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم .

إذن : خُذْها قضية عامة : كل شىء يتكاثر إلى أعلى منه ، فلا بُدَّ أن فيه زوجية .

فقوله تعالى : ﴿وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)﴾ [الحج] فالزوج من النبات مفرد معه مثله ، وهذا واضح فى لقاح الذكر والأنثى ، هذا اللقاح قد يكون فى الذكر وحده ، أو فى الأنثى وحدها كما فى النخل مثلاً ، وقد يكون العنصران معاً فى النبات الواحد كما فى سنبلة القمح أو فى كوز الذرة .

ولو تأملت نبات الذرة لوجدتَ له فى أعلاه (شوشة) بها حبيبات دقيقة تحمل لقاح الذكورة ، وفى منتصف العود يخرج الكوز ، وبه شعيرات تصل كل شعرة منها إلى حبة من حبات الذرة المصطفة على الكوز ، وهذه تحمل لقاح الأنوثة ، فإذا هبَّتْ الريح هزَّتْ أعلى العود فتساقطت لقاحات الذكورة على هذه الشعيرات فلقحتها ؛ لذلك نرى الحبة التى لا يخرج منها شعرة إلى خارج الغلاف تضمر وتموت ؛ لأنها لم تأخذ حظها من اللقاح .

ومعنى : ﴿بَهِيجٍ (٥)﴾ [الحج] من البهجة ، فالمراد : الشىء حسن المنظر والجميل الذى يجذب الأنظار إليه ، وبهجة النظر إلى

النبات شائعة لا تقتصر على مَنْ يملكه بخلاف الأكل منه ، فحين تمر ببستان أو حديقة تتمتع بمنظرها وجمال ألوانها وتُسَرُّ برائحتها .

وفى النفس الإنسانية ملكات تتغذى على هذه الخضرة ، وعلى هذه الألوان وتنبسط لهذا الجمال ، ولو لم تكُنْ تمتلكه .

لذلك الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ينبهنا إلى هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ[1] .. (٩٩) ﴾ [الأنعام] أى : أن النظر مشاع للجميع ، ثم بعد ذلك اتركوا الخصوصيات لأصحابها ، تمتَّعوا بما خلق الله ، ففى النفس ملكَات أخرى غير الطعام .

واقرأ أيضاً قوله تعالى فى الخيل : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) ﴾ [النحل] فليست الخيل لحمل الأثقال وفقط ، وإنما فيها جمال وأُبَّهة ، تُرضِى شيئاً فى نفوسكم ، وتُشْبِع ملكَة من ملكاتها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) ﴾

أى : أن ما حدث فى خَلْق الإنسان تكويناً ، وما حدث فى إنبات الزرع تكويناً ونماءً ، يردُّ هذا كله إلى أن الله تعالى ﴿ هُوَ الْحَقُّ .. (٦) ﴾ [الحج] فلماذا أتى بالحق ولم يقُلْ الخالق ؟ قالوا : لأن الخالق قد يخلق شيئاً ثم يتخلى عنه ، أمّا الله ـ سبحانه وتعالى ـ فهو الخالق الحق ، ومعنى الحق أى : الثابت الذى لا يتغير ، كذلك عطاؤه لا يتغير ، فسوف يظل سبحانه خالقاً يعطيك كل يوم ؛ لأن عطاءه سبحانه دائم لا ينفد .

---

(١) ينع الثمر : أدرك ونضج ، واليَنْع : النضج . واليانع : الناضج . [لسان العرب ـ مادة : ينع] .

وإذا نظرتَ إلى الوجود كله لوجدته دورة مكررة ، فالله عز وجل قد خلق الأرض وقدَّر فيها أقواتها ، فمثلاً كمية الماء التى خلقها الله فى الكون هى هى لم تَزِدْ ولم تنقص ؛ لأن للماء دورة فى الحياة ، فالماء الذى تشربه طوال حياتك لا يُنقص فى كمية الماء الموجودة ؛ لأنه سيخرج منك على صورة فضلات ليعود فى دورة الماء فى الكون من جديد .

وهكذا فى الطعام الذى نأكله ، وفى الوردة الجميلة الطرية التى نقطفها ، كل ما فى الوجود له دورة يدور فيها ، وهذا معنى : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ⑩ ﴾ [فصلت]

فمعنى : ﴿ الْحَقُّ .. ⑥ ﴾ [الحج] هنا الثابت الذى لا يتغير فى الخَلْق وفى العطاء . فلا تظن أن عطاء الله لك شىء جديد ، إنما هو عطاء قديم يتكرر لك ولغيرك .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ .. ⑥ ﴾ [الحج] كما قُلْنا فى الآية السابقة : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً .. ⑤ ﴾ [الحج] أى : ساكنة لا حياةَ فيها ، والله وحده القادر على إحيائها ؛ لذلك نجد علماء الفقه يُسمُّون الأرض التى نصلحها للزراعة (إحياء الموات)[1] فالله تعالى

(١) إحياء الموات معْناه : إعداد الأرض الميتة التى لم يسبق تعميرها وتهيئتها وجعلها صالحة للانتفاع بها فى السكنى والزرع ونحو ذلك . ويشترط لاعتبار الأرض مواتاً أن تكون بعيدة عن العمران ، حتى لا تكون مرفقاً من مرافقه ، ولا يتوقع أن تكون من مرافقه ، ويرجع إلى العرف فى معرفة مدى البعد عن العمران . واتفق الفقهاء على أن الإحياء سبب للملكية لحديث رسول الله ﷺ : « من أحيا أرضاً ميتة فهى له » . واختلفوا فى اشتراط إذن الحاكم فى الإحياء فأكثر العلماء على عدم اشتراط إذن الحاكم . وذهب أبو حنيفة إلى اشتراط إذن الإمام وإقراره ، وفرَّق مالك بين الأراضى المجاورة للعمران والأراضى البعيدة عنه . ويجوز للحاكم العادل أن يُقطع بعض الأفراد من الأرض الميتة والمعادن والمياه ما دامت هناك مصلحة ، فإذا لم تتحقق المصلحة بان لم يعمرها من أقطع له ولم يستثمرها فإنها تنزع منه » [فقه السنة ـ الشيخ سيد سابق ٣/٢٠١ ـ ٢٠٤ بتصرف] .

هو القادر وحده على إحيـاء كل ميت ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾ [الحج]

وما دام الأمـر كذلك ومـا دُمْتم تشـاهدون آية إحيـاء الموات فى الأرض الميتة فلا تنكروا البعث وإعادتكم بعد الموت . فيقول تعالى :

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾

وقد سـبق أن أنكروا البعـث بعد المـوت وقالوا : ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ۝١٧﴾ [الصافات]

فيردُّ عليـهم الحق سبحانه : نعم ، سنعيـدكم بعد الموت ، والذى خلقكم مـن لا شىءَ قـادرٌ على إعـادتكم من باب أَوْلَـى ؛ لذلك يقـول تعـالى : ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْـدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِـيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْـهِ .. ۝٢٧﴾ [الروم] والحق سبـحانه هنا يخاطبنـا على قَدْر عقـولنا ؛ لأننا نفهم أن الخَلْق من موجود أهون من الخَلْق من عدم ، أما بالنسبة للخالق - عز وجل - فليس هناك سَهْل وأسهل ، ولا هَيِّن وأهْون .

فقوله تعالى : ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا .. ۝٧﴾ [الحج] كأن عمليـة إحياء المـوتى ليست مُنْتـهى قدرة الله ، إنما فى قـدرته تعالى كثير من الآيات والعـجائب ، ومعنى : ﴿لاَّ رَيْبَ فِيهَا .. ۝٧﴾ [الحج] أى : لا شكَّ فيها . والساعة : أى زمن القيامة وموعدها ، لكن القيامة ستكون للحساب وللفَصْل بين الناس ، فـلا بُدَّ من بَعْثهم من القبور ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج]

فكُلٌّ ما تقـدَّم ناشـىء من أنه سبـحانه هو الحق ؛ ولأنه سبـحانه الحق ، فهو يُحـيى الموتى ، وهو على كل شـىء قدير ، والسـاعة آتية لا رَيْبَ فيها ، وهو سبحانه يبعث مَنْ فى القبور .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾

تكلمنا فى أول السورة عن الجدل بالعلم والموعظة الحسنة وقلنا : العلم إما علـم بَدْهى أو علم استدلالى عـقلىّ ، أو علم بالوحى من الله سـبحـانه ، أما هـؤلاء الذين يجادلون فى الله بـغيـر علم بدهى ﴿وَلا هُدًى.. ﴿٨﴾ ﴾ [الحج] يعنى : علـم اسـتـدلالى عـقلى ، ﴿ولا كـتَـابٍ مُّنِيرٍ﴿٨﴾ ﴾ [الحج] يعنى : وحى من الله ، فـهؤلاء أهل سفـسطة وجدل عقـيم لا فائـدة منه ، وعلى العاقل حـين يصادف مـثل هذا النوع من الجدال أن لا يجـاريه فى سفـسطته ؛ لأنه لن يصل مـعه إلى مفـيد ، إنما عليه أنْ ينقله إلى مجال لا يحتمل السفسطة .

ولنا فى هذه المسألة مثَلٌ وقُدْوة بسيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ حينمـا جادل النمـرود ، اقرأ قـول الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ .. ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة]

لقـد اتـبع النمـرودُ أسلوب الـسَّـفْـسَطة حـين قـال ﴿أَنَا أُحْـيِى

وأُميتُ ..(٢٥٨)﴾ [البقرة] لأنه ما فعل حقيقةَ الموت ، ولا حقيقة الحياة[1] ، فأراد إبراهيم أن يُلجئه إلى مجال لا سفسطة فيه ؛ لينهى هذا الموقف ويسدّ على خَصْمه باب اللدد والتهريج ، فقال : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة] وكانت النتيجة أنْ حَارَ عدو الله جواباً ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة] أى : دُهِش وتحيَّر .

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ[2] لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩)﴾

﴿ثَانِيَ .. (٩)﴾ [الحج] ثَنَى الشيء يعنى : لَواه ، وعطْفه : يعنى جَنْبه ، والإنسان فى تكوينه العام له رأس ورقبة وكتفان ، وله جانبان وظَهْر ، وهذه الأعضاء تُؤدِّى دَوْراً فى حياته وحركته ، وتدلّ على تصرفاته ، فالذى يجادل فى الله عن غير علم ولا هدى ولا كتاب منير يَثْنى عنك جانبه ، ويلْوى رأسه ؛ لأن الكلام لا يعجبه ؛ ليس لأن كلامك باطل ، إنما لا يعجبه لأنه أفلس وليست لديه الحجة التى يواجهك بها ، فلا يملك إلا هذه الحركة .

---

(١) وذلك أن النمرود قال : « إنى أُوتى بالرجلين قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما فيقتل ، وآمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل » قاله قتادة ومحمد بن إسحاق والسدى وغير واحد . أورده ابن كثير في تفسيره (٣١٣/١) . ثم قال ابن كثير : « والظاهر والله أعلم أنه ما أراد هذا لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم ولا فى معناه ، لأنه مانع لوجود الصانع ، وإنما أراد أن يدعى لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة ويوهم أنه فاعل لذلك وأنه هو الذى يحيي ويميت » .

(٢) العطف : الجانب . عطفَا الإنسان : جانباه . ويقال : ثنى عطفه : أى : أعرض وابتعد بجانبه . وقوله : ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ .. (٩)﴾ [الحج] . كناية عن الإعراض كبراً وغروراً . [القاموس القويم ٢/ ٢٥] .

لذلك يُسمَّى هذا الجدل « مراءً » ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ [النجم] يعني : أتجادلون رسول الله في أمر رآه ؟ والمراء : هو الجَدل العنيف ، مأخوذ من (مَرْى[1] الضرع) يعني : حَلْب ما فيه من لبن إلى آخر قطرة فيه ، وأهل الريف يقولون عن هذه العملية (قرقر البقرة) يعني : أخذ كل لبنها ولم يَبْقَ في ضرعها شيء .

كذلك المجادل بالباطل ، أو المجادل بلا علم ولا حجة تراه يكابر ليأخذ آخر ما عند خَصْمه ، ولو كان عنده علم وحجة لأنهَى الموقف دون لجج أو مكابرة .

والقرآن الكريم يعطينا صورة لهذا الجدل والإعراض عن الحق ، فيقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [المنافقون]

والقرآن يعطينا التدرج الطبيعي للإعراض عن الحق الذي يبدأ بلَيِّ الرأس ، ثم الجانب ، ثم يعطيك دُبُره وعَرْض أكتافه ، هذه كلها ملاحظ للفرار من الجدل ، حين لا يقوى على الإقناع .

ثم يقول سبحانه : ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الحج] هذه علَّة ثَنْي جانبه ، لأنه يريد أنْ يُضل مَن اهتدى ، فلو وقف يستمع لخَصْمه وما يلقيه من حجج ودلائل لانهزم ولم يتمكّن من إضلال الناس ؛ لذلك يَثْني عِطْفه هَرَباً من هذا الموقف الذي لا يَقْدر على مواجهته والتصدي له .

فما جزاء هذا الصنف ؟ يقول تعالى : ﴿ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الحج] والخِزْي : الهوان والذِّلَّة ، هذا جزاء الدنيا قبل جزاء الآخرة ،

---

(١) المَرْي : مَسْح ضرع الناقة لتدر . وناقة مَرِيٌّ : غزيرة اللبن . [لسان العرب ـ مادة : مرى] .

ألم يحدث للكفار هذا الخزى يوم بدر ؟ ألم يُمسك رسول الله ﷺ بقضيب فى يده قبل المعركة ويشير به : « هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان »[١] ويسمى صناديد الكفر ورؤوس الضلال فى قريش ؟ وبعد انتهاء المعركة كان الأمر كما أخبر رسول الله ﷺ ، وصُرِع كلٌّ هؤلاء الصناديد فى نفس الأماكن التى أشار إليها رسول الله .

ولما قُتل فى هذه المعركة أبو جهل عَلاَهُ سيدنا عبد الله بن مسعود ، سبحان الله ، عبد الله بن مسعود راعى الغنم يعتلى ظهر سيد قريش ، عندها قال أبو جهل ـ وكان فيه رَمَق حياة : لقد ارتقيتَ مُرْتقىً صَعْباً يا رُوَيْعِىَّ الغنم[٢] ، يعنى : ركبتنى يا ابن الإيه !! فأىُّ خِزْى بعد هذا ؟!

وأبو سفيان بعد أن شفع له العباس رضى الله عنه عند رسول الله ﷺ ، ورأى موكب النبى يوم الفتح ، وحوله رايات الأنصار فى موكب رهيب مهيب ، لم يملك نفسه ولم يستطع أنْ يُخفى ما فى صدره ، فقال للعباس رضى الله عنه : لقد أصبح مُلْك ابن أخيك قوياً ، فقال له : إنها النبوة يا أبا سفيان[٣] يعنى : المسألة ليست مُلْكاً ، إنما هى النبوة المؤيَّدة من الله .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٩) من حديث أنس ـ رضى الله عنه ـ وأحمد فى مسنده (٣/٢١٩ ، ٢٥٨) أن رسول الله ﷺ قال : « هذا مصرع فلان » ويضع يده على الأرض هاهنا وهاهنا ، قال : فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ .

(٢) قال عبد الله بن مسعود : وجدته بآخر رمق فعرفته ، فوضعت رجْلى على عنقه . فقال له أبو جهل : لقد ارتقيت مُرْتقى صعباً يا رُوَيْعى الغنم . قال : ثم احتززت رأسه ثم جئت به رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله . هذا رأس عدو الله أبى جهل » أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٦٣٦) .

(٣) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/٤٠٤) : « قال أبو سفيان : سبحان الله يا عباس ، من هؤلاء ؟ قال : قلت : هذا رسول الله ﷺ فى المهاجرين والأنصار . قال : ما لأحد بهؤلاء قبَل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح مُلْك ابن أخيك الغداة عظيماً . قال : قلت : يا أبا سفيان ، إنها النبوة . قال : فنعم إذن » .

وسيدنا أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ حينما استأذن عليه القوم فى الدخول ، فأذِنَ للسابقين إلى الإسلام من العبيد والموالى ، وترك بعض صناديد قريش على الباب ، (فورِمَتْ) أنوفهم من هذا الأمر واغتاظوا ، وكان فيهم أبو سيدنا أبى بكر فقال له : أتأذن لهؤلاء وتتركنا ؟ فقال له : إنه الإسلام الذى قدَّمَهم عليكم . وقد شاهد عمر هذا الموقف فقال لهم : ما لكم ورِمَتْ[1] أنوفكم ؟ وما بالكم إذا أُذِن لهم على ربهم وتأخرتم أنتم .

فالغضب الحقيقى سيكون فى الآخرة حين يُنَادى بهؤلاء إلى الجنة ، وتتأخرون أنتم فى هَوْل الموقف .

واقرأ قوله تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَـٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة]

ثم يقول تعالى : ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ [الحج] فهذا الخزْىُ الذى رأَوْه فى الدنيا لن يُفلتهم من خِزْى وعذاب الآخرة ، ومعنى ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ [الحج] الحريق : هو الذى يحرق غيره من شِدّته ، كالنار التى أوقدوها لإبراهيم ـ عليه السلام ـ وكانت تشوى الطير الذى يمرُّ بها فى السماء فيقع مشوياً[2] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾

---

(١) ورم أنفه . أى : غضب . أى : امتلأ وانتفخ من ذلك غضباً ، وخَصَّ الأنف بالذكر لأنه موضع الأنفة والكبر . وورَّم فلان بأنفه توريماً : إذا شمخ بأنفه وتجبَّر . [لسان العرب ـ مادة : ورم] .

(٢) قال ابن إسحاق : جمعوا الحطب شهراً ثم أوقدوها ، واشتعلت واشتدت حتى أن كان الطائر ليمر بجنباتها فيحترق من شدة وهجها . [ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٨١)] .

﴿ذَٰلِكَ .. (١٠)﴾ [الحج] يعني خزي الدنيا وعذاب الحريق في الآخرة بما قدَّمتْ ، وبما اقترفت يداك ، لا ظُلْماً منّا ولا اعتداء ، فأنت الذي ظلمتَ نفسك ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)﴾ [النحل]

وهل أخذناهم دون إنذار ، ودون أن نُجرِّم هذا الفعل ؟ لأنك لا تعاقب شخصاً على ذنب إلا إذا كنتَ قد نبَّهته إليه ، وعرَّفته بعقوبته ، فإنْ عاقبته دون علمه بأن هذا ذنب وهذه جريمة فقد ظلمتَه ؛ لذلك فأهل القانون يقولون : لا عقوبةَ إلا بتجريم ، ولا تجريمَ إلا بنصٍّ .

وقد جاءكم النص الذي يُبيِّن لكم ويُجرِّم هذا الفعل ، وقد أبلغتْكم الرسل ، وسبق إليكم الإنذار ، كما في قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾ [الإسراء]

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ .. (١٠)﴾ [الحج] فهل الذنوب كلها تقديمُ اليد فقط ؟

الذنوب : إما أقوال ، وإما أفعال ، وإما عمل من أعمال القلب ، كالحقد مثلاً أو النفاق .. إلخ لكن في الغالب ما تُزاول الذنوب بالأيدي[1] .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٠)﴾ [الحج] ظلاَّم : صيغة مبالغة من الظلم ، تقول : ظالم . فإنْ أردتَ المبالغة تقول : ظلاَّم ، كما تقول : فلان آكل وفلان أَكُول ، فالفعل واحد ، لكن ما ينشأ عنه مختلف ، والمبالغة في الفعل قد تكون في الفعل نفسه أو في تكراره ، فمثلاً قد تأكل في الوجبة الواحدة رغيفاً واحداً ، وقد

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤٥٤٨/٦) : « عبر باليد عن الجملة ؛ لأن اليد التي تفعل وتبطش للجملة » .

تأكل خمسة أرغفة هذه مبالغة فى الوجبة الواحدة ، فأنت تأكل ثلاث وجبات ، لكن تبالغ فى الوجبة الواحدة ، وقد تكون المبالغة فى عدد الوجبات فتأكل فى الوجبة رغيفاً واحداً ، لكن تأكل خمس وجبات بدلاً من ثلاث . فهذه مبالغة بتكرار الحدث .

وصيغة المبالغة لها معنى فى الإثبات ولها معنى فى النفى : إذا قُلْتَ : فلان أكول وأثبتَّ له المبالغة فقد أثبتَّ له أصل الفعل من باب أَوْلَى فهو آكل ، وإذا نفيتَ المبالغة فنَفْى المبالغة لا ينفى الأصل ، تقول : فلان ليس أكولاً ، فهذا لا ينفى أنه آكل .

فإذا طبَّقنا هذه القاعدة على قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحج] فهذا يعنى أنه سبحانه وتعالى (ظالم) حاشا لله ، وهنا نقول : هناك آيات أخرى تنفى الفعل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الزخرف]

كما أن صيغة المبالغة هنا جاءت مضافة للعبيد ، فعلى فرض المبالغة تكون مبالغة فى تكرار الحدث ﴿ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحج] ظلم هذا ، وظلم هذا ، وظلم هذا ، فالمظلوم عبيد ، وليس عبداً واحداً .

والظلم فى حقيقته أن يأخذ القويُّ حَقَّ الضعيف ، ويكون الظلم على قَدْر قوة الظالم وقدرته ، وعلى هذا إنْ جاء الظلم من الله تعالى وعلى قَدْر قوته وقدرته فلا شكَّ أنه سيكون ظُلْماً شديداً لا يتحمله أحد ، فلا نقول - إذن - ظالم بل ظلام ، وهكذا يتمشى المعنى مع صيغة المبالغة .

فالحق سبحانه ليس بظلام للعبيد ؛ لأنه بيَّن الحلال والحرام ، وبيَّن الجريمة ووضع لها العقوبة ، وقد بلَّغَتْ الرسل من بداية الأمر فلا حُجَّةَ لأحد .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ .. (١١) ﴾ [الحج] العبادة : أنْ تطيع الله فيما أمر فتنفذه ، وتطيعه فيما نهى فتجتنبه ، بعض الناس يعبد الله هذه العبادة طالما هو فى خير دائم وسرور مستمر ، فإذا أصابه شَرٌّ أو وقع به مكروه ينقلب على وجهه ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ .. (١١) ﴾ [الحج]

والحق سبحانه يريد من عبده أنْ يُقبل على عبادته فى ثبات إيمان ، لا تزعزعه الأحداث ، ولا تهز إيمانه فيتراجع ، ربك يريدك عبداً له فى الخير وفى الشر ، فى السراء وفى الضراء ، فكلاهما فتنة واختبار ، وما آمنتَ بالله إلا لأنك علمتَ أنه إله حكيم عادل

---

(١) سبب النزول : روى فيها عدة روايات ، منها :

- عن ابن عباس قال : كان ناس من الأعراب يأتون النبى ﷺ فيسلمون فإذا رجعوا إلى بلادهم ، فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن قالوا : إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به ، وإن وجدوا عام جدوبة وعام ولاد سوء وعام قحط قالوا : ما فى ديننا هذا خير ، فأنزل الله على نبيه ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ .. (١١) ﴾ [الحج] . أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٠٩) ، والواحدى فى أسباب النزول (ص ١٧٥) .

- عن أبى سعيد الخدرى قال : أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده وتشاءم بالإسلام ، فأتى النبى ﷺ فقال : أقلنى فقال : إن الإسلام لا يقال ، فقال : إنى لم أصب فى دينى هذا خيراً ، أذهب بصرى ومالى وولدى ، فقال : يا يهودى إن الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والفضة والذهب ، قال : ونزلت : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ .. (١١) ﴾ [الحج] .

قادر ، ولا بد أنْ تـأخذ ما يجـرى عليك من أحـداث الحيـاة فى ضوء هذه الصفات .

فـإنْ أثقلتْـك الحـيـاة فـاعلم أن وراء هذه حكمـــة إنْ لم تكن لك فلأولادك من بعـدك ، فلعلهم إنْ وجدوك فى سعـة وفى خير طَمـعُوا وفسـدوا وطَغَوْا ، ولعل حـياة الضيـق وقلَّة الرزق وتعبك لتـوفر لهم متطلبات الحياة يكون دافعاً لهم .

واقــرأ قــوله تعــالى : ﴿ كَـلاَّ إِنَّ الإِنسَـانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق] وقوله تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) ﴾ [الأنبياء]

لا بُدَّ أنْ تعـرف هذه الحـقـائق ، وأنْ تؤمن بحكمـة ربك فى كل مـا يُجريه عليك ، سـواء أكان نعـيمـاً أو بُؤْساً ، فـإنْ أصابك مـرض أقـعدك فى بـيتك فَـقُلْ : مـاذا حدث خـارج البـيت ، أبعـدنى الله عنه وعافانى منه ؟ فلعل الخير فيما تظنه شراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ .. (٢١٦) ﴾ [البقرة]

وقد أجرى علماء الإحصاء إحـصاءات على بعض بيوتنا ، فوجدوا الإخوة فى البيت الواحد ، وفى ظروف بيـئية واحدة وأب واحد ، وأم واحدة ، حتى التعليم فى المدارس على مستوى واحد ، ومع ذلك تجد أحد الأبناء مستـقيماً ملتزماً ، وتجد الآخر على النقـيض ، فلمَّا بحثوا فى سبب هذه الظاهرة وجـدوا أن الولد المستقـيم كانت فترة تربـيته وطفولته فى وقت كان والده مريضـاً ويلازم بيته لمدة ست سنوات ، فأخـذ هذا الولد أكبر قـسْط من الرعاية والتـربية ، ولم يجد الفـرصة للخروج من البيت أو الاختلاط برفاق السوء .

وفى نموذج آخر لأحد الأبناء المنحرفـين وجدوا أن سبب انحرافه

أن والده فى فترة تربيته وتنشئته كـان تاجراً ، وكان كثير الأسفار ، ومع ذلك كان يُغْدِق على أسرته ، فتـربَّى الولد فى سَعَة من العيش ، بدون مراقبة الأب .

وفى نموذج آخر وجدوا أخوين : أحدهما متفوق ، والآخر فاشل ، ولما بحثـوا أسباب ذلك رغم أنهمـا يعيشان ظروفـاً واحدة وجدوا أن الابن المتفـوق صحته ضعـيفة ، فمال إلـى البيت والقراءة والاطلاع ، وكان الآخر صحيـحاً وسيماً ، فمال إلى حيـاة الترف ، وقضى معظم وقته خارج البيت . والأمثلة فى هذا المجال كثيرة .

إذن : فالابتـلاءات لها مـغانم ، ومن ورائهـا حكَم ؛ لأنها ناشـئة وجارية عليك بحكمـة ربك وخالقك ، وليست من سَعْـيك ولا من عمل يدك ، وما دامت كذلـك فارْضَ بها ، واعبد الله بإخـلاص وإيمان ثابت فى الخير وفى الشر.

ومعنى : ﴿يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ .. (١١)﴾ [الحج] والحرف : هو طرف الشيء ، كأن تدخل فتجد الغرفـة ممتلئة فتجلس على طرف فى آخر الجالسـين ، وهذا عادةً لا يكون معه تمكُّن واطمـئنان ، كذلك مَنْ يعـبد الله على حـرف يعنى : لم يتـمكَّن الإيمان من قلبـه ، وسرعـان ما يُخرجه الابتلاء عن الإيمان ، لأنه عبد الله عبادةً غير متمكنة باليقين الذى يصدر عن المؤمن بإله حكيم فيما يُجريه على عبده .

والآية لم تترك شيئاً من هواجس النفس البشرية سواء فى الخير أو فى الشر .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ .. (١١)﴾ [الحج] وكذلك : ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ .. (١١)﴾ [الحج] فأنت لا تقول : أصبتُ الخيرَ ، إنما الخـير هو الذى أصـابك وأتاك إلى بابك ، فـأنت لا تبـحث عن رزقك

بقدر ما يبحث هو عنك ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ .. ۝﴾ [الطلاق]

ويقول أهل المعرفة : رِزْقك أعلم بمكانك منك بمكانه ، يعنى يعرف عنوانك أما أنت فلا تعرف عنوانه ، بدليل أنك قد تطلب الرزق فى مكان فلا تُرزَق منه بشىء ، وقد ترى الزرع فى الحقول زاهياً تأملِ فيه المحصول الوفير ، وتبنى عليه الآمال ، فإذا بعاصفة أو آفة تأتى عليه ، فلا تُرزَق منه حتى بما يسدُّ الرَّمَق .

ولنا عبرة ومثَلٌ فى ابن أُذَيْنة[1] حين ضاقت به الحال فى المدينة ، فقالوا له : إن لك صحبة بهشام بن عبد الملك الخليفة الأموى فاذهب إليه ينالك من خير الخلافة ، وفعلاً سافر ابن أذينة إلى صديقه ، وضرب إليه أكباد الإبل حتى الشام ، واستأذن فأَذن له ، واستقبله صاحبه ، وسأله عن حاله فقال : فى ضيق وفى شدة . وكان فى مجلس الخليفة علماء فقال له : يا عروة ألست القائل ـ وكان ابن أُذَيْنَة شاعراً :

لَقَد عَلِمت ومَا الإسْرَافُ مِنْ خُلُقِى أَنَّ الذى هُوَ رِزْقى سَوْفَ يأْتِينى؟[2]

وهنا أحسَّ عروة أن الخليفة كسر خاطره ، وخَيَّب أمله فيه ، فقال له : جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين ، لقد ذكَّرت منى ناسياً ، ونبَّهْتَ منى غافلاً ، ثم انصرف .

فلما خرج ابن أُذيْنة من مجلس الخليفة ، وفكَّر الخليفة فى

---

(١) هو : عروة بن يحى (ولقبه أذينة) بن مالك بن الحارث الليثى : شاعر غزل مقدم ، من أهل المدينة ، وهو معدود من الفقهاء والمحدثين أيضاً ، ولكن الشعر أغلب عليه . توفى نحو ١٣٠ هـ [الأعلام للزركلى ٤/٢٢٧] .

(٢) ذكر هذا البيت والذى بعده خير الدين الزركلى فى كتابه الأعلام (٤/٢٢٧) من شعر عروة بن أذينة . وانظر : الشعر والشعراء ٢٢٥ ، فوات الوفيات ٢/٣٤ .

الموقف وأنَّب نفسه على تصرُّفه مع صاحبه الذى قصد خَيْره ، وكيف أنه ردَّه بهذه الصورة ، فأراد أنْ يُصلح هذا الخطأ ، فأرسل إليه رسولاً يحمل الهدايا الكثيرة ، إلا أن رسول الخليفة كلما تبع ابن أُذَيْنة فى مكان وجده قد غادره إلى مكان آخر ، إلى أنْ وصل إلى بيته ، فطرق الباب ، وأخبره أن أمير المؤمنين قد ندم على ما كان منه ، وهذه عطاياه وهداياه .

وهنا أكمل ابن أُذَيْنة بيته الأول ، فقال :

أَسْعَى لَهُ فَيُعَنِّينى تطلُّبه ... وَلَوْ قَعَدْتُ أَتَانى لاَ يُعنِّينى

كذلك نلحظ فى هذه الآية : ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ .. (١١) ﴾ [الحج] ولم يقابل الخير بالشر ، إنما سماها (فتْنَة) أى : اختبار وابتلاء ؛ لأنه قد ينجح فى هذا الاختبار فلا يكون شراً فى حقِّه .

ومعنى : ﴿ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ .. (١١) ﴾ [الحج] يعنى : عكس الأمر ، فبعد أنْ كان عابداً طائعاً انقلب إلى الضدِّ فصار عاصياً ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ .. (١١) ﴾ [الحج] وخسْران الإنسان لعبادته خسران كبيرٌ لا يُجْبَر ولا يُعوِّضه شىء ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) ﴾ [الحج] فهل هناك خُسْران مبين ، وخسران غير مبين ؟

نعم : الخسران هو الخسارة التى تُعوَّض ، أما الخسارة التى لا عوضَ لها فهذه هى الخسران المبين الذى يلازم الإنسان ولا يَنفكُّ عنه ، وهو خُسْران لا يقتصر على الدنيا فقط فيمكن أنْ تُعوِّضه أو تصبر عليه ، إنما يمتد للآخرة حيث لا عوضَ لخسارتها ولا صَبْر على شِدَّتها . فالخسران المبين أى : المحيط الذى يُطوِّق صاحبه .

لذلك نقول لمن فقد عزيزاً عليه ، كالمرأة التى فقدت وحيدها مثلاً : إنْ كان الفقيد حبيباً وغالياً فبيعوه غالياً وادخلوا به الجنة ، ذلك حين تصبرون على فَقْده وتحتسبونه عند الله ، وإنْ كنتم خسرتم به الدنيا فلا تخسروا به الآخرة ، فإنْ لطَمْنا الخدود وشَقَقْنَا الجيوب ، واعترضنا على قَدَر الله فيه فقد خسرنَا به الدنيا والآخرة .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإنْ أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وليس ذلك إلا للمؤمن »(١) .

والصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء مرتبة من مراتب الإيمان ، ومرحلة من مراحل اليقين فى نفس المؤمن ، وهى بداية وعَتَبة يتلوها مراحل أخرى ومراقٍ ، حَسْب قوة الإيمان .

اسمع إلى هذا الحوار الذى دار بين أهل المعرفة من الزُّهَّاد ، وكيف كانوا يتبارونَ فى الوصول إلى هذه المراقى الإيمانية ، ويتنافسون فيها ، لا عن مُبَاهاة ومفاخرة ، إنما عن نية خالصة فى الرُّقى الإيمانى .

يسأل أحد هؤلاء المتمكِّنين صاحبه : كيف حال الزهاد فى بلادكم ؟ فقال : إن أصابنا خير شكرنا ، وإن أصابنا شَرٌّ صبرنا ، فضحك الشيخ وقال : وما فى ذلك ؟! إنه حال الكلاب فى بَلْخ . أما عندنا : فإنْ أصابنا خير آثرنا ، وإنْ أصابنا شَرٌّ شكرنا .

وهذه ليست مباهاة إنما تنافس ، فكلاَ الرجلين زاهد سالك لطريق الله ، يرى نفسه محسوباً على هذا الطَريق ، فيحاول أنْ يرتقىَ فيه

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٩٩) كتاب الزهد ، وأحمد فى مسنده (٥/ ٢٤) ، والدارمى فى سننه (٢/ ٣١٨) من حديث صهيب الرومى رضى الله عنه .

إلى أعلى مراتبه ، فإياك أنْ تظن أن الغاية عند الصبر على البلاء والشُّكْر على العطاء ، فهذه البداية وبعدها منازل أعْلَى ومَراقٍ أسمى لمن طلبَ العُلاَ ، وشمَّر عن ساعد الجد فى عبادة ربه .

انظر إلى أحد هؤلاء الزُّهَّاد يقول لصاحبه : ألاَ تشتاق إلى الله ؟ قال : لا ، قال مُتعجباً : وكيف ذلك ؟ قال : إنما يُشتاق لغائب ، ومتى غاب عِنى حتى أشتاق إليه ؟ وهكذا تكون درجات الإيمان وشفافية العلاقة بين العبد وربه عز وجل .

ثم يقول الحق سبحانه عن هذا الذى يعبد الله على حرف :

﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ ﴾

معنى : ﴿مَا لا يَضُرُّهُ .. ﴿١٢﴾﴾ [الحج] هل الصنم الذى يعبده الكافر من دون الله يمكن أن يضره ؟ لا ، الصنم لا يضر ، إنما الذى يضره حقيقة مَنْ عانده وانصرف عن عبادته ، تضره الربوبية التى يعاندها والمجَازِى الذى يجازيه بعمله ، إذن : فما معنى : ﴿يَضُرُّهُ .. ﴿١٢﴾﴾ [الحج] هنا ؟

المعنى : لا يضره إن انصرف عنه ولم يعبده ، ولا ينفعه إنْ عبده : ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾ [الحج] نعم ضلال : لأن الإنسان يعبد ويطيع مَنْ يرجو نفعه فى أىِّ شىء ، أو يخشى ضره فى أىِّ شىء .

وقد ذكرنا سابقاً قول بعض العارفين : (واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه) ، ولو قلنا هذه المقولة لأبنائنا فى الكتب الدراسية ،

واهتمَّ بها القائمون على التربية لما أغرى الأولاد بعضهم بعضاً بالفساد ، ولوقفَ الولد يفكر مرة وألف مرة فى توجيهات ربه ، ونصائح أبيه وأمه ، وكيف أنه سيترك توجيهات مَنْ يحبونه ويخافون عليه ويرجُون له الخير إلى إغراء صديق لا يعرف عنه وعن أخلاقه شيئاً .

لا بُدَّ أنْ نُطعِّم أبناءنا مبادىء الإسلام ، ليعرف الولد منذ صغره مَنْ يحبه ومَنْ يكرهه ، ومَنْ هو أَوْلَى بطاعته .

وتلحظ فى الآية أن الضر سابق للنفع : ﴿مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ .. (١٢)﴾ [الحج] لأن دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة ؛ لأن المفسدة خروج الشىء عن استقامة تكوينه ، والنفع يزيدك ويضيف إليك ، أما الضر فينقصك ، لذلك خَيْر لك أنْ تظل كما أنت لا تنقص ولا تزيد ، فإذا وقفتَ أمام أمرين : أحدهما يجلب خيراً ، والآخر يدفع شراً ، فلا شكَّ أنك ستختار دَفْع الشر أولاً ، وتشتغل بدَرْءِ المفسدة قبل جَلْب المصلحة .

وضربنا لذلك مثلاً : هَبْ أن إنساناً سيرمى لك بتفاحة ، وآخر سيرميك بحجر فى نفس الوقت ، فماذا تفعل ؟ تأخذ التفاحة ، أو تتقى أذَى الحجر ؟ هذا هو معنى « دَرْء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة » .

﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ (١٣)﴾

الآية السابقة تثبت أنه يدعو مَا لا يضُرُّه ومَا لا ينفعه ، وهذه الآية تُثبت أنه يدعو مَنْ ضَرُّه أقرب من نَفْعه .

صيغة أفعل التفضيل (أقرب) تدل على أن شيئين اشتركا فى صفة واحدة ، إلا أن أحدهما زاد عن الآخر فى هذه الصفة ، فلو قُلْتَ : فلان أحسن من فلان . فهذا يعنى أن كلاهما حَسَن ، لكن زاد أحدهما عن الآخر فى الحُسْن .

فقوله تعالى : ﴿يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ .. (١٣)﴾ [الحج] إذن : هناك نَفْع وهو قريب ، لكن الضر أقرب منه ، فهذه الآية فى ظاهرها تُناقض الآية السابقة ، والحقيقة ليس هناك تناقض ، ولا بُدَّ أنْ نفهمَ هذه المسألة في ضوء قوله تعالى : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [النساء]

فالأوثان التى كانوا يعبدونها كان لها سَدَنة يتحكَّمون فيها وفى عابديها ، فإذا أرادوا من الآلهة شيئاً قالوا للسدنة : ادعوا الآلهة لنا بكذا وكذا ، إذن : كان لهم نفوذ وسُلْطة زمنية ، وكانوا هم الواسطة بين الأوثان وعُبَّادها ، هذه الواسطة كانت تُدرٌّ عليهم كثيراً من الخيرات وتعطيهم كثيراً من المنافع ، فكانوا يأخذون كل ما يُهْدَى للأوثان .

فالأوثان - إذن - سبب فى نَفْع سدنتها ، لكن هذا النفع قصاراه فى الدنيا ، ثم يتركونه بالموت ، فمدة النفع قصيرة ، وربما أتاه الموت قبل أنْ يستفيد بما أخذه ، وإنْ جاء الموت فلا إيمانَ ولا عملَ ولا توبةَ ، وهذا معنى ﴿ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ .. (١٣)﴾ [الحج]

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣)﴾ [الحج] كلمة (بئس) تُقَال للذم وهى بمعنى : ساء وقَبُح ، والموْلَى : الذى يليك ويقرُب منك ، ويُراد به النافع لك ؛ لأنك لا تقرَّب إلا النافع لك ، إما لأنه يعينك وقت الشدة ، ويساعدك وقت الضيق ، وينصرك إذا احتجتَ لِنُصْرته ، وهذا هو الوليُّ .

وإمـا أنْ تُقـرِّبه منك ؛ لأنـه يُسليك ويجـالسك وتأنـس به ، لكنه ضعيف لا يقوى على نُصْرتك ، وهذا هو العشير .

والأصنام التى يعبـدونها بئست المولى ؛ لأنهـا لا تنصرهم وقت الشدة ، وبئست العشير ؛ لأنهـا لا تُسليهم ، ولا يأنسون بها فى غير الشدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ ﴾

بعد أن تكلَّم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عن الكفار وأهل النار ومَنْ يعـبدون الله على حَـرْف ، كان لا بُدَّ أنْ يأتـىَ بالمقـابل ؛ لأن النفس عندها استعداد للمقارنة والتـأمل فى أسباب دخول النار ، وفى أسباب دخول الجنة ، وهذا أَجْدَى فى إيقاع الحجة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار] وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [التوبة]

فـذكْـر النعمـة وحـدها دون أنْ تقـابلهـا النِّقْـمـة لا تُؤتى الأثر المطلوبَ ، لكن حينما تقابل النعمـة بالنقمة وَسلْب الضّر بإيجاب النفع فإنَّ كـلاهما يُظهر الآخر ؛ لذلك يقـول تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمـران] فإنْ آمنتَ لا تُـزَحْزح عن النار فقـط ـ مع أن هذه فى حَدِّ ذاتها نـعمة ـ لكن تُزَحْـزح عن النار وتدخل الجنة .

والإيمان : عمل قلبى ومواجيد تطمئن بها النفس ، لكن الإيمان له مطلوب : فأنت آمنتَ بالله ، واطمأنَّ قلبك إلى أن الله هو الخالق الرازق واجب الوجود .. إلخ ، فما مطلوب هذا الإيمان ؟

مطلوب الإيمان أنْ تستمع لأوامره ، لأنه حكيم ، وتثق فى قدرته لأنه قادر ، وتخاف من بطشه لأنه جبار ، ولا تيأس من بَسْطه لأنه باسط ، ولا تأمن قبضه لأنه قابض .

لقد آمنتَ بكل هذه القضايا ، فحين يأمرك بأمر فعليك أنْ تستحضر حيثيات هذا الأمر ، وأنت واثق أن ربك عز وجل لم يأمرك ولم يَنْهَكَ من فراغ ، إنما من خلال صفات الكمال فيه سبحانه ، أو صفات الجلال والجبروت ، فاستحضر فى كُلِّ أعمالك وفى كُلِّ ما تأتى أو تدع هذه الصفات .

لذلك ، جمعت الآية بين الإيمان والعمل الصالح : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ .. (١٤)﴾ [الحج]

وفى سورة العصر : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.. (٣)﴾ [العصر] ليس ذلك وفقط إنما أيضاً : ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر]

فالتواصى بالحق والصبر على الشدائد من الاستجابة لداعى الإيمان وثمرة من ثماره ؛ لأن المؤمن سيتعرَّض فى رحلة الحياة لفتَن كثيرة قد تزلزله ، وسيواجه سُخْرية واستهزاءً ، وربما تعرَّض لألوان العذاب .

فعليه ـ إذن ـ أنْ يتمسَّك بالحق ويتواصى به مع أخيه ، وعليه أن يصبر ، وأنْ يتواصى بالصبر مع إخوانه ، ذلك لأن الإنسان قد

تعرض له فترات ضَعْف وخَوَر ، فعلى القوى فى وقت الفتنة أنْ ينصحَ الضعيف .

وربما تبدَّل هذا الحال فى موقف آخر وأمام فتنة أخرى ، فَمَنْ أوصيْتَه اليوم بالصبر ربما يوصيك غداً ، وهكذا يُثمِر فى المجتمع الإيمانى التواصى بالحق والتواصى بالصبر .

إذن : تواصَوْا ؛ لأنكم ستتعرضون لهزَّات ليست هزَّات شاملة جامعة ، إنما هزَّات يتعرض لها البعض دون الآخر ، فإنْ ضعُفْتَ وجدتَ من إخوانك مَنْ يُواسيك : اصبر ، تجلَّد ، احتسب . وإياك أنْ تُزحزحك الفتنة عن الحق ، أو تخرج عن الصبر ، وهذه عناصر النجاة التى ينبغى للمؤمنين التمسك بها : إيمان ، وعمل صالح ، وتواصٍ بالحق ، وتواصٍ بالصبر .

وقوله سبحانه : ﴿ **جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (١٤)** ﴾ [الحج] الجنات : هى الحدائق والبساتين المليئة بأنواع المتَع : الزرع ، والخضرة ، والنضارة ، والزهور ، والرائحة الطيبة ، وهذه كلها بنت الماء ؛ لذلك قال : ﴿ **تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (١٤)** ﴾ [الحج] ومعنى : ﴿ **مِن تَحْتِهَا .. (١٤)** ﴾ [الحج] أن الماء ذاتىٌّ فيها ، لا يأتيها من مكان آخر ربما ينقطع عنها ، كما جاء فى آية أخرى : ﴿ **تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. (١٠٠)** ﴾ [التوبة]

ثم يقول سبحانه : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ**[1] **(١٤)** ﴾ [الحج] لأنه سبحانه لا يُعْجزه شىء ، ولا يعالج أفعاله كما يعالج البشر أفعالهم ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)** ﴾ [يس]

---

(١) أى : يثيب من يشاء ويعذب من يشاء ، فللمؤمنين الجنة بحكم وعده الصدق وبفضله ، وللكافرين النار بما سبق من عدله . [قاله القرطبى فى تفسيره (٤٥٥٢/٦)] .

ولو تأملتَ هذه الآية لوجدتَ الشىء الذى يريده الله ويأمر بكونه موجوداً فى الحقيقة ، بدليل أن الله تعالى يخاطبه ﴿يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس] فهو - إذن - كائن فعلاً ، وموجود حقيقةً ، والأمر هنا إنما هو لإظهاره فى عالم المشاهدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ(1) فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ (١٥)﴾

(يظنُّ) تفيد علْماً غير يقينى وغير مُتأكد ، وسبق أنْ تكلَّمنا فى نسبة القضايا ، فهناك حكم محكوم به ومحكوم عليه ، تقول : زيد مجتهد ، فأنت تعتقد فى نسْبة الاجتهاد لزيد ، فإنْ كان اعتقادك صحيحاً فتستطيع أنْ تُقدِّم الدليل على صحته فتقول : بدليل أنه ينجح كل عام بتفوق .

أما إذا اعتقد هذه القضية ولم يُقدِّم عليها دليلاً كأنْ سمع الناسَ يقولون : زيد مجتهد . فقال مثلهم ، لكن لا دليلَ عنده على صدْق

---

(1) ورد فى هذه الآية تاويلان لها :
١ - من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب أى بحبل إلى السماء - أى : سماء بيته - ثم ليقطع . أى : ثم ليختنق به . قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة وغيرهم .
٢ - من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه ويكايد هذا الأمر ليقطعه عنه ، فليقطع ذلك من أصله من حيث يأتيه فإن أصله فى السماء (ثم ليقطع) أى : عن النبى الوحىَ الذى يأتيه من الله إن قدر . قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم .
قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٢١٠) : « قول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر فى المعنى وأبلغ فى التهكم » . وانظر الدر المنثور للسيوطى (٦/١٥ ، ١٦) وقد قال الشيخ الشعراوى - رحمة الله عليه - بكلا القولين ، فكلاهما صحيح محتمل والله أعلم .

هذه المقولة ، كالطفل الذي نُلقّنه ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ [الإخلاص] هذه قضية واقعية يعتقدها الولد ، لكن لا يستطيع أنْ يُقدِّم الدليل عليها إلا عندما يكبُر ويستوى تفكيره .

فمن أين أخذ الطفل هذه القضية واعتقدها ؟ أخذها من المأمون عليه : من أبيه أو من أستاذه ثم قلَّده . إذن : إنْ كانت القضية واقعة ، لكنْ لا تستطيع أنْ تقيم الدليل عليها فهى تقليد ، فإنِ اعتقدتَ قضية واقعة ، وأقمْتَ الدليل عليها ، فهذا أسْمى مراتب العلم ، فإنِ اعتقدتَ قضيةً غير واقعيةٍ ، فهذا جهل .

فالجاهل : مَنْ يعتقد شيئاً غير واقع ، وهذا الذى يُتعب الدنيا كلها ، ويُشْقى مَن حوله ، لأن الجاهل الأميَّ الذى لا يعلم شيئاً ، وليست لديه فكرة يعتقدها صفحة بيضاء ، تَستطيع أنْ تقنعه بالحقيقة ويقبلها منك ؛ لأنه خالى الذهن ولا يعارضك .

أما الجاهل صاحب الفكرة الخاطئة فيحتاج منك أولاً أنْ تُقنعه بخطأ فكرته حتى يتنازل عنها ، ثم تُلقِى إليه بالفكرة الصواب .

فإنْ تشككْتَ فى النسبة بحيث استوت عندك نسبة الخطأ مع نسبة الصواب ، فهذا هو الشَّكُّ ، فلا تستطيع أنْ تجزم باجتهاد زيد ، ولا بعدم اجتهاده ، فإنْ غلب الاجتهاد فهو ظَنٌّ ، فإنْ غلب عدم الاجتهاد فهو وَهْم .

إذن : نسبة القضايا إما **علم** تعتقده : وهو واقع وتستطيع أنْ تقيمَ الدليل عليه ، أو **تقليد** : وهو ما تعتقده وهو واقع ، لكن لا تقدر على إقامة الدليل عليه ، أو **جهل** : حين تعتقد شيئا غير واقع ، أو **شك** : حين لا تجزم بالشىء ويستوى عندك النفى والإثبات ، أو **ظن** : حين تُرجِّح الإثبات ، أو **وهم** : حين تُرجِّح النفى .

فالظن فى قوله تعالى : ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ .. (١٥)﴾ [الحج] أى : يمرُّ بخاطره مجرد مرور أن الله لن ينصر محمداً ، أو يتوهّم ذلك - ولا يتوهم ذلك إلا الكفار - لأنهم يأملون ذلك فى معركة الإيمان والكفر - مَنْ ظَنَّ هذا الظنَّ فعليه أنْ ينتهىَ عنه ؛ لأنه أمر بعيد ، لن يحدث ولن يكون .

وقد ظَنَّ الكفار هذا الظن حين رَأَوْا بوادر نصر الإيمان وعلامات فوزه ، فاغتاظوا لذلك ، ولم يجدوا شيئاً يريح خاطرهم إلا هذا الظن .

لذلك ؛ يردُّ الله غيظهم عليهم ، فيقول لهم : ستظلون بغيظكم ؛ لأن النصر للإيمان ولجنوده مستمر ، فليس أمامك إلا أنْ تجعل حبلاً فى السماء وتربط عنقك به ، تشنق نفسك حتى تقع ، فإنْ كان هذا الكيد لنفسك يُنجيك من الغيظ فافعل :

﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥)﴾ [الحج]

لكن ما الغيظ ؟ الغيظ : نوع من الغضب مصحوب ومشُوب بحزن وأسَىً وحَسْرة حينما ترى واقعاً يحدث أمام عينيك ولا يرضيك ، وفى الوقت نفسه لا تستطيع أن تفعل شيئاً تمنع به مَا لا يُرضيك .

وهذه المادة (غيظ) موجودة فى مواضع أخرى[1] من كتاب

---

(١) وردتْ هذه المادة فى القرآن الكريم :
- يغيظ . الفعل المضارع . ورد ٣ مرات : (التوبة ١٢٠) ، (الحج ١٥) ، (الفتح ٢٩) .
- الغيظ . الاسم معرف بالـ ورد ٤ مرات : (آل عمران ١١٩ ، ١٣٤) ، (التوبة ١٥) ، (الملك ٨) .
- بغيظكم . الاسم قبله حرف الجر الباء ومضاف إلى ضمير المخاطب للجمع ، ورد مرة واحدة : (آل عمران ١١٩) .
- بغيظهم . الاسم قبله حرف الجر الباء ومضاف إلى ضمير الغيبة للجمع . ورد مرة واحدة : (الأحزاب ٢٥) .
- لغائظون . اسم الفاعل الجمع مؤكد باللام ورد مرة واحدة : (الشعراء ٥٥) .
- تغيظاً : مصدر الفعل تغيَّظ . ورد مرة واحدة : (الفرقان ١٢) .

الله ، وقد استُعْمِلَتْ حتى للجمادات التى لا تُحسُّ ، اقرأ قول الله تعالى عن النار : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ .. ⑧ ﴾ [الملك] وقال : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ⑫ ﴾ [الفرقان] فكأن النار مغتاظة من هؤلاء ، تتأهب لهم وتنتظرهم .

والغَيْظ يقع للمؤمن وللكافر ، فحين نرى عناد الكفار وسُخريتهم واستهزاءهم بالإيمان نغتاظ ، لكن يُذهب الله غيْظ قلوبنا ، كما قال سبحانه : ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ .. ⑮ ﴾ [التوبة]

أما غيْظ الكفار من نصْر الإيمان فسوف يَبْقى فى قلوبهم ، فربُّنا - سبحانه وتعالى - يقول لهم : ثِقُوا تماماً أن الله لم يرسل رسولاً إلا وهو ضامن أنْ ينصره ، فإنْ خطر ببالكم خلافُ ذلك فلن يُريحكم ويَشْفى غيظكم إلاَّ أنْ تشنقوا أنفسكم ؛ لذلك خاطبهم الحق سبحانه فى آية أخرى فقال : ﴿ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ .. ⑪⑨ ﴾ [آل عمران]

ومعنى : ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ .. ⑮ ﴾ [الحج] ﴿ فَلْيَمْدُدْ .. ⑮ ﴾ [الحج] : من مدَّ الشيء يعنى : أطاله بعد أنْ كان مجتمعاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا .. ⑲ ﴾ [الحجر] فكلما تسير تجد أرضاً ممتدة ليس لها نهاية ، وليس لها حافَّة .

والسبب : الحبل ، يُخرجون به الماء من البئر ، لكن هل يستطيع أحد أنْ يربط حبلاً فى السماء ؟ إذن : علَّق المسألة على محال ، وكأنه يقول لهم : حتى إنْ أردتم شَنْق أنفسكم فلن تستطيعوا ، وسوف تظلُّون هكذا بغيظكم .

أو : يكون المعنى : ﴿ إِلَى السَّمَاءِ .. ⑮ ﴾ [الحج] يعنى : سماء البيت وسقفه ، كمَنْ يشنق نفسه فى سَقْف البيت .

ويمكن أن نفهم (السبب) على أنه أيّ شيء يُوصِّلك إلى السماء ، وأيّ وسيلة للصعود ، فيكون المعنى : خذوا أيَّ طريقة تُوصِّلكم إلى السماء لتمنعوا عن محمد أسباب النصر ؛ لأن نَصْر محمد يأتى من السماء فامنعوه ، وهذه أيضاً لا يقدرون عليها ، وسيظل غيظهم فى قلوبهم .

وتلحظ أننا نتكلم عن محمد ﷺ ، مع أن الآية لم تذكر شيئاً عنه ، وكل ما جاء فى الآية ضمير الغائب المفرد فى قوله تعالى : ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ.. (١٥)﴾ [الحج] والحديث مُوجَّه للكفار المغتاظين من بوادر النصر لركْب الإيمان ، فقوله : ﴿يَنصُرَهُ .. (١٥)﴾ [الحج] ينصر مَنْ ؟ لا بُدَّ أنه محمد ، لماذا ؟

قالوا : لأن الأسماء حينما تُطلَق تدلُّ على مَعَانٍ ، فعندما تقول « سماء » نفهم المراد ، وعندما تقول « قلب » نفهم ، « نور » نعرف المراد . والأسماء إما اسم ظاهر مثل : محمد وعلى وعمر وأرض وسماء ، وإما ضمائر تدل على هذه الأسماء الظاهرة مثل : أنا ، أنت ، هو ، هم . والضمير مُبْهم لا يُعيِّنه إلا التكلُّم ، فأنت تقول : أنا وكذلك غيرك يقول أنا أو نحن ، فالذى يُعيِّن الضمير المتكلّم به حال الخطاب ، فعُمْدة الفهم فى الضمائر ذات المتكلم وذات المخاطب . فإنْ لم يكُنْ متكلّماً ولا مخاطباً فهو غائب ، فمن أين تأتى بقرينة التعريف للغائب ؟

حين تقول : هو ، هى ، هم . مَن المراد بهذه الضمائر ؟ كيف تُعيِّنها ؟ إنْ عيَّنْتَ المتكلم بكلامه ، والمخاطب بمخاطبته ، كيف تُعيِّن الغائب ؟ قالوا : لا بُدَّ أنْ يسبقه شيء يدل عليه ، كأن تقول : جاءنى رجل فأكرمتُه ، أكرمت مَنْ ؟ أكرمت الرجل الذى تحدثتُ عنه ، جاءتنى امرأة فأكرمتُها ، جاء قوم فلان فأكرمتهم . إذن : فمرجع الضمير هو الذى يدلُّ عليه .

لكن لم يسبق ذكْر لرسول الله ﷺ قبل الضمير ليُعيِّنه ويدلُّ عليه ، نعم لم يسبق ذكْر لرسول الله ، لكن تأمَّل المعنى : الكلام هنا عن النصر بين فريق الإيمان وعلى رأسه محمد ﷺ ، وفريق الكفر وعلى رأسه هؤلاء المعاندون ، فالمقام مُتعيِّن أنه لا يعود الضمير إلا على رسول الله ﷺ[1] .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ .. ۝١﴾ [القدر]

فالضمير هنا مُتعيِّن ، ولا ينصرف إلا إلى القرآن ، ولا يتعين الضمير إلا إذا كان الخاطر لا ينصرف إلى غيره فى مقامه .

اقرأ : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص] تلحظ أن الضمير سابق على الاسم الظاهر ، فالمرجع متأخر ، ومع ذلك لا ينصرف الضمير إلا إلى الله ، فإذا قيلَ : هو هكذا على انفراد لا يمكن أن ينصرف إلا إلى الله عز وجل .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ .. ۝٦١﴾ [النحل] . على ظَهْر أىِّ شىء ؟ الذِّهْن لا ينصرف فى هذا المقام إلا إلى الأرض .

وقوله تعالى : ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ۝١٥﴾ [الحج] الاستفهام هنا ممَّنْ يعلم ، فهو استفهام للتقرير ، ليُقروا هم بأنفسهم أن غَيْظهم سيظلُّ كما هو ، لا يشفيه شىء ، وأنهم سيموتون بغيظهم ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ .. ۝١١٩﴾ [آل عمران]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٥٥٣/٦) : « الكناية فى ﴿يَنصُرَهُ اللَّهُ .. ۝١٥﴾ [الحج] . ترجع إلى محمد ﷺ ، وهو وإن لم يجر ذكره فجميع الكلام دال عليه ، لأن الإيمان هو الإيمان بالله وبمحمد ﷺ ، والانقلاب عن الدين انقلاب عن الدين الذى أتى به محمد ﷺ » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾

قوله : ﴿ أَنزَلْنَاهُ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الحج] أى : القرآن ؛ لأن الضمير هنا كما ذكرنا مرجعه مُتعيِّن ، وما دام مرجعه مُتعيناً فلا يحتاج لذكر سابق . والإنزال يحمل معنى العلو ، فإنْ رأيتَ فى هذا التشريع الذى جاءك فى القرآن ما يشقُّ عليك أو يحولُ بينك وبين ما تشتهيه نفسك ، فاعلم أنه من أَعْلى منك ، من الله ، وليس من مُسَاوٍ لك ، يمكن أنْ تستدرك عليه أو تناقشه : لماذا هذا الأمر ؟ ولماذا هذا النهى ؟ فطالما أن الأمر يأتيك من الله فلا بُدَّ أن تسمع وتطيع ولا تناقش .

ولنا أُسْوة فى هذا التسليم بسيدنا أبى بكر لما قالوا له : إن صاحبك يقول : إنه أُسْرى به الليلة من مكة إلى بيت المقدس ، ثم عُرِج به إلى السماء ، فما كان من الصِّدِّيق إلا أنْ قال : إنْ كان قال فقد صدق[1] ، هكذا دون مناقشة ، فالأمر من أعلى ، من الله .

وقلنا : إنك لو عُدْتَ مريضاً فوجدتَ بجواره كثيراً من الأدوية فسألته : لماذا كل هذا الدواء ؟ قال : لقد وصفه الطبيب ، فأخذت تعترض على هذا الدواء ، وتذكر من تفاعلاته وأضراره وعناصره ، وأقحمت نفسك فى مسألة لا دَخْلَ لك بها .

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٩٨) ، وأخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/٦٢) وصححه وأقره الذهبى من حديث عائشة رضى الله عنها .

هذا قياس مع الفارق ومع الاعتراف بأخطاء الأطباء في وصف الدواء ، لكن لتوضيح المسألة ولله المثل الأعلى ، وصدق القائل :

سُبْحانَ مَنْ يَرِثُ الطَّبِيبَ وطِبَّهُ ويُرِى المريض مَصَارِعَ الآسينا

إذن : حجة كل أمر ليس أن نعلم حكمته ، إنما يكفى أنْ نعلم الآمر به .

ومعنى ﴿آيَاتٍ .. (١٦)﴾ [الحج] أى : عجائب ﴿بَيِّنَات .. (١٦)﴾ [الحج] واضحات . وسبق أنْ ذكرنا أنَّ كلمة الآيات تُطلَق على معانٍ ثلاثة : الآيات الكونية التى تُثبِت قدرة الله ، وبها يستقر الإيمان فى النفوس ، ومنها الليل والنهار والشمس والقمر ، والآيات بمعنى المعجزات المصاحبة للرسل لإثبات صدْق بلاغهم عن الله ، والآيات التى يتكوَّن منها القرآن ، وتُسمَّى « حاملَة الأحكام » .

فالمعنى هنا ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. (١٦)﴾ [الحج] تحمل كلمة الآيات كُلَّ هذه المعانى ، فآيات القرآن فيها الآيات الكونية ، وفيها المعجزة ، وهى ذاتها آيات الأحكام .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ (١٦)﴾ [الحج] وهذه من المسائل التى وقف الناس حولها طويلاً : ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ .. (٩٣)﴾ [النحل] وأمثالها تمسَّك بها مَنْ ليس لهم حَظٌّ من الهداية ، يقولون : لم يُرِد الله لنا الهداية ، فماذا نفعل ؟ وما ذنبنا ؟

وهذه وقفة عقلية خاطئة ؛ لأن الوَقْفة العقلية تقتضى أنْ تذكر الشيء ومقابله ، أما هؤلاء فقد نبَّهوا العقل للتناقض فى واحدة وتركوا الأخرى ، فهى - إذن - وَقْفة تبريرية ، فالضال الذى يقول : لقد كتب الله علىَّ الضلال ، فما ذنبى ؟ لماذا لم يَقُلْ : الطائع الذى كتب الله له الهداية ، لماذا يثيبه ؟!

فلماذا تركتم الخير وناقشتم فى الشر ؟

والمتأمل فى الآيات التى تتحدث عن مشيئة الله فى الإضلال والهداية يجد أنه سبحانه قد بيَّن مَنْ شاء أنْ يُضلّه ، وبين مَنْ شاء أنْ يهديه ، اقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) ﴾ [المائدة] إذن : كُفْره سابق لعدم هدايته وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) ﴾ [المنافقون] وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) ﴾ [القصص]

إنما يهدى مَنْ آمن به ، أما هؤلاء الذين اختاروا الكفر واطمأنوا إليه وركنوا ، فإن الله تعالى يختم على قلوبهم ، فلا يدخلها الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر ، لأنهم أحبُّوه فزادهم منه كما زاد المؤمنين إيماناً : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى .. (١٧) ﴾ [محمد]

والهداية هنا بمعنى الدلالة على الخير ، وسبق أنْ ضربنا لها مثلاً ، ولله تعالى المثَل الأعلى : هَبْ أنك تسلك طريقاً لا تعرفه ، فتوقفتَ عند جندى المرور وسألته عن وجهتك فدلَّكَ عليها ، ووصف لك الطريق الموصِّل إليها . لكن ، هل دلالته لك تُلزمك أنْ تسلك الطريق الذى وُصف لك ؟

بالطبع أنت حُرٌّ تسير فيه أو فى غيره . فإذا ما حفظتَ لرجل المرور جميلَهُ وشكرته عليه ، ولمس هو فيك الخير ، فإنه يُعينك بنفسه على عقبات الطريق ، وربما ركب معك ليجتاز بك منطقة خطرة يخاف عليك منها . هذا معنى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

أما لو تعاليتَ على هذا الرجل ، أو اتهمته بعدم المعرفة بمسالك الطرق ، فإنه يدعُكَ وشأنك ، ويضِنُّ عليك بمجرد النصيحة .

وهكذا .. الحق ـ سبحانه وتعالى ـ دَلَّ المؤمن ودَلَّ الكافر على الخير ، المؤمن رضى بالله وقَبِل أمره ونَهْيه ، وحمد الله على هذه النعمة ، فزاده إيماناً وأعانه على مشقة العبادة ، وجعل له نوراً يسير على هَدْيه ، أما الكافر فقد تركه يتخبّط فى ظلمات كفره ، ويتردد فى متاهات العمى والضلال .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ(١) وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾

هذه فئات ست أخبر الله عنها بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الحج] ومعنى الفصل بينهم أن بينهم خلافاً ومعركة ، ولو تتبعتَ الآيات التى ذكرت هذه الفئات تجد أن هناك آيتين فى البقرة وفى المائدة .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [البقرة]

وفى المائدة يُقدِّم الصابئين على النصارى ، وفى هذا الموضع تأتى بالرفع بالواو ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا

---

(١) صبا يصبا : خرج من دين إلى دين . والصابئون يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام . وقيل : هم عباد الملائكة . وقيل : عباد الكواكب والنجوم وقيل : عُبَّاد النار . [القاموس القويم ١/٣٦٥] .

وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩) ﴾ [المائدة]

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٧) ﴾ [الحج] أى : بمحمد ﷺ ، ﴿ وَالَّذِينَ هَادُوا .. (١٧) ﴾ [الحج] أى : اليهود ، ثم النصارى وهما قبل الإسلام ، أما الصابئون : فهؤلاء جماعة كانوا على دين إبراهيم عليه السلام ، ثم عبدوا الكواكب فَسُمُّوا الصابئة لخروجهم عن الدين الحق . أما المجوس : فهم عبدة النار ، والذين أشركوا : هم المشركون عَبَدَة الأصنام والأوثان .

أما التقديم والتأخير بين النصارى والصابئين ، قالوا : لأن النصارى فرقة كبيرة معروفة ولهم نبى ، أما الصابئة فكانوا جماعة خرجوا على نبيهم وخالفوه وأتَوْا بعقيدة غير عقيدته ، فهم قلَّة ، لكن سبقوا النصارى فى الترتيب الزمنى ؛ لذلك حين يراعى السَّبْق الزمنى يقول : ﴿ الصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ .. (١٧) ﴾ [الحج] ، وحين يراعى الكثرة والشهرة ، يقول : ﴿ النَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ .. (٦٢) ﴾ [البقرة] فكلٌّ من التقديم أو التأخير مُراد لمعنى مُعيَّن .

أما قوله : ﴿ وَالصَّابِئُونَ .. (٦٩) ﴾ [المائدة] بالرفع على خلاف القاعدة فى العطف ، حيث عطفت على منصوب ، والمعطوف تابع للمعطوف عليه فى إعرابه ، فلماذا وسَّط مرفوعاً بين منصوبات ؟

قالوا : لا يتم الرفع بين المنصوبات إلا بعد تمام الجملة ، فكأنه قال : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى ، والصابئون كذلك ، فعطف هنا جملة تامة ، فهى مُؤخَّرة فى المعنى ، مُقدَّمة فى اللفظ ، وهكذا تشمل الآية التقديم والتأخير السابق .

لكن ، كيف ينشأ الخلاف بين الأديان ؟

ينشأ الخلاف من أن قوماً يؤمنون بإله ويؤمنون بالنبى المبلِّغ عن هذا الإله ، لكنهم يختلفون على أشياء فيما بينهم ، كما نرى الخلاف مثلاً بين المعتزلة وأهل السنة ، أو الجبرية والقدرية ، فجماعة تثبت الصفات ، وآخرون يُنكرونها ، جماعة يقولون : الإنسان مُجْبَر فى تصرفاته ، وآخرون يقولون : بل هو مختار .

وقد ينشأ الخلاف بين الأديان للاختلاف فى النبوات ، فأهل الديانات يؤمنون بالإله الفاعل المختار ، لكن يختلفون فى الأنبياء موسى وعيسى ومحمد مع أنهم جميعاً حَقٌّ . وقد ينشأ الخلاف من الادعاء ، كالذين يدَّعُون النبوة كهؤلاء الذين يعبدون النار ، أو يعبدون بوذا مثلاً .

فهذه ست طوائف مختلفة ذكرتهم الآية ، فما حكم هؤلاء جميعاً بعد بعثة محمد ﷺ ؟

نقول : أما المشركون الذين عبدوا الأصنام ، وكذلك الذين عبدوا النبوة المدَّعاة ، فهؤلاء كفار ضائعون . أما اليهود والنصارى الذين يؤمنون بإله فاعل مختار ، ويؤمنون بنبوة صادقة ، فشأنهم بعد ظهور الإسلام ، أن الله تعالى أقام لنا تصفية آخر الأمر لهذه الديانات ، فمَنْ كان يهودياً قبل الإسلام ، ومَنْ كان نصرانياً قبل الإسلام ، فإن الله أجْرى لهم تصفية عقدية هى الإسلام ، فإنْ كانوا مؤمنين الإيمان الأول بالله تعالى فعليهم أنْ يبدأوا من جديد مؤمنين مسلمين .

لذلك قال بعدها : ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ [البقرة]

فبعد ظهور الإسلام بدأت لهؤلاء جميعاً ـ اليهود والنصارى

والمجوس والمشركين ـ حياة جديدة ، وفُتحَتْ لهم صفحة جديدة هم فيها أولاد اليوم ، حيث لزمهم جميعاً الإيمان بالله تعالى والإيمان بنبيه محمد ﷺ ، وكأن الإسلام تصفية (وأوكازيون إيمانى) يجُبُّ ما قبله ، وعفا الله عما سلف .

والحق ـ سبحانه ـ حينما تكلم عن الأجيال السابقة لنبوة محمد ﷺ . قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي[1] قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) ﴾ [آل عمران]

لذلك نبَّه كُلٌّ من موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ بوجود محمد ﷺ وبشَّروا به ، بدليل قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩) ﴾ [البقرة] والمراد اليهود والنصارى .

وقد جاء محمد ﷺ رحمة للعالمين ، وجامعاً للأديان كلها فى الإسلام الذى زاد عليها ما زاد مما تقتضيه أمور الحياة وتطورات العصر ، إلى أن تقوم الساعة .

جاء الإسلام تصفيةً لهؤلاء ، استأنفوها بإيمان ، واستأنفوها بعمل صالح ، فكان لهم أجرهم كاملاً عند ربهم لا يطعن فيهم دينهم السابق ، ولا عقائدهم الفاسدة الكافرة .

أما إنْ حدث خلاف حول النبوات كما تذكر الآية التى نحن بصددها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) ﴾ [الحج] والفَصْلُ أن نعرف مَنِ المحقُّ ومَنِ المبطل ، وهكذا جمعتْ

(١) الإصر : العهد والعقد والميثاق . [لسان العرب ـ مادة : أصر] .

الآيات بين حالة الاتفاق وحالة الاختلاف وبيَّنَتْ جزاء كل منهما .

فالفصل إما فصل أماكن ، وإما فصل جزاءات ، قالوا : بالطبع فالحكم بينهم : هذا مُحِقٌّ وهذا مُبطِل سيؤدى إلى اختلاف الأماكن واختلاف الجزاءات .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحج] لأن الله تعالى هو الحكَم الذى يفصل بين عباده ، والحكم يحتاج إما إلى بينة أو شهود ، والشهود لا بُدَّ أن يكونوا عُدولاً ، ولا يتحقق العدل فى الشهادة إلا بدين يمنع الإنسان أنْ يميل عن الحق ، فإن كان الحكم هو الله فلا حاجة لبيِّنة ، ولا حاجةَ لشهود ؛ لأنه سبحانه يحيط علمه بكل بشىء ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض .

ومن العجيب أن الحُكْم والفَصْل من الحق سبحانه يشمل كل السلطات : التشريعية والقضائية والتنفيذية ، فحُكْمه سبحانه لا يُؤجَّل ولا يُتحَايل عليه ، ولا تضيع فيه الحقوق كما تضيع فى سراديب وأدراج المحاكم .

أما حُكْم البشر فينفصل فيه التشريع عن القضاء عن التنفيذ ، فربما صدر الحكم وتعطَّل تنفيذه ، أما حكم الله فنافذ لا يُؤجِّله شىء .

إذن : المسألة لن تمرَّ هكذا ، بل هى محسوبة لك أو عليك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ .. (١٨) ﴾ [الحج] يعنى : ألم تعلم ؛ لأن السّجود من هذه الأشياء سجود على حقيقته كما نعلمه فى السجود من أنفسنا ، ولكل جنس من أجناس الكون سجود يناسبه .

وسبق أن تحدثنا عن أجناس الكون وهى أربعة : أدناها الجماد ، ثم يليه النبات ، حيث يزيد عليه خاصية النمو وخاصية الحركة ، ثم يليه الحيوان الذى يزيد خاصية الإحساس ، ثم يليه الإنسان ويزيد عليه خاصية الفكر والاختيار بين البدائل .

وكل جنس من هذه الأجناس يخدم ما هو أعلى منه ، حيث تنتهى هذه الدائرة بأن كل مَا فى كون الله مُسخَّر لخدمة الإنسان ، وفى الخبر : « يا ابن آدم خلقتُ الأشياء من أجلك ، وخلقتُكَ من أجلى ، فلا تشتغل بما هو لك عَمَّنْ أنت له »[(١)] .

فكان على الإنسان أن يفكر فى هذه الميْزة التى منحه ربه إياها ، ويعلم أن كل شىء فى الوجود مهما صَغُر فله مهمة يؤديها ، ودَوْر يقوم به . فأَوْلَى بك أيها الإنسان وأنت سيد هذا الكون أن يكون لك مهمة ، وأن يكون لك دور فى الحياة فلستَ بأقلَّ من هذه المخلوقات التى سخَّرها الله لك ، وإلاَّ صرْت أقلّ منها وأدنى .

إن كانت مهمة جميع المخلوقات أنْ تخدمك لأنك أعلى منها ، فانظر إلى مهمتك لمَنْ هو أعلى منك ، فإذا جاءك رسول من أعلى منك ليُنبِّهك إلى هذه المهمة كان عليك أن تشكره ؛ لأنه نبَّهك إلى ما ينبغى لك أن تشتغل به ، وإلى مَنْ يجب عليك الاتصال به دائماً ؛ لذلك فالرسول لا يصح أن تنصرف عنه أبداً ؛ لأنه يُوضِّح لك مسائل كثيرة هى مَحَلٌّ للبحث العقلى .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢٣٨/٤) : « ورد فى بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : ابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبنى تجدنى ، فإن وجدتنى وجدت كل شىء ، وإن فُتُّك فاتك كل شىء ، وأنا أحبّ إليك من كل شىء » وقد أخرج أحمد فى مسنده (٣٥٨/٢) عن أبى هريرة رفعه « قال الله : ابن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنًى وأسد فقرك وإلا تفعل ملأتُ صدرك شغلاً ولم أسدّ فقرك » .

وكـان على العـقل البـشـرى أن يفكر فى كـل هذه الأجناس التى تخدمه : ألكَ قدرة عليها ؟ لقد خدمتْكَ منذ صغَرِك قبل أنْ تُوجِّه إليها أمراً ، وقـبل أنْ توجدَ عندك القـدرة لتأمـر أو لتتناول هذه الأشـياء ، كان عليك أنْ تتنبه إلى القوة الأعلـى منك ومن هذه المخلوقات ، القوة التى سخَّرَتْ الكون كله لخدمتك ، وهذا بَحْث طبيعى لا بُدَّ أن يكون .

هذه الأشياء فى خدمتها لك لم تتأبَّ عليك ، ولم تتخلف يوماً عن خدمتـك ، انظر إلى الشـمس والقمر وغيرهما : أقـالت الشمس يوماً : إن هؤلاء القومِ لا يستحقون المعروف ، فلن أطلع عليهم اليوم ؟!

الأرض : هل ضنَّتْ فى يوم على زارعها ؟ الريح : هل توقفتْ عن الهـبوب . وكـلها مـخلوقـات أقـوى منك ، ولا قدرةَ لك عـليهـا ، ولا تستطيع تسخيرها ، إنما هى فى قبضة الله ـ عز وجل ـ ومُسخَّرة لك بأمره سبحانه ، ولأنها مُسخَّرة فلا تتخلف أبداً عن أداء مهمتها .

أما الإنسان فيأتى منه الفساد ، ويأتى منه الخروج عن الطاعة لما منحه الله من منطقة الاختيار .

البـعض يقـول عن سـجود هذه الـمخلـوقات أنه سـجـود دلالة ، لا سجـوداً على حقـيقتـه ، لكن هذا القول يعـارضه قـول الله تعالى :

﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾ [النور]

فلكل مـخلوق مهـمـا صَغُـر صلاة وتسـبـيح وسجـود ، يتناسب وطبيعته ، إنك لو تأملت سجـود الإنسان بجبهته على الأرض لوجدتَ اختـلافاً بين الـناس باختـلاف الأحوال ، وهم نوع واحـد ، فسـجود الصحـيح غيـر سجـود المريض الذى يسـجد وهو على الـفراش ، أو جـالس على مقـعـد ، وربمـا يشيـر بعـينه ، أو أصبـعـه للدلالة على السجود ، فإن لم يستطع أجرى السجود على خاطره .

فإذا كان السجود يختلف بهذه الصورة فى الجنس الواحد حَسْب حاله وقدرته وطاقته ، فلماذا نستبعد أن يكون لكل جنس سجوده الخاص به ، والذى يتناسب مع طبيعته ؟

وإذا كان هذا حال السجود فى الإنسان ، فهل ننتظر مثلاً أن نرى سجود الشمس أو سجود القمر ؟! ما دام الحق - سبحانه وتعالى - قال إنها تسجد ، فلا بُدَّ أن نؤمن بسجودها ، لكن على هيئة لا يعلمها إلا خالقها عز وجل .

بالله ، لو جلس مريض يصلى على مقعد أو على الفراش ، أتعرف وهو أمامك أنه يسجد ؟ إذن : كيف نطمع فى معرفة كيفية سجود هذه المخلوقات ؟

ومن معانى السجود : الخضوع والطاعة ، فمَنْ يستبعد أن يكون سجود هذه المخلوقات سجوداً على الحقيقة ، فليعتبر السجود هنا للخضوع والانقياد والطاعة ، كما تقول على إنسان متكبر : جاء ساجداً يعنى : خاضعاً ذليلاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) ﴾ [فصلت]

إذن : لك أن تفهم السجود على أىِّ هذه المعانى تحب ، فلن تخرج عن مراده سبحانه ، ومن رحمة الله أنْ جعل هذه المخلوقات خاضعة لإرادته ، لا تنحلّ عنها أبداً ولا تتخلف ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

ونحن نتناقل الآن ، ونروى بعض حوارات السالكين وأهل المعرفة وأصحاب الفيوضات الذين فَهموا عن الله وتذوّقوا لذّة قُرْبه ، وكانوا يتحاورون

ويتنافسون لا للمباهاة والافتخار ، إنما للترقى فى القرب من الله .

جلس اثنان من هؤلاء العارفين وفى فَم أحدهم نَخْمة يريد أنْ يبصقها ، وبدتْ عليه الحيرة ، وهو ينظر هنا وهناك فقال لَه صاحبه: ألْقها واسترح ، فقال : كيف وكلما أردتُ أنْ أبصقها سمعت الأرض تُسَبِّح فاستحيْتُ أنْ أُلقيها على مُسبِّح ، فقال الآخر - ويبدو أنه كان فى منزلة أعلى منه - وقد افتعل البَصْق وقال : مُسبِّح فى مُسبِّح .

إذن : فأهل الكشف والعارفون بالله يدركون هذا التسبيح ، ويعترفون به ، وعلى قدر ما لديك من معرفة بالله ، وما لديك من فَهْم وإدراك يكون تلقِّيك وتقبُّلك لمثل هذه الأمور الإيمانية .

والحق - سبحانه وتعالى - حين قال : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ** .. (١٨) ﴾ [الحج] معلوم أن مَنْ فى السموات هم الملائكة ولسْنا منهم ، لكن نحن من أهل الأرض ويشملنا حكم السجود وندخل فى مدلوله ، فلماذا قال بعدها : ﴿ **وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ** .. (١٨) ﴾ [الحج] ؟

كلمة : ﴿ **وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ** .. (١٨) ﴾ [الحج] تُبيِّن أن لنا قهريةً وتسخيراً وسجوداً كباقى أجناس الكون ، ولنا أيضاً منطقة اختيار . فالكافر الذى يتعوَّد التمرُّد على خالقه : يأمره بالإيمان فيكفر ، ويأمره بالطاعة فيعصى ، فلماذا لا يتمرد على طول الخط ؟ لماذا لا يرفض المرض إنْ أمرضه الله ؟ ولماذا لا يرفض الموت إنْ حَلَّ به ؟

إذن : الإنسان مُؤتمر بأمر الله مثل الشجر والحجر والحيوان ، ومنطقة الاختيار هى التى نشأ عنها هذا الانقسام : كثير آمن ، وكثير حَقَّ عليه العذاب .

لكن ، لماذا لم يجعل الله - سبحانه وتعالى - الخَلْق جميعاً مُسخَّرين ؟

قالوا : لأن صفة التسخير وعدم الخروج عن مرادات الله تثبت لله تعالى صفة القدرة على الكل ، إنما لا تُثبت لله المحبوبية ، المحبوبية لا تكون إلا مع الاختيار : أن تكون حُرّاً مختاراً فى أنْ تُؤمنَ أو تكفر فتختار الإيمان ، وأنْ تكون حُرّاً وقادراً على المعصية ، لكنك تطيع .

وضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - : هَبْ أن عندك عبدين ، تربط أحدهما إليك فى سلسلة مثلاً ، وتترك الآخر حُراً ، فإنْ ناديتَ عليهما أجاباك ، فأيهما يكون أطْوعَ لك : المقهور المجبر ، أم الحر الطليق ؟ .

إذن : التسخير والقهر يُثبت القدرة ، والاختيار يُثبت المحبة .

والخلاف الذى حدث من الناس ، فكثير منهم آمن ، وكثير منهم حَقَّ عليه العذاب ، من أين هذا الاختلاف يا رب ؟ مما خلقتُه فيك من اختيار ، فمَنْ شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، فكأن كفر الكافر واختياره ؛ لأن الله سَخَّره للاختيار ، فهو حتى فى اختياره مُسخَّر .

أما قوله تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج] يعنى : باختياراتهم ، وكان المفروض أن يقول فى مقابلها : وقليل ، لكن هؤلاء كثير ، وهؤلاء كثير أيضاً .

ومعنى : ﴿ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج] حقَّ : يعنى ثبتَ ، فهذا أمر لا بُدَّ منه ، حتى لا يستوى المؤمن والكافر : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القلم] إذن : لا بُدَّ أنْ يعاقب هؤلاء ، والحق يقتضى ذلك .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا

يَشَاءُ ﴿١٨﴾ [الحج] لأن أحقيَّة العذاب من مُساوٍ لك . قد يأتى مَنْ هو أقوى منه فيمنعه ، أو يأتى شافع يشفع له ، وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يُيئِّسُ هؤلاء من النجاة من عذابه ، فلن يمنعهم أحد .

فمَنْ أراد الله إهانته فلن يُكرمه أحد ، لا بنُصْرته ولا بالشفاعة له ، فالمعنى : ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ .. ﴿١٨﴾ [الحج] أى : بالعذاب الذى حَقَّ عليه وثبت ﴿فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ .. ﴿١٨﴾ [الحج] يعنى : يكرمه ويُخلِّصه من هذا العذاب ، كذلك لا يوجد مَنْ يُعزه ؛ لأن عزَّته لا تكون إلا قَهْراً عن الله ، وهذا مُحَال ، أو يكون بشافع يشفع له عند الله ، ولا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه سبحانه .

لذلك ، نقول : إن الحق سبحانه يُجير على خَلْقه ولا يُجَار عليه ، يعنى : لا أحد يقول لله : هذا فى جوارى ؛ لذلك ذيَّلَ الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ [الحج]

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى[1] :

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾

كلمة خَصْم من الألفاظ التى يستوى فيها المفرد والمثنى

(١) سبب نزول الآية : عن أبى ذر - رضى الله عنه - أنه كان يقسم قسماً ، إن هذه الآية ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ .. ﴿١٩﴾ [الحج] نزلت فى الثلاثة والثلاثة الذين تبارزوا يوم بدر ، وهم : حمزة بن عبد المطلب ، وعبيدة بن الحارث ، وعلى بن أبى طالب ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة . قال على رضى الله عنه : أنا أول من يجثو فى الخصومة على ركبتيه بين يدى الله يوم القيامة . أورده الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٧٦) ، والدر المنثور للسيوطى (١٨/٦) وعزاه للبخارى ومسلم وغيرهما .

والجمع ، وكذلك المذكر والمؤنث كما فى قوله تعالى ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١)﴾ [ص]

ويقول تعالى : ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٢٢)﴾ [ص]

والمراد بقوله : ﴿خَصْمَانِ .. (١٩)﴾ [الحج] قوله تعالى : ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨)﴾ [الحج] والخصومة تحتاج إلى فَصْل بين المتخاصمين ، والفَصْل يحتاج إلى شهود ، لكن إنْ جاء الفَصْل من الله تعالى فلن يحتاج إلى شهود ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)﴾ [النساء]

وإنْ جاء عليهم بشهود من أنفسهم ، فإنما لإقامة الحجة ولتقريعهم ، يقول تعالى : ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. (٢١)﴾ [فصلت]

فإنْ قلتَ : كيف تشهد الجوارح على صاحبها يوم القيامة وهى التى فعلت ؟

نقول : هناك فَرْق بين عمل أريده وعمل أؤديه ، وأنا أبغضه وضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - بالقائد الذى يأمر جنوده ، وعليهم أنْ يُطيعوه حتى إنْ كانت الأوامر خاطئة ، فإنْ رجعوا إلى القائد الأعلى حكَوْا له مَا كان من قائدهم ؛ ذلك لأن القائد الأعلى جعل له ولاية عليهم ، وألزمهم طاعته والائتمار بأمره .

فالخالق - عز وجل - جعل لإرادة الإنسان ولاية على جوارحه ، فالفعل - إذن - للإرادة ، وما الجوارح إلا أداة للتنفيذ . فحينما تريد مثلاً أنْ تقوم ، مجرد أن تريد ذلك تجد نفسك قائماً دون أنْ تفكر فى حركة القيام أو العضلات التى تحركتْ لتؤدى هذا العمل ، مع أنها

عملية مُعقَّدة تتضافر فيها الإرادة والعقل والأعصاب والأعضاء ، وأنت نفسك لا تشعر بشيء من هذا كله ، وهل في قيامك أمرتَ الجوارح أنْ تتحرَّك فتحركتْ ؟

فإذا كانت جوارحك تنفعل لك وتطاوعك لمجرد الإرادة ، أفلا يكون أوْلى من هذا أنْ ينفعل خَلْق الله لإرادة الله ؟

إذن : العمدة في الأفعال ليستْ الجوارح وإنما الإرادة ، بدليل أن الله تعالى إذا أراد أنْ يُعطِّل جارحة من الجوارح عطَّل الإرادة الآمرة ، وقطعها عن الجارحة ، فإذا هي مشلولة لا حركةَ فيها ، فإنْ أراد الإنسان تحريكها بعد ذلك فلن يستطيع ، لماذا ؟

لأنه لا يعلم الأبعاض التي تُحرِّك هذه الجارحة ، ولو سألتَ أعلم الناس في علم الحركة والذين صنعوا الإنسان الآلي : ما الحركة الآلية التي تتم في جسم الإنسان كي يقوم من نومه أو من جِلْسته ؟ ولن يستطيع أحد أنْ يصفَ لك ما يتم بداخل الجسم في هذه المسألة .

أما لو نظرتَ مثلاً إلى الحفَّار ، وهو يُؤدِّي حركات أشبه بحركات الجسم البشري لوجدتَ صبياً يشغله باستخدام بعض الأزرار ، ويستطيع أنْ يصفَ لك كل حركة فيه ، وما الآلات التي تشترك في كل حركة . فَقُلْ لي بالله : ما الزر الذي تضغط عليه لتحرك يدك أو ذراعك ؟ ما الزر الذي تُحرِّك به عينيك ، أو لسانك ، أو قدمك ؟ إنها مجرد إرادة منك فينفعل لك ما تريد ؛ لأن الله تعالى خلقك ، وجعل لإرادتك السيطرة الكاملة على جوارحك ، فلا تستبعد أنْ تنفعل المخلوقات لله - عز وجل - إنْ أراد منها أنْ تفعلَ .

حتى العذاب في الآخرة ليس لهذه الجوارح والأبعاض ، إنما العذاب للنفس الواعية ، بدليل أن الإنسان إذا تعرَّض لألم شديد

لا يستريح منه إلا أنْ ينام ، فإذا استيقظ عاوده الألم ، إذن : فالنفس هى التى تألم وتتعذَّب لا الجوارح .

والحق سبحانه هو الذى يفصل بين هذيْن الخصميْن ، كما قال سبحانه فى آية أخرى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ⑰﴾ [الحج]

لذلك يقول الإمام على رضى الله عنه وكرَّم الله وجهه[1]: أنا أول مَنْ يجثو بين يدى الله يوم القيامة للفصل ومعى عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب . هؤلاء فى جانب وفى الجانب المقابل : عتبة ابن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة .

لماذا ؟لأن بين هؤلاء كانت أول معركة فى الإسلام ، وهذه أول خصومة وقعتْ فيه ، ذلك لأنهم فى معركة بدر أخرج رسول الله ﷺ قوماً للمبارزة ، وكانت عادتهم فى الحروب أنْ يخرج أقوياء القوم وأبطالهم للمبارزة بدل أنْ يُعذِّبوا القوم ويشركوا الجميع فى القتال ، ويُعرِّضوا أرواح الناس جميعاً للخطر .

ومن ذلك ما حدث بين على ومعاوية - رضى الله عنهما - فى موقعة صفِّين حيث قال على لمعاوية : ابرز إلىَّ يا معاويةُ ، فإنْ غلبتنى فالأمر لك ، وإنْ غلبتُك فاجعل الأمر لى ، فقال عمرو بن العاص وكان فى صفوف معاوية : والله ، يا معاوية لقد أنصفك الرجل ، وفى هذا حَقْنٌ لدماء المسلمين فى الجانبين .

فنظر معاوية إلى عمرو وقال : والله يا عمرو ما أردْتَ إلا أن أبرز

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٤٤) قال : « أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة » قال قيس بن عباد : وفيهم نزلت ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ .. ⑲﴾ [الحج] قال : هم الذين بارزوا يوم بدر : على وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة .

له فيقتلني ، ويكون لك الأمر من بعدي ، وما دُمْتَ قد قلتَ ما قلتَ فلا يبارزه غيرك فاخرج إليه .

فقام عمرو لمبارزة علي ، لكن أين عمرو من شجاعة علي وقوته ؟ وحمل عليٌّ على عمرو حملة قوية ، فلما أحسَّ عمرو أن علياً سيضربه ضربة تميته لجأ إلى حيلة ، واستعمل دهاءه في صَرْف عليٍّ عنه ، فكشف عمرو عن عورته ، وهو يعلم تماماً أن علياً يتورع عن النظر إلى العورة ، وفعلاً تركه علي وانصرف عنه ، ونجا عمرو بحيلته هذه[1] .

وقد عبَّر الشاعر عن هذا الموقف فقال :

وَلاَ خَيْرَ في رَدِّ الرَّدَى بِدَنيَّةٍ   كَما رَدَّهَا يَوْماً بِسَوْأَتِه عَمْرُو

ويقول الشريف[2] الرضي - وهو من آل البيت - في القصيدة التي مطلعها :

أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ شِيمَتُكَ الصَّبْرُ   أَمَا لِلْهَوَى أَمْرٌ عليْكَ ولاَ نَهْيُ

---

(١) ذكر ابن كثير في كتابه « البداية والنهاية » (٤/٢٧٤) أن علياً رضي الله عنه نادى : ويحك يا معاوية ، ابرز إليَّ ولا تفني العرب بيني وبينك ، فقال له عمرو بن العاص : اغتنمه فإنه قد أثخن بقتل هؤلاء الأربعة ، فقال له معاوية : والله لقد علمت أن علياً لم يقهر قط ، وإنما أردت قتلي لتصيب الخلافة من بعدي ، اذهب إليه ، فليس مثلي يُخدع . وذكروا أن علياً حمل على عمرو بن العاص يوماً فضربه بالرمح فألقاه إلى الأرض فبدت سوءته فرجع عنه ؛ فقال له أصحابه : مالك يا أمير المؤمنين رجعت عنه ؟ فقال : أتدرون ما هو ؟ قالوا : لا قال : هذا عمرو بن العاص تلقاني بسوءته فذكرني بالرحم فرجعت عنه ، فلما رجع عمرو إلى معاوية قال له : احمد الله واحمد إستك .

(٢) هو : محمد بن الحسين أبو الحسن الرضي العلوي الحسيني ، أشعر الطالبيين ، مولده ٣٥٩ هـ ووفاته (٤٠٦ هـ) في بغداد ، انتهت إليه نقابة الأشراف في حياة والده . له « المجازات النبوية » ، « مجاز القرآن » ، « خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب » [الأعلام للزركلي ٦ / ٩٩] .

بَلَى أَنَا مُشْتَاقٌ وعِـنْدِى لَوْعَـةٌ وَلَكِنْ مِـثْـلى لاَ يُذَاعُ لَهُ سِـرُّ

• وفيها يقول :

وَإنَّـا أُنَـاسٌ لاَ تَوسُّـطَ بَيْـنَنَـا لَـنَا الصَّدْرُ دُون العَالَمينَ أَو القَـبْرُ

نعود إلى بدر ، حيث اعترض الكفار حينما أخرج لهم رسول الله بعض رجال الأنصار فقالوا : هؤلاء نكرات من الأنصار ، نريد أن تُخرِج لنا أَكْفَاءنا من رجال قريش ، فأخرج لهم رسول الله ﷺ علياً وحمزة وعبيد بن الحارث بن عبد المطلب ، وأخرجوا هم عتبة وشيبة والوليد ، وكان ما كان من نُصْرة المسلمين وهزيمة المشركين(1) .

وهذا هو اليوم الذى قال الله فيه : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) ﴾ [آل عمران]

إذن : فبدر كانت فَصْلاً دنيوياً بين هذيْن الخصْمين ، ويبقى فَصْل الآخرة الذى قال فيه الإمام على : « أنا أول مَنْ يجثو بين يدى الله يوم القيامة للفصل » .

ومعنى : ﴿ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ .. (١٩) ﴾ [الحج] أى : بسبب اختلافهم فى ربهم ، ففريقٌ يؤمن بوجود إله ، وفريقٌ يُنكره ، فريق يُثبت له الصفات ، وفريق ينفى عنه هذه الصفات ، يعنى : انقسموا بين إيمان وكفر .

(1) ذكر ابن هشام فى « السيرة النبوية » (٦٢٥/٢) أن عتبة بن ربيعة خرج بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة ، حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة ، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة ، وهم : عوف ، ومُعوذ ، ابنا الحارث - وأمهما عَفْراء - ورجل آخر يقال : هو عبد الله بن رواحة - فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار . قالوا : ما لنا بكم من حاجة . ثم نادى مناديهم : يا محمد ، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، فقال رسول الله ﷺ : قُمْ يا عبيدة بن الحارث ، وقُمْ يا حمزة وقُمْ يا على ، فلما قاموا ودنوا منهم ، قالوا : من أنتم ؟ قالوا : نعم ، أكفاء كرام ، فبارز عبيدة ، وكان أسنَّ القوم . عتبة ابن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة ، وبارز علىٌّ الوليدَ بن عتبة » .

ثم يُفصِّل القول : ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) ﴾ [الحج]

﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ .. (١٩) ﴾ [الحج] كأن النار تفصيل على قَدْر جسومهم إحكاماً للعذاب ، ومبالغةً فيه ، فليس فيها اتساع يمكن أنْ يُقلِّل من شدَّتها ، وليست فضفاضة عليهم .

ثم ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) ﴾ [الحج] والحميم : الماء الذى بلغ منتهى الحرارة ، حتى صار هو نفسه مُحْرِقاً من شدَّة حَرّه ، ولكَ أنْ تتصور ماءً يَغْليه ربنا عز وجل !!

وهكذا يجمع الله عليهم ألوان العذاب ؛ لأن الثياب يرتديها الإنسان لتستر عورته ، وتقيه الحر والبرد ، ففيها شمول لمنفعة الجسم ، يقول تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

فالإذاقة ليستْ فى اللباس ، إنما بشىء آخر ، واللباس يعطى الإحاطة والشمول ، لتعم الإذاقة كُلَّ أطراف البدن ، وتحكم عليه مبالغةً فى العذاب .

﴿ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ (٢٠) ﴾

قلنا : إن هذا الماء بلغ من الحرارة منتهاها ، فلم يغْلِ عند درجة الحرارة التى نعرفها ، إنما يُغليه ربه الذى لا يُطيق عذابَه أحدٌ . وأنت إذا صببتَ الماء المغلى على جسم إنسان فإنه يشوى جسمه من الخارج ، إنما لا يصل إلى داخله ، أمّا هذا الماء حين يُصَبُّ عليهم

فإنه يصهر ما فى بطونهم أولاً ، ثم جلودهم بعد ذلك ، فاللهم قِنَا عذابك يوم تبعث عبادك .

﴿ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ﴿٢١﴾ ﴾

المقامع : هى السياط التى تقمع بها الدابة ، وتَرْدعها لتطاوعك ، أو الإنسان حين تعاقبه ، لكنها سياط من حديد ، ففيها دلالة على الذِّلَّة والانكسار ، فضلاً عن العذاب .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه مهمة هذه المقامع ، فيقول :

﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - يُصوِّر حال أهل النار وما هم فيه من العذاب ومن اليأس فى أن يُخفف عنهم ، فإذا ما حاولوا الخروج من غَمِّ العذاب جاءتهم هذه السياط فأعادتهم حيث كانوا ، والإنسان قد يتعود على نوع من العذاب فيهون عليه الأمر ، كالمسجون مثلاً الذى يُضْرب بالسياط على ظهره ، فبعد عدة ضربات يفقد الإحساس ولا يؤثر فيه ضَرْب بعد ذلك .

وقد أجاد المتنبى[1] فى وصف هذا المعنى حين قال :

رَمَانى الدَّهْرُ بالأَرْزَاءِ حتّى ... كَأَنِّى فِى غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ

(١) المتنبى : هو أحمد بن الحسين أبو الطيب الكندى ، ولد (٣٠٣ هـ) بالكوفة فى محلة تسمى كندة ، نشأ بالشام ، ثم تنقل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية ، قال الشعر صبياً ، تنبأ فى بادية السماوة ، أسره أمير حمص وسجنه حتى تاب ورجع عن دعواه ، توفى ٣٥٤ هـ عن ٥٢ عاماً [الأعلام للزركلى ١/١١٥] .

فكنتُ إذَا أَصَابتْنِى سِهَامٌ تكسَّرتْ النِّصَالُ علَى النِّصَال

لكن أنِّى يُخفَّف عن أهل النار ، والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النساء]

ففى إعادتهم تيئيس لهم بعد أنْ طمعوا فى النجاة ، وما أشدّ اليأس بعد الطمع على النفس ؛ لذلك يقولون : لا أفجعَ من يأس مقمع ، بعد أمل مُقْمِع . كما يقول تعالى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا .. (٢٩) ﴾ [الكهف] ساعة يسمعون الإغاثة يأملون ويستبشرون ، فيأتيهم اليأس فى ﴿ بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ .. (٢٩) ﴾ [الكهف]

وقوله تعالى : ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) ﴾ [الحج] الحريق : الشىء الذى يحرق غيره لشدته .

• • •

وبعد أن تحدثتْ الآياتُ عن الكافرين ، وما حاق بهم من العذاب كان لا بُدَّ أنْ تتحدَّث عن المقابل ، عن المؤمنين ليُجرى العقلُ مقارنةً بين هذا وذاك ، فيزداد المؤمن تشبُّثا بالإيمان ونُفْرةً من الكفر ، وكذلك الكافر ينتبه لعاقبة كُفْره فيزهد فيه ويرجع إلى الإيمان ، وهكذا ينتفع الجميع بهذه المقابلة ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يعطينا فى آيات القرآن وفى هذه المقابلات وسائل النجاة والرحمة .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ (٢٣) ﴾

يُبيِّن الحق سبحانه وتعالى ما أعدّه لعباده المؤمنين حيث السكن : ﴿ جنَّات تَجْرِى من تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (٢٣) ﴾ [الحج] والزينة : ﴿ يُحلَّوْنَ فيهَا منْ أَسَاوِرَ من ذَهَبٍ ولُؤْلُؤًا .. (٢٣) ﴾ [الحج] واللباس : ﴿ ولِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) ﴾ [الحج] فجمع لهم نعيم السَّكَن والزينة واللباس .

وفى الآخرة يُنعِّم الرجال بالحرير وبالذهب الذى حُرِّم عليهم فى الدنيا ، وهنا قد يعترض النساء ، وما النعيم فى شيء تنعّمنا به فى الدنيا وهو الحرير والذهب ؟

نعم تتمتعْن بالحرير والذهب فى الدنيا ، أمّا فى الآخرة فهو نوع آخر ومتعة كاملة لا يُنغِّصها شيء ، فالحلى للمرأة خالصٌ من المكدِّرات ، وباقٍ معها لا يأخذه أحد ، ولا تحتاج إلى تغييره أو بيعه ؛ لأنه يتجدد فى يدها كل يوم ، فتراه على صياغة جديدة وشكل جديد غير الذى كان عليه[1]. كما قلنا سابقاً فى قوله تعالى عن أهل الجنة : ﴿ قَالُوا هَـٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ .. (٢٥) ﴾ [البقرة]

فحسبوا أن طعام الجنة وفاكهتها كفاكهة الدنيا التى أكلوها من قبل ، فيُبيِّن لهم ربهم أنها ليستْ كفاكهة الدنيا ﴿ وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. (٢٥) ﴾ [البقرة] يعنى : أنواعاً مختلفة للصنف الواحد .

ثم يقول الحق :

﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ (٢٤) ﴾

---

(١) أورد ابن القيم (فى حادى الأرواح ص ١٨٩) عن كعب الأحبار فيما أخرجه ابن أبى الدنيا : « إن لله عز وجل ملكاً منذ يوم خلق يصوغ حلى أهل الجنة إلى أن تقوم الساعة ، لو أن قلباً من حلى أهل الجنة أخرج لذهب بضوء شعاع الشمس ، فلا تسألوا بعد هذا عن حلى أهل الجنة » .

(هُدُوا) هداهم الله ، فالذى دلّهم على وسائل دخول الجنة والتمتّع فيها بالسكن والزينة واللباس كذلك يهديهم الآن فى الجنة ويدلّهم على كيفية شُكر المنعم على هذه النعمة ، هذا معنى : ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ..(٢٤)﴾ [الحج] هذا القول الطيب لخَّصته آيات أخرى ، ومنها قوله تعالى :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ .. (٧٤)﴾ [الزمر]

وقوله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ .. (٣٥)﴾[فاطر]

وقوله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ .. (٣٤)﴾ [فاطر]

فحين يدخل أهل الجنة الجنةَ ، ويباشرون النعيم المقيم لا يملكون إلا أنْ يقولوا : الحمد لله ، كما يقول الحق سبحانه عنهم : ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس]

وقالوا[١] : ﴿الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ..(٢٤)﴾ [الحج] هو كلمة التوحيد : لا إله إلا الله ، فهذه الكلمة هى المعشوقة التى أتتْ بنا إلى الجنة ، والمعنى يسَع كل كلام طيب ، كما قال سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤)﴾ [إبراهيم]

ثم يقول تعالى : ﴿وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤)﴾ [الحج] أى : هداهم الله إلى طريق الجنة ، أو إلى الجنة ذاتها ، كما قال فى آية أخرى عن الكافرين :

---

(١) قاله ابن عباس ، قال : يريد لا إله إلا الله والحمد لله . [تفسير القرطبى ٦/٤٥٦٢] . وقال أبو العالية : قولهم الله مولانا ولا مولى لكم . أى : فى الخصومة . وقال إسماعيل بن أبى خالد : القرآن . وقال الضحاك : الإخلاص وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله . [الدر المنثور ٦/ ٢٤] .

﴿ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ..(١٦٩) ﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ[1] فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ[2] بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥) ﴾

انتقلتْ بنا الآيات إلى موضوع جديد : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٢٥) ﴾ [الحج] بصيغة الماضي ، لأن الكفر وقع منهم فعلاً ﴿ وَيَصُدُّونَ .. (٢٥) ﴾ [الحج] بصيغة المضارع ، والقياس أن نقول : كفروا وصدُّوا ، لكن المسألة ليست قاعدة ولا هي عملية آلية ؛ لأن الصدَّ عن سبيل الله ناشيء عن الكفر وما يزال صدُّهم مستمراً .

ومعنى ﴿ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. (٢٥) ﴾ [الحج] أى : عن الجهاد ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (٢٥) ﴾ [الحج] لأنهم منعوا المسلمين من دخوله ، وكان فى قبضتهم وتحت سيطرتهم ، وهذا ما حدث فعلاً فى الحديبية حينما اشتاق صحابة رسول الله إلى أداء العمرة والطواف بالبيت الذى طالت مدة حرمانهم منه ، فلما ذهبوا منعهم كفار مكة ، وصدُّوهم عن دخوله .

﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (٢٥) ﴾ [الحج] كلمة حرام يُستفاد منها أنه

---

(١) العاكف فيه والباد . أى : المقيم بالحرم وحوله . والباد : غير المقيم عنده من سكان البادية ، أو البلاد البعيدة عن الحرم . [القاموس القويم ٢/ ٣١] .

(٢) الإلحاد : العدول عن الحق . أى : من يرد فى المسجد عملاً لا يرضى الله متلبساً بميل عن الحق ومتلبساً بظلم . [القاموس القويم ٢/ ١٩٠] .

مُحرَّم أنْ تفعل فيه خطأ ، أو تهينه ، أو تعتدى فيه . وكلمة (الحَرَام) وصف بها بعض المكان وبعض الزمان ، وهى خمسة أشياء : نقول : البيت الحرام وهو الكعبة ، والمسجد الحرام ، والبلد الحرام ، ثم المشعر الحرام . وهذه عبارة عن دوائر مركز الكعبة ، هذه أماكن ، ثم الخامس وهو زمن : الشهر الحرام الذى قال الله فيه : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ .. (٢١٧) ﴾ [البقرة]

وحُرْمة الزمان والمكان هنا لحكمة أرادها الخالق سبحانه ؛ لأنه رَبٌّ رحيم بخَلْقه يريد أن يجعل لهم فرصة لستْر كبريائهم ، والحدّ من غرورهم ، وكانت تنتشر بين القوم الحروب والصراعات التى كانت تُذْكى نارها عادات قبلية وسعار الحرب ، حتى أن كلاً الفريقين يريد أنْ يُفنى الآخر ، وربما استمروا فى الحرب وهم كارهون لها ، لكن يمنعهم كبرياؤهم من التراجع والانسحاب .

لذلك جعل الله سبحانه لهذه الأماكن والأزمنة حُرْمة لتكون ستاراً لهذا الكبرياء الزائف ، ولهذه العزة البغيضة . وكل حَدَث يحتاج إلى زمان وإلى مكان ، فحرَّم الله القتال فى الأشهر الحرم ، حتى إذا ما استعرت بينهم حرب جاء شهر حرام ، فأنقذ الضعيف من قبضة القوى دون أنْ يجرح كبرياءه ، وربما هَزَّ رأسه قائلاً : لولا الشهر الحرام كنت فعلتُ بهم كذا وكذا .

فهذه - إذن - رحمة من الله بعباده ، وستار يحميهم من شرور أنفسهم ونزواتها ويَحْقن دماءهم .

وما أشبه كبرياءَ العرب فى هذه المسألة بكبرياء زوجيْن تخاصما على مَضَض ، ويريد كل منهم أنْ يأتى صاحبه ، لكن يمنعه كبرياؤه أن يتنازل ، فجلس الرجل فى غرفته ، وأغلق الباب على نفسه ، فنظرتْ الزوجة ، فإذا به يرفع يديه يدعو الله أنْ تُصالحه زوجته ،

فذهبتْ وتزيَّنَتْ له ، ثم دفعت الباب عليه وقالت - وكأن أحداً يُجبرها على الدخول - (مُوديَّانى فين يا أم هاشم)

وكذلك ، جعل فى المكان محرماً ؛ لأن الزمن الحرام الذى حرم فيه قتال أربعة أشهر : ثلاثة سرد وواحد فرد ، الفرد هو رجب ، والسرد هى : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم .

فحرَّم أيضاً القتال فى هذه الأماكن ليعصم دماء الخَلْق أنْ تُراقَ بسبب تناحر القبائل بالغِلِّ والحِقْد والكبرياء والغرور .

يقول تعالى فى تحريم القتال فى البيت الحرام : ﴿وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١)﴾ [البقرة]

فلعلَّهم حين تأتى شهور التحريم ، أو يأتى مكانه يستريحون من الحرب ، فيدركون لذة السلام وأهمية الصلح ، فيقضون على أسباب النزاع بينهم دون حرب ، فسُعَار الحرب يجُرُّ حرباً ، ولذة السلام وراحة الأمن والشعور بهدوء الحياة يَجرُّ مَيْلاً للتصالح وفضّ مثل هذه المنازعات بالطرق السلمية .

والمتأمل فى هذه الأماكن التى حرَّمها الله يجدها على مراتب ، وكأنها دوائر مركزها بيت الله الحرام وهو الكعبة ، ثم المسجد الحرام حولها ، ثم البلد الحرام وهى مكة ، ثم المشعر الحرام الذى يأخذ جزءاً من الزمن فقط فى أيام الحج .

أما الكعبة فليست كما يظنُّ البعض أنها هذا البناء الذى نراه ، الكعبة هى المكان ، أما هذا البناء فهو المكين ، فلو نقضْتَ هذا البناء القائم الآن فمكان البناء هو البيت ، هذا مكانه إنْ نزلْتَ فى أعماق الأرض أو صعدْتَ فى طبقات السماء .

إذن : فبيت الله الحرام هو هذه البقعة من الأرض حتى السماء ، ألاَ ترى الناس يُصَلُّون في الأدوار العليا ، وهم أعلى من هذا البناء بكثير ؟ إنهم يواجهون جَوَّ الكعبة ، لا يواجهون الكعبة ذاتها ، لماذا ؟ لأن الكعبة ممتدة في الجو إلى ما شاء الله .

ثم يلي البيت المسجد ، وهو قطعة أرض حُكرت على المسجدية ، لكن هناك مسجد بالمكان حين تقيمه أنت ، وتجعل له بناء مثل هذا البناء الذي نتحدث فيه الآن يسمى « مسجد » بالمكان ، أو مسجد بالمكين حين يضيق علينا هذا المسجد فنخرج نصلي في الشارع فهو في هذه الحالة مسجد ، قالوا : ولو امتد إلى صنعاء وتواصلتْ الصفوف فكلُّه مسجد .

نعود إلى ما دار بين المسلمين والمشركين يوم الحديبية ، فقد صدَّ الكفار المسلمين عن بيت الله الحرام وهم على مَرْمى البصر منه ، فاغتاظ المسلمون لذلك ، ورأى بعضهم أن يدخل مكة عُنْوة ورَغْماً عنهم .

لكن كان لرسول الله ﷺ سرٌّ بينه وبين ربه عز وجل ، فنزل على شروطهم ، وعقد معهم صُلْحاً هو « صلح الحديبية » الذي أثار حفيظة الصحابة ، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ، فقال لرسول الله : يا رسول الله ، ألسنا على الحق ؟ قال ﷺ : « بلى » قال : أليسوا هم على باطل ؟ قال : « بلى » قال : فلِمَ نُعْطِى الدنيّة في ديننا؟[1] .

وكان من بنود هذا الصلح : إذا أسلم كافر ودخل في صفوف

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١٤٨/٤) ، والبخاري في صحيحه (كتاب الجزية - باب ١٨) وكذا مسلم في صحيحه (كتاب الجهاد - باب ٣٤) وفيه « أن رسول الله ﷺ قال بعد مراجعة عمر بن الخطاب له : يا بن الخطاب ، إني رسول الله ولن يضيعني الله . وقال له أبو بكر : يا بن الخطاب ، إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً » .

المسلمين يرده محمد ﷺ ، وإذا ذهب مسلم إليهم لا يردونه إلى المسلمين[١] .

وكان للسيدة أم المؤمنين أم سلمة ـ رضوان الله عليها ـ موقف عظيم فى هذه الشدة ، ورأى سديد ردَّ آراء الرجال إلى الرُّشْد وإلى الصواب ، وهذا مما نفخر به للمرأة فى الإسلام ، ونردّ به على المتشدِّقين بحقوق المرأة .

فلما عاد رسول الله ﷺ إلى فُسْطاطه مُغْضباً فقال لأم سلمة : « هلك المسلمون يا أم سلمة ، لقد أمرتهم فلم يمتثلوا » يعنى : أمرهم بالعودة دون أداء العمرة هذا العام .

فقالت السيدة أم المؤمنين : يا رسول الله ، إنهم مكروبون ، فقد مُنِعُوا عن بيت الله وهم على مَرْأىً منه ، لكن اذهب يا رسول الله إلى ما أمرك به ربك ، فافعل فإذا رأوْك فعلْتَهُ علموا أن الأمر عزيمة ـ يعنى لا رجعةَ فيه ـ وفعلاً أخذ رسول الله بهذه النصيحة ، فذهب فحلق ، وذبح هديه وفعل الناس مثله ، وانتهت هذه المسألة[٢] .

لكن قبل أنْ يعودوا إلى المدينة شاءتْ إرادة الله أنْ يخبرهم بالحكمة فى قبول رسولِ الله لشروط المشركين مع أنها شروط ظالمة مُجْحفة :

أولاً : فى هذا الصلح وهذه المعاهدة اعتراف منهم بمحمد ومكانته ومنزلته ، وأنه أصبح مساوياً لهم ، وهذا مكسب فى حَدِّ ذاته .

ثانياً : اتفق الطرفان على وقف القتال بينهم لعدة سنوات ، وهذه

---

(١) كان رأى رسول الله ﷺ فى هذا الشرط الذى اشترطته قريش ما قاله : « من أتاهم منا فأبعده الله ، ومن أتانا منهم فرددناه عليهم ، جعل الله له فرجاً ومخرجاً » أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١٤٧/٤) ، ومسلم فى صحيحه (كتاب الجهاد ـ باب ٣٤) .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٥٣/٧) بشرح فتح البارى ـ كتاب المغازى من حديث المسور بن مخرمة . والبيهقى فى دلائل النبوة (١٥٠/٤) .

الفترة أعطتْ المسلمين فرصة كى يتفرغوا لاستقبال الوفود ونَشْر دين الله .

ثالثاً : كان فى إمكان رسول الله ﷺ أنْ يدخلهم مكة رَغْماً عن أهلها ، وكان فى مقدوره أن يقتلهم جميعاً ، لكن ماذا سيكون موقف المؤمنين من أهل مكة والذين يسترون إيمانهم ولا يعرفهم أحد ؟ إنهم وسط هؤلاء الكفار ، وسينالهم ما ينال الكفار ، ولو تميَّز المؤمنون من الكفار أو خرجوا فى جانب لأمكن تفاديهم .

اقرأ قوله تعالى : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا[1] لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾ [الفتح]

ثم يقول تعالى عن المسجد الحرام : ﴿ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحج] أى : جميعاً ﴿ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ .. (٢٥) ﴾ [الحج] العاكف فيه يعنى : المقيم ، والباد : القادم إليه من خارج مكة ، ومعنى ﴿ سَوَاءً .. (٢٥) ﴾ [الحج] يعنى : هذان النوعان متساويان تماماً .

لذلك نقول للذين يحجزون الأماكن لحسابهم فى بيت الله الحرام خاصة ، وفى بيوت الله عامة : أريحوا أنفسكم ، فالمكان محجوز عند الله لمن سبق ، لا لمن وضع سجادته ، وشغل بها المكان .

وقد دَعَتْ هذه الآية : ﴿ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ .. (٢٥) ﴾ [الحج]

---

(١) لو تزيلوا : لو تفرقوا . قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فيما أخرجه عنه ابن جرير الطبرى . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٧/ ٥٣٤] .

البعض لأنْ يقول : لا يجوز تأجير البيوت فى مكة ، فمَنْ أراد أن ينزل فى بيت ينزل فيه دون أجرة حتى يستوى المقيم والغريب[١] .

وهذا الرأى مردود عليه بأن البيوت مكان ومكين ، وأرض مكة كانت للجميع حين كان المكان حُراً يبنى فيه من أراد ، أمَّا بعد أن بنى بيتاً ، وسكنه أصبح مكيناً فيه ، لا يجوز لأحد دخوله إلا بإذنه وإرادته .

وقد دار حول هذه المسألة[٢] نقاش بين الحنظلى[٣] فى مكة والإمام الشافعى[٤] ، حيث يرى الحنظلى أنه لا يجوز تأجير البيوت فى مكة ؛ لأنها حسب هذه الآية للجميع ، فردَّ عليه الشافعى رضى الله عنه : لو كان الأمر كذلك لما قال سبحانه فى المهاجرين : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ .. ⁽٨⁾ ﴾ [الحشر]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٥٦٤/٦) : « كانت دُورهم بغير أبواب حتى كثرت السرقة ، فاتخذ رجل باباً فأنكر عليه عمر وقال : أتغلق باباً فى وجه حاج بيت الله ؟ قال الرجل : إنما أردت حفظ متاعهم من السرقة ، فتركه ، فاتخذ الناس الأبواب ، وروى عن مالك أن الدور ليست كالمسجد ، ولأهلها الامتناع منها والاستبداد ، وهذا هو العمل اليوم وقال بهذا جمهور من الأئمة » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢١٤/٣) : « هذه المسألة هى التى اختلف فيها الشافعى وإسحاق ابن راهويه بمسجد الخيف وأحمد بن حنبل حاضر أيضاً » وذكر احتجاج كل منهما .

(٣) هو إسحاق بن راهويه أبو يعقوب الحنظلى نزيل نيسابور وعالمها ولد عام ١٦١ هـ ، وهو أحد كبار الحفاظ ، أخذ عنه أحمد والبخارى ومسلم وغيرهم ، اجتمع له الحديث والفقه والحفظ والصدق والزهد . [الأعلام للزركلى ٢٩٢/١] وتذكرة الحفاظ للذهبى (٤٣٣/٢) .

(٤) هو : محمد بن إدريس الشافعى أبو عبد الله ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، وإليه نسبة الشافعية كافة ، ولد عام ١٥٠ هـ فى غزة بفلسطين ، وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين ، وزار بغداد مرتين ، وقصد مصر سنة ١٩٩ هـ فتوفى بها وقبره معروف فى القاهرة . له مصنفات أشهرها كتاب « الأم » ، « أحكام القرآن » [الأعلام للزركلى ٢٦/٦] .

فنسب الديار إليهم . ولَمَّا قال رسول الله ﷺ لما نزل مكة : « وهل ترك لنا عقيل من دار أو من ربع ؟»[(١)] وكونُ عقيل يبيع دُورهم بعد أن هاجروا ، فهذا دليل على ملكيتهم لها . لذلك رجع الحنظلى إلى رأى الشافعى .

هذا مع أن الآية تعنى البيت فقط ، لا مكة كلها ، فما كان الخلاف ليصل إلى مكة كلها .

ثم يقول تعالى : ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج]

الإلحاد قد يكون فى الحق الأعلى ، وهو الإلحاد فى الله عز وجل ، أما هنا فيُراد بالإلحاد : الميْل عن طريق الحقِّ ، وقوله : ﴿بِظُلْمٍ .. ﴿٢٥﴾﴾ [الحج] الظلم فى شيء لا يسمو إلى درجة الكفر ، والإلحاد بظلم إنْ حدث فى بيت الله فهو أمر عظيم ؛ لأنك فى بيت ربك (الكعبة) .

وكان يجب عليك أن تستحى من مجرد حديث النفس بمعصية ، مجرد الإرادة هنا تُعَدُّ ذنباً ؛ لأنك فى مقام يجب أنْ تستشعر فيه الجلال والمهابة ، فكما أعطى الله لبيته ميْزة فى مضاعفة الحسنات ، كذلك عظَّم أمر المعصية وأنت فى رحاب بيته ، فتنبَّه لهذه المسألة[(٢)] .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٥٨٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٣٥١) وتمامه « أن أسامة بن زيد قال : يا رسول الله ، أين تنزل ؟ فى دارك بمكة ؟ قال : وهل ترك عقيل من رباع أو دور ؟ وكان عقيل ورث أبا طالب هو وطالب ، ولم يرثه جعفر ولا على رضى الله عنهما شيئاً . لأنهما كانا مسلمين ، وكان عقيل وطالب كافرين » .

(٢) قال ابن مسعود : من هم بخطيئة فلم يعملها ـ فى سوى البيت ـ لم تكتب عليه حتى يعملها ، ومن هم بخطيئة فى البيت لم يمته الله من الدنيا حتى يذيقه من عذاب أليم . أخرجه سعيد بن منصور والطبرانى فيما أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٢٦) .

حتى فى أمثال أهل الريف يقولون : (تيجى فى بيت العالم وتسكر) يعنى : السُّكْر يُتصوَّر فى بيت أحد العصاة ، فى بيت فاسق ، فى خمارة ، لكن فى بيت عالم ، فهذا شىء كبير ، وجرأة عظيمة . لماذا ؟

فللمكان حُرْمة بحُرْمة صاحبه ، فإذا كان للمكان حُرْمة بحُرْمة صاحبه ، والبيت منسوب إلى الله ، فأنت تعصى ربك فى عُقْر داره ، وأىّ جرأة أعظم من الجرأة على الله ؟

وهذه خاصية للمسجد الحرام ، فكُلُّ المساجد فى أى مكان بيوت الله ، لكن هناك فَرْق بين بيت الله باختيار الله ، وبيت الله باختيار عباد الله ؛ لذلك جُعل بيتُ الله باختيار الله (البيت الحرام) هو القِبْلة التى تتجه إليها كل بيوت الله فى الأرض .

فما عاقبة الإلحاد فى بيت الله ؟ ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥) ﴾ [الحج] إنهم سيذوقون العذاب بأمر من الحق دائماً وأبداً ، والإذاقة أشد الإدراكات تأثيراً ، وذلك هو العذاب المهين ، والذوق هو الإحساس بالمطعوم شراباً كان أو طعاماً ، إلا أنه تعدى كل مُحسٍّ به ، ولو لم يكن مطعوماً أو مشروباً ، ويقول ربنا عز وجل : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان]

أى : ذق الإهانة والمذلة ، لا مما يُطعم أو مما يُشرب ، ولكن بالإحساس ، فالإذاقة تتعدى إلى كل البدن ، فالأنامل تذوق ، والرِّجْل تذوق ، والصدر يذوق ، والرقبة تذوق . وهذا اللون من إذاقة الذل والإهانة فى الدنيا لهؤلاء مجرد نموذج بسيط لشدة عقاب الله .

وعذاب الآخرة سيكون مهولاً ، والعذاب هو إيلام الحس . إذا أحببت أن تديم ألمه ، فأبْقِ فيه آلة الإحساس بالألم .

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾

ما دام الكلام السابق كان حول البيت الحرام ، فمن المناسب أنْ يتكلم عن تاريخه وبنائه ، فقال سبحانه : ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج] معنى بوَّأه : أى : جعله مَبَاءةً يعنى : يذهب لعمله ومصالحه ، ثم يبوء إليه ويعود ، كالبيت للإنسان يرجع إليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ .. ﴿٦١﴾﴾ [البقرة]

وإذ : ظرف زمان لحدث يأتى بعده الإخبار بهذا الحدث ، والمعنى خطاب لرسول الله ﷺ : اذكر يا محمد الوقت الذى قيل فيه لإبراهيم كذا وكذا . وهكذا فى كل آيات القرآن تأتى (إذ) فى خطاب لرسول الله ﷺ بحدث وقع فى ذلك الظرف .

لكن ، ما علاقة المباءة أو المكان المتبوأ بمسألة البيت ؟ قالوا : لأن المكان المتبوأ بقعة من الأرض يختارها الإنسان ؛ ليرجع إليها من متاعب حياته ، ولا يختار الإنسان مثل هذا المكان إلا توفرتْ فيه كل مُقوِّمات الحياة .

لذلك يقول تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف]

وقال فى شأن بنى إسرائيل : ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ .. ﴿٩٣﴾﴾ [يونس] فمعنى : ﴿بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .. ﴿٢٦﴾﴾ [الحج]

أى : جعلناه مباءة له ، يرجع إليه من حركة حياته بعد أنْ أعلمناهُ ، ودَلَلْناه على مكانه(١) .

وقلنا : إن المكان غير المكين ، المكان هو البقعة التى يقع فيها ويحلُّ بها المكين ، فأرض هذا المسجد مكان ، والبناء القائم على هذه الأرض يُسمَّى « مكين فى هذا المكان » . وعلى هذا فقد دَلَّ الله إبراهيم عليه السلام على المكان الذى سيأمره بإقامة البيت عليه .

وقد كان للعلماء كلام طويل حول هذه المسألة : فبعضهم يذهب إلى أن إبراهيم عليه السلام هو أول مَنْ بنى البيت . ونقول لأصحاب هذا الرأى : الحق ـ تبارك وتعالى ـ بوَّأ لإبراهيم مكان البيت ، يعنى : بيَّنه له ؛ كأن البيت كان موجوداً ، بدليل أن الله تعالى يقول فى القصة على لسان إبراهيم : ﴿ إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

وفى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ .. (١٢٧) ﴾ [البقرة]

ومعلوم أن إسماعيل قد شارك أباه وساعده فى البناء لما شَبَّ ، وأصبح لديه القدرة على معاونة أبيه ، أمَّا مسألة السكن فكانت وإسماعيل ما يزال رضيعاً ، وقوله تعالى : ﴿ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم] يدل على أن العنْدية موجودة قبل أنْ يبلغَ إسماعيل أنْ يساعد أباه فى بناية البيت ، إذن : هذا دليل على أن البيت كان موجوداً قبل إبراهيم .

(١) أى : أريناه أصله ليبنيه ، وكان قد درس بالطوفان وغيره ، فلما جاءت مدة إبراهيم عليه السلام أمره الله ببنيانه ، فجاء إلى موضعه وجعل يطلب أثراً ، فبعث الله ريحاً فكشفت عن أساس آدم عليه السلام ، فرتب قواعده عليه . [تفسير القرطبى ٦/٤٥٦٧] .

وقد أوضح الحق ـ سبحانه وتعالى ـ هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [آل عمران]

وحتى نتفق على فَهْم الآية نسأل : مَنْ هُم الناس ؟ الناس هم آدم وذريته إلى أن تقوم الساعة ، إذن : فآدم من الناس ، فلماذا لا يشمله عموم الآية ، فالبيت وُضِع للناس ، وآدم من الناس ، فلا بُدَّ أن يكون وُضِع لآدم أيضاً .

إذن : يمكنك القول بأن البيت وُضِع حتى قبل آدم ؛ لذلك نُصدِّق بالرأى الذى يقول : إن الملائكة هى التى وضعتْ البيت أولاً ، ثم طمسَ الطوفانُ معالم البيت ، فدلَّ الله إبراهيم بوحى منه على مكان البيت ، وأمره أنْ يرفعه من جديد فى هذا الوادى .

ويُقال : إن الله تعالى أرسل إلى إبراهيم سحابة دَلَّتْه على المكان ونطقتْ : يا إبراهيم خُذْ على قدرى ، أى : البناء[1] .

ولو تدبرتَ معنى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ .. ﴿١٢٧﴾ ﴾ [البقرة] الرَّفْع يعنى : الارتفاع ، وهو البعد الثالث ، فكأن القواعد كان لها طُول وعَرْض موجود فعلاً ، وعلى إبراهيم أنْ يرفعها .

لكن لماذا بوأ الله لإبراهيم مكان البيت ؟

لما أسكن إبراهيم ذريته عند البيت قال : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم] كأن المسألة من بدايتها مسألة عبادة وإقامة للصلاة ،

---

(١) أخرج الديلمى عن على عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ .. ﴿١٢٧﴾ ﴾ [البقرة] قال : « جاءت سحابة على تربيع البيت ، لها رأس تتكلم : ارتفاع البيت على تربيعى ، فرفعاه على تربيعها » [أورده السيوطى فى الدر المنثور ١/٣٠٧] .

الصلاة للإله الحق والربِّ الصِّدْق ؛ لذلك أمره أولاً : ﴿أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)﴾ [الحج] والمراد : طَهِّر هذا المكان من كل ما يُشعِر بالشرك ، فهذه هى البداية الصحيحة لإقامة بيت الله .

وهل كان يُعقل أنْ يدخل إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى الشرك ؟ بالطبع لا ، وما أبعدَ إبراهيمَ عن الشرك ، لكن حين يُرسل الله رسولاً ، فإنه أول مَنْ يتلقَّى عن الله الأوامر ليُبلِّغ أمته ، فهو أول مَنْ يتلقى ، وأول مَنْ يُنفذ ليكون قدوةً لقومه فيُصدِّقوه ويثقوا به ؛ لأنه أمرهم بأمر هو ليس بنَجْوة عنه .

ألا ترى قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ .. (١)﴾ [الأحزاب] وهل خرج محمد ﷺ عن تقوى الله ؟ إنما الأمر للأمة فى شخص رسولها ، حتى يسهُلَ علينا الأمر حين يأمرنا ربنا بتقواه ، ولا نرى غضاضةً فى هذا الأمر الذى سبقنا إليه رسول الله ؛ لأنك تلحظ أن البعض يأنف أن تقول له : يا فلان اتق الله ، وربما اعتبرها إهانة واتهاماً ، وظن أنها لا تُقال إلا لمَنْ بدر منه ماَ يخالف التقوى .

وهذا فَهْم خاطيء للأمر بالتقوى ، فحين أقول لك : اتق الله . لا يعنى أننى أنفى عنك التقوى ، إنما أُذكِّرك أنْ تبدأ حركة حياتك بتقوى الله .

إذن : قوله تعالى لإبراهيم عليه السلام : ﴿أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا .. (٢٦)﴾ [الحج] لا تعنى تصوُّر حدوث الشرك من إبراهيم ، وقال ﴿شَيْئًا .. (٢٦)﴾ [الحج] ليشمل النهىُ كُلَّ ألوان الشرك ، أياً كانت صورته : شجر ، أو حجر ، أو وثن ، أو نجوم ، أو كواكب .

ويؤكد هذا المعنى بقوله : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ .. (٢٦) ﴾ [الحج] والتطهير يعنى : الطهارة المعنوية بإزالة أسباب الشرك ، وإخلاص العبادة لله وحده لا شريكَ له ، وطهارة حسّية ممّا أصابه بمرور الزمن وحدوث الطوفان ، فقد يكون به شيء من القاذورات مثلاً .

ومعنى ﴿ لِلطَّائِفِينَ .. (٢٦) ﴾ [الحج] الذين يطوفون بالبيت : ﴿ وَالْقَائِمِينَ .. (٢٦) ﴾ [الحج] المقيمين المعتكفين فيه للعبادة ﴿ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) ﴾ [الحج] الذين يذهبون إليه فى أوقات الصلوات لأداء الصلاة ، عبَّر عن الصلاة بالركوع والسجود ؛ لأنهما أظهر أعمال الصلاة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ(١) يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ (٢٧) ﴾

أمر الله نبيه إبراهيم بعد أنْ رفع القواعد من البيت أنْ يُؤذِّن فى الناس بالحج ، لماذا ؟ لأن البيت بيت الله ، والخَلْق جميعاً خَلْق الله ، فلماذا تقتصر رؤية البيت على مَنْ قُدِّر له أنْ يمرَّ به ، أو يعيش إلى جواره ؟

فأراد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أنْ يُشيع هذه الميْزة بين خَلْقه جميعاً ، فيذهبوا لرؤية بيت ربهم ، وإنْ كانت المساجد كلها بيوت

(١) الضامر : لطيف الجسم قليل اللحم . ومن عادة العرب أن يُضمِّروا الخيل لتكون أقوى وأنشط وأسرع . وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ .. (٢٧) ﴾ [الحج] . أى : حصان ضامر متعود على السفر البعيد بنشاط وقوة . [القاموس القويم ١/٣٩٥] .

الله ، إلا أن هذا البيت بالذات هو بيت الله باختيار الله ؛ لذلك جعله قبْلة لبيوته التى اختارها الخَلْق .

إن من علامات الولاء بين الناس أنْ نزور قصور العظماء وعِلْية القوم ، ثم يُسجل الزائر اسمه فى سِجلٍّ الزيارات ، ويرى فى ذلك شرفاً ورِفْعة ، فما بالك ببيت الله ، كيف تقتصر زيارته ورؤيته على أهله والمجاورين له أو مَنْ قُدِّر لهم المرور به ؟

ومعنى ﴿أَذِّن .. (٢٧)﴾ [الحج] الأذان : العلم ، وأول وسائل العلم السماع بالأذن ، ومن الأذن أُخذ الأذان . أى : الإعلام . ومن هذه المادة قوله تعالى : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ .. (٧)﴾ [إبراهيم] أى : أعلم ؛ لأن الأذن وسيلة السماع الأولى ، والخطاب المبدئى الذى نتعلَّم به ؛ لذلك قبل أنْ تتكلَّم لا بُدَّ أنْ تسمع .

وحينما أمر الله إبراهيم بالأذان لم يكُنْ حول البيت غير إبراهيم وولده وزوجته ، فلمَنْ يُؤذِّن ؟ ومَنْ سيستمع فى صحراء واسعة شاسعة وواد غير مسكون ؟ فناداه ربه : « يا إبراهيم عليك الأذان وعلينا البلاغ »[(١)] .

مهمتك أنْ ترفَع صوتك بالأذان ، وعلينا إيصال هذا النداء إلى كل الناس ، فى كل الزمان ، وفى كل المكان ، سيسمعه البشر جميعاً ،

---

(١) عن ابن عباس قال : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال : رب ، قد فرغت . فقال : ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ .. (٢٧)﴾ [الحج] . قال : رب ، وما يبلغ صوتى ؟ قال : أذِّن وعلىَّ البلاغ . قال : رب ، كيف أقول ؟ قال : يا أيها الناس ، كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق . فسمعه من بين السماء والأرض ، ألا ترى أنهم يجيئون من أقصى الأرض يلبون ؟ » أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٢) وعزاه لابن أبى شيبة فى المصنف وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه .

وهم فى عالم الذَّرِّ وفى أصلاب آبائهم[1] بقدرة الله تعالى الذى قال لنبيه محمد ﷺ : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ..(١٧)﴾ [الأنفال]

يعنى : أَدِّ ما عليك ، واترك ما فوق قدرتك لقدرة ربك . فأذَّنَ إبراهيم فى الناس بالحج ، ووصل النداء إلى البشر جميعاً ، وإلى أن تقوم الساعة ، فَمَنْ أجاب ولَبَّى : لبيك اللهم لبيك كُتبَتْ له حَجَّة ، حتى إن من العلماء من قال[2] : مَنْ لبَّى مرة كُتبَتْ له حجة ، ومَنْ لبَّى مرتين كتبت له حجَّتيْن وهكذا ، لأن معنى لبَيك : إجابةٌ لك بعد إجابة .

فإنْ قُلْتَ : إن مطالب الله وأوامره كثيرة ، فلماذا أخذ الحج بالذات هذه المكانة ؟ نقول : أركان الإسلام تبدأ بالشهادتين : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ثم الصلاة ، ثم الزكاة ، ثم الصوم ، ثم الحج ، لو نظرتَ إلى هذه الأركان لوجدتَ أن الحج هو الركن الوحيد الذى يجتهد المسلم فى أدائه وإنْ لم يكُن مستطيعاً له فتراه يوفر ويقتصد حتى من قُوته ، وربما حرمَ نفسه ليُؤدِّى فريضة الحج ، ولا يحدث هذا ولا يتكلفه الإنسان إلا فى هذه الفريضة ، لماذا ؟

قالوا : لأن الله تعالى حكم فى هذه المسألة فقال : أَذِّن - يأتُوكَ ، هكذا رَغْماً عنهم ، ودون اختيارهم ، ألاَ ترى الناس ينجذبون لأداء هذه الفريضة ، وكأن قوة خارجة عنهم تجذبهم .

---

(١) عن ابن عباس فى قوله ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ .. (٢٧)﴾ [الحج] . قال : قام إبراهيم عليه السلام على الحجر فنادى : يا أيها الناس ، كتب عليكم الحج ، فاسمع من فى أصلاب الرجال وأرحام النساء ، فأجاب من آمن ممن سبق فى علم الله أن يحج إلى يوم القيامة : لبيك اللهم لبيك . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٣) وعزاه لابن جرير الطبرى .

(٢) أخرجه الديلمى فى « الفردوس بمأثور الخطاب » (رقم ٥٣٠٣) عن على بن أبى طالب ، قال السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٣) : « أخرجه الديلمى بسند واه عن على رفعه » . وقال الفتنى فى تذكرة الموضوعات (ص ٧٣) : « الحديث من نسخة محمد بن الأشعث التى عامة أحاديثها مناكير » .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ .. (٣٧)﴾ [إبراهيم] ومعنى تهوى : تأتى دون اختيار من الهُوِىِّ أى : السقوط ، وهو أمر لا يملكه الإنسان ، كالذى يسقط من مكان عالٍ ، فليس له اختيار فى ألاَّ يسقط .

وهكذا تحنُّ القلوب إلى بيت الله ، وتتحرَّق شَوْقاً إليه ، وكأن شيئاً يجذبها لأداء هذه الفريضة ؛ لأن الله تعالى أمر بهذه الفريضة ، وحكم فيها بقوله ﴿يَأْتُوكَ .. (٢٧)﴾ [الحج] أما فى الأمور الأخرى فقد أمر بها وتركها لاختيار المكلف ، يطيع أو يعصى ، إذن : هذه المسألة قضية صادقة بنصٍّ القرآن .

وبعض أهل الفَهْم يقولون : إن الأمر فى : ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ .. (٢٧)﴾ [الحج] ليس لإبراهيم ، وإنما لمحمد ﷺ - الذى نزل عليه القرآن ، وخاطبه بهذه الآية ، فالمعنى ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ.. (٢٦)﴾ [الحج] يعنى : اذكر يا مَنْ أُنْزل عليه كتابى إذْ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ، اذكر هذه القضية ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ .. (٢٧)﴾ [الحج] فكأن الأمر هنا لمحمد ﷺ[1] .

لذلك لا نشاهد هذا النسك فى الأمم الأخرى كاليهود والنصارى ، فهم لا يحجون ولا يذهبون إلى بيت الله أبداً ، وقد ثبت أن موسى - عليه السلام - حج بيت الله[2] ، لكن لم يثبت أن عيسى عليه السلام

---

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٦ / ٤٥٦٩) : « قيل : إن الخطاب لإبراهيم عليه السلام تم عند قوله ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)﴾ [الحج] ثم خاطب الله عز وجل محمداً ﷺ فقال : ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ .. (٢٧)﴾ [الحج] أى : أعلمهم أن عليهم الحج » .

(٢) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بوادى الأزرق فقال : أى واد هذا ؟ فقالوا : هذا وادى الأزرق . قال : كأنى أنظر إلى موسى عليه السلام هابطاً من الثنية وله جؤار إلى الله بالتلبية ، ثم أتى على ثنية هرشى ، فقال : أى ثنية هذه ؟ قالوا : ثنية هرشى : قال : كأنى أنظر إلى يونس بن متى عليه السلام على ناقة حمراء جعدة عليه جبة من صوف ، خطام ناقته خُلْبة ، وهو يُلبِّى » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٦) ، وأحمد فى مسنده (١/ ٢١٥) .

حَجٍّ ، بدليل أن رســـول الله ﷺ قــال « يُوشك أنْ ينزل ابـن مـريم ، ويأتى حاجاً ، ويزور قبرى ، ويُدفن هناك »[١] .

فقــال رسول الله : « ويأتى حاجــاً » لأنه لم يمت ، وسوف يدرك عهد التكلـيف من رسول الله حين ينزل من السماء ، وســيصلى خلف إمام من أمة محمد صلى الله على جميع أنبياء الله ورُسُله .

ومن المسائل التى نحتجُّ بها عليهم قولهم : إن الذبيح إسحق ، فلو أن الذبيح إسحق كما يدَّعُون لكانت مناسك الذبح والفداء ورَمْى الجمار عندكم فى الشام ، أمّا هذه المناسك فهى هنا فى مكة ، حيث كان إسماعيل .

ثم تذكَّروا جيداً ما قاله كتابكم المقدس[٢] فى الأصحاح ٢٣ ، ٢٤

(١) أورد القرطبى فى التذكرة (ص ٧٧٣) طبعة مكتبة دار التـراث من حديث كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده قال : غزونا مع النبى ﷺ الحديث ، وفيه : « لا تقوم الساعة حتى ينزل عيسى بن مريم عبد الله ورسوله حاجاً أو معـتمراً أو ليجمعن الله ذلك له » وقال محمـد بن كعب القرظى : أن رجلاً قال : إنى أشهد أنه لمكتوب فى التـوراة والإنجيل أنه يمر بالروحاء حاجاً أو معـتمراً أو يجمع الله له ذلك ، فيجعل الله حواريّه أصحاب الكهف والرقيم ، فيمرون حجاجاً فإنهم لم يحجوا ولم يموتوا » .

أما دفن المسيح عليه السلام فقد ذكر القرطبى فى التذكرة (ص ٧٦٢) عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ : « ويمكث خمـساً وأربعين سنة ويدفن معى فى قبرى فـاقوم أنا وعيسى من قبر واحد بين أبى بكر وعمر » ذكره الميانشى أبو حفص .

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « يمكث عيـسى فى الأرض بعدما ينزل أربعين سنة ، ثم يموت ويصلى عليه المسلمون ويدفنونه » ذكره أبو داود الطيالسى فى مسنده (حديث٢٥٤١) .

(٢) تحقيق هذه المـسالة أن إبراهيم عليه السـلام كـان عمره ٨٦ سنة عندما وُلد له إسـماعيل ، وذلك بنص الكتـاب المقـدس « كان أبرام ابن ست وثمـانين سنة لمـا ولدت هاجر إسـماعـيل لأبرام » [التكوين ١٦ : ١٦] . أما عـمره عندما وُلد له إسـحاق ، فكان عمـره ١٠٠ سنة ، بنص الكتاب : « وكان إبراهيم ابن مئـة سنة حين ولد له إسحاق ابنه » [تكوين ٢١ : ٥] أى أن عمـر إسماعيل كان ١٤ سنة حينما ولد أخوه إسحاق ، فكيف يكون وحيده هو إسحاق؟

وهاجر زوجة لإبراهيـم بنص التوراة « فأخذت ساراى امـرأة أبرام هاجر المصرية جـاريتها من بعد عـشر سنين لإقامـة أبرام فى أرض كنعان وأعطتـها لأبرام رجلها زوجـة له . فدخل على هاجر فحبلت » [تكوين : ١٦:٣ ، ٤] .

فكيف يقولون بعد هذا : « وحـدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهـيم فقال له يا إبراهيم . فقال هأنذا . فقـال : خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحـاق واذهب إلى أرض المريّا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك » [تكوين ٢٢ : ٢] وانظر [تكوين ٢٢ : ٩ – ١٦] .

من أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أوحى إلى إبراهيم أن يصعد على جبل فاران ، ويأخذ ولده الوحيد ويذبحه ، فالوحيد إسماعيل لا إسحق ؛ لأن الله فدى إسماعيل ، ثم بشَّر إبراهيم بإسحق .

ومن حكمة الله ـ عز وجل ـ أنْ جعل في كذب الكاذب مَنْفَذاً للحق ، وثغرات نصل منها إلى الحقيقة ؛ لذلك يقول رجال القضاء : ليست هناك جريمة كاملة أبداً ، لا بُدَّ أنْ يترك المجرم قرينة تدلُّ عليه مهما احتاط لجريمته ، كأن يسقط منه شيء ولو أزرار من ملابسه ، أو ورقة صغيرة بها رقم تليفون .. إلخ ، لذلك نقول : الجريمة لا تفيد ؛ لأن المجرم سيقع لا محالة في يد مَنْ يقتصُّ منه .

ولرجال القضاء ووكلاء النيابة مقدرة كبيرة على استخلاص الحقيقة من أفواه المجرمين أنفسهم ، فيظل القاضي يحاوره إلى أنْ يجد في كلامه ثغرةً أو تضارباً يصل منه إلى الحقيقة .

ذلك لأن للصدق وجهاً واحداً لا يمكن أنْ يتلجلج صاحبه أو يتردد ، أمّا الكذب فله أكثر من وجه ، والكاذب نفسه لو حاورتَهُ أكثر من مرة لوجدتَ تغييراً وتضارباً في كلامه ؛ لذلك العرب يقولون : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذَكُوراً . يعني : تذكَّر ما قُلْته أولاً ، حتى لا تُغيِّره بعد ذلك .

ومن أمثلة الكذب الذي يفضح صاحبه قَوْلُ أحدهم للآخر : هل تذكر يوم كنا في مكان كذا ليلة العيد الصغير ، وكان القمر ظهراً !! فقال : كيف ، يكون القمر مثل الظهر في آخر الشهر ؟

وقد يلجأ القاضي إلى بعض الحِيَل ، ولا بُدَّ أنْ يستخدم ذكاءه لاستجلاء وجه الحق ، كالقاضي الذي احتكم إليه رجلان يتهم أحدهما الآخر بأنه أخذ ماله أمانة ، ثم أخذها لنفسه ودفنها في موضع كذا

وكذا ، فلما حاور القاضى المتهم أنكر فانصرف عنه ، وتوجَّه إلى صاحب الأمانة ، وقال له : اذهب إلى هذا المكان ، وابحثْ لعلَّك تكون قد نسيتَه هنا أو هناك .

أو لعلّ آخر أخذه منك ، فذهب صاحب المال ، وفجأة سأل القاضى المتهم : لماذا تأخر فلان طوالَ هذا الوقت ؟ فردَّ المتهم : لأن المكان بعيدٌ يا سيادة القاضى . فخانتْه ذاكرته ، ونطق بالحق دون أن يشعر .

ثم يقول تعالى : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحج] ورجالاً هنا ليست جَمْعاً لرجل ، إنما جمع لراجل ، وهو الذى يسير على رِجْلَيْه ﴿ وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحج] الضامر : الفَرَس أو البعير المهزول من طول السفر .

وتقديم الماشين على الراكبين تأكيد للحكم الإلهى ﴿ يَأْتُوكَ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحج] فالجميع حريص على أداء الفريضة حتى إنْ حَجَّ ماشياً .

وقوله : ﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحج] أى : من كل طريق واسع ﴿ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحج] يعنى : بعيد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾

كلمة ﴿ مَنَافِعَ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحج] كلمة عامة واسعة تشمل كل أنواع النفع : مادية دنيوية ، أو دينية أُخروية ، ولا ينبغى أنْ نُضيِّق

مـا وسَّعـه الله ، فكُلُّ مـا يتصل بالـحج من حركـات الـحياة يُعَـد من المنافع ، فـاستـعدادك للحج ، وتدبيـر نفقـاته وأدواته ورَاحلتـه فيـها منافع لك ولغيرك حين توفر لأهلك ما يكفيهم حتى تعود .

مـا يتم من حـركـة بـيع وشـراء فى مناطق الحج ، كـلهـا منافع مـتبـادلة بين الناس ، التـاجـر الذى يبيع لك ، وصـاحب البـيت الذى يُؤَجِّره لك ، وصاحب السيارة التى تنقلك .

إذن : المنافع المـادية فى الحج كثيـرة ومتـشابكة ، متـداخلة مع المنافع الدينيـة الأخروية ، فحـين تشتـرى الهَدْى[1] مثلاً تؤدى نُسُكاً وتنفع التاجر الذى باع لك ، والمـربِّى الذى ربَّى هذا الهَدْى ، والجزار الذى ذبحه ، والفقير الذى أكل منه .

إذن : لا يتم الحج إلا بحركة حياة واسـعة ، فيها نَفْع لك وللناس من حـيث لا تدرى ، ولك أنْ تنظرَ فى الهـدايا التى يجلبـهـا الحجـاج معـهم لأهليـهم وذويهم ، خاصـة المصـريين منهم ، فتـرى بعضـهم ينشغل بجَـمْع هذه الأشياء قـبل أنْ يُؤدِّى نُسُكه ويقضى معظم وقـته فى الأسـواق ، وكأنه لن يكون حاجاً إلا إذا عاد مُحمّلاً بهذه الهدايا .

لذلك كـان يأتى إلينا بعض هؤلاء يسألون : أنـا علىَّ دَم مُتْـعة[2]

---

(١) الهَدْى : الذبيـحة تُهْدى إلى الحـرم فى الحج [القامـوس القويم ٢/٣٠١] وهو مسـتحب للحاج المفرد ، والمعتمر المفرد . وواجب على القارن والمتمتع ، وكذلك على من ترك واجباً من واجبـات الحج كرمى الجـمار أو طواف الوداع . وكذلك واجب على مـن ارتكب محظوراً من محظورات الإحرام ، غير الوطء ، كالتطيب والحلق . [انظر تفصيل هذا وشروط الهدى فى كتاب فقه السنة للشيخ سيد سابق ١/٥٣١] .

(٢) التمتع : هو الاعـتمار فى أشهر الحج ، ثم يحج من عامـه الذى اعتمر فيه ، وسـمى تمتعاً للانتفاع بأداء النسكين فى أشهر الحج فى عام واحد ، من غير أن يرجع إلى بلده . وصفة التمتـع أنْ يُحرِم من الميقـات بالعمرة وحدها ، ويقـول عند التلبية « لبيك بعـمرة » ويؤدى مناسك العمرة ، ثـم يتحلل من إحرامه ويتمـتع بكل ما كان مُحرماً عليه إلى أن يجىء يوم التروية ، فيحرم من مكة بالحج . وهذا يجب عليه الهَدْى [فقه السنة ١/٤٦٥ ، ٤٦٦] .

وليس معى نقود ، فماذا أفعل ؟ يريد أن يصوم . صحيح : كيف سيُؤدى ما عليه وقد أنفق كُلَّ ما معه ؟ فكنت أقول له : اعْطِنى حقيبة سفرك ، وسأبيع ما بها ، ولن أُبقى لك إلا ما يكفيك من نفقات حتى تعود .

أليست هذه كلها من المنافع ؟

ومن منافع الحج أن الحاجَّ منذ أنْ ينوى أداء هذه الفريضة ويُعد نفسه لها إعداداً مادياً ، وإعداداً نفسياً معنوياً ، فيحاول أنْ يُعيد حساباته من جديد ، ويُصلح من نفسه ما كان فاسداً ، وينتهى عَمَّا كان يقع فيه من معصية الله ، ويُصلح ما بينه وبين الناس ، إذن : يجرى عملية صَقْل خاصة تُحوِّله إلى إنسان جديد يليق بهذا الموقف العظيم ، ويكون أهْلاً لرؤية بيت الله والطواف به .

ومن الإعداد للحج أنْ يتعلّم الحاجُّ ما له وما عليه ، ويتأدب بآداب الحج فيعرف محظوراته وما يحرُم عليه ، وأنه سوف يتنازل عن هنْدامه وملابسه التى يزهو بها ، ومكانته التى يفتخر بها بين الناس ، وكيف أن الإحرام يُسوِّى بين الجميع .

يتعلم كيف يتأدَّب مع نفسه ، ومع كل أجناس الكون من حوله[1] ، مع نفسه فلا يُفكِّر فى معصية ، ولا تمتدّ يده حتى على شعرة من شعره ، أو ظُفْر من أظافره ولا يقْربُ طيباً ، ولا حتى صابونة لها رائحة .

والعجيب أن الحاج ساعة يدخل فى الإحرام يحرص كل الحرص

(١) يقصد صيد المحرم بالحج أو العمرة ، يقول تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ .. (٩٥)﴾ [المائدة] ، ويقول أيضاً : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا .. (٩٦)﴾ [المائدة] .

على هذه الأحكام ، وأتحدى أىَّ إنســان ينوى الحج ويأخذ فى الإحرام به ، ثم يفكر فى معصية ؛ لأنه يُعِدُّ نفســه لمرحلة جديدة يتطهر فيها من الذنوب ، فكيف يــكتسب الـمزيد منــها وقــد أتى من بلاد بعــيــدة ليتطهر منها ؟

وفى الحجِّ يتأدب الحاج مع الحيوان ، فلا يصيده ولا يقتله ، ومع النبات فــلا يقطع شجراً . يــتأدب حتى مع الجــماد الذى يعتــبره أدْنى أجناس الكون ، فــيحرص على تــقبيل الحــجر الأســود ، ويجتــهد فى الوصول إليه ، فإنْ لم يستطع أشار إليه بيده .

إن الحج التزام وانضباط يفوق أىَّ انضــباط يعرفه أهل الدنيا فى حــركــة حــياتــهم ، ففــى الحج ترى هذا الإنســان الســيــد الأعلى لكل المــخلوقــات كَمْ هو منكســر خاضع مــهــما كــانت منزلتــه ، وكم هى طمأنينة النفس البــشرية حين تُقبِّل حــجراً وهى راضية خــاضعة ، بل ويحزن الإنسان إذا لم يتمكن من تقبيل الحجر .

ثم يقــول الحق ســبــحــانه وتعــالى : ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحج]

يذكــروا اسم الله ؛ لأن كل أعــمــال الــحج مــصــحــوبة بذكــر الله وتلبــيته ، فَــمَا من عــمل يُؤدِّيه الحاجّ إلا ويقــول : لبيك اللهم لــبيك . وتظل التلبية شاغله ودَيْدنه إلى أنْ يرمى جمرة العقبة ، ومعنى « لبيك اللهم لبــيك » أن مشــاغل الدنيا تطــلبنى ، وأنت طلبتنى لأداء فَــرْضك علىَّ ، فــأنا أُلبِّــيك أنت أولاً ؛ لأنــك خالــقى وخــالق كل مــا يشــغلنى ويأخذنى منك .

والأيام المعلومات هى : أيام التشريق[1] .

ومعنى : ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ .. ﴿٢٨﴾﴾ [الحج] أى : يشكرون الله على هذا الرزق الوقتى الذى يأكلون منه ويشربون ، ويبيعون ويشترون فى أوقات الحج . أو يشكرون الله على أنْ خلقَ لهم هذه الأنعام ، وإنْ لم يحجُّوا ، ففى خَلْق الأنعام - وهى الإبل والبقر والغنم والماعز - وتسخيرها للإنسان حكمة بالغة ، ففضلاً عن الانتفاع بلحمها وألبانها وأصوافها وأوبارها اذكروا الله واشكروه أنْ سخَّرها لكم ، فلولا تسخير الله لها لَمَا استطعتُم أنْ تنتفعوا بها ، فالجمل مثلاً هذا الحيوان الضخم يقوده الطفل الصغير ، ويُنيخه ويحمله فى حين لم يستطع الإنسان تسخير الثعبان مثلاً أو الذئب .

لذلك يقول تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ .. ﴿٧٢﴾﴾ [يس]

لذلك نذكر الله ونشكره على ما رزقنا من بهيمة الأنعام استمتاعاً بها أَكْلاً ، أو استمتاعاً بها بَيْعاً أو زينة ، كما قال تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾ [النحل]

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٣/٢١٧) أربعة أقوال فى تأويل الأيام المعلومات :
- أيام العشر الأول من شهر ذى الحجة . قاله ابن عباس وأبو موسى الأشعرى ومجاهد وغيرهم وهو مذهب الشافعى والمشهور عن أحمد بن حنبل .
- يوم النحر وثلاثة أيام بعده . وهو أيام ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ من شهر ذى الحجة وهى المسماة بأيام التشريق . قاله ابن عباس وابن عمر وإليه ذهب أحمد بن حنبل فى رواية عنه .
- يوم النحر ويومان بعده . قاله ابن عمر والسدى وهو مذهب مالك .
- يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق . قاله زيد بن أسلم أى أيام ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ من شهر ذى الحجة .

ولولا أن الله تعالى ذَلَّلها لخدمتك ما استطعْتَ أنت تذليلها والانتفاع بها ؛ لذلك من حكمة الله أنْ يترك بعض خَلْقه غير مُسْتأنس ، ولا يمكن لك بحال أن تستأنسه أو تُذلّله لتظل على ذِكْر لهذه النعمة ، وتشكر الله عليها .

وسبق أن ضربنا مثلاً بالبرغوث ، وهو من أدْنى هذه المخلوقات ، ولا تكاد تراه ، ومع ذلك لا تقدر عليه ، وربما أقضَّ مَضْجعك ، وأقلق نومك طوال الليل . وتلمس هذه النعمة فى الجمل الذى يقوده الصبى الصغير ، إذا حرن[1] منك فلا تستطيع أن تجعله يسير رغماً عنه ، أو صَالَ فلا يقدر عليه أحد ، وقد يقتل صاحبه ويبطش بمَنْ حوله .

إذن : لا قدرة لك عليه بذاتك ، إنما بتذليل الله يمكن الانتفاع به ، فتسوقه إلى نَحْره ، فيقف ساكناً مُسْتسلماً لك .

والمتأمل فى حال الحيوانات التى أحلها الله لنا يجد أمرها عجيباً ، فالحيوان الذى أحلَّه الله لك تظل تنتفع به طوال عمره ، فإذا ما تعرّض لما يُزهِق روحه ، ماذا يفعل ؟ يرفع رأسه إلى أعلي ، ويعطيك مكان ذَبْحه ، وكأنه يقول لك : أنا فى اللحظات الأخيرة فاجتهد فى أنْ تنتفع بلحمي ، وأهل الريف إذا شاهدوا مثل هذه الحالة يقولون : طلب الحلال يعني الذبح . أما الحيوان الذى لا يُذبح ولا يُحله الله فيموت مُنكَّس الرأس ؛ لأنه لا فائدة منه .

هذا الحيوان الذى نتهمه بالغباء ونقول أنه بهيم .. الخ لو فكرتَ

---

(١) حرنت الناقة : قامت فلم تبرح . [أى : رفضت السير] . لا تنقاد ، إذا استُدِر [طُلِب منها] جريها وقفت . [لسان العرب ـ مادة : حرن] .

فيه لَتغيَّر رأيُك ، فالحمار الذى نتخذه رَمْزاً للغباء وعدم الفَهْم تسوقه أمامك وتُحمِّله القاذورات وتضربه فلا يعترض عليك ولا يخالفك ، فإنْ نظفْته وزيَّنْتَه بلجام فضة ، وبردعة قطيفة تتخذه رُكُوبة وزينة ويسير بك ويحملُك ، وأنت على ظهره ، فإنْ غضبتَ عليه واستخدمْته فى الأحمال وفى القاذورات تحمَّل راضياً مطيعاً..

وانظر إلى هذا الحمار الذى نتخذه مثالاً للغباء ، إذا أردتَ منه أن يقفز قناة أوسع من مقدرته وإمكانياته ، فإنه يتراجع ، ومهما ضربتَه وقسوْتَ عليه لا يُقدم عليها أبداً ؛ لأنه يعلم مدى قفزته ، ويعلم مقدرته ، ولا يُقدِم على شىء فوق ما يطيق - وبعد ذلك نقول عنه : حمار !!

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَكُلُوا[1] مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ﴾ [الحج]

البائس : هو الذى يبدو على سحْنته وشكله وزيِّه أنه فقير محتاج ، أما الفقير فهو محتاج الباطن ، وإنْ كانَ ظاهره اليُسْر والغِنَى ، وهؤلاء الفقراء لا يلتفت الناس إليهم ، وربما لا يعلمون حالهم وحاجتهم ، وقد قال الله فيهم : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا .. (٢٧٣) ﴾ [البقرة]

والمعنى : كُلُوا مما يُبَاح لكم الأكل منه ، وهى الصدقة المحضة ، أو الهدية للبيت غير المشروطة بشىء ، يعنى : لا هى دم قِرَان أو

(١) قال أبو بكر الجصاص (ت ٣٧٠ هـ) فى كتابه « أحكام القرآن » ط . دار الكتب العلمية (٣٠٧/٣) : « ظاهره يقتضى إيجاب الأكل ، إلا أن السلف متفقون على أن الأكل منها ليس على الوجوب ، وقد رُوى عن عطاء والحسن وإبراهيم ومجاهد قالوا : « إن شاء أكل ، وإن شاء لم يأكل » .

تمتُّع ، ولا هـى فدية لمخالفة أمر من أمور الإحرام ، أو كانت نذراً فهذه كلها لا يؤكَل منها[1] .

إذن : كلوا من الصدقة والتطوع ، وأطعموا كذلك البائس والفقير ، ومن رحمة الله بالفقراء أنْ جعل الأغنياء والمياسير هم الذين يبحثون عن الذبائح ويشترونها ويذهبون لمكان الذبح ويتحمَّلون مشقة هذا كله ، ثم يبحثون عن الفقير ليعطوه وهو جالس فى مكانه مستريحاً ، يأتيه رِزْقه من فَضْل الله سهلاً مُيسَّراً .

لذلك يقولون : من شرف الفقير أنْ جعله الله ركناً من أركان إسلام الغنىّ ، أى : فى فريضة الزكاة ، ولم يجعل الغنى ركناً من أركان إسلام الفقير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ[2] وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾

---

(١) قال الجصاص فى « أحكام القرآن » (٣/ ٣٠٧) : « الناس فى دم القران والمتعة على قولين : منهم مَنْ لا يجيز الأكل منه . ومنهم من يبيح الأكل منه ولا يوجبه » وقال الشافعى فى كتاب الأم (٢/ ٣٤٠) : « الهدى هديان : واجب وتطوع ، فكل ما كان أصله واجباً على إنسان ليس له حبسه ، فلا يأكل منه شيئاً وذلك مثل : هدى الفساد والطيب وجزاء الصيد والنذور والمتعة ، وإن أكل من الهدى الواجب تصدق بقيمة ما أكل منه . وكل ما كان أصله تطوعاً مثل الضحايا والهدايا تطوعاً أكل منه وأطعم وأهدى وادخر وتصدق ، وأحبّ إلىّ أن لا يأكل ولا يحبس إلا ثلثاً ويهدى ثلثاً ويتصدق بثلث » .

(٢) قال الزجاج : لا يعرف أهل اللغة التفث إلا من التفسير . وقال أبو عبيدة : لم يجئ فيه شعر يحتج به . وقال ابن الأعرابى : ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الحج] . قال : قضاء حوائجهم من الحلق والتنظيف . [لسان العرب ـ مادة : تفث] .

﴿لْيَقْضُوا .. (٢٩)﴾ [الحج] كلمة قضاء تُقال ، إما لقضاء الله الذى يقضيه على الإنسان مثلاً ، وهو أمر لازم محكوم به ، وإما قضاء من إنسان بين متخاصمين ، وأول شىء فى مهمة القضاء أن يقطع الخصومة ، كأن المعنى ﴿لْيَقْضُوا .. (٢٩)﴾ [الحج] أى : يقطعوا .

ومعنى ﴿تَفَثَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الحج] لما نزل القرآن بهذه الكلمة لم تكن مستعملة فى لسان قريش ، ولم تكن دائرة على ألسنتهم ، فسألوا عنها أهل البادية ، فقالوا : التفثُ يعنى : الأدران والأوساخ التى تعلَقُ بالجسم ، فقالوا : والله لم نعرفها إلا ساعةَ نزل القرآن بها .

فالمراد ـ إذن ـ ليقطعوا تفثهم أى الأدران التى لحقتهم بسبب التزامهم بأمور الإحرام ، حيث يمكث الحاجُّ أيام الحج مُحْرِماً لا يتطيب ، ولا يأخذ شيئاً من شعره أو أظافره ، فإذا ما أنهى أعمال الحج وذبح هَدْيه يجوز له أنْ يقطع هذا التفث ، ويزيل هذه الأدران بالتحلُّل من الإحرام ، وفعْل ما كان محظوراً عليه .

وقوله تعالى : ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الحج] إن كان قد نذر لله شيئاً فعليه الوفاء به .

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)﴾ [الحج] يعنى : طواف الإفاضة ، والطواف : أنْ تدور حول شىء بحيث تبدأ وتنتهى ، وتبدأ وتنتهى ، وهكذا ، وقد وصف البيت بأنه عتيق ، وكلمة عتيق استعملت فى اللغة استعمالات واسعة ، منها : القديم ، وما دام هو أول بيت وُضِع للناس فهو إذن قديم ، والقدَم هنا صفة مدح ؛ لأنها تعنى الشىء الثمين الذى يُحافظ عليه ويُهتَم به .

كما نرى عند بعض الناس أشياء ثمينة ونادرة يحتفظون بها

ويتوارثونها يسمونها « العاديات » مثل : التحف وغيرها ، وكلما مَرَّ عليها الزمن زادتْ قيمتها ، وغلا ثمنها .

والعتيق : الشيء الجميل الحسن ، والعتيق : المعتوق من السيطرة والعبودية لغيره ، فما المراد بوصف البيت هنا بأنه عتيق ؟

وَصْف البيت بالقِدَم يشمل كُلَّ هذه المعانى : فهو قديم ؛ لأنه أول بيت وُضِع للناس ، وهو غالٍ ونفيس ونادر حيث نرى فيه مَا لا نراه فى غيره من آيات ، ويكفى أن رؤيته والطواف به تغفر الذنوب ، وهو بيت الله الذى لا مثيلَ له .

وهو كذلك عتيق بمعنى معتوق من سيطرة الغير ؛ لأن الله حفظه من اعتداء الجبابرة ، ألاَ ترى قصة الفيل ، وما فعله الله بأبرهة حين أراد هَدْمه ؟ حتى الفيل الذى كان يتقدَّم هذا الجيش أدرك أن هذا اعتداءٌ على بيت الله ، فتراجع عن البيت ، وأخذ يتوجَّه أى وجهة أرادوا إلا ناحية الكعبة .

ويُقال : إن رجلاً[1] تقدّم إلى الفيل . وقال فى أذنه : ابْرُك محمود - اسم الفيل - وارجع راشداً فإنك ببلد الله الحرام . وقد عبَّر الشاعر[2] عن هذا الموقف ، فقال :

حُبِسَ الفيل بالمُغَمَّسِ حتَّى   ظَلَّ يعوى كأنه مَعْقُور[3]

ثم ينزل الله عليهم الطير الأبابيل التى ترميهم بالحجارة حتى الموت .

---

(١) هو : نفيل بن حبيب الخثعمى . فيما ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٥٢) .

(٢) هو : أمية بن أبى الصلت بن أبى ربيعة الثقفى .

(٣) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١ /٦٠) هذا البيت ضمن أبيات أخرى لأمية بن أبى الصلت .

لذلك لما ذهب عبد المطلب جَدُّ الرسول ﷺ ليُكلِّم أبرهة في الإبل المائة التي أخذها من إبله ، قال أبرهة : لقد كنتُ أهابك[1] حين رأيتُك ، لكنك سقطت من نظري لما كلَّمتني في مائة بعير أصبْتها لك ، وتركتَ البيت الذي فيه مجدُكم وعزكم .

فماذا قال عبد المطلب ؟ قال : أما الإبل فإنها لي ، أما البيت فله رَبٌّ يحميه .

البعض يتهم عبد المطلب لمقالته هذه بالسلبية ، وليست هذه سلبية من كبير قريش ، إنما ثقةٌ منه في حماية الله لبيته ؛ لذلك ردَّه إلى أقوى منه ، وكأنه قال : إنْ كنتُ أحميه أنا ، فسأحميه بقوتي وقدرتي وحيلتي ، لكنني أريد أنْ أرعبه بقدرة الله وقوته ، وما سلَّمتُ البيت إلاَّ وأنا واثق أن ربَّ البيت سيحميه ، وهذه تُزلزل العدو وتُربكه .

وما أشبه موقف عبد المطلب بموقف موسى عليه السلام ، لما قال له قومه : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء] فقال في يقين وثقة : ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء]

إذن : لم يكُنْ عبد المطلب سلبياً كما يتهمه البعض ، بل كان إيجابياً من النوع الراقي ، فلو كان إيجابياً بالمعنى الذي تريدون لأعطتْه هذه الإيجابية منعةً بقوته هو ، إنما تصرُّفه وما تعتبرونه سلبية أعطاه منعةً بقدرة الله وقُوَّته سبحانه ؛ لذلك تدخَّلتْ فوراً جنود السماء .

---

(١) ويذكر ابن هشام في السيرة النبوية (٤٩/١) أن « عبد المطلب كان أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم ، فلما رآه أبرهة أجلَّه وأعظمه وأكرمه عن أن يُجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير مُلكه فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساطه ، وأجلسه معه عليه إلى جنبه » .

لكن ، لماذا الطواف والدوران حول الكعبة ؟

قالوا : لأن المسلم وهو غائب عن الكعبة يُصلِّى لجهتها ، كلّ حسب موقعه منها ، فتجد المسلمين فى كل أنحاء العالم يتجهون نحوها ، كل من ناحية ، هذا من الشمال ، وهذا من الجنوب ، وهذا من الشرق ، وهذا من الغرب ، يعنى بكل الجهات الأصلية والفرعية .

فإذا ما ذهبتَ إلى الكعبة ذاتها ، وتشرفتَ برؤيتها ، فهل تستقبلها من نفس المكان الذى كنتَ تتجه إليه فى صلاتك وغيرك وغيرك ؟ إذن : فكل اتجاهات الكعبة سواء لك ولغيرك ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ .. (١١٥) ﴾ [البقرة] فليس هناك مكان أَوْلَى من مكان ؛ لذلك نطوف حول البيت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ[1] وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ (٣٠) ﴾

﴿ ذَٰلِكَ .. (٣٠) ﴾ [الحج] إشارة إلى الكلام السابق بأنه أَمْر واضح ، لكن استمع إلى أمر جديد سيأتى ، فهنا استئناف كلام على كلام سابق ، فبعد الكلام عن البيت وما يتعلَّق به من مناسك الحج يستأنف السياق :

---

(١) الأوثان : جمع وثن ، وهو التمثال من خشب أو حديد أو ذهب أو فضة ونحوها وكانت العرب تنصبها وتعبدها ، والنصارى تنصب الصليب وتعبده وتعظمه فهو كالتمثال أيضاً . وقال عدى ابن حاتم : أتيت النبى ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب فقال : « ألق هذا الوثن عنك » أى : الصليب وأصله من وثن الشىء أى : أقام فى مقامه . [تفسير القرطبى ٦/٤٥٨٥] .

﴿وَمَن يُعَظِّمْ ... خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ .. (٣٠)﴾ [الحج] فالحق ـ سبحانه ـ يريد لعبده أنْ يلتـزمَ أوامره بفعل الأمر واجتناب النهى ، فكُلُّ أمر لله يَحـرُم عليك أن تتركه ، وكلّ نَهْى يحـرم عليك أنْ تأتيه ، فهذه هى حرمـات الله التى ينبغى عليك تعظيمها بطاعـة الأمر واجتناب النهى .

وحين تُعظِّم هذه الحرمات لا تُعظمها لذاتها ، فليس هناك شىء له حُرْمـة فى ذاته ، إنمـا تُعظِّمهـا لأنها حـرمات الله وأوامره ؛ لذلـك قد يجعـل الالتزام بها مُـتغـيِّراً ، وقـد يطرأ عليك ما يبـدو متناقـضاً فى الظاهر .

فالوضوء مـثلاً ، البعض يرى فيه نظافة للبـدن ، فإذا انقطع الماء وعُدِم وجـوده حَلَّ محلّه التيمُم بالـتراب الطاهر الذى نُغبِّر به أعـضاء التـيـمم ، إذن : ليس فى الأمـر نظافـة ، إنما هـو الالتزام والانقـيـاد واستـحضـار أنك مُـقْبل على أمر غـير عادى يجب علـيك أنْ تتطَّهر له بالوضـوء ، فإنْ أمـرتُكَ بالتيمم فعليك الالتزام دون البـحث فى أسباب الأمر وعِلّته .

وهكذا يكون الأدب مع الأوامر وتـعظيمهـا ؛ لأنها من الله ، ولِمَ لا ونحن نرى مـثـل هذا الالتـزام أو رياضــة التـأديـب فى الالتـزام فى تعامـلاتنا الطبيـعية الـحياتيـة ، فمثـلاً الجندى حين يُجنَّـد يتعلم أول ما يتـعلم الانضباط قبل أنْ يُمـسك سلاحاً أوْ يتدرب عليـه ، يتعلم أن كلمـة « ثابت » معناها عـدم الحـركة مـهمـا كانت الظروف فلو لَدغـه عقرب لا يتحرك .

ويدخل المدرب على الجنود فى صالة الطعام فـيقول : ثابت فينفذ الجمـيع .. الملعقة التى فى الطبق تظل فى الطبق ، والملعـقة التى فى

فم الجندى تظل فى فمه ، فلا ترى فى الصالة الواسعة حركة واحدة . وهذا الانضباط الحركى السلوكى مقدمة للانضباط فى الأمور العسكرية الهامة والخطيرة بعد ذلك .

إذن : فربُّك - عز وجل - أَوْلَى بهذا الانضباط ؛ لأن العبادة ما هى إلا انضباط عابد لأوامر معبود وطاعة مطلقة لا تقبل المناقشة ؛ لأنك لا تؤديها لذاتها وإنما انقياداً لأمر الله ، ففى الطواف تُقبِّل الحجر الأسود ، وفى رمى الجمار ترمى حجراً ، وهذا حجر وذاك حجر ، هذا ندوسه وهذا نُقبِّله فَحَجر يُقَبَّل وحَجر يُقْنَبل ؛ لأن المسألة مسألة طاعة والتزام ، هذا كله من تعظيم حرمات الله .

لذلك الإمام على - رضى الله عنه - يلفتنا إلى هذه المسألة فيقول فى التيمم : لو أن الأمر كما نرى لكان مسح باطن القدم أَوْلَى من ظاهرها[1] ؛ لأن الأوساخ تعلق بباطن القدم أولاً .

وقد ذكرنا فى الآيات السابقة أن الحرمات خمس : البيت الحرام ، والمسجد الحرام ، والبلد الحرام ، والمشعر الحرام ، والشهر الحرام ، وحرمات الله هى الأشياء المحرمة التى يجب ألاَّ تفعلها .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه جزاء هذا الالتزام : ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ .. (٣٠)﴾ [الحج] الخيرية هنا ليست فى ظاهر الأمر وعند الناس أو فى ذاته ، إنما الخيرية للعبد عند الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ .. (٣٠)﴾ [الحج] قد تقول : كيف وهى حلال من البداية وفى الأصل ،

---

(١) روى أبو داود فى سننه (١٦٢) عن على بن أبى طالب أنه قال : لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخف أَوْلَى بالمسح من أعلاه ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفيه ، وفى رواية أخرى (١٦٤) : لو كان الدين بالرأى لكان باطن القدمين أحق بالمسح من ظاهرهما .

قالوا : لأنه لما حرَّم الصيد قد يظن البعض أنه حرام دائماً فلا ينتفعون بها ، فبيَّن سبحانه أنها حلال إلا ما ذُكر تحريمه ، ونصَّ القرآن عليه في قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ[1] وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ .. ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة]

وقوله تعالى : ﴿ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ .. ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام]

ومعنى : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الحج] الرِّجْس : النجاسة الغليظة المتغلغلة في ذات الشيء . يعني : ليست سطحية فيه يمكن إزالتها ، وإنما هي في نفس الشيء لا يمكن أنْ تفصلها عنه .

﴿ وَاجْتَنِبُوا .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الحج] لا تدل على الامتناع فقط ، إنما على مجرد الاقتراب من دواعي هذه المعصية ؛ لأنك حين تقترب من دواعي المعصية وأسبابها لا بُدَّ أن تداعبك وتشغل خاطرك ، ومَنْ حام حول الشيء يوشك أنْ يقع فيه ، لذلك لم يقُل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ امتنعوا إنما قال : اجتنبوا ، ونعجب من بعض الذين أسرفوا على أنفسهم ويقولون : إن الأمر في اجتنبوا لا يعني تحريم الخمر ، فلم يَقُلْ : حُرِّمَتْ عليكم الخمر .

نقول : اجتنبوا أبلغ في النهي والتحريم وأوسع من حُرِّمَتْ عليكم ، لو قال الحق ـ تبارك وتعالى ـ حُرِّمت عليكم الخمر ، فهذا يعني أنك لا تشربها ، ولكن لك أن تشهد مجلسها وتعصرها وتحملها

(١) المنخنقة : البهيمة التي التف حبلها حول عنقها فخنقها فماتت . والموقوذة : هي الحيوان الذي وُقذ (ضُرب) بعصاً أو حجر حتى مات قبل أن يُذكَّى ذكاة شرعية . والمتردية : هي التي ماتت بسبب سقوطها في حفرة . والنطيحة : ما ماتت بسبب النطح . [القاموس القويم] .

وتبيعها ، أما اجتنبوا فتعنى : احذروا مجرد الاقتراب منها على أيّ وجه من هذه الوجوه .

لذلك ، تجد الأداء القرآنى للمطلوبات المنهجية فى الأوامر والنواهى من الله يُفرِّق بين حدود ما أحلَّ الله وحدود ما حرَّم ، ففى الأوامر يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

وفى النواهى يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧) ﴾[البقرة]

ففى الأوامر وما أحلَّ الله لك قفْ عند ما أحلَّ ، ولا تتعداه إلى غيره ، أمَّا المحرمات فلا تقترب منها مجردَ اقتراب ، فلما أراد الله نَهْى آدم وحواء عن الأكل من الشجرة قال لهما : ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة]

وبعد أن أمر الحق سبحانه باجتناب الرجْس فى عبادة الأصنام قال : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) ﴾ [الحج] فقرن عبادة الأوثان بقول الزُّور ، كأنهما فى الإثم سواء ؛ لذلك النبى ﷺ سلَّم يوماً من صلاة الصبح ، ثم وقف وقال : « ألا وإن شهادة الزور جعلها الله بعد الأوثان »(١) .

لماذا ؟ لأن فى شهادة الزور جماع لكل حيثيات الظلم ، فساعةَ يقول : ليس للكون إله ، فهذه شهادة زور ، وقائلها شاهد زور ، ساعة يقول : الإله له شريك فهذه شهادة زور ، وقائلها شاهد زور ، كذلك حين يظلم أو يُغير فى الحقيقة ، أو يذمُّ الآخرين ، كلها داخلة تحت شهادة الزور .

---

(١) عن خريم بن فاتك الأسدى قال : « صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح ، فلما انصرف قائماً قال : عدلت شهادة الزور الإشراك بالله (ثلاثا) ، ثم تلا هذه الآية ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) ﴾ [الحج] » أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٢١) ، والترمذى فى سننه (٢٣٠٠) ، وأبو داود فى سننه (٣٥٩٩) .

ولما عدَّد النبى ﷺ الكبائر ، قال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين ـ وكان متكئاً فجلس ـ فقال : ألا وقول الزور ألا وقول الزور ، قال الراوى : فما زال يكررها حتى قلنا (ليته سكت) أو حتى ظننا أنه لا يسكت»[(١)] .

ويقولون فى شاهد الزور : يا شاهد الزور أنت شر منظور ، ضلَّلتَ القُضاة ، وحلفت كاذباً بالله .

ومن العجيب فى شاهد الزور أنه أول ما يسقط من نظر الناس يسقط من نظر مَنْ شهد لصالحه ، فرغم أنه شَهد لصالحك ، ورفع رأسك على خَصْمك لكن داستْ قدمك على كرامتَه وحقَّرته ، ولو تعرَّض للشهادة فى قضية أخرى فأنت أول مَنْ تفضحه بأنه شهد زوراً لصالحك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾

اكتفتْ الآية بذكر صفتين فقط من صفات كثيرة على وجه الإجمال ، وهما حنفاء لله ، غير مشركين به . وحنفاء : جمع حنيف ،

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٧٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨٧) من حديث أبى بكرة . قال ابن دقيق العيد : « اهتمامه ﷺ بشهادة الزور يحتمل أن يكون لأنها أسهل وقوعاً على الناس ، والتهاون بها أكثر ، ومفسدتها أيسر وقوعاً ؛ لأن الشرك ينبو عنه المسلم ، والعقوق ينبو عنه الطبع ، وأما قول الزور فإن الحوامل عليه كثيرة فحسُنَ الاهتمام بها ، وليس ذلك لعظمها بالنسبة إلى ما ذكر معها » .

مأخوذة من حنف الرِّجل يعني : تقوُّسها وعدم استقامتها ، فيقال : فيه حَنَف أي : ميْل عن الاستقامة ، وليس الوصف هنا بأنهم مُعْوجون ، إنما المراد أن الاعوجاج عن الاعوجاج استقامة .

لذلك وُصف إبراهيم ـ عليه السلام ـ بأنه ﴿كَانَ حَنِيفًا .. (٦٧)﴾ [آل عمران] يعني : مائلاً عن عبادة الأصنام .

وقلنا : إن السماء لا تتدخَّل برسالة جديدة إلا حين يَعمُّ الفسادُ القومَ ، ويستشري بينهم الضلال ، وتنعدم أسباب الهداية ، حيث لا واعظَ للإنسان لا من نفسه وضميره ، ولا من دينه ، ولا من مجتمعه وبيئته ؛ ذلك لأن في النفس البشرية مناعةً للحق طبيعية ، لكن تطمسها الشهوات ، فإذا عُدِم هذا الواعظ وهذه المناعة في المجتمع تدخَّلَتْ السماء بنبي جديد ، ورسالة جديدة ، وإنذار جديد ؛ لأن الفساد عَمَّ الجميع ، ولم يَعُدْ أحد يعظُ الآخر ويهديه .

وهذا المعنى الذي قال الله فيه : ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)﴾ [المائدة]

ومن هنا شهد الله لأمة محمد ﷺ أنها خير أمة أُخرجَتْ للناس ؛ لأن المناعة للحق فيها قائمة ، ولها واعظ من نفسها يأمر بالخير ، ويأخذ على يد المنحرف حتى يستقيم ؛ لذلك قال فيها النبي ﷺ : « الخير فيَّ وفي أمتي إلى يوم القيامة »[1] .

والمعنى : الخير فيَّ حصراً وفي أمتي نَشْراً ، فرسول الله ﷺ جمع خصال الخير كله ، وخَصَّه الله بالكمال ، لكن مَنْ يُطيق الكمال

(١) أورده السيوطي في « الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة » (حديث ٢٢٠) وقال : « قال الحافظ ابن حجر : لا أعرفه » وقال ابن حجر المكي في الفتاوى الحديثية : « لم يرد بهذا اللفظ ، وإنما يدل على معناه الخبر المشهور : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق » نقله العجلوني في كشف الخفاء (١/٤٧٦) .

المحمدى من أمته ؟ لذلك نثر الله خصال الخير فى جميع أمة محمد ، فأخذ كلّ واحد منهم صفةً من صفاته ، فكماله ﷺ منثور فى أمته : هذا كريم ، وهذا شجاع ، وهذا حليم .. إلخ .

ولما كان لأمة محمد هذا الدور كان هو خاتم الأنبياء ؛ لأن أمته ستؤدى رسالته من بعده ، فلا حاجة - إذن - لتدخل السماء برسالة جديدة إلى أن تقوم الساعة .

إذن نقول : الرسل لا تأتى إلا عند الاعوجاج ، يأتون هم لِيُقوِّموا هذا الاعوجاج ، ويميلون عنه إلى الاستقامة ، هذا معنى الحنيف أو ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الحج]

وهذه الصفة هى مقياس الاستقامة على أوامر الله لا على أوامر البشر ، فنحن لا نضع لأنفسنا أسبابَ الكمال ثم نقول : ينبغى أن يكون كذا وكذا ، لا إنما الذى يضع أسباب الكمال للمخلوق هو الخالق .

والحق - سبحانه وتعالى - ليس مراده من الفعل أنْ يُفعل لذاته ولمجرد الفعل ، إنما مراده من الفعل أنْ يُفعل لأنه أمر به ، وقد أوضحنا هذه المسألة بالكافر الذى يفعل الخير وينفع الناس والمجتمع ، لكن ليس من منطلق الدين وأمر الله ، إنما من منطلق الإنسانية والمكانة الاجتماعية والمهابة والمنزلة بين الناس ، ومثل هذا لا يجحفه الله حَقّه ، ولا يبخسه ثواب عمله ، يعطيه لكن فى الدنيا عملاً بقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴿٣٠﴾ ﴾ [الكهف]

لكن لا حَظَّ لهؤلاء فى ثواب الآخرة ؛ لأنهم عملوا للمجتمع وللناس وللمنزلة ، وقد أخذوا المقابل فى الدنيا شُهْرة وصيتاً ذائعاً ، ومكانة وتخليداً .

وفى الحديث القدسى يقول الحق سبحانه لهم : « لقد فعلْتَ ليُقال وقد قيل »[1] وانتهت المسألة .

والحق - تبارك وتعالى - ضرب لنا عدة أمثلة لهؤلاء ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

فعمل الكافر كالسراب يتراءى له من بعيد ، يظن من ورائه الخير ، وهو ليس كذلك ، حتى إذا ما عاين الأمر لم يجد شيئاً ، وفُوجِىء بوجود إله عادل لم يكُنْ فى باله يوم عمل ما عمل .

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ .. (١٨) ﴾ [إبراهيم]

وقال : ﴿ كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ[2] عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

وهل ينبت المطر شيئاً إذا نزل على الحجر الصَّلْد الأملس ؟ هكذا

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يُقْضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأنْ يقال جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقى فى النار » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) وأحمد فى مسنده (٣٢٢/٢) والنسائى فى سننه (٢٣/٦ ، ٢٤) وذكر مثلين آخرين : رجل تعلم العلم وعلّمه . ورجل وسَّع الله عليه . وقد شرحه فضيلة الشيخ الشعراوى تفصيلاً فى « الأحاديث القدسية ١/١٣٥ - ١٥١ » .

(٢) الصفوان : الحجر الأملس الذى لا يصلح للزرع . ومثله الصلد . والوابل : المطر الغزير . [القاموس القويم] .

عمل الكافر ، فمن أراد ثواب الآخرة فليحقق معنى ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ .. ﴿٣١﴾﴾ [الحج] ويعمل من منطلق أن الله أمر .

إذن : العمل لا يُفعَل ؛ لأنه حسن فى ذاته ، إنما لأن الله أمرك به ، بدليل أن الشارع سيأمرك بأمور لا تجد فيها حُسْناً ، ومع ذلك عليك أنْ تلتزم بها لتحقق الانضباط الذى أراده منك الشارع الحكيم ، وبعد ذلك سينكشف لك وجه الحُسْن فى هذا العمل ، وتعلم الحكمة منه .

خذ مثلاً موقف الإسلام من اليتيم ، وقد حث رسول الله ﷺ على رعايته وإكرامه وكفالته حتى أنه قال : « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة ، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى »[1] فكافل اليتيم قرين لرسول الله فى الجنة .

ففى هذا الموقف حِكَم كثيرة ، قد لا يعلمها كثير من الناس ؛ لأن اليتيم فقد أباه وهو صغير ، ونظر فلم يَجِدْ له أباً ، فى حين يتمتع رفاقه بأحضان آبائهم ، فإذا لم يجد هذا الصغير حناناً من كل الناس كأنهم آباؤه لتربّى عنده شعور بالسُّخْط على الله والاعتراض على القدر الذى حرمه دون غيره من حنان الأب ورعايته .

لذلك يريد الإسلام أن ينشأ اليتيم نشأة سويّة فى المجتمع ، لا يسخط على الله ، ولا يسخط على الناس ؛ لأنهم جميعاً عاملوه كأنه ولد لهم .

وهناك ملحظ آخر : حين ترى مكانة اليتيم ، وكيف يرعاه المجتمع وينهض به يطمئن قلبك إنْ فاجأك الموت وأولادك صغار ،

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٣٠٤ ، ٦٠٠٥) ، وأبو داود فى سننه (٥١٥٠) من حديث سهل بن سعد الساعدى .

هذه مناعات يجعلها الإسلام فى المجتمع : مناعة فى نفس اليتيم ، ومناعة فيمَنْ يرعاه ويكفله .

وكفالة اليتيم وإكرامه لا بُدَّ أنْ تتم فى إطار ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ .. (٣١)﴾ [الحج] فيكون عملك لله خالصاً ، دون نظر إلى شىء آخر من متاع الدنيا ، كالذى يسعى للوصاية على اليتيم لينتفع بماله ، أو أن له مطمعاً فى أمه .. إلخ فهذا عمله كالذى قُلْنا : (كسراب بقيعة) أو كرماد اشتدت به الريح أو كحجر أملس صَلْد لا ينبت شيئاً .

فإنْ حاول الإنسان إخلاص النية لله فى مثل هذا العمل فإنه لا يأمن أنْ يخالطه شىء ، كما جاء فى الحديث الشريف : « اللهم إنى أستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطنى فيه ما ليس لك »(١) .

الصفة الثانية التى وصف الله بها عباده المؤمنين : ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ .. (٣١)﴾ [الحج] فالشرك أمر عظيم ؛ لأن الحق - تبارك وتعالى - كما قال فى الحديث القدسى - أغنى الشركاء عن الشرك ، فكيف تلجأ إلى غير الله والله موجود ؟

لذلك يقول سبحانه فى الحديث القدسى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، مَنْ عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى ، تركته وشِرْكه »(٢) .

ويعطينا الحق سبحانه بعدها صورة توضيحية لعاقبة الشرك : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١)﴾ [الحج]

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى كتابه « جامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف ابن عبد الله أنه كان يقول : اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ثم لم أفِ لك به ، وأستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك فخالط قلبى منه ما قد علمت .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٨٥) وابن ماجة فى سننه (٤٢٠٢) واللفظ لمسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

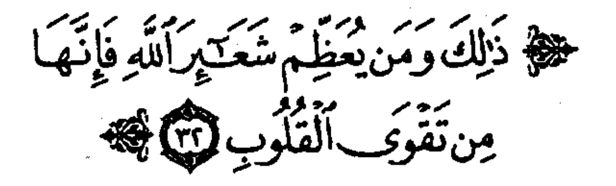
خرَّ : يعنى سقط من السماء لا يُمسكه شىء ، ومنه قوله تعالى :
﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. ﴿٢٦﴾﴾ [النحل]

وفى الإنسان جمادية ؛ لأن قانون الجاذبية يتحكم فيه ، فإنْ صَعد إلى أعلى لا بُدَّ أنْ يعود إلى الأرض بفعل هذه الجاذبية ، لا يملك أنْ يُمسك نفسه مُعلَّقاً فى الهواء ، فهذا أمر لا يملكه وخارج استطاعته ، وفى الإنسان نباتية تتمثل فى النمو ، وفيه حيوانية تتمثل فى الغرائز ، وفيه إنسانية تتمثل فى العقل والتفكير والاختيار بين البدائل ، وبهذه كُرِّم عن سائر الأجناس .

وتلحظ أن (خرَّ) ترتبط بارتفاع بعيد ﴿خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ .. ﴿٣١﴾﴾ [الحج] بحيث لا تستطيع قوة أنْ تحميه ، أو تمنعه لا بذاته ولا بغيره ، وقبل أنْ يصل إلى الأرض تتخطفه الطير ، فإنْ لم تتخطفه تهوى به الريح فى مكان بعيد وتتلاعب به ، فهو هالك هالك لا محالةَ ، ولو كانت واحدة من هذه الثلاث لكانت كافية .

وعلى العاقل أنْ يتأمل مغزى هذا التصوير القرآنى فيحذر هذا المصير ، فهذه حال مَنْ أشرك بالله ، فإنْ أخذتَ الصورة على أنها تشبيه حالة بحالة ، فها هى الصورة أمامك واضحة ، وإنْ أردتَ تفسيراً آخر يُوضِّح أجزاءها : فالسماء هى الإسلام ، والطير هى الشهوات ، والريح هى ريح الشيطان ، يتلاعب به هنا وهناك . فأىُّ ضياع بعد هذا ؟ ومَنْ ذا الذى ينقذه من هذا المصير ؟

ثم يقول الحق سبحانه :


﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾

﴿ذَلِكَ .. (٣٢)﴾ [الحج] كما قلنا فى السابقة : إشارة إلى الكلام السابق الذى أصبح واضحاً معروفاً ، ونستأنف بعدها كلاماً جديداً تَنبَّه له .

﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ .. (٣٢)﴾ [الحج] الشعائر : جمع شعيرة ، وهى المعالم التى جعلها الله لعباده لينالوا ثوابه بتعظيمها ، فالإحرام شعيرة ، والتكبير شعيرة ، والطواف شعيرة ، والسَّعْى شعيرة ، ورمْى الجمار شعيرة .. إلخ . وهذه أمور عظّمها الله ، وأمرنا بتعظيمها(١) .

وتعظيم الشىء أبلغ وأشمل من فعْله ، أو أدائه ، أو عمله ، عَظَّم الشعائر يعنى : أدَّاها بحبٍّ وعشْق وإخلاص ، وجاء بها على الوجه الأكمل ، وربما زاد على ما طُلِبَ منه .

ومثالنا فى ذلك : خليل الله إبراهيم ، عندما أمره الله أنْ يرفع قواعد البيت : كان يكفيه أنْ يبنى على قَدْر ما تطوله يده ، وبذلك يكون قد أدّى ما أُمر به ، لكنه عشق هذا التكليف وأحبَّه فاحتال للأمر ووضع حجراً على حجر ليقف عليه ، ويرفع البناء بقدر ما ارتفع إليه .

فمحبة أمر الله مَرْقى من مراقى الإيمان ، يجب أن نسموَ إليه ، حتى فى العمل الدنيوى : هَبْ أنك نُقلْتَ إلى ديوان جديد ، ووصل إلى علْمك أن مدير هذا الديوان رجل جَادّ وصعب ، ويُحاسب على كل صَغيرة وكبيرة ، فيمنع التأخير أو التسيّب أثناء الدوام الرسمى ، فإذا

---

(١) هناك قول آخر فى تفسير هذه الآية ، فالمقصود بشعائر الله هنا : البُدْن والهدى الذى يُهدى إلى الكعبة . وتعظيم شعائر الله هنا معناه : استعظام البُدْن واستسمانها واستحسانها . [راجع الآثار التى أوردها السيوطى فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور (٦/٤٦) عن ابن عباس ومجاهد] .

بك تلتـزم بهذه التـعليمـات حرفـيـاً ، بل وتزيد عليهـا ليس حبـاً فى العمل ، ولكن حتى لا تُسئَل أمام هذا المدير فى يوم من الأيام .

إذن : الهدف أنْ نؤدى التكاليف بحُبٍّ وعشْق يُوصِّلنا إلى حب الله عز وجل ؛ لذلك نجد من أهل المعرفـة مَنْ يقول : رُبَّ معصية أورثتْ ذلاً وانكساراً خَيْر من طاعة أورثت عِزّاً واستكباراً[1] .

فالمهم أن نصل إلى الله ، أن نخضع لله ، أنْ نذلّ لعزته وجلاله ، والمعـصية التى تُوصِّلك إلى هذه الغـاية خير من الطَـاعة التى تُسلمك للغرور والاستكبار .

هذه المحبة للتكاليف ، وهذا العشق عبَّر عنه رسول الله ﷺ حينما قال : « وجُعلَتْ قُرَّة عينى في الصلاة »[2] لذلك نَعَى القرآن على أولئك الذين ﴿إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢)﴾ [النساء]

وابنته فـاطمة[3] ـ رضى الله عنها ـ كانت تجـلو الدرهم وتلمعه ، فلما سألها رسول الله عما تفعل ، قالت : لأننى نويتُ أنْ أتصدَّق به ، وأعلم أنه يقع فى يد الله قبل أنْ يقع فى يد الفقـير . هذا هو التعظيم لشعائر الله والقيام بها عن رغبة وحب .

وفى عصور الإسـلام الأولى كان الناس يتفاضلون بأسـبقهم إلى

---

(١) من حكم ابن عطـاء الله السكندرى ، ذكـره عـبـد العـال كـحـيل فى كـتـابه « أبو العـينين الدسوقى » ص ٧٦ ـ دار الشعب القاهرة .

(٢) أخـرجـه أحـمـد فى مـسنده (٣/١٢٨ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) والنسـائـى فى سننه (٧/٦١) والحاكم فى مستدركه (٢/١٦٠) وقال : صـحـيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى ، وتمام الحديث « حُبِّب إلىَّ من الدنيا : النساء والطيب » .

(٣) هى : فاطمـة بنت رسول الله محـمد بن عبد الله ، أمـها خديجـة بنت خويلد ، ولدت ١٨ ق هـ ، تزوجهـا أمير المـؤمنين على بن أبى طالب فى الثامنـة عشرة من عـمرها ، وولدت له الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب ، عاشت بعد أبيـها ستة أشهر . توفيت ١١ هـ عن ٢٩ عاماً . الاعلام للزركلى (٥/١٣٢) .

صلاة الجماعة حين يسمع النداء ، وبآخرهم خروجاً من المسجد بعد أداء الصلاة ، ولك أن تقيس حال هؤلاء بحالنا اليوم . هؤلاء قوم عظَّموا شعائر الله فلم يُقدِّموا عليها شيئاً .

وقد بلغ حُبُّ التكاليف وتعظيم شعائر الله بأحد العارفين إلى أنْ قال : لقد أصبحتُ أخشى ألاَّ يثيبنى الله على طاعته ، فسألوه : ولماذا ؟ قال : لأننى أصبحتُ أشتهيها يعنى : أصبحتْ شهوة عندى ، فكيف يُثاب - يعنى - على شهوة ؟!

لذلك أهل العزم وأهل المعرفة عن الله إذا ورد الأمر من الله وثبت أخذوه على الرَّحْب والسَّعَة دون جدال ولا مناقشة ، وكيف يناقشون أمر الله وهم يُعظِّمونه ؟ ومن هنا نقول للذين يناقشون فى أمور فعلها رسول الله ﷺ مثل تعدُّد زوجاته مثلاً ويعترضون ، بل ومنهم مَنْ يتهم رسول الله ﷺ بما لا يليق .

نقول لهم : ما دُمْتُم آمنتم بأنه رسول الله ، فكيف تضعون له موازين الكمال من عند أنفسكم . وتقولون : كان ينبغى أنْ يفعل كذا ، ولا يفعل كذا ؟ وهل عندكم من الكمال ما تقيسون به فِعْل رسول الله ؟ المفروض أن الكمال منه ﷺ ومن ناحيته ، لا من ناحيتكم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) ﴾ [الحج] ليست من تقوى الجوارح ، بل تقوى قلب لا تقوى قالب ، فالقلب هو محلُّ نظر الله إليك ، ومحلُّ قياس تعظيمك لشعائر الله .

و سبق أنْ ذكرنا أن الله تعالى لا يريد أنْ يُخضِع قوالبنا ، إنما يريد أنْ يُخضع قلوبنا ، ولو أراد سبحانه أنْ تخضع القوالب لخضعتْ له راغمة ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ③ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ④ ﴾ [الشعراء]

وأنت تستطيع أنْ تُرغِم مَنْ هو أضعف منك على أيِّ شيء يكرهه ، إنْ شئتَ سجد لك ، لكن لا تملك أنْ تجعل في قلبه حباً أو احتراماً لك ، لماذا ؟ لأنك تجبر القالب ، أمّا القلب فلا سلطةَ لك عليه بحال .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ㉝ ﴾

يعني : ما دامت هذه المسائل من شعائر الله ومن تقوى القلوب فاعملوها وعظِّموها ؛ لأن لكم فيها منافع عرفتها أو لم تعرفها ، وربما تعرف بعضها ولا تعرف الباقي ؛ لأنه مستور عنك ولو أنك لا تعلم قيمة الجزاء على هذه الشعائر ، فقيمة الجزاء على العمل بحسب أنفاس الإخلاص في هذا العمل .

ومعنى ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ㉝ ﴾ [الحج] ما دام الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ذَيَّل الآية بقوله ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ㉝ ﴾ [الحج] إذن : فالمراد هنا شعيرة الذَّبْح ، ولا يخفى ما فيها من منافع حيث ننتفع بصوفها ووبرها ولبنها ولحمها ، ونتخذها زينة وركوبة .

كل هذا ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ㉝ ﴾ [الحج] يعني : زمن معلوم ، وهو حين تقول وتنوي : هذه هدية للحرم ، ساعة تعقد هذه النية

فليس لك الانتفاع بشيء منها ، لا أنت ولا غيرك[1] ؛ لذلك يُميِّزونها بعلامة حتى إنْ ضلت من صاحبها يعرفون أنها مُهْداة لبيت الله ، فلا يأخذها أحد[2] .

وما دامت هذه منافع إلى أجْل مسمى ، فلا بُدَّ أنها المنافع الدنيويةِ ، أما المنافع الأخروية فسوف تجدها فيما بعد في الآخرة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحج] أي : بعد هذا الأجل المسمى ينتهي بها المطاف عند الحرم حيث تُذبَح هناك .

وقد كان للعلماء[3] كلامٌ حول هذه الآية : ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحج] حيث قالوا : محل الذَّبْح في مِنَى ، وليس في مكة ، والآية تقول : محلها البيت العتيق .

---

(١) قال ابن عباس : ما لم يُسمَّ بدناً ، وقال مجاهد : المنافع الركوب واللبن والولد فإذا سميت بدناً أو هدياً ذهب ذلك كله . وكذا قال عطاء والضحاك وقتادة وغيرهم . وقال آخرون : بل له أن ينتفع بها وإن كانت هدياً إذا احتاج إلى ذلك كما ثبت في الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة قال : اركبها . قال : إنها بدنة . قال : « اركبها ويحك » [قاله ابن كثير في تفسيره ٣/ ٢٢٠] .

(٢) وهو قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ .. ﴿٢﴾﴾ [المائدة] . قال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٤) : « يعني : لا تتركوا الإهداء إلى البيت الحرام فإن فيه تعظيم شعائر الله ، ولا تتركوا تقليدها في أعناقها لتتميز به عما عداها من الأنعام ، وليعلم أنها هَدْى إلى الكعبة فيجتنبها من يريدها بسوء ، وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها » .

(٣) هناك قولان في تفسير هذه الآية ، في عَوْد الضمير في (مَحِلّها) :

- البُدْن والهَدْي ، أي : إلى يوم النحر تنحر بمنى . [عن عطاء] . وإذا دخلت الحرم فقد بلغت محلها [عكرمة] . وهذا ما أخذ به فضيلة الشيخ الشعراوي رحمه الله .
- شعائر ومناسك الحج . أي : أن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة ورمي الجمار والسعي ينتهي إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق . قاله القرطبي في تفسيره (٦/٤٥٨٨) .

نقول : الأصل كما جاء في الآية أن الذبح في مكة وفي الحرم ، إلا أنهم لما استقذروا الذَّبْح في الحرم بسبب ما يُخلفه من قاذورات ودماء وخلافه نتيجة هذه العملية ، فرُؤى أن يجعلوا الذبح بعيداً عن الحرم حتى يظل نظيفاً ، وهذا لا يمنع الأصل ، وهو أنْ يكون الذَّبْح في الحرم ، كما جاء في آية أخرى : ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ..(٩٥)﴾ [المائدة]

وفي الحديث الشريف : « مكّةُ كلُّها مَنْحرٌ »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) ﴾

المنسك : هو العبادة ، كما جاء في قول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾ [الأنعام]

ومعنى ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا .. (٣٤)﴾ [الحج] لأن الشعائر والمناسك والعبادات ليس من الضروري أنْ تتفق عند جميع الأمم ، بل لكل أمة ما يناسبها ، ويناسب ظَرْفها الزمني والبيئي .

لذلك ، فإن الرسل لا تأتي لتُغير القواعد والأسس التي يقوم عليها

(١) عن جابر بن عبد الله أنه قال : نحر رسول الله ﷺ فحلق وجلس للناس ، فما سُئل عن شيء إلا قال : لا حرج لا حرج ، حتى جاءه رجل فقال : حلقت قبل أن أنحر . قال : لا حرج . ثم جاء آخر فقال : يا رسول الله حلقت قبل أن أرمي قال : لا حرج قال رسول الله ﷺ : « عرفة كلها موقف ، والمزدلفة كلها موقف ، ومنى كلها منحر ، وكل فجاج مكة طريق ومنحر » أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣٢٦) والدارمي في سننه (٢/٥٧) .

الدين ؛ لأن هذه القواعد وهذه الأسس ثابتة فى كل رسالات السماء ، لا تتبدل ولا تتغير بتغيُّر الرسل .

يقول تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

هذا فى الأصول العَقَدية الثابتة ، أما فى الفرعيات فنرى ما يصلح المجتمع ، وما يناسبه من طاعات وعبادات .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه الحكمة من هذه المناسك : ﴿ لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ .. (٣٤) ﴾ [الحج] أى : يذكروا الله فى كل شىء ، ويشكروه على كل نعمة ينالونها من بهيمة الأنعام .

لذلك نذكر الله عند الذبح نقول : بسم الله ، الله أكبر ، لماذا ؟ لأن الذبح إزهاق روح خلقها الله ، وما كان لك أنْ تزهقها بإرادتك ، فمعنى « بسم الله والله أكبر » هنا أننى لا أزهق روحها من عندى ، بل لأن الله أمرنى وأباحها لى ، فالله أكبر فى هذا الموقف من إرادتك ، ومن عواطفك .

ونرى البعض يأنف من مسألة الذَّبْح هذه ، يقول : كيف تذبحون هذا الحيوان أو هذه الدجاجة ؟ يدَّعى الرحمة والشفقة على هذه الحيوانات ، لكنه ليس أرحم بها من خالقها ، وما ذبحناها إلا لأن الله أحلَّها ، وما أكلناها إلا بسم الله ، بدليل أن ما حرمه الله علينا لا نقرب منه أبداً .

وهل أنا أكرم القطة عن الأرنب ، فأذبح الأرنب وأترك القطة ؟ وهل أحترم الكلب عن الخروف ؟ أبداً ، المسألة مسألة تشريع وأمر ثبت عن الله ، فَعَلىَّ أنْ أُعظِّمه وأُطيعه .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ .. (٣٤) ﴾ [الحج] الرزق يعنى : أنه تعالى أوجدها لك ، وملكك إياها ، وذلَّلها لك فاستأنستْها وسخَّرها لك فانتفعتَ بها ، ولولا تسخيره ما انقادتْ لك بقُوتك وقدرتك .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. (٣٤) ﴾ [الحج] يعنى : إنِ اختلفت الشرائع من أمة لأمة فإيَّاك أنْ تظنَّ أن هذا من إله ، وهذا من إله آخر ، إنما هو إله واحد يشرِّع لكل أمة ما يناسبها وما يصلحها ؛ لأن التشريعات السماوية تأتى علاجاً لآفات اجتماعية .

والأصل الأصيل هو إيمان بإله واحد فاعل قادر مختار ، يُبلِّغ عنه رسول بمعجزة تُبيِّن صدقه فى التبليغ عن الله . هذا أصل كل الديانات السماوية ، كذلك قواعد الدين وأساسياته واحدة مُتفق عليها ، فالسرقة والزنا وشهادة الزور .. إلخ كلها مُحرَّمة فى كل الأديان .

لكن ، هناك أمور تناسب أمة ، ولا تناسب أخرى ، والمشرِّع للجميع إله واحد ، الناس جميعاً من لَدُن آدم وإلى أنْ تقومَ الساعة عياله ، وهم عنده سواء ، لذلك يختار لكلٍّ ما يُصلحه .

ألاَ ترى ربَّ الأسرة كيف يُنظِّم حياة أولاده ـ ولله المثَل الأعلى ـ فيقول : هذا يفعل كذا ، وهذا يفعل كذا ، وإذا جاء الطعام قال : هذا يأكل كذا وكذا لأنه مريض مثلاً ، لا يناسبه طعام الآخرين ، ويأمر الأم أنْ تُعدَّ لهذا المريض ما يناسبه من الطعام . ذلك لأنه رَاعٍ للجميع مسئول عن الجميع ، وعليه أنْ يراعيَ مصلحة كل واحد منهم على حدَة[1] .

---

(١) وذلك مصداقاً لحديث رسول الله ﷺ : « ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير الذى على الناس راعٍ وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راعٍ على أهل بيته ، وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم ، والعبد راعٍ على مال سيده ، وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راعٍ ، وكلكم مسئول عن رعيته » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٢٩) ، والبخارى فى صحيحه (٨٩٣ ، ٢٤٠٩) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

إذن : اختلاف التشريعات فى هذه المسائل الجزئية بين الأمم لا يعنى تعدُّد الآلهة كلاَّ وحاشا لله ، بل هو إله واحد ، يعطى عباده كُلاًّ على حسب حاجته ، كى يتوازنَ المجتمع ويستقيم حاله .

نذكر أنه كان عند طبيب الوحدة الصحية دورقان ، فى كل منهما مزيج معين ، وكان يعطى كل المرضى مع اختلاف أمراضهم من هذين النوعين فقط ؛ لذلك كانت عديمة الجدوى ، أما الآن فالطبيب الماهر لا بُدَّ أن يُجرى على مريضه الفحوص والتحاليل اللازمة ليقف على مرضه بالتحديد ، ثم يصف العلاج المناسب لهذه الحالة بمقادير دقيقة تُبرىء المرض ولا تضرُّ المريض من ناحية أخرى .. كذلك الأمر فى اختلاف الشرائع السماوية بين الأمم .

وما دام أن إلهكم إله واحد ، وما دُمْتم عنده سواء ، وليس منكم مَنْ هو ابنٌ الله ، ولا بينه وبين الله قرابة . إذن : ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا .. (٣٤)﴾ [الحج] يعنى : أسْلموا كل أموركم لله ، فإنْ أمر فعظِّموا أمره ، وخذوه على الرَّحْب والسَّعَة ، فإنْ ترك مجالاً لاختيارك فاصنع ما تشاء . ولا تنسَ أن الله تعالى أعطاك فرصة للترقِّى الإيمانى ، وللترقِّى الإحسانى ، وفتح لك مجال الإحسان إنْ أردتَ .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤)﴾ [الحج] المخبت : فى المعنى العام : يعنى الإنسان الخاشع الخاضع المتواضع لكل أوامر الله ، والمعنى الدقيق للمخبت : هو الذى إذا ظُلم لا ينتصر لنفسه ، عملاً بقول الله تعالى : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣)﴾ [الشورى] هكذا بلام التوكيد .

أما فى وصية لقمان لولده : ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧)﴾ [لقمان] بدون توكيد ، لماذا ؟

قالوا : لأن لقمان يوصى ولده بالصبر على ما أصابه ، والمصائب قسمان : مصيبة تصيب الإنسان ، وله فيها غريم هو الذى أوقع به المصيبة ، وهذه يصاحبها غضب وسعار للانتقام ، ومصيبة تصيب الإنسان وليس له غريم كالمرض مثلاً ، فإنْ كان له غريم فالصبر أشدُّ ، لذلك احتاج إلى التوكيد ، على خلاف المصيبة التى ليس أمامك فيها غريم ، فهى من الله فالصبر عليها أهونُ من الأولى .

ومع ذلك جعل الحق - سبحانه وتعالى - للنفس البشرية منافذ تُنفِّس من خلالها عن نفسها ، حتى لا يختمر بداخلها الغضب ، فيتحول إلى حقد وضغينة ، قد تؤدى إلى أكثر مما وقع بك ؛ لذلك أباح لك الرد لكن حبَّبك فى مَرَاقٍ أخرى ، هى أجدى لك ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

وهذه مراحل ثلاث ، تختار منها بحَسْب فَهْمك عن الله وقُرْبك منه :

الأولى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ .. (١٣٤) ﴾ [آل عمران] يعنى : تكظم غيظك فى نفسك ، دون أنْ تترجم هذا الغيظ إلى عمل نزوعىّ فتنتقم ، فالغيظ - إذن - مسألة وجدانية فى القلب ، وموجود فى مواجيد نفسه ، وهذه مرحلة .

الثانية : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .. (١٣٤) ﴾ [آل عمران] يعنى : لا ينتقم ، ولا حتى يجعل للغَيْظ مكاناً فى نفسه ، فيُصفِّيها من مشاعر الحَنَق والغيظ راضياً .

الثالثة : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران] وهى أعلى المراتب ، وهى ألاَّ تكتفى بالعفو ، بل وتُحسن إلى مَنْ أساء إليك ،

والبعض يقول : هذا ضد طباع البشر ، نعم هى ضد طباع البشر العاديين ، لكن الذين يعرفون الجزاء ، ويعرفون أنهم بذلك سيكونون فى حضانة ربهم يهون عليهم هذا العمل ، بل ويُحبون الإحسان إلى مَنْ أساء .

لذلك ؛ فالحسن البصرى - رضوان الله عليه - لما بلغه أنَّ شخصاً نال منه فى أحد المجالس - وكان الوقت بواكير الرُّطَب - أرسل خادمه إليه بطبق من الرطب ، وقال له : بلغنى أنك أهديْتَ إلىَّ حسناتك بالأمس[1] .

ومعلوم أن الحسنات أغلى وأثمن بكثير من طبق الرُّطَب . ومن هنا يقولون : ما أعجب من الذى يُسىء إلى مَنْ أساء إليه ، لأنه أعطاه حسناته ، وهى خلاصة عمله ، فكيف يُسىء إليه ؟!

وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يُحدث توازناً فى المجتمع ، ويقضى على دواعى الحقد وأسباب الضغائن فى النفس البشرية ، فحين تُحسِن إلى مَنْ يُسىء إليك فإنك تجتثّ جذور الكُرْه والحِقْد من نفسه ، كما قال سبحانه وتعالى :

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت] فقد أخرجتَ خَصْمك من قالب الخصومة ، إلى قالب الولاية والمحبة .

فالمخْبِت المتواضع لله ، أما غير المخبت فتراه متكبراً (يتفرعن) على مَنْ حوله ، ويرى نفسه أعظم من الجميع ، ولو أنه استحضر

(١) ذكره أبو حامد الغزالى (٣/١٥٤) أن رجلاً قال للحسن : إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق ، وقال : قد بلغنى أنك أهديت إلىَّ من حسناتك ، فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فإنى لا أقدر أن أكافئك على التمام .

جلال ربه لخشع له ، وتواضع وانكسر لخَلْقه ، فالتكبر دليل غفلة عن عظمة الله ، كأنه لم يشهد خالقه .

إذن : تستطيع أن تقول أن الإخبات على نوعين : إخبات لله بالخضوع والخشوع والتعظيم لأوامره ، وإخبات لخَلْق الله ، بحيث لا ينتصر لظلمه ولا يظلم ، إنما يتسامح ويعفو ؛ لأنه يعلم جيداً أنه إذا ظُلِم من مخلوق تعصَّب له الخالق .

ولك أن تنظر إلى أولادك إذا ظلم أحدهم الآخر فإلى مَنْ تنحاز ، ومع مَنْ تتعاطف ؟ لا شك أنك ستميل إلى المظلوم ، وتحنو عليه ، وتريد أنْ تُعوِّضه عَمَّا لحقه من الظلم ، حتى إن الظالم ليندم على ظُلْمه ؛ لأنه ميَّز أخاه المظلوم عليه ، وربما تمنى أنْ يكونَ هو المظلوم لا الظالم .

كذلك حال المخبِت يرى أن الخَلْق جميعاً عيال الله ، وأن أحبّهم إليه أرأفهم بعياله ؛ لذلك يعفو عَمَّن ظلمَه ، ويترك أمره لله رب الجميع ، كما أن المظلوم إذا رَدَّ الظلم فإنه يَردُّه بقوته ومقدرته هو ، إنما إنْ ترك الردَّ لله جاء الردُّ على مقدار قوته سبحانه .

ملْحظ آخر ينبغي أن يتنبه له المظلوم قبل أن يُفكِّر في الانتقام ، وهو : مَنْ يدريك لعلك ظلمتَ أنت أيضاً دون أنْ تدرى ، لعل للناس عندك مظالم لا تشعر بها ، وليست في حُسْبانك ، فالمسألة ـ إذن ـ لك وعليك .

لذلك يقول الحق سبحانه في الحديث القدسى : « يا ابن آدم دعوتَ على مَنْ ظلمك » .

وهذا مباح لك بقوله تعالى : ﴿ لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ

إلاَّ مَن ظُلِمَ .. ﴿١٤٨﴾ ﴾ [النساء] يعنى : أعطيناك فرصة أنْ تدعو على من ظلمك .

ثم يقول سبحانه : « ودعا عليك مَنْ ظلمتَه ، فإنْ شئتَ أجبناك وأجبنا عليك ، وإنْ شئت أخَّرتكُما للآخرة فيسعكُما عَفْوى »[1] .

فالمخبت يستحضر هذا كله ، ويركن إلى العفو والتسامح ؛ ليأخذ ربَّه عز وجل فى صفه ؛ لذلك يقولون : لو علم الظالم ما أعدَّه الله للمظلوم من الكرامة لضَنَّ عليه بالظلم .

فحين ترى المظلوم يعفو عنك ويتسامح معك ، فلا تظن أنك أخضعته لك ، إنما هو خضع لله الذى سيرفعه عليك ، ويُعْلى رأسه عليك فى يوم من الأيام .

لذلك من أنماط السلوك السوى إذا تشاجر اثنان يقول أحد العقلاء : لكما أب نرد عليه ، أو لكما كبير نرجع إليه فى هذه الخصومة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يُبيِّن لنا الحق سبحانه بعض صفات المخبتين ، فهم ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [الحج] (وَجلت) : يعنى خافت ، واضطربت ، وارتعدت لذكر الله تعظيماً له ، ومهابة منه .

---

(١) ذكره أبو حامد الغزالى (١٨٣/٣) من قول يزيد بن ميسرة : إن ظللت تدعو على من ظلمك فإن الله تعالى يقول : إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته ، فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك ، وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة فيسعكما عفوى .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد]

فمرة يقول ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .. (٣٥) ﴾ [الحج] ومرة ﴿ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد] ، لماذا ؟ لأن ذكر الله إنْ جاء بعد المخالفة لا بُدَّ للنفس أنْ تخاف وتَوْجَل وتضطرب هيبةً لله عز وجل ، أما إنْ جاء ذكْر الله بعد المصيبة أو الشدة فإن النفس تطمئنُّ به ، وتأنَسُ لما فيها من رصيد إيمانى ترجع إليه عند الشدة وتركَنُ إليه عند الضيق والبلاء ، فإنْ تعرَّضتَ لمصيبة وعزَّتْ أسبابُ دَفْعها عليك تقول : أنا لى رب فتلجأ إليه ، كما كان من موسى ـ عليه السلام ـ حين قال : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء]

﴿ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ .. (٣٥) ﴾ [الحج] ومعنى أصاب : يعنى جاء بأمر سىء فى عُرْفك أنت ، فتعده مصيبة ؛ لأننا نُقدِّر المصيبة حَسْب سطحية العمل الإيذائى ، إنما لو أخذتَ مع المصيبة فى حسابك الأجر عليها لهانَتْ عليك وما اعتبرتَها كذلك ؛ لذلك فى الحديث الشريف يقول ﷺ : « المصاب من حرم الثواب » .

هذا هو المصاب حقاً الذى لا تُجبَر مصيبته ، أما أنْ تُصاب بشىء فتصبر عليه حتى تنالَ الأجر فليس فى هذا مصيبة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ .. (٣٥) ﴾ [الحج] لأن الصلاة هى الولاء الدائم للعبد المسلم ، والفرض الذى لا يسقط عنه بحال من الأحوال ، فالشهادتان يكفى أنْ تقولها فى العمر مرة ، والزكاة إنْ كان عندك نِصَاب فهى مرة واحدة فى العام كله ، والصيام كذلك ، شهر فى العام ، والحج إنْ كنتَ مستطيعاً فهو مرة واحدة فى

العمر ، وإنْ لم تكُنْ مستطيعاً فليس عليك حج .

إذن : الصلاة هى الولاء المستمر للحق سبحانه على مَدار اليوم كله ، وربك هو الذى يدعوك إليها ، ثم لك أنْ تُحدِّد أنت موعد ومكان هذا اللقاء فى حَضْرته تعالى ؛ لأنه سبحانه مستعد للقائك فى أىِّ وقت .

وتصور أن رئيس الجمهورية أو الملك مثلاً يدعوك ويُحتِّم عليك أنْ يراك فى اليوم خمس مرات لتكون فى حضرته ، والحق سبحانه حين يدعو عباده للقائه ، لا يدعوهم مرة واحدة إنما خمس مرات فى اليوم والليلة ؛ لأنه سبحانه لا يتكلف فى هذه العملية تكرار لقاءات ، فهو سبحانه يلْقَى الجميع فى وقت واحد .

ولما سئل الإمام علي ـ رضى الله عنه ـ : كيف يُحاسب اللهُ كلَّ هؤلاء الناس في وقت واحد ؟ قال : كما أنه يرزقهم جميعاً في وقت واحد .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥) ﴾ [الحج] لا ينفقون من جيوبهم ، إنما من عطاء الله ورزقه . ومن العجيب أن الله تعالى يعطيك ويهبُكَ ويُغدق عليك تفضُّلاً منه سبحانه ، فإذا أرادك تُعين محتاجاً قال لك : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (١١) ﴾ [الحديد]

وكأن الله تعالى يقول لنا : أنا لا أعود فى هبتى ولا فى عطائى ، فأقول : اعْط ما أخذتَه لفلان ، بل إنْ أعطيتَ الفقير من مالك فهو أيضاً لك مُدَّخر لا يضيع ، فرزْقك الذى وهبك الله إياه ملْكك ، ولا نغبنك فى شىء منه أبداً ، فربّك يحترم ملكيتك ، ويحترم جزاء عملك وجدّك واجتهادك .

نقول ـ ولله المثل الأعلى ـ : كالرجل الذى يحتاج مبلغاً كبيراً لأحد الأبناء فيأخذ من الباقين ما معهم وما ادخروه من مصروفاتهم على وَعْد أنْ يُعوِّضهم بدلاً منها فيما بعد .

لذلك يقول بعدها : ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. ⑪ ﴾ [الحديد] فيعاملك ربك بالزيادة ؛ لذلك يقول البعض : إن الله تعالى حرَّم علينا الربا وهو يعاملنا به ، نعم يعاملك ربك بالربا ويقول لك : اترك لى أنا هذا التعامل ؛ لأننى حين أزيدك لا أنقص الآخرين ، ولا أُنقِص مما عندى ، ولا أُرهِق ضعيفاً ولا محتاجاً ولا أستغلّ حاجته .

والصدقة فى الإسلام تأمينٌ لصاحبها ضد الفقر إن احتاج ، فأخوَفُ ما يخافه المرءُ الحاجة عند الكبَر ، وعدم القدرة على الكَسْب ، وعند الإعاقة عن العمل ، يخاف أنْ ينفدَ ماله ، ويحتاج إلى الناس حال كِبَره .

وعندها يقول له ربه : اطمئن ، فكما أَعطيْتَ حال يُسْرك سيعطيك غيرُك حال عوَزِك وحاجتك .

إذن : أخذ منك ليعطيك ، وليُؤمِّن لك مستقبل حياتك الذى تخاف منه .

الصدقة فى الإسلام صندوق لتكافل المجتمع ، كصندوق التأمين فى شركات التأمين ، فإذا ما ضاقت بك أسباب الرزق وشكوْتَ الكِبَر والعجز نقول لك : لا تحزن فأنت فى مجتمع مؤمن متكافل ، وكما طلبنا منك أنْ تعطى وأنت واجد طلبنا من غيرك أنْ يعطيك وأنت مُعْدم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ[1] فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ[2] وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى فى النفقة ممَّا رزقكم الله تكلَّم فى النفقة فى البُدْن ، والبُدْن : جمع بَدَنة ، وهى الجَمل أو الناقة ، أو ما يساويهما من البقر ، وسمَّاها بَدَنة إشارة إلى ضرورة أنْ تكون بدينة سمينة وافرة ، ولا بُدَّ أنْ تراعى فيها هذه الصفة عند اختيارك للهَدْى الذى ستُقدمه لله ، واحذر أن تكون من أولئك الذين يجعلون لله ما يكرهون ، إنما كُنْ من الذين قال الله لهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ .. ﴿٢٦٧﴾ ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الحج] أى : اذكروا الله بالشكر على أنْ وهبها وذلَّلها لكم ، واذكروا اسم الله عليها حين ذَبْحها .

---

(١) ورد فى هذه الكلمة عدة قراءات منها :
- صَوافَّ : أى : قياماً على ثلاث قوائم معقولة يدها اليسرى . عن ابن عباس ومجاهد وعلى بن أبى طلحة ، وهى قراءة الجمهور .
- صَوَافن : جمع صافنة ، وهى التى قد رفعت إحدى يديها بالعقل لئلا تضطرب عن ابن مسعود وابنَ عباس وابن عمر .
- صَوَافىَ : أى : خوالص لله عز وجل ، لا يشركون به فى التسمية على نحرها أحداً . عن الحسن والأعرج ومجاهد وزيد بن أسلم وأبى موسى الأشعرى .
- صَوَاف : وهى بمعنى التى قبلها . عن الحسن البصرى . [تفسير القرطبى ٦/٤٥٩٣]

(٢) قال ابن الأثير : القانع فى الأصل السائل . وقال الحسن البصرى فيما رواه عنه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد : القانع الذى يقنع إليك بما فى يديك . والمعتر الذى يتصدى إليك لتطعمه . ولفظ ابن أبى شيبة : والمعتر الذى يعتريك ، يُريك نفسه ولا يسألك . [الدر المنثور للسيوطى٦/٥٥] .

ومعنى ﴿ صَوَافَّ .. (٣٦) ﴾ [الحج] يعنى : واقفةً قائمة على أَرْجُلها ، لا ضعفَ فيها ولا هُزَال ، مصفوفة وكأنها فى معرض أمامك . وهذه صفات البُدْن الجيدة التى تناسب هذه الشعيرة وتليق أنْ تُقدَّمْ هَدْياً لبيت الله .

ومعنى : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا .. (٣٦) ﴾ [الحج] وجبَ الشيء وجباً يعنى : سقط سقوطاً قوياً على الأرض ، ومعلوم أن البَدَنة لا تُذبح وهى مُلْقاة على الأرض مثل باقى الأنعام ، وإنما تُنْحر وهى واقفة ، فإذا ما نُحرَتْ وقعتْ على الأرض وارتمتْ بقوة من بدانتها .

﴿ فَكُلُوا مِنْهَا .. (٣٦) ﴾ [الحج] وقلنا : إن الأكل لا يكون إلا من الهَدْى المحض والتطوع الخالص الذى لا يرتبط بشيء من مسائل الحج ، فلا يكون هَدْىَ تمتُّع أو قِرَان ، ولا يكون جَبْراً لمخالفة ، ولا يكون نَذْراً .. إلخ .

وعلَّة الأمر بالأكل من الهَدْى ؛ لأنهم كانوا يتأففون أنْ يأكلوا من المذبوحَ للفقراء ، وكأن فى الأمر بالأكل منها إشارةً لوجوب اختيارها مما لا تعافه النفس .

ومعنى : ﴿ الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ .. (٣٦) ﴾ [الحج] القانع : الفقير الذى يتعفَّف أنْ يسأل الناس ، والمعترّ : الفقير الذى يتعرَّض للسؤال .

ثم يقول سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) ﴾ [الحج] يعنى : سخّرناها لكم ، ولو فى غير هذا الموقف ، لقد سخَّرها الله لكم منذ وُجِد الإنسان ؛ لذلك عليكم أنْ تشكروا الله على أنْ أوجدها وملّككم إياها ، وتشكروه على أنْ سخَّرها وذلَّلها لكم ، وتشكروه على أنْ هداكم للقيام بهذا المنسك ، وأداء هذه الشعيرة وعمل هذا الخير الذى سيعود عليكم بالنفع فى الدنيا وفى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

ذلك لأنهم كانوا قبل الإسلام حين يذبحون للأوثان يُلطّخون الصنم بدماء الذبيحة[1] ، كأنهم يقولون له : لقد ذبحنا لك ، وها هى دماء الذبيحة ، وفى هذا العمل منهم دليل على غبائهم وحُمْق تصرفهم ، فهم يروْن أنهم إذا لم يُلطِّخوه بالدم ما عرف أنهم ذبحوا من أجله .

وهنا ينبه الحق ـ سبحانه وتعالى ـ إلى هذه المسألة : ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا .. ﴿٣٧﴾﴾ [الحج] يعنى : لا يأخذ منها شيئاً ، وهو سبحانه قادر أنْ يعطى الفقير الذى أمرك أنْ تعطيه ، ويجعله مثلك تماماً غير محتاج .

إنما أراد سبحانه من تباين الناس فى مسألة الفقر والغنى أن يُحدث توازناً في المجتمع ، فالمجتمع ليس آلة ميكانيكية تسير على وتيرة واحدة ، إنما هى حياة بشر لا بُدَّ أنْ تقومَ على الحاجة وعلى التكامل ، فلا بُدَّ من هذه التفاوتات بين الناس ، ثم تتدخّل الشرائع السماوية فتأخذ من القوى وتعطى الضعيف ، وتأخذ من الغنى وتعطى

(١) قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية يُضرِّجون البيت بدماء البُدْن ، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك ، فنزلت الآية . [تفسير القرطبى ٦ /٤٥٩٦] وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦/٥٦) من قول ابن عباس أيضاً وعزاه لابن المنذر وابن مردويه .

الفقير .. وساعتها ، نقضى على مشاعر الحقد والحسد والبغضاء والأَثَرة .

فحين يعطى القوىُّ الضعيفَ من قوته لا يحسده عليها ، ويتمنى له دوامها ؛ لأن خيرها يعود عليه ، وحين يعطى الغنىّ مما أفاض الله عليه للفقير يُؤلِّف قلبه ، ويجتثّ منه الغِلَّ والحسد ، ويدعو له بدوام النعمة .

لا بد من هذا التفاوت ليتحقق فينا قول الرسول ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص ، يشدُّ بعضه بعضاً »[(١)] .

لذلك ، ترى صاحب النعمة الذى ينثر منها على غيره ، إنْ أصابته فى ماله مصيبة يحزن له الآخرون ويتألمون بألمه ؛ لأن نعمته تفيض عليهم ، وخيرُه ينالهم . وأهل الريف إلى عهد قريب كان الواحد منهم يُربِّى البقرة أو الجاموسة ؛ ليحلب لبنها ، وكان لا ينسى الجيران وأهل الحاجة ، فكانوا يدعُونَ الله له أنْ يبارك له فى ماله ، وإنْ أصابته ضرَّاء فى ماله حَزِنوا من أجله .

إذن : حين تفيض من نعمة الله عليك على مَنْ حُرِم منها تدفع عن نفسك الكثير من الحقد والحسد ، فإنْ لم تفعل فلا أقلَّ من إخفاء هذا الخير عن أعيُن المحتاجين حتى لا تثير حفائظهم ، وربما لو رآك الرجل العاقل يُردعه إيمانه فلا تمتدّ عيناه إلى ما فى يدك ، إنما حين يراك الأطفال الصغار تحمل ما حُرِموا منه ، أو رأوا ولدك يأكل وهم محرومون هنا تكون المشكلة وقولِه تعالى :

﴿ وَلَـٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الحج]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٤٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٥٨٥) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

واتقاء الله هو اتباع منهجه ، فيُطاع الله باتباع المنهج فلا يُعصى ، ويُذكر فلا يُنسى ، ويُشكر فلا يُكفر ، وطريق الطاعة يوجد فى اتباع المنهج بـ « افعل » و « لا تفعل » ، ويُذكر فلا ينسى ؛ لأن العبد قد يطيع الله ويُنفِّذ منهج الله ، ولكن النعم التى خلقها الله قد تشغل العبد عن الله ، والمنهج يدعوك أنْ تتذكر فى كل نعمة مَنْ أنعم بها ، وإياك أنْ تُنسيك النعمةُ المنعمَ .

ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) ﴾ [الحج]

تلحظ هنا مسألة المتشابهات فى القرآن الكريم ، ففى الآية السابقة ذَيَّلها الحق سبحانه بقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) ﴾ [الحج]

هذه المتشابهات يقفُ عندها العلماء الذين يبحثون فى القرآن ويُقلِّبون فى آياته ؛ لذلك يجمعون مثل هذه الآيات المتشابهة التى تتحدث فى موضوع واحد ويُرتِّبونها فى الذِّهْن ؛ لذلك لا يُؤتمنون على الحفْظ ، ومن هنا قالوا : ينبغى لمَنْ أراد حفْظ القرآن أنْ يدعَ مسألةَ العلم جانباً أثناء حفْظه ، حتى إذا نسىَ كلمةً وقف مكانه لا يتزحزح إلى أنْ يعرفها ، أمّا العالم فربما وضع مرادفها مكانها ، واستقام له المعنى .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ .. (٣٧) ﴾ [الحج] يعنى : تذكرونه وتشكرونه على ما وفّقكم إليه من هذه الطاعات ﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) ﴾ [الحج] بشِّر يعنى : أَخْبِرْ بشىء سَارٍّ قبل مَجِىء زمنه ، ليستعد له المبشَّر ويفرح به ، كذلك الإنذار : أن تخبر بشىء سىء قبل حلوله أيضاً ؛ ليستعد له المنذر ، ويجد الفرصة التى

يتلافى فيها خطأه ، ويُجنِّب نفسه ما يُنذَر به ، ويُقبل على ما يُنجيه .

و ﴿ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الحج] : جمع مُحسِن ، والإحسان : أعلى مراتب الإيمان ، وهو أنْ تُلزِم نفسك بشيء من طاعة الله التي فرضها عليك فوق ما فرض ، فربُّك عز وجل فرض عليك خمس صلوات في اليوم والليلة ، وفي إمكانك أنْ تزيد من هذه الصلوات ما تشاء ، لكن من جنس ما فرض الله عليك ، لا تخترع أنت عبادة من عندك ، كذلك الأمر في الصوم ، وفي الزكاة ، وفي الحج ، وفي سائر الطاعات التي ألزمك الله بها ، فإنْ فعلت هذا فقد دخلتَ في مقام الإحسان .

وفي الإحسان أمران : مُحسن به وهو العبادة أو الطاعة التي تُلزِم نفسك بها فوق ما فرض الله عليك ، ودافعٌ عليه ، وهو أن تؤدي العمل كأن الله يرقبك ، كما جاء في حديث جبريل : « والإحسان أنْ تعبدَ الله كأنك تراه ، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك »[1] .

فمراقبتك لله ومراعاتك لنظره تعالى إليك ، يدفعك إلى هذا الإحسان ، ألاَ ترى العامل الذي تباشره وتُشرِف عليه ، وكيف يُنهي العمل في موعده ؟ وكيف يُجيده ؟ على خلاف لو تركتَه وانصرفْتَ عنه .

فإنْ لم تَصل إلى هذه المرتبة التي كأنك ترى الله فيها ، فلا أقلَّ من أنْ تتذكر نظره هو إليك ، ومراقبته سبحانه لحركاتك وسكناتك .

لذلك ، في سورة الذاريات : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الذاريات]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم في صحيحه (٨) كتاب الإيمان من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ثم يُفسِّر سبب هذا الإحسان : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ⑰ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ⑱ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ⑲ ﴾ [الذاريات]

ومَنْ يلزمك بهذه التكاليف ؟ لك أنْ تصلى العشاء ثم تنام إلى الفجر ، كذلك لم يُلزمك بالاستغفار وقت السَّحَر ، ولم يلزمك بصدقة التطوع . إذن : هذه طاعات فوق ما فرض الله وصلَتْ بأصحابها إلى مقام الإحسان ، وأعلى مراتب الإيمان ، فليُشمِّر لها مَنْ أراد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ㊳ ﴾

صَدْر الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا .. ㊳ ﴾ [الحج] يُشْعِرنا أن هناك معركة ، والمعركة التى يدافع الله فيها لابُدَّ أنها بين حق أنزله ، وباطل يُواجهه ، وقد تقدَّم قبل ذلك أن قال تبارك وتعالى : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ .. ⑲ ﴾ [الحج]

وما دام أن هناك خصومة فلا بُدَّ أنْ تنشأ عنها معارك ، هذه المعارك قد تأخذ صورة الألفاظ والمجادلة ، وقد تأخذ صورة العنف والقوة والشراسة والالتحام المباشر بأدوات الحرب .

ومعركة النبى ﷺ مع معارضيه من كفار مكة لم تقف عند حَدِّ المعركة الكلامية فحَسْب ، فقد قالوا عنه ـ صلوات الله وسلامه عليه : ساحر ، وكاهن ، ومجنون ، وشاعر ، ومُفْتر .. إلخ ثم تطوَّر الأمر إلى إيذاء أصحابه وتعذيبهم ، فكانوا يأتون رسول الله مَشْدوخين

ومجروحين فيقول لهم ﷺ : « لم أومر بقتال ، اصبروا اصبروا ، صبراً صبراً .. » .

إلى أنْ زاد اعتداء الكفار وطَفَح الكَيْل منهم أذن الله لرسوله بالقتال ، فقال : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج]

فقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٣٨﴾﴾ [الحج] صيغة يدافع : مبالغة منْ يدفع ، معنى يدفع يعنى : شيئاً واحداً ، أو مرة واحدة ، وتنتهى المسألة ، أمّا يدافع فتدل على مقابلة الفعل بمثله ، فالله يدفعهم وهم يقابلون أيضاً بالمدافعة ، فيحدث تدافع وتفاعل من الجانبين ، وهذا لا يكون إلا فى معركة .

والمعركة تعنى : منتصر ومنهزم ، لذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُطمئن المؤمنين أنه سيدخل المعركة فى صفوفهم ، وسيدافع عنهم .

فقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٣٨﴾﴾ [الحج] أمر طبيعى ؛ لأن الحق سبحانه ما كان ليُرسل رسولاً ، ويتركه لأهل الباطل يتغلَّبون عليه ، وإلاّ فما جَدْوى الرسالة إذن ؛ لذلك يُطمئن الله تعالى رسوله ويُبشِّره ، فيقول :

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات]

وقال : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ .. ﴿٤٠﴾﴾ [الحج]

وقال : ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد]

فهذه كلها آيات تُطمئِن المؤمنين وتُبشِّرهم ، وقد جاءتْ على

مراحل لحكمة أرادها الحق سبحانه ، فمنعهم عن القتال فى البداية لحكمة ، ثم جعل القتال فيما بينهم ، وقبْل أنْ يأذنَ لهم فى قتال أعدائهم لحكمة : هى أنْ يَبْلوا المؤمنين ويُمحِّصهم ليُخرِج من صفوفهم أهل الخَوَر والجُبْن ، وضعيفى الإيمان الذين يعبدون الله على حَرْف ، ولا يبقى بعد ذلك إلا قوىُّ الإيمان ثابتُ العقيدة ، الذى يحمل راية هذا الدين وينسَاح بها فى بقاع الأرض ؛ لأنها دعوة عالمية لكل زمان ولكل مكان إلى أنْ تقوم الساعة ، ولما كانت هذه الدعوة بهذه المنزلة كان لا بُدَّ لها من رجال أقوياء يحملونها ، وإلا لو استطاع الأعداءُ القضاءَ عليها فلن تقومَ لدين الله قائمة .

إذن : كان لا بُدَّ أن يُصفِّى الحقُ سبحانه أهلَ الإيمان كما يُصفِّى الصائغُ الذهبَ ، ويُخرِج خَبَثَه حين يضعه فى النار ، كذلك كانت الفتَن والابتلاءات لتصفية أهل الإيمان وتمييزهم ، لكن بالقتال فى صَفٍّ واحد .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)﴾ [الحج] فكأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أصبح طرفاً فى المعركة ، والخوَّان : صيغة مبالغة من خائن ، وهو كثير الخيانة وكذلك كفور : صيغة مبالغة من كافر .

ومعنى الخيانة يقتضى أن هناك أمانةً خانها . نعم ، هناك الأمانة الأولى ، وهى أمانة التكليف التى قال الله فيها : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ .. (٧٢)﴾ [الأحزاب] فلقد خانَ هذه الأمانة بعد أنْ رَضِى أنْ يكونَ أهْلاً لها .

وهناك أمانة قبل هذه ، وهى العهد الذى أخذه الله على عباده ، وهم فى مرحلة الذَّر[١] : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ[٢] شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ .. (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

فإنْ قالوا : نعم هذه أمانة ، لكنها بعيدة ، ومَنْ منَّا يذكرها الآن ؟

نقول : ألم تُقرُّوا بأن الله خلقكم ، وأوجدكم من عدم ، وأمدكم من عُدم ؟ كما قال سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [الزخرف] كما أقرُّوا بخَلْق السماوات والأرض وما فيها من خيرات لله عز وجل ، فكان وفاء هذا الإقرار أنْ يؤمنوا ، لكنهم مع هذا كله كفروا ، أليست هذه خيانة للأمانة عاصروها جميعاً وعايشوها وأسهموا فيها ؟

والكَفُور : مَنْ كفر نِعَم الله وجَحَدها .

وما دام هناك الخوَّان والكفُور فلا بُدَّ للسماء أنْ تُؤيِّد رسولها ، وأنْ تنصره فى هذه المعركة أولاً ، بأنْ تأذنَ له فى القتال ، ثم تأمره بأخذ العُدة والأسباب المؤدية للنصر ، فإنْ عزَّتْ المسائل عليكم ، فأنا معكم أؤيدكم بجنود من عندى .

---

(١) الذَّر فى اللغة : صغار النمل ، واحدتها ذَرَّة . وذَرَّ الله الخلق فى الأرض : نشرهم . والذرية : فعلية منه ، وهى منسوبة إلى الذر الذى هو النمل الصغار . [لسان العرب - مادة : ذرر] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٦١) : « وردت أحاديث فى أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وفى بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم .. وقد قال قائلون من السلف والخلف أن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد » .

وقد حدث هذا فى بَدْء الدعوة ، فأيَّد الله نبيه بجنود من عنده[1] ، بل أيَّده حتى بالكافر المعاند : ألم يكُن دليل[2] رسول الله فى الهجرة كافراً ؟ ألم ينصره الله بالحمام وبالعنكبوت وهو فى الغار ؟ ألم ينصره بالأرض التى ساخَتْ تحت أقدام فرس « سُرَاقة »[3] الذى خرج فى طلبه ؟

هذه جنود لم نَرها ، ولم يُؤيَّد بها رسول الله ﷺ إلا بعد أن استنفد أسبابه ، ولو أراد سبحانه لَطوَّع لرسوله هؤلاء المعاندين ، فما رفع أحد منهم رأسه بعنادٍ لمحمد ، إنما الحق - تبارك وتعالى - يريد أنْ يعطيه طواعية ويخضع له القوم ، ألم يقُلْ سبحانه وتعالى : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء]

وقلنا : إن الله تعالى يريد أنْ يُخضِع قلوب عباده لا قوالبهم ، فلو أخضعهم الله بآية كونية طبيعية كالريح أو الصاعقة أو الخَسْف ، أو غيره من الآيات التى أخذتْ أمثالهم من السابقين لقالوا : إنها آفاتٌ طبيعية جاءتنا ، لكن جعل الله بين الفريقين هذه المواجهة ، ثم يسَّر لحزبه وجنوده أسباب النصر .

---

(١) قال تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنفال] . وفى آيات أخرى يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [آل عمران] .

(٢) هو عبد الله بن أرقط ، وهو رجل من بنى الدّئل بن بكر ، وكانت أمه امرأة من بنى سهم ابن عمرو ، وكان مشركاً يدلهما على الطريق ، فدفعا إليه راحلتيهما ، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما . [سيرة ابن هشام ٢/٤٨٥] .

(٣) هو : سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى الكنانى ، صحابى ، له شعر ، كان ينزل قديداً ، كان فى الجاهلية قائفاً (قصاصاً للأثر) أخرجه أبو سفيان ليقتاف أثر الرسول ﷺ حين خرج إلى الغار مع أبى بكر . أسلم بعد غزوة الطائف سنة ٨ هـ . توفى ٢٤ هـ . [الأعلام للزركلى ٣/٨٠] .

قال سبحانه : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) ﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) ﴾

ودفاع الحق سبحانه عن الحق يأخذ صوراً متعددة ، فأوَّل هذا الدفاع : أنْ أذن لهم فى أنْ يقاتلوا . ثانياً : أمرهم بإعداد القوة للقتال : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ .. (٦٠) ﴾ [الأنفال]

والمراد أنْ يأخذوا بكل أسباب النصر على عدوهم ، وأن يستنفدوا كل ما لديهم من وسائل ، فإنِ استنفدتم وسائلكم ، أتدخَّل أنا بجنود من عندى لا ترونها ، فليس معنى أن الله يدافع عن الذين آمنوا أن تدخُلَ السماء لحمايتهم وهم جالسون فى بيوتهم ، لا إنما يأخذون بأسباب القوة ويسعَوْنَ ويبادرون هم أولاً إلى أسباب النصر .

ومعنى ﴿ أُذِنَ .. (٣٩) ﴾ [الحج] أنهم كانوا ينتظرون الأمر بالقتال ، ويستشرفون للنصر على الأعداء ، لكن لم يُؤذَن لهم فى ذلك ، فلما أراد الله لهم أنْ يقاتلوا أذن لهم فيه ، فقال تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) ﴾ [الحج]

وعلّة القتال أنهم ظُلموا ، لذلك أمرهم ربهم - تبارك وتعالى - أنْ يقاتلوا ، لكن لا يعتدوا ، كما قال سبحانه : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ .. (١٩١) ﴾ [البقرة]

إذن : أمرهم أولاً بالصبر ، وفى المرحلة الأولى بأنْ يقاتلوا لردِّ العدوان ، وللدفاع عن أنفسهم دون أنْ يعتدوا ، وفى المرحلة الثانية سيقول لهم : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) ﴾ [التوبة]

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) ﴾ [الحج] بأسباب يُمكِّنهم منها ، أو بغير أسباب فتأتيهم قوة خفية لا يروْنها ، وقد رأوا نماذج من ذلك فعلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ (١) وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾

فلو أنهم أُخْرِجوا بحقٍّ كأنْ فعلوا شيئاً يستدعى إخراجهم من ديارهم ، كأنْ خدشوا الحياء ، أو هددوا الأمْن ، أو أجرموا ، أو خرجوا على قوانين قبائلهم لكانَ إخراجهُم بحقٍّ .

إنما الواقع أنهم ما فعلوا شيئاً ، وليس لهم ذَنْب ﴿ إِلاَّ أَن يَقُولُوا

(١) البيعة : كنيسة النصارى ، والجمع بِيَع ، قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه عبد بن حميد وابن جرير . وقال أيضاً : الصوامع : التى تكون فيها الرهبان ، والبيع : مساجد اليهود . وصلوات : كنائس النصارى ، والمساجد : مساجد المسلمين . [الدر المنثور للسيوطى ٦/٥٩] .

رَبُّنَا اللَّهُ .. (٤٠) ﴾ [الحج] هذه المقولة اعتبرها القوم ذَنْباً وجريمة تستحق أنْ يخرجوهم بها من ديارهم .

كما قال سبحانه فى أهل الأخدود : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) ﴾ [البروج]

وفى آية أخرى : ﴿ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ .. (٥٩) ﴾ [المائدة]

وفى قصة لوط عليه السلام : ﴿ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) ﴾ [النمل]

إذن : أخرجوهم ، لا لأنهم أهل نجاسة ومعصية ، إنما لأنهم أناسٌ يتطهَّرون ، فالطهارة والعفة جريمتهم التى يُخْرَجُون من أجلها !! كما تقول : لا عيْبَ فى فلان إلا أنه كريم ، أو تقول : لا كرامةَ فى فلان إلا أنه لصٌّ . فهذه - إذن - صفة لا تمدح ، وتلك صفة لا تذم .

لقد قلب هؤلاء الموازين ، وخالفوا الطبيعة السويّة بهذه الأحكام الفاسدة التى تدل على فساد الطباع ، وأىّ فساد بعد أنْ قلَبوا المعايير ، فكرهوا ما يجب أنْ يُحب ، وأحبوا ما يجب أن يكره ؟ ولا أدلَّ على فساد طبائعهم من عبادتهم لحجر ، وترْكهم عبادة خالق السماوات والأرض .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً .. (٤٠) ﴾ [الحج]

وفى آية أخرى يُبيِّن الحق سبحانه نتيجة انعدام هذا التدافع : ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ .. (٢٥١) ﴾ [البقرة]

والفساد إنْ حدث بين الناس فى حركة الحياة فيمكن أنْ يُعوَّض ويُتدارك ، أمّا إنْ تعدّى الفساد إلى مُقوِّمات اليقين الإيمانى فى الأرض

فكره الناس ما يربطهم بالسماء ، وهدموا أماكن العبادة ، فهذه الطامة والفساد الذى لا صلاحَ بعده ، فكأن الآيتين تصوران نوعاً من الإيغال فى الفساد ، والاتّضاع فى الجرائم .

وتفسد الأرض حين ينعدم هذا التدافع ، كيف ؟ هَبْ أن ظالماً مسْتبداً فى بلد ما يستعبد الناس ويمتصّ خيراتهم بل ودماءهم دون أنْ يردَّه أحد ، لا شكَّ أن هذا سيُحدث فى المجتمع تهاوناً وفوضى ، ولن يجتهد أحد فوق طاقته ، ولمن سيعمل وخيره لغيره ؟ وهذا بداية الفساد فى الأرض .

فإنْ قُلْنا : هذا فساد بين الناس فى حركة حياتهم يمكن أنْ يصلح فيما بعد ، فما بالك إن امتدَّ الفساد إلى أماكن الطاعات والعبادات ، وقطع بين الناس الرباط الذى يربطهم بالسماء ؟

إنْ كان الفساد الأول قابلاً للإصلاح ، ففساد الدين لا يصلح ، لأنك خرَّبْتَ الموازين التى كانت تُنظِّم حركة الحياة ، فأصبح المجتمع بلا ميزان وبلا ضوابط يرجع إليها .

ونلْحظُ فى قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ..** (٤٠) ﴾ [الحج] جاءت قضية عامة لكل الناس ، فلم يخصّ طائفة دون أخرى ، فلم يَقُلْ مثلاً : لولا دَفْع الله الكافرين بالمؤمنين ، إنما قال مُطْلق الناس ؛ لأنها قضية عامة يستوى فيها الجميع فى كل المجتمعات .

كذلك جاءت كلمة (بعض) عامة ؛ لتدل على أن كلاً الطرفين صالح أن يكون مدفوعاً مرة ، ومدفوعاً عنه أخرى ، فَهُمْ لبعض بالمرصاد : مَنْ أفسد يتصدَّى له الآخر ليُوقفه عند حَدِّه ، فليس المراد أن طائفة تدفع طائفة على طول الخط .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف] دون أنْ يُحدِّد أيّهما مرفوع ، وأيهما مرفوع عليه ؛ لأن كلاً منهما مرفوع في شيء ، ومرفوع عليه في شيء آخر ؛ ذلك لأن العباد كلهم عيال الله ، لا يُحابي منهم أحداً على أحد .

انظر الآن إلى قوة روسيا في الشرق وقوة أمريكا في الغرب ، إنهما مثال لقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ .. (٤٠) ﴾ [الحج] فكلٌّ منهما تقف للأخرى بالمرصاد ، ترقبها وترصُد تحركاتها وتقدّمها العسكري ، وكأن الله تعالى جعلهما لحماية سلامة الآخرين أنْ تقف كُلٌّ منهما موقفَ الحذَر والخوف من الأخرى .

وهذا الخوف والترقُّب والإعداد هو الذي يمنع اندلاع الحرب بينهما ، فما بالك لو قامت بينهما حرب أسفرت عن منتصر ومهزوم ؟ لا بُدَّ أن المنتصر سيعيثُ في الأرض فساداً ويستبد بالآخرين ، ويستشري ظُلْمه لعدم وجود مَنْ يُردعه .

ومن رحمة الله بالمؤمنين أنْ يكيد الظالمين بالظالمين بكل ألوانهم وفنونهم ، ويُؤدِّب الظالم بمَنْ هو أشد منه ظُلْماً ؛ ليظلّ أهلُ الخير بعيدين عن هذه المعركة ، لا يدخلون طَرَفاً فيها ؛ لأن الأخيار لا يصمدون أمام هذه العمليات ، لأنهم قوم رِقَاق القلوب ، لا تناسبهم هذه القسوة وهذه الغِلْظة في الانتقام .

اقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) ﴾ [الأنعام]

وهكذا يُوفِّر الله أهل الخير ، ويحقِن دماءهم ، ويُريح أولياءه من مثل هذه الصراعات الباطلة .

لذلك لما دخل النبي ﷺ مكة دخولَ المنتصر ، بعد أنْ أخرجه

قومه منها ، وبعد أنْ فعلوا به وبأصحابه الأفاعيل ، كيف دخلها وهو القائد المنتصر الذى تمكَّن من رقاب أعدائه ؟

دخل رسول الله ﷺ مكة مُطأطئ الرأس ، حتى لتكاد رأسه تلمس قربوس[1] السرج الذى يجلس عليه ، تواضعاً منه ﷺ ، ومع ذلك قال أبو سفيان لما رأى رسول الله فى هذا الموقف ، قال للعباس : لقد أصبح مُلْك ابن أخيك عظيماً[2].

وبعد أن تمكَّن رسول الله من كفار مكة ، وكان باستطاعته القضاء عليهم جميعهم ، قال : « يا معشر قريش ، ما تظنُّون أنِّى فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء »[3]

فأىُّ رحمة هذه ؟ وأىُّ لين هذا الذى جعله الله فى قلوب المؤمنين ؟ وهل مثْل هذا الدين يُعارَض ويُنْصَرف عنه ؟

إذن : يُسلِّط الحق - تبارك وتعالى - الأشرار بعضهم على بعض ، وهذه آية نراها فى الظالمين فى كل زمان ومكان ، ويجلس الأخيار يرقبون مثل هذه الصراعات التى يُهلك الله فيها الظالمين بالظالمين .

---

(١) القَرَبُوس : حنْو السَّرْج . وحنْو كل شىء : اعوجاجه . فحنو الرَّحْل والسَّرْج : كل عود مُعوج من عيدانه . [لسان العرب - مادتا : قربس ، حنا] . وقد ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/٤٠٥) « أن رسول الله ﷺ كان يضع رأسه تواضعاً لله ، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إن عثنونه (طرف لحيته) ليكاد يمسّ واسطة الرَّحْل » .

(٢) قال أبو سفيان حين مرَّت أمامه جيوش المسلمين يوم فتح مكة : ما لأحد بهؤلاء قبَل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح مُلْك ابن أخيك الغداة عظيماً . قال العباس : يا أبا سفيان إنها النبوة . قال : فنعم إذن .

(٣) قال ابن إسحاق : حدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام فى خطابه على باب الكعبة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، إلى أن قال : ما ترون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء » [السيرة النبوية لابن هشام ٤/٤١٢] .

ثم يقول سبحانه وتعالى : ﴿ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] صوامع جمع صومعة ، وهى مكان خاصٌ للعبادة عند النصارى ، وعندهم مُتعبَّد عام يدخله الجميع هو الكنائس ، أما الصَّومعة فهى مكان خاص لينفرد فيه صاحبه وينقطع للعبادة ، ولا تكون الصَّوْمعة فى حضر ، إنما تكون فى الجبال والأودية ، بعيداً عن العمران لينقطع فيها الراهب عن حركة حياة الناس ، وهى التى يسمونها الأديرة وتوجد فى الأماكن البعيدة .

وقد حرم الإسلام الرهبانية بهذا المعنى ؛ لأنها رهبانية ما شرّعها الله ، كما قال سبحانه : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً[1] ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحديد]

ومعنى : ﴿ وَبِيَعٌ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] البِيَع هى الكنائس .

فالحق - سبحانه وتعالى - مَا نعَى عليهم الانقطاعَ للعبادة ، لكن نعى عليهم انقطاعهم عن حركة الحياة ، وأسباب العيش ؛ لذلك قال : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا[2] حَقَّ رِعَايَتِهَا .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحديد]

وقد أباح الإسلام أيضاً الترهُّب والانقطاع للعبادة ، لكن شريطة أن تكون فى جلْوة يعنى : بين الناس ، لا تعتزل حركة الحياة ، إنما تعبَّد الله فى كل حركة من حركات حياتك ، وتجعل الله تعالى دائماً فى بالك ونُصْب عينيك فى كُلِّ ما تأتى ، وفى كل ما تدَع ، إذن :

---

(١) الترهب : التعبُّد ، كانوا يترهبون بالتخلى من أشغال الدنيا ، وترك ملاذها والزهد فيها ، والعزلة عن أهلها وتعهُّد مشاقها ، حتى إن منهم من كان يخصى نفسه ويضع السلسلة فى عنقه وغير ذلك من أنواع التعذيب ، والراهب : هو المتعبِّد فى الصومعة . [لسان العرب - مادة : رهب] .

(٢) أى : فما قاموا بما التزموه حق القيام وهذا ذم لهم من وجهين : أحدهما : الابتداع فى دين الله ما لم يأمر به الله . والثانى : فى عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل . قاله ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٣١٥) .

هناك فَرْق بين مَنْ يعبد الله فى خَلْوته ، ومَنْ يعبد الله فى جلْوته .

لذلك سيدنا عمر - رضى الله عنه - قال عن الرجل الذى لازم المسجد للعبادة وعرف أن أخاه يتكفّل به ويُنفق عليه ، قال : أخوه أعبد منه . كيف ؟

قالوا : لأنك تستطيع أنْ تجعل من كل حركة لك فى الحياة عبادة ، حين تُخلص النية فيها لله عز وجل . ولك أن تقارن بين مؤمن وكافر ، كلاهما يعمل ويجتهد ليقُوتَ نفسه وأهل بيته ، ويحيا الحياة الكريمة ، وهذا هدف الجميع من العمل ، لكن لو أن المؤمن اقتصر فى عمله على هذا الهدف لاستوى مع الكافر تماماً .

إنما للمؤمن فوق هذا مقاصد أخرى تكمن فى نيته وضميره ، المؤمن يفعل على قَدْر طاقته ، لا على قَدْر حاجته ، ثم يأخذ ما يحتاج إليه ويُنفق من الباقى ويتصدَّق على مَنْ لا يقدر على الحركة الحياتية .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤)﴾ [المؤمنون] هل يعنى : مُؤدُّون فقط ؟ لا ، بل إن المؤمن يتحرك ويعمل ويسعى ، وفى نيته مَنْ لا يقدر على السَّعْى والعمل ، فكأنه يُقبل على العمل ويجتهد فيه ، وفى نيته أنْ يعمل شيئاً لله بما يفيض عن حاجته من ناتج عمله وهذا ما يُميِّز المؤمن فى حركة الحياة عن الكافر .

وأذكر مرة أننا جئنا من الريف فى الشتاء فى الثلاثينيات لزيارة سيدنا الشيخ الحافظ التيجانى ، وكان مريضاً - رحمه الله ورضى الله عنه - وكان يسكن فى حارة ، وفضَّلنا أن نأخذ (تاكسى) يُوصِّلنا بدل أن نمشى فى وَحْل الشتاء ، وعند مدخل الحارة رفض سائق

(التاكسى) الدخول وقال : إن أجرة التوصيل لا تكفى لغسيل السيارة وتنظفيها من هذا الوَحْل ، وبعد إلحاح وافق وأوصلنا إلى حيث نريد ، فأعطيناه ضِعْف أجرته ، لكنى قبل أن أنصرف قلتُ له : أنت لماذا تعمل على هذا (التاكسى) ولماذا تتعب ؟ قال : من أجل مصالحى ومصالح أولادى ، فقلت له : وما يُضيرك إنْ زِدْتَ على ذلك وجعلْتَ فى نيتك أنْ تُيسِّر بعملك هذا على الناس ؟ فاهتمَّ الرجل ولبسته الكلمة فقال : والله لا أردُّ راكباً أبداً .

ومعنى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ ﴾ [المؤمنون] لم يقل مؤدون ؛ لأن ﴿ فَاعِلُونَ ④ ﴾ [المؤمنون] تعنى : أن نيتهم فى الفعل أنْ يفعلوا على قَدْر طاقتهم ويجتهدوا لتوفير شيء بعد نفقاتهم يتصدقون منه .

إذن : حرَّم الإسلام الرهبانية التى تَحرِم المجتمع من مشاركة الإنسان فقال ﷺ : « لا رهبانية فى الإسلام »[1] لأنه اعتبر كل حركة مقصودٍ منها صالحُ المجتمع كله حركةً إيمانية عبادية ، ومن هنا كان العمل عبادة .

وقد وضع العلماء شروطاً لمَنْ أراد الانقطاع للعبادة : أولها : ألاَّ يأخذ نفقته من أحد ، بمعنى أن يعمل أولاً ليُوفِّر احتياجاته طوال فترة انقطاعه ، وصدق (إقبال) حين قال :

---

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (٣١٥٤) : « قال ابن حجر : لم أره بهذا اللفظ ، لكن فى حديث سعد بن أبى وقاص عند البيهقى « إن الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة » . وقد أخرج أحمد فى مسنده (٦/٢٢٦) من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « إن الرهبانية لم تكتب علينا » .

لَيْسَ زُهْداً تصوف من تقى فرَّ من غَمْرة الحيَاةِ بدين

إنما يُعرَفُ التصَوفُ فى السُّوق بمالٍ ومَطْمعٍ وفُتُون

ثم يقول تعالى : ﴿ وَصَلَوَاتٌ .. ٤٠ ﴾ [الحج] وهذه لليهود يُسمُّون مكان التعبد : صَالوتاً . لكن ، لماذا لم يرتبها القرآن ترتيباً زمنياً ، فيقول : لهدمت صلوات و صوامع وبيع ؟ قالوا : لأن القرآن يُؤرِّخ للقريب منه فالأبعد .

﴿ وَمَسَاجِدُ .. ٤٠ ﴾ [الحج] وهذه للمسلمين ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا .. ٤٠ ﴾ [الحج]

وما دام الحق سبحانه ذكر المساجد بعد الفعل ﴿ لَّهُدِّمَتْ .. ٤٠ ﴾[الحج] فهذا دليل على أنه لا بُدَّ أن يكون للمسلمين مكان يُحكر للعبادة ، وإنْ جُعلَتْ الأرض كلها لهم مسجداً وطَهُوراً ، ومعنى ذلك أنْ تصلى فى أيِّ بقعة من الأرض ، وإنْ عُدم الماء تتطهر بترابها ، وبذلك تكون الأرض مَحَلاً للعبادة ومَحَلاً لحركة الحياة وللعمل وللسَّعْى ، فيمكنك أن تباشر عملك فى مصنعك مثلاً وتُصلِّى فيه ، لكن الحق سبحانه يريد منا أن نُخصِّص بعض أرضه ليكون بيتاً له تنقطع منه حركة الحياة كلها ، ويُوقَف فقط لأمور العبادة .

لذلك قال ﷺ : « مَنْ بنى لله مسجداً ولو كمفْحَصِ قَطَاةٍ[1] بنى الله له بيتاً فى الجنة »[2] .

---

(١) القطا : طائر ، سُمِّى بذلك لثقَل مَشْيه . [لسان العرب ـ مادة : قطا] ومفحص القطاة : حيث تُفرِّخ فيه من الأرض . والأفحوص : مَبيض القطا لأنها تفحص الموضع ثم تبيض فيه ، وكذلك هو للدجاجة [لسان العرب ـ مادة : فحص] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٢٤١) عن ابن عباس ، وأخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (٤/٢١٧) من حديث أبى ذر ، وكذا (٥/٢٤) من حديث أبى بكر الصديق .

فقـوله تعالى : ﴿ لَّهُدِّمَتْ .. وَمَسَاجِدُ .. ⁽٤٠⁾ ﴾ [الحج] تدل على مكان خـاص للعبـادة وإلاَّ لو اعتُـبِرَتْ الأرضُ كلهـا مسـجداً ، فـماذا تهدم ؟

وعليه ، فكل مكان تُزاوَل فيه أمورٌ غير العبادة لا يُعتبر مسجداً ، كأمـاكن الصلاة التى يتخذونهـا تحت العمارات السكنيـة ، هذه ليست مـسـاجـد ، والصـلاة فيـهـا كـالصلاة فى الشـارع وفى البـيت ؛ لأن المسجد (مكان) وما يُبنى عليه (مكين) .

والمسجدية تعنى : المكان من الأرض إلى السماء ، بدليل أننا فى بيت الله الحرام نصلى فـوق سطح المسجـد ، ونتجه لجوِّ الكعـبة ، لا للكعبة ذاتها ، لماذا ؟ لأن جَوَّ الكعبة إلى السماء كعبة ، وكذلك لو كنا فى مـخـابىء أو فى مناجم تحت الأرض ؛ لأن مـا تحت الكعـبـة من الأرض كعبة . وكذلك فى المسْعَى إذا ضاق الدور الأول يسعى الناس فى الثانى وفى السطح ، لأن جو المسْعَى مَسْعَى .

إذن : المسجد ما حُكر للعبادة ، وخُصِّص للمسجدية من أرضه إلى سمائه ، وهذا لا يُمارس فيه عمل دنيوى ولا تُعقد فيه صفقة .. إلخ .

أما أنْ نجعل المسجد تحت عمارة سكنية ، وفوق المسجد مباشرة يباشـر الناس حيـاتهم ومعيـشتـهم بما فيـها من هَرج ولَهْـو ، حلال وحرام ، وطهارة ونجـاسة ، ومعاشرة زوجيـة .. إلخ فهذا كله يتنافى مع المسـجدية التى جعلهـا الله حكْراً للعبادة من الأرض إلى السـماء . فلنُسَمِّ هذه الأماكن : مُصلّى . ولا نقول : مسجد .

ثم يصف الحق سبـحانه المساجـد بقوله : ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا .. ⁽٤٠⁾ ﴾ [الحج] لأن ذكْر الله فى المساجد دائم لا ينقطع ، ونحن لا نتحدث عن مسجد ، ولا عن مـساجد قُطْر من الأقطار ، إنما المراد

مساجد الدنيا كلها من أقصى الشرق لأقصى الغرب ، ومن الشمال للجنوب .

ولو نظرتَ إلى أوقات الصلوات لرأيتَ أنها مرتبطة بحركة الفلك وبالشمس فى الشروق ، وفى الزوال ، وفى الغروب ، وباعتبار فارق التوقيت فى كل بلاد الله تجد أن ذكْر الله دائم لا ينقطع أبداً فى ليل أو نهار ، فأنت تُؤذِّن للصلاة ، وغيرُكَ يقيم ، وغيركما يصلى ، أنت تصلى الظهر ، وغيرك يصلى الصبح أو العصر ، بل أنت فى الركعة الأولى من الصبح ، وغيرك فى الركعة الثانية ، أنت تركع وغيرك يسجد .

إذن : هى منظومة عبادية دائمة فى كل وقت ، ودائرة فى كل مكان من الأرض ، فلا ينفكّ الكون ذاكراً لله . أليس هذا ذكْراً كثيراً ؟ أليستْ كلمة (الله أكبرُ) دائرة على ألسنة الخلق لا تنتهى أبداً ؟

ثم لما كان دَفْع الله الناسَ بعضهم ببعض ينتج عنه معركة تُسْفر عن منتصر ومنهزم ، قال سبحانه : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] فإنْ كان التدافع بين الكفار فإنه لا ينتهى ، وإنْ كان بين حقٍّ لله وباطل حكم الله بأنه باطل لا بُدَّ أن تنتهى بنُصْرة الحق ، وغالباً لا تطول هذه المعركة ؛ لأن الحق دائماً فى حضانة الله ، إنما تطول المعارك بين باطل وباطل ، فليس أحدهما أَوْلَى بنُصْرة الله من الآخر ، فيظل كل منهما يطحن فى الآخر ، وإنْ لم تكن حرباً ساخنة كانت حرباً باردة ، لماذا ؟ لأنه لا يوجد قوىٌّ لا هوى له يستطيع أن يفصل فيها ، وطالما تدخّل الهوى تستمر المعركة .

يبقى فى القسمة العقلية المعركة بين حق وحق ، وهذه لا وجودَ لها ؛ لأن الحق واحد فى الوجود ، فلا يمكن أنْ يحدث تصادم أبداً بين أهل الحق .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ فى نُصْرته لأوليائه يستطيع أن ينصرهم دون حرب ، ويُهلك أعداءهم ، لكن الحق سبحانه يريد أنْ يأخذوا هم بأسباب النصر ؛ لذلك يُعلِّمهم أصول هذه المسألة ، فيقول سبحانه :

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ[1] فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ .. (٤)﴾ [محمد]

ومعنى ﴿أَثْخَنتُمُوهُمْ .. (٤)﴾ [محمد] يعنى : جعلتموهم لا يقدرون على الحركة ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ .. (٤)﴾ [محمد] لا تُجهزوا عليهم ، ولا تقتلوهم ، إنما شُدُّوا قيودهم واستأسِروهم ، وهذه من رحمة الإسلام وآدابه فى الحروب ، فليس الهدف القتل وإزهاق الأرواح ثم ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً .. (٤)﴾ [محمد] منّاً إنْ كان هناك تبادل للأسرى . فأنت تمنُّ وهو يمنُّ . والفداء أنْ يفدى نفسه .

وكانت هذه المسألة حجة لنا حينما نتحدث عن الرقّ فى الإسلام ، ونرد على هؤلاء الذين يحلو لهم اتهام الإسلام ، ويستخدمون فى ذلك السفسطة والمراوغة اللغوية لإقناع الناس بأن الإسلام ساهم فى نَشْر الرقّ والعبودية .

ونقول : لقد جاء الإسلام والرق موجود ومنتشر لم يُشرِّعه الإسلام ، ولم يُوجِدْه بداية ، حيث كانت أسباب الرق كثيرة ، وأسباب

(١) أثخنته الجراح : أعجزته عن الحركة أو عن القتال . [القاموس القويم ١/١٠٦] وقال أبو العباس : معناه غلبتموهم وكثر فيهم الجراح . [لسان العرب ـ مادة : ثخن] .

الاستعباد متعددة : فَمَنْ تحمّل دَيْناً وعجز عن سداده يُسْتعبد لصاحب الدين ، ومَنْ عمل ذنباً وخـاف من عقوبته أخذوه عبـداً ، ومَنْ اختطفه الأشرار فى الطريق جعلوه عبداً .. إلخ .

فلمـا جاء الإسـلام عمل على سَدِّ منابع الرقِّ هذه ، وجـعل الرقَّ مقـصوراً علـى الحرب المـشروعـة . ثم فتح عـدة مصـارف شرعـية للتخلُّص من الرق القـائم ، حيث لم يكُنْ موجـوداً من أبواب العتق إلا إرادة السيد فى أنْ يعتق عبـده ، فأضاف الإسلام إلى هذا الباب أبواباً أخرى ، فجعل العـتق كفارة لبعض الذنوب ، وكفارة لليـمين ، وكفارة للظِّهار[1] ، وحثَّ على الصدقـة فى سبيل الـعتق ، ومسـاعدة المكاتب الذى يريد العتق ويسعى إليه .. إلخ .

فإذا لم تعتق عبدك ، فلا أقل من أن تطـعمه من طعامك ، وتُلْبسه من ملبسك ، ولا تُحمِّلـه ما لا يطيق ، وإنْ حمَّلْته فأعنْه ، وكـما يقول النبى ﷺ « إنما هم إخوانكم »[2] .

ونلاحظ على الذين يعيبون على الإسلام مسألة الرقِّ فى الحروب أنهم يقـارنون بين الرقِّ والحـرية ، لكن المـقارنة هنـا ليستْ كـذلك ،

---

(١) ظاهر من امرأته ، قال لها أنها عليه كظهر أمه أو أخته أو غـيرهما من المحرمات فيحرمها ولا يطلقها ، وكان العرب يفعـلون ذلك إيذاءً لهن وإضراراً فلما اشتكت الزوجة التى ظاهرها زوجها للنبى ﷺ نزلت الآيات تنظم الظهار ، فإما طلاق أو كفارة كبرى إذا رغب فى العودة إلى زوجته عقوبة له على الظهار ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ ﴾ [المجادلة] الكفارة الكبرى إما : تحرير رقبة ـ صيام شهرين متتابعين ـ إطعام ستين مسكيناً .

(٢) عن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « إن إخـوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فـمن كان أخـوه تحت يده فليطعمـه ممـا يأكل ، وليلبسـه ممـا يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلـبهم ، فإن كلفتمـوهم ما يغلبهم فأعينوهم » أخـرجه البخارى فى صحـيحه (٢٥٤٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٦١) كتاب الإيمان .

المقارنة هنا بين الرق والقتل ؛ لأنه لا يُسترقّ إلا مَنْ قدر المسترقُّ عليه وتمكّن منه فى المعركة ، وكان باستطاعته قَتْله ، لكن رحمة الله بعباده منعتْ قتله ، وأباحت أَخْذه رقيقاً ، فالنفعية للمقاتل المنتصر يقابلها حَقْن دم الآخر ، ثم بعد انتهاء الحرب نحثُّ على عتقه ، ونفتح له أبواب الحرية .

إذن : لا تقارن بين عبد وحر ، إنما قارن بين العبودية والقتل : أيهما أقلّ ضرراً ؟

لذلك قال تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [التوبة]

هذه نتائج ستٌّ للأمر ﴿ قَاتِلُوهُمْ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [التوبة] وجواب الأمر مجزوم بالسكون كما فى (يُعذِّبْهم) ومجزوم بحذف حرف العلة كما فى (وَيُخْزِهم) ، والخزى لأنهم كانوا مغترين بقوتهم ، ولديهم جبروت مفتعل ، يظنون ألاَّ يقدر عليهم أحد ، وكذلك فى : ينصركم ، ويشف ، ويذهب .

ثم قطع السياقُ الحكمَ السابق ، واستأنف كلاماً جديداً ، وإنْ كان معطوفاً على ما قبله فى اللفظ ، وهذا مظهر من مظاهر الدقة فى الأداء القرآنى ، وملْحَظ لرحمة الله تعالى حتى بالكفار ، فقال تعالى : ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [التوبة] هكذا بالرفع ، لا بالجزم فقطع الفعل (يتوب) عما قبله ؛ لأن الله تعالى لم يشأ أن يشرِّك بينهم حتى فى جواب الأمر .

وحتى على اعتبار أنهم هُزِمُوا ، وكُسِرت شوكتهم ، وضاعتْ

هيبتهم ، لعلهم يفيقون لأنفسهم ، ويعودون للحق ، وهذه من رحمة اللهِ بالكافرين فى معاركهم مع الإيمان .

لكن ، لماذا يتوب الله على الكفار ويرحمهم وهم أعداء دينه وأعداء نبيه ؟ قالوا : لأنه سبحانه وتعالى ربهم وخالقهم ، وهم عباده وعياله ، وهو أرحم بهم ، ومرادات الله فى الخَلْق أن يكونوا جميعاً طائعين .

لذلك ، يقول سبحانه فى الحديث القدسى : « قالت السماء : يا رب ائذن لى أن أسقط كسفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الأرض : يا رب ائذن لى أن أخسف بابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رب ائذن لى أن أسقط على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب ائذن لى أن أغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك » .

فالكون كله ناقم على الكافرين ، متمرد على العصاة ، مغتاظ منهم ، فماذا قال الحق - تبارك وتعالى - لهم ؟ قال سبحانه : « دعونى وخَلْقى ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، فإنْ تابوا إلىَّ ، فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم » .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] وما دام أن النصر من عند الله فإياكم أنْ تبحثوا فى القوة أو تقيسوا قوتكم بقوة عدوكم ، فلربك عز وجل جنود لا يعلمها إلا هو ، ووسائل النصر وأنت فى حضانة الله كثيرة تأتيك من حيث لا تحتسب وبأهْون الأسباب ، أقلّها أن الله يُريكم أعداءكم قليلاً ويُكثِّر المؤمنين فى أعين الكافرين ليفتَّ ذلك فى عَضُدهم ويُرهبهم ويُزعزع معنوياتهم ، وقد يحدث العكس ، فيرى الكفار المؤمنين قليلاً فيجترئون عليهم ، ويتقدمون ، ثم تفاجئهم الحقيقة .

إذن : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ .. (٣١) ﴾ [المدثر] فلا تُعوِّل فقط على قوتك وتحسب مدى تكافُئك مع عدوك ، دَعْكَ من هذه الحسابات ، وما عليك إلا أنْ تستنفد وسائلك وأسبابك ، ثم تدع المجال لأسباب السماء .

وأقلُّ جنود ربك أنْ يُلقى الرعب فى قلوب أعدائك ، وهذه وحدها كافية ، ويُرْوى أنهم فى إحدى المعارك الإسلامية تغيرت رائحة أفواه المسلمين ، وأحسُّوا فيها بالمرارة لطول فترة القتال ، فأخرجوا السواك يُنظفُّون أسنانهم ، ويُطيِّبون أفواههم ، عندها قال الكفار : إنهم يسنُّون أسنانهم ليأكلونا ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب من حيث لا يدرون .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾ [الحج] عزيز : يعنى لا يُغلب ، وما دام أن الله تعالى ينصر مَنْ نصره فلا بُدَّ أن تنتهى المعركة بالنصر مهما خارتْ القوى ومهما ضَعُفتْ ، ألم يكُن المسلمون فى مكة ضعفاء مضطهدين ، لا يستطيع واحد منهم أن يرفع رأسه بين الكفار ؟

ولما نزل قول الله تعالى وهم على هذه الحال : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] تعجب عمر[1] بفراسته وعبقريته : أىُّ جمع هذا الذى سيُهزم ونحن غير قادرين حتى على حماية أنفسنا ؟ فلما رأى يوم بدر قال : صدق الله ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

فما دام أن الله قوى عزيز فلا بُدَّ أن ينصركم ، وهذه مسألة

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٤/٢٦٦) عن عكرمة قال : « لما نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] . قال عمر : أىّ جَمْع هذا ؟ أى أى جمع يغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ .

محكوم بها أزلاً : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. (٢١) ﴾ [المجادلة]

فإذا ما تمَّتْ لكم الغَلَبة ، فاعلموا أن لكم دَوْراً ، ألاَ وهو :

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ (٤١) ﴾

معنى : ﴿ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ .. (٤١) ﴾ [الحج] جعلنا لهم سلطاناً وقوة وغلَبة ، فلا يَجترىء أحد عليهم أو يزحزحهم ، وعليهم أنْ يعلموا أن الله ما مكَّنهم ونصرهم لذاتهم ، وإنما ليقوموا بمهمة الإصلاح وينقوا الخلافة الإنسانية في الأرض من كُلِّ ما يُضعِف صلاحها أو يفسده .

لذلك ، سيدنا سليمان عليه السلام كان يركب بساط الريح يحمله حيث أراد ، فداخله شيء من الزهو ، فمال به البساط وأوشك أنْ يُلقيه ، ثم سمع من البساط مَنْ يقول له : أُمِرْنا أن نطيعك ما أطعتَ الله .

والممكَّن في الأرض الذى أعطاه الله البأس والقوة والسلطان ، يستطيع أنْ يفرض على مجتمعه ما يشاء ، حتى إنْ مُكِّن في الأرض بباطل يستطيع أنْ يفرض باطله ويُخضِع الناس له ، ولو إلى حين .

فماذا يُناط بالمؤمن إنْ مُكِّن في الأرض ؟

يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ .. (٤١) ﴾ [الحج] ليكونوا دائماً على ذِكْر وولاء من ربهم الذى وهبهم هذا

التمكيـن ؛ ذلك لأنهم يترددون عليـه سبحـانه خَمْس مـرات فى اليوم والليلة .

﴿ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج] فهذه أُسس الصلاح فى المجتمع والميزان الذى يسعد به الجميع .

﴿ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج] يعنى : النهـاية إلينا ، وآخـر المطاف عندنا ، فـمَن التـزم هذه التوجـيهـات وأدَّى دوره المنُوط فى مجتمعه ، فبها ونِعْمتْ ، ومَنْ ألقاها وراء ظهره فعاقبته معروفة .

ثم يُسلِّى الحق سبحانه رسوله ﷺ حـتى لا يهتم بما يفعله قومه من كفر وعناد ومجابهة للدعوة :

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ ﴾

﴿ يُكَذِّبُوكَ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحج] يعنى : فى دعـوتـك فـيـواجـهـونك ، ويقفون فى سبيل دعوتك ليبطلوها ، فاعلم أنك لست فى ذلك بِدْعاً من الرسل ، فقـد كُذِّب كثـير من الرسل قبلك ، وعليك ألاَّ تلاحظ مـسألة التكذيب منفـصلةً عن عـاقـبتـه ، نعم : كـذب القوم لكـن كيف كـانت العاقبة ؟ أتركناهم أم أخذناهم أَخْذ عزيز مقتدر ؟

فـلا تحزن ، فـسـوف يحلُّ بهم ما حَـلَّ بسابقـيـهم من المكذِّبين والمعاندين .

وقلنا : إن الرسول يتـحمَّل من مشقة الرسـالة وعناء الدعوة على قَـدْر رسالتـه ، فكلُّ رسـل الله قبل مـحـمد كـان الرسـول يُرْسَل إلى قومه خاصـة ، وفى مدة محدودة ، وزمان محـدود ، ومع ذلك تعبوا

كثيراً فـى سبيل دعوتهم ، فما بالك برسـول بُعثَ إلى الناس كافة فى كل زمـان وفى كل مكان ، لا شكَّ أنه سـيتـحـمل من التـعب والعناء أضعاف ما تحمَّله إخوانه من الرسل السابقين .

وكأن الحق ـ تبـارك وتعالى ـ يُعد رسـوله ﷺ ويُوطِّنه على تحمُّل المشـاقِّ من بداية الطريق حتى لا تفـتَّ فى عَضُده حـين يواجهـها عند مباشرة أمـر الدعوة ، يقول له : ليست السيادة أمراً سـهلاً ، إنما دونها متاعب وأهوال ومصاعب فاستعد ، كـما تنبه ولدك : انتبه ، فالامتحانات ستأتى هذا العام صعبة ، فالوزارة تريد تقليل عـدد المتقدمين للجامعة ، فاجتهد حتى تحصل على مجموع مرتفع ، وحين يسمع الولد هذا التنبيه يُجمع تماسكه ، ويجمع تركيزه ، فلا يهتز حين يواجه الامتحانات .

ثم يذكر الحق ـ تبارك وتعـالى ـ نماذج للمكذِّبين للرسل : ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢)﴾ [الحج]

ثم يقول تعالى :

﴿ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) ﴾

نلحظ هنا أن الحق سبـحانه ذكر المكذبين ، إلا فى قـصة موسى فـذكر المكذَّب ، فلـم يَقُل : وقوم مـوسى بل قـال : وكُذِّب مـوسى ، لماذا ؟ قـالوا : لأن مهمتـه كانت أصعب حيث تعـرَّض فى دعوته لمنِ ادَّعى الألوهية ذاتها .

وقـوله تعـالى : ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَـذْتُهُمْ .. (٤٤)﴾ [الحج] أمليت : أمهلْتُ حتى ظنوه إهمـالاً ، وهو إمهال بأنْ يمدَّ الله لهم ، ويطيل

فى مدتهم ، لا إكراماً لهم ، ولكن ليأخذهم بعد هذا أخْذ عزيز مقتدر ، وفى آية أخرى يُوضِّح لنا هذه البرقية المختصرة ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا .. ﴿١٧٨﴾ ﴾ [آل عمران]

وفى هذا المعنى يقول أيضاً : ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [التوبة]

إذن : لا تغتر بما فى أيديهم ؛ لأنه فتنة ، حتى إذا أخذهم الله كانت حسرتهم أكبر ، فمن عُدم هذه النعم لا يتعلق قلبه بها ، ولا يألَم لفقدها .

وقد حدث شىء من هذا فى أيام سعد زغلول ، وكان أحد معارضيه يشتمه ويتطاول عليه ، لكن فوجىء الجميع بأنه يُولِّيه منصباً مرموقاً فى القاهرة ، فتعجّب الناس وسألوه فى ذلك فقال : نعم ، وضعته فى هذا المنصب ليعرف العلو والمنزلة حتى يتحسَّر عليها حين تُسْلَب منه ، وتكون أنكى له . يعنى : يرفعه إلى أعلى حتى يهوى على رقبته ، لأنه ما فائدة أن توقعه من على الحصيرة مثلاً ؟!!

ثم يقول تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الحج] الحق سبحانه يُلقى الخبر فى صورة استفهام لتقول أنت ما حدث وتشهد به . والمراد : أعاقبناهم بما يستحقون ؟

والنكير : هو الإنكار على شخص بتغيير حاله من نعمة إلى نقمة ، كالذى يُكرمك ويُواسيك ويَبَشُّ فى وجهك ويُغدق عليك ، ثم يقطع عنك هذا كله ، فتقول : لماذا تنكَّر لى فلان ؟ يعنى : قطع عنى نعمته .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أن ينتزع منَّا الإقرار بقدرته تعالى على عقاب أعدائه ومُكذِّبى رسله ، وهذا المعنى جاء أيضاً فى

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين] يعنى : هل جُوزِى الكفار بما عملوا ؟ وهل استطعنا أنْ نعاقبهم بما يستحقون من العذاب ؟

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤)﴾ [الحج] أى : إنكارى لموقفهم من عدم أداء حقوق النعمة فبدَّلها الله عليهم نقمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥)﴾

قوله تعالى : ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ .. (٤٥)﴾ [الحج] (كأيِّن) أداة تدل على الكَثْرة مثل : كم الخبرية حين تقول : كَمْ أحسنتُ إليك . تعنى مرات عديدة تفوق الحصر ، فهى تدل على المبالغة فى العدد والكمية ، ومنها قوله تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ .. (١٤٦)﴾ [آل عمران]

والقرية[1] : اسم للمكان ، وحين يُهلك الله القرية لا يُهلك المكان ، إنما يهلك المكين فيه ، فالمراد بالقرية أهلها ، كما ورد فى قوله تعالى : ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ[2] الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢)﴾ [يوسف] أى : اسأل أهل القرية .

(١) القرية : البلدة الكبيرة تكون أقل من المدينة ، أو هى كل مكان اتصلت به الأبنية . [القاموس القويم ٢ / ١١٥] .

(٢) قال قتادة : المراد بالقرية هنا مصر . نقله ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٨٧) والقرطبى فى تفسيره (٥/ ٣٥٨٠) وقالا : وقيل قرية من قراها نزلوا بها وامتاروا منها . لفظ القرطبى .

ويحتمل أن يكون المعنى : اسأل القرية تُجبْك ، لأنك لو سألتَ أهل القرية فلربما يكذبون ، أمَّا القرية فتسجل الأحداث وتُخبر بها كما حدثت .

وقد يتعدى الهلاك إلى القرية ذاتها ، فيغير معالمها بدليل قوله تعالى : ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا .. (٥٢)﴾ [النمل]

ومعنى : ﴿أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ .. (٤٥)﴾ [الحج] أي : بسبب ظُلْمها ، ولا يُغيِّر الله ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم ، وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾ [النحل]

فهلاك القُرَى لا بُدَّ أن يكون له سبب ، فلما وقع عليها الهلاك أصبحت ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا .. (٤٥)﴾ [الحج] الشيء الخاوي يعني : الذي سقط وتهدَّم على غيره ، وقوله : ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا .. (٤٥)﴾ [الحج] يدل على عِظَم ما حَلَّ بها من هلاك ، حيث سقط السقف أولاً ، ثم انهارت عليه الجدران ، أو : أن الله تعالى قَلَبها رأساً على عَقِب ، وجعل عاليها سافلها .

وقوله سبحانه : ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ .. (٤٥)﴾ [الحج] البئر : هو الفجوة العميقة في الأرض ، بحيث تصل إلى مستوى الماء الجوفيّ ، ومنه يُخرجون الماء للشُّرْب وللزراعة .. إلخ ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ .. (٢٣)﴾ [القصص] أي : البئر الذي يشربون منه .

والبئر حين تكون عاملة ومُسْتفاداً منها تلحظ حولها مظاهر

حياة ، حيث ينتشر الناس حولها ، وينمو النبات على بقايا المياه المستخرجة منها ، ويحوم حولها الطير ليرتوى منها ، أما البئر المعطّلة غير المستعملة فتجدها خَرِبة ليس بها علامات حياة ، وربما تسفو[1] عليها الرياح ، وتطمسها فتُعطَّل وتُهجَر ، فالمراد معطلة عن أداء مهمتها ، ومهمة البئر السُّقيا .

﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الحج] القصر : اسم للمأوى الفَخْم ؛ لأن المأوى قد يكون خيمة ، أو فسطاطاً ، أو عريشة ، أو بيتاً ، أو عمارة ، وعندما يرتقى الإنسان فى المأوى فيبنى لنفسه شيئاً خاصاً به ، لكن لابُدَّ له أنْ يخرج لقضاء لوازم الحياة من طعام وخلافه ، أما القصر فيعنى مكان السكن الذى يتوفر لك بداخله كل ما تحتاج إليه ، بحيث لا تحتاج إلى الخروج منه ، يعنى : بداخله كل مُقوِّمات الحياة . ومنه : سميت الحور مقصورات فى قوله تعالى : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الرحمن] يعنى : لا تتعداها ولا تخرج منها .

و ﴿ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الحج] من الشيد ، وهو الجير الذى يستعمل كَمُونَة فى بناء الحجر يعنى : مادة للصق الحجارة ، وجَعْلها على مستوىً واحد ، وقديماً كان البناء بالطوب اللَّبِن ، والمونة من الطين ، أما فى القصور والمساكن الفخمة الراقية فالبناء بالحجر ، والمشيد أيضاً العالى المرتفع ، ومنه قولهم : أشاد به يعنى : رفعه وأعْلى من مكانته ، والارتفاع من مَيْزات القصور ، ومعلوم أن مقاسات الغرف فى العمارات مثلاً غيرها فى القصور ، هذه ضيقة منخفضة ، وهذه واسعة عالية .

---

(١) سفت الريح التراب : ذَرَتْه ، وقيل : حملته . والسافياء : الريح التى تحمل تراباً كثيراً على وجه الأرض تهجمه على الناس . [لسان العرب ـ مادة : سفا] .

وفى قوله تعالى ﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥) ﴾ [الحج] دليل على أن هؤلاء المهْلَكين كانوا من أصحاب الغِنَى والنعيم ، ومن سكان القصور ومِنْ عِلْية القوم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾

السَّيْر : قَطْع مسافات من مكان إلى آخر ، ويسمونه السياحة ، والحق سبحانه يدعو عباده إلى السياحة فى أنحاء الأرض ؛ لأن للسياحة فائدتين :

فإما أنْ تكون سياحة استثمارية لاستنباط الرزق إنْ كنتَ فى مكان يضيق بك العيش فيه ، كهؤلاء الذين يسافرون للبلاد الأخرى للعمل وطلب الرزق .

وإما أن تكون سياحة لأَخْذ العبرة والتأمل فى مخلوقات الله فى مُلْكه الواسع ليستدل بخَلْق الله وآياته على قدرته تعالى .

والسياحة فى البلاد المختلفة تتيح لك فرصة ملاحظة الاختلافات من بيئة لأخرى ، فهذه حارة وهذه باردة ، وهذه صحراء جرداء وهذه خضراء لا يوجد بها حبة رمل ، لذلك يخاطبنا ربنا تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. (١١) ﴾ [الأنعام]

فالعطف فى الآية بـ (ثُمَّ) يدل على أن للسياحة مهمة أخرى ، هى الاستثمار وطلب الرزق ، ففى الآية إشارة إلى الجمع بين هاتين المهمتين ، فحين تذهب للعمل إياك أنْ تغفل عن آيات الله فى المكان الذى سافرت إليه ، وخُذْ منه عبرة كونية تفيدك فى دينك .

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانظُرُوا (٦٩)﴾ [النمل]

العطف هنا بالفاء التى تفيد الترتيب ، يعنى : سيروا فى الأرض لتنظروا آيات الله ، فهى خاصة بسياحة الاعتبار والتأمل ، لا سياحة الاستثمار وطلب الرزق .

لذلك يقولون فى الأمثال : (اللى يعيش ياما يشوف ، واللى يمشى يشوف أكثر) فكلما تعددتْ الأماكن تعددت الآيات والعجائب الدالة على قدرة الله ، وقد ترى منظراً لا يؤثر فيك ، وترى منظراً آخر يهزُّك ويُحرِّك عواطفك ، وتأملاتك فى الكون .

وقوله : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا ..(٤٦)﴾ [الحج] تعنى وتؤكد أنهم ساروا فعلاً ، كما تقول : أفلم أُكرمك ؟ ولا تقول هذا إلا إذا أكرمته فعلاً ، وقد حدث أنهم ساروا فعلاً فى البلاد أثناء رحلة الشتاء والصيف ، وكانوا يمرون على ديار القوم المهلكين ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧)﴾ [الصافات]

يعنى : أنتم أهل سَيْر وترحال وأهل نظر فى مصير مَنْ قبلكم ، فكيف يقبل منكم الانصراف عن آيات الله ؟

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَـكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾

[الحج] فما داموا قد ساروا وترحَّلوا فى البلاد ، فكيف لا يعقلون آيات الله ؟ وكيف لا تُحرِّك قلوبهم ؟

ولنا وقفة عند قوله تعالى : ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا .. (٤٦)﴾ [الحج] وهل يعقِل الإنسانُ بقلبه ؟ معلوم أن العقل فى المخ ، والقلب فى الصدر .

نعم ، للإنسان وسائل إدراك هى الحواس التى تلتقط المحسَّات يُسمُّونها تأدُّباً مع العلم : الحواس الخمس الظاهرة ؛ لأن العلم أثبت للإنسان فى وظائف الأعضاء حواساً أخرى غير ظاهرة ، فحين تُمسك بشيئين مختلفين يمكنك أن تُميِّز أيهما أثقل من الآخر ، فبأىِّ حاسة من الحواس الخمس المعروفة توصلْتَ إلى هذه النتيجة ؟

إنْ قُلْتَ بالعين فدعْها على الأرض وانظر إليها ، وإنْ قُلْتَ باللمس فلك أنْ تلمسها دون أنْ ترفعها من مكانها ، إذن : فأنت لا تدرك الثقل بهذه الحواس ، إنما بشىء آخر وبآلة إدراك أخرى هى حاسة العَضَلِ الذى يُميِّز لك الخفيف من الثقيل .

وحين تذهب لشراء قطعة من القماش تفرك القماش بلطف بين أناملك ، فتستطيع أنْ تُميِّز الثخين من الرقيق ، مع أن الفارق بينهما لا يكاد يُذْكَر ، فبأىِّ حاسة أدركْتَه ؟ إنها حاسة البَيْن . كذلك هناك حاسة البُعْد وغيرها من الحواسّ التى يكتشفها العلم الحديث فى الإنسان .

فلما يدرك الإنسان هذه الأشياء بوسائل الإدراك يتدخَّل العقل ليغربل هذه المدركات ، ويختار من البدائل ما يناسبه ، فإنْ كان سيختار ثوباً يقول : هذا أنعم وأرقّ من هذا ، وإنْ كان سيختار رائحة يقول : هذه ألطف من هذه ، إنْ كان فى الصيف اختار

الخفيف ، وإنْ كان في الشتاء اختار السميك .

وبعد أن يختار العقل ويوازن بين البدائل يحكم بقضية تستقر في الذِّهْن وتقتنع بها ، ولا تحتاج لإدراك بعد ذلك ، ولا لاختيار بين البدائل ، وعندها تنفذ ما استقر في نفسك ، وارتحْتَ إليه بقلبك .

إذن : إدراك بالحواس وتمييز بالعقل ووقوف عند مبدأ بالقلب ، وما دام استقر المبدأ في قلبك فقد أصبح دستوراً لحياتك ، وكل جوارحك تخدم هذا المبدأ الذي انتهيتَ إليه ، واستقر في قلبك ووجدانك .

لكن ، لماذا القلب بالذات ؟ قالوا : لأن القلب هو الذي يقوم بعملية ضَخٍّ سائل الحياة ، وهو الدم في جميع أجزاء الجسم وجوارحه ، وهذه الجوارح هي أداة تنفيذ ما استقر في الوجدان ؛ لذلك قالوا : الإيمان محلّه القلب ، كيف ؟ قالوا : لأنك غربلْتَ المسائل وصفَّيْت القضايا إلى أن استقرت العقيدة والإيمان في قلبك ، والإيمان أو العقيدة هي ما انعقد في القلب واستقرَّ فيه ، ومن القلب تمتد العقيدة إلى جميع الأعضاء والحواس التي تقوم بالعمل بمقتضى هذا الإيمان ، وما دُمْتَ قد انتهيتَ إلى مبدأ وعقيدة ، فإياك أنْ تخالفه إلى غيره ، وإلاَّ فيكون قلبك لم يفهم ولم يفقه .

وكلمة ﴿يَعْقِلُونَ بِهَا (٤٦)﴾ [الحج] تدل على أن للعقل مهام أخرى غير أنه يختار ويفاضل بين البدائل ، فالعقل من مهامه أنْ يعقل صاحبه عن الخطأ ، ويعقله أنْ يشرد في المتاهات ، والبعض يظن أن معنى عقل يعني حرية الفكر وأنْ يشطح المرء بعقله في الأفكار كيف يشاء ، لا ، العقل من عِقَال الناقة الذي يمنعها ، ويحجزها أنْ تشرُدَ منك .

ثم يقول سبحانه : ﴿ أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا (٤٦) ﴾ [الحج] كيف ولهؤلاء القوم آذان تسمع ؟ نعم ، لهم آذان تسمع ، لكن سماع لا فائدة منه ، فكأن الحاسَّة غير موجودة ، وإلا ما فائدة شيء سمعتَه لكن لم تستفد به ولم تُوظِّفه في حركة حياتك ، إنه سماع كعدمه ، بل إن عدمه أفضل منه ؛ لأن سماعك يقيم عليك الحجة .

﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾ [الحج] فعمى الأبصار شيء هيِّن ، إذا ما قيسَ بعمى القلوب[1] ؛ لأن الإنسانَ إذا فقد رؤية البصر يمكنه أنْ يسمع ، وأنْ يُعمل عقله ، وأنْ يهتدى ، وما لا يراه بعينه يمكن أنْ يخبره به غيره ، ويَصفه له وَصْفاً دقيقاً وكأنه يراه ، لكن ما العمل إذا عَميَتْ القلوب ، والأنظار مبصرة ؟

وإذا كان لعمى الأبصار بديل وعوَض ، فما البديل إذا عَمى القلب ؟ الأعمى يحاول أنْ يتحسَّس طريقه ، فإنْ عجز قال لك : خُذْ بيدى ، أما أعمى القلب فماذا يفعل ؟

لذلك ، نقول لمن يغفل عن الشيء الواضح والمبدأ المستقر : أعمى قَلْب . يعنى : طُمس على قلبه فلا يعى شيئاً .

وقوله : ﴿ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾ [الحج] معلوم أن القلوب في الصدور ، فلماذا جاء التعبير هكذا ؟ قالوا : ليؤكد لك على أن المراد القلب الحقيقى ، حتى لا تظن أنه القلب التفكيرىّ التعقلىّ ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم (١٦٧) ﴾ [آل عمران]

---

(١) قال قتادة : البصر النافذ جُعل بُلْغة ومنفعة ، والبصر النافع فى القلب . وقال مجاهد : لكل عين أربعة أعين ، يعنى لكل إنسان أربعة أعين : عينان فى رأسه لدنياه ، وعينان فى قلبه لآخرته ، فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه فلم يضره عماه شيئاً ، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه فلم ينفعه نظره شيئاً . [تفسير القرطبى ٤٦٠٨/٦]

ومعلوم أن القَوْل من الأفواه ، لكنه أراد أن يؤكد على القول والكلام ؛ لأن القول قد يكون بالإشارة والدلالة ، فالقول بالكلام هو أبلغ أنواع القول وآكده ؛ لذلك قال الشاعر :

جِرَاحَاتُ السِّنَانِ لَهَا الْتِئَامٌ ولاَ يُلْتَامُ مَا جَرَحَ اللسَانُ

ويقولون : احفظ لسانك الذى بين فكَّيْك ، وهل اللسان إلا بين الفكَّيْن ؟ لكن أراد التوكيد على القول والكلام خاصة ، لا على طرق التفاهم والتعبير الأخرى .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

ألم يقولوا فى استعجال العذاب : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال]

وقالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأعراف]

ولا يستعجل الإنسانُ العذابَ إلا إذا كان غَيْرَ مؤمن به ، المؤمن بالعذاب ـ حقيقةً ـ يخاف منه ، ويريد أنْ يبطىء عنه أو أنْ ينجوَ منه . والمعنى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحج] أنهم يظنون أنَّهُ إنْ توعّدهم الله بالعذاب فإنه سيقع لتوِّه . لذلك ، الحق سبحانه

---

(١) سبب نزول الآية : قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٠٩) : « نزلت فى النضر بن الحارث ، وهو قوله : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأعراف] . وقيل : نزلت فى أبى جهل بن هشام ، وهو قوله ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال] .

يصحح لهم هذا الفهم ، فيقول : ﴿ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحج] فلا تتعجلوا توعّدكم به ، فهو واقع بكم لا محالة ؛ لأنه وَعْد من الله ، والله لا يُخلف وعده ، لكن اعلموا أن اليوم عند الله ليس كيومكم ، اليوم عندكم أربع وعشرون ساعة ، أما عند الله فهو كألف سنة من حسابكم أنتم للأيام .

واليوم زمن يتسع لبعض الأحداث ، ولا يسع أكثر مما قدِّر أن يُفعل فيه من الأحداث ، أما اليوم عند الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ فيسع أحداثاً كثيرة تملأ من الزمن ألف سنة من أيامكم ؛ ذلك لأنكم تزاولون الأعمال وتعالجونها ، أما الخالق سبحانه فإنه لا يزاول الأفعال بعلاج ، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كُنْ فيكون ، ففعْلُك يحتاج إلى وقت ، أما فعْل ربك فبكلمة كُنْ . وقد شاء الحق سبحانه أنْ يعيشَ هؤلاء فى عذابَ التفكير فى هذا الوعيد طول عمرهم ، فيُعذّبون به قبل حدوثه .

إذن : لا تظن أن العذاب الذى توعّدكم به سيحدث اليوم أو غداً ، لا ؛ لأن حساب الوقت مختلف .

ألم تقرأ قول الله تعالى لنبيه موسى ـ عليه السلام ـ لمَّا دعا على قومه : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ[1] وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [يونس]

قال له ربه : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [يونس]

ويقول المفسرون[2] : حدثتْ هذه الإجابة لموسى بعد أربعين سنة من دعوته عليهم .

---

(١) قال الضحاك : صارت دنانيرهم ودراهمهم ونحاسهم وحديدهم حجارة منقوشة . [الدر المنثور للسيوطى ٤/٣٨٤] وعزاه لابن أبى حاتم وأبى الشيخ .

(٢) قاله مجاهد فيما أخرجه عنه الحكيم الترمذى . وقال ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن المنذر : يزعمون أن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة . أوردهما السيوطى فى (الدر المنثور : ٤/٣٨٥)

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝﴾ [السجدة]

وتزيد هذه المدة فى قوله سبحانه : ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝﴾ [المعارج] لماذا ؟ لأن الزمن عندكم فى هذه الحالة مُعطَّل ، فأنتم من هَوْل ما ترونَ تستطيلون القصير ، ويمر عليكم الوقت ثقيلاً ؛ لذلك تتمنون الانصراف ولو إلى النار .

كما أن صاحب النعيم يستقصر الطويل ، ويمر عليه الوقت كأنه لمح البصر ، ومن ذلك ما تلاحظه من قِصَر الوقت مع الأحبة وطوله مع الأعداء ومَنْ لا يهواه قلبك ، ولهذه المسألة شواهد كثيرة فى شعرنا العربى ، منها قول أحدهم :

حَادِثَاتُ السُّرورِ تُوزَنُ وَزْناً وَالبَلايَا تُكَال بالقُفْزَان[1]

وقول الآخر :

لَمْ يَطُلْ لَيْلِى ولكِنْ لَمْ أَنَمْ ونَفَى عَنِّى الكَرَى طَيْفٌ أَلَمّ[2]

ويقول ابن زيدون :

إنْ يَطُلْ بعدَكَ لَيْلى فلَكَمْ بِتُّ أشكُو قِصَرَ الليْلِ مَعَك

---

(١) القفزان : جمع قفيز وهو من المكاييل ، وهو من الأرض قدر مائة وأربع وأربعين ذراعاً . [لسان العرب - مادة : قفز] .

(٢) هذا البيت لبشار بن بُرْد . ذكره أبو على القالى فى الأمالى (١/١٣٢) والكرى : النوم والنعاس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾

﴿ وَكَأَيِّن ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحج] قلنا : تدل على الكثرة يعنى : كثير من القرى ، ﴿ أَمْلَيْتُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحج] : أمهلتُ ، لكن طول الإمهال لا يعنى الإهمال ؛ لأن الله تعالى يُملى للكافر ويُمهله لأجل ، فإذا جاء الأجل والعقاب أخذه .

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحج] وأخْذُ الشيء يتناسب مع قوة الآخذ وقدرته وعنف الانتقام بحسب المنتقم ، فإذا كان الآخذ هو الله عز وجل ، فكيف سيكون أَخْذه ؟

فى آية أخرى يوضح ذلك فيقول : ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القمر] لا يُغَالب ، ولا يمتنع منه أحد ، وكلمة الأَخْذ فيها معنى الشدة والعنف والقَهْر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحج] يعنى : المرجع والمآب ، فلن يستطيعوا أنْ يُفلتوا .

إذن : الإملاء : تأخير العذاب إلى أجل معين ، كما قال سبحانه : ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الطارق]

هذا الأجل قد يكون لمدة ، ثم يقع بهم العذاب ، كما حدث فى الأمم السابقة التى أهلكها الله بالخسْف أو بالغرق .. الخ ، أما فى أمة محمد ﷺ ، فيكون الإملاء بأحداث سطحية فى الدنيا ، كالذى حلَّ بالكفار من الخزْى والهوان والهزيمة وانكسار شوكتهم ، أمّا العذاب الحقيقى فينتظرهم فى الآخرة .

لذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ لنبيه ﷺ : لا تستبطىء عذابهم والانتقام منهم فى الدنيا ، فما لم تَرَهُ فيهم من العذاب فى الدنيا ستراه فى الآخرة : ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾ [غافر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩)﴾

والإنذار نوع من الرحمة ، لأنك تخبر بشرٍّ قبل أوانه ، ليحذره المنذَر ، ويحاول أنْ يُنجى نفسه منه ، ويبتعد عن أسبابه ، فحين أُذكِّرك بالله ، وأنه يأخذ أعداءه أَخْذَ عزيز مقتدر ، فعليك أنْ تربأ بنفسك عن هذه النهاية ، وأن تنجوَ من دواعى الهلاك .

ومعنى ﴿مُّبِينٌ (٤٩)﴾ [الحج] محيط ، لا يترك صغيرة ولا كبيرة.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠)﴾

وطالما آمنوا وعملوا الصالحات فقد انتفعوا بالنذارة ، وأثمرتْ فيهم ، فآمنوا بالله إلهاً فاعلاً مختاراً له صفات الكمال المطلق ، ثم عملوا على مقتضى أوامره ؛ لذلك يكون لهم مغفرة إنْ كانت ٱلَمَّتْ نفوسهم بشىء من المعاصى ، ويكون لهم رزق كريم . والكريم هو البذَّال ، كأن الرزق نفسه وصل إليهم بكرم وزيادة ، كما أن الكريم هو الذى تظل يده مبسوطة دائماً بالعطاء ، على حَدِّ قول الشاعر :

وَإِنِّى امْرؤٌ لاَ تَسْتَقِرُّ دَرَاهِمِى ... عَلَى الكَفِّ إِلاَّ عَابِرَات سَبِيل

فالرزق نفسه كريم ؛ لأنه ممدود لا ينقطع ، كما لو أخذت كوب ماء من ماء جارٍ ، فإنه يحلُّ محلَّه غيره على الفور ، وهكذا .

﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾

السعى : عمل يذهب إلى غاية ، فإنْ كان قطع مسافة نقول : سِرْنا من كذا إلى كذا ، وإنْ كان فى قضية علمية فكرية ، فيعنى : أن الحدث يعمل من شىء بداية إلى شىء غاية .

والسَّعْىُ لا يُحمد على إطلاقه ، ولا يُذَمُّ على إطلاقه ، فإنْ كان فى خير فهو محمود ممدوح ، كالسعى الذى قال الله فيه : ﴿ فَأُوْلَـٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء] ، وإنْ كان فى شَرٍّ فهو قبيح مذموم ، كالسعى الذى قال الله تعالى فيه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البقرة]

أما السعاية فعادة تأخذ جانب الشر . وتعنى : الوشاية والسَّعى بين الناس بالنميمة ، تقول : فلان سَعَّاء بين الخلق يعنى : بالشر ينقله بين الناس بقصْد الأذى ، وهؤلاء إنْ علِموا الخير أخفَوْه ، وإنْ علموا الشر أذاعوه ، وإن لم يعلموا كذبوا .

لذلك ، نقول عمَّا ينتج من هذه السعاية من الشر بين الناس : هذا آفة الآخذ ، يعنى : الذى سمع الشرَّ ونقله وسعى به ، وكان عليه أنْ يحبسه ويُخفِيَه ، حتى لا تنتشر هذه الرذيلة بين الخلْق .

وقد وشى واشٍ بـهمام بن عـبد الله السلولى إلى زياد بـن أبيه ، وكان زياد جباراً فقال للواشى : أأجمع بينك وبينه ؟ فلم يجد الواشى بُدًّا من أنْ يقول : نعم ، فكيف ينكر ما قـال ؟! ولعله قال فى نفسه : لعل الله يقضى أمراً يُخرِجنى من هذه (الورطة) قبل هذه المواجهة ؟ ثم أرسل زياد إلى ابن همـام فأُتـِى به ، وقد جـعل زياد الواشى فى مجلـسه خلف ستـار ، وأُدخِل همام ، فـقال له : يا همـام بلغنى أنك هجوْتنى ، فـقال : كلا ، أصلحك الله مـا فعلتُ ، ولا أنت لذلك بأهْل ، فكشف زياد الســتار وقال : هذا الرجل أخـبرنى أنك هجـوتنى ، فنظر ابن همام ، فإذا هو صديق له يجالسه ، فقال له :

أنتَ امْـرؤٌ إمّـا ائتمنْتكَ خَاليـاً ... فَخُنْتَ وَإمّا قُلْتَ قَوْلاً بِلاَ عِلْمِ

فَأْنْتَ مِنَ الأَمْرِ الذى كَانَ بينَنَا ... بمنزلةٍ بيْنَ الخِيَانَةِ والإثْمِ[1]

يعنى : أنت مذموم فى كل الأحوال ؛ لأنك إما خُنْتَ أمانة المجلس والحديث ولم تحـفظ سِراً فضــفضْتُ لك به ، وإمَّا اخـتلقْتَ هذا القولْ كذباً وبلا علم .

وعندها خلع زياد على همـام الخُلَع[2] ، لكنه لم يعـاقب الواشى ، وفى هذا إشارة إلى ارتياحهم لمن يـنقل إليهم ، وأن آذانهم قد أخذتْ على ذلك وتعوَّدَتْ عليه .

---

(١) أورد الغزالى هذه الأبيات فى « إحياء علوم الدين » (١٥٧/٣) ، ولكنـه ذكر قصة غير هذه فى مناسبتـها ، قال : « سعى رجل بزياد الأعجم إلى سليـمان بن عبد الملك فجـمع بينهما للموافقة فأقبل زياد على الرجل وقال .. » وذكر الأبيات .

(٢) الخلْعة من الثياب : ما خلعته فطرحته على آخر أو لم تطرحه . كل ثوب تخلعه عنك خِلْعة . [لسَان العرب - مادة : خلع]

ومعنى ﴿فِي آيَاتِنَا (٥١)﴾ [الحج] والآيات إما كونية ، كالشمس والقمر ، وإما معجزات ، وإما آيات الأحكام ، وسَعَوْا فيها يعنى : قالوا فيها قَوْلاً باطلاً غير الحق ، كما يسعى الواشى بالباطل بين الناس ، فهؤلاء إنْ نظروا فى آيات الكون قالوا : من صنع الطبيعة . وإنْ شاهدوا معجزة على يد نبىٍّ قالوا : سحر وأساطير الأولين ، وإنْ سمعوا آيات الأحكام تُتْلَى قالوا : شعر . وهم بذلك كله يريدون أنْ يُفسدوا على أهل الإيمان إيمانهم ، ويصدُّوا عن سبيل الله .

ومعنى ﴿مُعَاجِزِينَ(٥١)﴾ [الحج] جمع لاسم الفاعل معاجز مثل : مقاتل ، وهى من عَاجَزَ غير عجز عن كذا يعنى : لم يقدر عليه ، عَاجَزَ فلانٌ فلاناً يعنى باراه أيُّهما يعجز قبل الآخر ، فعاجزه مثل باراه ليثبتَ أنه الأفضل ، ومثل : سابقه ونافسه .

إذن : فالمعاجزة مفاعلة ومشاركة ، وكلمة نافسه الأصل فيها من النفَس الذى نأخذه فى الشهيق ، ونُخرجه فى الزفير ، والذى به يتأكسد الدم ، وتستمر حركة الإنسان ، فإن امتنع التنفس يموت ؛ لأن الإنسان يصبر على الطعام ويصبر على الماء ، لكنه لا يصبر على الهواء ولو لنفَس واحد .

وقد حدثتْ هذه المعاجزة أو المنافسة بين سيدنا عمر وسيدنا العباس رضى الله عنهما : قال عمر للعباس : أتُنافسنى فى الماء ، يعنى : نغطس تحت الماء وننظر أيهما يُعجز الآخر ، ويتحمل عملية توقُّف النفَس ، ومثل هذه المنافسة قد يحتال عليها الإنسان إنْ كتم نفسَه وهو فى جَوِّ الهواء ، أما إنْ نزل تحت الماء حيث ينعدم الهواء ، فكيف سيحتال على هذه المسألة ؟ وتحت الماء لا يكون إلا الهواء الذاتى الذى اختزنه كل منهما فى رئته ، ومثل هذه المنافسة توضح أيهما أفسح

صَدْراً من الآخر ، وأيُّهما أكثر تحمُّلاً تحت الماء . هذه هى المعاجزة .

فمعنى ﴿ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ..(٥١) ﴾ [الحج] أى : يظنون أنهم قادرون أن يُعجزونا ، فحين نأتى إليهم بكلام بليغ مُعْجز يختلقون كلاماً فارغاً ليعجزونا به . فأنَّى يكون لهم ذلك ؟ وأنَّى لهم أنْ يطعنوا بكلامهم على كلام الله ؟

ثم يُبيِّن جزاء هذا الفعل وهذه المكابرة : ﴿ أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١) ﴾ [الحج] فهذا حُكْم الله فيهم قضية واضحة من أقصر الطرق ، فمَنْ ذَا الذى يُعجِز الله ؟

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) ﴾

---

(١) **سبب نزول الآية :** أورد الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٧٨) عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله ﷺ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠) ﴾ [النجم] فالقى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلى وشفاعتهن ترتجي . ففرح بذلك المشركون وقالوا : قد ذكر آلهتنا ، فجاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ وقال : اعرض علىّ كلام الله ، فلما عرض عليه فقال : أما هذا فلم آتك به ، هذا من الشيطان ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ..(٥٢) ﴾ [الحج].

قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٢٩) : « قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق ، ولكنها من طرق كلها مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح والله أعلم » .

وقال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦١٢) : « الأحاديث المروية فى نزول هذه الآية ، ليس منها شىء يصح » وقال القاضى عياض فى كتاب « الشفا بتعريف حق المصطفى » : « هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه بسند سليم متصل ثقة ، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم » .

أثارت هذه الآية جدلاً طويلاً بين العلماء ، ودخل فيه كثير من الحشْو والإسرائيليات ، خاصة حول معنى ﴿ تَمَنَّىٰ (٥٢) ﴾ [الحج] وهى تَرد فى اللغة بمعنيين ، وما دام اللفظ يحتمل معنيين فليس أحدهما أوْلَى من الآخر إلا بمدى استعماله وشيوعه بين جمهور العربية ، ويأتى التمنى فى اللغة بمعنى القراءة ، كما ورد فى قول حسان بن ثابت فى رثاء عثمان بن عفان رضى الله عنهما :

تمنَّى كتابَ اللهِ أوَّلَ ليْلةٍ وآخِرَها وافَاهُ حَتْم المقَادِرِ[1]

يعنى : قُتل عثمان وهو يقرأ القرآن ، وهذا المعنى غريب فى حَمْل القرآن عليه لعدم شيوعه[2] .

وتأتى تمنى بمعنى : أحب أن يكون الشىء ، وهذا هو القول المشهور فى لغة العرب . أما بمعنى قرأ فهو غير شائع ، ويُردّ هذا القول ، وينقضه نَقْضاً أولياً مبدئياً قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ .. (٥٢) ﴾ [الحج]

ومعلوم أن الرسول ينزل عليه كتاب يمكن أن يقرأه ، أمّا النبى فلا ينزل عليه كتاب ، بل يعمل بشرع مَنْ سبقه من الرسل . إذن : فما دام الرسول والنبى مشتركيْن فى إلقاء الشيطان ، فلا بُدَّ أن تكون الأمنية هنا بمعنى : أحب أن يكون الشىء ، لا بمعنى قرأ ، فأىُّ شىء سيقرأ النبى وليس معه كتاب ؟

والذين فهموا التمنى فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ (٥٢) ﴾ [الحج] أنه

---

(١) ذكره ابن منظور فى لسان العرب - مادة : منى ، بلفظ :
تَمنَّى كتَابَ الله أوَّل لَيْله وآخِرَهُ لاَقَى حمَامَ المقَادر

(٢) قال أبو منصور : والتلاوة تسمى أمنية لأن تالى القرآن إذا مرَّ بآية رحمة تمناها ، وإذا مرَّ بآية عذاب تمنى أن يُوقَّاهُ . [لسان العرب - مادة منى] .

بمعنى : قرأ ، سواء أكانوا من العلماء المتعمِّقين أو السطحيين ، قالوا : المعنى إذا قرأ رسولُ الله القرآنَ تدخّل الشيطان فى القراءة ، حتى يُدخِل فيها ما ليس منها .

وذكروا دليلاً على ذلك فى قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ۝٢٠ ﴾ [النجم] ثم أضافوا : والغرانيق[1] العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى . وكأن الشيطان أدخل فى القرآن هذا الكلام ، ثم نسخه الله بعد ذلك ، وأحكم الله آياته .

لكن هذا القول يُشكِّك فى قضية القرآن ، وكيف نقول به بعد أن قال تعالى فى القرآن : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ ﴾ [الشعراء]

وقال : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[2] ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ۝٤٧ ﴾ [الحاقة]

إذن : الحق سبحانه وتعالى حفظ قرآنه وكلامه من أمثال هذا العبث ، وكيف نُدخل فى القرآن هذه الكفريات ؟ وكيف تستقيم عبارتهم : والغرانيقَ العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى مع قول الله تعالى :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ۝٢٠ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۝٢٢ ﴾ [النجم] كيف ينسجم هذا وذاك ؟

---

(١) الغرانيق : الأصنام ، وهى فى الأصل : الذكور من طير الماء . وكانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله عز وجل وتشفع لهم إليه ، فشبهت بالطيور التى تعلو وترتفع فى السماء . [لسان العرب – مادة غرنق].

(٢) الوتين : عرق فى القلب إذا قُطع مات صاحبه ، وهو الشريان الرئيسى الهام الذى يغذى الجسم بالدم النقى الخارج من القلب . [القاموس القويم ٢/٣١٩] .

فهذا الفهم في تفسير الآية لا يستقيم ، ولا يمكن للشيطان أنْ يُدخل في القرآن ما ليس منه ، لكن يحتمل تدخُّل الشيطان على وجه آخر : فحين يقرأ رسول الله القرآن ، وفيه هداية للناس ، وفيه مواعظ وأحكام ومعجزات ، أتنتظر من عدو الله أنْ يُخلي الجو للناس حتى يسمعوا هذا الكلام دون أنْ يُشوِّش عليهم ، ويُبلبل أفكارهم ، ويَحُول بينهم وبين سماعه ؟

فإذا تمنَّى الرسول يعني : قرأ ألقى الشيطان في أُمنيته ، وسلَّط أتباعه من البشر يقولون في القرآن : سحْر وشعْر وإفْك وأساطير الأولين . فدَوْر الشيطان - إذن - لا أنْ يُدخلَ فى كلام الله ما ليس منه ، فهذا أمر لا يقدر عليه ولا يُمكِّنه الله من كتابه أبداً ، إنما يمكن أنْ يُلقى فى طريق القرآن وفَهْمه والتأثر به العقبات والعراقيل التى تصدُّ الناس عن فَهْمه والتأثر به ، وتُفسِد القرآن فى نظر مَنْ يريد أن يؤمن به .

لكن ، هل محاولة تشويه القرآن هذه وصَدّ الناس عنه جاءت بنتيجة ، وصرفتْ الناس فعلاً عن كتاب الله ؟

لقد خيَّبَ الله سَعْيه ، ولم تقف محاولاته عقبة فى سبيل الإيمان بالقرآن والتأثر به ؛ لأن القرآن وجد قلوباً وآذاناً استمعتْ وتأملتْ فآمنتْ وانهارتْ لجلاله وعظمته وخضعتْ لأسلوبه وبلاغته ، فآمنوا به واحداً بعد الآخر .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) ﴾ [الحج] يعنى : ألغى وأبطل ما ألقاه الشيطان من الأباطيل والعقبات التى أراد بها أنْ يصدَّ الناس عن القرآن ، وأحكمَ اللهُ آياته ، وأوضح أنها منه سبحانه ، وأنه كلام الله المعْجز

الذى لو اجتمعتْ الإنس والجنُّ على أنْ يأتوا بمثله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

هذا على قول مَنِ اعتبر أن ﴿تَمَنَّىٰ ۝٥٢﴾ [الحج] بمعنى : قرأ .

أما على معنى أنها الشيء المحبوب الذى نتمناه ، فنقول : الرسول الذى أرسله الله تعالى بمنهج الحق إلى الخَلْق ، فإنْ كان قادراً على تطبيق المنهج فى نفسه فإنَّ أُمنتيه أن يُصدَّق وأنْ يُطاع فيما جاء به ، أمنيته أنْ يسودَ منهجه ويُسيطر ويسُوس به حركة الحياة فى الناس .

والنبى أو الرسول هو أَوْلى الناس بقومه ، وهو أحرصهم على نَفْعهم وهدايتهم ، والقرآن خير يحب للناس أن يأخذوا به عملاً بقوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[1] .

لكن ، هل يترك الشيطان لرسول الله أنْ تتحقق أُمنيته فى قومه أمْ يضع فى طريقه العقبات ، ويُحرِّك ضده النفوس ، فيتمرّد عليه قومه حيث يُذكِّرهم الشيطان بما كان لهم من سيادة ومكانة سيفقدونها بالإسلام ؟

وهكذا يُلْقى الشيطان فى أُمنيّة الرسول ﴿إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ۝٥٢﴾ [الحج] وما كان الشيطان ليدع القرآن ينفذ إلى قلوب الناس أو حتى آذانهم ، ألَيس هو صاحب فكرة : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ .. ۝٢٦﴾ [فصلت]

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، ومسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال : لأخيه - ما يحب لنفسه » .

إن الشيطان لو لم يُلْق العراقيل فى سبيل سماع القرآن ويُشكِّك فيه لآمن به كل مَنْ سمعه ؛ لأن للقرآن حلاوةً لا تُقَاوم ، وأثراً ينفذ إلى القلوب مباشرة .

ومع ذلك لم يَفُتّ ما ألقى الشيطان فى عَضُد القرآن ، ولا فى عَضُد الدعوة ، فأخذت تزداد يوماً بعد يوم ، ويزداد عدد المؤمنين بالقرآن المصدِّقين به ، المهم أن نتنبه : كيف نستقبل القرآن ، وكيف نتلقاه ، لا بد أن نستقبله استقبالَ الخالى من هوى ، فالذى يفسد الأحكام أنْ تُستقبل وتدخل على هوى سابق .

وسبق أن قلنا : إن الحيز الواحد لا يسع شيئين فى وقت واحد ، لا بُدَّ أنْ تُخرج أحدهما لتُدخل الآخر ، فعليك - إذن - أنْ تُخلى عقلك وفكرك تماماً ، ثم تستقبل كلاَم الله ، وابحث فيه كما شئت ، فسوف تنتهى إلى الإيمان به شريطة أنْ تُصفِّى له قلبك ، فلا تُبق فى ذهْنك ما يُعكِّر صَفْو الفطرة التى خلقها الله فيك ، عندها سيأخذ القرآن طريقه إلى قلبك ، فإذا أُشْرِب قلبُك حُبَّ القرآن ، فلا يزحزحه بعد ذلك شىء .

ولنا فى إسلام سيدنا عمر مثالٌ وعظَة ، فلما سمع القرآن من أخته لأول مرة ، وقد أغلق قلبه على كفره لم يتأثر به ، وضربها حتى أَدْمى وجهها ، وعندها رَقَّ قلبه ، وتحركت عاطفته نحو أخته ، وكأن عاطفة الحب زحزحتْ عاطفة العداوة ، وكشفت عن صفاء طَبْعه ، فلما سمع القرآن بعدها آمن به على الفور[1] .

(١) قصة إسلام عمر بن الخطاب ذكرها ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٤٤) وفيها أنه قال : « لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه ، وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجَّها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك ، فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى » .

كذلك ، إنْ أردت أنْ تناقشَ قضية الإيمان أو الكفر ، وأنْ تختار بينهما ؛ لأنهما لا يجتمعان أبداً ، ولا بُدَّ أنْ تختار ، فحين تناقش هذه القضية وأنت مُصرٌّ على الكفر فلن تصل إلى الإيمان ؛ لأن الله يطبع على القلب المُصرِّ فلا يخرج منه الكفر ، ولا يدخله الإيمان ، إنما أخرِجْ الكفر أولاً وتحرَّر من أسْره ، ثم ناقش المسائل كما تحب .

كما قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ..(٤٦)﴾ [سبأ]

أما أنْ تناقش قضية ، وفي ذهْنك فكرة مُسبقة ، فأنت كهؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا..(١٦)﴾ [محمد] يعني : ما الجديد الذي جاء به ؟ وما المعجزة في هذا الكلام ؟ فيأتي الرد : ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد]

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه عن القرآن :

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى..(٤٤)﴾ [فصلت]

فالقرآن واحد ، لكن المستقبل مختلف ، وقد ذكرنا أنك حين تريد أن تبرد كوب الشاي الساخن فإنك تنفخ فيه ، وكذلك إنْ أردتَ أنْ تُدفيء يديك في برد الشتاء فإنك أيضاً تنفخ فيها ، كيف - إذن - والفاعل واحد ؟ نعم ، الفاعل واحد ، لكن المستقبل للفعل مختلف .

وقوله تعالى : ﴿مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ (٥٢)﴾ [الحج]

(من) هنا للدلالة على العموم وشمول كل الأنبياء والرسل السابقين ، فكل نبى أو رسول يتمنى يعنى : يودّ ويحب ويرغب أن ينتشر دينه ويُطبِّق منهجه ، ويؤمن به جميع قومه ، لكن هيهات أنْ يتركه الشيطان وما أحبَّ ، بل لا بُدَّ أنْ يقف له بطريق دعوته ليصدَّ الناس عنه ويصرفهم عن دعوته ومنهجه ، لكن فى النهاية ينصر الله رسُله وأنبياءه ، وينسخ عقبات الشيطان التى ألقاها فى طريق الدعوة ، ثم يُحكِم الله آياته ، ويؤكدها ويظهرها ، فتصير مُحْكَمة لا ينكرها أحد .

وساعةَ تسمع كلمة ﴿أَلْقَى ﴿٥٢﴾﴾ [الحج] فاعلم أن بعدها عقبات وشروراً ، كما يقول تعالى : ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة]

ومما قاله أصحاب الرأى الأول فى تفسير ﴿تَمَنَّىٰ ﴿٥٢﴾﴾ [الحج] وأنها بمعنى قرأ : يقولون : إن الله تعالى يُنزِل على رسوله ﷺ أشياء تُثبت بشريته ، ثم يمحو الله آثار هذه البشرية ليبين أن الله صنعه على عينه ، حتى إنْ همَّتْ بشريته بشىء يعصمه الله منها .

لذلك يقول ﷺ : « يَرِدُ علىَّ فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويُؤخذ منِّى فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

إذن : فالرسول بشر إلا أنه يوحى إليه ما يعصمه من زلاَّت البشر .

ومن بشريته ﷺ أنه تعرّض للسحر ، وهذه واقعة لا تُنكر ، وقد ورد فيها أحاديث صحيحة ، وقد كاد الكفار لرسول الله بكل أنواع الكيد : استهزاءً ، وسباباً ، واضطهاداً ، وإهانة ، ثم تآمروا عليه بليل ليقتلوه ، وبيَّتوا له ، فلم يفلحوا قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ

كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ[1] أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال]

وكاد الله لرسوله وأخرجه من بينهم سالماً ، وهكذا فضح الله تبييتهم وخيّب سَعْيهم ، وفشلَتْ محاولاتهم الجهرية والسرية. فلجئوا إلى السحرة ليفعلوا برسول الله ما عجزوا هم عنه ، وعملوا لرسول الله سحراً فى مُشْط ومُشَاطة من شعره ﷺ وطلع نخلة ذكر ففضحهم الله ، وأخبر رسوله بذلك فأرسل الإمام علياً فأتى به من بئر ذروان[2] .

وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يُبيِّن لنا بشرية الرسول ، وأنه يجرى عليه ما يجرى على البشر ، لكن ربه لا يترك بشريته وحدها ، وإنما يعصمه بقيوميته .

وهذا المعنى هو ما قصده أصحاب الرأى الأول : أن الرسول يطرأ عليه ما يطرأ على البشر العادى ، لكن تتدخّل السماء لتعصمه . ونحن نختار الرأى الآخر الذى يقول أن تمنى بمعنى ودَّ وأحب .

ثم تختتم الآية بقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) ﴾ [الحج] عليم بكيد الشيطان ، وتدبيره ، حكيم فى علاج هذا الكيد .

﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) ﴾

(١) أى : ليحبسوك ويبقوك فى مكانك بمكة تحت سيطرتهم . وقيل : ليقيّدوك . [القاموس القويم ١/١٠٥] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٦٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢١٨٩) من حديث عائشة رضى الله عنها .

ولسائل أن يقول : إذا كان الله تعالى ينسخ ما يُلقى الشيطان ، فلماذا كان الإلقاءُ بدايةً ؟

جعل الله الإلقاء فتنةً ليختبر الناس ، وليُميِّز مَنْ ينهض بأعباء الرسالة ، فهى مسئولية لا يقوم بها إلا مَنْ ينفذ من الفتن ، وينجو من إغراءات الشيطان ، ويتخطَّى عقباته وعراقيله ؛ لذلك قال تعالى عنهم : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ (١١٠) ﴾ [آل عمران]

وما تبوأتُم هذه المنزلة إلا لأنكم أهلٌ لحمْل هذه الأمانة ، تمرٌّ بكم الفتن فتهزأون بها ولا تزعزعكم ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ (٥٣) ﴾ [الحج] أى : نفاق ، فإنْ تعرَّض لفتنة انقلب على وجهه . يقول كما يقولون : سحر وكذب وأساطير الأولين .

وكذلك فتنة ﴿ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ (٥٣) ﴾ [الحج] وهم الذين فقدوا لين القلب ، فلم ينظروا إلى الجميل عليهم فى الكون خَلْقاً وإيجاداً وإمداداً ، ولم يعترفوا بفضل الله عليهم ، ولم يستبشروا به ويأتوا إليه .

ونحن نلحظ الولد الصغير يأنس بأمه وأبيه ، ويركن إليهما ؛ لأنه ذاق حنانهما ، وتربَّى فى رعايتهما ، فإنْ ربَّته مثلاً المربية حتى فى وجود أمه فإنه يميل إليها ، ويألف حضنها ، ولا يلتفت لأمه ، لماذا ؟ لأنه نظر إلى الجميل ، من أين أتاه ، ومَنْ صاحب الفضل عليه فرقَّ له قلبه ، بصرف النظر مَنْ هو صاحب الجميل .

فهؤلاء طرأوا على كَوْن الله ، لا حَوْلَ لهم ولا قوة ، فاستقبلهم بكل ألوان الخير ، ومع ذلك كانت قلوبهم قاسيةً مُتحجِّرة لا تعترف بجميل .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) ﴾ [الحج] فهم ظالمون أولاً لأنفسهم حين نظروا إلى منفعة عاجلة قليلة ، وتركوا منفعة كبيرة دائمة . والشِّقاق : الخلاف ، ومنه قولنا : هذا فى شقٍّ ، وهذا فى شقٍّ ، يعنى : غير ملتئمين ، وليْته شقَاق هيِّن يكونَ له اجتماع والتئام ، ليته كشقَاق الدنيا بين الناس على عَرَض من أعراض الحياة ، إنما هم فى شقاق بعيد . يعنى : أثره دائم ، وأثّره فظيع .

إذن : العلة الأولى لما يُلقِى الشيطان أن يكون فتنة . أما العلة الثانية ففى قوله تعالى :

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ (٥٤) ﴾ [الحج] يعنى : يتأكدوا تأكيداً واضحاً أن هذا هو الحق ، مهما شوَّشَ عليه المشوِّشون ، ومهما قالوا عنه : إنه سحر ، أو كذب ، أو أساطير الأولين ؛ لأن الله سيُبطل هذا كله ، وسيقف أهل العلم والنظر على صدْق القرآن بما لديهم من حقائق ومقدمات واستدلالات يعرفون بها أنه الحق .

وما دام هو الحق الذى لم تزعزعه هذه الرياح الكاذبة فلا بُدّ أن يؤمنوا به ﴿ فَيُؤْمِنُوا بِهِ (٥٤) ﴾ [الحج] ثم يتبع هذا الإيمان عملٌ وتطبيق ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُ (٥٤) ﴾ [الحج] يعنى : تخشع وتخضع وتلين وتستكين .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤) ﴾ [الحج]

فمسألة كيد الشيطان وإلقائه لم تنته بموت الرسول ، بل هو قاعد لأمته من بعده ؛ فالشيطان يقعد لأمة محمد كلها ، ولكل مَنْ حمل عنه الدعوة .

يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) ﴾ [الأنعام]

يعنى : دعهم جانباً فالله لهم بالمرصاد ، فلماذا - إذن - فعلوه ؟ وما الحكمة ؟

يقول تعالى : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ..(١٤١) ﴾ [آل عمران]

وقال : ﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ (١١٣) ﴾ [الأنعام]

فمهمة الشيطان أنْ يستغلّ ضعاف الإيمان ، ومَنْ يعبدون الله على حرف من أصحاب الاحتجاجات التبريرية الذين يريدون أنْ يبرروا لأنفسهم الانغماس فى الشهوة والسير فى طريق الشيطان ، وهؤلاء يحلو لهم الطعن فى الدين ، ويتمنون أن يكون الدين والقيامة والرب أوهاماً لا حقيقة لها ، لأنهم يخافون أن تكون حقيقة ، وأن يتورطوا بأعمالهم السيئة ونهايتهم المؤلمة ، فهم - إذن - يستبعدون القيامة ويقولون : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) ﴾ [الصافات]

لماذا ؟ لأنه يريد أنْ يبرر سلوكه ، إنه يريد أنْ يُخرج نفسه من ورطة ، لا مخرج منها ، وهؤلاء يتبعون كل ناعق ، ويجْرُون وراء كل شبهة فى دين الله يتلقفونها ويرددونها ، ومرادهم أن يهدموا الدين من أساسه .

نسمع من هؤلاء المسرفين على أنفسهم مثلاً مَنْ يعترض على

تحريم الميتة وأكل الذبيحة ، وهذا دليل على خميرة الشرك والكفر فى نفوسهم ، ولهم حجج واهية لا تنطلى إلا على أمثالهم من الكفرة والمنافقين ، وهذه مسألة واضحة ، فالموت غير القتل ، غير الذبح .

الموت : أن تخرج الروح أولاً دون نَقْض بِنْية الجسم ، وبعد خروج الروح ينقض بناء الجسد ، أما القتل فيكون بنقض البنية أولاً ، ويترتب على نَقْض البنية خروج الروح ، كأنِ يُضرب الإنسان أو الحيوان على رأسه مثلاً ، فيموت بعد أنْ اختلّ مخه وتهشَّم ، فلم يعُدْ صالحاً لبقاء الروح فيه .

يقول تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ..(١٤٤)﴾ [آل عمران] إذن : فالموت غير القتل .

وقد مثَّلْنا لذلك بضوء الكهرباء الذى نراه ، والذى يسرى فى الأسلاك ، ويظهر أثره فى هذه اللمبات ، نحن لا نعرف حتى الآن كُنْه هذه الكهرباء وماهية هذا الضوء ، إنما نراه وننعَم به ، فإذا ما كُسرت هذه اللمبة ينطفىء النور ؛ لأنها لم تعُدْ صالحة لاستقبال هذا النور ، رغم أنه موجود فى الأسلاك ، إذن : لا يظهر نور الكهرباء إلا فى بنية سليمة لهذا الشكل الزجاجى المفرَّغ من الهواء .

كذلك الروح لا تسكن الجسم ، ولا تبقى فيه إلا إذا كانت له مواصفات معينة ، فإنِ اختلَّتْ هذه المواصفات خرجتْ الروح من الجسد .

أما الذبح فهو أيضاً إزهاق روح ، لكن بأمر الله خالقها وبرخصة منه سبحانه ، كأن يُقتلَ إنسان فى قصاص ، أو فى قتال مشروع ، أو نذبح الحيوان الذى أحلَّه الله لنا وأمرنا بذبحه ، ولولا أمْر الله بذبحه ما ذبحناه ، ولولا أن الله أحلَّه ما أكلناه ، بدليل أننا لا نأكل ما لم يحِل لنا من الحيوانات الأخرى .

والذين يجادلون فى عملية الذَّبْح الشرعية ، ويُزهقون أرواح الحيوان بالخنق مثلاً غفلوا عن الحكمة من الذبح : الذبح إراقة للدم ، وفى الدم مواد ضارة بالإنسان يجب أن يتخلص منها بتصفية دم ذبيحته ؛ لأن بها كمية من الدم الفاسد الذى لم يمرّ على الكلية لتنقيه.

فالمسلم حريص على أن يحمل منهج رسول الله ﷺ ، وحريص على أن يسود هذا المنهج حركة الحياة ، لكن لن يدَعَه الشيطان يُحقِّق هذه الأمنية ، كما لم يدع رسوله ﷺ من قبل ، فكيْده وإلقاؤه لم ينتهِ بموت الرسول ، وإنما هو بَاقٍ ، وإلى أنْ تقومَ الساعة .

لذلك يقول تعالى فى الآية بعدها :

﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) ﴾

قوله : ﴿فِي مِرْيَةٍ (٥٥)﴾ [الحج] يعنى : فى شك من هذا ، لذلك قلنا : إن أتباع رسول الله ﷺ مُكلَّفون من الله بأنْ يكونوا امتداداً لرسالته : ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا..(١٤٣)﴾ [البقرة] شهداء أنكم بلَّغتم كما كان الرسول شهيداً عليكم ، فكلٌّ منَّا كأنه مبعوث من الله ، وكما شهد رسول الله عليه أنه أبلغه ، كذلك هو يشهد أنه بلَّغ من بعد رسول الله ؛ لذلك جاءت هذه الآية للأمرين ليكون الرسول شهيداً عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما حمَّلنا هذه الرسالة قال : ما دُمْتم امتداداً لرسالة الرسول ، فلا بُدَّ أنْ تتعرَّضوا لما تعرَّض له

الرسول من استهزاء وإيذاء وإلقاء فى أمنياتكم ، فإنْ صمدتم فإن الله تعالى ينسخ ما يُلقِى الشيطان ، وينصـر فى النهاية أولياءه ، وسيظل الإسلام إلى أنْ تقـوم الساعـة ، وسـيظل هناك أناس يُعَادُون الدين ويُشكِّكون فـيه ، وسيظل الملحدون الذين يُشكِّكون النـاس فى وجود الله يخرجون علينا من حين إلى آخر بما يتناقض ودين الله كقولهم : إن هذا الكون خُلِق بالطبيعة ، وترى وتسمع هذا الكلام فى كتاباتهم ومقالاتهم .

ولم يَسْلَم العلم التجريبى من خرافاتهم هذه ، فـإنْ رأوا الحيوان منسجماً مع بيئته قـالوا : لقد أمـدته الطبيعـة بلون مناسب وتكوين مناسب لبيئته .

وفي النبات حينما يقفون عند آية من آياتـه مثلاً : ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ..④﴾ [الرعد] يقولون : إن النبات يتغذى بعملية الانتخاب ، يعنى النبات هو الذى ينتخب ويختار غذاءه ، فـفى التربة الواحدة وبالمـاء الواحد ينمو النبـات الحلو والمر والحمـضى والحريف ، فبدل أنْ يعترفـوا لله تعالى بالفـضل والقدرة يقولون : الطبيعة وعملية الانتخاب .

وقـد تحدثنـا مع بعض هؤلاء فى فـرنسا ، وحـاولنا الرد عليـهم وإبطال حججهم ، وأبسطها أن عمليـة الانتخاب تحتاج إلى إرادة واعية تُميِّز بيـن الأشياء المنتخبـة ، فهل عند النبات إرادة تُمكِّنه من اخـتيار الحلو أو الحامض ؟ وهل يُميز بين المرِّ والحريف ؟

إنهم يحاولون إقناع الناس بدور الطبيعة ليبعدوا عن الأذهان قدرة الله فيقولون : إن النبـات يتغـذّى بخاصيـة الأنابيب الشعـرية يعنى : أنابيب ضيقة جداً تشبه الشعرة فسميت بها ، ونحن نعرف أن الشعرة

عبارة عن أنبوبة مجوفة . وحين تضع هذه الأنبوبة الضيقة في الماء ، فإن الماء يرتفع فيها إلى مستوى أعلى ؛ لأن ضغط الهواء داخل هذه الأنبوبة لضيقها أقلّ من الضغط خارجها لذا يرتفع فيها الماء ، أما إنْ كانت هذه الأنبوبة واسعة فإن الضغط بداخلها سيساوى الضغط خارجها ، ولن يرتفع فيها الماء .

فقُلْنا لهم : لو أحضرنا حوضاً به سوائل مختلفة ، مُذَاب بعضها فى بعض ، ثم وضعنا به الأنابيب الشّعْرية ، هل سنجد فى كل أنبوبة سائلاً معيناً دون غيره من السوائل ، أم سنجد بها السائل المخلوط بكل عناصره ؟

لو قمتَ بهذه التجربة فستجد السائل يرتفع نعم فى الأنابيب بهذه الخاصية ، لكنها لا تُميِّز بين عنصر وآخر ، فالسائل واحد فى كل الأنابيب ، وما أبعد هذا عن نمو النبات وتغذيته .

وصدق الله حين قال : ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ② وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ③ ﴾ [الأعلى]

إذن : ما أبعدَ هذه التفسيرات عن الواقع ! وما أجهلَ القائلين بها والمروِّجين لها ! خاصة فى عصر ارتقى فيه العلم ، وتقدَّم البحث ، وتنوَّعت وسائله فى عصر استنارتْ فيه العقول ، واكْتُشفت أسرار الكون الدالة على قدرة خالقه عز وجل ، ومع ذلك لا يزال هناك مبطلون .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً .. ⑤⑤ ﴾ [الحج]

فهم ـ إذن ـ موجودون فى أمة محمد إلى أنْ تقومَ الساعة ،

وسنُواجههم نحن كما واجههم رسول الله ، وسيظل الشيطان يُلقى فى نفوس هؤلاء ، ويوسوس لهم ، ويوحى إلى أوليائه من الإنس والجن ، ويضع العقبات والعراقيل ليصدَّ الناس عن دين الله . هذا نموذج من إلقاء الشيطان فى مسألة القمة ، وهى الإيمان بالله .

كما يُلقِى الشيطان فى مسألة الرسول ، فنجد منهم مَنْ يهاجم شخصية رسول الله ﷺ ، وكيف وهو الأميّ البدويّ يقود أمة ويتهمونه ويخوضون فى حقِّه ، وفى مسألة تعدُّد زوجاته ﷺ .. الخ ممّا يُمثِّل عقبة فى سبيل الإيمان به ﷺ .

ونعجب لهجوم هؤلاء على رسول الله طالما هم كافرون به ، إن هذا الهجوم يحمل فى طياته إيماناً بأنه رسول الله ، وإلا لَمَا استكثروا عليه ولَمَا انتقدوه ، فلو كان شخصاً عادياً ما تعرَّض لهذه الانتقادات.

لذلك لا تناقش مثل هؤلاء فى مسألة الرسول ، إنما فى مسألة القمة ، ووجود الإله ، ثم الرسول المبلِّغ عن هذا الإله ، أمّا أنْ تخوض معهم فى قضية الرسول بدايةً فلن تصلَ معهم إلى حَلٍّ ؛ لأنهم يضعون مقاييس الكمال من عندهم ، ثم يقيسون عليها سلوكيات رسول الله ، وهذا وَضْع مقلوب ، فالكمال نأخذه من الرسول ومن فعْله ، لا نضع له نحن مقاييس الكمال .

ثم يُشكِّكون بعد ذلك فى الأحكام ، فيعترضون مثلاً على الطلاق فى الإسلام ، وكيف نفرق بين زوجين ؟ وهذا أمر عجيب منهم ، فكيف نجبر زوجين كارهين على معاشرة لا يَبْغُونها ، وكأنهما مقترنان فى سلسلة من حديد ؟ كيف وأنت لا تستطيع أنْ تربط صديقاً بصديق لا يريده ، وهو لا يراه إلا مرة واحدة فى اليوم مثلاً ؟ فهل تستطيع أن تربط زوجين فى مكان واحد ، وهما مأمونان على بعض فى حال الكراهية ؟

ويُخيِّب الله سَعْيهم ، ويُظهـر بطلان هذه الأفكار ، وتُلجئهم أحداث الحياة ومشاكلها إلى تشريع الطلاق ، حيث لا بديلَ عنه لحلِّ مثل هذه المشاكل .

وقد ناقش هؤلاء كثيراً فى قـوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ (٣٣) ﴾ [التوبة]

وفى قوله : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) ﴾ [الصف] ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) ﴾ [الصف]

يقولون : ومع ذلك لم يتم الدين ، ولا يزال الجمهـرة العالمية فى الدنيا غَيْر مؤمنين بالإسلام ، يريدون أنْ يُشكِّكوا فى كتاب الله . وهذا القـول منهم ناشىء عن عـدم فَـهْم للآية ، ولمـعنى ﴿ لِيُظْهِرَهُ (٣٣) ﴾ [التوبة] فهى لا تـعنى أن ينتصـر الإسلام على كل مـا عداه انتـصاراً يمحو المخالفين له .

إنما يُظهـره يعنى : يكتب له الغلبة بصـدق حُجَجه وقـضاياه على كُرْه من الكافرين والمـشركين ، فهم - إذن - مـوجودون ، لكن يظهر عليـهم ، ويعـلو دين الإسـلام ، ويضطرون هـم للأخـذ بـقـوانـينه وتشريعاته حَلاً لمشاكلهم ، وكَـوْنهم يتخذون منه حلاً لمشاكلهم وهم كـافـرون به أبلغ فـى الردِّ عليـهم لو آمنوا به ، فـلو آمنوا بالإسـلام ما كان ليظهر عليهم ويعلوهم .

فما كنتم تُشكِّكون فيه وتقولون إنه ما كان يصدر من إله ولا من رسول ، فها هـى الأيام قد عضّتكم بأحداثها وتجـاربها وألجأتكم إلى هذا الحكم الذى تعارضونه ، وها أنتم تُشرِّعون بتشريع الإسلام وأنتم كافرون به ، وهذا دليل ظهوره عليكم .

ومعنى ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً (٥٥)﴾ [الحج] يعنى : فجأة ، وقد تكلَّم العلماء فى معنى الساعة : أهى يوم القيامة ، أم يوم يموت الإنسان ؟ الساعة تشمل المعنيين معاً ، على اعتبار أن مَنْ مات فقد قامت قيامته حيث انقطع عمله ، وموت الإنسان يأتى فجأة ، كما أن القيامة تأتى فجأة ، فهما - إذن - يستويان .

لكن ، إنْ كانت الساعة بغتة تفجؤهم بأهوالها ، فما العلامات الصُّغْرى ؟ وما العلامات الكبرى ؟ أليست مقدمات تأذن بحلول الساعة ، وحينئذ لا تُعَدُّ بغتة ؟ قالوا : علامات الشىء ليست هى إذن وجوده ، العلامة تعنى : قُرْب موعده فانتبهوا واستعدُّوا ، أمَّا وقت حدوثه فلا يعلمه أحد ، ولا بُدَّ أنْ يأتى بغتة رغم هذه المقدمات .

ثم يقول تعالى : ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥)﴾ [الحج] البعض[١] اعتبر : ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥)﴾ [الحج] يعنى القيامة ، وبالتالى فالساعة تعنى الموت ، وآخرون[٢] يقولون : ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥)﴾ [الحج] المراد يوم بدر الذى فصل الله فيه بين الحق والباطل .

وهذا اجتهاد يُشْكِرون عليه ، لكن لما نتأمل الآية : ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ.. (٥٥)﴾ [الحج] يعنى : المرية مستمرة ، لكن بدراً انتهت ، المرية ستظل إلى أن تقوم الساعة[٣] .

ولا مانعَ أن تكون الساعة بمعنى القيامة ، واليوم العقيم أيضاً هو

---

(١) قاله الضحاك ، ومجاهد . قالا : يوم القيامة لا ليلة له . [نقله القرطبى فى تفسيره ٤٦١٩/٦ ، والسيوطى فى الدر المنثور ٦/ ٧٠] .

(٢) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة . [نقله القرطبى فى تفسيره ٤٦١٩/٦] .

(٣) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٢٣١) : « هذا القول هو الصحيح ، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا ، لكن هذا هو المراد ، ولهذا قال : ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ (٥٦)﴾ [الحج] » .

يوم القيامة ، فيكون المدلول واحداً ، لأن هناك فرقاً بين زمن الحدث والحدث نفسه ، فالساعة هى زمن يوجد فيه الحدث وهو العذاب ، فالساعة أولاً ثم يأتى العذاب ، مع أن مجرد قيام الساعة فى حَدِّ ذاته عذاب .

ومعنى ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥)﴾ [الحج] العقيم : الذى لا يلد ، رجل كان أو امرأة ، فلا يأتى بشىء بعده ، ومنه قوله تعالى عن سارة امرأة إبراهيم عليه السلام : ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩)﴾ [الذاريات] وكذلك يوم القيامة يوم عقيم ، حيث لا يوم بعده أبداً ، فهى نهاية المطاف على حَدِّ قول أحدهم : حَبَتْهُم به الدنيا وأدركَها العُقْم .

أو ﴿عَقِيمٍ (٥٥)﴾ [الحج] بمعنى : أنها لا تأتى بخير ، بل بشرٍّ ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢)﴾ [الذاريات]

ذلك لأن الريح حين تهبُّ ينتظر منها الخير ، إما بسحابة مُمطرة ، أو تحريك لقاح الذكورة بالأنوثة ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ..(٢٢)﴾ [الحجر] أما هذه فلا خَيْر فيها ، ولا طائل منها ، وليتها تقف عند عدم النفع ، ولكن تتعدَّاه إلى جلْب الضُّر ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢)﴾ [الذاريات] فهى تدمر كل شىء تمرُّ عليه .

وكما جاء فى قوله سبحانه : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ (٢٥)﴾ [الأحقاف]

فالمعنى - إذن - ﴿عَقِيمٍ (٥٥)﴾ [الحج] لا خيرَ فيها ولا نفع ، بل فيها الشر والعذاب ، أو عقيم يعنى : لا يأتى يوم بعده ؛ لأنكم تركتم

دنيا الأغيـار ، وتقلّب الأحوال حال بعد حـال ، فالدنيا تتقلّـب من فقر إلى غنى ، ومن صـحة إلى مرض ، ومن صـغر إلى كـبَر ، ومن أَمْن إلى خوف ، وتتحول من صـيف إلى شتاء ، ومن حر إلى برد ، ومن ليل إلى نهار .. وهكذا .

أما فى الآخرة فقد انتقلتم من عـالم الأغيار الذى يعيش بالأسباب إلى عـالِم آخر يعـيش مع المسـبِّب سبـحانه ، وإلى يوم آخـر لا يومَ بعـده ، كـأنه عَـقم أن يكون له عَـقب من بعـده أو مـثـيل له ، كـمـا لو حضرتَ حفـلاً مثلاً قد استكمل ألوان الكمال والنـعم ، فتقول : هذا حدث لا يتكرر يعنى : عقيم لا يأتى بعده مثله .

وإذا كنتَ فى الدنيا تعيش بالأسباب التى خلقها الله لك ، فأنت فى الآخرة ستجلس مستريحاً تتمتع بالمسبِّب عَزَّ وجَلَّ ، ويكفى أن يخطر الشىء ببالك ، فتراه بين يديك ؛ ولأن القيامة لا أغيارَ فيها ولا تقلّب ، فسيظل الجـميع كلٌّ على حاله فى سِنٍّ واحـدة ، لا يشيب ولا يهرم ، ولا يمرض ولا يموت .

ألاَ ترى إلى قوله تعالى فى نساء الجنة : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا[1] أَتْرَابًا (٣٧) لأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ﴾ [الواقعة]

والكاره لزوجـته فى الدنيا لأنهـا كانت تتـعبه نقـول له : لا تقسْ زوجة الدنيا بزوجة الآخرة ؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ (٥٧) ﴾ [النساء]

أى : مطهرة من كل مـا كنتَ تكرهه فيها فى الدنيـا شكلاً وطَبْعاً وخُلقاً ، فأنت الآن فى الآخرة التى لا يعكر نعيمها كَدَر .

---

(١) العُرُب : جمع عَرُوب ، وهى المـرأة المتحـببـة إلى زوجها ، والأتراب : جمع تِرْب ، وهو المساوى فى السن . [القاموس القويم ١/٩٩] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ ﴾

ولقائل أنْ يقول : أليس الملْك لله يومئذ ، وفي كل يوم ؟ نعم ، الملْك لله في الدنيا وفي الآخرة ، لكن في الدنيا خلق الله خَلْقاً وملّكهم ، وجعلهم ملوكاً من باطن مُلْكه تعالى ، لكنه مُلْك لا يدوم ، كما قال سبحانه : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران]

إذن : ففي الدنيا ملوك ملّكهم الله أمراً من الأمور ، ففيها ملك للغير ، أمّا في الآخرة فالملْك لله تعالى وحده : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر]

وفي القيامة ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ..﴿٥٦﴾﴾ [الحج] فقد رَدَّ الملْك كله إلى صاحبه ، ورُدَّت الأسباب إلى مُسبِّبها .

ومعنى ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ..﴿٥٦﴾﴾ [الحج] أن هناك خصومةً بين طرفين ، أحدهما على حق ، والآخر على باطل ، والفَصْل في خصومات الدنيا تحتاج إلى شهود ، وإلى بينة ، وإلى يمين فيقولون في المحاكم : البينة على المدَّعي واليمين على مَنْ أنكر ، هذا في خصومات الدنيا ، أما خصومات الآخرة فقاضيها الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الذي يعلم السرَّ وأخفى ، فلا يحتاج إلى بينة ولا شهود ولا سلطة تُنفِّذ ما حكم به .

محكمة الآخرة لا تحتاج فيها إلى مُحامٍ ، ولا تستطيع فيها أنْ تُدلِّس على القاضي ، أو تُؤجِّر شاهد زور ، لا تستطيع في محكمة الآخرة أن تستخدم سلطتك الزمنية فتنقض الحكم ، أو تُسقطه ؛ لأن الملْك يومئذ لله وحده ، والحكم يومئذ لله وحده ، هو سبحانه القاضي والشاهد والمنفِّذ ، الذي لا يستدرك على حكمه أحد .

وما دام هناك حكومة ، فلا بُدَّ أنْ تسفر عن محكوم له ومحكوم عليه ، ويُوضِّحهما قوله تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) ﴾ [الحج]

وهؤلاء هم الفائزون الذين جاء الحكم في صالحهم .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥٧) ﴾

وهؤلاء هم الجبابرة وأصحاب السيادة في دنيا الكفر والعناد ، والذين حكم الله عليهم بالعذاب الذي يُهينهم بعد عِزَّتهم وسلطانهم في الدنيا ، وتلحظ أن العذاب يُوصَف مرة بأنه أليم ، ومرة بأنه عظيم ، ومرة بأنه مُهين .

فالعذاب الأليم الذي يُؤلم صاحبه ، لكنه قد يكون لفترة ثم ينتهي ، أما العذاب العظيم فهو الدائم ، والمهين هو الذي يُذِله ويدوس كرامته التي طالما اعتز بها . وأنت تجد الناس يختلفون في تقبُّل ألوان العذاب : فمنهم مَنْ لا يؤثر فيه الضرب الموجع ولا يحركه ، لكن

تؤلمه كلمة تجرح عزَّته وكرامته . لذلك جاء العذاب هكذا ألواناً ؛ ليستوعب كل صنوف الملكات النفسية ، ويواجه كُلَّ نفس بما يؤلمها .

• • •

ثم تكلم الحق سبحانه عن أمر كان لا بُدَّ أن نعرفه ، فالمسلمون الأوائل في مكة أُخرِجوا من ديارهم وأبنائهم وأموالهم لأنهم قالوا : ربنا الله ، ولا شَكَّ أن للوطن وللأهل والبيئة التي نشأ فيها المرء أثراً في ملكات نفسه ، لا يمكن أنْ يُمحَى بحال ، فإنْ غاب عنه اشتاق إليه وتمنَّى العودة ، وكما يقول الشاعر :

بلَدِي وإنْ جَارَتْ عليَّ عَزِيزَةٌ ... أهْلِي وإنْ ضَنُّوا عليَّ كِرَامُ

لذلك ، فطالب العالم عندما يترك بلده إلى القاهرة يقولون : لا بُدَّ له أن يرجع ، ولو أن تعضَّه الأحداث والشدائد ، فيعود ليطلب من أهله العون والمساعدة ، أو حتى يعود إليها في نهاية المطاف ليدفنوه في تراب بلده .

وقالوا : إن سيدنا سليمان - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - لما تفقَّد الطير ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ[1] عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١)﴾ [النمل] ذلك لأنه نبي ، فالمسألة ليستْ جبروتاً وتعذيباً ، دون أن يسمع منه . وقالوا : إن الطير سأل سليمان : كيف يعذب الهدهد ؟ قال : أضعه

(١) قال ابن عباس : يعني نتف ريشه . وقال عبد الله بن شداد : نتف ريشه وتشميسه . وكذا قال غير واحد من السلف : إنه نتف ريشه وتركه مُلْقى يأكله الذر والنمل . [تفسير ابن كثير ٣/٣٦٠]

في غير بني جنسه ، وفي غير المكان الذي يألفه ، يعني : في غير موطنه .

يقول تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] هؤلاء تحملوا الكثير ، وتعبوا في سبيل عقيدتهم ، فلا بُدَّ أنْ يُعوِّضهم الله عن هذه التضحيات ، لذلك يقول هنا : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الحج] وأوضحنا أن الموت غير القتل : الموت أن تخرج الروح دون نَقْضٍ للبنية ، أما القتل فهو نَقْض للبِنْية يترتب عليه خروج الروح .

﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [الحج] تعويضاً لهم عَمَّا فاتوه في بلدهم من أهل ومال ، كما يُعوّض الحاكم العادل المظلوم فيعطيه أكثر ممَّا أُخذ منه ؛ لذلك يقول سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. ﴿١٠٠﴾ ﴾ [النساء]

لأن مَنْ قُتل فقد فاز بالشهادة ونال إحدى الحُسْنيين ، أما مَنْ مات فقد حُرِم هذا الشرف ؛ لذلك فقد وقع أجره على الله ، وما بالك بأجر مُؤدِّيه ربك عز وجل ؟ وكما لو أن رجلاً مُتْعباً يسير ليس معه شيء ولا يجد حتى مَنْ يقرضه ، وفجأة سقطت رجْله في حفرة فتكدَّر وقال : حتى هذه ؟! لكن سرعان ما وجد قدمه قد أثارتْ شيئاً في التراب له بريق ، فإذا هو ذهب كثير وقع عليه بنفسه .

ويُرْوى أن فضالة[1] حضرهم وهم يدفنون شهيداً ، وآخر مات غير شهيد ، فرأوْه ترك قبر الشهيد وذهب إلى قبر غير الشهيد ، فلما سألوه : كيف يترك قبر الشهيد إلى غير الشهيد ؟ قال : والله ما أبالي في أيِّ حفرة منهما بُعثْت[2] ما دام قد وقع أجرى على الله ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. (١٠٠) ﴾ [النساء]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) ﴾ [الحج] حين يصف الحق سبحانه ذاته بصفة ، ثم تأتي بصيغة الجمع ، فهذا يعني أن الله تعالى أدخل معه الخَلْق في هذه الصفة ، كما سبق أنْ تكلمنا في قوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

فقد أثبت للخَلْق صفة الخَلْق ، وأشركهم معه سبحانه في هذه الصفة ؛ لأنه سبحانه لا يبخس عباده شيئاً ، ولا يحرمهم ثمرة مجهودهم ، فكل مَنْ أوجد شيئاً فقد خلقه ، حتى في الكذب قال ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا .. (١٧) ﴾ [العنكبوت]

---

(١) هو : فضالة بن عبيد الأنصاري الأوسي ، أبو محمد ، صحابي ممن بايع تحت الشجرة شهد أحداً وما بعدها ، وشهد فتح الشام ومصر ، وسكن الشام ، وولي الغزو والبحر بمصر ، ثم ولاه معاوية قضاء دمشق وتوفي فيها عام (٥٣هـ) [الأعلام للزركلي ٥/١٤٦].

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٦/٤٦٢٠) وعزاه لابن المبارك أنه ذكر عن فضالة بن عبيد .

لأن الخَلْق إيجاد من عدم ، فأنت حين تصنع مثلاً كوب الماء من الزجاج أوجدتَ ما لم يكن موجوداً ، وإنْ كنت قد استخدمت المواد المخلوقة لله تعالى ، وأعملتَ فيها عقلك حتى توصلْتَ إلى إنشاء شيء جديد لم يكُنْ موجوداً ، فأنت بهذا المعنى خالق حسن ، لكن خلق ربك أحسن ، فأنت تخلق من موجود ، وربك يخلق من عدم ، وما أوجدتَه أنت يظل على حالته ويجمد على خلْقتك له ، ولا يتكرر بالتناسل ، ولا ينمو ، وليست فيه حياة ، أما خَلْق ربك سبحانه فكما تعلم .

كذلك يقول سبحانه هنا : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝٥٨ ﴾ [الحج] فأثبت لخَلْقه أيضاً صفة الرزق ، من حيث هم تسبَّب فيه ؛ لأن الرزق: هو كل ما ينتفع به حتى الحرام يُعَدُّ رزقاً ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. ۝١٧٢ ﴾ [البقرة]

نقول : فالعبد سبب في الرزق ؛ لأن الله تعالى هو خالق الرزق أولاً ، ثم أعطاك إياه تنتفع به وتعمل فيه ، وتعطي منه للغير ، فالرزق منك مناولة عن الرازق الأول سبحانه ، فأنت بهذا المعنى رازق وإنْ كرهوا أنْ يُسمَّى الإنسان رازقاً ، رغم قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝٥٨ ﴾ [الحج] لماذا ؟ قالوا : حتى لا يفهم أن الرزق من الناس .

لذلك نسمع كثيراً من العمال البسطاء ، أو موظفاً صغيراً ، أو بواب عمارة مثلاً حين يفصله صاحب العمل ، يقول له : يا سيدي الأرزاق بيد الله . كيف وقد كنت تأخذ راتبك من يده ومن ماله ؟ قالوا : لأنه نظر إلى المناول الأول للرزق ، ولم ينظر إلى المناولِ الثاني .

أمـا الرزق الحـسن الذى أعـدَّه الله للـذين هاجـروا فى سـبـيله ، فيوضحه سبحانه فى قوله :

﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾

لأن الرزق قد يكون حسناً لكنه لا يُرضِى صـاحبه ، أما رزق الله لهؤلاء فقد بلغ رضاهم ، والرضـا : هو اقتناع النفس بشىء تجد فيه متعة ، بحيث لا تستشرف إلى أعلى منه ، ولا تبغى أكثر من ذلك .

لذلك بعد أنْ ينعَم أهل الجنة بنعيمها ، ممَّا لا عَيْنٌ رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر علـى قلب بشر ، بعدها يتجلَّى الحق - سـبحانه - عليهم فيقول لعباده المؤمنين : يا عـبادى أرضيتم ؟ فيقولون : وكيف لا نرضى وقـد أعطيْـتنا مـا لم تُعْط أحـداً من العـالمـين ؟ قـال : ألا أعطيكم أفـضل من هذا ؟ قالوا : وهل شىء أفـضل ممـا نحن فـيه ؟ قال : نعم ، أُحِلُّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً[1].

ومن ذلك قولـه تعالى لنبيـه محـمد ﷺ : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [الضحى]

وقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفجر]

يبـالغ فى الرضـا ، حـيث يتـعداك الرضـا إلى أن تكون عـيشـتك نفسها راضية ، وكأنها تعشقك هى ، وترضى بك .

(١) متفق علـيه . أخرجه البخـارى فى صحيحـه (٧٥١٨) ، وكذا مسلم فى صحـيحه (٢٨٢٩) كتاب الجنة وصفة نعيمها . من حديث أبى سعيد الخدرى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ﴾ [الحج]

عليم : بما يستحقه كل إنسان عند الحساب من النعيم ، ثم يزيد مَنْ يشاء من فضله ، فليس حساب ربك فى الآخرة كحسابكم فى الدنيا ، إنما حسابُه تعالى بالفضل لا بالعدل .

وحليم : يحلم على العبد إنْ أساء ، ويتجاوز للصالحين عن الهفَوات ، فإنْ خالط عملك الصالح سوء ، وإنْ خالفت منهج الله فى غفلة أو هفوة ، فلا تجعل هذا يعكر صفو علاقتك بربك أو يُنغِّص عليك طمأنينة حياتك ؛ لأن ربك حليم سيتجاوز عن مثل هذا على حَدِّ قولهم (حبيبك يبلع لك الزلط)

لذلك لما وَشَى أحد المؤمنين[1] للكفار فى فتح مكة ، وهَمَّ عمر أن يقتله فنهاه رسول الله ﷺ وقال : « لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : افعلوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم »[2]

ويكفى أنهم خرجوا بأنفسهم واقتحموا معركة غير متكافئة فى العدد والعُدَّة ، ألا نذكر لهم هذا الموقف ؟ ألم يقل الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .. (١١٤) ﴾ [هود] ومَن ابتُلى بشىء يضعف أمامه ، فليكن قوياً فيما يقدر عليه ، وإنْ غلبك الشيطان فى باب من أبواب الشر فشمِّر له أنت فى أبواب الخير ، فإن هذا يُعوِّض ذاك .

---

(١) هو حاطب بن أبى بلتعة ، وقصته أنه كاتب أهل مكة بتجهيز رسول الله ﷺ لفتح مكة ، فقال عمر : دعنى أضرب عنقه فقال إنه شهد بدراً واعتذر حاطب بأنه لم يكن له فى مكة عشيرة تدفع عن أهله فقبل عذره . قال المرزبانى فى « معجم الشعراء » : كان أحد فرسان قريش فى الجاهلية وشعرائها . قال المداينى : مات حاطب فى سنة ثلاثين فى خلافة عثمان وله ٦٥ سنة . [الإصابة لابن حجر ١/٣١٤] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨٩٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٤٩٤) من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

﴿ ذَلِكَ ﴾ يعنى هذا الأمر الذى تحدثنا فيه قد استقر ، وإليك هذا الكلام الجديد ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الحج]

الحق - سبحانه وتعالى - خلق الإنسان وجعل فيه ملكات مختلفة ليؤدى خلافته فى الأرض بحركات متوازنة ، فخلق لنا عواطف وجعل لها مهمة ، هذه العواطف لا يحكمها قانون . وخلق لنا أيضاً غرائز ولها مهمة ، لكن محكومة بقانون تعلية الغرائز عند الخلق ، فإياك أنْ تتعدى بغريزتك إلى غير المهمة التى خلقها الله لها .

فمثلاً ، غريزة حب الطعام جعلها الله فيك لاستبقاء الحياة ، فلا تجعلها غرضاً أصيلاً لذاتها ، فتأكل لمجرد أنْ تلتذَّ بالأكل ؛ لأنها لذة وقتية تعقبها آلام ومتاعب طويلة . وهذه الغريزة جعلها الله فى النفس البشرية منضبطة تماماً كما تضبط المنبّه مثلاً ، فحين تجوع تجد نفسك تاقتْ للطعام وطلبته ، وإنْ عطشتْ مالتْ نفسك نحو الماء ، وكأن بداخلك جرساً يُنبِّهك إلى ما تحتاجه بنيتك من مُقوِّمات استبقائها .

حب الاستطلاع غريزة جعلها الله فيك لتنظر بها وتستطلع ما فى الكون من أسرار دالة على قدرة الله وعظمته ، فلا تتعدى هذا الغرض ، ولا تحرِّك هذه الغريزة إلى التجسُّس على الخَلْق والوقوف على أسرارهم .

التناسل غـريزة جعلهـا الله لحـفْظ النوع ، فلا ينبـغى أنْ تتعـدى ماجعلت له إلى ما حرَّم الله .

الغـضب غـريزة وانفعـال قَـسْـرى لا تختـاره بعـقلك تغـضب أو لا تغضب ، إنمـا إنْ تعرضتَ لأسبابه فـلا تملك إلا أنْ تغضب ، ومع ذلك جعل له حدوداً وقنَّن له وأمر فيه بضبط النفس وعدم النزوع .

الحب والكُرْه غـريزة وعـاطفـة لا تخضـع لـقانون ، ولا يحكـمهـا العقل ، فلك أن تحب وأن تكره ، لكن إياك أنْ تتعدَّى هذه العاطفة إلى عمل عقلىٍّ ونزوع تعتدى به أو تظلم .

لذلك يـقــول تعــالى : ﴿وَلا يَجْـــرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ[1] قَــوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا.. ⟨٨⟩﴾ [المائدة]

لأن هذه المسألة لا يحكمهـا قانون ، وليس بيدك الحب أو الكره ؛ لذلك لما قابـل سيدنا عمر قـاتل أخيه قال له عـمر : أدرْ وجهك عنى فإنِّى لا أحبك . وكـان الرجل عاقلاً فقـال لسيدنا عمـر : أوَ عَدمُ حبك لى يمنعنى حقّاً من حقوقى ؟ قال عمر : لا ، فقال الرجل : إنما يبكى على الحب النســاء . يعنى أحِبَّ أو اكـره كـمـا شِئْتَ ، لكن لا تـتعـدَّ ولا تحرمنى حقاً من حقوقى .

فهل وقفنا بالغرائز عند حدودها وأهدافها ؟ لو تأملتَ مثلاً الغريزة الجنســية التى يصـفُهـا البعض بمِلْء فـيه يقـول : غريزة بهـيمـية .. سبـحان الله ألاَ تستحى أنْ تظلم البـهائم لمجـرد أنها لا تتكلَّم ، وهى أفـهم لهذه الغـريزة منك ، ألاَ تراها بـمجـرد أن يُخـصِّب الذكَر أنثاه

---

(١) شناه وشَنَئَه شنآنا : أبغضـه وكرهه . والشانىء : المبغض . [القـاموس القويم ١/٣٥٧]
وجـرمه : حـمله على فـعل شر أو ذنب أو جُـرْم . أى : لا يحملـنكم بُغْض قوم على عـدم العدل ، أى : التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم . [القاموس القويم ١/١٢١] .

لا يقربها أبداً ، وهى لا تمكِّنه من نفسها إذا ما حملَتْ ، فى حين أنك تبالغ فى هذه الغريزة ، وتنطلق فيها انطلاقاً يُخرجها عن هدفها والحكمة منها ؟ على مثل هذا أن يخزى أن يقول مثل هذه المقولة ، وإلاَّ يظلم البهائم ، فمن الناس مَنْ هم أدْنى من البهائم بكثير .

وما يقال عن غريزة الجنس فى الحيوان يقال كذلك فى الطعام والشراب .

إذن : الخالق سبحانه خلق الغرائز فيك ، ولم يكبتها ، وجعل لها منافذ شرعية لتؤدى مهمتها فى حياتك ؛ لذلك أحاطها بسياج من التكليف يُنظِّمها ويحكمها حتى لا تشرد بك ، فقال مثلاً فى غريزة الطعام والشراب : ﴿ يَـٰبَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف]

وقال فى غريزة حب الاستطلاع : ﴿ وَلا تَجَسَّسُوا .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الحجرات] وهكذا فى كل غرائزك تجد لها حدوداً يجب عليك ألاَّ تتعداها .

لذلك قلنا فى صفات الإيمان وفى صفات الكفر أن الله تعالى يصف المؤمنين بأنه ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح] لأنهم يضعون كل غريزة فى موضعها فالشدة مع الأعداء ، والرحمة مع إخوانهم المؤمنين ، ويقف عند هذه الحدود لا يقلب مقاييسها ، ويلتزم بقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة]

وكأن الخالق عز وجل يُسوِّينا تسوية إيمانية ، فالمؤمن لم يُخلَق عزيزاً ولا ذليلاً ، إنما الموقف هو الذى يضعه فى مكانه المناسب ، فهو عزيز شامخ مع الكفار ، وذليل مُنكسِر متواضع مع المؤمنين .

ويتفـرع عن هذه المسـألة مسـألة ردِّ العقـوبة إذا اعتُـدى عليك :
﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ .. (٦٠) ﴾ [الحج]
الحق ـ سـبحـانه وتعـالى ـ هو خـالق النفس البـشـرية ، وهو أعلم بنوازعـها وخلَجاتـها ؛ لذلك أباح لك إن اعـتدى عليك أنْ تردَّ الاعـتداء بمثله ، حتى لا يختمر الغـضب فى نفسك ، وقد ينتج عنه ما هو أشد وأبلغ فى ردِّ العقـوبة ، يبيح لك الرد بالمثل لتنتهى المـسألة عند هذا الحـد ولا تتـفـاقم ، فـمَنْ ضـربك ضـربة فلك أنْ تُـنفِّس عن نفـسك وتضـربه مثلـها ، لك ذلك ، لكن تـذكَّر المـثليـة هنا ، لا بد أن تكون تامة ، كما قال سبحانه فى موضـع آخر : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

وهل تستطيع أن تضبـط هذه المثلية فتردّ الضـربة بمثلها ؟ وهل قوتك كقوته ، وحدَّة انفعالك فى الرد كحدَّة انفعاله ؟ ولو حدث وزدْتَ فى ردِّك نتـيجـة غـضب ، ماذا تفـعل ؟ أتسـمح له أنْ يردَّ عليك هذه الزيادة ؟ أم تكون أنت ظالماً معتدياً ؟

إذن : ماذا يُلجـئك لمثل هذه المتـاهة ، ولك فى التسامح سـعَة ، وفى قول الله بعدها : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) ﴾ [النحل] مَخْرج من هذا الضيق ؟

وسبق أنْ حكينا قـصة المرابى اليهـودى الذى قال لطالب الدَّيْن : إن تأخرت فى السـداد أشتـرط عليك أنْ آخذ رطلاً من لحـمك . وجاء وقت السداد ولم يُوف المدين ، فرفعـه الدائن إلى القاضـى وأخبره بما اشترطه عليه ، فقال القـاضـى : نعم من حقك أن تأخذ رطلاً من لحمه لـكن بضـربة واحدة بالسكـين تأخذ رطـلاً ، إنْ زاد أو نقص أخـذناه منك .

إذن : مسألة المثلية هنا عقبةٌ تحدُّ من ثورة الغضب ، وتفتح باباً للارتقاءات الإيمانية ، فإنْ كان الحق سبحانه سمح لك أن تُنفِّس عن نفسك فقال : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠)﴾ [الشورى] فإنه يقول لك : لا تنسَ العفو والتسامح ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ [آل عمران]

لذلك ، فالآية التى معنا تلفتنا لَفْتةً إيمانية : ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ .. (٦٠)﴾ [الحج] واحدة بواحدة ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ .. (٦٠)﴾ [الحج] يعنى : زاده بعد أنْ ردَّ العدوان بمثله وظلمه واعتدى عليه ﴿لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ .. (٦٠)﴾ [الحج] ينصره على المعتدى الذى لم يرتَض حكم الله فى رَدِّ العقوبة بمثلها .

وتلحظ فى قوله تعالى مخايل النصر بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠)﴾ [الحج] مع أن الصفة التى تناسب النُّصْرة أن يقول قوى عزيز ؛ لأن النُّصْرة تحتاج قوة وتحتاج عزة ، لكنه سبحانه اختار صفة العفو والمغفرة ليلفت نظر مَنْ أراد أنْ يعاقب إلى هذه الارتقاءات الإيمانية : اغفر وارحم واعْفُ ؛ لأن ربك عفو غفور ، فاختار الصفة التى تُحنِّن قلب المؤمن على أخيه المؤمن .

ثم أليس لك ذنب مع الله ؟ ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢٢)﴾ [النور] فما دُمْت تحب أن يغفر الله لك فاغفر لعباده ، وحين تغفر لمَنْ يستحق العقوبة تأتى النتيجة كما قال ربك عز وجل : ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)﴾ [فصلت]

فالحق سبحانه يريد أن يشيع بيننا الصفاء النفسى والتلاحم الإيمانى ، فأعطاك حقَّ رَدِّ العقوبة بمثلها لتنفِّس عن نفسك الغيظ ، ثم دعاك إلى العفو والمغفرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ﴾

﴿ ذَلكَ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [الحج] يعنى ما قُلْته لك سابقاً له دليل ، فما هو ؟ أن الله يأخذ من القوى ويعطى للضعيف ، ويأخذ من الطويل ويعطى للقصير ، فالمسألة ليست ثابتة (أو ميكانيكا) وإنما خلقها الله بقدر . والليل والنهار هما ظرفا الأحداث التى تفعلونها ، والحق سبحانه ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [الحج]

يولج الليل يعنى : يُدخل الليل على النهار ، فيأخذ منه جزءاً جزءاً فيُطوِّل الليل ويُقصِّر النهار ، ثم يُدخل النهار على الليل فيأخذ منه جزءاً جزءاً ، فيُطوِّل النهار ويُقصِّر اللَيل ؛ لذلك نراهما لا يتساويان ، فمرة يطول الليل فى الشتاء مثلاً ، ويقصر النهار ، ومرة يطول النهار فى الصيف ، ويقصر الليل . فزيادة أحدهما ونَقْص الآخر أمر مستمر ، وأغيار متداولة بينهما .

وإذا كانت الأغيار فى ظرف الأحداث ، فلا بُدَّ أن تتغير الأحداث نفسها بالتالى ، فعندما يتسع الظرف يتسع كذلك الخير فيه ، فمثلاً عندنا فى المكاييل : الكَيْلة والقدح والوَيْبة وعندنا الأردب ، وكل منها يسَعُ من المحتوى على قدر سعته . وهكذا كما نزيد أو ننقص فى ظرف الأحداث نزيد وننقص فى الأحداث نفسها .

ثم تُذيِّل الآية بقوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [الحج] سميعٌ لما يقال ، بصيرٌ بما يفعل ، فالقول يقابله الفعل ، وكلاهما عمل ، والبعض يظن أن العمل شىء والقول شىء آخر ، لا ؛ لأن

العمل وظيفة الجارحة ، فكل جارحة تؤدى مهمتها فهى تعمل ، عمل العَيْن أن ترى ، وعمل الأذن أنْ تسمع ، وعمل اليد أن تلمس ، وعمل الأنف أن يشُم ، وكذلك عمل اللسان القول ، فالقول للسان وحده ، والعمل لباقى الجوارح وكلاهما عمل ، فدائماً نضع القول مقابل الفعل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) ﴾ [الصف]

والسمع والبصر هما الجارحتان الرئيسيتان فى الإنسان ، وهما عمدة الحواس كلها ، حيث تعملان باستمرار على خلاف الشَّم مثلاً ، أو التذوق الذى لا يعمل إلا عدة مرات فى اليوم كله .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ (٦٢) ﴾

﴿ ذَٰلِكَ .. (٦٢) ﴾ [الحج] أى الكلام السابق أمر معلوم انتهينا منه ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ .. (٦٢) ﴾ [الحج] والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير أبداً ، فكُلُّ ما سوى الله ـ عز وجل ـ يتغير ، وهو سبحانه الذى يُغيِّر ولا يتغير ؛ ولذلك أهل المعرفة يقولون : إن الله تعالى لا يتغير من أجلكم ، لكن يجب عليكم أنْ تتغيروا أنتم من أجل الله .

وما دام أن ربك ـ عز وجل ـ هو الحق الثابت الذى لا يتغير ، وما عداه يتغير ، فلا تحزن ، ويا غضبان ارْضَ ، ويا مَنْ تبكى اضحك واطمئن ؛ لأنك ابن أغيار ، وفى دنيا أغيار لا تثبت على شيء ؛ لذلك فالإنسان يغضب إذا أُصيب بعقبة فى حياته يقول : لو لم تكُنْ هذه !! نقول له : وهل تريدها كاملة ؟ لا بُدَّ أنْ يصيبك شيء ؛ لأنك ابن أغيار ، فماذا تنتظر إنْ وصلْتَ إلى القمة لا بُدَّ أنْ تتراجع ؛

لأنك ابن أغيار دائم التقلُّب فى الأحوال ، وربك وحده هو الثابت الذى لا يتغير .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ .. (٦٢) ﴾ [الحج] كل مَا تدعيه أو تعبده من دون الله هو الباطل ، يعنى الذى يَبْطُل ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) ﴾ [الإسراء] يعنى : يزول ولا يثبت أبداً ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢) ﴾ [الحج] العلى يعنى : كل خَلْقه دونه . وكبير يعنى : كل خَلْقه صغير .

ومن أسمائه تعالى ﴿ الْكَبِيرُ (٦٢) ﴾ [الحج] ولا نقول أكبر إلا فى الأذان ، وفى افتتاح الصلاة ، والبعض يظن أن أكبر أبلغ فى الوصف من كبير ، لكن هذا غير صحيح ؛ لأن أكبر ما دونه كبير ، إنما كبير مقابله صغير ، فهو سبحانه الكبير ؛ لأن ما دونه وما عداه صغير .

أما حين يناديك ويستدعيك لأداء فريضة الله يقول : الله أكبر ؛ لأن حركة الحياة وضروريات العيش عند الله أمر كبير وأمر هام لا يغفل ، لكن إنْ كانت حركة الحياة والسعى فيها أمراً كبيراً فالله أكبر ، فربُّك يُخرجك للصلاة من عمل ، ويدعوك بعدها إلى العمل : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ .. (٦٣) ﴾ [الحج] إنْ كانت للأمر الحِسِّى الذى تراه العين ،

فأنت لم تَرَهُ ونُنبهك إليه ، وإنْ كانت للأمر الذى لا يُدرك بالعين فهى بمعنى : ألم تعلم . وتركنا العلم إلى الرؤية لنبين لك أن الذى يُعلِّمك الله به أوثق مما تهديك إليه عَيْنك .

فالمعنى : ألم تعلم وألم تنظر ؟ . المعنيان معاً .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. ﴿٦٣﴾ ﴾ [الحج] فهذه آية تراها ، لكن ترى منها الظاهر فقط ، فترى الماء ينهمر من السماء ، إنما كيف تكوَّن هذا الماء فى طبقات الجو ؟ ولماذا نزل فى هذا المكان بالذات ؟ هذه عمليات لم تَرَها ، وقدرة الله تعالى واسعة ، ولك أن تتأمل لو أردتَ أنْ تجمع كوب ماء واحد من ماء البخار ، وكم يأخذ منك من جهد ووقت وعمليات تسخين وتبخير وتكثيف ، فهل رأيتَ هذه العمليات فى تكوين المطر ؟

إذن : رأيت من المطر ظاهره ، لذلك يلفتك ربك إلى ما وراء هذا الظاهر لتتأمله .

لذلك ؛ جعل الخالق ـ عز وجل ـ مسطح الماء ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، فاتساع مُسطَّح الماء يزيد من البَخْر الذى ينشره الله تعالى على اليابس ، كما لو وضعتَ مثلاً كوبَ ماء فى غرفتك ، وتركتَه مدة شهر أو شهرين ، ستجد أنه ينقص مثلاً سنتيمتراً ، أما لو نثرتَ الكوب على أرض الغرفة فسوف يجفّ بعد دقائق .

إذن : فاتساع رقعة الماء يزيد من كمية البخار المتصاعد منها ، ونحن على اليابس نحتاج كمية كبيرة من الماء العَذْب الصالح للزراعة وللشرب .. الخ ، ولا يتوفر هذا إلا بكثرة كمية الأمطار .

ثم يُبيِّن سبحانه نتيجة إنزال الماء من السماء : ﴿ فَتُصْبِحُ الأَرْضُ

مُخْضَرَّةً .. ﴿٦٣﴾ [الحج] يعنى : تصير بعد وقت قصير خضراء زاهية . دون أن يذكر شيئاً عن تدخُّل الإنسان فى هذه العملية ، فالإنسان لم يحرث ولم يبذر ولم يَرْو ، إنما المسألة كلها بقدرة الله ، لكن من أين أتت البذور التى كوَّنَتْ هذا النبات ؟ ومَنْ بذرها ووزَّعها ؟ البُذور كانت موجودة فى التربة حيَّة كامنة لم يُصبْها شىء ، وإنْ مَرَّ عليها الزمن ؛ لأن الله تعالى يحفظها إلى أنْ تجد الماء وتتوفَّر لها عوامل الإنبات فتنبت ؛ لذلك نُسمِّى هذا النبات (العِذْى) ؛ لأنه خرج بقدرة الله لا دَخْل لأحد فيه .

وتولَّتْ الرياح نَقْل هذه البذور من مكان لآخر ، كما قال تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. ﴿٢٢﴾ [الحجر] ولو سلسلْتَ هذه البذرة ستجدها من شجرة إلى شجرة حتى تصل إلى شجرة أُمٍّ ، خلقها الخالق سبحانه لا شجرةَ قبلها ولا بذرة . لذلك يُرْوى أن يوسف النجار وكان يرعى السيدة مريم عليها السلام ويشرف عليها ، ويقال كان خطيبها ـ لما رآها حاملاً وليس لها زوج سألها بأدب : يا مريم ، أتوجد شجرة بلا بذرة ؟ قالت : نعم الشجرة التى أنبتتْ أول بذرة .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ [الحج] اللطْف هو دقَّة التناول للأشياء ، فمثلاً حين تريد أن تدخل خيطاً فى إبرة ، تجد الخيط لا ينفذ من ثقبها لأول مرة ، فتحاول أنْ تُرقِّق من طرف الخيط وتبرمه حتى يدِقّ فينفذ من الثقب ، فالخيط بعد أنْ كان غليظاً أصبح لطيفاً دقيقاً .

ويقولون : الشىء كلما لَطُف عَنُف ، فى حين يظن البعض أن الشىء الكبير هو القوى ، لكن هذا غير صحيح ، فكلما كان الشىء

لطيفاً دقيقاً كان خطره أعظم ، ألاَ ترى الميكروب كيف يصيب الإنسان وكيف لا نشعر به ولا نجد له ألماً ؟ ذلك لأنه دقيق لطيف ، وكذلك له مدخل لطيف لا تشعر به ؛ لأنه من الصِّغَر بحيث لا تراه بالعين المجردة .

والبعوضة كم هى هيِّنة صغيرة ؛ لذلك تُؤلمك لدغتها بخرطومها الدقيق الذى لا تكاد تراه ، وكلما دَقَّ الشىء احتاج إلى احتياط أكثر لتحمى نفسك من خطره ، فمثلاً إنْ أردتَ بناء بيت فى الخلاء أو منطقة نائية ، فإنك ستضطر أنْ تضع حديداً على الشبابيك يحميك من الحيوانات المفترسة كالذئاب مثلاً ، ثم تضع شبكة من السلك لتحميك من الفئران ، فإن أردْتَ أن تحمى نفسك من الذباب والبعوض احتجت إلى سِلْك أدق ، وهكذا كلما صَغُر الشىء ولطف احتاج إلى احتياط أكثر .

فاللطيف هو الذى يدخل فى الأشياء بلطف ؛ لذلك يقولون : فلان لطيف المدخل يعنى : يدخل لكل إنسان بما يناسبه ، ويعرف لكل إنسان نقطة ضَعْف يدخل إليه منها ، كأن معه (طفاشة) للرجال ؛ يستطيع أن يفتح بها أى شخصية .

لكن ، ما علاقة قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝٦٣﴾ [الحج] بعد قوله : ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً .. ۝٦٣﴾ [الحج] ؟ قالوا : لأن عملية الإنبات تقوم على مَسَامّ وشعيرات دقيقة تخرج من البذرة بعد الإنبات ، وتمتصّ الغذاء من التربة ، هذه الشعيرات الجذرية تحتاج إلى لُطْف ، وامتصاص الغذاء المناسب لكل نوع يحتاج إلى خبرة ، كما

قال تعالى : ﴿ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ.. ④ ﴾ [الرعد]

فالأرض تصبح مُخضرَّة من لُطْف الحق سبحانه ، ومن خبرته فى مداخل الأشياء ، لذلك قال بعدها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ⑥③ ﴾ [الحج]

ولدقّة الشعيرات الجذرية نحرص ألاَّ تعلو المياه الجوفية فى التربة ؛ لأنها تفسد هذه الشعيرات فتتعطن وتموت فيصفرُّ النبات ويموت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ⑥④ ﴾

فما فى السموات وما فى الأرض ملْك لله تعالى ، ومع ذلك لا ينتفع منها الحق سبحانه بشىء ، إنما خَلقها لمنفعة خَلْقه ، وهو سبحانه غنىٌّ عنها وغنىٌّ عنهم ، وبصفات الكمال فيه سبحانه خلق ما فى السماوات وما فى الأرض ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ⑥④ ﴾ [الحج]

وصفات الكمال فى الله تعالى موجودة قبل أنْ يخلق الخَلْق ، وبصفات الكمال خلق ، وملكيته تعالى للسماوات وللأرض ، ولما فيهما ملكية للظرف وللمظروف ، ونحن لا نملك السماوات ، ولا نملك الأرض ، إنما نملك ما فيهما من خيرات ومنافع مما ملّكنا الله له ، فهو الغنى سبحانه ، المالك لكل شىء ، وما ملّكنا إلا من باطن مُلْكه .

والحميد : يعنى المحمود ، فهو غنى محمود ؛ لأن غِنَاه لا يعود

عليه سبحانه ، إنما يعود على خَلْقه ، فيحمدونه لغنَاه ، لا يحقدون عليه ، ومن العجيب أن الحق سبحانه يُملِّك خَلْقَه من مُلْكه ، فمَن استخدم النعمة فيما جُعلتْ له ، ومَنْ أعطى غير القادر من نعمة الله عليه يشكر الله له ، وهى فى الأصل نعمته . ذلك لأنك أنت عبده ، وقد استدعاك للوجود ، وعليه سبحانه أنْ يتولاّك ويرعاك .

فإن احتاج غير القادر منك شيئاً ، قال تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥)﴾ [البقرة]

فاعتبره قرضاً ، وهو ماله ، لكنه ملّكك إياه ؛ لذلك لا يسلبه منك إنما يأخذه قرضاً حسناً ويضاعفه لك ؛ لأنه غنيٌّ حميد أى : محمود ، ولا يكون الغنى محموداً إلا إذا كان غير الغنى مستفيداً من غنَاه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ السَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾

هذه الآية امتداد للآية السابقة ، فما فى السماء وما فى الأرض ملْك له سبحانه لكنه سخَّره لمنفعة خَلْقه ، فإنْ سأل سائل : فلماذا لا يجعلها الله لنا ويُملكنا إياها ؟ نقول : لأن ربك يريد أنْ يُطمئنك أنه لن يعطيها لأحد أبداً ، وستظل ملْكاً لله وأنت تنتفع بها ، وهل تأمن إنْ ملّكها الله لغيره أنْ يتغيّر لك ويحرمك منها ؟ فأمنُك فى أن يظل الملْك لله وحده ؛ لأنه ربك ومُتولّيك ، ولن يتغير لك ، ولن يتنكّر فى منفعتك .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ .. (٦٥) ﴾ [الحج]
الفُلْك : السفن ، تُطلق على المفرد وعلى الجمع ، تجرى فى البحر بأمره تعالى ، فتسير السفن بالريح حيث أمرها الله ، كما قال سبحانه : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ .. (١٦٤) ﴾ [البقرة] وهذه لا يملكها ولا يقدر عليها إلا الله ، وقال فى آية أخرى : ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. (٣٣) ﴾ [الشورى]

وتأمَّل دقَّة الأداء القرآنى من الله الذى يعلم ما كان ، ويعلم ما يكون ، ويعلَم ما سيكون ، فلقائل الآن أنْ يقول : لم نَعُد فى حاجة إلى الريح تُسيِّر السفن ، أو توجهها ؛ لأنها أصبحت تسير الآن بآلات ومحركات ، نعم السفن الآن تسير بالمحركات ، لكن للريح معنى أوسع من ذلك ، فالريح ليست هذه القوة الذاتية التى تدفع السفن على صفحة الماء ، إنما الريح تعنى القوة فى ذاتها ، أياً كانت ريحاً أم بُخَاراً أم كهرباء أم ذرة .. إلخ .

بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. (٤٦) ﴾ [الأنفال] يعنى : تذهب قوتكم أياً كانت هذه القوة حتى الصياد الذى يركب البحر بقارب صغير يُسيِّره بالمجاديف بقوة يده وعضلاته هى أيضاً قوة ، لا تخرج عن هذا المعنى .

وهكذا يظل معنى الآية صالحاً لكل زمان ولكل مكان ، وإلى أن تقوم الساعة .

والريح إنْ أُفردَتْ دلَّتْ على حدوث شَرٍّ وضرر ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) ﴾ [الذاريات]

وقوله : ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. (٤٦) ﴾ [الأنفال]

وقوله : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) ﴾[الأحقاف]

وإنْ جاءت بصيغة الجمع دلَّتْ على الخير ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. (٢٢) ﴾ [الحجر]

وسبق أنْ تحدثنا عن مهمة الريح فى تماسك الأشياء وقيامها بذاتها ، فالجبلُ الأشمّ الذى تراه ثابتاً راسخاً إنما ثبتَ بأثر الريح عليه ، وإحاطته به من كل جانب ، بحيث لو فُرِّغ الهواء من أحد جوانب الجبل لانهار ، وهذه هى الفكرة التى قامت عليها القنبلة ، فالهواء هو الذى يقيم المبانى والعمارات ويثبتها ؛ لأنه يحيطها من كل جانب ، فيُحدِث لها هذا التوازن ، فإنْ فُرِّغ من أحد الجوانب ينهار المبنى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. (٦٥) ﴾ [الحج] فالسماء مرفوعة فوقنا بلا عَمَد ، لا يمسكها فوقنا إلا الله بقدرته وقيوميته أنْ تقع على الأرض إلا بإذنه تعالى ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. (٤١) ﴾ [فاطر]

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) ﴾ [الحج] فمن صفاته تعالى الرأفة والرحمة ، والفَهْم السطحى لهاتين الصفتين يرى أنهما واحد ، لكن هما صفتان مختلفتان ، فالرأفة تزيل الآلام ، والرحمة تزيد الإنعام ، والقاعدة أن دَرْء المفسدة مُقدَّم دائماً على جلْب المصلحة ، فربك يرأف بك فيزيل عنك أسباب الألم قبْل أن يجلب لك نفعاً برحمته .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بمثل : قلنا هَبْ أن واحداً يرميك بحجر ، وآخر يرمى لك تفاحة ، فأيُّهما يشغلك أولاً ؟ لا شكَّ ستُشغل

بالحجر ، كيف تقى نفسك من ضرره ثم تحاول أن تنال هذه التفاحة ؟

لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٦١) ﴾ [النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦) ﴾

الحق - تبارك وتعالى - يُذكّرنا ببعض نعمه وببعض العمليات التى لو تتبعناها لوقفنا بمقتضاها على نِعَم الله علينا ، ولم نَنْسها أبداً .

أولها : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ .. (٦٦) ﴾ [الحج] والإحياء : أن يعطى المحيى ما يُحييه قوة يؤدى بها المهمة المخلوق لها . والإحياء الأول فى آدم - عليه السلام - حين خلقه ربه وسوّاه ونفخ فيه من روحه ، ثم أوجدنا نحن من ذريته .

﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ .. (٦٦) ﴾ [الحج] وكما أن الخَلْق آية من آيات الله ، فكذلك الموت آية من آيات الله ، نراها ونلمسها ، وما دُمْتَ تُصدِّق بآية الخَلْق وآية الموت ، وتراهما ، ولا تشك فيهما ، فحين نقول لك إن بعد هذا حياة أخرىٌ فصدِّق ؛ لأن صاحب هذه الآيات واحد ، والمقدمات التى تحكم أنت بصدقها يجب أنْ تؤدى إلى نتيجة تحكم أيضاً بصدقها ، وها هى المقدمات بين يديك صادقة .

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ.. (٦٦) ﴾ [الحج] والإحياء

يُطلَق في القرآن على معانٍ متعددة ، منها الحياة المادية التي تتمثل في الحركة والأكل والشرب ، ومنها الحياة في الآخرة التي قال الله عنها : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

وهذه هي الحياة الحقيقية ؛ لأن حياة الدنيا تعتريها الأغيار ، ويتقلَّب فيها الإنسان بين القوة والضعف ، والصحة والمرض ، والغنى والفقر ، والصِّغَر والكِبَر ، وبعد ذلك يعتريها الزوال ، أما حياة الآخرة التي وصفها الله بأنها الحيوان يعني : مبالغة في الحياة ، فهي حياة لا أغيار فيها ولا زوالَ لها .

إذن : لديك حياتان : حياة لبِنْية المادة وبها تتحرك وتُحِس وتعيش ، وحياة أخرى باقية لا زوالَ لها .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال] كيف - إذن - ونحن أحياء ؟ قالوا : لما يحييكم ليست حياة الدنيا المادية التي تعتريها الأغيار ، إنما يحييكم الحياةَ الحقيقية في الآخرة ، الحياة الباقية التي لا تزول ، التي قال الله عنها : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت] يعني : العلم الحقيقي الذي يهدي صاحبه .

فإنْ كانت الحياة المادية الدنيوية بنفْخ الروح في الإنسان ، فبِمَ تكون الحياة الثانية ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

قالوا : هذه الحياة تكون بروح أيضاً ، لكن غير الروح الأولى ، إنها بروح القرآن الذي قال الله فيه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. (٥٢) ﴾ [الشورى] وسمَّى الملك الذي ينزل به روحاً : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء]

فالروح الثانية التى تُحييك الحياة الحقيقية الخالدة هى منهج الله فى كتابه الكريم ، إن اتبعته نلْتَ هذه الحياة الباقية الخالدة وتمتعتَ فيها بما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، وهى لا مقطوعة ولا ممنوعة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦) ﴾ [الحج] كفور : صيغة مبالغة من كافر ، والكفور الذى لم يعرف للمنعم حَقّ النعمة ، مع أنه لو تبيَّنها لما انفكَّ أبداً عن شكر المنعم سبحانه .

والإنسان يمرُّ بمراحل مختلفة بين الحياة والموت ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١) ﴾ [غافر] ، فمتى سيقولون هذا الكلام ؟

قالوا : هذا يوم القيامة ، وقد أحياهم الله من موت العدم ، فأحياهم فى الدنيا ثم أماتهم ، ثم أحياهم فى الآخرة ، فهناك موت قبل إيجاد ، وموت بعد إيجاد ، ثم يأتى البعث فى القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ .. (٦٦) ﴾ [الحج] قضية قالها الخالق ـ عز وجل ـ ولم يدعها أحد لنفسه مع كثرة الكفار والملاحدة والأفاقين فى كل زمان ومكان ، لم نسمع مَنِ ادَّعَى مسألة الخَلْق ، وهذه قضية يجب أن نقف عندها وأن نبحث : لماذا لم يظهر مَنْ يدَّعى ذلك ؟ وإذا لم يَدَّع الخَلْق أحدٌ ، ولم يدَّع الإحياء أحد ، فمَنْ ـ إذن ـ صاحب الخَلْق والإحياء والإماتة ؟

إذا كان الناس يهتمون ويؤرخون لأىِّ مخترع اخترع آلة مثلاً ، فيقولون : مخترع الكهرباء فلان وعاش فى بلدة كذا ، وكان من أمره كذا وكذا ، وتعلم فى كذا ، وحصل على كذا .. الخ فكيف بمَنْ خلقكم

وأحياكم من عدم ؟ خاصة وهذه المسألة لم يتبجح بادعائها أحد فثبتت القضية له سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ ﴾[1]

الحق - سبحانه وتعالى - خلق آدم عليه السلام خليفة له فى الأرض ، وأجرى له تدريباً على مهمته بالأمر الإلهى والنهى الإلهى ، وأخبره بعداوة الشيطان له ولذريته ، وحذره أن يتبع خطواته ، وقد انتهت هذه التجربة بنزول آدم من الجنة إلى الأرض ليباشر مهمته كخليفة لله فى أرضه على أن يظلَّ على ذكْر من تجربته مع الشيطان ، وقد سخَّر الله له كل شىء فى الوجود يخدمه ويعمل من أجله .

ثم أنزل الله عليه منهجاً ، يعمل به لتستقيم حركة حياته وحياة ذريته ، وذكَّره بالمنهج التدريبى السابق الذى كلَّفه به فى الجنة ، وما حدث له لما خالف منهج ربه ، حيث ظهرت عورته : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأعراف]

كذلك إنْ خالفت هذا المنهج الإلهى فى الدنيا ستظهر عوراتكم . لذلك إذا رأيت أى عورة فى المجتمع فى أى ناحية : فى الاجتماع ، فى الاقتصاد ، فى التربية ، فاعلم أن حكماً من أحكام الله قد عُطِّل ، فظهرت سوأة من سوءات المجتمع ؛ لأن منهج الله هو قانون الصيانة

---

(١) المنْسَك : الموضع الذى تذبح فيه النسيكة . والمنسك : شرعة النُّسُك وهو الذبح ، والمناسك : المتعبدات . [لسان العرب - مادة : نسك] .

الذى يحميك وينظم حياتك لتؤدى مهمتك فى الحياة .

كما لو دخلتَ بيتك فوجدتَ آلة من آلات البيت لا تؤدى مهمتها ، فتعلم أن بها عطلاً فتذهب بها إلى المهندس المختص بصيانتها ، كذلك إن تعطل فى حياتكم شىء عن أداء مهمته فردُّوه إلى صاحب صيانته إلى الله وإلى الرسول ، وهذا منطق حازم يعترف به الجميع المؤمن والكافر أن ترد الصنعة إلى صانعها ، وإلى العالم بقانون صيانتها ، وأنت لم يدّع أحد أنه خلقك ، فحين يحدث فيك خَلَل ، فعليك أنْ تذهبَ إلى ربك وخالقك .

لذلك كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة[1] ، ومعنى « حزبه أمر » يعنى : شىء فوق طاقته وأسبابه ، يُهرَع إلى الصلاة ليعرض نفسه على ربه عز وجل ، فإنْ وجدتَ فى نفسك خللاً فى أى ناحية ، فما عليك إلا أنْ تتوضأ ، وتقف بين يدى ربك ليصلح ما تعطل فيك .

وإن كان المهندس يُصلح لك الآلة بشىء مادى ، ولو قطعة صغيرة من السلك ، فإن ربك عز وجل غَيْب ، وعلاجه أيضاً غَيْب يأتيك من حيث لا تدرى .

ومنهج الله الذى وضعه لصيانة خَلْقه فيه أصول وفيه فروع ، الأصول : أن تؤمن بالإله الواحد الفاعل المختار ، وهذه قاعدة ما اختلف عليها أىٌّ من رسالات السماء أبداً ، كما يقول تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى]

فهذه أصول لا يختلف عليها دين من الأديان ، لكن لما كان الناس منثورين فى شتى بقاع الأرض ، تعيش كل جماعة منهم منعزلةً عن

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده [٣٨٨/٥] ، وأبو داود فى سننه (١٣١٩) عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه .

الأخرى لبُعْد المسافات وانعدام وسائل الاتصال والالتقاء التى نراها اليوم ، والتى جعلتْ العالم كله قرية واحدة ، ما يحدث فى أقصى الشرق تراه وتسمع به فى أقصى الغرب ، وفى نفس الوقت . لما عاش الناس هذه العزلة لا يدرى أحد بأحد لدرجة أنهم كانوا منذ مائتى عام يكتشفون قارات جديدة .

وقد نشأ عن هذه العزلة أنْ تعددت الداءات بتعدد الجماعات ، فكان الرسول أو النبى يأتى ليعالج الداءات فى جماعة بعينها يُبعَث إلى قومه خاصة ، فهذا ليعالج مسألة الكيل والميزان ، وهذا ليعالج طغيان المال ، وهذا ليعالج انحراف الطباع وشذوذها ، وهذا ليعالج التعصب القبلى .

أما رسالة محمد ﷺ ، فجاءت فى بداية التقاء الجماعات هنا وهناك ، فكانت رسالته ﷺ عامة للناس كافة ، وتجد أصول الرسالات عند موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام أصولاً واحدة ، أمّا الفروع فتختلف باختلاف البيئات .

لكن ، لما كان فى علمه تعالى أن هذه العزلة ستنتهى ، وأن هذه البيئات ستجتمع وتلتقى على أمر واحد وستتحد فيها الداءات ؛ لذلك أرسل الرسول الخاتم لهم جميعاً على امتداد الزمان والمكان .

وفى هذه الآية : ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ .. ﴿٦٧﴾﴾ [الحج] أى : أن الحق سبحانه جعل لكل أمة من الأمم التى بعث فيها الرسل مناسك تناسب أقضية زمانهم ؛ لأنهم كانوا فى عزلة بعضهم عن بعض ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة]

فالشرائع تختلف فى الفروع المناسبة للزمان وللمكان وللبيئة ،

أما الأخلاق والعقائد فهى واحدة ، فالله عز وجل إله واحد فى كل ديانات السماء ، والكذب مُحرَّم فى كل ديانات السماء لم يأت نبى من الأنبياء ليبيح لقومه الكذب .

والمنسك : المنهج التعبدى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) ﴾ [الأنعام]

﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ .. (٦٧) ﴾ [الحج] يعنى : فاعلوه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ .. (٦٧) ﴾ [الحج] كأنْ يقولوا : أنت رسول ونحن أيضاً نتبع رسولاً ، له منهج وله شريعة ، نعم : لكن هذه شريعة خاتمة جاءت مهيمنة على كل الشرائع قبلها ، ومناسبة لمستجدّات الأمور .

لذلك يُطمئن الحق - تبارك وتعالى - رسوله ﷺ بعدها : ﴿ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ (٦٧) ﴾ [الحج] يعنى : اطمئن ، فأنت على الحق وادْعُ إلى ربك ؛ لأنك على هدى مستقيم سيصل إليهم إنْ لم يكن إيماناً فسيكون إصلاحاً وتقنيناً بشرياً تلجئهم إليه أحداث الحياة ومشاكلها ، فلن يجدوا أفضل من شرع الله يحكمون به ، وإنْ لم يؤمنوا .

وكأن الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ : لا تنازعهم ولا ينازعونك ، وخُذْ ما أمرك الله به : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) ﴾ [الحجر] الذين يجادلونك وينازعونك فى الرسالة ، وسوف تحدث لهم أقضية بقدر ما يُحدثون من الفجور ويلجئون إلى شرعك وقانونك ليحلوا به مشاكلهم .

والهدى وُصف بأنه مستقيم ؛ لأنه هدى من الله صنعه لك ، هدى

الخالق الذى يعلم ملكات النفس الإنسانية كلها ، وشرع لكل ملكة ما يناسبها ، وأحداث الحياة ستضطرهم إلى ما قنن الله لخلافته فى الأرض .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

الجدل : مأخوذ من جدل الحبل بعضه على بعض لتقويته ، وإنْ كانت خيطاً رفيعاً نبرمه فنعطيه سُمْكاً وقوة ؛ لذلك الخيط حين نبرمه يقل فى الطول ؛ لأن أجزاءه تتداخل فيكون أقوى ، فالجدل من تمتين الشيء وتقويته ، وكذلك الجدال ؛ فهو محاولة تقوية الحجة أمام الخصم .

وفى آية أخرى : ﴿ وجادلهم بالّتي هى أحسن .. ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل] فالمعني : إنْ جادلوك بعد التي هى أحسن فقلْ ﴿ اللَّه أعْلَم بما تعملون ﴿٦٨﴾ ﴾ [الحج] يعنى : ردهم إلى الله واحتكم إليه ؛ لذلك جاء بعدها :

﴿ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

لاحظ أن الحق سبحانه لم يقلْ : يحكم بيننا وبينكم كما يقتضى المعنى ؛ لأنكما طرفان تتجادلان . وكأن الحق - تبارك وتعالى - يقول لرسوله ﷺ : أتركهم فسوف يختلفون هم فيما بينهم ، ولن يظل الخلاف معك ؛ لأن الخلاف فى شيء واحد ينشأ عن هوى النفس ، وهوى النفس ينشأ من الحرص على السلطة الزمنية ، يعنى : أرح نفسك ، فربُّك سيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

هذه قضية حكم بها الحق سبحانه لنفسه ، ولم يدَّعها أحد ، فلا يعلم ما فى السماء والأرض إلا الله ، وهذه الآية جاءت بعد الحكم فى المنازعة فربما اعترض أحد وقال : ما دام الأمر من الله أحكاماً تنظم حركة الحياة وقد جاء كل رسول بها ، فما ضرورة أنْ يجيء رسول الله ﷺ للناس كافة .

وقلنا : إن الدين نوعان : نوع لا يختلف باختلاف الرسل والأمم والعصور ، وهذا فى القضايا العامة الشاملة التى لا تتغير ، وهى العقائد والأصول والأخلاق ، ونوع آخر يختلف باختلاف العصور والأمم ، فيأتى الحكم مناسباً لكل عصر ، ولكل أمة .

وما دام الحق سبحانه هو الذى سيحكم بين الطرفين قال : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [الحج] أعلم كل شيء كائن فى الوجود ظاهره وباطنه ، فأنا أحكُم عن علم وعن خبرة .

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [الحج] والعلم شيء ، والكتاب شيء آخر ، فما دام الله تعالى يعلم كل شيء ، وما دام سبحانه لا يضل ولا ينسى ، فما ضرورة الكتاب ؟

قالوا[1] : الكتاب يعنى به اللوح المحفوظ الذى يحوى كل شيء .

---

(١) قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن أبى حاتم وابن مردويه . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٧٤) .

وفى آية أخرى قال : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) ﴾ [عبس]

حتى القرآن نفسه فى ذلك الكتاب : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢) ﴾ [البروج]

وقال تعالى : ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) ﴾ [الرعد] ويقول تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩) ﴾ [الأنعام]

فضرورة الكتاب ليدلّك وليدلّ الملائكة المطّلعين على أن الأشياء التى تحدث مستقبلاً كتبها الله أزلاً ، فمجيئها فى المستقبل على وَفْق ما كتبه دليل علمه سبحانه بها ، فالذى كتب الشىء قبل أنْ يكون ، ثم جاء الشىء موافقاً لما كتب أكبر دليل على علْمه وإحاطته .

إذن : مجىء الكتاب لا ليساعدنا على شىء ، إنما ليكون حُجَّة عليك ، فيقال لك : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء] ها هو تاريخك ، وها هى قصتك ، ليس كلاماً من عندنا ، وإنما فعْلك والحجة عليك .

وعلْم الله تعالى فى قوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. (٧٠) ﴾ [الحج] يحمل الوعد والوعيد فى وقت واحد ، وهذا من عجائب الأداء القرآنى ، أنْ يعطى الشىء ونقيضه ، كيف ؟ هَبْ أن عندك ولديْن اعتدى أحدهما على الآخر فى غَيْبتك ، فلما عُدْتَ أسرعا بالشكوى ، كل من صاحبه ، فقلتَ لهما : اسكتا لا أسمع لكما صوتاً ، وقد عرفت ما حدث وسأرتب لكل منكما ما يناسبه وما يستحقه على وَفْق

ما علمت ، لا شكَّ عندها أن المظلوم سيفرح ويستبشر ، وأن الظالم سيخاف ويتغير لونه .

إذن : فعلم الله بكل شيء في السماء والأرض وإحاطته سبحانه بما يجري بين خَلْقه وَعْد للمحق ، ووعيد للمبطل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ ﴾

كان العبادة ـ وهي : طاعة أمر واجتناب نهي ـ يجب أن تكون صادرة من أعلى منا جميعاً ، فليس لأحد منا أن يُشرِّع للآخر ، فيأمره أو ينهاه ؛ لأن الآمر من المساوي لك لا مُرجح له ، وله أنْ يقول لك : لماذا أنت تأمر وأنا أطيع ؟ أما إنْ جاء الأمر من أعلى منك فأنت تطيع بلا اعتراض ، ومعك الحجة أن الأمر من أعلى ، تقول : أبي أمرني بكذا وكذا ، أو ربي أمرني بكذا وكذا ، أو نهاني عن كذا وكذا .

اذن : كل دليل على حكم الفعل أو الترك لا بُدَّ أنْ يكون مصدره من الحق سبحانه وتعالى ، فهو الأعلى مني ومنك ، وإذا انصعْتَ لأمره ونهيه فلا حرجَ عليَّ ولا ضرر ؛ لأنني ما انصعت لمساوٍ إنما انصعت لله الذي أنا وأنت عبيد له ، ولا غضاضةَ في أن نتبع حكمه .

لذلك في حِكَم أهل الريف يقولون : (اللي الشرع يقطع صباعه ميْخُرش دم) لماذا ؟ لأنك ما قطعته أنت إنما قطعه الله ، فليس في الأمر تسلط أو جبروت من أحد ، وليس فيه مذلّة ولا استكانة لأحد .

ومعنى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ من دُون اللَّه .. (٧١) ﴾ [الحج] يعنى : يعبدون غيره تعالى ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ به سُلْطَانًا .. (٧١) ﴾ [الحج] السلطان : إما سلطان قهر ، أو سلطان حجة ، سلطان القهر أن يقهرك ويجبرك على ما لم تُرِدْ فعله ، أما سلطان الحجة فيقنعك ويُثبت لك بالحجة أن تفعل باختيارك ، وهذه الآلهة التى يعبدونها من دون الله ليس لها سلطان ، لا قَهْر ولا حُجة .

لذلك ، فى جدل إبليس يوم القيامة للذين اتبعوه يقول لهم : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي.. (٢٢) ﴾ [إبراهيم] يعنى : كنتم على إشارة فاستجبتم لى ، وليس لى عليكم سلطان ، لا قوة أقهركم بها على المعصية ، ولا حجة أقنعكم بها .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ .. (٧١) ﴾ [الحج] يعنى : علم الاجتهاد الذى يستنبط الأحكام من الحكم المُجْمل الذى يُنزله الحق تبارك وتعالى ، وهذه هى حجة العلم التى قال الله تعالى عنها : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ .. (٨٣) ﴾ [النساء] يعنى : أهل العلم .

إذن : العبادة لا بُدَّ أن تكون بسلطان من الله نصاً قاطعاً وصريحاً لا يحتمل الجدل ، وإما أنْ تكونَ باجتهاد أُولى العلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٧١) ﴾ [الحج] لم يَقُلْ سبحانه : لن ينتصر الظالمون ، ولم ينْفِ عنهم النصير ؛ لأن هذه مسألة مُسلمة إنما لا يفزع لنصرتهم أحد ، فلن ينتصروا ولن ينصرهم أحد ، ولا يفزع أحد لينصر أحداً إلا إذا كان المنصور ضعيفاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾

تصور هذه الآية حال الكفار عند سماعهم لكتاب الله وآياته من رسول الله أو صحابته ، فإذا سمعوها ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحج] أى : الكراهية تراها وتقرؤها فى وجوههم عُبُوساً وتقطيباً وغضباً وانفعالاً ، ينكر ما يسمعون ، ويكاد أن يتحول الانفعال إلى نزوع غضبى يفتك بمَنْ يقرأ القرآن لما بداخلهم من شر وكراهية لما يتلى عليهم .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحج] والسَّطْو : الفَتْك والبطش ؛ لأن العمل الوجدانى الذى يشغل نفوسهم يظهر أولاً على وجوههم انفعالاً يُنبىء بشىء يريدون إيقاعه بالمؤمنين ، ثم يتحول الوجدان إلى نزوع حركى هو الفتك والبطش .

(قُلْ) فى الرد عليهم : ماذا يُغضبكم حتى تسطوا علينا وتكرهوا ما نتلو عليكم من كتاب الله . والغيظ والكراهية عند سماعهم القرآن دليل على عدم قدرتهم على الرد بالحجة ، وعدم قدرتهم أيضاً على الإيمان ؛ لذلك يتقلَّبون بين غيظ وكراهية .

لذلك يخاطبهم بقوله : ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٧٢)﴾ [الحج] يعنى : مالى أراكم مغتاظين من آيات الله كارهين لها الآن ، والأمر ما يزال هيِّناً ؟ أمجرد سماع الآيات يفعل بكم هذا كلّه ؟ فما بالكم حينما تباشرون النار فى الآخرة ، الغيظ الذى تظنونه شراً فتسطُون علينا بسببه أمر بسيط ، وهناك أشرّ منه ينتظركم ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٧٢)﴾ [الحج]

وما أشبه هذا بموقف الصِّدِّيق أبى بكر حينما أوقف صناديد قريش بالباب ، وقدّم عليهم المستضعفين من المؤمنين ، فغضبوا لذلك وورِمَتْ أنوفهم ، فقال لهم : أَوَرِمتْ أنوفكم أنْ قدمتهم عليكم الآن ، فكيف بكم حين يُقدمهم الله عليكم فى دخول الجنة ؟

وكلمة ﴿وَعَدَهَا .. (٧٢)﴾ [الحج] الوعد دائماً يكون بالخير ، أما هنا فاستُعملَتْ على سبيل الاستهزاء بهم والتقليل من شأنهم ، كما قال فى آية أخرى : ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤)﴾ [الانشقاق] فساعةَ أن يسمع البُشْرى يستشرف للخير ، فيفاجئه العذاب ، فيكون أنكَى له .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ .. (٢٩)﴾ [الكهف] لأن انقباض النفس ويأسها بعد بوادر الانبساط أشدّ من العذاب ذاته .

وقوله : ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢)﴾ [الحج] أى : ساءت نهايتكم ومرجعكم .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾

قُلْنا : الضرب إيقاع شيء على شيء بقوة ، ومنه نقول : ضربنا الدينار يعني : بعد أن كان قطعة من الذهب أو الفضة مثلاً أصبح عملة معروفة متداولة .

والمثل : تشبيه شيء غير معلوم بشيء آخر معلوم وعجيب وبديع يَعْلَق في الذهن ، كما تصف لك إنساناً لم تَرَهُ بإنسان تعرفه . نقول : هو مثل فلان . وهكذا كل التشبيهات : شيء تريد أن تعلمه للمخاطب وهو لا يعلمه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف]

وقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت]

إذن : الأمثال : إعلام بشيء معلوم ليصل العلم فيه إلى شيء

مجهول ، وكلمة (مثَل) استقلَّتْ بأن يكون المثَل بديعاً فى النسج ، بليغاً موجزاً ، بحيث تتناقله الألسنة بسرعة فى كلمات معدودة .

فلو وجدتَ مثلاً تلميذاً مُتهملاً تكاسل طوال العام ، ولم يذاكر ، فلما حضر الامتحان راح يجتهد فى المذاكرة ، فتقول له : (قبل الرِّماء تملأ الكنائن) يعنى : قبل أنْ تصطاد بالسهام يجب أنْ تُعدّها أولاً وتملأ بها كنانتك ، فهذا مثَلٌ يُضرَب للاستعداد للأمر قبل حلوله .

ومن أمثلة أهل الريف يقولون : (أعْط العيش لخبازه ولو يأكل نصفه) ويُضرب لمن يجعل الصنعة عند غير صانعها والمتخصص فيها .

ويقولون فيمَنْ يُقصِّر فى الأمر المنوط به : (باب النجار مخلع) .

وحين ترسل مَنْ يقضى لك حاجة فيفلح فيها ويأتى بالنتيجة المرجوة يقول لك : (أبدى المخْضُ عن الزُّبد) والمخضُ عملية خَضٍّ اللبن فى القِرْبة لفصْل الزُّبْد عن اللبن .

وهكذا ، المثَل قَوْل موجز بليغ قيل فى مناسبته ، ثم استعمله الناس لخفَّته وجماله وبلاغته فى المواقف المشابهة ، والمثَل يظل على حاله الأول لا يغير ، ويجب الالتزام بنصِّه مع المفرد والمثنى والجمع ، ومع المذكر والمؤنث ، فمثلاً إنْ أرسلتَ رسولاً يقضى لك حاجة فعندما يعود تقول له : (ما وراءكِ يا عصام) هكذا بالكسر فى خطاب المؤنث مع أنه رجل ، لماذا ؟ لأن المَثَل قيل أول

ما قيل لمؤنث ، فظلَّ على هذه الصيغة من التأنيث حتى ولو كان المخاطَبُ مذكَّراً .

وقصة هذا المثَل أن الحارث ملك كندة أراد أن يتزوج أم إياس ، وبعث مَنْ تخطبها له ، وكان اسمها عصام ، فلما ذهبت إليها قالت لها أمها : إن فلانة جاءت تخطبك لفلان ، فلا تخفى عنها شيئاً ، ودعيها تشمُّك إنْ أرادت ، وناطقيها فيما استنطقتْك به ، فلما دخلتْ على الفتاة وأرادت أن ترى جسمها خلعتْ ثوبها ، وكشفتْ عن جسمها ، فقالت المرأة : (ترك الخداع من كشف القناع) فسارت مثلاً ، ثم عادت إلى الحارث فاستقبلها متعجلاً ردَّها فقال : (ما وراءكِ يا عصام) يعنى : ما الخبر ؟ فظلَّ المثل هكذا للمؤنث ، وإن خُوطِب به المذكر .

والحق - تبارك وتعالى - يضرب لكم هذا المثل ويقول : خذوه فى بالكم ، وانتبهوا له ، وافتحوا له آذانكم جيداً واعقلوه ؛ لأنه سينفعكم فى علاقتكم برسول الله وبالمؤمنين .

والخطاب هنا مُوجَّه للناس كافّة ، لم يخُصّ أحداً دون أحد : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج] فلم يقُل يا أيها المؤمنون ؛ لأن هذا المثَلَ مُوجَّه إلى الكفار ، فالمؤمنون ليسوا فى حاجة إليه ﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج] يعنى : انصتوا وتفهَّموا مراده ومرماه ، لتسيروا فى حركتكم على وَفْق ما جاء فيه ، وعلى وَفْق ما فهمتم من مغزاه .

فما هو هذا المثَل ؟

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج]

أى : الذين تعبدونهم وتتجهون إليهم من دون الله ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا .. (٧٣)﴾ [الحج] وهو أصغر المخلوقات ﴿وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣)﴾ [الحج] يعنى : تضافرَتْ جهودهم ، واجتمع أمرهم جميعاً لا واحداً واحداً ، وهذا ترقٍّ فى التحدى ، حيث زاد فى قوة المعاند .

كما ترقَّى القرآن فى تحدِّى العرب ، فتحداهم أولاً بأنْ يأتوا بمثل القرآن ، ولأن القرآن كثير تحدّاهم بعشر سور فما استطاعوا ، فتحدَّاهم بسورة واحدة فلم يستطيعوا .

ثم يترقى فى التحدى فيقول : اجمعوا كل فصحائكم وبلغائكم ، بل والجن أيضاً يساعدونكم ولن تستطيعوا : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ .. (٨٨)﴾ [الإسراء]

وقوله تعالى : ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا .. (٧٣)﴾ [الحج] جاءت بنفى المستقبل فلم يقُلْ مثلاً : لم يخلقوا ، فالنفى هنا للتأبيد ، فهم ما استطاعوا فى الماضى ، ولن يستطيعوا أيضاً فيما بعد حتى لا يظن أحد أنهم ربما تمكّنوا من ذلك فى مستقبل الأيام ، ونفى الفعل هكذا على وجه التأبيد ؛ لأنك قد تترك الفعل مع قدرتك عليه ، إنما حين تتحدَّى به تفعل لتردّ على هذا التحدِّى ، فأوضح لهم الحق سبحانه أنهم لم يستطيعوا قبل التحدى ، ولن يستطيعوا بعد التحدى .

ثم يقول تعالى : ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ .. (٧٣)﴾ [الحج] فقد تقول : إن عملية الخَلْق هذه عملية صعبة لا يُتحدَّى بها ، لذلك تحداهم بما هو أسهل من الخَلْق ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ .. (٧٣)﴾ [الحج] وهل يستطيع أحد أن يُعيد ما أخذه الذباب من طعامه على جناحيه أو أرجله أو خرطومه ؟

وكانوا يذبحون القرابين عند الأصنام ، ويضعون أمامها الطعام

ليباركوه ، فكانت الدماء تسيل عندها وتتناثر عليها ، فيحطّ عليها الذباب ، ويأخذ من هذه الدماء على أرْجُله النحيفة هذه أو على أجنحته أو على خرطومه ، فتحدَّاهم أن يعيدوا من الذباب ما أخذه ، وهذه مسألة أسهل من مسألة الخَلْق .

ولك أنْ تُجرِّب أنت هذه العملية ، إذا وقع ذباب على العسل الذى أمامك ، فلا بُدَّ أن يأخذ منه شيئاً ولو كان ضئيلاً لا يُدرك ولا يُوزَن ولا تكاد تراه ، لكن أتستطيع أنْ تُمسك الذبابة وتردّ ما أخذتْ منك ؟

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج] يعنى : كلاهما ضعيف ، فالذباب فى ذاته ضعيف وهم كذلك ضعفاء ، بدليل أنهم لن يقدروا على هذه المسألة ، لكنْ هناك ضعيف يدَّعى القوة ، وضعيف قوته فى أنه مُقِرٌّ بضعفه ، فالذباب وإنْ كان ضعيفاً إلا أن الله تعالى قال فيه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة] يعنى : ما فوقها فى الصِّغر ، ليس المراد ما فوقها فى الكبر كالعصفور مثلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)﴾

يعنى : هؤلاء الكفار الذين عبدوا من دون الله آلهة لا تستطيع أن تخلق ذباباً ، ولا تستطيع حتى أنْ تردّ من الذباب ما أخذه ، هؤلاء ما عرفوا لله قَدْره ، ولو عرفوا قَدْر الله ما عبدوا غيره .

والقَدْر : يعنى مقدار الشىء ، وقلنا : إن مقادير الأشياء تختلف

حسب ما تريده من معرفة المقادير، فالطول مثلاً له مقياس يُقَاس به مقدار الطول، لكن هذا المقياس يختلف باختلاف المقيس، فإنْ أردتَ أنْ تقيسَ المسافة بين القاهرة والأسكندرية مثلاً لا تستخدم المللى أو السنتيمتر ولا حتى المتر، إنما تستخدم الكيلومتر، فإنْ أردت شراء قطعة من القماش تقول متر، أما إنْ أردتَ صورة شخصية تقول سنتيمتر.

إذن: لكل شيء مقدار يُقدَّر به، ومعيار يُقاس به، فإنْ أردتَ المسافة تقيس الطول، فإنْ أردت المساحة تقيس الطول في العرض، فإنْ أردتَ الحجم تقيس الطول في العرض في الارتفاع. فالطول بالمتر والمساحة بالمتر المربع، والحجم بالمتر المكعب. كذلك في الوزن تُقدِّره بالكيلو أو الرطل أو الجرام.. إلخ.

وقدر تأتي بمعنى: ضيَّق، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ .. (١٦)﴾ [الفجر]

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. (٧)﴾ [الطلاق]

والمقدار كما يكون في الماديات يكون أيضاً في المعنويات، فمثلاً تعبر عن الزيادة المادية تقول: فلان كبر يعني شبَّ وزاد، أما في المعنويات فيقول الحق سبحانه: كَبُر ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. (٥)﴾ [الكهف] يعني: عَظُمتْ.

والحق ـ تبارك وتعالى ـ ليس مادة؛ لأنه سبحانه فوق المادة، فمعنى المقدار في حقه تعالى عظمته في صفات الكمال فيه ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ .. (٧٤)﴾ [الحج] ما عظّموه حقَّ التعظيم الذي ينبغي له،

وما عرفوا قَدْره ، ولو عرفوا ما عبدوا غيره ، ولا عبدوا أحداً معه من هذه الآلهة التى لا تخلق ذباباً ، ولا حتى تسترد ما أخذه منهم الذباب ، فكيف يُسَوُّون هؤلاء بالله ويقارنونهم به عز وجل ؟ إنهم لو عرفوا لله تعالى قَدْره لاستحيوا من ذلك كله .

ثم تُذيِّل الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)﴾ [الحج] فما مناسبة هاتين الصفتين للسياق الذى نحن بصدده ؟

قالوا : لأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ تكلَّم فى المثَل السابق عَمَّنْ انصرفوا عن عبادته سبحانه إلى عبادة الأصنام وقال : ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج] فقال فى مقابل هذا الضعف إن الله لقوىٌّ ، قوة عن العابد ؛ لأنه ليس فى حاجة إلى عبادته ، وقوة عن المعبود لأنه لو شاء حَطَّمه ، وما دُمْتم انصرفتم عن الله وعبدتم غيره ، فهذا فيه مُضارَّة ، وكأن هناك معركة ، فإنْ كان كذلك فالله عزيز لا يغالب .

والآية : ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ .. (٧٤)﴾ [الحج] وردتْ فى عدة مواضع فى كتاب الله ، منها : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ .. (٩١)﴾ [الأنعام] فلم يعرفوا لله تعالى قَدْره لأنهم اتهموه ، وله سبحانه كمال العدل ، فكيف يُكلف عباده بعبادته ، ولا يبلغهم برسول ؟ وهو سبحانه القائل : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾ [الإسراء]

فحين يقولون : ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ .. (٩١)﴾ [الأنعام] كأنهم يصفُون الحق سبحانه بأنه يُعذِّب الناس دون أنْ يُبلِّغهم بشىء . ويَردّ عليهم فى هذه المسألة : ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ .. (٩١)﴾ [الأنعام]

وفى موضع آخر : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَـٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ .. (٦٧) ﴾ [الزمر]

ونقول : قَدَّرَه حَقَّ قدره ، وقَدَرَه قَدْره ، كأن الأمور تختلف فى تقدير الأشياء ، فمثلاً تنظر إلى حجرة فتقول : هذه تقريباً ٥×٤ هذا تقدير إجمالى تقريبى ، إنما إنْ أخذت المقياس وقدَّرْتَ تقديراً حقيقياً ، فقد تزيد أو تنقص ، فالأول تقول : قدَّرْت الحجرة قَدْرها . والآخر تقول : قدرت الحجرة حَقَّ قَدْرها .

وعليه فإنك إنْ أردت أنْ تُقدِّر الله تعالى حَقَّ قَدْره فإنك تقدِّره على قَدْر استيعاب العقل البشرى ، إنما قَدْره تعالى حقيقة فلا تحيط به ؛ لأن كمالاته تعالى لا تتناهى ولا تُدرَك إدراكاً تاماً .

ومن ذلك ما سبق أن ذكرناه عن علم اليقين وعين اليقين وحقِّ اليقين . ولما نزل قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران] قال بعض الصحابة[1] : ومَنْ يقدر على ذلك ، إنها مسألة صعبة أن نتقى الله التقوى الكاملة التى يستحقها عز وجل ، فأنزل الله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] ونزلت : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا .. (٢٨٦) ﴾ [البقرة]

---

(١) عن سعيد بن جبير وهو من كبار التابعين قال : لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم ، وتقرحت جباههم ، فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ (١٦) ﴾ [التغابن] . فنسخت الآية الأولى . [أخرجه ابن أبى حاتم] .
وابن عباس فى قوله ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ (١٠٢) ﴾ [آل عمران] قال : لم تنسخ ولكن ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِ (١٠٢) ﴾ [آل عمران] أن يجاهدوا فى الله حق جهاده ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأمهاتهم . [أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس فى ناسخه] . أوردهما السيوطى فى الدر المنثور ٢/٢٨٣ .

وكان النبي ﷺ إذا أثنى على الله تعالى يقول: « سبحانك ، لا نحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »(١).

لماذا ؟ لأنه لا يملك أحد مهما أُوتى من بلاغة الأسلوب أنْ يُثنى على الله الثناء المناسب الذى يليق به سبحانه ، ومن رحمة الله تعالى بعباده أن تحمل عنهم هذه المسألة فأثنى الحق سبحانه على نفسه ، وعلَّمنا كيف نثنى عليه سبحانه ، فإذا ما تحدث البليغ وأثنى على الله بفنون القول والثناء ، فإن العَيِىَّ الذى لا يجيد الكلام يطمئن حيث يُثنى على ربه بما علمه من الثناء ، وما وضعه من صيغ يقولها الفيلسوف ، ويقولها راعى الشاة.

ولولا أن الله تعالى علَّمنا صيغة الحمد فى سورة الفاتحة فقال: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾ [الفاتحة] ما تعلمنا هذه الصيغة ، فتعليم الله لعباده صيغة الحمد فى ذاتها نعمة تستحق الحمد ، والحمد يستحق الحمد ، وهكذا فى سلسلة لا تنتهى ، ليظل الحق - تبارك وتعالى - محموداً دائماً ، ويظل العبد حامداً دائماً .

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن مسألة الألوهية وما ينبغى لها من صفات الكمال المطلق ، وحذر أنْ نُدخل عليها ما ليس منها وما لا يستحقها ، وهذه قمة العقائد ، وبعد أن نؤمن بالإلهيات بهذا الصفاء ونُخلِّص إيماننا من كل ما يشوبه لا بُدَّ من البلاغ عن هذه القوة الإلهية التى آمنا بها ، والبلاغ يكون بإرسال الرسل

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٥٨ ، ٢٠١) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ».

لذلك قال سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾

إذن : المرحلة الثانية في الإيمان بعد الإيمان بالقمة الإلهية الإيمان بالرسل ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج]

والاصطفاء : اختيار نخبة من كثير ، واختيار القليل من الكثير دليل على أنها الخلاصة والصفوة ، كما يختلف الاصطفاء باختلاف المصطفى ، فإنْ كان المصطفى هو الله تعالى فلا بُدَّ أنْ يختار خلاصة الخلاصة .

والاصطفاء سائر في الكون كله ، يصطفى من الملائكة رسلاً ، ومن الناس رسلاً ، ويصطفى من الزمان ، ويصطفى من المكان ، كما اصطفى رمضان من الزمان ، والكعبة من المكان . ولم يجعل الحق سبحانه الاصطفاء لتدليل المصطفى على غيره ، إنما ليُشيع اصطفاءه على خَلْق الله ، فلما اصطفى رمضان على سائر الزمن - لا ليدلل رمضان - إنما لتأخذ منه شحنة تُقوِّي روحك ، وتُصفِّيها بقية الأيام ؛ لتستفيدْ من صالح عملك فيها .

وقد يتكرر الاصطفاء مع اختلاف متعلق الاصطفاء ؛ لذلك وقف المستشرقون عند قول الله تعالى : ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران]

يقولون : ما فائدة تكرار الاصطفاء هنا ؟ ولو تأملنا الآية لوجدنا فَرْقاً بين الاصطفاء الأول والآخر : الاصطفاء الأول اصطفاء ؛ لأنْ

تكونى عابدة تقية متبتلة منقطعة فى محرابك لله ، أما الاصطفاء الآخر فاصطفاء على نساء العالمين جميعاً ، بأن تكونى أماً لمولود بلا أب ، فمُتعلِّق الاصطفاء ـ إذن ـ مختلف .

وتنقسم الملائكة فى مسألة الاصطفاء إلى ملائكة مُصْطفاة ، وملائكة مُصْطَفًى منها . وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً ①﴾ [فاطر] يعنى : كلهم لهم رسالة مع عوالم أخرى غيرنا .

أما فى الآية التى معنا ، فالكلام عن الملائكة الذين لهم صلة بالإنسان أمثال جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، والحفظة الكاتبين والمكلفين بحفظ الإنسان ، فالله تعالى يصطفى هؤلاء ، أما الباقون منهم فالله مصطفيهم لعبادته فهم مُهيَّمون ، لا يدرون عن هذا الخلق شيئاً ، وهم الملائكة العالون الذين قال الله عنهم فى الحديث عن إبليس : ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ⑦⑤﴾ [ص] يعنى : الذين لم يشملهم الأمر بالسجود ؛ لأن لهم مهمة أخرى .

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ⑦⑤﴾ [الحج] السمع يتعلق بالأصوات ، والبصر يتعلق بالأفعال ، وهما كما قلنا عُمْدة الحواسِّ كلها ، والحق سبحانه فى قوله : ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ ⑦⑤﴾ [الحج] يُبيِّن لنا أن رسله سيُوَاجَهُون بأقوال تؤذيهم واستهزاء ، وسيُقَابلون بأفعال تعرقل مسيرة دعوتهم ، فليكُنْ هذا معلوماً حتى لا يفُتَّ فى عَضُدهم ، وأنا معهم سميع لما يُقال ، بَصير بما يفعل ، فهُمْ تحت سمعى وبصرى وكلاءتى .

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ⑦⑥﴾

﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴿٧٦﴾﴾ [الحج] ما أمامهم ، ويعلم أيضاً ما خلفهم ، فليعمل الإنسان ما يشاء ، فعلْم الله محيط به .

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ [الحج] فالمرجع في النهاية إليه سبحانه ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ لم يخلق خلْقه ليتركهم هَمَلاً ، إنما خلقهم لحكمة ، وجعل لهم نهاية يُجازَى فيها كُلٌّ بعمله ، فمَن تعب ونصب في سبيل دعوة الله وتحمّل المشاقّ في مساندة رسل الله فله جزاؤه ، ومَنْ جابههم وعاندهم سواء بالأقوال السَّابّة الشاتمة المستهزئة ، أو بالأفعال التي تعوق دعوتهم ، فله أيضاً ما يستحق من العقاب .

وبعد أن حدَّثنا ربنا عز وجل عن الإلهيات وعن الرسل التي تُبلِّغ عنه سبحانه ، يُحدِّثنا عن المنهج الذي سيأتون به لينظم حركة حياتنا ، هذا المنهج موجز في افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، وهو لا يشمل في أوامره ونواهيه كل حركات الحياة . فالأوامر والنواهي محصورة في عدَّة أمور ، والباقي مباح ؛ لأن الله تعالى وضع الأوامر والنواهي في الأصول التي تعصم حركة الحياة من الأهواء والنزوات ، وترك الباقي لاختيارك تفعله على أيٍّ وجه تريد .

لذلك نرى العلماء يجتهدون ويختلفون في مثل هذه الأمور التي تركها الله لنا ، ولو أراد سبحانه لأنزل فيها حكماً محكماً ، لا يختلف عليه أحد . ولك أن تقول : ولماذا ترك الحق سبحانه هذه الأمور تتضارب فيها الأقوال ، وتختلف فيها الآراء ، وتحدث فيها نزاعات بين الناس ؟

قالوا : هذا مراد الله ؛ لأن الله تعالى خلق الإنسان مُسخَّراً في أشياء ، ومختاراً في أشياء أخرى ، فللناس أن يتركوا المجتهد يجتهد

ما وسعه الاجتهاد ، ثم يحكمون على ما وصل إليه أنه حق ، وآخر يجتهد ويقررون أنه باطل ؛ لأن الله لو أراده على لون واحد لقاله ، إنما تركه محتملاً للآراء .

إذن : أراد سبحانه أن تكون هذه الآراء لأن الإنسان كما هو محكوم بقهر في كثير من الكونيات وله اختيار في بعض الأمور ، كذلك الحال في التكليف ، فهو مقهور في الأصول التي لو حاد عنها يفسد العالم ، ومختار في أمور أخرى يصح فعلها ويصح تركها .

يقول تعالى في هذا المنهج :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧) ﴾

النداء في ضرب المثل السابق[1] كان للناس كافة ؛ لأنه يريد أنْ يلفت عُبَّاد الأصنام إلى هذا المثل ، ويُسْمعهم إياه ، أمَّا هنا فالكلام عن منهج ودستور مُوجَّه ، خاصة إلى الذين آمنوا ، لأنه لا يُكلِّف بالحكم إلا مَنْ آمن به ، أما مَنْ كفر فليس أهلاً لحمل هذه الأمانة ؛ لذلك تركه ولم ينظم له حركة حياته . وكما قلنا في رجل المرور أنه يساعد مَن استعان به ووثق فيه ، فيدلّه ويرشده ، أما مَنْ شكَّ في كلامه وقلَّل من شأنه يتركه يضل في مفترق الطرق .

فإذا ناداك ربك بما يكلفك به ، فاعلم أن الجهة مُنفكّة ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا .. (١٣٦) ﴾ [النساء]

وقد اعترض على أسلوب القرآن في هذه الآية بعض الذين

---

(١) يقصد قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج]

يأخذون الآيات على ظاهرها ، يقولون : كيف يخاطبهم بيأيها الذين آمنوا ثم يقول : آمنوا ، كيف وهم يؤمنون بالفعل ؟

قالوا : المراد يا أيها الذين آمنوا قبل سماع الحكم الجديد ظَلُّوا على إيمانكم في الحكم الجديد ، واستمرّوا على إيمانكم ؛ لذلك إذا طلبتَ شيئاً ممَّنْ هو موصوف به فاعلم أن المراد الدوام عليه.

كما أن هناك فَرْقاً بين الإيمان بالحكم وبين تنفيذ الحكم ، فقد تؤمن بالحكم أنه من الله ولا تشكّ فيه ولا تعترض عليه ، لكنك لا تنفذه وتعصاه ، فمثلاً في الحج يقول تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ .. (٩٧)﴾ [آل عمران] الذي لله تعالى على عباده أنْ يحجوا البيت ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً (٩٧)﴾ [آل عمران] وهذا شرط ضروري ، فلا تكليفَ بلا استطاعة ، ثم يقول : ﴿وَمَن كَفَرَ (٩٧)﴾ [آل عمران]

فهل يعني هذا أن مَنْ لم يحج فهو كافر ؟

قالوا : لا ، لأن المراد : لله على الناس حكم يعتقده المؤمن ، بأن لله على الناس حج البيت ، فمَنْ اعتقد هذا الاعتقاد فهو مؤمن ، أما كونه ينفذه أو لا ينفذه هذه مسألة أخرى.

ثم يبدأ أول ما يبدأ في التكليف بمسألة الصلاة : ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ .. (٧٧)﴾ [الحج] لقد جاء الرسل من عند الله بتكاليف كثيرة ، لكن خصَّ هنا الصلاة لأنها التكليف الذي يتكرر كل يوم خمس مرات ، أما بقية التكاليف فهي موسمية : فالصوم شهر في العام كله ، والحج مرة في العمر كله لمن استطاع ، والزكاة عند خروج المحصول لمن يملك النصاب أو عند حلول الحَوْل.

إذن : تختلف فريضة الصلاة عن باقي الفرائض ؛ لذلك خصَّها

رسول الله ﷺ في قوله : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمَنْ تركها فقد كفر »[١] .

ويقول : « الصلاة عماد الدين »[٢] .

وخصَّها الحق - تبارك وتعالى - بظرف تشريعي خاص ، حيث فُرِضت الصلاة بالمباشرة ، وفُرِضت باقي الفرائض بالوحي .

وضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - قلنا : إن رئيس العمل يمكن أن يرسل لك ورقة يقول : افعل كذا وكذا ، فإنْ كان أمراً هاماً اتصل بك تليفونياً ، وأخبرك بما يريد لأهميته ، فإنْ كان الأمر أهم من ذلك وجاء من جهة أعلى يقول لك : تعال عندي لأمر هام ، ويُكلِّفك به مباشرة ، وكذلك على حسب الأهمية يوجد ظرف التشريع .

فالصلاة لم تأت بالوحي كباقي الفرائض ، إنما جاءت مباشرة من المُوحي سبحانه وتعالى ؛ لأنها ستكون صلة بين العبد وربه ، فشاء أن يُنَزِّهَها حتى من هذه الواسطة ، ثم ميَّزها على غيرها من التكاليف ، فجعلها الفريضة التي لا تسقط عن المسلم بحال أبداً . فقد تكون فقيراً فلا تلزمك الزكاة ، وغير مستطيع فلا يلزمك حج ، ومريض أو مسافر فلا يلزمك صوم .

أما الصلاة فلا يُسقطها عنك شيء من هذا كله ، فإنْ كنت غير قادر على القيام فلك أنْ تُصلِّي قاعداً أو مضطجعاً أو راقداً ، تشير

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٦٢١) ، والنسائي في سننه (٢٣١/١) من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه . قال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب .

(٢) قال الحافظ العراقي في تخريجه للإحياء (١٤٧/١) : « رواه البيهقي في الشُّعَب بسند ضعَّفه من حديث عمر » وقال الملا على القاري في « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٧٨) قال ابن الصلاح في مشكل الوسيط : إنه غير معروف . وقال النووي في التنقيح : إنه منكر باطل ، لكن رواه الديلمي عن علي كما ذكره السيوطي في الدرر المنتثرة (ح ٢٧٩) .

بطرفك لركوعك وسجودك ، ولو حتى تجرى أفعال الصلاة على قلبك ، المهم أن تظلّ ذاكراً لربك متصلاً به ، لا يمر عليك وقت إلا وهو سبحانه فى بالك .

وقلنا : إن ذكر الله فى الأذان والإقامة والصلاة ذكْر دائم فى كل الوقت لا ينقطع أبداً ، فحين تصلى أنت الصبح مثلاً غيرك يصلى الظهر ، وحين تركع غيرك يسجد ، وحين تقول : بسم الله الرحمن الرحيم . غيرك يقول : الحمد لله رب العالمين .. الخ .

فهى عبادة متداخلة دائمة لا تنقطع أبداً ؛ لذلك يقول أحد أهل المعرفة مخاطباً الزمن : يا زمن فيك كل الزمن . يعنى : فى كل جزئية من الزمن الزمن كله ، كأنه قال : يا ظُهْر ، وفيك العصر ، وفيك المغرب ، وفيك العشاء . وهكذا العالم كله يدور بعبادة لله لا تنتهى .

وذكر من الصلاة الركوع والسجود ؛ لأنهما أظهر أعمال الصلاة ، لكن الركوع والسجود حركات يؤديها المؤمن المخلص ، ويؤديها المنافق ، وقد كان المنافقون أسبق الناس إلى الصفوف الأولى ؛ لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يُميِّز هذا من هذا ، فقال : ﴿ وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ .. (٧٧) ﴾ [الحج]

فليست العبرة فى حركات الركوع والسجود ، إنما العبرة فى التوجّه بها إلى الله ، وإخلاص النية فيها لله ، وإلا أصبحت الصلاة مجرد حركات لا تعدو أن تكون تمارين رياضية كما يحلو للبعض أن يقول : الصلاة فيها تمارين رياضية تُحرِّك كل أجزاء الجسم ، نعم هى كما تقولون رياضة ، لكنها ليست عبادة ، العبادة أن تؤديها لأن الله تعالى أمرك بها .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) ﴾ [الحج]

والخير كلمة عامة تشمل كل أوامر التكليف ، لكن جاءت مع الصلاة على سبيل الإجمال ؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، فالخير - إذن - كلمة جامعة لكل ما تؤديه وظائف المناهج من خير المجتمع ؛ لأن المنهج ما جاء إلا لينظم حركة الحياة تنظيماً يتعاون ويتساند لا يتعاند ، فإنْ جاء الأمر على هذه الصورة سَعد المجتمع بأسْره .

ولا تنْسَ أن المنهج حين يُضيِّق عليك ويُقيِّد حركتك يفعل ذلك لصالحك أنت ، وأنت المستفيد من تقييد الحركة ؛ لأنّ ربك قيّد حركتك وضيّق عليك حتى لا تُلحق الشر بالآخرين ، وفي الوقت نفسه ضيّق على الآخرين جميعاً أن يتحركوا بالشر ناحيتك ، وأنت واحد وهم كثير ، فمن أجل تقييد حركتك قيّد لك حركة الناس جميعاً ، فمَن الكاسب في هذه المسألة ؟

الشرع قال لك : لا تسرق وأنت واحد وقال للناس جميعاً : لا تسرقوا منه ، وقال لك : غُضّ بصرك عن محارم الغير وأنت واحد ، وقال لكل غير : غُضّوا أبصاركم عن محارم فلان ، فكل تكليف من الله للخلْق يعود عليك .

فالمعنى : ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج] أي : الذي لا يأتي منه فساد أبداً ، وما دامت الحركات صادرة عن مراد لهوى واحد فإنها تتساند وتتعاون ، فإنْ كان لك هوى ولغيرك هوى تصادمتْ الأهواء وتعاندت ، والخير : كل ما تأمر به التكاليف المنهجية الشرعية من الحق تبارك وتعالى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج] لكن ، أين سيكون هذا الفلاَح : في الدنيا أم في الآخرة ؟

الفلاَح يكون في الدنيا لمن قام بشرع الله والتزم منهجه وفعل

الخير ، فالفلاح ثمرة طبيعية لمنهج الله فى أىِّ مجتمع يتحرك أفرادُه فى اتجاه الخير لهم وللغير ، مجتمع يعمل بقول رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[١] وعندها لن ترى فى المجتمع تزاحماً ولا تنافراً ولا ظلماً ولا رشوة .. الخ هذا الفلاح فى الدنيا ، ثم يأتى زيادة على فلاح الدنيا فلاح الآخرة .

إذن : لا تظنوا التكاليف الشرعية عبثاً عليكم ؛ لأنها فى صالحكم فى الدنيا ، وبها فلاح دنياكم ، ثم يكون ثوابها فى الآخرة مَحْض الفضل من الله .

وقد نبهنا النبى ﷺ إلى هذه المسألة فقال : « لا يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أنْ يتغمدنى الله برحمته »[٢] ذلك لأن الإنسان يفعل الخير فى الدنيا لصالحه وصالح دنياه التى يعيشها ، ثم ينال الثواب عليها فى الآخرة من فضل الله كما قال تعالى : ﴿ ويزيدهم من فضله ﴿١٧٣﴾ ﴾ [النساء]

وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج] نعرف أن لعل أداة للترجى ، وهو درجات بعضها أرجى من بعض ، فمثلاً حين تقول : لعل فلاناً يعطيك ، فأنت ترجو غيرك ولا تضمن عطاءه ، فإنْ قلت : لعلِّى أعطيك . فالرجاء - إذن - فى يدك ، فهذه أرجى من سابقتها ، لكن ما زلنا أنا وأنت متساويين ، وربما أعطيك أولاً ، إنما حين تقول : لعل الله يعطيك فقد رجوْتَ الله ، فهذه أرجى من سابقتها ، فإذا قال الله تعالى بذاته : لعلى أعطيك فهذا أقوى درجات الرجاء وآكدها ؛ لأن الوعد من الله والرجاء فيه سبحانه لا يخيب .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، ومسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾

معنى ﴿ حَقَّ جِهَادِهِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج] كالذى قلناه فى ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الحج] لأن الجهاد أيضاً يحتاج إلى إخلاص ، وأنْ تجعل الله فى بالك ، فربما خرجتَ لمجرد أن تدفع اللوم عن نفسك وحملتَ السلاح فعلاً ودخلت المعركة ، لكن ما فى بالك أنها لله وما فى بالك إعلاء كلمة الله ، كالذى يقاتل للشهرة وليرى الناس مكانته ، أو يقاتل طمعاً فى الغنائم ، أو لأنه مغتاظ من العدو وبينه وبينه ثأر ، ويريد أن ينتقم منه ، هذه وغيرها أمور تُخرِج القتال عن هدفه وتُفرغه من محتواه .

لذلك لما سئل سيدنا رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليُرى مكانه ، فمَنْ فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »[1] وهذا هو حق الجهاد ، وأنت فيه حكَم على نفسك ، لأن ميزان ذلك فى يدك .

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢٣) ، ومسلم فى صحيحه (١٩٠٤) عن أبى موسى الأشعرى . .

وقد تسأل : ولماذا الجهاد ؟ قالوا : لأنك إذا انتفعتَ بالمنهج تطبيقاً له بعد التحقيق الذى أتى به الرسل تنفع نفسك ، لكن ربك - عز وجل - يريد أنْ يُشيع النفع لمن معك أيضاً ، وهذا لا يتأتّى إلا بالجهاد بالنفس أو المال أو أىّ شىء محبوب ، وإلا فكيف ستربح الصفقة التى قال الله تعالى عنها : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ..(١١١)﴾ [التوبة]

وكما أن للجنود فى ساحة القتال مهمة ، كذلك لمن قعد ولم يخرج مهمة : الجندى حين يقتحم الأهوال والمخاطر ويُعرِّض نفسه للموت ، فهذا يعنى أنه ما دخل المعركة وما عرَّض نفسه للقتل إلا وهو واثق تمام الثقة ، أن ما يذهب إليه بالقتل خير مما يناله بالجُبْن ، وهذا يشجع الآخرين ويحثّهم على القتال .

لذلك ، فى غزوة بدر لما سمع الصحابى كلام رسول الله ﷺ عن أجر الشهيد وكان فى فمه تمرة يمصُّها ، فقال : يا رسول الله ، أليس بينى وبين الجنة إلا أنْ أُقتل فى سبيل الله ؟ قال : نعم ، فألقى التمرة من فيه وخرج لتوِّه إلى الجهاد[1] لأنه واثق تمام الثقة أن ما سيذهب إليه بالشهادة خير مما ترك .

أما الذين بَقَوْا ولم يخرجوا ، فمهمتهم أن يحملوا المنهج ، وأنْ يحققوه ، وإلا لو خرج الجميع إلى القتال واستشهدوا جميعاً ، فمَنْ يحمل منهج الله وينشره ؟

(١) عن جابر بن عبد الله قال : قال رجل : أين أنا يا رسول الله إن قُتلت ؟ قال : فى الجنة . فألقى تمرات كُنَّ فى يده . ثم قاتل حتى قُتل . وفى حديث سويد : قال رجل للنبى ﷺ يوم أحد . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٨٩٩) كتاب الإمارة . قال ابن حجر فى الفتح (٧/٣٥٤) : « لم أقف على اسم الرجل ، وزعم ابن بشكوال أنه عمير بن الحمام وسبقه إلى ذلك الخطيب واحتج بما أخرجه مسلم من حديث أنس . قلت : لكن وقع التصريح فى حديث أنس أن ذلك كان يوم بدر » .

وجاءت كلمة الجهاد عامة لتشمل كل أنواع الجهاد ، فإذا ما أثمر الجهاد ثمرته وتغلبنا على الكفر فلم يَعُدْ هناك كفار ، أو خلَّوْا طريق دعوتنا وتركونا ، وأحبوا أنْ يعيشوا في بلادنا أهل ذمة ، فلا داعي - إذن - للقتال ، ويتحول الجهاد إلى ميدان آخر هو جهاد النفس .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ .. (٧٨) ﴾ [الحج] يعني : اختاركم واصطفاكم لتكونوا خير أمة أُخرجت للناس ، وثمن هذا الاجتباء أن نكون أهلاً له ، وعلى مستوى مسئوليته ، وأنْ نحقق ما أراده الله منّا .

كما ننصح جماعة من أهل الدعوة الذين حملوا رايتها ، نقول لهم : لقد اختاركم الله ، فكونوا أهْلاً لهذا الاختيار ، واجعلوا كلامه تعالى في محلّه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ .. (٧٨) ﴾ [الحج] يعني : ما اجتباكم ليُعنتكم ، أو ليُضيِّق عليكم ، أو ليُعسِّر عليكم الأمور ، إنما جعل الأمر كله يُسْراً ، وشرعه على قدر الاستطاعة ، ورخَّص لكم ما يُخفِّف عنكم ، ويُذهب عنكم الحرج والضيق ، فمنْ لم يستطع القيام صلى قاعداً ، ومَنْ كان مريضاً أفطر ، والفقير لا زكاة عليه ولا حج .. الخ .

كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ .. (٢٢٠) ﴾ [البقرة] لكنه سبحانه ما أعنتكم ولا ضيَّق عليكم ، وما كلَّفكم إلا ما تستطيعون القيام به .

وقوله تعالى : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ (٧٨) ﴾ [الحج] كلمة (ملة) جاءت هكذا بالنصب ، لأنها مفعول به لفعل تقديره : (الزموا) ملة أبيكم إبراهيم ؛ لأنكم دعوته حين قال : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا .. (١٢٨) ﴾ [البقرة]

ومن دعوة إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ .. (١٢٩) ﴾ [البقرة] لذلك كان النبى ﷺ يقول : « أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبُشْرى عيسى »[1] .

يعنى : من ذريته وذرية ولده إسماعيل ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا .. (١٢٨) ﴾ [البقرة] أعطنا التكاليف ، وكأنه مُتشوِّق إلى تكاليف الله ، وهل يشتاق الإنسان للتكليف إنْ كان فيه ضيق أو مشقة ؟

وكذلك كان صحابة النبى ﷺ يعشقون تكاليف الإسلام ، ويسألون عنها رسول الله رغم قوله لهم : « ذرونى ما تركتكم »[2] إلا أنهم كانوا يسألون عن أمور الدين ليبنوا حياتهم الجديدة ، لا على ما كانت الجاهلية تفعله ، بل على ما أمر به الإسلام .

ولنا ملْحظ فى قوله تعالى : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ .. (٧٨) ﴾ [الحج] فالخطاب هنا لأمة الدعوة ، ولأمة الإجابة ، وهل أمة الإسلام كلها من ذرية إبراهيم حتى يقول ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ .. (٧٨) ﴾ [الحج] ؟

نقول : الإسلام انقياد عَقَدىٌّ للجميع ، وفى أمة الإسلام مَنْ ليس من ذرية إبراهيم ، لكن إبراهيم عليه السلام أبٌ لرسول الله محمد ﷺ ، والرسول أب لكل مَنْ آمن به ؛ لأن أبوة الرسول أبوة عمل واتباع ، كما جاء فى قول الله تعالى فى قصة نوح عن ابنه : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ .. (٤٦) ﴾ [هود]

---

(١) قال أبو أمامة : قلت يا نبى الله ما كان أول بدء أمرك ؟ قال : دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمى أنه يخرج منهما نور أضاءت منها قصور الشام . أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٦٢) .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٤٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : « ذرونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، ما نهيتكم عنه فانتهوا ، وما أمرتكم فائتوا منه ما استطعتم » .

ولما كان النبى ﷺ أباً لكل مَنْ آمن به سَمَّى الله زوجاته أمهات للمؤمنين ، فقال سبحانه : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ⟨٦⟩ ﴾ [الأحزاب]

وما دامت الأزواج أمهات ، فالزوج أب ، وبناءً على هذه الصلة يكون إبراهيم عليه السلام أباً لأمة الإسلام ، وإنْ كان فيهم مَنْ ليس من سلالته .

ونجد البعض ممَّنْ يحبون الاعتراض على كلام الله يقولون فى مسألة أبوة الرسول لأمته : لكن القرآن قال غير ذلك ، قال فى قصة زيد بن حارثة : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ .. ⟨٤٠⟩ ﴾ [الأحزاب] فنفى أن يكون محمد أباً لأحد ، وفى هذا ما يناقض كلامكم .

نقول : لو فهمتم عن الله ما اعترضتُم على كلامه ، فالله يقول : ما كان محمد أباً لأحدكم ، بل هو أب للجميع ، فالمنفىّ أن يكون رسول الله أباً لواحد ، لا أن يكون أباً لجميع أمته . وقال بعدها : ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ .. ⟨٤٠⟩ ﴾ [الأحزاب] وما دام رسول الله ، فهو أب للكل .

ثم يقول تعالى عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ .. ⟨٧٨⟩ ﴾ [الحج] يعنى : إبراهيم عليه السلام سماكم المسلمين ، فكأن هذه مسألة واضحة وأمْر معروف أنكم مسلمون منذ إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .. ⟨٧٨⟩ ﴾ [الحج]

وفى موضع آخر يحدث تقديم وتأخير ، فيقول سبحانه : ﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ⟨١٤٣⟩ ﴾ [البقرة]

لماذا ؟ قالوا : لأن رسول الله بلَّغ رسالة الله ، وأشهد الله على ذلك حين قال : « اللهم قد بلغت ، اللهم فاشهد »[1] اشهد أنِّى بلغتُ ، وهو ﷺ يريد من أمته أن يكون كل شخص فيها حاملاً لهذه الرسالة ، مُبلِّغاً لها حتى يسمع كلام الرسول مَنْ لم يحضره ولم يَرَهُ ، وهكذا يكون الرسول شهيداً على مَنْ آمن به ، ومَنْ آمن شهيداً على مَنْ بلّغه .

لذلك من شرف أمة محمد أولاً أنه لا يأتى بعده رسول ؛ لأنهم مأمونون على منهج الله ، وكأن الخير لا ينطفىء فيهم أبداً . وقلنا : إن الرسل لا يأتون إلا بعد أنْ يعُمَّ الفساد ، ويفقد الناس المناعة الطبيعية التى تحجزهم عن الشر ، وكذلك يفقدها المجتمع كله فلا ينهى أحد أحداً عن شر ؛ عندها يتدخل الحق سبحانه برسول ومعجزة جديدة ليُصلح ما فسد .

فختام الرسالات بمحمد ﷺ شهادة أن الخير لا ينقطع من أمته أبداً ، ومهما انحرف الناس سيبقى جماعة على الجادة يحملون المنهج ويتمسكون به ويكونون قدوة لغيرهم . لذلك حدَّد رسول الله هذه المسألة فقال : « الخير فىَّ حصراً ، وفى أمتى نثراً » فالخير كله والكمال كله فى شخص رسول الله ، ومنثور فى أمته .

ثم يعود السياق إلى الأمر بالصلاة : ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ .. (٧٨) ﴾ [الحج] لأنها الفريضة الملازمة للمؤمن ، وفيها إعلاء الولاء المكرر فى اليوم خمس مرات ، وبها يستمر ذكْر الله على مدى

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٧٣٩) فى خطبة الوداع من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أنه ﷺ قال : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، فى بلدكم هذا ، فى شهركم هذا » .

الزمن كله لا ينقطع أبداً فى لحظة من لحظات الزمن حين تنظر إلى العالم كله ، وتضم بعضه إلى بعض .

والمتأمل فى الزمن بالنسبة للحق - تبارك وتعالى - يجده دائماً لا ينقطع ، فاليوم مثلاً عندنا أربع وعشرون ساعة ، واليوم عند الله ألف سنة مما تعدُّون ، واليوم فى القيامة خمسون ألف سنة ، وهناك يوم اسمه يوم الآن أى : اللحظة التى نحن فيها ، وهو يوم الله الذى قال عنه : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن] لذلك يقول : ما شغل ربك الآن وقد صَحَّ أنَّ القلم قد جَفَّ ؟ قال : « أمور يبديها ولا يبتديها ، يرفع أقواماً ، ويضع آخرين »[(١)] .

فيوم الآن يوم عام ، لا هو يوم مصر ، ولا يوم سوريا ، ولا يوم اليابان إذن : فى كل لحظة يبدأ لله يوم وينتهى يوم ، فيومه تعالى مستمر لا ينقطع .

ونقرأ فى الحديث النبوى الشريف : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مُسِيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مُسِيء الليل »[(٢)] .

نهار مَنْ ؟ وليل مَنْ ؟ فالنهار والليل فى الزمن دائم لا ينقطع ، وفى كل لحظة من لحظات الزمن ينتهى يوم ويبدأ يوم ، وينتهى ليل ويبدأ ليل . إذن : فالله تعالى يده مبسوطة دائماً لا يقبضها أبداً ، كما

---

(١) عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن] قال : « من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين » . أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (١/١٢٩) وابن ماجه فى سننه (٢٠٢) ، وأبو نعيم فى الحلية (٥/٢٥٢) وأبو الشيخ فى العظمة (ح ١٥٠) .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٩٥ ، ٤٠٤) ومسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

قال سبحانه : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ (٦٤) ﴾ [المائدة]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ (٧٨) ﴾ [الحج] الجئوا إليه فى الشدائد ، وهذا يعنى أنكم ستُواجهون وتُضطهدون ، فما من حامل منهج لله إلا اضطُهد ، فلا يؤثر فيكم هذا ولا يفُتُّ فى عَضُدكم ، واجعلوا الله ملجأكم ومعتصمكم فى كل شدة تداهمكم ، كما قال سبحانه : ﴿ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ (٤٣) ﴾ [هود]

واعتصامكم بالله أمر لا تأتون إليه بأنفسكم إنما ﴿ هُوَ مَوْلاكُمْ (٧٨) ﴾ [الحج] يعنى : المتولّى لشأنكم ، وما دام هو سبحانه مولاكم ﴿ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) ﴾ [الحج]




سورة المؤمنون



سورة المؤمنون[1]



﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾

لما قال الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى الآية قبل السابقة من سورة الحج ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧﴾ [الحج] ولعلَّ تفيد الرجاء ، أراد سبحانه أن يؤكد هنا على فلاح المؤمنين فقال : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ [المؤمنون] وأن الرجاء من الله واقع ومؤكد ، لذلك جاء بأداة التحقيق ﴿قَدْ﴾ التى تفيد تحقُّق وقوع الفعل ، وهكذا تنسجم بداية سورة (المؤمنون) مع نهاية سورة (الحج) .

وقوله تعالى هناك ﴿تُفْلِحُونَ ۝٧٧﴾ [الحج] وهنا ﴿أَفْلَحَ ۝١﴾ [المؤمنون] مادة (فلح) مأخوذة من فلاحة الأرض ، والفلْح هو الشق ؛ لذلك قالوا : إن الحديد بالحديد يفلح ، وشَقُّ الأرض : إهاجتها وإثارتها بالحرث ، وهذه العملية هى أساس الزرع ، ومن هنا سُمِّى الزرع حَرْثاً فى قوله سبحانه : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ

---

(١) سورة المؤمنون ، هى السورة رقم (٢٣) فى ترتيب المصحف الشريف . عدد آياتها ١١٨ آية ، وهى سورة مكية كلها فى قول الجميع . قاله القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٣٥) . وهى السورة رقم ٧٣ فى ترتيب النزول ، نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل سورة السجدة . قاله ابن الضريس فى فضائل القرآن فيما نقله عنه السيوطى فى « الإتقان » (١/٢٧) .

الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ (٢٠٥) ﴾ [البقرة]

ومعنى أفلح : فاز بأقصى ما تتطلع إليه النفس من خير .

والأرض حين تحرثها تكون خالية ليس فيها شيء يُهْلَك ، إذن : المراد بالحرث هنا الزرع الناتج عن عملية الحرث ، والتى لا بُدَّ منها كي تتم عملية الزراعة ؛ لأنك بالحرث تثير التربة ليتخللها الهواء ، فيزيد من خصوبتها وصلاحها لاستقبال البذرة ، وسبق أن تحدثنا عن عملية الإنبات ، وكيف تتم ، وأن النبات يتغذى على فَلْقتى البذرة إلى أن يصبح له جذر قوى يستطيع أن يمتصّ من التربة ، فإن ألقيتَ البذرة فى أرض صماء غير مثارة فإن الجذر يجد صعوبة فى اختراق التربة والامتصاص منها .

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يعطينا صورة من واقعنا المشاهد ، ويستعير من فلاحة الأرض ليعبر عن فلاح المؤمن وفوزه بالنعيم المقيم فى الآخرة ، فالفلاح يحرث أرضه ويسقيها ويرعاها فتعطيه الحبة بسبعمائة حبة ، وهكذا سيكون الجزاء فى الآخرة : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ [البقرة]

فإذا كانت الأرض المخلوقة لله عز وجل تعطى كل هذا العطاء ، فما بالك بعطاء مباشر من خالقك وخالق الأرض التى تعطيك ؟ وكما أن الفلاح إذا تعب واجتهد زاد محصوله ، كذلك المؤمن كلما تعب فى العبادة واجتهد زاد ثوابه وتضاعف جزاؤه فى الآخرة .

﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ ﴾[1]

كأن أول ظاهرية الفلاح فى الصلاة ، وما يزال الحديث عنها موصولاً بما قاله ربنا فى الآيات السابقة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ۝٧٧ ﴾ [الحج] وقال بعدها : ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ .. ۝٧٨ ﴾ [الحج]

وهنا جعل أول وصف للمؤمنين الذين أفلحوا ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ ﴾ [المؤمنون] فلم يقل مثلاً : مؤدون ؛ لأن أمر أداء الصلاة فى حق المؤمنين مفروغ منه ، العبرة هنا بالهيئة والكيفية ، العبرة بالخشوع والخضوع وسكينة القلب وطمأنينته واستحضار الله الذى تقف بين يديه .

كما تقول لولدك : اجلس أمام المعلم باهتمام ، واستمع إليه بإنصات ، فأنت لا توصيه بالذهاب إلى المدرسة أو حضور الدرس ، فهذا أمر مفروغ منه ؛ لذلك تهتم بجوهر الموضوع والحالة التى ينبغى أن يكون عليها .

والخشوع أن يكون القلب مطمئناً ساكناً فى مهمته هذه ، فلا ينشغل بشىء آخر غير الصلاة ؛ لأن الله ما جعل لرجل من قلبين فى جوفه ، وما دام فى حضرة ربه عز وجل فلا ينبغى أن ينشغل بسواه ، حتى إن بعض العارفين لمعنى الخشوع يقول : إن الذى

---

(١) سبب نزول الآية : أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد ابن سيرين قال : « كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة ويلتفتون يميناً وشمالاً ، فأنزل الله ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ ﴾ [المؤمنون] فقالوا برؤوسهم ، فلم يرفعوا أبصارهم بعد ذلك فى الصلاة ، ولم يلتفتوا يميناً ولا شمالاً » [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٨٣] .

يتعمد معرفة مَنْ على يمينه أو مَنْ على يساره فى الصف تبطل صلاته[١] .

ولما دخل سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ على رجل يصلى ويعبث بلحيته ، فضربه على يده وقال : لو خشع قلبك لخشعتْ جوارحك[٢] . ذلك لأن الجوارح تستمد طاقتها من القلب ومن الدم الذى يضخه فيها ، فلو شغل القلب عن الجوارح ما تحركت .

لذلك لما سأل أحد الفقهاء صوفياً : ما حكم مَنْ سها فى صلاته ؟ قال : حكمه عندنا أم عندكم ؟ قال : ألنا عند ولكم عند ؟ قال : نعم ، عند الفقهاء مَنْ يسهو فى الصلاة يجبره سجود السهو ، أما عندنا فمَنْ يسهو فى الصلاة نقتله . يعنى مسألة كبيرة .

ثم ألاَ يستحق منك ربك وخالقك أن تتفرغ له سبحانه على الأقل وقت صلاتك ، وهى خمس دقائق فى كل وقت من الأوقات الخمسة ، وقد تركك باقى الوقت تفعل ما تشاء ؟ أتستكثر على ربك أن تُفرِّغ له قلبك ، وأن تستحضره سبحانه ، وهذه العملية فى صالحك أنت قبل كل شىء ، فى صالحك أن تكون فى جلوة مع ربك تستمد منه سبحانه الطاقة والمعونة ، وتتعرض لنفحاته وإشراقاته وتقتبس من أنواره وأسراره ؟

ومن حرص أهل التقوى على سلامة الصلاة وتمامها قال أحدهم

---

(١) قاله معاذ بن جبل رضى الله عنه فيما ذكره عنه أبو محمد عبد الحق الإشبيلى فى « الصلاة والتهجد » (ص ١٩٣) .

(٢) ذكر أبو محمد عبد الحق هذا الأثر فى كتاب « الصلاة والتهجد » (ص ١٩٨) بتحقيقى ـ طبعة دار الوفاء المنصورة ، ولكن عزاه للحسن البصرى ، وذكر له أيضاً أن الحسن نظر يوماً إلى رجل يعبث بالحصباء فى الصلاة وهو يقول : اللهم زوِّجنى من الحور العين ، فقال له : بئس الخاطب أنت ، تخطب الحور العين وأنت تعبث بالحصباء .

لصاحبه الذى يحرص على أنْ يؤم الناس : لماذا تحرص على الإمامة وأنت تعرف أن طالب الولاية لا يُولَّى ؟ قال : نعم أحرص عليها لأخرج من الخلاف بين الشافعى الذى قال بقراءة الفاتحة خلف الإمام ، وأبى حنيفة الذى قال بأن قراءة الإمام قراءة للمأموم ، فأحرص على الإمامة حتى أقرأ أنا ، ولا أنشغل بهذا الخلاف .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ ﴾

اللغو : الكلام الذى لا فائدة منه ، ويُطلق أيضاً على كل فعل لا جدوى منه ، وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۝٧٢ ﴾ [الفرقان] لا يشغلون به ولا يأبهون له ، وحكى القرآن عن الكفار عند سماعهم القرآن قولهم : ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ .. ۝٢٦ ﴾ [فصلت]

لذلك جعل الحق ـ تبارك وتعالى ـ من نعيم الجنة : ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا ۝٢٦ ﴾ [الواقعة] كأن من المعايب فى الدنيا ومن مصائبها أن نسمع فيها لغواً كثيراً لا فائدة منه ، وفى آية أخرى يقول عن خمر الآخرة التى لا تُذهب العقل ، ولا تجعل صاحبها يهذى بلغو الكلام : ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ ۝٢٣ ﴾ [الطور]

و ﴿ مُعْرِضُونَ ۝٣ ﴾ [المؤمنون] الإعراض فى الأصل تجنّب الشىء ، وهو صورة لحركة إباء النفس لشىء ما . وأهل المعرفة يضعون للغو مقياساً ، فيقولون : كل عمل لا تنال عليه ثواباً من الله فهو لغو .

لذلك احرص دائماً أن تكون حركتك كلها لله حتى تُثَابَ عليها ، كصاحبنا الذى دخل عليه رجل وقصده فى قضاء أمر من الأمور وهو لا يملك هذا الأمر ، لكن أراد أنْ يستغل فرصة الخير هذه ، وأن يكون

له ثواب حتى فى حركة الامتناع عنه ، فرفع يده : اللهم إنه عبد قصد عبداً وأنا آخذ بيده وأقصد رباً ، فاجعل تصويب خطئه فى قصدى تصويباً لقصدك . يعنى : أنا وإنْ كنتُ لا أقدر على قضائها إلا أننى أدخل بها على الله من هذه الناحية .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ ﴾

الزكاة أولاً تطلق على معنى التطهير ، كما جاء فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴿١٠٣﴾ ﴾ [التوبة] لأن الغفلة قد تصيب الإنسان حال جمع المال ، فيخالط ماله ما فيه شبهة مثلاً ، فيحتاج إلى تطهير ، وتطهير المال يكون بالصدقة منه .

والزكاة بمعنى النماء ، فبعد أن تُطهر المال تُنمِّيه وتزيده ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ ﴾ [الشمس] يعنى : نمَّى ملَكة الخير فيها ، ورقَّاها وصعَّدها بأن ينظر إلى العمل إنْ كان سينقص منك فى الظاهر ، إلا أنه سيجلب لك الخير فيما بعد ، فترتقى بذلك ملكَات الخير فى نفسك .

لذلك لما تكلم الحق سبحانه عن الربا ، وهو الزيادة جمع المتناقضات فى آية واحدة ، فالربا يزيد المال ويأخذ المرابى المائة مائة وعشراً ، فى حين تنقص الزكاة من المال فى الظاهر ، فالمائة بعد الزكاة تصبح سبعة وتسعين ونصفاً ، ثم تأتى الآية لتضع أمامك المقياس الحقيقى : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴿٢٧٦﴾ ﴾ [البقرة] ، فالربا الذى تظنه زيادة هو مَحْقٌ ، والذى تظنه نقصاً هو بركة وزيادة ونماء .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) ﴾ [الروم] أى : الذين يضاعف الله لهم ويزيدهم .

وكما أمرنا ربنا - تبارك وتعالى - بالخشوع فى الصلاة أمرنا كذلك فى الزكاة ، فلم يقل : مؤدون . ولكن ﴿ فَاعِلُونَ (٤) ﴾ [المؤمنون] وهذه من تربية مقامات العبادة فى الإنسان ، فأنت حين تصلى ينبغى أن تخشع وتخضع فى صلاتك لله ، وكذلك حين تُزكّى تُرقِّى ملكَة الخير فى نفسك ، فحين تعمل وتسعى لا تعمل على قَدْر حاجتك ، وإنما على قَدْر طاقتك ، فتأخذ من ثمرة سَعْيك حاجتك ، وفى نيتك أن تُخرج من الباقى زكاة مالك وصدقتك ، فالزكاة - إذن - فى بالك وفى نيتك بدايةً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) ﴾

الفروج : جمع فَرْج ، والمقصود سَوْءَتَا كُلٍّ من الرجل والمرأة ، وقد أمر الله تعالى بحفظها على المهمة التى خُلقت من أجلها ، ومهمة هذه الأعضاء إما إخراج عادم الجسم من بول أو غائط ، أو العملية الجنسية وهدفها حفْظ النسل ، وعلى الإنسان أن يحفظ فرجه على ما أحلَّه الله له فى قوله تعالى :

﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) ﴾

أى : يحفظون فروجهم إلا على أزواجهم ؛ لأن الله أحلها ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ (٦) ﴾ [المؤمنون] وملْك اليمين حلال لم يَعُد له موضع ،

ولم يَعُد له وجود الآن ، وقد حرم هذا القانون البشرى الدولى ، فلم يعد هناك إماء كما كان قبل الإسلام ، فهذا حكم مُعطّل لم يَعُدْ له مدلول ، وفرق بين أن يُعطّل الحكم لعدم وجود موضوعه وبين أن يُلْغى الحكم ، فملْك اليمين حكم لم يُلْغ ، الحكم قائم إنما لا يوجد له موضوع .

ولتوضيح هذه المسألة : هَبْ أنك فى مجتمع كله أغنياء ، ليس فيهم فقير ولا مستحق للزكاة عندها تقول : حكم الزكاة مُعطّل ، فهى كفريضة موجودة ، لكن ليس لها موضوع .

وبعض السطحيين يقولون : لقد ألغى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - سهام المؤلفة قلوبهم(١) ، والحقيقة أنه ما ألغى ولا يملك أن يُلغى حكماً من أحكام الله ، إنما لم يجد أحداً من المؤلّفة قلوبهم ليعطيه ، فالحكم قائم لكن ليس له موضوع ، بدليل أن حكم تأليف القلوب قائم ومعمول به حتى الآن فى بلاد المسلمين ، وكثيراً ما نحاول تأليف قلوب بعض الكُتّاب وبعض الجماعات لنعطفها نحو الإسلام ، خاصة وغيرنا يبذلون قصارى جهودهم فى ذلك . إذن : فسَهْم المؤلّفة قلوبهم ما زال موجوداً ويُعمل به .

كما نسمع مَنْ يقول : إن عمر - رضى الله عنه - عطّل حَدّ السرقة فى عام الرمادة ، وهذا ادعاء مخالف للحقيقة ؛ لأنه ما عطّل

---

(١) روى عبد الرحمن بن محمد المحاربى عن حجاج بن دينار عن ابن سيرين عن عبيدة قال : « جاء عيينة بن حصْن والأقرع بن حابس إلى أبى بكر فقالا : يا خليفة رسول الله ، إن عندنا أرضاً سبخة ليس فيها كلأ ولا منفعة فإن رأيت أن تعطيَنَاها ! فاقطعها إياهما وكتب لهما عليها كتاباً واشهد ، وليس فى القوم عمر ، فانطلقا إلى عمر ليشهد لهما ، فلما سمع عمر ما فى الكتاب تناوله من أيديهما ثم تَفَل فيه فمحاه ، فتذمرا وقالا مقالة سيئة ، فقال : إن رسول الله ﷺ كان يتألفكما والإسلام يومئذ قليل ، وإن الله قد أغنى الإسلام ، اذهبا فاجهدا جهدكما لا يرعى الله عليكما إن رعيتما » . [أورده أبو بكر الجصاص فى أحكام القرآن ٣/ ١٦٠] .

هذا الحد إنما عطَّل نصاً وأحيا نصاً ؛ لأن القاعدة الشرعية تقول : ادرأوا الحدود بالشبهات . وما دام قد سرق ليسُدَّ جَوْعته فلم يصل إلى نصاب السرقة ، فالسرقة تكون بعد قدر يكفى الضرورة .

ولقائل أن يقول : إذا دارت حرب بين المؤمنين والكافرين وأسروا منا وأسرنا منهم ، ألا يوجد حينئذ ملْك اليمين ؟ نقول : نعم يوجد ملْك اليمين ، لكن ستواجهك قوانين دولَية ألزمتَ نفسك بها وارتضيتها تقول بمنع الرقّ وعليك الالتزام بها ، لكن إنْ وُجد الرقُّ فملْك اليمين قائم وموجود . وهذه المسألة يأخذونها سُبّة فى الإسلام ، وكيف أنه يبيح للسيد كذا وكذا من ملْك يمينه .

وهذا المأخذ ناشىء عن عدم فهم هؤلاء للحكمة من ملْك اليمين ، وأن كرامة المملوكة ارتفعت بهذه الإباحة ، فالمملوكة أُخذتَ فى حرب أو خلافه ، وكان فى إمكان مَنْ يأخذها أن يقتلها ، لكن الحق سبحانه حمى دمها ، ونمَّى فى النفس مسألة النفعية ، فأباح لمَنْ يأسرها أن ينتفع بها وأحلّها له أيضاً .

ولك أن تتصور هذه الأَمَة أو الأسيرة فى بيت سيدها ومعه زوجة أو أكثر وهى تشاهد هذه العلاقات الزوجية فى المجتمع من حولها ، إن من حكمة الله أن أباح لسيدها معاشرتها ؛ لأنها لن ترى لربة البيت بعد ذلك مزيّة عليها ؛ لأنهما أصبحا سواء ، فإذا ما حملتْ من سيدها فقد أصبحتْ حُرَّة بولدها ، وكأن الحق سبحانه يُسيِّر الأمور تجاه العتْق والحرية . ألاَ تراه بعد هذا يفتح باب العتق ويُعدِّد أسبابه، فجعله أحد مصارف الزكاة وباباً من أبواب الصدقة وكفَّارة لبعض التجاوزات التى يرتكبها الإنسان .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ ﴾ [المؤمنون] يعنى : لا نمدحهم ولا نذمُّهم ، وكأن المسألة هذه فى أضيق نطاق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ ﴾

﴿ ابْتَغَىٰ ﴾ : طلب ، ﴿وراءَ ذَٰلكَ﴾ : غير ما ذكرناه من الأزواج وملْك اليمين .

وسبق أن ذكرنا أن كلمة ﴿وَرَاءَ﴾ استُعْملت في القرآن لمعَان عدة ، فهي هنا بمعنى غير الأزواج وملْك اليمين . ومن ذلك أيضاً قوله سبحانه : ﴿ .. وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلكُمْ ۝٢٤ ﴾ [النساء] يعني : حرَّمْت عليكم كذا وكذا ، وأحلَلْتُ لكم غير ما ذُكر .

وتُستعمل وراء بمعنى بَعْد ؛ لأن الغيرية قد تتحد في الزمن ، فيوجد الاثنان في وقت واحد ، أمّا البعدية فزمنها مختلف ، كما في قوله تعالى : ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ[1] فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۝٧١ ﴾ [هود] يعني : من بعده ؛ لأن الزمن مختلف .

وتأتي وراء بمعنى : خلف ، كما في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ۝١٨٧ ﴾ [آل عمران] يعني : جعلوه خلف ظهورهم .

وتأتي وراء أيضاً بمعنى أمام ، كما في قوله تعالى : ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧٩ ﴾ [الكهف] ومعلوم أن الملك كان أمامهم ينتظر كل سفينة تمرُّ به فيأخذها غَصْباً .

---

(١) روى الأزهري عن الفراء في تفسير هذه الآية : « إنما ضحكت سروراً بالأمن لأنها خافت كما خاف إبراهيم » وقال الفراء : وهو ما يحتمله الكلام والله أعلم ، وأما قولهم فضحكت : حاضت . فلم أسمعه من ثقة » أورده ابن منظور في لسان العرب ـ مادة : ضحك .

وقوله تعالى : ﴿ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ.. (١٦) ﴾ [إبراهيم] وجهنم أمامه ، وستأتى فيما بعد ، ولم تَمْض فتكون خلفه .

ومعنى : ﴿ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) ﴾ [المؤمنون] أى : المعتدون المتجاوزون لما شُرع لهم ، وربنا ـ تبارك وتعالى ـ حينما يُحذِّرنا من التعدى يُفرِّق بين التعدى فى الأوامر ، والتعدى فى النواهى ، فإنْ كان فى الأوامر يقول : ﴿ فَلا تَعْتَدُوهَا (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

وإن كان فى النواهى يقول : ﴿ فَلا تَقْرَبُوهَا (١٨٧) ﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) ﴾

﴿ رَاعُونَ ﴾ : يعنى يحافظون عليها ويراعونها بالتنفيذ ، والأمانة : كل ما استُؤمنْت عليه ، وأول شىء استُؤمنتَ عليه عهد الإيمان بالله الذى أخذه الله عليك ، وما دُمْت قد آمنت بالإله فعليك أن تُنفِّذ أوامره .

إذن : هناك أمانة للحق وأمانة للخَلْق ، أمانة الحق التى قال الله تعالى عنها :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

فما دُمْتَ قد قبلت تحمُّل الأمانة ، فعليك الأداء .

أما العهد : فكل ما يتعهد به الإنسان فى غير معصية ويلزمه الوفاء بما عاهد به ؛ لأنك حين تعاهد إنساناً على شىء فقد ربطْتَ حركته وقيدتها فى دائرة إنفاذ هذا العهد ، فحين تقول لى : سأقابلك غداً فى المكان الفلانى فى الوقت الفلانى لعمل كذا وكذا ، فإننى

سأُرتِّب حـركة حيـاتى بناءً على هذا الوعد ، فـإذا أخلفتَ وعدك فـقد أطلقتَ نفسك فى زمنك وتصـرفت حسْب راحتك ، وقيَّدْت حركتى أنا فى زمنى وضـيَّعت مصـالحى ، وأربكـت حركـة يومى ؛ لذلك شـدَّد الإسلام على مسألة خُلْف الوعد .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

فى الآيات السـابقة تحـدَّث عن الصلاة من حـيث هيئـة الخـشوع والخضوع فيها ، وهنا يذكر الصـلاة من حيث أدائها والحفاظ عليها ؛ لأن الحفظ يعنى أن تأخذ كل وقت من أوقات الصـلاة بميلاده وميلاد الأوقات بالأذان ، لكن البعض يقولون : إن الوقت مُمْـتدٌّ ، فالظهر مثلاً مُـمْـتـد من أذان الظهـر إلى قـبل أذان العـصـر ، وهـكذا فى باقى الصلوات .

نقول : نعم هذا صحيح والوقت مُمتد ، لكن مَنْ يضمن لك الحياة إلى آخـر الوقت ؟ مَنْ يضـمن لك أن تصلى العـشـاء مثـلاً قـبل أذان الفـجر ؟ نعـم ، تظل غيـر آثم إلى آخـر لحظة إذا تمكنتَ من الصـلاة وصلَّيْتَ ، لكن هل تضمن هذا ؟ كالذى يستطيع أن يحج ، إلا أنه أخَّر الحج إلى آخر أيامه ، فإنْ حج فلا شىء علـيه ، لكنه لا يضمن البقاء إلى أنْ يحج ؛ لذلك يجـب المبـادرة بالحج عند أول اسـتطاعـة حـتى لا تأثم إنْ فاتك وأنت قادر .

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ[1] ﴿١٠﴾ ﴾

(١) قال القـرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٤١) : « أى : يـرثون منازل أهل النار من الجنة . وفى الخـبر عن أبى هريـرة عن النبى ﷺ : « إن الله تعالى جـعل لكل إنسـان مـسكناً فى الجنة ومسكناً فى النار ، فأما المؤمنون فيأخذون منازلهم ويرثون منازل الكفار ويجعل الكفار فى منازلهم فى النار » خرجه ابن ماجه بمعناه » .

﴿ أُولَـٰئِكَ (١٠) ﴾ [المؤمنون] يعنى : أصحاب الصفات المتقدمة ، وهم ستة أصناف : الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون .

هؤلاء هم الوارثون ، والإرْث : أَخْذ حق من غير عقد أو هبة ؛ لأن أَخْذ مال الغير لا بُدَّ أن يكون إما ببيع وعقد ، وإما هبة من صاحب المال . لذلك سألوا الوارث : أهذا حقك ؟ قال : نعم ، قالوا : فما صكُّك عليه ؟ يعنى : أين العقد الذى أخذته به ؟ قال : عقدى وصكّى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ (١١) ﴾ [النساء] فهو عقد أوثق وأعلى من تعاقد البشر .

وما دام عقدى من الحق ـ تبارك وتعالى ـ فلا تقُلْ : إن الميراث مأخوذ بغير عقد ؛ لأنه قائم على أوثق العقود ، وهو العقد من الله .

وكثيراً ما يخرج الناس فى مسألة الميراث عما شرع الله حُباً فى المال واستئثاراً به ، أو بخلاً على مَنْ جعل له الشرع نصيباً ، فمَنْ كان عنده البنون والبنات يعطى البنين ويحرم البنات ، ومَنْ كان عنده بنات يكتب لهُنَّ ما يملك حتى يحرم إخوته وأعمامهم من حقهم فى ماله ، وهذا كثيراً ما يحدث فى المجتمع .

ويجب عليك أن تتنبه لمسألة الميراث وتحترم شرع الله فيه وتقسيم الله للمال ، فقد وهبك الله المال وتركك تتصرف فيه طوال حياتك ، وليس لك أن تتصرف فيه أيضاً بعد موتك ، عليك أنْ تدعَ المال لصاحبه وواهبه يتصرف فيه ؛ لذلك قال الله تعالى عن الإرث : ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ (١١) ﴾ [النساء] يعنى : ليست من أحد آخر ، وما دامت فريضة من الله فعليك أنْ تمتثل لها وتنفذها ، وحين تتأبَّى عليها فإنك تتأبَّى على الله وترفض قسْمته .

والمتأمل فى مسألة الإرث يجد الخيـر كل الخير فيما شرعه الله ، ومَنْ كان يحب البـنين فليُعْط البنات حتـى لا يفسد عـلاقة أولاده من بعده ، ويأتى إلينا بعض الرجـال الذين أخذوا كل مال أبيهـم وحَرَموا منه البنات ، يقولون : نريد أن نُصحِّح هذا الخطأ ونعـيد القسمة على ما شرع الله .

ونجـد عند بعض الناس إشـراقـات إيمـانيـة ، فـإنْ رفض بعض الإخوة إعادة التقسيم على شـرع الله يقول : أنا أتحمل ميراث أخواتى من مالى الخاص ، ومثل هؤلاء يفتح الله عليهم ويبارك لهم فيما بقى ؛ لأنهم جعلوا اعـتمادهم على الله فيزيـدهم من فضله ويُربى لهم القليل حتى يصير كثيراً ، أما مَنِ اعتمد على ما فى يده فإن الله يكِلُه إليه .

ونعجب من الذى يجعل ماله للبنات ليحرم منه إخوته ، نقول له : أنت لستَ عـادلاً فى هذا التـصـرف ، يجب أن تعـاملهم بالمـثل ، فلو تركت بناتك فقراء لا مال لهن ، فمَنْ يعولهُنَّ ويرعاهن من بعدك ؟ يعولهن الأعمام . إذن : لتكُنْ معاملة بالمثل .

والحق ـ تبـارك وتعـالى ـ حـين يُورث هذه الأصنـاف يورثهم بفضله وكرمه ، وقـد بيَّن النبى ﷺ ذلك بقوله : « لا يدخل أحد منكم الجنة بعـمله . قـالوا : ولا أنت يا رسـول الله ؟ قـال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته »[1] .

أمـا قوله تعـالى : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْـمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النحل] فـهذا خـاص بمجـرد دخـول الجنة ، أما الـزيادة فهى من فـضل الله ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [النساء]

---

(١) حديث متفق عليه . أخـرجه البخـارى فى صحيـحه (٦٤٦٣) ، وكذا مـسلم فى صحيـحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ومن أسمائه تعالى (الوارث) وقال : ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩)﴾ [الأنبياء] فماذا يرث الحق سبحانه وتعالى منّا ؟

لقد خلق الله الخَلْق ، وأعطى للناس أسباب ملكيته ، ووزَّع هذه الملكية بين عباده : هذا يملك كذا ، وهذا يملك كذا من فضل الله تعالى . فإذا كان يوم القيامة عاد المُلْك كله إلى صاحبه ، وكان الحق سبحانه وتعالىٰ هو الوارث الوحيد يوم يقول : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

والله خير الوارثين ؛ لأن الوارث يأخذ ما ورثه لينتفع هو به ، لكن الحق سبحانه يرث ما تركه للغير ليعود خَيْره عليهم ويزيدهم ، ويعطيهم أضعافاً مضاعفة ، وإذا كان يعطيهم فى الدنيا بأسباب فإنه فى الآخرة يرث هذه الأسباب ، ويعطيهم من فضله بلا أسباب ، حيث تعيش فى الجنة مستريحاً لا تعبَ ولا نصبَ ولا سَعْيَ ، وما يخطر ببالك تجده بين يديك دون أنْ تُحرِّك ساكناً .

إذن : البشر يرثون ليأخذوا ، أمّا الحق سبحانه فيرث ليعطى ؛ لذلك فهو خير الوارثين .

فأيُّ شيء يرثه المؤمنون الذين توفرت فيهم هذه الصفات ؟ يجيب الحق سبحانه :

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (١١)﴾

إذن : الحق سبحانه ورَّثهم فى الفانية ليعطيهم الفردوس الخالد فى الآخرة ، والفردوس أعلى الجنة ، فورث الحق لينفع عباده ويُصعِّد النفع لهم ، ففى الدنيا كنا ننتفع بالأسباب ، وفى الآخرة ننتفع بغير أسباب ، الحق ورث ليعطى ، لا مِثْل ما أخذ إنما فوق ما أخذ ؛ لأننا

نأخذ فى الميراث ما يفنى ، والله تعالى يعطينا فى ميراثه ما يبقى .

لكن مِمَّنْ يرثون الفردوس ؟

قالوا : الحق ـ تبارك وتعالى ـ عندما خلق الخَلْق ، وجعل فيهم الاختيار بين الإيمان والكفر ، وبين الطاعة والمعصية رتَّبَ على ذلك أموراً ، فجعل الجنة على فرض أن الخَلْق كلهم مؤمنون ، بحيث لو دخلوا الجنة جميعاً ما كانت هناك أزمة أماكن ولا زحام ، وكذلك جعل النار على فرض أن الخَلْق كلهم كافرون ، فلو كفر الناس جميعاً لكان لكل منهم مكانه فى النار .

وعليه فحين يدخل أهل الجنةِ الجنةَ يتركون أماكنهم فى النار ، وحين يدخل أهل النارِ النارَ يتركون أماكنهم فى الجنة ، فيرث أهل النار الأماكن الشاغرة فيها ، ويرث أهل الجنة الأماكن الشاغرة فيها .

والفردوس أعلى مكان فى الجنة ، لذلك كان النبى ﷺ يقول : « إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة »(١) ذلك ؛ لأن الفردوس جنة على أعلى رَبْوة فى الجنة . يعنى : فى مكان مُميّز منها ، والعلو فى مسألة المسكن والجنان أمر محبوب فى الدنيا ، الناس يُحبون السُّكْنى فى الأماكن العالية ، حيث نقاء الهواء ونقاء الماء ، ألاَ تراهم يزرعون فى المرتفعات ، وإنْ كانت الأرض مستوية يجعلون فيها مصارف منخفضة تمتصُّ الماء الزائد الذى يفسد الزرع ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ (٢٦٥) ﴾ [البقرة]

كذلك الأرض المرتفعة لا تُسْقَى بالماء الغمر ، إنما تُسْقَى من ماء

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٣٣٥ ، ٣٣٩) ، والبخارى فى صحيحه (٧٤٢٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

السماء الذى يغسل الأوراق قبل أن يروى الجذور ، فيكون النبات على أفضل ما يكون ؛ لذلك يقول عنها رب العزة : ﴿ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴿٢٦٥﴾ ﴾ [البقرة]

ومعلوم أن الأوراق هى رئة النبات ، وعليها تقوم عملية التمثيل الضوئى التى يصنع منها النبات غذاءه ، فإذا ما سُدَّت مسام الأوراق وتراكم عليها الغبار فإن ذلك يُقلِّل من قدرة النبات على التنفس ، مثل الإنسان حينما يُصَاب بشىء فى رئته تزعجه وتُقلِّل من كفاءته .

وفى الفردوس ميزة أخرى هى أن الحق سبحانه وتعالى هو الذى غرس شجرها بيده ، كما كرَّم آدم عليه السلام فخلقه بيده تعالى ، فقال : ﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ.. ﴿٧٥﴾ ﴾ [ص]

ويُروى أن الحق - تبارك وتعالى - لما خلق الفردوس ، وغرس أشجارها بيده قال للفردوس[1] : تكلمى ، فلما تكلمت الفردوس قالت : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾ [المؤمنون]

ثم يقول تعالى : ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المؤمنون] لأن نعيم الجنة باقٍ ودائم لا ينقطع ، وقد عرفنا أن نعيم الدنيا موقوت مهما أُوتى الإنسان منه ، فإنه منقطع زائل ، إما أنْ يتركك بالفقر والحاجة ، وإما أنْ تتركه أنت بالموت ، لذلك يقول تعالى فى نعيم الآخرة : ﴿ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الواقعة]

وهكذا نلحظ على استهلال هذه السورة أن الحق سبحانه بدأ بالكلام عن الفلاح فى الآخرة كأنه قدَّم ثمرة الإيمان أولاً ، ووضع

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/٣٩٢) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال ﷺ : « خلق الله جنة عدن ، وغرس أشجارها بيده فقال لها : تكلَّمى ، فقالت : قد أفلح المؤمنون » . قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقال الذهبى فى تلخيصه : بل ضعيف .

الجزاء بداية بين يديك كأنه سبحانه يقول لك : هذا جزاء مَنْ آمن بى واتبع منهجى . كما جاء فى قوله تعالى فى استهلال سورة (الرحمن) : ﴿ الرَّحْمَـٰنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ② خَلَقَ الإِنسَانَ ③ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ④ ﴾ [الرحمن] كيف وقد خلق الله الإنسان أولاً ، ثم علَّمه القرآن ؟

قالوا : لأن الذى يصنع صنعة يضع لها قانونها ، ويُحدِّد لها مهمتها أولاً قبل أن يشرع فى صناعتها ، فمثلاً - ولله المثل الأعلى - الذى يصنع الثلاجة ، قبل أن يصنعها حدد عملها ومهمتها وقانون صيانتها والغاية منها .

والقرآن هو منهج الإنسان ، وقانون صيانته فى حركة الحياة ؛ لذلك خلق الله المنهج ووضع قانون الصيانة قبل أن يخلق الإنسان .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ⑫ ﴾

سبق أن تكلمنا عن خَلْق الإنسان ، وعرفنا أن الخالق - عز وجل - خلق الإنسان الأول ، وهو آدم عليه السلام من طين ، ومن أبعاضه خلق زوجه ، ثم بالتزاوج جاء عامة البشر كما قال تعالى : ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ① ﴾ [النساء]

ومسألة خَلْق السماء والأرض والناس مسألة احتفظ الله بها ، ولم يطلع عليها أحد ، كما قال سبحانه : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ⑤١ ﴾ [الكهف]

فلا تُصْغ إلى هؤلاء المضلين فى كل زمان ومكان ، الذين يدَّعون العلم والمعرفة ، ونسمعهم يقولون : إن العالم كان كتلة واحدة تدور بسرعة فانفصل عنها أجزاء كوَّنَت الأرض .. الخ وعن الإنسان

يقولون : كان أصله قرداً ، إلى آخر هـذه الخرافات التى لا أساسَ لها من الصحة .

لذلك أعطانا الله تعالى المناعة الإيمانية التى تحمينا أنْ ننساق خلف هذه النظريات ، فأخبرنا سبحانه خبر هؤلاء وحذرنا منهم ؛ لأنهم ما شهدوا شيئاً من الخَلْق ، ولم يتخذهم الله أعواناً فيقولون مثل هذا الكلام . إذن : هذا أمر استأثر الله بعلمه ، فلا تأخذوا علمه إلاَّ مما أخبركم الله به .

وكلمة الإنسان اسم جِنس تطلق على المفرد والمثنى والجمع ، والمذكر والمؤنث ، فكل واحد منا إنسان ، بدليل أن الله تعالى استثنى من المفرد اللفظ جمعاً فى قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا.. (٣) ﴾ [العصر] فاستثنى من المفرد الجماعة .

ومعنى ﴿ خَلَقْنَا (١٢) ﴾ [المؤمنون] أوجدنا من عدم ، وسبق أن قلنا : إن الله تعالى أثبت للبشر صفة الخَلْق أيضاً مع الفارق بين خَلْق الله من عدم وخَلْق البشر من موجود ، وخَلْق الله فيه حركة وحياة فينمو ويتكاثر ، أما ما يخلق البشر فيجمد على حاله لا يتغير ؛ لذلك وصف الحق سبحانه ذاته فقال :

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

أما قَوْل القرآن حكايةٌ عن عيسى عليه السلام : ﴿ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ.. (٤٩) ﴾ [آل عمران] فهذه من خاصياته عليه السلام ، والإيجاد فيها بأمر من الله يُجريه على يد نبيه .

فالمعنى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ.. (١٢) ﴾ [المؤمنون] أى : الإنسان الأول ، وهو آدم عليه السلام ﴿ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ﴾ [المؤمنون] والسلالة : خلاصة الشيء تُسَلُّ منه كما يُسَلُّ السيف من غِمْده أى :

الجراب الذى يُوضَع فيه ، فالسيف هو الأداة الفتاكة الفاعلة ، أما الغِمْد فهو مجرد حافظ وحامل لهذا الشىء الهام .

فالسلالة ـ إذن ـ هى أجود ما فى الشىء ، وقد خلق الله الإنسان الأول من أجود عناصر الطين وأنواعه ، وهى زُبْد الطين ، فلو أخذتَ قبضة من الطين وضغطتَ عليها بين أصابعك يتفلَّتْ منها الزبد ، وهو أجود ما فى الطين ويبقى فى قبضتك بقايا رمال وأشياء خشنة .

ولما أحب سيدنا حسان بن ثابت أنْ يهجوَ قريشاً لمعاداتهم لرسول الله ﷺ قال : إئذن لى يا رسول الله أنْ أهْجُوهم من على المنبر فقال ﷺ : « أتهجوهم وأنا منهم ؟ » فقال حسان : أسلُّك منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين[1] .

وتُطلَق السلالة على الشىء الجيد فيقولون : فلان من سلالة كذا ، وفلان سليل المجد . يعنى : فى مقام المدح ، حتى فى الخيل يحتفظون لها بسلالات معروفة أصيلة ويُسجِّلون لها شهادات ميلاد تثبت أصالة سلالتها ، ومن هنا جاءت شهرة الخيل العربية الأصيلة .

وقد أثبت العلم الحديث صدْق هذه الآية ، فبالتحليل المعملىّ التجريبى أثبتوا أن العناصر المكوِّنة للإنسان هى نفسها عناصر الطين ، وهى ستة عشر عنصراً ، تبدأ بالأكسوجين ، وتنتهى بالمنجنيز ، والمراد هنا التربة الطينية الخصْبة الصالحة للزراعة ؛ لأن الأرض عامة بها عناصر كثيرة قالوا : مائة وثلاثة عشر عنصراً .

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٣١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٤٨٩) عن شيخهما عثمان بن أبى شيبة بسنده إلى عائشة رضى الله عنها .

يعنى : بعد أن جعلناه بشراً مُسْتوياً فيه روح جعلناه يتكاثر من نفسه ، وكما خلقناه من خلاصة الطين فى الإنسان الأول نخلقه فى النسْل من خلاصة الماء وأصفى شىء فيه ، وهى النطفة ؛ لأن الإنسان يأكل ويشرب ويتنفس ، والدم يمتص خلاصة الغذاء ، والباقى يخرج على هيئة فضلات ، ثم يُصفَّى الدم ويرشح فى الرئة وفى الكلى ، ومن خلاصة الدم تكون طاقة الإنسان وتكون النطفة التى يخلق منها الإنسان . إذن : فهو حتى فى النطفة من سلالة مُنْتقاة .

والنطفة التى هى أساس خَلْق الإنسان تعيش فى وسط مناسب هو السائل المنوى ، لذلك قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ﴾ [القيامة] ثم جعلنا هذه النطفة ﴿ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ﴾ [المؤمنون] قرار : يعنى مُستقر تستقر فيه النطفة ، والقرار المكين هو الرحم خلقه الله على هذه الهيئة ، فحصّنه بعظام الحوض ، وجعله مُعداً لاستقبال هذه النطفة والحفاظ عليها .

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ (١٤) ﴾

يقول العلماء : بعد أربعين يوماً تتحول هذه النطفة إلى علقة ، وسُمِّيَتْ كذلك لأنها تعلَق بجدار الرحم ، والعلماء يسمونها الزيجوت ، وهى عبارة عن بويضة مُخصَّبة ، وتبدأ فى أخذ غذائها منه .

ومن عجائب قدرة الله فى تكوين الإنسان أن المرأة إذا لم تحمل ينزل عليها دم الحيض ، فإذا ما حملتْ لا ترى الحيض أبداً ، لماذا ؟ لأن هذا الدم ينزل حين لم تكُنْ له مهمة ولا تستفيد به الأم ، أمّا وقد حدث الحمل فإنه يتحول بقدرة الله إلى غذاء لهذا الجنين الجديد .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً..(١٤) ﴾ [المؤمنون] وهى قطعة صغيرة من اللحم على قَدْر ما يُمضَغ ، وسبق أن قلنا : إن المضغة تنقسم بعد ذلك إلى مُخلَّقة وغير مُخلَّقة ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ..(٥) ﴾ [الحج] هذا على وجه التفصيل ، أما فى الآية التى معنا فيُحدِّثنا عن أطوار الخلق عامة ، حتى لا نظن أن القرآن فيه تكرار كما يدَّعِى البعض .

المضْغة المخلَّقة هى التى يتكوّن منها جوارح الإنسان وأعضاؤه ، وغير المخلَّقة تظل كما قلنا : احتياطياً لصيانة ما يتلف من الجسم ، كما يحدث مثلاً فى الجروح وما شابه ذلك من عطب يصيب الإنسان ، فتقوم غير المخلَّقة بدورها الاحتياطى .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ..(١٤) ﴾ [المؤمنون] لأنه كان فى كل هذه الأطوار : النطفة ، ثم العلقة ، ثم المضغة ، ثم العظام واللحم ما يزال تابعاً لأمه متصلاً بها ويتغذّى منها ، فلما شاء الله له أنْ يُولَد ينفصل عن أمه ليباشر حياته بذاته ؛ ولذلك نجد لحظة انفصال الجنين عن أمه فى

عملية الولادة مسألة صعبة ؛ لأنه سيستقبل حياة ذاتية تستلزم أن تعمل أجهزته لأول مرة ، وأول هذه الأجهزة جهاز التنفس .

ومن رحمة الله بالجنين أن ينزل برأسه أولاً ليستطيع التنفس ، ثم يخرج باقى جسمه بعد ذلك ، فإن حدث العكس ونزل برجليه فربما يموت ؛ لأنه انفصل عن تبعيته لأمه ، وليس له قدرة على التنفس ليحتفظ بحياته الذاتية الجديدة ؛ لذلك فى هذه الحالة يلجأ الطبيب إلى إجراء عملية قيصرية لإنقاذ الجنين من هذا الوضع ، وقبل أن يختنق .

ولما كانت مسألة خَلْق الإنسان فيها كثير من العِبَر والآيات ودلائل القدرة طوال هذه المراحل التى يتقلّب فيها الإنسان ، ناسب أنْ تختم الآية بقوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون] لأنك حين تقف وتتأمل قدرة الله فى خَلْق الإنسان لا تملك إلا أنْ تقول : سبحان الله ، تبارك الله الخالق .

لذلك يروى أن رسول الله ﷺ حينما قرأ هذه الآية سبق عمر فقال (فتبارك الله أحسن الخالقين) فقال ﷺ للكاتب : اكتبها فقد نزلت[(١)] ، لأنها انفعال طبيعى لقدرة الله ، وعجيب صُنْعه ، وبديع خلقه ، وهذا نوع من التجاوب بين السليقة العربية واللسان العربى وبين أسلوب القرآن الذى جاء بلسان القوم .

---

(١) أثر عمر : أخرجه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن صالح أبى الخليل أن رسول الله ﷺ قال : « والذى نفسى بيده ، إنها ختمت بالذى تكلمت يا عمر » [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٩٢] .

ويقال : إن سيدنا معاذ بن جبل نطق بـها أيضاً[1] ، وكذلك نطق بها رجل آخر هو عبد الله بن سعد بن أبي السرح[2] ، مع اختلاف في نتيجة هذا النطق : لما نطق بها عمر ومعاذ رضي الله عنهما كان استحساناً وتعجباً ينتهي إلى الله ، ويُقرّ له سبحانه بالقدرة وبديع الصُّنْع .

أما ابن أبي السرح فقد قالها كذلك تعجباً ، لكن لما وافق قولُه قولَ القرآن أُعْجِب بنفسه ، وادعى أنه يُوحَى إليه كما يُوحَى إلى محمد ، ولم لا وهو يقول كما يقول القرآن ، ومع ذلك هو ما يزال مؤدباً يدَّعي مجرد أنه يوحَى إليه ، لكن زاد تعاليه وجَرَّه غروره إلى أنْ قال : سأنزل مثلما أنزل الله ، فليس ضرورياً وجود الله في هذه المسألة ، فارتدّ والعياذ بالله بسببها ، وفيه نزل قول الله تعالى :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ..(٩٣) ﴾ [الأنعام]

وظل ابن أبي السرح إلى فتح مكة حيث شفع فيه عثمان رضي الله عنه عند رسول الله ﷺ ، فلما رأى رسول الله حرْص عثمان عليه سكت ، ولم يقُلْ فيه شيئاً ، وعندها أخذه عثمان رضي الله عنه

---

(١) أثر معاذ بن جبل : أخرجه ابن راهويه وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وابن مردويه عن زيد بن ثابت قال : أملى عليّ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ﴾ [المؤمنون] إلى قوله ﴿ خَلْقًا آخَرَ..(١٤) ﴾ [المؤمنون] فقال معاذ بن جبل : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فضحك رسول الله ﷺ ، فقال له معاذ : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : إنها ختمت ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون] .

(٢) هو : عبد الله بن سعد أبي سرح القرشي العامري ، من بني عامر بن لؤيّ فاتح أفريقية ، أسلم قبل فتح مكة ، كان من كتّاب الوحي ، وكان على ميمنة عمرو بن العاص حين افتتح مصر ووليها بعده لمدة ١٢ عاماً ، دانت له أفريقية كلها وهزم الروم في معركة « ذات الصواري » عام ٣٤ هـ . توفي عام ٣٧ هـ . [الأعلام للزركلي ٤/ ٨٩] .

وانصرف ، فقال النبى ﷺ لصحابته : « أما كان فيكم مَنْ يُجهز عليه ؟ » فقالوا : يا رسول الله لو أومأتَ لنا برأسك ؟ يعنى : أشرْتَ إلينا بهذا ، انظر هنا إلى منطق النبوة ، قال ﷺ : « لا ينبغى أن يكون لنبى خائنة الأعين »[1] يعنى : هذا تصرُّف لا يليق بالأنبياء ، فلو فعلتموها من أنفسكم كان لا بأس .

ثم بعد ذلك تحل بركة عثمان على ابن أبى السرح فيُؤمن ويَحْسُن إسلامه ، ثم يُولَّى مصر ، ويقود الفتوحات فى إفريقيا ، ويتغلب على الضجة التى أثاروها فى بلاد النوبة ، وكأن الله تعالى كان يدخره لهذا الأمر الهام .

وبعد هذه العجائب التى رأيناها فى مراحل خَلْق الإنسان وخروجه إلى الحياة والإقرار لله تعالى بأنه أحسن الخالقين ، يُذكِّرنا سبحانه بأن هذه الحياة لن تدوم ، فيقول تبارك وتعالى :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ﴾

ولك أنْ تسأل : كيف يُحدِّثنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن مراحل الخَلْق ، ثم يُحدِّثنا مباشرة عن مراحل الموت والبعث ؟

نقول : جعلهما الله تعالى معاً لتستقبل الحياة وفى الذِّهْن وفى الذاكرة ما ينقض هذه الحياة ، حتى لا تتعالى ولا تغفل عن هذه النهاية ولتكُنْ على بالك ، فتُرتِّب حركة حياتك على هذا الأساس .

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٢٦٨٣) ، والنسائى فى سننه (١٠٦/٧) من حديث سعد بن أبى وقاص ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآنى كففت يدى عن بيعته فيقتله ؟ فقالوا : ما ندرى يا رسول الله ما فى نفسك ، ألا أومأت إلينا بعينك . قال : « إنه لا ينبغى لنبى أن تكون له خائنة الأعين » .

ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً.. ۝٢ ﴾ [الملك] كأنه سبحانه ينعى إلينا أنفسنا قبل أنْ يخلق فينا الحياة ، وقدَّم الموت على الحياة حتى تستقبل الحياة وتستقبل قبلها الموت الذى ينقضها فلا تغتر بالحياة ، وتعمل لما بعد الموت .

وقد خاطب الحق ـ سبحانه وتعالى ـ نبيه ﷺ بقوله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ﴾ [الزمر] البعض يظن أن ميِّت بالتشديد يعنى مَنْ مات بالفعل ، وهذا غير صحيح ، فالميِّت بتشديد الياء هو ما يؤول أمره إلى الموت ، وإنْ كان ما يزال على قيد الحياة ، فكلنا بهذا المعنى ميِّتون ، أمّا الذى مات بالفعل فهو ميْت بسكون الياء ، ومنه قول الشاعر[1] :

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ إنما الميْتُ ميِّتُ الأحْياءِ[2]

ومعنى : ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ۝١٥ ﴾ [المؤمنون] يعنى : بعد أطوار الخلْق التى تقدمت من خلْق الإنسان الأول من الطين إلى أنْ قال سبحانه : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤ ﴾ [المؤمنون]

والمتأمل فى هذه الآية وهى تُحدِّثنا عن الموت الذى لا ينكره أحد ولا يشكّ فيه أحد ، ومع ذلك أكدها الحق ـ تبارك وتعالى ـ بأداتين من أدوات التوكيد : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ﴾ [المؤمنون] فأكّدها بإنّ وباللام ، ومعلوم أننا لا نلجأ إلى التوكيد إلا حين يواجهنا منكر ، فيأتى التأكيد على قَدْر ما يواجهك من إنكار ، أما خالى الذهن فلا يحتاج إلى توكيد .

(١) هو : عدى بن الرعلاء الغسانى . شاعر جاهلى ، اشتهر بنسبته إلى أمه ، وضاع اسم أبيه . [الأعلام للزركلى ٤/ ٢٢٠] .

(٢) ذكره ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة : موت .

تقول مثلاً لخالى الذهن الذى لا يشك فى كلامك : يجتهد محمد ، فإنْ شك تؤكد له بالجملة الاسمية التى تفيد ثبوت واستقرار الصفة : محمد مجتهد ، وتزيد من تأكيد الكلام على قدر الإنكار ، فتقول : إن محمداً مجتهد ، أو إن محمداً لمجتهد ، أو والله إن محمداً لمجتهد . هذه درجات للتأكيد على حسْب حال مَنْ تخاطبه .

إذن : أكّد الكلام عن الموت الذى لا يشكّ فيه أحد ، فقال : ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ⑮﴾ [المؤمنون] ومع ذلك لما تكلَّم عن البعث وهو محلّ الشك والإنكار قال سبحانه :

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ⑯﴾

ولم يقُلْ : لتبعثون كما قال ﴿لَمَيِّتُونَ ⑮﴾ [المؤمنون] فكيف يؤكد ما فيه تصديق وتسليم ، ولا يؤكد ما فيه إنكار ؟

قالوا : نعم ؛ لأن المتكلم هو الله تعالى ، الذى يرى غفلتكم عن الموت رغم وضوحه ، فلما غفلتم عنه كنتم كالمكذِّبين به المنكرين له ، لذلك أكد عليه ، لذلك يقال : « ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت » فالكل يعلم الموت ويعاينه ، لكن يبعده عن نفسه ، ولا يتصوّره فى حقه .

أما البعث والقيامة فأدلتها واضحة لا يصح لأحد أنْ ينكرها ؛ لذلك جاءت دون توكيد : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ⑯﴾ [المؤمنون] فأدلة البعث أوضح من أن يقف العقل فيها أو ينكرها ؛ لذلك سأطلقها إطلاقاً دون مبالغة فى التوكيد ، أمّا مَنْ يتشكك فيه أو ينكره ، فهذا نؤكد له الكلام ، فانظر إلى بصر الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بعقليات خَلْقه وبنفوسهم وملَكَاتهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) ﴾

نلحظ أن للعدد سبعة مواقف فى هذه السورة وأسراراً يجب أن نتأملها ، ففى استهلال السورة ذكر سبحانه سبعة أصناف : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ .. (٢) ﴾ [المؤمنون]

وفى مراحل خَلْق الإنسان نجده مَرَّ بسبعة أطوار : سلالة من طين ، ثم نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاماً ، ثم لحماً ، ثم أنشأناه خَلْقاً آخر .

وهنا يقول : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ .. (١٧) ﴾ [المؤمنون]

وفى موضع آخر قال : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ .. (١٢) ﴾ [الطلاق]

فهذه سبعة للغاية ، وسبعة للمغيًّا له ، وهو الإنسان ، وسبعة للسماوات والأرض المخلوقة للإنسان .

وطرائق : جمع طريقة أى : مطروقة للملائكة ، والشىء المطروق ما له حجم يتسع بالطَّرْق ، كما تطرق قطعة من الحديد مثلاً ، فانظر إلى السماء واتساعها . وقُلْ : سبحان مَنْ طرقها .

وتلحظ أن الحق سبحانه لم يذكر هنا الأرض ، لماذا ؟ قالوا : لأن الأرض نقف عليها ثابتين لا نخاف من شىء ، إنما الخوف من السماء أنْ تندكّ فوقنا ؛ لذلك يقول سبحانه بعدها : ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ

الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) ﴾ [المؤمنون] فلن نغفل عن السماء من فوقكم ، وسوف نُمسكها بأيدينا ، كما قال سبحانه : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ.. (٤١)** ﴾ [فاطر]

ثم يعطينا الحق ـ تبارك وتعالى ـ الدليل الحسيّ على هذه الآية ، وكيف أن الله تعالى رفع السماء فوقنا بلا عَمَد ، ومثال ذلك الطير يُمسكه الله في السماء : ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ.. (١٩)** ﴾ [الملك]

نعلم أن الطير يطير في السماء بحركة الجناحين التي تدفع الهواء وتقاوم الجاذبية فلا يسقط ، كالسباح الذي يدفع بذراعيه الماء ليسبح ، فإذا ما قبض الطائر جناحيه ومع ذلك يظل مُعلّقاً في السماء لا يسقط فمَنْ يُمسكه في هذه الحالة ؟ هذه صورة تشاهدونها لا يشكّ فيها أحد ، فإذا قلت لكم أني أمسك السماء أن تقع على الأرض فصدّقوا وآمنوا ، واستدلوا على الغيب بالمشاهد .

وكأن الحق سبحانه في قوله : ﴿ **وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧)** ﴾ [المؤمنون] يقول : اطمئنوا إلى السماء من فوقكم ، فقد جعلتُ لها التأمينات اللازمة التي تُؤمِّن معيشتكم تحت سقفها ، اطمئنوا لأنها بأيدينا وفي رعايتنا .

لكن ، ما المراد بقوله ﴿ **عَنِ الْخَلْقِ.. (١٧)** ﴾ [المؤمنون] أهو الإنسان أم خَلْق السماء ؟ المراد : ما كُنَّا غافلين عن خَلْق السماء ، فبنيناها على ترتيبات ونظم تحميكم وتضمن سلامتكم .

والغفلة : تَرْك شيء لأنه غاب عن البال ، وهذه مسألة لا تكون أبداً في حق الله ـ عز وجل ـ لأنه لا تأخذه سِنَة ولا نوم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول تعالى عن الماء : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [المؤمنون] فهل الماء مَقرُّه السماء ؟ لا ، الماء مقرُّه الأرض ، كما جاء في قول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت]

لما استدعى الخالق ـ عز وجل ـ الإنسان إلى هذا الوجود جعل له في الأرض مُقوِّمات استبقاء حياته من الهواء والقوت والماء ، والإنسان كما قلنا يستطيع أن يصبر على الطعام ، وصبره أقل على الماء ، لكن لا صبرَ له على الهواء ؛ لذلك شاءت قدرة الله ألاّ يُملّكه لأحد ؛ لأنه مُقوِّم الحياة الأول ، فالغلاف الجوى والهواء المحيط بالأرض تابع لها وجزء منها داخل تحت قوله : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت] بدليل أنهم حينما يخرجون عن نطاق الأرض يمتنع الهواء .

ومن حكمة الخالق ـ عز وجل ـ وقدرته أنْ جعل الماء على الأرض مالحاً ؛ لأن الملح أساس في صلاح الأشياء التي يطرأ عليها الفساد ، فالماء العذب عُرضة للتغيُّر والعطن ، وبالملح نصلح ما نخشى تغيُّره فنضعه على الطعام ليحفظه ونستخدمه في دباغة الجلود .. الخ

لذلك قال الشاعر :

يَا رِجَالَ الدينِ يا مِلْحَ البَلَدِ مَنْ يُصلح الملحَ إذَا المِلْحُ فَسَدَ

إذن : أصل الماء فى الأرض ، لكن ينزلِ من السماء بعد عملية البَخْر التى تُصفيه فينزل عَذْباً صالحاً للشرب وللرى ، وقلنا : إن الخالق سبحانه جعل رقعة الماء على الأرض أكبر من رقعة اليابسة حتى تتسع رقعة البَخْر ، ويتكون المطر الذى يكفى حاجة أهل الأرض .

ومن رحمة الله بنا أن ينزل الماء من السماء ﴿ بِقَدَرٍ (١٨) ﴾ [المؤمنون] يعنى : بحساب وعلى قَدْر الحاجة ، فلو نزل هكذا مرة واحدة لأصبح طوفاناً مُدمّراً ، كما حدث لقوم نوح ولأهل مأرب . وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) ﴾ [الحجر]

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ.. (١٨) ﴾ [المؤمنون] لأننا نأخذ حاجتنا من ماء المطر ، والباقى يتسرب فى باطن الأرض ، كما قال سبحانه : ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ (٢١) ﴾ [الزمر] ومن عجيب قدرة الله فى المياه الجوفية أنها تسير فى مسارب مختلفة ، بحيث لا يختلط الماء العَذْب بالماء المالح مع ما يتميز به الماء من خاصية الاستطراق ، والعاملون فى مجال حفر الآبار يجدون من ذلك عجائب ، فقد يجدون الماء العَذْب بجوار المالح ، بل وفى وسط البحر لأنها ليست مستطرقة ، إنما تسير فى شعيرات ينفصل بعضها عن بعض .

والمياه الجوفية مخزون طبيعى من الماء نُخرجه عند الحاجة ، ويُسعفنا إذا نَضَبَ الماء العَذْب الموجود على السطح ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ.. (١٨) ﴾ [المؤمنون] ليكون احتياطياً لحين الحاجة إليه ، فإذا جَفَّ المطر تستطيعون أن تستنبطوه .

ثم يُذكِّرنا الحق سبحانه بقدرته على سَلْب هذه النعمة ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى : سيروا فى هذه النعمة سَيْراً لا يُعرِّضها للزوال ، وقال فى موضع آخر : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الملك]

وحين تَعُدّ نعَم الله التى امتنّ علينا بها بداية من نعمة الماء : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [المؤمنون] تجدها أيضاً سبعة . ويبدو أن لهذا العدد أسراراً فى هذه السورة ، فقد ذكر من أوصاف المؤمنين سبعة ، ومن مراحل خَلْق الإنسان سبعاً ، ومن السماء والأرض سبعة ، وهنا يذكر من نعمه علينا سبعة ؛ لذلك كان للعلماء وقفات عند هذا العدد بالذات .

وأذكر ونحن فى المملكة السعودية وكنت أستاذاً فى كلية الشريعة ومعى بعض الأساتذة ورئيس بعثتنا الشيخ زكى غيث ـ رحمه الله وغفر الله له ـ ورئيس بعثة المعارف الأستاذ صلاح بك الباقر ، وكان دائماً ما يجلس معنا شيخ علماء المملكة فى هذا الوقت السيد إسحق عزوز ، وكان يجمعنا كل ليلة الفندق الذى نقيم فيه ، وكنا نتدارس بعض قضايا العلم .

وقد أثار الشيخ إبراهيم عطية قضية هذا العدد فى القرآن الكريم ، وكان يقرأ فى تفسير القرطبى فوجد فيه : قال عمر بن الخطاب لابن عباس : يا ابن عباس أتعرف متى ليلة القدر ؟ فقال ابن عباس : أغلب الظن أنها ليلة السابع والعشرين ، فلما سمعنا هذا الكلام قلنا : هذه سبعة ، وهذه سبع وعشرون ، فلما اختلفنا اقترح علينا الشيخ محمد أبو على ـ أطال الله عمره ـ أن نذهب لنصلى فى الحرم بدل أن نصلى فى الفندق عملاً بسنة رسول الله ﷺ ، وقد كان كلما حزبه أمر يقوم

إلى الصلاة ، وقلنا : ربما يفتح الله علينا فى هذه المسألة .

وبعد أن صلينا جلسنا نناقش هذه المسألة ، فإذا برجل لا نعرفه على سمة المجاذيب غير مهتم بنفسه ، يجلس بجوارنا ويُنصت لما نقول ، ثم شاركنا الكلام وقال : ألم يقُل رسول الله ﷺ : « التمسوها فى العشر الأواخر من رمضان »[1] ؟ إذن : فدعكم من العشرين يوماً ، واحسبوا فى العشر الأواخر ، ثم نظرنا فلم نجده ، كأن وحدة الزمن التى توجد بها ليلة القدر هى هذه العشر ، وكأنها بهذا المعنى ليلة السابع ، وهذه أيضاً من أسرار هذا العدد ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾ [يوسف]

أطال الله فى عمر مَنْ بقى من هؤلاء ، وغفر الله لمن ذهب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) ﴾

الجنة : المكان الملىء بالأشجار العالية والمزروعات التى تستر مَنْ يسير فيها ، أو تستره عن الخارج ، فلا يحتاج فى متطلبات حياته إلى غيرها ، فهى من الكمال بحيث تكفيه ، فلا يخرج عنها . واختار هذه الأنواع ﴿ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ (١٩) ﴾ [المؤمنون] لما لها من منزلة عند العرب ، وقال ﴿ فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ (١٩) ﴾ [المؤمنون] لأنه لم يحصر جميع الأنواع .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٢١) من حديث ابن عباس ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (١١٦٦) كتاب الصيام عن أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ « أريت ليلة القدر ، ثم أيقظنى بعض أهلى فنسيتها فالتمسوها فى العشر الغوابر » .

﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

الطور : جبل منسوب إلى سيناء ، وسيناء مكان حسن ؛ لأن الله بارك فيها ، والطور كلَّم الله عليه موسى ، فهو مكان مبارك ، كما بارك الله أرض بيت المقدس فقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء]

ومعنى ﴿ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المؤمنون] الدهن هو الدَّسَم ، والمراد هنا شجرة الزيتون التى يستخرجون منها الزيت المعروف ﴿ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى : يتخذونه إداماً يغمسون فيه الخبز ويأكلونه ، وهو من أشْهَى الأكلات وألذّها عند مَنْ يزرعون الزيتون فى سيناء وفى بلاد الشام ، وقد ذُقْنا هذه الأكْلة الشهيرة فى لبنان ، عندما ذهبنا إليها فى موسم حصاد الزيتون .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

الأنعام : يُراد بها الإبل والبقر ، وألحق بالبقر الجاموس ، ولم يُذكَر لأنه لم يكُنْ موجوداً بالبيئة العربية ، والغنم وتشمل الضأن والماعز ، وفى سورة الأنعام يقول تعالى : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ.. ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأنعام]

ويقال فيها : أنعام ونَعَم (بفتح النون والعين) .

والعبرة : شىء تعتبرون به وتستدلُّون به على قدرة الله وبديع صُنْعه فى خَلْق الأنعام .

لكن ، ما العـبرة فى خَلْق هذه الأنعـام ؟ الحق ـ سبحـانه وتعالى ـ تكلَّم عن خَلْق الإنسان ، وأنه تعـالى خلقه من صفوة وخـلاصة وسلالة من الطين ومن النطفة ، وهكذا فى جميع أطوار خَلْقه . وفى الأنعام ترى شيئاً من هذا الاصطفاء والاختيار ، فالأنعام تأكل من هنا وهناك وتجمع شتى الأنواع من المأكولات ، ومن هذا الخليط يخرج الفَرْث ، وهو مُنْتن لا تطيق رائحته ويتكون دم الحيـوان ، ومن بين الفَرْث والدم يُصفِّى لك الخالق ـ عز وجل ـ لبناً خالصاً ، وهذه سلالة أيضاً وتصفية .

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ [1] وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) ﴾ [النحل]

ونلحظ أن الآية التى معنا تقول : ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا (٢١) ﴾ [المؤمنون] وفى آية النحل : ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ (٦٦) ﴾ [النحل] ذلك لأننا نأخذ اللبن من إناث الأنعام ليس من كل الأنـعام ، فالمعنى ﴿ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا (٢١) ﴾ [المؤمنون] أى : الإناث منها و ﴿ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ (٦٦) ﴾ [النحل] أى : بطون البعض ؛ ولذا عاد الضمير مذكراً .

وقوله : ﴿ نُّسْقِيكُم (٢١) ﴾ [المؤمنون] من سقى ، وفى مـوضع آخر ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ (٢٢) ﴾ [الحجر] من الفعل أسـقى . البعض يقول إنهـما مترادفان ، وهما ليسا كذلك لأن لكل منهما معنى ، فسقى يعنى : أعطاه الشراب ، أمَّا أسقى فيعنى جهز له ما يشربه لحين يحب أن يشرب [2] .

---

(١) الفـرث : ما فى الكرش من طعـام مهـضوم مـتغـيـر كريه الرائحـة . [القـاموس القـويم ٢ / ٧٤].

(٢) قال الفـراء : العرب تقول لكل مـا كان من بطون الأنعام ومن السـماء أو نهر يجـرى لقوم أسقيت ، فإذا سقاك ماء لشفتك قالوا سـقاه ولم يقولوا أسقاه ، كما قال تعالى : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) ﴾ [الإنسان] ، وربمـا قالوا لما فى بطون الأنعـام ولماء السمـاء سقى وأسقى . [لسان العرب ـ مادة : سقى] .

لذلك لما تكلَّم الحق سبحانه عن شراب الجنة ، قال : ﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الإنسان]

ولما تكلم عن ماء المطر قال سبحانه : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر] يعنى : جعله فى مستودع لحين الحاجة إليه .

كما قلنا فى (مُرضِع) بالكسر ، و (مُرضَع) بالفتح ، فمرضع بالكسر للتى ترضع بالفعل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴿٢﴾ ﴾ [الحج]

أما مرضَع بالفتح ، فهى الصالحة للرضاعة .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [المؤمنون] نلحظ أن آية النحل ركزت على مسألة تصفية اللبن من بين فَرْث ودم ، أما هنا فقد ركزت على منافع أخرى للأنعام ، فكل آية تأخذ جانباً من الموضوع ، وتتناوله من زاوية خاصة ، نوضح ذلك لمن يقولون بالتكرار فى القرآن الكريم ، فالآيات فى الموضوع الواحد ليست تكراراً ، إنما هو تأسيس بلقطات مختلفة ، كل لقطة تؤدى فى مكانها موقعاً من العظة والعبرة ، بحيث إذا جمعتَ كل هذه المكررات الظاهرة تعطيك الصورة الكاملة للشىء .

والمنافع فى الأنعام كثيرة : منها نأخذ الصوف والوبر ، وكانوا يصنعون منه الملابس والفرش والخيام ، قبل أن تُعرف الملابس والمنسوجات الحديثة ، ومن ملابس الصوف سُميت الصوفية لمَنْ يلبسون الثياب الخشنة ، وهم الآن يصنعون من الصوف ملابس ناعمة كالحرير يرتديها المترفون .

ومن منافع الأنعام أيضاً الجلود والعظام وغيرها ، يقول تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ[1] وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [النحل]

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [المؤمنون] أى : لحماً ، وذكر اللحم فى آخر هذه المنافع ؛ لأنه آخر ما يمكن الانتفاع به من الحيوان ، وسبق أنْ ذكرنا أن الحيوان الذى أحلّه الله لنا إذا تعرض لما يزهق روحه ، فإنه يرفع لك رقبته ، ويكشف لك عن موضع ذَبْحه كأنه يقول لك : أسرع واستفد منى قبل أنْ أموت .

وفى لقطة أخرى لمنافع الأنعام يقول سبحانه : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ ﴿٧﴾ ﴾ [النحل] إذن : كل آية تحدثت عن الأنعام تعطينا فائدة لتظل مربوطاً بالقرآن كله .

﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

﴿ وَعَلَيْهَا ﴿٢٢﴾ ﴾ [المؤمنون] أى : على الدواب تُحملون ، فنركب الدواب ، ونحمل عليها متاعنا ، لكن لما كانت الأرض ثلاثة أرباعها ماء ، فإن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ما تركنا فى البحر ، إنما حملنا فيه أيضاً ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المؤمنون] فكما أعددتُ لكم المطايا على اليابسة الضيقة أعددتُ لكم كذلك ما تركبونه فى هذه المساحة الواسعة من الماء .

ولما كان الكلام هنا عن الفُلْك فقد ناسب ذلك الحديث عَمَّنْ له صلة بالفُلْك ، وهو نوح عليه السلام :

---

(١) الظعن : الانتقال من مكان إلى مكان أى سافر . [القاموس القويم ١/ ٤١٥] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

بعد أنْ حدَّثنا القرآن الكريم عن خَلْق الإنسان وخَلْق الحيوان ، وحدثنا عن بعض نعمه التى امتنّ بها علينا تدرج بنا إلى صناعة الفُلْك ؛ لأنه قد يسأل سائل : وكيف تكون هذه الفُلْك أى : تخلق كالإنسان والحيوان بالتوالد ، أم تنبت كالزرع ؟ فأوضح الخالق سبحانه أنها وُجدت بالوحى فى قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴿٢٧﴾ ﴾ [المؤمنون]

ومعنى ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴿٢٧﴾ ﴾ [المؤمنون] أنها صنعة دقيقة ، لم يترك فيها الحق سبحانه نبيَّه يفعل ما يشاء ، إنما تابعه ولاحظه ووجَّهه إلى كيفية صناعتها والمواد المستخدمة فيها ، كما قال سبحانه : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [القمر] وهى الحبال ، كانوا يربطون بها ألواح الخشب ، ويضمون بعضها إلى بعض ، أو المسامير تُشَدُّ بها الألواح بعضها إلى بعض .

لكن ، مهما أُحكمَتْ ألواح الخشب بعضها إلى بعض ، فلا بُدَّ أن يظل بينها مسامّ يتسرب منها الماء ، فكيف نتفادى ذلك فى صناعة الفُلْك خاصة فى مراحلها البدائية ؟ يقولون : لا بُدَّ لصانع الفُلْك أنْ يجفف الخشب جيداً قبل تصنيعه فإذا ما نزل الخشبُ الماءَ يتشرب منه ، فيزيد حجمه فيسدّ هذه المسام تماماً ، ولا يتسرب منها الماء .

ومن عجائب القرآن ومعجزاته فى مسألة الفُلْك قوله تعالى :

﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرحمن] يعنى : كالجبال العالية . وهذه الفُلْك لم تكُنْ موجودة وقت نزول القرآن إنما

أخبر الله بها ، مما يدل على أنه تعالى الذى امتنّ علينا بهذه النعمة ، علم ما يمكن أن يتوصل إليه الإنسان من تطور فى صناعة الفلك ، وأنها ستكون عالية شاهقة كالجبال .

وطالما أن الكلام معنا عن الفُلْك ، فطبيعى ومن المناسب أن نذكر نوحاً عليه السلام ؛ لأنه أول من اهتدى بالوحى إليه إلى صناعة الفُلْك ، فقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ..(٢٣) ﴾ [المؤمنون]
لما تكلّم الحق سبحانه عما فى الأنعام من نِعَم وفوائد ، لكنها تؤول كلها - بل والدنيا معها - إلى زوال ، أراد سبحانه أن يعطينا طرفاً من الحياة الباقية والنعيم الدائم الذى لا يزول فذكر منهج الله الذى أُرسِل به نوح ، وهو واحد من أولى العَزْم من الرسل .

والإرسال : هو أنْ يكلِّف مُرسِل مُرْسَلاً إلى مُرْسَل إليه ، فالمكلف هو الحق سبحانه ، والمكلف بالرسالة نوح عليه السلام ، والمرسل إليهم هم قومه ، والله لا يرسل إلى قوم إلا إذا كانوا يهمونه ، وكيف لا وهم عباده وخَلْقه ، وقد جعلهم خلفاء له فى الأرض ؟

والذى خلق خَلْقاً ، أو صنع صَنْعة لا بُدَّ أنْ يضع لها قانون صيانتها ، لتؤدى مهمتها فى الحياة ، وتقوم بدورها على الوجه الأكمل ، كما مثَّلْنا لذلك - ولله تعالى المثل الأعلى - بصانع الثلاجة أو التليفزيون حين يضع معه كتالوجاً يحوى تعليمات التشغيل وطريقة الصيانة وكيفية إصلاح الأعطال .

فالذى خلق الإنسان وجعله خليفة له فى الأرض أَوْلَى بهذا القانون وأَوْلَى بصيانة خَلْقه ؛ لذلك يقول سبحانه فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، خلقت الأشياء كلها من أجلك ، وخلقتُك من أجلى ، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له » يعنى : ما دام كل شىء

من أجلك يعمل لك ويُؤدِّى مهمته ، فعليك أيضاً أن تؤدى مهمتك التى خلقتُك من أجلها .

لذلك وضع لك ربُّك قانون صيانتك بافعل كذا ولا تفعل كذا ، فعليك أن تلتزم الأمر فتؤديه فهو سرُّ الجمال فى الكون ، وسرُّ السعادة والتوافق فى حركة الحياة ، وعليك أن تجتنب النهى فلا تقربه ؛ لأنه سيؤدى إلى قُبْح ، وسيكشف عورة من عورات المجتمع ، أما الأمور التى سكت عنها فأنت حُرٌّ فيها تفعل أو لا تفعل ؛ لأن ذلك لا يأتى بقبيح فى المجتمع ، وهذه المسائل تُسمَّى المباحات ، وقد تركها الله لحريتك واختيارك .

والحق - تبارك وتعالى - لما استدعى الإنسان إلى هذا الكون خلق له مقومات حياته من مُقوِّمات استبقاء الحياة من طعام وشراب وهواء واستبقاء النوع بالتناسل ، وقد شمل قانون الصيانة كل هذه المقومات ، فنظمها وحدد ما يحل وما يحرم . فقال : كُلْ هذه ولا تأكل هذه ، واشرب هذا ولا تشرب ذاك ، ولو شاهدنا المخترعين فى مسائل المادة نجد الصانع يحدد مقومات صنعته ، فمثلاً هذا الجهاز يعمل على ١١٠ فولت ، وهذا يعمل على ٢٢٠ فولت ، وهذه الآلة تعمل بالبنزين ، وهذه بالسولار ، فلو غيَّرت فى هذه المقومات تفسد الآلة ولا تؤدى مهمتها .

كذلك - ولله المثل الأعلى - عليك أن تلتزم بقانون ومنهج خالقك عز وجل ، ولا تَحدْ عنه ، وإلا فسد حالك وعجزتَ عن أداء مهمتك فى الحياة . فإن أردنا أن تستقيم لنا الخلافة التى خلقنا الله لها وهى خلافة مُصلحة لا مُفسدة ، فعلينا بقانون الصيانة الذى وضعه لنا خالقنا عز وجل .

لذلك ، إنْ رأيت فى المجتمع عورة ظاهرة فى أى ناحية من نواحى الحياة فاعلم أنها نتيجة طبيعية للخروج عن منهج الله ، وتعطيل حكم من أحكامه ، فمثلاً حين ترى الفقراء والجوْعى والمحاويج فاعلم أن فى الأمر تعطيلاً لحكم من أحكام الله ، فهم إما كسالى لا يحاولون السَّعْى فى مناكب الأرض ، وإما غير قادرين حرمهم القادرون واستأثروا بالثروة دونهم .

البعض يقول : إذا كان الحق سبحانه قد حرَّم علينا بعض الأشياء ، فلماذا خلقها ؟ ويُمثِّلون لذلك بالخنزير مثلاً وبالخمر . وخطأ هؤلاء أنهم يظنون أن كل شىء خُلِق ليُؤكل ، وهذا غير صحيح ؛ لأن الله تعالى خلق هذه الأشياء لمهمة تؤديها فى الحياة ، وليس بالضرورة أنْ تُؤكل ، فالخنزير خلقه الله لينظف البيئة من القاذورات ، لذلك لا تراه يأكل غيرها .

أما الخمر فلم تُخلق خمراً ، إنما هى ثمرة العنب الحلوة التى تؤكل طازجة ، أخذها الإنسان وتدخّل فى هذه الطبيعة وأفسدها بتخميره ، فصار الحلال بذلك محرماً .

نعود إلى قول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ..(٢٣)﴾ [المؤمنون] القوم : هم الرجال ، خاصة من المجتمع ، وليس الرجال والنساء ، بدليل قوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ..(١١)﴾ [الحجرات] فالنساء فى مقابل القوم أى : الرجال .

ومن ذلك قول الشاعر[1] :

وَمَا أَدْرِى وسَوْفَ أَخَالُ أَدْرِى   أَقَوْمٌ آلُ حِصنٍ[2] أَمْ نِسَاءُ

لكنْ هل أُرسِل نوح عليه السلام إلى الرجال دون النساء ؟ أُرسِل نوح إلى الجميع ، لكن ذُكر القوم لأنهم هم الذين سيحملون معه أمر الدعوة ويسيحون بها ، ويُبلِّغونها لمن لهم ولاية عليهم من النساء ، والرجال مَنُوط بهم القيام بمهام الأمور فى عمارة الكون وصلاحه .

والإضافة فى ﴿قَوْمِه..(٢٣)﴾ [المؤمنون] بمعنى اللام يعنى : قوم له ؛ لأن الإضافة تأتى بمعنى من مثل : أردب قمح يعنى من قمح ، وبمعنى فى مثل : مكر الليل يعنى فى الليل ، وبمعنى اللام مثل : قلم زيد يعنى لزيد .

فالمعنى هنا : قوم له ؛ لأنه منهم ومأمون عليهم ومعروف لهم سيرته الأولى ، فإذا قال لهم لا يتهمونه ، إذن : فمن رحمة الله بالخَلْق أن يرسل إليهم واحداً منهم ، كما قال سبحانه : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة] ففى هذا إيناس وإلْفٌ للقوم على خلاف ما إنْ كان الرسول ملكاً مثلاً ، فإن القوم يستوحشونه ولا يأنسون إليه .

لذلك ، فالنبى ﷺ كان يُسمَّى بين قومه وقبل بعثته بالصادق الأمين ؛ لأنه معروف لهم ماضيه وسيرته ومُقوِّمات حياته تُشجِّع على

---

(١) هو : زهير بن أبى سلمى ، حكيم الشعراء فى الجاهلية ، كان أبوه وخاله وأخته سلمى وابناه كعب وبجير وأخته الخنساء شعراء ، ولد فى بلاد « مزينة » بنواحى المدينة ، من أشهر شعره معلقته . توفى عام ١٣ ق. هـ . [الأعلام للزركلى ٣/٥٢] .

(٢) يريد : حصْن بن حذيفة الفزارى . قاله ابن منظور فى [لسان العرب – مادة : حصن] .

أنْ يُصدِّقوه فيما جاء به ، وكيف يصدقونه فى أمر الدنيا ، ولا يُصدقونه فى البلاغ عن الله ؟

إذن : ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴿٢٣﴾﴾[المؤمنون] أننا لم نأتِ لكم برسول من جنس آخر ، ولا من قبيلة أخرى ، بل منكم ، وتعرفون ماضيه وتاريخه ، فتأنسون بما يجىء به ، ولا تقفون منه موقف العداء .

أو يكون المعنى : إلى قوم منه ؛ لأنهم لا يكونون قوماً قوّامين على شئون إصلاح الحياة ، إلا إذا استمعوا منهجه ، فهم منه ؛ لأنهم سيأخذون منه منهج الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ..﴿٢٣﴾﴾[المؤمنون] (يا قوم) استمالة وتحنين لهم ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ..﴿٢٣﴾﴾[المؤمنون] والعبادة طاعة عابد لأمر معبود ، والعبادة تقتضى تكليفاً بأمر ونهى . فالألوهية تكليف وعبادة ، أما الربوبية فعطاء وتربية ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [هود] أى : ربكم جميعاً : ربّ المؤمن ، وربّ الكافر ، ربّ الطائع ، ورب العاصى .

وكما قلنا : الشمس والقمر والأرض والمطر .. الخ كلها تخدم الجميع ، لا فرْقَ بين مؤمن وكافر ؛ لأن ذلك عطاء الربوبية ، وإنْ سألت الكافر الجاحد : من خلقك ؟ من رزقك ؟ فلن يملك إلا أن يقول : الله ، إذن : فليخْزَ هؤلاء على أعراضهم ، وليعلموا أنه تعالى وحده المستحق للطاعة وللعبادة . فمقتضيات الربوبية والإيمان بها تقتضى أن نؤمن بالألوهية .

كما أن الطفل الصغير ينشأ بين أبيه وأمه ويشبّ ، فلا يجد غيرهما يخدمه ويقضى حاجته ويُوفِّر متطلباته ، بل ويزيل عنه الأذى

ويسهر على راحته . كل ذلك بروح سعيدة ونفس راضية مطمئنة ، ربما يجوعان لتشبع ، ويعريان لتكسى ، ويحرمان نفسيهما ليوفرا لك الحياة الكريمة ، فإذا ما كبر الصغير وبلغ الحُلُم ومبلغ الرجال نجده يعقُّهما ، ويخرج عن طاعتهما ، ويأخذه من أحضانهما أصدقاء السوء ، ويُزيِّنون له التمرد على أبيه وأمه .

ونقول لمثل هذا العاق : اخْزَ على عِرْضك واسْتَح ، فليس هكذا يكون رد الجميل ، وأين كان هؤلاء الأصدقاء يوم أنْ كنتَ صغيراً تحتاج إلى من يعولك ويميط عنك الأذى ، ويسهر على راحتك ؟ قد كان ينبغى عليك ألاَّ تسمع إلا لمن أحسن إليك .

وهذا مثال لتوحيد الألوهية وتوحيد الربوبية - ولله المثل الأعلى - فكيف تأخذ من ربك عطاء الربوبية ، ثم تتمرد عليه سبحانه فى الألوهية ، فتعصى أمره وتكفر بنعمه ؟ كان من الواجب عليك الوفاء للنعمة .

ولا بد أن تعلم أن ربك - عز وجل - مأمون عليك فى التكليف بالأمر والنهى ، لأنك عبده وصنعته ، وأنك حين تُؤدِّى ما عليك تجاه الألوهية لا ينتفع الله سبحانه من ذلك بشىء ، إنما تعود منفعتها عليك ، وهكذا إذا ما رددت أمور الطاعة والعبادة والتكاليف لوجدتها تعود فى النهاية أيضاً إلى عطاء الربوبية ؛ لأنها تعود عليك أنت بالنفع .

فنحن نأخذ الأوامر والنواهى على أنها تكاليف وأعباء يقتضيها الإيمان بالألوهية ، نقول : نعم هى تكاليف من الله لكن لصالحك ، فلو أنصفتَ لوجدتَ الألوهية من الربوبية ، فحين يُحرِّم مثلاً عليك شرب الخمر ويحميك من فساد العقل ، هل ينتفع سبحانه من ذلك بشىء ؟

لذلك يقول تعالى عن هؤلاء : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ..(٢٥) ﴾ [لقمان]

ويقول : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ..(٨٧) ﴾ [الزخرف]

فما دام هو سبحانه خالقكم ورازقكم وخالق السموات والأرض ، فلماذا تعصونه ؟ وهل نقص عصيانكم من مُلْكه شيئاً ؟ وهل زاد فى مُلْكه شىء بطاعة مَنْ أطاع ؟ هل زاد فى مُلْك الله بطاعة الطائعين أرض أو سماء ، أو شمس أو قمر ؟

إن الحق سبحانه قبل أن يخلقكم خلق لكم بصفات الكمال فيه كل مُقوِّمات حياتكم واستدعاكم إلى كون مُعَدٍّ لاستقبالكم ولمعيشتكم . إذن : فربُّكَ - عز وجل - لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية .

لذلك يقول فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم وشاهدكم وغائبكم اجتمعوا فى صعيد واحد ، وسألنى كل واحد مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك مما عندى إلا كمغرز إبرة أحدكم إذا غمسه فى البحر ، وذلك أنِّى جواد واجد ماجد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردتُه أن أقول له : كن فيكون »[1] .

إذن : حين تطيعنى فالخير لك ؛ لأنك ضمنتَ بهذه الطاعة حياة

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة ، والترمذى فى سننه (٢٤٩٥) من طريق آخر عن أبى ذر رضى الله عنه ، واللفظ للترمذى ، وقال : « هذا حديث حسن » .

أخرى خالدة باقية بعد هذه الحياة الفانية التى مهما أترفت فيها فهى إلى زوال ، فإما أنْ تفوت نعيمها بالموت ، وإما أنْ يفوتك بالحاجة والفقر ، أما فى الآخرة فالنعيم دائم بَاقٍ لا يفوتك ولا تفوته ؛ لأنها نعمة لا مقطوعة ولا ممنوعة .

لذلك قال سبحانه : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾ [العنكبوت] فكأن عطاء الألوهية ربوبية متعدية إلى زمن آخر غير زمن الدنيا ، فلا تظن أن طاعتك ستفيدنى فى شىء ، أو أن معصيتك ستضرنى بشىء ، ومن هنا قال تعالى : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)﴾ [النحل]

وقوله تعالى : ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ (٢٣)﴾ [المؤمنون] أى : معبود غيره ﴿أَفَلا تَتَّقُونَ (٢٣)﴾ [المؤمنون] هذا استفهام يحمل معنى التهديد والتوبيخ ، لكن كيف يُوبِّخهم وهو لم يَزَلْ فى مرحلة الأمر بعبادة الله ، ولم يسمع منهم بعد بوادر الطاعة أو العصيان ؟ قالوا : يبدو أنه رأى منهم إعراضاً فأمرهم بتقوى الله .

والتقوى معناها أنْ تجعل بينك وبين ربك وقاية تقيك صفات جبروته وقَهْره وتحميك من أسباب بَطْشه وانتقامه ، فلست مطيقاً لهذه الصفات . والوقاية التى تجعلها بينك وبين هذه الصفات هى أن تنفذ منهج الله بطاعة الأوامر واجتناب النواهى .

ومن عجيب تركيبات التقوى فى القرآن الكريم أنْ يقول سبحانه : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ (١٩٤)﴾ [البقرة] ويقول : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ..(٢٤)﴾ [البقرة] قالوا : نعم اتق الله ، واتق النار ؛ لأنك تتقى الله من متعلقات صفات قهره وغضبه ومنها النار ، فحين تتقى الله بالمنهج فقد اتقيْتَ النار أيضاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

الملأ : من الملء يعنى : الشيء الذى يملأ الشيء ، فالملأ يعنى الذين يملأون العيون بشرفهم ومكانتهم وعظمتهم وأبهتهم ، ومن ذلك قولهم : فلان ملءُ العين ، أو ملْءُ السمع والبصر ، ويقولون للرجل إذا بلغ فى الحُسْن مبلغاً : فلان قَيْد العيون يعنى : حين تراه لا تصرف بصرك إلى غيره من شدَّة حسنه كأنه قيَّد بصرك نحوه . أما فى المقابل فيقولون : فلان تتقحمه العين ولا تراه وكأنه غير موجود .

إذن : الملأ : هم الذين يملؤون صدور المجالس أُبَّهة وفخامة ووجاهة وسيادة ، لكن ، لماذا هؤلاء بالذات هم الذين تعصَّبوا ضده وواجهوه ؟

قالوا : لأن منهج الله ما جاء إلا لإصلاح ما فسد فى الكون وما استشرى فيه من شر ، فالحق - تبارك وتعالى - يُنزِل منهجاً على لسان رسول أول ، ويطلب من قومه أن يُبلِّغوا منهج رسولهم من بعده ، لكن تأتى الغفلة على هذا المنهج فيخرج الناس عنه ويأتى خروجهم عن منهج ربهم على عِدَّة صور :

فمنهم مَنْ يخرج عن منهج ربه ويصنع الذنب ، إلا أنه يعاود نفسه ويراجعها ويلومها وسرعان ما يتوب ويندم ، فزاجره من نفسه

وواعظه من داخله ، وهؤلاء الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

ومنهم مَنْ يخرج على منهج ربه خروجاً لا رجعةَ له ولا زاجر ، وهذا نسميه بلغتنا (فاقد) يعنى : لم يَعُدْ له زاجر من شرع ولا من ضمير . ويبقى بعد ذلك زاجر المجتمع حين يرى مثل هؤلاء الخارجين عن منهج الحق عليه أنْ يتصدَّى لهم ، ويقاطعهم ولا يودهم ولا يحترمهم ، وإلا لو ظَلَّ المنحرف ومرتكب القبائح على حاله من احترام الناس وتقديرهم ، ولو ظلَّ على مكانته فى المجتمع لتمادى فى غَيِّه وأسرف على نفسه وعلى مجتمعه فيستشرى بذلك الشر فى المجتمع ، ويعُمّ الفساد وتشيع الفوضى .

ألاَ ترى الشرع الحكيم حين جعل الدية فى القتل على العاقلة يعنى : عائلة القاتل ، لا على القاتل وحده ؟ لماذا ؟ لكى يأخذوا على يد ولدهم إنِ انحرف أو بدَتْ عنده بوادر الاعتداء ؛ لأنهم جميعاً سيحملون هذه التبعة .

ونقول : خُصَّ الملأ بالذات ؛ لأنهم هم المنتفعون بالشر والفساد فى المجتمع ، ومن مصلحتهم أنْ يستمر هذا الوضع لتبقى لهم سلطتهم الزمنية ومكانتهم ؛ لذلك هم أول مَنْ يقابلون الرسالات بالجحود والنكران . ألم يقل الحق سبحانه عنهم فى آية أخرى : ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا..(٢٧)﴾ [هود]

فهؤلاء الذين يُسمُّونهم أراذل هم المستضعفون والفقراء والمطحونون والمهمومون بأمور الخَلْق والدين والقيم ، فما إنْ تسمع آذانهم عن رسالة إلا تلهَّفوا عليها وارتموا فى أحضانها لأنها جاءت لتنقذهم ؛ لذلك يكونون أول مَنْ يؤمن . وإنْ جاء المنهج لإنصاف

هؤلاء ، فقد جاء أيضاً لينزع من أصحاب السلطان والقهر والجبروت سلطانهم وتعاليهم ، فلا بُدَّ أن يواجهوه ويعاندوه .

ومعنى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ..(٢٤) ﴾ [المؤمنون] كفروا : يعنى جحدوا وجود الله ﴿مَا هَـٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ (٢٤) ﴾ [المؤمنون] فأول شىء صدَّهم عن الرسول كونه بشراً ، إذن : فماذا كنتم تنتظرون ؟ وقد شرح هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) ﴾ [الإسراء]

ولا بُدَّ فى الرسول أن يكون من جنس المرسَل إليهم ؛ ليصح أن يكون لهم أُسْوة ، فيقلدوه ويهتدوا به ، وإلا لو جاء الرسول ملكاً فكيف تتحقق فيه القدوة ؟ وكيف تطيعونه وأنتم تعلمون أنه ملَكٌ لا يأكل ولا يشرب ولا يتناسل ، وليست لديه شهوة ، ولا مُقوِّمات المعصية ؟

ولنفرض أن الله نزَّل عليكم ملَكاً ، فكيف ستشاهدونه وتتلقَّوْن عنه ؟ لا بُدَّ - إذن - أن يأتيكم فى صورة رجل لتتمكنوا من مشاهدته والتلقِّى عنه ، وهكذا نعود فى نقاش هذه المسألة إلى أنه رجل ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام] وتظل الشبهة باقية .

إذن : من الحُمْق أن نقول بأن يكون الرسول ملَكاً .

أما قولهم : ﴿بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ (٢٤) ﴾ [المؤمنون] نعم ، هو بشر ، لكن ليس كمثلكم ، فأنتم كاذبون فى هذه المثلية ، لأنه بشر اصطفاه الله بالوحى ؛ لذلك يقول رسول الله ﷺ : « يؤخذ منى فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم ، وأُعْطَى من الله فأقول : أنا لست كأحدكم » .

ويقول تعالى لرسول الله ﷺ : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ ﴿٦﴾﴾ [فصلت] ومن هنا كانت الأفضلية فى أنه بَشر يُوحَى إليه ، وما بشريته إلا للإيناس والإلْف .

ثم يتابع الحق سبحانه مقالة هؤلاء الكافرين من قوم نوح : ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون] يتفضّل : يعنى ينسب نفسه إلى الفضل والشرف والسيادة ليكون متبوعاً وهم تابعون ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون] يعنى : لو شاء أنْ يرسل رسولاً ﴿لأَنزَلَ مَلائِكَةً ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون] أى : رسلاً ، وقد رَدَّ الله تعالى عليهم هذا القول ، فقال تبارك وتعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء]

ثم يقولون : ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون] المراد بهذا : يعنى أن يأتى مَنْ يقول اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، لأن آباءنا الأولين كانوا يعبدون الأصنام ، ولم يأتِ مَنْ يقول لنا هذا الكلام مثل نوح .

وهذا دليل على أنهم مُقلِّدون للآباء ، ليس لديهم تفكير واستقلال فى الرأى ينظرون به إلى الأشياء نظرة الحق والعدالة ، وفى موضع آخر قال تعالى عنهم : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ[1] وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف]

ولو تأملنا حال المجتمعات ، ومنها مجتمعنا الذى نعيش فيه لوضح لنا كذب هؤلاء فى ادعائهم التقليد للآباء ، كيف ؟ تأمل حال

(١) قال ابن عباس : أى على دين ، وفى رده على سؤالات نافع بن الأزرق قال : على ملة غير الملة التى تدعونا إليها . [أوردهما السيوطى فى الدر المنثور ٧/٣٧٢ ، وعزا الأول لابن جرير الطبرى ، والثانى للطستى] .

الأجيال المختلفة تجد كل جيل له رأيه وتطلعاته ورغباته التى ربما اختلف فيها الابن عن أبيه ، فالأبناء الآن لهم رأى مستقل ، فالولد يختار مثلاً الكلية التى يرغبها ، الملابس التى يحبها ، وإنْ خالفتْ رأى أبيه ، بل ويصل الأمر إلى اتهام الآباء بالجمود والتخلف إنْ لزم الأمر ، وهذا موجود فى كل الأجيال .

إذن : لماذا لم تقولوا فى مثل هذه الأمور : إنا وجدنا آباءنا على أمة ؟ لماذا كانت لكم ذاتية ورأىٌ مستقل فى أمور الدنيا دون أمور الدين ؟ إنكم تتخذون الذاتية فيما يُلبِّى رغباتكم وشهواتكم وانحرافاتكم ، وتتخذون التقليد فيما يُقلِّل تكليفكم ؛ لأن التكليف سيُقيِّد هذه الرغبات والشهوات ويقضى على هذه الانحرافات ؛ لذلك يتمرد هؤلاء على منهج الله .

لذلك ، نعجب لما نراه ونسمعه من حال أبنائنا اليوم ، وكيف أفلتَ الزمام من الآباء والأمهات ، فالشاب يسير على هواه فى أمور انحرافية ، فإن وجَّهه أبوه أعرض عنه واتهمه بأنه من جيل قديم وقد ذهب زمانه بلا رجعة ، وقد تعدى الأمر من الأولاد إلى البنات ، فصرْن أيضاً يتمردْنَ على هذه القيم ولا يهتممن بها .

فقولهم : ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ (٢٤)﴾ [المؤمنون] وقولهم : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ (٢٣)﴾ [الزخرف] هم كاذبون أيضاً فى هذه المقولة ؛ لأنهم لو صَدَقوا لقلَّدوهم فى كل شىء فيما لهم وما عليهم فى أمور الدنيا وفى أمور الدين والقيم والأخلاق .

لذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعالج هذه القضية فى مواضع عدة من كتابه الكريم ، وبأساليب مختلفة ، منها قوله سبحانه : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ..(١٧٠)﴾ [البقرة]

لأن هذا يريحهم من مشقة التكاليف ، وإنْ كانت العبادة : طاعة عابد لمعبود فى أمره ونهيه ، فما أسهلَ عبادة الأصنام ؛ لأنها آلهة كما يدعون لكن ليس لها منهج ، وليس معها تكاليف ، فبأىِّ شىء أمرك الصنم ؟ وعن أىِّ شىء نهاك ؟ وماذا أعدَّ من جزاء لمن أطاعه ؟ وماذا أعدَّ من عقاب لمن عصاه ، إذن : معبود بلا منهج وبلا تكاليف ، وهذا دليل كذبهم فى عبادة الأصنام وغيرها من آلهتهم .

ألم يقولوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ۝٣﴾ [الزمر] فهذا حُمْق وسَفَه وجهل ؛ لأن الكلام منطقياً لا يستقيم ، كيف تقولون نعبدهم وليس لهم منهج ، وليس لهم تكاليف ، والعبادة طاعة عابد لمعبود ؟

إذن : ما هو إلا خواء وإفلاس عقدىّ ؛ لذلك يردُّ الحق - تبارك وتعالى - عليهم فيقولَ سبحانه : ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ۝١٧٠﴾ [البقرة]

وفى موضع آخر يقول - سبحانه وتعالى - عنهم : ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ..۝١٠٤﴾ [المائدة] وهذه أبلغ من سابقتها ، لأنهم يُصعِّدون كفرهم ويُصرون عليه ، فقولهم : ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۝١٧٠﴾ [البقرة] فلربما يراجعون أنفسهم فيهتدون إلى الحق ، ويخالفون الآباء .

لكن هنا : ﴿حَسْبُنَا ..۝١٠٤﴾ [المائدة] يعنى : كافينا ، ولن نغيره ولن نحيد عنه ؛ لذلك يأتى تذييل كل آية بما يناسبها : ففى الأولى قال تعالى رداً عليهم : ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا ۝١٧٠﴾ [البقرة] وفى الأُخْرى قال رداً عليهم : ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا ..۝١٠٤﴾ [المائدة]

فذكر العقل فى الأولى ؛ لأن الإنسان يأتمر فيه بنفسه ، وذكر فى الأخرى العلم ؛ لأن الإنسان فى العلم يأتمر بعقله ، وعقل العلم أيضاً ، فالعلم - إذن - أوسع من العقل ؛ لذلك ذكره مع قولهم ﴿ حَسْبُنَا ..(١٠٤) ﴾ [المائدة] الدالة على المبالغة والإصرار على الكفر .

كما نلحظ عليهم فى قولهم : ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا ..(٢٤) ﴾ [المؤمنون] أن الغفلة قد استحكمت فيهم ؛ لأن نوحاً عليه السلام يعتبر الجد الخامس بعد آدم عليه السلام ، فبينهما فترة طويلة ، فكيف ما سمعوا طوال هذه الفترة برسول أو نبى ، يقول : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ؟

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

﴿ إِنْ هُوَ ..(٢٥) ﴾ [المؤمنون] يعنى : ما هو و ﴿ جِنَّةٌ ﴾ : يعنى جنون ، وهو ستر العقل الذى يسيطر على حركة الإنسان فى الحياة فيسير حسب تقنيناتها (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، أما المجنون فيعمل ما يخطر له دون أنْ يعرض الأعمال على العقل أو التفكير ؛ لذلك من عدالة الله فى خَلْقه أننا لا نؤاخذ المجنون على تصرُّفاته حين يعتدى على أحد منا بالسبِّ أو الضرب مثلاً ، ولا نملك إلا أن نبتسم له ، وندعو الله أن يعافينا مما ابتلاه به .

فإنْ كان هذا حال المجنون فى حركة حياته ، فهل يكون ذو الخلق الذى يسير وَفْق قوانين الحياة ومحكوماً بنظم وقيم خلقية ، هل يكون مجنوناً ؟ ومن العجيب أن تهمة الجنون هذه سائرة على لسان

المكذِّبين للرسل في كل زمان ومكان ، وقد اتُّهم بها رسول الله ﷺ ، فردَّ الله عليهم ونفى عن رسوله هذه الصفة في قوله : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم]

فكيف يكون ذو الخلق مجنوناً ؟ ولو كان ﷺ مجنوناً ، فلماذا استأمنوه على ودائعهم ونفائسهم ، واطمأنوا إليه ، وسمَّوْه الصادق الأمين ؟ إنهم ما فعلوا ذلك إلا لأنهم يعلمون خُلقه ، وأنه محكوم بقيم من الحق والخير لا تتزحزح .

وما دام الأمر لا يعدو أن يكون رجلاً به جِنَّة ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٢٥﴾ [المؤمنون] أي : انتظروا واتركوه وشأنه ، فربما عاد إلى صوابه ، وترك هذه المسألة من تلقاء نفسه حين يرانا منصرفين عنه غير مُهتمين به ، أو دَعُوه فإنْ كان على حق ونصره الله وأظهر أمره عندها نتبعه ، وإنْ كانت الأخرى فها نحن مُعرِضون عنه من بداية الأمر .

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٢٦﴾

بعد أنْ كذَّبه قومه دعا الله أن ينصره ﴿بِمَا كَذَّبُونِ ۝٢٦﴾ [المؤمنون] يعني : انصرني بسبب تكذيبهم ، واجعل تكذيبهم لا مدلولَ له فينتصر عليهم رغم تكذيبهم ، أو : يا رب عوِّضني بتكذيبهم نصراً ، يعني : أبْدلني من كذبهم نصراً ، كما تقول : اشتريت كذا بكذا ، فأخذت هذا بدل هذا .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ(١) فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) ﴾

استجاب الله تعالى دعاء نبيه نوح ـ عليه السلام ـ فى النُّصْرة على قومه ، فأمره بأن يصنع الفلك . والفُلْك هى السفينة ، وتُطلق على المفرد والجمع ، قال تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ﴾ [الشعراء] وقال : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) ﴾ [فاطر] فدلَّتْ مرة على المفرد ، ومرة على الجمع .

وقوله تعالى : ﴿ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. (٢٧) ﴾ [المؤمنون] دليل على أن نوحاً ـ عليه السلام ـ لم يكن نجاراً كما يقول البعض ، فلو كان نجاراً لهداه عقله إلى صناعتها ، إنما هو صنعها بوحى من الله وتوجيهاته ورعايته ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه] فالمعنى : اصنع الفُلْك ، وسوف أوفقك إلى صناعتها ، وأهديك إلى ما يجب أن يكون ، وأُصحِّح لك إنْ أخطأت فى وضع شىء فى غير موضعه ، إذن : أمَرْتُ وأعَنْتُ وتابعتُ . والوحى : هو خطاب الله لرسوله بخفاء .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ (٢٧) ﴾ [المؤمنون]

(١) التنور : مكان تفجُّر الماء ، والكانون الذى يُخبز فيه . وقوله تعالى : ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ (٢٧) ﴾ [المؤمنون] أى : تفجرت الأرض بماء كثير أو تفجرت بماء يشبه فوران النار فى التنور . [القاموس القويم ١/١٠٢] .

وهنا لم يتعرض السياق للفترة التي صنع فيها نوح السفينة ، والتي جاءت في قوله تعالي : ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨)﴾ [هود] ذلك لأنهم لا يعلمون شيئاً عن سبب صناعتها .

وفي موضع آخر يُعلمنا - سبحانه وتعالى - عن كيفية صُنْعها فيقول : ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣)﴾ [القمر] وقلنا : إن الدُّسُر : الحبال التي تُضَمُّ بها ألواح الخشب بعضها إلى بعض شريطةَ أن تكون جافة ، وتُضَم إلى بعضها بحكمة حتى إذا ما نزل الماء وتشرَّبت منه يزيد حجمها فتسدُّ المسام بين الألواح ، كما نراهم مثلاً يصنعون براميل الزيت من شرائح الخشب .

وقد صنع أحدهم سفينة من البَرْدى بهذه الطريقة ، وسافر بها إلى أمريكا واستخدم فيها الحبال بدلاً من المسامير .

ثم يقول سبحانه : ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا ..(٢٧)﴾ [المؤمنون] يعني : بإنجاء المؤمنين بك ، وإهلاك المكذبين ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ(٢٧)﴾ [المؤمنون] والتنور : هو الفرن الذي يخبزون فيه الخبز ، ويقال : إنه كان موروثاً لنوح من أيام آدم ، يفور بالماء يعني : يخرج منه الماء ، وهو في الأصل محلٌّ للنار ، فيخرج منه الماء وكأنه يغلي . لكن هل كل الماء سيخرج من التنور ؟ الماء سيخرج من كل أنحاء الأرض وسينزل من السماء ، وفوران التنور هو إيذان بمباشرة هذه العملية وبداية لها .

إذا حدث هذا ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ (٢٧)﴾ [المؤمنون] يعني : احمل وأدخل فيها زوجين ذكراً وأنثى من كل نوع من المخلوقات ، كما في قوله تعالى : ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢)﴾ [المدثر] يعني : أدخلكم ، وقال سبحانه : ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ..(٣٢)﴾

[القصص] يعنى : أدخلها ، وقال سبحانه : ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الحجر]

ومن مادة (سلك) أخذنا فى أعرافنا اللغوية . نقول : سلَّك الماسورة أو العين يعنى : أدخل فيها ما يزيل سدَّتها .

والتنوين فى ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ..﴿٢٧﴾﴾ [المؤمنون] يعنى : من كل شىء[1] نريد حفْظ نوعه واستمراره ؛ لأن الطوفان سيُغرق كل شىء ، والحق - تبارك وتعالى - يريد أن يحفظ لعباده المؤمنين مُقوِّمات حياتهم وما يخدمهم من الحيوانات والأنعام وجميع أنواع المخلوقات الأخرى من كل ما يلِدُ أو يبيض .

ومعنى ﴿زَوْجَيْنِ ﴿٢٧﴾﴾ [المؤمنون] ليس كما يظنُّ البعض أن زوج يعنى : اثنين ، إنما الزوج يعنى فرد ومعه مثله ، ومنه قوله تعالى : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ..﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام]

فسمَّى كلَّ فرد من هذه الثمانية زوجاً ؛ لأن معه مثله .

هذا فى جميع المخلوقات ، أما فى البشر فلم يقُلْ زوجين ، إنما قال ﴿وَأَهْلَكَ ﴿٢٧﴾﴾ [المؤمنون] أيا كان نوعهم وعددهم ، لكن الأهلية هنا أهلية نسب ، أم أهلية إيمانية ؟

الأهلية هنا يُراد بها أهلية الإيمان والاتباع ، بدليل أن الله تعالى

(١) قال الحسن البصرى : لم يحمل نوح فى السفينة إلا ما يلد ويبيض ، فأما البق والذباب والدود فلم يحمل شيئاً منها ، وإنما خرج من الطين . قاله القرطبى فى تفسيره [٤٦٥٣/٦].

شرح هذه اللقطة فى آية أخرى ، فقال على لسان نوح عليه السلام :
﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي..(٤٥)﴾ [هود]

فقال له ربه : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ (٤٦)﴾ [هود]

فبنوة الأنبياء بنوة عمل واتباع ، فإنْ جاءت من صُلْبه فأهلاً وسهلاً ، وإنْ جاءت من الغير فأهلاً وسهلاً . لذلك النبى ﷺ يقول عن سلمان الفارسى : « سلمان منا آل البيت »[1] فقد تعدى أن يكون مسلماً إلى أن صار واحداً من آل البيت .

وكذلك أدخل فيها أهلك من النسب بدليل أنه استثنى منهم : ﴿إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ (٢٧)﴾ [المؤمنون] وكان له امرأتان ، واحدة كفرت به وخانته هى وولدها كنعان ، والتى ذُكرت فى قول الله تعالى فى سورة التحريم : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا..(١٠)﴾ [التحريم]

وكنعان[2] هو الذى قال : سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء وهذه اللقطة لم تذكر هنا ؛ لأن أحداث هذه القصة جاءت مُفرَّقة فى عدَّة مواضع ، بحيث لو جُمعت تعطى الصورة العامة للقصة ، فإنْ قُلْتَ : فلماذا لم تأتِ مرة واحدة كما فى قصة يوسف عليه السلام ؟

نقول : جاءت قصة يوسف كاملة فى موضع واحد ليعطينا بها الحق - سبحانه وتعالى - نموذجاً للقصة الكاملة المحبوكة التى تدل على قدرته تعالى على الإتيان بالقصة مرة واحدة لمن أراد ذلك ، فإنْ

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٥٩٨/٣) من حديث عمرو بن عوف المزنى . قال الذهبى والعجلونى فى كشف الخفاء (٥٥٨/١) : سنده ضعيف .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٤٤٦/٢) « قوله ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ ..(٤٢)﴾ [هود] هذا هو الابن الرابع واسمه يام » .

أردتها كاملة فنحن قادرون على ذلك ، وها هى قصة يوسف ، إنما الهدف من القصص فى القرآن هو تثبيت فؤاد النبى ﷺ كما قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان] ؛ لأنه ﷺ سيقابل مواقف تكذيب وعداء وعناد من قومه ، وسيتعرض لأزمات شديدة ويحتاج إلى ما يُسلِّيه ويُثبِّته أمام هذه الأحداث .

لذلك جاءت لقطات القصص القرآنى متفرقة فى عدة مواضع لتسلية رسول الله ، والتخفيف عنه كلما تعرَّض لموقف من هذه المواقف ، وبجَمْع هذه اللقطات المتفرقة تتكون لديك القصة الكاملة المستوية .

وقد أدخل نوح معه زوجته الأخرى المؤمنة وأولاده : سام وحام ويافث وزوجاتهم ، فهؤلاء ستة ونوح وزوجه فهم ثمانية ، ومعهم اثنان وسبعون من المؤمنين وأصول الإيمان الباقى مع نوح عليه السلام .

ولما كان الحكم بغرق مَنْ كفر من أهله أمراً لا استئناف فيه ، قال تعالى بعدها : ﴿ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [هود] لكن ظلموا مَنْ ؟ ظلموا أنفسهم حين كفروا بالله ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]

صحيح أنت حين كفرت أخذتَ حقَّ الله فى أنه واحد أحد موجود ، وإله لا معبود غيره ، وأعطيتَه لغيره ، لكن هذا الظلم لم يضر الله تعالى فى شىء إنما أضرَّ بك وظلمتَ به نفسك ، ومنتهى الحُمْق والسفه أن يظلم الإنسان نفسه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

﴿ اسْتَوَيْتَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى : استعليتَ وركبتَ أنت ومَنْ معك على الفُلْك واطمأنّ قلبك إلى نجاة المؤمنين معك ﴿ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [المؤمنون] فلا بد للمؤمن أن يستقبل نعَم الله عليه بالحمد ، وبألاَّ تُنسيه النعمةُ جلالَ المنعِم ، فساعةَ أنْ يستتب لك الأمر على الفُلْك وتطمئن بادر بحمد الله .

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس]

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعطينا حصانة ، ويجعل لنا أسوة بذاته سبحانه ، حتى إذا ما تعرضنا لنكران الجميل ممَّنْ أحسنَّا إليه لا نغضب ؛ لأن الناس ينكرون الجميل حتى مع الله عز وجل .

لذلك لما قال موسى ـ عليه السلام ـ : يا ربِّ أسألك ألاَّ يُقال فىَّ ما ليس فىَّ . يعنى : لا يتهمنى الناس ظلماً ، فردَّ عليه ربه عز وجل : « يا موسى ، كيف ولم أصنع ذلك لنفسى » .

إذن : فهذه مسألة لا يطمع فيها أحد ، ولو أن كل فاعل للجميل يضِنُّ به على الناس لأنهم ينكرونه لَفَسد الحال ، وتوقفت المصالح بينَ الخَلْق ، وضَنَّ أهل الخير بخيرهم ؛ لذلك وضع لنا ربنا ـ عز وجل ـ الأُسْوة بنفسه سبحانه .

والإنسان إنْ كان حسيساً لا يقف عند إنكارِ الجميل ، إنما يتعدّى ذلك فيكره مَنْ أحسن إليه ويحقد عليه ، ذلك لأن الإنسان مجبول على حب النفس والتعالى والغطرسة ، فإذا ما رأى مَنْ أحسن إليه كرهه ؛ لأنه يدكُّ فيه كبرياء نفسه ، ويَحدُّ من تعاليه .

ومن هنا قالوا : « اتق شرَّ مَنْ أحسنت إليه » لماذا ؟ لأنه يخزَى ساعة يراك ، وهو يريد أنْ يتعالى ، ووجودك يكسر عنده هذا التعالى .

إذن : وطِّنْ نفسك على أن الجميل قد يُنكَر حتى لو كان فاعله رب العزة سبحانه ، فلا يحزنك أنْ يُنكَر جميلك أنت .

وعن ذلك قال الشاعر[1] :

يَسير ذَوُو الحاجَات خلفكَ خُضَّعاً ... فَإنْ أدركُوهَا خلَّفُوكَ وهَرْوَلُوا
وأفضلُهم مَنْ إنْ ذُكــرْت بسىء ... توقَّفَ لا ينفى وقد يتقوّل
فَلا تَدعِ المعْروفَ مَهمــا تــنكَّروا ... فَإنَّ ثوابَ الله أربَى وأجزَلُ

فالمعنى : إذا استويتَ أنت ومَنْ معك ، واستتبَّ لك الأمر على الفُلْك ، فإياك أنْ تغتَرّ أو تنأى بجانبك فتنسى حَمْد الله على هذه النعمة ؛ لذلك أمرنا حين نركب أى مركب أن نقول : « بسم الله مجريها ومرساها » لأنك ما أجريتها بمهارتك وقوتك ، إنما باسم الله الذى ألهم ، وباسم الله الذى أعان ، وباسم الله الذى تابعنى ، ورعانى بعينه ، وما دُمْتَ تذكر المنعم عند النعمة وتعترف لصاحب الفضل بفضله يحفظها لك .

أما أنْ تنكرها على صاحبها ، وتنسبها لنفسك ، كالذى قال : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى .. (٧٨) ﴾ [القصص] فيقول: ما دام الأمر كذلك ، فحافظ أنت عليه .

---

(١) من قول الشيخ رحمه الله .

حتى فى ركوب الدَّابَّة يُعلِّمنا ﷺ أنْ نقول : « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون »[1] .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِى نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [المؤمنون] وذكر النجاة لأن دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المنفعة .

ثم يُعلِّمه ربه دعاءً آخر يدعو به حين تستقر به السفينة على الجُودى ، وعندما ينزل منها ليباشر حياته الجديدة على الأرض :

﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [هود] لأنك ستنزل منها وليست هى مكان معيشتك .

وكذلك دعا النبى ﷺ فقال كما حكى القرآن : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء]

فلا بُدَّ أن تذكر فى النعمة المنعمَ بها ، لذلك فالذين يُصابون فى نعم الله عليهم بأعين الحاسدين ، ثِقْ تمام الثقة أنهم حين رأوْا نعمة الله عليهم لم يذكروا المنعم بها ، ولو أن الإنسان حين يرى نعمة من نعم الله عليه فى ماله أو ولده فيقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، ووضع النعمة فى حماية المنعم لضمن دوام نعمته وسلامتها من أعين الحاسدين ؛ لأنه وضعها تحت قانون الصيانة الإلهية .

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (١٣٤٢) كتاب الحج من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبَّر ثلاثاً ، ثم قال « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون » وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٢/١٤٤ ، ١٥٠) .

ومعنى : ﴿ مُنزَلاً مُّبَارَكًا .. (٢٩) ﴾ [المؤمنون] الشيء المبارك : الذى يعطى فوق ما يتصور من حجمه ، كأن يعيش شخص براتب بسيط عيشة كريمة ويُربِّى أولاده أفضل تربية ، فيتساءل الناس : من أين له ذلك ؟ ونقول : إنها البركة التى تحلّ فى القليل فيصير كثيراً ، صحيح أن الوارد قليل لكن يُكثِّره قلة المنصرف منه .

وقد مثَّلنا لذلك بواحد يرتزق من الحلال ، فيُيسِّر الله أمره ، ويقضى مصالحه بأيسر تكلفة ، فإذا مرض ولده مثلاً يشفيه الله بقرص أسبرين وكوب من الشاى ، ولا يفزع لمرضه ؛ لأنه مطمئن القلب ، راضى النفس ، واثق فى معونة الله . أما الذى يتكسب من الحرام ويأكل الرشوة .. الخ إنْ مرض ولده يُهرع به إلى الأطباء ويتوقع فى ولده أخطر الأمراض ، فإنِ ارتشى بعشرة صرف عليها مائة .

وسبق أن قلنا : إن هذه البركة هى رزق السَّلْب الذى لا يزيد من دخلك ، إنما يُقلِّل من مصروفاتك .

وكلمة ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٢٩) ﴾ [المؤمنون] أم أنه سبحانه المُنزِل الوحيد ؟ الله خير المنزلين يعنى : أباح أن يقال للعبد أيضاً مُنزِل حين يُنزل شخصاً فى مكان مريح ، كأن يُسكنه مثلاً فى شقة مريحة ، أو يستقبله ضيفاً عليه .. الخ . وإنْ كنتَ مُنزِلاً بهذا المعنى ، فالله عز وجل هو خير المنزلين ؛ لأنه سبحانه حين يُنزلك ينزل على قَدْره تعالى ، وعلى قَدْر كرمه وعطائه .

إذن : الحق ـ تبارك وتعالى ـ لم يضنّ عليه خَلْقه أنْ يصفهم بما وصف به نفسه ، فلم يضنّ عليك أنْ يصفك بالخَلْق فقال : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون] فأثبت لك صفة الخَلْق ، لأنك توجد

معدوماً مع أنك تُوجده من موجـود لله ، كأنْ تصنع من الرمل والنار كوباً من الزجاج مثلاً ، لكن ما توجده يظل جامداً على حالته لا ينمو ولا يتناسل ، وليست فيه حياة ، ومع ذلك سماك ربك خالقاً ، وكذلك قال : ﴿ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) ﴾ [الأنبياء] وقال : ﴿ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) ﴾ [آل عمران]

وكمـا أن الله عز وجل لم يضنّ عليك بهـذه الصفـات ، فلا تضنّ عليه سبحـانه بأنه خير المنزلين ، وخير الوارثين ، وخـير الماكرين ، وأحسن الخالقين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ﴾

﴿ فِي ذَٰلِكَ .. (٣٠) ﴾ [المؤمنون] يعنى : فيما تقدم ﴿ لَآيَاتٍ ..(٣٠) ﴾ [المؤمنون] عبـر وعظات وعـجائب ، لو فكّر فـيهـا المرء بعـقل محـايد لانتـهى إلى الخيـر ﴿ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ﴾ [المؤمنون] فلا تظن أن الابتلاء مقصور على الظلمة والكافرين الذين أخذهم الله وأهلكهم ، فقد يقع الابتـلاء بمَنْ لا يسـتحق الابتـلاء ، وحـين يبتـلى اللهُ أهلَ الخيـر والصـلاح فما ذلك إلا ليزداد أجرهم وتُرفع مكانتهم ويُمَحّص إيمانهم .

ومن ذلك الابتلاءات التى وقعت بالمسلمين الأوائل ، فإنها لم تكُنْ كراهيـة لهم أو انتقـاماً منهم ، إنمـا كانت تصـفيـة لمعدنهـم وإظهاراً لإيمانهم الراسخ الذى لا يتـزعزع ؛ لأنهم سيحـملون دعوة الله إلى أنْ تقوم السـاعة ، فلا بُدَّ من تمحيصهم وتصفيتهم .

كما قال سـبحانه : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) ﴾ [العنكبوت] لا ، لابُدَّ من الابتلاء الذى يُميِّز الصادقين ممَّنْ

يعبد الله على حَرْف ، لا بُدَّ أن يتساقط هؤلاء من موكب الدعوة ، ولا يبقى إلا المؤمنون الراسخون على إيمانهم الذين لا تزعزعهم الأحداث .

إذن : المعنى ﴿ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى : أهل الإيمان الذين لا يستحقون العذاب ؛ لأننا نحب أن نرفع درجاتهم ونُمحِّص إيمانهم ليكونوا أهْلاً لدعوة الله ؛ لذلك يقول الحق - تبارك وتعالى - فى الحديث القدسى :

« وعزتى وجلالى ، لا أُخرج عبدى من الدنيا وقد أردتُ به الخير حتى أوفيه ما عمله من السيئات ، من مرض فى جسمه وخسارة فى ماله ، وفقد فى ولده ، فإذا بقيتْ عليه سيئة ثقَّلت عليه سكرات الموت حتى يأتينى كيوم ولدته أمه .. وعزتى وجلالى ، لا أخرج عبدى من الدنيا وقد أردتُ به الشر حتى أوفيه ما عمله من الحسنات ، صحةً فى جسمه ، وبركة فى ماله وولده ، فإذا بقيتْ له حسنة خففتُ عليه سكرات الموت حتى يأتينى وليست له حسنة » .

إذن : فالابتلاء كما يكون انتقاماً من الكفرة والظلمة يكون كذلك تربيباً للنفع ، وتمحيصاً للإيمان ، وإرادة للثواب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

أى : من بعد قوم نوح عليه السلام ، وقلنا : إن القرن : الزمن الذى يجمع أُناساً متقاربين فى مسائل الحياة ، وانتهى العلماء إلى أن

القرن مائة عام ، أو إلى ملك مهما طال ، أو رسالة مهما طالتْ ، كلها تسمى قَرْناً[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

جاء بعد قوم نوح عليه السلام قوم عاد ، وقد أرسل الله إليهم سيدنا هوداً عليه السلام ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف] وقد دعاهم بنفس دعوة نوح : ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [المؤمنون] وقال لهم أيضاً : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [المؤمنون]

إذن : هو منهج مُوحَّد عند جميع الرسالات ، كما قال سبحانه : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى]

فدين الله واحد ، نزل به جميع الرسل والأنبياء ، فإنْ قلتَ : فما بال قوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة]

نقول : نعم ، لأن العقائد والأصول هي الثابتة التي لا تتغير :

(١) قال الأزهري : القرن أهل كل مدة كان فيها نبيّ أو كان فيها طبقة من أهل العلم ، قلَّتْ السنون أو كثُرت ، والدليل على هذا قول النبي ﷺ : « خيركم قرني - يعني أصحابي - ثم الذين يلونهم - يعني التابعين - ثم الذين يلونهم - يعني الذين أخذوا عن التابعين » . وقال القرطبي في تفسير الآية (٦/٤٦٥٤) : « هم قوم عاد . والرسول هود ؛ لأنه ما كانت أمة أنشئت في إثر قوم نوح إلا عاد » .

اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، أمّا المنهج والشريعة الخاصة بالفروع فهى محلُّ التغيير بين الرسل ؛ لأنها أمور تتعلق بحركة الحياة ، والحق - تبارك وتعالى - يعطى لكل بيئة على لسان رسولها ما يناسبها وما يعالج أمراضها وداءاتها .

والشِّرْعة : هى القانون الذى يحكم حركة حياتك ، أمّا الدين فهو الأمر الثابت والموحّد من قبل الله - عز وجل - والذى لا يملك أحد أنْ يُغيِّر فيه حرفاً واحداً .

لذلك ، كانت آفة الأمم أنْ يجعلوا أنفسهم فِرَقاً مختلفة وأحزاباً متباينة ، وهؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. (١٥٩) ﴾ [الأنعام]

وتأمل : ﴿ فَرَّقُوا دِينَهُمْ .. (١٥٩) ﴾ [الأنعام] ولم يقُلْ : فرّقوا شريعتهم ولا منهجهم ، ذلك لأن الدين واحد عند الله ، أمّا المناهج والشرائع فهى مجال الاختلاف على حَسْب ما فى الأمة من داءات ، فهؤلاء كانوا يعبدون الأوثان ، وهؤلاء كانوا يُطفِّفون الكيل والميزان ، وهؤلاء كانوا يجحدون نِعَم الله .. الخ .

وسبق أنْ أوضحنا أن اختلاف الداءات فى هذه الأمم ناتج عن العزلة التى كانت تبعدهم ، فلا يدرى هذا بهذا ، وهم فى زمن واحد . أمّا فى رسالة الإسلام - هذه الرسالة العامة الخاتمة - فقد جاءت على موعد من التقاء الأمم وتواصل الحضارات ، فما يحدث فى أقصى الشمال يعرفه مَنْ فى أقصى الجنوب ؛ لذلك توحدت الداءات ، فجاء رسول واحد خاتم بتشريع صالح لجميع الزمان ولجميع المكان ، وإلى قيام الساعة .

وآفة المسلمين فى التعصُّب الأعمى الذى يُنزِل الأمور الاجتهادية التى ترك الله لعباده فيها حريةً واختياراً منزلةَ الأصول والعقائد التى لا اجتهادَ فيها ، فيتسرَّعون فى الحكم على الناس واتهامهم بالكفر لمجرد الاختلاف فى وجهات النظر الاجتهادية .

نقول : من رحمة الله بنا أنْ جعل الأصول واحدة لا خلافَ عليها ، أما الفروع والأمور الاجتهادية التى تتأتّى بالفهم من المجتهد فقد تركها الله لأصحاب الفهم ، وينبغى أنْ يحترم كُلٌّ منّا فيها رأى الآخر ، بدليل قول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ .. (٨٣) ﴾ [النساء]

وإلا لو أراد الحق سبحانه لَمَا جعل لنا اجتهاداً فى شىء ، ولجاءتْ كل مسائل الدين قهرية ، لا رأىَ فيها لأحد ولا اجتهاد ، أمّا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فقد شاءت حكمته أن يجمعنا جَمْعاً قهرياً على الأمور التى إنْ لم نجمع عليها تفسد ، أما الأمور التى تصلح على أى وجه فتركها لاجتهاد خَلْقه .

فعلينا ـ إذن ـ أنْ نحترم رأى الآخرين ، وألاَّ نتجرأ عليهم بل لنحترم ما اختاره الله لنا من حرية الفكر والاجتهاد .

وأُسْوتنا فى هذه المسألة سيرة رسول الله ﷺ ، وسلف هذه الأمة فى غزوة الأحزاب ، فلما هَبَّتْ الريح على معسكر الكفار فاقتلعت خيامهم وشتتت شملهم وفَرُّوا من الميدان انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة ، لكن سرعان ما أمره ربه بالتوجه إلى بنى قريظة لتأديبهم ، وأخبره ـ سبحانه وتعالى ـ أن الملائكة ما زالت على حال استعدادها ، ولم يضعوا عنهم أداة الحرب ، فجمع رسول الله الصحابة

وقال لهم : « مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة »[١] .

وفعلاً ، سار الصحابة نحو بنى قريظة فيما بين العصر والمغرب ، فمنهم مَنْ خاف أنْ يدركه المغرب قبل أنْ يصلى العصر ، فصلى فى الطريق ومنهم مَن التزم بأمر رسول الله ﷺ بألاَّ يصلى إلا فى بنى قريظة ، حتى وإن أدركه المغرب ، حدث هذا الخلاف إذن بين صحابة رسول الله وفى وجوده ، لكنه خلاف فرعى ، لَمَّا رفعوه إلى رسول الله وافق هؤلاء ، ووافق هؤلاء ، ولم ينكر على أحد منهم ما اجتهد .

إذن : فى المسائل الاجتهادية ينبغى أن نحترم رأى الآخرين ؛ لذلك فالعلماء ـ رضى الله عنهم ـ وأصحاب الفكر المتزن يقولون : رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب . فليت المسلمين يتخلصون من هذه الآفة التى فرَّقتهم ، وأضعفتْ شوكتهم بين الأمم . ليتهم يذكرون دائماً قول الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. (١٥٩)﴾ [الأنعام]

ولما تكلم الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن مسألة الوضوء ، قال سبحانه :

﴿يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ .. (٦)﴾ [المائدة]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤١١٩) وكذلك مسلم فى صحيحه ـ كتاب الجهاد والسير (ح ٦٩) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ نادى فيهم يوم انصرف عنهم الأحزاب : « ألاَّ يصلين أحد الظهر إلا فى بنى قريظة » وفى لفظ « العصر » .

نلحظ أنه تعالى عند الوجه قال ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ .. ۝٦ ﴾ [المائدة] دون أن يحدد للوجه حدوداً ، لماذا ؟ لأن الوجه لا خلافَ عليه بين الناس ، لكن فى الأيدى قال : ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ .. ۝٦ ﴾ [المائدة] فحدد اليد إلى المرفق ؛ لأنها محل خلاف ، فمن الناس مَنْ يقول : الأيدى إلى الكتف . ومنهم مَنْ يقول : إلى المرفق . ومنهم مَنْ يقول : هى كف اليد .

لذلك حدَّدها ربنا - عز وجل - ليُخرجنا من دائرة الخلاف فى غَسْل هذا العضو ، ولو تركها - سبحانه وتعالى - دون هذا التحديد لكانَ الأمر فيها مباحاً : يغسل كل واحد يده كما يرى ، كذلك فى الرأس قال سبحانه : ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ .. ۝٦ ﴾ [المائدة] وتركها لاحتمالات الباء التى يراها البعض للإلصاق ، أو للتعدية ، أو للتبعيض .

إذن : حين ترى مخالفاً لك فى مثل هذه الأمور لا تتهمه ؛ لأن النص أجاز له هذا الاختلاف ، وأعطاه كما أعطاك حقَّ الاجتهاد .

ثم قال الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝٣٣ ﴾

تكلمنا عن معنى ﴿ الْمَلأُ .. ۝٣٣ ﴾ [المؤمنون] وهم عَيْن الأعيان وأصحاب السلطة والنفوذ فى القوم ، والذين يضايقهم المنهج الإيمانى ، ويقضى على مكانتهم ، ويقف فى وجه طغيانهم وسيطرتهم واستضعافهم للخلق .

﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [المؤمنون] تماماً كما حدث مع سابقيهم من قوم نوح ﴿ وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [المؤمنون] مادة : ترف مثل فرح ، نقول : ترف الرجل يترف إذا تنعّم ، فإذا زدْتَ عليها الهمزة (أترف) نقول : أترفته النعمة ، أترفه الله ، يعنى : كانت النعمة سبب طغيان ، ووسَّع الله عليه فى النعمة ليتسع فى الطغيان .

وفى هذا المعنى ورد قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام] يعنى من منهج الحق ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ[1] ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام]

ذلك ، ليكون الأَخْذ أقوى وأعنف وأبلغ فى الإيلام والحسرة ، وسبق أن ذكرنا تشبيهاً أضحك الحاضرين كثيراً ، ولله تعالى ـ المثل الأعلى ـ ، قلنا : إن الله تعالى إذا أراد أنْ يُوقع معانداً لا يُوقعه من فوق الحصيرة ، إنما يوقعه من فوق كرسى عالٍ ومكانة رفيعة ، ليكون (الهُدْر) أقوى وأشدّ .

فإن أخذ الإنسان العادى الذى لا يملك ما يتحسر عليه من مال أو جاه أو منصب ، فالأمر هيِّن ، أمّا حين يُرقِّيه ويُعلى منزلته ويُترفه فى النعيم ، ثم يأخذه على هذه الحال فلا شكَّ أنه أَخْذ عزيز مقتدر ، وهذا أشدُّ وأنكَى .

إذن : أترفناهم يعنى : وسَّعنا عليهم وأمددناهم بالنعم المختلفة ليزدادوا فى كفرهم وطغيانهم ، على حَدِّ قوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ فِي

(١) أبلس : حزن ويئس وتحيَّر وسكت غماً وهماً أو سكت لانقطاع حجته . [القاموس القويم ٨٢/١] .

غَمْرَتِهِمْ[1] حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ (٥٦) ﴾ [المؤمنون]

إن الله تعالى يمدُّ لهؤلاء في وسائل الغيِّ والانحراف ليزدادوا منها ، ويتعمقوا في آثامها لنتعمق نحن في عذابهم والانتقام منهم .

ثم يحكي القرآن عنهم هذه المقولة التي سارت على ألسنتهم جميعاً في كل الرسالات : ﴿ مَا هَـٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ .. (٣٣) ﴾ [المؤمنون] وكأن هذه الكلمة أصبحتْ لازمة من لوازم المكذِّبين للرسل المعاندين لمنهج الله ، ثم يؤكدون على بشرية الرسول فيقولون : ﴿ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) ﴾ [المؤمنون] ألم يقُل كفار مكة لرسول الله ﷺ : ﴿ مَا لِهَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ .. (٧) ﴾ [الفرقان]

سبحان الله ، كأنهم يتكلمون بلسان واحد مع اختلاف الأمم وتباعد الأزمان ، لكن كما يقولون : الكفر ملة واحدة .

﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤) ﴾

خاسرون إنْ أطعتُم بشراً مثلكم ، لكنه بشر ليس مثلكم ، إنه بشر يُوحَى إليه ، فأنا لا أتبع فيه بشريته ، إنما أتبع ما ينزل عليه من الوحي .

﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) ﴾

---

(١) أي : في غيهم وضلالهم . قاله ابن كثير في تفسيره (٣/٢٤٧) قال القرطبي في تفسيره (٦/٤٦٦٤) : « الغمرة في اللغة ما يغمرك ويعلوك ، وأصله الستر . والغمر : الماء الكثير لأنه يغطي الأرض . والمراد هنا : الحيرة والغفلة والضلالة » .

إنهم ينكرون البعث بعد الموت الذى يعدهم به نبيهم ، لكن ما الإشكال فى مسألة البعث ؟ أليست الإعادة أهونَ من البَدْء ؟ وإذا كان الخالق - عز وجل - قد خلقكم من لا شىء فلأنْ يُعيدكم من الرفات أهون ، وإن كانت كلمة أهون لا تليق فى حق الله تعالى ؛ لأنه سبحانه لا يفعل أموره عن علاج ومزاولة ، إنما عن كلمة « كُنْ » لكن الحديث فى هذه المسألة يأتى بما تعارفتْ عليه العقول ، وبما يُقرِّب القضية إلى الأذهان .

﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

﴿ هَيْهَاتَ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [المؤمنون] اسم فعل بمعنى بَعُد ، يعنى بَعُد هذا الأمر ، وهو أن نرجع بعد الموت ، وبعد أن صِرْنا عظاماً ورُفَاتاً .

والكلمة فى اللغة إما اسم أو فعل أو حرف : الاسم ما دلَّ على معنى مستقل بالفهم غير مرتبط بزمن ، فحين تقول : سماء نفهم أنها كل مَا علاك فأظلَّك . والفعل كلمة تدل أيضاً على معنى مستقل بالفهم لكنه مرتبط بزمن ، فحين نقول : أكل نفهم المقصود منها ، وهى متعلقة بالزمن الماضى ، أما الحرف فكلمة تدل على معنى غير مستقل بذاته ، فالحرف (على) يدل على معنى الاستعلاء ، لكن استعلاء أى شىء ؟

فالمعنى - إذن - لا يستقل بذاته ، إنما يحتاج إلى مَا يوضحه ، كذلك (فى) تدل على الظرفية ، لكن لا تُحدد بذاتها هذه الظرفية ، كذلك من للابتداء وإلى للغاية ، ولكل من الاسم والفعل والحرف علامات خاصة يُعرف بها .

وغير هذه الثلاثة قسم رابع جاء مخالفاً لهذه القاعدة ؛ لذلك

يسمونه الخالفة وهو اسم الفعل مثل (هيهات) أى بَعُد ، فهو اسم يدل على معنى الفعل دون أن يقبل علامات الفعل ، ومثله شتان بمعنى تفرق ، أف بمعنى أتضجّر .. الخ .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى عنهم أنهم قالوا :

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

لقد استبعد هؤلاء أمر البعث ؛ لأنهم لا يعتقدون فى حياة غير حياتهم الدنيا ، فالأمر عندهم محصور فيها ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [المؤمنون] إن : حرف نفى يعنى . ما هى ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ .. ﴿٢﴾ ﴾ [المجادلة] يعنى : ما أمهاتهم إلا اللائى ولدْنَهم .

وقوله : ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [المؤمنون] قد يظن البعض أنهم بهذا القول يؤمنون بالبعث ، لأنهم قالوا : (نموت ونحيا) فكيف يُنكرونه ؟

والمراد : نموت نحن ، ويحيا من خلف بعدنا من أولادنا ، بدليل قولهم بعدها : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المؤمنون]

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

يعنى : الرجل الذى أخبركم بمسألة البعث ﴿ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [المؤمنون] وعجيب منهم هذا القول ، فهم يعرفون الله ويعترفون ﴿ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [المؤمنون] فكيف يكون إلهاً دون أنْ يُبلغكم رسالة على لسان رسوله ؟ وإلاَّ ، فكيف ستعرفون منهج الله ؟ قالوا : بالعقل ، لكن العقل فى هذه المسألة لا يصح .

وسبق أنْ مثَّلنا لذلك ـ ولله المثل الأعلى : هَبْ أننا نجلس فى حجرة مغلقة ودَقَّ جرس الباب ، لا شكَّ أننا سنتفق جميعاً على أن طارقاً بالباب ، وهذا يسمى « تعقل » ، لكننا سنختلف فى التصوُّر : أهو رجل ؟ أم امرأة ؟ أم طفل ، أهو بشير أم نذير ؟ .... الخ .

إذن : نتفق حين نقف عند التعقُّل ، لكن كيف نعرف مَنْ بالباب ؟ نجعله هو يخبر عن نفسه حين نقول : مَن الطارق ؟ يقول : أنا فلان ، وجئتُ لكذا وكذا . فمَن الذى يبلغ عن التعقل ؟ صاحبه .

وكذلك عقلك يؤمن بأن الكون له خالق واجد تدلُّ عليه آيات الكون ، فأنتَ لو نظرتَ إلى لمبة الكهرباء هذه التى تنير غرفة واحدة ، وتأملتَ لوجدتَ وراءها مصانع وعدداً وآلات وعمالاً ومهندسين ومخترعين ، ومع ذلك لها قدرة محدودة ، ولها عمر افتراضى وربما كسرت لأىِّ سبب وطفئتْ .

أفلا تنظر كذلك إلى الشمس وتتأمل ما فيها من آيات وعجائب ، وكيف أنها تنير نصف الكرة الأرضية فى وقت واحد دون أنْ تتعطلَ ودون أنْ تحتاج إلى صيانة أو قطعة غيار ، ومع ذلك لم يدَّعها أحد لنفسه ، أفلاَ يدل ذلك على أن وراء هذا الخَلْق العظيم خالقاً أعظم ؟

إذا كنا نُؤرِّخ لمكتشف الكهرباء ومخترع المصباح الكهربائى ، ونذكر ماذا صنع ؟ وكيف توصّل إلى ما توصّل إليه ، أليس يجدر بنا أنْ نبحث فى خالق هذا الكون العجيب ؟

إنك لو حاولتَ أنْ تنظر إلى قرص الشمس أثناء النهار ، فإنَّ نظرك يكلُّ ولا تستطيع ، وإذا اشتدت حرارتها لا يطيقها أحد ، مع أن بينك وبين الشمس ثمانى دقائق ضوئية ، كل ثانية فيها ثلاثمائة ألف كيلومتر ، فأىّ طاقة هذه التى تنبعث من الشمس ؟

ومن عجائبها أيضاً أنك تشعر بحرارتها على الأرض المنبسطة فإذا ما ارتفعت فوق جبل مثلاً أو منطقة عالية تقلّ درجة الحرارة مع أنك تقترب من الشمس ، على خلاف ما لو أوقدتَ ناراً مثلاً فتجد أن حرارتها تنخفض كلما ابتعدت عنها ، أما الشمس فكلما اقتربت منها قلَّتْ درجة الحرارة ، فمَنْ يقدر على هذه الظاهرة ؟

فإذا جاء مَنْ يخبرنى أنه خالق هذه الشمس أقول له : إذن هى لك ، إلى أن يأتى منازع يدَّعيها لنفسه ، ولم يأت منازع يدَّعيها إلى الآن .

وقولهم : ﴿ افْتَرَىٰ .. (٣٨) ﴾ [المؤمنون] مبالغة منهم فى حقِّ رسولهم ؛ لأن الافتراء : تعمُّد الكذب ، والكذب كما قلنا : أن يأتى الكلام مخالفاً للواقع ، وقد يأتى الكلام مخالفاً للواقع لكن حسب علم صاحبه ، فهو فى ذاته صادق .

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) ﴾

سبحان الله ، كأن تاريخ الرسالات يعيد نفسه مع المكذِّبين ، وكأنه (أكلشيه) ثابت على ألسنة الرسل : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، فيتهمونه ويُكذِّبونه ويقولون : ما أنت إلا بشر مثلنا ، فتأتى النهاية واحدة : ربِّ انصرنى بما كذَّبون ، يعنى : أبدلنى بتكذيبهم نَصْراً .

هذه قَوْلة هود ـ عليه السلام ـ حين كذَّبه قومه ، وقوْلة نوح ، وقوْلة كل نبى كذَّبه القوم ؛ لأن الرسول حين يُكذَّب من المرسل إليهم لا يفزع إلا إلى مَنْ أرسله ؛ لأن مَنْ أرسله وعده بالنصرة والتأييد : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

وقال : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ .. (٤٠) ﴾ [الحج]

وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) ﴾ [الصافات]

فالمعنى : انصرنى لأنك أرسلتنى ، وقد كذَّبنى القوم بعد أن استنفدتُ فى دعوتهم كل أسبابى ، ولم يَعُدْ لى بهم طاقة ، ولم يَعُد لى إلا معونتك . والإنسان حين يستنفد كل الأسباب التى منحه الله إياها دون أن يصل إلى غايته فقد أصبح مضطراً داخلاً فى قوله سبحانه : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ .. (٦٢) ﴾ [النمل]

إذن : لا تلجأ إلى الله إلا بعد أنْ تؤدى ما عليك أولاً ، وتفرغ كل ما فى طاقتك فى سبيل غايتك ، لكن لا تقعد عن الأسباب وتقول : يا رب فالأرض أمامك والفأس فى يدك ومعك عافية وقدرة ، فاعمل واستنفد أسبابك أولاً حتى تكون فى جانب المضطر الذى يُجيب الله دعاءه .

لذلك نسمع كثيراً مَنْ يقول : دعوتُ الله ولم يستجب لى ، ونقول له : أنت لم تَدْعُ بدعاء المضطر ، أنت تدعو بدعاء مَنْ فى يده الأسباب ولكنه تكاسل عنها ؛ لذلك لا يُستجاب لك .

وهذه نراها حتى مع البشر ، ولله تعالى المثل الأعلى : هَبْ أنك صاحب مال وتجارة وجاءتك بضاعة من الجمرك مثلاً ، وجلست تراقب العمال وهم يُدخلونها المخازن ، فليس من مهامك الحمل والتخزين فهذه مهمة العمال ، لكن هَبْ أنك وجدت عاملاً ثقُلَ عليه حمْله وكاد الصندوق أن يوقعه على الأرض ، ماذا يكون موقفك ؟ لا شكَّ أنك ستفزع إليه وتأخذ بيده وتساعده ؛ لأنه فعل كل ما فى وُسْعه ، واستفرغ كل أسبابه وقواه ، فلم تضِنّ أنت عليه بالعون .

كذلك ربك - عز وجل - يريد منك أن تؤدى ما عليك ولا تدعه لشيء قد جعل لك فيه أسباباً ؛ لأن الأسباب يد الله الممدودة لخَلْقه ، فلا ترد يد الله بالأسباب لتطلب الذات بلا أسباب .

لذلك جاء قول الرسل الذين كُذبوا : ﴿رَبِّ انصُرْنِي .. (٣٩)﴾ [المؤمنون] ليس وأنا قاعد متخاذل متهاون ، ولكن ﴿بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩)﴾ [المؤمنون] يعنى : فعلت كل مَا فى وُسْعى ، ولم يَعُدْ لى بهم طاقة .

فتأتى الإجابة على وجه السرعة :

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠)﴾

﴿عَمَّا قَلِيلٍ.. (٤٠)﴾ [المؤمنون] يعنى : بعد قليل ، فـ (عن) هنا بمعنى بعد ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (١٩)﴾ [الانشقاق] يعنى : بعد طبق .

أما ﴿مَّا .. (٤٠)﴾ [المؤمنون] هنا فقد دلَّتْ على الظرف الزمنى ؛ لأن المراد بعد قليل من الزمن .

﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠)﴾ [المؤمنون] حين يقع بهم ما كانوا به يُكذِّبون ، ويحلّ عليهم العذاب يندمون ، لأنهم لن يستطيعوا تدارك ما فاتهم ، فليس أمامهم إذن إلا الندم ، وهذه المسألة دلَّتْ على أن الفطرة الإنسانية حين لا تختلط عليها الأهواء تنتهى فى ذاتها إلى الحق ، وإنْ أخرجها الغضب إلى الباطل ، فإنها تعود إلى توازنها وإلى الجادة حين تهدأ ثورة الغضب .

والحق - تبارك وتعالى - يعطينا أدلةً وإشارات حول هذه القضية فى قصة ولدى آدم عليه السلام فيقول : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ

إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة]

إلى أنْ قال سبحانه : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ .. ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة] فجاء القتل أثراً من آثار الغضب ، والمفروض أنه بعد أن قتله شفى نفسه ، وينبغى له أن يُسَرَّ لأنه حقق ما يريد ، لكن ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة]

أى : بعد أن هدأتْ ثورة الغضب بداخله ندم على ما فعل ، لماذا ؟ لأن هذه طبيعة النفس البشرية التى لا يُطغيها ولا يُخرجها عن توازنها إلا الهوى ، فإنْ خرج الهوى عادت إلى الاستقامة وإلى الحق ، وكأن الله تعالى خلق فى الإنسان مقاييس يجب ألاَّ تُفسدها الأهواء ولا يُخرجها الغضب عن حَدِّ الاعتدال ؛ لذلك يقولون : آفة الرأى الهوى .

لقد استيقظ قابيل ، لكن بعد أنْ رأى عاقبة السوء التى وصل إليها بتسرُّعه ، لكن الذكى يستيقظ قبل رَدِّ الفعل .

لكن ، لماذا اختار لهم وقت الصباح بالذات : ﴿ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [المؤمنون] المتتبع لما حاق بالأمم المكذِّبة من العذاب والانتقام يجد أنه غالباً ما يكون فى الصباح ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الصافات]

وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾ [القمر]

وقال سبحانه : ﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القلم]

ذلك ، لأن الصباح يعقب فترة النوم والخمول الحركى ، فيقومون من نومهم فيفاجئهم العذاب ، ويأخذهم على حين غفلة وعدم استعداد للمواجهة ، على خلاف إنْ جاءهم العذاب أثناء النهار وهم مستعدون .

وندمهم على أنهم كذَّبوا أمراً ما كان ينبغى أن يُكذَّب وقد جَرَّ

عليهم الوَيْلات ، والندم على خير فات من طبيعة النفس البشرية التى عادةً ما تغلبها الشهوة ويُغريها الحمق بردِّ الحق ، ويمنعها الكِبْر من الانصياع للرسول خاصة وهو بشر مثلهم ، ويريد فى ظنهم أنْ يستعلى عليهم ، لكن حين يواجهون عاقبة هذا التكذيب ونتيجة هذا الحمق يندمون ، ولاتَ ساعة مَنْدم .

إذن : فشهوة النفس تجعل الإنسان يقف موقفاً ، إذا ما جُوزى عليه بالشدة يندم أنه لم يُنفذ ولم يطع ، يندم على غطرسته فى موقف كان ينبَغى عليه أنْ يتنازل عن كبريائه ؛ لذلك يقولون : من الشجاعة أنْ تجبن ساعة .

ويحسن ذلك إذا كنت أمام عدو لا تقدر على مجابهته ، ونذكر للرئيس الراحل السادات مثل هذا الموقف حين قال : لا أستطيع أن أحارب أمريكا ، فالبعض فهم هذا القول على أنه ضَعْف وجُبْن ، وهو ليس كذلك ، إنما هو شجاعة من الرجل ، شجاعة من نوع راقٍ ؛ لأن من الشجاعة أيضاً أن تشجع على نفسك ، وهذه شجاعة أعلى من الشجاعة على عدوك ، وتصور لو دخل السادات مثل هذه الحرب فهُزم كيف سيكون ندمه على شجاعة متهورة لا تحسب العواقب . وقد رأينا عاقبة الجرأة على دخول حرب غير متكافئة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

ما دام أن الحق - تبارك وتعالى - توعّدهم وحدَّد لهم موعداً ،

فلا بُدَّ أن يقع بـهم هذا الوعيد فى الوقـت ذاته ، وإلاَّ لو مَرَّ دون أن يصيـبهم ما يندمون لأجله لانهـدم المبدأ من أساسـه ، ما دام أن الله تعالى قالها وسجَّلها على نفسه سبحانه فى قرآن يحفظه هو .

﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ۝٤٠﴾ [المؤمنون] فلا بُدَّ أن ينزل بهم العذاب فى الصباح .

لذلك ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ .. ۝٤١﴾ [المؤمنون] لا بالظلم والعدوان ، وفى موضع آخر قـال سبحانه عنهم : ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ [الحاقة] والمعنيـان يلتقيـان ، لأن الريح الصرصر لها صوت مزمجر كأنه الصيحة والصراخ .

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً .. ۝٤١﴾ [المؤمنون] الغثاء : مـا يحمله السيل من قش وأوراق وبقايا النبات ، فتكون طبقـة طافية على وجه الماء تذهب بهـا الريح فى إحـدى الجـوانب ، والغـثـاء هو الزَّبَد الذى قـال الحق سبـحانه وتعـالى عنه : ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ .. ۝١٧﴾ [الرعد]

وفى الحـديث الشريف قـال ﷺ لأصـحابه : « يوشك أن تتـداعَى عليكم الأمم كمـا تتداعى الأكلة إلى قصعـتها ـ يعنى : يدعو بعـضهم بعضاً لمـحاربتكم كأنكم غنيمـة يريدون اقتسامهـا ـ فقالوا : أمِنْ قِلَّة نحن يا رسول الله ؟ قال : بل أنتم يومـئذ كثير ، ولكنكم غثـاء كغثاء السيل »[1] يعنى : شيئاً هيِّناً لا قيمةَ له يذهب سريعاً .

وقوله تعالى : ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٤١﴾ [المؤمنون] أى : بُعداً لهم عن رحـمتنا ونعـيمنا الذى كُنَّا نُـمنِّيهم به ونَعـدهم به لو آمنوا ،

(١) أخرجـه أحمد فى مسنده (٥/٢٧٨) ، وأبو داود فـى سننه (٤٢٩٧) من حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ .

وليس البُعد عن العـذاب ؛ لأن البعد مسافة زمنيـة أو مكانية ، نقول : هذا بعيد ، أى : زمنه أو مكانه ، المراد هنا البُعْد عن النعيم الذى كان ينتظرهم إنْ آمنوا .

والظلم : كـما قلنا أخْـذ حَقِّ الغـير ، والشـرك هو الظلم الأعظم ؛ لأنه ظلم فى مسـألة القمة ، والبـعض من السطحيـين يظن أن الشرك ظلم عظيم ؛ لأنك ظلمتَ الله سبحانه وتعالى ، لأنك أنكرتَ وجوده وهو مـوجود ، وأشـركتَ مـعه غـيره وهو واحـد لا شـريك له ، نعم أنت ظلمتَ ، لكن مـا ظلمتَ الله ؛ لأنه سـبحـانه لا يظلمـه أحد ، وإنْ كـان الظلم ـ كـما نقـول ـ أَخْذ حَقِّ الغـير ، فحقُّ الله مـحفـوظ وثابت له سبحانـه قبل أن يُوجَد مَنْ يعترف له بهذا الحق ، حقُّ الله ثابـت مهما علاَ الباطل وتبجَّح أهل الضلال .

لذلك يقول عز وجل : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ .. (٤٠) ﴾ [التوبة] وفى المقابل : ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا .. (٤٠) ﴾ [التوبة] ولم يقُل قياسـاً على الأولى : وكلمةَ الله العليا ؛ لأن مـعنى ذلك أن كلمة الله لم تكُنْ عليـا فى يوم ما ؛ لذلـك جاءت وكلمـةُ الله مرفـوعةً على صـورة الجمـلة الاسميـة الدالّة على الثـبوت ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا .. (٤٠) ﴾ [التوبة] أى : دائماً ومهما علَت كلمة الكافرين . لماذا ؟

قالوا : لأن علُو كلمـة الكافرين فى ذَاته علُوٌّ لكلمة الله ، فـإذا علا الكفر واسـتشرى شرُّه وفسـاده يعض الناس ويُوقظ غفلتهم ويُنبـههم إلى خـسَّة الكفـر ودناءته وما جـرّه عليهم من ظلم وفـساد فـينكروه ويعودوا إلى جادة الطريق ، وإلى الحق الثابت لله عز وجل .

إذن : فكلمة الله هى العليا مهما كـانت الجولة لكلمة الذين كفروا ، وكمـا يقولون : والضـد يُظهر حُـسْنه الضدّ . والله عـز وجل لا يُسلِم

الحق ، ولكن يتركه ليبلو غَيْرة الناس عليه ، فإنْ لم يغاروا عليه غار هو عليه .

وما داموا ما ظلموا الله ، ولا يستطيعون ذلك ، فما ظلموا إلا أنفسهم ، وإنْ عُقل ظلمك لغيرك وأخذك لحقه فلا يُعقَل ظلمك لنفسك ؛ لأنه أبشع أنواع الظلم وأبلغها .

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

قبل عدة آيات قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المؤمنون] فجاءتْ قرناً بصيغة المفرد ؛ لأن الحديث مقصور على عاد قوم هود ، أما هنا فقال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [المؤمنون] لأن الكلام سيأتى عن أمم ورسالات مختلفة ومتعددة ، فجاءت (قروناً) بصيغة الجمع ، قروناً متتابعة أو متعاصرة ، كما تعاصر إبراهيم ولوط ، وكما تعاصر موسى وشعيب عليهم جميعاً وعلى نبينا الصلاة والسلام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

تأملوا هذه الآية جيداً وارْعَوْها انتباهكم ، فلكل أمة أجلٌ تنتهى عنده تماماً ، مثل أجَل الأفراد الذى لا يتقدّم ولا يتأخّر ، فقرْن بعد قَرْن ، وأمة بعد أمة ، تمرُّ بأطوار شتى كأطوار حياة الإنسان ، ثم تنتهى إلى زوال ويعقبها غيرها .

فلكل أمة رسول يحمل إليها دعوة الله ومنهجه ويجاهد فى سبيل نشرها إلى أنْ ينصره الله وتنتشر دعوته ويتمسَّك الناس بها ، ثم

تصيبهم غفلة وفتور عن منهج الله ، فينصرفون عنه ويختلفون ويتفرقون ، فيكون ذلك إيذاناً بزوالها ثم يخلفها غيرها ؟

كذلك في مسألة الحضارات التي تندثر ليحلَّ محلَّها حضارات أخرى أقوى ، نسمع عن حضارة قديمة في مصر وفي الصين وفي اليمن ، نسمع عن الحضارة الرومانية والفينيقية .. الخ حضارات تتوالى وتأخذ حظها من الرُّقيِّ والرفاهية ، وتُورث أصحابها رخاوة وطراوة ، وتبدلهم بالجَلَد والقوة ليناً وضَعْفاً ، فيغفلوا عن أسباب رُقيِّهم وتقدُّمهم ، فتنهدم حضارتهم ويحلُّ محلَّها أقوى منها وأصلب .

وهذا مثال ونموذج في حضارة بلغت أوج عظمتها : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الفجر]

وإلى الآن ، ونحن نرى آثار الحضارة الفرعونية ، وكيف أنها تجذب انتباه أصحاب الحضارات الحديثة وتنال إعجابهم ، فيأتون إليها من كل أنحاء العالم ، مع أن حضارة عاد كانت أعظم منها ؛ لأن الله تعالى قال في حقها : ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾ ﴾ [الفجر]

ومع ذلك لا نرى لهم أثراً يدل على عظَم حضارتهم ، ولم يكُنْ لهذه الحضارة مناعة لتحمي نفسها ، أو تَحتفظ لها بشيء ، فانهارت وبادتْ ولم يَبْقَ منها حتى أثر .

كذلك أتباع الرسل يمرُّون بمثل هذه الدورة ، فبعد قوة الإيمان تصيبهم الغفلة ويتسرب إليهم الضعف وسوء الحال ، إلى أن يرسل الحق سبحانه رسولاً جديداً .

﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [المؤمنون]

المعنى في الجملة الأولى واضح ، فأيُّ أمة لا يمكن أنْ تسبق

أجلها الذى حدَّده الله لها ، ولا يمكنْ أن تنتهى او تقوَّض قبل أنْ يحلَّ هذا الأجل .

لكن ما المراد بقوله سبحانه : ﴿ وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ﴾ [المؤمنون] كيف يتأتَّى ذلك ؟ فهمنا : لا تسبق أجلها يعنى أجلها أن تقوض بعد عشرين سنة ، فلا يمكّن ان تُقوَّض قبل خمس عشرة ، أما كونها تستأخر بعد أن بلغتْ العشرين إلى عشرة ، فكيف يتم ذلك ؟

نقول : لا تستأخر يعنى : من حيث الحكم هى لا تسبق الأجل وهى محكوم عليها بأنها لا تستأخر ؛ لأن الاستئخار بعد بلوغ الأجل مستحيل ، كما لو قلنا : شخص بلغ سنَّ العشرين لا يقدر أن يموت فى العاشرة . فالمعنى : الأصل فيه أنه لا يستأخر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ﴾

﴿ تَتْرَا .. (٤٤) ﴾ [المؤمنون] يعنى : متوالين يتبع بعضهم بعضاً ؛ لذلك ظنَّها البعض فعلاً وهى ليست بفعل ، بدليل أنها جاءت فى قراءة أخرى[1] (تتراً) بالتنوين والفعل لا يُنوَّن ، إذن : هى اسم ، والألف فيها للتأنيث مثل حُبْلى .

أضفْ إلى ذلك أن التاء الأولى تأتى فى اللغة بدلاً من الواو ، كما جاء فى الحديث الشريف من نصيحة النبى ﷺ : « احفظ الله

(١) هى قراءة ابن كثير وأبى عمرو بالتنوين على انه مصدر أدخل فيه التنوين على فتح الراء . [تفسير القرطبى ٦/٤٦٥٩] .

يحفظك ، احفظ الله تجدْه تجاهك ـ أو وجاهك »[1] يعنى : مواجهك .

فإذا أُبدلَتْ التاء الأولى فى (تترا) واواً تقول (وترا) يعنى : متتابعين فَرْداً فَرْداً ، والوتر هو الفَرْد .

ثم يقول سبحانه : ﴿ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ .. (٤٤) ﴾ [المؤمنون] فهذه طبيعة ولازمة من لوازم المرسل إليهم ، وما من رسول أُرسل إلى قوم إلا كذّبوه ، ثم يلجأ إلى ربه : ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) ﴾ [المؤمنون]

ولو لم يُكذَّب الرسول ما كان هناك ضرورة لإرساله إليهم ، وما جاء الرسول إلا بعد أن استشرى الباطل ، وعَمَّ الطغيان ، فطبيعى أنْ يُكذَّب من هؤلاء المنتفعين بالشر المستفيدين من الباطل والذين يدافعون عنه بكل قواهم ، وكأن تكذيبهم للرسل دليل على صواب مجىء الرسل ، وإلا لما كان هناك ضرورة لرسالات جديدة .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا .. (٤٤) ﴾ [المؤمنون] يعنى : يمضى واحد ويأتى غيره من الرسل ، أو نهلك المكذِّبين ثم يأتى بعدهم آخرون ، فيكذبون فنهلكهم أيضاً .

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ .. (٤٤) ﴾ [المؤمنون] أحاديث : إما جَمْعاً لحديث كما نقول : أحاديث رسول الله ﷺ أو جمع : أحدوثة . وهى المقولة التى يتشدَّق بها الجميع ، وتلوكها كل الألسنة ، ومن ذلك قول الإنسان إذا كثُر كلام الناس حوله : (جعلونى حدوتة) يعنى على سبيل التوبيخ والتقريع لهم .

فقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ .. (٤٤) ﴾ [المؤمنون] كأنه لم يبْقَ منهم

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧) ، والترمذى فى سننه (٢٥١٦) ، وقال : « حديث حسن صحيح » من حديث عبد الله بن عباس .

أثر إلا أنْ نتكلم عنهم ، ونذكرهم كتاريخ يُحْكَى ، وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ .. ۝ ﴾ [سبأ]

ثم يقول تعالى عنهم كما قال عن سابقيهم : ﴿ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون] يعنى : بُعْداً لهم عن رحمة الله ، وبُعْداً لهم عن نعيم الله الذى كان ينتظرهم ، ولو أنهم آمنوا لنالوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝ ﴾

تكررت قصة موسى ـ عليه السلام ـ كثيراً ومعه أخوه هارون ، كما قال : ﴿ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۝ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۝ ﴾ [طه] والبعض يظن أن موسى جاء برسالة واحدة ، لكنه جاء برسالتين : رسالة خاصة إلى فرعون ملخّصها : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ .. ۝ ﴾ [طه]

وجاء له بمعجزات تثبت صدْق رسالته من الله ، ولم يكن جدال موسى لفرعون فى مسألة الإيمان جزءاً من هذه الرسالة ، إنما جاء هكذا عرضاً فى المناقشة التى دارتْ بينهما .

والرسالة الأخرى هى رسالته إلى بنى إسرائيل متمثلة فى التوراة .

وقوله : ﴿ بِآيَاتِنَا .. ۝ ﴾ [المؤمنون] قلنا : إن الآيات جمع آية ، وهى الشىء العجيب الملفت للنظر الفائق على نظرائه وأقرانه ، والذى يكرم ويفتخر به . والآيات إما كونية دالّة على قدرة الله فى الخَلْق كالشمس والقمر .. إلخ كما قال سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ .. ۝ ﴾ [فصلت]

ومهمة هذه الآيات الكونية أنْ تلفت نظر المخلوق إلى بديع صنع الخالق وضرورة الإيمان به ، فمنها نعلم أنَّ وراء الكون البديع خالقاً وقوة تمده وتديره ، فَمَنْ يمدُّ هذه الشمس بهذه القوة الهائلة ؟ إن التيار الكهربائى إذا انقطع تُطْفأ هذه اللمبة ، فمَنْ خلق الشمس من عدم ، وأمدَّها بالطاقة من عدم ؟

إذن : وراء هذا الكون قوة ما هى ؟ وماذا تطلب منا ؟ وهذه مهمة الرسول أنْ يُبلغنا ، ويُجيب لنا عن هذه الأسئلة .

وتُطلَق الآية أيضاً على المعجزة التى تثبت صدْق الرسول فى البلاغ عن الله .

وتُطلق الآية على آيات القرآن الحاملة للأحكام والحاوية لمنهج الله إلى خَلْقه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٤٥) ﴾ [المؤمنون] فعطف ﴿ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٤٥) ﴾ [المؤمنون] على ﴿ بِآيَاتِنَا .. (٤٥) ﴾ [المؤمنون] وهذا من عطف الصفة على الموصوف لمزيد اختصاص ؛ لأن الآيات هى السلطان ، فالسلطان : الحجة . والحجة على الوجود الأعلى آيات الكون ، والحجة على صدْق الرسول المعجزات ، والحجة على الأحكام الآيات الحاملة لها .

وسَمَّى معجزة موسى عليه السلام (العصا) سلطاناً مبيناً أى : محيطاً ؛ لأنها معجزة متكررة رأينا لها عدة حالات : فهذه العصا الجافة مرة تنقلب إلى حيَّة تلقَفُ الحيّات ، ومرة يضرب بها البحر فينفلق ، ومرة يضرب بها الحجر فيتفجر منه الماء ، وفوق ذلك قال عنها : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) ﴾ [طه]

ومن معانى السلطان : القَهْر على عمل شىء أو الإقناع بالحجة لعمل هذا الشىء ، لذلك كانت حجة إبليس الوحيدة يوم القيامة أن يقول لأتباعه : ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي .. (٢٢)﴾ [إبراهيم] يعنى : كنتم رَهْن الإشارة ، إنما أنا لا سلطانَ لى عليكم ، لا سلطانَ قهر ، ولا سلطان حجة .

لذلك قال فى النهاية : ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢)﴾ [إبراهيم] والإنسان يصرخ إذا فزَّعه أمر لا حيلة له به ، فيصرخ استنفاراً لمعين يُعينه ، فمَنْ أسرع إليه وأعانه يقال : أصرخه . يعنى : أزال سبب صراخه .

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ٤٦﴾

﴿فِرْعَوْنَ .. (٤٦)﴾ [المؤمنون] لقب لكل مَنْ كان يحكم مصر ، مثل كسْرى فى الفرس ، وقيصر فى الروم ، وتكلَّمنا عن معنى (الملأ) وهى من الامتلاء ، والمراد القوم الذين يملؤون العيون مهابةً ومنزلةً ، وهم أشراف القوم وصدور المجالس ، ومنه قولهم : فلان قَيْد النواظر يعنى : مَنْ ينظر إليه لا ينصرف عنه إلى غيره .

وقوله تعالى : ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦)﴾ [المؤمنون] والاستكبار غير التعالى ، فالمستكبر يعلم الحكم ويعترف به ، لكن يأبى أنْ يطيعه ، ويأنف أن يصنع ما أمر به ، أما العالى فهو الذى يظن أنه لم يدخل فى الأمر من البداية .

ومن هنا جاء قوله تعالى لإبليس لما أبى السجود لآدم : ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص]

والعالون هم الملائكة المهيّمون فى الله ، والذين لا يدرون شيئاً عن آدم وذريته .

﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ٤٧ ﴾

اعترضوا أيضاً هنا على بشرية موسى وهارون كما حدث من الأمم السابقة ، إنهم يريدون الرسول ملَكاً ، كما جاء فى موضع آخر : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ٩٤ ﴾ [الإسراء]

ومن الغباء أن يطلبوا ملكاً رسولاً ، فلو جاءهم الرسول ملكاً ، فكيف سيكون أسْوة للبشر ؟ وكيف سيروْنَه ويتلقّوْن عنه ؟ إذن : لا بُدَّ أنْ يأتيهم فى صورة بشر ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ٩ ﴾ [الأنعام]

وستظل الشبهة قائمة ، فما الذى يجعلك تُصدِّق أنه ملَك ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ٤٧ ﴾ [المؤمنون] يعنى : كيف نؤمن لموسى وهارون وقومهما ـ أى : بنى إسرائيل ـ خدم لنا ، يأتمرون بأمرنا ، بل ونُذلّهم ونُذبِّح أولادهم ، ونستحيى نساءهم ، ونسومهم سوء العذاب ؟

وسمّى ذلك عبادة ، لأن مَنْ يخضع لإنسان ، ويطيع أمره كأنه عبده .

﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ٤٨ ﴾

أى : بالغرق ، وهذه قصة مشهورة معروفة ، وجعلها الله مُثْلة وعِبرةً .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

﴿ الْكِتَابَ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [المؤمنون] أى : التوراة ، وفيه منهج الهداية ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [المؤمنون] أى : يأخذون الطريق الموصِّل للغاية الشريفة المفيدة من أقصر طريق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ[1] ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

بعد أن أعطانا هذه اللقطة الموجزة من قصة موسى وهارون انتقل إلى المسيح ابن مريم ، والقرآن فى حديثه عن عيسى عليه السلام مرة يقول : ابن مريم ومرة يقول : عيسى بن مريم . وتسمية عيسى عليه السلام بأمه هى التى جعلتْ سيدتنا وسيدة نساء العالمين مريم ساعة تُبشَّر بغلام تستنكر ذلك ، وتقول : كيف ولم يمسسنى بشر ؟ ولم يخطر ببالها أنها يمكن أنْ تتزوّج وتُنجب ، لماذا ؟ لأن الله

(١) الربوة : ما ارتفع من الأرض . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٤٦) : « اختلف المفسرون فى مكان هذه الربوة من أى أرض هى ؟
- بمصر . قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، ليس الربى إلا بمصر . قال ابن كثير : وهو بعيد جداً .
- دمشق . قاله سعيد بن المسيب . وقال ابن عباس : أنهار دمشق .
- الرملة من فلسطين . قاله أبو هريرة .
- بيت المقدس . قاله الضحاك وقتادة .
قال ابن كثير : « هذا والله أعلم هو الأظهر ؛ لأنه المذكور فى الآية الأخرى ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، وهذا أَوْلَى ما يُفسّر به ثم الأحاديث الصحيحة ثم الآثار » .

سمَّاه ابن مريم ، وما دام سماه بأمه ، إذن : فلن يكون له أب .

وليس أصعب على الفتاة من أن تجد نفسها حاملاً ولم يمسسها رجل ؛ لأن عِرْض الفتاة أغلى وأعزّ ما تملك ، لذلك مهّد الحق - تبارك وتعالى - لهذه المسألة ، وأعدَّ مريم لاستقبالها ، وأعطاها المناعة اللازمة لمواجهة هذا الأمر العجيب ، كما نفعل الآن فى التطعيم ضد الأمراض ، وإعطاء المناعة التى تمنع المرض .

فلما دُخل زكريا - عليه السلام - على مريم فوجد عندها رزقاً لم يأْت به ، وهو كفيلها والمسئول عنها ، سألها : ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ .. (٣٧)﴾ [آل عمران] وكان هذا الردّ من مريم عن فَهْم تام لقضية الرزق ، ولم يكُنْ كلام دراويش ، بدليل أنها قالت بعدها : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾ [آل عمران]

وفى هذا الموقف درس لكل أب ولكل ولىّ أمر ورب أسرة أن يسأل أهل بيته عن كل شىء يراه فى بيته ولم يأْتِ هو به ، حتى لا يدعَ لأولاده فرصة أنْ تمتد أيديهم إلى ما ليس لهم .

لقد انتفع زكريا - عليه السلام - بهذا القول وانتبه إلى هذه الحقيقة ، نعم زكريا يعلم أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، لكن ذلك العلم كان معلومة فى حاشية الشعور ، فلما سمعها من مريم خرجتْ إلى بُؤْرة شعوره ، وعند ذلك دعا الله أن يرزقه الولد وقد بلغ من الكِبَر عتياً ، وامرأته عاقر .

وكذلك انتفعت بها مريم حين أحسَّتْ بالحمل دون أن يمسسْها بشر فاطمأنتْ ؛ لأن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب .

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ .. (٥٠)﴾ [المؤمنون] فأخبر

سبحانه عن المثنى بالمفرد ﴿آيَةً .. (٥٠)﴾ [المؤمنون] لأنهما مشتركان فيها : مريم آية لأنها أنجبت من غير زوج ، وعيسى آية لأنه وُلد من غير أب ، فالآية إذن لا تكون فى أحدهما دون الآخر ، وهما فيها سواء .

لذلك يراعى النص القرآنى هذه المساواة فيُقَدِّم عيسى فى آية : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً .. (٥٠)﴾ [المؤمنون] ويقدم مريم فى آية أخرى : ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (٩١)﴾ [الأنبياء] هذه العدالة فى النص لأنهما سواء فى الخبرية لا يتميز أحدهما على الآخر .

والآية هى الأمر العجيب الذى يُثبت لنا طلاقة قدرة الخالق فى الخَلْق ، وحتى لا يظن البعض أن مسألة الخَلْق مسألة (ميكانيكية) من أب وأم ، لذلك كان وجه العجب فى خَلْق عيسى أن يخرج عن هذه القاعدة ليجعله الله دليلاً على قدرته تعالى ، فإنْ أراد أنْ يخلق خلق من العدم ، أو من أب فقط ، أو من أم فقط ، وحتى فى اكتمال العنصرين يوجد الأب والأم ، لكن لا يوجد الإنجاب ، إذن : المسألة إرادة لله عز وجل ، وطلاقة لقدرة إلهية لا حدودَ لها .

يقول سبحانه : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا .. (٥٠)﴾ [الشورى]

والآن نلاحظ أن البعض يحاول منع الإنجاب بشتى الوسائل ، لكن إنْ قُدِّر له مولود جاء رغم أنف الجميع ، ورغم إحكام وسائل منع الحمل التى تفننوا فيها .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)﴾ [المؤمنون] من الطبيعى بعد أن حملتْ مريم بهذه الطريقة أنْ تُضطهد

من قومهـا وتُطارد ، بل وتستحى هى من الناس وتتحاشى أن يراها أحد ، ألا ترى قوله تعـالى عن ابنة شعيب : ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ .. ﴿٢٥﴾﴾ [القصص] على استحياء ، لأنـها ذهبت لاستدعاء فتىً غريب عنهـا ، فما بالك بمريم حين يراها القوم حـاملاً وليس لها زوج ؟ إنها مسألة أصعب ما تكون على المرأة .

لذلك لمـا سئل الإمـام محـمد عـبده وهو فى باريس : بأىِّ وجـه قابلتْ عائشـة قومَها بعد حادثة الإفك ؟ فألهـمه الله الجواب وهداه إلى الصواب ، فقال : بالوجه الذى قابلتْ به مريمُ قومَها وقد جاءتْ تحمل ولدها ؛ ذلك لأنـهم أرادوا أنْ يأخـذوها سُـبـة ومطـعناً فى جـبـين الإسلام .

ولما كانت مريم بهذه الصفة تولاها الله ودافع عنها ، فهذا يوسف النجار وكان خطيب مـريم حين يرى مسألة حَمْلهـا ، وهو أغْير الناس عليها بدل أنْ يتـشكك فيها ويتهمـها يتحوّل قلبه عليهـا بالعطف ، كما قال تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال]

فإذا به يخـدمهـا ويحنُو عليهـا ؛ لأن الله أنزل المسألة علـى قلبه منزل الرضا ، وكل مـا قاله فى مجـادلة مريم وفى الاستـفسار عَـمَّا حدث بطريقـة مهذبة : يا مـريمُ أرأيتِ شجرة بدون بذرة ؟ فـضحكتْ مريم وقد فهمت ما يريد وقالت : نعم الشجرة التى أنبتت أول بذرة[1] إنه كلام أهل الإيمان والفهم عن الله .

لذلك آواها الله وولدها ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾

(١) أورده ابن كثيـر فى تفسيره (٣/١١٦) وفيـه أن مريم عليها السلام ردت عليـه فقالت : « أمـا قولك هل يكون شـجر من غـير حـب وزرع من غيـر بذر فإن الله قـد خلق الشجـر والزرع أول ما خلقـهما من غيـر حب ولا بذر ، وهل يكون ولد من غير أب فـإن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم » فصدّقها وسلم لها حالها .

[المؤمنون] وساعةَ تسمع كلمة الإيواء تفهم أن شخصاً اضطر إلى مكان يلجأ إليه ويأوى إليه ، وكذلك كانت مريمُ مضطرة تحتاج إلى مكان يحتويها وهى مضطهدة من قومها . ولا بُدَّ فى مكان الإيواء هذا أنْ تتوفر فيه مُقَوِّمات الحياة ، خاصة لمثل مريم التى تستعد لاستقبال وليدها ، ومقومات الحياة : هواء وماء وطعام .

فانظر كيف أعدَّ الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لمريم مكان الإيواء : ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ .. ۝٥٠ ﴾ [المؤمنون] وهى المكان العالى عن الأرض المنخفض عن الجبل ، فهو معتدل الجو ؛ لأنه بين الحرارة فى الأرض المستوية والبرودة فى أعلى الجبل .

﴿ ذَاتِ قَرَارٍ .. ۝٥٠ ﴾ [المؤمنون] يعنى : توفرتْ لها أسباب الاستقرار من ماء وطعام ، فالماء يأتيها من أعلى الجبال ويمرُّ عليها ماءً معيناً ، يعنى : تراه بعينك ، والطعام يأتيها من ثمار النخلة التى نزلت بجوارها .

ومعلوم أن الربوة هى أنسب الأماكن حيث يمر عليها الماء من أعلى ، ولا يتبقى فيها مياه جوفية تضرُّ بمزروعاتها ؛ لأنها تتصرف فى الأرض المنخفضة عنها .

لذلك ضرب لنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ المثل للأرض الخصبة التى تؤتى المحصول الوافر ، فقال : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ .. ۝٢٦٥ ﴾ [البقرة]

إذن : اختار الله تعالى لمريم القرار الذى تتوفر فيه مقومات الحياة على أعلى مستوى بحيث لا تحتاج أن تنتقل منه إلى غيره .

وبعد ذلك يتكلم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عن قضية عامة بعد أن تكلَّم عن القرار ومُقَوِّمات الحياة ، وهى الطعام والشراب والهواء ،

فناسب ذلك أن يتكلم سبحانه عن المطعم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

لكن ، كيف يخاطب الحق ـ تبارك وتعالى ـ الرسل جميعاً في وقت واحد ؟ نقول : لأن القرآن الكريم هو كلام الله القديم ، لم يأتِ خاصاً بمحمد ﷺ ، وإنْ نزل عليه فهو إذن خطاب لكل رسول جاء .

وبعد أن أمرهم الحق سبحانه بالأكل من الطيب أمرهم بالعمل الصالح : ﴿ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا .. ﴿٥١﴾ ﴾ [المؤمنون] ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [المؤمنون] كأن الحق سبحانه يقول : اسمعوا كلامي فيما آمركم به ، فأنا عليم وخبير بكل ما يُصلحكم ؛ لأنني الخالق الذي أعلم كيف تستقيم بنيتكم للحركة الصالحة للخير ، ولا تستقيم بنيتكم للحركة الصالحة للخير إلا إذا أخذتم المطعم من الحلال الطيب .

وكما قلنا : إن صانع الآلة يضع لها الوقود المناسب لتشغيلها ، وإلاّ تعطلتْ عن أداء مهمتها .

فلكي تؤدي الصالح في حركة حياتك عليك أنْ تبدأ بالمطْعَم الطيب الذي يبني ذراتك من الحلال ، فيحدث انسجاماً بين هذه الذرات ، وتعمل معاً متعاونة غير متعاندة ، وإن انسجمتْ ذراتُك وتوافقتْ أعانتك على الصالح .

فإنْ دخل الحرام إلى طعامك وتلوثتْ به ذراتُك تنافرتْ وتعاندت ، كما لو وضعتَ للآلة وقوداً غير ما جُعِل لها ، فافهموا هذه القضية ؛ لأنني أنا الخالق فآمنُوا لي كما تؤمنونَ بقدرة الصانع حين يصنع لكم صناعة ، ويضع لكمَ قانون صيانتها .

إذن : أمر الحق سبحانه أولاً رسله بالأكل من الطيبات ؛ لأن

العمل الصالح يحتاج إلى جهاز سليم متوافق من داخله ؛ لذلك في سيرة النبي ﷺ أن أم عبد الله أخت شداد بن أوس ، أرسلت إلى النبي في يوم صامه وهو حارّ شيئاً من اللبن يفطر عليه ، وهو ﷺ يعلم أنها فقيرة لا تَملك شيئاً فأرسل إليها : من أين لك هذا اللبن ؟ فأرسلت إليه : من شاة عندي ، فبعث إليها : ومن أين لك بالشاة ؟ قالت : اشتريتها بمال دبّرته . فشرب رسول الله من اللبن[1] .

وإنْ كنا نحن لا نتحرى في مَطْعمنا كُلَّ هذا التحري ، لكن هذا رسول الله الذي يُنفذ منهج الله كما جاءه ، وعلى أكمل وجه . وفي الحديث الشريف : « أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [المؤمنون] وقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. ﴿١٧٢﴾ ﴾ [البقرة] ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِّي بالحرام ، فأنَّى يُستجاب لذلك ؟»[2] .

نعم ، كيف يُسْتجاب له وهو يدعو الله بجهاز إرسال فاسد مُشوّش دَنَّسه وخالطه الحرام ؟

وفي حديث سيدنا سعد رضي الله عنه لما قال لرسول الله : يا رسول الله ادْعُ الله لي أنْ أكون مُستجاب الدعوة ، فقال ﷺ :

---

(١) عن أم عبد الله أخت شداد بن أوس أنها بعثت إلى رسول الله ﷺ بقدح لبن عند فطره وهو صائم وذلك في طول النهار وشدة الحر فرد إليها رسولها : أنى لك هذا اللبن ؟ قالت : من شاة لي . قال : فرد إليها رسولها : أنى كانت لك هذه الشاة ؟ قالت : اشتريتها من مالي فأخذه منها ، فلما كان من الغد أتته فقالت أم عبد الله : يا رسول الله بعثت لك باللبن مرثية لك من طول النهار وشدة الحر فرددت الرسول فيه فقال لها : بذلك أمرت الرسل ألا تأكل إلا طيباً ولا تعمل إلا صالحاً . أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢٩١) وقال : « رواه الطبراني وفيه أبو بكر بن أبي مريم وهو ضعيف » .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠١٥) ، وأحمد في مسنده (٢/٣٢٨) ، والترمذي في سننه (٢٩٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

« يا سعد أطبْ مطعمك تكُنْ مُستجاب الدعوة »[1] .

ثم يُذيِّل الحق سبحانه هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ إنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾ [المؤمنون] يعنى : أعلم ما يُصلحكم ، وما يجلب لكم الخير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ (٥٢) ﴾

بعد أن تكلَّم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عن المعركة بين الإيمان والكفر أراد هنا أن يتكلم عن معركة أخرى لا تقلّ خطورة عن الأولى ، وهى معركة الفُرْقة والاختلاف بين صفوف المؤمنين ، ليحذرنا من الخلافات التى تشقُّ عصانا ، وتفُتُّ فى عَضُد الأمة وتُضعفها أمام أعدائها ، ونسمعهم الآن يقولون عنَّا بعدما وصلنا إليه من شَيع وأحزاب ـ ليتفقوا أولاً فيما بينهم ، ثم يُبشِّروا بالإسلام .

الأمة : الجماعة يجمعهم زمن واحد أو دين واحد ، وتُطلَق على الفرد الواحد حين تجتمع فيه خصال الخير التى لا تجتمع إلا فى أمة ، لذلك سمَّى الله تعالى نبيه إبراهيم أمة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) ﴾ [النحل]

أما قوله سبحانه : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. (٤٨) ﴾ [المائدة] فكيف نقول : إنها أمة واحدة ؟

قالوا : لأن الدين يتكوّن من أصول وعقائد ، وهذه واحدة لا تختلف باختلاف الأديان ، وأخلاق وفروع . وهذه تختلف من دين لآخر باختلاف البيئة ؛ لأنها تأتى بما يناسب حركة الحياة فى كل عصر .

---

(١) عن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند رسول الله ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا .. (١٦٨) ﴾ [البقرة] فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال رسول الله ﷺ : يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده إن العبد يقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه العمل أربعين يوماً وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به . أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٩١/١٠) وقال : « رواه الطبرانى فى الصغير وفيه من لم أعرفهم » .

يقول تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

إذن : فالأمة واحدة يعنى فى عقائدها وإن اختلفتْ فى الشريعة والمنهج ، والأحكام الجزئية التى تتعرض لأقضية الحياة . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ .. (٥٠) ﴾ [آل عمران]

وكانوا فى الأمم السابقة إذا وقعت نجاسة على ثوب يقطعون الموضع الذى وقعت عليه ، فلما جاء الإسلام خفَّف عن الناس هذا العَنت ، وشرع لهم أنْ يغسلوه فيطهر .

وما دام أن أمتكم أمة واحدة ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) ﴾ [المؤمنون] يعنى : اتقوا الله فى هذه الأمة الواحدة وأبقوا على وحدتها ، واحذروا ما يُفرِّقها من خلافات حول فروع إن اختلف البعض عليها اتهموا الآخرين بالكفر ؛ لأنهم يريدون أنْ يَنْهبوا من الدين الجامع سلطة زمنية لأنفسهم .

والحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. (١٥٩) ﴾ [الأنعام]

فالأمور التى أحكمها الله باللفظ الصريح المُحْكَم أصول لا خلافَ عليها ولا اجتهادَ فيها ، وأما الأمور التى تركها سبحانه للاجتهاد فيجب أن نحترم فيها اجتهاد الآخرين ، وإلا لو أراد الحق سبحانه لجعل الأمر كله مُحْكماً لا مجالَ فيه لرأى أو اجتهاد .

ومعنى ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ .. (٥٢) ﴾ [المؤمنون] أن من عطاء ربوبيتى أنْ جعلْتُ لكم أموراً محكمة وعقائد ثابتة ؛ لأن الاختلاف فيها يفسد

المجتمع ، وتركتُ لكم أموراً أخرى تأتون بها أو تتركونها ، كُلٌّ حسب اجتهاده ؛ لأن الاختلاف فيها لا يترتب عليه فساد في المجتمع ، وسبق أن مثّلنا لهذه الأمور .

وقوله : ﴿ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [المؤمنون] يعني : بطاعة الأمر ، فما أحكمتُه فأحْكِموه ، وما جعلتُ لكم فيه اجتهاداً فاقبلوا فيه اجتهاد الآخرين .

لكن ، هل سمعنا قولْ الله وأطعْنَا ؟ يقول سبحانه :

﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

﴿ زُبُراً .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [المؤمنون] يعني : قطعاً متفرقة ، ومنه ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [الكهف]

﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [المؤمنون] يعني : كل جماعة تتعصب لرأيها وتفرح به ، وكأنها على الحق وغيرها على الباطل ، يريدون أن تكون لهم سلطة زمنية بين الناس ، ويُصوِّرون لهم أنهم أتوْا بما لم يأت به أحد قبلهم ، وتنبّهوا إلى ما غفل عنه الآخرون .

﴿ بِمَا لَدَيْهِمْ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [المؤمنون] بالرأى الذى يريدونه ، لا بالحكم الذى يرتضيه الحق سبحانه وتعالى .

من ذلك قولهم : إن الصلاة فى مسجد به قبر أو ضريح باطلة ، وأن ذلك شرك فى العبادة .. إلخ ولو أن الأمر كما يقولون فليهدموا القبر فى المدينة .

إن على هؤلاء الذين يثيرون مثل هذه الخلافات أنْ يتفهموا الأمور

على وجهها الصحيح ، حتى لا نكون من الذين قال الله عنهم : ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [المؤمنون]

وما أفسد استقبال الأديان السابقة على الإسلام إلا مثل هذه الخلافات ، وإلاَّ فكل دين سبق الإسلام وخصوصاً الموسوية والعيسوية قد بشَّرَتْ بمحمد ﷺ ، وكانوا وهم أهل كتاب ورسالة وعلى صلة بالسماء - يجادلون أهل الكفر من عبدة الأصنام يقولون : لقد أظلَّ زمان نبي يظهر فيكم نتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم[(١)] .

ومع ذلك : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة] لماذا ؟ لأنهم يريدون أن يحتفظوا بسلطتهم الزمنية .

كيف لا ينكرون رسول الله ﷺ ، وقد كان أحدهم[(٢)] يستعد لتنصيب نفسه ملكاً على المدينة يوم أنْ دخلها رسول الله ، فأفسد عليه ما أراد ؟

﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

﴿ فَذَرْهُمْ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [المؤمنون] يعني : دَعْهم ، والعرب لم تستعمل الماضي من هذين الفعلين ، فورد فيهما يدع ويذر . وقد ورد هذا الفعل أيضاً في قوله تعالى : ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [المزمل]

---

(١) عن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . ذكره ابن كثير في تفسيره (١٢٤/١) نقلاً عن ابن إسحاق .

(٢) هو عبد الله بن أُبيّ بن سلول . رأس المنافقين في المدينة ، أبو الحباب من خزاعة ، وسلول جدته لأبيه ، كان سيد الخزرج في آخر جاهليتهم وكان كلما حلت بالمسلمين نازلة شمت بهم ، وكلما سمع بسيئة نشرها . توفي عام ٩ هجرية . [الأعلام للزركلي ٦٥/٤]

وفى قوله تعالى : ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ..(٤٤) ﴾ [القلم]

والمعنى : ذرهم لى أنا أتولى عقابهم ، وأفعل بهم ما أشاء ، أو : ذرهم يفعلون ما يشاءون ليستحقوا العقاب ، وينزل بهم العذاب .

والغمرة : جملة الماء التى تغطى قامة الرجل وتمنع عنه التنفس ، فلا يبقى له من أمل فى الحياة إلا بمقدار ما فى رئته من الهواء ؛ لذلك يحرص الإنسان على أنْ يُمرِّن نفسه على أن تتسع رئته لأكبر قدر من الهواء .

ومن ذلك أخذت كلمة المنافسة ، وأصلها أن يغطس اثنان تحت الماء ليختبر كل منهما الآخر : أيّهما يبقى فترة أطول تحت الماء ودون تنفس .

ويقول تعالى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) ﴾ [المطففين]
وتستطيع أن تُجرى مع نفسك هذه المنافسة ، بأن تأخذ نفساً عميقاً ثم تعد : واحد ، اثنان وسوف ترى مقدار ما فى رئتك من الهواء .

فالمعنى : ذَرْهم فى غبائهم وغفلتهم فلن يطول بهم الوقت ؛ لأنهم كمن غمره الماء ، وسرعان ما تنكتم أنفاسه ويفارق الحياة ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) ﴾ [المؤمنون] والحين مدة من الزمن قد تطول ، كما فى قوله تعالى : ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا.. (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

وقد تقصر كما فى قوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) ﴾ [الروم] وكأن الله تعالى عَبّر بالغمرة ليدل على أن حينهم لن يطول .

ثم ينتقل السياق ليعالج قضية قد تشغل حتى كثيراً من المؤمنين :

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

هذه قضية شغلت كثيراً من المؤمنين حين يروْنَ الكافرين بالله مُرفَّهين مُنعّمين ، فى يدهم المال والنفوذ ، فى حين أن المؤمنين فقراء ، وربما تشكّك البعض واهتزَّ إيمانه لهذه المتناقضات .

ونقول لهؤلاء : لم تكن هذه صورة المؤمنين فى الماضى ، إنهم سادوا الدنيا بعلومهم وثقافاتهم وازدهرتْ حضارتهم على مدى ألف سنة من الزمان ، فلما تخلَّوْا عن دينهم وقيَمهم حَلَّ بهم ما هم فيه الآن .

لقد تقدم علينا الآخرون ؛ لأنهم أخذوا بأسباب الدنيا ، وينبغى علينا نحن المسلمين أن نأخذ أيضاً بهذه الأسباب ؛ لأنها من عطاء الربوبية الذى لا يُحرم منه لا مؤمن ولا كافر ، فَمَنْ أحسنه نال ثمرته وأخذ خيره .

قال سبحانه : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى]

والأسباب يد الله الممدودة لخَلْقه ، فَمَنْ ردَّ يد الله إليه فلا بُدَّ أن يشْقَى فى رحلة الحياة .

وقد يكون تنعُّم هؤلاء مجرد ترف يجرُّهم إلى الطغيان ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام]

لذلك فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يعالج هنا هذه المسألة :

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ .. (٥٦)﴾ [المؤمنون] أيظنون أن هذا خير لهم ؟ لا ، بل هو إمهال واستدراج ليزدادوا طغياناً .

وفي موضع آخر يقول سبحانه : ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا .. (٨٥)﴾ [التوبة]

وقوله تعالى : ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ.. (٥٦)﴾ [المؤمنون] (بل) : تفيد الإضراب عما قبلها وإثبات ما بعدها ، إضراب عن مسألة تنعُّم هؤلاء ؛ لأنها نعمة موقوتة وزائلة ، وهى فى الحقيقة عليهم نقمة ، لكنهم لا يشعرون ، لا يشعرون أن هذه النعمة لا تعنى محبتهم ورضانا عنهم ، ولا يشعرون بالمكيدة وبالفخ الذى يُدبَّر لهم .

وسبق أن أوضحنا أن الله تعالى حين يريد الانتقام من عدوه يُمدّه أولاً ، ويُوسِّع عليه ويُعلى مكانته ، حتى إذا أخذه كان أَخْذه مؤلماً وشديداً .

وقوله تعالى : ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ..(٥٦)﴾ [المؤمنون] المسارعة ترد فى كتاب الله على معَانٍ : مرة يتعدَّى الفعل بإلى ، مثل : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٣٣)﴾ [آل عمران] ومرة يتعدى بفى ، مثل : ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ..(٦١)﴾ [المؤمنون] فما الفرق بين المعنيين ؟

سارع إلى كذا : إذا كنتَ خارجاً عنه ، وتريد أن تخطو إليه خُطَىً عاجلة ، لكن إنْ كنتَ فى الخير أصلاً وتريد أنْ ترتقى فيه تقول : سارع فى الخيرات . فالأولى يخاطب بها مَنْ لم يدخل فى حيِّز الخير ، والأخرى لمنْ كان مظروفاً فى الخير ، ويريد الارتقاء .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ ﴾

الخشية : هى أشد الخوف ، والإنسان قد يخاف من شىء ، لكن يبقى عنده أمل فى النجاة ، ويتوقَّع من الأسباب ما ينقذه ويُؤمِّن خوفه ، لكن حين تخاف من الله فهو خوف لا منفذَ للأمل فيه ، ولا تهبُّ فيه هَبَّة تُشعرك بلطف .

ومعنى ﴿ مُشْفِقُونَ ۝٥٧ ﴾ [المؤمنون] الإشفاق أيضاً الخوف ، وهو خوف يُمدَح ولا يُذم ؛ لأنه خوف يحمل صاحبه ويحثّه على تجنُّب أسباب الخشية بالعمل الصالح ، إنه إشفاق من الذنب الذى يستوجب العقوبة ، كالتلميذ الذى يذاكر ويجتهد خوفاً من الرسوب ، وهكذا حال المؤمن يخاف هذا الخوف المثمر الممدوح الذى يجعله يأخذ بأسباب النجاة ، وهذا دليل الإيمان .

أمّا الإشفاق بعد فوات الأوان ، والذى حكاه القرآن عن المجرمين : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا .. ۝٤٩ ﴾ [الكهف] فهذا إشفاق لا فائدة منه ؛ لأنه جاء بعد ضياع الفرصة وانتهاء وقت العمل ، فقد قامت القيامة ونُشِرت الكتب ولا أملَ فى النجاة إذن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨
وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ ﴾

نلحظ فى هذه الآيات أن الحق سبحانه حدثنا عن الإشفاق والخشية ، ثم عن الإيمان بآيات الله ، ثم فى النهاية عن مسألة الشرك . وقد تسأل : لماذا لم يبدأ بالتحذير من الشرك ؟

نقول : لأن الشرك المراد هنا الشرك الخفى الذى يقع فيه حتى المؤمن ، والذى قال الله فيه : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف] فلا تظن أن الشرك فقط أن تجعل لله شريكاً ، أو أن تسجد لصنم ، فمن الشرك شرك خفى دقيق يتسرب إلى القلب ويخالط العمل مهما كان صاحبه مؤمناً .

لذلك ، فالنبى ﷺ يُعلِّمنا الأدب فى هذه المسألة ، فيقول فى دعائه : « اللهم إنى أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك فخالطنى فيه ما ليس لك »[1] .

فالإنسان يشرع فى العمل ويخلص فيه النية لله ، ومع ذلك يتسرب إليه شىء من الرياء وتزيين الشيطان ؛ لذلك وصف النبى ﷺ الشرك الخفى بأنه أخفى من دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء[2] .

كما أن الشرك الأكبر لا يتصور ممَّن هذه الصفات المتقدمة صفاته .

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف بن عبد الله أنه كان يقول : « اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ثم لم أف لك به ، وأستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك فخالط قلبى منه ما قد علمتَ » .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٤٠٣/٤) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل فقال له من شاء الله أن يقول : وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ؟ قال قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلم » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ[1] أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) ﴾

﴿ يُؤْتُونَ . (٦٠) ﴾ [المؤمنون] يعنى المال ، وقال بعدها : ﴿ مَا آتَواْ .. (٦٠) ﴾ [المؤمنون] حتى لا يجعل لها حداً ، لا العُشْر ولا نصف العُشر ، يريد سبحانه أن يفسح لأريحية العطاء وسخاء النفس ، لذلك جاءت ﴿ مَا آتَواْ .. (٦٠) ﴾ [المؤمنون] هكذا مُبْهمة حتى لا نظن أنها الزكاة ، ونعرف أن الله تعالى يفتح المجال للإحسانية والتفضُّل ، وهذا هو مقام الإحسان الذى قال الله تعالى عنه : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾ [الذاريات]

والمحسن : الذى يلزم نفسه من الطاعات فوق ما ألزمه الله ، لكن من جنس ما فرض الله عليه ، فإن كان الفرض فى الصوم شهر رمضان يصوم المحسن رمضان ويزيد عليه ؛ لذلك تجد الدقة فى الأداء القرآنى ، حيث يقول بعدها : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ [الذاريات]

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ .. (٦٠) ﴾ [المؤمنون] قالت عائشة : أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : « لا يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم ، أولئك الذين يسارعون فى الخيرات » أخرجه أحمد فى مسنده (١٥٩/٦ ، ٢٠٥) ، والترمذى فى سننه (٣١٧٥) ، وابن ماجة فى سننه (٤١٩٨) ، واللفظ للترمذى .

وهذه أمور فوق ما فرض الله عليهم ، ولم يطلب منك أن تقوم الليل لا تنام ، لكن صَلِّ العشاء ونَمْ حتى الفجر ، وهذه المسألة واضحة في قوله تعالى بعدها : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات] ولم يقل (معلوم) لأن الآية لا تتكلم عن الحق المعلوم وهو الزكاة ، إنما عن الصدقة والتطوع فوق ما فرض الله .

والإبهام في ﴿ مَا .. (٦٠) ﴾ [المؤمنون] جاء أيضاً في قول الله تعالى : ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) ﴾ [طه] ولم يحدد مقدار الماء الذي غشيهم ، وترك المسألة مبهمة ليكون المعنى أبلغ ، ولتذهب الظنون في هَوْلها كل مذهب .

لكن ؛ ما داموا قد أعْطوا ومدُّوا أيديهم للآخرين بالعطاء ، فلماذا يقول تعالى : ﴿ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ .. (٦٠) ﴾ [المؤمنون]

نقول : لأن العبرة ليست بمجرد العمل ، إنما العبرة بقبول العمل ، والعمل لا يُقبل إلا إذا كان خالصاً لوجه الله لا يخالطه رياء ولا سمعة ، فهم إذن يعملون ويتحرَّوْن الإخلاص وأسباب القبول ويتصدّق أحدهم بالصدقة ، بحيث لا تعلم شماله ما أنفقتْ يمينه ، ومع ذلك يخاف عدم القبول ، وهذه أيضاً من علامات الإيمان .

وكأن ربك عز وجل يَغَارُ عليك أنْ تعمل عملاً لا تأخذ عليه أجراً ؛ لأنك إنْ رأيت الناس في شيء من العمل تركك الله وإياهم تأخذ منهم الجزاء ، فهذا إذن جَهْد مُهْدر لا فائدة منه ، وهذه المسألة لا يرضاها لك ربك .

وفي الحديث القدسي : « الإخلاص سِرٌّ من أسراري أودعته

قلب مَنْ أحببت من عبادى ، لا يطلع عليه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده »[١] .

والوجل : انفعال قسرى واضطراب يطرأ على العضو من خوف أو خشية ، والخوف شيء يخيفك أنت ، أما الخشية فهى أعلى من الخوف ، وهى أن تخاف ممن يوقع بك أذى أشد مما أنت فيه .

ومن أهل التفسير مَنْ يرى أن الآية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ .. (٦٠)﴾ [المؤمنون] جاءت فى الرجل الذى يسرق ، والذى يزنى ، والذى يشرب الخمر ، لكن قلبه وَجِلٌ من لقاء الله وخشيته ، فما يزال فيه بقية من بقايا الإيمان والحياء من الله تعالى . وقالوا : إن عائشة رضى الله عنها فهمت هذا من الآية[٢] .

لكن هذا الفهم لا يستقيم مع قوله تعالى ﴿يُؤْتُونَ .. (٦٠)﴾ [المؤمنون] أى : يؤتون غيرهم ، فهناك إذن مُؤتٍ ومُؤْتىً له ، ولو أراد السرقة والزنى وشرب الخمر لقال : يَأْتُون .

فالمراد : يؤتون غيرهم ما عليهم من الحق ، سواء أكانت هذه الحقوق لله تعالى كالزكاة والكفارات والنذور والحدود ، أو كانت متعلقة بالعباد كالودائع والأمانات والعدالة فى الحكم بينهم .. الخ فيؤدى المؤمن ما عليه من هذه الحقوق ، وقلبه وَجِلٌ ألاَّ يصاحب الإخلاص عمله فلا يقبل .

---

(١) ذكره الغزالى فى « إحياء علوم الدين » (٣٧٦/٤) قال العراقى فى تخريجه : « رويناه فى جزء من مسلسلات القزوينى مسلسلاً يقول كل واحد من رواته : سألت فلاناً عن الإخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمى عن عبد الواحد بن زيد عن حذيفة عن النبى ﷺ عن جبريل عن الله تعالى ، وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيرى فى الرسالة من حديث على بن أبى طالب بسند ضعيف » .

(٢) سبق ذكر حديث عائشة وفهمها للآية صفحة ١٠٠٦٥ .

ثم يقول تعالى : ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠)﴾ [المؤمنون] فالمؤمن يؤدى ما عليه ، ومع ذلك تراه خائفاً وَجلاً ؛ لأنه يثق فى الرجوع إلى الله والوقوف بين يديه سبحانه ، وهو ربه الذى يُجازيه على قَدْر إخلاصه ، ويخاف أيضاً أن يفتضح أمره إنْ خالط عملَه شئٌ من الرياء ؛ لأن ربه غيور لا يرضى معه شريكاً فى العمل ، وهو سبحانه يعلم كل شىء ويحاسب على ذرات الخير وعلى ذرات الشر .

وهناك أعمال فى ظاهرها أنها من الدين ، لكن فى طيها شىء من الرياء ، وإنْ لم يَدْرِ الإنسان به ، ومن ذلك قولهم : أفعل هذا لله ثم لك ، أو : توكلت على الله وعليك .. الخ ، فهذه العبارات وأمثالها تحمل فى طياتها معانى الشرك التى ينبغى أن نُنزِّه الله عنها ، فلا نعطف على الله تعالى أحداً حتى لا نشركه مع الله ، ولو عن غير قصد .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦)﴾ [يوسف] ويوم القيامة يطمئن أهل الإخلاص إلى الجزاء ، ويُفَاجأ أهل الشرك والرياء بوجود الله تعالى ، ولم يكن على بالهم حين عملوا : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ .. (٣٩)﴾ [النور] إذن : ما دُمْنَا سنفاجأ بوجود الحق ، ولا شىء غير الحق ، فليكُنْ عملنا للحق ، ولا شىء لغير الحق .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ (٦١)﴾

﴿أُولَٰئِكَ .. (٦١)﴾ [المؤمنون] أى : أصحاب الصفات المتقدمة ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (٦١)﴾ [المؤمنون] وفرْق بين أسرع وسارع : أسرع يُسرع يعنى : بذاته ، إنما سارع يسارع أى : يرى غيره

يسرع ، فيحاول أنْ يتفوق عليه ، ففيه مبالغة وحافز على المنافسة .

وسبق أنْ أوضحنا الفرق بين سارع إلى وسارع فى ، فمعنى ﴿ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (٦١) ﴾ [المؤمنون] أنهم كانوا فى حيِّز الخيرات ومظروفين فيه ، لكن يحاولون الارتقاء والازدياد من الخيرات للوصول إلى مرتبة أعلى .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) ﴾ [المؤمنون] هل المسارعة هى علَّة أنهم سبقوا إلى الخيرات ، أم أنْ سَبْقهم إلى الخيرات علّة المسارعة ؟

فى اللغة يقولون : سبب ومُسبب ، وشرط وجزاء ، وعلة ومعلول . فحين تقول : إنْ تذاكر تنجح ، فالمذاكرة سبب فى النجاح ، لكن هل سبقت المذاكرةُ النجاح ؟ لا ، بل وُجد النجاح أولاً فى بالك ، واستحضرت مميزاته وكيف ستكون منزلتك فى المجتمع وبين الناس ، وبذلك وجد عندك دافع وخاطر ، ثم أردت أنْ تحققه واقعاً ، فذاكرت للوصول إلى هذا الهدف .

إذن : فكل شرط وجواب : الجواب سبب فى الشرط ، والشرط سبب فى الجواب ، الجواب سبب فى الشرط دافعاً له ، والشرط سبب فى الجواب واقعاً وتنفيذاً ، فالنجاح وُجد دافعاً على المذاكرة ، والمذاكرة جاءت واقعاً ليتحقق النجاح .

وكذلك فى ﴿ أُوْلَـٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) ﴾ [المؤمنون] فالمعنى : القصد أنْ يسبق فسارع ، سارع فى الواقع ليسبق بالفعل ، لكن السبْق قبل المسارعة ؛ لأن الذهن متهيىء له أولاً وحقائقه واضحة .

إذن : الشرط والجزاء ، والسبب والمسبب ، والعلة والمعلول تدور بين دافع هو الجواب ، وواقع هو الشرط .

ومعنى : ﴿ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ⦗٦١⦘ ﴾ [المؤمنون] يعنى : هم أهل لهذا العمل وقادرون عليه ، كما لو طلبتُ منك شيئاً فتقول لى : هذا شىء صعب فأقول لك : وأنت لها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ⦗٦٢⦘ ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن المسارعة والمنافسة بيَّن أنها على قَدْر الوُسْع والطاقة ، وأنه سبحانه ما كلَّفك إلا بعد علْمه بقدرتك ، وأنك تسع هذا التكليف ، فإياك أنْ تنظر إلى الحكم فتقول : أنا أسعه أو لا أسعه ، لكن انظر إلى التكليف : ما دام ربك قد كلَّفك فاعلم أنه فى وُسْعك ، وحين يعلم منك ربك عدم القدرة يُخفِّف عنك التكليف دون أنْ تطلب أنت ذلك . والأمثلة على تخفيف التكاليف واضحة فى الصلاة والصوم والحج .. إلخ .

والآن نسمع مَنْ يقول : لم تَعُد الطاقة فى هذا العصر تسع هذه التكاليف ، فالزمن تغيّر ، والأعمال والمسئوليات كثرت ، إلى غير ذلك من هذه الأقوال التى يريد أصحابها التنصّل من شرع الله . ونقول : ما دام التكليف باقياً فالوُسْع بَاقٍ ، والحق ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم بوُسْع خَلْقه وطاقاتهم .

إذن : أنا أنظر أولاً إلى التكليف ، ثم أحكم على الوُسْع من التكليف ، ولا أحكم على التكليف من الوُسْع .

ثم يقول سبحانه: ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٢) ﴾ [المؤمنون] المراد هنا كتاب أعمالنا[1] الذى سجّل فيه كل شىء قدّمته الأيدى ، لكن : ما الحكمة من تسجيل الأعمال ؟ وهل يُكذِّب العباد ربهم عز وجل فيما سُجِّل عليهم ؟

قالوا : الحكمة من تسجيل الأعمال أن تكون حجة على صاحبها ، وليعلم أن الله ما ظلمه شيئاً ؛ لذلك سيقول له ربه : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ .. (١٤) ﴾ [الإسراء] يعنى : بنفسك حتى تُقام عليك الحجة ، ولا يكون عندك اعتراض .

ثم قال بعدها : ﴿ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٢) ﴾ [المؤمنون] لأن الظلم لا يُتصوّر من الحق - سبحانه وتعالى - فالظلم نتيجة الحاجة ، وأنت تظلم غيرك حين تريد أن تنتفع بأثر الغير فى الخير زيادة عَمَّا عندك ، فالظلم إذن نتيجة الحاجة ، والحق سبحانه هو المعطى ، وهو الغنى الذى لا حاجةَ له إلى أحد ، فلماذا يظلم ؟

كذلك قد يظلم الضعيف ليأخذ ما فى يد غيره ليسُدَّ حاجته أو شهوته ، ولو كان قوياً لكفى نفسه بمجهوده .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) ﴾

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٤٦٦٧/٦) أقوالاً أخرى فى المراد بالكتاب فى الآية فقال : « وقيل : عنى اللوح المحفوظ ، وقد أثبت فيه كل شىء ، فهم لا يجوزون ذلك . وقيل : الإشارة بقوله ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ .. (٦٢) ﴾ [المؤمنون] القرآن ، فالله أعلم ، وكل محتمل ، والأول أظهر » يقصد أنه كتاب إحصاء أعمال العباد ، وهو ما ذهب إليه فضيلة الشيخ الشعراوى رحمه الله تعالى .

﴿بَلْ .. ﴿٦٣﴾﴾ [المؤمنون] حـرف يدل على الإضـــراب عن الكلام السابق ، وإثبـات الحكم للكلام بعدها . والغَـمْرة كمـا قلنا : هى جملة الماء الذى يعلو قامة الإنسان حـتى يمنع عنه التنفس ويحرمه الهواء ، وهو أول مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة .

فالإنسان يصـبر على الطعام شهراً ، ويصـبر على الماء من ثلاثة أيام لعشرة ، إنمـا لا يصبر على النَّفَس إلا بمقدار ما يحـتويه الصدر من الهواء ، فإنْ كان كانت رئتك سليمة تتسع لأكبر كمية من الهواء ، وتسـتطيع أنْ تتحـمل عدم التـنفس لفتـرة أطول ، أما إن كـانت الرئة مُعتَلَّة ، فإنها لا تتسع لكمية كبيرة ، وسرعان ما ينتهى الهواء ويموت الإنسان .

ومن التنفس جاءت المنافـسة ، كما فى قـوله تعالى : ﴿وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين] ثم استُعملَتْ لكل عمل تُنافس فيه غيرك ؛ لأن الهواء هو العنصر الأساسى فى الحياة .

لذلك الخالق - عز وجـل - حينما خلق هذه البِنْية الإنسـانية جعل لها نظامـاً فريداً فى وقودها وغذائهـا على خلاف صَنْعة البـشر ، فلو منعتَ البنزين مثلاً عن السيارة توقفتْ ، أمّا صنعة الخالق - عز وجل - فالجـسم يأخذ حاجتـه من الطعام والماء ، ثم يختـزن الباقى لوقت الحاجـة ، وقد علم الحق سبـحانه شهـوتك وحبك للطعـام وللشراب ، وأخْذك منهما فـوق حاجتك ، فإنْ غاب عنك الطعام تـغذّى جسمك من هذا المخزن الربانى .

لذلك نرى البعض حـين يتأخر عنه الطعام يقـول : نفسى انصدت عن الأكل ، والحـقيقـة أنه أكل فـعلاً ، وتغـذى من مـخزون الطعـام والشراب فى جسمه .

ومن حكمة الله أن الطعام الفائض يُختزن فى صورة واحدة هى الشحم ، الذى يتحول تلقائياً إلى أىٍّ عنصر آخر يحتاجه الجسم ، فإذا انتهى الشحم تغذَّى الجسم على اللحم والعضلات ، ثم على العظام ، وهى آخر مخزن للقوت فى جسم الإنسان ؛ لذلك جاء فى قصة زكريا عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ ﴾ [مريم]

أما الهواء فليس له مخزن إلا بقدْر ما تتسع له الرئة ، فإذا نفد منها الهواء بشهيق وزفير فلا حيلة فيه ، ومن رحمة الله بعباده ألاّ يُملِّك الهواء لأحد ، فقد يملك الطعام وربما يملك الماء ، أمّا الهواء الذى يحتاجه فى كل نفَس ، فقد جعله الله ملْكاً للجميع ، حتى لا يمنعه أحد عن أحد ؛ لأنك لا تستطيع أن تحتال له كما تحتال للطعام وللشراب ، ولو غضب عليك مالك الهواء لمتّ قبل أنْ يرضى عنك .

ونلحظ هنا أن الغمرة لا تحتويهم هم ، إنما تحتوى القلوب : ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ .. ﴿٦٣﴾ ﴾ [المؤمنون] وهذه بلوى أعظم ؛ لأن القلب محلٌّ لحصيلة المدركات التى يأخذها العقل ، ويُميِّز بينها ويختار منها ويُرجِّح ، ثم تتحول هذه المدركات إلى عقائد تستقر فى القلب وعلى هَدْيها تسير فى حركة الحياة .

لذلك إنْ كان القلب نفسه فى الغمرة فالمصيبة أشدّ والبلاء أعظم ؛ لأنه مُستْودع العقائد والمبادىء التى تُنير لك الطريق .

والقلب هو محلٌّ نظر الله إلى عباده ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا .. ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف]

وقال سبحانه: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. ﴿٧﴾ ﴾ [البقرة] لأنهم أحبوا

الكفر واطمأنوا إليه ، ولأنه سبحانه ربٌّ متولٍّ ربوبية الخلق ، يعطيهم ما أرادوا حتى إنْ كـان كفراً ؛ لذلك ختم على قلوبهم حـتى لا يدخلها إيمان ولا يخرج منها كفر ؛ لأنهم عشقوا الكفر وأحبّوه .

لذلك نقـول لأهل المـصـائب الـذين يُصـابون في غـالٍ أو عـزيز فيحزنون عليه ، ويبالغون بإقامة المآتم والسرادقات ، ويقيمون ذكرى الخـمـيس والأربعـين وغيـرها ، وربمـا كـان الابن عـاقـاً لوالديه في حياتهمـا ، فإذا مات أبوه أو أمه أقام المآتم وشـغل الناس ، وهو كما قال الشاعر :

لاَ أَعْرِفنَّك بعْد الموتِ تَنْدبني وفِـي حَيَاتـي مـَا زَوَّدْتَنـي زَادَا

أو الأم التي فقدت وحيدها مثلاً ، فـتعيش حزينة مُكدّرة ، وكأنها عشقتْ الحـزن وأحبّته ، نحـذر هؤلاء وننصح كل حزين أن يُغلق باب الحزن بمسـامير الرضا والتسليم ، فـالحزن إنْ رأى بابه مُوارباً دخل وظَلّ معك ولازمك .

وسبق أن وضحنـا أن الحق سبحانه لا يرفع بلاءً عن عـبده حتى يرضى به ، ولنا القدوة في هذه المسألة بأبينا إبراهيم - عليه السلام - حين ابتـلاه ربه بذبح ولده في رؤيا رآها ، واعتـبرها هو تكليـفاً ، ورضي بقـدر الله وسلّم لأمره ، ثم أخـبر ولده ووحـيده بهـذه الرؤيا حتى لا يحرمه هذا الأجر ولا يأخذه على غرّة ، فيتغير قلبه عليه :

﴿ فَلَمَّـا أَسْلَمَـا وَتَلَّهُ[1] لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَـٰإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات]

(١) تله : ألقاه على وجهه على الأرض . [القاموس القويم ١/١٠١] .

فبعد أن رضى إبراهيم وولده بقضاء الله رفع عنهما البلاء ، وجاءهما الفداء من الله لإسماعيل ، بل وزاده بأنْ بشّره بولد آخر هو إسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، أجيال متعاقبة جاءتْ فضلاً من الله وجزاءً على الرضا بقضائه وقدره ؛ وما أحسن ما قال الشاعر[1] فى هذا الموقف :

سَلِّمْ لربِّك حُكْمه فَلحكْمة يَقْضِيه حتّى تسْتريح وتَغْنَما
واذكُرْ خليلَ الله فِى ذَبْح ابنه إذْ قَالَ خالقُه فلمّا أسْلَما

إذن : إذا كانت القلوب نفسها فى غمرة ، فقد خرب جهاز العقائد والمبادىء ، وينشأ عن خرابه خراب حركة الحياة وانحراف السلوك . وقد أخذ القلب هذه الأهمية ؛ لأنه معمل الدم ، ومصدر سائل الحياة ، فإنْ فسدَ لا بُدَّ أنْ ينضح على باقى الجوارح ، فتفسد هى الأخرى ، ولو كان القلب صالحاً فلا بُدّ أنْ ينضحَ صلاحه على الجوارح كلها فتصلح ، كما جاء فى الحديث الشريف :

« ألا إن فى الجسد مُضْغة إذا صلُحت صلُح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[2]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى الأمر لا يتوقف بهم عند مسألة العقائد ، إنما لهم أعمال أخرى كثيرة سيقعون فيها ، فالحق سبحانه لا يذكر لهم إلا قمم المخالفات ونماذج منها ، إنما فى علمه تعالى وفى لوحه المحفوظ أنهم سيفعلون كذا ويفعلون كذا ، وإنْ كانوا هم أنفسهم لا يعلمون أن ذلك سيحدث منهم لكن ربهم - عز وجل - يعلم بطلاقة القدرة ما كان وما سيكون .

---

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .
(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

ومن عجائب قدرة الله أنه سبحانه يحكم على عبده الكافر أنه سيعمل كذا وكذا ، ومع ذلك لم يعاند أحد الكفار ، فيقول : إن الله حكم عليَّ بكذا ، ولكنى لن أفعل فيكون حكم الله عليه غير صحيح ؛ لأن الحق سبحانه لا يتحكم فيما يجريه علينا فحسب ، وإنما فى اختيار العبد ومراده ، مع أن العبد حُرٌّ فى أنْ يفعل أو لا يفعل .

وهذه القضية واضحة فى قوله تعالى عن أبى لهب : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ ﴾ [المسد] فقوله : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا .. ۝٣ ﴾ [المسد] تفيد المستقبل ، فقد حكم الحق سبحانه عليه أنه سيكون فى النار ، وكان أبو لهب فى أمة ومَجْمع من القوم الكافرين ، ومنهم مَنْ آمن فمن يضمن أن يسمع أبو لهب هذا الحكم ومع ذلك لا يؤمن ويموت كافراً ؟

ثم ألم يَكُنْ بإمكان هذا (المغفل) أن يقف على ملأ ويقول : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ويدخل فى الإسلام ، فيكون الحكم فيه غير صحيح ؟ لكن هذا كلام الله وحكمه القديم لا يُردّ ولا يخالفه أحد مهما كان أمره فى يده وهو قادر على الاختيار ، هذا من طلاقة قدرة الله فى فِعْله وعلى خَلْقه فى أفعالهم .

فالمعنى : ﴿ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ۝٦٣ ﴾ [المؤمنون] حكم لا يُرد ولا يُكذَّب ، حتى وإنْ أخبر به صاحبه ؛ لأن علم الله تعالى مستوعبٌ لما كان ولما سيكون ، وكأن الحق سبحانه يقول : إن طلاقة القدرة ليست فيما أفعله فحسب ، إنما فيما يفعله غيرى مِمَّنْ أعطيتُه حرية الاختيار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

يعنى : بعد أن أشركوا بالله وكفروا به ، وبعد أنْ أصبحتْ قلوبهم فى غمرة وعمىً إذا مسَّهم شىء من العذاب يجأرون ويصرخون ، ومَنْ ذا الذى يطيق لفحة أو رائحة من عذاب الله ؟

ومعنى ﴿ أَخَذْنَا .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [المؤمنون] كلمة الأخذ لها مجال واسع فى كتاب الله ، والأَخْذ : هو الاستيلاء بعنف على شىء هو لا يحبّ أنْ تستولى عليه ، والأخْذ يُوحى بالعنف والشدة ، بحيث لا يستطيع المأخوذ الإفلات مهما حاول .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القمر] يعنى : أخذاً شديداً يتململ منه فلا يستطيع الفكاك .

وقوله : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [هود]

ويقول : ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود]

ومعنى : ﴿ مُتْرَفِيهِم .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [المؤمنون] من الترف وهو التنعُّم ؛ لأن الحياة تقوم على ضروريات تستبقى الحياة وكماليات تُسعدها وتُرفِّهها وتُثريها ، فالمتْرَف مَنْ عنده من النعيم فوق الضروريات ، يقال : ترِف الرجل يترَف من باب فَرِح يفرح ، وأترفته النعمة إذا أطغته ، وأترفه الله يعنى : وسّع عليه النعمة وزاده منها . وعلى قدر الإتراف يكون الأخذ أبلغَ والألم أشدَّ .

وسبق أن ذكرنا قول الله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام] يعنى : من منهج الله ، لم نُضيِّق عليهم إنما : ﴿ فَتَحْنَا

عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا .. ﴿٤٥﴾ [الأنعام]

فهنا تكون النكاية أشدّ ، والحسرة أعظم .

والكلام هنا عن كفار قريش ، فكيف أخذهم الله وهم فى ترف من العيش ، حيث تصبُّ عندهم كل خيرات الجزيرة حتى عاشوا عيشة الترف والتنعم ؟

أخذهم الله حال ترفهم بالقَحْط والسنين ؛ لذلك لما رآهم النبى ﷺ أترفوا بالنعمة وطغَوْا بها قال : « اللهم اشْدُدْ وطأتك على مُضَرَ ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف »(١)

واستجاب الله تعالى دعاء نبيه ، فأصابهم الجدب والقَحْط حتى أكلوا الجيف و (العلْهز)(٢) وهو شعر الذبيحة أو وبرها المخلوط بدمها بعد أنْ جَفَّ وتجمد تحت حرارة الشمس ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

يصرخون ويضجّون ، فهذا أبو سفيان بعد أن أكلوا الجيف والفضلات يقول للنبى ﷺ : يا محمد ألستَ رحمةً للعالمين ؟ إذن :

---

(١) عن أبى هريرة أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف » أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠٠٦) وأحمد فى مسنده (٢/ ٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) .

(٢) العلْهز : دم يابس يُدَق به أوبار الإبل فى المجاعات ويُؤْكَل . قال ابن شميل :

وإن قِرَى قحطان قِرْف وعلْهز ... فأقبح بهذا ويح نفسك من فعل

[لسان العرب ـ مادة : علهز] .

فادْعُ الله أنْ يُفرِّج عنا ، فدعا رسول الله ﷺ ربه حتى فرج عنهم[1] .

أو : يراد بالعذاب هنا ما حدث لهم يوم بدر ، حيث أذلَّهم الله ، فقتل منهم مَنْ قتل ، وأسر مَنْ أسر ، وانهارت سيادتهم وضاعت هيبتهم ، وقد كانوا يُعذِّبون المؤمنين ويقتلونهم ، ويقيمونهم فى حَرِّ الشمس ويضعون الأحجار الكبيرة فوق بطونهم ، حتى أنزل الله تعالى فى هذه الحالة القاسية التى يعانيها المؤمنون : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر]

فيستقبلون الآية بتعجُّب : حتى يقول عمر : أىُّ جمع هذا الذى سيُهزم ، فليس هناك أىّ بادرة لنصر المؤمنين ، فلما جاء يوم بدر ورأى المؤمنون ما حاق بالكافرين قال عمر نفسه : صدق الله ، سيُهزم الجمع وقد هُزِم .

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [المؤمنون] يجأر : يصرخ بصوت عالٍ ، والإنسان لا يصرخ إلا إذا كان فى محنة لا تقدر أسبابه على دفعها ، فيصرخ طلباً لمن ينجده ، ويرفع صوته ليُسمِع كل مَنْ حوله ، كما يقولون (يجعر) .

والجؤار مثل الخوار يعنى : يصيحون مثل العجول بعد ما كانوا رجالاً وسادة وطغاة ، فلماذا لم تظلّوا سادة ؟ لماذا تصرخون الآن ؟ وكان المنتظر منهم فى وقت الشدة أنْ يتماسكوا ، وأن يتجلّدوا حتى لا يشمت بهم العبيد والفقراء الذين آمنوا ، كما يقول الشاعر[2] :

---

(١) عن ابن عباس أنه قال : جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز - يعنى الوبر والدم - فأنزل الله ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [المؤمنون] ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٥١) وعزاه لابن أبى حاتم .

(٢) الشاعر هو : أبو ذؤيب ، خويلد بن خالد الهذلى (توفى ٢٧ هـ) .

وتجلُّدِى للشَّامتينَ أُرِيهُمــو   أَنِّى لريْبِ الدهْرِ لا أتضعْضَعُ[(١)]

لكن ، هيهات فـقد حاق بهم العذاب ، ولن يخدعـوا أنفسهم الآن ، فليس أمامهم إلا الصراخ يطلبون به المغيث والمنجى من المهالك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَا تَجْـَٔرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

يرد عليهم الحق سـبحانه : ﴿ لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [المؤمنون] لأن مَنْ يجـأر ينادى مَنْ ينصـره وأنتم لن تُنـصـروا ﴿ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَـرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [المـؤمنون] لا تُنصـرون من جـهـتـنا ؛ لأننى أنصـر أوليائى ، وأنـصر رسلى ، وأنصر مَنْ يـنصرنى ، فاقطعـوا الظن فى نصرى لكم ؛ لأننـى أنا الذى أنزلتُ بكم ما جعلكـم تجأرون بسببـه ، فكيف أزيله عنكم ؟

وفى مـوضـع آخـر يتكـلم الحق سـبـحانـه عن أهل الكفـر الذين تمالئـوا عليه ، وشجّع بعضـهم بعضاً على التجـرّؤ على القرآن وعلى النبى ﷺ ، ويُصفِّقون لمن يخوض فى حقهما : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَـهُمْ[(٢)] وَمَا كَـانُوا يَعْبُـدُونَ ﴿٢٢﴾ من دُون اللَّه فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِـرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الصافات]

---

(١) التضـعضـع : الخـضـوع والتذلل . وفى الحـديث : ما تضعـضـع امرؤ لآخـر يريد به عرض الدنيا إلا ذهب ثلثا دينه يعنى : خضـع وذل . والتجلُّد : إظهـار الجلد وهو التصبر والشدة . [لسان العرب ـ مادتا : ضعع ، جلد] .

(٢) قال النعمان بن بشير : يعنى بأزواجهم أشـباههم وأمثالهم ، وقال عمر بن الخطاب : يجىء أصحـاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصـحـاب الربا مع أصحـاب الربا ، وأصحاب الخـمر مع أصحاب الخمر . [تفسير ابن كثير ٤/٤] .

إذن : لا تجأروا لأنكم لن تُنصروا منَّا ، وكيف ننصركم بجؤاركم هذا ، وقد انصرفتم عن آياتى ؟

﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

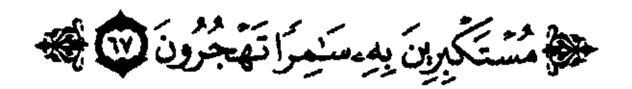
كيف تستغيثون بالله وتجأرون إليه وأنتم تُلْقى عليكم آياته تشرح لكم وتثبت لكم وجود الله بالآيات الكونية ، وتثبت لكم صدْق الرسول بالمعجزات ، وتحمل لكم منهج الله فى الآيات حاملة الأحكام ، ولكنكم عميتم عن ذلك كله .

ومعنى ﴿ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [المؤمنون] العقب : مؤخرة القدم ، فبدل أن يمشى إلى الأمام كما خلقه الله وجعل له كشافات يُبصر بها الطريق ، ويهتدى إلى موضع قدميْه ، إذا به يمشى للخلف على عَقبه ، وكأنهم أُخذوا أَخْذاً غَيَّر عندهم دولاب السير ، لماذا ؟ لأنهم عَمُوا عن أسباب الهداية ، فصاروا يتخبطون فى متاهات الحياة على غير هدى ، كمَنْ يسير بظهره لا يعرف مواقع قدميْه ، وهكذا فعلوا هم بأنفسهم .

وهذا التراجع يسمونه فى قيادة السيارات (مارشادير) ، ويحتاج فيه الإنسان لمن يُوجِّهه ويرشد حركته يميناً أو شمالاً ؛ لأنه لا يرى .

فالمعنى : لا تَلُمْ إلا نفسك حيث حرمتها من أسباب الهداية ، فبعد أنْ جاءتك وأصبحت بين يديك أغمضتَ عنها عينيك .

وفى موضع آخر قال سبحانه عن الشيطان : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنفال]



مادة : كبر تأتى بكسر الباء للدلالة على العمر تقول : كَبِر فلان . يعنى : كان صغيراً ثم كبِر ، وبضم الباء للشىء المعنوى وللقيم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. ۝ ﴾ [الكهف] يعنى : عظمت .

ومعنى الاستكبار افتعال الكبر وطلبه ، مثل : استفهم يعنى : طلب الفَهْم ، فى حين هو ليس كبيراً فى ذاته ، فهو محتاج إلى غيره . فالكبير فى ذاته مَنْ تكون عنده وتتوفر له فى ذاته مُقوِّمات الحياة وضرورياتها وترفها ، لا يستمدها من أحد .

لكن الإنسان ضروريات حياته ، وأسباب ترفه موهوبة له من غيره ، فلا يصح له أنْ يتكبّر ، فمَنْ أراد أن يتكبّر فليتكبّر بشىء ذاتى فيه من صحة أو مال أو سلطان ... الخ ، وهذه كلها أمور موهوبة لك ، فالصحيح قد يصبح سقيماً ، والغنى قد يصبح فقيراً .

لذلك ، فالكبرياء لله تعالى وحده ؛ لأنه الواهب للغير ، والمتفضِّل على الخَلْق بما يمكن أنْ يتكبروا به ، ومن صفات جلاله وكماله سبحانه (المتكبر) ؛ لأنه سبحانه رب الخَلْق أجمعين ، ومن مصلحة الخلق أن يكون المتكبر هو الله وحده ، حتى لا يرفع أحد رأسه على خَلْقه ويتكبّر عليهم .

وهكذا يحمى الحق سبحانه خَلْقه من خَلْقه ، فإنْ تكبّر عليك ربك ، وأجرى عليك قدراً ؛ لأنك فعلت شيئاً وأنت واحد ، فاعلم أنه يتكبّر على الآخرين جميعاً وهم كثيرون ، إنْ فعلوا بك هذا الشىء ، إذن : فصفة الكبرياء لله عز وجل فى صالحك .

ومثَّلْنَا لذلك ، ولله المثل الأعلى : من مصلحة الأسرة ألاّ يكون لها إلا كبير واحد يُرجَع إليه ، ومن أقوال العامة (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) لأنه الميزان الذى تستقيم به الأمور ويُسيِّر دفّة الحياة .

وقلنا : إن من أسمائه تعالى (الكبير) ولا نقول : الأكبر مع أنها صيغة مبالغة ، لماذا ؟ لأن أكبر صيغة مبالغة عندنا نحن البشر ، نقول : هذا كبير وذاك أكبر ، وهذا قوىٌّ وذاك أقوَى ، ولا يقال هذا فى صفته تعالى لأنك لو قُلْت : الله أكبر لكان المعنى أنك شركت معه غيره ، فهو سبحانه أكبر وغيره كبير ، لذلك لا تُقال : الله أكبر إلا فى النداء للصلاة .

إذن : المستكبر : الذى يطلب مؤهلات كبْر وليس لذاتيته شىء من هذه المؤهلات ، والإنسان لا ينبغى له أن يتكبر إلا إذا ملك ذاتيات كبره ، والمخلوق لا يملك شيئاً من ذلك .

ومعنى ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [المؤمنون] الهاء فى (به) ضمير مُبْهم ، يُعرَّف بمرجعه ، كما تقول : جاءنى رجل فأكرمته ، فالذى أزال إبهام الهاء مرجعه إلى رجل . وفى الآية لم يتقدم اسم يعود عليه الضمير ، لكن الكلام هنا عن الرسول الذى أُرسل إليهم ، والقرآن الذى أُنزل عليهم معجزة ومنهاجاً ، إذن : لا يعود الضمير إلا إلى واحد منهما .

أو : أن الضمير فى (به) يعود إلى بيت الله الحرام ، وقد كان سبباً لمكانة قريش ومنزلتهم بين العرب ، وأعطاهم وَضْعاً من السيادة والشرف ، فكانوا يسيرون فى رحلات التجارة إلى اليمن وإلى الشام دون أن يتعرض لهم أحد ، فى وقت انتشر فيه بين القبائل السَّلْب والنهب والغارة وقطع الطريق .

وما كانت هذه المنزلة لتكون لهم لولا بيت الله الحرام الذى يحجُّه العرب كل عام ، وخدمته وسدانته فى أيدى قريش ؛ لذلك استكبروا به على الأمة كلها ، ليس هذا فقط ، إنما تجرأوا أيضاً على البيت .

ويقول تعالى بعدها : ﴿ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المؤمنون] السامر : الجماعة يسْمُرون ليلاً ، وكانوا يجتمعون حول بيت الله ليلاً يتحدثون في حق النبي ﷺ ؛ يشتمونه ويخوضون في حقه ، وفي حق القرآن الذي نزل عليه[1] .

وليتهم يسمرون عند البيت بالخير إنما بهُجر ، والهُجْر هو فُحْش الكلام في محمد ﷺ وفي القرآن .

فأمر هؤلاء عجيب : كيف يفعلون هذا وهم في رحاب بيت الله الذي جعل لهم السيادة والمنزلة ؟ كيف يخوضون في رسول الله الذي جاء ليطهر هذا البيت من الأصنام ورجسها ؟ إنه سوء أدب مع الله ، ومع رسوله ، ومع القرآن ، يصدق فيه قول الشاعر :

أُعلِّمهُ الرمايةَ كُلَّ يومٍ   فلمّا اشْتَدَّ ساعدُه رَمَانِي
وكَمْ علَّمتُه نَظْمَ القَوافِي   فَلَمَّا قَالَ قَافِيةً هَجَانِي

لقد استكبر هؤلاء على الأمة كلها بالبيت ، ومع ذلك ما حفظوا حُرْمته ، وجعلوه مكاناً للسَّمَر وللهُجْر وللسَّفَه وللطيْش ، ولكل مَا لا يليق به ، فالقرآن عندهم أساطير الأولين ، ومحمد عندهم ساحر وكاهن وشاعر ومجنون .. وهكذا .

والحق - سبحانه وتعالى - يُنبِّهكم إلى أن ضروريات حياتكم هِبةٌ منه سبحانه وتفضُّل ، فحينما جاءكم أبرهة ليهدم هذا البيت العتيق ، وينقل هذه العظمة وهذه القداسة إلى الحبشة ، ولم يكن لكم طاقة لردِّه ولا قدرةَ على حماية البيت ، فلو هدمه لضاعتْ هيبتكم

---

(١) قاله عبد الله بن عباس وغيره ، فيما نقله عنه القرطبي في تفسيره (٦/٤٦٧١) .

وسيادتكم بين القبائل ، ولتجرأوا عليكم كما تجرأوا على غيركم ، لكن حمى الله بيته ، ودافع عن حرساته ، حتى إن الفيل نفسه وعى هذا الدرس ، ووقف مكانه لا يتحرك نحو البيت خاصة ، ويوجهونه فى أى ناحية أخرى فيسير .

ويُرْوَى أن أحدهم[1] قال للفيل يخاطبه : ابْرك محمود وارجع راشداً - يعنى : انفد بجلدك ؛ لأنك فى بلد الله الحرام ، وكما قال الشاعر[2] :

حُبِسَ الفِيلُ بالمغَمَّس حَتَّى صَارَ يحبُو كَأنَّهُ مَعْقُورُ[3]

وهكذا ردّهم الله مقهورين مدحورين ، وحفظ لكم البيت ، وأبقى لكم السيادة .

لذلك لاحظ الانتقال من سورة الفيل إلى سورة قريش ، يقول تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ② وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ③ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ④ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ⑤﴾ [الفيل] يعنى : مثل التبن والفُتَات الذى تذروه الرياح .

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين مقعدين يستطعمان بمكة . أخرجه البيهقى فى (دلائل النبوة) « ١/١٢٥ » قال محققه : الخبر فى سيرة ابن هشام (١/٥٩) يستطعمان « الناس » . ونقله الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (٢/١٧٤) .

(٢) هو : أمية بن أبى الصلت بن أبى ربيعة .

(٣) المغمس : موضع قريب من مكة . والمعقور : المنحور ، أى كأنهم قطعوا إحدى قوائمه ثم نحروه ، وهو للإبل . [انظر : لسان العرب - مادة : عقر]

ثم يقول فى أول قريش : ﴿ لإيلاف قُرَيْشٍ ① ﴾ [قريش] يعنى ما حَلَّ بأصحاب الفيل ، فاللام فى (لإيلاف) لام التعليل ، يعنى : حَلَّ ما حَلَّ بأصحاب الفيل لتألف قريش ما اعتادته من رحلة الشتاء والصيف ﴿ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ② ﴾[قريش] وما دام أن الله تعالى قد حماكم وحمى لكم البيت ، وحفظ لكم السيادة كان ينبغى عليكم أنْ تعبدوه وحده لا شريك له ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ ③ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ④ ﴾ [قريش]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ⑥⑧ ﴾

فى هذه الآية والآيات بعدها يريد ـ سبحانه وتعالى ـ أن يُوبّخهم بعدة أمور واحد بعد الآخر .

أولها : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ .. ⑥⑧ ﴾ [المؤمنون] فالاستفهام هنا للتوبيخ وللتقريع : ماذا جرى لهؤلاء ؟ أفلم يعقلوا القول الذى جاءهم فى القرآن ، وهم أمة الفصاحة والبلاغة والبيان ، وأمة القول بكل فنونه حتى أقاموا له المواسم والمعارض وعلَّقوه على الجدار ؟

لذلك لا يُعقل ألاَّ تفهموا القرآن ، وقد جاءكم بأسلوب على مستوى أعلى من البلاغة والفصاحة ، لا بُدَّ أنكم فهمتموه ووعيْتُم ما فيه ، بدليل قولكم : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ③① ﴾ [الزخرف]

وهكذا الكذاب يسرقه طبعه ، وينمّ منطقه عما فى ضميره ،

فاعتراضكم ليس على القرآن إنما على محمد ؛ لأنه فقير من أوسط القوم ، فالمسألة ـ إذن ـ منازعة سيادة وسلطة زمنية ، لكن ألم يَدْرِ هؤلاء أن محمداً ﷺ ما جاء ليسلبهم سلطتهم ، أو يعلو هو عليهم ، إنما جاء ليحكمهم بمنهج الله ، ويتحمل هو الأذى والتعب والمشقة في سبيل راحتهم وسعادتهم ؟

لقد جاء النبي ﷺ ليأخذ الحكم ويحمل منهج الله تكليفاً لا تشريفاً ، بدليل أنه عاش في مستوى أقلّ منكم ، فلا ترى رسول الله إلا أقلهم طعاماً وأقلهم شراباً ، أقلهم لباساً وأثاثاً ، حتى أقاربه كانوا فقراء ، ومع ذلك حرَّم عليهم الزكاة التي أباحها لعامة المسلمين الفقراء ، كذلك يرث الناس وهم لا يرثون .

وبعد ذلك كله تقولون : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف] يبدو أنكم ألفتم العبودية للعظماء وللجبابرة ، ألفتم العبودية لغير الله ، وعَزَّ عليكم أن يحرركم الله من هذه العبودية على يد رجل منكسر فقير منكم ، جاء ليصلحكم ، ويخرجكم من العبودية للمخلوق إلى العبودية للخالق عز وجل .

ألم يقُلْ أحد رؤوس الكفر عن القرآن : « والله إن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه »[1] .

إذن : ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ .. ۝٦٨﴾ [المؤمنون] توبيخ ، لأنهم فهموا القرآن ، لكن حسدوا محمداً ﷺ أن ينزل عليه ، وأن ينال دونهم هذه

(١) هذا القول قاله الوليد بن المغيرة ، نقله ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٢٧٠) وذلك أن أشراف قريش اجتمعوا ليروا رأياً واحداً في أمر محمد ﷺ ، رفض الوليد كل ما قاله القوم عن محمد إلى أن قال قولته هذه ثم قال : « ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر ، جاء بقول هو سحر يُفرِّق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته » .

المكانة ، كما قال سبحانه : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. ﴿٥٤﴾﴾ [النساء]

الأمر الثانى : ﴿أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون] يعنى : جاءهم أمر غريب لا عهدَ لهم به ، وهو أن يأتى رسول من عند الله ، وهذه المسألة معروفة لهم ، فمنهم إبراهيم عليه السلام ، ومنهم إسماعيل وهم مؤمنون بهما ، إذن : ليست مسألة عجيبة ، بل يعرفونها جيداً ، لكن ما منعهم فى الأولى منعهم فى هذه ، إنه الحسد لرسول الله ﷺ ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف]

الأمر الثالث : ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يعنى : أنزلَ عليهم رسولٌ من السماء لا يعرفون سيرته وخُلُقه ونسبه ومسلكه قبل أنْ يُبعث ؟ إنهم يعرفونه جيداً ، وقبل بعثته سَمَّوْه « الصادق الأمين » وارتضَوْا حكومته بينهم فى مسألة الحجر الأسود ، وكانوا يأتمنونه على ودائعهم ونفائس أموالهم ، ولم يجربوا عليه كذباً أو خيانة أو سَقْطة من سقطات الجاهلية .

وقد شرحت هذه المسألة فى قول الله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة] يعنى : من جنسكم ، ومن نوعكم ، ومن قبيلتكم ، ليس غريباً عنكم وهو معروف لكم : سلوكه وسيرته وخُلقه ، وإذا لم تُجربوا عليه الكذب مع الخَلْق ، أتتصورون منه أنْ يكذب على الخالق ؟

وهل رسول الله فى أول بعثته لَمَّا أخبر الناس أنه رسول الله جاء

القرآن ليحمل الناس على الإيمان به ؟ لا ، إنما جاء ليتحدى مَنْ لم يؤمن ، أما مَنْ آمن بداية ، بمجرد أنْ قال محمد : أنا رسول الله قال : صدقت ، وحيثية التصديق ما جُرِّبَ عليه فى الماضى ، وما عُلم من صدقه ، وأنه لم يكذب أبداً ؛ لذلك كان المقياس عند الصحابة أن يقول رسول الله ، فإنْ قال فالمسألة منتهية لأنه صادق لا يشكّ أحد منهم فى صدْقه .

لذلك النبى ﷺ لما قال أبو بكر فى مسألة الإسراء والمعراج : إنْ كان قال فقد صدق[1] ، يحملها رسول الله تقديراً لأبى بكر ويقول : « كنت أنا وأبو بكر فى الجاهلية كفرسَىْ رهان » يعنى : فى الخُلُق الطيب والسلوك السَّوِىِّ « فسبقتُه للنبوة فاتبعنى ، ولو سبقنى هو لاتبعتُه » .

ولما نزل جبريل - عليه السلام - على سيدنا رسول الله ﷺ فى أول الوحى فأجهده ، فذهب إلى السيدة خديجة - رضى الله عنها - وحكى لها ما حدث له كأنه يستفهم منها عَمَّا حدث ولم يخبرها أنه رسول من عند الله ، ومع ذلك أخذته إلى ورقة بن نوفل ، وكان على علم بالكتب السابقة ، فلما سمع ورقة بن نوفل ما حدث قال : إنه الناموس الذى كان ينزل على موسى وليتنى أكون حياً إذ يُخرجك قومك ، فقال ﷺ : « أوَمُخرجِىَّ هم ؟ » قال : « ما جاء أحد بمثل

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٣٩٨/١) باختصار « أن رسول الله ﷺ لما أصبح بعد عودته من بيت المقدس غدا على قريش فأخبرهم الخبر فأنكروا عليه ذلك وقصدوا أبا بكر وعرضوا عليه هذا الأمر فى إنكار فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه . فقالوا : بلى ها هو ذاك فى المسجد يحدّث به الناس . فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ، فوالله إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه » .

مَا جئت به إلا عُودى ، وإنْ يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزّراً »[1] .

ومع ذلك يظل رسول الله ﷺ خائفاً قلقاً أن يكون هذا شيئاً من الشيطان ، فتُطمئنه السيدة خديجة ، فهذا لا يعقل مع رسول الله ، لذلك تقول له : « إنك لتصلُ الرحم ، وتُكسب المعدوم ، وتحمل الكَلّ[2] ، وتعين على نوائب[3] الدهر ، والله لن يَخذلك الله أبداً »[4] .

ومن هنا اعتبروا السيدة خديجة أول مجتهدة فى الإسلام ؛ لأنها اجتهدتْ واستنبطتْ من مقدمات رسول الله قبل البعثة دليلاً على صدْقه بعد البعثة ؛ لذلك كانت أول مَنْ سُمِّيت بأم المؤمنين ، حتى قالَ بعض العارفين : خديجة أم المؤمنين بما فيهم رسول الله ﷺ ؛ لأنه فى هذه السِّن كان فى حاجة إلى أم أكثر من حاجته إلى عروس صغيرة تُدلِّله ، وقد قامت خديجة - رضى الله عنها - فعلاً بدور الأم لرسول الله فاحتضنته ، وطمأنته ووقفت إلى جواره فى أشدِّ الأوقات وأحرجها .

كما نلحظ فى الآية : ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ .. ٦٩﴾ [المؤمنون] فأضاف الرسول إليهم يعنى : رسول لهم ، أما فى الإضافة إلى الله تعالى : رسول الله ، فالمعنى رسول منه ، وهكذا يختلف المعنى باختلاف الإضافة .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٠) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٣) من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٢) الكل : هو مَنْ لا يستقل بأمره قال تعالى : ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ .. ٧٦﴾ [النحل] والكل هو العاجز الثقيل لا خير فيه [القاموس القويم ٢/١٦٩] باختصار .

(٣) النوائب : جمع نائبة ، وهى ما ينوب الإنسان أى : ينزل به من الملمات والحوادث . والنائبة : المصيبة من مصائب الدهر تنزل بالإنسان [لسان العرب - مادة : نوب] .

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٠) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٣) من حديث عائشة رضى الله عنها .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

والمسألة الرابعة فى توبيخ الله لهم : ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ .. ﴿٧٠﴾﴾ [المؤمنون] يعنى : جنون ، والجنون أنْ تتعطل الآلة العقلية التى تزن الحركات على وفق النفع والضر ، فتفعل الخير النافع ، وتترك الشر الضارّ . ولننظر : أىّ خصلة من خصال الجنون فى محمد ﷺ .

ودَعْكَ من قضية الدين والإله إنما خُذْ خُلقه ، والخُلق أمر يتفق عليه الجميع ويحمدونه ، حتى وإنْ كانوا ضد صفته ، فالكذاب يحب الصادق ، ويعترف أن الصدق شرف وكرامة ، والبخيل يحب الكريم ، والغضوب يحب الحليم ، ألاَ ترى الكاذب يزاول كذبه على الناس ، لكن لا يحب مَنْ يكذب عليه ؟

ألاَ ترى شاهد الزور ينقذ غيره بشهادته ، ومع ذلك يسقط من نظره ويحتقره ، حتى إن أهل الحكمة ليقولون : إن شاهد الزور ترتفع رأسك على الخصم بشهادته ، وتدوس قدمك على كرامته ، ومَنْ جعلك موضعاً للنقيصة فقد سقطت من نظره ، وإنْ أعنْتَه على أمره .

إذن : فالأخلاق مقاييسها واحدة ، فقيسوا محمداً بأخلاقه ، لا بالدين والرسالة التى جاء بها ، انظروا إلى خُلقه فيكم ، ولن يستطيع واحد منكم أنْ يتهمه فى خُلقه بشىء ، وما دام لا يُتَّهم فى خُلقه فلا يُتهم كذلك فى عقله ؛ لأن العقل هو ميزان الخُلق وأساسه .

لذلك يقول ربه - عز وجل - فى حقِّه :

﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ

لأَجْـرًا غَـيْـرَ مَـمْنُونٍ[1] ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم] فخُلُقك العظيم أكبر دليل على أنك لستَ مجنوناً .

إذن : محمد برىء من هذه التهمة ، والمسألة كلها كما قال تعالى : ﴿ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [المؤمنون] فهذا عيبه فى نظرهم ؛ لأن الحق يغيظ أهل الباطل المنتفعين منه ، والبعض يرى الحق فى الخير الذى يأتيه ، فإنْ كان فى شىء لا ينتفع منه فهو شَرٌّ ؛ لذلك إنْ أردتَ أنْ تحكم على خَصْلة فاحكم عليها وهى عليك ، لا وهى لك ، فمثلاً أن تكره الكاذب سواء كذب لك أو كذب عليك ، إذن : فخُذْ المسائل على أنها لك وعليك .

والحق - سبحانه وتعالى - حينما قيَّد حركتك فى النظر إلى محارم الآخرين ، لا تتبرم ولا تقُلْ : منعنى متعة النظر .. الخ ، لكن انظر إلى أنه قيّد عينيك وأنت واحد ، وقيَّد عيون الآخرين عن محارمك وهم كثيرون .

ويقول تعالى بعدها : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [المؤمنون] وطبيعى أن يكره أهل الباطل الذين استشرى ظلمهم وطغيانهم ، يكرهون الحق الذى جاء ليعدل الميزان ، ويُقوِّم المعْوج فى حركة الحياة ، وكراهية أهل الباطل لرسول الله كان ينبغى أن تكون معيار تصديق له لا تكذيب به ، ينبغى أن نقول : طالما أن أهل الباطل يكرهون هذا فلا بُدَّ أنه على الحق وإلاَّ ما كرهوه .

---

(١) غير ممنون ، أى : غير مقطوع أى دائم . ويحتمل أنه غير مُكدَّر بالمنِّ والتقريع والفخر به ، ولا يتعارض المعنيان . [القاموس القويم ٢/٢٤٠] .

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

إذن : فالمسائل لا تسير على هَوَى المخلوق ، إنما على مرادات الخالق ؛ لأن الخالق سبحانه هو صانع هذا الكون ، وكلٌّ صانع يغَارُ على صَنْعته ، وهذا مُشاهد حتى فى صنعة البشر ، ولك أنْ تتصوّر ماذا يحدث لو أفسدتَ على صانعٍ ما صنعه .

وعدالة الأشياء أن تسير على وَفْق مرادات الصانع ، لا هوى المصنوع ؛ لأن الأهواء تملكها الأغيار ، فالإنسان لو سار فى حركة حياته على وَفْق هواه لأخذ مَا ليس له ، ولَقبل الرشوة ، ومال إلى الفِسْق والانحراف ؛ لأنه فى الظاهر يرى أنه منتفع بهذا ولا ينظر إلى العَاقبة والمحصلة النهائية ، لقد نظر إلى متعة زائلة موقوتة ، ونسى تبعة ثقيلة لن يقدر عليها فيما بعد .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ .. ﴿٧١﴾ ﴾ [المؤمنون] ولك أن تقول : نعم ، اتباع الأهواء يُفسد الأرض ، ويُفسد حركة الحياة فيها ، لكن كيف يُفسد السماء ؟ وهل لأحد قدرة عليها ؟

ونقول : ألم يكُنْ من أمنيات هؤلاء : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا .. ﴿٩٢﴾ ﴾ [الإسراء]

إذن : من أهوائهم أنْ تتهدّم السماء ، ولو حتى على رؤوسهم ، وأىّ فساد بعد هذا ، وهكذا لو اتبعتَ أهواءهم لفسدَتْ السموات والأرض ، ليس هذا وفقط بل ﴿وَمَن فِيهِنَّ .. (٧١)﴾ [المؤمنون] حيث سيتعدّى فسادهم ليشمل كل ما فى الوجود .

لذلك يقيد النبى ﷺ هذه الأهواء فى قوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[1] لأنه ﷺ : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾ [النجم]

وقد توقف بعض المستشرقين مُعترضاً على هذه الآية : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣)﴾ [النجم] يقولون : يعنى كلامه كله صحيح ، فلماذا يُعدِّل له ربه بعض الأحكام ؟ ومعنى ذلك أن الحكم المعدّل حين نطق به كان ينطق عن هوى .

ولو فهم هؤلاء معنى الهوى ما كان منهم هذا الاعتراض ، فالهوَى أن تعرف الحق ، لكن هواك يصرفك عنه ، ورسول الله ﷺ لم يكُنْ يعرف فى هذه المسائل حُكْماً وانصرف عنه ، إنما نطق وحكم على مقتضى ما فهم فى أمر لم ينزل فيه من الله شىء ، ثم نزل الحكم من الله ليُعدِّل اجتهاد رسوله .

إذن : لم يكُنْ لرسول الله هَوَىً ينطق بمقتضاه ، وفى تعديل الحق سبحانه لرسوله ، وتبليغ الرسول لأمته بهذا التعديل أكبر دليل على صدْقه ﷺ وأمانته فى البلاغ عن ربه ، وإلاَّ فلم يكُنْ أحد ليعلم هذا التعديل ، لو أخفاه رسول الله تعصّباً لنفسه ، أو لدفْع الخطأ عنه .

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » (ص ٤٦٠) وضعَّفه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ .. (١)﴾ [التحريم] ويقول سبحانه : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. (٤٣)﴾ [التوبة]

وكان بوسع رسول الله أن يكتم هذه الآيات التى تعاتبه وتُعَدُّ مأخذاً عليه ، لكنه ﷺ كان أميناً يقول ما له وما عليه ، لذلك يقول عنه ربه : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[1] (٤٦)﴾ [الحاقة]

ثم يقول تعالى : ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١)﴾ [المؤمنون] و (بل) تفيد الإضراب عن الكلام السابق ، وإثبات كلام جديد بعدها ، والذكْر هنا يعنى : الشرف والصِّيت والمكانة العالية ، كما جاء فى قوله تعالى عن القرآن : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ.. (٤٤)﴾ [الزخرف]

وقوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠)﴾ [الأنبياء] فكان يجب عليهم أن يحتضنوا هذا القرآن ، ويرفعوه فوق رؤوسهم ، ففيه مجدهم وشرفهم وعزَّتهم ، والعرب بدون القرآن لا ذكْرَ لهم ، فقد كانوا أمة أمية تعيش على الترحال والتنقل ، ولا تستقر إلا على منابع الماء ومواضع الكلأ ، كانوا بَدْواً تنتشر فيما بينهم الحروب والغارات وقَطْع الطريق ، كان الواحد منهم يسرق ليُكرم ضيفه بما سرق .

وهذه من الأمور العجيبة فى عادات العرب فى الجاهلية ، فلم يكن

---

(١) الوتين : عرْق فى القلب إذا قطع مات صاحبه ، وهو الشريان الرئيسى الهام الذى يغذى الجسم بالدم النقى الخارج من القلب ، والمعنى : أى أمتناه عاجلاً وأهلكناه سريعاً إذا خالف أمرنا أى مخالفة . [القاموس القويم ٢/٣١٩] .

لديهم منهج يحكم حياتهم ، عجيب أنْ ترى حب الغارة والاعتداء مع الشهامة والكرم فى طبيعة واحدة ، فهو يفعل ما يعنٌّ له ، وما يخطر بباله ، فالمسألة ليست محكومة عندهم بقانون ، حتى قال فيهم الشاعر :

لا تمدحَنَّ ابْنَ عبَّادٍ[1] وإنْ هطلَتْ   كَفَّاهُ بالجُود حتَّى أشبَه الدِّيَمَا[2]
فَإنَّها خطرَاتٌ من وَسَاوسِهِ   يُعْطى ويمنَع لاَ بُخْلاً ولاَ كرَمَا

ومن أشهر قصائد الشعر العربى فى الكرم هذه القصيدة التى تأصَّل فيها هذا الخُلق حتى عند الأطفال ، وحتى أن الأب يهمُّ بذبح ولده للضيف ، لأنه لم يجد ما يذبحه لقِرَاه[3] .

ويقول فيها الشاعر :

وَطَاوٍ ثَلاثاً عَاصبِ البطن مُرْمِلٍ   ببيداءَ لم يَعْرف بها ساكنٌ رَسْما[4]
أخِي جَفْوةٍ فيه من الأُنْسِ وَحْشةٌ   يرى البُؤْس فيَها منْ شراسته نُعْمى
رَأى شبحاً وَسْط الظَّلام فَرَاعَه   فلما رأى ضَيْفاً تشمَّر واهْتما[5]
وقَالَ هَيًّا ربّاه ضَيْف ولا قرًى !!   بحقِّك لاَ تحرمْه تالليلةَ اللَّحْمَا

(١) هو : إسماعيل بن عباد أبو القاسم الطالقانى ، وزير غلب عليه الأدب ، استوزره مؤيد الدولة ثم أخوه فخر الدولة ، ولقب بالصاحب لصحبته مؤيد الدولة من صباه ، ولد فى الطالقان (من أعمال قزوين) (عام ٣٢٦هـ) وإليها نسبته ، توفى بالرى (طهران) عام (٣٨٥ هـ) ونقل إلى أصبهان فدفن فيها . [الأعلام للزركلى ٣١٦/١] .

(٢) الديمة : المطر الذى ليس فيه رعد ولا برق . وهو المطر الدائم . ويقال : دامت السماء تديم : مطرت ديمة . [لسان العرب ـ مادة : ديم] .

(٣) القِرَى : طعام الأضياف .

(٤) الطاوى : الجائع . مُرمل : قد اختلط طعامه بالرمل . الرسْم : الأثر .

(٥) راعه : أخافه وأفزعه .

وأفــرد فــى شِعْب عَجُــوزاً إزاءَهَا ثَلاثَـــةِ أشْــباحٍ تَخَالهــموا بُهْـمَا
حُفَاةً عُراةً مَا اغتذَواْ خُبْـــز مِلَّـــة ولاَ عَرَفُوا للبُرِّ مُذْ خُلقـوا طعْمَا[١]
فَقَـــالَ ابنُــــه لَـــمَّا رآهُ بحــــيْرة أيَا أبْتِ اذْبحْـنى ويـسِّر لَهُم طُعْما
ولاَ تَعتذرْ بالعُدْم علــى الذى طَرَا يظـنُّ لَنَـــا مَـــالاً فيُـوسـعُنا ذمّـا
فــروَّى قليــلاً ثُــمَّ أحجــمَ بُرْهــةً وإنْ هُــوَ لــم يذبـح فَتَاهُ فَقَـد همَّا
فبيْنَا هُمَا عَنَّـتْ على البُـعْد عَـانَـةٌ قَـد انتظـمتْ من خَلْف مسْحلها نَظْما[٢]
عطَاشاً تريد الماءَ فانْسَابَ نحوهَا علَـى أنَّـه منْـها إلـىَ دَمـها أظْـما
فَأمهلَـها حـتَّى تـروَّتْ عِطاشُـها وأرسَـــل فيــــها من كنَانته سَــهْما
فَخرَّت نَحُوصٌ ذَات جحش قَــدْ اكتنزَتْ لَحْماً وقـد طُبِّقَتْ شـحْما[٣]
فَيَا بشْــرَهُ إذْ جرَّهَــا نَحْـو قومه ويَا بشْــرهُم لما رأوا كَلْمها يَدْمَى[٤]
وباتَ أبُوهــم مــن بَشَـاشــته أبَاً لَضَيْفِهمـوا والأم مِـنْ بِشْـرها أُمَّـا

لقد تأصلتْ خَصْلة الكرم فى العربى ، حتى فى الأطفال الصغار ، فهو وإنْ كان فقيـراً لكن لا يحب أن يُعرف عنه الفقر ، يحب أن يظهر فى صــورة الغنى الكـريم المـعطاء ، وإنْ ناقض ذلك صــفــات أخــرى ذميمة فيه .

والشاهد أنهم جـماعة تناقـضتْ خصالهم ، وقـد عاشوا فى أمـية تامة فـلم يعالجـوا حضارة ، وهـذه حُسِبت لـهم بعد ظهـور الإسلام

---

(١) خبز ملة : هو الخبز يوضع فى الرماد الحار الذى يُحمى ليُدفن فيه الخبز لينضج .
(٢) عنَّت : ظهرت . عانة : العنون من الدواب : من حُمُر الوحش . المسحل : قائد القطيع .
(٣) نحوص : سمينة ممتلئة . طبقت شحماً : امتلأت شحماً ولحماً .
(٤) الكَلْم : الجرح . يدما : ينزف دماً . [راجع لسان العرب] .

وبعثة النبى ﷺ من بينهم ، فكيف لمثل هؤلاء أنْ يأتوا بهذه المعانى والأساليب العالية التى تحكم العالم كله ؟ ولو كانوا أهلَ علم وحضارة لقالوا عنهم وعن الإسلام : إنه قفزة حضارية .

ولو كان رسول الله ﷺ قارئاً لقالوا : قرأ لفلان وفلان ، كما حكي عنهم الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل]

إذن : فذكْر العرب وشرفهم ومجدهم وكرامتهم فى القرآن ، ومع ذلك لم يعملوا حتى لمصلحتهم ، ولم يهتموا بهذا القرآن ، إنما أعرضوا عنه ﴿ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [المؤمنون]

أى : عن القرآن ، وهذا دليل أنهم كانوا مغفلين ، لا يعرفون حتى مصلحتهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(الخَرْج) : ما يخرج منك طواعية ، أما الخراج فهو ما يخرج منك رغماً عنك ، والزيادة فى المبنى تدل على الزيادة فى المعنى ، فالخراج أبلغ من الخَرْج . والمراد بقوله تعالى : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْر .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [المؤمنون] إنْ كنتَ تريد خَرْجاً فلا تأخذه من أيديهم ، إنما خُذْه من ربك ، فما عندهم ليس خَرْجاً بل خراج ﴿ فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [المؤمنون]

فلا تأخذ الرزق إلا من يد الخير والبركة ؛ لأن الحق سبحانه لا

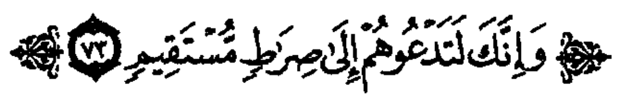
يمنُّ على خَلْقه برزق يرزقهم به ، فهو سبحانه قد استدعاهم إلى الحياة ؛ لذلك تكفّل سبحانه بأرزاقهم ، كما لو دعوتَ صديقاً إلى طعام فإنك تُعِدُّ له ما يكفى عشرة ، فما بالك حينما يُعِدُّ لك ربك عز وجل ؟

ثم يُذيِّل الحق سبحانه الآية بقوله تعالى ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢)﴾ [المؤمنون] وهذه أحدثتْ إشكالاً عند البعض ؛ لأن الحق سبحانه جعل لخَلْقه شراكة فى صفة الرزق ، فغيره سبحانه يرزق أيضاً ، لكن هو خير الرازقين ؛ لأنه يرزق الخَلْق بأصول الأشياء التى يرزقون منها غيرهم ، فإنْ كنتَ ترزق غيرك مثلاً طعاماً فهو سبحانه أصل هذا الطعام ومصدره .

هو سبحانه خالق التربة ، وخالق الماء ، وخالق الهواء ، وخالق البذرة ، وما عليك إلا أنْ أعملتَ عقلك ، واستخدمتَ الطاقات التى منحك الله إياها ، فأخرجتَ هذا الطعام ، فلو أنك جئْتَ لأهلك بحاجيات المطبخ ولوازم المعيشة طوال الشهر من دقيق وسمن وأرز وسكر .. إلخ وقامت زوجتُك بإعداد الطعام أتقول : إن الزوجة هى التى جاءت بالطعام ؟

لذلك يقول العلماء وأهل المعرفة : نَزِّهوا ألسنتكم عن قول : فلان رازق ، ودَعُوها لقول الله تعالى ؛ لأنه سبحانه هو خالق الرزق ، وواجد أصوله ، وما أنت إلا مُنَاول للغير .

وتلحظ أنه تعالى أضاف الخَراج إلى الربوبية التى تفيد الرعاية والعناية والتربية ، فما دام الخراجُ خراجَ ربك يا محمد ، فهو خراج كثير وعطاء لا ينفد .



الصراط المستقيم : الطريق المعتدل الذى لا عوجَ فيه ولا أمتاً[1] ، فكيف إذن يتأبون عليك ويقفون فى طريقك وأنت تدعوهم إلى الصراط المستقيم ؟ وإن انتفع بالصراط المعوج واحد فسوف ينتفع بالصراط المستقيم الملايين .

ومن ذلك ما سبق أن أوضحناه منْ أنه يجب عليك أن تنظر إلى ما أعطاه لك التشريع قبل أنْ تنظر إلى ما أخذه منك ، فالشرع حين يأخذ منك وأنت غنى يعطيك وأنت فقير ، ويأمرك برعاية اليتيم ليرعى أولادك من بعدك إنْ تركتَهم وهم صغار .

فالشرع - إذن - يُؤمِّن حياتك ويجعلك تستقبل مقادير الله بالرضا ؛ لأنك فى مجتمع إيمانى لن يتخلى عنك إن افتقرت ، ولن يترك أولادك إنْ تيتَّموا ، فالمجتمع الإيمانى إنْ مات فيه الأب كان الجميع لليتيم آباء . أما إنْ ضاع اليتيم فى مجتمع الإيمان فإن ذلك يفتح الباب للسخط على قدر الله ، ويُغرى ضعاف الإيمان أنْ يقولوا : ما الحكمة فى أن يأخذ أباهم ويتركهم عالة لا يتكفل بهم أحد ؟

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

﴿ الصِّرَاطِ .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [المؤمنون] هو الطريق المستقيم الذى يُؤدِّى إلى الغاية بأقلّ مجهود ، وفى أقل وقت ويوصلك إلى أفضل غاية . والطريق يأخذ حظه من العناية والاهتمام بقدر الغاية الموصِّل إليها ،

(١) الأمت : الاختلاف فى المكان ارتفاعاً وانخفاضاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [طه] أى : لا ترى فى الأرض يوم القيامة التواءً ولا انحرافاً يميناً ولا شمالاً ولا ترى فيها اختلافاً فى الارتفاع والانخفاض أى أنها مستوية تماماً رأسياً وأفقياً . [القاموس القويم ١/ ٣٠] .

فالطريق من القاهرة إلى الإسكندرية غير الطريق بين القرى والنُّجوع .

ومعنى : ﴿ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى : منحرفون عن الطريق ، ولهم حَظٌّ فى الاعوجاج وعدم الاستقامة ؛ لذلك يقول لك مَنْ يريد الصدق (تعال دوغرى) يعنى : من الطريق المستقيم الذى لا اعوجاجَ فيه ولا مراوغةَ .

لكن ، ما الذى جعلهم يتنكّبون الطريق المستقيم الذى يُنظِّم لهم حركة الحياة ، ويجعلها تتساند لا تتعاند ، ويعود مجهود الفرد على الباقين ؟ لماذا يحرمون أنفسهم من مزايا هذا الطريق ؟

قالوا : لأنهم مكذبون بالآخرة ، ولو لم يكونوا مكذبين بالآخرة لآمنوا واتبعوا منهج الله ؛ لأنهم سيئولون إلى الله أيلولةً ، تعطى المحسن جزاءه وتعطى المسىء جزاءه . فالذى أفسد هؤلاء أنهم اتبعوا أهواءهم ، وظنوا أن الدنيا هى الغاية وهى نهاية المطاف ، وغفلوا عن الآخرة ، وأنها دار النعيم الحقيقى الذى لا يفوتُك ولا تفوته .

كما قال عنها الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت] يعنى : الحياة الحقيقية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

يعنى : لو حدث هذا لعادوا إلى ما كانوا عليه ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس]

وليْتَه اكتـفى عند هذا الحدِّ ، إنما يتعدّى هذا ، كـما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا .. ⑧ ﴾ [الزمر] يقول كـما قـال قارون : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. ⑦⑧ ﴾ [القصص] يعنى : هذا بمجهودى وتعبى ، وقد كلمت فلاناً ، وفعلت كذا وكذا .

لذلك كان طبـيعياً أن يقـول له ربه : ما دُمْتَ قد أوتيـتَهُ على علم عندك ، فاحفظه بعلم عندك قال تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ .. ⑧① ﴾ [القصص]

فأيـن الآن علْمك ؟ وأىُّ علم هذا الذى لا يستطيع أن يـحتفظ بـما أتى به ؟ ومعلوم أن استنباط الشىء أصعب من حفْظه وصيانته .

ومـعنى ﴿ لَّلَجُّوا .. ⑦⑤ ﴾ [المـؤمنون] تمادوا ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ .. ⑦⑤ ﴾ [المؤمنون] والطغيـان : مجاوزة الحدِّ ؛ لأن الله تعـالى جعل لكل شىء فى الوجود حَـدّاً مرسوماً لا ينقص ولا يزيد ، فـإن اتبعتَ هذا الحدّ الذى رسمه الله لك استقمتَ واستقامتْ حركة حياتك بلا منازع ، ولو طغى الشىء أفسد حـركة الحياة ، حتى لو كـان الماء الذى جعل الله منه كل شىء حىٍّ ، لو طغى يُغرق ويُدمّر بعد أنْ كان سر الحياة حال اعـتداله . ومنه قـوله سبـحانه : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ[1] ①① ﴾ [الحاقة]

ويقال لمن جاوز الحـدَّ : طاغية بتاء التأنيث الدالة على المـبالغة ، فإنْ تجاوز هذه أيضاً نقول : طاغوت .

ثم تأتى نتيجة التمادى فى الطغيان ﴿ يَعْمَهُونَ ⑦⑤ ﴾ [المؤمنون] يعنى : يتحيرون ويَعْمَوْن عن الرُّشْد والصواب ، فلا يُميّزون بين خير وشر .

---

(١) الجارية : السفينة . جرت السفينة جرياً : سارت [لسان العرب ـ مادة : جرا] .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

استكان فلان لا تقال إلا لمَنْ كان مُتحركاً حركةً شريرة ، ثم هدأ وسكن ، نقول : فلان (انكَنّ) أو استكان وأصلها (كَوْن) فالمعنى : طلب وجوداً جديداً غير الوجود الذى كان عليه ، أو حالاً غير الحال الذى كان عليه أولاً ، فقبل أنْ يستكين ويخضع كان لا بُدَّ مُتمرِّداً على ربه .

والوجود نوعان : وجود أولى مطلق ، ووجود ثَان بعد الوجود الأولى ، كما نقول مثلاً : وُلد زيد يعنى وُجد زيد وجوداً أولياً ، إنما على أيِّ هيئة وُجد ؟ جميلاً ، قبيحاً .. هذه تحتاج إلى وجود آخر ، تقول : كان زيدٌ هكذا فعل وفاعل لا يحتاج إلى إخبار آخر لأنها للوجود الأول ، لكن حين نقول : كان زيد مجتهداً ، فهذا هو الوجود الثانى وهو الاجتهاد ، وهو وجود ناتج عن الوجود الأول .

فكان الأولى هى كان التامة التى وردتْ فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ .. ﴿٢٨٠﴾ ﴾ [البقرة] أى : وُجِد ذو عُسْرة ،

---

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس : نزلت فى قصة ثُمامة بن أثال لما أسرته السرية وأسلم وخلَّى رسول الله ﷺ سبيله ، حال بين مكة وبين الميرة وقال : والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ ، وأخذ الله قريشاً بالقحط والجوع حتى أكلوا الميتة والكلاب والعِلْهز . قيل : وما العلهز ؟ قال : كانوا يأخذون الصوف والوبر ، فيبلونه بالدم ثم يشوونه ويأكلونه . فقال له أبو سفيان : أنشدك الله والرحم أليس تزعم أن الله بعثك رحمة للعالمين ؟ قال : بلى . قال : فوالله ما أراك إلا قتلت الآباء بالسيف ، وقتلت الأبناء بالجوع ، فنزل قوله ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [المؤمنون] أورده القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٧٧) والواحدى فى أسباب النزول (ص ١٧٩) .

ولا تحتاج فى هذه الحالة إلى خبر .

ونقول : تمنّى فلان على الله أنْ يُوجَد له ولد ، فكان محمد ، يعنى : وُجِد . أما كان الناقصة فتحتاج إلى خبر ؛ لأن (كان) فعل يدل على زمان الماضى ، والفعل لا بُدَّ أنْ يدل على زمن وحدث ؛ لذلك لا بُدَّ لها من الخبر الذى يعطى الحدث تقول : كان زيد مجتهداً ، فجاء الخبر ليكمل الفعل الناقص ، فكأنك قلتَ : زيد مجتهد .

ومعنى ﴿ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ .. (٧٦) ﴾ [المؤمنون] أن خضوعهم واستكانتهم لم تكُنْ لأنفسهم ولا للناس ، إنما استكانة لله بأخْذ أوامره بمنتهى الخضوع وبمنتهى الطاعة ، لكنهم ما فعلوا وما استكانوا ، لا فى حال الرحمة وكَشْف الضر ، ولا فى حال الأَخْذ والعذاب ، وكان عليهم أن يعلموا أن الله غيَّر حاله معهم ، ومقتضى ذلك أن يُغيِّروا هم أيضاً حالهم مع الله ، فيستكينوا لربهم ويخضعوا لأوامره .

﴿ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) ﴾ [المؤمنون] الضراعة : هى الدعاء والذلّة والخضوع لمن أخذ بيدك فى شىء ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا .. (٤٣) ﴾ [الأنعام] يعنى : لجئوا إلى الله وتوجهوا إليه بالدعاء والاستغاثة .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) ﴾

لقد فشلتْ معهم كل المحاولات ، فما أجدَتْ معهم الرحمة واستمروا على غَلْوائهم ، وما أجدى معهم العذاب وما استكانوا بعد أن أخذهم الله به ، إذن : لم يَبْقَ لهم حجة ولا أملٌ فى النجاة ، ففتح الله

عليهم ﴿ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ .. (٧٧) ﴾ [المؤمنون] يعنى : أصابتهم محنة كأنهم من وراء باب مُغْلق تفاجئهم ﴿ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) ﴾ [المؤمنون] آيسون من النجاة مُتحسِّرون على ما فاتهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - يقول : خلقتُ عبادى من عدم ، وأمددتهم بأقوات الحياة ومقوماتها من عدم ، ثم جعلتُ لهم منهجاً ينظم حركة حياتهم ويصُون بنيتهم ، لأن صاحب الصنعة أعلم بصنعته ، وأعلم بما يصلحها ، ويعرف غايتها التى خلقها من أجلها ، فالذى صنع الثلاجة مثلاً هل صنعها أولاً ثم قال لنا : انظروا فى أىِّ شىء تفيدكم هذه الآلة ؟ لا ، إنما قبل أن يصنعها حدّد مهمتها ، والغاية منها ، وكذلك خلق الله ، ولله المثل الأعلى .

والذى خلق وحَدَّد الغاية أعلم بقانون الصيانة الذى يحمى صنعته من الفساد ، ويجعلها تؤدى مهمتها على أكمل وجه ، فإنْ خالفت قانون الصيانة الذى وضعه لك ربك تفسد حياتك وتتعطّل عن أداء مهمتك التى خلقت لها ، وهى عبادة الله وحده لا شريك له : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات]

لذلك أمركم إن اختلفتم فى شىء أنْ تردوه إلى الله وإلى الرسول ، كما ترد الآلة إلى صانعها العالم بطبيعتها وبمواطن الخلل فيها ، ونستنبط من هذه المسألة : إذا رأيتَ خللاً فى الكون أو فساداً

في ناحية من نواحيه ، وإذا رأيت عورة من العورات قد ظهرتْ فاعلم أنْ حُكْماً لله قد عُطِّل .

فمثلاً إنْ رأيتَ فقيراً جائعاً عارياً فإما أنه قادر على العمل لكنه قعد عن السعي وخالف قوله تعالى : ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ⑮﴾ [الملك] أو : أن القادرين العاملين حرموه حقَّه الذي جعله الله له في أموالهم ، وخالفوا قوله تعالى : ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ⑲﴾ [الذاريات]

لذلك ، فالحق - سبحانه وتعالى - يُجرى على عباده من المقادير ما يحفظ لهم توازن الحياة ويسدُّ حاجة المحتاجين ، كما نرى مثلاً أحد الأثرياء يترك بلده ، وينتقل إلى بلد آخر يضع فيها أمواله وثرواته ، وليس هناك سبب لهذه النقلة إلا أنها خاطر سلَّطه الله عليه ليحفظ به توزيع المال في المجتمع ، ولو حسبتها لوجدتَ أن هذا المكان زادت فيه حصيلة الزكاة عن حاجة المحتاجين ، فانتقل إلى بلد آخر قلَّت فيه الأموال عن حاجة الفقراء والمحتاجين .

وبعد ذلك لم يتركك ربك ، بل عرض لك الآيات التي تلفتك إليه ، وتُحنِّنك إلى التعرُّف عليه ، وهي إما آيات كونية عجيبة تدل على قدرة الله تعالى ، أو معجزات تثبت صدْق الأنبياء في البلاغ عن الله ؛ لأن الله تعالى لا يخاطب عباده كل واحد بمفرده ، إنما يرسل رسولاً ليُبلِّغهم ثم يُؤيِّده بالمعجزة الدالة على صدْقه في البلاغ .

فحين تنظر في آيات الكون وتستدل بها على وجود خالق قادر لكنك لا تعرف مَنْ هو هذا الخالق يأتي الرسول ليقول لك : إنه الله ، وقد ضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى : هَبْ أن أحداً دَقَّ الباب ونحن جلوس بالداخل فما الذي يحدث ؟ نتفق نحن جميعاً على أن

طارقاً بالباب . لكن مَنْ هو ؟ لا أحد يعلم .

فالاتفاق هنا فى التعقُّل ، وأن هناك قوةً خلف الباب تدقّه ، لكن مَنْ هو ؟ وماذا يريد ؟ لا بُدَّ لمعرفة هذه المسائل من بلاغ عن هذه القوة ، وإياك أنْ تقول بالظن : هذا فلان وأنا أقول هذا فلان ، إنما علينا أن ننتظر البلاغ منه لنعرف مَنْ هو ، وما عليك إلا أنْ تقول : مَنْ بالباب وسوف يخبرك هو عن نفسه ، وعن سبب مجيئه ، وماذا يريد . ثم بعد ذلك تأتى الآيات التى تحمل منهج الله ، وتخبرك أنه يريد منك كذا وكذا .

الشاهد : أن هذه الآيات كلها تحتاج إلى وسائل لإدراكها ، تحتاج إلى سمع وبصر لنراها ونسمعها ، ثم تحتاج إلى عقل لنفكر فيها ونتأملها ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ .. (٧٨) ﴾ [المؤمنون]

السمع والبصر من الحواس التى سماها العلماء احتياطاً الحواس الخمس الظاهرة أى : أن هناك حواسَّ أخرى لم يكتشفوها ، وفعلاً اكتشفها العلم بعد ذلك كحاسة العضل التى تميز بها الثقل ، وحاسة البين التى تميز بها الغليظ من الرقيق فى الثياب مثلاً ، فهذه الأشياء لا تستطيع التعرّف عليها بالحواسِّ الخمس المعروفة .

وعُمْدة الحواس : السمع والبصر ؛ لأنه إذا جاءنى رسول يُبلِّغنى عن الله لا بُدَّ أن أسمع منه ، فإنْ كنتَ مؤمناً بإله فقد اكتفيتَ بحاسة السمع ، وإنْ كنتَ غير مؤمن تحتاج إلى بصر لتبصر به آياته الدالة على وجوده وقدرته ، وتستدل بالصَّنْعة على الصانع ، وبالخلْقة على الخالق ، وتقف على ما فى كوْن الله من الدقة والإحكام والهندسة والإبداع .

وهذه مهمة العقل بعد أن تحولت المسموعات والمرئيات إلى قضايا ومبادىء عقلية تحكم حياتك ، كما لو رأيتَ النار بعينك ثم لمستها بيدك فأحرقتك فتكوّنت لديك قضية عقلية مُؤدّاها أن النار لها خاصية الإحراق فلا تلمسها بعد ذلك ، وهذه تراها حتى فى الطفل الصغير حينما يعجبه قرن الشطة مثلاً فيقضمه فيشعر بحرارته وألمه .

فإذا رآه بعد ذلك يقول (أوف) ، فهذه اللفظة بالنسبة للطفل قضية عقلية تكوّنَتْ لديه نتيجة تجربة استقرتْ فى فؤاده ، وأخذها مبدأ يسير عليه فى كل حياته ، وهكذا من المحسّات ومن تجارب الحياة تتكوّن لديك قضايا عقلية تستفيد بها فيما بعد .

إذن : من وسائل الإدراك تتكوّن المبادىء والقضايا التى يأخذها العقل ، ويفاضل بينها حتى ينتهى إلى قضية ومبدأ يستقر فى القلب ونُسمّيها عقيدة يعنى : شىء معقود عليه لا ينحلّ .

وحين تتأمل حديث القرآن عن الحواس تجده يُرتّبها دائماً هذا الترتيب : السمع والبصر والفؤاد لأنها عُمْدة الحواس ، فالشمُّ مثلاً والتذوق واللمس لا نحتاج إليه إلا قليلاً ، أما السمع والبصر فعليهما تقوم مسألة الدعوة : السمع لسماع البلاغ ، والبصر لنرى آيات الله الدالة على قدرته تعالى .

وقد أثبت العلم الحديث هذا الترتيب للسمع والبصر والفؤاد مما يدلُّ على أنه ترتيب من خالق عن حكمة وعلم وقدرة ، بحيث لا يأتى واحد منها قبل الآخر ، كما أثبت علماء وظائف الأعضاء صدْق هذا الترتيب ، فأوّل أداة تؤدى مهمتها فى الإنسان هى الأذن ثم العين ، وتعمل من ثلاثة إلى عشرة أيام من الولادة ، ثم من السمع والبصر

توجد القضايا التى يعمل فيها العقل .

إذن : فهذا ترتيب خَلْقى وتكويني . كما أن السمع وهو أول حاسّة تؤدى مهمتها فى الإنسان هو أيضاً الإدراك الوحيد الذى يصاحب الإنسان فى كل أطواره ، فالأذن تسمع مثلاً حتى فى حالة النوم على خلاف العين ؛ ذلك لأن بالسمع يتم الاستدعاء ، لذلك تظل تؤدى مهمتها حتى فى حال النوم .

كما أن العين لا ترى فى الظلام ولها غطاء طبيعى ومغاليق تحجب الرؤية ، وليست الأذن كذلك ، فالصوت إذا خرج تسمعه جميع الآذان ، أما المرئىّ فقد يوجد معك فى نفس المكان ولا تراه وقد يراه غيرك ، إذن : فالمسموع واحد والمرائى متعددة ، لذلك قال سبحانه : ﴿ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٧٨) ﴾ [المؤمنون]

فليس لك خيار فى السمع ، لكن لك خيار فى الرؤية ، فالمبصرات تتعدد بتعدُّد الأبصار ، لكن السمع لا يتعدد بتعدُّد الأسماع .

لذلك من إعجازات البيان القرآنى فى قصة أهل الكهف أن الله تعالى ضرب على آذانهم فى الكهف ليناموا ولا تزعجهم الأصوات فى هذه الصحراء الدويّة ، ولو بقى لهم السمع كشأن الخَلْق جميعاً لما استقر لهم قَرَار طوال هذه الفترة الطويلة ، ولأفزعتهم الأصوات .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ﴾ [الكهف]

كذلك من آيات الإعجاز فى القرآن الكريم أن جميع الآيات التى ذكرتْ السمع والبصر ذكرتْه بهذا الترتيب : السمع والأبصار ، إلا فى آية واحدة فى موقف القيامة قالوا : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٢) ﴾ [السجدة]

فقدَّم البصر على السمع ؛ لأن في القيامة تفجؤهم المرائى أولاً قبل أنْ تفجأهم الأصوات ، وهذه من مظاهر الدقة في الأداء القرآني المعجز .

وكأن الحق سبحانه يقول : لا عُذْر لك عندى فقد أعطيتُك سمعاً لتسمع البلاغ عنى من الرسول ، وأعطيتُك عَيْناً لتلتفت إلى آيات الكون ، وأعطيتُك فؤاداً تفكر به ، وتنتهى إلى حصيلة إيمانية تدلُّك على وجود الخالق عز وجل .

إذن : ما أخذتُك على غِرَّة ، ولا خدعتُك في شيء ، إنما خلقتُك من عدم ، وأمددتُك من عُدم ، ورتبتُ لك منافذ الإدراك ترتيباً منطقياً تكوينياً ، فأيُّ عذر لك بعد ذلك .. وإياكم بعد هذا كله أنْ تشغلكم الأهواء ، وتصرْفكم عن البلاغ الذى جاءكم على لسان رسولنا .

والمتأمل في تركيب كل من الأذن والعين يجد فيهما آيات ومعجزات للخالق - عز وجل - ما يزال العلماء لم يصلوا رغم تقدُّم العلوم إلى أسرارها وكُنْهها .

ثم يقول سبحانه في ختام الآية : ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المؤمنون] لأن هذه نِعَم وآلاء وآيات لله ، كان ينبغى أن تشكر حَقَّ الشكر .

البعض يقول في معنى ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المؤمنون] أنه تعالى عبَّر عن عدم الشُّكْر بالقلة ، وهذا الفهم لا يستقيم هنا ؛ لأن الله تعالى أثبت لعباده شكراً لكنه قليل ، وربك - عز وجل - يريد شكراً دائماً يصاحب كل نعمة ينعم بها عليك ، فساعة ترى الأعمى الذى

حُرِم نعمة البصر يتخبَّط فى الطريق تقول الحمد لله ، تقولها هكذا بالفطرة ؛ لأنك تعيش وتتقلب فى نعَم الله ، لكن لا تتذكرها إلا حين ترى مَنْ حُرِم منها .

لذلك ، إنْ أردتَ أنْ تدوم لك النعمة فاعقلها بذكْر الله المنعم قُلْ عند النعمة ، أو عند رؤية ما يعجبك فى أهل أو مال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، ألاَ ترى أن الله تعالى جعل الحسد لينبهنا : إنْ أردتَ صيانة النعمة فلا تنسَ المنعمَ ؛ لأنه وحده القادر على حفْظها وصيانتها ، كما نشترى الآن آلَة ، ونتفق مع صانعها على صيانتها صيانةً دورية مقابل أجر معين .

كذلك إنْ قُلْتَ عند النعمة : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فلن ترى فيها سوءً أبداً ، لأنك أيقظتَ بـ « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » قانونَ صيانتها ، وجعلتَ حفظها إلى مَنْ صنعها . ولا يُصاب الإنسان فى النعمة إلا إذا غفل عن المنعِم وترك الشُّكْر عليها .

وأذكر أنه كان فى قريتنا رجل من أهل الفهم عن الله ، وكان يملك ثلث فدان يزرعه المزروعات التقليدية ، وفى أحد الأعوام زرعه قطناً ، فجاءت عليه الدودة وكادت تهلكه ، فكلَّمه والدى فى مسألة الدودة هذه فقال له : يا عم متولى لا تقلق فأنا أؤدى صيانتها يعنى : أُخرِج منها الزكاة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

﴿ ذَرَأَكُمْ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [المؤمنون] بثكم ونشركم فى أنحاء الأرض لتعمر كلها ، وتعجب حين ترى أناساً متشبثين بالجبال والصحراء

القفر الجرداء ، ولا يرضون بها بديلاً ، ويتحملون فى سبيل البقاء بها العَنَت والمشقة ، حتى إنك لتقول : لماذا لا يتركون هذا المكان إلى مكان خصب .

وقد رأينا مثل هؤلاء الذين صبروا على أقدار الله فى بلادهم ، رأيناهم فى اليمن بعد أن أغرقها سيل العرم ، وكانت تُسمَّى « اليمن السعيد » ورأيناهم فى السعودية وفى الكويت ، وحكى لنا أهل هذه البلاد ما كانوا فيه من الضيق وقسوة الحياة ، ثم جاءتهم عاقبة صبرهم ، وجعل الله - سبحانه وتعالى - هذه الجبال وهذه الصحراوات أغنى بلاد الدنيا ؛ لأنهم رَضُوا فى الأولى بقضاء الله ، فأبدلهم بصبرهم على لأواء الصحراء نعيماً ، لو حُرِم منه المنعّمون فى الدنيا لماتوا من البرد .

ذلك لأن الخالق - عز وجل - نشر خيراته في كل أنحاء الأرض بالتساوى ، فكل قطعة طولية من الأرض فيها من الخيرات مثل ما فى القطعة الأخرى ، وفى يوم من الأيام كان أصحاب الزرع هم أصحاب المال وأصحاب السيادة ، ثم تغيرت هذه الصورة بظهور خَيْرات أخرى غير الزراعة ، فالخيرات - إذن - مطمورة فى أنحاء الأرض ، لكن لها أوان تظهر فيه .

إذن : فبَثُّ الخليقة ونشْرُها فى أنحاء الأرض له حكمة أرادها الخالق عز وجل .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) ﴾ [المؤمنون] يعنى : لا تفهموا أنكم بنشركم فى الأرض وتفريقكم فيها أنكم تفلتون منا ، أو أننا لا نقدر على جمعكم مرة أخرى ، فكما نشرناكم لحكمة نجمعكم لحكمة لا يخرج من أيدينا أحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [المؤمنون] فعْلان لا بُدَّ أن ينشآ بعد وجود الحياة ووجود الموت ، فالخالق - عز وجل - يُوجِد الحياة أولاً ، ويوجد الموت ، ثم يجرى حدثاً منهما على ما يريده .

والحياة سبقتْ الموت فى كل الآيات ، إلا فى آية واحدة فى سورة تبارك : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. ﴿٢﴾ ﴾ [الملك] وعلَّة ذلك أن الله تعالى يعطى للإنسان بالحياة إرادةً تُنشئ الحركة فى كل أجهزته ، ولك أن تتأمل : ما الذى تفعله إنْ أردتَ أن تقوم من مكانك ؟ ماذا تفعل إنْ أردتَ تحريك يدك أو قدمك ؟ إنها مجرد إرادة وتتحرك أعضاؤك دون أن تدرى أو تُجهد نفسك للقيام بهذه الحركات ، ودون أن تباشر أى شىء .

إذن : بمجرد إرادتك تنفعل لك الجوارح وأنت مخلوق لربك ، فإذا كان المخلوق يفعل ما يريد بلا معالجة ، فكيف نستبعد هذا فى حقِّه - سبحانه وتعالى - ونكذب أنه يقول للشىء : كُنْ فيكون ، مع أننا نفعل ما نريد بجوارحنا بمجرد الإرادة ، ودون أن نأمرها بشىء أو نقول شيئاً ، والله سبحانه وتعالى يقول للشىء : كُنْ فيكون ، وأنت تفعل دون أن تقول .

وقد قدَّم الحق سبحانه الموتَ فى هذه الآية : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ

وَالْحَيَاةَ .. ﴿٢﴾ ﴾ [الملك] ؛ لأن الحياة ستُورث الإنسانَ غروراً فى سيطرة إرادته على جوارحه فيطغى ، فأراد ربه - عز وجل - أن يُنبهه : تذكّر أننى أميتُ ؛ ليستقبل الحياة ومعها نقيضها ، فيستقيم فى حركة الحياة .

وصفة الخَلْق والإماتة صفات لله قديمة قبل أنْ يخلق شيئاً أو يميت شيئاً ؛ لأنها صفات ثابتة لله قبل أنْ يباشر متعلقات هذه الصفات كما قلنا ، ولله المثل الأعلى : الشاعر حين يقول قصيدة قالها لأنه شاعر ولا نقول : إنه شاعر لأنه قال هذه القصيدة ، فلولا صفة الشعر فيه ما قال .

وكما أن الحياة مخلوقة ، فالموت كذلك مخلوق ، وقد يقول قائل : إذا أطلقتَ رصاصة على شخص أردتَهُ قتيلاً فقد خلقتَ الموت . نقول : الحمد لله أنك لم تدَّع الإحياء واكتفيتَ بالموت ، لكن فَرْق بين الموت والقتل ، القتل نَقْض للبِنْية يتبعه إزهاق للروح ، أما الموت فتخرج الروح أولاً دون نَقْض للبنية .

لذلك يقول سبحانه : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ .. ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران]

والنمرود الذى حَاجَّ إبراهيم - عليه السلام - فى ربه أمر بقتل واحد وتَرْك الآخر ، وادَّعى أنه أحيا هذا ، وأمات هذا ، وكانت منه هذه الأعمال سفسطة لا معنى لها ، ولو كان على حَقٍّ لأمرَ بإحياء هذا الذى قتله ؛ لذلك قطع عليه إبراهيم - عليه السلام - هذا الطريق ونقله إلى مجال آخر لا يستطيع المراوغة فيه .

إذن : هَدْم البِنْية يتبعه خروج الروح ؛ لأن للروح مواصفات

خاصة ، بحيث لا تحل إلا فى بنية سليمة ، وقد أوضحنا هذه المسألة - ولله المثل الأعلى - بلمبة الكهرباء ، فقوة الكهرباء كامنة فى الأسلاك لا نرى نورها إلا إذا وضعنا اللمبة مكانها ، ويكون لها مواصفات بحيث لا تضىء إلا إذا توفرتْ لها هذه الصفات ، فإنْ كُسِرت ينطفىء نورها .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [المؤمنون] الليل يحل بغياب الشمس وحلول الظُّلْمة التى تمنع رؤية الأشياء ، وقديماً كانوا يظنون أن الرؤية تتم حين يقع شعاع من العين على المرئى ، ثم جاء العالم المسلم الحسن بن الهيثم ، فأثبت خطأ هذه النظرية ، وقرر أن الرؤية تتم حين يقع شعاع من المرئىّ على العين فتراه ، بدليل أنك لا ترى الشىء إنْ كان فى الظلام .

وظُلْمة الليل تنبهنا إلى أهمية الضوء الذى لا بُدَّ منه لنهتدى إلى حركة الحياة ، والإنسان يواجه خطورة إنْ سار فى الظلام ؛ لأنه إمَّا أن يصطدم بأضعف منه فيحطمه ، أو بأقوى منه فيؤلمه ويؤذيه .

إذن : لا بُدَّ من وجود النور لتتم به حركة الحياة والسَّعْى فى مناكب الأرض ، وكذلك لا بُدَّ من الظُّلْمة التى تمنع الإشعاع عن الجسم ، فيستريح من عناء العمل ، وقد أثبت العلم الحديث خطر الإشعاعات على صحة الإنسان .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [المؤمنون] فجعلهما يختلفان ويتعاقبان ليؤدى كل منهما وظيفته فى الكون ، يقول تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾ [الليل] وطالما أن لكل منهما مهمته ، فإياك أن تقلب الليل إلى نهار ، أو النهار إلى ليل ؛ لأنك بذلك تخالف الطبيعة التى خلقك الله عليها ، وانظر إلى هؤلاء

الذين يسلكون هذا المسلك فيسهرون الليل حتى الفجر ، وينامون النهار حتى المغرب ، وكم أحدثوا من فساد فى حركة الحياة ، فالتلميذ ينام فى الدرس ، والعامل ينام ويُقصِّر فى أداء عمله .

والنبى ﷺ يُنبِّهنا إلى هذه المسألة فى قوله : « ... أطفئوا المصابيح إذا رقدتم »(1) لأن الجسم لا يأخذ راحته ، ولا يهدأ إلا فى الظلمة ، فيصبح الإنسان قوياً مستريحاً نشيطاً ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) ﴾ [النبأ]

ومن دقَّة الأداء القرآنى أن يراعى هؤلاء الذين يعملون ليلاً ، وتقتضى طَبيعة أعمالهم السَّهَر ، مثل رجال الشرطة وعمال المخابز وغيرهم ، فيقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. (٢٣) ﴾ [الروم] فالليل هو الأصل ، والنهار لمثل هؤلاء الذين يخدمون المجتمع ليلاً ؛ لذلك عليهم أن يجعلوا من النهار ليلاً صناعياً ، فيغلقوا النوافذ ويناموا فى مكان هادئ ؛ ليأخذ الجسم حظه من الراحة والهدوء .

إذن : الليل والنهار ليسا ضِدَّيْن ، إنما هما خَلْقان متكاملان لا متعاندان ، وهما كالذكَر والأنثَى ، يُكمل كل منهما الآخر ، لا كما يدَّعى البعض أنهما ضدان متقابلان ؛ لذلك بعد أن أقسم الحق سبحانه بالليل إذا يغشى ، وبالنهار إذا تجلَّى ، قال : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل] فالليل والنهار كالذكر والأنثى لكل منهما مهمة فى حركة الحياة .

واختلاف الليل والنهار من حيث الضوء والظُّلْمة والطول والقصَر وفى اختلاف الأماكن ، فالليل لا ينتظم الكون كله ، وكذلك النهار ،

---

(1) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٦٢٤) وأحمد فى مسنده (٣/٣٨٨) من حديث جابر ابن عبد الله ، واللفظ للبخارى .

فحين يكون عندك لَيْل فهو عند غيرك نهار ، يقول تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ .. (١٣) ﴾ [فاطر]

وينتج عن هذا تعدُّد المشارق والمغارب بتعدُّد الأماكن بحيث كل مشرق يقابله مغرب ، وكل مغرب يقابله مَشْرِق ، لدرجة أنهم قالوا : ينشأ ليل ونهار فى كل واحد على مليون من الثانية .

وينشأ عن هذا كما قلنا استدامة ذِكْر الله على مدى الوقت كله ، بحيث لا ينتهى الأذان ، ولا تنتهى الصلاة فى الكون لحظة واحدة ، فأنت تصلى المغرب ، وغيرك يصلى العشاء .. وهكذا . إذن : فالحق سبحانه يريد أن يكون مذكوراً فى كل الكون بجميع أوقات الصلاة فى كل وقت .

حتى إن أحد الصوفية وأهل المعرفة يقول مخاطباً الزمن : يا زمن وفيك كل الزمن . يعنى : يا ظهر وفيك عصر ومغرب وعشاء وفجر ، لكن عند غيرى .

ومن اختلاف الليل والنهار ينشأ أيضاً الصيف الحار والشتاء البارد ، والحق سبحانه وتعالى كلف العبيد كلهم تكليفاً واحداً كالحج مثلاً ، وربط العبادات كلها بالزمن الهجرى ، فالصيف والشتاء يدوران فى الزمن ، ويتضح هذا إذا قارنت بين التوقيت الهجرى والميلادى ، وبذلك مَنْ لم يناسبه الحج فى الصيف حَجَّ فى الشتاء ؛ لأن اختلاف التوقيت القمرى يُلون السنة كلها بكل الأجواء .

لذلك قالوا : إن ليلة القدر تدور فى العام كله ؛ لأن السابع والعشرين من رمضان يوافق مرة أول يناير ، ومرة يوافق الثانى ، ومرة يوافق الثالث ، وهكذا .

ومن اختلاف الليل والنهار أنهما خِلْفة ، كما قال تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) ﴾ [الفرقان]

فنحن نرى الليل يخلُف النهار ، والنهار يخلُف الليل ، لكن احكم القضية فى كل أطوار زمنها ، فما دام الحق - سبحانه وتعالى - جعل الليل والنهار خِلْفة ، فلا بُدَّ أن يكون ذلك من بداية خلقهما ، فلو وُجِد الليل أولاً ثم وُجِد النهار ، فلا يكون الليل خِلْفة ؛ لأنه لم يسبقه شىء ، فهذا يعنى أنهما خُلقا معاً ، فلما دار الزمن خلف بعضهما الآخر ، وهذا لا ينشأ إلا إذا كانت الأرض مُكوَّرة ، بحيث يجتمع فيها الليل والنهار فى وقت واحد ، فالذى واجه الشمس كان نهاراً ، والذى واجه الظلمة كان ليلاً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٨٠) ﴾ [المؤمنون] لأن هذه المسائل كان يجب أن تعقلوها خاصة ، وقد كانت اختلافات الأوقات مَبْنية على التعقل ، أما الآن فهى مَبْنية على النقل ، حيث تقاربت المسافات ، وصِرْنا نعرف فارق التوقيت بيننا وبين جميع أنحاء العالم بالتحديد .

كذلك كان الناس فى الماضى ينكرون نظرية كروية الأرض ، حتى بعد أن التقطوا لها صوراً أظهرت كرويتها وجدنا من مفكرينا من ينكر ذلك . ونقول : لماذا نقف هذا الموقف من نظريات ثابتة قد سبق قرآنُنَا إلى هذا القول ؟ ولماذا نعطى الآخرين فكرة أن ديننا يغفل هذه المسائل ، مع أنه قد سبق كل هذه الاكتشافات ؟

ولو تأملتَ قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ .. (٣) ﴾ [الرعد] لوجدت فيه الدليل القاطع على صدْق هذه النظرية ؛ لأن الأرض الممدودة هى التى لا تنتهى إلى حافة ، وهذا لا يتأتّى إلا إذا كانت

الأرض كروية بحيث تسير فيها ، لا تجد لها نهاية حتى تصل إلى الموضع الذى منه بدأت ، ولو كانت الأرض على أى شكل آخر غير الكروى مثل المربع أو المستطيل لكان لها نهاية . لكن لم تتوفر لنا فى الماضى الآلات التى تُوضِّح هذه الحقيقة وتُظهرها .

إذن : الحق سبحانه فى قوله : ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ (٨٠)﴾ [المؤمنون] ينبهنا إلى ضرورة إعمال العقول فى المسائل الكونية ؛ لأنها ستوفر علينا الكثير فى الطريق إلى الله عز وجل ، ولماذا يُعمل الإنسان عقله ويتفنّن مثلاً فى ارتكاب الجرائم فَيُرتب لها ويُخطط ؟ لكن الله تعالى يكون له بالمرصاد فيُوقعه فى مَزْلَق ، فيترك وراءه منفذاً لإثبات جريمته ، وثغرة تُوصِّل إليه ؛ لذلك يقول رجال القضاء : ليست هناك جريمة كاملة ، وهذه مهمة القاضى أو المحقق الذى يحاور المجرم ليصل إلى هذه الثغرة .

وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يقول : لقد استخدمتَ عقلك فيما لا ينبغى ، وسخَّرْته لشهوات نفسك ، فلا بُدَّ أن أوقعك فى مزلق ينكشف فيه أمرك ، فإنْ سترتها عليك مرة فإياك أنْ تتمادى ، أو تظنّ أنك أفلتَّ بعقلك وترتيبك وإلاّ أخذتُك ولو بجريمة لم تفعلها ؛ لأنك لا تستطيع أن تُرتِّب بعقلك على الله ، وعدالته سبحانه فوق كل ترتيب .

كما لو فُضح إنسان بأمر هو منه برىء ، ولحقه الأذى والضرر بسبب هذه الإدانة الكاذبة ، فتأتى عدالة السماء فيستر الله عليه فضيحة فعلها جزاءً لما قد أصابه فى الأولى ، وهذه مسألة لا يفعلها إلا رب .

والحق - سبحانه وتعالى - حينما يُنبِّه العقل ويثيره : تفكّر ، تدبّر ، تعقّل ، ليدرك الأشياء الكونية من حوله ، فهذا دليل على أنه

سبحانه واثق من صَنْعته وإبداعه لكونه ؛ لذلك يثير العقول للبحث وللتأمل فى هذه الصنعة .

وهذه المسألة نلاحظها فيمَنْ يعرض صَنْعته من البشر ، فالذى يتقن صَنْعته يعرضها ويدعوك إلى اختبارها والتأكد من جودتها على خلاف الصنعة الرديئة التى يلفّها لك صانعها ، ويصرفك عن تأملها حتى لا تكشف عيبها .

فحين ينبهك ربك إلى التأمل فى صَنْعته فعليك أنْ تدرك المغزى من هذه الإثارة لتصل إلى مراده تعالى لك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٨١ ﴾

أى : لم يتعظوا بكل هذه الآيات ، بل قالوا مثلما قال الأولون :

﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٨٢ ﴾

وسواء أكان هذا قولهم أو قول سابقيهم من الأولين ، فقد كان الشك عند الذين عاصروا الدعوة المحمدية فى مسألة البعث من الموت ، وكل كلامهم يؤدى إلى ذلك ، فهم تعجبوا من حدوث هذا الأمر .

ولذلك قال قائلهم : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴾ [يس]

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨٣ ﴾

أتظنون أن الله تعالى إذا وعدكم بالموت ثم بالبعث أن هذا سيكون فى الدنيا ؟ لذلك تقولون : وُعدْنا بهـذا من قبل ولم يحدث ، وقد مات منّا كثـيرون ولم يعودوا ولم يُبـعثُوا ، فـمَنْ قال لكم إنكم ستـموتون اليوم وتُبعثون غداً ؟

البعث لا يكون إلا بعـد أن يموت جمـيع الخلْق ، ثم يُبعـثوا كلهم مرة واحدة .

إذن : هذا الكلام منهم مجرد سفسطة وجدل لا معنى له .

وكلمة ﴿ وُعِدْنَا .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى بالبعث ، والوعـد عادة يكون بالخير، كما أن الوعيد يكون بالشر ، كما جاء فى قول الشاعر :

وإنِّى إذَا أوْعدتُه أوْ وَعدتُه   لَمخلفُ إيعَادِى ومُنجِزُ موْعِدِى

يعنى : هو رجل كريم يتـرك الشر الذى توعّد به ، ويفعل الـخير الذى وعد به ، وإن قال العلماء : قد يستعمل هذا مكان هذا .

لكن ، هل الوعد للكفـار بالبعث وما يتبـعه من عذاب وعقـاب يُعَدُّ وَعْـداً ؟ قـالوا : نعم يعـد هذا الشـر وهذا العـذاب الذى ينتظر وَعْـداً بالخير لأنه يُنبههم ويلفتـهم إلى خطورته حتى لا يقعوا فيه إذن : هو خير لهم الآن حيث يُحذِّرهم كما تحذر ولدك من الرسوب إنْ أهمل فى دروسه .

ومن ذلك أيضـاً فى هذه المسـألة ما أشـرنا إليه من تكرار قـوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرحمن] فى سورة الرحمن ، وأنها جاءت بعـد ذكْر نعم الله على سبيـل التوبيخ لمَنْ أنكر هذه النعم أو كذَّب بها ، وتكررت مع كل نعمة تأكيداً لهذا التوبيخ ، لكن العجيب أن تذكـر هذه الآية حـتى بعـد النقم أيضـاً ، كمـا فى قـوله تعـالى :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن]

وهل فى النار والشُّواظ نعمة ؟ نقول : نعم فيها نعمة ؛ لأنها نصيحة لك قبل أن تقع فى هذا المصير وتحذير لك فى وقت التدارك حتى تراجع نفسك .

وقولهم : ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٨٣) ﴾ [المؤمنون] ﴿ إِنْ هَٰذَا.. (٨٣) ﴾ [المؤمنون] يعنى : ما هذا . وأساطير : جمع أسطورة مثل : أعاجيب وأعجوبة ، وهناك مَنْ يقول : إن أساطير جمع سطر أسطار أساطير مثل شكل وأشكال ، فهى جَمْع للجمع . وسواء أكانت جَمْع أسطورة أو جمع سطر ، فالمعنى لا يختلف ؛ لأن الشيء المسطور قد يعتبره الناس خرافة وكلاماً لا معنى له .

والأساطير هى الكلام المكذوب الذى لا أصلَ له ، فلا يُسمَّى الكلام أسطورة إلا إذا جاء وقته ولم يحدث ، فلَكَ أن تقول أساطير إنما البعث الذى تقولون عنه ﴿ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٨٣) ﴾ [المؤمنون] لم يأت وقته بعد ، فلم يمت جميع الخَلْق حتى يُبعثوا ، فقد أخطأتم التوقيت وظننتم أنكم فى الدنيا تموتون وتبعثون هكذا على رؤوس الأشهاد ، والناس ما زالت فى سعة الدنيا .

إذن : ليس البعث كما تقولون ، بل هو حق ، ولكنكم لم تضعوا له الكلمة المناسبة ؛ لذلك يوجه إليهم هذه الأسئلة التقريرية التى تقيم عليهم الحجة :

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) ﴾

ويأتى فى السؤال بإن الشرطية الدالة على الشك فى كونهم يعلمون .

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

فما دُمْتم أقررتم بأن الأرض ومَنْ فيها لله ﴿ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى : ما الذى صرفكم عن مالك الأرض وخالقها ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾

نلحظ أنهم لم يجادلوا فى هذه المسألة ، ولم يقولوا مثلاً إنها سماء واحدة هى التى نراها ، مما يدل على أنها أمر غير منكور عندهم ، ولا بُدَّ أن الأنبياء السابقين قد أخبروهم خبر السماء ، وأنها سبع سموات ، وأصبحت عندهم قضية عقلية يعرفونها ، وإلا كان بوُسْعهم الاعتراض ، حيث لا يرون إلا سماءً واحدة . إذن : لم يجادلوا فى هذا الموضوع .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾ [المؤمنون] العرش مخلوق عظيم لا يعلم كُنْهه إلا الله الذى قال فيه ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف] وقال ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [هود]

والعرش لم يَرَهُ أحد ، إنما أخبر عنه ربه الذى خلقه ، فقال : لى كذا ولى كذا ، ويكفى أن الله تعالى وصفه بأنه عظيم . وفى هذه أيضاً لم يجادلوا رسول الله ولم يقولوا إننا لم نَرَ العرش ، مما يدل على أن عندهم حصيلة من تراث الأنبياء السابقين انتقلت إليهم فطرة من فطر التكوين البشرى فى السماع من الموجودين .

وقد وصف العرش بأنه عظيم عند البشر أيضاً ، ففى قصة سليمان وملكة سبأ قال الهدهد : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل] لأن العرش رمزية لاستقرار الملْك واستتباب الأمر للْملك الذى لا ينازعه فى مُلْكه أحد ، ولا يناوشه عليه عدو ؛ لذلك أول ما قال سليمان ـ عليه السلام ـ فى أمرها قال : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا .. (٣٨) ﴾ [النمل] وكأنه يريد أن يسلب منها أولاً رمز العظمة والأمن والأمان والاستقرار فى الملك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) ﴾

فما دام الأمر كذلك وما دُمْتم تعترفون بأن لله مُلْكَ السموات والأرض ، وله العرش العظيم ، فلماذا لا تتقون هذا الإله ؟ لماذا تتمردون على منهجه ؟ إن هذا الكون كله بما فيه خُلِق لخدمتك ، أفلا يلفتك هذا إلى الصانع المنعم .

لذلك يقول تعالى فى الحديث القدسى : « يا ابْن آدم ، خلقت الأشياء كلها من أجلك ، وخلقتُك من أجلى ، فلا تنشغل بما هو لك عما أنت له »[1] يعنى : لا تُلْهك النعمة عن المنعم . وعلى العبد أن ينظر أولاً إلى خالقه ومالكه ، فيؤدى حقه ، ثم ينظر إلى ما يملك هو .

ومعنى : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) ﴾ [المؤمنون] الاتقاء : أن تجعل بينك وبين صفات الجلال من الله وقاية ، وسبق أن قُلْنا : من عجيب آيات القرآن أن تقول مرة (اتقوا الله) ومرة (اتقوا النار) ، والمعنى لا تعارضَ فيه كما يظنه البعض ، بل المعنى واحد ؛ لأن النار جُنْد

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (٢٣٨/٤) : « ورد فى بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : ابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبنى تجدنى ، فإن وجدتنى وجدت كل شىء ، وإن فتك فاتك كل شىء ، وأنا أحبّ إليك من كل شىء » .

من جنود الله ومن صفات جلاله ، فالمراد : اتقوا عذاب الله ، واتقوا صفات القهر والجبروت بأن تجعل بينك وبينها وقاية .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

معنى ﴿ بِيَدِهِ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [المؤمنون] تدل على التمكّن من الشيء ، كما تقول : هذا الأمر في يدى يعنى في مُكْنتى وتصرفى ، أقلبه كيف أشاء ﴿ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [المؤمنون] مادة ملك منها مِلْك ، ومنها مُلْك ، ومنها ملكوت .

المِلْك ما تملكه أنت ، حتى لو لم يكن عندك إلا ثوب واحد فهو مِلْك ، أَمّا مُلْك فيعنى أنْ تملك مَنْ يملك ، وهذا يكون ظاهراً . أما المَلكوت فالأشياء المخلوقة التى لا تقع عليها حواسُّك ، ولا يمكن أن تعلم عنها شيئاً إلا بإخبار خالقها ، والإنسان لا يرى كل ما فى الكون ، بل إن فى نفسه وذاته أشياءً لا يعرفها ، فهذا كلهِ من عالم الملكوت .

بل إن الإنسان لا يرى حتى المُلْك الظاهر المحسّ ؛ لأنه لا يرى منه إلا على قَدْر مَدِّ بصره ، وما خرج عن هذا النطاق لا يراه ، وإن كان يراه غيره ، ويمكن أن يدخل هذا المُلك الذى لا تراه فى دائرة الملكوت بمعناه الواسع .

إذن : الملكوت يُطلق على الأشياء المحجوبة التى لا يراها أحد ، أو على الأشياء التى يراه واحد دون الآخر .

والإنسان إذا تعمَّق فى عبادة الله وفى طاعته يفيض عليه من التجليات ، ويعطيه من هذا الملكوت عطاءً مباشراً ، كما قال : ﴿مِّن لَّدُنَّا .. (٦٧)﴾ [النساء]

الا ترى إبراهيم عليه السلام قال عنه ربه : ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ (٣٧)﴾ [النجم] وقال عنه : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .. (١٢٤)﴾ [البقرة] يعنى : يؤدى ما لله بدقة وعلى الوجه الأكمل ؛ لذلك يأتمنه ربه على أن يكون إماماً للناس ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤)﴾ [البقرة]

فلما أحسن إبراهيمُ ما بينه وبين ربه وبلغ هذه المنزلة قال عنه ربه : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ..(٧٥)﴾[الأنعام]

لأنه أحسن فى الأولى فرقى إلى أعلى منها . كما لو دخل رجل بيتك وشاهد ما عندك من نعيم ، ففرح لما أنت فيه ، وقال : ما شاء الله تبارك الله ، ودعا لك بالزيادة ، فلما رأيت منه ذلك قلت له إذن : تعالى أريك ما هو أعظم .

كذلك العبد الصالح الذى عبد الله وتقرَّب إليه بمنهج موسى عليهما السلام ، فلما استقام على هذا المنهج وتعمَّق فى عبادة الله وطاعته أعطاه الله من علمه اللدنىّ دون واسطة ودون رسول ، حتى كان هو مُعلِّماً لموسى عليه السلام .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ .. (٨٨)﴾ [المؤمنون] يجير : تقول : استجار بفلان فأجاره يعنى : استغاث به فأغاثه ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ .. (٤٨)﴾ [الأنفال] والإنسان لا يستجير بغيره إلا إذا ضَعُفَتْ قوته عن حمايته ، فيلجأ إلى قوى يحميه ويدافع عنه .

إذن : هذه المسألة لها ثلاثة عناصر : مجير ، وهو الذى يقبل أن يغيثك ويحتضنك ويدافع عنك . ومُجَار : وهو الضعيف الذى يطلب الحماية . ومُجَار عليه : وهو القوى الذى يريد أن يبطش . ومن المعروف أن رسول الله ﷺ فى رحلته إلى الطائف وبعد أنْ فعلوا به ﷺ ما فعلوا استجار ، ودخل فى حمى كافر .

فالحق - سبحانه وتعالى - يجير مَن استجار به ، ويغيث مَن استغاثه لكن ﴿لا يُجَارُ عَلَيْهِ .. (٨٨)﴾ [المؤمنون] لأن الذى يجيرك إنما يجيرك من مساوٍ له فى القوة ، فيستطيع أن يمنعك منه ، ويحميك من بطشه ، فَمَنْ ذَا الذى يحميك من الله ؟ ومَنْ يجيرك إنْ كان الله هو طالبك ؟!

لذلك يقول سبحانه فى مسألة ابن نوح : ﴿قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ .. (٤٣)﴾ [هود] فالله - عز وجل - يجير على كل شىء ، ومن أصبح وأمسى فى جوار ربه فلا خوف عليه .

وتلحظ هنا العلاقة بين صَدْر هذه الآية وعَجُزها : فالله تعالى بيده وفى قبضته سبحانه كل شىء ، والأمر كله إليه ، فإياك أنْ تظن أنك تفلت من قبضته بالنعمة التى أعطاك ؛ لأنه سبحانه قادر أن يسلبك إياها ، وساعتها لن يجيرك أحد ، ولن يغيثك من الله مغيث ، ولن يعصمك من الله عاصم .

ثم اقرأ قوله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)﴾ [آل عمران]

وهنا أيضاً يقول سبحانه : ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨)﴾ [المؤمنون] إنْ كان عندكم علم بهذه المسألة ووصلت إليكم وعاينتموها .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ[(١)] ﴿٨٩﴾ ﴾

ففى هذه أيضاً يقولون « لله » ؛ لأنه واقع ملموس لا يُنكَر ، وطالما أن الأمر كذلك ﴿ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المؤمنون] كيف تسحرون أو أسُحِرتم عن هذا الواقع وصُرِفتم عنه إلى هذا الكلام الباطل ؟

هذه قضايا ثلاث جاءت على صورة سؤال لتدينهم بوضوح العقيدة فى الوجود الأعلى ، وبوضوح البينات فى إعجاز البلاغ عن الله ، وبوضوح الآيات فى آيات المنهج ، وقد أراد الحق سبحانه أن يأتى الكلام منهم وبإقرارهم هم على أنفسهم ؛ ليكون حجة وشهادة حَقٍّ عليهم .

ومعلوم أن الإقرار سيد الأدلة ؛ لذلك سألهم : ﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا .. ﴿٨٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

﴿ وقُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾ [المؤمنون]

﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [المؤمنون]

وهم يقولون فى هذا كله (لله) إذن : فماذا بقى لكم ؟ ما الذى منعكم أن تتقوا الذى تؤمنون بأنه المالك للأرض وللسماء وبيده كل شىء ؟ إنه مجرد استكبار وعناد وغطرسة ، وإلا فماذا تعنى كلمة (الله) التى تنطقون بها ؟

إنكم تعرفون الله ، وتعرفون مدلول هذه الكلمة ؛ لأن مدلول الكلمة سابق على وجودها فى لغة البشر ، فاللغة عادة ألفاظ توضع لمعانٍ

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٧٩) : « أى : فكيف تُخدعون وتُصرفون عن طاعته وتوحيده . أو : كيف يخيل إليكم أن لا تشركوا به ما لا يضر ولا ينفع » .

تدل عليها ، فالمعنى يُوجَد أولاً ، ثم نضع له اللفظ الدالّ عليه ، وما دام أن لفظ (الله) يدور على ألسنتكم ولا بُدَّ أنكم تعرفون مدلوله ، وهو قضية لغوية انتهيتم منها ، وإلا فالأمر العدمى لا اسم له . فالتليفزيون مثلاً : ما اسمه قبل أن يخترع ؟ لم يكن له اسم ؛ لأنه لم يكُنْ له معنى ، فلما وُجِد وُضِع له الاسم .

وحيث دارت الألسنة بكلمة الله فمعنى ذلك أنه تعالى موجود قبل وجود الاسم ، فالمسألة - إذن - حجة عليكم .

لذلك عرض الحق - سبحانه وتعالى - هذه القضايا فى صورة سؤال لينتزع منهم الإقرار بها ، كما لو أنكر شخص جميلك فيه ، فإنْ قلتَ له على سبيل الإخبار : لقد قدمتُ لك كذا وكذا ، والخبر يحتمل الصِّدْق ويحتمل الكذب وله أن يعترف أو ينكر .

أما حين تقول له : ألم أُقدِّم لك كذا وكذا ؟ على سبيل الاستفهام ، فإنه لا يملك إلا الاعتراف ، وينطق لك بالحق وبالواقع ، وتصل بإقراره إلى مَا لا تؤديه الشهادة أو البينة عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

يعنى : دعونى أخبركم عن أمرهم ، ولماذا أنكروا الحق ولم ينطقوا به ، إنهم ينكرون الحق لأنهم كاذبون ويريدون أنْ يُثبتوا أن ما هم عليه أمر طبيعى ، لماذا ؟ لأنهم مستفيدون من الانحراف ومن الباطل ؛ لذلك يقفون فى وجه الرسالة التى جاءت لتعديل الميزان والقضاء على الانحراف والباطل ، ويلجئون إلى تكذيبها وصَرْف الناس عنها ليظلوا ينتفعون هم بالباطل .

لذلك تأمل : لماذا يُكذِّب الناس ؟ يُكذِّبون لأنهم ينتفعون من الكذب ، ويتعبهم الصدق ، ويُضيِّق عليهم الخناق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١)﴾

يا ليت الأمر وقف بهم عند مجرد عدم الإيمان بالله ، إنما تعداه إلى أن وصفوا الله تعالى بما لا يليق من الصفات ، وما دام أن الله تعالى ينفي عن نفسه تعالى اتخاذ الولد ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ .. (٩١)﴾ [المؤمنون] فلا بد أنهم قالوا : اتخذ الله ولداً ، فترقوا في فجورهم وطغيانهم ، وتجرأوا حتى على مقام العزة .

ونقول أولاً : ما الولد ؟ الولد ما ينجبه الإنسان من ذكر أو أنثى ، وقد سمعنا هؤلاء يقولون : عيسى ابن الله ، والعزير ابن الله ، وقالوا عن الملائكة : بنات الله ، وقد قال تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ .. (٩١)﴾ [المؤمنون] ليشمل البنين والبنات .

ومعنى ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ .. (٩١)﴾ [المؤمنون] أن الله تعالى كان موجوداً ، ثم اتخذ له ولداً ، فاتخاذ الولد إذن حادث ، وهذا يعني أنه قد مرت فترة لم يتخذ الله له فيها ولداً ، لذلك نسأل : ما الذي زاد في مُلْك الله بوجود الولد ؟ هل أصبحت السموات ثمانية ؟ هل زاد في الكون شمس أخرى أو قمر ؟ الكون كما خلقه الله تعالى ، وجعل فيه

ضرورياته وأصوله وفروعه لم يزد فيه شيء . إذن : فاتخاذ الولد عَبَثٌ لم يحدث منه شيء .

ويقولون : اتخذ الله الولد ليُؤْنس خَلْقه بوجود ولده وشيء من رائحته بين الخلق ، قالوا هذا في مؤتمر (نيقية) ، كأنه عندهم يقوم مقام الألوهية . لكن كم كانت مدة بقائه بينكم ؟ لقد أقام المسيح في الأرض بضعاً وثلاثين سنة قبل أن يُرْفع ، فكيف يحرم من هذا الأنس مَنْ سبقوا ميلاده عليه السلام ؟ وكيف يُحْرم منه مَنْ أتوا بعده ؟

أليس في هذا ما يتعارض وعدالة الربوبية ؛ لأن الخَلْق جميعاً خَلْق الله ، وهم عنده سواء ؟

ومنهم مَنْ يقول : إنه جاء ليرفع الخطيئة ، لكن الخطيئة ما زالت في الأرض بعدما فعل ما فعل . إذن : فكلها حُجَج واهية .

ولو ناقشنا هذه المسألة مناقشةً منطقيةً فلسفيةً : لماذا يتخذ الإنسانُ الولَد ؟ يتخذ الإنسانُ الولدَ لأنه يحب الحياة ، وموته يختصر هذه الحياة ، فيريد الولد ليكون امتداداً لحياته ، ويضمن به بقاء الذكْر جيلاً من بعده ، فإنْ جاء للولد ولد ضمن جيلين ؛ لذلك يقولون « أعزّ من الولْد ولْد الولد » . لكن أي ذكْر هذا الذي يتمسَّكون به ؟ إن الذكر الحقيقيَ ما تخلفه من بعدك من عَمل صالح يسبقك عند الله .

والحق - سبحانه وتعالى - لا يحتاج إلى ذِكْر من بعده تعالى ؛ لأنه باقٍ لا يموت ، فهذه المسألة إذن ممنوعة في حقِّه تَعالى .

وقد يُتخذ الولد ليكون سنداً وعَوْناً لأبيه حين يكبر وتضعف قواه ؛ لذلك يقولون : خير الزواج الزواج المبكر ؛ لأنه يساعدك على إنجاب أب يعولك في طفولة شيخوختك ؛ لأنك تنجب طفلاً وأنت

صغيـر ، فيعاصـرك أكبر مدة من الزمن ، وتطول به قُـرّة عينك على خـلاف مَنْ ينـجب على كـبَـر ؛ لـذلك قـال : أب يعـولك فـى طفـولة شيخوختك ولم يقل ابناً لأنك فى هذه الحال تحتاج إلى حنان الأب .

وهذه أيضاً ممـتنعة فى حقه تعالى ؛ لأنه سبـحانه القوى ، الذى لا يحتاج إلى معين ، ولا إلى عزوة .

مـسألة أخـرى : أن الإنسان يحـب الولد ؛ لأنه بَعْضٌ منه ، وهو سبب فى وجوده ، فيـحب أن يكون له ولد من صُلْبه ، وهذا فرع من حُـبِّه للـتملُّك ، فـالإنسـان أول ما يـحب يحب أن تكون له أرض ، ثم يحب أن يزرعهـا ويأكل من خيراتها ، ثم يحب أن تكون له حـيوانات يشرب لبنهـا ويستفيد منهـا ، ثم إنْ تَمَّ له هذا كله يتطلع إلى الولد ، وكأنه تدرَّج من حب الجماد إلى النبات ، إلى الحيوان ، إلى الإنسان .

وهذه المسألة أيضـاً لا تجوز فى حقه تعالى ، فـإنْ أحببتَ الولد ليكون جزءاً منك ومن صُلْبك تعـتز به وببُنوته ، فالخَلْق جميعـاً عيال الله وأولاده ، فكيف يحتاج إلى الولد بعد ذلك ؟

إذن : كلها حـجج ومسائل باطلـة ؛ لذلك رَدَّ الله عليهم ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ .. (٩١)﴾ [المؤمنون] وأتى بمنْ الدالة على العـموم ، يعنى : ما اتخذ الله شـيئاً من بداية مَا يُقال لهَ ولد ، ولو كان حـتى مُتبنًّى ، كما تقـول : ليس عندى مال ، فتنفى أن يكون عندك مـال يُعْتد به أو ذو قيمـة ، لكن هذا لا يمنع أن يكون عندك عدة جنيـهات أو قروش . فإنْ قلت : ما عندى من مال ، فقـد نفيتَ أنْ يكون عندك أقلّ ما يُقَال له مال .

ونردّ بهـذه المـسـألة على مَنْ يقـول أن (من) هنا زائدة ؛ لأن كلام الله دقيق لا زيادة فيه ، الزيادة فى كلام البشر ، والحق سبحانه مُنزَّه عن هذه المسألة .

ثم يرتقى بنا الحق سبحانه فى الردِّ عليهم فيقول : ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ .. (٩١) ﴾ [المؤمنون] يعنى : معبود بحق أو بغير حق ؛ لذلك سمّى الأصنام آلهة ، لكن كلمة الله انصرفت إلى المعبود بحق سبحانه وتعالى ، فنفى الحق سبحانه الشركاء معه فى العبادة ، كما جاء فى موضع آخر : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢) ﴾ [الأنبياء]

يعنى : لو كان فيهما آلهة الله خارج منها لَفَسدت السماء والأرض ، وكذلك لو كان فيهما آلهة مع الله لَفسدتَا أيضاً ؛ لأنَ إلا هنا ليست استثنائية ، إنما هى اسم بمعنى غير ، وقد ظهر إعرابها على لفظ الجلالة بعدها (الله) .

ومسألة تعدُّد الآلهة لو تأملتها لَبانَ لك بطلانها ، فإنْ كان مع الله آلهة لاقتسموا هذا الكون فيما بينهم ، وجعلوه قطاعات ، يأخذ كل منهم قطاعاً فيه ، فواحد للأرض ، وآخر للسماء ، وثالث لما بين الأرض والسماء وهكذا .

ولكن ، هل يستغنى قطاع من الكون عن الآخر ؟ أتستغنى الأرض عن السماء ؟ إذن : سيحدث تضارب لا يستقيم معه حال الكون .

كذلك نقول : الإله الذى أخذ الأرض مثلاً ، لماذا لم يأخذ السماء ؟ لا بُدَّ أنه أخذ الأرض بقُوَّته ، وترك السماء لعجزه ، ولا يصلح إلهاً مَنْ وُصِف بهذه الصفة ، فإن قالوا : إنهم جميعاً أقوياء يستطيع كل واحد منهم أن يخلق الخَلْق بمفرده نقول : إذن ما فائدة الآخرين ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١) ﴾ [المؤمنون] يعنى : لو استقل كل منهم بقطاع من الكون دون الآخر لَفَسدتْ الأمور ، كما رأينا فى دنيا البشر أن يحاول أحد

الملوك أنْ يستقلّ بقطاع من الأرض لا حَقّ له فيه ، ورأينا ما أحدثه من فساد فى الأرض ، هذا مثال لقوله تعالى : ﴿ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١) ﴾ [المؤمنون] وهى صورة من صور الفساد .

لذلك يعالج الحق سبحانه هذه القضية ويعلنها على الملأ : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

فليس هذا كلامنا ، وليست هذه شهادتنا ، بل كلام الله وشهادته سبحانه لنفسه ، لكن هل علم هؤلاء الآلهة بهذه الشهادة ؟ إنْ علموا بهذه الشهادة فسكوتهم عليها وعدم اعتراضهم عَجْز ، وإن لم يدروا فَهُم غافلون نائمون ، ففى كلتا الحالتين لا يصحّ أن يكونوا آلهة .

وفى موضع آخر يردّ عليهم الحق سبحانه : ﴿ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا .. (٤٢) ﴾ [الإسراء] يعنى فى هذه الحالة ﴿ لابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء] يعنى : ذهبوا يبحثون عن الإله الذى أخذ منهم الكون ، وتعدَّى على سلطانهم ، إما ليجابهوه ويحاكموه ، وإما ليتقربوا إليه .

لذلك سيقول عن الذين تدَّعون أنهم آلهة من دون الله : ﴿ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ .. (٥٧) ﴾ [الإسراء] يعنى : عيسى والعزير والملائكة الذين قلتم إنهم بنات الله ، هؤلاء جميعاً يتوسلون إلى الله ويتقربون إليه ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ .. (٥٧) ﴾ [الإسراء]

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ .. (١٧٢) ﴾ [النساء]

إنهم لا يستنكفون عن عبوديتهم لله ، بل يعتزون بهذه العبودية ،

ويُغضبهم ويسوؤهم أن نقول عنهم آلهة ، أو نعطيهم من التقديس أكبر مما يستحقون ؛ ذلك لأن ولاءهم وعصبيتهم لله تعالى أكبر من ولائهم وعصبيتهم لأنفسهم .

لذلك ، فإن هذه الأشياء التى يتخذونها آلهة من دون الله هى أول مَنْ يلعنهم ، فالأحجار التى عبدوها من دون الله - مع أن كلمة العبادة هنا خطأ ونقولها تجاوزاً ؛ لأن العبادة طاعة العابد لأمر المعبود ، وانتهاؤه بنهيه ، والأحجار ليس لها أوامر وليس لها نَوَاه - هذه الأحجار أعبد منهم لله ، وأعرف منهم بالله ؛ لذلك تكرههم الحجارة وتلعنهم ، وتتحول عليهم فى القيامة ناراً تَحْرقهم .

اقرأ هذا الحوار الذى يتنافس فيه غار حراء الذى شهد بداية الوحى وأنس فيه رسول الله ﷺ بأول آيات القرآن ، وغار ثور الذى احتمى فيه رسول الله عند الهجرة ، وكلاهما أحجار ، يقول الشاعر[1] :

كَمْ حَسَدْنَا حِراءَ حِينَ تَرى ... الرُّوحَ أميناً يغْذُوكَ بالأنْوارِ

فَحِراءُ وثَوْرُ صَارَا سَوَاءً ... بهما اشْفع لدولةِ الأحجارِ

عَبدُونا ونَحْنُ أعْبَدُ لله ... منَ القائمين بالأسْحَارِ

تَخذُوا صَمْتَنَا علينا دليلاً ... فغدَوْنا لهم وَقُودَ النارِ

قد تجنُّوا جَهْلاً كما قد تجنَّوْه ... علَى ابْن مريم والحَوارِى

للمُغَالِى جزاؤه والمغَالَى ... فيه تُنجيه رحمةُ الغفارِ

لذلك يقول تعالى لعيسى عليه السلام : ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ .. ﴿١١٦﴾ ﴾ [المائدة]

(١) من شعر فضيلة الشيخ الشعراوى رحمه الله .

فيقول عيسى : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) ﴾ [المائدة]

نعم ، الله تعالى يعلم ما قال عبده ونبيه عيسى ، لكن يريد أنْ يقر عليهم بأنه كاره لقولهم هذه الكلمة .

والنبى ﷺ حينما هُزِم الرومان من الفرس حزن لهزيمة الرومان، لماذا ؟ لأنهم أهل كتاب يعرفون الله ، ويعرفون البلاغ عن الله ، وإنْ كانوا كافرين به ، أما الفُرْس فكانوا مَجُوساً يعبدون النار ؛ لذلك يُطمئنه ربه بقوله : ﴿ الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الروم]

فإنْ كانوا لا يؤمنون بمحمد ، فهم يؤمنون بربِّ محمد ، فالعصبية ـ إذن ـ لله أكبر من العصبية للرسول المبلّغ عن الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) ﴾ [المؤمنون]

يصفون بمعنى : يكذبون ، لكن عبَّر عنه بالوصف كأن المعنى : إنْ أردت أنْ تعرف الكذب فاسمع إلى كلامهم فهو الوصف الدقيق له ، وقال فى موضع آخر : ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ .. (٦٢) ﴾ [النحل] فكلامهم هو الكذب بعينه ، وهو أصدق وَصْف له ؛ لأن الكذب ما خالف الواقع ، وهم لا يقولون إلا ما خالف الواقع .

كما لو سألت : ما الحماقة ؟ فأقول لك : انظر إلى تصرفات فلان ، يعنى : هى الوصف الصادق للحماقة ، والترجمة الواضحة لها ، وكأنه بلغ من الوصف مَبْلَغاً يُجسِّم لك المعنى الذى تريده .

ومعنى : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ .. (٩١) ﴾ [المؤمنون] تنزه ، وهى مصدر وُجِد قبل أنْ يُوجَد المسيح ، فهى صفة لله تعالى أزلية ، حيث ثبت تنزيه الله قبل أن يخلق الخَلْق ، فلما خلق الله السماء والأرض سبَّحت لله : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١) ﴾ [الحديد] ولم ينقطع التسبيح بعد ذلك ، قال الحق سبحانه : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (١) ﴾ [الجمعة]

وما دام الكل يُسبِّح لله ، وما زال مُسبِّحاً ، فسبِّح أنت يا محمد : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) ﴾ [الأعلى]

فكيف يكون الكون كله مُسبِّحاً ، ولا تُسبِّح أنت ، وأنت سيد هذا الكون ؟

ثم يقول الحق سبحانه عن ذاته العلية :

﴿ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) ﴾

العلم : إدراك قضية أو نسبة واقعة مجزوم بها وعليها دليل ، ولا يصل إلى العلم إلا بهذه الشروط ، فإنْ كانت القضية مجزوماً بها وواقعة ، لكن لا تستطيع أن تُدلِّل عليها كالطفل حين يقول : الله أحد ، فهذا تقليد كما يُقلِّد الولدُ أباه أو مُعلمه ، فهو يُقلِّد غيره فى هذه المسألة إلى أنْ يوجد عنده اجتهاد فيها ويستطيع هو أن يُدلِّل عليها .

فإنْ كانت القضية مجزوماً بها وليست واقعة ، فهذا هو الجهل ، فليس الجهل كما يظن البعض ألاَّ تعلم ، إنما الجهل أن تجزم بقضية مناقضة للواقع .

لذلك تجد الجاهل أشقّ وأتعب لأهل الدعوة وللمعلمين من الخالى الذهن الذى لا يعرف شيئاً ، ليست لديه قضية بدايةً ، فهذا ينتظر منك أن تُعلِّمه ، أمّا الجاهل فيحتاج إلى أن تُخرِج من ذِهْنه القضية

الخاطئة أولاً ، ثم تضع مكانها الصواب .

والغيب : المراد به الغيب المطلق يعني : ما غاب عنك وعن غيرك ، فنحن الآن مشهد لمن حضر مجلسنا هذا ، إنما نحن غيب لمن غاب عنه ، وهذا غيْب مُقيد ، ومنه الكهرباء والجاذبية وغيرهما ؛ لأن هذه الأشياء كانت غَيْباً عَمَّنْ قبلنا مع أنها كانت موجودة ، فلما توصلنا إلى مقدماتها ظهرت لنا وصارت مشهداً ؛ لذلك قال تعالى :
﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة]

فأثبت الإحاطة للناس لكن بشرط مشيئته تعالى ، فإنْ شاء أطلعهم على الغيب ، وأوصلهم إلى معرفته حين يأتي أجل ميلاده وظهوره .

إذن : المعلوم لغيرك وغَيْب عنك ليس غيباً ، وكذلك الغيب عنك وله مقدمات تُوصِّل إليه ليس غيباً ، إنما الغيب هو الغيب المطلق الذى غاب عنك وعن غيرك ، والذى قال الله تعالى عنه : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧) ﴾ [الجن]

والشهادة : يعني المشهود ، لكن ما دام الحق سبحانه يعلم الغيب ، فمنْ باب أَوْلَى يعلم المشهود ، فلماذا ذكر الشهادة هنا ؟ قالوا : المعنى : يعلم الغيب الذى غيِّب عنى ، ويعلم الشهادة لغيرى .

ومن ناحية أخرى : ما دام أن الله تعالى غيْب مستتر عنا ، وهناك كوْن ظاهر ، فربما ظن البعض أن المستتر الغيب لا يعلم إلا الغيب ، فأراد ـ سبحانه وتعالى ـ أن يؤكد على هذه المسألة ، فهو سبحانه غيب ، لكن يعلم الغيب والشهادة .

ونرى من الناس مَنْ يحاول أن يهتك ستار الغيب ، ويجتهد فى أن يكشف ما استتر عنه ، فيذهب إلى العرافين والمنجِّمين وأمثالهم ، وهو لا يدرى أن الغيب من أعظم نِعَم الله على خَلْقه ، فالغيب هو علة

إعمار الكون ، وبه يتم التعامل بين الناس ، ذلك لأن الإنسان ابن أغيار ، كثير التقلُّب ، ولو علم كل منا وكُشِف له ما عند أخيه لتقاطع الناس ، وما انتفع بعضهم ببعض .

لذلك يقولون : لو تكاشفتم ما تدافنتم . يعنى : لو كُشِف لك عما فى قلب أخيك لَضننْتَ عليه حتى بدفنه بعد موته .

إذن : فجَعْل هذه المسائل غَيْباً مستوراً يُحنِّن القلوب ، ويثرى الخير بين الناس ، فينتفع كل منهم بالآخر ، وإلا لو علِمتَ لواحد سيئة ، وعرفتَ موقفه العدائى منك لكرهتَ حتى الخير الذى يأتيك من ناحيته ، ولتحرك قلبك نحوه بالحقد والغل ، وما انتفعتَ بما فيه من حسنات .

لذلك ، نقول لمن يبحث عن غيْب الآخرين : إنْ أردتَ أن تعرف غَيْب غيرك ، فاسمح له أن يعرف غَيْبك ، ولن تسمح له بذلك ، إذن : فدَعْ الأمر كما أراده الله ، ولا تبحث عن غَيْب الآخرين حتى تستقيمَ دفّة الحياة .

وربك دائماً يلفتك إلى النظر إلى المقابل ، ففى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، دعوت على مَنْ ظلمك ، ودعا عليك مَنْ ظلمته ، فإنْ شئت أجبناك وأجبنا عليك ، وإن شئت تركتكما إلى الآخرة فيسعكما عفوى »[1] .

فالحق - تبارك وتعالى - يريد أنْ يُصفِّى نفوس الخَلْق ، وأن يقف الناس عند حدود ما أطلعك الله عليه ، ولا تبحث عن المستور

(١) أورده الإمام أبو حامد الغزالى (٣/١٨٣) من قول يزيد بن ميسرة : إن ظللت تدعو على من ظلمك فإن الله تعالى يقول : إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك ، وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة فيسعكما عفوى .

حتى لا تتعب نفسك ، حتى تواجه مشاكل الحياة بنفسٍ صافية راضية عنك وعن الناس .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [المؤمنون] لأن ما تشركونهم مع الله لا يعلمون شيئاً من هذا كله ، لا غَيْباً ولا شهادة ؛ لذلك لا ينفعك إنْ عبدتَه ، ولا يضرك إنْ لم تعبده .

ثم يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾

﴿ قُل .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [المؤمنون] أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿ رَّبِّ .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [المؤمنون] منادى حُذِفَتْ منه أداة النداء يعنى : يا رب ﴿ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى : من العذاب ﴿ رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [المؤمنون] أى : إن قدَّرتَ أن تعذبهم فى حياتى فلا تُعذِّبهم وأنا فيهم .

وهذا من رقة قلبه ﷺ ، وحين اشتد به إيذاء الكفار وعنادهم فى أول الدعوة أرسل الله إليه الملائكة تعرض عليه الانتقام من قومه المكذِّبين به ، لكنه يأبى ذلك ويقول : « اللهم اهْدِ قومى فإنهم لا يعلمون »[1] ويقول : « لعلَّ الله يُخرج من أصلابهم مَنْ يقول :

(١) أخرج ابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد وأبو نعيم وابن عساكر من طريق مجاهد عن عبيد ابن عمير قال : إن كان نوح ليضربه قومه حتى يغمى عليه ، ثم يفيق فيقول : اهد قومى فإنهم لا يعلمون . وقال شقيق : قال عبد الله : لقد رأيت النبى ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يحكى نبياً من الأنبياء ، وهو يقول : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٣/٤٨١] . وانظر كتاب الزهد لأحمد بن حنبل (٢٧٨ ، ٢٨٠) .

لا إله إلا الله » .

كما أن موقفه يوم فتح مكة واضح ومعروف ؛ ذلك لأنه ﷺ أرسل رحمة للعالمين .

لكن ، هل قال الرسول ودعا بهذا الدعاء لأنه يعتقد أن الله يجعله معهم حين ينزل بهم العذاب ؟ نقول : لا ؛ لأنه لم يقُلْ هذه الجملة من نفسه ، إنما أمره الله بها ، ولم يكُنْ رسول الله ليعتقد هذا الاعتقاد ، إذن : المسألة وَحْي من الله لا بُدَّ أن يُبلِّغه ، وأن يقولها كما قالها الله ؛ لأن مدلولها رحمة به في ألاَّ يرى مَنْ يعذب ، أو من باب قوله تعالى :

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً .. (٢٥) ﴾ [الأنفال]

وهذا الدعاء الذي دعا به رسول الله يدفع عنه أيَّ خاطر يطرأ عليه ، ويطمئنه أن هذا الأمر لن يحدث .

وقوله : ﴿ إِمَّا تُرِيَنِّي .. (٩٣) ﴾ [المؤمنون] عبارة عن (إنْ) و (مَا) وهما يدلان على معنى الشرطية والزمنية ، فكأنه قال : قُلْ ساعةَ أن ينزل بهم العذاب : ربِّ لا تجعلني في القوم الظالمين .

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٣٢٣١) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٧٩٥) كتاب الجهاد من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال فلم يُجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك الجبال فسلم عليَّ ثم قال : يا محمد فقال : ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال النبي ﷺ : بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يُشرك به شيئاً .

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

أي : أننا قادرون على أن نُريك شيئاً مما وعدناهم به من العذاب ، لكنه ليس عذابَ الاستئصال ؛ لأن الله تعالى أكرم أمتك - حتى الكافر منها - بأن عافاها من هذا العذاب ، لأنه يأتي على الكافرين فلا يُبقِي منهم أحداً ، ويمنع أن يكون من ذريتهم مؤمن بالله . فهَبْ أن عذاب الاستئصال نزل بهم في بدر مثلاً ، أكُنَّا نرى المؤمنين منهم ومن ذرياتهم بعد بدر ؟

إذن : لا يكون عذاب الاستئصال إلا إذا علم الله تعالى أنه لا فائدة منهم ، ولا حتى من ذريتهم من بعدهم ، كما حدث مع قوم نوح ، ألاَ ترى نوحاً عليه السلام يقول عنهم : ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح]

ولا يمكن أن يقول نوح هذا الكلام ، أو يحكم على قومه هذا الحكم إلا بوحْيٍ من الله ؛ لأنه لا يستطيع أن يحكم على هذه القضية الكونية التي لا يعلمها إلا المكوِّن الأعلى سبحانه ، فنحن نرى عُتَاة الكفر ورؤوس الضلال ، ثم يؤمنون بعد ذلك كله ويبلُون في الإسلام بلاءً حَسَناً .

وانظر إلى عكرمة وخالد وعمرو بن العاص ، وكم تألَّم المؤمنون وحَزِنوا لأنهم أفلتوا من القتل ، لكن لله تعالى تدبير آخر ، وكأنه يدخرهم لخدمة الإسلام وحماية الدعوة .

فعكرمة بن أبي جهل يُظهر شجاعة نادرة في موقعة اليرموك حتى يُطعَن طعنةَ الموت ، ويستند إلى عمر ويقول وهو يجود بروحه في سبيل الله : أهذه ميتة تُرضِي عني الله ورسوله ؟ هذا في يوم

الخندمة[1] الذى قال فيه الشاعر[2] :

إنَّك لَوْ شَاهَدت يَوْمَ الخنْدَمَه
إذْ فَرَّ صَفْوانُ وفَرَّ عكْرِمَه
ولحقتْنَا بالسُّيوف المسْلمه
يَفْلقْنَ كُلَّ سَاعد وجُمْجُمَه
ضَرْباً فَلاَ تُسْمَعُ إلاّ غَمْغَمَه
لَهُمْ نَهِيتٌ[3] حَوْلَهُ وحَمْحَمَه
لَمْ تنْطِقى باللَّوْمِ أدْنى كلمَه[4]

أما عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فقد كان من أمرهما ما نعرف جميعاً .

﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦ ﴾

﴿ ادْفَعْ .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [المؤمنون] تدل على المدافعة يعنى : أمامك خصم

(١) قال ابن الأثير : هو جبل معروف عند مكة . قال ابن بَرِّى : كانت به وقعة يوم فتح مكة ، ومنه يوم الخندمة ، وكان لقيهم خالد بن الوليد ، فهزم المشركين وقتلهم . [لسان العرب ـ مادة : خندم] .

(٢) جاء فى لسان العرب : أن هذا الرجز نسبه ابن السيد البطليوسى فى المثلث للراعش الهذلى ، وذكر ابن برى أنه حماس بن قيس بن خالد الكنانى . وقيل : إن هذا الرجز لهريم ابن الحطيم .

(٣) النهيت : الصياح . وقيل : هو الصوت من الصدر عند المشقة . [لسان العرب ـ مادة : نهت] .

(٤) أورد ابن منظور هذه الأبيات فى [لسان العرب ـ مادة : خندم] من قول الراعش الهذلى لامرأته وكانت لامته على انهزامه فقال هذه الأبيات . وكان قد قال قبل ذلك :

إنْ يُقبِلُوا اليَوْمَ فَمَا بى عِلَّهْ
هَذَا سِلاحٌ كَامِلٌ وَ أَلَّهْ
وذُو غِرَارينِ سَرِيعُ السَّلَّهْ

يهاجمك ، يريد أن يؤذيك ، وعليك أن تدفعه عنك ، لكن دَفْع بالتى هى أحسن أى : بالطـريقة أو الحال التى هى أحـسن ، فإنْ أخـذك بالشدة فـقـابلْه باللين ، فـهـذه هى الطريقـة التى تجـمع الناس على دعـوتك وتؤلِّفهم من حولك .

كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران]

فإنْ أردتَ أن تعطفهم نحـوك فادفع بالتى هى أحسن ، ومن ذلك الموقف الذى حـدث من رسول الله يوم الفـتح ، يوم أنْ مكّنه ربه من رقاب أعدائه ، ووقف أمامهم يقول : يا مـعشر قريش ، ما تظنون أنِّى فاعل بـكم ؟ قالوا : خـيراً ، أخ كريم وابْـنُ أخ كريم ، قال :« اذهـبوا فأنتم الطلقاء »[1] .

ونلحظ أنهم كلموه بـما يستمـيل قلبه ويعطفه نحـوهم ، وذكَّروه بأواصر القرابة والرحم ، وحدَّثوه بما يُحنِّن قلبه ، ولقّنوه ما ينتفعون هم به : أخ كريم وابن أخ كريم ، ولم يقولوا مـثلاً : أنت قائد منتصر تستطيع أن تفعل بنا ما تشاء .

وفعلاً كان من هؤلاء ومن ذرياتهم نصراء للإسلام وأعوان لدعوة رسول الله .

وقصـة فضـالة[2] الذى كـان يبغض رسـول الله ، حتى قال قـبل الفتح : والله ما أحد أبغض إلىَّ من محـمد ، وقد زاد غيظه من رسـول

---

(١) قـال ابن إسـحاق : حـدثنى بعـض أهل العلم أن رسـول الله ﷺ قام فـى خطابه على باب الكعبة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، إلى أن قال : ما ترون أنى فاعل فيكـم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » [راجع : السيرة النبوية لابن هشام ٤١٢/٤] .

(٢) هو : فضالة بن عمير بن الملوح الليثى (الإصابة ت ٦٩٨٨) .

الله حينما رآه يدخل مكة ويُحطِّم الأصنام ، فأراد أنْ يشقَّ الصفوف إليه ليقتله ، وبعدها قال : « فو الله ، ما وضعتُ يدى عليه حتى كان أحب خلْق الله إلىَّ »[1] .

لكن ماذا ندفع ؟ ندفع (السيئة) . ونلحظ هنا أن ربنا - تبارك وتعالى - يدعونا أن ندفع السيئة بالتى هى أحسن ، لا بالحسن ؛ لأن السيئة يقابلها الحسنة ، إنما ربك يريد أن يرتقى بك فى هذا المجال ، فيقول لك : ادفع السيئة بالأحسن .

وفى موضع آخر يعطينا ثمرة هذا التصرُّف الإيمانى : ﴿فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت] ولو تأملتَ معنى هذه الآية لوجدتَ أن المجازاة من الله ، وليست ممّنْ عاملْتَه هذه المعاملة ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿كَأَنَّهُ .. ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت] ولم يقل : يصبح لك ولياً حميماً .

ذلك لأنك حين تدفع بالتى هى أحسن يخجل منك صاحبك ، ويندم على إساءته لك ، ويحاول أنْ يُعوِّضك عنها فيما بعد ، وألاَّ يعود إلى مثلها مرة أخرى ، لكنه مع كل هذا لا يُسمَّى ولياً حميماً ، إنما هو ولى وحميم ؛ لأنه كان سبباً فى أنْ يأخذك ربك إلى جانبه ، ويتولاك ويدافع عنك .

لذلك لما شتم أحدهم الحسن البصرى وسبَّه فى أحد المجالس ، وكان فى وقت رُطَب البلح أرسل الحسن إليه طبقاً من الرُّطَب وقال

(١) ذكر ابن عبد البر فى كتاب الدرر فى السير له أن النبى ﷺ مر به يوم الفتح وهو عازم على الفتك به فقال له : ما كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لا شيء كنت أذكر الله تعالى . فضحك رسول الله ﷺ وقال : أستغفر الله لك . ثم وضع يده على صدره . قال : فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما أجد على ظهر الأرض أحب إلىَّ منه . ذكره ابن حجر العسقلانى فى الإصابة (ترجمة ٦٩٨٨) .

لخادمه : اذهب به إلى فلان وقُلْ له : لم يجد سيدي أثمن من هذا يهديه إليك ، وقد بلغه أنك أهديت إليه حسناتك بالأمس ، وهى بلا شك أعظم من هديتى تلك[1] .

إذن : من الغباء أن نتناول الآخرين بالهَمْز واللمز والطعن والغيبة ؛ فإنك بهذا الفعل كأنك أهديتَ لعدوك حسناتك ، وأعطيتَ أعظم ما تملك لأبغض الناس إليك .

ألاَ ترى موقف الأب حين يقسو على ولده ، فيستسلم له الولد ويخضع ، أو يظلمه أخوه فيتحمل ظُلْمه ولا يقابله بالمثل ، ساعتها يحنو الأب على ولده ، ويزداد عطفاً عليه ، ويحرص على ترضيته ، كذلك يعامل الحق ـ تبارك وتعالى ـ العباد فيما بينهم من معاملات ـ ولله المثل الأعلى . لذلك قلنا : لو علم الظالم ما أعده الله للمظلوم من الجزاء لَضنَّ عليه بالظلم ؛ لأنه سيظلمه من ناحية ، ويُرضيه الله من ناحية أخرى .

ويقال : إنه كان عند أحد الملوك رجل يُنفِّس فيه الملك عن نفسه ، فإنْ غضب استدعى هذا الرجل وراح يشتم فيه ويسبُّه أمام الناس حتى يهدأ ، فإذا أراد أن ينصرف الرجل أخذه على انفراد وأعطاه كيساً من المال ، وفى أحد الأيام احتاج هذا الرجل إلى مال ليقضى أمراً عنده ، فحاول أنْ يتمحّك ليصل إلى الملك ، ثم قال له : ألستَ فى حاجة لأنْ تشتمنى اليوم ؟

فمسألتنا بهذا الشكل ، إذن : ما عليك إلا أنْ تدفع بالتى هى

---

(١) ذكره أبو حامد الغزالى (٣/ ١٥٤) أن رجلاً قال للحسن : إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق وقال : قد بلغنى أنك أهديت إليَّ من حسناتك ، فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فإنى لا أقدر أن أكافئك على التمام .

احسن ، فإنْ صادفتَ من صاحبك مودة وصفاءً ، وإلا فجزاءُ الله لك أوسع ، وعطاؤه أعظم ، وما أجمل قول الشاعر[1] حين عبَّر عن هذا المعنى :

يا مَنْ تُضَايِقه الفِعَال مِنَ التى ومِنَ الذِى

ادْفَعْ فدَيْتُكَ بالتى حَتَّى تَرَى فَإذَا الذِى

يعنى : إن أردتَ الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ؛ فاعمل بالتى هى أحسن .

ثم يقول سبحانه : ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾[المؤمنون] معناه : أنت يا محمد تأخذ بحقك من هؤلاء إذا كنا نحن لا نعرف ما يفعلونه بك ، لكن الحال أننا نعرفه جيداً ونحصيه عليهم ، وقد أعددنا لهم الجزاء المناسب ، فدَعْ هذه المسألة لنا ولا تشغل نفسك بها .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أن يُنزِّه ذات رسوله ﷺ من انفعالات الغضب ، وألاّ ينشغل حتى بمجرد الانفعال ؛ لأنه حين يتعرّض لك شخص بسيئة تريد أن تجمع نفسك لترد عليه ، وخصوصاً إذا كان هذا الرد مخالفاً لطبْعك الحسنْ وخُلُقك الجميل ، فكأنه يكلفك شيئاً فوق طاقتك .

فالله تعالى يريد أن يرحم نبيه وأن يريحه : دَعْكَ منهم ، وفوِّض أمرهم إلينا ، فنحن أعلم بما يصفون أى : بما يكذبون فى حقك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾﴾

لماذا جاءتْ الاستعاذة من همزات الشياطين بعد هذه المسألة ؟ قالوا : لأن الشيطان يريد أن يتدخل ، ويُظهِر لك أنه معك ، وأنه

---

(١) الشيخ رحمه الله وعفا عنه .

يَغَار عليك ، فيحرضك عليهم ويُغريك بهم ، ويدفعك إلى الانتقام منهم والتسلُّط عليهم .

وهمزات : جمع هَمْزة ، وهى النزْغة أو النخسة يثير بها الشيطان الإنسان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا ينزغَنَّك مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨) ﴾

يعنى : إنْ دخل عليك الشيطان بهَمْزه ووسوسته فقل : أعوذ بالله من همزات الشياطين ، بل وأزيد من ذلك الزم جانب الحَيْطة معه ، فقُلْ : أعوذ بالله أن يحضرون مجرد حضور ، وإن لم يهمزوا لى ، فأنا لا أريدهم فى مَحْضرى ، ولا أريد أن أجالسهم .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ (٩٩) ﴾

ذلك لمجرد أن تحضره سكرات الموت ويُوقن أنه ميّت تتكشف له الحقائق ويرى ما لا نراه نحن ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾ [ق]

فيتمنى الإنسان أن يرجع إلى الدنيا وهو ما يزال يحتضر ، لماذا ؟ لأنه رأى الحقيقة التى كان ينكرها ويُكذِّب بها ، والذين يشاهدون حال الموتى ساعة الاحتضار يروْنَ منهم إشارات تدلّ على أنهم يروْنَ أشياء لا نراها نحن ، كُلٌّ حَسْب حاله وخاتمته .

وأذكر حين مات أبى ، وكان على صدرى ساعتها أنه قال لى : يا أمين ـ وهذا اسمى فى بلدى ـ كيف تبنى كل هذه القصور ولا تخبرنى بها ؟

والجنود الذين صاحوا فى المعركة : هُبِّى يا رياح الجنة . لا بُدَّ

أنهم رأوها وشَمُّوا رائحتها ، وإلا ما الذى جعلهم يتلهّفون للموت ، ويشتاقون للشهادة إلا أنهم يرون حالاً ينتظرهم أفضل مما هم فيه .

ومن هؤلاء الصحابى الجليل الذى حدَّثه رسول الله ﷺ عن أجر الشهداء عند الله ، وكان فى يده تمرات أو فى فمه يمضغها ، فقال : يا رسول الله ، أليس بينى وبين الجنة إلا أن أدخل هذه المعركة فأُقتل فى سبيل الله ؟ قال : نعم ، فألقى التمرة من فمه ومضى إلى المعركة[1] .

كأنه استكثر أن يقعد عن طلب الجنة مدة مَضْغ هذه التمرات . فإلى هذه الدرجة بلغ يقينُ هؤلاء الرجال فى الله وفى رسول الله .

ونلحظ فى هذه الآية : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ .. (٩٩)﴾ [المؤمنون] هكذا بصيغة المفرد ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩)﴾ [المؤمنون] جاء بالجمع على سبيل التعظيم ، ولم يقل : ربِّ ارجعنى ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر]

فهنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُعظِّم ذاته ، لكن هذا يُعظِّم الله الآن ، وهو فى حال الاحتضار ، وقد كان كافراً به ، وهو فى سَعَة الدنيا وبحبوحة العيش .

أو : أنه كرر الطلب : أرجعنى أرجعنى أرجعنى ، فجمعها الله تعالى . أو : أنه استغاث بالله فقال : ربِّ ثم خاطب الملائكة : ارجعون إلى الدنيا .

لكن ، لماذا الرجوع ؟

---

(١) وذلك أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يوم أحد فقال له : أرأيت إن قُتلت فأين أنا ؟ قال : فى الجنة . فألقى تمرات فى يده ، ثم قاتل حتى قُتل . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) ومسلم (١٨٩٩) فى صحيحه من حديث جابر بن عبد الله .

﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

أى : أننى تركتُ كثيراً من أعمال الخير ، فلعلِّى إنْ رجعتُ بعد أنْ عاينتُ الحقيقة أستدرك ما فاتنى من الصالحات ، أو لعلِّى أعمل صالحاً فيما تركتُ ، لأننى ضننْتُ بمالى وبمجهودى وفَضْلى على الناس ، وكنزْتُ المال الكثير ، وتركتُه خلفى ثم أُحاسب أنا عليه ، فإنْ عُدت قدمته وأنفقته فيما يدخر لى ليوم القيامة .

ثم تأتى الإجابة : ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .. ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون] أى : قوله : ارجعون لعلِّى أعمل صالحاً فيما تركت ، إنها مجرد كلمة لا واقع لها ، كلمة يقولها وقت الضيق والشدة ، فالله تعالى لن يرجعهم ، ولو أرجعهم ما فعلوا ؛ لذلك نفاها بقوله (كلا) التى ترد على قضايا تريد إثباتها ، ويريد الله تعالى نفيها كما ورد فى سورة الفجر :

﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر]

فيرد الحق سبحانه : (كلا) لا أنت صادق ولا هو ، فليس المال والغنَى وكثرة العَرَض دليل كرامة ، ولا الفقر دليل إهانة ، فكلتا القضيتين خطأ ، بدليل أنك إذا أعطاك الله المال ، ثم لا تؤدى فيه حَقَّ الله وحَقَّ العباد ، ولا يعينك على أداء ما فُرِض عليك صار المال وبالاً عليك وإهانة لا كرامة . ما جدوى المال إنْ دخلتَ فى قوله تعالى : ﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [الفجر] ؟ ساعتها سيكون مالك حُجَّة عليك .

كذلك الحال مع مَنْ يظن أن الفقر إهانةٌ ، فإنْ سلب الله منك المال الذى يُطغيك فقد أكرمك ، وإنْ كنت لا تدرى بهذا الإكرام .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) ﴾ [المؤمنون] أى : كيف يتمنونَ الرجوع وبينهم وبينه برزَخ يمنعهم العودة إلى الدنيا ؛ لذلك تُسمَّى الفترة بين الحياة الدنيا والآخرة بالحياة البرزخية ، فليست من الدنيا ، وليست من الآخرة .

وفى موضع آخر يُصوِّر الحق سبحانه هذا الموقف بقوله : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ .. (٢٨) ﴾ [الأنعام] أى : لو رددناهم من الآخرة لعادوا لما كانوا عليه من معصية الله ، وإنْ كانت هذه قضية عقلية ففى واقعهم ما يثبت صدْق هذه القضية ، واقرأ فيهم قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ .. (٨٣) ﴾ [الإسراء] فأخذ نعمة الله وتقلَّب فيها ، ثم تنصَّل من طاعة الله .

ويقول تعالى فى هذا المعنى أيضاً : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. (١٢) ﴾ [يونس]

إذن : المسألة اضطرارات ، كلما اضطروا دَعَوا الله ولجئوا إليه ، وتوسَّلوا ، فخذوا من واقع حياتهم ما يدل على صِدْق حكمى عليهم لو عادوا من الآخرة .

والبرزخ : هو الحاجز بين شيئين ، وهذا الحاجز يأخذ قوته من صاحب بنائه ، فإنْ كان هذا الحاجز من صناعته ـ سبحانه وتعالى ـ فلن ينفذ منه أحد .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ مَرَجَ[1] الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) ﴾ [الرحمن] وما داما يلتقيان ، فما فائدة البرزخ هنا ؟

قالوا : نعم يلتقيان ، ولا يبغى أحدهما على الآخر ؛ لأن المسألة ليست سَدّاً أو بناءً هندسياً ، إنما برزخ خاصٌّ لا يقدر عليه إلا طلاقة القدرة الإلهية التى خرقتْ النواميس ، فجعلتْ المَاءَ السائلَ جبلاً ، بعد أن ضربه موسى بعصاه ، فصار كل فِرْق كالطود العظيم ، طلاقة القدرة التى فجرت الحجر عيوناً .

إذن : المسألة ليست (ميكانيكا) كما يظن البعض . والبرزخ بين الماء المالح والماء العَذْب آية من آيات الله شاخصة أمامنا ، يمكننا جميعاً أنْ نتأكد من صحة هذه الظاهرة .

لكن هذا البرزخ من أمامهم ، فلماذا قال تعالى : ﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

قالوا : لأن اللفظ الواحد يُطلق فى اللغة وله معَان عدَّة واللفظ واحد ؛ لذلك يُسمُّونه المشترك ، فمثلاً كلمة عَيْنْ تطلَق على العين الباصرة ، وعلى عين الماء ، وعلى الجاسوس ، وتُقال للذهب وللفضة ، وللرجل البارز فى قومه ، والسياق هو الذى يُحدِّد المعنى المراد ؛ لذلك على السامع أن تكون عنده يقظة ليردّ اللفظ إلى المعنى المناسب لسياقه .

وكذلك كلمة (النجم) فتعنى الكوكب فى السماء ، وتعنى كذلك مَا لا ساقَ له من النبات ، وهو العُشْب الذى ترعاه البهائم ، ومنه قول الشاعر :

---

(١) مرج البحرين . أى : أرسلهما أو أطلقهما يجريان وهما يلتقيان عند مصبّ النهر . [القاموس القويم ٢/٢٢١] .

أُرَاعى النجْمَ فى سَيْرى إليكُمُ ويرعَاهُ مِنَ البَيْدا جَوَادِىَ

فكلمة (وراء) تُطلَق ويُراد بها معانٍ عدة ، قد تكون متقابلة يُعيِّنها السياق ، فتأتى وراء بمعنى (بَعْد) كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) ﴾ [هود] وتأتى بمعنى (غَيْر) كما فى قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) ﴾ [المؤمنون]

وتأتى بمعنى (أمام) كما فى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) ﴾ [الكهف] فالملك كان أمامهم ينتظر كل سفينة قادمة . وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ (١٦) ﴾ [إبراهيم]

فقوله تعالى : ﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) ﴾ [المؤمنون] أى : من أمامهم .

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) ﴾

الصُّور : البُوق الذى ينفخ فيه إسرافيل ، والمراد هنا النفخة الثانية للبعث .

والأنساب : جمع نَسَب ، وهو الالتقاء فى أصل مباشر ، كالتقاء الابن بالأب ، أو الأب بالابن ، أو التقاء بواسطة كالعمومة والخؤولة . والنسب هو أول لُحمة فى الكون تربط بين الناس فى مصالح مشتركة ، وهو الالتقاء الضرورى الذى يوجد لكل الناس ، فقد لا يكون لك أصدقاء ولا أصحاب ولا زملاء عمل ، لكن لا بُدَّ أن يكون لك نَسَب وقرابة وأهل .

فحين ينفى الحق ـ سبحانه وتعالى ـ النسب يقول : ﴿ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ .. (١٠١) ﴾ [المؤمنون] فليس النفى لوجود النسب ، فإذا نُفخ فى الصور منعت البُنوَّة من الأبوة ، أو الأبوة من البنوة . إنما النسب موجود حقيقة ، لكن لأن النسب المعروف فيه التعاون على الخير والتآزر فى دفع الشر ، فالنفى هنا لهذه المنفعة فى هذا اليوم بالذات حيث لا ينفع أحد أحداً ، فالنسب موجود لكن دون نفع ، فالنفع من أمور الدنيا أن يُوجد قوى وضعيف ، فالقوى يُعين الضعيف ، ويفيض عليه ، أمّا فى هذا الموقف فالكل ضعيف .

كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴾ [عبس]

ويقول : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) ﴾ [المدثر]

لذلك حينما حدَّثَ رسول الله ﷺ أننا سنُحشر يوم القيامة حُفَاة عُراة تعجبت السيدة عائشة ، واستحيتْ من هذا الموقف ، فأخبرها رسول الله أن الأمر ليس كذلك ، فهذا موقف ينشغل كُلٌّ بنفسه ، والحال أصعب من أن ينظر أحد لأحد(١) .

إذن : النفى لنفع الأنساب ، لا للأنساب نفسها .

وإنْ كان نفع الأنساب يمتنع لهول الآخرة فقد يتسامى الإنسان فيمنع نفعه حتى فى الدنيا عن ذوى قرابته إنْ كانوا غير مؤمنين ، وقد ضربها الله مثلاً فى قصة نوح ـ عليه السلام ـ وولده ، وخاطبه

---

(١) عن عائشة قالت : قال النبى ﷺ : يبعث الله الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً . فقالت عائشة : يا رسول الله فكيف بالعورات ؟ قال : لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٩٠) والنسائى فى سننه (٤/١١٤) . والحاكم فى مستدركه (٤/٥٦٤) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

ربه : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾ [هود] فامتنع النسب حتى فى الدنيا ، فالبنوة ليست بُنوة الدم واللحم ، البنوة - خاصة عند الأنبياء - بنوة عمل واتباع .

وإذا تأملتَ تاريخ المسلمين الأوائل لوجدتهم يعتـزُّون بالإسلام ، لا بالأنساب ، فالدين والعقيدة هما اللُّحْمة ، وهما الرابطة القوية التى تربط الإنسان بغيره ، وإنْ كان أدنى منه فى مقاييس الحياة .

قرأنا فى قصة بدر أن مصعب بن عمير[1] - رضوان الله عليه - وكان فتى قريش المدلل ، وأغنى أغنيائها ، يلبس أفخر الثياب ويعيش ألين عيشة ، فلما أُشرب قلبه الإيمان زهد فى كل هذا النعيم ، وحُرم من خير أهله ، ثم هاجر إلى المدينة ، وهناك رآه رسول الله ﷺ يلبس جلد شاة فقال : « انظروا ماذا فعل الإيمان بأخيكم »[2] .

وفى المعركة ، رأى مصعب أخاه أبا عزيز[3] أسيراً فى يد واحد من الأنصار هو الصحابى أبو اليَسَر[4] فقال له مصعب : اشدد على

(١) هو : مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ، أبو محمد ، هاجر إلى الحبشة الهجرة الأولى والثانية ، وبعثه ﷺ إلى المدينة يُعلِّم مسلميها الفقه ويقرئهم القرآن ثم قدم على رسول الله ﷺ مع السبعين الذين وافوه فى العقبة الثانية ، وكان مصعب رقيق البشرة ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، توفى فى غزوة أحد . [صفة الصفوة ١/٢٠٥ ، ٢٠٦] .

(٢) عن عمر بن الخطاب قال : نظر النبى ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب (جلد) كبش قد تنطّق به ، فقال النبى ﷺ : انظروا إلى هذا الرجل الذى قد نور الله قلبه ، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون . أورده ابن الجوزى فى صفة الصفوة (١/٢٠٦) . وأخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/١٠٨) قال العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء (٤/٢٩٥) إسناده حسن .

(٣) هو زرارة بن عمير أخو مصعب بن عمير . له صحبة وسماع من النبى ﷺ ، واتفق أهل المغازى على أنه أسر يوم بدر . انظر الإصابة لابن حجر (ترجمة ٧٥٣ الكنى) .

(٤) اسمه كعب بن عمرو الأنصارى ، شهد العقبة وبدراً وله فيها آثار كثيرة وهو الذى أسر العباس بن عبد المطلب . كان قصيراً عظيم البطن ، مات بالمدينة عام ٥٥ هجرية . [الإصابة ترجمة ١٢٤٣] . وقد ضبط الحافظ ابن حجر كنيته (أبو اليَسَر) فقال (٥/٣٠٧) : « بفتح التحتانية باثنتين والمهملة » . وقال (٧/٢١٨) « بفتحتين » .

أسيرك ـ يعنى : إياك أن يفلت منك ـ فإن أُمَّه غنية ، وستفديه بمال كثير ، فنظر أبو عزيز إلى مصعب وقال : أهذه وصاتك بأخيك ؟ فقال : هذا أخى دونك .

إذن : فلا أنسابَ بينهم ، حتى فى الدنيا قبل الآخرة .

وفى غزوة أحد استُشهد مصعب بن عمير ، ولم يجدوا ما يكفنونه فيه إلا ثوباً قَصيراً ، إنْ غطى رأسه انكشفتْ رِجْلاه ، وإنْ غطّى رِجْلَيْه انكشفت رأسه ، فقال النبى ﷺ : « غطوا رأسه ، واجعلوا على رِجْلَيْه من الإذخر »[1] .

والسيدة أم حبيبة بنت أبى سفيان لما أسلمتْ وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، لكن اتهمها البعض بأنها هاجرت لا من أجل دينها ، ولكن من أجل زوجها ، فيشاء الله تعالى أن يُظهر براءتها ، فيتنصَّر زوجها عبيد الله بن جحش هناك وتظل هى على الإيمان ، ولَما علم رسول الله ﷺ بأمرها أراد أن يعوضها فخطبها لنفسه ، ولم ينتظر إلى أن تجىء ليعقد عليها ، فوكّل النجاشى ملك الحبشة ليعقد له عليها[2] .

وبعد زواجها من رسول الله ﷺ أراد أبوها أبو سفيان زيارتها ، وكانت تمهِّد فراش رسول الله ، فلما أراد أبو سفيان أن يجلس عليه نَحَّتْهُ جانباً ، ومنعتْه أن يجلس ـ وهو كافر ـ على فراش رسول الله ،

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢٧٦) ، ومسلم فى صحيحه (٩٤٠) من حديث خباب بن الأرت رضى الله عنه .

(٢) قال ابن الجوزى فى صفة الصفوة (٢/٣١) : « بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ملك الحبشة ليخطبها عليه فزوّجها إياه وأصدق عنه النجاشى أربعمائة دينار وبعث بها إلى شرحبيل بن حسنة . وقيل : وكّلت خالد بن سعيد بن العاص فزوّجها ، وذلك سنة سبع من الهجرة » .

فقال: أَضَنًّا بالفراش عليَّ ؟ فقالت : نعم[1] .

إذن : نَفْع الأنساب يمتنع في الدنيا قبل امتناعه في الآخرة ، لكن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ تفضَّل بأن أبقى مطلوبات النسب في الدنيا ودعانا إلى الحفاظ عليها حتى مع الكافرين ؛ لأنه سبحانه وَسِع الكافر ، فعلى المؤمن أن يسعه من باب أَوْلَى ، فإنْ رأيت الكافر في شدة وقدرت أن تُعينه فَأعِنْه .

واقرأ في هذا قوله تعالى : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. ⑮ ﴾ [لقمان]

فهما كافران ، بل ويريدانك كافراً ، ومع ذلك احفظ لهما حَقَّ النسب ، ولا تقطع الصلة بهما .

ويُرْوَى أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقد أعطاه الله الخُلَّة ، وقال عنه : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ㊲ ﴾ [النجم] وابتلاه بكلمات فأتمهُنَّ ، مرَّ عليه عابر سبيل بليل ، فقبل أن يُدخله ويُضيفه سأله عن ديانته ، فأخبره أنه غير مؤمن ، فأعرض عنه إبراهيم ـ عليه السلام ـ وتركه ينصرف ، فأوحى الله إليه : يا إبراهيم وسعْتُهُ عبدي وهو كافر بي ، وتريده أن يغير دينه لضيافة ليلة ؟ فأسرع إبراهيم خلف الرجل حتى لحق به ، وأخبره بما كان من عتاب ربه له في شأنه ، فقال الرجل : نِعْم الرب الذي يعاتب أحبابه في أمر أعدائه ، وشهد أن لا إله إلا الله وأن إبراهيم رسول الله .

---

(١) أورده ابن الجوزي في صفة الصفوة (٢/ ٣٣) « أن أبا سفيان قال لابنته أم حبيبة بعد أن طوت فراش رسول الله ﷺ : يا بنية ، أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ نجس مشرك . فقال : يا بنية لقد أصابك بعدي شر » ومعلوم أن أبا سفيان أسلم فيما بعد في فتح مكة .

ويرتقى أهل المعرفة بالنسب ، فيـرونَ أنه يتعدَّى الارتباط بسبب وجـودك ، وهو الأب أو الأم ، فـالنسـب وإن كـان مـيـلاد شـيء من شيء ، أو تفرُّع شيء من شـيء ، فـهناك نسب أعلى ، لا لمَنْ أوجدك بسـبب ، وإنما لمن أوجـدك بلا سبب الوجـود الأول ، فكان عليك أن تراعى هـذا النسب أولاً الذى أوجــدك من عـــدم ، وإنْ أثبت حـــقــاً للوالدين ؛ لأنهما سبب وجودك . فكيف بالموجد الأعلى ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَلا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [المؤمنون] سأل : تقـتضى سائلاً ومسئولاً ، أمّا الفـعل (تساءل) فيدل على المفاعلة يعنى : كل منهما سائل مرة ، ومسئول أخرى ، كـما تقول : شارك محمد عمرًا ، وقاتل .. الخ .

وقد اعتـرض على هذه الآية بعض المستشرقـين الذين يحبون أن يتوركوا على كـتاب الله ، قائلين : إن المسلمـين ينظرون إلى كتاب الله بمهابة وتقديس يمنعهم ويحجب عقـولهم عن تعقُّل ما فيه ، لماذا وقد قال تعالى عن القرآن : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء] ؟

يقول هؤلاء : إن القـرآن نفى التساؤل فى هذه الآية ، وأثبـته فى قوله تـعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُـهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَـاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الطور] فى الحوار بين الكفار .

وهناك تساؤل بين المـؤمنين والكافرين : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [المدثر]

ومرة يكون التساؤل بين المؤمنين بعضهم وبعض : ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)﴾ [الطور]

إذن : كيف بعد ذلك ينفى التساؤل ؟ ويقول : ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١)﴾ [المؤمنون]

وهذا التضارب الذى يرونَه تضارب ظاهرى ؛ لأن هناك فرقاً بين أن تسمع عن شىء وبين أن تُفاجأ به وأنت غير مؤمن ، لقد قالوا : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧)﴾ [المؤمنون]

فحين فُوجئوا بالنفخ فى الصُّور ، وداهمتهم القيامة التى كانوا يُكذِّبون بها بُهتوا ودُهشُوا ، وخرست ألسنتهم عن الكلام من شدة دهشتهم ، وكيف وما كانوا ينكرونه ماثل أمامهم فجأة ، ثم يتدرجون من هذه الحالة إلى أن يأخذوه أمراً واقعاً لا مَفرَّ منه ، فيبدأون بالكلام ويسأل بعضهم بعضاً عَمَّا هم فيه وعَمَّا نزل بهم .

إذن : فالسؤال له زمن ، ونَفْى السؤال له زمن ؛ لذلك يقولون فى مثل هذه المسألة أن الجهة مُنفكَّة ، فإذا رأيتَ شيئاً واحداً أُثبتَ مرة ، ونُفى أخرى من قائل واحد منسوب إلى الحكمة وعدم التضارب ، فاعلَم أن الجهة مُنفكّة .

ومثل هذا الموقف من أهل الاستشراق وقفوه أيضاً فى سؤال أهل المعاصى ، حيث يقول تعالى فى إثبات سؤالهم : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤)﴾ [الصافات] ويقول فى نفى سؤالهم ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩)﴾ [الرحمن] فكيف يثبت الفعل وينفيه ، والفاعل واحد ؟

وهذا الاعتراض منهم ناشىء عن عدم فَهْم للغة القرآن والملَكة العربية ، أو لأنهم يريدون مجرد الاستدراك على كتاب الله وإثارة الشكوك حوله . لكن رُبَّ ضارَّة نافعة ، فقد حرّكت شكوكهم ومآخذهم علماء المسلمين للتصدِّى لهم ، وللرد على أباطيلهم وكشف نواياهم ، فمثلنا كمثل الذى يستعد لملاقاة المرض بالطُّعْم المناسب الذى يعطى للجسم مناعة وحصانة ضد هذا المرض .

وسيدنا عمر - رضى الله عنه - وكان القرآن ينطق على وَفْق ما يريد ، يرى الناس يُقبِّلون الحجر الأسود ، فتوقع أن يتكلم الناس فى هذه المسألة ، وكيف أن الدين ينهاهم عن عبادة الأصنام وهى حجارة ويأمرهم بتقبيل الحجر ، وكان رضى الله عنه يُقبّله ويقول : « والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يُقبّلك ما قبّلتك »[1] .

فلفت الناس إلى أصل التشريع وأن الحجرية لا عبادةَ لها عندنا ، لكن عندنا النبى ﷺ وهو مُشرِّع لنا وواجب علينا اتباعه ، وهكذا كان ردّ عمر على مَنْ أثاروا هذه الفتنة .

ولما تكلم عمر فى غلاء المهور وكان مُلْهماً يوافق قولُه قولَ القرآن الكريم ، وقفتْ له امرأة وراجعته وقالت له : اخطأتَ يا عمر ، كيف تنهى عن الغلاء فى المهور ، والله تعالى يقول : ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا .. (٢٠)﴾ [النساء]

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٥٩٧) ، ومسلم فى صحيحه (١٢٧٠) من حديث عمر ابن الخطاب رضى الله عنه . قال الطبرى : « إنما قال ذلك عمر لأن الناس كانوا حديثى عهد بعبادة الأصنام فخشى عمر أن يظن الجهال أن استلام الحجر من باب تعظيم بعض الأحجار كما كانت العرب تفعل فى الجاهلية فأراد عمر أن يعلم الناس أن استلامه اتباع لفعل رسول الله ﷺ لا لأن الحجر ينفع ويضر بذاته كما كانت الجاهلية تعتقده فى الأوثان» أورده ابن حجر فى الفتح (٣/٤٦٣) .

فأجاز أن يكون المهر قنطاراً من ذهب ، عندها قال عمر بجلالة قدره : « أصابت امرأة وأخطأ عمر »[(١)] ليبين أنه لا كبيرَ أمام شرع الله .

إذن : هذه مسائل مرسومة ولها أصل ، يجب أن تُعلم لنردّ بها حين نسأل في أمور ديننا .

نعود إلى مسألة سؤال أهل المعصية ، حيث نفاه القرآن مرة وأثبته أخرى . ونقول : جاء القرآن بأسلوب العرب وطريقتهم ، والسؤال في الأسلوب العربي إما سؤال ممَّنْ يجهل ويريد المعرفة ، كما يسأل التلميذ مُعلِّمه ، أو يسأل العالم الجاهل لا ليعلم منه ، ولكن ليقرره بما يريد .

فإذا نفى الله تعالى السؤال ، فلا تظنوا أنه يسألكم ليعرف منكم ، إنما يسألكم لتقروا ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (١٤) ﴾ [الإسراء]

إذن : إثبات السؤال له معنى ، ونَفْيه له معنى ، فإذا نفى فقد نفى سؤال العلم من جهتهم ، وإذا أثبت فقد أثبت سؤال الإقرار من جهتهم ؛ لتكون الحجة ألزم ؛ لأن الإقرار سيد الأدلة .

وقد أوضحنا هذه المسألة بمثال : التلميذ المهمل الذي يتظاهر أمام أبيه بالمذاكرة ، فيفتح كتابه ويهزّ رأسه كأنه يقرأ ، فإذا ما سأله والده لم يجده حصَّل شيئاً ، فيقول له : ذاكرت وما ذاكرت .

---

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (١/٤٦٧) بلفظ « امرأة أصابت ورجل أخطأ » أخرجه الزبير بن بكار . قال ابن كثير : فيه انقطاع . وأورده أيضاً بنحوه وعزاه لأبي يعلى . قال ابن كثير : إسناده جيد قوي .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ .. ﴿١٧﴾﴾ [الانفال] هكذا نَفْى وإثبات فى آية واحدة لفاعل واحد ، لأن رسول الله ﷺ أخذ فعلاً حَفْنة من الحصى ورَمَى بها نحو الأعداء(1) ، لكن هل فى قدرته أن يُوصّل هذه الحفنة إلى أعين الأعداء جميعاً ؟ فالعمل والرمى للرسول ، والنتيجة والغاية لله عز وجل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

ثَقُلَتْ وخفَّتْ هنا للحسنات. يعنى: كانت حسناته كثيرة أو كانت قليلة .

ويمكن أن نقول : ثقلت موازينه بالسيئات يعنى : كثُرَتْ الحسنات ، لكن القرآن تكلم من ناحية أن العمدة فى الأمر الحسنات .

والميزان يقوم على كفّتين فى أحدهما الموزون ، وفى الأخرى الموزون به ، وللوزن ثلاث صور عقلية : أن يخفّ الموزون ، أو يخف الموزون به ، أو يستويا ، وقد ذكرت الآية حالتين : خفت

---

(1) عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما : « رفع رسول الله ﷺ يديه يعنى يوم بدر فقال : يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبداً ، فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين » أخرجه أبو نعيم (ص ٤٠٤) والبيهقى (٣/٧٩) كلاهما فى دلائل النبوة ، وذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٩٤) .

موازينه ، وثقلت موازينه ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) ﴾ [القارعة]

أما حالة التساوى فقد جاءت لها إشارة رمزية فى سورة الأعراف :

﴿ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾ [الأعراف]

فمَنْ غلبت حسناته ذهب إلى الجنة ، ومَنْ غلبت سيئاته ذهب إلى النار ؛ وبقى أهل الأعراف بين الجنة والنار ؛ لأنهم تساوت عندهم كفَّتا الميزان ، فلا هو من أهل الجنة ، ولا هو من أهل النار ، فهم على الأعراف ، وهو السُّور بين الجنة والنار ينظرون إلى هؤلاء وإلى هؤلاء .

ثم يقول تعالى فى شأنهم : ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) ﴾ [الأعراف] ؛ لأن رحمة الله سبقتْ غضبه ، وعفوه سبق عقابه .

ومعنى ثقلت موازينه وخفت موازينه يدل على أن الأعمال تصبح ولها كثافة وجِرْم يعطى ثقلاً ، أو أن الله تعالى يخلق فى كل عمل له كتلة ، فحسنةٌ كذا بكذا ، والمراد من الميزان دقَّة الفَصْل والحساب .

ونلحظ فى الآية : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ .. (١٠٢) ﴾ [المؤمنون] بالجمع ولم يقل : ميزانه ، لماذا ؟ قالوا : لأنه يمكن أن يكون لكل جهة عمل ميزان خاص ، فللصلاة ميزان ، وللمال ميزان ، وللحج ميزان .. إلخ ثم تُجمع له كل هذه الموازين .

وقوله : ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ .. (١٠٣) ﴾ [المؤمنون] لأنهم أخذوا لها القليل العاجل ، وفوَّتوا عليها الكثير الآجل ، وسارعوا إلى متعة فانية ، وتركوا متعة باقية ؛ لأن الدنيا

أجلها محدود ؛ والزمن فيها مظنون، والخير فيها على قَدْر إمكانات أهلها .

أما الآخرة فزمنها مُتيقّن ، وأجلها ممدود خالد ، والخير فيها على قَدْر إمكانات المنعم عزَّ وجلَّ ، فلو قارنتَ هذا بذاك لـتبيّن لك مدى ما خَسِروا ، لذلك تكون النتيجة أنهم ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣)﴾ [المؤمنون]

ثم يعطينا الحق سبحانه صورة تُبشّع الجزاء فى جهنم ، وتُصوِّر أهوالها ، وذلك رحمة بنا لنرتدع من قريب ، ونعمل جاهدين على أن ننجى أنفسنا من هذا المصير ، وننفر من هذه العاقبة البشعة ، كما يقول الشرع بداية : سنقطع يد السارق ، فهو لا يريد أن يقطع أيدى الناس ، إنما يريد أن يمنعهم ويحذرهم هذه العاقبة .

ومن ذلك قوله تعالى فى مسألة القصاص : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَـٰأُولِي الأَلْبَابِ .. (١٧٩)﴾ [البقرة]

وقد هُوجم القصاص كثيراً من أعداء الإسلام ، إذ يقولون : يكفى أن قُتل واحد من المجتمع ، فكيف نقتل الآخر ؟ والقرآن لم يضع القصاص ليقتل الاثنين ، إنما وضعه ليمنع القتل ، وليستبقى القاتل والقتيل أحياء ، فحين يعرف القاتل أنه سيُقتل قصاصاً يمتنع ويرتدع ، فإن امتنع عن القتل فقد أحيينا القاتل والقتيل ، وقد عبَّروا عن هذا المعنى فقالوا : القتل أنفى للقتل .

يقول تعالى فى تبشيع جهنم :

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤)﴾

اللفْح : أن تمسَّ النار بحرارتها الشىء فتشويه ، ومثله النَّفْح[1]

---

(١) قال الزجاج : تلفح وتنفح بمعنى واحد إلا أن النفح أعظم تأثيراً منه . قال أبو منصور : ومما يؤيد قوله قوله تعالى : ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ .. (٤٦)﴾ [الأنبياء] [لسان العرب ـ مادة : لفح] .

﴿ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) ﴾ [المؤمنون] كلمة « كالح » نقولها حتى فى العامية : فلان كالح الوجه . يعنى : تغيّر وجهه تغيُّراً ينكر لا تستريح له ، وضربوا للوجه الكالح مثالاً برأس الخروف المشوية التى غيَّرت النار ملامحها ، فأصبحت مُشوَّهة كالحة تلتصق الشَّفَة العليا بجبهته ، والسفلى بصدره ، فتظهر أسنانه فى شكل منفر .

بعد ذلك يخاطبهم الحق سبحانه خطاباً يُلقى اللوم عليه ويُحملهم مسئولية ما وصلوا إليه ، فلم يعذبهم ربهم ابتداءً ، إنما عذبهم بعد أن أنذرهم ، وأرسل إليهم رسولاً يحمل منهجاً يبين ثواب الطائع وعقاب العاصى ، ونبَّههم إلى كل شىء ، ومع ذلك عصَوْا وكذَّبوا ، ولم يستأنفوا عملاً جديداً على وَفْق ما أمر الله . إذن : فهُم المقصرون .

﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) ﴾

يعنى : أنتم السبب فيما أنتم فيه من العذاب ، فليس للناس على الله حجة بعد الرسل ، وليس لأحد عذر بعد البلاغ ، لذلك حينما يدخل أهل النار النارَ يخاطبهم ربهم : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ .. (٧١) ﴾ [الزمر]

فالآية تثبت أنهم هم المذنبون أمام نفوسهم : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾ [النحل] فلم نفاجئهم بعقوبة على شىء لم نُبصِّرهم به ، إنما أرسلنا إليهم رسولاً يأمرهم وينهاهم ويُبشِّرهم وينذرهم .

والإنذار بالشر قبل أن يقع نعمة من النعم ، كما قلنا فى سورة الرحمن عن قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن] وهل النار

والشواظ نعمة ؟ نعم نعمة ؛ لأننا نحذرك منها قبل وقوعها ، وأنت ما زِلْتَ فى سعة الدنيا ، وأمامك فرصة الاستدراك .

والآيات - كما قلنا - تُطلَق على الآيات الكونية التى تلفت الناس إلى وجود الخالق الأعلى الذى أنشأ هذا الكون بهذه الهندسة البديعة ، وتُطلَق على المعجزات التى تثبت صدْق الرسول فى البلاغ عن الله ، وتُطلَق على الآيات الحاملة للأحكام وهى آيات القرآن .

وقد جئناكم بكل هذه الآيات تُتْلَى عليكم وتسمعونها وترونها ، ومع ذلك كذَّبْتم ، ومعنى ﴿ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ .. ﴿١٠٥﴾ ﴾ [المؤمنون] أننا نبهناكم إليها ، ولفتْنَا أنظاركم إلى تأملها ، حتى لا تقولوا : غفلنا عنها .

﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

﴿ شِقْوَتُنَا .. ﴿١٠٦﴾ ﴾ [المؤمنون] أى : الشقاوة[1] وهى الألم الذى يملك كل ملكات النفس لا يترك منها جانباً ، يقولون : فلان شقى يعنى مُضيَّق عليه ومُتعَب فى كل أمور حياته ، لا يرى راحة فى شىء منها .

وكأنهم بقولهم : ﴿ غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا .. ﴿١٠٦﴾ ﴾ [المؤمنون] يريدون أن يُبعدوا المسألة عن أنفسهم ويُلْقون بها عند الله تعالى ، يقولون : يا ربَ لقد كتبتَ علينا الشقوة من الأزل ، فلا ذنبَ لنا ، وكيف نسعد نحن أنفسنا ؟ يقولون : لو شاء ربنا ما فعلنا ذلك .

ونقول لهم : لقد كتب الله عليكم أزلاً ؛ لأنه سبحانه علم أنكم ستختارون هذا .

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٦٨٧/٦) : « قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم « شقوتنا » وقرأ الكوفيون إلا عاصماً « شقاوتنا » » .

فوصفوا أنفسهم بالظلم ، كما قال سبحانه عنهم فى آية أخرى :
﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) ﴾ [الأنعام]

فيقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) ﴾

﴿ اخْسَئُوا (١٠٨) ﴾ [المؤمنون] كلمة بليغة فى الزجر تعنى : السكوت مع الذلّة والهوان ؛ لذلك يقولونها للكلاب ، وقد تقول لصاحبك : اسكت على سبيل التكريم له ، كما لو حدَّثك عن فضلك عليه ، وأنك قدَّمْتَ له كذا وكذا فتقول له : اسكت اسكت ، تريد له العزة ، وألاَّ يقف أمامك موقف الضعف والذلة .

والخسوء من معانيها أنك تضعف عن تحمُّل الشىء ، كما فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) ﴾ [الملك] يعنى : ضعيف عن تحمُّل الضوء .

وفى قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) ﴾ [البقرة] يعنى : مطرودون مُبْعدون عن سُمو الإنسانية وعزّتها ؛ لذلك نرى القردة مفضوحى السَّوْءة ، خفيفى الحركة بما لا يتناسب وكرامة الإنسان .

إذن : ليس المراد أنهم أصبحوا قردة ، إنما كونوا على هيئة القردة ؛ لذلك نراهم حتى الآن لا يهتمون بمسألة العِرْض وانكشاف العورة .

إذن : المعنى ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) ﴾ [المؤمنون] اسكتوا سكوتاً بذلّة وهوَان ، ويكفى ما صنعتموه بالمؤمنين بى ؛ فيقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

والمراد هنا الضعاف من المؤمنين أمثال عمار وبلال وخباب بن الأرت[1]، وكانوا يقولون هذا الكلام، وهو كلام طيب لا يرد، بل يجب أن يُسمع، وأن يُحتذَى به، ويُؤخَذ قدوة.

﴿ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

تكلمنا عن هذه المسألة فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ[2] ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المطففين]

إذن : اتخذ الكفار ضعاف المؤمنين محلَّ سخرية واستهزاء، وبالغوا فى ذلك، حتى لم يَعُدْ لهم شُغل غير هذا، وحتى شغلهم الاستهزاء والسخرية عن التفكّر والتأمل فلم يَبْقَ عندهم طاقة فكرية

---

(١) قاله مجاهد فيما نقله عنه القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٨٨) .

(٢) فكهين : أى يغتابون الناس ويتناولون منهم ويتندرون بهم ، والفكه : الذى يُحدِّث أصحابه ويضحكهم . [لسان العرب ـ مادة : فكه]

تفكر فيما آمن به هؤلاء ، وهذا معنى : ﴿حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي .. ⦗١١٠⦘﴾ [المؤمنون] أى : شغلكم الاستهزاء بالمؤمنين عن الإيمان بمَنْ خلقكم وخلقهم .

ويا ليت الأمر توقّف عند هذا الحد من السخرية ، إنما تعداه إلى أن يضحكوا من أهل الإيمان ، ويُضحكوا أهلهم ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ⦗١١٠⦘﴾ [المؤمنون] وفى الآية الأخرى : ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ⦗٣١⦘﴾ [المطففين] وسخرية أهل الباطل من أهل الحق موجودة فى كل زمان ، وحتى الآن نرى مَنْ يسخرون من أهل الاستقامة والدين والورع ويتندّرون بهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ⦗١١١⦘﴾

لما صبر أهل الإيمان على الاستهزاء والسخرية عوّضهم الله تكريماً ونعيماً ، وهذه مسألة يجب ألاَّ يغفل عنها المؤمن حين يسخر منه أعداؤه ، عليه أن يتذكر عطاء ربه وجزاء صبره ، وإنْ كان الساخر منك عبداً له قدرته المحدودة ، فالمكرِّم لك ربك بقدرة لا حدودَ لها ، ولك أن تقارن إذن بين مشقة الصبر على أذاهم ، ولذة النعيم الذى تجده بعد ذلك جزاء صبرك .

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ⦗١١٢⦘﴾

لبث : مكث وأقام ، فالمعنى : ما عدد السنين التى ظللتموها فى الأرض ، لكن لماذا هذا السؤال ؟

قالوا : لأن الذى شغلكم عن دين يضمن لكم ميعاداً خالداً ، ونعيماً باقياً هو الدنيا التى صرفتكم بزينتها وزخرفها وشهواتها

- وعلى فرض أنكم تمتعتم بهذا في الدنيا - فهل يُقارن بما أعدَّ للمؤمنين في الآخرة من النعيم المقيم الذي لا يفوتهم ولا يفوتونه ؟

والقيامة حين تقوم ستقوم على قوم ماتوا في ساعتها ، فيكون لبثهم قريباً ، وعلى أناس ماتوا من أيام آدم فيكون لبثهم طويلاً ، إذن : فاللبث في الأرض مقول بالتشكيك كما يقولون ، لكن هل يدرك الأموات المدة التي لبثوها في الأرض ؟ معلوم أنهم لا يدركون الزمن؛ لأن إدراك الزمن إنما يتأتَّى بمشاهدة الأحداث ، فالميت لا يشعر بالزمن ؛ لأنه لا يعيش أحداثاً ، كالنائم لا يدري المدة التي نامها ، وكُلُّ مَنْ سُئِلَ هذا السؤال قال ﴿ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

قالها العُزَير الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه ، وقالها أهل الكهف الذين أنامهم الله ثلاثمائة سنة وتسعاً ؛ لأن هذه هي أطول مدة يمكن أن يتخيلها الإنسان لنومه ، ولا يستطيع النائم تحديد ذلك بدقة ؛ لأن الزمن ابْنُ الحدث ، فإنِ انعدم الحدث انعدم الزمن .

لذلك يقول تعالى عَمَّنْ ماتوا حتى من أيام آدم عليه السلام : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾ [النازعات]

وكذلك يقول هؤلاء أيضاً في الإجابة على هذا السؤال :

﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) ﴾

أي : أصحاب العدِّ الذين يمكنهم العدُّ والحساب ؛ لأننا لم نكن في وعينا لنعُد كما لبثنا ، والمراد بالعادِّين هم الملائكة الذين يعدُّون الأيام ويحسبونها[1].

---

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٦/٤٦٩٠) في معنى (العادِّين) قولين :
- الحسَّاب الذين يعرفون ذلك . قاله قتادة .
- الملائكة الذين كانوا معنا في الدنيا . قاله مجاهد .

﴿ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾

إنْ : بمعنى ما ، يعنى : ما لبثتم إلا قليلاً ، فمهما قدَّرْتم من طول الحياة حتى مَنْ مات منذ أيام آدم عليه السلام ، فسيكون قليلاً بالمقارنة بالزمن الذى ينتظركم فى الجزاء الأخروى ، فما لبثتموه فى الدنيا لا يُقَاس بعذاب الآخرة الممتد الباقى ، هذا ﴿ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [المؤمنون] تعلمون طول ما تصيرون إليه من العذاب الخالد المقيم .

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾

(حسبتم) ظننتم يعنى : ماذا كنتم تظنون فى خَلْقنا لكم ؟ كما قال فى موضع آخر : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [العنكبوت] وكلمة ﴿ عَبَثًا .. ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون] العَبَث هو الفعل الذى لا غايةَ له ولا فائدةَ منه ، كما تقول : فيم تعبث ؟ لمن يفعل فِعْلاً لا جدوى منه ، وغير العبث نقول : الجد ونقول : اللعب واللهو ، كلها أفعال فى حركات الحياة . لكن الجد : هو أن تعمل العمل لغاية مرسومة .

أما اللعب فهو أن تعمل عملاً هو فى واقع الأمر لا غايةَ له الآن إلا دُرْبتك أنت على الحركة وشُغْل ملكاتك حتى لا تتوجه إلى فساد شىء أو الإضرار بشىء ، كما تشترى لولدك لعبة يلهو بها ، وينشغل بها عن الأشياء القيِّمة فى المنزل ، والتى إنْ لعب بها حطَّمها ، فأنت

تصرف حركاته إلى شيء لتمنعه عن أشياء ضارة ، أو تُعلِّمه باللعب شيئاً يفيده فيما بعد ، كالسباحة أو ركوب الخيل .

واللهو كاللعب فى أنه يكون لغاية قد تأتى بعد ، أو لغاية تنفى ضرراً ، إلا أن اللعب حين تزاوله لا يشغلك عن مطلوب ، أما اللهو فهو الذى يشغلك عن مطلوب ، فمثلاً الطفل دون السابعة يلعب فى أوقات الصلاة ، فيُسمّى فعله لعباً ، فإنْ كان فى العاشرة يُسمَّى فعْله لَهْواً ؛ لأنه شغله عن الصلاة ، وهى واجبة عليه .

واللعب يُدربك على أشياء قد تحتاجها وقت الجد فتكون سهلة عليك ، أما العبث فلا فائدةَ منه ، لذلك قال سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا .. (١١٥) ﴾ [المؤمنون] فنفى أن يكون الخَلْق عبثاً بلا غاية ؛ لأن الله تعالى خلق الخَلْق لغاية مرسومة ، ووضع لهم منهجاً يحدد هذه الغاية ، ولا يضع المنهج للخَلْق إلا الخالق .

كما قلنا سابقاً : إن الصانع الذى صنع هذا الميكروفون لم يصنعه ثم طلب منا أن نبحث له عن مهمة ، إنما قبْل أنْ يصنعه حدد له مهمته والغاية منه ، وهى أن ينقل الصوت لمسافات بعيدة ، إذن : فالغاية مرسومة بدايةً وقبل العمل .

فالذى يحدد الغاية هو الصانع المبدع للشىء ، وهو أيضاً الذى يحدد صلاح الصنعة لغايتها ، ويحدد قانون صيانتها لتؤدى مهمتها على أكمل وجه ، وأنت أيها الإنسان صنعة الله فَدَعْهُ يحدد لك غايتك ، ويضع لك منهج حياتك وقانون صيانتك ، بافعل كذا ولا تفعل كذا .

إذن : فساد الدنيا يأتى من أن الصنعة تريد أن تأخذ حق الصانع فى تحديد الغاية ، وفى تحديد المنهج ، وقانون الصيانة ، وليس من مهمتها ذلك ، والخالق حينما يحدد لك الغاية يضع لك المنهج الذى

يُعينك على غـايتك ، إنما أنت : متى تستطيع أن تدرك الأشـياء لتضع غاية أو تضع قانون الصيانة ؟

إنك لا يمكن أن تبلغ هذا الـمبلغ قـبل سنِّ العـشرين على أحـسن تقـدير ، فـمَنْ - إذن - يضع لك غـايتك وقانـون صيـانتك قـبل هذه السنِّ ؟ لا أحدَ غير خالقك عز وجل ، ولن يستقيم الحال إلا إذا تركنا الصَّنْعة للصانع غايةً ومنهجاً وصيانة .

وكيف تظن أن الله تعالى خلقك عَبثاً ، وهو الذى استدعاك للوجود وأعدَّ لك مُقوِّمـات حياتك وضروررياتها ، وحثَّك بإعـمال عقلك فى هذه المقومات لتستطيع أن تُرفِّه بالطاقـة والقدرة المخلوقة لله تعالى لتُسعدَ نفسك وتُرفِّه حياتك .

وقـد كنا فى الماضى نجلس على ضوء المـسرجـة ، والآن على أضواء النيون والكريستال ، ومهمـا ترفهت حياتك وتوفرت لك وسـائل الراحة فـلا تنْسَ أنها عطَاء من الله فى المادة وفى الطاقـة وفى العقل المفكر ، كلها مخلوقة لله عَز وجل ، لا تملك أنت منها شيئاً ، بدليل أن الله إذا سلبك العقل لَصرت مجنوناً ، ولو سلبك الطاقة والقدرة لصرتَ ضَعيفاً لا تستطيع مجـرد التنفس ، فهذه نِعَمٌ موهوبة لك ليست ذاتية فيك .

إذن : عليك أن تـتـأمل فى خـالقك عـز وجل ، ومـا وهبك من مقـومات الحياة ، لتـعلم أن هذا الخَلْق لا يمكن أن يكون عبـثاً ، ولابد أن له غاية رسمـها الخالق سبحـانه ، وأنت فى ذاتك تحاول أن تضع لك غاية فى جزئية ما من الغاية الكبرى التى خلقك الله لها .

ألاَ ترى الولد الصغيـر كيف تعتنى به وتُعلِّمه وتنفـق عليه مرحلة بعد الأخرى ، حتى يصل إلى الجامعة ، وتتعلق أنت بأمل كبير فى أن

يكون لولدك هذا مكانة فى المجتمع ومنزلة بين الناس ؟ هذه العملية فى حد ذاتها غاية ، لكن بعد أن يحصل على الوظيفة المرموقة والمكانة والمنزلة ينتهى الأمر بالموت .

إذن : لا بُدَّ من وجود غاية أخرى أعظم من هذه ، غاية لا يدركها الفناء ، وليس لها بعد ، هذه الغاية الكبرى هى لقاء الله وملاقاة الجزاء ، إما إلى الجنة وإما إلى النار .

وعلينا أن نأخذ كل مسائل الحياة وجزئياتها فى ضوء هذه الحقيقة ، أننا لم نُخلَق عَبثاً ، بل لغاية مرادة لله ، ولها أسباب توصل إليها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون] (تُرجَعون) يعنى : رَغْماً عنكم ، ودون إرادتكم ، كأن شيئاً ما يسوقهم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) ﴾ [الطور] يعنى : يُدفعون إليها ، ويُضربون على أقفائهم ، ويُساقون سَوْقَ الدواب .

﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) ﴾

﴿ فَتَعَالَى .. (١١٦) ﴾ [المؤمنون] تنزَّه وتقدَّس ، وكلمة العلو تعنى علو المنزلة . نقول : علا فلان على فلان ، أما حين نقول : تعالى الله ، فالمراد العلو الأعلى ، وإن وهب علواً للغير فهو عُلو الدانى ، وعلو المتغير ، بدليل أنه تعالى يُعليك ، وإنْ شاء سلبك ، فالعلو ليس ذاتياً فيك .

وكلمة الملك نعرفها فيمَنْ يملك قطعة من الأرض بمَنْ فيها ويحكم وله رعية ، ومن هذه المادة : المالك . ويُطلَق على أيِّ مالك لأيِّ شيء ، ولو لم يكن لديه إلا الثوب الذى يلبسه فهو مالك ، أما : الملَك فهو مَنْ يملك الذين يملكون ، فله ملك على المالكين ، وهذا الملِك لم يأخذ مُلْكه بذاته ، إنما بإيتاء الله له .

لذلك يقول تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ .. (٢٦)﴾ [آل عمران]

فلو كان مُلْك هؤلاء الملوك ذاتياً ما نُزِع منهم ، ألاَ ترى الملك من ملوك الدنيا يقوى ويستتب له الأمر ، ويكون له صولجان وبَطْش وفَتْك .. إلخ ، ومع كل هذا لا يستطيع الاحتفاظ بملكه ؟ وفى لحظة ينهار هذا الملْك ولو على يد جندى من جنوده ، بل وربما تلفظه بلاده ، ولا تقبل حتى أنْ يُدفن بها ، وتتطوع له بعض الدول ، وتقبل أنْ تُوارى رفاته بأرضها ، فأىُّ ملك هذا ؟

وهذه آية من الآيات نراها فى كل عصر - وكأنها قائمة - دليلاً على صدق الآية : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ .. (٢٦)﴾ [آل عمران] إذن : إنْ ملكك الله فاعلم أنه مُلْك موهوب ، مهما استتب لك فلا تضمن بقاءه ؛ لأنَّ الله تعالى ملَّكك لغاية ، ولا يملك الغاية إلا هو سبحانه .

لذلك كان الحق - سبحانه وتعالى - ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ .. (١١٦)﴾ [المؤمنون] يعنى : الذى لا يزحزحه أحد عن مُلْكه ، أو يسلبه منه ، وهو الذى يتصرَّف فى مُلْكه كيف يشاء لا ينازعه فيه أحد ، وإنْ أعطى من باطن مُلْكه تعالى مُلْكاً لأحد ، فيظل فى يده سبحانه زمام هذا الملْك ، إنْ شاء بسطه ، وإنْ شاء سلبه ونزعه . فهو وحده الملك

الحق ، أما غيره فملْكهم موهوب مسلوب ، وإنْ ملَّك سبحانه أناساً أمْرَ أناس فى الدنيا يأتى يوم القيامة فيقول : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ..(١٦)﴾ [غافر]

وتلحظ أن كلمة ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ .. (٢٦)﴾ [آل عمران] سهلة على خلاف ﴿تَنزِعُ الْمُلْكَ .. (٢٦)﴾ [آل عمران] ، ففى النزع دليل على المشقة والمعاناة ؛ لأن صاحب الملْك يحاول أن يتمسك به ويتشبَّث وينازع ، لكن أينازع الله ؟

فقوله سبحانه : ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ .. (١١٦)﴾ [المؤمنون] المراد : تعالى عن أن يكون خلْقكم عبثاً ، وتعالى عن أنْ تشردوا من قبضته ، أو تخرجوا عن نفوذه ، أو تستقلُّوا بخلْقكم عن سيطرته ، وتعالى أن تُفلتوا من عقابه أو تمتنعوا عنه ؛ لأنه لا إله غيره : ﴿لاإِلَـهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)﴾ [المؤمنون]

فالحق تبارك وتعالى يحكم فى إطار : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ (٤)﴾ [الإخلاص]

فإذا قال لك شيئاً فاعلم أنه لا إله غيره يعارضه .

والعرش : رمز لاستتباب الأمر للمالك ؛ لأنه ينشغل بتدبير مُلْكه والقضاء على المناوئين له وتأديب أعدائه ، فإذا ما استتبَّ له ذلك جلس على عرشه ، إذن : الجلوس على العرش يعنى استقرارَ الأمور واستتباب أمر الملك ؛ لذلك فإن الحق سبحانه بعد أن خلق الخَلْق استوى على العرش .

والعرش يفيد أيضاً السيطرة والتحكم ، وعَرْش الله عرش كريم ؛

لأنه تعالى عليك لا ليُذلّك ويهينك ، وإنما تعالى عليك ليعاليك إليه ويعطيك من فضله . كما سبق أنْ قُلْنا : إن من مصلحتنا أن يكون الله تعالى مُتكبِّراً ، ومن عظمة الحق سبحانه أن يكون له الكبرياء ، فساعة يعلم الجميع أن الكبرياء لله وحده لا يتكبر أحد على أحد .

يقول الحق سبحانه : ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية]

لذلك يقولون فى الأمثال : (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) يعنى : ليعيش فى ظله ، فالحق - تبارك وتعالى - يتعالى لصالح خَلْقه .

ومن ذلك ما قُلْناه فى مسألة العبودية ، وأنها مكروهة ثقيلة إنْ كانت للبشر ؛ لأن السيد يأخذ خير عبده ، إنما هى محبوبة إنْ كانت لله تعالى ؛ لأن العبودية لله يأخذ العبد خير ربه .

فإنْ كانت عروش الدنيا للسيطرة والتحكُّم فى مصائر الناس وامتصاص دمائهم وأَخْذ خيراتهم ، فعرش ربك عَرْش كريم ، والكريم فى كل شىء أشرف غاياته ، اقرأ قوله تعالى : ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الدخان]

وحين يوصينا بالوالدين ، يقول سبحانه : ﴿وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء]

فالعرش الكريم أشرف غايات المُلْك ؛ لأن المُلْك ليس تسلُّطاً وقَهْراً ، إنما هو مُلْك لصالح الناس ، والحق - تبارك وتعالى - حينما خلق الحياة وزَّع فيها أسباب الفضل ، ولكنه جعل فيها القوىّ القادر ، وجعل فيها الضعيف العاجز ، ثم أمر القوى أنْ يأخذ بيد الضعيف ،

وأنْ يعوله ، فالكرم استطراق نفع القوى للضعيف ، فكل خَصْلة من خصال الخير توصف بالكرم .

إذن : إياك أن تفهم أن عرش ربك للسيطرة والعُلو والجبروت ؛ لأنه عرش كريم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

﴿ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ .. ﴿١١٧﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى : يعبد مع الله ، والعبادة طاعة المعبود فى أمره ونَهْيه ، لكن كيف تدعو إلهاً ، لا ينفعك ولا يضرُّك ، ولا برهانَ عندك على ألوهيته ؟ لذلك هدده سبحانه وتوعّده بقوله : ﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ .. ﴿١١٧﴾ ﴾ [المؤمنون] أى : ربه الحق ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المؤمنون]

وعجيبٌ أن تبدأ السورة بقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾ [المؤمنون] وتنتهى بقوله : ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المؤمنون] أى : بنقيض ما بدأتْ به ، وعليك أنت أنْ تتأمل ما بين هذين القوسين ، وما دامت المسألة مسألة إيمان يفلح أهله ، وكفر لا يفلح أهله ، فتمسَّكوا بربكم ، والتزموا منهجه فى (افعل) و (لا تفعل) .

وإنْ غلبتكم النفس على شىء من الذنوب فتذكَّروا :

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

إنْ هفوتم هفوة فإياكم أن تنسَوا هذه الحقيقة ، والجئوا إلى ربكم فإنه غفار شرع لكم التوبة لتتوبوا ، والاستغفار لتستغفروا ، وهو سبحانه أرحم بكم من الوالدة بولدها ، وهو خير الراحمين .

والمعنى ﴿اغْفِرْ .. (١١٨)﴾ [المؤمنون] أي : الذنوب السابقة الماضية ﴿وَارْحَمْ .. (١١٨)﴾ [المؤمنون] أي : ارحمنا أن نقع في الذنوب فيما بعد ، واعصمنا في مستقبل حياتنا من الزلل . إذن : تمسَّك بربك وبمنهج ربك في كل حال ، لا يصرفك عنه صارف .